

المرحومة الآنسة ميّ

« انظر أحاديث عن ميّ ص ٩ — ٦٨ »

المقتطف

الجزء الاول من المجلد المائة

١ يناير سنة ١٩٤٢ — ١٤ ذو الحجة سنة ١٣٦٠

رأي عالم كبير

في الدين والعلم

وأثرهما في عصرنا وفكرنا وحياتنا

هذا الفصل ملخص رسالة للدكتور كارل كمطن وهو عالم اميركي كبير ورئيس معهد من اكبر المعاهد العلمية في العالم نعني « معهد بوسطن التكنولوجي » الذي خرج الوفاً من اكبر مهندسي العالم . وقد كتب هذه الرسالة ، يحدوهُ روح الخير والضعة ، معترفاً في مستهلّها بانهُ لا يعدُّ نفسهُ أهلاً لمعالجة موضوع الدين من نواحيه الفلسفية العويصة ، او مسائله المذهبية المعقَّدة ، ولكنهُ مع ذلك قدم على الكتابة في الموضوع لأنهُ مؤمنٌ بان هناك نواحيَ من علاقة الدين بالعلم يجدر بالعلماء وغيرهم ان يوجهوا عنايتهم اليها

والناحية الاولى التي يتجه اليها النظر هي ناحية الخلاف الكبير بين العلماء في نظرتهم الى الدين . ففي الطرف الواحد نجد العالم الفيلسوف برتراند رسل يقول « ان رأيي في الدين هو رأي لقريطيوس . فالدين مرض وُلد من الخوف وهو مصدر شقاءٍ للناس لا حدَّ لهُ » . ويقول كمطن إنهُ لا مفرَّ من الاعتراف بان لقول رسل أساساً من الصحة لجانبٍ غير يسير من المذاهب الدينية مردُّهُ الى الرغبة في النجاة من خوفٍ او سوءٍ وهذه الرغبة ليست في حدّ نفسها شيئاً يُذَمُّ ولكنها لا تقع في مستوى واحدٍ رفيع مع الدوافع الروحية التي تتجلَّى

في الشعور الديني . وكذلك يجب ان نسلّم بان الحرب والاضطهاد والاستغلال باسم الدين جلبت على العالم « شقاءً للناس لا حدَّ له » على قول برتراند رسل

ويقابلهُ في الطرف الآخر المفكر والعالم الطبيعي الكبير الدكتور مليكن . فهو يقول : — « ليس ثمة تناقضٌ بين العلم والغرض الأصيل من الدين وهو تهذيب الضمائر ورفع مستوى المُثل التي ترنو اليها الانسانية . ولكن الديانات المختلفة او فروع الديانة ، تحتوي على الغالب بعض ما هو غير أصيلٍ في الدين ، وهو مما يشتدُّ الاعتراض عليهِ . واني لأومن شخصيًّا بأن الدين الأصيل لا دين المذاهب أعظم ما يحتاج اليهِ العالم »

وبعد ذلك روى الدكتور كمطن ما وقع لهُ مع استاذ لاهوتيٍّ ، للدلالة على بعد الشقة بين نظرتهما في مسائل الدين فقال إنهُ تبين في بدء الحديث ان الشقة واسعة بين النظرتين ، فوجّه عنايتهُ الى معرفة المسائل التي في الوسع اتفاقهما عليها فقرر ان يسأله سؤالين . فلما أجاب عرف ان الهوّة بينهما غير قابلة للردم

كان السؤال الاول — ما عمر الأرض ؟ ولا يخفى ان المشتغلين بتفسير العهد القديم من التوراة على اعتبارهِ سجلاًّ دقيقاً لحوادث التاريخ ، حاولوا تعيين عمر الارض على أساس سبعة ايامِ الخليقة وتسلسل الناس من آدم وحواءَ . وعمر الأرض على هذا الاساس دون عشرة آلاف سنة . يقابل هذا ان العلماء يستندون في تبين عمر الارض الى علوم الجولوجيا والطبيعة . ومن أساليبهم تقدير مدى تفتت الصخور وانسيابها مع الماء الجاري الى البحر حيث تترسّب . وعلى هذا الاساس قدّر الزمن الذي يستغرقهُ هذا الفعل في حفر وادي نهر كولورادو مثلاً بمئات الالوف من السنين على الاقل . ودراسةٌ معدل الترسب في مصبي نهري النيل والمسيسبي أفضت الى القول بأن ترسب دلتا النيل ودلتا المسيسبي يستغرق مئات الألوف من السنين كذلك . ثم ان دراسة مقدار الملح الذي تذيبهُ مياه المطر وينساب مع الأنهار والجداول الى البحر ، أفضت الى مثل هذا الجواب . ولكن أدق اساليب العلم في تبين عمر الارض يعتمد على تقدير عمر الصخور بدراسة ما تحتويه من المواد المشعة ، فكأن المواد المشعة ساعات دقيقة مطوية في الصخور ، تحصي القرون المتوالية ، وهي غير متأثرة بالبرد او الحر او الضغط او التفاعل الكيميائي . والعلماء يعتقدون ان هذا الاسلوب أدق الاساليب جميعاً في استخراج عمر صخور الارض وهو يقدّر بهِ بمئات من ملايين السنين

قال كمطن : فقلت لمحدثي الاستاذ اللاهوتي ، كيف تستطيع ان تتمسك بالتفسير الحرفيّ للتوراة وتذهب الى ان عمر الارض عشرة آلاف من السنين ، وأمامك أدلة العلم التي تقدم ذكرها . فقال : أنتم العلماء تفرضون فرضاً لا يسعكم اقامة الدليل على صحتهِ ، وهو ان النواميس العلمية

التي تستخرجونها كانت تنطبق على الارض قبل الف سنة او اكثر من الزمان . أما أنا فأفضل ان أفرض ان الكتاب المقدس دقيق دقة مطلقة

فلما تبينت انهُ من المتعذر علينا ان نتفق على أساس هذه المسألة وجهت اليهِ سؤالي الثاني وهو : أيهما أهم في نظرك ولادة المسيح من عذراء ، او تعاليمه المتجلية في كلماتهِ وحياتهِ ، عن صلة الناس بالله ؟ فقال ان ولادة المسيح من عذراء أهم جداً ، لأننا اذا لم نسلم بها ، فقدنا كلَّ أساس يسبغ على تعاليمهِ السلطانَ اللازم لقبولها والعمل بها . فحاولت ان أقيم دليلاً على ان تعاليم المسيح ، مقبولة لذاتها ، لأن تجاريب البشر أثبتت صحتها واني لأستغرب ان توضع تعاليم المسيح ومثلهُ التي وقف حياتهُ على نشرها وتمكينها في النفوس ، في منزلة تلي ما لطريقة ولادتهِ من منزلة . ولكننا لم نتفق

واني لأعلم ان المثل الذي ضربتهُ في ما تقدم لا يعدو كونهُ مثلاً نادراً ، ولكنهُ مع ذلك يجب ان نعترف بأنهُ يمثل لوناً من التفكير الديني ترجع أصولهُ الى عصور متغلغلة في القدم . فمن بضعة آلاف من السنين كان كل مظهر من مظاهر الطبيعة يسند الى عمل ربٍّ او ربةٍ او الى أمره او أمرها . ولكننا اليوم ندرس بيانات المراصد الجوية بدلاً من ان نبتهل الى الشمس والريح والمطر ، وفي هذه البيانات والكتب التي ألفها علماء الظواهر الجوية (متيورولوجيا) نقع على القواعد والضوابط التي تفسّر حركة الرياح وتولد الغيم وانهمار المطر . وكانت المحاصيل في العصور البدائية ، تعتمد في نظر الناس بين اقبال وإمحال على ربّة الحصاد ، ولكننا نعلم الآن انها تعتمد على نوع البذور وطبيعة التربة وتوزع ضوء الشمس والمطر والسيطرة على الآفات الحشرية

وقبل بضعة قرون كان الرأي ، ان القول بان الارض ليست مركز الكون ، ضربة قاضية على النصوص الدينية ، لأن هذه النصوص تحتوي على آيات تقول ان الشمس تشرق في الشرق وتغرب في الغرب والنجوم تسير في أفلاكها . والتسليم بالصور الفلكية الحديثة ، كان الهزيمة الأولى لآراء الكنيسة المنظمة ، وما ارتدتهُ من جلباب السلطان والعلم الذي لا يخطئ

وكذلك القول بكرية الارض . فالملاَّحون كانوا يعرفون هذه الحقيقة قبل كولمبوس ، ولكن آراءهم في حجم كرة الارض كانت خاطئة . إلاَّ ان الكنيسة قاومت هذا الرأي معلقة رأيها بالقول في « اربع زوايا الارض » . فكيف تكون الارض كرة ولها زوايا ؟ وفي مرحلة معينة من مراحل هذا النزاع اقترح بعضهم اقتراحاً وسطاً غريباً . ذلك بأن تجعل خارطة الارض المتداولة منتفخة انتفاخاً مستديراً بين الزوايا ، فيحتفظ فيها بفكرة الزوايا الاربع ويعترف بعض الاعتراف بما أثبتهُ رجال الملاحة وعلماء الفلك

وفي عهدنا هـذا نلاحظ طائفة كبيرة من الـكنائس وهي تـكافح كفاحاً خاسراً نظرية التطور . فمن نحو ربع قرن عندما كانت زوجتي تؤدي نصيبها من الخدمة في جمعية الشابات المسيحية ، زارت معاهد كثيرة للبنات او للتعليم المختلط حيث كان تعليم نظرية التطور محظوراً . وكانت البنات تشير الى هذه النظرية همساً بغير ان تدري شيئاً عن هذا البعبع ! وفي أثناء زيارة زوجتي لهذه المعاهد كانت البنات تجتمع طوائف وتطلب كل طائفة من زوجتي ان تنيرهنَّ ببسط مبادىء هذا الموضوع الممنوع . وقد فرض هذا الحظر على الرغم من ان أجيالاً متلاحقة من العلماء استوضحت حقيقة التطور العضوي في النبات والحيوان والانسان بدراسة الطبقات الجولوجية وما فيها من آثار متحجرة وبتوفرها على دراسة تشريح المقابلة ، وما أشبه . بل اننا خطونا في هذا العصر خطوة كبيرة بعد ما تبينا اننا قادرون على استحداث انواع جديدة من النبات والحيوان ، بتعريضها للاشعة السينية او اشعاع الراديوم أو باستعمال بعض المواد الـكيميائية لاستحداث صفات جديدة وراثية فيها ، ولا يستبعد أن تصبح السيطرة على التطور العضوي عملاً تجاريـًا بدخوله مفارخ الدجاج أو منابت البساتين

جميع الاقوال السابقة الذكر لهاصلة بالسؤال هل هناك نزاع بين العلم والدين . والرأي عندي أن الاجابة عن هذا السؤال مرتبطة بما تحتوي عليه ديانة ما . فاذا اتجهت ديانة ما الى اصدار الآراء في شؤون المادة ونواميس الطبيعة والقوى المحركة فيها ، سواء أقوانين علم الطبيعة كانت ام قوانين علم الفلك ام قوانين علوم الأحياء والوراثة ، فالجواب انهُ لا بدَّ للدين من الاصطدام عاجلاً ام آجلاً بالمعارف العلمية المتغيرة السائرة الى الأمام ولا بدَّ ان يكون الدين في الجانب الخاسر في هذا الصدام . واذا كان هناك من رجال الدين من يتبرَّم بهذا القول فعليه بمراجعة مار اوغسطينس الذي فرَّق بين مبادىء الدين وبين حقائق الوجود المتغيرة بتفتح الذهن الانساني واتساع دراكه

ومما يذكر في هذا الصدد للتسلية والعبرة ، حادثة حدثت ببوسطن بالولايات المتحدة عندما كان فرنكلين يجري في تجاربه التي أفضت الى استنباط قضيب الصاعقة . فتحير فريق من رجال الدين في بوسطن وسخطوا اشد سخط على هذا الآثم المتدخل في عمل الله الذي اختار الرعد والبرق لتأديب ابنائه الخطاة . فلما زلزلت الأرض زلزالها في تلك المنطقة زعم الوعاظ من منابر الوعظ ان الله يحذّر الناس من التدخل في أعماله . وليس ثمة ريب في ان هذا الموقف الذي وقفهُ رجال الدين أفضى في أذهان المتتبعين للـكشف والاستنباط ، الى شيءٍ من الانصراف عنهم وعن المذاهب التي يبشرون بها

يقابل هذا ان العلم لم يتعدَّ حدود ما للدين من وظيفة اساسية في حياة الانسان ، وهي تمسُّ

آماله ومثله والبواعث التي ترشده في صلته باخوانه في الجماعة. حتى في هذه الدائرة، للعلم نصيب من حيث قدرته على ضبط الاضطرابات الغددية او النفسية، التي تشوه نظرة المرء الى الحياة والناس وتحمله على سلوك لا يوحي به العقل ولا تقبله او تتحمله مصلحة الجماعة

ولكن مع التسليم بكل هذا اعتقد ان في الانسان فطرة دينية تتوق الى الإعراب عن ذاتها وان هناك دنيا عريضة، المقام الاول فيها للتقدير الروحي، فالشأن الاول فيها للدين لا للعلم

***

ان مصادر النزاع الذي قام في فترات مختلفة بين الدين والعلم مردها الى مسائل ليست من صميم الدين. وهي اما بقايا اوهام قديمة وإما اضافات لصقت بالدين كما يلصق بعض الصدف بقعر السفن. وقد نشأت هذه الاضافات من مساعٍ صادقة منزهة بذلها فريق من رجال الدين في سبيل استصفاء فلسفة حية، فتغلغلت في المذاهب الدينية واندمجت فيها. وعندي ان العلم أسدى خدمة عظيمة الى الدين الصميم في فك القيود التي قيدته بها هذه الاوهام القديمة او الاضافات وأطلقته حرًّا نحو أغراضه العليا

ثم ان تأثير العلم في الدين وضّح للناس ان الدين قوة حية متحركة لا قوة جامدة مستقرة. ومن الأمثلة التي تضرب على الجمود والاستقرار الايمان بحرفية التوراة مثلاً وكمالها الدائم. اما الذين يعتبرون الدين قوة حية فينظرون الى التوراة على انها قصة لسعي الانسان الدائم وارتقائه المستمر في سبيل انشاء نظرة دينية الى بيئته وما فيها. فاذا نظرنا الى الدين هذه النظرة الحية زالت في الحال مفارقات عجيبة غريبة، فنفهم التحول في نظر الانسان الى الله من ارباب تُمالأ وتُطرى وتتصرف بحسب وهمها ورغبتها الغالبة، الى صورة الله الواحد الذي يسير مع الناس ويؤدبهم ثم يغفر لهم اذا تابوا وأنابوا، الى صورة قوة روحية عظيمة تفعل فعلها عن طريق نواميس طبيعية، يستطاع فهمها والاعتماد عليها، وفي الوسع كشف حقيقتها بالعلم. وهذه النظرة الحية الى الدين ترينا التطور في صور الخير والشر من مرحلة الطاعة العمياء لمجموعة من القواعد، الى صور العدل الاجتماعي والخير العام. وفي صور الخلاص والحياة الباقية، وانصرافها رويداً رويداً خلال الحقب، عن الاعتبارات الخاصة الى الاعتبارات العامة. هذه الصورة صورة الدين الحي، صورة القوة الروحية، يقبلها العلم وعندي ان صورة الدين المستقر تجعل الدين عقيماً غير مقبول.

واني لأعتقد ان هناك حاجة الى تعدُّد المذاهب الدينية، لأن كلاًّ منها يوجّه عناية خاصة الى ناحية من نواحي الحياة الروحية المعقدة المتعددة النواحي. والباعث على هذا الاعتقاد مزدوج شقه الاول ان الناس يختلفون مزاجاً وخلقاً ومنهم من تحكمه العاطفة

والانفعال اكثر مما يحكمهُ العقل . ومنهم من هو أميل الى التامل منهُ الى العمل والحركة . ومنهم من يندفع بطبعهِ الى تحمل التبعة وتقلد الزمام بينما غيره يؤثر ان يُرشد ويقاد . وإذن فمن الطبيعي ان تتعدد الكنائس والهيئات الدينية فيجد كل من هؤلاء الناس الملاذ الروحي الذي يلائمهُ . وأما الشقّ الثاني فمردّهُ الى ان التباين يفضي الى النشاط والتقدم . وهذا مبدأ يصدق على جميع نواحي الحياة من نبات وحيوان وهيئات اجتماعية . ولذلك لا أوافق بعض من يطالب بمحو جميع المذاهب الدينية والهيئات الدينية وضمها جميعاً في مذهب واحد واخضاعها لهيئة واحدة . ولكن التعدد والتباين بين المذاهب والهيئات الدينية يقتضي التسامح المتبادل والاحترام وأساس هذا التسامح هو التشابه بل الوحدة بين الأغراض الدينية العليا التي يتوخاها كل مذهب ديني

واذا سلمنا بأن الدين يشمل النزعات والقيم الروحية ، وان العلم هو المرجع في نطاق الحقائق الشاهدة والصلات المنطقية بينها ، فيجب علينا كذلك ان نتذكر إن للعلم حدوداً في نطاقه قلما يشار اليها . فالعلم لم يكشف قط العلة الاولى ولا الغاية النهائية لشيءٍ ما . في وسع العلماء ان يبينوا كيف يتحرك الكون ، ولكنهم لا يزعمون انهم يستطيعون ان يكشفوا علتهُ الاولى او الباعث على تحركه أو الغاية من هذه الحركة . فاذا شاءت ديانة ما ان تشمل آراءً في هذه النواحي ، فليس في وسع العلم ان ينكرها لانها خارج نطاق العلم . ولكنني اعتقد مع ذلك انها خارج نطاق الدين وما دام اثباتها او إنكارها بالبرهان والمشاهدة متعذرين فالمسألة متروكة للتخيل والتأمل .

وخلاصة القول ان تاريخ الصلة بين الدين والعلم يبين ان شؤون العالم والحياة التي تخضع للمشاهدة والامتحان تؤلف عالماً ، السيادة فيهِ للعلم . فالعلم لم يحل محل الدين ولا يستطيع ان يحلّ محل الدين في معناه الصميم . ولكنه يهيء لنا جوًّا يجب ان تساوقهُ افكارنا في المسائل الدينية . فالعلم قد اضطر الانسان على كر الدهور ان يوسع افق نظره الى الدين بتحطيم الحواجز المصطنعة القائمة على الجهل والوهم والخرافة واتجاههُ العام انما هو الى توجيه نظر الناس الى الصفة الروحية للدين من حيث هو يمثل أرفع المثل وأسمى النزعات وصرف نظرهم عن النظريات اللاهوتية والخلافات المذهبية . وليس من يشك في ان العلم كان لهُ أثر عظيم في نقل الاهتمام بالدين من الاهتمام بالمسائل المادية والدنيوية الى المسائل الروحية

اذن فالعلم كان ذا نصيب في تحويل الدين الى قوة روحية حية فعالة . وقد أدى هذا النصيب بحملهِ الناس على تحكيم العقل في الشؤون المشاهدة ثم بالقضاء على الوهم والخرافة واخيراً بتوجيه العناية الى ان التفكير الديني يجب ان يماشي تقدم المعارف في كل ما يتعلق بنشاط الانسان واحوال بيئتهِ وتفسيرها تفسيراً يتسق وأعلى النزعات الروحية

عصر النتروجين

به تزحف الجيوش وتحارب
واليه مردُّ الفكر في جميع الحضارات

وُصفت عصور التاريخ القديم والمتوسط والحديث اوصافاً شتّى. ومعظم هذه الأوصاف مستمدٌّ من المادة التي صنعت منها الأدوات الغالبة في كلّ منها. فقيل عصر الظرّان، وعصر الشبه، وعصر الحديد، وعصر الكهربية. ولكنّ وصف هذا العصر «بعصر النتروجين» يرتدُّ الى صفةٍ غالبةٍ عليه، أبرزها العلم الحديث، فمكّنت الناس من مجاراة الطبيعة والحياة في عمل الخلق. فهي أعمق أثراً في الحضارة، وأبعد تغلغلاً في قدرة الانسان المتحضّر، من مجرّد صنع ادواته من ظرّان أو شبهٍ أو حديدٍ أو تحريكها بالطاقة الكهربية

ذلك بأنهُ انقضت قرونٌ وراءها قرونٌ وانتاج الغذاء الحيوانيّ، مستحيلٌ إلا في البقاع المعشوشبة، وانتاج النبات الغذائي مستحيلٌ إلاَّ في الأراضي التي تتصف بخصب طبيعي يجعل نموَّ النبات فيها متاحاً بغير عناءٍ. ثم كشف الناس ان السماد الطبيعيَّ وبقايا الحيوان المنحلَّة تزيد خصب الأرض او تسبغ الخصب على ارض قاحلة. فتعلَّم البشر ما للسماد من قيمة، وجعلوا ينقلونهُ من مكان الى مكان ليعالجوا به الأرض الممحلة. ثم تبينوا ان نباتات العلف من الفصيلة البقليّة التي تصلح للعلف المواشي تصلح كذلك لإخصاب الأرض وتهيئتها للانتاج

فلما نفذ الانسان الى بعض اسرار الطبيعة، اصبح قادراً ان يعاونها، ومع ذلك ظلت القدرة على الانتاج مرتبطة بسخاء الطبيعة الذاتي. فلما تمكن العلماء من تثبيت النتروجين أحدثوا انقلاباً اساسيًّا في الحضارة. فتغير مقام الانسان على الارض من عبد خاضع لاحوال الطبيعة الى سيد يستطيع ان يتحكم في نواحٍ منها. ذلك بأن تثبيت النتروجين اتاح له في الهواء معيناً لا يغيض من الأمونيا والنترات، واذا بين يديه وسيلة لانتاج مقادير من الطعام لا تحدُّ

عند ما تنحلُّ الاجسام العضوية، ينطلق النتروجين الداخل في تركيب بروتينها، غازاً حرًّا ويمتزج بهذا المحيط الغازي الذي يحيط بكرة الأرض. ويتحول بعضه الى أمونيا، وهذا الغاز المركب يصبح متاحاً للنبات فيثبتهُ بأساليبه الخاصة مولداً منهُ مركبات النترات.

وما لا يستعمله النبات يتحول جانب منه الى نترات ويتاح للنبات في تراب الأرض ومائها

واذا استثنينا بعض اصناف البكتيريا والنبات الدنيء في سلم النشوء ، فليس بين النباتات جميعها ما يستطيع العيش بغير أمونيا أو نترات . وقد كان هذان المركبان ، الى عهد قريب لا يؤخذان الا من الأجسام العضوية المنحلة ، منها ما هو حديث الانحلال كالسماد الطبيعي ومنها ما انحلَّ في العصور المتغلغلة في القدم كنترات الشيلي . ولا يستثنى من ذلك الا مقادير يسيرة من النترات تتولد في الهواء اذ يتحد الاكسجين بالنتروجين بفعل الشرر الكهربي ثم تسقط على الأرض مذابة في قطرات المطر

وجميع النبات، إلا ما كان قادراً على استعمال نتروجين الهواء مباشرة، يحتاج الى الأمونيا او النترات في تقويم أفعاله الحيوية . وفي أثناء نموهِ يولد النبات مواد دهنية ونشوية من ثاني أكسيد الكربون الذي في الهواء، ومواد زلالية من الأمونيا والنترات التي في التراب. وبعض النبات يصلح غذاءً للانسان . وبعضهُ للحيوان . والحيوان يحول الغذاء النباتي في جسمهِ الى شحوم حيوانية ومواد نشوية وزلالية . ثم يتغذى الانسان بالحيوان ويحوّل في جسمه المركبات النتروجينية الى زلاليات بشرية ويستخرج من الشحم والنشاء الطاقة التي لا غنى عنها لنشاطه الجسماني والعقلي . أما البروتينات فتدخل في بناءِ العضل والعصب والمادة السنجابية في الدماغ بل هي العضل والعصب والمادة السنجابية

وقد فاز اكتشاف طريقة تثبيت النتروجين باعجاب العالم ورُفع مقام صاحبهِ الاول لأن استخراج النتروجين من الهواءِ وتحويلهُ الى مركبات تدخل في تركيب السماد الكيميائي يغني الأمم بعض الغناءِ او كلهُ عن الاعتماد على استيراد مواد الغذاء ، ثم انهُ يدخل في تركيب المواد الحربية المتفجرة . وفعلاً قيل ان فرتز هابر العالم اليهودي الالماني الذي كشف الطريقة الأولى لتثبيت النتروجين في الحرب العالمية الماضية مكّن المانيا من إطالة أمد مقاومتها بعدما قطعت عنها موارد الغذاء ونترات الشيلي اللازمة للسماد والمفرقعات بفعل الحصر البحري . ولكن الوطنيين الاشتراكيين في تعصبهم العنصري الأعمى نفوه من المانيا او هو أبى ان يبقى فيها بينما أبناءُ جنسهِ يُضطهدون أشدَّ اضطهاد ومات منفيًّا في بريطانيا من سنوات

من الاقوال المشهورة المنسوبة الى نبوليون « ان الجيوش تزحف على بطونها » والاشارة واضحة في قول نبوليون، الى زاد الجيش. وزاد الجيش مردُّه في آخر الأمر في هذا العصر الى النتروجين المثبت . واذا كان الجيش على قول نبوليون يزحف بفعل النتروجين المثبت الداخل في تركيب مواد الغذاء، فانهُ لا يستطيع ان يحارب بغير نتروجين مُثبَّت داخل في تركيب المواد المتفجرة

« البقية في باب الاخبار العلمية »

"وإنما المرء حديث بعده" .

أحاديث عن ميّ

١ — حضرة صاحب المعالي الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا

٢ — حضرة صاحبة العصمة هدى هانم شعراوي

٣ — حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك

٤ — حضرة النائب المحترم الاستاذ عباس محمود العقاد

٥ — حضرة الفاضلة السيدة ايمي خير

٦ — حضرة صاحب العزة الاستاذ انطون الجميّل بك

٧ — حضرة صاحب العزة الدكتور منصور فهمي بك

٨ — حضرة الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

٩ — حضرة الاستاذ خليل مطران بك

١٠ — حديث مي : للاستاذ محمد عبد الغني حسن

[رحّب هؤلاء الأعلام الأجلاء بدعوة المقتطف، وتكرموا بأجابتها، للحديث عن (ميّ) مع الاستاذ محمد عبد الغني حسن الذي تفضل فناب عنه في عمل هذه الأحاديث وإعدادها للنشر . ولقد كان وفاؤهم (لميّ) جميلاً وتقديرهم لها كريماً نبيلاً . فلعلّ شكرنا يفي ببعض ما وجب من حقهم، ويجزىء بعض الجزاء عن حسن صنيعهم، وجميل فضلهم — المقتطف]

حضرة صاحب المعالي الشيخ

مصطفى عبد الرازق باشا

وزير الاوقاف

لم أتكلف في الوصول الى معالي مصطفى باشا عبد الرازق مشقة او عنتاً . ولم أصادف في الاتصال به جهداً ولا نصباً . فهو وزير من طراز الصدر الاول من بني العباس في سماحة الخلق ، وبشاشة الوجه ، وسجاحة النفس ، ورحابة الصدر . لا تفارق الابتسامة اللطيفة ثغره ولا يزايل التهلل والاشراق جبينه ، فهو كما قال عبيد الله بن قيس الرقيات في مصعب

شهابٌ من الله تجلَّت عن وجهه الظلماء

ولقد شرفني (المقتطف) بأن آخذ منه الحديث عن (ميّ) فشرفني معاليه باستجابة الدعوة وتحديد الموعد . وكان كريماً في تفضله ، رفيعاً في تنازله ، دانياً في تواضعه ، عالياً في مجده ، فذكرني شأناه من الدنوّ والسموّ بقول الشاعر :

كذاك الشمس تبعد ان تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

وشرّفني معاليه — للمرة الثانية — بلقاء وشيك ، واستقبال سريع فما جرى على غير سجيته ومأنوس بشره ومألوف بره ، وكان في يومه خيراً من أمسه . وفي الغد بكّرت في الحضور حتى يكون حظي من اللقاء اعظم ومداي من الحديث أفسح ، وهنا طال المجلس ، وامتدَّ الحديث ، وأنا كثير الطمع في رحابة صدره ، واتساع آفاق حلمه ، ومعاليه يستمع الى أسئلتي عن (مي) فيجيب عنها في هدوء الفيلسوف ، وألمعية الأديب ، وتمكّن العالم

فما ضاق معاليه بسؤال ، ولا تعرَّض لبعض الجواب وسكت عن بعض ، ولكنهُ كانَ يستوفي الاجابة في دقة ورفق وأناة ، وفي بصر بمواقع الكلام ومرامي الحديث ، وفي أناقة في اللفظ وسلامة في التعبير وسمو في التفكير

والأدب والعلم في بيت عبد الرازق ميراث الأجداد الى الأبناء ، واليهم انتهى القضاء الشرعي في البهنسا بمديرية المنيا ومن هنا تعرف السر في احتفائهم بمن يمت الى الادب بنسب أو يتصل منه بسبب ، وان كان بشرهم وايناسهم قد عمَّ كل طبقة وامتدَّ الى كل طائفة

رأيت في زيارتي الثالثة لمعاليه شيخاً في مكتبه،وقد أدناه الوزير منهُ وقرّبهُ اليه ، والشيخ يميل على جوانبه كأنهُ يميل على أبيهِ ... فعرفت كيف استطاع مصطفى باشا أن يجتذب القلوب ، ويأسر النفوس ، ويجعل الناس مجتمعة على محبتهِ

ومعالي مصطفى باشا عبد الرازق أديب قبل ان يكون فيلسوفاً وشاعر قبل ان يكون كاتباً ، ولقد مدح معاليه وهو فتى ناشيء الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده على احد مواقفه بقصيدة

وتظهر شاعريته في رقة حاشيته ، ولطف جانبه ، وسلامة ذوقه في قيامه وقعوده وتسليمه ووداعه ، واستواء هيئته ، وحسن بزته ، وفي حلاوة حديثه وعذوبة صمته ...

ولعلَّ معاليه ترك قرض الشعر من زمن بعيد وعمد الى النثر ، او لعله يضن بشعره ان ينشر ، ولكن الذي لا شك فيهِ ان في معاليه من الشاعر السامي ، الرقة والاحساس والشعور وفي وجهه شاهد من الخبر ....

ومعاليه كاتب من طراز رفيع ، وله في كتابته سمتان احداهما دقته التي كانت نتيجة اشتغالهِ بتدريس المنطق والفلسفة الاسلامية في الجامعة المصرية ، والاخرى هذه الاناقة في التعبير ، وذلك الاحتفال بالاسلوب دون قصد الى تعمد او تكلف . فالاناقة طبعه ، والرقة سجيته في شأنهِ كله

***

ولقد وقف معاليه في حفل تأبين (ميّ) يلقي كلمته ، ويستعيد (من ذكرياته) في صوت خاشع رزين ، وفي جو تجللهُ المهابة والوقار . ولقد اجتمع في اثناء كلمته وقارُ ذكرى ميّ بوقار معاليه ، والتقى جلال الموقف مع جلال الوزير ، فاذا الجمع ساكت ، واذا الأبصار خاشعة ، واذا كلمته في القائها المتزن ، ووزنها المعتدل ، وصدقها واخلاصها تثير في السامعين مكامن الشجن ، ولواعج الحزن

ولقد تخير معاليه لكلمته في الحفل استهلالاً بارعاً ، كما يتخير الشاعر في قصيدته روائع المطالع ، ما أجمل وأروع ذلك المطلع من كلمتــه حيث يقول (شهدنا مشرق ميّ وشهدنا مغيبها ، ولم يكن طويلاً عهد ميّ ، على ان مجدها الأدبي كان طويلاً في الحياة عريضاً)

وذكرني توديع معاليه لتلك الشمس المشرقة الغاربة على قصر عهدها وصغر عمرها بالكلمة المشهورة لفيكتور هوجو (أيتها الشمس المتغيبة وراء الأفق ؟ ان أشعتك باقية الانوار)

وهي الكلمة التي ودعت بها (ميّ) المرحوم الدكتور يعقوب صروف في حفل تأبينه بدار الأوبرا الملكية

ومصطفى باشا عبد الرازق بتأبينه (ميّا) في حفلها ، وبتكرمه بالحديث عنها الى المقتطف يضرب أحسن الأمثلة في الوفاء ورعاية حقوق الصداقة وواجبات المودة . ومعاليه يعرف كيف يتخير الأصدقاء حتى من تلاميذه ، ويقول في مقدمة كتاب معروف ترجمه واحد منهم (اذا لم يكن لنا من تلاميذنا أصدقاء ، فليس لنا في الناس من صديق)

وسيرة مصطفى باشا عبد الرازق تتعطر بها المجالس وهي تمتاز الى الجانب الخلقي الرفيع منها بجانب الدأب والتحصيل والاطلاع الدائم المتصل ، وقد اشار الى مكان معاليه في النهضة التجديدية الحديثة الدكتور تشارلز آدمز مؤلف كتاب (الاسلام والتجديد في مصر) وذكر طرفاً من ترجمته وآثاره

بدأ حياته نابهاً ألمعيّاً ، وبلغ اليوم ما نرجو له مزيد الخير فيه ، فلقد بلغ السماء مجده وجدوده وإنا لنرجو له فوق ذلك مظهراً

***

١ — سألت معاليه : (كيف نشأت الصلة بين معاليكم وبين « مى » ، وما رأيكم في ناديها الادبي وإدارتها الحديث فيه ؟)

فأجاب معاليه : رأيتها أول مرة في حفلة « بالكونتننتال » للاحتفال بمرور خمسة وعشرين عاماً على إنشاء مطبعة المعارف. والواقع ان الزمن أنساني كيف نشأت الصلة ، ولكن الذي لا يُنسى أني بعد هذا كنت من المترددين على ناديها الأدبي . والحق ان « ميّا » لم تكن تغشى الحفلات الاجتماعية والأندية كثيراً ، فكان الاجتماع للمتصلين بها في ناديها الخاص الذي جعلته في بيتها ، وكان المجتمعون يستطيعون ان يقدروا جميع مواهبها الأدبية والخلقية . أما من الناحية الأدبية الفنية فلأنها كانت هي التي تتولى ادارة الحديث في المجمع وكان تنوّع الأحاديث وسموها وسلامتها من كل ما لا تخلص منه عادةً المجامع يدل على مقدار كفايتها الادبية ، وقيمتها الاخلاقية

وكانت « ميّ » تدير الحديث ولكن من غير ان تظهر بمظهر المتزعمة في النادي ، او المتصدرة في الحفل مما يدل على ناحية من نواحيها الخلقية الجميلة

٢ — فسألت معاليه : (ما رأي معاليكم في تحصيل مي للعلوم ، واكبابها على الدرس وغرامها بالمطالعة ؟)

فأجاب معاليه : أظن ان أحداً ممن عرف الآنسة « ميّ » لايشك في أنها كانت متنوعة الثقافة ، وأنها كانت مشغوفة بالتحصيل والاستفادة والمطالعة وكانت دراستها — فيما أعتقد — دراسات أدبية . أعني أنها تذهب الى ناحية التفكير الأدبي او الاجتماعي او الاخلاقي من غير ان تنزع الى نزعة التخصص التي تدعو الى الدخول في معضلات المسائل العالية او في استعمال الاساليب الفنية في التعبير . وليس هذا الذي ذكرت غضًّا من قيمة «ميّ» العلمية، لأنه اذا كان أثر العلماء المتخصصين أثراً كبيراً في ترقية الفكر الانساني ، وترقية الحضارة الانسانية، فان أثر العلماء المتأدبين في ترقية الفكر الانساني وفي ترقية الحضارة ليس أقل شأناً

ولعلّ الأفكار والأبحاث العلمية التي لها صبغتها الفنية لا تصل الى دور العمل ودور النفوذ الى عقول الشعوب وقلوبها الاّ بوساطة الادب

٣ — فسألت معاليه : (ماذا كانت لغة الحديث عند (مى) في نديها وفي خلال مناقشاتها ؟)

فأجاب معاليه : أما حديث «ميّ» الغالب فكان باللغة العربية ، وكان بالعربية الفصحى ومع تأنّق (ميّ) في شأنها كله ، وفي حديثها على الخصوص، فانها كانت تصل الى جعل اللغة العربية الفصحى لغة حديث في مجمع راقٍ ليس كل شاهديه من أنصار العربية الفصحى ، من غير ان يشعر أحد من سامعيها بأن حديثها أقل سلاسة او أظهر تكلفاً من حديث المتكلمين باللغة العربية العادية او المتكلمين بأي لغة من اللغات الحية الراقية

وأظن ان ميًّا خدمت بهذه الناحية من نواحيها اللغة العربية خدمة كبيرة ، لانهُ اذا كانت الجرائد والمجلات أعانت على التوفيق بين منازع الراغبين في استعمال اللغة العربية بأساليبها الموروثة وبين منازع الراغبين في استعمال اللغة العامية ، او ما يشبه اللغة العامية ، فان ميًّا أسدت هذه الخدمة نفسها الى اللغة العربية في ناحية لا تصل اليها الجرائد ، وهي ناحية التخاطب والتحاور . فكما أسدت الصحف والمجلات خدمة التوفيق بين هذه المنازع عن طريق الكتابة ، فان (ميًّا) أدتها عن طريق الحديث والمخاطبة

٤ — فسألت معاليه (ما رأيكم في الكآبة التي استولت حيناً على مى ؟ هل

كانت اصلاً فيها ام طارئة عليها ؟ وهل ساعد تفكيرها العميق على اسعافها في أحزانها او اسعادها ؟)

فأجاب معاليه في إيجاز : لا أعتقد ان ميًّا كانت بأصل فطرتها كئيبة ، وقد يكون مجهودها العقلي أعان الظروف السيئة التي صادفتها في سنيها الأخيرة على ما جدّ لها من كآبة وحزن

٥ — فسألت معاليه (ما احب كتب « مى » او آثارها القلمية الى معاليكم ولماذا ؟)

فأجاب معاليه : لعلي لم أسأل نفسي هذا السؤال قبل اليوم ! ولكن في حفل تأبينها سمعنا قطعة من قطع (ميّ) الادبية ألقتها فتاة لها صوت « مي » نخيل اليَّ ساعتئذٍ ان هذه القطعة هي أحب ما كتبت « مي » الى نفسي

٦ — فسألت معاليه : (هل كانت « مى » من المحافظات على التقاليد ، المتمسكات بموروث العادات ؟ وما سر ذلك الحفاظ منها على الرغم من تشبعها بالثقافة الغربية ؟)

فأجاب معاليه : اذا كانت المحافظة على التقاليد درجات ، فان «ميًّا » لم تكن في طرفيها ، وأعني أنها لم تكن في اول حدود المحافظة ولا في نهاية حدودها . ولعلنا — في جيلنا — لم نكن نرى « ميًّا » من المحافظات ، ولكن معاني المحافظة والتجديد تتغير وتتغير بسرعة ، ولعل ما كان معتبراً من التجديد في اوائل هذا القرن أصبح في أيامنا هذه يعتبر محافظة . وقد أصبحت خطوات الزمن أسرع من خطوات المفكرين الذين يطلبون التجديد عن روية وأناة « فمي » كانت مجددة في حكم الرأي العام لأول عهدها ، ثم تطورت الظروف بأسرع مما تطوَّرت ميّ ، لأن « ميًّا » كانت مفكرة ، وما أظن الظروف تراعي في تطوراتها تفكيراً

٧ — فسألت معاليه : (لقد دافعت مى عن الاسلام وديمقراطيته في كتابها (المساواة) . فهل درست مى شيئاً عن روح الاسلام وحقيقته وفلسفته ؟ واذا كان ذلك فمن كان معلمها ؟)

فأجاب معاليه : ما اظن ان ميًّا كانت تجهل من الاسلام ما يجب على أديب مثقف أن يعرفهُ من شئون دين له في تاريخ الفكر البشري ، والحياة الأدبية في البشر ما للاسلام

ولم تكن (مى) متعصبة لدين ، ولكنها كانت متدينة ، ولم تمسَّ نزعاتُ الفكر الحر المسرفةُ أحياناً — التي كانت تحيط بها — صميم ايمانها

٨ — فسألت معاليه : (لامجال بالطبع للمفاضلة بين عائشة التيمورية وباحثة البادية والآنسة ميّ ولكني أسأل معاليكم عن رأيكم اجمالاً في اثر هؤلاء الكواتب والشواعر في الأدب العربي)

فأجاب معاليه : الواقع ان اعتبار ظروف الزمن والأحوال الاجتماعية المحيطة بالاشخاص له أثر كبير في تقدير قيمتهم ووزن أثرهم في الجماعة أو في الأدب

فالزمن الذي نشأت فيه عائشة التيمورية باعتبار المستوى العلمي والادبي لم يكن مستعدًّا لأن ينشيء أديبة كميّ ، ولم يكن مستعدًّا لأن يحتمل نزعة من نزعات النهوض النسائي كالنزعة التي أوجدتها باحثة البادية ، او النزعة التي أوجدتها «ميّ»

فاذا كانت «ميّ» أوسع ثقافةً او أكبر مظهراً في الحياة الادبية من سابقتيها فينبغي ألا ينسى عند الحكم في ذلك انه يرجع الى اختلاف التطورات واختلاف البيئات ، بل اختلاف الحياة كلها في هذه الأجيال الثلاثة التي تمثلها الأديبات الثلاث

٩ — فسألت معاليه : (ما أثر الآداب الافرنجية في الآنسة مى وفي طريقة كتابتها ؟)

فأجاب معاليه : للآداب الافرنجية من غير شك أثر ظاهر في اسلوب ميّ وفي طريقة معالجتها للموضوعات التي عالجتها . ولعلَّ أثر الآداب الاوربية الذي وصل الى ميّ من طريق الكتَّاب السوريين في أميركا — كتَّاب المهجر — لا يقل عن أثر مطالعتها للآداب الأوروبية ذاتها . ولميٍّ ومن يحذو حذوها من الأديبات والأدباء مذهب في الكتابة العربية لايزال حيًّا يزاحم في ميدان التنافس بين الاساليب الجديدة التي يلتمس كل واحد منها النصر في سبيل التغالب . والله أعلم لأيها يكون النصر

ومن يدري ؟ فقد يكون للحرب القائمة ونتيجتها أثر حتى في أساليب التفاهم بين الناس

حضرة صاحبة العصمة السيدة الجليلة

هدى هانم شعراوي

رئيسة الاتحاد النسائي

السيدة هدى هانم شعراوي هي زعيمة « الاتحاد النسائي » ، ومثالٌ راقٍ للمرأة المصرية المثقفة ، الموزع قلبها بين يدٍ تسديها او صنيعة تقدمها او بر تدخره عند الله

سمعتها تفتتح حفل تأبين « ميّ » وعليها هالة من وقار ، وسمات من كرامة محتد وعراقة أصل ، وفيها ثقة واعتداد ، واطمئنان واعتزاز . وكان الحزن يبدو في نبرات صوتها وقسمات وجهها ، ومن خلال سطور كلمتها . وكانت تروح على مسرح الحفل وتغدو ، وتقوم وتقعد ، لأن نظام الاجتماع كان موكولاً اليها ، ونجاح الحفل كان مردُّه الى فضل نشاطها وحسن تنظيمها

وبلغ تأبين ميّ في دار « الاتحاد النسائي » غاية النجاح ، وانتهى الحفل ، وطوي البساط وانفضَّ الجمع الحاشد الذي وفد ليسمع الانسانية تؤبن « ميًّا » الانسانة ، وليرى رياض الأدب تبكي على « ميّ » الزهرة ، وليشترك في الوفاء لفتاة كان من طبيعتها الوفاء لشرقيتها وجنسها ووطنها . وجميل من هدى شعراوي ان تخص «ميًّا» بتكريمها بعد موتها كما كرّمتها في حياتها . فان عصمتها أولى الناس بتقدير العاملات وتكريم النابهات

ولقد سمعتها بعد الحفل تتحدث الى الدكتور طه حسين بك في شأن فتاة تساعدها عصمتها على اتمام تعليمها ، وتعينها على تحقيق آمالها . ويظهر ان هذه الفتاة واسعة الآمال ، عريضة الأماني . وكنت أستشفُّ من كلام عصمتها الى « مراقب الثقافة بوزارة المعارف » معاني الرحمة التي طبعت عليها ، وألمس في كلماتها الرحيمة القوية ، عطف المرأة في جنانها ووجدانها ، وقوة المرأة في اعتقادها وإيمانها . . . ومن عجب ان السيدة «هدى» التي تعين الفتيات على التعليم ، وتمدهنَّ بأسباب دخول المدارس والانتظام في المعاهد — لم تدخل مدرسة في حياتها ، ولم تتعلم في معهد . . . بل انتقلت المدارس اليها في قصر أبيها ، وجاءها المدرسون والمدرسات في معاهد طفولتها ومراتع صباها . . .

ومن أول أعمال هدى في سبيل البرّ اشتراكها في مبرة محمد علي التي دعت اليها الأميرة عين الحياة زوجة الأمير حسين كامل ، تلك المبرة التي نجحت وما زالت ناجحة الى يومنا هذا

وهي أول مصرية نادت بالسفور عمليًّا ، وتركت المحاجّين يتناظرون ، والمجادلين يتناقشون ، ونزعت البرقع في صيف سنة ١٩٢٠ بعد ان عادت من تمثيل مصر في مؤتمر الاتحاد النسائي برومة ، وكان ذلك آخر عهدها بالحجاب

ونشاط صاحبة العصمة في سبيل المرأة المصرية ، وفي سبيل البر والاحسان ،لا يقف عند غاية ، ولا ينتهي عند أمد . فرأست « جمعية المرأة الجديدة » التي أسستها بعض المعلمات سنة ١٩٢٠ . وأسست في سنة ١٩٢٤ «الاتحاد النسائي» وهو نادٍ ومدرسة ومشغل . وتقيم من حين الى حين سوقاً خيرية لمشغل الاتحاد ، وهي سوق ناجحة رابحة

والسيدة « هدى » تعطي ولا تتحدَّث ، وتحسن ولا تتكلم ، وتتصدق ولا تمنّ ، لأن الاحسان فيها لله لا لغرض ، والمعروف فيها للمعروف لا لوجه آخر ... تبرعت مرة بمبلغ الف جنيه « للمرأة الجديدة » ولم تذكر منهُ شيئاً ، وتتبرع غير ذلك بالمئات وعشراتها ، فلا تتحدث عن نفسها ولكنها لا تستطيع ان تجعل الناس لا يتحدثون عنها ... فلا قيمة عندها للمال ، ولكنهُ العمل الصالح يربي على الاعمال ، ويزيد على كل مال

بعد انتهاء حفل ميّ بأيام ، كنت عند صديقي وأستاذي أنطون بك الجميّل في مساء عاصف فيه من الحرب أنباء وأخبار . . . واذا بهِ يريني رسالة من هدى هانم شعراوي تشكر لهُ اشتراكه بجهده ووقته في حفل تأبين ميّ .واذا بهِ يقول :— لست أدري يا أخي أينا أحق بالشكر وأجدر بالثناء ؟

فهدى شعراوي لم ترَ فيما صنعتهُ هي ما يستحق شكراً او يستوجب ثناءً ، وهذا مثل منها في الانكار والايثار .ولكن عصمتها نسيت أنها خلعت من جلال شخصيتها ، ومعروف مكانتها على حفل « ميّ » ما أفاض عليهِ الجلال والوقار

فبدت «ميّ» في هذا الاحتفال في جلال الموت ، وخشوع الذكرى ، وسواد الأطار ، كما كانت تبدو في أدبها وكتبها وندِيِّها فرْحة القلوب وبهجة الأنظار

***

١— سألتها : (كيف عرفت ميًّا . وما أولى ذكرياتك عن مقابلتك الاولى لها ، وما الاثر الذي تركته في نفس عصمتك ؟)

فأجابت : ترجع معرفتي بمي الى ما يزيد على خمس وعشرين سنة ، وهي حقبة طويلة من العمر وفسحة مديدة من الزمن كما ترى ، الاّ أنها قصيرة بالقياس الى ميّ ، والورود دائماً قصيرة

الأعمار ، قليلة الآجال ، وهل كانت ميّ الاَّ وردة ناضرة مملوءَة بكل معاني الحياة والقوة . وهل كانت ميّ الاَّ زهرة من تلك الازهار الجميلة التي تتفتح ساعات أو أياماً في روض الحياة ثم لا تلبث أن يعاجلها الذبول، أو كوكباً متألقاً في سماء الدنيا ساعة ثم يدركه الأفول ؟

***

ترجع معرفتي بمي — بالضبط — الى شهر ابريل من سنة ١٩١٤. فقد كنا في ذلك الحين ننظم سلسلة من المحاضرات للسيدات في الجامعة المصرية القديمة

وكان يختلف الى بهو المحاضرات عدد مختلف من كرام الاوانس وفضليات السيدات ، دفعهنَّ الشوق الى العلم ، ورمى بهنَّ الينا التوق الى المعرفة والثقافة . وقادهنَّ مصباح من الأمل ... ذلك الأمل الذي كان يختلج في صدر المرأة المصرية في إبان حركتها وفي مقتبل نهضتها

وبينما أنا في سبيلي الى مغادرة بهو المحاضرات بعد القاء المحاضرة اذا بعيني تقع على فتاة تميزها من بين ذلك الجمع النسوي حركات رشيقة ، وروح لطيفة خفيفة ، وينبعث من عينيها السوداوين أشعة قوية من ذكاء خارق، وألمعية حادة ، وفطنة نادرة

وتجتمع هذه المخايل كلها في وجه جمَّلهُ الله بصباحة خاصة ، وسمة متميزة ، وميزهُ بأسارير مشرقة عن ابتسامات عذابٍ ، كابتسامة الزهرة للشمس والماء والهواء في فصل الربيع . . .

رأيت هذه الفتاة تقترب مني قليلاً ، وتقد صوبي وتستوقفني قائلةً (سيدتي هدى : أنا معجبة بمشروعك مقدرة لما تبذلينهُ من جهد . لذلك أضع نفسي تحت تصرفك . ولا تظنّي يا سيدتي أنني صغيرة لا استطيع المعاونة او لا اقدر على المساعدة . . . أنا كاتبة وشاعرة . أنا أكتب في الصحف وأنشر في المجلات . أنا « مي » ولا أظنك ياسيدتي إلاَّ قرأت شيئاً مما كتبتهُ . ألا تعرفينني ؟؟)

وكانت هذه الكلمات الصريحة المملوءَة بالشجاعة الأدبية والاعتداد بالنفس والثقة بالشخصية ، والتي تنم في الوقت نفسه على روح مفعمة بالنية الخالصة والقصد الحسن —كانت باعثتي على ان اضم تلك الفتاة الى صدري، وان أقبلها قبلة الاعجاب بها والرضى عن نبل مقصدها وشرف غايتها

وأبديت لتلك الفتاة التي عرضت نفسها لخدمة غرضنا النبيل إعجابي بمعرفتها وسروري

رؤيتها واغتباطي بانضمامها الى صفوف حركتنا كاتبة بقلمها ، وموحية بفكرها ، وملهمة بشاعريتها . . .

ولم يمنعني صغر سنها وحداثة عمرها من ان أرحب بانضمامها الينا ، ومن أن أتوقع منها الجهد الكبير والعمل العظيم . وهل يمنع السنّ الصغير فضلاً ، او تحجب الحداثة حلماً و نبلاً ؟ ألم يقل المتنبي الشاعر

فما الحداثة من حلم بمانعة قد يظهر الحلم في الشبان والشيب

ثم ألم يقل الشاعر الآخر

وربَّ صغير لاحظته عناية من الله فاحتاجت اليه الأكابر

٢ — فسألت عصمتها : (ما النواحي الجميلة التي كانت تعجبك من الفتاة مى والميزات في الخَلق وفي الخُلق التي امتازت بها ؟)

فكان الجواب : لقد رأيت في ميّ انساناً غير عادي ، لقد حباها الله — وهو واسع الفضل — بعقل كبير ، ولكن قلبها كان أكبر من عقلها . فقد كان ذلك القلب يتسع لمعانٍ شتى من الرحمة والعطف والحنان . وكانت مي عالية النفس، فما عرفتها تدنت الى دنية او تنزلت الى سُفل . وكانت واسعة آفاق التفكير فما عرفتها وقفت عند حد محدود . وكانت بعيدة الادراك فما رأيت منها قصوراً فيه . ومع تلك الصفات المحبوبة ، والمزايا الموهوبة كانت بعيدة عن الغرور ، منزهة عن الانخداع ، فما عرفتها زُهيت بعلمٍ او تاهت بذكاءٍ او دلّت بتفكير . ولكنها كانت تعرف قدر نفسها في تواضع جميل ، وبساطة محبوبة . ولم تكن ميّ على وسامتها ووضاحة وجهها جميلة بالمعنى الصحيح للجمال ، ولكن نفسها كانت أجمل من وجهها ، وروحها أجمل من صورتها . فكانت بين الجميلات لا تبدو أقل منهنّ فتنة ولا أضأل نصيباً من الجاذبية . لقد كان يجمل ميًّا بين الجميلات ، ويزينها بينهنّ شيءٌ خفي وسرٌّ مستبهم لعلهُ هو الذي حيَّر الشاعر فقال :—

شيءٌ به فتن الورى غير الذي يدعى الجمال ولست أدري ما هو

وليس في الأمر عندي سرٌّ مستغلق ولا خفي مبهم ، فسر جمال مي كان في روحها والجمال المعنوي الروحي هو ضربٌ من الجمال يسمو على كل جمال

٣ — فسألتها : (هل صرفت الثقافة الأوربية والحضارة الغربية ميًّا عن الأمثلة

الشرقية العالية، وهل اندفعت مي في تيار المحدثين تذهب مذاهبهم في التمسك بكل ما هو غربي، والتنصل مما هو شرقي ؟)

فكان جواب عصمتها : لقد وجدت في مي من الاعتصام بالشرق والحفاظ على الشرقية ما يجعلني أذكر مع الفخر أنها كانت المثل الأعلى للفتاة الشرقية الراقية المثقفة . لقد نهلت مي حقاً من موارد الغرب ووردت حياضه وأخذت كثيراً من طرائقه واتجاهاته ، ولكن ذلك كله لم يُنسها حق أهلها وفرض وطنها — وقد كان الشرق كله لها وطناً — فما أضاعت عادات أهلها ، ولا احتقرت تقاليد قومها ، ولا فنيت في الغرب كما يفنى فيه المستضعفون

لقد كانت مي معتزة بقوميتها ، مفتخرة بنسبتها ، متمكنة من لغتها العربية فاهمة للكثير من دقائقها وأسرار جمالها وكانت محافظة كل الحفاظ على شخصيتها الشرقية فما ضيعتها او نزلت عنها او لبست ثياباً غيرها لا توائمها . وكانت عقائد قومها محل احترامها وموضع إكرامها ، فما غمزت او لمزت على نحو ما يفعل الغامزون اللامزون . ولكنها كانت تتألم لعيوب الشرق ، وتبكي على ضعفه المادي وتتمنى ان يتاح له من القوة المادية ما يكمل به سمو روحانيته

٤ — فسألتها : (ما رأي عصمتك في طريقة مي في كتابتها وتفكيرها)

فأجابت : كانت في مي دقة امتازت بها كتابتها ، واختص بها أسلوبها. ولم تكن ابحاثها مبتسرة ، ولا موضوعاتها مرتجلة ، ولكنها كانت وليدة البحث ، ونتيجة التمحيص . تكتب مي فترى الدقة في كتابتها والضبط في تعبيرها ، وتحاضر مي فلا تراها مسرفة في التعبير او مبذرة في الالفاظ . ولعل دراستها للغات الاجنبية قد مكنت لها من اسباب التدقيق والتمحيص

وكانت هذه الصفة من الدقة لا تفارق مياً في أي موضوع طرقتهُ او بحث عالجته ، حتى في كتاباتها العاطفية الخيالية ، فلم يكن خيالها شارداً تائهاً ، ولم تكن أحلامها في سبيل الشرق أوهاماً بل كانت تبنى غالباً على أفكار دقيقة وآراء ممحصة

٥ — فسألت عصمتها : (ما الآثار التي تركتها مي في الحركة النسائية في مصر)

لمحته فيها من الصدق ، وتبينتهُ في كلامها من الاخلاص . وقد طابق فعلها — بعدئذٍ — قولها ، وصدق عملها حديثها . فلقد انضمت الى صفوفنا متواضعة الاخلاق ، قوية الروح عميقة التفكير ، وكانت تدهشنا جميعاً بالذكاء الحاد المتفجر من كل اشارة من اشاراتها ، او خلجة من خلجاتها ، او نبرة من نبراتها . وكان أكثر ما يدهشنا منها سمو روحها ودقة احساسها . فلقد كانت مي تتأثر لكل شيء ، وتحس بكل شيء . وكنت أخشى على المسكينة من اجتماع هذه المميزات فيها . نعم كنت أخشى ان يجني عليها ذكاؤها ، او يقتلها نبوغها ألم يقل الشاعر « ذكاء المرء محسوب عليه »

نعم كنت أفزع من ان تصطلح عليها هذي القوى الجبارة العنيفة التي كان قلبها وروحها وجسمها موزعة بينها ، وأخشى ان تهدها تلك القوى هدًّا ، وتدكها دكًّا ، وتحطمها تحطيماً

لقد انضمت مي الينا عاملة مجاهدة ، تسبق الصفوف وفي يدها قلمها ، وبين حناياها قلبها وفي القمة منها رأسها وتفكيرها ، ولكن أفقنا المحدود في الجهاد ضاق أمام عينيها البعيدتين في مراميها وفي مداها . وعالمنا المحدود في حركتنا النسوية عجز عن أن يتسع لاصلاحها وآمالها وأدبها وشاعريتها ، فاتجهت الى ميادين الأدب والاجتماع يدفعها نبوغ خاص وعبقرية نادرة ، يهيء لها ذلك استعداد فطرى حبتها بهِ الطبيعة ، فاهتزت لها أعواد المنابر خطيبة بارعة ومحاضرة لبقة . وعطرت كل نادٍ بشذا من أحاديثها . وتركت حيثما حلت أثراً طيباً . وأخذت مي الكاتبة تنهمر كتاباتها في الصحف وتتدفق خطبها على المنابر ، وتتوالى كتبها في سوق الادب مترجمةً مرة ، ومؤلفة أخرى . ولم تغفل مي حق جنسها ، وفرض اخواتها ، فكان للمرأة من ابحاثها الأدبية نصيب ، ولعل دراستها العميقة الممتعة ، المملوءة بكثير من التقصي والدقة عن وردة اليازجي ، وعائشة التيمورية ، وباحثة البادية (ملك حفني ناصف) لعلَّ تلك الدراسات التي نشرت في المقتطف وطبع بعضها مستقلاً في كتاب هي مظهر من مظاهر وفاء مي لبنات جنسها ، وحرصها على اظهار فضلهنَّ أينما وجد . على أن مكان مي «الفتاة» في الادب ومحلها في الكتابة والتأليف لما يعلي شأن المرأة الشرقية عامة والمصرية خاصة . فهو مكان رفيع تغتبط بهِ حركتنا النسائية وتعده دليلاً آخر ساطعاً على مكان المرأة

فلم يكن مجد مي لها وحدها ، ولم تكن شهرتها خاصة بها ولكنهُ مجد تفتخر به المرأة الشرقية ، وشهرة تتمتع بها كل ناطقة باللغة العربية

٦ — فسألت عصمتها : (كانت مي تميل الى الاحزان في كتاباتها ويبدو ذلك في مقدمة كتابها الذي ترجمته عن الالمانية لفردريك مكس مولر . فهل كان الحزن طبيعة فيها أم عارضاً عليها ؟)

فأجابت : لقد عرفت ميًّا في ريعان شبابها وإبان نشاطها ، عرفتها والقوى الجبارة تتنازع جسدها وقلبها وروحها . وكنت دائمة قلقة عليها — خائفة أن تعصف بها تلك القوى العنيفة. فتذبلها قبل أوانها ، أو تقضي عليها قبل حينها

وكنت أخشى أن هذه القوى الموهية للصمّ الصلاب قد تؤثر في نفس مي اسوأ الأثر اذا ما رماها الزمان بنكبة ، او ابتلاها بمحنة. وقد كان ذلك . فقد أصيبت مي بفقد والديها وكان فقدهما تباعاً — كأنهما كانا على ميعاد قريب — فتأثرت أبلغ التأثر ، واستسلمت الى الأحزان تطغى عليها وللهموم تأكل قلبها وللآلام المضنية المبرحة تعصف بها في كل لحظة وتلازمها في كل خطوة

وآثرت مي الاجتماعية المحبة للناس المتحدثة الى الجماهير ، أن تركن الى العزلة تجد فيها عزاءها ، وتستسلم الى الوحدة تلتمس فيها راحتها

واستأنست مي بوحشتها ، واجتمعت مي بوحدتها وعزلتها وكانت فذة في أحزانها ، غريبة في همومها وآلامها كما كانت فذة في عبقريتها وبين بنات جنسها

وظلت كذلك في هموم مقيمة مقعدة ووساوس باقية ثابتــة ، تخاف من الهمس ، وتفزع من الشبح ، وتُـذعـَر من الانس حتى طغت عليها الاحزان ، واصطلحت عليها العلل — العلل القاسية المبرحة — علل العقل والجسد — ووقفت القوة التي كانت تمدها بالحيوية ، وجفت الينابيع التي كانت تغذيها بالماء ، وأظلمت الآفاق التي كانت تشع امام عينيها السوداوين النور والبهجة والضياء

وصارت كالزهرة لا شمس ولاماء ، ولا ضوء ولا هواء فذبلت وكان ذبولهـا أليماً ، وتساقطت اوراقها ورقة اثر ورقة

ولـكن شذا الزهرة مايزال متضوعاً وأريج الزهرة مايزال عبقاً وسيظل المثقفون والمؤدبون، والـكاتبون والمفكرون يذكرون تلك الزهرة التي عوجلت قبل الاوان .وخُطفت قبل الحين.

فاذا مروا بروضة من رياض الفكر ، أو حقل من حقول الأدب، تعرفوا على مكان هذه الزهرة وقالوا (هنا مكان زهرة ذابلة ولـكنها ما تزال فوّاحة الأريج)

حضرة صاحب العزة

الدكتور طه حسين بك

مراقب الثقافة العامة

في حفل تأبين مي وقف رجل متزن الخطوة ، هادىء الوقفة ، يبدو على ملامح وجهه آثار حزن عميق وألم دفين

وقف هذا الرجل ، وكثيراً ما سمعناه على المنابر محاضراً من طراز رفيع ، وغران عال ، وقف تلك الليلة من مساء ٤ ديسمبر يستهل الكلام بشعر عربي رصين

لم يكن هذا الشعر شعره ، ولم يكن الرجل في تلك الليلة الا راوياً أبياتاً أعجبته من ذي الرمة ، فراح يلقيها في أداء حسن ، والقاء متئد ، يخرج الحروف مخارجها ، ويعطي الكلمات قيمها . وقف هذا الرجل ينشد هذه الأبيات :

خليلي عُدّا حاجتي من هواكما ومن ذا يواسي النفس الاّ خليلها ؟
ألمّا بمي قبل أن تطرح النوى بنا مطرحاً او قبل بَيْنٍ يزيلها
فإلاّ يكن الاّ تعللُّ ساعة قليلاً فاني نافع لي قليلها

وكثير من السامعين لم يعلموا أن هذه الأبيات لذي الرُّمة الشاعر الأموي ، وكثير منهم ظن ان الدكتور طه حسين انقلب شاعراً بعد أن رسخت في النثر قدمه وعلت في الكتابة مكانته

ولكن قليلاً من هؤلاء السامعين أدرك أن طه حسين ينشد هذه الأبيات الثلاثة في حفل مي ابنة القرن العشرين ، وهي أبيات قيلت في مي ابنة العصر الاموي

وقف الدكتور طه حسين في حفل تأبين مي يستعرض ماضياً جيلاً طويلاً ، حافلاً بنفيس الصور ، وبديع الأثر

وقف يصف كيف عرفها في الجامعة القديمة سنة ١٩١٣ حينما وقفت تعقب على كلمة أرسلها الشاعر الناثر جبران خليل جبران من نيويورك لتكريم الشاعر خليل بك مطران

وقف يصفها في اقبالها على العلم وإكبابها على الدرس ، والحاحها على طلب المعرفة من مظانها ، والحكمة من مواضعها

واعتذر الدكتور عن مجانبة التفصيل في الحديث عن مي يوم تأبينها لأن ذلك يقتضي درساً لم تهيّأ له هذه الاجتماعات التأبينية والحفلات التذكارية التي يراد بها الوفاء والتذكر ، وارسال التحيات من القلوب المخلصة لتصل الى النفس المخلصة

ولقد كان الدكتور جميلاً في وفائه لمي ، نبيلاً في اخلاصه ، وكان منصفاً لها حين سجل حسنتين من حسناتها وأشار بنوع خاص الى أثرها في حياتنا الادبية : الاولى منتداها الذي كان ملتقى المثقفين ومجتمع المفكرين من أهل مصر وسوريا ، ومن أهل الشرق والغرب ، ومن رجال العلم والأدب . والثانية تأثرها بالمحاضرة التي القاها احمد لطفي السيد باشا في نادي المدارس العليا عن أبي العلاء وأخذها موضوع المحاضرة على انهُ موضوع جدير بالتفكير

وختم الدكتور طه حسين كلمته في تأبين ميّ بالابيات التي افتتحها بها ، وكرّر البيت الأخير مرة ثالثة وهو

فالاَّ يكن إلاَّ تعلل ساعة   قليلاً فأني نافع لي قليلها

***

..... وانتهى حفل مي ، وانصرف الناس بعد ما أدوا واجب الوفاء لفتاة كان من طبعها الوفاء لوطنها ولغتها وجنسها ، وانتقلوا من جوٍّ كان يسوده الجلال وتخيم عليه الرهبة ، ويغشيه السكون الى جو امتلأ بالمناقشة والمجادلة . . أي الخطباء أجاد ، وأي الشعراء أصاب ، وأي النواحي من حياة مي أغفلت ، وأي المسائل أهملت ....

وتقدمتُ من الدكتور أصافحه باليد ، وأحييه باسم المقتطف ، وأذكر له اسمي ولا أعرف ان كان له ذاكراً أم ناسياً ؟ فألقى منهُ اللقاء الجميل ، والرد الجميل ، ويتفضل باجابة دعوة «المقتطف» الى الحديث ولكن يؤجله الى يوم يقل فيه الشغل ، ويتسع فيهِ الوقت وتواتي فيهِ أسباب الحديث

ويجلس الدكتور طه حسين بك في قاعة من قاعات الاتحاد النسائي ليستمع الى حديث من السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي ، ويجلس بجانبه خليل بك مطران وبعض السيدات ، وأتخذُ مكاني قريباً منهم لأسمع صوت طه حسين من قريب كما سمعته «من بعيد»

ليست صناعة الاحاديث مع الرجال — وخاصة كبارهم وأهل المكانة منهم — عملاً هيناً او أمراً يسيراً ، ولقد شرفتني «المقتطف» بانابتي عنها في الحديث مع لفيف من أهل الأدب والفضل ممن كانت لهم بميّ صلات وذكريات

وليست ظروف التحدث مهيأة في كل وقت وفق رغبة الراغب ، وأمل الطالب ، فهناك قد تكون المشاغل والشواغل ، وهناك ايضاً قد تكون العقبات والحوائل ....

ولكن مشاغل الدكتور طه حسين لم تمنعه من التفضل بالحديث في الوقت الملائم

وأسلوب الدكتور طه حسين — سواء أمتحدثاً كان أم كاتباً — هو أسلوب السلاسة واليسر فلا يتكلف لفظاً ، ولا يتصنع عبارة ، ولكنهُ يجري على نحو من السهولة يظن القارىء أو

السامع انه مستطيعها، وينتهي الى غاية من السلامة يخيل الى من يراها انه مدركها ، فاذا دون ذلك أهوال

والدكتور طه حسين يتأبى على كل قيد ، ويمتنع على كل ارادة غير ارادته

وضعت له بضعة أسئلة تجلي بعض الغوامض من حياة مي ، وتفصل بعض ما أجمله القائلون عنها ، فلم ترقه طريقة السؤال والجواب وآثر عليها طريقة الحديث المرسل والكلام المطلق ..... وهو في هذا يشبه خليل بك مطران الذي لم يلتفت الى اسئلتي المسلسلة ، وآثر ان يسمعني في ساعة وبعض ساعة حديثاً عن ميّ الشاعرة لم أقطعه عليه بسؤال ما . . .

كان الدكتور طه حسين من المعجبين بميّ المترددين على « صالونها » وله في هذا « الصالون » ذكريات سيتحدث عنها فيما يلي من القول

وكان الدكتور يعجبهُ من هذا « الصالون » اتساعه لمذاهب القول واشتات الكلام وفنون الأدب ، ويعجبهُ منهُ أنه مكان للحديث بكل لسان ومنتدى للكلام في كل علم ، وملتقى لطوائف من غير تفريق . فلا تعاليَ بينهم ، ولا اختلاف فيهم ، بل هم أهل ندوة واحدة ألفهم الأدب ووثقت بينهم المعرفة وجمعتهم الحكمة يغدون ويسرون في أخاء تالد ، على اختلاف مذاهبهم وتباين مشاربهم ، وتفاوت مراتبهم . فهم كما قال أبو تمام

إن يُكْدِ مطَّرف الأخاء فإننا نغدو ونسرح في اخاء تالد
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذبٌ تحدر من غمام واحد
أو يفترق نسبٌ يؤلّفْ بيننا نسبٌ أقمناه مقام الوالد

وكان أشد ما يغتبط له الدكتور طه حسين أنهُ وجد الطريق الى منتدى ميّ ميسوراً ، لم تحفّهُ الأشواك ، ولم تدمَ من اجله الأقدام ... وصل اليه وهو طالب في الجامعة القديمة لم تنعقد له ألوية الشهرة . ولم تثبت له بعد منزلة الأديب . وفي هذا الحديث الممتع الذي تفضل به على « المقتطف » صور من حياة مي بعضها بهيج ، وبعضها مؤلم حزين

ولكن ميًّا قد ماتت كما ماتت سميّتها الأموية من قبل ، وكما تموت « ميَّات » بعد ، فأن البقاء لله ، ولأجسامنا الفانية العفاء والدثور .... ،

ولكن ذكرى مي ستظل خالدة ومصاحبة الأموات بالذكرى — ولو ان بيننا وبينهم جنادل وصفائح — هو نوع جميل من الصحبة الدائمة والعشرة الباقية وصفهُ الدكتور طه حسين نفسهُ بقوله : [وما أعرف شيئاً أوفى في العشرة ، وأحرص في المصاحبة من الموتى اذا كانوا أعزاء على نفوسنا ، وكانوا ينزلون في قلوبنا] . وفيما يلي حديث عزته : —

ظهرت مي في حياتها الادبية مظهرين مختلفين أشد الاختلاف وأثرت بهذين المظهرين نفسهما في الحياة الادبية العربية تأثيراً عميقاً جدّاً ظهرت بعض صوره اثناء حياة ميّ وستظهر بعض صوره الاخرى بعد وفاتها بزمن قصير أو طويل . فأما اول هذين المظهرين فهو مظهر الأديبة البرزة التي لا تحتجب ولا تستخفي ولا تلقى الرجال عند المناسبات وحين تقتضي الظروف لقاءهم، وانما تنظم الاجتماعات الادبية التي يشترك فيها الرجال والنساء اشتراكاً حرّاً سمحاً فيهِ كثير جدّاً من الرقي والامتياز. تنظم هذه الاجتماعات في بيتها وتشترك في كل اجتماع يشبهها اذا كان خارج بيتها . وليس من شك في ان الصالون الذي تستقبل المرأة فيهِ رجالاً يتحدثون فيما يتصل بالحياة العقلية من قريب او بعيد لم يكن جديداً في حياتنا العربية بل لم يكن جديداً في حياتنا المعاصرة . فقد عرف هذا القرن الذي نحن فيهِ صالوناً من هذه الصالونات على الاقل، كان بعيد الاثر جدّاً في حياتنا السياسية والاجتماعية . وهو صالون الاميرة نازلي رحمها الله . فقد كانت تستقبل في دارها بعابدين كبار المصريين والاوربيين . وكانت الاحاديث في هذا الصالون تتصل غالباً بالمسائل السياسية ومسائل الاصلاح الاجتماعي والديني التي كان الناس يشغلون بها في ذلك الوقت . وكان سعد وقاسم ومحمد عبده وحسن عبد الرازق وحسن عاصم يشهدون هذه الاجتماعات ويختلفون فيها ويشاركون فيما كان يدور فيها من الاحاديث . وكانت آثار ذلك تظهر في الحياة العاملة لهؤلاءِ الناس . ولكن صالون الاميرة نازلي كان ارستوقراطيًّا ان صحّ ان الارستقراطية توجد في مصر، وهو على كل حال كان ضيقاً مغلقاً لا يصل اليهِ الاّ الذين ارتفعت بهم حياتهم الاجتماعية الى مقام ممتاز . ولم تكن الحياة الأدبية الخالصة تشغل الذين كانوا يختلفون الى هذا النادي

فأما صالون ميّ فقد كان ديمقراطيًّا او قل انهُ كان مفتوحاً لا يُـرَدُّ عنهُ الذين لم يبلغوا المقام الممتاز في الحياة المصرية وربما كانوا يدعون اليهِ وربما كانوا يستدرجون اليهِ استدراجاً فيلقون الناس ويتعرّفون الى اصحاب المنزلة الممتازة ويكون لهذا اثره في تثقيفهم وتنمية عقولهم وترقيق أذواقهم. وأنا اذكر أني انما اتصلت بصالون مي على هذا النحو بعد ان نوقشت رسالتي في ابي العلاء وشهدت ميّ هذه المناقشة وشهدت فيما يظهر بعض الحفلات التي أقامها لي الزملاء حينئذٍ وطلبت الى استاذها واستاذي لطفي السيد ان يظهرني في صالونها . وكذلك عرفتها في هذا الصالون وترددت عليها في أيام الثلاثاء الى أن سافرت الى اوربا . وقد رجعت الى مصر بعد سنة فأقمت فيها اشهراً ولاقيت فيها ميًّا في ايام الثلاثاء كما كنت ألقاها قبل السفر. وكان الذين يختلفون الى هذا الصالون متفاوتين تفاوتاً شديداً فكان منهم المصريون على تفاوت طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية وعلى تفاوت أسنانهم أيضاً. وكان منهم السوريون وكان

منهم الأوربيون على اختلاف شعوبهم وكان منهم الرجال والنساء،وكانوا يتحدثون في كل شيء ويتحدثون بلغات مختلفة وبالعربية والفرنسية والانكليزية خاصة . وربما استمعوا لقصيدة تنشد او مقالة تقرأ او قطعة موسيقية تعزف او أغنية تنفذ الى القلوب . وقد أتيح لي ان أكون من خاصة ميّ بفضل الاستاذ لطفي السيد فكنت أتأخر في الصالون حتى ينصرف الزائرون وما أكثر الليالي التي انصرف فيها الزائرون جميعاً ولم يبق منهم الاّ الاستاذ لطفي السيد ومحمد حسن نائل المرصفي رحمه الله وأنا . وفي ذلك الوقت كانت ميّ تفرغ لنا وتفرغ لنا حرة سمحة ، فنسمع من حديثها ومن انشائها ومن عزفها ومن غنائها . ويظهر أني لن أنسى صوت ميّ حين تغنينا أغنية لبنانية مشهورة « ياحنينة » وتغنينا في اللغات المختلفة وفي اللهجات العربية المختلفة ايضاً

***

وقد اتصلت حياة ميّ على هذا النحو مؤثرة بهذه الاجتماعات المنظمة في البيئات المختلفة للادباء والمتأدبين والمفكرين ورجال الأعمال ايضاً . اتصلت هذه الحياة اعواماً غير قليلة وظهرت آثارها في كثير من انتاج هؤلاء الناس . وما اشك في ان صالون ميّ قد اتخذ مثالاً لصالونات اخرى فتحت ابوابها فيما بعد . فميّ قد أحيت بهذا الصالون سنة عربية قديمة كما نقلت الى مصر سنة اوربية قديمة وحديثة فهذا هو المظهر الاول لحياة مي

***

أما المظهر الثاني الذي اشرت اليه فهو مظهر ميّ التي آثرت الوحدة وألحت على نفسها في العزلة وقد مضت في طريقها الى العزلة مضيًّا رفيقاً او قل انها تدرجت في هذه الطريق تدرجاً بطيئاً اول الامر ولكنهُ سريع ملح آخر الأمر . أخذ ميلها الى العزلة يظهر بعد ان فقدت ابويها ، وبعد ان غمر الحزن نفسها المشرقة،ولكنها لم تقطع صلتها بالناس فجأة وانما قللت لقاءهم وتجنبت ما يدعو الى هذا اللقاء وأخذت لا تلقى الناس الاّ بميعاد يطلبونه وتستشار المذكرات لتحديده . وأخذت المذكرات تبخل بهذا التحديد شيئاً فشيئاً حتى اصبح لقاء ميّ مقتصراً على اصدقائها الأدنين ، وكنت بين الذين شرّفتهم مي بهذه الصداقة فكنت القاها بين حين وحين فنستخلص لأنفسنا من الدهر واحداثه ساعة او ساعات نتحدث فيها ادباً وفلسفة جادّين حيناً ومازحين حيناً آخر . وكان سكرتيري ثالثنا في هذه الاجتماعات . وكان لنا رابع يحضرنا دائماً ولكنهُ لم يكن يفهم عنا . ولعلنا نحن كنا نفهم عنهُ كثيراً وهو ذلك الابريق الذي كان ممتلئاً دائماً من شراب الورد . والذي كنا نستسقيه غير مرة في هذه المجالس العذبة المرة . فقد كانت هذه المجالس مرة في كثير من الاوقات . ذلك ان ميًّا كانت في طور

الحزن اللاذع والالم الممض والتشاؤم الذي كان يسرع اليها كما كانت تسرع اليه وطالما دافعت عنها هذا التشاؤم وطالما حاولت ان أرد عنها هذا الحزن المهلك ولكن لم أكن أدنو الى النجاح الاَّ ليردني الاخفاق عما كنت أريد ردًّا عنيفاً . وكنت اريد ان استنقذ ميًّا من تشاؤم ابي العلاء كما كنت اريد ان استنقذها من الاسراف في التأثر برجال الدين . ولكن ابا العلاء ورجال الدين كانوا أقوى مني ومن غيري ايضاً . وربما كان أظهر شيء لزم حياة مي في هذا الطور من أطوارها حبها لحياة القدماء وآثارهم والحاحها في قراءة التاريخ وحرصها على زيارة الآثار والوقوف امامها صامتة مرة ومتحدثة اليها أو متحدثة عنها مرة أخرى . وقد ألححت عليها غير مرة في الخروج من دارها للرياضة فكانت تمتنع وتأبى، ولكنها قالت لي ذات يوم إن كنت تريد أن أخرج فاصحبني الى الهرم فاني أحب أن أشهد هذه الآثار وان أقف موقف عبرة واتعاظ امام ابي الهول . وقد صحبتها الى هذه الآثار غير مرة وكانت احاديثها عن الروح المصري القديم من أروع الاحاديث وأعمقها تأثيراً في النفوس . ثم تتخفف ميّ من علاقتها الاجتماعية شيئاً فشيئاً ويصعب علينا حتى اقناعها بشهود الاجتماعات التي كان يعقدها نادي القلم . ويحتمل الاستاذ خليل ثابت مشقة عظيمة في اقناعها بحضورها بعض هذه الاجتماعات . وتسافر ميّ وتعود وقد قطعت صلاتها بأكثر الناس وكنت منهم . واذا هي تؤثر ان تلقاني في كتبي وفيما انشر من الفصول . ثم يأتينا نعي ميّ ذات صباح

هذه العزلة التي آثرتها ميّ في آخر حياتها لم يقتصر أثرها على ميّ وحدها وقد ذاقت مي مرارتها وبلت آلامها، ولكن الناس كانوا يعرفون هذه العزلة وكانوا يعرفون ما كانت مي تحتمل فيها من الألم وكانوا يألمون لها ويضيقون بها ولكنهم كانوا يفكرون فيها ويلتمسون لها ألوان العلل في حياة ميّ العقلية وفي المثل الأدبية التي كانت تنظر فيها ميّ كثيراً

وقد يكون من الغريب أن نلاحظ أن ميًّا بهذين المظهرين المتناقضين من مظاهر حياتها قد أحيت سُنَّة « خرقاء » وهي التي قال فيها الشاعر القديم

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثام

فلم تكن زيارة القاهرة تتم دون لقاء مي ، كما أحيت سنة ابي العلاء بعزلتها تلك . ومن المحقق ايضاً ان الادب العربي القديم قد انتفع بسنة خرقاء كما انتفع بسنة ابي العلاء . ومن المحقق ايضاً ان الادب العربي الحديث قد انتفع وسينتفع بهذين الطورين من اطوار حياة مي . رحمها الله

حضرة الاستاذ

عباس محمود العقاد

عضو مجلس النواب ، ومجمع فؤاد الأول للغة العربية

للاستاذ العقاد مقام معلوم في عالم الأدب ، وتمتاز كتبه وكتاباته بعمق التفكير ، وغزارة الاطلاع ، وهو على كثرة انتاجه في التأليف ما يزال يتحف الصحف الأدبية بمقالات تعجب الذين يتابعونها ، جمعت الى قوة الأسلوب وشدة أسره ، الوضوح والنصاعة في التعبير عن الفكرة وتصويرها

وكان الاستاذ كثير الصلات بمي ، عرفها من قرب ، وأعجب بذكائها وألمعيتها ، وعنده عنها معين من الذكريات لا ينضب ، وفيض لا يغيض . فحديثه عنها حديث المنبيء الخبير . وما احتاج في خلال الاسئلة الى أن يكد ذهنهُ في استحضار ماضٍ بعيد ، او الاستشهاد بحادثة معينة . وقد خُيل اليَّ وأنا أصغي اليهِ انهُ استعرض ماضي ميّ لحظة فلحظة ، وأن صور الأيام كانت تمر بخاطره سريعة متعاقبة

ويحتفظ العقاد بكل ما كتبت « مي » من مؤلفات ولقد ردت اليهِ — حين ألحت عليها العلة ، واصطلحت عليها الهموم — جميعَ رسائله اليها ، كما ردت الى غيره ممن راسلوها رسائلهم . ولقد أطلعني الاستاذ على جملة هذه الرسائل ولم يطلعني على تفصيلها . أما رسائلها اليهِ فقد ردها اليها وهي محفوظة مع ما وجد عندها من مخلفات وآثار . ولعله موفٍ بما وعد من الكتابة عن « مي » فهو أولى الناس بالكتابة عنها ، وأجدرهم بالتحدث عن أدبها وفنها،وعبقريتها ونبوغها ، وأقدرهم على تصويرها في نديها وهي تدير الأحاديث،وتوجه الكلام

يؤمن بعض المشتغلين بالآثار ،المنقبين في الصخور الصم ، وفي الرمال الصفر ، الكاشفين عن الكنوز المكنونة والجثث المدفونة، بان للموتى لعنات قد تنصب على الكاشفين وسخطات قد توجه الى النباشين الحفارين فتصيبهم منها المكاره او تدركهم بسببها المعاطب

وأنا أومن بان للموتى — الى ذلك — رحماتٍ تمس النار اللافحة فتبرد وتلمس الصخور القاسية فتلين ...وان لهم نفحات من عالم الغيب ، ومن وراء الحجب ،تخترق الاستار وتمزق الغشاوات فتصل الى أرضنا تنشر فيها المحبة ، وتشيع فيها الرحمة ، وتصل الوداد المقطوع والحبل المصروم ، وتؤلف بين القلوب وتجمع بين البعيد والقريب ...

وكذلك كانت « مي » . . . أحسن الله اليها . فقد أتاحت لي ان أرى « العقَّاد » بعد

غياب سنوات . . . وان استأنس الى « العقّاد » بعد وحشة سنوات . انها « كرامة » من « مي » . وفضل من رئيس تحرير المقتطف . ونبل من « العقّاد »

ولقد عرّفتني « مي » الى العقاد من جديد ووصلتني روحها به عوداً على بدء ، فاذا بي في داره في « هليوبوليس » كما كنت بالأمس البعيد في مكتبه « بالبلاغ الاسبوعي » واذا بي أستمع الى صوت «العقاد» الذي طال عليّ العهد به

واذا بالعقّاد يجيب عن كل سؤال من أسئلة وضعتها له عن « مي » واذا بي ألمح من ثنايا كلامه ومن خلال حديثه ألم الحسرة ، وحُرَق اللوعة لفقد « مي » . فهو يتحسر على مي في نديها ، وعلى الحلو من حديثها ، والشجيّ من لحنها . ويتذكر « ميّا » في التماع ذكائها ، ونافذ رأيها ، واستواء حجتها ، واعتدال فكرها . ويعجب أين ذهبت هذه البشاشات ، وولت هذه القسمات وانطفأ ذلك الشعاع وجفت هذه الورقات وطويت هذه الصفحات ؟

لا تعجب أيها الاستاذ ! فتلك من روى الاخبار وعرف الأسرار ، وقد أجبتَ أنتَ نفسك عن هذا السؤال حين قلت في شطر حافلٍ بالحكمة والحسرة من قصيدتك في رثاء «مي»

« كل هذا في التراب آه من هذا التراب »

***

١ — سألته : (ما أحب كتب ميّ الى نفس الاستاذ : فأجاب بما يأتي) :

(باحثة البادية) يمثل اكبر جانب من تفكيرها وطبيعتها وأسلوبها . واعتقد أن الآنسة ميّ كاتبة معتدلة بعيدة عن التطوح في الأثيريات والخياليات . فهي أقرب الى المحسوس الداني منها الى الخيال البعيد ولذلك كانت في حياتها كلها أقرب الى المحافظة وأدنى الى التمسك بالتقاليد . فالفرق بعيد بينها وبين كاتب مثل جبران خليل جبران فهو يمثل الخياليات ويسبح في الأثيريات . وليس في كتابتها جنوح الى الغموض او ميل الى اصطناع الأسرار على النحو الذي يشاهد في كتابات بعض أدباء المهجر وخاصة جبران

ومما يلاحظ انها كانت تعجب بجبران . وكانت تناقشني في نقدي اياه ، فكنت أقول لها ان اعجابك هذا انما هو اعجاب المناقضة لا اعجاب المماثلة . وأعني بذلك أن الانسان اما أن يعجب بصفة فيه موجودة في غيره على شكل أعظم وأوسع . وإما أن يعجب بصفة ليست فيه ولكنه يرجو أن يتصف بها ، أو يكمل صفاته باضافتها اليها . فميّ في وضوحها واستقامة تفكيرها وبعدها عما سميناه بالأثيريات والخياليات هي في الواقع نقيض جبران — وان كنت لا أعني قدحاً في هذا الكاتب الذي له ولا شك منزلته في الأدب ومزاياه في الكتابة

٢ — فسألته : (في الطبعة الاولى من ابتسامات ودموع تصرفت مى في ترجمة الكتاب عن فردريك مكس مولر الالماني وفي الطبعة الثانية تقيدت بالاصل معنىً وتعبيراً كما تقول هى نفسها في المقدمة . فهل كان لهذا العدول رأي خارج عنها ؟ أم فعلته مختارة ؟ وما رأيكم في تصرف الكاتب فيما يترجمه ؟)

فكان جوابهُ : لا اذكر أن هناك نقداً وجه الى الترجمة الاولى . أو لعلي قرأت نقداً وغاب عني . انما أعلم انها رحمها الله ، كانت شديدة التبرم بالنقد وكانت تتقيه كثيراً ولو تبين لها أنهُ صادر عن نية حسنة . فاذا حدث أنها تعرضت لنقد في سبيل التصرف في الترجمة فاني أعتقد أن هذا لما أعلمهُ من مزاجها ، وحذرُها كافٍ للعدول عن هذا التصرف أو لاستدراكه اذا أتيح لها أن تستدركه

أما رأيي في تصرف المترجم بالترجمة فهو أنهُ جائز على شريطة أن المؤلف يقبل هذا التصرف لو عرض عليهِ . وليس غرضي بالطبع أن يتمَّ العرض فعلاً ، ولكني أريد أن خير تصرف هو الذي يرضاه المؤلفون ويعتقدون انهُ لا يخرج بالمعنى عما أرادوا

٣ — فسألتهِ : (اذا كانت الطبيعة الجميلة قد استهوت ميًّا كما تحدثت هى كثيراً عن ذلك في بعض كتبها ، فهل تعرفون لها قبل اضطرابها الاخير حادثاً خرجت فيه عن العالم المدني الصاخب الى العزلة الوحيدة الدائمة في أحضان الطبيعة كما فعل (ثورو) و(لويل) في أميركا . وكما فعل (وردسورث) في منطقة البحيرات بانكلترا ؟)

فأجاب : كل ما أعلمه انها كانت تتحاشى ان تخرج الى الطبيعة منفردة لما عسى ان تتعرض لهُ بسبب ذلك من اجتراء بعض العابثين ، وان كانت تغتنم كل فرصة آمنة للرياضة في ضواحي القاهرة وبعض المنازل القريبة منها . كان حبها للطبيعة يتجلى في هيامها بمناظر الغروب أو مناظر السحب وهي مشرفة عليها من حجراتها في بيتها ، حتى كانت تؤثر ان تجلس في هذه الشرفات أيام الشتاء اذا لم يمنعها المطر الغزير من الجلوس فيها

وكانت تتمنى ان تزور مصر وصعيدها الأعلى خاصة لتستمتع بما تتخيله من روعة المناظر الطبيعية فيها ، وكثيراً ما سألتني أن أصف لها تلك المناظر ، وان أريها اياها في رحلة

شتوية كانت — رحمها الله — تفكر فيها كثيراً ولا تظفر من الوقت بما يمهد لها أسبابها ، على ان حبها للطبيعة كان محدوداً بما فطرت عليه من الاحجام والاحتراس ، ولولا ذلك ما انقطعت عن غشيانها كما يغشاها كل محب مشغوف بها

٤ — فسألته : (على ذكر الدفاع عن الدعقراطية الآن والمحنة التي تمتحن بها أممها نسألكم رأيكم في الفصل الذي كتبته ميّ في كتابها المساواة)

فأجاب : أذكر اننا تناقشنا في الديمقراطية مرات ولم نكن على وفاق في كل مرة . وان كان خلافنا على هذه المسألة أقرب الى الفكاهة منه الى الجد والتباين الصحيح في الآراء . فمن ذلك — وكنت أرشح نفسي للانتخاب — أنها أشارت الى حق المرأة في الانتخاب للمجالس النيابية . فقلت لها : انني لو ملكت الامر ما سمحت للمرأة بهذا الحق . قالت ولِمَ ؟ فأجبتها لاعتقادي ان المرأة بفطرتها غير ديمقراطية فأنكرت ذلك اشد الانكار ، وعدت اسألها تُرى لو أعطيت أنت حق الانتخاب —وأنت ميّ التي لا يشبهها كثيرات من النساء— ثم ذهبت الى الصندوق وذهب اليه مرشحان أحدهما يسير على قدميه والآخر يركب سيارة فخمة من أنفس طراز فهل تظنين انك تفضلين المرشح السائر على قدميه ، أو تفضلين المرشح صاحب السيارة الفخمة ؟ قالت : —لعلي أفضل الأول اذا كان مستحقًّا للتفضيل . قلت:— بل لعلك تفضلين الآخر على كل حال . . . ! فتظاهرت بالغضب . والتفتُّ الى السيدة والدتها وكانت تسمع حديثنا . أسألها : ما رأيك يا سيدتي فيمن تؤثره كريمتك بالتفضيل ؟ وأنت أعلم بها مني ؟

فضحكت وقالت : الحق ان كل امرأة تفضل راكب السيارة على السائر الى صندوق الانتخاب بقدميه . وهنا عادت الآنسة ميّ تقول : — ولِمَ تظنون ان المرأة مخطئة حقًّا في هذا التفضيل ؟ ألا يمكن أن يرجع هذا الى بداهة فيها توحي اليها ان تختار من تستقرُّ على يديه الامور ويبتعد بالامم عن القلاقل والازمات ؟

وانتهى الحديث بيني وبينها بقولي : ان حكم السراة والنبلاء كان هو في أكثر العصور مثار القلاقل والثورات . وما قامت ثورة قط الا على أثر حكم يطغى فيه هؤلاء النبلاء

وفي مرة أخرى كان قيصر روسيا مقبوضاً عليه في انتظار المحاكمة او النفي الى مكان بعيد. وكانت ميّ تشايع القيصر وترثي له وتنعي على خصومه أن خلعوه واعتقلوه . فكنت أقول لها : انني لا أود الألم والشقاء لانسان ، ولاسيما اذا كان هذا الانسان بين أهله وأسرته . ولكني كلما ذكرت القيصر منفيًّا لم يسعني ان أنسى رجلاً عظيماً مثل « دستويفسكي » وهو

منفي في سجون سيبريا . ولم يسعني ان أنسى ألوف العمال الذين قتلوا أمام قصر الشتاء بأيدي حراس القياصرة . فان مصائب الكبار لا تنسينا مصائب الصغار . وربما كان الكبير مسؤولاً عن مصيبته ، ولم يكن الصغير مسؤولاً لا عن مصابه ولا عن مصاب الآخرين . وختمتْ حديثي معها — رحمها الله — بسؤال لم أجب عليه وهو : هل تظن ان خصوم القيصر سيرحمون العمال أو يعاملونهم خيراً من معاملة حراس القيصر ؟ فقلت : علم ذلك عند المستقبل . وعلى هذا النمط كانت تجري مناقشاتنا في موضوع الديمقراطية بحيث لا تتجاوز هذه المناوشات الفكاهية الى التعمق في البحث والمبالغة في الاستقصاء

٥ — فسألته : (كان لي بعض المؤاخذين على افرنجية أسلوبها وتساهلها في اختيار اللفظ العربي الصحيح . فما رأيكم في هذا ؟)

فأجاب هذا الجواب الموجز : لا أظن أنها وقعت في خطإ لغوي كانت تستطيع اجتنابه

٦ — فسألته : (أشرتم في مقال لكم في إحدى المجلات إلى براعة مي في ادارة الحديث فهل نستطيع ان نسمع منكم المزيد في هذا الموضوع ؟)

فكان جوابه : لا يحضرني مثل لذلك أدلّ على البراعة من ادارتها الحديث في مجلس حضره نحو ثلاثين كاتباً وأديباً ووزيراً للتشاور في الاحتفال بالعيد الخمسيني المقتطف ، وكان اجتماع هذا المجلس عندها في إبان المنازعات السياسية التي وصلت بكثير من الكتّاب والأدباء الى حد التقاطع والعداء . وكان منهم من حضر هذا المجلس وهم متشيعون الى شتى الأحزاب منتمون الى مختلف الهيئات. فقضينا عندها ساعتين نسينا فيهما ان في البلد أحزاباً او منازعات سياسية بفضل براعتها في التوفيق بين الآراء والأمزجة ، وقدرتها على توجيه الحديث الى أبعد الموضوعات عن الخلاف والملاحاة . وما أحسب ان أحداً غير ميّ قد استطاع هذا الذي استطاعته في تلك الايام ، حتى أذكر أني قلت لها وأنا أودّعها تلك الليلة : لقد كنت يا آنسة في هذا المساء تحملين معزف (أرفوس)

٧ — فسألته : (ذكرت مي في مقال لها بالمقتطف عدد مارس سنة ١٩٢٧ عن بتهوفن ان همومه الكثيرة واليأس الذي حاق بنفسه قد ساعدت على ضعضعة ايمانه . وقد كانت مي كئيبة طول حياتها يائسة كسيرة القلب في أواخر أيامها ، فما أثر ذلك كله في ايمانها ؟ وهل زعزعت الحوادث ايمانها ؟)

فكان جوابه: على نقيض ذلك. كانت ميّ في أيام مرضها أشد ايماناً بدينها ولهجاً بموضوعات الدين من سائر أيامها . ومن شواهد ذلك أنها بعد عودتها من رحلة ايطاليا المشئومة قصت عليّ حديثاً جرى بينها وبين جماعة من الفاشيين كانوا يفخرون بانهم ورثة الدولة الرومانية القديمة فكان أكبر ما نعته على تلك الدولة امامهم أنها هي التي اضطهدت السيد المسيح . ولا شك أن القدح في دولة كبيرة كالدولة الرومانية القديمة لمثل هذا السبب لا يدل على ضعف في النزعة الدينية ، بل يدل على اشتغال الذهن بها اكبر اشتغال . ولا أذكر مناقشة جرت في مجلسها بين ملحد ومؤمن الا كانت هي في جانب الايمان بتفكيرها وشعورها على السواء

٨ — فسألته : (هل اطلعتم على شيء من كتبها المكتوبة بغير اللسان العربي ؟ وهل تعرفون ترجمة لكتابها «زهرات حلم Fleurs de Rêve» المكتوب بالفرنسية ؟)

فأجاب: لم يترجم كتاب زهرات حلم الى العربية. ولا أذكر اني قرأت لها شيئاً بغير اللسان العربي

٩ — فسألته : (ما الذي تعرفون عن احتراس ميٍّ في حياتها الاجتماعية ؟)

فأجاب : يخيل اليَّ أن احتراسها المفرط لازمها من بدء شبابها ثم زادته الحوادث رسوخاً وتشعباً حتى كانت في بعض الأوقات لا تطمئن الى احد ولو كان من أقرب المقربين اليها. وكثيراً ما دعيت الى حفلات بيتية عند صديقاتها من كبريات الأسر فكانت في اكثر الأحيان تجيب بالاعتذار ، لأنها كانت تكره الحفلات الراقصة على الخصوص مع اجادتها الرقص ودفاعها عنه فيما كتبته من الرسائل عن باحثة البادية . ويخيل اليَّ أنها كانت مطبوعة على التمسك ومصابرة الآلام فضلاً عما لقيته أحياناً من شدائد نفسية تملي لها في شعور العزلة والشك والاحتراس. وما أظنها كانت تنطلق في حريتها لو سلمت من تلك الشدائد، لأنها فيما أرى قد فطرت على الاحتجاز والتضحية . وربما ورثت شيئاً من هذا عن والدتها التي كانت شديدة التمسك بدينها . وكانت لا تطيق أحياناً أن يذكر أمامها أسماء أعلام الفكر ودعاة الحرية الدينية. وقد كانت تسخط مثلاً على رينان كلما ذكرناه بله الثائرين من أمثال «ڤولتير» و« كارل ماركس» وأحرار الفكر المحدثين

١٠ — فسألته عن مذكراتها ورسائلها

فأجاب بما يلي : كانت لها مذكرات وتعليقات أدبية لم تطبع ، وبعض قصائد ترجمتها من اللغات الاجنبية والقديمة خاصة . ولديها رسائل أدبية لكثير من أعلام الأدب العربي . ولكنها ردت هذه الرسائل الى أصحابها قبل اعتكافها واشتداد المرض عليها

ولهذه الرسائل شأن عظيم ، لأنها لو جمعت وطبعت لكانت تحفة أدبية رائعة

حضرة السيدة الفاضلة

مدام ايمي خير

١— سألتها : (ما كان اثر الفجيعة في مى في نفسك ، وكيف تلقيت نعيها ، وهل كانت على علم بما حدث لها قبل وفاتها بأيام ؟)

فأجابت : كان لمصاب ميّ أثر بالغ في نفسي ، وحزن عميق في قلبي ، وكان بودي لو قدّر لميٍّ أن تموت موتة غير هذه الموتة ، وفي ظروف غير هذه الظروف

ان وفاتها صدمة قاسية ، ولا شك أن مثل مي في مقامها الأدبي ومقامها الاجتماعي ومكانها في التأليف والكتابة ليعتبر موتها على هذه الصورة فجيعة قاسية . وهنا تنهدت السيدة الفاضلة ثم تابعت الحديث قائلة : شعرت بألم المصاب لمي ، وأحسست بهِ احساساً عميقاً وبودي لو استطاع كل انسان في مصر أن يمهد لها في أواخر أيامها حياة أهنأ من حياتها التي كانت تحياها

تسألني كيف تلقيت النبأ ؟ نعم لقد قرأتهُ في الاهرام في الصباح المبكر . وكان نعياً مفاجئاً ، وخبراً مباغتاً . وبلغ من ذهولي له وتأثري بهِ أن تحدثت في المسرة (التلفون) مع خليل بك مطران لعلَّ عنده من وفاتها نبأ ، وسألتهُ كيف ماتت « ميّ » هذه الموتة المفاجئة بعد أن قدَّرنا لها الراحة والهدوء في بيتها الصغير الهادىء

ولقد كنا جميعاً — نحن أصدقاءها والمتصلين بها — نعلم أنها كانت في بيتها الجديد الصغير لا تحب لقاء أحد . وهي حالة غريبة من حالات النفس طرأت عليها . فلم نشأ — لذلك السبب — أن نثقل عليها بالزيارة أو نزعجها بطلب المقابلة . مؤثرين أن نتركها في هذه العزلة التي اختارتها بيدها الى أن يأذن الله في شفائها مؤملين ومعللين نفوسنا بالآمال القوية أن ميًّا ستعود سيرتها الاولى ، واننا سنعود الى لقائها .... ولكن الآمال خابت والرجاء ضاع حينما فوجئنا بوفاتها واختطاف الموت لها من بيننا . وما اتصل بعلمي شيء مما جرى لها قبل وفاتها بأيام ولا وقع في خاطري شيء منهُ ، لأننا تركناها لعناية الله وحماية الأقدار

٢ — فسألتها : (ما هى النواحى التي كانت تعجبك من مى ؟)

فأجابت : لقد كنت أود ميًّا والشاعر يقول حسنٌ في كل عينٍ من تود . وما من ناحية الا كانت موضع اعجابي من ميّ

أعجبني منها ذكاؤها المتوقد ، وذهنها المتيقظ . وكانت كل حاسة من حواسها أو جارحة من جوارحها تنمُّ على ذلك الذكاء . فعيناها اللامعتان وتعبيرها الحار ، ولطف اشارتها وحسن حديثها ، كل اولئك نمَّ على ذكائها كما ينم ريح المسك على المسك

تستطيع أن تؤثر فيك بكلامها ، وتنقلك الى صفها ولو كنت من الملحفين في الخصومة الممعنين في المجادلة والمعارضة

وكان فيها الى جانب علمها وفنها جوانب كثيرة وحواشٍ رقيقة من اللطف والدعة ، واللين والرقة . فكانت تحترم أمها وأباها ، وتقف أمامهما كما يقف الطفل في حضرة والديه فما قصرت لهما في حق ، ولا ضيَّعت لهما واجباً . وكان للأسرة عندها محل كبير من الاعتبار وموضع من التقدير ، فظلت محافظة على المبادىء الأسرية والتقاليد العائلية من غير ان يطوّح بها التفرنج الى الخروج عما رسمته لنفسها من مبدإ ، وما وضعتهُ من خطة

وكانت ميّ متواضعة ، وأعظم ما أعجبني منها هو ظهور تلك الصفة فيها على الرغم من علمها وأدبها ، فما غرها العلم ، ولا زهاها الأدب ، ولا نفخ في أوداجها كونها كانت قبلة الوزراء والعلماء والأدباء . فكانت ميّ هذه — ميّ العالمة المتمكنة ، وميّ الاجتماعية المفكرة — تتحدث مع الجاهل فتنزل الى مستواه ، من غير ان تشعره بجهله . وبالجملة كان لميّ أدب الرجولة القوية ولطف الأنوثة الوديعة

أنا معجبة بها ، أنا معجبة بها (وكررتها السيدة الفاضلة كثيراً)

٣ — فسألتها : (كيف كانت صداقة مي لبنات جنسها ؟ وهل كان للمرأة مكان في نديها كما كان للرجال ؟) .

فأجابت : كانت ميّ لطيفة مع النساء ، كما كانت مع الرجال ، فهي لطيفة على اختلاف الحالات ، ولم تتوطد بيني وبينها صداقة كما تظن ، ولكنها صلة وثَّقها عندي اعجابي غير المحدود بها . كانت مي محبة لجنسها النسائي ، وأكبر برهان على ذلك كتابتها عن عائشة التيمورية ، وباحثة البادية ، ووردة اليازجي . ألا تحمل كتاباتها عنهنَّ طابع الحب لجنسنا ؟ ألا ترى في ذلك وفاءها لنا ؟ ولعلك تعجب اذا عرفت ان مرات ترددي على نديها لم تتجاوز ثلاثاً أو أربعاً . ولكن أصحابها من الرجال كانوا أصحابي ، فكان حديثهم عنها يؤكد لي ما رأيته في مرات لقائي إيَّاها. والذي أعرفه ان نديها كان محط الرحال لأهل العلم والفضل والحكم من الرجال ، فلم يكن يتردد عليه ويختلف اليه من النساء الاّ قليل — على ما أعلم — وأذكر منهنَّ حرم حضرة صاحب السعادة شكور باشا

٤ — فسألتها : (ما رأيك في كتابتها بالفرنسية ؟ وهل قرأت لها كتاب " زهرات حلم " ؟)

فأجابت : كل ما أعلمه لها بالفرنسية كتابها " زهرات حلم » وهو كتاب عاطفي ، وفيه كثير من الطموح والجدة والشباب ، وقد خلا من التكلف بقدر ما امتلأ من الشعور . ويمكنك ان تقول انه كتاب فتاة صغيرة شابة الآمال ، فتية القلب ، شاعرية الروح

وأول ما كتبت ميّ بالفرنسية ، وتعليل ذلك بسيط ، فقد تعلمت في مدرسة عين طورة بلبنان اللغة الفرنسية قبل العربية . فكان طبيعيًّا ان تكتب بما تعلمت . فلما أتمت دراستها فهمت ان هذا الطريق الذي اختير لها خطأ ، وأنه من الخير لها والبر بوطنها ان تدرس العربية . فتركت الفرنسية مرة واحدة وبدأت تتعلم لغة العرب — لغة الآباء والاجداد .

وفي ذلك الحين قابلت لطفي «باشا» السيد ، وسمعها تتكلم وتدافع عن الحركة النسائية الشرقية دفاع المؤمن بما يقول ، فتقدم سعادته لتدريس اللغة العربية لها . والحق الذي أنا مستوثقة منهُ ان الاستاذ لطفي باشا السيد هو مدرسها في العربية ...

وظلت ميّ تكتب العربية وتمارس مدارستها ، الى ان مات أبوها اولاً — المرحوم الياس زيادة — صاحب المحروسة ، وماتت أمها ثانياً ، فرجعت ميّ الى اللغة الفرنسية تكتب بها وتقرأ فيها . وأظن تعليل ذلك سهلاً يسيراً ، فانها لما مات ابواها تذكرت أيام نشأتها وعهد طفولتها ، فربطت الذكريين بما تعلمت من الفرنسية وحنت الى الكتابة بها . وأذكر لها في ذلك الحين مقالاً طريفاً في هذا اللسان تخاطب به عصفوراً صغيراً

وكانت الفرنسية أحب اللغات الاجنبية التي حذقتها الى نفسها ، فكانت تكتب بها بعض رسائلها أكثر من أية لغة أخرى . أما العربية فلها فيها رسائل تعد ثروة ادبية كبيرة

وعجيب ان تتحول ميّ هذا التحول السريع من الفرنسية الى العربية ، حتى لكأن العناية الالهية اختارتها لاتقان العربية بعد ان قطعت في الفرنسية شوطاً بعيداً ، واجتازت مدًى كبيراً . وليس ذلك في الحق بعجيب على مثل ميّ في حبها للشرق والشرقيات والعروبة

ويخيل اليّ انها كانت في ثوبها الفرنسي متعبة قلقة ، وكأنّ وازعاً نفسيًّا كان يعاتبها على خلع رداء العروبة ، فأجابت الداعي حين دعا وخلعت ذلك الثوب الفرنسي الذي لم يوائم مزاجها ولم يوافق طبعها ولبست ثوب العروبة فازدان بها وازدانت به

ولقد بلغ من حب ميّ لشرقيتها ، وحفاظها على عربيتها انها كانت تقدم لضيوفها — وما كان أكثرهم — شراب الورد أو فنجانة القهوة على طريقة شرقية محببة ، فلم تجار (المستغربين) أي عشاق الغرب في اتجاههم ، ولم تذهب مع العصريين المتفرنجين في سبيلهم

٥ — فسألتها: (هل كانت مي تعالج نظم الشعر بالفرنسية واذا كان ذلك فهل تذكرين لها بعض القصائد؟ وهل عرفت لها رأياً في الشعر العربي قديمه وحديثه؟)

فأجابت: نعم: وعندها مخطوطات لقصائد فرنسية. وكانت تنوي طبعها قبل وفاتها. وأنا واثقة ان هذا الديوان الذي لم يطبع يفوق ديوانها الأول «زهرات حلم» قوة وشاعرية لأنهُ نتيجة نضجها، وثمار تجاربها واختباراتها بينما الأول كان أول عمل لها في شبابها حيث الفكر محدود والتجارب قاصرة. ولا أعرف لها رأياً خاصاً في الشعر العربي ولم يقع لي من حديث معها أوحديث عنها شيء من رأيها في هذا الموضوع، ويخيَّل اليَّ انها كانت تحب شعر شوقي بك. وأذكر انها خاطبتني مرة بأننا كلنا نسعى في طريق واحدة وإلى غاية متحدة، وهي ان نعمل — من العربية — لغة قواماً بين لغة العلماء ولغة الشعب. وهي بذلك الاتجاه في التفكير تعتبر في طبقة الزعامة من النهضة الحديثة

وتحضرني الآن ذكرى طيبة عن ديوانها «زهرات حلم» فقد اشتريته لأساهم في مساعدة جماعة خيرية. فلم تكن مي تبغي من ورائه مكسباً ماديًّا. أو تريد ربحاً ماليًّا. ولكنها عاطفة الاحسان تمثلت فيها فصرفتها عن شغل المادة وعبادة المال. وهنا تنهدت السيدة الفاضلة ثم قالت (لقدكانت حياة ميّ قصة كاملة، قصة مملوءة بالمآسي والمفاجع، كما كان موتها مفجعاً)

٦ — فسألتها: (كانت مي باعترافها في بعض كتبها كئيبة حزينة. فما أثر تلك الكآبة في نظرتها الى الحياة؟ وهل كانت طيبة الأمل في الجنس البشري أم خائبة الأمل فيه؟ وهل وجدت في غير الكتابة والتأليف عزاء لها عن أحزانها؟؟)

فأجابت: ان سبب حزن «ميّ» هو عزلتها في الحياة ووحدتها وانفرادها. لقد كانت ميّ كقمة الجبل الأشم وهي ضاربة بعيداً بعيداً في عنان السماء. لقد كانت شاعرة بسموها وذكائها، شاعرة بتفردها في عالمها. فعاشت منعزلة في عالم خلقتهُ من ذكائها وصنعتهُ من مواهبها.

ألا ترى الى قمة الجبل الشاهق كيف استغنت بسموها في آفاق السماء فرضيت بوحدتها؟ لقد كانت ميّ كذلك... ولكنها مع ذلك لم تحتقر الآخرين بل كانت ترتاح الى احاديثهم، وتطمئن نفسها الى نفوسهم وتجد لذة في مجالستهم

ولا تنس الناحية العاطفية الجنسية في شقاء ميّ، فلقد كانت فتاة تأمل أمل الفتيات، وتحلم أحلام البنات. ولكن الأقدار باعدت بينها وبين الزوج الذي يسعدها، والبيت الذي يؤنسها — وأعني بيت الزوجيَّة — والاطفال الذين يجعلون للحياة قيمة من حولها

نعم حرمتها الأقدار من ذلك كله. وهو شاق على كل امرأة، عسير على كل فتاة

سألتها مرة عن صحة أبيها وأمها فقالت في لهجة فهمت منها كل شيء وأدركت كل معنى « ليس لهما غيري وليس لي غيرهما..... » . آه .. كلمات قصيرة تحمل معاني كبيرة. كانت حياة ميّ لوالديها ، وكانت نسمات الحياة في ميّ لوالديها ، وكان مجد ميّ لوالديها ... وكان تعبيرها لي في هذه الجملة القليلة الضئيلة الألفاظ نوعاً من الشكوى بحالها . وهي شكوى لم تطل على حسب ما يصنع الشاكون والشاكيات. من المؤكد أنها لم تكن سعيدة في حياتها، ولم تكن هانئة حتى على المجد الذي أحرزته ، والعرش الذي احتلته . ان في الحياة معاني عميقة . وكلما بعد الانسان عن فهم هذه المعاني وادراكها على وجهها الصحيح زادت متاعبه ونغصت أيامه وساعاته

لقد ضحت ميّ بكثير في حياتها وما أعظم ما ضحت به . ضحت بشبابها اللامع الوضيء وذكائها المتوقد الملتهب . وقدمتهما الى الحياة قرباناً خالصاً ...ولعلك تذكر الأسطورة الرومانية القديمة عن الربة ڤستا Vesta والبنات اللائي كنّ معها ضحية الشباب واسمهن في الأسطورة (Vestals) ڤستال . لقد كنّ ضحية الشباب النضير ، فلم يتزوجن ولم يتعلق قلب واحدة منهن بهوى، وقضين حياتهن منشغلات باشعال نار مقدسة سماوية وامدادها بالحطب الجزل حتى لا تنطفىء فان في انطفائها خراباً عاجلاً لمدينة روما ... وكذلك كانت ميّ — لقد كانت كواحدة من هؤلاء الفستال .... كانت تجد في الأدب تسلية وملهاة ، ولم تجد فيه تعزية ، وفرق كبير بين التسلية والتعزية . أي شيء كان يعزي ميّا عن آلامها المشتعلة ؟ وأيّ وسيلة كانت تجد فيها ميّ العزاء عن آلام الزمان والمكان ؟ . (وهنا تمنت لي السيدة الفاضلة ألاّ يحكم عليّ في الحياة بما يدعو الى السلوان والعزاء — فلها مثل ما تمنت)

لقد كانت الكتابة تشغل ميّا عن آلامها وأحزانها ، مسكينة ميّ ! ولو رأيت جنازتها لرأيت البساطة ممثلة فيها، كان هناك أحمد لطفي السيد باشا —وكنت معهُ—وأنطون بك الجميّل وخليل مطران بك وبعض أصدقائها . لقد كنت راكبة مع لطفي السيد باشا في سيارة خلف نعشها . ولما وصلنا الى الديار البعيدة الساحقة . . ديار الأبدية التي لا لقاء بعدها بأجسامنا — تلك الديار التي تفرق منا كل يوم حبيباً ، وتخطف عزيزاً — لما وصلنا الى هنالك دنونا من قبرها ولحدها الأخير ، فوقف عليه لطفي السيد باشا وذرف السخين من العبرات حينما تلقوها من بين أيدينا ليسلموها الى سكون الموت ووحشة القبر ، ويودعوا جسدها التراب

وهناك ... في ديار الفناء ، ومقابر السكوت سكنت ميّ الخطيبة ، وعاشت ميّ الخالدة. فما سمعنا لها صوتاً ولا سمعنا أحداً يتكلم على قبرها ، ولا ارتفع صوت في الكنيسة لتأبينها..

لقد كان السكون مخيماً ، والصمت شاملاً فما استطاع لسان ان يحل عقدته . وزاد في أسى الجنازة وحزنها منظر الشمس الغائبة في ذلك اليوم . لقد كان كل شيء حزيناً ، وكل جو

يُشعر بالأسى والحزن . لقد كانت موتتها قاسية . وكنا نأمل لها خاتمة غير ذلك

٧ — فسألتها : (ماذا قرأت لمي في العربية ، وما أحب كتبها الى نفسك ؟)

فأجابت : يؤسفني أني لم أقرأ لها في العربية كتاباً ، وأرجو ان يتاح لي ذلك ، أما في الفرنسية فقد كانت تعجبني بكل ما تكتبه ، وأنا أشبهها بمدام دي ستايل في اثنتين ذكائها المفرط ، ويقظتها الحادة

٨ — فسألتها : (ما هي ميول مي واتجاهاتها نحو الشرق والفكرة الشرقية)

فأجابت : ميّ هي أول امرأة شرقية رزقها الله علماً واسعاً واحاطة تامة بالعلم الغربي والتربية الغربية ، فقد مكن لها تمكنها من بضع لغات أجنبية ومكنت لها أسفارها وثقافتها الخاصة من هذا العلم الواسع ، ولكنها تركت السير في هذا الطريق بمحض ارادتها وخالص اختيارها . وكان تركها قويًّا شديداً . وآثرت ميّ اختيار طريق الشرق واعتزت بذلك اعتزازاً كثيراً . ما كانت ميّ شرقية فقط بل كانت متحمسة للشرق متعصبة له . ولكن هذا الحب الشديد لشرقها وشرقيتها ما كان ليعمي عينها عن عيوب الشرق . فكانت تعرف مواطن ضعفه ، ومواضع وهنه ، وتأمل ان يقوى ويشتد . وتستطيع ان تقول ان أحلام ميّ وآمالها كانت كلها للنهضة الشرقية .وهذا الذي أقوله لك وأنقله عن ميّ لم أقرأه في كتاب من كتبها ، ولكني عرفته من خلال ملاحظتي لحياتها ومتابعتي لأسلوب معيشتها

وكانت ميّ تجد في مفاخر الشرق القديم وفيما سلف من آثاره مجالاً واسعاً للتعبير عن جلاله ... وكانت سعادتها في ان تبقى دائماً « امرأة شرقية » . وكانت حريصة على هذه النسبة الى الشرق معتزة بها دائماً . وما رأيت في حياتي انساناً — ذكراً كان او أنثى — أحب الشرق كما أحبته ميّ ، ولا تعلق بأسباب هواه كما تعلقت ...

وكان واحداً من همومها وآمالها ان تترجم الكنوز الغربية الى لغتنا العربية لانها كانت ترجو من وراء هذا النقل في الافكار، والاتصال في الآراء، سعادة للشرق في آماله ، وتقدماً له في نهضته . وكان ينشيها الكبرياء بشعورها القومي ، ولكنها تود ان يتقرب الشرق من الغرب ليفيد من ثقافته ويكتسب من حضارته.وكانت معجبة بأن تقول بملء فيها : « أنا شرقية » بكل ما تحتمله هذه العبارة من معانٍ سامية واسعة . وكان مما يزيد هذه الناحية ظهوراً في ميّ أنها كانت محاطة ببعض الذين يميلون الى المظاهر الغربية . فكانت تمقت تلك المظاهر الكاذبة وترثي للذين يجرون وراءها، او يتشبثون بها . وكأنها في كل لحظة من لحظات حياتها وفي كل لون من ألوان عيشها ، وفي كل بقعة من الارض زارتها ، وفي الشرق اذا حلت ، وفي الغرب اذا اغتربت ، كأنها كانت تقول : أنا من الشرق والى الشرق أعود

حضرة صاحب العزة

انطون بك الجميل

رئيس تحرير الاهرام والعضو بمجلس الشيوخ

مَنْ في مصر يجهل مكانة أنطون بك الجميّل الادبية ؟ ومن في البلاد العربية لم يصل الى أذنيه صوت أنطون الجميّل حين يعلو منبراً ، أو يصطنع حديثاً ، أو يكتب مقالاً ؟

وعجيبٌ جداً أن يتناول انطون الجميل الادب فيكون فارس حلبته ، ويدخل معترك الصحافة فيكون ابن بجدتها ، وينزل في ميدان الاقتصاد فيكون خبيراً في الأرباع والأعشار حريصاً على الدرهم والدينار ، ويلج باب السياسة فاذا هو البارع المحنك ، واللبيب المجرّب ، والذكي الألمعي . له ضلعٌ في كل مسألة ، ومشاركة في حل كل معضلة ، فهو طلاّع الثنايا ، وأخو النجدات ، وصاحب الغمرات . تراه في « الاهرام » في الصباح والمساء ، وفي الغدو والآصال ، دائباً لا يمل ، متحركاً لا يسكن ، نشيطاً لا يفتر . يكتب كلمة او يقرأ مقالاً ، او يستعرض كتاباً ، أو يصغي الى متحدث ، أو يتحدث الى مصغٍ ، او يقصد في رجاء ، او يدعى الى حفل ، او يلقي على « محرّر » أمراً ، او يأخذ منهُ خبراً ... وهو في ذلك كله لا يفارقه لطفه ، ولا تزايله بشاشته ، ولا ينبو عنه حلمه

ورقة أنطون الجميل في أحاديثه هي رقته في كتاباته ومقالاته ، فهو يتخير في الحديث اللفظة المعسولة ، والكلمة المقبولة ، كما يتخير في الكلام حين يكتب وحين يخطب . وقد يجتمع في مكتبه — في ساعة واحدة — طوائف شتى مَناحي العيش ، مختلفو نواحي الثقافة ما بين أديب شاعر ، وكاتب ناثر ، وصحافي بارع ، ونائب محترم ، وشيخ جليل ، ووجيه في قومه او مقدم في عشيرته ، وعالم كبير ، وموظفٍ خطير فتراه يستمع اليهم حيناً ، ويسمعهم حيناً آخر ، ويتلطف مع كل جالس ، ويهش لكل قادم . وهو في خلال ذلك يلقي الأمر الى «محرّر» ويتلقى الخبر من « مخبر » ويتحدث الى « السمرّة » تارةً مع « صاحب الرفعة » وأخرى مع « صاحب الدولة » . . . ثم يعود الى وصل ما انقطع من الحديث مع زائريه ، فاذا هو عالمٌ بدقيقه وجليله ، محيطٌ بجملته وتفصيله

كثر ما زرتهُ وهو في شغل ، او طرقت عليه باب مكتبه وهو في عمل ، وقد أنساني سابق لطفه ، ومأنوسُ بشرهِ أنني أشقُّ عليهِ بالهجوم ، او أثقل عليهِ بالدخول ، فاذا هو الرقيق اللطيف ، المتبسم المتهلل ، فأعتذر له ببيت قديم لا أشك في طربه بِهِ وارتياحه له وهو :

فلا تعتذر بالشغل عنا فانما تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

أخذت منهُ موعداً للحديث عن ميّ الى المقتطف ، وتمنيت على الله ان أظفر بهِ وحيداً ، وأستأنس به منفرداً ، وتمنيت على الله اكثر من ذلك ألاَّ يعرض خلال الحديث ما يشغله ، او لا يستحدث من الأمور ما يصرفه . فاذا الأماني هباء ... واذا المنى سدى ... واذا انا بالشاعر الكبير والاستاذ الجليل علي بك الجارم يجلس معه . فسلمت وسلم الجارم تسليم البشاشة . وبدأت السؤال «والجميّل» يجيب ، والجارم «يعلق» . وانا بين الأديبين الكاسب المستفيد والرابح الغانم . وتمَّ الحديث . وأعلن « الجارم » انتهاء الامتحان ! وقد سماه — في نكتته البارعة — امتحاناً . وما هو الاَّ حديث عن « ميّ » وكانت رحمها الله حديثاً حسناً لمن وعى ... ويخرج « الجارم » من جيبه قصيدة طويلة في رثاء المرحوم الشيخ الجليل الاستاذ عبد الوهاب النجار ، ويشرفني بأن ألقيها فاذا فيها هذا البيت في وصف الدنيا : —

اذا أعطت فقد أعطت قليلاً ! ولا يبقى القليل ولا الأقل

والجارم بك هنا يقصد عدم بقاء المادة الجامدة والاجسام الفانية الزائلة ، أما حديث الفضل والحسنات ، والروح والمعنويات فهو باقٍ لا يدول ، خالد لا يزول كما قال الشاعر : —

تدول أحاديث الرجال وتنقضي ويبقى حديث الفضل والحسنات

وكذلك يبقى حديث « ميّ » الفاضلة المحسنة ...

***

١ — سألته : (ماهى أولى ذكرياتكم عن المرحومة ميّ وكيف نشأت الصلة الادبية بينكم وبينها)

فأجاب : عرفتها وكلانا ناشىء في الأدب ، ولم يَعْدُ ذلك معرفة الاسم ، وقراءة بعض الفصول مما كتبته ميّ ووقعت لي قراءته . ثم أهدت اليَّ — وكنت يومئذٍ أصدر مجلة الزهور — أول كتاب أخرجته أو أول ديوان من الشعر نظمته . ولم يكن ذلك الكتاب عربيًّا . ولكنهُ كان أعجميًّا « فرنسيًّا » غير ذي عوج

وأسمتهُ زهرات حلم Fleurs de Rêve . وهو اسم كما ترى فيهِ نضارة الزهر وقد رصّعه الندى بالدر ، وفيهِ سعادة الأحلام وقد صحَّت

ولم توقع ميّ ديوانها هذا بصريح اسمها ، ومشهور لقبها ولكنها وقعته باسم مستعار هو (أيزيس كوبيا) . ولاحظت — رحمها الله — في اختيار ذلك الاسم مطابقتَه في المعنى لاسمها العربي . فايزيس الاهةمصرية قديمة كانت أمًّا لهورس ، وهي تقابل «ماري أو مريم» أم المسيح عليهِ السلام ، وكوبيا كلمة لاتينية معناها الزيادة والكثرة ، وهي تقابل اسم أسرتها

«زيادة» . ومن هذا الأصل اللاتيني جاءت الصفة Copieux بالفرنسية وCopious بالانجليزية

وأتبعت ميّ هديتها الأولى الى (الزهور) بمقال عن الفريد دي موسيه ، فنشرت المقال في المجلة ، وكتبتُ كلمة عن ديوان شعرها جاء فيها : —

«عرف قراء العربية الكاتبة الأديبة «ميّ» مما نشرته من الروايات الجميلة والمقالات الشائقة والابحاث النفسانية الدقيقة في جريدة «المحروسة» . وقد أتحفتنا بمقالة لطيفة عن «الفرد ده موسيه» نشرناها في غير هذا المكان من هذا الجزء

«وامامنا الآن كتاب شعر فرنسي رقيق ، في ذيله بضع صفحات نثرية جميلة تأليف «ايزيس كوبيا» وايزيس وميّ هما شخص واحد ، والقلم الذي حبّر المقالات والروايات العربية ، والريشة التي حاكت برد هذه القصائد الفرنسية ، تحملهما يد واحدة ، ويملي عليهما فكر واحد. والكتاب مجموعة ازهار عطرية نبتت في رياض الاحلام الجميلة، وهي مهداة الى روح «لامرتين» - شاعر القلوب الحزينة ، وهذه الروح المتألمة ترفّ على كل صفحة من صفحاته وتجعل الكاتبة تقول في قصيدة «هل هي شاعرة ؟» ما معناه : البكاء والرأفة والحب والألم هذه هي صفات الشاعر

وقد ظهر من الموضوعات التي طرقتها الكاتبة انها لا تصف الاّ ما ترى ، ولا تعبر الاّ عما تشعر به . فجاءت منظوماتها صورة حقيقية لما يشغل فكرها ويحرك قلبها، ولذلك انت تشاركها عند تلاوة اشعارها في هذه العواطف أيّا كان رأيك في القالب الذي سبكتها فيه. فلا تمالك من ان تصبو معها الى مصر ونيلها وآثارها وسهولها ، ونحن معها الى لبنان وجباله وأوديته . واذا كانت «ايزيس كوبيا» شاعرة في نظمها فقد وجدناها أشعر منها في تلك الصفحات النثرية التي ختمت بها «أزهار احلامها» حيث لم تعد مقيدة بقيود القافية والوزن ، وكثيراً ما تكون الازهار المنثورة أجمل من الازهار المضفورة»

وكان مقالها الأول في «الزهور» باكورة توالى بعدها الثمر الجني ، ووسميًّا من المطر جاء بعده الغيث المنهمر ، فتابعت نشر الفصول التي أذكر منها ، ذكرى بعلبك ، والغنى، ودمعة الروح، وكيف نقيس الزمان الخ ما نشر هنالك. تلك أولى ذكرياتي عن ميّ، وذلك مبدأ الصلة الأدبية بيننا

وكان في منتصف عام ١٩٢٥ أن نشرت (ميّ) دعوة الى الاحتفال بعيد المقتطف الخمسيني بعد أن أثارت هي نفسها المناقشة في جعل هذا التكريم للمقتطف مظاهرة أدبية كبيرة في الشرق باشتراك الأمم الشرقية فيه ، وقد لبى نداءها ، وأجاب داعيها نفر من أهل العلم والفضل أذكر منهم الدكتور محمد حسين هيكل بك (باشا) وصاحب الفضيلة السيد مصطفى عبد الرازق (باشا) وتوفيق رفعت باشا وأحمد لطفي السيد (باشا) ، والمرحوم احمد بك شوقي امير الشعراء والمرحوم السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار، والاساتذة عباس محمود العقاد وابرهيم المازني وسامي الجريديني

وادجار جلاد . واجتمعنا الاجتماع التمهيدي الأول في منزل مي ، وألقت علينا خطبة في وجوب التكريم ووجوب اشتراك الامم الشرقية والاخوان البعيدين في المهجر فيه

وكانت لها في اول اجتماع الكلمة الاولى ، وأذكر من كلماتها قولها (يتهمون المرأة بأنها تحب ان تكون لها الكلمة الأخيرة دواماً ، فدفاعاً عن بنات جنسي قلت أنا الكلمة الاولى ، لثغت اللثغة الاولى ، ولتكن الكلمة الحكمة الحصيفة النهائية لحضراتكم ايها السادة الرجال)

ووافق سعادة احمد لطفي السيد باشا (بك يومئذٍ) على كلمة ميّ ، وتألفت اللجنة من صفوة الرجال وخيرة العلماء والادباء . وشرّفتني بأن عهدت اليَّ في تنظيم الحفل وتنسيق العمل مع الآنسة ميّ ، فقمنا بهذا العمل معاً ، وقدر الله النجاح ليوبيل المقتطف ، وتمّ الاحتفال على صورة كرمنا فيها الاخلاص في العلم ، والثبات والتضامن في الجهاد الادبي . ولا شك في ان نصيب ميّ في تكريم المقتطف مما لا ينسى وأن طال به الزمن . ومنذ ذلك الحين توثقت العلائق بيني وبين ميّ ، واستحكمت الصلة الادبية بيننا ، فقد عرفت فيها — في خلال تنظيم الحفل — نشاطاً نادراً ، وجهداً عجيباً . وما رأيتها — مع ما اقتضاه ذلك التنظيم من عمل وسهر — اشتكت نصباً ، او ملت تعباً ، او وهنت لها قوة ، أو سكنت لها حركة

٢ — فسألته : (هل كانت مى تحتفي بالادباء في ناديها احتفاءها بالوزراء ورجال السلك السياسي ، أم كان لهم عندها مقام ثانوي الشأن ؟)

فأجاب : كان نادي ميّ مثال الاندية الأدبية الراقية ، فكان الصدر فيه للأدباء ، والمحل الأول للعلماء ، أما رجال السلك السياسي واصحاب المناصب الكبيرة فكانوا يغشون نديها ويطرقونهُ على الغالب بصفة كونهم يسايرون الحركة الفكرية والأدبية ، ويهتمون بما جد فيها من جديد ، أو ظهر فيها من تطور . وكانت ميّ في الحفل الحافل من زوارها ، وفي هذا المزيج المختلف من روّاد مجلسها بارعة في توزيع الكلام ، لبقة في توجيه الحديث وفسح المجال أمام كل زائر ليقول كلمته او يدلي برأيه أو يذهب في الجدال مذهبه فلا يشعر أحد في هذه الاجتماعات انهُ غريب على المجلس أو دخيل فيه . ولعل الجميع يذكرون الأبيات التي قالها المرحوم اسماعيل باشا صبري

روحي على دور بعض الحي هائمة ... كظامىء الطير توّاقاً الى الماء
ان لم أمتع بمي ناظريَّ غداً ... أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

٣ — فسألته : (هل شغلت الاحداث السياسية يوماً ما الآنسة ميّ عن الأدب ام شغلها الادب كل أيامها عن السياسة ؟)

فأجاب :— لم تشغل السياسة ميًّا قط عن الأدب ، وكانت تتحاشى الخوض في غمارها أو الدخول في معتركها . ومع ذلك كانت تقرأ معظم الصحف السياسية ، وتتتبع أخبار السياسة وتساير تطوراتها فاذا جرّ الحديث في ناديها الى السياسة وانساق الزائرون في تيارها ، وانتقل الكلام من دولة الآداب الى دولة الأحزاب ، رأيت ميًّا وقد تحولت الى الاصغاء ، واتجهت الى الإنصات وأعرضت عن الكلام جانباً . فاذا ما تناولت الاحداث السياسية في كتاباتها تناولتها من حيث أثرها في الحركة الفكرية والنهضة القومية لأنها كانت كثيرة الاعتزاز بشرقيتها

٤ — فسألته : (ما هي أجمل الصفات التي أعجبتكم من مي كفتاة مثقفة لنعرضها على فتياتنا المثقفات)

فأجاب : جمّل الله ميًّا بصفات كثيرة ووهبتها الطبيعة بسخاء ، ولعلّ ما يجمل بفتياتنا المثقفات ان يأخذنهُ عن مي شغلها بالدرس والتحصيل من غير اهمال واجباتها الأخرى ، والعمل الدائم على استكمال ثقافتها من جميع مناحي النشاط الفكري ، والتمسك بعاداتنا وتقاليدنا وأخلاقنا الشرقية على كثرة ما كانت عليه من مسايرة الحضارة الغربية والاطلاع على مظاهرها

ولعلّ هذا الحفاظ من مي على تقاليد الشرق وتمسكها بعاداته يبدو متناقضاً مع ثقافتها الأجنبية الواسعة ، ولكن ليس بين الاثنين تناقض ، فقد طغت فكرة الشرق على تفكيرها فألزمتها بعادات أهلها وتقاليد قومها . فهي لم تدرس ثقافة الغرب لتنسى قومها ، ولم تطلع على حضارة الغرب لتتخلى عن مقومات قوميتها وخصائص شرقيتها

٥ — فسألته : (للآنسة مي مقال عنوانه « كن سعيداً » ترى فيه السعادة في الشباب والهرم ، وتراها في الغنى والفقر وفي الصحة والمرض . فهل كانت مي سعيدة على العلات واختلاف الحالات؟)

فأجاب : هذا سؤال تصعب الاجابة عنه لأن ميًّا لم تكن لتكشف الستار عن مطويات نفسها ومكنونات قلبها بسهولة . وهل عرفت أنت يا صديقي انساناً كان سعيداً على العلات واختلاف الحالات ؟ وهل يظل الانسان انساناً اذا لم يتألم ويشق ؟ على انهُ قد تكون في الشقاء لذة كما تكون في السعادة . وما قيمة الحياة اذا جرت على نظام واحد ، ونسق رتيب؟

وأين إذن حلاوات الجدة بعد الحرمان ؟ ولذاذات الهدوء بعد ثوران ؟ وقد يكون الانسان سعيداً في هرمه كما يكون في شبابه . ألم يقل المتنبي :—

خلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبا   لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

٦ — فسألته : (هل كانت ثقافة مي آتية من اطلاعها على الأدب الحديث ومتابعتها

الحركة الادبية المعاصرة ؟ أم استكملت عناصر ثقافتها بدراسة الادب العربي القديم ؟)

فأجاب : الثقافة عند أمثال ميّ الذين يقرأون ويطالعون كثيراً متعددة المصادر . على انه يمكن القول اجمالاً إنها كانت أكثر شغفاً بالاطلاع على الأدب الحديث ومسايرة الحركة الفكرية والأدبية المعاصرة عند مختلف الأمم الشرقية والغربية

ولا يعني ذلك أنها اهملت القديم ، فقد طالعت كثيراً في أدب الأغريق والرومان — أدب أثينا وروما . وكانت متتبعة الأدب العربي الحديث وخاصة أدب المهجر

٧ فسألته : (هل كانت ميّ ممن يغرهنَّ الثناء ويعجبهنَّ الاطراء ؟ وهل كانت تزهى بما تكتب أو تعجب بما تنشىء ؟)

فأجاب : — دعني أطرح عليك سؤالاً بدوري : —

هل تعرف أنت يا صديقي احداً لا يستطيب الثناء ، ولا يستلذ الاطراء ، ولا سيما الأديب اذا رأى انه يضرب على وتر قلبه فتهتز له أوتار القلوب ، ويترجم عن عواطفه فتتحرك له عواطف الآخرين .

ان في ذلك أكبر تعزية للكاتب ، وأعظم اجر يتقاضاه عن عنائه الدائم وجهده المتواصل وليله الساهر وصباحه الباكر . واذا كان يتألم فألمه لأنه لم يوفق الى ابراز فكره وشعوره كما يريد . غير ان هذا الرضى وهذه الغبطة يجب ألاّ يبلغا مبلغ الغرور ، ويصلا الى حد الاختيال . ولم تكن ميّ من الغواني اللائي قال عنهنَّ شوقي بك (والغواني يغرهنَّ الثناء)

٨ — فسألته : (ما رأيكم في رسائل مي)

فأجاب : — رسائل ميّ يجب الاحتفاظ بها لأنها نوع جميل من أدب الرسائل في الأدب العربي ففي الأدب الفرنسي رسائل لأمثال فلوبير وفولتير وغيرها ، وفي هذه الرسائل تستطيع دراسة الكاتب اكثر من دراسته في مؤلفاته . وعندي لميّ بضع رسائل أعتزُّ بها لأنها أثر باق من آثارها . ولقد رأيت فيما رأيت من مخلفاتها ظرفاً خاصًّا برسائل ولي الدين يكن

ورأيي أن تجمع رسائلها الى مَن اتصلوا بها ، ورسائل المتصلين بها اليها ، وتنشر في كتاب خاص ، ففيها ولا شك ثروة كبيرة ، وتراث أدبي نفيس

رحم الله ميًّا ، لقد كانت على اطلاع واسع الحدود ، فسيح المعالم ، وكانت شخصيتها تثب مستقلة من خلال أفكارها وكتاباتها . فما قلدت كاتباً ، ولا حاكت مؤلفاً ، ولكنها ترجمت خلجات نفسها ، ووحي ضميرها ، وسر شعورها . وكانت رفيعة في نقدها ، رقيقة في مخالفة رأي غيرها . فما آذت شعوراً ، ولا جرحت احساساً

حضرة صاحب العزة الدكتور

منصور فهمي بك

مدير دار الكتب المصرية

الدكتور منصور بك فهمي مدير لدار الكتب المصرية ، تلك الدار التي اجتمعت فيها كنوز الفكر العربي ، وانتهى اليها مذخور الآداب ، ومتنخل الأفكار ما بين مطبوع ومخطوط . وقد كان الدكتور قبل ذلك أستاذاً في الجامعة المصرية وله تلاميذ كثيرون استفادوا بعلمه ، وانتفعوا بأدبه . وله مكان ملحوظ في عالم الفكر العربي ، وهو بغير شك — الى جانب ناحيته الفلسفية — من زعماء الادب في العصر الحديث

وقد أشار الدكتور تشارلس آدمز مؤلف كتاب « الاسلام والتجديد في مصر » اشارة طيبة الى الدكتور منصور فهمي في خلال كلامه عن الجيل المعاصر من المحدثين . وأشار الى كتابه « خطرات نفس » بأنه مقالات تكشف عن خلق ورقي ورعاية للدين وتهكم بالمحافظة الجامدة واحترام لحرية الفكر ولحق الفرد في استخدام مواهبه العقلية . عرف الدكتور منصور فهمي كثيراً عن ميّ ، وقرأ كتبها ومقالاتها ، وأعجب باثنتين فيها : أسلوبها المصقول وشرقيتها المتحمسة . والحديث الى رجل مثله — في إيمانه بما يعتقد ، ومصارحته بما يرى ، وفي متانة خلقه وتقديره للقيم الاخلاقية العالية — مما يحلو على الأذن ويطيب على القلب

وفي كل اشارة من اشاراته في عرض الحديث ، وفي كل كلمة من كلماته قوة كامنة .. فهو محدّث قوي الايمان بما يقول ، شديد الثقة بما يذهب اليه . يمضي في الحديث أول ما يمضي على فطرة سمحة جميلة وطبيعة سهلة لينة ، لا يُبهم عليه لفظ ، ولا يشكل عليهِ تعبير ، ولكنهُ قد يضطر أحياناً الى الوقوف وقفة قصيرة ليبحث عن كلمة مناسبة او لفظة موافقة او للعدول عن تعبير الى تعبير ، وهنا يرتفع صوته ويزداد قوة حتى لتحس ان كل جارحة من جوارحه تتكلم ... وكان حديث الدكتور معي طويلاً لذيذاً ، قطعتهُ فترة طويلة لصلاة الجمعة . فاذا بنا ننتقل من مكتبه في دار الكتب الى مسجد جماعة الشبان المسلمين التي لها من جهاده نصيب . واذا بنا أمام الله في خشوع المؤمن ، واستسلام المسلم ، واذا الدكتور يجلس الى

ما بعد الصلاة في المسجد ليستمع الى كلمة سواء يقولها واعظ ديني

ثم تطول الكلمة ويطيل الواعظ .. وقد يمل بعض السامعين ، وقد ينصرف بعضهم وينتشرون في الارض يبتغون من فضل الله ... الاّ منصور فهمي . فهو باقٍ وأنا معه حتى يفرغ الواعظ من عظته وينتهي من كلمته فيتقدم اليه الدكتور ويهنئه على حسن توفيقه .
ونعود بعد الصلاة نستأنف الحديث عن «ميّ» في ركن مشمس من أركان القاهرة .. وهناك في ذلك الركن البعيد يفيض الحديث ، وينتقل من مسألة الى مسألة ، ومن سؤال الى سؤال ، ولكل سؤال عند الدكتور جواب ...

***

سبحان الله ! كلمة سمعتها من صديقي الاستاذ احمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة الغراء وكنا ضيوفاً على الدكتور منصور بك في بيته الجميل بالريف في رهط من العلماء والأدباء . ونودي — بعد الغداء على مائدة كريمة سخية — لصلاة العصر ، فاذا الدكتور منصور يتوضأ ، واذا بنا نستعدّ جميعاً للوقوف في صفوف مستوية خلف أحد الشيوخ الأجلاء

***

وبعد الصلاة يلتفت اليَّ أخي الاستاذ الزيات قائلاً « سبحان الله ! . منصور فهمي الذي أثارت رسالته في جامعة السوربون عن المرأة في الاسلام ثائرة الناسِ عليهِ ، يقف للصلاة ، ويحرص عليها في حينها فلا يجزىء عنده في الصلاة القضاء عن الأداء »

فأرد عليهِ قائلاً « ياسيدي ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء »

وفي الساعات الطويلة الممتعة التي قضيتها مع الدكتور منصور فهمي بك للتحدث الى قرّاء المقتطف عن « ميّ » ذكرت كلمة الزيات وقد تردد في أذني صداها فقلت : سبحان الله : منصور فهمي الذي قضى في فرنسا بضع سنوات ، وشاهد الغرب ، وتعلّم على أساتذة الغرب ، ودرس فلسفة الغرب ، وقرأ كثيراً من كتب الغرب ، يعود الى الشرق الروحاني السامي روحانيًّا سامياً ، ويؤمن بمثله العالية ، وقيمه العظيمة . ويرجع الى الشرق رجلاً محافظاً في تجديد ، مجدداً في حفاظ ، فيتحدث عن شرقية «ميّ» وعن محافظتها ، وعن اعتزازها بشرقيتها فكأنما كان يتحدث عن نفسه ، وعن شرقيته ، وعن حفاظه

***

كان حديث منصور بك فهمي صدًى لأخلاقهِ القوية ، ورجعاً لروحه الشرقية المعتزة بكل ما في الشرق من مثل عالية ، وفضائل سامية ،

١ — سألته : (ما رأيكم في مى الكاتبة ، ومى الصحافية ومى المحاضرة ؟)

فقال : انني أعدّ الطريقة التي جرت عليها ميّ في كتابتها مما يصح أن يكون مثلاً للكتابة الراقية . لأن ميًّا كانت تمكّن لما تكتبه بشتى الافكار العالية ، والمعاني الشريفة التي خلصت لها من ثقافة عريضة واسعة ودراسة طويلة جادة . ولم تكتف ميّ بالفكرة المتمكنة ، والمعنى الدقيق والرأي المنخول ، بل كانت تعنى فوق ذلك باختيار الألفاظ الملائمة ، والعبارات المواثمة لتتساوق هذه الالفاظ المتآلفة المتجانسة في سلّم موسيقية تتردد في اذن السامع أو القارىء رنيناً موقّعاً ، ولحناً مؤتلفاً ، فلا يحسّ نبوًّا في لفظ ، أو خشونة في تعبير

ولقد كان لهذا الأسلوب المتميز ، المختارة الفاظه ، المنمقة عباراته ، جرس جميل في أذن السامع ، ووقعٌ حسن في نفس القارىء وكثيراً ما كانت توفق ميّ في هذا السبيل

ولقد أعجبتُ بالآنسة محاضرةً كما اعجبت بها كاتبة ، فقد كانت في ذلك المضمار مجلية ، ولا أعدو الحق اذا قلت أنها كانت محاضرة من أرق طراز وأعلى غرار . ولعل أسباباً كثيرة اصطلحت على تفوقها في ذلك الميدان ، فقد كان لها من عذوبة صوتها ، وحسن ادائها ، وحلاوة القائها ووسامتها وحسن سماتها معين على ذلك . وكانت تميزها حين تقف للخطابة في حفل أو المحاضرة في جمع ، ثقةٌ بنفسها ، واعتدادٌ بشخصيتها ، فما عرفت أنها تهيبت منبراً ، أو خشيت موقفاً ، أو غشيتها سحابة من جبن ، أو جللتها غمامة من خوف . بل كانت دائماً الواثقة الشجاعة

أما ميّ الصحافية فلا علم لي بهذا ولم يُتح لي أن أختبرها محترفة للصحافة أو مبرزة في فن هذه الصناعة ، فانا أعتقد أن الصحافة فنٌّ خاص له مقتضياته وأساليبه

٢ — فسألته : (هل تذكرون عن مى الطالبة بالجامعة المصرية القديمة ما يصح أن يكون مثلاً للطالبة بالجامعة المصرية الحديثة ؟)

فقال : أود لو كان عندي عن ميّ الطالبة بالجامعة نبأ أقصهُ عليك ، فقد يسرني أن لو أتيح لي أن أكون أستاذها في ذلك الحين وأن تكون تلميذتي ، ولكنني كنت بعيداً عن الجامعة في ذلك الوقت (فقد كان عزته عضواً بالبعثة المصرية في فرنسا ولما عاد بعد اتمام دراسته وانجاز رسالته لم يتصل بالجامعة مباشرة)

٣ — فسألته : (هل تعتقدون ان ميًّا نجحت في أداء رسالتها الادبية ، واذا كان ذلك فما هي أسباب نجاحها ؟)

فأجاب : أعتقد ان النجاح كتب لميّ في أداء رسالتها الأدبية . ذلك لأن ميًّا عاشت

في عصر تقدمت فيهِ النهضة النسائية من حيث فك القيود وكسر الأغلال التي تقيدت بها المرأة في هذا الماضي القريب . ومع أنها هي نفسها انطلقت من هذه القيود استجابةً لداعي التطور ووفقاً لحاجات العصر التي كانت لا بد أن تحلها من هذه الأغلال وتفكها من هذه القيود ، فانها بالرغم من ذلك دعت بنات جنسها ألاَّ يتمادينَ وراء هذه الحدود وألاَّ يسرفنَ في الاندفاع والتهور ، فأرادتهنَّ على ألاَّ يبالغنَ في الكفاح السياسي ، كما أرادتهنَّ على ألاَّ يضيعنَ حق الانوثة ، او يغفلنَ واجبات الأمومة

فكانت رسالتها في الحق دعوة مخلصة صريحة لأخواتها في الجنس، وزميلاتها في الأنوثة وكان سبيلها في الدعوة الكتابة ، فهي كفتاة كاتبة قد خصصت شباة قلمها لنشرة دعوة آمنت بها وحرصت عليها ودافعت عنها باخلاص وصدق . فهي من هذه الناحية قد نجحت وأدَّت رسالتها — كامرأة — في حسن بلاء ، وصدق نضال

ولعل ميًّا نجحت في هذه الدعوة لأن المتزنات من النساء ممن اصبنَ حظًّا غير قليل من المعرفة،وأدركنَ ما كنَّ يطمعنَ فيهِ من الثقافة والتحرير كنَّ يرينَ ما رأت ميٌّ ، وينزعنَ في الاعتدال منزعها ويذهبنَ الى ما ذهبت اليه من الحفاظ وعدم التفريط في خصائص المرأة أو التهاون في مميزاتها ويملنَ الى الاحتفاظ بسر أنوثتها وقدسية أمومتها

فضلاً عن أن « ميًّا » الشرقية بلحمها ودمها ،والتي أدنى الى ان تصل كتابتها الى الشرقيات، قد يساعدها في قبول ما كانت تؤمن به وتدعو اليه تلك النزعاتُ الشرقية الكامنة والوراثة القديمة التي لا أشك في أنها أصون لمكانة المرأة من النفوس، وأحفظ لمنزلتها من حيث السمو والكمال

(وهنا اشتدَّ تحمس الدكتور لفكرته وبان ذلك في صوته الذي كان يهدر كالسيل . ثم تابع كلامه قائلاً) :

نحن نريد المرأة كما وصفها امرؤ القيس الشاعر الضارب في مجاهل البادية بقوله:
(وبيضة خدر لا يرام خباؤها)

نريد في المرأة معنى التصوُّن والتحصن الذي وصف الله بهِ الحور العين في الجنة بقوله:
(كأمثال اللؤلؤ المكنون)

نريد في المرأة معنى التحفظ لا معنى التبذل ، حتى يصح معنى القصر في قوله تعالى :
(حورٌ مقصوراتٌ في الخيام)

ولعلَّ من اسباب نجاح دعوة مي استعداد الشرق الوراثي ، والاستعداد الطبيعي في غريزة المرأة — هذا الاستعداد الذي ينزع بها دائماً لتتملك بما آتاها الله من رقة ، وحباها

من حنو، وأودع فيها من ضعف هو القوة بعينها . . . . لقد سلّح الله المرأة بسلاح يشبه الضعف من غير ان يكون ضعفاً . ففي قوته من الرقة والدعة واللطف والأنوثة والجمال والحرمة المقدسة ما يجعل للمرأة مكاناً قدسيًّا، ومحلاً فيه من جلالة التقديس، وطهارة التنزيه ما ينبغي ان يحول بينها وبين الامتهان والابتذال . المرأة أم الأبناء، ومستودع الذراري فلا ينبغي العبث بحرمتها . المرأة في مكان السمو، ومنزلة العلو، جعلها الله موضع ارادته، وسر مشيئته في تنمية الوجود، وحفظ النسل، واستمرار النوع، فهل يليق بعد ذلك ان تحل حرمتها، او تمتهن قداستها ؟

٤ — فسألته : (ما هي أجمل النواحي الاخلاقية التي كانت تعجبكم من مي ؟)

فقال : لقد كانت نواحي ميّ كلها جميلة معجبة، فلا أدري أيها أذكر وأيها أدع . كان فيها لطف وكياسة، وكانت مصقولة الطباع، رقيقة الحاشية، حتى لتكاد تفيض رقة.وأخص ما يعجبني منها نزعتان : الاولى انها كانت متحمسة لكل ناحية من نواحي الاحسان، فكانت أحسن الله اليها—على فقرها وقلة مواردها تتحمس للمعروف، وتتسابق الى الاحسان ومما أذكره لها أنها كانت في كل حفل من محافل الاحسان تشترك بما تستطيع من مال او مقال ولو قد آتاها الله بسطة في المال وسعة في الرزق ووفرة في الغنى لكان لها في عالم الخيرات والاحسان مكان يشار اليه بالبنان

والنزعة الثانية هي نزعتها الروحية الدينية الراقية، فما كنت اعرف عنها استهانة بما في الاديان من خير وجمال، او بما في الروحانيات من سمو وجلال

٥ — فسألته : (يتحدثون عن اعتزاز مي بشرقيتها واعتدادها وفخرها بهذه النسبة على الرغم مما أتيح لها من ثقافة غربية ومعارف أوربية فهل عند عزتكم من ذلك أنباء ؟)

فأجاب :— كسبت مي من الغرب طرائق البحث وطرائق الاتجاه، أما المثل الشرقية العليا فقد وجدت مي فيها كفايتها وحاجتها وشفاء ما في نفسها من تَوْقٍ الى المثل الرفيع، والمثال الكامل . ولاشك أن مثل الغرب العليا على ما فيها من خير — تكاد تكون محصورة في نتائج مادية آلية صناعية علمية . على أن هذه المثل الغربية على ما فيها من تغلب المادة وتحكم الآلة

لا ينكر وجه الخير فيها . اما المثل الشرقية فهي مثل انسانية روحية سامية
هي مثل الحب والفناء فيه
هي مثل الدعوة الى الخير والاستمرار فيها
هي مثل الروح تسمو عن سفاسف المادة . وتتعالى عن مواطىء الاجسام
هذه المثل السامية وجدت من قلب ميٍّ الفتاة الشرقية استجابة اكثر من استجابتها الى صلصلة الماديات وجرس الآليات

ولذلك هامت ميٌّ بالشرق ، ونادت بالروح الشرقية . ونبهت الراقدين أو السابحين في الاوهام الى الاستجابة لهذه الدعوة

وكانت دعواتها وصيحاتها تتردد في كتابتها عن الشرق . ولقد اعترفت ميٌّ بضعفه المادي وفقره ، واقفاره من المظاهر السائدة الخلاَّبة التي تظهر بها المدنية الغربية في ثوب موشَّى مزركش . ولكن مع اعترافها بهذا الفقر في الشرق ، وتسليمها بالإقفار السائد في مظاهره البادي في نواحيه فقد وجدت أن وثباته الروحية وتطلعه الى معاني الخير ومعاني الرحمة ومعاني الجمال وأن نزوعه الى السمو الروحاني هو أسمى بكثير من نزوع الغرب الى معاني القوة ومظاهر المادة

ولعلَّ هذا يتساوق مع طبيعة الانوثة الرحيمة ، طبيعة المرأة الرقيقة ، والانسانية البارة الخيِّرة التي تمثلت في مي بشراً سويًّا

واذا كنا لا ننكر على ميٍّ ثقافتها الغربية ، ولا ننكر عليها استفادتها منها من حيث الطريقة والاتجاهات ، فاننا لا ننكر عليها أيضاً حقها — كامرأة وكشرقية — أن تهيم بالشرق الذي قالت فيه

(انها السماء التي اوحت بأعظم الرسالات الى الانسانية ، وأظلَّت تفتُّح الحياة وسيول الوحي والنبوَّات . . لأنك عُيِّنتَ — ايها الشرق — لتكون الوطن الاول للعبقريات الاولى وللابطال والملهمين !

.... نهوضاً أيها الشرق ! حولك يناضل الاقوياء ويفوزون ممجدين نفوسهم في تأليه الغلبة ! فهلاَّ سمعتهم مع ذلك يئنون في الظلام : « الى متى ننتظر الفجر الذي سيسطع ؟ »

.... أنت برج الضياء ، أيها الشرق !
انت موزع أشعة الحياة !)

فمي كانت تحب الشرق وترغب في مثله وتتأثر بطرائق الغرب من غير اندفاع في تياراته ومن غير اغفال للنواحي الشرقية السامية . وهذا أكبر دليل على أنها لم تكن مقلدة تقليداً أعمى

فقد عرفت كيف تستفيد من الغرب من غير أن تهمل الروح الشرقية

٦ - فسألته : (ماهى أجمل ذكرياتكم عن مى ، وما آخر رؤيتكم لها وعهدكم بها ؟)

فأجابني : لعلَّ أبقى آثار مي في نفسي أنها كانت تحدثني عن بعض خطراتي حديث الفاهم لها المدرك مراميها ومغازيها . وكانت تصارحني باعجابها بتلك الخطرات ، وكانت هذه المصارحة بالاعجاب تتكرر كلما لقيتها ، مما دلني على ذوقها الفني واتجاهها الفكري . وكنت أرتاح الى ما تبديه من اعجاب ، لاظفراً بالثناء أو طرباً للاطراء ، ولكن لشيء أسمى من ذلك قيمة وأبعد مرمى ، لأن هذا الاعجاب الذي كنت أرى فيهِ صدقه واخلاصه وبعده عن زخرف القول وزور الرياء كان يدل على الأقل على أننا توافقنا في المعاني التي نكتب فيها والمذاهب التي نذهب اليها

لقد كانت مي صادقة في ثنائها على أسلوبي وكتابتي ، وكنت أعرف فيها هذا الصدق وأتبينهُ ، وأحسُّه في كل كلمة تقولها لي ، او عبارة تكتبها اليَّ ، فقد كتبت اليَّ بما ينم على هذا في إحدى رسائلها الخاصة

وآخر ذكرياتي عنها أنها زارتني في دار الكتب بعد عودتها الأخيرة من لبنان وكان في صحبتها أميرة لبنانية فاضلة وأخذنا بأطراف الاحاديث بيننا وذهبنا في القول مذاهب شتى الى أن جرَّ الحديث — وهو ذو شجون — الى شعوري في فقد ولدي (وهنا بدا التأثر على محدّثنا الفاضل بارك الله له في البقية الصالحة من اولاده وأقرَّ بهم عينه) . وكنت أشعر في عرض الحديث أن ميًّا كانت تشاطرني مخلصة هذا الاحساس العميق . فكأنها كانت أرسلتها الاقدار في هذه الساعة لتخفف الوجد الذي أجد حينما أثيرت ذكرى ولدي

ثم أخذت تتجه في كلامها اتجاهات هي الى الفلسفة أدنى منها الى العاطفة،وهي الى الحيرة في فهم أحكام القضاء والقدر أقرب منها الى التسليم بالواقع المحتوم ، والقضاء المبرم

وكانت ميّ في الشام في عزلة قاسية، ووحدة مضنية بعد ان اصطلحت عليها الآلام والأحزان وحالفتها الوساوس والأوهام — مما يعرف القراء الأفاضل نبأه في حينه — وكنت أنا أزور الشام في ذلك الحين ، فرغبت في لقائها ، ولكنها كانت في عزلتها لا تلقى احداً ، ولا تقابل انساناً

وحدثني امين الريحاني بعض الحديث عنها ، وأخبرني انها كانت قريبة منهُ في الفريكة

وأودّ هنا وأنا في معرض الحديث عن ذكرى مي ان اقرن ذكراها في عزلتها بلقائي لامين الريحاني الذي ترك في نفسي أثراً طيباً

ولقد مات الريحاني وسار الى الغاية التي يسير اليها كل حي ، وحمل على الآلة الحدباء التي يحمل عليها كل ابن انثى وإن طالت سلامته ... وماتت بعده مي كما تموت الزهرة بعد ما كانت متفتحة بالامل ، فوّاحة بالشذى ، مخضلة بالطلّ الندي

ولو عاش الريحاني بعد مي ، وقدر له ان تستأني خطواته الى الأبدية بعد خطواتها فلعله كان أولى الناس بالحديث عنها ، وأجدرهم بأن يقص على الادباء سيرة من جهاد مي وكفاحها في سبيل تحقيق مثلها العالية

أنت تسألني عن أجمل ذكرياتي عن ميّ ولم تسألني عن أحزن ذكرياتي عنها كأنك تناسيت ما تثيره الذكريات الحزينة في نفوسنا من لذاذة الذكرى ، لقد كنت في لبنان ضيفاً على امين الريحاني ساعة من الزمان كنت أنا وزوجي وابني فيها في بيته وضيافته ، وحدّثنا الريحاني عن مشاهداته ورحلاته ، وحدّثنا عن ذكرياته في بلاد العرب وحدثنا عن ميّ وعزلتها واستيحاشها ، فكانت ساعة امتزجت فيها أجمل المحادثات بأحزن الذكريات ...

٧ — فسألته : (أي نوع من الكتب كانت ميّ تقرأ ، والى أي حد بلغ شغفها بالمطالعة ؟)

فأجاب . لعل ميّا نفسها أجابت عن الشق الاول من سؤالك في مقدمة الكتاب الذي ترجمته باسم (ابتسامات ودموع) . فقد اشارت في المقدمة الى النوع من الكتب الذي تحبه وتخصه بالايثار . أما شغفها بالمطالعة فقد كان كثيراً لاحد له ، ولعل هذا هو السر في اتساع آفاق تفكيرها ، وانفساح المدى امامها . وكانت شهوة المطالعة عندها لا تقف عند حد ولا تنتهي الى غاية ، ولهذا درست كثيراً من اللغات الاجنبية وتمكنت منها وكانت تلتهم الكتب كما يلتهم النهم لقمة من الزاد ، أو كما يزدرد الجائع كسرة من الخبز ، وكان لها مكتبة خاصة تعتمد عليها وترجع اليها أكثر من رجوعها الى المكتبات العامة

وكانت مي تعتز بمكتبتها الخاصة اعتزازاً كبيراً ، وتعتني بها عناية كثيرة ، وتزوّدها كل يوم —على حسب مواردها — بما يظهر من كتب ، ويجدّ من تأليف . ولا أعلم مصير هذه المكتبة بعدئذٍ

للاندية الخاصة بدلاً من تلك التي يكثر فيها الكلام واللغو والتأثيم ، ويشيع فيها القيل والقال ؟)

فأجاب : لاشك ان منتدى ميّ أو « صالونها » كان حافلاً بنواحٍ ادبية ، وممتلئاً بأشتات من العلم وألوان من الثقافة ، ولكني كنت أتمنى ان يكون هناك أندية « صالونات » نسائية بحتة ، يشيع فيها الأدب والتفكير الراقي على ما ينبغي ان يكون بين المتأدبات المثقفات من الآنسات والسيدات ، والبنات والأمهات ، كما تكون هناك اندية ادبية بحتة تجمع بين الشيوخ والشيوخ أو بين الشباب والشباب ، او بين الشيوخ والشباب ويشيع فيها كذلك الأدب الراقي الرفيع من غير حاجة الى كثرة الاختلاط . اما اذا اقتضى الأمر الاختلاط فليكن بمقتضياته وظروفه ومكملاته بحيث لا يندس في هذا الاختلاط من لا حصانة تعصمه من كل ما يخل بآداب الاختلاط الراقي ، ليس بالنسبة الى الآداب الظاهرة فقط ، بل في الدقائق الخفية ، وفيما يبدو عليه من القول والاشارة والعبارة ، وفيما يخطر على خفايا النفس من التصورات الآثمة والمضمرات السيئة

ولقد كان منتدى ميّ راقياً لأنها كانت راقية بأخلاقها ، سامية شريفة في افكارها ، وليست كل فتاة او سيدة قديرة على ان تشيع في نديها الخاص — لو كان لها ندي — ما كانت تشيعه ميّ في منتداها من أدب ومحافظة . ولعلي لا أعدو الصواب إذا قلت انهُ في العصر الحديث وجدت منتديات نسائية سبقت منتدى ميّ ، حتى ان بعض الأميرات المصريات من البيت المالك وهي الأميرة « نازلى » كان يغشى مجلسها أمثال قاسم امين وسعد زغلول والشيخ محمد عبده

ولعلَّ مجلسها كان يشيع فيهِ الأدب الراقي ، وتتناول فيهِ المسائل الاجتماعية العالية ، وتدار فيهِ الأحاديث الرفيعة في الوان من الأدب ، وأنواع من البحث . فليست ميّ هي البادئة بهذا في العصر الحديث وقد سبقتها الى هذا فيما نعلم اميرة مصرية فاضلة . وقد يكون هناك بعض السيدات الفضليات ممن سبقنَ ميًّا الى انشاء هذه الأندية الأدبية، ولعل ميًّا اشتهرت « بصالونها » لأن بابهُ كان أوسع ، وأنا ممن يميلون الى تضييق هذا الباب

ولم ينفرد نساء العصر الحديث بهذا ، فقد سبقتهنَّ السيدة الجليلة سكينة بنت الحسين ابن علي ، وكانت — كما روي صاحب وفيات الأعيان — سيدة نساء عصرها ومن أجمل النساء وأظرفهن وأحسنهنَّ اخلاقاً . وكانت لها نوادر مع الشعراء ومساجلات مع الأدباء ورد ذكرها في بعض كتب التاريخ والأدب

حضرة الاستاذ

ابراهيم عبد القادر المازني

لم أرَ في حياتي (المازني) قبل اليوم الا مرة واحدة ، وكان ذلك من عهد غير قريب ، أيام كانت (السياسة الاسبوعية) في أول عهدها

ولكنني رأيت بعد ذلك (المازني) مرات يخطئها الحصر ويفوتها العد في كتبه ومقالاته وقصصه

ولقد عرّفني الى (المازني) — ولا أعني التعريف بالاجسام وما يصحبه من التقاء اللحظ ، ووقوع العين على العين ، ومصافحة الأيدي بالسلام ، وانما أعني التعريف بأدب المازني وأسلوب المازني ومكانة المازني بين الأدباء — عرّفني بذلك استاذي الجليل المرحوم الشيخ احمد الاسكندري ، وكان كثيراً ما يستعرض في دروس الادب بدار العلوم المعاصرين من الادباء والشعراء والكتّاب — حتى السياسيين منهم — وكانت له فيهم آراء ونظرات

***

وكان الأسكندري كثير التحدث عن (المازني) وخاصة عن نصاعة أسلوبه العربي مع بعده عن التكلف ، ودقة تصويره لدقائق الامور وصغائر الأشياء مما لا يتاح لكثير من الكتّاب. وشهادة استاذ جليل كالمرحوم الشيخ الاسكندري المتمكن من اللغة العربية ، الواقف على كثير من أسرارها وخصائصها ، وفقهها وأساليبها لها قيمتها وأثرها . ولم يكن الشيخ ممن يعجبون أدنى اعجاب بالمذاهب الافرنجية في الكتابة او ممن ينزعون الى منازع الركاكة باسم التجديد ، والله يعلم انهم ضيّعوا قديمهم فلم يبقِ لهم جديد

والمازني كان معلماً قبل ان يتخذ الكتابة صناعةً له ، ولعلهُ كان مدرساً موفقاً كما وفقهُ الله في أدبهِ . وقد ذكر العقاد في مقال قريب له (بالرسالة) أن المازني (كان مسيطراً على التلاميذ ، قلّما يحتاج الى معاقبة أحد منهم لخروجه على نظام الحصة ، لانهُ كان مهوباً بينهم قديراً على أخذهم بمهابتهم اياه قبل خوفهم من عقابه)

والحق ان المازني على صغر جسمه كبيرٌ في قلبه ، مهوب في طلعتهِ ، وله في الالقاء والحديث طريقة جذّابة ، فهو يُغري سامعه بمتابعته ويتنقل بهِ من معرض الى معرض في أبانة واطالة ، فاذا أوجز ودَّ جليسهُ أنهُ لم يوجز . . .

وكان المازني يقول الشعر ، وكان كبيراً في مجاله وميدانه ، وله فيه مذهب معروف ، وله في الشعراء رأي خاص، ولكنه هجر هذه الروضة الجميلة التي تسعد النفس في أحزانها وانصرف الى الكتابة والى السياسة ، وشغلته دنيا الناس عن دنيا الشعراء . . .

والعقاد والمازني اسمان متلازمان يستدعي ذكر أحدهما ذكر الآخر. ولعلّ لاشتراكهما القديم في نقد بعض الشعر الحديث أثراً في ذلك . ومن الغريب أن يذكرهما الدكتور تشارلز آدمس في كتابه على الولاء متلازمين حين يعرض للكلام على تأثير الشيخ محمد عبده فيهما

كانت فرصة الحديث مع الاستاذ المازني من أسعد الفرص التي ظفرت بها في الحديث عن (مي) الى قراء المقتطف . ولقد تشعب الحديث ألواناً وفنوناً وأخذ كل مأخذ ، وتخللته لحظات طوال أو قصار — كان يستعرض فيها الاستاذ بعض ماضيه ، ويقص بعض ذكرياته في صباه وشبابه ، (وفي الطريق) وفي مدرسته ، وفي الحظ الذي كان دائماً معه على اتفاق . .

والمازني يبدو في كتابته ، كما يبدو في أحاديثه شديد الحنين الى الماضي ، فهو وفيٌّ له في أي مظهر كان ، نزّاع اليه ولكن هيهات أن يعود :

فليست عشيّات الحمى برواجع   عليك ولكن خلّ عينيك تدمعا

***

١ — سألته : (كيف عرفتم ميّا ، وما هي ذكرياتكم التي تحفظونها عن أول لقاء ؟)

فأجاب : لا أذكر متى عرفت فقيدتنا العزيزة ميّا او كيف عرفتها فما يبقى في ذاكرتي من شيء الاّ صورته . وأكبر ظني أني عرفتها بعد ان أصدرت مع صديقي الاستاذ العقاد كتاب « الديوان » في النقد . على أني لست واثقاً ولعلي عرفتها بعد صدور كتابي « حصاد الهشيم » . وكل ما أذكره — لأنه صورة وذاكرتي « فوتوغرافية » — هو أني تلقيت منها ذات يوم بطاقة مكتوبة بخط جميل تدعوني فيها الى زيارتها في يوم ثلاثاء . أما أي ثلاثاء ومن أي شهر او عام فعلمه عند الله . وقد استغربت يومئذ حسن الخط وتوهمت انها استكتبت أحد الخطاطين وعددت هذا من التكلف الذي لا داعي له . ولما كنت أمقت التكلف وأنفر من الاجتماعات الكبيرة فقد زهدت في الزيارة التي دعيت اليها ووطنت نفسي على التخلف . ومن حسن الحظ أني نسيت ان أبعث اليها برد او اعتذار. وأحسب ان الاستاذ العقاد هو الذي هوّن عليّ الأمر وشجعني على قبول الدعوة وعرّفني ان هذا خطها لا خط خطّاط فلم أجد مناصاً بعد ذلك من تلبية الدعوة الكريمة

وأقول « الكريمة » لأني كنت سيء الأدب معها او على الأصح قليل العقل . ذلك أنها كانت أهدت اليَّ كتابيها (الصحائف) و (ظلمات وأشعة) فألفيت نفسي نافراً غير مستعد لحسن الرأي فيهما ولعلَّ كلمة (الظلمات) هي التي ساء وقعها في نفسي فكتبت بضعة فصول في الاخبار — نشرت بعد ذلك في (حصاد الهشيم) عن (الواجب) و (الكتب والخلود) و (الطبيعة عند القدماء والمحدثين) ولم أتناول الكتابين بأي بحث وانما كتبت ما كتبت لمناسبة اهدائهما اليَّ وكانت هذه قلة ذوق على التحقيق ، وكان اهمال ابداء الرأي لا يخلو من معنى الاستخفاف فبأي وجهٍ ألقاها وقد صنعت ذلك . . ولكنها غفرت ذنبي وأغضت عن قلة ذوقي وعسى ان تكون قد حملت ذلك مني على محمل الغرور أو الطيش او الحماقة التي يركب الشاب بها الحياة ولولا أنها صفحت عني لما دعتني . فمن الاقرار بالذنب والاعتراف بالخطإ وبما ينطوي على معنى الاعتذار ان ألبي الدعوة . وحدثتني نفسي وقد دارت فيها هذه المعاني انها لا بدَّ ان تكون مرهفة الاحساس عظيمة مروءة القلب رحيبة الأفق وانها على كل حال لا بدَّ ان تكون ظريفة فتوكلت على الله وذهبت

وأعترف أني دخلت متهيباً مستحيياً ووقفت على الباب متردداً — متهيباً لقاءها، مستحيياً ان أحشر نفسي بين زوَّارها الذين قيل لي أنهم من كل طبقة، ومتردداً لأني لم أعتد هذه المجالس ولأني أعرف من نفسي شدة النفور من هذه الطبقات التي تعد نفسها ممتازة او عالية او لا أدري ماذا أيضاً . على أني دخلت بسلام فاستقبلتني هاشة باشة (شاكرة) فتعجبت ولا أظن أني نطقت بحرف وقعدت حيث أومأت . وكان هناك الاساتذة — ومعذرة اذا لم أذكر الألقاب — لطفي السيد وخليل مطران ومصطفى عبد الرازق والمرحوم السيد رشيد رضا وابن أخيه محيي الدين رضا والاستاذ العقاد وآخرون كثيرون امتلأت بهم حجرات الدار وكانت المرحومة امها تساعدهـا على الترحيب بالضيوف واكرامهم، ولا أذكر انه دار بيني وبينها حديث، وكانت كلما مرت بي تلقي لي كلمة تحية أو تكتفي بالابتسام وأنا كالأخرس لا أبس ببنت شفة. واذا بهذا الجمع الحاشد يخرج من الحجرات الى الردهة الفسيحة واذا بها تقف لتخطب فارتعت ووجمت فما أكره شيئاً كراهتي للخطب وقالت شيئاً سمعت منه اسم (ماكس نوردلو) فانطلق لطفي السيد باشا يصفق فتعجبت لهذا الرجل ولما عددته يومئذٍ اسرافاً في التلطف والمجاملة ولم اصغ لشيء مما قالت ورأيت كثيرين ينهضون شاكرين مثنين وصار هذا يدعو ذلك لالقاء كلمة فخفت وزادني رعباً ان السيد محيي الدين رضا همس في أذني انه سيدعوني الى الكلام فقلت والله لئن فعلت لأقولنَّ ما يسوء فما أنا من رجال الصالونات ولست أحسن هذا الضرب من الكلام وماجئنا هنا ليثني بعضنا على بعض وعلى أني لا أعرف لماذا جئنا أو دعينا..

واتفق في هذه اللحظة ان مرت بي الآنسة مي فحاولت ان انهض لها فنهتني عن ذلك وعرّفتني انه غير لازم فوجدت لساني وقلت لها معتذراً من جهلي اني من عامة ابناء الشعب ولست من روّاد الصالونات فأرجو ان تتجاوزي عن اغلاطي. فقالت بابتسامة وديعة:— لا تقل هذا الكلام . قلت : ألا تحبين ان تعرفيني على حقيقتي . قالت : طبعاً . قلت : ثقي اذن اني من ابناء الشعب ولا أستطيع — ولا أحب — ان ارتقي عن هذه المنزلة فتبسمت وهزت رأسها . ولا أدري الى هذه الساعة أكان هذا منها أسفاً أم رفضاً للتصديق وانما الذي أدريه اني كنت جاداً جداً

وبدأ الناس ينصرفون وهمَّ الاستاذ العقاد وهممت بالخروج فأخرتنا واستبقتنا — استغفر الله بل استبقت ايضاً الاستاذ خليل مطران — وجلسنا نحن الاربعة في حجرة الاستقبال الكبرى وكان نصيبي منه الاصغاء مطرقاً حيناً وناظراً اليها حيناً آخر ومعجباً بها في الحالين وان كنت قد شعرت اني غير فاهم شيئاً مما يقال لفرط اشتغالي بما في نفسي

وخلوت بنفسي في تلك الليلة ورحت افكر فيما رأيت وسمعت فأعجبني من الآنسة مي ان احتفالها برجال الادب كان أبين من احتفالها بغيرهم وسرني على الخصوص رقتها وتلطفها حين أخرتنا واستبقتنا كأنما كان همها كله هو ان تجالسنا نحن لاسوانا . وتذكرت ماكس نورداو وتصفيق لطفي السيد الذي أسخطني فراجعت نفسي في سخطي عليه وراجعت ماكس نورداو فاذا الكلمة التي استهلت بها كلامها منه معناها ان الاعتراف بالجميل ينطوي على الأمل في دوام هذا الخير ولو انقطع الأمل لكان الأرجح ان لا يكون شكر او اعتراف بمعروف فهي اي الآنسة مي تشكر الذين لبوا دعوتها شكراً فيه معنى الامل في مواظبتهم على الحضور . وكانت هذه براعة منها ولم يكن تصفيق لطفي السيد اذن في غير محله . ولقد كنت خليقاً أن أصفق مثله لو انه كانت لي مثل فطنته او على الاقل لو كنت ساعتئذٍ معنيًّا بالاصغاء

ولا أدري هل عدت بعد ذلك الى زيارتها ام لم أعد فان كنت عدت فقد كان ذلك ولا شك بدافع من الاعجاب والاكبار وان كنت كففت فالعلة لا بد ان تكون نفوري مما يسمى « الصالون »

فقال : أعرف ان كثيرين من الأدباء كاتبوا ميًّا وكتبت اليهم والذي يعرف ميًّا لا يرى بأساً من نشر رسائلها الى أصدقائها فما أحسبها اشتملت على غير آرائها في الحياة والأدب والكتب وما الى ذلك ويصعب جدًّا ان أصدق — الاَّ اذا قام الدليل على غير ذلك — ان ميًّا كانت تتناول في رسائلها اموراً شخصية . على اني ممن لا يرون نشر الرسائل الخاصة ولو كانت بحثاً صرفاً، وليست مي بيننا حتى يمكن ان تستأذن في النشر، ولا أرى من حق أحد أن ينحل نفسه هذا الحق

ويحسن ان اقول اني لا أخشى ان يكون في رسائل ميّ او رسائل احد اليها ما يغض من حسن الرأي او الاعتقاد فيها . والارجح عندي ان نشرها يعزز مقامها ولكني مع هذا لا أوافق على النشر لان هذا جانب من حياتها الخاصة ولا شأن للجمهور بها

٣ — فقلت : (سألتني سيدة أديبة كبيرة عن رأيي أنا في كتب مى ، وهل سيكتب لها كلها او لبعضها الخلود ؟ فلم أبد لها رأياً خاصًّا ورأيت ان أحيل السؤال بدوري عليكم)

فقال : حولتم عليَّ سؤالاً ألقته عليكم سيدة اديبة كبيرة عن كتب مي وهل سيكتب لها الخلود . والجواب — أي جواب — لا يخلو من اجتراء على الغيب . على اني أقول اني أومن بالفناء في الدنيا ولا أومن بالخلود لشيء فيها ، فلا الأدب ولا غيره يبقى ولا الحياة نفسها ولا الكرة الأرضية كلها، وتصور يا سيدي ان كل جيل من كل أمة في كل عصر يخرج طائفة غير قليلة من الكتّاب والادباء والشعراء . وكم عدد من يظهرون في الامم جميعاً في العصر الواحد . . مئات . . وكم عدد من يذكر العالم في حاضره من عشرات الآلاف الذين سبقونا . . . وسيصبح عشرات الآلاف ملايين على الادهار . . نعم ربما بقيت الكتب محفوظة في دورها فيكون البقاء معناه الدفن . . لا يا سيدي

وأنا أعتقد ايضاً ان العالم سيستغني عن الألفاظ واللغات في المستقبل البعيد كأداة للفهم والافهام وسيستطيع بعد مرور أحقاب كافية ان يتخاطب ويتراسل ويتفاهم بموجات يرسلها كما يرسل الآن موجات لاسلكية يذيعها في ارجاء الارض فيسمع القاصي والداني . وحينئذٍ يستغني العالم عن الأدب المكتوب كله

تبلغ في ذرى جباله ، وتحت ظلال أرزه ما بلغته في مصر من مرتبة أدبية على شاطىء نيلها وتحت ظلال أهرامها ؟)

فأجابني : تسألوني هل لو كانت ميّ قد عاشت في لبنان دون مصر أكانت تبلغ ما بلغت من مرتبة ممتازة في عالم الادب والجواب نعم ولا، فاما نعم فلأن ادب ميّ متأثر بتيارين على الخصوص . الأول التيار الذي أوجده اليازجي وزملاؤه وعلى هذه الطبقة تأدبت ميّ على الخصوص وبهم تأثرت من الناحية العربية واليهم يرجع الفضل في سلامة اسلوبها و نقائه وهذه الطبقة كلها او معظمها من اللبنانيين . وأما الثاني فهو تيارات الادب الغربي الذي توفرت على درسه باللغات المختلفة التي كانت تتقنها وتقرأ وتكتب بها ، وترون من هذا انه كان يستوي ان تحيا في لبنان او في مصر . ولكن شهرتها — لو كانت قد بقيت في لبنان — كانت خليقة أن تكون أقل وفي نطاق أضيق . ويلاحظ في تاريخ الادب العربي القديم ان كل من اتصل بمصر في حياته كان نصيبه من الشهرة أوفر. لا أدري لماذا. ولكني ارى ان هذا هو الواقع ولو اتسع المقام للافاضة في البيان لفعلت وهو على كل حال باب من القول لا يغني فيه الاجمال فيحسن الاكتفاء بما أسلفت

٥ — فسألته : (ما رأيكم في أسلوب مى وفي طريقتها التي اتخذتها للتعبير عن آرائها وأفكارها ؟)

فأجاب : أما أسلوب مي فسليم نقي، وقد اشرت الى قلة عقلي لما تلقيت كتابيها ذلك أني أكره الاسلوب العاطفي أو الوجداني وقد نسيت وأنا اقرأ كتابيها أن الكاتبة امرأة وانها لا تكون مخلصة لنفسها وطبيعتها الاّ اذا كتبت بروح المرأة وأنها بغير ذلك تكون متكلفة ولا قيمة لها . وقد كانت مي امرأة صادقة الانوثة غير طائشتها ومخلصة لجنسها وطبيعته أعظم اخلاص . وأحسب اني قد بينت كيف كنت قليل العقل

٦ — فسألته : (ما رأيكم في منزلة ميّ بين كتّاب العربية ؟)

فأجاب : — الجواب عن سؤالك هذا سؤال مثله : هو أين في العربية من النساء من يضارعها حتى يكون هناك محل للمفاضلة ؟

حضرة الاستاذ

خليل مطران بك

خليل بك محدّث من الطراز الاول ، ان طال لم يمله سامعه ، وان أوجز ودّ المحدث اليه لو انهُ لم يوجز . وهو شاعر في نثره ، كما هو الشاعر في شعره . فاللفظ متخير عذب ، والكلمة منتخبة رشيقة ، والبيان مفصّل والمعنى مقسّم . وفي القائه حسن يزيد من حسن بيانه وفصاحة لسانه . فكأن حديثه — على عمومه — ضربٌ من الشعر او لونٌ من السحر

ولقد عرف خليل مطران « ميًّا » كما سيجيء في عرض حديثه ، فدامت المعرفة ، واستحكمت الصلة ، واستوثق الود أكثر من خمسة وعشرين عاماً ، في زمان وهنت فيه العلائق وتراخت فيه العهود والمواثق فكان « خليل » الخليل الصافي ، والرفيق الوافي كما هي شيمتهُ مع كل من عرفوه ، وسجيته مع كل من اتصلوا بأسبابه

ولقد وقفت « مي » منذ أكثر من ربع قرن — وكان ذلك بالضبط في سنة ١٩١٣ — في جمع حافل من الادباء والعلماء ، والكبراء والعظماء تكرم « خليل مطران » بمناسبة الانعام عليه بوسام خديوي ، كما القت في ذلك الحفل كلمة بعث بها « جبران خليل جبران » فكان ذلك أول عهدها بالمواقف ، ومفتتح أمرها في المجامع والمحافل . فأحسنت الالقاء ، وكان صوتها كما قال الدكتور طه حسين بك عذباً لا يكاد يبلغ الأذن حتى يصل الى القلب

بعد ذلك العهد البعيد وقف مطران يدفع ثمن ما أسدت اليهِ مي من الجميل . قلت له :

(أسألكم بوجهٍ عام عن ميّ من حيث شاعريتها ورأيها في الشعر)

فأجاب هذا الجواب المستفيض : لا بأس قبل الحديث عن ميّ ان أشير الى أول معرفتي بها . فقد جاءني يوم من الأيام الشيخ يوسف الخازن وكان صاحب جريدة الاخبار المصرية وناولني ديواناً من الشعر مكتوباً عليهِ اسم المؤلفة (إيزيس كوبيا) . ولم يكن هذا الاسم الاّ ترجمة او مقابلاً لاسم (ماري زيادة) وطلب مني بعد اتمام قراءته ان أكتب عنهُ كلمة في جريدته ، على نحو ما يصنع بكل كتاب جديد لتقديمه الى القراء

قرأت الديوان فوجدته مكتوباً باللغة الفرنسية بعبارة سليمة تنم على دراسة متقنة دقيقة ومعرفة صحيحة بهذه اللغة

وبالبداهة كل ما بقي الى الآن في ذهني من أثر هذه الكتابة وبعثت به الى جريدة الاخبار في ذلك الوقت ، كان مؤداه أني بعد مطالعة هذا الكتاب تمثل لديَّ قفص من الذهب يتحرك في داخله ويتنقل بين أسلاكه اللامعة عصفور صغير ملوَّن الريش ، مرح كل المرح كأنهُ يضرب بأجنحته الصغيرة جوانب هذا القفص الذهبي ليفلت من قيود أسلاكه وينطلق منه الى الفضاء الواسع والجو المطلق الفسيح لأنهُ لا يطيق الاحتباس ولا يقدر على ان يكون سجيناً في مكان ضائق بأمانيه في الحياة . وتبين — لما عرفت ميًّا بعد ذلك — ان العصفور الصغير لما بدأ الحياة خارج المدارس وأقبل على مغامرات تكشفت أمامه وسائل النجاح القريب ، ورأى آفاقاً بعيدة للآمال ما كان ليحجم عن التوجه اليها بكل قواه . فأخذت ميّ تقرأ الادب العربي وتتعلمهُ ، ورأت ان مجالها يكون أفسح حين تكتب بلغة قومها ، وان ميدانها يكون أرحب وأوسع حين تعبر بلسان أهلها ، ورأت كذلك ان تفوُّقها المنشود لا يتخذ له ذريعة أقوى من ان يستند الى شعورها الشرقي ، والطبع الأصيل الذي أخذته من منبتها

وكانت فطرتها تعينها على المجهود المطرد القويّ ، فما لبثت ان تضلعت من اللغة العربية تضلع الذين قضوا وقتاً طويلاً في مدارستها . وهنا انتقلت فيها الشاعرية من الطريقة التي كانت قد بدأت بها في ديوانها الاول — طريقة العروض والروي — الى طريقة البيان الآخذ بين النظم والنثر مما له خصيصة في اللغة العربية . ولك ان تقول ان شاعريتها في اللغة العربية كتبت بطريق النثر الفني وهذا هو ما اختصت به في اسلوب كتابتها الى ان ماتت فتكتب مصورة وملحنة ، ومقسمة للكلام على تقاسيم شعر خفي تتحرك بهِ النفس

واتفق بجانب هذا انها كانت قد أوتيت فيما أوتيت من مواهب قوة الفصاحة اللسانية والتعبير العجيب برنات الصوت واشارات النظر والايدي . فلم تلبث ان ظهرت بمظهر الخطيبة التي لا تجارى وهي تلقي كلامها من فوق أعواد المنابر . ولقد يبلغ بك الظن وأنت تسمعها تخطب انه لو ان ممثلة من كبريات الممثلات أخذت كلامها وألقته لا يكون عندها من ابراز المعاني ما عند ميّ بهذه السهولة وذلك اليسر . فلا ننسى انها كانت لها هذه المقدرة العجيبة من غير كلفة ومن غير ان يبدو هناك عناء او تصنع

مضت في كتابتها ناحية هذا النحو واستطاعت بهِ ان تتناول اغراض الحياة وان تبحث فيها كما يبحث الذين يشتغلون بالصحف أو بتأليف الكتب الاجتماعية القريبة التناول . وذلك بقصد اشاعة فكرة الخير والعدل بين الناس ، والتنبيه الى كل ما هو واجب او مستحب لنهضة الأمة تارةً ، ولنهضة كل فئة من فئاتها تارةً أخرى . وبهذا نزلت الى ميدان العمل

الكتابي ، ولكنها بقيت على طريقتها من الانشاء الشعري الاحتفالي . ورأت بعد ذلك لاستكمال ثقافتها ان تقرأ ما شاء الله من دواوين العرب وأمهات كتبهم . وكذلك قرأت من دواوين الفرنجة وأمهات كتبهم ما لا يكاد يحصى ، ثم اندفعت لتعلم اللغات الأجنبية وأتقنت منها بضعاً اتقاناً كان يحار له ابناء تلك اللغات . وفوق هذا طالعت المذاهب الفلسفية المختلفة وكانت تتحدث حديثاً عجيباً بموازنات بين الادباء أحياناً والشعراء أحياناً والفلاسفة أحياناً بما يُقضى له عجباً

فمع كل هذا العلم الواسع والادخار الكبير من ثمرات المطالعات التي لم تنقطع عنها يوماً أو بعض يوم ، وأفنت فيها معظم مجهوداتها كان الشعر من حيث هو أعاريض وقوافٍ قد أصبح من الاشياء التي تفكر فيها كما يُفكَّر في التحف الفنية ، والألطاف البديعة ، والزينات الشائقة ولكنها لم تر ان تذهب في مطالبة نفسها بهذه الصناعة إلى أبعد من هذا الحد

لم يحصل أن ميًّا آثرت ديواناً على ديوان أو فضلت شاعراً على شاعر — وهذا بقدر علمي — وكان يطربها في الشعر ويأخذ من نفسها كل مأخذ إما الشعر العالي الخيال ، المخدوم الصياغة الذي ينبه في النفس العواطف تنبيهاً قويًّا ، وأما الشعر الذي كُتب لأغراض موحَّدة فُصلِّ فيه تفصيلاً محكماً ، وقدّرت أجزاؤها تقديراً مترابطاً ، وانتهت بهِ الى مغازٍ ومرامٍ تقع موقعها من الانسانية عامة أو من أمة معينة يكون قد كُتب لها ذلك الشعر

لم تغرم ميّ بالموازنات بين شعر وشعر لأنها كانت تخشى بذكر ايثارها لنوع من الشعر على الآخر أن يكون في ذلك تثبيط لأية حركة تريد امم الشرق أن تندفع بها الى تعديل أو تبديل أو اصلاح فيما ألفته وجمدت عليهِ دهراً طويلاً

بقي أن أقول لك — وذلك ليس من موضوع شاعرية ميّ — أن كل عنايتها كانت اصلاحاً في الأخلاق والآداب ، اصلاحاً في روح الأمم ومطالبها اصلاحاً في المعايشة بين الجنسين ، اصلاحاً في التربية — وخاصة تربية الاطفال ، اصلاحاً في توزيع الاحسان وتدبير شئونهِ بدل أن يكون مقصوراً على صدقات تكاد تكون بلا قيمة في النهاية . ذلك كله كان موضع عناية ميّ ومثار مشاغلها ، وأما مناقشتها في المسائل العلمية فكانت تجد سامعيها ، ولم يكن كلامها في مسألةٍ كلام عابر سبيل ، أو حديث غير المتثبت ، بل كان كلام الواثق ، وحديث العارف . وما ادعت يوماً أنها فيلسوفة وكذلك كان موقفها من الشعر تقرأ وتفهم ما هو أحلى وأصفى ولكنها لا تدعي أن تتعرض للمفاضلة . أعني بجملة الكلام كانت في نهاية أمرها قد بقيت فيها روح الشاعرية كامنة ، ولكنها — على كون هذه الروح فيها — لم تشتغل بالشعر ولاحواليه من حيث هو صناعة

حديث مي

ليس الحديث مع الأموات بأجسادهم الفانية بدعة ، فلقد أتاحت لي ميّ في خلال قراءاتي الكثيرة لكتبها ومقالاتها أن أصطنع معها بالروح حديثاً ، وأجلس معها بضع ساعات كما جلست مع حضرات الافاضل الذين سجلت لهم أحاديثهم كما شاءت « المقتطف » أن أصنع

ولم يكن حديث « ميّ » معي حديثاً نطق به لسانها أو انفرجت عنهُ شفتاها ، أو تكيّف بصوت مخصوص ، أو جَرْس مسموع ، ولم أسمعهُ بنغمة أو نبرة أو لفظة ، ولم يصل الى مسمعي كلاماً مرتلاً ، أو لحناً مسلسلاً . .

ولكنهُ حديث أخذتُهُ من خلال كتبها ، واقتطفتهُ من بين مؤلفاتها ، ولقد حافظتُ فيهِ على الأصل ، وأبقيتُ فيهِ على كلماتها بذاتها ، وتنقلتُ في الحديث من كتاب الى كتاب ، ومن صفحة الى صفحة

وما كتابات ميّ في كتبها ، ولا عباراتها في مؤلفاتها ومقالاتها ، وخُطبها ومحاضراتها الاّ أحاديث مسطورة لساعتها ، مكتوبة في حينها . فاذا عرضتُ اليوم بعضاً منها فما زدتُ على أني تصورت « ميّا » الكاتبة « تتحدَّث » بما كتبتْ ، وتمثَّلتُ ميّا المؤلفة « تتكلم » معي بما ألَّفتْ ، أو بعبارة أصح وأوضح ما زدتُ على أني أنطقتُ « ميّا » الصامتة اليوم لتتحدَّث بعباراتها هي ، وبألفاظها هي التي وردت في كتبها أو آثارها ...

ولستُ في هذا بمفترٍ على ميٍّ أو بمجترئ على قداسة روحها وجلال موتها ، ولستُ في هذا أيضاً بكاذب على القراء حينما أصطنع الحديث مع الأموات ، فان « ميّا » الجثة الهامدة والهيكل الفاني والجسد الترابي قد مضى الى التراب ليختلط بذراته ثم يكون بعد ذلك أديماً للارض التي يجب ان نخفف الوطء فوقها ...

أما « ميّ » بروحها وفكرها وبالمعاني المعنوية فيها فهي خالدة باقية نتصورها محدّثة ولا نجد غضاضة في قبول هذا التصور ، ونتخيل أنها تتكلم معنا بكلام هو الرجع والصدى لما صدر عنها في كتبها من كلام

١ — سألتها : (لقد زرت يا ميّ « عين زحلتا » بلبنان ، ورأيت نهر الصفا يتدفق عند قدم الجبل فماذا أوحت اليك هذه الزيارة ؟)

فقالت لقد خاطبت النهر قائلةً :—

أنهر الصفا ! جئتك تعبة الروح والجسد معاً

قرأت خلاصة الأحوال الحاضرة فدوى في مخيلتي هدير المدافع وتمثلت لناظري صور الحرب المخيفة ، ثم قصدت الاجتماعات فملأ أذني ضجيجها التافه ، وضجرت نفسي من معانيها السطحية ومراميها الخبيثة . عجبت لبلاهة الانسان وركاكة أمياله وفتور همته . اذ ذاك سمعت اسمك الموسيقي فأحببته لأن فيه جمالاً وعذوبة وسلاماً

على هذه الصخرة حيث أنا أحلم ثملة بما شربته مشاعري من رحيق الخيال العلوي كان يجلس الأمير بشير الشهابي الكبير . كثيرون بعده وقبلي جلسوا هنا وفؤاد كل منهم منقبض تهيباً وخشوعاً أمام أنفاس الطبيعة وأصوات الخلود . ما يجول بخاطري الآن كان يجول بخاطرهم لأن الأفكار تتشابه في المصدر وفي النتيجة رغم تشعبها وتفرعها ، والرغائب الكثيرة اللاصقة في أعماق النفس هي هي في كل آن ومكان (من كتابها : ظلمات وأشعة)

٢ — فسألتها : (في الحرب الطاحنة الآن جنّ جنون البشر ، فالبر في خطر والبحر في خطر، وكل يوم تغرق سفينة او بارجة، فهل تذكرين غرق « لوزيتانيا » في الحرب الماضية وماذا أثار غرقها في نفسك ؟)

فأجابت موجهةً الخطاب الى لوزيتانيا : —

لوزيتانيا ! لوزيتانيا !

سوف ينتقم لكِ البشر من البشر . سوف يقيم التاريخ لكِ ولأخواتك جميل الآثار . سوف تنظم لك الأناشيد . ويعزف لذكرك طروب الآلات

واذا سئلت في أعماق الهاوية عن الانسان الذي أبدعك واستخدمك فقولي أنه ما زال كبير المطامع موفور الغرور، وأنهُ في غرورهِ قد أحبّـك وبكاك

واذا سألتكِ روح الهـاوية مذهولة : إذَنْ كيف فتك بك ؟ فأجيبي بمـا يقولونهُ في ربوعنا من أن الذي قضى عليك ليس التحالف الملقب بالانساني . بل المبطاش المنعوت بالجرماني .... (من كتابها : ظلمات وأشعة)

٣ — فسألتها : (ما رأيك في الحب ؟)

فأجابت : ما أعظم الحب . وأشرفهُ في القلب المتبصر الحكيم ! هو أقدر عامل ينهض بالانسانية مسهلاً طريقها مخففاً أثقالها ، خالقاً من أبنائها الابطالَ والجبابرة ، وأجمل الارواح وأكبر القلوب وأنبل النفوس انما هي تلك التي يظل فيها نهر الحب دائم الفيضان وتظل تبعث

شعاع شمسنا الداخلية الى ما وراء الفرد والبيت والوطن فتمتد على كل شيء وتضيء كل شيء

الذي يحب كثيراً يفهم كثيراً لأن الحب أستاذ ساحر نتعلم منهُ بسرعة ويفتح لنا رحب الآفاق يهمّم فيها صوته المحيي الذي لا تسكته أصوات الأفراح والأحزان . ولكن كم نصغر الحب ونحقره عندما نحصره في الموضوع الواحد الذي تدور حوله الروايات والأشعار الغزلية، وننسى انهُ الرابطة الكبرى ، كدت أقول الرابطة الوحيدة بين أجزاء الكون وبين الانسان والموجودات ، وانهُ هو وحده دواء السآمة الناجع وبلسم التعزية الفعَّال

(من محاضرتها : غاية الحياة)

٤ — فسألتها: (ما رأيها في موجة الدمقراطية التي لمست مصر في العهد الحديث ؟)

فأجابت : (لقد لمست موجة الدمقراطية شواطىء الشرق الأدنى ، وأول من هتف بها في مصر احمد لطفي السيد بك « باشا » ، يوم كان بعضهم يطلقون عليهِ مزاحاً لقب الفيلسوف الديمقراطي. ولم تقف المسألة عند حدّ المزاح بل هو لاقى من اعتناق الافكار الحديثة مصائب واحتمل سخافات ... وهنا الوقائع التاريخية تقضي بالاعتراف بأن اسم الدمقراطية جديد في هذه البلاد ، ولكن معناها غير جديد . لأن الاسلام كان أبداً ديمقراطي المبادىء ديمقراطي الأساليب . وهل من ديمقراطية أتم من ان نرى الملوك يتخذون لهم من الجواري زوجات شرعيات ويرفعونهنَّ الى مرتبة الملكات . أو هل من ديمقراطية أوفى من أن يخرج من الطبقة الدنيا قوم يرتفعون بكفاءتهم الشخصية ورجاحة عقولهم فيحملون أعظم الالقاب ، ويقلدون أجل المناصب ؟ (من كتابها : المساواة)

٥ — فسألتها : (كيف يؤثر فيك منظر الربيع المودع والنضارة المولية ؟)

فقالت : أشرقت الشمس وعلت فوق ذرى الجبل الواحد الذي يخفر عاصمة أبي الهول ، ومضت الأطيار الى عمل النهار وليس على الغصون من طير يصدح . واستيقظ أهل المدينة ، وبدأت حركة الشوارع ، واستؤنفت جلبة العمران . وفاض النور على جوانب الأفق وساد طليقاً في كل مكان . وعما قليل تشتد حرارته فتصلينا بسعير الظهائر والهواجر

ثم وجهت الكلام الى الربيع المودع قائلةً) : —

أ كذلك وداعك ، أيهذا الربيع ، في آخر صباح من أصباحك ؟

وهل أنت تقبل كما يقبل الواحد منا ، وتدبر كما يدبر ، وتسلم وتودع مثلنا سواء بسواء ؟

أم أنت تتولد من قلب الشتاء كما يتولد الفرح من قلب الترح وتذوب عناصرك في مطلع

الصيف فتمده بالقوة والحيوية كما يغني الأمل مصادر النضج في الانسان ويعلمهُ كيفية التحقيق ؟

ألا ان هذه الحياة متحابكة الحلقات ، متسلسلة الوقائع ، متضافرة الفوارق ، متلازمة الاضداد ، نحسب اننا نحذقها ونفسرها ونتصرف فيها ، على حين هي تعالجنا وتتصرف فينا من غير ما شرحٍ ولا تفسير ! » (من « وداع الربيع » : المقتطف يوليو ١٩٣٠)

٦ — فسألتها : (هل شعرتِ يوماً بأنك غريبة في مصر ؟ وما رأيك في العلاقات بين مصر وسوريا ؟)

فقالت : مصر . سوريا وطن واحد ما زالت العلاقات المتبادلة تزيده كل يوم توحيداً ، السوري في مصر بين اهله واصحابه ، والمصري في سوريا بين ذويه وأحبابه

أنات مياه النيل صدى آهات النسيم في غابات سوريا ، والطبيعة التي تزمجر هناك بين المرتفعات والمنحدرات ترتاح هنا منبسطة على صفحات المروج الفيحاء

مصر وسوريا ، كلاهما همستان مختلفتان من لغة جميلة

مصر وسوريا ، كلاهما محسن وكلاهما محسوب . لكن تبادل الاحسان والمحسوبية يؤيد صداقتهما ، ويزيد في اتفاقهما ، ويجعل قلبهما خافقين على وفق نغمة واحدة

(من كتابها : كلمات واشارات)

٧ — فسألتها : (لقد بدأ العام الجديد عام ١٩٤٢ . فهل عندك كلمة تحيين بها مطلعه ؟)

فقالت : تمهيداً لذلك اليوم الآتي أحيي الآن كل متشح بالسواد ، أما السعداء فلهم من نعيمهم ما يغنيهم عن السلامات والتحيات

أحيي الذين يبكون بقلوبهم ، أحيي كل حزين ، وكل منفرد ، وكل بائس ، وكل كئيب ، أحيي كلاً منهم متمنية له عاماً مقبلاً أقل حزناً وأوفر هناءً من العام المنصرم

نعم للحزين وحده يجب ان يقال : عام سعيد ! (من كتابها : سوانح فتاة)

***

والى هنا طَويتُ كُتبَ « مي » المبعثرة على المنضدة أمامي ، ولممتُ آثار « مي » القلمية المنتثرة بين يديَّ ومن خلفي …

وبدا أول وميض من نور الصباح الباكر ينفذ الى غرفتي من خلال الزجاج ، كأنه يدعوني الى الاستعداد للعمل ، والتأهب لاستئناف النضال اليومي في سبيل العيش

فنحيت كتب ميٍّ ناحيةً وقلت : — الى هنا طويت الكتب ، لتنشر بعدها الأحاديث

وإنما المرء حديثٌ بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

محمد عبد الغني حسن

تأثير الاوبئة

في الحروب الماضية

«من الأقوال العامة في الحرب والسلم المسلَّم بصحتها قول قديم مؤداه ان المرض في الحرب أفتك بالجند والناس من الاسلحة. وقد أشار المؤرخون الى ما يؤيد هذا القول في حملة زركسيس الفارسي على اليونان، وفي الحروب الصليبية، ثم في حرب الثلاثين سنة وغيرها من الحروب التي تلت الثورة الفرنسية ولا سيما حروب نبوليون في عهده الأخير عند ما ضاق الخناق عليه وعلى قارة اوربا. أما الحروب القريبة منا فمنهم حرب القرم وقد تفشت في أثنائها حمى التيفوس والهواء الاصفر والديسنطاريا وغيرها في صفوف الجيوش الروسية والبريطانية والفرنسية ففتكت بها فتكاً ذريعاً وحصدت من النفوس أضعاف ما حصده القتال. وفي الحرب الاميركية المكسيكية (١٨٤٦—١٨٤٩) بلغت الاصابات الناشئة عن المرض في الجيش الاميركي سبعة أضعاف الاصابات الناشئة عن القتال. وفي الحرب الاهلية الاميركية قتل المرض من الجند ١٨٦ الفاً ولم يقتل في المعارك سوى نصف ذلك»

هذه الفقرة كانت استهلال مقالٍ في «الحرب والمرض» نشرناه في صدر مقتطف اغسطس الماضي. وكان مداره على ضروب التقدم العلمي والطبي الحديث في مواجهة المشكلات الناشئة عن المجاعة وتفشي الامراض في اثناء الحرب. ثم اطلعنا على مقال نشر في «المجلة الارلندية للعلم الطبي» فصَّل فيها الكاتب عدد ما ذهب من الناس ضحية الامراض والاوبئة في الحروب الماضية فلخصناه في ما يلي: —

كانت الحرب العالمية الماضية (١٩١٤—١٩١٨) الحرب الاولى في تاريخ البشر — على مدى علمنا — التي لم يزد فيها او في مناطق القتال الفعَّال في غرب اوربا على الأقل، الوفيات ضحايا المرض على ضحايا القتال. ففي حرب البوير في اواخر القرن الماضي، اربى عدد الوفيات بالتيفود على القتلى بالرصاص. وقد بلغت قوة الجيوش البريطانية في أثناء القتال ٥٥٧ الفاً أو ٢٢٦ر٢٠٨ محارباً على المعدل، أصيب منهم ٥٧٦٠٤ جنود بالتيفود وتوفي من هؤلاء ٨٠٢٢ مصاباً. وبلغ عدد المتوفين من المصابين بأمراض اخرى ٣٣٠٥ مصابين فكان المجموع

١٣٢٧ أما عدد الذي قتلوا في الميدان أو متأثرين بجراح اصيبوا بها في الميدان فبلغ ٦٤٢٥ جنديًّا فعدد ضحايا المرض بالقياس الى ضحايا القتال كان ٧ الى ٤. ولكن بحث تأثير الأوبئة في الحروب لا يقتصر على بحث حالة الجندين بل يشمل كذلك حالة المدنيين . ولذلك يجب ان يضاف ١٤ الف طفل و ٥ آلاف من الكبار في المعتقلات توفوا مصابين بالحصبة والسعال الديكي والتهاب الغدة النكفية والدفتيريا والتيفود . فيبلغ عدد الذين توفوا بالمرض في اثناء تلك الحرب ٣١ الفاً وهذا رقم لا يدخل فيه حساب خسارة البوير انفسهم

أما كون الوفيات الناشئة عن المرض كانت اقل من الوفيات الناشئة عن القتال ، في الحرب العالمية الماضية ، فيجب ان يعد ظفراً عظيماً للطب الحديث . ولكن الاصابات والوفيات الناشئة عن المرض في مناطق حربية بعيدة كبلدان اوربا الشرقية والبلدان الاسيوية حيث تفشت اوبئة التيفوس والتيفود والكوليرا ، وربما الطاعون ، كانت عظيمة حقًّا

وصف توسيديديس المؤرخ اليوناني المشهور الوباء الذي اصيبت به اثينا في اوائل القرن الخامس . ق . م . وليس ثمة شك — اعتماداً على وصفه — في انه كان وباء حمى التيفوس ، وان كان في بعض أقواله ما يشعر بأنهُ وباء طاعون . وقد كان الطاعون على ما يظن معروفاً لليونان القدماء ولكن هذا الوباء الذي تفشى في اثينا كان مرضاً جديداً لا عهد لاطبائها بهِ من قبل

والغالب ان وباء التيفوس هو أقدم أوبئة الحرب وأوسعها انتشاراً . بينما يغلب على الرأي ان انتشار الطاعون يتبع الاختلاط التجاري ، وتفشي الملاريا يشمل الجيوش التي تنزل في البطائح او البقاع التي تمكن منها هذا المرض . اما التيفوس فيبدو انه دائماً متصل بالحرب والمجاعة والفاقة والازدحام ولا يقتصر تأثيره على الجيوش بل يشمل الاهلين كذلك . ومن المحتمل انهُ كان مصحوباً في أثينا بالحمى الراجعة وحمى النخاع الشوكي وربما الجدري . ولكن المرجح ان المرض الغالب في الوباء الاثيني الذي وصفه توسيديديس كان مرض التيفوس

وكانت حمى التيفوس قد أصبحت نادرة في اوربا قبل الحرب العالمية الماضية وما بقي منها كان معروفاً على الاكثر في بولونيا الروسية وتركيا والى شرقها . أما كيف فاع وبأ التيفوس وانتشر في اثناء الحرب العالمية الماضية ففيهِ عبرة لمن يعتبر . فقد بلغت الاصابات بهِ في بولونيا ٤٠٠ الف توفي منها ٤٠ الفاً أي عشرة في المائة من المصابين . ونقل الاسرى الروس العدوى الى المانيا والنمسا . ولم يكن في الجيش السربي إصابة ما بها حتى احتل بلدة ڤاليڤو على حدود البوسنه فأسر هناك ٤٠ الف اسير وكان بينهم ثلاثة آلاف مريض وجريح وكان بين المصابين عدد وافر مصاباً بالتيفوس . وكان السربيون في حاجة الى اليد العاملة ففرقوا الاسرى في طول البلاد وعرضها فانتشر وبأ الحمى حاصداً الناس حصداً . وفي مارس سنة ١٩١٥ تولّت بعثة

طبية بريطانية مكافحة الوباء فحدّت من انتشاره اولاً ثم تغلبت عليه . ولكن خسارة سربيا بلغت ما يزيد على مائة الفٍ توفوا بهذه الحمى الخبيثة

وبعد ما انتهت الحرب انتقلت طوائف كبيرة من السكان من بولونيا الى روسيا ثم من روسيا الى بولونيا فقاع وبأ التيفوس ثانية وأصبح خطراً كبيراً على صحة سكان اوربا . ولكن نشاط القسم الصحي بجامعة الامم حال دون انتشاره . ولا يعلم عدد الذين توفوا بالتيفوس في هذه الفترة ولكن الهيئات الصحية التي كانت تكافحه في بولونيا خسرت ١٨٥ من اعضائها بهِ

وقد روي من عهد قريب ان الاصابات بالتيفوس بدأت تظهر ثانية في شرق اوربا

ان تاريخ الحروب الصليبية حافل بذكر الأمراض والاوبئة، ولكن ليس في وسع المؤرخ الطبي ان يقرر الأمراض التي كانت منتشرة فعلاً حينئذٍ . فالامبراطور فردريك بربروسا فقد كل جيشه بعد استيلائه على روما في سنة ١١٦٧ والغالب ان حمى التيفوس كانت سبب هذه الكارثة . ويقدر عدد الذي ذهبوا ضحية المرض في الحرب الصليبية الاولى من رجال الجيوش او المتصلين بها بنحو مائة الف والغالب ان الطاعون كان سبب وفاتهم . ولا يعلم على وجه التحقيق عدد الذي توفوا بالطاعون في حرب الثلاثين سنة لأن الطاعون كان مصحوباً بالتيفوس والديسنطاريا . غير أن سكان اوربا نقصوا في هذه الفترة من ثلاثين مليوناً الى ١٣ مليوناً ولم يزد عدد الذين توفوا متأثرين بجراحهم على خمسمائة الف

أما في حرب القرم فقد خسر الانجليز ٤٦٠٠ من القتلى و١٧٫٥٠٠ متوفين بأمراض شتى وخسر الفرنسيون ٢٠٢٤٠ من القتلى و٧٥ الفاً من المصابين بمرض ما . وذلك لان الجيش على ما يلوح نقل معهُ الكوليرا من فرنسا . وفي الحرب الاهلية الأميركية اشترك في القتال مليون جندي فقتل منهم ١٨٢ الفاً ومات بالمرض ٣٦٤٥٨٦ أي ضعف عدد القتلى . ومجموع القتلى والموتى يربي على نصف الجنود الذين اشتركوا في القتال [1]

ولم تصب الجيوش الالمانية في حرب سنة ١٨٧٠—١٨٧١ بخسارة فادحة ناشئة عن المرض إذ لم تزد نسبة الوفيات بالمرض الى القتلى على ٧ الى ١٣ ولكن الحرب نفسها كانت باعثاً على انتشار وباء الجدري وهو وباء وصف بأنه من أشد اوبئة القرن التاسع عشر . فمات بهِ ٢٠٠ الف في فرنسا وأصيب ١٤ الف من الاسرى الفرنسيين في المانيا فأفضت هذه الاصابات

(١) في مقال « الحرب والمرض » الذي تقدم ذكره أرقام تشير الى ان عدد القتلى في الحرب الاهلية الاميركية بلغ ٩٤ الفاً والمتوفين مصابين بمرض ١٨٦ الفاً . وبين الارقام الواردة في المقال الماضي والارقام الواردة في هذا المقال بون شاسع والارجح ان المقال الاول يشير الى قتلى وموتى جيش الشمال دون جيش الولايات الجنوبية

الى تفشيه في المانيا حيث مات به ١٧٠ الفاً وانتشر في سويسرا وبلجيكا وهولندا ثم في ايطاليا والنمسا وبلغ انجلترا . فعدد الوفيات بالجدري في بريطانيا لم يزد على ١٥٠٠ في سنة ١٨٦٩ ولكنهُ بلغ ٢٣ الفاً في سنة ١٨٧٢ ولم تنجُ من آثاره البلدان السكندناوية وروسيا وجزائر الهند الغربية وجزائر المحيط الهادىء

وقد لا تعد الانفلونزا من اوبئة الحرب بحصر المعنى . ولكن الوبأ الذي تفشى سنة ١٩١٨ — ١٩١٩ يعد أحد الأوبئة الكبرى في التاريخ . ففي عصر الامبراطور يوستنيانوس دام وبأ الطاعون اثنتين وخمسين سنة وبلغ عدد الوفيات بهِ في القسطنطينية عند ما بلغ اشده من خمسة الآف الى عشرة آلاف كل يوم ودام ذلك نحو ثلاثة اشهر . ويقال ان وباء القرن الرابع عشر المعروف بالموت الاسود حصد ٢٥ مليون نفس أي ربع سكان القارة الاوربية حينئذٍ . ولكن هذين الوبأين لم يتفشيا تفشيًّا عالميًّا كما تفشى وبأ الانفلونزا الذي فاع في اثر الحرب العالمية الماضية . ولا يعلم عدد الوفيات التي نشأت عنه في شتى بلدان العالم . ولكن اذا أضفنا الوفيات بهِ في الصين وروسيا الى خمسة ملايين وفاة في الهند و ٨٠٠ الف في ايطاليا و ٤٥٠ الفاً في الولايات المتحدة و ٢٥٠ الفاً في اليابان و ٦٠٠ الف في المانيا وارقاماً اخرى على هذا النمط في بلدان اخرى فقد لا يقل عدد الوفيات بهِ عن عشرين مليون وقد يبلغ ثلاثين مليوناً

وليس ثمة ريب في ان الجوع ونقص الغذاء يفضيان الى كثير من المرض والموت ولا سيما في أثناء الحرب ، عند ما توزع الاقوات بالجراية والبطاقة ، ومن هنا ما رويناهُ قبلاً في المقتطف من عناية بلدان شتى كبريطانيا والمانيا والولايات المتحدة بالاعتماد على البحث العلمي في جعل الجراية المتاحة لعامة الشعب محتوية على جميع عناصر الغذاء الأساسية . وهذا البحث العلمي في الغذاء نشأ معظمهُ عن أمراض نقص الغذاء التي تفشَّت في أوربا بعد الحرب الماضية ، وفي سائر البلدان حيث مستوى الغذاء العام دون الحدّ الوافي بحاجة الجسم

ففي فينَّا مثلاً انتشر الكساح انتشاراً عظيماً في سنة ١٩١٨ وهناك كشفت حقيقة عظيمة الشأن في علم الغذاء الحديث وهي ان ضوءَ الشمس يحلّ محلّ فيتامين D . والأمثلة على ذلك كثيرة . والاسكربوط — وهو من أمراض نقص الغذاء — مرض يقترن انتشاره دائماً بالحروب . أشار اليهِ أبقراط وتفشَّى في أثناء الحروب الصليبية وحرب القرم وحصار باريس ١٨٧١ وبورث آرثر ١٩٠٤ — ١٩٠٥ وبلغ عدد الاصابات بهِ في الحرب الأهلية الأميركية ٣٠ الفاً وانتشر انتشاراً واسعاً في روسيا وبلغاريا ورومانيا وسربيا والمانيا والنمسا في الحرب العالمية الماضية . وكذلك الزهري وذكره الأول في أوربا يرتدُّ الى القرن الخامس عشر ويقترن بحملة شارل الثامن على ايطاليا وعند ما تفرَّق جيشه نشر هذا الداء في انحاء اوربا



رابندرانات تاجور

كما أعرفه

لمحمود المنجوري

— ١ —

وُلِدَ تاجور في مدينة كلكتا عام ١٨٦١ م ، وكان أبوه صِدّيقاً متعبداً ، يخرج كل يوم الى منسَكٍ له بالغابة ، غدا فيما بعد مدرسة تاجور التي أشرقت منها مبادؤه الروحية والعالمية . وكان تاجور في صباه حدثاً متروكاً لرعاية أم لم ينعم بحنانها الاّ قليلاً ، اذ توفيت بعد مرض أصابها ، فكان لوفاتها في ذكريات تاجور أبلغ الأثر وأعمق التأثير . ولم يجد تاجور في بيته رعايةً ، اذ انصرف أبوه عنهُ الى منسكه ، يحدّث الناس والأتباع فيما يدعو اليهِ الرجل الحكيم الفيلسوف من النظر والتفكير في النفس وفيما حولها من كائنات . فنشأ محروماً من حنان الأم ورعاية الأب ، ولكنهُ خرَّج من الفجيعة سُلواناً اذ لجأ الى الطبيعة ينظر فيها ويعيد النظر والتفكير ، حتى ارتسمت في خياله الصغير صور الحياة ، ولقد سجل تاجور هذه الفترة من صباه في كتاب أرسلهُ الى صديق فقال فيه :

« لم تلبث ان حرمتني الايام من أمي وأنا حدث صغير فأصبحت وحيداً بلدار ، آوي الى نافذته ، أرقب الطبيعة فارتسمت في أخيلتي ما يجول بالعالم من صور شتى ، لقد كانت لى الطبيعة الرفيق الذي لازمني والذي وجدته جواري دائماً . إني لا أعرفه حقاً ولكنه رفيق مخلص علمني كل شيء » (١)

ولما بلغ أشدَّهُ ذهبوا بهِ الى المدرسة ، ولكنه لم يلبث ان ناله ما يغيظ قلب الطفل البريء من اعوجاج نظام لا يتفق مع ميوله الحرة ، فخلق سوء نظام المدرسة من قلب تاجور ، المربيَ المجددَ المحبَّ للطفل ، والذي يرى فيه العالم منطوياً الى حين ، فهجر المدرسة ساخطاً ، ولكن والده الشيخ عهد به الى اساتذة آخرين يعلمونهُ في البيت ، فلم يغير هذا التعليم من رأيهِ ، ولقد قال يوم افتتح مدرسته

« لقد قلت لكم انني عند ما أنشأت هذه المدرسة ، لم تكن لى خبرة ما بالتعليم ، ولكني في الواقع اكتسبت منذ تلمذتي خبرة سلبية عرفت بها ما يجب ألاّ يعامل به الطفل ، وهو ما كان موضوع آلامي ، وكنت أتألم مدة طفولتي من شعوري بان التربية التي كنت أتربى على نظامها في المدرسة لا صلة لها بالعالم »

ولبث تاجور في البيت بين اساتذته ، فتنبهت مواهبهُ التي أشربت منذ الطفولة حب

---

(١) « الذكريات » لتاجور

الطبيعة وجمالها، فمال الى الأدب في حداثته ، فنظم الشعر والأناشيد، وكتب القصص الصغيرة محاكياً شعراء البنغال ، حتى اذا ما بلغ الثامنة عشرة من عمره ، استرجع ما بقلبه من صور واستعاد اشباح السنين الماضية، واتخذ منها العبرة والتفكير ، واستوحى الطبيعة التي نشأ في مهدها يتيماً محروماً ، وصوّر الآلام التي تتابعت عليهِ منذ فقد أمه ، ومنذ حرمانه معينَ العطف والحنان ، واستوحى الى هذا ما كان قد قرأ في الكتب الدينية من أساطير وقصص فكتب في هذه الفترة « أناشيد المساء » ثم « أناشيد الصباح » وهما صورتان متقابلتان من وجهيْ الحياة التي تعرض للشباب، يأساً حيناً وأملاً حيناً، حزناً حيناً وفرحاً حيناً ، حبّاً حيناً وترددا حيناً

ولقد كان تاجور في هذه الفترة يلحن الاغاني الدينية ويرتلها في المعبد بصوت أغن حبّب الناس فيهِ ولفت اليهِ انظارهم . وفي هذه الفترة الدقيقة من الحياة ، عندما يتفتح قلبُ الشباب ، ويقبل ربيعُ الحياة بهيجاً أو عابساً ، في هذه الفترة الدقيقة من الحياة يجب أن نبحث عن أثر المرأة في الشاعر . ولكن تاجور قد تركنا دون ان يرشدنا الى المرأة التي ألهبت قلبه ، والتي علمتهُ أغنية الحب الاولى — لقد قال ان الطبيعة هي التي علمتهُ كل شيء، ولكن الطبيعة لا تعلّم الحبَّ ، وإنما تعاون الشاعر على ان يدرك معاني الحب ، وهو لم ينشر كتبه عقب تأليفها ، وهو لم يقدم لنا شعره طبق السن التي قاله فيها — ولذلك اضطرب ادباء الغرب جميعاً في تخريج شعر الشباب من بين أشعار تاجور الصوفية ، وذهب أغلبهم الى وهم خاطىء فغلّبوا الصوزة الصوفية على جميع أشعار تاجور — ولكن كيف لا يحب تاجور ، وهو شاعر الحب الذي دلَّ الذات البشرية على طريقه المقدَّس ، كيف لا يحب تاجور وهو الذي يدعو الناس الى الانسجام بروح الكون — ان المرأة ولا شك ، قد لعبت بأناملها أدقَّ وأعزَّ الانغام القدسية في قلب هذا الشاعر — ان خيال المرأة يدور دائماً في شعره ، بل ان شخصها لقائم في ديوانه، وان عطفها وحنينها لمترددان دائماً بين متاحفه الكثيرة التي ألَّفها في عهوده المختلفة

وأغلب الظن عندي ان تاجور كتب في فترة شبابه رواية « شترا » وهي مسرحية غنائية اقتبس فكرتها من اساطير اللغة السنسكريتية من كتاب « المهاب هراتا » المقدَّس . و « شترا » امرأة نشأت نشأة الرجال لترث ملك أبيها ، ولكن قلب المرأة لا يغلَّف ولا تُسكبت فيه الأنوثة ولا الحنين الى الطفل هي لم تخلق الاَّ لتكون عوناً للرجل ومهبطاً لقلبهِ وأمّاً لولده ، ومشاعرها جميعاً توحي اليها ان تكون نظاماً مكملاً للاضداد فهي كالسلب من الايجاب وكالضوء من الظلمة وكالحركة من السكون [1] — وعندما تقابلت « شترا » « بأرجونا » أول رجل

(١) « مي » في محاضرة سنة ١٩٢٦

لقيت،تداعى استرجالها وتفتحت أنوثتها وعصف الحب بقلبها.وهنا يقول تاجور على لسانها:

« لقد شعرت اني امرأة وخلعت زي الرجال وعشت بقلبي للرجل »

ولبث تاجور في كلكتا حتى دعاه ابوه الى القرية ليتولى أمر ضياعه فعاد الى الريف وما لبث طويلاً حتى تزوج ، وكانت سنه قد قاربت الثالثة والعشرين . وقد أفاد هذا الانتقال تاجور اذ هيأ له الاندماج في الريف والاختلاط بالشعب والاستماع الى أحاديث الناس وأغانيهم وتاجور يقرر ان فلسفته انما هي فلسفة الشعب الهندي وفي هذا يقول : —

« لقد يحسب بعضكم فيما قرأ مني أني فيلسوف ، وربما كان لي حقاً من الفلسفة حظ ونصيب ، لكن ليس حظاً يفيض على شعري ويبعث بقصائدي الى قاع سحيق تغمره مياه المحيط فلا يرى من خلالها الا كما ترى الاسماك الصغيرة تائهة وسط اللج العظيم ، إنما أنا ككثيرين من أهل الهند وفلسفتي لا تتعدى فلسفة الشعب ، وتلك عندي فلسفة الشاعر » (١)

في فترة الريف عاش تاجور زوجاً باراً بزوجه واولاده ، هادئاً قانعاً بعواطفه ، فيها استمتع بجمال الحياة بقدر ما استمتع بلذة فكره وعصارة أخيلته،اذ ألف في هذه الفترة أغاني وقصصاً وكتب روائع الشعر، ومن مؤلفات هذا العهد « البستاني »و« هبة العشاق » و« الهجران » وروايات ومسرحيات أخرى متعددة

لقد كان هذا العهد هو ربيع حياة شاعرنا الحكيم ، لبث فيه الى الاربعين ينعم بمباهج الحياة وأسرارها اللينة ، ويلقى الدنيا من وجهها الضاحك الباسم — ولكن ماذا بعد الربيع ؟ لاشيء غير خريف يترك الشجرة عارية من ورقها وزهرها . لاشيء غير وحدة في صحراء الحياة لمجالدة الزمن ! لقد هبت العاصفة بدار تاجور المبتهج فماتت زوجهُ وانطفأ مشعل ابنته الكبرى ثم فجع الشاعر الحزين في أصغر ابنائه ، كل هذا في بضعة أشهر ولكن تاجور ما كان ليبتئس ، ولكنهُ كان ليرضى ، يستقبل الضُّر فيأنس منهُ الخير.ولقد سجل تاجور هذه الفترة في ذكرياتهِ

« ان عاصفة الموت التي اجتاحت داري وقصفت زهرات أبنائي ، كانت علي نعمة ورحمة ، فقد أشعرتني بنقصي ، وبعثتني الى انشاد الكمال وألهمتني ان العالم لا يفتقد ما يضيع منه . لقد عرفت حقيقة الموت ، إنه الكمال المطلق،وليس من شيء في الحياة بذاهب عبثاً ،بل مرده الى رجعة ، تاركا العبرة نعلو بها ونفكر فيها

لقد أدركت أننا في هذا الوجود لم توصد علينا أبواب سجن ، لقد انتزع القضاء ذخراً كان في حوزتي، ولكني آنست في هذا الذهاب معنى الحرية ، فاقتربت السكينة من نفسي ، ولم تعد الحياة تثقل عليَّ ، اذ الموت رافع عبئها في يوم ما» (٢)

في الحق ان هذه الفجيعة هي التي كانت السبب في تعريف تاجور للعالم الغربي ، اذ خرَّجت منهُ المعاني الصوفية التي ضمَّنتها قراءاتهُ في اللغة البنغالية والتي ألف منها في أسلوبهِ وخياله

(١) خطاب تاجور في مسرح حديقة الازبكية بالقاهرة سنة ١٩٢٦ (٢) ذكريات تاجور

كتاب « جيتا نشالي » أي « القربان الشعري » الذي تقدم بهِ الى العالم الغربي لأول مرة فعرفهُ وأحبهُ وأقبل على ادبه وشعره وفلسفته اقبالاً لم يلقهُ شاعر شرقي قبله غير عمر الخيام .

و«القربان الشعري» نثر منسجم ترجم الى الانكليزية من البنغالية وهو يصور هذه الفترة القاسية من حياة تاجور ، يصور الخريف بعد ربيع مبتهج، يصور صلوات وابتهالات متعالية من قلب حكيم شاعر مدرك لحقيقة الحياة ، هو تصوف ورمز الى المثل العليا والجمال المطلق، وهو صورة مقابلة لهذا الشعر الغَزَلي العفيف الذي ثار بهِ قلب تاجور أيام شبابه، والذي جمع من الحب والألم والأمل والحيرة واليقظة والتطلع والاستكانة والتردد ما جمع ، والذي ضمَّ من أطياف المرأة أشباحاً حلوة تلوّح بالآمال والأماني تارة وبالغدر والخيبة تارة أخرى. هذا « القربان الشعري »[1] قد دفع الناس في الغرب من أدباء ونقَّاد وكتَّاب الى ان يخطئوا في فهم تاجور ، لان تاجور قد قابلهم بهِ في صورة المتصوّف فلما قابلهم بعد ذلك بأشعاره التي نظمها ايام الشباب حسبوا تاجور أيام الشباب هو تاجور بعد الأربعين — على ان تاجور في «القربان الشعري» كان الطائر المأخوذ بجمال الله وجلاله، ولقد قال عنهُ أحد النقَّاد الفرنسيين

« إن القربان الشعري كأس طافحة بالفرح والامل ومحبة الله » وانك لتدرك من ابتهال تاجور الذي يقول فيه :

« أنت الذي اريده ، انت وحدك
أنت يارب ! أنا مصغٍ اليك ، مأخوذ أبداً بك في صمت
لست أعرف كيف أدرك اسرار الهامك
إن موسيقاك لتضيء الدنيا وتسري بأنفاسها في ارجاء السماء
بينما يجتاز فيضها المقدس السدود ويجرف الاصفاد
إن قلبي تواق الى الاتصال بأنانيتك
وقد جاهد على ان يخرج الالحان طاهرة ليلتئم بألحانك ،
ولكن عبثاً ما فعل قلبي
سأتكلم إذن ولكن انّى لبيان ان يسمو على الالحان
اني جاهد لابعد عن نفسي خطايا الزمن
اني واثق فيك أيها الحق الكريم الذي أشعلت نور الحكمة في عقلي
سأبذل نفسي لاتمسك في جميع اعمالي
أيا قويَّ . ان قوتك تهبني الصبر على العمل

نعم انك لتدرك في هذا الابتهال الصورة الصوفية التي أخذت بلب تاجور ، وإنها لواضحة المعنى في غير رمز ، وانك لتجد هذه الصورة الصوفية سافرة ايضاً في ديوان « قطف الثمار Fruit-Gathering — والصورة الصوفية التي تدور في شعر تاجور ليست الاَّ الميراث الشعري الخالد الذي تلقاه الشاعر الحكيم من قلب هذا الشرق الكبير ، الذي أوحى اليه بأصول المدنية الروحية التي لن تقهر ولن يمسَّها وهن او ضعف .

(١) ترجم «القربان الشعري» الشاعر الفرنسي اندريه جيد سنة ١٩١٤

ولقد قدَّم « القربان الشعري » للعالم الغربي الشاعر الايرلندي الشهير ييتس بمقدمة بليغة قلـد فيها تاجور إمارة الشعر في العالم في القرن العشرين ، ولقد خاطب ييتس أهل الغرب ، وهو يقدم لهم « القربان الشعري » في قوله : —

دونكم نموذجاً سامياً لادب الشرق يجود به شاعره العالمي تاجور ، فيعطيكم صوراً للحب ليست كما عهدتم معشر الشباب من مجون وعبث ، ستجدون فيها أيها العشاق ترتيلا نبيلا يدنيكم من الجمال ، ويقربكم من ادراك الحق والجمال ، ان تاجور صورة لهذا الشرق الحالم العظيم ، ومهمه في الحياة هو ان يكشف الروح ، ويعرف اسرار وحدتها بين الكائنات ويتخذ له من قيمها حصانة لادراك الحق المطلق وتهذيب العقل والقلب حتى تدرك الانسانية الكمال المثالي

ولبث الغرب متأثراً بوحي هذه الصور الصوفية العذبة ، فلما أخرج تاجور دواوين اشعاره التي جادت بها قريحة الشباب ، بقيت هذه الصور مترددة مطبوعة في أذهان الادباء ، فاختلط عليهم الأمر وتناوله نقَّـاد بأنهُ شاعر صوفي بارع في المذهب الرمزي

وفي الحق ان ثمرات الشباب كديوان «البستاني» The Gardener و«الطيور الشاردة» « Stray Birds » و « الهلال » The Crescent Moon و « هبة العشاق والهجران » و « شترا » ، كل هذه وما اليها من اشعار الشباب انما تكشفنا على ناحيـةٍ بهجة من حياة تاجور الاديب العظيم . وتدنينا من أمر قد التبس على كتَّـاب الغرب ونقَّـاد تاجور، وهذا الامر جليل خطر في حياة الشاعر وهو ليس بأفكار صوفية ، وانما هو وحي المرأة في قلب كل فنَّـان وأديب وصاحب رسالة كشاعرنا تاجور

ان تاجور لا ينكر أثر المرأة فيهِ ، هو يراها قوة تعينه على الحياة ، لا يناهضها ، ولا يرى فيها الخصم العنيد ، بل ينشد فيها الحب والرحمة والتعاون ، وهو يخاطبها في ديوانه «البستاني» خطاب الفن والموسيقى فيقول لها :

أيتها المرأة لست من صنع الخالق وحده :
بل أنت من فن الرجال
هم أبداً ينثرون عليك الجمال من أعماق قلوبهم
فالشعراء ينسجون لك ثوباً من خيوط الخيال الذهبي ،
والفنانون يسبغون على جبينك فناً من الخلود الناضر
والبحار تلقي درها ، والمناجم تنثر عسجدها ،
والبساتين تتفتح عن أزهارها
كل هذا ليكون لك جميعا حلية وزينة وبهجة .
بينما رغبات القلوب تنفح شبابك بهاء
أنت ... نصف امرأة ونصفك خيال .

فالمرأة في شعر تاجور عامل حي يقظ متحرك ، خرجت في فترة شبابه من نفسهِ العبقرية أعز ما تجود به الحياة من حب وجمـال وسموّ وفن وأدب وموسيقى . كانت لهُ فيما بعد

الاربعين سبيلاً مأموناً لادراك حقائق الأشياء ومعاني الصوفيــة العذبة التي ورثتــه اياها قراءاته في أدب الهند وفلسفة الشرق الحكيم ، ولقد استطاع تاجور ان يكتب فلسفة خالدة لهذه المعاني كلها، وان يبشر بها كأوضاع ثابتة لمدنية روحية ، يجب ان تسود العالم في وحدة متماسكة بعيدة عن الاثرة والانانية ، وما يدعو اليــه الغرب من تعاليم آليــة قائمة على المادة وحدها . فيتحدث تاجور عن الحب ويحاضر تلاميذه وأتباعه في مدرسته فيقول لهم :

« عجيب أمر الحب ، لا تتنافس فيه العبودية والحرية ، هما لا يتعارضان عند بابه ، بل يلتقيان فيه ويتآلفان ، لان الحب يستعبد بقدر ما يحرر ، وان حاجة النفس الى العبودية لا تقل عن حاجتها الى الحرية ، وان من أسمى معاني الحب ان يخضع للقيود ويرضى بالحدود،كما ان من معانيه السامية ان يحطم الاغلال ويحلق في الآفاق بعيداً عن كل سد وحاجز . الا ان العبودية في الحب مجد سام كالحرية . اوليس يسبر غور الحب بما يحتمل المحب من ذل وعبودية ؟ » (١)

وغاية الحياة عند تاجور ان تُطبع الحياة البشرية بطابع الخير والمحبة ، وان تنتزع عنها طبيعة الانانية والاثرة ، فهو يقول :

« ومتى استتب في ضميرنا نظام الحياة ، واطمأن الى ما في الخليقة من إيلاف منظوم ، أصبح ادراكنا لحب الخير جامعاً وعالمياً ، واتسم طابع الجمال في حياتنا بميسم الخير والحب العام ، وتوجه هذا بالمدنية قبل البقاء والخلود ، هذا هو غاية الحياة »

وأعلن تاجور رأيه في الموسيقى فقال :

« الا ان الموسيقى هي أنقى وضع للفن ، لهذا كانت ادل تعبير وأوضح بيان للجمال في شكله وروحه ، وهي أقل الاوضاع حملا بأثقال التعبير عن الفن الخالص . وأنقى أوضاع الموسيقى وأقربها من الفن والجمال هو الصمت والعبادة »

وليس الادب والشعر في رأي تاجور خيالاً مكذوباً ولكنهما حقيقة ومتاع بالحرية ندركها في نفوسنا وفيما حولنا من كائنات :

« الوصول الى حقائق الاشياء ، هو المتاع الحق بالحرية ، وابلوغ هذه الغاية ولاكتناه الحقيقة التي تقفل أبوابها أبداً دوننا يجب ان نبحث وان نطيل البحث وان نتصل بالاشياء المحيطة بنا ، فاذا اتصلنا بالاشياء عن طريق روحنا كشف لنا عما فيها من سر واسامتنا حقائق الحقيقة . وعندئذ نشعر بها تمام الشعور ، ونحس هذه اللانهاية المنتشرة في الكون كله والتي لا نراها بعين غير عين الروح

والوصول الى الحقيقة وسيلته الشعر ، فالشعر هو جواب الروح الخالدة ، نداء الحق الكائن في كل مكان، والشاعر هو الذي يرى الحقيقة ويبينها ، الحقيقة كما هي لا يزينها الوهم والحقيقة من حيث هي جمال مطلق » (٢)

وليس من مطالب الشعر أن يكون فلسفة ولكنهُ لن يوفّ معانيه الاّ اذا وجه وجهة الفلسفة . وأعذب الشعر ما اتصل بالحياة ، وأوصلنا إليها من طريق فهمها وادراكها ، ولا

(١) Realisation in Love فصل من كتاب سعد هانا

(٢) محاضرة بالقاهرة بمسرح الحديقة سنة ١٩٢٦

يكون الشعر متعة إلاّ اذا أظهرنا على خلود الروح من طريق الوصف والخيال

والشعر والفلسفة لا يتناقضان ولكنهما يتعاونان ، ولن يكون شاعراً المتشاؤم المهزوم ولا الثائر المحطم الاعصاب ، لان الشعر هو ترديد لنغمات قلب كبير مفعم بالايمان والحب والنور والهدوء والسلام ، ولن يكون شاعراً هذا الملحد المرتاب في الروح العليا التي تسيّر الكائنات ، ولن يكون شاعراً هذا الزاهد ، لان الزاهد عدو الحياة ، وكيف يشعر بالحياة عدو لها يناقضها ويعلن سخطه على منشئها . ان الذي لا يرى في الحياة جمالاً لن يكون شاعراً ، وان الذي لا يبحث عن الجمال لن يكون شاعراً ، وان الذي لا يدرك كنه الروح لن يكون شاعراً . يجب ان يفهم الشاعر الحياة أولاً ، ويجب ان يخلق من شعثها نظاماً منسجماً ومن شرها خيراً ، ويرقب الأبد من خلال الفناء ، ويرضى من فواجعها بما تتركه هذه الفواجع في النفس من تهذيب واصلاح . هذا هو الشاعر او هذا هو تاجور الشاعر

وأما الفيلسوف فهو الذي يستطيع ان يعبر عن آراء الناس وعقائدهم ، والذي يكشف المعاني المسجلة في الاشياء التي تحيط بالحياة ، وينفذ الى ما وراء الاشياء تاركاً للشاعر ادراك الجمال والفهم من مظاهر هذه الاشياء ، هو يبحث عن الحياة داخل الاشياء واجداً الحقيقة في كل شيء ، داعياً الى الوحدة الروحية بين الكائنات جميعاً . والفن في نظر تاجور :

«هو خُلق يسمو بالحياة البشرية على ما تلح عليها الآلية والمادية ، وهو ينسينا نقصها وصغائرها ، ويخرجنا من قيود الاوضاع والعرف ، والفنان هو الذي يطلق في نفوسنا جمال الروح ، ويشع فيها ادراك الحقائق (١)

هذه بعض مقوّمات الثقافة الأدبية والفنية التي أعلنها تاجور للغرب ، وهو وان كان عالميّا في معانيه ومقاصده ، إلاّ أن صورة البيئة الهندية وصورة الشرق تلازمان شعره ولا تفارقان قلبه أبداً ، فالنهر والربيع وشجرة المانجو وزهرة اللوتس والحناء وأوراق الموز وحقول الأرز والطاووس ، والغادة ذات النقاب الشف ، والألوان الزاهية ، والألحان ذات الأثر الباهت — جميع هذه الصور الشرقية تدور في شعر تاجور العالمي فتكسبه حلاوة وروعة من روح الشرق الخالد . هي صور تدور في شعره تبحث عن وحدة العالم في فلسفة وإلهام صادق يوحي ادراك ما وراء الحس من الوعي الداخلي ، وابراز المضمر من صور النفس في اطار يلهم المعنى تلقائيّا .

وتاجور فيلسوف يدعو الى الاتصال بالعالم ، وهو بهذه الدعوة يهدم خرافات الهنود التي تدعوهم الى التقشف والانضواء الى النفس — ولقد وجد في الرحلات المتواصلة سبيلاً الى هذا الاتصال فرحل الى اوربا وأميركا وطاف ممالك الارض غير مرة وقابل الملوك والقادة

(١) محاضرات تاجور في كتاب سدهانا

والزعماء ، (١) وأعلن لهم رأيه في صور مختلفة — وعاد الى بلاده ، وفي نفسه خبرة باكية على المدنية الغربية ، مدنية الانانية والاثرة ، مدنية الفتك واذلال الانسانية واهدار كرامة الروح ، مدنية الجشع والجوع التي قال عنها يوم عاد «انها حقًّا مدنية ترقص فوق البركان»

وجد تاجور عند ما عاد من اوربا سنة ١٩٢١ ان عليه مَهمّ الرجل الاجتماعي المصلح وان ما فكر فيه شاعراً وفيلسوفاً وحكيماً يجب ان يعالج من طريق العمل الاجتماعي ، وان رسالتهُ للانسانية يجب ان تؤدى في وجه جديد ، من طريق التعليم والاصلاح والدعوة والتبشير للمبادىء الحقة ، انقاذاً للبشرية ان تنهار ، فجدد مدرسته في مدينة بلبور التي كان قد أنشأها للاطفال في سنة ١٩٠١ وغير اسمها من « شانتي نكتال» اي « مرفأ السلام » الى معهد عالمي سماه (فسفا بهاراتي) ودعا فيه الى تعاليم جامعة غير ناظر الى جنس او لغة او دين او لون . وأعلن يومئذٍ

« بان يكون مهم هذا الجيل هو محو الاثرة من نفوس بنيه ، وان يجاهد الناس في سبيل تغليب الخير في مواطن الانسان وان يحاربوا الشر ويدفعوا به عن شعورهم وكرامتهم وان تنمحي فوارق الجنس واللون وان تسود العالم الوحدة الروحية »

هذه هي المعاني السامية التي بشر بها تاجور ، ثم أنذر الغرب في محاضرات أذاعها عليهِ في اوربا واميركا

« إني مشفق على كنوز هذه المدنية الغربية . ومن الواجب انقاذها مما هي فيه من أثرة وأنانية ، يجب ان تسودها الروح ، وألا يندفع الشباب في عصبية مهلكة وراء العقائد والآراء الهادمة »

ويخشى تاجور ان يصاب الشرق « بداء الغرب» فيصاب في أعز ما ادَّخر من ميراث روحي ولقد بكى تاجور عند ما وصل اليهِ ان اليابان ضربت الصين بالقنابل وأذاع في اكتوبر سنة ١٩٣٧ رسالة لاسلكية استنكر فيها ان تقوم أمة من الشرق تجتاح أمة شقيقة لها ، وطلب الى ساسة اليابان ان يغلبوا روح الشرق الكريم ، وألاَّ يندفعوا وراء داء الغرب الوبيل

وكتب رسالة الى شاعر اليابان « يوني ناجوتشي » قال له فيها : —

«إن الشرق فجر الضمير الانساني. ليأبى اليوم ان تضرب اليابان المدن البريئة في الصين وان تقتل الاطفال والشيوخ والاشجار والحيوان بالقنابل »

على ان رحلات تاجور الى العالم الغربي لم تكن السبب في تعريفه للغرب ، فلقد سبقته اليهِ شهرته ، فمنحهُ مجمع ستوكهلم جائزة نوبل في الآداب في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٣، وقرر ان شعره يشمل جميع مطامح النفس. وشهد تاجور مؤتمر الأديان سنة ١٩١٢ واحتفل بعيده الخمسيني سنة

---

(١) زار تاجور انجلترا وفرنسا سنة ١٩١٢ وحضر مؤتمر الاديان في باريس في هذه السنة ثم زار أوروبا سنة ١٩٢١ وطاف بألمانيا ثم زار اليابان وأميركا وروسيا السوفيتية والصين وجنوب أفريقيا والعراق وكندا وآخر زيارة لاوروبا كانت سنة ١٩٢٦ حيث زار تركيا الحديثة وإيطاليا الفاشية وزار مصر في آخر جولات له

١٩١٢ ، وترجمت كتبه بعد نشر «القربان الشعري» الى جميع اللغات. وأنعم عليه ملك الانكليز في سنة ١٩١٥ بلقب « سير » ولكن تاجور غضب في سنة ١٩١٩ عندما شعر بأن الانكليز قد أساءوا الى أهل بنجاب في مأساة « امرتسار » فاحتج لدى الحاكم ، واعتذر عن قبول هذا اللقب . وأظهر عطفه على غاندي وان كان لا يتفق واياه في سياسته وقال :—

« إن الشرق يأبى ان يؤخذ بالعنف »

ولقد سألت تاجور يوم زار مصر في سنة ١٩٢٦ بعد ما طاف بممالك اوربا ، عما لفت نظره فيها فقال

« أنا أخشى ان تنهار هذه المدنية ، وفيها ذخر ثقافي لا يعوض ، إن أوروبا تعاني تيارين قويين ومتنافيين تيار الشيوعية وتيار الفاشستية ، وكلاهما تيار عنيف جارف . وأنا لا أؤيد العنف في اي مظهر من مظاهره »

ولقد أثرت في نفسي زيارة تاجور ، وأيقنت عندما سمعت صوته في نبرات متقطعة هادئة عذبة منسجمة تسري الى أذني ، فتأخذني بجمال عذب يخلق في النفس فيضاً من الأحلام، أيقنت ان هذا الصوت انما هو ترديد نفس موسيقية بفطرتها ، وآمنت بما كنت قد قرأته عنهُ من قبل، من ان تاجور موسيقي يلحن بنفسه اشعاره وصلواته، وانهُ لحن أكثر من ثلاثة آلاف أغنية من أغانيه . وأدركت يومئذٍ من جلال روحهِ وسهولتها وبراءتها حبه وشغفه بالاطفال ، ووجدت في جاذبيته ما يدني الارواح البريئة اليهِ ، وان من أسرار عظمة هذا الرجل الحكيم البساطة وروح الطفولة الشائعة في خلقه وتعاليمه

ولقد احتفلت بهِ مصر يومئذٍ ممثلة في مليكها الراحل الكريم وفي زعمائها وقادة الفكر فيها، وأذكر انهُ عند ما تشرف بمقابلة المغفور له الملك فؤاد طلب الى جلالته ان يُهدي الى جامعته بالهند الكتب الأدبية التي صدرت بالعربية بمصر التي تعين الهند على التفاهم مع الروح الاسلامي الصحيح . وقال : لقد بلغت مصر من الروح الاسلامي ما لم تبلغه امة اسلامية اخرى

ولم يكن تاجور الى اكتوبر سنة ١٩٣٢ من مؤيدي المهاتما غاندي في آرائه السياسية ، ولكنهُ انضمَّ الى غاندي عند ما صام صومه الطويل ، داعياً الشعب الهندي ان يلغي الفوارق بينه وبين الأنجاس ، وقال يومئذٍ تاجور :

« إن إزالة الفوارق ورفع طبقة من البشر الى مستواها البشري هو أعظم عمل انساني يدعو اليه عقل بشري »

ولتاجور نفس لا تصيبها الشيخوخة ، فهو دائم مقبل على الحياة متذوّق جمالها ، مبتهج بها ، ويقول :—

بنفسه من صور ومعانٍ ومشاعر والهامات على اللوحة ، متخذاً الالوان والرسوم أداة لتعبيره . وقد أقيمت لصوره معارض في لندن سنة ١٩٣٨ ، فكانت قصائد من الشعر ملونة في الصور ، ثم عرضت صوره في برمنجهام وموسكو وبرلين وميونخ وباريس ونيويورك . وألقى تاجور في اميركا محاضرات ، نقد فيها المدنية الأميركية، وبعث الى الاميركيين صورة من فكرة الشرق في معنى الوطنية وقال :—

« إن القومية يجب ان تكون عالية وألا يندفع الشباب بأعصابه المهتاجة وراء دعوات الزعماء والقادة ، فهذه الحماسة الكاذبة انما هي عمل ليس من الخير في شيء ، فهي اندفاع عنيف سيؤدي الى اراقة الدماء والدمار ويقول : « إن التعاون الدولي لا يكون بعقد المعاهدات وانما يكون بالتقارب الروحي والثقافي بين الشعوب »(١)

وعند ما بلغ تاجور الثمانين منحتهُ جامعة اكسفورد لقب دكتور في الآداب ، وكلفت السير موريس جوير كبير قضاة الهند أن ينوب عنها ويقدم لتاجور براءة اللقب في قريته تقديراً لآدابه وتعاليمه . وظلت روح تاجور عالية سامية في اجوائها على الرغم مما اصابه من ضعف في أعصابه ومرضٍ لازمهُ طويلاً ولبث قوي الروح حتى أطفىء سراجه في ٧ اغسطس ١٩٤١ لينير مكانه المقدّس في سماء الابدية الخالدة ، فلقي ربه غاية ما كان يصبو اليهِ في حياته شاعراً وفيلسوفاً وفناناً . وليس الموت في نظر تاجور الاّ الاتصال بالله والفرح به ، وليس هو انفصالاً مقطوعاً وانما هو لون آخر من ألوان بقاء الروح وخلودها ، أو وجه آخر لهذه الحياة البشرية ، وهو الوجه الخيّر الفاضل ، وتاجور يقول لرفاقه في المدرسة : —

« لا تبكوا أيها الرفاق ، ولا تخشوا الموت فلكم فيه مسرة ورضا ، ولكم فيه الوصول الى الحق المطلق ولكم فيه مصير مريح موصول بالحياة الابدية — لقد دعينا الى الحياة فلبينا وبورك لنا في حياتنا ، وسندعى الى الحياة مرة أخرى على ضفاف الابدية ، حيث نغمس حياتنا في لطف الله ، ونشعر بوجودنا بين يدي الحقيقة المطلقة . انكم أيها الرفاق كالطفل يئن حينما تنزع امه ثديها الايمن من فمه ، مع أنها لا تلبث ان تناوله الثدي الايسر الذي يجد فيه العزاء والسلوى » (٢)

ولتاجور في القربان أنشودة يقول فيها :

« لقد أجاز لي صاحب الامر الذهاب
فودّعوني يا رفاقي
اني محيّيكم جميعاً ، ثم لاحق في سبيل من سبق
وهذا مفتاح بابي أردُّه ،
وها كم داري قد نزلتُ عن حقي فيها
واني لا أسألكم غيرَ وداعٍ طيب »

فوداعاً يا تاجور ، يا من ثويت في ضمير الحياة ، بعد ان ملأت كأسها شعراً وحكمة ومحبة وفلسفة ، وقدمت أشهى قطاف عمرك ، قرباناً للانسانية مبذولاً

(١) كتاب : القومية، لتاجور (٢) محاضرات تاجور

نقل الطاقة الكهربية

أمواجاً في الاثير

والتقاطها واستعمالها بغير أسلاك

توالت العجائب اللاسلكية بعضها يقفو بعضاً بسرعةٍ تحيّر الألباب . وليست اذاعة الانباء والخطب والموسيقى الاّ ناحية واحدة من نواحيها . ومن عهدٍ قريب قال لورد بيڤر بروك ان بريطانيا تعتمد على نظـام خاصٍّ دقيق من الاشارات اللاسلكية ، لتعيين مواقع الطائرات المغيرة قبل وصولها الى الساحل . فتنبه هيئات الدفاع الجوّي الى التأهب لملاقاتها وتلافي خطرها . وقد سبق للاميركيين استعمال جهاز من هذا القبيل في بعض طائراتهم ، لمعرفة ارتفاع الطائرة عن الارض في ليل بهيم او جوّ عاصف متجهّـم . واستعملت الاشعة التي تحت الأحمر للرؤية في الظلام . فهي تبعث من جهاز مرسل خفيةً في الفضاء لأنها لا ترى بالعين ، فاذا انعكست عن جسم ما طبقت أساليب التلفزة في تحويل الاشعة المنعكسة صورة تظهر على ستار ، فيرى الجسم عن بعد ولو كان الظلام يلفّـهُ . وقد اطلق على هذا الضرب من التلفزة وصف التلفزة الليلية . وقد وصف السر الكسندر رسل في مجلة نايتشر العلمية من سنوات التجربة التي طبّـق فيها هذا المبدأ فقال و « جرب المستر بارد Baird جهازه امامي وامام المستر كروكس فجلس احدنا في الحجرة التي فيها الجهاز المرسل ومعهُ احد مساعدي المستر بارد وكانت الحجرة مظلمة . وجلست أنا في الحجرة التي فيها الجهاز المستقبل وقد كانت في طبقة من البناء غير الطبقة التي فيها الحجرة الأولى . فرأينا على لوح الجهاز المستقبل رأس المساعد وجميع حركاته وسكناته . وكانت الصور التي رأيناها واضحة الوضوح كله . فاستعمال الاشعة التي تحت الأحمر في التلفاز يمكننـا من ان نرى ما يدور تحت ستار الظلام عن بعد وهذا لم يحقق قبلاً على ما اعلم » . وبعد ذلك طُـبّـق هذا المبدأ على مشاهدة أجسام بعيدة كسيّـارة تسير في الظلام وقد أُطفئت أنوارها ، او جبل من جبال الجمد في البحر يحجبهُ ضباب كثيف

ولكن هذه الغرائب جميعاً ، على غرابتها وما لها من تأثير عظيم في العمران ، تتضاءل امام تباشير استنباط لاسلكي قديم جديد ، غرضهُ نقل الطاقة الكهربية لاسلكيّـاً من محطات رئيسية منتشرة على وجه الارض حيث يكون توليد الطاقة الكهربية أرخص ما يكون نفقة

وأقل مايكون جهداً فتلتقط أمواجها أجهزةٌ مستقبلة صنعت لذلك خاصة، وتحول طاقة محركة تستعمل في قضاء مآرب الانسان في الصناعة وما أشبه . وإذا اتقن تطبيق هذا المبدأ فقد تستغني المصانع حينئذٍ من مولّدات الطاقة الكهربيـة والسيارات عن محرّكات الاحتراق الداخلي ، والمصابيح الكهربيـة عن الاسلاك التي تصلها بمستودع الطاقة الكهربية العمومي، اذ يصبح في الوسع حينئذٍ ان تؤخذ الطاقة الكهربية من الفضاء بعد اذاعتها من المحطات الخاصة أمواجاً موجَّهةً على الغالب

قلنا ان نقل الطاقة الكهربية نقلاً يُستغنى فيه عن اسلاك مبدأٌ قديم جديد . وما التخاطب اللاسلكي الذي استخرج كلارك مكسويل معادلاته الرياضية الاساسية وأثبت هرتز مبدأه بالتجربة وأفرغهُ مركوني ومن عاصره وتلاه في هذا القالب ، الذي يحمل الينا كل ساعة من ساعات النهار والليل أصواتاً وأنغاماً من أقصى أقاصي الأرض، سوى ضرب من نقل الطاقة الكهربية. ولكن المقصود على وجه خاص بنقل الطاقة الكهربية في هذا المقال ، انما هو نقل الطاقة التي تصلح لانارة المصابيح وتحريك الآلات وما أشبه. ولعلَّ نقولا تسلا، المستنبط الأميركي السربي الأصل من أوائل الذي جرّبوا تحقيق هذا النقل . وقد وصفنا في مقتطف دسمبر ١٨٩١ طرفاً من بحوثه فقلنا : «تمكن الأستاذ نقولا تسلا من تنويع الكهربائية وجعلها تخترق الجدران وتنير المصابيح وهي غير متصلة بها ولا يبعد اننا نتمكن عن قريب من ارسال الكهربائية من مكان الى آخر بدون أسلاك وبدون موصلات » . وفي مقتطف ابريل ١٨٩٢ قلنا : « ومن رأي الاستاذ تسلا انهُ يمكن توليد هذه الكهربائية فوق البيوت والمدن حتى اذا وجد فيها آنية زجاجية مفرغة من أكثر هوائها أنارت كما تنير المصابيح الكهربائية . فاذا حققت الأماني التي تعلق على هذا الرجل وغيره من الباحثين في هذا الموضوع انتقل الناس من حال الى حال في جميع أعمالهم وشؤونهم الصناعية والصحية والاجتماعية . . . ويعيش الانسان في جوٍّ مشحونٍ بالكهربائية فيستخدم ما شاء منها بلا تعب ولا مشقة »

كان ذلك قبل نصف قرنٍ من الزمان !

كان قبلما كشفت الكهيربات وصلتها ببناء المادة وطبيعة الكهربية ، وقبلما تمكن مركوني من استخدام أمواج هرتز الكهربية في نقل الاشارات التلغرافية، وقبلما تمكن جمهور العلماء والباحثين من أمثال لودج ومركوني وبرانلي وفلمنغ وده فورست وبايرد وغيرهم من استنباط الأنبوب المفرغ واتقان استعماله اساساً للمخاطبات التلفونية اللاسلكية ونقل الصور الضوئية والمرئيات ذاتها . أما وقد تحقق كل هذا فهل يحقق كذلك ما أشار اليه تسلا قبل نصف قرن من الزمان ؟

في شهر يونيو سنة ١٩٢٧ أثبت الدكتور فيلبس توماس أحد المهندسين المنقطعين للبحث الكهربي في شركة وستنهوس الاميركية، في خطبة خطبها امام جماعة من المهندسين الاميركيين الكهربيين انهُ حقق بالتجريب مبدأ نقل الطاقة الكهربية بغير اتصال سلكي، إذ أخذ بيده مصباحاً كهربيًّا غير متصل بسلكٍ ما، ولكنهُ متصل بقضيب من النحاس طوله نحو متر والقضيب غير متصل بشيء، ووقف المحاضر على مسافة مترين من أنبوب مفرغ فلما حركت الآلة المتصلة بالأنبوب المفرغ خرجت منهُ مجاري الطاقة الكهربية، فالتقطها القضيب النحاسي بغير اتصال وأوصلها الى المصباح فأضاءَ

وروت مجلة العلم العام الأميركية في السنة نفسها ان تسلا الشيخ الفتيّ كان مكبًّا على وضع تصميم لبرج كهربي ضخم يبنى على مقربة من شلالات نياغرا فتولد الطاقة الكهربية هناك بفعل الماءِ المنحدر بنفقة يسيرة، وتنطلق من البرج على الوجه الذي وصفهُ قبلاً. وكان شتينتمز — وهو من أبرع الكهربيين الاميركيين في هذا العصر — موقناً عند وفاتهِ من خمس عشر سنة انهُ لابدَّ ان يجيء عصر يصبح فيهِ نقل الطاقة الكهربية لاسلكيًّا من الأمور المألوفة

***

وكان الرأي ان طبقات الهواءِ العليا هي أصلح موصل لأمواج الطاقة الكهربية لأن الهواءَ في هذه الطبقات لطيفٌ فلا تفقد الأمواج كثيراً من قوتها في اختراقهِ كما يحدث عندما تخترق الهواءَ قرب سطح الارض وهذا القول هو الباعث على اقتراح المهندس الانكليزي هيو بلردْ ان تبنى أبراجٌ ضخمة على قنن الجبال الشاهقة كقنة جبل ماكنلي في الاسكا وجبل هوتني في كاليفورنيا ومون بلان في جبال الألب الفرنسية وغيرها في مختلف البلدان فتذاع منها الطاقة الكهربية أمواجاً خفية فيلتقطها المرءُ متى شاء. واقترح بلرد كذلك ان يبنى برجان من هذا القبيل أحدهما على مقربة من القطب الشمالي والآخر على مقربة من القطب الجنوبي لأن طبقة الهواءِ اللطيف هناك أقرب الى سطح الارض منها في المناطق الاستوائية والمعتدلة. وقد أثبتت رحلات الروَّادِ الى الأصقاع المتجمدة ان في أراضيها كثيراً من الفحم وبعض النفط ولا تستطاع الافادةُ منهما لأن استخراج الفحم والنفط ونقلهما الى البلدان العامرة كثير النفقات فيحسن ان تنشأ هناك منشآت لتوليد الطاقة الكهربية باستعمال الفحم والنفط وقوداً. ولا يخفى ان المنطقة التي تحفُّ بالقطب الجنوبي قارة كبيرة يغطيها الجمد. فانشاءُ المصانع لتوليد الطاقة والابراج لاذاعتها أمواجاً في الفضاء مستطاع على ما فيه من مشقة. ولكن المنطقة حول القطب الشمالي ماء تعلوه طبقة من الجمد الكثيف ولذلك يغلب الظن أن اقتراح بلرد كان يشمل أقرب اليابسة الى منطقة القطب الشمالي لا المنطقة التي تحفُّ بالقطب الشمالي نفسهِ

ويذهب الدكتور توماس صاحب تجربة المصباح — التي تقدم ذكرها — الى أن الاعتماد في نقل الطاقة الكهربية نقلاً لاسلكيًّا يجب أن يكون على الأمواج الكهربية القصيرة أي العالية التذبذب وغايتهُ أن يتمكن من استنباط آلة تولد أمواجاً لاسلكية قصيرة جداً ثم يوجهها في شعاعة — أو أكثر — سعتها أربع بوصات بعد ما يجمعها ويعكسها من مرآة معدنية مقعرة على نحو ما يفعل الآن في « الراديو الموجَّه » . فاذا تم لهُ ذلك أنشأ على سبيل التجريب العملي في بلدة ما بضعة أبراج ترسل تيارات أمواجها في جميع الانحاء فتتقاطع التيارات ويصبح الجو حافلاً بالطاقة الكهربية فتستطيع ربة البيت أن تستعمل جهازاً يقابل القضيب النحاسي الذي استعمله الدكتور توماس في تجربتهِ ليستمد بهِ الطاقة من الفضاء فتطبخ بها أو تكوي بها أو تنير بها

كان هذا من خمس عشرة سنة

أما الآن فانظر ما يقولهُ الدكتور ارنست كالدويل محرر مجلة « الراديو اليوم »

يبدو الآن من المحتمل نقل مقادير كبيرة من الطاقة الكهربية في الهواء بغير اسلاك وبواسطة تيارات موجهة من الأمواج الكهربية . وقد اخترعت أساليب جديدة وصنعت أنابيب جديدة — كالرومباترون والكليسترون — تمكننا من نقل طاقة كهربية في الفضاء قوتها قوة حصان واحد

والمتفائلون بهذا النوع من التقدم الكهربي يتصورون محطة توليد الطاقة الكهربية قائمة قرب شلال او أمام مدخل منجم فحم ، حيث تكون الطاقة اللازمة لتوليد الكهربية رخيصة ، وهذه المحطة الرئيسية تتصل بالمحطات المتفرعة عليها في مواقع شتى بشعاعات من الامواج الكهربية . فتلتقط المحطات الفرعية الطاقة من الهواء وتوزعها على المدن والقرى في منطقتها (لم يقل الكاتب هل يكون التوزيع من المحطات الفرعية بأسلاك او بغير أسلاك) . ومن اغرب الآراء التي اوردت في هذا الصدد رأي العالم دايفس الذي كان مديراً لمصنع وستنهوس في بتسبرج الشرقية . قال إنهُ لا يستغرب ان يحل يوم توجَّه فيه تيارات من الطاقة الكهربية بين مدينتي نيويورك وبتسبرج وتأخذ منها الطائرات وهي طائرة ما تحتاج اليه من الطاقة اللازمة لتحريكها !

ومهما يكن من امر فإننا لم نتمكن حتى الآن من نقل مقادير كبيرة من الطاقة اللاسلكية . ولكن التجارب التي جربت خلال السنوات الاخيرة بأشعة الامواج القصيرة أثبتت انهُ في الوسع نقل قدر من الطاقة الكهربية قوتهُ ربع حصان مسافة مائتي قدم الى ثلاثمائة قدم ثم التقاطها في الطرف الآخر واستعمالها في تحريك محرك صغير لاضاءة مصباح او تحريك آلات صغيرة

وفي أوائل سنة ١٩٤١ اجتمع فريق من العلماء الاميركيين ومهندسي شركة وستنهوس وجرَّبوا التجارب بجهاز جديد يدعى « كليسترون » Klystron وهو أنبوب جديد يولد طاقة كهربية في شكل أمواج قصيرة . ولكي يثبتوا ان « الكايسترون » يطلق الطاقة في الفضاء في شكل صالح للاستعمال ، طلب الى كل من حضر الاجتماع ان يرفع باحدى يديهِ مصباحاً كهربيًّا كالمصباح الذي يضاء ببطرية جافة ونستعمله في الظلام . وكانت هذه المصابيح غير متصلة ببطرية ما ولكن ربطت بها أسلاك هوائية قصيرة . فلما أطلق جهاز الكايسترون الطاقة المولدة فيه ، الموجهة في شعاع مخروطيّ الشكل ، أنارت جميع المصابيح كأنها كانت متصلة بسلك كهربيٍّ او ببطرية

ومن غرائب هذا الجهاز الجديد — الكايسترون — انهُ يصلح لأغراض كهربية شتى . فهو يولد أشعة سينية قوية . ويصلح لتوليد حرارة في أجسام مرضى يُجديهم العلاج بالحرارة الكهربية . ومن أسراره العجيبة انهُ يعين المهندسين الكهربيين على زيادة عدد الرسائل التلفونية المرسلة بسلك واحد . ومن وجوه استعماله ان يكون معواناً للملاح الجويّ إذ يستطيع ان يتبين بهذا الجهاز ارتفاع الطائرة عن الارض او في منزلة ضوء كشاف — ولكنهُ ضوء لا يرى — يستطلع السماوات ويكشف طائرات الأعداء فيها . وهذا الاستعمال هو اساس النظام المتبع في بريطانيا لكشف الطائرة المغيرة قبل وصولها

***

صنع الكايسترون أولاً في معامل جامعة ستانفورد بكاليفورنيا من نحو سنتين وقد تمكن المهندسون الكهربيون من تصغير حجمهِ بغير ان تنقص الطاقة الكهربية التي يولدها . وهو يطلق تيارات من الطاقة الكهربية بتفريق الكهيربات المنسابة في تيار كهربي ، ثم جمعها طوائف طوائف وتحويل طاقتها الى ذبذبات عالية التردد او امواج قصيرة ، هي اقصر عشرة اضعاف من اقصر امواج الراديو المستعملة الآن

وقد كان الاستاذ هانسن الذي صنع هذا الجهاز معنيًّا بصنع جهاز غرضه تهديم الذرة عندما عرضت عليه فكرة الكايسترون من شابين شقيقين من اسرة « كلسترا » فتعاون معهما باذلاً علمه وخبرته . ودعي الجهاز الاول الذي صنع « رومباترون » نسبة الى رقصة « الرومبا » لأن الامواج المتولدة تتردد تردداً سريعاً بين قطبين قبل انطلاقها في الجو ، وحركتها المترددة تشبه حركة سيقان الراقصين رقصة « الرومبا »

وغنيٌّ عن البيان ان كل محطة اذاعة لاسلكية هي في الواقع محطة تنشر في الجو طاقة كهربية . والامواج التي تحمل في طياتها امواج الصوت من المتحدثين والمنشدين انما هي امواج طاقة

كهربية تؤثر في الاجهزة اللاقطة حيث تتحول الأمواج اللاسلكية امواج صوتٍ مسموع . ولكن مقدار ما يتلقاه الجهاز اللاقط من الطاقة يسير جدًّا ولاسيما اذا كانت المسافة بين المحطة المذيعة والجهاز اللاقط مسافةً شاسعة . ولكن اذا كانت قوة المحطة المذيعة خمسين كيلو وط وكان احد الناس في نطاق لا يبعد ميلاً عن المحطة ففي وسعهِ ان يستمدَّ من امواجها المذاعة طاقة كهربية لا بأس بها . وقد ثبت بالامتحان ان رفع اسلاك هوائية على سطوح المنازل في هذا النطاق وتوصيلها بأسلاك الى المصابيح ، يمكن اصحاب البيوت القريبة من محطة « الراديو » القوية،من اضاءة مصابيحهم بما تلتقطهُ الاسلاك الهوائية من طاقة مشعة في الفضاء . ولكن مقدار التيار يكون متغيراً ، ولذلك فضوء المصباح يقوى ويضعف وفقاً لقوة التيار وضعفه

وكل هذا يدل على أن يوم نقل الطاقة بغير سلك ليس ببعيد وقد نشهد يوماً ما الطاقة الكهربية المولَّدة من شلال نياغرا منقولة على أجنحة الأثير الى حيث تستعمل ، بدلاً من نقلها بأسلاك من نحاس

***

وقد يذكر بعض القراء ان مركوني جرَّب في ٢٧ مارس سنة ١٩٣٠ تجربة استوقفت أنظار العالم فحسبها الناس تحقيقاً لنقل الطاقة الكهربية مسافة ألوف من الأميال . ذلك بأنهُ ضغط زرًّا في يخته « الترا » الراسي في مياه جنوى فأضاء الفين وخمسمائة مصباح كهربي في معرضٍ نظمته مدينة سدني الاسترالية . وقد ذهب الخيال ببعض الصحافيين حينئذ الى القول بأن مركوني استنبط استنباطاً جديداً يمكنهُ من ارسال الطاقة الكهربية الوفاً من الأميال فتنير المصابيح وتسير المركبات الكهربية وتحرّك الآلات وما أشبه

والواقع — وقد نشرنا ذلك في المقتطف في حينه — ان عمل مركوني لم يكن من قبيل نقل الطاقة الكهربية الذي جعلناه مدار هذا المقال ، بل كان تدبيراً بارعاً لتطبيق مبدإٍ معروف. ذلك بأن المصابيح في سدني ، كانت معدة للاضاءة اذا أدير مفتاح واحد معين . واضاءتها تكون بطاقة كهربية تصلها بأسلاك عادية . وكان المفتاح متصلاً بجهاز خاص يتأثر بتيار كهربي أو أمواج لاسلكية من قوة معينة أو طول معين . وكل ما فعله مركوني عند ضغط الزّر ان أرسل أمواجاً لاسلكية متفق عليها فأثرت في الجهاز المعد للتأثر بها فتحرك المفتاح فأضيئت المصابيح . وهذا يختلف كل الاختلاف عن اضاءتها بغير ان تكون متصلة بأسلاك تمدها بالطاقة اللازمة

علم النفس (1)

ونفسية الافراد والشعوب

للدكتور ابرهيم ناجي

سيداتي سادتي : لا شكَّ ان علم النفس (السيكولوجيا) قد بلغ درجة عالية من الكمال حتى صار علماً قائماً بذاته . وحتى تغلغل في كل شيء في هذا الوجود . وحتى امتزج بالعلوم الأخرى واندمج فيها فصار يشقُّ على الانسان ان يفصل أحد هذه العلوم عن الآخر . ولا بدَّ لدارس علم النفس ان يكون ملمًّا بالفلسفة. ولا بدَّ ان يكون ملمًّا بعلم وظائف الاعضاء والتشريح . وعندما يأخذ في درس المذاهب المتعددة ويتعرض للمدارس المتنوعة ، يجد أنهُ لا بدَّ لهُ من الالمام بالكيمياء والطبيعة ، ثم يجد انهُ عندما يتصدى لدراسة علم النفس الاجتماعي ، لا بدَّ له ان يلم بالمؤثرات الجغرافية ، ثم عندما يأخذ في استعراض تطور العقل الانساني استعراضاً تاريخيًّا يجب ان يلم بحوادث التاريخ الجسام،...وهكذا أيها السادة ان الذي يأخذ على عاتقه دراسة علم النفس دراسة كاملة، يجد نفسه بعد قليل دائرة معارف تامة ما دام يريد ان يحيط بكل ما يتعلق بالنفس الانسانية ويفهم أسرارها

أضرب مثلاً لحضراتكم — على سبيل التفكهة — أسماء بعض المراجع التي استشرتها في محاضرتي الليلة : من أهم الكتب التي اطلعت عليها كتاب « السيكولوجيا والمسائل الحديثة » وهو كتاب اشترك في تأليفه جماعة من العلماء جميعهم أطباء . وطابع الكتاب يعتذر اعتذاراً لطيفاً في مقدمته ، إذ يقول إنهُ من العجيب ان يجتمع أطباء ليكتبوا في التعليم والسياسة والفن... وليس في الكتاب شيء طبي بتاتاً ... ولقد راعتني مقالة الدكتور امانويل ميللر عن الفن . فان أكبر فنان لا يستطيع ان يجاري هذا الطبيب في سعة فهمه ، وأكبر أديب يقف عند أسلوبه حائراً ... وقد تكلم الدكتور فلوجل عن الزواج في هذا الكتاب ، فطرقهُ من أبواب اجتماعية بحتة ولم يتعرض له من الناحية الطبية إلاَّ قليلاً

وتناول الدكتور كريتون ميللر مسألة التعليم ، فتناولها تناولاً يعجز أكبر المربين . وقد تناول كل شيء يصح ان يشملهُ البحث ، حتى الكلام عن مصر لم يفتهُ

(1) محاضرة ألقيت في جمعية الشبان المسيحية .

ومن الكتب الهامة التي أفادتني كثيراً كتاب اولاف ستايلدون وعنوانه « الفلسفة والحياة » . وهو عرض عجيب لعلم النفس والفلسفة والاجتماع والاخلاق ، والمؤلف ينتقل بالقارىء من هذا العلم الى ذاك انتقالاً يعزّز ما قلته لحضراتكم أولاً ، وهو ان العلوم متشابكة متصلة الحلقات

سادتي : ما هو علم النفس ؟ تعريفه الصحيح « انهُ كيفية السلوك الانساني » . . . . Study of human behaviour . ومعنى هذا ان نعرف كيف نفكر وكيف نحب وكيف نكره ، وبفعل أي الدوافع نتحرك لنعمل ، وهل نحن آليون نتحرك تحرك (الزنبرك) أم وراء آليتنا قوة محركة وروح خفية ؟ ثم أهم من كل ذلك ، هل نحن أبناء الوسط أم الوسط نحن الذين نصنعه ؟ إن للوسط The environment منزلة عظيمة الشأن . واختلاف الآراء في أي الشيئين أصوب ، وضع الفرد كخالق للوسط ، او الوسط كمكون للفرد وبالغ به ما بلغ اليوم — إن اختلاف الآراء في هذه النقطة هو سرّ هذا النضال القائم اليوم في العالم . سرّ الحروب والويلات والأهوال . فان الذين يقومون بالحركات الاجتماعية التاريخية ويشقون للناس الطرق ويرسمون السبل ، وينشرون المذاهب ، لم يجيئوا الى الكون اعتباطاً ، ولم يتقدموا الصفوف عرضاً او مصادفةً . قد يحدث ان الضرورات أوجدتهم ، او الضنك الاجتماعي هو الذي قذف بهم الى الأمام ، او كما يقول « لنرد ولف » في كتابه « بعد الطوفان » « — الحوادث الجسام التي تحفز الشعوب الى التفكير ، والويل للشعوب حين تفكر — لأنها في نظامها العادي قليلاً ما تلجأ الى الفكر ... » .

عندما تفكر الشعوب ، او يفكر أحد الذين اضطرتهم الحوادث الجسام للتفكير ينتمي في الحال الى إحدى المدرستين ، اللتين لا ثالث لهما . . . المدرسة الفردية ، او المدرسة الاجتماعية . المدرسة الأولى تدين بأن الفرد وحدة قائمة بذاتها ، كحبات الرمل ، كل حبة لها كيانها . . . ويتكوّن من حبات الرمل ذلك الكثيب الكبير . وأما المدرسة الثانية فتدين بأن المسألة ليست مسألة أفراد ، وانما مسألة « علاقات » ، وان الفرد ليس شيئاً قائماً بذاته ، بل جزء من كل ، كاليد في الجسم مثلاً ، هي تمثله ولكن لا تنفصل عنه ، وعلى ذلك يكون الافراد كالأمواج في العباب الكبير ، كل موجة لها كيانها وشكلها ، ولكنها مندمجة في الأخرى وفانية فيها ثم هي أخيراً فانية في المحيط الكبير

والواقع أيها السادة اننا لو استعرضنا الحركات الاجتماعية في الايام الأخيرة ، لوجدناها لا تخرج عن هذا . فهناك مدرسة Laissez faire التي تبيح الحرية للافراد ينتج كلٌّ ما يريد وبقدر مايشاء والرأيُ ان الفرد على هذا النمط سيسعى الى إسعاد نفسه ورخائها ، وسيؤدي

ذلك الى اسعاد المجموع . والمدرسة الثانية المدرسة المثالية ، ومنشؤها فلسفة كانت وهيجل وهي تؤكد ان المسألة كلها مسألة «علاقات» . ونحن في الحقيقة لا نعرف حقيقة الشيء الصغير الذي يبدأ نواة للحلقة الكبرى ، وانما نعرف هاته الحلقة الكبرى ونحيط بها ونؤمن ، ولذلك فهي أهم من تلك النواة الصغيرة

اما المدرسة الاولى ، فهي المدرسة التي بنيت على حرية المغامرة والكسب Enterprise فأحدثت رخاءً اقتصاديًا لا شك فيه ، ولكن التفاوت بين قدرة الافراد على المغامرة المرغوبة أدى الى تكديس البؤس والشقاء ، والى وجود عاطلين لا يملكون القدرة على المغامرة

اما المدرسة المثالية ، فهي المدرسة التي كما قلت تدين بان الفرد للجماعة ، وانهُ ليس لهُ الاَّ ان يكون للجماعة ، فالجماعة تمثّل على الارض ذلك الكل الذي ينتهي اليه كل شيء . ولكنهُ حدث ان قام قوم يعدون انفسهم روح هذه الجماعة والمتكامين بلسانها ، والواقع ان الدافع لقيام هؤلاء الناس شيئان :

اولاً — ان النظرية التي تفرض ان الفرد ليس له قيمةٌ الاَّ بانتسابه الى المجموع ، وليس لهُ رأي الاَّ رأي المجموع الذي تتحكم فيه عوامل طويلة عريقة من المؤثرات القديمة والحاضرة ، وهي تشكّل هذا الفرد او ذاك — اي ان عوامل البيئة والوسط وحوادث الاجيال هي التي تصب هذا الفرد او ذاك في «القالب» الذي تريده — هذه النظرية بثت في الافراد التواكل وضعف الثقة بذاتهم وأفضت في الوقت ذاته الى قيام نفر يفهمون هاته الحقائق ويستغلونها استغلالاً ضارًّا

اقف هنا قليلاً لأتكلم عن نقطة هامة جدًّا . ثم أعود الى ما بدأت . . . قلت إن نظرية المدرسة المثالية تفرض ان الانسان جزء من كل ، والنظريات التي تنبه العقل الانساني وكيف يعمل ، مشابهة لما ذكرنا . فهناك نظرية تفرض ان العقل «وحدات» او ذرات وتسمى النظرية « الذرية » .... اي ان قوات العقل وحدات متجاورة ، تقوم كلٌ بواجبها مع اتصالها بالاخرى فيما يتعلق بوظيفتها . والنظرية الثانية وهي الصحيحة هي النظرية الكيميائية او الديناميكية ، وهي التي تقول ان العقل دوافع متداخلة متشاكلة متصلة متشابكة . والعقل على هذه النظرية وحدة متماسكة فنحنُ مثلاً لا نحسن السمع بغير النظر ولا النظر بغير السمع ... والطفل لا يميز بين احساس وآخر بل ان الشيء عنده «منظورٌ مشمومٌ ملموسٌ» ! فالعقل من هذه الناحية «كلٌّ» . وهنا ترون التشابه بين نظام العقل والنظام المثالي في الاجتماع

غير ان النظام «الديناميكي» للعقل يفسر لنا جميع الظواهر العقلية التي تسير الناس والشعوب ان هذا النظام المنسجم المتصل المتشابك ، يفسر لنا قبول العقول للايحاء Suggestion فان الايحاء هو الصفة التي يتغلغل التأثير عن طريقها في العقل ويسيطر عليه كوحدة كاملة اذ

لو كان العقل أجزاء منفصلة متجاورة لما أمكن ذلك الايحاء ، ولما أمكن أن نفسر كيف يحدث الاستذكار . . وقريب من صفة الايحاء ، صفة المشابهة أو الحلول« identification»

والايحاء والتشابه لهما شأن أيُّ شأن في حياتنا المنزلية والاجتماعية . ويفسران كثيراً من النظريات التي كانت الى عهد قريب مكسوة بالتزييف والتضليل

أما في حياتنا المنزلية فان الطفل يحاول أن يشابه والديه أو يحل محلهما ، أو يكون « هما »

وفي حياتنا الاجتماعية يحاول الفرد أن يشابه زعيمهُ أو سيدهُ أو يكون « هو » . وهذه الصفة صفة المشابهة أو محاولة أن يكون « هو » على أتمها في الطفولة

وهي صفة يستغلها الزعماء الذين يربون الامم لأغراض سياسية أي يربون أجيالاً مطواعة . فانهم يتناولون الاطفال في اعمارهم الغضة ، فيصنعون بهم ما يشاءون باستغلال الصفتين المتشابهتين ، الايحاء والمشابهة . اما بالايحاء ، فالطفل سيقبل كل ما يوحى به اليه . أما بالمشابهة فهو سيحاول ان « يتقمص » روح والده او استاذه أو زعيمه . وبعض الامم استغلت هذا الأمر في تعليم ابنائها استغلالاً شنيعاً فصار التاريخ يدرس على طريقة خاصة والجغرافيا على لون بعينه وهكذا

أما عندما يكبر الناس فهم لا يزالون قابلين للايحاء والمشابهة ، ولكن بقدر ضعيف ، فاذا أريد تنشئة جيل من الذين اجتازوا عهد الايحاء والمشابهة ، صعب ذلك جداً ، وأخذ مهذبو الجيل يستعملون الطرق القاسية لاكراه الناس على قبول ما يريدون . فيحدث لهم ما يسمى Mass neurosi أي الاضطراب العصبي في الجماعات ! أي أن أعصابهم تضطرب وتتقلقل وتضيع لديهم وحدة الغرض ، وينمحي من أمام عينهم معنى الوجود . ان هذا تماماً هو ما يحدث للمريض بالاضطرب العصبي . انه يكون دائماً محيراً ، قلقاً مفككاً ... أي يعود طفلاً ... وعندما تعود الشعوب طفلة ، أي عندما لا تعرف لها معنىً سامياً تلتمسهُ ، تبحث عمن تسلم قيادها اليه . أنها تبحث عنه مكرهة ، وهو يأتي اليها مختاراً ... وهذا هو السبب الثاني الذي أدَّى الى قيام السادة الذين ذكرتهم . ان كثيراً مما يباهي به انصار نظرية « الجنس » ويفتخرون به على أنه « بطولة » موروثة او شجاعة اشتهر بها هذا الجنس او ذاك ، لهو وهمٌ كاذب ... حقيقة ان الوراثة لاشك في أمرها ، ولكن شأنها قليل في التربية ، في المنازل او في الامم

فان الأم حين تجد طفلها على صفة ما تقول — أبوه كان كده وجده كان كده ! — ولكن الحقيقة ان هذه هي نظرية المشابهة identification التي أشرتُ اليها

ومثل ذلك يقال في الأمم . فهذه الامم التي تفتخر بجنسها ، وتقول نحن ابناء البطولة ونحن ونحن ، انما تخطىء فهم ما قد حدث تماماً . ولذلك يتحيزون للجنس والقومية ويدعون ان هذا الجنس أرقى من ذاك . ان ابحاث سليجمان وجنسبرج خرجت للوجود ببراهين عجيبة .

فقد أجرى هذان العالمان أبحاثاً على جماجم الاجناس المختلفة ، وأجروا تجارب على الذكاء ، وتجارب على الأمزجة Temperament فلم ينكروا ان تركيب الأمخاخ يختلف حقــاً ، وعلى ذلك تختلف قوى الذكاء والادراك ، ولـكن لا يصح ان يقال على الاطلاق ان هذا الشعب أذكى من ذاك ، فان المسألة ان تلافيف المخ في نموها سبقت في أمكـنة وتخلفت في أخرى

اما عن مسألة الامزجة فقد أثبتا ان العالم ينقسم الى قسمين introvert و extravert وتبينا بأدلة ناصعة ان هذا ناشىء من التكوين الفيزيولوجي ، كمسألة الغدد والهرمونات ، واثبتا بعد ذلك ان هذه الصفات الجنسية ، حقيقة قد تكون مميزة لجنس عن آخر ، ولـكن لا يمكن اطلاق ذلك على مداه ، ثم انهما بينا ان مميزات الامة الواحدة يمكن ان تتغير تماماً في جيل واحد، وذكرا على سبيل التفكهة ما كان يقال عن الانكليز في القرن السادس عشر وعن فرنسا في السابع عشر من نفس كتابهم فقدكانوا يصفون اهل ذلك العهد وصفاً متناهياً في الزراية . وهذا لا يمكن ان يقال عن الامم الاخرى . فتغيرت الأوضاع الآن.وصار السيد عبداً والعبد سيداً . أما عن نظرية المشابهة ، فتطبيقها في حياتنا العائلية عند ما نكبر ،هام جدًّا في الزواج . فان الناس في الواقع لا يعرفون لماذا يتزوجون ولماذا يخفقون في الزواج

يقول فلوجل ان الناس يتزوجون لغير الامور التي يعتقدها كل شخص. فلا للتناسل، ولا للذة الجنسية ، ولا لشيء من هذا . وإلاَّ فما سرّ فرحة الناس بالزواج ،ما سرّ المواكب التي تزف بها العرائس ، وما سر الرهبة والفرح في نفوس الناس جميعاً عند ما يشاهدون عرساً ؟

يقول فلوجل إن الاطفال في دورنا ، يعيشون في عالم من النواهي والزواجر

ويرون بأعينهم الأب والأم ممتعين بقسط كبير من الحرية . . . وعندما يكبر الاطفال يرون الحرية الجنسية التي يتمتع بها الوالدان . فيتمنى الاطفال لوكانوا هم والديهم ، ليكون عندهم القدرة على الحصول على الأشياء بسهولة ، وليكون عندهم الحرية الجنسية المنشودة أي يريدون أن يكونوا « هم » . ويظل هذا الخيال الابويُّ ملازماً لنا فيما بعد ، وهو ما نسميه المركب الأبوي Paternal Complex . فعند ما نحب : إما أن نحب وفي خيالنا ذلك المركب الأبوي ، وإما أن نحب أنفسنا أو من يشابه أنفسنا ، أو من يكمل أنفسنا

ولـكننا لا نستطيع أن نفصل حب أنفسنا عن ذلك المركب الابوي . وقد ينفصل عند بعض الناس تماماً . فاما الذين يكون عندهم مزيج من المركب الابوي مع الحب « النرجسي » أي حب الذات فغالباً يفلحون في الزواج . وأما الذين عندهم المركب الأبوي فقط ، فغالباً لا يملـكون في الزواج غير حاسة العطف والحنان ولذلك يخفقون كأزواج . كذلك يخفق الذي يبحث عن رفيق لا يشابه نفسه ولا يكملها بل يختلف عنها اختلافاً تامًّا

العلامة إينشتين يبسط رأيه في

العلم الحديث

والشعور الديني الكوني

[وجه نبوليون الى لابلاس — أعظم فلكي عصره ومؤلف كتاب «الميكانيكا السموية» — سؤالا قال فيه إنه لم يقع في مؤلفات لابلاس على ذكر «الله» فما سبب ذلك ؟ فكان رد لابلاس (لست بحاجة يامولاي الى مثل هذا الفرض) . في هذا الجواب يتلخص وصف موقف العلماء في القرنين الثامن عشر والتاسع من سر الكون، وهو موقف غلبت عليه صورة ميكانيكية ركنها الايمان بان النواميس الطبيعية كافية لتفسير كل ما في الكون ومردها الى القول بان كل حادث في الكون سبق تحديده بحسب هذه النواميس . ولكن المذاهب الجبرية والمادية وما اليها صدمت صدمتها الاولى في مستهل هذا القرن عندما أخرج بلانك نظرية « المقدار او الكونتم » ولا نغالي اذا قلنا ان في دوائر العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية في القرن العشرين انقلاباً قد لا يقل أثراً في مستقبل الثقافة البشرية عن أثر هذه الحرب العالمية الطاحنة وما ينطوي في ثناياها من بذور العالم الجديد . ولذلك صدرنا الجزء الاول من المجلد المائة من المقتطف برأي عالم أميركي كبير في ناحية من موضوع العلم والدين ، ونختم باب المقالات برأي العلامة إينشتين ، وسنوالي نشر ما يتاح لنا من هذا القبيل — المحرر]

كلّ ما يأتيه الانسان من عمل وتفكير انما يأتيه اشباعاً لحاجات يحسّ بها او فراراً من الألم . ولا بدَّ من تذكر هذا القول اذا حاولنا ان نستقصي النهضات الروحية او العقلية وكيف تنشأ وتترعرع . لان الشعور والتوق هما القوتان المحركتان للسعي الانساني والانتاج الانساني، في كل شكل من الاشكال يتجلى هذا السعي او يتجسم ذلك الانتاج

فما هو الشعور وما هي الحاجات التي حملت الانسان على التفكير تفكيراً دينيًّا أو على الايمان ، بأوسع معاني الايمان والتفكير الديني . فنحن اذا تأملنا ذلك وجدنا ان عواطف مختلفة كانت مهداً للتفكير الديني وللاختبار الروحي

ففي الشعوب البدائية كان الخوف اول حافز للانسان على الشعور الديني — الخوف من الجوع والخوف من الحيوانات الضارية والخوف من المرض والموت . ولما كان فهم العلاقات السببية الكائنة بين مظاهر الطبيعة وعللها محصوراً في نطاق ضيق ، كانت النفس البشرية تخلق كائناً شبيهاً بها الى حدٍّ ما، ترجع اليه جميع الأفعال والاختبارات التي تبعث فيها شعور الخوف وتأمل ان تسترضي هذا الكائن بأعمال وتضحيات ، تثبت خبرة الشعب وتقاليده الموروثة، انها امور ترضيه او تكسر من حدة غضبه . هذا دين أدعوه دين الخوف

ثم يستقرُّ هذا الدين بقيام طائفة من الكهنة تدّعي انها تتوسط بين الناس والكائنات

التي يخافونها وبذلك تقبض على زمام السلطة وتحلّ من الشعب في أعلى مقام

وكثيراً ما يجمع زعيم او طاغية او طبقة من الطبقات التي تستمدّ قواها من مصادر ارضية ، بين منصب الكاهن ومنصب الحاكم الزمني . او قد تعقد محالفة بين طائفة الكهنة وطائفة الحكام للمحافظة على مصلحة الدولة والامة حسبما يرونها

وثمة مصدر آخر لنشوء العقيدة الدينية في الشعور الاجتماعي وما يتصل به من ثواب وعقاب . فالآباء والامهات وجميع زعماء الشعوب بشر غير معصومين عن الخطإ ولا بمعزل عن الموت . فالتوق الى الاسترشاد والمحبة والمعاونة يخلق في النفس صورة الله الادبية والاجتماعية . هذا هو ربّ العناية الذي يحمي ويحكم ويثيب ويعاقب . هذا هو الاله الذي يحبّ ابناءه ويمهد السبيل لخلودهم . هو المعزي في الألم والبؤس والجوى المكتوم . هو الحافظ لأرواح الموتى . هذه صورة الله الاجتماعية . ومن اليسير ان يتتبع الكاتب تطوّر فكرة الله من ديانة الخوف الى ديانة الاجتماع او ديانة الآداب في كتابات اليهود المقدسة . وديانات اكثر الامم المتحضرة وخاصة امم الشرق تغلب عليها صبغة الديانة الادبية

ومن أهم وجوه التحوّل في الأمم القديمة هو تحول الفكرة الدينية فيها من ديانة خوف الى ديانة آداب . ويجب ألاّ نخطىء بحسبان ديانات الأقدمين ديانات خوف مجرد وديانات المتحضرين ديانات آداب مجردة . لان الديانات الاولى والثانية انما هي مزيج ، يغلب على الاولى عنصر الخوف ويغلب على الثانية عنصر أدب النفس. وفي كلتيهما يتخذ الله صورة انسان

ولكن بعض الافراد الممتازين في الامم التي بلغت مرتبة سامية من الحضارة يرتفعون بفكرتهم الدينية فوق هاتين المرتبتين وبهم نسمو الى مرتبة ثالثة من الاختبار الديني أدعوهُ «الشعور الديني الكوني» . وليس باليسير تفسيره لمن لا يحسّ بهِ . لانهُ لا يشتمل على صورة انسانية لله . ولكن من يحسّ به يدرك بطلان الرغبات الزائلة والاغراض الانسانية الصغيرة ونبل النظام العجيب الذي يكشف عنهُ في عالم الطبيعة وعالم الفكر . ويشعر ان مصير الانسان انما هو قيد له لذلك يحاول ان يختبر الكيان الكوني كأنهُ وحدة حافلة بالمعنى

ودلائل هذه الفكرة الكونية تبدو لنا في عهديْ ديانة الخوف وديانة الاجتماع . ففي مزامير داود وفي رسائل الانبياء نقع له على اثر جلي . وعنصر هذه الفكرة الكونية أقوى في البوذية منهُ في المذاهب الدينية الاخرى على ما اثبتتهُ لنا رسائل شوبنهور

وعباقرة الدين كانوا يمتازون في جميع العصور بهذا الادراك الديني الكوني الذي لا يعترف باله مصنوع في صورة انسان ولا بتحكم رجاله

وعليهِ يتعذر عليك ان تجد كنيسة تقوم معتقداتها الاساسية على هذه النظرة الكونية

الى الدين . فقد يتفق لنا أن نجد بين هراطقة العصور رجالاً كانت تدفعهم أسمى البواعث الدينية . فكان بعضهم في نظر معاصريهم ملحداً وكان البعض الآخر من الأبرار القديسين

وإذا نظرنا الى ديموقريطس والقديس فرنسيس الاسيزي وسپينوزا من هذه الناحية رأيناهم في صفٍّ واحد .فكيف نستطيع أن ننقل هذا الشعور الديني من انسان اذا كان لا يمكننا من تصور الله في صورة ما ولا يأذن بطبيعتهِ في بناء فقه ديني عليهِ ؟ وعندي ان اسمى وظائف الفن والعلم هي أن تثير هذا الشعور وتغذيه وتحفظهُ متقداً في صدور الناس المستعدين لهُ

ومن هنا نصل الى نظر جديد في علاقة العلم بالدين يختلف كل الاختلاف عن النظر المألوف . فدرس التاريخ يحملنا على الاعتقاد بأن العلم والدين ، خصمان يتعذر التوفيق بينهما وذلك لسبب معقول جدًّا . لأن انساناً مشبعاً بروح الناموس الطبيعي في كل حادثة تحدث ويسلم بفكرة وجود علةٍ لكل معلول ، لا يستطيع أن يسلم قط بفكرة كائن يعترض تسلسل الحوادث تسلسلاً طبيعيًّا . فلا ديانة الخوف ولا ديانة الاجتماع والآداب تستطيع أن تحل في تفكيره وشعوره المقامٍ الاسمى .

لذلك رمي العلم خطأً ، بهدم آداب الناس لأن السلوك الأدبي مبني على العطف والتهذيب والعلاقات الاجتماعية ، ولا يحتاج الى تأييدٍ ما من العقيدة الدينية . ما أسوأ مصير الانسان لو كنا نحتاج الى اله يرهبهُ أو اله يثيبهُ على كل ما يفعل في ارغامهِ على حفظ النظام وحسن السلوك!

فمن الطبيعي المعقول ان تقدم بعض الكنائس على محاربة العلم واضطهاد مؤيديه . ولكني اثبت هنا ان « الشعور الديني الكوني » هو أقوى وأنبل باعث على البحث العلمي . وليسْ باليسير على من لا يقدر نصَب الباحثين في فروع العلم ،وما يقتضيهِ الابداع العلمي من الدأب والتضحية والبذل في جميع نواحيه ، وبُعد مرمى الباحث عن الربح المادي ، ان يدرك قوة البواعث التي تقسر الباحثين على كل هذا . أي ايمان ثابت في انتظام الكون وأي توق عظيم الى الفوز بلمحة من لمحات الحقيقة ، حدَوَا بكپلر ونيوتن الى الكشف عن نظام الافلاك في خلال سنين متطاولة من العمل المضني المملّ !

اما الذين لا يعرفون من العلم — البحث العلمي — الاَّ مظاهره التطبيقية فكثيراً ما يخطئون فهم الحالة العقلية في رجال ، كان يحفُّ بهم معاصرون هازئون ساخرون ولكنهم ثبتوا على ماهم فيهِ فشقوا طريقاً للارواح المؤاخية لهم في جميع البلدان وعلى مدى جميع العصور. ولا يستطيع أن يتصور مصدر الوحي الذي يدفع بهؤلاءِ الرجال الى الثبات والتضحية والمثابرة رغم كل إخفاق وكل سخرية ، الاَّ منْ وقفوا حياتهم على هذه الاغراض النبيلة . هو «الشعور الديني الكوني» الذي يحركهم ويمنحهم القوة !

باب الأخبار العلمية

رصاصة في القلب

مدى اربع وعشرين سنة

هذه قصة لا يكاد يقبلها العقل لو لم يكن راويها الدكتور ترنر استاذ الجراحة في جامعة لندن . وخلاصتها ان جنديًّا انكليزيًّا اصيب في أوائل سنة ١٩١٧ برصاصة رشّاش الماني على مسافة خمسمائة يردة . فاخترقت الرصاصة ملابسه جميعاً وكان في جيبه الايسر دفتر ورزمة من الرسائل فاخترقتهما كذلك.

وبدا من فحصه الأول ان لا مفرّ من اصابة القلب بها مع انَّ نبض الرجل وحرارته كانا طبيعيين . ففحص بالاشعة السينية ، فاذا قاعدة الرصاصة مدفونة في عضل جدار القلب ورأسها متحرك مع الدم المندفع داخله . وكانت حالة الرجل طبيعية ، فأبى الاجازة المرضية التي منحها . ولكن الماجر جورج جراي ترنر احد اطباء الجيش خشي على حياة المصاب لأن الرصاصة قد تخرج من عضل القلب فتوقف عمله او تحدث جلطة فتفضي الى وفاته. فقرَّر ان يعمل له عملية جراحية لاستخراج الرصاصة

وبعد انقضاء ستة اسابيع على الاصابة طرح الرجل على مائدة العمليات بعد تخديره، وشقَّ الصدر وقضى الجرَّاح ساعة وثلاثة ارباع الساعة باحثاً منقباً عن الرصاصة. وخفق القلب في بدء العملية خفقاناً عنيفاً ثم خفَّ خفقانهُ العنيف وبقي في حالة طبيعية طوال العملية اذا استثنينا هنيهة توقف فيها تماماً عن الخفقان

وبدا للجرَّاح الموقع الذي اخترقت فيهِ الرصاصة جدار القلب ، ولكن العضل كان متصلباً فلم يكن في وسع الجراح ان يحسّ بوجود الرصاصة هناك ، لأن العضل كان عند انقباضهِ صلباً كالحجر

ولم تكن فترة الاسترخاء القصيرة بين انقباض وانقباض كافيةً ليحسَّ الجرّاحُ الرصاصة في خلالها فشكَّ إبراً في القلب لاستكشافها ولكن «العضل كان صلباً فأحدث وخز الابر نزفاً عابراً لا غير». واخيراً اخذ الجرَّاح القلب كلهُ في يده متجسساً فتبين الرصاصة باللمس ولكنها كانت في موقع جعل استخراجها متعذراً ، فقرر ان يعيد القلب الى مكانهِ وان يخيط الشقّ . وقد تحمل الرجل العملية وشفي منها وبعد ثلاثة اسابيع غادر السرير وبعد خمسة اسابيع استطاع ان يمشي. وقد تزوج وتمكن من ان يلعب الجولف بغير ان يجهد نفسه

والرجل حيٌّ وهذه التفاصيل مأخوذة من فم الجرّاح الماجر ترنر وهو الآن استاذ الجراحة في جامعة لندن

عنصران خفيان

في طيوف اكليل الشمس والسدم

كلُّ عنصر من العناصر الاثنين والتسعين يطلق ضوءًا خاصًّا بهِ عند ما يُحمَلُ بخاره على التوهج ، فاذا فُحص هذا الضوءُ بالمطياف عُرف العنصر ما هو . وهذه طريقة من أحكم الطرق وأدقها في فحص العناصر في الشمس ودراسة النجوم بوجهٍ عام

ولا يخفى ان الفلكيَّ الانكليزي السر نورمن لُكيَر وجد في سنة ١٨٦٨ خطًّا في طيف الشمس لايقابله خطُّ عنصرٍ معروف على سطح الأرض ، فدعا العنصر « هليوم » أي عنصر الشمس (شمسيوم اذا شئت) وبعد ذلك كشف الهليوم في بعض الغازات الأرضية

وقبل ذلك بأربع سنوات وجد الفلكي الانكليزي السر وليم هجنز خطًّا غريباً في طيف سديم بعيد ، ولم يجد ما يقابلهُ على الأرض فسماه « نبوليوم » أي عنصر السديم (سديميوم اذا شئت) . وفي سنة ١٨٦٩ كشف الفلكي الأميركي يونغ خطًّا في طيف اكليل الشمس ولم يجد ما يقابله على الارض فسماه كورنوم أي عنصر الاكليل (او اكليليوم اذا شئت) . وظلَّ هذان العنصران «نبوليوم وكورونوم » تحيط بهما غلالة من الخفاء والغموض اذ لم يوجد ما يقابلهما على سطح الارض . وكان رجال البحث الفلكي يهرعون الى مقابلة خطوط العناصر الجديدة المكشوفة على الارض بخطي هذين العنصرين المفروضين في السديم والاكليل ، فلم يجدوا في جميع العناصر الجديدة التي كشفت على الارض ما يقابل خطيهما ، كما تقابَل خطَّا الهليوم في الشمس والارض . والرأي الآن ان خطي هذين العنصرين المفروضين ليسا خطيْ عنصرين على الاطلاق ، بل هما خطَّان للاكسجين وهو في حالتين خاصتين من التهيُّج الكهربي بفعل الحرارة العالية

العناصر في ماء البحر

يدخل ثلاثون عنصراً في تركيب ماء البحر ولكن ما يوجد من هذه العناصر فيهِ يسير جدًّا لا يستطاع تبينه الاَّ بالمطياف وبعضها لا يستطاع تبيُّنه بالمطياف بل يفرض وجوده فرضاً ، لأن آثاره توجد في أجسام الحيوانات والنباتات البحرية

ومما يدلُّ على الثروة المعدنية المذابه في ماء البحر مقدار الفضة فيه . فقد حسب الحاسبون الثقات ان فيه مقدار ١٢٫٣٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ طن من الفضة وهو يزيد نحو ٤٧ الف ضعف على كل الفضة التي استخرجت من مناجم الأرض في خلال الخمسة القرون الأخيرة

آمال الشيب

روينا قبلاً في المقتطف ان عالماً اميركياً (وهو يدعى ازباخر) وجد في مركب ڤيتامين B عاملاً يعيد السواد الى الشيب من الجرذان. وقد دعا هذا العامل الحمض پارا — امينو — بنزويك. وهو يوجد في الخميرة والكبد والعسل الاسود. فلما عقدت الجمعية الكيميائية الاميركية مؤتمرها السنوي في منتصف سبتمبر الماضي قرأ الدكتور ازباخر ومعاونهُ الدكتور مارتن رسالة جاءَ فيها ان التجارب التي جرّبت بالجرذان قبلاً واسفرت عن نجاح، جرّبت كذلك بالبشر واصابت نجاحاً

وقد جرّبت هذه التجارب في مستشفى مدينة بوسطن واشرف عليها الدكتور سيف وكان عدد الذين جربت بهم ثلاثين تتفاوت اعمارهم من احدى وعشرين سنة الى احدى وخمسين سنة. وروقب فعل هذه المادة في اعادة السواد الى شعرهم الذي وخطهُ الشيب مدى شهرين. وكان عليهم ان يتناولوا كلَّ يوم جرعةً من هذه المادة مفرغة في قالب قرص أبيض كقرص الاسبيرين. وعند الباحثَيْن انهُ اذا توسعا في تجاربهما وتحقق ما اسفرت عنهُ التجارب الأولى من نجاح فالشيب قد يصبح نادراً

والحمض پارا — امينو — بنزويك لا يوجد فقط في مواد الطعام التي تقدم ذكرها بل يصنع كذلك بالتركيب الكيميائي من مقطرات قطران الفحم الحجري ومشتقات النفط ويستعمل صبغاً. وهو رخيص الثمن لا يتجاوز ثمن الرطل منهُ خمسة قروش. وينتظر ان تصنع اقراص منهُ وتعرض للبيع متى وافقت «مصلحة الطعام والعقاقير» بالحكومة الاميركية على ذلك. وقد لا تحلُّ سنة ١٩٤٢ قبل ان يتحقق هذا في الولايات المتحدة الاميركية

الطعام والتدخين

عرض الطبيبان الباحثان الاميركيان ستيكول وكونواي نتائج بحث دقيق اجرياه في صلة التدخين بالطعام. وملخص هذا الرأي ان الرجل الذي يستطيب أكل اللحوم ويكثر منهُ اقل تأثراً بالتدخين من النباتيّ. ففي اللحم مواد تولد البروتين في الجسم وهذه المواد تبطل على الغالب الأثر الضار للپيريدين والبنزين الذين في دخان التبغ. وقد افرغا هذا الرأي في قالب يستوقف الانظار إذ قالا «ان هتلر النباتي لا يستطيع ان يجاري تشرتشل الذي يأكل اللحم اذا أعطيا جرعتين متماثلتين من البيريدين والبنزين. ولو خلط طعام برنارد شو النباتي بقليل من البيريدين لما عمر الى الخامسة والثمانين»

« القلاع الطائرة » وطائفة من اوصافها الفنية

تعتمد هذه الطائرات — وهي ليست أضخم القاذفات بل تفوقها قاذفات ستِرلنغ البريطانية وليباريتور الأميركية — على ارتفاعها وسرعتها في اجتناب الأذى ، وهي لا ترتفع الى علوٍّ تعجز المطاردات عن بلوغه ولكنهُ علوٌّ لا تستطيع المطاردات ان تنشط نشاطها الكامل عند ما تبلغهُ . وهذه القاذفات مجهزة بمنظار « سبري » لتسديد القنابل . وبهِ يستطيع رجالها ان يسددوا قنابلهم من ارتفاع ٣٥ الف قدم او اكثر الى أهداف على سطح الارض . وهو جهاز غاية في الدقة . ولا بدَّ من التدرُّب تدرُّباً طويلاً على استعماله لشدة تعقيده . غير انهُ متى أتقن مسدّد القنابل عملهُ استطاع ان يفوز بنتائج تبعث على الرضى

ومحركات هذه القاذفات تستطيع ان تبلغ بها ارتفاعاً يحتاج المرءُ عند بلوغهِ الى استنشاق الاكسجين المخزون ، لان ارتفاعها قد يبلغ ٤٠ الف قدم . واذا لم يستنشق احد رجالها الاكسجين المخزون فقد وعيهُ في ست دقائق وفارقتهُ الحياة في نصف ساعة

وقد أثبت الامتحان ان تصميمها أعظم ما يكون اتقاناً . وهي قادرة ان ترتفع بضعة بضعة آلاف من الاقدام في أثناء الاعمال الحربية فوق المستوى الذي صمّمت له . وأعلى ما تستطيع الارتفاع اليه لم يعرف بعد . ولكن من النادر في تاريخ البشر بلوغ اجسام من المعدن سواءٌ ، أساكنة كانت ام متحركة ، الى المستوى الذي تبلغهُ هذه الطائرات

وقد عانت القلاع الطائرة ورجالها صعاباً جمة من تأثير الصقيع . فعلى ارتفاع عظيم حيث تبلغ درجة البرد خمسين مئوية تحت الصفر تتغطى نوافذها بطبقة من الصقيع الأبيض ولكن الاميركيين اخترعوا جهازاً بارعاً دقيقاً للتغلب على هذه الصعوبة

رجال القلعة الطائرة سبعة — طياران ، ومراقب ملاَّح ، وعامل لاسلكي ، وعامل لاسلكي مدفعي ، ومدفعيان . وجميعهم يلبسون ملابس تدفأ بالكهربية . واجتناباً لتصبب العرق الذي قد يتجمد عليهم ويبردهم مهما يكن ملبسهم ، يتعين عليهم ان يلبسوا هذه الملابس رويداً رويداً وفقاً لتحليق الطائرة في الفضاء . ثم انهم مجهزون بالاكسجين وهو محفوظ في اسطوانات كثيرة في أوعية خاصة موزعة في جوانب الطائرة

والتحليق بهذه الطائرات يؤثر تأثيراً شديداً في رجالها وهم لا يختارون الاَّ بعدما يجتازون امتحانات خاصة تجري في حجر يخضع فيها الضغط لسيطرة الممتحِنين . وقد تتأثر اجسامهم بالجهد والعناء اللذين تتعرَّض لهما فيشعرون بضرب من اعتقال العضلات يصلّبهم فيمنعهم عن الحركة ويحسون بألم شديد يفقدهم البصر والنطق الى ان تهبط الطائرة . وقد تصاب عقولهم بنوبات متعاقبة من التفاؤل المبالغ فيه ، والقنوط . وبين الحالين لا يستطيع الاَّ صاحب المشيئة الصلبة ان يحفظ الميزان

الاشعة التي فوق البنفسجية
تزيد تكاثر النبات الواحد الخلية

تستعمل أمواج الأشعة التي فوق البنفسجية، من اطوال معينة، لتنقية الهواء في بعض المستشفيات من البكتيريا. ودلّت مباحث المسز فلورنس تشايس — العالمة البيولوجية في المعهد السمثصوني الاميركي — على ان هذه الاشعة تفتك بالخلايا النباتية الخضر البدائية. ولكنها لما عرّضت هذه الخلايا النباتية نفسها للاشعة نفسها مدة تبلغ ثلثي المدة الكافية للفتك بالخلايا وجدت ان نشاط الخلايا الى التكاثر زاد زيادة واضحة

ومعدّل زيادة التكاثر تختلف باختلاف طول الامواج التي تتعرض لها الخلايا. وقد وجدت المسز تشايس ان أنفع الأمواج من هذا القبيل هي الامواج التي طولها ٢٣٥٢ انجستروماً و ٢٤٨٣ انجستروماً و ٢٦٥٢ انجستروماً و٢٩٦٧ انجستروماً. (الانجستروم جزءٌ من ١٠ ملايين جزء من الملمتر) وتعريض هذه الخلايا لكل من هذه الأمواج او لاحدها يزيد معدّل النمو زيادة معلومة

فالخلايا الخضر المعرَّضة للامواج التي طولها ٢٣٥٢ انجستروماً يزيد معدل نموها ٤٫٧ الضعف وتعريضها للامواج التي طولها ٢٤٨٣ انجستروماً يزيد معدل نموها ٣٫١ الضعف

ومع ان عدد الخلايا زاد بفعل هذه الامواج الاَّ ان حجم الخلايا الفردة نقص فكأنها لم تستوف المدة اللازمة للنمو الكامل قبل أن تثيرها الامواج الى الانشطار

علاج جديد للحروق

صُنع عقّار جديد من عقاقير السلفانيلاميد يدعى « سلفاديازين » وهو على ما يلوح من أفضل ما صنع حتى الآن لعلاج الحروق. وقد أقبل عليهِ جرّاحو جامعة جونز هبكنز. ويستعملونهُ الآن كلما قضت الحاجة اليهِ. يوضع المصاب على ملاءات معقمة ويُرَشُّ بمحلول هذا العقار مرة كل ساعةٍ ويعنى عناية خاصة بدفئهِ، فلا تنقضي اربعة أيام حتى تتكوّن قشرة رقيقة على مكان الحرق وتبدأُ تنفصل عن الجلد الجديد بعد عشرة أيام. والمحلول خفيف لا يؤذي العينين ويخترق موضع الحرق بسرعة فيخفف الألم

القدرة على مقاومة المرض

يذهب الدكتور هنري سمز Simms أحد أساتذة مدرسة الطب بجامعة كولومبيا ان القدرة على مقاومة المرض في البشر تكون على أعظمها في السنة العاشرة من العمر. ولو احتفظ الناس مدى الحياة بهذه القدرة كاملة غير منقوصة لعمّروا خمسمائة سنة او تزيد

شيء عن الصناعة الحربية
في الولايات المتحدة الأميركية

لم تقبل الولايات المتحدة الأميركية ، على انشاء صناعة حربية واسعة النطاق ، الاَّ من نحو سنة وبعض سنة تقريباً . وكان عليها أن تتخذ من بضع مصانع الذخيرة التابعة للجيش ، ومصنع واحد للمدافع الضخمة وصناعة طائرات محدودة بحدود المطلوب منها للخطوط التجارية ، نواةً لأعظم برامج الانتاج الحربي في التاريخ . فكان لا بدَّ لها من أن تنشىء مصانع جديدة وأن توسع نطاق المصانع القديمة ، وأن تحول مصانع السيارات الى صنع الدبابات ومحركات الطائرات وما أشبه ، وأن تجهز جميع هذه المصانع بالأدوات التي لا غنى عنها في صنع الات الحرب. وكان لا بدَّ كذلك ، من أن توضع التصميمات الوافية لآلات الحرب الجديدة على ضوء الاختبار الحربي ، وأن تعدَّل مرة بعد أخرى ويقدم ما يصنع منها على غيره حيناً بعد حين ويؤخَّر غيره ، وفقاً للحاجة الملحة ، في أميركا وبريطانيا ثم في روسيا الآن

كانت السنة الماضية سنة تأهب ، وعلى الرغم من أنها كانت سنة تأهب ، أخرجت المصانع الأميركية من الطائرات مثلاً ما مكن أميركا ، من أن ترسل منها الى بريطانيا في خلال السبعة الأشهر الأولى من سنة ١٩٤١ عدداً عوَّض كل ما خسره سلاح الطيران البريطاني في سنة ١٩٤٠ كلها. والى القارىء بضعة أمثلة على تقدم الصناعة الحربية الأميركية

بلغت قيمة ما صنعته مصانع الادوات اللازمة لصنع آلات الحرب في أميركا ٢٢ مليوناً من الدولارات في سنة ١٩٣٤ فزادت الى ٦٠ مليون ريال في الشهر الواحد في ابريل الماضي أي الى ما متوسطه ٧٠٠ مليون ريال في السنة الماضية على اساس هذا المعدّل . وينتظر أن تبلغ قيمتها السنوية في هذه السنة ١٩٤٢ ، الف مليون ريال . بهذه الأدوات تصنع أميركا ، البارود وسائر أنواع المتفجرات ومحركات الطائرات والدبابات والسيارات المدرعة والرشاشات والطائرات والمدافع والسفن الحربية والتجارية ، فزيادة ما يصنع من هذه الأدوات مقياس الى حدٍّ ما ، لما يصنع من السلاح والعتاد بها وحسبنا أن نضرب مثلاً أو مثلين

خذ المدافع الرشاشة : كان في أميركا قبل الشروع في برنامج الدفاع الضخم ، مصنع واحد يصنع هذه المدافع فوسَّع نطاقه وزاد انتاجه أضعافاً ، ولكن الحكومة انشأت بالاتفاق مع بعض الشركات احد عشر مصنعاً اخرى لصنع المدافع الرشاشة ، ولم ينجز أحدها الاَّ في يوليو وأغسطس الماضيين ، والمدفع الرشاش الاول الذي صنع في هذه

المصانع الجديدة ، تمّ في ابريل الماضي ولكن الصناعة فيها جميعاً على أساس النطاق الواسع Mass Production واذا حسبنا ساعات العمل في هذه المصانع ٢٤ ساعة في اليوم وسبعة أيام في الاسبوع ، ففي كل دقيقتين يصنع فيها مدفع رشاش ، أو ثلاثون في الساعة ، أو ما يزيد على سبعمائة مدفع رشاش حديث كل يوم أوعشرين الفاً في الشهر

أو لنأخذ الطائرات : كان مجموع ماصنع من الطائرات الحربية في الأربعة الأشهر الاولى من سنة ١٩٤١ ، ٤٦٥١ طائرة ، والمعدل ١١٦٠ في الشهر . فبلغ ١٩١٤ في سبتمبر وينتظر ان يبلغ من ٢٥٠٠ الى ٣٠٠٠ في شهر مارس القادم، وقد يبلغ ٣٥٠٠ أو أكثر في منتصف ١٩٤٢. ولكن العدد وحده لا يكفي مقياساً لأن الاتجاه الآن في أميركا ، الى بذل أعظم جهدٍ في صنع القاذفات الضخمة ذات الحركات الاربعة—من طراز القلعة الطائرة ، والليباريتور وغيرهما. وقد قدر أحد الخبراء الجويين مجموع ما تصنعهُ مصانع روسيا وبريطانيا وأميركا الآن من طائرات ، بسبعة آلاف طائرة في الشهر الواحد أو يزيد قليلاً ويحتمل أن يزيد في سنة ١٩٤٢ الى نحو عشرة آلاف طائرة . بينما الأنتاج الالماني الاوربي يتفاوت بين ٢٥٠٠ وثلاثة آلاف طائرة في الشهر. وهذان المثلان ، يُعدَّان نموذجاً للتقدم الحثيث في الصناعة الحربية الاميركية ، ولكن معدل التقدم متفاوت بتفاوت اصناف السلاح والعتاد

ومما هو جدير بالذكر ان المصانع التي تصنع محركات الطائرات صنعت ٤٥٠٠ محرّك منها في شهر سبتمبر ١٩٤١ . اما وقد خاضت الولايات المتحدة غمار الحرب متحدة الكلمة متراصة الصفوف فالمعقول ان تزال جميع العوائق التي كانت تعوق الصناعة الاميركية عن بلوغها أوج قدرتها على الانتاج الحربي

المنجنيس وفيتامين C

المنجنيس من العناصر التي تحتاج اليها كل أمة في صناعتها الحربية، لانهُ لازم لصنع صنف خاص صلب من الفولاذ . وقد اثبت البحث الحديث انهُ لازم كذلك لتركيب فيتامين C فقد نشر الباحث الكيميائي الدكتور جكسون هستر في مجلة العلم الاميركية (وهي تقابل مجلة نايتشر الانكليزية) بحثاً يقول فيهِ ان الطماطم الذي يزرع في ارض تفتقر الى المنجنيس يقل فيهِ فيتامين C بينما يكثر في الطماطم المزروع في ارض غنية بهذا العنصر . وقد اجرى هذه التجربة في اناء ليتمكن من ضبط جميع عناصرها فوجد ان اضافة مقدار من المنجنيس يبلغ جزءًا من ١٥٠ الف جزء من التربة التي في الاناء ضاعفت مقدار الفيتامين C في الطماطم

اللوزتان وشلل الاطفال

أذاع الدكتور فشبين السكرتير العام للجمعية الطبية الاميركية تحذيراً الى الاطباء بالامتناع عن نزع لوز الاطفال في أثناء تفشي وباء شلل الاطفال. وعنده ان الفيروس الذي يسبب شلل الاطفال، قد يدخل الجسم عن طريق الفم والحلق. وعندما يدخل الفم والحلق تلتقطهُ اللوزتان فتصابان في أثناء قيامهما بالدفاع عن الجسم. ولذلك يعتقد فريق من الأطباء ان نهوض اللوزتين بهذا العمل الدفاعي المجيد، يجعل الاحتفاظ بهما في أثناء تفشي وباء شلل الاطفال مرغوباً فيهِ إذ تُعَدُّ اللوزتان خطًّا من خطوط الدفاع ضدّ غزو هذا الفيروس الوبيل. وما يصدق على اللوزتين يصدق على لحميات الأنف

الليزوزيم Lysosyms

قلت في باب الاخبار العلمية بمقتطف نوفمبر سنة ١٩٤١ ان الدكتور فيلاتوف يستعين على ترقيع العيون بمادة مطهرة هي الليزوزيم اذ توضع فيها العيون ريثما تباشر عملية الترقيع، وان الليزوزيم مادة طبيعية واقية من التعفن اكتشفها فليمنج أحد اطباء بريطانيا العظمى وذلك في دموع البشر وفي غيرها من المفرزات الطبيعية الجمة. ومع ذلك لم تستعمل في البلاد التي اكتشفتها بل اقتصر استعمالها على اتحاد جمهوريات السوفيات حيث يتوسلون بها الى وقاية البطارخ من الفساد

وقد لفت نظري حضرة صديقي الدكتور احمد عبد الرحيم فهمي الرمدي المشهور الى ان هذه الكلمة الانكليزية تنطق ليزوزيم، بزايين ويجدر بي في هذا المقام ترديد اعتراف العلماء بكون الطبيعة اعظم اساتذتهم من أقدم العصور الى هذا الزمان

ويسرني الآن، اتماماً لوصف الليزوزيم أن اقتبس ما سبق نشره بشأنه في مقتطف ديسمبر سنة ١٩٢٨ حيث قيل انهُ من أقوى المواد المعروفة لقتل الميكروبات. ويؤخذ من مباحث الدكتور فردريك ردلي أحد أعضاء الجمعية الطبية بلندن أن ملء ملعقة شاي من هذه المادة النقية تفعل في قتل بعض ميكروبات العين ما يفعلهُ مائة جالون من ماء البحر الاجاج. وان هذه المادة توجد كذلك في كريات الدم البيض التي تهاجم الميكروبات المختلفة حين تدخل الجسم لتقيه منها وقد يصبح في الامكان استفرادها واستعمالها كما تستعمل المطهرات المشهورة

عوض جندي

الحرارة والذاكرة

أجرى الدكتور جون فرنش أحد أساتذة جامعة برنستون الاميركية تجربة عجيبة ليتبيَّن هل هناك صلة بين الحرارة والذاكرة. واتخذ سمك المرجان موضوعاً لتجربته ، فوضع السمك في حوض فيه تيه وبعدما تعلم السمك مداخل التيه ومخارجه، غيَّر الباحث حرارة الماء مراراً فوجد انهُ كلما ارتفعت الحرارة زاد نسيان السمك ما تعلمهُ قبلاً من شؤون هذا التيه . واستبعد القول بأن الماء الدافىء أفضى الى تراخي نشاط السمك

طول باشلس التيفود

يبلغ طول باشلس التيفود ثلاثة ميكرونات على المعدل او ثلاثة اجزاء من خمسة وعشرين الف جزء من البوصة. ولو كبرنا هذا الباشلس حتى يبلغ طولَ مسطرةٍ طولها قدم وكبرنا المسطرة بالنسبة نفسها لبلغ طول المسطرة عشرين ميلاً

عصر النتروجين

[تابع المنشور على الصفحة الثامنة]

واذا كان من المفروض في دوائر الحرب ان الجيوش يجب ان تتلقى الأوامر الصادرة اليها وتنفذها بغير تفكير فيها — وقد قال تنيسون في قصيدته « كتيبة الفرسان الخفيفة » ليس ثمة مجال للتفكير ، ولا للسؤال — فانّ قواد الجيوش وضباط أركان الحرب لا يستطيعون التفكير في الخطط الحربية الاَّ بالنتروجين ، فهو سر المادة السنجابية في الدماغ . أي إن الجيش يزحف بالنتروجين ويحارب بالنتروجين ويفكر بالنتروجين . بل ان الفكر كله في كل حضارة ليس الاَّ مظهراً من مظاهر النتروجين

نعم ان طوائف النبات والحيوان تحتاج الى عناصر اخرى غير النتروجين كالفصفور والبوتاسيوم والحديد والكاسيوم والمغنيزيوم والكبريت والبورون وغيرها . ولكن المتاح من النتروجين في مركبات تصلح للاستعمال هو العامل الذي يتحكم في النمو . واذا كان البستانيون يقولون « النتروجين للنمو ، والفصفور للون ، والبوتاسيوم للثمر » وتصنع الاسمدة الكيميائية محتوية على مقادير مناسبة من هذه العناصر ، فقولهم ان « النتروجين للنمو » يصدق على نمو البشر جسداً وعقلاً صدقهُ على نمو نبات البستان . ان هذا العصر هو عصر النتروجين

مكتبة المقتطف

المخبأ رقم ١٣

كوميدية من ثلاثة فصول بقلم الاستاذ محمود تيمور بك نشرتها مجلة « الحوادث » في ١٤١ صفحة من القطع الوسط — مطبعة عطايا بمصر

كانت مجموعة « ثلاث مسرحيات » التي أخرجها الاستاذ محمود تيمور بك وأشرت اليها في مقتطف نوفمبر الماضي أول الغيث الذي أفاض على المسرح المصري خيراً وبركة وعلى الأدب المصري انعاشاً ونمواً ، فلم تكد تخرج تلك المجموعة حتى تلقاها النقاد بما هي جديرة به من الدرس ، وكانت مثار آراء واتجاهات في كتابة المسرحية المصرية ولغة الكتابة

أجل ! لقد كانت هذه المجموعة أول الغيث فها هي ذي مسرحية جديدة يخرجها تيمور بك بعنوان « المخبأ رقم ١٣ » تحتل بجانب أخواتها المكانة اللائقة بها من اهتمام النقاد ، كما اعد للطبع مسرحيتين أخريين ، الأولى « عروس النيل » والثانية « عوالي »

والمسرحية الجديدة من ثلاثة فصول صوّر فيها المؤلف روح ثلاث طبقات من المجتمع المصري — العليا منه والمتوسطة والدنيا — وجعل مسرح حوادثها جميعاً في مخبإ ، وتناول هذه الحوادث بريشة ماهرة في سخريتها وتهكمها ، فمن الرقم السيء الحظ الذي وسم به المخبأ الى أسماء شخصيات المسرحية التي جعل الكثير منها مناقضاً لخلق صاحبها أو منسجماً مع طبيعته . فهنا رجلٌ مرابٍ اسمه «ذهب افندي» وفتاة من غواني الملاهي اسمها « عفاف » ، وشاب مهذار اسمه «بهجت الناعم» وغير هؤلاء ممن وضع المؤلف اسماءهم مطابقة لروحهم

وتجري حوادث المسرحية في احد المخابىء العامة حيث لجأ فريق من الناس تختلف طباعهم ومشاربهم ومستواهم الأدبي على صوت صفارة الانذار ، وكلٌّ منا يذكر ما كان يدور في هذه المخابىء بين الناس في تلك الليالي السود من أحاديث وما يتجلى فيهم من ضعف أو قوة وتفاؤل أو تشاؤم . ولقد تناول الاستاذ تيمور كل ذلك في مسرحيته فكشف عن

النفس الانسانية في محنتها وما يساورها في ساعات القلق ومدى ما تتأثر به تبعاً لظروف الحوادث وتحوّلها ، فهي في أول الامر لا تحس بشيء مما أعده القدر من مفاجآت أليمة . فنحن نرى أصحاب المخبأ يدخلون اليه بعد ان انتزعتهم من سهراتهم ومرحهم صفارة إنذار بالخطر فهم لا يزالون من لهوهم في نشوة فلا يلبثون ان يتابعوا ما كانوا فيه من مشاغلهم . فهنا المرابي يفاوض الثريّ الارستقراطي في صفقة ، وهناك الشاب المهذار يغازل فتاة الملاهي ويدعوها الى الغناء فالرقص ، وفي ركن آخر خطيبان من الطبقة الراقية يريد الخطيب ان يجد له في المخبإ خلوةً أتاحها له الحظ بخطيبته المحافظة التي يضايقها ما تجد ويشغلها عن كل ذلك شغلها بوالديها فتعامل خطيبها بقسوة. وهنا وهناك انواع شتى من الناس منهم مدرس ومنهم رجل أبله أخرس وبائع كعك وماسح احذية وامرأة بلدية عجوز . جميع هؤلاء قد اجتمعوا في مكان واحد وتفرقوا شيعاً في الفكر والغايات. ونحس ضيق بعضهم ببعض فما يلبث أن يقترح واحد منهم مراعاة نظام الطبقات في المخابىء ونلمس سخرية البعض من البعض الآخر واستهجانهم لما يرون وما يسمعون حتى اذا طال بهم الوقت وسئموا البقاء وهموا بالانصراف متسللين بدأ اطلاق القنابل وبدأوا يتراجعون الى مخبإهم في ذعر ، وشغلهم الكرب عما كانوا فيه من لهو. فاذا كنا في الفصل الثاني وقد تهدمت عمارة على مقربة من المخبإ فسدّت انقاضها بابه كشف لنا المؤلف عن النفس البشرية عند مايسد القدر عليها منافذ الرجاء فتحاول ان تصل بينها وبين السماء وتحاول ان تتناسى آثامها فيتنبه فيها الشعور الديني ويفكر اصحاب المخبإ في الصلاة عسى ان تنجيهم من ضيقهم ونراهم بعد أن كانوا يسخرون من الشيخ الابله الاخرس يسترضونه ويتطلبون بركاته ويقدمون اليه التبرعات ويتناسون الفروق وتؤلف المصائب بين قلوبهم . وهنا يطلق المؤلف ريشته الساخرة في كل موقف في دقة واقتدار. وما نلبث ان نجد هؤلاء المساكين بعد ان استنفدوا ما كان مع بائع الكعك طعاماً وقد استغل ماسح الأحذية هذا الموقف في المساومة على هذا الطعام، لا نلبث حتى نجد هؤلاء يتزاحمون على زجاجات من الخمر كانت مع غانية الملاهي .حتى اذا كان الفصل الثالث وقد آذنت الشدة بالفرج وبدأت معاول رجال الانقاذ في ازاحة الانقاض عن المخبإ بدأت النفس البشرية ترتدُّ الى طبيعتها الانكارية وبدأ أصحابنا يسخرون من شيخهم الأبله عند ما لاح بصيص النور وهبط اليهم رجل الاسعاف وبدأوا يحسون ما بينهم من فوارق. ونرى صحفيًّا يريد ان يلتقط لأصحاب المخبإ صورة فتقوم بينه وبين رجل الاسعاف مشادة يتدخل فيها بائع الكعك فيتضارب ورجل الأسعاف . وبين هرج الناس ومرجهم تدوّي صفارات الانذار من جديد وتسمع طلقات المدافع ونرى الثغرة وقد هجرها المتفرجون وانهالت بعض الحجارة والاتربة من

الثغرة الى المخبإ ويسدل الستار وقد وقف ماسح الأحذية متوسطاً المخبأ وهو واضع يديه في خاصرته وانطلق يقهقه . . . .

هذه هي مسرحية تيمور بك الجديدة التي حاول فيها أن يتخذ من ظروف الحرب الحالية مسرحاً يشرح فيه النفس الانسانية فأحسن التشريح وكشف عن طباعها في دقة ومهارة وقد أجرى الحوار فيها باللغة العامية .كالمسرحيات الثلاث السابقات . وإنه ليسرنا أن نعلن عزم المؤلف على اخراج مسرحياته جميعاً في طبعات جديدة باللغة الفصحى خاصة بالاقطار العربية وهي همة مشكورة ورعاية للأدب العربي يسجلها له المنصفون

حسن كامل الصيرفي

عيون معصوبة وقصص اخرى

مجموعة قصص مصرية كاملة وشعر منثور — للاستاذ محمود كامل المحامي — دار الجامعة للنشر والطبع بالقاهرة — صفحاتها ١٤٣ تحوي ثماني قصص واربع قصائد قصصية نثرية

ان نشاط الاستاذ محمود كامل لا حدَّ لهُ ولا مبالغة في الاحتفال بهِ والثناء عليهِ . فقد أخرج في السنوات العشر الأخيرة عشر مجموعات قصصية ، وأشرف على إخراج احدى قصصه شريطاً سينمائيًّا ، وعلى نقل مجموعة مختارة منها الى الفرنسية واخرى الى الانكليزية (أنظر مقتطف دسمبر سنة ١٩٤١) وهـذا الى جانب اشتغالهِ اشتغالاً موفقاً بالمحاماة وباصدار مجلة الجامعة الاسبوعية

ولـكن هذه المجموعة الأخيرة من قصصهِ « عيون معصوبة » تختلف عما سبقها في أنها مرسلة انطلق فيها المؤلف من قيود الخطة القصصية التي تخضع لاعتبارات « العقدة » وحبكتها وجعل حوارها بلغة عربية سهلة لا باللغة الدراجة . هذا من حيث الشكل والقالب . أما من حيث المعنى الغالب عليها ، فهي محاولة للدفاع عن « السموّ العاطفي » في البيئة المصرية وهو يقصد « بالسمو العـــاطفي » على ماقال لفظة Romance أي الشعور الذي يحركهُ الخيال والانفعال الى بناء قصور في الهواءِ !

«والعاطفة التي تجمع احياء هذا الـكتاب ، ليست تلك التي تنطلق بتفصيلاتها ألسنة السكارى على أرصفة الحانات في ساعات الليل العابثة . انها العاطفة التي يعرف الشاعرون بها عبقرية الصمت »

« إنهم سعداء لان لـكل منهم روحاً أخرى تفكر فيه وتعنى به وتحنو عليهِ ولايتحدث

أمام الغير ولا يبحث في الانقاض عن ماض بعيد يحيل به حياتهم الى جحيم مسمم . ان بطلات وأبطال هذه القصص لهم عيون شابّة تلمع عاطفة وولهاً وتدلهاً . ولكنها معصوبة عن شرور الناس . أنها تقودهم نحو قدر محتوم يتجهون اليه راضين هانئين »

وقرّاء المقتطف أعلم قراء العربية بهذا الاتجاه الجيد في تأليف الاستاذ محمود كامل وقد طالعوا في خلال السنة الماضية والتي قبلها ثلاثاً من هذه القصص ، مثل « امرأة أخرى » و« رعدة الذكرى » وقد نشرت في المقتطف بعنوان « على صخرة في سيدي بشر » (مقتطف يوليو ١٩٤٠) و« عينان معصوبتان » (مقتطف يوليو ١٩٤١)

***

والحوار في جميع هذه القصص بارع وفيه لمحات دقيقة ولفتات بديعة تدل على استكناه المؤلف نواحي شتى من بواطن النفوس ودخائل الشعور كقوله في قصة (عينان معصوبتان) وهي قصة سيدة متزوجة — تحترم منزلة الزوجة ولكنها غير رضية العيش — تحدث مثّالاً بالتليفون بغير أن يعرفها قبلاً او يعرف من هي وانما من البين ان روحها يوائم روحهُ

هو — . . . . ماذا تريدين مني ؟

هي — أن تدعني أبكي

وكقوله في قصة (امرأة أخرى) وهي قصة شاعر وامرأة أحبها ثم عرف أنهُ لم يكن أول من أحبت

هو — أجل . . فقد كرهت تلك القصيدة ولو استطعت أن أجمعها من المكتبات وأحرقها لما ترددت

هي — لم

هو — لان الوحي الذي ألهب روحي ليلتئذ لم يكن نقياً

هي — انني سعيدة اذ أسمع منك هذا الكلام . . انك تحبني الى حد انك تغار من ماضي قبل أن تعرفني

هو — واهمة

هي — لا بل واثقة

هو — لن أبخل بان أدعك اليوم وانا أتحدث اليك حديث الوداع تتعزين بهذا الوهم ... أما اليوم فان ما يألمني هو شعور الذين عرفوك قبلي ، بتفاهة تلك القصائد . إنهم يقرأونها ساخرين . إنه شعور بالخيبة لا بالغيرة كما خيل اليك

هي — لست اول شاعر ألهبت روحه امرأة أحبها الناس من قبل

هو — هذا هو الفرق بيني وبينك. لو لم أحب في كل مرة كأنني احب للمرة الاولى واودع للمرة الاولى لما استطعت ان اكتب شعراً

ان الاستاذ محمود كامل قلب بهذه المجموعة صفحة جديدة كريمة في حياته القصصية فنتمنى لهُ اطراد النجاح والاقبال

الطريق .

رسالة ثقافية اسبوعية — بيروت صندوق البريد ٦٧١ — الاشتراك ٥٠٠ قرش سوري في سوريا ولبنان وجنيه انكليزي في الخارج

هذه المجلة الأسبوعية رسالة ثقافية تصدرها عصبة «مكافحة النازية والفاشستية» في سوريا ولبنان التي أنشئت سنة ١٩٣٥. واعضاء مجلس ادارة المجلة هم الاساتذة عمر فاخوري، انطون ثابت، يوسف يزبك، رئيف خوري، ورئيس تحريرها الاستاذ قدري قلعجي. امامنا الجزء الاول من «الطريق» وهو حافل بفصول نفيسة ادبية واجتماعية ولكن مقالة رئيس التحرير استوقفت نظرنا خاصة لانها بسطت «رسالة العصبة» بسطاً شافياً لبابها قوله «ان الاديب الحق لا يستطيع ان يكون حالماً من اولئك الحالمين الذين يصدمون الواقع ويتهربون في فترة النضال الأكبر التي نعيش فيها، من واجب الدفاع عن الثقافة المهددة والحرية المثخنة بالجراح. الأديب الحق رائد من رواد الفكر، وقائد من قواد النهضة، ورسول من رسل الانسانية، وليس مخلوقاً غريباً مجنحاً، متقلب الاهواء، يرسم الزخارف على الطين، ويعيش نجيّ الشكوك والأوهام، مصمماً اذنيه عن نداء المظلوم مغلقاً عينيه عن مدية الظالم»

وقد عالجنا هذا الموضوع في مقتطف يوليو ١٩٤٠ في فصل عنوانهُ «مهمة رجال الفكر في ازمات الحضارة» وهو ملخص عن فصل طويل للفيلسوف السياسي الانكليزي الاستاذ هارولد لاسكي. وركن هذه المهمة «خوض معركة الحضارة في سبيل الحرية العقلية والأدبية لا الانزواء في برجهِ العاجي وترفعهِ عن الكفاح»

وكذلك «لا يجوز لرجل الفكر ان يقف موقف متفرج متجرد من شؤون عصره كانهُ يزن قطعة من المعدن».

ولو «اراد التجرّد في ما يتعلق بمسائل السياسة والاجتماع والأخلاق لوجده متعذراً».

واذا كانت هذه مهمة الأديب او المشتغل بشؤون الفكر، بوجه عام، فا مهمة الأديب في هذا العصر الذي تتنابهُ الزعازع السياسية والاجتماعية وفي هذه الاقطار العربية اللسان

ان مهمتهُ في البلاد العربية على ما جاء في «رسالة العصبة» مكافحة النازية والفاشستية «وفي هذه الرسالة وفي الرسائل المقبلة من «الطريق» ما يقنعهم ان نضالنا ضد الفاشستية والنازية وثيق الصلة بنضالنا من اجل استقلالنا وحريتنا متين الواشجة باصلاح المجتمع العربي ....» ثم «واذن فنحن على حق حين نقول اننا في حاجة الى حرية العالم لكي نضمن حريتنا وامانينا». وبين القولين وفي سائر المقال الى منتهاهُ الادلة الناهضة على صحة هذا الرأي

وقد خصصنا هذا المقال الاول بالكلام دون غيره من فصول «الطريق» النثرية والشعرية

لانهُ ينطوي على مبدأ « الطريق » ونهجه ، وبالقياس الى تأييد هذا المبدإ في الاعداد التالية ، والسير على هذا النهج ، يحكم على « الطريق » او لها . ويقيننا مما طالعناه في عددها الأول انها ناهضة بالعبء الذي لا يسع مفكراً ما او اديباً ما ان يتنحَّى عن حمله

قصص هندية للاطفال

بقلم الاستاذ كامل كيلاني — مطبعة المعارف ومكتبتها — خمس قصص جديدة

هذه سلسلة أخرى من سلاسل قصص الاطفال ، التي ما فتيء الاستاذ كيلاني يعدها وينشرها من سنوات وينفح بها مكتبة الطفل العربي ، فيمهّد لهُ في قصص يذكي الخيال ويوسع الادراك ويهذب النفس ، طريقاً لتعلم اللغة العربية كما يجب ان يتعلمها . فاللفظ هنا مختار والاسلوب فصيح سهل ، والكلمات مشكولة شكلاً كاملاً ، فالطفل الذي يتعود مطالعتها لا بدّ ان يفوق غيرهُ في اجادة اللغة والاقبال عليها ، متى بلغ المرتبة التي تقضي عليهِ بمعاناة قواعدها . وسواءٌ أاصاب نجاحاً في دراسة قواعدها أم لم يصب ، فان قدرتهُ على التعبير تعبيراً عربيًّا سليماً ، لا بد ان تفوق قدرة غيرهِ بوجه عام ، لأنه « يشب وقد صحَّت لهُ ملكتهُ » كما قال علوبه باشا

وللاستاذ احمد فهمي العمروسي بك المربي المعروف رأي في مكتبة الكيلاني للاطفال جديرٌ بنا ان نوردَهُ قال: « ان هذه الكتب — في بابها — فتح موفق . فهي تنقل الأطفال الى العلم ، وتطبعهم — بارادتهم — عليهِ ، ثم تدارج بين خطواتهم ، وتساير فيه ملكاتهم ، وتنشئهم على اللغة الفصحى ، وفي بعض ذلك كلُّ الفضل »

وكذلك معالي علوبه باشا وزير المعارف الاسبق قال من رسالة طويلة : « ومن أجل ما استرعى نظري في هذه الكتب ، التي هي دعامة أساسية لتكوين الطفل ، أنها وضعت على نسق جذّاب يملك على الطفل فكرهُ ، فاذا فكرهُ كلهُ فيما يقرأ ، واذا قراءَتهُ كلها في فكره . ومزية من مزايا هذه الكتبُ ، فصاحة عربيتها في لغتها ، وحسن موقعها من نفس الطفل ، فهو يمضي في قراءَة القصة ، والقصة تمضي به في اسلوبها من الأداء ، والأسلوب يمضي بهما في الفصاحة على حكمها سهلاً ممتنعاً لا تكلف فيهِ ولا معاسرة ومن ثم يشب الطفل وقد صحَّت له ملكتهُ وأشربت الفصحى فكرتهُ . . »

« ان خير انهاج التعليم — على قول احمد لطفي السيد باشا في هذه المكتبة — ماصادف هوى المتعلّم ، وأجدى انماط التربية ما لاءَم مزاج الصبي »

فهرس الجزء الاول

من المجلد المائة

١ رأي عالم كبير في الدين والعلم
٧ عصر النتروجين : بهِ تزحف الجيوش وتحارب
٩ أحاديث عن ميّ : —
١٠ حديث مصطفى عبد الرازق باشا
١٦ حديث هدى هانم شعراوي
٢٣ حديث الدكتور طه حسين بك
٢٩ حديث الاستاذ عباس محمود العقاد
٣٥ حديث مدام ايمي خير
٤١ حديث انطون الجميل بك
٤٧ حديث منصور فهمي بك
٥٦ حديث الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني
٦٢ حديث خليل مطران بك
٦٥ حديث ميّ : لمحمد عبد الغني حسن
٦٩ تأثير الاوبئة في الحروب الماضية
٧٣ رابندرانات تاجور كما أعرفهُ : لمحمود المنجوري
٨٣ نقل الطاقة الكهربية أمواجاً في الأثير
٨٩ علم النفس ونفسية الافراد والشعوب : للدكتور ابراهيم ناجي
٩٤ العلم الحديث والشعور الديني الكوني

٩٧ باب الاخبار العلمية ٭ رصاصة في القلب . عنصران خفيان . العناصر في ماء البحر آمال الشيب . القلاع الطائرة وطائفة من أوصافها الفنية . الاشعة التي فوق البنفسجية . علاج جديد للحروق . القدرة على مقاومة المرض . شيء عن الصناعة الحربية في الولايات المتحدة الاميركية . المنجنيز وفتامين C . الاوزتان وشلل الاطفال . الليزوزيم . الحرارة والذاكرة . طول باشلس التيفود . عصر النتروجين
١٠٥ مكتبة المقتطف ٭ المخبأ رقم ١٣ . عيون معصوبة وقصص أخرى . الطريق . قصص كامل كيلاني



صورة المعراج

من المدرسة الصفوية الاولى في تبريز . ولعلها من تصوير سلطان محمد في مخطوط من المنظومات «الخمسة» لنظامي كتب للشاه طهماسب بين عامي ٩٤٦ و٩٤٩ هـ (١٥٣٩ — ١٥٤٣ م) ومحفوظ في المتحف البريطاني

[تراجع مقالة تصوير المعراج صفحة ١٦٨]

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد المائة

١ فبراير سنة ١٩٤٢ — ١٤ محرم سنة ١٣٦١

ذخيرة الشتاء

١ — أسرار المحيط

ما مصدر هذه المياه الكثيرة في محيطات الارض وبحارها ؟ وما مقدار المياه وما كنوزها ؟ وما عمق البحر؟ وما درجة ملوحته وما سببها؟ وما القوة التي تحرك المدّ والجزر وتثير الامواج ؟

ليس السؤال الاول بالسؤال السخيف؟ نعم ان عنصري الأكسجين والايدروجين اللذين يتركب منهما الماء كثيران في الكون . ومع ذلك فلسنا نجد ماءً على سطح الشمس وغيرها من النجوم ، لشدة حرارتها ، ولا على السيارات البعيدة مثل المشتري ونبتون لشدة بردها

فلما ولدت الارض من نحو ألفي مليون سنة ، كانت العناصر الغازية التي تولد منها الماء تندفع في تيارات قوية مختلطة بغيرها من الغازات والأبخرة . فلما تجمدت الارض وانجذبت العناصر الثقيلة الى مركزها استقرّت المياه على سطح قشرتها . ولو كانت الارض كرة تامة الكروية لكانت المياه التي تغطي سطحها ، طبقة متساوية الكثافة في جميع الأنحاء ، ولما كانت هناك يابسة فوق سطح الماء . ولكن الارض لم تكن كرة تامة ، وكانت علاوة على ذلك متأثرة في أثناء تجمدها بفعل حرارة باطنها ، فجمدت كرة مسطحة قليلاً عند قطبيها ، وفيها مرتفعات ومنخفضات . وبينما البخار المائي يتكثف قطرات ، جرت الجداول بالماء الى المنخفضات وبقيت المرتفعات فوق ما نصفهُ الآن « بسطح البحر » . ولكن هذه المرتفعات تغيرت

شكلاً وموقعاً ورفعاً وخفضاً على مدى الدهور بفعل التأكل والتفتت والجرف من ناحية وبفعل القوى البركانية الجبارة من ناحية أخرى . فاذا نحن أمام القارات التي نعيش عليها ونحارب

ما مدى المحيطات والبحار ؟ ان هذا المدى متغير وفقاً لما تأكلهُ المياه من السواحل ، وما تطغى عليهِ من الشواطىء الآخذة في الانخفاض ، وما تنحسر عنهُ من السواحل الآخذة في الارتفاع ، وما ينبثق في البحار من جزائر جديدة او ما يغور منها في الماء. وتدل الاحصاءَات الاخيرة على ان ٧٢ في المائة من سطح الارض يغطيهِ الماء . ولكن اذا عرفنا مساحة سطح المحيطات والبحار لم يكفنا ذلك لمعرفة مقدار المياه فيها ، ولا بدَّ في سبيلهِ من سبر اغوار البحار

وسبر غور المياه على مقربة من الثغور والسواحل عمل عمد اليهِ البحارة من قديم الزمان وكانت عادتهم ان يلقوا من السفينة حبلاً في طرفهِ ثقل ليجتنبوا بهِ الاصطدام بالقعر فعرفوا عمق الماء على مسافة من السواحل . ولكن علماء العصر الحديث سبروا أغوار المياه في أواسط المحيطات (راجع فصل «هضبة الملك فؤاد» في مقتطف دسمبر ١٩٤١) وغرضهم مزدوج ، أما الاول فلمعرفة خير المواقع التي يستطاع مدّ حبال السلك التلغرافي والتلفوني فيها بين القارات ، وأما الثاني فرغبة في استطلاع حقائق الطبيعة . وقد كان المعوَّل في السنوات الأخيرة على طريقة « الصدى » . فتبعث أصوات من ذبذبة معينة من السفينة ثم ينصت اليها حتى ترتدَّ من قعر البحر ، فيقاس العمق على أساس الوقت الذي استغرقتهُ أمواج الصوت في الذهاب والاياب. وبهذه الطريقة صنعت خارطات وافية لثلاثة أرباع سطح الارض المغمور بالمياه

ونحن نعلم الآن من نتائج هذه المباحث ان أعمق المواقع في المحيطات — والغور الى الشرق من جزائر الفيلبين يبلغ سبعة أميال — مثل أعلى الجبال الشمّ المكالة هاماتها بالثلج على مدار السنة . ونحن نعلم كذلك ان متوسط انخفاض الارض المغمورة بالماء عن سطح البحر هو نحو خمسة اضعاف متوسط ارتفاع الأرض اليابسة عن سطح البحر

وقد قدر الماء الذي تحتويه المحيطات والبحار والبحيرات بنحو ٣٢٣ مليون ميل مكعّب. ولو بسط هذا الماء غشاءً متساوي العمق حول كرة تامة الكروية منبسطة السطح في حجم الأرض ، لبلغ عمق طبقة الماء التي تغشاها ميلين

ما سبب ملوحة البحر ؟ لما تكن مياه المحيطات مالحة في بدء الخليقة لأن ماءَها كان مقطراً من بخار فكان خالياً من الشوائب . والملح الذي نجده فيها الآن هو في الحقيقة لا في المجاز « ملح الأرض » . فلننظر قليلاً في انتقال الملح من الارض الى البحر . تبخر حرارة الشمس كل يوم ملايين من الجالونات من مياه البحر وينعقد البخار غيماً ثم ينهمر مطراً فلا يلبث الماء النقي المتولد من البخار حتى يتلوث بما يذاب فيهِ من تراب وصخر في الارض التي

يجري فيها جداول او أنهاراً . وآثار هذا الذوبان على أظهرها في مياه الينابيع المعدنية ، كمياه فيشي او مياه حلوان . ولكن تأثير هذا الذوبان في البحر متجمع على كرّ العصور . ولاسيما اذا تذكرنا ان مقدار ما تجرفهُ المياه الى البحر كل سنة يبلغ ثلاثة آلاف مليون طن . ومعظم هذه المادة من الصخر الجيري . فلماذا أصبحت مياه البحر مالحة لاجيرية ؟

ان الجواب عن هذا السؤال واضح لكل من يقف على الشاطىء . فعندما تمتد يد الطفل على الشاطىء الى الاصداف المنثورة عليهِ فانما هي تمتد الى هذا الجير الذي اخذتهُ الجداول والانهار الى البحار ، ولكن الحيوانات البحرية تناولتهُ من البحار وصنعت أصدافها منهُ . وما يؤخذ من المواد الجيرية من ماءِ البحر بهذه الطريقة مقدار عظيم جدًّا وما يبقى يترسب طبقات جيرية في قعر البحر . وأحياناً ترتفع هذه الطبقات بفعل بركاني قوي فاذا نحن أمام صخور طباشيرية بيض كصخور دوڤر المشهورة . واننا لنرى في هذه الصخور فعل الترسب واضحاً . ولكن اذا تصورنا اننا أزلنا من مياه البحر جميعاً ، كل ما تحتويهِ من أملاح معدنية ومنها ملح الطعام ، ونشرناها طبقة على سطح الارض فبماذا نفوز ؟ تقدر المحتويات المعدنية في مياه البحر باربعة ملايين وثماني مائة الف ميل مكعب ، فهي كافية لتغطية الولايات المتحدة كلها بطبقة عمقها ميل . وثلاثة أرباع هذه الطبقة ملح عاديٌّ . ولو نزعنا هذه المواد فعلاً من ماءِ البحار وصنعنا منها طبقة حجبنا بها وجه الولايات المتحدة ، لما طال بقاؤها هناك لأن مياه المطر لا بدَّ ان تذيبها وتعود بها الى البحر

هذا هو سبب ملوحة مياه البحر . وهذا هو سبب الملوحة في عرَق الناس ودموعهم ودمائهم . فالحياة بدأت في البحر والخلايا التي تتقوَّم بها أجسامنا لا تزال تحتاج الى سائل ملحٍ يحيط بها . ولكن ملوحة دمنا تقابل ملوحة البحر كما كانت قبل مئات الملايين من السنين عندما بدأت الأحياء تخرج من البحر الى الحياة على اليابسة،ومنذ ذلك العصر المتغلغل في القدم، زادت ملوحة البحر زيادة كبيرة بما جرف اليهِ من أملاح الارض

ما القوة التي تحرك مياه البحر وتثير الامواج ؟ ان القوى التي تحرك البحر متعددة . فثمة الأنهار المندفعة ترفع مستوى المياه عند مصابّها فينزع الماء الى تعديل مستواه فتضطرب حركة البحر في الحالين . ويقابل هذا ان ما يتبخر من مياه البحار في المناطق الاستوائية ، يبلغ مبلغاً عظيماً فتنساب اليها المياه من المناطق الباردة لسدّ النقص والاحتفاظ بالمستوى العام . ولكن هذا الفعل بطيء التأثير وأشدُّ منهُ وأسرع فعل الرياح والعواصف . فهبوب الرياح يدفع الماء أمامها ، ويجرُّه في ذيلها بفعل الامتصاص ، فتنشأ عن ذلك حركة موجية كبيرة تهتز بها السفن الماخرة اليم ، كأنها في أرجوحة . ويذكر كاتب هذه السطور

انهُ في أثناء عودته من أميركا كان في سفينة كبيرة كأنها القلعة (تفريغها ٥٦ الف طن) وكانت هذه الحركة الموجية الكبيرة قوية فكان يرى في لحظةٍ ما ، دكة السفينة والأفق في مستوى واحد ، ثم في لحظة تالية يرى الافق مرتفعاً عن مستوى دكة السفينة ، ثم بعد ذلك مستوى دكة السفينة مرتفعاً عن مستوى الأفق، ومع ذلك كانت مياه البحر ساجية لا حركة فيها الاَّ هذه الحركة الموجية الواسعة

حتى لو لم تكن هناك رياح تهبُّ وعواصف تثور ، لبقيت مياه البحر تترجرج ذاهبة آيبة بفعل جذب الشمس والقمر . نعم ان الأرض كلها كسيار خاضعة لهذه القوى الجاذبة وهناك أجهزة علمية دقيقة تقيس مقدار المد والجزر في دقائق الأرض اليابسة . ولكن المدّ والجزر أعظم طبعاً في المياه لأنها أشد تأثراً بجذب الشمس والقمر. وقرب القمر الى الأرض يجعل جذبه أقوى وتأثيره أظهر . ومع ذلك فجذب الشمس ليس مما يستهان به. ان الذين يسكنون على الشواطىء البحرية ولا سيما شواطىء البحار الكبيرة يرون ماء البحر يرتفع مرتين وينخفض مرتين كل يوم . وهما يأتيان متدرجين فهما مستقلان عن أمواج البحر . فاذا كان طفيفين يبلغان اقداماً قليلة كما على سواحل البحر المتوسط ، قل الانتباه لهما. ولكنهما اذا كانا عظيمين يبلغان اقداماً كثيرة كما في سواحل ويلز فلا بدَّ من الانتباه لهما ولا سيما في المرافىء ومصاب الأنهار حيث تكثر السفن والزوارق. ويعرف ارتفاع الماء بالمد وانخفاضه بالجزر. وأول من بين كيفية تأثير القمر في المد والجزر هو لابلاس الفلكي الفرنسي وتابعه اسحق نيوتن وسائر علماء الفلك مع شيء من التعديل. وخلاصة ذلك ان الأرض والقمر يتجاذبان كما تتجاذب جميع الاجسام جرياً على ناموس الجاذبية العام . والأرض الجامدة لا تستطيع دقائقها ان تتحرك بهذا الجذب او تتحرك حركة يسيرة لا تدرك الاَّ بأدق الاجهزة. ولكن ماء البحر يطيع الجاذبية ويتجمع في البحر من هنا ومن هنا تجاه القمر وفي الجهة المقابلة . ومن حيث ان القمر يدور حول الارض بحسب الظاهر دورة كاملة كل ٢٥ ساعة فالمد يتبعه في دورانه هذا حول الأرض. ومتى تجمع بعض الماء فارتفع سطحه وجب ان ينخفض الباقي فاذاً يجب ان يتبع القمر ارتفاعٌ في الماء وانخفاض على جانبي ذلك الماء. وبموجب ذلك يجب ان يحدث المد في المكان الواحد مرة واحدة كل يوم لا مرتين. ولكن متى كان القمر تجاه مكان ما فانهُ لا يكتفي بجذب الماء الذي في ذلك المكان بل يجذب الأرض كذلك التي تحته . الاَّ ان جذبهُ للماء أقوى من جذبهِ للارض التي تحت الماء لأن الماء أقرب اليهِ والجاذبية تقل بنسبة مربع البعد . وهو يجذب ماء البحر الذي على الجانب المقابل من الأرض لكن جذبهُ للارض هناك يكون أقوى من جذبهِ للماءِ لأن الأرض أقرب اليهِ من ماءِ البحر الذي عليها فوق تلك المنطقة فيرتفع الماء

في المكان المواجه للقمر وكذلك في المكان المقابل لهُ في الجهة الأخرى من الأرض

جميع هذه القوى — الرياح والتيارات البحرية والمدّ والجزر — تحرك فيما بينها الأمواج الصغيرة والكبيرة. والموجة شيء خدّاع في الواقع. فعندما تحدّق فيها تحسُّ كأنك ذهلت أو سحرت فلا تتبين ما تريد تبينهُ فيها. فما الذي ينتقل عندما تقطع موجة ما مسافة مائة ميل أو الف ميل من سطح البحر. ليس المنتقل قطرة من قطرات ماء البحر. فهذه القطرات تتحرك في الواقع حركة دائرية، ترتفع وتنخفض وتندفع الى الامام ثم ترتدُّ الى الوراء، وتعود الى مكانها الأول. ان المنتقل من مركز الحركة انما هو مثال او صورة تنفحها الريح او قوةُ الجذب بالطاقة فتسير في اتجاه معين. وفي سيرها تفرغ قطرات الماء التي في طريقها في شكل خاصٍ. وقد تسير موجة كبيرة قوية مسافة بعيدة ثم تضعف طاقتها رويداً رويداً فتتلاشى او تندمج في موجة أخرى فتؤثر فيها بمقدار ما فيها من طاقة باقية، وقد تصل الشاطيء فتتكسر على صخوره وتفقد صورتها رذاذاً منتثراً وتخسر طاقتها في تفتيت الصخور وتحريك الرمال. وتفتيت الصخور ليس عملاً بغير جدوى لانهُ يفضي الى توليد الرمال. فالصخور الكبيرة تنخرها المياه فتهوي منها جلاميد والجلاميد تتطاحن بفعل الموج والتيارات فيتولد منها الحصى ومن الحصى ينشأ الرمل. والرمل يرسب في مصابّ الانهار فيجب تطهيرها منهُ او على شواطيء الخلجان حيث ينعم الناس بالرياضة والاستحمام بضوء الشمس ومنهُ يصنع الزجاج

وغنى البحر لا يقتصر على السمك وسائر انواع الحيوانات البحرية، مع ان ما يصطاده صيّادو شمال اوربا الغربي من السمك في سنة سوية يقدَّر بنحو ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ طن. ولكن مياه البحر غنية كذلك بالمعادن حتى ليكاد العلماء يذهبون الى ان كل عنصر من العناصر موجود فيها على قلة او كثرة. ففيها ذهب وفضة وراديوم، ومن يشأ يستطع استخراجها اذا كان راضياً بالنفقة التي يقتضيها هذا الاستخراج. والغالب حتى الآن ان شدَّة التوزع، وضرورة تنقية مقادير كبيرة جدًّا من ماء البحر قبل الحصول على مقدار يذكر من معدن ما، والمشقة في تنقية مياه البحر على كل حال، جعلت استخراج الكنوز المعدنية الثمينة من مياه البحر، امراً متعذراً حتى الآن. ولكن ملح الطعام استخلص من مياه البحر من قديم الزمان، وفي العصر الحديث انشئت منشآت صناعية على أساس اقتصادي لاستخراج عنصري البرومين والمغنيزيوم. اما الاول فعنصر شديد الفعل من الناحية الكيميائية ولا غنى عنهُ في صنع اجود انواع البنزين للطائرات. واما الثاني فمعدن خفيف وهو اخف من الالومنيوم ومنهُ تصنع اخلاط معدنية تصلح لبناء الطائرات

وليس ثمة ريب في ان مياه البحر اعظم كنزٍ في العالم، وما فيها يفوق ما في المناجم جميعاً. ومفتاح هذا الكنز في ايدي رجال الكيمياء والصناعة

٢ — العلم بين الشيخوخة والتعمير

من نحو قرن من الزمان سئل الطبيب الأميركي الأديب الحكيم أليفر وندل هومز ما السبيل الى التعمير فأجاب ، وفي كلامهِ حكمة مفرغة في قالب هزل : « قبل ولادتك ببضع سنوات أعلن عن حاجتك الى والدين منحدرين من اسرتين اشتهرتا بالتعمير »

ولم يكن عند الطبيب هومز أسباب علمية يبني عليها حكمهُ ، وانما بناه على المشاهدة ، أو قل على الاحصاء قبل ان يبلغ منزلة علمٍ بين العلوم . ولكن مباحث العصر الحديث تؤيد حكمة الطبيب الأديب . فالدكتور ريموند بيرل أحد أساتذة جامعة جونز هبكنز — وهو مشهور ببحوثه الاحصائية في مسائل الوراثة — جمع هو ومعاونوه سجلات ثلاثمائة وخمسة وستين شخصاً عمروا الى التسعين فوجد ان متوسط مدى عمر والدي هؤلاء الأشخاص يزيد من اثنتي عشرة الى سبع عشرة سنة على متوسط عمر والدي جماعةٍ أخرى غير مختارة . وكان بين هذي الجماعة شيخ ادرك المائة وعمر والداه فبلغ أحدهما السابعة والتسعين والثاني ناهز المائة وأدرك أجداده الأربعة لأمهِ وأبيهِ سن ١٠٤ سنوات و٩٨ سنة و١٠٦ سنوات و٩٣ سنة . وقد أعرب الأستاذ بيرل عن اعتقاده ان الذين يدركون التسعين من العمر ، انما هم أفراد اختارتهم الطبيعة بحسب قانون بقاء الانسب . فهم يعمرون لأن بنيتهم من الناحية العضوية تفوق بنية غيرهم وقدرتهم على مقاومة العدوى أعظم

والغالب ان التقدم العظيم في علوم الطب انما كان تقدماً في تأخير الموت أو إبعاد شبحهِ . نعم اننا نعيش على المعدل عيشة أطول من عيشة أسلافنا . ولكن أداة الحياة — أي جسم الانسان — تتعطل في آخر الأمر . ولو كان في مستطاع أحدٍ ان ينجو من كل أذى لمات في آخر الأمر بفعل الشيخوخة نفسها . ومع ذلك ففريق من الباحثين يشك أعظم شك في هل مات أحد بفعل الشيخوخة دون غيرهــا . فقد شرّح الدكتور هورد كارزنر Karsner الأستاذ بجامعة وسترن ريزرف الأميركية ، أكثر من تسعة عشر الف جثة ، فلم يجد أحداً مات بالشيخوخة دون علةٍ أخرى . ولما كان عدد وافر من الأحداث بل من الأطفال ، يصاب بالسرطان وتصلب الشرايين وأدواء القلب وغيرها من امراض تحوّل الانساج ، فليس في وسع أحد أن يقيم الدليل على ان الشيخوخــة هي مصدر هذه الحالات وكل ما هنالك ان الشيخوخة تزيد احتمال الاصابة بها . وكلما طال مدى الحياة زاد احتمال التقاء الجسم بمكروب أو اصابته بحادث عارض ، فيفضي الى الوفاة

إننا في الواقع لا نموت وانما نحن نقتل قتلاً

وقد تكون الشيخوخة (بمعنى ظهور الهرم والضعف على المرء) نتيجة لنزاع طويل بين الجسم من جهة والمكروبات والسموم والجوع والاعياء من جهة اخرى . وعلى هذا الاساس يجب ان يكون في وسع العلم ان يمدَّ أمد الحياة الصحيحة القوية وراء حدودها المعروفة الآن

ومن حسن الطالع للبشرية ان رجال الطب قد بدأوا يتوفرون على دراسة مشكلة الشيخوخة. ففي سنة ١٩٣٩ صدر كتاب شامل موضوعهُ « الشيخوخة والمشكلات الطبية » كتب فصوله ستة وعشرون قطباً من أقطاب العلوم الطبية ، فكان صدوره مرحلة كبيرة على طريق هذه الدراسة. وفي السنة الماضية أنشأ عشرون طبيباً وعالماً بيولوجيًّا وكيميائيًّا نادياً اميركيًّا للبحث في مسائل الشيخوخة والتعمير وهم يجتمعون اجتماعات منتظمة للبحث في نتائج بحوثهم والنظر في شق طرق جديدة لبحوث اخرى . وفي سنة ١٩٤٠ بدأت مصلحة الصحة العامة في الحكومة الأميركية بحثاً منظماً في هذا الموضوع. وهناك هيئات اخرى متعدّدة اكتتبت بالمال الوافر لمشروعات اخرى من هذا القبيل

وليس الغرض اطالة أمد الحياة وحسب ، بل توفير الصحة في الشيخوخة كذلك . واذا الشيخ قال أفٍّ فما ملَّ حياةً وانما الضعف ملاَّ . ذلك بان معظم الذين يخشون الشيخوخة ويبرمون بها انما يخشون الضعف والوهن اللذين يلازمانها — ضعف الحواس ، وتصلب المفاصل ، وعجز العضلات، وما اشبه

كان في معهد ركفلر للبحث الطبي كلب تبدو عليهِ امارات هذا الضعف الناشىء عن الشيخوخة وكان ضعيفاً لا يقوى حتى على الاكل. فقرر الدكتور الكسيس كاريل ان يمتحن ما يكون لدم جديد مندفع في عروقه من تأثير في صحته. فعمل سلسلة من العمليات جدَّد بها ثلثي دم الكلب . ذلك بأنهُ فصل كريات الدم الحمر عن مصل الدم ثم مزج الكريات الحمر بمحلول يحتوي على أملاح يحتويها عادة الدم السويُّ ، وحقن الدم الجديد في عروق هذا الكلب، فلما أفاق الكلب من تأثير صدمة العملية عدا ونبح، وكانت سنوات قد انقضت عليهِ وهو لا يعدو ولا ينبح ، وراقت عيناه ونمت فروتهُ وبدأ يحس بدعوة الجنس . فكأن شبابه قد أعيد

ومضى الدكتور كاريل في بحثهِ، مطبقاً طريقتهُ المشهورة في حفظ قطعة من نسيجٍ ما حية زمناً طويلاً على نحو ما فعل (١) بقطعة من عضل قلب منتزعة من جنين فرخ . وقد حفظ هذه القطعة حية في محلول مغذٍّ مدى خمس وعشرين سنة. فوجد انهُ اذا أضاف دماً من فرخ صغير

(١) راجع وصف هذه العملية في مقتطف نوفبر ١٩٤١ صفحة ٤١٤

السن الى المحلول، لم يحدث تغيُّر في نمو النسيج المغمور بالسائل المغذي . ولكن اذا اضاف الى المحلول قليلاً من دم دجاجة عجوز أخر ذلك نموَّ النسيج . ومعدل التأخير يوافق عمر الدجاجة

ويعتقد الدكتور كاريل ان بطء الاندمال او الشفاء وهو البطء الذي يزداد كلما تقدم الجسم الحيُّ في العمر ، مردُّهُ الى عمر الدم ، ولكن احلال دم من جسم صغير السن في عروق حيّ متقدم في السن لا يحل المشكلة . لان الانساج في الجسم الشائخ ، تقذف في تيار الدم قذفاً مستمرّاً بأتوارها وأنزيماتها ونفايتها ومركبات أخرى . وقد بلغ ما قذفتهُ أنساج الكلب الشيخ خلال اسبوعين من الزمان مبلغاً كبيراً ، فتجديد دم الكلب على الطريقة التي اتبعها كاريل لم يحدث سوى تجديد عابر غير مقيم في شباب الكلب

ويلوح ان شيخوخة الدم انما هي تأثير ثانوي مصدره شيخوخة الانساج التي تولد مئات من المركبات وتقذفها في هذا السيال الحيوي . حتى العصارات الهضمية في الشيوخ تختلف على ما يلوح عن العصارات الهضمية في الشباب . ففي شيخ أدرك الثمانين مثلاً لا يبلغ «التيالين» — وهو الانزيم الذي يحوّل النشاء الى سكر في اللعاب — اكثر من جزء من اربعة وثلاثين جزءاً منهُ في الشبان الذين في الخامسة والعشرين من العمر . فلا عجب في ان يجد الشيوخ مشقةً في هضم المواد النشوية

ان في تاريخ الطب ذكر محاولات متعددة لتجديد الشباب ، واصحاب معظمها على الغالب اتخذوا الغدد الجنسية سبيلاً الى هذا التجديد . فمن نصف قرن حقن برون سيكار الفسيولوجي الفرنسي نفسهُ — وهو في السبعين — بخلاصات مستخرجة من الغدد الجنسية . ولكن تأثير هذا الحقن كان عابراً : ثم مضى برون سيكار في سبيل كل ابن أنثى . ومن هؤلاء شتيناخ النمسوي وفورونوف الفرنسي[1] ولكل منهما طريقته ولكن الغدد الجنسية مدار الطريقتين. وقد أسفر تطبيقهما عن حوادث تحسنت فيها الصحة العامة ونشطت الوظيفة الجنسية. ولكن الشباب المجدد لم يدم ، والواقع ان البحوث الحديثة تحملنا على اليقين بان معالجة التجديد عن طريق تجديد الغدد الجنسية وحدها لا يحتمل ان يفضي الى اطالة أمد الحياة لان هناك اعضاء كثيرة تشترك في هذا الميزان الحيوي الدقيق الذي نطلق عليهِ وصف «الصحة»

فما هو الباعث على تغير الانساج بتقدم العمر ؟

فحص الدكتور كارزنر القلوب والشرايين في جثث شرَّحها لشيوخ كانوا مصابين بأمراض القلب وتصلب الشرايين — وهي أكثر أسباب الموت في الشيوخ — فوجد آفات التهابٍ وحؤول

(١) راجع وصف تجاربهما في مقتطف يوليو ١٩٢٩ صفحة ١٧٦ واكتوبر ١٩٢٩ صفحة ٢٧٧

مردُّها الى اصابات سابقة . وعنده ان بعض التحول في انساج الشيوخ يجب ان يسند الى عواقب أمراض أصيبوا بها قبلاً

وقد كشف الدكتور شوارتز مان ان البكتيريا تطلق مواد في أثناء تكاثرها تجعل العروق وأوعية الدم قابلة لتجمع جلط الدم والانقطاع — وهي أحوال تشبه أحوال روبة الدم والنزف اللذين يصاب الشيوخ بهما . وبحوثهُ تشير الى ان للبكتيريا نصيباً في شيخوخة الدم، وهذا يفسر بوجهٍ عام ما يحدث في الانساج بعد نزاع طويل بين الجسم ومكروبات شتى . والغذاء من العوامل التي تؤثر في الانساج ، وليس هذا بالرأي الجديد ، ولكن الباحثين المشهورين شرمن وكامبل — من أساتذة جامعة كولومبيا — أثبتا ان في الوسع إطالة أمد حياة الجرذان باعطائها غذاءً خاصاً يكثر فيهِ فيتامين A والريبوفلاڤين والكاسيوم فأمد حياتها بالقياس الى جراذين أخرى من نفس السلالة — ولكن لم تتغذَّ هذا الغذاء — يزيد عشرة في المائة . وشرمن على يقين من ان هذه التجربة ونتائجها تسوّغ تطبيقها على الناس . لأن بين « كيمياء تغذية البشر وكيمياء تغذية الجراذين شبهاً كبيراً » . وهو يعتقد ان إطالة أمد الحياة البشرية عشرة في المائة مستطاعة بأكل مآكل غنية بفيتامين A والريبوفلاڤين والكاسيوم والفواكه والخضر (ولا سيما الخضراء والصفراء) واللبن (وما يصنع منهُ من جبن ودندرمة)

وعند الاستاذ كارلسون — أحد أساتذة جامعة شيكاغو — ان العوامل الوراثية في التعمير قد يكون مردها الى « القدرة على التغلب على عوامل البيئة غير المؤاتية وحسن الملاءمة بين الجسم وبينها » . فتعديل هذه العوامل غير الملائمة يساعد أجسام كثيرين — وربما كل جسم — على اطالة أمد الحياة

وقد وجد الاستاذ بيرل ان الاستقرار الانفعالي وعدم التعرُّض للاضطراب العاطفي من الصفات البارزة التي يتصف بها الشيوخ الذين أدركوا الثمانين الى المائة من العمر . فطبعهم هادىء وجأشهم رابط وهم منصرفون على الغالب عن الهم والغم ويقطعون مراحل الحياة في خطى وئيدة متزنة . والواقع انهُ كلما زادت السرعة في خطى الحياة قصرت الحياة نفسها اه . تلخيص قول بيرل

والانفعال الشديد يطلق في الدم مواد كيميائية قوية الفعل ، فيزداد بها خفقان القلب ، وانقباض عضلات الشرايين الصغيرة ويرتفع ضغط الدم، ويتجمع الدم في بعض المواقع فيزداد بوجهٍ عام ما ينفقهُ الجسم من طاقة الحياة . فاذا توالت انفعالات من هذا القبيل فقد تحدث أذى لا يسهل تبديد أثره

٣ — العلم والمطاط والحرب

كان من عواقب امتداد الحرب الى الشرق الاقصى ولاسيما الى شبه جزيرة مالايا ، أن حُبس الآن جانب كبير من المطاط المستخرج من مزارع تلك البلاد عن الدول الحليفة . ولكن هذا لا يؤثر تأثيراً مباشراً في حاجتها اليه لأن هناك مقادير وافرة مخزونة وفي الوسع استرداد المطاط المستعمل المنبوذ بعد استعماله وتجديده وكذلك صنع المطاط بالتركيب الكيميائي . فقد خزن في الولايات المتحدة مثلاً نحو مليون طن من المطاط الخام . وبعض المصانع المختصة تسترد المطاط المستعمل وتعيده مطاطاً جديداً ويقدر مايصنع من هذا القبيل بنحو مائتي ألف وخمسين الفاً من الاطنان كلَّ سنة . ثم أن المصانع الكيميائية الاميركية تستطيع أن تصنع المطاط بالتركيب الكيميائي من أحد مشتقات النفط وما يمكن صنعه منهُ يقدر باربعمائة الف طن في هذه السنة وفي الوسع زيادتهُ في السنة القادمة . أما ما يستهلك منهُ عادة في الولايات المتحدة فيتفاوت بين اربعمائة الف طن وخمسمائة الف طن . وقد زاد المستهلك في السنة الماضية الى ستمائة الف طن وينتظر أن يزيد في خلال هذه السنة الى مليون طن . وفي ما يلي بيان عن منافع المطاط وبعض طرق صنعهِ بالتركيب الكيميائي

* * *

ليس لدولةٍ ما غنىً عن المطاط لا في اثناء الحرب ولا في إبان السلام . فمنافعهُ كثيرة ووجوه استعماله شتىَّ وان كان أظهرها وأوسعها نطاقاً استعمالهُ إطارات لعجلات مركبات النقل الحديث . واذا كانت الحرب قد وجَّهت النظر اليهِ ، لأن مركبات الحرب الميكانيكية الحديثة لا تستطيع حراكاً بدونهِ ، ولانهُ من هذا القبيل صنو النفط المكرَّر او غير المكرَّر ، فان العلماءَ معنيون بدراستهِ من سنوات لعلهم يوفقون الى صنعهِ بالتركيب الكيميائي، مدفوعين الى ذلك بعوامل اقتصادية جنباً الى جنب مع العوامل الحربية

فثمة أولاً وجوه كثيرة يصلح لها المطَّاط الصناعي اكثر مما يصلح لها المطَّاط الطبيعي. ثم ان التقلُّب في اسعار المطَّاط الطبيعي تقلباً كبيراً في السنين التي تلت الحرب العالمية الأولى حمل رجال الصناعة والاقتصاد على توفير موارد للمطَّاط لا تتعرض لهذا التقلُّب الكبير، فينظم الصناعات التي تحتاج اليهِ على اساس مستقر لا يصيبهُ التغير والتقلُّب إلاَّ في حدودٍ معقولةٍ. ففي سنة ١٩٢٥ وحواليها كان رطل المطَّاط يباع في نيويورك بريال ونحو ربع ريال . فهبط سنة ١٩٣٨ الى ثلاثة سنتات أي ستة مليمات وكان يباع في السنة الماضية بنحو ٢٠ سنتاً اي اربعة قروش . وسبب هذا التقلُّب في رأي كاتب اميركي في مجلة هاربرز الاميركية ان انتاجهُ كان شبه احتكار وان المحتكرين كانوا في شغل بالربح الوفير عن تنظيم الانتاج وفقاً لمقتضيات السوق العالمية

بدأ الاقبال في انتاج المطاط وجني الربح منهُ في الشرق الأقصى سنة ١٩١٠ وكانت رؤوس الأموال البريطانية والهولندية من ورائهِ . وقبل ذلك كان معظم المطاط يستخرج من أشجاره البرية في وادي الامازون بولاية پارا البرازيلية . فلما اتسع نطاق صناعة السيارات وازداد الطلب على المطاط حاول المسيطرون على الانتاج البرازيلي التحكم في الاسعار . فارتفع سعر الرطل الى ثلاثة ريالات فأفضى ذلك الى الاقبال على زرع أشجاره في الهند الشرقية الهولندية ومالايا وسيلان ، ولم يكتف زرَّاعهُ في الشرق الأقصى باغتصاب الأسواق العالمية من منتجيه في البرازيل ، بل فعلوا ذلك بشجرة المطاط البرازيلية نفسها . ذلك ان بذور الشجرة البرازيلية Hevea braziliensis أخذت قبل ذلك الى لندن ثم نقلت الى سيلان وزرعت فيها ثم جربت في مالايا وسومطرة والبلدان الاستوائية المجاورة لها فنمت نموًّا غزيراً . ووصلت الشحنة الأولى من نتاج هذه الاشجار الى لندن في سنة ١٩٠٥ فلما ارتفعت أسعاره في الأسواق العالمية بتأثير التحكم البرازيلي ، اتسع نطاق زراعتهِ في جنوب آسيا الشرقية

وكانت العوامل الاقليمية والاجتماعية في جنوب آسيا الشرقية مواتية لزراعة أشجار المطاط فيها، فالمطر غزير واليد العاملة رخيصة والشجر هناك لا يتعرض لآفة تصيبهُ في البرازيل. ثم ابتكر زرَّاعهُ طريقة للتطعيم بالبراعم ، زادت مقدار نتاج الشجر ، فاستولى زرَّاع شجر المطاط في تلك البلدان على أسواق المطاط العالمية وجنوا ربحاً وفيراً إذ كان معدَّل سعر الرطل حتى أواخر سنة ١٩١٩ نحو عشرة قروش ، ووافق ذلك توسُّع عظيم في صناعة السيارات ومعدَّل ما تحتاج اليهِ السيارة في السنة خمسة اطارات منه لعجلاتها ، وصحب ذلك اشتداد الحاجة اليهِ في أثناء الحرب العالمية الأولى. ولما كانت المانيا عاجزة عن الاستيراد بفعل الحصر البحري فانها بدأت تجاربها الأولى لصنع المطاط بالتركيب الكيميائي

هذا الاقبال العظيم على المطاط حمل أصحاب مزارعهِ في جنوب آسيا الشرقية على توسيع نطاقها لتلبية الطلب فلما عقبت الحرب العالمية الأولى ضائقة اقتصادية عامة أصابتهم في الصميم ولاسيما ان أشجار المطاط لا تنتج مطاطاً الاَّ بعد انقضاء سنوات على غرسها . فالاشجار التي غرسها أصحاب مزارعه في بدء الحرب، بدأت تؤتي نتاجها بعيد انتهاء الحرب فكثر المعروض عند ما قلَّ الطلب . وزاد الطين بلَّة ان المصانع الأميركية التي تصنع اطارات المطاط لعجلات السيارات وهي تستهلك سبعين في المائة من كل ما تستورده أميركا من المطاط غيرت أسلوبها في صنع الاطارات فأصبحت الاطارات الجديدة أطول عمراً من الاطارات القديمة فقلَّ طلب هذه المصانع قلة تذكر

فتلا ذلك تقييد المساحات المزروعة على نحو ما فعلت مصر بمساحة الارض التي تزرع

قطناً وعلى ما فعلت أميركا في بدء عهد الرئيس روزفلت ، وعلى ما فعلت البرازيل في الارض التي تزرع بنّـا . والغرض نقص الانتاج ورفع الاسعار . وفي سنة ١٩٢٢ صدر قانون يعرف بقانون ستيفنصن فرضت بمقتضاه ضريبة على كل صادر من المطاط اذا زاد عن مقدار معين فقلَّ المحصول واستنفد المخزون فما أقبلت سنة ١٩٢٥ حتى قلَّ المعروض عن المطلوب فنعم أصحاب المصانع وارتفعت الاسعار حتى بلغت خمسة وعشرين قرشاً للرطل الواحد . وأهمل هذا القانون بعد ست سنوات فتلَـتْ اهمالهُ فترة من الاضطراب والفوضى في انتاج المطاط وسوقه ، ووافق ذلك تفاقم الأزمة العالمية الاقتصادية فهبط سعره حتى بلغ ستة مليمات للرطل الواحد . وهبوط السعر هبوطاً فجائيًّـا او سريعاً كارتفاعه ارتفاعاً فجائيًّـا او سريعاً مضرٌّ بمصلحة أصحاب المصانع التي تعتمد عليهِ ولاغنى لها عنهُ . فقد يخزنون مقداراً منه فاذا هبط السعر كانت خسارتهم فادحة ، وقد لا يخزنون مقداراً كافياً منه معتمدين على اطراد العرض فاذا ارتفع السعر كانت خسارتهم فادحة كذلك

***

من نحو خمس عشرة سنة ، التقى القس الدكتور جوليوس نيولاند ، بأحد رجال شركة ديبونت الاميركية في اجتماع علمي . فقال القس انهُ ابتكر طريقة تمكنه من استخراج مادة دعاها دايفنيل اسيتلين divinyl acetylane من غاز الاسيتلين [1] فاهتم صاحبهُ بالامر لان لهذا القول صلة بما كانت تبذله الشركة من جهد لصنع المطاط بالتركيب الكيميائي . وكانت الشركة قد اهتمت بالموضوع عند ما ارتفعت الاسعار ارتفاعاً كبيراً على أثر سن قانون ستيفنصن ولم تكن وحدها في ذلك . فالبلدان التي تنتج المطاط حاولت جهدها ان تزيد المزروع من اشجاره فيها . وبدأ فورد نفسه في زراعة اشجاره في مناطق شاسعة في البرازيل على الرغم من الآفة التي تصيب أوراقها هناك وارتفاع اجر اليد العاملة وسوء الحالة الصحية في تلك المناطق . ووجهت مصانع الولايات المتحدة عناية خاصة الى استرداد المطاط المستعمل المنبوذ

واهتم علماء النبات بدراسة النباتات التي لها عصير لبنيٌّ لعلَّهم يكشفون نباتاً ينافس شجرة الهيڤيا Hevea وأكبَّ الكيميائيون على دراسة مذكرات العلماء الذين بذلوا سنين من حياتهم يبحثون عن مادة مطاطة تنافس المطاط الطبيعي ، ولم يكن هؤلاء العلماء نوادر

فقبل ثمانين سنة استخلص عالم يدعى جرفيل وليمز السائل الاساسي من المطاط ودعاه ايزوبرين Isoprene [2] وتبعهُ بوشارديه في فرنسا فحول السائل ثانية الى مطاط . وفي سنة ١٨٨٢

(١) راجع التفصيل العلمي لاسلوبه في مقال « مطاط من غاز » مقتطف ديسمبر سنة ١٩٣٥ ص ٥٤٩

(٢) تعرف هذه المادة باسمها الكيميائي beta-methyl-butadiene

أقبل رجل يدعى تلدن وحطم زيت التربنتينا واستخرج منهُ مادة ظنها «الايزوبرين» وحولها الى مادة مطاطة . وفي سنة ١٩١٠ صنع رجل يدعى كيريا كيديس — وكان يشتغل في شركة مطاط في احدى مدن أميركا — مطاطاً بالتركيب الكيميائي . وحوالي الوقت نفسه وضع هوفمن في المانيا الأساس لصنع المطاط الصناعي المعروف باسم بونا . وغير هؤلاء كثير . وكان جميع الباحثين يعلمون انهم يستطيعون ان يصنعوا مطاطاً من مواد تستخرج من قوالح الذرة أو نشارة الخشب. وقد جرب الألمان استخراجها من البطاطس والايطاليون من الطماطم ولكن المسألة الأساسية في الموضوع ، كانت اختيار النباتات الرخيصة الوافرة ثم استنباط أسلوب صناعي يحولها بنفقة معقولة الى مادة تشبه المطاط وتحل محله

وكان الدكتور نيولاند منصرفاً الى تجربة التجارب بغاز الاسيتلين منذ صغره . فلما اطلع ممثل شركة ديبونت على ما كشفه من أسلوب لاستخراج تلك المادة (دايفنيل اسيتلين) من غاز الاسيتلين ، اهتم الرجل بالامر لأن علماء شركته كانوا قد قضوا سنوات وهم يبحثون عن طريقة لصنع المطاط من ذلك الغاز . فجرب ديبونت مادة الكلوروبرين (وهي قريبة من الناحية الكيميائية من الايزوبرين) وحوَّلها الى مطاط صناعي ودعاه « النيوبرين » والمواد الأساسية التي تدخل في صنع هذا المطاط تستخرج من الفحم والحجر الجيري والملح . وفي سنة ١٩٣٢ عرضت في السوق للبيع. ومنذ تلك السنة وشركة ديبونت تضاعف انتاجها منهُ سنة بعد أخرى . وكانت تنتج ٥٥٠ الف رطل كل شهر في أواسط سنة ١٩٤٠ ، وسيصبح في قدرتها انتاج مقادير وافرة في هذه السنة عند ما يتم صنع مصنعها الجديد ولعلهُ تم

وانشاء هذه المصانع لم يكن ميسراً . لأن الأسلوب الكيميائي والأسلوب الصناعي كانا جديدين ، فالتقدم في الاتقان مطرد وفقاً للبحث . ولا بدَّ من اجراء تعديل في الادوات المستعملة في المصانع وفقاً لوجوه التحسين التي يسفر عنها البحث والتجريب . ولذلك رأى رجال شركة ديبونت ان المصانع الجديدة تفقد معظم مزاياها بعد انقضاء سنة على بنائها . وهذا كله يقتضي نفقة كبيرة . ومع ذلك استطاعوا ان يخفضوا سعر الرطل من «النيوبرين» من ٢١ قرشاً الى ١٣ قرشاً . وفي أميركا الآن مائتان وخمسون مصنعاً تستعمل النيوبرين بدلاً من المطاط الطبيعي في صنع أدوات يصلح لها النيوبرين أكثر مما يصلح لها المطاط الطبيعي ولذلك يقبلون تحمّل الفرق بين سعر النيوبرين (٦٥ سنتاً للرطل) وسعر المطاط الطبيعي (١٨ سنتاً للرطل)

***

من المزايا التي يتصف بها النيوبرين شدة مقاومته لفعل الزيت وغيره من المواد الكيميائية

التي تحل المطاط الطبيعي وكذلك مقاومته لفعل ضوء الشمس والحرارة ،ولذلك فهو أصلح من المطاط الطبيعي لصنع أنابيب البنزين في محطات تموين السيارات والسيور العريضة التي تستعمل في مصانع الانتاج الواسع النطاق وبعض أجزاء السيارات حيث تقتضي الصناعة مساند من المطاط لبعض أجزاء السيارة وكذلك قفافيز المطاط اللازمة في المطبخ وغيره . وتستعمل في صنع الاطارات الصلبة لعجلات السيارات ولكن استعماله في الاطارات التي تنفخ بالهواء لا يزال في دور التجربة

***

وعلى الرغم من نجاح النيوبرين فان اقطاب شركة جودرتش المشهورة بصناعات اطارات عجلات السيارات يعتقدون ان الحل الصحيح لمشكلة المطاط الصناعي يجب ان يكون باستخراج البوتاين (الأيزوبرين) رأساً من النفط . ذلك بان النفط عندما يحطم جزيئه لاستخراج مشتقاته المختلفة منهُ ، يخرج منهُ غاز يدعى غاز البوتاين Butane مع النفاية . واذا استنبط الأسلوب الصناعي الموافق لاستخراج البوتاين من النفط ، فان استخراجهُ لا يجب ان يتعارض مع استخراج البنزين اللازم للسيارات

وفعلاً صنعت شركة جودرتش مطاطاً صناعيًّا من البوتاين سمته اميربول Ameripol وصنع رجالها منهُ اطارات وهم على ثقة بانهُ اذا اتيح لهم الوقت الكافي لاتقان وسائل صنعهِ صنعاً واسع النطاق فانهم يستطيعون ان ينافسوا بهِ المطاط الطبيعي . وهذا متاحٌ الآن

هذا المطاط المستخرج من النفط وليد بحث قام بهِ رجل يدعى الدكتور ولدو سيمون Waldo Semon. وهو باحث توفر على الكيمياء الصناعية واشتهر فيها فلما أذيع نبأ فوز القس نيولاند بصنع المطاط من غاز الاسيتلين استقال سيمون من منصب مدرس في جامعة وشنطن وذهب الى اكرون بولاية اوهايو حيث مصانع جودرتش المشهورة تلبية لدعوتهم .فاخترع اولاً مادة تدعى كوروسيل وهي من العجائن الكيميائية التي لا تتأثر بالنفط ولا بالحمض ولا بالضوء وتستعمل كالمطاط في عشرات من الاغراض الصناعية كصنع المعاطف الواقية من المطر وما اشبه. ولكن الكوروسيل ، مع تفوقهِ على المطاط الطبيعي في كثير من مزاياه ، لا يصلح للتقسية اي لصنع اطارات عجلات السيارات فأكب سيمون ومعاونوه على البحث حتى استخرجوا « الاميربول »وقد اختاروه من نحو خمسة آلاف مطاط صناعي جربوا التجارب بها وصنعوا منهُ اطارات لعجلات السيارات وامتحنوها في المعمل وعلى الطريق . وكانت شركة جودرتش تصنع في السنة الماضية بضع مئات من اطارات عجلات السيارات كل اسبوع ، تدخل فيها الاميربول بنسب مختلفة تتفاوت من خمسين في المائة الى مائة في المائة

٤ — جسم الانسان والكيمياء الحيوية

في جسم الانسان مقادير يسيرة جدًّا من ثلاثة اصناف من المركبات الحيوية ، تسيطر على كيمياء الجسم في الصحة والمرض . بعض هذه المواد لم يكن معروفاً قبل بضع سنوات ، وطائفة من الحقائق عنها لم تكشف الآ منذ بضعة اشهر ، وهذه الطوائف الثلاث من المواد هي الأتوار (الهرمونات) التي تفرزها الغدد الصمُّ في الجسم ، والانزيمات التي تحول مادة كيمائية الى اخرى ، والڤيتامينات . وكل منها تحتوي على مركبات شتى وهي تضبط بعضها بعضاً ضبطاً دقيقاً لانهُ اذا افلتت احداها من ضبط الاخرى كانت هدامة للصحة وأوردت الجسم موارد البوار

خذ مثلاً على ذلك الدم . فالدم في حالته السوية قلوي بعض القلوية . فاذا مال بهِ الميزان قليلاً الى الحموضة أسفر عن الغيبوبة والموت . واذا مال بهِ الى درجة من القلوية أعلى من درجته المعتادة أسفر عن اصابة الجسم بالتشنج . ثم ان مقدار السكر في الدم يجب ان يكون في حدود دقيقة لا يتعداها زيادة او نقصاً . فاذا نقص عن المقدار السوي في نطاق هذه الحدود أُصيب صاحبهُ بالتشنج والغيبوبة . واذا زاد كانت العاقبة وبيلة كذلك . ولذلك جهزت الطبيعةُ الجسم البشري بوسيلة تمكنهُ من ازالة الفائض من سكر الدم عن طريق الكليتين عندما تقتضي الحاجة ذلك . وفي اثناء الرياضة العنيفة تولد العضلات مركبات حمضية سامة وينقص سكر الدم. ومع ذلك فالذين يمارسون هذا الضرب من الرياضة لا يصابون بالتشنج ولا بالغيبوبة مع نقص سكر دمهم عن معدله السوي . ولكنهم يلهثون ويزداد خفقان قلوبهم ، فيزداد ما ينقله الدم الى الانساج من اكسجين نقي فيحرق هذه النفايا الحمضية التي تولدها العضلات . وفي الوقت نفسه يحول النشاء المخزون في الكبد الى سكر فيعوض الدم ما خسره منهُ ويعود التوازن الى حالته الطبيعية

في الجسم سبع غدد صم تفرز مفرزاتها الداخلية (الأتوار) في الدم مباشرة ثم يوزعها الدم على اعضاء الجسم وانساجه . وبعض هذه الاتوار ينتقل من غدة صماء الى اخرى ، فيحركها ويحملها على افراز تَوْرها . وهي جميعاً تضبط افعال الجسم الحيوية ضبطاً دقيقاً . والدليل على ذلك ما يصاب بهِ الجسم عندما يضطرب افراز غدة من هذه الغدد فيفوق المعدل او ينقص عنهُ

أرأيت أبله مهزوز الرأس زائغ البصر مندلع اللسان ؟ ان الفرق بينهُ وبين الرجل العاقل السويّ انما هو جزءٌ من الف جزء من الاوقية من الثيروكسين . والثيروكسين هو التَوْر (الهرمون) الذي تفرزه الغدة الدرقية القائمة على جانبي الحلق

وقد يولد لطفال وغددهم الدرقية عاجزة عن توليد المقدار الوافي من الثيروكسين

فتبدو عليهم اعراض البله على تفاوت بينهم . ولكن اذا غذوا في طفولتهم الاولى بالثيروكسين او بالغدد الدرقية المجففة المستأصلة من بعض الحيوانات تغلبوا على اعراض البله وبدت فيهم امائر النشاط والذكاء. وهذا التحسن في حالهم يدوم ما دامت المعالجة . فاذا أُمسك عنهم الثيروكسين بضعة اسابيع عادوا الى حالتهم الاولى . وعنصر اليود هو أهم العناصر في تركيب الثيروكسين، وهو منتشر في انحاء الارض ولكن بعض المناطق يعوزها المقدار الوافي من هذا العنصر فلا تجده في تربتها او هوائها او مائها. فالناس في هذه المناطق تبذل غددهم الدرقية جهدها لكي تستخلص اليود الذي تحتاج اليه من القليل الذي في الارض او الهواء او الماء

وفي اجتهادها هذا تتضخم الغدد وتبدو آثار تضخمها على جانبي العنق مشوهة لمنظرها ويصحبها الجحوظ (الجواتر) فاذا اضيف قليل من اليود الى ماء الشرب في هذه المنطقة ، أو اذا استعمل ملح الطعام المعالج باليود زال الجواتر وغيره من الامراض المشوهة الناشئة عن اضطراب الدرقية

ومن الغدد التي تتصف بأوصاف عجيبة الغدة النخامية الواقعة داخل الجمجمة في قفا الرأس . فالغدة النخامية تسيطر على النمو . فاذا نقص مقدار ما تفرزه من أحد اتوارها كان صاحبها قزماً. واذا زاد كان مارداً. ولكن الغدة النخامية لها وظيفة أخرى متصلة بما اصطلحنا على وصفه « بالحب الأموي » . فعندما تلد الانثى يزداد ما يفرز من أحد اتوار النخامية فيولد في الأم عاطفة الحدب على وليدها مضحية بكل شيء حتى بحياتها لحماية هذا الوليد. وقد اثبتت هذه الحقيقة بشتى الاساليب . ومن أشهر التجارب التي جرّبت في هذا الصدد تجارب الدكتور أوسكار ردل Riddle في قسم الوراثة بمعهد كارنيجي، فقد حقنت مقادير كبيرة من هذا التور الخاص في أناث لم تبلغ سن الولادة او تخطتها ، فتولدت فيها هذه العاطفة القوية عاطفة « الحب الأموي » ، حتى الذكور الذين يحقنون — على سبيل التجريب العلمي — بهذا التور تظهر عليهم هذه الصفات . وقد أجريت هذه التجربة على أنثى فرخ دجاج لم تبلغ سن البيض بعد ، فبدت عليها صفات الأم الولود كما أجريت على دجاجة تخطت سن البيض وحضن البيض فبدت عليها هذه الصفات كذلك

وقد استفرد تور من النخامية وهو يستعمل الآن في حقن الأمهات المراضع لزيادة مايفرزنهُ من لبن. ومن أهم الأتوار التي تفرزها ماكان له صلة بالحياة الجنسية (الشقية Sex). وليس صحيحاً ماكان يقال قبلاً من أن الذكور يفرزون اتواراً ذكرية لا غير والاناث يفرزنَ اتواراً انثوية لا غير . فكل امرئٍ ، ذكراً كان او انثى ، يفرز اتوار الاناث والذكور . ولكن أتوار الذكور غالبة في مفرزات الذكر السوي . وأتوار الاناث غالبة في مفرزات الانثى السوية . والحيدة عن الصفات الجنسية الثانوية التي يتصف بها الذكر او الانثى أحياناً ، كما في المخنّث

والمسترجلة، مردها على الارجح الى زيادة افراز أتوار الذكور في الاناث وأتوار الاناث في الذكور

ومع قرب عهدنا بمعرفة كثير من حقائق الأتوار، بدأ الأطباء يطبقون استعمالها تطبيقاً عملياً. وقد تقدم ذكر استعمال الثيروكسين في تصحيح صفات البُله. ولا يخفى ان الادرينالين وهو التور الذي تفرزه الغدد الادرينالية، يستعمل مقوياً للقلب. اما الاسترون وهو أحد أتوار الاناث فيحقن في النساء اللواتي أدركنَ سن اليأس فيخفف من الأعراض التي يصبنَ بها. ولكن التستيرون، وهو تور الذكر، يستعمل لتخفيف اصابة تضخم البروستاتا. غير ان التستيرون يستعمل في النساء اللوتي يصبنَ باضطراب في وظائف أجهزة التوليد. ويلوح أن هذه الحالات مرتبطة بزيادة ما يفرزنه من أتوار الاناث بالقياس الى ما يفرزنهُ من أتوار الذكور، فتضبط النسبة السوية بحقنهنَّ بتور الذكور اي التستيرون

ويظهر ان هناك ما يقابل هذه الحالة في الرجال، في حالة سرطان غدة البروستاتا. وهذه الحالة تتحسن — وليس هناك ما يدل الآن ان الشفاء يتم — بحقن المصاب بتور الاناث المعروف باسم ثيلين Thulin. ويعتقد العلماء ان السرطان نفسه قد يكون مرتبطاً بازدياد نشاط تور الذكر، وان هذا النشاط تخف حدته بحقن تور الاناث — الثيلين

ويبدو ان مفرزات الغدد الصم ولا سيما مفرزات الغدة النخامية تسيطر على أفعال الانسان والحيوان المتغيرة بتغير الفصول المتطورة وفقاً للعمر. فعندما كتب تنيسون الشاعر البريطاني قوله المشهور في قصيدة لوكسلي هول « في الربيع يتجه خيال الشاب الى الحب » انما أفرغ في بيت من الشعر الرقيق قول العلم الحديث بان افراز « الجونادوتروبين » — وهو أحد مفرزات النخامية — يزداد في الربيع فيؤثر في افراز التستيرون وغيره من الاتوار الشقية. وعند ما تدق ساعة الحياة خمسين سنة معلنة ان مرحلة المزاوجة قد انتهت، فانما تفعل ذلك بتغيير نسبة بعض المفرزات من الغدد الصم

اما الانزيمات فمن مكتشفات العصر الحديث مع ان تأثيرها من الحقائق القديمة المعروفة وقد استخرج العلماء ما يزيد على مائتي انزيم واستفردوا منها سبعة في قالب مبلور. والانزيمات تفعل بمادة كيميائية ما فتحوّلها الى أخرى بغير ان يطرأ تغيير على الانزيم نفسه في أثناء ذلك. فكأنها في علم الاحياء في منزلة الوسيط الكيميائي كالبلاتين في الكيمياء غير العضوية. وعملها في الجسم أنها تفعل في مواد الطعام فتحولها الى المواد الكيميائية التي يحتاج اليها الجسم، بل انها تصنع المقادير المطلوبة من هذه المواد ولا تزيد ويفرز الجسم ما يتبقى

ومن أسرار الطبيعة معرفة ما القوة التي تحرك الانزيم ولا توجد في المواد التي يتركب منها. فثمة مثلاً انزيم يدعى تربسين وهو أحد الانزيمات اللازمة للهضم. والتربسين يصنع من مادة

كيميائية اخرى غير فعالة فهي لذلك غير متصفة بقدرتها على الهضم. ضع قليلاً من هذه المادة غير الفعالة في انبوب ثم أضف قدراً يسيراً جداً من التربسين واذا المادة غير الهاضمة تحولت مادة قادرة على هضم كل ما في الانبوب

والطائفة الثالثة من المواد الكيميائية الحيوية في الجسم هي طائفة الفيتامينات وقد كشف خمسة عشر فيتاميناً منها على الاقل. وهي لازمة لنمو الجسم البشري نمواً سوياً. ونقص احد هذه الفيتامينات يفضي الى مرض من أمراض كثيرة تصيب الجسم ، ومنها بعض الاضطرابات المعوية والاسكربوط والكساح والهبوط العقلي الحاد والنزف والشلل الارتجافي ، وبعض انواع الشلل والنيوريتيس (التهاب الاعصاب) والبلاجرا

وقد بدأ رجال البحث في هذه الطوائف من المواد الحيوية، يدركون انها مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، فالاتوار والفيتامينات تتشابه في ان نقصها يفضي الى تأثير متشابه . فالهبوط العقلي ينشأ مثلاً عن قلة الثيامين (وهو فيتامين B_1) والحمض النيكوتينيك ، وكذلك عن اضطراب بعض الغدد الصم. وهناك حالات مرضية قد تنشأ عن اضطراب الغدد الصم في تأدية وظيفتها او عن نقص بعض انواع الفيتامين ، او عن كليهما

وقد عرف قراء المقتطف ان هناك صلة بين الشيب وأحد انواع الفيتامين . وقد أثبتت التجارب ان الفيتامين الذي يعيد الشعر الشائب شعراً اسود انما هو مادة تفعل فعل انزيم في بعض أدوار النمو في البكتيريا، وكثير من «الانزيمات» التي تمكننا من ان نستمد طاقة من الاكسجين تحتوي على واحد من الفيتامينات الثلاثة — اي الثيامين والريبوفلافين والحمض النيكوتينيك

من البحوث التي تستوقف الانظار ، وتعلل الطب والمصابين بالسرطان بالرجاء ، البحث في ان بعض انواع السرطان قد ينشأ من نقص بعض الفيتامينات او من عجز الجسم عن استعمال هذه الفيتامينات استعمالاً صحيحاً . فالطريقة التي يستعمل بها النموّ السرطانيّ عنصر الاكسجين تختلف اختلافاً بيناً عن طريقة النسيج السوي في استعمال الاكسجين ، ولما كان لبعض الفيتامينات تأثير في كيفية استعمال الخلايا للاكسجين، فقد يفضي البحث في المستقبل الى فهم سر السرطان من هذه الناحية

ويكاد يكون من المحتم ان يكون العلم على عتبة مكتشفات خطيرة الشأن بعيدة الأثر في الأتوار وتأثيرها ، وقد تفضي هذه المكتشفات الى انشاء عصر جديد من الصحة الجسدية والعقلية ، ومتى ملئت الثغرات في معارفنا ، فقد نستطيع ان نفهم سرّ نمو الخلايا وتكاثرها واذا أدركنا ذلك فقد نستطيع حينئذٍ ان نمنع السرطان وغيره من الامراض التي ترتدّ في أصلها الى بناء الخلايا ونموّها ، وقد نكون حينئذٍ على قربٍ من معقل سرّ الحياة

تصدير

لقصة « رجل ! »

— ١ —

يسر المقتطف أن تقدم الى قرائها هذه التحفة الادبية الخالصة. وهي قصة من قلم الدكتور بشر فارس صاحب مسرحية « مفرق الطريق » . وهذه القصة من مجموعة قصص تخرج بعد أيام قلائل في مصر بعنوان « سوء تفاهم » (مطبعة المعارف ومكتبتها) ، وقد رغبنا الى المؤلف ان يخص المقتطف بباكورة من المجموعة

وهذه القصة وأخواتها قد تحير القارىء أحياناً كما حيرته « مفرق الطريق» وذلك لطرافة الموضوعات وجدة المعالجة . ولهذا يحسن بنا ان ننقل الى القراء زبدة حديث سمح به المؤلف الى زميلتنا « المكشوف » البيروتية (العدد ٣٣٢—٢٤ اكتوبر ١٩٤١) قال الدكتور بشر فيما قال :

« القصة عندي حنية تنتزع من صدر الحياة لا قطعة من الحياة كما يرى القصاصون غالباً . يجب ان تكون كبرق يلتوي في سماء مغبرة . السماء المغبرة هي الحياة الجياشة ، وهي طلسم من حيث دفائنها ومن حيث أسرارها . فالقصاص هو الذي يستطيع ان يطلع في لفتة على سر من هذه الاسرار او دفينة من هذه الدفائن فيدونها . ويجب ان تنطوي القصة على شاعرية في الاداء اللفظي وفي التصوير على الخصوص ، وعلى عمق في تحسس الحقائق النفسانية بمعالجة بسيطة جداً قائمة على حادث تافه ، على كلمة عابرة ، على شعور يختلج ، مع اجتناب التحليل المنطقي او العلمي . ولا أكتمك ان طائفة من الكتاب الاجانب الذين تخرجنا عليهم وحاولنا النسج على منوال قصصهم أضروا بنا كثيراً من حيث توجيهنا للتحليل . . . (يريد صاحب الحديث القصاصين الفرنسيين)

« ومدار الانشاء الرفيع ان يجعل المنشىء القارىء يشاطره فنه . ولن يشاطره إلا اذا مر بالتجربة التي مر بها المنشىء ولم يستطع ان يفصح عنها . واما اذا أفصح المنشىء عن التجربة فقد قبض عليها القارىء وتفهمها وتذوقها . وهذه هي نفضة القارىء التي تعقب نفضة المنشىء »

وهنا زاد كاتب الحديث : « وصارحني الدكتور بشر انه لا يكتب لمن يريد ان يقرأ في سبيل التسلية العابرة ، او ساعة يعصيه النعاس ، انما يكتب لمن يحب ان يشاركه فنه ولا يخشى ان يعمل فكره...« القصة ليست للتسلية . يجب ان تثير القارىء » . وهو يرى أن القصة لا تحتاج الى حبكة ، بل يجب ان تكون كالرسم الحديث ... يجب ان تكون القصة جسات في لوح الحياة الجارية. وإذ كان على القصصي ان يكون انساناً قبل كل شيء فمن حقه ان يعطف على البشرية المتألمة وان يغمز بعيوب المدنية ، كل ذلك في دوران أدبي فني ... ويستطيع المنشىء ان ينصرف في بطن القصة الى التأمل ، على ان يكون تأمله طريفاً . وهو يستطيع ان يعطي ما يشاء على ان يكون مخلصاً

ذلك مجمل رأي الدكتور بشر صاحب الشخصيتين إذ هو أديب منصرف الى الادب الخالص وعالم منقطع الى العلم المحض . وهو يخرج لنا اليوم مجموعة روائع لا نشك في أنها ستحدث ما تحدث على نمط ما سبقها من تآليف هذا الكاتب القوي

وقد سألنا صديقنا الدكتور بشر : ما وراء عنوان قصصك ؟ فذكرنا بجملة وردت في « مفرق الطريق » على لسان « هو » يقولها للبطلة « سميرة » والجملة : « علمتني اليوم ان الحياة مجموعة سوء تفاهم » [المحرر]

— ٢ —

لماذا يحاول الانسان دائماً ان يستوضح الغامض ويهتك أستار المجهول ؟
ولماذا ، وقد تطاول في محاولته على طرق أبواب ما وراء الطبيعة ثم باء بالفشل ، يعاود محاولته من جديد ؟ ؟

ولماذا يفشل ؟ ؟ وهل هناك علاقة بين فشله وبين العناصر التي ركبتها الطبيعة فيه ، وهي وسائله في محاولته وجهاده ؟ ؟

بعض من أسئلة تثيرها هذه القصة الطريفة الممتعة ، ولا تبخل عليها بجواب ! !

استكناه الغامض والمجهول مما يحيط بنا ، ثم فشلنا في تحقيق ذلك اذا قذف بنا الطموح الى استجلاء ما هو خارج عن محيطنا الارضي وعالق بالسماء ، هما المحور الذي تدور عليه هذه القصة، كما دارت عليه ، ومن غير نهاية ، روائع من الشعر والمسرحيات والقصص، منذ ان اتخذ الذهن الانساني الادب وسيلة للتعبير عما يختلج بالنفس ويستبد بالخاطر ، وهما من مباعث المآسي الذهنية التي أنشأت الطروس منها نفائس الادب وطرائف الابحاث الفلسفية

خلق الانسان، ما أعجبه !!

طموح لا يتطامن ، وتطلع لا يهدأ الى المعرفة ، وتوثب لا يني عن إجابة نداء الغامض المجهول ، ثم قصور في عناصر الذهن وروابط القلب،ووهن في أعضاء الجسم وعجز في الوسائل: نقيضان عجيبان ، بل ضرتان أبداً في نزاع ، فكأنما قضي على الانسان ان تبقى قدماه راسختين في الارض ورأسه مشرئباً الى السماء في تشوف لا ينقضي . هو يريد التحليق ولا يستطيعه ، ويهم بهتك الحجاب ولا يدركه ، فاذا دفعه طموحه الى التحليق والخروج عن محيطه الارضي فالخيبة والعذاب له بالمرصاد . وخيبته مما ركب فيه ، وعذابه مما جبلت عليه نفسه : المتأله يقتله بشر ، والمتعاظم المتعالي تفتك به ذبابة أو تزل به قدم فيهوى !

عقدة العقد وأحجية الاحاجي . . .

صاغ منها (بشر فارس) قصة ، وأيما قصة ، جرى فيها قلمه مبتدعاً لا متبعاً ، وفي سياقة محكمة وأسلوب مترع باللمعات الفنية والاشراقات الذهنية ، فياض بالطبع القوي المنفعل

وإن القصة لتنتهي ، وإن الكتاب ليطوى ، وتبقى العقدة قائمة من غير حل ، تراود الخاطر وقد تستبد به وتدفعه الى متاهات لاحد لها

زكي طليمات

رجل !

في زاوية من زوايا الارض جبل طال طول تمني الفقير وسأم الغني. جبل اشتد اشتداد شهر الصوم على المتكافين ، والناس يحذقون التكاف لان الفطرة سلامة جبل هبّ أملس ضامراً جرداً : رمح ركزه ربٌّ أعياه خلق لا ينزجرون.

كان الجبل سيدَ اهل الزاوية : يستقبل أعينهم كل صباح فيحدّ من مرماها ، ويعكس عليهم شعاع الشمس فيشترك في اللفح ، ويصد عنهم الزعازع فيهدىء ليلهم : مصدر طمأنينة وصاحب غلبة

كان اهل الزاوية لا يرفعون الأبصار الى الجبل إلاّ وأكفهم مفروشة فوق حواجبهم . وان تجرأ الطرف وانفسح ، فعلى سبيل اللمح : كان الجبل يمزق عزم العين. ولولا هذا الجبل الأملس الضامر الجرد ما كان اهل الزاوية على تلك الحال من الدعة والرقة . . . لا بدّ للناس من شيء يهددهم بالسحق ، من شيء متماسك مع تطاول حتى تلين انفسهم

كان الجبل مصدر طمأنينة وصاحب غلبة

وكان الشغل الأكال للأذهان : على رأس الجبل بيت منقور ، نقره شيء مجنّح هوى من ناحية السماء ثم زرع فيه عشباً أبيض قصير الورق ، من أكل منهُ وهو ندٍ في منبته ظفر بالحياة الأبدية ... السماء تستهوي الخلق ابداً ، وتارة تغويهم ، السماء جزء من الكون ، والكون بهرج

والطريق الى ذلك البيت المنقور وعر ، معضل . والتصعيد فيه خدعة من خدع الموت . ولم يقوَ على بلوغ البيت من اهل الزاوية سوى اثنين . وقد عاد أحدهما كسيحاً من الاعياء ... هل يقدر رجل على حمل الابدية ؟ وعاد الآخر مكفوفاً ... آه من الشمس تقتل من حيث تحيي : وهجها ينير ويعمي : أضاءت البيت المنقور أي إضاءة حتى إنها أطفأت العين

عاد الكسيح والمكفوف وبين أيديهما الأبد . ولم يدرِ أحد من أهل الزاوية أيسخران من الموت ام الموت يسخر بهما

* * *

— « يا رجل لا تصعّد في الجبل »

— « أنا مصعّد فيه يا قوم »

— «أتبتغي الأبدية وأنت بشر ؟ أتخرج على سنة الكون ؟ كل ما فيه مقدَّر: الجفاف يترقب النبات ، والليل راصد للشمس ، والموت يحصي على الانسان أنفاسه»

— « الكون مبذول لنا ، ولسنا بمدفوعين الى الكون يعبث بنا ويتحكم في أمرنا . الكون مبذول لنا ، فليسخَّر ! قيوده للعبيد ، لمن يطوّح النظر الى فوق وكفُّه مبسوطة فوق حاجبه . هذا الجبل يكسر طرفي ، وأنا أريد ان أحدّق اليه وأقول له : الآن لا أسارقك النظر ، ولا أخشى لمسك وخطفك ، لأن سرك انتقل اليَّ . أنت تطويه في رأسك وأنا في عروقي أبثه ، أنا أفضلك وأبهرك ، لأنك صاحب السر ، وأما أنا فمختلسه . أنت قبضت على المستحيل وهوَّلتَ بهِ علينا ، وأنا أجعله برجولتي ممكناً »

«ولكن الكسيح والمكفوف ، ألا تتعظ بهما ؟ »

« انهما رغبا في الأبدية طمعاً فيها وحدَها . وأما أنا فأطلبها لتنقاد ، لأحسَّ بأني ظافر . هما رغبا فيها للتنعم بالحياة الباقية ، وأنا أطلبها لأصرعها ... كالمرأة تستمتعون بها وتلهّون ، وأما أنا فأطرحها تحت همتي لأشعر بأني أملك شيئاً نابضاً ، شيئاً استطيع ان أنشر فيهِ من ارادتي وأسلّمنهُ ارادته عوضاً . وإني لا أحسّ برجولتي إلاّ إذا وجدتُني السلطان القادر على حياة غيري . حياتي لا أملكها لأني عبد لها تسيّرني ولا اجرؤ على الانتقام منها ... لا يقتل نفسه الاّ من افتقد حياته فانفلت من ضغطها ، ولست كذلك ، حياتي بين يديّ ولكنهما لا تسعانها »

تمهّل الرجل ليتصفح القوم ثم واصل : « أنا مصعّد في الجبل لأغتصب عمري من براثن العدم . فأعود سيد نفسي : إذا ضايقتني أديتها ، سيد جسمي: أفنيهِ متى شاءَ ، سيد روحي أميّلها على هواي . . . الروح التي حرتم في شأنها سأقبض على أطرافها وأجعل لها من عظامي إطاراً يخنقها . أنا مصعّد »

قال الرجل مقاله ، فضحك الكسيح وبكى المكفوف من خلفه، كأن أحدهما يتمّم اخاه . ثم حمل المكفوف الكسيح وأخذا يتحسسان — هذا بعينه وذاك بقدمه — نعيم الفناء : الارض وما عليها

عاد الرجل الى مقاله : « أنا مصعّد ، وسألقي اليكم كل يوم بحجر لأعلمكم

بأني سالم ، حتى ارجع اليكم فتلتفّوا حولي وتسألوني أن أفتك بهذا الكسيح وبهذا المكفوف لانهما طلبا ما فاتهما خطره . أنا مصعّد . »

هدأ الرجل . ومن بين الصفوف برزت فتاة وقالت : « لا تذهب الى البيت المنقور »

أخذت الرجل بحة وهو يقول : « يا حبيبتي . . . »

تطلعت الفتاة اليه قلقة البصر حيرى السمع . فأكد الرجل : « نعم ، حبيبتي. الآن فقط أناديك : ياحبيبتي . ومن قبل كتمتُ مايشغل صدري ، لأني لو نشرت حبي بين يديك لتعطّل إحساسُك الدفين به »

ثبت القلق في البصر وامتدت الحيرة في السمع . فزاد الرجل : « الروضة التي عن يمينك تجلسين اليها تنقلين البصر ، فيتزود ، فينساب سحر مستتر تحت الجفنين فيغلبهما ويطبقهما ، ثم تقبل صاحبة من صواحبك فتصيح : ما أجمل الروضة ! فينزعج السحر ، ويفر من تحت الجفنين ، فينفرجان ، فترى عينك ماتراه عين صاحبتك: تلمس حواسُّك الاشياء ، فتصحو ، فتبطل الخلوة بالوهم الخاطر .. الحب والجمال كالبريق الذي في الياقوت الاصفر الرقيق : ماء مستفيض في تعاريج الجوهرة ، فوق الوصف ودون اللمس . . . الحب والجمال وماء الجواهر لا تفعل فعلها الاّ إذا رفّت وراء حجاب شفاف . . . يا حبيبتي »

دنا الرجل من الفتاة التي برزت من بين الصفوف ، فارفض القوم . فقالت الفتاة : « لاتذهب الى البيت المنقور »

ضمها الرجل اليه: «اليوم أناديك: يا حبيبتي، لأني منصرف عنك. لحظة ينشرم اللحم من اللحم يحسن بالالفاظ ان تنفح دماً. وهل يفور بالدم غير الالفاظ المقدسة ؟»

فك الرجل الفتاة من الضمة : «وما أحراني الآن بأن أناديك : يا حبيبتي... اني بباب المعبد . سأدخله في الوقت الذي اختاره ، سأدخل معبد الزمان المنزّه عن خطر الانفصال ، فاختطف من دعائمه حقيقة حرفين متلاحمين : الحاء والباء ، لأن الحب نَفَس متصل . اليوم لي الحق ان ألفظ الحرفين لأني قريب الاتحاد بالقوة الراسخة . . . آه يضحكني البشر متى يخرجوا حروفاً وضعت لغير حلقهم. البشر الى الزوال، والحب حابس العابر في المقيم ، حابس الزمن الدائر في دقة قلب..»

قالت الفتاة التي برزت من بين الصفوف : « لا تذهب الى البيت المنقور . »

فتدفق الرجل : «أتخشين ان تشغلني الابدية عنك ؟ لا أهواها ولا اشتهيها، إنما أريد أن أذلها . أنت تغارين منها لانك تحسين ما تكون هبتها لي . ستهب لي سرَّها ، ، ويشق عليك ان ينافس سرَّك الدائم في صدري سرٌّ داخل . ثم تحسين أن الابدية شيء يماثلك ، شيء يمنح السعادة . »

ثم جعل الرجل يقطّر كلامه : « لا تغاري يا حبيبتي. سأجعل الابدية سلماً اليك . فأجلس إزاءك ندًّا الى ندّ : انت امرأة تبسط الدنيا لحبيبها فيسع الأشياء كلها ولا يسعهُ شيء ، وأنا رجل قد نزع قدمه من ورطة الأرض ... كفّي عن منعي »

همهمت الفتاة . « ياحبيبي ، لا تذهب الى البيت المنقور . »

***

وذات يوم لم يسقط حجر . فندَّد القوم بالرجل ثم سبوه . . . لِمَ يحاول الفوق عليهم ثم يكبو ؟

وفي الليل حلم المكفوف انهُ رسّام والكسيح انهُ رقّاص... الشماتة فنّانة !

ثم مرضت فتاة

وذات صباح هبط الرجل على القوم سالماً. فالتف القوم حوله :

— « أنت ؟ حيّ ؟ هل أكلت من العشب ؟ »

— « عني الطريق »

— « ولِمَ امسكت عن القاء الحجر ؟ »

— « إلى من ألقي بالحجر ؟ لا ترقبوا الشيء من عل ، نقّبوا في جوف الارض ، يا بشر ! عني ! الطريق !

دخل الرجل بيت الفتاة التي برزت من بين الصفوف ثم مرضت

والفتاة لم تكن في البيت : قتلها الحجر الذي لم يسقط

خرج الرجل الى الجبل ، وصعّد فيه يقصد الى البيت المنقور يحاسبه

ولما كان ذات صباح سقط الرجل من الجبل ميْتاً ... قتل الرب نفسه ، والذي قتلهُ بَشَر

مثلٌ تاريخيٌّ

للدفاع عن الحرية الفكرية
في جامعة اميركية

كان التمسك بعيار الذهب من حيث هو أساسٌ للنقد، مبدأً في منزلة العقيدة، عند أهل الولايات الشرقية من الولايات المتحدة الاميركية، وكان جلّهم من المحافظين. وفي سنة ١٨٩٧ دعا الدكتور اندروز رئيس جامعة برون، الى استعمال النقدين الكريمين اي الذهب والفضّة (Bimetallism) فساءَ رأيهُ هذا كثيرين من أمناءِ الجامعة وأصدقائها. نعم إنهُ لم يعف رسميًّا من مهام رآسة الجامعة، ولكنهُ تعرَّض لنقد لاذع من قبل اعضاءِ مجلس الامناء فلم يسعه إلاَّ الاستقالة. وعيّنت لجنة للاجتماع بالرئيس، لا لتطلب منهُ التخلي عن رأيهِ بل لتطلب الكفَّ عن اذاعتها لئلاَّ يضرُّ نشرها بمصلحة الجامعة من الوجهة المالية، وهي معتمدة كما نعلم على تبرُّع الموسرين. ولم يكن أساتذة الجامعة طرفاً في هذا الجدال ولكن لم يسعهم السكوت على هذا التعرُّض لحرية الرأي. فأعدّوا بياناً ناشدوا فيهِ مجلسَ الامناءِ الكف عن هذا التعرُّض ومما جاء في هذا البيان قولهم: إن عمل الامناء

« قائم على نظرية اذا اصبحت اساساً لعمل واسع النطاق، أكلت قلب معاهدنا، وهي نظرية ان نموّ الجامعة من الناحية المادية، اهمُّ من استقلال الفكر والتعبير المباح لرئيسها واساتذتها. وان لمجالس الامناء الحق في ان يقترحوا حدوداً لهذا الاستقلال

« فليست وظيفة الجامعة ان تمثّل طائفة معيَّنة من الآراء السياسية او الدينية، او ان تدعو اليها، بل ان تلهم الشباب محبة الحقيقة والمعرفة، وان تعلمهُ بحرية وتسامح وسائل إدراكهما. وظيفتها ان تتيح تربية قائمة على الحرية لا على التحكم

« إن طلاَّبنا سيعلمون، ان صمت رئيسهم في بعض الموضوعات شُري شراءً أو فرض عليهِ فرضاً... فاذا داخلهم ريب في ذلك فانهم سيشكون في الاساتذة

« ونحن لم نتكلم دفاعاً عن آراء الرئيس المالية لأننا على العموم وعلى مدى فهمنا المسألة مخالفون لهُ فيها.... ونحن يهمنا طبعاً نموّ المعهد من الناحية المادية وأشد اهتماماً من غيرنا

بتقدمه واتساعهِ ، ومع ذلك لا نرى أن نموّه يحقّق ولا نعتقد أن نموّه يمكن أن يحقق ، بالضغط السياسي والانقياد لهُ ، لأننا مؤمنون بان سيّال الحياة في عروق الجامعة هو الحرية لا المال » . وتاريخ هذا البيان أول يوليو ١٨٩٧ وقد وقعهُ أربعة وعشرون من اعضاء مجلس الاساتذة . ولكن الرئيس اندروز كان قد قدّم استقالته ، بعد ما وُجّه اليه من لوم الأمناء ، فقال أنهُ عاجز عن تحقيق رغبات الأمناء بغير التخلّي عن حرية التعبير التي تمتع هو وزملاؤه بها وأسلافهم من قبلهم

وتوالت البيانات الموجّهة الى مجلس امناء جامعة برون ، وهي تناشدهم استدعاءَ اندروز وتقليده الرآسة ثانية ونزع وصمة تقييد حرية الرأي عن جبين جامعة برون . وطلب نحو ستمائة خريج من خريجي الجامعة أن يعمل الامناء عملاً من شأنه ابطال التهمة الموجهة اليهم وهي التهمة التي لبابها تقييد حرية البحث والتعبير عن الرأي في جامعة برون . وكتب اساتذة دوائر العلوم الاقتصادية في جامعات أميركية أخرى — ومنهم توسيج في هارفرد وسليجمن في كولومبيا — معربين عن أملهم في أن يمتنع مجلس أمناء جامعة برون عن الاقدام على عمل ما «يمكن أن يفسر بأنهُ تقييد لحرية الرأي في هيئات المعلمين في جامعاتنا . . . لأنَّ كل بحثٍ اداريّ او تحقيق في سلامة الآراء المعبَّر عنها في مسألة ما أو مجموعة من المسائل ، لا بدَّ أن يحد حرية التعبير ويميل الى تدمير الاستقلال العقلي ، ونقص احترام الناس لنتائج البحث». وتدخل رؤساء الجامعات الأخرى — مثل اليوت رئيس هارفرد وجلمن رئيس جونز هبكنز — فأرسلوا الى أمناء برون بياناً اقترحوا فيهِ عملاً من قبل الأمناء يفضي بالرئيس اندروز الى استرداد استقالتهِ

وبعد ثلاثة اشهر أقرَّ مجلس أمناء برون باجماع الحاضرين (وكان خمسة من الاعضاء غائبين) توجيه رسالة الى الدكتور اندروز ينكرون فيها رغبتهم في تقييد حرية الرأي أو الحد من مدى معقول لحرية التعبير . وطلبوا الى الرئيس استرداد استقالتهِ . فاستردَّها ولبث سنةً في الرآسة ثم استقال ليتفرغ للتأليف

وهذا المثل يذكرنا بقول مشهور للدمقراطي الاميركي العظيم توماس جفرسن وقد قاله في أثناء الاحتفال بتأسيس جامعة فرجينيا سنة ١٨٢٧ . قال : « وتعرفون الحق والحق يحرّركم » — وهو من آيات الانجيل — ثم اتبعهُ بقولهِ « ستقوم هذه الجامعة على الاعتراف للعقل البشري بحرية لاتحدُّ لأننا هنا لانخشى أن نسير وراءَ الحقيقة أنى قادنا السير ، ونستطيع في هذا المعهد أن نتساهل مع كل خطإٍ في الرأي ما دامت حرية نقدهِ وردّهِ قائمةً »

الاضطرابات العقلية

في علم النفس الحديث

للاستاذ موكسلي

نقلها الى العربية : حسن السلمان

الهيستريا وانواعها

ربما كان الفرق الأساسي بين علم النفس الحديث وعلم النفس الذي نما في القرن التاسع عشر وفيما قبله من القرون ان العلماء النفسيين المعاصرين أكثروا من الاهتمام بناحية الدوافع الفكرية او الناحية الوجدانية في الحياة العقلية ، وعنوا بدراسة الاضطرابات العقلية عناية كبيرة ، مما أدى الى اتساع أفق معرفتنا بهذه الناحية من الطبيعة الانسانية اتساعاً شاملاً

ليست الاضطرابات العقلية الاّ نوعاً من الاختلال بين القوى الوجدانية للانسان ، أدى الى ظهور أعراض شذوذٍ في العقل واعتلال في الجسد . والشخص المبتلى بالاضطرابات يشعر احياناً بفقدان الاتزان بين قواه الوجدانية دون ان يعي ذلك احياناً . واننا في هذا البحث لا نجد متسعاً لوصف مختلف اشكال الاضطرابات العقلية وذكر اوجه الشبه أو نواحي الاختلاف بينها فحسبنا ذكر بعض انواع الضعف النفسي [١] ، على ان نخصَّ بالذكر منها تلك التي تجعل المريض يقاسي ألم الخوف الشديد أو يشكو كثرة الهواجس والوساوس مثل الرهبة من المجتمعات [٢] والانقباض من الامكنة الضيقة [٣] والاستسلام الى الشكّ في كل ما يسمع والتريُّب من كل ما يحيط بهِ ، وتسلط الحركة غير الارادية على الاعضاء كقرض الاظافر . هذا ومما يجب ألاَّ يغرب عن ذهن القارىء ان الاضطرابات العقلية عامل فاتك بالاكثرية من الناس وما أقل اولئك الذين لا تظهر عليهم اعراض تلك الاضطرابات !

ومن أعم صنوف الاضطرابات العقلية شيوعاً بين الناس والتي حازت النصيب الاوفر من بحث الباحثين وعنايتهم الاضطرابات الهستيرية وأخص انواعها الشلل الوظيفي [٤] وشلل أعصاب الاحساس [٥] او ما يسمى بالخدر ، الذي يسبب العجز عن استعمال عضو من الاعضاء

(١) Psychasthenic Neuroses (٢) Agoraphobia (٣) Claustrophobia
(٤) Functional Paralyses (٥) Anaesthesias

او فقدان قابلية الاحساس في بعض اجزاء الجسم . وتشتمل هذه الطائفة من الاضطرابات على جميع انواع النسيان [1] ولاسيما فقدان الذاكرة فينسى المرء جميع محتويات حياته الماضية سالكاً سبيلاً جديداً في الحياة لا علاقة له بما كان يتبعهُ من سبل في حياته السابقة . ويذهب بعض الباحثين الى ان تعدد الشخصيات في الانسان ليس الا شكلاً من اشكال الهيستيريا

وفي مقدمة من حاول تفسير الاعراض الهيستيرية تفسيراً دقيقاً الاستاذ الفرنسي الكبير بيير جانيه [2] الذي لاحظ اولاً ان الشلل الهيستيري لاعصاب الاحساس لا ينشأ عن حدوث عطب في الجهاز العصبي ولا يؤدي الى حدوث عطل في العضو الاشل كما هو الامر في الشلل العضوي الناجم عن اصابة الاعصاب بمرض من الامراض

نظرية الانحلال للعلامة جانيه

وبعد دراسة كثير من صنوف الشلل الهيستيري توصل العلامة جانيه الى وضع نظريته الشهيرة عن « انحلال الشعور » [3] التي تنص على ان مجرى الحوادث الشعورية في الانسان السوي وحدة مترابطة ، بينما تنشق فتؤلف عدة تيارات مستقلة في المريض المبتلى بالهيستيريا . فاذا ما مني عضو بشلل هيستيري مثلاً تحولت جميع الاحساسات الظاهرة على العضو الى تيارات شعورية متباينة الاتجاه دون ان يشعر المريض بذلك ، ومع هذا تظل تلك الاحساسات تؤثر في الناحية الحركية من الجهاز العصبي فتجعل العضو يتجنب الاذى عند ما يعرض لهُ

وبفضل هذه النظرية كشف الستار عن اسباب « الكتابة الآلية » عند المرضى المهسترين. فقد اوضح ذلك الدكتور برنارد هارت في كتابه «سيكولوجيا الجنون» [4] عندما قال « لنفرض اننا شغلنا أحد المصابين بالهيستيريا بحديث متواصل ، وفي أثناء انهماكه بالحديث وانصراف انتباهه عن كل شيء سوانا نحن الذين نحادثه ، يضع شخص آخر قلماً بين أصابع يده اليمنى ثم يهمس ثالث بعض الأسئلة في أذنه ، فيكتب المريض الأجوبة عن تلك الأسئلة وهو مستغرق في الحديث معنا في موضوع يختلف كل الاختلاف عن مادة الأسئلة . وقد وجد ان المريض في مثل تلك الأحوال لا يشعر أبداً بما تسطره يده كما أنهُ يجهل في تلك اللحظة الأمور التي دونتها يده جهلاً تامًّا وعلى الغالب تكون تلك الأمور ذات علاقة بحوادث جرت فيما مضى من حياة المريض ، وبعيدة عن ذاكرته في أثناء الحديث ... »

وبحسب ما يقرره جانيه ان هذه ليست سوى حالة من حالات انحلال الشعور ولسبب من الاسباب انشطرت الظواهر العقلية للمريض الى مجريين مختلفين أحدهما اتجه نحو التحدث

(١) Amnesia (٢) Pierre Janet (٣) Dissociation of consciousness

(٤) Psychology of Insanity, by Dr. Bernard Hart

مع من كان حوله من الاشخاص والآخر نحو الكتابة الآلية ، دون ان يدرك أحد المجريين الآخر ودون ان يكون ثمة ارتباط بينهما

وتلقي نظرية الانحلال ضوءاً على طبيعة فقدان الذاكرة . فعند ما يصاب المرء بفقدان الذاكرة تستقل بعض دوافعه النفسانية بعملها عن مجموع شخصية الانسان فتسيطر على جميع تصرفاته وأفكاره بينما تختفي شخصيته الرئيسية وتظل كامنة. وبعد ان يستعيد المريض ذاكرته تختفي تلك الدوافع والافكار المرتبطة بها وتكمن في اللاشعور بحيث لا يتذكر المريض من أمرها شيئاً. ومما يجب ان يلاحظ في هذا الصدد ان شخصية الأنسان عندما يكون في حالة سوية، وشخصيته عندما يكون في حالة فقدان الذاكرة، ظاهرتان منفصلتان تمام الانفصال ، متجهة كل واحدة منهما شطر جهة تختلف عن الجهة الاخرى . وبعبارة أخرى ان عقلية ذلك الانسان تحللت الى مجريين متباينين في الاتجاه

ومن أشهر الامثلة على انحلال الشعور الحالات المتباينة التي كانت تظهر بها الآنسة سالي بوشام وهي التي عني بوصفها الدكتور مورتن پرنس في كتابه « انحلال الشخصية » (١) . كانت الآنسة بوشام تظهر في ثلاث شخصيات مميزة إحداها عن الأخرى تمام التمييز ،وقد رمز اليها المؤلف بما يأتي : ب١ ، ب٣، ب٤ . فكانت ب٣ تدرك ما تفكر به ب١ ولكنها في جهل تام بما تفكر به ب٤ ، بينما كانت ب١ لا تدرك إلاّ ما كانت تقوم به نفسها من الاعمال . كذلك كانت ب١ تمثل شخصاً حساساً مفكراً ذا ضمير حي ، بينما كانت ب٣ تمثل شخصاً شريراً كثير الحركة ولكنهُ دمث الاخلاق .أما ب٤ فقد كانت تمثل شخصاً كثير الكبرياء أناني الطبع ميالاً الى السيطرة والحكم . ومن أغرب ما كان يلاحظ على الآنسة بوشام ، انها كانت تجيد اللغة الفرنسية عندما تتلبس بشخصية ب١ ولا تعرف منها شيئاً عندما تتغلب عليها شخصية ب٣ وتتكلمها بصعوبة كلية عندما تظهر بشخصية ب٤ . ومما لوحظ على هذه المريضة أيضاً ان التبدل في شخصياتها يجري بسرعة غريبة. فمدة سيطرة كل من تلك الشخصيات المتباينة على جسم المريضة وتحكمها بتصرفاتها لا يزيد على ساعة أو ساعتين ثم يبدو التبدل عليها

أسباب انحلال الشعور

وبعد ما عرفنا أن الانحلال مسبب للاضطرابات الهيستيرية ، كفقد الذاكرة وتعدد الشخصية ، حقّ لنا ان نسأل عن أسباب انحلال الشعور وعن عوامل حدوثه . يُستمَدّ الجواب عن هذا السؤال من ثلاثة فروض سبق ذكرها في بحث «حقيقة التحليل النفسي» وهي « التضارب الفكري » و « الكبت » وهما من وضع الدكتور فرويد . والفرض الثالث «البناء العقلي» وهو من وضع الاستاذ ماكدوجل

(١) Dissociation of Personality, by Morton Prince

وبحسب ما يذهب اليه واضعو تلك الفروض إن أهواء الانسان وأفكاره ورغباته اوغيرها من نزعاته العقلية ليست الاَّ معانيَ يقصدها الشعور للتعبير عن بناء عقلي او عن نظام خاص مخفي في اللاشعور . وقد بدأ هذا البناء في عقل الطفل مفرغاً في شكل مجموعة من الميول الفطرية المستقلة ثم إئتلفت معها عواطف الطفل وانضم اليها ما اكتسب من معارف ، فتكونت فيه بعد ما اجتاز سن الطفولة وأدرك سن البلوغ ، عقليته الموحدة العناصر . وتختلف درجة اتحاد عناصر البناء العقلي باختلاف المؤثرات في حياة ذلك الفتى اليافع . فاذا ما كان ذلك الاتحاد غير كامل بجميع نواحيه ، لا يكون لذلك الشخص بناء عقلي مترابط تمام الترابط ، بل يكون له سلسلة من الابنية العقلية المستقلة بعضها عن بعض ، تظهر في الشعور في شكل طائفة من الحوادث العقلية المستقلة . وما من شك في أننا عند ما نقول في أحاديثنا العامة عن شخص انهُ صاحب «عقلية طيبة» فانما نقصد بذلك وصف بنائه العقلي الذي وان اختلفت نواحيه وتعددت إئتلفت أجزاؤه فتوحدت تمام التوحيد. والحق ان لصاحب مثل هذه العقلية عقلاً أحكم تدبيره وحسن تهذيبه أي ان له بفضل ما اكتسب من تجارب خلال ما مضى من حياته مجموعة غنية من المعارف التي يجيد التصرف بها فلا يظهرها إلاّ في الظروف المناسبة . فكثيرون هم الذين جمعوا الواسع من المعارف ولكنهم أساءوا التصرف فيها فلم يستخدموها عندما مست الحاجة اليها . وهذا ولاريب نقص كبير في العقلية يعزى الى وجود ضعف في وحدة بناءه العقلي . ومما يؤسف لهُ ان الغالب من الناس يعاني هذا النقص الفاضح

وخير ما نضرب به من الامثلة على تصوير فقدان الوحدة في البناء العقلي ، تمسك كثيرين ممن تعلم وتثقف ، بالخرافات والاوهام وتطيرهم من بعض الحوادث وتفاؤلهم ببعضها الآخر. فليس بعسير ان نجد بين أهل العلم الذين يؤمنون بسببية الحوادث من يتشاءم بالمرور تحت سلَّم أسند الى جدار بأحد الشوارع . إن تصرفات الاشخاص تعبر عن بعض تجاربهم في ما مضى من حياتهم . فاذا ما شاهدنا شخصاً كهذا لا نخطىء اذا ماقلنا عنهُ ان تجاربه الماضية في الحياة عجزت عن تفهم المعنى الحقيقي للسلَّم، ونعني بذلك ان ناحية المعرفة من بنائهِ العقلي عجزت عن العمل كوحدة مؤتلفة كاملة . ففي اللحظة التي شاهد فيها ذلك الرجل السلم لم يشتغل من بنائهِ العقلي الاَّ جزء صغير جدًّا بينما ظل أغلبه معطلاً عن العمل . ويعزى هذا العطل الى أحد سببين : فقدان الروابط التي تؤلف بين اجزاء البناء العقلي أو ضعف في تلك الروابط مؤد الى عجزها عن العمل خلال تلك اللحظة . ولكن ما اسباب هذه الحال؟ ان نمو ناحية المعرفة من البناء العقلي يحدث من جراء تعدُّد رغباتنا المعقدة التي تولدها عواطفنا . وفي الغالب من الناس من تفصل عواطفهم بعضها عن بعض فتتولد لهم رغبات تختص بمهمتهم واخرى تتحكم بحياتهم المنزلية وثالثة تتسلط على ساعات فراغهم الخ

التقسيم العقلي

وينجم عن استقلال العواطف وتحكم كل منها بناحية من نواحي حياتنا تعدُّد عقائدنا وتجمع بعضها في شكل مجموعات مستقلة لاتؤثر الواحدة منها في الاخرى،فتستقر كل من هذه المجموعات ببناء عقلي خاص بها . وللسبب ذاته ترانا في ايام الآحاد مثلاً عند ما نكون تحت تأثير عواطفنا الدينية نؤمن بان العالم خلق في سبعة ايام ولكننا في غير الآحاد من الأيام وخاصة عند ما تكون رغباتنا العلمية مستحوذة علينا ترانا نستخف بتلك الفكرة مقرين بان ما ذهبت اليه الداروينية هو الرأي السديد . كذلك عندما نكون في مخازننا ومكاتبنا التجارية نبيح لانفسنا المزاحمة الحرة غير متورعين عن ايذاء مزاحمينا ، ولكننا عند ما نكون في اجتماع عقد لمساعدة احدى المؤسسات الخيرية يطغى علينا الاعتقاد بضرورة التعاون بين ابناء الجنس البشري فلا نبخل بالمال

وزيادة في التوضيح نفرض ان البناء العقلي للانسان يتحلل احياناً فيتجزأ اجزاءً مستقلة بعضها عن بعض وبذلك نستطيع تفسير حقيقة « انحلال الشعور » . ففي بعض الاحيان يكون التجزؤ واسعاً شاملاً فبدلاً من ان تكون لنا شخصيات متباينة بعض التباين كتلك التي نظهر بها عند ما نكون في البيت او في محلات اشغالنا أو في مجتمعاتنا، تكون لنا شخصيات مختلفة كل الاختلاف كما هو الحال في شخصيات الآنسة بوشام

وينجم الانحلال عن التضارب الفكري لانهُ يوازي التقسيم العقلي ويعاكسه في الاتجاه ولان القوى الوجدانية في العقل تتنازع بعضها مع بعض فيؤدي ذلك الى الانقسام في الشخصية. ويحسن ستيفنسون تصوير ذلك في رواية الدكتور جاكل والمستر هيد . اما الكبت فليس الاَّ شكلاً من اشكال الانحلال الجزئي للشخصية

وخلاصة القول ان جوهر نظرية فرويد ، ان جردناها مما احتوتهُ من تعابير مغلقة يلخص في أن نمو البناء العقلي يتم في مرحلتين اثنتين — مرحلة الطفولة ومرحلة ما بعد البلوغ. فالبناء العقلي لمرحلة الطفولة يظل كامناً وراء البناء العقلي الخاص بمرحلة ما بعد البلوغ مؤثراً فيهِ بطرق مختلفة. ويأبى كثير من علماء النفس تأييد فرويد فيما جاء بهِ عن البناء الوجداني الفطري للعقل وتأثيره في تكوين الخلق الانساني ، مع أنهم يعترفون بما لابحاثه من منزلة وبمبلغ تأثيرها في تطور علم النفس الحديث. وقد سبق لنا فأشرنا الى مذهبي الدوافع والهيئة في فصل « المذاهب المتباينة في علم النفس الحديث » ، فلابد لنا الآن من شرح نظريات رسولين من رسل فرويد وقد انشقَّا عليهِ فأسس كل منهما مدرسة فكرية خاصة بهِ ، وهما يونج وادلر

[للبحث تتمة]

الأغاني

واصلاح صناعتها

لعبد الرحمن فهمي بك

الغناء من الشؤون الكمالية سواءٌ أكان في عصرنا أم في عصور تاريخه جميعاً. الا انه أصبح في أيامنا متصلاً اتصالاً تامًّا بأسماع الناس وأفئدتهم جميعاً بواسطة المذياع وهو الآن اداة من أدوات المنازل والأندية وكل محل عام او خاص . وأصبح ما يحمله الى الناس من غناء وألحان أكبر وأضخم مما يحمله من صنوف المذاعات الاخرى من علم وتربية وفن ودين وأخلاق وأدب

فاذا أصلح هذا الفن الجميل واستقام أثره في الناس أمكن أن نصلح به شيئاً كثيراً . ولقد جربت بنفسي — ولا يحدثك مثل خبير — صورة صالحة من صور الغناء والشعر والاناشيد والمواليا المملوءة بالغذاء الروحي — في النهضة الوطنية . فلقد كان لها شأن كبير في استقامة السبيل وصرف الشبان عن اللهو واللعب الى أداء واجبهم خير أداء من العمل المنتج واحياء الضمير العام والهام القلوب سر النهضة ونجواها . وان أنسَ لا انسَ ذلك الغزل الرقيق المعاني الذي كان يخلص منه الشاعر او المنشد الى ما يريد من معاني الوطنية وآيات الجلال جرياً على سنة الشعراء في استهلالهم بالغزل الرقيق الى ما يقصدون

قد يقال مالنا ولمثل هذه المناسبة وليس لدينا مثلها الآن لتكون الاغاني لها كما كانت نِعمَ المعين . وهذا الاعتراض كان من الاسباب التي أملت عليّ جوابي في هذه الكلمة المتواضعة

سيداتي سادتي : أحدثكم الآن عن اصلاح الاغاني العامة وهي غير الاغاني الخاصة التي تكون للافراد في خلواتهم وطربهم ولا تتعداهم الى الاطلاق والعموم : فهذه لا شأن لي بها لأنها لأصحابها وحسب . انما الشأن والقول في الدواعي والآثار العامة للاغاني والتطريب والموسيقى التي يشترك في سماعها الناس جميعاً . وهذه هي التي يجب ان يسمع فيها رأي طلاب الاصلاح ونقد الناقدين لانها قد خرجت بمقتضى منطق هذا الاطلاق من هوى أصحابها الى رأي الخاصة ليحكموا في شأنها بما يحكمون

(١) ألقى حضرة النائب المحترم عبد الرحمن فهمي بك هذه المحاضرة النفيسة في المذياع بدعوة من وزارة الشؤون الاجتماعية

أبيحت قراءة القرآن بالقراءات والالحان والصوت الحسن بما لا يتعدى الوقار الواجب والأدب المتبع ، قيل ذلك لأن طبيعة الغناء والموسيقى طبيعة ماجنة لعوب لا تتعلق الاَّ بالهزل من القول والعبث من المعاني أم أنها صناعة أجيز أن تتعلق بأشرف كلام عرفهُ البشر

أباح صاحب الشريعة الاسلامية صلى الله عليه وسلم لمؤذنه بلال الحبشي أن يؤذن في الناس بالصوت الحسن واللحن الحسن فهل ذلك لأن الأذان كلام سقيم ومعنى سقيم أم أنه ذلك الاعلام للناس عن ميقات فروض الله فيجب له الحرمة والتوقير ولم ير الرسول أن ذلك التطريب يخرج بالآذان عن حرمته وتوقيره

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي موسى الأشعري لما أعجبهُ صوته (لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود) . فهل كان ذلك امتداحاً من الرسول للموسيقى والصوت الحسن أم سخرية ؟ وداود هو النبي الذي كان يخرج الى صحراء بيت المقدس كل أسبوع ليقرأ الزبور على الناس بهذه الأنغام الرخيمة الساحرة وكان هو يتأثر بها الى حد الغيبوبة

عدَّ الفلاسفة الموسيقى والغناء والشعر شطراً قويًّـا من الفلسفة الأدبية وها هم جميعاً قد ألفوا فيها وجودوا من بطليموس الى افلاطون الى ارسطو الى الشيخ الرئيس ابن سينا الى أبي نصر الفارابي الى غيرهم من سابقيهم ولاحقيهم . فهل وقع تأليفهم وتجويدهم على شيء عبث واداة للهزل والخلاعة والتراخي أم لرياضة نفسية تربي الخلق والذوق وملكة الجمال وتدفع الى القوة والفضائل جميعاً

وهل كان الميراث الضخم الذي ورثناه عن هذه الانسانية المهذبة الكاملة — ميراث الموسيقى والاغاني — هزيلاً الى حد أن يجعلهُ المحترفون حبساً على هذه الأغاني الحالية من حب خيالي وغرام شهوي وخداع وسرقة أعراض وألفاظ سوقية ومعان مريضة ومعاقرة ومساكرة وصهباء ؟ وهل ورثنا هذا النعيم الروحي لنجعله كملابس الصالحات تلبسها اللعوب ثم لا يغني عن حقيقتها ذلك التزييف شيئاً ؟

سايرت الموسيقى كما أسلفت القرآن والأذان ومزامير داود وقدسها الفلاسفة فجعلوها — كما أسلفت — غرضاً من أغراضهم النبيلة وأحسنوا العقيدة فيها فجعلوها طبًّـا لبعض الامراض كالحزن والجبن والحدة والشذوذ الخلقي والكآبة بل وصديقاً قويًّـا لبعض دعائم الحياة الكبرى كالحرب والسياسة . وكانت تستعمل في المارستان النوري الكبير في دمشق الشام معواناً على شفاء الامراض وهو ما تشير اليه بعض الاتجاهات في الطب الحديث

حكى أبو نصر الفارابي في كتابه (أدب السماع) ما معناه أن أحد ملوك اليونان قد رأى أن ناحية من نواحي بلاده دخل على نفوس أهلها الكسل والجبن فبعث اليهم بفريق

من الموسيقيين أسمعوهم ألحاناً معينة فأيقظوا بها ما كان قد غفل من طباعهم ونام من اخلاقهم وقال افلاطون (من حزن فليسمع الموسيقى) وقال صاحب العقد الفريد (قال الاطباء أن الصوت الحسن يسري في الجسم ويجري في العروق فيصفو له الدم ويرتاح له القلب وتنمو له النفس وتهتز له الجوارح ....)

وقد زاد ارسطو على ذلك بما تعلم منهُ أن صناعة الألحان كانت سبباً في صناعة الشعر فقد جاء في كتابهِ عن الشعر الذي لخصه وترجمهُ الفيلسوف ابن رشد قوله (وأما العلة الثانية المولدة للشعر فالتذاذ النفس بالوزن والالحان ... الى ان قال فالتذاذ النفس بالطبع بالمحاكاة والألحان والاوزان هي السبب في وجود الصناعات الشعرية وبخاصة عند الفطر الفائقة ...)

***

سيداتي سادتي : لم يجد نساء الاسلام شيئاً يكرمنَ به النبي صلى الله عليه وسلم عند لقائه غير الغناء والشعر فقد استقبلنه بالنشيد المعروف

طلع البدر علينا   في ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا   جئت بالأمر المطاع

وكنَّ يحرضنَ الشجعان على منازلة الأقران . فمن ذلك انشاد عفيرة بنت عفان لقومها :

وان أنتمُ لم تغضبوا بعد هذه   فكونوا نساء لا تعاب من الكحل
ودونكم طيب العروس فانما   خلقتم لأثواب العروس وللغسل
فبعداً وسحقاً للذي ليس نافعاً   ويختال يمشي بيننا مشية الفحل

وهاك أنشودة جميلة تحثُّ على محبة الاولاد والغناء في تربيتهم قال الشاعر :

لولا بنيَّات كزغب القطا   رددنَ من بعض الى بعض
لكان لي مضطرب واسع   في الارض ذات الطول والعرض
وانما اولادنا بيننا   أكبادنا تمشي على الارض
لو هبَّت الريح على بعضهم   لامتنعت عيني من الغمض

وكذلك كشف لنا عن بعض نواحي تربية المرأة العربية لطفلها وما تسمعه إيّاهُ من ألفاظ مجيدة في طفولته ليعتادها حسًّا ومعنىً . قالت فاطمة بنت أسد وهي ترقص طفلها وتنشده :

أنت تكون ماجد نبيل   اذا تَهُبُّ شمأل بليل

وكذلك السياسة الوطنية قال شوقي :

قل للبنين مقال صدق واقتصد ذرع الشباب يضيق بالنصاح
أنتم بنو اليوم العصيب نشأتم في قصف أنواء وعصف رياح
ورأيتم الوطن المؤلف صخرة في الحادثات وسيلها المجتاح
وشهدتمُ صدع الصفوف وما جنى من أمر مفتات ونهي وقاح
صوت الشعوب من الزئير مجمعاً فاذا تفرّق كان بعض نباح

وفي الغزل الرشيق ذي المعاني السامية يقول البهاء زهير :

جزى الله عني الحب خيراً فانهُ به ازداد خيري في الأنام وعليائي
وصيّر لي ذكراً جميلاً لأنني أحسن أفعالي لتحسن اسمائي

وقوله : وما العشق في الانسان الاّ فضيلة تدمّثُ من أخلاقه وتلطف

وقوله : أعشق الحسن والملاحة والظر ف وأهوى مكارم الاخلاق

وبعد فما اخترتهُ من هذه الاغاني والاشعار هو كتمثيل على ان الشعر والغناء يتسعان لأغراض الحياة الشريفة جميعاً ومنها الحب الشريف كما سمعتم وكل هذه الأغراض ليست معروفة في اغانينا الحالية جملة وتفصيلاً

وعندي أن التحرج والتردد في سماع الاغاني ممن احترفوها في صدر الاسلام وأخذوا ألحانها عن الروم والفرس والرومان وحصروها في دائرة الغزل والمجون ، أقول ان هذا التحرج من العظماء كان لما قدروه من أن الغناء على صورتهِ هذه اذا شاع وذاع قد يصبح دافعاً الى اللهو والعبث واذا شاع العبث انصرف الناس اليه . وقد فرّق عمر بن الخطاب في عبارته المعروفة بين الغناء الذي يصح سماعه وهو الذي يعفو الله عنه ، أي أنه يكون في غرض نبيل ، وبين الغناء الذي لا يصح سماعه وهو الذي لا يعفو الله عنه . أي أنهُ يكون في غرض عابث سخيف . وهذه قولة معاوية وقد سمع غناء (لا بأس من سماع الغناء مع حكمة الشعر) ومعروف ان حكمة الشعر لا تكون الاّ في خلق كريم أو حب فاضل أو حكمة باقية

***

قلنا ان من دواعي الغناء والموسيقى تسلية النفس وطرب الفؤاد وأعتقد انهُ سائغ ولا نقول ان جميع الأغاني الغزلية يلتمس فيها ذلك المعنى بسهولة . فالغزل أرق أنواع الشعر وأقربها الى النفس وأدناها من الفؤاد . وكل انسان يقدر الغزل في نفسه تقديراً خاصًّا ويفهم مراميه

بوجدانه ووحي نفسهِ . وهذا صوفي زاهد فان في عبادة الله يغزل الغزل الرقيق في المعنى الرشيق هو الشيخ ابن الفارض إمام الغزليين والصوفيين . فاذا قال مثلاً

أ برقٌ سرى من جانب الغور لامع أم ارتفعت عن وجه سلمى البراقع

***

لا نشك في أن ابن الفارض يحب حبًّا الهيًّا . ولكن هذا الغزل اذا سمعه غيره ترجمته نفسه بمعنى قائم فيها. فالعاشق البريء في عشقه يترجمه على انهُ عشق بريء . والماجن السادر في مجونه يترجمه بالمجون واللهو والخلاعة واللذة الشهوية ولذلك عكف عليه المغنون المحترفون للكسب والارتزاق ولم يجدوا لغة يتغنون بها الاَّ لغة الغزل . والمغني كل همه ان يتطرب ويتظرف ويدخل بغنائهِ الى قلوب سامعيه لا سيما بعد ان صار الغناء حرفة ومرتزقاً من القيان والموالي مثال عزة الميلاء ونشط الفارسي وطويس والغريض ومعبد في الصدر الاول . وقفى على أثرهم وزاد عليهم الموصليون ابراهيم وابنه اسحاق وابنه حماد في العهد العباسي . ثم ذرياب في الأندلس

على ان الغزل بسحره لم يكن صالحاً لطرب النفس في جميع الاوقات اطلاقاً لأنها اذا غمرها معنى من معاني الحياة السامية او تذكر الآخرة فان سماع الغزل حينئذٍ لا يغني عن ذلك شيئاً بل تطلب النفس طرباً آخر . أي انهُ لا يصح ان يقال للناس في كل وقت وبمناسبة وبغير مناسبة فقد تكون الحال جدًّا كلَّ الجدِّ لا يصح ان يكون الغزل لغتها وخطابها. ومن ذلك نحكم بأنهُ من الواجب التنويع في أغانينا بما يناسب الظروف والاحوال لا أن تفرض لغة الحب فيها على الناس فرضاً في كل وقت ولحظة . فقد تحدثوا عن الرشيد بأنهُ جمع ليلة المغنين فأسمعوه فلم يطرب لأحد منهم ولكنه طرب وأغرق في الطرب حين سمع مسكين المدني يغني

قف بالمنازل ساعة فتأمل فلسوف أحمل للبلى في محمل

هذا وشيء آخر قد يكون سبباً في ان هؤلاء المغنين السابقين نأوا بجانبهم عن غير الغزل والتشبيب والعشق في غنائهم . ذلك أنهم لم يكونوا من أصحاب الأمر والرأي والحكم بمنزلة غيرهم من الطبقات التي تتحدث عن الحياة ونهوضها وسياستها وأخلاق بنيها كالفقهاء والأئمة والكتاب والشعراء الأعلين وانما كان الغناء لا يسمع غالباً والمغني لا يطلب إلاَّ في وقت الفراغ والدعة لقضاء الوقت في السرور والطرب بعد العمل وكد الحياة . فلم تكن صناعتهم يومئذٍ من الصناعات التي تدخل في جد الحياة وتقويم سبلها

ويظهر ان هذه المعاني هي التي سيطرت على كاتب العمران والاجتماع في الشرق عبد الرحمن

ابن خلدون في وصفه صناعة الغناء بقوله (وهذه الصناعة آخر ما يحدث في العمران من الصنائع لأنها كمالية في غير وظيفة من الوظائف إلاَّ وظيفة الفراغ والمرح)

قد يتوارى المغنون في هذا الزمن خلف أولئك المغنين الذين ذكرت بعض أسمائهم في ان لغتهم كانت لغة غزلية بحتة في غنائهم وان اللغة الهزلية والمعاني الهباء التي يستعملونها الآن في الغناء هي على قدر الزمن وأهله قد يقال ذلك ولكننا نعلم ان زمن المغنين الغزليين السابقين هو الزمن الذي وصفنا فيه قدر صناعتهم وأثرها في الحياة فلم يكن الغناء في زمنهم شعبيًّا عامًّا بل كانت المغنية او المغني غالباً خصوصية من خصوصيات رجل واحد او أسرة واحدة فيقال مثلاً هذا مغني الوليد وذلك مغني اليزيد وهذه مغنية البرامكة. فلم يكن للغناء يومئذٍ ذلك الذيوع العام الذي نجده له في أيامنا. وقد أسلفت ان ما يسمع الناس منهُ بواسطة المذياع كثير وغيره قليل حتى رأى بعض الأدباء رأياً خاصًّا له هو الاستغناء عن لغة هذه الاغاني جملة . وقصر الطرب على الموسيقى البحتة فعيش الناس بلا غناء افضل لهم من غناء هذا شأنه وأنا لا أذهب الى هذا الرأي لانهُ لو عمل به نكون كمن أجهز على جريح يرجى له الشفاء وقد يكون بعد ذلك من النافعين

يجب ان نرتفع بالاغاني والمغنين عن هذه المنزلة فيتناول غناؤنا كل عيب من عيوب حياتنا باعطائه ما يناسبه من التقويم والاصلاح لأنها من أدب عامة الشعب ولها عليهم سلطان كبير. ولا بأس من بقاء لغة الحب انما تكون لغة سليمة لها معان عفة واضحة كما ضربنا لك المثل بغزل من قول البهاء زهير

يجب ان تتناول أغانينا اصطناع المعروف واغاثة الملهوف وحسن المعاشرة والمودة في القربى وحب الشرف والكبرياء القومي والوفاء للوالدين والزوجة والاولاد ورعاية الحرمات والذمم التي تقطعت بها الاسباب وذم الفحش وخيانة العرض والترغيب في الزواج وذمّ الطلاق الاَّ لسبب سائغ وامتداح العفة والشرف كما قالت السيدة عائشة التيمورية

بيد العفاف اصون عزّ حجابي وبعفَّتي أسمو على اترابي
وبفكرة وقَّادة وقريحة نقَّادة قـــد كمّلت آدابي

أرى اخيراً ان يسن تشريع خاص لهذه الصناعة هو القاضي العادل الذي يقضي لنا في هذه المشكلة الاجتماعية على ان يحاط هذا التشريع برقابة قوية تسهر على تنفيذه . وهنالك يتبارى الأدباء في وضع الأغاني الجديدة وفي اختيار القديم الصالح منها وفي تأليف الروايات الغنائية الفائقة . وهذا هو ما أراه اليوم كاجمال للقول في الأغاني وفي اصلاح هذه الصناعة الشريفة

لراجي الراعي

صفائح على قبور ...

رأيت أمس في ساحة من ساحات الموت ثلاثين قبراً عليها الصفائح الآتية :

— استهوته الهاوية فهوى ..

— في هذا الضريح رجل عظيم تمزق كفنه وتبعثرت عظامه في جلبة الصراع بين الفناء والخلود يتجاذبانه ويقتتلان فوق رأسه ..

— لقد انحنى عصيُّ الأمس وأطاع ..

— تناوله الغيب وضمهُ اليهِ سرًّا من أسراره ..

— غابت الشمس عن دنياه لتطلع على آخرته ..

— هذا طارق بن زياد .. جاءه الطارق قائلاً : أنا الموت ولم يزد ..

— في هذا السبيل .. ما كتب وما قيل ..

— سما به الخيال الى حيث انقلب خيالاً ..

— هذا فكتور هيغو ... ينسي الموت انهُ الموت فيطرح منجله بين قصائده الخالدة مستغفراً وينشد له بعضاً منها فيطرب كل من في القبور ..

— قضى فيهِ قضاء الله فقضى ..

— لقد استصغر المجلس فغاب ..

— ما الحرب وما الحراب اذا شهر الموت هذا التراب ..

— هذا رماد لم يبرد بعد .. رماد شمس انطفأت وهي في قلب الأفق ..

— لقد انقشعت عنهُ غمامة الباطل فتجلى لنا بدراً في سماء الحق ..

— هذا ملتن يسأل عن (فردوسه) بين الفراديس ..

— البقاء مراحل أولاها الولادة وثانيتها الموت وثالثتها ما يشاء الله ان تكون ..

— هذا هو اليقين الذي يموت فيه الشك ..

— بين دفتي هذا القبر كتاب كل سطر فيه كتاب وديوان كل شعر فيه ديوان ..

— لا تقربوا هذا الضريح فان فيه أسداً رابضاً في غابة الموت ..

— هذا رجل كلما لفهُ الموت برداء مزقتهُ يد في الجنة ..

— عبثاً تهيلون عليهِ التراب ففي كل صباح ومساء تنبشه وتنهضه وتحييه الذكرى ..

— هذا عنترة .. وهذا جوادهُ في غبار المنية ..

— لقد ظلّ ثاوياً على عرش البلاغة حتى جاءتهُ بلاغة الموت فتخلى لها عنه..

— خانتهُ الحياة فغنمهُ الموت ..

— الخليقة جدول أصفاره الأضرحة ..

— تهالك على الدنيا فهلك ..

— انهُ ما يزال شامخاً .. ولكن بأنف الموت ..

— هذا أبو نواس .. في سكرته الكبرى ..

بيروت

كيف ظهرت الحياة على الأرض ؟

للاستاذ نصيف المنقبادي المحامي(١)

نشر المقتطف في جزء ديسمبر ١٩٤١ مقالاً ممتعاً عن اصل الحياة على الارض . وقد بناه على الحقائق العلمية الثابتة ودعمهُ بالحجج والاسانيد القوية شأن كل ما ينشر في المقتطف . الاَّ ان كاتبه مرَّ على بعض النقط مروراً فجئت استأذنهُ في استيفاء هذا الموضوع الهام

***

يعتقد جمهور الناس ان الحيوانات (ومن بينها الانسان) والنباتات والجمادات يختلف كل منها عن الآخر اختلافاً جوهريًّا كليًّا. وكانوا يعلمو ننا في المدارس ان هناك عالم الحيوان، وعالم النبات، وعالم الجماد، وان كلاًّ منها مستقل تمام الاستقلال عن غيره، وان الحياة على الأخص سر من وراء الطبيعة تمتاز عن باقي ظواهر الكون ولا تخضع لنواميسه الطبيعية المقررة في علوم الطبيعة والكيمياء والميكانيكا .وهم يرون ان لها (اي الحياة) وجوداً ذاتيًّا حقيقيًّا مستقلاًّ عن المادة—مادة الكائنات الحية—كما لوكان للتبلور مثلاً وجود حقيقي مستقل عن الاجسام المبلورة وكما لو كان للتفاعلات الكيميائية وجود مستقل عن المواد التي تتفاعل . على ان من ينعم النظر ويدقق في البحث على ضوء الابحاث والمكتشفات العلمية الحديثة يتضح لهُ ان كل هذا وهم في وهمٍ وان جميع مظاهر الحياة كالتكوين الخلوي الدقيق والتركيب الكيميائي والشكل النوعي والتغذي والتنفس والتحرك الذاتي والتطور الفردي والنوعي الخ. وهي صفات الحياة التي تميز — مجتمعة —الكائنات الحية، اقول ان مظاهر الحياة هذه ليست خاصة بالاحياء بل انها توجد ولكن مشتتة ومبعثرة في الجمادات . وكل ما في الامر انها اذا اجتمعت في جسم واحد قيل عنهُ انهُ « حي »

ويضيق بي المقام لو اردت ان استعرض هذه الظواهر او المميزات وأبين ما يقابلها تماماً في عالم الجماد . وكنت أود مثلاً ان ألخص الابحاث البديعة عن الاجسام المبلورة وكيف أنها تشترك مع الكائنات الحية في كثير من النواحي . وان اشير الى التجارب والمشاهدات العظيمة الشأن التي قام بها العالم البيولوجي الهندي السر جاغانيس شندرا بوز اثباتاً لوحدة

(١) حائز دبلوم في الفسيولوجيا العليا الحيوانية والنباتية من جامعة باريس (السوربون)

الاحياء والجمادات او الجهاز (الكالوريتمر الكبير) الذي صنعهُ عالمان من علماء الفسيولوجيا من الاميركيين وهما اتوتر وبنديكت وجرَّباه بكثيرين من الناس في مختلف الاعمار وبكثير من الحيوانات فثبت لهما بالتجربة وبالأرقام الدقيقة انهُ لا تعمل في الاحياء بما فيها الانسان وتديرها الاَّ القوى الطبيعية وان هذه القوى جميعها حتى التفكير والقوى العقلية ليس لها الاَّ مصدر واحد وهو الغذاء او بعبارة أصح الطاقة الكيميائية الكامنة في مادة الغذاء وهي التي تتولد من احتراق الغذاء داخل أنسجة الجسم بعد هضمه وامتصاصه . حتى أنهم عرفوا الحياة بأنها احتراق مستمر : « La vie est une Combustion » . وعلى هذا يكون الكائن الحي آلة لتحويل الطاقة الكيميائية الكائنة في الغذاء الى طاقة ميكانيكية وهي حركات الجسم المختلفة الداخلية والخارجية الاختيارية والى حرارة وأحياناً الى كهرباء او ضوء في بعض الحيوانات كالسمك الرعاش الذي يعيش في النيل وكالحيوانات المضيئة . وما الغذاء إلاَّ وقود الآلة الحيوانية يحترق فيها ليولد الطاقة اللازمة للقيام بأعمال الحياة كما يحترق الفحم أو النفط في الآلات الميكانيكية لينتج الطاقة اللازمة لادارتها

والمتتبع للعلوم البيولوجية الحديثة يتضح له أنها أخذت تفسر المسائل الحيوية وتعللها بالنواميس الطبيعية ، ولا يهدأ للعلماء الآن بال وهم يعالجون أية ظاهرة من ظواهر الحياة حتى التفكير والقوى العقلية إلاَّ إذا عللوها بالقواعد المقررة في علوم الطبيعة والكيمياء والميكانيكا وردوها اليها ووحدوا بينها وبين الجمادات . ومما أثبتوه على الأخص انطباق ناموسيْ بقاء المادة وعدم تلاشيها وبقاء الطاقة وعدم تلاشيها على الكائنات الحية.

هذي جميعها حقائق هامة ولكن ضيق المقام لا يسمح بشرحها تفصيلاً او اجمالاً . غير أني لا أستطيع ان أمر هنا دون ان أشير الى المكتشفات البديعة العظيمة الشأن التي أدت الى النظرية البيولوجية الغروية . فقد ثبت ان هناك بعضاً من مظاهر الحياة —هي أهمها وأدقها— تقوم بها مواد كيميائية من الجمادات وأجسام معدنية محضة لا يتوفر فيها شيء من مميزات الحياة او صفاتها . ومن ذلك التخمر :

فاذا سحقنا مثلاً مقداراً من النباتات الميكروسكوبية المكونة من خلية واحدة من النوع الذي يخمر المواد السكرية ويحولها الى خمر (خميرة البيرة) ، او من النوع الذي يخمر الخمر ويحولها الى خل ، او من النوع الذي يخمر سكر اللبن ويحوله الى الحامض اللبني ، ثم نقعناها في ماء معقم مطهر ورشحنا الماء بعد ذلك ، حصلنا على سائل يخمر هذه المواد مما يدل على ان خواص الحياة ما زالت قائمة فيه . فهل لنا ان نقول ان هذا السائل المرشح كائن حيّ ؟

واذا أغلينا هذا السائل الى درجة المائة فوق الصفر فانهُ يفقد خاصة التخمير كأنهُ مات مقتولاً بالحرارة كما يحدث للكائنات الحية

والواقع ان الذي يقوم بالتخمير وبمعظم أعمال الحياة من هضم الأغذية على أنواعها الى تحليلها وامتصاصها وتركيبها من جديد داخل الأنسجة الى افراز السوائل المختلفة الخ انما هي خمائر تفرزها غدد خاصة في الاجسام الحية المتعددة الخلايا او أحياء من خلية واحدة مثل النباتات والحيوانات الأولية الميكروسكوبية التي منها جراثيم التخمر . وهذه الخمائر تذوب في الماء وتفعل فعلها هذا وهي ذائبة فيه . والخمائر لا يمكن القول بأنها كائنات حية بالمعنى التام لأنهُ لا جسم لها ولا قوام وهي لاتتغذى ولاتتنفس ولا تنمو ، ومع ذلك تبدو كأنها حية وتقوم بأهم مظهر من مظاهر الحياة وهي التخمير

على ان كل هذا لا غرابة فيه لأن الخمائر التي تسلك مسلك الأحياء لم تخرج عن كونها مُفرزَة من أجسام حية ، ولكن المدهش حقًّا هو فعل المواد المعدنية الغروية . فقد توصل العلماء الى تحضير كثير من المواد المعدنية والعضوية على هذه الحالة (à l'état colloïdal) وقد شوهد ان بعضها مثل الفضة او المنغانيز وغيرهما يخمر المواد القابلة للتخمر . فاذا وُضع قليل منها في شراب السكر مثلاً لا يلبث هذا الشراب ان يختمر ، لا فرق في ذلك بين هذا التخمر وبين التخمر الذي تحدثهُ الكائنات الحية بفعل الخمائر التي تفرزها، سوى ان التخمر يتم هنا بأسرع مما يتم في حالة التخمر الحيوي. وأول ما يتبادر الى الذهن ان جراثيم التخمر الحية العادية تسرَّبت الى ذلك الشراب من الهواء او الماء او من الأوعية والأدوات المستعملة ، ولكن الدقة التي اتبعت في تعقيم جميع هذه الأشياء لا تدع محلاًّ لمثل هذا الاعتراض

وأغرب من هذا فعل الكلوروفورم المخدر في المواد المعدنية الغروية — أي في الجمادات المحض — التي نحن بصددها ، فانهُ يخدّرها وينّجها تبنيجاً ويمنعها عن مواصلة التخمير الى ان يتطاير ويتلاشى فتعود الى فعلها هذا المدهش

واذا أضيف اليها — أي الى تلك الجمادات المحض — قليل من سيانور البوتاسيوم وهو سم قاتل فانهُ يمنع فعلها التخميري بتاتاً ، فكأن هذه المعادن — هذه الجمادات — ماتت مسمومة ولا يمكن ان تعود الى إحداث التخمر إلاَّ اذا ازيل عنها هذا السم ثم تحولت الى معدنها الأصلي الجامد ومنهُ الى الحالة الغروية من جديد ، وعند ذلك فقط تبعث بعثاً وتعود الى تلك الخاصة — التخمير — التي كنا نظن أنها مقتصرة على الأحياء دون غيرها [1]

---

(١) ولا غرابة في ذلك لان الحالة الغروية تنتج من اجتماع عدد من جزيئات تلك المعادن والتصاقها بعضها ببعض فتشبه هذه المجموعات الجزيئات الضخمة التي تتكون منها المواد الزلالية . ولعل ظواهر الحياة تنتج من ضخامة هذه الجزيئات وعدم ثباتها

ويظهر ان فعل الكلوروفورم المخدر وفعل سيانور البوتاسيوم السام ينحصران في هدم هذه المجموعات من الجزيئات المجتمعة فتزول خواصها الخاصة التي نحن بصددها موقتاً بالتخدير او نهائياً بالتسمم

واذا لوحظ ان في المادة الزلالية الخاصة الموصوفة « بالحية » التي تتكوّن منها خلايا الحيوانات (بما فيها الانسان) وخلايا النباتات وكذلك في الخمائر التي تفرزها الكائنات الحية أثراً من المواد المعدنية التي كان يظن البيولوجيون الى عهد قريب انها مواد اضافية لاشأن لها في المادة الحية ، واذا قوبل هذا بما تقدم بيانه من فعل المعادن الغروية ، أدركنا معنى النظرية البيولوجية القائلة بأن أداة الحياة او أن الذي يقوم فعلاً بأعمال الحياة في الكائنات الحية ليست المادة الزلالية الخاصة المسماة « بالبروتوبلاسما » وانما هي تلك الزوائد المعدنية المحضة ، وعلى هذا يكون الجزء الحي في الأحياء هو المعادن المذكورة اي الجمادات الخالصة ، وما المادة الزلالية الاّ قاعدة ترتكز عليها تلك المعادن للقيام بأعمال الحياة

والخلاصة انه لا يوجد أي فرق جوهري في النوع بين الكائنات الحية وبين الجمادات وانما الفرق في الدرجة فقط ، وان جميع ظواهر الحياة توجد في الجمادات. وسيرى القارىء فيما يلي ان المادة الحية تشتق رأساً من الجمادات على الدوام بفعل طاقة الشمس بواسطة المادة النباتية الخضراء (الكلوروفيل) بحيث لا يوجد عنصر خاص بالاحياء . كما أن القوى التي تعمل في الاحياء وتديرها هي من قوى الطبيعة ومشتقة منها وليس شيء آخر خلافها

وكلما تقدم العلم تلاشى ذلك الخيال الذي كانوا يعتقدون فيما مضى ان له وجوداً خاصًّا قائماً بذاته مستقلاًّ عن المادة ويسمونهُ بالحياة . وما الحياة في الواقع الاَّ تفاعلات كيميائية او بالاحرى حريق بطيء أو تأكسدات مستمرة . فهي ظاهرة طبيعية مثل باقي ظواهر الطبيعة

***

اذا تقرر هذا — أي أن الحياة ظاهرة طبيعية خاضعة لنواميس الطبيعة — تعمل فيها وتديرها — فيمكننا ان نقول مقدماً بادىء ذي بدء à priori ، ان أصل الحياة وكيفية ظهورها على الأرض لا بدَّ ان يرجع الى أسباب طبيعية . فهي وجدت كما وجدت الاجسام الاخرى كالمواد المبلورة وغيرها وكما نشأت البحار والجبال والمغاور والكهوف وكما تكونت طبقات الارض المختلفة وما تحتويه من الفحم والبترول والمعادن المتنوعة ، كل ذلك بفعل العوامل والنواميس الطبيعية

غير ان العلماء كانوا فيما مضى ، قبل قيام المكتشفات العظيمة الحالية في البيولوجيا والفسيولوجيا وباقي علوم التاريخ الطبيعي ، حيارى لا يدرون كيف يعللون ظهور الحياة على الأرض التعليل العلمي الصحيح

فقال نفرٌ منهم في أواخر القرن الثامن عشر وفي أوائل القرن التاسع عشر ومنهم بوفون ومحررو دائرة المعارف اذ ذاك ، ومنهم لامارك السابق لداروين في تأسيس مذهب التحول

والتسلسل—قال هؤلاء ان الكائنات الحية الاولية تولدت تولداً ذاتيًّا من الجمادات ، وهو مذهب التولد الذاتي المشهور ، بل ان بعضهم بالغ في ذلك الى الزعم بأن الاحياء السفلى الحالية ما زالت تتولد الآن من الجمادات ، كما يعتقد العوام خطأً بأن كثيراً من الديدان والحشرات وحتى الفيران تتولد ذاتيًّا من تلقاء نفسها من المواد القذرة والعفنة والمتخمرة أو من الطين والماء . وقد أساءت هذه المبالغة وهذا الخطأ الى المذهب المذكور على ما هو عليه من الوجاهة وكانت السبب في سقوطه في بادىء الأمر . وقد جاءت أبحاث باستور ومكتشفاته الجديدة التي قام بها بعد ذلك تنفي — في الظاهر — ذلك المذهب وتثبت استحالة تولد الكائنات الحية من الجمادات بمعنى ان كل كائن حي مهما يسفل نوعه لا بد ان يتولد الآن من كائن مماثل له . وكانت في الوقت نفسه قد فشلت في ذلك الحين المحاولات التي قام بها بعض الكيميائيين البيولوجيين لتركيب المواد الزلالية ولو البسيطة منها اصطناعيًّا . فاتخذ خصوم ذلك المذهب — مذهب التولد الذاتي — من هذا كله أسلحة لمحاربته وقتلوه في مهده

لهذا فكر بعض العلماء ان يأتوا — بمحض خيالهم — ببذور الحياة من عوالم اخرى ففرضوا انها تنتقل في صورة ذرَّات صغيرة جدًّا في الفضاء الكوني من بعض الكواكب الى غيرها ، ومتى سقطت على كوكب صالح للحياة تنمو وتتولد منها الكائنات الحية البسيطة ثم المركبة العليا. وبالغ أحدهم وقال ان تلك الجراثيم الكونية لا تؤثر فيها الحرارة — حرارة الكواكب الملتهبة وحرارة الشهب والنيازك التي تحملها أحياناً وتسقط بها على النجوم والسيارات مثل الارض وغيرها — وقد سماها pyrozoaires أي الأحياء النارية

ولكن هذه الفروض التخمينية فضلاً عن أنها خيالية محضة لا تستند الى أي دليل علمي ، فانها لا تحل الاشكال بل تبعد حله بأن تنقله من أرضنا الى عوالم أخرى إذ لنا ان نتساءل : وكيف وجدت الحياة في تلك العوامل التي انتقلت الينا منها الجراثيم الحية ؟ ويبقى علينا ان نبحث في اسباب تكوين الحياة هناك وظروفها

وفوق هذا فان تلك الفروض التخمينية مخالفة لروح البحث العلمي لانهُ اذا كان الكربون والآزوت (النتروجين) والايدروجين والاوكسجين وبعض المعادن الاخرى التي تتركب منها المواد الحية قد امتزجت امتزاجاً طبيعيًّا وكونت تلك المواد في العوالم الاخرى فلماذا — وهي موجودة جميعها على الارض — لا تمتزج هنا ايضاً وتتولّد المادة الحية كما فعلت في غير الارض ؟ أليس أساس كل علم ان نفس الاسباب تنتج نفس النتائج ؟

***

لهذا كله وجب علينا ان نواجه الحقائق العلمية في حد ذاتها على ضوء الابحاث والمكتشفات

الحديثة غير متأثرين بالآراء والمذاهب القديمة الموروثة ، وان نرجع الى الحالة التي كانت عليها الارض وقت ظهور الحياة لنستخلص من ذلك مصدرها — اي مصدر الحياة — وكيفية نشوئها واسباب ذلك . وهذا ما أخذه العلماء على عاتقهم في الخمسين السنة الاخيرة

قلنا انهُ ما دامت الحياة طبيعية فلا بد أن تكون ظهرت على الارض بفعل الطبيعة. وهذا هو الواقع . الواقع ان مواد الاجسام الحية النباتية والحيوانية بما فيها الانسان تشتق رأساً الآن من الجمادات وتتكون منها مباشرة في كل لحظة امامنا وعلى مرأى منا . فمن أين جاءت المواد الحية التي تبنى بها اجسامنا منذ تكوينها عقب التلقيح من بويضة صغيرة جدًّا لا ترى الاّ بالميكروسكوب ؟ لا شك في انها تكونت من الغذاء . فالحيوانات آكلة اللحوم تتغذى بالحيوانات النباتية ، وهذه تتغذى من النباتات . والنباتات تركب انسجتها وتحصل على غذائها من الجمادات . فمادتها الخضراء (الكلوروفيل) تستعين بطاقة الشمس الاشعاعية وتحلل غاز حامض الكربون (او ثاني اوكسيد الكربون) المنتشر في الجو وتنتزع منهُ الكربون وتمزجه بالماء فتؤلف منهُ النشا والسكر ثم الاحماض والقلويات العضوية ثم المواد الدهنية. وفي الوقت نفسه تمتص جذورها التراكيب الآزوتية (النتروجينية) من الارض ذائبة في الماء وتمزجها بالمواد الكربونية المذكورة بفعل طاقة الشمس ايضاً فتنتج المواد الزلالية الموصوفة بالحية. وهكذا تتركب الآن باستمرار اجسام الكائنات الحية من الجمادات بفعل طاقة الشمس وبواسطة الكلوروفيل

وقد توصل الكيميائيون الى تركيب كثير من المواد العضوية النباتية والحيوانية من الجمادات رأساً كما تفعل الطبيعة ، فنجحوا مثلاً في الحصول اصطناعيًّا على المواد السكرية والنشوية المختلفة وعلى معظم المواد الدهنية وعلى كثير من المواد العضوية كالقلويات التي تستعمل في الطب وكالعطور المتنوعة . وأهم من هذا انهم ركبوا كيميائيًّا من مواد معدنية محضة الحامض النمليك الذي يدخل فيه الآزوت وهو النواة الكيميائية للمواد الزلالية ، ثم ركبوا بعض هذه المواد مثل زلال اللبن (مادة الجبن) ومثل البروتين الناتجة من هضم المواد الزلالية الحيوانية والنباتية ومثل الكيراتين التي تدخل في تركيب الاظافر والقرون. وهذا النجاح في تركيب بعض المواد الزلالية اصطناعيًّا يبشر بقرب الوصول الى تركيب المواد الزلالية العليا الموصوفة بالحية اي الى انشاء الحياة . وهذا ما يؤملهُ العلماء

ومن الغريب الذي يدعو الى الاعجاب ان بعض الكيميائيين مثل دانيال بروتولو وجوديشن وغيرهما سلكوا في تركيب السكر والحامض النمليك الآزوتي المتقدم ذكره نفس الطريق الذي تتبعهُ الطبيعة بأن سلطوا الاشعة فوق البنفسجية المنبعثة من بخار الزئبق على خليط من الماء والكربون النقي وبعض مركّبات الآزوت المعدنية البسيطة

فما تصنعهُ الطبيعة الآن تحت نظرنا وامام أعيننا من انشاء المادة الحية من الجمادات بفعل طاقة الشمس ولكن بالواسطة — أي بواسطة الكلوروفيل — بل ما يصنعه الانسان في معامله الى حدٍّ ما ، ألم تستطعه الطبيعة رأساً وبلا واسطة في الماضي البعيد حيث كانت أحوال الشمس والأرض أكثر ملاءمة لذلك من الآن ؟

فقد كانت الشمس في ذلك العهد المتوغل في القدم من الكواكب الزرق او البيض من الدرجة الأولى ، تزيد حرارتها عما هي عليه الآن بمراحل ، وكانت — على الأخص — تشتمل على الكثير من الأشعة فوق البنفسجية وهي كما لا يخفى توجد التفاعلات الكيميائية على اختلاف صورها وتنشطها

وكانت الارض من جهتها مرتفعة الحرارة لقرب عهد انفصالها من الشمس ، وفوق هذا فانها — أي الارض — كانت في ذلك الحين مسرحاً لكثير من اشعاع الراديوم والاجسام المماثلة له التي كانت توجد كميات وافرة منها في طبقاتها السطحية ولم تكن قد تحولت بالاشعاع المستمر كما حصل بعد ذلك . وكانت تنبعث من هذه الاجسام مقادير وافرة من غازات الايدروجين والهليوم الجديدة . ومن المقرر في علم الكيمياء ان الغازات المستجدة تكون عند انبعاثها أكثر قابلية للامتزاج بغيرها من المواد الاخرى

فنتج من جميع هذه العوامل مجتمعة ان نشطت التفاعلات الكيميائية على الارض وفي الماء وامتزجت المواد المختلفة بعضها بالبعض، وعلى الاخص الكربون والآزوت والايدروجين والأوكسيجين وبعض المواد المعدنية الأخرى على صور شتى فتولدت على هذا النحو مركبات متنوعة لاعداد لها كان منها ما نسميه الآن بالمواد العضوية البسيطة أي بعض مركبات الكربون الثلاثية أولاً ثم المواد العضوية التي تركيبها أشد تعقيداً مما سبقها . ومنها الأحماض الآزوتية الرباعية مثل الحامض النمليك سالف الذكر وغيره . وهذه امتزج بعضها بالبعض وبالأحماض الفسفورية فأدت الى المواد الزلالية البسيطة ثم العليا الموصوفة بالحية وهي التي تمتاز بقابليتها الشديدة لامتصاص الاوكسجين والتأكسد به (وهو ما نسميه بالتنفس) . وكان هذا اول مظهر للحياة على الأرض وأبسط صورة من صورها . وتطورت هذه المواد الزلالية بفعل العوامل الطبيعية الطارئة واتخذت مع مرور الزمن الطويل شكل الخلايا جرياً على نواميس الميكانيكا ، فنشأت على هذا النحو الاحياء الأولية ذات الخلية الواحدة الحيوانيـة من ناحية والنباتية من ناحية أخرى ثم النباتات الفطرية Champignons وهي الحلقة المتوسطة بين الحيوانات والنباتات والدليل القاطع على وحدتهما وعلى تسلسلهما من اصل واحد وهو الجمادات فهي نباتات من جهة احتوائها على مادة السيليلوز وحيوانات من جهة كيفية تغذيتها

وتسلسلت من هذه الاحياء الاولية البسيطة الحيوانات والنباتات السفلى ثم العليا

غير ان حرارة الشمس اخذت تنقص بالتدريج في مئات الملايين من السنين فتبعها نقص حرارة الارض ، ونقصت في الوقت نفسه الاشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الشمس . وتكونت في الوقت ايضاً طبقة من غاز الاوزون في اعالي الجو صارت، وما زالت، تحجب الى حدٍّ ما بعض الباقي من تلك الاشعة البنفسجية التي ترسلها الينا الشمس ، فأصبحت هذه — اي الشمس — عاجزة عن تركيب المواد الحية من المواد الجامدة من تلقاء نفسها على الأرض كما كانت تفعل رأساً في بادىء الامر ، فاستعانت على ذلك بالكلوروفيل كالرجل المتقدم في السن يستعين على رؤية الاشياء بالمنظار ، ذلك لان النباتات كانت قد ظهرت على الارض في ذلك الحين فضعف الشمس الآن هو السبب في استحالة التولد الذاتي في ظروف الطبيعة الحالية وهذا ما يفسر ابحاث باستور وتجاربه المشار اليها فيما تقدم. فان هذه الابحاث والتجارب لا تدل الاَّ على استحالة التولد الذاتي في عصرنا الحاضر ولكنها لا تنفي امكان ذلك في بدء ظروف الطبيعة على الارض

* * *

كان الناس في بدء نشوء النوع الانساني قبل اكتشاف الكبريت والفوسفور ، وقبل ان يستنبطوا احداث الشرر من احتكاك بعض الاحجار الخاصة بالبعض — يعتقدون ان النار سر من وراء الطبيعــة لا يستطيع البشر ان يخلقوها ، وان كل نار لا بد أن تولد من نار أخرى سابقة لها ، كما يعتقد جمهور الناس الآن في الحياة والكائنات الحية

فكانوا في ذلك الماضي البعيد اذا شاهدوا حريقــاً نشأ مثلاً بفعل العوامل الطبيعيــة كانقضاض صاعقة على شجيرة يابسة او على كومة من الحطب او الحشائش الجافة، يوقدون منه ناراً دائمة في مغاورهم ومساكنهم يتخذونها في منزلة خميرة يولدون منها النار كلمــا أرادوا احداثهــا لحاجاتهم الشخصية ، وهذا هو منشأ عقيدة عبادة النار التي تسلسلت منهــا عادة المحافظة على مصابيح أو شموع صغيرة تضاء في المعابد والمساكن لاغراض دينية

وهكذا الحال بالقياس الى الحياة فانه نظراً لعجزنا الحالي المؤقت عن تكوين المادة الحية اصطناعيًّــا، نظن انها سر من وراء الطبيعة وانها تختلف عن باقي ظواهر الكون وانها لم تظهر على الارض بفعل العوامل الطبيعية ، بل هي من عالم آخر كما يتوهمون فنحن الآن بالقياس الى الحياة على ما كان عليهِ أجدادنا البعيدون بالقياس الى النار قبل اكتشاف وسائل احداثها اصطناعيًّــا

على ان كل هذا الوهم سوف ينقشع ويتلاشى في المستقبل حين يتوصل العلماءُ نهائيًّــا الى تركيب المادة الحية في معاملهم وقد بينــا فيما تقدم انهم خطوا خطوات تذكر في هذا السبيل

ومتى وصل العلم الى ذلك الحد تصبح الحياة ظاهرة طبيعية في نظر جمهور الناس ينظرون اليها كما ننظر الى النار الآن بعد اكتشاف الوسائل التي تجعلنا نحدثها كلما شئنا

الهيكسوس

أصلهم وموطنهم الأول

للدكتور باهور لبيب
مدرس بمعهد علوم الآثار المصرية

اختلفت آراء المؤرخين في تحقيق اصل الهيكسوس وموطنهم وهم الذين غزوا مصر حوالي سنة ١٧٣٠ قبل الميلاد

فبعض المؤرخين يؤكد انهم الفريق الذي هاجر الى مصر من سلالة آرية[1] كان موطنها بلاد ما بين النهرين [2] في وسط آسيا ثم هاجروا الى غربها حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد والبعض الآخر يقول إن أصلهم من أعراب شبه جزيرة العرب[3] غير ان الابحاث الحديثة قد أسفرت عن انهم من أصل سامي [4] وموطنهم فلسطين[5] وانهم من طائفة اليهود الذين ورد ذكرهم في التوراة والقرآن الكريم

وقد رجحتُ الرأي الأخير في ملخص رسالتي للدكتوراه[5] مستنداً في ذلك الى عوامل متعددة منها ما أورده المؤرخ المصري القديم مانيتون من أن الهيكسوس «قوم شرقيون أتوا الى مصر من الشرق وأنهم من بني اسرائيل بعد ان فنّد ما زعمهُ البعض من أنهم عرب»[6]

ثم إننا نستخرج من مجرد تسمية المصريين للهيكسوس ما يؤيد الرأي المتقدم. فقد لقب الهيكسوس بألقاب متعددة في النصوص المصرية القديمة . أطلق عليهم اسم « حقاخاسوت »

---

(١) N. D Mironov, Aryan Vestiges in the Near East, Acta Orientalia II (1933) p. 150 ff.; Junker, Geschichte der Aegypter, 1933 p. 105

(٢) E. Brogelmann, Noch einmal : Die Hyksosfrage, Z. D. M. G. Bd. 90 (1936) .

(٣) King, Studies in Eastern History

(٤) R. Dussaud, Revue de l'Histoire des Religions 1934 p. 113 ff. Pahor Labib, Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten, 1934 p. 8 ff;

(٥) Pahor Labib, Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten, 1934 p. 8 ff.

(٦) Waddell, Manetho, in Loeb classical Library, 1940 p. 77 ff.

أي حكام قبائل فلسطين (حرفيًّا الاراضي الجبلية) . وسموا « عامو » أي الاسيويين وعلى الأخص الساميين . وكذلك أطلق عليهم « منتيوستت » وهو اسم القبائل التي كانت تسكن الصحراء في شمال شرق مصر جنوب فلسطين . وأخيراً سموا باسم « شاسو » الذي كان يطلق على سكان شمال شرق مصر ويقصد به قبائل جنوب فلسطين أعني الجزء الذي بهِ قبائل جنوب فلسطين والذي بهِ قبائل سامية

فجميع هذه الاسماء المختلفة التي أطلقت على الهيكسوس تدل دلالة واضحة على أنهم من أصل سامي وان لهم علاقة بفلسطين وهي الجهة التي كان يقطنها اليهود

ومن الاشياء التي تساعدنا على تأييد التعليل السابق أن أغلب الاسماء التي جمعت عن ملوك الهيكسوس وأفرادهم في عهد وجودهم بمصر وهي التي لم يعرف أنها اسماء مصرية، ترجع الى اصل سامي كنعاني . فعلى سبيل المثال نرى ضمن اسماء الملوك « يعقوب إل » « وعنات إل » وكلاهما اسم سامي عبري كما هو ظاهر . ومن أسماء الأفراد « عابد » و « نحمن » وهي ايضاً سامية عبرية . فهذا يدل على أنهم كانوا من اصل يمتُّ بصلة كبيرة الى العبرانيين

غير ان بعض المؤرخين[1] يشير الى اسماء بعض ملوك الهيكسوس التي لم يثبت الآن أنها سامية مثل سلاتيس وبنون وأباخنان . ولكننا لا نرى في ذلك شيئاً من الغرابة إذا لاحظنا أن مثل هذه الاغارات تتكون في غالب الاحايين من عناصر مختلفة . مع ملاحظة ان هذه الاسماء وردت الينا عن طريق المؤرخ مانيتون باللغة اليونانية فقط وقد نقلها بالطبع عن اللغة المصرية القديمة ويحتمل جدًّا ان يكون قد أصابها التحريف فلا يمكن اذن الجزم بأنها ليست اسماء سامية

وقد ظهرت في مصر على أثر غزوة الهيكسوس اسماء آلهة سامية كانت تعبد اصلاً في فلسطين وتلك الآلهة هي « عنات » « وبعل » . فلو لم يكن الهيكسوس ساميين لما نقلوا معهم آلهتهم السامية الى مصر

***

ومن المسلَّم بهِ أن الهيكسوس هم اول من أدخلوا استخدام الجواد والعربة الى مصر . ونحن اذا تتبعنا تسمية المصريين للجواد وللعربة وجدنا انها اسماء سامية كنعانية . فالجواد كان يسمى «سسمت» وهي كلمة كنعانية سامية . واطلق على العربة « مركبات » وهي كلمة ايضاً

(١) Junker, Die Aegypter p. 105

سامية كنعانية. ولا يجوز عقلاً ان نفرض استعمال الهيكسوس لغير لغتهم الاصلية في تسمية هذه الاشياء ما لم يقم الدليل على ضدّ هذا

وقد أظهرت لنا الحفائر الاخيرة في فلسطين(١) عدة مقابر ترجع الى عصر الهيكسوس ومؤرخة بأسماء ملوكهم فهذا دليل مادي على وجود صلة ما بين اليهود في فلسطين وما بين الهيكسوس في مصر

***

كذلك معروف أن العبرانيين كانوا يعبدون الحمار فاذا توصلنا الى التحقق من عبادة الهيكسوس له استطعنا أن نقيم الدليل على أنهم من أصل سامي

وفي سبيل ذلك نقول أنهُ وجدت في القابر السالفة الذكر أربعة حمير مدفونة في مستوى أعلى من مستوى الاشخاص أنفسهم

وفي هذا وحده دليل على عبادة هذا الحيوان . إذ لو كان دفنها في المقابر بقصد القربان لوجدت في مستوى الأشخاص أو تحتهم . وليس فوق هذا المستوى كما قد لوحظ فعلاً من وجود جياد مدفونة كقرابين في مستوى أقل

وما دمنا قد ذكرنا أن هذه المقابر مؤرخة بأسماء ملوك الهيكسوس فاننا نستنتج من ذلك أن عبادة الحمار كانت سائدة بين الهيكسوس يؤيد ذلك أيضاً أن أحد ملوك الهيكسوس كان يسمى « عاقن » أي « الحمار القوي » (٢) ومعروف ما جرى عليه الملوك من إدخال أسماء الآلهة في ألقابهم وقد أقرَّ الأستاذ Bissing في مقاله :

"Das angebliche Weltreich der Hyksos" in Archivuer Orient. Forschung, Juni 1937 p. 325 ff. هذه الاسانيد صراحة فيما عدا هذا الدليل اذ يعترض بقوله أنهُ عثر على حمير وجياد مدفونة في مقابر ابي سنبل وترجع الى القرن الرابع والسادس الميلادي . وعلى هذا فدفن الحمير في مقابر فلسطين لا يدل على معاصرتها لملوك الهيكسوس . غير أنهُ فاتهُ أن دليلنا قائم على ما هو ثابت من أن القابر السالفة الذكر مؤرخة بأسماء ملوك الهيكسوس وهو دليل مادي حاسم . يضاف الى هذا استنتاجنا في عبادة الهيكسوس للحمار قائم كذلك على طريقة دفنه وهذه الطريقة لم تتوافر اطلاقاً في مقابر ابي سنبل . هذا فضلاً عن ان العالم المذكور لم يعترض على الحلقات الأخرى التي تساندت في تأييد بعضها بعضاً

(١) Petrie, Ancient Gaza, I, p. 3 ff.

(٢) Pahor Labib Die Herrschaft der Hyksos in Aeg., 1934 p. 25.

يضاف الى ما تقدم أنهُ على أثر غزوة الهيكسوس لمصر اختار الغزاة احد آلهة المصريين وهو « ست » وساووه بآلهتهم . وكان مظهر هذه المساواة أن جعلوا الاله «ست» في لغتهم مخصصاً لكلمة حمار « عا »

ثم هناك مسألة أخرى تؤيد ان الهيكسوس أصلهم سامي ومن فلسطين وذلك انهُ معروف ان القوم المسمون باسم « خبيرو » في خطابات تل العمارنة المحررة بالخط المسماري هم قوم ساميون استولوا على فلسطين ومنها وسعوا سلطانهم وانهم مقيمون في فلسطين الى عهد اخناتون

دلت ابحاثنا على أن كلمة «خبيرو» ترادف الكلمة المصرية القديمة « عپري» وهي عبري الحالية . وذلك لان الخط المسماري لم يعرف حرف العين فكتب« خ »بدل «ع». أما ابدال الباء بـ «پ» فمعروف في اللغة المصرية القديمة

واخيراً وجدت في إحدى مقابر بني حسن في احد اركان الحجرة صورة تمثل قبيلة كنعانية مؤلفة من ٣٧ شخصاً من رجال ونساء واطفال وفدت من فلسطين الى مصر في أيام الملك سنوسرت الثاني . وأول ما يلاحظ على تلك الصورة هو أن ملامح هؤلاء الاشخاص ولباسهم وأوصافهم واضحة الدلالة على أنهم من أصل سامي .كما ان تلك الصورة ذكرت نقوشها انها كانت برآسة « إبشا » الذي يحمل لقب « حقا خاسوت » وهذا اللقب هو الذي اختاره ملوك الهيكسوس فيما بعد لأنفسهم بل اكثر من ذلك فان هذا النعت قد اطلقهُ المصريون على قبائل هؤلاء الغزاة قبل غزوهم مصر وبعد طردهم منها

فاذا كانت هذه القبيلة سامية الاصل فلسطينية الوطن وملقب رئيسها بلقب ملوك الهيكسوس فذلك مما يبعث على الاطمئنان الى تأييد ما نقوله من أن الهيكسوس كانوا من ذلك الاصل ومن هذا الوطن

والى جانب ما تقدم هناك عدة أسانيد أخرى أوردناها في ملخص رسالتنا للدكتوراة لا نرى محلاً لها في هذه المقالة . غير أننا نستطيع ان نضيف الى تلك الأسانيد حجة جديدة لم ترد في رسالتنا تؤيد وجهة النظر السالفة من حيث ان الهيكسوس ساميو الأصل وهي ان هناك أثراً من العاج على شكل أبي الهول يضرب بأظافره مصريًّا يمثل أحد ملوك الهيكسوس وقد لاحظ العلاَّمة شارف في كتابه « Handbuch der Archaeologie » الذي ظهر في عام ١٩٣٩ « إن ملامح هذا الملك الهيكسوسي واضحة الدلالة على أنهُ سامي الأصل »

التربية البدنية

في الطفولة الاولى

للدكتور شوكت موفّق الشطي

التربية البدنية
في الطفولة الاولى أو في زمان الرضاعة

نقصد بزمان الرضاعة [1] ما يعرف عادة بالطفولة الأولى التي تبدأ بعد الولادة وتنتهي في الشهر الرابع والعشرين من العمر لأن قوام تغذية الطفل في الحولين الاولين اللبن وحده او مشتركاً مع أطعمة أخرى مناسبة . ولا شك ان لبن الأم خير من سواه اذ لا شيء يعادل قلب الأم وثدييها . ونرى ان يقسم عمر الطفل الرضاعي الى زمنين يناسب كلاً منهما تربية بدنية خاصة

أ — زمان الرضاعة الاول : وهو حين من الطفولة يناسب تغذية الطفل باللبن وحده

ب — زمان الرضاعة الثاني : وهو حين من الطفولة يغذى الولد فيه باللبن وبأغذية أخرى تناسب سنه

التربية البدنية
في زمان الرضاعة الاول من الطفولة الاولى

يعتمد في تربية الرضّع البدنية على الحركات التي يستطيعون القيام بها من أنفسهم فتتحرك

---

(١) سمينا هذا الزمان زمان الرضاعة استناداً الى ما جاء في القرآن الكريم «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد ان يتم الرضاعة» «س ٢ آية ٢٣٣» ونرى ان الرضاعة يجب ان تستمر سنتين اذا أمكن لما لذلك من فوائد تعود على الولد وأمه بالنفع الجزيل منها ان الطفل لاغنى له عن اللبن طول هذه المدة لخفته وكونه غذاء كاملا ولان الطفل معرض في هذا الزمن لاضطرابات لا يصلح فيها لتغذيته إلا اللبن ومشتقاته ومنها إمكان اتقاء الحمل بالرضاعة إذ لايخفى ان أكثر المرضعات لايحضن فلا يحملن وكثيراً ما تلجأ النساء الى إطالة مدة الرضاعة رغبة منهن في تأخير حملهن ولما كان من المستحب ان لا تحمل المرأة قبل سنتين من ولادتها كان عليها ان ترضع طفلها حباً في فائدته وتحقيق رغبتها معاً. وقد ثبت أنه يتكون في مبايض أناث الحيوان أثناء الرضاعة جسم أصفر رضاعي يفرز حاثة او توراً (هورمون) يعوق الحمل وان مبايض النساء المرضعات تفرز افرازاً من هذا القبيل لم يحرر بعد ولكن المشاهدات تدل على وجوده واننا نعترف بأن لذلك شذوذاً كثيراً لا بدّ ان يعرف سببه يوماً ما

بها عضلاتهم ويستفيدون من ذلك فائدة عظيمة. لذلك كان من الواجب في كل حال الحيلولة دون كل وسيلة تعوق حركات الطفل كشد القماط وما شاكل وينبغي ان يفك القماط — من حين الى آخر — وان يعرّى الطفل في غرفة دافئة في الشتاء والخريف والربيع وان يبقى عارياً بضع دقائق وان يعلّق فوق جسمه بارتفاع قريب لعبة او كرة تسترعي انتباهه فيسعى الى مسها باحدى قدميه فتتحرك بذلك اطرافه وتتنبه حواسه ويتعلّم اللمس والقبض وتقدير المسافة والمقاومة والوزن ومعرفة الشكل . ويستحسن ايضاً تحريك الطفل بحركات منفعلة يُدلَّك بها جسمهُ وتثنى اطرافه وتبسط اثناءَ مداعبته وتلعيبه

ويجب ان يقعد الطفل القوي في الشهر السادس على أن يُفصل بين جسمهِ والارض بوسادة من صوف مغطاة بقماش لطيف نظيف . ويجب ان تجر اطراف الطفل وان تعطف وتبسط بإناة وصبر ولباقة . لذلك يقوم ممرن بدن الولد امه ، أو أبوه او مربيه ، بتمرينات

١ً — يمدد الطفل على سرير وتجلس والدتهُ او مربيته امامه فتمسك بيديها يديه وتجرها حتى تجلسه ثم تضجعه. وعليها اثناء ذلك ان تنمّي قوته بان تشعر بأن طفلها يبذل جهداً إبّان إجلاسه واضجاعه . ويستطيع الطفل المتمرن والذي له من العمر ستة اشهر ان يجلس معتمداً على قواه الخاصة بهِ

٢ً — تمسك الأم ولدها المضطجع من عقبيه وتثني ساقيه على فخذيه ثم تعطف فخذيه على بطنه ثم تبسط الفخذين فالساقين بشدها نحوها وتكرر ذلك خمس مرات او ستًّا يوميًّا

٣ — تمسك الام ولدها المضطجع من كعبيه وتوتر ركبتيه وتبسطهما ثم تحرك طرفيه السفليين بعطفهما على البطن والصدر حتى يصل قدماه الى محاذاة رأسه وتكرر هذه الحركة عشر مرات . تساعد مرونة اعضاء الطفل على القيام بهذا التمرين حتى ان كثيراً من الولدان يعتادون مص أباهم أقدامهم . ويجوز ايضاً تحريك اطراف الرضيع جانباً. تتحرك بهذه التمرينات العضلات وأخصها عضلات الجدار البطني فتقوى وتناهض استعداد الطفل للاصابة بالانتفاخ البطني واسترخاء عضل جداره فينجو الولد من القبض ونتائجه . تلك هي رياضة الرضيع في اشهر حياته الاولى ولاسيما بين الشهر الرابع والشهر السادس

يزاد عدد هذه الحركات وتحدد مدة القيام بها كلما تقدم سن الطفل ويجب ان يضاف بعد الشهر السادس الى التمرينات المذكورة تمرينات أقوى منها من شأنها تنبيه ارادة الرضيع مثال ذلك: ان تحتضن الأم ولدها وان تضبط قدميه بركبتيها ثم تدفعهُ بلطف وتجذبهُ مراراً ثم تدفعهُ وتجذبهُ جذباً خفيفاً ليسعى الى التقدم من نفسه بمساعدة أمه او بدونها تتمرن بهذه الحركات عضلات الساقين والفخذين والبطن والذراعين واليدين والخاصرتين. ويجوز ان تتنوع التمرينات

على ان تكون مستوحاة مما ذكر وان لا يكون فيها أثر للعنف او الشدة او الاجهاد وان تجري بصبر وتؤدة ينتفع الرضيع منها فائدة كبيرة . وقد ثبت من المشاهدات ان الطفل المقمط بقماط ضيق قليل النمو، سيء الهضم بالقياس الى طفل مقمط تقميطاً يكفل له تحريك جسمه واللعب باطرافه

ذكرنا رياضة الرضع المنفعلة الصالحة لهم في أشهر حياتهم الأولى على انه يمكن بعدها تنبيه غرائزهم وحفزهم الى اداء رياضات فاعلة تدربهم عليها الأمهات او المربيات او الحاضنات يرغب فيها الأطفال ويتسلون بها وهي كثيرة تسمَّى اسماء مختلفة باختلاف اللغات والبلدان . ولكن حركاتها واحدة لانها من عمل الغريزة وصنع الفطرة . منها ان يقعد الطفل على وسادة ويدفع جسمه الى الامام ثم يرجع الى الاستقامة ويكرر ذلك مراراً [١] ويعوَّد الطفل في هذه السن ايضاً تدوير يده بكبها وبسطها [٢] وتحريك رأسه يميناً ويساراً [٣] ومنها تعويده التصفيق ويحب الطفل في آخر هذا الزمن اللعب بلعب مخشخشة [٤]

ذكرنا أمثلة من الرياضات الفاعلة التي يستطيع الولدان عملها خلال الاشهر السادس والسابع والثامن على ان ذلك يختلف باختلاف اشتداد الطفل ودرجة وعيه

التربية البدنية

في زمان الرضاعة الثاني [٥] من الطفولة الأولى

يبدأ هذا الزمان في الشهر السابع او الثامن من حياة الطفل ويستمر الى تمام السنتين ينتقل

---

(١) شبهت هذه الحركة باهتزاز الحاج الراكب بعيراً لين السير ولذلك تعرف بتحجيج الطفل . يجري الطفل هذه الحركة مقلداً امه بينما تغني لولدها بصوتها الذي يطرب له أغنية مطلعها كما يلي :—

الحج لله ولبيت الله حجينا ولبينا وعليك يا نبينا صلينا

(٢) شبهت هذه الحركات في الشام بحركات أيدي الطباخات في صنع أقراص الكبة « الكبيبة » ، الاكلة المعروفة ولذلك سميت الكبكبة ويقوم بها الطفل بينما تغني له أمه

كبيبة كبكبناها وكبيبة كبة حرير وكبيبة عمره طويل

(٣) تغني الام لولدها أغنية مطلعها :—

حبيبي (او حبي) ياسيد (او ست الدار) حبي البابا والماما وكل الاهل والجيران

ولا يلبث الطفل ان يعتاد تدوير رأسه كلما سمع كلمة حبي او حبيبي

(٤) الخشخشة في اللغة صوت السلاح وما شاكل وتسمى اللعبة المخشخشة الخشخيشة

(٥) يسمي الغربيون هذا الزمن الفطام لانهم يبدأون فيه بتغذية الطفل بأطعمة مناسبة علاوة على اللبن الذي كان غذاءه الاساسي فينقصون من رضاعه كلما سار في مدارج الاشتداد ونرى ان كلمة الفطام او الفصال يجب ان تطلق على الآونة التي يمكن فيها للطفل ان يستغني عن اللبن ولا يكون ذلك إلا بعد سنتين من عمره استناداً الى تفسير كلمة الفصال الواردة في الآية الكريمة « ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين ان اشكر لي ولوالديك اليَّ المصير« سورة ٣١ آية ١٤ » والى تفسير كلمة الفطيم التي تعني قطع الولد عن اللبن (ج ١ ص ٣٦) . ولا يجوز ان يفهم من كلامنا هذا ضرورة نبذ اللبن من غذاء الولد بعد هذه المدة ولا الاكتفاء به دون غيره قبلها فتعويد الطفل الاغذية المتنوعة ابتداء من نبت أسنانه أمر أقره الخبيرون كما وان فطم الولد عن اللبن فطماً فجائياً يدعو الى محاذير نبه اليها الفن وخبرها العرف

فيه الطفل من حال الى حال ، تنبت راضعتاه (١) وتتسع (٢) ثناياه وتخرج رَبَاعياته ثم تتعاقب باقي أسنانه في الظهور ويناسب ذلك ازدياد مفرزات غدده اللعابية وظهور مادة اللّعابين (ptyaline) فيها ، تلك المادة التي تساعد الطفل على هضم بعض أنواع الدقيق والفواكه والخضر فيجب ان يحسب لها شأن في تغذية الطفل وذلك بأن يمزج لبنه بأنواع الدقيق ويطبخ معها اذا كان لا يرضع أمه او يعمل منهُ حساء يتناوله الولد مرة او مرتين بحسب سنّهِ ثم تنبت ضواحكه بين الشهر الثاني عشر والشهر الرابع عشر . ويدل ذلك على دخول الطفل في مرحلة جديدة من النماء . ثم تظهر الانياب بين الشهر السادس عشر والشهر العشرين ويؤذن ظهورها بجواز اضافة قليل من اللحم الى غذاء الولد . تكمل في هذا الوقت المفرزات الهاضمة من معدية وبنكرياسية ومعوية فتساعد على هضم الآحينات الحيوانية فينشط بها الجهاز الهضمي ويقوى . ولا يجوز في نظرنا فصل الولد عن الثدي واللبن في هذه السن لأن الطفل معرض لاضطرابات هضمية يحتاج فيها الى غذاء كامل لطيف كاللبن او بعض مشتقاتهِ كما وان فصل الولد عن ثدي أمه يعرضها للحمل قبل ان يكمل نماء طفلها كما بينّا

وتظهر آثار التطورات في هذه السن ايضاً في حركاته وانتقاله فبعد ان كان عاجزاً عن التنقل قبل الشهر الثامن يعود بين الشهر المذكور والشهر الحادي عشر قادراً على الانتقال بالحبو اولاً فبالتأتاة (مشية الطفل) والمشي بعد حين

أما الحبو وهو انتقال الطفل بالزحف على أطرافه الأربعة فنوع من الرياضة يناسب سن الطفل تشتد به أطرافه ويعتدل حجم بطنه وينمو صدره . ويلقف الولد في هذا العمر ما يراه ويضعه في فمهِ مع انهُ لا يميز الجمر من التمر لذلك كان من الواجب شدة العناية بهِ وكثرة الانتباه اليهِ ثم يبدأ بالدرجان (٣) فالمشي فيشتد طرفاه السفليان ويميل بعدئذٍ الى اللعب واللهو والرقص ويصبح دائم الحركة تقريباً لا يسكن الا من نوم او من مرض يشل قواه فيمنعهُ عن الحركة . وتعود أكثر حياة الطفل بعد هذا الوقت رياضة مناسبة له فيحب الزهزقة (٤) فيَرْقص ويُرَقَّص ويُصَفِّق ويُصفَّق (٥) له فيلهو بأهلهِ وذويه ويلهون بهِ . تلك هي سنَّة الله ولن تجد لسنَّة الله تبديلا (دمشق)

[في العدد القادم : الرياضة البدنية في الطفولة الثانية]

---

(١) الراضعتان : السنان المتقدمتان اللتان شرب عليهما اللبن

(٢) تسع : تسعت ثنيتاه : خرجتا من العمر يعني اللثة

(٣) الدرجان والتأتاة : مشي الطفل والتأتاة أخص به (٤) الزهزقة : ترقيص الطفل (٥) ترقص الامهات في هذه السن أولادهن في الشام على أنغام أغنية معروفة للاولاد يرقصون لها كلما سمعوها منها :—

صفقوا له ليرقص ليت عمره لا يخاص

صفقي يا صفاقة والبابا جايب ناقة

البراق النبوى

وقصة المعراج في التصوير الاسلامي

لعمر حمدي
خريج معهد الآثار الاسلامية

يُعَدُّ تصوير البراق أحد مظاهر التصوير الديني الاسلامي الغريبة

والبراق هو تلك الدابة العجيبة التي قيل ان رسول الله صلى الله عليهِ وسلم امتطاها ليلة أسرى بهِ ثم عرج بهِ الى السماء

وينص على هذا الحادث القرآن الكريم في سورتي الاسراء والنجم ففي الأولى يقول الله تعالى (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انهُ هو السميع البصير) وفي الثانية يقول تعالى (ذو مرّة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين او أدنى) الى آخر الآيات

وقد ذكر ذلك كتّاب السيرة وقالوا ان سيدنا جبريل عليهِ السلام هو الذي صاحب الرسول صلوات الله عليه وأرشده في طريقهِ من مكة الى بيت المقدس ثم في معراجه الى السماء ومعهما ملكان . وتختلف الروايات في جوهرها اختلافات هامة فبعضها ينص على ان المعراج كان بسلّم وبعضها يقول انهُ كان على شجرة وفي اخرى ينص بكل بساطة انهُ عرج بهِ ولم تبين أداة المعراج . وفي رواية تذكر ان حادثي الاسراء والمعراج لم يقعا تباعاً بل هناك فترة تفصلهما مقدارها ستة أشهر ولكن الأرجح انهما متعاقبتان وفي ليلة واحدة

وبعض الروايات يذكر ان البراق استحضر لنقل الرسول صلى الله عليهِ وسلم من مكة الى القدس فقط . والبعض يقول انهُ عرج بهِ عليهِ ايضاً ويذكر باقي القصة ان النبي (صلعم) عند اختراقه طباق السموات السبع الواحدة تلو الاخرى كان يقابل في كل منها أحد الأنبياء الذين سبقوه وهم آدم ونوح وعيسى ويوسف وادريس وابرهيم وموسى ثم حضر الملأ الأعلى

وليس هنا محل التساؤل عن هذا الموضوع الذي قتلهُ علماء المسلمين بحثاً واختلافاً في هل كانت هذه الرحلة حقيقة بالجسد أم بالروح ولكن الفنانين المسلمين اخذوا برواية انها بالجسم لا بالروح

وما يهمنا في بحثنا هذا الموضوع هو ما الأصل الذي اشتق منهُ طراز هذا الحيوان الذي اختاره النقاشون للدابة التي ركبها الرسول صلى الله عليهِ وسلم في هذه المناسبة

ينص أحد الأحاديث على انهُ كان حصاناً وآخر على انهُ كان دابة ركوبٍ بيضاء أصغر من البغل واكبر من الحمار وانها كانت نفس الدابة التي امتطاها الأنبياء من قبلهِ خصوصاً سيدنا ابراهيم. فقد نص في الاصحاح ٢٢ من سفر التكوين من التوراة ان ابراهيم ركب حماراً وكذلك في الآية ١٤ من الاصحاح ١٢ من انجيل يوحنا ان المسيح عليهِ السلام امتطى حماراً .

ومن المحقق ان كتّاب المسلمين لا يجهلون اجمالاً هذه الاخبار السالفة من انهُ هو نفس الحمار الذي استخدم لركوب الانبياء ولكنهم رأوا انهُ من الأنسب ان لا يستخدم في الاسراء مثل هذا الحيوان الوضيع فلم يصفوا البراق بانهُ حمار ولو انهم يسلمون بانهُ شيء يشبههُ

ومن غير شك فإن البراق استحضر اصلاً لحمل النبي (صلعم) الى بيت المقدس ولما اريد ان يعرج الى السماء أضيفت اليهِ الأجنحة . وهكذا فإن كتاب السيرة الذي وضعهُ ابن اسحق والذي وصلت الينا روايتهُ في سيرة ابن هشام يصف الاسراء والمعراج نقلاً عن الأحاديث النبوية اذ يقول ان البراق دابة مجنحة بيضاء اللون متوسطة الحجم بين البغل والحمار. وفي الروايات القديمة ليس ثمة ذكر للرأس الآدمية التي هي مظهر خاص من مظاهر الصور التي تمثل البراق . وأول كاتب ذكر ان لهذه الدابة صفة آدمية هو الثعالبي في كتابه تاريخ الأنبياء فأورد حديثاً يغلب عليه انهُ ضعيف يذكر ان للبراق خداً كالخد الآدمي. وزاد على ذلك الكتّاب المتأخرون فانهم وصفوا البراق وفصلوا في وصفه تفصيلاً وافياً فمثلاً يقول خواندمير في كتابه حبيب السير ان البراق دابة ركوب أصغر من البغل وأكبر من الحمار وله وجه يشبه وجه الانسان وآذان كآذان الفيل ومعرفة كمعرفة الحصان ورقبة وذيل كرقبة الجمل وذيلهِ وصدره كصدر البغل وأرجله كأرجل الثور ويرى صدره كالياقوت ويشبه شعره الدرع الابيض الذي يلمع لمعاناً قويّاً لصفائه العظيم وفي جانبيه جناحان يخفيان أرجله وهو سريع جداً حتى انهُ في طرفة عين يمكنهُ ان يصل الى أقصى مرمى البصر

ولم تتفق الروايات القديمة في النوع الجنسي للبراق فهو يوصف عادة بأنهُ ذكر ولكن ابن سعد في سيرته التي ألفها بعد ابن اسحق بسبعين سنة يروي ان سيدنا جبريل عليهِ السلام يخاطب البراق خطاب الأنثى . ولذلك فإن المصورين يصورونهُ برأس سيدة آدمية ولكنهم لم يحاولوا ان يبرزوا صورةً ما له بالشكل الذي وصفه خواندمير كأنهم لم يستطيعوا استحداث صورة له على أساس مستنبط من المراجع الأدبية . فقد ذكر السالفون أمثلة كثيرة لهذا الحيوان العجيب ليستخدموه أنموذجاً لرسم صورهم . فتركيب الرأس الآدمية على الجسم

الحيواني يرجع في قدمه الى الازمنة الساحقة في الفن فهناك أبو الهول المصري والقنطروس الاغريقي والشاروبيم الآشوري الذي توجد منهُ أشكال مختلفة تحتفظ جميعها بالجسم الحيواني والرأس الآدمي والأجنحة. وهذا الشكل يطابق كثيراً الصورة التي غالباً ما تمثل البراق النبوي في التصوير الاسلامي . وقد ظهرت هذه الاشكال في الآثار الشرقية القديمة على مواد مختلفة كالحجر والعاج والبرونز وكذلك على ألواح الطين

ولسنا نعرف في أية فترة من تاريخ الفنون الاسلامية صوّر البراق بهذا الشكل الرمزي لأنهُ من المستحيل الجزم بذلك لفقدان الأمثلة المبدئية حتى أنهُ ليقال ان أحد هذه النماذج وجد طريقهُ الى المدينة زمن النبي صلى الله عليهِ وسلم ففي الحديث ان السيدة عائشة علقت في حجرتها ستائر عليها صور خيل مجنحة فغضب الرسول لذلك ومزّقها

وان أقدم صور البراق في الفنون الاسلامية ظهرت مرسومة في كتاب جامع التواريخ للوزير رشيدالدين المؤرخ سنة ٧١٤ م فقد اتبع في تصويره طراز القنطروس فللجزء العلوي من الجسم ذراعان كما ان له أربع أرجل حيوانية . كذلك نلاحظ في الصورة تجديداً لم تكن رؤيته معتادة من قبل فنرى ان البراق يمسك بين يديه كتاباً هو في الغالب نسخة من القرآن وكذلك نجد ذيلهِ معقوصاً لأعلى وينتهي في جزئه العلوي بجسم آدمي يشمل الصدر والرأس والذراعين ، وفي اليد اليمنى سيف طويل وفي اليسرى مجن مستدير ، وتلتوي خصلات الشعر الكثيفة في نهاياتها وهي تتدلى تحت خدي هذا الجزء الآدمي مما يجعلها شبيهة بوجه البراق نفسه. ويعلو الرأس تاج من نفس النوع الذي يلبسه البراق أيضاً ويشبهه في الشكل والزخرف وهما يشبهان ما يلبسه الملوك في كثير من التصاوير التي في كتاب الآثار الباقية للبيروني المحفوظ بمكتبة جامعة ادنبره رقم ١٦١ . ومع هذا كله فإن أصل هذا التجديد الفني لزيادة الذيل الى البراق في هذه الصورة لا يزال مبهماً

***

والطراز الذي صادفَ هوى في نفوس المصورين المسلمين المتأخرين لتصوير البراق هو ما يشبه أبا الهول مع أن المأثور عن الأحاديث المتواترة في وصف البراق ان جسمه يشبه البغل وليس شبيهاً بالأسد

وكما أسلفنا فان تصوير أبي الهول له تاريخ فني طويل في آسيا الغربية . ولكن بخصوص موضوعنا فانه ليس من الضروري أن نرجع الى العصور الخالية البعيدة اذ أن التصاوير العادية للبراق يمكن ربطها ربطاً دقيقاً بصور ابي الهول المجنح التي ظهرت على الخزف المصنوع في

مدينة الري التي اجتاحها المغول وحرقوها سنة ١٢٢٠ م . فلم تستطع أن تستعيد مكانتها الأولى . وهكذا فان تأريخه ليس بعيداً عن الصور المبكرة للبراق الذي انحدر الينا ويمكن ملاحظة مثل ذلك في صور ابي الهول المرسوم بطريقة متتابعة حول جامة متوسطة في الطبق الكبير الذي صنع لبدر الدين لولو الزنكي اتابك الموصل بين عامي ١٢٣٣—١٢٥٩م

بعد ذلك صار من الميسور أن يصور المصورون المسلمون البراق في مناسبات مختلفة وكثيرة . وان مصادر الروايات عن معراج الرسول صلى الله عليهِ وسلم كثيرة ومتعددة في كل سيرة ألفت بها باب خاص في موضوع الاسراء والمعراج وكذلك كتب التفسير بها تعليقات على هذه الحادثة زد على ذلك المقالات والرسائل الخاصة بهذا الموضوع فان كثيراً من رجال الصوفية أسبغوا عليها تأويلات من عندياتهم

كذلك نرى ان النسخ المصورة من دواوين شعراء الفرس تشمل صوراً للبراق قد عني بها المصورون عناية خاصة لتكون تامة الاظهار والبروز بين الصور المختلفة في الكتب . فمثلاً ديوان المنظومات الخمس للشاعر نظامي وهو من أحب الشعر عند الايرانيين والذي أمكن تصوير موضوعاته، بدأ المؤلف مقدمته بتمجيد الله والثناء على رسوله ثم قص أقاصيصه شعراً ومن ضمنها قصة المعراج التي نصت على رفع الرسول صلى الله عليه وسلم الى مستوى لم يبلغه مخلوق عادي اذ انهُ شهد الحضرة القدسية وعاين من الاسرار ما لم يتح لغيره ان يرفع الستار عنها له ، وفيها فرضت الصلاة على أمته ونال الشفاعة العظمى للمؤمنين وان يكون الواسطة في نجاتهم يوم الدين . اجتذب ذلك عبقرية المصورين وأثار فنهم فصوروا لها الصور والرسوم الفخمة فتخيلوا صورة البراق ومن فوقه النبي تحف بهِ الملائكة وغالوا في ابراز هذه الصورة إذ ليس بين حوادث التاريخ الديني الاسلامي ما يمكن توضيحه بابداع كحادث المعراج هذا

***

والشاهد انهُ لم يعتن بتصوير المعراج العناية الكافية في اي مخطوط مثلما اعتني بهِ في مخطوط المنظومات الخمس السابق الذكر والمحفوظ في مكتبة المتحف البريطاني تحت رقم (Or 2265, fol. 195) فنلاحظ ان المدى الفسيح الذي بين السموات والأرض والمغطى بكشف من السحب البيض يظهر من بينها فرجة بها جزء من السماء الزرقاء الداكنة يمر بها سيدنا محمد صلى الله عليهِ وسلم بأبهة في طريقهِ جالساً بكل راحته على دابته ذات الرأس الآدمية التي لم يعقها ولم يخفها اتساع البراح العظيم الحادث تحتها الذي فيهِ قد تركت الكرة الارضية

تلمع ومن حولها هالة بيضاء وامامه صلى الله عليه وسلم يسير سيدنا جبريل وهو مرسوم بشكل مجنح مليح يقود الركب في طريقه وبين سيدنا جبريل والبراق يوجد ملاك يحمل مبخرة عظيمة معلقة بقضيب ويصعد منها لهب كأنهُ الذهب. وثمة ملك آخر تحت الرسول ومحافظ على جواره طوال السير رافعاً طبقاً مملوءًا بالعطور المحترقة . ومن فوق رأس النبي ملائكة يفرغون اطباقاً من اللآلىء والجوهر والياقوت يمكن ملاحظتها وهي تتناثر من حوله كالشهب الساقطة اللامعة . ثم جمهور من الملائكة تهوي نحوه صلى الله عليه وسلم من السماء حاملين الهدايا المختلفة فواحد يحمل مصحفاً ، وثانٍ حلة خضراء ثمينة (يقال انها لا تزال موجودة ضمن مخلفات الرسول باستنبول) ، وثالث يحمل تاجاً وآخرون يقدمون اطباقاً من الفاكهة وانواعاً مختلفة من الطعام

وان الخيال العام في هذه الصورة لما يثير المشاعر فهي مليئة بالحركة التي توضحها رفرفة عدد عظيم من الأجنحة الملونة

والملحوظ في تصاوير قصة المعراج المختلفة ان أهم الشخصيات فيها صورة النبي صلى الله عليه وسلم راكباً البراق ومن أمامه جبريل عليه السلام وأحياناً صورة الكعبة

وفي نسخة مخطوط معراج نامه المحفوظة في المكتبة الأهلية بباريس رقم (Sup. Turc 190) وهي مخصصة بأكملها لقصة المعراج يرى سيدنا محمد راكباً فوق البراق في حضرة الانبياء المختلفين والملائكة

ولما انحلَّ التصوير الايراني وتدهور في القرنين السابع عشر والثامن عشر أصبحت صور البراق مبتذلة وصار اظهاره غير معتنى به فأضيف الى الشكل السقيم الذي صور به التاج الثقيل على مثال ما كان يلبسه ملوك إيران المتأخرين وكذلك أضيف ذيل طاووس منتشر بدلاً من ذيل البغل العادي

***

ولما كان تصوير النبي بشكله غير مباح في الدين الاسلامي وليس ثمة تعاليم دينية صحيحة بهذا الخصوص ولا يمكن اظهار شخصه اطلاقاً ولكن مع ذلك فان مثل ذلك الموضوع لا يمكن فنياً التجاوز عنه مع ان الدين لا يسمح به ، لذلك فكر المصورون في تلافي ذلك فأحاطوا الرأس بهالة من نور . إما على شكل مستدير واما على شكل لهب لتكون دليلاً على القدسية

وحتى لليوم فأنا نجد صوراً ركيكة للبراق بدون راكبها تصور كثيراً على حوائط القرى المصرية خصوصاً بمناسبة أداء أحد الأهالي فريضة الحج . وكذلك توجد تصاوير لجة مبدئية له تحمل غالباً في مواكب شهر المحرم في بلاد الهند

العدالة والتعدي

لعلي محمد ابو وافية

ضابط بوليس

جبل الانسان بفطرته الى الظلم اكثر من ميله الى العدل ، تدفعه اليه أثرته واطماعه ، فهو دائماً يؤثر نفسه على غيره ، وقلما يقنع بما في حوزته وانما هو دائم التطلع الى ما يملكه الآخرون . وينتج من ذلك التعدي على الغير وما يملك والزحام بين الأفراد والجماعات على الأرض ونتاجها ، وقد يفضي ذلك الى الحرب

لهذا شبّه شوبنهور المجتمع البشري بجماعة من القنافذ اقترب بعضها من بعض التماساً للدفء فكان لا بد ان تخز أشواك القنفذ الواحد جسمَ جاره ، فاستنبطت القوانين لتكون في منزلة اغماد لهذه الاشواك ولتمنع الاحتكاك الذي يولده اجتماع الناس وانطلاقهم في اكتفاء رغباتهم وشهواتهم، من غير ما رادع ولا وازع . ولو أمكن بهذا السبيل وحده أو بأي سبيل معهُ ضمان العدالة الانسانية ورفع الظلم ومنع التعدي لحقّق الفردوس المنشود على الارض

الا ان العدالة لا تستقر في مواد القانون ولا تجد حصانتها فيه وما القوانين الا وسائل أريد بها المحافظة على العدل . وهي وسائل غير كافية وحدها لضمان العدالة ومنع كل تعدٍّ

واذاً فعلينا ان نبحث حدود العدالة الحق ووسائل صيانتها ، فيما عدا القانون ، اي في نفس الانسان . وللناس في العدالة مذاهب شأنهم في كل شيء

فنرى من أتباع تراسيماخس من يقول: «ان العدالة هي فائدة الأقوى» . ونرى من أتباع « نيتشه » من يقول قوله : « حقّـاً اني ضحكت مراراً من الضعفاء الذين يحسبون انفسهم صالحين من غير براثن».ونرى أتباع مكيافلي يقولون «ان الفضيلة هي الذكاء مع القوة » واذا أفرغنا الموضوع في قالب عصري قلنا ان « قبضة قوة خيرٌ من قنطار حق »

فهل نطلب القوة أم نطلب الحق ؟ وهل خير لنا ان نكون عادلين ام أن نكون أقوياء ؟ يرد أفلاطون على اصحاب هذه المذاهب بقوله « انها أدب استنبطهُ الضعفاء ليعدلوا بهِ قوة الأقوياء» وهذا افلاطون يرى ان العدالة في الدولة هي أن يلزم كل فرد العمل الذي يحسنهُ وان يأخذ منها قدر ما يعطيها فالرجل العادل في الدولة هو الذي ينزل في منصبه المعدله وفيه يعطي

الدولة قدر ما يأخذ منها. والعدالة في الفرد هي التعاون الفعّال المتزن بين العناصر المختلفة التي تتألف منها طبيعة الانسان . فكل امرىء عالمٌ من الرغبات والشهوات والآراء والعواطف ، فاذا اتسقت هذه الظاهرات النفسية وتعاونت بدا صاحبها رجلاً حكيماً عادلاً ، واذا اختلّ التوازن بينها تصدّعت اركان الشخصية الانسانية وتطرق اليها الفساد ، فالعدالة هي النظام والجمال في النفس وهي في النفس بمقام الصحة في الجسد هكذا يرد افلاطون ردًّا ابديًّا على ثراسياخس في عهده وعلى نيتشه ومكيافلي ومن يتبعهم في القديم وفي الحديث بأن العدالة ليست هي القوة المجردة ولكنها القوة المتسقة ، ليست حق الأقوى ولكنها تعاون جميع الاجزاء تعاوناً فعّالاً متسقاً على ما فيه خير المجموع

واذا قابلنا بين العدالة والتعدي ألفينا الاولى فطرة صالحة وهي مصلحة المجتمع وألفينا التعدي فطرة ضارة سيئة هي مصلحة الفرد وفائدتهُ الشخصية . ووجدنا ان العادل صالح وحكيم والمعتدي شرير أحمق وان العادل لا يتجاوز نده بل ضده ، أما المعتدي فتجاوز الاثنين . وفي العدالة حكمة وفضيلة وفي التعدى جهالة ورذيلة . فالعدالة أقوى من التعدي ، وحتى الدول الغاصبة أو المستعمرة لاغنى لها عن التزام العدالة . والتعدي ينشىء انقساماً وبغضاً بين الانسان وأخيه يستحيل معه التعاون في العمل ، أما العدالة فتوثق أواصر الصداقة والوفاق بينهما ، والعادلون أوفر حكمة وفضلاً وأوفر قوة على العمل متساندين أما المعتدون فيتعذر السير معهم ولا ينجو أحد منهم من صاحبه الاَّ اذا كان في نفوسهم بقية من عدل تؤذن بالتئامهم . أما الذين تفاقم شرهم وفقدوا العدالة والانصاف كل الفقد فيستحيل عليهم التعاون والاتفاق

اذا أقبلت الحكمة أدبرت شهوة الطمع والتعدي وبالتهذيب الحق يمكننا سيادة القسم الشهوي الذي يؤلف الجانب الاكبر من نفس الانسان ، وقد تنفع الرياضة والموسيقى في تنسيق القوى النفسية مع التهذيب والحكمة والقانون . ولما كانت العدالة فضيلة بل أم الفضائل ، والفضيلة الأخلاقية ليست الاَّ وسطاً بين رذيلتين احداها الافراط والأخرى التفريط ، لذلك يجد الانسان شقًّا في ان يكون فاضلاً او عادلاً تماماً لأن ادراك الوسط في كل شيء من أصعب الأمور ، لذلك كان اول ما يعنى بهِ من يريد اصابة ذلك الوسط القيم هو البعد عن التعدي ويمكننا ان نعمل هنا بنصيحة كاليسو :

بعيداً جدًّا عن هذه الصخور وهذا الدخان . . . سيّر سفينتك ... لأننا بابتعادنا بكل قوانا عن التعدي نقف في الوسط ومن لا يحيد الاَّ قليلاً عن الخير لا يستهدف للشر

جوّ القمر .

ورأي جديد في اصل الفجوات

التي على سطحهِ

تبدو على سطح القمر فجوات ذهب العلماء في تفسيرها وتعليلها مذاهب شتى . وأشهرها مذهبان . أحدهما يسندها الى انها فوّهات براكين كانت ثائرة فخمدت . والآخر الى انها نشأت من اصطدام الشهب بسطح القمر فأنشأ الاصطدام هذه الفجوات . ولكن الدكتور روي مارشال Roy K. Marshall احد أعضاء معهد فرانكلين الاميركي ، نشر من عهد قريب رسالة دقيقة البحث في أصل هذه الفجوات فأيد الرأي الاول واستبعد الرأي الثاني

والحجة الاولى التي يستند اليها في تأييد هذا القول ، ان للقمر جوًّا كجوّ الارض ، لا بدّ للشهب من اجتياز اطباقه قبل وصولها الى سطح القمر ، وفي خلال اجتيازها يولد الاحتكاك او الفرك درجة عالية من الحرارة على نحو ما يقع للشهب عند ما تدخل جو الارض ، فتحترق قبل وصولها الى سطح القمر في الحالة الاولى ، أو الى سطح الارض في الثانية

وعنده ان عجز العلماء عن مشاهدة بريق الضوء الناشيء عن اصطدام الشهب بسطح القمر هو أقوى دليل على ان هذه الفجوات ليس مردها الى هذا الاصطدام . نعم انهُ ليس من المحتمل ان يكثر اصطدام شهب كبيرة بسطح القمر ، ولكن حتى اذا كانت الشهب صغيرة فان سرعتها تجعل بريق الضوء الناشيء عن الاصطدام مما تسهل مشاهدتهُ بالمراقب على سطح الارض . وضرب مثلاً على ذلك بقولهِ ان جسماً شبيهاً بالشهب حجمه بوصة مكعبة وسرعته عشرون ميلاً في الثانية — وهي متوسط سرعة الشهب — يصدم سطح القمر صدمة تكفي لاحداث انفجار يرى بريقهُ بالمراقب من سطح الارض . ولما كان علماء الفلك قد عجزوا عن رؤية بريقٍ من هذا القبيل فذلك دليل على ان سير الشهب يُصَدُّ بغلاف غازيّ ما ، فإما ان تتلاشى الشهب في اثناء اختراقهِ وإما ان تخفض سرعتها فلا تشاهد ألقة الضوء الناشئة عن الاصطدام لضعفهِ وضعفها . ومع ان غلافاً غازيًّا من هذا القبيل يحيط بكرة القمر ، لا بدّ ان يكون ألطف من الغلاف الغازي الذي يحيط بكرة الارض ، لضعف جذب الكرة الأولى بالقياس الى

قوة جذب الكرة الثانية، الاّ ان ارتفاع غلاف القمر الغازي فوق سطحهِ يكون اعلى من ارتفاع غلاف الارض الغازي فوق سطحها. وعلى ذلك فطريق الشهاب في اختراق ضوء القمر الى سطحهِ يكون أطول من طريقهِ في اختراق جوّ الارض الى سطحها. ولذلك يكاد يكون من المحتمل العظيم الاحتمال ان يحترق الشهاب في اثناء سيره هذا، مع لطف الجوّ ومع ان خط الضوء الذي يدل على سيره وهو يحترق لا يكون على جانب كافٍ من الاشراق لرؤيته من سطح الارض

ولذلك يفضل الدكتور مارشال الاخذ بالقول الآخر في اصل الفجوات التي على سطح القمر اي ان هذه الفجوات أصلها فوهات براكين كبيرة خامدة الآن أي إنها كؤوس براكين. وقد كانت في العصور الغابرة تقذف الحمم فتنساب مصهورة على جوانب البراكين الى النجود التي تحيط بها وهي التي يطلق عليها علماء الفلك وصف «البحار». وهذه البحار تشبه نجود اللابة Lava التي في اميركا الشمالية والبرازيل والارجنتين والهند ومنها ما مساحته ٣٠٠ الف ميل مربع

وثمة دليل آخر على نشاط الحركة البركانية على سطح القمر في العصور الغابرة وهو وجود ما يسمى لاكوليث Lacoliths وهي قباب من اللابة اندفعت الى السطح عندما كان باطن القمر مادة مصهورة مائعة. وليس هناك ما يدلُّ، في رأي الدكتور مارشال، على ان النشاط البركانيّ في القمر كان اعظم منهُ في الارض، فكثرة الفجوات والقباب البركانية على سطحهِ بالقياس الى ما يقابلها على سطح الارض، مردُّها الى انتفاء عوامل التفتت على سطحهِ. يقابل هذا ان التفتت على سطح الارض شديد بفعل الهواء الكثيف المثقل ببخار الماء

***

«... وجرم القمر مثل جزءٍ من ٤٩ جزءًا من جرم الأرض أي أن الارض تساوي ٤٩ جسماً مثل القمر ووجههُ ليس على تمام الصفاء ولو كان بدراً. فاذا نظرنا اليه بنظارة صغيرة رأينا فيه بقعاً منيرة وبقعاً مظلمة . . . ولما رئيت هذه البقع عند أول اختراع النظارات ظن أن المظلمة منها بحار فسمّيت بأسماء مختلفة مثل بحر الانواء وبحر الزمهرير وبحر الغيوم وبحر الرطوبات وبحر الرحيق وبحر الخصب. أما الآن فثبت أن القمر خالٍ من الماء وأن البقع المظلمة سهول فسيحة ولكنها لم تزل تسمى بأسمائها القديمة. واتضح أن البقع المنيرة جبال عالية وما فيها من نقط سود منخفضات في تلك الجبال ككؤوس البراكين الارضية. والمرجح أن الجبال كانت براكين ثائرة في سالف عهدها والمنخفضات التي فيها كانت بحيرات من المواد المصهورة وبراكينهُ أكثر وأكبر من براكين الأرض. فقد رسم أحد الفلكيين ٣٣٠٠٠ بركان ووجد ان الفاً منها سعة الواحد منها تسعة اميال ...» [عن بسائط علم الفلك صفحة ٤٠]

حديقة المقتطف

رابندرانات تاجور

الفصل الثانى

الشاعر العالمي الملهم



لمحمود المنجوري

تاجور الشاعر

العالمي الملهم

لمحمود المنجوري

جدير بمن يكتب في تاجور الشاعر ان يضع أمامه صورة تاجور الموسيقي الفيلسوف فني الحق لست بقادر على انتزاع الناحية الشعرية من شخصية تاجور لأن الشاعرية فيه أصل متصل بشخصيته كموسيقي ملهم وكفيلسوف عالمي وكمصور وفنان رمزي منقطع النظير

على ان تاجور يأبى ان يكون متفلسفاً في شعره، وان كان شعره فلسفة في ذاته، لأنه تفكير عميق، وحديث معاد الى النفس. سمعته يتحدث الينا في مسرح الحديقة يوم احتفت به مصر في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٢٦ يقول:

« لقد احتفل بي شاعركم (١) فأعانني بذلك على ان أنزع عني لباس الفيلسوف، وأحدثكم كشاعر. وإذن فلا يتوقع أحد منكم ان أتحدث في فلسفة الهند . . . لقد وقفتم على بعض أمري، وأحسبكم تريدون بحضوركم الى هنا أن تروا شخصي، لتحضركم صورته ساعة قراءتكم شعري، لتكون عندكم من الشاعر الذي تقرأون أتم صورة ممكنة. ولقد يحسب بعضكم فيما قرأ مني أني فيلسوف، وربما كان لي حقاً من الفلسفة حظ ونصيب لكنه ليس حظاً يفيض على شعري ويبعث بقصائدي الى قاع سحيق تغمره مياه المحيط فلا يرى من خلالها، إلا كما ترى الاسماك الصغيرة تائهة وسط اللجة العظيمة. انما أنا ككثيرين من أهل الهند، وفلسفتي لاتتعدى فلسفة الشعب. وتلك عندي فلسفة الشاعر ... »

« من أناشيد الريف عندنا أغنية الطائر المجهول، وفي هذه الانشودة يدعو أهل الريف الطائر المجهول فلا يجيب الدعاء، ولا يعرفون من أمره إلا ما يدلهم عليه تصورهم. أما العقل فيعجز ولا يستطيع ان يصل الى شيء. هذا الطائر المجهول هو اللانهائية التي نتصورها ولا نلمسها إلا بعد الانلاك في البحث عنها »

« ولقصائدي السمك مثل أغنية الطائر المجهول، أناشيد في الجمال لا تتدانى الى الوصول اليها أفكار الفلاسفة. فالفلاسفة يحددون الجمال ويضعون له قواعده وتعاريفه. أما الساذج فيراه بعينه في هذا البحر المضطرب الموج، وفي هذه السماء الصافية آناً، الغائمة آناً آخر. وهذا الذي يراه الساذج هو حقيقة الجمال. أما تلك التعاريف والحدود فليست في شيء من الحقيقة »

« والوصول الى الحقيقة وسيلته الشعر، فالشعر هو جواب الروح الخالدة، نداء للحق الكائن في كل مكان، والشاعر هو الذي يرى الحقيقة ويحسها ويبينها »

« الحقيقة كما هي وليس كما يزينها الوهم. والحقيقة من حيث هي جمال ليس يدانيه جمال. ألست ترى الى صورة امرأة عجوز أبدعها فنان ماهر؟ إنك تنظر الى الصورة فتعترف بجمالها، لكن المرأة العجوز ليست

(١) المغفور له شوقي بك

على شيء من الجمال . ولكنه جمال الصورة ، انها تمثل هذه العجوز على حقيقتها . فالجمال إذن هو في الحقيقة لذاتها واذا عرفنا الحقيقة تفتحت لنا الابواب عن جمال الحياة . واذا عرفنا الحقيقة كنا أحراراً ، وكنا الشعراء ، وشخصيتنا هي أول حق فينا . وهذه حقيقة تبدو لنا دائماً ونسعد بها أبداً . ونرى أنفسنا فيما نحب ومن نحب ، ومن ثم كانت سعادة الحب في حرية الشعور »

« وبين الروح التي تتصل بحقائق الاشياء والادب الذي يعبر عن المشاعر اتصال دقيق ، فكلاهما يحس الحياة الخالدة ويعبر عنها . وإنك لتجد في أغنيات العامة ممن طهرت أرواحهم معاني هذا الخلد . أتحسب حبة القمح غاية لذاتها . كلا ! بل هي واحدة في سلسلة خلد حياتها . ألست تراها تتفجر من حياة حبات من القمح . تتفجر كل منها مثل ما تفجرت الحبة الاولى . ونحن في نظام الحياة كهذه الحبة ، وروحنا تتصل بروح الكون كما تتصل قوة الحياة في الحبة بقوة الحياة في القمح جميعاً »

« وكلما انفسح أمامنا مدى الحب كنا به أكثر سعادة . فليس الابن عزيزاً على أبيه لذاته ، ولكن لان الاب يرى فيه نفسه . هو يرى فيه خلد حياته لأجيال مقبلة . ويرى لذلك اتصاله بالاشياء أكثر صدقاً ودقة ، وانه لذلك يمعن في ادراك اللانهائية أكثر مما فعل من قبل »

« هذه الفلسفة الهندية تصور الحرية على أنها كمال الاتصال بما يحيط بنا . فاذا نقص إتصالنا نقصت حريتنا ، وهذه الفلسفة هي ما نسمعها في أغاني أهل الريف والقرى . ولقد تأثرت بها في بدء حياتي الشعرية أكبر تأثر ، ورأيت ما يرونه من ان الله يخاطب الناس عن طريق الموسيقى ، وانه أودع هذه الموسيقى في الازهار والنجوم وسائر خلائقه . ثم تقابلت بعد ذلك بأفراد لهم اتصال بجمال الروح العليا فازددت بفكرتي إيماناً »

« ولقد كان لحادث حدث لي في سن الثانية عشرة أثر كبير في حياتي الشعرية . ذلك أني كنت يوماً وأنا في هذه السن أرقب الشمس تغرب وراء صف من الشجر ، فتحدثت الى نفسي ، أليست الشمس تطلع غداً لتغرب ويتجدد مطلعها ومغربها ، وهي أبداً باقية ؟ كذلك نحن نطلع ونغيب ولكننا أبداً باقون في اللانهائية الشاملة لكل ما في الوجود »

فأنت ترى ان تاجور عندما أراد ان يحدثنا عن نفسه كشاعر لم يستطع ان ينزع عن نفسه لباسَ الفيلسوف كما وعد في مستهل حديثه . ولكننا ظفرنا منه بأن حظ شعره من الفلسفة لا يلقي عليه غموضاً ولا يجعل ما فيه من الحقائق تائهاً في غمر من الغموض ، فلا يُرى الاّ كما تُرى الاسماك الصغيرة وسط اللج العظيم . وظفرنا منه بأن فلسفته كشاعر ، انما هي فلسفة الرجل الساذج الذي لا يدرك الحقائق من طريق المنطق والعقل ، وانما يدركها من طريق التصور والايمان . وان الشعرَ انما هو استجابة للروح التي تبحث عن الحقيقة والجمال ، وان الأدب هو أسلوب الروح وطريق اتصالها المستمر بحقائق الاشياء .

فمرد الشعر عند تاجور ليس في عذوبة الخيال وجلال التصوير ، وانما مرده في الاتصال بحقائق الاشياء ، من طريق التصور والالهام الموسيقي ، الذي يستوحيه في المرئيات التي يدركها بحسه وشعوره ، فنواحي الشعر في تاجور ليست نواحي شعرية خالصة ، تستهوينا بعذب لفظها وجمال خيالها ، وانما سمو الفكرة ، وجلال الحقيقة معَ روعة الخيال وجمال الاطار الفني للصور التي يريد ان يصورها قلبه الواعي الكبير ، هو طابع تاجور الادبي

وهو وان قرر في خطابه أثر البيئة الهندية فيهِ ، فهو ليس بشاعر هندي ، وانما خلقت منه البيئة الهندية شاعراً انسانيًّا عالميًّا ، يلتمس البساطة واللين ، ويكره العنفَ ويأباه

ويبحث عن الحقائق ليصل اليها بأسلوبه الخاص ، هذه الحقائق هي أصل من أصول الفكرة الأدبية في شعر تاجور . وهو يرى بيئته التي تكفله صورةً للعالم جميعاً . فهو متصل بقلبه بالبيئة التي يعيش فيها ولكنهُ عندما يعطي هذا القلب الكبير لا يعطي البيئة التي أخذ منها وحدها وانما يعطي العالم كله كأسرة واحدة بل كفرد واحد . كانسان . وهو انما يخاطب الانسان على انه حقيقة حية خالدة في سلسلة متصلة الحياة بالوجود : —

« يجب علينا ان نذكر دائماً ان شخصيتنا مدفوعة بفطرتها الى البحث عن الشيء الجامع العام ، وان أجسامنا لتبيد وتنمحي اذا ما تغذت من نفسها ومن قواها المحدودة » (١)

« أي الهي إني ضللت السبيل في متابعة تلك الاصوات البعيدة التي تقودني الى مكان سحيق لا نهاية له
دعني أجلس يا إلهي في هدوء أستمع في رفق الى كلماتك اللاهجائية التي تتعالى في ذات صمتي وسكوني
إني أبتغي وجه الحقيقة دائماً . ابحث عن وجهك الجميل ، إلهي . لاتحجب نورك عن أسرار قلبي المظلمة.
أشعلها ليستنير قلبي بنارك المقدسة » (٣)

وهو يرجع فلسفة شعره الى فلسفة الشعب ، الى فلسفة البيئة التي تلهمهُ وتغذي فكره وخياله فما أكبره من شاعر يكبر وطنه الى مكان عزيز كريم ، ولا يتعصب له فيأخذ منه ليجودَ على العالم ، وطنهِ الكبير . ويرجع وحيه الى الكائن الملهم الخلاّق الذي تدعو اليهِ أديان الهند ، دعوةَ ايمان وحب وحرية ، وهو يرى من الصور التي تصدر عن نفسية الشعب حقيقة الفلسفة والشعر ، فأغاني الشعب هي مصدر صادق الحس لعاطفته وايمانه الشعري . ولهذا يدعو تاجور الى ان يتصل الشاعر بالاشياء التي تحوطهُ اتصال بحث ومعرفة ، وحب وايمان ، ليكون الشعر جواب الروح ونداء الحق ، ويرى شاعرنا ان أساس الحب هو المعرفة ، فليس لنا ان نحب شيئاً الاّ اذا عرفناه ، وشخصيتنا هي اقرب شيء الى معرفتنا ، ولهذا وجب على الشاعر ان يدرك شخصيته ويحللها ، ويحب فيها الخير ، ويرى منها مصدر الحق والكمال والجمال ، ويرى ان النفس التي تحب هي النفس التي تتمتع بأكبر حظ من الحرية

هذه الدعوة التي يدعو بها تاجور الى استكناه الشخصية وجعلها مصدراً للنظر والتفكير والقوة والكمال ، ليست كالدعوة التي نادى بها نيتشه الفيلسوف الالماني في القرن التاسع عشر ، تلك الفلسفة الصارمة التي وضعت اوربا فوق البركان ولكن دعوة تاجور هي دعوة الحب والخير والسلام ، هو يدعو الشاعر ان يجعل من شخصيته حرثاً لبحثه ونظره وتفكيره وتأملهِ . وفي الحق ان هذه الدعوة ليست الاّ مذهباً هنديًّا قديماً ، بل انها أقدم دعوة دينية سادت الهند . فلو انك بحثت في تعاليم « يوبانيشاد » وهو سفر الفلسفة الهندية القديم ، لرأيت هذا الذي يدعو اليهِ تاجور صريحاً جليًّا . فاليوبانيشاد يبحث عن سر الفرد في روحه ، ويدعو الانسان الى ان يخلص نفسه من مظاهر الحياة الباطلة ، من الانانية والاثرة والعنف والانتقام ،

(١) سعد هانا : بحث في علاقة الفرد بالجماعة (٢) رسالة الهجران

ليحل فيه المخلوق الطاهر النقي ،او الجوهر الاوحد العام الذي يطلقون عليه اسم (برهمان)

فالبيئة الهندية والفلسفة الهندية خلقت من تاجور شاعراً انسانيًّا عالميًّا ، يخاطب البشر كافة ، يدعوهم الى الايمان برسالة يحملها . وهو ملهم منذ شبابه لم ينحرف عن رسالته الشعرية قط ، ولقد بحثت في شعر تاجور فلم أعثر على بيت واحد مدح فيه أميراً أو سلطاناً أو أذل كبرياءه لأية قوة ، بل انهُ مع تواضعه ولينه عظيم متعالٍ يحب السموّ في تواضع ويكره العنف ويأبى الرياء بل أنه لايعرف العداوة لأحد ، ولم يؤثر شعباً على شعبٍ ، بل يرى الشعوب متضامنة في الخير والمدنية والحقوق والمساواة (١)

وقصائده التي نظمها في سلك شبابه لم تكن الاَّ هذا الوحي الغزلي الذي يشعل مجامر الحب العفيف الذي يدنو بالقلب الى العبادة والتقديس ويلهمه العطف والخير والجمال(٢)

ولقد تأثرت هذا الشعر في جميع مراحل تاجور فلم أجده الاَّ وحياً صافياً لروح جامعة عامرة بالحب والايمان متعطشة لمعرفة ماوراء الغيب (٣)

فشعر تاجور هو شعر عالمي يعيش في كل وطن وبيئة وفي كل لغة وفي كل أسلوب ، لأنهُ ليس حيًّا بلفظ تاجور الساحر ، ولـكنه حي بمعانيه ،ووحيهِ وسمو رسالته ، وحيويته التي لاتنضب.فالشعر العالمي ليس الاَّ رسالة بشرية تؤدَّى أداءً انسانيًّا صادراً من قلب الحياة ذاتها لتقود الحياة أجيالاً طويلة الى خيرها ومتاعها الروحي . والشاعر العالمي ليس هو مبدع الالفاظ ذات الجرس المرتل ، وإنما هو ينبوع حي متدفق لايقهر ، نافذ الى مايطمح ، غلاب قاهر دون عنف ، باحث عن الحقيقة والخير والجمال ، مدركٌ لها أسرار الحياة

ربي . إله البشر جميعاً تنزهت عن كل لون وجنس . يا مهيمناً على جميع الامم وان اختلفت ألوانها . وحد قلوبنا وألهمنا تبادل المحبة . وأيدها بروح الحق والعدل

على إننا نستطيع لأول مرة في دراستنا لتاجور أن نرد شعره الى مصادر أدبية منها

مصادر شعر تاجور

[أولاً] — قوة الشباب واليقظة والحياة المتجددة ، فأنت ترى هذه العوامل حية حساسة في جميع اشعاره في مراحل حياته جميعاً يبحث عنها ويحن اليها كمعين دائم لشعره

« لقد كنت عندما أنطوي الى كنزي المدخر ، كالحشرة التي تعيش في الظلام تتغذى منذ ولادتها على بالثمرة التي تصادفها من حولها »

ثم انطلقت من سجن الفناء ، من هذا السكون المرهق الممل ، باحثاً عن الشباب الابدي ، دافعاً عن نفسي ما لاينسجم مع حياتي ، باحثاً عن ابتسامات متفائلة تنيض بالبهج والنور

فيا قلبي . أنا من انطلق في شعاب الزمن في رفقة شاعر يقود عربتك وهو يغني في رقص وطرب أثناء رحلته . أنا دائماً المتفائل بالحياة »

على أن شعر الشباب وما فيه من غزل عفيف وسمو روحي وأخيلة جميلة وموسيقى

(١) البيت والعالم لتاجور (٢) البستاني وشترا وهبة العاشقين لتاجور (٣) القربان الشعري

تشيع فيه فنًّا وجمالاً ، وكذلك ما انتاب شاعرنا من أزمات نفسية في شبابه عبر عنها بمزيج من اليأس والأمل واللهفة والايمان ، كل هذا الذي قاله في شبابه لا يزيد قوة ويقظة وحياة وتجدداً عما قاله في كهولته أو شيخوخته فكله قد صدر عن قلب ملهم لا يشيخ

وليس شعر تاجور الغزلي بهذا الشعر الذي تحن اليه العذارى فتقرأه في لوعة الحب وثورة الغرام ، ولا بهذا الذي يرتله الشباب في ميعة الصبى ونشوة الهيام ، ثم لا يلبث ان يطوى نسياً منسيًّا ، وإنما شعره الغزلي قدس للحب ، وديوان للحياة ، يضم بين دفتيه ما يهفو اليه الشباب وما يحسه وما يلمسه ايام حياته المبكرة ، من ألم وأمل ، ولذة وفشل ، وتطلع وانطواء ، وخيبة ورجاء . فهو يصور نزعات البشر في مراحلها الاولى ، وهو يبحث عن مناه وسط بستان الامل النضير ، ويحوي هذه الاغاني الحزينة التي رتلتها جموع الضحايا وهي تسير الى محراب الحب القدس ، بل انها الاغاني التي سترتلها جموع البشر مادامت الحياة وما دام الحب . فيه صوت الأمل وفيه نذير الخيبة والفراق .. وفيه العودة الى الحب واليقظة المتجددة لقلوب البشر . وفيه الجرس الموسيقي الدائم الترتيل الذي يسمعنا انغام الحب التي لا تفنى(١)

[ثانياً] — جمال الطبيعة . ولقد كان لخصب خيال تاجور وسمو روحه وصدق عاطفته وصبره ودأبه على استكناه اسرار التأمل في الطبيعة ما ألهمه حقيقة الجمال ، على انها صفة من صفات الله صادرة الى الكون دليلاً على قدرة أزلية للخلق والابداع . ولقد أقبل تاجور على الطبيعة بنظره وقلبه ، وكانا على ظمأ فوردها حتى أصابا منها الري . أقبل تاجور على جمال الطبيعة واتصل منسجماً بها فأحس الحرية الكاملة . وآمن بأن كمال الاتصال بما يحيط به والاندماج في الكون اندماج اللحن في الأغنية الكبرى . آمن بأن هذا الجهد الروحي هو تعاون للوصول الى الحقيقة . والوصول الى هذه الحقيقة هو المتاع الحق بالحرية والجمال . ولبلوغ هذه الغاية ولاكتناه الحقيقة التي تقفل أبوابها أبداً دوننا يجب ان نبحث وان نطيل البحث وان نتأمل ، وان نتصل بالاشياء المحيطة بنا . فاذا اتصلنا بالاشياء عن طريق روحنا كشف لنا عما فيها من سر وجمال ، وأسلمتنا للحق المطلق ، وعندئذٍ نشعر بها تمام الشعور ونحس هذه اللانهائية المنتشرة في الكون كله والتي لا نراها بعين غير عين الروح . وانك لتقرأ الوصف في شعر تاجور ، فتلمس بحسك واحساسك وبصيرتك جمال الحقيقة في اطار صادق يبرز المعاني التي يريدها الشاعر ابرازاً حقيقيًّا ، وترى الالوان منسجمة مع الاضواء المختلفة التي تضفى من روح الشاعر الكبير . فقلب تاجور هو مرآة مجلوة للطبيعة تنعكس عليها بأسرارها ، ولكنهُ انعكاس حيّ ، ترى فيه الصورة ذات عناصر حية من ألوان وأصوات وأضواء

(١) أشعار تاجور في البستاني وهبة العاشقين والهجران وشترا

وهو يحب الطبيعة ويلجأ اليها منعزلاً مفكراً متأملاً ، ويجلس بين أحضانها منفرداً يستكنه أسرارها ومباهجها ويستمع الى أصواتها المتعالية من صمتها الأبدي — وهو يحس في تأمله بعظمة الحقيقة وسر إبداع الكون . وكانت الطيور تألفه في مجلسه فتهبط بين يديه كأنه قطعة من ذات الطبيعة ، وكان يتركها في عبثها مصغياً الى ترتيلها دون أن يزعجها ، وكان لا يبرح مكانه حتى يسمع من الصمت موسيقى تنطق بالحس وبالحقيقة ، ومن الجمود حركة تهمس بالشعر والحكمة . وكان يؤوب الى داره مفكراً مرتلاً أناشيد جديدة ، فتاجور شاعر تمل برحيق الطبيعة دائماً ، وهو يصف وقفة الشاعر أمام الطبيعة :

« بينما تمر الدهور ، وتنطوي الاحقاب ، وتتبدل الفصول عاماً تلو عام ، وتتأثر النحل الصيف أينما حل بالبساتين ، وبينما القمر يغازل الزنبق والاقحوان في سكون الليل وهدوئه ، وبينما يلهب البرق بقبلاته المحترقة خدود السحاب ، يقف الشاعر وحيداً في زاوية منعزلة ، يناجي بصمته الاشجار والازهار والهواء والنجوم . يقف صامتاً كأنه يرى في قلبه وسط أحلامه وتصوراته زهرة تتضاءل وتذبل كما يتضاءل نور القمر المنير ، ويحس أنه يهيم في فضاء الله الفسيح كما يهيم الصيف لامهبط له ولامستقر

« واذا ما أتى أول مساء من الربيع ، وطلع القمر من الافق الغربي كأنه فقاعة ظهرت اثر غرق الشمس في دارة الافق ، واذا ما خرجت القروية تروي نبات الحقل بماء المساء ، وأختها تطعم بيدها الناعمة ظبيها الغرير ، وجارتها تداعب طاووسها المختال . يقف الشاعر يتغنى :

« ألا فانصت يافؤادي لاسرار الوجود ، هذه زهرة السوسن ما اصفرت وجناتها إلا لما بها من حب وهيام بذلك القمر المنير ، وهذه زهرة اللوتس ما ابتسمت بثغرها الحلو واسفرت عن خدود ريانة ناعمة إلا لتحيي الشمس منبع الحياة وسر الوجود . ألا ان الجمال حقيقة سافرة لكل ممعن متدبر

وإن لهمس هذه النحل باذن الياسمين ساعة الصباح الهادئة لمعنى ملتوياً عليه . ولكن الشاعر يدركه وتغرب الشمس وتتوارى في أفق مورد ملتهب ، ثم يحبو القمر متكاسلا في دلال بين الشجر ، بينما يمر النسيم مسراً الى اللوتس ان يأخذ من الشاعر حذره ، وتصفق العذارى مع الشباب في طرب وغناء :

أقبل الربيع سر الامل

ثم يتبادلن اللحاظ في فتنة ثم في صيحة عالية :

يا أسرار الحب هيا انطلقي وفيضي من قلوبنا الى الفضاء الفسيح

وصفحة الطبيعة انما هي « لوحة متجددة الجمال يرقبها الشاعر بمنظار الهامه ثم يفصح عنها بترنيم وتلحين وموسيقى دون استعمال أصباغ او ألوان »

واليك صورة من صور الطبيعة أبرزها تاجور في إطار جميل :

« . . . والسماء الممسية تبدي نجومها في دأب لا ملل فيه ، هي كل مساء جديدة العهد بنجومها ، كالطفل يأخذه الدهش كلما أعاد الكلمة التي بدأ بها نطقه وهو لايزال يتلعثم منه اللسان غير مفصح لما ينطق ولكنه يصغي الى منطقه في سرور متدفق وبهج فياض

والليل الممطر تشتد فيه الظلمة ، وتكثف فوق المروج . وتحتجب الارض الناعسة بحجاب من فوق حجاب يزيده المطر طلاً ورذاذاً . هذا النسق المطرد ، لم يكن غير صوت الطبيعة جهرت به فغضبتها ثم ترى في هذا الليل الحالك الاشجار صفات متشحة بسلاب من الظلام ، والادغال مبعثرات متعبات فوق المرج خائرة مسلوبة الهامات ، كأنها رؤوس مبتورة عن أجسادها تعوم في يم متقاذف اللجج لا تبدي غير الشعث والذعر . وتنتشر من فوق هذا روائح الحشائش رطبة خانقة والارض منداة من حولها . ثم ترى المعبد مشرفاً بهامته وجلاله فوق هذا الليل نافذاً في الظلام وقاره باسطاً رهبته على المساكن والخيام المتجمعة في القرية . هذه صفحة ترقبها الطبيعة من تلقائها كل مساء ينظر اليها الموسيقي فتلهمه لحنه والشاعر فتسعفه بنظمه والمصور فترصد له الالوان والاصباغ » .

على ان الطبيعة ليست هذه المرئيات التي تملأ الوجود بجمالها والتي خرّج منها العلماء ظواهر وقوانين علمية ، ولكن الطبيعة أعمق مما يقول عنها هؤلاء العلماء . وما هذه الظواهر التي خرجوا منها قوانينها التي تسير عليها الطبيعة ، ما هذه العلوم كعلم الفلك والضوء والمغناطيس والكهرباء والسرعة والحركة والكيمياء وطبقات الارض والنبات والحيوان وعلم النفس الاّ المظاهر الواضحة التي استطاع الانسان ان يبرز فيها قوة عقله ومدارك ذكائه ، ولكن للطبيعة ناحيتها الباطنة حيث تستكن فيها روح القدرة المبدعة الكائنة التي تشمل الحياة والانسان بانسجامها العام الذي يربط جميع الكائنات برباط وشعور واحد ، هذه الطبيعة هي التي شغلت ادراك تاجور فتكلم عنها في محاضراته واستوحاها في شعره وفلسفته. ويقول تاجور في هذا :

« ولما كان على الانسان ان يتصل اتصالاً مستمراً بالنمو الحيوي للطبيعة التي حوله ، أصبح عقله حراً طلقاً غير مقيد بالرغبة في ان يمد ممتلكاته ويحددها ببناء الاسوار ، ليحصر مقتنياته في حوزة هذه الاسوار (التي يسميها البيئة او الوطن) لم تكن رغبته في التملك والحيازة ، ولكن كانت رغبته في فهم الاشياء وإدراك حقيقتها وتوسيع نفوذ ضميره عليها بأن ينمو هذا الضمير نمواً متصلا باتساع آفاق الطبيعة التي تحيط هذا الانسان . وشعر بان الحق هو ادراك شامل للكائنات ، وإن التفرد المطلق كائن لا يشبهه شيء في الوجود ، وإن السبيل الوحيد للوصول الى الحق ، انما في ان نتخلل بنفوسنا كنه الاشياء لندركها . ولقد كان إدراك هذا الانسجام بين روح الفرد وروح العالم هو الجهد الذي بذله حكماء الهند القديمة منذ سكنوا الغابات وأقاموا لهم فيها مدنية خاصة لا تعرف حدود المكان والزمان كما كانت مدنية الاغريق القديمة التي نشأت في المدينة بين الجدر والاسوار »

هذا ما يقرره تاجور في محاضرة القاها على تلامذته في حديث له عن «علاقة الفرد بالمجموع» استعرض فيه المدنية الهندية منشأها وحقيقتها واثرها في تكون فلسفة الهند وقد نعود اليه بعد حين حينما نتكلم عن الوحدة الروحية والمساواة في فلسفة شاعرنا الكبير

واقوال تاجور في الطبيعة شائعة في مباحث كثيرة له ، واليك فقرة من محاضرته التي عنوانها «ادراك الجمال» انهُ يقول فيها

« والصدق ملكة نتوخى بها معرفة قوانين الطبيعة ، بينما ملكة تذوق الجمال هي التي ندرك بها ما في الطبيعة من ائتلاف وانسجام . وعندما نستخرج القوانين من الطبيعة نبسط ولايتنا على القوى الطبيعية فنصبح أقوياء بهذه الولاية العلمية ، وأما عندما نستنبط بواطن القوانين من ادراك طبيعتنا الادبية للكائنات فنحن نبسط ولايتنا على النفس ونصبح أحراراً بهذه الولاية على مداركنا ، وهكذا على قدر ما ندرك من أسرار طبيعية ، وعلى قدر إيلافنا مع قيمها ننال لذة التعرف بأسرارها ونصيب منها مسرة روحية جامعة تصبح طابع أدبنا وفنوننا وفلسفتنا »

[ثالثاً] — الموسيقى : وكما ان الطبيعة كانت مصدر شعره . فهي ايضاً مصدر الهامه الموسيقي ، انها لوح الموسيقى تمرّت فوقه أرقامها ، وسجلت فيه اصواتها وهي تتعالى من

احشاء الليل البهيم مختلطة في ذاتها لتصدر صوتاً واحداً يملأ السماء معنىً وجلالاً

واني لأدع تاجور يحدثنا حديثه العذب عن الطبيعة والموسيقى والفن من محاضرة له بعنوان « ادراك الجمال » ، جاءت فصلاً في كتابه « سعدهانا » أو استكانة نفس فاستمع اليهِ يقول :

«هذه صفحة الطبيعة أمامنا ، والشعراء الملهمون هم الذين يرقبونها بمنظار الهامهم ، ويتوخون الافصاح عن الكائنات في ترقيم الموسيقى وتلحينها . وهم قلما يستعملون صبغة الالوان في تبيان المناظر المنشورة أمامهم ، أو رسم ما في الطبيعة من ألوان مختلفة دائبة التغيير والتبديل على لوحة السماء

ولهؤلاء الشعراء برهانهم ، فالمصور لابد ان يضم الى جانبه لوحة يصور فيها ، وأقلاماً وأصباغاً يستصنعها وأول وضع ترسمه ريشته على اللوح لا يمكن ان يصور فكرته كاملة حتى اذا ما انتهت الصورة وكملت تم مضي المصور الى سبيله لبثت الصورة من بعده كالارملة حزينة وحيدة لامعين لها يفسر كوامنها ثم تمتد أيدي البلى الى هذه الخلجات المتوالية التي بثها المصور في ألوانه وأصباغه فخاق منها ما أنشأ وصور

وأما المغني فأمره على العكس من هذا المصور . إذ تجتمع له أسباب فنه فيصدر التلحين عن نفسه فيرتله ويسجله وليس هذا التلحين بالشيء الغريب عنه دفع الى نفسه لتستبينه قسراً ولكنه ينشأ والفكرة في مخيلة واحدة. فالفكرة واللحن توأمان لا يفترقان وليس لاحدهما من سبق على الآخر وهما لا يتنافران في قلب الموسيقي أبداً . وقلب الموسيقي مجبول على انشاء أسراره في الموسيقى والتلحين لانه لا يعاني في التعبير تكاليف مادية غريبة في الافصاح عن نفسه كما يعاني المصور جمع الالوان وتأليف الاصباغ اوكما يعاني الشاعر أوزان الشعر واختيار الالفاظ . ومع هذا فلا تزال الموسيقى تصبو الى الكمال كأي فن من الفنون الاخرى . على أنها كانت في كل طور من أطوار رقيها تسع جمال الفنون جميعاً . لان مادة التعبير ليست إلا حملا ثقيلا ينوء من جمال فكرة الفنان وسموها . فالالفاظ في ذاتها حمل مرهق لان معانيها تجهد الفكر عند فهمها ، ولكن الموسيقى تتعالى عن ذلك علواً كبيراً انها تسمو عن ان تتجسد في اللفظ وما كانت لترهق فكراً ليفهمها ، وما كانت مغلقة في أسلوب او وزن يثقلها او يبعد الروح عن ادراكها . ولكنها وحي من الروح صدر والى الروح يهبط دائماً ، وانها لتعبر عما لا تستطيع ان تعبر عنه الالفاظ . ولا انفصال بين الموسيقي وبين ألحانه فهي قطعة من نفسه متصلة بها أينما خلت هذه النفس فعندما يمضي الموسيقي الى ربه تمضي معه ألحانه وأغانيه إنها كالاحسان والصلاة والابتهال يلازم الروح في جميع رحلاتها . إنها تسكن معه وتؤنسه حيث الالتئام الابدي حيث تستقر الحياة بين يدي خالقها

فالاغنية لا تنفصل عن مغنيها . إنها لم تكن محبوكة من مواد غريبة ذات حيز ولكنها مباهج الموسيقي ومسرته وألمه المشتهي جبل في وضع ان يصيبه فناء او زوال هي قلبه العظيم ينبثق به الوميض فيعم الوجود نوراً

وفي كل جهد فردي في الموسيقى كمال ملحوظ . وهو الهام لانجاز ما كان منقوصاً في عالم الموسيقى الجامع . وليس لاي من تلاحينه كمالا مطلقاً ولكن كلا من هذه الالحان يعكس في نفوسنا مباهج اللانهائية . والموسيقى كائن له وحده تصور الكمال المطلق

وماذا يكون الامر لو عجزنا عن اشتقاق المعنى السامي الذي يرمي اليه هذا الائتلاف العظيم الذي تكنه الموسيقى ? أليس هذا المعنى الكبير كمثل يد تامس الوتر فتنبعث منه في لحظة واحدة جميع الالحان الموسيقية من ذات لمسة واحدة ? أليس هذا اللحن الجامع الشامل هو لغة الجمال هو الخفر والدل الذي ينبعث من قلب الحياة ليصل قلوبنا في غير عوج او ابطاء !

فالموسيقى في نظر تاجور اتصال دائم بين القلب البشري وقلب الطبيعة الكبير ، وهي لغة الفطرة الاولى للمعاني التي تشملها الطبيعة شمولاً كاملاً متصلاً بحياة الانسان . ولما كانت

الحواس البشرية هي التي تدرك وتلهم قبل ادراكه الحقائق من طريق التفكير والعقل استطاع الانسان ان يكون بحسهِ الفطري موسيقيًّا يعبر عما يحسّ من جمال الطبيعة قبل ان يُعبر عنها من طريق عقله

فالموسيقى أصل من أصول فلسفته وفنه هي في نفسه يسمعها خلال تأملاته وينصت اليها تتعالى من الزهر والشجر والنجوم وصمت الليل وسكون الطبيعة وهدأتها بل هو يلتمسها في في سائر الخلائق ، ويرى الاتصال الروحي بالمرئيات انما يأتي من طريق الانسجام بها والتعالي على نغم الموسيقى . وقلب تاجور من العظمة والسمو بحيث يسع ألحان الوجود جميعاً ويفهم أسرار الكائنات وأسلوبها في الحياة

***

وليست الموسيقى في أسلوب تاجور هي مصدر لجمال أسلوبه فقط، بل ان موسيقية روحه وإيلافها وانسجام تصوراته مع الاضواء المشعة من قلبه عليها ، وترتيل آماله ومخاوفهِ وهمسات قلبه وحنينه الدائم الى الجمال والحقيقة، كل هذا يكون ايلافاً موسيقيًّا هو مصدر صادق من مصادر الوحي الادبي لشاعرنا العظيم

وكما ان تاجور موسيقي بالفطرة فهو موسيقي بالتجديد والصنعة والفن، فلهُ نحو ٣٠٠٠ قطعة لحنها تعزف على البيان وترتل ترتيلاً وفيها صلوات وقرابين صوفية وفيها ما يصور حقائق الكون المختلفة ، ويمثل عواطف البشرية وفيها ما يرسم أخيلة الشاعر . وهو قبل ان ينظم الشعر يستوحي الهمس ثم الجرس وينطوي الى نفسه يسمعها ما يجول في دخيلتها ثم تراه ينظم اللفظ مرتلاً منظوماً في ايلاف عبقري

فهو عظيم في الموسيقى كما هو عظيم في الشعر ، بل أن موسيقاه وشعره وحدة فنية لا تتجزأ . وأغانيه تغنى في جميع انحاء الهند حيث يتكلم الناس اللغة البنغالية . بل ان أغانيه تقرأ بجميع اللغات الحية

وكان في صباه المرتل المغني لهيكل القرية . اذا حضر صلاة ورتلها فاض الهيكل بالمصلين ليروا قدس الروح جاثمة في صبي ناحل واسع العينين يشع منهما وحي وجمال وتأمل وورع وخشوع وليستمعوا الى صوت بريء فيه التقوى والغفران لعلهم يصلون بهِ الى عالم الحقيقة والابدية

وابحاثه في الفنون والموسيقى تكشفنا على أن له رأياً في الموسيقى ، فهي وسيلة أدبية تصل الروح بحقائق الاشياء والحقيقة هي دائماً موضع الايمان . وليست الموسيقى غاية وانما هي أسلوب جميل للوصول الى الروح الخالدة التي نحبها ونعشقها ونعبدها

ولن تكون الموسيقى عبأً على التفكير لأنها قد تكون مرحاً روحيًّا كما قد تكون الدموع المتناثرة والتوبة والغفران :

أنا كأس طافحة بالنغم

أنا مزمار من الغاب حملته يا إلهي في طوافك التلال والهضاب مشبباً فيه أغاني أبدية الجدة

ألا فاقبل يا إلهي بتوبة أقدمها الساعة بقلب جريح ملهوف . وأمح من أم كتابي أيام اليتم التي قضيتها في غير تأمل في ذاتك العالية . وأمدد ذلك الاجل القصير الذي تذوب فيه النفس الحائرة حتى ترتمي في أحضان رحمتك والق يا إلهي عليه نورك الساطع المقدس

وهو يقول في الموسيقى :

« ألا ان الموسيقى هي أتقى أشكال الفن ، وهي أصدق تعبير للجمال . وأقرب لغة لاخضاع القلب

إن الموسيقي يستمد جميع قواعد الفن من قلبه ، انه يخوض في أمواج حياته ليأتي بالنغم. وقواعد الموسيقى ليست أشياء خارجة عن النفس عند التعبير ، كالرسم والشعر فهما في حاجة الى أداء والى تعبير مادي باللون واللفظ إن فكرة الموسيقي والتعبير عنها مرتبطان ارتباط التوأمين ، هما معاً دائماً . وقلب الموسيقي سر غير كتوم . انه لا يستطيع ان يحفظ آلامه ، ولكنه لا يتألم من أشياء خارجة عنه بل يتألم من نفسه وفي نفسه لان آلامه تصدر من طبيعته ، من أنغامه ، من هذه الطبيعة العالية المتصلة بالروح المقدسة »

وقد يكون للبيت من الشعر معاني كثيرة مختلفة ، وقد تكون للصورة مرامي متنافرة ، وقد تذهب العقول مذاهب مختلفة في فهم الشعر والتصوير ، ولكن النغم لا يحتمل ولا يسع إلا معنى واحداً انفصل من نفس الموسيقي ليؤديه

والموسيقى هي تحرر من رق التعبير ، فهو يقول عنها

« الا ان الموسيقى هي أنقى وضع للفن لذلك كانت أول تعبير وأوضح بيان عن الجمال في شكله وروحه . وهي أقل الاوضاع حملا بأثقال الدخيل والغريب عن الفن الخالص . على أننا نشعر عندما نفسر معنى الموسيقى بأن مظهر اللانهائية قد حد في وضع من الأوضاع المبتدعة ، وان الموسيقى نفسها ليست الا وضعاً محدوداً من اللانهائية ، فهي الصمت البليغ الذي تلهمه الطبيعة قلوبنا بمباهج مناظرها »

فالموسيقى هي وسيلة تاجور لادراك الحق والجمال ، وهي وسيلته في العبادة والزلفى الى الله :

أنت الذي أريده أنت وحدك
لقد ذكرتك دائماً في أغاني لا تنسى
أي إلهي . أي زعيم الشعراء !
انني لم اجلس تحت قدميك الا لتكون
حياتي شيئاً سهلا منسجماً
كاليراع المثقب الذي تملؤه الحياة
ألحاناً وموسيقى

« للبحث صلة »

باب الزراعة والاقتصاد

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

للاستاذ محمود مصطفى الدمياطي

(الأَبيرية)

جنس شجيرات من الفصيلة البكسية Bixaceae يمثله نوع واحد هو :

(ابيرية كَفْرَة) وهي شجيرة طويلة تغرس على الاكثر للسياج ولها ثمار كبيرة على نوع ما تؤكل ويمكن احالتها الى مربى وطنها افريقيا في بلاد ناتال وكفرورية وقيل إنها كانت بالقصر العيني وتسمى باللسان النباتي Aberia caffra وبالانجليزية kai appel

(التَنّوب)

وفي الشام يسمونهُ (الشُوح) جنس من الفصيلة الصنوبرية Coniferae أشجاره دائمة الاخضرار تحتمل تقلبات الجو تنبت في الغالب في خطوط العرض المائلة للبرودة وهي على وجه العموم مخروطيَّة وحسنة المنظر في صغرها وصنوبراتها العمودية وأوراقها المفلطحة تميزها عن أنواع بيسيا Picea التي تكون فيها الصنوبرات متدلية والأوراق ذوات زوايا . ثم ان الأشجار الحديثة في التنوب جذّابة للابصار وتختلف لوناً باختلاف أنواعه من ارجواني باهر الى بنفسجي الى أزرق الى أحمر ضارب الى السمرة الى اخضر وفروع هذه الاشجار صلبة وأوراقها منخسيَّة .والتنوب يسمى باللسان النباتي Abies وبالانجليزية fir وبالفرنسية sapin وأنواعه كثيرة نذكر منها ما يأتي :

١ — (التنوب الابيض)وهو باللسان النباتي A. alba ويقال له ايضاً(التنوب المشطيّ) A. pectinata وبالانجليزية silver fir وبالفرنسية sapin argenté ويوجد في اوربا

واوراقه ابرية خضر لامعة مبيضّة من اسفلها ولذا سمي بالابيض والشجرة منهُ تبلغ حدًّا في الكبر

٢ — (التنوب المستحب) يسمى باللسان النباتي A. amabilis وبالانجليزية silver fir و california وبالفرنسية sapin gracieux وموطنه الشاطىء الغربي من اميركا

٣ —(التنوب البلسميّ) اسمه باللسان النباتي A. balsamea وبالانجليزية balsam fir وبالفرنسية sapin balsamifère وهو نوع يحتمل تقلبات الجو كثيراً ويوجد في شواطىء اميركا الشمالية

٤ — (التنوب الكيفالونيّ) اسمهُ باللسان النباتي A. cephalonica وبالانجليزية greek fir ووطنه اليونان

٥ —(التنوب المتساوي اللون) اسمه باللسان النباتي A. concolor وبالانجليزية white fir ويوجد في الشاطىء الغربي من اميركا ومرغوب فيهِ جدًّا . أوراقه إبرية تضرب الى الزرقة ويكون في حداثتهِ ذا لون فاتح مما يجعل منظره اكثر بهجة عنهُ في اغلب الاشجار الدائمة الاخضرار ويزيد في هذا كون جذعه أملس سنجابيًّا فاتحاً وكذا فروعه. وتوجد من هذا النوع أصناف هي (الذهبي) aurea أوراقه إبرية صفر في حداثتها و (المنسوب إلى وَتْ) Wattezi أوراقه إبرية صفر شاحبة اللون و (القصير الورق) brevifolia أوراقه ابرية لكنها أقصر وأثخن عنهـا في التقدم و (الكريّ) globosa يكون شكله مستديراً وهو على نوع أخص ملائم للغرس بالحدائق

٦ — (تنوب فريزر) اسمه باللسان النباتي A. Fraseri وبالانجليزية Fraser's balsam يستوطن شواطىء اميركا

٧ — (التنوب الكبير) اسمه باللسان النباتي A. grandis وبالانكليزية great silver fir ويوجد في الشاطىء الغربي من اميركا

٨ — (التنوب المتجانس الحراشيف) اسمه باللسان النباتي A. homolepis وبالانجليزية Nikko fir يستوطن اليابان وهو يقوى على احتمال تقلبات الجو ويغرسونهُ كثيراً وهو متناسق الأجزاء جدًّا ب للابصار حين صغره ويتفتح أكثر ويكون له رأس مستدير إبان بلوغه

٩ — (التنوب الحرش الثمر) اسمه باللسان النباتي A. lasiocarpa وبالانجليزية

mountain balsam يستوطن الشاطىء الغربي من امريكا ويجود في الشمال الغربي منها وفي كندا ويوجد في الجبال ، مستحب في غرس الجاميع الكبيرة ومنهُ صنف (مدمَّج) Compacta قصير نموه بطيء يجعله ملائماً للمساحات المحدودة في الحدائق

١٠ — (التنوب المشرَّف) اسمه باللسان النباتي A. nobilis وبالانجليزية noble fir وبالفرنسية sapin noble يستوطن الشاطىء الغربي من امريكا

١١ — (تنوب نوردمان) اسمه باللسان النباتي A. nordmanniana وبالانجليزية nordmanns fir ويوجد في القوقاز

١٢ — (التنوب الاسباني) اسمه باللسان النباتي A. pinaspo وبالانجليزية pinaspo fir و spanish fir وبالفرنسية sapin pinaspo ويوجد في اسبانيا

١٣ — (تنوب الراهب) اسمه باللسان النباتي A. religiosa وبالانكليزية Mexican fir موطنه في المكسيك

١٤ — (التنوب المنظور) اسمه باللسان النباتي A. spectabilis وبالانجليزية himalayan fir. يوجد في جبال هيالايا وهو يغرس للزينة بسبب صنوبراته الكبيرة الارجوانية البنفسجية

١٥ — (التنوب السيبيريّ) اسمه باللسان النباتي A. sibirica وبالانجليزية siberian pitch fir موجود في سيبيريا

١٦ — (تنوب ڤيتش) اسمه باللسان النباتي A. veitchi ويوجد في اليابان وهو على الأخص للزينة صغيراً ولاسيما اذا جعل كثيفاً بالتشذيب فأوراقه الاربية الطوال فوق العادة تكتنظ وتجعل منظره عظيم الكثافة . هذا وان أشجاره الصغيرة حقًّا تحمل صنوبراته الكبار الارجوانية ويوجد من هذا النوع صنف (زيتوني) olivacea صنوبراته خضر وهو على الاخص جذاب للابصار بسبب لونه الزيتوني الغزير

١٧ — (تنوب وبّ) اسمه باللسان النباتي A. Webbiana وبالانجليزية Webb's indian fir موجود في جبال هيالايا

بابُ الأخبارِ العِلميّة

الحرب والسياسة والجغرافية

GEOPOLITICS

في اللغة الانجليزية لفظ ليس جديداً ولكنهُ اشتهر من عهد قريب . وهذا اللفظ هو Geopolitics وهـو مركب من لفظين «جيو» أي الارض «وبوليتكس» أي السياسة. وسبب شهرتهِ معهد الماني خصّص لدراسة هذا العلم وعلى رأسهِ الاستاذ هاوز هوفر وحوله طائفة كبيرة من البحاث ، وما يُـعزى الى هذا المعهد ورئيسه هاوز هوفر من تأثير في خطط هتلر الحربية

والمذهب الذي يقوم عليهِ هذا العلم ليس بالمذهب الجديد ، ولا بالمذهب الالماني الأصل وانما يرتدُّ الى كتابات كاتبين احدهما سويديٌّ يدعى رودلف كيلين Kjellen والثاني انجليزي يدعى السر هالفرد ما كِـنْـدر Mackinder ومؤسسهُ والداعية اليهِ في المانيا هو فردريك راتزل Ratzel استاذ الجغرافية في جامعة ميونخ. ومن اقوال هذا الاستاذ «ان كلَّ شعب يجب ان يربيَّ على توسيع أفق نظره فيحوله من البقاع الضيقة الى البقاع الشاسعة . ويجب ان يكرَّر هذا العمل لكي لا يعود الشعب ضيق النظر . فانحلال كل دولة انما هو عاقبة نظرها الى البقاع الضيقة» . وراتزل من علماء الاوقيانوجرافيا فكان يدرك ما للقوة البحرية من منزلة عظيمة ولذلك نبّـه الشعب الالماني الى انهُ اذا اراد ان يحقق مصيره فعليهِ إما ان يتحـالف مع القوة البحرية البريطانية وإما ان ينتزع هذه القوة لنفسه ويسود بها

ثم اخذ كيلين السويدي قـواعد نظرية راتزل—وهي جغرافية في أساسها وصميمها— وتوسع فيها وطبقهـا على المنافسة الأساسية بين بريطانيا والمانيا . وتطبيق هذه المبادىء الجغرافية على السياسة العالمية أثر في هاوزهوفر تأثيراً عميقاً

ولـكن تأثير ما كيندر في هاوزهوفر كان أعمق . فهذا الـكاتب الانجليزي اتخذ من توزيع اليابسة والماء على سطح الـكرة الأرضية مداراً لمسألة سياسية من الطبقة الأولى. ويصحُّ القول بأن كتابهُ—المثل الدمقراطية والحقيقة— الذي ألـفهُ سنة ١٩١٩ ينطوي على زكن عجيب لأنهُ نبه أقطاب مؤتمر الصلح الى ان الخطر الأكبر على السلام مرده الى سيطرة المانيا على روسيا والشرق وقد ذهب ما كيندر الى ان القارات الثلاث —أوربا وآسيا وأفريقيا— هي قلب اليابسة على سطح الأرض وان القـارات الأخرى في منزلة الأتباع من الشمس. ولذلك دعا هذه الكتلة « الجزيرة العالميـة »

World-Island ثم ذهب الى أن مفتاح هذه الجزيرة العالمية في يد من يسيطر على البقعة الممتدة من نهر الفولجا الى نهر اليانجتسي في الصين ومن جبال هيمالايا الى المحيط المتجمد الشمالي. فهذه بقعة من الأرض لا تطالها القوة البحرية، وكل من يسودها يسود الجزيرة العالمية. قال وعندما يكون ساستنا في مفاوضة مع العدو فالحاجة الى ملَك خفي يسر اليهم: ان من يسود شرق اوربا يسود كتلة القلب، ومن يسود كتلة القلب يسود الجزيرة العالمية ومن يسود الجزيرة العالمية يسود العالم. وانشاء سلسلة الدول بين المانيا وروسيا يدل على أن أقطاب مؤتمر الصلح لم يهملوا أقوال ماكيندر.

ولكن رجال مؤتمر الصلح، ورجال الحكومات التي تلت مؤتمر الصلح لم تجعل الاتفاق بين روسيا والمانيا مستحيلاً. فلما عقد هذا الاتفاق في اغسطس سنة ١٩٣٩ حسبه هاوزهوفر المرحلة قبل الأخيرة في تحقيق الحلم الذي ورثه عن بسمارك، وأشار الى قواعده هارتزل وماكيندر وكيلين في كتاباتهم

ولكن هتلر انقلب على طريقة هاوزهوفر وهاجم روسيا مقتنعاً بأنهُ يستطيع التغلب عليها واخضاعها والاستيلاء على مواردها وسيادة «كتلة القلب» هذه التي اشار اليها ماكيندر ثم يتخذها قاعدة لسيادة العالم.

ولكن: تجري الرياح بما لا تشتهي السفن!

الطعام المركب بالكيمياء

يذهب الدكتور كولن فنك أحد اساتذة الكيمياء الكهربية بجامعة كولمبيا الى أن الكيمياء الكهربية ستجهز الانسان في المستقبل بطعام مركب تركيباً كيميائياً بفعل الكهربية، وبمواد ثمينة مستخرجة من ماء البحر وأخرى منتزعة من النفايات المنبوذة، وبمركبات جديدة. وعند الدكتور فنك أن تركيب الطعام تركيباً كيميائياً بفعل الكهربية، انما هو مجاراة لفعل الشمس. فضوء الشمس يجهز النبات بالطاقة التي تولد النشاء وكذلك سيفضي استعمال الكهربية إلى تركيب النشاء وما أشبه بالصناعة

فصنع البطاطس بالتركيب الكيميائي مثلاً لا يقتضي مبدئيًّا الا استعمال الطاقة الكهربية محلَّ طاقة ضوء الشمس وباستعمال الطاقة الكهربية على الوجه الفعَّال تتحد عناصر البطاطس وهي النشاء والكربون والايدروجين والاكسجين وهو ما تفعلهُ النباتات بتأثير طاقة الشمس

ولا يخفى ان نشاط النباتات المزروعة قد عزز تعزيزاً كبيراً بفعل التيار الكهربي وقد روينا قبلاً في المقتطف، ان أسلاكاً يجري فيها التيار الكهربي مدت على مقربة من الأرض بين صفوف النباتات، فكانت الطاقة الكهربية تقفز من الأسلاك الى أوراق النباتات وتزيد معدل النمو زيادة كبيرة

العلم والاستبداد

فيما يلي قرار اتخذه مجمع تقدم العلوم الاميركي بعدما رفضت الدعوة الموجَّهة اليهِ لحضور الاحتفال بعيد جامعة هيدلبرج في ألمانيا سنة ١٩٣٧

« ان مجمع تقدم العلوم الاميركي يساوره قلق عظيم من الاعتداء المستمر الخطر الواقع على الحرية العقلية في السنوات الاخيرة في أجزاءٍ كثيرة من العالم

« ان حرياتنا القائمة كسبناها في أثناء نضال استمرَّ قروناً وكلفنا ثمناً طائلاً . فاذا ضاعت او أصيبت اصابة خطيرة ضاع الأمل في اطراد التقدم في العلم او العدل في الحكومة او السلام القومي والدولي ، او حتى الرخاء المادي نفسه

«واننا لنحسب كمَّ الفكر وقدع التعبير الحرّ عنهُ ، جريمة كبيرة ضد الحضارة نفسها ومع ذلك فان استبداداً من هذا القبيل قد فُرض على باحثين وعلماء ومعلمين بطرق شتى إما بأمر الحكومة واما بالضغط الاداري واما بالعنف الذي لا يبيحهُ القانون

« واننا لنشعر بان الواجب علينا يقضي بالتنديد بجميع هذه الاعمال لأنها أشكال لا تطاق من الاستبداد

« ولا تجوز المساومة في هذا الموضوع لأن مملكة المعرفة لا تقوم « نصفها عبد ونصفها حرٌّ ». فحياتنا وتدريبنا كعلماء وتراثنا كاميركيين ، كل ذلك يحملنا على الوقوف في جانب الحرية »

داوِ السمَّ بالسمّ

كشف ثلاثة من رجال الكيمياء في محطة تجارب زراعية أميركية بولاية سوث داكوتا حقيقة غريبة ، ملخصها انهُ اذا أعطي كلب سمًّا ما تأثر بهِ ومات ولكن اذا أعطي سمَّين مختلفين لم يتأثر بهما فكأنَّ جسمهُ يداوي السم الاول بالسمّ الثاني فيبطل فعل السمَّين

فقد وضع هؤلاء الكيميائيون قليلاً من السلينيوم في طعام الكلب . فعاش ثلاثة أشهر او اربعة ثم نفق . وكان مقدار السلينيوم لا يزيد على ثمانية أجزاءٍ الى عشرة من مليون جزءٍ من الطعام ولكن عند ما أضافوا الى الماء الذي يشربه الكلب خمسة اجزاء من الزرنيخ الى مليون جزء من الماء — علاوة على السلينيوم — ظل متمتعاً بالعافية التامة ولم تظهر عليه آثار التسمم بالسلينيوم . وفي هذه المحطة كلب ما فتيء منذ سنتين يتناول السلينيوم والزرنيخ في طعامه وشرابه بغير أن تبدو عليهِ آثار التسمم بأحدهما . ولا يخفى أن الثيالين (وهو فيتامين B_1) يستعمل الآن في علاج كثير من العلل . ولكن عندما أضيف الى طعام الكلب علاوة على اضافة السلينيوم اليهِ استعجلت اضافتهُ نفوق الكلب

طائفة جديدة من قاتلات المكروب

الدكتور دوصن أستاذ في كلية الأطباء والجراحين بجامعة كولمبيا في نيويورك. وقد روت جريدة النيويورك تيمس في صفحتها العلمية ان هذا الطبيب البحَّاثة ومعاونيه استخرجوا من صنف خاص من العفن الذي يتولد في الخبز وجبن روكفور مادة كيمائية جديدة، قد تثبت التجارب التي تجرب بها الآن، انها أقوى فعلاً وأفتك بالجراثيم من مادة السلفانيلاميد ومشتقاتها. بل يقال ان التجارب التي جربت بها حتى الآن تثبت انها أقوى فعلاً من مادة السلفانيلاميد ومشتقاتها الف ضعف

هذه المادة الجديدة تدعى بنيسيلين (Penicillin) والاسم مشتق من اسم احدى فصائل العفن بنيسيليوم (Penicillium) ولكنها لم تكن حضرت نقيةً حتى منتصف السنة الماضية. ومع ذلك فان مقادير يسيرة منها في حالتها غير النقية كانت كافية لوقاية الحيوانات من جرعات كبيرة من أفتك أنواع البكتيريا. وقد أثبتت تجارب الدكتور دوصن ان مادة بنيسيليوم فعالة جدًّا حتى اذا كان جزءٌ منها محلولاً في خمسمائة الف جزءٍ. وهو يرى ان هذه المادة تصلح للعلاج الكيميائي وقد يسفر استعمالها عن فوائد جمة وربما كانت طليعة طائفة جديدة من مواد العلاج الكيميائي كطائفة السلفانيلاميد، ولكنها قد تفوقها فعلاً وفائدة. ويعزى كشف تأثيرها الى باحث يدعى فلمنغ وكان ذلك في سنة ١٩٢٩ إذ لاحظ ان البكتيريا من الفصيلة الستافيلوكوكية لم تتكاثر في أطباق يجاورها عفن من فصيلة بنيسيليوم

الحرب وقرح المعدة

يؤخذ من أقوال الأطباء أعضاء مؤتمر امراض المعدة انهُ من المحتمل زيادة قرح المعدة بتأثير الحرب. ومما روي في هذا المؤتمر ان معدَّل الاصابة بقرح المعدة بين الرجال الذين شهدوا معارك دنكيرك وأعمال الجلاء عنها، زاد ثلاثة اضعاف على معدَّل هذه القرَح في جمهور الشعب. ويلوح ان هناك زيادة من هذا القبيل في معدَّل قرح المعدة بين سكان لندن الذين عانوا ويلات الحرب الجوية

ويرى الدكتور كوماروف — احد اساتذة جامعة ماكجل الكندية — ان البواعث المقدَّمة على زيادة الاصابة بقرح المعدة هي سوء الغذاء وسرعة الأكل واضطراب مواعيد المعيشة من أكل وراحة وعمل ونوم والمشقة التي تتعرض لها الأعصاب. فالبعد عن الهمّ والغم والمضغ الجيد البطيء والغذاء المتزن والراحة هي خير ضمان للمرء من الاصابة بقرح المعدة

وقد ثبت ان ايدروكسيد الاولومنيوم يفيد في خفض الاصابة بالقرح المعدية لأنهُ يقلل الحموضة ويغشي باطن المعدة بغشاء يخفف من فعل التهييج

النوم الكهربي : نوع جديد من التخدير

النوم الكهربي نوع جديد من التخدير وقد أجرى علماء جامعة شيكاجو تجارب بهِ على الحيوانات فثبت لهم أنهُ من المحتمل أن يغدو اداة نافعة في الجراحة . ذلك بأنهُ اذا مرَّ تيار كهربي في الحبل الشوكي ، مالت الحيوانات التي يسري فيها هذا التيار الى النوم فيزول شعورها بالألم . ومزية هذا النوع من التخدير بالقياس الى التخدير بمادة كيميائية ، كالكلوروفورم أن الطبيب المتولي تخدير المريض يستطيع أن يسيطر سيطرة تامة على تخدير المريض وهو ما لا يستطاع في معظم أساليب التخدير الأخرى

وعندما يفيق الحيوان الذي خدّر بالتيار الكهربي لا يشعر بشيء من آثار الانزعاج التي تعقب التخدير بالاساليب الاخرى . وقد بقي كلب مخدراً بالتيار الكهربي مدى ثماني ساعات ثم أفاق فلم يشعر بانزعاج ما

ومبدأ هذا التخدير معروف من أربعين سنة . ففي سنة ١٩٠٤ كان على الفسيولوجي الفرنسي لوديك Leduc ان يجري تجربة في أكاديمية العلوم تبين فضل التخدير بالكهربية . ولكنهُ كان متوعكاً في اليوم المحدد للتجربة فاستدعى معاوناً له ليحلّ محله . غير ان هذا المعاون أساءَ فهم الطريقة كما وضعها لوديك فأساء تطبيقها فأطلق العنان للتيار الكهربي المتصل بالكلب فصُعِق الكلب به فكان ذلك خاتمة هذه التجارب في ذلك العهد . ونقل احد تلاميذ لوديك خبر هذا الاسلوب الى اميركا فجرب في عملية بتر ساق سنة ١٩١١ فأسفرت التجربة عن نجاحٍ باهر ثم لسبب غير مفهوم أهملت الطريقة

ولا بدَّ في أعمال من هذا القبيل ان يحسب حساب دقيق لمقدار التيار الذي يخدر ولا يصعق ، وهذا مختلف حتماً باختلاف الحيوان نفسه وباختلاف حجم الحيوان ووزنه . فاذا كان وزن الكلب عشرة أرطال وجب ألاّ تزيد قوة التيار على أربعين جزءًا من الف جزءٍ من الأمبير

جهاز يستبين الطائرات وراء الضباب

استنبط ارفنغ ولف الاميركي جهازاً دقيق الاحساس ، يستبين الطائرات المغيرة عن بعد ، لأنهُ شديد التأثر بالأشعة التي تحت الحمراءِ . فأشعة من هذا القبيل يشعها محرّك الطائرة وأنبوبُ عادمها . وخواص هذه الأشعة كخواص أشعة الضوء المرئي ، ولكن أمواجها أطول من ان ترى بالعين

ولما كانت الاشعة التي تحت الاحمر تخترق الضباب فهذا الجهاز يستطيع ان يستبين الطائرة ولو كانت مختفية وراء طبق من الغيم او الضباب

التألق يفضح

نواحٍ متعددة من فوائد الضياء الجديد

[نشرنا في صدر مقتطف دسمبر ١٩٤١ مقالا عنوانه « ضياء النهار في الانابيب » وصفنا فيه مبادىء الطريقة الجديده للاضاءة باطلاق الاشعة التي فوق البنفسجية على مواد تتأثر بها فتتألق . وأوردنا بعض ما تستعمل فيه . وفي ما يلي نواح اخرى متعددة لفائدة هذا الاسلوب الجديد في الاضاءة وهي ملخصة من مقال الدكتور كالدويل محرر مجلة الراديو العصرية الاميركية . وقد لخصها الاستاذ عوض جندي]

الذبذبات او طول الامواج

تختلف الاضواء المتباينة الالوان بعضها عن بعض، بشيءٍ واحد ،هو طول امواجها او عدد الذبذبات التي تحدثهـا في كل ثانية . فالضوء الاحمر مثلاً تبلغ ذبذباتهُ في الثانية ٤٠٠ تريليون ذبذبة ، والاصفر ٦٠٠ تريليون ذبذبة . اما الضوء البنفسجي فيتذبذب في الثانية ضعف الاحمر أي ٨٠٠ تريليون مرة

ولو استطعنا توليد ضياءٍ طول امواجهِ نصف طول امواج الأزرق أو البنفسجي (أي عدد ذبذباته ضعفا ذبذبات الازرق او البنفسجي في الثانية اي ١٦٠٠ تريليون في الثانية) لما تمكنت عيوننا من رؤية ذلك الضوء . ومع عجزنا عن مشاهدته ، فلدينا أدلة جمة على توليده واطلاقه أشعة خفية ولكنها قوية . وهو الأشعة التي فوق البنفسجية ، لأنها تتموج تموجات اسرع منها في الضياء البنفسجي وهو اقصى ما تستطيع ابصارنا المجردة ، ادراكه من تموجات النور

ولديَّ في داري ، مصدر لذلك الضوء الاسود ، قوامه صمامان من أصمة الراديو ، من البلور الصخري مفرغان من الهواء ، سخرتُ فيهما الامواج اللاسلكية لادارتهما . فحينما تمرُّ فيهما تلك الامواج ، تحدث تهيجاً في فراغهما ، تتولد منهُ تلك الاشعة الخفية فيتاح لي الشعور بها ، اما بتعريض وجهي لها عن كثب ، خمس دقائق ، فتصخده ، واما بتقريب شريط فوتوغرافي اليها فتظهره أسوة بنور الشمس القوي . ثم إنني اذا وضعت في مجرى هاتيك الاشعة غير المرئية بعض الصخور تلألأت في الدُّجى ، واكتسبت ألواناً جديدة لم تكن لها قط حين استهدافها للضياء الطبيعي . فواضح أن الضياء الصناعي الجديد نفسه ، وأن خفي عن أعيننا ، فهو نبراس لنا نهتدي بهِ الى منافع جديدة كثيرة في حياتنا اليومية

فوائد عملية

واذا تناولنا بعض الصخور التي تتألق بفعل ذلك الضياء فصنعنا منها صبغات للطنافس أو للمنسوجات ، صار في مقدورنا إحراز طنافس او منسوجات تتألق في الدياجير حينما تسلط عليها أشعة المصابيح المولدة لهذا الضوء

في عربات النوم

وقد ادركت من قبل هذه الحقائق العلمية عدة من شركات السكك الحديدية الاميركية ففرشت في بعض من عربات النوم التي لديها، طنافس عالجتها بهذه الطريقة ، فغدت العربات المعدة للنوم ، المفروض جعلها مظلمة ليلاً تضاء بمصابيح الراديو المشار اليها فتصير الطنفسة الوسطى المفروشة في ممر العربة نيرة فيسير عليها النزيل مطمئناً آمن العثار غير خاش توجيه النور الى الاسرة العليا فلا ينزعج النائمون فيها

في دور السينما والمسارح

واستعانت دور الصور المتحركة بالطنافس السابقة الذكر على اضاءة الممرات التي تفصل المقاعد بعضها عن بعض، فنجحت نجاحاً باهراً وذلك باخفاء طائفة من مصابيح الضياء الاسود اي مصادر الاشعة التي فوق البنفسجية في سقوف الدار بحيث تسدد أشعتها الخفية الى الطنافس المفروشة ، فتتلألأ منها انوار تضيء طريق الساري الى مقعده دون ازعاج رواد السينما في هاتيك المعارض المقيدة الضوء، فيسهل عليهم العثور على مقاعدهم المنشودة مطمئنين كل الاطمئنان . وكثيراً ما تروقهم الانوار الخفية الرائعة التي تنشق من طنافسها المتلألئة وقلما يفطنون الى مصادرها

وقد أتيح أيضاً الحصول على كثير من الزخارف الجميلة لحيطان البيوت ، وذلك باستعمال الصبغات المتلألئة فتبدو للناظر اليها عند اشراق الضياء الطبيعي ، ذات مظهر واحد ، على حين أنها متى يسلط عليها الضياء الاسود ، تتلألأ بألوان جديدة شتى . ومن ثمة غدت الأشعة التي فوق البنفسجية من عناصر الزخارف العصرية في البيوت وغيرها حيث ينتفع بها انتفاعاً عظيماً

وتتوسل المسارح ، الى زيادة اجتذاب المشاهدين اليها ، والمغالاة في طلاء زينتهم وذلك باستعمال الطنافس المنسوجة بالمواد المتلألئة الصبغات والستائر المضيئة والأعلومات المضاءة التي تعلق في مخارج مبانيها ، ثم بالارقام النارة التي تثبت في مقاعدها . وتستعمل شركة أميركية كبيرة من شركات التعدين ، مصابيح هذه الأشعة في التنقيب عن المعادن المطلوبة وفي تعيين مواقع عروقها النفيسة

وكذلك يستطاع استخراج المعادن الثمينة الضائعة ، من ركام القمامة ، بامرار النفايات جميعها تجاه المصابيح ، فتظهر ما فيها من المعادن مثل الزنك والطنجستن وهما من الفلزات العظيمة النفع في الحروب

في الطباعة والاعلان

ثم إن دخول الامداد المتلألئة في الكتابة فتح مجالاً جديداً في الطباعة ذا نتائج غريبة

وقد شرع في صنع أعلومات مضيئة لتستعمل في داخل المتاجر وخارجها حيث تؤدي خدعاً تجارية كثيرة، إذ تسنى اختراع أعلومة تؤدي رسالة واحدة ، بتأثير الضياء

الطبيعي وأخرى تختلف عنها بفعل الضياء الخفي . واذا أطلقنا الضياء بالتعاقب من مصباح الطنجستن العادي ومن مصباح الضياء الخفي حصلنا على أعلومة ذات غرض مزدوج

ويمكن ادماج المواد المتلألئة في العجائن الكيميائية ، فنصنع منها عاملاً جديداً من عوامل الزخرفة ، وكان بدء الانتفاع بها في نوافذ المتاجر لتلفت الانظار الى السلع المعروضة فيها

في المصورات الجغرافية

وكذلك المصورات الجغرافية وخارطات الملاحة البحرية والأوامر والخطط الحربية ومذكرات المعامل الكيميائية وأبهاء المحاضرات ومساند الرسم ونوتات الموسيقى وجميعها تشترك في ميزة واحدة وان اختلف كل منها عن الآخر اختلافاً كبيراً في الغرض المقصود منه . ونعني بتلك الميزة وجوب قراءتها في الغالب في وسط مظلم حيث يكون الضياء بغيضاً أو خطراً لأن الضوء الذي يلزم لمطالعة المستندات الحربية والبحرية يجب ألاّ يراه الأعداء

ومن الأمور البغيضة ايضاً عند فرق الموسيقى التي تبغي عزف الادوار الجديدة الأضواء الظاهرة فوق حوامل النوتات ، كما ان العلماء يرون ضرورة تسطير المذكرات وقراءتها مع وجوب المحافظة على ابقاء مختبراتهم مظلمة

في اثناء المحاضرة

والمحاضر ايضاً الذي يلقي محاضراته في حجرة معتمة ، ابتغاء عرض الالواح لزجاجية بالفانوس السحري وما اليه ، طالما مُني تصوير نقط الموضوع الذي يبحثه وتوضيحه على السبورة اما بالطباشير واما بقلم الفحم على لوحة بيضاء ، فكان الظلام المفروض عليه لاظهار الصور بالفانوس السحري ، يحول دون بغيته ، فأضحى المسحوق المضيء والمصابيح ذات الضياء الأسود ، هي الحل الوحيد لتلك المعضلات وأمثالها اذ تسهّل القراءة والكتابة في الظلمة

واستعمال ذلك المسحوق النيّر ، سهل اذ يكفي ذره على الورق ذرًّا منتظماً بفرجون شعريٍّ أو قطني من فراجين بودرة الوجه (وهي الذرور في عرف اللغويين) أما الفائض على الحاجة من ذلك المسحوق ، فيمسح أو ينفخ عن السطح المذرور عليه . وذلك العلاج لا يغير لون الورقة تغييراً يذكر ، ولا يحدث فيه تمدداً ولا تقلصاً ولا تكمشاً . ومع ذلك يتيسر احداث التصحيحات والملاحظات والتغييرات في المواد المسطورة بأية يراعة على الصفحة المعالجة بتلك الطريقة لأن المسحوق يتخلل مسام الورق ولا يغير نسيجه. ويصلح الورق المتألق ايضاً لصنع المصورات الحربية والبحرية ، حينما تمس الحاجة الى صنعها في ساحات القتال واستعمالها في أثناء تقييد الاضاءة اذ هو الحل الوحيد للخروج من ذلك المأزق

وفي أميركا الآن مصلحة حكومية تصنع بالجملة مصورات جغرافية تتألق بالضوء الأسود وتسهيلاً لأغراض الدفاع الوطني ، وتلبية لمطالب الصناعة ، حيث تحظر الاضاءة الجلية تستعمل المصورات الجغرافية والبحرية المتألقة وكذلك الاشكال الهندسية وأوامر ميادين القتال المضاءة وما اليها ، وهذا هو الحل الوحيد لمشكلة القراءة في الظلمة

في كشف الجرائم

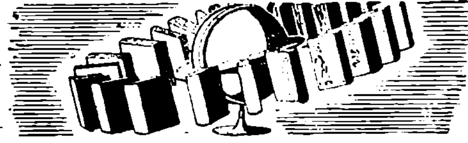
ومما يجدر ذكره عن فوائد الأشعة التي فوق البنفسجية أن مخزناً كبيراً من مخازن البضائع في مدينة كليفلند في ولاية أوهيو ، حدث فيه اضطراب من سرقة مبلغ من النقود في احدى دوائر اعماله التي تستخدم فيها عشرات من الكاتبات ، فتوسل حينئذٍ أرباب المخزن بجميع الوسائل لضبط السارقة فأخفقوا ثم خطر لهم أن يذروا على بعض الورق النقدي الذي كان في حوزتهم مقداراً صغيراً من مسحوق أخضر لا يُرى . فلم يطرأ على الورقة المعالجة بتلك الطريقة تغيير ما عن سواها . ثم انها لم تلبث ان اختفت . فأمر اصحاب المخزن العاملات جميعهنَّ ، بان يمررنَ عند خروجهنَّ في نهاية وقت العمل ، تجاه مصباح من مصابيح الاشعة التي فوق البنفسجية ، فاتضح ان الفتاة الثانية والاربعين من اللواتي اجتزنَ الممر هي السارقة وذلك أن ثيابها وبشرتها ، وان ظهرت بيضاء ناصعة في الاشعة البيضاء فقد بدت حيال هذه الاشعة وهي تتألق تألقاً أخضر ناضراً ، ففضح سرَّها (الفتاة السارقة) وكشف أمرها فقبض عليها فلم يسعها الاَّ الاعتراف بالجريمة

في الطيران الحربي

ويرى الطيارون الذين يطيرون ليلاً ، الملاحة الجوية أسهل كثيراً مما هي عليه ، وذلك بوساطة الآلات ذات الموانىء المتلألئة بهذا الضوء ، فاذا حجب الضوء المرئي أيًّا كان نوعهُ ، عن مقعد الطيار قام الضوء المتألق فيه مقامه ، فيستغني به الطيار عن اجهاد عينيه ، ذلك الاجهاد الذي يعد من أكبر عوامل اعياء الطيارين

وعند ما يركب مصباح من المصابيح الخاصة بالاشعة التي فوق البنفسجية ، في بقعة صالحة ، قدام لوحة الآلة ، ويلقي أشعته غير المنظورة ، على المساحيق الملونة القابلة للتألق ، الموضوعة على أرقام موانىء الآلات وحروفها وعلاماتها ، تضيء ضياءً لطيفاً مرئيًّا ، فتسهل قراءتها كل السهولة ، دون اجهاد البصر ، لأن الضياء الاسود أي الاشعة التي فوق النفسجية ، لا تحدث للعيون سدراً ولا ينعكس انعكاساً مربكاً عن زجاجات وجوه الآلات . وبالاضاءة على هذا المنوال يكون الفرق بين الضوء الذي في مقعد الطيار ، وبينه في خارج الطائرة تافهاً . وهذا أمر خطير في الطيران الليلي ، وفي حالة ضرورة هبوط الطائرة في الظلمة أيضاً ، وفي الشفق أو في الفجر

عوض جندي



مكتبة المقتطف

دعاء الكروان

للدكتور طه حسين بك — ٢١٤ صفحة من القطع الوسط — مطبعة المعارف بمصر

للدكتور طه حسين بك مكانة أدبية سامية في العالم العربي وحظ من الصيت بعيد بين رجال الفكر، كما ان له نصيباً كبيراً في تدعيم أسس الحركة الفكرية في الادب العربي الحديث فلا يكاد يخرج له أثر أدبي حتى تتلقاه الدوائر الادبية في مصر والعالم العربي كما يتناوله رجال الاستشراق في الغرب بما هو جدير به من التقدير والاعجاب . فلما أخرج في عام ١٩٢٧ أولى روائعه القصصية « الايام » التي صوّر فيها حياة طفولته لقيت من الترحيب أجمل مظاهره وفُتن بها الادباء أشد افتتان وأقبل عليها أدباء من شتى الاقطار ينقلونها الى لغاتهم معجبين بما فيها من فن صادق وتصوير للحياة بالغ حدّ الاخلاص للفن، فغنم منها الادب العربي الحديث فخراً ومجداً واكتسب بها قوة وثراء . . . كذلك كانت قصة الدكتور طه الثانية « أديب » التي أخرجها عام ١٩٣٠

ولم يكد الدكتور طه ينشر قصته الثالثة « دعاء الكروان » في سنة ١٩٣٤ فصولاً متتابعة في مجلة « الفجر » حتى قام المستشرق الروسي « كزمرسكي » بترجمتها الى الروسية فنقلت عنها الى خمس عشرة لغة من لغات الروسيا المحلية وهي بعد لم تظهر بين دفتي كتاب . وها هي اليوم تطلع من جديد على عشاقها فتأخذ مكانها الى جانب أخواتها لتزيد في ثراء آدابنا

و « دعاء الكروان » قصة فتاة اعرابية تروي حياتها بين الشقاء والتعاسة وبين أحضان الالم حين انتقلت مع أمها وأختها التي تكبرها بعد مقتل أبيهما من وطنهنّ وما زلنَ يتنقلنَ من قرية الى أخرى حتى استقرّ بهنّ المقام في مدينة فالتمست كلّ منهنّ لنفسها الحياة في خدمة بيت من بيوت المدينة . وكان نصيب صاحبة القصة وهي الفتاة الصغيرة بيت المأمور خادماً خاصة بابنته التي كانت لا تزيد عنها في السن الاَّ قليلاً . أما أختها الكبيرة (هنادي) فقد التحقت بخدمة شاب من المترفين يشتغل مهندساً في المدينة . ونرى الفتاة الصغيرة نفسها بعد حين تُنتزع من بيت المأمور وترحل عن المدينة مع أمها وأختها وهي لاتدري سبباً لهذا الرحيل، ونرى الالم مرتسماً على وجه أختها والحيرة والصمت على وجه أمها حتى ينزلنَ

ضيفات على منزل عمدة في قرية من القرى لجأنَ اليها حتى تتصل أمها بمن يبلغ أخاها عن مكانهنَّ فيأتي اليهنَّ ليردهنَّ الى وطنه ، وتراهنَّ وقد احتملهنَّ جملان يمضيان بهما في صحبة هذا الخال . وقد عرفت الفتاة الصغيرة سرّ الكآبة من نفس أختها الكبيرة وسرّ الوجوم والحيرة من نفس أمها . وفي الطريق تطلع بصيرة هذه الفتاة على لون من الحياة أشدّ نُكراً مما رأت من ألوان هذه الحياة ، ترى هذا اللون الاحمر من دم أختها الكبيرة وقد صرعها خالها في الطريق «لان شاباً آثماً أغواها ولانها لم تحسن ان تدفع عن نفسها غوايته». ويعود هذا الخال القاتل الى أخته وابنتها الصغيرة بعد ان يواري الجسد الصريع في التراب فيحملها الى حيث كانت وجهته ، ولكن هذه الفتاة التي شهدت الجريمة بعد ان استقرت في وطنها زمناً لا تحسُّ باستقرار روحها في هذا المكان فتفرّ منهُ تحت ستار الليل ، وما تزال تجدُّ في السير حتى تبلغ المدينة التي رحلت عنها وتبلغ الدار التي كانت تعيش فيها في خدمة بيت المأمور . ولكن في نفسها أشياءَ ، وفي قلبها أحزاناً وهموماً وصورة أختها لا تفارقها ولا تزول من خيالها ، صورة الدم المتفجر والجريمة التي أودت بحياة أختها والشاب الذي دفعها الى الموت فهي تحاول الوصول اليه . وما تزال تعمل في سبيل غايتها كل ما تستطيع حتى تفاجئها الايام بحيرةٍ أشدّ من حيرتها السابقة إذ تعلم ان ابنة المأمور التي تحبها وتخلص لها قد تخطب الى هذا المهندس الذي أودى بحياة أختها في ساعة طيش والتي تبغضهُ كل البغض وتشتاق رؤياه كل الشوق وتريد الوصول بغايتها المكتومة في نفسها الى رحابه . ولكنها تعمل على انقاذ الفتاة التي أحبتها من يد هذا الآثم وقد أفلحت . وما يلبث ان يسعى المأمور الى الانتقال من المدينة وما تلبث الفتاة ان تشتغل خادماً في بيت آخر . ولكنها تطرد منه . وقد ألهتها غايتها عن كل ما تجد في حياتها من متاعب وآلام ومن اخفاق وحيرة حتى تحس وميض الأمل ينبعث قريباً ، وما هي الاَّ أيام حتى تكون في دار هذا المهندس قائمة بخدمته وتراها وقد وقفت أمام ما يريد هذا الشاب اكراهها عليهِ موقفاً يبعثه على الحيرة وعلى الألم والعذاب والحب فهو يعلنها ذات يوم بالفراق وأنهُ سيترك هذه المدينة الى القاهرة ، ولكنها تجد في هذا الاعلان صدمة أليمة لنفسها ، ويدرك الشاب فيها هذا الألم فيرى من وراء دموعها ما يبعث الاشراق في نفسه فيطمئنها بأنهُ لن يتركها وأنها ستصحبهُ الى القاهرة . وتراها بعد قليل وقد أقامت معهُ في منزل أهلهِ بالقاهرة وقد صلحت حال هذا الشاب وحسنت سيرتهُ فهو مقبلٌ على القراءة لايفارق داره . ولكنه لم يستطع صبراً على أن يحيا هذه الحياة والى جانبه هذه الفتاة الغامضة لم ينل منها في الإثم شيئاً فهو يعرض عليها الزواج وهي ترى ان لا سبيل الى ذلك وتنبئه انه قد قضى عليهما بهذا العذاب المقيم فيسألها عمن قضى عليهما بذلك فتجيبه بأنهما القاضيان بهِ ، فيطلب منها الافصاح

عن غموضها لتنجاب هذه الظلمة فتنبهه الى انها تخشى إن انجابت هذه الظلمة عنهما وغمرهما الضوء ان يكره كل واحد منهما النظر في وجه صاحبه فيضطرب ويطلب الايضاح مهما كانت العاقبة فتنطلق ملقية اليه بقصتها كأنها تتحدث عن شخص غريب الى شخص غريب

ونستمع الى الدكتور طه وهو يختم هذه القصة بأروع ختام حين يقول على لسان الفتاة «وما أدري أطال الوقت الذي ألقيت فيه قصتي أم قصر . ولكني أعلم أني سمعتني أقول: أفهمت الآن ؟ أترى الى هذا الضوء الذي يغمرنا ! أتستطيع أن تنظر اليّ . وقد انتظرت جوابه لحظة غير قصيرة ولكني سمعته كأنما كان يتحدث اليّ من مكان بعيد جدًّا ، سمعته يقول نعم استطيع أن أنظر اليك ولن إستطيع أن انظر الاّ اليك . وأنت أتطيقين ان تنظري اليّ ، أما زلت تضمرين الانتقام؟ ولم أجب الاّ بما تجيب به المرأة المغلوبة التي انكسرت نفسها وذاب قلبها فهو يسيل من عينها دموعاً . ثم أسمعه بعد وقت لا أدري أكان طويلاً أم قصيراً يقول لي لقد كان من الممكن ان نفترق قبل أن يغمرنا هذا الضوء ، فأما الآن فقد أصبح افتراقنا شيئاً لا سبيل اليه . أليس من العجب أن يكون هذا الضوء الذي أخذ يغمرنا شرًّا من الظلمة التي خرجنا منها . إن أحدنا لن يستطيع أن يهتدي في هذا الضوء الاّ اذا قاده صاحبه . إن العبء لأثقل من أن أحمله وحدي فلنحتمل شقاءنا معاً حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ... ثم انقطع الحديث بيننا فلم يقل شيئاً ، ولم أقل شيئاً وأطبق على الغرفة صمت هائل رهيب غرقنا فيه يقظين كما يغرق النائم في نوم بريء من الاحلام .... ولكن صوتك أيها الطائر العزيز يبلغني فينتزعني انتزاعاً من هذا الصمت العميق فأثب وجلة مذعورة ويثب هو وجلاً مذعوراً ثم لا يلبث أن يثوب الينا الأمن ويرد الينا الهدوء . فأما أنا فتنحدر على خدي دمعتان حارتان ، وأما هو فيقول وقد اعتمد بيديه على المائدة : دعاء الكروان أترينه كان يرجع صوته هذا الترجيع حين صرعت هنادي في ذلك الفضاء العريض»

هذه هي قصة « دعاء الكروان » وانها لفي جلال روعتها جديرة بالخلود لأن ما فيها من صدق التصوير لمختلف الأحاسيس والمناظر بحيث لم يفلت منها شيء مهما دقّ ، يبعث على الاعجاب والفتنة وليس بعسير على القلم الذي سجل «الأيام» أن يخلق من ظلال الحقيقة الماثلة في هياكل الخيال صوراً فاتنات وأن يأتي كل يوم بروائع خالدات . وقد قدَّم الدكتور طه قصته الى صديقه الأستاذ العقاد بهذا الاهداء الرقيق

«سيدي الاستاذ : أنت أقمت للكروان ديواناً فخماً في الشعر العربي الحديث ، فهل تأذن في أن أتخذ له عشًّا متواضعاً في النثر العربي الحديث وأن أهدي اليك هذه القصة تحية خالصة من صديق مخلص » . ولكن الدكتور طه لم ينشىء لهذا الكروان الاّ قصراً سحريًّا حين أراد ان يكون عشًّا متواضعاً

تراث العرب العلمي

تأليف قدري حافظ طوقان — هدية المقتطف السنوية (١٩٤١) — صفحاته ٢٦٧

علم قرَّاء المقتطف ومشتركوهُ ان هديتهُ السنوية (١٩٤١) هي كتابٌ نفيس عنوانهُ « تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك » تأليف الاستاذ قدري حافظ طوقان . وقد تمَّ طبع هذا الكتاب وسيصدر بعيد صدور مقتطف فبراير (١٩٤٢) وسيرسل الى جميع المشتركين الذين سددوا ما عليهم الى ادارة المقتطف

وقد رفع مؤلف الكتاب كتابهُ الى مقام حضرة صاحب الجلالة مولانا المعظم الملك فاروق الاول باذن من ديوان جلالتهِ . وهذا نصّ الاهداء

مولاي صاحب الجلالة

ورثتم مولاي ، عن ساكن الجنان والدكم العظيم العمل على بعث الثقافة الاسلامية والكشف عن امجاد العرب الفكرية ، ونفختم في هذا العمل القومي ، روحاً من روحكم الكريم وأضفيتم عليه جلالاً من جلالكم السامي ودفعتم فيه حياة زاخرة من شبابكم الزاخر أدامهُ الله

وفي هذا الكتاب حاولت انصاف حضارة العرب في بعض نواحيها ، وتجلية أمجادها العقلية في ميدان العلوم الرياضية والفلكية ، فحملني واجبي القومي ، على التوجه بالاهداء الى مقام جلالتكم السامي وسدتكم العالية ، راجياً ان تشرفوه وتشرفوني بالقبول ، داعياً المولى تعالى ان يكلأ جلالتكم بعنايته ويحفظكم ذخراً للعرب والاسلام

نابلس — فلسطين   خادم جلالتكم المخلص
قدري حافظ طوقان

وتفضل حضرة صاحب العزة الاستاذ الدكتور علي مصطفى مشرَّفه بك عميد كلية العلوم بتقديم الكتاب الى القرّاء بالكلمة التالية

في يونيه من سنة ١٩٣٥ كتبت في «جريدة الجهاد» تحت عنوان «ثقافتنا العلمية» فذكرت اننا في مصر اليوم ننقل المعرفة عن غيرنا ثم نتركها عائمة لا تمت بصلة الى تاريخنا ولا تتصل بتربتنا وقلت انَّ شجرة المعرفة يجب ان « تُطَعَّم » على أسس من ماضينا فتتصل اتصالاً طبيعيًّا بمنابع ثقافتنا ودعوت الى نشر المؤلفات العربية المخزونة في بطون المكاتب وبين جدران المعاهد الأثرية والى احياء ذكرى علماء العرب بين ظهرانينا فاذا ما استخرجت هذه الكتب من خزائنها ونشرت على جمهور الناطقين بالضاد واذا ما شرحت وفهمت على حقيقتها واذا ما اقتبسنا منها ما يمكن اقتباسه في مؤلفاتنا العلمية الحديثة واذا ما مجدنا اصحابها

وأصبحت اسماؤهم مألوفة لدينا وغدا فضلهم معترفاً بهِ بيننا فعندئذٍ يمكن وضع ثقافتنا العلمية على أسس متينة وعندئذٍ يمكن ان تتطوَّر هذه الثقافة تطوراً طبيعيًّا من شأنه ان يعيد اليها مجدها وقوتها ومهابتها . وبعد نشر مقالي هذا بسنة عشر يوماً ظهر في نفس الجريدة مقال ممتع للاستاذ قدري حافظ طوقان مؤلف هذا الكتاب أشار فيهِ الى مقالي وعبَّر بطريقة بليغة ووافية عما حاولت ان اتعرض لهُ فحفزني ذلك الى كتابة مقال آخر تحت عنوان « بعث الثقافة العربية » دعوتُ فيهِ الى عقد مؤتمر عام تتضافر على عقده الأمم المتكلمة بالعربية ويخصص لدراسة تاريخ العلوم عند العرب

فالاستاذ طوقان قد جمعني بهِ توافق الخواطر . وليس بغريب ان تتوافق خواطرنا اذ بيننا صلة قوية هي صلة الثقافة العربية التي يجري دمها في عروق المصري والشامي والعراقي والمراكشي على السواء . ومنذ ذلك الحين وانا اتتبع باعجاب ما بذله ويبذله الاستاذ طوقان من مجهود صادق في خدمة العلوم العربية وتاريخها . فلما تفضَّل عليَّ باتاحة الفرصة لي لكي أنشر كلمة صغيرة في أول هذا الكتاب رحبت بذلك شاكراً له حسن ظنه . وقد قرأت الكتاب فوجدته قد جمع بين الدقة العلمية واللذة الفكرية فهو يصلح كمرجع للمتخصص في تاريخ العلوم العربية كما يصلح لمطالعة كل من يطلب المتعة في القراءة . وانني أهيب بكل ناطق بالضاد ان يقرأ هذا الكتاب وان يمعن النظر فيه وان يتشبع بروحه

ومنذ كتابة المقالات التي اشرت اليها في جريدة «الجهاد» قد بذلت بعض الجهود في تحقيق ما دعا اليهِ الاستاذ طوقان ودعوت اليهِ ، من الاهتمام بعلماء العرب وآثارهم فنشرت بعض الكتب ككتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة واحتفل بذكر بعض العلماء كابن الهيثم . وقد جاءَ هذا الكتاب مرحلةً جديدة من مراحل هذا التقدم وهي مرحلة أساسية سيكون لها أثر بليغ في تطور التفكير العلمي في البلاد العربية إذ ما من شك في ان شبابنا اليوم يتطلع الى ماضيه ليستلهم منهُ الوحي وليستمدَّ منهُ العزم والحركة وهذه صفحات الماضي المجيدة يضعها الاستاذ طوقان أمام أعين الشباب والشيب معاً لتكون لهم حافزاً وملهماً

انني أشعر وأنا أكتب هذه الكلمة ان عصراً جديداً قد بدأ في الشرق يشبه عصر النهضة في اوربا . فكما ان الاوربيين عندما افاقوا من قرونهم الوسطى عمدوا الى احياء ماضيهم فبعثوا الثقافة الاغريقية وجعلوا منها اساساً لنهضتهم كذلك نحن في الشرق قد هدانا وحي السليقة الى منابع عظمتنا فرجعنا الى ماضينا ليكون قاعدة لصرح تقدمنا

وبعد فانني لا أريد أن أطيل على القارىء فأمامهُ الكتاب فليقرأه فانهُ سيجد فيهِ ما يغني عن كل تقديم والسلام

ديسمبر سنة ١٩٤١ علي مصطفى مشرفه

فهرس الجزء الثاني

من المجلد المائة

١١٣ ذخيرة الشتاء
١ — اسرار المحيط
٢ — العلم بين الشيخوخة والتعمير
٣ — العلم والمطاط والحرب
٤ — جسم الانسان والكيمياء الحيوية

١٣١ رجل ! (قصة) : للدكتور بشر فارس

١٣٧ مثل تاريخي للدفاع عن الحرية الفكرية في جامعة اميركية

١٣٩ الاضطرابات العقلية في علم النفس الحديث : لموكسلي : نقلها حسن السلمان

١٤٤ الأغاني واصلاح صناعها : لعبد الرحمن فهمي بك

١٥٠ صفائح على قبور : لراجي الراعي

١٥٢ كيف ظهرت الحياة على الارض : لنصيف المنقبادي

١٦٠ الهيكسوس : أصلهم وموطنهم الاول : للدكتور باهور لبيب

١٦٤ التربية البدنية في الطفولة الأولى : للدكتور شوكت موفق الشطي

١٦٨ البراق النبوي وقصة المعراج في التصوير الاسلامي : لعمر حمدي

١٧٣ العدالة والتعدي : لعلي محمد ابو وافية

١٧٥ جو القمر : ورأي جديد في اصل الفجوات التي على سطحه

١٧٧ حديقة المقتطف * تاجور الشاعر العالمي الملهم : لمحمود المنجوري

١٨٧ باب الزراعة والاقتصاد * مفردات النبات : لمحمود مصطفى الدمياطي

---

١٩٠ باب الاخبار العلمية * الحرب والسياسة والجغرافيا . الطعام المركب بالكيمياء . العلم والاستبداد . داو السم بالسم . طائفة جديدة من قاتلات الميكروب . الحرب وقرح المعدة . النوم الكهربي : نوع جديد من التخدير . جهاز يستبين الطائرات وراء الضباب . التألق يفضح : نواح متعددة من فوائد الضياء الجديد : لعوض جندي

١٩٩ مكتبة المقتطف * دعاء الكروان . تراث العرب العلمي : للدكتور علي مصطفى مشرفة بك

لحق بالمقتطف :

معنى الديموقراطية : للدكتور محمد عبد الله العربي بك

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد المائة

١ مارس سنة ١٩٤٢ ١٤ صفر سنة ١٣٦١

الفكر الحديث

بين حقائق العلم وشكوكه

تتصف المرحلة الاخيرة من حضارة البشر — مرحلة القرن العشرين — بالآلات الدقيقة والسرعة والانتاج الواسع النطاق . إننا في عصر الآلة حقًّا . وارتقاءُ الصناعة وانتشارها مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بارتقاء الاساليب الصناعية والهندسية ، وهذا في اساسهِ فوز للعلوم المطبقة . ولولا التقدم الحثيث في العلوم الطبيعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، لما كان القرن العشرون ، عصر الآلة على ما قدَّمنا

فعلما الطبيعة والكيمياء كانا صنوين في مافازا بهِ من احترام الناس واكباب العلماء خلال عصر الاستنارة من اواخر القرن السابع عشر الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الى ما انقضى من القرن العشرين . ونحن الآن نشهد — حتى بصرف النظر عن الحرب — تطبيق المبادىء والحقائق التي كشفت فيهِ تطبيقاً يستوقف النظر بل يخطف النفس . فعلم الطبيعة المطبقة ، أتاح للناس السيارات والطائرات والاجهزة اللاسلكية والضوء الكهربيّ والطاقة الكهربية وشتى اصناف الآلات . وبالكيمياء المطبقة تمكن الناس من زيادة محصول الحقل وانتاج المصنع وصنع الاعواض وتركيب مواد الطعام وحفظها وصنع الصور الضوئية والصور المتحركة . نعم ان الفاصل بين الطبيعة والكيمياء ليس واضحاً . وتطبيق عمليّ في ميدان العلم الواحد يشمل على الغالب

تطبيقاً عمليًّا في ميدان العلم الآخر ، والتقدم في احدهما يستتبع تقدماً في الثاني . فالطبيعي والكيميائي حليفان ، في استكشاف حقائق الطبيعة المادية وتحويلها منافع عملية

اما علوم الاحياء (البيولوجيا) فليس لها عراقة الطبيعة والكيمياء . ولم تكن في عصر الاستنارة الاَّ هامشاً أو ذيلاً في صفحات الطبيعة والكيمياء الحافلة بالآيات . ولكن الارتقاء العلمي العظيم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، قفز بها الى مقام القلب في التفكير العلمي ما بين سنة ١٨٧٠ وسنة ١٩١٠ وما بعدها . وقد أسفر تقدمها المطرد ، عن تحولها الى شريك حميم للحليفين بعد أن كانت منافسة لهما . والواقع إن العهد الأخير في علوم الاحياء متسم على الأكثر بميسم علمين حديثين كلٌّ منهما ، وسطٌ بين البيولوجيا من ناحية والطبيعة أو الكيمياء من ناحية أخرى ونعني ، علمي الطبيعة الحيوية Biophysics والكيمياء الحيوية Biochemistry

وعلوم الاحياء كعلمي الطبيعة والكيمياء أفضت الى منافع تطبيقية عملية ولا سيما في الفسيولوجيا والطب والجراحة . وفائدتها هنا لا ريب فيها علاوة على ما أسفرت عنه من عجائب تستوقف الانظار . فالبحث المجهري الدقيق في أجسام الحيوانات كشف سرَّ الاساليب الحية في التركيب الحيواني وأفضى الى بحوث تجريبية ، على أعظم جانب من خطر الشأن في حفظ الصحة . فقد كشف العلماء كثيراً من حقائق الغدد الصمّ ، وتأثيرها في الصحة والمرض والخُلق ، وأثبتوا ان الصحة البدنية تقتضي « عوامل غذائية اضافية » أطلقوا عليها اسم الفيتامينات ، وبفضل علماء الكيمياء الحيوية غدونا قادرين على كشف أصنافٍ شتىَّ من الفيتامين وفعلها وطرق تركيبها بالتأليف الكيميائي .

أما في ما يتعلق بنظرية التطور الداروينية ، وهي النظرية التي كانت مثار مناقشات عنيفة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فقد حشد علماء الاحياء في القرن العشرين قدراً وافراً من الحقائق التي تؤيد تلك النظرية أي تؤيد أن سير الحياة على سطح الأرض هو سير تطوري . ولكن هذه الحقائق بينت في الوقت نفسه إن فعل التطور نفسهُ ليس فعلاً بسيطاً وفهمهُ وتعليلهُ ليسا مستطاعين على أهون سبيل . فهو أشد تعقيداً مما ذهب اليهِ داروين وهكسلي وهيكل . وقد وصف أحد علماء الأحياءِ المحدثين نظرية التطور بقولهِ في سنة ١٩٢٢ « الدليل قائم على صحة نظرية التطور في مجملها ، وهي نتيجة لا مفرَّ منها استناداً إلى الحقائق المجتمعة لدينا ، ولكن ذلك الجانب من النظرية الخاص بتفسير أصل الأنواع وطبيعتها لا يزال ملفوفاً بالغموض » . وهذا يعني ان ما ذهب اليهِ داروين من مذاهب في تفسير أصل الأنواع كالانتخاب الطبيعي والانتخاب الشقي Sexual وتوارث الصفات المكتسبة ، لا يكفي للتعليل المطلوب .

فتوارث الصفات المكتسبة لا يزال موضوع بحث ، وهو مشكوك فيه ، وقد ظهرت عقبة جديدة ، أسفر عنها البحث بالاشعة السينية ، وهي ان التغاير في الانواع يعتمد على ما تفقده خلية الوراثة من عوامل الوراثة لا على ما يضاف اليها .

وقد تأيدت قواعد مندل الاساسية في الوراثة ووسع نطاقها وأثبت الباحثون ان طائفة من العاهات ووجوه النقص في التركيب الجثماني كالعمى اللوني وإظلام العدسة تتبع في توارثها قواعد مندل . وليس ثمة ريب في ان توماس هنت مورغان العالم الأميركي ، من أعظم علماء الأحياء في هذا العصر ، فبحثه الدقيق في خلايا ذبابة الفاكهة أثبت ان في نواة كل خلية أجساماً خيطية الشكل أطلق اليها اسم «الصبغيات» (كروموسومات) ثم بيّن تركيب هذه الصبغيات وما لها من صلة وثيقة بالوراثة . وتلا ذلك الكشف العظيم عن تأثير الأشعة السينية في الصبغيات وكيف تحدث تحولات فجائية متعددة تورّث

***

والنتيجة العامة التي أسفر عنها اقتران علم الاحياء بعلمي الطبيعة والكيمياء هي الفائدة الطيبة المستخرجة من هذا الاقتران . ومن هنا بدا لبعض علماء السيكولوجيا ان يعالجوا مباحثها بأساليب الطبيعة والكيمياء . وقد جرى باڤلوف الروسي (١٨٤٩—١٩٣٦) في أثر ڤندت (أبي السيكولوجية الفسيولوجية) . فبدأ في سنة ١٨٩٠ يدرس الارجاع السيكولوجية في الحيوان والانسان ، دراسة مردّها الى الحافز العصبي من الخارج والاستجابة اليه ، لا الى الوعي الداخلي . فأفضى ذلك به الى مبدإ الافعال العكسية المحوّلة Conditioned reflexes وعليها بنى الدكتور جون وطسن الاستاذ بجامعة جونز هبكنز الاميركية مذهب «السلوكية» وأساس هذا المذهب في السيكولوجيا الحديثة ان الباحث لا يستطيع ان يدرك في امرىءٍ ما ، وعيه او احساسه او مشيئته ، فيجب ان تُعدّ هذه الصور منتفية من عالم الباحث السيكولوجي العلمي ، ويجب ان يكفيه « اننا نتكلم واننا نفكر اذا كنا نفكر » وان يوجه عنايته بعد ذلك الى دراسة الحافز والاستجابة

ومهما تكن الشكوك التي تحفّ « بالسلوكية » فليس ثمة شك في ان لها منفعة عملية ولاسيما في مراقبة الطفل ودراسة سيكولوجيته ، وقد أفضى مع مذاهب السيكولوجيا الاخرى الى شيوع فكرة « امتحان الذكاء » « وامتحان القابليات » وهذه الامتحانات منوّعة وقد طبقت تطبيقاً واسعاً . ومع ان الميل الى المغالاة في قيمتها وصحة الاعتماد عليها ، فلا ريب في انها تشير اشارة عامة على الاقل الى تأهب الطفل من الناحية الذهنية لما يحتمل ان يرغب فيه ويجيده

ومن المذاهب الجديدة التي نشأت عنها منافع عملية ، مذهب فرويد (١٨٥٦ — ١٩٤٠) وهو كما نعلم درس الطب في ڤينا وباريس ثم تحول الى دراسة الاعصاب خاصة وابتدع مذهب « التحليل النفسي » . وقد كانت وجهته الفلسفية في علم النفس تطبيقَ جبريةٍ لامفرَّ منها ، لانهُ كان يذهب الى ان كل شيء في حياتنا العقلية من أتفه الاغاليط الى أرسخ المعتقدات مقاماً في النفس مردُّهُ الى قوى غريزية ، عظيمة ، تنمو بنمو الجسم فاذا قدعت او كبتت او شوهت سببت أمراضاً عقلية او أمراضاً نفسية . وقد بيَّن على وجه خاص وجود « اللاوعي » unconscious وما له من تأثير فعَّال في الوعي ووجود نزاع بين القوى النفسية يفضي احياناً الى كبت بعضها وان في الطفل نزعة جنسية لها تأثير عظيم في نمو ملكاته العقلية كما أثبت فائدة « التحليل النفسي » في بعث الذكريات المطمورة في اللاوعي بطريقة « التداعي الحر » علاجاً للاضطراب العقلي

وقد انتشر مذهب فرويد انتشاراً واسعاً في القرن العشرين وفي سنة ١٩٠٨ عقد علماء التحليل النفسي مؤتمرهم العالمي الاول وانشأوا في سنة ١٩١٠ جمعية دائمة ولم تمض فترة يسيرة حتى بدأ كتَّاب السِيَر يطبقون طريقة فرويد في دراسة عظماء التاريخ والشعوب والمجتمع بوجهٍ عام ولم يُحصَر تطبيقها في المصابين بالاضطراب العقلي

ولكن من تلاميذ فرويد من لم يجار استاذه في طريقته فانشقوا عليه وفي طليعتهم يونج Jung وادلر Adler. ولكن لا ريب في ان علوم الطب النفسي وسيكولوجيا الاجتماع والتربية مدينة لفرويد بكثير من طرائقها ونتائجها

***

وعلى نحو ما عمد علماء السيكولوجيا في الربع الاول من القرن العشرين الى اقامة علمهم على أساس من طريقة التجريب العلمي المتبعة في العلوم الطبيعية ، كذلك جاراهم عدد وافر من علماء التاريخ والاقتصاد والسياسة والاجتماع وكان رأيهم ان هذه المباحث هي « علوم » ووصفوها بالعلوم الاجتماعية » وذهبوا الى ان تخضع للبحث الموضوعي وفي الوسع تعليل مسائلها تعليلاً ميكانيكيًّا على نحو ما تم في علوم الطبيعة والكيمياء والاحياء — أي استقراء الظواهر استقراءً دقيقاً وحشد الحقائق وتبويبها وموازنتها ثم استخراج النواميس العامة . وكما مال علماء العلوم الطبيعية الى التعاون في معامل البحث ومعاهده كذلك مال علماء « العلوم الاجتماعية » الى التعاون في دور الكتب واستقراء أحوال المجتمعات وما أشبه . وعلى ذلك الأساس جمعت حقائق كثيرة عن حاضر الانسان وماضيه ونشاطه وحياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية وكتبت ألوف من الرسائل ومئات من الكتب

هذا في ما يتصل بحقائق العلم وتقدمهِ في القرن العشرين ، ولكن جنباً الى جنب مع الحقائق بدت في الأفق العلمي غيوم الشك ، وساورت عقول العلماء ريَب ، يصح أن توصف بأنها تحمل في طياتها نذراً بحلول عصر سمتهُ « الشعور بالخيبة » . وكأن هذه الشكوك العلمية فعلت في الافكار العلمية التي كانت شائعة ، في مستهل القرن العشرين ، ما فعلتهُ الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية في الدعوة الى السلام ، وقيام الدكتاتورية في انتشار النظم الديمقراطية . وليس ثمة ريب في ان العلوم التطبيقية ستمضي من ظفر الى ظفر، ولكن فلسفة العلم الحديث عاجزة عن أن تستقيم على أركان من التعليل المادي الميكانيكي للكون وهو التعليل الذي ما فتئ قائماً منذ قرون . ذلك بأن شكوكاً أساسية تساور الآن أذهان العلماء ، حتى في الطبيعة النيوتونية نفسها وطبيعة المادة والحركة والنواميس الطبيعية، وصورة العلة والمعلول . فعلماء الطبيعة في غمار ثورة فكرية حقيقيــة . ولا مفرّ من أن تؤثر هذه الثورة في علماء الطبيعة ، والكيمياء وعلماء الاحياء ثم في علماء النفس وعلماء الاجتماع

***

وقد مهد لهذه الثورة في علم الطبيعة في القرن العشرين ثلاثة مذاهب أو مكتشفات . فثمة أولاً نظرية المقدار (الكوانتم) التي أخرجها مكس بلانك واستكملها بين سنة ١٩٠١ و ١٩١٢ . وثانياً اقامة اينشتين الدليل على مبدإ النسبية بين سنة ١٩٠٥ و ١٩١٥ . وثالثاً المباحث الجديدة في التركيب الذري والنشاط الذري وعالماها المقدّمان هما رذرفورد البريطاني وبوهر الدنماركي

وليس الغرض من هذا الفصل التعمُّق في بحث هذه التحولات الثلاثة ولا المجال يتسع لذلك . ومع ذلك لا بدَّ من الاعتراف بأن هذه التحولات العلمية ، جعلت تعليل الكون تعليلاً ماديًّا ميكانيكيًّا غير كافٍ وغير متسق مع الآراء والحقائق الجديدة . إذ يبدو ان في الطبيعة أفعالاً لا تجري وفقاً للنواميس الميكانيكية والى هذا مردُّ مبدإ عدم التثبت الذي قال بهِ هيزنبرج. ثم انهُ من المتعذر الآن ، بحسب العلم الطبيعي الحديث ، التفريق بين المادة والطاقة ، بين الجسم وسلوكهِ . والواقع ان الصورة القديمة « للجسم » القائمة على ركنين من « امتدادٍ مكانيّ » و « استمرار زمني» أصبحت لامعنى لها . لأن لا الزمان ولا المكان لهُ وجود مطلق. فالجسم ليس الا سلسلة من الحوادث ، متصلة اتصالاً غير معروف وربما كان اتصالاً لا يمكن النفوذ الى كنههِ . وهذه الحوادث تحدث في ما يدعى بالفراغ الزمني المكاني (او الزمكان Space—time) . نعم ! ان النظريات الجديدة في بناء المادة والطاقة، فرضت انقلاباً أساسيًّا على العلماء في نظرهم الى طبيعة المادة ، وجارتها في ذلك نظرية النسبية في ما أفضت اليهِ من

مذاهب في طبيعة الكون . فالفضاء بحسب آراء اينشتين ، متحدّب ، وكلما أوغلت فيهِ اقتربت من الموقع الذي بدأت فيهِ سيرك . فالكون لا حدَّ لهُ ولكنهُ ينتهي !

ونحن لا نزال في غمار هذه الثورة الفكرية العلمية التي أحدثتها المكتشفات الطبيعية الحديثة ، فليس في وسع أحد ، كائناً من كان ، ان يتصور ما قد تفضي اليه من آثار في العلم والفكر والحياة . بل ان كثيرين من رجال الفكر هزّهم ما أصيبت بهِ المذاهب القديمة التي نشأوا عليها ، بعدما ظلّت قائمة ثلاثة قرون او اكثر . فرأيهم في التحوُّل الجديد لا بدَّ ان يكون رأياً مشوَّهاً. واليك ما كتبهُ عالم مشهور في هذا الصدد من بضع سنوات : كانت دقة ناموس الجاذبية الذي استخرجهُ نيوتن ودوام العناصر الكيميائية من الامور التي لا يرقى اليها الشك . ولو طلب الى أحد منا ان يراهن على صحة هذين الناموسين بآخر فلس يملكهُ لفعل بغير تردُّد . ومع ذلك فان اينشتين ورذرفورد أثبتا اننا كنا مخطئين، ولو راهنا لخسرنا

ولا بدَّ من التنبيه في هذا الصدد الى ان علم الطبيعة رسم لنا منذ عهد غاليليو ونيوتن ، الطريق المحتذى ، وعيَّن أساليب التفكير العلمي ، وهو الطريق الذي سلكتهُ بقية العلوم والاساليب التي أخذت بها . ولم يقتصر ذلك على علم الكيمياء وعلم الاحياء بل تعدَّاها الى العلوم الاجتماعية والسيكولوجيا والفلسفة . وكان كل بحث من هذه المباحث اذا أخذ بأسلوب علم الطبيعة ينتهي الى التسليم بمسلمات علم الطبيعة وتأييدها . وفي طليعة هذه المسلمات القول بأن طبيعة الكون طبيعة مادية ميكانيكية . ولكننا الآن نخرج من علم الطبيعة الحديث نفسهِ بصورة أخرى . ولما كان علم الطبيعة مقدماً بين العلوم ولهُ منزلة عالية ، فلا يستغرب ان تؤثر مسلّماتهُ الجديدة ، في شتى ألوان التفكير العلمي

والواقع ان هناك ثلاث دلائل على هذا التأثير في الفلسفة الحديثة . فقد كانت الفلسفة السائدة ، عند مختتم القرن التاسع عشر ، فلسفة مادية قائمة على طبيعة Physics نيوتن ويؤيدها مذهب داروين في التطور العضوي . وقد عبرَّ عنها هربرت سبنسر في فلسفته التركيبية وارنست هيكل أقوى تعبير وأشده تطرفاً . ولكن مستهلّ القرن العشرين شهد قيام فلسفات اخرى تغايرها . وكانت احداها الفلسفة «المدرسية المجدَّدة » Neo—scholasticism وهي تمثل سعياً جدّيًّا للتوفيق بين العلم الحديث والآراء المسيحية التي جرت بها التقاليد. وقد كان جاك ماريتان الفيلسوف الفرنسي احد اركانها . ثم نشأت فلسفة اخرى اعتمدت على علم الأحياء، في الانصراف عن النظرة الميكانيكية التي يفرضها علم الطبيعة في الظاهر . وكان نيتشه قد مهَّد لها ، بأسلوب متشائم . ولكن برجسون توسع فيها ونحا بها نحو التفاؤل . « فالباعث الحيوي » في نظره هو كلُّ شيء والغريزة والبداهة أعلى مقاماً وأبعد أثراً من العقل. قد يكون

هناك عللٌ غائيةٌ ولكن هذا لا يهمُّ لان العلل المباشرة استحدثها « التطور الخالق » في اثناء سيره

وهناك اتجاه فلسفيٌّ ثالث سمته بعث النزعة «المثالية » idealism التي نبعت من «كانت» و«هيجل». في القرن التاسع عشر كانت هذه النزعة أساساً لفلسفة طائفة من الفلاسفة المدرسيين وكانوا يدعون اليها لتحل محلّ الفلسفة المادية في فهم الكون وتفسيره ، ولكنها مع ذلك كانت غير مقبولة عند رجال العلم الذين تغلب عليهم الصفة العملية . إلاّ أنها استرعت في مستهل القرن العشرين عناية طائفة محترمة من المفكرين وفي طليعتهم « بندتو كروتشي » الفيلسوف الايطالي. وفي سنة ١٩٠٢ بدأ كروتشي يضع بياناً منظماً لما دعاه «فلسفة الروح» وقسمه أقساماً منها « الجمال » و « المنطق» و « أدب النفس » و « التاريخ » . وما أقبلت سنة ١٩٢٠ حتى كان نفوذ كروتشي قد اتسع نطاقه اتساعاً عظيماً . و « الروح » في نظره متجلٍّ في جميع محتويات التجارب الانسانية أو الاختبار الانساني — أي في التاريخ . ومهمة التاريخ ليست جمع الحقائق ، بل اسباغ المعنى عليها وفهم وجهتها من حيث صلتها بالروح

***

وجنباً الى جنب مع الفلسفات الجديدة نشأ مذهبٌ جديد في السيكولوجيا وكثرت انصاره وقد نشأ هذا المذهب اولاً في المانيا وأُطلق عليه اسم جشتالت اي «السيكولوجيا النموذجية». وفي طليعة الذين عنوا بهِ ووسعوا نطاقهُ بعد سنة ١٩٢١ ماكس ڤرتيمر . وهو يُعارض السيكولوجيا الفسيولوجية التي تعد سلوك المرء سلسلة متصلة من الافعال العكسية المحوَّلة ، خالية من القيمة الذاتية . ولكن أقطاب «السيكولوجيا النموذجية» يذهبون الى انهُ لا يجوز للسيكولوجيا ان تهمل كلَّ شيء في دراسة نفسية المرء ما عدا الحوافز الطبيعة والاستجابات اوالارجاع الطبيعية لتلك الحوافز ، بل يجب ان يقام وزن كامل لطبيعة الادراك أو نموذجه . فرؤية « مربع » ليست مجرّد رؤية أربعة خطوط مستقيمة تصل بينها أربع زوايا قائمة ، ولكنها ادراك المربع من حيث هو كلٌّ قائم . وكذلك ادراك لحنٍ ما انما هو ادراك مجموعة النغمات المتلاحقة لا مجرد ادراك انغام متتابعة ولكنها منفصلة

وإنَّ الذهن ليعجز الآن عن تصور ما لهذا الانقلاب الخطير في أصول علم الطبيعة من تأثير في العلوم الاجتماعية . فقد انقضى قرنان وأقطاب هذه العلوم يسعون سعياً صادقاً الى تطبيق أساليب علماء الطبيعة على علومهم وغالباً ما سلموا بمقدمات تشبه مقدماتهم وفي طليعتها ان وراء الكون «نواميس طبيعية » في الوسع الكشف عنها . والغالب ان معظم هؤلاء الاقطاب

سيمضون على طريقتهم هذه قبل ان يتأثروا بالتحول الجديد في علم الطبيعة ، فالعلوم الاجتماعية عادة تتبع العلوم الطبيعية متأخرةً عنها

وليس ثمة ريب في ان علماء الاجتماع جمعوا في خلال القرن الماضي قدراً كبيراً من الحقائق وبوّبوها وهضموها ، ولكن الشك يساور دوائرهم الآن ، في هل يستطيعون تحقيق الهدف المزدوج الذي توخوه — هدف العلوم الطبيعية — وهو البحث الموضوعي أولاً واستخراج النواميس العامة ثانية

وفي سنة ١٩١٦ أشار كروتشي الى ان « التاريخ العلمي » أشرف على نهاية مرحلته وان اتباعه الذين ظنوا أن محلّ عنايتهم الوحيد هو الحقائق « الموضوعية » انما يكشفون كشفاً متواصلاً عن ذاتيتهم في ما يختارونه من الحقائق لنظمها في سلك ما يكتبونه من تاريخ وأن « الحقيقة » التاريخية على كلّ حال ليست حقيقة مطلقة وانما هي حقيقة نسبية

وما يقال في التاريخ — على نسق ماقاله كروتشي — يقال في علم الاجتماع . فقد توالت الفلسفات الاجتماعية واحدة تلو الاخرى من كونت الى هربرت سبنسر الى باريتو واذا كل جيل تابع للجيل الذي وضعت فيه إحدى هذه الفلسفات ، لا يرى في فلسفة الجيل السابق الاّ نظرة تعبر عن رأي فرد او جماعة في وقت ما . أما علم السياسة ، فقد اثبتت الحوادث التي تلت الحرب العالمية الأولى ، انه عاجز عن تبين الاتجاهات السياسية المقبلة او استشفافها ، وجلّ جهده مثلاً ان يصف الدكتاتوريات لا أن يتكهن بقيامها قبل قيامها . وأما الاقتصاد العلمي فقد عجز عن منع الازمة العالمية وكذلك عن علاجها

***

وقد أجمل المؤرخ الاميركي تشارلز بيرد الشك العلمي الجديد ، ولا سيما في انطباقه على العلوم الاجتماعية في العبارة التالية :— « أما وقد جُرّد الناس من « الاستيثاق » الذي كان مرتبطاً باسم العلم ، ومن الأمل في امكان الوصول الى « الاستيثاق » ، لما كشف عنه في طبيعة المادة الذرية ، فعليهم ان يعترفوا باحتمال خطإهم وان يسلموا بأن العالم مكان للتجريب ، والخطأ فيه محتمل كالصواب ، وان الذين يقدمون على تحمل التبعات الأدبية وممارسة الاحكام البازغة من البداهة بغير ان يهملوا الحصول على أكبر قدر من المعرفة المتاحة ، هم وحدهم لهم الحق في استشفاف المستقبل وافراغه الى حدّ ما في القالب الذي يؤثرونه » . (انتهى ملخصاً من كتاب تاريخ أوربا السياسي والثقافي للمؤرخ هايز Hayes)

(١) باريتو اجتماعي إيطالي (١٨٤٨ — ١٩٢٣) وقد نشر كتابه في « علم الاجتماع » سنة ١٩١٦

العرب

والتفكير العلمي (1)

لقدري حافظ طوقان

إن موضوع التفكير العلمي عند العرب موضوع واسع عريض من الصعب الاحاطة به هذا المساء، وقد جعلته على قسمين: الاول يبحث في أثر العرب في العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية، والثاني في التفكير الذي كان يسيطر على علماء العرب وفي الطريقة التي كانوا يتبعونها في دراساتهم وعليها استقام نتاج قرائحهم. يقول (ويدمان) ان العرب أخذوا بعض النظريات عن اليونان وفهموها فهماً صحيحاً وطبقوها على حالات كثيرة ومختلفة، ثم انشأوا نظريات جديدة وبحثوا بحوثاً مبتكرة فأسدوا بذلك الى العلم خدمات لا تقل عما أسداه نيوتن وفراداي ورنتجن وهذا ما سيتجلى لكم هذا المساء

وضع العرب أساس البحث العلمي، وقويت عندهم الملاحظة وحب الاستطلاع، ورغبوا في التجربة والاختبار فانشأوا (المعمل) ليمتحنوا نظرياتهم وليستوثقوا من صحتها. استنبطوا من مبادىء الميكانيكا وقوانينها الأساسية ما ساعد على تقدمها ونموها. بحثوا في السوائل ولهم فيها شروح وتطبيقات لم يصل اليها غيرهم. ابتدعوا طرقاً واخترعوا آلات لاستخراج الوزن النوعي لكثير من المعادن والأحجار الكريمة والسوائل والاجسام التي تذوب في الماء واستعملوا انواعاً من الموازين لم تكن معروفة واخترع الخازن ميزاناً غريب التركيب لوزن الأجسام في الماء والهواء

وضع الخازن كتاباً في الطبيعة سماه (كتاب ميزان الحكمة) هو من أروع الكتب التي ألفت في العربية. واعترف (بلتن) في الاكاديمية الاميركية بما لهذا الكتاب من الشأن والأثر. ومن هذا الكتاب نتبين انه كان لديه آلة لقياس حرارة السوائل وفكرة عن الجاذبية، كما نتبين ان العرب عرفوا بعض تفصيلات الضغط الجوي فهم بذلك قد سبقوا تورشيللي في هذا الموضوع. وثبت ايضاً أنهم قالوا بأن الهواء كالماء يحدث ضغطاً من أسفل الى أعلى على اي

(1) القيت هذه المحاضرة في جمعية الشبان المسيحية في القدس في مساء الخميس ٦ / ١١ / ١٩٤١ برآسة الاستاذ احمد سامح بك الخالدي عميد الكلية العربية ومساعد مدير معارف فلسطين

جسم مغمور فيه ، ومن هنا استنتج علماء العرب ان وزن الجسم في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي ، وان كثافة الهواء في الطبقات السفلى أكبر منها في العليا وان الهواء لا يمتد الى ما لا نهاية ، بل ينتهي عند ارتفاع معين . وهذه المبادىء والحقائق كما لا يخفى هي الاساس الذي بنى عليه الأوربيون فيما بعد بعض مخترعاتهم كالبارومتر ومفرغات الهواء

وقد يجهل كثيرون ان ابن يونس هو الذي اخترع بندول الساعة او الرقاص واعترف بذلك (سيديو) و (سارطون) و (تايلور) و (سدويك) و (بيكر) وغيرهم . وكان عند العرب فكرة عن قانون الرقاص . يقول سمث : « .. ومع ان الرقاص هو من وضع (غاليليو) إلاَّ ان كمال الدين لاحظهُ وسبقهُ في معرفة شيء عنه ... وكان الفلكيون يستعملون البندول لحساب الفترات الزمنية في الرصد ... » ومن هنا نتبين ان العرب سبقوا (غاليليو) في اختراع الرقاص وفي معرفة شيء عنه . ثم جاء من بعدهم (غاليليو) وبعد تجارب عديدة استطاع ان يستنبط قوانينه فوجد ان مدة الذبذبة تتوقف على طول البندول وقيمة عجلة التثاقل وافرغ ذلك في القالب الرياضي المعروف فوسع دائرة استعمال الرقاص وجني الفوائد الجليلة منه

ولا يتسع المجال لسرد ما كتبهُ العرب في الروافع والموسيقى والصوت ، ولكن في وسعنا ان نقول أنهم وضعوا في هذا كله مؤلفات نفيسة استقى منها علماء أوربا في عصر النهضة وكانت لهم منهلاً نهلوا منهُ وأساساً بنوا عليهِ كثيراً من المكتشفات والمخترعات

لولا العرب لما كان علم البصريات على ما هو عليه الآن ولما تقدم علما الطبيعة والفلك تقدمها العجيب . ولعلَّ الحسن بن الهيثم في مقدمة الذين أضافوا الى هذا العلم . ظهر في أوائل القرن الخامس للهجرة وكان عالماً بالبصريات وأول مكتشف بعد بطلميوس كما تقول دائرة المعارف البريطانية . وضع مؤلفاً نفيساً في البصريات سماه (المناظر) ويسرني ان أقول ان الاستاذ الخالدي قد عثر على « تنقيح المناظر » لكمال الدين الفارسي وتفضَّل فوضعهُ تحت تصرفي لدرسه والبحث فيه . وأطلعني الاستاذ مصطفى نظيف بك أستاذ الطبيعيات في كلية الهندسة بجامعة فؤاد الاول بالقاهرة على كتاب « المناظر » كاملاً وهو سبعة أجزاء ، وقد عُثر على مخطوط قديم من هذا الكتاب في احدى مكتبات استانبول ، وأخذت جامعة فؤاد الاول صورة عنه وهو الآن بين يدي الاستاذ نظيف لدرسه وشرحه والتعليق عليه . وأخبرني الاستاذ ان عبقرية ابن الهيثم تتجلى في هذا الكتاب . فقد أتى فيهِ على بحوث مبتكرة في الضوء وموضوعات تدل على انهُ هو واضع الطريقة العلمية الحديثة كما وصف تجارب دقيقة نجريها الآن في المدارس الثانوية . وأخبرني أيضاً انهُ معجب بحل كثير من معضلات الضوء . فقد استعان ابن الهيثم بالجبر والمثلثات والهندسة الفراغية ووضع كل ذلك في لغة بليغة لا تعقيد

فيها ولا التواء . وفي رأي الاستاذ نظيف (وهذا ما رآه كبار علماء أوربا كذلك) ان هذا الكتاب من افضل الكتب وأغزرها مادة وأعمقها أثراً في تقدم الطبيعة ولعله من أعظم الكتب العلمية التي ظهرت في القرون الوسطى .

من هذا الكتاب نتبين أن ابن الهيثم هو الذي أضاف القسم الثاني من قانون الانعكاس القائل بان زاويتي السقوط والانعكاس واقعتان في مستوى واحد . وقد أدخل في كتابه هذا بعض المسائل المهمة عرف بعضها باسم (مسائل ابن الهيثم) منها : اذا علم موضع نقطة مضيئة ووضع العين ، فكيف تجد على المرايا الكرية والاسطوانية النقطة التي تتجمع فيها الاشعة بعد انعكاسها . ولقد اشتهرت هذه المسألة كثيراً وشغلت عقول طائفة من علماء اوربا بعد عصر النهضة . وكان ابن الهيثم اول من تمكن من حلها حلاً هندسيًّا معززاً بالبراهين . وصنع مرآة مكونة من بعض حلقات كرية ولكل منها نصف قطر معلوم ومركز معلوم اختارها بحيث تعكس جميع الحلقات الأشعة الساقطة عليها في نقطة واحدة . وقاس كلاً من زاويتي السقوط والانكسار وبيّن ان بطلميوس كان مخطئاً في نظريته القائلة بأن النسبة بين زاويتي السقوط والانكسار ثابتة . وقال بأن هذه النسبة لاتكون ثابتة بل تتغير ولكنهُ مع ذلك لم يوفَّق الى استخراج القانون الحقيقي للانكسار. وأجرى تجارب متعددة لاستخراج العلاقة بين زاويتي السقوط والانكسار واستعمل لذلك جهازاً قوامهُ حلقة مدرَّجة من النحاس تغمر وهي في وضع رأسي الى نصفها بالماء . وكان بالحلقة ثقب صغير وعلى سطح الماء قرص مثقوب عند مركزه وموضوع بحيث ان مركزه ينطبق على مركز الحلقة ، وهذا يشبه الجهاز الذي نستعملهُ في قياس الزاويتين . وله جداول أدق من جداول بطلميوس في معاملات الانكسار لبعض المواد . وقد شرح ابن الهيثم في كتبهِ بعض الظواهر الجوية التي تنشأ عن الانكسار فكان أسبق العلماء الى ذلك .

ومن الظواهر التي أوردها وشرحها الانكسار الفلكي أي ان الضوء الذي يصل الينا من الأجرام السماوية يعاني انكساراً باختراقهِ الطبقة الهوائية المحيطة بالأرض . ومن ذلك ينتج انحراف في الاشعة ، ولا يخفى ما لهذا من شأن في الرصد ، وقد علَّل كثيراً من الظواهر الفلكية الناشئة عن الانكسار تعليلاً صحيحاً ، وعلل الهالة التي ترى حول الشمس او القمر وظهور قرص الشمس (او القمر) بالقرب من الأفق على شكل بيضوي وقال إن شعاع النور يأتي من الجسم المرئي الى العين وأوضح هذا القول بتحليل بديع وشرحٍ وافٍ لم يسبق اليه . وكتب في الزيغ الكري وفي تعليل الشفق وقال انهُ يظهر ويختفي عندما تهبط الشمس ١٩ درجة تحت الأفق وان بعض أشعة النور الصادرة من الشمس تنعكس عما في الهواء من ذرات عائمة وترتد الينا فنرى ما انعكست عنه . وبيَّن ان الزيادة الظاهرة في قطريْ الشمس والقمر حينما

يكونان قريبين من الأفق وهمية ، وقد علل هذا الوهم تعليلاً علمياً دقيقاً فبناه على ان الانسان يحكم على كبر الجسم او صغره بشيئين : الاول : الزاوية التي يبصر منها وهي التي يطلق عليها زاوية الرؤية . والثانية : قرب الجسم او بعده عن العين . وابن الهيثم أول من كتب عن العين وأقسامها وأول من رسمها بوضوح تام . وقد تجلى لي هذا في كتاب (تنقيح المناظر). وبيَّن كيف ننظر الى الاشياء بالعينين في آن واحد وان الاشعة تسير من الجسم المرئي الى العينين . ومن ذلك تقع صورتان على الشبكية في محلين متماثلين . وعلاوة على ذلك انهُ أول من بين ان الصور التي تنشأ من وقوع صورة المرئي على شبكية العين تتكون بنفس الطريقة التي تتكون بها صورة جسم مرئي تمر أشعته الضوئية من ثقب في محل مظلم ثم تقع على سطح يقابل الثقب الذي دخل منهُ النور . والسطح يقابله في العين الشبكية الشديدة الاحساس بالضوء . فاذا ما وقع الضوء حدث تأثير انتقل الى المخ ومن ذلك تتكون صورة الجسم المرئي في الدماغ. وله أيضاً معرفة بخاصيات العدسات اللامة والمفرقة والمرايا في تكوين الصور

وبحث العرب في ظاهرة قوس قزح . نجد ذلك في تآليف قطب الدين الشيرازي الفلكية وقد شرحها في كتابه نهاية الادراك شرحاً وافياً هو الاول من نوعه بالقياس الى الشروح التي سبقته . وبحثوا كذلك في المرايا المحرقة وكانت بحوث ابن الهيثم فيها جليلة دقيقة ، دلت على احاطته التامة بمبدأ تجمع الاشعة التي تسقط على السطح موازية للمحور بعد انعكاسها عنه وكذلك بمبدأ تكبير الصور وانقلابها وتكوين الحلقات والالوان

نتبين مما مرَّ ان لعلماء العرب وعلى رأسهم ابن الهيثم أثراً عظيماً في الضوء وفي اضافاتهم الكثيرة التي لم يسبقهم اليها أحد ، فقد بعثوا البحث في كثير من الموضوعات التي تتعلق بالضوء واتجهوا في ذلك اتجاهاً جديداً وسياقاً منطقياً وأنشأوا حلولاً مبتكرة « وضعت الأمور في أوضاعها الصحيحة وصارت النواة التي تكثف ونما حولها علم الضوء ... » (١)

* * *

برع العرب في الرياضيات وأجادوا فيها وأضافوا اليها اضافات أثارت اعجاب علماء الغرب ودهشتهم ، فقد اعترفوا بفضل العرب وأثرهم الكبير في خدمة العلم والعمران . وقد اطلع العرب على حساب الهنود وأخذوا عنهم نظام الترقيم على حساب الجمل . وكان لدى الهنود اشكال عديدة للارقام فهذبوا بعضها وكونوا من ذلك سلسلتين عرفت احداهما بالارقام الهندية وهي التي تستعملها هذه البلاد وأكثر الاقطار الاسلامية والعربية وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية وقد انتشر استعمالها في بلاد المغرب والاندلس . وعن طريق الاندلس دخلت هذه الارقام اوربا وعرفت باسم الارقام العربية Arabic Numerals

(١) راجع محاضرات ابن الهيثم التذكارية — المحاضرة الاولى لمصطفى نظيف بك

وليس المهم هنا تهذيب العرب للارقام الهندية وادخالها الى اوربا ، بل المهم ابتداع طريقة جديدة لها — طريقة الاحصاء العشري — واستعمال الصفر لما نستعملهُ له الآن . ومن الرجح ان العرب وضعوا علامة الكسر العشري ، ومما لا شك فيه انهم عرفوا شيئاً عنه

وضع العرب مؤلفات كثيرة في الحساب وترجم الاوربيون بعضها ونقلوا منها وكان لها اكبر أثر في تقدم الحساب . واننا لنتبين من هذه المؤلفات انهم بحثوا في الاعداد وأنواعها وخواصها وتوصلوا الى نتائج هامة فيها انتفاع وفيها متاع ، وانهم استعملوا مسائل يجد فيها من يحاول حلها ما يشحذ الذهن ويقوي العقل . بحثوا في الاعداد المتحابة والمتواليات العددية والهندسية وقوانين جمعها — ومن هذه تتجلى لنا قوة الاستنباط والاستنتاج التي اتصفوا بها . ولا يتسع المجال لتفصيلها فليراجعها من شاءَ في كتابنا « تراث العرب العلمي »

واشتغل العرب بالجبر وأتوا فيه بالعجب العجاب حتى ان كاجوري قال : « ... ان العقل ليدهش عند ما يرى ما عمله العرب في الجبر » وهم أول من اطلق لفظة جبر على العلم المعروف بهذا الاسم ، وعنهم اخذ الافرنج هذه اللفظة Algebra . وكذلك هم اول من ألف فيه على منهج علمي منظم وأول من ألف فيه محمد بن موسى الخوارزمي في زمن المأمون وكان كتابه في الجبر منهلاً نهل منهُ علماء العرب والغرب على السواء واعتمدوا عليه في بحوثهم وأخذوا عنه كثيراً من النظريات . وكان لهذا الكتاب أثر عظيم في تقدم علمي الجبر والحساب « بحيث يصح القول بأن الخوارزمي وضع علم الجبر وعلّمه وعلّم الحساب للناس اجمعين ... »

قسم العرب المعادلات ستة أقسام ووضعوا حلولاً لكل منها وحلوا المعادلات الحرفية واستخدموا الجذور الموجبة ولم يجهلوا ان المعادلة ذات الدرجة الثانية لها جذران كما استخرجوا جذريْ المعادلة اذا كانا موجبين ، وحلوا كثيراً من معادلات الدرجة الثانية بطرق هندسية ، يدلنا على ذلك كتاب الخوارزمي وغيره من كتب علماء العرب في الجبر . ووضعوا حلولاً جبرية وهندسية لمعادلات ابتدعوها مختلفة التركيب . واستعملوا الرموز في الاعمال الرياضية ، وسبقوا الغربيين (امثال ڤيتا وستيفن وديكارت) في هذا المضمار . ومن يتصفح مؤلفات القلصادي يتبين صحةَ ما ذهبنا اليهِ . فلقد استعمل لعلامة الجذر الحرف الاول من كلمة جذر (ﺣ) وللمجهول الحرف الاول من كلمة شيء (ش) يعني (س) ، ولمربع المجهول الحرف الاول من كلمة مال (م) يعني $س^٢$ ، ولمكعب المجهول الحرف الاول من كلمة كعب (ك) يعني $س^٣$ ، كما استعمل لعلامة المساواة حرف (ل) وللنسبة ثلاث نقط (∴) ولا يخفى ما لاستعمال الرموز من أثر بليغ في تقدم الرياضيات العالية

وحل العرب معادلات الدرجة الثالثة وقد اجادوا في ذلك وابتكروا مبتكرات بديعة هي محل اعجاب علماء اوربا . قال كاجوري : « ان حل المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع

المخروط من اعظم الأعمال التي قام بها العرب ..» ويقول (بول) ان ثابتاً بن قرة حل معادلات من الدرجة الثالثة بطرق هندسية مشابهة لطرق علماء اوربا في القرنين السادس عشر والسابع عشر .م فيكونون بذلك قد سبقوا (ديكارت)و(بيكر)وغيرهما في هذه البحوث . وحلوا بعض اوضاع المعادلات ذات الدرجة الرابعة . وكشفوا النظرية القائلة بان مجموع مكعبين لا يكون مكعباً .وهذا اساس نظرية فرما Fermat . ومن حلولهم هذه وغيرها نتبين انهم جمعوا بين الهندسة والجبر واستخدموا الجبر في بعض الاعمال الهندسية، كما استخدموا الهندسة لحل بعض الاعمال الجبرية فهم بذلك واضعو اساس الهندسة التحليلية . ومن بحوث ابن قرة ومن حلوله بعض الاعمال ، نتبين ان العرب مهدوا للتكامل والتفاضل Calculus وهذا ما أتينا عليه في كتابنا « تراث العرب العلمي » . ولا يخفى ان الرياضيات الحديثة تبدأ بالهندسة التحليلية التي ظهرت في شكل مفصل منظم في القرن السابع عشر للميلاد وتبعتها فروع الرياضيات بسرعة فنشأ علم التكامل والتفاضل ويقول الاستاذ كاربنسكي «.. ويرجع الاساس في هذا كله (اي في تقدم الرياضيات ونشوء التكامل والتفاضل) الى المبادىء والاعمال التي وضعها علماء اليونان والى الطرق المبتكرة التي وضعها علماء الهند.وقد اخذ العرب هذه المبادىء وتلك الاعمال والطرق ودرسوها واصلحوا بعضها ثم زادوا عليها زيادات هامة تدل على نضج افكارهم وخصب عقولهم . وبعد ذلك أصبح التراث العربي حافزاً لعلماء ايطاليا واسبانيا ثم لبقية بلدان اوربا الى دراسة الرياضيات والاهتمام بها . وأخيراً أتى (فيتا) ووضع مبدأ استعمال الرموز في الجبر . وقد وجد فيه ديكارت ما ساعده على التقدم ببحوثه في الهندسة خطوات واسعة فاصلة. مهدت السبيل لتقدم العلوم الرياضية وارتقائها تقدماً وارتقاءً نشأ عنهما علم الطبيعة الحديث وقامت عليهما مدنيتنا الحالية ... »

وبحث العرب في نظرية ذات الحدين التي يمكن بواسطتها رفع مقدار جبري ذي حدين الى عدد صحيح موجب ، واشتغلوا ببراهين النظريات المختصة في مربعات ومكعبات الأعداد الطبيعية التي عددها (ن) كما وجدوا قانوناً لاستخراج مجموع الاعداد الطبيعية المرفوع كل منها الى القوة الرابعة ، وعنوا بالجذور الصم وقطعوا في ذلك شوطاً ، وأوجدوا طرقاً لمعرفة القيم التقريبية للاعداد والكميات التي لا يمكن استخراج جذرها ، واستعملوا في ذلك طرقاً جبرية تدل على قوة الفكر وسعة العقل . ويقول جنتر Junther ان بعض هذه العمليات لايجاد القيم التقريبية أبانت طرقاً لبيان الجذور الصم بكسور متسلسلة

وتعجبون اذا قلنا انهُ وجد في الأمة العربية مَن مهّد لاكتشاف اللوغارتمات . وقد يكون هذا موضع دهشة واستغراب . فلقد تبينت بعد البحث في مآثر ابن يونس في المثلثات ان فكرة تسهيل الأعمال المعقدة التي تحتوي على الضرب واستعمال الجمع بدلاً منهُ قد وجدت

عند بعض علماء العرب قبل (نابيير) كما ثبت لي من البحث في مآثر ابن حمزة وبحوثه في المتواليات العددية والهندسية انهُ مهد للذين أتوا من بعده موضوع اللوغارتمات . وقد أوضحت ذلك في كتاب « تراث العرب العلمي »

والحقيقة انهُ ما دار بخلدي اني سأجد بحوثاً لعالم عربي كابن حمزة هي في حد ذاتها الأساس والخطوة الأولى في وضع اصول اللوغارتمات . قد يقول بعضهم ان (نابيير) لم يطلع على هذه البحوث ولم يقتبس منها شيئاً . قد يكون ذلك . ولكن أليست بحوث ابن حمزة في المتواليات تعطي فكرة عن مدى التقدم الذى وصل اليهِ العقل العربي في العلوم الرياضية ؟

لولا العرب لما كان علم المثلثات على ما هو عليهِ الآن ، فاليهم يرجع الفضل الاكبر في وضعهِ بشكل علميّ منظم مستقل عن الفلك . وفي الاضافات الأساسية الهامة التي جعلت كثيرين يعدُّونهُ علماً عربيًّا كما عدُّوا الهندسة علماً يونانيًّا . ولا يخفى ما لعلم المثلثات من أثر في الاكتشاف والاختراع وفي تسهيل كثير من البحوث الطبيعية والهندسية والصناعية

استعمل العرب (الجيب) بدلاً من وتر ضعف القوس الذي كان يستعملهُ علماء اليونان. ولهذا منزلة عالية في تسهيل حلول الاعمال الرياضية . وهم أول من أدخل المماس في عداد النسب المثلثية . وبرهنوا على ان نسبة جيوب الاضلاع بعضها الى بعض كنسبة جيوب الزوايا في أي مثلث كروي ، واستعملوا المماسات والقواطع ونظائرها في قياس الزوايا والمثلثات ، ويعترف العلامة (سوتر Suter) بأن لهم الفضل الاكبر في ادخالها الى حساب المثلثات ، وعملوا الجداول الرياضية للجيب . وقد حسبوا جيب ٣٠ دقيقة فكان حسابهم صحيحاً الى ثمانية أرقام عشرية ، وكشفوا العلاقة بين الجيب والمماس والقاطع ونظائرها ، وتوصلوا الى معرفة القاعدة الأساسية لمساحة المثلثات الكروية كما كشفوا القانون الخامس من القوانين الستة التي تستعمل في حل المثلث الكروي القائم الزاوية . وألف ابن الافلح تسعة كتب في الفلك يبحث أولها في المثلثات الكروية وكان له أثر بليغ في المثلثات وتقدمها . واخترع العرب حساب الاقواس التي تسهل قوانين التقويم وتريح من استخراج الجذور التربيعية .

وقد اطلع علماء الافرنج في القرن الخامس عشر على مؤلفات ابن الافلح والطوسي وغيرهما ونقلوها الى لغاتهم . وكان لكتاب الطوسي (شكل القطاع) أثر كبير في الرياضيات ، ونستطيع القول ان العلماء (فيما بعد) لم يزيدوا شيئاً هامًّا على نظريات هذا الكتاب ودعاويه وتتجلى لنا عظمة الطوسي ومنزلتهُ في تاريخ الفكر الرياضي اذا علمنا ان المثلثات هي ملح كثير من العلوم الطبيعية والبحوث الفلكية والموضوعات الهندسية وانهُ لا يمكن لهذه ان تستغني عن المثلثات ومعادلاتها . ولا يخفى انَّ هذه المعادلات هي عامل أساسي في استغلال القوانين الطبيعية والهندسية في ميدان الاختراع والاكتشاف

أما في الفلك فلم يقف العرب فيه عند حد النظريات بل خرجوا الى العمليات والرصد فهم أول من أوجد بطريقة علمية مبتكرة طول درجة من خط نصف النهار وأول من عرف أصول الرسم على سطح الكرة ، وقالوا باستدارة الارض وبدورانها على محورها وعملوا الازياج الكثيرة العظيمة النفع ، وهم الذين ضبطوا حركة أوج الشمس وتداخل فلكها في أفلاك أخر ، وكشفوا بعض أنواع الخلل في حركة القمر ، واخترعوا الاسطرلاب والربع ذات الثقب وحسبوا الحركة المتوسطة للشمس في السنة الفارسية . وحسب البتاني ميل فلك البروج على فلك معدل النهار وكان حسابهم دقيقاً جدًّا ، ودققوا في حساب طول السنة الشمسية وأخطأوا في الحساب بمقدار دقيقتين و٢٢ ثانية وحققوا مواقع كثير من النجوم وقالوا بانتقال نقطة الرأس والذنب للارض ، ورصدوا الاعتدالين الربيعي والخريفي وكتبوا عن كلف الشمس وعرفوها قبل غيرهم . وأصلحوا المجسطي وأتوا بمذاهب جديدة في بعض الحركات الفلكية . ويقول الدكتور سارطون : « إنهُ على الرغم من نقص هذه المذاهب الجديدة فانها مفيدة جدًّا ومهمة جدًّا لأنها سهلت الطريق للنهضة الفلكية الكبرى التي لم يكمل نموها قبل القرن العاشر » وأوحت بحوثهم الفلكية لبيكر أن « يكشف القانون الأول من قوانينه الثلاثة الشهيرة وهي أهليلجية فلك السيارات » وعملوا الجداول الدقيقة لبعض النجوم ولهذه منزلة عالية عند علماء الفلك عند البحث في تاريخ النجوم ومواقعها وحركاتها. ويمكن القول ان العرب عندما تعمقوا في درس الفلك طهروه من التنجيم وأرجعوه الى ما تركه علماء اليونان علماً رياضيًّا مبنيًّا على الرصد والحساب وعلى فروض لتعليل ما يرى من الحركات والظواهر الفلكية . وهم (أي العرب) لم يصلوا بعلم الفلك الى ما وصلوا اليه إلاَّ بفضل المراصد فقد فاقوا غيرهم في عمل الآلات ورصد النجوم والكواكب ويعترف الغربيون بالطرق المبتكرة التي استعملها العرب في رصدهم الاجرام السماوية وفي الجداول الدقيقة التي أنشأوها . ومجمل القول ان للعرب فضلا كبيراً على الفلك وتقدمه لأسباب أربعة:

(أولا) لأنهم نقلوا الكتب الفلكية عن اليونان والفرس والهنود والكلدان والسريان وصححوا بعض أغلاطها وتوسعوا فيها — وهذا عمل جليل جدًّا اذا علمنا ان أصول تلك الكتب ضاعت ولم يبق منها غير ترجماتها العربية — وهذا طبعاً ما جعل الأوربيين يأخذون هذا العلم عن العرب فكانوا بذلك أساتذة العالم فيه . (ثانياً) في اضافاتهم الهامة ومكتشفاتهم الجليلة التي تقدمت بالفلك شوطاً بعيداً . (ثالثاً) في جعلهم الفلك استقرائيًّا وفي عدم وقوفهم فيه عند حد النظريات . (رابعاً) في تطهير الفلك من أدران التنجيم

[للمحاضرة تتمة]

سيَّاف البحر

سمك بحريٌّ له منقار طويل سمّي به ، السيف وابا سيف . وفي تاج العروس « السيف بالفتح وبكسر سمكة كأنها سيفٌ » . وفي كتاب نخبة الدهر لشمس الدين الدمشقي صفحة ١٤٤ قال : «وسمكة ايضاً كصورة رجل محارب بيده سيف قصير وبالاخرى ترس مدور وعلى رأسه بيضة برفرف وذلك كله قطعة واحدة حيوان واحد جسم حيٌّ واحد السيف عضوٌ والترس عضو والخوذة عضوٌ سمّي سيّاف البحر . ثم علمت ان السيف في الاسكندرية نوع آخر من السمك يشبه السيف ولعلهُ الذي اراده صاحب التاج...لذلك قد قدمت في هذه المادة ابا سيف وسيَّاف البحر على السَّيف والسّيف» (معجم الحيوان ، للفريق أمين المعلوف)

وقد وصف سترابون الجغرافي هذا السمك قبل الفي سنة بقولهِ « ان حجم السيف في سيَّاف البحر، وقوة السمك ، وطريقة صيده ، تجعل خطر صيده لا يقل عن الخطر الذي يحفُّ بمطاردة الخنزير البري» . وما فتيء طراد هذا السمك وصيده من عهد سترابون الى عهدنا هذا في مقدمة أعمال الصيد المحفوفة بالخطر العظيم وصيد سيّاف البحر يُعدُّ أعظم ما يستطيعهُ الصياد

***

يبدأ صياد البحر حياتهُ بيضة صغيرة لا تزيد على رأس دبوس . وعندما تفقس البيضة يكون السمك شفافاً بهِ سيفان صغيران يندمجان بعد ذلك في سيفٍ واحدٍ عريضٍ تسمى السمكة بهِ. وسيَّاف البحر ينمو نموًّا سريعاً فيغدو في خلال سنة بعد فقس البيضة سمكة طولها عشر أقدام ووزنها ٦٠٠ رطل وتستطيع أن تكافح الصياد كفاحاً عنيفاً. وهذا السمك كثير في المياه الدافئة والمعتدلة في بحار الأرض . وفي أحد المدوَّنات الطبيعية أن سبَّاحاً أصيب بسيف السيَّاف فنفذ منهُ . وكان ذلك في مياه برستول على ساحل انكلترا الغربي

وقد يكون وزن السيَّاف البالغ ، الف رطل وطولهُ خمس عشرة قدماً من طرف السيف الى طرف الذيل وجسمهُ مشيق لا زوائد فيه . فالرأس المستطيل يعلوه السيف وطولهُ ذراع ، والزعنفة الظهرية ، والجسم الطويل القوي ، جميعها صفات تشريحية تمكن هذا السمك من الحركة القوية السريعة في الماء

ومقرُّ العضو المحرّك في سيّاف البحر ، ذيلهُ الكبير وطرفهُ يشبه الهلال . وليس

في بحار الارض حيٌّ يجاري السيَّاف في قوته وسرعته وحسن خطوطه . ثم أنهُ شجاع لا يخشى الموت ويحارب حرباً لاهوادة فيها وكثيراً ما يكون ميتاً أو مشفياً قبل أن يستسلم لصائده . وقد يبقى ثماني ساعات أو تسعاً بعد أن ينشب الشصُّ فيه وهو يكافح كفاحاً قويًّا وقد يجرُّ الزورق الذي فيه الصيَّاد مسافة عشرين ميلاً في خلال ذلك . ولذلك يعد صيده من أشقّ الأعمال

ومن طبائعهِ بعد ان ينشب الشصُّ فيهِ ان يرتفع من الماء فلا يبقى الاَّ ذيلهُ مغموراً به . وقد وصف الكاتب زين غراي Zane Gray ذلك بقوله : — « ارتفع ثلثاهُ من الماء ولعلَّ ذلك راجع الى قوة ذيلهِ ولكن ارتفاعهُ بدا لي كأنهُ تمَّ بفعل ساحر. ومضى يشق الماء في زبدٍ كثيف على هذا المنوال ، ذيلهُ في الماء وجسمهُ فوق الماء ، فكأنهُ كان يمشي على سطح البحر، وهو يحرّك رأسهُ الكبير ، وسيف الرأس مشرع في الهواء وشدقاه مفتوحان وزعنفته الظهرية مزبئرَّة منتفشة كأنها عفرة الأسدة »

وقد يقفز فوق سطح الماء عشرين قدماً . قال الكاتب دون Donne : «وأحياناً يقفز من الماء قفزة غير عالية ولكن مداها ثلاثون او أربعون قدماً فيلمع جلده في ضوء الشمس كأنه سيف فضي مصقول » . وسيَّاف البحر يقتات بصغار السمك فيقتحم ضحضاحَ الماء حيث يكثر السمك الصغير ويضربه بسيفه يميناً ويساراً حتى يميتهُ او يدوخهُ او تزيد وقد يرتفع من الماء ثم يهبط على ثول السمك فيشوّه بعضه او يدوخه ثم يفغر شدقيه ويلتهم

***

ومن الفعال التي تسنداليه هجومه على الزوارق وهي مصنوعة من الخشب على الغالب فينطحها. وقد جاءَ في تقرير لمصلحة مصايد الاسماك في الولايات المتحدة ان ثمانية سيوف من سيوف هذا الحيوان وجدت في آخر فصل الصيد مخترقة خشب سفينة واحدة . ومن هذه السيوف ما كان كِسَراً صغيرة ومنها ما كان طولهُ قدماً . ومما روى ان سيّاف بحر اخترق بسيفهِ قطعة من الخشب ثخانتها تسع بوصات. فلما سئل أحد المهندسين الميكانيكيين في ذلك قال ان دق مسمار في قطعة خشب من هذا القبيل يقتضي ضرب المسمار تسع ضربات بمطرقة وزنها خمسة وعشرون رطلاً . واليك رواية أخرى وهي عن السفينة «ذي فورتشون ». فقد شعر رجالها في أحد الايام بهزة عنيفة تبيَّنوا بعدها ان سيَّاف البحر ضربها بسيفه فاخترق به لوحاً رقيقاً من النحاس ولوحاً آخر من الخشب الصلب ثخانتهُ ثلاث بوصات . وسيف السيّاف مصنوع من مادة صلبة كالعاج والقوة التي يفرغها في ضربه قد تبلغ قوة مائتي حصان أحياناً اذا ما كانت سرعتهُ نحو ستين ميلاً في الساعة

صفحة من تاريخ الفتوحات النابليونية
تعيدها الحوادث الاخيرة حية

حملة نابليون

على روسيا(١)

للدكتور مصطفى الديواني

غادر الامبراطور مينا دانتزج في ١١ يونيو ١٨١٢ ووصل الى كونجسبرج في اليوم التالي وهناك أشرف على تجهيز المؤن والأغذية اللازمة لجيشه خلال زحفه في روسيا الواسعة الارجاء. وكان يهتم بأدق التفاصيل ويملي ارشاداته طول الليل والنهار ويعززها بقوله «يجب ان نحمل كل شيء معنا. ان الالوف المؤلفة التي في حملتي لا يكفيها قمح بلد ما تحتله او تستقر به ولا ما فيه من طعام. فما لم نتخذ حيطتنا عرضنا الجيش لجوع محقق ان عاجلاً او آجلاً»

وكان قوامُ الجيش اربعمائة وعشرين الف رجل نظموا في ثلاثة عشر فيلقاً عدا الحرس الامبراطوري وكان يصحبها بضعة آلاف من عربات الذخيرة وقطعان لا حصر لها من الثيران والف وثلاثمائة واثنان وستون مدفعاً وعشرون الف عربة من مختلف الاحجام.ومائة وسبعة وثمانون الف حصان. وتحركت هذه الجحافل كتلة واحدة حتى وصلت الى ضفة نهر (النيمن) وكان الجو بديعاً والسماء صافية والحقول خضراً مزدهرة وكانت الساعة الثانية صباحاً عند ما وصل نابليون الى بلدة (كاونو) فأخذ ينظر الى الفضاء الواسع امامه على الضفة الاخرى من النهر فشعر بدهشة غريبة اذ لم يواجه الا ظلاماً دامساً وكان كل شيء يدل على ان أهل هذه المدائن قد هجروها . والواقع ان القيصر اسكندر كان قد أصدر تعليماته بأن يتقهقر الجيش. بانتظام امام العدو وان يدمر في اثناء انسحابه المنتظم جميع الجسور والقرى والمدائن فلا يترك للعدو سوى الجوع والعراء والحر اللافح او البرد القارص

ونصبت الجسور في ثلاثة مواقع من النهر واخذ الجيش يعبره في نظام ودقة والامبراطور يراقبهُ عن كثب وبرغم حرصه على ان لا يفقد جنديًّا واحداً في اثناء عبور النهر فان بعض

(١) ملخصة عن تاريخ بونابرت للمؤرخ جوزيف أبوت
The life & Napoleon Bonaparte. By J. S. C. Abbott

الفرسان البولنديين حاولوا عبور النهر وهم على ظهور جيادهم فاكتسحهم التيار وقبل أن يبتلعهم اليم نظروا خلفهم وألقوا نظرتهم الاخيرة على نابليون وصاحوا وهم في النزع الاخير « يحيي الامبراطور ! » ومضى الجيش في زحفه حتى وصل الى ضواحي مدينة (فيلنا) في اليوم السابع والعشرين . وكان القيصر الكسندر في حفلة راقصة في قصر أحد النبلاء فلما سمع أن نابليون يجتاز نهر النيمن اسرع الى مغادرتها بعد ان أصدر أوامره بأن تحرق جميع ممتلكاته ومخازنه بما فيها حتى لا تقع في أيدي العدو

ودخل نابليون مدينة (فيلنا) في ٢٨ يونيو فاستقبل استقبال الغزاة الفاتحين . لأن هذه المدينة كانت عاصمة ذلك الجزء من بولندا الذي اغتصبه الروسيون . فعدَّ أهلها الأمبراطور محررهم من ربقة الاستعباد ومعيد مجد مملكتهم التي اقتسمتها الدول المحيطة بها

ومكث نابليون في هذه المدينة ثمانية عشر يوماً نظم فيها شؤون جيشه واعتنى بأمر سكان الأرض المحتلة فأقام فيهم حكماً صالحاً وهو ينتظر وصول مؤن لجيشه الكبير . وعلى الرغم من انه لم يخض معركة ما فانهُ فقد عشرة آلاف حصان نفقت جوعاً وتعباً وامتلأت المستشفيات بالمرضى من رجال جيشه حتى لقد لجأ اليها خمس وعشرون الفاً من الجنود

وفي أثناء مقامه بهذه المدينة أرسل اليه القيصر رسولاً ليعرض عليهِ استعداده للدخول في مفاوضات للصلح على شرط أن يتقهقر نابليون بجنوده الى ما وراء نهر (النيمن) فرفض الامبراطور على الفور وأظهر استعداده للمفاوضة على شروط معقولة . ولكن القيصر لم يسعه الاَّ الرفض نظراً لارتباطه بمعاهدات مع انكلترا حددت في ذلك الوقت حريته في العمل

ومضى نابليون في تقدمه والروسيون ينسحبون أمامه تاركين وراءهم الخراب والدمار والنار في كل مكان فكانت جياده تنفق لعدم وجود العلف اللازم وجنوده يفنون جماعات جماعات من الجوع . وكان الجيش قد توغل خمسمائة ميل في داخل الاراضي الروسية بدون ان يلقى مقاومة او عدوًّا . فجمع نابليون مجلس الجيش فأشار عليهِ معظم أركان حربه ان يوقف الزحف حتى حلول الربيع . ولكنهُ رفض هذا الاقتراح رفضاً حاسماً وعزم على مواصلة الزحف حتى يحتفظ بسمعته بين رجال جيشه وأفراد الشعب الفرنسي الذين كانوا ينتظرون في لهفة وجزع نتيجة الحملة الروسية . وكان نابليون يعلم ان القيصر قد جمع قواته وعتاده عند مدينة سمولنسك استعداداً لموقعة فاصلة . فاستأنف زحفه في يوم ١٣ اغسطس وكان الحر شديداً لافحاً فمات كثير من جنوده ونفق كثير من خيله وبعد رحلة شاقة مضنية وصل الى أبواب سمولنسك مساءَ يوم ١٦ اغسطس فاعتلى نابليون ربوة عالية وأخذ يرقب بمنظاره جموع العدو المحتشدة في نظام واستعداد فصاح وهو مغتبط من أعماق قلبه « ها قد وجدتهم أخيراً »



نابليون وهو يحاول الخروج من الكرملين في أثناء حريق موسكو



موسكو تحترق

وحدث قتال بين طلائع الجيشين ، نجح الروس في أثنائها في اخلاء المدينة وتدمير مستودعاتها . وبعيد منتصف الليل فوجيء الفرنسيون باندلاع حرائق هائلة أتت على ما بالمدينة من قصور ومنازل ومخازن وكنائس . فنظر نابليون في سكون وحزن الى هذا الحريق المخيف وقال « ان هذا المنظر يشبه ما يراه سكان نابولي عندما يثور بركان فيزوف » وعندما دخلت فرقة فرنسية المدينة في الساعة الثانية بعد منتصف الليل لم تجد فيها جندياً روسياً واحداً بل بلغت قسوة الروسيين في تقهقرهم ان تركوا جرحاهم وموتاهم طعمة للنيران. وكان أول أمر أصدره نابليون هو العناية بهؤلاء التاعسين والرفق بهم ما أمكن . وعندما لاح الفجر صعد الامبراطور الى قمة احدى القلاع وسدد منظاره الى الجيش المنسحب فوجده قد انقسم قسمين أحدهما اتجه شمالاً في طريق بطرسبرج والآخر نحو موسكو . فأصدر أوامره بملاحقة العدو ونصب المارشال ناي قائداً على الجيش المتجه نحو موسكو

وبينما نابليون يتجول في أنحاء المدينة متطلعاً الى خرائبها ونيرانها المندلعة تقدم منه كاهن روسي تخلف في المدينة ليعنى بالجرحى والنساء والاطفال وفي نبرات تنم على الشجاعة حمّل نابليون تبعة ما حلّ بالمدينة من خراب ودمار فأنصت اليه الامبراطور باحترام حتى انتهى من حديثه ثم سأله « هل أصيبت كنيستك أيها الأب بضرر ما ؟ »

فأجابه القس «ان ارادة الله فوق ارادتك أيها الامبراطور. ان الله حفظ كنيستي ليأوي اليها التاعسون الذين حرقت بيوتهم وأصبحوا بلا مأوى »

فتأثر الامبراطور وقال « إنك لعلى حق أيها الأب . ان الله سيرعى ضحايا هذه الحرب المشئوم وسيكافئك على شجاعتك وصبرك . اذهب أيها الكاهن الى كنيستك وبلغ جميع زملائك أنهم في أمان لأنهم يخدمون قضية السلم التي كلفتهم العناية الالهية رعايتها . اننا جميعاً مسيحيون . وربكم هو ربنا

وصرف نابليون الكاهن بكل احترام وأمر بعض جنوده بمرافقته الى كنيسته . ولما رأى اللاجئون في الكنيسة الجنود المرافقين للكاهن صرخوا فزعاً ورعباً فطمأنهم القس قائلاً «لاتخافوا يا أولادي لقد رأيت نابليون وتكلمت معهُ إنهُ بشر مثلنا ويعبد الاله الذي نعبده . ان حربه حرب سياسية وليست بحربٍ دينية . انهُ في نزاع مع قيصرنا وجنوده تحارب جنودنا . انهم لا يذبحون النساء والاطفال كما قيل لنا»

وتابع نابليون مطاردة الجيش المتقهقر . وبرغم انتصاراته المتوالية فقد استمر الروسيون في سياسة التخريب والتدمير . فأخذت الجيوش الفرنسية تعاني الأمرين لقلة المؤونة والطعام والمأوى . وازدحمت المباني التي نجت من فعل النيران بآلاف الجرحى والمرضى . وكان

الامبراطور في حالة يأس شديد، ان النكوص يعرضهُ لسخرية اوربا والتقدم لا يمليه عليهِ الا القنوط ، ومع ذلك صمم على مطاردة الجيش الروسي حتى موسكو بجيشه الجائع العاري تقريباً ولم يكن يخطر لهُ ان القيصر اسكندر سوف يجرؤ على حرق موسكو بآثارها الخالدة ومجدها التليد وسكانها البالغ عددهم ثلاثمائة الف نسمة

وكان التقدم بطيئاً ومضنياً . وشنت العصابات الروسية حربها على الجنود المنهكين وأقامت كل عقبة ممكنـة في سبيل الجيش التعس . حتى اذا كان يوم ٤ سبتمبر وصلوا الى مدينة (بورودينو) حيث صادفوا أول مقاومة جدية ، اذ ترصدهم جيش قوامه مائة وسبعون الف جندي مجهزين أتم تجهيز ومستعدين لبذل آخر قطرة في سبيل حماية الطريق الى موسكو. وفحص نابليون جموع العدو المحتشدة عن بعد وأدرك بنظرتهِ الفاحصة مواطن الضعف التي يجب أن يسدد هجومه اليها ليوقع الارتباك في صفوف العدو . ونصبت الخيام وأخذ الجيش يتأهب للهجوم

وجلس نابليون في خيمته يفكر فيما قد يأتي به الغد ، واذا برسول يحمل اليه خطاباً وصل في تلك الساعة من زوجته ماري لويز ومعه صورة لولده العزيز . وكان الفجر يوشك ان ينبلج وكان نابليون يتوقع معركة دامية فاصلة عند انبلاجه ، ولكن ذلك لم يشغله عن استقبال الرسول في الحال فأخذ منهُ الرسالة بلهفة عظيمة وحالما وقع نظره على ولده المحبوب انهمرت الدموع من عينيه . وكانت الصورة تمثل الطفل وهو يلعب في مهده وأمامـه كرة وكأس . وأراد الامبراطور ان يشرك معه ضباطه وجنوده في سروره ونشوته فقام من مقعده ووضع الصورة على كرسي خارج الخيمة . فتجمع حولها الضباط والجنود ونظروا اليها في سكون مقابلين بين حالتهم الرثة المتعبة وبينما تسعد به تلك الطفولة البريئة من هدوء وراحة بال . ثم أمر نابليون سكرتيره بادخالها ثانية الى الخيمة وقال في حزن « خذها الى الداخل وحافظ عليها . يجب أن لا تقع عيناه على ميدان قتال وهو في هذه الطراوة »

وحاول نابليون أن ينام قليلاً ولكن تعبه وجزعه حالا دون ذلك وأصابهُ عطش شديد وعبثاً حاول ان يروي غليله . وما أن بزغ الفجر وانقشعت السحب حتى امتطى نبوليون صهوة جواده ونظر الى الشمس المشرقة في انشراح وأمل وقال لمن حوله «انني أرى شمس أوسترليتز» وكانت معركة حامية كان النصر فيها نابليون غالياً ، فقد فقد ثمانية من أعظم قواده من بينهم كونت كولينكور . وما جاء يوم ٨ سبتمبر حتى ملك نابليون ناصية الموقف فاحتل المدينة بينما بدأ الجيش الروسي في التقهقر نحو موسكو . ولم يفرح نابليون بتلك النتيجة لانهُ فقد في تلك المعركة ثلاثين الف جندي وثلاثة وأربعين من قواده الذين لازموه في انتصاراتهِ السابقة ، بين جريح وقتيل ، وتخيل حزن اليتامى والأرامل والوالدين الذين فقدوا أعزاءهم

في تلك المعركة الدامية وثوب الحداد الذي سوف تلبسهُ فرنسا لضخامة الخسارة وكثرة الضحايا

ومضى نابليون في زحفه حتى وصل الى أبواب موسكو ظهر يوم ١٤ سبتمبر وبينما هو معتلٍ صهوة جواده أمسك بمنظاره وأخذ يتطلع من بعيد الى موسكو الخالدة بقبابها وماذنها وصاح من قلبه قائلاً «يا الهي ! ها هي ذي عاصمة القياصرة المشهورة » وظن الجنود البؤساء أن متاعبهم قد قاربت الانتهاء فأخذوا يصيحون بدورهم « موسكو ! موسكو ! » وأسرعوا في التقدم نحو المدينة ولكن عجبهم كان شديداً اذ لم يلاحظوا عليها أثراً ما للحياة او الحركة. وجاءتهم الأخبار من فرق الكشافة ان الروسيين قد هجروا المدينة. ولم يخطر لنابليون أن النية مبيتة على إشعال النار فيها بالرغم من ان معظم سكانها قد أرغموا على اللجوء الى الغابات المجاورة حيث هلك كثيرون جوعاً وبرداً ، بينما لحق الباقون بالجيش المتقهقر . وكان الانسحاب سريعاً حتى ان السيدات تركن حليهن وأدوات زينتهن في أماكنها ، وخلف رجال الاعمال أوراقهم ومجلداتهم ومستنداتهم على المكاتب وفي الادراج

وعين نابليون (مورتييه) حاكماً على المدينة . وفي الصباح انتقل الى قصر الكرملين واتخذه مقراً وكتب الى القيصر الكسندر يعرض عليه صلحاً شريفاً مذكراً اياه بصداقتهما القديمة . وأخذ الجنود يجولون في انحاء المدينة المهجورة . واحتلوا قصورها الفخمة واتخذوا منها مساكن لهم

وبقي بالمدينة حوالي العشرين الفاً من أحط طبقات الروس وعشرة آلاف مسجون أطلق سراحهم قبل انسحاب الجيش فأخذوا يعدون العدة في الخفاء لتدمير المدينة واحراقها فتسللوا الى اقبية الكرملين حيث كان يقيم نابليون وأركان حربه والى جميع القصور والابنية التي يقيم فيها الفرنسيون ودسوا فيها سراً مقادير من البارود تكفل لهم الانتقام من محتليها في الوقت المناسب . ثم دمروا خزانات المياه وأنابيبها وعطلوا أدوات اطفاء الحريق وقد انتهز هؤلاء الروسيون فرصة الهرج الذي ساد عند دخول الفرنسيين المدينة ودبروا خططهم دون ان يلحظهم أحد

وأوى نابليون الى فراشه في منتصف ليل ١٦ سبتمبر ١٨١٢ وهو في أشد حالات التعب وشرود الفكر وانشغال البال . وكانت العواصف تهب بشدة . وفجأة امتلأت الشوارع بتلك الصيحة المخيفة التي طالما خشيها نابليون ألا وهي « النار ! النار ! » واندلعت ألسنة اللهب في شرق المدينة وسمع دوي الانفجار في كل مكان فعصفت بالمنازل والقصور وأودت بحياة من فيها . وشوهدت منازل كثيرة وهي تتطاير في الهواء من هول الانفجار . واهتزت أرجاء المدينة في شبه زلزال مخيف ، او بركان يقذف حممه . وساعدت العواصف على

امتداد ألسنة النار في جميع انحاء المدينة فتحولت المدينة في مدة قصيرة الى جحيم

واستيقظ نابليون من نومه وهو جزع مضطرب وأخذ يذرع غرفته جيئةً وذهاباً على اوامره بينما ينظر في يأس واضطراب الى النيران المندلعة . وكان قصر الكرملين تحيط به حدائق واسعة وأسوار عالية تحول دون وصول النار اليهِ . فأخذ نابليون يتمتم قائلاً « يا له من منظر مخيف يا الهي ! هل تذهب جميع هذه القصور الفخمة طعمة النيران . يا لهم من قوم قساة ! انها أساليب وخطط وحشية » . واستمرت النيران طيلة يوم ١٧ سبتمبر وساعدتها الزوابع على الانتشار

وأخيراً وصلت النيران الى قصر الكرملين وأحاطت بهِ من كل جانب حتى بدا الهرب منهُ لأول وهلة في حكم المستحيل . وأخذ الامبراطور وحاشيته يبحثون عبثاً عن مخرج لهم من هذا الجحيم وقد كادوا يختنقون بفعل الدخان والنار . وكانوا كلما ظنوا أن الفرج قريب اندلع ستار من اللهب فسدَّ طريقهم وأخيراً وجدوا طريقاً ضيقاً متعرجاً اضطروا الى اقتحامهِ بالرغم من اندلاع النيران على جانبيه . ولكن ما الحيلة وقد كان ذلك مخرجهم الوحيد من موت محقق . واستمروا في سيرهم والدخان يفعل فعله في عيونهم وحناجرهم . وفجأة وقف مرشدهم وقال انهُ لا يعلم الى أي طريق هم متجهون، فأسقط في أيديهم وظنوا أن النهاية قربت وأسلموا أمرهم الى القدر . ووقف نابليون في هدوءٍ وسكينة يفكر في طريقة للخروج من هذا المأزق . وفجأة ظهر المارشال (دافوست) ، وكان برفقة بعض الجنود يبحث عن مولاه، فما كاد يلمحهُ نابليون حتى احتضنهُ بشوق ولهفة ثم تابع معهُ السير الى خارج أسوار المدينة حيث لجأ الى قصر بتروفسكي على بعد ثلاثة أميال من المدينة

وانسحب الجيش الفرنسي من المدينة وعسكر في الفضاء الواقع حولها . وكان الجزع والجوع قد أخذا منهُ كل مأخذ . وكان الشتاء يقترب ببرده القارس وقد حرمهم حريق موسكو مأوى يلجأون اليهِ عند اشتداد البرد . وكان يفصلهم عن فرنسا المحبوبة أكثر من الفين من الأميال ، فكان الموقف على العموم داعياً الى اليأس والقنوط

وأخذت النيران تميل الى الخمود ، ونجا جانب كبير من الكرملين من فعل النار فعاد نابليون اليهِ مع حاشيتهِ في يوم ١٨ سبتمبر . وهو ينتظر وصول رد من القيصر اسكندر على خطابهِ ولما لم يصلهُ الرد أرسل مندوباً من قبلهِ لمقابلة القائد العام الروسي (كوتوسوف) فقابلهُ هذا بفتور ووعده بمقابلة مولاه القيصر ليعرض عليهِ خطاب نابليون

وتحت تأثير هذه العوامل المختلفة دعا نابليون مجلس أركان حربه للتشاور، وبعد مناقشات تاريخية استقرَّ الرأي على الانسحاب من روسيا

مكث نابليون وجيشه في موسكو مدة أربعة أسابيع بعد احتلالها . ولم يأل جهداً خلال هذه المدة في اعادة تنظيم جيشه واقرار النظام بعد الفوضى التي سادت عقب حريق موسكو المدمر . ما أكثر الليالي التي قضاها وهو يعمل على راحة جنده وخاصة الجرحى منهم ويراقب في في قلق تطور الجو المنتظر فراجع التقارير الجوية عن الأربعين السنة التي سبقت الحملة ليستوثق بنفسه من ميعاد بدء الشتاء الحقيقي في روسيا وكان يحدوه أمل الصلح مع القيصر ولكنه تبين الخطر فاستفحل همه وشحب لونه ونقص وزنه

وبحلول شهر أكتوبر بدأت أوراق الاشجار تتساقط تاركة الأغصان عارية تتلقفها رياح الشمال العاتية . وبدأ الثلج والصقيع قبل ميعاده الطبيعي بثلاثة أسابيع مما زاد في هم الامبراطور وتصميمه على الاسراع في الارتماء في أحضان بولندا ، بمدنها العامرة حيث يجد الجنود ناراً وطعاماً ومأوى . وبالرغم من ان المسافة الى بولنده حوالي الف ميل الا انه صمم على القيام بهذه المغامرة معتزماً ان يسلك طريقاً آخر غير الذي سلكه عند زحفه آملاً ان يصادف مدائن عامرة بدل الخرائب والأطلال والحرائق التي تركها الروس وراءهم عند تقهقرهم

وبدأ التقهقر في يوم ١٨ أكتوبر ١٨١٢ . وعهد نابليون الى مورتييه — وكان قد عينه حاكماً على موسكو — في حماية مؤخرة الجيش وترك معه ثمانية آلاف جندي . وخرج الامبراطور من قصر الكرملين في فجر ١٩ اكتوبر وكانت السماء صافية والهواء بارداً منعشاً والنجوم تتألق . ولما خرج نابليون من حدود موسكو كانت الشمس قد اشرقت في الأفق البعيد فأشار اليها نابليون بأصبعه قائلاً لمن حوله « أنظروا يا رفاقي ! ها هو نجمي الحارس ! هيا بنا الى كالوجا . والويل لمن يقف في طريقي ! »

ثم تقدم الى مورتييه — حاكم موسكو — واحتضنه وقال له بصراحة وحزن « ان مهمتك شاقة وخطيرة ولكن علينا واجبات وتضحيات سوف نتقاسمها جميعاً »

وقد احتمى مورتييه وراء أسوار الكرملين . ووضع في أقبيته وسراديبه مائة وثلاثة وثمانين الف رطل من البارود ووزع براميل كثيرة منه في غرف القصر وممراته حتى اذا ما استوثق من ان آخر جندي فرنسي قد رحل عن المدينة أشعل النار في البارود فأخذ يشتعل ببطء بينما أخذ هو وجنوده ينسحبون بسرعة ولما رأى القوزاق ان القصر أصبح خالياً هجموا عليه طامعين في الاستيلاء على ما به من نفائس . ولكن ما لبث ان دوى في الجو صوت انفجار هائل أتى على القصر وما به وقضى على عدد كبير من جنود العدو . وكان الانفجار شديداً فاستيقظ نابليون من نومه مع أنه كان على مسيرة ثلاثين ميلاً من موسكو . فتنهد تنهد الارتياح إذ علم ان جنود المؤخرة قد غادروا المدينة

وبدأ الروس يناوشون الجيش المنسحب في مساء ٢٣ اكتوبر وكان الجنود مستغرقين في نوم عميق وقد أنهكهم عناء السير طول النهار. ففي الساعة الرابعة صباحاً هجم عليهم خمسون الف جندي روسي وكانت صرخات الحرب المزعجة تنطلق من حناجرهم في سكون الليل. فأسرع الامير أوجين الى جنود فرقته وأيقظهم من سباتهم ليقاتلوا العدو المغير وبعد معركة شديدة خسر فيها الفريقان اضطر الروسيون الى الانسحاب نحو الغابات المجاورة ولما سمع نابليون بما فعله أوجين دعاه اليه وضمه الى صدره في حنان أبوي وقال «هذا أمجدُ ما قمت بهِ في حياتك»

واستمرت كرات العدو في فترات متقطعة على الجيش التعس ورغم ذلك صمم نابليون على متابعة السير ليصل الى سمولنسك ومنسك مهما يكلفهُ ذلك حيث كان قد ترك حامية قوية وأعدَّ ثكنات للجنود بها جميع وسائل الراحة. وكان الروسيون يبدون منتهى القسوة في هجومهم على جيش نابليون وكانوا يغيرون عليهِ في الليل والنهار بلا هوادة غير مبالين بحاجة جنوده الى ساعات قليلة من الراحة في الليل او النهار. ومضى الجيش المنهك في رحلته المحفوفة بالأخطار فوصل الى بورودينو في يوم ٢٨ أكتوبر وفيازما في يوم ٣١ منه. وهناك عهد الى المارشال (ناي) في مهمة حماية مؤخرة الجيش. وعندما استأنف الجنود مسيرهم هبت عاصفة ثلجية على الجنود ودفن الكثيرون منهم أحياء تحت الثلج. ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل أحاطت بالجيش وهو في محنته جماعات من جنود العدو وأخذوا يصلونهُ ناراً حامية. وكان القوزاق يمثلون بجثث الموتى أشنع تمثيل، وكانوا اذا رأوا جندياً يعالج سكرات الموت ينزعون ملابسهُ ويتركونهُ عارياً وسط الثلوج وينصرفون عنهُ وهم يضحكون في قسوة وغلظة. اما اذا اخذتهم الشفقة عليهِ فانهم كانوا يشطرونهُ بسيوفهم أو ينخسونهُ بالسنج حتى يدركهُ الموت

وهكذا استمرت الحال طيلة الطريق الى سمولنسك. يأتي الليل الطويل ببرده وثلجهِ وعواصفه فتهلك معهُ الالوف من الجنود والخيل. وكان الجنود ينزعون جلود الجياد النافقة ويلتحفون بها. وكانوا يضطرون احياناً الى قتل الجياد حتى يرتوي الجنود بدمائها الساخنة لعلها تساعدهم على مقاومة البرد. وكان المارشال (ناي) طولة الرحلة يتولى حماية المؤخرة على اوفى وجهٍ. وكان جنوده يسقطون الواحد تلو الآخر حتى يفنوا عن آخرهم فيستبدلهم بغيرهم. وأبدى المارشال من ضروب الشجاعة والبطولة ما جعل نابليون يطلق عليهِ لقب «اشجع الشجعان»

وقبيل الوصول الى سمولنسك جاء رسول يحمل بعض الرسائل الى الامبراطور فاخذ يفضها باهتمام وتلهف فاذا بهِ يعلم بتدبير مؤامرة في باريس لقلب الحكومة الامبراطورية. فقد زور

احد الضباط واسمه (ماليه) مستنداً يثبت موت نابليون في اثناء الحملة الروسية فساد الذعر في البلاد وانتهز ماليه الفرصة وجمع حوله بضع مئات من الحرس الاهلي وحاول ان يقبض على زمام الحكم ولكن المؤامرة سرعان ما احبطت وقبض على الضابط واعدم رمياً بالرصاص

فصمم الامبراطور على أثر قراءة هذا التقرير ان يسافر وحده في أقرب فرصة يطمئن فيها على مصير جيشه ولما دخل غرفته استدعى الجنرال راب وقال له « ان المصائب لا تأتي فرادى ! كأنَّ الله يريد ان يزيد في متاعبي واشجاني ! ان وجودي في باريس ضروري ويجب ان أعود اليها في القريب العاجل »

ومكث نابليون في سمولنسك خمسة أيام استجمع فيها قوات جيشه وشراذمه المبعثرة وما ان استأنف رحلته حتى بدأت معها متاعب اخرى مردُّها الى اغارات العدو المتوالية. وكان أهمها الهجوم الكبير الذي قام به القائد الروسي كوتوسوف بجيش من تسعين الف رجل وافي العدة ووافر الغذاء والملبس . وكانت المعركة شديدة خسر فيها نابليون الآلاف المؤلفة من جنوده واضطر لامتشاق الحسام بنفسه قائلاً « انني أنزل من مقامي كامبراطور لأعود الى منصب الجنرال الذي طالما تقت اليه »

وقاد جنوده واخترق صفوف العدو وأوقع الاضطراب فيها مما اضطرهم الى الانسحاب رغم تفوقهم عدداً وعُدّة بعد ان تكبد الفريقان خسائر فادحة

وواصل الجيش سيره وقد أخذت منهُ الضربات المتوالية كل مأخذ ولعلَّ كارثة عبور نهر (البيريسينا) كانت أشد كارثة لحقت بالجيش الفرنسي . وكان الروس قد دمروا الجسر الوحيد القائم على النهر . فكان على الفرنسيين ان يقيموا جسراً آخر . وفعلاً نجحوا في تحويل أنظار العدو المتربص بهم ريثما أتموا بناء الجسر وكانوا يشتغلون في أثناء الليل ويختبئون في الغابات في أثناء النهار . وكان الامبراطور يشرف بنفسه على العمل

ولما حان وقت عبور النهر تقدم نابليون الجموع وعبر النهر الى الضفة الأخرى وقد صاح عند وصوله قائلاً « ان نجمي لا يزال عالياً ! » ولكنهُ ما كاد يتم كلمته حتى قصفت مدافع الروس وصوبت قنابلها الفتاكة نحو الجسر فغرق وقتل ألوف من جنوده . ولكن نابليون جمع قواته البالغ عددها بضع عشرات من الألوف ورد هجوم العدو بينما أخذ المهندسون في اصلاح الجسر منتهزين فرصة انصراف العدو عنهم . واضطر العدو اخيراً الى التقهقر مؤجلاً انتقامه الى فرصة أخرى

ووصل الجيش المنكوب الى الاراضي البولندية واطمأن نابليون نوعاً ما فدعا قواده الى العشاء معه وبعد ان فرغوا منهُ أبدى لهم رغبته في الرحيل الى فرنسا تاركاً لهم مهمة اتمام

الرحلة مؤكداً لهم انه سيعود اليهم قريباً على رأس ثلاثمائة الف جندي مجهزين مدربين ليستأنف زحفه على روسيا . ثم ضمهم الى صدره الواحد بعد الآخر . وكانت الساعة قد بلغت العاشرة مساءً . فأعدت له زحافتان انتظرتاه عند الباب فتجمع حوله ضباطه مودعين اياه في تأثر . وركب احداها نابليون وجلس بجانبه كولينكور (وهو شقيق القائد الذي قتل قبلاً) وركب الاخرى دوروك ولوبان . وكان حرسهم مؤلفاً من بعض أفراد الحرس الأمبراطوري

وبعد رحلة قصيرة تعرض نابليون في أثنائها للاسر بضع مرات وصل الجميع بسلام الى (فيلنا) ودخلوا وارسو في ١٠ ديسمبر . وبعد راحة قصيرة استأنفوا رحلتهم فوصلوا درسدن في الساعة الواحدة بعد منتصف ليل ١٤ ديسمبر وفي منتصف ليل ١٨ ديسمبر كانوا على أبواب باريس

وكانت الامبراطورة في ذلك الوقت قد أوت الى مضجعها في قصر التويلري ولم يكد يخطر لها أن زوجها الأمبراطور بباب القصر . وفجأة سمعت أصوات عالية صادرة من الحرس الواقفين في الردهة الخارجية . وبدرت من احدى الوصيفات صرخة خافتة فاستوثقت الأمبراطورة من ان شيئاً غير عادي قد حصل فقفزت من سريرها وفي هذه اللحظة فتح الباب ودخل رجل قصير القامة وقد غطى جسمه من أعلى رأسه الى أخمص قدميه بالفرو الثقيل وهجم عليها واحتضنها ولما دققت النظر عرفت فيه زوجها الأمبراطور

وألقى نابليون هم الحملة الروسية وراءه على المارشال (ناي) وأعوانه . وأبدى المارشال شجاعة وتجلداً سوف يتحدث عنهما التاريخ مدى أجيال مقبلة . وعند عبور نهر (النيمن) الذي تنتهي عنده الاراضي الروسية كان هو آخر من عبر النهر . وأطلق آخر رصاصة لديه على الجنود الروسيين المتربصين على الضفة الأخرى ثم ألقى مسدسه في النهر وواصل سيره ، حتى بلغ منزل طبيب القرية المجاورة فوجد هناك صديقه الجنرال (دوماس) جالساً مع الطبيب وهما يتحدثان . وكان المارشال يمثل الحملة بمتاعبها وبؤسها والاهوال التي لاقتها فكان ضامر الجسم شاحب الوجه طويل الذقن وقد اسود جلده من دخان البارود . وما ان دخل الغرفة حتى ارتمى على مقعد قريب وقال « انني هنا أخيراً . ماذا دهاك يا دوماس ولماذا تنظر اليّ هكذا ألا تعرفني ؟ » فكان الجواب « لا ! من أنت ؟ »

فقال (ناي) « انني مؤخرة الجيش الامبراطوري . أنا المارشال ناي . لقد أطلقت آخر رصاصة عندي بعد عبور جسر كوفنو وألقيت فيه آخر ما تبقى عندي من السلاح ثم اخترقت الغابة المجاورة ووصلت اتفاقاً الى حيث وجدتك يا صديقي العزيز »

شعر عبد الرحمن الخميسي

فرحة الحياة !!

أنا حيٌّ . . ونعيمي بالحياهْ   فرحةٌ تغمر من قلبي مداهْ
أجتلي في موكب الأيام ما   يبهرُ النفسَ ويخفى منتهاهْ
وأرى تلك الرموزَ انغلقتْ   في طواياها على روح الإلهْ
وأغني مثلمـا غنى على   جنة الوهم هزارٌ لا أراهْ
أنا حيٌّ . . يا نعيمي بالحياهْ

بين جنبيّ فؤادٌ كلمـا   نفخَ الإحساسُ فيه صدحـا
تُرْقِصُ الدنيا على أنغامه   كلُّ ما فيها أسىً أو فرحـا
وهو مرآة صفتْ . . كم ترتمي   صُوَرُ الكون عليها مرحـا !
يا أناشيدي تباركتِ . . ويا   بوركَ القلبُ ، اليه قد صحـا
كلُّ عرقٍ يتغنى بالحيـاهْ

إنني الشعلةُ شبَّتْ نارهـا   وسرتْ أنفاسُها باللهب
يا هنـائي بالذي يأكلني   من لهيبي ، والذي يُحْرِقَ بي
يا لهذا الدفء من سرٍّ جرى   في كياني من وراء الحجب
هو لغزٌ خالدٌ مُسْتَترٌ   أزليٌّ قـدسيٌّ الأربِ !
أتشهَّاهُ وأفنى في لظاهْ !

هذه الروحُ التي تسكنني   قبسٌ من هالةٍ تجذبني
ولقد دار بجسمي نورُها   باعثاً فيه حياةَ الزمن
يا سروري بالذي أيقظني   من سُبات العَدَم المرتهن
وانتشى بي وانتشى فيه دمي   وشعوري والذي أوجدني
أنا حيٌّ . . غنّ لي لحنَ الحياهْ

إنني البرعمُ قد داعبني   وهجُ الشمس ودمعُ السَّحَر
فتنفّستُ وغشّتْ ورقي   نضرةٌ تسبي فنونَ النَّظر
يا شبابي شدَّ ما أنتَ على   عوديَ الاخضرعذبُ الصُّوَر
إنني أرنو الى الافق وفي   طلعتي حمدٌ شذِيٌّ السُّور
للذي أورثني هذي الحياهْ !

أثر الأم في الطفل

لمحمد العشماوي بك [1]

رأت إدارة هذا المعهد أن تخرج بطالباته عن الجو الدراسي العادي في بعض الفترات فتجنبهن التزام المنهج المرسوم بنظرياته الدقيقة وطرائقه التحليلية وبحوثه العلمية التي تنتظمها الدراسة لتنتقل بهن الى آفاق واسعة من ضروب المعرفة العامة تساعدهن على استكمال ثقافتهن في حسن إعداد الطفل

وتحقيقاً لذلك نظمت محاضرات عامة خاصة. فهي عامة من حيث خلوصها من قيود المنهج، وهي خاصة لاتصالها عن طريق مباشر أو غير مباشر بالطفولة. فتكون هذه المحاضرات في منزلة أحاديث اجتماعية حرة تزيد في ثقافة الفتيات وتوسع مداركهن في الناحية التي يتخصصن لها. فاذا أضيف الى هذه الأحاديث توجيه الفتيات الى مطالعات في الكتب والمجلات الأدبية والاجتماعية، تكون من هذا وذاك طائفة من المعلومات الاجتماعية تعينهن أجل العون في منهجهن الدراسي وتوجههن وجهة سديدة في طريق الحياة

ولقد رأيت أن أفتتح هذا النوع من الأحاديث أو المحاضرات — على تجوز في التعبير — بحديث عن «أثر الأم في الطفل» وليكن مفروضاً أني لا أتحدث محاضراً يطالب بعرض بحثه على أساس علمي، بحيث تكون له عناصر المحاضرة من مقدمة وموضوع وخاتمة، مع استقراء وتحليل. وانما أتحدث اليكم حديث رجل اجتماعي يتأثر بالبيئة التي اتصل بها والمحيط الذي درج فيه. وهو حين يتكلم يتصور مثلاً أعلى للمجتمع المصري ويصف معالم الطريق الذي يوصل الى تحقيقه. فانه لابد ان يكون أمام المشتغل بالاصلاح هدف يرمي اليه، ومثل أعلى يعمل له. وإلا تعثر في خطاه وذهبت جهوده عبثاً

وليس لأي مصلح في أية بيئة أن يعدو الاتجاه في سبيل الطفولة أول ما يتجه، فالطفل عدة

---

(١) نص الحديث الاجتماعي الذي ألقاه حضرة صاحب العزة الاستاذ الجليل محمد العشماوي بك على طالبات معهد دراسات الطفولة بالمدرسة السنية الثانوية للبنات في يوم السبت ١٣ ديسمبر سنة ١٩٤١

المستقبل ومعقد الأمل في الخلاص من مساوىء الحاضر . واذا جاز لنا ان نيئس من يومنا الراهن لما يغمرنا به من آفات متأصلة وشرور متغلغلة لم يجز لنا أن نيئس من غدنا المرتقب . وللاطمئنان لهـذا الأمل يجب علينا أن نعد طفولة صالحة يترعرع نباتها في تربة صالحة فيخرج لنا رجالاً ونساءً ينهضون بأعباء الحياة، لا الحياة كائنة ما كانت كالسائمات ، ولكن الحياة كريمة عزيزة تكافىء ما سلف لاجدادنا من مجد في الحضارة تليد ، وتواجه ما نرجوه في مستقبلنا من أمل في النهوض وطيد : فلو قصَّرنا في تكوين الطفل تكويناً جسمانيًّا وعقليًّا وروحيًّا أخرجنا الى الوجود جيلاً لا أقول في مرتبة الانعام ، اذ انهُ لا يحقق نفعاً ماديًّا مثلها ، ولكنهُ جيل أهون منها شأناً وأضل سبيلاً

وكيف يتهيأ لي أن أتحدث في نشأة الطفل دون أن أتخذ الأمومة محوراً لكل ما أقوله . فبغير الام وحسن إعدادها لا يُرتجى للامة طفولة سليمة في جسمها أو عقلها أو روحها

ولما كان المستقبل رهناً بالطفولة السليمة فانهُ اذا لم تعد الأم إعداداً صالحاً فلا أمل في جيل جديد ولا رجاء في مستقبل منشود . فالام أساس الاصلاح من أي نوع وفي أي ناحية وهي التي يجتمع فيها عاملان : عامل التعمير ان صلحت وعامل التدمير ان فسدت . فان شئنا صلاحاً بدأنا بها قبل كل شيء . واذا لم نخصها بالرعاية كان خيراً لنا ان ننفض ايدينا من الاصلاح جملة وتفصيلاً

ولقد كان رأيي في الاصلاح دائماً ان نبدأ باعداد الأم اي الفتاة. فالثقافة والصحة ورفع المستوى الخلقي وتحقيق التوازن الاقتصادي وتعزيز روح الادخار وحسن تدبير المعيشة — كل ذلك لا يقوم له كيان الاّ اذا أسهمت فيه الأم بالنصيب الأوفر . فهي العنصر الأهم في تكوين الأسرة . وما الأسرة الاّ الخلية الحية للامة فحيثما ألفيت شعباً صالحاً ألفيت فيه الأم كالدعامة للبناء الشامخ . وليت المصلحين يقفون على إصلاح الامومة جهودهم. إذن لاستراحوا من أشتات المشكلات . واذن لحلت كل مشكلة نفسها وتزايلت دون كدٍّ أو عناء

ولطالما ناديت بأن تأخذ الفتاة من الثقافة الحظ الأوفى وتصل من العلم الى أبعد مدى. فان ذلك يهيئها تهيئة صالحة لتكون أمًّا صالحة . فالأم تربي الجيل فيجب أن تتوافر لها صفات المربي القدير ، تتسع آفاق معارفها حتى تستطيع النهوض بالرسالة الموكولة لها، وتتفتح أعينها على حقائق الحياة كلها حتى تمضي في طريقها على هدى. وان الذين يسألوننا : لمَ نعلّم الفتاة ؟ هم قوم يعيشون في الظلمات ويتأذون بالنور. فليعلموا أننا نعلمها لتربي الجيل ولنستطيع أن ننقذ الطفولة من عهود الظلام ، ونحن لا نبغي من وراء ذلك ان تؤدي المرأة عمل الرجل . فان هـذا يأتي وراء رسالتها . وخطل أن يقاس عمل صناعي أو تجاري أو مهني بعمل فتاة تقوم على إعداد

النشء وتربية الجيل وإنشاء المستقبل، فيجب ان نعنى بالتربية الثقافية وأن نبلغ بها في هذا المضمار أبعد الشوط . والمتسائلون «لم ننتقل بالفتاة الى عليا مراحل التعليم » ينسون أو يتناسون أننا نعد فتاتنا لتصبح أمًّا وزوجاً ولتكون لمنصب الأمومة كفئاً . فكيف تساير الشباب من أبنائها أمٌّ لم تثقف ثقافة أرفع من ثقافة الشباب ؟

على أني أعيب على القائمين بشئون التعليم تسويتهم في المراحل العالية بين الفتاة والفتى وجعلهم التعليم دائرة واحدة في هذه المراحل للجنسين معاً. ولو أنصفوا لجعلوا التعليم العالي للفتاة صالحاً لاعدادها إعداداً يؤهلها لمنصبها الطبيعي الخطير . وإني لأذكر حديثاً جرى بيني وبين أحد كبار السياسيين من الأجانب في شئون التعليم . فتطرقنا الى الحديث في موضوع اجتماع الجنسين او افتراقهما في مرحلة التعليم العليا . فسألته : هل يجتمعان عندكم ؟

فأجاب: إن اتجاهنا الحديث يرمي الى الفصل بينهما في هذه المرحلة . فقلت:هل تخشون من اجتماعهما شيئاً . فقال : نحن نريد التفريق بينهما لأنهُ يجب ان يكون لكل من الجنسين إعداد خاص في مرحلة التعليم الجامعي . وبونٌ شاسع بين فتى يعد ليضطلع بالاعباء العامة . وليسعى في سبيل الرزق، وفتاة تعد للنهوض بأعباء الاسرة نهوضاً يحقق رسالتها كاملة في بناء الجيل وتوفير سعادته

فاذا أردنا أن تعد الأم طفلها إعداداً حسناً وجب علينا أن نعد الأم أولاً فنهيء لها بيئة كريمة . نحوطها بسياج من الطهر والعزة ونمدها بنوع من الثقافة العالية يتفق مع خطر رسالتها في الحياة . فبقدر ما نبذل من جهد في إعداد الأم يكون الأثر الحسن في إعدادها هي للطفل من بعد . وعلى هذا يجب أن يكون برنامج الاعداد للامهات وافياً بمختلف النواحي . وافياً بالناحية الصحية على وجه خاص . حتى يتسنى تجنيب الاطفال ويلات المرض والضعف والتشويه . وافياً بالناحية الخلقية حتى لا يرث الطفل عن بيئته الشذوذ والانحلال الخلقي . وافياً بالناحية الثقافية حتى يستطاع توجيه الطفل توجيهاً صالحاً في تربية ملكاته العقلية وتنمية قواه الذهنية من طريق التدرج في غير افراط لا يتناسب مع سنه ولا تفريط يقصر به عن درجة التقدم المتفقة مع هذه السن . وبغير اكتمال هذه النواحي في إعداد الأم لايحق لنا ان نرتقب نشئاً يحقق ما نتطلع اليهِ من آمال وما نرجوه من أعمال جسام

***

ولقد عرفت الأمم المتحضرة أثر الأمومة في بناء الطفولة فخصتها بموفور الرعاية . حتى لقد أفردت لها بعض الحكومات وزارة تقوم عليها وقصرت مهمتها على الطفولة والأمومة في جميع المراحل . فكان من عمل هذه الوزارة أن ترعى الأسر في شئون الأمومة والطفولة

فتبعث بأطباء واجتماعيين يوالون السؤال والاستطلاع والارشاد. ولقد ذكر لي بعض المطلعين أن في بعض الأمم أطباء إخصائيين وخداماً اجتماعيين يترددون على الأسر ويقدمون الى الحكومة تقارير عما يصيب الاطفال والأمهات من مرض او اضطراب او نقص في التغذية. ومما يصنعهُ هؤلاء أن يزوّدوا أرباب الأسر التي يزورونها ببطاقات بحاجات الأم أو الطفل. فتتقاضى الأم من الحكومة ما في البطاقة من دواءٍ أو غذاءٍ أو كساءٍ عندما تعوزها الوسائل للحصول عليها. وبمثل هذه النظم تبني الشعوب الرشيدة مستقبلها على أساس متين، وتقيم نهضتها على دعائم ثابتة من الجسم السليم والخلق القويم

ومن مظاهر العناية بالطفولة في بعض الأمم الناهضة ما يحظرونهُ من زواج الرجال والنساء الذين لا يستطيعون أن ينتجوا إنتاجاً صالحاً. ومن أجل ذلك عقموا من لم تثبت صلاحيته من الرجال والنساء خلاصاً من النتاج الهزيل. حتى لا تعد الأمة بألوف الألوف كثرة إحصاء فاذا حان وقت الاضطلاع بالمهمات لم تستطع هذه الكثرة شيئاً ولم تجد فتيلاً . . . وكيف ننتظر نباتاً صالحاً من تربة غير صالحة. وكيف ينشأ الطفل على ما نبغي له من صفات القوة وحسن الاستعداد إذا كانت الأم فاقدة لهذه الصفات على حين أنهُ بصحتها أو مرضها يتأثر وفي جوها يدرج، ولحركاتها وسكناتها يقلد. ولما كان أثر الأم في الطفل لا يقتصر على ما بعد الولادة. وإنما يبدأ الأثر منذ الفترة التي يتكوّن فيها الجنين. وجب أن تكون الأم خلال هذه الفترة موضع رعاية صحية دقيقة تضمن صلاح الانتاج. وإن في قول رسول الله صلى الله عليهِ وسلم « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » لاشعاراً بوجوب رعاية النسل وتوجيهاً الى ضرورة العناية بمنابت الجيل وأغراس المستقبل

***

وحين يشهد الطفل ضوء الوجود تقع على عاتق الام مهمة لها خطرها فهي المسئولة عن تنشئته في سلامة وضعه الطبيعي الذي صاغه الله. فيجب على الام المرضع أن تقدر مهمتها وأن تفهم وظيفتها. فكثيراً ما تجيء المصائب من طغيان الجهل وسوء التقدير. يجب عليها ان ترضع طفلها على أساس صحي دقيق. تعين فيهِ فترات الارضاع ومواعيدها وتقف على بصيرة من تطور حالة الطفل الصحية، لا تباشر في شأنه عملاً الاّ قدرت عواقبه واحتاطت له. وإذا عرفتم أن خمسين في المائة من الاطفال تلدهم أمهاتهم المصريات لتودعهم القبور زهرات لم تتفتح بعد، سهل عليكم أن ترجعوا السبب الى قوة أثر الامومة الجاهلة في الاضرار بالطفولة الباكرة. فبارتفاع نسبة الجهل في الامهات ترتفع في الاطفال نسبة الوفيات

والطفل حين ينضج إدراكه وينظر حواليه يتخذ أمه قدوة في النظافة والذوق وفي الصدق

أو الكذب وفي الصراحة أو النفاق . فهي تؤثر فيهِ تأثيراً مباشراً يلازمه طول حياته . فعلى الأم أن تكون مثلاً صالحاً فيما تأخذ وما تدع . فان لم يكن الصلاح في طبيعتها كان عليها أن تتكلف ذلك تكلفاً وأن تلزم نفسها به إلزاماً حتى يقتدي بها طفلها فلا تطالبه بأمر تأباه ولا تنهاه عن شيء تفعله . واني لأذكر أنهُ منذ أيام ضمني مجلس رجال ونساء بينهم طفل في نحو الرابعة فلما انتهينا من الغداء أديرت أقداح القهوة فطلب الصبي قدحاً منها فانتهرتهُ أمه وقالت له: هذا عيب . فأجابها : واذا كان عيباً فلماذا تفعلينه . ولن يستوعب عقل الطفل بهذه العبارة ان القهوة لا تليق بالصغار أو تضرهم . فيجب ألاَّ يصدر من الأم قول او عمل تأباه على طفلها . لأن ذلك ينطبع في نفسه ولا يملك الخلاص منه . وكثيراً ما نخطىء نحن أشد الخطأ حين يسأل عنا سائل فنرسل الطفل ليخبر بأننا غير موجودين . فهذا درس في النفاق والجبن والكذب يتلقاه الطفل في بيئته ويلازمه أثناء حياته ثم تأتي مضاعفاته كلما امتدَّ به الأجل وأحاطت بهِ مشكلات الحياة ومطالبها

***

ومما يجمل بالأم الحرص عليهِ أن تهيء لطفلها جوًّا نقيًّا طاهراً يؤثر في ذوقه وتفكيره ونظرته للحياة ، فان الطفل في نشأته يسعى الى تعرف حقائق الاشياء ويحاول تعليل ظواهر الحياة . فاذا لم تكن الأم على حظٍّ من لباقة الحديث واستقامة التفكير وسعة الحيلة في إشباع رغبة الطفل زلزلت قواعد تفكيره وأخمدت شعلة ذكائهِ وأماتت فيهِ غرائز طيبة كان يجدر بها ان تنميها لتسدد خطاه في مراحل حياته جميعاً . إذ يشب قوي الملاحظة محبًّا للاستطلاع سليم التفكير قوي الخلق

فاذا تقدمت السن بالطفل وبلغ مرحلة الحضانة كما يسميها الشرعيون او التربية كما يسميها المربون او التوجيه كما يدعوها الاجتماعيون — وجب على الأم ان تلقنه دروس الحياة دون أن ترهقه بنظريات التعليم . وأن تعنى بصحته وخلقه وعقله لا تخص بعنايتها العقل وحده ولا الجسم وحده . فانها إذا ربتهُ تربية خلقية محضة دون أن تلتفت إلى التربية الجسمانية شب ضعيفاً تمتلكه نية صالحة ولكنه لا يستطيع لضعفهِ ووهنه أن يحقق المثل الأعلى . وإذا ربتهُ تربية جسمانية خالصة لم يتجه بقوته الى تحقيق مثل إنسانية رفيعة . فليتحقق أثر الأم تحققاً صحيحاً ولتوازن بين الجسم السليم والخلق القويم في تكوين الطفل . فلا تثقل كفة على حساب الكفة الأخرى

وإن رسالة الأم لتتعاظم ، إذا بلغ الطفل دور الصبا . إذ يجب عليها أن تغرس فيه

صفات الرجولة الصادقة ، من إقدام وتعويل على النفس إلى صراحة وجهر بالحق . الى غير ذلك من الصفات التي تعينه على أن يكون رجلا صالحا . وأثر الأم في ذلك هو الأثر الأول والأخير لأن الأب على الغالب مشغول بمطالب الحياة قليل الاجتماع بطفله، ومايصلحهُ الأب تفسده الأم الجهول لأنها أكثر اتصالاً بالطفل وأبعد نفوذاً وأقوى أثراً في حياتهِ وتكوينهِ

ومما لا يحتمل الجدل ان الأم هي المربي الأول للروح القومية والدينية في الطفل ولذلك وجب في اعداد الامهات ان نكونهنّ تكويناً قومياً وننشئهنّ تنشئة دينية. وان شئتم دليلاً على خطر التغاضي عن هذا التكوين فانظروا الى مجتمعنا المصري تتبينوا أن السواد من افراده لا يعرفون من الدين الاسلامي غير تأدية مظاهر الفرائض إذا أدتها ، بعيدة عن تشرب روح الاسلام ومبادئه وجوهره . فالتقوى عندنا اقوال تلقى وحركات تؤدى والصوم امساك عن الطعام « ظواهر خشية وتقى كذاباً » وأساس ذلك سوء تربية الأم . فلو كانت تفهم الدين جوهراً وروحاً لتلقاه أطفالها روحاً وجوهراً . والدين خشية الله ، وهو الوازع الاول الذي يجعلنا نأبى الشر ونتجنبهُ في كل مكان في السر والعلانية. والتربية الدينية هي التي تقر في النفوس الايمان الوثيق بغلبة الحق وتقوى الله في القول والعمل . فلا إسراف فيما أباحه الله ولا اقتراف لما نهى الله عنهُ. وإذا كانت النظم الوضعية تكفل تنظيم بعض العلاقات المشتركة بيننا وبين غيرنا من الناس فان الحدود الدينية تنفذ الى قلوبنا فتطهرها من الرجس وتقوي نواحي حياتنا الروحية وتحسم في طوايانا عوامل الشر. فاما التربية القومية فهي التي توحي الينا بذلك المثل العالي في الحياة الجمعية وهي أن نضع مصلحة الوطن فوق كل اعتبار . وهي التي تجعلنا ننظر الى أهل البلد الواحد كأنهم إخوان من نبعة واحدة . وهي التي تشعر كلاً منا بأن في ماله حقاً للفقير والمحروم وفي قوته المادي والفكري نصيباً للجائع والسائل

***

وغاية القول أن الأم هي البطل في رواية الحياة . بل إن أثرها ليمتد الى الدار الآخرة فان ربت وأصلحت كفلت لمن ربتهم وأصلحتهم حياة قويمة في العاجلة وعاقبة محمودة في الآجلة، وإن أساءت كانت لهم الدنيا كالآخرة جحيماً . فلزام علينا أن نعد الأم لتكون جديرة بهذه المكانة . صالحة لأن تكفل للنشء حياة مثمرة وآخرة سعيدة . وإني لأرجو أن تنبعث صرخة مدوية يتبعها عمل حاسم فنشهد في القريب وزارات تقوم من أجل الامومة والطفولة ووزارات تسقط لأنها أهملت الطفولة والامومة وأحزاباً تحيا أو تفنى في سبيل الأمومة ورعاية الطفولة وتوفير ما يجب لسلامتها على وجه يكفل صلاح المجتمع وبناء المستقبل ويقينا شرور الحياة ويقوي في الشعب روح الكفاح في سبيل العزة والكرامة . والله ولي التوفيق

جغرافية الكون

وعظمة العوالم

كتب الينا أفاضل تعودوا قراءة الفصول الفلكية في المقتطف، يطلبون ان ننشىء فصلاً في عظمة الكون وما يتجلى فيهِ من آيات الله البينات يجمل اجمالاً مبسطاً مجرداً من المسائل العلمية العويصة تركيبَ الكون المادي بحسب العلم الحديث . فأنشأنا هذا الفصل . وعسى ألاّ يوهمنَ الموضوعُ أحداً ، فهو مع كونهِ علميًّا ، يحتوي على حقائق أخاذة ، تفتن العقل وتحير اللبَّ وترفع النفس على أجنحة العلم الى ذرى الايمان . « السموات تحدّث بمجد الرب والفلك يخبر بعمل يديهِ » مزامير داود

إن علم الفلك او علم الهيئة كما دعاه العرب ، من أسمى العلوم وأعلقها بالنفس . واذا أريد التدقيق فيهِ كان من أعوص العلوم ، لأنهُ مبنيٌّ على أدق القوانين والنواميس الرياضية . ولكن مبادئهُ العامة لا يصعب تجريدها وبسطها حتى يفهمها كل أحد بوجهٍ عام . ففيها فكاهة لغرابة حقائقها وضخامة أرقامها . وفيها ما يبعث على الدهشة والحيرة ، لأن الانسان اذا نظر الى السماء الفسيحة في ليلة صافية الأديم ورأى النجوم تتلألأ في رقعة الفضاء الرحبة، ثم قرأ او سمع شيئاً عن أبعادها وأجرامها وقوة ضوئها وسرعة حركتها ، دهش وتحير ، لعظمة الكون وسعتهِ واختلاف الاجرام المنشورة في رحابه . «إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماءِ من ماءٍ فأحيا بهِ الارض بعد موتها وبثَّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماءِ والارض لآيات لقومٍ يعقلون » الآية

***

يعيش البشر على سطح كرة تعرف بالارض . والارض تدور حول الشمس . ولكنها ليست مفردة في دورانها حول الشمس . بل تجاريها سيارات أخرى أقربها الى الشمس يدعى عطارد . ويليهِ الزهرة ، وهي تعرف بتلألؤهـا عندما تكون نجمة صباح او نجمة مساء . ويلي الزهرة في البعد عن الشمس ، كرتنا نحن ، أي الارض . وبعد ذلك المريخ ، وهو الذي

يذهب بعضهم الى ان أحوال سطحهِ تصلح للحياة ، ويلي ذلك المشتري فزحل فأورانوس فنبتون فبلوطو . وبين المريخ والمشتري طائفة كبيرة من سيارات صغيرة ، هي بقايا سيار قديم بعد انفجاره وانتثاره وتعرف هذه السيارات الصغيرات بالنجيمات

ولاكتشاف نبتون قصة من أغرب القصص في تاريخ العلم . فقد لاحظ العلماء بعد اكتشاف السيار أورانوس ورصده سنين طويلة انهُ لايجري جرياً دقيقاً على القواعد التي ينطبق فعلها على السيارات الأخرى . فاما ان تكون هذه القواعد خاطئة وإما أن يكون هناك باعثٌ ، على عدم انتظام اورانوس منها ، في خضوعه لهذه القواعد . فعمد عالمان فلكيَّان رياضيان ، أحدهما يدعى لفريه وهو فرنسي ، والآخر آدمز وهو انكليزي ، الى الورق وجعلا يحسبان عليه حسابات رياضية دقيقة ، ففرضا أنه اذا كان هناك سيَّار آخر وراء أورانوس ، فماذا يجب أن يكون جرمه وسرعته وسائر أوصافه حتى يؤثر هذا التأثير المشهود في أورانوس . وقد فعل كلٌّ منهما ما فعل على حدة فوصلا الى نتيجة واحدة . ولما وصل لفريه الى النتيجة كتب الى أحد علماء الفلك بألمانيا ، قائلاً ، في ليلة كذا أنظر الى السماء في موقع كيت ، تجد سيَّاراً جديداً ، هو السيَّار الذي يحدث الاضطراب في فلك أورانوس . فكان ما قال . ودعي هذا السيار نبتون . وقد اكتشف السيار بلوطو بالطريقة نفسها مع اختلاف يسير

هذا عن السيارات التي تدور حول الشمس والارض التي نعيش عليها احدها فماذا يقال عن الأقمار ؟

نحن نعلم ان القمر تابع للارض ومشتقٌّ منها. فهل للسيَّارات الأخرى التي ذكرناها توابع. أي هل لها أقمار ؟ وهل لسيَّار منها أكثر من قمر واحد ؟

بعض السيارات ليس لهُ أقمار على ما نعلم فعطارد ليس لهُ قمر على مانعلم . وكذلك الزهرة وبلوطو . أما المريخ فلهُ قمران . وللمشتري تسعة أقمار وقيل من سنوات إن أحدهم اكتشف ان للمشتري قمراً عاشراً . لكن ذلك لم يتأيد . ولاورانوس أربعة أقمار ولنبتون قمر واحد

أما زحل فسيَّار غريب . فهو ليس كرة بسيطة كالارض أو المريخ . ولكنهُ كرة تحيط بها حلقات . ولهُ أقمار كذلك . وهذه الحلقات يقل عرضها عن مائة ميل ، وتبدو كأنها حلقة صلبة قوية تحيط بالسيّار من وسطهِ ولكن اذا فحصت بآلات الرصد الحديثة ظهر أن الصلابة فيها وهم . لأن حلقاتها مؤلفة من الوف وعشرات الألوف من الاجسام والدقائق المادية كالنيازك والرجم وقطع الحديد والحجارة ، وهي تدور جميعاً حول جسم السيَّار نفسه وتشرق الشمس عليها كما تشرق على السيارات والاقمار ، فتلمع وتتلألأ ، فتكون حلقة منيرة

حول السيّار ، ورؤيتها بآلة الرصد من أبدع مايشاهد في القبة الزرقاء . ولزحل عدا الحلقات تسعة أقمار . والاجسام التي تتكوَّن منها حلقات زحل هي في الواقع سيّارات متناهية في الصغر

فالمجموعة الشمسية او النظام الشمسي ، مؤلفة من الشمس وما يدور حولها من السيارات والنجيمات ، وما يدور حول هذه السيارات من الاقمار . واحد هذه السيارات له حلقات

فهل ثمة شيء آخر ، أو أجسام أخرى تدخل في تركيب المجموعة الشمسية

نعم هناك النجوم ذوات الاذناب وتعرف كذلك بالمذنبات . وهناك النجوم المعروفة بالشهب . فالنجوم الاولى ، شاهدها البشر من أقدم الازمان وكان يحدث عند ظهورها الخوف والهلع ، واليها اشار الشاعر العربي الكبير أبو تمام في بائيته المشهورة اذ قال :

أين الرواية بل أين النجوم وما صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذب
تخرُّصٌ وأحاديثٌ ملفقةٌ ليست بنبعٍ اذا عُدَّت ولا غرَب
عجائبٌ زعموا الايام مجفلةً عنهنَّ في صفر الاصفار او رجب
وخوّفوا الناس من دهياءَ مظلمةٍ اذا بدا الكوكب الغربيُّ ذو الذنب

والمذنَّب جسم له رأس لامعة تعرف بالنواة تطلق ضوءًا باهراً . وله ذنب متألق ، يضعف تألقهُ ببعده عن النواة . فاذا كان المذنب كبيراً بدا للعين المجرَّدة ، فتراه كأنهُ سيف مسلول من الضوء في عرض الفضاء . ومن أغرب هذه المذنبات وأشهرها مذنب هالي الذي ظهر في سماء هذا القطر والاقطار الشرقية سنة ١٩٠٩ . فان هذا المذنب يسير في فلك بيضوي مستطيل ، ويستغرق في اتمام دورته ستًّا وسبعين سنة اي انهُ لايرى في سمائنا ثانية قبل سنة ١٩٨٥ . وقد أثبت الدكتور صرُّوف في المقتطف (جزء دسمبر سنة ١٩٠٩) ان مذنب هالي هو نفس المذنب الذي وصفهُ ابو تمام في بائيتهِ المشهورة

اما الشهب ، على أنواعها فأجسام باردة مظلمة منطلقة في الفضاء تقترب احياناً في سيرها من ارضنا فتقوى عليها جاذبية الارض ، فتجذبها اليها . فاذا اخترقت طبقات الهواء ، حميت بالفرك والاحتكاك حتى تبلغ حرارتها درجة الاضاءة ، فتضيء كبارق يخطف البصر ، أو تسير تاركة وراءها خطًّا لامعاً من النور لايلبث لحظة حتى يغيب . واذا كانت صغيرة وهو الغالب فنيت وتلاشت قبل وصولها الى الارض . اما اذا كانت كبيرة بقيت منها بقية تصيب الارض وتغور فيها احياناً ، وقد تتمزق وتتفرقع في الهواء فتحدث اصواتاً مزعجة

ففي ولاية اريزونا الاميركية غور يدعى غور الشيطان قطره ٤٠٠٠ قدم وعمقهُ ٦٠٠ قدم وهو يشبه فوهة بركان والراجح انهُ نشأ من سقوط جسم ضخم من هذه الاجسام فيه

في العصور السابقة للتاريخ . وقد انقضَّ رجم في سبيريا سنة ١٩٠٨ فأحدث ريحاً حارة في اثناء انقضاضه ذوت بها الاشجار في البقعة المجاورة لمكان وقوعه

ومعظم هذه الاجسام دقيق جداً لا يزيد على الرمل الدقيق أو رشاش البنادق أو الحصى الصغير . وقد قدر الأستاذ شابلي أحد كبار علماء الفلك في اميركا ان نحو عشرة ملايين من هذه الاجسام تدخل جو الأرض في كل يوم . ولكن لا يرى منها الا عدد يسير جداً ولو استعملنا النظارة الفلكية . لأن بعضها ضئيل النور جداً ، ويتلاشى قبل ان ان يلمح وجانب كبير منها يسقط في البحار والماء يغطي ثلاثة أرباع سطح الأرض

هذه هي العناصر التي تتألف منها المجموعة الشمسية . الشمس والسيارات أو النجيمات وأقمار السيارات وحلقات زحل والمذنبات والشهب على انواعها

ولكن شمسنا ومجموعتها ، وجميع النجوم التي نراها ليلاً بالعين المجردة أو بالنظارة الاعتيادية تابعة لنظام أو لمجموعة أكبر من نظام شمسنا تعرف بالمجرة . وشكل هذه المجموعة في رأي علماء الفلك المحدثين أشبه بحبة العدس ، قطرها مائتا الف سنة ضوئية . وكثافتها ٤٠ الف سنة ضوئية . ولبيان معنى هذه المقاييس نقول ان العدَّاء السريع يقطع مائة متر في نحو عشر ثوانٍ اي عشرة أمتار في ثانية واحدة . والسيارة المتوسطة السرعة تقطع ميلاً في الدقيقة . والطيارة السريعة جداً تقطع سبعة أميال في الدقيقة . واما الضوء فيقطع ١٨٦ الف ميل في ثانية . فاذا فرضنا اننا اتخذنا شعاعة من الضوء مطية لنا وسرنا نقطع المجرة بسرعة ١٨٦ الف ميل في الثانية قضينا مائتي الف سنة في اختراق المجرة من طرف الى طرف . واذا أردنا ان نجوزها بهذه السرعة من طبقتها العليا الى طبقتها السفلى ، استغرق ذلك ٤٠ الف سنة

ويقدر أحد علماء الفلك عدد النجوم في المجرَّة بـ ٣٠٠٠٠ مليون نجم ويقول غيره انها أكثر من ذلك اذ تبلغ في رأي الاستاذ شابلي ١٠٠ الف مليون نجم ، كل منها على غرار شمسنا ، والقول إنَّ شمسنا متوسطة بين النجوم قدراً وحرارة وعمراً

فهل لكل شمس من هذه الشموس ، أي هل لكل نجم من النجوم التي ترى بالعين المجردة والتي لا ترى الا بالنظارة الفلكية او بعين المصورة الشمسية مجموعة تابعة لها كمجموعتنا الشمسية ، ولكننا لا نراها لبعدها عنا ؟

يقول علماء الفلك ان رصدهم النجوم أسفر عن رؤية نجوم كثيرة مزدوجة . ويرجح الباحثون الاعلام ان كل نجم من ثلاثة نجوم ترى بالعين المجردة أو بالنظارة الفلكية ، هو نجم مزدوج . والنجم المزدوج هو في الواقع نجمان يدور أحدهما حول الآخر او يدوران كلاهما حول مركز واحد . والنجوم التي من هذا القبيل لا يمكن ان يكون لها سيارات . فالرصد المباشر لم

يثبت ان هناك نجماً مزدوجاً لهُ مجموعــة كمجموعتنا ولا يحتمل أن يكون لهُ مجموعــة من التوابع لأن طبيعة الانشطار التي أفضت الى نشوئهِ على هذا الوجه لا تقتضي ذلك . ولـكن ليس ما يمنع ان يكون للنجوم المفردة ، أي النجوم غير المزدوجة ، مجموعات كمجموعتنا وان كان بُعدها يجعل رؤية هذه السيارات وأقمارها أمراً متعذراً

ففي المجرة اذاً مجموعات شمسية ، أي شموس وتوابعها ، ونجوم مزدوجة . وفيها كذلك عدا ما تقدم بقع سحابية أشبه ما تكون بالغيوم ، بعضها منير وبعضها مظلم ، بعضها مستدير وبعضها غير منتظم الشكل . ويطلق على كل منها اسم سديم . وقد وصفها الفلـكي العربي الـكبير ابو الحسن الصوفي فقال « لطخ سحابية » ولـكن لفظ سديم وجمعهُ سدُم وسدائم غلب الآن في الـكتابة العلمية العربية ترجمة للفظ Nebula الافرنجي

نخلص مما تقدم الى ان في هذا الفضاء الرحب جمعاً يشبه في شكلهِ حبة العدس ويسمى المجرّة . فيهِ شموس . وبعض هذه الشموس مزدوجة . وبعضها لهُ سيارات وأقمـار . وفيه مذنبات وشهب ولطخ سحابية أي السدم . فهل المجرّة كل الـكون ؟

كلاّ . ليست المجرة كل الـكون . بل هي على ضخامتها جزءٌ صغير منهُ . لان خارج المجرة مجرات أخرى ، تشبه المجرَّة التي أرضنا جزءٌ صغيرٌ منها .

وأقرب مجرّة من هذه المجرات الى مجرتنا تبعد عنا ٨٠٠ الف سنة ضوئية . أي اذا سرنا اليها من أطراف مجرتنا بطيارة تقطع ١٨٦ الف ميل في الثانية — وهي سرعة الضوء — فلا نبلغها الاّ بعد انقضاء ٨٠٠ الف سنة

اما المادة التي تحتوي عليها هذه المجرّة فتكفي لتكوين الفي مليون نجم ، مع ان اقل عدد قدّر لمجرتنـا من النجوم هو ٣٠ الف مليون نجم . فهذه المجرة أصغر من مجرتنا . ومن النجوم في هذه المجرّات ما هو متغير يقل نورهُ أو يضعف في ادوار زمنية رتيبة . ومنها المتغير الذي يـكون غائراً ثم ينفجر كأ نهُ بركان فيشرق فترة ثم يخبو ويغور . ويقول العلماء ان نظارة مرصد جبل ولسن ، وهي أكبر نظارة فلـكية صنعت حتى الآن ، وقطر مرآتها مائة بوصة ، تتبين بواسطة التصوير الضوئي نحو مليوني مجرة من هذه المجرات

فـكأن الـكون في نظر العلماء ، بحرٌ خضمٌ متناهي الأطراف ، فيهِ هنا وهناك جزيرة كبيرة كل جزيرة منها مجرة بشموسها وسياراتها وأقمارها ومذنباتها . لذلك أطلق على هذه المجرّات باللغة الانكليزية اسم Island Universes أي العوالم الجزرية

ومتى تمَّ صنع النظارة الجديدة وقطر مرآتها ضعفا قطر مرآة النظارة بمرصد جبل ولسن يصبح في وسع العلماء ان يتبينوا ستة عشر مليون مجرة فتأمل

الحيوان

في كتاب الإمتاع والمؤانسة

للاب انستاس ماري الكرملي

١ — تمهيد

نشر الأديبان الكبيران أحمد بك أمين وأحمد افندي الزين (كتاب الإمتاع والمؤانسة) لأبي حيّان التوحيدي، فأدهشا كل من وقف على هذا الجزء الاول من هذا السفر الجليل. فقد صحّحا أغلاطاً جمة صدرت من قلم الناسخ او من يراع النسّاخ، وكان يصعب على أي عالم ردُّها الى أصولها الحقيقية، وتصحيحها تصحيحاً معقولاً مقبولاً. ولا جرم ان هذين العالمين الفاضلين بل الفذّين خدما اللغة والأدب وخلّدا اسم المؤلف تخليداً لا ينكر، واستحقّا شكر جميع الناطقين بالضاد

وقد أعاد الاستاذ الكبير والعلاّمة الشهير محمد كرد علي، طائفة غير يسيرة من تلك الأوهام الى أصولها التي وضعت عليها، فعرف قدره الناشران الكبيران وشكرا لهُ عملهُ هذا. ومع ذلك فقد بقي ثمَّ أوهام لم يوفق الناشران ولا الاستاذ كرد علي لردها الى أنصبتها لجئنا نحاول تصحيحها بما بدا لنا. ونقسمُ هذه الهفوات الى فصول وهي: فصل الحيوان، وفصل الاعلام، وفصل رسم الحروف، وفصل الصرفيات والنحويات، وفصل اللغويات. فنقول:

٢ — فصل الحيوان
اليَغْر او اليَغْر لا (بعروا)

جاء في ١: ١٤٤: ١٣ ما هذا نصهُ: «... وسمن بعروا، وهي دابة بخراسان تسمن على التعب والشقاء». وجاءَ في الحاشية تعليقاً على (بعروا): «كذا ورد اسم هذه الدابة في الاصل. ولم نجده فيما بين أيدينا من الكتب» انتهى

قلنا: هذه الكلمة مصحفة تصحيفاً قبيحاً، وصحيحها (اليَغْر)، بياءٍ مثناة من تحت مفتوحة، يليها غين معجمة ساكنة، فراء. وهي كلمة تُبَّتِيَّة الأصل وقد نقلها عنا الفرنسيون بقولهم Yak أو Yack والانكليز بقولهم Yak. وقد نقلها العرب أيضاً الى

صورة (يَـعْـر) بعين مهملة في مكان الغين المعجمة . قال الدميري في مادة (ي ع ر) : « اليعر دابة تـكون بخراسان تسمن على الـكدّ . وقيل : هي بالغين المعجمة . قالوا في أمثالهم : أسمن من يَـغْـر . ذكرهُ حمزة وغيرهُ . » انتهى كلام الدميري

ونقل البستاني في محيط المحيط في يعر «... ودابة تـكون بخراسان[1]، تسمن على الـكدّ وقيل : هي بالغين المعجمة . قالوا في أمثالهم : أسمن من يَـغـر » اه

وقلنا : ان الفرنسيين والانكليز نقلوا لفظتهم عن العرب لأنهم اتصلوا بالعرب قبل ان يتصلوا بأهل التُـبَّـت ، أو أهل خراسان . ولأنهم لو نقلوا لفظتهم مباشرة عن واضعي اللفظة لذكروها كما ينطق بها أهلها ، وقالوا Gyag مثلهم ، لـكنهم قالوا Yāk وهو (يَـغـر) العربية بحذف الراء الاخيرة ، إذ قليلاً ما تخفى على السامع عند نطق الغير بها [2] . أما ان صحة الحرف العربي هو بالغين المعجمة الساكنة ،لا بالعين المهملة ، فهو لان الـكلمة في اللغة التُـبَّـتية خالية من العين المهملة ، إذ ليس هذا الحرف في تلك اللغة ، بل ما يقرب من الغين المعجمة وكثيراً ما تُـنقل هذه الجيم اي G إلى الغين المعجمة . وأمثلة ذلك كثيرة حتى في لغتنا الضادية في نقل سلفنا الالفاظ التي فيها الحرف G ، ودونك بعض الشواهد : جغرافية هي Geographia ، وايساغوجي هي Eisagogé ، واواغي هي Agôgos ، واغالوجي هي Agallokhon وغرنوق هي Geranos . والأمثلة لا تكاد تُـحصى لـكثرتها

واسم اليغر بلسان العلماء Poëphagus Grunniens او Bos وأكثر ما يكون هذا الحيوان في التبت وخراسان وما جاور تلك الأصقاع من البلاد المرتفعة من آسية الوسطى . واللون الغالب عليهِ الاسمر الضارب الى السواد . فهو جاموس ضخم بذنب الفرس ووافر الشعر

٣ — التِـنّـين

جاءَ ذكر التنين في (١ : ١٦٥ : ١٨) في قولهِ : « العُـقاب والتّـنّـين يتقاتلان ،والعقاب تأكل الحيّـات حيثما وَجدَتها ». وكان يحسن بالناشرين ان يشرحا معنى التنين . فلهذا اللفظ معانٍ عدة ، والمراد بهِ هنا كبير الحيَّـات

٤ — الأيَّـل والأيائل

وجاءَت الأيّـل والأيلة مضبوطتين بضم الهمزة ، وتشديد الياء المفتوحة (في ص ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٨٥) وهي احدى لغاته الثلاث ، وهي كقنَّـب ، وخُـلَّـب ، وسيد . والذي صرح بهِ اللغويون ما هذا نصهُ : « أبو عبيد : هو الإِيَّـل [كقنب] والأُيَّـل [كجُنْـدَب] ،

(١) كذا في الاصل ، بلا ألف بعد الراء . والصواب خراسان (٢) وذكرنا في مجلتنا لغة العرب من اسماء هذا الحيوان (٦:٢٢٧) الخشقاء وأصلها ختشقاو ،وغِرْكَـار ، والقطاس . واما ختشفاو بالفاء فغلط

والوجه الكسر » (عن المخصص ٨ : ٣٢) . فاذا كان الوجه هو كقنّب لا كخُلَّب، فلماذا نتطلب في كلامنا الثقيل الذي تنوء به الجبال، ونترك الخفيف الكثير الاستعمال، وهو ما ينطق به العراقيون حتى عوامهم؟ وجاءت الايائل جمع الايل مذكورة بصورة الايايل بياءين في ص ١٦٦ وغيرها . والذي صرّح به الفصحاء انهُ بهمزة قبل اللام وبياءٍ بين الألفين

٥ — التُذْرُج

ضبطت التُذرُج في الكتاب بدال مهملة وزان هُدْهد . والصواب انها بذال معجمة، كما ذكرها الدميري وبضمتين . واما بالمهملة فمن اغلاط محيط المحيط ومن أخذ إخذه

٦ — الحِرْذَوْن

جاء في ص ١٧٤ : « الحرذون ، تفسيره بالعربية « الذي يخرج من الزعفران » . قال الناشران : « لم نجد في كتب اللغة التي بين ايدينا ما يفيد ان لفظ الحرذون غير عربي ، ولا أن تفسيره بالعربية ما ذكره المؤلف ، كما اننا لم نجد ذلك فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة في الحيوان » انتهى

قلنا : الحرذون ، زنة كِديَوْن وبرذَوْن ، إرمية ، معناها في أصل وضعها « الخائف » اي الرعديد الكثير الخوف . وهذا الحيوان مشهور بذلك . وقد جاءَ في طائفة من كتب الباحثين في علم الحيوان . قال الجاحظ في كتاب الحيوان (٦ : ١٧) من طبعة الساسيّ : «والحرذون، دويبة تشبه الحرباء تكون بناحية مصر، وما والاها وهي دويبة مليحة، موشاة بألوان ونقط ... »

وقال الدميري في كلامه على الورل : « الجاحظ يقول : ان الحرذون غير الورل ووصفه بأنهُ دابة تكون غالباً بناحية مصر ، مليحة وموشاة بألوان كثيرة ، ولها كف ككف الانسان، مقسومة أصابعها الى الانامل . وهو يقوى على الحيات ويأكلها أكلاً ذريعاً ، ويخرجها من جحرها ، ويسكن فيه ، وهو أظلم ظالم » انتهى

وقال السيوطي في المزهر (١ : ٢٥٩ من طبعة بولاق) : « وحِرْدَون ، دابة أو سبع (كذا) بالدال والذال » اه . وأرباب المعاجم الارمية العربية ذكرت الحرذون بالذال المعجمة والمهملة وأفاضت في وصفه وتحليته . فلا حاجة الى الاطالة في هذا الموضوع المشهور . بيد أنهُ يحسن بنا القول انهم قسموه قسمين : البحريّ أو النيليّ والبرّيّ أو الأرضي . فاسم النيلي بلسان العلم Hydrausurus Niloticus وبالفرنسية Moniteur de Nil والثاني Monitor Terrestris وبالفرنسية Moniteur Terrestre . وكذا فعل السلف الصالح مترسماً آثار انسبائهم الارميين

وعليه فقول الناشرين في الحاشية ٢ من ص ١٦٦ «وقيل [الحرذون] ذكر الضب » خطأ فالواحد غير الآخر

٧ — القبج : الكروان خطأ

جاء في الحاشية الثانية ص ١٦١ هاتان الكلمتان وهما : «القبج : الكِرْوان » وفيهما ثلاثة أغلاط : الأول ان القبج غير الكروان . الثاني ان القبج مفرد ، والكِرْوان بكسر الأول كما ضبطها الناشران جمع ، ففسرا مفرداً بجمع . الثالث : ان صواب الضبط للمفرد هو بالتحريك ، لا بالكسر ، كما ورد في الحاشية ، وليس بالفتح كما جاء في القاموس للمجد الفيروزابادي . فالقبج هو الحجل وهو بالفرنسية Perdrix وبلسان العلم Perdix وأما الكروان فاسمه بالفرنسية Courlis, Corlis, Courlieu وبلسان العلم Numenius

ووصفه صاحب نهاية الارب في ١٠ : ٢٨٥ بقوله : «والكروان : طائر من طبعه وعادته الطيران في الليل ، والادلاج والصياح بالأسحار ، والاشراف على مواضع العساكر . ويوصف بالحمق . ومن حمقه انهُ يقال لهُ : اطرق كَرَا . فيلصق بالارض حتى يُرمى . وتقول العرب : اطرق كرا ، اطرق كرا ، ان النعامة في القُرَى»

٨ — التمساح في الرسيس

وجاء في ص ١٧٤ : « التمساح لا يكون الاّ في النيل ونهر بأرض الهند ، يقال له : الرّسيس ، ويبيض كبيض الاوز » انتهى . قلنا : لا نعرف نهراً في الهند باسم الرسيس يكون فيهِ التمساح . والذي نعرفه ان الذي فيه هذا الوحش المائي هو نهر (مِهران) بكسر الميم . قال ياقوت في هذه المادة : « مهران . . . نهر كبير عذب جدًّا . ويقال إن فيه تماسيح مثل ما في النيل ، وهو مثله في الكبر ، وجريه مثل جريهِ ، ويقع على وجه الارض ، ثم ينضب فيزرع عليهِ ما يزرع بأرض مصر » انتهى

ويرى أيضاً التمساح في الگنج وبراهما بترة من أنهر الهند ايضاً . ويسمى التمساح الهندي اليوم Gavial بلسان الافرنج ويقول علماؤهم ان الكلمة هندية . وعندنا انها ان كانت هندية فهي من أصل عربي وان أصلها (جَبَّار) أي التمساح الجبار بمعنى الكبير ، والتبادل بين الأحرف المتقاربة المخارج أمر معروف

أما من أين جيءَ بالرُسَيْس ؟ فهي عندنا تصغير (الرسّ) والرس هذا وادي اذربيجان ، حقَّره العرب تحقير تعظيم ، كأنهم يشيرون الى ان نهر مهران او نهر السند كبير وبهِ شدة جري ، كما في الرس ، فلا عجب بعد ذلك وجود التماسيح فيهِ

٩ — البوس سمكة

وورد في ص ١٧٤ هذه العبارة : « في البحر حوت يقال له : البوس ، يتولد من الصاعقة اذا كانت في البحر ، وان وُضع ذلك الحوت بين اثنين فأكلا منهُ ، تحابّـا ولا يحقد أحد على صاحبه ، ويتآخيان أحسن الاخاء »

ما هذا الحوت ، وفي أي كتاب ورد اسمهُ ، وفي أي لغة هو ؟ هذه اسئلة لم يجب الناشر ان عنها بكلمة واحدة . فما هذا السمك يا ترى ؟ قلنا : هذه الكلمة هي باليونانية اسم حوت كثير الوجود في بحر الروم ، وهي كالبوس مبنى ومعنى أي Boôps وبلغة العلماء Boops وبالفرنسية Boguse وطعمهُ لذيذ ، يحرص على أكله العارفون بأنواع السمك ، وكثيراً ما يدعو الرجل أصحابه وأقاربهُ الى مقاسمتهم اياه اكله . والى هذا يشير المؤلف حين يقول : « وان وُضع ذلك الحوت ... »

١٠ — الموفى سمك

ومن السمك الذي لم يذكره العلماء في كتبهم الباحثة عن الحيوان (الموفى) قال المؤلف في ص ١٧٦ : « في البحر حوت يقال لهُ : موفى ، ضعيف الجسد ، قليل القوة ، اذا جاع خرج الى الشاطىء ، فاستلقى على الرمل ، فأقام شوكة في رأسه ، فاذا نظر اليه حوت آخر جاء مسرعاً ليأكله ، يظن انهُ ميت ، فيدخل بطنه تلك الشوكة فيقتله بها ويأكله » .

« واذا التقى الملاح صنارتهُ ، ولقيت ذلك الحوت ، رمى مكانه بتلك الشوكة الحادة يد الملّاح فتخدر ويطرح أداة صيده ...»

قلنا الموفي اسم فاعل من أوفى ومعناه الذي يدفع بصاحبه الى وفاء نحبه ، اي الى اجله ووفاته ، او بعبارة اخرى ، الى الفتك به . وهذا الفتك لا يكون الاّ بهذه الشوكة . واسم السمكة بالفرنسية Aiguillat (ذو المخيط) وبلسان العلماء Spinax Acanthias وهو ضرب من الحوت من جنس السكل الشائك ، يتخذ من كبده دهن يستعمل لتطرية الجلود وتقويتها ، وينسب اليه منافع لدفع آلام المفاصل ، وجلده جاسٍ ويتخذ سفناً[1] ولزعنفته الاولى التي على ظهره شوكة صلبة ، وبها تفتك باعدائها وتوردها حياض الموت

١١ — جند بادستر لا درباست

ومن غريب ما صحّف النساخ من هذا الكتاب الجند باستر فقد صحّف (ذرباست) التي خلقتها خلقة كلمة فارسية لكنها ليست من تلك اللغة . فقد قال المؤلف في ص ١٨٠ ، «دابة يقال لها بالفارسية (درباست) اذا طلبهُ القانص استلقى لظهره وأراه انهُ لاخصية لهُ ، كأنهُ قد علم ما يطلب منهُ » اه

(١) كل قطعة من جلد خشن ينحت به ، أو يسحج به ، حتى يذهب عن المنحوت آثار المبراة أو خشونته

وتحرير الخبر ما ذكره الدميري قال : الجندبادستر : حيوان كهيئة الكلب ، ويسمى السمور[1] ايضاً . وهو على هيئة الثعلب ، احمر اللون ، ليس لهُ يدان وله رجلان ... وله اربع خصيات ، اثنتان ظاهرتان ، واثنتان باطنتان . ومن شأنه انهُ اذا رأى الصيادين له لاخذ الجندبادستر وهو الموجود في خصيتيه البارزتين هرب ، فاذا جدُّوا في طلبه قطعهما بفيه ورمى بهما اليهم ، إذ لا حاجة لهم إلاّ بهما . فاذا لم يبصرها الصيادون ، وداموا في طلبه ، استلقى على ظهره حتى يريهم الدم ، فيعلمون انهُ قطعهما فينصرفون عنهُ . وهو اذا قطع الظاهرتين ، أبرز الباطنتين عوضاً عنهما وفي باطن الخصية شبه الدم او العسل زهم الرائحة سريع التفرّك اذا جفَّ ...»

١٢ — السمندل وحقيقتهُ

ذكر المؤلف في كتابه السمندل وقال عليهِ إنهُ دابة لا تخاف النار (ص ١٨٢) وذكر الناشران في الحاشية انهُ «دون الثعلب...وقيل : طائر» فما عسى ان تكون هذه ال[illegible]ة ؟ قلنا : اننا كنا قد أدرجنا مقالة في مجلة المشرق البيروتية (٦ [١٩٠٣] ص ٩ — ١٥) أي قبل نحو ٣٩ سنة وبيَّنا حقيقة هذه الدويبة ، وذكرنا ان الكلمة يونانية الاصل من Salamandra وقد أقر فقهاء يونان وفارس انها يونانية الوضع . ومن غريب الاتفاق انها بهذه الوضع تشبه لفظاً فارسيًّا هو سمندر و(سام) معناه نار و(اندرون) اي داخل[2] كأنهُ يشير الى دخوله في النار. وبيّنا ان السلف أطلق هذا الاسم على كل ما لا يحترق ، أو لا يحترق سريعاً ، أو يحترق ثم يعود الى النشور فصار للسمندل ثلاثة معان

الأول : ضرب من العظاءة هو المسمى بلسان العلم Salamandra

والثاني : تلك المادة التي تشتعل اشتعال الفتيلة . وقد سماها بعضهم حجر الفتيلة وهي مخاط الشيطان وغزل السعالي في كلام أبي الريحان (راجع نخب الذخائر في أحوال الجواهر لابن الاكفاني ص ١٢٣ الى ١٢٥ من المطبوع في مصر سنة ١٩٣٩) وبالفرنسية Asbeste أو Amiante . وأما الطائر فهو (الفقنس) وكان يجب أن يقال الفَنِيقَس أي Phoinix كما في الأصل اليوناني ، لكن السلف لم ينطقوا بهِ . وهذا هو معناه الثالث

أما المقصود من كلام أبي حيان في هذه الليلة فهو هذه العظاءة دون غيرها . وأما أن السمندل هو « دابة دون الثعلب خلنجية اللون ، حمراء العين ، ذات ذنب طويل » فلا حقيقة له

[للبحث تتمة]

(١) المشهور عند العلماء المحققين ان السمور غير الجندبادستر ، وان كانت الفراء تتخذ من كليهما ، فاتخاذ هذه الفراء لا يوحد الجنسين ولا يجعلهما شيئا مستقلا ، دون غيرهما.

(٢) اول من ذهب الى هذا الرأي محمد حسين التبريزي الحيدرابادي ، صاحب المعجم المسمى (برهان قاطع) في مادة (سمندون) وبرهان قاطع معجم في الفارسية متناً وشرحاً ، ثم تابعه في هذا الراي ناقله الى التركية احمد عاصم افندي وقد سماه (تبيان نافع في ترجمة برهان قاطع) وطبع في بولاق سنة ١٢٦٨

التربية البدنية

في الطفولة الثانية أو الغلامية

للدكتور شوكت موفق الشطي

نقصد بالغلومة أو الغلامية [1] سن الولد من فطامه الى سبع سنين يشتد خلالها نماؤه ويكثر ميله الى الحركة واللهو والرقص والمشي والركض والوثب والقفز وحب الطلاقة فتجب مسايرته بحذر وانتباه على ان يوقى من الحر والبرد فالحر ينهك قواه ويشوش انبوبه الهضمي ويضعفهُ والبرد يؤذيه اذ لا يستطيع مقاومته كالشباب والكهول لانه يصرف الحرارة بسطح جسمه وهو اكثر اتساعاً من حجمه المولد لها

يحسن في هذه السنين تلعيب الاطفال صيفاً على شواطىء البحار فوق الرمال او في البساتين والحقول على ان تكون الارض جافة لا أثر للرطوبة فيها فيتسلى الولدان فيها بحفر ثقوب وأخاديد وحفر وبتركيز ركامات يحسبونها أودية وأنهاراً وجبالاً وتلاعاً وقصوراً وبيوتاً ويستحب في هذه السن ايضاً سرد قصص للاطفال تسترعي انتباههم وتستدعي الحركة والتقليد على ان يستغرق سرد القصة مدة ٢٠ — ٣٠ دقيقة يقوم المربي او المرشد خلالها بالحركات التي تتطلبها القصة على ان يقلده الاطفال في ذلك . ولهذا الغرض انشئت دور الحضانة وحدائق الاطفال

قارن الخبيرون بين الاطفال الممرنة أبدانهم والاطفال الآخرين فرأوا ان الأول أوسع صدراً وأكثر ذكاءً وأبهج طلعة وأحسن جمالاً واسرع اتقاناً للتكلم والكلام وتقليد الحركات وأشد ادراكاً لما يحيط بهم وأكثر تمييزاً لمعرفة الصور وما يناسبها من شيءٍ او إنسان او حيوان وأميل للنظافة من غيرهم ينقطعون عن البول في الفراش في عهد مبكر

ويبدو أثر التربية البدنية في الاطفال جليًّا بعد السنة الثانية من اعمارهم . وقد تبين ان كثيراً من الاطفال الضعيفي العقل المتأخرين كان سبب ذلك فيهم اشمئزاز والديهم واهلهم من

(١) تدل كلمة غلام على الولد من لدن فطامه الى سبع سنين فيقال فلان بين الغلومة والغلومية والغلامية ولما كان المصدر غير خاص بالصبيان وجاء في بعض كتب اللغة اطلاق كلمة الغلام على الولد دون تعيين جنسه رأينا ان نسمي الطفولة الثانية بالغلامية لان كلمة واحدة تدل على المعنى خير من كلمتين

لهوهم وضوضائهم وإكراههم على السكون. وثبت ايضاً ان نماء عقل الطفل يساير اشتداد جسمهِ وتربية بدنه ففسادها او نقصها وخلوها يؤثر في عقلهِ ووعيه والعكس بالعكس

تقوي تربيةُ الاطفال البدنية ذاكرتهم وتزيد في انتباههم وتوسع مداركهم وتفكيرهم وتعوّدهم الحزم والحكم وطلاقة اللسان ومن حسنت تربيـة جسمه من الاولاد بدا نابهاً ينظر الى ما يحيط بهِ بتأمل وتفكير، يبحث عن كل ما يعترضهُ ويخطر له فيحب الوقوف على كنهه ويطلب ايضاحاً عنهُ بحسن التشبيه والتقليد، يصغي الى الأحاجي والقصص بانتباه لا مثيل لهِ وتظهر عليه امارات الدقة في لهوه ولعبه ودرسه

التربية البدنية في اليفع[1] او الطفولة الثالثة

يناسب هذا الزمان من العمر اشتداد الولد وارتفاعه لذلك يجب ان يعنى بصحتهِ حتى تكون جيدة وان لا يطلب منهُ اداء تمرينات من شأنها ارهاق العضلات والجسم لأن العظام لم تصلب بعد تماماً وما زالت لدنة كما وان ارتكاز العضل عليها لم يبلغ بعد الشدة المطلوبة وهذا ما يدعو الى اختيار رياضة موزونة ومتناسقة لليفعان تنمي أعضاء الجسم كله دون أن تُصرَف فيها قوة زائدة. ومن الخطأ تعويد اليافعين رياضة من شأنهـا تنمية جزء من عضلات البدن أكثر من الجزء الآخر اجتناباً لفسـاد التوازن في نمـاء الجسم وتشوش تناسقه. ويجب ان تكون غاية التمرينات في هذه السن تنشيط الوظائف الحيوية الكبرى كالتنفس والدوران وغيرها مما لا يتم الاَّ برياضة غريزية كالرياضة السويدية. ويستحسن ان لا يعطي المدرب ايضاحاً عن الحركات التي يدعو الى القيام بها بل يطلب من اليافع أو من الأولاد ان يقلدوها. ومن الضروري مراقبة رياضة اليفعان من قبل طبيب متوفر حتى لا يكون فيها جهد أو إرهاق فلا يجوز ان تزيد عدد دقات القلب عن ١٠٠ — ١٤٠ دقة برهة وجيزة وان لا يسرع التنفس كثيراً وان يتوقف عن الرياضة متى رشح جسم الولد بالعرق. وعلى الطبيب والمدرّب الرياضي ان يراقبا الطلاب وان يقسماهم الى زمر تتكافأ قوى أفرادها ومقدرتهم الخلقية والغريزية على الرياضة. ويمكن تلخيص قواعد رياضة اليفعان بما يلي:

١ً — يختار للاولاد بين السنة السادسة والسنة التاسعة المشي مع الغناء واللعب بألعاب أو القيام برياضات من شأنها إصلاح الأوضاع المعيبة

٢ً — يباشر بتمرينهم بين الحادي عشرة والثالثة عشرة على بعض الرياضات القليلة الاجهاد كالعدو باعتدال والوثب والقفز وتسلق الاشجار وما شاكل

---

(١) اليافع اذا ارتفع الولد ولم يبلغ الحلم والوفع والوفعة كاليفعة محكية في المصادر المخصص ج ١ ص ٣٤

المشي وفوائده وقواعده وآدابه

المشي هو انتقال الجسم بخطوات متتابعة وهو من رياضات العمر التي يثابر عليها منذ الطفولة الاولى حتى آخر مراحل الشيخوخة . يُبدأ به بالتأتأة ، والدرجان في الطفل ينفع الصغير والكبير لا فرق في القيام به بين الغني والفقير ينفع الانسان في جميع أزمنة حياته ويستفيد منهُ خاصة الاشخاص الساكنون الذين تضطرهم اشغالهم اليومية الى إعمال الفكر دون الجسم فيكثر تفكيرهم وتقل حركتهم فيؤدي ذلك بهم الى ان يصابوا بفقر دم عام وضعف شامل وخَوَرٍ في الاعصاب لا تنفع فيه المعالجة الدوائية نفعاً مستمرًّا وجديراً بالذكر. على أن الرياضة بالمشي أبلغ فيهم أثراً وأكبر نفعاً وأعظم فائدة فتعود به اليهم قواهم وشهيتهم الى الطعام في أقل من اسبوعين

يحرك المشي ثلثي عضل الانسان بلطف واعتدال فيكثر بذلك تثبيت مولد الحموضة (الاوكسجين) فيها وقد تبين انهُ يمر من رئة الانسان الكهل في اثناء الراحة مقدار ٣—٥ ليترات من الهواء في الدقيقة الواحدة يمسُّ فيها ٢٢٠—٢٥٠ سنتيمتراً مكعباً من مولد الحموضة ويطرح مقدار ٢٠٠ الى ٢١٠ سنتيمترات مكعبة من حمض الفحم (الحمض الكربونيك) على انه يمر من رئتي الانسان في الدقيقة الواحدة اثناء السير مقدار ١٦—٢٠ لتراً من الهواء ويفرغ منهما مقدار ٧٦٠ الى ٨٠٠ سنتيمتر مكعب من حمض الفحم

قياس الخطوة: الخطوة هي البعد الواقع بين موطىء قدم واخرى ويختلف قياسه في الغالب على انه يعادل عادة ٧٠ سنتيمتراً عند الكهل . ويساعد على توسيع الخطى قصر مؤخر الحذاء وطول الطرفين السفليين . ولهذا يستحسن ان يكون الماشون من طول متقارب وماسبب تعب الاولاد حين مماشاتهم لآبائهم الا اختلاف الطول بين الآباء والأبناء وتبدو سعة الخطوة في الصعود اكثر منها في النزول وتكون صغيرة في الأرض الملساء وكبيرة في الأرض الخشنة

تتحرك بالصعود عضلات البطن وتنشط بالنزول العضلات الموسعة للصدر ويحسن ان يكون الصدر منثنياً قليلاً أثناء السير لأن ذلك هو شأن السير الطبيعي في الانسان وعلى هذا المنوال يسير الجنود والسعاة وذلك لأنه يخفف من صدمة كل خطوة يخطوها السائر على الأرض بسبب وفرة عدد المفاصل المنثنية إبان السير . تستند القدم في هذه المشية الى الارض بعقبها ثم يلامس الارض قسمها المتوسط وينفصل أخيراً قسمها الامامي وبينما تستقر العقب على الأرض تنثني الساق قليلاً ويلاحظ في المشي انهُ حينما تلامس عقب احدى القدمين الارض تكون ذروة القدم الثانية ملامسة للارض ايضاً

ان احدى الخطوتين اكبر من الثانية عادةً وهي خطوة الساق اليمنى وتكون خطوة الساق اليسرى أوسع في العمران

وتتحرك الأذرع بالسير حركة تعاكس حركة الطرفين السفليين فبينما يتجه الذراع اليسرى الى الوراء تتجه الساق اليمنى الى الامام . ويعدّل تعاكس الاتجاه بين الطرفين العلويين والطرفين السفليين تبدل مركز ثقل الجسم

ينقص بالسير وزن الجسم بسبب نشاط المفرغات والمفرزات والتعرق وتبخر الماء من سطوح الرئة من جراء سرعة التنفس ونشاط الدورة الدموية.وقد تبين ان وزن شخص غير معتاد السير لهُ من العمر ٢٥ سنة ينقص مقدار ١٩٠٠ غرام اثر سيره مسافة ٢٤ كيلو متراً وذلك اذا ارتاح مدة عشر دقائق بعد سير خمسين دقيقة واستراح ايضاً ثلاثين دقيقة بعد سير ١٨ كيلومتراً على ان نقص الوزن يكون اقل من ذلك اذا أكثر الماشي من فترات الراحة بان جعلها عشر دقائق بعد سير ثلاثين دقيقة

ويزيد السير في الجبال والمنحدرات نشاط الجهازين الدوراني والتنفسي اكثر مما يزيده السير في السهول . وعلى هذا الأساس فكّر اورتل Ortel بطريقة خاصة لتسيير المصابين بالأمراض القلبية وتنشيط قلوبهم بتكليفهم المشي تدريجيًّا في أرض وعرة . ويرجح المشي في الصيف صباحاً اذ يمكن ان يباشر بهِ في الساعة السادسة او قبلها ويثابر عليهِ حتى الساعة العاشرة واما في الشتاء فالسير جائز في كلّ ساعة من ساعات النهار . وينبغي ان تكون المسافة التي يقطعها الماشي معادلة لـ ٥ او ٦ كيلومترات في الساعة ويستطاع تدريجيًّا التوصل بدون عناء الى السير مسافة ٢٠ كيلو متراً في الصباح ومثل ذلك بعد الظهر .ويرى بعضهم ان الرياضة اللازمة للانسان تعدل مشيهُ مسافة ١٢ كيلو متراً في اليوم

وعلى الماشي ان يقتر على نفسه في شرب الماء لأن الاكثار من تجرع الماء والسوائل يضره ضرراً بليغاً ويستحسن ان يتناول الماشي في فترة الراحة الكبرى بعض الطعام قبل شرب الماء ويجوز له أن يتناول من الفواكه ما شاءَ باعتدال وعليه ايضاً ان يجتنب المشروبات الروحية اجتناباً باتًّا وان يتحاشى في راحته الامكنة الرطبة او المعرضة لتبادل جريان الهواء خاصة اذا كان جسمهُ دافئاً وقد بدأ العرق يتصبب منهُ وعليه اذا شعر بأثر البرد ان يقوم ببعض الحركات وان لا يضطجع على العشب وان يضع في الصيف بين رأسه وكسوة رأسه قطعة قماش تمتد حتى نقرته لوقايتها من الشمس . ولا يجوز له ان يسكن فجأة بل لا بد من اجراء بعض الحركات حتى يتم السكون تدريجيًّا . ويجب أن يفضل الماشي الطرق الواقعة في الحقول والبساتين للتمتع بمناظرها ولتجنب الغبار التي تثيره السيارات في الطرق العامة لأن المشي في الهواء الطلق حيث

ينتشر نور الشمس يكسب الوجه لوناً وبهاءً ويعدل القد وهو أليق رياضة للمرأة اذ تكسبها الرشاقة وخفة الحركة وتورد الوجنتين وذلك من مقومات الجمال الأساسية

***

السير في الجبال : رياضة حسنة تفوق المشي في السهول والطرق المستوية . ينعطف الجسم بالصعود في الجبال الى الأمام فتتحرك بذلك عضلات القطن في الظهر ولذلك قيل ان الانسان يصعد بقوة ظهره ويتجه الجسم حين النزول الى الوراء ليبدّل مركز ثقله من الأمام الى الوراء

ولا بد من ملاحظة امور اساسية في صعود الجبال تتعلق بالحرارة والضغط الهوائي. فان الحرارة تتبدل بتبدل ارتفاع الامكنة وباختلاف الليل والنهار. اما الضغط فانهُ ينقص كلما ارتقى الانسان في الصعود . ولا يستطيع احتمال اختلاف الضغط والحرارة اي كان لذلك فان من اللازم استشارة الطبيب في الرياضة الجبلية وهي في كل حال لا توافق الاَّ من كان صحيح الجسم قوي القلب والرئتين

تزداد في السير الجبلي حاجة الجسم الى الطعام فينشط الاشتهاء لذلك يجب اكثار عدد وقعات الطعام فلا تكون اقل من خمس وقعات في النهار على ان تكون قليلة المقدار حتى لا يثقل هضمها فتعوق السير . و يجب تناول الطعام حين الشعور بالرغبة فيهِ . ويستحب في مثل هذه الرحلات تناول الخبز مع اللحم البارد او البيض المشوي أو المسلوق والشوكولاتة وأما الشراب فماء قليل أو شاي وقهوة باردان او فاتران . وأما الثياب فيجب ان يحسب فيها اكبر حساب لاختلاف حرارة النهار عن حرارة الليل

ويحسن حين السير في الجبال المكسوة بالثلج استعمال نظارات دخانية اللون منعاً لبهر العينين الذي قد يعتري الانسان في هذه الحالة . وينفع طلي الجلد بالادهان وقايةً له من التحسف . وتنتج كلتا الحالتين من أشعة الشمس البنفسجية وحرارتها . يمتاز صعود الجبال عن السير في السهول بزيادة الانتفاع فيه بنقاوة الهواء وجفافه وخفة ضغطه وبقلة الغبار

وينتج من خفة الهواء الجبلي نقص غازات الدم ويؤدي ذلك الى زيادة عدد الكريات الحمر وعدد الانفاس سعياً من الجسم وراء تثبيت حاجته من عنصر الاوكسجين . وينجم من هذا وذاك نشاط عام . يسرع التنفس ويزداد عدد دقات القلب في سير الجبال ولاسيما عند العصبيين غير المعتادين فتبدو عليهم علامات دوار وصداع وقتية . اما معتادو هذه الرياضة فلا يظهر فيهم أثر للاضطراب ولذلك ينصح المبتدئون بالتمرن على هذه الرياضة تدريجيًّا حتى

تقوى أجسامهم على احتمالها والاّ تعرض بعضهم للاصابة باضطرابات عديدة يطلق على مجموعها اسم داء الجبال

***

داء الجبال : حالة خاصة تصيب احياناً بعض المجبلين [١] الذين يبلغون ارتفاعاً شاهقاً وتبدو في الغالب اثر صعود سريع او اعياء بضيق النفس وبتتابعه وبغثيان وكلّ [٢] وصداع ونَفَه [٣] ودوار وازرقاق ورعاف وقد تتحرج حالة المصاب فيضطرب بصره وقد يغشى عليه. لا تشاهد عادة هذه الحالة الاّ في مشاة الاطواد [٤] التي يزيد ارتفاعها عن ٣٥٠٠ متر على انها قد تظهر في ارتفاع لا يزيد عن ٢٠٠٠ متر او دون ذلك اذا كانت صحة المصاب لا تحتمل هذه الرياضة او لم تراع فيها قواعد السير الصحية في الجبال

تهجع أعراض هذه الاضطرابات بالراحة وقد لا تزول الاّ بفصد المصاب وانشاقه الأوكسجين وحده او ممزوجاً بحمض الفحم (الحمض الكربونيك) وقد يضطر في بعض الأحيان الى استعمال حقن مقوية للقلب

***

آداب المشي : يحسن ان يكون الماشون متكافئي القوة ما أمكن. واذا كان بينهم من هو أضعف من غيره وجب على الآخرين مسايرته في المشي حتى يعتاد السير ويصبح قادراً عليه مثلهم. بذلك أوصى الحديث الشريف القائل «سيروا بسير أضعفكم». ويجدر بالماشين ان يكونوا متجانسي المشارب مؤتلفي الارواح وما الناس الاّ جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافر اختلف. وينبغي ان يتخلل سيرهم سرد أحاديث طريفة ورواية قصص مسلية داعية للسرور والبهجة والحبور يلتذ بسماعها الجميع. ونذكر من طرائف آداب المماشاة ما جاء في العقد الفريد [٥] : قال يحيى بن اكثم ماشيت المأمون يوماً من الايام في بستان مؤنسة بنت المهدي فكنت من الجانب الذي يستره من الشمس فلما انتهى الى آخره وأراد الرجوع اردت ان ادور الى الجانب الذي يستره من الشمس فقال لا تفعل ولكن كن بحالك حتى أسترك كما سترتني فقلت يا أمير المؤمنين لو قدرت ان أقيك حر النار لفعلت فكيف الشمس فقال ليس هذا من كرم الصحبة ومشى ساتراً لي من الشمس كما سترته

(١) أجبل القوم : اذا أتوا الجبل (٢) الكل: شدة التعب من المشي (٣) النافه : المعيي الذي لاحراك له ومصدرها النفه (٤) الطود : الجبل الضخم (٥) آداب المماشاة ج ١ ص ٣٦١

علم النفس الحديث : ٨

الاضطرابات العقلية

في علم النفس الحديث

للاستاذ موكسلي

نقلها الى العربية : حسن السلمان

نظريات يونج

قضى كارل جوستاف يونج (١) معظم سني حياته ، كاستاذه فرويد ، في درس الاضطرابات العقلية وفي البحث عن طرق معالجتها . وبعد ان توغل في البحوث النفسية انشقّ على تعاليم استاذه لتباين نظرهما في اللاشعور فوضع نظرية عامة في الحياة العقلية تختلف كل الاختلاف عن التحليل النفسي، وهي الاصل فيما ندعوه بعلم النفس التحليلي (٢)

ولا يقر يونج فرويد على نظريته الخاصة بالميول التناسلية الطفلية ، لان الايمان بهذه النظرية يدعو الى الاعتقاد في وجود دور من أدوار حياة الانسان تكمن فيه تلك الميول وهو دورٌ لا مثيل له في الحيوانات الشبيهة بالانسان . وعلاوة على ذلك فان ما جاء به فرويد يناقض الواقع فهناك أدلة كثيرة تثبت وجود استفزاز أولي للدوافع التناسلية عند الاطفال الذين لم تتعد اعمارهم الثامنة ، ويتجلّى ذلك في الذكور منهم خاصة . ويكسب يونج الشهوة البهيمية (٣) معنى أعم من المعنى الذي يربطهُ بها فرويد يماثل معنى الوجدان ويحاكيه . فبينما ينبذ يونج رأي فرويد القائل بان الشهوة البهيمية ليست الاّ مجموعة الدوافع التناسلية يذهب الى ان للطاقة النفسية في الانسان مصدراً مركزيًّا . وما شهواة الانسان البهيمية إلاّ طاقة نفسية كامنة يمكن ان تتبدل شأنها في ذلك شأن الطاقات الطبيعية الأخرى . وتلك الطاقة الكامنة لا تظهر في شكل فعاليات مختلفة فحسب بل تتغير صفاتها بتغير مظاهرها . ولم يكترث يونج في جميع بحوثه للغرائز او الاختلافات الفطرية للشهوة البهيمية ، كما يدعوها فرويد ، اللهمَّ الاّ الغريزة التناسلية ، والغرائز المتعلقة باستمراء الطعام . وكذلك عني في مواضع قليلة من بحوثه بنوع من الاختلافات الفطرية دعاها « غريزة حب السلطة » (٤)

---

(١) Carl Gustave Jung (٢) Analytical Psychology (٣) Libido
(٤) Instinct for Power

ويختلف يونج وفرويد في اللاشعور . فاللاشعور — بحسب فرويد — ينشأ في الانسان نتيجةً للتفاعلات الحاصلة بين التضارب العقلي والكبت والتوحيد بين نواحي العقلية التي تتم في الأعوام الأولى من حياة الطفل . وهو يتألف غالباً من الرغبات الطفلية المكبوتة ومما يتعلق بها من الخواطر . وعلى هذا فان اللاشعور الذي يقره فرويد من الأمور التي يكتسبها الانسان خلال حياته ، اما يونج فيقسم اللاشعور قسمين متباينين : اللاشعور الشخصي (١) واللاشعور الاجتماعي (٢)

فاللاشعور الشخصي يتألف بعضهُ من العناصر المكبوتة في الشعور وبعضهُ الآخر من المعرفة المتأتية عن الانطباعات الهامشية (٣) اي الانطباعات الشعورية التي كانت خارج مركز الانتباه ، وكذلك من الادراك الحسي للحوادث . وعلى هذا فان اللاشعور الشخصي كالشعور الفرويدي من الأمور المكتسبة في الحياة . اما اللاشعور الاجتماعي فتراث سلالي يُعَدُّ الغاية النهائية للشهوة البهيمية وهو يتألف مما يسميه يونج « المثل الأولية » (٤) اي من مجموعة من الميول التي تكسب العالم نفساً روحية وتصفهُ بأوصاف تتضمن هذا الاعتقاد . وترجع هذه الميول كل ما في العالم من اشياء الى عامل الهي او شيطاني او سحري وبذلك تؤثر في فعالياتنا العقلية بطرق شتى فتفرض علينا مختلف انواع المعتقدات الدينية او المذاهب الفلسفية . ويذهب يونج الى ان السلالات البشرية العظيمة تختلف بعضها عن بعض بمقدار ما توهب من تلك المثل الاولية وهذه الاختلافات تؤدي الى تفاوت نصيبها من الثقافة وتباين النهج الذي تنهجهُ في حياته المدنية

وقد كتب يونج في كتابه « رسائل في علم النفس التحليلي » (٥) ما يأتي : «إن للاشعور كما أفهمه ، وظيفة تعويضية (٦) بالقياس الى الشعور » . ويقصد بذلك ان من جميع ما نوهبه من قابليات عقلية منذ ان نوضع بين أحضان هذه الحياة ، لا ينمو ولا يتوحد الاَّ عدد قليل منها ، فتتألف من تلك القابليات القليلة الموحَّدة شخصياتنا الشاعرة بذاتها ، لأنها تؤلف جوهر شخصياتنا الكلية . فليست شخصياتنا التي يشعر بها من يحيط بنا من الناس الأجزاءً يسيراً من شخصياتنا الكلية ، لان جميع قابلياتنا غير النامية المعاكسة بميولها لتلك التي تكوّن جوهر الشخصية، تتوحد فتؤلف شخصياتنا التعويضية اللاشعورية. وصلة هذه بالشخصية الاجتماعية كصلة جوهر الشخصية بما يحيط بنا من اناس وبما يحدث لنا من حوادث

(١) Personal Unconscious (٢) Collective Unconscious
(٣) Marginal Impressions (٤) Archtypes
(٥) Contributions to Analytical Psychology
(٦) Compensatory Function

روح الرجل وروح المرأة

ويفرق يونج بين الشخصية التعويضية اللاشعورية الخاصة بالرجل وبين تلك التي تخص المرأة ، ويدعو الأولى «روح الرجل» (١) والأخرى «روح المرأة» (٢) . ففي الرجل السوي المكتمل صفات الرجولة تنزع روحه المتسلطة عليه نزعة أنثوية وتحاول ان تظهر في أحلامه مفرغة في شكل امرأة . وتوضيحاً لما يقصده يونج من تسميته الشخصية التعويضية اللاشعورية بالروح ننقل هنا ما كتبتهُ جوان كُري في كتابها « اوليات سيكولوجية يونج » (٣) : « لاريب ان اكثر قراء الأدب الانكليزي اطلعوا على رواية السير رايدر هجرد التي عنوانها « عائشة او هي » . ففي هذه الرواية تتمثل شخصية « هي » بذات رمزية تمثل روح المرأة التي تتوافر فيها جميع صفات اللاشعور الاجتماعي ويجمع هذا المؤلف في شخصية « هي » صفات الالوهية ممتزجة بصفات العفاريت ، وصفات المرأة الجميلة المحبة المستسلمة المغرية بصفات المرأة الحقود البغيض المتعطشة لسفك الدماء . فكأنهُ أراد ان يصور « هي » بصورة الروح الممثلة للاشعور المقدس »

. وبحسب ما تذهب اليهِ هذه المؤلفة ان الروح الكامنة في المرأة المكتملة الانوثة المؤمنة بان الاقتصار على زوج واحد هو المثل الأعلى للحياة الزوجية ، تحاول الظهور في احلامها بشكل رجل وفي بعض الاحيان ترى نفسها كأنها ذات ازواج متعددين . وتحاول روح الرجل او روح المرأة الانعكاس على شخص حقيقي « فيدعو ذلك الى اعتماد صاحب الروح على الشخص الذي انعكست عليهِ روحه والى تزايد الروابط الانفعالية بين الشخصين تزايداً اضطرارياً يدعو الى تولد الحب او الكراهية بينهما حتى وان لم تتوافر في الشخص الذي انعكست عليهِ الروح صفات معينة او مؤهلات خاصة »

ويجمع يونج بين نظريتهِ الخاصة بطبيعة اللاشعور ونظرية اخرى تختص بتقسيم الناس بحسب نزعاتهم النفسانية . ففي عقيدته ان للعقل اربع وظائف : الاحساس والتفكير والوجدان والبداهة (٤) . اما تعريفهُ هذه الوظائف الاربع فليس بتعريف جلي المعنى سهل المأخذ . فهو وان اطلق على الاحساس والوجدان المعاني المطلقة عليهما ، يقرر إن التفكير ليس الأ مجموعة الافكار المنطقية المترابطة التي يتسلط عليها العقل وان البداهة هي المظهر الذاتي للدوافع

ولنظرية يونج الخاصة بتقسيم الناس بحسب نزعاتهم النفسية شكلان: القديم منهما والجديد. فقد كان يونج يقسم الناس ، فيما قدم من ابحاثه ، الى صنفين : المائلين الى الاجتماع والظهور (٥)

---

(١) Anima (٢) Animus (٣) ABC of Jung's Psychology by Joan Corrie (٤) Intuition (٥) Extroverts

والميالين الى العزلة والتفكير [١]، ولا بد للانسان من ان يحتل مقاماً بين غايتي الميلين . ويتصف اصحاب الميل الاول بحب الاجتماع وسهولة مصادقة الناس والاستيناس في المجتمعات وكثرة ارتياد الاندية ومحلات اللهو ، ويمتاز هؤلاء بقلة اكتراثهم لأمور الحياة ومشكلاتها، وهمهم ان يعيشوا يومهم دون ان يجهدوا انفسهم بالتفكير في غدهم وان يتبعوا نداء شهواتهم وانفعالاتهم مهما يكلفهم ذلك . واما اصحاب الصنف الثاني فلا يخالطون الناس الاَّ لماماً واذا ما خالطوهم فلا ينصرفون الى ذلك بكلياتهم، وهؤلاء ميالون الى التفكير في الأمور المتعلقة بانفسهم والى المطالعة والاشتغال الذهني. وهم اقل تقديراً للفن وللجمال من اولئك الميالين الى الاجتماع والظهور

وفي ابحاثهِ الجديدة هذب يونج كثيراً من نظريته القديمة وحاول تصنيف الناس بحسب الوظائف العقلية المارة الذكر . فهو يعتقد إن نزعات الافراد تتعين بتعيين نوع الوظيفة العقلية المتسلطة على عقولهم . فمن الناس من يكون خارجي التفكير — اي ميالاً الى التفكير في الامور الخارجة عن نفسه — ومنهم من يكون باطني التفكير اي من يقتصر على التفكير في الامور الخاصة بنفسه . وكذلك فيهم الخارجي الوجدان وفيهم الباطني الوجدان . ومثل هذا في الاحساس والبداهة . وبحسب ذلك يصنف يونج الناس ثمانية اصناف بدلاً من الصنفين القديمين . ومما يزيد في تعقيد نظريته الجديدة ان يونج يذهب الى ان الاشخاص الميالين الى النزوع الخارجي ميلاً شعوريًّا ميالون ايضاً الى النزوع الباطني ميلاً لاشعوريًّا والعكس بالعكس. وعندنا ان شخصيات فرويد ويونج تمثل كُـلاًّ من اولئك الخارجي التفكير والباطني التفكير أحسن تمثيل . فقد كان فرويد ينزع في جميع ابحاثه وافكاره منزعاً خارجيًّا بينما كان يونج يعاكسه في ذلك فينزع نزعة باطنية

وتختلف وجهة نظر يونج في الاضطرابات العقلية عن وجهة نظر استاذه ، لان فرويد يعزو هذه الاضطرابات الى أمور حدثت فيما مضى من حيـاة الانسان ولاسيما في الاعوام الاولى من حياته، بينما يعزو يونج اسبابها الى أمور تحدث في الزمن الحاضر من حياته. فمن رأيه ان اسباب الاضطرابات العقلية تعزى الى زيادة في نمو احدى الوظائف العقلية الاربع زيادة غير طبيعية . ولـكن يونج لم يستطع بعد تعليل اسباب عجز الوظائف العقلية التي أهمل اعماؤها، عن ارجاع العقليات المصابة بالاضطراب الى الحالة السوية بعد ان تنمو تلك الوظائف نموًّا كاملاً ، ولاسيما عند ما يبتلى الانسان بالانحطاط العقلي . ويعتقد يونج ولفيف من اتباعه ان الانحطاط العقلي نتيجة لوهن الافراد ولعجزهم عن مجابهة مشكلات الحياة ملتجئين في ذلك الى حالة يظنون فيها ان بها سلامتهم، تلك الحالة التي كان يلتجىء اليها الطفل عندما يكون

(١) Introverts

بين ذراعي امه او مرضعته ، فيصاب الافراد من جراء ذلك بالعمى او بالصمم اوبالشلل الجسمي. ويعزو بعض اتباع يونج الانحطاط العقلي الى تصورات وأوهام كامنة في اللاشعور الاجماعي فاذا ما ازدادت تلك التصورات والاوهام شدة أصيب الشخص بالجنون أو الخبل

نظريات ادلر

كان الدكتور الفرد ادلر [1] كزميله يونج من تلامذة فرويد الأولين ، ولكنه انشق عليه متخذاً لنفسه مدرسة فكرية خاصة تعرف بمدرسة « سيكولوجية الفرد » [2] . والحياة العقلية للافراد بحسب هذا المذهب النفسي الجديد ، ليست الا مظهراً منظماً لدافع حركي في النفس . ويدعو ادلر هذا الدافع الحركي « نموذج الحياة » [3] ومن رأيه ان هذا يختلف باختلاف الافراد. والاصل في جميع تلك النماذج ميل أساسي وجداني كامن في جميع الأفراد هو « الرغبة في السلطة ». فمظاهر هذه النزعة النفسية تبدو كثيراً في نماذج حياة الافراد على اختلافهم وتباينهم . أما الاختلافات الفردية فترجع الى عامل واحد فعال هو الشعور بالضعة . ويعزو ادلر أسباب ذلك الشعور الى شذوذ في الخلقة أو ضعف في البنية أو ارتباك في الاحوال المحيطة بالطفل في أعوامه الاولى . ومهما تكن الاسباب فان هذا الشعور ولاريب يغير كثيراً من المظهر الذي تظهر فيه رغبة الفرد في السلطة ، وهي تحاول دائماً اخفاء ما في الفرد من نقص واظهاره في مظهر من لا عيب فيه

وقد يوفق الانسان الى اخفاء ما فيه من عيوب او نقائص على نحو ما يفعل الطفل الضعيف البنية عندما يضاعف جهده في دراسته لينال حظا من التفوق المدرسي ونصيباً من التقدم العقلي . فيعوض بذلك ما ابتلي به من ضعف جسمي ومن نحافة في البنية . وفي كثير من الاحايين يخفق الفرد في عمل التعويض هذا فيعجز عن اخفاء نقصه واظهار كفاءته . وفي مثل هذا الحال ينزوي متخذاً لنفسه نموذجاً من نماذج الحياة ليسوغ لنفسه وان يحيط به من الناس اخفاقهُ وخيبته ، أو قد يستهدف لنفسه هدفاً خيالياً يتعذر الوصول اليه ، أو تتكون فيه عوارض ضعف عقلي فيتوهم أنه مريض ولولا مرضه هذا لكان النجاح في متناول يده . وهكذا يحاول الظهور على وجهٍ غير مباشر ، في مظهر الرفعة والسلطة كما انهُ يسعى دائماً الى استعطاف من حوله من الناس استعطافاً يجعلهم يشعرون معهُ بما مني بهِ من خيبة متجنباً بذلك مجابهة الواقع ومخفياً عن نفسهِ وعن معارفهِ خيبتهُ واخفاقهُ . وقد قال ادلر في كتابهِ — سيكولوجية الفرد ، تطبيقها ونظرياتها [4] — « ان جميع أنواع الاضطرابات العقلية وما

(١) Dr. Alfred Adler (٢) Individual Psychology (٣) Style of Life
(٤) The Practice & Theory of Individual Psychology

يصيب الانسان من حبوط لمظهر من مظاهر الشعور بالضعة والاعتقاد بالخيبة »

ومن أهم العوامل المحددة لطبيعة الشعور بالضعة المكيفة لنماذج حياة الافراد ما يأتي : الميل الجنسي وحالة الطفل الاقتصادية ومكانة الطفل بين اعضاء اسرته . فالناس يحاولون بشتى الطرق التأثير في بناتهم لجعلهن يشعرن بضعف منزلتهن في الحياة العامة بالقياس الى أولادهم. والوالد الذي يبيح لنفسه ما لا يبيحهُ لأولاده يجعلهم يشعرون بأنهُ أرفع منهم مقاماً وأكثر حقوقاً . ويذهب ادلر الى أن الرغبة في السلطة تجعل الافراد يجهدون أنفسهم للظهور بمظهر « الذكورة » فاذا ما تقدم بهم العمر استحال ذلك الجهد الى ما يسميه « احتجاج الذكورة » . ولهذه النزعة النفسية أثر كبير في الحياة الجنسية لأنها تدعو الرجل الى الهيام بالمرأة وتدعو المرأة الى الاستسلام للرجل . وهي التي جعلت الرجل يطلق على زميلتهِ في الحياة وصف « الجنس اللطيف » . وما من شك في ان الاخلاص الزوجي اعتراف الازواج بالمساواة بين الرجل والمرأة وصدودهم عن الرفعة التي يمنحها الرجل نفسهُ ويحرم المرأة اياها . اما في المرأة « فان احتجاج الذكورة » يقل ظهوراً عما هو في الرجل. ففي الغالب من النساء من تؤثر تلك النزعة في رغبتهن في السلطة تأثيراً غير مباشر فتجعلهن يعترفن بأنهن اقل مقاماً في الحياة من الرجل . ويقول احد دعاة سيكولوجية الفرد « ان النساء باعترافهن بسلطة الرجل يحاولن التخلص من مسؤوليات متعددة فيلقين مهام هذه الحياة وتبعاتها على عاتق ابناء الجنس الخشن »

ولا يؤمن ادلر بأن هناك اختلافات ظاهرة بين الفعاليات العقلية الشعورية واللاشعورية — تلك الاختلافات التي أقرها فرويد في تحليلهِ النفسي وقال بها يونج في علم النفس التحليلي . فهو يذهب الى ان الانسان أقل شعوراً بأفعاله العقلية الشعورية وأكثر شعوراً بأفعاله اللاشعورية . ومع ذلك فانه يقول إن الشعور بالضعة عمل لا شعوري أو فعل لا يحسهُ العقل . وخلاصة القول ان ادلر ينادي بوحدة العقل ويستنكر التقسيم الذي اتبعهُ كل من استاذه فرويد وزميلهِ يونج من قبل.

ويتضح لنا مما تقدم من البحث ان علم النفس التحليلي وسيكولوجية الفرد لا يختلفان احدهما عن الآخر فحسب بل يختلف كل منهما عن التحليل النفسي كذلك. ومع وجود الفروق البينة بين هذه النواحي الثلاث من نواحي علم النفس الحديث ومع ما فيها من نقائص وعيوب فان كلاً منها يقوم بنصيبهِ في دراسة الاضطرابات النفسية ومعالجتها . اما وانا قد اشرفنا على خاتمة البحث فلا بد لنا من السؤال عن اسباب الاختلاف بين وجهات علم النفس الحديث . ان الحقيقة التي لا غبار عليها هي ان علم النفس ما زال ابن يومه وان نظرياتهِ جديدة غير موطدة الاركان وفي حاجة ماسة الى الدرس والتمحيص. وبعبارة أخرى اننا ما زلنا بانتظار نيوتن علم النفس، اما فرويد ويونج وادلر فليسوا اكثر من روّاد هذا العلم الجديد

الأشعة السينية

في مصانع الحرب

نار مشبوبة في مصنع من مصانع تكرير النفط تلتهم الاخضر واليابس ، وتفتك بالخشب والحديد على السواء . ففي هذا المصنع يستخدم ضغطٌ عظيم لتحويل النفط الخام الى وقود سائل طيار يدفع الطائرات بسرعة الصوت تقريباً . وتحت تأثير هذا الضغط انقصمت قطعة من الآلة . واذا انفجار مروع ونار ملتهمة . وكان التدمير تامًّا فصهرت جميع القطع المعدنية ولم يبق منها ما يستدل به على سبب الكارثة . ولكن الشركة تملك مصانع أخرى كهذا المصنع ، وكارثة أخرى كهذه الكارثة لا تقوى الشركة على تحملها . فكيف تستطيع ان تجتنبها ؟ مضى المهندسون يبحثون ويمتحنون فلم يجدوا شيئاً غير طبيعي فيما فحصوه من أجزاء الآلات . وأخيراً ظنوا الظنون بعمود من الصلب . فقد كان يبدو متيناً، وكانوا امتحنوه بجميع أساليب الامتحان الطبيعية فلم يروا فيه مايشير الى شبهةٍ ما. على انهُ كان يشغل في قلب المعمل مقاماً ذا شأن عند ما وقع الانفجار . فقالوا اذا كان ثمة ضعف خفي فيه فهو كافٍ لاحداث النكبة . فقرروا ان يمتحنوا باطن عمود يقابلهُ في جزءٍ آخر من المصنع

كانت الطريقة المألوفة لامتحان باطن قضيب من الصلب ، ان تقطعه قطعاً ، أو تقده قدداً وتنظر فيها ، ولكن ما الفائدة من عمل من هذا القبيل . اذ بعد ان تستوثق من متانة بنائه الداخلي او ضعفه تكون قد دمرت القضيب وغدوت عاجزاً عن استعماله ثانية ، فهذه الطريقة في الامتحان ، انما هي كاشعال عود ثقاب لتعلم هل يشتعل أو لا يشتعل

ومهندسو هذه المعامل لم يرقهم هذا القطع والقد ، لأن العمود ثمين ولأن صنع آخر يقتضي وقتاً ، ومع ذلك فالقضيب الجديد قد يكون فيه ضعف داخلي ، فبعثوا بهِ الى احد معاهد الحكومة الاميركية ، وكان هذا المعهد يعتمد على الأشعه السينية ، في امتحان أجزاء الصلب في عربات المدافع . فعهد المدير الى أحد خبرائهِ في امتحان هذا العمود وبعد بضعة أيام أخرج لهِ صوراً صورّت بالأشعة ، فلما اطلع عليها المهندسون سرى في نفوسهم الهلع اذ رأوا فيها خطًّا أسود مارًّا في باطن العمود ، يدل — على قول الخبير — على وجود شرخ داخليٍّ شرخ في عمودٍ يجب ان يحتمل ضغطاً يقدَّر بمئات الاطنان بل بألوفها . كان هذا العمود مثار

ظنونهم ولكنهم لم يصدقوا ما أنبأتهم بهِ الصور حتى رأوا بعيونهم ، اذ قطعوا العمود قطعتين ، وهناك وجدوا الشرخ ، كما دلّت عليه الصور وبعد ذلك لم يسمح مهندسو الشركة بوضع قطعة من الصلب في مكان معرَّض لضغط شديد الاّ بعد امتحانها بالاشعة السينية

* * *

حدثت هذه الحادثة قبل سنوات . ولكن العلم في ميدان الاشعاع ارتقى ارتقاءً عظيماً في خلالها . ونشبت الحرب وتحولت الصناعة على الاكثر الى صنع ادواتها . فما تمَّ في مصنع النفط المتقدم الذكر ، يجب أن يعم تطبيقه في مصانع الطائرات والدبابات والمدافع وغيرها. والعلم لم يخذل الصناعة الحربية في هذا الميدان اذ صنع العلماءُ جهازاً يولد أشعة سينية طاقتها مليون فولط. وهو جهاز يسهل تنقيله من ناحية الى ناحية في مصنع ما. فالاعتماد الآن ليس على معهد حكومي . والاشعة التي يولـدها هذا الجهاز تخترق كتلاً من الحديد كثافتها بوصتان وترسم لباطنها صورة في لمحة ، واذا كانت الكثافة خمس بوصات استغرق أخذ الصورة بهذه الاشعة بضع ثوان ، واذا كانت ثماني بوصات استغرق العمل بضع دقائق وجميع هذه الصور تكشف عما في باطن كتل الحديد من شروخ اذا كان ثمة شروخ

فالأجزاء الاساسية مثلاً في مولدات الطاقة المحركة في السفن ، وما كان على شاكلتها ، تفحص هذا الفحص السريع الدقيق ، فتقي السفنَ تأثير انفجار في مولدات الطاقة فيها ، اذا كان من المحتمل نشوءُ ذلك الانفجار عن ضعف داخلي في تلك الأجزاء

ففي هذا الجهاز النقال ، تستخدم الأشعة السينية ، معواناً يصحُّ الاعتماد عليهِ في أعمال الحرب ، وهو يولد اشعاعاً تبلغ قوته قوة الاشعة المنقذفة من آلاف الغرامات من الراديوم ، ولكن هذا المقدار من الراديوم ثمنه ملايين من الدولارات ، بينما نفقة توليد الاشعة السينية لا يذكر

من ستٍّ وأربعين سنة كشف رنتجن الاشعة السينية،وكان ما يولد منها حينئذٍ ، ومدى سنوات بعد ذلك ، قليل الطاقة ، ضعيف النفاذ . واستعملت أولاً في الجراحة في استطلاع كسر في عظم، وفي طب الاسنان في الكشف عن علة خفية في ثنية او ضرس، وما أشبه. ثم من نحو عشرين سنة ، حوَّل الباحث الكهربي كولدج ، أسلوب استعمالها الى علم دقيق ، فلفتت ثمارها حينئذٍ ودخلت ميدان الصناعة

ومبدأ استعمالها في الصناعة ، ليس من كشف كولدج ، وان كان تقدم العلم قد أعانهُ وأعان غيرهُ من الباحثين والمهندسين الكهربيين على تحقيقهِ وضبطه،ولكنهُ يرجع الى رنتجن نفسه. فقد أشار في رسالتهِ الاولى عن هـذه الاشعة الى امكان استخدامها في الصناعة ، عندما وصف بعض الاجسام المعدنية التي صورها بهذه الاشعة ومنها قطعة من المعدن فتبين عدم

تجانس تركيبها الداخلي ، وهذا هو العمل الذي تنهض بهِ الاجهزة النقالة الحديثة ، في الدور الصناعية. والفرق انما هو، في قوة نفاذ الاشعة المولدة الآن وضبط استعمالها واستخراج النتائج الدقيقة من الصور التي تصوَّر بها . والاشعة السينية تولَّد من كهربات سريعة تخترق مجالاً كهربيًّا فتصطدم بهدفٍ ما، فيتحوَّل جانب من طاقتها اشعاعاً . وقدرة هذا الاشعاع على النفاذ، مرتبط بطول أمواج الأشعة السينية التي تتولد على هذا المنوال . وطول الأمواج مرتبط بمقدار الطاقة الكهربية المستعملة اصلاً في دفع الكهيربات بسرعة كبيرة . فالاشعة السينية التي طاقتها مليون ڤولط، في الجهاز النقال تتولد من كهيربات مندفعةٍ بسرعة تكاد تقرب من سرعة الضوء !

من النوادر التي تروى عن فائدة الاشعة السينية في هذا المضمار ، ان ذراعاً في طائرة جديدة انقصمت في احد الايام فردَّت مع طائرات اخرى صنعت في مصنع واحد . فأثبت البحث بالاشعة السينية ان الانقصام حدث في مكان منها حُفر فيه خطأً في اثناء الصنع، ثقب صغير ، فملئ صلباً وصقل صقلاً متقناً فعجزت عين الخبير عن تبينه . فأخذت جميع الاذرع المقابلة لهذه الذراع في الطائرات الاخرى وامتحنت بالاشعة السينية فثبت ان بعضها فيه مثل هذا الثقب المردوم بالصلب فبدلت جميعها منعاً لانقصامها في اثناء الطيران

وكتل الخشب تمتحن امتحان كتل الصلب . فثمة شقٌّ في دقل من الادقال، صقله الصانع بالسناذج فلم ينجلِ لعين الخبير ، فلما صوِّر الدقل بالاشعة السينية بدا الشقُّ خطًّا قاتماً في الصور فلم يستعمل الدقل في الغرض الذي صنع له . وقد يكون في كتل الخشب او الاعمدة مواطن ضعف أخرى تنشأ عن عقد مخفية او جيوب صمغية او ثقوب تنقرها الحشرات داخل الخشب . كل ذلك تبديهِ عين الأشعة النفاذة ولا يخفى عليها

واستعملت هذه الأشعة في اتقان وسائل اللحام الكهربي . فقد ظهر مثلاً انه اذا كانت قوة القوس الكهربية من رتبة معينة كان اللحام على أتمهِ فاذا كانت دون تلك الرتبة او فوقها ظهرت في مكان اللحام ثقوب ومسام داخلية تضعف لوح الفلز حيث يتصل بلوح آخر. وهذه الثقوب والمسام تكشف بالاشعة السينية . وقد مضى المهندسون في تصوير القضبان والالواح الملحومة لحاماً كهربيًّا، بواسطة قوى متفاوتة من ضوءِ القوس الكهربية حتى توصلوا الى درجة من الحرارة هي أوفق ما يكون ليكون اللحام على أتمه . وتتجلى قيمة هذا التقدم في قول نوكس وزير البحرية الأميركية ، عندما انزلت البارجة « الاباما» الى البحر من أيام . فقد أشار في خطبته الى ان اتقان وسائل اللحام الكهربي مكن المهندسين البحريين من توفير أطنان كثيرة من المسامير الكبيرة التي كانت تستعمل في ربط ألواح الصلب بعضها ببعض ووقتاً طويلاً وعملاً شاقًّا فصار في الوسع اختصار الامد اللازم لبناء بارجة من ثلاث سنوات على المعدل الى سنتين وشهرين تقريباً

هل الضمير الانساني

مبذول فردي أو اجتماعي ؟ (١)

لحسن صعب

« قد يتبادر لذهن القارىء من عنوان هذا الكتاب انه محاولة فلسفية تكشف عن جديد من اللغز الذي لايزال يقف عنده العقل البشري منذ بدأ يستكنه حقائق الاشياء ، ولكن الواقع انه محاولة تدور حول فكرة « ان الحياة ينبوع للطاقة متجه الى حفظ الحياة » ، ولئن لم يكن فيهذه الفكرة شيء من الجدة والابتكار ، فان غلبة النهج العلمي الايجابي ، وعمق البحث الاستقرائي في الموضوعات التي يعالجها الكتاب ، يجعله غريباً عن المحاولات الفلسفية الميتافيزيكية العقيمة ، ويكسبه واقعية تقربه من الابحاث النفسية الحديثة ؛ وتهيء له بأسلوبه الرائق البين ، في النفس هنيء القرار . وفي هذا الفصل الذي نترجمه من الكتاب ، يجد القارىء نموذجاً لابحاثه الممتعة في أحد الموضوعات الرئيسية للفكر البشري والحياة الانسانية ... » ح. ص.

— ١ —

اذا أردنا ان نعرف هل الضمير الانساني ، مبذول فردي او اجتماعي ، فلا بدَّ لنا ان ندرس الفرد ، وقد انعزل عمن حوله من البشر ، لنرى هل فكره يستطيع في هذه الحال ، ان يميز بين مبادىء الخير والشر . وهذه مسألة نظرية ولا شك ، لان كل ما نعرفه عن البشر الأوائل ، يدلنا على أنهم لم يحيوا حياة الانفراد ، ولو فرضنا انهُ كان لهم مثل هذه الحياة ، فانهُ يتعذر علينا ادراك المراحل التي انتهت بهم الى نظام الاجتماع

والآثار الأولى لما قبل التاريخ ، تدلنا على وجود حياة جمعية في ذلك العهد البعيد . واذا لم يكن الاجتماع أصل الحياة الانسانية ، فان ضرورة جمعية غير مدافعة ظهرت مبكرة على مسرح الحياة ، أفضت بالبشر اليه ، لتطالع بهِ حاجاتهم التي تزداد تعقيداً

فاذا كنا لا نستطيع الاستناد الى طور انفرادي للحياة الانسانية ، لنحكم على موقف الانسان المنفرد من مبادىء الخير والشر ، لم يبق أمامنا سوى المنطق المجرد سبيلاً لحل المسألة

إن كل ما اوردناه في القسم الثاني من كتابنا ينزع الى البرهنة على أن الانسان الذي سل نفسه من كل عروة اجتماعية ، يتساءل في وحدتهِ عن الشيء الذي قد يعضد انتشار قوتهِ الحيوية أو يعوقهُ . ولا يتعدَّى اهتمامه هذا السؤال . وكذلك يسعى الى أن ينسج توافقاً بين ملكاتهِ المتنوعة ، ليبلغ بها أقصى ما تؤتيه من جعْل ولأن ينوّع صور نشاطهِ لكي ينمي من قدرتهِ . فاذا تساءلنا بعد ذلك : —

(١) La conscience est elle une donnée individuelle ou sociale ?
Essai d'une definition de la vie. Par Jeanne Boyer

هل يقف الانسان في هذه الحال جهوده على ارضاء حاجاته فلا يتعداها ، فتنشأ عن هذا قاعدة اخلاقية اساسها أن لا يقتل ، وأن لا يدمر للذة ، وأن لا يقترف القتل والتدمير الا في دائرة الأمالي [1] الحيوية ؟ قلنا :

ان هذا لعسير ! لان كل واحد منا لا يستنفد ما وفر من جهوده فيما تتطلبه ضرورات الواقع فحسب ... وهذه ظاهرة أكثر ما تبين لدى الكائنات الشابة التي أوتيت فيضاً من الطاقة ، فنراها تبدد من قدرتها السدى ، في سبل ، ليست من المنفعة في شيء

ومن هنا يظهر لنا النشاط الانساني وكأنه متنازع بين طرفين . فيتحرك نحو الطرف الاول ، ليرضي أمالي الحياة ، متجاوزاً مدى قواه ويتحرك في اتجاه الطرف الثاني ليستخدم القوى الكامنة فيه ، مخترقاً نطاق الامالي الراضية ... وفي حدود الحركة بين هذين الطرفين تتكون القوانين . ولكنها تكون قوانين للسلامة الذاتية لا قوانين جبرية سلوكية . ولا تصدر عنها الموانع ، ولا ترد منها المواثع ، (الا باسم هذه السلامة) فاذا كانت كذلك فانها لن تستطيع احاطة بالفعل المقبل الا بقدر ما تنبيء عن أمالي المستقبل . ولن نعترض بروادعها ، ولن تثبت من ملزماتها الا اذا جاوزت النظر في قيمة الفعل في ذاته ، الى النظر في تأثيره في الكائن الذي يحافظ على نفسه بانتصاره على وسطه . واذا ما انساق النشاط الانساني بطبيعته الى منتهى جهده فان حفظ النفس بالانتصار على الوسط لا يقيم دونه أيّا من العثرات او الحدود

ولابد لنا أن نعترف بأن بعض الخصائص النفسية لا تنمو لدى الفرد المنفرد المنعزل ، لأن من صور الحياة ما ستنعدم منه المنفعة ، وما سيزول معناه في حال الانفراد ، فلا ينصب فيه النزوع الحيوي. فلا يتصور مثلاً وجود الحسد ويختفي ذلك النزوع الرائع الى فضيلة الاحسان الرفيعة التي ينشر بها الانسان ، ما كمن فيه من حب الحياة على جميع المخلوقات . وكذلك فان من الخصائص ما يزداد نمواً لدى الفرد المنعزل

فنرى ان الميل الطبيعي لكفت المنافع، قد تمكن منه ، فتكون هذه المدخرات له عوناً اذا دقت ساعة العوز ، ويصعد من مرحلة الادخار الى البخل المجرد البسيط. ولقد سبق ان أوضحنا آلية هذه الوصمة في الانسان، حينما قلنا إنها اللذة التي يحسها النوع في استملاك شيء ذاتي له

وانه لمن العسير علينا ان نكثر من الامثال ... فالشره، والشجاعة ، والنذالة ، أوتيت جميعها بدقة معنى فرديّا . والصعوبة التي أخذنا في تذليلها ، هي ان نتبين حكم الفرد الذي اعتزل البشر ، على هذه الخصائص ، سواء أرذائل عددناها أم فضائل ، وان نستكنه نظره

(١) اخترنا ترجمة لكلمة exigences كلمة الامالي

اليها ، وقد عبَّرت عن وجودها في نفسه او قد نزعت الى هذا التعبير ...

والحق أننا لا ندري أي طريق يسلك الى هذا التصنيف ... ولعله يخلص اليه من حكمه على ذاته وعلى قيمة أفعاله ... ولكن كل حكم من هذا النوع يقتضي مقارنة خفية بين ماهو كائن وبين ما يجب ان يكون . وليس الواقع هو الذي يمنح بالضرورة الحد الثاني من المقارنة بل أنهُ لمن الاصح ان يكون تصوراً فكريّاً نحوزه بالطرق المألوفة للتجريد الفكري والتعميم بعد ان نعيّن متوسطاً، أي نقطة للتوازن بين الخطوط المتباعدة التي تحدث هنا وهنالك مهما تتكاثف درجاتها ...

ولسوف ينتهي هذا الكائن الذي فرضنا عزلتهُ بأن يعي قوته ووجهة نشاطه. ولسوف يكون لفكرة «الحفظ» في نفسه وجود مستقل، أعني انه سيتخذ للسلوك من القوانين مايوافق الامالي التي أقرتهُ عليها فكرة الحفظ الواعية . ومع ذلك فسيتعذر عليهِ ان يدرك انهُ في حدود النشاط الطبيعي، او ان واحداً من ميوله الفطرية جمح بهِ بعيداً عنها ... أضف الى ذلك —وهذا كل مايعنينا في الموضوع— انه لن يستطيع لهذه الميول تصنيفاً على أساس مبدأ الخير والشر . وهذا ما يحملنا على ان نقر أنهُ انما ألهم هذا التصنيف ، فتستحيل علينا البرهنة على ذلك ، لانهُ ليس من سبيل سوى النظر المجرد لمعالجة الموضوع ، ولاننا لا نبصر في الميدان الفردي علاقةً ما بين الضمير وفكرة الحفظ . وقبل ان نجزم بصحة هذا الفرض او فساده يحسن بنا ان نبحث المعنى الاجتماعي لوجود الضمير

— ٢ —

ذكرنا ان ما خلفهُ الانسان الاول من آثار الحياة ، أسفر عن حياة جمعية معقدة . على أننا لا ندري كيف ابتدأ الاصل التكويني للقبيلة الاولى ، لاننا لا نستطيع ان نختار بين الرأي القائل بأن الامومة بما وثقته من طبيعي الصلات ، كانت هي الاصل ، وبين الرأي الذي يرجعه الى حلف التعاضد بين فئة من الرجال . فلا نجد بدًّا من التساؤل ؟ ما هي القواعد التي استوت عليها ، في القبيلة الاولى ، حقوق كل فرد وواجباته ؟ لاننا اذا أوغلنا في تاريخ الانسان الاول ، تبدَّى لنا تنظيم اجتماعي يساوره التعقيد ! فمن أدوات تسد ما اختلف من الحاجات ، الى أسلحة ، الى آثار مثوى Foyer يتفجر من ينبوعه الرائع الدفء والحياة ، وتردد في ظلال زواياه ، مخاوف ما مَتَّع من تلك الليالي الرهيبة . وحسبنا كل هذه دلائل تنطق بالتنظيم البدائي . ومن هذه الدلائل، تمتد مراحل تطور ينزع الى أن يعقد على الدوام من ذلك التنظيم . ويلوح التعقيد في جميع الميادين ، وتلاحظ له أرجاع متواصلة من كل

ميدان على الآخر . فيتجلى في السياسة في تنسيق الحريات الفردية ، ونرى الروابط الشخصية ، وكلّ ما تنبت فيهِ بذور القانون الخاص ، وكل ما يتألف منهُ فيما بعد ، يخضع لقوانين تزداد دقة يوماً بعد يوم . ويظهر في توسيع نطاق الحياة الاقتصادية ، الانتاجية منها والتوزيعية ، لمبدأ العوز ، وسعيها المتواصل لاستكمال ما يجد فيهِ من حاجات

ولا سبيل إلى إنكار أن هذا الخلق المتواصل ، تعبير عن الحياة الفوّازة ، وهي تدخل بتيارها المتسلط في كل شيء ، وتدفع الانسان والمجتمع بالجهد والألم ، إلى بذل اقصى ما يستطيعان ... على ان الشكل الاجتماعي قد نزع قبل ان ينتهي الى هذا الامتداد والتعقيد ، الى تكفل السلامة لكل من اعضاء المجتمع . وكانت قوة البشر رهينة العدد ، قبلّ ان يتنوع الجهد ويقسم العمل وتنمى الوسائل

وقد كان الاندثار نصيب كل عائق لتكوّن هذا النظام الاجتماعي الحميد . واذا كانت فائدة الفرد منهُ محتمة ، فلا مردّ له من تسهيل ذلك التكوّن . فاذا أقررنا بهذا الموقف المشجع من الفرد تساءلنا : « أليس الضمير ، او تلك القدرة التي ميز بها الانسان بين الخير والشر ، بدون ان يفكر او يعقل » متمثلاً في تحقيق هذا الشرط الاساسي لتكون النظام الاجتماعي؟ وفي الجواب عن هذا السؤال ، لا نستطيع الاّ الاعتماد على اشد الكلام اتصالاً بالواقع ....

فقد آثرت الحياة الجمعية — كما سبق ان ذكرنا — الانسان منذ البدء بنعمائها ، حينما حلّت له مشكلة الدفاع عن نفسه . وإننا لنستطيع ان نتصور غير مترددين حياة القبيلة الاولى متمركزة حول المثوى في ساعات الدعة وان كل فرد راغب بان تنعم روحه بهذه الدعة ، وليس من بيئتهِ من يهدد سلامته ، فأحوجته هذه الرغبة الى التيقن بان حياته بمنجاة من خطر رفاقه الذين يعيشون معهُ ، وان له ان يستجم بعدما بذل في الصيد من جهد ، وليس من جيرانه من يتوعده ، وان يسكن لسبات الليل ، وليس حوله من يترصد منهُ غفلة ليفتك بهِ . لكل هذا يتطلع لكي يطمئن الى الحياة

وليس من سبيل لهذا الاطمئنان إلاّ اذا رسخت في جميع النفوس قداسة حياة الشعب والاّ اذا استقرّ في روح كل فرد ذلك الامر المطلق : « انك لن تقتل ... » إنك لن تقتل وإن فوق المنافسات ونزعات الانتقام صوتاً مدوّياً يناديك ويحتم عليك ان تحترم الحياة ...

واذا أرجعنا البصر الى مثل آخر ألفينا — كما سبق ان اشرنا الى ذلك — ان نماء الوسائل إذ هيأ للانسان أن ينظم في الميدان الاقتصادي توزيع العمل ، أثار في الوقت ذاته مباراة مستحرة بين رغباته وبين ما يعده لمرضاتها

ولقد نشأت من هذا الوضع الاقتصادي ، مبادلات من المصالح والخدمات بين البشر ،

توسطت فيها النقود أو لم تتوسط. ودخل عنصر ذاتي في هذه المبادلات. ذلك بان الانسان يطمع في ان يرضي من ورائها رغبة من رغباته. ولاغنى لهذه الرغبة عن وجود شعور في نفسه بان ما يمنحهُ وما يناله ستعادلان. واذا كانت المفاوضات طريق هذه المبادلات، فقد يتعذر ان تتضح جميع وجوهها في إجراء واحد نهائي، وأن يشمل العقد تفاصيلها جميعاً، فيبرم العقد ويظل بعض التفاصيل أمانة في فكر المتعاقدين. وهذه الاسباب جميعاً تتطلب نية صادقة. وتجعل السداد بالاتفاقات، مرتبطاً بالنزوع الى الوفاء او الاخلاف في ارادة المدين. وكلما أثار تعاقب الزمان على العقد من الظنون، تاق كل من المتعاقدين الى تجديد ثقته بان من اتخذه له غريماً لن ينكث له عهداً

ولقد أملى الوضع الاقتصادي قوانين التعاقد بين متبادلي المصالح، ولكن المعاملات لم تكن لتستقيم على أساسها، الاّ اذا وقر في نفس كل فرد، ان للعهد حرمة عند الجميع، وان الخيانة ونكث العهود شر وبيل. وسواء اراد قوم او ابى آخرون، فليس غير هذا من سبيل لقيام المعاملات وليس من جدوى لسن العقوبات وسيادة الحذر، ان لم يكن لها صدى في روح أكثرية المتعاقدين، وان لم تتجاوب في نفوسهم، مع فكرة غريزية، بأن تلك القوانين ضرورة لازبة لنشاطهم الاقتصادي. وان الانسان الذي آمن بان هذه القوانين صورة تجردها فكرهُ او أحس انها تصدر عن مجموعة الظواهر الاقتصادية هو الوحيد الذي يستجيب لمزماتها وتتمكن منهُ الخشية من عقوباتها، ويذعن لسلطتها التامة

إن الحياة الاجتماعية لا تنمو الاّ في جو من الثقة. وتتجلى هذه الثقة في نفس كل فرد اذا ما أمرتهُ ان يفعل شيئاً ما او نهته عنهُ لئلاّ يصدّع من سلطانها. ولقد آثر فكرنا الحي ذلك العهد الذي يعلن به الانسان عن ارادته، في حالات جوهرية او صورية خاصة، لينشر به هذه الثقة. ونستطيع أن نقول مثل هذا عن الحد الادنى من الامان الذي ينزل عنه أحدنا لجاره لان ساكن روما لا مندوحة له عن أن يمرّ في الشارع، مطمئناً أن ليس من حصاة تستهدفه من أي منزل أو من وراء أي جدار وأن لنا ان نبتغي اجتياز الشوارع آمنين أن السيارات لن تسحقنا

على أن تنفيذ هذه الاغراض يثير صعوبات فقهية. ويستنجزنا تحديد مشكلة أساس التبعة. ولكن هذا الطرف من الموضوع لا يعنينا الآن، ولسنا نبحثه الاّ من حيث يتعلق بالضمير اي بالشعور الطبيعي بالخير والشر. واننا لا نريد الآن دراسة التبعة من حيث أنها نظرية فقهية ولكن من حيث أنها شعور بأننا مسؤولون عما إتيناه من افعال. حتى اذا ما صدرت عنا تملكنا شعور معنوي بان بيننا وبين نتائجها نسباً. ولكننا لا نقدم عليها قبل ان نقيس نتائجها الممكنة، وان نتردد برهة، نستنفد فيها من الروية والحذر ما يثبت لنا بان المجتمع لن ينال

منها قلقاً . وليست الروية وقد آثرناها ، والحذر وقد استسلمنا له ، ينتهيان بالردع أبداً فيزينان لنا دائماً « لن تقتلوا ... ولن تسرقوا ... ولن تنكثوا ما عقدتم من عهود ... » ولكن صوتاً آمراً ينبعث منهما في بعض الاحيان ، صارخاً ، «ذروا الاسراف والمغالاة... وتصرفوا في شؤونكم باحتراس» ! ولئن حتم علينا القدر او الضعف ذات مرة ، ان لا نأتلي ما ساء من النتائج لسارع الينا وخز الضمير قبل ان نحاول التقويم ، واذا ما هان علينا هذا الوخز ، فاننا راغمون على تحمل السوء الذي انتابنا من القدر او من ضعفنا

ولقد كان شعور كل منا بمحاسن الحياة الاجتماعية ، يقتضيه ان يذعن لواجب معنوي ، فلا يبغي الى اقلاق الثقة الجمعية سبيلاً وانما يسعى لأن يقوم الحيف الذي قد يصيبها من الآخرين ، وليس هـذا الواجب المعنوي الاّ الضمير . واننا لننتقل بنظرية ليفي برول Lévy Bruhl من ميدان القانون ، الى ميدان الاخلاق ، حيث تبدو لنا أقوم قيلاً . فاذا كانت هذه النظرية تتحدث عن الثقة ، فانهُ لمن السخرية ، ان نخص بها ميدان القضاء الذي لا يَكُفُ بغير الحالات التي امتهنت فيها الثقة الجمعية

ولسنا نأمن من يعترض علينا بأن الحديث عن الخير والشر على أنهما تلقائيان في قلب الانسان عجيب ... فما أكثر الامثلة التي تشهد بانتصار الشر ، وما أكثر الحالات التي أغرى الضعف الانسان فيها فاستكان ، وما أكثر ما لاح لنا توازن المصالح ، وقد اضطرب في صالح فئة من الناس . ولكننا نجيب بان مبذولات الوعي أكسبت المجتمع موقفاً طبيعيًّا دفاعيًّا ، كما بينا ذلك ، فنشزت عنهُ نفوس أوتيت من الكثافة ما حجب عنها تلك الامالي الاجتماعية ، فما استقامت لها فكرة دقيقة عنها ، وطغى تطرف مضاد بفئة ثانية من الناس ، فاندفعت بهم مآربهم الخاصة في استغلال اولئك

ولم يسبق لنا ان زعمنا بأن هذه الملكة التي وقرت فينا لتمييز الخير والشر ، مدتنا بها ارادة قديرة على ان تفرض الفعل او ان تمسكه . واجتنبنا في كل بحثنا كلمة قوة ، وأبدلناها مختارين بكلمات الشعور والتوقف والتردد . اذ انهُ ليس من شأن الضمير الاّ ان يقدم الايعاز الثبت ، لأنهُ ليس تلك الطاقة التي تنصب في الفعل ، وتمنحه السلطة ، وتحدد منه الاتجاه . ولكنه ذلك الدليل الذي يقف بنا عند مفترق الطرق ، فيهدينا سواء السبيل ، غير مكترث للقوى السيئة التي تزين لنا ان لا نستسيغ هداه . . . وفي الوقت الذي تزدحم فيهِ الدوافع والمحركات ، لا يكون الضمير غير عنصر الاعتدال . . . تلك هي مهمة الضمير . ولئن أبان للانسان الصراط المستقيم ، فانهُ علق في جيد من حاد عنهُ تبعة ما أتاه . . .

ثبت عندنا مما سلف ان الضمير مبذول اجتماعي اساسي ، وانهُ يترجم في نفس كل منا رضاه عن أمالي الحياة العامة واحترامه إيَّاها . ولكن هذه الامالي تتغير مع الزمان ، وتتكيف مع

ضرورات ما يُغذّ من تعقيد اجتماعي . وان الضمير ليعيّن في وقت ما ، حدود ما يمكن او يستحيل معهُ تكوّن الحياة الجمعية . إنهُ قاعدة أساسية لها ، وان الاكثرية تنظر بعين الاستنكار الى الظروف التي لا يبرز فيها من سلطانهِ

ولقد أراد البشر من الضمير وقد تمثّل فيهِ بمنتهى البساطة قانون منبثق من الواقع الاجتماعي ان تتبلور فيهِ حقيقة صلبة خالدة لا ينالها التغيير ، ولكننا ننظر الى الحياة على انها تيار ينساب في طول خط التطور ، وعلى انها قوة تغذي جهازاً كاملاً ، فتوفق بين وظائفه ، وتوجههُ نحو هدف أوحد ، ذلك الهدف هو : تفتّح الفرد ، وتقدّم الجنس . وان ما أراده البشر يختلف عن مثل هذه النظرة الى الحياة . فلئن كان الضمير ذلك التعبير التلقائي في نفس كل فرد منا عن الضرورة الاجتماعية ، فلا بدَّ ان يؤثر فيهِ على كرّ العصور ، تجدد الاماني الاجتماعية ، وهي تنزع دائماً نحو التعقيد المتنامي للوسط . والحق اننا نلمس ان قوانينه تكيفت مع الزمان والمكان ، فلم تكن واحدة على الدوام . ولكن الضمير انتصب عند حدود الامكان ، فلم يكن له ان يتطاول الى كثرة من التفاصيل والدقائق ، ولقد وافق التطور فتصاعدت قوانينه في سلم الفهم والوضوح ولكنها تحامت سلم التفصيل والتدقيق . فخلف واجب احترام الحياة الانسانية ، واجب احترام أفراد القبيلة ، حينما أخذ يتمكن الشعور بالترابط بين الناس وأخصب التعاون بينهم واستبدلت تلك القاعدة القديمة : « لن تسرق » بفكرة عامة جديدة للشرف ، أناخت بأفعال اللصوصية ، وبكل ما يساورها من عمليات . والأمثلة متعددة على ذلك

وانهُ لمن الخطإ ان ندعي ان القوانين البدائية احتوت بالقوة كلّ ما تتألف منهُ قوانين اليوم ، لأن هذا الادعاء رجعة الى ذلك اللاتغيير الذي سبق ان اشرنا اليه . فان مبدأ وجود هذه القوانين اقتضاها ان تتطور ، وان تتمدد فتوسع من نتائجها لتوافق بها ، ما يتجدد من الأماني . فالخلق متواصل في المجتمع . واذا كانت قوانين الضمير تتابع هذا الخلق ، فكيف يكون لها ، ان تحتوي في بداءتها ما اسبغته عليها فيما بعد القرون المتعاقبة ؟ ولقد رأينا ان انتصار فكرة ازلية في الميدان الاجتماعي والفردي هو الذي تحكم في هذا الخلق . تلك فكرة « الحفظ » وقد اتجهت اتجاهاً بيناً ، صاحبه الاحترام دائماً . وليس الضمير الاّ واحدة من الوسائل التي هيأت لهذه الفكرة الانتصار حينما مكنت وخلدت التكوينات الجمعية . ولقد استقرت في هذه الفكرة حقيقة أبدية واحدة ، هي ان تستلهم في صور متنوعة ، ما تأصل في الحياة من ارادة الديمومة والصيرورة

وهكذا تجاوز فكرة « الحفظ » مبادىء الخير والشر ، وتوافق بين الواجبات الخلقية ، وما تعدد من واجبات الحياة التي تحدثنا عنها في الاقسام السابقة

التسمم الغذائي

للدكتور عبده رزق

١ — التسمم باللحوم والبقول المحفوظة

تظهر أحياناً، ولا سيما في الصيف، اصابات تسمم مردها الى تناول اللحوم أو البقول المحفوظة في آنية «صفيح»(١) او زجاج مسدودة ولكنها غير معقمة تعقيماً كافياً، أو الى فطائر محشوة باللحوم الفاسدة ومنها لحوم الخنازير والسجق (المقانق) المستحضر من دم مشكوك في طراوته

وفساد هذه الأطعمة والتسمم الذي ينشأ عنها سببهُ وجود عصية تسمى «عصية البتوليك» Bacille botullique : وهي مكروب يفرز في الاطعمة المشار اليها سمًّا مخيفاً يقتل المريض دون ان يؤثر في وعيه او صفاء ذهنه، ويسمى هذا النوع من التسمم بتولزم Botullisme او التسمم الذي ينشأ عن أكل اللحوم والسجق وغيرها من الأطعمة المحفوظة

وبين الاطباء الذين استرعى انتباههم حدوث اصابات من هذا القبيل، مَن ذهب مأسوفاً عليهِ ضحية العلم في أحوال تبعث على الالم والفجيعة معاً. ومنهم الدكتور بيير ماري أحد أطباء معهد باستور في باريس. فبينما كان هذا الشاب العالم متفرغاً في مختبره للبحث والتنقيب في العوامل والاسباب التي تؤدي الى حدوث تلك التسممات، وسعياً الى كشف المصل الفعّال الضاد لباشلّس البتولين، واذا بذرة من رشح هذا المكروب تطفر في عينه اليسرى. فلم يأبه وقتئذٍ لعظم الخطر الذي يهددهُ فلم تلبث اعراض التسمم حتى ظهرت عليه فتجلد ولبث خمسة عشر يوماً يتتبع بنفسه سير اعراض الداء المريع في جسمهِ وهي: انحطاط عام وشلل الانعكاسات وتهيج العين وارتخاء الجفنين العلويين وشلل مختلف معظمهُ في منطقة الاعصاب القحفية مع صعوبة التكلم واختناق الصوت. وأخيراً قضى هذا الطبيب نحبهُ فكانت خسارة العلم به فادحة

وأول من كشف باشلّس البتولين من حيث هو مسبب للتسممات الغذائية المشار اليها هو فان ارمنجن Van Ermengen وذلك في عام ١٨٩٥، وقد عثر عليهِ كذلك في الجبن والزيتون مثلما عثر عليهِ في اللحوم المحفوظة في أواني «الصفيح». وهو عصية كبيرة طولها ٤ — ٨ اجزاء من المليمتر، ومن مزاياه انهُ يعيش من غير هواء ويعايش مع المكروبات

(١) اللفظ الشائع لعلب مصنوعة من صفائح حديد مطلية بالقصدير لمنع الصدأ

الهوائية وفي سائل قلوي او مائل قليلاً الى الحموضة . ثم انهُ ينمو عندما تكون الحرارة ٣٧ درجة مئوية ويبقى حيًّا عندما تكون الحرارة ٨٠ درجة مئوية ، ويموت عندما تبلغ الحرارة ١٠٠ درجة مئوية بعد نصف ساعة او ساعة على الاكثر . ويسهل استنباته او تربيته في المعامل البكتريولوجية (الحرارة ٢٢° — ٢٤°) على الهلام (الجلاتين) مع الغليكوز (سكر العنب) فتتولد مستعمرات مستديرة سمرٌ او صفرٌ شفافة. وهو يفرز كما قلنا سمًّا قويًّا مشابهاً للسم الذي يفرزه باشلس الخناق (دفتريا) . أما المكروب نفسه فلا يسم الانسان او الحيوان انما سمه الذي يتكوَّن في الطعام المحفوظ هو الذي ينشأ عنهُ التسمم

أعراضه : تبدو أعراض التسمم الغذائي بعد انقضاء ١٢ ساعة الى ٢٤ ساعة ، وأحياناً بعد انقضاء بضعة أيام على تناول الاطعمة المحفوظة الفاسدة . فيشعر المصاب بأوجاع حادة في أعلى المعدة وقبض شديد مستعص ويتقيأ مواد غذائية او صفراوية أولاً تتلوها مواد سود لزجة . ويعتري المصاب أيضاً دوار وضباب على العينين وشلل في بعض أنحاء الجسم وينتهي الأمر أخيراً بالعمى . وقد يصحب هذه الاعراض أحياناً حمى مستديمة وتضخم الطحال واضطراب النبض وظهور نفط وردية اللون على سطح الجلد . وفي أحيان أخرى لا يلاحظ وجود عرض من هذه الاعراض الاخيرة على المصاب

العلاج : عند ما تظهر العلامة الاولى من علامات التسمم الغذائي يجب المبادرة الى تنظيف القناة الهضمية وذلك باجراء الغسول للمعدة ان كان ذلك مستطاعاً، واعطاء المصاب مسهلاً من كبريتات الصودا او ماءً معدنيًّا مثل فيلا كابرا . ويعطى بعد ذلك بعض مستحضرات الحديد او الكينا مع الحديد وخصوصاً الزرنيخ بحسب ما يستحسنهُ الطبيب . ولا بدّ ايضاً من استعمال بعض المطهرات للجهاز الهضمي مثل البنزنفتول او الزئبق الحلو . ويفيد كذلك اعطاء مقادير وافرة من بعض الحشائش والبذور المدرة للبول

وقد اشاروا باستعمال المصل المضاد لهذا المكروب غير ان هذا المصل لا يفي تماماً بالغرض المطلوب في ازالة خطر التسمم على ما ظهر من التجارب العديدة حتى الآن . ولا بدّ من ادخال التحسين اللازم في تحضيره واستعماله ليأتي بالفائدة المبتغاة

اما طريقة الوقاية من هذا التسمم فتنحصر في اتباع القواعد الصحية الدقيقة من ناحية الطعام ، وتجنب استعمال الفطائر والقانق المحشوة باللحوم ما لم تكن هذه طازجة ومستحضرة حديثاً . وكذلك اللحوم او البقول المحفوظة التي طعمها رديء او التي يشتبه برائحتها والقائها مع النفاية والقمامة واخيراً يقتضي عدم الاحتفاظ باي نوع من الاطعمة بعد استعمال بعضها في ايام الصيف الحارة ، ولا سيما علب الاطعمة المفتوحة . واجتناب التسمم أسهل من مكافحته ، والوقاية كما يقولون خير من العلاج

٢ — التسمم بالفطر[1] (الكمأة)

برغم التنبيهات المتكررة لا تزال حوادث التسمم بالفطر كثيراً جداً حتى لتحصى بالمئات سنوياً . وهذه الحوادث بعضها يكون قاتلاً والبعض الآخر يسبب اضطرابات هضمية لا غير

وكثرة اصابات التسمم بالفطر تعود الى عاملين مهمين . أولاً — أن كثيرين من الناس يعتقدون انهم يعرفون نوع الفطر ويؤكدون للسامعين انهم لا يخطئون في ذلك وانهُ في وسعهم أن يميزوا تماماً بين الجنس الصالح والجنس الرديء منهُ .والواقع ان « المعرفة » التي يدعيها هؤلاء لا تستند الاَّ إلى معلومات مبهمة فيثق الجمهور بهم وبكلامهم ثقة عمياء وتنشأ عن ذلك حوادث التسمم في بعض الاحيان .

وثانياً — يعتقد الناس خطأً ان طرق تحضير الفطر أو طهيهِ كافية لتجعله صالحاً للاكل — مع ان هذا الفطر يكون مضرًّا بل سامًّا اذا تناول الانسان مقداراً قليلاً جدًّا منهُ .فمنهم من يؤكد لك مثلاً ان الفطر الصغير هو دائماً من النوع الجيد . وهذا خطأ لان فطر الانواع القاتلة يكون صغيراً وكبير الحجم على السواء وبغير فرق . وآخرون يؤكدون لك ان الفطر الابيض هو النوع الصالح دائماً للاكل . وهذا أيضاً خطأ محض لأن بين الفطر الابيض ما هو أشد خطراً من سواه ، وهناك أنواعٌ أخرى لونها غير أبيض ومع ذلك فهي جيدة ولا خطر من تناولها

وهناك من يزعم ايضاً ان الفطر السامّ يكون ذا رائحة كريهة .وهذا خطأ ثالث.ولا ينكر ان لبعض انواع الفطر رائحة كريهة غير انهُ لا يخطر لأحد أن يتناول من هذه الأنواع . ثم ان اغلب هذه الانواع حتى الصالحة منها للطعام ، ذات رائحة خاصة ، تافهة ولا لذة لها وهي تذكرنا برائحة العفونة التي تطالعنا في الاقبية الرطبة . ومن ناحية اخرى نرى بين الفطر السام ما تكون رائحته طيبة حتى ولو كان صغيراً . ولهذا لا يمكننا الحكم على ما لرائحة الفطر من التأثير الخاص في جودة نوعهِ او رداءته . وآخرون نسمعهم يقولون ان الفطر الذي ينمو في المروج والحقول هو النوع الجيد الصالح للاكل . وهذا خطأ كبير ايضاً لاننا نرى انواعاً مميتة منهُ تنمو ايضاً في هذه الأماكن كالانواع الجيدة بدون فرق . وفئة اخرى من الناس تقول ان الفطر الصلب ذا القشر اليابس أفضل من سواه ولا خطر في استعماله . وهذا لا صحة له ايضاً . هناك انواع اخرى صلبة وقشرها خشن يابس ومع ذلك فهي سامة

ويزعم بعضهم اخيراً ان الفطر الجيد هو الذي يبقى محتفظاً بلونهِ عندما يُقطَّع قطعاً صغيرة . والواقع ان ليس للون ، ولا سيما اللون الخارجي ، شأن يذكر من هذه الناحية لان الطر او صغر الفطر او قدمه تحدث فيه تغييراً كبيراً

نستخلص مما تقدم انهُ لا تعرف طريقة تجريبية تمكننا من التمييز فعلاً بين الفطر السام

(١) والفطر والفُطُر أيضاً ضرب من الكمأة أبيض عظيم قتال الواحدة فطرة (محيط المحيط)

والفطر الجيد ، ولا وسيلة ما في تحضير الطعام تزيل الخواص السامة من بعض أنواعه .
فالطريقة الوحيدة للمولعين بأكل هذا النبات هي أن يلاحظوا بانتباه واحدة فواحدة جميع النماذج التي يقطفونها أو التي يشترونها ، وان يستوثقوا من انها من النوع الذي يعرفونه صالحاً للاكل وألاّ يستعملوا الانواع الأخرى التي يجهلونها دفعاً لحوادث التسمم المشار اليها

أصل التسمم بالفطر : يختلف هذا بحسب نوع الفطر وهل هو من النوع القاتل أو النوع الخطر فقط. ففي الحالة الأولى يتكوّن السم من مادة قريبة الشبه بسموم المكروبات الأخرى وهذه المادة تسمى «فالين» Phalline وهي تتلف كريات الدم الحمر فيكفي مثلاً ٣٢ مليغراماً منها للقضاء على رجل متوسط السن. أما في الحالة الثانية (وهي الخطرة فقط) فيطلق على السم اسم «موسكارين» Muscarine ويكون هذا أخف تأثيراً من الأول اذ ان حوادث التسمم به تكون غالباً قابلة الشفاء

اعراضه : اذا كان الفطر من النوع غير المميت أو القاتل فظهور الأعراض يكون سريعاً ومدة الحضانة لا تزيد عن الساعتين . ويبدأ ذلك بحدوث القيء والاسهال وبطء ضربات القلب والهذيان واتساع الحدقتين وانقطاع البول . وينتهي الأمر اخيراً بالشفاء بعد حدوث اصابة التسمم بيوم واحد الى يومين . اما في نوع الفطر القاتل فظهور اعراض التسمم يكون بطيئاً (نحو ١٢ ساعة بعد الطعام) فيشعر المصاب بآلام حادة في اعلى المعدة مصحوبة بالقيء والاسهال والانحطاط العصبي الشديد وتضخم الكبد وقلة البول وجفاف الحلق مع احتراقه والعرق البارد والخدر والاغماء. واخيراً يقضي المصاب نحبهُ بعد يومين او ثلاثة من تناول الفطر السام

العلاج : يقتضي العمل فوراً على تقيئة المصاب باعطائه مسحوق عرق الذهب (غرام ونصف) مضافاً اليهِ الانتيمون (٥ سنتغرامات) ويقسم هذا المزيج قسمين ويأخذ المصاب قسماً واحداً منها كل عشر دقائق في ربع قدح من الماء البارد. فاذا تعذر وجود الأدوية المقيئة اشرب المصاب مقداراً كبيراً من المياه الفاترة ويتبع ذلك بالمنبهات الميكانيكية كوضع الاصبع أو ريشة في الحلق ، وبعدها تفرغ المعى باعطاء المصاب قدر ٢٥ غراماً من كبريتات المغنيسيا. ولسوء الحظ حينما تجري هذه الاسعافات يكون قد حصل امتصاص قدر كبير من السم وفعل فعله الهائل في الجهاز الهضمي . ويعطي الطبيب ايضاً التنين Tanin أو ٤٠ نقطة من البلادونا . أما أوجاع البطن والاسهال فتكافح بوضع اللبخ الحارة أو الخردلية على البطن ، والهذيان باعطاء الاثير ، والتشنجات بالكلورال ، وانحطاط القوى بالمشروبات الروحية ، والالتهاب المعوي بالافيون . وهذا مرجعه الى الطبيب فقط . ويؤكد الأستاذ سيشيرون (جامعة طولوز) ان فحم الخشب المدقوق دقّاً ناعماً يزيل اوجاع المعدة والامعاء شيئاً فشيئاً اذا تناول منه المصاب كل عشر دقائق مرة واحدة مع قليل من الماء والفحم نفسه يعتبر مضاداً فعلاً للسموم على انواعها مهما تتنوَّع أسبابها ومن ضمنها التسمم بالفطر

حَذِيقَةُ المُقتَطَفِ

رابندرانات تاجور

الفصل الثانى

الشاعر العالمي الملهم



لمحمود المنجوري

تاجور الشاعر العالمي الملهم

-٢-

لمحمود المنجوري

[رابعاً]— التصوف : لم يكن تاجور رغم ما تجده في شعره من تصوف ورمز وهيام بالحقيقة المجردة والجمال المطلق ، لم يكن تاجور بالرجل الزاهد المتشائم الذي يرغب عن الحياة وما فيها من متع وجمال

« لن أكون ناسكاً يا رفيقي ولتذهب بك الظنون كما تشاء
لن أكون ناسكاً اذا هي لم تشاركني هذا النسك راضية
لن أكون ناسكاً اذا لم أوفق الى ركن ورفيق يشاركني نسكي

هذا هو ما انتهيت اليه اخيراً . فلن أهجر داري ولن أترك مرقدي لامضي الى عزلة الغابة ووحدتها ما لم تملأ الغابة ضحكات الامل السعيدة وليهفهف رداؤها الاقحواني حول عزلتي ، وليحضرني همسها في نسكي لتزداد الغابة سكوناً وصمتاً »

على ان التصوف في شعر تاجور هو عمل روحي وجهد نفسي ، هو معرفة الله وادراك الحق وشمول الروح واتساعها لمعاني الحياة كلها ، وتصوفه نتيجة تدبر ونظر في مذاهب الهند الصوفية المتطرفة ، هو تصوف في مطالب الروح ورغباتها وانعكاس من النفس لمعالجة مشكلاتها الروحية والاجتماعية من طريق اللين واليسر وادراك الحقيقة . ولقد اشترك هذا التصوف في تكوين شاعرية تاجور ، لأنهُ هيأ له « البصيرة الباطنة » نخلق من التصوف المتطرف تصوفاً شعريًّا فيه جميع طرائق الفلسفة الهندية ثم سلك هذا التصوف في شعره ونظره الى الحياة كما سلكه في معيشته اليومية وحياته العامة . فهو من هذه الناحية شاعر الحياة الذي استطاع ان يجسم الشعر وان يجعلهُ دستوراً وان يُخضع الحياة له فهو يعيش في معهده وفي بيته طبق الحقائق الشعرية التي خرَّجها من الحياة،ولهذا كان شعر تاجور حقيقة حية ملموسة وليس شأنه شأن علماء الاجتماع النظريين الذين يتكلمون عن المساواة والديمقراطية او يبشرون بالاشتراكية ومع هذا تراهم في حياتهم الخاصة أبعد الناس عما يدعون اليه. بل انهم لا يعرفون أدب المعاملة مع من دونهم من خدم إذ يعدُّونهم حيوانات لا تفهم ولا تستحق الحياة . وهم يخدعون الجماعة عندما يتعاملون معها ، مع انك تقرأ لهم رسالات في الدعوة الى الديمقراطية والمساواة والاشتراكية فتحسب ان هؤلاء هم رسل دعوتهم . هؤلاء الدعاة هم قوة كلامية لا تتحرك فيهم غير قوتهم العاقلة الباحثة ، وتتغلب عليهم غرائزهم ووراثاتهم . وأما تاجور فقد وضع للشعر منهجاً خاصًّا وجسَّم هذا الشعر دستوراً ثم عاش بمقتضاه

والبصيرة الباطنة هي احد مصادر شعره ، وهي حاسة تجود بها الحياة على الشاعر الملهم الذي يحب شخصيته ويجعلها مصدر معرفته لاحتوائها على الحقائق واتساعها لمعاني الحياة كلها . وفي الحق ان البصيرة الباطنة هي أم الحواس الخمس بل هي حاسة عليا تفوق البصر والسمع والشم واللمس والذوق ، لانها حاسة يدرك بها الشاعر الموهوب آثار الصور الباطنة من خلال الخير والكمال . وهي وسيلة لادراك المعاني السامية المتصلة بالروح وحاجة النفس كالحب وادراك الجمال والخير ومعرفة الحقيقة من طريق المعاني الباطنة التي تثير الالهام في الشاعر . والشاعر الذي تغلب عليه البصيرة الباطنة يكون حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة التي يدركها بحواسه الاخرى

والمعاني الباطنة لا يمكن ان يتخيلها الشاعر ، لأنها ليست متخيلة ولا محسوسة ، ولكنها تُلْهم من طريق الاستمتاع بها كحقيقة كائنة ، والاستمتاع بهذه المعاني يفوق الاستمتاع الحسي بالاشياء التي ندركها بحواسنا

وتاجور شاعر موهوب أطلق لبصيرته الباطنة قوتها وحريتها فلكت عليه كيانه، فأدرك ما لا يدرك بحواسه وكشف حجب الحقيقة ، فاستبانت له ظاهرة جلية واستمتع « بمحبة الله » استمتاعاً ملأ جوانب قلبه ، ثم أصبحت هذه المحبة مصدر كل معرفة وكل ادراك وكل إلهام

على ان نهاية المعرفة أمرٌ غير ميسور لبشري، لهذا كان لشاعرنا حيرة موجعة تضم معاني الشوق والبحث عن الضالة المجهولة « استكمالاً للوضوح ، وبحثاً وراء نهاية المعرفة » هذه الحيرة هي مصدر عبقري لجلال شاعرية تاجور . ولكنها ليست حيرة المتشكك، بل هي حيرة اليقين الظامىء الى تمام المعرفة ، حيرة اليقين العارف الذي يجد نهاية المعرفة أمراً غير متاح ، فهو يقين الشاعر المتلهف الى ادراك سر القدرة التي أبدعتنا . وانك لترى هذه اللهفة المتشوقة في شعره الصوفي . لهفة التطلع الى ادراك المعرفة ومتابعة البحث وراء الحقيقة كلما أدرك منها طرفاً ازداد شوقاً الى استكناه ذاتها ، انها لهفة تنتهي دائماً بالرضى والايمان والألم المبتهج :

كم اعطيتني كثيراً وكم أطلب المزيد
إني أسعى اليك لا لقطرة أبلل بها ظماءِي
ولكني أسعى طلباً لينبوع المتدفق الدائم .
وإني لا ألتمس طريقك لاقف دون بابك
ولكني أريد ان يحتويني ديوانك الاعلى
حيث أجلس مع رب البيت الكريم .
إني لا أقنع ببهجة الحب تدفعها الى قلبي
ولكني أنشد الحبيب نفسه .
لقد شاءت مسرتك ان تخلقني غير محدود النهاية
فهذا هيكلي الواهن تستنزف منه الحياة مرة تلو
أخرى لتبعثها فيه مبتهجة نضرة

انني مزمار دق من الغاب تحمله في طوافك التلال
والهضاب مثبتاً فيه أغاني أبدية الجدة
إن قلبي ليفقد أوضاعه ووعيه مما يفيض عليه من
مسرة عندما تلمسه بلمسك الابدي ، انه ليتفتح
لكلماتك اللاهجائية التي لا يحدها المنطق
إن نعمك التي لا تحد لا تزال تتملني
وستمر الدهور وستوالى نعمك علي
ولكني ما زلت طامعاً فيك وما زال في هيكلي
فراغ لتملأه ..

***

ويجد تاجور في ادراك الحقائق لذة وحرية وجمالاً ومتاعاً ، والحقيقة عنده رائعة جميلة مهما تَقسو عليه وتستبدّ به ، حتى حقيقة الموت تخلق في نفسه صورة جميلة من صور الخلود والبقاء لأنهُ ولادة ثانية لعالم روحي جديد

على ان حقيقة الموت من الحياة لم يدركها ادراكاً فلسفيًّا أول الأمر ، وإنما عاناها في مستهل حياته يوم كان صبيًّا لاعباً ، يوم فقد مورد الحنان والعطف والبر ، يوم فقد أمه وليس أبلغ من قلم تاجور حين يحدثنا عن هذه الذكريات ، فلنترك تاجور إذ يتحدث

« كنت حين أدركت أمي الوفاة صبيًّا حدثاً . وكان قد مضى عليها زمن وهي تقاسي علة استعصت علينا، على أنها كانت لا تفارق غرفة نومنا ، كانت تلازم الفراش فيها ، فكنا نراها دائماً صورة محببة أمام عيوننا ومضى زمن على هذا حتى حملوها الى النهر في رحلة ثم عادوا بها الى مخدع هيء لها في الطابق الثالث من منزلنا. وبينما نحن نيام في غرفتنا دخلت علينا خادمنا العجوز في ساعة الليل تبكي وتولول : آه يا صغاري لقد فقدتم ذخر الحنان كله ! وأسكتتها زوج أخي الاكبر وأقصتها عن غرفتنا حتى لا نصاب بصدمة هذا الفقد المرير في ليلة عابسة . وأحسست وأنا في غفوة بين السبات واليقظة بقلبي يضمحل وينهار بين جنبي . لم أكن لأعي ما جرى وعياً صحيحاً . ثم تنفس الصبح فلم أع ما هو هذا الموت الذي سمعت خبره. ولكني عندما خرجت الى الشرفة الكبيرة رأيت أمي مسجاة في سريرها في فناء البيت الداخلي . كم كان محياها وديعاً كما هو في نومها . لم يكن عليها طابع الموت المخيف . فلم أشعر الى هذه اللحظة بما أوجده الموت من فراغ مخيف بين حياتنا وحياتها

ولكن إذ رأيتهم يحملون أمي وهي مزجاة صامتة ويسيرون بها في الطريق المظلل بالشجر وأنا أمشي في هذا الركب الرهيب وراء النعش حتى بلغ بها مهده الاخير — ذكرت اذن ان أمي لن ترجع من هذا المكان الى سريرها في البيت ، وشعرت بالالم يقبض بيده النارية على قلبي الصغير . ولكني عدت مع من عاد الى البيت وتركنا أمي وحدها في مكانها الاخير . ورفعت ببصري في ظلام الليل الى الطابق الثالث فوجدت أبي وحده في مخدعه فريداً ما زال يصلي

على ان كلاًّ من البشر قد وهب القدرة على السلوى عمن يذهبون بلا رجعة من هذه الدنيا ، والاطفال هم أقوى البشر على تملك هذه القدرة ، هم أغرار لا تنال من قلوبهم طعنة الموت ولا يبقى جرحهم طويلا غير مندمل وهكذا كان شبح الموت في حداثتي ، لم يترك في نفسي هذا الأثر الراسب العميق . انها ظلمة ما زالت تضمحل حتى انجابت كالطيف اللطيف »

على ان هذه الصورة مازالت تتردد في خيال تاجور من حين الى حين . لقد فقد أمه ، فقد العطف والحنان الطبيعي غير المتكلف ، العطف الذي لا يشترى ولا يباع بثمن . ما أبره

وأنقاه من عطف ! ولبث تاجور محروماً هذا المعين يتشوق اليهِ ويعده مرجعاً من مراجع الهامهِ وحنينه

وكان شابًّـا مفكراً يوم بلغ الثالثة والعشرين من عمره وكان يدبر ضياع أبيه بين زوجه وولده، ينعم بجمال الطبيعة ويستثير فيها هذه الرحمة وهذا الحنان الذي حُـرِمهُ منذ فقد أمه . ولـكن كم كان القضاء معجلاً يوم دهمه في عزلته فاختطف منه في أشهر زوجته التي يحبها وابنته التي يعزها وأصغر أبنائه الذي كان يرعى في ساحته الانس والنسيان

في الحق ان هذه الفترة القاسية من حياة تاجور هي التي طبعت قلبه بطابع الألم الدائم والتفكير الذي لا ينضب معينه وخلقت من شبابه الحـكيم فلسفة استقرت في قلبه . ففهم حقًّـا معنى الحياة والموت . واني لأترك تاجور يتكلم عن نفسه أيضاً :

« وأما هذه الفجيعة فقد استقبلتها في مرارة وأسى متصل بالماضي الاليم ، إنها استذكرت مني خالى الشجن منذ فجعت في أمي فاتصل الحاضر الباكي بالماضي الحزين وأصبحت محاطاً بالآلام والاحزان من كل حدب ، على أني كنت قبل هذه الفجيعة اعلم ان الاحداث لا تقطع أوصال الحياة ولا تمنع أسبابها من الاتصال بأفراحها وأتراحها ، في وحدة في ذاتها لا يدفعها دافع ولا يؤثر فيها مؤثر مهما يجل ويعظم — ولـكني في الحق وجدت عند ما صابني الموت في أعز من أحب اني غير قادر على امتلاك زمام الصواب فضلت وراحت بي الظنون تلعب به وتعبث . رأيت ماحولي من أرض وماء وأشجار وشمس ونجوم وأقمار تتحرك كما هي لا ينالها ملل او ضمور او موت ، هي باقية حقيقة لا تتغير في حين ان الانسان المخلوق الحي الذي كان يسيطر عليها والذي كان حقيقة بليغة لا يمكن ان ينكر وجوده قد صار الى زوال كالطيف الشاحب يختفي في لحظة . فأين للعقل ان يوفق بين البقاء والزوال ؟

لقد استولى عليَّ حال غامض رهيب لاينفك عني أبداً ، كنت أفكر في عزلة فيما عساه حاصل بعد هذا الفقد الذي لايعوض . وماذا أرى في الهوة السحيقة التي حلت وهل ينبثق من فراغها المخيف شيء له وجود . ان النفس لا تؤمن في الفراغ ولاتأنس فيه وجوداً لانه عدم ، ولـكني لم أ[illegible] مال وما زلت أنكر في هذا الفراغ لعلي أتكشف أمراً من العدم

وكنت كنبات ألقي في يم مظلم يشرئب بعنقه متحسساً النور. هكذا كانت روحي . طوحت بها فجيعة الموت في يم مظلم فأخذت تتحسس النور لعلها تجد المخرج السليم . ويالهفتي في ظلمتي يوم كنت أجد اليأس يدنو مني ! ولـكني لبثت على هذا الحال طويلا بين اللوعة والالم والتفكير والامل حتى بدت في أفق هذه الظلمة ومضات شاحبة اتصلت بذات نفسي فأشاعت فيها شعوراً جديداً — واذا الموت الذي كان موصداً لابواب الرجاء يبعث في الامل ويضفي على نفسي معنى العزاء والسلوى ، وأيقنت منذ أشرق هذا الوميض اننا لسنا في الحياة كالسجناء تحتبسنا الجدران المائلة ولـكن ما زال النور يتسلل الى ظلمة تنجاب رويداً حتى ترى الحق سافراً — وامتلأت جوانحي بالمسرة والبهج لهذا البارق الخفي . لقد كان الالم ذخراً امتلكه ، انتزعه القدر مني كما ينتزع أي شيء في حوزة الانسان ، وشعرت بمعنى الحرية يقترب من نفسي اذ انجاب عنها الالم والظلام وداخلتني السكينة وخف العبء من محمله وهكذا يؤتى المرء مهربه من مخاوفه التي لا يطيقها . وهكذا ينبثق الامل وسط ظلمة اليأس المخيف دون ارتقاب منتظر :

لقد بدا يا الهي عظيم ابداعك
في ومضة البرق الخاطف بين ثنايا الليل البهيم .
هو الموت يبدع حياة من حياة

لقد بكيت حين ألفيت نفسي تافهة رخيصة بين يدي الزمن — ولكني عند ما وجدت هذه النفس وديعة ستستردها يداك في يوم ما ألفيتها درة غالية أكرم من ان تهمل بين الاشباح

***

يا ربي ! إني أسمع نداءك ، جاءني عبر البحر المجهول يحمله رسولك الامين
إن الموت جاء ببابي . والليل داج وقلبي خائف واجف .
ولكني مستقبله بمصباحي وفاتح له الباب على مصراعيه مرحباً به مقبلا الارض بين يديه
إن رسولك ببابي أحييه ، في خشوع ودمع فائض من عيني
أحييه وأنا أقدم له كنوزي (١) وقلبي عند قدميه
انه سيعود اليك بعد ان أدى رسالته وأنجز أمره تاركاً طيفاً قائماً فوق حياتي
انه لم يبق في بيتي الموحش أحداً غيري ليقدم لك القربان يارب !

***

لابد من يوم وان طال الزمن تحييني فيه الشمس وهي غاربة تحية الوداع الاخير
وسيعزف الرعاة هادىء الالحان وهم جلوس تحت أشجار البانيان وقطعانهم ترعى وترد النهر القريب بينما تختفي أيامي بركبها في الظلام
إني اصلي لك يا إلهي ، علني أعرف قبل الرحيل ، لماذا تدعوني هذه الارض لتحتضنني بين ذراعيها ! ولماذا يسر الي صمت الليل بحديث النجوم. ولماذا تبعث الارض ضوء النهار مقبلا أشعاري فتستحيل الى زهرات.
قبل لى ان أتريث قليلا قبل رحيلي لاتمم انشيدي الاخير نغمه وموسيقاه ، وهل لمصباحي من نور فأرى وجهك . وهل للزهر ان يسلك فأنظم لك منه تاجاً لجبينك ؟

***

« في اليوم الذي يطرق فيه الموت بابك . ماذا أنت باذل له ؟
سأقدم بين يدي ضيفي وعاء حياتي فائضاً دهاقاً ، ولن ادعه يمضي صفر اليدين .
سأهبه اشهى قطاف العمر ، ثمر الخريف وليالى الصيف وأحلام ما كسبت وما جمعت في حياتي الدائبة
سأضع كل هذا بين يدي ضيفي في آخر أيامي حين يطرق الموت بابي . »

*** –

فمعرفة تاجور بحقيقة الموت . انما هي معرفة من كابده وقاساه ، ثم معرفة من عالجه بالتفكير والفلسفة . واحساس تاجور بالموت يعادل احساسه بالحياة وبجمال الوجود والتفكير فيه . وأنت عند ما تتلو أشعاره تراه يبتهج بذكر الموت ، ويرحب به كما يبتهج ويرحب بالحياة. لانه يعلم ان الموت هو ثمرة الحياة الاخيرة التي تشتهيها النفوس العارفة بحقيقة الوجود والكائنات

لبيك ياموت يا آخر ثمرة في الحياة ، تعال ناجني لبيك .
إني أرقب مقدمك دائماً ، وفي سبيلك أتقات نفسي بأفراح الحياة وآلامها .
إن وجودي وما أملك وما آمل وحبي هو الآخر مثلي يتوق اليك في العلن والخفاء . دعوة واحدة مرموزة من عينيك ، ان دعتني لبيت . ألا ان حياتي لك آخر الأمر لبيك لبيك
لقد تهيأت العروس للرحيل من دارها . انها ستزف وقد اكتملت حولها الازهار واصطفت بين يديها الاكاليل .. انها ستغادر دارها وستلتقي وحدها بربها في هدأة من الليل.

---

(١) زوجه وأولاده يوم فجع فيهم

وكتب تاجور فصلاً رائعاً كان ألقاه على تلاميذهِ محاضرة بالبنغالية في معهده عنوانه « مسألة الشر » جاءَ فيهِ عن فلسفة الموت :

يهولنا ان نعلم الثقل الذي يصيب البوصة الواحدة من جسمنا من ضغط الهواء ويهولنا أكثر ان نعلم الثقل الذي ينال الجسم جيعاً ، ولكن لكل ثقل ما يقابله من مقاومة. ولهذا خفت علينا أثقالنا . وللتنازع على البقاء تكافؤ ومقابلة، تأنس اليها النفس البشرية في محبة الاطفال وعطف الاصدقاء وفيما يصدر عن الحب من معان وبذل وتضحية — فهذه كلها تخفف اعباء الحياة بل هي تقاومها وتقابلها . ولو أننا عكفنا بأنفسنا باحثين عن حقيقة الموت لبانت لنا الدنيا مقبرة ، ولكن اطمأن بنا الرأي على ان الموت فى هذه الحياة أضعف من ان يأخذ الطريق على تفكيرنا ، وليس هذا يرجع الى ان الموت حدث قليل الوقوع نادر المصاب ، ولكن يرجع هذا الى ان الموت هو الوجه المبطل للحياة على وجه هذه الارض . ومثل الموت معنا كمثل ترديد العين بين غمض جفنها وانتباهها . فهذه الحركة من العين تحدث تلقائية فى كل لحظة ومع هذا لا نشعر إلا بالعين مبصرة دائما ومع ذلك لا نكاد نحصي لها غمضاً . فالحياة في جملتها لا تقيم للموت وزناً . فهي تضحك وترقص وتلعب وتبني وتعمر وتحب في مواجهة الفناء .

على ان الموت يقسو علينا ويصدمنا حقا عندما تحل كارثة الموت بفقد فرد منا . عندئذ نرى سواد الحياة حقاً ونضل سبلها وقد يختلط علينا الامر فيقصر النظر منا عن ادراك الحياة وعن فهم الموت كجزء من الحياة كلها . ويكون شأننا في هذه الكارثة كمثل من ينظر الى قطعة مجتزأة من نسيج من وراء مجهر مكبر فيحسبها شبكة مثقلة فيهولنا الامر ويخطئنا التقدير والحساب. ولكن الحق هو غير ما نرى ، هو ان الموت ليس بالحقيقة المطلقة التي تراها عيوننا لاول وهلة فهو قد يظهر لنا اسود اللون كما تبدو لنا السماء زرقاء ولكن ليس لسواده صبغة حقيقية كما ان زرقة السماء ليست إلا وهماً ولوناً خادعاً فلا تترك لونها في أجنحة الطير»

ولهذا يبتهج تاجور للموت كما يبتهج للحياة ويرى فيه سبيلاً للمعرفة ومسرة أبدية

[خامساً] الفلسفة الهندية . ولعلَّ الفلسفة الهندية هي أعمق المصادر في شعر تاجور أثراً . بل انها حقًّا مدار جهده الأدبي ومثار تفكيره وهدف نظره الى الحياة بل هي رسالته التي بُعث لها فكان عظيماً في اخلاصه وفيًّا في ادائها . ولقد بسط فلسفة الهند في محاضرات ألقاها على تلاميذه ثم نشرها في كتابه الجليل المسمى سعدهانا او (استكانة نفس) وانهُ ليقرر في فصله الاول الذي شاء ان يجعل عنوانه «علاقة الفرد بالمجموع» كيف نشأت المدنية الهندية وكيف بعثت الفلسفة بين أهل الهند . فيقول : ان المدنيةَ الهندية لم تنشأ نشأتها الأولى كما نشأت المدنية الاغريقية بين الجدر وأسوار المدن، ولكنها نشأت في الغابة الفسيحة. ولهذا أحيطت فلسفة الهند بروح الطبيعة الشامل وبأفق من النظر غير المحدود. ونشأ العقل الهندي حرًّا طلقاً غير مقيد بما تقيد بهِ العقل الغربي الذي نشأ في مدنية محصورة مقيدة بالرغبة في ان يمد الفرد نفوذه وممتلكاته ويحددها ببناء الأسوار واقامة الامبراطوريات، فلم تكن رغبة العقل الشرقي في التملك والحيازة المادية ولكن كانت طبق ما توحيه فلسفته وعقائده مجبولة في فهم الاشياء وادراك حقيقتها ، وتوسيع نفوذ ضميره عليها ، بأن ينمو هذا الضمير نموًّا متصلاً باتساع آفاق الطبيعة التي تحيط بالانسان . وشعر الرجل الهندي الذي نشأ في مدنيَّة الغابة

غير المحدودة بأن الحق هو ادراك شامل للكائنات وان التفرد المطلق لا يشبهه شيء في الوجود ، وان السبيل الوحيد للوصول الى الحق انما يكون ببثّ نفوسنا واشاعتها في الاشياء التي حولنا لندرك كنهها ، ولقد كان ادراك هذا الانسجام بين الفرد والجماعة وبين الفرد والطبيعة او بين الفرد والعالم الذي حولهُ ، كان هذا الانسجام بين روح الفرد وروح العالم هو الجهد الذي بذلتهُ الفلسفة الهندية القديمة منذ سكن حكماء الهند الغابات

واتسع قلب الهند الكبير للمعاني السامية التي توحيها الطبيعة، فأنشأ الانسجام والتفاهم بينه وبين ما حوله ، فلم يشأ ان يقهر الطبيعة كما فعل الرجل الغربي ، بل شاء ان يتعاون معها وان يتقي هذه الخصومة الدائمة التي أعلنتها مدنية الغرب على مظاهر الطبيعة للوصول الى استغلالها من طريق قهرها واذلالها — وشاء وحي الهند ان يضمّن فلسفته قلب الانسان وقلب العالم في معنى مثالي واحد . وإن ينظر اليها كحقيقة واحدة كبرى فلا فرق بين الانسان والطبيعة فهو جزء منها وهي كلٌّ متضمن إياه ، ونشأت فلسفة الهند من هذه الحقيقة التي تعتد بالانسجام الكائن بين الفرد والجماعة او بين الفرد والعالم وبما فيهِ من بشر وحيوان وجماد ، وأحست هذه الفلسفة بأن الانسان قد لا يلتئم بما حوله من كائنات مالم توجد بينهما الألفة والعروة الوثقى للتعارف والتفاهم وانهُ لهذا يجب أن يكون حبيباً مقرباً لما حوله لا عدوًّا يبغي القهر والنفوذ والسلطان، فهو لا يبسط نفوذه على الطبيعة قهراً واستغلالاً ولكنهُ يتوسل اليها لا من طريق العلوم الطبيعية بل من طريق ادراك كنهها ومعرفة أسرارها معرفةً تبعث في نفسه مسرة دائمة باتصاله بها اتصالاً مرتبطاً بالمعرفة وكشف الحقائق المتلاحقة التي ندرك بها الغرض الأسمى من وجودنا . ويقول تاجور في هذا :

« عند ما ندرك مبلغ قرابتنا من العوالم التي حولنا نشعر بأننا قد حررنا انفسنا واعتقناها من الرق ، فادراك الحقائق الروحية للكائنات التي حولنا نظهر على عظمة الحياة الكاملة ، ونشعر بأننا موصولون بما يحوط بنا دائماً »

ولم تنكر فلسفة الهند فوائد الفروق بين الطبائع والمواهب وإلاّ ثقلت الحياة واختل ميزانها وأصبح النهوض بها مستحيلاً . كما لم تغفل هذه الفلسفة ميل الانسان الى حب السيطرة بل اعترفت له بهِ، ولكن في المناطق التي يجمل بالانسان ان يسيطر عليها في الوجود، وقررت ان العظمة والسيطرة ليست في التملك والحيازة وبسط السلطان والاستعمار ، ولكن العظمة والسيطرة تقوم في قوة الاتحاد بالعالم من طريق فهم حقيقة الكائنات وادراك روحها ادراكاً تامًّا

هذه الفلسفة هي فلسفة الهند بل هي فلسفة الشرق جميعه ، اخلص لها تاجور اخلاصاً أكيداً فكان عظيماً في اشاعتها في أدبهِ وآرائهِ وأشعاره وأغانيه، وكان عظيماً مخلصاً لوطنه وفيًّا

لذكراه ، لانهُ استطاع أن يصور وطنه في أدبه وان يذيع فضله على المدنية والثقافة البشرية وان يصور الهند للعالم تصويراً روحيًّا لانهُ يعتقد « ان لكل قطر حدوداً معنوية باطنية كما له حدود مادية ظاهرة وفي الحدود المعنوية يحكم الروح ويهيمن ، وليس للقوة المادية ان تقهر او تبطش او تستولي على جزء ضئيل ما من هذه المملكة المعنوية الروحية »

هذا الرأي أعلنهُ يوم وقف الى جانب غاندي ليقول للانكليز انكم لن تستطيعوا ان تحكموا روح الهند بأساليب القهر والاستعمار : وقد كان عظيماً اذ صور للعالم عظمة جنسه من فكر وفلسفة وعقائد ، ومع انهُ يقدس وطنه على انهُ ايمان وعقيدة ، يجد في العالم وطنه البشري الذي يتسع لدعوتهِ الى الخير والسلام والمحبة

فالحب والخير والوحدة الروحية وادراك ما في الحقيقة من جمال كل هذا هو مبعث الالهام والوحي لشعر تاجور ، وليس أبلغ من تاجور نفسه عند ما يبسط رأيه في الوحدة الروحية فيقول :

« متى استتب في ضميرنا قانون الحياة واطمأن الى ما في الخليقة من إيلاف منظوم لايتبدل، أصبح ادراكنا لحب الخير جامعاً وعالمياً ، واتسم طابع الجمال في حياتنا بميسم الخير والمحبة الجامعة ، وتوجه ضميرنا بهذه المعاني شطر اللانهائية التي لا تنضب منها المعاني الفاضلة . هذا هو غاية الحياة وسبيلها دائماً ، هو الجمال الروحي في الصدق كما ان الصدق هو الجمال ، وان نفهم الحياة وندركها في الحب ، لان الحب هو عصب الحياة ومبعث وجودها واكبر معنى فيها ، واقوى عامل على بقائها . فيجب ان تحرر قلوبنا وان تمنح هذا العتق التام الذي يبعث فينا القوة لكي نصمد لاسرار الكائنات فندرك دخائلها العميقة فيشملها حبنا ويسعها ضميرنا فنتذوق مباهج براهما فندرك غاية الحياة . » (١)

يقدر تاجور ماينشأ عن ايمان الفرد بوجوب ارتباطهِ بالمجموع ، من اتصال روحي لمحبة الخير والفضيلة ، ومن انكار للذات واعراض عن الانانية وسماحة نفسية لاتبخل بالتضحية الفردية في سبيل الجماعة — فادراك نفسية المجموعة البشرية تمهيداً للانسجام فيها يتطلب من الفرد ادراكاً واسعاً وشعوراً عامًّا بشعور الجماعة، وهو يرى أن الانسان عندما يتصل بالجماعة اتصالاً روحيًّا يكون حقًّا قد قدر نفسه وجعلها في مرتبة انسانية تسمو على مرتبة الحيوان الذي لا تدفعهُ الغريزة الاّ في التفكير في حياتهِ الخاصة وحياة جسده وحده . ولقد بسط تاجور هذا المعنى السامي في ناحية من محاضرة(٢) له، اشار فيها الى معنى الخير في الحياة والى مايتوفر عليهِ خلق الفرد الذي يسمو بطبعه الى الاتصال بالمجموع ليشعر بشعور الكون كوحدة عامة ، واليك طرفاً من هذه المحاضرة : التي تلخص رأيه في « الوحدة الروحية »

(١) من محاضرة بعنوان « ادراك الجمال » وهي فصل من كتاب سعدهانا

(٢) الفصل الثالث من كتاب سعد هانا

« تنشأ حاسة الخير في حياتنا من ناحيتها التي تظهر الحق وترتبط بحياة المجموع ، هذه الناحية هي الوجه الخير الفسيح لحياتنا ، هذا الوجه لا يقصر عنايته على ما يحيط به من حاضر فقط بل ان عنايته لشاملة ما هو خارج عن حاضرنا ، وربما شملت حياة لم يقدر لها وجود بعد . والانسان الحكيم يشعر بهذه الحياة الاخرى التي تتهيأ له والتي لم توجد بعد ، بل انه ليحس بها أكثر مما يحس بالحياة الدنيا التي يحياها . لذلك كان عليه ان يأبى نداء هذه الحياة فيضحي بحياته في سبيل مستقبل مجهول الاوضاع ، وهو بهذه التضحية يصبح عظيما لانه ادرك الحق تمام الادراك . على المرء ان يدرك هذه الحقيقة مهما تبلغ به الانانية ، وعليه ان يطمئن من حدة عواطفه أن يكون خير الخالق ، لان قوتنا الروحية هي ذخيرتنا التي نعرف بها ان الحياة ليست ثوباً مهلهلا ضمته اشتات الخرق ، او انها وجدت جزافاً دون هدف لها ، وما هي بالامر الهين التي به الى الوجود بلا قصد او غرض فانما الحياة حقيقة متصلة غير متطوعة . وقوتنا على الاتصال بما ليس في حدودنا ، تهب روحنا استمراراً موصولا مع الزمن وتمكن الانسان من ادراك حقيقة اخرى ، وهي انه لن يكون مقدراً لنفسه اذا ما عكف على نفسه وعاش في حدودها فقط . وان الفرد ليس ملكا لنفسه وانما هو حق لآخرين لم يدمجوا في شخصه ولن يقع في حياته ان يعرفهم . وكما ان للانسان شعوراً بروحه المستقبلة التي لا يحدها وعيه الحاضر ، كذلك له شعور بروحه الجامعة الكبرى التي تقع خارج شخصيته . وما من مخلوق الا ويتملكه هذا الشعور بقدر . ولم يخلق بعد هذا الانسان الذي لم يضح بشيء من رغباته الجامحة في سبيل شخص آخر ، وليس في الدنيا من لم يسعده الشعور ولو مرة واحدة بنشوة المسرة التي تهبط الى النفس عند البذل والتضحية من أجل احتمال خسارة او دفع مكروه عن مخلوق آخر . وانه لحق ان الانسان ليس بمخلوق منفصل عن البشرية وانما هو موصول بها . وعندما يدرك الانسان هذه الحقيقة يصبح عظيما حقاً . ولا مناص للنفوس الشريرة عندما تأتي الشر وترتكب الجريمة من ان تؤمن بهذه الحقيقة ايضاً ، فليس ثمة جريمة ضد الفرد انما تقع الجريمة دائماً على الجماعة . وللحياة معنى فسيح أن يحيا من الناس لفكرة او لوطن او لخير الانسانية .. وان الالم ليتضاءل بقدر ما يعم هذا المعنى النبيل في حياة البشر ، وانك لكي تعيش عيشة الرضى والخير يجب ان تحيا للناس جميعاً

يوم انشأ بوذا السبل التي يهدي اليها البشر استقر عند هذه الحقيقة : عندما يصل الانسان الى غاية مبتغاه بادماج ذاته في البشرية العامة وبافناء فرده في الجماعة يكون قد تحرر من مذلة الالم والبؤس والانانية .

إن شخصيتنا مجبولة على البحث عن الشيء الجامع العام لتستمد منه قوتها ، وأجسامنا تفنى لو قصرت غذاءها على مادتها ، وتفقد عيوننا حاسة الابصار اذا قصرت عملها على ان تبصر في نفسها دون تطلع الى عالم خارج عنها »

وتاجور فيلسوف بالوراثة ، فهو من سلالة فلاسفة وأسرته من الأسر العريقة في العلم والحكمة والمعرفة والفنون . نبغ فيها زعماء في الدين والفلسفة والشعر والتصوير ، فوالده شاعر ديني فيلسوف له رأي ونظر في قيم الاشياء ، وأخوه الاكبر جوجندرانات من أمهر المصورين ، وأخوه دويجاندرانات فيلسوف متصوف كبير ، كان له بالغابة معزل يفكر فيه ويتأمل أسرار الكون حتى لتهفو عليه الطيور وتهبط مؤتنسة كأنهُ في صمته وسكونه قطعة من الغابة ...

هذه البيئة الروحية هي التي أعانت تاجور على انماء مواهبه الفلسفية ولقد بسط فلسفته في محاضرة جاء فيها :

« انما أنا ككثيرين من أهل الهند وفلسفتي لا تتعدى فلسفة الشعب ... وليست فلسفة الهند فلسفة طيرة وابتئس بالوجود . إن للوجود وحدة ونحن نؤمن بشيء لا نهائي هو سر الوجود وليس فيه شيء من معنى العدم . وغاية أدياننا جميعاً ان تدفعنا لنجد حريتنا في هذا اللانهائي الكائن على انه حقيقة ملموسة مفهومة من طريق الروح . لقد يدهش بعضهم لهذا ، وقد يرى العلم ان هذا غير ممكن ، ولكن أولئك هم الخاطئون . ألا ترى الى ذلك الفرخ داخل البيضة تغطيه قشرتها . انه لا يعرف من أمر الوجود شيئاً غير هذا السجن

الذي يحيط به وهذه القشرة التي تحميه . لكن غريزة تدفعه مع ذلك ليكسر القشرة فاذا كسرها خرج منها الى الحياة . كذلك توجد في النفس الانسانية غريزة تدفعها الى الخروج من هذا المحيط الضيق المحبوسة فيه احتباس الفرخ في قشرته للوصول من هذه الحياة الى غور الحقيقة اللانهائية التي تدفع اليها بغريزتها » هذه الحقيقة هي موضع إيمان الهنود ، وهي فلسفتهم التي يتغنى بها أفراد الشعب

« انت الذي أريده . أنت وحدك .
لقد ذكرتك دائماً في أغان لا تنسى .
أي إلهي أي زعيم الشعراء
اني لم أجلس تحت قدميك إلا لتكون
حياتي شيئاً سهلا منسجماً أشبه بالمزمار القصب
الذي تملأه الحياة أنغاماً وموسيقى »

« أي ربي ! انها لذاتي التعسة التي لاتعرف الخجل ولكنها تخجل من الشوق بين يديك
إلهي لا نهاية لزمن بين يديك . ومن له ان يعد دقائقك . تكرُّ الايام وتمر الليالي وتتفتح الاثمار ثم تذبل كالازهار ، وتعرف أنت كيف تنتظر »

[سادساً] — المسرة والبهج: وتاجور ليس بالشاعر الفيلسوف المتشائم ولكنه أبداً مبتهج يحس عظمة الكون وقدرة الخالق في هذا البهج وهذه المسرة التي تملأ قلبه عندما يستقبل الحياة في اطمئنان ورضا . وله في هذا فلسفة ترجع الى الفلسفة الهندية القديمة التي شرحتها تعاليم يوبانيشاد حيث تقول : «إن الكائنات جميعاً انما خلقها ابتهاج الله وسروره الذي لايحد ولاينفى » ففكرة خلق الكائنات انما هي ايثار لها ومسرة من الله بوجودها . ولهذا كان فهمنا حقائق الاشياء لايمكن ان يكون الا من سبيل الخير والتفاؤل والمسرة

وتاجور له بعد هذا النظر الوديع في العالم، قلبُ الطفل البريء الذي يدرك الحقائق بالفطرة والبراءة . وقلما تجد شاعراً له هذا القلب الكبير الذي يجمع العالم وهو مع ذلك قلب طفل بريء لايضمر غير الخير والمحبة والبهج والمسرة

وليست مسرته نتيجة الاقبال على الحياة والاستمتاع بلذائذها الحسية خوفاً من اقتراب الأجل والحرمان . فأناشيده الصوفية المتلئة بالبهج والمسرة ليست كأناشيد عمر الخيام الذي يدعوك أن تقبل على الحياة نهلاً قبل مداهمة الأجل ، وليست بدعوة شائكة ملوثة بالشك في الحياة الأخرى ، وانما أناشيد تاجور تدعو الى الفرح الروحي والمسرة الملهمة التي نحسها في دخيلتنا من طريق الايمان بأن الاشياء التي نحبها والتي تصادفنا في الحياة انما هي كائنات مثلنا أوجدتها ارادة جامعة موحدة تلهمنا شعورها بالمحبة والمسرة من وجود هذه الكائنات. وانه اذ يدعوك لن تستقبل الحياة مبتهجاً بجمالها ونعيمها وخيرها وشرها انما يدعوك الى فهم حقيقة الحياة من طريق التفاؤل والرضا والايمان بخلودها وليس بالشك فيها والتلهف اليها كأنها حدث مصيره الى الفناء والزوال

أيها القلب المعذب : مالك تدفع خواطرك وتبعث دموعك في شعاب الزمن الماضي
قم واطرب وابتهج فالايام آتية
والساعة تدق أيها المرتحل عن هذه الدنيا
لقد آن لك ان تتركها وتسكن الى اللقاء وجهاً مرة أخرى
انك ستراها هذه المرة سافرة غير محجبة فابتهج يا قلبي المعذب !

على ان لتاجور في هذا النظر الفلسفي في الحياة منهج المصلح الاجتماعي الذي يعمل على اسعاد الفرد والامة واسعاد البشرية بأن يخلق حالة عقلية يصبح بها المرء سعيداً مبتهجاً ، والا فالجماعة البشرية صائرة الى الانقراض والاضمحلال ، نتيجة للتشاؤم وعدم الايمان بالقوى الروحية المهيمنة عليها . فمن المحال ان تدرك النفس البشرية سعادتها من الاشياء الخارجية عنها ما لم تفهم كنهها على انها أثراً لقدرة مدبرة خالقة . واذن فلا سعادة ولا ضمان اجتماعي الا بالايمان بقوة الله والاقبال عليها في رضا ومرح ومسرة روحية تنشيء للفرد شعوراً بالسعادة

ويأبى تاجور العنف في كل شيء ، ويعتبر الاسراف في التشريعات الاجتماعية والمعاهدات الدولية عملاً عنيفاً لن يأتي بثمرة ما بل هو دليل على الضعف والاصرار على نية الغدر وعدم الثقة بطبائع الخير التي في النفس البشرية وهو قبل هذا علاج وهمي يزيد في امراضنا الاجتماعية والروحية

ويريد تاجور ان يستغل ما في طبيعة النفس البشرية من ميول الى الخير والتضامن الانساني والوحدة الروحية لاجتناب ما تسعى اليه التشريعات والمعاهدات من الالزام والجبر

فطريقه الى الاصلاح الاجتماعي هو طريقه الى الاصلاح الروحي بأن يكون الافراد سعداء بحريات موفورة في نفوسهم ، يشعرون بها في الحب وادراك الخير والحق وتطهير نفوسهم مما علق بها من طبائع الاستبداد والانانية ، وبأن يكونوا سعداء في معرفة انفسهم وفي السمو بها عن ميولهم الاثرة التي تجر البشرية الى ويلات الحروب ، ولن تدرك الانسانية هذا السمو الا اذا أدرك الانسان نفسه والقسط بها وبما يحيط به من كائنات مختلفة

هذا التقويم الروحي هو منهج المصلح الاجتماعي الذي يؤمن بأن الاصلاح للفرد والجماعة لا يأتي من طريق الالزام والتشريع والحكومة ، وانما يأتي من طريق اثارة الخير وتنبيه البصيرة الاجتماعية في النفس البشرية ، ومن طريق تهذيب العادات واستغلال نواحي الخير والفضيلة في الانسان ، وسبيل ذلك هو ان يعرف الانسان نفسه وان يشعر المرء بالانسانية كاملة ، يدركها من طريق البهجة والمسرة الروحية

أليست هذه المعاني السامية هي أجل معاني الديمقراطية التي ينشدها الانسان دائماً ، ليحيا حياة سالمية كريمة ؟

هذه هي مصادر شعر تاجور وهي مثار الهامه ووحيه

باب المراسلة والمناظرة

«النفط» كلمة عالمية

كنت قد نشرت في مجلة «الرسالة» الغراء منذ أسابيع كلمة في اللغة تحت عنوان «النفط» قلت فيها ان السائل المعدني المستعمل في الاستصباح والوقود ، يسميه الناس أسماء مختلفة ، وليس فيها اسم واحد يمتُّ الى لغة العرب بصلة ، فالحكومة تسميه في « البطاقات » باسم «الكيروسين» ولا أدري من أين جاءت هذه الكلمة . وكتّاب السياسة يسمونهُ «البترول» وهي كلمة غريبة دخيلة . والعامة تسميه « الغاز » او « الجاز » وهي أيضاً كلمة مجهولة منكورة ودعوت في كلمتي هذه الى تسمية ذلك السائل باسمه العربي الأصيل المستعمل في العراق وفي بعض البيئات العربية الصريحة ، ألا وهو « النفط » . فقد جاء في «القاموس» ان النفط « ضرب من السرج يستصبح به » وان النفاطة موضع يستخرج منه النفط .. الخ

نشرت مجلة « الرسالة » كلمتي فتناولها كثير من الكتاب واللغويين بالأخذ والرد ، والتأييد والاعتراض ، فمن قائل ان كلمة «النفط» كلمة عبرية ، ومن قائل انها فارسية ومن قائل انها لاتينية الى غير ذلك... وظللت أنا أقرأ ما يكتب هؤلاء الأفاضل تعليقاً على كلمتي ،وأكوّن لنفسي فكرة عامة عن آراء الأدباء في هذا اللفظ ، فاذا بهم جميعاً يتفقون على أعجمية «الكيروسين، والبترول ، والغاز ، والجاز » ولم يستطع أحد منهم ان ينكر عربية «النفط» بدليل ما ذكرت وذكر غيري من أقوال المعاجم والقواميس المشهورة ... والذي اهتديت اليه أخيراً ومن أجله أكتب هذه السطور هو ان كلمة « النفط » كلمة عالمية موجودة في اكثر اللغات القديمة والحديثة . فهي أولاً عربية فصيحة بشهادة المعاجم العربية . وهي ثانياً فارسية استعملها الفرس قديماً ويستعملونها الآن ، وقد وردت في «الشاهنامة» للفردوسي شاعر الفرس الاكبر وهي ثالثاً عبرية،وإن كانت طاؤها تنطق تاءً في هذه اللغة،ودليل ذلك ورودها في غير موضع من الامثال والمزامير التي تعدُّ من أقدم كتب التوراة العبرانية . وهي رابعاً يونانية لاتينية كما ذكر الدكتور أمين المعلوف في بحث نشره بمجلة « المقتطف » الغراء . وهي خامساً أفرنجية عامة كما ذكر الاستاذ الكبير محمد فريد وجدي بك في «دائرة معارف القرن العشرين » ولعلَّ هذه الكلمة مستعملة في لغات أخرى غير مشهورة او غير معروفة لنا الآن ...

وعالمية هذه الكلمة ترجح استعمالها في لغتنا للتعبير عن ذلك السائل المعدني المعروف ، وهي خير من تلك الكلمات الأعجمية التي لاتتصل بلغة العرب ، لا عن قرب ولا عن بعد . فلعلَّ كتابنا وأدباءنا يحرصون على استعمالها في مقالاتهم وأحاديثهم حتى تشيع بين الناس

«كلية اللغة العربية» احمد الشرباصي

***

[المقتطف] قال الفريق الدكتور أمين المعلوف باشا في مقتطف مايو ١٩٢٨ صفحة ٥١٧ (فالنفط بكسر أولهِ واسكان ثانيهِ وقد يفتح اولهُ دهن معدني أبيض أو أسود ضارب الى الخضرة سريع الاحتراق يسمى باللاتينية «بتروليوم» أي دهن الحجر أو زيت الصخر. ولفظة النفط عربية سامية قديمة جداً أخذها اليونان عن العرب وقالوا نفثا وهي معناها . ومما يدل على أصلها السامي انها بالسريانية والعبرانية مثل العربية مع اختلاف قليل في اللفظ. ثم ان اليونان كانت أول معرفتهم بالنفط في العراق وكان من البديهي ان يسموه نفطاً كما سمَّاه العراقيون من سريان ويهود وعرب ولقد سمي بذلك لخروجه من باطن الأرض كما يتضح من مادة نفط ومشتقاتها في كتب اللغة كذلك نفث ونبط ونبض ونبص ونبث ونبش واشباهها لجميعها تدل على الخروج او الدفع ثم تفرَّع من ذلك معنى الاحتراق كقولنا تنفط الرجل غيظاً اي احترق . . . . . والنفط كما تقدم لفظة عربية فصيحة شائعة عند العراقيين يقولها خاصتهم وعامتهم ويريدون بها هذا الدهن او الزيت المسمَّى بالبترول او البتروليوم عند الافرنج وهم يسمون الخلقي منهُ بالنفط الاسود وأما الصافي المكرَّر المعروف في مصر والشام بزيت الكاز (او الجاز) فانهم يسمونهُ النفط فقط او النفط الابيض[1].على ان بعض كتابهم اخذوا يقولون البترول وزيت الكاز نقلاً عن الجرائد المصرية والشامية ولكنهُ نادر . وحبذا لو شاعت لفظة النفط...الخ»

***

هذا بعض ما قالهُ الفريق الدكتور امين المعلوف وقد فصَّل العلامة الأب انستاس الكرملي هذا الموضوع من ناحيته اللغوية في غير مقال لهُ في المقتطف . ومع ذلك يتبقى علينا ان نتفق على اسماء عربية للمواد المشتقة من النفط كالبنزين وما أشبه او تعريبها

(١) هذا النفط الابيض هو ما يعرف كذلك بالكيروسين

باب الأخبار العلمية

العلم وأدوات الحرب

وأعواض المعادن

تبذل الولايات المتحدة كلّ ما وسعها الآن في استعمال كثير من المواد التي تحلّ محل بعض الفلزات والحرير والفلين وانواع معينة من الخشب التي لامندوحة عن صونها وتوفيرها لاغراض الدفاع الوطني. (هذا المقال كتب قبل دخول اميركا الحرب ونشر في جزء يوليو ١٩٤١ من مجلة الميكانيكا العامة وعنهُ لخصنا ما يلي)

فمندوبو الحكومة وخبراء المباحث الخصوصيون لا يدخرون جهداً في البحث عن الاعواض وما برح هذا البحث ينتج نتائج تستوقف الاهتمام. والبُشرى التي تهم المستهلك هي إنهُ مع ما وقع من التغيرات الجارفة، سيروقه البديل من الاشياءِ بقدر ما كان يفعل الاصيل. وفي بعض الاحوال قد يخفى عليـهِ ذلك التبديل

العجائن الكيميائية

فمن العجائب الكيميائية اعواض، صنعت منها مئات من الاشياء حلت محل أمثالها التي كانت تصنع كلها أو بعضها من الألومنيوم والمغنيزيوم والقصدير والكروم والزنك

وقد استعمل بعض هذه العجائن الكيميائية غلفاً لاجهزة تنظيف الطنافس والابسطة وما اليها، بامتصاص الغبار منها. ثم أدخلت في الادوات المنزلية المختلفة الانواع وفي الآلات الصناعية. ومن العجائن الكيميائية تصنع ريش المراوح الكهربية وعلب الآلات المصورة، وعلب المطريّات، وعلب مثبنات السيدات، واجزاء الطائرات، وأغطية الرأس التي تستعمل لتجفيف الشعر عند كيهِ بالكهربية، ومقابض الآلات وعلبها وغيرها من شتى الادوات الشائعة الاستعمال التي تحل العجائن الكيميائية (١) في صنعها محل المعادن

العجائن في الثلاجات والسيارات

اما في صناعة الثلاجات فيتاح الاستعاضة بالعجائن الكيميائية، من ألواح الالومنيوم والفولاذ الخفيفي العيار، وهما يدخلان في صنع ابوابها وواجهات ادراجها ومقابضها. وكذلك بدأ الميل الى تشجيع استعمال العجائن الكيميائية تشجيعاً جديداً في صناعات

(١) راجع مقالنا على العجائن الكيميائية في مقتطف يوليو سنة ١٩٤٠

السيارات لتوفير ما يستهلك فيها من الادوات الضرورية للدفاع ولذلك ترى في سنة ١٩٤١ في السيارات الحديثة الصنع ألواحاً للآلات ومقابض للابواب ومفاتيح وزخارف داخلية مصنوعة جميعها من العجائن الكيميائية. ويقول أقطاب مصنع دو بون دى نامور وشركائهم إن في الامكان استعمال العجائن الكيميائية في خمسين اداة على الاقل، من الأدوات الداخلة في تركيب السيارة وإنهُ عما قريب ستصنع سيارات يكون حشو بدنها من العجائن الكيميائية

وقد ساهمت شركة فورد الاميركية للسيارات في هذا التحسن . ومن المحتمل الكبير الاحتمال أن تصنع أجسام الطائرات وأجنحتها من تلك العجائن أيضاً فتتوفر بذلك مقادير كبيرة من معدني الالومنيوم والفولاذ الذى لا يصدأ[1] لاغراض أخرى

العلب وأدوات المطبخ

وأعلنت شركة رينولدز للمعادن أنها اخترعت طلاء من العجائن الكيميائية ليستعاض بهِ من صفائح الالومنيوم الرقيقة التي تلف بها رزم الشاي والقهوة وغيرها من المنتجات السهلة التلوث ، كما إن ورق الزبدة والجلاسين glassine وصفائح الرصاص الرقيقة والسيلوفان (الورق الناعم الشفاف الذي تلف بهِ علب لفائف التبغ) أيضاً يمكن استعمالها بدلا من صفائح الالومنيوم الرقيقة لأغراض كثيرة .

وتجرب الآن مادة الميناء المصنوعة من الصمغ المركب بالكيمياء الصناعية (الراتينج الصناعي) بدلاً من القصدير في طلي بعض أنواع الصفائح . وقدرت اللجنة التي ألفها المجمع الوطني الأميركي للعلوم أن في الامكان استخراج ٢٠٠٠ طن من القصدير كل سنة (الطن ٢٤٠٠ رطل انكليزي) وذلك من الصفيح القديم (أي الحديد المطلي بالقصدير)

وستصبح ربة البيت مضطرة كل سنة الى استعمال أواني الطبخ القديمة الخزفية والصاحية والمطلية بالميناء وكذلك الحلل والمقالي والأباريق الحديدية ، اقتصاداً في استهلاك معدن الألومنيوم

وينتظر ايضاً تقييد توزيع أواني الطبخ المصنوعة من الفولاذ العادم الصدإ . وهذا مما يفضي الى احداث تغيير في طرق المعيشة الأميركية ، ثم الى زيادة الطلب على أواني الطبخ المصنوعة من الزجاج الذي لا تؤثر فيهِ النيران[2] وقد اشتد الاقبال عليهِ

اعواض معادن اخرى

وتجدُّ المختبرات الخاصة بالمباحث العلمية في جميع شركات السيارات ، في البحث عن الاعواض المحتمل حلولها محل المعادن لأن أغراض الدفاع قد بزَّت مطالب التجارة .

(١) راجع مقالنا عليه في مقتطف دسمبر سنة ١٩٤١ (٢) راجع مقالنا على معجزات الزجاج في مقتطف اغسطس سنة ١٩٤١

ويتوقع العارفون ان شبابيك خزانات التبريد في السيارات ، وجلها مصنوع من الزنك ، ستختفي اختفاءً تامًّا . وهذا مما يغتبط له أربابها غير الفنيين لأن تلك الشبابيك كثيراً ما تتبعج عقب الانتظار في المواقف وذلك من اصطدام السيارات بعضها ببعض

ويبلغ ما تستنفده مصانع السيارات من الزنك كل سنةٍ لاجل صنع شبابيك خزانات التبريد زهاء ٧٦٠٠٠ طن . والزنك كما هو معلوم أهم عنصر من عناصر صنع النحاس الاصفر اللازم لتغليف الطلقات النارية اللازمة للبندقيات والمدافع الكبيرة

توفير المعادن في مصانع فورد

ومن المجهودات التي تبذلها مصانع السيارات الاميركية لتوفير المعادن لاجل الحرب ، ما قامت بهِ شركة فورد اذ وفق الباحثون في معاملها الكيميائية الى وسائل تسفر عن توفير ٨٠ ٪ من النيكل الذي تستهلكه . وكذلك توفير ٥٠ ٪ من الالومنيوم و ٥٠ ٪ من الزنك . وفي هذا الصدد يقول خبير من خبرائهم ما يأتي «لقد احدثنا في بعض الاحوال تغييراً في أدوات السيارات ، بحيث اصبحت الاجزاء الجديدة ليست اقل نفعاً من القديمة بل انها في اكثر الحالات أفضل منها حقيقة . وقد تم ايضاً تحسين مظهر بعض الاجزاء ولاسيما التي ادخلت فيها العجائن الكيميائية توفيراً للمعادن»

اما الاقتصاد في النيكل فيتم باستعمال الفولاذ المخلوط بالكروم خلطاً كاملاً بدلاً من الفولاذ المخلوط بالنيكل والكروم وذلك في جميع الزخارف المعدنية اللامعة. ثم باستعمال الفولاذ المخلوط بالكروم والمولبندينوم بدلاً من الفولاذ المخلوط بالنيكل ، وذلك في صناعة التروس التي تنقل الحركة وتروس الحركات المتفاوتة . ثم بابدال الواح النيكل بألواح من النحاس الاحمر الثقيل الصقيل على قاعدة من النحاس الاحمر ايضاً وذلك لتقليل ثخانة النيكل اللازمة للصيانة . ولتوفير الالومنيوم في شتّى اجزاء السيارة وسائل متعددة

وقد استغنت شركة فورد من قبل عن استعمال المغنيزيوم في اجزاء الجرارات الميكانيكية وكل ما يستعمل من ذلك المعدن الخفيف ، انما هي الاجزاء التي تخلع من الجرارت القديمة . وتدرس الآن مصانع فورد سائر المواد اللازمة للحرب ومنها القصدير والطنجستن والفلين . وتعمل مصلحة الرسم على خفض عدد الأدوات ذات المفاصل التي تحتاج الى لحام القصدير . وقد اخترعت مخاليط من المولبدينوم لتحل محل الطنجستن في الاطراف المتينة التي تحتاج اليها العدد . وهم يبحثون الآن في ابدال الفلين بالورق المقوى

وألّفت مصلحة تنظيم الانتاج في وشنطون جماعة من العلماء المتخصصين في التعدين لدراسة الوسائل التي تفضي الى انتاج

اعواض يُستغنى بها عن المعادن اللازمة للدفاع وستوجه هذه الجماعة اهتمامها الاول الى معدني الالومنيوم والمغنيزيوم . وستعنى أيضاً بسائر المباحث المتعلقة بهذا الموضوع

***

وقد اخترعت مصانع الاجهزة التليفونية وسائل لتوفير الألومنيوم والنيكل والزنك ، والمغنيزيوم أيضا الى درجة ما فأخذت تصنع اطارات الموانىء للاجهزة الجديدة من الفولاذ بدلاً من الألومنيوم وشرعت تجرب أجهزة أخرى تقل فيها مقادير النيكل والزنك . ثم ان الصمغ المرن الصناعي والنحاس الاحمر يجربان الآن ليحلاً محل الألومنيوم في صواني الثلج في الثلاجات. وجعل هذا الصمغ الصناعي يقوم مقام الصمغ المرن الطبيعي (الكاوتشوك) الذي لا يستغنى عن استيراده من الخارج ليدخل في تركيب عشرات من الاشياء ، ومنها بطانات صهاريج البنزين التي لا يخرقها الرصاص في الطائرات ، وكذلك في الصهاريج التي تقاوم الاحماض ، وفي خراطيم البنزين والنفط وغيرها من الاشياء الكثيرة حتى اطارات السيارات

***

ومن الغريب ان المطاط الصناعي يفضل المطاط الطبيعي في كثير من الاحوال . والنيلون (راجع منسوجات المستقبل في مقتطف مايو ١٩٤٠) وهو النسيج الذي يصنع بالتركيب الكيميائي وقد عرفه الجمهور من قبل ، ولا سيما النساء ، بكونه بديلا جيداً من الحرير الطبيعي يمكن استعماله في المظلات التي تهبط من الطائرات والبلونات بدلاً من الحرير الطبيعي المستورد

عوض جندي

بُعد الشمس

أتمّ الفلكي البريطاني الدكتور سبنسر جونز بحثاً جديداً غرضه تعيين بُعد الشمس ، على أوفى وأدق وجهٍ مستطاع . والرأي ان النتيجة التي أسفر عنها بحثهُ تحقق هذا الغرض

ولا يخفى ان مسألة تعيين بُعد الشمس تعييناً دقيقاً من أهم المسائل في علم الفلك . لأن هذا البعد يدخل في حسابات رياضية فلكية جمّة ، مثل حساب أبعاد السيارات والاقمار والنجوم وتقدير حجومها وكتلها . والرقم الذي توصل اليه الدكتور جونز هو ٩٣٫٠٠٥٫٠٠٠ ميل واحتمال الخطإ فيه عشرة آلاف ميل زيادة او نقصاً يقابل ذلك الرقم المقبول في دوائر علم الفلك حتى الآن وهو ٩٢٫٨٥٠٫٠٠٠ ميل

الاختراع في زمن الحرب

يلوح من احصاء دقيق ان الحرب تثير خيال المخترعين وهمتهم استجابةً الى ماتقتضيه الحرب من وسائل علمية جديدة في شتى نواحيها . فقد كانت وزارة الحرب البريطانية تتلقى في السنة الواحدة ، في أثناء السلام ، مقترحات بمخترعات جديدة يتفاوت عددها من الف الى أربعة آلاف ، ولكن هذا العدد بلغ ٣٤٥٤٠ مقترحاً في سنة ١٩٤٠ وصنع مدير المباحث العلمية في وزارة التموين رسماً بيانيًّا دوَّن فيه عدد المقترحات الجديدة التي تلقاها شهراً فشهراً منذ ما نشبت الحرب فاذا هو يدل على ان المتوسط الشهري من سبتمبر ١٩٣٩ الى ابريل ١٩٤٠ متفاوت بين ١٥٠٠ مقترح و ٢٠٠٠ مقترح . ولكن المتوسط زاد زيادة كبيرة في شهري مايو ويونيو من سنة ١٩٤٠ فبلغ في الاول ٤٠٠٠ مقترح وفي الثاني وهو الشهر الذي انهارت فيه مقاومة فرنسا الحربية ٧٠٠٠ مقترح . ثم هبط عدد هذه المقترحات الجديدة الى دون ٢٥٠٠ مقترح في شهر سبتمبر ١٩٤٠ ثم زاد زيادة ظاهرة في اكتوبر على أثر تفاقم الهجوم الجوي على مدائن بريطانيا فبلغ في اكتوبر ١٩٤١ نحو ٣٧٥٠ مقترحاً

وما أقبل شهر يونيو من سنة ١٩٤١ حتى عاد عدد المقترحات الى المتوسط العادي وهو نحو الفين

وقد أثبت البحث ان مقترحاً واحداً من اربعمائة مقترح على المعدّل يفضي الى نتيجة عملية . ومع ان المقترحات تتفاوت عدداً وفقاً لحوادث الحرب فان المقترحات المفيدة التي تفضي الى تطبيق عملي لا يتفاوت عددها كثيراً لأن المخترعات المفيدة ليس مردها الى المقترحات الصادرة عن جمهور الشعب ولكن الى مقترحات جماعات من العلماء والباحثين يمضون في عملهم مهما تتقلب احداث القتال ولكن هذا لا يمنع ان يستخرج من المقترحات الصادرة من الجمهور مخترعات مفيدة . فقد اقترح صبي في الثانية عشرة مثلاً مقترحات مفيدة جدًّا خاصة بصناعة الدبابات وأرفق مقترحاته برسوم دقيقة ، فطبق بعض ما جاء فيها

وقسم المباحث العلمية في وزارة التموين يشمل مكتباً خاصًّا للبحث في جميع المقترحات التي تصله من جميع انحاء العالم . ومن هذه المقترحات ما يبدو اول وهلة غير عملي لسبب من الاسباب ، فيعنى رجال هذا المكتب بدراسته دراسة وافية ليعلموا هل في الوسع تحويله بحيث يصبح تطبيقه ممكناً . وقد اقترح أحدهم — وهو من بلد اجنبي — طريقة لتوليد الدخان تصلح بوجه عام لحجب جسم ما فلا تراه القوات المهاجمة . فرفض هذا المقترح أولاً وكان سبب الرفض ان الاحوال الجوية في البلد الذي جاء منه الاقتراح تختلف عنها في بريطانيا . ثم أعيد النظر فيه فعدل تعديلاً جعله صالحاً للتطبيق في بريطانيا ، وقد ثبت تفوقه بالامتحان

حمّى التيفوس والحرب

نشرنا في مقتطف يناير ١٩٤٢ (صفحة ٦٩ — ٧٢) مقالاً عنوانه «تأثير الاوبئة في الحروب الماضية» فأشرنا الى انتشار وباء التيفوس في اثينا في اوائل القرن الخامس ق.م. والى ان حمّى التيفوس تتصل على الغالب بالحرب والمجاعة والفاقة والازدحام ولا يقتصر تأثيرها على الجيوش بل يشمل الاهلين كذلك وبسطنا كيف انتشرت في بلاد الصرب في الحرب العالمية الاولى وفي بلدان اخرى في اوربا الشرقية

ويسرّنا ان يكون الدكتور علي توفيق شوشه بك، وكيل وزارة الصحة قد وفّى هذا الموضوع حقه من الوجهة الصحية والوقائية في حديث افضى به الى المقطم في ٢٦ فبراير فنقلنا منه الفقرات التالية : —

«التيفوس مرض معدٍ استوطن القطر المصري وسيبقى فيه ما دامت الحالة الثقافية والاجتماعية لافراد الشعب على ما عليهِ الآن من فقر وسوء تغذية وجهل

«ومن المشاهد وبائيًّا ان هذا المرض كثير الانتشار في وقت الحروب حيث يكثر تجمع الناس وازدحامهم وحيث تكثر تنقلاتهم تضاف الى ذلك قلة التغذية الناتجة من ارتفاع الاسعار وما يتبعها من انحطاط مستوى المعيشة

«والواقع ان حل مشكلة التيفوس ينحصر في مسألة واحدة وهي ابادة القمل وهو الحشرة الناقلة له في مصر وسيبقى التيفوس وأوبئته مادام افراد من الشعب يحملون هذه الحشرة في رؤوسهم وعلى اجسامهم وفي ملابسهم من جراء عدم الاستحمام وغلي ملابسهم وهذا بالطبع ناتج عن جهلهم وفقرهم»

وبعد ما بسط الدكتور شوشه بك عناية وزارة الصحة، باصدار منشور في دسمبر الماضي الى أطبائها تنبههم فيهِ الى احتمال ازدياد الاصابات في العام المقبل بسبب الاحوال الحاضرة وتحثهم على الاهتمام اهتماماً كبيراً «بالبحث والتحري عن بؤر المرض وهي حديثة مبتدئة لحصره في دائرة ضيقة والاقلال من انتشاره في الموسم القادم» أورد نواحي عناية الوزارة بعلاج المصابين وبأعمال التطهير ومراقبة العمال في القرى علاوة على اهتمامها بتوفير الحمامات والمغاسل في القرى وبتخصيص أيام للفقراء يغتسلون فيها مجاناً باشراف ممرضات ومعاونين ومبخرين

ومما هو جدير بالذكر ان المكاتب الصحية تبلغ الآن ٢٧٣ مكتباً منها ما لا يقلّ عن ١٣٠ مكتباً في القرى الصغيرة وقد بلغ عدد النواحي التي عملت فيها عملية إبادة القمل في هذا الموسم ٢٦٣ قرية سكانها ٣٠٠٠٠٠ نسمة ثم تكلم على ناحية الوقاية فقال : —

«واما ما يقوله البعض من امكان مكافحة أوبئة التيفوس بتحصين الناس بالمصل الواقي

فالواقع ان الموضوع بأ كمله لم ينتقل بعد من طور التجربة والوزارة تتبع جميع أدوار المسألة

« ولايضاح الموضوع نقول ان المصل الواقي لهذا المرض على نوعين : —

« أولهما مصل محضر من جراثيم حية مضعفة وينتج عن استعمال هذا المصل اصابة الاشخاص المحقونين بمرض التيفوس الجردي وقد دلت التجارب على ان المحقونين بهذا اللقاح يحملون جراثيم التيفوس في دورتهم الدموية. ومن المحتمل جدًّا ان تصاب البراغيث والقمل التي تعيش على اجسامهم بهذه الجراثيم فينقلوا العدوى الى غيرهم ولا يمكن في حال من الاحوال ان يعم استعمال هذا اللقاح في بلاد كمصر

« واما النوع الثاني من اللقاح فهو الحقن بالجرثومة الميتة فقد استعملت هذه الطريقة في بلاد كثيرة ولا سيما بولونيا وطرق تحضير مثل هذا اللقاح كثيرة لامحل لذكرها واكثر التجارب التي جرّبت أجريت على الموظفين والعمال الذين يتعرضون بطبيعة عملهم للمرض كالأطباء والممرضات وغيرهم . وقد أتت نتائج استعمال هذا النوع من اللقاح مرضية بوجه عام . ولكن نظراً لصعوبة تحضير مقادير كبيرة منهُ يصعب جدًّا استعمال هذا المصل لوقاية الناس عامة

« ورغم ذلك لم يفت الوزارة ان تستفيد من وجود بعض اعلام الطب من البريطانيين في مصر في الوقت الحاضر فاتصلت بهم لغرض تحضير لقاح من الجرثومة المحلية لهذا المرض وتجربته وفعلاً اتفق على تخصيص مكان خاص بمعمل المصل واللقاح التابع للوزارة لهذا الغرض لاجراء البحوث الاولية وتحضير لقاح ميت من سلالات الجرثومة الجردية وندب أحد البكتيريولوجيين للعمل مع هؤلاء الخبراء وتود الوزارة ان تنتهي هذه البحوث بالحصول على لقاح يحدث مناعة كافية وطويلة الأمد للوقاية من هذا المرض . والمفهوم ان استعمال مثل هذا اللقاح سيكون مقتصراً في بادىء الأمر على الذين يتعرضون بحكم عملهم لخطر العمل . فاذا ما أثبتت التجارب نجاح اللقاح وأمكن اخراج مقادير كافية فكر في استعماله للاهلين

فيتامين B_1 ونمو الكتان

من النبات ما يزداد نموه ازدياداً ظاهراً اذا أضيف الى غذائه مقدار من ڤيتامين B_1 النقي يبلغ جزءًا من عشرة ملايين جزءٍ من السائل الذي يغذيه . فاذا سقيت جذور نبات الكتان بمحلول يحتوي على جميع المعادن والأملاح اللازمة لها بعد إضافة قدر يسير جدًّا من فيتامين B_1 بالنسبة التي تقدم ذكرها زاد معدل نمو سوق الكتان بوصة في النهار

المجهر الكهربي وفوائده

اخذ استعمال المجهر الكهربي يسفر عن نتائج عجيبة في الطب والصناعة. فهو يكبّر الاجسام الدقيقة مائة الف ضعف وقدرتهُ على التكبير تفوق قدرة المجاهر المألوفة من عشرين الى خمسين ضعفاً. ففي وسع الذين يستعملونهُ ان ينفذوا الى عالم كان خفيّاً على البشر (راجع وصف هذا المجهر في مقتطف ابريل ١٩٤١)

ومن العلماء الذين يعتمدون عليهِ الآن الدكتور وندل ستانلي. وهو الباحث الاميركي الذي اخذ ينفذ الى اسرار الڤيروس (راجع فصل اسرار الڤيروس في «آفاق العلم الحديث» ص ١٣٣) ومباحثهُ الحديثة المستندة الى هذا المجهر تشير الى احتمال الكشف عن الڤيروسات في اثناء تكاثرها. ولا يخفى ان الدكتور ستانلي استفرد الڤيروس الذي يسبب مرض التبقع (الفسيفساء: mosaic disease) في ورق التبغ فوجد انهُ ليس جرثومة وحسب بل هو بلورة كيميائية كذلك. وقد تمكن الدكتور ستانلي وزميل لهُ من تتبع التفاعل بين جزيء هذه الڤيروس وجزيئات اخرى صغيرة، بالاعتماد على المجهر الكهربي. واذن فليس ما يمنع العلماء متى اتقنوا هذا الاسلوب من الاستطلاع الدقيق، عن تبين الڤيروس المسبب للسرطان، اذا كان كامناً في الخلايا، عند يتحرك للعمل

وقد كشف هذا المجهر تغيرات عظيمة الشأن معقد التركيب تحدث في مكروب الدفثيريا، فوجد ان المكروب يمتصُّ مواد كيميائية كالأملاح المحلولة على نحو ما تفعل الاحياء الكبيرة. «فتلوريت البوتاسيوم» ينتشر في جسم المكروب ثم يحوَّل الى تلوريوم فلزي مبلور. ولو كان في الوسع تكبير شعرة من رأس رجل بهذا المجهر لبدت في ضخامة إحدى الاشجار العاتية التي اشتهرت بها ولاية كاليفورنيا الاميركية، ومنها شجرة حفر في جذعها نفق تجتازه السيارات. ولو كبرت بهِ قطعة النقد الفضي المعروفة «بنصف فرنك» لزاد قطرها على ميل

ولهذا المجهر فائدة عظيمة في الصناعة الكيميائية، ومن الاغراض التي يتوخاها الباحثون الآن، النفوذ بهِ الى سر «الوسيط» Catalytic agent في التفاعل الكيميائي، ولا بدَّ ان تجنى من استعمالهِ فوائد جمَّة في صناعة المنسوجات وصبغها والجلود ودبغها والمطاط ومدى فائدتهِ قبل ان يفقد خواصه وعشرات المواد الكيميائية الأخرى

وقد كان المجهر الكهربي الاول ضخماً يملأ حجرة غير صغيرة، ويقتضي استعمالهُ أجهزة كهربية متعددة ولكن اتقانهُ مهَّد لصنع مجاهر صغيرة الحجم يكفي لاستعمالها وصلها بسلك بالتيار الكهربي الخاص بالاضاءة

عالمان يتبادلان التحية

تلقى الدكتور پول ديراك العالم الرياضي الطبيعي المشهور والاستاذ بجامعة كمبردج البرقية التالية من العالم الطبيعي الروسي پول كاپتسا — عزيزي پول : في ساعة المحنة التي يعانيها بلدانا ضد العدو المشترك أودُّ أن أبعث اليك بتحية تنمُّ على صداقتي ومودتي. ان اتحاد جميع رجال العلم يسدي عوناً عظيماً الى الانتصار على العدو الغادر الذي دمَّر بقوتهِ الغاشمة الحرية وسحق الفكر العلمي الحر في المانيا وهو يحاول ان يحقق ذلك في سائر اقطار العالم . وانني لأحيي جميع الاصدقاء المتحدين في عزمهم على النضال الى ان يتحقق النصر لحرية جميع الشعوب وحرية الفكر العلمي العزيزة في وطنينا . فردَّ عليهِ الدكتور ديراك بالبرقية التالية : —

شكراً : اننا في انكلترا ما فتئنا واثقين بالنصر النهائي لقضية الحرية واننا لمغتبطون باتحاد بلدينا . ونحن معجبون أشد اعجاب بشجاعتكم ونتمنى لكم تمنياً صادقاً صادراً من أعماق القلب نجاح قواتكم الباسلة وهي باتحادها بقواتنا ستسبغ على العالم نعمة السلام وحرية التقدم العلمي

والاستاذ كاپتسا مدير معهد المسائل الطبيعية في موسكو وكان قبلاً مديراً لمعمل موند للجمعية الملكية في جامعة كمبردج . وقد اشتهر باستنباطهِ جهازاً لاسالة الهواء والهليوم. أما الدكتور ديراك فأستاذ الرياضة في جامعة كمبردج وهو المنصب الذي شغله قبلاً الفيلسوف نيوتن وغيره من أعاظم العلماء وقد نال جائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩٣٣

الكاروتين في الجزر
والحرب الجوية

كشفت باحثة اميركية مختصة بكيمياء الغذاء أن الجزر الذي ينبت في أرض ولاية أريزونا بالولايات المتحدة الاميركية ،يحتوي على مقدار من الكاروتين يفوق المقدار الذي يحتوي عليهِ الجزر العادي

وهي الآن مهتمة بالكشف عن سرّ ذلك وهل مردُّهُ الى تربة الولاية او الى تأثير ضوء الشمس في النبات خلال نموه

وقد اهتم سلاح الطيران البريطاني اهتماماً خاصًّا بهذا الكشف ، لان الكاروتين — وهو صبغ أصفر يوجد مع اليخضور (الكلوروفيل) في النبات الاخضر — يتحول في الجسم الى فيتامين A وهو من الفيتامينات التي لا غنى عنها للابصار الدقيق في الظلام . وهذه القدرة من أهم ما يجب ان يتصف بهِ رجال المطاردات الليلية على وجهٍ خاص

الزرنيخ يسمم الرصاص والنحاس

في اجتماع حديث للجمعية الكيميائية الاميركية تلا الدكتور نورمان هارور رسالة قال فيها ما ملخصهُ : —

أن فعل الزرنيخ السمي لا يقتصر على البشر بل يشمل الفلزات كذلك . فاذا ترك الزرنيخ في الرصاص حوّلهُ فلزاً قصماً مع انهُ فلز لين . واختلاط الزرنيخ بالنحاس يضعف قدرة النحاس على ايصال التيار الكهربي . فالزرنيخ فعّال في تدمير خواص المعادن فعلهُ في تدمير خواص الاجسام الحية

الاسنان والقلب

عندما يقول الطبيب لأكول نهم « لا تحفر قبرك بأسنانك » فانهُ يقصد على الغالب سوء الهضم وما ينشأ عنهُ من علل المعدة . ولكن الاسنان ولا سيما الاضراس تؤثر في القلب اذا لم تكن سليمة او اذا كانت اللثة ملتهبة . ذلك بأن الألم الذي يحسّ بهِ المرء عند المضغ يحملهُ على ازدراد الطعام قبل مضغهِ مضغاً كافياً فيحمّل المعدة عبئاً اضافيّاً في محاولتها هضم هذا الطعام وهذا يزيد العبء الذي يتحملهُ القلب . وتقيُّح اللثة كالاسنان النخرة او القرحة الجذور يفضي الى ازدراد سموم تلبك المعدة وتسري في الدم فتؤثر في القلب . فالعناية بصحة الاسنان والفم تزيل جانباً من العلل التي تضعف القلب

هل تعلم

* إن رجلاً يتغذى غذاءً كاملاً يستطيع ان يبقى من خمسين الى ثمانين يوماً بغير طعام ومن ستة أيام الى ثمانية بغير ماءٍ، ولا يستطيع ان يعيش الاَّ عشر دقائق على الاكثر بدون هواء

(عن الدكتور كارلسون في ملخص العلم)

* ان قدرة الذباب على المشي مقلوبة أقدامها الى فوق ، كمشيها على سطح حجرة ، ليس سببها أن في أقدامها ممصات صغيرة لتفريغ الهواء فتستطيع بذلك تثبيت أقدامها في السطح الذي تمشي عليه مقلوبة ولكن سببها أن في أقدامها غدداً صغيرة تفرز مادة لزجة تستطيع بها الصاق اقدامها بما تمشي عليهِ ؟

* إن من المفارقات التي كشفها الاستاذ أرنست جيلهورن بجامعة ألينوي الاميركية ان الاسوياء من الناس يرتفع ضغط دمهم عند ما يشتدُّ انفعالهم وان المجانين ينخفض ضغط دمهم ويقل السكر فيهِ عندما يهتاجون؟

* ان القنفذ لا يطلق ريشهُ على عدوه الذي يريد ايذاءَه . ولكنَّ هذا الريش حاد الرؤوس فيسهل اقتلاعهُ من منابتهِ فلا عجب اذا نشب بعضهُ في أجسام الحيوانات التي تهاجم القنفذ فيظن أن القنفذ أطلقهُ عليه كالسهام ؟



مكتبة المقتطف

احمد راسم

— في الحديقة القديمة — مجموعة شعر باللغة الفرنسية — القاهرة ١٩٤٢

للكاتب المصري المشهور في الأوساط الأوربية سعادة احمد راسم بك قلم يجمع في الكتابة الفرنسية بين نَفَس الابتداعيين ورشاقة الاتباعيين ولطافة الرمزيين . ولتآليفه المختلفة معجبون في مصر ووراء المحيط . ومن خصائص هذا الشاعر الكبير انهُ يبثُّ في انشائه الفرنسي روحانية شفافة يستقيها من منابع الأدب الشرقي المتقادم الى جنب أنهُ ممن يجعل الشعر تعبيراً عن الموسيقى في ايقاعها والرسم في تخطيطه . وكثيراً ما تلقى في أشعاره الجذابة صوراً ومعاني ليس لها من الفرنسية سوى الكسوة الباهية،وأما الأصل فذلك التراث الفني من الأدب العربي الرفيع

وهذه المجموعة مختارات لشعر احمد راسم بك ، مما يجد فيه القارىء المهذب متعة للذهن ومجالاً للخيال وصوتاً عذباً للاذن . يجد فيه دقة الشاعر بجنب تبصر الفيلسوف ، فيهتدي الى اسرار الضمائر المخبأة ودقائق الأنفس المستترة بغير كلفة ، اذ كل ما عليه أن يتتبع المعنى الخفي خلال جمل كأنها مصوغات نادرة صافية لامعة . لا ثقل ولا تكلف ولا نبوّ . وكأن اللغة الفرنسية تحت قلم المؤلف أمَة لا تستعصي ولا تتصنع

ولاشك عندنا في ان هذه المجموعة النفيسة ستظفر بما تستحقهُ من اعجاب القراء وستمكن المؤلف في منزلته الرفيعة

محمود تيمور

. المخبأ رقم ١٣ . القاهرة ١٩٤١

عرفنا الكاتب محمود تيمور قصاصاً ، وله في فن القصص حذق مستقر . وله فيه بعد سنوات بدوات لطاف ، منها قصته « نداء المجهول » التي نشرتها دار « المكشوف » في

بيروت، وقد خرج فيها من الواقعية الى التخيلية ففكّ عن القلم قيود المباشر من الملموس، وهو اليوم ينصرف الى فن المسرح فيخرج ثلاث مسرحيات في فصل واحد ، ثم «المخبأ رقم ١٣».

وهذه المسرحية تدخل في نوع الفكاهة الساخرة ، والغريب ان الاستاذ محمود تيمور ، هذا الرجل البعيد عن الاستهزاء والمزاح في مجلسه ، لميال في بعض ما يكتب الى التهكم والعبث . ولكن ليس في الأمر غرابة لأن الكاتب يسترد جوهر نفسه ساعة يجري القلم . ففي هذه المسرحية يريد المؤلف ان يكشف عن لؤم الانسان وجبنه . وقد تمكن مما يريد باختيار موضوع يجرد الانسان من معاطف التصنع

تمثل المؤلف طائفة من الناس اختلفت مشاربهم وتباعدت درجاتهم وقد هبطوا مخبأ في ليلة غارة . وقد بيّن صفة كل واحد منهم في الفصل الاول وعرض الخصائص التي يتميز بها في الحياة الجارية ، فلحد الى جنب جشع، وعابث ومهوّل ثم غانية . ومتى هدد الموت هؤلاء الناس في الفصل الثاني رجعوا جميعاً عن الصفات التي ينتحلونها والحياة تملأ صدورهم : فعرف اللحد ربه ، ومال الجشع الى الانفاق، وتعقل العابث وخاف المهوّل ثم تابت الغانية . في هذا سرّ المسرحية . وفي تدرج حركات النفس من النقيض الى النقيض لباقة المؤلف وقوة المعالجة

***

وان بدا لنا ان نحاسب المؤلف على مسرحيته اللطيفة عاتبناه في استعمال اللغة العامية العاجزة عن التعبير الوافي ، ولاسيما انهُ ممن يملك القلم الفصيح . ولربما أفلتت العامية من أنامله مثلاً : « ساعتين ولا أكثر» ص ٦ ، وهو يريد «ساعتين مش زيادة» . «بالأسمنت» ص ٧ ، والوجه عند العامة «بالسمنتو» . ومن الغريب في هذا الصدد ان يقول ماسح أحذية « صوت فأري » ص ٨ ، وأقرب الى الدارج : « صوت فيراني » ، هكذا النسبة الى الفأر عند السوقة

وفي المسرحية فكاهة حق: مثال ذلك ان بياع «الكعك» يحلف ان الكعكة الباقية لديه طازجة ، والناس في المخبأ يموتون جوعاً (ص: ٩٦) .غير اني أرى بعد التلمّس للفكاهة في اختيار اسماء الاشخاص : فهيم الخشن ، بهجت الناعم ، قشقوش ، بسبوسة ، دهب افندي (المرابي الجشع)

هذا وقيمة المسرحية ، كما قدمت ، في تقلب الشعور البشري بخروح النفس من الطمأنينة الى الفزع، وفي مناضلة النفس للتسليم بأنّ المكروه واقع. وحسب المؤلف انه استطاع أن يصور هذه النزعات في مخبأ وباللغة العامية ، تصويراً فيه الأخذ والتبصير

ب . ف

عروس النيل

لمحمود تيمور بك — ٧٦ صفحة من القطع الوسط — نشرتها دار مجلة « الحوادث »

لقد وجّه الاستاذ تيمور بك عنايتهُ نحو المسرح المصري وحوَّل نشاطهُ وخصب قريحته الى التأليف فيهِ فلم تكد تمضي ثلاثة أشهر حتى كانت له ثلاثة كتب منها كتابٌ واحد ضمَّ بين دفتيهِ ثلاث مسرحيات . وهذه « عروس النيل » آخر ما أخرج وهي مسرحية غنائية في ثلاثة فصول عالج فيها فكرة سيطرة العقائد والتقاليد وأثرها في نفوس الشعب فاتجه بفنهِ الى التاريخ المصري القديم حيث كان القوم يؤلهون «النيل» وكانوا يختارون له في كل عام عروساً من أجمل فتيات مصر تلقى بين أحضانه ، وكانت تختار له العروس بين مظاهر الفرح والسرور ثم يبتلعها جوف النيل بين ابتهاج الشعب وأغاريده ليعطي النيل شعبه الخصب والنماء جزاءً بجزاء ووفاءً بوفاء . وظلت هذه عادة القوم يتوارثونها جيلاً بعد جيل حتى استبدلت بالعروس الآدمية على عهد الاسلام عروسٌ من طين وما يزال هذا التقليد متوارثاً الى الآن

***

استمد المؤلف وقائع مسرحيته من هذه الحقيقة في تلك الحقبة من تاريخ مصر حيث وقف بنا في ردهة فتاة مصرية اسمها «رونا» هي أخت فرعون في الرضاعة مخطوبة لقائد من قواد الجيش اسمه « رمري » وقد انهمكت مع مربيتها في اعداد وليمة تولمها لخطيبها عند عودتهِ ظافراً من موقعة في جنوب مصر وهي تغني وتنشد أغاني أفراحها وسرورها وإذ هي كذلك يظهر قائد آخر اسمه « شانسو » يحبها ويحسد زميله على حب هذه الحسناء فيحاول تعكير ماهي فيه من سرور فيروي لهـا الاكاذيب عن حبيبها وانهُ قد عاد من موقعته بغانية جميلة ونفهم من محاورتهِ إياها ان«رمري»حبيبها ممن لا يؤمنون بالخرافات وانهُ يريد القضاء على بعض العقائد التي لا أساس لها في الدين ومنها فكرة التضحية بعروس للنيل . وعندما يخرج هذا القائد يائساً من حب « رونا » لهُ يدخل حبيبها الظافر فنرى لوناً من العتاب الجميل تتكشف عنه دسائس القائد الخائن لصديقه والخائن لوطنه . ونسمع « رمري » يروي عن زميله أنكر الخيانات وان لديه المستندات التي سيقدمها لفرعون مصداقاً لقوله ثم نسمع هتاف الجماهير وأغنيات الملاّح احتفالاً باختيار عروس النيل ونرى هذا القائد ساخطاً على هذه التقاليد العتيقة ، وبينما كان الحبيبان في خلوتهما يلقى على قرب منهما سهم فيهرع حبيبها الى التقاطه فيرى فيه ورقة وحين يفضها يقرأ فيها ان « رونا » قد اختيرت عروساً للنيل فتثور ثائرته . حتى اذا كنا في الفصل الثاني نجد «رمري » مجتمعاً بفرعون يناقشهُ في أمر اختيار « رونا »

للتضحية ويناشده ان لا يضحي بها ثم يأخذان بسبيل خيانة « شانسو » للوطن ثم يطلب فرعون رئيس الكهنة ويعرض عليه أمر هذه الخيانة ونرى نقاشاً في اختصاص الدولة او الكهنة في أمر محاكمة الخائن ، وبعد ان يخرج رئيس الكهنة تدخل « رونا » على فرعون تودعه قبل ان تهبط الى اعماق اليم وعلى أثر خروجها يدخل « رمري» منبئاً فرعون بحدوث تلاعب في اختيار عروس النيل وان المتهم في ذلك هو «شانسو» بالاشتراك مع بعض الكهنة ولكن رئيسهم بريء منها ويقدم الدليل على ذلك ، وبعد ان ينصرف يدخل رئيس الكهنة فيتحدث اليه فرعون عن التلاعب الجديد فيحاول انكاره وأخيراً يطلب الى فرعون ان يقدم اليه شانسو نظير تقديمه « رونا » اليه فيقبل ذلك بعد لأي ، وبعد خروجه يطلب فرعون المثال حابي ، ونرى في ختام هذا الفصل منظراً رائعاً من مناظر الوداع بين الحبيبين مؤثراً كل التأثير

حتى اذا بدأ الفصل الثالث كان الكهنه والشعب يحتفلون بالضحية ، وكان فرعون قد أعدّ ما بيت أمره عليه ونفذه على غير علم من رئيس الكهنه ومن «رونا » و « رمري » ومن الشعب الذي يجهل ما يدور وراء عالمه . ثم يطلع المنظر الثاني من هذا الفصل على القائد « رمري »حزيناً لمصير حبيبته . وفيما هو مستغرق في آلامه يدخل عليه رئيس حراس الملك فينبئه بأن فرعون قد أمر بزواجه من الاميرة التي كان قد سباها في موقعته الظفرة . وبينما هو يسأل هذه الاميرة عن رضاها على العزم على السفر الى أبيها فلا تجيب ترفع عنها خمارها فتتولاه الدهشة والذهول أمام وجه « رونا » ونفهم من حديثها ان فرعون قد أمر المثال بصنع تمثال على هيئة «رونا» فألقى به في النيل ويدخل فرعون فيشكران لهُ صنيعه ثم يطلب اليهما الرحيل عن مصر لتظل الحقيقة خافية على الناس

هذه هي المسرحية الغنائية التي أخرجها أخيراً تيمور بك قوية في حوادثها قوية في حوارها وقد كتبها باللغة العامية كالمسرحيات السابقات ، وهي تحمل جميع عناصر فن تيمور . ولربما أُخذ عليهِ فيها ان حلّ مشكلة اجتماعية خطيرة انما كان باللجوءِ الى حيلةٍ — هي حيلة المثّال — لا بعلاج قويّ يتناول الأصول ويبين قوة الخلق

وقد هيئ للجمهور المصري أن يشهد في الشهر الماضي اجتماع ثلاث مزايا فنية في مشاهدة هذه المسرحية على اوبرا « ملك» التي افتتحت مسرحها الجديد بهذه الرواية وأخرجها لها الفنان الكبير الاستاذ زكي طليمات . نعم : لقد اجتمعت ثلاث مزايا من فن تيمور ، وفن طليمات ، وفن ملك ، فانتقل الناس على اجنحتها الى عالم من الخيال والبهجة

حسن كامل الصيرفي

مجلتان من بيروت : « الطريق » ، « الاديب »

بيروت من أوفر البلدان العربية نشاطاً في كل جانب . ولأدبائها على وجه الخصوص همة عالية وسعي متصل . ولا كافة على من يزور بيروت ويجتمع بحملة الأقلام فيها على أن يستوثق من هذا السعي المحمود وتلك الهمة المباركة . وفي بيروت وليس ذلك بحديث ، جمهرة منظورة من العلماء والكتاب والشعراء وفيها الصحف الادبية الزاخرة بالحماسة والحركة النافعة . نذكر منها « المكشوف » وقد سبق لنا ان نوهنا بفضلها وبمكانة مطبوعاتها . ونذكر « الجمهور » . واليوم وصلتنا مجلتنان جديدتان ، هما «الطريق» و «الأديب» . اما الاولى فهي رسالة ثقافية تصدرها عصبة مكافحة النازية والفاشستية . وفيها كثير من الموضوعات الحيوية الوثّابة القائمة في وجه الاستبداد والتعصب والعدوان . ومن منشئيها الصديق الفاضل الأستاذ عمر فاخوري وهو من اركان الادب الخالص المنوّر في بيروت . وأما «الأديب» فتميل الى الفن وتضرب الى الأدب وهي خارجة في شكل حسن وفي نظام مستحب . ومنشئها الأستاذ ألبير أديب من أصحاب النظر في النقد والرأي في الاجتماع . ويعاونه على الإنشاء نخبة من الأدباء الكرام كالأساتذة جبران تويني وميشال ابو شهلا وعيسى اسكندر المعلوف وعمر فاخوري وصلاح الأسير

وإنا لنتمنى لهاتين المجلتين الخارجتين علينا خروج الشعاع أن تنالا من الفلاح والرواج والمكانة ما هما به حقيقتان . ب . ف

قصر النظر — اسبابه وعلاجه

الدكتور عباس جوهر من اطباء العيون المصريين الممتازين ولقد شاء أن يتيح للجمهور من تجاربه ومشاهداته ، ومن أحدث النظريات العلمية التي انتهى اليها علم الطب في هذا العصر ، ما يبصرهم بموضوع قصر النظر واسبابه وعلاجه ، فوضع جميع هذه التجارب والمشاهدات والنظريات في بحث طريف عالج فيه هذا الموضوع علاج الطبيب العالم والناصح المخلص فأسدى بذلك الى الجمهور يداً مشكورة ، لانه ما من شك في أن اغلى ما في الانسان عيناه وما من شك ايضاً في أن اكثر العلل في مصر هي علل العيون . فهذا البحث من هذه الناحية جدير بالالتفات والتقدير

وقصر النظر منتشر بين السواد الاعظم من الأمة وكثير من الناس من يجهل اسبابهُ ولا يهتم بعلاجه اهتماماً جديّاً وراء ذلك ما وراءه من الضرر فاذا جاء اليوم الطبيب الناصح يضع امام أعين الناس هذه الاسباب ويبين لهم طريق العلاج فهذا ولاشك واجب مقدس من ناحية وهمة تستقبل بالشكر من جانب الجمهور وسعي محمود لنشر الثقافة الطبية واذاعتها بين الناس

أوليات النحالة

١٢٨ صفحة من القطع الكبير — مطبعة التعاون بالاسكندرية — الثمن ٥٠ مليما

ليس من ينكر فضل الدكتور أحمد زكي أبو شادي على النحالة والنحالين في مصر ، بل لانغالي اذا قلنا أن حركة النحالة في الاقطار الشقيقة قد تأثرت بجهوده في ربوع النيل . فلقد ألف وحاضر وأخرج مجلة قاصرة على هذه الغاية وأنشأ رابطة للنحل ونشر هواية تربية النحل بين تلامذة المدارس والجمعيات التعاونية وغيرها من الدوائر الزراعية وضحى في سبيل ذلك بكل شيء . وآخر ماوضع من الكتب في هذا الفرع من جهوده كتاب « أوليات النحالة » . وهذه طبعتهُ الثانية . وقد أراد أن يكون من ورائهِ نفع للمشتغلين بالنحالة من الهواة وعلى الاخص للمبتدئين . ولقد جمع في هذا الكتاب صفوة خبرتهِ العملية والعلمية في مدى ربع قرن الى جانب زبدة مطالعاتهِ في أشهر المراجع العالمية وما اقتبسهُ من أحاسنها . وانا لنوجه طلبة الزراعة والمشتغلين بالمسائل الزراعية ومن يهتمون بالنحالة الى مطالعة هذا الكتاب الجامع

القافلة المنسية

بقلم البدوي الملثم — ١٠٣ صفحة — المطبعة التجارية بالقدس

الاستاذ يعقوب العودات المعروف بـ « البدوي الملثم » أديب من أدباء شرق الاردن طالع له قراؤه طرفاً من الأبحاث في مناح شتى وأعجبوا به

وشرق الاردن الذي أنجب البدوي الملثم قطر عربي خالص نهض منهُ في أحضان التاريخ الغابر بطل العرب الخالد موسى بن نصير الذي قاد جيش الاندلس فأخضع غرب اوربا الجنوبي للأمة الضاربة في مجاهل الصحراء . كذلك نشأ من هذا القطر الشقيق « روح بن زنباح » أحد ولاة بني أمية ومن أجلّ الرجال المقدمين عند عبد الملك بن مروان في مواقفه وسياسته وأنجب الطبيب النابغ موفق الدين يعقوب بن شعلان

في هذا القطر العريق نشأ قوم أماجد وعى التاريخ في بطونه لهم أمجاداً وروى لهم آثاراً طيبة ولكنها موزعة متفرقة

ولقد نهض «البدويُّ الملثم» تدفعهُ وطنيته وعروبته ، واباؤه وشممه الى ان يسجل لابناء وطنه تاريخهم ويضم صحائفهم بعضها الى بعض فلاتبقى متفرقة ولا تظل موزعة منسية فأخرج هذا السفر الجميل الذي زانه بهذا الاسم الرقيق « القافلة المنسية » فضم بين دفتيه ترجمات لخمسة وثلاثين من مشهوري وطنه في عالم العلم والأدب والسياسة ولم يأل جهداً في التنقل وراء المظان التي يرجع فيها الى شيء من تاريخ هؤلاء فجاء سفره من هذه الناحية وافياً بالغرض الجليل من وضعه . وهي خدمة كبيرة الشأن أسداها الى امته وخدم بها العروبة والتاريخ

فرنسا الحرة

وبطلها شارل دي جول

ليس في ربوع العالم الآن من يجهل اسم بطل فرنسا في هذا الجيل المنكوب بالطغيان، فان شارل ديجول هو موضع الامل من قلب فرنسا الجريح ومعقد العزم في جناحها المهيض، واسمه يبعث في نفوس الأحرار في بقاع العالم هتاف التمجيد والاجلال، فهو الذي أبى الذلة والخضوع ونزح عن وطنه وكله أمل في العودة اليه حاملاً قبس النور والحرية فوقف يجاهد مع المجاهدين ويدافع مع المدافعين عن قضية الدمقراطية

وتاريخ هذا البطل تاريخ لحقبة من الزمان كانت فيه فرنسا غافلة عن الخطر الداهم. وكان هذا البطل بعيد مدى التفكير فرسم لأمته طريق درء الخطر ولكن شاء القدر ان تذهب آراؤه في مدرج الرياح حتى اذا وقعت الواقعة تلفتت فرنسا الى الرجل الذي تجاهلتهُ فوجدت بطلاً لم يثنه عن جهاده شيء فرفع اللواء، وأمضى العزيمة وحمل على عاتقه أثمن الواجبات

ذلك هو شارل دي جول الذي نطالع تاريخ جهاده وتاريخ حياته في السفر الذي أخرجه عنهُ في العربية الأديب ميشيل سليم يمين في ١٢٤ صفحة من القطع الوسط وقدمهُ الى المجاهدين في سبيل نصرة الحق ليجدوا في حياة هذا البطل عظمة أبت الذل والاستعباد، وقوة سارت في طريق النور لترفع فرنسا من محنتها وتنقذها من آلامها وتقيلها من عثرتها

امين الريحاني

تأليفه، حياته، مختارات من آثاره، طبع بمطبعة الريحاني ببيروت، صفحاته ١٣٠ قطع وسط

اصدر الأديب البرت الريحاني — شقيق امين الريحاني رحمة الله عليهِ — كتاباً صغيراً ولكن صغره ليس مقياساً لنفاسته، وقد جمع فيهِ مختارات جيدة من آثار الأمين المنشورة وغير المنشورة. وأورد طرفاً من سيرتهِ وبعض عاداتهِ وسجل جميع مؤلفاته بالعربية والانكليزية ما نشر منها وقد بلغ عددها تسعة وعشرين مؤلفاً وما لم ينشر بعد وهو عشرة مؤلفات بالعربية وخمسة بالانكليزية عدا محاضراته ورسائله

حقا أن أمين الريحاني كان طوداً من أطواد الأدب العربي الحديث، وكان رسولاً بين الشرق والغرب يجلو لكل منهما روح الآخر ولبابه فحياتهُ وفكره وآثاره جدير بالدرس المستوفى، والتحليل الدقيق، ولعل الاستاذ ميخائيل نعيمة الذي نفحنا بكتاب «جبران» ينفحنا بكتاب «امين» او بفصول مسلسلة في المقتطف عنهُ .

﴿قاموس الصحافة العربية اليومية﴾: اشترك في تأليفهِ الاساتذة موسى بريل. ود. نويشتاطوف. شوسر والغاية التي وضع لاجلها هذا القاموس هي تنظيم لائحة بالكلمات الاساسية في اللغة العربية وهي تؤلف مع مكرراتها من ٩٠ الى ٩٥ في المائة من مجموع الكلمات التي تتردد عادة في الصحف العربية اليومية. وغرض المؤلفين مساعدة المدرسين والمؤلفين على انتخاب أكثر الكلمات العربية تردداً ليقدموها الى التلاميذ ويسهلوا عليهم فهمها. والقاموس يقع في ٢٠٠ صفحة عدا المقدمة من القطع الكبير ومطبوع بمطبعة الجامعة العبرية بالقدس الشريف

﴿قصص هندية للاطفال﴾: بقلم كامل كيلاني: قصة «غابة الشياطين» وهي القصة السادسة من مجموعة القصص الهندية — وقد أشرنا الى الحلقات الخمس الاولى منها في مقتطف يناير — وتحتوي هذه القصة على صراع بين قوتي الخير والشر وكيف تتغلب في النهاية الاولى على الثانية. وأسلوبها، ككل ما يكتبهُ الاستاذ كامل، ولا سيما في قصص الاطفال جامع بين السلاسة والوضوح وقوة البيان

﴿نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر﴾: استخرجهُ من عدة مخطوطات وضبطهُ وعلق حواشيه ووضع له المقدمة والفهارس الاستاذ الفريد البستاني. ومن موضوعاته حصار غرناطة وتسليمها وموقعة اللسَّانة وحصار مدينة مالقا. وبذيل الكتاب ثبت جغرافي عام بأسماء البلاد والأنهار والمواقع التي ورد ذكرها فيه وثبت آخر بالاعلام الجغرافية العربية وما يقابلها باللغة الاسبانية، وفي الكتاب ترجمة له بالاسبانية بقلم المستشرق كارلوس كيروس

﴿هؤلاء الانجليز﴾: بقلم اندريه موروى وترجمة جبرائيل شديد وهو يحتوي على نصائح لشاب فرنسي مسافر الى انجلترا تنطوي على نواح من خلق الشعب الانكليزي وحياتهِ الاجتماعية وصفحاته ٥٠ صفحة من القطع الصغير ومطبوع على ورق جيد جداً في مطبعة المعهد العلمي الفرنسي وفي الكتاب مقدمة تحليلية عن اندريه موروى وطريقته في الكتابة ومذهبه في الادب بقلم نجيب العفيفي

﴿النظام الحكومي في بريطانيا العظمى﴾: بقلم وليم روبسن صفحاتهُ ٥٤ صفحة من قطع المقتطف وهو يشمل بحوثاً سياسية تاريخية في الملك والبرلمان والاحزاب السياسية ونظام الحكومة المركزية وحرية الافراد وروح الديمقراطية ومعناها. والكتاب مطبوع على ورق ممتاز ومحلى بصور تمثل بعض مظاهر النشاط في انجلترا

﴿مشروع التدريب الجوي الامبراطوري﴾ بقلم باحث أمين صفحاته ٧٨ صفحة من القطع الصغير ويشتمل على فصول في قوات الطيران في الامبراطورية البريطانية ومشروع التدريب الجوي وما لهُ من منزلة وشأن وكيف تختار الامبراطورية طياريها

فهرس الجزء الثالث

من المجلد المائة

٢٠٥ الفكر الحديث بين حقائق الفكر وشكوكه

٢١٣ العرب والتفكير العلمي : لقدري حافظ طوقان

٢٢١ عجائب المخلوقات : سيّاف البحر

٢٢٣ حملة نابليون على روسيا : للدكتور مصطفى الديواني

٢٣٣ فرحة الحياة (قصيدة) : لعبد الرحمن الخميسي

٢٣٤ أثر الأم في الطفل : لمحمد العشماوي بك

٢٣٩ جغرافية الكون وعظمة العوالم

٢٤٥ الحيوان : في كتاب الامتاع والمؤانسة : للاب انستاس ماري الكرملي

٢٥١ التربية البدنية في الطفولة الثانية : للدكتور شوكت موفق الشطي

٢٥٧ الاضطرابات العقلية وعلم النفس الحديث : لموكسلي : نقلها حسن السلمان

٢٦٣ الأشعة السينية في مصانع الحرب

٢٦٦ هل الضمير الانساني مبذول فردي او اجتماعي : لحسن صعب

٢٧٣ التسمم الغذائي : للدكتور عبده رزق

٢٧٧ حديقة المقتطف * تاجور الشاعر العالمي الملهم : لمحمود المنجوري

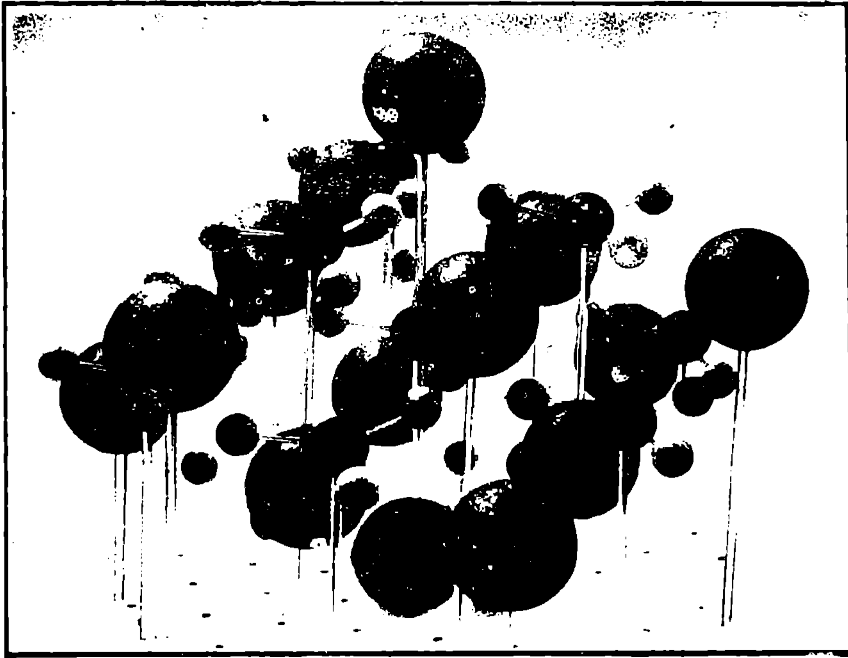
---

٢٨٨ باب المراسلة والمناظرة * « النفط كلة عالية » : لاحمد الشرباصي

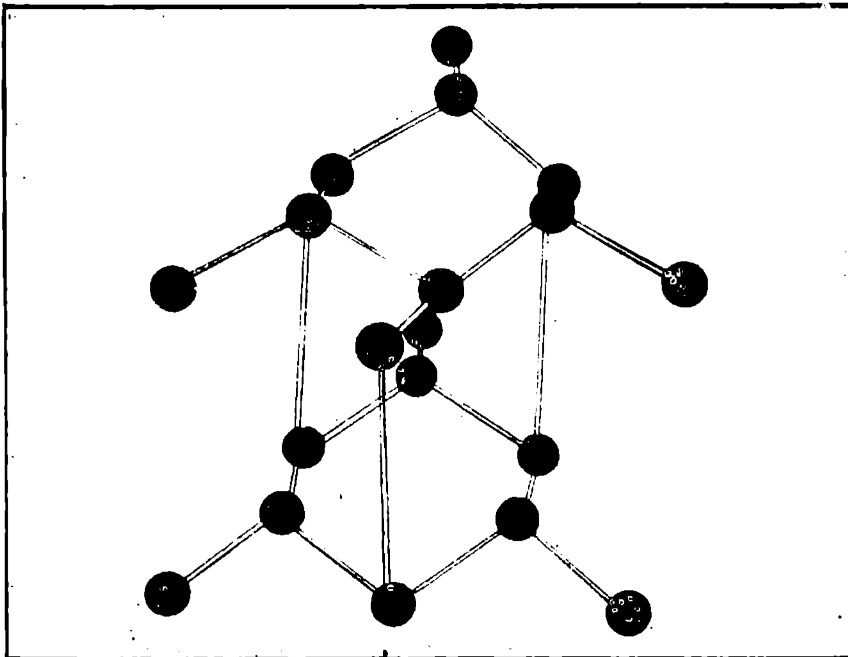
٢٩٠ الاخبار العلمية * العلم وأدوات الحرب وأعواض المعادن : لعوض جندي . بعد الشمس . الاختراع في زمن الحرب . حمى التيفوس والحرب . فيتامين B_1 ونمو الكتان . المجهر الكهربي وفوائده . عالمان يتبادلان التحية . الكاروتين فى الجزر والحرب الجوية . الزرنيخ يسم الرصاص والنحاس . الاسنان والقلب . هل تعلم ؟

٣٠٠ مكتبة المقتطف * أحمد راسم . محمود تيمور . عروس النيل . مجلتان من بيروت : « الطريق » « الاديب » . قصر النظر: أسبابه وعلاجه . أوليات النحالة . القافلة المنسية . فرنسا الحرة . أمين الريحاني . قاموس الصحافة العربية اليومية . قصص هندية للاطفال . نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر . هؤلاء الانكليز . النظام الحكومي في بريطانيا العظمى . مشروع التدريب الجوي الامبراطوري

ملحق : « الديمقراطية والعوامل السيكولوجية » للدكتور أمير بقطر



انتظام الذرات في بلورة الكاسيت
وهي مؤلفة من ثلاثة انواع من الذرات . فالذرات الكبيرة تمثل ذرات الكاسيوم والصغيرة السود تمثل ذرات الكربون والصغيرة البيض ذرات الاكسجين



انتظام الذرات في بلورة غرافيت

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد المائة

١ ابريل سنة ١٩٤٢ — ١٥ ربيع اول سنة ١٣٦١

أساطين العلم الحديث

وليم براغ وعلم البلورات

إن دراسة البلورات بالأشعة السينية فرع جديد من فروع العلم الطبيعي الحديث .جذوره ...ندة في الذرات والجزيئات والاشعة ، وفروعه منتشرة في عالم الصناعة . مهد له أولاً الاستاذ ...ر السويسري سنة ١٩١٢ في جامعة زوريخ ، اذ بيّن ان الأشعة السينية تمكن الباحث من ...رفة بناء البلورات ، فحققت هذه الأشعة ما عجزت عنه أشعة الضوء العادي . وأخذ السر وليم ...اغ Bragg وابنه الاستاذ وليم براغ المشعال الخافت من يد الباحث السويسري ، ومضيا به ...طاً بعيداً، في ميدان لا طرق فيه ولا معالم، فأزاحا النقاب عن مشاهد خلابة في عالم البناء ...بيعي والكيميائي ، ونفحا الصناعة بأداة لا تقدر قيمتها ببدرات الأموال . وفي منتصف ...رس ١٩٤٢ أذيع ان براغ الكبير قد ذهب الى لقاء ربه . فجدير بنا ان نقف هنا قليلاً ، ريثما ...ي نظرة على هذا العلم الجديد ونواحيه النظرية والتطبيقية ، وسيرة هذا العالم الكبير

١ — أصول علم البلورات الحديث

...ا كان الانسان قادراً على تصور بعض النتائج التي يجنيها من تغلبه على المصاعب التي ...ض سبيله ، ولما كان ذا عزم يدفعهُ الى محاولة التغلب عليها ، فقد استنبط وسائل مختلفة

غاية في الاحكام لمساعدته في تحقيق ما يصبو اليهِ . فاذا أخذنا بعض المصاعب التي تنشأ عن ضعف بصره وجدنا انهُ استنبط المجهر ليمكنه من رؤية الأجسام الدقيقة التي تعجز العين المجردة عن رؤيتها

فنجم عن ذلك ان الانسان أصبح بالمجهر أقدر على بحث كثير من المواد التي لا بدَّ من استعمالها في شؤون الحياة اليومية. فهو أداة فعّالة في درس سطوح المعادن والأخلاط التي تبنى منها الآلات والسيارات وسكك الحديد . ولا غنى عنهُ في درس دقائق الألياف في صناعة الغزل والنسج . وغني عن البيان أنهُ وسيلة البيولوجي الأولى وسلاح البكتيريولوجي الأمضى. وبعلوم البيولوجي والبكتيريولوجي تتصل العلوم والصناعات الزراعية التي لها أكبر شأن في العمران الحديث

على ان للمجهر حدًّا لا يستطيع ان يتعداهُ . فبهِ نستطيع ان نرى طائفة كبيرة من الاجسام الدقيقة . ولكن ثمة طائفة من الاجسام أصغر منها لا يكشف عنها المجهر . وسبب هذا العجز حائل طبيعي ، مردُّه إلى طبيعة أمواج الضوء . ولو كانت جميع الاشياء التي تهمنا مما يستطاع الكشف عنهُ بالمجهر لما كان العلماء يحاولون ان يتخطوا هذا الحائل كاختراعهم من عهد قريب المجهر الكهربي . ولكن العوالم الكائنة وراء حدود المجهر العادي أوسع آفاقاً من العوالم التي كشف المجهر عنها . ولذا فلا مندحة عن البحث عن وسيلة لرؤية ما في تلك العوالم من الدقائق والأسرار . فثمة مثلاً تفاصيل بناء الخلية الحية وتركيب أصغر الدقائق التي في المعادن والفلزات والمطاط والدهان والعظم والعصب وألياف القطن والكتان والحرير وغيرها ، وهي لا بدَّ ان تظل محجوبة عنا اذا اكتفينا بالمجهر العادي ، لأن حجبها قائم على طبيعة الضوء لا على جهل الباحث . فما هو هذا الحائل الطبيعي ؟

تقوم قوة بصرنا على اشعاع الضوء من مصدر ما . فالضوء سر البصر ومن دونهِ نعجز عن رؤية جسم ما من الاجسام . وحقيقة الاشعاع لا تزال مخفية عنا . ولكن ما كشف من ظاهراتها يخولنا حق القول انها في بعض هذه الظاهرات امواجٌ في وسط يدعى الاثير . والعين عضوٌ خلق للتأثر بهذه الامواج . فاذا اتجهنا الى مصدر الضوء بعيوننا لم نشعر الاّ بهذا التألق المنبعث منهُ فاذا وقعت هذه الامواج على جسم ارتدت عنهُ وتحوَّلت في اثناء ارتدادها . فاذا اتجهنا بعيوننا الى هذا الجسم المغمور بالامواج ، اتصلت بها الامواج المرتدة عنهُ المتحولة في اثناء ارتدادها . وقد تعلمنا بالاختبار الطويل ان نميّز من طبيعة الامواج المرتدة، طبيعة الجسم المرتدة عنهُ . وهذا هو الابصار

والفعل الاساسي في هذا العمل هو تشتت امواج الضوء وتحوّلها بحسب الجسم الذي

يشتتها . والمعروف ان للامواجِ أطوالاً مختلفة . فاذا لاحظنا أمواج البحر وجدنا ان جسما صغيراً طافياً على سطح البحر كقطعة صغيرة من الخشب الخفيف لا يستطيع ان يؤثر في مسير الموجة . بل هي تتعداه في سيرها غير آبهة له . فاذا التقت بجدار كبير أو بسفينة ضخمة ارتدَّت عنها . وما يصدق على أمواج البحر يصدق على أمواج الضوء . فمن الاجسام ما هو أصغر من أمواج الضوء التي نراها . وهذه الاجسام لصغرها لا تستطيع أن تؤثر في الامواج فلا ترتدُّ الامواج عنها ولا تتحوَّل ، ولذلك لا نستطيع ان نراها لا بالعين المجرَّدة ولا بالمجهر المألوف ، لان الامواج التي تستطيع العين ان تتأثر بها فتمكنها من الابصار ، تقع بين طرفين محدودين من الطول والقصر . وهذه الاجسام اصغر من أقصر هذه الامواج . فلا بدَّ من بقائها محجوبة عن أبصارنا اذا اكتفينا بالمجهر المألوف . على ان رؤيتها ومعرفة تفاصيل بنائها لها شأن خطير في ارتقاء العلم والعمران . فماذا نفعل ؟

بالاشعة السينية نستطيع ان نتخطى هذا الحائل وندخل عالماً جديداً واسع النطاق كثير المجاهل . والأشعة السينية تمكننا من ذلك لان امواجها اقصر من اقصر الامواج الضوئية التي نبصرها ونبصر بها ،عشرة آلاف ضعف .على انها شبيهة بها من حيث خصائصها الطبيعية . فالاجسام الدقيقة التي لم تستطع ان تؤثر في اقصر امواجِ الضوء تستطيع ان ترد امواج الاشعة السينية وتحوّلها لأن هذه الامواج أصغر منها

ولكن كيف نستطيع أن نطلع على الحقائق التي تكشفها لنا هذه الاشعة ونحن لا نستطيع رؤيتها لانها خارج نطاق الامواج التي تؤثر في أعصابنا البصرية

التصوير الضوئي هو إحدى هذه الوسائل . فالفلم او لوح التصوير الضوئي ينطبع بهذه الاشعة كما ينطبع بالأشعة الكيميائية التي في ضوء الشمس — برغم احتجابها عن عيوننا . لكن ذلك لا يجدي نفعاً لو لم تكن الطبيعة قد جرت في بناء المواد على قواعد معينة . فما هي هذه القواعد ؟

نحن نعلم ان العناصر اثنان وتسعون عنصراً . أخفها الايدروجين وأثقلها الأورانيوم . ولكن منها بضعة عناصر تفوق سائر العناصر مقداراً في جو الارض وقشرتها والاجسام التي على سطحها . ومن أشهرها الأكسجين والسليكون والألومنيوم . فاذا أخذنا قطعة من الحديد الصرف علمنا أنها لا تحتوي على شيء الاّ على ذرَّات الحديد . ولكن هذه الذرّات ليست مجتمعة اعتباطاً . بل هي منتظمة انتظاماً دقيقاً طبقاً لنموذج معين لا تحيد عنهُ . وللنحاس نموذج خاص بهِ . وللماس آخر وهلمَّ جرَّا . وبعض هذه النماذج أبسط بناءً من نموذج الحديد ،وأكثرها أشدُّ تعقيداً منهُ ، ولا سيما في المواد المركبة . والمسافات بين الذرّات

في هذه النماذج قصيرة جدًّا والذرّات نفسها لا ترى . ولكننا نعرف ترتيب الذرَّات او الجزيئات بواسطة الأشعة السينية ·

فاذا وجدت لدينا مادة تنتظم فيها الذرات طبق النموذج المعيّن في صفوف موازٍ أحدها للآخر قلنا أن هذه القطعة المادية « بلورة » Crystal . وصفة البلورة انما تستعمل في هذا العلم للانتظام الكامل بحسب النموذج الخاص بمادة ما . والبلورات الفردة كثيرة منها الجواهر والحجارة الثمينة وبلورات الملح والسكر وغيرها . ولكن معظم المواد التي نتناولها كل يوم ، كالقطع الفلزية في ساعاتنا ودبابيسنا ونقودنا انما هي مجموعة من البلورات الدقيقة . والواقع إن البلورة الفردة من فلز ما شيء نادر الوجود غريب الأطوار. فاذا أتيح لنا الحصول على بلورة من النحاس واخذناها في أيدينا تمكنا من حنيها كأنها قطعة من الصلصال المتجمد بعض التجمّد . فاذا عالجناها كذلك هنيهة تصلبت في ايدينا وأصبحت كالنحاس المألوف صلابةً ومتانةً

وسبب ذلك ان لكل نوع من البلورات سطوحاً خاصة تنزلق صفوف الذرات — او الجزيئات اذا كانت مركّبات لا عناصر — بعضها على بعض في جهتها ، وتدعى هذه السطوح سطوح الانزلاق . فاذا كانت بلورة النحاس بلورة مفردة سهل انزلاق صفٍّ من ذرّاتها على الآخر وهكذا يسهل حنيُها . أما اذا كانت القطعة التي في يدك متعددة البلورات تعارضت سطوح الانزلاق . فاذا حاولت حني القطعة في جهةٍ ما اعترضتك بعض البلورات التي اتجاه سطوح انزلاقها مقاوم للجهة التي ترغب فيها فتعجز عن تحقيق اربك . ولذلك ترى جميع المواد البلورية المتعددة البلورات صلبة صلابة متفاوتة

والبلورات الصغيرة التي تتألف منها المواد تمكن رؤيتها أحياناً بالعين المجردة أو بالمجهر الذي كان أداة فعالة في ترقية علم المعادن وما يُصنع منها . ولكن برغم فائدة المجهر في هذه الناحية لا يستطيع ان يكشف لنا شيئاً عن بناء هذه البلورات الصغيرة اي عن انتظام الذرات والجزيئات فيها في نماذج معينة . وأما الاشعة السينية فتستطيع أن تفعل ذلك اذا أتقنا استعمالها وفهم النتائج التي يسفر عنها هذا الاستعمال

واذا صحت الحقائق المتقدمة عن بلورات عنصر واحد فأحرِ بفائدة الاشعة السينية في درس بلورات المواد الفلزية المعقدة كالاخلاط الفلزية مثلاً التي أصبح لها مقام خاص في الصناعات الحديثة . لان المهندس يستطيع باعتماده على نتائج البحث بالاشعة السينية أن يخلق منها ما يجمع صفات متعددة يحتاج اليها كما فعل بالدورالومن الجامع بين المتانة وخفة الوزن وهو يستعمل الآن في بناء هياكل البلونات وأجسام الطائرات . وصفات هذه الاخلاط تتوقف غالباً على أشكال البلورات التي تتكون فيها وأحجامها واتجاهاتها النسبية. وهذه كلها مما يمكن درسهُ بالاشعة

السينية بل إن الاشعة السينية قد أثبتت ان كثيراً من المواد التي لم تحسب بلورية من قبل هي في الواقع بلورية البناء كالقطن والحرير والمطاط الممدود والعظم وغيرها

هذه المامة بسيطة ببناء البلورات وما لمعرفة قواعده من الشأن في الصناعات الحديثة . بقي علينا أن نذكر شيئاً عن طريقة استعمال الاشعة السينية لمعرفة دقائق هذا البناء .

قلنا اننا نرى الاجسام بوقوع أشعة النور عليها وارتدادها عنها بعد تحولها تحولاً اصبحنا نفهم منهُ طبيعة الجسم الذي يردها ويحولها . أما الاشعة السينية فقصيرة جدًّا فتستطيع الذرّة ان تردها عنها . ولكن الذرة متناهية في الدقة كذلك فلا نستطيع ان نحس بأمواج الأشعة السينية المرتدة عن ذرة واحدة . ومن هنا مقام البلورات . فالبلورات مجموعة منتظمة من الذرات أو الجزيئات . والذرات أو الجزيئات في بلورات مادة ما منتظمة انتظاماً واحداً . فاذا سدّدت الاشعة السينية الى بلورة اخترقت ذراتهــا وجزيئاتها ونفذت في نموذج منتظم وهذا يصوَّر وبهِ يعرف انتظام الذرات في البلورة

ومما لا ريب فيهِ انها طريقة غير مباشرة لمعرفة أسرار هذا البناء . فنحن لا نرى بهــا الذرات او الجزيئات المفردة . بل نكشف فقط عن طريقة انتظامها. ولكن الحقائق التي تجمع من هذه الطريقة تُضَمُّ الى الحقائق التي تجمع من ميادين العلم الاخرى وبها يتوسل العلماء الى الكشف عن اسرار البناء في الطبيعة

٢ — براغ وبحث الذرّة

في شهر يناير سنة ١٩٠٣ عقد مجمع تقدم العلوم الاسترالي مؤتمره السنويّ في مدينة دونيدن بزيلندا الجديدة. وكان رئيس قسم الرياضة والطبيعة فيهِ، أستاذ الرياضة والطبيعة في جامعة أدليد الاسترالية. وكان عليهِ أن يلقي خطبة الرآسة في قسمه . ففكّر قبل الاجتماع بأشهر، في موضوع يحتمل ان يظفر بعناية الاعضاء . وكان الكهيرب وظاهرة النشاط الاشعاعي قد كشفا في أواخر القرن التاسع عشر، وكان هو كمعظم علماء الطبيعة حينئذٍ، لا يعرف من هذا الموضوع، سوى نزر يسير ، ومع ذلك مال الى انتزاع موضوع خطبتهِ من هذا الميدان البكر في العلوم الطبيعية . فليراجع الكتب في الأشهر الباقية أمامهُ

كان الاقدام صفة من صفات وليم براغ ، ولعلهُ كان مثالاً حيًّا على قول من قال « ان الحمقى يطأون حيث تخشى الملائكة ان تطأ » . والواقع ان تعيينهُ أستاذاً في أدليد كان نتيجة لمثل هذا الاقدام . ففي سنة ١٨٨٤ كان يتمشى في ساحةِ جامعة كمبردج مع عميد كلية ترنيتي فسألهُ العميد هل قدّم طلباً لمنصب أستاذٍ في جامعة أدليد . فقال انهُ لم يفعل، ولكنهُ قرّر ان

يقدم الطلب . نعم ان منصب الاستاذ هذا كان يشمل الرياضة والطبيعة كليهما ، ومع تفوقهِ في العلوم الرياضية، فانهُ لم يدرس العلوم الطبيعية دراسة مفصلة . ولكن هذه مسألة ثانوية عنده . ففي وسعهِ ان يكب على دراسة الطبيعة قبل وصولهِ الى أدليد . وفعلاً قدم الطلب وعين أستاذاً ، وغادر انكلترا بعد ثلاثة أسابيع ، وجعل همهُ في أثناء الرحلة ، الاكباب على كتب الطبيعة ينعم النظر فيها ، ويجيل في موضوعاتها شعاع ذهنهِ المتوقد الذي أرهفتهُ دراسة الرياضة العالية

وقضى براغ سبع عشرة سنة في جامعة أدليد يدرّس الرياضة والطبيعة ، ويتتبع تقدمها تتبعاً دقيقاً حتى غدا من أعلام مدرسيهما . وحوالي ذلك الوقت طلب اليهِ ان يرئس قسم الرياضة والطبيعة في مجمع تقدم العلوم الاسترالي . فعمد الى مطالعة ما كتب في الكهرب والنشاط الاشعاعي ، على نحو ما فعل في دراسة الطبيعة نفسها في اثناء رحلتهِ من انكلترا الى استراليا . وكذلك بدأت مرحلة جديدة من حياته العلمية كانت حافلة بالمآثر العظيمة

وكأن تفكيرهُ في اثناءِ مطالعتهِ الكتب والرسائل المنشورة عن الكهرب والنشاط الاشعاعي سلكت السبيل التالي : — الذرات وهي اللبنات التي تبنى بها ومنها جميع اصناف المادة في الكون، انواع مختلفة . وذرات كل نوع متماثلة تماماً فهناك ذرَّات الكربون وذرَّات الاكسجين وذرَّات الحديد . وهذه الانواع تبلغ التسعين

وجميع الاجسام في الكون كالاجسام الحية من حيوان ونبات ، او الاجسام الجامدة من الماءِ الى الكواكب ، انما تنشأ من تركيب طوائف من الذرَّات على انماط شتى . فذرات الكربون مرتبة ترتيباً بديعاً في الماس المتألق الصافي . وذرَّات الالومنيوم والاكسجين مرتبة على نمطٍ ما ، يولد الياقوت الاحمر او الياقوت الازرق . وذرَّات الصوديوم والكلور تولد الملح . وذرات الاكسجين والايدروجين تولد الجمد

وقد يكون من العبث ان نسأل ما شكل الذرَّة لأنها أصغر من ان ترى ومع ذلك فقد ابتكر العلماء وسائل واساليب غير مباشرة لقياس وزن الذرّة وحجمها . ولو كبر حجر ماسي في خاتم حتى يصبح في حجم الأرض لكان قطر كل ذرّة من ذرّات الكربون فيهِ ست بوصات. وعند ما تبدأ الطبيعة في البناء تجمع طائفة من الذرات وتصنع منها مجموعة ذات نظام خاص وتُعدّد هذه المجموعات ، فاذا نحن أمام مادة لها خواصٌ تنفرد بها . فالماء مثلاً مركب من مجموعات من الذرات ، كل مجموعة قوامها ذرتان من الايدروجين وذرَّة من الاكسجين . وهذه الذرات الثلاث مرتبطة احداها بالاخرى ارتباطاً وثيقاً على وجه لم يفهم سره بعد . ومع ان فصم هذه الأواصر ليس ممتنعاً الاَّ انها تبلغ من المتانة مبلغاً يجعل الماء مركباً مستقرًّا .

والكيميائي يدعو هذه المجموعة من الذرات ، وما كان على نمطها — جزيئاً . وليس ثمة ريب في ان جانباً كبيراً من ارتقاء الكيمياء انما مرده الى اتساع العلم بطبيعة الجزيئات ومقوماتها وخواصها واشكالها . فأجسامنا وكل ما حولنا مركب من جزيئات قوامها ذرات العناصر التسعين . وعلى كثرة ما نعرفهُ من كيمياء الجزيئات لا يزال الجهل بها كبيراً . وقد يسأل أحدنا لماذا لا نعمد الى المجهر فنستطلع بهِ طلع الجزيئات وتركيبها ، ونستكشف ترتيب الذرات في هذا التركيب ؟ والجواب ان قدرة المجهر على التكبير محدودة . فالمجهر العادي مداره الضوء المنعكس عن الاجسام التي يراد رؤيتها ، والضوء تموجٌ وأطوال الأمواج معروفة ، فالجزيء ، وعلى الأخص الذرّة ، أصغر من الأمواج التي تُرى ويُرى بها ، فلا تؤثر في الامواج تأثيراً يمكننا من ان نرى بهذه الأمواج أجساماً أصغر منها كثيراً

وفي خلال مطالعته وقف براغ على نتائج اسفرت عنها مباحث لمدام كوري فخطر لهُ ان هذه النتائج لا تفسير لها الاّ على نحوٍ واحد ، ومع ذلك لم يقل أحدٌ بهذا التفسير من قبل

ذلك بأنهُ كان من المعروف أنهُ عند ما تنقسم ذرة الراديوم قسمين احدهما كبير والآخر صغير ، يمضي الصغير — وهو في الواقع ذرة هليوم كما أثبت رذرفورد — منطلقاً في الهواء فيعرف باشعاع جسيمات « ألفا » . ووصفت مدام كوري تجارب أجرتها تتضمن نتائجها القولَ بأن جميع هذه الجسيمات تنطلق مسافة واحدة

فاهتم بهذا القول اهتماماً خاصّاً . ان جميع أصناف الاشعاع تضعف رويداً رويداً وفقاً لبعدها عن مصدرها . وجسيمات ألفا تتصرف كأنها وابل رصاص ينقذف في كتلة من الخشب . ولكن اذا كان ذلك كذلك ، فعلى هذه الجسيمات أن تنطلق في خطوط مستقيمة في الهواء كما تخترق الرصاصة الخشب . غير أن هذه الجسيمات تلقى في طريقها مئات الألوف من ذرات الهواء فكيف تجوزها . انها لا تدفعها من طريقها لأنها أصغر من الذرات ، ولا تستطيع ان تنحرف عن كل ذرة تلقاها في طريقها وتحتفظ باتجاهها العام . واذا وضعت عشرين كرة من كرات « البلياردو » على مائدة « البلياردو » وقذفت كرة في اتجاه معين فانها على الغالب لا تستطيع ان تسير في خط مستقيم من طرف المائدة الى الطرف الآخر . ولا تستطيع ان تنحرف كلما أقبلت على كرة تعترض طريقها وتبقى محتفظة باتجاهها الأصلي . ان ذلك يقتضي ان يكون في الكرة عقلٌ يوجهها . وليس في الكرة ، او في الاجسام المنقذفة من الراديوم ، عقل على ما نعلم . فكيف تنطلق جسيمات « الفا » في الهواء

ان الجواب الوحيد الممكن هو ان هذه الجسيمات تخترق في سيرها ذرات الهواء التي تلتقي بها . اي ان جسيم الفا وجسم الذرّة التي تخترقها ، يشغلان في لمحة ما ، مكاناً واحداً في الفضاء .

وهذا قول يخالف كلّ ما درج براغ على مطالعهِ في كتب الطبيعة . ولم يكن متاحاً له ان يمتحن هذا القول بالتجربة ، فلا هو يملك راديوماً ولا جهازاً يصلح للتجريب . ولكن بدا له ان القول صحيح . والواقع انهُ كذلك كما اثبتهُ الاستاذ ولسن C. T. R. Wilson بعدئذٍ عند ما صوّر مسارَ جسيم من هذه الجسيمات في جهازهِ المشهور بجهاز «الحجرة الغائمة» فوجد ان المسار خطّ مستقيم . وكذلك التي براغ خطبتهُ في دونيدن وضمنها هذا الرأي

فلما عاد الى ادليد وجد من المحسنين الى العلم من منحهُ مالاً لينفقهُ في اعداد المعدات لتجريب رأيهِ . فتوالت على يديهِ نتائج متعددة كانت تتفق والمكتشفات التي تمت لرذرفورد في كندا ، وعن طريق هذه المباحث اتصل بأعلام الطبيعة الذرية الحديثة مثل رذرفورد وصُدي وغيرهما فانتخب رفيقاً في الجمعية الملكية سنة (١٩٠٦) ثم نقل استاذاً في جامعة ليدس (١٩٠٩) ثم استاذاً للطبيعة في جامعة لندن (١٩١٥)

٣ — الحل البلوري بالاشعة

كان هذا البحث في الذرّة والاشعاع توطئة لبحث آخر أعمق أثراً وأجدى . وهو بحث التركيب الذري والجزيئي في البلورات بالاشعة السينية ، وهو فرع من فروع العلم كان له في الصناعة الحديثة فائدة عملية محققة[1] . وقد بدأ براغ يعنى بهِ بعد انتقاله من ادليد الى جامعة ليدس في انكلترا ثم منها الى جامعة لندن

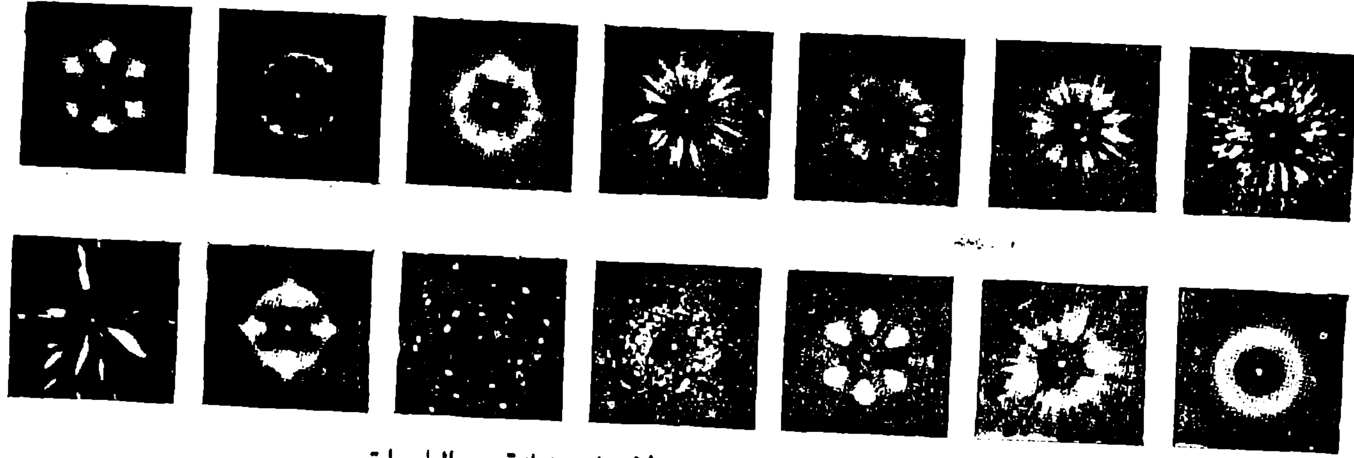
في تاريخ العلم أحيان يبدو فيها ان العلم بلغ سدًّا لا يستطيع عبوره ، ثم يُكشف كشف او تخترع أداة جديدة للبحث ، واذا السدّ قد انهار ، ومضى مدّ العلم متدفقاً كالسيل . كذلك كانت نظرية دلتن الذرية ، وكشف فراداي بان المغنطيس المتحرك يولّد تياراً كهربيًّا . وكذلك كان كشف رنتجن للاشعة السينية

وبراغ يلخص تأثير هذا الكشف في قوله ان نيوتن ذهب الى ان الضوء تركيبهُ ذري وتلاه هوجنس فقال انهُ حركة موجية . وأيّد كلٌّ منهما قولهُ بأدلّة ناهضة . ولكن رأي هوجنس تغلّب على رأي نيوتن ولا سيما بعد المباحث التي قام بها يونغ وفرينل وغيرهما اذ اثبتوا ان الرأي الموجي في الضوء كافٍ لتعليل جميع الظاهرات البصرية المعروفة

ثم كشفت الاشعة السينية ، وهي ضرب من الضوء الذي لا يرى بالعينين ، ولكنهُ يشبه الضوءَ المرئيّ من كل وجه ، غير ان امواجه اقصر من امواج الضوء المرئي عشرة آلاف ضعف . وامواجهُ لا تؤثر في عيوننا فعليها ، اذا شئنا ان نرى بهِ ، إما ان نستعمل عيناً خاصة

(١) راجع الاشعة السينية والصناعة الحربية في مقتطف مارس ١٩٤٢

الاشعة السينية تكشف عما عجزت عنه أقوى المجاهر



صور مصوّرة بالاشعة السينية لانواع مختلفة من البلورات

والعالم المتوفر على هذا الفرع من العلم يستطيع ان ينفذ الى طريقة انتظام الذرات في البلورات بدرس هذه الصور وأشباهها وهي تمثل صورة النموذج الضوئي للاشعة بعد نفوذها من خلال قطعة مبلورة

تتأثر بها ، وإما ان نستغلَّ فعلها في ألواح التصوير الضوئيّ . ولما كانت امواج الاشعة السينية قصيرة جدًّا فهي مما تستطاع رؤية الجزيئات به — بواسطة ألواح التصوير الضوئي . وهذا هو ركن البحث الجليل الشأن الذي تولاه وليم براغ وحده أولاً ثم بالاشتراك مع نجله، وليم لورنس براغ وظفرا معاً بجائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩١٥ . على ان الأشعة السينية التي يفرقها جزيءٌ واحد ليست مما يؤثر تأثيراً ظاهراً في لوح تصوير ضوئي مهما يبلغ من شدة الاحساس. ولكن اذا اجتمعت جزيئات كثيرة ، وكان اجتماعها في نموذج منتظم ، فعندئذٍ يبلغ مقدار الاشعة المتفرقة مبلغاً يمكن تصويره . وهذا يشبه حركة ذراع جندي واحد . فانك لا تستطيع ان تراها من بُعد . ولكن اذا كان الجنود كثيرين، وكانوا صفًّا واحداً ، وحركوا أذرعهم حركة واحدة فانك تستطيع ان ترى الحركة من البعد نفسه . وهنا تدخل البلورة ميدان البحث

قلنا ان الطبيعة تبني دقائقها الصغرى ، في ذرات وجزيئات . فثمة ذرات سليكون وذرات اوكسجين . وثمة جزيئات ثاني اكسيد السليكون . ولكن علاوة على ما تقدم هنالك بلورات الكوارتز ، وقوام كلّ بلورة ثلاثة جزيئات من ثاني اكسيد السليكون

ان الذرّات المنفصلة من الاكسجين والسليكون ليست ثاني اكسيد السليكون . وجزيئات ثاني اكسيد السليكون ليست من الكوارتز في شيء . فالوحدة البلورية للكوارتز هي ثلاثة جزيئات من ثاني اكسيد السليكون مرتبة على وجه خاص . وغرض الحل البلوري بالاشعة السينية هو استكشاف اسلوب ترتيب الذرات والجزيئات في البلورة ، وتعليل خصائص البلورة بهذا الترتيب . وقد وقف السر وليم جانباً كبيراً من حياتهِ على توضيح نواحي هذا الموضوع وهو دراسة الاشكال البلورية الاساسية في الطبيعة ، ومعرفة النماذج الضوئية التي تنشأ عن اختراق الاشعة السينية لهذه الاشكال

فالاستاذ لاو والسر وليم براغ ونجلهُ ومن جاراهم من العلماء اباحوا الاشعة السينية للعلماء أداة تمكنهم من سبر أغوار الأجسام البلورية ومعرفة تركيبها وهذه الطريقة تطبق الآن في فحص هذه الاجسام وبها كشفت حقائق عن خواص الفلزات والاخلاط الفلزية ، فصارت الصناعة قائمة على معرفة يقينية بدلاً من قيامها على تجارب يخطئ فيها الصانع حيناً ويصيب حيناً آخر . وهذا تطبيق عملي لبحث بدأ علميًّا محضاً ، لأن غرض لاو ثم براغ في المرحلة الاولى من البحث، كان معرفة طبيعة الاشعة السينية وهل هي أجسام دقيقة تفعل فعل الاجسام المادية اوهي امواج كامواج الضوء . فأثبتت هذه المباحث في الاشعة السينية ما أثبتته مباحث البرنس ده برولي ودافيسن و جرمر الأميركيين وطمسن الانكليزي (وهو نجل السر جوزف مكتشف الكهيرب) انها تفعل آناً فعل أمواج وآناً فعل ذرات . وهو برهان آخر على الفائدة العملية التي تجنى من العلم المحض

روزفلت وهتلر

مقابلة

في خلال يوم واحد من أيام شهر مارس سنة ١٩٣٣ حدث حادثان كان لهما أعظم شأن في تاريخنا الحديث. فبعيد ظهر الرابع من شهر مارس في تلك السنة نصّب فرنكان دلانو روزفلت رئيساً للولايات المتحدة. وقبيل منتصف ليل الخامس من ذلك الشهر أقرّ الريخستاج «قانون التمكين» Enabling Act الذي وضع في يدي المستشار ادولف هتلر زمام السلطان المطلق في المانيا. وانقضت ثماني سنوات، فاذا الرجلان يقابل أحدهما الآخر، وكل منهما رمز لطريقة من الحياة والاجتماع. ولكن الطريقتين متناقضتان والعالم لا يتسع لكليهما معاً

لم يكن في وسع أحد أن يتبين في سنة ١٩٣٣ هذه الصلة بين الرجلين. ولكن يندر الآن من لا يرى انهُ لا بد لأحدهما من أن يقهر الآخر. وقد قال هتلر في احدى خطبه ان نتيجة الصراع بين هذين النظامين ستقرر مصير العالم مدى الف سنة من الزمان، والغالب انهُ لم يغالِ فيما قال

واذا كنا قد اخترنا روزفلت ممثلاً لطريقة الحياة التي تؤثرها الشعوب الدمقراطية، فليس سبب ذلك أنه أراد ان يكون هذا الممثل، ولا لأنهُ يفوق غيره من زعماء هذه الشعوب. فالرجل الذي أنقذ بريطانيا في ساعة الخطر والبلوى، متصف في ذهنه وخلقه بصفات، تؤهلهُ للصدارة، ولا يجوز وضعهُ في مكان دونها. ولكن الموارد التي من وراء روزفلت هي التي تضعهُ في المقام الأول. فليس في متناول تشرتشل خمسة وعشرون مليوناً من الرجال في سن الخدمة العسكرية. ولا دخل قومي سنوي يبلغ مائة الف مليون من الريالات. ولا صناعة تقرب من صناعة الولايات المتحدة في اتساع نطاقها ومدى انتاجها. ولا ثلاثمائة وتسعة وخمسون مليوناً من الافدنة المزروعة. فالاحتياطيّ الاكبر والأخير الذي تعتمد عليه الشعوب الحرة، انما هو موارد الولايات المتحدة، وفرنكان روزفلت هو رئيس جمهوريتها وقائدها العام

ثم هناك صفة اخرى تجعل روزفلت القطب البارز في صفوف الشعوب الدمقراطية. إنهُ يشارك هتلر في الصفة التي جعلت هتلر قويّاً عزيزاً. ذلك بأن اسمهُ مرادف في اذهان

الجماهير للاسلوب الحيّ الفعّال ، دون الاسلوب الجامد المستقرّ ، في نظم الحكم . ان تشرتشل محافظ . وهذا لا يعني انهُ أضعف ايماناً بالحرية الانسانية وأوهى قوة في النضال والكفاح لصونها . ولكنهُ يعني ان همهُ الاكبر كان دائماً الاحتفاظ بخير ما ورثناه من الماضي . يقابل هذا ان الثورة على مساوىء الماضي ، بصرف النظر عما فيهِ من خير ، هي التي رفعت هتلر في المانيا وروزفلت في الولايات المتحدة الى مقام السلطان . والجماهير التي ثارت لا تقرن انتصار روزفلت في هذا النضال العالمي بالعودة الى الحالة السابقة (والواقع الذي لا بدَّ من الاعتراف بهِ هو ان ظفر تشرتشل لا يعني هذه العودة لأن الحالة القديمة قد انهارت وليس بعثُها بالمستطاع) . ولكن روزفلت مشهورٌ بأنهُ لا يرغب في بعثٍ من هذا القبيل ، والعالم قاطبة يدرك هذا . ولذلك لا يستطيع احد ان يدمغ حركة يتولى قيادتها ، بأنها حركة رجعية

واذا كان في شؤون الناس شيءٌ يوثق به ، فهو ان روزفلت لم يتصور عندما انتخب سنة ١٩٣٢ ونصّب سنة ١٩٣٣ ، الحالة التي يتولى فيها هذه الزعامة العالمية . نعم كان قد أعدَّ خططاً لأمته واسعة النطاق بعيدة المرامي . ولكن السلام لا بد منهُ لتحقيق خطط من هذا القبيل ، لان مدارها وغرضها الملاءمة بين النظام الاقتصادي القائم وحاجة الشعب . وهذا عمل لا تنجزه المدافع ولا الدبابات ولا طائرات القتال

وهذا القول لا يعني ان روزفلت لم يدرك خطر نشوب حرب — قد تكون عالمية — قبل ثماني سنوات . فهو رجل متقد الذهن واسع الاطلاع ، وكل من كان فوق المتوسط من رجال الفكر والعمل ، كان يدرك احتمال نشوب هذه الحرب . ولكن الرئيس كالكثرة الاميركية ، كان يأبى ان يأخذ بالحرب أداة للسياسة القومية . فقد كان يعي احتمالها ، ولكنهُ كان يعدها شرّاً يجب اجتنابه ، لا فرصة يجب اغتنامها والتأهب لذلك

ومن المرجح ان هتلر نفسه لم ينوِ ان يواجه روزفلت في الحالة التي يواجهه فيها الآن . والغالب ان هتلر كان مقتنعاً بأنهُ يستطيع هزم بريطانيا ، بالاسلحة السيكولوجية ، ثم يواجه روزفلت ، أو من يكون رئيساً للولايات المتحدة ، وقد اجتمعت قوة اوربا بين يديه . لأن القضاء على الحكومة الشعبية الحرة في الولايات المتحدة أمر لا مفر منهُ لتحقيق كل خطة غرضها السيادة العالمية والمرجح ان ذلك كان قائماً في ذهن هتلر منذ الساعة الاولى

ومع ذلك كان موقف احد الرجلين في مارس سنة ١٩٣٣ مماثلاً لموقف الآخر . كلاهما ارتقى على موجة من البرم بالحالة القائمة ، وكلاهما تسلم زمام دولة كانت من الوجهة الاقتصادية على شفا الانهيار ومن الوجهة الاجتماعية في حالة اضطراب . وكلاهما واجه مشكلة كبيرة معقدة وهي تدبير عمل لملايين من المتعطلين عن العمل وبث روح الحياة والاقدام في شعب تطرقت

اليه معاني التراخي والقنوط . وفي الحالين لم يكن الشعب الاميركي ولا الشعب الالماني مسيَّراً بالحماسة للزعيم الجديد قدر ما هو مسيَّر بالبرم بالحالة القائمة . ولذلك منح كل منهما سلطة مطلقة لتدبير الحال

***

ان حق الشيخ او الملك في الفوز بولاء القبيلة أو الشعب لهُ ، كان قائماً في جميع عصور التاريخ على قدرتهِ على حماية رعيتهِ وتجنيبها اخطاراً لا تستطيع ان تتجنبها وحدها . فالطبيعة البشرية لم تتغير على كرّ القرون . ولكن ما تغير إنما هو العدوّ الذي يراد اجتناب خطره . إن خوف الناس قديماً من لصوص مسلحين بأسلحة تُرى وتخشى ، قد تحوَّل في العصر الحديث ولا سيما بعد الثورة الصناعية ، خوفاً من نظم اقتصادية تخشى اساليبها وان كانت لا تُرى . فالموت جوعاً لا يزال الموت جوعاً سواءٌ أبالسلب والنهب كان الجوع ، ام بالانهيار الاقتصادي والتعطل عن العمل . والحكومة التي تعجز عن منع الجوع الناشيء عن الاضطراب والانهيار والازمات الاقتصادية ، هي حكومة لا تستطيع ان تفوز بثقة الشعب وولائهِ

نعم ان الحكومة ليست مُلزمة ان تدبر لكل رجل رزقهُ ، ولكنها مدينة لهُ بحماية حياتهِ . وهي تعترف ضمناً بهذا الدين عندما تطلب منهُ وتتوقع ولاءه لها وتأييدهُ اياها . ولم تنكر حكومة ما هذا الاعتراف . وتاريخ البشر يدلُّ على ان الناس ينطلقون من قيود الولاء لحكومة ما عندما تعجز هذه الحكومة عن صون حياة الناس . وفي سنة ١٩٣٣ كان في الولايات المتحدة والمانيا ملايين من الناس مهدَّدين بالعوز والفاقة لأن الحكومة كانت لا تقدر او لا تجرؤ على حمايتهم من قوى اقتصادية تطغى عليهم . فبدرت بوادر التمرُّد على الحكومة والنظام القائم في البلدين . ولم يكن هذا شيئاً جديداً في تاريخ الاجتماع لا سابقة لهُ . بل كان شيئاً طبيعيًّا ولهُ سوابق كثيرة

ومع ذلك كان ينطوي على خطر ، لأن الشعب اذا ثار وكان بغير قيادة ترشده أو توجههُ سواءَ السبيل ، او كانت قيادتهُ لا تقيم وزناً للحقائق الانسانية العليا ، ، ولا تميز بين الفضيلة والرذيلة ، بين الوطنية والخيانة ، بين الاحسان والجشع ، فعندئذٍ قد تطغى الحركة الشعبية النابعة من قرارة الحياة نفسها ، فيتعذر صدها أو توجيهها . ولا توجه سواء السبيل ، الاّ اذا كان المرشد الجديد ، سياسيًّا حكيماً

ولعلَّ أعظم ظفرٍ أسفرت عنهُ عبقرية الشعب الأميركي في الحكم الذاتي ، هو ان الشعب التفت في الأزمة التي أناخت عليهِ ، في العقد الرابع من هذا القرن ، الى رجل من صميم الحياة الأميركية مشبع بروحها ، مؤمن بتقاليدها . أما الشعب الالماني فالتفت الى اجنبي ، قليلاً

ما يعرف عن عظمة المانيا الحقيقية ، وما يعرفهُ عنها مرذولٌ عنده ومحقّر . ولعلّ الالمان كانوا أقرب الى المنطق من الأميركيين ، لأنهُ ما زال النظام القديم قد انهار ، فالمنطق يقضي بأن يكون الرجل الذي يرشد الى النظام الجديد، بعيداً أبعد البعد عن النظام القديم . ومع أن النظام القديم في أميركا كان قد اختل وسقطت هيبتهُ ، وأصغى الشعب الاميركي الى صوت القائد الجديد وهو يقول : ان قواعد النظام سليمة ، وتطبيقها تطبيقاً فعالاً مستطاع اذا عمدنا الى أساليب جديدة

وما ان تقلد الرجلان زمام الحكم حتى بدأت طريق احدهما تنفرج عن طريق الآخر . ولعل الفرق الأساسي في فلسفتهما السياسية ، هو ان روزفلت يذهب الى ان الخراب الذي كانت تحيط به انقاضه مردّه الى الغباوة . بينما هتلر يقول ان مرده الى الجريمة . فروزفلت كان يعتقد ان الثروة في أميركا بُـذّرت فضاعت ، وهتلر كان يعتقد ان ثروة في المانيا قد نهبت . فلذلك كان « الانعاش » غرض الاول ، و « الاسترداد بالقوة » غرض الثاني . فقال الأول لشعبهِ « لننتج » وقال الثاني لشعبهِ « لنأخذ »

ولكنهما اتفقا على أن قداسة الملكية الفردية ليست مطلقة مقدسة في ذاتها ، بل هي قائمة على سلامة الأمة . ولذلك لم يحجم أحدها عن انفاق مبالغ طائلة في سبيل توطيد سلامة الأمة . فلم تجيء سنة ١٩٣٩ حتى كان روزفلت ، قد أنفق أربعين الف مليون ريال ، علاوة على نفقات الحكومة والادارة العادية . أما هتلر فقد انفق مبلغاً ليس في الوسع معرفته على وجه التحقيق ، لأن الحكومة الالمانية النازية لا تقدم حساباً عن نفقاتها ، ولكن يُظن انهُ يبلغ تسعين الف مليون ريال

أما روزفلت فقد أنفق معظم هذا المال على الطرق والجسور والسدود ومحطات توليد الطاقة الكهربية ونزح البطائح وتحريج الأراضي البور . وأما هتلر فأنفق معظم المال على السلاح . وقد كان الفرق بين وجهيْ الانفاق ، نتيجة طبيعية للفرق الاساسي بين أغراض الرجلين . فروزفلت غرضه بسط رواق الرخاء الذي انهدم او تداعى ، فتوسل الى ذلك بانشاء الاسباب التي تلد الثروة . وهتلر غرضه بسط رواق الرخاء بنزع الثروة من الدول الاخرى . ولو ان حكيماً عالماً بالغيب تصوَّر ما يكون مصير العالم بعد ثماني سنوات ، لكان أشار على روزفلت بأن ينفق هذا المال على صنع السلاح !

***

وليس ثمة ريب في ان هتلر ، بعد ما تمادى في طريقته ، فرضها على سائر العالم . فليس في وسع أمة ، في العالم الحديث ان تنفق جانباً كبيراً من نشاطها ومعظم ثروتها ، في سبيل تحقيق

خطط السلام ، بينما تبذل دولة كبيرة اخرى كل ذرة من نشاطها في التأهب للحرب .

والرأي الغالب بين جماعات كثيرة من الناس ان ما صنعهُ روزفلت دليل على ضعف أصيل في النظام الدمقراطي . ولكننا لا نرى أين هو هذا الضعف . انهُ في الواقع ضعف كل امة على الاطلاق ، سواءٌ ادمقراطية كانت ام غير دمقراطية ، اذا كانت القاعدة التي تقيم عليها صرح اجتماعها هي قاعدة السعي الى تحقيق الحياة الوافرة لكل فرد من افراد الشعب . فالسلام لا بدَّ منهُ لتوفير العيش الرخيّ وقدر معقول من الحرية في نطاق القانون ، يتيحان للمرء ان يتمتع بما وصفهُ روزفلت في احدى خطبه بالحريات الاربع وهي : —

الأولى حرية الكلام والتعبير — في كل بقعة من بقاع الارض

والثانية حرية كل امرىءٍ في عبادة الله على طريقته الخاصة — في كل بقعة من بقاع الأرض

والثالثة التحرُّر من ربقة العوز ، وهو اذا افرغ في عبارات السياسة الدولية كان معناهُ عقد اتفاقات اقتصادية تضمن لابناء كل امة عيشةً راضية — في كل بقعة من بقاع الأرض

والرابعة التحرُّر من الخوف ، وهو اذا أفرغ في عبارات السياسة الدولية كان معناه خفضُ التسلح خفضاً عالميًّا واسع النطاق حتى يستحيل على امة ما ان تعتدي على جارة لها — في كل بقعة من بقاع الارض

والدولة التي قاعدتها هذه الرغبة لا تستطيع ولا يجوز لها ، ان تخفض مستوى العيش وتنكر على الناس حرية الاجتماع والرأي والعقيدة وتجعلهم اصفاراً في حساب الانسانية ، لكي تكدّس السلاح بقصد استعباد الامم الاخرى

ويذهب فريق من الناس الى ان هتلر كان في طريقة انفاقه المال رجلاً آخذاً باسباب الواقع ، وروزفلت رجلاً متعلقاً باهداب الوهم والخيال والنزعة الكمالية. فالذين يرون هذا الرأي ، هم دعاة الهزيمة الخلقية في نضال البشر . وقولهم هذا يصحُّ ان يؤخذ حجة عليهم بأنهم نزلوا عن كل مبدإٍ من مبادىء الفلسفة السياسية الأميركية التي من اجلها قامت حرب الاستقلال وعلى اساسها وضعت نصوص الدستور وفي سبيل صونها نشبت الحرب الاهلية وخاضت اميركا الحرب العالمية الأولى

لانهُ اذا كان الناس لا يؤمنون بأنهُ في وسعهم الآن وفي المستقبل ان يدبروا شؤونهم تدبيراً قائماً على الفهم وخدمة المصلحة العامة — مهما يكن ذلك على وجهه الأكمل بعيد المنال — فقد انهارت مبادىء الدستور وهي في صميمها ضمان «حق الحياة والحرية ونشدان السعادة»

وليس في منطق الاجتماع البشري ما يجعل هذا مستحيلاً . نعم قد تكون الغرائز الوحشية متغلبة على تركيبنا العقلي والادبي ، وقد يكون الغباء ملازماً للجماعات الانسانية الكبيرة ، وقد تعوزنا دائماً القدرة على الحكم الذاتي ، ولكن قواعد الدستور الأميركي ، وسائر الدساتير الديمقراطية الحديثة ، تنكر هذا العجز ، وكل من يتولى منصباً في دولة ديمقراطية يجب ان يكون مؤمناً بأن الحكم الذاتي ممكن ، وان الحرية مثل عال بعيد ولكن الاقتراب منه مستطاع ، وان رفع المستوى الثقافي للجماهير رفعاً مستمراً في المتناول ، وان في قدرة الناس ان يدنوا ، مهما طال الطريق وتوعر ، من العدل في المجتمع

واذن فعلى رئيس دولةٍ تسلم بهذه المبادىء ، كرئيس الجمهورية الأميركية ، ان يبني سياسته عليها وينسج ثوبها من خيوطها . واذا بنى سياسته على قواعد مناقضة لهذه القواعد ، فقد انكر التراث الانساني العالي ، ولاريب في انه يلقى من مقاومة شعبه ، ما يرده او يسقطه. ولكن اذا واجهت الأمة الديمقراطية خطراً أصيلاً يهدد كيانها من قبل دولة لا تسلم الاّ بالقوة والبطش وتبني سياستها عليهما ، فعليها حينئذٍ ان تعبىء كل قوتها للدفع عن كيانها

وليس ثمة ريب في ان روزفلت استشف في سنة ١٩٣٣ احتمال نشوب حرب ، ولو وجّه كلّ نشاط اميركا الى التأهب لحرب لم يكن في وسع الشعب ان يرى احتمالها حينئذٍ لما كان اميركيًا صميماً ، ولربما — وهو الارجح — عجز عن الفوز بموافقة ممثلي الشعب

***

وعلى كل حال فاليوم الذي اعتدى فيه هتلر على بولندا ، كان حاسماً . فالمسألة التي واجهت الشعب الأميركي يومئذٍ ، لم تكن طريقة روزفلت في إصلاح النظام الاقتصادي والاجتماعي ، بل المحافظة على الكيان. ذلك بأن خطر الهمجية أصبح مكتوباً في عرض الفضاء الدولي بحروف كبار. وكان لا بدّ من ذلك اليوم أن يحشد روزفلت فكر الأمة الأميركية ونشاطها ومالها ، لتعزيز أسباب الدفاع الوطني . فالتوزيعة الجديدة خطة تطبق او يحاول تطبيقها في أثناء السلام . وهي مثار خلاف عنيف بين الاحزاب والطبقات. والشغل الشاغل للاذهان الآن هو الحرب والدفاع القومي ، وهو فوق الاحزاب والطبقات ، وقد اعترف روزفلت حالاً بهذه الحقيقة عند ماعيّن — وهو زعيم الحزب الدمقراطي — قطبين من أقطاب الحزب الجمهوري لوزارتي الحربية (هنري ستمسون) والبحرية (فرنك نوكس) وكذلك رشح للمكتب المشرف على الانتاج الحربيّ رجالاً لم يكونوا من انصار التوزيعة الجديدة بل ولم يكونوا من الدمقراطيين

وقد كسب هتلر الشوط الأول في هذا النضال ضد خصمه، اي انهُ اضطر خصمه الى الأخذ ببعض الأساليب الحكومية التي ما فتىء هتلر يطبقها — ولكن بغير هوادة. وحمله على تغيير سيره واتباع المانيا، أي تحويل نشاط أميركا الفكري والاقتصادي والعاطفي من السعي وراء تحقيق أغراض السلام الى السعي وراء انشاء قوة عسكرية لا تضاهى

وقد يحمل التشاؤم بعضهم على القول بان روزفلت لم يخسر شوطاً واحداً لا غير، بل خسر معركة كبيرة. وعندهم ان انفاق اربعين الف مليون من الدولارات في السُبل التي انفقها فيها، اضعف الامة الاميركية، ولو انفقت في سبيل الحرب لكانت اميركا الآن اعزّ يداً مما هي في هذا النضال العالمي الرهيب

ان هذا القول يتجاهل ثلاث حقائق. اولاً — ان الامم الدمقراطية بطبيعة مبادئها ونظرتها وطريقتها في الحياة لا تستطيع ان تفرض الحرب وتتأهب لها قبل ان يتلبد جوّ حياتها بغيوم أخطارها. وثانياً — ان كثرة الشعب الاميركي، وافقت مرتين، مرة سنة ١٩٣٦ ومرة سنة ١٩٤٠ على سياسة روزفلت واتجاهها. وثالثاً — اذا كان القضاء على قوة هتلر المسلحة التي تهدّد الكيان الذي تمثله اميركا والاغراض التي تسعى الى تحقيقها، أمراً لازماً، فألزم منهُ القضاء على الافكار والمبادىء التي من وراء قوة هتلر المسلحة، اذا شئنا ان يتمتع العالم بالسلام عهداً ما. وروزفلت باسلوبهِ في « التوزيعة الجديدة » ضرب مثلاً لكثرة الاميركيين، بان النظام الدمقراطي يمكن تطبيقه تطبيقاً يقي الرجل المتوسط، — سواء اصح هذا القول ام لم يصح — وهذا الاعتقاد هو خير واق للشعب من خطر العدوى، بقول من يقول، إن حياة الشعوب لا تستقيم الاّ على اساس « سلطان الزعيم » ومبدأ « عنصر الاسياد » « وحماية الدم » وغيرها من الآراء الفجة التي اغدقتها المانيا على العالم في السنوات الاخيرة

ان الملايين الكثيرة التي أيدت روزفلت في الانتخابات المتوالية، قد يخيب أملها في ما تعلقهُ بالدمقراطية الأميركية ومستقبلها الاجتماعي والاقتصادي من رجاء. ولكن سياسة الاصلاح التي درج عليها روزفلت في السنوات الست الأولى من رآسته انعشت رجاءها وعززت ايمانها بهذا النظام. فهي، والرجاء يحدوها، ينبض فيها كل عرقٍ للدفاع عنهُ. وعلى ذلك يصح ان نقول ان السنوات الست التي أنفق فيها روزفلت ألوف الملايين من الدولارات لبناء الجسور بدلاً من المدافع، والمدارس ومحطات توليد الطاقة بدلاً من الطائرات والبوارج — كانت سنوات تسليح — ولكنه تسليح أدبي. ولولا ذلك لكان من المحتمل ان نجد ملايين كثيرة لا تعتقد ان هنا نظاماً وحكومة، يستحقان سفك الدماء لحفظهما

[تلخيص فصل للكاتب جيرالد جنصن في مجلة الاتلنتيك منثلي]

غزاة قارتين

يلقون حتفهم في البرازيل

لم تكن مسائل الدفاع الحربي عن القارتين الاميركيتين تشغل بال شعوبهما في سنة ١٩٣٠ عندما اجتاز البحر من غرب أفريقية الى ناتال في شمال البرازيل الشرقي ، فريق من الغزاة، لم يلبث حتى هدّد تلك البلاد الواسعة الغنية بما هو أشدّ فتكاً من القنابل والرشاشات

ذلك بأن مئات من السكان ، في ناتال أصيبوا بمرض عضال فشحبت الوجوه وهزلت الاجسام وفشت الآلام الناشئة عن «البرداء» — الملاريا . ولكنها لم تكن من طراز البرداء المتفشية في المناطق الاستوائية والمجاورة لها . فقد كانت آلام المصابين بهذا الضرب الجديد من البرداء أطول أمداً ومعدّل الوفاة بها أعلى ، وكان يعقبها في بعض الاحيان مرض يعرف بحمى « البول الاسود » وهي وبيل دائماً ما زال يعيي نطس الباحثين في الامراض الاستوائية . وقامت في أذهان بعض الأطباء المخضرمين الحكماء الذين شاهدوا تفشي الملاريا في بقاع أخرى من الارض ، صورة قاتمة لم يجرؤوا على ذكرها ، ولكن باحثاً يدعى « شانن » ما لبث حتى أثبت ان مخاوفهم في محلها

كان شانن أحد علماء معهد ركفلر للبحث الطبي وكان متوفراً على دراسة الحشرات ، فألحق باللجنة التي عهد اليها في بحث موضوع الحمى الصفراء في البرازيل. وكان في سبيل البحث في أنواع البعوض التي تتولد في البراميل والحفر المملوءة بالماء على أثر المطر ، فشاهد بعوضاً من صنف غريب ، فلما شرّحهُ وأخذ يفحصهُ بالمجهر ، هالهُ ما رأى إذ تحقق انهُ بعوض من جنس جامبي Gambiae وانهُ غزا نصف الكرة الغربي . وكان شانن يعلم ان ليس بين أجناس البعوض الناقلة لطفيلي الملاريا جنس يفوقهُ فتكاً ذريعاً

ولكن كيف انتقل هذا البعوض الى البرازيل ؟ إنهُ لا يستطيع ان يطير مسافة تزيد على ثلاثة أميال ، ولا ان يبقى محصوراً في حجرة ما مدة تزيد على يومين ، فلا يحتمل ان يكون قد قطع المسافة من غرب أفريقية الى شرق البرازيل ، طائراً او في سفينة . ولكن طائرات الخطوط الجوية الفرنسية كانت قد تمكنت قبيل ذلك من اجتياز المسافة بين دكار

وناتال في احدى وعشرين ساعة . واذن فلا ريب في ان هـذا البعوض جاءَ العالم الجديد محمولاً بالطائرات

فأُنذرت حكومات الجمهوريات الاميركية بما حدث،وأخذت السلطات الصحية البرازيلية تشدّد في مراقبة جميع الطائرات الواصلة من أفريقية ، فتفتشها وتطهرها حال وصولها . ولـكن خبراء الملاريا قالوا : ان الأذى وقع وبعوض الجامبيا هنا !

هذا البعوض يتوالد توالداً سريعاً ويتكاثر تكاثراً عجيباً . فالأنثى — وهي وحدها التي تحمل الطفيلي — خصبة ولود ، وبيضها ينقف في أكثر من يوم قليلاً ، ولا تنقضي ثمانية أيام او تسعة على الأناث التي نقفت أمس حتى تكون قد أخذت في البيض كذلك . وهو يختلف عن سائر أجناس البعوض التي تنقل طفيلي الملاريا في هذا : ان الاجناس الأخرى تغتذي على الغالب بامتصاص دم الحيوان ، وفي الحين بعد الحين تمتصّ دم الانسان ، فتنقل الى السليم طفيليّ البرداء ، او تأخذ — اذا كانت هي سليمة — هذا الطفيليّ من المصاب . أما جنس الجامبيا فيكاد يقتصر في غذائهِ على ما يمتصهُ من دم الانسان، ففعلهُ في نشر المرض لا يكاد يجارى.وجسم الأنثى تتولد فيهِ طفيليات الملاريا بالملايين،فجميع طبائع هذا البعوض تجعلهُ أضرى أجناس البعوض الناقل للملاريا وأشدّها فتكاً

بين ابريل ويونيو من سنة ١٩٣٠ أصيبت مدينة ناتال بأقوى وباءِ ملاريا عرف في تاريخ القارتين الاميركيتين . ثم جاءَ فصل الجفاف بين يونيو وفبراير من السنة التالية ، فخف انتشار المرض ثم انفجر ثانية وكأنهُ بركان

وأخذ البعوض في الانتشار، فنقلتهُ الرياح رويداً رويداً مسافة مائة وخمسة عشر ميلاً من الشاطىء ، وأُصيب بالملاريا في بعض المناطق تسعون في المائة من السكان، وتوفي من المصابين بين عشرة في المائة وخمسين في المائة منهم،ونزف المرض قوى الذين لم يموتوا فتركهم لا هم أحياء ولا هم أموات، ضعافاً عاجزين عن العمل، زائغي البصر والذهن لا تروقهم الحياة

وتذكر رجال الصحة في البرازيل ما رواه المؤرخون عن تأثير الملاريا في سقوط حضارة اليونان والرومان ، فاستولى عليهم القلق وهم يطالعون الأنباء عن انتشار هذا البعوض وتفشي الوباء في أثره ، وعاد الدكتور باربر الخبير الاميركي بالملاريا من البرازيل فأذاع الانذار التالي

« ان بعوض الجامبيا يهدد القارتين الاميركيتين بكارثة ليست الأوبئة
« والنيران والحروب في جنبها الاّ نكبات عابرة . فالجامبيا يدخل في
« شرايين الأمة وقد يبقى فيها قروناً يبلوها »

ثم مدّت العناية يدها الى البرازيل،فجاءَت سنتان من الجفاف،فحرقت الارض وغاض الماء في

المواقع التي يلقي فيها البعوض بيضهُ فصدَّ الغزاة عن التوسع وأُتيح لمكافحي الملاريا فرصة للعمل

كان في البرازيل جيش من رجال الصحة مهمتهُ مكافحة الأمراض التي ينقلها البعوض ولاسيما الحمى الصفراء . وكان على رأس هذا الجيش الدكتور باروس باراتو خليفة اوسوالدو كروز الذي أباد الحمى الصفراءَ من منطقة ريو ده جانيرو قبل ثلاثين سنة . وقد مضى باراتو مترسماً خطى كروز حتى غدا البعوض aedes aegypti من الاجناس النادرة في البرازيل

وكان الخبراءُ فريقين ، أحدهما ناشد باراتو إن ينشئَ هيئة لمكافحة الجامبيا وان يتيح لها المال والأدوات اللازمة وهي كفيلة بالتغلب على هذه الآفة . والآخر كان يشك في النجاح . نعم ان الحمى الصفراءَ استؤصلت بالسيطرة على البعوض الذي ينقلها ولكن سرعة تكاثر بعوض الجامبيا تجعل السيطرة عليهِ مهما تكن وسائلها غير كافيةٍ ،ولا بدَّ في مكافحتهِ من إبادة الجنس عن بكرة ابيهِ . ولم يكن بين مكافحي البعوض من يتصوَّر ان في الوسع ابادة جنس من البعوض. فكيف بابادة بعوض الجامبيا ! ان اجناس البعوض الأخرى تبذر بيضها في أماكن معروفة في بركة أو برميلٍ ممتلىء ماءً أو ما اشبه . فالسيطرة على البعوض تقتضي تجفيف هذه المواقع أو رشها بمواد تقتل اليرق قبل ان يتحول حشرة كاملة

وقد يجدون عوناً في نوع من السمك الصغير يقتات ببيض البعوض ويرقهِ فاذا وضعتَ طائفة منهُ في بركة ما ، تعلم انها مبيض البعوض ، أكل السمكُ البيضَ واليرق

ولكنَّ بعوض الجامبيا يجتنب البرك والخنادق الكبيرة ويفضل أن يبذر بيضهُ في اماكن صغيرة وحفر لا يلتفت اليها ولا تحصى، كحفرة أحدثها في الوحل حافر جواد أو ثور. فالمشقة في مكافحتهِ بنفس الاساليب المعتمدة في مكافحة غيره تقتضي على قول أحد الخبراءِ « تجفيف كل بقعة كبيرة او صغيرة يتجمع فيها الماء بعد كلّ مطر »

وكذلك علّقت البرازيل رجاءَها بانحباس المطر وجفاف الأرض ، لعلَّ هذا الغازي الافريقي يجد الجفاف في ارض البرازيل فوق ما يطيق . ولكن عند ما همى الغيث في سنة ١٩٣٤ عاد البعوض الى الانتشار ، واتسع نطاق انتشاره خلال السنوات الأربع التالية حتى شمل شمال البرازيل وغربها وكانت المساحة المصابة بالملاريا في سنة ١٩٣٨ تبلغ اثني عشر الفاً من الأميال . وأصيب سكان مدن بأسرها بهِ ووقف العمل ولم تزرع الحقول لقلة اليد العاملة. وقال ممثلو معهد ركفلر في تقريرهم : «سيكون من عواقب انتشار هذا البعوض انّ كل واحد من السكان في المنطقة المصابة سيصبح عالة على الحكومة في سنة ١٩٣٩ »

عند ذلك بات الخطر المحدق بنصف الكرة الغربي خطراً كبيراً محققاً . فقال احد الخبراءِ «اذا اجتاز بعوض الجامبيا وادي الپارناهيبا والساو فرنشيكو استحال منع انتشاره الى سائر اميركا الجنوبية والى اميركا المتوسطة وقد يتعذر منع تطرقهِ الى اميركا الشمالية »

وفي يناير من سنة ١٩٣٩ أعلنت البرازيل الحرب على الجامبيا . فأصدر الرئيس مرسوماً بانشاء قيادة مكافحة الملاريا في المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد . وندب الدكتور باراتو — المدير العام للصحة العامة — الدكتور مانويل فريرا لتولي هذه القيادة وهو من أقطاب الصحة العامة في البلاد. وألحق به هيئة اركان حرب أعضاؤها الدكتور شاغاس أحد كبار العلماء في مسائل الملاريا — وقد قتل من عهد قريب في حادثة طائرة . وأرصدت الحكومة ربع مليون من الريالات لهذا الغرض ، واكتتب معهد ركفلر بمائة الف ريال . لقد حسمت المناقشة في هل ابادة هذا البعوض مستطاعة او غير مستطاعة وجاء دور العمل الحازم، واذا الشعار: «استبينوا طريق المكافحة مهما يكن وسيروا عليه»

كان الوقت المتاح لتدريب الجنود قصيراً . ولم يكن أمام القواد مثل يجرون عليه وأساليب يأخذون بها . ولكن عند ما حلَّ فصل المطر في فبراير سنة ١٩٣٩ كان الجيش الأول في الميدان وكان قوامه الفين من الأطباء والمفتشين والعمال. وانقضت اربعة اشهر ظهر فيها ان بعوض الجامبيا خصم عنيد . فالمطر المنهمر كان يترك بقعاً من الماء في كل مكان . والى هذه البقع كانت تختلف أناث البعوض تلقي فيها بيضها . فعمد جيش الكفاح الى المناطق الموبوءة وبسط عليها سيطرته وأرسل فصائل الاستكشاف الى ما وراء هذه المناطق فأنشأ فيها مواقع للمراقبة . فما أقبل شهر يونيو حتى أعلنت قيادة الجيش ان العدو بات مطوقاً . ثم بدأت معركة الإبادة

عولج كل مكان يصح ان يكون مباءة لبيض البعوض بأخضر باريس . وانتشر العمال بمضخات التطهير يقرعون كل باب ويدخلون كل دار يقتلون البعوض البالغ في الدور والخيام والدكاكين والبيوت المهجورة . ومضوا في تنفيذ هذه الخطة بغير هوادة او لين في كل بوصة مربعة من الأرض في المنطقة الموبوءة وعلى مسافة عشرة أميال وراء حدودها . وكانت الفصائل المتنقلة تقف كل عربة وتطهرها قبل انتقالها من المنطقة الموبوءة الى ما يليها

ولقد أصيب هذا الجيش بغير يسير من خيبة الأمل ولكنه لم يقنط . فقد نفد المال ولكن الحكومة البرازيلية أرصدت مائتي الف ريال أخرى ومضت الحملة على أساس التجربة والخطإ . وجاءت أحايين بدا فيها للقواد ان الحشرات القاتلة تهزأ بهم وتسخر من جهدهم . ولم يكن من النادر ان يفوع المرض في منطقة كانت تُظَنُّ غير موبوءة وهي تبعد أميالاً عن أقرب منطقة موبوءة اليها . فأرسلت فصائل مستكشفة للبحث وما لبثت حتى عرفت الجواب وكشفت السر. ففي حالة واحدة، اجتنبت سيارة عيون الرقباء وشقت طريقها من المنطقة الموبوءة خارجة عن الطريق المطروق فلم يشملها التطهير والتدخين . وفي حالة أخرى تسلل زورق نهري صغير تحت ستار الظلام . وفي الحالين انتقل البعوض من منطقة الى أخرى كانت سليمة منهُ

ولكن ذلك لم يثن عزم الجيش . وفي سنة ١٩٤٠ ارصد مليون ومائة وثلاثون الف ريال لهذه الحرب . وكان نصيب معهد ركفلر منه مائتين وثلاثين الف ريال . وزيد الجيش المكافح الى أربعة آلاف . وأعلنت قيادة الجيش في لهجة تنم على الثقة « ستكون هذه السنة سنة القضاء على الغزاة »

والواقع ان بعوض الجامبيا بدأ يرتدّ بعد ما صدّ . وكان المطر غزيراً ولكن التقارير الواردة من الضباط في منطقة أثر منطقة كانت تقول جميعاً : المنطقة نظيفة وليس ثمة دليل على وجود البعوض أو البيض او اليرق » . ولولا هذا الكفاح العظيم لكانت البلاد في هذا الفصل المطر مرتعاً خصباً للبعوض يتكاثر فيه وينتشر

والدليل على ذلك أن الجيش كان قد احتفظ بمنطقتين لم يعالج البعوض فيهما بأساليب الكفاح المختلفة ليستطيع المقارنة . فكانت فوعة البعوض عظيمة فيهما ، ولكن هزيمة العدوّ كانت بادية في كل منطقة أخرى نفذت اليها فصائل الكفاح

عند ذلك قرّرت قيادة الجيش أن تمتحن ما فعلت امتحاناً فعّالاً . فكانت كلّما أعلنت كتائب الكفاح أن منطقة ما قد طهرت من البعوض ، ترخي وسائل المراقبة والكفاح ولكن فصائل الاستكشاف تبقى مترصدة تطوّر الحال لئلاّ يفلت الزمام من يدها . ومضت أشهر ولكن بعوض الجامبيا لم يظهر

غير ان الحذر والخوف يساوران المكافحين لأنهم يعلمون أن بعوض الجامبيا عدو عنيد غادر . والواقع إنهُ حدث ما روّعهم في حالة واحدة ذلك بأن بعوض الجامبيا ظهر في منطقة تبعد خمسين ميلاً عن حدود أقرب منطقة كانت موبوءة . ولم يعرف السبب ولكن الجيش المكافح قضى على العدو بعد حملة قصيرة

وقد انقضت سنة أو تزيد الآن ، ودوريات مصلحة الصحة تطوّف في شمال البرازيل الشرقي مستكشفة مستطلعة بغير أن تشاهد بعوض الجامبيا . وأعلنت أنها تجيز كل من يأتيها ببيضة أو بعوضة أو يرقة بمبلغ من المال . ولكن أحداً لم ينل هذه الجائزة

وعلماء البرازيل حذرون الحذر كلهُ — شأن العلماء الصادقين — فلا يزعمون أن بعوض الجامبيا قد أُبيد . ومع ذلك فان النتيجة التي أحرزوها وقعت وقعاً عظيماً في دوائر علماء الصحة في كل صقع لأن هذا الغازي المجنح الفتاك لم يشاهد في البرازيل منذ شهر نوفبر سنة ١٩٤٠

ان البرازيل قد أثبتت بما بذله رجالها من همة وصدق كفاح ، ان الملاريا مرض في الوسع استئصالهُ . فلا يجوز بعد الآن ان تبلى به أمة ما . وانتشاره في جماعة ما من الناس يجب ان يعدّ باعثاً من بواعث العار الاجتماعي ونتيجة من نتائج الإهمال

(عن مجلة ريدرز ديجست عن مجلة العصر الحي بتصرف يسير)

صفائح على قبور ...

لراجي الراعي

رأيت أمس في ساحة من ساحات الموت أربعين قبراً عليها الصفائح الآتية :

— تدثَّر بالارض فاندثر

— لم يبق لهُ من هياكله غير عظامه

— اغترفه الموت بالفم الذي اغترف به الحياة

— هنا يرقد الهازىء الاكبر ڤولتير .. انهُ يضحك في ترابه

— هذه ثمالة الثمالة !

— الحياة ليل يطلع فجره على هذه الساحة !

— الطفولة والشباب والكهولة والهرم : قوائم أربع ينصب عليها الموت عرشه الترابي

— لقد جُبل دمه بالتراب !

— هذا ميرابو .. لم يبق منه غير الحنجرة .. انظر اليه كيف يخطب على كومة من عظام اتخذها منبراً . كان يطرد رسل الملوك من قاعة الامة فمن تراه يطرد الآن ؟

— لم ترحمهُ الحياة فكيف يرحمهُ الموت

— رقمٌ جديد أُضيف الى ذلك الجدول المخيف !

— هنا يرقد نيرون بجانب ضحاياه !

— من رحم المرأة الى رحم الأرض . .

— غمرتهُ موجة الايمان فمات شهيداً !

— تلك هي القبة الزرقاء وهذي هي القبة السوداء . .

— قصر ليله وطال حلمه فأنجده الموت بليله ليظل حالماً ..

— تنقل هذا العصفور على جميع الأفنان ثم أوى الى عشه . .
— كان مهده منطوياً على لحده . . لقد غشَّـهُ المهد !
— متى يموت الموت : هذا المجرم الأكبر ؟
— نشرتهُ الحياة فنظمهُ الموت عقداً في جيده . .
— مات وفي صدره الف طعنة ! !
— في هذا القبر الصغير يرقد بطرس الأكبر . .
— أنكرتهُ الحياة ولم يعرف نفسه . .
— حمة من بركان في حفنة من تراب . .
— مات غريقاً . . لقد ابتلعتهُ اللجتان : لجة السماء ولجة القضاء .
— هذه واحدة من مجاوز القدر .. وهذا دمها في الحجر . .
— لا تسر اختيالاً على رأسه فهذا هو المعرّي . .
— هذا نابليون .. ظلَّ سيفه مصلتاً عاصياً غمده حتى أغمده الموت . .
— انه لم يمت بعد . . ان الشاعر لا يموت . .
— اليقظة كل اليقظة في هذا الرقاد . .
— هذا حجرٌ يتكلم . .
— في هذا الضريح المظلم قبس من نور الآخرة . .
— لقد انتثر عقده !
— وأخيراً خرج ديوجينيس من برميله وأوى الى هذا البيت الثابت الذي لا يتدحرج . .
— الحياة يوم هذا ليله . .
— الخرخرة آخرة الثرثرة !
— كيف استطاع هذا القبر ان يسع خياله . .
— ظلت ساحرة حتى اللحظة الاخيرة . . أعرفتها . . هي كليوبتره .
— هذا عليٌّ في آيته الكبرى . .
— نعم . . . لقد مات !

المتخصص الاجتماعي

في معركة الاصلاح (1)

لمحمد العشماوي بك

سيداتي، سادتي، بناتي الطالبات، أبنائي الطلبة: أحييكم وأحيي مدرسة الخدمة الاجتماعية التي أتاحت لي فرصة أخرى لمعاودة الحديث في ناحية من نواحي معركة الاصلاح الاجتماعي، وقد علمتم رأيي في هذه المعركة من خلال الموازنة التي عقدتها بينها وبين معركة الحرب. فقد أبنت لكم أن معركة الاصلاح يجب أن تأتي في مقدمة المعارك جميعها، فلا أمل في إصلاح ما لم تحشد له قوانا جميعها، وأنه لا صلح في تلك المعركة ولا هدنة ولا استجمام. وإذن لا يكفي أن نتحدث في شأنها حديثاً أو حديثين. وإنما يجب أن يتصل حديثنا ما دامت تطالعنا المعركة بنكباتها وتشن علينا غاراتها في كل آن

ومما لاشك فيه أن رسالة مدرسة الخدمة الاجتماعية إعداد الجنود للكفاح في ميدان الأصلاح الاجتماعي. فاذا تحدثت اليكم فيما يجب أن يتوافر للجندي الاجتماعي فانما أتحدث في شأن من شئون الاعداد العلمي الحربي للخدمة الاجتماعية. وقد أفردت حديث الليلة لمهمة المتخصص الاجتماعي بعد أن ألممت بمهمته إلماماً في حديثي السابق، وذلك لان مهمته من سمو المكانة وعظيم الخطر بحيث يتعين أن يفرد لها حديث خاص، وأن تكون في مقدمة ما يشغلنا من شئون تنظيم المعركة وتوفير ما تتطلبه من قوة وعتاد وجنود. وإذا نظرنا إلى الحياة العالمية نظرة عامة وضح لنا أن البيئة المصرية أصلح بيئة للكفاح في سبيل الاصلاح في مختلف ميادينه فما أحسب أنه قد تجمع في بيئة ما تجمع في مصر من عوامل الشر التي تجب مكافحتها. فهل تفتك الأمراض ببلد متحضر فتكها بمصر التي أثبتت موازنات إحصائياتها أن كل فرد مصاب بعلتين على الأقل، وأن أغلب الأمهات فيها يلدن للقبر؟ وهل يحدث الفقر من الأثر ببلد متحضر ما يحدثه بمصر حتى ليهبط بمورد كثير من الأفراد الى ستة جنيهات في العام يواجهون بها مطالب الحياة في أشق ظروف الحياة؟ وهل تغشى الأمية والجهل بلداً متحضراً كما تغشى مصر التي لم يزد من يعرفون القراءة والكتابة فيها على عشرين في المائة؟ وهل أهمل تثقيف الفتاة في بلد كما أهمل في مصر التي لا تزال نسبة المتعلمات فيها نحو خمسة في المائة؟ وهل تجري السياسة الاقتصادية

---

(1) ألقيت في مدرسة الخدمة الاجتماعية في ٧ ديسمبر ١٩٤١

والاجتماعية والثقافية في بلدٍ كما تجري في مصر على الارتجال والحل الوقتي للمشكلات دون تفكير في مصدر الداء والعمل على شفاء البلاد منهُ شفاءً ناجعاً حاسماً ؟

من هذا تتبينون أن الحياة المصرية في حاجة ملحة الى مجهودات متصلة في سبيل الإصلاح وأن مهمة المصلح الاجتماعي فيها عسيرة شاقة . ولهذا كان إعداد جنود الإصلاح وتبصيرهم بسمو رسالتهم وخطر واجباتهم جديراً بتفكير المفكرين وحديث المتحدثين

وقد قلت في حديثي عن معركة الاصلاح إن التجنيد لها يجب ان ينتظم أهل البلد جميعاً لا فرق بين رجل وامرأة ولا بين شيخ وشاب ، ولا بين شعب وحكومة . فالاسلام حين عدّد واجبات الرعاية جعل كلاً راعياً وكلاً مسئولاً عن رعيته . فالجنود هم أفراد الأمة على بكرة أبيها بما توافر لكل منهم من ثقافة أو تجربة أو جاه أو مال

ولا يتسع لي المجال في هذا الحديث لأتكلم في وسائل إعداد أفراد الشعب جميعاً للكفاح في سبيل الاصلاح، ولذلك أقصر كلمتي على إعداد المتخصص الاجتماعي وحده

ومثل الخدمة الاجتماعية كمثل المعركة الحربية تتطلب جنوداً مدرَّبين يدرسون فنون الحرب ويحذقون استخدام معداتها ، وتتطلب ضباطاً يتولون قيادة الجيش وتنظيم الصفوف وتوجيه الحملات، وتتطلب غير هؤلاء وهؤلاء جيشاً مرابطاً يمد الجيش العامل . وكذلك الشأن في معركة الاصلاح يجب أن يهيأ لها جنود ثقفوا فنون الكفاح، ومن ورائهم جنود احتياطيون . كما يجب أن يهيأ الشعب كله للمؤازرة وقت الحاجة . فان اقتصرنا على طبقة الجنود المدربين وتركنا الأمة في عزلة كان فشلنا في المعركة محققاً . فأنا إذ أتكلم في شأن المتخصص الاجتماعي فانما أعني الجند الذين يعدون إعداداً خاصاً . ولكني لا أغفل القوى الاحتياطية التي تشد أزرهم وتحمي ظهورهم بالمال آناً وبالروح المعنوية آناً . وأولئك الجند هم الذين يدربون تدريباً فنياً لخوض المعركة والبلاد من ورائهم تزوّدهم بكل القوى التي تمكن الجيش العامل من الثبات في الميدان ومواصلة الكفاح حتى يقضي على عوامل الشر

فماذا يجب أن يتوافر للمتخصص الاجتماعي من إعداد وقوى ؟ أول ما يجب أن يتسلح به قلب كبير عامر بالايمان ، لأنهُ إذا ضعف إيمانه أو تزايل تعرَّض للاخفاق المحقق، وذلك لأن الكفاح في ميدان الاصلاح نوع من أعمال الرسالة، وهي لا تؤدى إلاّ بايمان وطيد لا تزحزحه مغريات الدنيا ولا نوائبها ولا الطمع في جاه أو مال أو منصب . فواجب أن نربي المتخصص الاجتماعي على الايمان القويّ . ولن تؤتي هذه التربية ثمرتها الاّ إن استندت إلى دين وعقيدة فالرسل جميعاً جاءوا بالهدى والحق، بعثهم الله لاصلاح البشر . ولقد صدر الأنبياء والرسل عن عقائد ثابتة بلغوا بها ما أرادوا . ولا يتسنى للمتخصص الاجتماعي أن يمضي في طريقه قدماً إلاّ إذا كانت تحدوه عقيدة دينية ثابتة سليمة لا تتزعزع، تملأ صدره نوراً وتدعهُ لا يرضى

غير وجه الله والمصلحة العامة سبيلاً . فعلينا أن نستعين بالروح الدينية في صفاء جوهرها لتكون وسيلتنا في العمل للاصلاح . ولتعلم أن فاقد الشيء لا يعطيه فلا يقدر أن يبث عقيدة الاصلاح الاجتماعي داعٍ اجتماعي لا عقيدة له ولا إيمان . وإن كثيراً من دعوات الاصلاح لتذهب هباءً لأن القائمين بها لا يصدرون عن قلوب عامرة بالايمان ، أو لأنهم في أحوالهم الاجتماعية الخاصة أبعد ما يكونون عن روح الاصلاح الذي يدعون اليه

كذلك يجب أن يكون المتخصص الاجتماعي واسع الأفق في المعرفة بأحوال الناس بصيراً بما يؤثر في الخاصة والعامة ، دارساً للحياة الاجتماعية في مختلف نواحيها دراسة تعينهُ على الاستنتاج والعلاج. فاذا عالج رفع المستوى الاجتماعي لبيئة خاصة كان عليهِ مثلاً أن يتعرَّف الحالة الاقتصادية أكمل تعرُّف، لأن للاقتصاد أثره في شيوع المرض وتغلغل الفقر وانتشار الجهالة، فمقوّمات الحياة في الأمة حلقة مفرغة. إذا ساءَ الاقتصاد مثلاً ساءَت الصحة وساءَت الثقافة. وإذن فلا بد للمتخصص الاجتماعي من دراسة تقفه على حقيقة العوامل التي كانت سبباً في انخفاض المستوى الاجتماعي والصحي والثقافي والخلقي للبلاد

ويجب أن تتعاون المرأة مع الرجل في ميدان الاصلاح ، فاذا لم يتساند العنصران على أداء مهمة الاصلاح ضعف الأمل في النجاح . ولقد خلق الله الزوجين الذكر والأنثى وجعل لكل منهما طبيعة خاصة يلائمها عمل خاص. فالمرأة بطبيعتها مربية الجيل ، وهي الروح المعنوية الحافزة، وهي باعثة الطموح وصدق الهمة، وهي ملهمة الرشد أو الغي. ولقد كان لها دائماً هذا الأثر في البدو والحضر وفي فجر الحضارة وضحاها. وإني ليحضرني قول أحد أصحاب المعلقات في حفز الهمم

على آثارنا بيضٌ حسانٌ نحاذر أن تقطع أو تهونا
يقتنَ قيادنا ويقلنَ لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا
إذا لم نحمهنَّ فلا بقينا لشيءٍ بعدهنَّ ولا حيينا

فعلينا ألاّ نهمل إعداد المرأة للعمل في الميدان الاجتماعي وأن ندفعها إلى الكفاح فيهِ بما حباها الله من صفات الصبر وقوة الاحتمال وروح العطف والتفدية والايثار . ولكن يجب أن نعدها لمهماتها الاجتماعية الطبيعية ، فمكانها من الميدان مؤخرته تدفع الرجال إلى الأمام. ولديها في هذا المكان من جسام الأعمال ما يشغل وقتها ويستنفد جهدها، فهي تتلقى الطفل من ولادته الى رجولته. واليها ينتهي الأمر في تنشئتهِ وتغذيته وتثقيفه وتقويم أخلاقه في مراحل حياته الأولى. فلنعد المرأة لرعاية الطفل وحل مشكلاته ترعى ذكاءَه حتى لا يخبو وتبعث فيه الحرارة حتى لا يخمد . ولنعدها أيضاً لمشكلات الأسرة تعالجها زائرة أو مقيمة وتحل عقدتها في بيتها أو في بيوت الناس . فأما الرجل فعنده الميدان الثقافي والصحيّ والاقتصادي والارشاد العام . على أننا الآن في مجتمعنا أشبه ما نكون بمن تظلهم حالة الحرب . البلد في خطر.

والعدو كثير والهجوم من نواحٍ عدة والغارات متوالية . فالحالة تتطلب اشتراك العنصرين معاً لانقاذ البلاد وليس يجزىء أن ينفرد كلٌّ بعمل . فالمرض تقاومه المرأة والرجل في الفرد والأسرة، والاقتصاد تشترك فيه المرأة بما تضع من تدابير صالحة تكفل بها أن يفي القليل بالحاجة

وبودي أن أنفي عن المتخصص الاجتماعي رجلاً كان أو امرأة أن عمله نوع من الوظائف تخضع لرآسة ترتجى ، وتتعلق بآمال ترتقب . وإنما يجب أن تتوافر لمن يلي هذا العمل صفات من النبوة . فيقبل على مهمته في غير انتظار للجزاء بل في توقع الأذى ، ويضع نصب عينيه أن فكرة الاصلاح تتنافى مع النفع . لأن أساسها التفدية بكل شيء حتى بالنفس إذا اقتضت الحال

وعلى المتخصص الاجتماعي أن يكون حكيما لبقاً فيما يواجه من أزمات وما يبغي من إصلاح . وأن يرعى سنة التطور ، فلا يقدم على تغيير شيء لم تهيأ لتغييره الوسائل والنفوس وإلا كانت دعوته إلى الاصلاح دعوة إلى الثورة مما يجعله مفسداً لا مصلحاً . فاذا صادفته في مجتمعنا المصري تلك الفكرة الشائعة حتى في أوساط المتعلمين التي تقول بزيادة المتعلمين عن حاجة البلاد ، وجب أن يتدبر الباعث على هذه الفكرة ، ليرى أن عذر الناس في إشاعتها كثرة المتعطلين ممن تعلموا ودرسوا . وإنها لمشكلة تدعو إلى العجب أن تكون حاجة البلاد الى المتعلمين ممتنعة أو قليلة ، على حين أن عدد الذين تعلموا القراءة والكتابة في مجموع الأمة لايتجاوز العشرين في المائة . فكيف نغالب تلك الفكرة وكيف نعالج تلك المشكلة ؟ لنقنع الكافة بأن البلاد مافتئت متعطشة إلى مناهل العلم وأن الحاجة الى الاكثار من المتعلمين لاتزال ملحة . لزام على المصلحين أن يفكروا طويلاً ليدركوا أساس الخطأ في هذا التقدير . وإذن ما العلة في تعطيل من خرجتهم المعاهد على مس الحاجة إلى أضعافهم جميعاً . الحق أن مثلنا في ذلك مثل من يذهب الى أعالي النيل ليقيم مصنعاً لنسج الثياب حيث يظل القوم عراةً فهل يتوقع أن يقبل الناس على ترويج بضاعته ؟ وهل يدل عدم الاقبال على شراء الثياب على أن القوم استوفوا حاجتهم إلى الكسى . تلك حالنا : ضاق مجتمعنا بالمتعلمين لأننا في شئوننا الحيوية لا نعتمد على المتعلمين . فالطب قائم في الكثير على الذين يمارسون التطبيب من طريق الدجل والخرافات، وهندسة البناء قائمة على عامة البنائين، والمحاماة لا تخلو من الدخلاء غير المتفقهين . ودور التجارة لم تتسع لمن درسوا فن التجارة، والمزارع لم يتول العمل فيها المختصون . وبذلك نضب معين الأعمال أمام المتعلمين، لأن العقلية الاجتماعية للأمة وقفت في طريقهم عقبة كئوداً . ولقد قلت في حديث لي إن عطلة المتعلمين سببها قلة المتعلمين . وما زلت أرى وجه الصواب في هذا القول . فلو انتشرت الثقافة وارتقت عقلية الأمة ومستواها الاجتماعي لعظمت حاجة البلاد الى هؤلاء المتعلمين المتعطلين، بل لشعرت بأنهم دون كفايتها . فالمصلح الاجتماعي يلقى في مصر حالة طال عليها العهد وعقلية ران عليها الجهل فألفها الناس . ولذلك يرى طريقه الى الاصلاح

شاقًا عسيرًا ، إذ يصادف فيمن يصادف أناساً عشيت أبصارهم فيؤذيهم النور، وعميت بصيرتهم فلا يتبينون طريق الهدى . فهو مطالب أن يدفع أولئك الى تفكير جديد ونظر جديد وهو مضطر أن يعمل شيئاً فشيئاً على تغيير أوضاع الحياة ومعايير الأخلاق

ولعلَّ أهم ما يجب على المصلح الاجتماعي أن يرعاه هو تجنب الوقوع في الطفرة وإثارة روح الفتنة . فاذا أراد أن يعالج مشكلة الفقر وجب ألاّ يبث في نفوس الفقراء روح التمرد والانتقاض المفاجيء على نظام المجتمع، فتقع الفرقة وتضطرم الفتنة . وإنما يتوجه الى الاغنياء فيذكرهم بما فرضهُ الله للفقراء في أموالهم من حق ، ويطلب اليهم أن يؤدوه لوجه الله والوطن، وأن يرفهوا بالفضل من مالهم عن البائس والمحروم . فان لم يلق من ذوي الغني آذاناً تعي أو قلوباً تعطف دعا إلى اتخاذ التشريع سلاحاً يستنقذ بهِ هذا الحق في الأموال. ثم يلتفت ذلك المصلح الجدير بهذا الوصف إلى الفقراء ، لا ليبذر بذور الشقاق والبغضاء بينهم وبين الاغنياء ، بل ليحببهم في التعويل على النفس والسعي وراء أسباب الكسب ، واستشعار الكرامة والانفة من قبول العطية والاستنامة الى المعونة. فان وجههم الى ذلك فقد وجههم الى طريق الكرامة والانتاج الشريف وجنبهم المذلة والمسكنة . وبديهي أن الرغبة في البذل ضعيفة عند من يملكون البذل. ومهما نقل للمترفين : انزلوا عن شيءٍ من أموالكم حتى لا يثور عليكم الفقراء والبؤساء فقلما نرجو منهم تلبية للدعوى أو إسراعاً لبذل المعونة . ولن يفوتكم أن العرب حين ارتدوا عن الاسلام على أثر وفاة النبي الكريم كان أول حافز لهم على الردة رغبة الفرار من أداء فريضة الزكاة ، ولو رفعت عنهم هذه الفريضة لما وقفوا في أغلب الظن هذا الموقف

والمصلح الاجتماعي مضطر الى أن يترفق في الدعوة الى البذل وأن يعالج بكل الوسائل روح الانصراف عن البر فيحببه الى الناس بمختلف الحجج والمرغبات، وعليه أن يعمل في تنظيم البر وتوجيهه وجهة صالحة فان ذلك الاحسان غير المنظم من شأنهِ أن يقوي في النفوس الاستعداد للاستجداء المزري والركون للدعة والبطالة، وبذلك نتجه بالبر وجهة جديدة وهي تهيئة الوسائل للفقراء والضعفاء . فنهيء للمريض وسائل الاستشفاء وللجاهل وسائل التثقيف وللمتعطل أبواب العمل . وعلى هذا النحو يرتفع المستوى الاجتماعي للأمة في مختلف النواحي وتيسّر الحياة للفقراء ويتحقق التكافل العام في شتى مظاهره والانتاج في كل مرافقه

وإني إذ أختتم هذا الحديث أرى أن مهمة المتخصص الاجتماعي في جلالة خطرها ليست بالتي يستطاع أن يستوفى حديثها في وقفة أو وقفات. ولذلك أجتزيء في مقامي هذا بما أجملتهُ لكم آملاً أن تتهيأ لي الفرصة لاستئناف الحديث ، فالحديث عن الاصلاح ومعركة الاصلاح يجب أن يطغى على الأحاديث التي يتندر الناس بها في مجالسهم. وليكن شعارنا جميعاً التواصي بالاصلاح نوجه الدعوة اليه عالية خالصة ، ونتلقاها عاملين مخلصين !

عنصر البريليوم

أخف من الألومنيوم وأخلاطه أقسى الأخلاط

من تسع سنوات دخل طيَّار اميركي يدعى ولتر جاكوبز فندقاً في مدينة كليفلند وسأل عن حجرة صديق كان زميلاً له في الحرب العالمية الاولى ، فدُلَّ عليها فقرع الباب ودخل فكأنهُ استأذن ولم ينتظر الأذن في الدخول وفاجأ صاحبهُ بقوله « لا بدَّ من مقابلتك » كأنهُ كان محرجاً ولا مخرج له من حرجهِ إلاّ بعون صديقه . فنظر اليهِ صاحبهُ نظرة ملؤها المودّة والسخرية وقال « ما ورطتك الآن ؟ » فقال « هذه ورطتي » ووضع على المائدة في حجرة صاحبهِ « قضيباً معدنيًّا » وقال له « ارفعهُ ». فتأهب هذا لرفع قضيب كأنما صنع من البلاتين وكأنهُ البطل العالميُّ لرفع الاوزان الثقيلة ، وانحنى بعدما ثبَّت قدميه في الأرض وأمسك بالقضيب ثم انقلب مقهقهاً لأن هذا القضيب الفلزيَّ كان كأنهُ صنع من أخف الخشب فعجب لما رأى والتفت الى صاحبه سائلاً . فجاءَهُ الردَّ

— بريليوم

بريل ... يوم ! وما هو البريليوم ؟

— البريليوم فلزّ . كشفهُ اولاً باحث فرنسيٌّ يدعى ڤوكلان Vauquelin واستفرده وهلر الكيميائي الالماني سنة ١٨٢٨ وهو أخفُّ العناصر في العالم بل هو من أخف العناصر على الاطلاق . انهُ أخف من الالومنيوم ... وليس ثمة اخف منهُ الاّ الايدروجين والهليوم والليثيوم . ومع ذلك فهو قاسٍ يجرح الزجاج

— ولكن ... ما معنى كل هذا ... ما فائدتهُ

— الطيران طبعاً . أتستطيع أن تتصور ما يمكّننا منهُ هذا الفلز في صناعة الطيران ؟ محركات أكبر وأقوى من المحركات التي نستعملها الآن . وطائرات أضخم . وأجسام سفن طائرة لا يصيبها الصدأ ، لأن من اوصاف هذا الفلز انهُ لا يتآكل مثل الدورالومن وغيره من أخلاط الالومنيوم . وهذا القضيب الذي تراه هنا هو نيكل البريليوم . ولكن البريليوم يختلط

بكثير من الفلزات...بها جميعاً تقريباً ... انه يحول الذهب اقسى من الصلب... ان مسماراً من نحاس مخلوط بالبريليوم يستطيع أن يخترق لوحاً كثيفاً من الصلب

أخذ الرجل بهذه الأوصاف . وكان غنيًّا من اسرتي فندربلت وهوتني...وكان معنيًّا بالطيران ولهُ في شركة خطوط الطيران الاميركية Pan American نصيبٌ . فأفرغ في « شركة البريليوم الاميركية » خلال سبع سنوات نحو ثلاثمائة الف جنيه ، انفقت في البحث العلمي وانشاء الاجهزة اللازمة في مصانع البريليوم وفي مناهضة بعض الشركات التي خشيت هذا الدخيل في ميدان الفلزات فحاربتهُ وحاربت اصحابه لكي تقيم محله فلزات أخرى دونه كثيراً في ما يصلح له ولا تصلح هي له

ولكن نشوب الحرب استعجل الارتقاء في كل ما يتعلق بهذا الفلز العجيب . ففي سنة ١٩٤٠ أصدرت الحكومة الاميركية امراً بعدّ البريليوم أحد الفلزات الحربية ، كالمنجنيس والكروم والموليبدنوم والنيكل والقصدير والالومنيوم وأخضعت إنتاجه واصداره لسيطرتها

وركاز البريليوم كثير في الولايات المتحدة الأميركية والبرازيل ومنطقة سفردلوفسك بجبال الاورال . ومن مناجمه الروسية كانت ألمانيا تستورد مقادير منهُ فيصنع رجالها أخلاطاً صلبة يستعملونها في بعض أجزاء الطائرات والدبابات والمدافع

والواقع اننا الآن في عصر يصح ان يوصف بعصر الاخلاط الفلزية.وقد أهلَّ هذا العصر عندما تمكن رجال العلم والصناعة، من صنع خليط خفيف يجاري الفولاذ، في قساوتهِ ومتانتهِ من فلز لين كالالومنيوم . ولولا هذا الخليط الخفيف الصلب لما كان في الوسع صنع القاذفات والمطاردات السريعة وطائرات النقل الكبيرة التي تعبر المحيطات ، لانها لو صنعت من فلزٍ ثقيل الوزن ، لكان وزنها — أجساماً ومحركات — مانعاً للارتقاء . والحاجة الآن خليط فلزيٍّ آخر ، أخف من خليط الالومنيوم وأمتن منه ، فيستعمل في صنع المدافع التي تسلح بها الطائرات ، فتعزز قوتها في الدفاع والهجوم ، لأنه اذا كانت الطائرة لا تستطيع بأوصافها الحالية ان تحمل اكثر من اربعة مدافع من وزن معين فانها تستطيع ان تحمل ستة مدافع مصنوعة من خليط فلزي أخف من الفلز الذي تصنع منه الاولى . وفي دوائر مهندسي الطيران رسوم وتصميمات لصنع محركات يولد المحرك منها خمسة آلاف حصان الى ستة آلاف حصان ، اذا كان الخليط الفلزي اللائم متاحاً ، وهذه قوة تفوق قوة أقوى المحركات المستعملة الآن من ضعفين الى ثلاثة أضعاف

واذا زادت قوة المحركات زادت سرعة الطائرات . واذا كانت الاخلاط الفلزية التي تصنع منها أجسام الطائرات وأجنحتها أخف وأمتن غدا في الوسع صنع طائرة كانت حتى الآن

حلماً من أحلام المهندسين ، أي طائرة تستطيع ان تنقل ثلاثمائة من الركاب ، أو بضع دبابات متوسطة مسافات بعيدة . ولا يبعد حينئذٍ أن يصبح في الوسع تناول طعام الافطار في لندن وطعام الغداء على ساحل اميركا الغربي

نعم ان فنون الحرب وعلوم المعادن سارت جنباً الى جنب منذ فجر التاريخ . وارتقاء قدرة الانسان على التدمير مجارٍ لارتقاء علمه بكيمياء الفلزات واستعمالها . وحديث الارتقاء من قطع الظران في العصور القديمة الى الرشاش في العهد الحديث انما هو قصة الارتقاء من استعمال الحجر الى استعمال الحديد الى استعمال الفولاذ . ولكنه عند ما كشف أسرار صنع الاخلاط الفلزية اصبحت قدرته على صنع آلات التدمير لا تجارى . والاخلاط الفلزية ليست شيئاً جديداً في التاريخ . فالحثيون ملكوا ناصية الحرب لتفوقهم على غيرهم في استعمال الحديد ، والمصريون انتزعوا من جيرانهم ، على رغم أدوات الحديد ، قصب السبق عند ما صنعوا الشبه (البرونز)

غير ان البريليوم لم يتخذ مكانهُ بين العناصر الاخرى الاّ بعدما استفرده وهلر الالماني في سنة ١٨٢٨ . ولكن البحث الحديث أثبت ان النحاس اذا خلط بمقدار اثنين في المائة من البريليوم أصبح خليطاً فلزيّاً تصنع منه كباسات للبندقيات والرشاشات والمدافع الكبيرة لا تبلى

والفضل في هذا الارتقاء في الولايات المتحدة راجع الى رجل يدعى جاهاجان Gahagan وهو اميركيٌّ من اصل ارلندي . ولكنه عانى الأمرَّين قبل ما اقنع رجال الجيش والاسطول في العاصمة الاميركية بأن بين يديه شيئاً يستحق عنايتهم . وكانوا لشدة إلحاحه قد برموا بهِ ، واخيراً قرروا أن يمتحنوا ما يقولهُ عن أوصاف هذا الخليط العجيب فطلبوا منهُ ان يصنع منه اجزاءً من بندقية يستعملها الجيش فصنعها وعرضها للامتحان . وكان سلاح المهندسين في الجيش قد قرَّر ، إن هذه الاجزاءَ يجب ان تصمد على خمسمائة صدمة متوالية تُعرَّض لها . وكان هذا في رأيهم امتحاناً كافياً لصلابة هذا الخليط ومتانتهِ . ولكن جاهاجان لم يرضَ بأقلّ عشرة آلاف صدمةٍ متوالية للاجزاء التي صنعها ، فاذا هي بعد ذلك كأنها جديدة . فانهالت عليهِ الطلبات من الجيش والأسطول وبدأ يجرّب استعمال هذا الخليط في أجزاءٍ أخرى من أسلحة شتى . ومنها سلكٌ لولبيٌّ يستعمل في صمامات محركات الطائرات . هذا السلك اذا صنع من شَبَهٍ (برونز) فصفوري تذبذب خمسمائة الف ذبذبة قبل ان ينقضي أجلهُ ، واذا صنع من الفولاذ تذبذب ثلاثة ملايين ذبذبة قبل ان ينقضي أجلهُ ، ولكنهُ اذا صنع من خليط البريليوم تذبذب عشرين الف مليون ذبذبة قبل ان ينقضي أجلهُ

وتفوق أخلاط البريليوم جميع الفلزات والاخلاط الفلزية في قدرتها على الانمطاط قبل الانقصام . فنيكل البريليوم وهو خليط قوامهُ ٩٨ في المائة من النيكل و ٢ في المائة من

البريليوم لا ينقصم قبل ان يبلغ الضغط الواقع على بوصة مربعة منهُ ٢٦٠ الف رطل أي ان قضيباً من نيكل البريليوم قطرهُ نصف بوصة يستطيع ان يرفع نحو ثلاثين طناً بغير ان ينقصم . بينما الصلب الجيد ينقصم اذا بلغ الضغط على بوصة مربعة منهُ ٦٠ الف رطل والصلب الذي لا يصدأ ينقصم عندما يبلغ الضغط على بوصةٍ مربعةٍ منهُ ٩٠ الف رطل

***

واننا لنعيد في ما بقي من هذه الصفحة ما كتبناه عن البريليوم في مقتطف ابريل ١٩٢٩ عند ما بدأت الانظار تتجهُ اليهِ بعنوان « البريليوم : معدن عجيب »

البريليوم عنصرٌ من العناصر الفلزية كالحديد والنحاس والألومنيوم والرصاص ، وهو أخف من الألومنيوم بنحو ثلاثين في المائة وله خواص الصلب من متانة وقساوة ، ولكن لم يشع استعمالهُ حتى الآن مع مرور أكثر من قرنٍ على كشفهِ لأن استخراجهُ من ركازه على وجهٍ تجاريٍ بقي متعذراً الى عهد قريب

والفخر في كشفهِ يعود الى ڤوكلان الباحث الفرنسي وذلك في سنة ١٧٩٧ ومن ثم أخذ العلماء يحاولون استفرادهُ من ركازه فعجزوا عن ذلك حتى جاءَ وهلر الكيميائي الألماني المشهور سنة ١٨٢٨ وبعد مشقة عظيمة حصل على مقدار قليل منهُ فاستعملهُ في تجاربهِ الكيميائية وبقي الأمر كذلك حتى جاءَ هيوكوپر أحد مهندسي التعدين بكليفلند فاستنبط طريقة لاستخراجهِ من ركازه بغير نفقةٍ كبيرة وقد أخذ يعد العدات مع المولين الذين يعضدونهُ لبناء المعامل اللازمة لذلك

ويظنُّ بعضهم ان البريليوم من الفلزات النادرة وهذا خطأ لأن مباحث المهندسين في الولايات المتحدة الاميركية دلَّت على وفرة وجوده في ١٥ ولاية منها ويغلب ان تكون مركباتهُ ممتزجة بمركبات الألومنيوم والسليكون . وأما ندرتهُ فسببها يرجع الى تعذر استخراجهِ نقيًّا من ركازهِ ، فاذا صحَّ ما قيل عن طريقة كوپر الاميركي وصار ثمنهُ رخيصاً استعمل حالاً في محركات الطائرات لانهُ يجمع بين خفة الوزن والقساوة والمتانة . ثم اذا رخص بعد ذلك فقد يستعمل في صنع محركات السيارات ثم لا يلبث أرباب الصناعات ان يستنبطوا لهُ الف وجهٍ ووجهاً يستعملونهُ فيها . فهو من هذا القبيل شبيه بالألومنيوم . . . وهو معدن صلب لا يمكن خدشهُ بمبردٍ من الصلب . ولما كان الكيميائيون قد وجدوا علاقة مطردة بين الصلابة والمتانة فالمرجح ان يكون هذا المعدن متيناً كالصلب . ولكنهُ في حالتهِ النقية قصم ولذلك يجب مزجهُ بمعادن أخرى كالألومنيوم او النحاس او الحديد . على ان موضوع الاخلاط المعدنية التي تصنع منهُ لم يستوف بعد

الحيوان

في كتاب الإمتاع والمؤانسة

للاب انستاس ماري الكرملي

١٣ — الأَعْنُز غير الأَنْعُج

جاءَ في متن ص ١٨٥ : « أعنز الجبل وكباشهُ » وفي الحاشية اشارة ان الذي ورد في النسخة الخطية : (أنعج) ثم قال الناشران : « ولم نجد هذا الجمع في كتب اللغة » . قلنا : الأعْنز لا تقوم مقام الأنعُج لان الاعنز جمع عنز وهو الأنثى من الوعول والشاء والظباء (عن المخصَّص ٨ : ٣٠) وأما الأنعج فجمع نعجة وهي الشاة الجبلي ، وربما سميت الظبية به ، وانها للضائنة (عنهُ ٨ : ٣٠) وأنْعُج جمع قياسي لنُعْجة باعتبار الهاء حرفاً زائداً . فقد قالوا في جمع شرب ، وثوب ، وقوس ، وسيف ، وعين ، ونفس ، وفلس ، وسطر ، الى ما لا يحصى عده : أشْرُب ، وأثوب ، وأقوس ، وأسيف ، وأعين ، وأنفس ، وأفلس ، وأسطر ، ولما كان النحاة واللغويون لم يدوّنوا في كتبهم كل ما نقل عنهم من الجموع المكسرة ، فلا عجب اذا أهمل كثير منها

زد على ذلك ان البغداديين يسمون (البَجَم) في عصرنا (نُعَيْج الماء) ، تصغير نعجة واذا جمعوه قالوا أنعج الماء) كأنهم يعودون الى جمعهِ قبل تصغيره وهو غريب

١٤ — الأرواء لم ترد

ورد في ص ١٨٥ : « اعنز الجبل وكباشه وهي الأرواء » . قلنا : الأرواء لم ترد في اللغة ، والمشهور ان جمع الإروِيَّة بالضم والكسر ، الأرويّ والأروَى ، ولم يسمع عنهم غير هذين الجمعين والقياس لايجيزه

١٥ — التياتل

جاءت التيَاتل هكذا بتاءين مثناتين . والصواب الثَيَاتل والثيَاتِل ، لان المفرد الثَيْتَل ،

بثاء مثلثة في الاول ، وبتاءٍ مثناة في الثاني ، أو التيثل ، اي بتاءٍ مثناة في الأول وبثاءٍ مثلثة في الثاني (راجع المخصص ٨ : ٣٢)

١٦ — القاسّ

وذكر المؤلف العقاب في ص ١٨٨ ثم قال : « واما الطريح فيقيّض الله له طائراً يقال له (قاس) فيضمّهُ اليهِ ولا يدعهُ يهلك ، ولكنهُ يقوّيهِ ويربيهِ مع أفراخه »

قلنا : هذه الحكاية مبنية على أنّ بين العقبان عقاباً اسمها (كاسر العظام او المكلّفة) او (القاسّ) وذلك ان القاسَّ اسم فاعل من قسّ ما على العظم : اذا أكل لحمَهُ وامتخَّهُ . وهذا الطائر ذكره الجاحظ — على ما قال الدميري في مادة (المكلّفة) وهذا نصّ كلامهِ : «لما كانت العقاب سيئة الخلق ، تبيض ثلاث بيضات ، فتخرج فراخها ، فتلقي واحداً منها ، فيأخذه هذا الطائر الذي يتكلف به ، قيل له (المكافة) ويسمى (كاسر العظام) فيربيه كما تقدم» اه

ولهذا الطائر اسماء كثيرة ذكرناها سابقاً في مقالةٍ في مجلة المشرق . ومن اسمائهِ غير هذه الثلاثة البُلَح ، والبُلت ،والهُمَاء ، والعَوْف والفقعة ،والسَّتَل والفَيْنة .وباللاتينية Ossifraga أو Ossifragus وعندعلماءالطير Gypaetus Barbatus وبالفرنسية Orfraie وبالانكليزية Osprey أو Lammergeier

وبعد أن أوضحنا معنى القاسّ ، يحسن بنا ان نقول : وقع نقص في عبارة الإمتاع وهو ما يأتي ، تُزَاد قبل قوله : « واما الطريح....

« والعقاب تبيض ثلاث بيضات في الغالب وتحضنها ثلاثين يوماً ، فاذا خرجت فراخها ، ألقت واحداً منها ، لانهُ يثقل عليها طعم الثلاثة ، وذلك لقلة صبرها ، واما الطريح فيقيّض الله له ... ».

١٧ — البقّ والبعوض

ومما يجب ان ينتبه له (البق) . فهذه اللفظة تعني في لغة المصريين حشرة الْمُرُر النتنة الرائحة التي تمتصّ الدم امتصاصاً شديداً . وأما العرب (فالبقّ) عندهم البعوض الكبير .فكان يحسن بالناشرين أن ينبها على ان (البقّ) هذا هو البعوض اي Mosquito بالانكليزية لا الضمج أو الكتان أو الفسافس اي Bug

١٨ — البيضاني

قال أبو حيان في ص ١٩٠ (البيضاني) وفي الحاشية : «كذا ورد هذا اللفظ في الاصل.

ولم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة والكتب المؤلفة في الحيوان » انتهى

قلنا : ذكر البيضاني ابن بهلول في معجمهِ الكبير الأرميّ العربي قال في (قوقنوس) هو طائر أبيض: «البيضاني او القفنوس ، القوق» قلنا : والكلمة الأرمية من اليونانية Kukons

وقال صاحب بحر الجواهر: «البيضانيات : هي طيور مثل الإِوَزّ ، والبط ، والقَلوْلَى ، وهي جمع منسوب الى البيض جمع الابيض » اه . فالبيضاني — ويقال له القفنس ، والقفنوس والقوق ، والمصريون يسمونهُ التمّ ، وأهل سورية يسمونهُ الاوز العراقي ، وهي تسمية كاذبة لا حقيقة لها ، لان العراقيين لا يعرفونهُ في جسمه ولا في اسمهِ ، هو المسمى بالانكليزية Swan

١٩ — الأبغث

وذكر أبو حيان الأبغث (ص ١٩٠) بعد البيضانيّ فقال : « والأبغث : هذا طائر يحبُّ ولده ، فاذا تحركت فراخهُ ودرجت ، ضربت وجههُ بأجنحتها ، فيدعوهُ الحكُّ والغضب الطبوعان فيه الى قتلها ، فاذا ماتت ، اكتأب عليها الأبوان ، وأقاما عليها شبه المأتم ثلاثة أيام ، ثم ان الأم في اليوم الثالث تشقّ جنبها حتى يقطر دمها على تلك الفراخ ، فيصير ذلك نشوراً لها بعد موتها». انتهى

وعلق الناشران على هذا الاسم قائلين : « وردت هذه الكلمة (الأبغث) في الأصل مهملة الحروف من النقط . والصواب اثباتها على هذا الوجه . والأبغث : طائر من طير الماء كلون الرماد ، طويل العنق . وسمي أبغث لبغثته ، وهي بياض الى الخضرة ، وهو من شرار الطير » انتهى

ما ذكره أبو حيان مشهور عن الطائر المعروف عند كثيرين بالبجع ، والحوصل ، والقوق والسقّاء ، وجمل الماء ، الى أسماء أخر ، وبالفرنسية Pélican . وهذه الرواية لم يختلقها أبو حيان من نفسهِ ، فأول من ذكرها إمام من أئمة قديسي النصارى اسمهُ القديس أوغسطينس البوني الافريقي المتوفى سنة ٤٣٠ للميلاد . فقد قال في شرحه للآية الثامنة من المزمور ١٠١ ما هذا نقله بحروفهِ : « يَقتلُ هذا الطائر فراخهُ بنقره إياها ، ثم يحزن عليها في عشّهِ ثلاثة أيام ، فاذا تمت المدة ، تجرح الأم نفسها جرحاً بليغاً ، وتريق من دمها على فراخها ، فتعود حالاً الى النشور» (راجع معجم التوراة لصاحبه ف . ڤيكورو ٥: ٢٧ مادة Pélican

قلنا : وهذه حكاية موضوعة لا حقيقة لها سوى ظاهرها

والأبغث لم يذكره أحد من اللغويين بهذا المعنى . والذي ذكره اللغويون هو بمعنى آخر لا يصدق إلاّ على ما يسمى بالفرنسية Cormoran وبلغة العلم Phalacrocorax Carbo .

وقد صرّح بهذا المعنى صاحب الأوقيانوس قال : واسم الابغث بالتركية قره بتاق ،فهذا لا يُبقي ريباً في أنهُ الأبغث على ما وصفهُ العرب الأقدمون . لكن الظاهر ان آخرين أطلقوه أيضاً على الحوصل . ودليلنا على ذلك أبو الحسن ابن بهلول ، وهو من كبار اللغويين الأقدمين كان حيّـا في سنة ٩٦٣ للميلاد (٣٥٢ هـ) فهو من أهل المائة الرابعة للهجرة ، ومعاصر لأبي حيان ، وكان أيضاً في بغداد فقد ذكر للكلمة (قاقا) الارمية أي الحَـوصل ثلاثة الفاظ وهي: القيق [القوق] والأبغث والبيـضاني

والظاهر ان ناشِـرَيْ كتاب الإمتـاع التاث عليهم أمر الأبغث اذ قالوا : « وهو من شرار الطير » وهذا لم يقلهُ أحد قبلهما ، اذ ظنّـا ان الابغث هو البُـغَـاث وهذا وهمٌ كبير . نعم ان البغاث من شرار الطير ، وأما الأبغث ، الذي عدّه من طير الماء ، فلا يكون من شرار الطير البتة

٢٠ — الشمسية لا السمسمة

ومن غريب ما جاء مصحفاً من أسماء الحيوان في هذا السفر ما ورد في ص ١٩٢ وهو هذا بنصهِ : « السِـمْسِـمة ، وهي حية حمراء براقة ، اذا كبرت وأصابها وجع العين وكمدت ، التمست حائطاً مقابل المشرق ، فاذا تبدّت الشمس احدّت اليها بصرها قدر ساعة . فاذا دخل شعاع الشمس عينها ، كشط عنها العمى والاظلام ، ولا تزال تفعل ذلك سبعة أيام حتى يتجدد بصرها تامّـا » اهـ

قلنا : لم ترد السمسمة في كتب اللغة ، ولا في كتب الأدباء بهذا المعنى . نعم جاء في القاموس : السمسم : حية . وزاد في التاج : أو دويّـبة تشبهها . وفي كتاب العين : السمسم يقال لدويبة على خلقة الأكلة حمراء هي السمسمة . وقال أبو منصور في التهذيب : هي السمسمة وقد رأيتها في البادية ، وهي تلسع فتؤلم اذا لسعت . وقال أبو خيرة : هي السماسم وهي هنات تكون بالبصرة يعضضن عضّـا شديداً ، لهنّ رؤوس فيها طول الى الحمرة ألوانها» اهـ

ولما قال في القاموس : السمسم حية ، أي بياء مثناة من تحت ففي أغلب النسخ الخطية القديمة الموجودة عندنا : السمسم حبة بباءٍ موحدة تحتية اشارة الى انها حبة السمسم . وفي معيار اللغة : « السمسم ... حية بالمثناة التحتية . وفي بعض النسخ : حبة بالموحدة » انتهى. والارجح عندنا انها حبة ، بالباء الموحدة التحتية . والاّ فليست السمسمة بحية اي بثعبان انما هي حشرة صغيرة كالنملة الحمراء تلسع لسعاً مؤلماً ولا سيما في أيام الربيع في ابان المزاوجة اما الحية الحمراء فاسمها (الشمسية) كأنها منسوبة الى الشمس ، هذا الجرم النيّـر الذي يضيئنا

في النهار. والدليل على ذلك ان الدميري ذكرها في كتابه (حياة الحيوان الكبرى وذلك في طبعة بولاق ١ : ٦٤) وهذا نصها بحروفه : « الشمسية . قال أبو حيان التوحيدي : إنها حية حمراء ، براقة ، اذا كبرت وأصابها وجع العين وعميت ، التمست حائطاً يقابل الشرق، فاذا طلعت الشمس ، احدت اليها بصرها قدر ساعة ، فاذا دخل شعاع الشمس عينها ، كشط عنها العمى والاظلام ، ولا تزال كذلك سبعة أيام ، حتى تجد بصرها تاماً ، وغيرها من الحيات اذا عمي ايضاً طلب شجر الرازيانج الأخضر ، فيكتحل بهِ ، فيبرأ كما تقدم»

***

فهذه شهادة واضحة لا شبهة فيها في ان الحية التي يجري عليها الكلام هي الشمسية والنص بيّن لا يقبل شكاً ولا شبهة . وعندي من كتاب الحيوان للدميري خمس نسخ ، وكلها تذكر هذه العبارة وكلها في باب الشين ، بحيث لا يمكن ان يرتاب انسان في ما نقلناه

زد على ذلك انك ترى اختلافاً في بعض ألفاظ هذه الرواية ، وما جاء من عبارة الدميري أصحّ وأفصح وإن كانت تلك الكلمات قليلات

ويجب ان يلاحظ ان اسم هذه الحية باليونانية هو Hélicops فظنها بعضهم مركبة من كلمتين من Hélios أي شمس و Opseis أي نظرٌ ومرْأى ولهذا سماها الشمسيةَ متابعة للاسم اليوناني . وأما المعنى الصحيح فهو ان الكلمة منحوتة من Helix, Ekos أي دائرة لا شمس و Opseis أي نظَرَ . فيكون معناها المستديرة العين

***

ودونك الآن وصفها العلمي متابعة لعلماء العصر : الشمسية من الحيات التي لا تؤذي ، من جنس الحنش ، وأكثر ما تكون في الأرجاء الحارة من كرة الأرض . وقد عرف العلماء من أنواعها نحواً من اثني عشر وكلها غير مؤذية . وقد يبلغ طول الواحدة متراً ، وجلدها أُحَيْمر اللون الاّ انهُ أجلى من تحت ، ولها ذنب طويل دقيق الطرف والعين الواحدة قريبة من العين الآخرة ، وهما في أعلى الرأس ، وجسمها مغطى بحراشف ملززة ، والشمسية كثيراً ما تجاور الماء

ومن الغريب ان معاجمنا من قديمة وحديثة ، لم تذكر الشمسية بهذا المعنى . ولولا اشتغالنا بجمع شتات الالفاظ من مختلف التصانيف لما اهتدينا اليها . فان معجمنا الكبير الموسوم بالمساعِد هو الذي دلّنا على ضالتنا المنشودة مع اسمها الافرنجي

٢١ — العَقَام

وقال ابو حيان في ص ١٩٢ : « الأفْعى تُزاوج دابة بحرية ، تأتي الأفعى شفير البحر فتصوت ، وصوتها مُهيِّجٌ لتلك الدابة البحرية » اه .

قلنا : واسم هذه الدابة (العقام) وزان سحاب . قال في تاج العروس : العقام : سمك ، وقيل : حية تسكن البحر . ويقال انهُ يأتي الاسود من الحيات من البرّ ، فيصفر على الشطّ ، فتخرج اليهِ العقام ، فيتلاويان ، ثم يفترقان فيذهب كلٌّ الى منزله . هذا في البر وهذا في البحر » انتهى

٢٢ — الزامور

نقل الدميري عن التوحيدي ما جاءَ في الزامور ، وكان يحسن بالناشرين أن يعارضا رواية مخطوطهما بالكتاب المطبوع للدميري . وصحيح رواية الزامور هي براءَين اي (رامور) وهو من اللاتينية Remora ومعناها (مؤخر ومانع وعائق) لان الرومان كانوا يزعمون ان هذا الحوت اذا تصدى لسفينة منعها من السير في وجهها.وقد ذكرهامن كتابهم بلوتس Plautus ولوقيليوس Lucilius وكان كلاهما قبل المسيح بنحومائتي سنة . وسبب تعريب العرب لهذه الكلمة على هذا الوجه أنهم لم يستسيغوا مجاورة ثلاثة أحرف ذلق ، فنقطوا الأولى ، نخفّ اللفظ ، وقرب من أصل عربي معهود وهو الزمر . وإلاّ فلا زمر في تلك السمكة

ونظن ان بعض السلف شعر بعجمة هذا الأصل فمال الى لفظ عربي النجار ، فسمى هذه السمكة (اللَّدِك) (١) ، من لدِك به لدْكاً ولدَكاً ، أي لزِق به . وقد وردت في كتاب عجائب المخلوقات ، وغرائب الموجودات ، للقزويني ، المتوفى سنة ٦٨٢ ه . فقد قال في فصل في بعض حيوان بحر الزنج ما هذا نصه : « ومنها السمكة المعروفة بالبال . . . . فاذا

(١) وردت هذه الكلمة مصحفة بصور شتى.في طبعة فرديننـد وستنفلد في غوتنغن سنة ١٨٤٨ ص١٢٣ قال الناشر انها وردت في نسخة (اللشك) ، وفي أخرى (السك) ، وفي ثالثة (البسك) ، وفي رابعة (الامشك) وفي خامسة (اللسك) . أما نحن فكانت نسختنا بجودة قديمة منقولة في سنة ٧٧٦ ه على نسخة المؤلف ، ومضبوطة بفتح اللام ، وكسر الدال ، وفي الآخر كاف ، كأن معناه (الحوت الذي يلتصق) بعدوه . وهو عربي . وأما سائر اللغات فليست فصيحة . وأما عجائب المخلوقات المطبوع في مصر فقد اختلفت ألفاظه باختلاف طبعاته فلا يعتمد عليها

بَغَتَ هذه السمكة ، بَعَثَ الله تعالى اليها سمكة نحو الذراع تدعى (اللدك) ، تلتصق بأذنها ، فلا يكون لها منها خلاص ، فتطلب قعر البحر ، وتضرب بنفسها حتى تموت ... »

فلا جرم ان ما سمّاه التوحيدي (الزامور) وتبعه فيها الدميري هو نفس الحوت الذي سماه القزويني (اللدك) وهذه أفصح عربيةً ، والزامور معربة ، وكلتاهما يؤخذ به

٢٣ — نظرة عامة في خرافات هذا الكتاب

هذا ما بدا لنا في مطاوي مطالعتنا لهذا الجزء الأول من كتاب الامتاع ، لأبي حيان التوحيدي . وهناك ملاحظات لا بدَّ من ابدائها في ما دوَّنه بأمور تتعلق ببعض الحيوان ولا يمكن ان تبقى على تلك الرواية ، بل لا بدَّ من تعليق عبارات عليها لكي لا ينخدع بها القارئ في هذا العصر ، كقول المؤلف في ص ١٧٤ « في البحر حوت يقال له البوس يتولد من الصاعقة اذا كانت في البحر » . قلنا هذا الحوت يتولد من بيض السمك كسائر السمك ، وليس من الصاعقة ، ولو فرضنا انهُ يتولد من الصاعقة فمن يستطيع ان يتحقق هذا بنفسه ؟

***

وما ذكره عن كلب الماء في ص ١٧٥ غير صحيح . وقوله في ص ١٧٨ « ان اللبؤة تلد شبلها ميتاً فلا تزال تحرسهُ حتى يأتي أبوه اليوم الثالث فينفخ في منخره فيبعثهُ » أكذوبة أخرى . ومن تلك الخرافات التي لا يقبلها عقل انسان قوله في ص ١٨٠ ان الضبع تصير مرة ضبعاً ذكراً ومرة انثى . وكذلك ما ذكره عن حياة السمندل في النار (ص ١٨٢) ، وعن صيد الحريش (ص ١٨٤) ، وعن ان النحل يلد من غير لقاح (ص ١٩١) ، وان الاناث من بنات عِرس انما تلقح من افواهها ، وتلد من آذانها (ص ١٩٢) ، وان البقّ والبعوض لا نتاج لها ، وانما تنجل من عفن الماء ووسخه ونتنه (ص ١٩٣) . فهذه الرَطازات وأمثالها كان يجب ان يعلّق عليها في الحاشية عبارة صغيرة كقولك مثلاً : هذا زعم لا حقيقة له . أو : هذا رأي كان معروفاً عند الاقدمين غير قائم على حق . أو : العلم الصادق لا يثبت هذا الرأي . أو ما يشبه هذه العبارات ، على حدّ ما يفعل علماء الغرب عند نشر مثل هذه الكتب ، او هذه الآراء التي لا قوام لها ، بل هي أقوال مبنية على أوهام

***

هذا ما بدا لنا ، ولعل وهمنا أكثر من صوابنا

الى القطعان الآدمية السائخة في الطين

إني احترقتُ ولم تدعْ أشلائي نيرانُ تلك الحسرة الهوجاء
قد أوغلتْ بي نزعةٌ مدفوعةٌ نحو الكمال ، تمدُّ في برحائي
إذ أن ما يسبي قلوبَ الناس لا ألقاه حتى في ذيول سمائي

***

أقبلتُ ملء دمي على الدنيا وفي قلبي حياةٌ جمةُ الأهواء
وطرحتُ أعوامي عليها شادياً متنقلاً في الزرع والصحراء
ونزعتُ عني كلَّ معنىً كاذب ونشدتُ وجهَ النور في الظلماء
وتأملتْ روحي أساريرَ الدجى وتغلغلتْ في ذاته السوداء
واذا الرياح تقول لي في نصحها : «قفْ أيها الساري الى التيهاء !
مَنْ لم تشُقَّهُ الأرضُ وهو مكبَّلٌ نبذتهُ عنها عبرةَ الأحياء
تلك السدودُ أقامها فوق الثرى ربُّ الوجود وضاربُ الجوزاءِ»
قلتُ : «اهدئي يا ريح ما أنا مسرفٌ متطلبٌ في الصخر دفقةَ ماءِ !»
وطفقتُ أخبط في الظلام منقباً عما وراء الليل من أشياء
حتى بدا لي خلف أحجار الدجى نهرٌ يعجُّ بأعذب الأضواء
ونهلتُ منهُ فاكتملتُ كأنني أصبحتُ أسمى من بني حواء

وتألّقت من حوله لي جنة علوية مطلولة الأرجاء
هي عالم المثل الرفيعة صاغها «فوق الحياة» تدفق الإيحاء
أظلالها فوق الزروع مديدة ونسيمها متعطر الأحناء
وطيورها ذهبية مسحورة تشدو فيهتز الفضاء إزائي

***

وأخذت أرشد من احب الى السنى ومسابه ، والنهلة البيضاء
والحق ، والخير الذي يمشي على ربوات تلك الجنة العذراء
لكنهم ضجت بهم أرواحهم ظمأى الى الأوحال والأنواء !
عادوا .. وفي ألبابهم لي لعنة مكنونة كالسم في الرقطاء
قالوا : « لقد عشنا على الدنيا كما شئنا وشاءت ربقة الأحياء
مستعذبين قيودنا لا تنجلي عنا عماية هذه الظلماء
تلك الحواجز لا نحب عبورها نحو الذي نخشاه من أجواء
يا أيها المجنون ! إنك شاعر يقتات من أوهامه الحسناء
إذهب ! فلا كانت لك الدنيا وعش في برجك المملوء بالخيلاء »
لكنني ناديت من عليائي مستعصماً بالذروة القعساء :
«البرق يكسبني التماعاً ، إنني أفق .. فضجوا في رحاب فضائي !
والنار تمنحني حياة ، إنني ذهب .. فبثوا النار في أحشائي !»

عبد الرحمن الخميسي

الامراض العصبية

ومرضى النفوس

للدكتور ابراهيم ناجي [1]

إن موضوع النفسيات المريضة في المجتمع يمس صميم أخلاقنا وحياتنا الاجتماعية من أول الطفولة الى آخر مرحلة في العمر. كنت أحاضر ذات ليلة في موضوع قريب من هذا في معهد التربية وكان الحديث خاصًّا بفرويد. فسألني أحد الأدباء عن سر اهتمامي بفرويد، قائلاً ان مذهبه يحلل النفوس المريضة دون النفوس السليمة السوية، فهو مذهب قليل النفع من هذه الجهة. فسألتهُ «أين هو الرجل السويُّ ياسيدي! » انَ لكل منا شذوذه، ولكل منا أمراضه النفسية التي يحملها صابراً، ولكل منا حزنهُ البالغ حيناً، وصمتهُ الطويل أحياناً وانفعاله الى حدود الجنون أحياناً أخرى ...»

فحين أتكلم عن الامراض النفسية الشائعة، فكلامي يشمل أحوالاً عامة، أحوالاً تمس كل عقل وكل روح، غير ان هاته الاحوال قد تكون قليلة او متفرقة في شخص ما فلا تحدث أثراً، ولا تستوقف نظراً، وقد تجتمع في شخص آخر، على شكل خاص فتحدث مرضاً خاصًّا. وقد يتغير مظهر تلك الاعراض، باختلاف الاحوال والبيئة والوراثة، فيتخذ المرض اسماً آخر. فالفرق ليس بعيداً بين السليم والمريض، وبين المريض بالعصبي البسيط والعصبي المعقد، وبين العصبي المعقد، ... ومستشفى المجاذيب!

والامراض العصبية الشائعة هي على الترتيب :— (١) مركب النقص. (٢) مركب القلق. (٣) النوراستانيا. (٤) الهستريا. (٥) الجنون. وقد رتبتها بحسب كثرة شيوعها

﴿ مركب النقص ﴾ ليس في الوسع فهم هذا المركب الشائع بغير الرجوع الى الحديث عن العقل الباطن. والمقام لا يتسع للاطالة في موضوع العقل الباطن الليلة

بنى فرويد نظريته على الصراع القائم في العقل الباطن. وفرويد لم يخترع العقل الباطن وانما حدد معالمه ووظائفه، وفصل القوى المتناضلة في داخله، وتأثيرها في حياة الفرد والمجتمع وتتبع تلك القوى المتضاربة من عهد الطفولة الى ان تستتم نضجها في المراهقة والشباب

---

(١) ملخص خطبة ألقيت في جمعية الشبان المسيحية في القاهرة

وخلاصة هذا النضال ، ان الانسان يولد وفيهِ دوافع غريزية غشيمة ثائرة ملحة . ويقسم فرويد هذه الدوافع قسمين كبيرين ، الدافع الاول للمحافظة على الذات ، والثاني للمحافظة على النوع ، أي ان ، الاول خاصٌّ بالحياة ، والثاني بالحب . وفي رأيه ان الحب أقوى الدافعين وهو هو البركان الذي يكمن في أعماق النفس ، والزلزال الذي يرجُّها رجًّا !

وهو هو الذي يفرغ الحياة في قالبها الخاص ، او — على حد تعبيره — يهيء لها «أسلوبها»[1]. وقد اختلف معه تلاميذه ولا سيما ادلر ، فقال ان الدافع الثاني (الجنس والحب) مستمدٌّ من غريزة البقاء فلا معنى لفصله عنها ، وقال إن الانسان يولد بإرادتين ارادة القوة وارادة الاجتماع

أما ارادة القوة فمستمدة توًّا من الغريزة الكبرى وهي المحافظة على الذات ، ومعناها إثبات الذات وتوكيد وجودها ، وهذه هي الغريزة المسيطرة الواضحة في الصغير والكبير . في الصعلوك والامير . وهي عُقدة العُقد في فهم اكثر المسائل النفسية . ولكن هذه الغريزة تختلف كجميع الغرائز الاخرى في شخص ما عنها في آخر ، بحسب التركيب الجثماني ، وبحسب الاستعداد الوراثي ، ويختلف أثرها فيما بعد بحسب الوسط والاحوال . خذوا مثلاً الطفل ، انهُ يحاول طول يومه ان « يؤكد » ذاته ، ويحاول ان يريك ما صنع وما سيصنع . ولما كانت كل سيكولوجية الطفل واضحة في لعبه فنظرة واحدة الى الطفل وهو يلعب تبين لنا انهُ بذلك « اللعب » يجدُّ في اثبات شخصيته . وخذوا مثلاً الشحاذ الحقير ، انهُ يستجدي ولكنهُ لا يسمح لك أن تتجاهلهُ او تهينه . والموظف الصغير الذي لا قيمة له اذا أرسل لك أيها الموظف الكبير بطاقةً على سبيل المعايدة ، فأهملته ولم ترد عليهِ أسرَّها في نفسه وعدَّها اهانة موجهة الى تلك « الذات » التي تحاول اثبات وجودها في جميع الافراد والاحوال

كان لي صديق من الاطباء يحاول ان يكسر « أنف » رئيس المرضين ، فكانت الثورة لا تهدأ في المستشفى ، ولم يكن صديقي الطبيب يدري مَن مبعثها او ما سببها . قلت لهُ « أنت تريد أن تكسر « أنف » رئيس المرضين ، والله جعل لهُ ذاتاً تثور على ذلك الضغط ، فأنت تحاول سحقها من ناحية وهي تحاول اثبات وجودها على المرضى وسائر المرضين .... ! »

وهذا سرّ الثورة ... فلما كفَّ عما كان في سبيله هدأ كل شيء .....

إن محاولة اثبات الذات ، تتطلب الشعور بما ينقصها لكي تستكمله ، وقد يكون النقص واضحاً ، او يكون الشعور به حادًّا ، او يكون التوسل لتغطية النقص عنيفاً او شاذًّا ، فهذا الشعور بشيءٍ ينقصنا ومحاولتنا سد هذا « العجز » ، هو ما يسمى « مركب النقص »

فيتضح ان مركب النقص قائمٌ فينا جميعاً اذ ليس منا من ليس بهِ نقص ، وليس منا من

(١) Life Style

لا يسعى الى سد ما يشعر به من فراغ ، ولكنهُ عند بعض الناس محاولة معقولة ، وسبيل الى الكمال متزن محترم ، وعند بعض الناس مرضٌ بكل ما في هذه الكلمة من معنى . وعند آخرين مرض عصبي معقد قد يؤدي الى أخطر العواقب . لمَ هذا الاختلاف ولمَ يكون النضال لسد النقص متزناً معقولاً في هذا وأحمق مجنوناً في ذاك ؟ مع ان النقص قد يكون واحداً في كليهما ؟

نحن أبناء الوراثة ونحن ابناء الوسط. أما الوراثة فلا نزاع في شأنها الخطير . ولكن لا يجب ان يفهم من ذلك اننا نرث العصبي او نرث الجنون . وانما نحن نرث اتجاهات خاصة وخصائص ذهنية متناثرة . وهذه الاتجاهات والخصائص هي كالعناصر الكيميائية سواءٌ بسواء، وكما ان هاته العناصر بتفاعلها ، وتلاقيها ، وبما يحيط بها من المؤثرات ، قد تحدث مركباً متفجراً ، أو مركباً لا نفع فيه ، أو مركباً غالي القيمة نافعاً بعيد الاثر . كذلك الاتجاهات والخصائص الموروثة

وقد قسّم كربلنج الشخصيات على هذا الاساس الى شخصية هدامة ، وشخصية خاملة ، وشخصية خلاقة . وفي الوسع اذا حللنا طفولة كل بالغ، واستعرضنا ما كان واضحاً من اتجاهاته الذهنية ، والمؤثرات الخارجية التي أحاطت بشخصيته وكيفية استجابته لهاته المؤثرات ، ان نعرف بالتقريب من أي طراز سيكون . على انهُ قد تظل هاته الاتجاهات كما هي لا تتغير ، ويظل صاحبها على شذوذه ، وعلى غرابة اطواره ، فاذا أصابه ما يضعف أعصابه ، او يصدمها صدمة قوية، فان هذا الشذوذ ينقلب الى صنف من الأمراض العصبية محدودٍ جليٍّ ، لمن أحاط بما سبق ذلك المرض من الاتجاهات الذهنية للمريض

أضرب مثلاً لذلك : شخص نعرفه ، وجدناه فجأة قد ابتعد عن الناس ، وصار لا يهتم بأي شيء عاطفي ، من حزن او فرح ، وغدا يحذر الناس ويعتقد ان كل ما يقولونه او يعملونه موجه الى شخصه بالذات . هذا مرض نسميه الشيزوفرينيا . ولكنهُ قبل ان يكون مرضاً ، يتضح ان صاحبه كان ميالاً الى العزلة ، منصبّاً على ذاته ، محبّاً لها ، شديد الحذر من الناس فلما اعترضه من المؤثرات ما جعلهُ يعتل حقيقة أخذت اتجاهاته تتلاقى في النقطة المنتظرة

يتضح مما ذكرت شيئان : اولاً — تأثير الوراثة ، وانها ليست الاّ اتجاهات وخصائص ، وثانياً — اننا بالتربية والبيئة يمكننا أن نؤثر في هاته الاتجاهات فاما أن تقف ثابتة لا تتغير ، وإما أن تنتج شيئاً نافعاً . وقال كربلنج ان خصائص العبقري هي خصائص مرضية محضة ولكنها بفعل أحوال خاصة ، ومؤثرات بعينها ، تتلاقى فتكون ماسة عبقرية متألقة ...

قد يكون مركب النقص غير ملموس فيعد طبيعيّاً ، وقد يكون عنيفاً ، فيؤدي الى أوخم العواقب أو الى أبعدها صدى وأعجبها دويّاً ، وما مثل نابليون وأشباهه ببعيد

وقد يكون الشذوذ متوسط العنف ، فيؤدي الى حالات فردية في المجتمع نلاقيها كل

يوم ومن فرط ما نراها نعدها غريبة وشاذة ولا نعدُّها مرضاً مثال ذلك : القصير القامة الذي يبتدع الحيل ليبدو طويلاً . والأصلع الذي ينمي شعره من أسفل أو من الجانب ليغطي بهِ صلعته ، والجاهل الذي لا ينفك يدس كلمة اجنبية بين حين وآخر في ما يقول ، والممثلة السينمائية التي تتهافت على فلم ساقط لتظهر ولو مرة واحدة على الشاشة في دور ضئيل ! ثم لماذا يذهب الناس الى السينما لمشاهدة أدوار البطولة ؟ لماذا يغص سنما « اولمبيا » و « اديال » بعشاق البطولة . . . انهم انما يكملون على الشاشة ما ينقصهم في انفسهم . كلٌّ يكمل في خياله ما ينقصه في حقيقته ...

﴿ مركَّب الخوف ﴾ هذا هو مركب النقص في أبسط صوره . فإذا زاد عن ذلك أدى الى المركب الثاني ، وهو مركب القلق ، أو مركب الخوف : فان الناقص الشخصية اذ يحاول تكملتها يصطدم بحوائل متعددة ، يصطدم اولاً بالتفاوت بين مأربه ومجهوده ، ويصطدم بما يذكره دائماً بنقصه ، ويصطدم بما هو من أول خصائص تلك العلة ، وهو استدامة التفكير في النفس ، ومحاولة اشباع رغباتها ، والاعتزال معها او في كنفها ، الى حدّ التباعد عن الناس والشك فيهم والحقد عليهم

كل هذا النضال العنيف ، الموجه الى هدف من التفوق الحاد السريع ، الى النجاح بأي ثمن ، الى الهدم اذا شاء الامر ، الى كل وسيلة تسوّغ الغاية ، يحدث في نفس القائم بهِ ما نسميه « عصبي القلق » وأهم أعراضه الشعور بان الإنسان على حرف هاوية ، أو على رأس بركان.... ولا ثقة بالغد ، ولا اطمئنان للناس ، ولا أمان من القدر

اذن فما يصنع هذا الخائف المضطرب ؟ إما ان يعمل ليل نهار دائباً في ازالة هذا الخوف ، وفي طلب الامان ، بالدفاع عن نفسه كما يفعل الجيش المحاصر

وإما أن يخادع نفسه ، ويدعي انهُ شجاع ، وانهُ لا يخاف شيئاً ولا أحداً ، فيتحول خوفه من سبب بعيد الى أمر يتعلق بذلك السبب البعيد . مثال ذلك : ان أحد الاطباء كان يخاف من منظر باقات الزهر ويهرب منها ، والسر في ذلك ان هذا الطبيب كان في أول أمره منكود الطالع اذ كان الحظ لا يساعدهُ في شفاء مرضاه فكان يقضي الليالي وهو يسأل نفسه ويلومها ، ويقول منَ يدري ربما لو كان الطبيب الفلاني الشهير هو الذي يعالج المصاب لشفي ، ولكنهُ عندما تقدم في العمر والمقام الاجتماعي ، تغلب على هذا القلق ، إلاَّ أنهُ في الواقع خبأه في عقله الباطن ، فتحول ذلك الخوف الى باقات الزهر لانها توضع على قبور الموتى....

وفي الوسع ردّ كل شيء من هاته المخاوف العجيبة الى حادثة معينة في مبتدإ العمر ...

أضف الى تلك المخاوف الخوف من الظلام ، ومن بعض الحشرات الصغيرة ، ومن الغرف الخاوية . ومن أعجب ما يتعلق بهاته المخاوف ، ان تظل في المرء فكرة حائرة تطرقُ باب الوعي

لتخرج منه ، وتزج نفسها زجًّا في غير موضعها ومن غير مناسبة ، وتسمى هاته الحالة بالفكرة الثابتة ، وقد لاتكون فكرة بل عملاً خاصًّا ، فمن الناس من يفاجئهُ الضحك في المآتم ومن الناس من يغادر ديوانه ليعود الى منزله ليستوثق من انهُ أغلق باب البيت

هاته الفكر الثابتة تعدُّ أول أعراض الجنون، فان المجنون مثلاً يضحك في أشد أوقات الحزن . والناس يقولون طبعاً « شوفوا المجنون ده » . . . ولكن هناك فرقاً واحداً يجب ادراكه ، وهو ان صاحب الفكرة الثابتة يجد الدافع آتياً من الداخل ، من أعماق نفسه ، وثانياً لا يلبث ان يقوم بالفعلة حتى يندم ويقول « لماذا فعلت هذا » ... أما المجنون فالدافع يأتيه من الخارج . والثاني ان المجنون لا يحس بالندم ، وقد انقطع ما بينه وبين العالم الخارجي . فأصبح لا يبالي ما يقولهُ الناس . والكلام على الفكرة الثابتة يذكرني بقصة قرأتها لدوهاميل : كان سلاڤان كاتباً في شركة وكانت عنده فكرة ثابتة عجيبة وهي ان يمسَّ بأناملهِ كل شيء أحمر ، وكان رئيسه ذا أنف أحمر متورّم من البرد فظلَّ أياماً طويلة يريد ان يمسّ ذلك الأنف الاحمر ويرد نفسه ، وأخيراً اتكل على الله ووضع يده على الانف الاحمر الكبير . فارتاع الرئيس وظن سالاڤان مجنوناً ، وأخرج مسدسه من جيبه ، واستدعى رئيس الحسابات قائلاً اعط هذا الرجل حسابه عندنا » !

ولشدة الدافع لهاته الفكرة يسمى هذا المرض « الدوافع العصبية الاضطرارية »

خلاصة ما قلته ان غريزة المحافظة على الذات ، تؤدي الى اثبات الذات، تؤدي الى مركب النقص ، تؤدي الى مركب القلق والخوف ، وقد تؤدي الى مركب الفكرة الثابتة ...

﴿ العلاج ﴾ أحسب القراءَ يتساءَلون هل يحدث هذا لكل شخص وما علاجه ؟ وهل يمكن ان نتقيه ؟ نعم يمكن ان نتقيه اذا عرفنا ما يحدث في الطفولة على وجه صحيح

قلت في بدء المحاضرة ان الطفل يولد بارادتين ارادة القوة ، وارادة المجتمع ...

وارادة القوة جملة مرادفة لاثبات الذات . فماذا نصنع بهذه الصفة ؟ أنقتلها ، أنمحوها ؟ إن الاطفال الذين توكل الينا تربيتهم ثلاثة أنواع . الاول طفل مدلل . والثاني مدلل ثم أُهمل . والثالث طفل متروك. فالاول هو أسوأ أنواع الاطفال، وهو عندما يشب يطلب من المجتمع ما لقيه من ذويه أي ان يدلله ويجيب كل ما يطلب ، وثانياً هو شخص تعوَّد ان يتكل على أبيه وأمه ، فمهما يكبر فانهُ يظل « طفلاً كبيراً » قليل الثقة بنفسه مطلق الاعتماد على غيره

وهؤلاء « الاطفال الكبار » ملء المجتمع المصري ، يكون الرجل ضخماً طويلاً عريضاً مفتول الشاربين ، ولا يحسن التصرف في أبسط الاشياء فاذا وقع في أقل المعضلات بحث عن غيره ليحلها له . . . أعرف من هذا الطراز رجلاً طويلاً عريضاً ضخماً اذا مرض سأل بواب

البيت « أروح لمين ».واذا جاءني سحبتهُ اليَّ زوجهُ وهي نحيلة ، وهي التي تتكلم وتتفاهم وتدفع « الفلوس » . . . وأعرف من هؤلاء « الاطفال الكبار » من بلغ أرقى المناصب ولكن له نزوات طفل وبدوات رضيع

كنت ذات يوم مسافراً في القطار وكان معي رجل ضخم الجسم ، ومعه عصا غليظة مخيفة وكان يتحدث الى شخص ماكر يتعمد ان يثيره ، فرأيت هذا العملاق ينفعل كالطفل ، ويهدأ كالطفل،ويثرثر كالطفل ، ويقرع الارض بالعصا ، لعلها تنوب عنهُ في التذكير بالرجولة

وهؤلاء الاطفال المدللون ، عند ما يصدهم المجتمع فلا يجدون معيناً ينقلبون أفاقين من الطراز الراقي الذي يملأ بعض شوارعنا ، أولئك الذين يعتقدون ان على المجتمع ان ينفق عليهم ويتكاف بهم ولذلك حين يطلب الواحد منهم شيئاً منك يعتقد أنك مكاف أن تنفق عليه .... واذا رفضتَ ان تعينه غضب ولعن وسب كأن له عليك حقًّا . .

اما الطفل الذي من النوع الثاني فهو طفل كان مدللاً فأهمل . فهذا تختبيء في نفسه فكرة ثائرة حانقة تلازمهُ طول حياته . الطعنة الاولى التي لا تنسى مطلقاً .وهؤلاء هم الذين يثورون في قرارة نفوسهم على اي مكان في المجتمع غير المكان الاول البارز . ويهربون من كل حفل لا يتألقون فيهِ ، ومن كل موضع لا يكون لهم الصدر فيه . ويتوارون من كل رجل مشرق لامع يجعل اضواءهم شاحبة بجانبه . وهؤلاء كذلك كموظفين دائماً يكرهون رؤساءهم ويحقدون عليهم « ويوضبون لهم القالب ».ويتطلعون ابداً الى كراسي الرآسة وفي سبيلها يعملون المستحيل.

اما الطفل المتروك ، فصنفان الاول قد يتعود ان يعتمد على نفسه، ويكون نافعاً له هذا الترك ، او يترك ويساء اليه معاً ، فينشأ الطفل الذي يغدو فيما بعد مجرماً وسفاكاً وعدوًّا للمجتمع

ماذا نصنع اذن ؟ ؟ الغرض من التربية الصحيحة الاول ان لا نكسر غريزة اثبات الذات، بل نلجمها ونكبحها كبحاً معقولاً ونحسن توجيهها . والثاني ان لا نسرف في التدليل ، بل نعوّد طفلنا شيئاً من الصبر على الخشونة والمكاره ، حتى لا يفاجأ بعسر الحياة فيما بعد مفاجأة تصدمهُ. والثالث ان نعدل بين اطفالنا ، لكي لا يطعنوا في كبريائهم الغض . والرابع وهو الأهم . وعليهِ مدار الرقيّ والسلام والمودة ...عليهِ كل شيء ، ان نرفع فيه غريزة « ارادة المجتمع » ونهذبها ونطلق لها العنان » ....

ان بث هذه الغريزة على وجهها الصحيح يقضي على ما يسمى مركب النقص ويمحو توابعهُ

ان المريض بمركب النقص شخص منطوٍ على ذاته مريض بنفسه واهوائها وهو لا يسعى الى غرض لذاته بل ليتفوَّق على هذا الشخص او ذاك ، هو في الهيئة الاجتماعية جواد سباق . وقد يدوس الجواد الذي ينافسهُ ولا يبالي او يعضه او يأكله . . . ما دام الهدف امام عينيه

ولكن ارادة المجتمع على وجهها الصحيح معناها ان يخرج الطفل من دائرة نفسه ليمدّ يده الى اخوانه في المجتمع على قدم المساواة ، هو واحد منهم ، واذا نافسهم على أمر فانما ينافسهم لا لأشخاصهم وذواتهم ، ولكن من أجل غرض سام رفيع يسعى اليهِ ويدأب في سبيله ليل نهار. والواقع اننا يجب ان ننجب طفلاً سليماً لكي ننجب رجلاً سليماً. والطفل السليم الروح والاعصاب هو الذي أحسن والده عنده توجيه الغريزتين غريزة القوة وغريزة المجتمع . والآن نفرض ان مركب النقص كان على أشده تطرفاً وعنفاً فإلام يؤدي ؟؟

نعود الى فرويد . كل حديثنا الماضي كان عن ناحية واحدة من نظريته وهي غريزة المحافظة على الفرد ... والواقع ان فرويد بنى كل مذهبه على ان الحب هو كل شيء ، حب الأم وحب الأب وحب المجتمع وحب الرفاق ، وأخيراً الحب المنتهي بالزواج . وظلَّ يقول طول حياته ان هذا الحب وجموحه هما السبب في جميع الأمراض النفسية الشائعة ، ولكنهُ في آخر أيامه عدل عن هذا الرأي في الحب ، وأخبرنا ان الحب تلازمهُ غرائز كرهٍ وتحدٍّ وهدم ، وأن المدنية ما هي الاّ كبح جماح هذه الغرائز البغيضة الشاذة . . . ويخبرنا انهُ عندما يكون النضال النفسي عنيفاً تتمزق النفس شظايا ، وتسيطر هذه الغرائز اللعينة ويكون لها المقام الاول . وهذا ما يحدث في الجنون ، فان المجنون قد ارتدّ عقله الى عالم داخلي منقطع عن الخارجي ، بل ارتدَّ الى مناطق الطفولة الأولى ، وكما قلَّ التكافل بينه وبين العالم الخارجي ، كذلك قلَّ التكافل بين أجزاء المخ ، ولذلك تستيقظ فيهِ غرائز الهدم والتحدي

مهما يكن نوع النضال ومنشؤه من الحب او البغض فهو نضال منوَّع ، إنهُ أولاً بين العقل الباطن والعقل الواعي ، وثانياً بين العقل الواعي والرقيب ، وثالثاً بين جميع هذه العوامل مجتمعة والعالم الخارجي . ورابعاً هو غالباً نضال خفي بين رغبات مطوية وبين عالم لا يقرها ولا يبيحها . وقد يكون النضال في سبيل رغبة اجتماعية أو في سبيل رغبة جنسية . ولكنه في كلتا الحالتين منهك للقوى فوق ما يقتضيه من مجهود جسدي ، والتعب الناشيء عنهُ لا ينقضي مع الراحة ، واذا انتهى فكثيراً ما يعاود

وهذا المجهود العصبي المؤدي الى انحطاط الاعصاب هو ما يسميه الاطباء بالنوراستانيا . والمريض بالنوراستانيا شخص أعصابه مجهدة منهكة ، وهو تعب حقيقي ، وليس وهماً ولا خيالاً . قد يكون منشؤه وهماً او خيالاً ، ولكن المرض ليس وهماً ولا خيالاً ا وهو مرض يحدث للاذكياء المتصفين بسعة الوعي ، فان الكبت الباطني يجد منفذاً عن طريق الروح . أما الذين يتصفون بضيق الوعي ، كالمتوسطي الذكاء ، فان الكبت يجد منفذاً عن طريق الجسد فتحدث التشنجات والتقلصات وما الى ذلك وهذا مما يسمى بالهستريا

الضحية

أشخاص القصة

١ — الملك خان يوان
٢ — الملكة وان جين كون
٣ — الوزير وولون تشان تشونغ
٤ — الاستاذ مو ين شو
٥ — حاجب
٦ — وصيفات
٧ — رسول التتار
٨ — حراس
٩ — خدم

الوقت — منذ الف عام [في السنة الأولى من عهد الملك]

المكان — غرفة الشرق في القصر — صور فنية تزين الجدران — وصيفات يصطففنَ على الجانبين يحملنَ الشموع — الملك والملكة يتطلعان الى صورة ، بينما يسجد الحاجب بين يدي الملك — الملك يضجر من سجوده .

***

الملك — (ضجراً) هه .. هل جدٌّ جديد حتى تطاردنا الى كل مكان .. كأن ليس لي حق الاستمتاع والراحة لاسترجاع النشاط ؟ !

الحاجب — مولاي . . معذرة — .. ان الوزير يلح في مقابلتكم لأمر ذي شأن

الملك — صحيح ان الملك راعٍ مسئول عن رعيته .. ولكنهُ قبل كل شيء غير مقتطع من شجرة أو منحوت من صخرة . . . إن هو الاّ بشر يود لو يستمتع بالحب ويخلد الى كنف زوجته (ينظر اليها بشغف) مثله في ذلك مثل باقي عباد الله .. وليرجىء الوزير المقابلة الى غده .. فلا تستحب المشورة الآن

الحاجب — أمر مولاي (ينسحب مطيعاً)

الملك — (لزوجه) هؤلاء الوزراء خلقوا للمؤازرة ولكنهم يركنون في كل شيء إلى الملوك .. لايتصرفون .. (للوصيفة) أية صورة وصلنا اليها يا صبية ؟

الوصيفة— تفضلتم بالنظر الى الثالثة يامولاي

الملك — آه ! لقد صرفني الحديث عن استذكار الصورة .. (لزوجه) سيدة وأن .. ان هذه الصورة تمثل امرأة سمينة لها وجه مستدير كالقمر .. ويدعي الخبراء ان لصاحبة هذا الوجه حظًّا وافراً وصيتاً بعيداً .. ولكنني على كل حال لا أحب هذا النوع من النساء . . فما أجمل المرأة الهيفاء تمر أمامك كأنها طيفٌ يهف ، او نسمة ترف

الملكة — ما أخبرك بالنساء ! اني أحسد مثلك الأعلى للجمال

الملك — انما تحسد من لاتعرف الحب .. فيدفعها الحسد الى القتل والتدمير

الملكة — (تنتهز فرصة هذا الحديث) مولاي . . أما زلت غير موافق على حشد قوى البلاد للذود عن الوطن ؟

الملك — (متبرماً) كفي عن هذا يا جميلتي فالحرب لعنة تلحق المنتصر والمهزوم

الملكة — ولكنها تجلب الشرف ، وتشعر بالعزة ، وتخلق المجد

الملك — دعينا من الحرب وعزتها ومجدها (يغير مجرى الحديث) . . . أما الصورة الرابعة فهي صورتك .. (ينظر اليها) انسحبي الى الوراء قليلاً لنرى أيكما أجمل : صورتك او نفسك .. (معجباً) يا لله ! هذه الصورة تلوح كأنما هي وردة تتفتح للحياة او زهرة تستقبل الربيع..ولكن.. لعن الله مصورها .. فلقد صور الاستاذ مو وين شو عينيك كبؤرتين سوداوين فاستحقَّ غضبي وحلت عليهِ نقمتي

الملكة — (غضبى) وأين هذا اللعين الآن ؟

الملك — فرَّ الى التتار والتجأ اليهم واحتمى بهم .. (يدخل الحاجب فيسجد أمام الملك)

الحاجب— مولاي

الملك — (مقاطعاً) ماذا وراءك أيضاً . .

الحاجب— الوزير يلحف في طلب التشرف بمقابلتكم لعرض شروط التتار عليكم
الملك — (بلهفة تذمر) وهل حملها رسول التتار اليه ؟
الحاجب— نعم ... وهو ينتظر في الخارج ...
الملك — (مكرهاً) ليدخل الوزير إذن ... (ينسحب الخادم) ان الشجرة تود لو هدأت أغصانها ولكن العاصفة تأبى الاّ أن تهزها . . انني أرجو السلام ولكن هؤلاء التتار جبلوا على سفك الدم (لزوجه) لقد حرمت صحبتك قليلاً فانتظريني خلف الستار (تنسحب الملكة ومن ورائها الوصيفات)
الحاجب— (يدخل معلناً قدوم الوزير) مولاي . . . الوزير (يدخل الوزير فينحني أمام الملك)
الملك — استو يا وزيري ، ونبأني بالشروط
الوزير — (يستوي واقفاً) مولاي
الملك — (مقاطعاً) أي شأن خطير طرأ ؟
الوزير — قد أتى رسول التتار
الملك — وماذا في مجيئه ؟ ! لِمَ أتى ؟
الوزير — جاء يملي الشروط
الملك — يُمْلي علينا الشروط (ساخراً) ها . . ها . .
وماذا يشترط ؟ ! أطلب الأصفر ؟ . .
الوزير— طلب منه مليوناً . . .
الملك — والاستبرق ؟ . .
الوزير— طلب منه ثلاثمائة الف ذراع
الملك — ما أتفه المطلب ! وماذا أيضاً ؟
الوزير — ينعقد لساني عن ذكر باقي ما طلب
الملك — أطلب الرجال ؟
الوزير — نعم . . يطلب تجنيد مائة الف

الملك — وهل طلب العمران

الوزير — وألفي ميل من الأرض

الملك — وهل هناك جديد ؟

الوزير — نعم . . يضيق صدري ولا ينطلق لساني يامولاي

الملك — ما أشد جشع التتار ! يطلبون ما لا قبل لنا به فلا سبيل الاّ القتال

الوزير — وقد منحونا مهلة موقوتة يبدأون بعدها الهجوم .

الملك — اذن عليَّ بالقائد « چين تانغ » ولنستعد للنزال

الوزير — ولـكن . . ولـكن يامولاي

الملك — ماذا ؟ ! أنقف موثوقي الأيدي أمام الاعتداء ؟

الوزير — مولاي . . . فلنتروَّ ولا نضحّ سدًى

الملك — سيعرف الأسد كيف يحمي عرينه .. فان لدينا جيشاً عرمرماً مدرباً يحمل جنوده ارواحهم على أكفهم في سبيل وطنهم

الوزير — لقد برهن الجيش حقاً على كفاءته في حفظ النظام في المملكة ولكن يجب الاّ ننسى انهُ لم يخض موقعة بعد

الملك — فلتكن مشيئتنا .. فلا مناص عن الحرب

الوزير — اذا نشبت فسترجح كفتهم فيملون علينا شروطاً أقسى

الملك — إذن دبرنا بفكرك الثاقب وعقلك الراجح

الوزير — لا أرى الاّ قبول الشروط حقناً للدماء (يسود الصمت برهة)

الملك — (مغموماً) بئس هذا السلم .... أسلم منهُ القتال . . . ولكن فلتكن مشيئة الله (للوزير) أتلُ علينا باقي الشروط

الوزير — (متردداً) أعفني يا مولاي من ذكر ما بقي

الملك — لا بأس عليك . فأكمل

الوزير — انهم يطمعون في شرف مصاهرتكم لتتساوى الكفتان ... ويطمحون الى واحدة بذاتها

الملك — (لنفسه) من نكد الدنيا أن تصاهر أسرة خان أسرة التتار . . . (للوزير) ومن المعنيَّة بالذات ؟

الوزير — اذا اغتفر لي مولاي جرأتي ... هي السيدة وان.
الملك — (غاضباً) لقد تجاوز التتار حد الادب في طلباتهم
ألا يعلمون انها زوجتي ؟ !
الوزير — وهم لهذا يطلبون ... فاذا نحن لم نرضخ لطلباتهم شنوا علينا الغارة . ونحن حيالهم كما تعلمون
الملك — (في حيرة) آه .. وما العمل اذن ؟ !
الوزير — رأيي أن تضحي جلالتكم بانسان لتضمن الحياة لملايين
الملك — ولكن لا يمكن أن أفرط في زوجتي، فأنا وهي زوجان في جسد : شريكة حياتي ورفيقة صباي .. ثم انا قبل كل شيء مليك البلاد وابن السماء فان تكدرت روحي لفراق زوجتي فكأنما تكدرت أرواح جميع الناس
الوزير — أجل يامولاي
الملك — لهذا أرى أنه يستحسن أن نهدي اليهم غادة أخرى غير السيدة وان. لنُبقي على الحب.. ونبقي على الشرف
الوزير — يقال يا مولاي أن المرأة الجميلة تكون عادة بلاء . هكذا زعم القدماء
الملك — (في حدة) ماذا تعني ؟.
الوزير — أعني ان السيدة وان فاقت النساء طرًّا في الجمال ... وان الاستاذ مو ين شو فرَّ الى بلاد التتار حين خاف نقمتكم عليه واستطاع ان يتربع في مقام عالٍ هناك فأغرَى القوم بك وبها انتقاماً
الملك — ان التهاون الذي سلكتهُ أنت حياله حتى تمكن من الفرار كان سبب هذه الحوادث والكوارث ، فلو كنت قبضت عليه ونفذت فيهِ أمري لكفانا شرَّ ما نحن فيه الآن
(تسمع ضوضاء في الخارج) ما هذا ؟ أسمع جلبة تكاد تغطي على كلماتي !
الحاجب — (يدخل فزعاً) مولاي ... ان رسول التتار قد دخل القصر عنوةً مع الجند
الرسول — (يسمع صوته من الخارج) ماذا ..أريد مقابلة الملك .. من يجرؤ على

منعي؟ تنحوا جانباً ودعوني أمر بسلام..والاَّ دعوت جندي ليعملوا فيكم سيوفهم

الملك — رسول التتار يستثيرني في قصري..وا عجباً!

الرسول — (يدخل مقتحماً) الملك ... لا تؤاخذني يا سيدي فقد أجبرني الأجلاف على ذلك

الملك — ولكن ما هكذا تلتمس مقابلة الملوك

الرسول — سيدي ...انني احمل اليكم أطيب تمنيات بلادي ووفدت لتوثيق ما بين بلدينا من روابط ... وعلى ذلك ارجو ان يتنازل بالموافقة على ايفاد السيدة وان

الملك — (غاضباً) كلاَّ ... ارجع الى بلادك وبلغ أولي الشأن فيها بأننا لا نقبل العرض وسأقود بنفسي الجيوش

الرسول— ماذا ؟ ! أتريدون الحرب (مقهقهاً) هاهاها !

الملك — (ينتهره في حدَّة) لمَ تقهقه . . . فلدينا اكثر من مليوني جندي يستطيعون سحقكم تماماً

الرسول— (يغرق في القهقهة) هاهاها ..هاهاها

الملك — (يشتد غضبه) صه ! والاَّ

الرسول —(يكف عن الضحك) معذرة يا سيدي فليست قهقهتي الاَّ على افراطك في حسن الظن بجيشك ، ولقد اتصل بنا نبأ ما عليه من ضآلة وضعف فاذا أبيت الاَّ عناداً فستدخل جيوشنا الظافرة بلادك بعد ثلاث ساعات من بدء القتال

الملك — وممَّن اتصل بكم هذا النبأ ... الكاذب

الرسول — ليسمح سيدي بتقديم هذا السيد اليه ... (يشير الى شخص يقف بجواره ملثماً) أكشف عن نفسك ياصديقي...(الشخص يزيح اللثام)

الملك — مو وين شو! يا للنذل ! اقبضوا عليه

مو — لا تستطيع أيديكم أن تصل اليَّ ... وان وصلت فالى حين

الملك — أنت خائن لوطنك كافر بنعمة ملكك (يقبض الحراس عليه)
الرسول — ستندم يا سيدي على أمرك هذا حين لا ينفع الندم
الملك — من حقي أن أحاسب كل ذي معصية حساباً عسيراً ليكون عبرة لمن يعتبر
الرسول — أن قنيصتك الآن في ذمارنا ومفيد لنا ، فلا يمكن أن يصيبه مكروه
مو — (للرسول) إن جلالته لا شك واسع النفوذ في قصره عظيم السلطان في بلده .. هو حر في رعاياه .. مطلق التصرف في عبيده
الملك — عرفتَ ذلك الآن ، وقد كنت تدعو دائماً الى الثورة ضدي لاجل منفعة شخصية ، تريد ان تودي بالوطن وتهلك المواطنين في سبيلها
مو — لم أقترف جرماً لتنتقم مني حتى اضطررت للفرار
الملك — لك سيئات لا تحصى ومثالب لا تعد حتى حاول الناس ان يمزقوا جلدك وينهشوا لحمك
مو — ماهذا الاوشاية واش ٍبي اليك .. من بطانتك . فليس لديك العامل الكفء او الوزير المخلص ، وقد تركت لهم الحبل على الغارب فاستحلّوا الحرام وحرَّموا الحلال ، كلٌّ بحسب هواه . . فضجّ رعاياك من جورهم فلم تصل الى اسماعك شكواهم
الملك — صه ! ! فَتَعْساً لك !
مو — فلم تحل مشكلاتهم ، ولم تعالج معضلاتهم ، ولم تخفف عنهم أعباءهم
الملك — إخسأ ... بئس ما تقول !
مو — (مستمرّاً) واستأثرت وحدك بالنعيم فأفرطت في الترف ، وأمعنت في طلب اللذائذ وأحطت نفسك بالجواري الغيد وملكت زمامك احدى الحسان
الملك — كفى قحة ياجبان
مو — فسعيت سعيي لأسلبك مالكة قلبك وقائدة زمامك ، وأضعك بين أمرين لاثالث لهما فإما قبول التفريط في حسنائك فيصبغ العار جبينك وإما الحرب فيطير تاجك

الملك — (في غاية الغضب) اقتلوا هذا . . اقتلوه

مو — فلتنفذ مشيئتك فيَّ اذا اردت ، فلست أخشى الموت ، فلو خشيته ما وطأت قدماي عتبة القصر ، (يكشف عن صدره) اقتلني ولكن لا يمكنك قتل ملايين لهم مثل شعوري ونفوري

الملك — عجلوا بقتله .. انه فتنة

مو — (مهدداً) ولكن لا تنس جيشاً محشوداً من التتار يأخذون بثأري

الرسول — (يتدخل) دعنا من هذا يا صاحب الجلالة .. هل قبلت طلباتنا ؟

الملك — (لا يجيب)

الوزير — نعم .. ان مولاي أجاب طلباتكم

الرسول — (بفرح) حسناً . . لقد أيد جلالته فراستي فيه . . انهُ حكيم . . دعني أشكر لكم يا صاحب الجلالة موافقتكم وأبدي اعجابي ببعد نظركم ويسرني ان أبلغكم اننا — أنا والاستاذ مو — سنرجع في صبيحة الغد، فأرجو ان تبعث بالسيدة مو الى الفندق الليلة لتصحبنا (ينسحبان)

الملك — (بعد لحظة سكون) ما رأيك يا وزيري .. أيمكن للمرأة الضعيفة ان تعمل ما لا طاقة للرجال عليه ؟ !

السيدة — (تدخل بعد انصراف الرسول والاستاذ) ما يحزنك يا مولاي ؟ ؟ انني أحتمل كل بأس في سبيل بلادي . فلا تبتئس ولا تيأس ، فاذا أذنتم لي في الرحيل لأقضي هناك بعض الوقت ريثما تكتمل عدتكم ويتمّ استعدادكم فتخلصوني من جديد (الملك والوزير يطرقان) سأذهب لأهيء نفسي للسفر وكلي رجاء في عزيمتكم لتقوية البلاد وتنظيم الدفاع عنها ، فأحزموا أمركم واجمعوا شملكم وعساي أراكم قريباً

الوزير — اذهبي مولاتي رافقتك السلامة في الحل والترحال

السيدة — (تهم بالذهاب) وداعاً يا مليكي .. وداعاً الى حين

الملك — (مودعاً) ما أخلصك زوجة ... وما أعزك ضحية

(نهاية)

نقلها عن الصينية : ابراهيم سيونغ

حالات ضغط الدم

هل تزداد وفقاً لارتقاء الحضارة ؟

ما فتىء موضوع تأثير الحضارة في المرض موضوعاً يغري بالبحث والتخيل . فالطبيب المتوفر على بحث مرض خاص يحاول أن يتبين في تأثير الحضارة في الجسم من حيث الصحة والمرض ، تفسيراً لمسألة غامضة في الموضوع الذي توفر عليه . وليس بالنادر أن نقرأ في كتابات الصحافيين أو مؤلفات المؤرخين تعليل هبوط أمة من الى المرتبة الثانية أو الثالثة بين الأمم ، بتأثير ترف الحضارة في إضعاف فضائلها البدنية ، ثم اشارة بالعودة الى أحضان الطبيعة. ويرى فريق من الباحثين أن التمرين الرياضي والارتفاع به الى مستوى معين ، كافٍ لانشاء أمة سليمة من الضعف البدني ، ويذهب آخر الى ان الطعام هو أهم البواعث على معظم ما نصاب به من أدواء . والقائل بالمذهب الأخير ، لا يجد مشقة ما في سوق بعض الحقائق المعروفة لتأييد رأيه الخاص والحملة على رأي غيره وتسفيهه لأن فهمَ مسائل الطعام على الوجه العلمي الدقيق لا يزال في مهده

وجميع هذه الآراء والاقوال تنبع من نظرة عامة مؤداها أن للحضارة تأثيراً عامًّا في الجنس البشري يضعف الجسم ويعرضهُ لأمراض شتىً لا تعرف في حال البداوة

على أن الدكتور دونيسون Donnison عضو كلية الأطباء ومؤلف كتاب « الحضارة والمرض » يذهب في كتابهِ هذا الى ان القول بأن القبائل البدائية تعيش متمتعة بالصحة التامة غير معرَّضة للمرض ، ليس الاَّ وهماً لا تؤيده الحقائق . فأبناء هذه القبائل معرَّضون للاصابة بأمراض استؤصلت شأفتها أو كادت في البلدان المتحضرة . ولو كانت الموازنة الدقيقة بين الصحة في حال البداوة والصحة في حال الحضارة متاحة ، لكان الحكم في رأي هذا الطبيب على البداوة للحضارة

وهناك أربعة أمراض ، لا صلة بينها ، ولكنها توصف عادة بأنها من الامراض التي تلازم الحضارة . وهي ضغط الدم العالي ، والبول السكري ، والجحوظ ، والقرح الهضمية المستديرة في المعدة . والاحصاءات الطبية في جميع البلدان المتحضرة تشير الى زيادة الاصابات

بهذه الأمراض . وهي تصيب بوجه عام المشتغل بعقلهِ أكثر مما تصيب المشتغل بيديهِ . وتعد الوراثة عاملاً كبير الشأن فيها ولكن مدى تأثيرها محدودٌ على مايلوح . وأخيراً هناك ميل جليّ الى اصابة المريض الواحد بالأمراض الأربعة معاً . فهل الإصابة بضغط الدم اكثر في المدن منها في القفار والبوادي والقبائل التي لا تزال على الفطرة

يقول الدكتور دونيسون إنهُ أجرى بحثاً في انتشار الاصابة بارتفاع ضغط الدم بين القبائل الافريقية التي تعيش في مناطق خاصة بها . ففحص الف ذكر تبدو عليهم جميعاً امارات الصحة والعافية . وكانت اعمارهم تتفاوت من خمس عشرة سنة الى سبعين سنة أو ثمانين . ولما كانوا لا يعرفون اعمارهم معرفة دقيقة فقد اعتمد الباحث في تعيينها على التقدير

وقد أسفر هذا البحث عن النتيجة التالية : ان معدَّل اصابة الافريقيين الذين في الاربعين أو دونها بارتفاع ضغط الدم ، تقابل أو تماثل معدّل اصابة البيض به . ولكن المعدَّل يهبط في الافريقيين بعد السنة الاربعين من العمر ، بينما هو يرتفع في البيض الى العقد الثامن من العمر

ويقال ان ارتفاع ضغط الدمّ نادر بين الاسكيمو ، ولكنهُ كثير في اليابان . ويدل الاحصاء على ان اصابة الإفريقيين من متوطني اميركا بارتفاع ضغط الدم غير يسيرة ،ولكن ضغط دمهم السوي أرفع من ضغط دم البيض ويزداد بازدياد العمر

ويلوح ان ارتفاع ضغط الدم نادر في السلالات البدائيـة . وان اصاباته تزداد وفقاً لزيادة انشاء المدن وانتشار التعليم وأنها مألوفة في الأفريقيين المتوطنين اميركا. اما انتشارها بين شعوب اميركا واوربا فلا يحتاج الى برهان

والواقع ان مرض « ارتفاع الضغط » يصيب المرء في النصف الثاني من الحياة عادةً . فهو نادر في الذين عمرهم دون الثلاثين وقليل بين الذين دون الأربعين . وقد عزاه فريق من الباحثين الى الوراثة ويدلُّ عدد الأصابات في أسر معينة على ان معدَّل الاصابة فيهـا يبلغ ستين في المـائة . والمرجّـح ان ما يورَّث ليس إلاّ الأحوال التي تهيئ الجسم للعوامل المحدثة ضغط الدم . ويبدو ان هناك صلة ، ما بين ارتفاع وزن المرء (السمنة) وارتفاع ضغط دمهِ . واذا كان للطعام تأثير ما فيهِ فهو تأثير عابر والمرجّـح انهُ ينشأ عن النهم . والغالب انهُ يصيب الناس الذين يميلون في اعمالهم الى القعود دون الحركة ، والمشتغل بعقله أكثر من المشتغل بيديه . وربات البيوت من ذوات النشاط الجم والمعرضات للهمّ والغمّ يصبنَ به كثيراً

وهناك عاملان يؤثران في رفع ضغط الدم : السموم التي في تيَّـار الدم تفعل فعل حوافز قوية . والانفعال الذي يجعل الجهاز العصبي المعروف بالوعائي الحركي مرهف الاحساس دقيق التأثر لما يعرض لهُ من حالات

فضغط الدم يرتفع بتأثير الانفعال واسلوبهُ الفسيولوجي افراز الادرينالين في الدم فيفضي الى انقباض الاوعية فيرتفع ضغط الدم ويزداد السكر فيه ، فيزداد مقدار الدم في الخلايا ويمنع الافراز في القناة الهضمية او ينقص. وهذا على الأكثر مردُّه الى انفعال قوي كالخوف وغرضهُ الفسيولوجي تهيئة الحيوان لعمل بدنيٍّ دفاعيٍّ عنيف كالفرار من وحش او الهجوم على خصم

والفرق بين البدائي والمتحضر في الحالين أنَّ البدائي قلما يصاب بمرض ارتفاع الضغط لأن كلَّ انفعال من هذا القبيل يعقبهُ نشاط جسمانيٌّ فتتمدد الجدران المنقبضة في الأوعية الدموية التي تمدُّ العضلات بالدم وهو الذي يجهزها بالمواد اللازمة للنشاط فيكون النشاط الجسماني في منزلة «صمَّام» ينصرف فيه الضغط، فيهبط مستواه. اما في المتحضر، فأحوال الاجتماع وآدابه تفرض عليه ان يكظم غيظه ويخفي خوفه، فلا تنشط العضلات فيه نشاطها في البدائي فكان «الصمام» يبقى مقفلاً فلا ينصرف الضغط ويبقى عالياً مدة ما. وهذه الحالة سرُّ مصيبة الانسان المتحضر. فطبيعة المشكلات التي يتعرض لها المرء كل يوم تختلف عن المشكلات التي يتعرض لها البدائي ولكن النظام الفسيولوجي الذي ركّبتهُ الطبيعة في الجسم لمواجهة مشكلات الحياة البدائية لم يتغير . فصاحب المصرف الذي يفقد ثروته لا يجوز لهُ ان يطلق العنان لانفعاله بصفع احد موظفيه ، ولكن خوفه من الإدقاع، انما هو من نوع الخوف الذي يساور الانسان البدائي . وهذا كان يقاتل أو يفرُّ متأثراً بهذا التغيير الحادث في جسمه ، وسواء أقاتل أم فرَّ فان اسراع نبضه والتبدل في تركيب دمه وزيادة السكر فيهِ وغير ذلك ، تحولات من شأنها ان تعزز قدرته على القتال او الفرار . ولكن جميع هذه التغيرات الجوهرية ، لا تجدي صاحب المصرف في مدينة حديثة شيئاً ، عند ما يفقد ثروتهُ ويتراءَى لهُ شبح الفاقة والسقوط الاجتماعي . انها تعدُّه لعمل لا يتم وتحشد انساج جسمه بمواد لا يستعملها وتتركه وفي دمهِ مفرزات تؤثر في جدران أوعيته وألياف عضلاته فتحرفها عن فعلها السوي وتعدها لعمل خاص لا يستطيع عملهُ ، فيفضي ذلك الى نضال في نفسهِ يكبتهُ وفقاً لتقاليد المجتمع ، ولكن كبته لا يعني ان النضال قد زال أو انهُ لا يضرُّ

وأقل آثاره هذا الارتفاع في ضغط الدم وقد يفضي الى حالات مرضية اخرى

ويميل المشتغلون بعلوم الطب والنفس الى القول بأن المصابين بارتفاع ضغط الدم طراز خاص من الناس ، تغلب عليهم حالات عصبية تنحو بهم الى ارهاف الاحساس وشدة التأثر بصغائر الأمور وطبع ينفجر كالبركان وسرعة تورد الوجنتين والاكباب على العمل والرغبة في سرعة الانجاز والميل الى سرعة الأكل

العرب والتفكير العلمي [1] — ٢

أسلوبهم العلمي

لقدري حافظ طوقان

أما وقد انتهينا من البحث في آثار العرب ومآثرهم في العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية فلنصف أسلوبهم والطريقة التي يسيرون عليها

امتاز العرب في الجمع بين فروع العلوم والادب وفاقوا في هذا غيرهم فنجد بين علمائهم من وقف على روائع الأدب وغاص على دقائق العلم وجمع بينهما . ومن يطلع على كتاب الجبر للخوارزمي يجد ان المؤلف جمع بين الجبر والأدب وجعلهما متممين أحدهما للآخر . فالمادة الرياضية مفرغة في أسلوب أخاذ لا ركاكة فيه ولا تعقيد ينم على أدب رفيع واحاطة بدقائق اللغة . ونظرة في كتب البيروني تبين ان تعانق الأدب والرياضيات بما فيهما الفلك والطبيعيات ممكن ، وليس أدل على ما قلت من كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم للبيروني فأسلوبه سلس خالٍ من الالتواء يخرج منه القارىء بثروتين أدبية وعلمية ويشعر بلذتين — لذة الاسلوب العلمي ولذة المادة العلمية وقد أفرغها على طريقة السؤال والجواب

وأرسل إليّ الدكتور نيكل المستشرق التشيكي قبل سبع سنوات كتاباً قديماً في الجبر لابن بدر وبعد دراسته وجدت فيه نظاماً وتسلسلاً في ترتيب البحوث وشروحاً ضافية للمبادىء الأساسية وابداعاً في حلول المسائل وفي عرض خطوات حلها عرضاً طريفاً فيه متاع فكريّ ولذة عقلية . وما يقال في مؤلفات الخوارزمي والبيروني وابن بدر يقال في مؤلفات البوزجاني والبتاني وابن حمزة وابن قرة وأبناء موسى والطوسي وابن سينا وابن الهيثم والدينوري وغيرهم من عباقرة العرب

لقد كان للعرب أسلوب خاص في اجراء العمليات الحسابية ، فكانوا يوردون طرقاً عديدة لكل عملية ، ومن هذه الطرق ما هو خاص بالمبتدئين وما يصح ان يتخذ وسيلة للتعليم . ولقد انتبه بعض رجال التربية في أوربا الى قيمة هذه الاساليب المسطورة في كتب الحساب العربية

(١) تتمة المحاضرة التي القيت في جمعية الشبان المسيحية في القدس في مساء الخميس ٦ / ١١ / ١٩٤١ برآسة الاستاذ احمد سامح بك الخالدي عميد الكلية العربية ومساعد مدير معارف فلسطين

من وجهة التربية فأوصوا بها وباستعمالها عند تعليم المبتدئين وتقول مجلة التربية الحديثة : — « ... وهذا ما حدا بنا الى درس الاساليب المتنوعة في كتب الحساب القديمة العربية بشيء من التعمق والتوسع . وفعلاً قد وجدنا بينها طرقاً عديدة يحسن الاستفادة منها في التعليم » ولهذا السبب أتت المجلة على بعض هذه الاساليب وأقامت الدليل على فوائدها في أحد أعدادها ليستفيد منها الأساتذة والمعلمون في تدريس الحساب

ونأتي الآن الى الطريقة العلمية او الاسلوب العلمي — وهو الصفة المميزة لهذه الحضارة عن الحضارات التي سبقتها — هل للعرب أثر في كشفه ؟ ما كنت أظن ان للعرب أثراً في كشفه او في التمهيد الى كشفه حتى بحثت في مآثر العرب في الطبيعة واطلعت على كتاب تنقيح المناظر. أنا لا أقول ان علماء العرب توسعوا في هذه الطريقة واستغلوها على النحو الذي استغلها به علماء أوربا

أنا لا أقول ان العرب عرفوا الطريقة بالصورة الواسعة العريضة التي أصبحت عليها الآن. أنا لاأقول ان العرب كانوا يدركون ما لهذا الأسلوب كما يدركه الآن علماء أوربا من شأن... ولكنني أقول انهُ وجد بين علماء العرب من سار في بحوثه على الطريقة العلمية وانهُ وجد من بين علماء العرب من سبق (بيكون) في انشائها بل من زاد على طريقة بيكون التي لا تتوافر فيها جميع العناصر اللازمة في البحوث العلمية

أما العناصر الأساسية في طريقة البحث العلمي الحديث فهي : الاستقراء ، والقياس والاعتماد على المشاهدة او التجربة والتمثيل

وكنت اظن كما يظن كثيرون ان هذه الطريقة في البحث هي من مبتكرات هذا العصر ولكن بعد مطالعة كتاب تنقيح المناظر لكمال الدين الفارسي و (محاضرات ابن الهيثم التذكارية لمصطفى نظيف بك) تبينتُ ان ابن الهيثم ادرك الطريقة المثلى ، فقد قال بالاخذ بالاستقراء وبالقياس وبالتمثيل وضرورة الاعتماد على الواقع الموجود على المنوال المتبع في البحوث العلمية الحديثة . ففي كتاب تنقيح المناظر عند البحث مثلاً في كيفية الابصار واختلاف الآراء فيه يقول : « .. ونبتدىء في البحث باستقراء الموجودات وتصفح احوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراءٍ ما يخص البصر في حال الابصار ، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الاحساس . ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب ، مع انتقاد المقدمات ، والتحفظ من الغلط في النتائج ، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحهُ استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء .. » الى ان يقول : « ..ولعلنا ننتهي بهذا الطريق الى

الحق الذي بهِ يثلج الصدر ونصل بالتدرج والتلطف الى الغاية التي عندها يقع اليقين. ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات... وما نحنُ مع جميع ذلك براء مما هو في طبيعة الانسان من كدر البشرية ولكننا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الانسانية . ومن الله نستمد العون في جميع الامور ..»

ومن أقواله هذه تتجلى لنا الخطة التي كان يسير عليها في بحوثه وان غرضه في جميع ما يستقريه ويتصفحهُ (استعمال العدل لا اتباع الهوى) وانهُ يتحرى في سائر ما يميزه (طلب الحق لا الميل مع الآراء) . وبعد ذلك نراه رسم الروح العلمية الصحيحة وبين ان الاسلوب العلمي هو في الواقع مدرسة للخلق العالي فقواعده التجرد عن الهوى والانصاف بين الآراء. فيكون قد سبق علماء هذا العصر في كونهِ لمس المعاني وراء البحث العلمي . وكان يرى في الطريق المؤدي الى الحق والحقيقة ما (يثلج الصدر) على حد تعبيره — وهذا ما يراه باحثو هذا العصر من روَّاد الحقيقة العاملين على اظهار الحق ، فان وصلوا الى ذلك فهذا غاية ما يبغون ويؤملون

درس ابن الهيثم انتشار الضوء على خطوط مستقيمة ودرس انعكاسها كما درس انعطافها وقد تدهشون اذا قلنا ان أول ما عنى بهِ في هذه الدراسات هو البحث العلمي واجراء التجارب بآلات عملها هو بنفسهِ ليتحقق من صحة أصول البحوث ، والمجال لا يتسع هنا لايراد الأمثلة (من كتابهِ)

كان لا يقبل برأي أو نظرية قبل درسها أو تمحيصها وكان اذا استطاع ليستوثق من صحتها عمليًّا ، فلقد كان من المعروف، عند علماء زمانه والذين قبلهم ان ضوء القمر هو ضوء الشمس منعكساً عن سطحه كما ينعكس الضوء عن سطوح الأجسام الصقيلة كالمرايا مثلاً . أراد أن يمتحن صحة هذه النظرية فأجرى بحثاً هندسيًّا متسلسل الخطوات مستوفى البراهين وخرج منهُ بأن أبطل تلك النظرية وأقام على انقاضها نظرية جديدة وهي ان ضوء القمر هو ضوء ثانوي او عرضي يشرق من سطح القمر المستضيء بالضوء الذاتي المشرق من الشمس كما يشرق الضوء من ضوء كثيف معتاد اذا وُضع بالقرب من جسم مضيء بذاته ، وليس هو ضوء منعكس بالمعنى الخاص بالانعكاس (١)

وفي بحوث الضوء المختلفة اتى على أمثلة وأشكال توضحها ، ثم كان يتحقق من ذلك باجراء تجارب في بعضها ابتكار وإلهام . ومن مميزاته انهُ كان يشرح الجهاز ويبين وظيفة اجزائه المختلفة . واستعمل أجهزة مبتكرة لشرح الانعكاس والانعطاف ، وتدل تجاربهُ

(١) راجع كتاب تنقيح المناظر لكمال الدين الفارسي ومحاضرة مصطفى نظيف بك عن ابن الهيثم

واجهزته وحساباته على انهُ استطاع ان يجمع بين مقدرته الرياضية وكفايته العلمية الممتازة التي « .. يدل عليها صنع الاجهزة واستعمالها في الاغراض المختلفة .. »

وظهر من علماء العرب من كان كثير التدقيق حين البحث في النباتات فقد اشتهر رشيد الدين ابن الصوري في علم النبات في دقته المتناهية في درسه فكان يستصحب معهُ مصوراً (عند بحثه عن الحشائش في منابتها) ومعهُ الأصباغ والليق على اختلافها وتنوعها فكان «... يتوجه الى المواضع التي بها النبات فيشاهده ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه واغصانه واصوله ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها . ثم انهُ سلك ايضاً في تصوير النبات مسلكاً مفيداً وذلك انهُ يري النبات للمصور في ابان طراوته فيصوره ثم يريه اياه ايضاً وقت كماله وظهور بذوره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريه اياه ايضاً وقت ذويه ويبسه فيصوره فيكون الدواء يشاهده الناظر اليهِ في الكتاب وهو على انحاء ما يمكن ان يراه في الارض فيكون تحقيقهُ له أتمّ ومعرفته له أبين ... » (١) ولا أظن ان علماءَ النبات في هذا العصر اكثر دقة وتمحيصاً من ابن الصوري

***

مما مرَّ نتبين انهُ وجد في الأمة العربية من مهّد الى الاسلوب العلمي ومن سبق بيكون وغاليليو في انشائه والعمل بهِ . ولاشك ان هذا من الامور الجديرة بالنظر والاعتبار ولاسيما اذا علمنا ان اعظم خدمة أسداها العلم وأمجد اثر له هو الاسلوب العلمي والنتائج الرائعة التي أسفر عنها تطبيقه

هذا مجمل ما خلَّفهُ العرب في ميادين الطبيعة والرياضة والفلك والاسلوب الذي كانوا يتبعونهُ ويسيرون عليه في بحوثهم ودراساتهم

من هذا المجمل يتجلى لكم ان المآثر العربية في ميادين العلم المختلفة هي نتاج قرائح خصبة ورشح عبقريات متعددة ، وان العقل العربي كان ذا حيوية ثمراته يانعات عادت على المدنية بالتقدم والارتقاء . والآن وهذه أمتكم وقد خلفت هذا التراث الخالد وتلك المآثر الجليلة والآن وأنتم من أولئك الذين أنشأوا حضارة على أساسها تقدم العلم والعمران ، لجديرٌ بكم ان تعتزّوا وان تباهوا امم الأرض . ولكن ما لنا وللاعتزاز او المباهاة اذا كان لا يصحب هذا الاعتزاز والمباهاة ارادة في اقتفاء آثارهم والسير على طريقتهم

ان من الأمم من لا تاريخ لها فراح علماؤها يخلقون لأمتهم تاريخاً ويعملون على اخراجه

(١) ابن ابي اصيبعة — طبقات الاطباء . ج٢ ص ٢١٩

في أمجد صورة فتمكنوا من خلق روح الاعتزاز ومن بثّ الاقدام والعزيمة في نفوس ابنائها . فكيف بنا ونحن أصحاب تراث ضخم وتاريخ مجيد وحضارة عريقة . أما الاولى بنا ان نسير على نهج السلف وان نلتمس في سيرتهم المثل والقدوة

هل كتب الجمود على العقل العربي ؟

ليس العقل العربي جامداً . لقد كان فعالاً منتجاً ، فلمَ لا يكون اليوم ؟

كانت الأمم عالة على العقل العربي ، فلماذا لا يسترد العقل العربي سيرتهُ وحيويتهُ ؟ ما الذي أصاب العرب حتى أصبحوا وكأنهم كمية مهملة في تاريخ الفكر والعلم ؟

ان الذي أصابهم هو انحلال خلقي وضعف نفسي وشعور بالنقص استولى عليهم فاذا هم يهملون تاريخهم واذا هم يجهلون انفسهم واذا من العرب من ينكر على العرب تراثهم ومآثرهم ومفاخرهم ، واذا الاستخفاف بكل ما هو شرقي عامة وعربي خاصة من (فنون) المتعالمين واذا المزاعم تترى بأن العرب لم يكونوا غير نقلة ، وانهُ لم يكن لهم اي جهدٍ فكري ما في تقدم العلم والعمران ، وأخذ الاعتقاد بعدم قابليتنا يتسرَّب الى شبابنا وقد أصبحوا هدّامين منكرين لميراث العرب لا يرون فيهِ خيراً ولا جمالاً ، مفتونين بالحضارة الاوربية عاكفين عليها يرون فيها كل الخير وكل الجمال

لقد نسي هؤلاء ان لا كيان لأمة تنبذ تقاليدها ، ولا مجد لامة تنتقص من ثقافتها وتاريخها ، وان الأمة العربيــة خلّـفت آثاراً جليلة لولاها لمـا تقدمت الحضـارة تقدمها المشهود، وان هناك من علماء اوربا من دفعه روح الاخلاص للحق والحقيقة ان ينصف العرب ويعترف بفضلهم وأثرهم وبانهم أساتذة اهل اوربا

ويدعوني الانصاف الى القول ان في نهضة العرب العلمية الحديثة ما يدعو الى الاطمئنان والارتياح ، فلقد أصبح العرب يدركون ان بعث الثقافة واحياء القديم وربطه بالحاضر من أقوى الدعائم التي عليها يبنون كيانهم ويشيدون عظمتهم ومجدهم

***

لقد بدأت بعض الحكومات العربية ولاسيما في مصر وبعض الجماعات والأفراد في مختلف الأقطار يحاولون سدّ النقص الذي لازم حركاتنا المتنوعة مدة طويلة ، فالنهضة الثقافية سائرة بخطى واسعة ، والاهتمام بتراث العرب في نمو وازدياد

ولست الآن في مجال تفصيل هذه النهضة ، ولـكن يمكن القول ان هذه النهضة مع انها في أولى مراحلها فهي تبعث على التفاؤل وتبشر بيقظة ثقافية ونهضة فكرية تعيد للعرب سابق مجدهم وتالد عزهم فيحتلون مقامهم الممتاز في المساهمة في خدمة الحضارة ورفع مستواها

حديقة المقتطف

رابندرانات تاجور

الفصل الثالث

مدرسة تاجور



لمحمود المنجوري

مدرسة تاجور

لمحمود المنجوري

من الصور التي لازمت خيال تاجور منذ كان طفلاً صورة ذلك المكان الذي اتخذه ابوه في ظاهر مدينة « بلبور » بين الغابات ، يتعبد فيه ويلقي على الناس دروس الحكمة والتأمل في ابداع الله العظيم . . فلقد نشأت صورة هذا المكان الذي كان يأوي اليه والده طول اليوم ، مفكراً هادياً الى صراط مستقيم ، ذات أثر بالغ في نفس تاجور وكان باراً بفكرة والده الحكيم عندما هاجر في سنة ١٩٠١ الى هذا البيت الذي أنشأه أبوه واتخذ منه مسكناً ومعبداً ومكتبة وحديقة ، وجعله مثابةً يحاول فيها تنشئة جيل يحب الطبيعة ويحنو عليها ، طِبْقَ رسالته التي كان يحسّ في دخيلته بوحي ادائها الى أهل وطنه . ورأى تاجور ان تكون المدرسة وليدة البيئة التي ينشأ فيها الطفل لا تعلو عليها ولا تنخفض عن مستواها والا اخرجت جيلاً غير صالح لبيئته . ولما كانت مدنية الهند قد نشأت اول امرها في الغابة فهي حضارة ذات قيم متصلة بالتفكير غير المحدود ومرتبطة أشد الارتباط بالتعارف بين روح الكائنات

« ولهذا كانت الفكرة الاساسية التي بنى عليها نظام مدرسته هي تحبيب الطبيعة الى الطفل واستبقاء الصلة بالدراسة بينه وبين البيئة التي يعيش فيها ، وليس نجاح هذه المدرسة يرجع الى الفكرة التعليمية التي بنى عليها نظام التعليم فيها ، ولكن حب تاجور للطفل وميله الشديد الى خدمة أمته بل وخدمة الانسانية من هذه الطريق دفعاه الى تخصيص أكبر جزء من وقته لتحقيق هذا المقصد السامي (١)

نشأ تاجور يتيماً ، فأحسّ مرارة اليتم اذ حُرم عطف الأم صغيراً ، ورأى والده منصرفاً عنهُ الى عبادة الله ، يذهب كل يوم الى دارهِ بالغابة يحدث الناس فيها عن أثر الخالق في أنفسهم ، وفيما ينظرون ، ووجد في أفراد اسرته العلماء والفلاسفة والمفكرين الذين تأثروا أبلغ التأثير بتعاليم « يوبانيشاد » واتبعوا أحكام بوذا في ايصال الروح البشرية بالعالم الذي يحيط بها ، وبالحقيقة المطلقة التي تتصل بسرّ الوجود ، فنمت روحه وأشرقت على المعاني السامية التي أرادت التعبير عنها . وكان قد أصابه في صباه ما أصاب أطفال الهند من عنت وسوء معاملة في مدارس عهده ، فأراد وهو المصلح الانساني ، ان يعالج امراً شعر بالتوائه ، وفي اصلاحه تنشئة جيل جديد ، على افكار ومبادىء انسانية خاليــة من الشذوذ والاخطاء ، بعيدة عما

(١) خطبة الشمسي باشا وزير المعارف ورئيس لجنة الاحتفال بتاجور في مصر سنة ١٩٢٦

يلقي بالتفكير والعواطف والمدارك في طريق التعصب والشذوذ وعما ينأى بالروح عن مرافق الحياة السامية المتصلة بجمال الطبيعة

لقد كانت المدرسة في طفولة تاجور تقوم على نظام قديم أنشأهُ حكماء الهند منذ زمن بعيد ، فكانت المدرسة تؤسس في مكان بعيد عن المدينة ، بين الغابات ، يشرف على جمال الطبيعة ومباهجها ، فكانت حقًّا كما أطلقوا عليها «مدارس الغابات» أو كما كانوا يسمونها «أسرم» . ولكنها لم تكن في الحق مدرسة تدرس فيها العلوم المتصلة بالحياة ، بل كانت هياكل نسك ورهبنة وتلقين لمبادىء الدين وتعاليمه طبق عقائد الهند القديمة . وكان كل طفل يوضع في رعاية شيخ كانوا يسمونهُ « جورو » او العريف الحكيم ، يتلقى الطفل عنهُ مبادىء التفكير والعلم واللاهوت والحكمة ، متدبراً مباهج الطبيعة وآثارها المختلفة من سماء ونجوم وأقمار ورعود وأنهار وأشجار وأزهار وهوام وحيوان وانسان

هذا النظام القديم راق تاجور ، ووجد فيه خير عون له على تنشئة جيل يحب الطبيعة ويدرك جمالها وأسرارها ، ولكنهُ أراد ان يرفع عن هذا النظام ما كان يشعر به في طفولته من عوج وشذود فيهِ ، فذكر ان الهند أصبحت في غير حاجة الى معابد للصلاة ، ولا الى مدارس تقام فيها الشعائر وحدها ، ولكن الهند في حاجة الى «مدرسة الغابة» حيث يجتمع الى جمال الطبيعة تفكير العلم وثقافة العقل البشري ، وحيث يتحد قلب الحياة بتفكيرها ، فتسمو المدرسة الى معبد روحي ، يحبب الطبيعة والجمال والمعاني السامية الى الاطفال ، ويصل بهم دون وعي منهم الى الروح ، التي يجب ان تصدر عنها جميع اعمالنا الخيرة

ودراسة طبيعة الطفل ، وانشاء الصلة بينها وبين ما حول الطفل من بيئة ، وتقوية الروح والارادة والادراك ، كل هذه مجتمعة هي الاسس الأولى التي بنى عليها تاجور مدرسة (شانتي نكتان) في عهدها الجديد سنة ١٩٠١ . ولكن فكرة المدرسة القديمة مدرسة الغابة كانت هي الجوهر الاساسي لهذا النظام لانها كانت في الحق الفكرة المحببة الى تاجور ، وظلت كما هي حتى أصبحت هذه المدرسة فيما بعد معهداً عالميًّا يحضره العلماء والفلاسفة والمفكرون من جميع أقطار الدنيا . فمدرسة الغابة هي حلقة من الاطفال تلتف حول معلمها تحت الاشجار في ضوء الشمس وأحضان الطبيعة ، وتاجور يعتقد أن الطبيعة هي خير معوان للمعلم في اداء عمله . وبدأ تاجور مدرسته ببضعة اطفال بثَّ فيهم تفكيره وملاحظاته ، ثم نما العدد الى نحو العشرين بعد عامين ، ثم الى ستين بعد اربعة أعوام ، والى مائتين في بضعة أعوام . وكان تاجور يرى نفس الطفل مسرحاً بكراً لمستقبل العالم الروحي والمادي ، وينظر الى هذا المخلوق نظرة تقدير ومحبة وعطف . نظرة كاملة يرى الاطفال فيها مخلوقات لا ينقصهم شيء غير تفتح المواهب والتفكير

والاحساس . فهم حكماء وعلماء وقادة وشعراء ولكن في أكمام كالزهر، ان أحسنت الطبيعة والبيئة اليها تفتحت عن جمال وروعة ، وان أهملتها ذبلت موءودة ، وخسرت الحياة أعز ما تملك لأن هؤلاء هم ذخرها ومستقبلها . والاطفال يجب أن يفهموا أنفسهم ويقبلوا على الحياة من وجهها الحق وان يدركوا ما فيها من جمال وأسرار ، وان يندمجوا في الطبيعة ويعتبروها أمًّا محببة اليهم لتشيع فيهم الروح العليا، فتصدر أعمالهم وحركاتهم عن الحق والحب والخير، وليدركوا بهذا الحنو المشترك بينهم ، ثم بينهم وبين الكائنات الأخرى ، انهم جزءٌ لا ينفصل من وحدة تامة لهذا الوجود تشعر بشعور جامع واحد

وادراك الطفل لشخصيته وتنميتها ، لا في حدود الانانية والاثرة ، ولكن في حدود الروح الجامعة للحياة كلها ، هو العمل الأول لنظام تاجور المدرسي، ومن هنا كانت الارادة في مدرسة تاجور، ارادة جامعة وليست ارادة فردية، هي وحي الجماعة صادر عن مباعث الخير والفضيلة واتجاه الروح العالمي ، وهذه الارادة متى توحدت في اتجاهها وكانت صادرة عن شعور واحد روحي أنتجت تفكيراً متحداً يخدم البشرية كوحدة منسجمة متصلة غير متعارضة في أهوائها ومشاعرها ومداركها ومقاصدها في الحياة . فالخير والوصول الى الحق من طريق ادراك النفس ، والشعور بالشخصية الجامعة ، هو هدف تاجور التعليمي في مدرسته . ولقد وضع لمدرسته منهاجاً يوميًّا وصفهُ أحد تلاميذ تاجور فقال :

« ينهض جماعة الانشاد من الاطفال في مطلع كل يوم حوالي الرابعة والنصف صباحاً يرتلون أناشيد عذبة هادئة ، وهم يجوبون المدرسة لايقاظ زملائهم بعد غفوة النوم وهدوء الاحلام . فاذا ما زال عنهم نعاسهم هرعوا الى جمال الفجر يشرفون عليه في هدوء واستمتاع ويقظة روحية ، فتسري الى نفوسهم براءة الجمال ورهبة القوة القادرة الجامعة التي تسلخ من الليل نهاراً ونوراً ، وتبعث من الهجوع حركة وحياة ونشاطاً في جميع الكائنات — فاذا ما انتهت فترة التأمل الاولى ، انصرف الاطفال الى تنظيف غرفهم بأنفسهم ولمِّ ما فيها من شعث ، فاذا ما انتهى هذا الدرس العملي الذي ينشىء الطفل معتمداً على نفسه محترماً جميع الاعمال وان صغرت ، توجه الاطفال الى ملاعبهم الرياضية في طلق الهواء وجمال الطبيعة بين الشجر العالي ليروضوا أجسامهم ، حتى اذا ما أخذوا حظاً من رياضة الابدان انصرفوا الى حمامات باردة تزيل عنهم العناء وتكسبهم النشاط ، فاذا تمَّ كل هذا اتخذ كل طفل معزلا له في الحديقة الكبيرة ، وقد عكف على نفسه يفكر فيها وفيما حوله في صمت ممتدّ لا يقطعه حديث ولا تشوبه حركة ، فاذا ما لبث على هذه الحال نحو الربع من الساعة متأملا مفكراً مجاهداً مطالب النفس ، انطلق الى صحن مدت فيه موائد الافطار ، حتى اذا ما انتهى الاطفال من هذا ، ذهبوا جماعة الى الصلاة يؤدونها في خشوع وتفكير وإيمان ثم يبدءون دروسهم بنشيد مقدس كل يوم ، وتبدأ الدراسة في الهواء الطلق حلقات في منتصف الثامنة ، حتى منتصف النهار ولكل طفل وسادة من القش يفترشها وقرطاس ومحبرة وقلم يحملها معه كلما انتظم في حلقة الدرس . أليست هذه هي روضة للاطفال وضعت الهند نظامها منذ أجيال بعيدة في نظام مدارس الغابة التي كانوا يسمونها (أسرم)

وفي الساعة الثانية عشرة يتغدى الاطفال وينتهي برنامج الدراسة اليومي مراعاة لحرارة الجو في بلاد الهند ثم ينصرفون بعد ذلك الى بعض شئونهم فيلعبون ألعابهم الرياضية ويتذكرون دروسهم او يعملون في الحديقة فلاحة وتنظيما ورياً ، ثم يخرج بعض التلاميذ جماعة منتظمة الى القرى المجاورة لارشاد أطفالهم الى الخير وتدريبهم على ما نشأت عليه أنفسهم من تعاليم المدرسة ، وبهذا يعم الاصلاح في أوسع نطاق ، ولا يقتصر

على طلبة المدرسة وحدها . وينشأ التلاميذ وفي نفوسهم نزعة الى الاصلاح والارشاد والتعليم حتى اذا ما اقترب النهار من الزوال لجأوا الى مغاطسهم يستحمون فيها ، فاذا ما أخذوا حظهم من النشاط رجع كل الى فترة الهدوء في معزله يفكر ويتأمل ويستعرض ما كان منه طول اليوم ، محاسباً نفسه متذكرها دائماً بنفوذ الروح فيها . ثم يجتمع التلاميذ للانشاد والترتيل لقطع مقدسة ، ثم يتداولون العشاء فاذا ما انتهوا منه عكف الاطفال على قراءة القصص التهذيبية وتمثيل مسرحيات صغيرة او ترتيل الاغاني العذبة الجميلة — وأما الكبار من الاطفال الذين يهيئون للامتحان بالجامعة فيباح لهم الدرس والمذاكرة بعضاً من الليل ، ثم يأوي الجميع الى مضاجعهم في منتصف العاشرة وتطوف جماعة الانشاد منشدة أناشيد المساء ، وهكذا ينتهي اليوم كما بدأ بالاغاني والانشاد »

* * *

والناحية الاجتماعية التي ينشأ عليها الطفل في مدرسة تاجور منتزعة من عقيدة تاجور العالمية ، فهو يبتعد بالاطفال عن روح الاثرة والانانية ولا يلقي في نفوسهم بأنهم هنود أو من طائفة خاصة لها وطن ولون وعقيدة وجنس خاص ، وانما يأخذ بأيديهم الى باب الانسانية ، فيطبع هؤلاء الأطفال بطابع عالمي بعيد عن روح القومية الجامح ، ويبعث في قلوبهم حب الوطن على انهُ فضيلة ، والفضيلة لا تجر النفس الى شر أو عنف أو عصبية . ولعل آراء تاجور التي بيّنها في هذه الناحية في كتابه «البيت والعالم» هي المبادىء الاجتماعية التي ينشىء عليها اطفال مدرسته . فهو في هذا الكتاب لا ينظر مطمئنًّا الى الوطنية المتعصبة نظرة تقدير ، بل يراها عملاً عصبيًّا صادراً عن الانفعال والأثرة التي تدفع بالبشر الى الحروب دائماً . فأطفال تاجور يعرفون وطنهم ويحبونهُ كما يحبون أمهاتهم وآباءهم ، ولكنهم يعدونهُ وحدة منسجمة في العالم الذي يجب ان يُحَب ويؤثر في القلب والتفكير في سبيل الانسانية جميعها. ومن قواعد فلسفة تاجور ألاّ يؤثر العنف في أي عمل ، وقد تدعو الوطنية الى التطرف والعنف ، بل انها قد تدعو الى إزهاق الأرواح والكفاح الدموي . وتاجور يأبى هذا ويرفضه أشد الرفض ، لانهُ ينشد المثل الأعلى في الوطنية الذي تفسره البشرية تفسيراً صحيحاً يرضي الضمير الانساني

فاختلاف الاجناس طبق اختلاف الالوان واللغات ، ليس عملاً من أعمال الأنسانية ، وانما هو عمل من اعمال التفكير الشاذ المنحرف عن الحق وطبيعة الحياة — وتاجور لا ينكر اختلاف المواهب ، ولا اختلاف البيئات ، ولكنهُ ينكر ان يكون هذا الاختلاف مثارَ مشكلات اخرى ، بل يجب ان يكون دافعاً وموجباً للتعارف والتزاوج والائتلاف ، ولهذا ينكر تاجور ان تتناحر الوطنيات المختلفة ، لانها تجرُّ الانسانية الى نوع من الوحشية البربرية في صورة من الحرب والغزو واهدار الانسانية[1]

واطفال مدرسة تاجور هم في الحق مخلوقات كاملو الرجولة فالرجولة منطوية فيهم حتى يأتي

(١) البيت والعالم : لتاجور

أوانها، فتظهر ناضجة غير مبتسرة، وهم كما يدركون شخصيتهم ويغلّبونها على أمورهم ونظام معاشهم يختارون من بينهم كل اسبوع رئيساً عليهم، كأنهم يتدربون على النظام الانتخابي الديمقراطي في حياتهم، فهم لا يدعون رئيساً يستبد بالغلبة وطول الأجل عليهم فيسري حب السيادة والسيطرة الى بعضهم، ويشعر بعضهم بمذلة الرآسة والقهر الروحي، إنهم يرفضون هذا ولكنهم يحترمون النظام تدبيراً للحياة وتقديراً اسلوكها وطبيعتها، وشخصيتهم في هذا هي مصدر تقديرهم واستقلالهم في الحياة — وهم في المدرسة كجماعات النحل — لكل جماعة رئيس ينتخب ولكن الى أجل، ليسودها روح التعاون التام، ولهم محكمة من أنفسهم تفصل في شئونهم اليومية وما يقع من بعضهم من مخالفةٍ لنظمهم وتعاليمهم وسلوكهم، ولا يشترك فيها اساتذة المدرسة مطلقاً الا اذا كان الأمر جد جليل، وهذا في النادر القليل

ومن أهم المبادىء العامة ألا يتسلط المعلم على ارادة تلاميذه وألا يشعرهم بنفوذه عليهم بل يجب أن يتعاون المدرس مع تلميذه على الفهم والدرس، وكثيراً ما يخضع المدرس لارادة تلاميذه متى كان الحق في سبيلهم، وليس في المدرسة عقوبة بدنية لأن التعذيب البشري محرّم وإجرام، فالعقوبة ممنوعة ومقطوعة. والعقوبة القاسية عندهم أن يقاطع المذنب فلا يلتفت اليهِ تلميذ أو معلم، بل يهمل ويترك. وفي هذا بلاءٌ له ودعوة الى التهذيب والاصلاح — ومتى اعترف التلميذ المذنب بخطئه كان هذا استغفاراً كافياً ليعيد اليهِ المجتمع المدرسي حقوقه واعتباره

فمدرسة تاجور من هذه الناحية عالم صغير ولكنهُ غير محدود، بل هو العالم الكبير المنطوي على نفسه الى حين، وهي تستمد مقوماتها من روح صاحبها، فهو زعيمها الروحي وهو أب لأطفالها سعيدٌ بهم، بل هو كما يقول عن نفسهِ « انني مع أطفالي أسعد مني في أي مكان آخر » وفي شخصيته الجاذبيةُ القوية التي تجمع اليها جميع التلاميذ، فهم يشعرون بأنهم متقابلون في شخصيته الجامعة، يستمدون منها الباعث الحية لإيقاظ نفوسهم وقلوبهم الى المعاني السامية التي تدعو اليها شخصية تاجور، وهو يعمل دائماً على اذكاء شخصية اطفاله وتنميتها وبعث الروح فيها لتنهض متماسكة بقوتها وحيويتها الغريزية، لأن تاجور يدعو دائماً الى أن تكون شخصيتنا أول شيء نعرفه في أنفسنا، فهي مصدر تفكيرنا، ومجال الدرس والتعليم

« ففي أنفسنا يجب ان نفكر ونتدبر، وفي أنفسنا يجب ان نرى صور الحياة والانفعالات والرغبات والغرائز والميول واتجاهات الخير والشر، وفي شخصيتنا ينطوي العالم الروحي والعالم الحسي معاً، ويجب ان تصدر معارفنا ومشاعرنا وأدبنا وفننا مطابقة لشخصيتنا التي يجب ان تكون مدركة لذاتها ومتصلة بالعالم وما فيه من أسرار، وكلما اتسعت دائرة معارفنا الشخصية بالاشياء الخارجة عنا كنا أكثر حرية » (١)

(١) عن سعد هانا

وفي الحق ان هذا المذهب الذي يدعو اليه تاجور في مدرسته ، مذهب تحريك الشخصية الفردية وجعلها حرثاً للبحث والتثقيف والنظر ، في الحق ان هذا المذهب هو مذهب هندي قديم دعت اليه أديان الهند ونصَّ عليه في تعاليم « يوبانيشاد » التي تبحث عن سر الفرد في روحه ، وتدعو الانسان الى ان يخلص نفسه من مظاهر الحياة وبهرجها الكاذب ، ليحل فيه المخلوق الطاهر النقي أو الجوهر الأوحد العام الذي يطلقون عليه اسم « برهمان »

هذه هي مدرسة تاجور التي نشأ فيها أطفاله الى عام ١٩٢١ وكان يقف فيها بينهم ويشترك معهم في اخراج مسرحياته يعلمهم الاداء والنطق والاخراج ، ولا يضن بتفكيره الفلسفي الكبير على دائرة الطفولة الوديعة الساذجة ، بل كان يرى في هذه الدائرة معيناً له على فهم حقائق الاشياء ، فكان تاجور يعلم بنفسه الاطفال الأدب والقصص والترتيل والغناء ، ويثير في نفوسهم دائماً الشغف بالفنون من رسم وتصوير وشعر وموسيقى — وهو رجل يقول عن نفسه إنهُ ليس بعالم من علماء التربية ، ولكن مهمَّتهُ أن يحبّب الطبيعة الى الطفل ويستوفي الصلة بالدراسة بين الطفل وبين البيئة التي يعيش فيها

وعندما عاد تاجور سنة ١٩٢١ الى بلاده من رحلة طاف بها ممالك أوربا وأميركا ، أدرك مما شاهد ، بعد الحرب العالمية ، ان المدنية الاوربية تسير الى انهيار لا واقي منهُ ، بغير الدعوة الى مبادىء السلام الصحيحة التي لا تنشد بعقد محالفات او معاهدات ، وانما تنشد بإشاعة الوحدة الروحية بين الجماعات والامم ، واثارة الانسانية والخير في جميع ما يصدر عن الانسان من تفكير وشعور وعمل ، وأيقن أن أعصاب الشباب في الغرب مسخرة لأهواء ومطامع فتاكة وتعاليم خطرة من شيوعية الى فاشستية الى فوضى في التفكير والعقائد ، الى أنانية وأثرة تعمل في الخفاء كالبركان الصامت يدوي محرقاً تحت أطباق الارض يتلمس المنفذ والمخرج للثورة والهياج. ففكّر تاجور طويلاً فهالهُ الأمر وخشي على المدنية كذخر انساني ان تذهب ضحية حرب فتاكة مقبلة فاستقر بهِ الرأي على ان يحوّل مدرسته « شانتي نكتان » الى معهد عالمي سماه « فسفا بهاتي » يقوم على اساس الفكرة الانسانية التي بشّر بها بين الهنود، على ان يكون معهداً عالياً للدراسات الروحية والانسانية العليا ، يحتفظ بالمقومات الاساسية لمدرسته ، وليكون دعامة قوية لتطهير المدنية من دائها الكامن في قلب الغرب ، وقد أعلن تاجور يوم افتتاحه

« يجب ان تنمحي الاثرة وان يزول التعصب للجنس واللون »

وكان تاجور يرمي بهذا الى غرض سامٍ نبيل عبَّر عنهُ عند ما قال

« إني أطمح الى إنشاء انسان كامل خيّر ، وان يكون مهم هذا الجيل تحمُّل مصاعب البذل في سبيل الخير وان يتعاون في دفع الاثرة عن نفسه حتى ينتصر جانب الخير في الانسان وتنمحي منه عوامل الشر »

سمع العالم هذه الاغنية الحلوة أغنية المحبة والسلام ، تطلع من قلب الشرق الحكيم الى عالم ما زالت الدماء تفور في نواحيه بعد حرب طويلة طاحنة تساوى فيها الغالب بالمغلوب ، وأهدرت فيها كرامة الانسانية ورجولتها ، استمع العالم الى أغنية تاجور من قلب الشرق الحكيم ، فالتفت الى معهد تاجور ، وأقبل عليه الفلاسفة والعلماء والحكماء من كل قطر يجلسون اليه جلسة التلاميذ ، ويسلك معهم تاجور سلوك الزملاء ، متخذاً مدرسة الاغريق مثلاً له ، فينتقل وتلاميذه الى شجرة وسط الطبيعة الرحبة ، حتى اذا ما استقر بهم المقام ، كان الحوار وكان الدرس الهادىء ، وكان الحق الواضح مستلهماً جلال القدرة الخالقة في ايجاد الصلة الروحية بين الانسان وما حوله من كائنات وحقائق ، داعياً الى ازالة الحواجز بينه وبين نفسه ، وهو في محاضرته شاعر ومغنٍّ وقاص وناقد وفيلسوف واديب وفنان ، وبرنامجه الروحي يستمد مقوماته من تعاليم « اليوبانيشاد » ومن فلسفة « بوذا » واتجاهات التفكير الحر المنسجم مع الطبيعة البشرية . وهو يبحث في محاضراته عن سر الفرد في روحه ، ويدعو الى تجريد الانسان من مظاهره الباطلة ليسطع فيه النقاء المستكن في ذات نفسه ، وينبثق فيه هذا الجوهر الأوحد الذي يسمونه (برهمان) وهذا الجوهر هو الحقيقة التي يستحيل وجودها في العالم الخارجي للانسان ذي الظواهر المطردة الزوال ، انما يمكن الوصول الى هذا الجوهر بالروح التي يسمونها (اتمان) . وليست هذه الحقيقة الباطنة كالحقيقة التي ينادي بها فلاسفة الغرب ، أي استكمال الشخصية من عواملها ومظاهرها الخارجية بل هي على العكس

« فناء الشخصية المفكرة في القوة الخالقة التي تهبنا التفكير ، فهي افناء الشخصية الفردية في ينبوع لا شخصي ، او ركون الشخصية الى الجانب اللانتهي من النفس ، هذا الجانب الذي يمثل الايمان بالله والاتصال بالقدرة الخالقة المدبرة الموحدة للكائنات جميعاً ، والذي لا يمكن للعقل ان يكشفه او ان يستولي على هذه القوة الجامعة بادراكه » (١)

لأن العقل وان طلب المثل الأعلى فهو بنزعته الانفصالية ضعيف عاجز عن الاستيلاء على جميع الحقائق فكيف له ان يميل الى التحليل والانطلاق ، وان يندمج في صورة هذه القوة الخالقة التي يشعر معها بأنه لا شيء

والانسان في رأي تاجور :

« كائن موزع بين الروح والطبيعة ، بين الروح والعقل ، فيه نزعات تسمو به الى عالم اللانهائية وفيه نزعات تنحط به الى الانانية والاثرة ، فهو بين تيارين متجاذبين ، تيار يجذبه الى الروحية غير المحدودة ، وتيار يدفعه الى المادية الضيقة التي تظلم عليه الحياة ، وتوصد دونه أبواب القلب والسمو والشعور بالكمال المطلق .

وان فوز الانسان في هذه المعركة ليدعوه أولا ألا يكون متشائماً وألا يكون مرتبطاً بأثقال المتناقضات والشبهات في الحياة ، بل عليه ان يدرك الحقائق سليمة جريئة بعيدة عن ألوان اللبس والشك ، وان يؤثر

(١) عن تعاليم اليوبانيشاد

الطبيعة ويرفع الحواجز بينه وبين نفسه ، ثم بينه وبين الطبيعة ، هذا هو السبيل الذي يرفع عن كاهل العقل والنفس أثقال المادية المحدودة ، فليست الدنيا وهما ، وليست الحياة الا الانسان الحي الخالد الذي يغلب جانب الخير في نفسه دائماً ... الى الانسجام في حقيقة الكائن الاعظم من طريق ادراك كنه الحياة وما بعدها ومن طريق البهج بأسرارها والتعرف اليها والاستمتاع الروحي بجمالها وجلالها — وليست الصوفية — بجمالها التي تفهمها الكثرة الخاطئة — هي الطريق الى هذا لانها وجه عابس تتلقى به الحياة . وهذا العبوس ينشأ عنه تشاؤم يطفىء بهج الحياة ويسدل على أسرارها ستاراً قاتماً لا يرينا من الحياة غير لون داكن ، ولا يجعل منا العقل الذي يدرك ما في الطبيعة الموهوبة من جمال — فهذه الصوفية التي تحتقر الحياة وتزدري الانسان ، انما هي عمل هادم لشخصية الوجود تحول بين الانسان وبين الاتصال بالحق المطلق وتقطع العلاقة بين التفكير البشري الذي يتطلب دائماً المثل الاعلى وادراك ما خفي عنه وبين الاستيلاء على الحقائق الثابتة في الوجود من طريق الفهم والادراك والتمييز ، فهي خذلان للقوة التي أودعها الله من سره في الانسان وهي من ناحية أخرى تخمد مشاعل الروح ومداركها لأن الروح لا تكون مصعدة إلا اذا يسر لها الطريق الى ادراك الحقائق من سبيل فهمها والايناس اليها والتمازج بها ، ولا تمكن ان يكون هذا إلا اذا ابتهجت الروح بأسرار الحياة ومباهجها ، وأدركت ما في الطبيعة من عذوبة ولين ويسر ، واستمرأت ما أحل لها ، وابتهجت به ، وعرفته معرفة تامة — وهذه المعرفة تدعو الانسان الى ان يتعاون مع الطبيعة ليفهم أسرارها ويبتهج بالوصول الى حقائقها ، فهو لا ينظر الى الطبيعة نظرة السيطرة والغلبة ولكن ينظر اليها نظرة التفاهم والتعاون والشعور بأنه جزء لا ينفصل عنها ، وهذا يجعل الانسان اوسع ادراكاً وبسطاً للطبيعة وهذه الحقيقة هي التي شغلت تفكير فلاسفة الهند منذ القدم وهي تبدو واضحة في ازالة الحواجز بين الانسان والطبيعة واقامة حضارة تنهض على التعاون بين العقل البشري وبين الكائنات — وأما حضارة الغرب فتنهض على أساس مناقض على أساس الخصومة بين الانسان والطبيعة ، فهو يشعر دائماً بأنه يجب ان يتسلط عليها وان يقهرها وان يستغل منها مصادرها ويستغل اسرارها ، ولهذا كان الانسان الغربي لا يدرك من الطبيعة إلا ما يصيبه منها من مادة ، وهو بعد هذا شاعر بعزلة عن الوجود ، وفردية قاسية تدعوه الى أنانية وأثرة مميتة ، لا تلبث ان تفيض من نفسه فتخرج من دائرة كانت بينه وبين الطبيعة فاذا بها أنانية شاملة لنطاق الفرد والجماعة ، ثم لنطاق الجماعات بعضها مع بعض وفي هذا المعترك تذوي مباهج الحياة وتندثر القوى الروحية من الحضارة لتبقى حضارة جافة يابسة يصيبها اللهب القريب فيحرقها (١)

وليس معهد تاجور مقتصراً على برنامج فلسفي يدرس ، ولكنهُ معهد وطني متى كانت الوطنية تسع المعنى الانساني الشامل ، فلقد فتح ابوابهُ لجميع المنبوذين عندما دعا اليها تما غاندي الهنود الى نبذ الفوارق بين طوائفهم ورفع المنبوذين الى مصاف الانسانية . ولقد أكبر تاجور هذه الدعوة وأيد غاندي فيها وانضم اليهِ ، ولم يكن من مؤيديهِ السياسيين الى سنة ١٩٣٢ — لان تاجور الذي يدعو الى الوحدة البشرية ، يهولهُ أن يرى في الهند وطنه الحبيب ، فريقاً يسمى الانجاس ينبذه أهل الهند جميعاً فلا ودّ ولا تعارف ولا اختلاط ولا كلام ، وهم قوم نبذتهم الآلهة فصغر شأنهم وانحط قدرهم الاجتماعي فبتر عن الهند نشاطاً لو عاد اليها لسعدت حركة ونماء وثقافة ، ولزال عنها هذا العار الذي لصق بها عند ما خيل اليها ان أديانها تدعو الى نبذ فريق من أهلها ، ولا تعدهم آدميين بل مخلوقات دانية الى البهائم . هال تاجور هذا الوهم الاجتماعي فانضم الى غاندي في صومه الذي فرضهُ على نفسه

(١) تلخيص عن الفصل الاول من سعدها نا

أو تعود الهند وحدة سليمة من هذا المرض الفاشي بين أهلها منذ آلاف السنين يومئذٍ صام تاجور على الرغم من شيخوخته وأمر تلاميذ جامعته بالصوم ، وجمع الوفاً من طبقات « السافلة النجسة » في مدرسته وأكل وجميع أتباعه معهم فأصبح من ذلك الوقت من مؤيدي المهاتما غاندي في آرائه الاجتماعية

ولقد تكلم تاجور في مدرسته ، داعياً أهل الهند ان يرفعوا الى طبقة الانسانية اخواناً لا ذنب لهم لان تسفل بهم الطبقات الاجتماعية الى درك يدنيهم من البهائم فقال :

« في اليوم الذي بدأ فيه المهاتما صومه ، رأيت الظلام قد انتشر فعم بلاد الهند جميعها ، حتى ان الشمس قد كسفت ، فالناس في حيرة وقلق شديد ، ان المهاتما الذي نفخ بتضحياته الماضية روحاً جديداً في الهند يقدم الآن حياته في سبيل وطنه العزيز

مملكة الروح

« إن لكل قطر حدوداً معنوية باطنية كما له حدود مادية ظاهرة . وفي الحدود المعنوية يحكم الروح ويهيمن وليس للقوة المادية ان تقهر او تبطش او تستولي على أي جزء ضئيل من هذه المملكة المعنوية الروحية . والفاتحون من الاجانب الذين يغزون الاقطار يستعمرون البلاد عنوة وقوة ليس لهم من سبيل وان قهروا حدود البلاد المادية الى حدود هذه المملكة المعنوية ، وسلطانهم لامحالة زائل يوم يزول نفوذهم عن البلاد . عندئذ تنهار عظمتهم الموهومة لانها عظمة قائمة على القهر والباطل . وأما الحكومة التي تتذرع بالحق وتدين الصدق والخير وتنال النصر الروحي فتفتح البلاد فتحا روحياً . فهي حكومة خالدة الى الابد . هذه هي حكومة المهاتما غاندي . لقد ضحى المهاتما بجميع ما لديه من عزيز في سبيل غاياته الروحية وها هو ذا يضحي بروحه التي بين جنبيه في سبيل ما يبغي . وانه لامر جليل هذا الذي يقدم عليه غاندي العظيم . واذ نتوسنا لتجزع قلوبنا لتهتم وليشتد بنا الكرب كلما فكرنا في الامر ووجدنا المهاتما مصراً على تضحية نفسه

« وليس في جزعنا أي عجب . فلقد اعتدنا ان نطلق على الحقائق الروحية الباطنية أسماء ما نرى من الآثار المادية التي نلمسها . ثم نقابلها مقابلة وقتية ثم نودعها وداعاً لا لقاء بعده . لقد اقترح زعماء الرأي فينا ان يصوم الشعب اليوم . وهذا الصوم وان كان على خير وبركة كثير ، إلا أنني أخشى ان يحسب الناس صومهم كصوم المهاتما غاندي . إذن لحقت علينا المصائب ولارتكبنا اثماً عظيما . لاننا نكون غير مقدرين للحق قوته ولا منصفين للصدق جلاله

تبني عظمتها على اذلال الذين جردتهم من انسانيتهم ظلماً وعدواناً وحبست أرواحهم في سجون مظلمة لا يسلك اليها النور

إن الذين نغلبهم على أمرهم سيغلبون . انهم يجعلون من بينهم سداً بيننا وبين الرقي والتقدم . فالحمل الذي نثقل به ظهورهم انما هو واقع على ظهر البلاد كلها فنذل معهم ونسقط بسقوطهم . اننا لا نهين الانسان بل نهين البشرية كلها

السجن

وفي الهند ألوف محتشدة من البشر مقيدون في السجون بالاغلال والحديد دون ان يحاكموا أمام المحاكم والقضاء . لا يعاملون المعاملة الانسانية إذ أرادت الحكومة ان تنال منهم . ولكنهم سجلوا عليها وزرا كبيراً . بل أنهم قضوا على هيبتها وسمعتها قضاء لا مرد له . إن تعذيب المسجونين سواء أسياسيين كانوا أم غير سياسيين يثبت ان البربرية القديمة لا تزال قائمة في صميم المدنية

ونحن معشر الهنود قد خصصنا فريقاً من أبناء بلادنا بالذل والظلم . ووضعنا له اسماً همجياً مهيناً . إن السجون لا تبنى بالآجر والاحجار فقط بل ان تجريد الانسان من اعتباره ، واهدار انسانيته ، هو السجن الحقيقي . وانه يدل على صغار نفوس الذين يقوون دعائمه لا على صغار الذين يعذبون فيه

الجرم الاثيم

ولا ريب في ان الشعوب والجماعات البشرية يمتاز بعضها عن بعض بما تتصف به من فوارق طبيعية . ولكن الحكم على شعب او جماعة بأنها خلقت ذليلة سافلة ، وانها يجب عليها ان تبقى كذلك الى أبد الدهر . وانها لاجل ذلك يجب ان تجرد من سائر حقوقها الانسانية ، هذا الحكم الجائر انما هو ظلم شنيع لا يضاهيه ظلم لان شناعته لا تزال تزداد وتقسو مع الزمن

نحن نزعم أننا أفضل من شعب الأنجاس . ولكن الحقيقة ان هذا الشعب عندما ينفصل عنا نسقط ويهوى كياننا ونصبح أكثر خلق الله ذلة وخنوعاً . ونحن معشر الهنود لم يدب فينا هذا الضعف إلا من هذا التفريق الباطل . بل انه هو الذي سبب جميع هزائمنا التاريخية . وكل قطر تفشو فيه هذه الفوارق يختل نظامه ويضطرب ميزانه ثم يسقط الذين علوا فيه كبراً قبل ان يسقط الذين حكم عليهم بالذل والعار

إن البلاد الغربية قد فشت فيها مثل هذه الفوارق . فبعدت الشقة بين الفقر والغنى . وكمنت تحت هذه الفوارق براكين مدمرة لا يعلم أحد متى تنفجر فتقضي على المدنية الغربية قضاء تاما

خطأ الهند القديم

لقد شرح المهاتما غاندي المخاطر العظيمة التي تهدد بلادنا من طريق هذه الفوارق البشرية التي هي لعنة ماحقة على الانسانية . ولكنه لم يطنب في شرحها كما أطنب في منافع القماش الوطني . حتى وصلت الحالة الى هذا الحد المشؤوم . ان الخطأ الذي ارتكبناه في تقسيم شعبنا ، طبقات غير متساوية الحقوق لخطأ قديم راسخ في قلوبنا . انه قد قوى أعداءنا وأضعف شعبنا .

ومن العسير ان نزيله من جذوره . وان ضعفنا هذا هو الذي حمل المهاتما غاندي على ان يعلن الحرب الشعواء عليه ونحن ان فقدنا غاندي لسوء حظنا في هذه الحرب المقدسة فمسؤوليتنا ستكون عظيمة وسيضطر كل واحد منا ان يخوض غمار هذه الحرب الى النهاية حتى ينتصر فيها او يذهب شهيداً لمبدأ سام

ولقد أحسن المهاتما غاندي الينا عندما قدم هذه الحرب المباركة هدية غالية لشعبه . فعلينا ان نقبلها في تواضع وعزم وشمم . وان قبلناها لا هين كما هي عادتنا ، فاننا سنفقد هذه الروح الكبيرة التي استقرت في المهاتما الكبير وسنسقط في هاوية سحيقة نلقى فيها الردى ولا بعث لنا منها أبداً ونفقد فيها غاية وجودنا الى آخر الدهر

فمدرسة تاجور ليست مدرسة محصورة البرنامج محدودة العمل ، ولكنها مثابة يدعو فيها تاجور الى الحق أيما كان لون هذا الحق ، فهو يدعو فيها الى الوطنية عند ما يجد الوطنية تأتلف

والدعوة الانسانية التي تدعو اليها رسالتهُ ، وهو يبشر فيها بآرائه في السياسة والحكومة عند ما يجد وسائل الحكم تنحرف عن قواعد الحق التي تشملها رسالته الكبيرة الى العالم ، وهو يتخذ مدرسته لبث الآراء التي تأخذ بثقافة الشعب الهندي الى الطريق المستقيم الذي تهدي اليه عقائده الصحيحة ، فليست مدرسته معهداً للعلوم ، ولا مجمعاً للابحاث التاريخية، ولا معبداً للصلاة ، ولا متحفاً للفنون والجمال ولكنها جامعة تحوي كل هذا ، ومنبراً عامًّا يشمل « جميع مطامح النفس »

فالمعنى الشامل لمدرسة تاجور هو هذه الطوائف من المفكرين والباحثين في جميع أقطار الأرض دون تمييز للون أو جنس أو دين ، وتبشر هذه المدرسة بدعوته عن ايمان حق ويقين ناصع، لان تاجور لم يكن هنديًّا ولاقوميًّا في دعوته ، ولكنهُ اتخذ من عقائد الهند وفلسفة الشرق مبادىء صحيحة للدعوة الى إنشاء انسان كامل ، ومدنية بشرية لا تعرف اللون والجنس والوطن

ولعلنا نستطيع ان نلخص برنامج مدرسة تاجور في المواد التي جمعها في كتاب سعدهانا Sad Hana ، والتي قال عنها انهُ اعتاد أن يتحدث مع طلاب معهده فيها ، فهو دائماً يحدثهم عن علاقة الفرد بالعالم ، وهو يحدثهم عن وجدان الروح ، ويحدثهم عن مشكلة الشر في الوجود ، ويحدثهم عن معضلات النفس ، والحب ، والخلق كما يحدثهم عن تحقيق الجمال وادراك اسراره الروحية ، ثم يفيض عليهم دائماً حديثه في الجانب اللانهائي من حياة الانسان

« لها تتمة »

لماذا خبا المصباح ؟
لقد كنت أسدل عليهِ عباءَتي خشية ان تعبث بهِ الرياح. لهذا خبا المصباح
لماذا ذبلت الزهرة ؟
لقد كنت أضمها الى صدري في لهفة المحب ، لهذا ذبلت الزهرة

***

لماذا جفَّ الغدير ؟
لقد كنت أعترض مجراه بالسدود ليكون لي وحدي ، لهذا جفَّ الغدير
لماذا انقدَّ وتر القيثار ؟
لقد كنت أحاول ان أوقع عليهِ لحناً لا يحتمله ، لهذا انقدّ وتر القيثار

« عن البستاني : لتاجور »

باب الزراعة والاقتصاد

(١)

تنمية الثروة الحيوانية الزراعية

لسعادة عبد القادر الجمال باشا

أبنائي : بانشائكم هذه الجمعية وباقبالكم عليها تساهمون في رفع مستوى الانتاج الحيواني في البلاد بطريقة مثلى عملية . .وسيوجهكم أساتذتكم الأفاضل خير توجيه الى الطريق العملي العلمي الذي يؤدي الى هذا الغرض فتعظم استفادتكم منهم. ولا إخالني في حاجة الى حثكم على الانضمام اليها والعمل على نجاحها لأنكم بلا شك أكثر الناس تقديراً لمنافع مثل هذه الجمعيات . ويا حبذا الحال لو أقدم كل منكم بعد تخرجه على شراء عدد قل أو كثر من الماشية بحسب طاقته المالية وأحواله — ورعى هذه الماشية بنفسه وطبق العلم على العمل — اذن لأفاد واستفاد لأن تعدد العملية بين أيدٍ كثيرة مختلفة وبوسائل متنوعة سيؤثر حتماً تأثيراً حسناً في مستوى الانتاج ويؤدي الى اطّراد زيادة الماشية الزراعية بالبلاد — واني أؤكد لكم عن علم وتجربة ان امتلاك طائفة يسيرة من الجاموس والبقر يعود على صاحبها بفائدة مادية سنوية أكبر من مرتب الدرجة السادسة الفنية التي تسعون الى الحصول عليها وتبذلون في ذلك جهداً عظيماً — بل أؤكد لكم ان امتلاك قطيع كبير من الماشية أجدى كثيراً من مرتب الدرجة الأولى (حرف ألف) وقلَّ من يحصلون على هذه الدرجة من رجال الحكومة . ثمَّ إنكم باعتمادكم اليوم على أنفسكم ومجهودكم العلمي الفني تمحون عيباً ما فتيء لاصقاً بنا ، اذ اعتدنا في مصر ان نعتمد على الحكومة في جميع مشروعاتنا ، وهذا عيب يجب دائماً السعي والعمل على مداواته واستئصاله ، فضلاً عن ان مجهود الحكومة مهما يكبر لا يعقل ان يفي بجميع مطالب الأمة. حقيقةً نحن نطالب الحكومة بالتدخل لتنظيم اقتصادنا القومي وتوجيهه — ولكن هذا التدخل له حدود لا يمكن أن يتعداها بحيث لا تحد من نشاط الأفراد — بتدخل يساعدهم ويضمن سيرهم في انتاجهم سيراً طبيعيًّا . وسأورد لكم بعد قليل ما نطالب به الحكومة لتنمية الثروة الحيوانية في البلاد

أبنائي : أما وقد وصل اهتمام رجال كلية الزراعة بهذه المسألة الحيوية في اقتصادنا القومي الى انشاء جمعية «تربية الماشية» فعليكم معشر الطلبة الاشتراك والتعاون في تطبيق الدراسات النظرية بطريقة تجريبية عملية وهي ستساعدكم بطريقة فعّالة على ان تشقوا طريقكم في

---

(١) خطبة ألقيت في افتتاح « جمعية تربية الماشية » بكلية الزراعة في جامعة فؤاد الاول

الحياة وتوجهكم فيها توجيهاً عملياً يبعدكم عن التفكير والالحاح في طلب المناصب الحكومية التي خضعت لقانون العرض والطلب . فقد أصبح المقبلون عليها كثيرين والطالبون غير محصورين ، وهو ما دعا الحكومة الى اجراء تعديلات مجحفة مختلفة في « كادر الوظائف » تنزل بها الى مستوى واطىء جداً . وأني لأقرر لكم انكم تعملون اليوم عملاً جليلاً وتخطون خطوة جديدة موفقة في اقتصاد البلاد الزراعي ومعالجة مشكلة البطالة — بطالة المتعلمين الفنيين بتقديم هذه الوسيلة الجديدة

سادتي : لا تخفى عليكم منزلة الثروة الحيوانية في الانتاج الزراعي و الاقتصاد القومي بل والمستوى الاجتماعي أيضاً . وقد بذلت مساعٍ متعددة من جانب الحكومة والهيئات الزراعية للعناية بهذه الثروة واهتم بها كثيرون من الفنيين الاخصائيين بتربية الحيوان والطب البيطري ورجال الاقتصاد ، وناشدوا البلاد حكومة وشعباً أن تعمل على إنماء الثروة الحيوانية . وازدادت مناشدتهم بعد نشوب الحرب الحالية التي لا يعرف أجلها، بعد ما ظهرت حاجة البلاد الملحة الضرورية الى بعض المواد الغذائية والمنتجات الحيوانية كاللحم والجلد على اصنافهما وما الى ذلك ، بعد انقطاع المواصلات فانقطع تقريباً استيراد الأسمدة الكيميائية من الخارج وأجبرنا على احلال الاسمدة البلدية محلها على قدر المستطاع

قد يكون من تكرار القول أن أقول لكم اليوم ماقلته من قبل ولكنها حقيقة ثابتة — وهو انهُ مما لا شك فيه أن في مقدور الاراضي المزرعة في مصر أن تتحمل عدداً من الحيوانات الزراعية أكبر كثيراً مما تتحمله الآن . اذ جاء في آخر احصاء رسمي أن عدد المواشي التي في البلاد لا يتجاوز مليونين من الجاموس والبقر معاً ومليوناً من الاغنام . فاذا وزع هذا العدد الصغير على الستة الملايين من الافدنة الصالحة للزراعة في البلاد اتضحت لنا قدرة هذه الاراضي على تحمل عدد آخر كبير من هذه الحيوانات ولاسيما اذا علمنا أن الحيوانات الزراعية الكبيرة تستعمل على الاكثر منذ القدم للخدمة الزراعية وان تربية الحيوان للانتفاع بمنتجاته قليلة جداً في مصر واننا لا نعنى عناية ما بصوف الغنم . ومن البديهي أن اصلاح الاراضي الزراعية المصرية لا يمكن أن يتم الاَّ اذا أخذت تربية الماشية ومنتجاتها مكانها من حيث هي محاصيل أساسية في البلاد. ولو وجهت العناية منذ عشرين سنة الى استغلال المحاصيل الحيوانية واكثارها وحمايتها لما وقعنا في ازماتها المتكررة المختلفة ، ومنها أزمة اللحوم الحالية التي حملت الحكومة على تقييد الذبح والبيع، بل ولاستطاعت البلاد ان تمون تلك الجيوش الجرارة للامبراطورية البريطانية في الشرق بانتاجها الحيواني الزراعي وجنت من ذلك فائدة مادية كبيرة . وقد يعترض بعضهم قائلاً ان بلادنا ليست بلاد مراعٍ فأجيب بأن مسألة المراعي كانت موضوع بحث العلماء الاخصائيين ولم يبت فيها علمياً على وجه القطع الى الآن

ومهما يكن القرار الأخير الذي يؤخذ في هذه المسألة فان من مصلحة البلاد ان تكثر الماشية الزراعية الى أقصى درجة تتحملها الاراضي المزرعة . واعتقد ايضاً انهُ في الامكان اختبار جهات في شمال الدلتا وغيرها لاقامة المراعي العظيمة فيها . فقديماً كان اهل مصر يعنون عناية عظيمة بتربية الماشية حتى تخصص فريق منهم بالرعي في مديريتي الدقهلية والغربية وفي نواحي الوادي وصان الحجر وعلى حدود مديرية البحيرة. ولكن ما إن زادت العناية بزراعة القطن والارز حتى تلاشت العناية بالرعي تدريجاً فاندثرت تربية الاغنام والصناعات التي تعتمد عليها. وبعد ان كانت مصر تصدر ١٢٠٠٠٠ من الجلد والف قنطار من السمن ومقداراً لا بأس بهِ من الجبن هبطت هذه الصادرات الى الحضيض وتعرضت الماشية للجوع والهزال والاهمال فالخسارة . ولم تتنبه الاذهان لما للانتاج الحيواني من شأن الا من عهد قريب بفضل انتشار التعليم الزراعي العالي . وتقدم الاخصائيون وبذلوا مساعيهم العلمية في سبيل رفع مستوى الانتاج الحيواني في البلاد

سادتي : أسرفت البلاد حكومة وشعباً في الاهتمام بأمر القطن وكل ما يتعلق بالقطن ولم يُعط غيره من المحاصيل العناية الكافيـة اعتماداً على ان القطن عماد الزراعة والثروة القومية حتى خانها القطن لأسباب ليس للبلاد فيها دخل فتنبهت وقتئذٍ الى خطر الاعتماد على مصدر واحد للثروة الزراعية . وأمامنا الآن الثروة الحيوانية وامكان النهوض بها حتى تعوضنا كثيراً مما فقدناه من هبوط سعر القطن وقلة تصريفه إذ في وسع البلاد ان تكثر من تربية الماشية والانتفاع بمنتجاتها وإصدار الفائض عن حاجاتها من هذه المنتجات بقليل من العناية . وأمامنا الدانمارك حيث تقدمت تربية الماشية حتى صارت أهم صناعة فيها وأكبر مصدر لرزق أهل البلاد وحلّ الرخاء عليها من تربية الماشية

وتربية الماشية الزراعية سواءٌ أللتجارة كان ذلك أم لخدمة الارض أم للانتفاع بمنتجاتها يمكن ان يساهم فيها المزارع الصغير والفلاح الكبير كلٌّ في حدود ماله وقدرته . وهذه المزية في تربية الماشية هي من أهم الاسباب التي تدعونا جميعاً الى المناداة بالاهتمام بهذه التربية والحث عليها فهي في الواقع في متناول أيدي أكثريتنا ولا تحتاج الى رأسمال كبير للبدء فيها

تدلنا الاحصاءات التي بين أيدينا على ان منتجات الماشية المصرية على قلتها المعروفة لنا تدرُّ على البلاد كل سنة إيراداً يقرب من نصف إيرادها من القطن او أقل من ذلك قليلاً فما بالكم لو عنينا بأمر الماشية المصرية وتربيتها إذن لكان لنا منها إيراد ثابت طيب غير خاضع للعوامل العديدة العالمية التي تؤثر في القطن وسعره مما لا دخل للبلاد فيه ولا قدرة لها على مداواته

سادتي : قامت ادارة المباحث الاقتصادية في بنك التسليف الزراعي المصري بدراسة مشروع يسهل على الفلاح صغيراً كان او كبيراً اقتناء الماشية وتقدمت به الى ولاة الأمور

منذ بضعة أشهر وهذا المشروع يقوم على أساس تقديم سلف بشروط هينة جداً لكل من يريد تربية الماشية لغرض ما من الاغراض ، وقد أشير فيه بان يكون تقديم السلف للفلاح بواسطة البنك بطريق الايجار فالبيع أي (Hire-purchase) وهذا النظام متبع في انكلترا واميركا وبعض قارة أوربا وجنوب أفريقيا بنجاح تام . ولا يزال هذا المشروع قيد البحث ولا يعلم إلاّ الله متى ينفذ. وأريد الآن ان أنوّه هنا بما تفضل به صديقي الاستاذ احمد فاضل الخشن من مساعدة لي في هذه الدراسة وقد اقترح ان يوضع نظام للتأمين على الماشية لأنهُ من الضروري ان يقرن كل مشروع لتنمية الثروة الحيوانية في البلاد بمشروع التأمين على الماشية كخطوة هامة في سبيل اشتراك الاهالي في العناية بتربية الحيوان فإشراف الحكومة على التربية لا تتم فائدته الاّ بتعاون المربين للماشية من الأهالي معها وليس هناك ما يغري المزارعين على حد قول الأستاذ فاضل أكثر من شعورهم بالاطمئنان على أموالهم التي يستغلونها في تربية الماشية

وكلنا يعرف ان الفلاح الصغير وهو عماد الثروة الزراعية المصرية يعد جاموسته او بقرته في منزلة أفراد عائلته وينظر اليها كمصدر لرزقه ورزق من يعولهم . فاذا هو اطمأن الى انهُ اذا أصابها شيءٌ وجد في التأمين عوضاً عنها لم يتردد لحظة واحدة في الاقبال على التأمين على الماشية وفي الاقبال على تربية المواشي وبذلك يزيد انتاجها فتتحسن صحة الأهالي لوفرة ما يصيبونهُ من الغذاء الصحي . ويزيد خصب الأرض بوفرة السماد البلدي ويقل استيراد الأسمدة الكيميائية ويحفظ جانب من ثروة البلاد دون ان ينزح الى الخارج ثمناً للاسمدة والمنتجات الغذائية الناتجة من الحيوان وهي المنتجات التي تستوردها البلاد

كما اقترح الاستاذ فاضل إنشاء رابطة تجمع بين المشتغلين بتربية الماشية والاخصائيين في علم تربية الحيوان ورجال الاقتصاد الزراعي في البلاد كما هو متبع فعلاً في انكلترا وأميركا وأكثر البلاد الراقية حيث تقوم « رابطة مربي الماشية » أو ما يسمونه Cattle Breeders Association بنشر المعلومات المفيدة عن الماشية وتربيتها بين أعضائها ونشر المجلات العلمية الفنية لهذا الغرض وتكون صلة اتصال بين المربين انفسهم وواسطة تفاهم بين الحكومة والهيئات التي تعنى بتربية الماشية وتدافع عن مصالحهم . يضاف الى ذلك ان انشاء رابطة من هذا القبيل تضم بين أعضائها الرجال الفنيين والمتولين فعلاً تربية الماشية سيكون له أثر نافع في توجيه الثروة الحيوانية في البلاد وتنميتها ونشر المعلومات عنها . كما يتبادل أعضاؤها معلوماتهم وتجاربهم فيجنون من ذلك خيراً كبيراً . ومن أهم الاسباب التي تدعو الى انشاء هذه الرابطة السعي لدى اولي الشأن من رجال الحكومة وغيرهم لتسهيل وسائل زيادة الثروة الحيوانية الزراعية في البلاد والسعي الى تعديل القوانين تعديلاً يلائم مصالح الانتاج . وأتم اليوم

بانشائكم هذه الجمعية في دائرتكم الصغيرة تضعون حجر الأساس في انشاء الرابطة الكبيرة باذن الله قريباً

وكذلك اقترح صديقي الاستاذ عبد المنعم عاشور ادخال نظام تسجيل الماشية كأساس لكل مشروع يرمي الى رفع مستوى انتاج الحيوان الزراعي في مصر. وقد ألقى محاضرات في هذا المشروع الجليل مؤيداً فيها رأيهُ كما أصدر نشرات بهذا المعنى وسعى لدى ولاة الأمور لادخال هذا النظام بسن القوانين اللازمة لذلك . ولكن لاقى الاستاذ عاشور العقبات التي يلاقيها كل مصلح في هذه البلاد من عدم الاهتمام وقلة العناية والبطء الشديد المتناهي في الأداة الحكومية التشريعية . ولا يجب ان تثبط هذه العقبات من همم المشتغلين بالاصلاح مهما تشتد فهي قد أصبحت حالة عادية عندنا نحسب لها حسابها عند الشروع في كل عمل له شأنهُ . وليثابر كل منا في طريقه فلا بد من أن نصل الى النجاح يوماً ما مهما يطل الزمن ومهما نصادف من مشاق . واقترح الدكتور عبد المجيد وهبي الاستاذ بمدرسة الطب البيطري تخصيص عدد كاف من الاطباء البيطريين لمعالجة الماشية المريضة بصفة جدية مستمرة كوسيلة لحفظ طائفة كبيرة من ماشية البلاد من الهلاك وله في هذا الموضوع أبحاث نفيسة جدًّا، ومفيدة للاكثار من الحيوانات الزراعية

ونحن نطالب الحكومة اليوم بالعناية بأمر الثروة الحيوانية في البلاد الى أقصى حد وتسهيل سبل اقتنائها على صغار الفلاحين — ولا نطالبها بمال قلّ أو كثر في هذا السبيل — فكل ما نطلبهُ منها هو تعديل بعض مواد القانون المدني للاعتراف قانوناً بنظام التأجير فالبيع . وعندما نرى المؤسسات المالية الكبرى التي تقدم المال للمزارع تقوم من تلقاء نفسها وتسهل الاقتراض على مربي الماشية مع المحافظة على أموالها من الضياع في الوقت نفسه . ونطالب الحكومة ايضاً بسن التشريع اللازم للتأمين على الماشية والتشريع اللازم لتسجيلها ولا مانع مطلقاً في البدء بتطبيق هذه القوانين تطبيقاً متدرجاً حتى تتعودها البلاد وتلمس نتائجها الطيبة . كما نطالب الحكومة بأن تنشيء بنك التسليف الزراعي المصري ليساهم مساهمة فعَّالة تفوق مساهمته الآن في تسهيل السلف لشراء الماشية . كما نطالبها بالاكثار من الاطباء البيطريين لوقاية الماشية من الهلاك

كل هذا — ايها السادة — يدعونا الى التعجيل في البدء بتنفيذ فكرة انشاء رابطة مربي الماشية حتى تأخذ على عاتقها هذه المهمة — أي مهمة مطالبة الحكومة بالعمل الجدي المثمر من هذه الناحية — فلا شك في أن مجهودها من هذه الناحية سيتوج بالنجاح لان جهد الجماعة أبلغ أثراً من جهد بعض الافراد

ولنعمل متعاونين سائلين الله التوفيق لما فيهِ خير البلاد ورفاهية ابنائها

النباتيون المشهورون

وما يرمز اليهم به

لمحمود مصطفى الدمياطي

يتركب الاسم النباتيّ او العلميّ لأي نبات من كلمتين لاتينيتين تدلّ أولاهما على الجنس وثانيتهما على النوع الذي ينتمي اليه النبات . فمثلاً يقال لجنس الاقطان جوسيبيوم Gossypium ولنوع منهُ القطن الشجريّ Gossypium arboreum ولنوع ثانٍ القطن البربادي Gossypium barbadense وعلى هذا النسق يطلق على الأنواع المختلفة من البرسيم مجتمعة اسم الجنس ترِيفوليوم Trifolium وعلى نوع منه شائع في مصر البرسيم الاسكندري Trifolium alexandrinum وعلى ثانٍ يوجد في أوربا البرسيم النغلي Trifolium hybridum

ولما كان النوع نفسه قد أطلق عليهِ أحياناً النباتيون على اختلافهم اسماء مختلفة مع أنها لنوع بعينه معيّن فمنعاً للالتباس قد جرت العادة في ترتيب النباتات على ان يضاف الى اسم النوع اسم العالم النباتيّ كاملاً او مختصراً وهو الذي أطلق على هذا النوع اسمه ووصفه . فمثلاً يدل حرف .L الرمز الذي يوجد هكذا في ذيل .Gossypium arboreum L او رمز .Linn الذي يوجد هكذا في ذيل .Gossypium arboreum Linn وهو القطن الشجريّ على ان ليناوس Linnaeus العالم السويديّ الشهير الذي هذّب علم التاريخ الطبيعيّ ونظّمهُ أطلق هذا الاسم عليه وأنه وصف هذا النوع المعيَّن من القطن . اذا تقرر ذلك أقول إني رأيت من قبيل النفع لأولئك الذين يشتغلون بيننا من الطلاّب وغيرهم بعلم النبات وما يلحق عادة بأسماء النبات من رموز عن أسامي العلماء الذين ضحوا بأوقاتهم في أسفارهم وغيرها لوضع تلك الاسماء وما قرنوه بها من الوصف لكل منها —رأيت ان آتي هنا على أسماء المشهورين من أولئك العلماء وما يرمز اليهم به في المصنفات وليس من غرضي في هذا المقال الاستقصاء لأن عددهم جميعاً قد يعد بالمئات

﴿ أبيل ﴾ : وبقية اسمه كلارك Abel, Clarke ويرمز له .Abel عاش (١٧٨٠— ١٨٢٦) وهو نباتيّ رحل الى الصين في ٨ فبراير ١٨١٦ وهناك جمع مجاميع كبيرة من النباتات الصينيَّة وعند عودته الى وطنه انكلترا في ١٦ فبراير ١٨١٧ فقدت جميعها بسبب غرق المركب ماعدا مجموعة صغيرة كان قد أهداها الى السير جورج ستونتون فلمَّا علم السير جورج بالحادث أرسلها الى النباتيّ روبرت براون فوصفها ونشرها في لندن ١٨١٨ بعنوان «قصة رحلة في داخل الصين» بين سنتي (١٨١٦ — ١٨١٧)

Narrative of a Journey in the Interior of China.

وقد اختار روبرت براون نباتاً من تلك المجموعة الصغيرة التي وصلت اليه وجعله جنساً ثم نسبهُ الى صاحبها وهذا الجنس هو المعروف باسم ابلية Abelia

﴿ أشاريوس ﴾ : Acharius, Erik ويرمز له .Ach ولد في جيفْل من اسوج في ١٠ اكتوبر ١٧٥٧ ومات في وَدْستينا من اسوج ايضاً في ١٤ اغسطس ١٨١٩ وهو طبيب اسوجيّ ونباتيّ تلقى العلم عن ليناوس وصنَّف كتاب « الدراسة الجامعة لنباتات بَهَق الحَجَر » Lichenographia universalis

﴿ أدَنْسُون ﴾ : وبقية اسمه ميشل Adanson, Michel ويرمز لهُ .Ad و.Adans ولد في إكس من فرنسا في ٧ ابريل ١٧٢٧ ومات في باريس في ٣ اغسطس ١٨٠٦ وهو فرنسيّ من علماء الطبيعيات ساح في سنغامبيا ولهُ مؤلفات أهمها كتاب « تاريخ السنغال الطبيعي » (١٧٥٧) Histoire naturelle du Sénégal وكتاب « فصائل النباتات » (١٧٦٣) Familles de plantes

﴿ افْزِلْيُوس ﴾ : وبقية اسمه آدم Afzelius, Adam ويرمز لهُ .Afz ولد في لارف من اسوج في ٧ اكتوبر ١٧٥٠ ومات في ٣٠ ينار ١٨٣٧ وهو اسوجيّ من علماء الطبيعيات كان مدرساً لعلم النبات في أُپسالا ١٧٨٥ ومستكشفاً في العلوم في سيراليون بأفريقية ١٧٩٢ كما كان كاتم السر لرجال بعثة في لندن ١٧٩٦ وأستاذاً للعقاقير الطبية في ابسالا ١٨١٢

﴿ أجَرْد ﴾ : وبقية اسمه كارل أدولف Agardh, Karl Adolf ويرمز له .Ag و .Agdh و .Agh ولد في بستاد من اسوج في ٢٣ ينار ١٧٨٥ ومات في كرلستاد من اسوج ايضاً في ٢٨ ينار ١٨٥٩ وهو اسوجيّ شهير من علماء الطبيعيات والاقتصاد السياسي ايضاً كان استاذاً لعلمي النبات والاقتصاد في جامعة لُونْد ١٨١٢ وأسقفاً لكرلستاد ١٨٣٤ ومصنفاته العلمية الاكثر أهمية هي كتاب «طريقة ترتيب العَرْمَض أي الطحلب » (١٨٢٤) Systema Algarum وكتاب « صور ضروب العرمض الاوربية » (١٨٢٨ — ١٨٣٥) Icones Algarum Europœum

﴿ أَيْتُون ﴾ : وبقية اسمه وليم Aiton, William ويرمز لهُ .Ait. ولد قرب هاملتون من اسكتلندة ١٧٣١ ومات في كيو قرب لندن في ٢ فبراير ١٧٩٣ وهو نباتيّ اسكتلنديّ وبستانيّ عيّن مديراً لحديقة النبات الملكية في كيو ١٧٥٩ وصنَّف كتاب « حديقة كيو » (١٧٨٩) Hortus Kewensis

﴿ أَمَّان ﴾ : وبقية اسمه پاول Amman, or Ammann, Paul ويرمز له .Amm

ولد في برسْلُو من روسيا في ٣٠ أغسطس ١٦٣٤ ومات في ٤ فبراير ١٦٩١ وهو طبيب الماني ونباتيّ عيّن أستاذاً لعلم النبات في جامعة ليبزيج ١٦٧٤ ولعلم الفسيولوجيا أي

وظائف الاعضاء ١٦٨٢ وصنّف كتاب « الصفة الطبيعية للنبات » (١٦٧٦)
Character naturalis Plantarum

﴿ اوبْليه ﴾ : وبقية اسمه جان باتيست خرستوف فوزيه Aublet, Jean Baptiste Christophe Fusée ويرمز لهُ .Aub و .Aubl ولد في سالون من اقليم بروفنس بفرنسا في ٤ نوفمبر ١٧٢٠ ومات في باريس في ٦ مايو ١٧٧٨ وهو نباتي فرنسي سافر الى جزائر موريس في ١٧٥٢ حيث قضى سنوات كثيرة ثم تجوّل من ١٧٦٢ الى ١٧٦٤ في جويانا الفرنسية وكان في السنة الاخيرة منها في سان دومنجو وفي ١٧٧٥ نشرت نتائج تجوّلاته في مؤلفه « تاريخ نباتات جويانا الفرنسية » Histoire des plantes de la Guyane Francaise وهذا المصنّف يتضمن ايضاً أوصاف أنواع النباتات في جزائر موريس وله مذكّرات كثيرة ذات فائدة عامة

﴿ بلْفُور ﴾ : وبقية اسمه جون هتّون Balfour, John Hutton ويرمز له .Balf ولد بادنبرة في ١٥ سبتمبر ١٨٠٨ ومات بها في ١١ فبراير ١٨٨٤ وهو نباتيّ وطبيب اسكتلنديّ ممتاز عين أستاذاً لعلم النبات بجامعة جلاسجو في ١٨٤١ وبجامعة ادنبرة في ١٨٤٥ واستاذاً متقاعداً في ١٨٧٩ وصنف « كتاب النبات » (١٨٤٨) A Manual of Botany و« كتاب مدرسيّ » (١٨٥٢) A class-book وكتاب « اللاهوت النباتي » (١٨٥١)
Phyto-Theology

﴿ بانكس ﴾ : وبقية اسمه السير جوزف Banks, Sir Joseph ويرمز له .Ban ولد بلندن في ١٣ فبراير ١٧٤٤ ومات بأيلورث في ١٩ يونية ١٨٢٠ وهو انجليزي من علماء الطبيعيّات ونباتي ممتاز وثقة في العلم جهّز السفينة إندفور ورافق بعثة كوك الاولى ١٧٦٨ — ١٧٧١ وزار جزيرة ايسلندة ١٧٧٢ وعيّن رئيساً للجمعية الملكية ١٧٧٨ — ١٨٢٠ ومجموعته في نموذجات الأعشاب (معشبته) وخزانة كتبه موجودتان في المتحف البريطاني وقد ألّف كتاب « مختصر بيان اسباب المرض المسمّى اللّفحة أو يرقان الزرع أو الصّدأ » (١٨٠٥)
A Short Account of the Causes of the Disease called the Blight, Mildew, and Rust.

﴿ بارّيْلييه ﴾ : وبقية اسمه جاك Barrelier, Jacques ويرمز له .Barr ولد في باريس ١٦٠٦ ومات في ١٧ سبتمبر ١٦٧٣ وهو نباتي فرنسيّ صنّف كتاب « النباتات التي بحثت في غاليا (فرنسا) واسبانيا وايطاليا » (١٧١٤)
Plantae per Gallium, Hispanium et Italiam observatae.

(يتبع)

باب المراسلة والمناظرة

التمساح في الرسيس

صديقي الفضال رئيس تحرير المقتطف الغراء

بعد التحية والسلام قرأت في العدد الماضي (مارس ١٩٤٢) مقالاً ممتعاً كتبهُ الأستاذ العلاَّمة الأب انستاس الكرملي في انتقاد كتاب الامتاع والمؤانسة ذكر فيهِ رأيه في بعض الاسماء الهندية فأرجو منكم فسح المجال لما بدا لي فيهِ ولكم الشكر الجزيل

قال الاستاذ تحت العنوان الثامن التمساح في الرسيس : لا نعرف نهراً في الهند باسم الرسيس يكون فيهِ التمساح ، والذي نعرفه ان الذي فيهِ هذا الوحش المائي هو نهر (مِهران) بكسر الميم .... الخ »

وأنا أرى ان الرسيس قد يكون تصحيفاً من الناسخ لكلمة «اندوس» Indus فان كلمة «اندوس» اسم يطلق في العصر الحاضر في الهند وفي اكثر اللغات الاوربية على نفس نهر مهران الذي ذكره جغرافيو العرب كما حققه ايضاً المستشرق الانجليزي الاستاذ لوسترانج في كتابه « أراضي الخلافة الشرقية » طبع كمبردج ص ٣٣١ . ثم لنهر مهران هذا في الهند اسم قديم جداً باللغة السنسكريتية وهو «سندهو» Sindhu . وقد ذكر هذا الاسم في بعض الاناشيد الخاصة به في « رِجْ ويدا» أحد الكتب الأربعة المقدسة الهندية القديمة. فلما دخل الهند اليونان سموه « اندوس » . والسين حرف يزاد على الاكثر في آخر الاعلام باليونانية . ومن اليونانية انتقل هذا الاسم الى اللغات الاخرى

أما مهران فلا يعرف أهل الهند نهرهم « اندوس » أو « سندهو » بهذا الاسم بل أهل فارس سموه به . والعرب لم ينقلوا اسم النهر مباشرة عن الهندية بل عن الفارسية كما ذكره ياقوت في المعجم نقلاً عن حمزه (ج ٨ ص ٢٠٩)

أما نهر سند أو بالفارسية « سندروذ » الذي ذكره ياقوت في المعجم (ج ٥ ص ١٥٣) فهو غير نهر « سندهو » أو « مِهران » بل الذي يسمى في العصر الحاضر « ستلج » Sutlej وقول ياقوت فيهِ : « بلغني انهُ يفرغ في مِهران » صواب

بقي قول الاستاذ في اسم تمساح بالهندية Gavial انه عربي الأصل ومأخوذ من كلمة (جبار) فأراه بعيداً عن الصواب لان الكلمة في الحقيقة هندية الأصل . وأصلها بالهندية « كَهْرِيالْ » بفتح الكاف الفارسية وسكون الهاء ثم سكون الراء الهندية المفخمة ثم فتح

الياء وسكون الالف واللام . والراء الهندية هذه لا يوجد مثيلها في اللغات الأخرى . وقد اصطلح أهل اللغة على شكلها بوضع الطاء الصغيرة فوق الراء العربية أو أربع نقط حيث يتعذر وضع الطاء عليها (مثل حروف الرصاص) . وصعوبة نطق الراء هذه حملت أهل الغرب على كتابة الكلمة بحرف V بدل R ، غير اني رأيتها في بعض القواميس مكتوبة بحرف R أي Garial وهو عندي أقرب الى الصواب وان كانت كتابتها Gharyal أصوب

القاهرة السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

مقال البراق النبوي

نشرنا لكاتب اديب في مقتطف فبراير صفحة ١٦٨ مقالاً عنوانهُ « البراق النبوي وقصة المعراج في التصوير الاسلامي » . وبعيد صدوره نبّه كاتب فاضل في مجلة الرسالة الغراء عدد ٤٥٢ الى ان صاحب المقال نقل هذا الفصل من كتاب السر توماس ارنولد — « التصوير في الاسلام » ولم يسند اليه . فرجعنا الى احد اصدقاء المقتطف المتوفرين على هذه الموضوعات نسأله في ذلك لكي نضع المسألة في نصابها الحقيقي ، فأجابنا بأنهُ رجع « الى كتاب الدكتور ارنولد ووازن بين فقراته وبين المقال فوجد ان المقال يكاد في معظم فقراته يكون ترجمة غير حرفية بل بشيءٍ من التصرف ، بالزيادة القليلة حيناً والحذف حيناً آخر ، للفصل الذي عقده الدكتور ارنولد للكلام على البراق في كتابه »

وغنيٌّ عن البيان ان الإسناد في الفصول العلمية أمانة في عنق الكاتب ومراعاتها ترفع من قدره ، والاعتراف بالمصادر المعتمدة لا يشين أحداً ، والتحلي بهذه الصفة يوفّر على رؤساء تحرير المجلات مشقة عظيمة

سؤال

في أحد الاماكن يجري نهر النيل بسرعة ٦٠ متراً في الدقيقة مثلاً ، ألقينا فيه عوامة يحملها بسرعته . وعن بعد الف متر من أمام العوامة والف متر من ورائها أطلقنا في وقت واحد زورقين (الواحد من ناحية مجرى النهر والآخر من الناحية المضادة للمجرى ، أي ان العوامة في وسط المسافة بين الزورقين في حين انطلاقهما) وكلا الزورقين يسير بسرعة واحدة ، مائة متر في الدقيقة ، وكل منهما يقصد الى العوامة . فأيهما يصل اليها قبل الآخر ؟ ما البرهان ؟ « باحث »

باب الأخبار العلمية

التنقيب عن المعادن في الظلمة

تجوب الفيافي الاميركية في هذه الآونة ليلاً، أفواج من المنقبين لاكتشاف الطبقات السطحية من الصخور. وذلك بمصابيح الأشعة التي فوق البنفسجية وهي تصدر ضياءً أرجوانيًّا يكاد لا يرى، متوخين البحث عن مناجم التنغستن وهو أحد الفلزات الضرورية لتقسية الفولاذ اللازم لصنع العتاد الحربي العصري

ولا غرو فالاسعار دائماً ترتفع ارتفاعاً لا ينساه المعدنون، قياساً على ماحدث في الحرب العالمية السابقة اذ كان ثمن وحدة التنغستن التي تزن عشرين رطلاً انكليزيًّا ٧ ريالات أميركية ونصف ريال فبلغت حينئذٍ ١٢٨ ريالاً. وهذا هو الباعث الذي يحدو المنقبين على ارتياد أنحاء المناجم القديمة الدائر العمل فيها، وكذلك تفتيش أكوام القمامات والخبث المتخلفة عن مناجم الذهب، باحثين عن الشذور التي أهملت فيها منذ وضعت تلك الحرب أوزارها وانتهت فورة اسعارها الفجائية

ويزاول المنقبون العصريون أعمالهم ليلاً متذرعين بذرائع حديثة، لأن معدن التنغستن يعلن عن نفسه بنفسه أمام عيونهم وذلك حينما ينبثق من صمام البلور الصخري البارد المركب في مصباح الاشعة التي فوق البنفسجية، ضوء ضارب الى الارجواني فيصيب ركاز التنغستن scheelite فيجعله يضيء ضياءً زرقاً أي شديد الزرقة

واذا غسل ركاز التنغستن في القدور رسبت فيها رمال ثقيلة ذات لون أدكن خفيف مصحوبة بالرمل الأسود والعسجد وحجر السيلان. واذا ما سددت الى تلك الرواسب أضواء المصابيح المصنوعة من البلور الصخري تلألأ الرمل تلألؤًا أزرق باهراً ذا نقط شتى، وهذا هو تراب التنغستن، فيدرك حينئذٍ المنقبون انهم على وشك العثور على منجمه

ويربي عدد المعادن التي لها هذه المزية الغريبة أي صفة التألق عند تعرضها للاشعة التي فوق البنفسجية، على ٣٠٠ معدن، فتشع منها أشعة تختلف ألوانها من الأصفر الشاحب الى الازرق الفاتح. أما ركاز التنغستن فتشع منه عادة أشعة زرق، قد تتغير أحياناً فتصير صفراً فاتحة أو صفراً قاتمة. وربما يخدع المنقب بألقة زرقاء او صفراء فاتحة لا تلبث ان تزول عند وصوله اليها، إذ العظايات والضفادع القرناء والحيات وكذلك العظام والاسنان العتيقة تتألق في الدجى

والمعتاد أن المهندس يتوقع العثور على معدن التنغستن وحده حيث يختلط الحجر

الجيري بالجرانيت . وحتى هذه المواضع يعسر الاستدلال عليها . وقد يتعذر ايضاً على خبراء المعدنين عند تتبعهم لعرق من عروق الفلزات الجزم بكونه صخراً أو ركازاً . ثم ان نبش أطنان الصخور العقيمة وطحنها يقتضي نفقات باهظة . أما الآن فرئيس المنقبين عن المعادن يكتفي بإمرار مصباحه فوق وجه الممر الأفقي للمنجم فيستبين عرق الركاز فيعلّم عليه فيستطيع عمال التمحيص نبذ الصخور التي لا قيمة لها حينما يمرون بها في طريقهم ثم يتعقبون العرق المستمر حيثما يتجه ويتشعب

وفي المطحن يسدّد ملاحظ التعدين مصباحاً من البلور الصخري الى الغرابيل فيتمكن من تقدير مقدار التنغستن الذي في الركاز المسحوق في مهزات (1) الفلزات riffles ثم تمحص أكوام القمامات تمحيصاً مدققاً مما يختلط بها من ركاز التنغستن الجيد الذي تنبذه المطاحن خطأ وذلك بتألقه تألقاً أزرق حين يسدد اليه مصباح الأشعة التي فوق البنفسجية

ومما يجدر ذكره في هذا المقام ان منجماً للذهب في احدى الولايات الغربية الاميركية دار فيه العمل خمسين سنة قبل وصول المنقبين بالأشعة اليه فكشفوا مقادير من التنغستن الجيد ألقاها في القمامة أصحاب المنجم مع انها تقوّم بكل ما أنفقوه في التعدين في تلك الحقبة

وثمة شركة أخرى تولّت حفر الانفاق في جبل من الجبال الاميركية باحثة عن الذهب فأخفقت . بيد انها كشفت عن مقادير من ركاز التنغستن، كانت منبوذة في أكوام القمامة من عهد بعيد . وقد اهتدى المنقبون بهذه الأشعة الخفية الى جزء من أضخم طبقة من طبقات التنغستن ، ظهرت حتى الآن وذلك بطريق المصادفة

وتحرير الخبر ان المستر اوليفر آدمز لقي ذات ليلة فوجاً من المنقبين ينقبون عن معدن التنغستن بالاشعة الخفية في صحراء موجاف Mojave بكاليفورنيا وذلك في طبقة سطحية صغيرة من طبقات الارض القريبة من جبل شدو Shadow فأقنع المستر توماس وارن مدير شركة منتجات الاشعة التي فوق البنفسجية ، بأن يصنع له أكبر جهاز من ذلك النوع ليتمكن به من التنقيب عن الفلزات ليلاً في أثناء جوبة الصحراء دون اضطراره الى الوقوف والانحناء. فلبى وارن الطلب إذ صنع مولداً قوياً (مركباً على نقالة) يدور بمحرك صغير بالبنزين . وما ان تسلمته جماعة ادمز حتى قامت به الى جبل شدو وشرعت تنقب في الجانب المقابل لذلك الجبل فشاهدت علامات قوية للفلزات وذلك في مغسل الحصباء حيث قام رجلان بنقل المولد الكهربي المحمول على النقالة ، ومارس الرجل الثالث ، تسديد الاشعة الى الصخور، فأخذت

(١) حينما يستخرج الركاز من المنجم ، يوضع في سلسلة من الماحق الدوارة تكاد تشبه المطاحن الضخمة للبن فتكسر الركاز كسراً صغيرة . وحينما يتم سحق تلك القطع سحقاً دقيقاً كالرمل ، ترفع من مكانها ثم تنشر على مائدة تهتز اقبالا وادباراً هزاً عاجلا فهي إذن — المهزة

تتجلى العلامات رويداً رويداً حتى تكشفت أمامهم شقة كاملة وهي عرق من عروق معدن التنغستن ، يقدر طوله بعدة اقدام

***

فرسم علماء طبقات الارض الخارطات لتلك المنطقة بأجمعها . وهي تبيّن ما فيها من معادن وذلك باستعمال مصابيح الاشعة التي فوق البنفسجية . ولما كان عمل الكشف بالأشعة يجري ليلاً كانوا يغرزون في الارض خابوراً تعلق برأسه خرقة بيضاء ليسهل عليهم الاهتداء نهاراً الى مواقع المناجم . ومما كشفوه موقع عرق معدني يبلغ طوله زهاء نصف ميل وتقدر زنته بملايين الاطنان

وليست مناجم التنغستن وحدها هي التي تستعمل في كشفها انابيب (صمامات) البلور الصخري التي تنبعث منها الاشعة الخفية ، بل تشاركها في هذه المزية بعض مناجم العسجد والغرض من ذلك اجتناب الغرامة التي يستهدف لها أرباب المطحن اذا كان ركاز الذهب المزمع طحنه فيه محتوياً على زنك . وبتوجيه مصباح الاشعة الخفية الى الصخر ، يستطاع تبين الشذور الكبيرة من الهيدروزنكيت ثم الاستيثاق من خلوّ ركاز الذهب من الشوائب التي تشوبهُ عوض جندي

قنابل المدافع المضادة للطائرات

من المدافع المضادة للطائرات ما قطره اربع بوصات وعشر البوصة . وهي تثبّت عادة في مواقع حول المرافىء الهامة وأكوام الذخيرة الحربية والاهداف العسكرية الثابتة الاخرى . هذه المدافع تقذف قنابل وزن كل منها ٣٣ رطلاً مسافة ثلاثين الف قدم بمعدل خمس وعشرين قنبلة في الدقيقة

ومنها مدافع قطر المدفع منها ثلاث بوصات وتقذف قنابل زنة الواحدة منها ١٨ رطلاً مسافة عشرين الف قدم وهي مدافع يمكن تنقيلها على مركبات خاصة بها . وفي الوسع اطلاق قنابل هذين النوعين من المدافع مسافة تفوق ثلاثين الف قدم ، وعشرين الف قدم ، على التوالي . ولكن الرماية فوق هذين الارتفاعين تكون غير محكمة . ثم هناك مدافع قطر المدفع منها بوصة ونصف بوصة . ولكنهُ يطلق ١٢٠ قنبلة في الدقيقة . وتليها المدافع الرشاشة المضادة للطائرات . وهذان النوعان من المدافع يستعملان ضد الطائرات المنخفضة

ومما هو جديرٌ بالذكر ان المدافع التي قطرها ثلاث بوصات تنقل بمركباتها الخاصة بها من مكان الى آخر بسرعة معدَّلها خمسون ميلاً في الساعة . ولا تنقضي عشر دقائق على وصولها الى الموقع المختار لها حتى تكون قد أعدّت لاطلاق الطلقة الاولى

واذا كان الجو صافياً ورؤية الطائرات المغيرة مستطاعاً ، ودخلت طائرة نطاق مرمى المدفع فان التسديد يكون محكماً والاصابة حاسمة

بريد الحمام او حمام الزاجل في الحرب

تشترك قوة مجنحة مستقلة عن الطائرات، مع جنود الحلفاء، في اعباء الدفاع عن بريطانيا العظمى، اذ تحلق ألوف مدربة تدريباً فائقاً من حمام الزاجل، فوق الخليج الانكليزي، للقيام بالأعمال الحربية في الجانب المقابل من ذلك الخليج وتحتفظ البلاد الانكليزية بآلاف أخرى من حمام الزاجل، اما كاملة التدريب واما ناقصته، وذلك في «مدارس» خاصة انشئت لتعليم تلك الطيور، الشديدة الذكاء، وإعدادها للمهمة الخطيرة التي تضطلع بها في اثناء الحرب الدائرة رحاها الآن. وقلما يفقه الملأ أن في هذا العصر الراقي، الحافل بالوسائل العلمية للتراسل — تلك الوسائل العظيمة السرعة وهي التليفون والتلغراف السلكيان واللاسلكيان — يظل ذلك الحمام نافعاً لنقل الرسائل من مكان الى آخر. وما من شك في إنهُ سيكون جم النفع في الحرب الحالية كما نفع مستخدميه في الحرب الماضية

ومع ثبوت نفع حمام الزاجل من قبل نشوب تلك الحرب بزمن طويل، كان بعض ثقات الحرب في بريطانيا، يميل الى الظن، بأن عصره قد مضى وانقضى، ازاء ما بلغته أسلحة الحرب العصرية ووسائلها من التقدم، فظهر خطأ اولئك الدعاة، اذ أسفرت المباحث التي عملت بعد ذلك في خلال الحرب العظمى الماضية أن اكثر من ٩٥٪ من الرسائل التي حملها حمام الزاجل، وصلت الى الجهات المبتغاة سالمة

وكان حمام الزاجل يستخدم حينئذٍ بكثرة لتبادل الرسائل في جيوش الدول المتحاربة عموماً وبلجيكا وألمانيا خصوصاً. وكان لكل من تينك الدولتين، دائرة حكومية تتولى الاشراف على تنظيم جيش قوي من ذلك الحمام. اما سائر الممالك المحاربة ومنها فرنسا وبريطانيا العظمى، فلم تقصر في إنشاء مثل تلك المصلحة الحكومية، اقتداءً بغيرها فنهضت بأعمال جليلة. فكانت البحرية البريطانية أول من قدر في سنة ١٩١٤ نفع حمام الزاجل حق قدره إذ أنشأت دائرة حكومية تولت استخدام ذلك الحمام لنقل الرسائل، فنقل الاخبار من لاقطات الالغام، التي لم تكن مجهزة بأجهزة للتلغراف اللاسلكي. وقد جمعت مئات من الطيور التي دربت لتلك الغاية خاصة من الهواة في جميع ارجاء المملكة البريطانية ونصبت لأجلها التماريد (بروج الحمام) في المراكز الحربية بازاء الساحل الاوربي. ثم اتسع نطاق استخدام حمام الزاجل حتى شمل السلاح البحري الجوي فزودت جميع الطائرات البحرية بطوائف من ذلك الحمام، فكان سبباً لانقاذ كثيرين من قادتها الذين اضطرتهم الحرب الى الهبوط في البحر على أميال من الشاطئ اذ دلت على مواضعهم تلك الرسل المجنحة

وفي سجلات الحرب الماضية، تواريخ شتى تبين الخدمات الحربية الجيدة التي أداها هذا الحمام حتى أطلق على حمامة منه اسم (حظ قادة

الطائرات) وذلك لكثرة من أنقذتهم منهم ، وقد قطعت مرة اكثر من مائتي ميل مع اعتراض العاصفة اياها في طيرانها فسلّمت رسالة من طائرة بحرية كانت جانحة عقب مهاجمتها بثلاثة مدافع رشاشة فأسفر عملها عن انقاذ ملاحي تلك الطائرة جميعاً

ومن حمام الزاجل البحري ، ذكر حمام مشهور اسمه الاحمر Red Cock او كريسب السريع حامل وسام فيكتوريا . ومما يروى بشأنه انهُ كان على ظهر زورق من زوارق الصيد اسمه نلسن Nelson حينما هاجمته احدى الغواصات الالمانية . وكان ربان ذلك الزورق يسمى كريسب Crisp وقد استمات في مقاتلة تلك الغواصة حتى جرح جرحاً مميتاً وكان آخر عمل عمله ان اطلق تلك الحمامة الذكر وأرسل معها رسالة استغاثة الى أقرب سفينة فسارعت الى نجدة سائر ملاحي نلسن

وكان جزاء الربان كريسب ، ان منح بعد وفاته وسام فيكتوريا ، ثم اشتهرت تلك الحمامة الذكر ، من ذلك الحين باسم كريسب الحائز لوسام فيكتوريا . ولما ماتت ، دفنت في مكان محترم ، في متحف خاص بهويتهول وفي ذلك المتحف نفسه طائفة أخرى من الحمام المشهور بالاعمال المجيدة ، ومنهُ حمامة من حمام الجيش ، كانت مع الكتائب البريطانية المحاربة في منين رود Menin Road في شهر اكتوبر سنة ١٩١٧ فانطلقت في عصر ذات يوم ومعها رسالة مستعجلة . وفي اثناء طيرانها أصابها الاعداء بطلق ناري أسقطها وكسرت ساقها فلبثت تلك الحمامة الصغيرة الشجاعة ، مطروحة على الارض طيلة الليل والمطر ينهمر عليها مدراراً ، حتى تبلج الصباح فاستردت بعض قوتها ثم شرعت في الطيران بصعوبة حتى بلغت مرادها في مقر القيادة وكان على تسعة أميال ، فما استقرت في المراد حتى خارت قواها كلية ، وماتت عقب تسلم الرسالة التي كانت تحملها

وتشهد النصب والمباني التذكارية المقامة لحمام الزاجل في آفاق العالم ، بما له من المآثر . وبلغ من تقدير اليابانيين له في حربهم مع الصينيين حيث اكثروا استخدامه ان انشأوا وساماً خاصاً لتزيين الحمام الذي يمتاز ببسالته وانشأت بريطانيا العظمى في الحرب الحالية مصلحة لحمام الزاجل المستخدم ، ليس في الحرب فحسب ، بل في الدفاع المدني ايضاً ، حيث يستخدم أكثر من مائة الف حمامة

فالحمام بلا شك هو الرسول الكامل الذي يضم الى ذكائه وعدم خطئهِ في الاتجاه وتجلده ، سرعته الفائقة التي تبلغ اكثر من مائة ميل في الساعة وذلك عند مسايرة الريح له وهو لصغر حجمه يفلت ممن يعمدون الى قنصه بنيران البندقيات . وحتّى اذا استخدمت الصقور لصيده لا تنجح في الحيلولة بينه وبين وصوله الى اهدافه التي ينقل اليها الرسائل الحربية المهمة التي لا وسيلة لنقلها اليها غيره

عوض جندي

العلم والتربية في بولونيا المحتلة

عندما خضعت بولونيا للحكم النازي دمّر معهد الطبيعة التجريبي في جامعة وارسو ونقلت جميع معدّاته الى الريخ؛ واعدم الاستاذ بيالوبرزسكي استاذ الطبيعة النظرية — وكان من العلماء الممتازين — بعد ما بسط الألمان سيطرتهم على العلم والتعليم في بولونيا . وفي جامعة كراكوفيا — وهي من أقدم الجامعات الأوربية — دعي أعضاء هيئة التدريس الى اجتماع يتلقون فيه تفسير مبادىء الوطنية الاشتراكية حيث قيل لهم إن عليهم أن يعرفوا ما هي الوطنية الاشتراكية لكي يعرفوا ما عليهم أن يعلموا . فلما خرجوا من حجرة الاجتماع وجدوا مركبات تنتظرهم في الخارج فنقلوا بها الى المعتقلات في المانيا وكانت التهم التي وجهت اليهم

١ — حاول الاساتذة أن يبدأوا ادراساتهم الجامعية بغير أن ينبئوا السلطات الألمانية

٢ — انهم مضوا في التعليم في معاهد وكليات، وفي امتحان الطلبة بغير أن يستأذنوا في ذلك

٣ — ان جامعة كراكوفيا ما فتئت من خمسة قرون معقل الروح البولوني

ويلوح ان التهمة الأخيرة هي المقصودة

وقد مات ثمانية عشر من الاساتذة في المعتقل الأول ونقل خمسون الى معتقل آخر ليشتغلوا بتكسير الحجارة . والباقون أطلق سراحهم بعد ذلك . وما وقع في كراكوفيا وقع مثلهُ او على نمطهِ في جامعات فينا وبراج وفرسوفيا وكوبنهاجن واوسلو وبروكسل وليدن واوترخت ولوفان وغيرها: عن «العلم في القيود» للسر رتشرد جريجوري محرّر نايتشر ورئيس مجمع تقدم العلوم البريطاني سابقاً

الحيوانات في المحاكم

من غرائب التاريخ البشري تقديم شتىَّ الحيوانات ، ولاسيما الحشرات ، الى المحاكمة والحكم عليها وتنفيذ الحكم فيها. ومن اغرب هذه المحاكمات محاكمة جرت في سنة ١٤٩٩ عندما سطا دبٌ على قرى شڤار تسڤالد فقدم الى المحاكمة وترافع عنهُ محامٍ فدفع بان الدب يجب ان يقدم الى محكمين من اقرانهِ فأجلت المرافعة اكثر من اسبوع للنظر في دفع المحامي

وفي سنة ١٧١٣ رفعت قضية في محكمة كنسية في بلدة بالبرازيل على طائفة من النمل اتهمت بأنها قرضت اساس بعض الحجر وتولى الدفاع عنها محام قدير في مرافعة طويلة وصدر الحكم على النمل وتلي جهاراً وعين احد الرهبان لتنفيذه اي لتدمير قرى النمل

وقد وقف احد مؤرخي القانون — ليون منبريا — ثماني وعشرين صفحة على وصف محاكمة حشرات سطت على كروم سان جوليان بفرنسا في سنة ١٥٤٥ وصدر الحكم عليها في ٨ مايو سنة ١٥٤٦ ولكنها اختفت فلم يستطع تنفيذ الحكم فيها وعادت حشرات من نوعها الى السطو على الكروم في سنة ١٥٨٧ فحوكمت وحكم عليها وانتهت المحاكمة في ٢٠ دسمبر من تلك السنة

الجهاز الرحوي وعلاج السرطان

كان الغرض الأول من الجهاز الرحوي الذي صنعهُ لورنس في معهد كاليفورنيا التكنولوجي استعماله في بحث الذرة . وكان من نتائجه الاولى تحويل طائفة من العناصر غير المشعة عناصر مشعة اي استحداث الاشعاع الذي كان قبلاً صفة طبيعية في العناصر المشعة كالراديوم

وقد افضى استحداث الاشعاع في العناصر غير المشعة الى استعمالها مكان العناصر المشعة كالراديوم في علاج السرطان

ثم تقدمت طريقة العلاج خطوة اخرى فبدلاً من استحداث الاشعاع في عناصر غير مشعة ثم استعمالها في علاج السرطان كما يستعمل الراديوم ، بدأ الاطباء يسددون تيارات من النوترونات منطلقة رأساً من الجهاز الرحوي الى النسيج السرطاني. ومن عهد قريب قرأ الدكتور ستون استاذ العلاج بالاشعة السينية بمدرسة الطب في جامعة كاليفورنيا رسالة في جمعية العلاج بالاشعة السينية أثبت فيها ان ١٢٩ مصاباً بالسرطان تقدموا للعلاج في الفترة التي تشملها هذه الرسالة ، وكانوا جميعاً مصابين بالسرطان اصابة قوية وموتهم محتماً فانقذ منهم واحد وستون وربما شفي بعض هؤلاء شفاءً تامًّا

آلة كأنها عاقلة لتبين المجرمين

في قسم المباحث الجنائية في وشنطن عاصمة الولايات المتحدة آلة عجيبة ثبت انها معوان فعّال لرجال الضبط على كشف المجرمين. ولنفرض ان جماعة من اللصوص سطوا على بنك في مدينة صغيرة في احدى الولايات. وان كل ما يستطيع حارس البنك تذكره من اوصافهم لا يعدو وصف زعيمهم وهو قصير القامة اسمر ايطالي السحنة ويحمل بندقية رش . فترسل هذه الأوصاف الى قسم المباحث الجنائيـة في وشنطن فيحاول الموظف المختص ان يعلم مَن مِن الجناة المعروفين الذين دونت اوصافهم واسماؤهم وفعالهم ، يتصف بهذه الاوصاف. فيعمد الى خزانة فيها بطاقات دوّنت على كل منها اوصاف المجرمين . ولكن هذا التدوين ليس مكتوباً كلاماً ، بل هو مطبوع بنظام خاص على قاعدة معينة وهي ثقب ثقب صغير او كبير في مكان معين من البطاقة ليقابل وصفاً خاصًّا . فيأخذ الموظف المختص هذه البطاقات ويضعها في آلة بعدما يضبط مفاتيحها ضبطاً خاصًّا وفقاً لأوصاف زعيم اللصوص ، فتستخرج الآلة من تلقاءِ نفسها بطاقات الشخص او الاشخاص المتصفين بهذه الاوصاف التي اوردها حارس البنك. فتؤخذ وترسل الى ادارة البوليس في المدينة التي وقع فيها السطو وتعرض على الحارس للتعرف عليها ثم تطبع نسخٌ منها وتوزّع

مرض بارلو وعصير البرتقال

أصيب طفل لدن العود بمرض أشهر أعراضه أن البشرة أصبحت شديدة الحسّ لا تستطيع أن تمسّها بشيء مهما يكن المسّ لطيفاً بغير أن يتألم الطفل ألماً شديداً وصحب ذلك ورمٌ في مفاصل الركبتين والكوعين وغيرها . ولم يكن نادراً أن تنفجر بعض الاوعية الدموية في الجلد ويتعذر نقل الطفل من سرير الى سرير من دون أن يبكيه الألم بكاءً مُرًّا . فاستدعي طبيب جرّاح لفحص الطفل لأن الاسرة كانت في مصيف وكان من المتعذر الفوز بعناية طبيب مختص بامراض الأطفال . ففحصهُ فحصاً دقيقاً ولكنهُ لم يستطع تشخيص المرض لانقطاعه للجراحة . فوصف بعض العلاجات العامة ووعد الوالدة خيراً بزيارة طبيب من أصدقائه متوفر على أمراض الأطفال . وعاد الى داره فوجد صديقهُ قد أرسل اليه أحدث مؤلف في أمراض الأطفال فاقبل عليه يتصفحهُ لعله يرى فيه ما يمكنهُ من شفاء هذا الطفل المنكود. واذا به امام عنوان «مرض بارلو» وكانت اعراضه كالأعراض التي اصيب بها هذا الطفل . ثم قرأ ان عصير البرتقال شرباً هو العلاج الوحيد . فعالج الطفل بعصير البرتقال سقياً مدى عشرة أيام ظهرت في نهايتها آثار التحسن في حالته، فخف الورم في مفاصلهِ وعادت بشرته الى حالتها الطبيعة . وعندما وصل الطبيب المختص الى ذلك المصيف كان الطفل قد تماثل الى الشفاء

الحديد في لبن البقر

جرب الدكتور لويل ارف Erf احد اساتذة جامعة كليفورنيا تجارب دقيقة بطعام البقر اسفرت عن حقيقة غريبة وهي ان الحديد الذي يدخل في طعام بقرة ما، تظهر آثاره في لبنها بعد انقضاء خمس دقائق على تناولها الطعام. وهذا مخالف للرأي السابق وهو ان تمثيل الخلايا التي تولد اللبن في ضروع البقرة، للحديد الذي في الطعام يستغرق وقتاً طويلاً

وقد استعمل الدكتور ارف في تجاربه طعاماً يحتوي على حديد مشعّ، فاستطاع ان يتبين هذا الحديد المشع في لبن البقرة بالمطياف . وقد يقال ان الحديد فلز غير مشع . وهو كذلك . ولكن العلماء اثبتوا خلال السنوات الاخيرة ، انهُ في الوسع تحويل عناصر غير مشعة الى عناصر مشعة بالجهاز الرحوي . والعناصر التي يستحدث فيها الاشعاع لا تبقى مشعة زمناً طويلاً كالراديوم بل تبقى مشعة أمداً قصيراً يتفاوت من ثوان ودقائق الى ساعات وأيام . ولذلك رحب العلماء والاطباء بطريقة استحداث الاشعاع لأنها تضع بين أيدي الأطباء مواد مشعة للعلاج تفوق الراديوم من نواح شتى وهي ارخص منهُ كثيراً على كل حال

ويظن ان سرعة تمثيل الحديد في الطعام أي اعداد الطعام للهضم والتمثيل يتم بفعل تخميري (انزيميّ) لم يكن معروفاً من قبل

الفيتامين والنبات

اننا نستمدّ انواع الفيتامين من النبات. فمن أين يستمدها النبات؟ انهُ يصنعها من الماء والمعادن التي يمتصها من التراب والغازات التي في الهواء. وقد عجز العلماءُ حتى الآن عن مجاراة النبات في هذا. فانواع الفيتامين التي صنعوها بالتأليف الكيميائي، انما يصنعونها من مواد مركبة معقدة لا من مواد بسيطة

والنبات يحتاج الى الفيتامين حاجتنا اليه. فاذا عجز نباتٌ ما عن تركيب الفيتامين أصيب كالانسان بامراض تظهر في ضمور نموه وضعف جذوره. فاذا عجز نباتٌ ما مثلاً عن تركيب الحامض النكوتينيك (وهو احد فيتامينات B) وخزنه أصيبت جذوره بأعراض يصحُّ ان توصف ببلاجرا الجذور قياساً على بلاجرا البشر

السلفادیازین وعلاج الحروق

اثبتت التجارب الطبية والتطبيق العملي في اثناء هذه الحرب ان رش الحروق بعقار السلفاديازين (وهو احد مشتقات السلفانيلاميد) افعل وسيلة في علاج الحروق. وقد روى الدكتور كنث بكرل احد اطباء جامعة جونز هبكنز ان مائة واربعة عشر مصاباً بحروق كبيرة عولجوا بهذه الطريقة فاصابوا الشفاء العاجل

وقد صرّح جراحو مستشفى جامعة جونز هبكنز بان شفاءَ الحروق بهذه الطريقة أسرع من شفائها بكل طريقة أخرى معروفة

وبعضهم يعتقد أن العلاج بالسلفاديازين سيحدث انقلاباً كبيراً في معالجة الحروق ويفضي الى الاستغناء عن عملية الترقيع

ولم يحدث التهاب ما في مائة مصاب بحروق من الدرجة الثانية بعد معالجتهم بالسلفاديازين. وهذه الطريقة في العلاج لا تقتضي غسل مكان الحرق وتنظيفهِ قبل علاجه. ثم ان هذا العقار يخفّف الألم فيسدُّ مسدَّ مخدر كذلك

وزن البيضة ووزن الطائر

تبيض النعامة بيضة يفوق وزنها وزن بيضة الدجاجة عشرين ضعفاً. ولكن وزن النعامة يفوق على المعدل وزن الدجاجة من أربعين الى خمسين ضعفاً. والواقع إن وزن البيضة بالقياس الى وزن الطائر الذي يبيضها يقلُّ كلما زاد وزن الطائر

فالطائر الطنّان يبيض بيضة يبلغ وزنها ١٥ في المائة من وزنهِ والسمّان يبيض بيضة وزنها ٩ في المائة من وزنهِ والاوزة تبيض بيضة وزنها ٤ في المائة من وزنها. وبيضة النعامة لا يزيد وزنها على ١ر٦ في المائة من وزن النعامة

النوترونات والصفات الوراثية

أية صلة هناك بين النوترونات - وهي الدقائق المادية غير المكهربة التي تدخل في بناء نوى الذرات — وبين الصفات الوراثية؟

إن قراء المقتطف يعلمون أن الاشعة السينية تؤثر في عقود الصبغيات فتحدث فيها تحولات فجائيـة mutations تورث وقد أثبت ذلك الاستاذ ملر من خمس عشرة سنة تقريباً واقتفاه علماء آخرون فأيدوا النتائج التي أسفر عنها بحثه في ذباب الدروسوفيلا

وقد اطلعنا الآن في مجلة «خلاصة العلم» على تجربة جربها الدكتور دمستر Dempster — وهو أحد كبار الباحثين في مسائل الذرة بمعهد كاليفورنيا التكنولوجي — بذباب الفاكهة كذلك. ولكن بدلاً من أن يعرضها لتيار من الاشعة السينية عرضها لتيار من النوترونات بعد ما قذفها بسرعة عظيمة من الجهاز الرحوي (السيكاوترون). وبعد ما عرض ذكور الذبابات لهذه التيارات زاوجها بأناث لم تعرض لها وراقب نسلها لعله يستكشف فيه تحولات فجائية. فلم يكذب ظنه ووجد أن النوترونات المسددة الى الذباب على الوجـه المتقدم، أفعل من الاشعـة السينيـة في احـداث أصنـاف خاصـة من التحولات الفجائية

اضرار الإضاءة في اثناء الغارات

أجرى الالمان تجارب غرضها معرفة البعد الذي تتبين منه الطائرات البريطانية المغيرة ضوءًا ما في مدينة مظلمة فوجدوا ان ضوء عود ثقاب مشعل يُـرى على بعـد نصف ميل او اكثر قليلاً وضوء مصباح اسطبل يرى على بعد ميل وربع ميل والضوء الذي يشع من نافذة غرفة اضيئت جميع مصابيحها يرى على بعد اثني عشر ميلاً ونصف ميل وفي هذا عبرة للمعتبرين

جهاز يتبين أشعة الراديوم

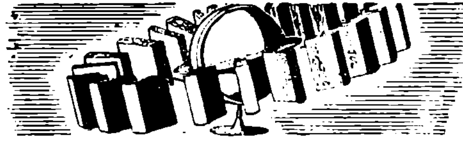
صنع الدكتور شوپ أحد علمـاء شركة «وستنغهوس» الكهربيـة جهازاً يستطيـع ان يتبين به أشعة الراديوم ولو كانت منبثقة من دقيقـة راديوم لا يزيد وزنها على جزء من الف مليون مليون جزء من الأوقية والجهاز مبني على مبدإ المطياف

نقص فيتامين C

يفضي نقص فيتامين C في الطعام الى آلام في المفـاصل تشبه آلام الروماتزم والى بطء في اندمال الجروح والى نزف اللثة

سعة عربات سكك الحديد

تتسع عربات الركاب والنوم المستعملة على خطوط سكك الحديد الاميركية لنحو مليونين من الركاب في وقت واحد



مكتبة المقتطف

سوء تفاهم

١٢٤ صفحة من القطع الوسط ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

أخذت القصة في الأدب العربي مكانها منذ سنوات ، وشقَّ الطريق لها قادتها ثم عبدوها فأصبح هذا اللون الجديد من الأدب محبباً الى القراء في الاقطار العربية . وكان هؤلاء القادة في أول الأمر يضعون نصب أعينهم تصوير كل بيئة من بيئاتهم المحلية ليكتسب هذا الفنُّ الصبغة القومية حتى اذا تمت لهم الغاية واستوت القصة على قدميها وخطت خطواتها الواسعة بدا الأفق لهم أرحب والمجال أوسع ، فتقدموا يعالجون النفس البشرية ويتلمسون ما وراء الأحاسيس والنبضات من معانٍ تتفتح للذهن المستيقظ وتتكشف للعين البصيرة النفاذة فاذا ألوان القصة تتعدد وفي تعدُّدها قوة ، واذا هذا الفن الحديث في أدبنا العربي ينهض نهضة أخرى واذا هو يستوي مع مثيله من آداب الأمم الأخرى — ولا مغالاة في ذلك الآن — جنباً الى جنب

أحسُّ هذا وأنا أقرأ لوناً جديداً في القصة العربية يضفيه عليها الدكتور بشر فارس ، ولقد ظهر هذا اللون أولاً في مسرحيته «مفرق الطريق» ثم في هذه المجموعة الجديدة التي أخرجها بعنوان «سوء تفاهم» . وقد يكون هذا اللون في المسرحية الاولى كثير الغموض على قرائه ، لأنهُ كان طريفاً . الاَّ انهُ في هذه المجموعة الجديدة قد بدأ يتكشف شيئاً فشيئاً لأن المؤلف عالج به موضوعه الاول فتمكن منهُ ، ثم ان رحابة الميدان الذي عالج فيهِ موضوعاته الأخيرة ، وتعدُّد الصورُ وتوزُّع الاضواء وتنوعها ، بدَّدت شيئاً كثيراً من الغموض وكشفت كثيراً من سرّ هذا اللون الجديد

نعم ان هذا اللون الذي يقدمهُ الدكتور بشر فارس في القصة لونٌ غريب على القارىء العربي الذي يريد من القصة أن تكون سبباً للتسلية أو سدًّا لفراغ من الزمن أو سرداً لحوادث دون أن يثير في فكره شرارة يبصر بها ما وراءَ المحسوس من بارقة تومضُ للكاتب . . .

ولكن هذا اللون على غرابته غذاء للقارىء المتبحر وهو غذاء للقارىء العادي اذا قرأه لذاته وتأمل الغاية التي قصد اليها الكاتب بين منعطفات السطور وبين انفراجات الكلام وفي الصدى الذي ينبعث من وراء صوته

فالقصة في مذهب بشر بعيدة عن أن تكون تسلية وبعيد عن قارئه أن يجد الراحة الذهنية وهو يقرأ فلا بدّ أن يقرأ بفكره كما يقرأ بعواطفه ليحسّ الاحساس الذي أحسهُ المؤلف وليشاركه في تقصّي مجاهل النفس البشرية . بعيدٌ على القارىء هذا كما هو بعيدٌ عن المؤلف أن يلجأ الى اراحة قارئه لأنهُ اقتطع قصته من صدر الحياة فكابد من أجل هذا ما كابد

وان الحياة لحافلة بشتى الصور والأحداث، ولعل وراء أتفه الحوادث مادة رائعة يتلمسها القاصّ فاذا تبينها بحسه المرهف ومض ذهنهُ ومضاً يكشف لقارئه نواحي من هذه الحياة قد لا يستطيع تبينها لولاه . لهذا سيجد قراءُ هذه المجموعة تناولاً رائعاً لحوادث كانوا لا يظنون أن وراءها مادة لقصة وسيلمحون الحياة أمامهم صادقة لأن الصورة التي رسمت لها صادقة

وهل هناك ما هو أصدق في تصوير الحياة من صورة « مبروك » ذلك الطفل البائس الذي تمنعهُ الأقدار أن يشتهي ما يشتهي غيره وان تضنّ عليه بأيسر ما تجود به على أناس كثيرين. هذه قصة انسانية صادقة الاحساس والتصوير تتمثل فيها الآلام مجتمعة بالبؤس تضرب نطاقها حول مخلوق من المخلوقات التي نسيتها الحياة في عرض طريقها . وكأن هذه الحياة لا تنبض في عروقها نابضة منها . هي قصة تذكرنا بالروعة التي نحسّها في الأدب الروسي من الصدق والبساطة — البساطة التي هي في لون زرقة السماء وقد طوت أعمق الاسرار

وتشترك مع هذه القصة في صدقها قصة « طبق فول» وما تصوّر من سخرية المصادفات وأثرها في حياة بيت هادىء وشيخ هانىء فترفع الستار عن محنة قاسية ... كما تشترك معها في ذلك قصة « السفينة » وهي تتنقل بنا ، في طوايا نفس تحيا بين ألم وأمل ، بين حب وشقاء ، هي نفس فتاة تعمل في ضوء القمر على انجاز زَرْدِ « بل اوفر» من الصوف لحبيبها الذي يغضب لتأخرها في زرده ، غير أن أباها يشفق عليها ويشجعها على العمل املاً في ان يكون من وراء بيع هذا «البل اوفر » ما يدفع الشقاء الذي يحيط بهِ . والفتاة ترى كلا الرجلين — حبيبها وأبيها — لا يفكر كلٌ منهما الاّ في نفسه

وهناك قصة سماها المؤلف « قصة ستكمل» هي من أروع قصص الكتاب لأنها قد تكون حيّةً مقتطعة من صدر المؤلف لا من صدر الحياة عامة وهي انطلاقٌ الى ما وراء شعور المرأة وتعمقٌ في خفايا اسرارها وكشف عن كثير منها...فتاة تجد لوناً غريباً من الحب .. وقد عرفت من ألوانهِ أن الرجل يريد ان يهبط بالمرأة من سمائها الى ارضه فترى في اللون الغريب رجلاً يريد

أن يرتفع بها من مستواها الى ما لا تستطيع عيناها التحديق فيه فيزوغ بصرها وبين القطيعة والهجران تحس الألم وتحس الضعة وتريد أن تعود اليها أجنحتها لتستطيع التحليق مع الرجل فتجد الوحدة قد كبلتها بقيودها

أما القصص الموسومة بعناوين : « قيثار مغترب» و« خريف »و« امرأة»و« ناس »و« يقال قصة» فهي جسات رفيقة أو لمحات خاطفة من سر منطوٍ في أعماق نفس ، هي كالدمعة من الباكي تنسيك حادثهُ لتذكرك بحادثك او بالدفين في نفسك من شعور غامض وألم مكبوت

واما قصة « رجل » التي نشرت في عدد فبراير الماضي من هذه المجلة فهي عصارة الفكر البشري صبها الدكتور بشر في كأس « نيتشه »

أما قصتا « هلك النهار ! » و« قصة امة » فقد عالج فيهما المؤلف المجتمع الانساني العام في أمتين على ضوء نفسين ، احداهما تعيش في مدينة التاريخ المصري الغابر ، في الاقصر ، ولكنها تعيش في عالم منطو عليها يتجدد فيه النهار ولكنها لا تتجدد ولا تتغير ، والاخرى تعيش في قرية من قرى فرنسا تصور اليأس والألم ينشران ظلهما على نفس كان يشيع فيها النور والحرية والسرور . ولقد ذيل المؤلف مجموعته ببحث طريف في العلاقة بين المرأة والفنان وهو في الحقيقة مادة لقصة ان لم يكن مادة لقصص عدة

هذه هي المجموعة الجديدة التي أخرجها الدكتور بشر فارس ، وهذا ما احتوت عليه.فأما الاسلوب فهو الاسلوب الذي عرف به المؤلف في ممرحيته « مفرق الطريق » . على ان مادة السخرية التي يغمس فيها الكاتب ريشتهُ — وهي منبثة بين السطور — هي من النوع الذي لا يقصد بهِ السخرية لذاتها ولكن لتبيين ما وراءها من تناقض في النفس وأعوجاج في المجتمع

حسن كامل الصيرفي

ظواهر حجرة تحضير الأرواح

تأليف الدكتور ادوين فردريك بورز — ترجمة الاستاذ احمد فهمي ابو الخير — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — صفحاته ٣٥٢ قطع المقتطف

نشكر للاستاذ احمد فهمي ابو الخير اتحافنا بهذا الكتاب، وتخصيصهُ جانباً من مقدمتهِ لـ « مجلة المقتطف والروحية » ونحن نشكر له هذا لأنهُ يتيح لنا ان نجمل موقف المقتطف في مسائل الارواح ومناجاتها وتحضيرها مرة اخرى لأن المؤلف مع تعرضهِ لكتاب « رسائل الارواح » لم يشر الى مقدمته.واننا لنؤكد له أن « لا خبثَ » في تقريرنا هذا كما لمح في الصفحة ٥ من مقدمتهِ

١ — ان تاريخ العلم حافلٌ بأمثلة كثيرة تدل على ان الحقائق او الآراء الجديدة في العلم كثيراً ما تقابل بالاعراض والشك اولاً. فكتشفات غاليليو كانت موضع الانتقاد والمحاكمة وأبى اساتذة العلوم ان ينظروا بنظارته الى الاجرام السموية لأنهم كانوا يعتقدون ان ما يرونهُ بها وهمٌ في وهم. وقد نبذت الجمعية الملكية رسالة جول الأولى في حركة دقائق المادة. والأمثلة كثيرة. وقد يكون الإعراض ناشئاً عن ضعف الدليل، او عن معارضة الرأي الجديد لرأي قديم راسخ، او لأنه مخالف للمألوف او لما يبدو معقولاً

٢ — اصطلح العلماء على اساليب للتحقيق والتمحيص اطلقوا عليها في مجملها «الاسلوب العلمي» ومن اشهرها ان التسليم بحقيقة علمية ما اثبتت صحتها تجربةٌ معينة، يقتضي ان يكون في وسع العلماء ان يعيدوا هذه التجربة، في الأحوال التي جربت فيها اولاً، وان يفوزوا بالنتيجة نفسها بغير تمييز سواء أمؤمناً كان المجرب ام كافراً. وسواء أفي انكلترا أجرى التجربة ام في مصر. وسواء أفي القرن التاسع عشر كان موعد تجريبها ام في القرن العشرين

٣ — كشفت وسائل جديدة للبحث كالاشعة السينية والمطياف والمجهر الكهربي ففتحت أمام العلم آفاقاً جديدة وأماطت اللثام عن حقائق كانت قبل ذلك خفية، ولو قال أحد بهذه الحقائق قبلاً لقيل إنها من بنات الخيال

فالريب طبيعي في العلم الى ان ينهض الدليل. ولذلك يشتد ريب العلماء بوجه عام—وان كان بينهم من يجمع بين المقام العالي في العلم والايمان بتحضير الارواح — في مسائل تحضير الارواح. ومرجع ريبهم الى مسألتين: الاولى ان ما يزعمه رجال تحضير الأرواح مخالف لاختبار البشر خلال عصور طويلة، كالقول باستحضار أجسام مادية من مكان بعيد، أو قطف الثمار من الهواء. والناس ميالونَ بالطبع الى القول بأنهُ لو صح لكان حريًّا بأن يدرّ على أصحابه ثروة كبيرة وينفحهم قوة عظيمة، ولكن الوسطاء على الغالب من أهل الفاقة والضعة

أما الثانية فهو ان الادلة التي أقامها اصحاب تحضير الارواح، لم تقرها دوائر العلماء والمجامع العلمية، على الرغم من ان بعضها ألبس ثوب العلم والاشعة وتحول المادة الى طاقة وهلم جرًّا. فهذه التجارب التي يجرونها لاثبات ما يقولون، انما تجري في أحوال خاصة وغالباً ما تكون محوطة بالغموض وأحياناً يخالطها خداع، ولا نعلم انهُ ثبت ان كل من شاء يستطيع ان يجري احدى هذه التجارب في احوال معروفة خاضعة للتمحيص العلمي ويحصل على النتيجة نفسها

ومع ذلك فالعلم الحديث لا ينفي ولا يجوز لهُ أن ينفي الأرواح واستحضارها، لأنَّ النفي يقتضي أن يكون العلم محيطاً بكل شيء، ولكن العلم لا يزعم هذا الزعم بل ان أكبر العلماء يقولون إن نطاق المعروف بحسب الأساليب العلمية ليس الاّ جزءًا يسيراً من خضم المجهول. واذا قال

عالم — أو من يدعي العلم — إن العلم ينفي الأرواح ، فهو ليس بالعالم إذ كيف يستطيع أن ينفي ما يجهل . وقد تخترع أو تكتشف أساليب جديدة للبحث تحقق ما يقال فيها

وكلُّ ما يستطيع العالِم أن يقولهُ ، هو أن معظم أقوال « أصحاب الروحية » لم يقم عليهِ دليلٌ علميٌّ كما نفهم الدليل العلمي . فهو لا ينفي « الأرواح » وإنما ينفي انهُ قام دليل علمي على صحتها . وأنْ يقول الدكتور بورز مثلاً قولاً ما ، وأنهُ ثبت لهُ ، لا يكفي حتى يستطيع عشرات غير الدكتور بورز تمحيص قول الدكتور وتأييدها في أحوال خاضعة للتدقيق العلمي

وليس هذا الموقف ماديًّا . فقد يقول العالم ، أنا لا أنفي الأرواح اذ ليس من حقي أن أنفي شيئاً لا اعرفهُ ، وإنما أنفي انهُ قام — حتى الآن — دليلٌ علميٌّ على صحة ما يقال فيها ، ومع ذلك فيَّ ميل قوي الى الايمان بصحتها . وليس في الجمع بين هذه العناصر الثلاثة تناقض ما هذا هو الموقف كما نراه

وليس عندنا شك في أنهُ لو نقل الى ادارة السينتفك أميركان ما يقولهُ الاستاذ فهمي عنها لعرفت أن ترد عليهِ . فقد تؤخذ على بعض التجارب التي أجريت في ادارتها وتحت اشراف الرجال الذين اختارتهم ، مآخذ ، ولكننا لا نظن انهُ يجوز ان تتَّهم السينتفك اميركان بمثل هذه السهولة بسوء النية على نحو ما جاء عنها صفحة ٤ و ٥

ولعلَّ أغرب أقوال الاستاذ : « تفنَّن خصوم الروحية تفنناً عجيباً في نشر آرائهم ودعاويهم الباطلة ووجدوا من الصحف صدراً رحباً لم يتسع الاتساع الكافي للمؤيدين كما اتسع للخصوم المعارضين . . . »

وهو غريبٌ لأن المسألة ليست مسألة دعاية لرأي سياسيٍّ يُستكثر أنصاره بالنشر في الصحف . ولو كان الرأي خاطئاً واتسع صدر الصحف للنشر عنهُ وكثر انصاره بسبب هذا النشر ، لاستطار ضرر الرأي ، ولكانت الصحف مشاركة في تحمل هذه التبعة الكبيرة . ومع ذلك نذكر ان احدى الصحف المصرية على الاقل افسحت صدرها اسابيع متوالية لكتابات المؤلف

على ان المسألة لا تحسم بالكتابة في الصحف ، بل في معامل البحث . بل نذهب الى أبعد من ذلك ونقول إن الحكومة يجب ان تحظر النشر عن بعض نواحيها ، او معالجة بعض مسائلها بغير ضابط لأن هذا النشر وهذه المعالجة قد يفضيان الى ضرر مادي يجب اتقاؤه

وأغرب من هذا ان المؤلف نقل كلمة ختمنا بها مقالاً عن السر اوليفر لودج ، جاء في آخرها « فاذا شئت ان تكتفي بما تثبتهُ الوسائل العلمية المعروفة ، والامتحانات والتجارب التي قام بها رجال منزهون عن الهوى استطعت ان تقول ان مخاطبة الأرواح لم تثبت بعد ، ولكن ليس في العلم ما ينفيها لأن العلم لا يستطيع ان ينفي الاَّ اذا أحاط بكل شيءٍ واستقرأه استقراءً

شاملاً . واذا شئت ان تنظر نظراً فلسفيًّا فلك ان تعتقد مع السر اوليفر لودج انهُ رغم الخداع والانخداع اللذين يخالطان اعمال الوسطاء، يقتضي اتساق النظرة العلمية الفلسفية التي بسطناها، بقاء الشخصية بعد انحلال الجسم المادي ودوام تأثيرها في الأثير المالىء رحاب الكون »

والنظرة العلمية الفلسفية المقصودة بهذه العبارة هي نظرة لودج وكنا بسطناها في الفقرات السابقة . ومع ذلك قال المؤلف تعليقاً على هذه العبارة « وظاهر ان الاستاذ الفاضل محرر المقتطف يريد بمخاطبة الارواح التي يقرها العلم تلك المخاطبة التي تتم بوسيلة آلية بحتة دون ان يكون للوسطاء دخل البتة »

ولا يذكر محرر المقتطف أنهُ قال هذا القول

حياة مي

٩٦ صفحة من قطع المقتطف ، طبع بمطبعة هذه المجلة

أدّت هذه المجلة واجب الوفاء الى فقيدة الأدب والشرق « مي » خير تأدية ، ولا شك في أنها حملت اكبر قسط من هذا الواجب بين الصحف العربية ، ومي جديرة بذلك وبأ كثر من ذلك . فلقد طالع القراء في عدد يناير من هذه السنة تلك الاحاديث النفيسة التي ظفر بها الاستاذ محمد عبد الغني حسن من طائفة من قادة الفكر في مصر ممن اتصلوا بالفقيدة واطلعوا على جوانب من عظمة شخصيتها فكانت إجاباتهم كشفاً لهذه الجوانب وايضاحاً لكثير مما ينير السبيل امام من يتقدم لدرس ميّ والكتابة عنها . وحياتها خليقة بالدرس وأدبها جدير بالتحليل

ولقد أراد الاستاذ عبد الغني ، بعد ان أدى ما كلفته هذه المجلة ، ان ينهض بالواجب عليه نحو «مي» فوضع دراسة مستقلة قدم بها الأحاديث التي نشرت في المقتطف وأخرجها كتاباً قائماً بذاته تناول فيه (ميًّا) على ضوء مؤلفاتها فوصف شرقيتها التي حافظت عليها بالرغم من رحلاتها واطلاعها على الآداب الغربية واتصالها بالغربيين والغربيات ، كما أبان نحو الفكرة العالمية في نفسها وفي أدبها ، وانتقل الى حب مي للغة العربية ودفاعها عنها ، وتكلم عن أسلوبها وعنها خطيبةً ومحاضرة وشاعرة وعن حبها للموسيقى وشغفها بها ، ثم انتقل الى الكلام عن أثرها في النهضة النسائية وعن منتداها وأشار الى من اشتهر من النساء في تاريخ العرب ممن كن يشتركنَ مع الرجال في مجالس الادب والعلم في الجاهلية وفي الاسلام

وقد بدأ المؤلف كتابه بكلمة موجزة في حياة ميّ نرجو ان يتاح له التوسع فيها لينير للقراء جوانب هذه الشخصية البارزة في تاريخ الأدب العربي الحديث ، فهي بحق جديرة بأن تخصص لحياتها دراسات وبحوث

الصيرفي

الراعي والرعية

شرح عهد الامام علي الى مالك الاشتر حين ولاه مصر — تأليف توفيق الفكيكي — طبع بمطبعة القرى بالنجف في جزءين كبيرين

من المعروف في كثير من كتب التاريخ ان الامام عليًّا كرم الله وجهه بعث بعهد منهُ الى مالك الأشتر حين ولاه مصر . ويُعَدُّ هذا العهد دستوراً سياسيًّا للحكم الصالح وقانوناً لما يجب ان يكون عليه الحكام نحو المحكومين

وقد تناول جماعة من العلماء هذا العهد بالشرح والتعليق والترجمة والنظم

فالامام الشيخ محمد عبده شرحه في كتابهِ « مقتبس السياسة » الذي طبع في حياته سنة ١٣١٧ هـ . كما شرحهُ من أفاضل العلماء السيد الماجد البحراني في خلال القرن الحادي عشر الهجري وسماهُ « التحفة السليمانية » وطبعهُ في مدينة طهران . وشرحه سلطان محمد المتوفى سنة ١٣٥٤ هـ . وسماهُ « أساس السياسة في تأسيس الرياسة » .وشرحهُ الحسين الهمداني وسماهُ « هدية الحسام لهداية الحكام » . وترجمهُ الى اللغة الفارسية نظماً الوقاري الوصال الشاعر الشيرازي المتوفى سنة ١٢٧٤ هـ — كما ترجمهُ الى اللغة التركية نظماً الشاعر محمد جلال الدين

وقد سلك كل واحد من شرَّاح هذا العهد طريقاً خاصة بهِ ، الى ان اتاح الله له العالم العراقي الجليل السيد توفيق الفكيكي فتناوله بالشرح الوافي والتعليق المستفيض مستضيئاً بضوء القوانين الحديثة والنظريات العلمية المختلفة في السياسة والادارة والقضاء والاقتصاد والاجتماع وغيرها

ومما مكن للسيد توفيق الفكيكي اجادة الشرح واصابة التعليق انهُ هو نفسه من أساتذة القانون في العراق ، وانه درس من نظم الحكومات ما أعانه على تبسيط شرح العهد وتقديمه الى قراء العربية مجلوًّا في ثوب من التحقيق العلمي الحديث

وفضيلة السيد الفكيكي في شرحه لعهد علي ، تظهر في انهُ جمع مزايا العهد على قواعد من ضوء العلم الحديث فاستطاع بذلك ان يقدمه الى رجال الحكم والادارة والقضاء والاجتماع دستوراً علويًّا لا يقل في تساميه وفي بعد مراميه وفي صحة نظرياته عن أحدث الدساتير الحكومية عهداً

وتظهر في هذا الكتاب النفيس آثار دراسات المؤلف الواسعة . فهو لم يقنع بأن يكون شارحاً لغامض اللفظ أو غريب اللغة كما يصنع كثيرون من شراح الآثار الأدبية العربية ولو فعل هذا لما خرج كتابه عن ان يكون تفسيراً لغويًّا أو شرحاً أدبيًّا لأثر من آثار الخليفة الرابع من خلفاء المسلمين . ولكنهُ — أحسن الله اليهِ — قرأ العهد قراءة الفاحص المدقق ،

وفهمهُ فهم الذكي الفطن وطبق ما فيه من أصول الحكم وسياسة الدول على ما يعرف من قواعدها في العصر الحديث . فاذا بالكتاب يخرج على نسق من التحقيق يسر كل قارىء عربي

وطريقة المؤلف في الشرح ان يسوق الاصل من عهد الامام علي في رأس الموضوع ، ثم يمهد له تمهيداً مناسباً . ويفيض بعد ذلك في الشرح وايراد النظريات المختلفة والمبادىء المتنوعة مستعيناً في ذلك برأي فيلسوف أو نظرية عالم ، او اجتهاد مجتهد أو حكمة شاعر

وفي كل صفحة من صفحات هذا الكتاب تظهر ثقافة المؤلف الواسعة واطلاعهُ الجم والمامهُ بكثير من مسائل الفلسفة والاجتماع والقانون فهو يستشهد بأقوال الكثيرين من الكتّاب والفلاسفة أمثال ولز وجستاف لوبون وابن خلدون وابن مسكويه وفلاسفة اليونان

وهو في كثير من مواضع الكتاب يوازن بين القانون في بلد وبلد ، والدستور في أمة وأمة ، وبذلك يستطيع قارىء كتابهِ أن يلم بأساليب الحكم في كثير من البلدان في العصر الحديث ويعرف بعض أوجه الخلاف في تفسير القوانين . ولا شك في أن السيد توفيق الفكيكي بذل في هذا السبيل جهداً مضنياً ، يشهد بذلك الثبت الذي في ذيل كتابه وهو يحتوي أسماء المراجع التي رجع اليها والمصادر التي اعتمد عليها

ونظرة واحدة الى ثبت المراجع تدل على اختلاف الموضوعات التي عالجها المؤلف في أثناء شرحه لعهد علي فقد قاربت مراجعه السبعين كتاباً أغلبها في الدساتير ونظم الحكومات والنظريات السياسية وكثير في الاجتماع والتاريخ والأدب واللغة محمد عبد الغني حسن

ديوان ابي تمام

ظلّ ديوان ابي تمام على قدره العظيم بين شعراء العربية بعد طبعاته السابقة عزيزاً على الادباء نادر الوجود في المكتبات حتى اتاح الله له اخيراً الناشر المعروف محمد افندي صبيح فأخرج طبعة جديدة له فيسرت للادباء هذا الكنز العظيم وحققت رغبة كانت تختلج في الصدور وهي جديرة بالثناء ، وقد طلب الناشر من الاستاذين عبد الحميد يونس عضو لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية وعبد الفتاح مصطفى المدرس بمدرسة قليوب الأميرية تقديم هذا الديوان فوضعا له مقدمة نفيسة في حياة ابي تمام ومكانته في الادب رجعا فيها الى مصادر متعددة فجاءت مقدمة تحليلية جديرة بالاطلاع

ولعلّ النجاح الذي نرجو ان يصيبهُ الناشر ، يحفزه ويحفز غيره من الناشرين الى اخراج طائفة من دواوين كثيرة لم يتح لجمهرة الادباء الحصول عليها

فهرس الجزء الرابع

من المجلد المائة

٣٠٩ اساطين العلم الحديث : وليم براغ
١ — اصول علم البلورات الحديث
٢ — براغ وبحث الذرة
٣ — الحل البلوري بالاشعة

٣١٨ روزفلت وهتلر : مقابلة

٣٢٥ غزاة قارتين يلقون حتفهم في البرازيل

٣٣٠ صفائح على قبور : لراجي الراعي

٣٣٢ المتخصص الاجتماعي في معركة الاصلاح : لمحمد العشماوي بك

٣٣٧ الحرب وأخلاط الفلزات

٣٤١ الحيوان في كتاب الإمتاع والمؤانسة : للاب انستاس ماري الكرملي

٣٤٨ فوق الحياة ! ! (قصيدة) لعبد الرحمن الخميسي

٣٥٠ الأمراض العصبية ومرضى النفوس : للدكتور ابراهيم ناجي

٣٥٧ الضحية : (تمثيلية) نقلها عن الصينية ابراهيم سيونغ

٣٦٥ حالات ضغط الدم

٣٦٧ العرب والتفكير العلمي : لِقدري حافظ طوقان

٣٧٣ حديقة المقتطف * مدرسة تاجور : لمحمود المنجوري

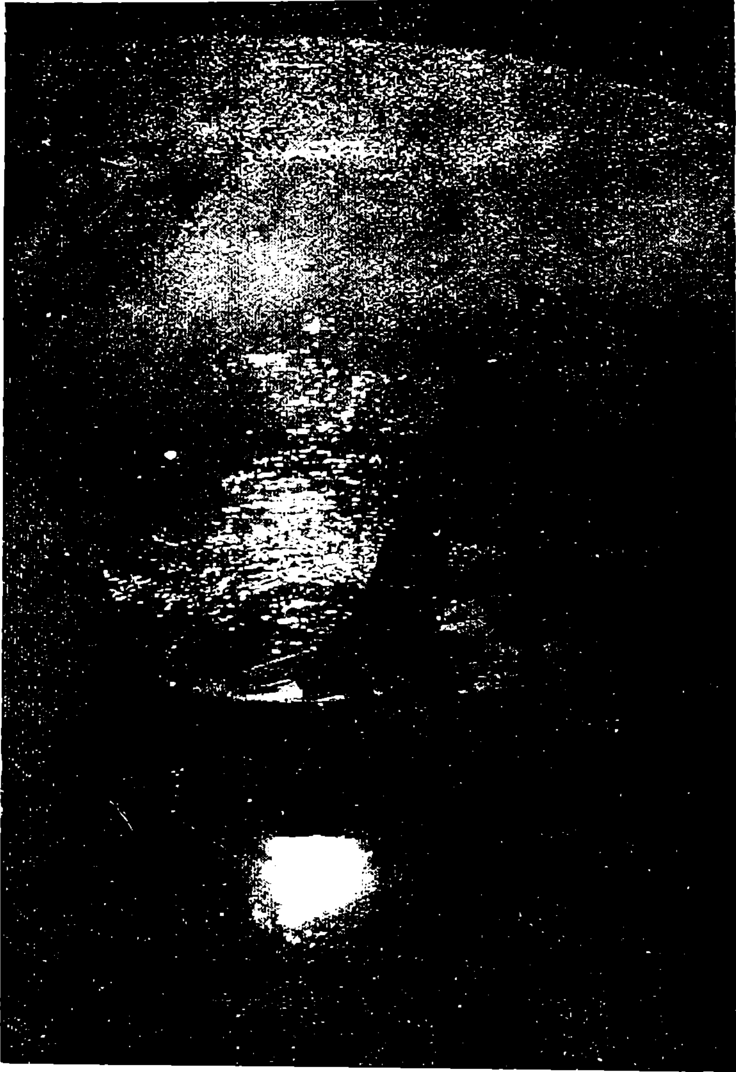
٣٨٤ باب الزراعة والاقتصاد * تنمية الثروة الحيوانية الزراعية : لعبد القادر الجمال باشا
النباتيون المشهورون وما يرمز بهِ اليهم : لمحمود مصطفى الدمياطي

٣٩٢ باب المراسلة والمناظرة * التمساح في الرسيس . مقال البراق النبوي . سؤال

---

٣٩٤ باب الاخبار العلمية * التنقيب عن المعادن في الظلمة . قنابل المدافع المضادة للطائرات . بريد الحمام او الحمام الزاجل في الحرب . العلم والتربية في بولونيا . الحيوانات في المحاكم . الجهاز الرحوي وعلاج السرطان . آلة كأنها عاقلة لتبين المجرمين . مرض بارلو وعصير البرتقال . الحديد في لبن البقر . الفيتامين والنبات . السلفاديازين وعلاج الحروق . وزن البيضة ووزن الطائر . النوترونات والصفات الوراثية . اضرار الاضاءة في اثناء الغارات . جهاز يتبين اشعة الراديوم . نقص فيتامين C . سعة عربات سكك الحديد

٤٠٤ مكتبة المقتطف * سوء تفاهم . ظواهر حجرة تحضير الارواح . حياة مي . الراعي والرعية . ديوان ابي تمام



الصياد على النيل

[تصوير جمال عزام]

المقتطف

الجزء الاول من المجلد المائة والواحد

١ يونيو سنة ١٩٤٢ — ١٧ جمادى الاولى سنة ١٣٦١

اوربا بين عهدين

موازنة تاريخية

الموازنات التاريخية كثيرة المزالق ، اذا اريد بها استخراج احكام عامة من موازنةٍ بين حادثين بعينهما ، أو بين رجلين من الأفذاذ . فليس في الوسع ان نستخرج حكماً تاريخيًّا أو حربيًّا عامًّا ، من المقابلة بين زحف نبوليون على موسكو في شهر يونيو سنة ١٨١٢ ودخوله العاصمة الروسية في سبتمبر ، وبين زحف هتلر صوبها في يونيو كذلك من سنة ١٩٤١ وعجزه عن دخولها حتى الآن . ولكن اذا كان فريق من الكتَّاب قد استسلم الى استخراج احكام عامة ، لا سند لها ، من هذه المقابلة ، فان ذلك لا يعني اننا لا نستطيع ان نجني فائدة ما ، من المقابلة بين الأحوال العامة في العهدين — عهد نبوليون وعهدنا هذا . ففي الطب مثلاً ليست كل اصابة بالانفلونزا مماثلة تماماً لكل اصابة أخرى . وكلما دعي طبيب لمعالجة حالة من هذا القبيل ، عليهِ ان يتذكر انها في ناحية ما مفردة ولا مثيل لها . واذا أهمل ذلك فقد يخفق في مهمته . ولكن عليهِ ان يتذكر كذلك انها تشبه الحوادث الاخرى في كثير من النواحي العامة والاحكام التي تجري عليها جميعاً . ولولا ذلك لما كان ارتقاء علوم الطب مستطاعاً ، ولا لخبرة الطبيب قيمة . فالطبيب يجني من خبرته ومن خبرة من تقدَّم وتجاربهم — أي من التاريخ — فائدة كبيرة . والواقع ان المهندسين والملاحين والفلاحين ، وغيرهم من رجال الاعمال ، يعملون ما يعملون استناداً الى ما يصح ان ندعوه التشابهات

التاريخية historical uniformities فاذا عدّوا هذه المتشابهات احكاماً مطلقة وبنوا عملهم على ذلك ارتكبوا خطأً فاحشاً ، ولكنهم اذا نفوا وجودها اطلاقاً كان خطأهم أفحش . وعلى ذلك فالموازنة — في نطاق هذا الموضوع — ليست بين حملة نبوليون وبين حملة هتلر على روسيا ، ولا بين شخصي نبوليون وهتلر ، بل هي موازنة بين الأحوال العامة والعوامل المتشابهة في تاريخ اوربا الاجتماعي ، في عهد نبوليون وعهدنا هذا

***

نشبت حرب اوربية عامة (١٧٩٢ — ١٨١٥) بعد انقضاء ثلاث سنوات على قيام الثورة الفرنسية . وكان اشتراك فرنسا في الثورة الأميركية ضد بريطانيا قبيل ذلك ، قد رفع قليلاً من منزلة الطبقة الحاكمة في فرنسا ، إلاّ أنَّ الفرنسيين كانوا قد هزموا هزيمة منكرة في حرب « المائة سنة » مع بريطانيا ، وفقدوا امبراطورية كبيرة في الهند وشمال اميركا الشمالية . وكانت حكومتهم مفلسة في سنة ١٧٨٩ وطبقات الشعب العامة تستنكرها وتنقم عليها . وكان زعماء الفكر فيهم ، قد مضوا جيلاً كاملاً وهم يدعون الى اصلاح منشآتهم السياسية والاقتصادية والدينية ، أي انهم كانوا يدعون الى انقلاب عام ، أو ثورة اذا شئت . وما دعا لويس السادس عشر « المجلس العام » الى الانعقاد في سنة ١٧٨٩ حتى قبض على زمام هذا الاصلاح الثوري . وبعد فترة قصيرة من الوحدة ، عقد فيها الرجاء على بعث الأمة بعثاً جديداً ، بأساليب الاصلاح السلمي ، اتجهت الثورة الى العنف ، فأسقط البيت المالك ، وانتقل السلطان رويداً الى الجماعات المتطرفة ؛ وتخلل انتقالهُ ، ما نشهده عادة ، من أعمال الارهاب في مثل هذه الأحوال . وفي اثناء « حكم الارهاب اليعقوبي » كان الحكم في يد فئة قليلة ، حكمت بالقوة بعد ما الغت جميع الحقوق المدنية . وما جاءت سنة ١٧٩٣ حتى كان الارهاب موجّهاً الى اعداء الفئة الحاكمة في الداخل ، والى اعداء فرنسا في الخارج كذلك . فنشبت الحرب بين فرنسا والحلف النمسوي البروسي ، في ابريل ١٧٩٢ ، امتدَّ نطاقها حتى أصبحت حرباً ضدَّ « الحلف الاوربي الاول » وقد اشتركت فيه كل اوربا تقريباً ما عدا روسيا وتركيا ، ضدَّ فرنسا الجمهورية. وكان الفرنسيون الذين دخلوا معمعة هذا النضال ، والحروب التي تلته ، مسيَّرين بعاملين اولاً — الرغبة في تحرير الدول الاخرى من الاستبداد . وثانياً « فرْنَسة » هذه الدول ولو كان ذلك يقتضي ضمها الى فرنسا . ولم يكن بين رجال الثورة الفرنسية ، من يرى تناقضاً بين الغرضين ، لايمانهم بأن كل دولة تصبح جزءًا من النظام الفرنسي ، تكون دولة حرَّة وان هذا الطريق هو الطريق الوحيد الى الحرية

لم يصب الفرنسيون نجاحاً في سنتي ١٧٩٢ و١٧٩٣ في الحرب وهدّدت باريس نفسها .

ولكن تجريد الجيش الشعبي الكبير ، وادماج ضباط الجيش القديم في الجيش الحديث ، والاستعانة بالعلماء والمخترعين والمهندسين ، وظهور فريق من القوّاد النوابغ — ولم يكن بونابرت الاّ احدهم وان كان اعظمهم — افضى الى انقلاب ميزان القتال ورجحان كفة فرنسا. إلاّ ان هذا النجاح لم يكن مردّه الأول والاخير الى قوة فرنسا ، بل كان جانب كبير من مردهِ الى ضعف خصومها ، وتمسكهم بأساليب الحرب القديمة ، واحجامهم عن الاتحاد ضدّ الفرنسيين . والمؤرخون يعدّون خمس محالفات اوربية انشئت لمقاومة فرنسا بين سنة ١٧٩٢ وسنة ١٨١٥ .ولو حاول كاتب ان يضع في جدول واحدٍ مَن مِن الدول الاوربية كان مع فرنسا او ضدّها او محايداً لكانت الصورة مضطربة ولخرج من بحثه هذا بحقيقة واحدة وهي ان بريطانيا دون غيرها كانت ضد فرنسا خلال هذه المدّة كلها اذا استثنينا الفترة القصيرة التي أعقبت صلح اميان سنة ١٨٠٢ . والواقع ان المحالفة الكبرى ضدّ فرنسا لم تعقد وقوة اوربا لم تحشد تماماً إلاّ في سنة ١٨١٢ وبعدها

وما تقلّد بونابرت منصب القنصل الاول سنة ١٧٩٩ وعزز مقامهُ وأيد طائفة كبيرة من الاصلاحات التي بدىء فيها سنة ١٧٨٩ ،حتى كانت الجيوش الفرنسية قد اكتسحت البلاد الواطئة وغزت المانيا وايطاليا . ثم أقام نبوليون نفسهُ امبراطوراً وسيداً لاوربا .وكان عندما بلغ أوجه قبل حملته على روسيا ، قد أحدث في خارطة اوربا من التعديل ما يبعث على الدهشة

في قلب هذا النظام الجديد كانت فرنسا ، بعد تنظيمها تنظيماً جديداً . وفرنسا هذه كانت تشمل بلجيكا وهولندا والساحل الالماني الى همبورج وشمال ايطاليا بما فيها تورينو وجنوى وپارما ومنطقتين أخريين وكان هو امبراطورها. ثم كان هناك الممالك التابعة يحكمها أعضاء اسرة نبوليون:— مملكة إيطاليا وهي تشمل مالم يضمّ الى فرنسا من ايطاليا الشمالية والوسطى وكان نبوليون يحكمها بواسطة نائب ملك هو ابن زوجتهِ اوجين ده بوهارنيه.ومملكة نابولي يحكمها عديلهُ مورا . ومملكة اسبانيا يحكمها شقيقه يوسف . واتحاد الرين وهو يشمل المانيا الغربية والوسطى وكان شقيقه جيروم ملكاً على وستفاليا فيها . ودوقية وارسو ولم يتح لها امير من اسرة بونابرت . وكانت سويسرا مستقلة ولكنها في الواقع كانت تابعة . ويلي ذلك حلفاء فرنسا وهي النمسا وبروسيا — بعد تضييق نطاقها — والدول السكندينافية . وأخيراً كانت روسيا مرتبطة بفرنسا بمعاهدة تلسيت .ولم يكن خارج هذا «النظام الفرنسي» في قارة أوربا إلاّ جزيرتا سردينية وصقلية يحميهما الأسطول البريطاني ، والبرتغال يحميها الجيش البريطاني الصغير بقيادة ولنغتن

أما بريطانيا فكانت خارج هذا النظام،لم تنتظم فيه برضاها ولا أرغمت على الانتظام،مع ان نبوليون حاول مرتين حشد جيش على ساحل المانش لإخضاعها . ولكن بعد معركة الطرف

الأغر ابتعد شبح الغزو النبوليوني على الساحل البريطاني، ونبوليون نفسه انصرف عن طريقة الغزو الى طريقة حصر بريطانيا بمنع أوربا من الاتجار معها، حتى تصاب باضطراب اقتصادي يفضي الى اذعانها. ولا يحتمل انهُ قصد الى تجويعها، فقد كانت تملك سيادة البحار، وارتقاء الصناعة فيها لم يكن قد بلغ مبلغاً يحوجها الى استيراد معظم طعامها من الخارج

والفرنسيون لم يفوزوا بالسيطرة على القارة الأوربية، بفعل القوة الحربية المتفوقة لا غير بل كان لنبوليون أعوان في كل بلد. نعم إنَّ الجماعات التي كانت ميالة الى التعاون مع فرنسا كانت أقلية، ولكنها كانت في شمال ايطاليا وبلاد الرين أقلية كبيرة يحسب لها حساب. ويضاف الى هذا ان الحكم النبوليوني في الممالك التابعة، أفضى الى اصلاحات غير يسيرة، استرضت جماهير الناس مدة ما. وفي سنواتهِ الاخيرة، اعتمد على جنود من الايطاليين والبولونيين والالمان وغيرهم. ومع ان الاعتماد عليهم كان غير تام، إلاَّ انهم كانوا يصلحون لبعض الأغراض. غير ان ذلك لم يغنه عن الاعتماد على عدد وافر من الفرنسيين في ادارة البلدان التابعة لفرنسا وحفظ الأمن فيها، وخاصة لأن بوادر البرَم لم تختفِ من بلدٍ ما، وفي اسبانيا لم تقبض الادارة الفرنسية على ناصية الحال تماماً، وقتاً ما

بدأت مغامرة نبوليون الاسبانية في سنة ١٨٠٧، « لحماية اسبانيا من الانكليز ». وبداءتها أصابت نجاحاً عند ما توّج يوسف بونابرت ملكاً في مدريد. ولكن ثورة الشعب الاسباني على الفرنسيين، برغم سحقها بالقوة، كانت الثورة الشعبية الاولى على السلطان الفرنسي في اوربا. وكانت المقاومة الاسبانية المستندة الى الجيش البريطاني — وهو لم يخرج من جنوب اوربا الغربي — فعالة في حمل نبوليون على الاحتفاظ بطائفة من صفوة جنده في اسبانيا وانهاك هذه الصفوة. فلما أبى القيصر اسكندر الروسي الاشتراك في الحصر الاوربي ضد التجارة البريطانية، وبدأ نبوليون حملتهُ على روسيا ومزقت أوصال جيشهِ الامبراطوري في الزحف والارتداد، أشرف النظام الأوربي النبوليوني على نهايته، إذ جمعت حكومات أوربا عزمها وحزمت أمرها على الاتحاد عليه. ولم يكن اتحادها هذا ميسّراً، لأن صيت نبوليون قد طبق الخافقين، وكان يُعدُّ قوة لا تُقهر، وكان لا بد حتى بعد عودته مقهوراً من روسيا، من كل حذق الساسة البريطانيين ومنزلة القيصر اسكندر ودهاء مترنيخ، للفوز بانشاء « الحلف الكبير ». وكانت النتيجة ما سجلهُ التاريخ عن تقلص ظلّ السيطرة الفرنسية في أوربا ونزول نبوليون عن العرش في فونتنبلو ونفيهِ الى جزيرة البا وعودته منها والفترة المعروفة باسم « فترة المائة يوم » ثم معركة واترلو

* * *

كلُّ هذا يشبهُ كثيراً مما توالى علينا من الاحداث في بضع السنوات الأخيرة ولو شاء الباحث، لوضع محل « اليعقوبيين » في الثورة الفرنسية « الحزب النازي » في المانيا، ومحلَّ

« شرطة الثورة » « كتائب الجستابو » ولوصف الجماعات الموالية لفرنسا في ايطاليا والمانيا بالطابور الخامس او جماعة كويزلنج ، ونظام نبوليون بالنظام الجديد ، ولقال ان صلح اميان في ١٨٠٢ كاتفاق ميونخ سنة ١٩٣٨ أملتهما الرغبة في ممالأة نبوليون وهتلر

ولكن هذا قليل الجدوى ولا حاجة بنا اليه . فهتلر كنبوليون ، توسل بالقوة العظيمة المنطلقة من حركة ثورية ، لغزو معظم القارة الاوربية . وكلاهما واجه مشكلة عظيمة نواتها تنظيم فتوحاتهما في دولة كبيرة تعلو على الدول القومية التي غزيت ، لترسيخ اقدام الغزاة وتمكين تحكمهم . وقد أخفق نبوليون في اخضاع بلد عظيم واحد ، هو بريطانيا ، واخفق كذلك في انشاء تلك الدولة الاوربية الخاضعة للسيطرة الفرنسية . فاذا مضت الموازنة بين الرجلين الى نتيجتها المنطقية ، فهتلر سيخفق كذلك على طول المدى . وقد استغرقت المدة اللازمة لظهور اخفاق نبوليون ربع قرن من الزمان . فهل في عهدنا عوامل طرأت على الاجتماع الاوربي ، من شأنها ان تبطل الموازنة التامة بين مصير نبوليون ومصير هتلر ؟

قبل سنة ونصف سنة من الزمان بدا لمتتبعي الحال ، ان هتلر قد يتمكن من غزو بريطانيا فيقضي على القوة الحربية الاوربية الاخيرة التي اعترضت سبيل نبوليون ، وظلت تعترض سبيله . واذا كان ذلك لم يتم فيجب ألاّ نستسلم الى ان المحاولة لا تجدد وان كان احتمال نجاحها الآن بعيداً . وما فتئت تلك المنطقة الضيقة من المياه التي حالت دون تحقيق حلم نبوليون ، تعترض سبيل هتلر . وحرب هتلر على الملاحة البريطانية الآن اشد خطراً من حرب نبوليون ، لأن بريطانيا اكثر اعتماداً على ما تستورده من مواد الطعام . ولكن معركة « المحيط الاطلسي » سائرة بوجه عام في مصلحة بريطانيا مع ان خسارة الملاحة في بحار الارض ليست مما يستخف به . ويجب ان نضيف إلى ان هتلر يجد في الولايات المتحدة الآن خصماً كبيراً قوياً ، لم يتعين على نبوليون ان يواجهه . واذا كانت الولايات المتحدة غير متأهبة تأهباً يذكر عند ما فرضت عليها الحرب في دسمبر الماضي ، فكذلك كانت بريطانيا غير متأهبة لحرب البر في سنة ١٧٩٩ — ١٨١٤ . وعلى كل حال فجميع الاحصاءات والأنباء تدل على ان اميركا تسير سيراً حثيثاً في ميداني التأهب الحربيّ والانتاج الحربي الصناعي

وهناك عامل آخر . ففريق من الكتاب ، يرى ان الفرق الكبير بين عهد نبوليون وعهد هتلر ، هو ان التقدم في صناعة الآلات الحربية الحديثة يمكن فئة قليلة من الجنود المحتلة المسلحة بطائرات ودبابات ورشاشات ، من ان تبقي الشعوب المغلوبة على أمرها خاضعة لها ، فلا تتكرر الآن في فرنسا او غيرها من البلدان المغزوة ، ثورة أسبانيا أيام نبوليون . وقتال العصابات في بعض هذه البلدان مهما يتجلّ فيه من ضروب البسالة والوطنية ، عاجز عن اكراه الالمان المسلحين ، على ارخاء قبضتهم ، ما دام السلاح الحديث وصناعته وقفاً عليهم

ولاريب في ان مقاومة من نوع مقاومة الأسبان لنبوليون ، قد تكون شاقة في هذه الأيام . فمن المتعذر مثلاً ان توزَّع الدبابات على الثوار سرًّا ، كما كانت توزَّع البندقيات وسائر الاسلحة الصغيرة . ولكن ، يجب ان نذكر انهُ لولا تأييد الجيوش النظامية للمقاومة السلبية في أسبانيا في أيام نبوليون لما أجدت المقاومة الشعبية في قهر نبوليون . والجيوش النظامية ، كانت حينئذٍ جيوش ولنغتن في شبه الجزيرة الايبيرية . وثورة الشعوب المغلوبة في عهد نبوليون ، لم تشبّ شبوباً قويًّا فعالاً الاَّ بعد عودة نبوليون من روسيا هزيماً . أما الآن فان الروس يحاربون ببسالة عجيبة ، وبراعة فائقة ، وثقة راسخة ، وبريطانيا وأميركا تمدانهم بالمعدات علاوة على ما يصنعونهُ هم في معاملهم . وجيش هتلر أصيب ، ماديًّا ومعنويًّا مع انهُ لا يزال جيشاً قويًّا . واذا تمكن الحلفاء من سيادة جوّ أوربا الغربية بطائراتهم ، فالجيش الذي يقابل جيش ولنغتن ، يستطيع إن ينشىء لهُ قواعد على البرّ الاوربي ، وعندئذٍ فقد تتماثل الاحوال ، على الارجح . ويجب ألاّ ننسى ان نشوءَ الصناعة الحديثة ، وتعقيدها ، واعتماد الجيوش عليها اعتماداً دقيقاً ، يجعل هذه الصناعة وتلك الجيوش عرضة لخسارة فادحة عن طريق تخريب يسير في مواقع حيوية ، وهذا التخريب قد يتم عن طريق المدنيين في البلدان المحتلة ، أو عن طريق المغيرات القاذفة

والالمان بشر بوجهٍ عام ، وهم معرضون للتأثر بعوامل الصداقة والحب والتراخي والملل ، في البلدان التي يحمونها او يحرسونها . واذا كان اعتماد الالمان في هذه الحراسة على المفتونين المتحمسين من شبابهم الهتلري ، فمن يتقلد زمام الحكم في المانيا نفسها اذا وزعت النخبة التي يعتمدعليها في طول القارة وعرضها ؟ حتى اذا كان في الوسع توزيع النخبة ، فهل تغيرت البواعث الأصيلة في طبيعتهم تغيراً يمكنهم من ان يمتنعوا زمناً طويلاً عن الحب والشهوة والصداقة وغيرها من العوامل التي أضعفت الحاميات الأجنبية في جميع البلدان في العصور السابقة ؟

ففي العصر الأغريقي القديم ، كان أبناء سبارطة ، قد دربوا تدريباً طويلاً دقيقاً يفوق في طوله ودقته تدريب الشباب الهتلري ، على حسبان الواجب والامر الصادر اليهم من الرؤساء فوق كل شعور أو عاطفة . ومع ذلك فان الحامية السبارطية في ثيبة ضعفت حالتها المعنوية بعد بضع سنوات ، فوقعت ضحية لمؤامرة دبرها وطنيو ثيبة وطردت من المدينة . واذا كانت الأسلحة الحديثة أفتك من الأسلحة القديمة ، وهي وقف على الحامية على الاكثر في العصر الحديث ، فان الطبيعة البشرية لم تتغير بواعثها الأصيلة كثيراً خلال الفي سنة من الزمان

ثم عامل ثالث . يقال ان رجال النازي يملكون أداة لم تكن متاحة لنبوليون ، فتمكنهم من الاحتفاظ بسلطانهم على الأمم المغلوبة . وهي اداة «الدعاوة» . فالاسلحة الحديثة في أيديهم تقضي على الثورة عليهم . والدعاوة الحديثة في أيديهم تقضي على مشيئة الثورة .

وقد قيل في هذا المعنى سخف كثير . فمن سنة او تزيد كان هناك من يزعم ان الألمان هم زعماء « ثورة الجماهير » في أوربا ، وان الجماهير في كل أمة أوربية يستعدون للترحيب بهم لأنهم يرون فيهم منقذيهم من النظام القديم ، وان جميع العادات والتقاليد والمثل الاجتماعية والثقافية القومية قد أصبحت من مخلّفات الماضي . ومع ذلك نجد ان مشيئة مقاومة النازي يشتد ساعدها ويتسع نطاقها يوماً يوماً من بلاد نروج الى يوغسلافيا ومن فرنسا الى بولونيا. وهذه المشيئة قومية لا ريب في ذلك . والدعاوة سلاح ذو حدين ، للنازي أحدها لا غير . ومهما يفعل النازي فانهم حيال فرنسا او غيرها أعجز مما كان نبوليون حيال البروسيين . بل لاريب في ان دعاوة الفرنسيين القائمة على مبادىء الثورة الفرنسية الكبرى ومبادىء الحرية والمساواة والاخاء كانت أفعل جدًّا من كل ما يقولهُ جوبلز . بل ان فعال الالمان في تشكيا وبولونيا وسربيا وفرنسا وحتى في ايطاليا ، أبلغ من كل ما يقولون . ومهما تكثر الاحاديث فهؤلاء القوم لا يمكن ان يرضوا عن النظام الالماني الجديد

من الجائز ان يتمكن الالمان في بضع السنوات المقبلة ، من استئصال شأفة المقاومة في البلدان المحتلة ، بممارسة تجويع الجماهير واعدام الزعماء والمفكرين وما أشبه من أساليب القسوة والإفناء. ولكن البشر قادرون في اشد الاحوال مشقة وقتاماً على ان يقاوموا مقاومة قد لا يتصورها العقل ، لأنها نابعة من أعماق الفطرة وغريزة البقاء . واذا استخرجنا من علم الطب استعارة قلنا ان سم المرض النازي إما ان يميت الشعوب ، وإما ان يدفعها رويداً رويداً الى توليد حصانة ضده . واذا صدقت عبر التاريخ السابقة ، ملنا الى القول بأن الثاني أدنى الى التحقيق

قال روشننج ان هتلر لا يستطيع ان يقف عند حدٍّ ما ، وان شهوة العظمة فيهِ ستدفعه الى المضي في طريق الفتح الى ان يصاب الألمان بالإعياء . وقد يكون هذا الحكم صائباً . فنبوليون ، لم يقف حتماً عند حد قبل فوات الأوان . ولكن حتى اذا توقف هتلر اوخلفاؤه عند حد فتوحاتهم الحالية وحاولوا ان ينشئوا من هذه البلدان دولة كبرى ، لما كان نجاحهم محتملاً . فالحكم على طول المدى يقوم على « القبول والعادة » . والقبول غير محتمل ، والعادة لاتفرخ كالفطر ، بل تربّى وترسخ زمناً طويلاً ويجب ان تكون تربيتها في احوال يرضى عنها المحكومون . ولا يبدو ان بريطانيا والولايات المتحدة وروسيا ستتيح لألمانيا فرصة لتربية شعوب أوربا على عادة التسليم بالنظام الجديد . ومما لا ريب فيه ان روسيا وبريطانيا لم تتيحا لنبوليون مثل هذه الفرصة مع ان سلطانه ظل قائماً مدى خمس عشرة سنة [1]

---

(١) ملخص واف لفصل انشأه كران برنتن استاذ التاريخ في جامعة هارفرد وصدر به عدد يناير من مجلة «الشؤون الدولية» وقد كتب قبل دخول الولايات المتحدة الحرب ولذلك تصرفنا في عبارتين منه وفقاً لما حدث اخيراً

تنظيم البحث العلمي

وأثره في تطوّر المجتمع

للدكتور علي مصطفى مشرفة بك
عميد كلية العلوم



العلم رائد

— ١ —

سيداتي سادتي : يروى عن السير إيزاك نيوتن انهُ سئل كيف اهتدى الى الكشف عن قوانين الجاذبية فكان جوابه بإعمال الفكر . فالسير إيزاك نيوتن الذي وصل الى معرفة نواميس حركات الكواكب ووحد قوانين الحركة بين الاجرام الأرضية والاجرام السماوية يعزو عمله الى الفكر . أردت ان أبدأ حديثي اليكم بهذه الحكاية القصيرة لأني سأتكلم عن التفكير البشري وسأخصه بالبحث والتحليل وسأبين ما له من شأنٍ كبير في حياتنا العلمية والعملية

فمنذ نحو ثلاثة عشر عاماً اجتمع لفيف منا في حجرة متواضعة وفكروا في انشاء هذا المجمع . وكان الغرض الذي يرمون اليه ان يكون عندنا أداة تشبه ما عند غيرنا لانشاء الصلة بين العلم والمجتمع ، بين العالم في معمله والرجل العادي في حياته . وكنا جميعاً نعرف ان انشاء هذه الصلة أمرٌ ضروري لامحيص عنه اذا أريد خير بالعلم في مصر وبالمجتمع . كنا نعلم ذلك عن طريق المشاهدة لما هو حادث في البلاد المتمدينة وكنا نعلمه أيضاً عن طريق التفكير المنطقي البسيط . واذكر ان أحدنا ولعلهُ الاستاذ فؤاد صرّوف أشار في خطبة له في اول اجتماع لهذا المجمع الى ان الاحتمال الوحيد ، اذا نحن لم نصل بين العلم والمجتمع انما هو الرجوع الى عصر السحر والطلاسم ، الى العصر الذي كان فيهِ رجال الدين في مصر القديمة يخصون أنفسهم بالعلم ويتخذون منهُ وسيلة للسيطرة على العامة من الناس ويتلمسون فيهِ قوة خفية تلقي الرعب في نفوس الجماهير وتخضعهم لارادة السادة من رجال الكهنوت

وقد شاءت الظروف ان يؤلف هذا المجمع وان يستقر أمره وان يعقد اجتماعات سنوية وأخرى شهرية مدة نيف وثلاثة عشر عاماً . واذا نحن استعرضنا مجموعة الابحاث التي ألقيت

(١) الجانب الاول من محاضرة الرآسة في المجمع المصري للثقافة العلمية سنة ١٩٤٢

فيه ، وجدناها تتصل جميعاً بالغرض الأساسي الذي أنشىء المجمع من أجله . فالعلم يبسط حتى يصير في متناول القارىء ، العادي والتفكير يتجه نحو المسائل التي ترتبط بحياتنا العلمية والفنية ، والبحث ينصبّ على الشئون الحيوية التي تؤدي الى رفعة المجتمع وقوته ورفاهيته

ومن الاغراض التي نرمي اليها في اجتماعاتنا ونحرص عليها الحرص كله تبادل الرأي فيما يثار من مسائل . فالخطيب او المحاضر يلقي علينا نتائج تفكيره وما اهتدى اليهِ في بحثه ثم يحدث تفاعل بين تفكير الفرد وتفكير الجماعة يؤدي في الغالب الى تقدم وكسب حقيقي في حلّ الأمور التي يعرض لها . هذا التفاعل بين تفكير الفرد وتفكير الجماعة هو في نظري العامل الحقيقي على تقدم العلم والمجتمع . واذا نحن رجعنا الى تاريخ الحركة العلمية في أوربا فاننا نجد ان هذا العامل كان له أكبر شأن في تقدم العلوم . فالمجامع العلمية في عواصم أوربا انما أنشئت بغية هذا التعاون الفكري بين الفرد والمجموع . ففي انكلترا مثلا نشأ مجمعهم العامي وهو الذي يسمى الجمعية الملكية باجتماع بعض المفكرين بغرض تبادل الرأي في المسائل العلمية. ففي عام ١٦٤٥ اجتمع نفرٌ من المشتغلين بالمسائل العلمية في انكلترا في غرفة احدهم وهو « الدكتور ولكنز » الاستاذ بجامعة اكسفورد ، بغية التحدث في الفلسفة الجديدة او الفلسفة الطبيعية كما كانت تسمى في ذلك العصر او بعبارة اخرى في المسائل العلمية كما نسميها اليوم . هذه الفلسفة الجديدة او الفلسفة الطبيعية كانت تنحصر في شيءٍ واحد وهو امكان الوصول الى المعرفة عن طريق المشاهدة المباشرة . وربما ظهر لنا اليوم ان هذا أمرٌ بديهي. ولكن علينا ان نتذكر ما كان للكنيسة في ذلك العصر من سيطرة على التفكير ومن سلطة على الجامعات . فجامعة اكسفورد كانت موجودة وجامعة كمبردج كذلك ، وكان لكل منهما مقام معلوم . وكان قد مضى على إنشاء كل منهما ما يقرب من خمسة قرون . وكان الاساتذة يتولون إلقاء الدروس ويمنحون « الدكتوراهات » وينشرون المؤلفات ولم يكن ذلك قاصراً على انكلترا وحدها بل ان الجامعات كانت قائمة في انحاء القارة الاوربية في باريس وفينّا وبالرمو وعدد آخر كثير من المدن والعواصم. ومع هذا كله رأى الدكتور ولكنز وزملاؤه ان يجتمعوا في حجرته الخاصة لكي يتبادلوا الرأي في الفلسفة التجريبية . وكلنا يعلم ما أدى اليهِ هذا الاجتماع المتواضع من انشاء الجمعية الملكية عام ١٦٦٠ واعتراف (شارل الثاني) وملوك انكلترا بعده بها ، وكيف ان السير ايزاك نيوتون اشترك في عضوية هذه الجمعية وألقى عليها بحوثه في قوانين الجاذبية وفي غيرها من نواحي العلم وكيف انهُ انتخب رئيساً لها وبقي في الرآسة بقية حياته. وكلنا يعلم ايضاً كيف عمل هذا المجمع العلمي في انكلترا وعملت المجامع العلمية المشابهة له في انحاء العالم على تقدم العلوم ونصرتها ورفعة شأنها

— ٢ —

من ذلك ترون أن تقدم العلم انما جاءَ عن طريق البحث والتفكير كما ترون ايضاً ان هذا البحث وان كان ينسب في العادة الى الافراد كأن ينسب القول بالتطور الى داروين او ان ينسب الكشف عن عنصر الراديوم الى كوري، أقول وان كان ينسب الى الافراد، الا انهُ في الواقع نتيجة لتفكير الجماعة. فلولا الكشوف التي سبقت عصر داروين في علم الحيوان وفي علم النبات لما قال داروين بالتطور. بل لولا ما كان يحيط بداروين من تفكير منظم في عصره لما استطاع أن يعمل ما عملهُ وان يضيف ما أضافهُ الى التفكير البشري. كذلك لولا بحوث بكرل ومن سبقهُ من علماء الطبيعة، بل وعلماء الكيمياء ولولا التعاون الفكري الذي كان يحيط بمدام كوري وزوجها لما استطاعا ان يفسرا اسوداد ألواحهما الحساسة بنسبته الى شعاع خفي من عنصر جديد. فتنظيم البحث والتفكير اذن شرط من شروط تقدم العلم ولعلَّ هذا الشرط هو العامل الاول في ازدياد الانتاج العلمي في العصر الحديث

كيف يكون اذن هذا التنظيم ؟ قبل أن أجيب عن هذا السؤال سأستعرض حالة البحث العلمي في البلاد المتمدينة ثم احاول ان اطبق ذلك على مجتمعنا المصري وان استرشد بهِ فيما يجب علينا ان نصنعهُ في مصر مع مراعاة ما يحيط بنا من احوال خاصة وما بيننا وبين غيرنا من فروق ومخالفات

لننظر اذن الى بلد من البلاد المتمدينة التي تنهض بنصيبها في البحوث العلمية نجد انهُ في كل حالة تنقسم البحوث الى نوعين رئيسيين. بحوث في العلم البحت وبحوث في العلوم التطبيقية ويجدر بي ان أسجل هنا الفرق بين هذين النوعين من البحوث اذ كثيراً ما يختلط امرهما حتى على المتعلمين منا

فالبحث العلمي البحت غرضه الوصول الى المعرفة أو الاضافة الى علم البشر. هو بحث يراد به الكشف عن أسرار الطبيعة على حد التعبير العادي. فنحن نعلم اشياء ونجهل اشياء. فمن بحث عن المجهول وأدخله في دائرة العلوم كان بحثه بحثاً علميًّا بحتاً. وأظن هذا المعنى قد صار واضحاً في غير حاجة الى اسهاب

أما البحوث التطبيقية فلها غرض آخر ليس هو الوصول الى المعرفة وانما هو الوصول الى القدرة فنحن نقدر على أشياء ولا نقدر على غيرها. فمن مكننا من عمل ما لم نكن نقدر عليه من قبل فقد بحث بحثاً تطبيقيًّا ناجحاً. ولأضرب لذلك مثلاً: في النصف الثاني من القرن الماضي قام هاينريش هيرتز ببحوث في علم الطبيعة برهن بها على وجود أشعة كهربائية تنتقل في

الفضاء فاهتمّ العالم العلمي بكشفه هذا . وكان أهم ما يعنى به العالم العلمي في هذا الوقت من أمر هذه الاشعة ان جاءت محققة لآراء كلارك مكسويل فيما يجب ان تكون عليه المعادلات الرياضية التي تربط بين الكهرباء والمغناطيسية . كانت معادلات كلارك مكسويل متفقة مع علم البشر عن خواص الكهرباء وارتباطها بالقوى المغناطيسية. فلما جاء كشف هيرتز عن أشعته الكهربائية تمّ تحقق معادلات مكسويل وصار من الممكن لعلماء الطبيعة ان يخبرونا بقوانين الكهرباء وارتباطها بالقوى المغناطيسية . ولذلك عُدَّت أبحاث هيرتز هامة في تقدم العلوم ومُنِح الألقاب الفخرية والجوائز والمداليات على عمله . أرجو ان تلاحظوا ان هؤلاء العلماء الذين أعجبوا بعمل هيرتز وقدروه حق قدره انما دفعهم الى ذلك شغفهم بالمعرفة وتعلقهم بالكشف عن أسرار الطبيعة . كما أرجو ان تلاحظوا ان قيمة العمل الذي قام به هيرتز في نظر هؤلاء العلماء إنما كانت بالنسبة الى ما لهذا العمل من أثر في تقدم العلم . ثم حدث بعد ذلك ان تنبه المشتغلون بالبحوث التطبيقية الى ما لعمل هيرتز من شأنٍ من وجهة نظرهم اذ رأوا فيه وسيلة تمكنهم من شيء لم يكونوا يقدرون عليه ألا وهو التراسل اللاسلكي . فاذا كان هيرتز قد كشف عن وجود أشعة كهربائية تنتقل في الفضاء ولا تحتاج الى سلك أو وسيلة مادية لنقلها فلماذا لا تستخدم هذه الاشعة في التراسل فيتمكن بذلك البشر من ارسال تلغرافاتهم دون الحاجة الى مد أسلاك فوق الارض او تحت الماء . انكم ترون ان هذا التفكير يختلف تمام الاختلاف في غرضه عن تفكير علماء الطبيعة الذين شغفوا بعمل هيرتز حبًّا في العلم ورغبة في المعرفة . وقد حدث كما تعلمون ان قام مهندسون ومخترعون، بالبحث التطبيقي في التراسل اللاسلكي اشتهر من بينهم ماركوني بمثابرته واتساع حيلته . ولعل في هذا المثال ما يكفي لتوضيح الفرق بين البحوث العلمية البحتة والبحوث العلمية التطبيقية

اذن فنحن أمام نوعين من البحث العلمي يختلفان في الغرض ومع ذلك فبينهما اتصال وثيق والعلاقة بينهما بصفة عامة هي العلاقة بين الأصل والفرع . فالبحوث العلميــة البحتة هي الأساس والبحوث التطبيقية مبنية عليها. ولا يمكن تصور البحث التطبيقي الاّ على أساس من العلم الأكاديمي . على ان العلاقة بين النوعين من البحث ليست بسيطة الى هذا الحد . فتقدم البحث التطبيقي يؤدي الى تقدم الصناعات المختلفة وتقدم الصناعات يضع في يد العالم الباحث أجهزة أدق وأحكم تساعده في الكشف عن أسرار الطبيعة . وبذلك يرد العلم التطبيقي الى العلم البحت شيئاً من حسن صنيعه

تنشأ اذن مسألتان أو بالأحرى ثلاث مسائل : —

أولاً — كيف ينظم البحث العلمي البحت

ثانياً — كيف ينظم البحث العلمي التطبيقي أو الصناعي
ثالثاً — كيف تنظم العلاقة بين هذين النوعين من البحوث

— ٣ —

ففي المسألة الأولى نجد أن البحوث العلمية البحتة في البلاد المتمدينة يتولاّها في العادة رجال الجامعات والمعاهد العلمية المختلفة فالأساتذة والمدرسون وغيرهم من اعضاء هيئة التدريس في الجامعات والمعاهد العلمية العالية يقوم كل منهم ببحوثهِ الخاصة متعاوناً في ذلك مع غيره من المشتغلين في فرعهِ والاستاذ في الجامعة يشعر ان أول واجب عليهِ متابعة البحث العلمي ويضع هذا الواجب فوق واجباتهِ الأخرى كالقاء الدروس وتنظيم الدراسات وما اليها. وجميع أساتذة الجامعات أعضاء في المجامع والجمعيات العلمية المختلفة كل في دائرة تخصصة. ولا يقتصر الأستاذ على متابعة أبحاثهِ الخاصة بل عليهِ أن يكون ملهماً لغيره ممن هم دونه في المرتبة العلمية ومشرفاً على بحوثهم ومرشداً لهم. ولذلك لا يصل الاستاذ الى كرسي الاستاذية الاّ بعد أن يثبت قدرته على البحث العلمي المبتكر وعلى ارشاد غيره فيه. فأعضاء هيئة التدريس في كل فرع من فروع العلم يؤلفون أسرة رئيسها الاستاذ صاحب الكرسي، تعمل كوحدة متماسكة في ميدان البحث العلمي يسترشد صغيرها بكبيرها ويتعاون الجميع على البحث والابتكار

والأمم المتحضرة تتسابق في ميدان المعرفة وتتنافس تنافساً شديداً. فالجامعات والمجامع العلمية في أنحاء المعمورة في جد متواصل تبحث وتنقب وتتبارى والمجلات والنشرات التي تخصص لهذه البحوث تعد بالألوف في كل عام. هذه المجلات يطلع عليها العلماء والباحثون ويسجلون فيها نتائج تجاربهم وآراءهم العلمية لا فرق في ذلك بين أميركي وياباني أو بين انكليزي وفرنسي فهي في منزلة مؤتمر دائم للعلوم يوحد بين وجهات النظر ويمحص الآراء ويعمل على تقدم العلم. وانما تقاس الجهود العلمية لأمة ما، بمقدار ماتنتجهُ في هذا الميدان فهو عنوان حياتها العلمية ومعيار رقيها الفكري. هذه المجلات التي تحتوي خلاصة التفكير العلمي لا يقرأها الرجل العادي في الغالب ولا يعرف بوجودها وان هو قرأها فانه لا يكاد يفقهها لاحتوائها على رموز ومصطلحات ليس لها مفهوم في ذهنهِ. ويحدث في بعض الاحايين أن تنشر الجرائد اليومية خبر منح جائزة نوبل الى فلان من العلماء فاذا قرأنا مثل هذا الخبر فان معناه ان أعمال هذا العالم المنشورة في هذه المجلات قد وصلت الى الحد الذي يجعل صاحبها في مصاف البرزين من العلماء. ويحدث كذلك ان نسمع باسم عالم او باحث مقترناً برأي ينسب اليه كأن نسمع باسم اينشتين مثلاً مقترناً بالنظرية النسبية فاذا حدث ذلك فان معناه ان الابحاث التي نشرها هذا

العالم في هذه المجلات والآراء التي أدلى بها قد وصلت الى الحد الذي يجعل صاحبها قائداً من قواد التفكير العلمي وان الرأي المنسوب اليه قد صار رأياً يعتد به بين العلماء . ولعلّ هذين المثالين هما مبلغ ما يصل الى علم الرجل العادي عن حركة التقدم العلمي وليس معنى هذا ان نهر المعرفة يجري في الظلام او ان العلم قد أصبح نوعاً من السحر أو الطلاسم الخفية مقصوراً على طائفة معينة من المجتمع كما كان في عصر المصريين القدماء بالشكل الذي اشرت اليه في اول حديثي بل بالعكس ان من أميز مميزات هذا النوع من البحث العلمي اباحته لكل قادر ونشر نتائجه نشراً حرًّا بعيداً عن كل رقابة وبغير ان يكون للناشر او المؤلف حقٌّ ما من حقوق النشر والتأليف فهو عمل يقصد بهِ وجه العلم ولا ترجى من ورائه أية فائدة الاّ التنافس المشروع بين العلماء . ولما كان البحث العلمي البحت لا يقصد بهِ فائدة مادية مباشرة ما ، كان من الواجب على كل أمة ان تشجع كل ذي موهبة على متابعة ابحاثه وان تهيء للباحثين أسباب الاطمئنان وتيسر لهم عيشهم لكي يتفرغوا لبحوثهم . وكما ان العرف قد جرى بيننا على ان يقوم الخيرون منا بوقف أموالهم على أعمال البر المختلفة كانشاء الملاجيء والمدارس والمستشفيات كذلك جرى العرف عند غيرنا من الأمم المتحضرة على ان يقف موسروهم أموالهم على البحث العلمي فنجد في كل جامعة وفي كل جمعية علمية أموالا مخصصة للبحث العلمي وصلت اليها عن طريق الهبات والتبرعات. ولا يقتصر الامر عند حد ما يجود بهِ الأفراد من مال بل ان الحكومات تخصص في ميزانياتها مبالغ ضخمة للصرف على البحوث العلمية البحتة فتصرف المكافآت الدراسية التي هي نوع من المرتبات الى النابغين من خريجي الجامعات لكي ينصرفوا الى البحث العلمي كما تشترى الاجهزة العلمية وتبنى المعامل وتجهز للبحث العلمي من هذه الأموال ولعلكم تذكرون اسم كارنيجي الاميركي الوطن الاسكتلندي الأصل صاحب الملايين الذي أوصى بملايين الدولارات للبحث العلمي في سائر أنحاء العالم كما تذكرون اسم نوبل السويدي الذي أوصى بجوائزه المشهورة كمكافآت على البحث العلمي الممتاز وغير هذين كثيرون وتبلغ الاموال التي تخصصها الدولة في انكلترا وحدها ملايين الجنيهات توضع تحت تصرف الجامعات والمجامع العلمية لتصرفها في تشجيع البحث العلمي

هذا هو الحال إذن في الدول المتمدينة . جامعات تعمل وجمعيات علمية تنظم وتشرف ومجلات علمية تطبع وتنشر وأموال تخصصها الدولة ويهبها الافراد لتصرف

ولعلهُ يكون من المفيد ان أشير الى الطريقة التي تتبع في تنظيم صرف هذه الأموال ففي انكلترا مثلاً يتولّى مجلس ادارة الجمعية الملكية الاشراف على هذا الصرف فاذا اراد باحث تخصيص معونة مالية تمكنهُ من اداء بحثهِ قدم طلبه بذلك الى الجمعية الملكية فيناقش ...

الادارة هذه الطلبات جميعها وابت فيها في ضوء التوصيات التي تصل اليهِ من العلماء المعروفين وفي ضوء الخبرة الشخصية لأعضاء المجلس . وفي أميركا هيئة عليا تسمى مجلس الابحاث الوطني يعهد اليها في تنظيم الصرف على البحوث العلمية والنظر في الطلبات التي تقدم اليهِ . وفي فرنسا قبل الحرب الحالية خصت وكالة وزارة بالبحث العلمي وجعلت لها ميزانية تصرف منها على تشجيع البحوث واعانتها . وفي كل بلد من البلاد المتمدينة الاخرى توجد وسيلة قومية حكومية أو غير حكومية لتنظيم الصرف على البحوث العلمية ويجب ان نذكر أن هذه المبالغ التي تخصص للبحث العلمي هي غير ما تخصصه الجامعات والمعاهد العلمية المختلفة . فالجامعات ما فتئت المقر الرئيسي للبحوث العلمية وهي تنفق على هذه البحوث من أموالها الخاصة ومن الهبات والتبرعات والاعانات الحكومية

— ٤ —

هذا هو الحال اذن في الامم المتحضرة ولنا ان نستخلص منه دروساً ننتفع بها في تنظيم حياتنا العلمية . فمن ناحية يجب علينا ان نعنى بالبحث العلمي في الجامعة التي انشأناها وفي كل جامعة اخرى نقوم بانشائها . يجب علينا ان نذكر أن مقام الجامعة بين جامعات العالم لا يكون بعظمة مبانيها ولا بكثرة طلبتها ولا بضخامة ميزانيتها . وانما تقاس رفعة الجامعة وعلو شأنها بمقدار ما تنتجه من البحوث العلمية فهذه هي التي تنشر على الملأ بين العلماء وهي التي تبقى على مرّ العصور . يجب اذن ان نحرص كل الحرص على انتقاء اساتذة الجامعة من بين الذين برهنوا على مقدرتهم على البحث العلمي وشغفهم به وارشاد غيرهم فيه ويجب ان نسارع الى تشجيع الباحثين منا بكل ما تملك الدولة من وسائل مادية وأدبية . يجب ان يشعر كل مشتغل في ميدان البحث العلمي ان عملهُ مقدور مشكور وان ميدان هذا العمل هو الميدان الوحيد للتنافس بينه وبين غيره من الباحثين وعلى اولي الأمر منا ان يعنوا اشد العناية بهذه الناحية من نواحي الحياة الجامعية وان يضعوا هذا الاعتبار فوق كل اعتبار آخر وألاّ يجاروا بعض قصيري النظر ممن يقيسون عمل الجامعة وحاجاتها بعدد الطلبة وعدد الدروس التي تلقى عليهم . ومن ناحية اخرى يجب ان نسارع الى انشاء مجمع علمي يتصل اتصالاً وثيقاً بحياة علمائنا وباحثينا ويكون له من المقام العلمي ما لغيره من مجامع الأمم المتحضرة . وفي رأيي ان انشاء هذا المجمع امرٌ لا مفر منهُ اذا اردنا للبحث العلمي في مصر نموّاً واطراداً . واختيار اعضاء هذا المجمع عمل من أهم الاعمال وأبعدها اثراً في مستقبل حياتنا العلمية فالجاه والمنصب والنفوذ الشخصي جميعها أمور محلية يجب أن لا نقيم لها وزناً

في اختيار اعضاء المجمع . والشيء الوحيد الذي يجب ان يدخل في حسابنا هو المقام العلمي المبني على الانتاج المبتكر في ميدان البحث العلمي . ومن ناحيــة ثالثة يجب علينا ان نعنى بنشر البحوث العلمية التي يقوم بها اساتذة الجامعة وسائر المشتغلين بالبحث والابتكار . فالكثير منا يكتفي اليوم بنشر ابحاثه في المجلات الاجنبية لما لهذه المجلات من مكانة معترف بها ولو جمع ما ينشر في كل سنة من بحوث المصريين والمقيمين في مصر في هذه المجلات الاجنبية ، ووضع بين دفتين لـكفى لاخراج مجلة بل لعلهُ يكفي لاخراج مجلات متعددة

وفي رأيي انهُ قد آن الأوان لتنظيم اصدار مجـلة او عدة مجلات علميــة في مصر واذا أنشيء المجمع الذي أشرت اليه فان البحوث التي تلقى فيه ستنشر بطبيعة الحال في مجلة دورية . وتصدر بعض الهيئات العلمية في مصر اليوم مجلات دورية او نشرات متسلسلة تدوّن فيها بحوثها العلمية. وفي البلاد الأخرى تعرض البحوث عادة على محكمين متخصصين يقومون بفحصها وتقرير صلاحيتها او رفضها ولا يضير المجلة أو الهيئة العلمية ان يكون المحكمون خارجين عنها فالبحث العلمي اليوم قد وصل الى درجة عالية من التخصص الضيق بحيث لا يوجد في العالم كله إلاَّ نفر قليل يستطيع كل منهم ان يحكم على مستوى بحث معين ونحن اذا سلكنا هذا السبيل فلن يضيرنا الالتجاء الى محكمين من غير المقيمين في مصر كلما وجدنا ضرورة لذلك لـكي نحتفظ بمستوى عالٍ لمجلاتنا العلمية . وستكون اللغات التي تنشر بها الابحاث هي اللغات العلمية الاربع المعترف بها في المؤتمرات الدولية ولـكن واجبنا نحو اللغة العربية ونحو أنفسنا يقضي علينا بنشر تراجم او ملخصات عربية لـكل ما ينشره

فاذا نحن قمنا بانشاء مجمع علمي على النحو الذي ذكرتهُ ونظمنا نشر البحوث بالطريقة التي وصفتها فان على الدولة ان تقوم بتخصيص المال اللازم لتشجيع البحوث والانفاق عليها وعلى رجال العلم ان يطالبوا الدولة بذلك لأنهم أبصر من غيرهم بضرورته وفائدته

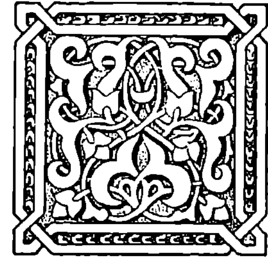
« .. ان علماءَنا ومستنبطينا أغلى ممتلكاتنا القومية . كل مبلغ من المال ، »
« مهما يعظم ، ضئيل ازاءَ عمل هؤلاء الرجال المتصفين بالقدرة على الابداع »
« وبالتفاني والمثـابرة على ترقيـة الفكر العلمي . . . . اننا لا نستطيع ان »
« نقوّم ما عملوه لترقية العلوم بكل ربح البنوك في جميع انحاء المعمورة ... »

[هربرت هوفر ، رئيس الولايات المتحدة السابق]

قطرات ندى

لراجي الراعي

* البحر كأس من الماء اذا شرب هرقل . .
* الرمال شرر الصحراء يتطاير من لهيب قلبها المشتعل . .
* البصر بعض البصيرة او هو أداتها . .
* اليوم بيت من الشعر في ملحمة الخالق ، صدره ما سبق الظهيرة وعجزه ما تلاها ، والغروب هو القافية ..
* الغصن الذي يحمل الثمرة اليانعة يدٌ تشير الى الخبرة والحنكة
* كلما قطّعوا الاوتارَ حميتُ قلبي بيدي . .
* الأمثال دنانير تضربها الحكمة وتوزعها على الناس
* الرماد نار شابت !
* الأرض تفرج كربها بالبراكين . .
* الموجة شهوة البحر
* الرماد ثورة سكنت او جنون صحا أو جريمة ندمت أو فجورٌ تاب ..
* ان للبحر اسراراً يهمسها في آذان لآلئه المتواضعة وأصدافه الهادئة الأمينة لأنهُ يثق بها أكثر مما يثق بموجته الطائشة المزبدة الحمقاء . .
* الصدور ألواح العرش الذي يتربع عليه الموت . .



العلم والادب والاساطير

في كتب السلف (١)

للامير مصطفى الشهابي
وزير المعارف السورية سابقاً

لا يجهل أحد ان أجدادنا العرب قد خلفوا لنا تراثاً علمياً وأدبياً ضخماً ، وان معظم ما ولدته قرائح السلف من الكنوز الثمينة قد طوته الايام في طياتها ، وغيبته في مجاهلها ، ففقد واندثر ولم يبق منه سوى أسماء مصنفات يقرؤها المرء في تراجم المؤلفين . ولكن الجد العاثر لم يقو على اتلاف جميع هذه المصنفات ، بل لبث منها جملة صالحة مبثوثة في دور الكتب العامة والخاصة في الشرق والغرب كدار الكتب المصرية في القاهرة ودار الكتب الظاهرية في دمشق ودور كتب ليدن وبرلين والاسكوريال ولندن وباريس وغيرها كثير

ومن المعروف ان علماء العرب والاسلام كانوا إبان مدنيتهم الزاهرة حلقة مهمة من حلقات تاريخ العلوم البشرية . ولهذا اذا أنعمنا النظر في مخلفاتهم ألفيناها تتضمن خلاصة علوم الاجيال القديمة ، أي زبدة ما ولدته قرائح الأمم التي درجت قبل العرب في القرون الأولى ، مع اضافات جليلة أضافها علماء العرب اليها في مختلف العلوم ، ولا سيما فيما له صلة بالعلوم الاسلامية وعلوم اللغة وفنون الادب العربي

ولا ينكر أحد فضل المستشرقين علينا فيما نشروه من تلك الكتب في القرن الماضي وفي القرن الحاضر ، بعد ضبط موادها وتمحيصها وفهرستها وضبط كثير من كلمها بالشكل الكامل وطبعها على ورق صقيل بأحرف جميلة وابرازها للناس بحلل قشيبة . ولا ينكر أحد أيضاً فضل مطبعة بولاق الأميرية ، ودار الكتب المصرية ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر فيما نشرته وتنشره من الكتب القديمة والحديثة

والذي حداني على كتابة هذا المقال وقوع نظري على بعض كتب قديمة نشرها الناشرون حديثاً دون أن يتساءلوا هل في نشرها فائدة أو لا ، فالكتب القديمة ليست كلها مفيدة ، بل يمكن القول بأن بعضها مضر ولا يجوز ان يقرأه الناس في أيامنا هذه . وليس في قولي هذا غرابة ، وإقامة الدليل عليه من أبسط الأمور . وما علينا الا ان نلقي نظرة على أنواع العلوم التي صنف فيها أسلافنا العاملون فتتجلى لنا هذه الحقيقة بأجلى مظاهرها

---

(١) محاضرة ألقيت في ردهة المجمع العلمي العربي بدمشق وخص المقتطف بنشرها

﴿علوم السلف﴾ يمكن قسمة علوم السلف (من حيث بحثنا هذا) ستة أقسام وهي : أولاً — علوم الدين . ثانياً — علوم اللغة . ثالثاً — آداب اللغة . رابعاً — ضروب الفلسفة خامساً — العلوم المادية . سادساً — العلوم الاجتماعية

فالعلوم الدينية من فقه وحديث وعقائد وغيرها لا نتعرض لذكرها ، لأن لها في الازهر وغير الازهر علماء أعلاماً هم أدرى منا بحقائق ما صنفه أسلافهم فيها ، وبما يفيد او لا يفيد نشره من تلك المصنفات . ولا بدَّ لكل شخص يلم الماماً بالكتب المذكورة من ان يدهش للجهود الكبيرة المضنية التي جعلتهم يطلعون علينا بهذا التراث العظيم . لكن الكتب القديمة للعلوم الدينية خضمٌ واسع الارجاء يضلُّ فيه أمثالي ويتمنون ان يقرأوا بدلاً منها كتباً دينية حديثة مبسطة حسنة الترتيب والتبويب خالية من الحشو والتطويل ، يستفيد منها غير المعممين قبل المعممين . ولو صنف علماء اليوم كتباً كهذه وجعلوا الكتب القديمة للاختصاصيين من علماء الدين دون غيرهم ، لأفادوا جمهور المتأدبين فوائد كبيرة

أما كتب اللغة التي صنفها الأجداد فلا غنى لنا عنها ريثما نصنف ما هو أجود منها في هذا الزمان الذي اتسعت فيه المعارف البشرية حتى ضاقت معجماتنا عنها كل الضيق. فالقاموس المحيط واللسان والصحاح والمخصص والتاج وأساس البلاغة وأمثالها كلها اليوم ضرورية . وقد خدم ناشروها لساننا العربي خدمة جلى . ولا بدَّ من الاحتفاظ بها وبنسخها المشذبة أي المعاجم الحديثة كمحيط المحيط وأقرب الموارد والمنجد والبستان وأضرابها . ولكن جميع هذه المعاجم لا تصلح في الحقيقة لزماننا هذا لان فيها من العيوب والنقائص ما لا يعد ولا يحصى وحسبك منها ان معظم ما ورد فيها من الأسماء والمصطلحات لم يُعرَّف تعريفاً علمياً [1] . ولست أدري متى يصبح عندنا معجم عربي (كمعجم لاروس الصغير مثلاً) ضبطت فيه معاني الالفاظ ضبطاً علمياً ؟ ومتى يكون لنا معجم فرنجي عربي يشتمل على أجود الكلم العربية او المعربة للمصطلحات العلمية والمخترعات الحديثة ؟ ولست أدري من هم عشرات العلماء الذين يستطيعون صنع هذين المعجمين على ان يعمل كلٌّ منهم في نطاق اختصاصه ؟ ومهما يكن من أمر فلا بدَّ لنا قبل تحقيق هذه البغية من الاستعانة بالمعاجم القديمة والحديثة، ومن الترحيب بما يطبع من أبحاث اللغة كالافصاح الذي اختصرت فيه ألفاظ المخصص ، وكرسائل الثعالبي التي كانت طبعت في مطبعة بيروت للآباء اليسوعيين ، وكأدب الكاتب لابن قتيبة الذي طبعه الكاتب الألمعي السيد محب الدين الخطيب ، وكرسالة الكرم التي نشرها الاستاذ اللغوي سليم الجندي في مجلة المجمع العلمي العربي الخ

(١) انظر مقالي في عيوب المعاجم العربية في عدد تشرين الاول « اكتوبر » سنة ١٩٤٠ من المقتطف

وأما آلات اللغة وأخص منها الصرف والنحو فكتبها القديمة هي النبع الذي يستقي منه كل أديب متمكن من لسانه . ولا سبيل الى نكران الثمرات التي يجنيها المتأدبون من تلاوة كتاب سيبويه ومغني اللبيب وشرح الشافية وأمثالها . ولكن من ذا الذي ينكر ان قواعد لغتنا العربية تحتاج الى تبسيط ، وان الانكباب على كتب الصرف والنحو القديمة يعدّ من الأمور المضنية ، وان طلاب الادب يرجحون تلاوة الكتب المدرسية الحديثة لسهولة فهمها. ومع هذا لا بدَّ لنا من الاحتفاظ بالكتب القديمة ليرجع اليها أساتذة اللغة وعلماؤها

﴿ كتب الادب القديمة ﴾ هي في نظري من أعظم مخلفات الأجداد شأناً ، ومن أشدها تأثيراً في كياننا القومي . فهي التي تعلمنا بيان لغتنا وتعابيرها ومصطلحاتها ، وهي التي تطلعنا على جانب من مدنية أجدادنا وعلى كثير من عاداتهم وأخلاقهم وسيرهم وحكمهم وأمثالهم ومعيشتهم ، سواء في ذلك المتبدون أم المتحضرون منهم . وأرى أنهُ لا يمكن ان تقوم قائمة لشعب من الشعوب في عصر القوميات هذا ، اذا أهمل تراث لغته الأدبي . ولهذا وجب ان نهتمَّ بكتب أدبنا القديم لا لما فيها من فوائد بيانية حسبُ ، بل لما حوتهُ من شئون قومية يستفيد منها كل عربي صميم ، دع الذين عروبتهم من قوارير . ويتضح من ذلك ان العمل على نشر أمهات كتب الادب يعد من الأمور الحيوية للغتنا ولقوميتنا جميعاً . ولا تقدر الفوائد التي نحصل عليها من مثل طبع الكامل والأمالي والبيان والتبيين والأغاني والعقد الفريد ونشوار المحاضرة ودواوين فحول الشعراء وتراجم كبار الأدباء . ولا يقل شأناً عن ذلك جمع أمثال العرب وحكمهم وقصصهم كما فعل مصنفا كتاب (قصص العرب) المطبوع في مصر حديثاً

واذا دعوت الى ضرورة طبع كتب الادب القديمة والى ابرازها على المتأدبين بحلل قشيبة ، والى اقبال شبابنا المثقفين عليها ، فلست أنكر ان الادب العربي كائن حي يجب ان يتطوَّر مع الزمن كسائر الأحياء ، وانهُ يجب ان يكون لنا أدب جديد يتناول من شئوننا الحاضرة ما تناوله الادب القديم من شئون آبائنا الأولين . فأنا اذن لا أقول بوجود أدب قديم وأدب جديد . بل بوجود ادب عربي واحد حي نام يتطور مع الزمن بأساليبه وصوره وعلى شبابنا المثقفين ان يتزودوا بالسائغ من هذا الادب قديمه وحديثه . فمن القديم يتعلمون ملكة البيان في دقائق التعبيرات والمصطلحات ، ومن الجديد يتعلمون اساليب الغربيين أو قل أساليب المتأخرين في الانشاء الواضح والافكار المتسلسلة

وفي الادب القديم يعيشون بخيالهم في مجتمعات الاجداد ويتعلمون محبتهم . وفي الأدب الجديد يجدون صور مواطنيهم وغير مواطنيهم من الأجيال الحاضرة، وصور البيئات التي يعيشون فيها . ويتضح من ذلك ان في قديم الادب العربي وحديثه اموراً ينبغي لكل متأدب الاطلاع عليها على السواء . ومن خطل الرأي بل من التجني على لغتنا وعلى قوميتنا

القول بأن الأدب العربي القديم لا يصلح لهذا الزمان ، وانهُ يجب ان نقطع صلتنا بهِ . ومن خطل الرأي ايضاً بل من التجني على لغة الضاد الاكتفاء بأساليب الأدب القديم والاعراض عن اساليب عصرنا الحاضر . فاللغة العربية يجب ان تظل حية نامية . ولا يتيسر لها ذلك الاّ اذا صور أدباؤنا المحدثون بيئتنا الحاضرة بأساليب الغربيين وببيان الأدب القديم واشراقه

﴿ العلوم المادية ﴾ هي بيت القصيد في هذا المقال . وقد حفزني الى كتابته اقدام بعض الجماعات على نشر مخطوطات عربية قديمة في علوم طبية وزراعية لا تصلح لزماننا هذا

ومن المعلوم ان العرب القدماء قد اشتغلوا كثيراً بالعلوم الرياضية والطبية والزراعية كما اشتغلوا بالكيمياء والنبات والحيوان وغيرها . فالعلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة ومثلثات وفلك لا يغير الزمان قواعدها ونظرياتها المضبوطة . ولا يكون اثنان واثنان الاّ اربعة سواء أفي الماضي أم في الحاضر أم في المستقبل . ولا ضير اذن في نشر ما امكن نشره من مخلفات الأجداد في هذه الموضوعات الرياضية ، ولاسيما اذا تمشى ترتيبها وتبويبها مع مقتضيات عصرنا الحاضر

اما العلوم الزراعية فقد تبدلت مما كانت عليه في القديم تبدلاً كليًّا . فمنذ أوائل القرن التاسع عشر كشف العالم السويسري (سوسور) حقائق عظيمة الشأن في الفسيولوجية النباتية من الوجهة الكيميائية ، ثم وضع لبيغ Liebig الالماني وبوسنغلط Boussingault الفرنسي أصول الكيمياء الزراعية وكيفية اغتذاء النبات بالعناصر الغذائية ولاسيما بالاملاح المعدنية . ثم كشف باستور عن الميكروبات وعلل حصول الاختمار . ثم فحص العلماء تركيب الاسمدة والاتربة والغلات والثمار ، واستنبطوا اصناف الزروع والشجر وسلالات عديدة من الحيوانات الاهلية ، واخترعوا الآلات الزراعية ، ودرسوا طبائع الحشرات والمكروبات وامراض النبات الخ الخ

وهكذا أصبحت الزراعة الحديثة قائمة على ادق الأسس العلمية . ولم تبق أية صلة تذكر بين قليل ما كان يعرفه الاقدمون في شئون الزراعة العملية وبين العلوم الزراعية الواسعة في ايامنا هذه . ويتضح من ذلك انهُ لا فائدة من نشر المخطوطات الزراعية القديمة ، بل في نشرها ضرر لما حوتهُ من الخرافات والاساطير التي ينبو العقل عنها . ولا يخطر في بال اوربي تلاوة كتاب زراعي الف قبل القرن التاسع عشر لعلمه بان الزراعة قد تطورت تطوراً كبيراً في القرن الماضي وفي القرن الحاضر

وهكذا الحال في الطب . فلليونان والعرب فضلٌ كبير في هذا الباب . ولكن أين طب الايام السالفة ، من العلوم الطبية الواسعة في هذه الايام ؟ وأين تشريح الماضي من تشريح اليوم ؟ وأين المداواة بالعقاقير من المداواة بالادوية الحديثة ؟ واين الجهل بالمكروبات

من معرفة حياتها وعملها في جسم الانسان وأين وأين؟لقد تقدمت العلوم الطبية تقدماً لامجال معهُ للبحث عن الطب القديم ولا عن كتبهِ القديمة. والطبيب الذي يقتصر في المداواة على هذه الكتب يُسمَّى اليوم دجالاً ويعاقب بالسجن في شرائعنا وشرائع البلاد الاوربية على السواء

اما الكيمياء فقد قلبت رأساً على عقب . ويكاد هذا العلم ان يكون اليوم غير الكيمياء القديمة بتاتاً . فأين تلك الاعمال التي كانوا يأتونها في التفتيش عن الذهب او بغية طبخ العقاقير النباتية، من أنواع الكيمياء المعدنية والعضوية والتحليلية في العصر الحاضر، وأين الاجسام القليلة التي عرفوها أو أوجدوها ، من العناصر التي كشف عنها اليوم ، ومن ألوف المركبات الكيميائية التي تستعمل في الطب والزراعة والصناعات المختلفة ؟

وهكذا أمر النبات. فاليونان ثم العرب قد عرفوا كثيراً من النباتات التي تنبتها الطبيعة، وحلوها تحلية حسنة ، أي وصفوا صفاتها الخارجية وصفاً في بعضهِ كثير من الدقة . ولبعض العشابين من العرب شهرة عالمية كالغافقي وابن الصوري وابن البيطار . وللاطباء والعلماء المشهورين أبحاث جليلة في مفردات الادوية كالرازي وابن سينا وابن ماسة وعبد اللطيف البغدادي والبيروني والادريسي وغيرهم . وتعد مفردات ابن البيطار من أجل المؤلفات النباتية في تلك الأيام

ولكن كل ذلك لا يعد صالحاً ليوم الناس هذا . فعلماء القرون الوسطى كانوا يجهلون المجهر اي يجهلون الخلية ودقائق اعضاء النبات ونسجه، وكانوا يجهلون كيفية تغذي النبات ، والمواد المعدنية التي يتغذى بها، والاعمال الكيميائية التي تحصل في حياته وفي نموه. ولهذا لم يكن لهم معرفة بالتصنيف الحديث ولا بالفسيولوجيا ولا بالتشريح الداخلي ولا بعلم حياة النبات، ولا بالأسس العلمية التي يقوم عليها علم إصلاح النسل، وكل ما عرفوه من هذه العلوم العويصة امور سطحية كانوا يشاهدونها في شكل النبات الخارجي وتجارب بسيطة كانوا يجربونها في حياته وفي خواصهِ . وكثيراً ما كان يختلط عليهم الصحيح بغير الصحيح

ولم تكن معرفة الأقدمين بعلم الحيوان تزيد على معرفتهم بعلم النبات الاَّ فيما له اتصال وثيق بهم كالخيل والابل مثلاً فان معرفتهم بها كانت واسعة كمعرفتهم بالنخل من النبات. والدليل على ذلك الالفاظ العديدة التي نراها في معاجمنا لتلك المواليد ، مما ليس له مثيل في اي لغةٍ ما لغات العالم على ما اعتقد . ولكن هذه المعرفة لا تتعدى الظواهر والمرئيات والملاحظات التي يلاحظها المرء في طويل اتصاله بتلك الحيوانات : اما الاسس العلمية التي يقوم عليها علم الحيوان فقد كانوا يجهلونها جهلهم لأمثالها في علم النبات. وهذه الاسس هي وليدة النهضة الاوربية الحديثة ولا نجد منها شيئاً يذكر في كتاب الحيوان للجاحظ ولا في حياة الحيوان للدميري

وعرف الأقدمون شيئاً من ابحاث علم الفيزياء (علم الطبيعة ، علم الطبيعيات) كبعض

أبحاث الصوت والضوء والسائلات . ولكنهم جهلوا بعض نظرياتها الاساسية كما جهلوا بحث الكهرباء العظيم برمته . ولم يكن لديهم بعض آلات الضوء الحديثة ولا آلات الكهرباء العديدة المعروفة ولا آلات الجويات (كموازين الحرارة والجو والمطر وسرعة الرياح) الخ . وفي الحقيقة لقد تقدم علم الفيزياء تقدماً مدهشاً . ولم يبق اي اتصال يذكر بين عهد مبادئه البسيطة في القديم ، وعهد الكهرباء وتحطيم الذرية أي الجوهر الفرد في العهد الحديث .

ويتضح من هذا البحث المجمل ان العلوم المتعلقة بالطب والزراعة والنبات والحيوان والطبيعة قد تقدمت في النهضة الحديثة تقدماً واسعاً جدًّا ، وان مؤلفات الاقدمين في هذه العلوم لا تصلح لزماننا هذا ، وان الاكتفاء بها معناه الرجوع الى القرون الوسطى أو الى القرون الاولى . ومع هذا لا تخلو هذه الكتب من فوائد . وأهم فوائدها كونها تهدي المؤلفين الى عدد لا يستهان به من الألفاظ والمصطلحات العلمية مما يجب اقتباسه واستعماله في الكتب الجديدة . ومن فوائدها كونها تحسب حلقة من حلقات تاريخ العلوم البشرية . ولهذا قد يستفيد العالم من تلاوتها اذ يقايس بين محتوياتها ومحتويات الكتب العصرية . ولكن الطلاب والمتأدبين لا يجوز ان يضيعوا وقتهم بقراءتها ، فان فائدتهم منها لا تذكر اذا قيست بالفوائد التي يجنونها من تلاوة الكتب الحديثة

﴿ كتب الفلسفة والاجتماع ﴾ ضلَّ من ظن ان العقل البشري قد تقدم في أبحاث ما وراء الطبيعة خطوة واحدة منذ أيام ارسطو حتى يومنا هذا . فنحن ما زلنا نجهل حقائق هذا الكون العجيب ، وما برحنا نتخبط في تلمس أسراره وفي استقصاء أحاجيه . ولم تتبدل تلك الاسئلة التي يتساءل الانسان عنها وهي : هل للكون حدود في الفضاء ام لا . وهل له بداية أم هو أزلي . وما هي الطبيعة ، وهل هي تسير بذاتها أم لها علة تسيّرها . وهذه العلة هل هي مادة أو عقل أو شيء لا يمكننا ادراكه . ثم ما هي ماهية الانسان ومن أين أتى والى أين يذهب . وهل العالم مخير أم مسير بجبرية لا تتزحزح . وهل أمام العالم رقي أم هو يدور أبديًّا على حاله . وما الحركة العامة للكائنات ، وما الحكمة فيها . وهل القواعد الخلقية شريعة بشرية واجتماعية فحسبُ ، أم لها أساس في الطبيعة كلها الخ

هذه أمور ما برح عقل الانسان تائهاً في بيدائها ، وكل فيلسوف في القديم والحديث يبحثها على ما يراه . ويقول العلماء بوجوب تركها لأنها لا يمكن ادراكها . ولهذا وجب على رأي العلماء ، الاكتفاء بكلمة لا أدري والكف عن مناقشة ما لا يمكن بتهُ بالوسائل العلمية . ولكن الحقائق العلمية ليست كل شيء في هذه الحياة . ولا بد لدماغ الانسان من ان يتطلع الى معرفة ما يهمه من هذا الكون ولا سيما ما يتعلق منه بمصيره

ولا شك ان فلاسفة اليوم قد ارتقت مداركهم وتصوراتهم عن قبل ، كما ارتقت العلوم

نفسها فصارت تعالج بوسائل يقينية غير الوسائل القديمة . ولكن في فلسفة اليونان وفلسفة العرب أبحاثاً طلية تصلح لزماننا هذا صلاحها للزمان الذي ألفت فيه . ولبعض فلاسفة العرب محاكمات عقلية دقيقة تدل على عقول جبارة ، مثال ذلك تلك الأدلة الفلسفية المدققة على وجود الخالق جلَّ وعلا ، التي يراها المطالع في كتاب التهافت للغزالي وكتاب تهافت التهافت لابن رشد ، وقد طبع الكتابان طبعة جميلة في المطبعة اليسوعية ببيروت . ولا ينكر أحد ان في تلاوة كتاب الاخلاق لارسطو وكتاب جمهورية أفلاطون وكتب عديدة في التوحيد فوائد كثيرة يستفيد منها المتأدبون

واذا انتقلنا الى كتب التاريخ وجدنا أن لمؤرخي العرب فضلاً كبيراً في هذا الباب . ومن المعلومات أن التاريخ لا يشبه العلوم السائرة فالحادثة التاريخية لاتتكرر . وقلما ينقلها اثنان على وجه واحد ، لأن أثرها في شخص ما قد يختلف عن أثرها في شخص آخر . واذا لم يتح لها من يحفظها في صدره أو على القرطاس ضاعت ونسيها الناس . فالعرب كانوا من أحرص الأمم على الصدق في رواية الأخبار . وأظن أن العنعنة من خصائصهم وحدهم . وقد نشأ فيهم عدد كبير من المؤرخين الثقاة حفظوا تاريخ أمتنا في كتب نفيسة . ولا خلاف على كون هذه الكتب التي يعرفها كل أديب تحتوي احيانا على مبالغات أو على خرافات لا يسلم العقل بصحتها ولا خلاف أيضاً على كون التاريخ أصبح لهُ اليوم مآخذ وقواعد علمية راسخة كمعرفة اللغات القديمة وقراءة الآثار ومقايسة المستندات المختلفة وتمحيص محتوياتها، ولكن كل ذلك لا يقدح في صحة زبدة الأخبار التي اشتملت عليها كتب التاريخ والتراجم العربية في العصور المختلفة . وتمكن العرب في الجغرافيا من صنع خارطات جغرافية تكاد تكون مجملاً لصور البلاد التي عرفوها . وقد اشتهر منها كرة الادريسي . ومن بدائه الأمور أن آلات المسح الحديثة لم تكن معروفة في تلك الأيام ، وانهُ لا يجوز اليوم ان نكتفي بالخارطات القديمة لما فيها من النواقص والاغلاط . ولكنْ من ذا الذي ينكر أن بعض الكتب الجغرافية القديمة كمعجم البلدان لياقوت الحموي مثلاً تعد خزانة ثمينة من الجغرافية والأدب جميعاً ومن ذا الذي ينكر أن هذا السفر النفيس يقرؤه العربي بلذة في كل زمان وفي كل مكان . ومن الكتب القديمة ما لا تبلى جدتهُ على كر الأيام كمقدمة ابن خلدون وكتاب التاج أو أخلاق الملوك للجاحظ وأمثالها ويستنتج مما ذكر أن بعض آثار السلف في الفلسفة والتاريخ والجغرافيا والأخلاق تصلح للنشر وان الزمان لا يقلل قيمتها ، وأن في تلاوتها فائدة ولذة للعالم والمتعلم على السواء

﴿ الحقائق والأخيلة ﴾ كان القدماء لا يعدون المرء عالماً الاَّ اذا تناول بالبحث جميع العلوم البشرية . ولهذا كان العلماء حريصين على التأليف بعلوم مختلفة لا رابطة تربط بعضها ببعض البتة . فالجاحظ مثلاً صنف في الحيوان ، وابن سينا في الفقه والتوحيد ، والكندي

في الموسيقى ، والشيخ عبد الغني النابلسي في الزراعة الخ . أما اليوم فالذي يدعي معرفة العلوم كلها يعد جاهلاً أو مجنوناً والذي يؤلف في علوم مختلفة يخلط ويعثر فلا تروج مؤلفاتهُ ولا يكتب لها البقاء . والعالم في هذا الزمن هو الذي يلم الماماً بأسس العلوم المهمة ثم يختص بعلم واحد أو بفرع واحد فينكبُّ عليه سنين طوالاً ويقتلهُ درساً ويكون له فيها أبحاث خاصة أو نظريات او مكشوفات او مخترعات

ولقد اتسعت العلوم اليوم اتساعاً يحير العقول . وها كم مثالاً واحداً على ذلك وهو علم الحشرات . فالحشرات في كتب الحيوان القديمة لا يتجاوز بحثها كلها عشرين او ثلاثين صفحة نصفها أدب ونكات وخرافة ولغة . أما اليوم ففي خزانة كتبي سفر فرنسي في علم الحشرات الفهُ أحد اساتذتي يشتمل على ثلاثة مجلدات ، في كل منها ما لا يقل عن ٨٠٠ صفحة يضاف اليها سفرٌ رابع في الصور والأشكال . ومع هذا يعد هذا الكتاب موجزاً في العلم المذكور لا مطوَّلاً . وأعرف عالماً قضى عشرين سنة من عمره وهو يدرس رتبة واحدة من رتب الحشرات وهي مغمدة الاجنحة . وهكذا الحال في العلوم السائرة وفروعها . فعصرنا اذن هو عصر الاختصاص

وما كانوا في القديم يقتصرون ، في الأبحاث العلمية ، على الطرائق المتبعة في هذه الأيام وكانت أبحاثهم تارة يقينية قائمة على الحس والتجارب والاستدلالات العقلية ، وطوراً غيبية تقوم على التخيلات وعمل القوى المجهولة . أما اليوم فقد ساد الأسلوب العلمي في البحث . ومعنى ذلك ان القدماء كانوا يجعلون حوادث الكون خاضعة لارادة الأصنام فالآلهة فالاله واحد فالعلل الكامنة بها المنفردة عنها ، الى ان عدل العقل البشري أخيراً عن كل ذلك ، وانصرف في العلوم عن البحث عن أصل الكائنات ومدبرها الى النظر في النواميس الطبيعية التي تسير حوادث الكون بموجبها . فالعلم اليقيني اليوم يقتصر على تناول صلة الموجودات الثابتة بعضها ببعض ، بصرف النظر عن صلتها بالانسان الذي يحس ويفكر أو صلتها بمجموع العالم ولا يهتم في العلوم اليقينية بمعرفة ماهية الصلات التي تربط الاشياء بعضها ببعض . بل يكتفي بمعرفة النتائج من المقدمات ، اي معرفة الحوادث التالية من التي سببتها وأدت الى حدوثها . والعلوم اليقينية ثابتة لأنها تفرض بادىء بدءٍ صحة شيء ما دون الابتعاد عنه ، وتقف عند النتيجة الحاصلة دون ان تتعداها . ومنذ ان اقتصر الانسان على بحث العلوم بالاسلوب العلمي المذكور أخذت العلوم تتسع وتتقدم . ولم تبدأ العلوم تتجرد من الأساليب الغيبية الاّ منذ عهد باكون وديكارت في الفلسفة ، وكبلر وغاليليو في العلوم . ولم تصر العلوم يقينية محضة الاّ منذ القرن الماضي

أما الفلسفة فهي التطلع الى معرفة الكون بمجموعه ، ومعرفة النفس التي تدركه . وهي

ايضاً انتقاد العلوم وتحديدها واتمامها بأفكار يتوخى بها تصوير وحدة الكون الحقيقية. وتتناول الفلسفة مجموع المدركات كما تتناول علاقة ذهننا بما لا يمكن ادراكه. ويوصي العلم الفلسفة بأن لا تجزم الامور في كل ما لا يمكن ادراكه ما دام العقل البشري غير قادر على بتّه. ويتضح من ذلك ان الفلسفة تقوم منطقيًّا على الاستقراء، وانها تتوخى جعل الحقائق ضمن المعقولات. أما الأخيلة فليست بعلم ولا فلسفة بل هي أوهام لا نحسها ولا نعقلها

ولأضرب مثلاً يتضح به الفرق بين العلم والخيال. اذا قلت لكم ان ذوات الأزهار في النباتات تتناسل ببزورها أو تتكاثر بأجزاءٍ منها فأكون قد ذكرت لكم قاعدة علمية جامعة مانعة دلتنا عليها الصلة بين الأم والولد في تلك النباتات. وبناءً على ذلك يمكنكم ان تبتوا كون شجرة الصنوبر مثلاً لا تتولد الاّ من بزرة صنوبر وكون شجرة التين لا تتولد الاّ من بزرة تين او من قضيب تين يقطع فيغرس وهكذا. فاذا ذكرت لكم انهُ جاء في كتاب الفلاحة النبطية الذي ترجمه ابن وحشية أن الصنوبر والتين يتولدان من نباتات أخرى أجبتم بأن هذا خيال ووهم لا يقره الحس ولا العقل. وهاكم جملتي ابن وحشية (خذوا من شجرة الخرنوب الشامي من عروقها الطوال، فلفوها على قرني ثور، وانقعوها في الزيت سبعة أيام، ثم اجعلوها في الارض، واسحقوا الكندر وذروه عليها اذا غرست فانها تنبت شجر الصنوبر) و(ان خلطتم من اليبروج الرطب أصلاً وفرعاً، ومثل وزنه من العسل والشمع وزرعتموه في الارض كما تزرعون سائر الاشياء، وصببتم عليهِ وقت زرعه من الماء ما تعلمون انهُ قد وصل اليه، ثم تركتموه ولم تزيدوه، خرج من ذلك التين الاخضر الشديد الحلاوة)

وهاكم مثلاً آخر: اذا سألنا اليوم سائل بماذا يقتات الذئب، اجبناه على الفور ان الذئب من فصيلة اللواحم اي من آكلات اللحوم فهو يقتات بما تشتمل عليه من عناصر غذائية معروفة. ولكن اذا قرأنا نهاية الأرب في فنون الادب للنويري (ج ٩ ص ٢٧١) نجده يقول (ويقال ان الذئب اذا لم يجد ما يأكلهُ استعان بادخال النسيم في فيهِ، فيقتات به) أي انهُ يكتفي بأكل الهواء. وهو مخالف لأبسط القواعد المعروفة في التغذية

واليكم مثالاً ثالثاً. يقر العلم امكان انقلاب الذكر خنثى. ولكن العلم يجعل هذا الانقلاب من الأمور الشاذة جدًّا ولاسيما في الانسان وكبار الحيوان. أما صاحبنا النويري فيقول (ج ٩ ص ٢٧٤) (يقال ان الضبع كالارنب تكون مرة ذكراً ومرة أنثى) أي انهُ جعل هذا الانقلاب قاعدة مطردة في الحيوانين المذكورين وهو مخالف للحقيقة

ومن هذه الأمثلة يتضح لنا الفرق بين بحث الأمور بأسلوب علمي يقيني وبحثها بأسلوب خيالي غيبي. ففي العلم لا يوجد يقال.. ويقال.. واذا جزم أحد الفلاسفة ان الروح حية بعد الممات او غير حية أجابه العالم لا أدري لان هذا الأمر لا يمكن بته بالوسائل العلمية

المعروفة . واذا خلط صاحب الخيال وتوهم أوهاماً كالتي توهمها النويري كذبهُ العالم على الفور وأفهمهُ بأنها مخالفة لحقائق العلم الثابتة

﴿ الخلاصة ﴾ لقد كان أجدادنا العرب سدنة علوم الأقدمين وواسطة نقلها الى الأوربيين ولم يكتفوا بمدارسة تلك العلوم والاحتفاظ بها طيلة القرون التي لبثت فيها أوربة سادرة في خضم من الجهل المطبق ، بل وسعوها وأضافوا اليها اضافات مهمة تدل على ما ظهر فيهم من عقول جبارة تناولت العلوم بأساليب ووسائل علمية لا غبار عليها . ولا ينكر المنصفون من الغرب فضل العرب على الحضارة فيما أضافوه الى الطب والنبات والطبيعة والحساب والجبر والمثلثات والفلك وغيرها من العلوم . ولولا العرب لضاعت العلوم القديمة بجملتها ولتأخرت النهضة الحديثة سنين طوالا لا يعلم الاّ الله مقدارها

ولست ابتغي بهذه العجالة تعداد مآثر علماء العرب وبيان أبحاثهم الفذة التي سبقوا غيرهم اليها في مختلف المعارف البشرية ، فان ذلك يستغرق بضع محاضرات . ولكني ارى ضرورة التنبيه الى ان آثار الاجداد العقلية بعضها يصلح لكل زمان كالامهات من كتب الأدب والفلسفة والدين والرياضيات والتاريخ والجغرافيا . وبعضها لا بد من الرجوع اليهِ ريثما نضع ما هو أصلح منهُ ككتب اللغة اي المعاجم . وبعضها لم يبق صالحاً او كافياً لأيامنا هذه ككتب الطب والكيمياء والطبيعة والزراعة والنبات والحيوان

ونحن والأوربيون سواسية في هذا الصدد . فالانكليز مثلاً ما برحوا يطبعون كتب شكسبير الأدبية . وما برح الفرنسيون يقبلون على مدارسة روايات راسين وموليير . ولكنهُ لا يجول في خلد أحد من الطابعين في انكلترة او في فرنسة ان ينشر كتباً ألفت في عهد هؤلاء الأدباء في الطب والزراعة والطبيعة والكيمياء والمواليد . واذا نشروا كتباً كهذه فانما يفعلون ذلك بغية اطلاع العلماء على حلقة من حلقات تقدم العلوم المذكورة لا بغية جعل الجمهور يستفيد من موضوعاتها العلمية لأن هذه الموضوعات قد تبدلت تبدلاً كليًّا بدءًا من اوائل القرن الماضي على الأخص

ولا يجوز لنا ان نكتفي بما عرفهُ الأجداد من تلك العلوم ، بل يجب ان نطلع على ما ولدتهُ قرائح الأوربيين من العلوم والمخترعات الحديثة ، وان نقتبس منها ما فيهِ صلاحنا ماديًّا وأدبيًّا . وللوصول الى هذه الغاية ينبغي لنا ان نتعلم أساليب التفكير العلمي والبحث العلمي أي ان نزن جميع الامور بموازينها المضبوطة . ومتى سرنا على هذه الطريق القويمة بجد ونشاط نكون قد ساهمنا قليلاً في تقدم العقل البشري على حين ان أجدادنا قد ساهموا فيهِ كثيراً . وكيف نرضى بأن نعد مقصرين في حلبة المدنية الحاضرة وأجدادنا كانوا المجلين في مدنية تلك الايام . فلنعمل بأساليب العصر الحديث مثلما عملوا بأساليبهم ولنبن كما بنوا فما كانت الحياة الاّ للشعوب المجدة العاملة .

الغاز الحربي

صفاته وخواصه واستعماله[1]

— ١ —

في جدول المواد السامة التي يعرفها الكيميائي مئات من المركبات ، ولكن ما يصلح منها للاستعمال في الحرب ، يعد على أصابع اليدين . إلاّ ان السواد من الناس بوجهٍ عام يستنكرون هذا القول ، لان الراسخ في أذهانهم مما تنشره بعض الصحف ، غير العلمية ، ان في محفوظات الوزارات الحربية المختلفة ، وصفات منوعة ، لغازات وسوائل فتاكة ، يخرجها القواد عندما يستشعرون دنو الحرب ، ويركبونها في المصانع ليستعملوها في الميدان

ولكن السواد على خطإٍ في اعتقادهم هذا إذ ليس بالأمر اليسير ، اضافة مادة كيميائية جديدة الى المواد الصالحة للاستعمال في الحرب . وليست الصعوبة في استنباط المواد ، بل في اجتماع جميع الصفات والخواص التي تجعلها صالحة للحرب . فالمادة الكيميائية الحربية يجب ألاّ تكون سامة فقط ، او مهيجة للاغشية ، إذا كانت منتشرة انتشاراً يسيراً في الهواء . بل يجب ان تتصف بخواص كيميائية وطبيعية معينة ، وان تكون مما يسهل صنعه ونقله بنفقة يسيرة . فالبحث عن مادة كيميائية تجمع هذه المزايا عمل كبير . والعثور عليها يكاد يكون متعذراً . فالمادة الكيميائية الحربية المثلى لم توجد بعد ، وقد لا توجد مطلقاً

في السنوات الأربع التي انقضت بين أول هجوم استعملت فيه الغازات الحربية سنة ١٩١٥ وسنة ١٩١٩ عندما عادت معامل البحث العلمي الحربي الى حالتها في إبان السلام ، بحث العلماء في ٣٠٠٠ مادة كيميائية بغية التثبت من صلاحها للاستعمال في الحرب او عدمه. فظهر ان ثلاثين مادة منها فقط تصلح لذلك، وان عشر مواد او خمس عشرة مادة فقط يمكن استعمالها استعمالاً واسع النطاق . وقد كان العلماء الذين أقبلوا على هذه الناحية من البحث ، من أكبر علماء الكيمياء في العالم. وكانت الرغبة في انتصار الأمم التي ينتمون اليها تحثهم وتدفعهم الى الابداع ولم تتوقف مباحثهم عند عقد الهدنة وابرام معاهدات السلام ، بل مضوا فيها ، وعلى الرغم مما اشارت اليه الصحف من استنباط الغاز الحربي الكامل ، ليس ثمة ما يدل على أن هناك

---

(١) عن مجلة السينتفك أميركان

ما يؤيد هذا القول . وقد دل البحث في هذه الأقوال ، على أن الغازات التي اشارت اليها الصحف ، كانت مما تناوله البحث قبلاً ، فأهمل ، لأنهُ لا يتصف بالصفات والخواص الأساسية التي يجب أن تتوافر في كل مادة كيميائية حربية

وقبل أن نصف ما يجب أن تمتاز به المواد الكيميائية الحربية ، لا بدَّ من كلمة نقولها في طبيعة الغاز الحربي

فأولاً من الخطأ تسمية هذه الطائفة من المواد « بالغازات السامة » والاكتفاء بذلك

— ٢ —

ان معظم المواد الكيميائية المستعملة في الحرب ، سوائل أو جوامد في حالتها السوية . وهي تبث في الهواء بوسائل مختلفة : يوضع بعضها في قنابل تنفجر فتنتشر الجامد أو السائل دقائق او قطيرات في الهواء . وبعض الجوامد منها ، يصعَّد بالحرارة فينتشر بخاراً لطيفاً . وبعضها يحمل في الطائرات ثم يلقى منها فيقع فوق الارض في قطيرات أو ضباب لطيف . وأغلب هذه المواد التي تلقى من الطائرات سوائل ، وانما يمكن ذر الجوامد المسحوقة بالطريقة نفسها . أما ما كان طيّاراً منها ، فيوضع في الغالب في أنابيب او اسطوانات ، تخرج منها عند فتح صمام خاص فتتكون من أبخرتها غيوم تحملها الريح . وسواء دعونا هذه المواد جميعاً بالغازات السامة او الغازات الحربية او المواد الكيميائية الحربية ، فهي جميعاً مواد تؤثر بتفاعلها الطبيعي السويّ ، تأثيراً ضارًّا في الجسم ، وتحدث حجاباً كثيفاً من الدخان ، او حريقاً يدمر مواد الحرب خاصة

ومن الواضح انهُ اذا وجب البحث عن مادة كيميائية للاستعمال في الحرب ، وجب ان تكون مفيدة من الناحية العسكرية . بل ويجب ان تؤدي هذه الفائدة العسكرية ، على وجهٍ أوفى مما تؤديهِ مادة أخرى معروفة او سلاح آخر متداول . ولذلك تقسم المواد الكيميائية الحربية أقساماً على أساس فائدتها العسكرية . فقد يستعمل بعضها للفتك بالأعداء ، أو لعرقلة أعمالهم ، أو لحجب الجيش الذى يستعملها عن عدوه ، أو لاحداث حرائق ولكن هذا التقسيم ليس فاصلاً . لان بعضها قد يستعمل لتحقيق اكثر من غرض واحد من هذه الاغراض . فالمواد التي تستعمل للفتك بالأعداء ، غرضها احداث الوفاة في من تصيبه ، او شلّه وتحتيم نقله الى المستشفى . والمواد التي تستعمل للعرقلة غرضها اضعاف الجيش بالزامهِ ان يلبس الكمامات الواقية . والمواد المستعملة للحجب ، غرضها الحيلولة دون تمكّن العدوّ من مراقبة حركات خصمه وإحكام القاء القنابل عليه

وهناك تقسيم آخر للمواد الكيميائية الحربية أساسهُ فعلها الفسيولوجي في الجسم .

فمهيجات الرئة تؤثر في جهاز التنفس والفوسجين أهمها وأشدها فعلاً . ومهيجات الجلد تؤثر في الجلد وتنشىء فيه نفاطات وأهمها غاز الخردل ، بل أنها تؤثر في أغشية العين وفي جهاز التنفس كذلك . وهناك الغازات المدرّة للدمع وهي تهيج أغشية العين وتضعف البصر وأهمها غاز (الكلورو اسيتوفينون) . وهناك مهيجات أغشية الانف فتحدث العطاس الشديد والدوار والضعف الذهني . وأهمها غاز (الداينفنيل كلوروآرسين) . وأخيراً نجد المواد التي تسمّ الأعصاب وتشلها وأهمها الغاز الايدروسيانيك فهو يؤثر تأثيراً مباشراً في الجهاز العصبي ويليه غاز أول إكسيد الكربون فانهُ يؤثر في الدم ويحول بينه وبين نقل الاكسجين الى نسج الجسم

إلاّ ان البحث لم يسفر حتى الآن[1] عن وسيلة عملية تمكن الجيوش من استعمال الغاز الذي يسمّ الجهاز العصبي ، او يؤثر في الدم . نعم ان غاز أول إكسيد الكربون الذي يتولد عند انفجار القنابل الشديدة التفرقع يفتك بكثيرين ولكننا لا نستطيع ان نحسب هؤلاء القتلى صرعى الحرب الكيميائية

ويختلف الغاز الحربي عن القنابل في ان القنابل تنطلق في خطوط منحنية معروفة فاذا أصابت شظاياها أحداً في نطاق فعلها ، وهو ضيق ، قتلتهُ والاّ فانها تضيع سدى حالة ان الغاز الحربي ينتشر في الهواء ويتغلغل أحياناً في المنخفضات فيمتد فعله فوق مساحات كبيرة من الارض

والغازات أنواع من حيث استمرار فعلها بعد انطلاقها من اسطواناتها . فالغاز الذي يتبدّد فعله بعد بقائه في الجو عشر دقائق عندما تكون سرعة الريح عادية ، يقال انهُ غاز غير مستمرّ الفعل Non-persistent والغاز الذي يستمر فعله بضع ساعات بعد انطلاقه يعرف باسم الغاز المستمرّ الفعل Persistent . فغاز الفوسجين مثال على النوع الاول لأنهُ عند انطلاقه يتبخر ويتبدد مع الرياح . أما غاز الخردل فغاز مستمر فيبقى فعله بعد انطلاقه ساعات او أياماً . فهذه الصفة ، من الصفات التي يحسب لها حساب كبير عند البحث عن مادة كيميائية حربية

يتضح مما تقدم ان البحث عن الغاز الحربي الأمثل محدود باعتبارات عسكرية وفسيولوجية وطبيعية وكيميائية . ثم يضاف اليها جميعاً الاعتبارات الاقتصادية ، لأنهُ من العبث استنباط غاز يكلف صنعه نفقة كبيرة ترهق الدولة التي تصنعه وتستعمله . واذن فلابدّ من البحث عن

(١) كتب هذا المقال قبل نشوب الحرب العالمية الثانية

غاز وسط ، يجمع كل ما يمكن جمعه في الغاز الحربي من الصفات اللازمة ، لان الغاز الحربي الأمثل متعذر فعلاً

— ٣ —

في المقام الاول يجب ان يكون هذا الغاز فعّالاً اذا وجدت مقادير قليلة منهُ منتشرة في مقادير كبيرة من الهواء. والمقادير القليلة هنا تعني وجود أجزاءٍ يسيرة من الغاز الحربي في ملايين الاجزاء من الهواء . لانهُ اذا كان الغاز غير فعّال عند ماتوجد منهُ هذه «المقادير الصغيرة» في الهواء فهو لا يصلح من الوجهة العسكرية . اذ لا يخفى ان عدد الاسطوانات المحتوية على الغاز التي يمكن نقلها الى صفوف الجيش الامامية، محدود. فالارطال القليلة التي تطلق منها يجب ان تكون فعّالة في تحقيق الغرض العسكري منها وهو الفتك بالعدو او عرقلة اعماله

ويرى الدكتور رودلف هانسليان الثقة الالماني في موضوع الحرب الكيميائية أن الفوسجين يحدث تهيجاً شديداً في اعضاء التنفس والعيون اذا وجد منهُ أربعة أجزاءٍ من مائة جزءٍ من الاوقية (٤ . ر من الاوقية) في الف قدم مكعبة من الهواء. اي اذا وجد منهُ اوقية في أربعمائة الف قدم مكعبة من الهواء بل اذا وجد منهُ في الهواء مقادير اقل من المقادير المتقدمة ، واستنشقهُ الانسان بضع دقائق متوالية ، فقد يفضي استنشاقهُ الى تسمّم مميت

اما الغاز المدرّ للدمع فيفعل فعلهُ اذا كانت مقاديره في الهواء اقل مما تقدم . ويقول الدكتور هانسليان ان وجود ثلاثة اجزاءٍ من عشرة آلاف جزءٍ من الاوقية (٠٠٠٣ر) في الف قدم مكعّبة من الهواء كاف لتهييج اغشية العين واستدرار دموعها ، ومن هذه الغازات مركب يدعى (برومبنز لسيانيد) يؤثر في العين تأثيراً أليماً جدًّا بعد التعرض له ثلاث دقائق ولو كان المقدار المنتشر منهُ في الهواء ٠٠٠٨ر من الاوقية في ١٠٠٠ قدم مكعبة من الهواء . ولتقريب هذا المعنى الى القارىء ، نقول : تصوَّر انك أخذت اوقية (Ounce) من هذا الغاز وقسَّمتها عشرة آلاف جزءٍ ثم اخذت ثمانية اجزاءٍ منها ووضعتها في صندوق من الهواء طوله عشر اقدام وعلوه عشر اقدام وعمقهُ عشر اقدام (أي غرفة متوسطة) ووقفت فيه ثلاث دقائق فقط فعندئذٍ تشعر في عينيك بألم لا يطاق . وهذا النوع من الغاز لا يميت ، ولكن انتشاره يضطرُّ الجندي الى لبس كمامته الواقية في الحال ، ولبسها يعرقل عمله ويضعف كفاءتهُ العسكرية ، فاذا كانت الخطة العسكرية تقتضي عرقلة اعمال العدو وتأخيرها فقنبلة واحدة من هذا الغاز تكفي

وغاز الخردل كذلك فتّاك شديد الفتك . فالجرعة القاتلة منهُ تختلف من ٠٠٦ ر الى ٢ ر

من الاوقية في الف قدم مكعبة من الهواء . وذلك يتوقف على مدة تعرض المرء لاستنشاقه . ولكن وجود جزء من الغاز في اربعة عشر مليون جزء من الهواء يكفي لتهييج اغشية العين . ويمكن استرواحه اذا وجد جزء منهُ في عشرة ملايين جزء من الهواء . ومع ذلك احترق جلد بعض الذين جلسوا على ارض لصقت بها آثار من هذا الغاز من دون ان تشمّ رائحتها ، اي ان مقداره كان اقل من جزء في عشرة ملايين جزء من الهواء الملاصق للارض . فمقدار تركيز الغاز في الهواء عامل واحد في قياس فعل الغاز ، والعامل الثاني هو مدى التعرض له

والصفة الثانية التي يجب ان يتصف بها الغاز الحربيّ الأمثل ، صعوبة الوقاية منهُ اي انهُ يجب ان يخترق الوسائل التي يستعملها العدوّ للوقاية منهُ او اضعاف فعلها على الاقل . ولا يخفى أن جميع الدول قد صنعت وسائل متقنة للوقاية من الغازات الحربية . فاذا كان الغاز الحربيُّ عاجزاً عن التغلب عليها فقد كل قيمته الاّ اذا اطلق على العدوّ على غرة منهُ اي عند ما يكون الجنود غير لابسين الكمامات الواقية وهذا غير كبير الاحتمال لان الجنود يمرنون تمريناً دقيقاً على استعمال الكمامات بسرعة . نعم ان استعمال الكمامات يعرقل الجندي المكمَّم ، ولكن ذلك ليس كل ما يُبتغى من استعمال الغازات الحربية

فالغاز الحربيُّ الامثل لا يكتفي فيهِ بحمل جنود الاعداء على التكمُّم ، بل يجب ان يؤثر في اجزاء الجسم المختلفة اي يجب ان يهيج الاغشية في الرئتين والعينين والانف والجلد لان تغطية الجسم كله من الرأس الى اخمص القدم ليس بالأمر السهل . وغاز الخردل يتصف من هذه الناحية بهذه الصفات . فالوقاية منهُ تقتضي ان يرتدي الجنديُّ رداءً مصنوعاً من قماش لا يخترقهُ الغاز ، وهذا الرداء اذا غطى الجسم تغطية تامة أرهق لبسه الجنديَّ وجعل القتال وهو مرتديه متعذراً أكثر من بضع دقائق

واذا كان الغاز الأمثل لا يؤثر في جميع أجزاء الجسم فيجب ان يكون مما يخترق الكمامات . ولكي يتصف بهذه الصفة يجب ان يكون غازاً لا يتفاعل مع غيره من المواد ولا تمتصه المواد التي توضع في الكمامات للوقاية من الغاز ، ولا يحجبهُ ذلك الجزء من الكمامات المعروف بالمصفاة والغرض منها منع الدقائق الجامدة والسائلة من الوصول الى جهاز التنفس

فالكلور وهو من اشدّ الغازات فتكاً ، لا يصلح من هذا القبيل لأنهُ شديد التفاعل مع غيره من المواد ، فالوقاية منهُ من أسهل ما يكون . ان قطعة من القماش مغموسة بالصودا اذا وضعت على الانف تمنعهُ من الوصول الى الرئتين . ويقابل هذا غاز يعرف باسم

كلوروبكرين ، وهو من الغازات التي تصعب جداً الوقاية منها

والصفة الثالثة التي يجب ان يتصف بها الغاز الحربي هي سهولة صنعه . فقد يفوز الكيميائي بصنع غاز متصف بجميع الصفات الكيميائية والفسيولوجية في المعمل ، ولكن اذا كان صنعه صعباً او يقتضي نفقة كبيرة فلا فائدة كبيرة منه . فقد قلنا ان قليلاً من الغاز الحربي الكامل يجب ان يكون كافياً للفتك بجندي من جنود العدو او شله عن العمل ، ولكن الخطط العسكرية ، قد تقتضي احياناً استعمال طن منه للاستيثاق من وصول هذا المقدار القليل الى العدو

فقد وصف اصحاب الخيال من الكتّاب بضع طائرات مجهزة بقنابل من الغاز في مكنتها ان تطير فوق مدن كبيرة فتبيد الحياة منها بما تلقيه عليها من الجو . وهذا غلوٌّ . نعم ان طائرة تستطيع ان تحمل من الغاز الفتاك ما يكفي لابادة سكان مدينة آهلة ، ولكن هذا لا يتحقق الاّ اذا وصل كل جزيء من جزيئات هذا الغاز الى سكان تلك المدينة . فالاصل في فعل الغاز وصوله الى من اطلق عليهم . وهذا قد يقتضي اطلاق مقادير كبيرة منه قبل الفوز بما يرام

واذن كائناً فعلُ الغاز ما كان ، فلا بد من تجهيز مقادير كبيرة منه . وكون العالم يستطيع ان يجهز بضع أوقيات منه في معمل البحث لا يعني ان المهندس الكيميائي يستطيع ان يصنع منهُ الوفاً من الاطنان . فالانتقال من الانتاج العلمي الى الانتاج العملي التجاري ، عمل قلما يكون سهلاً

ثم ان الغاز الحربي الكامل يجب ان يكون رخيصاً . وهذا الشرط ينطبق بوجه عام على جميع الذخائر الحربية . فاذا كانت المتفجرات او المواد الكيميائية غالية الثمن وجب البحث عن غيرها مما هو ارخص منها ليحل محلها . فالمال عصب الحرب ، أو هو احد اعصابه الرئيسية وقد تسخو الحكومات عند اشتداد الازمة حيث كانت تحرص ، ولكن الانفاق له حدود ، لا تستطيع اية حكومة ان تتعداها . فاذا كان لدى حكومةٍ ما مادتان حربيتان قريبة احداها من الاخرى في الفعل ، وكانت اقلهما فعلاً ارخصهما ثمناً ، فالغالب ان الحكومة تؤثر الرخيصة على الغالية . فغازنا الحربي الكامل لا يكون كبير القيمة اذا كان غالياً . ولعلَّ هذا العامل دون غيره شأناً الآن ، بعد ما ارصدت الوف الملايين من الجنيهات للحرب التكاية

والصفة الرابعة التي يجب ان يتصف بها الغاز الحربي الكامل هي ان يكون صنعه ممكناً من مواد خام تكثر في البلاد التي يصنع فيها ، فلا تحتاج في صنعه الى استيراد مواد من الخارج قد ينقطع ورودها في اثناء الحرب . بل يجب ان تكون هذه المواد الخام ، مما

لايكثر الطلب عليه في صناعة الذخيرة الحربية بوجه عام ، لئلاّ تفضي كثرة الطلب الى غلائها فغلاء الغاز الحربي الذي يصنع منها . فانكلترا مثلاً صعب عليها بعض الشيء في خلال الحرب العالمية الاولى الحصول على عنصر البروم لصناعة الغاز المدر للدموع لذلك استنبط رجالها مركباً آخر يدخل اليود في تركيبه وهو المركب المعروف باسم « اثيل يودراسيتات » . ولكن بعد الحرب استنبطت وسائل جديدة لاستخراج عنصر البروم من ماء البحر

ويجب ان يكون نقله سهلاً . فمشكلة النقل في اثناء الحرب مشكلة كبيرة وكل ما يعتورها ويجعل النقل صعباً يضيف الى متاعب القواد . بل يجب كذلك ان يكون نقله غير محفوف بالخطر . فكل مادة يصعب حصرها في انابيب اواسطوانات ، أو تأكل الاسطوانات التي توضع فيها بتفاعلها الكيميائي معها ، غير مرغوب فيها بوجه عام . فمادة «البرومبنزلسيانيد» تأكل الصلب والحديد وتفقد فعلها الفسيولوجي ، ولذلك يتعذر وضعها في القنابل او الاسطوانات العادية كغاز الخردل ، بل يجب ان توضع في اسطوانات من زجاجات او اسطوانات معدنية مطلية من الداخل بالميناء . وهذه أمور تضيف الى نفقة صنع الغاز ، وتزيد ثقل الادوات التي تحتويه

ويجب ان يكون مستقر التركيب اذ لا فائدة من غاز تصنعه وتضعهُ في اسطوانات ثم اذا انقضت عليهِ ايام او أسابيع تحلل الى مواد لا تضر احداً اذا اطلقت عليهِ . ولا يخفى ان كل جيش من الجيوش ، يحتاج الى العتاد الحربي عند بدء الحرب ، أي ان عدتهُ من المواد الحربية الكيميائية ، يجب ان تكون مجهزة قبل بدء الحرب . فاذا كانت من المواد غير المستقرة التركيب ، كان لا فائدة منها على الاطلاق ، وكان كل مال ينفق على صنعها واعدادها مالاً مضاعاً . وأفضل مثل على ذلك «سيانيد الايدروجين» . فهو يتصف بصفات تجعله غازاً حربيًّا فعالاً ولكنه غير مستقر التركيب . وغاز الخردل يفوقه في هذه الناحية وقد شوهدت اسطوانات ملئت بغاز الخردل سنة ١٩١٩ وفتحت سنة ١٩٣٥ فاذا الغاز الذي فيها لم يطرأ على تركيبه تغيير ما

وأخيراً يجب ان يكون الغاز الحربي الكامل مما يصعب تبينه اي يجب ان يكون لا لون له ولا رائحة ولا طعم . ولا يعرف الاّ غاز واحد متصف بهذه الصفات وهو غاز أول اكسيد الكربون . ولكن هذا الغاز لا يتصف بجميع الصفات الاخرى . وغاز الخردل يفوقه من هذه الناحية كذلك كما يفوق معظم الغازات الحربية من نواحٍ اخرى . فغاز الخردل في حالته البخارية لا لون لهُ ، ومع انهُ قوي الرائحة ، الاَّ انهُ بعد استنشاقه دقيقة من الزمان يشل عصب الشم

الهيكسوس

عاصمة ملكهم ومدة حكمهم

للدكتور باهور لبيب

يشوب عصر الهيكسوس ظلام قال عنهُ الاستاذ بريستد في كتابه عن تاريخ مصر ما ترجمته : « إن هؤلاء القوم لم يتركوا بعدهم في مصر إلاّ آثاراً يسيرة يصعب على الأثريين الاستدلال بها على شيء حتى على الوطن الأصلي لهؤلاء الغزاة ومدة حكمهم وكيفية سيادتهم »

على أنهُ بالرغم من هذا الظلام فقد تحدثنا في المقال السابق الذي تفضل المقتطف بطبعه في جزء فبراير ١٩٤٢ عن أصل الهيكسوس وموطنهم الاول فأمكننا جلاء الغامض على قدر الجهد في هذه الناحية ونستطيع ان نكشف اليوم من هذا العصر أيضاً ، عن ناحية عاصمة ملكهم ومدة حكمهم

يحدثنا مانيتون « ان الهيكسوس اختاروا بلدة هوارس عاصمة لهم وان الباعث على تسميتها بهذا الاسم يرجع الى أسباب دينية » فعندما نقارن هذا بما حدثتنا بهِ الآثار نجد انهُ في الوقت الذي كان يحكم فيهِ ملوك طيبة في الجنوب اتخذ الهيكسوس لهم في الشمال بلدة تدعى « حات وعرت » (هوارس) عاصمة لهم ونرى أنها في الأصل الهيروغليفي تكتب بصورة القدم وهذه الكتابة تعطينا فكرة عن سبب رواية مانيتون من ان تسميتها راجعة الى أسباب دينية

ويصحّ ان مانيتون عند ذكرهذا جالت بفكره قصة أوزوريس . والمعروف ان أهم شيء في هذه القصة هو ان أجزاء جسم أوزوريس قطعت بواسطة الاله ست ويصح ان يكون عضوٌ من جسمه وهو القدم قد استقر في هوارس (حات وعرت) وبذلك يكون معنى الأسم بلدة معبد قدم أوزوريس . ومن جهة أخرى نرى ان كلمة « وعرت » تعني « قدم » وهذا المعنى وصل الينا أيضاً في اللغة القبطية (المصرية) مما يجعلنا نقول ان التسمية من الوجهة الدينية جائزة

وقد وصل الينا اسم هذه العاصمة في عصور متأخرة عن عصر الهيكسوس كما في بردية ساليبه الأولى مثلاً ، مكتوباً في صورة اخرى غير صورة القدم وهي صورة رجلين أيضاً الى جانب القدم . فمن الجائز جداً ان المصريين بعد طرد الهيكسوس رسموا اسم المدينة بهذا الشكل للدلالة على خروج الهيكسوس منها . إذ ان معنى هذا الرسم الجديد هو مكان الهروب

وذكرلنا نص الملكة حتشبسوت في معبد بالقرب من بلدة القوصية أنها أصلحت التلف وأكملت الناقص بعدما كانت البلاد تئن تحت حكم الهيكسوس الذين كانوا في عاصمتهم بلدة حات وعرت (هوارس) في الدلتا . فنستوثق من هذا النص ان عاصمة الهيكسوس حات وعرت في الدلتا . ولا بدَّ لنا من تحديد موقعها على وجه الدقة . لدينا لوحة حجرية لأحد الموظفين عاش في ادفو يخبرنا فيها : « انهُ سافر شمالاً حتى بلدة حات وعرت (هوارس) وجنوباً الى كوش » . وهذا النص يرينا ان الموظف سافر الى أقصى الشمال في الدلتا بالقياس الى كوش الواقعة في أقصى الجنوب

ولدينا رسم لأسم المدينة يدل على انها واقعة على الساحل فهي إذن تقع في شمال الدلتا بالقرب من الساحل

بعد ذلك لدينا رسم آخر لأسم المدينة يدل على أن شطراً منها يطل على طريق صحراوي

وأخيراً بطريق مقارنتها مع بلدة اخرى تدعى « حات وعرت امنتت » اي حات وعرت الغربية » نعلم ان الاولى (عاصمة الهيكسوس) لا بد ان تكون في الجهة الشرقية . فهي تقع إذن في الشمال الشرقي من الدلتا على الحدود الصحراوية وعلى البحر

وقد اختلف العلماء كما هو معروف في تحديد موقع عاصمة الهيكسوس . غير أن Gardiner [١] توصل الى نتيجة يمكن الأطمئنان اليها معتمداً على عوامل متعددة . والعوامل التي بلغت بهِ اليها يمكن تلخيصها فيما يلي :—

(أولاً) المكتشفات التي قام بها الاثري Montet [٢] في بلدة تانس

(١) A. Gardiner, Tanis and Pi-Ramesse, A Retractation, Jour. Eg. Arch XIX p. 122 ff.

(٢) P. Montet, Les Nouvelles Fouilles de Tanis; P. Montet, Les Dieux de Ramses — aimé — d'Amon à Tanis (in Studies Presented to Griffith) p. 406 ff.

(ثانياً) ثم تحليل Sethe [٣] للوحة حجرية مؤرخة في السنة الاربعمائة من تجديد عبادة الإله ست

وعلى ذكر ما تقدَّم نقول إنهُ الى عهد قريب كان الرأي السائد بين العلماء هو ان عبادة الاله «ست» لم تأت إلى شمال شرقي الدلتا إلاّ أيام حكم الهيكسوس . والحقيقة أنها أتت الى هذه الجهة قبل ذلك بدليل النص الوارد في مقبرة «بحر نفر» الذي اثبتهُ الاستاذ يونكر في مقالة عام ١٩٣٩ كالآتي : —

«كاهن الاله ست قائد المحاربين الذي في بلدته سزرت» والذي علّق عليهِ بقولهِ «سزرت هذه هي المنطقة التي تقع شمال شرقي الدلتا» فاذا كان تاريخ هذا النص هو الأسرة الرابعة فمعنى هذا أن عبادة الاله ست ترجع الى الدولة القديمة اي إلى ما قبل دخول الهيكسوس في تلك الجهة . وهذا يفسر لماذا كان جد ملوك الرعامسة وبعض ملوك قدماء المصريين يعبد الاله ست إله تلك الجهة

(ثالثاً) تحليل نصوص مصرية أخرى ونصوص يونانية

(رابعاً) مقارنة تبيّن أن الآلهة التي عبدت في «بر — رعمسيس» عاصمة الرعامسة هي بعينها الآلهة التي عبدت في «حات — وعرت» (هوارس) عاصمة الهيكسوس وعلى رأس هذه الآلهة الاله «ست»

***

وقد أسفرت هذه الأبحاث عن ان عاصمة الهيكسوس هي تلك البلدة التي اختارها فيما بعد الرعامسة عاصمةً لملكهم وسموها «بر — رعمسيس» وكانت تسمى لدى الهيكسوس «حات وعرت» (هوارس) ثم أطلق عليها اليونان اسم «تانيس» ثم اطلق عليها العرب الاسم الحالي «صان الحجر» الكائنة في شمال الدلتا الشرقي [٤] حيث وجدت اخيراً آثار الملك شيشنق . ونحن نلاحظ ان مدينة هوارس (حات وعرت) التي اتخذها الهيكسوس عاصمة لهم لم تنشأ من العدم وانما قامت على أنقاض بلدة صغيرة كانت معروفة من قبل . وكانت الحكمة من جعلها قريبة من الحدود الشرقية للدلتا هي ان تكون قريبة من بلادهم الأصلية ليسهل عليهم العودة الى وطنهم الأصلي في وقت الحاجة أي بعبارة أخرى لأسباب جغرافية سياسية

(٣) Sethe, Der Denkstein mit dem Datum des Jahres 400 der Aera von Tanis

(٤) Pahor Labib, Die Herrschaft dir Hyksos in Aegyptin, p. 20 ff

مدة حكم الهيكسوس

اختلف العلماء القدماء منهم والحديثون في تقدير مدة حكم الهيكسوس في مصر فيحدثنا مانيتون عن طريق افريكانوس ان مدة حكمهم في مصر هي ٩٢٩ سنة كما يحدثنا أيضاً عن طريق يوسيفوس ان مدة حكمهم في مصر لاتبلغ إلاّ ٥١١ سنة وهناك فريق من العلماء يسمون أصحاب التوقيت المطول الذين يتبعون توقيت مانيتون مثل Petrie يقدرون حكم الهيكسوس بمدة تقرب من خمسة قرون وربع قرن

وهناك فريق آخر من العلماء يسمون أصحاب التوقيت المختصر مثل Breasted و Meyer يخالفون الرأي السابق ويعتقدون ان هذه المدة هي مائة سنة فقط. أما Dubois Richard [٥] فيظنّ وهو من أصحاب التوقيت المختصر أيضاً أنها مائتا سنة

أما نحن فنرى انمدةحكم الهيكسوس تبلغ نحو قرن ونصفقرن أي من سنة ١٧٣٠ ق.م الى سنة ١٥٨٠ ق.م [٦] وقد توصلنا الى هذه النتيجة مما يأتي: — من المستحيل الأخذ بفكرة التوقيت المطول لأنها تتعارض مع الآثار المعاصرة ومع التاريخ القارن والتاريخ الفلكي وعلى هذا الأساس فان المدة التي وصلتنا عن طريق مانيتون وعن أصحاب التوقيت المطول مبالغ فيها كل المبالغة لأن كل الفترة التي ما بين آخر الأسرة الثانية عشرة وأول الأسرة الثامنة عشرة لا تتعدى مائتي سنة وسبع سنوات (من ١٧٨٧ ق.م الى ١٥٨٠ ق.م)

وأما نظرية بريستد وماير في ان مدة حكم الهيكسوس هي مائة سنة فقط نخاطئة وذلك لأن بردية الملوك بمتحف تورين تذكر لنا أن مجموع مدة حكم ست ملوك من الهيكسوس هو مائة وثماني سنوات [٧] وهؤلاء الست هم المعروفون بملوك الأسرة الخامسة عشرة أي أن مدة حكم أول أسرة هيكسوسية بلغ مائة وثماني سنوات فتكون أسرة واحدة من الهيكسوس حكمت وحدها أكثر من المدة التي قدرها بريستد وغيره من العلماء فلذلك لايمكننا الاخذ بهذه النظرية. وكذلك نرى أن قول Dubois Richard مبالغ فيه أيضاً وذلك لأنهُ لدينا أهم مستند في هذا الموضوع يساعدنا على تحديد مبدأ دخول الهيكسوس مصر وهو لوحة حجرية كبيرة وجدت في مدينة تانيس وهي من عصر الملك رمسيس الثاني وهذه اللوحة التاريخية أقامها رمسيس الثاني تخليداً وتمجيداً لذكرى والده المدعو سيتي ولجده الأكبر المدعو

(٥) Dubois—Richard, Essai sur les Gouvernements de l'Egypte, Le Caire 1941, b. 50.

(٦) Pahor Labib, opp. cit. (٧) op. cit.

أيضاً سيتي وتجديداً لعبادة الاله ست . وتتحدث هذه اللوحة عن ملك اسمهُ Nubtj وأوردت له اسماً ثانياً وهو « ست » القوي وأرّخت هذه اللوحة بيوم ٤ مسرى من السنة الأربعمائة من حكم « نوبتي » ست القوي ونعرف أن « نوبتي » هذا هو اسم الاله «ست» وهو مشتقّ من المدينة التي عبد فيها هذا الاله . إذاً هذه اللوحة التاريخية تتحدث (أولاً) عن عصر يرجع إلى ما قبل سنة ٤٠٠ من تاريخ اقامة هذه اللوحة . و (ثانياً) تتحدث لوحة الاربعمائة سنة عن تمجيد وتخليد ذكرى والد الملك رمسيس الثاني المدعو سيتي والمعروف بالملك سيتي الاول . وتتحدث كذلك عن أحد اجداد رمسيس الثاني وهو جده الأكبر المدعو سيتي ايضاً . وكانت وظيفته « رئيس فرقة الاقواس » تحت حكم الملك حور محب اي حوالي سنة ١٣٣٠ ق . م[٨] ومعنى ذلك أن كلاً من والد رمسيس الثاني وجدّهِ تَسمَّى باسم الاله ست لان معنى كلمة سيتي « المنتسب الى الاله ست » . لهذا نجد أنهُ ليس بالغريب ان تتحدث اللوحة عن تجديد (وليس تأسيس كما يزعم بعض المؤرخين) عبادة الاله ست في شرق الدلتا لأن عبادتهُ وجدت قبل ذلك ولاننا نعلم أن الآلهة الذين عبدوا في عصر الهيكسوس في بلدة تانيس هم نفس الآلهة الذين عبدوا في هذه البلدة في عصر الرعامسة وعلى رأسهم الاله ست . وكذلك عرفنا ان عاصمة الهيكسوس «هوارس» هي نفس عاصمة الرعامسة «بر-رمسيس» وكلاهما مكان تانيس أو صان الحجر الحالية

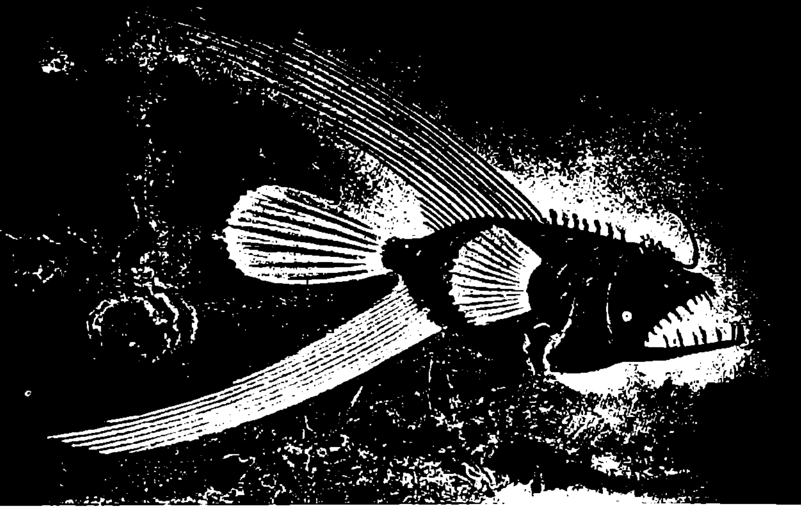
***

والآن بعد ان عرفنا ان الجد المقصود بهذه اللوحة هو سيتي وأنه معاصر للملك حور محب فَلْنَضِفْ الأربعمائة سنة الواردة في هذه اللوحة من عصر هذا الجد الذي كان معاصراً للملك حور محب الى السنة التي تولى فيها حور محب العرش وهي سنة ١٣٣٠ ق . م . فينتج لنا سنة ١٧٣٠ ق . م . وهي سنة تجديد عبادة الاله ست ومبدأ دخول الهيكسوس مصر لأن عبادة الاله ست جددت في أول عهد الهيكسوس عند ما جدد بناء العاصمة تانيس (هوارس)

فالآن بعد ان عرفنا ان سنة دخول الهيكسوس مصر هي سنة ١٧٣٠ ق . م . وان أول حكم الأسرة الثامنة عشرة هو سنة ١٥٨٠ ق . م . وهي سنة طرد الهيكسوس نهائيًّا من مصر نستطيع ان نؤكد ان مدة حكم الهيكسوس هي مائة وخمسون سنة

---

(٨) راجع مقالنا المنشور في مجلة « القانون والاقتصاد » العدد الخامس من السنة الحادية عشرة صحيفه ٦٣٣ ـ



القنَّاصة المضيئة





طائفة من السمك الذي يعيش في اغوار البحار . في الزاوية العليا اليسرى من الصورة سمك كبير الزعنفتين الظهرية والصدرية . وتحته السمك « الذي حلقهُ كالكيس وذيله كالسوط » وتحتهُ سمك يشبهُ الشريط . وفي اسفل الصورة « السمك المدرَّع »

عجائب المخلوقات

سمك الاغوار

غرائب اشكاله وطبائعه

كثيراً ما يحجم علماء السمك عن تبسيط المعروف عن « سمك الأغوار » لاسباب متعددة في طليعتها سببان : اولاً — ان السمك غير مألوف وأسماؤه باللسان العلمي غريبة وهي غالباً مزيج من الأصول اليونانية واللاتينية وقلما تقل حروف الاسم الواحد عن ثمانية أو تسعة فيشق النطق بهـا على من لم يتعودها . وثانياً — ان النماذج التي تستخرج من قعر البحر قليلة بالقياس الى الأصناف الكثيرة التي تروح وتجيء في الأغوار المظلمة ، فهي لا تمثل تمثيلاً دقيقاً جميع طوائف الاحياء في أغوار البحـار ولا بد ان تبقى طائفة كبيرة من « سمك الأغوار » تحيط سجف الجهل بأشكالها وتشريحها وطبائعها

ومع ذلك فإن غرابة اشكال هذا السمك (وبعضها يشاهد في الصورة المقابلة) يحفز الكتّـاب الى وصفها

ليس بين هذه الاسماك صفة خارجية مشتركة الا صفة اللون،وهي اما سود أو رمادية قاتمة ، وهذا يتفق وقتام الأغوار التي تعيش فيها . ولكن أشكالها تختلف اختلافاً كبيراً . فسمكة لها عينان كرأسي دبوسين وأخرى عينان كصحفتين . وواحدة فمها مفغور ككيس مفتوح وجسمها كالسوط ، وأخرى فمها صغير مستدير وجسمها متكوّر كالسلحفاة . وقد يكون جسم احداها مستطيلاً مشيقاً ولهُ زعنفة ذيلية أو عضو آخر قوي يستعمل في تحريكها ، وقد تكون اخرى متكتلة ولا زعنفة ذيلية لها على الاطلاق

يرى القارىء في الصفحة المقابلة سمكة طويلة دقيقة تشبه الشريط . وهي تقطن أغوار البحار في مناطق متباعدة ، وعلى أعماق تتفاوت من مائتي قامة[1] الى الفي قامة . واكبر سمكة

---

(١) تطلق عند المولدين على قياس طول قامة الانسان (محيط المحيط) تقابل fathom وطولها ست أقدام وهي مقياس معتمد في سبر أغوار البحار

صيدت من هذا الصنف ، صيدت على عمق ١٨٠٠ قامة وكان طولها ٦٥٠ مليمتراً او نحو قدمين. ولكن هذا الطول لا يجب ان يعَدَّ ممثلاً لحجم هذا الصنف من السمك . فطبيعة السمك الذي يسكن الأغوار البحرية يجعل صيد النماذج الكبار منهُ شاقًّا او متعذراً

وهناك سمكة اخرى ترجمة اسمها العلمي كما يلي : سمكة ذات حلق كالكيس وذيل كالسوط. وهي من أغرب هذه الاسماك الغريبة . ولعلَّ أهم طبائعها يستخرج بالنظر اليها او الى اسمها — وهو النهم . ولم يُصَد منها الا خمسة نماذج وقد صيد ثلاثة منها لأن السمك كان يحاول ان يلتهم سمكاً آخر يفوقهُ حجماً اضعافاً كثيرة، فاختنق وطفا وقد اخذت هذه النماذج الثلاثة على سطح البحر

اما النموذجان الآخران فصيدا على عمق ٩٠٠ قامة . واكبرها كان طول جسمهِ عشرين بوصة وطول ذيلهِ ثماني وخمسين بوصة !

ثم هناك سمكة اخرى مدرَّعة . ودرعها هذه من اسرار الحياة في المحيط . لأنها تجعلها كالقنفذ او أشد فعلاً في اعدائها . واذا فحصت الدرع وشوهد ما فيها من شوك ونتوءات كأنها الحجر الصلد ، تغطي جسم السمكة ، وفي كل نتوءٍ إبر بارزة ، يميل الباحث الى القول بأن الطبيعة أبدعت ما أبدعت في هذه السمكة لتمكنها من شق حلق كل سمكة تحاول ازدرادها او بقر بطن كل سمكة تسعى اليها . وما يعرف عنها لا يشير الى أنها تسكن الأغوار السحيقة وقد لا توجد على عمق يفوق ١٢٩ قامة تحت سطح البحر . وليس في وصفها العلمي ما يشير الى حجمها ، ولكنها على المرجح صغيرة . ومن هنا ضرورة درعها الواقية ، وهي تعرف باسم « سمكة الكرة المدرعة »

وهناك سمكة أخرى اسمها « القنّاصة المضيئة » وفيها تشاهد الزعانف وقد نمت نموًّا عجيباً ، وفمها مع انفغاره وضخامته بالقياس الى جسم السمكة ، شكلهُ ومكانهُ سويّان . ويلوح ان شكل هذه السمكة ملائم للمطاردة . فالزعانف الصدرية والظهرية أطول من جسم السمكة نفسها وواقعة قرب الزعنفة الذيلية ، وهذا يمكنها من الحركة السريعة . ويخترق هذه الزعانف خيوط تضيء عندما تهتاج السمكة فتبدو في شكل يبهر الانظار او يبهر سائر السمك . وهي تختلف عن سمكة أخرى تعرف « بالقناصة المتربصة » وهي تكاد تكون عاجزة عن السباحة ولا يزيد طولها على بوصتين وتعيش على نحو ٧٠٠ قامة تحت سطح البحر . ويلاحظ أن زعانفها ضمرت وعيناها دقيقتان كرأسي دبوسين وجهاز الصيد الذي تصطاد بهِ السمك — وهو شبيه بشصّ الصياد — قد نما فيها بالقياس الى ما يقابلهُ في القنّاصة المضيئة

يوم في خزانة

عيسى اسكندر المعلوف

بقلم الدكتور بشر فارس

هذا عالمٌ آخر من علماء لبنان [1] خرَّج التلاميذ ودرَّب الطلبة الى جانب التأليف والتصنيف زهاءَ خمسين سنة في همة تجهل القعود وبدراية واسعة . وهو أبو شفيق المعلوف صاحب ديوان « عبقر » وأبو المرحوم فوزي صاحب « شاعر في طيارة » هذا القصيد الفريد الباقي على الزمن

زرته في رحلة في طريقي الى دمشق أول الخريف الماضي ، ولبثت بداره يوماً أتصفح مخطوطات فيها النادر والنفيس، بعضها من قلمه والآخر من اقلام من تقدم . ولا يسعني الاّ أن أنوّه بما وقفني ، ولعلَّ في ذلك متعة او فائدة لقارىء « المقتطف » . على ان للاستاذ عيسى اسكندر المعلوف تواليف مطبوعة ، لا أتمهل عندها ولا أذكر منها الاّ كتاباً هو « دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف » [2] . وقدر هذا الكتاب في عرضه لتاريخ حَوران وذكر أسرها ولا سيما الغساسنة ، وفي اشاراته الى تاريخ لبنان وفلسطين مع تدوين طائفة كبيرة من الحوادث والوقائع بجنب الشئون العمرانية والفوائد الجغرافية ثم العادات والاخلاق

واما المخطوطات فغير قليلة . واليك التي نشطت لموضوعاتها : —

(ا) — في اللغة (الفصيحة والعامية)

١ — « فهرس شرح الأمثال العامية العربية » وهو يشمل أربعة عشر الف مثل تجري على ألسنة الناس في لبنان وسورية وفلسطين وما يجاورها . وميزة الكتاب ان المؤلف يردف

---

(١) انظر مقالي في العدد السابق من المقتطف (مايو ١٩٤٢) : « التنبيه الى كتاب فريد جامع » للفيكنت فيليب دي طرازي ، وهو كتاب لا يزال مخطوطاً كما أخبرتك : وإني مستدرك هنا على هذا المقال : ص ٤٣٢ هامش ١ س ١ ، اقرأ : الرابع بدلا من الواقع — ص ٤٣٣ س ١٣ ، اقرأ : دوما ، بدلا من روما — ص ٤٣٥ س ١٤ ، اقرأ : فتكلم على ، بدلا من فتكلم عن — ص ٤٣٤ هامش ٢ س ٢ من تحت ، زد بعد ص ٧٦ : « كذلك طبعة شيخو ، بيروت ١٩٢٣ ص ٥١ س ٢٢ — ص ٤٣٦ س ١٨ ، اقرأ : الكتاب المخطوط ، بدلا من الكتاب — س ١٩ ، اقرأ : وا كباري له ، بدلا من ا كباري — هامش ١ السطر الاخير ، اقرأ : انظر ص ٣٥ — ٤٦ و ١٧٣ — ١٨٩ خاصة ، بدلا من ص ١١٧ — ٢٦٦)

(٢) طبع في بعبدا (لبنان) سنة ١٩٠٧—١٩٠٨

المثل العامي بما قيل في معناه في الفصحى ، نحو ذلك هذا المثل العامي : « البرطيل بيحلّ شاش القاضي » . ثم يلي المثلَ قول الشاعر :

فبرطل ان أردت الخال يمشي . فلا يمشي سوى خفّ المبرطل

ثم قول سليمان البستاني ناقل الإلياذة ، وقد نظم معنىً للفُرس :

بعشر خيارات لقاضيك رشوة تثبت في البطيخ عشر مزارع

٢ — « معجم الالفاظ العامية والدخيلة » في سورية ولبنان وفلسطين ، مع رد اللفظ الى اصله العربي او الاعجمي من جهة الاشتقاق او التعريب ، وايراد ما وضع العرب او المؤلف نفسه للفظ ان كان اعجميًّا . ولهذا المعجم مقدمة في اللغة العامية وآدابها وفنونها

(ب) — في الأدب

١ — « شحذ القريحة في المقتطفات البليغة الفصيحة » في مجلدين . الاول في الشعر والشاعر والفنون الشعرية ، والثاني في المعاني الشعرية من السماء حتى الأرض مع ذكر العلوم والاختراعات . وفي المجلد الاول مباحث في الشعر عند الامم العربية والغربية ، ومن الفصول: طبقات الشعراء عند العرب وتحليل اشعارهم ، شعراء الاعاجم شرقاً وغرباً ، الشاعر وآدابه ، الحس والخيال والمعاني ، الموازنة بين الشعر العربي في المشرق وفي المغرب ، في فن قرض الشعر ، اكتساب ملكة النظم ، شياطين الشعر ، اختلاف خيالات الشعراء . كل ذلك مستخرج من أقوال العرب وآرائهم وأشعارهم . ثم التقليد والتجديد ، الروية والارتجال ، الذكاء والعبقرية والنبوغ ، ثم الفنون الشعرية : التشطير والتخميس والتسديس الى التعشير ، الموشح وكيف يكتب برسوم على اشكال غصون مع امثلة مختلفة ، التاريخ الشعري الى آخر ما هنالك من الاجازات والالغاز وغرائب القوافي والاشعار والاوزان ، ثم الترجمة[1] . وأما المجلد الثاني فيتضمن المعاني الشعرية مرتبة على تحدرها من السماء حتى الارض . وفيه طرائف وغرائب من الوصف

على أني وقفت في مطاوي هذا الكتاب الضخم على بعض مسائل أخشى أن تكون معروفة وأخرى أظنها مطروقة . فلعل المؤلف يطرحها عند المراجعة والتهذيب ، أو يجتزىء بالاشارة اليها

٢ — «تكملة ديوان الامام الشافعي » الذي طبع منه مختارت في القاهرة (سنة ١٣٢١هـ) .

---

(١) ومن ملح هذا الباب الاخير ما نظمه الشيخ ابراهيم الحوراني (المتوفى في بيروت سنة ١٩١٦) مترجماً معنى للشاعر الروسي بوشكين :

قال الذهب الدنيا ملكي قال الفولاذ أنا الصاحب

قال العقيان أنا الشاري قال الفولاذ أنا الناهب

وقد رجع المعلوف الى مخطوطات نادرة ، في مقدمتها «مناقب الامام الشافعي» للعسقلاني (١)

٣ — « مجموع الدواوين المفقودة » : هي دواوين بحث عنها الاستاذ الجمّاعة في مخطوطات كثيرة متفرقة في الخزانات المختلفة ، فجمع منها قصائد ومقطوعات لشعراء مجهولين او مهملين كأمثال :

السيد احمد البربير الدمياطي البيروتي وهو من أدباء مفتتح القرن التاسع عشر . فقد عثر له المصنف على اكثر من الفي بيت ، ومن قوله في الشيب :

خيوط الشيب قد مدّت بفودي ومدّ خيوطها قصر الحياة
أجادت غزلها أيدي الليالي لتنسجه غداً كفناً لذاتي

وملحم الشميل اللبناني ، وشقيقه امين الشميل ، والسيد عبد اللطيف فتح الله مفتي بيروت ، والشيخ راجي اليازجي شقيق الشيخ ناصيف ، ومحمود بك ابن خليل بك العظم الدمشقي ، والسيدّ علوان الغُرّ قاضي بيروت ، والسيد أحمد الغر مفتي بيروت ، والقس حنانيا المنيّر الزوقي ، والحاج حسين بيْهُم البيروتي . وكل هؤلاء من أدباء القرن التاسع عشر

٤ — « ذيل شعراء النصرانية » وفيه أتم المعلوف ما كان نشره الأب شيخو

٥ — «تبديد الأوجال في فن الأزجال» وهو مجموعة من الأزجال القديمة والحديثة في سورية ولبنان ومصر والعراق وسائر البلدان العربية (٢)

وقد استخرج المعلوف مواد هذه المجموعة من عدة مخطوطات محفوظة في خزانته . واني أعلم ان المستشرق ليسرف Lecerf وصفها ورجع اليها في بحثه المستفيض في الأدب العامي العربي (٣) . ومن مطاوي هذا البحث يتبين لك ان الاستاذ المعلوف من الأثبات في فن الزجل وأدبه وتاريخه

---

(١) سرد بروكلمن المستشرق العلامة في كتابه النفيس « تاريخ الآداب العربية » (التكملة) ليدن ١٩٣٧ ج ١ ص ٣٠٤ « مناقب » أخرى للشافعي وتواليف ضمت من أقواله واشعاره . ولعل الاستاذ المعلوف يراجع هذا الفصل ، فقد يجد فيه مصادر جديدة

(٢) واليك مثلا زجلا مصرياً للسيد حسين بن أحمد الكبيسي :

بالله اعذروني بالهوى يا مسلمين هذا الذي استحلى عذاب العاشقين
أعرض وما سلم فناديت يا سلام هيا أنا واياك لقاضي العاشقين
قال تدعي بالعشق هل عندك شهود فقلت له رمان صدرك والنهود
وخالك المسود مع حمر الخدود هذي شهودي في خديك ظاهرين ..

(٣) J. Lecerf, "Littérature Dialectale et Renaissance Arabe Moderne" Bulletin d'Etudes Orientales (Damas) année 1933, tome 3 p. 121 et suivantes « نشرة الدراسات الشرقية (دمشق) »

(ج) — التاريخ

١ — « مغاوص الدرر في أدباء القرن التاسع عشر » في مجلد كبير يبلغ الف صفحة. ترجم فيهِ المؤلف لعدد وافر من الأدباء الذين اهملهم غيره او زاد على ما جاء عند غيره. والمترجمون بين عرب وافرنج، وهؤلاء ممن أقام ببلاد العربية أو ساح فيها مثل الكولونل تشرتشل بك الذي توفي في ناحية «سوق الغرب» بلبنان، وهو عم المستر تشرتشل رجل الساعة في انكلترة، ومثل رتشارد وُد Wood الذي قصد الى لبنان سنة ١٨٣١ ليخرج منه ابرهيم باشا[١]

٢ — « تاريخ آل اليازجي » في مجلدين. وقد دفعه المؤلف الى مطبعة دير المخلّص بقرب مدينة صيدا

٣ — «الاخبار المروية في تاريخ الاسر الشرقية». وهو سفر شامل « لتواريخ الاسر في لبنان وسورية وفلسطين والعراق والعجم وآسية الصغرى ومصر وبلاد العرب والمغرب وما اليها وفي المهاجر. وهذه الأسر من جميع المذاهب المسيحية والاسلامية والاسرائيلية على اختلاف طوائفها ومناشئها ومواطنها وأنسابها واسمائها أصولاً وفروعاً، ثم ذكر حوادثها وتراجم سلائلها الخ » . وقد بلغ هذا السفر حتى ٢٤ اغسطس ١٩٤١ أربعة عشر مجلداً كبيراً

وأما مصادر الكتاب فبين المنقولة سماعاً والمتعقَّبة في بطون المخطوطات والمطبوعات مثل كتب الأنساب وما يأخذ اخذها من المشجرات والعناقيد، ومثل الحجج والسجلات أو صحائف الخراج والخرج والكنانيش والتذاكر والسفائن. فهو استخراج للمخبآت. والكتاب غير مرتب بعدُ على حروف المعجم كما هو شأن تواليف السمعاني والقلقشندي وغيرهما، بل هو في طور الجمع والتدوين وان كان صاحبهُ يعالجهُ منذ ثلاث واربعين سنة، فالابواب لا تزال مفتوحة لقبول مواد جديدة أو متممة. ولكن ثمة مسارد كثيرة وافية يهتدي بها المطالع الى أسماء الأسر وأسامي الاماكن وعيون الناس من أهل سياسة أو أدب أو علم

وقد اخبرني المؤلف أنهُ كتب الى اعقاب تلك الاسر يسألهم عما لديهم من الأخبار فماطلوا أو أهملوا الاّ أقلهم، ولما كتب اليهم يدعوهم الى مشاركته في اخراج الكتاب ردَّ بعضهم على هذا النحو: « أرسل الينا تاريخ أسرتنا، فان كان فيهِ لنا فائدة اشتركنا » . واما سائر الاعقاب فأبوا الاّ الصمت... هذا هو الشرق !

***

(١) ولهذين الانكليزيين خاصة نوادر في البلاد، ثم ان للاول ثلاثة كتب مفيدة: الاول، The Druzes and the Maronites : الثاني Ten Years Residence in Lebanon والثالث في الامير عبد القادر الجزائري

تلك هي المخطوطات التي من قلم الاستاذ المعلوف ، ولعلّ أجلها شأناً يخرج عاجلاً . ثم إني في خزانة هذا العالم الدائب في العمل مخطوطات أحب أن أشير إلى بعض ما له شأن

١ — « مجموعة رسائل » تاريخ نسخها سنة ٦٤٤هـ ، لـكبار الـكتاب مثل ابن بصاقة وابن الأثير صاحب « المثل السائر » في مراسلة الملوك . وبعض هذه الرسائل في الحروب الصليبية

٢ — « مجموعة من كتب الدروز » وهي نحو ١٥ كتاباً . فيها اسرار هـذه الطائفة ، وأناشيدها ، واخبار عن اعيانها ، وشؤون في معاملتها لسائر الطوائف . وطي هـذه المجموعة مقالات ادبية للسيد عبدالله التنوخي الدرزي

٣ — « تاريخ نابليون الاول » لنقولا الترك اللبناني (١٧٦٣—١٨٢٨) . وفائدة هذا التاريخ انهُ يشتمل على كثير من المنشورات والرسائل الخاصة بحملة نابليون على مصر [١]

٤ — « تاريخ مصر » لخليل الخوري الشاعر (١٨٣٦ — ١٨٧٥) صاحب جريدة « حديقة الاخبار » البيروتية ، ألفه باشارة من سعيد باشا [٢]

٥ — « جامع الفنون وسلوة المحزون » تأليف نجم الدين احمد بن حمدان بن شبيب الحراني الحنبلي المتوفي سنة ٦٩٥ هـ (?) . فيه مباحث مختلفة ، فهو أشبه بدائرة معارف في الجغرافية وما اليها خاصة [٣]

٦ — « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » للمرادي المتوفي سنة ١٢٠٦ هـ . ومعلوم ان هذا الـكتاب طبع في أربعة مجلدات (١٢٩١ و ١٣٠١هـ) . الاّ ان ميزة نسخة

---

(١) جاء في « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » لشيخو ، بيروت ١٩٢٤ ، ج ١ ص ٢٣—٢٤ : « لنيقولا الترك تاريخ الامبراطور نابليون من سنة وفاة الملك لويس السادس عشر الى موت نابليون سنة ١٨٢١ في نحو ٤٥٠ صفحة ، كتبه بانصاف وحسن ذوق مع تعريف أسباب الحوادث وسوابقها ولواحقها والحكم في جيدها وسيئها . وهذا الـكتاب قد طبع نصفه الاول في باريس سنة ١٨٣٩ بهمة المسيو ديجرنج Desgranges الذي نقله الى الفرنساوية وألحقه بعدة ملحوظات وهو يحتوي تاريخ نابليون الى آخر بعثة مصر سنة ١٨٠١ ، واما النصف الثاني فلا يزال مخطوطاً » . وهنا لم يذكر شيخو الخزانات الحافظة للمخطوط

(٢) تجد ترجمة خليل الخوري في « مشاهير الشرق » لزيدان القاهرة ١٩١١ ج ٢ ص ١٤٠ وما يليها . ومما أثبته زيدان : « ولم نقف على ذلك الـكتاب (يعني « تاريخ مصر ») ولا سمعنا به قبل البحث عن ترجمة هذا الفقيد »

(٣) في « تاريخ الآداب العربية » لبروكلمن ط سنة ١٨٩٨ ج ١ ص ٥١٢ و ج ٢ ص ١٣٠ ذُكر هذا الـكتاب بعنوانه ونسب الى اثنين اسمهما واحد : الاول كحال وشاعر مصري توفي سنة ٦٩٥هـ ، والثاني كان في مصر سنة ٧٣٢ هـ . وفي « تكملة » هذا التاريخ . Suppi ج ١ ص ١٦١ — ١٦٢ ، استدرك بروكلمن فوقف عند الثاني ، ووصف الـكتاب فقال ان فيه سرداً لعجائب مصر جله على نحو ما جاء في كتاب « جواهر البحور . . . » لابراهيم بن وصيف شاه . وقد أرشد بروكلمن الى الخزانات التي تحفظ هذا المخطوط ، وهي دار الكتب الوطنية بباريس والمتحف البريطاني وغيرهما . هذا وإني أدعو الاستاذ المعلوف ان يراجع ما ورد في كتاب بروكلمن للتحقيق والتثبت ولا سيما انه أخبرني بأن لهذا المخطوط نسخة اخرى في باريس فقط

المعلوف أنها بخط ابي الخير خطيب الدمشقي تلميذ المرادي ، وان المرادي نفسه وقف عليها وضبطها ، ففيها فوائد وتصحيحات لاغنى عنها لمراجعة اوهام وردت في النسخة المطبوعة

٧ — « ديوان » لعبد الغني النابلسي المتوفي سنة ١١٤٣ ه في « المراسلات » . وهو غير « ديوان الحقائق ومجموع الرقائق » المطبوع[١] . وفي هذه « المراسلات » فوائد كثيرة عن دمشق وغيرها من المدن الاسلامية مع ذكر اسماء العلماء والصناع وعرض شؤونهم

ثم ان هنالك مخطوطات يحسن التنويه بها لما يزينها من التزاويق

١ — « كشف الهموم والكرب في شرح آلة الطرب » للمشهدي . فيه تصاوير لطيفة للآلات والعازفين ، بينها صورة جارية هارون الرشيد والكمان في يدها[٢]

٢ — « كتب في الفلك » لقاضي زاده الرومي من القرن التاسع الهجري

٣ — « كتاب جر الاثقال » لهيرون الفيلسوف اليوناني (الاسكندري) ، نقله قسطا ابن لوقا البعلي[٣] والمخطوط من القرن السادس عشر الميلادي

٤ — « رسالة في الشطرنج والقتال وصف العساكر بطريقة المناصيب الشطرنجية » لأحمد ابن حجلة التلمساني المتوفي سنة ٧٧٩ ه[٤]

٥ — « حياة الحيوان » للدميري المصري . وهو مطبوع ، لا مخطوط ، طبع في فارس سنة ١٢٨٥ ، مع صور جميع الحيوانات المذكورة في الكتاب (طبعة نادرة)

***

هذا بعض ما انتهى اليَّ في ذلك اليوم الذي قضيته متصفحاً ، فاحصاً ، من حولي طرائف وضنائن ، بين يديْ شيخ جليل حبس حياته على طلب العلم ونفع الناس به . فما أظنني أضعت يومي ، ومن قبل قال الحسن البصري : « الدنيا كلها ظلمة الاّ مجالس العلماء »

---

(١) انظر طبعاته في « معجم المطبوعات العربية ... » لسركيس ص ١٨٣٣

(٢) هذا المخطوط في دار الكتب المصرية أيضاً ، ولكن المؤلف (وهو المشهدي كما في مخطوط المعلوف) غير مذكور . ورقم المخطوط عندنا : ١ — فنون جميلة ، وتجد وصفه في « نشرة بأسماء كتب الموسيقى والغناء ومؤلفيها المحفوظة بدار الكتب » طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢ ص ٢٣ . وهذا المخطوط مأخوذ بالتصوير الشمسي عن نسخة خطية في مكتبة طوب قبو سراي بالآستانة . هذا وأردت ان أنظر في هذه النسخة المحفوظة في دار الكتب عندنا لأخبر القارئ هل فيها التزاويق التي تزين نسخة المعلوف . ولكن هذه النسخة من المخطوطات التي جعلتها الدار في المخابئ حذراً من غارات هذه الحرب . على ان « النشرة » المذكورة فوق لم تصرح بأن في النسخة تزاويق

(٣) هذا المخطوط في خزانة ليدن والقاهرة أيضاً واسمه « شيل أثقال » . وقد طبع مع بحث وترجمة في اللغتين الفرنسية والايطالية (راجع « تاريخ الآداب العربية » لبروكلمن ، ط سنة ١٨٩٨ ج ١ ص ٢٠٤)

(٤) لم أجد ذكراً لهذا الكتاب في « تاريخ ... » بروكلمن ولا في « تكملته » . على أني لا أجزم ، وذلك ان هذا التاريخ الجامع لايزال مفتقراً الى مسارد وافية لاسماء المؤلفين وأسامي الكتب

أسماء مصر

لناشد سيفين

لهذه البلاد أسماء عدة ومرجعها جميعاً الى ثلاث لغات وهي اللغة المصرية القديمة والسامية واليونانية . غير ان الآراء مختلفة على معانيها والسبب في وضعها . واني سأتناول في هذا المقال أشهرها محاولاً ان ألقي ضوءاً على الأصول التي اشتقت منها

أما الأسماء المصرية القديمة فكثيرة وكل منها يصف البلاد من احدى نواحيها وأشهرها ثلاثة :

الاول — « تاميري » ومعناه الارض التي يغمرها الفيضان . وعندنا لفظتان أرجح أنهما مشتقتان من هذا الاسم وهما « دميرة » وتطلق على فصل الفيضان . والأخرى «طمي» وهي تطلق على الرواسب التي تمكث في الارض من ماء الفيضان

والثاني — « تاوى » ومعناه الأرضان وبلغة العصر الحاضر الوجهان البحري والقبلي

والثالث — « خم » ويقول المرحوم العلامة أحمد باشا كمال في كتابه الحضارة القديمة ان الآراء مختلفة في معناه فمن قائل انهُ موقد او مجمرة او تنور ومن قائل انهُ ربوة ذات نار مستعرة ومن قائل انهُ أسود

ولما كان الرمز المصطلح عليه في الكتابة الهيروغليفية لهذا اللفظ هو ذيل التمساح وهو مميز بسواد لونه وحراشفه الناتئة الغليظة فانهُ يخلص من ذلك ان المراد بلفظة خم وصف الوادي المزروع بالسواد والتشقق تمييزاً له عن الصحارى التي على جانبيه وكانت تسمى « تاردشر » أي الارض الحمراء

أما الأسماء السامية فأقدمها الاسم العبري « ماحور » وهو مشتق من اسم مصرايم ابن حام . وسبب نشوء هذا الاسم يرجع في اعتقادي الى لبس وقع فيه اليهود بسبب طريقتهم الخاصة في نطق الخاء أدى بهم الى الخلط بين « خم » و « حام » أحد أولاد نوح . ذلك بأن الخاء في لسانهم وسط بين الحاء والكاف . فاذا نطقوا « خم » وقعت على الأسماع قريبة من « حام » فحسبوا ان اسمها هكذا ودعوها أرض حام ويرى مصداق هذا في المزمور الخامس بعد المائة . وقالوا لتفسير ذلك ان حام سكن هذه البلاد فدعيت باسمه . واذ وجدوا ان من أسمائها

أيضاً «تاوى» وتفسيره الأرضان ويرادفه بلغتهم مصرايم قالوا ان مصرايم من ولد حام قد استقر في هذه البلاد وان أهلها من ذريته. فكان لذلك تسميتها باسمه. ومن هذا الاسم اشتقوا « ماصور » ومنهُ اشتقت الأسماء الأشورية والبابلية مصير ومصري وموصور والاسم العربي مصر

أما الاسم اليوناني ايجبت فقد تضاربت الأقوال في اشتقاقه. ومن رأي العلامة بروكش انهُ مشتق من « حت — كا — بتاح » اسم منف عاصمة البلاد في زمن الدولة القديمة. ومعناه مكان نفس الإله بتاح. ويفسر ذلك على ما جاء في كتاب الحضارة القديمة الذي سلفت الاشارة اليه بأن الأقوام المتوحشين من ملاحي البحر المتوسط كانوا يفدون الى مصر ويسمعون من أهلها اسم عاصمتهم لكونها كانت أكبر مدن مصر وأهمها وأغناها ونقلوه محرفاً الى ايجبت ومن بلادهم انتقل الى سائر بلاد اوربا. ولست أرى هذا الرأي لسببين : —

الاول — انهُ لم تجر العادة ان يطلق اسم مدينة بالغة ما بلغت من العظمة على قطر بأسره. كما انهُ ليس يصح في الاذهان ان يجهل هؤلاء اللاحون اسم البلاد التي كانت في ذلك العهد أغنى بقاع العالم والمنفردة من دونها بالحضارة ثم يهبطون اليها على جهلهم بها، وامثالهم انما يركبون الاخطار ويتجشمون الأسفار ابتغاء المنفعة وجرياً وراء المغانم. ويتجولون من ثم في انحاء الدلتا ويرون مدائنها العظيمة ومعالمها الفخمة ومظاهر الثراء البالغ فلا تأخذهم من ذلك دهشة تحفزهم على السؤال عن اسم البلاد. ويلبثون على ذلك حتى ينتهي بهم المطاف في العاصمة وهناك لا يعرفون اسم البلاد ولكن يسمعون من اهلها اسم مدينتهم فيحسبونه اسم البلاد وينقلونه محرفاً الى بلادهم

والسبب الثاني لمعارضتي هذا الرأي هو ما تقرره معاجم اللغة من ان لفظة كميا يونانية وان اليونان الاقدمين اشتقوها من « خم » اعترافاً لهذه البلاد بانها واضعة الاسس لهذا العلم النفيس والحقيقة التي تبرز من ذلك هي ان هذه البلاد كانت معروفة في اليونان في عصر ازدهار العلوم وتبويبها باسمها القومي لا باسم ايجبت

والذي اراه ان هذا الاسم لم يظهر في الوجود الاّ في زمن تمتع فيهِ المهاجرون من اليونان وجزر بحر ايجه بنفوذ عظيم في البلاد. وبالرجوع الى التاريخ نجد انهُ قبل قيام الأسرة السادسة والعشرين كانت البلاد ممزقة الأوصال لوقوع الدلتا تحت نير الاشوريين ومصر العليا تحت سلطان الأثيوبيين. وكانت الروح القومية من جراء ذلك واهنة فلما اراد بسامتيك توحيد البلاد ولمّ شعثها وربط أجزائها تحت حكمهِ لم يرَ مناصاً من الاستعانة على تنفيذ مشروعهِ بجنود يستأجرهم من هؤلاء المهاجرين. ويروي هيرودوتوس خبر ذلك لبيان فضل قومه وحسن بلائهم وهو مؤرخ يوناني زار هذه البلاد بعد بسامتيك بنيف ومائتي سنة اذ كانت قد أفل نجمها وفقدت استقلالها ودخلت في نطاق الامبراطورية الفارسية فيقول :

كانت الدلتا منقسمة الى اثنتي عشرة منطقة يحكم كلاً منها ملك مستقل بشئونها. وكان هناك وحي ينبيء بأن احدهم سوف يتسلط على الآخرين ويبسط سلطانه على البلاد بأسرها وهو الذي يتاح له يوماً ان يسكب تقدمته من الخمر للاله بتاح من آنية نحاسية . فتعاهد الملوك فيما بينهم على ان لا يذهبوا الى المعبد الاّ مجتمعين خشية ان يذهب احدهم منفرداً فيصنع ما أشار بهِ الوحي في غفلة من الآخرين . ولبثوا على ذلك ردحاً من الزمن يسود بينهم الصفاء ويرفرف على ربوعهم السلام حتى كانت احدى السنين وحل موعد زيارة المعبد لتقديم التقدمات المعتادة وكان المتبع في هذه المناسبة ان يعد الكاهن اثنتي عشرة كأساً ذهبية ليضع الملوك تقدماتهم فيها غير انهُ في تلك السنة أعدَّ عن سهو احدى عشرة كأساً فقط وأخذ يوزعها عليهم ولما جاء دور بسامتيك لم يصب كأساً . عند ذلك أسرع فنزع خوذته النحاسية وملأها خمراً وسكبه منها أمام الاله . واذ رأى الملوك الآخرون ذلك بهتوا وأوجسوا خيفة من بسامتيك لعلمهم بما ينطوي عليهِ عمله من تهديد لهم فيما لو صدق الوحي . فأتمروا به واتفقوا على قتله . لكنهم عدلوا عن ذلك وتألبوا عليهِ وتحالفوا ضده وحاربوه فأخرجوه من دياره ذليلاً مقهوراً وما زالوا يطاردونه حتى أدخلوه الأدغال الشمالية المحاذية للبحر

مكث بسامتيك هناك زمناً وهو كسير النفس حزين حتى لقد خامره اليأس من تبدل الأحوال وظن ان لا مخرج له من هذا المصير السيء . فأرسل الى معبد بوتو يستفتي الوحي في أمره . فجاءه النبأ اليقين بأن يوم الانتقام آت لا ريب فيه وموعده حين يجيء من ناحية البحر قوم من النحاس .

كانت كلمات الوحي غريبة في بابها فلم يطمئن بسامتيك أول الأمر اليها كثيراً . وساورته الشكوك في امكان تحقيق الوعود التي جاءت بها . غير انه لم يمض الاّ زمن وجيز حتى هبط الى الشاطيء قرصان من اليونان والكاريين وكانوا جميعاً يلبسون دروعاً من النحاس تغطيهم من الرأس الى القدم . واذ رآهم بسامتيك نزلت السكينة في قلبه وأيقن ان الوحي قد صدقه الوعد وان ساعة الانتقام قد وافت . عندئذٍ تقدم اليهم وعرض عليهم ان يساعدوه على قتال الملوك الآخرين واخضاع البلاد بأسرها لسلطانه لقاء أجر كبير . فقبلوا ذلك وألف منهم ومن المصريين الموالين له جيشاً جرده لقتال ملوك الشمال الذين غدروا به . ولما فرغ منهم انقض على الجنوب بجحافله فاستسلم له . وهكذا أصبحت البلاد بأسرها تحت حكم بسامتيك . وكان شجاعاً حازماً ومدبراً حكيماً ، واستطال زمن حكمه فاستطاع ان يضع الاسس المتينة لقيام أسرة من خليفته هي الاسرة السادسة والعشرون . فهذه الرواية وان تكن بالاساطير أشبه، فان التاريخ يؤيد ما جاء فيها عن المهاجرين الايجيين واليونان، انهم كانوا عدة بسامتيك في الانتصار على خصومه والدعامة القوية التي أقام عليها مجد أسرته ويزيد عليه انه أجزل لهم

العطاء جزاءً وفاقاً على ما أسدوا له من العون لبلوغ مآربه فعينهم في حرسه الخاص وأقطعهم بعض الاراضي في الدلتا ومنحهم كثيراً من الامتيازات

حذا خلفاء بسامتيك حذوه ونهجوا نهجه. لكن كان أكثرهم سخاءً مع هؤلاء المهاجرين وأشدهم عطفاً عليهم احمس الذي يدعوه اليونان أمازيس ويشيدون بذكره كثيراً في كتبهم ويروون كثيراً من القصص عن كياسته وحكمته فلقد بلغ من حبهِ لهؤلاء القوم أنهُ تزوج يونانية تدعى لارنكا وضاعف لهم المنح وزاد لهم فيما يتمتعون بهِ من امتيازات حتى أصبحوا وهم خير مقاماً في البلاد من المصريين أنفسهم وأفسح لهم المجال للانخراط في سلك الجيش فأصبح الجيش بهذه السياسة مؤلفاً من فرق مصرية وفرق يونانية وعلى رأس بعضها قواد يونانيون. وكان من جراء ذلك أن عظمت هجرتهم الى البلاد وكثر عديدهم فوهبهم أمازيس مساحات واسعة في الدلتا شيدوا عليها مدناً لهم خاصة وأقاموا فيها المعابد لآلهتهم من أشهرها نوكراتس وهي ميناء كانت تقع على فرع رشيد فداخلهم الغرور بما وطىء لهم من مهاد العز والجاه في تلك البلاد حتى كانوا يقولون على ما جاء في كتاب « على هامش التاريخ المصري القديم » للمرحوم عبد القادر حمزة باشا « بأن هذه المنطقة امتداد لليونان »

واذا تقرر هذا فانهُ يبدو من المحتمل جدًّا ان أولئك المستعمرين قد انساقوا مع غرورهم فأطلقوا على هذه المنطقة اسم ايجبتوس اشتقوه من ايجيا وهو اسم البحر الذي يفصلهم عن الجزائر التي نزحوا منها

وهناك اسطورة عند اليونان تزعم أن ايجبتوس كان من ولد زفس كبير آلهتهم وهو الذي أسكنهُ هذه البلاد فأطلق اسمه عليها وخلاصتها انه كانت للاله زوجة تدعى هيرا ثم أخذ عليها امرأة أخرى تدعى ايو وكانت كاهنة لهيرا في معبدها فاستشاطت لذلك غضباً وتملكتها الغيرة وانتقمت منها بأن مسختها بقرة وجعلتها تضرب في الآفاق على غير هدى حتى هبطت هذه البلاد. وعلم زفس بأمرها فلحق بها وردها الى هيئتها الاولى وأولدها ابناً كان من سلالته ايجبتوس

هذه الأسطورة لا تخالف ما ذهبت اليه اذ انها لا تعدو ان تكون تعليلاً لوجود جالية يونانية ذات نفوذ في البلاد وهي تلقي في الروع ان هؤلاء اليونان لم يكونوا أجانب في البلاد لأن الاله هو الذي أوجدهم فيها وأعطاهم اياها وهو زعم يتمشى مع نظريتهم القائلة بأن هذه البلاد امتداد لبلادهم التي على الجانب الآخر من البحر

وبعد بسامتيك بنحو أربعة قرون أصبح اليونان سادة العالم وانتهت اليهم أزمة الحكم في هذه البلاد فغلب الاسم ايجبتوس على البلاد كلها ثم اختصر الى ايجبت. ولما فتح العرب البلاد وجدوها تدعى بهذا الاسم فحرفوه الى قبط اسيوط

من تراني لست أدري !

لحسين محمود البشبيشي

من تراني كنت قبل الروح قل لي من تراني
لست أدري مبدأ الروح . . . وميلادَ زماني
لا أرى سري الذي يخفى ، وسري لا يراني !
بئست الدنيا إذا كان ضلالي في كياني !

من تراني ؟ لست أدري أي معنىً لوجودي
ووجودي زورق يسري الى شط الخلود !
ما الذي أجرمتُ حتى تتراماني قيودي
مبدأي : سرٌّ . . . وغاياتيَ في ليل اللحود !

يا عذاب الفكر في سرّي وفي سرّ الليالي
حيرة طافت بأفكاري . . . وأوهامٌ حيالي
تتلقاني شكوك في أصولي ومآلي . . .
غير أني... لستُ أدري ما صوابي من ضلالي !

موكب الأقدار يسري وبكفّيه المصير
إن يكن سعداً فقلبي قد تجافاه السرور
او يكن شرًّا فروحي لم يعدْ فيهِ شعور !
وبقيت اليوم لا زهرٌ بروضي او عبير !

بسماتي آه يا ويحيَ ولت بسماتي

وتوارت فرحتي الكبرى بأظلال الشكاة
فلسفاتُ الكون أحزاني . وحزني فلسفاتي !
إن يكن فكريَ حرًّا ، فأنا عبد الحياة !

كلما رمتُ فكاكاً من حياتي وقيودي
جاذبتني نفحة تسري بروحي لوجودي !
فرأيت الكون بسام المجالي والورود
وتهافتُّ على الدنيا بأشواق الشريد !

نفحات الروض أعطاري ، وعطر الروح عمري !
أتراني اذ علمت العمرَ . . . قد أدرك عطري ؟
وأرى فكري وحسي صلةَ اللهِ بسري !
إن يكن خلقيَ حقًّا فمصيري لست أدري !

في خضم الوهم ممدود شراع الفكر مني
ليس يدري ما وراء الموج من نورٍ ودجن !
تتراماه حتوفٌ من تباريحي وحزني
ما سرى النوم بأفكاري وما داعب جفني !

أين من عقلي تهاويلُ ظلامي وضيائي !
خدعٌ للنور سارت في تلافيف القضاء
ما جداء النور والشك أمامي وورائي !
ظلمة قد عمت القلب فمن لي بالنجاء !

أنا من أمر كياني في ظلامٍ وضلال !
غاب عن عيني سرُّ الكون والسرّ حيالي !!

جوهر السرّ بهِ يجري روحي وخيالي
وكلانا نفحة الأسرار من روح الكمال !

والذي أوجد في الشاعر أزهار المعاني
وتصاوير خيالٍ . . وتهاويل الأماني
وحباه الوثبة الكبرى لما بعد الزمان
أوجد الشوك الذي غلّف أزهار الجنان !

والذي كلل ثغر الغيد بالدر النضيد
وأذاب الفتنة الكبرى على ورد الخدود
سخَّر الترب ليطوي كل هاتيك الورود !
يا لهول الحسن . . . بين الدود في ليل اللحود !

كم بعثت الطرف يسري في تلافيف الظنون
علَّه يدرك سرًّا غاب عن تلك العيون
علَّه يعلم ما في الروح من سرّ دفين
علَّه يطفىء أشواقي . . . فقد طال حنيني !

وتلفتُّ الى الماضي . . . وما خلف الدهور !
أرقب العالم والأسرار من أفق الضمير !
علني أدرك ما قد غاب في طيّ الستور
غير أن الطرف والافكار ضلَّت في الهجير !

ها هنا نور وخلف النور أستار الظلام
وأنا حيٌّ بيومي ! وغدي طوع الحِمام !
وستطوي الفنَّ والفنانَ أهوال الزحام
وتعود الفتنة الكبرى هباءً من حطام ! !

الاعلام

في كتاب الامتاع

للاب انستاس ماري الكرملي

١ — ﴿ تصدير ﴾ كنا كتبنا فصلاً في (الحيوان في كتاب الامتاع والمؤانسة) ، وبينا أسماء تلك العجاوات، وكيف صُحّفت، وذكرنا مايقابلها في اللغى العربية والعامية، إيضاحاً للحقائق . وكنا وعدنا القارىء ان نكتب فصلاً آخر في تصحيح ما جاء في ذيالك السفر الفذ من الاوهام الناشئة من يراع النساخ والنقلة في تشويه ما ورد فيهِ من الاعلام . فانجازاً لوعدنا نرصد اليوم هذه الكلمة محاولين تحقيق هذه الامنية ، فنقول :

٢ — ﴿ مسكويه لا ابن مسكويه ﴾ جاءَ في المقدمة في الصفحة (ط) : «وابن مسكويه صاحب (تهذيب الاخلاق) و(تجارب الامم) » ومثل هذا جاء في حاشية الصفحة ٣٥ — وأما التوحيدي فلم يذكره إلاّ باسم (مسكويه) — راجع ص٣٢ و٣٥ و٣٦ و٤٨ و١٣٦ . وضُبط في ص ١٣٦ بفتح الميم ، واسكان السين ، وضم الكاف ، وفتح الواو ، فياء ، فهاء . وأما صحيح الضبط فهو (مِسْكَوَيهِ) أي بكسر الميم،واسكان السين ، وفتح الكاف والواو واسكان الياء ، وفي الآخر هاء مكسورة ، كما ضبطهُ صاحب القاموس وتاج العروس . — او ان يقال : مسكويه أي بكسر الميم ، واسكان السين ، وضم الكاف ، واسكان الواو، وفتح الياء ، واسكان الهاءِ ، على ما يجري مثل هذا الضبط على طريق المحدثين ، وصرح بهِ الشهاب ، واستشهد بهِ نصر الهوريني في كلامهِ على حمويه

وقد ذكر ياقوت الحموي في معجم الادباء (طبعة مرجليوث ٢ : ٨٨) احمد بن محمد بن يعقوب الملقب مسكويه . ولم يقل (ابن مسكويه) وكذا فعل الأقدمون . فكأن رائحة المسك ماكانت تفارقه . كما قالوا سيبويه ونفطويه ، الى نحوهما . ولم يقولوا ابن سيبويه ولا ابن نفطويه . فتأمل

٣ — ﴿ نظيف النفس لم يكن قسّاً ﴾ ورد في ص ٣٢ ذكر الطبيب (نظيف) ، فقال الناشران في حاشية تلك الصفحة في العدد ٦ ما هذا نصه : « نظيف هو القسّ نظيف النفس

الرومي . . . » — قلنا : لم يكن نظيف قساً ، بل كان من جملة عامة الاطباء ، وكان اسمهُ (نظيف النفس الرومي ، على ماورد في ابن القفطي ص ٣٣٧ من طبعة الافرنج . فقرأها بعضهم (نظيف القس الرومي) كما في ابن أبي أصيبعة ١ : ٢٣٨ ، وكما في مختصر الدول لابن العبري طبعة بيروت في ص ٣٠٥ وهذه عبارتهُ : « ومنهم نظيف القس الروميّ ، كان طبيباً عالماً بالنقل من اليوناني الى العربي » — فيجب ان تقرأ (نظيف النفس الرومي) في هذا الكتاب وفي كل موطن ورد هذا العلم

وممن صحف هذا الاسم ايضاً ، الاستاذ شريف يوسف في مقالة لهُ في مجلة (المعلم الجديد) البغدادية ، قال فيها انهُ (نصيف بن يمن القسّيّ) — والذي عندنا انه كان للطبيب (نظيف النفس) الرومي ، اسم رومي هو (كثروس) Katharos الذي معناه (نظيف النفس) فلما نقل اسمهُ الى العربي ، قال (نظيف النفس) ، كما فعل الالماني المستشرق (اوغست ملّر August Müller) ، لما نشر كتاب (عيون الانباء ، في طبقات الاطباء) لابن ابي أصيبعة ، اذ ترجم اسمه فقال : (امرؤ القيس بن الطحان) ، وكما يفعل العلامة المستشرق المعاصر (فريتس كرنكو Fritz Krenkow) ، حينما ينشر مقالاته والكتب التي يُعْنى بطبعها ، اذ يسمي نفسه (سالم الكَرَنْكَوِيّ) ، وكما كنتُ افعل انا أيضاً ، حينما كنتُ اترجم اسمي اليوناني الى العربي بقولي : (الشيخ بعيث الخضري) . وهناك آخرون كثيرون يترجمون اسماءهم الاجنبية الى لغة الضاد ، لأسباب علمية ، أو ادبية ، أو اجتماعية ، وكما فعل من تقدمنا من أبناء هذه اللغة في سابق العهد ، إذ سمّوا يوحنا فيلبس Ioannes Philoponos ، يحيى الحريص (المسعودي في كتاب التنبيه والاشراف ، المطبوع في ديار الافرنج ص ١٣ س ٢)

وقد نقل المؤرخون عن الطبيب (نظيف النفس) ان الناس كانوا يتطيرون منه ، ويولعون بهِ ، اذا دخل الى مريض . وكان عضد الدولة يتطير بهِ . فلم يكن نظيف سعيدَ المباشرة ، ولا منجح المعالجة في حياتهِ ، وكأن هذا الشؤم لازمهُ حتى بعد مماته ، إذ نرى اختلاف الناس في نقل اسمهِ الى يومنا هذا اختلافاً غريباً بين (نظيف النفس الأرمي) و (نظيف القس الرومي) و (القس نظيف النفس الرومي) و (نصيف بن يمن القسي) ولعل هنالك غير هذه التصحيفات ونحن نجهلها لورودها في مخطوطات ليست الآن بأيدينا ، وقد ذكر لنا منها : (الناطف الطبيب الرومي) و (الناطق الطبيب الرومي) الى نظائرها من الكلم المشوهة

٤ — ❁ الصابىء لا الصابي ❁ جاءت الصابىء ، المهموز الآخر ، بالياء في ص ٦١ و ٦٢ و٦٧ . وقد قال ابن خلكان في ١ : ١٨ من طبعة بولاق : « والصابىء بهمزة آخره » ليتميز

من الصابي بالياء ، اسم فاعل من صبا يصبو ، بمعنى المائل الى الصّبوة . وقد ذكر الشارحان في حاشية ص ٦٧ : دين الصابئة ولم يقولا : « دين الصابية ، وهذا هو الفصيح الصحيح ، ودونهُ القبيح

٥ — ﴿ بلهور وبلهرا ﴾ ذكر (البلهور) في ص ٧٩ ، إذ قال المؤلف : « وكل بلهور كان بالهند » ، وقيل في الحاشية : « بلهور » : لقب بكل عظيم من ملوك الهند ، مثّل به سيبويه في كتابه ، وفسره السيرافي . وهذه العبارة هي عبارة تاج العروس بلا زيادة ولا نقصان . وذلك في ترجمة (ب ل ه و ر) ، ومن الغريب ان الناشرين لم يشيرا الى أنها كلمة الزبيدي

وكنا نودّ أيضاً ان يذكر الناشران ما جاء من اللغات في هذا اللفظ . فقد قال المسعودي في مروجه (١ : ١٦٢ من طبعة باريس) « وتملك على ملك المانكير — وهي الحوزة الكبرى — ملك يسمى بالبَلَهْرَى ، وهو أول ملك من ملوكهم ، يسمى بالبلهرى » — وفي ص ١٧٧ : « وأعظم ملوك الهند في وقتنا هذا [سنة ٣٣٢ للهجرة] البلهرى صاحب مدنية المانكير ، وأكثر ملوك الهند تتوجّه في صلاتها نحوه ، وتصلي لرسله » . وفي ص ١٧٨ : « وأما البلهرى ، فبين دار ملكه وبين البحر مسيرة ثمانين فرسخاً سندية ، والفرسخ ثمانية أميال » وأعاد ذكر البلهرى في ص ٣٧٢ و ٣٧٤ و ٣٨٢ من الجزء المذكور

وأبو الريحان ذكر هذا اللقب هكذا (بلهرا) بألف قائمة في كتابه (الآثار الباقية) ص ١٠٠ . وراجع مجلة الرسالة ٩ : ٦٢٢

وأما ابن خرداذبه فسماه (بَلْهرا) باختلاف في الضبط ، اي بفتح الباء الموحدة التحتية ، واسكان اللام ، وفتح الهاء والراء ، وفي الآخر ألف قائمة [١] . وأما المسعودي فكان قد ضبطه بفتح الباء واللام ، واسكان الهاء ، وفتح الراء ، وفي الآخر ياء غير منقوطة . وضبطه مثل هذا الضبط ايضاً في ص ٦٧ فقال : « وأعظم ملوك الهند (بلهرا) وتفسيره : ملك الملوك . ونقش خاتمهِ : مَنْ ودّكَ لأمرٍ ، ولّى مع انقطاعه

وسماه الاصطخري في كتابه (مسالك الممالك) في ص ١٧٣ من طبعة بريل ايضاً : (بلهرا) كما ضبطه ابن خرداذبه . وكذا ضبطهُ أيضاً ابن حوقل في ص ٢٢٧ من الطبعة الالمانية

وجاء في معجم فلرس الفارسي اللاتيني ما معناه : « بلهرا وبلهرى (بفتح فسكون) وأضعف منهما ، بلهار ، اسم ملوك من الدولة الولابهيتية — واسم مدينة او كورة سميت بها الدولة المذكورة — وبلهرا وبلهرى من اللغة البراكريتية ، وهي مشتقة من اسم المدينة المسماة (وَلَبْهي) ، وكذلك اسم الملك . وقد ذكرها بعضهم باسم (دِلْهِرا) أو (دِلْهَرا) ،

(١) في كتاب المسالك والممالك من طبعة بريل ص ١٦

ثم صحفت بالوجه الذي تراه . هذا ما ذهب اليه العلاّمة الالماني كلدميستر Gildemeister في سفره المترجم بالشؤون الهندية في ص ٤١، — ٧٤٣

ويحسن بنا ان نذكر بعض الملاحظات بعد ان نقلنا هذه النقول . وأول ملاحظة نبديها هي ان العرب الاقدمين عربوا (البلهور) بوجهين : احدهما هذا الذي ذكره سيبويه في كتابه ، وهو أبعدهما عن الاصل المنقول عنه ، ولذا أهملهُ السلف كل الاهمال ، بعد المائة الثالثة ولما كان التوحيدي من أبناء المائة الرابعة ، نظنُّ ان صحة رواية هذا اللقب في كتابهِ هي (بلهرا) او (بلهرى) ، لا (بلهور)

والملاحظة الثانية تتعلق بالعبارة التي جاءنا بها صاحب التاج ، ونقلها الناشران بحروفها ، بدون أدنى اشارة الى قائلها الاول ، أي الزبيدي . مع ان تلك القولة تحتاج الى تصحيح . فقد قال السيد مرتضى ما هذا اعادة عبارته : « البلهور ، كغضنفر ، أهملهُ الجوهري ، وقال الصغاني : هو المكان الواسع . ومما يستدرك عليه : كل عظيم من ملوك الهند بلهور . مثَّل به سيبويه ، وفسره السيرافي » انتهى

ودونك الآن عبارة سيبويه كما جاءت في كتابه (المطبوع في مصر سنة ١٣١٧ في ٢ : ٣٣٦ . والمطبوع في باريس سنة ١٨٨٩ في ٢ : ٣٦٧) : « وتلحق [الواو] رابعة ، فيكون الحرف على مثال فَعَلْوَل ، وهو قليل في الكلام . قالوا : كَنَهْوَر وهو صفة ، وبلهوَر وهو صفة » فظهر من هذا ان سيبويه وزن بلهور وزان فعلوَل لا فعنلل ، الذي هو مثال غضنفر ، كما ذكر سيبويه هذا الميزان والموزون في كتابه عينه ، وفي الفصل عينه بعد صفحتين

ولم نرَ في حاشية هذا الفصل تفسير السيرافي لهذا اللفظ ، مع ان كتابهُ الذي فيه تفسير هذا اللفظ ، واسمه (تقريرات لأبي سعيد السيرافي) موجود في سائر الفصول ، إلاّ في هذا الفصل ، فانهُ لا يُرى ، مما يدل على نقصان في كتاب السيرافي هذا

ولنعد الآن الى اتمام كلامنا على عبارة التوحيدي ، فنقول : إن كانت هي نفس العبارة التي طبعت في هذا الجزء ، فكان يحسن بالناشرين ان يذكرا (البلهرا) او (البلهرى) وينبها على اختلاف الروايات ، ولاسيما أنها من روايات المؤرخين ، ليطمئن بال القارىء لان روايتهم هنا اوثق من رواية اللغويين الذين يحاولون دائماً ردّ الالفاظ ، حتى الدخيلة منها ، الى أصول قريبة من مألوف الكلام العربي ، واوزانه وصيغه

ومن يرد التوسع في معرفة هذه اللفظة ، وتاريخ وجودها في لغتنا ، فعليهِ بمطالعة معلمة الاسلام في مادة Balhara فانهُ يجد فيها ما يجزأه عن مطالعة كتب كثيرة ، ويصيب ما لم يصبهُ في مقالنا هذا

٦ — ﴿ صبهبذ خطأ والصواب إصبهبذ ﴾ ضبطت هذه الكلمة في ص ٧٩ بفتح الصاد والباء الموحدة التحتية واسكان الهاء وضم الموحدة التحتية ، وفي الآخر ذال معجمة. ولم أجد هذا اللفظ بلا همزة في الاول ، ولا من ضبط الباء الثانية بالضم ، بل بالفتح ، كالباء الاولى . قال الزبيديّ في مادة (ص ب ه ب ذ) : « الإِصبهبذية ، بالضبط الماضي (اي بفتح الهمزة ، واسكان الصاد ، وفتح الموحدة ، وسكون الهاء ، ثم الموحدة التحتية المفتوحة ، وفي الآخر ذال معجمة) ، نوع من دراهم العراق ، نسبت الى إصبهبذ . قال الازهري في الخماسي ، وهو اسم اعجمي ، وصاده في الاصل سين . قلت : وقد وقع في شعر جرير ، وقال : إنهُ معرب ، ومعناه : الامير . كذا ذكره غير واحد من الائمة . والاصبهبذية : مدرسة ببغداد بين الدربين ، نسبت الى هذا الرجل . اه كلام التاج

قلنا : وقد ورد اللفظ اصبهبذ على الوجه الفارسي في كثير من الكتب الخطية التاريخية فجاء فيها : (إسْپهبد) بكسر الهمزة فسين ساكنة فباء مثلثة مفتوحة فهاء ساكنة فباء موحدة تحتية فدال مهملة ، وقد جاءت معجمة ايضاً . — و (اسْپهْبُد) وهنا وردت الباء الثانية موحدة مضمومة — و (اسبهْبَد) والباءَان هنا موحدتان مفتوحتان . والكلمة فارسية قديمة منحوتة من (اسپه) أي جيش . و (بد) أي رئيس . وهو لقب يلقب بهِ كل من ملك طبرستان ، على ما في المعجم تبيان نافع التركي الفارسي . وكان في بدء أمره مرذباناً للساسانيين ثم انتحل لنفسه الملوكية . ويقال أيضاً (إسفهبد)

وقال ياقوت الحموي في معجم البلدان في مادة (طبرستان) . « وكان بلاد طبرستان في الحصانة والمنعة على ما هو مشهور من أمرها . وكانت ملوك الفرس يولونها رجلاً يسمونه (الاصبهبذ) ، واذا عقدوا له عليها ، لم يعزلوه عنها حتى يموت ، فاذا مات ، أقاموا مكانه ولده ، ان كان لهُ »

وما جاء في الامتاع ص ٧٩ : « وكل صبهبذ كان من اسكتان واردوان » غير صحيح لأن كلاً من هذين الموضعين قرية ، والملك أو الاصبهبذ لا يكون على رأس قرية ، بل على رأس مدينة أو حاضرة . فيجب أن يبحث هنـا عن اسمي مدينتين أخريين تكونا في طبرستان لأن الاصبهبذ لا يكون الاّ في طبرستان كما تقدم الكلام ، او إلَّـمْ تكونا في طبرستان نفسها ، فيجب أن تكونا قريبتين منها ونظنهما (كيلان) و (رويان) كما في تقويم البلدان لأبي الفداء

أو ان تحرر العبارة هكذا : «وكل إصبهبذ كان من طبرستان» فيستقيم المعنى والمبنى

وأما (صبهبذ) بلا همزة في الاول فخطأ على كل حال لأنها لم ترد في الفارسية ولا في العربية في النصوص المجوَّدة اذ لم ينطق بها فصيح من الفرس ولا من أبناء عدنان

٧ — ﴿ اردشير لا ازدشير ﴾ وردت هذه الكلمة في حاشية ص ١٣٦ في هذه العبارة « شاعر من شعراء الوزير ابي نصر بن ازدشير » . وفي حاشية ص ١٣٧ في قوله « وسابور بن ازدشير » وفي ص ٦ من الفهرس في قوله « بهرام بن ازدشير » وفي ص ٧ من الفهرس المذكور في قوله « سابور بن ازدشير » . ولم يذكر (اردشير) بالراء الا مرة واحدة ولعلها من باب خطأ الطبع وذلك في حاشية ص ٤٣ حينما قال « هو أبو سعيد بهرام بن اردشير لكن لما أراد المفهرس . ان يعيد ذكره في هذا الموطن ، لم يذكره الا بالزاي ، كأنه لما ذكره بالراء وَهِمَ ، فأصلح ذلك في هذا المكان اللائق بهِ

والصواب انهُ بالراء ، لانهُ علم فارسي ، والاعلام تروى كما وردت ، لكن الجهلة من النساخ صحفوه بالزاي فقالوا : « ازدشير » متوهمين ان اللفظ منحوت من (ازد) وهي قبيلة من العرب ، ومن (شير) الفارسية ، ومعناها الاسد ، كأنهم يريدون ان يقولوا : ان فلاناً لم يسم بازدشير الا لكونه (أسد الازد) !

وأردشير كلمة بهلوية الاصل ، منحوتة من (ارتا) أي شهير وجليل وكبير ، و (خشاثرا) أي ملك ومملكة ، فيكون معنى الكلمة : الملك الاعظم ، لكن الفرس المحدثين جهلوا الأصل الحقيقي القديم ، وتوهموا الكلمة مركبة من (ارد) أي غضب . و (شير) أي أسد وقالوا ، معنى هذا التركيب : الاسد الغضوب . ويراد به الرجل الحقود أو القوي ، الجبار ، الشديد البطش

٨ — ﴿ نظران في فهرس الاعلام ﴾ ومما يتعلق بالاعلام ، ان مفهرسها لم يلتفت الى تقييد مواطن العلم الواحد ، في جميع مساقطه من الكتاب . وأول هذا الاهمال باد في أنه لم يدون صفحات الأعلام الواردة في المقدمة ، ولعلهُ تعمد ذلك ، لان تلك الاعلام ليست من نص التأليف . قلنا : وما هذا بعذر ، فكان يحسن بهِ ان يدونها ، وهي كثيرة ، ويود المطالع ان يعود اليها عند احتياجه الى مراجعتها

ونسي بعض الاحيان تقييد جميع موارد العلم الواحد ، فقد نسي مثلاً ذكر موارد (ابن زرعة) في ص (ط) و ٣٢ : ١ و ٩ — ٣٣ : ٨ و ٤٨ : ٢٣ —

ونسي ذكر مسكويه الوارد في ص ٢ من الفهرس . صفحة (ط) : ١٢ و ٣٢ : ١ و ١٦ — و ٣٥ : ٣ و ٣٦ : ٢ — و ٤٨ : ١٤ — و ١٣٦ : ٤ . ولم يذكر لاردشير رقم ص ٤٣ : ١٥ — وكذلك لم يذكر الصفحتين اللتين ورد فيهما ازدشير بالزاي ، وهما ١٣٦ و ١٣٧

هذا ما بدا لنا على جناح السرعة ، ولعل هناك من يعثر على غير ما عثرنا ، لأن الانسان ، هدف النسيان

رأي في اللغة الفصحى وتعليمها — ٢

دراسة اللغة العربية

الفصحى في مدارسنا المصرية

لعبد الله امين

ان الغرض من دَرْس اللغة الفصحى في المدارس هو اقدار الدارسين على التكلم والكتابة بها وعلى القراءة الصحيحة وعليهِ نخير الطرق لتحقيق هذا الغرض هو أنْ تُدَرَّسَ ألفاظ اللغة المفردة الفصيحة الكثيرة الشيوع وأدبها الجيد القديم والحديث من شعر ونثر دراسة فهم وحفظ وموازنة وتحليل ونقد ومحاكاة على النحو الآتي

المرحلة الاولى من التعليم العام

المرحلة الأولى من التعليم العام هي عندنا المدارس الأولية والمكاتب العامة والمدارس الابتدائية ، وإني لمن أشد المتحمسين لإدماج المدارس الأولية والمكاتب العامة في المدارس الابتدائية وجعلها جميعاً مدرسة واحدة قومية خالية من اللغات الأجنبية . وأرى أنْ يكون تدريس اللغة العربية في هذه المرحلة على النحو الآتي :—

يختار لتلاميذ هذه المرحلة طائفة ملائمة لمداركهم من ألفاظنا العامية المحرّفة وتُقارن بأصولها الفصحى الصحيحة وتوزع توزيعاً ملائماً على سنوات هذه المرحلة الدراسية لدراستها وحفظ الصحيح الفصيح منها والتدرب على التعبير بهِ في الكلام والكتابة بدل التعبير فيهما بالألفاظ العامية المحرفة . ويختار كذلك لتلاميذ هذه المرحلة مختارات من الأمثال والحكم والأغاني النثرية والشعرية العامية وترد الفاظها العامية المحرّفة الى أصولها الفصحى الصحيحة ويصحح مافيها من خطإ في الأسلوب وتوزَّع هي الأخرى على سنوات الدراسة على أن تدرَّس دراسة فهم وحفظ وموازنة وتحليل ونقد على قدر مداركهم وعلى أن يدرَّب التلاميذ على التعبير بها في الكلام والكتابة ويختار كذلك طائفة جيدة كثيرة من جيد الشعر والنثر العربي الفصيح الحديث ومن النوادر الحسنة وتدوّن في كتب مشكولة شكلاً كاملاً وتشرح ألفاظها وأساليبها في صلب الكتب لا في هوامشها شرحاً أدبيًّا واضح المعنى واضح الكتابة ملائماً

لمدارك هؤلاء التلاميذ لتدريب التلاميذ على دراسة الأدب وفهمه وتذوقه وعلى التعبير عن معانيه بعبارات شفوية بمحاكاة نثره وتنويع أساليبه وبنثر شعره ويُطالبون أحياناً بكتابة عباراتهم الشفوية على أن تُعَدَّ هذه الكتابة تدريباً على الإنشاء

فتكون هذه الكتب الادبية مادة المطالعة الجهرية والمحادثة والانشاء الكتابي . على أن يكون بجانب هذه الكتب قصص أدبية وكتب حديثة للمطالعة الصامتة على نحو الكتب المقررة للمطالعة الآن ، وهي كتب تشتمل على مباحث عامة في المعلومات العامة المحيطة بالاحداث وفي التاريخ والجغرافية والادب وغير ذلك

وتُقصر دراسة اللغة العربية في هذه المرحلة على هذا القدر من الدراسة فلا تشغل أذهان تلاميذها الغضة بقواعد لا تقوى على إدراكها ولا على تطبيقها ولا تشغل كذلك بدراسة لغة أجنبية لتفرغ أدمغتهم لادراك الفصحى وتذوّقها وإساغتها وإشاعتها في المنزل والمجتمع فان هؤلاء الأطفال خير رسل الاذاعة والنشر

المرحلة الثانية من التعليم العام

يختار لتلاميذ هذه المرحلة من الالفاظ والأساليب العامية المحرفة مقدار صالح وتقارن بأصولها الفصحى الصحيحة وتوزع توزيعاً ملائماً على سنوات هذه المرحلة الدراسية (مرحلة الثقافة العامة) لدراستها وحفظ الصحيح الفصيح منها والتدرب على التعبير به في الكلام والكتابة بدل التعبير فيهما بالالفاظ والاساليب العامية المحرفة . ويختار لها مع ذلك طوائف صالحة من جيد النثر والشعر العربي الفصيح لكل عصر من عصور الأدب وتشرح شرحاً أدبيًّا ملائماً لمدارك هؤلاء التلاميذ وفي أصلاب الكتب وبحرف كبير مشكول كالأدب نفسه على ان تستمر دراسة هذا وذلك في جميع سنوات الدراسة ويستمر معها تدريس تاريخ الادب العربي كله على أن يوزع على هذه السنوات توزيعاً عادلاً وان يكون موجزاً كل الايجاز

ولا يدرس في هذه المرحلة من علوم اللغة العربية الاّ النحو والصرف في كتب عددها على قدر عدد سنوات هذه المرحلة على ان يراعى في وضعها أن يكون كل منها جامعاً للعلمين وعلى أن يكون الثاني مشتملاً على ما في الاول وزيادة والثالث مشتملاً على ما في الثاني وزيادة وهكذا على نحو كتب القواعد للمرحومين حفني بك ناصف وشركائه مع العناية بالتمثيل بأمثلة عصرية ولا يدرس من علوم البلاغة شيء الاّ في المرحلة التوجيهية لطلاب الآداب

ويختار لتلاميذ هذه المرحلة كتب للمطالعة الناطقة والصامتة من الادب القديم أو على غراره ومن الأدب الحديث ملائمة لمداركهم على اختلاف أسنانهم على ان تكون هذه الكتب مادة القراءة والمحادثة والكتابة وعلى ان تكون الألفاظ المفردة المختارة هي الفاظ الأدب

المصري المصحح والعربي الفصيح والمطالعة وعلى ان تكون موضوعات الأدب والمطالعة هي هي موضوعات المحادثة والكتابة (الانشاء)

وفي دراسة الأدب نثره وشعره في هذه المرحلة وفي الفرق الاخيرة منها يحسن أن يناقش التلاميذ في المسائل الصرفية والنحوية الغامضة وفي المسائل البلاغية الواضحة كالتشبيهات والمجازات والكنايات الواضحة وكالتقديم والتأخير والقصر

وفي دراسة الأدب اذا ورد في ترجمة من التراجم ذكر للبديع فليس من الصعب شرح الواضح من محسناته كالجناس والاقتباس والتضمين

والقصد من ذلك تشويق التلاميذ الى دراسة هذه الفلسفة اذا بلغوا المرحلة التي تدرس فيها وهي المرحلة التوجيهية ومعرفة مقدار استعداد المتعلمين لهذه المرحلة التالية . ولا بدَّ في هذه المرحلة الثانوية من الاقتصار على لغة أجنبية واحدة

موازنة بين النظامين

إن بين النظامين النظام القائم الآن في المدارس والنظام المقترح في هذا المقال اتفاقاً من وجوه واختلافاً من وجوه

فأما وجوه الاتفاق بينهما فهي ان كلاًّ منهما يشتمل على دراسة الغاية والوسيلة ومقياسها . فأما الغاية فهي القراءة والكتابة والمحادثة باللغة الفصحى . وأما الوسيلة الى هذه الغاية فهي مفردات اللغة وأدبها من نثر وشعر . وأما القياس فهو فلسفة اللغة او علوم العربية من صرف ونحو وبلاغة وما اليها . فلا ينبغي حينئذٍ لأنصار هذه الفلسفة ان يجزعوا من النظام المقترح لأنهُ لايزال محتفظاً بعمدة النظام القائم وهو دراسة علوم العربية او فلسفتها ولكن مع توزيعها توزيعاً عادلاً مثمراً

وأما وجوه الاختلاف بينهما فهي في ان روح النظام القائم هو دراسة علوم العربية او فلسفة اللغة او المقاييس التي تعرف بها وجوه الحسن والجمال فيها فالعناية فيهِ منصبة كلها على دراستها . وقد أثبتت التجارب ان هذه الدراسة لا تجدي في تحصيل اللغة الفصحى ولا يبقى من قواعدها في أدمغة دارسيها شيء بعد تركهم معاهد الدراسة أما ما عداها من غاية ، وهي تدريب التلاميذ على القراءة والكتابة (الانشاء) والكلام بالفصحى ، ومن وسيلة ، وهي دراسة اللغة نفسها من ألفاظ مفردة وأدبيات نثرية وشعرية فليس ، لها من عناية واضعي المناهج إلاّ بقدر ما لها من عناية المتعلمين والمعلمين وهو التبرم بهما والاعراض عنهما

وإن روح النظام المقترح هو الاعتماد في دراسة هذه اللغة الشريفة قبل كل شيء على دراستها نفسها بدراسة ألفاظها المفردة وأدبها الرائع من نثر وشعر مع العناية باللغة والادب

المصري الحديث والسمو بهِ الى مرتبة اللغة الفصحى ثم التدريب على الغاية من دراستها وهو القراءة والكتابة والتخاطب بها . أما دراسة فلسفتها وهي علوم العربية او المقاييس التي تعرف بها وجوه الحسن والأداء في اللغة ففي المرتبة الأخيرة بعد ان يتذوق المتعلمون اللغة ويتدربوا على قراءتها وكتابتها قراءة وكتابة سليمتين من الخطإ وعلى التخاطب بها ، ويشتاقوا الى تعرف وجوه الجمال فيها ويستأهلوا لادراكه

ومن وجوه الاختلاف بين النظامين ان ألفاظ اللغة المفردة التي تختار للدراسة في النظام القائم تختار اختياراً سيئاً وذلك بأن تختار أبواب برمتها من كتب اللغة المرتبة على وفق المعاني مثل كتاب فقه اللغة للثعالبي وكتاب الالفاظ الكتابية للهمذاني . وفي هذه الابواب من الالفاظ الغث والسمين والحي والميت والفصيح والمستكره وما يقبح ذكره وما تمسّ اليه الحاجة وما لا تمسّ اليه الحاجة وهذا اختيار من شأنه ان ينفر المتعلمين و المعلمين منه ويصرفهم عنه . وإن المعلمين والمتعلمين ليرون في دراسة هذه الابواب إضاعة للوقت والجهد بدون ثمرة وليس أبعث على الانصراف من شعور الاستغناء والازدراء الذي يشعر به دارس هذه الابواب

أما في النظام المقترح فان دراسة الالفاظ تعتمد على الالفاظ الحية التي لايستغنى عنها في كل لحظة من لحظات حياتنا وفي كل مكان نغشاه وهي ألفاظنا العامية المحرّفة بردّها الى أصولها الفصحى وعلى العبارات النثرية والشعرية العامية بعد اصلاحها وهذه وتلك هي التي تكوّن المزاج العقلي والنفسي فينا فاذا حصّل التلاميذ من الالفاظ والعبارات العامية المصححة القدر الكافي ضموا اليها طائفة صالحة من الالفاظ العربية من كلمات الأدبيات المختارة ومما يختاره مجمع فؤاد الاول للغة العربية

ومن وجوه الخلاف بين النظامين في الادب ان المختار من الادب في النظام القائم يتغير كل سنة ومنه ما يسمى محفوظات للحفظ وما يسمى نصوصاً للدراسة ثم هو مشروح شرحاً موجزاً في هوامش الكتب وبخط دقيق غير مشكول كأنهُ شيء لا قيمة له لايقرأ ولايدرس إلاّ على أنهُ ليس مقصوداً لذاته . والمراد في النظام المقترح ان تختار الأدبيات من الشعر والنثر لكل مرحلة وتشرح شرحاً أدبيًّا ملائماً في صلب الكتاب ويقصد لذاته فيدرس الشرح كما تدرس الأدبيات ثم يترك للتلاميذ اختيار ما يحفظونهُ على وفق أذواقهم وميولهم فلا يقيدون منه الاّ بأعداد البيوت والسطور لا فرق في الدراسة بين مايحفظ وما لا يحفظ

ومن وجوه الخلاف بين النظامين في المطالعة أن الكتب المختارة لها في النظام القائم كتب تشتمل على مباحث في معارف عامة بلغة سهلة واضحة لتدريب التلاميذ على القراءة

الجهرية وأن الكتب المرادة في النظام المقترح كتب تشتمل على أدبيات نثرية وشعرية وطرائف من النوادر الأدبية مشروحة شرحاً أدبيًّا على نسق الكتب القديمة كالكامل والأمالي على أن تحرر من عيوبها كالاستطراد الطويل وكذكر أشياء لا ينبغي للتلاميذ أن يقرءوها وأن يكون بجانبها قصص راقية وكتب في مباحث عامة عصرية ككتب المطالعة الحاضرة للقراءة الصامتة . فكتب النظام الحاضر لتدريب الألسنة على القراءة الصحيحة والكتب المقترحة لتدريب الألسنة على القراءة الصحيحة وتدريب المدارك على فهم اللغة وأدبها

ومن وجوه الخلاف في المحادثة أنها في النظام القائم مقيدة في المرحلة التي هي فيها وهي المكاتب العامة بموضوعات معينة تجعل محل محادثة ويراد في هذا النظام المقترح أن تكون المحادثة في مباحث كتب المطالعة لغرضين أحدهما ألاّ يكون للمحادثة درس معين تراعى فيه وتهمل في غيره بل تراعى في كل درس على أنها عنصر من عناصر التدريب الخطيرة التي تجب رعايتها دائماً لا في حصص محدودة في الأسبوع ، والآخر أن تدرس كتب المطالعة دراسة وافية بالرجوع اليها حين القراءة وحين المحادثة

ومن وجوه الخلاف في الانشاء أن دراسة الإنشاء في المدارس الآن كالخمر اثمها اكبر من نفعها لأن ما يجنيه المتعلمون من دراستها لا يساوي عشر ما ينفقهُ فيها المعلمون والمتعلمون من اوقات وجهود وما تنفقه الدولة من مال . إن هذه الدراسة لا تكاد تجدي فلا هي تجعل غير الصالح للكتابة كاتباً ولا تجعل الصالح لها بارعاً في الكتابة إن هي إلاّ آفة التدريس الكبرى التي يشقى بها المتعلمون والمعلمون ويشتغلون بها عن الدراسة المجدية وتذوّق اللغة إذ أنَّ المدرس في التعليم الثانوي يعلم ثلاثة فصول فيغرق في بحر لا ساحل له من كراسات الانشاء والتطبيق فكيف يجد وقتاً وجهداً لبحث مسألة من مسائل العلم بحث تحقيق وقلما تخلو الدراسة من مسائل تعرض لا يطمئن لها القلب إذا لم يقتلها بحثاً واستقصاءً

قد يراد بتدريب التلاميذ على الانشاء تدريبهم على الكتابة الأدبية أي النثر الفني . والنثر الفني كالشعر هو اللغة المثيرة للعواطف القائمة على ركنين أحدهما معنى شريف سام والآخر ألفاظ وأساليب رصينة فخمة بحيث تثير عاطفة من العواطف كالفرح والحزن والرضا والغضب وغير ذلك

وهذا الضرب من الكتابة غير ميسور لجمهرة المتعلمين من وجوه . الوجه الأول : أن هذا الضرب يكون في الرسائل الاخوانية وقد ماتت هذه الرسائل في هذا العصر الحديث عصر العلم والسرعة وإن بقيت فانها لا تستحق أن نقيم لها الدنيا ونقعدها فندرّب جميع أبنائنا على

الكتابة فيها . الوجه الثاني : ان النثر الفني يعتمد اكثر ما يعتمد على ذوق موهوب لا مكسوب كالشعر فمحاولة كسبه عبث . والوجه الثالث : أن هذا الضرب من الكتابة الأدبية لا يمكن أن يدرك بدراسة النحو والصرف وعلوم البلاغة وغيرها من علوم فلسفة اللغة التي جعلناها كل شيء في دراسة الفصحى ، وانما يدركها كل من قتل الادب درساً وفهماً وحصّل منهُ المقدار الكافي للاديب كأنْ يحفظ عشرة آلاف بيت وسطر من البيوت والسطور البليغة

وقد يراد بالانشاء ان يدرَّب التلاميذ على الكتابة في الشؤون العامة التي تشغل بال المفكرين والقادة والزعماء من اقتصادية وسياسية واجتماعية وصحية وغير ذلك . وهذا الضرب من الكتابة يحتاج الى أن يضرب الكاتب بسهام صائبات في دراسة الشؤون الاجتماعية وأنَّى يكون لأحداث المدارس وهم سجناء الدراسة الشاقة الممضة وآلات في أيدي الحداثة والصبا أن يكونوا على علم بهذه الشؤون وان يكتبوا فيها كتابة تفيض عليهم الدربة على اللغة العربية الفصحى

إن اوقات تعليم الانشاء في المدارس لتضيع في تزويد التلاميذ بمعارف تافهة يكتبونها وقد يزيد القليل من التلاميذ القليل من المعاني التي لا قيمة لها هي الأخرى وذلك بكد الذهن وبالجهد والمشقة . وبهذه الطريقة لا يمكن إدراك الغرض المقصود من تعليم الانشاء وهو تدريب التلاميذ على التعبير عما في أذهانهم من المعاني بعبارات سليمة من الخطإ والتعقيد مرتَّبة ترتيباً منطقيّاً

وخير من هذا وذلك الف مرة الطريقة المبينة للانشاء في هذا النظام المقترح وهو ان يقتصر فيها على شرح التلاميذ النصوص الادبية وحلّ المنثور ونثر الشعر منها وكتابة موضوعات دروس المطالعة بعد ان يقتلوها درساً وبعد طي كتبها . والله الهادي الموفق للصواب

سمعت بأذن قلبي صوت عتبٍ ... له رقراق دمعٍ مستهلّ
سمعت الضاد قائلة : أأُنفى ... وهذا موطني والأهل أهلي
ألست أنا التي بدمي وروحي ... غذَت منكم وأنمت كلّ طفل
بنيّات الحمى بيّن اني ... عزيزة أمتي لم ينس فضلي
ويا فتيانهُ ! هبوا لنصري ... أأُرضى منكم جهد المقلّ
اذا ما القوم باللغة استخفوا ... فضاعت ، ما مصير القوم، قل لي
وما دعوى حمى حرٍّ منيع ... بلا لغة وملكٍ مستقل

(خليل مطران)

بلدان في الاخبـار — ١

زيلندا الجديدة

إن الظاهرة التي تستأثر بالعناية عند ذكر زيلندا الجديدة انما هي ظاهرة الانشاء العمراني والارتقاء الاجتماعي السريعين الصحيحين . فقد اختزلت زيلندا الجديدة في نحو قرن قصة العمران الحديث التي استغرقت في اوربا الفي سنة او تزيد . فالحياة في زيلندا الجديدة كانت في أوائل القرن الماضي الى قرب منتصفه حياة العصر الحجري ، فاذا هي اليوم أتم ما تكون استكمالاً لمقومات الحضارة الحديثة في الصناعات والمخاطبات والمواصلات والصحة والتعليم والنظم السياسية الدمقراطية والاحوال الاجتماعية

وقد احتفلت زيلندا الجديدة نفسها ، ومعها جامعة الأمم البريطانية ، من سنتين بانقضـاء قرن كامل على حدث خطير في تاريخها . ذلك الحدث هو معاهدة وايتنجي Waitangi وبمقتضاها اتفق سكان تلك الجزائر الأصليون ، واسمهم الموري Maori مع الانكليز على جعل زيلندا الجديدة جزءًا من الامبراطورية البريطانية ، ثم مضت في سبيل الارتقاء حتى غدت — بحسب قانون وستمنستر — أمة مستقلة في نطاق جامعة الأمم البريطانية

هذا الارتقاء المطرد لم يكن خلواً من عقبات تعترض سبيله . ولـكن كل عمل ملاءمةٍ في حياة الافراد والجماعات ، يحتاج الى بذل وتضحية ويقتضي شيئاً من الالم ، وقد خرجت السلالتان الانكليزية والمورية من هذه الحوادث ، والصلة بينهما موثقة لأنها تحولت الى صلة الفهم المتبادل والاحترام لخصائص الفريقين

وجميع الذين زاروا تلك البلاد في العهد الحديث يعترفون بأن أول ما يسترعي نظرهم فيها ، هو التعاون الودي بين السلالتين ونبذ الشعور بتفوق احداها على الأخرى وتعاظمها . فقد حلت المشكلة بالتفاهم والتعاون وحسن النية . فالمحاكم مفتحة ابوابها أمام سكان زيلندا الأصليين سواء أمدّعين كانوا أم مدعى عليهم ، والعدل يجري بالقسطاس على الجميع . وجميع وسائل المواصلات ممهدة لهم لا فارق بينهم وبين الغربيين الذين نزلوا في تلك البلاد . ومقاعد

المسارح مباحة لهم يجلسون فيها جنباً الى جنب مع اخوانهم في هذا الوطن الجديد. وكذلك مناصب الحكومة ومقاعد النيابة والوزارة . ولعل أدل الدلائل على هذا التصافي ان صفوف الجيش النيوزيلندي تجمع بينهم فتطبع هذه الصلة بطابع الدم . وقد نزل فريق مشترك منهم مصر في الحرب العالمية الماضية ثم جاء فريق آخر الى الشرق الأدنى من سنتين

عندما عقدت معاهدة وايتنجي من مائة سنة وسنتين كان عدد سكان المهاجرين الانكليز نحو الفين . فزاد عددهم الى أقل قليلاً من مليون ونصف مليون وسلالة الموري في زيلندا الجديدة آخذة كذلك في الزيادة لان الدولة هناك تعنى عناية خاصة بتوفير أسباب الصحة والنمو لها . ففي سنة ١٩١٦ كان عددهم نحو خمسين الفاً فبلغ سنة ١٩٢٨ خمسة وستين الفاً وكان قبل سنتين الى ثلاث اقل قليلاً من ٩٠ الفاً

***

أما الصورة التي تخرج بها من وصف البلاد الجغرافي، فهي صورة جنة من جنات الارض

فزيلندا الجديدة جزيرتان كبيرتان في المحيط الهادي الجنوبي ، موقعهما في القسم الجنوبي من الكرة الارضية كموقع بر الاناضول واليونان وايطاليا في القسم الشمالي منها من حيث خط العرض . ولو كانت ايطاليا قائمة وحدها لكانت في النصف الشمالي من الارض كزيلندا الجديدة في النصف الجنوبي . طول هاتين الجزيرتين معاً من الشمال الى الجنوب نحو ١١٠٠ ميل ومساحتهما أكثر من مائة الف ميل مربع او مثل مساحة ايطاليا . وتتبعهما جزائر اخرى صغيرة ومجموع مساحة الجزيرتين الكبيرتين والجزائر الصغيرة التابعة لهما ١٠٤ آلاف ميل مربع يقابلها ١١٠ آلاف ميل مربع لايطاليا وصقلية وسردينيا

والجزيرتان كثيرتا الجبال وفيهما كثير من الانهر والبحيرات والسهول والحراج . وكانت ارضهما كلها مغطاة بالحراج قبل ان يدخلها الاوربيون ويعملوا الفأس فيها ، ولا تزال حراجها كثيرة واشجارها كبيرة ضخمة صلبة الخشب

تسمى الجبال في الجزيرة الجنوبية جبال الالب الجنوبية ويبلغ ارتفاع اعلاها ١٢٣٤٩ قدماً عن سطح البحر ، والثلج يغطي قنن اكثرها على مدار السنة ،وتنحدر منها انهار جمد او ثلاجات كما تنحدر من جبال الالب في اوربا . ولكن انهر زيلندا الجديدة اكبر وهناك اودية عميقة وغدران كثيرة وشلالات يندر وجود مثلها في المسكونة في جمال موقعها وفخامة منظرها

وقد لقينا جماعة من أهلها من الاوربيي الأصل ومن الشرقيين الذين هاجروا اليها او زاروها من استراليا ، فسمعناهم يتغنون بمدحها ويقولون انهُ لا أجمل منها بقعة ولا أطيب من هوائها هواء ، وان مناظرها مثل مناظر سويسرا بل بعضها أجمل وأغرب . ففي الجزيرة

الشمالية منطقة بركانية فيها بحيرات حارة الماء ماؤها يغلي غلياناً ويطبخ بهِ الطعام لشدة حرارته ، وفي الجنوبية جبال شامخة تحيط ببحيرات بلورية الصفاء ، وعلى ساحل البحر خلجان صافية الماء تطلُّ عليها شواهق وعلى مقربة منها شلال منحدر ارتفاعه ١٩٠٠ قدم

***

كشف هذه الجزائر في منتصف القرن السابع عشر سنة ١٦٤٢ وكاشفها رحالة هولندي يدعى ابل تسمان ، واليه تنسب جزيرة تسمانيا القريبة من استراليا . وهو الذي سماها زيلندا الجديدة ، ومعنى الاسم الارض البحرية الجديدة . ولكن ذكرها ظلّ مطويًّا وأخبارها مجهولة ، حتى زارها كوك الرحالة الانكليزي في سنة ١٧٦٩ وهي السنة التي نفحت العالم بعبقريين من عباقرتها العظام نبوليون بونابرت ، ومحمد علي الكبير . ثم تردد كوك عليها مراراً وطاف حولها وامتلكها باسم الملك جورج الثالث ملك الانكليز ، وأدخل اليها بعض الحيوانات لتربيتها فيها وبعض المزروعات النافعة كذلك . ووجد سكانها الاصليين — وهم الموري — أصحاء الابدان يأبون الضيم ويحمون حماهم ويذودون عن حوضهم . وأرجف عنهم أنهم يأكلون لحوم أسراهم فهابهم البحارة وانقطعوا عن الذهاب الى تلك البلاد من حين زارها كوك الى سنة ١٨١٤ وحينئذٍ دخلها واعظ يدعى ماديسون لأجل دعوة أهلها الى المسيحية وبنى كنيسة وتبعه غيره فلم تمض ثلاثون سنة حتى تنصر السكان جميعهم وجعل الأوربيون يفدون اليهم للتجارة . وفي سنة ١٨٤٠ وقع الحادث التاريخي الذي أشرنا اليه عندما اجتمع شيوخ الموري وزعماؤهم وقبلوا عقد معاهدة مع الكابتن هوبسون ممثل الملكة فكتوريا . وعندما عرضت المعاهدة أعلن الكابتن هوبسون ان الملكة تعرض عليهم جميع حقوق رعاياها البريطانيين ومزاياهم . ومما يدل على استقلال الموري على الرغم من تأخر حياتهم الاجتماعية حينئذٍ ان ترجمة المعاهدة تليت عليهم فتناقشوا فيها طويلاً قبل توقيعها . وبمقتضاها أصبحت زيلندا الجديدة جزءاً من الامبراطورية البريطانية

ومما يستوقف النظر في هذه المعاهدة وما تلاها ان الحكومة البريطانية اعترفت بامتلاك السكان الأصليين لجميع الاراضي التي قالوا إنها لهم ولم تؤخذ منهم أرض إلاَّ ما تنازلوا عنهُ بملء اختيارهم أو ما باعوه بالثمن

ولكن البلاد واسعة جداً ولا سيما اذا قيست بعدد سكانها ، فمساحتها أكثر من ستة وستين مليوناً من الأفدنة ، ثلثاها أو أكثر من الثلثين قليلاً لواضٍ زراعية ومراعٍ خصبة ، وسكانها الاصليون الى قبل سنتين لم يزيدوا على تسعين الفاً وسكانها الذين من أصلٍ اوربي لا يبلغون الاَّ مليوناً ونصف مليون على الأكثر

ويضاف الى هذا ان الانكليز الذين هاجروا اليها جاءوها على الغالب من أسر عريقة. جاءوها اولاً اما تجاراً فاستوطنوا، واما مغامرين فاستقروا، واما لأن الأرض القديمة ضاقت بهم فطلبوا حياة جديدة في أرض جديدة فوجدوها هنا. ففي زيلندا الجديدة نخبة من السلالة الانكليزية الكلتية Anglo-Celtic قطعت البلاد بقيادتها ومعاونة سكانها الاصليين شوطاً بعيداً نحو مثل المعيشة القومية الكاملة. فالصحة فيها متوفرة الأسباب. اقليم معتدل وعناية تامة. ان معدل وفيات الاطفال فيها أقل منه في أي بلد آخر في العالم. واحتمال طول الحياة فيها يبلغ ٦٣ سنة وهو كذلك أطول معدل في العالم. واذا قيست منتجاتها الزراعية بمساحتها صح عليها القول بأنه « معمل ألبان الامبراطورية ». واذا نسب عدد ما فيها من الأغنام الى مساحتها فان معدلها يفوق معدل استراليا تسع مرات. انك تجد ربع أغنام العالم في هذه البلاد الصغيرة. ولعلها كانت أسبق الامم الى منح النساء حق التصويت والانتخاب. فقد منحنَ حق التصويت سنة ١٨٩٣ ثم منحنَ حق الانتخاب لعضوية مجلس النواب سنة ١٩١٩. ثم ان الحكومة تنفق كل سنة نحو ثلاثة ملايين جنيه على التعليم في شتى انواعه، مع ان عدد السكان لا يكاد يبلغ مليوناً ونصف مليون. حالة انها انفقت على الدفاع البحري والبري في سنة ١٩٣٤ — ١٩٣٥ أقل من مليون قليلاً. وللتعليم في زيلندا الجديدة ان يفاخر العالم بعبقرية علمية من الطبقة الاولى في العصور الحديثة لأنهُ أنجب ارنست رذرفورد الذي رحل الى انكلترا بعد تخرجه وتوسع في دراسة العلوم الحديثة في كمبردج ثم درَّسها في كندا ومنشستر فغدا عند عودته الى كمبردج استاذاً للطبيعة واكبر زعماء الباحثين العصريين في أسرار الذرة وتركيبها

***

موارد البلاد الاقتصادية عظيمة. وهي زراعية في المقام الأول. الماشية والاغنام فيها كثيرة تعد بعشرات الملايين. وصناعة الالبان متقنة متسعة. وجزة الصوف السنوية تضعها جنباً الى جنب مع استراليا في مقدمة بلدان العالم انتاجاً للصوف. وتبلغ قيمة ما تصدره من الصوف والزبدة واللحم المثلوج والجبن ٣٥ مليوناً من الجنيهات كل سنة او تزيد

وأشهر معادنها الذهب، بل ان البحث عن الذهب فيها كان من عوامل زيادة سكانها في النصف الثاني من القرن الماضي، ومع ان انتاجه قل الآن عما كان عليه. الاّ ان ما استخرج منهُ في سنة ١٩٣٤ بلغت قيمته مليوناً وثلث مليون من الجنيهات ومنها الفضة والفحم

ولكن الذي يهمنا في زيلندا الجديدة ويعنينا اكثر مما تعنينا مواردها الطبيعية هو بعض العبر المستخرجة من حياتها الاجتماعية. فثمة اولاً عناية دقيقة شاملة بالصحة الفردية

والعامة . حتى غدت قلة معدل الوفيات بين جمهور الشعب، وبين الاطفال، مضرب المثل في دوائر العالم الصحية . ثم هناك المعاشات التي اقرتها الحكومة للشيوخ والعجائز والارامل وطوائف من العمال والمحاربين القدماء . ففي قانون صدر سنة ١٨٩٨ وعدل مراراً بعد ذلك يعطى كل نيوزيلندي توافرت فيهِ شروط معينة معاشاً سنويًّا قدره ٤٣ جنيهاً اذا كان دخلهُ السنوي لا يزيد على ٤١ جنيهاً . ففي بلد هذا نظامه يجب أن يكون مستوى المعيشة عالياً حتماً . ثم هناك نظام خاص لاعانة الاطفال اذا كان دخل الاسرة التي يولد فيها الطفل غير كاف للعناية بهِ على أوفى وجه وتنشئته اطيب تنشئة ، ولهذه المسائل قواعد ولوائح تجعل التشريع الاجتماعي في زيلندا الجديدة من أرقى وأوفى ما عرف في العصر الحديث

وقد بلغ عدد الذين استفادوا من المعاشات بأنواعها التي توزعها الحكومة طبقاً لقوانينها ولوائحها مَن شيوخ وعجائز وأرامل ومعدنين وغيرهم ٨١ الفاً — من مليون ونصف مليون — في سنة ١٩٣٥ وبلغ مجموع ما نالوه في تلك السنة ثلاثة ملايين ونصف مليون من الجنيهات ، ومجموع ما تنفقه الحكومة على المعاشات والتعليم والصحة يبلغ نحو ثمانية ملايين من الجنيهات من ميزانية قدرها ٢٥ مليوناً أي ان ثلث الميزانية ينفق في هذه الاغراض الاجتماعية النبيلة

وعلاوة على ما تقدم كانت زيلندا الجديدة أول بلد في العالم حاول ان يفض المنازعات الخاصة بعمال الصناعة بواسطة المحاكم فعرفت بوصف البلد الذي لا يحدث فيه اضراب

***

أما نظامها السياسي فيلخص في أنها ظلت مستعمرة بريطانية الى سنة ١٩٠٧ عندما تحولت من طبقة المستعمرات الى طبقة بلاد الدومنيون المستقلة في نطاق جامعة الأمم البريطانية ففازت باستقلالها الداخلي وتدبير شؤونها. وبعدما وضع مبدأ قانون وستمنستر في سنة ١٩٢٦ وأقرَّ في قالبه القانوني النهائي في سنة ١٩٣١ غدت زيلندا الجديدة،كاستراليا وكندا وجنوب أفريقية ، دولة مستقلة بكل معنى الكامة لا يربطها بالمملكة المتحدة « أي انكلترا ويلز واسكتلندا وشمال أرلندا » وسائر بلدان الدومنيون الاّ رابطة الولاء للتاج البريطاني ممثلاً شخصيًّا في الحاكم العام . فعلاقة الحاكم العام بحكومة البلاد ومجلسها النيابي ، كعلاقة الملك في لندن بحكومة انكلترا وبرلمانها ، أي أنهُ يعمل بمشورة حكومته المؤيدة من حزب الأكثرية في البرلمان . وليس لبريطانيا او لاحد بلدان الدومنيون سلطان على بلد آخر منها في شأن ما من شؤون السياسة الداخلية والخارجية

آراء قديمة وحديثة في :

تأثير الغذاء في الطباع

للدكتور عبده رزق

إن تأثير الطعام في صحة الانسان العامة لا يقتصر على المقدار بل يشمل النوع كذلك . وفي ذلك قال الفيلسوف بورفيريوس Porphyre (٢٣٣ — ٣٠٤م) : « ليس بين النباتيين والذين يتناولون الاطعمة البسيطة نشاهد الطغاة واللصوص والسفاحين، بل بين آكلي اللحوم. وقد دلنا الاختبار على ان الاطعمة النباتية هي أقدر وأجدر من سواها ليس للحصول على صحة عمومية جيدة فحسب ، بل أيضاً على ادراك صحيح وعقل متزن » وكتب في الموضوع نفسه الفيلسوف الروماني سنكا Seneca (٤ ق.م — ٦٥م) ما ترجمتهُ : « وأنا أيضاً قد تركت عادة تعاطي اللحوم . . . وبعد سنة واحدة على انقطاعي هذا أصبحت عاداتي الجديدة سهلة لذيذة سلسة ، وتبينت علاوة على ذلك ان قواي العقلية قد اطرد نموها »

ويؤخذ من تجارب متعددة جربت في أيامنا هذه بالجرذان التي أعطيت الخبز والخضر غذاءً لها ان هذه الحيوانات غدت أهدأ طبعاً وأسهل ائتلافاً وأميل الى اللين . وبالعكس أصبحت شرسة متوحشة قارضة مؤذية عندما أخذت تقتات باللحوم . وكذلك الحيوانات الأخرى كالدببة في حدائق الحيوانات وغيرها، فهذه تكون هادئة وادعة ما دامت تقتات بالخبز والخضر، ولكنها تغدو مؤذية خطرة عندما يقتصر طعامها على اللحوم . ويذهب بعضهم الى ان نوع الغذاء وحده كان كافياً لتحويل الذئب او الهرة المتوحشة من الضراوة الى الألفة والدعة

أضف الى ما تقدم ان كثيرين من العظماء والادباء والمفكرين أمثال نيوتن الذي جاوز الثمانين في العمر ، وفونتنيل وفرنكلين وجان جاك روسو ولامرتين وميشله وغيرهم كانوا من النباتيين وطعامهم كان مقتصراً على الخبز والبقول والخضر والماء . وقد جربت تجارب متعددة بطائفة من المجرمين في سجون الولايات المتحدة الأميركية ، فأعطوا حساءً مطبوخاً بالذرة بعد اضافة نوع من الدبس اليه ، فظهر ان طباع هؤلاء المجرمين قد تحسنت تحسناً محسوساً وأمسوا بعدئذٍ أهدأ خلقاً وأسهل انقياداً مما كانوا عليه قبلاً

نستنتج مما تقدم ان الاطعمة النباتية لا تدخل في الجسم موادَّ سامة أو مهيجة للاعصاب كما تدخلهُ فيهِ اللحوم او الاطعمة الزلالية . اما قول بعضهم إن الانسان الذي

لا يأكل قطعة لحم في كل أكلة لا يمكن ان يحتفظ بصحته ويصبح غير صالح للعمل ، فهذا لاسند لهُ من العلم . صحيح ان للحم مقاماً بين الاغذية وهو يولد في الانسان نشاطاً غير عادي بعد تناولهِ ويغري آكله بالافراط في أكله ، غير ان هذا النشاط في حقيقتهِ ليس الاَّ تهييجاً مؤقتاً لا يلبث ان يعقبه انحطاط . وهذا التهييج من أكل اللحوم أشد خطراً من تهييج المواد الغذائية الاخرى لان هذه لاتترك مخلفات في الجسم ، اما اللحم فلايحترق الاَّ احتراقاً جزئيًّا وينتج من ذلك مركبات سمية كالحامض البوليك وهو لا ينفرز كلهُ فيكسو العضلات والمفاصل بادران قتالة تسمم الاعضاء

أضف الى هذه المضار الناشئة من تناول اللحوم مضار أخرى تنشأ عن اكل لحوم حيوانات كانت قد تعبَت قبل موتها فتحتوي انساجها على سموم شديدة الفعل . وكذلك تناول اللحوم الجلاتينية واللحوم البيض الحاوية سموماً في مادتها الحيوية . غير انهُ يجب القول هنا ان اكل الاطعمة النباتية دون سواها من شأنهِ أن يضعف تدريجاً مع الزمن ، قوى الجسم العامة ، ولاسيما الارادة . وكما ان الاسراف في تعاطي المواد الزلالية او النتروجينية مضر جدًّا بسبب عدم احتراق هذه المواد احتراقاً كافياً في جسمنا وعجز الجسم عن اخراج مخلّفاتها ، كذلك الانقطاع عنها بتاتاً لا يصح بوجه عام عند معظم الناس . ولهذا ينبغي على الانسان أن يأكل تلك المواد بحذر ويختار من الطعام ما يوافق دواعي صحته والعيشة الصحية التي يحياها اكثر الناس الآن في البلاد المتمدنة . وبوجه عام لا يحسب حساب كافٍ لهذه الامور في طعام الانسان لأنهُ ، بحسب طبعهِ، لافرق عنده بين التغذي بهذا الطعام وبين التغذي بغيره . ومما يجدر ذكره هو ان العصبيين وسريعي التأثر وذوي الطباع الحادة وقلال الصبر يجب أن يقتصروا ما أمكن على الأطعمة النباتية او ان يقللوا جدًّا من تعاطي اللحوم . اما ذوو الامزجة اللمفاوية ، والذين فيهم ميل الى التراخي وبطء الحركة الخ فيحسن أن يدخل اللحم في طعامهم

ويقول احد الأطباء الانكليز ان لحم بعض الحيوانات : كالثيران والخنازير والغنم والعجول لهُ تأثير خاص في طباع الانسان . فلحم الثور مثلاً — بحسب قوله — يجعل المرء مع الزمن نشيطاً قويًّا شجاعاً ، ولحم الخنزير يؤدي الى الاصابة بالملانخوليا . وهكذا قل عن لحم الغنم فهو يؤدي ايضاً الى نفس النتيجة . اما لحم العجول فيزيل من الانسان كل قوة وحماسة حتى ان الذي يتعاطى هذا اللحم يكون ضعيف الذاكرة والارادة ومنحط الحالة الجسدية والعقلية

وهناك طبيب انكليزي آخر يقول ان النساءَ اللائي يردنَ ان يكنَّ حائزات على صفات الاناقة والظرف والكياسة ما عليهنَّ الاَّ ان يكتفينَ بأكل اللبن الحليب والبيض أما الافراط في تناول الزبد والبطاطس فيجعل الانسان حسوداً كسولاً ، وان تعاطي التفاح يساعد كثيراً ذوي الاشغال العقلية على العمل ، والخردل يحفظ الذاكرة . والمعلومات الاخيرة نوردها هنا بكل تحفظ

حديقة المقتطف

رابندرانات تاجور

الفصل الثالث

مدرسة تاجور



لمحمود المنجوري

مدرسة تاجور

— ٣ —

لمحمود المنجوري

ويلتفت تاجور ، بعد اذ يقرر ان المدنية الهندية انما نشأت في الغابة مستمدة حريتها وتفكيرها وعناصرها ومقوماتها من حقائق الحياة البشرية التي لا تحدها اسوار المدينة ولا تكتنفها حدود الممالك الموضوعة ، يلتفت تاجور بعد هذا الى المدنية الغربية فيقول :

« وترى الغرب قد أخذته العزة كبراً ، فيحسب ان الشرق يعيش كلاً على الطبيعة ، تغالبه فتقهره ، كأنه وإياها في خصام دائر ، وإنها لن تنيله من أمرها شيئاً ، إلا ما قد يغتصبه منها اغتصاباً ، وانه معها على غير هدى او تفاهم ، إلا بالقدر الذي يحرفه الشرق عن حقائقه وأوضاعه »

هذا هو وحي المدنية الغربية ، المدنية التي نشأت بين الجدر والاسوار ، والتي لا تدع للشعور نموًّا ، ولا تترك للفكر مجالاً للسمو في آفاق غير محدودة

« ففي حياة المدينة ترى الانسان قد جبل على توجيه قواه العقلية في مجرى حياته الخاصة ، وشئونه التي تتصل بمطامعه — وهذا الجهد يقيم فاصلا مصطنعاً ، بين روح الفرد وبين الطبيعة الجامعة التي تحتضنه وتؤويه « ولكن وحي الهند مختلف عن هذا الذي يوحي به الغرب ، إذ أنه يضمن العالم قلب الانسان، وينظر اليهما كحقيقة واحدة كبرى ، وفلسفة الهند تعتد بالانسجام الكائن بين الفرد والجماعة ، وتشعر بأن الانسان قد لا يلتئم بما حوله من كائنات ، اذا لم تقم بينهما الالفة والتفاهم الصحيح ، وظلامة الانسان من الطبيعة تقع دائماً في الشكوى من أنه لا يحصل على الغالب من مطالبه وضرورياته منها إلا بجهوده الخاصة : فلكي يكسب لا بد ان يعمل ويجهد ، هذا حق ، إذ ليست جهوده بذاهبة هباء او عبثاً ، انه يجني كل يوم ثمرة النجاح ، وهذا يدل على وجود رابطة عقلية بينه وبين الطبيعة وما فيها من كائنات ، فلا يمكن ان نحمل شيئاً في حوزتنا مالم يكن قد أصبح متصلا بنا تمام الاتصال » (١).

فتاجور يرد كل مدنية الى طبيعتها ، ويرى ان حضارة الغرب نشأت نشأة تدعو الى الانانية، لأنها نشأت محصورة في مطالب الانسان، الذي جنى على نفسه، فحدد تفكيره بحدود مصنوعة، وقيد مشاعره بأوضاع ضيقة ، فنشأ وهو يشعر بأن الطبيعة خصم له ، عليه ان يفكر في اخضاعها واستغلالها لرغباته ومطالبه ، وان هذا العالم لا بد انْ يتغلب هو عليه ليقهره حتى يسوده — بينما الحضارة الهندية على نقيض هذا ، نشأت في حرية لا حد لها ، وكان مهمُّ العقل الشرقي ان يدرك من الحياة حقائقها ، لا ان يبسط عليها نفوذه ويناصبها العداء ، فهو لهذا

(١) سدهانا . ف ١

مضطر الى ان يوثق العلاقة بين نفسه وبين الطبيعة، وينفي عن نفسه هذه العزلة وهذه الوحشة التي تدعوه الى التفكير في السيطرة والسيادة والشعور بالفردية، وهو لهذا يشعر في نفسه بوجوب الاندماج في العالم، يبادله حبًّا بحب، وعطفاً بعطف، فهو عندما يسخر الطبيعة، لا يسخرها لانهُ قهرها وأذلها، ولكن لأنهُ فهم منها أسرارها فأحبها، وشعر في نفسه بأنهُ منها وأنها من ذاتهِ، وألاّ حواجز تحول بينه وبينها، فهو لا يفرق بين ما هو انساني متصل بنفسه، وبين ما هو طبيعي متصل بالكائنات، بل هناك وحدة تجمع الكل في رباط واحد، هناك قوة الله التي خلقتنا وسخرت بعضنا لبعض لمناصرة الفكر والعقل والحياة والحرية

والحضارة الغربية قد وضعت العلوم، وسخرت العقل البشري لقهر الحياة واذلال الطبيعة، بينما نرى الحضارة الشرقية فيما يقرره تاجور في قوله :

« إن ادراك العلوم الطبيعية يجب ان يلهم نفوسنا المسرة بالمعرفة والبهج بالحياة وأسرارها . يجب ألا تشدنا الى المعرفة بالعلوم الطبيعية طلعة الانانية ولا نهم الكسب المادي، من تسخير الطبيعة، ولكن يجب ان يشدنا اليها ما نتوخاه لها ونحققه، بشعور عاطف متبادل بيننا وبين الطبيعة، فيفيض علينا فيضاً غزيراً من السرور والصفاء — إن العقل الهندي لا يتردد في الاعتراف بأواصر القربى بين الانسان والطبيعة، ويرى ان وحدة الكون جوهرية، يجب ألا تكون موضع تفكيره او تأمله الفلسفي فقط، ولكن يجب ان تكون وحدة الكون غايته من الحياة، يتوخاها بالجهد المبذول، بالشعور والعمل »

فمدرسة تاجور، تدعو الى رفع الفوارق بين الانسان وبين الطبيعة، وتعتز بحكمة الهند التي تقول بعَدّ الدنيا والانسان حقيقة خالدة واحدة، وفي هذا يقول تاجور :

« كم يكون الانسان فيغيابة من السجن اذا هو لم يحقق صلته بالعالم، وكم يكون حراً مطلقاً عندما يتعرف الروح الخالدة الكامنة في الاشياء التي حوله . عندئذ تنكشف له الدنيا أماً رؤوماً، في أروع معاني الرحمة والاحسان والعطف، وعندئذ يشعر الانسان بأنه في فيض كامل من الحق، وان انسجامه بالمخلوقات والآفاق قد تم »

فالطبيعة والانسان في نظر الشرق كائن واحد، ولا يمكن للفرد ان ينقطع عن العالم، بل هو موصول بهِ روحيًّا، وفي هذه المعاني يقول تاجور :

« إن الفرد لايمكن ان يعيش انساناً فقط، بل عليه ألا يجهل مكانه من الطبيعة الجامعة، والا أرهق أعصابه، إذ لم يأخذ مكانه من اللانهائية ومطالب الروح . ويجب عليه ان يعلم انه وإن جاهد، وبذل في الحياة ما بذل، فلن يخلق عناصر وجوده في ذاته من نفسه، ولن يكون كالنحلة تدبر عسلها من جهدها طعاماً لها طول العام، فان الانسان لا يمكن ان يعيش على ما في جسده من مدخر، ولا بد من مدد موصول مما حوله من العالم، يجب ان يدرك انه اذا ما حبس نفسه، وقبضها عن الاتصال بالعالم وباللانهائية، واذا ما عكف على نفسه يجتر القوت ويلتمس منها العافية، ردّت نفسه الى العطب، وتمزقت إرباً، وأكل بعضها البعض الآخر، فهو مفتقر الى ما حوله من عناصر الحياة الاخرى، هو مفتقر الى ان تحاط بهالة منها، فان انتزعت عنه، حرم البساطة، وأصبح أنانياً كرجس يعاب، وتجردت ثروته الروحية من المروءة وعزة النفس،

واندفعت نفسه تنمو في السفه والاسراف ، وقد انقطعت بها وشيجة الحياة الجامعة ، فتصبح الشهوة غاية له في ذاتها ، ويصبح أنانيا ، ثم ينقلب الى نار تذكى لهيبها لتأكل ما حولها ، ثم يكفهر لهيبها . فتأتي على نفسها ، وتصبح حياة الفرد مفزعة مخيفة » (١)

وتدعو مدرسة تاجور الى تعاون المدنيات على الخير والبر والسلام بأن تتلاقح هذه المدنيات بعضها ببعض ، لتوليد ثقافة عالمية ، لا يشعر فيها الانسان بنفور او بؤس او فاقة روحية ، فالحضارة الانسانية ، التي لا تعرف الوطن ، ولا اللغة ، ولا الجنس ، ولا اللون ، هي رسالة مدرسة تاجور ، التي يبغي ان تعم الدنيا وتشمل الوجود ، ولا بد للوصول الى تحقيق هذه الرسالة من ان يشعر كل فرد بالتوافق الروحي مع ما حوله في العالم

« إن قلب الانسان ، هو هذا المكان المقدس ، الذي يشعر منه بالتوافق الروحي ، بينه وبين الاشياء التي تحوطه في العالم ، حيث تلتئم روحه بروح الدنيا . إني لا أستطيع أبداً ان أتخذ الاشياء على غير هذا الوضع ، وانها لضيعة للفرض حقاً ، لو استمسك التاريخ باعادة نفسه ، وتكرار احداثه ، على شاكلة واحدة لا تتغير . وانه لخير للروح العامة ، ان يلتئم الناس على اختلاف أقدارهم في سوق البشرية ، عارضة منتجاتهم الروحية والفكرية المختلفة ، لان بعض الانتاج هو في الحق متمم وضروري للبعض الآخر ، إن كل ما أرغب القول فيه : هو ان الهند قد أهلت في مطالع وجودها ونشوء اتجاهها على أحداث ملائمة ، كان فيها الخير والبركة ، فاستغلتها فرصة متاحة للتفكير وإنعام النظر ، والكد ، ومجالدة النفس ، فسبرت أغوار الوجود ثم أنجزت من هذا البذل الروحي شيئاً له قيمته للبشر ، سلك بالتاريخ البشري طرائق متباينة ، ولكنها طرائق تدعو الى تكوين انسان كامل نال نصيبه من جميع المدنيات . فلكي ينمو الانسان نمواً كاملا ، لابد له من تلبية ما يحتاج اليه تكوينه من العناصر ، والمواد الحيوية المختلفة التي تدبر حياته المركبة . فغذاؤه إذن يجب ان يكون مختلف العناصر مجلوباً اليه من حقول متباينة التربة

والحضارة قوالب وقيم ، يجهد كل شعب في ان يهيء له منها ما يصلح ، لتخريج أناسه ، رجالا ونساء ، في أوضاع ، طبق مثله التي يؤثرها تكوينه ، وكل شعب يرعى قيمه حضارته وقوالبها ، في جميع نظمه وكل تشريعه وتقنينه ، وتحديد مستوى الجزاء والعقاب ، بل ان الحضارة لتبسط ولايتها على ما هو أبعد من التشريع والتقنين ، فلها الولاية على الوجدانيات ، وما تستشعره الجماعات والافراد من أحاسيس ومشاعر مختلفة

وتجاهد حضارة الغرب بما اختزنت من قوى ، لتجعل من البشر أناساً يسيطرون على الطبيعة بما أوتوا من عقول وبسط في النفوذ ، وتدعو الى ان يسخر نشاط الشعوب بأبلغ مداه ، في بسط قوى الانسان على ما حوله من كائنات ، والى ان يعقد الفرد مواهبه للوصول الى حق التملك والسيطرة لاخضاع الحياة واستثمار ما بين يديها وما خلفها من قوى ، وامتلاك كل هذا للغلبة والانتصار على الطبيعة — فالمدنية الغربية تهيء الفرد ليعد نفسه ليكون حربا على غيره ، وخصما مجاهداً للطبيعة وسائر الانواع ، وليعد ما استطاع من قوة وذخر وسلاح لاذلال الحياة »

هذا هو رأي تاجور في الحضارة الغربية بينما يرى ان في حضارة الشرق المعاني السامية التي تسع الحضارة العالمية التي ينشدها

« وأما حضارة الهند القديمة فقد اتجهت الى مثل عليا ، الى هدف آخر غير الذي ترمي اليه حضارة الغرب ، بذلت في سبيله جهودها كاملة . فلقد أهملت ما عني به الغرب ، من احراز للقوة وبسط للسلطان ، ولم تدعم بنيها بوسائل الهجوم أو الدفاع المادي ، في سبيل حيازة الثروات ، وجلب الاموال ، او فرض النفوذ السياسي على

(١) سعد هانا

الغير . . . لقد اتجهت الحضارة الهندية الى الفوز بالحياة عن طريق اثارة الروح والتأمل، وادراك الوحدة، والاستغراق في البحث عن الغوامض ، فجلبت كنوز المعرفة ، وقدمتها الهند للبشرية ، هدية كريمة ، كمدنية روحية — كلفتها الثمن الغالي — ان نزعة الطموح بالبشرية هي ما تبغيه الحضارة الشرقية » (١)

يلتفت تاجور بعد اذ أبان الفروق بين المدنيـة الغربيـة والمدنية الشرقية ، يلتفت الى دعوته التي جاء برسالتها، مؤمناً بها عاملاً لها، فيدعو الكافة الى مدنية عالمية، لا أثر للجنس ولا للون ولا للغة فيها . وهو يدعو العالم عن طريق الحقوق الفطرية التي للانسان ، وعن طريق الوحدة الروحية التي جهدَ في اقناع العالم بانها الدعامة القوية التي يجب ان تنهض عليها حقوق الانسان في الحياة دائماً ولم يدعهُ عن طريق العقل والتفكير وحدها

ان تاجور يريد إن يطهر المدنية الغربية مما هي عليهِ من أسس عنيفة منحرفة عن طبيعة السمو والحياة ، ويراها مدنية قامت على قيم من الاثرة والحرب والغلبة وانكار الحقوق والاستعمار والابتعاد عن مطالب الروح والاندماج في المادة والالحاد — فهو بهذا يعمل على انقاذ الجنس البشري بتوجيهه الى المدنية الفاضلة المستقيمة فهو يأبى العنف ، وينـكر الحرب ويمقتها مقتاً كبيراً ، ويرى الأمة التي لا تستطيع ان تعيش الاّ بحماية سلاحها أمة مريضة الروح ، لا تعيش الاّ على مادة الجسد وحده ، وكم جلّت حسرته وانهمرت دموعه يوم زار اوربا عقب الحرب الكبرى (١٩١٤ — ١٩١٨) ويوم رأى ارضها غارقة بدماء الملايين من البشر ، ويوم سمع صوت الجندي المجهول يئن ان اتخذوني رمزاً للغدر والتقتيل ولا تتخذوني رمزاً للتضحية والوفاء . كم بكى يوم رأى اوربا متشحة بالسواد بعد حرب طاحنة أثارتهـا اطماع افراد من القادة والزعمـاء . وكم رفع اكفه الى الله طالباً المغفرة يوم أيقن ان شروط السلام التي وضعت ، والتي سارت عليها اوربا بعد هذه الحرب ليست الاّ اسباب حرب جديدة ستضع اوربا والعالم جميعاً فوق بركان جهنمي لا يهدأ ، أيقن تاجور بعد ان زار اوربا ان المدنية التي تتخذ الحرب ظاهرة جوهرية لوجودها لا يمكن ان تكون مدنية فاضلة لله فيها صوت او فكرة او دعوة من روحه، وان مدنية لا تقوم الاّ على أسس الانانية والاثرة التي يحميها السلاح والغاز الخانق ، انما هي مدنية حارقة ستأكل عناصرها كما تأكل النار نفسها يوم تزول . ولقد حاضر تاجور شعوب اوربا وأميركا ، وقذف في وجوههم كلمة الحق وآراهم انفسهم وحوشاً في دثر من الانسانية ، وأطلعهم على صور جميلة من نفسية الشرق. صور الحب، وادراك الحق والجمال، والتعاون الروحي ورتل فيهم اغانيه الحلوة، فعلت وجوه الملوك والامراء حسرة وكآبة ، اذ حمّلهم مسئولية ضياع الارواح البريئة في الحرب

(١) كلمات تاجور الواردة في هذا الفصل مقتبسة من محاضرة له ألقاها في مدرسته ونشرها في الفصل الاول من كتاب سعد هانا بعنوان « علاقة الفرد بالعالم »

الماضية ، وأكد لهم ان الفائز في تلك الحرب انما هو خاسرها الفاشل ، وان الضحايا ستثأر وتنتقم في يوم قريب . ولقد هاله من أمر اوربا ان رآها قد أسرفت في الاثرة والانانية وفي العصبية الجنسية الى أبعد حد نتيجة لفوضى الحرب التي خلفت مبادىء اقتصادية وخلقية لا تستقيم مع سلامة الحياة وحريتها ، وأكد لهم ان اعصابه لا تقوى على احتمال التفكير في نتيجة هذه العصبية ، لأنها ستؤدي الى حرب أشد قسوة مما سلفت ، الى حرب حيوانية ، بعيدة عن القلب والروح ، لأنها حرب العصبية والاجناس ، وان المدنية الغربية سائرة الى الانقراض كلما ابتعدت عن روح الشرق الكبير الذي يدعو الى الوحدة الروحية والسلام والمحبة .

ولقد تأثرت اعصاب تاجور يوم علم بان اليابان قد اجتاحت جارتها الصين ، وبكى لانهُ شهد اليوم الذي اصيب فيه الشرق بروح الغرب الفاتكة المريضة ، واما الحرب الحديثة[1] فقد لحقته مريضاً يعاني آلام الاعصاب ، ولكنها ولا شك كانت امراً يتوقعهُ نتيجة للوضع الاوربي الذي نشأ بعد الحرب الماضية

ولقد سمعت تاجور وهو يحاضرنا ، يوم احتفلنا به بعد زيارته لأوربا في فندق شبرد في ديسمبر سنة ١٩٢٦ ، وهو يقول :

«لا أشك مطلقاً في ان قد وجدت أمم من قبل ثم بادت فانية من حروب طاحنة في سبيل أغراضها . ولا تزال الآن في مجاهل أفريقيا أمم تسير في طريق الفناء ، وأمم الغرب ، على ثقافتها ، لا تقل في هذه الناحية جهلا بالوحدة الروحية عن هذه الشعوب المنقرضة ، لاخذها في حياتها بخطة الاثرة وعد الحرب والسلاح ضماناً للسلام الاجتماعي ، بل ان الامم الغربية ترى كما ترى هذه الشعوب ان الغزو والتسلح ضرورة لبقاء الحياة . ولئن كان هذا ممكناً تصوره يوم كانت الحدود الجغرافية حقيقة واقعة تفصل بين الامم والقبائل ، وتجعل كلا يعتز بكيانه وجنسه ، وتجعل لون أصحابها وسيلة لحرب من كانوا من لون آخر ، فلم يبق لهذا التصور اليوم من سبيل ، بعد ان أصبحت الحدود الطبيعية لا حقيقة لها ، لاسباب أهمها تقدم المواصلات وسرعتها ، والتمازج العقلي بين الامم . لهذا يجب ان تنمحي الاثرة ، وان يزول التعصب للجنس واللون . ويجب ان يشعر العالم ان هناك وحدة روحية تربط أممه المختلفة

ولقد أنست في أثناء سياحاتي في البلاد المختلفة ، في كثير من المفكرين ، اتفاقاً وإياي في الرأي ، وثقة تمثل ما أثق به بأنه سيأتي يوم تسود فيه هذه الفكرة جميع الشعوب . ولقد احتفل بي البسطاء السذج من الناس في بلاد شتى ، لانهم أحسوا في كتاباتي الدعوة الى هذه الوحدة الروحية التي تصبو اليها نفوسهم

وأما الوسيلة لقهر الانانية وإزالة التعصب الجنسي فليست هي الحديد والنار ، وانما هي في انتشار الافكار السليمة بين الشعوب وسعيها جميعا لادراك الحقيقة ، فهذه الحقيقة ، الحقيقة المجردة ، الحقيقة المطلقة ، يجب ان تكون غاية الغايات ، لكل شاعر ، ولكل مفكر ، ولكل مصلح اجتماعي ، ولكل فيلسوف ، ويجب ان تكون غاية الغايات للانسان الكامل ، ويوم يأتي الوقت الذي يعمل فيه كل لمعرفة الحقيقة ، فاذا رآها لم يتردد في اعلانها يومئذ ، يكون الانسان قد وصل الى الكمال حقاً ، وفي هذا اليوم يتم السلام على الارض . إن السلام لن يترتب على عمل صناعي مطلقاً كالاتفاقات الدولية وما اليها من معاهدات ومؤتمرات لنزع السلاح . انما الوسيلة الوحيدة لتحقيق السلام هي الوحدة الروحية . فهل تراني قد أحسست بأن هذه الوحدة قد بدأ ظهورها في العالم بعد الشعور بويلات الحرب وتدميرها ؟ »

---

(١) الحرب التي نشبت في سبتمبر سنة ١٩٣٩

في هذا الخطاب الوجيز يلخص تاجور دعوته إلى المساواة ، فيقول : « يجب ان تنمحي الأثرة ، وان يزول التعصب للجنس واللون» لانهُ وجد المدنية الغربية تنهض على هذه الأخطاء ولانهُ يخشى ان تنهار هذه المدنية ، وفيها الكثير من ثمرات الفكر البشري ، وما يعد ضياعه خسارة لكنز بشري ثمين قد لايعوض في اجيال وقرون

ولقد عارض فيلسوفنا ، بهذا المبدأ السامي مذاهبَ المساواة التي يؤمن بها العالم المتمدين في القرن العشرين،وهو وإن لم يكتب رسالتهُ في تفصيل علمي على نحو ما يكتب علماء الاجتماع بحوثهم الا ان رسالته الروحية تؤدي الى وضع المساواة في نصابها الحق،ولانهُ يريد ان يبتعد عن الاسلوب العلمي لما يحتاج اليهِ من مغالطات في المنطق ، لان دعوته روحية لا تحتاج الى غير اخلاص في الأداء وايمان بها

فعلماء الاجتماع والفلاسفة الذين نظموا مذاهب المساواة ، وقرروا استحالتها بين الامم والشعوب ، هم صورة للمدنية الغربية المنهارة ، بينما نجد تاجور صورة للشرق الكريم الذي يبشر بدعوة روحية ان سلكتها المدنية البشرية كانت المدنية الفاضلة التي تستمد كيانها من عناصر السماء والروح

ولكي نفهم اصالة الفكرة التي ترمي اليها رسالة تاجور « رسالة الشرق ، رسالة الوحدة الروحية والمساواة » يجب ان نلم بما يناقضها من مذاهب المساواة في مدنية القرن العشرين ، وهذه المذاهب هي رسالة الغرب المنهار

ولعل رسالة الغرب تتلخص في فلسفة نيتشه ، وفي العلوم التي حاول جوستاف لوبون ان ينظمها في ابحاث ظلية . لقد أرادا حقـًا ان يؤسسا مدنية الغرب على اسس من الانانية، وقد رسماها رسماً صحيحاً في اساسها واوضاعها،دون كذب اوملق ، لانهما يؤمنان بدعوتهما ، كايمان تاجور الكريم بالدعوة التي تناقضها . فنيتشه وجوستاف لوبون صورة للغرب ، لا يؤمنان بحق للانسان الضعيف ، ولا للانسان المحروم من القوة ، ولا للانسان الذي لم تهيء له الطبيعة أن يكون من جنس اوروبي أو لون من ألوان الشعوب الاوروبية — هما رجلان لهما نزعة الاستعمار،يريان من حق القوي أن يأكل الضعيف ، احدهما يقيم آراءه على علوم كانت مبتسرة الى زمن تقرير هـذه الآراء ، بل انه التمسها مغالطة منهُ . فهو يبني بحوثه على علم « الانتروبولوجيا » اي علم دراسة الانسان على مجموع العلوم النفسية والتشريحية والوراثية. فهو لهذا يحدد ويرتب الناس ، طوائف وأجناساً وأنواعاً ويناقش نظرياته الاجتماعية على ضوء ما يتباين وما يتحد من صفات هذه الاجناس البشرية . وهو من هذا يصل الى أن الاختلافات الجنسية واللغوية والتشريحية اصول في تكييف المدنيات وحقوق الانسان في تغيير

الجماعات من حيث الميول والمزاج العقلي أو بعبارة اوضح : هو يقرر بان المساواة مستحيلة بين الامم ، او هي مستحيلة بين الافراد ، لأن الأفراد، أو لأن الامم مختلفة اختلافاً جوهريًّا في الوراثات والصفات التشريحية والامزجة العقلية واللغوية ، فالناس إذن متفاوتون ، لا يتساوون في الحقوق، والامم اذن لن تتساوى أمام ميزان العدل العام ، وعليهِ فلا بدَّ من أمة حاكمة مستقرة ومن أخرى محكومة مستعبدة

هذا النظر ينقضه تاجور ، وتأبى فطرته الانسانية ان تؤمن به ويرد عليهِ في قوله :

« يجب ان تنمحي الاثرة ، وان يزول التعصب للجنس واللون »

ولا ينكر تاجور الخلاف الذي اشتجر بين الناس منذ القدم ، ولكنهُ ينكر عليهِ أنهُ صدر عن نزعة انسانية فيقول :—

« لقد نشأ الخلاف ، وقام النزاع بين البشر منذ فجر تاريخهم الاول ، ولقد سبقت بعض الجماعات بعضها الآخر ، وتقدمت غيرها مصادفة ، ثم أخذت تستغل ضعف الضعفاء ، ثم تكبر عتواً منها ، ثم أغاظت لها القياد والسلوك . إن هذه العادة ، عادة السيطرة والغدر قديمة في البشر ، ولكنا على الرغم من قدمها نجزم بأنها ليست من الانسانية في شيء ، وليس لامة متحضرة ان تبني عظمتها على إذلال الذين جردوا من انسانيتهم ظلماً وعدوانا ، وحبست أرواحهم في سجون مظلمة من المذلة ليس للنور والعلم والمدنية اليها من سبيل »

فالمساواة اذن حق بشري مقرر ، ولكن الطغيان يهدرها،وينكرها في مناطق كثيرة من هذا العالم

ولئن كانت الاثرة والانانية من مظاهر القوة للمدنية الحديثة ، الآن تاجور يقول فيها انها من مظاهر الانهيار لهذه المدنية فهو يقرر « لقد أسرفت الامم في الاثرة والانانية وفي العصبية الجنسية التي يتمسك بها فريق كبير من أهل الامم المتحضرة ، على ان هذه العصبية هي اكبر مظاهر ضعف المدنية الحاضرة ، فهي التي تجر الامم الى التطاحن لنيل غايتها ، وهي التي تثير بينها حروباً مهلكة مدمرة ما كانت لتقع لولا هذا التعصب الخاطيء ، وتلك الاثرة التي استكنت في قيم المدنية الغربية »

ولقد حمل كتاب الفيلسوف الالماني (ازوالد اشبنجلر) « سقوط الغرب » هذه النذر التي تضمر للمدنية الغربية الانهيار ، وفسر بطرائقه العلمية دعوة تاجور الروحية ، ولقد مهد لبحثه بقوله :

« إنه يريد ان يجرب لاول مرة تعيين مجرى التاريخ ، وان يوضح مستقبل المدنية التي تسود العالم، والتي بلغت ذراها ، وان يصور المراحل التي ستعقبها في سقوطها » . [ثم قارن اشبنجلر المدنيات فقال]: «بينما ترى الانسان في المدنية الغربية التي يمثلها الشاعر جوتيه بفاوست الذي لا يعرف إلا «أنا» أي الذات المستندة الى نفسها لنفسها ، وبينما ترى الانسان في المدنية القديمة الذي يمثله اليونان (بأبولاون) يعد نفسه (واحداً) من المجموع مسئولا عن شخصه ، إذ ترى الانسان في المدنية الروحية (مدنية الشرق والاسلام) لا يعد نفسه

إلا جزءاً من كتلة كائنة تجمعها كلة «الناس جميعا»(١) تتمثل في كل جزء،وفي كل تشريع من ثواب او جزاء وإن المدنية الشرقية هذه تؤمن بشيء آخر مقدس،يجول في وحدة الجماعة،ويبعث الفرد دائما على التفكير فيه بأعتبار الفرد جزءاً من كل ولان هناك روحا تتصل بروحه وتجمعه بالجماعة، هذه الروح المقدسة هي (الله) وهو معصوم من الخطأ في قضائه وقدره — واننا لسنا نستطيع ان ندركه بعلومنا التي وضعها العقل والتفكير، فمن الضلال ان ندع الانانية في العلم والتفكير تبسط نفوذها على القوى الخفية المحركة للعالم» (٢)

روت إحدى الصحف الانكليزية[٣] أن تاجور كان في لندن في أثناء زيارة نجمة السما المشهورة ماري بكفورد لها، وحدث أن كان الفيلسوف يمر في طريقهِ الى الدار التي يسكنها أثناء استقبال الشعب لهذه النجمة الجميلة التي ظفرت باستقبال فريد لم يظفر بمثلهِ ملك من الملوك فتبعهُ صحفي وسألهُ رأيه في احتفال الشعب بنجمة السما فأجابهُ حكيم الشرق

«انما ذاك بعض مظاهر حضارة الغرب المادية التي تدعوه الى التعلق بما يفنى، والانصراف عما هو باق خالد، والحضارة الحقة، الحضارة التي تشرّف الانسانية، وتدل على سموها وعظمتها هي النقيض من هذا، وهي الداعية الى التعلق بالخلد الماثل في روح الوجود»

ويرى تاجور في صلة الشرق والغرب غير رأي كثيرين يؤمنون بقول الشاعر الانكليزي رديارد كبلنج «الشرق شرق والغرب غرب، ولن يلتقيا» وهو لا يقر الكتَّاب والأدباء والساسة الذين يقولون بوجود الفوارق الطبيعية بين الغرب والشرق،التي تحول بين قيام التفاهم بين الثقافتين، أو احلال ثقافة منها مكان الأخرى، فيذهب تاجور غير مايذهب اليهِ علماء دراسة الفوارق الطبيعية التشريحية والانتروبولوجيا الذين يدرسون فوارق المدنيات من فوارق الطبيعة لتكوين الأجسام والجماجم بين الشرقيين والغربيين، ثم يقولون باستحالة التمازج بين الحضارتين الخالصتين. إن تاجور ينظر الى الحضارة كأنها ميراث بشري، لا وطن له ولا جنس ولا دم ينتمي اليهِ، ويؤمن بأن الاخطاء التي اعترضت طريق الحضارات انما هي أمراض يمكن البرء منها، لأنها من عمل أفراد استغلوا نفوذهم لتوجيه الأمم طبق رغباتهم وانانيتهم وضحوا بدم البشر في سبيل تحقيق ما تلح بهِ انانيتهم واطماعهم. ودعوة تاجور ليست دعوة جاءَ بها عن طريق تفكيره،وانما هي دعوة ابتعثها من تعاليم الفلسفة الشرقية، من تعاليم الهند القديمة المعروفة بمذهب (اوتيوزسوفي) الذي يرمي الى احياء العالم من طريق ابتعاث الروح وتوحيد اتجاههِ الروحي

فنظرة تاجور الى الحضارة الغربية ليست الاّ نظرة مشفقة على ما في هذه الحضارة من كنوز بشرية غالية، وهو يرى ان الغرب قد أصيب بمرض وبيل، مرض الانانية والتعصب للجنس واللون، وان داء الغرب هو الداء الذي سيقضي على حضارته، لانهُ يحرم الحضارة

(١) قال تعالى: «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعاً (سورة المائدة) (٢) مجلة حمامة من الشرق تصدر ببرلين سنة ١٩٢٥
(٣) جريدة السياسة ٢٩ / ١١ / ١٩٢٦

من عناصر البقاء والتجدد، ومن الروح المعنوية الجامعة التي تبعث بهج الحياة فيها، وتلهم القادة والزعماء طريق الخير، ومحو الأثرة واهدار الكرامة، وتقرير مبادىء المساواة كحق مقتضي لكل بشري بمقتضى انسانيته واشتراكه في حمل تبعات الحياة، وان حرمان امة من الامم او شعب من الشعوب نصيبه في الثقافة والثروة ليس نتيجة نقص في تكوينه الطبيعي، وانما هذا الحرمان هو نتيجة تحكم شعب قوي بآخر، وحرمانه اياه حقوقاً له مقررة منذ الازل. وان قوانين الوراثة والتناسل ونظم الحكم والتعليم لا ترفع الانسان قدراً على انسانيته، وان صقلته وهذبته، وان حرمان الناس تنظيم الحياة المتحضرة وبسطها على الشعوب المحرومة ليس الا أثراً من آثار الحضارة الغربية التي استأثرت بمباهج الحضارة التي اشتركت فيها الشعوب جميعاً منذ خلق الانسان. وان ما يترتب على هذا الحرمان هو اثارة الحروب التي ستقضي من غير شك على عناصر الانانية القاتلة

***

ويرى تاجور ان العالم يخطىء الطريق عند ما ينشد السلام بضمان مسلح او بعقد اتفاقات دولية. وانما يرى الوسيلة الوحيدة الى السلام في تحقيق الوحدة الروحية ونشر الافكار السليمة بين الشعوب، وتستطيع ان تقرر بأن لتاجور فلسفة اجتماعية يريد بها ان يبني للمجتمع البشري نظاماً يعيش في كنفه، وان هذه الفلسفة مدعمة بعقيدة قائمة على حقائق، تسير بمقتضى طبيعة الحياة نفسها، وتأتلف مع ما يجب ان تكون عليه الانسانية من وحدة روحية، وثقة متبادلة تنشأ بين الفرد والفرد، ثم بين الفرد والجماعة، ثم بين الجماعة والجماعات الاخرى، أي ان فلسفته ترمي الى جعل الحياة تلبي أبداً مطالب الوحدة الروحية العامة، وتحث المجتمع البشري على ان يسير طبق ما تطلبه الحياة من حب ووحدة وسلام

وتاجور بهذه الفلسفة يناقض المدنية الغربية في أسسها القائمة على الاثرة والانانية، وهو يريد ان يشفي المدنيـة البشرية من داء الغرب، أو هو يرمي الى نقد الحضارة وتنقيتها من العوامل الهدامة المنبثة في صميم تكوينها، والتي لازمت انقراض الحضارة البشرية في صورها المختلفة، فهو مشفق على حضارة الغرب ان تنهار ما دامت تسير في طريق الحضارات المنقرضة الاولى

وتاجور، بدعوته الى الروحية، يبشر بفلسفة الشرق، ويدعو الى دعوة الهند، التي تعبر حقاً عن ضمير الأديان التي نشأت في الشرق جميعاً، فهو يقول: إن وحي الهند يختلف عن هذا الذي يوحي به الغرب، اذ أنه يُضَمّن العالم قلب الانسان، وينظر اليهما كحقيقة واحدة كبرى،

وفلسفة الهند تعتقد بالانسجام الكائن بين الفرد والجماعة ، وتشعر بان الانسان قد لا يلتئم بما حوله من كائنات اذا لم تقم بينهما الألفة والتعارف الصحيح

فدعوته الروحية دعوة شاملة جامعة بين البشر وعناصر الطبيعة جميعاً ، وليست مقتصرة على ما يبذل من جهد في ربط البشر برباط واحد من الألفة والمحبة ، وهو يكشفنا عن سر الحضارة الشرقية التي تعنى بالروح والمثل العليا ، فيقول فيها : لم تكن رغبته في التملك والحيازة ، ولكن كانت رغبته في فهم الاشياء وادراك حقيقتها ، وتوسيع نفوذ ضميره عليها ، بان ينمو هذا الضمير نمواً متصلاً باتساع آفاق الطبيعة التي تحيط بهذا الانسان »

والحق في نظر تاجور ليس الحق الذي يراه الغربي المتحضر ، الحق الذي تعينه وتعرف اوضاعه القوة والمادة ، وانما « الحق هو ادراك شامل للكائنات ، وان السبيل الوحيد للوصول الى الحق انما يكون بتخلل نفوسنا الاشياء لندرك كنهها »

فتاجور يدعو القادة عند ما يفكرون في مشكلات الحياة الاجتماعية والعمرانية ان يوحدوا أنفسهم ويربطوها بالعالم جميعاً برباط روح جامع ، وان يدركوا ادراكاً كاملاً حقائق الكائنات ، وما يحيط بهم من امم وقبائل لها حق الحياة مثلهم في هذه الدنيا . ويدعو تاجور الى وجوب الاتصال بالعالم ، ويرى في هذا الاتصال بقاء وغذاء متجدداً للحياة ، ومعنى هذا انه يدعو الامم الى تبادل الحياة والثقافة والمنافع المستمرة ، فهو يقول :

« يجب ان يعلم الانسان انه وان جاهد وبذل في الحياة فلن يخلق عناصر وجوده في ذاته من نفسه ، وان يكون كالنحلة تدبر عسلها من جهدها طعاما طول العام ، فالانسان لا يمكن ان يعيش على ما في جسده من مدخر ولا بد له من مدد موصول بما حوله من العالم ... فاذا ما عكف على نفسه يجتر القوت ويلتمس منها العافية ردت نفسه الى العطب وتمزقت إربا وأكل بعضها البعض الآخر »

هذه هي الدعوة التي تحمل في رسالتها المعنى السامي للانسانية ، لان من يعيش في نفسه لنفسه يدنو من الصفات التي تلصق الأنانية بالفرد وتنزع به الى الأثرة وتبعده عن الشهامة والغيرة للجماعة وحب الخير للكافة . بل ان هذه الدعوة تدفع الانسان الى ان يكون دائماً عالمياً في تفكيره وثقافته ونظره نحو الاشياء

رب إله البشر جميعا
تنزهت عن كل لون وجنس
يا مهيمناً على جميع الامم وان اختلفت ألوانها
وحد بين قلوبنا ، وألهمنا تبادل المحبة
وأيدها بروح الحق والعدل

باب المراسلة والمناظرة

اللسان العامي

واللسان النباتي

لا يسعني قبل الرد على الملاحظات العلمية اللغوية التي أبداها الأمير مصطفى الشهابي تعليقاً على مقالي في عدد فبراير من المقتطف سنة ١٩٤٢ الاّ ان أثني عليه جزيل الثناء لاهتمامه بتتبع مقالاتي وابداء ما يعن له من ملاحظات هي في الواقع مفيدة اذ الحقيقة بنت البحث

فأولاً — قال اني ذكرت (ان التنّوب يسمى الشوح في الشام) ثم علق على هذه العبارة بقوله (وفي الحقيقة يطلق الشاميون كلمة الشوح على نوع من التنوب تنبته الطبيعة في جبل لبنان وجبل اللكام وجبال طورس وهو Abies cilicica أي تنوب كيليكية (أو قيليقية) الى آخر ما أورده وأخيراً قال (إن كلمة الشوح لا توجد في الامهات من كتب اللغة ولا في المفردات)

ويهمني التنويه هنا بأن عبارتي وهي اطلاق الشاميين كلمة الشوح على التنّوب كما قال الأمير صحيح فقد جاء في ص ٧٥١ من النسخة الانكليزية لكتاب نباتات سورية وفلسطين وسيناء تأليف جورج بوست ان الشوح هو Abies (يريد الجنس) وهو ايضاً A. cilicica (أي النوع الكيليكي) دون ذكر كلمة تنوب أو تنّوب كيليكي . وعليه فالقول بأن التنّوب يسمّى الشوح في الشام صحيح اعتماداً على ما ذكره بوست وأراد به الجنس عموماً والكيليكي خصوصاً

أما استغراب الأمير عدم ذكري هذا النوع بالذات فذلك لأني لم ارَ داعياً له اذ لم يكن غرضي الاستقصاء في المقال المذكور

وثانياً — أشكر لحضرة الأمير ما نبهني اليهِ من ذكر كلمة pinsapo بدلاً من pinaspo

وهذا وقع سهواً لدى النقل وترتب على ذلك تكراره عما لاحظه الأمير

وثالثاً — قال (اني ترجمت A, lasiocarpa بالتنوب الحرش . الثمر . والصحيح التنوب الأزغب الثمر أو الزغبي الثمر او الأشعر الثمر وهو معنى الكلمة الدالة على النوع . أما الحرش فهو الخشن وليس بذي الشعر) وأقول اني لم اترجم ذلك الاسم العلمي ولكني نقلته بحرفه عن الرجل العظيم المستشرق المحقق بوست فقد جاء في النسخة العربية من كتابه المذكور في (أولاً) من هذا المقال بمقابلتها على النسخة الانجليزية في صفحات ٧٦ و ٨٨ و ١١٥ ان في الصفحة الأولى من هذه الصفحات Brassica lasiocalycinum ترجمها البراسيكا الخشنة الكأس وفي الصفحة الثانية ان Camelina hispida ترجمها الكملينا اللحوية وان منها صنفاً هو var. lasiocarpa ترجمها بالحرش الثمر وفي الصفحة الثالثة ان Helianthemum var. lasiocarpum ترجمها الهليانثموم الحرش الثمر . على اني بعد ذلك أوافق حضرة الأمير على الترجمة الحرفية التي ذكرها بقوله الأزغب الثمر أو الزغبي الثمر أو الأشعر الثمر وان كنت لما راجعت كلمة lasios في اللغة اليونانية وجدت مقابلها في مرجعين انكليزيين shaggy وترجمتها العربية كثيف وكث وأشعث و hairy وترجمتها أشعر فاذا كان هناك شيء من المؤاخذة فيرجع الى العالم النباتي المحقق بوست

رابعاً — أوافق الامير على ان النبات ليس له لسان مستقل وان عبارتي (اللسان النباتي) كان الأولى ان تكون اللسان العلمي او لسان العلم ولكن ما حيلتي في اني وجدتها بذلك النص في مراجع كثيرة وتكررت فيها بلفظ واحد . من ذلك دائرة المعارف للبستاني وهي ما يعرف حضرة الأمير قيمتها النادرة في العربية، وفي مصنفات النباتيين المصريين وهما السيد احمد الرشيدي في كتابه (عمدة المحتاج في علم الأدوية والعلاج) واحمد بك ندى في كتابه (حسن الصناعة في علم الزراعة)

خامساً — واخيراً . اما اني عرّبت كلمة Picea الدالة على جنس مهم من الصنوبريات ولم أترجمها بالعربية فذلك كما يعلم الله اني راجعتها فيما عندي من المراجع فوجدت بعضها يقول إنها باللاتينية تدل على ما يكون معزوًّا الى الزفت او القار فلم أستحسن ذلك لما يأباه الذوق . فترجمة الأمير لها بالراتينجية مستملحة جدًّا لأن كلمة راتينج وهي فارسية معناها صمغ الصنوبر

محمود مصطفى الدمياطي

حول كتاب

ظواهر حجرة تحضير الارواح

نشر المقتطف الأغر في عدد إبريل سنة ١٩٤٢ كلمة عن كتاب « ظواهر حجرة تحضير الأرواح » الذي نقلتهُ الى العربية حديثاً . ولي عليها اللاحظات الآتية : —

(١) لم أرم كتّـاب المقتطف الأغر ومحرريه بالخبث، وكل ماقلتهُ في الصفحة ٥ من المقدمة إن مجلة « سينتفك أميركان » في محاولتها الخبيثة والبارعة في الخبث قد صدت كثيرين عن متابعة البحث في الروح ، ولم يسلم من محاولاتها تلك حتى كتّـاب المقتطف الأغر . وهي لم تصدهم عن متابعة البحث فحسب ، بل دفعت بهم أيضاً الى نشر رسائل جمعوها بعد في كتابهم « رسائل الارواح » ورجحوا فيها ناحية الأنكار وطنطنوا بجائزة السينتفك أميركان !

هذا هو الذي قلته ، وهو بعيد جدًّا عما ذهب اليه حضرة الكاتب الفاضل . ولكي أدلل على تأثر كتّـاب المقتطف الأغر وناشري كتاب « رسائل الارواح » رأيت ان أضرب مثلاً فاخترت واقعة واحدة من بين الوقائع الكثيرة المخطئة المذكورة في هذا الكتاب ،وهي الخاصة بانكار مادة الأكتوبلازم ، ثم أردفتها بالتصحيح لا بكلام من عندي بل بكلام أحد الحكمين في لجنة السينتفك أميركان ، وقد أشاد المقتطف بذكره ، وهو الدكتور هيرورد كارنجتون العالم السيكولوجي . ولعلَّ المقتطف لا يرميه بعد ذلك بالغفلة . ثم عدت فقلت في الصفحة ٨ « هذا مثل واحد ضربناه للتدليل على تأثر كتّـاب المقتطف الأغر بما نشرتهُ مجلة السينتفك أميركان . ولكن أصحاب المقتطف وكتّـابه ، والحق يقال ، لم يقفوا موقف الجمود ، فحينما ظهرت الكشوف الروحية البارعة ووضعت النظريات الحديثة لم يحجموا عن نشرها ، وان كانوا قد نشروها في تحفظ شديد ، فكانوا بذلك مثلاً يصح ان يحتذيه البحّاث العلميون ... »

(٢) أشارك المقتطف الأغر رأيه فيما حفل به تاريخ العلم من الحقائق والآراء التي قوبلت بالشك والاعراض في مبدأ أمرها ثم اعترف بها بعد . وحقًّـا ان الريب طبيعي في العلم الى ان ينهض الدليل ، فاذا نهض الدليل كان هذا الريب مدعاة للعجب الشديد . ولكن لنفرض ان الدليل لم ينهض بصدد ما نحن فيه فهل يتفضل حضرة الكاتب الفاضل محرر المقتطف الأغر ان يدلنا على كيفية العثور على الدليل الذي يرتضيه هو لكي يقال انّ العلم قد اعترف بالروحية، وليلاحظ ان الأسلوب العلمي الذي اتبع في الكشوف العلمية الأخرى قد اتبع في الكشوف

الروحية بقسوة ، وفي بعض الاحيان بحماقة فاقت كل معروف الحماقات . واذا لم يكن الدليل لأمثالنا، كما هو الحال في أحدث الكشوف العلمية الاخرى، هو مصنفات الاساتذة الجامعيين وتجاربهم ، ومدوّنات جمعيات البحوث النفسية في أوربا وأميركا ، واعتراف جامعات كجامعة كمبردج العريقة وانشائها تلمذة ودراسة .... اذا لم يكن هذا كله دليلاً على اعتراف العلم بالروحية فماذا يكون الدليل لأمثالنا يا ترى ؟

أستطيع ان أذكر للمقتطف أكثر من خمسمائة كتاب في الموضوع من بينها عدد كبير لاساتذة جامعيين ، وإن كنت لم أقرأ إلاّ نحو ستين كتاباً ، وكفى بالسينتفك أميركان للمقتطف الأغر مرجعاً عتيداً . وأستطيع ان أذكر لهُ أسماء من يزيدون على مائتين من الاساتذة الجامعيين المحدثين والمعاصرين ، بين دكاترة في الطب والعلوم والفلسفة والقانون والهندسة وعلوم الحياة . فاذا كان هؤلاء كلهم بما استنبطوا من أجهزة علمية غاية في الدقة ، وبما أجروا من تجارب دقيقة ومضنية في المانيا وإيطاليا والنمسا وفرنسا وروسيا وانكلترا واليابان وأميركا — اذا كان هؤلاء لا يؤخذ برأيهم فبمن نستعين في هذا الصدد ؟ ويلاحظ ان من بين هؤلاء كثيرين ، وكثيرين جداً ، أخذ المقتطف الأغر برأيهم في العلوم الاخرى ، ووافق هواه « الاسلوب العلمي » الذي اتبعوه — دون ان يرى محرره الفاضل تجاربهم !

(٣) أخالف حضرة الكاتب الفاضل في قوله « إن معظم أقوال أصحاب الروحية لم يقم عليه دليل علمي كما يفهم الدليل العلمي » . وقوله « وانْ يقول الدكتور بورز مثلاً قولاً ما، وانهُ ثبت له ، لا يكفي حتى يستطيع عشرات غير الدكتور بورز تمحيص أقوال الدكتور وتأييدها في أحوال خاضعة للتدقيق العلمي »

أيدري سيدي لماذا أخالفهُ ؟ أخالفهُ لان الادلة لم تلبس — كما يقول هو — ثوب العلم والأشعة وتحوّل المادة الى طاقة وهلمّ جرّا ... ، بل لان هناك قوماً لا يريدون ان يبصروا كرجال السينتفك أميركان . ويقول الفرنجة « ليس هناك من هو أشد عمى من أولئك الذين لا يريدون ان يبصروا » . لقد أصبحت المسألة يا سيدي مسألة ميزان وترمومتر ومجهر واشعاعات وفوتوغرافيا ومخدع ولسن العائم الذي صورت بهِ الكهارب ، والذي صورت بهِ كذلك أرواح الحيوانات عند ذبحها ! !

وأخالف سيدي لان عشرات بل مئات من أمثال الدكتور باورز قد وافقوا هذا الدكتور . أخالفهُ لان الاساتذة الجامعيين الذين اختارتهم مجلة « سينتفك أميركان » محكمين أوائل في مباراتها الزمنة قد ألفوا بل حاضروا في الروحية . أكتب هذا وأمامي كتاب أخرجتهُ جامعة كلارك Clark الاميركية سنة ١٩٢٧ ، واسمه « المذهب الروحي بين التأييد

والمعارضة » وفيه نصوص المحاضرات التي ألقيت في هذه الجامعة بدعوة منها . وقد تضمنت بعض هذه المحاضرات المؤيدة للروحية البحوث الآتية :—

أولاً — « البحث الروحي كدراسة جامعية » للعلامة السيكولوجي الطائر الصيت الاستاذ مكدوجل أحد محكمي لجنة السينتفك أميركان

ثانياً — « هل يستحق البحث الروحي أدنى عناء ؟ — استعراض لقضية الوسيطة مرجري » للدكتور ولتر فرنكان برنس أحد محكمي لجنة السينتفك أميركان

ثالثاً — « البحث الروحي والفلسفة » للعلامة هانزدريش أستاذ الفلسفة في جامعة ليبزج ورئيس جمعية البحوث النفسية البريطانية في ذلك التاريخ

رابعاً — « بعض الوجوه المنطقية للبحث الروحي » للعلامة شلر أستاذ الفلسفة في جامعة اكسفورد

ولا داعي لذكر أسماء المحاضرين جميعهم من مؤيدين ومعارضين،ولكن ربما سرَّ سيدي ان يعلم ان هذا الكتاب جمع أربعة عشر رأياً لأربعة عشر باحثاً وباحثة ، وان عشرة من هذه الآراء تؤيد الروحية ، واثنين لم يقتنع صاحباها بعد الاقتناع الكافي ، واثنين معارضان أحدهما المغفور له الساحر الذائع الصيت « هوديني » أو بالأحرى الوسيط الروحي المتساحر . وسأذيل كتابي « في العلم الروحي الحديث » الذي أعده للطبع بترجمة حرفية لهذه البحوث الأربعة السابقة

(٤) أرجو أي يفهم سيدي أن التهم الموجهة الى مجلة العلم والاختراع والعبقرية « سينتفك أميركان » التي تحظى من سيدي بالتأييد والدفاع الحار لم يوجهها أحمد فهمي ابو الخير ، وانما وجهها اليها علماء اعلام ، وقد نشروها في الصحف والكتب المطبوعة بالانكليزية التي تفهمها هذه المجلة العظيمة . وأرجو سيدي أن يتم قراءة مقدمتي لكتاب باورز وارجوه كذلك أن يقرأ هذا الكتاب . وألفت نظره الى كتاب « مرجرى الوسيطة » الذي ألفهُ رجل السينتفك اميركان وأحد محكميها الاوائل في مباراتها المزمنة ، العلامة مالكولم بيرد الذي نعته المقتطف الاغر بأنهُ من أفذاذ العلماء المتبحرين في العلوم الرياضية . هذا الرجل الصريح الجريء لم يقف عند حد اعلانه صدق الظواهر بل تعداه الى اتهام زميل له في لجنة التحكيم— هو هوديني غفر الله له — بالغش والتدليس في عمله كحكم عادل . وقد كان الاتهام علناً وكتابة وفي مواجهة هوديني !

(٥) ليس غريباً قولي « تفنن خصوم الروحية تفنناً عجيباً في نشر آرائهم ودعاويهم الباطلة، ووجدوا من الصحف صدراً رحباً لم يتسع الاتساع الكافي للمؤيدين كما اتسع للخصوم

المعارضين » . وذلك حقيقي لان الصحف في مصر وفي غير مصر لم تتسع لنشر مقالات الروحيين وردودهم كلها ، واذا نشرت شيئاً تناولتهُ بالتغيير والتحوير . وقد اضطر الروحيون في الخارج الى انشاء صحف ومجلات خاصة بهم . وقد تساعد الظروف على مثل ذلك في مصر ان شاء الله في المستقبل القريب

ولا أريد أن أدلل على صدق قولي الاّ بما تم لي مع المقتطف الأغر نفسه، ومع محرره الفاضل الاستاذ فؤاد صرّوف بالذات . فحضرة الاستاذ الفاضل يذكر بالطبع اني بعثت له يوماً مقالاً عن العلاج الروحي يتضمن رأي أحد اساتذة الطب في احدى الجامعات، وهو الدكتور باورز نفسه صاحب كتاب « ظواهر حجرة تحضير الارواح » فأبى أن ينشره واتصل بي بالتليفون وقال لي بالحرف الواحد « أرجوك يا استاذ أن تعفينا من نشر هذا المقال » . ويعرف هذا ايضاً حضرة صاحب السعادة الدكتور فارس نمر باشا وقد تكرم « الهلال » الأغر فنشر خلاصة له بعد ذلك . ويلاحظ أن الرأي لطبيب أي لرجل مختص . ترى لو بعثت لسيدي بتجاريبي في هذا الصدد ينشرها ؟ إنها تجاريب ناجحة مدعمة بشهادات أساتذة الطب في كلية الطب بمصر ، وباعترافات المرضى ، وبالصور الفوتوغرافية . وقد سجلت بعض هذه التجارب على شريط سينمائي صامت يمثل طرق العلاج ، وعرضتهُ اخيراً في محاضراتي . واني أتحدى بتجاريبي تلك كل طبيب في مصر وغير مصر ، وأتحدى بها المقتطف الاغر وكل منكر — وهي تجمع بين الامراض العصبية والعضوية

وهل اذا ارسلت لسيدي صورة زنكوغرافية لبطاقة كان أرسلها اليَّ استاذنا الكبير خليل بك ثابت رئيس تحرير المقطم الأغر يدعوني فيها لفحص حاملها ومعالجته بالطرق الروحية — وذلك بعد تلك الضجة المفتعلة التي يعرف سرها محررو المقطم والمقتطف — هل اذا أرسلت اليه هذه البطاقة ومعها اعتراف بالبرء بخط المريض وامضائه ينشر ذلك ؟ ويلاحظ ان المريض هو الآن أحد وكلاء النائب العام

وهل اذا ارسلت لهُ صورة فوتوغرافية لطبيب حكومي فاضل واقع في الغيبوبة عندي في حجرة التحضير — هل ينشرها حتى يفرق المهاجمون المهاترون بين الغيبوبة الروحية والهستريا ؟ وهل اذا سميت لهُ بعض حضرات الأطباء الذين هيمنت عليهم الأرواح في جلساتنا فجعل البعض يرقصون ولم يستطع البعض الآخر حراكاً ، والذين رأوا الأضواء تشع من أيدي الوسطاء ومن سقف الحجرة وجوها وأرضها حيث لا أجهزة مادية مرئية أو مخبوءة — هل ينشر ذلك ؟ وهل اذا أرسلت اليهِ وصفاً مسهباً لما حدث لمتعلّم متعنّت ملحد حضر احدى جلساتنا لأول مرة فرأى الأضواء ثم هيمنت عليهِ الأرواح فجعل يصرخ — هل اذا

بعث هذا بنشره سيدي أم يقول « تلك سخافات أقوال وأعمال لمناقضتها لنواميس الكون » ؟ وكأن العلوم المادية قد أحاطت بكل نواميس الكون ! ويلاحظ ان ذلك كله خاضع كل الخضوع لنواميس لم يصل الى استجلائها العلم المادي واستجلاها العلم الروحي

(٦) ويقول سيدي ان المسألة لا تحسم بالكتابة في الصحف بل في معامل البحث. وحسن هذا الذي يقوله سيدي ، ولكن لماذا يباح نشر ما يشكك الناس في القضايا الروحية ويمنع نشر الرأي المؤيد ؟ أليس في ذلك ما فيه من التجني على البحاث وعلى جمهور القراء ؟ ثم اذا جسمت المسألة ، وقد حسمت فعلاً ، أليست الكتابة في الصحف أو المجلات الخاصة هي الوسيلة الأولى للنشر ؟

وأرى سيدي لا يقف عند ذلك بل يطلب الى الحكومة حظر النشر عن بعض نواحيها أو معالجة بعض مسائلها بغير ضابط اتقاء لما قد يفضي اليه ذلك من ضرر مادي — (كالعلاج الروحي مثلاً !) فيا سبحان الله ! لماذا لا يطلب سيدي كذلك الوقوف في وجه المادية التي تنشر الالحاد والفسوق جهاراً نهاراً ؟ ألم يبلغه نبأ اولئك السيكولوجيين ازاء ما سموه « عقدة اوديب » التي لا وجود لها والتي ذهبت الى حيث لا رجعة كزميلها « العقل الباطن » المزعوم ؟ ليتصور سيدي معالجاً سيكولوجياً يتحدث الى عذراء مضطربة الأعصاب ، أو الى طالب قلق ، في العلاقة الجنسية ، ويهبط بالانسانية الى درك سحيق من البهيمية الحمقاء. لماذا لا يبدي سيدي هذه الغيرة الجامحة العلمية على الاخلاق يمزقها أمثال هذا المعالج شر ممزق ، وعلى العقول وهي تمتهن مما أدى ببعض الذين عولجوا علاجاً نفسياً من هذا الطراز الى طلب الانتحار ، والى آلام عقلية مقلقة مفجعة حتى لقد قدمت فعلاً شكاوى الى وزارة الصحة؟ لماذا لا تظهر هذه الغيرة العلمية على حماية الأخلاق والعقول الا ضد الروحية التي تحمي الأخلاق والعقول ؟

ليت الديمقراطيات الكبرى سمعت هذه الصيحة الداوية فعطلت الصحف الروحية أو منعت على الأقل شركة الأذاعة البريطانية أن تذيع في كندا محاضرة في صميم الروحية ألقاها العالم (Hayward) هايوارد بدعوة من لجنة التعليم الاقليمية حملها اليه العلامة كيرستيد Kirstead أستاذ السيكولوجيا باتحاد الكليات ، بل ليت الحكومة الفلسطينية سمعتها كذلك فحالت دون تأسيس جمعية روحية في مدينة حيفا برآسة طبيب فاضل هو الدكتور قيصر خوري ، وأغلقت نادي هذه الجمعية ومكتبته التي تحوي مجموعة كبرى من الكتب الروحية. وربما سر سيدي ان يعلم ان هذا النادي المعد لاستحضار الأرواح مصرح به رسمياً

من حكومة فلسطين منذ أربع سنوات واسمه « نادي سان تريز لمناجاة الأرواح »

لقد استطعت في محاضرتي عن « الروحية والجريمة » التي القيتها في نادي القضاة في فبراير الماضي وفي محاضرتيَّ عن « الأحلام » وعن « الموت الظاهر ودفن الاحياء » اللتين القيتهما في نادي المعلمين ونادي جمعية الشبان المسيحية أن أهدم الى حد بعيد تلك النظريات المادية والسيكولوجية المتغلغلة ، وأقمت الدليل على مكنة التواصل الروحي وعلى الاخص في محاضرة « الروحية والجريمة » مأخوذاً من سجلات المحاكم الانكليزية والفرنسية والاميركية ، وذكرت بعض ما رددته « ديلي اكسبرس » و « سايكك نيوز » وغيرها من الصحف وما عثرت عليهِ من مدونات مكتبة بودليان بأكسفورد — مما يثبت التواصل الروحي ، وكيف أدت تبليغات الارواح الى الحكم بالاعدام ، وكيف ظهرت الروح مجسدة في إحدى جلسات المحاكمة ، وأثبت القاضي والمحلفون ذلك في محضر الجلسة

وقد يكون هذا كله غير متفق وذلك « الاسلوب العلمي » الذي يرتضيه سيدي ، ولكنه على كل حال برهان مادي مسكت

(٧) وختم المقتطف الأغر تعليقه بما كتبته عن التواصل الآلي بين عالم الروح وعالم المادة وحين يقول سيدي بعد تجريحه الوساطة والوسطاء ان العلم لم يصل بعد الى اثبات التواصل بين العالمين ألا يفهم من قوله انهُ انما يريد التواصل الذي يتم بالاجهزة والآلات دون الوسطاء؟ سيرى سيدي إن شاء الله في كتابي « في العلم الروحي الحديث » الذي أعدّه للطبع فصلاً مترجماً لباحث كبير أجرى تجاريبه في أصقاع متعددة ، ومع وسطاء كثيرين ليسوا من أهل الفاقة والضعة ، وبسطها في كتاب اسمه « الاحداث الروحية في أنحاء العالم » . وقد ظهر هذا الكتاب في آخر سنة ١٩٣٩ ، وهذا الفصل عنوانه « الظواهر الروحية في ضوء العلم الحديث » وفيهِ شرح مستفيض للاحداث الروحية في ضوء العلم الحديث المتعارف ، وختمه بذكر أقوال بعض علماء عاملين طالما استشهد المقتطف الأغر بآرائهم في الذرّة والكهارب وما الى ذلك من أمثال كروذر Crowther وبلفور وغيرها من الاساتذة الحاليين في جامعات جونز هوبكنز Johns Hopkins وليك Lick وريدنج Reading ومكجيل Mc. Gill

ولا يفوتني ان أقول ان الوسطاء الذين يستخدمون الروحية للنفع المادي يفقدون وساطتهم ويفقدون حياتهم احياناً كما حدث لهوديني الوسيط المتساحر مما سأشرحه باسهاب في كتابي « العلم الروحي الحديث » — سيان في ذلك اهل الفاقة والضعة منهم ام اهل الغنى والرفعة لأن أساس الروحية الصدق والامانة ومحبة الغير وخدمة الغير . وحالة الشيخ سليم الطهطاوي خير شاهد على ذلك فقد عاش فقيراً ومات فقيراً ، وكان يجيء في طرفة عين بالذهب الوهاج

بشرط أن لا يمد أحد يده اليهِ ثم يعود به امام بصر الحاضرين وسمعهم الى مصدره فيخفى في طرفة عين

ولا يفوتني كذلك أن أقول أن من بين الوسطاء المصريين طبيباً حكوميـًّا ، ومهندسين حكوميين ، وموظفين وعمالاً — وكلهم قانعون بالوساطة العفة الراقية البعيدة عن المادة التي يعبدها كثيرون من الناس . وأعود فأطلب الى سيدي ان يقرأ الكتب الروحية فيقف على الحقيقة في هذا الصدد . وفي كتابيَّ « على حافة العالم الاثيري » و« ظواهر حجرة تحضير الارواح » ما يقنع سيدي ان اراد أن يقتنع

(٨) بقي أن أؤكد لسيدي أني أستطيع ولو الى حد ما أن أفهم ما اقرأ وما اكتب وأقول انني فهمت مما كتبه المقتطف في الروحية انهُ يميل الى ناحية الانكار ، وان هذا الميل منهُ قديم . ومن غريب المصادفات ان تقع في يدي حديثاً نسخة مطبوعة في مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٩٢٨ لمحاضرة عنوانها «علم الروحيات الحديث » ألقاها الاستاذ الشيخ محمد المأمون الأرزنجاني في المجمع العلمي العربي بدمشق في ٢٢ ذي القعدة عام ١٣٤٦ هجري ، أي منذ أربعة عشر عاماً ، وذلك بدعوة من المجمع العلمي العربي نفسه . وما أخذته على المقتطف الأغر أخذه عليهِ ايضاً الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي عضو المجمع العلمي العربي حين قدم المحاضر للمجتمعين ، فقـد قال عن المقتطف « ان محرره العلامـة المرحوم يعقوب صروف كان يعنى ببسط هذه المباحث في مجلته لكن لا ليؤيدها ويثبت صحتها بل على العكس ليبطلها ويزيف أدلتها . وكان يقول : ان جميع من يذهب الى صحـة استحضار الارواح من علماء اوربا المعروفين بالصدق هم لسلامة صدورهم ينخدعون فيصدقون »

وقد علق الاستاذ المحاضر على هذا القول بكلام يؤيده ولا داعي لذكره فقد لا يستحب سماعه . ولا يفوتنا أن نقول ان الاستاذ المحاضر درس في تركيا وأوربا والهند هذه العلوم دراسة علمية عملية ، وحضر معظم المؤتمرات التي عقدت لهذا الغرض ، ولهُ تجارب كثيرة

وبعد فلعلي أكون قد وضعت الامور في نصابها ، وأرجو ان يتسع صدر المقتطف الأغر فينشر كلمتي هذه عملاً بحرية النشر

احمد فهمي ابو الخير
مدير ادارة السينما بوزارة المعارف

٢٠ ابريل سنة ١٩٤٢

[المقتطف] ان تعبير «عملاً بحرية النشر» تعبير مظلوم اوهو تعبير يُـتوسَّـل بهِ احياناً الى ظلم اصحاب الصحف ومحرريها . ولو تفضل كل مؤلف يرسل كتابه الى المقتطف لمراجعته ، في باب « مكتبة المقتطف » بالرد على مراجعتهِ ، في سبع صفحات طوال ، وهو رد يقتضي على الغالب رداً من الصحيفة لوجب ان نقف المقتطف على الكتب وردود أصحابها او لوجب ان يقف المقتطف عن الصدور

ان اللباب في كل ما قاله الأستاذ ابو الخير، هو ماهية « الدليل العلمي » الذي نقبلهُ في مسائل الروحية وهي المسائل التي يقول الأستاذ فيها «وليلاحظ ان الأسلوب العلمي الذي اتبع في الكشوف العلمية الاخرى قد اتبع في الكشوف الروحية بقسوة، وفي بعض الأحيان بحماقة فاقت كل معروف الحماقات . . .»

اذا كانت مسائل الروحية خاضعة لأساليب البحث العلمي ، والدليل فيها ليس من طبقة أخرى من الأدلة[1]، فيجب ان يكون الاعتماد في قبول حقائقها او الآراء والمذاهب فيها او رفضها ، على ما يعتمد في علوم الطبيعة والكيمياء والطب والحياة

والطريقة المتبعة ، هي ان معاهد البحث في الجامعات او الشركات الكبيرة او غيرها من الهيئات الخاصة والعامة ، تضم علماء شهد لهم أقرانهم بمزايا معينة في ناحية ما من نواحي هذه العلوم . فاذا توصلوا الى كشف حقيقة جديدة ، او الى وضع رأي طريف ، نشروا ذلك في المجلات العلمية المحضة الخاصة بعلمهم ، او المجلات العلمية الرفيعة المقام التي تخصص لهذا الغرض . وهذا النشر يتيح لغيرهم من الباحثين في شتى اقطار الارض ان يمتحنوا ويمحصوا ما يقال وان ينشروا بعد ذلك ما يثبت لهم من تأييد او تفنيد او اقتراح بتصحيح وتعديل

او قد تتلى رسالة عالم او باحث في جمعية علمية مختصة او مجمع علمي عالي المقام. وبعد التلاوة، تنشر الرسالة او ملخص دقيق منها في هذه المجلات . والتلاوة في الجمعية العلمية المختصة او المجمع العلمي، لا تكون الاّ بعد عرضها على جماعة من الأعلام ليحكموا أفي هل فيها ما يستحق التلاوة والنشر، بغير ان تكون الموافقة تأييداً لقول صاحبها وان كانت اعترافاً بمنزلة القول

بين المجلات المختصة مجلة كالمجلة الطبيعية The Physical Review ، وأشباهها ، ومجلة « اللانست » The Lancet الطبية وأشباهها . وبين الجمعيات المختصة « الجمعية الرياضية » او « الملكية » في انكلترا وأشباههما . وبين المجامع العالية المقام الجمعية الملكية The Royal Society في انكلترا . وهناك ما يقابلها جميعاً في بلدان اخرى منزلة وشأناً . وبين المجلات العلمية الشاملة العالية المقام نايتشر Nature في انكلترا وسينس Science في الولايات المتحدة . فكل ما يتلى في هذه الجمعيات وما كان من مقامها ، وما ينشر في هذه المجلات وما كان على نمطها ، جديرٌ بكل احترام

أما المجلات العلمية الاخرى مثل « دسكفري » و « السينتفك اميركان » و « رسالة العلم الاسبوعية » وما أشبه ففي مقامٍ تالٍ لما تقدم . وان كان فريق من كبار اساتذة العلوم

(١) قد يوصف الكون وصفاً علمياً فيكون الدليل العلمي هو السند . و قد يوصف وصفاً فنيا فيكون الاعتماد على نوع آخر من الدليل ركناه التأمل وحس الفنان المرهف وهما طبقتان مختلفتان والاعتراف بهما واجب

يكتبون فصولاً فيها مثل العلامة الأستاذ نوريس رسل وفصوله الفلكية في السينتفك امِركان . وهي تقرب العلم بأسلوب سائغ يصحُّ الاعتماد عليهِ بوجه عام وعليهِ نعتمد على الاكثر في النقل والتلخيص. فعندما نطلع في مجلة نايتشر وسينس على رأي في مذهب علمي نعنى بهِ . وعندما نطالع فيهما ما يشير الى تأييد الرأي من مصادر علمية محترمة شتى، نقبلهُ، ولا سبيل لنا الاّ ذلك فليس في وسع أحد أن يحكم بنفسه على كل جديد في كلّ علم مهما يبلغ علمهُ

ولما كان الاستاذ ابو الخير، قد حتم أن الاسلوب العلميّ، هو التتبع بقسوة في المسائل الروحية، وان المسألة « مسألة ميزان وترمومتر ومجهر واشعاعات وفوتوغرافيا ومخدع ولسن النائم ... » فقد كان من المنتظر ان تنقل الينا مجلة كنايتشر او مجلة كسينس، طرفاً من هذه المباحث العلمية، وأساليبها ونتائجها . ونحن نطالع هاتين المجلتين، وان كانت المطالعة غير منتظمة الآن، ولم نرَ فيهما مايحملنا على مشاركة الاستاذ ابو الخير قوله ان مسائل الروحية — وما أكثر نواحيها — « قد حسمت فعلاً » ، وذلك بغير ان نقول ان العلم ينفيها فالعلم كما قلنا مراراً لايستطيع ان ينفي ما لا يحيط بهِ . ونحن نفضل ان نأخذ آراءنا في المسائل العلمية عن نايتشر، على اخذها من الديلي اكسبرس

ولسنا ندري حقاً كيف يستطيع الاستاذ ابو الخير التوفيق بين مايقوله عن تطبيق الاسلوب العلمي « بقسوة » و« حماقة في المباحث الروحية » ، وبين ما يقوله عن الشيخ سليم الطهطاوي واستحضار الذهب، لأن الشيخ على ما روى الاستاذ ما كان يسمح لأحد بمد يديه الى الذهب . فكيف يكون الحكم علمياً في هذه الحال، وأساس العلم اللمس والوزن والقياس والتحليل ؟ !

اما ذكر عدد الكتب المطبوعة، وانشاء « كراسي » في الجامعات العريقة، واذاعة احاديث بالراديو، فدليل على الاهتمام بموضوع ما وليس دليلاً على صحة ما تحويه الكتب، او يذاع في الاحاديث. ولم يقل أحد ان مسائل الروحية ليست جديرة بالعناية، بل العناية بها واجبة، وإتاحةُ البحث الصحيح فيها ضرورة لامفرَّ منها. وعلى كل حال فان المجلات العلمية التي تقدم ذكرها تعهد الى اكبر العلماء في مراجعة المؤلفات التي تصلها من جميع انحاء العالم ولا نذكر في ما طالعناه من هذه المراجعات كتباً كثيرة مما اشار اليهِ الاستاذ ظفرت بالثناء على سلامة طريقتها ونتائجها. ولعلَّ كتاب الاستاذ رين Extra-Sensory Perception مستثنىً من ذلك على ما نذكر وهو في « التلبثي » ونتائجهُ لا تزال في حاجة الى مزيد من البحث ولكن أسلوبهُ علمي

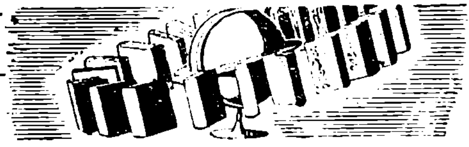
اما الواقعة الخاصة بنشر محاضرة الاستاذ ابو الخير في « العلاج الروحي » فصحيحة بحذافيرها وباعثنا على طلب الإعفاء، كباعثنا على القول « بحظر النشر عن بعض نواحيها عندنا او معالجة بعض مسائلها بغير ضابط اتقاءً لما قد يفضي اليهِ ذلك من ضرر مادي » ، هو الرغبة في الخير العام

ولسنا في حاجة الى اقامة الدليل على تأييد موقفنا من منزلة الحرية في الارتقاء الفكري وان الدفاع عنها تبعة واقعة على كل مثقف . ولكن اذا خاضت أمة حرب موت وحياة ، نزلت عن كثير من حرياتها المقدسة ، في سبيل الكفاح لاحراز الظفر . ومصر في كفاح مع المرض ومع الجهل والدجل في علاجه . ورجال مدرسة الطب ووزارة الصحة ، يعانون الأمرَّين لتدريب الشعب ، على الأخذ بأساليب الصحة التي أقرّتها علوم الطب ، وبالعلاج على أيدي الأطباء المدرّبين ، والانصراف عن الدجالين والأوهام . فاذا عمدنا ونحن في غمار هذا الكفاح الى النشر بأن فلاناً يشفي بالارواح أمراضاً استعصت على أمهر الأطباء ، كانت العاقبة : إصابة مساعي رجال الطب والصحة عندنا بصدمة قوية واتاحة الفرصة لنفر من أذكياء الدجالين — وهم كثرٌ — للسيطرة على أناس عرفوا ببساطة القلب . ولما كانت الامراض المتفشية كثيرة في هذه البلاد ، فاننا طبعاً نفضل تيسير النجاح لمساعي الهيئات الطبية في البلاد على أن تتاح الحرية لنشر كثير مما قد يكون لهُ سند ومما ليس لهُ سند في الصحف والمجلات ولو كان في ذلك بعض الظلم والتحكّم . وبعض الأمراض ولا ريب يعنو للعلاج النفسي ، ولكنَّ المجلاّت الطبية المحترمة ، لم تقل لنا بعد أن « العلاج الروحي » أصبح ذا منزلة بين أساليب العلاج المختلفة . وقد يكون العلاج الروحي على يد الاستاذ أبو الخير ، صحيحاً مفيداً ولكن قد يصبح ادعاؤه في أيدي غيره سلاحاً ضارًّا بجمهور كبير من الناس

بقيت مسألة السيكولوجيا الحديثة ونحن نذكر أن العلاّمة مكدوجال التي خطبة الرآسة الأولى في قسم السيكولوجيا الجديد في مجمع تقدم العلوم البريطاني عندما اجتمع في جامعة تورنتو سنة ١٩٢٤ وقال في مستهلها ان «علم النفس» قد استقل عن الفلسفة . فصار واجباً أن تعرض المذاهب المختلفة فيهِ . وأنْ تقوم فيهِ نظريات وآراء لا تثبت على البحث في السنوات التالية لا يضيره ولا يضير الذين يصفون هذه المذاهب . ففي العلوم الطبيعية شيء من هذا كثير

والاستشهاد بالاستاذ الكبير الشيخ عبد القادر المغربي على نزعة المقتطف في هذه المسائل حسن ، فللاستاذ رأيهُ . ولكن الاستشهاد بهِ لاستخراج من كلامه دليلاً على نية المرحوم الدكتور صرُّوف خطأ . فالدكتور صرُّوف كان يحكّم عقلهُ في ما يراه ويشاهده بنفسه ويطالعهُ من هذه المسائل . وعقلهُ لم يقتنع على الغالب بصحتّها . فكان يقول ذلك . وكان هذا واجباً عليه ولكنهُ كان شخصيًّا يتوق الى قيام الدليل المقنع على صحة بقاء الأرواح . ولعلّ الاستاذ الشيخ عبد القادر ، لم يكن يعلم هذا ، واذا كان فعلاً قد قصد في ما قالهُ ورواهُ الأستاذ أبو الخير ، الى الحكم على نية الدكتور صرُّوف فلعلهُ يهمهُ ان يعرفهُ الآن

ولا نخال القرّاء الاّ موافقين على أن تلميح الأستاذ أبو الخير وتعريضهُ في غير مكان من ردّه غير جديرين بهِ كعالِم ولا بالالتفات اليهما في بحث يتناول أهمَّ مسائل الحياة والعقل وأعقدها



مكتبة المقتطف

عبقرية محمد

للاستاذ عباس محمود العقاد — المكتبة التجارية الكبرى — ٢٩٦ ص ، القطع الصغير — مصر ١٩٤٢

إن نشأة الدين الحنيف ووثبة الملة الاسلامية مما شغل الاقلام ويشغلها أبداً ، وذلك لعظمة ذلك الحادث التاريخي الى جنب غرابته ، والغرابة في سرعة استواء الدين ومدى وثبة الملّة . وقد انصرف المؤرخون والفلاسفة والادباء الى التبصر في هذا المطلب قديماً وحديثاً ، سواء في أوربة أو في الشرق العربي . وهذي ثماني سنوات تخرج فيها التواليف المختلفة في مصر باحثة عن « حياة محمد » و « سيرته » وغير ذلك

وميزة كتاب الأستاذ عباس محمود العقاد أنهُ ولج الموضوع من باب مستجد ، وهو باب نفسية النبي العربي . فلم يسرد وقائع التاريخ ولم يجمل حوادث السيرة ولم يتعرض لأوضاع الدين بشرح او تأويل او تقرير ، ولم يجادل عن الرسالة ولا عن احكام القرآن ولم يستخرج المخبآت ويستقص الاطراف [1] ولم يشأ — على ما يؤكد في المقدمة — ان ينبري للخصوم فيكمر الحجج ويفند الأقاويل وان حداه الحديث الى مثل هذا في تضاعيف الكتاب [2] . ولكنهُ أراد بما كتب ان ينفذ الى روح النبي فيستشف لطائفها على اختلاف ألوانها . وفي هذه الروح مستقر الانسانية ومنها منبثق العبقرية . ولذلك تجد الرسول على قلم العقاد عظيماً في جانب الدين وجانب العلم وجانب الشعور ، ولولا عظمته ما كان ليخرج قومه من دنيا الى دنيا وما كان لينشر فيهم ذلك النشاط الذي بوأهم في الايام اللاحقة مكانة محسودة

وقد نجح الأستاذ العقاد بحذقه المعهود أن يجعلنا نحس تلك العبقرية الفعالة في نواحيها المتعددة . وطريقته في هذا ان يستعرض الحقائق التاريخية والنصوص من خلفها ماثلة بقوة ، وان يرسل عليها اضواء التبيان المنطقي من غير اعتساف [3] وان يضيف اليها بعض خلاصات

(١) غير انه ربما قيد الشارد ، مثال ذلك الحديث الثاني الذي في ص ١٧٨ (٢) مثلا ص ٥١ ، ١٩٢
(٣) انظر الى ابداله « حقائق التاريخ وحوادث الكون » من بشائر النبوة التي في المنقول ص ٢٩ — ٣١ .

التجارب الانسانية ، فتتساوق المسائل وتتجاور الأغراض . وكان في الحسبان ، بعد هذا ، ان يسوق المؤلف سيرة الرسول بحيث تشع من جنباتها انوار العبقرية ، كما صنع بعض الكتّاب الافرنج يوم عرضوا لعيسى (مثلاً E. Ludwig) ، ولكن الاستاذ العقاد عدل عن التركيب الى التحليل ، فجزأ شخصية النبي، فتناوله داعياً فصيحاً وسيماً واثقاً من نفسه مؤمناً غيوراً على رسالته ، وجنديًّا لا يفزع الى القتال الاّ اضطراراً فاذا جاهد أحكم فن القتال بالالهام والبصيرة وأبلى بلاء الابطال المغاوير ، وسياسيًّا يعزم على الأمر الفاصل بأناة وألمعية ومداورة لطيفة ، ومديراً يدفع الفوضى والاختلال بتدبير عادل قائم على السلم والارضاء ، وبليغاً أخاذاً للقلوب ملاًّ كاً للالباب بفضل الفصاحة التي في لسانه وادائه ، وصديقاً أحب وأخلص ورحم وسمح ، ورئيساً تسامى عن الظلم والاستبداد ، وزوجاً رفيقاً ليناً عرف قدر الصفا والوفاء والمودة والاستئناس في هناءة الحياة الزوجية ، وأباً حزن على ذهاب ابنه الطفل بقدر ما فرح بمولده فتأججت النـار في صدره وهو لا يصرخ لأن « الصراخ من الشيطان » ، وسيداً رحيماً مجاملاً متواضعاً منزلاً نفسه منزلة العبد، وعابداً انصرف إلى التفكير في خلق الله دون ذاته لأن التفكير في ذات الله مرهون بالايمان وايمان محمد قوته وسـلاحه صلاته، ورجلاً طيب الخلق رحب النفس يتفكه ويمزح ويأنس بالضعيف والمكروب

على هذا النحو عرض الاستاذ العقاد مناقب النبي العربي فحسن حديثهُ سوقاً وتبييناً وتفصيلاً ، وان قال هو في خاتمة المقدمة : وحسبنا من كتابنا هذا ان يكون بناناً تومىء الى تلك العظمة في آفاقها ، فان البنان لأقدر على الاشارة من الباع على الاحاطة ، وأفضل من عجز المحيط طاقة المشير . فإنها لبَـنان غير رجّـافة

ب . ف

فيض الخاطر

الاستاذ أحمد أمين . الجزء ٣ ، ٣١٢ ص ، القطع الكبير . لجنة التأليف والترجمة والنشر . مصر ١٩٤٢

للاستاذ أحمد أمين يد مشكورة في تنشئة هذا الجيل . فقد وقف لذلك المسعى همة موفورة تجلت في ناحيتين : التعليم والتأليف . وفي كلتا الناحيتين تصيب حميد كلية الآداب صادقاً في الاداء أو النقل ، بصـيراً بالتوقيف او التوجيـه . وما هو بالكاتب الموغل في اغراق . ولـكن في نفسه قام انهُ عليهِ أن يفيد وان ينبه ، وها هو ذا لا يقعد عن الافادة والتنبيه . ومما جنح اليهِ الآن تسطير المقالات في المجلة التي يشرف على اخراجها وهي « الثقافة » . وقد جمع هذه المقالات في « فيض الخاطر » ، وهذا الجزء الثالث يخرج وفي طياته أحاديث عليها طلاوة وبها نفع . وانها تجري في جملتها الى غايتين : الأدب والاجتماع . وفي الأدب بذل

للفوائد تارةً واستثارة للدفائن اخرى وابتكار ثالثة . فمن الابتكار مقال في « نداء الباعة » ترى المؤلف يشق لك فيه أفقاً لطيفاً ما كنت لتفطن اليه، ومداره ما في نداء الباعة المتجولة وغير المتجولة من استعارات وكنايات وتشبيهات ثم من نغمات ومدات . وألطف من هذا ان يعلل لك المؤلف سبب كل ذلك ، كما يعلل ايضاً مواضع القبح في ذلك النداء وفي عرض السلع — ومن استثارة الدفائن ما كتبهُ في شأن « أول مجلة مصرية » وهو يعارضها بمجلات اليوم فيقيس الطريق الذي قطعناه ثم يستخلص منها الحالة الأدبية التي سادت في ذلك الزمن . ومن ذلك ايضاً ما سردهُ من قصة « الشيخ الدسوقي والمستر لين » مما تستوضح بها أخلاقاً وعادات خاصة بمصر لتسعين سنة خلت — ومن بذل الفوائد ما تراه في « التقليم والتطعيم »، وهو أنهُ لا بدَّ من مراجعة الأدب العربي القديم وتناوله بالتشذيب والتهذيب مجاراة لهذا العهد من حيث المعنى والمبنى جميعاً ، مع تعويض الذاهب بادخال فنون جديدة على أدبنا، مثل تحليل الشخصيات العظيمة ونسج الشعر الرفيع وسياقة القصص الشاغلة للبال . ومن الفوائد أيضاً ما بذله المؤلف في « الرمز في الادب الصوفي » وهو حديث مبسَّط جلي

وأما جانب الاجتماع فبين العام والخاص. والعام نحو مقال في « الديمقراطية والارستقراطية » وأما الخاص ، أي الخاص بمصر ، فما قاله المؤلف في « الاغاني المصرية » منددا بما انتهت اليه من الرخاوة والميع والتفكك ، وما قاله في « أوقات الفراغ » عائباً على المصريين اضاعتهم للوقت وانصرافهم عن الجد الى اللهو وتهاونهم بالغذاء العقلي والروحي الى غير ذلك مما يحط بنا عن درجة الذين يجدّون فيصلون

ذلك بعض ما في هذا الكتاب المتنوع، المفيد . ويزيد في قدره أسلوبه السهل المتباعد عن التعمل والتشدق، وهو حقيق بأن يطالعهُ الراغب في التزود من الادب المثقَّف بغير عناء

ب . ف

خارطة في سماء مصر

هو أطلس فلكي صغير باللغة الانكليزية مفيد جدًّا للذين يودون أن يعرفوا مواطن النجوم والكوكبات Constellations التى تظهر في سماء مصر وفي جميع البلدان التي تقع في خط العرض الذي تقع فيه مصر ، على مدار السنة ، وأسماءَها . فهو يشتمل على ست خارطات باللون الأزرق ومواقع الأجرام وأسمائها بالحروف البيض . وكل خارطة تشتمل على شهر ونصفي الشهرين السابق واللاحق . فبنظرة الى هذه الخارطة في الشهر الذي أنت فيه ومقارنتها بمواقع النجوم في قبة السماء الصافية تهتدي بكل سهولة الى النجوم المسماة في الخارطة

أطلس جميل لا يهمّ طلاب علم الفلك فقط ، بل يلذ أيضاً لكل واحد من الناس يتوق أن

يعرف شيئاً عن السماوات التي تحدث بمجد الله وتخبر بعمل يديه . وقد ألحقت بهذه الخارطات شروح علمية فلكية عن حركات الاجرام . وقد طبعتهُ مصلحة المساحة المصرية . ووضعهُ الدكتور هرست مدير قسم الطبيعيات والدكتور محمد رضا مدور ومعاونهُ الاستاذ سماحة افندي في مرصد حلوان. وهو يباع بعشرة قروش في مكتبة شندلر في شارع المدابغ في القاهرة وفي جميع المكاتب في مصر . وايراده يتحول الى خزينة المال المخصص للترفيه عن الجنود

زميل التوجيهي

وضع هذا الكتاب الاستاذ محمد عاطف افندي البرقوقي خرّيج جامعة برستول ومفتش العلوم بوزارة المعارف . وشاركه في وضعهِ الاستاذ احمد افندي ابرهيم المدرّس الاول للعلوم بالمدرسة الابراهيمية . وقد توخيا فيهِ اعانة الطالب في اتقان الاجابة في الامتحانات . وهو يمتاز على اشباهه من كتب الامتحانات بما احتواه من الارشادات العامة في كثير من الاوليات والقوانين العلمية التي قد يفوت الطالب فهمها في اثناء دراسته ، لانها مشتتة في ثنايا الكتب التي يدرسها حتى اذا احتاج اليها فلا يدري كيف يهتدي اليها . ولكنهُ يجدها في هذا الكتاب بسهولة في كل فرع من الفروع مسبوقة بتعريفات مصطلحاتهِ . وهناك نماذج للاجابات تبين للطالب الطريقة في كيفية الاجابة . وقد انتقى المؤلفان أسئلة متعددة وأجوبة تعدُّ دراسات نفيسة في أهم مسائل العلوم الثلاثة التي اختصَّ بها هذا الكتاب وهي الطبيعة والكيمياء والميكانيكا . ولا ريب في ان هذا الكتاب يسدي الى الطالب يداً بتلقينه المعرفة الصحيحة الواضحة ويسهل له دراستها والاجابة عن اسئلتها . فهو اذاً خدمة وطنية جزيلة النفع للناشئة . فنثني على عمل المؤلفين المجيد . ونوجه نظر الطالب اليهِ لكي يغنم الاستفادة

امتاع الاسماع

للمقريزي — ج ١ . صححه ونشره محمود محمد شاكر — ٦٨٦ ص ، القطع الكبير — لجنة التأليف والترجمة والنشر — مصر ١٩٤٢

هو امتاع الاسماع بما للرسول من الابناء والأموال والحفدة والمتاع للمقريزي تقي الدين احمد بن علي . وقد وقف على طبعه وضبط الفاظه ، وأوضح مشكلاته وقسم موضوعاته الاستاذ المتمكّن محمود محمد شاكر في كثير من الدقة والتبيين . ثم عمل لهُ فهارس متعددة على نحو ما يجري الآن في اخراج الآثار العربية في مصر وغيرها : للاعلام ، والأماكن ، والايام ، والغزوات ثم للكتّاب . غير ان في صدر هذا الفهرس الاخير ، أنَّ لمصحح الكتاب مقدمة وان للدكتور طه حسين كلمة ، فلم نعثر عليهما

وقصة خروج هذا الكتاب ان السيدة الكثيرة البرّ قوت القلوب هانم الدمرداشية تبرعت للجنة التأليف والترجمة والنشر بمبلغ كبير من المال في سبيل نشر كتاب تاريخي ، فوقع اختيار اللجنة على هذا الكتاب . وهو اختيار حسن لما يضمه الكتاب من الفوائد وما يبذلهُ من المعارف فهو جامع لأحوال النبي العربي جمعاً كافياً ، ولاغنى عنهُ لمن يريد تعقب سيرة الرسول واستبطان كنهِ رسالته . وفيه من مخبآت التاريخ ما يسرّ المستطلع المتوغل وفيه من التحقيقات مايطمئن اليه الباحث المستوثق

قصص علماء الطبيعة

تأليف الاستاذ محمد عاطف البرقوقي — مفتش العلوم الطبيعية بوزارة المعارف

٥٠ صفحة قطع وسط — مصورة — مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

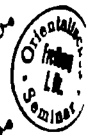
ما انفك الاستاذ محمد عاطف البرقوقي يسدي الى تدريس العلوم الطبيعية بالعربية يداً في اثر يد . فمن «تبسيط اللاسلكي» الى «قصص العلماء والمخترعين» الى كتيّب «المهندس الصغير» الى هذا الكتيّب الجديد في قصص علماء الطبيعة الذين توفروا على دراسة خواص المادة

ولفظ « الكتيّب » لا يُشير إلاّ الى حجم الكتاب ، وأما فائدتهُ فلا تقاس بعدد صفحاته . هنا تبسيط لسير سبعة من أعلام علماء الطبيعة ، أرخميدس ونيوتن وروبرت هوك وباسكال وتوريشلي وأوتوفون جريكا وروبرت بويل ، يطالعها المبتدىء في دراسة علوم الطبيعة فتحبب اليه حقائق هذه العلوم وسير رجالها فيقبل عليها يحدوه الشغف ويطلب الاستزادة فلا يشعر عندما تتعين عليه دراسة المطولات بأن الدراسة مفروضة عليه فرضاً وحسب

وهذا اسلوب في التربية العلمية يجب ان يفوز بما هو جدير بهِ من تشجيع رجال التعليم في الاقطار العربية

قال المؤلف « وقد عنيت في هذه القصص بنشأة العلماء وتحليل خلقهم وأشرت الى تاريخ بلادهم في عصورهم او بيَّنت الظروف التي أدت الى كشوفهم و بسطت في ثنايا القصص الحقائق والمخترعات التي كانت سبباً في تخليدهم فأصبحت القصص بذلك تجمع بين لذة القصة وفائدة العلم ، وتضمُّ طرافة الحوادث مع توضيح الحقائق ، والعلمُ المؤسس على التشويق والرغبة اثبت من العلم المبنيّ على الاستظهار والرهبة »

وسيلي هذا الكتاب كتب اخرى تضمُّ قصص علماء نبغوا في دراسة نواحٍ أخرى من العلوم الطبيعية



الرجال منافقون وقصص اخرى

بقلم الاستاذ محمود كامل المحامي ، نشرتها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
في ١٦٠ صفحة من القطع الوسط

الاستاذ محمود كامل من أقدر كتابنا القصصين على تصوير المجتمع المصري الجديد ، المجتمع الذي اختلطت فيه المدنية الحديثة ببقايا آثارنا التقليدية ، ومن أبرع المصوّرين لآثار الانقلاب الخلقي الذي ينشأ عن هذا الخلط العجيب والنتائج التي تترتب عليه . وقد حفلت مجموعات قصصه العديدة التي اصدرها بصور من هذا اللون

ولقد أراد في مجموعته الجديدة التي اخرجها بعنوان « الرجال منافقون » أن يعالج «لوناً من الألوان الاجتماعية التي تتميز بها الحياة المصرية . . . هو الذي يبدو في التفاوت الكبير بين الشاب المصري الذي تلقى تعليمه في مصر أو في أوربا وكثر تردده على نوادي الرياضة « وصالونات الشاي » و « علب الليل » وبين الفتاة المصرية الجديدة التي بدأت تتلقى نفس برامج الدراسة التي يتلقاها زميلها كما بدأت تنال ألقاب الجامعة العلمية وتشق لنفسها طريقاً في معركة الحياة »

أظهر المؤلف في قصصه الست التي ضمتها هذه المجموعة ووحدت بينها الفكرة ، هذا التفاوت فلقد طعمت الحياة العصرية الشاب المصري بنوع من النفاق صقلته سهرات الليل مع فتيات الهوى وأحاديث المقاهي في حين ظلت روح الفتاة المصرية رغم المظهر العصري الخارجي شرقية التفكير والميول والاتجاهات النفسية فكانت ضحية هذا التطعيم وجرَّ عليها عبث الرجل ونفاقه وما تدفع اليه مظاهر الحياة العصرية التي نتلقاها دون تريث ودون تنقيح ما جرّت من الويلات والشرور

فنحن نرى في كل قصة من هذه المجموعة كيف زلّت المرأة وكيف انحدرت او كيف حاولت انقاذ نفسها من بين براثن العبث الذي انطبعت عليه روح الرجل متأثرة بما صبغتها بهِ ألوان جديدة أفقدت روحه لونها الشرقي وشهامتها الشرقية

وقد قصد المؤلف من وراء ذلك ان ينبه نظر المصلح الاجتماعي الى هذا الخطر الداهم وليبين ان من الواجب التفكير في وضع قيود اجتماعية وتشريعية للحدّ من حرية (الرجل) الطاغية حتى يمكن النهوض بمستوى الخلق الاجتماعي من هذه الهوة التي يتردّى فيها . وانه لمجهود من المؤلف نبيل القصد طيب الغاية يضاف الى جانب مجهوده الأدبي في عالم القصة وهو مجهود غير مجحود

الصيرفي

أغاريد ربيع

ديوان فؤاد بليبل

ظهر حديثاً ديوان شعر بهذا العنوان للشاعر الشاب المرحوم فؤاد بليبل الذي غالته المنون غير متجاوز الثلاثين ربيعاً

في الشعر ينظر الى أمرين : أحدهما مادي وهو الصناعة او الصياغة . والثاني معنوي وهو الأفكار والآراء والخواطر التي يتغنى بها الشاعر . فمن حيث الصياغة نرى في «أغاريد ربيع» قصائد رنانة بلغ بعضها طبقة عالية من حيث اشراق الديباجة وجودة السبك والتعبير وقد شهد بذلك شاعر القطرين الأستاذ خليل مطران فقال : « . . . يصوغ ذلك الشعر بقدر ما تتمكن فيه الملكة صوغ الماهر الذي كان في طريق العبقرية لو فسح له في الأجل ..... وكان فؤاد بليبل من المجددين ولكنه لم يعمد الى التجديد الا من طريق وصفه للحوادث التي شهدها والأناس الذين اتصل بهم ومن طريق تسيره عن شعوره الصادق كما تلقاه عن تلك المصادر»

أما من الناحية المعنوية فالديوان ينطق بما كان يجول في خاطر الشاعر من الاحساسات الكريمة وتنطوي عليه نفسه من حب الخير والانسانية وطلب صلاح البشر والوفاء للاصحاب والرثاء للمظلومين والاشفاق على البائسين . كما ان شعره الوجداني ينم عليه صدق الشعور وعذوبة الروح وسمو العاطفة — ويؤيد هذا السمو في شعوره اقوال من رثوه من الشعراء والادباء مما يجده القارىء في الديوان المذكور — ومما يجدر ذكره في هذا الباب ندرة قصائد المدح في الديوان وهو يدل على بعد الشاعر عن التملق وترفعه عن الامور المادية التي تستعبد سواه . وهذه ابيات ننقلها عن الديوان لدعم ما قلناه ولتشويق القارىء الى مطالعته

قال في الترفع :

واذا ظمئت ولم تجد لك منهلا ... عذب المياه كصافيات الادمع
فاطو الضلوع على الصدى أو مت به ... حراً أبي النفس غير مروع
الموت خير من ورودك مورداً ... ولغ الكلاب بمائه المتجمع
من كان لا يرضى المجرة مشربا ... هيهات يغشى كورة المستنقع

وقال في معنى آخر :

ومن الشر ما يحض على الخير ... ويهدي أخا الضلال سبيله
ومن السم ما يعل ومنه ... ما تداوى به الجسوم العليلة

وقال في المداجين :

وحب كل امرئ على مقدار حاجته ... يزداد حبا اذا ازدادت مطالبه
فان رأت نزيهاً في مودته ... فقل هو الدهر قد جلت عجائبه

وقال في زجاجة الخمر :

لها على السكب في الاقداح قهقهة ... كأنها ضحكات الهازىء الهذر
أتشعل الجسم ناراً وهي باردة ؟ ... فيا لقارورة أورى من الشرر !

وقال في البخل :

ولا تحارب أليف البخل ان له من بخله كل يوم ما يحاربه
فهو الدنيء وان سارت به قدم وهو الذليل وان عزت مناصبه

فريد حبيش

ترجمات من العربية الى الحبشية

بقلم مراد كامل — مقال مستخرج من مجلة الآثار القبطية — القاهرة ١٩٤١

قد سبق لنا ان نعرف الى القراء الدكتور مراد كامل مدرس اللغات السامية بكلية الآداب والمتخرج من جامعات المانيا . وذلك لما تناولنا تآليفه المختلفة في خصائص بعض اللغات السامية وبعض التراجم التي نقلت اليها او منها . وهذا المقال الاخير يستعرض الترجمات التي نقلت من العربية الى الحبشية ، وأكثرها في الناحية الدينية . فالتوراة نقلت في القرن الرابع العاشر وتلت ذلك أساطير وأخبار ورسائل وخوارق . ثم وقفت حركة الترجمة باضمحلال الدولة الحبشية ، ونهضت لغة دارجة هي لغة الأمهرية . وبقيت الحال هكذا حتى سنة ١٩١٤ إذ كلفت الحكومة الحبشية اربعة مصريين ان ينقلوا كتباً تعليمية من العربية الى الأمهرية . ولم يطل ذلك ، لان الاحباش أخذوا في العهد الجديد يترجمون عن اللغات الاوربية مباشرة . ذلك مقال وجيز ونفيس ، رأينا ان نشير اليه لطرافة موضوعه . ولا بدَّ ايضاً من التنويه باهتمام «مجلة الآثار القبطية» بشؤون الحبشة على ذلك النحو العلمي ، فهي بهذا تنفرد بمسعى يجمل بمصر

السينما مفخرة القرن العشرين

أصبحت السينما وسيلة من وسائل الثقافة تنشرها بين الناس في روايات تاريخية رائعة أو حوادث مؤثرة كما أصبحت صلة بين اقطار العالم تنقل حوادثه مصورة وأصبح لـ «كواكبها» بين الناس تقدير واعجاب . وعلى قدر ما تحتل هذه الصناعة من المكانة بين مخترعات القرن العشرين وعلى قدر ما تجذب اليها من معجبين فقليل ما وضع في العربية عنها . لذلك كان عملاً مشكوراً اقدام الأديب محمد عبد القادر المازني على وضع كتاب عن السينما وصف فيه تاريخها وتقدمها كما كتب عن كثيرين من «كواكبها» المشهورين والمشهورات وقد قدمه الى والده الأديب الكبير الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني بهذه الكلمة « لقد اردت بهذا الكتاب المتواضع ان أسد بعض الفراغ في المكتبة العربية بشيء من تاريخ السينما وتطورها فأملي ان ترضى عن بعض ما فيه فما يسعني وأنا في مستهل حياتي إلاَّ ان أفوز برضائك التام وان هذا محور آمالي »

باب الأخبار العلمية

مؤتمر المجمع المصري للثقافة العلمية

خلاصة محاضراته

عقد المجمع المصري للثقافة العلمية مؤتمره السنوي الثالث عشر في الأسبوع الثاني من شهر مايو ١٩٤٢ ، وكان برآسة الدكتور علي مصطفى مشرفة بك عميد كلية العلوم

وقد القيت فيه ست محاضرات في موضوعات علمية شتى ، نظرية وعملية . فبيَّن الدكتور مشرفة القواعد التي يقوم عليها تنظيم البحث العلمي في بلدان الغرب سواء في ذلك البحث العلمي البحت أو البحث التطبيقي وعرض مقترحاته العملية لتطبيق هذا التنظيم في مصر . وكانت محاضرة الدكتور سليم حسن في موضوع يمت الى تاريخ مصر القديمة بصلة وثيقة اذ بيَّن ، استناداً الى وثيقة جديدة لم تنشر قبلاً ، أسماء البلدان القديمة الباقية الى الآن في مصر وما في اسمائها من أثر للتسمية التي كانت شائعة في العصر القديم

والقى الدكتور محمد عزيز فكري محاضرة موضوعها « طبيعة الاثمار في القطن » وهو بحث علمي عملي يتصل بثروة مصر الاقتصادية فبين طبيعة تساقط أزهار القطن وأثماره ، وقال أنه اذا كان في الوسع الاحتفاظ بزهرة واحدة علاوة على ما يحتفظ به عامة كان معنى ذلك زيادة قنطار من القطن في غلة كل فدان من الارض المزروعة ، وبنى آراءه هذه على أبحاث مبتكرة اجراها بنفسه

ولخص الدكتور مصطفى عامر وصف حالة مصر من الناحية السياسية والاجتماعية في اواخر القرن الثامن عشر ، استناداً الى ماذكره الرحالة الفرنسي « ڤولنى » من حقائق طريفة

ووقف استاذان من اساتذة كلية العلوم محاضرتيهما على موضوعين من موضوعات التاريخ الطبيعي . فكان موضوع الأستاذ يونس سالم ثابت « التكافل في النبات واثره في الزراعة » وقد بين الفرق بين التكافل والتطفل ، فالتطفل فيه كل الغرم على احد الشريكين وكل الغنم على الشريك الآخر . وأما التكافل ففيه منفعة متبادلة للشريكين وضرب على ذلك امثلة كثيرة ووضحها بالصور .

وكانت المحاضرة الأخيرة من محاضرات المؤتمر للدكتور محمد والي استاذ الحيوان بكلية العلوم وقد عالج فيها « العوامل الفعالة في سلوك السمك » وكيف يتفاوت وفقاً لأحوال البيئة والتشريح وكيف يبدو في اشكال السمك وطبائعه ووضحهُ بصور بديعة

السلفاتيازول والتهاب البريطون

نشرت مجلة « ساينس » نقلاً عن مجلة الجمعية الطبية الاميركية نبأ طريقة جديدة اسفر فيها استعمال السلفاتيازول — احد مشتقات السلفانيلاميد — عن انقاذ مرضى مصابين بالتهاب البريطون Peritonitis إصابة خطرة . والطريقة هي حقن العقار في تجويف البطن . وهذا مخالف لما جرى عليه الاطباء وهو استعمال هذا العقار في البطن عند شقه لاجراء عملية جراحية. اما الاطباء الاميركيون الذين وصفت المجلتان طريقتهما فيحقنون العقار في البطن بغير شقه

***

والى القارىء وصفاً موجزاً لإحدى هذه الحالات التي استعمل فيها العقار على الوجه سابق الذكر . كان المصاب صبيًّا زنجيًّا عمره سنتان ونصف سنة. وكان مصاباً بالتهاب حاد في الزائدة الدودية وبالتهاب البريطون العام. فبعد فحصه قرَّر الأطباء ان حالتهُ لا تسمح باجراء عملية لاستئصال الزائدة الملتهبة . وفي اليوم العاشر من اصابته ثقب البطن بابرة طويلة تشبه ابرة الحقن تحت الجلد واستخرج من المعدة نحو نصف كوب من الصديد ثم حقن في البطن عقار السلفاتيازول . وبعد انقضاء يومين حقن السلفاتيازول في البطن مرة ثانية . وفي الوقت نفسهِ حقن المصاب بالسلفاتيازول في اوردته وعولج علاجاً آخر

وبعد انقضاء يومين على حقنة السلفاتيازول الثانية في البطن هبطت حرارة الصبي الى المعدل السوي . وتحسنت حالته العامة . ولم تنقض ثلاثة أسابيع أخرى حتى شفي وعاد الى داره . وبعد انقضاء شهرين على ذلك التهبت زائدته الدودية ثانية ، فاستؤصلت . والرأي ان حقن السلفاتيازول في البطن لا تقتصر فائدته على التهاب البريطون الناشىء عن التهاب الزائدة الدودية بل يشمل كذلك التهابه الناشىء عن جراثيم النومونيا والجونوريا

البيض المجفف

ينتظر أن يبلغ وزن البيض المجفف المرسل هذه السنة من الولايات المتحدة الى بريطانيا بحكم قانون الاعارة والتأجير ، مائة مليون رطل ، قبل اول يوليو ١٩٤٢ . فاذا تذكرنا ان الولايات المتحدة الأميركية كانت تصنع من البيض المجفف ما لا يزيد على مليوني رطل في السنة ، وانهُ من المنتظر ان يبلغ ما تصنعهُ منهُ في خلال سنة ١٩٤٢ مائة وخمسين مليوناً من الارطال أدركنا مدى التقدم في هذه الصناعة. والتجفيف غرضه توفير المكان في السفن

تعريف بالفيكنت فيليب دي طرازي

كتب الينا بعض القراء يستفسر عن اصل الفيكنت فيليب دي طرازي وعن سعيه القومي، بعد الذي كتبهُ الدكتور بشر فارس في عدد مايو تحت عنوان « التنبيه الى كتاب فريد جامع » فنقول :

هم بنو طرازي من أسرة عريقة في الوجاهة جَلَوا عن « آثور » وطنهم الاول في مفتتح المائة السادسة عشرة ، وقصدوا الى حلب فاستوطنوها . وفي صدر المائة التاسعة عشرة قدم انطون طرازي (جدّ الفيكنت فيليب) مدينة بيروت وانشأ فيها داراً للتجارة . وانتشر اعقابهُ في البلدان العربية وفرنسة وشمالي امريكة وجنوبها ، وحرفهم مختلفة . اما الفيكنت فولد في بيروت في ٢٨ مايو ١٨٦٥ ، وبعد التحصيل في المدرسة البطريركية وكلية الآباء اليسوعيين اشتغل بالتجارة مع أبيهِ نصر الله الملقب بالكنت . ثم انصرف الى الدرس والجمع والتأليف

وقد قال فيهِ المستشرق الالماني الكبير مرتن هَرْتْمَنْ في الكتاب الذي ألفهُ في رحلتهِ الى سورية ولبنان سنة ١٩١٣ ما مؤداه : «وهو غاية في اللطف، أنيس، نابغة، واسع المعرفة بكل من تطرقنا الى ذكره وبكل ما أفضنا فيهِ. وشاهدت في خزائنه ذخائر علمية جمعها بسعيه المتصل. وهي تدل على همة اللبناني اذا شاءَ أمراً وعلى فطنة الفيكنت ومقامه العلمي وان وصلت تلك النفائس أوربا لكان لها شأنها هنالك . . . » . أما الدكتور بشر فلم يشاهد تلك الذخائر في دار الفيكنت ببيروت وذلك ان كتبه انتقلت الى دار الكتب التي أنشأها وان الألطاف والآثار من أسلحة ونقود ومن قطع خزف وزجاج وعاج ومن طنافس نادرة ومن مخطوطات نفيسة ، مثل « قاموس » الفيروزابادي المزوق بالالوان قد نقلها الى دير في لبنان او وهبها . وللفيكنت ألقاب علمية كثيرة وأوسمة ، من ذلك انهُ من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق والجمعية الجغرافية بباريس ، والمجمع العلمي للفنون والآداب بباريس ، والجمعية العلمية الاسلامية ببرلين . وهو يحمل من الأوسمة العثماني والفارسي والتونسي واللبناني والبابوي والفرنسي . وأما سعيه القومي ففي مقال عدد مايو تنويهٌ بأياديه في أثناء الحرب الكبرى ، ونضيف الى ذلك انهُ ظلَّ مُدداً غير قصيرة ركناً لجمعيات خيرية شتى في بيروت مثل (المساعي الخيرية السريانية) . ومما عمله فوق هذا أنه انضمَّ الى اللجنة التي سعت في اغاثة المنكوبين في حوادث جبل عامل سنة ١٩٢٠، وانه تجرد لمساعدة المصريان الذين طردتهم الدولة التركية سنة ١٩٢١ فلجأوا الى بيروت . ومن علوّ شأنه انه ظفر بالثقة حتى عين مفتشاً عامًّا في (دوائر الاعاشة)

ببيروت سنة ١٩١٨ لتوزيع الاقوات والملابس والادوية على البائسين، وحتى مثل جمهور الاقليات من سكان لبنان في مجلس المستشارين الذي أنشىء سنة ١٩٢٠ في عهد الجنرال غورو. تلك كلمة مجملة في ترجمة ذلك الشيخ الوافر علمه، الزاخر فضله. ونعلم ان للدكتور بشر تفصلاً في سيرة هذا العالم وغيره من العلماء المعاصرين سيخرجه على حدة

الطيران حول الارض

وجّه الى الطيار الروسي ميخائيل جروموف وهو الذي طار قبل سنوات من موسكو الى ولاية كاليفورنيا مارًّا فوق القطب الشمالي بغير توقف، السؤال التالي: هل في الوسع صنع طائرة تطير حول الارض بغير ان تقف للتموّن بالوقود. واذا كان ذلك ممكناً فما المدّة التي يستغرقها هذا الطيران، وما اوصاف الطائرة التي تستطيع ذلك

فأجاب: في الوسع صنع طائرة تستطيع ان تقطع من اثني عشر الف ميل الى خمسة عشر الف ميل. وهذا يمكنها من الطيران حول الأرض على محاذاة احد خطوط العرض العليا لا على محاذاة خط الاستواء. ورحلة من هذا القبيل تستغرق من ثمانين ساعة الى تسعين ساعة. ولا بدّ ان تكون الطائرة مما يستطيع الطيران في الطبقة الطخرورية السفلى حيث تكون أقل تعرضاً لفعل الرياح منها على ارتفاع يسير فوق سطح الارض. والغالب ان سرعتها وهي طائرة في هذه الطبقة تكون ٢٥٠ ميلاً في الساعة على المعدل

علاج كيميائي لحفظ القمح المخزون

صنع في قسم الكيمياء بجامعة همشير الجديدة في الولايات المتحدة، علاج كيميائي يقي القمح المخزون فعل الحشرات. وقوام هذا العلاج مادة كيميائية تدعى «اثيد» وهو الاسم التجاري لمركب نترواثيلين المعالج بالكلورين. هذه المادة سائل جاف ذو رائحة ولكنها ليست كريهة. وهو يتبخر فتفتك ابخرته بالحشرات التي في القمح والدقيق والمنسوجات والفراء بغير ان تؤذي الناس. والابخرة تخترق القطن المكبوس والمنسوجات المرصوفة بعضها فوق بعض والورق المشمع والورق المقوى

وقد جربت هذه المادة تجارب واسعة النطاق بالقمح المخزون فأسفرت عن نتائج تبعث على الرضا. فقد ذُرَّت مثلاً على سطح مخزن مملوء قمحاً وعلو القمح المكدس فيه ستون قدماً فاخترقت ابخرتها القمح المكدس الى أسفل المخزن وفتكت بالحشرات اينما كانت ولم تسفر التجارب حتى الآن عما يدل على تأثر مواد الطعام بهذه الأبخرة تأثراً يؤذي آكليها

زيادة محصول القطن
بمعالجة تقاويه (بزوره)

تدل المباحث الزراعية في الولايات المتحدة ، على انهُ في وسع الزرّاع زيادة محاصيلهم بمعالجة البزور قبل بذرها برشها بأتوار (هرمونات) نباتية. وقد اجرى الاستاذ ارلند بكلية اوكلاهوما تجارب واسعة النطاق اثبتت ان خير المواد لمعالجة البزور هي مادة تعرف باسم « الحامض الليفولينيك » Levulinic وهو حامض يسهل تركيبه من النفايات بنفقة يسيرة . وأهم ما يستعمل فيهِ الآن هو صنع العجائن الكيميائية plastics

وقد اسفرت تجربة هذا الحامض في القطن عن نتائج تبعث على الاستغراب فالمحصول في النبات الناشىء من بزور عولجت بهِ زاد ٥٠ في المائة على محصول القطن الناشىء من بزور لم تعالج به . وكانت التجربة خاضعة لأسباب الدقة العلمية . ثم ثبت انهُ اذا ذرّ دقيق الصويا مخلوطاً بواحد في المائة من الحامض الليفولينيك في خلال فترة الازهار ساعد ذلك على منع سقوط اللوز

وقد عولجت زراعة القطن في فدان (ايكر) هذه المعالجة ، فكان محصولها ٨٣٨ رطلاً بينما تركت الزراعة في اخرى بغير معالجة فلم يزد محصولها على ٤٨٥ رطلاً وقد بذل المجربون غاية الجهد لجعل الزراعتين متساويتين من كل ناحية عدا معالجة البزور بالحامض اللفولينيك والازهار بمزيج منهُ ومن دقيق الصويا . وتبلغ نفقة معالجة القطن في فدان واحد ثلاثة دولارات او نحو سبعين قرشاً

غور مندناو

تعرف احدى جزائر ارخبيل الفيلبين باسم مندناو . والى غربها غور في المحيط هو أعمق الاغوار في محيطات الارض جميعاً على ما يعلم حتى الآن اذ يبلغ عمقهُ ستة اميال ونصف ميل

المرأة أم للرجل مهنة التعليم

المرأة في أميركا تحتكر مهنة التعليم في المدارس الابتدائية ، وتكاد تحتكرها في المدرس الثانوية ، ولا تخلو منها الكليات والجامعات . ففي مرحلة التعليم الابتدائي اكثر من ٩٠ ٪ من القائمين بشئونهِ من النساء وفي مرحلة التعليم الثانوي ٦٠ ٪ من هؤلاء من النساء أما في التعليم الجامعي فنسبة النساء ضئيلة جدًّا ، وقد رضي الرجال بهذا الغبن ، ورضي رجال التربية ضمناً بأن مهنة التعليم نسويّة . غير أن الكثيرين منهم أخذوا يشكون من أن الكتّاب هناك يشيرون الى كلمة « معلم » بضمير الأناث ، ويطالب الكثيرون الآن بالانصاف واستعمال ضمير الذكور [مجلة التربية الحديثة]

فهرس الجزء الاول

من المجلد الواحد بعد المائة

١ اوربا بين عهدين — موازنة تاريخية

٨ تنظيم البحث العلمي وأثره في تطور المجتمع : للدكتور علي مصطفى مشرفة بك

١٦ قطرات ندى : لراجي الراعي

١٧ العلم والادب والاساطير في كتب السلف : للامير مصطفى الشهابي

٢٧ الغاز الحربي صفاته وخواصه واستعماله

٣٤ الهيكسوس عاصمة ملكهم ومدة حكمهم : للدكتور باهور لبيب

٣٩ سمك الأغوار غرائب أشكالهِ وطبائعهِ

٤١ يوم في خزانة عيسى اسكندر المعلوف : بقلم الدكتور بشر فارس

٤٧ اسماء مصر : لناشد سيفين

٥١ في محراب الفكر (قصيدة) : لحسين محمود البشبيشي

٥٤ الأعلام في كتاب الامتاع : للاب انستاس ماري الكرملي

٦٠ دراسة اللغة العربية الفصحى في مدارسنا المصرية : لعبد الله امين

٦٦ زيلندا الجديدة

٧١ تأثير الغذاء في الطباع : للدكتور عبده رزق

٧٣ حديقة المقتطف * مدرسة تاجور : لمحمود المنجوري

٨٣ باب المراسلة والمناظرة * اللسان العلمي واللسان النباتي : لمحمود مصطفى الدمياطي .
حول كتاب ظواهر حجرة تحضير الارواح : لاحمد فهمي ابو الخير

---

٩٥ مكتبة المقتطف * عبقرية محمد . فيض الخاطر . خارطة في سماء مصر . زميل التوجيهي . امتاع الاسماع . قصص علماء الطبيعة . الرجال منافقون وقصص اخرى . أغاريد ربيع . ترجمات من العربية الى الحبشية . السينما مفخرة القرن العشرين

١٠٣ باب الاخبار العلمية * مؤتمر المجمع المصري للثقافة العلمية . السلفانيازول والتهاب البريطون . البيض المجفف . تعريف بالفيكنت فيليب دي طرازي . الطيران حول الارض . علاج كيميائي لحفظ القمح المخزون . زيادة محصول القطن بمعالجة تقاويه (بزوره) . غور مندناو . ألالرجل ام للمرأة مهنة التعليم.



« شاب من حولها الزمان ... »

(تصوير الدكتور احمد موسى)

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الواحد بعد المائة

١ يوليو سنة ١٩٤٢ — ١٧ جمادى الثانية سنة ١٣٦١

من التراب

يستخرج عقار فتاك بالجراثيم

هوذا عقّار جديد يدعى «غراميسيدين»، كاد يستأثر بعناية الاطباء المجتمعين في مؤتمر «كلية الجرّاحين الأميركية» في شهر نوفمبر الماضي. وقد شهد الطبيبان الجرّاحان الدكتور رملكامب Rammelcamp والدكتور كيفر الاستاذان بمدرسة الطب في جامعة بوسطن والجراحان بمستشفيات ماستشوستس التذكارية، بان هذا العقار كان فعّالاً في علاج إصابات شتىً تتفاوت من قرح عميقة في الجلد، الى حالات ذات الجنب المستعصية، الى الجراح التي يملأُها الصديد ويستعصي اندمالها. هذه النتائج وغيرها مما أسفر عنهُ استعمال هذا العقار حمل أهمّ هيئة للجراحين في الولايات المتحدة على الاهتمام بموضوعهِ. ولكن طريقة كشفهِ كانت أدعى الى العجب والإعجاب من تأثيره في العلاج. وقد يكون كشفهُ، أسلوباً وعلاجاً، أعظمَ فائدة وأوسع نطاقاً من كشف السلفانيلاميد والعقاقير المشتقة منهُ

وجد «الغراميسيدين» في التراب، واستخرج بأساليب كيميائية من خلايا المكروبات التي تعيش تحت سطح الارض في المدن والريف. وقد جاءَ كشفهُ نتيجة لبحث دقيق أحكم خطته عالم فرنسيّ يدعى الدكتور رينيه ديبو Dubos وهو من علماء معهد ركفلر للبحث الطبي، ومن أشد المعجبين بباستور. والواقع انهُ في الوسع الرجوع بهذا الكشف الخطير الى بعض ملاحظات باستور نفسه وما كانت تنطوي عليه من زكن عجيب

ففي اواخر القرن التاسع عشر ، كان هناك ما يحمل الباحثين في المكروبات ، على الظن أنَّ الارض تحت اقدامهم كانت مصدر أوبئة حاصدة فتكت بما لا يحصى من الناس منذ فجر التاريخ . وان الوف الألوف من الجثث التي تعجُّ بمكروبات الطاعون والجذام والسلّ والهواء الاصفر (كوليرا) والتيفوس وذات الرئة (نومونيا) وغيرها من الامراض الفتاكة قد دفنت في التراب وانهُ من الطبيعي ان يذهب الظن الى ان المكروبات في هذه الجثث قد تكاثرت في التراب الخصب النديّ ، وعلى ذلك بدأ المنقبون يأخذون حفنات من هذا التراب ويبحثون فيها عن المكروبات التي أصابت الناس في الماضي

ولكن بحثهم مال بهم الى الاقتناع بان مكروبات الامراض المعدية لا تستطيع ان تعيش طويلاً في التراب مع ان مكروبات بعضها مثل الكزاز (تيتانوس) والجمرة الخبيثة تستطيع ذلك . وما لبثوا حتى خطر لهم ان احد الاسباب التي تحول دون عيش كثرة المكروبات في التراب هو ان هناك مكروبات أخرى يعجُّ بها التراب لا تؤذي المرء ولكنها تقتل مكروبات الامراض وتلتهمها . وقد كشف باستور نفسهُ دليلاً تجريبيًّا على صحة هذا القول عندما أذاع في سنة ١٨٧٧ ان بعض البكتيريا التي تعيش في التراب قادرة على قتل مكروب الجمرة الخبيثة واقترح انهُ في الوسع تطبيق هذه الحقيقة تطبيقاً واسع النطاق في علاج الناس

واقتفى فريق من علماء البكتيريا في فرنسا والمانيا أثر باستور فعززوا رأيهُ المتقدم عند ما استفردوا بكتيريا تؤثر في المكروبات الضارة فتبطئ نموها . فلما اهلَّ العقد الثالث من القرن العشرين ، كان العلماء قد وجدوا في بكتيريا التراب اصنافاً تفتك بمكروبات الدفتيريا والتيفود والهواء الأصفر وكتبت في ذلك رسائل كثيرة . فوجود اعداء للمكروبات المرضية في التراب كان قد ثبت . ولكن المحاليل المستعملة كانت تحتوي على ضروب شتى من البكتيريا عدا البكتيريا الفاتكة بالمكروبات المرضية ، وعلى شوائب أخرى ، فكان فعل هذه المحاليل في قتل المكروبات المرضية ضعيفاً ومتقلباً لا يعتمد عليهِ ، فلم تظفر بعناية واسعة النطاق في تجربتها المريرية

* * *

وكانت الحالة على ما تقدم عندما أقبل الدكتور ديبو على بحث هذا الموضوع وغرضهُ ان يستخلص من المواد القاتلة للمكروبات التي في التراب ، محلولاً مركّزاً فعالاً . وبعدما ظفر باجازة بكالوريوس في العلوم من جامعة باريس ذهب الى الولايات المتحدة سنة ١٩٢٤ وقضى ثلاث سنوات في محطة التجارب الزراعية بنيوجرزي متوفراً على دراسة بكتيريا التراب

حوالي ذلك الوقت كان الدكتور آيفري Avery أحد أطباء معهد ركفلر الطبي ، معنيًّا ببحث مسألة معقدة لها صلة بذات الرئة . فبكتيريا ذات الرئة (نوموكوكس) تختلف

من النوموكوكس غير الضارّ، في ان لكل منها غلافاً يقيها فعل الكريات البيض التي تلتهم الكروبات داخل الجسم . وكان إيڤري قد تبين ان هذا الغلاف، او هذه الدرع، مركبة من ضرب من السكر يقاوم فعل العفن وغيره من البكتيريا المألوفة والمواد النباتية والحيوانية المعروفة باسم « أنزيمات » وهي التي تحطّم الجزيئات الكبيرة وتحولها الى جزيئات أبسط تركيباً . فلما عرف ديبو بما تقدم ذهب الى ايڤري وقال ان يعرف مادة تستطيع ان تمزق هذا الغشاء، او تحطم هذا الحصن الذي تحتمي وراءه بكتيريا ذات الرئة وبسط لهُ رأيهُ فأعجب بهِ ودعاه الى الانتظام في معهد ركفلر، ولا يزال فيهِ

هذا العالم الشاب كان يعلم ان التراب يعجُّ بالأحياء الدقيقة . وان كل أوقية من التراب تحوي خمسين الف مليون الى مائة الف مليون من البكتيريا الحية وان لهذه البكتيريا شأناً أي شأن، في تحليل الاجسام الميتة وتحويلها مادة تنتفع بها الاجسام النباتية والحيوانية . ففي كل سنةٍ يقع من الاوراق الذاوية والاغصان والعيدان وغيرها من بقايا الاجسام الحية، ما وزنهُ ثلاثة آلاف الى ستة آلاف رطل في كل فدان من ارض الحراج في اميركا ومساحتها جميعاً ٤٧٠ ٠٠٠ ٠٠٠ فدان . وفي كل سنة تعود الى التراب أجسام ملايين من الأحياء من ناس وحيوان وحشرات بفعل الشيخوخة او المرض او الحرب . والمواد الكيميائية الداخلة في تركيب هذه الاجسام تتحوّل في التراب غذاءً للنبات فغذاءً للحيوان آكل النبات، او للحيوان آكل اللحوم . ولكن النبات لا يستطيع ان يتغذى بهذه المركبات قبل ان يصيبها تحول ما . أي يجب ان تحلَّ الى مواد أساسية بسيطة التركيب . وهذا « الحلُّ » او « الانحلال » هو على الغالب وظيفة البكتيريا التي في التراب

وكان ديبو يعلم، كما يعلم غيره من علماء بكتيريا التراب، ان هذه المكروبات ليست قادرة على هضم كل شيءٍ . لأنها في الواقع أصناف لكلّ منها اختصاص . فمنها ما يحلُّ المواد البروتينية المعقدة فتطلق الأمونيا في اثناء هذا الحلّ، ومنها ما يحوّل الأمونيا الى نتريت والنتريت تتحول بفعل صنف ثالث الى الاسمدة النتراتية الطبيعية . ومن طبائع البكتيريا أنها حريصة على الاحتفاظ بتوزيع العمل في ما بينها . فالبكتيريا التي تحلّ السلولوس، لا تهجم على الغلوكوس وهو سكر الفاكهة . فقال ديبو في نفسه، اذا كان هذا مبلغ التخصص بين أصناف البكتيريا المتعددة، فمن الجائز أن نكشف صنفاً منها لم يكشف بعد، اختصَّ نفسهُ بتوليد انزيمات تفتك بهذا الغشاء السكري المنيع الذي يحيط ببكتيريا ذات الرئة

وكذلك أخذ هذا العالم حفنة من تربة الغابات في ولاية نيوجرزي ووضعها في محلول يحتوي على مادة الأغشية السكرية التي تغلف بكتيريا ذات الرئة . ولما كانت بكتيريا ذات الرئة

اثنين وثلاثين نوعاً فقد اختار النوع الثالث وهو افتكها . فماذا تفعل بكتيريا التراب ؟

لم يلبث ديبو طويلاً حتى فاز بالجواب . كان معظم بكتيريا التراب عاجزاً عن هضم هذه المادة السكرية فمال الى الاستكنان . ولكن بعض هذه البكتيريا لم يستكنّ ، وتمكن من تحويل طبائعه تحويلاً مكنهُ من التهام هذه المركبات السكرية التي لم يألف التهامها من قبل، أي أن هذه البكتيريا تمكنت من توليد انزيمات تحلّ سكر الغشاء الذي يحيط ببكتيريا ذات الرئة، فتتحوّل البكتيريا المرضية الى مادة يستطاع التهامها

عند ذلك أخذ ديبو يستخرج هذه الانزيمات ويحقنها في الفئران فوجد أنها تقي الفئران الاصابة بذات الرئة ولو حقنت الفئران بمقدار فتاك من الجراثيم كافٍ لقتل مليون فأر . وقد تمكن ديبو ومعاونوه من أن يروا بالمجهر ، فعل هذه الانزيمات بأغشية الجراثيم . ففي لحظة ما تبدو الجراثيم وأغشيتها حولها . ثم تبدأ الأغشية في الزوال ، فتبقى الجراثيم عارية وعندئذ تهجم عليها اللواهم . وعلى ذلك يصح القول بأن التجربة أسفرت عن نجاح تام

الاّ أن ديبو لم يكتف بما تمّ . لأن هذه الانزيمات كانت لاتفعل الاّ بالنوع الثالث من جراثيم ذات الرئة ، فعزم حينئذ ان يبذل غاية جهده لتوليد ضرب من بكتيريا التراب لا يبلغ به الاختصاص هذا المبلغ الضيق . ولكنه بدلاً من ان يجرب توليد ضرب من البكتيريا يستطيع ان يفتك بجميع انواع الجراثيم المحدثة لذات الرئة ، طمح الى توليد ضرب من البكتيريا ، يستطيع ان يفتك بأنواع شتى من الجراثيم المرضية

***

من الجراثيم طائفة كبيرة تتصف بصفة مشتركة وهي انها بعد ما تصبغ تسهيلاً لدرسها على شريحة المجهر ، لا يزول صبغها ولو غسلت بمحلول الكحول (٩٥ ٪) . وقد كشف هذه الحقيقة باحث دنمركي يدعى غرام سنة ١٨٨٤ ودعيت باسمه وهي تشمل جميع انواع (النوموكوكس) بل جماعة كبيرة أخرى مثل (الستربتوكوكس[١]) و(الستافيلوكوكس[٢]) وجراثيم الجمرة الخبيثة والدفتيريا . ولما كانت جدران الخلايا في هذه الجراثيم تصبغ صبغاً ثابتاً على ما تقدم ، ذهب الظن الى ان في بناء الجدران مادة مشتركة بينها جميعاً ، ولعل هذه المادة تعنو لفعل ضرب خاص من بكتيريا التراب

على هذا الاساس شرع الدكتور ديبو من خمس سنوات يسعى الى توليد ضرب خاص من البكتيريا المقاومة أو الفاتكة بالمكروبات . فأخذ حفنة من تراب المستنبت الأخضر في

(١) جراثيم بكتيرية سبحية الشكل تولد أمراضاً مثل حمى النفاس والحمراء
(٢) جراثيم بكتيرية عنقودية تولد التهابات صديدية

معهد ركفلر ووضعها في احوال خاضعة للضبط العلمي ، كالحرارة والرطوبة ، وتركها حتى استنفدت بكتيريا التراب كلَّ ما في تلك الحفنة من طعام عضوي، مردَّه الى الورق والعيدان وغيرها . فلما بلغت ملايين البكتيريا التي تعج في تلك الحفنة من التراب ، مرتبة الجوع ، وأوشكت ان تستكن ، أخذ ديبو يضيف اليها سوائل تحتوي على جراثيم (ستربتوكوكس) و (نوموكوكس) وغيرها اي انه أضاف الى هذه البكتيريا الجائعة نوعاً من الطعام كان خليطاً (كوكتيل) من الجراثيم المرضية . فواجهت هذه البكتيريا حالة جديدة ، وهي الاغتذاء بالجراثيم الحية . فهل تستطيع ان تفعل ذلك ؟ معظمها عجز عنه ، ولكن بعضها نهض الى مستوى الكفاح الجديد ، فحدث في جسمه تعديل مكنه من الانتصار على هذه الجراثيم

ومضى ديبو سنتين يلقي على هذه البكتيريا مزيجاً من الجراثيم التي اسندت الى «غرام» الدنماركي حتى وثق بأن هذه البكتيريا التي استطاعت ان تلائم بين طبائعها وبين حالتها الجديدة قد اصبحت فعلاً تحترق شهوة الى هذه الجراثيم الفتاكة

ثم عمد الدكتور ديبو بأساليب بكتيريولوجية بارعة الى عزل هذه الاحياء الفتاكة بالجراثيم ، نقية خالصة من كل ما يشوبها ، وشاهد فعلها ، على شريحة المجهر ، في جراثيم « الستربتكوكوس » و « الستافيلوكوكس » وغيرها

وكذلك انتهت المرحلة الأولى في هذا البحث الخطير الى توليد سلالة من البكتيريا تلتهم الجراثيم المرضية . ولكن ديبو لم يكتف بهذا . بل ذهب بهِ الظن الى انهُ لابدَّ واجدٌ في مصادر أخرى ، بكتيريا أخرى تشبه هذه البكتيريا التي استخلصها من التراب . ودلت امتحاناتهُ التالية على ان بعض البكتيريا التي في مياه المجاري وفي السماد الطبيعي يمكن تدريبها على مهاجمة الجراثيم المرضية والفتك بها .ولا يخفى ان للبكتيريا فعلاً كبيراً كذلك في صناعة الجبن فوجد ديبو في الجبن او في بعض أصنافهِ على الأقل أحد مصادر البكتيريا التي بحث عنها ، ولكن اعتماده الاول لا يزال على البكتيريا المستخرجة من التراب

واتجه همهُ في الفترة التالية ، الى استخراج المادة التي تمكن هذه البكتيريا من الفتك بالجراثيم ، لأن هذه البكتيريا لا اسنان لها ولا براثن تمزق بها أوصال أعدائها قبل هضمها ، وسلاحها انما هو سلاح كيميائي

فوضع بكتيريا التراب في محلول الحامض الايدروكلوريك ووضع المزيج في آلة طاردة[1] من المركز وبعد ما طُرد السائل وضعت المادة الجامدة المتبقية في الكحول فذاب جزءٌ منها

(١) مقلاعية : اقتراح سلامة موسى لان حركة الآلة الطاردة من المركز تشبه حركة المقلاع

بفعلهِ . وبعد الامتحان وجد ان هذا الجزءَ الذي ذاب في الكحول هو المادة التي تفتك بجراثيم الامراض . فدُعيت تيروثريسين Tyrothrycin ولكنها لم تكن مادة بسيطة التركيب، فأفضى البحث فيها الى انها مركبة من مادتين احداها دعيت تيروسيدين Tyrocidine وهي فعالة في قتل الجراثيم في أنابيب الاختبار ، والثانية دعيت غراميسيدين Gramicidin

إن شدة فعل الغراميسيدين لا تكاد تصدق . فاذا أضيف مقدار منهُ يبلغ سبعة أجزاء من الف مليون جزءٍ من الأوقية ، الى مستعمرة جراثيم ذات الرئة (نومونيا) او جراثيم « الستربتكوكس » الفائعة ، كان هذا المقدار اليسير كافياً للفتك بألف مليون جرثومةٍ منها في ساعتين. واذا حقنت مقادير يسيرة جدًّا منه في فراغ البطن في الفأر وقاه فعل عشرة آلاف جرعة من هذه الجراثيم الفتاكة لو حقنت في الموقع نفسه

وأتيحت للدكتور ديبو فرصة في سنة ١٩٤٠ لتجربة الغراميسيدين في الحيوانات العليا. وكانت هذه الحيوانات ست عشرة بقرة من مجموعة أبقار أحرزت أعلى جوائز المعارض الاميركية . وكانت هاته الابقار الست عشرة مصابة بحالة تدعى «ماستيتس» وهو التهاب في ضروعها يسببه ضرب من جراثيم « الستربتوكوكس » . ولما كان هذا المرض سريع الانتشار من بقرة الى بقرة ، فقد كانت الطريقة المتبعة في حصر وباء بقري من هذا القبيل ، هي عزل البقر المصاب وهذا عمل كبير النفقة على أصحاب البقر ولا سيما اذا كان القطيع قطيع بقر ممتاز. وجرب البيطريون السلفانيلاميد في علاج هذه الحالة ، فلم يصيبوا نجاحاً ، فالتفتوا الى ديبو وطلبوا منه تجربة الغراميسيدين ، فحقن الضروع المصابة بهِ فقضت على جراثيم الستربتوكوكس — وفي بعض الحالات كان القضاء على الجراثيم في خلال يومين — وشفيت اثنتا عشرة بقرة مما ألمَّ بها . وكانت النتيجة ان أربع أبقار فقط عزلت من القطيع بدلاً من ست عشرة بقرة

فتنبه الباحثون الطبيون الى هذا الكوكب الجديد الطالع في سماء الطب، والى ما ينطوي عليهِ استعماله من فائدة في علاج الناس . وكان الطبيبان رملكامب وكيفر — وهما اللذان عرضا نتائج بحثهما على كلية الجراحين الاميركية — في الطليعة . وقد أدرك هذان الطبيبان أنهما يستهلان بحثاً قد يعدل في منزلتهِ وشأنهِ ، التجارب الأولى بالسلفانيلاميد . فأقبلا على بحثهما في حيطة تامة

والغراميسيدين ليس دواءً عامًّا ناجعاً يشفي كل مرض . بل هو في بعض الاحوال سمٌّ ناقع اذا دخل مجرى الدم . ولا يصلح استعماله الآن الاّ استعمالاً محليًّا في تجويفات البدن كضرع البقرة وتجويف البطن في الفئران . ومع ذلك فان التجارب تبشر بمستقبل عظيم الشأن في شفاء الأوصاب

وقد عولج بهِ حتى كتابة المقال الأصلي في مجلة هاربر وهو الذي ننقل عنهُ — في اوائل سنة ١٩٤٢ — مائة مصاب اخفقت في علاجهم جميع أساليب العلاج الاخرى . ومن هذه الحالات حالة رجل مضت عليه خمس عشرة سنة وفي ساقه قرحة تنزُّ ولم ينجع في شفائها علاج ما . فلم تنقض ثلاثة اسابيع على معالجتها بالغراميسيدين حتى شفيت . ومنها حالة رجل اصيب بالامبيما وهي حالة تلي الاصابة بذات الرئة (النومونيا) ويتجمع فيها الصديد بين الأغشية التي تحيط بالرئة . وتعالج عادة بالجراحة فيشق الصدر ويزج أنبوب يستخرج بهِ الصديد المتجمع . وفي حالات متعددة من هـذا القبيل فتك الغراميسيدين بالجراثيم كما كان يفتك بهـا في أنبوب الاختبـار في مراحل البحث الأولى . وقد روى الدكتور رملـكامب أن جراحاً كثيرة تعج بالستافيلوكوك شفيت في أربع وعشرين ساعة ، وغيرها مما لم يشفَ بعلاج آخر شفي بهذا العلاج

***

هذه النتائج البـاهرة وغيرها وجّـهت النظر الى مادة اخرى جديدة استنبطت في العهد الأخير لمكافحة الجراثيم المرضية ، وهي المادة المستخرجة من العفن المعروف باسم بنيسيليوم Penicillium وهذا العفن موجود في الهواء والتراب، وتصله صلة القربى بالعفن الأخضر الذي يتكوَّن على الخبز القديم ويساعد في انضاج الجبن مثل جبن «روكفور» . فمن نحو اثنتي عشرة سنة ترك الاستاذ فلمنغ الانكليزي طبقاً فيهِ مزرعة بعض الجراثيم في الهواء الطلق ، فسقط على الطبق في اثناء تغيبه عفن من الهواء فلما عاد وجد الجراثيم ميتة جميعاً وان العفن كان سبب موتها . وبعد بحث دقيق استخرج المـادة الفعالة من العفن ودعاها بنيسيلين Penicillin . ومن نحو سنتين بدأ فريق من الباحثين في جامعـة اكسفورد يدرسون فعلهُ في العلاج فوجدوا انهُ فعال في عقل نمو « الستافيلوكوكس» و«الستربتوكوكس» عن النموّ ، ولو كان مقدار العقار يزيد على جزء من مليون جزء من المحلول . وكان المريض الاول الذي عولج به صبيًّـا مصاباً بجروح عفنة في فخذه الايمن نتيجة نزف في اثناء عملية جراحية فعولج الجرح العفن بالسلفابيريدين بغير نجاح ومضت حرارة الصبي متفاوتة بين درجة ٣٧ر١ و ٣٩ر٤ مئوية . فلما حقن البنيسيلين في الاوردة هبطت الحرارة وشفي الصبيُّ . وفي حالة أخرى أصيب طفل في الشهر السادس من عمره اصـابة صديدية في مجرى بوله فعولج بالبنيسيلين. إلاّ ان البنيسيلين مزج بقدر من بيكربونات الصودا لتعديل فعل احماض المعدة — وهي تحل البنيسيلين — فشفي الطفل

ولـكن الغراميسيدين أحظى بالعناية الآن من البنيسيلين . والانباء تترى من معاهد

الطب عن نتائج التجارب به وهي جميعاً تبعث على الرضا . فقد استعمل مثلاً في علاج حالات الالتهاب في التجاويف العظمية الانفية في عيادة مايو المشهورة وفي جامعة جنز هبكنز . ويلوح من تجارب سريرية اخرى انه قد يكون ناجعاً في مقاومة الاعراض الاولى من الزكام. وأطباء الجيش يجربونه الآن رذاذاً في الحلق لمنع التهاب الحلق والزكام . وقد اهتمت بهِ المجلات الطبية البريطانية المحترمة وطلبت الحكومة البريطانية ارسال مقدار منه لتجربته في طائفة من الاصابات العسكرية والمدنية

***

إلاّ ان الدكتور ديبو ، لا يعنى بالنواحي العلاجية من موضوع بحثه بقدر ما يعني بالمسائل الاساسية التي يثيرها هذا البحث . انهُ مثلاً لا يعرف الطريقة التي يؤثر بها الغراميسيدين في الجراثيم . وطريقة تأثير عقار ما في جراثيم مرض ما او طائفة من الأمراض ، من أهم المسائل التي يواجهها علماء الطب ، اذ كيف يتسنىَّ لهم النجاح في مكافحة العدوّ اذا كانوا لا يعرفون طبائعهُ وأساليبهُ

والدكتور ديبو يرى الآن ان مهمته الأولى هي السعي الى فهم طبائع الاحياء الدقيقة الفتاكة . واحدى الطرائق المتبعة هي الهجوم على هذه الاحياء بعقاقير معينة اي بأسلحة خاصة ثم ملاحظة تأثرها بها . والغراميسيدين في نظر ديبو هو احد هذه العقاقير او هذه الاسلحة. وهو عقار ذو شأن لأن طائفة كبيرة من الجراثيم تتأثر بهِ وتعنو لهُ . وهذا هو السبب الذي يحمل ديبو على الانصراف الآن عن النتائج السريرية التي أسفرت عنها التجارب في معهد مايو او مستشفيات ماستشوستس وجامعة جنز هوبكنز

فهو معنيّ الآن بالاشتراك مع الدكتور رولن هوتشكس Hotchkiss بدراسة كيمياء الغراميسيدين ، لانهُ لا يعرف الاّ يسيراً عن طبيعة تركيبه . وقد خرجا حتى الآن ببعض احكام عامة عن هذا التركيب . فهو مركب بروتيني ، ولكنّ ترتيب الذرّات في جزيئهِ لا يزال علمهُ محجوباً عنهما ولذلك يريان ان معرفة هذا الترتيب هي المشكلة الأولى التي تواجههما في هذا البحث الأساسي

فاذا حلت هذه المشكلة ، اتجها الى معرفة سرّ جرثومة ذات الرئة (النوموكوكس) وما فيها مما يجعلها فريسة سهلة لجزيء مركبٍ كمركب الغراميسيدين . فكل حقيقة جديدة عن افعال البكتيريا المعقدة قد تفضي الى فهم طبائعها وهذا لا بد منه في مكافحتها مكافحة ناجعة على اساس منتظم . وعندئذ يغدو مصير الكفاح ضد جراثيم المرض ، أمراً لاريب فيه والدكتور ديبو قائد في الجيش السائر الى هذا الهدف

برنامج مصر

الصحي في ربع القرن المقبل

للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك
استاذ علم الطفيليات بكلية الطب

١ — كلمة عامة

نرجو ان يكون برنامج مصر الصحي في ربع القرن القادم محققاً للهدف الذي ترمي اليه ادارات الصحة في البلاد الراقية . وهو ضمان أوفى درجة من الصحة في الوسع توفيرها للافراد والمجموع باتباع نظم ترمي الى رفع مستوى الصحة والعمل على التخلص من العوامل المسببة للمرض . وذلك بالعناية مادياً بجسم الانسان والنظر الى أي حد حققنا هذا الهدف في الماضي . وعهد انشاء اول ادارة صحية في مصر يرجع الى زمن بعيد فقد أنشئت سنة ١٨٨٢ وتولى الانكليز أمرها وكانت سياستهم موجهة الى وقاية اوربا من اوبئة الشرق الاقصى خصوصاً الكوليرا والطاعون باقامة حاجز صحي على حدود مصر الشرقية . وهذا بطبيعة الحال كان عملاً مفيداً لمصر ايضاً . واهتموا بمقاومة الاوبئة المحلية داخل الحدود المصرية على نظام أساسه عزل المصابين ومراقبة المخالطين حتى لا تتسع دائرة الوباء

ولم يوجه عمل جدي ما الى مقاومة سبب انتشار هذه الاوبئة . والحق يقال ان هذا كان عسيراً ولا يزال الى الآن عسيراً مع حالة القرى الفطرية من حيث المرافق الصحية . وعندما تسلم المصريون مصلحة الصحة في سنة ١٩٢٢ خطت خطوات واسعة في اسعاف المرضى بالعلاج بانشاء المستشفيات العامة ومستشفيات خاصة بامراض معينة كالدرن والامراض الزهرية والامراض المتوطنة وامراض الاطفال والجذام . وبدأت دراسة فنية : لمشكلة الامراض المتوطنة توطئة لاستئصالها بانشاء معهد فؤاد الاول للامراض المتوطنة وبذلت نشاطاً مشكوراً في العناية بالحوامل ورعاية الطفولة . واتسعت وسائل التشخيص المعملي وبدأت عملية تحضير اللقاحات والامصال

وهذا النظام نشأ وتدرج على أساس دفع غائلة الامراض وحماية المجموع من الاوبئة اذا تفشت ، وهو يشبه عملية الاسعاف عند شبوب النار . وقد سد حاجة ملحة . ولكن الوقاية خير من العلاج . فلو أحطنا جسم الانسان بالعناية ودبرنا له ما يلزمه من ضرورات الحياة اقامت

حاجتنا الى العناية بأغلبية سكان البلاد كرضى يصيب في المتوسط الفرد منهم أكثر من مرضين. فنسبة الوفيات في مصر استمرت حوالي ٢٦ في الالف من السكان من اول القرن الحالي الى الآن مع انها انخفضت في بلاد أخرى الى ١٠ في الألف . ومتوسط طول الحياة الذي يرجوه مولود في مصر يوم ولادته حوالي ٢٣ سنة بينما هو اليوم في اميركا ٦٩ سنة

﴿ الحد الصحي الادنى الذي يجب توفيره للعائلة ﴾ اتفقت آراء الخبراء الفنيين على ان الحد الادنى الواجب توفيره للعائلة هو ما يأتي :—

(١) مرافق صحية منزلية لكل عائلة (خصوصاً مرحاض صحي وازالة القاذورات). (٢) مورد مستقل للمياه الصالحة للشرب لكل عائلة . (٣) عدد من الغرف صالحة للسكن كاف للعائلة بمعدل غرفة لكل فردين ومكان صالح لتخزين المأكولات ومواد الوقود . (٤) العلاج والتمريض لأفراد العائلات الذين يدفعون أجراً للسكن أقل من معدل متفق عليه (ذوي الايراد المحدود) عدا قبولهم داخلياً في المستشفيات . (٥) ضمان الكفاف من العيش لكل عائلة بنظام التأمين والاعانة . ومن الأسف إن هذه الضرورات لا يكاد يكون لها وجود في محيط العائلات التي تقطن القرى المصرية التي يبلغ عددها ٤٠٠٠ قرية تضم حوالي ١٢٠٠٠٠٠٠ من الأنفس أي ثلاثة أرباع سكان المملكة المصرية . ففي هذه القرى نجد أن أثر مجهود الادارة الصحية محصور في تسجيل المواليد والوفيات والتطعيم ضد الجدري ويتولاه حلاق الصحة . ومقاومة الامراض المعدية بعزل المصابين ومراقبة المخالطين اذا زاد عدد الوفيات في القرية عن المتوسط المقرر . وعلى مقربة من بعض القرى مستشفى لعلاج او كل الأمراض

٢ — الادارة الصحية

﴿ اللامركزية والمركزية في تنفيذ البرنامج الصحي ﴾ النظام المتبع في مصر هو نظام المركزية في الاشراف على الصحة في جميع نواحي القطر . فتتركز ادارة الأوبئة في شخص مدير الأوبئة بالقاهرة ومساعديه . وكذلك ادارة المستشفيات من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب تتركز في ادارة خاصة بالمستشفيات في القاهرة . وهذا النظام إن دلَّ على شيء فهو يدل على قلة الثقة بقدرة الهيئات المحلية على الاشراف على هذه المنشآت ، وعلى رغبة الهيئات الرئيسية المركزية في الاحتفاظ بالسلطة كاملة في أيديهم، وقد تكون هناك بواعث أخرى . فادارة المستشفيات الحكومية أوفى كثيراً من ادارة المستشفيات التابعة لهيئات أخرى محلية كمجالس المديريات مثلاً . إلاّ ان هذا النظام يعيبه اشتغال الرؤساء بتفاصيل تافهة متعددة تذهب بأكثر وقتهم وتتركهم منهوكين لا يستطيعون التفكير الواسع النطاق في تدبير مشروعات عامة لها أثرها في تحسين الحالة . فمن أمثلة ذلك ان التصريح باجازة تتعدى يومين

لموظف صغير في أية جهة نائية من القطر يقتضي موافقة وكيل الوزارة !

فاذا أريد ان تشمل مساعي الادارة الصحية — كما يجب ان تكون — كلّ عائلة مصرية وكل منزل في القرى، كاد انجازه ان يكون مستحيلاً اذا استمرت المركزية على حالها تقبض على زمام السلطة في التافه والجليل من الامور . وقد دلت التجربة في البلاد التي بلغت شأواً بعيداً في العناية بصحة أفرادها على ان أساس الادارة الصحية الناجحة هو الثقة الى حدٍّ كبير بالهيئات المحلية كمجالس القرى حتى يتمكّن مَن بيده السلطة الصحية من التغلغل في أوساطها والالمام بالتفاصيل والبت فوراً في أمورها . ولو فرضنا جدلاً ان هذه الهيئات لا تصل بأعمالها غالباً الى الحد المرجو من الكفاءة ، فان هيئة محلية عاجزة خير من ادارة رئيسية تسير الاعمال فيها بطريقة آلية نظراً لتشعبها وتعقدها

﴿توحيد الهيئات المشرفة على تنفيذ أعمال صحية أو تعدُّدها﴾ النظام الحالي في مصر أدى الى تعدد الهيئات التي تتولى أعمالاً هي من صميم مهامّ السلطة الصحية . فهناك مستشفيات تابعة لمجالس المديريات بجانب أخرى تابعة لوزارة الاوقاف ، وهناك منشآت لرعاية الأمومة والطفولة تابعة لهيئات متعددة . كما أن وزارات كوزارة الاشغال تشرف على أعمال من صميم الاعمال الصحية الخاصة بالمجاري ونظافة الشوارع ، وهكذا

والخبرة في البلاد الأخرى تقطع بضرر هذا ، فقد قالت اللجنة الصحية الملكية البريطانية التي أنشئت لدراسة هذا الموضوع بالذات في تقريرها سنة ١٨٦٩ ما يأتي : —

« كل السلطة اللازمة لصحة مدينة أو منطقةٍ ما ، يجب أن تكون تحت تصرف سلطة واحدة ، ويجب أن لا تخلو منطقة ما من سلطة صحية مشرفة عليها ، ويجب أن لا يكون في منطقة ما أكثر من سلطة صحية واحدة

ويجب أن تنصرف السلطة الصحية للمملكة الى معالجة المسائل الكبرى وتتجنب المراجعة التفصيلية لأعمال السلطات المحلية ، ما دامت تؤدي النهاية الصغرى للاعمال الصحية الضرورية وذلك بتفتيش دوري على أعمال هذه السلطات

﴿ نوع السلطة المحلية الصحية الصالحة لمصر ﴾ تتبين مما سبق ان هناك ضرورة ملحة لانشاء سلطة صحية تتركز في يدها جميع الاعمال الصحية في كل منطقة . والآن علينا أن نقرر هل تكون هذه السلطة معينة أو منتخبة . . . وهل تكون المناطق ضيقة أو واسعة . والجواب عن هذه الأسئلة يتضح من دراسة التجارب التي مرت بها البلاد الأخرى ذات النظم المختلفة

ففي البلاد الديمقراطية كبلادنا حيث أساس الحكم فيها هو النظام النيابي ، يجب بالبداهة أن يتغلغل هذا النظام في شتى أنحاء البلاد . ونرى أنهُ بالفعل قد طبق في مجالس المديريات

والمجالس البلدية والمحلية. واذا أريد أن تتحمل السلطة الصحية المحلية النفقات اللازمة لاعمالها أو جانباً كبيراً منها فيحسن أن تكون هيئة منتخبة لها الحق في تقرير الضرائب في حدود معينة كما هو الحال الآن

ولا ننكر ان أعمال مجالس المديريات في مصر وفي البلاد الاخرى موضع انتقاد شديد من ناحية اهمالها ومحاباتها وقلة الحزم في ادارتها وسهولة انقيادها في بعض الشؤون

ولكن هذه المساوىء تافهة بجانب ما تحققه من الاصلاحات بمرور الايام وهو ما لا يمكن تحقيقه بواسطة ادارة مركزية . وفي مصر نفسها أمثلة عديدة على التقدم السريع الذي تم على يد هذه المجالس في عواصم المديريات وفي بلدية الاسكندرية، مع ما كيل لها من الاتهامات

أما النظام الآخر فيكون بتعيين طبيب صحي لكل منطقة تكون بيده السلطة الصحية المحلية في دائرة القوانين التي تصدرها السلطة الصحية الرئيسية والتي يخضع لتفتيشها . الا ان الدوائر الصحية الصغيرة تقع هيئتها المنتخبة تحت تأثير المنافسة والمجاملات في محيطها الضيق (كما هو الحال في المجالس القروية) وعلاوة على ذلك فهي بحكم ضآلة مواردها لا يمكنها استخدام الموظفين الاكفاء الذين يمكن الاعتماد عليهم ، ولا الانفاق على وجوه الاصلاح المطلوبة . وهذه المساوىء لوحظت بالفعل في بلاد عريقة في الحضارة والحياة النيابية كبريطانيا

لهذا نقترح ان تكون الدوائر الصحية أوسع نطاقاً من المجالس القروية حتى نتفادى هذه المساوىء فيكون تعداد الدائرة الواحدة حوالي ٣٠ الف نفس

وقد لوحظ في تحديد هذا العدد مقدرة طبيب الصحة، فهو يستطيع ان يتولى مع مساعديه، كمعاون الصحة وملاحظ النظافة ومفتش المأكولات، خدمة هذه المنطقة على أوفى وجه . وفي وسع هذه المنطقة ان تتحمل النفقات اللازمة لمثل هذه الادارة اذا قدمت لها معونة مالية لا ترهق خزانة الدولة . وتستطيع هذه المجالس ان تتولى شؤوناً محلية اخرى كالتعليم وانشاء الطرق وصيانتها ووسائل المواصلات وغيرها من الشؤون المحلية

﴿ ضمان تحسين صحة الفرد والمجموع على أساس هذا النظام ﴾ ان الطبيب الصحي وهو عماد هذا النظام ، يجب ان يكون اخصائيًّا في شؤون الصحة وان لا يمارس صناعة الطب للجمهور بأجر تفادياً من منافسته الأطباء الخصوصيين ، وضنًّا بجهوده التي يجب ان يقفها على تحسين الحالة الصحية في المنطقة . وهو يمثل وزير الصحة في منطقته وتنحصر جميع السلطة الصحية في يديه تحت اشراف الهيئة المنتخبة ورقابة وزارة الصحة الفنية ، ويعمل في حدود القوانين المعمول بها في البلاد . ويجب ان يكون غير متحيز في عمله ، وان يعمل على التخلص من كل عامل يضر بالصحة في منطقته

﴿ الوسائل المادية للمحافظة على صحة الفرد والمجموع ﴾ لا يتحقق هدف وزارة الصحة في تحسين صحة الافراد والمجموع ما لم يزود الجسم الانساني باحتياجاته المادية والمحافظة عليه من المؤثرات الخارجية الضارة بها . وعلى ما قدمنا يجب ان تخضع جميع هذه العوامل لسلطة محلية واحدة لا تتعدد . وقد أحصينا هذه الاحتياجات سابقاً وسنتكلم على كل منها باختصار

٣ — العوامل الصحية العامة

١ — مرافق صحية منزلية لكل عائلة خصوصاً مرحاض صحي وازالة الفضلات

هذه المشكلة حلت في بعض المدن الكبرى كالقاهرة والاسكندرية وطنطا وبور سعيد بانشاء نظام المجاري مع انه لم يشمل بعد جميع المنازل في هذه المدن . وحتى هذه المجاري لا تسلم من العيوب الصحية لانها غير خاضعة تماماً للرقابة الصحية . فجميع مشكلاتها والعقبات التي تعترضها تحل دائماً على حساب الناحية الصحية لأن القائمين عليها لا يعنون بهذه الأمور العناية الواجبة . ومن الغريب ان ادارات الحكومة المصرية لا تراعي قوانين البلاد الصحية. وليس هناك سبيل مجدٍ لحملها على النهوض بواجباتها الصحية . فالك بركة من الاهالي يمكن الزامه بردمها او تردم على حسابه وتحصل النفقات . ولكن برك الحكومة لا يمكن اتخاذ اجراء ما بشأنها ولو كانت مجاورة لبرك الاهالي . أما في القرى فلم يعمل شيء في سبيل تزويد المنازل بالمراحيض بعد . فقد دل الاحصاء في بعض القرى على ان ½ ٢ في المائة فقط من المنازل بها نوع من المرحاض . وبعض هذه المراحيض غير صحي . أما بقية المنازل فليس بها مراحيض ما ، فيتبرز السكان في حظيرة المواشي ، أو على الاسطح ويتبرز الاطفال في جوانب الطرقات

على ان هذه المشكلة ليست سهلة الحل. فالمرحاض الذي يفي بحاجات القروي المصري لم يوجد بعد . اذ ان عادته تختلف اختلافاً تامًّـا عن عادة القروي الاوربي الذي ننقل عن بلاده اكثر منشآتنا . فالاستنجاء متبع في الامم الاسلامية فيجعل مشكلة المراحيض مشكلة خاصة. وعلاوة على ذلك فان روث المواشي يكدّس على الارض حول السكان بالمنزل القروي ولم تحلّ بعد مشكلة عزل المواشي عن الآدميين مع ضرورتها . إلاّ انهُ قد بدأت أخيراً تجربة في هذا الباب على جانب كبير من خطر الشأن في منطقة كوم امبو وهي تبشر بنجاح باهر . ومن البديهي ان الاشراف على تزويد المنازل الريفية بنوع ما من المراحيض ورقابتها والعناية بها لا يمكن ان تتولاّها سلطة رئيسية مركزية

٢ — مورد مستقل للمياه الصالحة للشرب لكل عائلة

هذه مشكلة ثانية كبيرة الشأن لم تحل بعد؛ حيث يستقي أغلب سكان القرى من المياه الملوثة

من النهر والترع . وفي اثناء السدة الشتوية يقومون بتصفية الطين من قاع الترع للحصول على ما بهِ من المياه الآسنة ، وهي حال على أسوإ ما يمكن تصوره من الاستهتار بصحة الانسان . وما زالت الهيئات الرئيسية في مصر تتطاحن في مناقشة عنيفة حول تفضيل تعميم المشروعات الكبيرة لترشيح المياه وتوزيعها ، على مشروعات صغيرة يُستمد الماء بها ، من جوف الارض . مع أنهُ مما لا شك فيه لدى الجميع ان أيًّا من الطريقتين فيه الكفاية للتخلص من الحالة السيئة الحالية لمياه الشرب في مصر . ونحن في حاجة ملحة إلى سرعة التنفيذ

وهنا أيضاً قد انفلت هذا الامر من يد الادارة الصحية وتناوله المهندسون الذين يقومون على انشاء هذه المشروعات غير عابئين برأي الرجال الصحيين . وهو ما نبهت اليه اللجنة الملكية البريطانية في أواسط القرن الماضي من انهُ يجب تركيز جميع المرافق الصحية في أيدي رجال الصحة وان لا تتعدد السلطات المهيمنة عليها

وبالفعل أنشأت احدى الهيئات المحلية وهي مجلس مديرية القليوبية مشروعات قليلة النفقة وافية بالغرض في القرى مما يؤيد ما أسلفنا الاشارة اليه من تفضيل الهيئات المحلية على الهيئات المركزية وانها أقدر منها على الاصلاح

٣ — عدد من الغرف صالحة للسكنى كافٍ للعائلة بمعدل غرفة لكل شخصين

لا يكاد يكون هناك أثر لاشراف الهيئة الصحية على هذا الموضوع الهام لصحة الافراد والمجموع لا في المدن ولا في القرى المصرية . والاشراف الضئيل في القاهرة والاسكندرية يكاد يكون محصوراً في تخطيط الشوارع وما يسمونهُ (خط التنظيم) رغم ما تبينهُ الاحصاءات العامة من ان المساكن في المدن مكتظة بسكانها وقد تعيش عائلة بأسرها في غرفة واحدة مما لا يحدث ضرراً صحيًّا وحسب ، بل أضراراً اخلاقية بالغة

وهذا العامل الفعال في صحة أفراد الشعب المصري غير خاضع في البلاد الكبيرة للهيئة الصحية . وعدا ذلك فنظافة هذه المنازل من قمامتها ومن قمامة الأزقة والشوارع — وهي من أهم الاعمال التي يعني بها رجال الصحة في البلاد الراقية لعلاقتها بانتشار الذباب ونقل شتى الامراض — لا تدخل في دائرة الاشراف الصحي في مصر ولا أثر للعناية بها في القرى المصرية بل الاهتمام بالقمامة في القرى عمل لا وجود له أصلاً

٤ — العلاج والتمريض لغير القادرين

هذا الموضوع هو محل عناية القائمين على الصحة في مصر . وفي هذا المضمار أصابوا نجاحاً لا بأس بهِ فكثرت معاهد العلاج المختلفة في جهات البلاد المتعددة . ولكنها لا تكفي للعدد الوافر من المرضى وهو راجع الى سوء الحالة الصحية في البلاد وشدة الاقبال على المستشفيات

قلل من فائدتها . إذ ان الطبيب الواحد يفحص ويعالج مئات من المرضى في ساعات العمل المحدودة وهي التي لاتتعدى خمس ساعات . فأدى ذلك الى الاهمال الشديد والفحص السطحي

ومما زاد في الطين بلة أنْ تزاحم على أبواب هذه المستشفيات الاغنياء والفقراء وتمكن الأغنياء بما لهم من نفوذ ووساطات من الظفر بعناية لا بأس بها على حساب الفقراء

٥ — ضمان الكفاف من العيش لكل عائلة بنظام التأمين او الاعانة

ان العناية بالآلة الجثمانية للانسان وتزويدها بما يلزمها من وقود (أي غذاء) والتخلص من فضلاتها والمحافظة عليها من المؤثرات الخارجية ، وتوفير ما يلزم لها من ملبس ومسكن ضروريين لسلامتها وتمتعها بالصحة ، والنفقات اللازمة لذلك (وهو ما نعدُّه الكفاف) يجب ان تضمنها الدولة بواسطة ادارتها الصحية ، وهي متروكة الآن للصدف وعناية الاقارب بفقرائهم ، والى شعور المحسنين . وحرام ان يُترك حبل حياة الأفراد على الغارب

وظاهر من الحالة في مصر ان هذا الحد الأدنى لا تحصل عليه نسبة لا يستهان بها من السكان لقلة أجور اليد العاملة وكثرة أفراد العائلات التي يعولها القادرون على الكسب وعدم توفر العمل في سائر أيام السنة وعدم وجود مدخرات مالية لمفاجآت المرض او الحوادث

وقد تركت مسألة الأجور خاضعة لنظام العرض والطلب ، وهو نظام يؤدي في الاماكن المكتظة الى هبوط أجور العمال عن الحد الادنى اللازم لتدبير ضرورات المعيشة

وقد قاوم الرأسماليون كثيراً تحت ستار (حرية السوق) تدخل الهيئات التشريعية في تقرير حد أدنى للاجور وتأمين الطبقات العاملة ضد العوض وضد البطالة على حساب الخزانة العامة . ولكن في العصر الاخير تغلبت النظرية الانسانية ورجحت كفة الانصاف للطبقات العاملة من الرأسمالية اذ ثبت ان في السوق الحرة لا رحمة للضعيف . وقد حدث هذا لاول مرة منذ عهد قريب في مصر . فقرر رئيس مجلس الوزراء ان لا يقل أجر العامل في خدمة الحكومة عن خمسة قروش صاغ في اليوم ، ونصح الهيئات الاخرى باتباع ذلك . وهذا العمل يعود بالفائدة الكبرى على الرأسماليين أنفسهم بمنع الانقلابات الاجتماعية العنيفة التي تنتج حتماً عن سوء حالة الطبقات العاملة

واننا لنطلب المستحيل من المعوزين والفقراء عندما نطالبهم بالمحافظة على صحتهم بالنظافة والتغذية الضرورية والسكن في أماكن ملاءمة . فليس في مقدورهم مطلقاً التغلب على العوامل السيئة التي تحيط بهم.

وقد ثبت ان الفاقة تؤدي الى المرض بطريق مباشر او غير مباشر في ٣٠ في المائة من الحالات ، كما دلت الاحصاءات في كثير من البلاد على ان المرض من أهم أسباب الفاقة .

فقد بلغت ٦٠ في المائة في بعضها ، عدا أثر المرض في تسبيب الفاقة لافراد العائلة التي مرض عائلها . والفقر يدعو الى استغلال الاطفال في العمل في سن مبكر فينشأون ضعافاً وتتفاقم حالتهم الصحية

وقد كان اول عمل صحي في تاريخ المدنيات هو العناية بالفقراء ورعايتهم منذ أقدم العهود وما زلنا نرى في بلادنا هذه اثر التكايا والملاجىء والأسبلة والاوقاف الخيرية . وذلك قبل ان تعرف مصر أي نوع من الادارة الصحية

ان للرجل القادر على العمل، حقاً في الحصول على الكفاف من العيش لهُ ولعائلته مادام على استعداد تام للعمل . فاذا لم يجد عملاً وجب على الدولة ان تعولهُ هو وعائلته ولكنها يجب أن لا تشجعه على البطالة فعليها أن تعطيه اقل قليلاً من اجره اليومي اذا تعطل عن العمل

وقد حلت هذه المشكلات في البلاد الاخرى بطرق شتى من السهل اقتباسها بعد جعلها ملائمة للبيئة المصرية فمن هذه الحلول

(١) التأمين ضد البطالة

(٢) اعانة غير القادرين على العمل من الرجال وايواؤهم واعانة النساء والاطفال الذين لا عائل لهم وايواؤهم

(٣) التأمين العلاجي لكل شخص يقل دخلهُ عن رقم محدد

(٤) معاشات للشيوخ يتناولها كل رجل وامرأة جاوز الستين من العمر اذا لم يكن لهُ ايراد كافٍ

(٥) نشر الصناعات المنزلية في البيئات الزراعية التي لا يتوافر فيها العمل على مدار السنة

ومما هو جدير بالذكر ان وزارة الشئون الاجتماعية قد بدأت بداية طيبة في معالجة هذه المشكلة الصحية من أساسها في القرية المصرية . مستعينة على ذلك بالتعاون والتبرع والمساعدة الحكومية وتبشر هذه الاعمال بنتيجة مرضية

ونلاحظ ان هذه المساعي المبذولة هي من صميم الاعمال الصحية وها هي ذي ايضاً تتولاّها هيئة غير الهيئة الصحية المختصة

ومن الخير كما قدمنا ان تتوحد هذه المساعي تحت ادارة هيئة صحية محلية وان تكون وزارة الشئون الاجتماعية جزءًا هامًّا من وزارة الصحة كما يجب ان يُضم الى وزارة الصحة ايضاً الجزء الاكبر من وزارة الاوقاف وهو الخاص بالاوقاف الخيرية ليكون نواة للاموال التي تخصص لاعانة الفقراء كما قصد الواقفون . لان هذه الهيئات الثلاث تعنى بسد الحاجات المادية الضرورية لجسم الافراد وما يتعلق بذلك عن قرب



تنظيم البحث العلمي

وأثره في تطور المجتمع (١)

للدكتور علي مصطفى مشرفة بك
عميد كلية العلوم

هذا اذن ملخص ما يكون عليه تنظيم البحث العلمي في دائرته البحتة او الاكاديمية ومنه ترون اننا قد خطونا خطوات محسوسة في هذا الميدان . فالبحوث العلمية البحتة قائمة فعلاً يتولاها علماؤنا في الجامعة وخارج الجامعة وينشرونها في مجلات اجنبية او محلية . فاذا نحن نظرنا الى البحوث التطبيقية رأينا صورة تختلف عن هذه الصورة . فكمية البحث التطبيقي في مصر ضئيلة لا تكاد تذكر والمجال أوسع للخلق والاستحداث . فالبحث الصناعي مثلاً يكاد يكون منعدماً . حقيقة هناك بحوث في الناحية الزراعية تقوم عليها بعض أقسام وزارة الزراعة والجمعية الزراعية الملكية وهذه لها قيمتها وأثرها في تقدم الزراعة في مصر . وهناك كذلك بحوث تطبيقية ينهض بها بعض الافراد والهيئات داخل الجامعة وخارجها الا ان هذه جميعاً لا تزال في حاجة الى كثير من التوجيه والتنظيم كما انها في حاجة الى ان تتصل بالبحوث العلمية البحتة . اما في الناحية الصناعية فان مشكلاتنا الصناعية لا تكاد تلقى عناية تذكر . خذوا مثلاً صناعة التعدين . انكم تعلمون ان الشركات التي تتولى البحث عن المعادن بما في ذلك «البترول» في مصر تنفق أموالاً طائلة على البحث الصناعي المحلي ولولا ذلك لما اهتدت هذه الشركات الى اماكن استخراج «البترول» والمعادن الاخرى . أفما كان الأولى ان نقوم نحن بالبحث عن هذه المعادن في صحرائنا وان نخصص الميزانية اللازمة لذلك . ان البحث عن المعادن يقوم على اساس علمي من التجارب وله طرائق خاصة ليست سراً على رجال العلم بل ان بيننا اليوم من يستطيعون ان ينبئونا بهذه الطرائق وان يصفوها لنا وان يلقوا علينا المحاضرات في هذا الموضوع . ولا تتطلب عمليات البحث مؤهلات علمية عالية وانما تتطلب شيئاً من بعد النظر ومن التنظيم . وفي رأيي انه يجب ان يكون لنا سياسة ثابتة في صناعة التعدين تقتضي تخصيص اموال في ميزانية الدولة للبحث العلمي عن معادننا وما اختبأ في

(١) نشرنا الجانب الاول من هذه المحاضرة في مقتطف يونيو ١٩٤٢

جوف الارض من ثروتنا الاقتصادية . واذا كان صرف الاموال في هذا البحث يستحق ان يعمل في نظر شركات تأتينا من بعيد لهذا الغرض ، فانه يجب ان يكون اكثر استحقاقاً في نظرنا نحن أهل البلاد . ولا يمكن ان توصف سياسة ترك البحث عن معادننا لهيئات اجنبية الاّ بأنها قصيرة النظر . فكل قرش يصرف في هذا البحث يعود الى صاحبه اضعافاً مضاعفة . كذلك انظروا الى العمليات المختلفة التي تدخل في صناعتنا . ان كل عملية صناعية خاضعة لتطور مستمر كنتيجة للبحث الصناعي . فأين الباحثون وأين الأموال المخصصة للبحث ؟

قلت ان أمامنا ثلاث مسائل الاولى مسألة البحث العلمي البحت وقد فرغنا منها والثانية مسألة البحث العلمي التطبيقي او الصناعي . والثالثة تنظيم العلاقة بين هذين النوعين من البحوث . والنظر في المسألة الثانية يقترن بالنظر في المسألة الثالثة . فالبحث العلمي التطبيقي أساسه البحث العلمي البحت كما قدمت واذن فلكي ننظم البحث التطبيقي واجب علينا ان نبني هذا التنظيم على البحوث العلمية البحتة . ولكي نستنير في ذلك بما هو حادث عند غيرنا من الامم سأصف لكم بايجاز كيفية تنظيم البحوث الصناعية في البلاد الأخرى

فأول ما نشاهده وجود مؤسسات تعنى بما يصح ان نسميه المعايير العلمية للصناعة . ففي كل صناعة معايير متفق عليها لقياس الصفات والخواص الرئيسية للمصنوعات والعمليات الصناعية وعلى الدولة ان تحدد المعايير التي تقاس بها هذه الصفات وان يكون لديها من الوسائل ما يمكنها من اجراء عمليات القياس والمقارنة التي تقتضيها القوانين الصناعية. ومن هذه المعايير ما هو اساسي وبسيط كمقاييس الطول ومكاييل الحجم ومنها ما هو معقد كقياس قدرة آلة ذات محرك داخلي او كتقدير قدرة انارة مصباح . وفي العصور الماضية كان الامر لا يقتضي اكثر من اختبار مقاييس الطول ومكاييل الحجم وصنج الوزن مع مراقبة الفلزات الغالية الثمن كالذهب والفضة وتمغها بخاتم خاص . هذا ما كان عليه الحال في القرون الوسطى وهذا هو تقريباً الحال في مصر اليوم . فاذا صنع ترمومتر في مصر وأراد أحد أن يعلم هل كانت عملية تدريجه صحيحة لم نجد معهداً معترفاً به من الدولة يستطيع ان يفتينا في الأمر . واذا أريد قياس قدرة محرك كهربائي — والتعبير عن ذلك بالوحدات الدولية المصطلح عليها — عجزت نظمنا عن ذلك واعتمدنا على تقدير غيرنا فصرنا تحت رحمتهم والامثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة

وفي اميركا معهد يسمى المعهد الاهلي للمعايير National Bureau of Standards بمدينة واشنجتون يتولى ضبط وقياس كل ما تحتاج اليه الصناعات من أقيسة وضوابط . وفي انكلترا معمل الطبيعة الاهلي National Physical Laboratory بلدة Feddington

القريبة من لندن وفي هذا العمل الحكومي يقوم علماء متخصصون باجراء جميع العمليات المرتبطة بضوابط الصناعة . والقوانين الوضعية الصناعية في كل من انكلترا واميركا دقيقة وصارمة. واغلب الظن عندي ان وزارة التجارة والصناعة في مصر قد بدأت تشعر بالحاجة الى معهد من النوع الذي أشرت اليهِ يقوم بمساعدتها وشد ازرها في مهمتها . فالتقدم الصناعي أساسه الضبط والاحكام وقبل ان يتيسر البحث فيما هو مجهول يجب ان نحدد ونضبط ما هو معلوم والاّ نشأت الفوضى واختلت المعايير وضاع القسطاس المستقيم . فالعلم أيها السادة هو قبل كل شيءٍ أمرٌ كميّ أساسه القياس والعدد وقياس أبسط الاشياء يحتاج الى معيار ثابت يقاس به وتجدون نتائج الفوضى في القياس بادية في حياتنا التجارية. فالاردب يجوز ان يكون ١٢ كيلة او ١٣ كيلة والذراع قد يكون بلديًّا او معماريًّا والطونولاته اما ان تكون ٢٠ قنطاراً وإما ٢٢ قنطاراً وهي في الواقع ليست أحدهما. اما في درجات الحرارة وقدرة المحركات وانارة المصابيح فأمرها بيد غيرنا

ولا يقتصر عمل معهد المعايير على الصناعة وحدها بل يسدي خدمات جليلة في ميدان البحث العلمي والبحث التطبيقي . فالعالم في معمله كثيراً ما يلجأ الى معهد المعايير لضبط أجهزته والاته . ويقدم المعهد شهادة عن كل آلة تعرض عليهِ يبين فيها درجة دقتها وما يلزمها ١
من تصحيح في قراءتها هذا اذا كانت الآلة قريبة قرباً كافياً من الدقة المنشودة . اما اذا كان صنعها رديئاً وكانت بعيدة عن الدقة فان المعهد يكتفي برفضها . فكل من البحث العلمي البحت والبحث العلمي التطبيقي في حاجة الى معهد المعايير الذي يمكن عدُّهُ ضابطاً لا غنى عنهُ

قلت ان البحث الصناعي أساسه البحث العلمي البحت او هما امران مرتبطان ولكي تنشأ الصلة ويحقق التعاون المنشود بينهما يجب ان يكون لدينا اداة صالحة لهذا الغرض ومن حسن الحظ ان خطوة جدية قد خطيت في هذا السبيل . فمنذ أمد قصير صدر مرسوم بانشاء معهد للبحوث العلمية والصناعية تخليداً لذكرى المغفور له فؤاد الأول ملك مصر واعترافاً بفضله على العلم والبحث العلمي . وانشاء هذا المعهد في نظري عمل من أجل الاعمال وسيكون له اذا وجه توجيهاً صحيحاً أبلغ الأثر في تقدمنا العلمي والصناعي معاً . والفكرة الرئيسية في انشاء هذا المعهد ان يكون همزة الوصل بين العلم والصناعة . فشباننا الذين يدرسون العلوم في تعليمهم العالي ويحصلون على الدبلومات والدرجات الجامعية يوجَّـه القادرون منهم نحو البحث الصناعي وبذلك ننشئ جيلاً جديداً من المتخصصين الأكفاء الذين يجمعون بين الاعداد العلمي الصحيح والخبرة الفنية العالية . ولعلكم تذكرون حاجتنا المتكررة الى خبراء أجانب في كل ميدان من ميادين التخصص العملي كدبغ الجلود وصناعة الزجاج وصناعة الورق وغيرها وغيرها . هؤلاء

الخبراء انما نشأوا كما ينشأ شباننا في التعليم العالي ثم اتجهوا بعد ذلك الى التطبيق العملي في فروعه المختلفة فاكتسبوا الخبرة التي يمتازون بها . ومن المهم انّ نلاحظ ان خبير الأمس لا يصلح اليوم إلاّ اذا هو تابع حركة التقدم في الفرع الذي تخصص فيه ، فالجهود الصناعي في العالم في تطور مستمر

وكما ان تقدم العلم أساسه البحث كذلك تقدم الصناعة أساسهُ البحث أيضاً . ومن الخطإ كل الخطإ ان نظن ان في استطاعتنا الاعتماد على غيرنا في حل مسائلنا الفنية الصناعية. صحيح أننا نستطيع ان ننقل عن غيرنا كثيراً من أصول الفن والصناعة ولكن المسائل الصناعية التي تنشأ عندنا والتي تتطلب الحل لامفر من الاعتماد فيها على عملنا نحن. فالظروف تتغير من بلد الى آخر ونتائج البحث الصناعي ليست كنتائج البحث العلمي الأكاديمي منشورة للجميع مباحة لكل طالب ، بل انها تحاط بسياج من التكتم فاذا نجحت وصار لها قيمة اقتصادية أحيطت بسياج من الحقوق القانونية. وكثير من مسائلنا الصناعية خاص بنا كاستخراج الثروة المعدنية الذي يرتبط بجيولوجية أرضنا وكصناعاتنا الزراعية التي ترتبط بأنواع محاصيلنا وبأحوالنا الاقتصادية

ويمكن البدء في تحقيق هذا الغرض بدءًا متواضعاً بتخصيص مبلغ غير كبير من المال يرصد ريعه على البحث الصناعي . فالشباب بعد ان يتم تعليمه العالي يوجه نحو البحث الصناعي في معمل خاص او في معاملنا الحالية يرشده في ذلك أساتذة متخصصون واذا نجحت هذه التجربة واقتنع أرباب الصناعات بفائدة هذه البحوث أمكن تخصيص مبلغ أكبر لهذا الغرض. وتدل المعلومات التي وصلت اليَّ على ان أرباب الصناعات في مصر لا ينقصهم قدرُ فائدة البحث العلمي ونفعه لصناعاتهم ، وفي أوربا وأميركا يخصص أربابُ الصناعات مبالغ طائلة للبحوث الصناعية لاقتناعهم بفائدتها بل ان بعضهم ليخصص أمواله للبحوث العلمية البحتة لاقتناعهم بأن تقدم العلوم البحتة هو أساس التقدم الصناعي . فمثلاً نجد السير الفرد يارو وهو قطب من أقطاب الصناعات في انكلترا يمنح الجمعية الملكية في لندن مبلغ مائة الف جنيه ليصرف ريعه في البحث العلمي البحت

ولما كان معهد البحوث كما قدمت همزة الوصل بين العلم والصناعة وجب ان يمثل في مجلسه رجال العلم ورجال الصناعة معاً ليتبادلوا الرأي في توجيه البحوث الصناعية على أساس من العلم الصحيح . ومن الأمور التي تجب مراعاتها ان يكون توجيه البحث على أساس حر طليق بحيث يترك للباحث فرصة كاملة لاظهار شخصيته ومواهبه . فالحرية أساس كل نجاح في البحوث العلمية والتقييد قاتل لملكة الابتكار والبحث العلمي ليس أمراً ميكانيكيًّا بل كثيراً ما يتجه

البحث بالباحث الى نواحٍ غير منتظرة . فهناك شيء من الوحي او الالهام يحل بالبشر كلما طلبوا الحقيقة وما قد يظهر للرجل العادي عبثاً غير منتج قد يكون في نظر الباحث المتخصص مجهوداً هامًّا بل ان عنصر المصادفة لهُ شأن كبير في كل من البحوث العلمية والصناعية والشيء الذي يجب ان نستوثق منه هو حسن اختيار الباحث وضمان شغفه ببحثه وقدرته عليه وجده فيه . كما يجب علينا أيضاً ان نحدث شيئاً من التوازن في توجيه البحوث بين الناحية البحتة الأكاديمية التي تطلب المعرفة لذاتها والناحية التطبيقية التي ترمي الى الفائدة العملية . فمعهد البحوث يجب ان يقدر كلاًّ من هاتين الناحيتين حق قدرها وألاّ يسمح لاحداها بأن تطغى على الاخرى والشباب يجب ان يخير بين الاتجاهين وان يشجع في كل منهما ما دام قادراً وموفقاً

***

أشرت في أول حديثي الى التفكير البشري وانهُ يقوم بدور هام في حياتنا العلمية والعملية. وتنظيم البحث العلمي انما هو تنظيم لناحية هامة من تفكير المجتمع وربما كانت أساس كل تقدم حقيقي للبشر . والتفكير في كل أمة هو مظهر حيويتها وعنوان رقيها ، فالأمم الجاهلة المتأخرة لا تعنى بأمر الفكر وانما يعنيها من الحياة أمور مادية ملموسة ترتبط بحياة الفرد ، ثم اذا هي فكرت فانما تفكر كأفراد متفرقين متباعدين لذلك يكون التفكير عقيماً ويبقى ذكر الأمة خاملاً . والأمم الجاهلة المتأخرة يكون تراثها الفكري الخرافة والاساطير لا تمت الى الحقيقة الواقعة بسبب، ثم اذا ارتقت الأمة سلّم الحضارة ارتقى الفكر فيها وتحول من دور الفرد الى دور الجماعة وارتبط بالحق وبالواقع فزالت الخرافة وأُحلّت الاساطير محلها الطبيعي فصارت أدباً شعبيًّا او اكتسبت رونقاً من العاطفة والجمال . ومن أهم مظاهر ارتقاء الفكر في أمة انشاء الجماعات والهيئات التي تعمل على تبادل الرأي وتوجيه الفكر . والبحث والاستقصاء لازمان من لوازم التفكير المنتج. وفي رأيي انهُ لا يمكن تصور الفكر غير مقترن بالبحث الاّ ان يكون فكراً منحلاً مضمحلاًّ . وكل أمة هجرت البحث مقضي عليها بزوال التفكير المنتج فيها

أردت ان أسجل هذه المعاني على بساطتها لما لها من ارتباط وثيق بموضوع تنظيم البحث العلمي وأثره في تطور المجتمع فمن السهل على كل انسان ان يدرك ما للبحث العلمي من آثار مادية ملموسة ومن الميسور لي ولغيري ذكر النواحي المختلفة لمجتمعنا المصري التي تتأثر بتقدم البحوث العلمية وتفتقر اليها ، فصحة المجتمع وهي رأس ماله في حاجة الى تقدم البحث العلمي لا من ناحية علاج الامراض فحسب بل من ناحية وقاية المجتمع منها ومنع تفشيها

كذلك . وحياة الامة الاقتصادية مبنية على التقدم الزراعي والصناعي وأمامنا اليوم من المشكلات في هاتين الناحيتين ما يتطلب منا كل جهد في البحث والتطبيق فمن استخراج واستغلال لثروتنا المعدنية الى تدعيم لصناعاتنا ورفع لمستوى معيشتنا الى تنظيم لزرع حاصلاتنا ونقلها وعرضها وحفظها الى كثير غير ذلك مما أترك استنباطه لحضراتكم . كذلك الدفاع عن الامة وتنظيم جيشها وقوة طيرانها وأسطولها . فالحرب اليوم قد تحوَّل الى مسابقة بين الدول في تحسين آلات الهجوم وآلات الدفاع وهنا لا مفرَّ لكل أمة من الاعتماد على قرائح أبنائها إذ ان أسرار التقدم الحربي مما لا يجوز فيهِ القرض ولا النقل حتى ولا في وقت السلم . وكذلك مرافقنا الأخرى من بناء وتشييد لقناطر وخزانات ومن استخدام للوقود والحصول عليه من منتجاتنا المعدنية والزراعية الى غير ذلك من كل ما يرتبط بتطور المجتمع وقوته ورفاهيته . فهذه جميعاً أمور تحتاج الى بحث وتنقيب لكي نهتدي الى خير الوسائل ولكي نحقق ما نرمي اليه من أغراض

أقول من السهل على كل انسان ان يدرك ما للبحث العلمي من هذه الآثار المادية الملموسة ولذلك لا أطيل الكلام في تعدادها وتفصيل نواحيها ولكن الأمر الذي أريد ان أوجه النظر اليه هو ان بعضنا بل الكثيرين منا وهم متعلمون مثقفون يدركون هذه الحقائق الملموسة ومع ذلك فهم ينظرون اليها نظرة ضيقة مجردة عن العمق وبعد النظر . يريد هؤلاء القوم منا ان نكون عمليين كما يقولون ويقصدون بذلك ان نحصر همنا في المرحلة الأخيرة من مراحل التقدم وهي المرحلة التي يترجم فيها الفكر الى مادة ملموسة فالمادة هي كل شيء في نظرهم وليست هذه النزعة غريبة على غيرنا من الامم فهي نزعة الرجل العادي عديم البصيرة وهي نزعة فطرية في البشر جميعاً في المراحل الاولى لتطورهم . أذكر ان احد مفكري الانجليز ولعله رديارد كيبلنج الشاعر المعروف حاول مرة في محاضرة له على طلبة جامعة سانت اندروز باسكتلاندا ان يفسر هذه النزعة المادية في البشر فحكى الحكاية الآتية . قال : حدث ان الجد الأكبر لقبيلة القردة التي انحدر عنها البشر وكان يعيش في الحراج والادغال ويتخذ لنفسه ولأسرته مكاناً في أعلى شجرة ، حدث لهذا القرد انهُ كان يقفز من فرع الى فرع من فروع الشجرة فانزلقت قدمه وكاد يهوي الى الارض فاعتصم بأن قبض بيده على فرع متين من فروع شجرته وبذلك نجا من السقوط . فهذه القبضة باليد على شيء مادي هو فرع الشجرة ، هذه القبضة المنقذة من الهلاك هي منشأ تعلق البشر بالمادة الجامدة الملموسة المنقذة . هذه حكاية طريفة اخترعها عقل هذا المفكر ولكنها ذات مغزى عميق فالتعلق بالمادة غريزة بشرية متأصلة في النفس ولكنها منحدرة عن حياة القردة . ولست اريد ان اقلل من شأن المادة

اذ هي اللغة الأخيرة التي يترجم اليها كل رقي وكل تقدم المجتمع ولكن علينا ألاّ ننسى انها حلقة أخيرة في سلسلة متصلة تبدأ بالفكر المجرد وتنتهي بالفكر المتصل بالحقيقة الواقعة أو بعبارة اخرى تبدأ بالبحث العلمي البحت ثم تتعدى نطاقهُ الى البحث العلمي التطبيقي الى ان تصل الى دور التنفيذ المادي . والشيء الذي يريده هؤلاء العمليون منا هو ان نأتي بمعجزة فنرقى دون سلم ونصل الى الغاية دون ان نبدأ . هم يريدون النتائج بغير الاسباب . وقد جعل الله لكل شيء سبباً . فنحن في مصر اذا اردنا ان تكون لنا الرفاهية المادية التي لغيرنا وجب علينا ان نبدأ حيث بدأ غيرنا وان نسلك السبيل الوحيد الذي يؤدي الى القوة والرفاهية المادية وهذا السبيل يبدأ بالفكر ويبنى على البحث العلمي البحت والتطبيقي

وقد يقال اننا نستطيع ان نختصر السبيل فنترك لغيرنا من الامم مشقة البحث والتفكير حتى اذا هداهم بحثهم الى نتائج عملية نقلنا عنهم هذه النتائج نقلاً . او بعبارة أخرى علينا ان نترك غيرنا يعمل وينتج وان نستفيد نحن من عمله وانتاجه . ولا يمكن ان يقول بذلك الاّ ذو غفلة كسول فالناس لا تشقى وتكد ليتمتع غيرها بثمار عملها والكسل والاحجام لا يقترنان الاّ بالذل والحرمان . والامة التي تنتظر فتات الخبز من مائدة غيرها في معركة الحياة الدولية مقضي عليها بالزوال

حدّثني كبير ممن خبروا حياتنا العامة : قال : انهُ يقدر ان ٨٠ ٪ من المجهود الفكري للمصريين محصور في دائرة السياسة الحزبية ومع اعترافنا بمقام التفكير السياسي في حياة الامة الاّ انهذه النسبة نسبة عالية بلا مسوّغ . فالتفكير السياسي وحده لايستطيع ان يحول امة جاهلة الى امة متعلمة ولا اجساماً عليلة الى اجسام صحيحة ، والسياسة يجب ان ترتكز على أساس ايجابي من العمل المنتج . لذلك يجب علينا ان نوجه عقول الامة نحو ميادين البحث النظم وان نشجع كل انتاج في ميدان العلوم البحتة والتطبيقية تشجيعاً ماديًّا وأدبيًّا لكي يستفيد المجتمع اكبر فائدة ممكنة من مواهب أبنائهِ ولكي يحدث توازن بين النواحي المختلفة لتفكيرنا فلا تطغى ناحية على غيرها

***

وخلاصة القول اننا اذا شئنا لمجتمعنا المصري قوة وتقدماً فان علينا ان ننظم البحوث العلمية البحتة والتطبيقية وعلى الدولة ان تختط لنفسها سياسة ثابتة في تشجيع البحث والباحثين وعلى ذوي المواهب منا ان يوجهوا جهودهم في هذا السبيل الذي هو سبيل المجد والحياة والرفعة والسلام

الاعواض

او المواد الاولية بين الطبيعة والمصنع

لامين ابرهيم كحيل
كبير مفتشي العلوم الكيميائية بوزارة المعارف

إن مقام الامة الصناعي والتجاري مرتبط بمبلغ تقدمها العلمي . ويتبع انتشار الصناعة ورواج التجارة ما تتمتع به الامة من عزة وترف . هذه هي روح العالم الآن ولا محيص عنها لامة تكافح في سبيل البقاء والاستمتاع بالحياة وبالحرية . اذ لا بد لها من أساس متين من العلم والعلماء الذين ينقطعون للبحث في كشف اسرار الطبيعة وخفاياها وتفهم نظامها وقوانينها. وكشوفهم هذه تغذي المخترعين وهم الطبقة الثانية من العلماء ومهمتهم الانتفاع بما يكشفهُ البحاثون . وبذلك تنتقل ثمار البحوث الى دور الصناعة وتخرج منها في صور شتى من الآلات والمرافق وكل ما ينفع الناس في غدوّهم ورواحهم ومأكلهم وملبسهم ومسكنهم — في عملهم ونزهتهم وفي صحتهم ومرضهم في أوقات السلم والحرب على السواء . هكذا تقدم العالم وتطورت طرق المعيشة وعلى هذا الاساس بنيت المدنية الحديثة بخيرها وبما فيها من شرور، وأصبحنا بحكم وجودنا في هذا العصر الآليّ مطالبين بأن نعمل فيهِ وله والاّ عددنا من الامم المتأخرة المنبوذة

ولكي تزدهر الصناعة لا بد لها من توافر الخامات او ما يعبرون عنهُ بالمواد الاولية وما دامت التجارة حرة فلا يروج فيها الاّ ما يجمع بين اتقان الصنع ورخص الثمن

***

فالتقدم العلمي وتوافر المواد الاولية هما العاملان الأساسيان في تفوق الامم ورفاهيتها وأمنها في أيام السلم كما انهما العاملان الاساسيان في قوتها الحربية زمن الحرب وبخاصة الحرب الحديثة الحالية وقوامها الآلات السريعة الحركة والمفرقعات الشديدة الفتك . ولكل من هذين العنصرين الجوهريين في الحروب مواد اولية تسعى كل من الدول المتحاربة في سبيل

الحصول عليها وتعمل على توافرها لديها بالاساليب السلمية عن طريق الشراء والاّ فانها تشن من أجل ذلك الحروب وتخوض المعارك وتضحي بحياة الآلاف من ابنائها. وها هي ذي المانيا ونصراؤها مثلاً يكافحون في سبيل الاستيلاء على آبار النفط في القوقاز وها هم اولاء الحلفاء يشدون أزر روسيا ويشقون لنجدتها طرقاً في سوريا وايران ليتمكنوا من الدفاع عن تلك الآبار. وها هي تلك الرسائل ينقلها البرق وترددها محطات الاذاعة بأن صراع الربيع والصيف القادمين انما يكون لأجل النفط ومشتقاته وهو كما نعلم روح السيارات والدبابات والطائرات وهذه بلا شك عدة الحرب وعتادها

ولست الآن في صدد البحث في مقام الفريقين المتطاحنين ولمن تكون الغلبة في النهاية فهذا علمه عند ربي ولكنني في صدد اقامة الدليل على ما لتوافر المواد الاولية ومقدرة الامة الصناعية من منزلة فقد علمتنا الحرب العالمية الماضية ان علماء الدول التي خاضت غمارها ومخترعيها كانوا اذا أعوزتهم الحاجة وألحت عليهم الضرورة ونضب معين مادة أولية هامة وعزّ الحصول عليها بأعمال العدو تفتقت أذهانهم وهداهم علمهم الى الحصول عليها او ما يعوضها بطرق صناعية بحتة وهم في سبيل ذلك لا يلقون بالاً الى العامل الاقتصادي أي عامل التكاليف أصلاً إذ أنهم يعملون لانقاذ الوطن وسد حاجة حربية تنهار بدونها مقاومتهم

***

وموضوع حديثي الآن هو تلك المواد الصناعية التي يعمل المخترعون والعلماء على احلالها محل المواد الاولية الضرورية ونسميها «الاعواض» كما سماها صديقي فؤاد صرّوف رئيس تحرير المقتطف، وسأختار منها النترات والبترول (النفط) والمطاط وكيف تمكن رجال العلم ورجال الصناعة من الحصول بالصناعة على نترات وبترول ومطاط عوضاً عن خاماتها الطبيعية. وعصب الحرب كما قلت المفرقعات وأساسها النترات، والآلات الميكانيكية السيّارة والطائرة والعائمة والغائصة ووقودها الزيت المعدني او مشتقات النفط ويكسو المطاط عجلات اكثرها

ولكل واحد من هذه الاعواض قصة بدأت في خلال الحرب الأوربية الكبرى الماضية وتغلغلت في صميم السنوات التي تلتها حتى نفذت الى الحرب العالمية الحالية، وقد كسب العلم والصناعة كثيراً من درسها وتمحيصها ولا شك في ان الحرب الحالية ستتمخض عن غيرها، وربَّ شر يبعث خيراً كبيراً

فقصة الآزوتات يرجع عهدها في ألمانيا الى بحوث العالم الكيميائي «فرتز هابر» إذ تمكن قبيل عام ١٩١٤ من الحصول على النوشادر من عنصريه وهما: الآزوت (النتروجين) من الهواء

الجوي والايدروجين من الماء . والماء والهواء من المواد الاولية المتوافرة في كل مكان

ثم أعلنت الحرب في أغسطس سنة ١٩١٤ وكان القواد العسكريون في ألمانيا يطمعون في اجتياح فرنسا والقضاء على انكلترا وروسيا في أسابيع قليلة ولذلك لم يكن لدى الالمان من الأزوتات وهي المادة الأولية في تحضير المفرقعات ما يكفيها أكثرَ من شهور قليلة ، ثم كان أن انقطع عنها الوارد من نترات شيلي — وجمهورية شيلي المنبع الوحيد للازوتات الطبيعية — بفعل حصار الحلفاء البحري

فدقّ الزعماء ناقوس الخطر، واستجاب لنجدتهم العلماء ، واستغلوا اكتشاف هابر العظيم، وأتقنوا خطواته الصناعية ، وبنوا المصانع في انحاء المانيا ، وموّنوا العسكريين بحاجتهم من الازوتات ليصنعوا منها مفرقعاتهم وليحشوا بها قذائفهم . ولقد روى أحد المؤرخين أنه لم لو يعثر الالمان على بضع سفن مشحونة بنترات شيلي في موانئ بلجيكا عندما احتلوها لانتهت الحرب الأوربية بهزيمة الألمان قبل انتهائها بسنوات اذ ثبت أن القذائف الالمانية الاولى التي حشيت بالأزوتات الصناعية ، اطلقت على الجيوش الروسية في مايو سنة ١٩١٥ . وعملية هابر غاية في البساطة اذ تمكن صناعيًّا من تجهيز النوشادر من عنصري الازوت والايدروجين بإمرار المخلوط الغازي مراراً فوق مادة تساعد على ارتباطهما وهما مضغوطان بضغط كبير وفي درجة حرارة مرتفعة نوعاً فيرتبطان مكونين غاز النوشادر فاذا خلط غاز النوشادر باكسجين الهواء ومرّ الخليط خلال شبكة من أسلاك البلاتين المحماة تأكسدت المواد فولّدت الحامض الازوتيك أو النتريك وهو أساس تجهيز جميع المواد المفرقعة بكافة أنواعها تقريباً

وربما كان مما يثير الشجن حقًّا أن نذكر أن هابر منقذ المانيا من الهزيمة السريعة مات غريباً عن وطنهِ عام ١٩٣٤ اذ طارده النازيون واضطهدوه لأنه يمت الى السامية بسبب على ما يزعمون . ولا تقل قصة البترول الصناعي طرافة عن قصة الازوتات وبطلها عالم كيميائي الماني أيضاً اسمه « برجيس » Bergius

***

بدأ برجيس بحوثه عام ١٩٠٩ في موضوع الفحم الحجري وهل يمكن الحصول عليهِ أو ما يعوضه بطرق صناعية وكان يبحث في صحة النظرية القائلة بأن الفحم انما تكوَّن في باطن الارض من أصل نباتي بفعل ضغط الطبقات الأرضية وبتأثير الحرارة الكامنة في جوفها فبدأ يقلد الطبيعة بأن حشا جوف قنبلة بمادة السليلوز النباتي وأثر فيها بتيار من غاز الايدروجين تحت ضغط كبير وهي محماة فحصل بعد مدة من الألياف النباتية على مادة تشبه الفحم كثيراً بل وتفوقه نقاءً في تركيبها الكيميائي

وكانت مشكلة بترول السيارات وسد حاجة العالم المتزايدة منهُ تشغل اذهان العلماء في جميع البلاد اذ كانت نسبة الجزء الذي يصلح وقوداً للسيارات — وهو الذي يحصلون عليه بتقطير النفط الخام — ضئيلاً لا يكفي وبدأوا في أميركا ما سموه عملية «التحطيم» وتتلخص في أن البترول الخام يتركب من جزيئات ضخمة معقدة من عنصري الكربون والايدروجين فكانوا يحطمونها بفعل الحرارة الشديدة الى جزيئات أقل تعقيداً فيتحول جزء كبير من الزيت اللزج الأسود الى زيت خفيف شفاف يصلح معظمه وقوداً للسيارات

كانت هذه هي المشكلة العالمية ، وكان يضاف اليها مشكلة خاصة بالمانيا وهي فقرها المدقع في حقول البترول وحاجتها الماسة اليه لادارة آلاتها وتوفير وقود سياراتها وطائراتها وأنهُ لا بدَّ من استيراد كل ما تحتاج اليه تقريباً من هذه المادة الأولية الكبيرة الشأن وخاصة بعد أن حلت آلات الاحتراق الداخلي محل الآلات البخارية وثبت انها اكثر منها انتاجاً وأقل كلفة وأصغر حجماً وأخف وزناً

جرَّب برجيس فعل الايدروجين في انواع الفحم الحجري الرديئة تحت تأثير الضغط والحرارة فنجح في ان حصل من الفحم على زيت هو بترول السيارات بعينهِ. وبألمانيا مقادير لا بأس بها من أنواع الفحم الفجَّة (وهي التي لم تتم نضجاً) والايدروجين يسهل الحصول عليهِ من الماء

بدأت صناعة البترول الصناعي في المانيا عام ١٩١٦ ولم يكن نصيبها من النجاح كبيراً اولا الاَّ أن بحوث العلماء استمرت وكانت كل سنة تمر يدخل معها تحسين وتعديل على طريقة العمل حتى استكملت البحوث عام ١٩٢٦ وتعددت المصانع في انحاء الريخ الألماني فقدّر ما انتجتهُ تلك المصانع عام ١٩٣٦ بمقدار ٧٥٠٫٠٠٠ طن وهو ولا شك في زيادة مستمرة من ذلك الحين حتى ان بعض العالمين ببواطن الامور يقدرون ما تنتجهُ المصانع المذكورة من البترول يكفي لاستهلاك المانيا في زمن السلم وتدل الاحصاءات على أن ما استوردتهُ المانيا من الزيت عام ١٩٣٤ يبلغ ١٫٧٣٠٫٠٠٠ طنًّا

ولا عيب في البترول الصناعي الاَّ أن تكاليف الحصول عليهِ تبلغ اضعاف ما يكلفهُ البترول الطبيعي وان المقادير الصناعية منهُ لا يمكن ان تفي بحاجات جيش ميكانيكي ضخم يحارب في مساحات شاسعة كالجيش الالماني اذ يحتاج مثل هذا الجيش لسياراته وطائراته ودباباته الى ما يقرب من ٢٠ مليوناً من اطنان الزيت سنويًّا ويستحيل الحصول على هذا المقدار صناعيًّا الاَّ اذا تضاعف عدد المصانع في المانيا الى اكثر من ٢٥ ضعفاً مما كانت عليهِ عام ١٩٣٦ ولذلك يقولون ان اول اهداف المانيا العسكرية الآن هو آبار بترول القوقاز فاذا عجزت عن

ادراكها والاستيلاء عليها سليمة تعطلت عدتها الحربية ولم تقو على ازدراد كل ما التهمته في اوربا حتى الآن

***

ولقد قفز المطاط واحتل مع الازوتات والبترول الصف الاول من المواد الحربية الاولية بعد ان اجتاحت اليابان شبه جزيرة الملايو وجزائر الهند الشرقية وهذه تحوي حقول المطاط التي تمون العالم بمعظم ما يحتاج اليه من المادة الاولية . ولكن لحسن الحظ كانت الولايات المتحدة الاميركية وهي اكثر بلاد العالم انتاجاً للسيارات ، والمطاط جزء هام منها ، بدأت من زمن طويل في البحث عن عوض المطاط الطبيعي ونجح علماؤها الكيميائيون في الحصول على صنفين منهُ هما الدوبرين Duprene وهو يجهز من غاز الاستلين والحامض الايدروكلوريك ويحضر الاستلين من كربيد الكاسيوم او مركب من الفحم والجير ، والحامض الايدروكلوريك من ملح الطعام وجميعها مواد اولية رخيصة وكثيرة . والنوع الثاني واسمه ثيوكل Thiokol ويحضر من غاز البترول الطبيعي وغاز الكلور وعنصر الكبريت وهي ايضاً مواد اولية متوافرة في أميركا ورخيصة . ومما لا شك فيهِ ان تكاليف الحصول على المطاط الصناعي تفوق تكاليف المطاط الطبيعي أضعافاً شأنها في ذلك شأن البترول الصناعي والطبيعي الاّ أنهُ في هذه الحالة نستطيع الجزم بأن المطاط الصناعي أكثر احتمالاً وأطول عمراً وخاصة في إطارات السيارات وان العوض أصلح من الأصل في كثير مما يستخدم فيه كلاهما ، كما ان مصنعاً للتيوكول مثلاً يشغل مساحة فدان من الارض ينتج ما يزن ١٠٠ طن في الساعة الواحدة من المطاط الصناعي وهذا المقدار يعادل محصول مزرعة من المطاط مساحتها ١٠٠٠ فدان في عشر سنوات

إلاّ ان موضوع الأعواض متسع الارجاء متشعب النواحي ولذلك اقتصرنا على هذه الناحية الحربية فقط لتردد ذكرها في كل صباح ومساء . ولكننا نستطيع ان نضيف اليها أعواضاً تنفع الانسان في وقت الرخاء كما أنها تسعفه في وقت الشدة والكرب . فهناك الحرير الصناعي وهناك السكر الصناعي وهناك الصوف الصناعي وهناك العجائن ، مادة المستقبل السحرية ، وهي التي تستخدم اليوم في عمل مختلف الاجسام والمواد التي تسد حاجات الناس من حبة السبحة الصغيرة التافهة الى هيكل قاذفة القنابل الضخمة وما بينهما حتى لقد اقترح بعضهم ان يطلق على عهدنا الذي نعيش فيهِ «عصر العجائن» أسوة بالعصر البرونزي وعصر الحديد وغيرها من العصور التاريخية لبني الانسان

الجمعية الجغرافية

الملكية المصرية

لحبيب مطران

من مآثر المغفور له الخديو اسماعيل الخالدة عنايته بالبحوث الجغرافية التي كانت تجري في افريقيا لا سيما في الجهات التي كشفت من منطقة منابع النيل فأنشأ الجمعية الجغرافية الخديوية في ١٩ مايو سنة ١٨٧٥ لتكون دار محفوظات لما يجمع هناك من الآثار والتحف الثمينة وليرجع اليها من يريد البحث والاستقصاء وأسند أعمالها الى الرحالة والعلامة الشهير شوينفورت الذي كان دائماً متصلاً بالعلماء والكاشفين وكان يوجه اهتمامه الى البحث وتشجيع العلوم التي لها صلة بالجغرافية عموماً ولا سيما جغرافية القطر المصري والبلاد المجاورة

وفي اول عهدها تلقت الجمعية بحوثاً من الرحالين الذين رادوا مجاهل افريقيا مستكشفين وهم ستانلي وبرتون وبيكر وجسي وماسون وبياجا وورولفس وبوردي ، فدونت هذه الرسائل في مجلة كانت تصدرها سنويًا . فأسدى الخديو اسماعيل بانشائه هذه الجمعية خدمة لا ينساها التاريخ الى العلوم الجغرافية التي تتعلق بأفريقية والسودان والقطر المصري . وفي ذلك العهد اشتركت هيئة اركان حرب الجيش المصري والقائمقام محمد مختار بك والاميرالاي محمد صديق بك ومحمود الفلكي باشا في الاستكشافات الجغرافية وأرسلوا نتائجها الى الجمعية

وفي سنة ١٨٨١ خصصت الجمعية للاعمال الجغرافية الخاصة بمصر التي رفعت اليها من العلماء فورتو والسر وليام جرستين وبونولا بك وكانوا يدونون بحوثهم في مجلتها

وفي سنة ١٨٩٨ أنشأت الجمعية المجموعة الاثنوغرافية الأولى بافتتاحها قسماً تعرض فيه قطع الفنون الشعبية الخاصة بالسودان فكان الرحالون المسافرون الى تلك الجهة يقدمون الى الجمعية عند عودتهم هدايا تشمل قطعاً سودانية قديمة وأشياء حديثة يستعملها سكان تلك البلاد وقبائلها. وخلف الدكتور شوينفورت في رآسة الجمعية الجنرال ستون باشا في ١١ ديسمبر ١٨٧٩ فاسماعيل ايوب باشا في ١٥ يناير ١٨٨٣ فمحمود الفلكي باشا في ١١ ديسمبر ١٨٨٣ فسمو الامير عباس حلمي (الخديو عباس الثاني) في ٢٢ مارس ١٨٨٩ فالدكتور اباته باشا في سنة ١٨٩٠ فسمو الامير فؤاد (الملك فؤاد) في ٣٠ اكتوبر ١٩١٥ فاسماعيل صدقي باشا في ١٥ ابريل

سنة ١٩١٨ فالاستاذ فوكار في ٣ ديسمبر سنة ١٩١٨ ثم الدكتور هيوم في ١٧ نوفبر ١٩٢٦

ولما شرف المغفور له الامير احمد فؤاد (الملك فؤاد الأول) الجمعية برآسته في ٣٠ اكتوبر سنة ١٩١٥ أحيى اعمالها فكان يحضر جلسات مجلس ادارتها وله الفضل العظيم في اصدار قانونها وتنظيم متحفها وما يحويه من خارطات ثمينة وغيرها وأصبح مقامها العلمي والأدبي في الذروة فانتقلت في سنة ١٩٢٥ الى مقرها الحالي الذي يليق بها فهو مبنى فسيح الارجاء وقد انعقد فيه المؤتمر الدولي الجغرافي وهو فاتحة عهد جديد للمؤتمرات الكبيرة في مصر

وكان للمغفور له الملك فؤاد ميل شديد الى اعلاء شأن الجمعية فعند ما تولى عرش مصر شملها بعنايته السامية حتى ضمن لها نشاطاً متواصلاً وأصبحت تعد الهيئة العلمية الأولى في القطر المصري ومن ذلك العهد بدأت الجمعية تصدر كل سنة نشرتها في أربعة أجزاء ونشرت كذلك كتباً في جغرافية مصر بقلم الأمير عمر طوسون والاساتذة دي لارنسيير وريمونديه وجونديه وبوردون وجوتيه وهي مؤلفات لا يستغني عنها باحث في علم الجغرافيا ، ووهب الملك فؤاد الجمعية مكتبة محمود الفلكي باشا ومكتبة الأمير حيدر فاضل وهي تشمل عشرة آلاف مجلد وعدداً كبيراً من الخارطات القديمة والكتب القيمة وأيضاً مجموعة نفيسة مؤلفة من ٦٠٠ خارطة محفوظة في علب فاخرة أحرزها الأمبراطور نابليون بونابرت

وقد بدأت الجمعية في طبع مجموعة خاصة من بحوث لم تنشر حتى الآن في عهود محمد علي باشا وعباس الأول واسماعيل باشا وتوفيق باشا مأخوذة من محفوظات حكومات فرنسا وانكلترا وايطاليا وأميركا واليونان ومصر . وكان الملك فؤاد ينفق على طبع كل ما يتعلق بتاريخ هذه العهود . وقد ابتدأ طبع المجموعة المذكورة في سنة ١٩٢٥ ويطبع منها كل سنة ستة مجلدات أو سبعة وسيكون لهذه المجموعة شأن عظيم في اظهار تاريخ مؤسسي البيت المالك في مصر

ولما سافر الملك فؤاد رحمه الله الى واحة سيوه جاء بتحف ثمينة مختلفة الانواع وأهداها الى الجمعية الجغرافية الملكية لعرضها في متحفها . وفي ايامه الاخيرة ارسل اليها مجموعة نفيسة من أسلحة ودروع قديمة وملابس عسكرية وسيوف ورماح وأطقم للخيل والجمال وخيمة من الجلد وأنياب الفيلة وهذه التحف كانت تزين متحف الاسلحة بقصر عابدين العامر . وقد أصدر مولانا الملك المعظم فاروق الاول أمره الكريم بأن يتسلم المتحف الحربي هذه المجموعة هدية من جلالته

ويحذو صاحب الجلالة الملك فاروق حذو والده المعظم فقد أمر حفظه الله بالاستمرار في طبع الوثائق التاريخية التي كان يوجه الملك فؤاد عنايته اليها . وقد أهدى المليك الى الجمعية قارة ارضية صغيرة من الفضة المذهبة اقتناها جلالته في لندن ويرجع تاريخها الى عهد جورج الثاني ملك الانجليز . وأهدى الى الجمعية ايضاً مجموعة نفيسة من أسلحة سودانية

قديمة . وعند ما زار جلالته ادارة صندوق الدين لاحظ وجود خارطة عامة لافريقيا وضعتها هيئة اركان حرب الجيش المصري تحت اشراف الكولونيل لوكت في سنة ١٨٧٧ فأمر جلالته بارسالها الى الجمعية الجغرافية الملكية فتقبلتها الجمعية شاكرة اهتمام جلالته بها

وتشترك الجمعية الجغرافية الملكية مع جمعيات العالم الكبرى كالجمعيات الجغرافية الفرنسية والانكليزية والاميركية والبلجيكية في تصنيف المعجم الجغرافي الدولي وتضع الجمعية كل سنة كشفاً يحوي المؤلفات الجغرافية التي تصدر وينشر هذا الفهرس في مجلتها

وكان يتولى رآسة الجمعية العالم القدير الدكتور هيوم وهو صاحب مؤلفات هامة في علم تقويم البلدان وخصائص الارض نذكر منها كتابه « الجيولوجيا » الذي يطبع الآن . وكذلك مؤلف آخر ضخم «جيولوجية القطر المصري» في اجزاء متعددة لم يتم طبعه للآن . ومؤلفاته مرجع للعلماء . ومن نوادر شهرته العالمية ما حدث له من ثلاث سنوات في لندن وقد أراد شراء كتاب يبحث عن الذهب فدخل مكتبة عظيمة وسأل عنه فبحث البائع عنه ولم يهتد الى شيء ثم فكر هنيهة وأشار على المشتري بان يقتني كتاب الدكتور هيوم المستشار الفني للقسم الجيولوجي المصري ورئيس الجمعية الجغرافية المصرية !

ويشرف على شؤون الجمعية في الوقت الحاضر رجل من رجالات مصر البارزين وقطب ممتاز في الأوساط العلمية والرياضية والسياسية وهو صاحب المعالي احمد حسنين باشا رئيس ديوان جلالة الملك . ومعاليه اول رحالة مصري حديث. وقد اثارت مكتشفاته الجغرافية والجيولوجية والاثنوغرافية والتاريخية والطبية اهتمام العالم بأسره بعد رحلته الموفقة من السلوم على الساحل الى الأبيض بالسودان مارًّا بسيوه والكفرة ومكتشفاً واحتي اركنو والعوينات[1] ثم على أثر ظهور كتابه الذائع الصيت « الواحات الضائعة » وقد كتب مقدمته السير رنل رود فأثنى فيها على اعمال معاليه وهي تستحق تقدير العالم لما اسداه من خدمات جليلة لوطنه وللعلم. وقد مضى معاليه نحو عامين وهو يبحث ويدون ويسجل ويرسم ويعاين ويكتب تلك المعلومات النفيسة عن هذه الصحراء القاحلة مستهيناً بأخطارها وأهوالها ولم يثنه عن عزمه القيظ او البرد ولم يفكر لحظة واحدة في العدول عن هذه الرحلة الخطيرة التي تعرض فيها لفتك الحيوانات المتوحشة وخطر الامراض والاوبئة . وقد تغلب معالي حسنين باشا بقوة عزمه وتجلده على جميع هذه العقبات بفضل ما امتاز من روح التضحية والتفاني في خدمة العلم

وقد وافق ملك الانكليز في سنة ١٩٢٤ على منح حسنين (بك) وسام المؤسسين للجمعية الجغرافية الملكية جزاءً له على رحلته . ومنحته الجمعية الجغرافية الاميركية كذلك أعلى أوسمتها

ويستقبل الداخل الى دار الجمعية الكائنة بحديقة وزارة الاشغال العمومية بجوار الجامعة

(١) راجع اول رائد مصري حديث المقتطف يونيو ١٩٢٥ صفحة ١ ـ ٨ ويوليو صفحة ١٦٧ ـ ١٧٤

الامبركية سواء من بابها الشمالي او من بابها الجنوبي تمثال الخديو اسماعيل مؤسس الجمعية الجغرافية الملكية فكأنهُ يحيي جميع من يسترشد بهديهِ ويستنير بعلمهِ . ولا يسع الزائر الاّ ان يحيي في تمثاله الباسم تلك الشخصية الفذة في ضروب العلم والسياسة . وفي دار الجمعية معرض للخارطات المجسمة لمدن بورسعيدو بورتوفيق وبور فؤاد والقاهرةوالفيوم وخارطتان كبيرتان لميناء الاسكندرية وحوض النيل ومجموعة منظمةمن الصور والمناظرالشمسية ذات شأن عظيم

وهناك قسم خاص بقناة السويس يحتوي علىمنظر متحرك لباخرة تعبر القنال يخيل للناظر اليها انهُ راكبها لانهُ يرى الباخرة تجتاز القناة وعلى جانبيها مناظر جميلة كالأشجار ومراكب الصيد والجبال والصخور وغيرها . ومناظر اخرى غير متحركة لمدن الأسماعيلية وبور سعيد وبور توفيق ورصف ارض في قناة السويس ومنظر يمثل الامبراطورة اوجيني تفتتح القنال على ظهر اليخت الامبراطوري «النسر» وهو السفينة الاولى التي اجتازت القناة وكان يرافق الامبراطورة فردينان دي لسبس وحاشيتها.ويرى زائر هذا القسم تمثالاً برونزيًّا لفردينان دي لسبس قائماً على مقعد من الجرانيت متصل بمقعد آخر من الخشب الثمين مكتوب عليهِ تاريخ ميلاده ووفاته ، وخزانة عرض فيها مؤلف الاستاذ نيكول «البوم رحلة الملوك» : وقد نشر بمناسبة افتتاح قناة السويس تحت رعاية سمو الخديو اسماعيل في سنة ١٨٦٩ »ومؤلفات اخرى عن القناة ومجموعة نياشين ضربت في ذلك العهد من الذهب والفضة والنحاس والبرونز

وللجمعية بهوٌ كبيرٌ للمحاضرات يلقي فيها رجال جامعة فؤاد الاول محاضرات عامة ويبتدئ موسم المحاضرات في شهر نوفمبر وينتهي في منتصف مارس ويلقي كذلك فيها العلماء او الاعضاء محاضرات اخرى باشراف الجمعية . وهذا البهو آية من الآيات وتحفة من تحف الفن والزخرف وهو مزين بتماثيل المغفور لهم محمد علي باشا وابراهيم باشا واسماعيل باشا والملك فؤاد . وقد دهش مندوبو الدول حين انعقاد المؤتمر الجغرافي الدولي في سنة ١٩٢٥(١) لحسن تنسيقها وجمال رسومها ونقوشها العربية الملونة بالازرق والذهبي . ورأت مصلحة المباني أخيراً أن توسع هذا البهو وتزيد مقاعدهُ وتصلح آلات الصوت فيهِ وهو أمرٌ لا بدّ منه . وقد تمت هذه الاصلاحات . وأما مكتبة الجمعية الجغرافية الملكية المصرية فتعد من المكتبات النفيسة. اذ تحوي ما لا يقل عن ١٠٠٠٠٠ مجلد خاص بالعلوم الجغرافية للبلدان عموماً ومصر خصوصاً . والجمعية تراسل ٢٥٠ جمعية علميـة ويصلها ٣٠٠ مجلة من جمعيات العالم ويزور دارها يوميًّا طلبة مدرستين أو ثلاث فضلا عن كبار الزوار الآخرين

وكفى بما اوردناه دليلاً ساطعاً وبرهاناً قاطعاً على أن جمعيتنا الجغرافية الملكية أصبحت من أعظم الجمعيات العلمية تقدماً وتضارع اكبر جمعيات أوربا وأميركا في العلوم الجغرافية

(١) راجع مقتطف مايو ١٩٢٥ صفحة ٥٠٦—٥٣٣

علم النفس

والحرب (1)

للدكتور صبري جرجس

كانت الأسباب المعروفة للحرب لا تتجاوز الى عهد غير بعيد ، أثرَ بعض العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تتفاعل في أمة ما أو في مجموعة من الامم فما تزال بها حتى تنتهي الى نزاعٍ قد يؤدي الى نشوب الحرب

ولا ريب في أن لهذه العوامل أثرها البيّن من حيث هي سبب مباشر للحرب في مُعظم الأحيان ان لم يكن فيها جميعاً ، ولكن وراءها على الدوام مجموعة من العوامل السيكولوجية الناشئة من تفاعل طائفة من القوى النفسية ، وهذا هو الجانب الذي سنعنى بهِ في هذا البحث .

وكلنا يعرف أن علم النفس هو علم دراسة العقل - أي العلم الذي يتناول دراسة العمليات العقلية الكامنة وراء السلوك الظاهر - ومن ثمَّ فانهُ يعنى ببحث العوامل التي تحرك جميع ألوان النشاط الانساني . وليست الحرب بعد الاّ لوناً من النشاط الانساني — لعلهُ — وخاصة في الحروب الحديثة أشدها فتكاً وأعمها تخريباً وهدماً

وستتناول دراسة سيكولوجية الحرب البحث في سيكولوجية الجماعات التي تشترك فيها وسيكولوجية الأفراد — أي الزعماء — الذين يؤثرون في هذه الجماعات حتى يصلوا بها الى حالة التأهب بل القبول النفسي للحرب . اي اننا سنبحث هنا العلاقة السيكولوجية التي تربط بين الزعماء والشعوب ، ومختلف المؤثرات الاجتماعية والبيئة وغيرها التي قد تكون ذات أثر في اعداد الزعماء اعداداً نفسيًّا خاصًّا ينبه فيهم غرائز التعدي ويثير في نفوسهم النزوع الى المشاكسة

— ١ —

ونبدأ ببحث الصفات السيكولوجية للجماعات فيكشف لنا ذلك عن الأسباب التي تدفع الجماعات في بعض الاحيان الى ارتكاب أشد الأعمال سخفاً وأقلها حظًّا من التعقل والمنطق فالجماعة كما يقول الاستاذ جينزبرج هي جمهور من الناس له انتباه مشترك وهدف مشترك

(1) خلاصة وافية لمحاضرة ألقيت بالانكليزية في دار المعهد البريطاني بالمنيا

مما يعمل على اثارة أفكار وانفعالات متشابهة في عقول أفراده فيحسون بأن هناك شيئاً مشتركاً يجمع بينهم

والى جانب ذلك تتصف الجماعات بهبوط مستوى ذكائها . وقد قال ليبون وهو من اكبر الثقات في سيكولوجية الجماعات إن عقل الجماعة يطابق في مستواه عقل الطفل أو عقل الانسان البدائي . وقال ستيكل إن مستوى الجماعة يهبط الى مستوى أقل فرد فيها ، ومن ثمَّ فان الزعيم الذي يخاطب الجماهير انما يخاطبهم بعبارات عامة مبهمة تحرّك عواطف الطبقة الغالبة من جمهور سامعيه فتصل الى موضع الاقتناع فيهم وتدفع بهم الى جانبه

ومن الصفات المميزة لسيكولوجية الجماهير عدم شعور الأفراد الذين تتألف منهم بالمسئولية . اذ كيف يتسنى لهم أن يشعروا بالمسئولية وهي موزعة عليهم وضائعة بين جموعهم. فاذا اجتمع الى جانب ضياع الشعور بالمسئولية في الجماهير هبوط مستواها الذهني وسرعة تأثرها بالايحاء فقد توافرت لها العوامل التى تؤدي الى ما نراه فيها من السذاجة والنزق وعدم الاحتمال والاندفاع البات الحاسم

والى جانب هبوط المستوى الذهني للجماهير نرى المبالغة والاغراق في اظهار عواطفها وانفعالاتها ولعلَّ هذا يرجع الى أن الأفراد الذين يؤلفون الجمهور ، وقد أحسوا حماية الاجماع ، لا يرون ضرورة ضبط انفعالاتهم كالمعتاد ، ومن هنا انطلاقها دون كبح أو ضابط

ولكن لعلَّ أهم الصفات المميزة للجماهير هو عظم قبولها للايحاء — وقد قال ليبون في تعليل ذلك أن الجمهور يحدث في افراده حالة تشبه الاستهواء . والاستهواء كما نعلم يجعل الفرد أكثر قبولاً للتأثر بالايحاء . وقد دلت تجارب العلاج النفسي على أن بعض المرضى سريعون الى قبول الايحاء والاستهواء في حين أن قبول البعض الآخر للاستهواء يكاد يكون مستحيلاً وأظهر التحليل النفسي بعد ذلك ان قبول الايحاء يتوقف الى حدٍّ كبير على نوع التوافق أو التآلف بين العقل الباطن في الطبيب المنوّم والعقل الباطن في المريض المنوَّم . وبتطبيق هذه القاعدة على العلاقة بين الزعيم وشعبه يرجح لدينا أن أثر الزعيم في الشعب يرجع الى التآلف بين العقل الباطن للزعيم والعقل الباطن للكثرة من الشعب — لانهُ بذلك يستطيع أن يثير فيهم الايمان به والاطمئنان اليه ومن ثمَّ فانهم يتبعونهُ . وقد قيل في بعض الأحيان — خطأ — ان الزعيم يمكن ان يقود شعبه بأن يوحي اليه شعور الخوف منهُ او الاستسلام اليه. فان الشعب لا يتبع زعيماً الاّ اذا أحبهُ واحترمه ووثق به واطمأن اليه وربما ان يصل الى أهدافه عن طريق زعامته . والزعيم الذي تكون غريزة التعدي في نفسه قوية منتبهة انما يعمل على إثارة روح جماعته أو شعبه عن طريق التعدي لا عن طريق الاذعان والاستسلام.

لأن الزعيم الحق — كما يقول وليم براون — يجب أن يجعل تابعيه في مثل روح التعدي الغالبة عليه ، والشعب الخائر الفزع لا يمكن ان يحقق هدفاً مهماً تكن روح التعدي في الزعيم من القوة والانتباه. فالتالف بين العقل الباطن في الزعيم والشعب لازم لنجاح الزعامة بل لقيامها ، كما أنهُ لازم ايضاً لنجاح العلاج النفسي عن طريق الايحاء

— ٢ —

وحسبنا هذا القدر عن المميزات النفسية للجماعات والشعوب على وجه العموم وعن العلاقة بين الزعيم وشعبه . وننتقل الآن الى بحث ناحية اخرى هي في الوقت ذاته جانب ذو شأن من الأساس السيكولوجي للحرب القائمة . تلك هي سيكولوجية الديكتاتورية . وينبغي ان ننبه هنا الى ان هذا يجب ألاّ يغض من قيمة العوامل الأخرى — الاقتصادية منها أو السياسية — التي يجوز ان تكون قد ساهمت بنصيب في نشوب الحرب لكننا في الوقت ذاته نريد ان نؤكد الناحية السيكولوجية التي أضفت على هذه العوامل سماتها البارزة كالسبب المباشر او غير المباشر للحرب . وقد شغل البحث في سيكولوجية الديكتاتورية كثيراً في المشتغلين بعلم النفس والامراض العقلية وظهرت في هذا الخصوص نظريات متعددة ولكن لعل نظرية ستيكل هي أقربها الى القبول وأحظاها بالذيوع . وهي تقوم على ما يسميه « مركب السلطة » وتعلل المزاج النيوروزي للديكتاتورين كما تعلل قبول معظم الناس الخضوع لسلطان الديكتاتورية معاً . ويبدأ «مركب السلطة» هذا في عهد الطفولة ، وهو يتخذ صورة نزاع مستمر بين غرائز الطفل وبيئته ، فان غرائزه تريد الارتواء الكامل المطلق والبيئة تنكر عليه ذلك وتعاقبه اذا تعدى الحدود التي رسمتها لهُ ، ومن ثمَّ النزاع ، ومن ثمَّ احساس الطفل بالعداوة للسلطة — ممثلة في أول الأمر في الابوين ثم في المدرسة ، ثم في المجتمع عن طريق القانون ثم في الدين

وقد ضعف أثر السلطة في المجتمع الحاضر ، وخصوصاً بعد الحرب الكبرى ، فان الوالدين انفسهم لم يستطيعوا البقاء في المستوى الأدبي الرفيع الذي كانوا يطلبونه في ابنائهم بل وفي بعض الأحيان يفرضونه عليهم. وأحس الابناء بجور هذه المعاملة احساساً مرًّا ومن ثمَّ حاولوا ان يثأروا لأنفسهم بالثورة على سلطة والديهم

وكذلك كان الحال في المدارس والجامعات . أما أثر القانون كسلطة تخشى فقد ضعف كثيراً بعد الحرب . وتقدم العلم الحديث انتقل اليه جانب كبير من السلطة التي كان الدين يستأثر بها من قبل

وقد كان من أثر الضعف الذي أصاب منزلة السلطة ما نراه الآن ، من الردة الى الماضي والميل العنيف الى الكراهة والقسوة والنزوع الى الهدم والتخريب — فكانت النتيجة

تشوب هذه الوافدات الاجتماعية التي تتمثل في الديكتاتوريات . فان الناس قد يحنقون على السلطة ، ولكنهم لا يستطيعون الحياة دونها على أية صورة من الصور

والأطفال الذين حنقوا على سلطة والديهم هم أنفسهم الذين وجدوا في الديكتاتورين عوضاً عن آبائهم ، ولكن لا بد من أزمة اجتماعية او اقتصادية او ما شابه لكي تمهد الطريق للديكتاتورية . والناس يحاولون دائماً أن يجدوا سبباً للوم الازمات ولا أقرب اليهم ولا أسهل عندهم من توجيه اللوم الى نظام الحكم القائم ، ومن ثمَّ ينهار هذا النظام ، ليقوم على انقاضه النظام الديكتاتوري الذي يجعل القوة المسلحة جزءًا متمماً لهُ ، ومن ثمَّ يضمن البقاء

ولكن الناس لا يحنقون على سلطة الديكتاتور او الزعيم كما حنقوا على سلطة الأب ، لأن شك الناس في عصمة الزعيم يقل كلما زاد عدد أنصاره وأتباعه . ويقول ستيكل في هذا أنهُ كلما زاد عدد أتباع الزعيم ضعفت حاجة الناس الى الشك فيه ، وسهل ان يتحول شعورهم بأنفسهم من الضعف الى القوة ، لأنهم يدمجون أنفسهم في شخصية الزعيم فيحسّون كأنهم يشاركونهُ الزعامة والسلطان وكأنما أصبحوا جزءًا منهُ وأصبح هو جزءًا منهم

وحياة الدكتاتورين ميدان فسيح للدراسة . فكلهم عانى من قسوة « مركب السلطة » أثناء الطفولة وكلهم ثار عليه ، ولكن ثورتهم انتهت الى النجاح . فبعد طفولة حافلة بالشقاء والحرمان استطاعوا ان يثأروا لأنفسهم من والديهم بفرض سلطتهم على الغير ، ومن ثمَّ أصبحوا أباء شعوب لا أرباب أسرات

ونزعة « النيوروز » ظاهرة في جميع الدكتاتورين . وفي تاريخ حياة كل منهم يمكن ان نجد عاهة ما — جسدية او نفسية — تفسر شذوذه . ثم ان معظمهم ولد في فقر مدقع او عانى طفولة شقية او نشأ من أصل حقير ومن ثم فانهم يحاولون تعويض شبابهم التاسي بطلب المجد والسلطة فيما بعد . وهم يصلون الى هذا المجد ، ولكن الاصابات النفسية التي وقعت لهم في أيامهم الأولى لا تزال تلاحقهم بالأذى بحيث تلتوي الغرائز والنزعات والانفعالات الطبيعية في نفوسهم فتظهر في صورة منحرفة او شاذة او مرضية

وثمة ظاهرة أخرى أطلق عليها ستيكل اسم « ثنائية الانفعالات » او « النزوع الثنائي للانفعالات » وبمقتضاها تستطيع النفس الانسانية ان تجمع بين النقائض من النزعات والانفعالات . ومن ذلك ان الحب لا يمكن ان يوجد بغير كراهة ، والانسان الذي لا يستطيع ان يعيش بغير حب لا يستطيع أيضاً ان يعيش بغير كراهة لان حاجته الى الكراهة لا تقل عن حاجته الى الحب ، وليست الكراهة في ذاتها هي ما ينبغي ان تخشى ، فانها ظاهرة لحفظ الذات ، أي ظاهرة للحياة . ولكنها الكراهة غير الواعية ، الكراهة الباطنة هي ما يجب

ان نعنى به ، وليس في نظمنا الاجتماعية والاقتصادية لسوء الحظ ما نجني منه غير الحقد والكراهة فان هذه النظم تشجع عدم المساواة وتدعو الى أعنف المنافسة وتحتضن المظالم في مختلف صورها وألوانها . وكل ذلك انما يعمل على ان يملأ نفوسنا بالكراهة والبغضاء . فاذا لم نستطع ان نجد لها مخرجاً واعياً ، او اذا لم نستطع نحن ان نتسامى بها فانها تكبت او تكظم أي تختزن في العقل الباطن مما يؤثر في تكوين دوافع سلوكنا فيما بعد تأثيراً سيئاً .

وقد أظهر التحليل النفسي في كثير من الحالات ان العقل الانساني يحوي في قراره كثيراً من انفعالات الكراهة ونزعات الاعتداء مرتبطة بغيرها من النزعات ارتباطاً وثيقاً . فاذا لم تستطع هذه النزعات ان تجد تسامياً مناسباً—وليس من شأن الطفولة الشقية المحرومة ان تمهد لصاحبها سبيل ذلك التسامي—فلن يبقى لهذه النزعات الا ان تحاول الظهور الى الوعي بصورة ضارة ومؤذية للمجتمع ولا نهاية للامثلة المستخرجة من تجارب الأمراض النفسية في هذا الصدد

ومن الحالات الوثيقة الاتصال بظاهرة الكراهة والتي لها أثر مشابه في تكوين الأسباب السيكولوجية للحرب تلك الحالة المعروفة بالبارانويا . والبارانويا مع ما يتصل بها من الأحوال المماثلة هي حالة مرضية ، صفتها المميزة لها وجود أوهام ثابتة ، منظمة منسقة تنسيقاً منطقياً متقناً ، ومتجهة في الغالب الى الشعور بالاضطهاد . وكل انسان يمكن أن تظهر فيه هذه النزعة البارانوية الى حدٍّ ما في بعض الاحيان ولكنها لا تؤذي صاحبها او المجتمع اذا ظلّت في نطاقها الاجتماعي ، أما اذا جاوزت النطاق الاجتماعي ووصلت الى الحدود المرضية ، أي اذا أصبحت الاسلوب الدائم الثابت لمواجهة مشكلات الحياة ، فانها حينئذٍ تصبح خطراً يهدد الفرد والمجتمع. ويزداد هذا الخطر وضوحاً اذا ذكرنا ان كثيراً من الحالات المتوسطة وبعض الحالات المتقدمة يبقى أصحابها دون ان يكتشف أمرهم على حقيقته ، فينظر الناس اليهم على أنهم من أصحاب الشذوذ او الأهواء المتقلبة ويغتفرون لهم من سلوكهم ما لا يغتفرونه لغيرهم من الناس . وليست البارانويا من الآفات العقلية التي تؤثر في الذكاء بل ان كثيراً من حالاتها يصيب أشخاصاً من ذوي الذكاء الخارق ، ويبلغ من حذق بعض المصابين بالبارانويا ، ومن مهارتهم في اظهار أوهامهم في صورة الحقائق ، اننا لو أخذنا فروضهم كما هي لبدت أوهامهم على قدر كبير من التماسك والمنطق والصدق ، ومن ثمَّ قدرتهم على خداع عدد كبير من الناس قبل ان يكتشف أمرهم أو يشتبه فيهم اذا حدث هذا على الاطلاق

وهنالك عوامل خاصة في البيئة قد تساعد على توليد النزعة البارانوية أو على تغذيتها في الشخصية ، نذكر منها العوائق الاجتماعية التي قد يلقاها الفرد في مختلف أدوار حياته ، وقسوة بعض الاحوال التي يجد نفسه فيها على الرغم منه (كأن يكون ابناً غير شرعي)، او الدمامة او

العاهات الجسدية الظاهرة، او الفقر، ونقص التعليم، والطموح الذي يجاوز القدرة على تحقيقه

وأهم السمات المميزة للبارانويا هي أوهام الاضطهاد، فيعتقد الفرد انهُ مغمور وأنهُ لا يلقى حقه من تقدير الناس وأنهُ مضطهد ويحيط بهِ أعداء يتآمرون عليه. وهو يعطي للحوادث التافهة دلالة كبيرة فيعتقد ان الناس يكرهونهُ ويعكس هو هذا الشعور فيكرههم، وتشتد هذه الكراهة نحو أشخاص معينين، ومن ثمَّ خطر البارانويا الكامن في محاولة بعض المصابين بها قتل غيرهم. ولو نقلنا هذه الصورة الى العلاقات الدولية لاتضح لنا ما للبارانويا من شأنٍ في المنازعات بين الدول، تلك المنازعات التي قد تنتهي الى مثل الحرب الناشبة الآن

فقد يكون بعض زعماء الشعوب من المصابين بأوهام الاضطهاد البارانوية وقد تنعكس هذه الاوهام بكل ما فيها من نظام وتنسيق منطقي على شعوبهم، فيرى الزعيم المريض في كل حركة من حركات الدول الاخرى تحرشاً بأمته ويرى في كل تصريح من تصريحات قادتها تحدياً لها ويستخرج من كل اتفاق دولي «تطويقاً» لشعبه القصد منه اضطهاده واضعافه. وقد تنتقل هذه العدوى من الزعيم أسير اوهامه الى الشعب بأسره فتنبه فيه تلك النزعة البارانوية الضاربة الى الاعتداء بغية التسلط وسيادة العالم. ومن الجائز ان تعقب أوهام العظمة هذا الدوْرَ من الاضطهاد. وتنشأ اوهام العظمة من تنبيه مشاعر التفوق في الفرد فيستحيل احساسه بالاضطهاد، الى الشعور بالعظمة والسمو ويبدأ يرى في نفسه مواهب خارقة وينظر الى غيره من الناس نظرة المتعالي الى من هم دونه ذكاءً ومكانة. وقد تنتقل أوهام العظمة كأوهام الاضطهاد من الفرد الى الشعب. ولعلَّ هذا يفسر لنا كيف يجوز أن يصبح وهم زائف مثل خرافة التفوق العنصري العقيدة المتعصبة والايمان الأعمى لشعب بأسره

وقد ذكرنا ان البارانويا لا تتعارض مع الذكاء بل قد يصحبها صفاء الفكر وشدة العزم والتنفيذ، فاذا استطاع شخص لهُ هذه الصفات ان يصل الى زعامة شعب قوي فلن يكون نشوب الحرب أمراً بعيد الاحتمال

— ٣ —

أما وقد ألممنا بطائفة من العوامل النفسية التي تعمل من وراء الستار على تهيئة الجو للحرب، فنسأل هل لعلم النفس نصيب في اقتلاع جذور الحرب من المجتمع الانساني وفي اماتة بذورها من النفس الانسانية؟ بلى ان له لنصيباً سوف ينمو ويزدهر على الايام

ان علم النفس لا يزال علماً ناشئاً يحبو نحو فهم الدوافع الحقيقيـة في السلوك الانساني. ولكنه مع ذلك يستطيع ان يقرر عن ثقة ان المواعظ الأدبية لا أثر لها في تغيير سلوك الانسان او في إفراغه في قالبٍ خاص. وقد كان هذا جائزاً أو ممكناً لو ان العقل كان قاصراً على الجانب

الواعي فقط وهو الجانب الذي يستطيع الفرد ان يسيطر عليه ، ولكن العقل كما يقول وليم براون له طبقاته البعيدة الغور ، الناتجة من اثر التجارب والتفاعلات السابقة التي مر بها الفرد ورسبت منذ عهد بعيد ثم لا يزال أثرها باقياً على مر الأيام والسنين . وهذا الجانب غير الواعي من العقل يجب ان يعمل حسابه دائماً لأنه يحتوي على بقايا أدوار التقدم التي مرَّ بها الانسان ، ولأن فيه ميراثاً كبيراً من المشكلات التي لم تحل ، ولأنه يصور ألواناً من السلوك المناسب لنوع من الحياة تختلف كل الاختلاف عن الحياة التي يحياها الفرد الآن

وليس السلم مجرد عدم قيام الحرب فان السلم كما يقول وليم براون هو حالة ايجابية يجب ان تجد لها محلاً في المجتمع المنظم المتمدن . ولا ينبغي ان يكون مجرد الخلاف في مثليات النظم الاجتماعية او السياسية سبباً يؤدي في ذاته الى نزاع لا يحسم الا بالحرب . فان الحرب لا يمكن ان تنشب — والحرب الحالية تؤيد ذلك — الا اذا كظمت الجوانب الهدَّامة في غرائزنا ونزعاتنا او نبهت تنبيهاً ضارياً بدلاً من التسامي بها . وكيف لنا ان نرجو السلم اذا كانت نظمنا القائمة — الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على السواء — تقطر فينا المنافسة الضارية وتملأ عقلنا الباطن بالحسد والكراهة والعداوة والقسوة ؟ ولكننا مع هذا لا ينبغي ان نكون متشائمين عند النظر الى حضارتنا ولا ينبغي أن نتحدث عن انهيارها وانحلالها ، فلعلنا لا نزال في أولى خطوات الحضارة . ونحن نستطيع أن نقتصد على أنفسنا كثيراً من النوازل والتضحيات التي لا ضرورة لها اذا اعتدنا مواجهة مشكلاتنا مواجهة صريحة مخلصة صادقة وحاولنا أن نفهم القوى النفسية التي توجه سلوكنا وتقرر نزعاتنا . حينئذٍ سنعرف أنهُ ينبغي لنا ان نوحي الايمان والثقة والتعاون بين الشعوب والافراد على السواء ، وينبغي ان نعمل على تحرير أنفسنا من رق الانفعالات البدائية والطفلية ، وان نحاول التفكير العلمي الذي لا يتأثر بالتقاليد الزائفة ولا بالكبرياء القومي ولا بهيبة المجد والسلطان الواسع . أي ينبغي علينا ان نعد انفسنا اذبيًّا للسلم وأن نحقق ما اسماه وليم براون « نزاع السلاح النفسي Psychological Disarmament » لكي نتجنب الحرب

وعلى زعماء الشعوب مسئولية خطيرة في هذا الخصوص فان في استطاعتهم اذا شاءوا أن يوجهوا القوى الكامنة في شعوبهم نحو البناء أو نحو الهدم ، وفي استطاعتهم أن يطلقوا الغرائز الحبيسة في شعوبهم فتنطلق جامحة ضارية . ومن ثمَّ يجب أن يعرف زعماء الشعوب ذواتهم على حقيقتها ويجب أن يتفهموا القوى التي تعمل في عقولهم الباطنة وفي عقولهم الواعية على حدٍّ سواء . وقد يكون من الوسائل الوقائية في المستقبل ان يأخذ المجتمع باقتراح الدكتور ادوارد جلوفر الذي يقضي بضرورة عمل التحليل النفسي للزعماء حتى يمكنهم أن

يكشفوا عن القوى التي تعمل في نفوسهم ظاهرة او من وراء ستار وحتى يستطيعوا كشف المركبات أو العُقَد النفسية الضارة والتحرر منها في الوقت المناسب

— ٤ —

غير ان الدور الذي يستطيع علم النفس ان يقوم بهِ في منع الحروب سيبقى ناقصاً حتى نصل الى حل مناسب لمشكلة التربية

ولعلم النفس حتى الآن اقتحامات موفقة في ميدان التربية لأنهُ في هذا الميدان استطاع ان يثبت نتائجه بالتطبيق العملي والنتائج الايجابية . وعلم النفس هو الذي كشف لنا عن كثير من الدوافع في سلوك الطفل ، ودلنا على كثير من احتمالاته الكامنة وبواسطته نستطيع الآن ان «نصب» الطفل في القالب الذي نريد أن ينشأ عليه . فنحن نستطيع ان نكبح القوى التي تنزع به الى سلوك طريق ضار بالمجتمع ونستطيع ان نغذي تلك التي تجعل منه عضواً نافعاً في النظام الاجتماعي . ولكننا لن نستطيع الاستعانة بالتربية كوسيلة من أقوى الوسائل أثراً في تنشئة الافراد نشأة صحيحة سليمة حتى نحدد مثلياتنا في التربية اولاً وحتى نعرف ما عندنا من الوسائل لتحقيق هذه المثليات

وقد قيل شيءٌ كثير عن أهداف التربية ، وقال ادلر أن كل نظام سليم للتربية يجب أن يجعل هدفهُ «التوفيق الاجتماعي» اي التوفيق بين الفرد والمجتمع الذي يعيش فيهِ وذلك بزرع هموم اجتماعية مناسبة . وقد يكون « التوفيق الاجتماعي » أساساً صالحاً لتنشئة الاطفال نشأة صحيحة في مجتمع بعينهِ ، ولكنهُ لا يستطيع ان يمنع احتمال النزاع والمشاحنة بين مختلف الجماعات الاّ اذا استطعنا أن نزرع في أبنائنا بذرة العالمية فيشبوا وهم يحسون كأن العالم كله هو مجتمعهم الكبير

ولن نستطيع أن نصل الى شيء من هذا الاّ اذا تضافرت نظم التربية جميعاً وعملت على أن تقطر في شباب الأمم على اختلافها روح الايمان بالانسانية ونجحت في أن تحررهم من التعصب في كل صورة من صوره — القومي والعنصري والديني . فلعلّ كثيراً من دوافع الحروب السابقة ، ومن دوافع هذه الحرب أيضاً يمكن ان يعزى الى روح التعصب الأعمى والكبرياء الزائف والعناد الجاهل دون الاستماع الى صوت العقل

وتحتاج نظم التربية القائمة الآن الى بحث كبير . وقد قال برتراند رسل في نقدها أنها ترمي جميعاً الى احراز التفوق على الغير ، وجميعها مصابة في صميمها بالقسوة الضارية ، واقرار عدم المساواة بين الناس وتمجيد المظالم الاجتماعية . والتربية في معظم الدول ، ان لم يكن فيها جميعاً ، لها دوافع سياسية ، وهي توجه بحيث تعمل على « صك » أطفال كل دولة في القالب

الذي يجعل منهم أداة طيعة لخدمة المطامع السياسية لتلك الدولة . فالهدف الاول الذي يجب ان تتجه اليه المثل العليا لنظم التربية هو تحريرها من سلطان السياسة الطاغي ، حتى تستطيع ان تزرع في أطفال جميع الأمم على اختلافها بذرة النزعة العالمية ليشبوا والعالم كله في روحهم وفي إيمانهم هو وطنهم الأكبر . والاّ فان السلم العالمي عن طريق التربية سيبقى حلماً لا سبيل الى تحقيقه في عالم الحقيقة والواقع

وجميع نظم التربية القائمة الآن تزرع في نفوس المتأثرين بها عادات عقلية تؤذيهم وتحول بينهم وبين النمو الطبيعي الصحيح ، ويذكر برتراند رسل في مقدمة هذه العادات الضارة ، الطاعة والنظام والاندفاع القاسي في الكفاح طلباً للنجاح الدنيوي ، واحتقار الجماعات المعارضة وسرعة التصديق والقبول السلبي لحكمة المعلم ، وهو يرى أن تتجه أهداف التربية بدلاً من ذلك الى المحافظة على الاستقلال والحافز الفردي ، والى تربية روح العدالة في التفكير ، والى تقطير الاحترام ومحاولة فهم الغير ، والى تنبيه النزعة الى الشك المفيد واثارة روح المغامرة العقلية . وبذلك يمكن ان تكون التربية وسيلة لتغذية نمو الفرد بدلاً من ان تستعمل أداة للسيطرة عليه

حينئذٍ تستطيع التربية ان تنشئ جيلاً من الناس يتمتع أفراده بالاستقلال ويمتازون بالقدرة على التفكير تفكيراً متزناً . حينئذٍ تصبح الانسانية جماعات متضافرة متآزرة خالية من الخوف ، زاخرة بالامل ، بعيدة عن الوقوع تحت سلطان فرد واحد مهما يجتمع لهذا الفرد من نواحي التفوق وتتوافر له من مؤهلات الزعامة

وعلم النفس هو الذي مهد لنا ما نعرفهُ الآن من القواعد السليمة في ارشاد الطفولة وعن طريقهِ استطعنا أن ندرك أثر المعاملة السيئة والجهل الأعمى والقسوة في السنين الأولى من حياة الطفل في تكوين الالتواآت والانحرافات المختلفة للعقل فيما بعدها ، فان أثر هذه التجارب السيئة ينطبع في نفس الطفل ثم تجتمع عليها الاحداث الأخرى التي لا يزال الطفل يصطدم بها في بيئتهِ مع الايام . ويكون من جماع هذا كله تلك الصفات الغريبة التي نشاهدها في بعض الناس ، وتلك الصور من الشذوذ العجيب ، وتلك النزعات التي تضعف النشاط العقلي وتفسد التقدير وتنحرف بصاحبها عن السلوك الاجتماعي القويم

وخلاص العالم ، كما يقول برتراند رسل ، رهن بتوفيقنا في أن نعلم الناس ان يكونوا نبلاء دون أن يكونوا قساة ، وان تمتلئ نفوسهم بالايمان مع تفتحها لقبول الحق ، وان يستوحوا الاغراض العظمى في الحياة دون ان يشعروا بالحقد على اولئك الذين يحاولون الوقوف في سبيلهم

الجمال المستور

قصة

للكاتب الارلندي : لورد دنسايني

مضى الصيف وجوركنز لم يحك حكاية ما ، وكثيراً ما كان يتناول طعام الغداء في النادي ولكن عادته لم تجر بأن يقول شيئاً وهو يأكل . ثم كان بعد الغداء يجلس في مقعد وثير ليأخذ نصيباً من الراحة . وما كان ينام ولكنهُ كان يتراخى ، ومع انهُ كان يصغي الى الحكايات التي تحكى ، ويتمتم حيناً بعد حين مستحسناً او مستنكراً ، فانه لم يقص علينا قصة ما. ولم يكن أحد منا يبالي ذلك منهُ في فصل الصيف . فالعناية بالبساتين والحدائق ، والجولف والسباق وغير ذلك من بواعث اهتمامنا في الصيف ، كانت موضوعات يكثر فيها الحديث ويستفيض ، بغير ان تمسّ الحاجة الى قصص جوركنز . وأذكر مرة ان أحد الاخوان قصَّ عليَّ قصة خاصة بحديقته ، لم تكن متسمة بسمة الواقع ، ولكنها فتحت باباً للحديث وأتاحت لمن سمعها ان يبادل هذه القصة بقصة من نوعها . وفي خلال ذلك كلهِ كان جوركنز مسترخياً في مقعده لا يتحرك ولا ينبس . فلما أقبل شهر نوفمبر ، وقصرت الايام وطالت الامسيات وبدأ الضباب يتراخى فوق لندن طبقاً فوق طبق ، بدا لنا ان القصص التي نستطيع نحن ان نقصها لا تشرق فيها أشعة من ضياء الشمس ، ولا ينبث الدفء في تضاعيفها ، ولا توقظ فينا ذكريات الصيف المدبر ، وعندئذٍ كان بعضنا يلتفت طبعاً الى جوركنز . ومهما يُقل في موحيات القصص التي كان يقصها فلم يكن ثمة ريب في أنها قصص أرض تشرق بضياء الشمس وتنعم بدفئها ، وكان هو بارعاً في تصوير ذلك فكنا نستطيبهُ في تلك الامسيات القاتمة الباردة

***

وعلى ذلك اقتربت منهُ بعد ظهر يوم من أيام نوفمبر ، وسمحت لنفسي بأن أبادئه الكلام إذ كان مسترخياً في مقعده . ومع انهُ لم يعرف من أنا ، أولاً ، ولا تتبع اتجاه كلامي ، الا أني فزت بتوجيه نظاره الينا ، فلما أشار أحدنا الى صبواته ، أبرقت عينهُ مع انهُ لم يقل شيئاً . والواقع انهُ لم يتكلم حتى شرب شراباً منعشاً ، لم أبطىء أنا في طلبهِ له

وتوفية ثمنه . ثم وجهت اليه سؤالاً ، ولكنني عنيت عناية خاصة بافراغ ذلك السؤال في قالب يسترعي اهتمامهُ فقلت : قل ، هل منيت في حياتك بخيبة ما مع امرأة ؟

تردد قليلاً وكأنهُ يداعب لفظ النفي البات بين شفتيه ، ولكن هذا اللفظ تجمد بينهما ، وبعد ثوان من التأمل قال

— مرة واحدة . مرة واحدة . كان ذلك قبل سنين وفي جزيرة نائية عن هذه الجزيرة . انها لقصة غريبة . كنت في جزيرة أناكتوس . ولعلك لم تسمع باسمها ، انها جزيرة بعيدة عنا . في البحر المتوسط . وكنا في مستهل الصيف . لقد عبر كلُّ ذلك جسر الزمان الآن . ولكنني رأيتها أولاً في مستهل الصيف وكانت سائرة في طريق تظللهُ أشجار الفلفل في صباح مشرق . كنَّ ثماني عشرة راهبة من راهبات كنيسة الاصلاح . وكان ديرهن في الجزيرة فسهل عليَّ حالاً أن أتبين مأتاها ومغداها . ولكن المشقة كلّ المشقة كانت في مخاطبتها ، بل في رؤية وجهها . لأن هؤلاء الراهبات يسترنَ الجسم كله من قمة الرأس الى اخمص القدم . بل يلبسنَ القفاز لستر الأيدي . انك لا ترى بقعةً ما من بشرتهنَّ . ويقال إنهنَّ يجرينَ على قول مقدَّس عندهنَّ مؤداه : حيثُ تحط ذبابة فهناك مكان لنزغات الشيطان

اذن هذه هي الحالة التي واجهتها . ومع ذلك قام في نفسي أنها جميلة ، بالغة الجمال . ولا أذكر انني في حياتي ، اقتنعت بشيء ما لم يقم عليهِ دليلٌ ما ، اقتناعي بجمالها الذي لا يبارى . كانت هيفاءَ القد تخطو كالغزال ، النافر من أسد الغاب على حوافر لا يسمع لها وقع ولا وطء ، أما شعرها فليس في وسعي أن أصفهُ ، واما عيناها فلم أرهما

كانت الثالثة من اليسار بين اخواتها . فكيف السبيل الى مخاطبتها ؟ ومع ذلك عزمت عزماً قاطعاً على مخاطبتها . وانك لتعلم طبعاً ، انك تستطيع أن تخاطب إحداهنَّ ولو كانت تسير مع سبع عشرة من صويحباتها — اذا فزت باسترعاء نظرها . ولكن كيف تسترعي نظرها وانت لا ترى عينيها ؟ انك لا تستطيع أن تشير اليها باشارة ما خاصة بها . حتى لو تربصت لها بزواية الشارع واشرت اليها عند اقبالها ، . . كلاً كلٌّ ذلك بدا لي متعذراً . فدأبت على التفكير . فخطر لي أن أكتب تذكرة صغيرة وأضعها في طريقها مغطاة بورقة شجرة ، فاذا أقبلت سحبتُ الورقة بخيط دقيق من الحرير ، فتنكشف لها التذكرة . وكنت أعلم موقعها من صف الراهبات ، وما كانت تغيّره يوماً بعد يوم . ولكن فكري هداني الى أن هذه الحيلة لا تجدي اذ لا بدَّ لها من الانحناء لالتقاط التذكرة ، وعندئذٍ تراها اخواتها فتضيع الفائدة وتتعرَّض للعقاب

وشعرت عند ما رأيتها اولاً ، ان الراهبات سيسلكنَ الطريق نفسه يوماً بعد يوم ،

ماعدا يوم جميع القديسين. وقد تحقق ظني. وكنت كلما رأيتهنّ يجزن الطريق ازداد يقيناً بجمالها الذي لا يفوقهُ جمال . وقضيت اسبوعاً أُعمل الفكر فلم اهتدِ . فقد كان يحيط بالدير سور عال وقد غرزت فيه قطع من الزجاج لا تتواءَم شرة انيابها القاطعة مع روح المحبة المسيحية . ولكن السور لم يكن الحائل بيني وبينها، بل تعذُّر وجودها والاهتداء اليها بعد اجتياز السور. واذا أُلقيت اليها بتذكرة من فوق السور فقد تلتقطها واحدة من طائفة كبيرة من الراهبات

وبعد اسبوع خطر لي الخاطر الموفق . وقد كان كجميع الخواطر الموفقة ، غاية في البساطة. ولكن إعمال الفكر هو ما حجبهُ عني . وليس لي فيهِ فضلٌ ما لانني لم أُصبه بالتفكير. ذلك انني كنت سائراً صباحاً ما الى الغابة لأفكر ، فمرت بي للمرة السابعة ، او الثامنة لا أدري ، بقدها الأهيف وخطوها المتئد الكريم ، ويديها المتحركتين كأنهما زهرتان على غصنين يداعبهما النسيم . وكنت في طريقي الى الغابة ، عند ما علقت بثوبي شوكة . وانني لواثق بأنهُ لولا تلك الشوكة لكانت مخاطبتها مستحيلة . لم أكد أمس الشوكة لمساً رفيقاً ، ولكنها لصقت بثوبي فلما حاولت نزعها ازدادت لصوقاً

هنا خطر لي الخاطر الموفق. فقلت : لماذا لا اكتب التذكرة على ورق رقيق وألفها لفاً دقيقاً وألصقها بشوكة كالشوكة التي لصقت بثوبي وأرميها اليها . وفعلاً كتبت : يا اجمل الراهبات هنا ، بل في كل ارض ، يجب ان اخاطبك . قولي لي أين اذهب . واذا أبيتِ فإني هالك هلاكاً ابديًّا

لم أعلق بالعبارة الاخيرة شأناً ما . لأنها امرأة والجمال أحظى بعنايتها من الجحيم ولكنني قلت في نفسي اذا كانت التعاليم الدينية قد جمّدت في صدرها قلب المرأة ، فلعلّ التهديد بذهابي الى الجحيم يحملها على اللين لأن مهمة الراهبات انقاذ النفوس

ولست ادري في الواقع ، أيَّ جزءٍ من هذه التذكرة ، حملها على القبول . لأنها ردت بعد يومين بالطريقة نفسها ، برسالة عالقة بالشوكة نفسها ، وكانت تذكرتها كما يلي : غداً الساعة الخامسة في حديقتنا ، اذا كنت تستطيع ان تتسلق السور، قرب شجرة السنديان

اذا كنت استطيع ان اتسلق السور .. ! كان وزني سبعين رطلاً اقل مما هو الآن، وكانت هناك أجنحة خفية ترفعني... تلك حماسة الشباب

تسلقت الجدار بعد ما صنعت سلماً من قد دخشب ملقاة خارجهُ ، وأخذت قطعاً من الخيش الكثيف لأتقي بها شرة الزجاج ، وربطت حبلاً بشجرة قريبة لأتمكن من الاستعانة به على الخروج . ولم تكن شجرة السنديان ذات نفع في النزول من أعلى السور الى أرض الدير ولكنها حجبتني عن نوافذه

كانت واقفة هناك تنتظرني وبدا لي كأنها غير راضية عما هو حادث ، ولعلَّ ضميرها أنبها لأنها ردت على تذكرتي فأرادت ان تعوض ما بدر منها . فتجهمت أو كذلك بدت لي . ولكنها كانت هناك على كل حال . لا ريب في ذلك . هي بنفسها وجهها منقب ويداها مستورتان كانت كلماتها الاولى : لماذا كتبت في تلك التذكرة، انك هالك هلاكاً ابديـا . ماذا عنيت

فقلت : لأن جمالك سحرني

فقالت : ولكن كيف علمت انني جميلة

فقلت : علمت . . واثقاً

فعادت الى سؤالها الأول . . . ولكن ما دخل الهلاك الأبدي في كل هذا

فقلت : لأنه .... لا يبقى لي شيء آخر في الحياة

فقالت : وكيف ذلك

فقلت : أمر غاية في السهولة . أطفو على وجه الغمر

ولزمت في حديثها هذه المسألة لا تغفلها . الا أنني لم اذهب للقائها لكي أتحدث عن نفسي وخلاصها . ما أكثر ما كنت اريد الحديث فيه . انك تعلم ولا ريب أن موضوع النفس وخلاصها ليس أقرب الموضوعات اليك ، عند ما تكون قرب امرأة جميلة ، تلفها غلالة من السحر والخفاء. ولكنها لم تلتفت الى موضوع آخر ، حتى بدأت ألوم نفسي على كتابة تلك العبارة الأخيرة في تذكرتي .ومع ذلك فلو لم اكتبها، فمن يدري لوكانت بقية التذكرة كافية لاقناعها باللقاء . وحسبت اولاً انني استرعيت عناية المرأة فيها ، وانها تتصنع الاهتمام بمسألة هلاكي وانقاذي من الهلاك . ولكنها لزمت الموضوع ولم تحد عنه . حتى بدأت أشك . أهذا هو موضع البحث في الهلاك والخلاص . بستان دير، وبساط سندسي، وسنديانة عتيقة تحجبنا عن الرقباء ! وأصرت ، وأصررتُ على انه اذا لم يرأف جمالها بي ، فانني ذاهب الى الجحيم

فعادت الى جمالها : — كيف تعلم أنني جميلة . فقلت مخلصاً مؤكداً إنني أعلم ذلك

فضحكت مني ضحكة ساخرة فتحديتها قائلاً : — انزعي هذا النقاب ، وأقيمي الدليل على خطأي

فقالت أولاً « لا » لأن ذلك مخالف لقوانين الدير

فقلتُ لا ! انك سخرتِ بالحقيقة وهزأتِ بي لأنني قلت إنك جميلة . فالحقيقة فوق جميع القواعد والقوانين

وبعد جدل أحسست أنني بدأت أكسب معركة الجدل . لم تكن قد قالت أو لمحت الى أنها ستنزع النقاب ولكنني علمت حقـاً أنها ستفعل، وكانت ثقتي هذه ثقة من يرى برعماً في الفجر

فيعلم انهُ سيغدو نواراً متفتحاً رأد الضحى . وارتفعت يداها الى أعلى رأسها حيث النقاب مجتمع ومشبوك . ثم ألقت يديها ، وبدأت تتحدَّث عن طفولتها . لم تقل لي من هي ولا من أين أتت، ولـكنها أشارت الى شيء رهيب حلَّ ببلدتها عند ما كانت طفلة ، وجعل ينتقل من قرية الى أخرى ، وظلهُ القاتم يستطيل ، تاركاً وراءَ الموت والتشويه — ذلك الشيء كان الجدري ! ثم قالت وهي ترتعش كأنها تخشى ان يسمعها الشيطان تذكر الجمال

— ولعلي كنت جميلة حينئذٍ !

— وما حدث حينئذٍ ؟ سألتها هذا السؤال في رفق،ولـكنني شعرت قبل ان أنطق بالكلمات ان تغيراً ألمَّ بي ، أوكأن ريحاً صرصراً تهبُّ على جذوع شجر التفاح . ذلك ان خوفاً أخذ ينتابني . أيُـعقل ان يكون يقيني في جمالها ، وهماً من الاوهام ؟

وردَّت على سؤالي . الجدري . نجوت بحياتي . أما جمالي (وكانت تلفظ « الجمال » كأن التلفظ بهِ أعظم الخطايا) فلم تبق اثارة منه ، ولم يبقَ لي من قسماتي الاّ اليسير

فتمتمتُ : الاّ اليسير..ولم أجد ما أزيد، ولـكنها استأنفت القول فملأت الفاصل في الحديث

— انك لا تريد الآن ان ترى وجهي ؟

لم يكن ذلك صحيحاً. نعم كادت العبرات تخنقني عندما تصورت حطام ذلك الجمال المنقطع النظير ، ومع ذلك لم أصدّق أنني لا أجد في ذلك الحطام أثراً لتلك الطلعة البهية التي تخيلتها . ولعلَّ التخيل يقصر عن أداءِ المعنى الذي أريد . انني لم أتخيل طلعتها البهية تخيلاً — انني ادركتها بالبصيرة دون البصر

فقلت : — بل اريد ان أراهُ .. حتماً . وقلتُ في نفسي : حتى حطام الطلعة البهية تحتفظ بسمةٍ من مجدها الغابر . ثم ألحت بيَّ رغبة في مؤاساتها ، او في تعويض ما بدا من تردُّد او تعثر او فتور في قولي فقلت :

— ان صوتك لأغن

فقالت : ان اصوات قومي جميعاً أصوات غنٌّ

ولم تكن قد اشارت الى قومها قبلاً فقلت « قومك ؟ . . »

فقالت : نعم ، «الهوتنتوت»

فصحت عجباً : « قومك الهوتنتوت » ؟ !

فقالت في كبر وكأن السخط تملكها : نعم « الهوتنتوت » !

فقلت : ولـكنك تتكلمين الانكليزية

فقالت : الانكليز يحكمون ارض الهوتنتوت

فقلت : وكأنني متعلق بقشة طافية : والدير ، والرهبنة ؟

فقالت : ان ابواب الدير مفتوحة لجميع من يقبل الانتظام في كنيسة الاصلاح

فاستولى عليَّ صمت الكهوف . وسمعت حَفيف الورق يداعبهُ نسيم عليل ضاع في اغصان شجر التفاح . وبعد فترة من الصمت كأنها دهر، قالت ملتفتة اليّ : « ومع ذلك تريد أن ترى وجهي ؟! »

فقلت : « حتماً » .قل لي بربك ياصاحبي أكان في وسعي ان أقول لا . فلما أجبتها بالايجاب ارتفعت ذراعاها الى حيث شبك النقاب وكانت عقده كثيرة فبدأت تحلها عقدة عقدة متمهلة في حلها ، فألقيت في خلال ذلك نظري على الحديقة ، وذهب فكري في أثر النظر ، وكأنني كنت أخشى فعلاً ان أرى وجهها . ورأيت عن بُعد راهبتين تتمشيان على البساط السندسي . ورأيت أثوابهما البيض تستبين وتستخفي بين جذوع الشجر ، وعزمت أن أنبئها بما رأيت وان اقول لها إنه اذا كان نزع النقاب مخالفاً لقانون الدير فلعلّهُ من الخير ألاّ تنزعهُ ولكنّ يديها كانتا مشغولتين بحلّ العقد فلم استطع إلاّ ان أتمتم : « لنرجىءْ ذلك الآن »

ثم نظرت اليها نظرة طويلة ، متذكراً وهمي ، وهم جمالها الرائع وهو وهمٌ لم يفارقني ، وعمدت الى حبلي وقفزت الى أعلى السور ثم الى خارج حديقة الدير

***

قال جوركنز كلماتهِ الأخيرة وهو يحدّق في النار وعليهِ سمة من الكآبة ، فكأن الوهم القديم اشتعل ثانية في خياله وبث الدفءَ في دمه

ورغبت في ان أعرب عن شكري أياه فأشرت الى الخادم . . فكل كلام بعد كلامهِ كان رطانة في غير محلها . ومع ذلك أبى صاحبنا « وتلي » الاّ ان يقول :

— « ان جمالها لم يكن وهماً يا جوركنز »

فقال جوركنز : — ماذا تقول !

— ان جمالها لم يكن وهماً . فراهبات كنيسة الاصلاح أجمل بنات تلك الجزائر . والدير يتخيرهنّ بأعظم عناية . وكلما فازوا بضمّ فتاة بارعة الجمال الى الرهبنة عدّ ذلك ظفراً عظيماً على الشيطان .. وهنَّ جميلات حقًّا !

فقال جوركنز . . ولكنَّ فتاة من الهوتنتوت ... شوّه الجدريّ جميع ملامحها !

— آه ! انهنّ يقظات . وشعارهنَّ : كوني أشدّ مكراً من الشيطان :

فشرب جوركنز قدح الوسكي كرعة واحدة ، فأشرت الى الخادم بأن يأتيهُ بآخر ، وعند ما خرجت ، كان لا يزال جالساً امام الموقد كأنهُ يبحث عن شيءٍ ضاع في اللهب !

(نقلت عن الانكليزية بتصرف يسير)

قلب الفيلسوف

للتجاني يوسف بشير (١)

مغداك في جحر الآباد مغداه ... وفوق دنياك في الايام دنياه
ودون مغناك من أبهاء شامخة ... كوخ « النبي » وفي علواء مغناه
أطلّ من جبل الأحقاب محتملاً ... سفر الحياة على مكدود سيماه
عاري المناكب في أعطافه خلق ... من العطاف قضى الا ّ بقاياه
مشى على الجبل المرهوب جانبه ... يكاد يلمس مهوى الارض مرقاه
يدنو ويقرب منك الذرى أبداً ... حتى رمي بعظيم في حناياه
منبأ من سماء الفكر ممسكة ... على الرسالة يمناه ويسراه
يرمي سواهمَ أنظار منفّضة ... أقصى العوالم من عينيك عيناه
أوفى على الارض مأخوذاً وطاف بها ... مشرّد النفس، لا مال ولا جاه
يطوى ويظما حتى ما تبين على ... ما فيه من حرقات الجوع ساقاه
يستفسر الناس ماذا عند عالمهم ... وليس يعرف شيئاً من طواياه

***

يا ناصع الجيب لم يعلق به وضرٌ ... من الحياة ولم يأخذ بنجواه
هنا العدالة في أسمى معالمها ... مُسَوَّدٌ دميتْ بالظلم كفاه

***

ومن يضرب في الدنيا على ألم ... ضافٍ وتوغل بين الكون رجلاه
يثور بين حنايا صدره أمل ... ضخم الجوانب لم يسعد بعقباه
وراح يجمع أطماراً مرفأةً ... مزيقةً عريت منهنّ عطفاه
حتى أتى جبل الاحقاب وهو به ... أحني وأحدب، فاستبكى فأساه
وقام بين الرعان البيض ملتفتاً ... يصيح في الارض من أعماق دنياه
في موضع السرّ من دنياي متسع ... للحق أفتاً يرعاني، وأرعاه
هنا الحقيقة في جنبي، هنا قبس ... من السموات في « قلبي » هنا « الله » !

---

(١) شاعر سوداني ولد ومات بالسودان (١٩١٢ — ١٩٣٧)

رأي في :

الغذاء مصدر

جميع انواع القوى الحيوية العقلية

للاستاذ نصيف المنقبادي المحامي[1]

تستهلك الكائنات الحية كميات من الطاقة . فهي تتحرك ذاتياً حركات خارجية اختيارية (في الظاهر) كما يحدث في الحيوانات وفي النباتات آكلة الحشرات ، وحركات داخلية غير اختيارية كحركة القلب والرئتين والمعدة والامعاء وحركة فصيلة النباتات الطحلبية المسماة « بالمهتزة » ، وحركة اجزاء الخلايا الحية النباتية والحيوانية الخ . والحركة هي صورة من صور الطاقة او مظهر من مظاهرها المسماة « بالطاقة الميكانيكية » . والكائنات الحية مسرح لكثير من التفاعلات الكيميائية المتنوعة تتركب على أثرها مركبات ومواد عضوية وحيوية لا عداد لها في الحيوانات وفي النباتات على السواء . وهذه المواد لا يمكن ان تتركب الا بفعل الطاقة ايضاً . وتجري في الحيوانات تيارات كهربائية خفيفة في العضلات وفي المخ وسيأتي الكلام عليها فيما بعد . وتتولد في بعضها شحنات كهربائية قوية كما هو الحال في بعض السمك كالسمك الرعاش الذي يعيش في النيل وغيره مما يعيش في البحار . وينبعث من حيوانات أخرى انوار مثل الحشرات المضيئة وبعض الاسماك والحيوانات البحرية الاخرى التي تعيش في قاع البحار العميقة . ولا يخفى ان الضوء هو صورة من صور الطاقة . وتنشأ في الكائنات الحية حرارة على درجة ثابتة في الطيور وفي ذوات الثدي ومنها الانسان ، وبطريقة غير ثابتة في الحيوانات الاخرى وفي جميع النباتات وعلى الاخص حيث تجري تفاعلات كيميائية ونمو سريع

فمن أين اتت جميع صور الطاقة هذه التي تعمل في الكائنات الحية وتديرها ؟ لا يمكن ان تكون قد أتت من العدم لأن الطاقة لا يمكن ان تخلق وهي كالمادة لا تنعدم[2]

(١) من محاضرة ألقيت في نادي أبي الهول بالقاهرة

(٢) اذا كان العلم الحديث قد بين أن المادة تتحول الى طاقة فان ذلك لا ينصب حتى الآن الا على مقادير يسيرة جداً من المادة والطاقة وفي أحوال خاصة . أما تحول الطاقة الى مادة في رحاب الفضاء بحسب ما قال ما كن فلا يزال رأياً تعززه بعض الاعتبارات الفلسفية ولكن لم يؤيد تأييداً علمياً — المقتطف

ولا بد ان تكون هذه الطاقة قد اشتقت من مصدر آخر من مصادرها الاخرى . والواقع انها اشتقت من الغذاء اي من الطاقة الكيميائية الكامنة في المواد الغذائية التي تتناولها الكائنات الحية جميعها بلا استثناء من حيوانات ونباتات،وهي الطاقة التي تنتج من احتراق تلك المواد في نُسُج الاحياء وخلاياها . ولا يخفى ان النباتات تتغذى كالحيوانات وتتناول لغذائها نفس المواد الغذائية وهي المواد الزلالية الرباعية المكونة من كربون واكسجين وايدروجين وآزوت والمواد الثلاثية الدهنية والايدروكربونية (السكر والنشا) . والفرق بينهما هو ان الحيوانات تستولي على تلك المواد جاهزة من النباتات إما مباشرة كالحيوانات النباتية وإما بطريق غير مباشر كالحيوانات آكلة اللحوم التي تعيش على الحيوانات النباتية . أما النباتات فانها تركب اولاً تلك المواد التي تتغذى بها بواسطة المادة النباتية الخضراء(اليخضور او الكلوروفيل) بفعل طاقة ضوء الشمس ثم تستهلكها بعد ذلك ، وتستثنى النباتات الفطرية (Champignons) فانها لا تحتوي على الكلوروفيل فلا تستطيع ان تركب غذاءها تركيباً من الأرض والماء والهواء كما تفعل النباتات الخضر . ولهذا فانها تعيش جميعها طفيلية على الحيوانات والنباتات الأخرى الحية والميتة أو على اجزائهـا ، تمتص موادها بعد هضمها بخمائر كخمائر الهضم الحيوانية.وعلى هذا تكون النباتات الفطرية الحلقة المتوسطة بين الحيوانات والنباتات فهي نباتات من جهة احتوائها على مادة السيليلوز التي تتكون منها جدران خلاياها ، وحيوانات من جهة كيفية تغذيتها .وفي هذا الدليل على تسلسل الحيوانات والنباتات من أصل واحد وهو الجمادات

نعود الى الغذاء فنقول ما هو وما الغرض منهُ ؟

ليس الغرض الاصلي من الغذاء بناء اجسام الكائنات الحية لأن الفرد منا بعد ان يتم نموه (في سن الواحد والعشرين تقريباً في البشر) يحتاج مع ذلك الى الغـذاء ويتناوله باستمرار مدى الحيـاة دون ان يزيد جسمه او ينقص الاَّ في أحوال استثنائيـة . وانما الغرض الاصلي منهُ هو أن تحترق المواد الغذائية بعد هضمها وامتصاصها او تتأكسد داخل نُسُج الجسم وخلاياه فتتولد الطاقة اللازمة للقيام بعمليات الحياة المختلفة من تحرك الى افراز الى تولد الى هضم وامتصاص وتركيب مواد جديدة ونمو الخ وفي النهاية الى حرارة

وهناك غرض ثانوي من الغذاء وهو بناء الجسم في أثناء نموه وتعويض ما استهلك منهُ بعد ذلك مدى الحيـاة . ومن أجل هذا وجب ان يشتمل الغذاء على مقدار من المواد الزلالية الرباعية التي تتكون منها نُسُج الجسم وخلاياه . ولوكان الغرض فقط توليد الطاقة لكانت المواد الثلاثية كالمواد الدهنية والمواد الايدروكربونية (السكر والنشا) كافية . والواقع ان الانسان

او الحيوان يموت بعد فترة من الزمن لو اكتفى بهذه المواد الاخيرة ولا بد ان يشتمل الطعام على شيء من المواد الزلالية الآزوتية

وقد دل الاختبار على أن المواد السكرية والنشوية هي التي يستهلكها الجسم على الأخص في الأعمال اليدوية والجسمانية ولهذا يجب ان تكثر في غذاء العمال والحيوانات التي يستخدمها الانسان في اعمال النقل والزراعة . أما المواد الدهنية فان الجسم يستهلكها على الاخص لمقاومة البرد لأنها تولّد كميات من الحرارة (الكالوري) اكثر مما يولّدهُ غيرها ولهذا فانها تسود موائد الطعام في البلاد الباردة

وتظهر مهمة الغذاء باعتباره مصدراً للطاقة بطريقة محسوسة في الحيوانات ذات الحرارة الثابتة : الطيور وذوات الثدي ، ومنها الانسان . فان هذه الحيوانات تحتفظ بحرارتها الثابتة في جميع الأحوال الجوية ، لا تزيد ولا تنقص الاّ في حالة المرض ، فاذا اشتد البرد زاد احتراق المواد الغذائية المدخرة في الجسم ، واذا زادت الحرارة الجوية قل الاحتراق . ومن أجل هذا نرى حاجة هذه الحيوانات الى الغذاء في الشتاء أكثر منها في الصيف خلافاً للحيوانات الأخرى وهي باقي الحيوانات الفقرية وجميع الحيوانات اللافقرية

وقد وضع الفسيولوجيون جداول بكميات الحرارة (الكالوري) التي تتولد من احتراق كل مقدار معين من كل صنف من أصناف الطعام في الجسم بعد هضمه وامتصاصه ونجد هذا في قوائم الأطعمة في المطاعم المجاورة للجامعات في كثير من مدن اوربا وأميركا فيختار الانسان الاصناف التي تتفق والعمل الذي يعملهُ

وقد قام بحث طويل بين علماء الفسيولوجية بشأن الخمر وهل هي غذاء او لا . فلا شك في ان الخمر تحترق في الجسم وتولد قدراً من الحرارة . ولكن ثبت من الابحاث العلمية الدقيقة انها لا تدخر في الخلايا ولا تحترق فيها وانما تحترق في الشرايين والاوعية الدموية وكذلك أحماض الفواكه . والرأي الغالب ان الخمر من الوجهة النظرية غذاء ناقص ، غذاء يقتصد به الجسم من الاغذية الاخرى المدخرة فيه ولذلك يسمونهُ : (Aliment d'épargne) لان الحرارة التي تنتج من احتراق الخمر وأحماض الفواكه توفر على الجسم احتراق المواد الغذائية الكاملة المتوفرة فيه لمقاومة البرد مثلاً عند اشتداده . على ان قليلاً من المواد السكرية او الدهنية يغني عن تلك الحرارة . هذا الى ان مضار الخمر اكثر من فوائدها فليس لذلك البحث منزلة الاّ من الوجهة النظرية العلمية فقط .

***

وتسلك الطاقة في تطورها وتحولها داخل الاجسام الحية نفس الطريق الذي تسلكه في

جمادات الطبيعة اي وفقاً للنواميس الطبيعية ، ذلك بأن صور الطاقة العليا يتحول بعضها الى بعض وتتحول جميعها في النهاية حتماً الى صورتها السفلى وهي الحرارة . وان الحرارة لا تتحول الاّ جزئيًّا الى صور الطاقة العليا وبشرط ان تكون (الحرارة) على درجة مرتفعة

نقول ان هذا هو الذي يحدث في الكائنات الحية ، فان الطاقة التي تديرها وتعمل فيها تدخل عليها في إحدى صورها العليا وهي الطاقة الكيميائية الكامنة في مادة الغذاء ، وهذه الطاقة تتحول داخلها بالتأكسد والاحتراق الى طاقة ميكانيكية (الحركة) والى طاقة كيميائية أخرى نتيجة التفاعلات التي تحدث داخل الخلايا والنُسُج الحية ويترتب عليها تكوين مواد عضوية جديدة ، والى كهرباء دائمة في العضلات وفي الاعصاب وفي المخ او كهرباء استثنائية في بعض الحيوانات كالسمك الرعاش الذي أشرنا اليهِ فيما تقدم لنا من الكلام ، والى ضوء في الحيوانات المضيئة ، وفي النهاية الى حرارة ثابتة في الطيور وذوات الثدي التي منها الانسان وغير ثابتة في الحيوانات الاخرى . وهذه الحرارة تشع في الفضاء على درجة منخفضة ولا يتحول منها شيء الى صور الطاقة العليا الاّ القليل الذي يساعد على تكوين المواد الكيميائية العضوية الجديدة . ومن الخطأ القول بان الطاقة الكيميائية الكامنة في مادة الغذاء تتحول في اجسام الكائنات الحية الى حرارة ثمَّ تتحول هذه الى صور الطاقة الاخرى اللازمة لاعمال الحياة كحركات الجسم المختلفة وكتركيب المواد العضوية الجديدة وكالكهرباء والضوء ، بل ان الحرارة هنا ليست الاّ افراز صور الطاقة الحيوية مثلها مثل المادة البولية والصفراء وغيرها من افرازات الجسم الناتجة من استهلاك المواد الغذائية في الجسم وتحولها فيهِ

واننا لنجد في تماثل تحول صور الطاقة في الكائنات الحية وفي الجمادات ، وعلى العموم في انطباق نواميس الطاقة — وفي مقدمتها ، ناموس بقائها وعدم تلاشيها — على الاحياء دليلاً آخر على وحدة الكائنات الحية بما فيها الانسان والجمادات واشتقاق الاولى من الثانية طبقاً لنواميس الطبيعة التي تدير الكون بأسره

***

وخلاصة القول ان الحياة هي نتيجة احتراق او تأكسد المواد الغذائية بعد هضمها وامتصاصها داخل الخلايا والنُسُج حتى انهم عرفوا الحياة بانها احتراق مستمر (La vie est une continuelle combustion) وما الغذاء الاّ وقود الكائنات الحية كما يحترق الفحم و النفط في الآلات الميكانيكية فتتولد الطاقة اللازمة للقيام بأعمالها . وما أجسام النباتات والحيوانات بما فيها الانسان الاّ آلات تحول الطاقة الكيميائية الكامنة

في المواد الغذائية الى طاقة ميكانيكية ، والى طاقة كيميائية اخرى والى كهرباء ، وأحياناً الى ضوء أيضاً وأخيراً الى حرارة

وقد أراد علماء الفسيولوجيا ان يتحققوا : هل العوامل الطبيعية — وبعبارة أدق ، الطاقة الناتجة من احتراق المواد الغذائية في الاحياء — هي التي تدير بمفردها الكائنات الحية أو هناك عوامل أخرى من وراء الطبيعة تشترك معها في ذلك

فمن أجل ذلك صنع اثنان منهم وهما الاميركيان اتوتر وبنديكت جهازاً خاصًّا هو كالوريمتر كبير في حجم غرفة ، من مواد تحفظ الحرارة وتمنع تشععها الى الخارج مثل المواد التي يصنع منها (الترموس) وفي جوانبه أدوات دقيقة تقيس كل كمية من الحرارة توجد فيه كبرت او صغرت ، وقد وضعا فيه شخصاً وأحكما غلقه عليه ، ويخترق هذا الكالوريمتر تيار من الهواء يمر في أنابيب مصنوعة خصيصاً ومركبة عليها آلات للتحليل والقياس ، فيقيسون مقدار ما يدخل من الهواء وما يشتمل عليه هذا الهواء من الأوكسيجين ، وغاز الحامض الكربونيك ، وكذلك مقدار الهواء الخارج من الجهة الأخرى وما نقص منهُ من العنصر الاول وما زاد عليه من الغاز الثاني ، والفرق يدل بطبيعة الحال على كمية ما احترق مدة التجربة داخل جسم الشخص الجالس في الكالوريمتر من المواد الغذائية المدخرة في أنسجته وخلاياه

ومن جهة أخرى يقيس الكالوريمتر كمية الحرارة (الكالوري) التي تتشعع من جسم ذلك الشخص والحرارة (الكالوري) التي تتحول اليها في النهاية الحركات المختلفة التي يقوم بها كحركاته الذاتية وكحركات أعضائه الداخلية كالقلب والرئتين الخ فكانت النتيجة ان الطاقة التي تنتج من احتراق المواد الغذائية المدخرة في الجسم تساوي تماماً بالارقام الدقيقة الطاقة التي تعمل في الجسم وتتحول في النهاية الى حرارة

وكان بعض الفسيولوجيين قد أجروا قبل ذلك مثل هذه التجارب على حيوانات مختلفة فكانت النتيجة واحدة

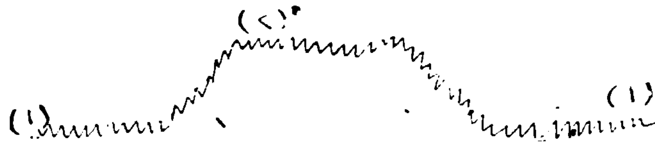
ومعنى هذا انه لا تعمل في الكائنات الحية بما فيها الانسان ولا تديرها سوى القوى الطبيعية ، وان هذه القوى ليس لها الاّ مصدر واحد وهو الغذاء أو بعبارة أصح الطاقة الكيميائية الكامنة في مادة الغذاء وليس شيء آخر سواها

***

وحتى التفكير والقوى العقلية فقد دلت الاختبارات والمشاهدات العديدة على انها تستنفذ قدراً من الطاقة الناتجة من احتراق المواد الغذائية المدخرة في خلايا المخ والتي يوردها

الدم الى ذلك العضو. واننا نكتفي بوصف التجربة الآتية اثباتاً لذلك : فقد صنعوا جهازاً خاصاً دقيقاً لقياس كل زيادة تطرأ على حجم المخ مهما تكن طفيفة ، يستخدمون هذا الجهاز في اشخاص يكون قد أصابهم كسر في الجمجمة وتفتتت قطعة من عظمها حتى صار مكانها مكشوفاً لا يغطيه الاّغشاء من نسيج دقيق ، ويصنعون قطعة من معدن الفضة على رسم الجزء المكشوف من الجمجمة وفي حجمه ويغطونه بها حتى تلبسها تماماً ، وتتفرع من قطعة الفضة هذه انبوبة من المطاط تدل على اقل زيادة او احتقان يطرأ على المخ وترسمهُ رسماً

يرسم هذا الجهاز في الحالة الاعتيادية خطاً متعرجاً ولكن مستواهُ او ارتفاعهُ واحد في مجموعه ، وهذه التعرجات هي اثر نبض القلب. ويكلفون الشخص الموضوع عليه الجهاز القيام بأعمال عقلية بان يطلبوا منهُ مثلاً اجراء عملية حسابية ، حتى اذا بدأ في التفكير اخذ حجم مخه في الزيادة بورود مقدارٍ اضافي من الدم اليه يدلُّ على ذلك ارتفاع مستوى الخط المتعرج الذي يرسمه الجهاز كما يحدث في كل عضو يؤدي وظيفته لأن الدم يحمل اليه الغذاء الذي يحترق فيه لقيامه بوظيفته، وعندما ينتهي ذلك الشخص من العملية العقلية ويدلي بالجواب يرجع مخه الى حجمه الطبيعي بأن ينزل الخط المتعرّج الى المستوى الاصلي كما يبينه هذا الرسم



(١) مستوى الدم في المخ في اثناء الراحة العقلية

(٢) زيادة مقدار الدم في المخ في اثناء التفكير

يؤيد هذا ايضاً التجارب التي قام بها كل من شيف من جهة وموسو من جهة اخرى ، فان كليهما استعان بآلات دقيقة جداً لقياس درجة حرارة المخ على مثل ذلك الشخص المكسورة جمجمته . وقد صنعت خصيصاً على أساس الكهرباء وهي شديدة الإحساس تقيس جزءاً صغيراً من درجة الحرارة الواحدة . وقد دلت هذه الآلات بطريقة ظاهرة على ان حرارة المخ ترتفع قليلاً في اثناء التفكير وهذا الارتفاع لا يمكن ان يأتي الاّ من ورود قدر من الدم الى ذلك العضو لتزويده بالوقود (الغذاء) شأن كل عضو في حالة العمل

ويؤيد هذا ايضاً ازدياد مقدار المواد الفوصفاتية في بول الذين يزاولون الاعمال

العقلية المتواصلة كما يدل على ذلك التحليل الكيميائي ، وهي تنتج من احتراق المواد الغذائية الفوصفورية المدخرة في المخ مثل الليستين . او التي يوردها الدم الى ذلك العضو

ويؤيد هذا ايضاً التعب الذي يحل بالجسم عقب القيام بالاعمال العقلية المضنية . ثم ما هو معروف للجميع من ان الطفل يكون عند ولادته عديم التفكير ثم تأخذ قواه العقلية في النمو بنمو مخه مع باقي جسمه ، وان كثيراً ما تضعف هذه القوى في الشيوخ حينما يتيبس المخ وتتصلب شرايينه ويذهب فريسة كريات الدم البيض المفترسة ، او حينما يتناول الانسان مقداراً من الخمر او يصاب بحمى شديدة او بأي مرض يؤثر في المخ فلو كان التفكير نتيجة عوامل من وراء الطبيعة لما أثرت فيه هذه المؤثرات المادية ولما شعر الجسم بتعبٍ ما من القيام بأشغال عقلية

غير ان المشاهدة دلت على ان التفكير والاشغال العقلية لاتستهلك الا كمية قليلة لاتذكر من الطاقة ، ذلك لانها لاتستدعي تحريك عضلات ولا افراز غدد ولا عملاً شديداً ما وانما هي تنتج على الاخص من اتصال بعض خلايا المخ بالبعض الآخر واتجاه بعض التيارات العصبية من فريق منها الى فريق آخر يشبه هذا الآلات الميكانيكية الحاسبة التي تستعمل في المخازن التجارية ، فانهُ يكفي ان يضغط العامل على زرٍ مقابل رقم من الارقام ويدير بيده مقبض الآلة فيظهر الرقم المطلوب أمامه مكتوباً على لوحة صغيرة وتطبعه هذه الآلة على ورقة صغيرة تدفعها الى خارجها ، وجميع هذه العمليات الدقيقة هي نتيجة حركة بسيطة من يد العامل لاتستهلك الا مقداراً طفيفاً من الطاقة ؛ وانما تتم هذه العمليات نتيجة اتصال أجزاء الماكينة الداخلية بعضها بالبعض الآخر واتجاه العمليات نحو النتيجة المقصودة . وكذلك الحال في المخ

***

ولا يفوتني هنا — تأييداً لما تقدم أيضاً — ان أشير بايجاز الى بحث جديد على جانب عظيم من خطر الشأن سيكون له بلا شك أثر كبير في المستقبل القريب ليس فقط من الوجهة النظرية بل في التطبيقات الطبية العملية ، والمتوقع ان يوصل الى نتائج جليلة النفع ، وأعني بذلك كهرباء المخ [1] التي درسها وبحثها أخيراً العالم الالماني هانس برجر سنة ١٩٢٩ فانهُ وضع سلكين من المعدن على صدغي رجل ووصلهما بأنبوب مفرغ وهو يقوي التيارات الكهربائية ويبينها بوضوح وربط طرفي السلكين بعد خروجهما من الانبوب بآلة «الكترسكوب» فاتضح

(١) هذا البحث مفصل في كتاب « آفاق العلم الحديث » لرئيس تحرير المقتطف صفحة ٢٢٤ وما بعدها

له وجود تيار كهربائي بين جانبي الرأس . وعلى هذا صنع جهازاً لرسم تموجات هذا التيار سماه « الكتروانسيفالوجراف » . ومما يبعث على الدهشة في نطاق موضوعنا هو أن رسم الموجات الكهربائية يختلف في أثناء التفكير والاشغال العقلية عنهُ في أوقات راحة المخ فاذا كلف الشخص المركب هذا الجهاز على رأسهِ إجراءَ عملية حسابية مثلاً فلا تلبث الأمواج الكهربائية حتى ترتسم على شكل أسرع وأقصر . واذا انتهى ونطق بالجواب عادت النموذجات الموجية الى شكلها الأصلي العادي ، وهذا يدل على أن التفكير انما هو عملية مادية محض كباقي الأعمال الفسيولوجية التي تقوم بها أعضاء الجسم المختلفة ، وانهُ (أي التفكير) يستدعي إنفاق كمية من الطاقة ولو قليلة شأنهُ شأن باقي الاعمال الحيوية المادية الأخرى

ومن عجائب هذا الاكتشاف ان الموجات الكهربائية التي يرسمها ذلك الجهاز تختلف في النوم عنها في اليقظة . واذا حدثت أصوات عرضية في الشارع مثلاً او في الغرفة المجاورة للنائم ، فان الجهاز يرسم أمواجاً أخرى تختلف اختلافاً آخر . واذا وجه الانسان الكلام الى النائم بصوت منخفض لا يوقظه رأيت شكل الموجات يتغير ، وهذا يدل على ان المخ دائم التفكير في اليقظة وفي النوم وانهُ مسرح لتفاعلات من الطاقة لا حدَّ لها ولا نهاية

ومما دلَّ عليه هذا الجهاز الذي نحن بصدده ان النوم المغناطيسي ليس نوماً بالمعنى الحقيقي وانما هو ظاهرة مخية طبيعية مجهولة

وأغرب من هذا أنهم وضعوا هذا الجهاز على رؤوس أشخاص مصابين بمرض الصرع فكان يدل مقدماً على قرب قدوم نوبة ذلك المرض قبل وقوعها

وما زالت الابحاث والتطبيقات تجري للانتفاع بهذا الاكتشاف الجديد العظيم الشأن . فلو كان التفكير نتيجة عوامل من وراء الطبيعة لما أثر في هذا الجهاز المادي ولما كان لهُ صلة ما بالطاقة وتحولاتها

وبالجملة فان التفكير ليس له الاَّ مصدر واحد وهو الطاقة الكيميائية الناتجة من احتراق المواد الغذائية في خلايا المخ

ولا يسعني الاّ ان اختم هذا الحديث بالعبارة التي ختم بها استاذي المأسوف عليه العلامة فريدريك هوسيه دروسه عن البيولوجيا في جامعة باريس « السوربون » حين كنت اتلقى العلم في ذلك العهد السعيد وهي : Donc, dans la nature tout vit ou rien ne vit ومعناه : « اذن فكل ما في الطبيعة حي او ليس فيها حي » أي انه لا يوجد فرق جوهري ما بين الكائنات الحية وبين باقي ما في الطبيعة من اجسام اخرى معدنية او جمادات . آه

ماذا أعددنا للطفولة ؟

للاستاذ محمد العشماوي بك

تحدثنا في شأن الطفولة أحاديث شتى وتناولنا بالدرس نواحيها المختلفة . ولكنها مع ذلك في حاجة إلى مواصلة الدرس ومتابعة الحديث ، فاننا اذا أغفلنا الطفولة ، ولم نولها من العناية أوفر قسط ، كان مثلنا كمثل من يفرط في رأس ماله لا يلبث أن يُعدم عما قليل

وأوجب ما يجب على المصلح قبل الدعوة إلى الاصلاح وقبل المشاركة فيه أن يلقي نظرة فاحصة على الميدان الذي يقبل عليه وإلا كان مثله كمثل قائد جيش في معركة لم يزود بدراسة وافية لميدان القتال حتى يعد له ما يكافئه من جنود وعتاد . فاذا أعددنا نحن للطفولة ؟ هل أعددنا القادة ؟ وإذا كان بعض الدعاة إلى الاصلاح قد اختاروا هذا الميدان لنشاطهم الاجتماعي فهل توافرت لهم دراسة الطفولة دراسة مستندة إلى بحوث تربوية وخلقية وصحية واقتصادية ، وهل تعرفوا طفولة الريف والحضر ، وهل تعرفوا طفولة الفقر والغنى ، وهل تعرفوا الطفولة في معاهد التعليم ما أُعد منها لعامة الناس وما أُعد للخاصة ، وهل تعرفوا الطفولة المجرمة أو التي على أبواب الاجرام وكيف يتسنى تجنيبها هذا المصير ، وهل قرنوا الدراسة بموازنة بين أحوالنا وأحوال الأمم الأخرى في هذه السبيل ، وتبينوا كيف أنقذ غيرنا الطفولة وأنشأوها صالحة تنبت في الغد رجالاً صالحين ؟ ؟

الحق أننا لا نزال في ميدان إصلاح الطفولة نرتجل ونتخبط . وما نقيمه من المؤتمرات ضيق الدائرة سطحي الدراسة ، وهو مع ذلك لا يلقى عناية من أحد ، فلا اشتراك فيما ائتمر فيه المؤتمرون ، ولا تنفيذ لما هداهم اليه الدرس من الخطط والقرارات

هذا على حين أن الطفولة في طليعة المشكلات التي تتقاضانا مزيداً من الرعاية والاهتمام فعلينا أولاً أن نعد القادة الذين نعهد اليهم في القيام بالاصلاح فنزودهم بدراسات وافية تمكنهم من تعرف الأدواء ووسائل العلاج . ولتكن تجاربنا لهم في دائرة ضيقة حتى يؤتي الجهد ثمرته . أمامهم مثلاً مرحلة التعليم الأولي والابتدائي وهي مرحلة حضانة للطفل . فهل

نجد لها الآن طابع الطفولة في تيسير اسباب اللهو وتنشيط المشاعر وتربية الملكات الغضة، وهل وكلنا التعليم الاولي والابتدائي الى النساء ؟ يخيل اليّ ان الطفل في مرحلة التعليم الاولي والابتدائي يجد جفوة في التدريس وعسراً في الفهم ويعاني حياة لا تلائم حاله كل الملاءمة . فهذه المرحلة من التعليم تعوزها الأركان الأساسية لدور الحضانة . تعوزها جهود المرأة وروحها ورعايتها . ويكفي القاء نظرة على التعليم الابتدائي والثانوي ليظهر ضعف الفوارق بينهما . في الروح والجو وظروف المكان

والطفل في مرحلة التعليم الابتدائي لاغنى له عن اللهو فهو من عوامل نمائه العقلي والخلقي ومن واجبنا ان نعنى اذن بلهو الطفل حتى يعود وسيلة للتثقيف والتربية ينمّي فيه الذوق وحب النظافة ودقة الملاحظة وبعد النظر . وعلينا ألاّ نفرض اللهو عليه فرضاً كالتعليم بل ندعهُ يقبل عليه في رغبة وشغف، بيد أننا نقف منهُ على مرقبة فنجنبهُ اللهو الضار المفسد لمشاعره وأخيلته . فهل نهضنا من ذلك بشيء ؟ هذه رياض الاطفال قائمة. وأشهد أنها محاولة موفقة، ولكن ما عددها ، وما عدد الاطفال الذين يتفيأون ظلها ؟ انها ارستقراطية مترفة نعنى فيها بالعشرات او المئات لا بالآلات واللايين .... فاذا شئنا صلاحاً فلنجعل التعليم الأولي كله رياض أطفال للفقراء ولنبتعد في أوضاعها عن الزخرف. ولنجر في أنظمتها على التبسط حتى ندنو من مستوى أولئك الاطفال فنستطيع فيما بعد النهوض بهم الى المستوى الاجتماعي اللائق

لقد كنت أرقب عن كثب ما أعد للاطفال من معاهد، فأرى معاهد التعليم الأولي تضم مليوناً من الاطفال على حين ان الذين في سن التعليم الاولي كما أعلم يقربون من ثلاثة ملايين أو اكثر، وإذن فهناك مليونان لا يأخذون من هذا التعليم قسطهم الضروري. واني اسأل نفسي هل أعدت مدارس التعليم الأولي لتربية الطفولة ، وهل هيء أساتذتها لهذه المهمة السامية ، وهل اختيرت أمكنتها صالحة وافية ، وهل وضعت براجها نافعة مجدية ؟ إني لأرجو ألاّ أكون ظالماً للتعليم الأولي اذا قلت ان كثيراً من معاهده وعلى الاخص في الاقاليم محابس يحشر فيها الاطفال كرهاً على الرغم من ذويهم الفقراء الى عونهم . يحشر الطفل السليم هناك مع المريض الشاذ ، والذكي الى جانب الغبي ، والصغير مع الكبير، فاذا قضى أولئك فترة في هذه المحابس غادروها الى محيط الجهالة والأمية لا ندري ماذا أفادوا ولا يدرون السبيل الى الانتفاع بما يكونون قد درسوه . ثم اذا بهذا المحيط يطغى عليهم فيعودون أميين كما كانوا .... وكثيراً ما كانت تروعني هذه الحال ، فلا أبرح أدعو الى ضرورة وضع أسس جديدة للتعليم الأولي تجعله مثمراً في الحياة فاصلاح العشر خير من افساد الجميع . وقد نبتت فكرة ترمي الى ان يوكل التعليم الأولي الى النساء خاصة ، فهنَّ على القيام بأغراضه أقدر ، ولطالما

حبذت هذه الفكرة وجهرت بأن لحضانة الطفل فترة مقررة يقضيها في أحضان النساء فكيف نلقي به خلالها في يد الرجل . فكان الجواب في محيط هـذا التعليم الهتاف بسقوط تأنيث التعليم الأولي !!

ولنترك التعليم الأولي جانباً فلهُ رجاله الموكلون بهِ ، ولنرج لهم التوفيق فيما يبذلونهُ في اصلاحه من جهود مشكورة نرتقب ان تؤتي ثمرتها قريباً ، وننظر فيما أعددناه من مؤسسات للطفولة والأمومة . كل ما أعددناه مستوصفات قليلة العدد في بعض العواصم ومستشفيات محدودة العدد في الاقاليم لا تتسع لشعب مريض ، يقوم عليها اطباء لم يتفرغوا لهذا الواجب كل التفرغ ولا يفي عددهم بالحاجة ، وبها عيادات خارجية لا تستطيع ان تنهض بهذا العبء وبذلك لا يتسع الوقت ولا تتوافر الوسائل الكافية لفحص أو تشخيص مثمر مما قد يؤدي إلى إعطاء الدواء ارتجالاً ان أفاد مرة فقد يضر بضع مرات . وهناك الحوامل من الفقيرات وأوساط الناس لا يلقين رعاية في الحمل والولادة والرضاعة ، وربما كان القليل من هذا ميسوراً في الحواضر على طريقتنا في الاصلاح نرفه عن المدن ونحرم الريف فلا نعطي لليد العاملة في الزراعة قسطها من الرعاية، تلك اليد التي تعيش في الريف ولا تغادر الريف ويقوم على أكتاف ذويها صرح الثروة القومية للبلاد

فان كنا ننشد إصلاحاً فلنعن بالطفولة في الريف والحواضر ولتكن عنايتنا سابقة مبكرة فالطفل في حاجة الى العناية منذ نشوئهِ جنيناً في بطن أمه. وكلما نضج احتاج الى لون من الرعاية جديد يلائم تطوره ونموه . وما دامت أغلبية الامهات عندنا أميات لم يصلنَ بعد الى لون من المعرفة ، فعلى الدولة واجب النهوض بالعبء وذلك بانشاء مؤسسات كافية لتربية الاطفال ورعايتهم حتى نجنبهم خطر الحضانة الضارة وأثر الأم الجاهلة

على ان إنقاذ الطفولة في مصر يحتاج الى برنامج مرسوم تعين لهُ فترة من الزمن ينفذ خلالها، لا يتأثر بتغير الحكم ولا تثنينا عنهُ الأحداث والمشاغل. ويجب ان يكون هذا البرنامج وليد الدراسة العميقة فيقدر المال اللازم له وتحشد له قوى الامة . ولا بد أن يكون متناولاً للطفل من منبته الى تمام نضوجه فلا نغفل ناحية ما من النواحي التي تعرض صحته للضعف وخلقهُ للانحلال وتربيته للهوى والعبث . وأني لأنادي بوجوب التفكير في هذا البرنامج وأنا أرى الأمم تجري الى الامام في ميدان الطفولة بسرعة الطيران ، فكل توقف منا يُعدُّ رجوعاً القهقرى بسرعة الطيران كذلكُ — فاذا كانت هناك بقية من أمل في الاصلاح فليكن أول ما نعنى به شئون الطفولة . والله يعين

الآهة الصامتة

لسليم عبد الاحد

ويح قلب العاشق المضني فما كان أغناه وأغنى مقلتيه
أرقٌ مضنٍ ونوحٌ دائم وسيول الدمع تروي وجنتيه

***

هاجهُ الشوق الى الامس وكم ودَّ لو يسلو وينسى ما مضى
كلما حاول كتمان الهوى هاجت الذكرى به فانتفضا

***

يكتم الشوق وكم نمّت بهِ زفراتٌ ودموعٌ وأنينْ
يُطْلق الآهات من محبسها ربّ آهٍ تفضح السر الدفينْ

***

كلما هبّت نسيمات الحمى وسرتْ معتلةً تشفي الغليلْ
يتداوى بشذاها فاعجبوا من عليل يتداوى بعليلْ

***

موجعُ الأضلع مقروحُ الحشا حائرٌ يهجس في بلبالهِ
يا زمانَ الوصل والوصلُ انقضى ما الذي أبقيتَ من آمالهِ

***

ويحَ معشوقٍ مقيم بالحشا كيف يرضى بمقرٍّ خافقٍ

لا الهوى سهلٌ ولا خامله يرعوي ، تعساً لقلب العاشقِ

***

حارَ في علتــهِ لوَّمــه كيف يشفيه فضول اللوّم
لئن استعصى به الداء فكم جهل الآسي مكان السقم

***

ذكّــراه بليّالي وصلهــا واذكرا من عهدها ما نُسيا
ربَّ قوم شربوا من كأسها وشربنا بعدهم ما بقيــا

***

مربض الآرام ماذا حالهُ بعد ان دالتْ لياليــه الملاحْ ؟
ورياض الغيد ما ألبسها الوَشْـيَ والطائر مقصوص الجناحْ ؟

***

وحمامُ الأيكِ ماذا هاجهُ فغدا يسجع فوق الفَـنَنِ ؟
أترى أبكاهُ ذكرُ المنحنى كلنا يبكيــه ذكر الدمنِ

***

يا حمامَ الأيكِ هذا عاشقٌ كم تباكيتَ وكم أبكيتــهُ
كنتَ قد أبقيتَ منه شَبَحاً فقضى الوجدُ بمــا أبقيتهُ

***

مشبع العشاق لوماً حسبهم ما يذيب الوجد من اجسادهم
إنها أكبــادهم ذاهبــة رحمــةُ الله على أكبــادهمْ

النباتيون

المشهورون وما يرمز اليهم به

-٣-

لمحمود مصطفى الدمياطي

﴿ إيتون ﴾ وبقية اسمه دانيل كادي Eaton, Daniel Cady ويرمز له .Eat ولد بفورت جرايتون بمدينة مشجان في ١٢ سبتمبر ١٨٣٤ ومات بنيوهافن في ٢٩ يونيه ١٨٩٥ وهو نباتيّ أمريكيّ نال الشهادة النهائية من كلية يبل في ١٨٥٧ وصار استاذاً لعلم النبات بهذا المعهد في ١٨٦٤ وقد صنّف كتاباً سمّاه « سراخس الجنوب الغربيّ » ١٨٧٨ Ferns of the Southwest وكتاب « سراخس امريكا الشمالية ١٨٧٨ — ١٨٧٩ Ferns of North America

﴿ إلْيُوت ﴾ وبقية اسمه ستيفن Elliott, Stephen ويرمز له .Ell ولد ببُوفورت من كارولينا الجنوبية في ١١ نوفمبر ١٧٧١ ومات بشارلستون من كارولينا المذكورة في ٢٨ مارس ١٨٣٠ وهو نباتيّ امريكيّ صنّف كتاب « نباتات كارولينا الجنوبية وجورجيا » ١٨٢١ — ١٨٢٤ Botany of South Carolina and Georgia

﴿ اندليشر ﴾ وبقية اسمه ستيفان لاديسلاس Endlicher, Stephan Ladislas ويرمز له .Endl ولد في برسبورج[1] من المجر في ٢٤ يونيه ١٨٠٤ ومات بفينا في ٢٨ مارس ١٨٤٩ وهو نباتي مجريّ ولغويّ شهير كان استاذاً لعلم النبات في جامعة فينا من ١٨٤٠ وصنف كتباً نفيسة في ترتيب النباتات وهي كتاب « اجناس النباتات » ١٨٣١ — ١٨٤١ Genera plantarum وكتاب « صور اجناس النباتات » ١٨٣٨ Iconogaphia generum plantarum وكتاب « مختصر علم النبات » ١٨٤١ Enchiridiom botanicum وكتاب « ملخص عن النباتات الصنوبرية » ١٨٤٧ Synopsis coniferarum, وتصانيفه تُعدُّ مثلاً تحتذى في الدقة العلمية وبساطة الاسلوب

(١) هي براتسلافا Bratislava الآن في تشيكوسلوفاكيا على نهر الدانوب (الطونة) وفيها وقع نابليون بونابرت معاهدة برسبرج عقب انتصاراته في موقعة استرلتز

﴿انجلمان﴾ وبقية اسمه جورج Engelmann, George ويرمز له .Engelm ولد في فرانكفورت على نهر الماين من المانيا في ٢ فبراير ١٨٠٩ ومات بسان لوس على نهر الميسوري عند التقائه بالمسسبي بالولايات المتحدة الاميركية في ١٣ فبراير ١٨٨٤ وهو امريكي الماني الاصل نباتي وطبيب

﴿اليوني﴾ وبقية اسمه شارل Allioni, Charles ويرمز له .All ولد في ١٧٢٥ ومات في ٢٨ يوليو ١٨٠٤ وهو طبيب ايطالي ومن علماء الطبيعيات كان استاذاً لعلم النبات في جامعة تورينو وصنّف في الطب والتاريخ الطبيعي وخاصة في علم النبات وقد ساعدت بحوثه كثيراً في تقدم هذا العلم كما كانت سبباً لتعيينه عضواً في جمعيات علمية عديدة فقد انتظم في الجمعيات الملكية بلندن وبجوتنجن وبمدريد (بجريط) وفي اكاديمية مونبلييه وفي معهد بولونيا وظلّ زمناً يراسل العالم هالر . وقد نشر اليوني المؤلفات الآتية : كتاب « انواع نباتات بيمونت المهمة النادرة » تورينو ١٧٥٥ — Rariorum Pedemontii stirpium specimen primum وكتاب « دراسة انواع نباتات بيمونت » باريس ١٧٥٧ Oryctographiae Pedemontanae specimen وكتاب « الأشجار المهمة الشاطئية لنيس، زراعتها وتعدادها الترتيبيّ مع فهرست لمعظم الحيوانات الشاطئية مرتبة كذلك » باريس ١٧٥٧ — Stirpium praecipuarum littoris et agri Nicæensis enumeratio methodica, cum elencho aliquot animalium ejusdem maris وكتاب « الطريقة العملية لاستنبات النباتات الطفيلية وأصل هذه النباتات وأطوارها وطبيعتها وعلاجها » تورينو ١٧٥٨، Tractatus de miliarum origine, progressu natura et curatione وكتاب « ملخص ترتيبي لأشجار حدائق تورينو » تورينو ١٧٦٠ جزء ثان Synopsis methodico stirpium Horti taurinensis (Miscellanea Taurinensia) « متفرقات تورينو » وكتاب « أمثلة وملخص ترتيبي لأشجار حدائق تورينو الملكية » تورينو جزء خامس ١٧٧٤ Auctuarium ad Synopsin methodicum stirpium Horti regii taurinensis وكتاب « نباتات مقاطعة بيمونت » تورينو ١٧٨٥ Flora pedemontana وكتاب « أمثلة من نباتات مقاطعة بيمونت مع ملحوظات وتصحيحات » تورينو ١٧٨٩ — Auctuarium ad Floram pedemontanam, cum notis et emendationibus هذا وان كتاب نباتات مقاطعة بيمونت السابق ذكره هو أهم تصانيفه اذ فيه ٢٨٠٠ نبات بأسمائها المترادفة و ٢٧٣

نوعاً في ٩٢ لوحة . وقد صنَّف اليوني ايضاً كتاباً يسمى « مجموعة صغيرة لنباتات جزيرة كورسيكا » نشره كارول اليونو : متفرقات تورينو جزء ثانٍ Florula Corsica وقد عاونه في اعداده فيلكس فال Felix Valle

﴿ أشرسون ﴾ وبقية اسمه پاول فريدرخ اوغست Ascherson. Paul Friedrich August ويرمز لهُ .Aschers . ولد ببرلين في ٤ يونيه ١٨٣٤ وهو طبيب ونباتي الماني ساح ابتداءً من ١٨٦٣ في جزيرة سردينيا وفي سلسلة جبال الكربات بتشيكوسلوفاكيا واقليم دلماشيا وفي ١٨٦٩ منح لقب استاذية بجامعة برلين وبعد سنوات أي في ١٨٧٣ صار استاذاً فوق العادة لعلم النبات ورافق رولفس بين سنتي ١٨٧٣ — ١٨٧٤ في بعثته الى صحراء ليبيا وزار في السنة التالية « الواحة الصغيرة » الكفرة (١) وأعظم تصانيفه شأناً ، كتاب « دراسة فتوغرافية لنباتات مستنقعات براندنبرج تتضمن نباتات المستنقعات المجاورة والمقابلة بين النباتات الاولى والثانية » هال ١٨٥٥ Studiorum phytographicorum d Marchia Brandenburgensi specimen, continens florae Marchicae cum adjacentibus comparationem. وكتاب « نباتات مقاطعتي براندبرغ والتمارك ودوقية مجدبورج » برلين ١٨٦٤ Flora der Provinz Brandenburg, der Altmark und des Herzogthums Magdeburg وهذا هو أهم مؤلفات اشرسون وكتاب « النباتات الالمانية السامَّة » برلين ١٨٧٠ Deutschland's Giftgewächse وصنَّف مع كانيتز Kanitz كتاب « بيان النباتات ذوات الكورمات في بلاد الصرب والبوسنة وغيرها » كلاوزنبرج ١٨٧٧ Catalogus cormophytorum Serbiae, Bosniae, etc.

﴿ بارتون ﴾ وبقية اسمه وليم بول كريلّون Barton, William Paul Crillon ويرمز له .Bart ولد في فيلادلفيا في ١٧ نوفمبر ١٧٨٦ ومات بها في ٢٩ فبراير ١٨٥٦ وهو نباتي أمريكي صنّف كتاب « نباتات أمريكا الشمالية » من ١٨٢١ — ١٨٢٣ Flora of North America وكتاب « محاضرات في العقاقير الطبية وعلم النبات » ١٨٢٣ Lectures on Materia Medica and Botany وكتاب « علم النبات الطبي » Medical Botany وغير ذلك

(١) قد أطلق اسم الكفرة في عهد المستكشف الالماني رولفس على الاربع الواحات المتفرقة المسماة تيزربو وبوزيمه وربيانه وكبابو وهي التي تكوّن الكفرة الحالية ولكن اسم الكفرة يطلق الآن على واحة كبابو فحسب (ص ١٦٩ من الجلد الاول من كتاب في صحراء ليبيا لمعالي احمد محمد حسنين باشا)

تنظيم الاستهلاك

في الحرب الحاضرة

لفؤاد محمد شبل

تتسم أوقات الحروب باضطراب المعاملات وقلب الأوضاع الاقتصادية المقررة فتميل الدولة الى تقييد الاستهلاك والحد من رغبات الفرد ، تضطرها الى ذلك اقتصاديات الحرب التي تحلُّ محلاً اقتصاديات السلم ، للمحافظة على ما تملكه الدولة من ذهب او نقد اجنبي ولمعادلة ميزانها حرصاً على ثبات اقتصادها القومي ، وتخصيص سفن النقل لشحن الأهم فالمهم ولاسيما ما تحتاج اليه القوات المحاربة . ولقد عمَّ العالم في هذه الحرب أنظمة شتى من الاشراف المباشر وغير المباشر غايته إما توجيه موارد الدولة الى أغراض الحرب، وإما تحقيق العدالة في توزيع سلع الاستهلاك وكفاية أدنى حد ممكن لحاجات الفرد أو تنفيذ الغرضين معاً

١ — قيود الاستهلاك غير المباشرة

كان رفع أسعار المواد الترفية وغير الضرورية في مقدمة الاجراءات التي أخذت بها الدول المتحاربة في المراحل الأولى من الحرب الحاضرة ، وذلك عن طريق زيادة الرسوم الجمركية المفروضة عليها او فرض ضرائب خاصة على المبيع منها الى غير ذلك . ثم اقتدت الدول المحايدة بالمحاربة في الأخذ بهذه الأساليب وفقاً لحاجتها . وهكذا رأينا السويد تفرض ضرائب عالية على المبيعات وعمدت الولايات المتحدة الى فرض ضرائب على السلع التي يزاحم انتاجُها انتاجَ الاسلحة . أما في بريطانيا العظمى وبلدان الدومنيون فان منع استيراد بعض السلع الخاصة او منع صنعها أو بيعها كالحرير وما ينسج منهُ وغيرها يحقق الغاية نفسها . بيد ان تحريم بيع طائفة من السلع نظام أقل شيوعاً من نظام تقييد الانتاج للسلع التي ترى الدولة ضرورة تقييد استهلاكها ، فضلاً عما عمدت اليه الدول في بدء الحرب من تحديد مقادير السلع الاستهلاكية الأساسية كالمواد الغذائية الضرورية والبترول والصابون الخ . وهي التي يستطيع الفرد شراءها في وقت واحد ، وعززت هذه الاجراءات بارغام الافراد على تسجيل اسمائهم عند حانوت « قطاعي » واحد ومنع البيع للعملاء غير المسجلين . ولقد أدخلت فرنسا وايطاليا وغيرها -

طريقة تحريم اللحوم والمشروبات أياماً معينة من الاسبوع، كما حدّد عدد الصحون ومحتوياتها التي يسمح للمطاعم بتقديمها في كل وجبة، وفي كثير من الدول حظر استخدام السيارات الخاصة في عطلات الأسبوع اقتصاداً في البنزين. وهذه الطرائق كان لها بلا شك بعض الأثر ولا سيما خلال فترة الانتقال الى نظام البطاقات ولكن أغلبها كان عرضة لسوء التطبيق وأخص عيوبها أنها لا تضمن حصول الطبقات الفقيرة من السكان على حصتها من المؤن. ومن ثمَّ اتجهت الآراء الى احلال نظام البطاقات المباشر محلها في حالة الحاجات الضرورية، أو حظر صنع السلع الترفية او بيعها او رفع أسعارها

ومن التدابير غير المباشرة لتنظيم الاستهلاك نذكر طريقة الأعواض Substitutes وخير مثال على ذلك ما عمدت اليه معظم الدول من تقرير الخلط الاجباري للاذرة وغيرها من الحبوب البديلة، بدقيق القمح عند صنع الخبز وتقرير ما يسمى بالرغيف الانموذجي، وتحريم بيع الخبز النقي في كثير من الحالات. ويماثل هذا الاجراء اضافة الخيوط الصناعية الى الصوف والقطن في بلدان كثيرة. كما شجعت كثير من الدول استخدام الخشب والفلين وغيرهما في صناعة الاحذية. ويضاف الى ما تقدم تشجيع استهلاك المواد المحلية او التي يمكن تدبيرها محليًّا عوضاً من المواد المستوردة كلما كان ذلك مستطاعاً

ولقد انصب نظام البطاقات اصلاً على المواد الغذائية ثم شمل مجاراة لسير الحرب، كثيراً من السلع الاستهلاكية الأساسية والمواد الاولية. والغاية من هذا النظام تأمين حصول المستهلكين على حاجتهم خلال مدة الحرب طبقاً لسياسة الدولة في هذا الصدد

٢ — بطاقات الطعام

عند دراسة أنظمة بطاقات الطعام في الدول المختلفة يجب أن لا يعزب عن الأذهان بعض الحقائق العامة. فانهُ وان كان أساس التحديد في بطاقات الطعام هو ما يسمى « بالمستهلك العادي » أي ما يستهلكه الفرد العادي، الاّ ان أساليب البطاقات الحديثة تميل الى تقدير حاجة الطوائف المختلفة من المستهلكين وفقاً لنوع العمل وللجنس والسن والصحة

ومجموع الاستهلاك طبقاً لهذه القاعدة، مقسوماً على عدد المستهلكين، ينتج عنهُ ما يمكن تسميتهُ «متوسط الاستهلاك». ومن هذا يظهر الاختلاف بين الاستهلاك العادي والاستهلاك المتوسط او بعبارة أدق المستهلك العادي والمستهلك المتوسط. وفكرة « المستهلك العادي » تتباين كثيراً من قطر الى قطر. وفي بعض الاقطار يقترب الاستهلاك المتوسط لسوق السلع كثيراً جدًّا من الاستهلاك العادي، اعظم من اقترابه منهُ في البلاد الاخرى. ومن المتعذر

المقابلة بين أنظمة البطاقات في الاقطار المختلفة لاختلاف العادات الغذائية في بلد ما عنها في الآخر وتغير المقادير المستخدمة للتغذية في كل منها

يعدُّ الخبز عماد غذاء الانسان . فهو أهم العناصر الغذائية المولدة للحرارة في الاجسام ومن أرخصها كذلك ، وكلما ندرت أو غلت مصادر القوة الجثمانية الاخرى ازداد الطلب على الخبز . وتوفر الخبز في بلد ما وقت السلم لايعني بالضرورة استطاعة هذا البلد كفاية نفسه منهُ في وقت الحرب ، فاذا قلت انواع الأغذية الاخرى في هذا البلد أو ارتفعت اسعارها رأيناهُ يسد بالخبز العجز الحاصل في مقادير المواد الغذائية الاخرى التي تفوقهُ سعراً وقد أبانت التجربة أن الطلب على الخبز يزداد اذا حدد استهلاك انواع الاطعمة الاخرى وترك الخبز حر التداول وبالتالي لا يصلح تحديد استهلاك الخبز في وقت السلم أساساً لتحديده في وقت الحرب

كذلك تختلف العادات الغذائية من قطر الى آخر وتتباين طرائق صنع الخبز بين دولة وأخرى بل وفي نفس البلد الواحد ، فصناعة الخبز في الاسكندرية غير صناعتها في القاهرة وغيرها في اسيوط ، وفي دولتين كسويسرا وايطاليا تقوم «المكرونة» الى حد كبير مقام الخبز ، وبينما يعتمد أهالي بعض الدول كانكلترا على الخبز المصنوع في المخابز العامة يشيع في كثير من الدول كالاقطار السكندناوية ومصر الخبز في المنزل فيكثر فيها استهلاك الاهالي للحبوب والدقيق عن طريق مباشر

ويميل استهلاك السكر الى الزيادة بزيادة الدخل بيد ان القيمة الغذائية لهذه المادة ضئيلة اذا استثنينا كونها مصدراً للطاقة الحرارية . والواقع ان الوحدات الحرارية calories التي يمكن استخلاصها من مساحة مزروعة نباتاً سكرياً أكبر من الوحدات الحرارية التي يمكن الحصول عليها من اي محصول آخر في المساحة نفسها . فليس بالمستغرب أن نرى السكر تتباين حصص استهلاكه تبايناً واسع المدى ، فبينما تبلغ حصة الفرد في الدنمرك والسويد اكثر من ٤٠٠ جرام في الأسبوع اذا بها تتفاوت بين ٣٠٠ و ٤٠٠ جرام في المانيا وبلجيكا و٢٨٠ جراماً في هولندا و ٢٠٠ جرام في النروج . أما الحصص في البلاد الأخرى فأقل من هذه

والمقابلة بين جرايات اللحوم عمل معقد لاختلاف الانواع والفئات العديدة لطبقات المستهلكين التي ابتكرتها كافة الدول ولاسيما المحاربة منها . واللحوم كما لا يخفى هي المصدر الاكبر للبروتين الحيواني ثم للفيتامين . ولم تكن اللحوم محددة بالبطاقات حتى ربيع ١٩٤١ في الدنمرك والنروج وسويسرا . ثم شمل التحديد بأساليب شتى — كحظر البيع في أيام معينة أو تحديد استهلاك الفرد — جميع الدول المحايدة والمحاربة تقريباً . وتعدُّ جرايات المستهلكين في السويد وبريطانيا العظمى وألمانيا اكبر مقداراً من غيرها في البلاد الاخرى وتبلغ جراية

المستهلك في المتوسط ٥٠٠ جرام في الاسبوع ويختلف الاستهلاك المحدد في هولندا وبلجيكا بين ٤٠٠ جرام و٣٥٠ جراماً في الاسبوع على التوالي بيد أن المستهلكين فيهما لا يستطيعون الحصول على المقدار المحدد لهم في البطاقات. والجراية في فرنسا وفنلندا بين ٢٠٠ و٢٥٠ جراماً. ولا يعدُّ اللحم في اليابان من المأكولات الشائعة. ومعظم البطاقات الاوربية تحدد نسبة معينة من العظام وان كانت البطاقات السويدية تذكر اللحم الصافي فقط

اما الأسماك فلا يشملها نظام البطاقات بوجه عام لعدم انتظام المقادير المستخرجة منها فضلاً عن سرعة تعرضها للتلف

أما الطيور والدواجن وما اشبه فان استهلاكها غير محدد الاّ أن الحصول عليها تعترضهُ مشاق تحدُّ من استهلاكها

وتعدُّ الشحوم أهم المصادر المركزة للوحدات الحرارية calories وتعتمد القارة الاوربية على الخارج في علف حيواناتها المنتجة للمواد الدهنية. وتخضع الشحوم في اوربا لنظام عام دقيق للبطاقات يفوق في شدته ما وضع لجميع انواع المواد الغذائية الاخرى. والاستهلاك متغير في الدول المختلفة طبقاً للعادة والعرف. فزيت الزيتون والزيوت النباتية الاخرى يشيع استهلاكها في جنوب اوربا، في حين يكثر استهلاك الزبدة والمرجرين وشحم الخنزير في اوربا الشمالية. ومعظم أنظمة البطاقات الخاصة بالشحوم تحتفظ بجراية ثابتة نسبيًّا، ولكن ثمة تغيرات تظهر من آن لآخر من حيث نوع الشحوم التي يسمح للمستهلك بالحصول عليها. وأعلى جرايات الشحوم في الدنمرك، إذ تبلغ الجراية الواحدة ٣٥٠ جراماً في الاسبوع، يليها في ذلك النروج والسويد وتتفاوت الحصة في ألمانيا وهولندا بين ٢٥٠ و٣٠٠ جرام، أما بريطانيا العظمى فتبلغ جراية الفرد فيها من الشحوم ٢٣٠ جراماً في الاسبوع يضاف اليها الزيوت النباتية وهي حرة التداول. وجرايات الشحوم قليلة جدًّا في بلجيكا وبولندا وفرنسا وايطاليا وأسبانيا. ولقد قسم المستهلكون فيما يختص بالشحوم في كل قطر الى فئات وطبقات وهو تقسيم يجعل من المتعذر عقد مقارنة صحيحة بين متوسط الاستهلاك فيها

ولما كان اللبن ضروريًّا وضرورته كغذاء صحي يساعد على نمو الاطفال وقيمتهُ الغذائية فريدة فقد أوليت مسألة استهلاكه عناية خاصة. وما زال استهلاكه حرًّا اسميًّا في الدنمرك وهولندا وبلجيكا والسويد وسويسرا. بيد ان الحصول على اللبن يكلف كثيراً من العناء في هذه البلاد. ولما كان الاستهلاك يتبع قدرة مجموع السكان على الشراء فقد قلَّ استهلاك اللبن في هذه البلاد رغماً عن عدم تحديد استهلاكه رسميًّا. ولقد سمح للمستهلكين العاديين في بعض الدول بمقادير غير وافية من الالبان مثل ألمانيا وفرنسا وبلجيكا. ونظراً لما يبذل من محاولات في

معظم الاقطار للحصول على المقادير الضرورية من اللبن السائل وفي نفس الوقت ضمان أقصى انتاج ممكن للزبدة فقد قلت مقادير الجبن في الاسواق ونقص ما تحتويه من الدهن في كثير من البلاد . والمقادير المحددة في معظم الاقطار قليلة

ومع ان استهلاك البيض في بعض البلاد غير مقيد ، الاّ ان الحصول عليه في أغلب الاوقات عمل شاق وقد يكون البيض نادر الوجود في الاسواق . ولقد منع استيراد البن والشاي الى القارة الأوربية فالمقادير المصرَّح بها منهما تنصب على المخزون منهما في البلاد او على أعواضهما substitutes والمقادير المصرَّح بها في جميع الاحيان قليلة . وقد حدّد استهلاك الصابون لاحتوائه على مواد دهنية وحرمت صناعة الصابون الفاخر وفي بعض الدول لا يزيد نصيب الفرد من الصابون على مائة جرام في الشهر ومع ذلك فالصابون في المانيا خليط قلما يؤدي مهمتهُ المألوفة . وكذلك حدد استهلاك التبغ بوسائل غير مباشرة وقلما أدخل في نظام البطاقات

٣ — تحديد استهلاك الملابس

يجابه تحديد الملابس صعوبات خاصة . فحاجات الفرد تتغير تغيراً بعيد المدى تبعاً للسن والجنس والعمل والمقام الاجتماعي . وتتوقف الحاجة اليه على مخزون الفرد نفسه منهُ وعلى الانواع التي يحتاج اليها حاجة ماسة . فمبدأ تحديد الاستهلاك أخذ بهِ في معظم الدول بعد تردد واحجام . وفي مستهل الحرب بذلت مساع لتقييد استهلاك الملابس بأتباع وسائل غير مباشرة كارغام المصانع على انتاج أصناف خاصة والاشارة على محال البيع بعدم تجاوز كميات معينة تباع لفردٍ ما ، فضلاً عن تحديد استهلاك مصانع النسيج من المواد الاولية . بيد انهُ لما أصاب النقص الدول المختلفة في موادها الاولية عمد كثير منها الى نظام البطاقات

ولقد كانت ألمانيا الاولى في هذا الباب وهي الى جانب تحديدها استهلاك الملابس والاحذية حددت استهلاك مفارش المائدة وكتان أغطية الفراش والخرق . وفي ألمانيا الآن نظام للبطاقات خاص بمعظم أدوات الملبس وهو مطبق على الرجال والنساء والاطفال الذين دون الخامسة عشرة . أما انواع الملبس الأخرى غير الداخلة في هذه البطاقات وغيرها من السلع كأدوات الفراش والاحذية ومصنوعات الجلد بصفة عامة ، فتخضع لنظام ترخيص الشراء. ونظام ترخيص الشراء هذا مطبق على عدد كبير جداً من السلع وبخاصة التي تصنع من مواد مستوردة . وللحصول على سلعة ما يقدم طلب الى الادارة او المصلحة المختصة وعلى طالب الحصول على التصريح ان يظهر انه لا يحوز السلعة المطلوبة أو ان التي في حيازته منها قد تلفت وباتت غير قابلة للاصلاح . فاذا ما قبل طلبه فهو مضطر الى تسليم السلع المستهلكة ليرخص في الشراء . وهذا النظام طبق ايضاً الى حد ما في الاقطار التي احتلتها

ألمانيا . ومن الجدير بالذكر ان نظاماً يشابه هذا النظام أخذت به روسيا منذ زمن طويل

ويتضمن نظام البطاقات الألماني الخاص بالملابس عدداً معيناً من « النقط » . فالبطاقات الصادرة في سبتمبر مثلاً تحتوي على ١٥٠ نقطة ومدة سريانها سنة ، ولكل نقطة قيمة معينة فالمنديل يساوي نقطة واحدة وزوج الجوارب أربع نقط وملبس السيدة عشرين نقطة وبذلة الرجل ستين نقطة . . الخ وبالنظر الى تغير مطالب المستهلك والى العدد الكبير من النقط التي يحتويها هذا النظام فانه الى جانب تقييده الاستهلاك عموماً يدع شيئاً من الحرية للمستهلك لاختيار ما يوافقه في حدود مجموعة النقط المخصصة لهُ . وفي بعض الاقطار المحتلة لا يمكن الحصول على بعض أصناف الملابس الاّ بترخيص خاص ، بينما في بعضها الآخر كالنرويج والدنمرك وفرنسا وهولندا يتبع نظام البطاقات المؤسس على النقط سالف الذكر

وقد أدخل هذا النظام أيضاً في فنلندا وسويسرا وبريطانيا العظمى . ويشمل تحديد الاستهلاك في بريطانيا العظمى الملابس والقماش والأحذية وما شابهها ولكنه يستبعد الاشياء الثانوية الاخرى كالقبعات والخيط وبذلات العمل للعمال وملابس الاطفال دون الرابعة وتحتوي البطاقة البريطانية على ٦٦ نقطة ، فبذلة الرجل تعادل ٢٦ نقطة وملبس السيدة الصوفي ١١ نقطة ... الخ

٤ — مواد الوقود وتنظيم استهلاكها

يعدُّ النفط (البترول) سلعة قليلة الوجود في معظم الدول المتحاربة أو المحصورة ، لذلك أنقصت المقادير المخصصة منهُ لاستهلاك المدنيين . وفي بريطانيا العظمى يحصل اصحاب السيارات على مقدار محدود من البترول. أما العربات الخاصة التي تسير بالمحرّك فقد توقفت تماماً للحاجة الى الوقود السائل . ولقد ألتجيء في المراحل الأولى من الحرب الى تقييد الاستهلاك بوسائل غير مباشرة كاعطاء مقادير من البترول أقل من المعتاد في عطلات نهاية الاسبوع. بيد ان هذه الاجراءات قصّرت عن تأدية الغرض المنشود أي تقليل الاستهلاك ومستعملو البترول مقسمون طبقات ويفضّل منهم الذين ينهضون بأعمال حيوية كالأطباء او يسدون خدمات اجتماعية هامة في الحرب

ولا تكفي القارة الاوربية نفسها من الفحم في الاوقات العادية ، لذلك نراها في الحرب الحاضرة تعاني أزمة فحم حادة لسدّ طلب السكك الحديدية (لانقطاع النقل البحري تقريباً بسبب الحصار البريطاني) وما تقتضيه صناعات الحرب الثقيلة وصناعة أعواض المواد الاولية من الفحم الى غير ذلك ، وهذا كلهُ اقتضى توزيع الفحم طبقاً لنظام البطاقات . وتعدُّ المانيا الدولة التي بلغ نظام بطاقات الفحم فيها أقصى درجات الشدة والدقة ، وقد طبقت طريقة للنقط

مشابهة لتلك التي شرحناها في موضوع الملابس، وروعي في بطاقات الفحم عدد الحجرات وعدد الاشخاص في المنزل كما قسمت البلاد ثلاث مناطق مناخية ، ولكي تتفادى السلطات مشاقّ المواصلات ، يتعين على أرباب المنازل اختزان حاجاتهم الشتوية خلال أشهر الصيف . ولما نظمت جمعية الريخ التعاونية للفحم ، تركت طريقة النقط في الفحم وان بقي نظام البطاقات . وترد أزمة الفحم في المانيا في الواقع الى صعوبات المواصلات قبل كلّ شيء آخر . وتختلف حصص استهلاك الفحم باختلاف المناطق في البلاد . وفي الدنمرك وفي النروج والسويد هبطت واردات الفحم هبوطاً مروعاً فوضعت قيود عنيفة على استخدامه وشجع المستهلكون الافراد على الاستعاضة بالخشب عن الفحم في التدفئة . وفي سويسرا يتلقى المستهلكون الافراد حوالي ربع استهلاكهم العادي من الفحم . وفي ديسمبر ١٩٣٩ أوقفت بريطانيا العظمى القيود التي كانت قد فرضتها على استهلاك الغاز والفحم والكهرباء في مستهل الحرب

٥ — أثر تقييد الاستهلاك في مستوى المعيشة

أول الاغراض المقصودة من تحديد الاستهلاك خلال الحرب هو الاستغناء او الاقلال من الاستهلاك غير الضروري لتوجيه الانتاج الى إغراض حربية . ويبدو ان تحديد الاستهلاك طبقاً للبطاقات وما شابهها قد هوى في معظم الاقطار باستهلاك السلع الترفية والسلع الاكثر تحملاً وكذلك باستهلاك الملابس ومواد الوقود وخاصة الفحم والبنزين . أما المباني فقد كانت — من الناحية المباشرة — أقل تأثراً الاّ في المناطق المخربة والمجتاحة او المهددة . ولقد تأثرت نواحي النشاط الذهني والثقافي بالطبع ، كثيراً بالتحديد العام للقوة الشرائية وبتحويل الرجال والنساء الى الخدمة العامة وتأثرت كذلك بمشاق السفر وقيوده ، وفي الاقطار المحاربة بجهود الحرب بوجه عام

والحد الذي يمكن خفض متوسط الاستهلاك الغذائي اليه دون إنزال ضرر خطير بمقدرة الفرد هو ضيّق النطاق على العموم . لهذا فان الغاية من تحديد الاستهلاك الغذائي هو ضمان توزيع موارد الطعام التي في البلاد او التي يمكن استيرادها ، وكذلك عدالة ذلك التوزيع ، اكثر منها تقييد الاستهلاك . ولا ريب في ان تحديد استهلاك نوع ما من الاطعمة ينجم عنهُ زيادة في استهلاك الانواع الاخرى . وكلما اتسع نطاق السلع الغذائية غير المحدد استهلاكها وعظمت حرية المستهلك في اختيار ما يروقهُ منها ازدادت صعوبة استخلاص النتائج عن آثار تحديد الاستهلاك وعلى الضد من ذلك اذا ما اتجه تحديد الاستهلاك الى شمول

جميع السلع المخصصة للاستهلاك العادي أو معظمها تقريباً فان مثل هذه النتائج من السهل استخلاصها .

واذا ما ولينا وجهنا شطر الدول المختلفة لدراسة آثار تقييد الأستهلاك في مستوى معيشتها لاحظنا أن فريقاً من الدول يشمل ألمانيا وبلجيكا وهولندا وبولندا وفنلندا وفرنسا قد أخذ بنظام تام كامل للبطاقات أي أن أمهات المواد الغذائية تخضع فيها لقيود شتى وان كان هناك بضع سلع تركت حرة يلجأ اليها المستهلك تعويضاً له من السلع الاخرى المحدَّدة . أما بريطانيا العظمى وايطاليا فقيدت استهلاك الشحوم واللحوم والى درجة اقل اللبن وما يصنع منهُ . بينما جعلت الحبوب حرة وبصفة خاصة الخبز . وفي كل مكان تقريباً تركت الفواكه والخضراوات حرة الاستهلاك . وبالنظر الى مقام الخبز كمنظم لميزانية الاسرة وأساس للغذاء ومصدر هام من مصادر الطاقة الحرارية الحيوية ترك استهلاكه حرًّا . وكذلك الحال فيما يختص بمعظم الخضراوات ذات الشأن الحيوي للجسم

ولكي نصيبَ فكرة ولو عامة عن آثار نظام البطاقات في المجموعة الغذائية الفعلية، يجب علينا أن نأخذ في اعتبارنا اولاً التغيرات الحادثة في عرض الطاقة الحرارية الناتجة عن استخدام مجموعة المواد في تغذية الجسم ، وثانياً التركيب العام لهذه المجموعة ومدى تكونها من أغذية تحمي هذا الجسم وتولد فيهِ القوة والنشاط اللازمين . فاذا ما استعرضنا انظمة التغذية وقيودها ومقاديرها وطبيعتها في كل بلد تبينا ما يلي : —

يبدو ان جرايات المواد الغذائية في المانيا المعدة للاستهلاك طبقاً للبطاقات مضافاً الى ما يسمح للجمهور باستهلاكه من المواد الغذائية غير المقيدة الاستهلاك يكوّن مقداراً من الأغذية تنشأ عنه طاقة حرارية لا تختلف من الناحية المادية عن الطاقة الحرارية التي كانت تحصل عليها الطبقة العاملة قبل الحرب . بيد انه رغماً عن ذلك يرى بعض العلماء ان هذه المقادير المحددة للاستهلاك ينقصها كثير من البروتينات والفيتامينات وغيرها من العناصر الغذائية الحامية للبدن . أما موقف بلجيكا و بولندا من هذه الناحية فيعد خطيراً حقًّا . فان الحصص المخصصة لتغذية الجمهور تمثل مقداراً أقل كثيراً جدًّا من « الاستهلاك العادي » وبالنظر لعجز محصول الفواكه والخضروات في هذين البلدين في شتاء ١٩٤٠ علاوة على ادراج البطاطس في البطاقات ، غدا من الصعب جدًّا تعويض الناقص من غذاء الجمهور بهذه الأصناف ، والواقع ان ما تحويه الجرايات المعينة للاستهلاك من الطاقة الحرارية — حتى بعد زيادة المقادير من المواد الغذائية حرة التداول — لا يعدل نصف « الاستهلاك العادي » وهو بذلك أقلُّ كثيراً من أن يحقق للمستهلك الحد الأدنى للتغذية وهو الحدّ الذي اتفقت على قبوله آراء الباحثين

أما فرنسا فان الجرايات الرسمية فيها للمواد الغذائية لاتصلح ان تكون أساساً للحكم على موقف البلاد الغذائي ، فان جانباً كبيراً من السكان يشتغل بالزراعة ويمكنه بالتالي استهلاك مقادير من المواد الغذائية أكبر من المحددة في البطاقات لاستهلاك سكان المدن ، ويضاف الى هذا أن الاتصال بين المناطق المحتلة وغير المحتلة بات في منتهى الصعوبة ، وأن طرائق نقل الحاصيل من إحدى المنطقتين الى الأخرى يبلغ من الصعوبة درجة نشأت عنها فوارق كبيرة جداً بين المنطقتين أفضت الى عجز احداهما عن الحصول على منتجات الأخرى

ولقد زاد موقف فنلندا سوءاً ابتداءً من صيف ١٩٤٠ اذ انقصت جراية الخبز في يونيو ١٩٤٠ نحو ٢٠ ٪ وهي الآن أكثر قليلاً من جراية الخبز في بولندا. وفي هولندا جراية الخبز اقل نسبيًّا من فنلندا وبولندا ولكن يخلط ١٠ ٪ من الدقيق المستخدم في صناعة الخبز بدقيق الشعير

والخبز في سويسرا وبريطانيا العظمى غير مدرج في نظام البطاقات ، وتبذل مساعٍ خاصة لزيادة الانتاج المحلي من الخضروات لتعويض النقص الذي حل بالواردات . وانه وان كان الخبز حرًّا في ايطاليا (من الوجهة النظرية) الاّ أن المحافظة على مستوى الاستهلاك فيها موضع ريب لما عليه الجانب الأعظم من سكانها من الفقر والفاقة . أما الأقطار السكندنافية فيبدو أن مقدار ما يحصل عليه الفرد من القوى الحاصلة من الأغذية المصرح له بها قد هبط هبوطاً خطيراً في النرويج ، ورغماً عن هبوط جرايات الأطعمة في الدنمارك والسويد الاّ أنها ما زالت أعلى من مثيلاتها في الاقطار الأوربية الأخرى

وفضلاً عن كفاية الطاقة الحرارية للجسم تتطلب المحافظة على الصحة والكفاية توافر مقادير مناسبة من البروتينات والشحوم والفيتامينات والأملاح المعدنية والكربوهيدرات الخ... في الغذاء الذي يتناوله الانسان. فاذا ما تقصينا قوائم الطعام التي خصصتها الدول المختلفة للمستهلكين رأينا ثمة عجزاً خطيراً في البروتينات التي تحتويها الأغذية المخصصة لاستهلاك الشعبين البولندي والبلجيكي ، ويبدو أن الموقف أقل خطورة من ذلك في فرنسا الاّ في بعض مقاطعاتها . وتعدُّ هولندا خيراً من فرنسا في هذا الصدد ، وكذلك الحال في بعض نواحي النرويج التي يسهل فيها الحصول على الأسماك للاستهلاك . ويبدو أن عنصر البروتينات أقلّ في المانيا منهُ في بريطانيا العظمى بالرغم من أن استهلاك بريطانيا العظمى كان قبل الحرب — بالنسبة للفرد — أعظم منه في المانيا . وتعدُّ الدنمرك والسويد وسويسرا في حالةٍ لا بأس بها من حيث وفرة البروتينات التي تحتوي عليها قائمة الغذاء المخصصة للمستهلك فيهما ، وهذا يصدق على مدى توافر الشحوم في غذائهما

أما الفيتامينات والاملاح المعدنية فمرتبطة بمدى حصول المستهلك على أصناف خاصة كاللبن والفواكه والخضروات الخ . . . فاذا ما استقرأنا نظم توزيع هذه الأصناف رأينا أن بريطانيا والمانيا والاقطار السكندنافية وسويسرا وهولندا استطاعت المحافظة على مستوى استهلاك السكان للالبان ، ولكن ثمة نقص خطير في تموين السكان بالالبان في كثير من المناطق التي احتلتها المانيا . والواقع ان استهلاك الالبان يختلف اختلافاً واسع المدى جداً من قطر الى آخر بالقياس الى ما كانت عليه الحال قبل الحرب

وفي المانيا لايحصل المستهلك العادي على حاجته من اللبن كلها ، فجميع الميسور منه يخصص للاطفال وللتمريض وللامهات الحبالى وللعجزة . ولما كان اللبن سلعة سريعة التلف ، فقد نشأت أزمة المحافظة عليه لعجز مخزون البترول في الدول المختلفة وصعوبات المواصلات التي جلبتها الحرب معها . وصعوبات المواصلات تؤثر بالطبيعة في توزيع الخضراوات وهي كاللبن سريعة التلف . ولقد سعت جميع الاقطار الأوربية الى زيادة محاصيلها المحلية من الخضر الخضراء لتعويض المستهلك عما فقده من قدرته على استهلاك السلع الأخرى التي قلّ انتاجها او توقف استيرادها

وعند انعام النظر في النتائج العامة للنقص في الطعام ولنظام الجراية ، يجب ان لا يغرب عن الاذهان ان القوات المحاربة لا تخضع لجرايات المدنيين وتحصل عادة على مقادير أعظم من المقادير المخصصة للسكان المدنيين ، وبالتالي ، فان متوسط الاستهلاك بالنسبة للفرد من السكان — بصرف النظر عن ان المزارعين والمشتغلين بعمل شاق يتلقون غالباً جرايات خاصة — هو أعلى مما توحي به الارقام لأول وهلة . كما يلاحظ ان هبوط الاستهلاك المخصص للاطفال أقل من هبوط الاستهلاك ، المخصص للبالغين ولا سيما من حيث استهلاك اللبن والاطعمة الاخرى الواقية، ولما كان جل الرجال ينضمون عادة الى القوات المحاربة فان متوسط الاستهلاك للاعضاء الآخرين من الأسرة المتخلفين في المنزل هو خير مما قد يبدو من الارقام المعمول بها في البطاقات

***

ومهما يكن من أمر هذا كله فلقد كانت محاصيل عامي ١٩٤٠ و ١٩٤١ سيئة فهبطت كفاية الاقطار الأوربية من الأغذية الأساسية المحتوية على عناصر الفيتامينات والاملاح المعدنية المقومة للاجسام ، وتجلى العجز على وجه خاص وظهرت خطورته في بولندا وبلجيكا والنرويج وفنلندا وأسبانيا وبعض مقاطعات فرنسا. والدول الأوربية الوحيدة التي استطاعت المحافظة على مستوى معيشة مناسب حتى الآن هي الدنمارك والسويد وسويسرا والبرتغال

قطرات ندى

لراجي الراعي

الصحراء كفٌّ مبسوطة تتسول الماء

الحقيقة خيال متحجر

الجبال عناد الطبيعة والماء خُلقها الدمث

اذا كان في قلمك الرسام والحفار والبناء والصائغ والغوّاص والمنشد فأنت الفنان العبقري

ذبول الزهرة هو ذهولها عن نفسها

غضون الوجه والجبين اثلام يشقها محراث الحياة

اذا اطفأتَ فيك الخيال انقلبتَ رماداً . . .

كلما هبت في نفسي ثورة جديدة انهدم فيَّ من مملكة الامس التي شادتها الأجيال عرشٌ قديم

المعلوم هو ما نختلسه من المجهول في غفلته عنا . .

لم تجد الأرواح أفضل من العيون لتطل منها على الوجود . .

مررت بأقبية الخمر فسألت عن خمرة الفلسفة فأروني برميل ديوجينس

ماذا تفيدك الصخرة اذا لم تكن في يدك عصا موسى

(عن كتابه الجديد « قطرات ندى »)

استراليا

الجزيرة القارة

لا غنى للدول المتحدة عن قاعدة في الجنوب الغربي من المحيط الهادىء ، تستند اليها أعمالها الحربية الآن وفي المرحلة التالية من الحرب . وهذه القاعدة يجب ان تتوافر فيها شروط كثيرة . فيجب ان تكون موقعاً يسهل نقل الجند والسلاح والعتاد اليه من معاقل الدمقراطية ولو طال الطريق . ويجب ان تكون منطقة تتسع لحشد الجيوش وتحريكها، وجمع اسراب الطائرات في مطارات متعددة متفرقة ، وانشاء خطوط دفاع عريضة ، فلا يكفي ان تكون حصناً كسنغافورة او جزيرة صغيرة مثل جوام . ولا بدّ ان تكون مواردها الطبيعية والصناعية والحربية على جانب من الوفر تستطيع الاعتماد عليها فتكمل بها ما ينقل اليها من الخارج، فيقل تأثرها بسعي العدو الى قطع صلتها بخلفائها ويضعف احتمال غزوها عنوة بضربة خاطفة . وأخيراً يجب أن تكون على قرب معقول من الأراضي التي لا بدّ للدول المتحدة من الهجوم عليها عند ما تحتشد القوة اللازمة لذلك

هذه الشروط تتوافر في الجزائر البريطانية من حيث هي قاعدة للدول المتحدة تستند اليها في الهجوم على غربي اوربا ، وفي استراليا من حيث هي قاعدة للهجوم في بحر الصين الجنوبي على اليابان. فأعمال الحلفاء في المنطقة الغربية الجنوبية من المحيط الهادىء ، تستند الى استراليا كما تستند جدران الدار الى اسسها الراسية في الارض . وما دام الحلفاء محتفظين باستراليا ، فانهم محتفظون بقدرتهم على مهاجمة اليابان هناك ، متى احتشدت قوتهم فيها احتشاداً وافياً

فهمة الحلفاء في تلك البقعة هي ان ينشئوا في استراليا قوة كبيرة تفوق اكبر قوة تستطيع اليابان ان تحشدها في الجزائر التي احتلتها ، او قد تحتلها . نعم ان اليابانيين اقرب الى هذه الجزائر ، من الولايات المتحدة او بريطانيا الى استراليا . ولكن يقابل هذا ان استراليا تستطيع ان تحتوي وتمون قوة اكبر كثيراً من القوة التي تستطيع ان تحتويها وتمونها الجزائر التي في قبضة اليابان . والاستراليون مشهورون بأنهم أشاوس حربٍ في ميادين بعيدة عن بلادهم ، فكيف بهم وهم يدفعون الخطر عن بيوتهم وحريتهم

ومن الواضح ان كلاً من الفريقين سيعكف على مهاجمة الآخر والسعي الى قطع مواصلاته. وخطوط المواصلات من غربي الولايات المتحدة الى استراليا ، تمرّ ببيرل هاربر وجزائر صاموى وفيجي، وهي بعيدة جدًّا عن اليابان . نعم إنَّ في وسع القوات اليابانية ان تغير عليها حيناً بعد حين ، ولكنها لا تستطيع ان تقطعها تماماً الاَّ اذا كانت اليابان ، مستعدة ان تغامر في معركة بحرية كبيرة ، وقادرة أن تربحها . وقد نشبت معركة بحر المرجان في اوائل مايو الماضي وخسرتها اليابان . وهي وان كانت غير حاسمة في تدمير قوة اليابان البحرية فانها مكنت على كل حال القوات الاميركية من تأمين مواصلاتهما مع استراليا فترة ما على الاقل

***

ان القارة الاسترالية بلاد تسهل فيها المبالغة ولا ينقضي العجب . شتاؤها في الصيف وصيفها في الشتاء[1] . وهي بلاد تقاس فيها المساحات المزروعة بالملايين من الافدنة ؛ وبعض المزارع بعشرات الالوف . والاغنام والابقار بعشرات الملايين . فيها مدن ومناطق غاصة بالسكان حافلة بوسائل الحضارة الحديثة . وفيها ايضاً مناطق شاسعة يضرب فيها المرء أياماً فلا تقع عينه على بشر ، ومتى وقعت عينه عليهم وجدهم يعيشون كما كان الناس يعيشون في العصر الحجري يقدحون النار بحك عود من الحطب ويستعملون سكيناً من الحجر . ففي تلك البلاد يلتقي كثير من الاضداد العجيبة

يقول علماء طبقات الارض ان استراليا أقدم قارات الارض اذا أخذنا بدلالة الصخور في طبقات ارضها . ومع ذلك فهي على ما ينبئنا علماء التاريخ من أحدث الامم دخولاً في نطاق الحضارة الحديثة . فنزول البيض فيها واستقرارهم يرتد الى عهد الثورة الفرنسية أي الى قبل مائة وخمسين سنة او اكثر قليلاً . بينما حضارة مصر والشرق الادنى بوجه عام ترتد الى الوف من السنين قبل التاريخ الميلادي . وهي جزيرة كبيرة تبلغ مساحتها نحو ثلاثة ملايين من الاميال المربعة . فمساحتها تعدل تقريباً مساحة الولايات المتحدة الاميركية أو ثلاثة ارباع القارة الاوربية او تفوق مساحة بريطانيا وارلندا معاً خمسة وعشرين ضعفاً . ومع ذلك لا يزيد عدد سكانها على سبعة ملايين نسمة ان بلغها ولكن ٨٦ في المائة منهم ولدوا في استراليا نفسها و٩٧ في المائة منهم من اصل بريطاني

والدولة الاسترالية دولة اتحادية على مثال الولايات المتحدة الاميركية . أي ان مقاطعاتها المختلفة نزلت عن سيادتها في سنة ١٩٠١ في شتى الشؤون العامة كالدفاع والجمارك والشؤون الخارجية لحكومة مركزية تمثلها جميعاً . واحتفظت كل منها لنفسها بسيادتها في شؤون معينة

(١) ان أشهر السنة موزعة على فصولها كما يلي : — الربيع : سبتمبر ، اكتوبر ، نوفمبر — الصيف : دسمبر ، يناير ، فبراير — الخريف : مارس ، ابريل ، مايو — الشتاء : يونيو ، ويوليو ، واغسطس

داخلية تتعلق بالزراعة واصلاح الاراضي وسكك الحديد والبوليس والتعليم وما شابه . ومنذ ما وضعت الحرب الماضية أوزارها شرع الاستراليون في انشاء عاصمة الاتحاد الاسترالي على مثال وشنطن . هذه المدينة هي كانبرا على مقربة من الساحل الشرقي الجنوبيّ . وقد خصصوا لها منطقة غير خاضعة لحكم ولاية من الولايات الداخلة في الاتحاد على نحو ما نجد مقاطعة كولومبيا التي انشئت فيها العاصمة الاميركية وشنطن

وأرادوا أن تكون هذه العاصمة الجديدة خير مثال لما بلغهُ علم الهندسة المعمارية وفن تنسيق المدن من الكمال في هذا العصر. فطرحوا خطط انشائها وتصميمها في مباراة عالمية. ومما يدل على استقلال هؤلاء الاستراليين في الرأي انهم — على الرغم مما يربطهم ببريطانيا من أواصر الدم وصلات التاريخ والثقافة — اختاروا التصميم الذي وضعهُ مهندس اميركي وشرعوا في تنفيذه واذا العاصمة كانبرا تسير في طريقها الى أعلى مكانة بين مدن الحدائق في العالم ، وفيها مقر الحاكم العام والحكومة الاتحادية والبرلمان الاتحادي. وقد افتتح هذا البرلمان الملك جورج السادس عندما كان يعرف باسم دوق يورك وذلك في ٩ مايو سنة ١٩٢٧ ولا يزيد عدد سكان العاصمة بحسب الاحصاء الاخير على ٨٫٥٠٠ نفس

من الطبيعي ان تكون هذه القارة العظيمة التي تضم بين شواطئها المترامية جبالاً وسهولاً وبطاحاً وصحارى ، غنية وفيرة الغنى بموارد الطبيعة من زراعية ومعدنية . وهي كذلك

والواقع ان اشهر ما اشتهرت بهِ استراليا هو صوفها الجيد . فعدد رؤوس الضأن التي تربى فيه لصوفها بلغ في أحدث بيان اطلعنا عليه ١٣٠ مليوناً ومحصول الصوف السنوي فيها قيمتهُ نحو ٦٠ مليوناً من الجنيهات كل سنة . وقد بلغ هذا المحصول في سنة ١٩٣٢ — ١٩٣٣ ما يزيد على الف مليون رطل وزناً. وهذا المقدار يمثل نحو ربع غلة الصوف العالمية كل سنة . ولكن أجود أصناف الصوف الاوسترالي يبلغ نصف محصول صوف المرينو الجيد في جميع انحاء العالم. وهذه النتيجة الباهرة ادركوها من ناحية تطبيق العلم الحديث على تربية الغنم . فالاعتماد على قواعد التأصيل العلمية مكنتهم في خلال ثلاثة اجيال من مضاعفة مقدار الصوف الذي يجز من كل رأس غنم على المعدل — ومنها الحملان — وهذا المقدار يبلغ نحو ٨ ارطال لكل رأس . ومعظم صوف استراليا يصدر

وللدلالة على مدى تقدم استراليا في تربية الاغنام من اجل صوفها اولاً نقول انهم أنشأوا هناك احصاءً رسميًّا لرؤوس الاغنام يثبت فيه عددها كل فترة معينة من السنين ، على نحو ما تفعلهُ بلدان اخرى في الجياد الاصيلة . ففي احصاء اول مايو سنة ١٧٨٨ كان العدد الذي احتوى عليهِ الاحصاء ٢٩ رأس غنم فزاد في احصاء ١٧٩٥ الى ٨٦٢ رأساً وبلغ عند نهاية القرن

الثامن عشر عشرة آلاف. وفي سنة ١٨٦٠ بلغ ٢٣ مليون رأس غنم وهو الآن بحسب الاحصاءات الاخيرة ١٣٠ مليوناً والبلاد متسعة لأكثر من ذلك

ومن المحصولات الزراعية الكبيرة في استراليا محصول القمح. فعدد الافدنة المزروعة قمحاً بلغ من خمس سنوات ١٣ مليون فدان وبلغت غلتها نحو ١٩٠ مليون بشل. والغلة السنوية الآن ١٧٠ مليون بشل على المعدل وهي تكفي السكان ويصدر منها اكثر من مائة مليون بشل إما قمحاً وإما دقيقاً. والاستراليون الذين يعالجون الزراعة يعنون أشد العناية باستعمال أحدث الاساليب الصناعية الحديثة في الحرث والبذر والجني ويستعملون من الآلات الزراعية حاصدات عرضها من ثماني اقدام الى عشر اقدام فتحصد القمح وتدرسه وتذروه لفصل قشه عن حبه في عملية واحدة، تفعل الحاصدة ذلك وهي سائرة في الحقل

ويلي ذلك صناعات زراعية منوعة عظيمة الشأن منها تربية المواشي — البقر والعجول والثيران — لاجل لحمها وهذا اللحم يصدر من اوستراليا محفوظاً وفقاً لأحدث طرق التبريد والتثليج المعروفة. ويبلغ عدد المواشي في أستراليا نحو ١٤ مليون رأس وما يصدر من اللحم في السنة ٤٤٢ مليون رطل. ثم ان لبن هذه المواشي يستعمل في صنع الزبدة الاسترالية المشهورة وقد بلغ ما صنع منها سنة ١٩٣٥—١٩٣٦، ٤٣٤ مليون رطل وثمنها نحو ٢٣ مليون جنيه. ومما اشتهرت به من المحصولات الزراعية السكر ففي ولايتين من ولاياتها تزرع مساحة ٣٣٥ الف فدان بقصب السكر ويستخرج من قصبها ٦٢٠ الف طن كل سنة على المعدل أي لو وزع محصول السكر الاسترالي على سكان استراليا لبلغ نصيب كل منهم ٢٠٠ رطل من السكر في السنة

ويضاف الى ما تقدم اصناف الفواكه على تعددها وتبلغ قيمة محصولها السنوي سبعة ملايين من الجنيهات ونصف مليون. واعتماداً على هذا المحصول انشئت صناعة حفظ الفواكه أو الفواكه المحفوظة والمجففة. وقد صدر منها في سنة واحدة ٣٢ مليون علبة

وليس الغرض من هذا المقال الموجز ان نمضي في هذه الاحصاءات. ولكن ثروة استراليا الزراعية تلازمها ثروة معدنية عظيمة الشأن ففيها من المعادن والفلزات ما تحسد عليه من الومنيوم وزنك وذهب وفحم ومنغنيس ورصاص وحجارة كريمة وغيرها وقد بلغت قيمة منتجات مناجمها ٢٧ مليون جنيه في سنة ١٩٣٦. ثم ان المياه الجارية والمتحدرة في انهارها وشلالاتها لجمت واستعملت لتوليد الطاقة الكهربائية المحركة فارتقت الصناعة الحديثة في استراليا في العشرين السنة الاخيرة ارتقاءً عظيماً جعلها الآن قادرة على اكفاء نفسها بنفسها في ميدان الصناعة العامة. ولكن الارتقاء الصناعي العظيم الذي شهدته استراليا خلال السنوات الأخيرة كاد يكون مقتصراً على الصناعة الحربية

في الحرب العالمية الأولى وصلت كتائب الاستراليين الى ميادين القتال في اوربا والشرق الأدنى ، معتمدة على ما تجهزها به مصانع الحرب البريطانية من سلاح وعتاد . ولكن استراليا تجهز جيوشها الآن، بكثير مما يحتاجون اليه في خوض معترك حديث. وأصدرت علاوة على ذلك مقادير وافرة من السلاح والذخيرة الى شتى ميادين القتال في مالايا وجزائر الهند الشرقية والشرق الأوسط . ومحور صناعة استراليا الحربية هو مصانع الصلب في ولاية نيوسوث ويلز

في مستهل سنة ١٩٤٢ كان ما تنتجه استراليا للحرب يفوق عشرين ضعفاً على المعدّل ، ما كانت تنتجه في سنة ١٩٣٩ والخطط المهيأة الآن — وقد شرعوا في تنفيذها — غرضها زيادة الانتاج الحربي كما كان في بدء ١٩٤٢ ثلاثة أضعاف ، قبل آخر هذه السنة

وقد كان أكثر التقدم في صناعة العتاد الحربي . ففي أثناء السنة الأولى من الحرب زاد ما يصنع من قنابل المدافع ١٥ ضعفاً ، وما يصنع من قنابل الطائرات ٢٥ ضعفاً ، وما يصنع من قنابل الاعماق (للمدمرات والطرادات) ٢٠ ضعفاً وهكذا . وهي تصنع مدافع برن صنعاً واسع النطاق ، وجميع أصناف المدافع الاخرى ، مثل مدافع الميدان ومدافع الهاون والمدافع المضادة للطائرات والمدافع المضادة للدبابات . وبرنامج دور الصنعة فيها يشمل صنع أكثر من خمسين مدمرة ، وكورفيت Corvette وزورق طوربيد ومجموع تفريغها خمسين الف طن وكذلك سفن نقل كثيرة

ولعلّ أبلغ دليل على تقدم الصناعة الحربية في استراليا ، ارتقاء صناعة الطائرات فيها فعند ما نشبت الحرب لم يكن في استراليا مصانع لمحركات السيارات تصلح أن تحوَّل لصنع محركات الطائرات فبدأت تبني المصانع لذلك . وهي تصنع الطائرات الآن . وقد انجزت استراليا صنع الف طائرة حتى الآن . والرجاء معقود على أن يبلغ معدّل صنع الطائرات فيها ٣٠٠ طائرة في الشهر أو تزيد

هذه البلاد الغنية بمواردها الطبيعية ، وصحة ابنائها وبناتها ، ونزعتها الاستقلالية الكريمة ، بلاد مستقلة معترف باستقلالها الدولي ، ولا يربطها بسائر اجزاء جامعة الأمم البريطانية الاّ الولاء للتاج ، والتأثر بتقاليد الحياة الانكليزية من أدب وفلسفة وفن ومبادىء سياسية واجتماعية . فلما نشبت هذه الحرب لم يكن عليها واجب ما يحتم عليها خوض ميدانها والتعرض للخسارة العظيمة التي منيت بها في الحرب الماضية ، ولكنها رأت اولاً ، اصول الحياة الكريمة كما تفهمها معرضة للخطر فهبت طائفة مختارة للدفاع عنها بكل ما تملكه من قوة معنوية ومادية ثم واجهت خطر الغزو بعد هجوم اليابان على اميركا وبريطانيا وهولندا في المحيط الهادىء فحزمت أمرها على الكفاح كفاحاً لا تحفظ فيه ولا حدَّ له

حديقة المقتطف

رابندرانات تاجور

الفصل الرابع

تاجور في الحياة والاخلاق

والمدنية والسياسة والمرأة والادب والدين



لمحمود المنجوري

تاجور في الحياة والاخلاق

والمدنية والسياسة والمرأة والادب والدين

لمحمود المنجوري

عندما طال بي الفصل السابق ، استقصي فيهِ مذاهب تاجور في مدرسته آثرت ان أفرد فصلاً خاصًّا لآراء تاجور في الحيـاة والاخلاق والاجتماع والسياسة ، والأسرة والأدب والدين ، واني وان كنت اعتقد ان هذه الآراء انما هي احدى مقوّمات مدرسة تاجور ، الاّ اني أردت أن أشرك القارىء في مطالعاتي لكتب تاجور المختلفة وان أسجل ما استوقفني فيها من آراء قد تتصل بما سبق ان أشرت اليهِ في الفصل السابق وقد لا تتصل في شيء

***

لا يستطيع تاجور في بحوثهِ المتصلة بالحياة أن يتجرد من طابع الفلسفة ، لانهُ يؤمن بان الفلسفة انما هي جزء عملي من الحياة نفسها ، وان واجب الفرد وواجب الجماعات يقوم في تطبيق الآراء الفلسفية على الحياة اليومية ، وعلى ما يصدر من الفرد والجماعات من تفكير وعمل وحركة . فتاجور يريد أن يخرج الفلسفة عن نطاق البحث النظري الى التطبيق العملي في صميم الحياة البشرية . هو يؤمن أشد الايمان بان الحياة تتكون من الاضداد مجتمعة متساندة ، وانها الايجاب والسلب ، والحركة والسكون ، والعدل والظلم ، والروح والمادة ، والخـير والشر ، وان الحدود الفاصلة بين كل من هذه الأضداد ، هي طريق الوصول بالانسان الى المعرفة والحق والجمال ، فهو يؤمن بوجود الشر في الحياة كما يؤمن بوجود الخير فيهـا ، ويسأل لماذا كان الشر في الحياة [1] لماذا كان النقص فيها ؟ انهُ يقول : —

« إن هذا السؤال معناه سؤال آخر لماذا كانت الحياة نفسها ؟ »

ولكنهُ يجيب فيقول : —

« يجب ان تقبل الحياة على علاتها ، وعلى أنها لا يمكن ان تكون على غير ما هي عليه ، وأنها لا يمكن إلا ان تكون ناقصة . انها تحبو دائماً الى الكمال المطلق »

---

(١) «مسألة الشر» The Problem of Evil الفصل الثالث من كتاب سمدهانا

هو مؤمن بالحياة غير ملحد بها

« من الخطل ان نسأل لماذا جئنا الى هذه الحياة ؟ إن ما يجب ان نسأله هو : هل هذا النقص هو الحياة ذاتها ، هل هو الحقيقة المطلقة ، وهل الشر مطلق لانهاية لحصره ؟ »

ولكن تاجور يجيب اجابة طريفة فيقول : —

« إنَّ لمياه النهر شواطئ وسدوداً تدبر له كيانه ، ولكن ليس النهر هو هذه الشواطئ وتلك السدود ولكنها الوسيلة التي تحدده وتحيله نهراً له حوض ووجود ، بل ان هذه الشواطئ والسدود هي التي تمد ماء النهر بالقوة والحركة والدفع . آن القوارب في النهر تساق بالحبال ، ولكن أفي هذا معنى للذل والعبودية ألم يكن من فعل هذه الحبال ان تقود القارب الى الامام ؟

ان لتيار الوجود حدوداً وإلا لما جاز وجوده ان لم يكن محدوداً ، على ان الغرض من الوجود ليس ظاهراً في هذه الحدود التي تحدة ، ولكن الغرض من الوجود يظهر في حركة تياره ودأبه نحو الكمال وليس من العجب ان تعترض الحياة الآلام والمتاعب والشرور ، ولكن العجب ان تفتقد الحياة السنن والنظم والحدود الفاصلة بين الاضداد

فتاريخ العلوم هو تاريخ لاخطاء الذهن البشري في عصوره المختلفة ، وإلا فكيف نستطيع ان نسمي العلم علماً اذا لم يصطدم الذهن بمجاهل الركود والجهل،ولكن سمو العقل لا يكون بتدارك الاخطاء واكتشاف العلوم ، وسموه انما يكون في تقدمه المستمر نحو الحقيقة المطلقة ، فاجتياز العلوم سبيل الحقيقة هو العمل المثمر في الحياة

ومثل الشر في الحياة الى الخير ، كالخطأ او الجهل الى العلم ، مآله الى الزوال النسبي ، ولكنه قد يتجدد في صور أخر ، لان الشر لا يمكن ان يصمد لمجموع الحياة ، وعمل الحياة انما هو اصلاح مستمر للاخطاء والشرور وتقويم لها يتجدد ، والشر يبرز الحياة ويجعلها ملموسة في كيان ، ويبعث فيها القوة والتيار والدفع كما تبعث الشواطئ والسدود في مياه الانهار القوة والتيار والحركة ، وكما تدبر من الماء المنساب حوضاً ملموساً له كيان متحرك دائب الجريان

على ان الشر وان كان حقيقة ، فانا لنذهب بعيداً اذا حسبناه مدعماً ثابت الاركان . . . ان الشر دائب الحركة والنقلة وهو على اتساع أثره لايقوى على ان يعوق سبيل حياتنا . فلو أحصينا أثر الموت والفناء في لحظة واحدة لهالنا العد والاحصاء ، ولكنا ما زلنا نجد الحياة تقاوم الفناء وتغالبه. فالارض والهواء والماء كل صالح لبقاء الكائنات على الرغم من يد الفناء الدائرة بمنجلها في الرؤوس والرقاب . انه ليهولنا ان نفكر في الشر لانه جاثم بأثقاله على حياتنا ، ولكن الحياة تهزأ به على الرغم من ذلك . انه يخلل بنا في عدده وحصره ولكنه في تقديرنا كمثل تقدير من يستخرج ثقل الهواء على قدر قليل من مساحة أجسامنا ليبرزلنا رقماً يثبت به ان الثقل على أجسامنا ساحق لا يطاق . ولكن الحقيقة ان لكل ثقل ما يقابله مقاومة وما يعادله تكافؤاً ، ولهذا خفت الاثقال ، وقام التعادل بين الاضداد . وللتنازع على البقاء تكافؤ ومقابلة تأنس اليها النفس البشرية في محبتنا وعطفنا على الاصدقاء، وفيما يصدر عن الحب كعنصر فعال في البذل والتضحية وعدم الاثرة

والوجه البغيض من الحياة ان يكون فيها موت ، ولكن لو أننا عكفنا بأنفسنا باحثين عن حقيقة الموت لبانت لنا الدنيا مقبرة تذهب الرجاء من الحياة ، ولكن الرأي سيطمئن بنا على ان الموت في هذه الحياة أضعف من ان يأخذ الطريق على تفكيرنا وآمالنا ، وليس هذا براجع الى ان الموت حدث قليل الوقوع ، ولكن الى ان الموت هو الوجه المبطل للحياة ، وحربه عليها دليل على وجودها وبقائها وحيويتها وبحثها عن الثبات والتمام . إن مثل الموت كمثل ترديد العين بغمض جفنها في اللحظات المتواليات ، ومع هذا فاعين لا تزال مبصرة لا يضيرها ان يغلفها الجفن ويحجب عنها الضوء بين لحظة وأخرى . بل ان هذا الجفن لوقاية للابصار وحماية للعين التي لا نستطيع ان نحصي لغمضها عدًّا . فالحياة في جلتها لا تهتم للموت وزناً ، هو ما زال بمنجله يحصد الرقاب . وهي ما تزال تضحك وترقص ، لاهية لعوبا ، جادة معمرة ، بل هي ما تزال تحب في مواجهة الفناء نفسه

على ان الامر يصدعنا حقاً عندما تحل بنا كارثة الموت (١) بفقد عزيز علينا ، عندئذ نرى سواد الحياة يغشى تفكيرنا وآمالنا ، حتى لقد نضل سبلها القيمة فيختلط علينا الامر ، ونقصر دون ادراك الحياة . ونضل عن الايمان بأن الموت انما هو طور من أطوار الحياة . إن شأننا ، عندما يدهمنا الموت بجلاله ، كشأن من ينظر الى قطعة من النسيج من وراء مجهر مكبر فيحسبها شبكة مثقلة بالحبال ، فيهوله الحساب ويخطئه الحصر ولكن الحق ليس كذلك ، فالموت ليس بشر ولا هو بالامر القاتم كما يبدو ، ان زرقة السماء ليست بلون حقيقي ، إنها لاتترك من زرقتها لوناً على أجنحة الطيور ، فلماذا تسود وجوهنا يوم يصيبنا الموت ؟

وليس الموت بفشل يصيب الحياة وإلا كانت كبوات الحياة لا تحصى ، فنحن لا نحصي فشل الطفل الذي يحاول المشي ، ولكنا نحصي عليه ما يصيبه من نجاح قليل ، فالطفل يكبو ثم يكبو ، ولكن على الرغم من اخفاقه فانه يلمس في نفسه سروراً متدفقاً فيصمد أمام عمل يلوح له ان إدراكه مستحيل ، وهو لا يفكر في كبواته بقدر ما يفكر في القوة التي يحفظ بها ميزان خطاه ولو مرة واحدة . إن مثل هذه الكبوات تعترض سبيل الطفل وهو يحاول المشي كمثل المتاعب التي تعترض حياتنا كل يوم . وان هذه الكبوات لتبدي ضعفنا وقصر تفكيرنا بحقائق الامور وتبرز ضعف ارادتنا وعجز ما لدينا من قوى ندخرها لنصل بها الى ما نبغي . إن هذه الكبوات يجب أن تكون إذاً تجارب الحياة القيمة فلا ينبغي ان تاتي في نفوسنا يأساً ولا كمداً ، بل يجب ان نخلق فيها شيئاً جديداً يبعثها على ان تحفظ توازنها ولو مرة واحدة كما يفعل الطفل الذي يحبو وهو لا يفكر في كبواته بقدر ما يفكر فيما تدفعه اليه الحياة لاستكمال النقص دائماً . فتعسنا ليس إلا وهماً يشد الهمم ويطفىء الروح ويحدد مسالك التفكير ، بينما الحياة تريد ان تأخذ بأيدينا وان تقودنا دون ارادتنا لان نسلك سبلا أكثر فسحة وأرحب مجالا سعياً وراء الكمال — وان الآمال لتتنقل أمامنا دائماً كالطير يغرينا كلما اقتربنا منه طار قليلا ليهبط دانياً منا ، فهو لايفارقنا الى غير رجعة ، ولكنه يغرينا دائماً ونحن في أثره نتبعه . هذا الامل هو العقيدة في الحياة ، هو الايمان الدائم في نفوسنا ، هذا الامل هو وميض الحق وسر هذا الوجود وبقاؤه . ولكنا ندركوه وسنسعد بالبحث عنه كما سنسعد بلقياه في النهاية

ولا يمكن للشر ان يقبض على زمام الحياة وان اعترض طريقها المعبد ، ولا يمكن له ان يسلبها شيئاً من جوهرها وحقيقتها وان مرّ سبلا في طريقه ، لهذا كان الخير يتأثره ويتبعه أينما وجد هذا الشر ، والحياة دائماً غلابة ؛ وليس للشر ان يصمد لها فيعلن عليها حربه في مجموعها ، ويا للهول اذا استقر أضعف الشرور أثراً في صدر هذه الارض ولو برهة واحدة ، إذن لسلك الى جوف الحياة ومكث في باطنها واجتث جذورها من الاصول — ولكن أنى للشر ان يصل الى هذا لان الانسان لا يعتقد في الشر عقيدة صادقة مؤكدة . وراه في الحياة كالنغم الشاذ النافر من وتر القيثار ، فاذا أحصينا على القيثار أنغامها النابية لاعجزنا الحصر ، ومع هذا فاننا نؤخذ بما تأتي به القيثار من نغم جميل وإيلاف منسجم . إن من الناس من يتهم الحياة بأنها شر خالص ، ولكن الرشيد من الناس لايمكن ان يسلم بما يذهب اليه جميع الناس . والتسليم بأن الحياة شر انما هو استكانة للذهن وبلادة للعقل وتشاؤم يناقض أوضاع الوجود ، وما الحياة إلا التفاؤل وما التفاؤل إلا الحياة — والتشاؤم إدمان مستنكر ، والمتشائم كمدمن الخمر لايعبأ بغذاء صحي وانما هو يعكف على الخمر يعاقرها ويقبل على كأس يصب نفسه فيها فتورده موارد الذل والاتهام ، وتلبب في نفسه الحزن والملل وتثير العطش الدائم — وكهذا يتولد الشر في الحياة كما يتولد الادمان ، ولكن قليلا من الادراك يبدد الباطل دائماً ، ويفرق بين الخير والشر — وان الخير هو العنصر الفعال في طبيعة الانسان ، وان مثل الخير العليا كانت دائماً موضع تقدير الانسان في جميع العصور والاوطان ، اننا نحب الخير ونجل من يغلبه على حياته

وكما تساءل تاجور عن النقص وعن الشر وتحدث فيهما ، فقد تساءل عن الخير وعن الفضيلة الكامنة في الطبيعة البشرية وأجاب : —

(١) صفحة من ذكريات تاجور كتبها يوم فقد أولاده وزوجه في بضع شهور

« عندما يأخذ الانسان نفسه في بسط نفوذه على نفسه ، وعندما يعرف حقيقتها ، ويدرك انه أعظم قيمة مما هو عليه ، عندئذ يكون الانسان قد هيأ نفسه لمعرفة كنه طبيعته الخلقية ، فيعالج ما قد ذل اليه ، ويصبح تطلعه أكثر قربى من نفسه ، فتتغير نفسه تغيراً جديداً ، فتقبل على انقلاب يدرك به الحياة ذات قيم جديدة فتحل ارادته محل رغباته ، لان الارادة ليست رغبة الفرد ولكنها رغبة في الحياة السامية التي لا يحد حاضرنا غير جزء يسير منها ، ولا يمكن لتقديرنا ان يلم بغرضها كله. ومن هنا يشتد النزاع بين رغباتنا وبين ارادتنا ويثور النضال بين الرغبة فيما تؤثره حواسنا من قيم وبين الارادة المستقرة في سويداء قلوبنا ، عندئذ يبدأ التمييز بين ما نحتاج اليه في حياتنا حقا وبين ما هو خير محض مما تتوق اليه نفوسنا المتصلة بالحياة الاخرى ، ولهذا تنشأ حاسة الخير في حياتنا من وجهها الذي يظهر الحق. وربط حياتنا بمجموع الحياة ، هذا الوجه الخير هو الذي لا يقصر عنايته على ما يحوطنا من حاضر ، بل ان عنايته لشاملة ما هو خارج عن حاضرنا ، وربما شملت عنايته حياة لم يقدر لها وجود بعد ، والانسان الحكيم يشعر بهذه الحياة الاخرى التي تتهيأ له والتي لم توجد بعد ، بل إنه يحس بها أكثر مما يحس بالحياة الدنيا التي يحياها ، ولهذا نشأت عند الانسان فكرة التضحية بنفسه عند ما يلبي نداء يدعوه الى ذلك فيقبل مضحياً بحياته في سخاء في سبيل مستقبل لم يره ، وهو بهذه التضحية يصبح عظيماً لانه أدرك الحق ولباه سخياً كريماً . وعلى المرء ان يدرك هذه الحقيقة مهما يبلغ في الانانية اسرافاً . وعليه ان يطمئن من حدة عواطفه ورغباته بأن يكون خير الخاق . لان قوتنا الروحية هي ذخيرتنا التي ندرك بها ان الحياة ليست ثوباً مهلهلا يضم أشتات الرقع ، او انها بالامر الهين فجاءت الى الوجود دون قصد او هدف جليل كريم ، وفينا احساس خلقي ندرك به صلة الحياة الدائمة بالبقاء والخلود ، وان هذا الاحساس ليهبنا القوة لندرك أن للنفس استمرارا موصولا مع الزمن ، وانه ليس من حق الفرد أن يعيش لنفسه فقط. ان الانسان لاكبر مما يظن في نفسه، فهو ليس ملكا لذاته ، وانما هو حق لافراد لم يدبوا في شخصه بعد ، وقد لا يقع في حسبانه ان يعرفهم يوماً ما

فتاجور يرى ان الانسان ملك الأجيال المقبلة فقد يؤثر عملهُ في حياتهم ، وهو في حياته الروحية موصول ببقاء خالد يدركه ويحسه ، فكما ان للانسان شعوراً بروحه الجامعة الكبرى التي تقع خارج شخصيته ، كذلك له شعور بروحه المستقبلة التي لا يحدها وعيه

ويفرق تاجور بين حياة الانسان والحيوان، فيرى في حياة الانسان سموًّا وادراكاً وحرية في تطلعه الى الاتصال بالحياة الاخرى وفي ادماج نفسه بالاجيال المقبلة بينما يرى حياة الحيوان

« إنما تدرك ذاتها من طريق الغذاء وإشباع شهواتها ، وان غايتها النهائية هي ان تلبي غرائزها ، وان تحس أنها تعيش لادراك نهمها . فعرفة الحيوان لنفسه انما هي وعي محدود ضمن دائرة لا تسع غير الشعور بالذات وغرائزها وحدها » (١)

والبذل والتضحية خلق انساني كريم يمتاز به الانسان وحده دون غيره من الكائنات ، وما من مخلوق إلا ويتملكه هذا الخلق بقدر ، ولم يخلق بعد الانسان الذي لم يضح بشيء من رغباته الجامحة في سبيل شخص آخر او جماعة او اسرة ، وليس في الدنيا من لم يسعده هذا الشعور السامي ولو مرة واحدة . انه شعور يخلق المسرة التي تهبط النفس عند البذل وعمل الخير والتضحية من أجل الآخرين — فالانسان حيوان نبيل يسمو بهذا الخلق الكريم عند ما يدرك انه ليس كائناً مبتوراً عن الجماعة وانما هو موصول بها — ولهذا فهو حيوان عظيم حقاً . والنفوس الشريرة لامناص لها من ادراك هذه الحقيقة عندما ترتكب الجريمة ، فهي تشعر بأنها أقل قيمة من الانسانية الخيرة ، وهذا الخلق الذي يقرر الحقيقة هو خلق يتصل بالخير ، لانه اعتراف بالحق صريحاً ، فلا بد من الخلق في جميع مواطن الحياة حتى في المواطن الشريرة منها ، فعصابة اللصوص يجب ان تكون على شيء من الخلق ليتماسك بعضها ببعض لتكون جماعة لها وحدة تمكنها من سرقة الناس وتمنع فريقاً منها ان يسرق الفريق الآخر . فلكي تنجح بعض الاغراض السافلة يجب أن تتخذ من

(١) من محاضرة ألقاها بأميركا بعنوان « الولادة الثانية »

الخلق الكريم مظهراً وعدة ، وكل شيء يمكن ان يخفى ولكن خلقاً واحداً ليس للانسان من طاقة على اخفائه وهذا الخلق هو الطمع والانانية ، والخلق هو الذي يبث فينا المكروه والشر متى كان الطمع والانانية في تكوينه . وهنا يصبح الانسان أدنى الى الحيوان يلهم بالغريزة لا بالاخلاق والكرم والخير . ولكن الانسان لن يجرد من خلقه اطلاقاً ، ولكنه قد ينحرف عنه ، فليس هناك من شر خالص ، لان الشر انما هو خير منحرف عن وضعه ، وليس هناك من كذب خالص ، لان الكذب انما هو صدق منحرف عن وضعه ، واذا لم يبصر الانسان كان أعمى ، ولكنه اذا أبصر الشيء فأدركه على غير ما هو عليه كان مبصراً بصراً غير صحيح . والانانية في الانسان ليست شراً خالصاً ، لانها اللمحة الاولى لعين الحياة وأغراضها ، ولكن الشر ان تنحرف الانانية الى وضع مهلك يهدر كرامة الانسانية وينحرف بها عن أوضاع الحياة ذاتها .

ولابد ان تقابل الانانية بشيء من الخلق والعزيمة والكبح وحسن السلوك — ولكن الرجل الاناني يتلقى المتاعب متواليات في غير ملل ، وهو بهذا اللقاء المرهق يرضي نفسه ويشبع هواه ، وحياة الاناني حياة ذات وحدة محدودة . وأما الحياة الجامعة الحقة فلها معنى فسيح لمن يحيا من الناس لفكرة او لوطن او لخير الانسانية — وان الالم ليتضاءل بقدر سعة هذا المعنى النبيل ، وانك لكي تعيش عيشة الرضى والخير ، يجب ان تحيا للجميع وان تبذل لهم وتضحي من أجلهم . والشعور بالمسرة والقوة قاصر على الفرد لنفسه ، وأما الخير فوصولة مسرته ولذته بالفرد وبسعادة الانسانية . وقد تنعدم قيمة اللذة وقيمة الالم أمام وجه الحياة الضحية في سبيل الجماعة ، ولقد ضرب الشهداء المثل عالياً في هذا ، وفي انكارهم الذات برهنوا على ان الخير الانساني تنعدم فيه قيمة اللذة ويفنى الالم . ذلك لانهم قد نسوا الانانية وأنكروها ، فبطل ما يترتب على الانانية من مشاعر اللذة او الالم . وإن تاجور ليقول في هذا : متى استقامت اللذة والالم في مستوى الانانية ، كانا حملين ثقيلين لا يقوى عليهما عضد متين ، ومتى استقاما في مستوى الخلق خفت أوزانهما وهانا على من أنكر أنانيته

ولكي تحيا حياة السمو والخير يجب ان تعرف قدر نفسك وتدرك كنهها في الحياة وما بعد الحياة ، ولقد أشار تاجور الى ان تعاليم بوذا تتفق مع تعاليم المسيح في هذا فقال « نحن ندرك كنه النفس من قوة موروثة فينا بادراكنا وتقديرنا الخلقي لمجموع الحياة ، وان تعاليم بوذا لتهذب هذه القوة الخلقية حتى تصل غاية التهذيب فنعلم ان نشاطنا وجهودنا ليست محددة بأوضاع النفس الضيقة ، وهذا هو دستور مملكة السيد المسيح ، الذي يقرر السمو في تحرير النفس من الالم والمسرة »

« ويوم أنشأ بوذا السبل التي يهدى اليها البشر من البؤس ، استقر عند هذه الحقيقة ، وهي انه عند ما يصل الانسان الى نهاية مبتغاه بادماج ذاته في البشرية العامة وبافناء فرده في الجماعة يكون قد تحرر من مذلة الالم » . « ولقد لبث أحد طلابي في شكه عند ما حاورني فقال : هناك حقيقة ليس لانكارها من سبيل وهي « إني أشعر بوجودي » وان « أنا » ذات في كل منا تبحث عن مستقر لها في كل فرد . ولقد أجبت طالبي « بأن شخصية الفرد « أنا » قد يصيبها شيء من اللافردية ، أي من الحياة الجامعة العامة ، ولهذا يجب ان نوفق الى حد وسط بين الفرد وبين هذه الحياة الجامعة العامة ، وان من الحتم علينا ان نعلم ان هذا الحد الوسط انما هو الصلة بين الفرد والجماعة » . « يجب ان نذكر دائماً ان فرديتنا مجبولة بطبيعتها على البحث عن الجامعة العامة كشيء مقوم للبقاء ، فأجسامنا تفنى لو قصرت غذاءها على مادتها ، وتفقد عيوننا وظيفتها اذا لم تبصر غير نفسها » .

« إن أعظم مسرة يمكن ان يدركها الانسان انما تكون في شعوره بعظمته التي تنشأ نامية في إدماج كيانه بحياة الجماعة ، وقد يستحيل على الانسان ادراك هذا ، إلا اذا فهم ناموس الجماعة ، وكلما تعارضت رغباتنا الشخصية مع هذا الناموس العالمي قاسينا اعباء الالم وكنا أحياء كالاموات » . « ولقد مر على الانسان حين من الدهر كان يلتمس الى هذا الناموس العالمي ان يمنحه مزايا خاصة ، وكان يتوقع لسنن الطبيعة ان تخضع لهواه وتسير بحسب رضاه ، ولكن الانسان وقد أصبح أكثر علماً بالاشياء ، أيقن أن لا سبيل لاغفال سنن الكون ، وقد أصبحنا بهذا اليقين أقوياء حقاً ، لان سنن الطبيعة ليست منفصلة عنا وانما هي موصولة بنا ، فهي الناموس الذي نسير على مشيئته ومقتضاه ، والقوة العامة التي تنساب في هذا الناموس هي هي التي تشد قوانا ، وانها لتسحقنا اذا صغرت نفوسنا فأصبحنا في سبيل الحياة كالمنبوذ ، ولكنها تشد من أزرنا اذا كبرت نفوسنا وكنا يداً مع الجماعة ، وكلما قوي نصيبنا من العلوم كنا أكثر قرباً الى الطبيعة » .

« اننا في هذا العصر العلمي لا نزال جاهدين في اثبات حقنا في عالم الروح ، واننا لنعلم ان جميع ما أصابنا من فقر وآلام انما هو ناشىء عن عجزنا عن اثبات هذا الحق الشرعي »

« ما زال الانسان يشكو التعس والافتقار الى السعادة ، على الرغم من انه استطاع ان يخضع الطبيعة لتفكيره وعلومه ، كأن شيئاً ورث في طبيعة الامور يأبى إلا ان يجعلنا تاعسين . ان الروح الجامعة في ارتقائنا لتضع فوق هامتنا تاج السعادة ، ولكن الروح الفردية التي فينا تأبى هذا التاج وتنكره . ألا انما الاثرة والانانية هما الدافعان بحياتنا الى مهاوي النزاع والشقاق ويهدمان كيان المدنية والمجتمع ويجلبان التعس والفاقة للبشر ، بل ان الحياة القائمة على الانانية والاثرة لتضع الامور في مأزق مضطرب لا يقوم له من النظم إلا ما كان له تكأة من الظلم والاعتساف ، وعندئذ يرضخ الانسان لدساتير قاسية كأنها إنما فرضت لجهنم او لسكان الجحيم ، وعندئذ تدق عنق الانسانية وتذل وتضمحل كرامتها الى أدنى الهوية ، فلكي نكون أقوياء كان لزاماً علينا ان نسلم للقوى العامة المهيمنة على الحياة ، ويجب ان نعرف من تجارب الحياة ان هذه القوى العامة هي ملك لنا ، لهذا كان علينا اذا أردنا ان نكون سعداء ان نخضع ارادتنا الشخصية لجلال الارادة العامة ، وان نشعر أنفسنا بأنها انما هي ارادتنا ، فاذا ما سمونا الى هذه الحال من الايلاف بين المحدود فينا من ارادة وبين ما هو غير محدود من الارادة العامة ، أصبح الالم والصبر عدتنا الغالية والكيل الوفي الذي يضع لسرورنا قدره الحق »

« وان أثمن درس يمكن للانسان أن يستخلصه من حياته هو ان ليس من ألم في الوجود الا وفي مكنة الانسان ان يدبر منه خيراً وصلاحاً ، وان يعيده الى نفسه مسرة وشعوراً مبتهجاً . على اننا لم نضل سبيل هذا الدرس كل الضلال ، اذ ليس من انسان ينبض قلبه بالحياة ويرغب بمحض ارادته في حرمان نفسه حق معاناة الشعور بالالم والاحساس به ، لان هذا الاحساس هو حق له يؤهله لان يكون انساناً »

وليست حرية الانسان في ان يتحاشى المتاعب والآلام ، ولكن الحرية في ان يوجه الانسان هذه المتاعب وجهة خير وصلاح ، وان يجعل الالم عنصراً من عناصر مسرته ، وما كان هذا ليكون الا عندما تدرك حق الادراك ان النفس الفردية ليست هي المعنى السامي الذي تنشده الحياة ، بل ان في ذاتنا وفي دخيلة وجودنا ليستكن الفرد الاسمى ، المخلوق الكوني الخالد ، الذي لا يهاب الموت ولا يرهب الردى ، والذي يستعذب الالم ، ويلتمس فيه مذاقاً آخر للمسرة ، وجنباً من جوانب الحياة المبتهجة . وان من أوتي هذا اليقين ليدرك ان الالم هو ثروتنا الباقية التي يفتقر اليها وجود الابتر ، وان الالم هو الذي يخلق منا العظماء الذين يصيبون من الكمال المثالي مكاناً سامياً ، وانها لعظمة روحية ان يعرف الانسان قدر نفسه ، وان يدرك انه ليس بمتسول يعيش كلا على الحياة ، وانما هو يدفع لما يدرك من الحياة من قوة وحكمة وحسنما غالياً ، وان ثمن هذه المعاني انما هو الالم . وأننا لنرقى مدارج السمو والكمال من طريق الالم وحده ومنه يتجلى لنا السرور الابقى . الا أن من لم يجد من نفسه قبولا حسنا لاستقبال الالم ، فهو الذي سيهوى الى حضيض الفاقة والاقراض . ويجب ألا نهين الالم فنستخدمه في ارضاء مطامعنا الذاتية ، انه اذن ليثأر وينتقم لما يلحقه من هون اذا ما سلكنا به غمرة البؤس والتعس ، يجب أن يرتفع الالم عن كل بؤس أو تعس اذ هو شعور نبيل واحساس يرتفع بالانسانية الى قدرها ، انه العذراء البتول التي وهبت جهودها للكمال والخير فاذا نالت ثوابها على مذبح اللانهائية ، رفعت حجابها سافراً عن وجه مشرق متجلي فيه مباهج المسرة العليا (١)

وتاجور يرى ان في ضميره رسالة يجب ان يؤديها ويعلنها للناس أينما حل ، كأنه المبعوث للكافة بشيراً يؤمن ان لهم فيها الخير والسلام والامن ، وهذه الرسالة تدعو الى الوحدة الروحية العالمية ، تمهيداً للاخاء والسلام الانساني واقامة مدنية فاضلة تنير العالم جميعاً . وفي محاضرة له ألقاها في اميركا على جمع حافل من العلماء والساسة وقادة الرأي يبين

---

(١) ملخصة من الفصل الثالث « سدهانا » لتاجور

رسالته، ويبسط آراءه في حديث مشبع جمع بين العلم الحديث وبين فلسفة الشرق القديم. فأبحاث علم النفس الاجتماعي تقول بوجود «الضمير العالمي» و «الضمير الفردي» وأيهما يجب ان يغلب في الفرد وفي سلوكه في الحياة، وتاجور يبسط دعوة الشرق فيقول في هذه المحاضرة [1] :

«تتسع رقعة الوعي في الفرد بالاتصال بين ارادة الفرد وبين ارادة العالم »

ويقول بوجود وحدة يسميها «الواحد الكلي اللانهائي». وإن ارادة الفرد لا تبلغ مناها من الاندماج في ارادة العالم ووعيه، الا اذا وجد الاتصال الدائم المستمر بين الفرد وبين هذا « الواحد الكلي اللانهائي »

ولا شك في ان تاجور يريد بهذه الدعوة ان يُغلِّب الضمير العالمي على الضمير الفردي في أعمال الفرد وفي تفكيره وفي عواطفه وانتاجه . وهذه النظرية وان بدت حديثة يدعو اليها علم النفس في عهده الاخير، الا ان تاجور قد اكتسبها من صميم العقائد الهندية القديمة المدونة في كتبه المقدسة [2] — فيقول تاجور :

« ان السبيل الاسنى بين ضمير الفرد وضمير الجماعة هي الحياة ذاتها ولا شيء غيرها هي حقيقة كامنة في كل الاشياء والناس وفيها لا يحصى له عد من الكائنات حقيقة البقاء، لا من طريق التنازع ولكن من طريق التعاون، لا من طريق اجتياح القوى للضعيف ولكن من طريق تساند العالمية جميعا لايجاد الحياة والامن والجمال »

بهذه النظرية يهدم تاجور نظريات تنازع البقاء وبقاء الاصلح، وما الى ذلك من أفكار هدامة نهضت على القوة والمادة، وآمنت بالأنانية والاثرة وحدها . ولكن تاجور يعود الى شعره الحالم فيقول مترنماً :

« تلك الوحدة هي كنز الانسانية المدخر، هي العالم الخالد بجماله وحقيقته، وسبيلنا اليها هو البهج والفرح بالحياة والتعاون في سبيلها وادراك نغمها المتصل بين نفوسنا ونفوس الكائنات وبين الواحد الكلي اللانهائي »

ولكن تاجور لا ينكر على الانسان أنهُ قد خلق في حاجة الى غيره، وأن لا بدّ له من عناصر يقيم بها حياته، ولا سبيل الى هذه العناصر الا بالاستيلاء، فيقول :

«إن هذا الاستيلاء هو تفكير واتساع لنطاق الفكر، فهو لهذا عمل في سبيل الحياة، هو ابداع وحرية يخرجان الانسان من سجنه، وهو عمل ضروري لان حاجات الانسان الطبيعية لا تأتي طواعية، ولهذا اشتغل الانسان منذ فجر تاريخه في ابداع عالم له من المواد التي تحيط به، فيجب ان يسعى ليبقى، ومنذ خلق على نقيض الحيوان فولد عريانا، فهو مضطر الى ابداع كساء له، واذا ما تغذى أبدع غذاءه بنفسه، وهو لا يستطيع ان يأكل السمك الا اذا صاده وفكر في طريق اصطياده . فتفكير الانسان في سبيل حياته

(١) محاضرة القاها تاجور أمريكا بعنوان « الولادة الثانية »

(٢) الاوبانيشاد : المقدمة الثانية Chhandogya

هو ابداع وحرية ، وأما الحياة فيما هو كائن فهي السجن بعينه ، لانها حياة ليست منا ، ومعناها اطلاق يد الطبيعة لتنتخبنا ، كأننا قطع مسخرة لا ارادة لها فنصبح خاضعين لقانون الانتخاب الطبيعي ، الذي يقرره داروين — فقانون داروين مذلة لا تشرف الحياة ولا ترفع من قدرها

ويرى تاجور غير ما يرى دارون فيقول :

« ان السعي في سبيل الحياة عمل يدعو الانسان ان يكون مفكراً ملهما غير خاضع لقانون الانتخاب الطبيعي ، بل يجعله حراً غير مقيد بأوضاع قاسية تدعو الى الانانية والاثرة والفناء . والحياة فيما نبدعه بأنفسنا بتفكيرنا ، ومعناها ان نحيى فيما هو لنا . وسيتحول العالم شيئاً فشيئاً اذا ما فهم هذا الوضع ، الى عالم مكون من انتخابنا نحن ، فيتحرك بتحركنا ، ويوجه توجيها كما نريده ، فلا يقنع الانسان بالعالم الذي أعطي له ، وانما يرمي الانسان الى جعل العالم حياة من عمله وجهده ، وهو لهذا يصبح قوة ترتب ، وتنظم ، وتنتخب ، وتدرس طبائع الاشياء ، وتعالج كل كائن علاجا ميسراً — ولكنه لا بد ان يصطدم بارادة الطبيعة وبترتيبها ، وفي هذا الصدام يكون المعترك الدائم لتفكير الانسان وحريته — هو صدام مادي تأبى طبيعة الانسان ان تؤمن به ، لانه قائم على المادة ، ولن تكون المادة الغاية في الحياة . فحاول الانسان في عصر همجيته ان يعدل نظام الاشياء بأفعاله السحرية وباخضاع القوى الطبيعية للجن في تعديل العالم حسب رغبته — ومع هذه المحاولات الا لان روح الانسان الحرة كانت تصطدم دائما بما تريد الطبيعة ان ترغمه عليه من نظم وترتيب لم تراع فيها رغبات الانسان . فالانتخاب الطبيعي هو قانون صارم لم يرضه الانسان لانه لا يؤمن به لمنافاة طبيعة الحرية التي في نفس الانسان — وكلما قست هذه القوانين الطبيعية على الانسان ظهر ضعفه واتجه الى عوالم الخيال حيث ينعم بالاشتراك الدائم مع آلهة السحر والاحلام ، يظن انه قد عثر على حجر الفلسفة واستولى على اكسير الحياة كأنه قد وجد خلاصا والتمس منفذاً من قيود الحياة الطبيعية الضيقة المحدود

ولم يستطع الانسان بعد ، أن يجد باباً ينفذ فيه الى عالم آخر ، يهيئه كما يريد ، من طريق اخضاع المادة وتحويل انتخاب الطبيعة بأعماله السحرية وبالخرافات التي استولت على تفكيره وعقائده الا أنهُ ما فتئ يلتمس هذا الباب منفذاً لحريته ، ففكر حتى سخر قواه المفكرة في ايجاد العلوم التي قد تستطيع مغالبة الطبيعة واخضاع الحياة لنظامه وحريته

والعلم في نظر تاجور: —

« محاولة في سبيل حرية الانسان ، والعلم يقود حوله تمرد الانسان ضد الطبيعة ، فهو الذي يعمل ليضع بين يدي الانسان تضييق الطبيعة السحري ، وهو الذي يحررنا من عبودية الاشياء . . . ولكن المدنية الحديثة قد كست العلم مظهراً ماديا ما دام قد سخر في تكسير قيود المادة ليعمل جاهداً في الانتفاع ببقايا هذه القيود المهشمة . وعمل العلم في تكسير قيود المادة ثم في الانتفاع بها يشبه حالة الفاتحين اذ يغزون البلاد فيشتغلون بالسلب والنهب حتى اذا ما استتب لهم الحال انعكس الامر فأصبح أولئك الغزاة السالبون هم أنفسهم المسؤولون عن الامن والسلام ، فالعلم يغزو ويحطم مناطق المادة ولكنه يهدأ أخيراً لينتفع البقايا الباقية

وتاجور بهذا يعلن في وجه قادة المدنية الغربية ، أن التقدم العلمي وحده لن يجدي الحضارة البشرية مادام مسخراً للتخريب واخضاع الحياة — ولكن تاجور غير يائس من العلم لأنهُ قبس من الحرية ، وجهد قد يؤدي الى خير محقق للبشرية ، فيقول : —

« ان العلم هو الى اليوم في بدء غزوته للعالم المادي فهو لهذا في سورة من غضبه وحب استطلاعه لكل مجهول ، فهو يتصدى ويتحدى ويتحرى ما يجب وما لا يجب ان يكون طبق طبيعة الحياة ورغبات الانسان . هو غز جبار يسلب وينهب ويخرب ، وسيستقر عندما تتسع أمام روح الانسان فسحة الحرية لابداع عالم خاص به فتصبح قوى الطبيعة منسجمة مهادنة للانسان تمده بالضروريات في أقل جهد وأسهل مسعى »

فتاجور يناقض دارون ، ويرى أن الوسيلة الى حقيقة ما يريد ليست الا ضعفاً لا يشرف الحياة الانسانية بل يغلّب عليها الحيوان الكامن في طبيعة الانسان الحيوان الذي يدفع الانسان الى الأخذ دون العطاء ، الحيوان الذي يسود بجشعه المدنية فيجعلها خاضعة ذليلة لشهواته وأنانيته

على أن تاجور لا ينكر حياة الحيوان في الانسان ، فهو يعترف بالثنيئة القائمة فيه وجمعه بين عالم الطبيعة وعالم الروح ، عالم الحيوانية وعالم الالهية

ولكنهُ يأبى أن يتغلب الحيوان الذي في الانسان على الاله الكامن في روحه وقلبه والا سَادَ الحياة نظام الحيوانية الذي من شأنه أن يُغَلّب القانون الطبيعي الصارم الذي يقرر « تنازع البقاء وبقاء الأقوى »

ويقول تاجور في هذا : —

« وهنا نصل الى أبرز ثنئية في الانسان . وهي جمعه بين عالم الطبيعة وعالم الروح ، فالشر الذي يمس الانسان الطبيعي هو ألم ، ولكن الشر الذي يمس الروح دعي باسم آخر هو الخطيئة ذلك لان الخطيئة قد لا تعني أنها الا أنها شر على كل حال ، وذلك كالعمى او العرج الذي قد يصاب به الجنين وهو بعد في احشاء أمه فليس العمى ولا العرج بخطر عليه ما ظل جنيناً في الاحشاء ، وأما اذا خرج الجنين الى العالم كان خطر ذلك شراً أي شر . والجريمة هي شيء ضد الانسان وأما الخطيئة فشيء ضد الالهي الذي في الانسان »

وتاجور يريد بهذا أن يضرب مثلاً للروح فيقول : —

« انها في هذه الحياة الدنيا تحيط بها حياة الحيوان ، وهي كالجنين في رحم أمه ، لا تدرك ولا تستطيع ان تفرق بين الحق والباطل ولا بين الخير والشر ما دام قد ساد عليها الحيوان الذي فينا ، فكأن حياة الروح الآن هي حياة تنطوي تحت نظام حياة الاجنة ، وستبقى هكذا حتى تهيأ لها « الولادة الثانية » حيث تخرج الى عالم اللانهائية ، عالم الروح الخالص من الحيوان، على ان هذا الحيوان هو الذي يشجع الروح بما يضايقها من شرور ، على تحطيم الحدود الضيقة التي حددتها النظم الطبيعية ، فهي تبحث دائماً عن مخرج لها « ولكن ألا يفعل الفرخ في البيضة عين هذا الفعل حين يهم بكسر هذا السجن من البيضة المحصور ضمنها حتى يخرج الى عالم آخر أفسح من سجنه ؟ وهل يقال هنا بأن الفرخ قد أحس بدوافع ومنازع تدفعه الى الخلاص من سجنه الى عالم أفسح منه حيث يكسى وجوده ثوب معان جديدة لا يستطيع ان يدركها اذ هو ظل داخل جدران هذا السجن الضيق ؟ . وهكذا الانسان في حاضره ، مهما تضق عليه حدود عالمه هذا فانه يظل يثق ثقة غريزية عمياء بأنه انما يخرج من رحم الطبيعة ليدخل عالماً من الروح حيث يتمتع هناك بحرية وحيث يشترك مع اللانهائي وحيث يتحد ابداع الانسان وابداع الله في سمط واحد من التساوق »

وأما الحيوان الذي فينا فيقنع بأن يحصر غايتهُ طبق ما تريده الطبيعة من نظام تنازع البقاء

« فهو مؤمن بنهايته ، يعيش وينسل ثم يموت ، هو قائم أبداً بهذا النظام خاضع له لا يطلب خلاصا ولا

تحرراً ، ولا يشعر بضيق هذا العالم المحدود ، بل انه ليأبى ان يهدم الجدران القائمة حول سجنه ، فهو محروم من التطلع ومن التسامي والشعور بالحياة الحرة الكائنة في مملكة الروح حيث الميراث الروحي الاسنى »

ومن طبيعة هذا الحيوان أن يكون جشعاً الى آخر غاية من الجشع ، أنانيًّا حاد الأثرة

« هو لا يخجل من شهواته لانه صادق فيها ، فهي شهوات تختص بحياته الكاملة النهائية ، وهو ليس قاسيا فيما يبدو منه من ضروب القسوة ، ولا هو جشع فيما يبدو منه من ضروب الجشع ، لان هذه كلها هي أغراض نهائية في حياته ، بل هي غاية الحياة التي يتهالك عليها »

ولا يشعر الانسان باحتقار هذه الشهوات الاّ اذا اتصل بالشيء الألهي الكامن في روحه ، ولن يبلغ هذا مادام يعيش لنفسه دون أن يتصل بالعالم ودون أن يسخر قلبه للضمير العالمي. ولهذا يجب أن يرفض نظام تنازع البقاء وبقاء الأقوى والاّ كان جاهلاً بأسرار الحياة غير واثق بقوة الروح الألهية التي فيه والتي يجب أن تسود المدنية جميعاً

ويعجب تاجور من الانسان اذ أنهُ قد ناصب الحياة العداء لأنهُ جاهل بها، غير واثق فيها

« اذا نظرنا الى الانسان من وجهة الطبيعة ، أي من الناحية الحيوانية التي فيه ، رأيناه كائناً جاهلا ، لانه لا يثق أبداً بالعالم الذي يعيش فيه، وانه قد ناصب عالمه العداء والحرب منذ فجر تاريخه، ويبدو الانسان من تلك الوجهة الطبيعية ذاتها كأنه مشغوف بأذى نفسه ، ومن الصعب ان ندرك كيف ان سيرة الانتخاب الطبيعي تغفل عن تلك المنافذ التي تتسرب منها عناصر خطرة تشجع الانسان على تحطيم هذا العالم الذي يعيش فيه »

ويشير تاجور الى النزاع القائم بين الروح والجسد فيقول : —

« ان الرسالة الاولى للروح تلح عادة على الانسان بضرورة الانفصال عن الطبيعة الاولى ، عن الحياة الحيوانية ، التي تحاول الروح ان تستأصلها ، ولكن هذا هو الوجه السلبي من المسألة . فحين تندلع نيران الثورة في طلب الحرية تنقلب تلك الحركة في سبيل الحرية الى فوضى ، الا ان معنى الثورة الحقيقي ليس في تدمير النظام ، ولكن في تحريره من قيود الظلم ، فولادة الانسان في عالم الروح لا يعني استئصال صلاته بعالم الطبيعة ولكن معناه تحرير هذه الصلات من كل تحكم ، وادراكها الادراك الحق »

فتاجور لا يريد أن تهدم الروح عناصر الحيوان ، ولكن يريد أن تتعاون الروح مع الحيوان في ابقاء الحياة كما يجب أن تكون ، بعيدة عن التشاؤم والكفر بالعالم ، والاّ انسلخ الانسان قطعة قائمة بنفسها منفصلة عن الوجود وعاش عيشة الزهد والتمرد ، ومن هنا نشأت طائفة المعتزلة التي تعتزل العالم والتي تعيش في أحوال غير طبيعية بعيدة عن أحكام القوانين. إن هذا العمل هو حرب ولا شك على الحياة نفسها، وتاجور لا يقر بهذا الوضع ما انسابت اليه عقائد الهنود من طوائف الزاهدين والنساك الذين كرهوا العالم واعتزلوه ، ويرى أن هؤلاء قد ثاروا على الحياة وأنهم دمّروها كما تفعل نيران الثورة حين تهتاج ، طلباً للحرية فتنقلب الى فوضى مدمرة ، فهو يأبى هذا العنف ويقول ان ماحدث انما كان نتيجة للتشاؤم وجهل الانسان بأسرار الروح ومطالب الحياة التي تجنح الى العدل والقسط دائماً

باب المراسلة والمناظرة

« سوء تفاهم »

في عدد ابريل من المقتطف سرنا ان ننشر نقداً لامعا لمجموعة قصص أخرجها الدكتور بشر فارس بعنوان « سوء تفاهم » ، وكان النقد بقلم الشاعر حسن كامل الصيرفي . وقد صرف الناقد النافذ همه الى اتجاه القصة على قلم المؤلف وسر جوهرها ولطف طريقتها ، وقد أضاف الى ذلك تحليلا تارة واشارة أخرى للقصص واحدة واحدة بتفهم وتبصر . ولما كان خروج هذه القصص حادثا أدبيا وفنيا في مجرى الادب العربي الحديث ولما كانت هذه القصص حقيقة بأن ينظر اليها من وجهات مختلفة ، رأينا ان ننشر هنا نقداً لها بقلم الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني (« البلاغ » ١٥/٣/١٩٤٢) ، ففيه أمران نظن أنهما يهمان القارىء ، أما الاول فحديث المازني عن شخصية صديقه بشر فارس ، وأما الثاني فتحليله الدقيق الجامع لاسلوبه



الدكتور بشر فارس صديق عزيز عليَّ أثير عندي، وأنا على وده حريص ، وباخائه ضنين ولكني لا أحابيه ، ولا أغرر بالقارىء ، حين أقول ان كتابه الجديد « سوء تفاهم » تحفة أدبية نفيسة . وأصفهُ أولاً فأقول : انهُ — وأعني الكاتب لا كتابه — رجل بيته أنيق مرتب ، وعقله منظم ، ودراسته — على سعتها — مبوبة كأنها ، وهي في رأسه ، على رفوف لا تكلفه إلاّ مد اليد للتناول من قريب ، وهو كريم يعطي بما يجاوز حد الكفاية ، ولكن في طباعه حكمة تأبى عليه الاسراف ، وتصده عن البعثرة ، وتحميه ان يجمح بهِ التمرد بغير عنان ، وفي جبينه وضوح ، وفي عينه سعة ، ولكن النظرة فاحصة ، والحزم يطالعك من هذه الديباجة السهلة والوجه الابيض الناعم

وما رأيت كتاباً يدل على صاحبه ، ويصوره كهذا الكتاب ، ولو كان كل قارىء يعرف الدكتور بشر كما أعرفه ، ويخالطه ، لشهد لي بالصدق ، ولشعر ان الكتاب لا ينقصهُ ان تنشر فيهِ لصاحبه صورة او ترجمة . هذه الاناقة في « الطبع » هي اناقة الدكتور بشر في الملبس والمطعم والمسكن في غير تكلف يثقل او شطط ينفر

وهذا « الذوق » في حلي الكتاب وخط عنواناته ، وفي فهرسه ، كأنهُ عروس محتشمة تجهز بما يحملها يوم تمضي الى وجهتها — هو « ذوق » الدكتور بشر

وهذه الوجازة في الأقاصيص التي اشتمل عليها الكتاب ، والقصد في العبارة بعض آيات الحكمة التي بني عليها الدكتور بشر وصرفتهُ عن تكلف ما لا غناء له ولا محصول وراءه ، والدكتور بشر مفطور على الايجاز ، لا الاقتضاب ، بحيث تكفي الاشارة لا يعدوها

الى الكلمة ، واذا أغنت الكلمة المفردة اجتزأ بها عن الجملة ، واذا وجبت الجملة اجتنب المط واللت والعجن ، وهو هكذا ابداً — في حياته ، وفي كتابته . ومن هنا ما تراه في أسلوبه من التدقيق والاحكام ومتانة البناء والاستغناء عن الحشو والزهد في الاسهاب ،كأنما يزن الفاظه بميزان صيدلاني ، او يكتب بأسلوب طبيب يخط وصفة

وللدكتور بشر اسلوبه الخاص الذي ينفرد بهِ ، ويتميز ، وقد قلت فيه من قبل — يوم تناولت كتابه « مباحث عربية » — انه « اسلوب العالم الأديب ، فكل كلمة في موضعها وكل جملة تؤدي المراد بلا زيادة أو نقص ، وعبارته مفصلة على قدود معانيه ، تفصيلاً ليس أدق منهُ ولا أحكم مع الوضوح واشراق الديباجة ولطف التخير وحسن التصرف ، ومع اجتراء العالم الواثق على الاستحداث حين يقصر الموجود عن حالة التعبير »

بهذا وصفت اسلوبه في كتاب نهجه علمي ، ومباحثه أدبية . وما زال هذا وصفي لأسلوبه في كتابه الجديد وان كان مجموعة من الاقاصيص القصار ، والاقصوصة — كالقصة — تحوج الى رسم الشخصيات ، بايجاز او اطناب ، والى الحوار والوصف

ولا معدى عن قدر من التفاوت بين الأسلوب في القصة والاسلوب في البحث ، ولكن الدكتور بشر احتفظ بخصائص أسلوبه كلها ، وأبرزت معالجته للقصة خصائص أخرى لم يكن الى بروزها من سبيل وهو يتناول مسألة بالبحث

ويمكننا ان نقول ان الاداء عربي مبين ، ولكنه — على علو اللسان وقوة البيان — يؤثر النهج الغربي في تقطيع الكلام وتركه جملاً كل منها قائم بنفسه غير موصول بما يليه أو يسبقه الاّ من حيث المعنى . وهو في هذا يشبه اخواننا وزملاءنا أدباء العربية في المهجر الاميركي ولكنه يمتاز بالصحة والسلامة والقوة والمتانة . وكل أقاصيصه على نحو ما وصف في التقدمة :

« يجب ان تكون القصة برقاً لماحاً طي سحب سود ، والسحب السود هي الحياة الجياشة ، ويجب ان تنطوي القصة على الشاعرية في الاداء وفي التصوير خاصة ، حتى تفلت من جفوة الواقع . وأما قوامها فرهافة في تحسس القيم الانسانية ، بمعالجة كأنها هينة ، مادتها حادث تافه ، عبارة سانحة ، شعور ند ومض ، مع اجتناب التبيين المنطقي »

وأحسب ان هذا من أصدق ما يقال في الاقصوصة ، أما القصة الطويلة فلا غنى فيها ولا معدى عن مقدار من الافاضة في التبيين المنطقي ، والتحليل المطرد والغوص المتتابع

ويقول ايضاً في وصف القصة فيجيد « فالقصة ليست للتسلية — عليها ان تثير القارىء وان تشغل باله » وهذا من أصدق ما يقال في وظيفة الادب على العموم . وأشهد ان قد أثارتني وشغلت بالي اثنتان من أقاصيص هذه المجموعة ، على الخصوص ، (طبق فول) و (مبروك) بارك الله في أديبنا ، وزاده من نعمة هذه القدرة التي لا يؤتاها الاّ الأقلّون

أما موضوع الأقاصيص فمنتزع من صميم الحياة ، وهي ، على قصرها ، ترسم لك صوراً

«مثيرة يرفعها» الكاتب قبل العيون ، متلطفاً ، مترفقاً ، وأحياناً ساخراً متهكماً ، ولكنه في الحالين عطوف مخلص وسخره مصدره الفن ، وليس من غطرسة الزراية على الضعف ، أو احتقاره ، وأحسب ان روح العطف ستقوى في قصصه على الايام ، وتزداد وضوحاً ، والعطف من سعة الروح ومروءة القلب ، وقصة (مبروك) تشهد وخدها وبمجردها للدكتور بشر انه رجل عطوف ، وانهُ خليق ان يخلو سخره من المرارة والنقمة ، وهو خال ولله الحمد والمنة

حول كتاب «ديكارت»(١)

مراجعة ونقد وتعقيب

هذا كتاب ألفهُ اخصائي في موضوع أحبهُ وتوفر على دراسته — وتلك شروط الاتقان والنجاح . وقد آثر التأليف على النقل فاستحق الاعجاب . أجل ان للنقل صعوبته ، ولكنهُ أهون على كل حال وأخف تبعة وأسرع نتيجة . التأليف معناه ان الكاتب قد درس الأصول واسترشد بالتأويلات فحص المسائل وكوّن لنفسه في كل منها رأياً خاصًّا يتحمل تبعته . فالتأليف يقتضي شجاعة وصبراً ، ويستنفد وقتاً طويلاً . وربما كان أدعى الى الافادة . فان المؤلف الأجنبي انما يخاطب بني قومه او الغربيين عامة وهم متقاربون ثقافة ، فيتبسط فيما لايستوجب عندنا الاّ الايجاز او الاغفال ، ويوجز حيث يحسن التبسط ، فاذا ما نقل كتابه الى العربية جاء غريباً على أبنائها في كثير من المواضع . فما أجل ان يقوم فينا اخصائيون يؤلفون كما يؤلف الغربيون سواء بسواء

موضوع الكتاب خطير : هو ديكارت « أبو الفلسفة الحديثة » كما تذكر أول عبارة في المقدمة ، ومن لا يقف عند ديكارت وقفة طويلة يستهدف لعدم فهم المذاهب الفلسفية والعلمية التي جاءت بعده كما ينبغي أن تفهم . فالكتاب مدخل لاغنى عنهُ الى الفكر الحديث. وصاحبه يصدر فيه عن فكرتين جليلتين : الواحدة ان المذهب الفلسفي بذرة حية ، وهذا يعني وجوب الفحص عن البذرة أولاً ثم تتبعها في نموها وتفرعها حتى تبين لنا وحدة المذهب. والفكرة الأخرى ان كل مذهب فلسفي صادق (أي مخلص) هو عمل أخلاقي ، وهذا ينبئنا بأن المؤلف نفسه قد نظر الى عمله كما ينظر الضمير الحي الى عمل أخلاقي ، ففكر وعبر باخلاص

الباب الاول مخصص لسيرة ديكارت وهي تستغرق حوالي خمسين صفحة . وقد يجد البعض ان المؤلف أسرف في إيراد الوقائع. غير أننا نرى ان هذه اول سيرة مفصلة للفيلسوف بالعربية ، وانها تضع القارىء في « جو » موضوعه إذ تعرض عليه ما اختلف على ديكارت

(١) تأليف عثمان أمين مدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب (أنظر مكتبة المقتطف)

من أحوال مبينة بمقتطفات من رسائله وكتبه ، وما اتخذه من مواقف بازاء نزعات العصر وعلمائه ومفكريه ، فتصوره تصويراً دقيقاً

والباب الثاني يعمل من جهة أخرى على وضعنا في جو الموضوع ، وذلك بعرض مختلف التأويلات للمذهب في جملته . واختلاف التأويلات دليل قاطع على تركيب المذهب وخصبه ، حتى ليتساءل المؤلفون : هل كان ديكارت فيلسوفاً قبل ان يكون عالماً ، او كان عالماً قبل أن يكون فيلسوفاً ؟ وهل الميتافيزيقا عنده تابعة للفيزيقا او متبوعة ؟ وهل كان نصيراً للدين او زعيماً من زعماء حرية الفكر ؟ الى غير ذلك من الاسئلة . فيورد المؤلف اقوال الامتضاربة في الاجابة عنها ، ثم يعقب على هذه الاقوال ، فنشهد منهُ في الفصلين احاطة واسعة دقيقة بآثار ديكارت وبما كتب عنهُ

الباب الثالث يصف « منهج ديكارت » وصفاً وافياً في ثلاثة فصول ، ويعالج « الشك المنهجي » في الفصل الرابع والاخير ، وهنا نرى المؤلف يضع المسألة هكذا : ان ديكارت لم يشك لمجرد الشك كاللاأدريين ، ولم يدع الى شك حاسم ، ولكن شكه منهجي مؤقت الغرض منهُ الوصول الى اليقين (ص ١٥٤) . على ان للمسألة وجهاً آخر هو الذي يهم الفلسفة ، وهو : هل الشك كما وضعه ديكارت بالفعل يُعدُّ شكاً منهجيًّا مؤقتاً ؟ ونحن نرى ان مد الشك الى جميع المعارف الحسية والعقلية ، وافتراض الشيطان الماكر الذي يعبث بعقولنا ويضللنا ، يخرجان بهذا الشك عن قصد صاحبه ويحيلانه شكاً حقيقيًّا لا مخرج منهُ ، اراد او لم يرد . ولسنا نتابع المؤلف في قولهِ (ص ١٤٨) « ما دامت حقيقة الفكر لم تثبت بعد عند ديكارت فلا قيمة لاستنباط ولا حدس » فان حقيقة الفكر حقيقة واقعية ، في حين ان قيمة الحدس والاستنباط قيمة منطقية اوميتافيزيقية ، فلم يكن ديكارت مضطرًّا للوصول الى حقيقة الفكر حتى يؤمن بموضوعات الفكر . وقد لمس المؤلف « الدافع الحقيقي الى ذلك الشك الديكارتي » وهو « محاولة الارتفاع عن مرتبة المادة وعلائق الحواس » (ص١٥١) والاولى ان نقول « محاولة الفصل بين الفكر والموجود » محسوساً كان او معقولاً — وهذه هي « التصورية » الحديثة

واذا ما بلغنا الباب الرابع ولجنا « فلسفة ديكارت » وهو اكبر اقسام الكتاب يستغرق ثلثه ويتناول مسائل وجود النفس ، ووجود الله ، وصفات الله وافعاله ووجود العالم ، والانسان ، والاخلاق . وفي كل مسألة جمع المؤلف النصوص الرئيسية وشرحها شرحاً لطيفاً فجاءت فصوله دسمة قوية . ولا نرى ما نعرض له فيها سوى بعض الهنات . منها انه (ص ١٣٠ مثلاً) يصطنع الاقوال التي تتناقل من قبل ديكارت في نقد القياس ، مثل ان « وضع المقدمة الكبرى فيه بمثابة وضع النتيجة ذاتها » وكنا نود لو انهُ أنصف القياس بإزاء

حقيقته كاملة ، كما كنا نود لو انهُ أنصف المنطق الأرسطو طالي وهو يعرض منهج ديكارت في الاستنباط ، فان هذا الاستنباط ان كان مفيداً في الرياضيات فقد لا تكون له فائدة عملية مذكورة في سائر نواحي التفكير. ونراه يترجم déistes بالمتألهين (ص ١٥٣ بالهامش) والمراد جماعة القائلين بالله مدركا بالعقل وحده والمنكرين للوحي . واللفظ الفرنسي من أسوأ الالفاظ دلالة على المعنى المقصود . ويعبر المؤلف عن « المونادولوجيا » بنظرية الجوهر الفرد (ص ١٩٩) وفي هذا مدعاة للالتباس بين ليبنتز وديموقريطس . وهو يعلم تمام العلم، الفرقَ بينهما . ويقول (ص ٢٦١) « يرى فيلسوفنا ان الانفعالات والأهواء طبيعية وهي في ذاتها حسنة . وهو يخالف في هذا ما ذهب اليه رجال الدين المسيحيون الذين كانوا يرون فيها نتيجة من نتائج الخطيئة الأولى التي لوَّثت الطبيعة البشرية ». والمسيحية ترى ان الانفعالات طبيعية وانها حسنة حين يكون موضوعها حسناً ورديئة حين يكون موضوعها رديئاً . فمحبة الله انفعال حسن ومحبة الخطيئة انفعال رديء

هذه هنات كما قلنا . أما الكتاب فيمثل مجهوداً ضخماً في موضوع يعد من أصعب الموضوعات وأدقها ، وقد نجح المؤلف كل النجاح في تقديمه للقراء على النحو العلمي اللائق به ، وفي أسلوب محكم رصين حيث ينبغي ، حار رشيق حيث ينبغي ، فأضاف الى المكتبة الفلسفية العربية سفراً نفيساً ، وهو يشير الينا من طرف خفي انهُ الحلقة الأولى في سلسلة طويلة . فليمض على بركة الله ، موقناً ان العمل الجد واجد حتماً ما هو أهله من التقدير ، وليخرج لنا كتباً مثل هذا الكتاب يُسْدِ بها الى المبتدئين نفعاً جزيلاً والى المتقدمين متعة رفيعة

يوسف كرم

* * *

أشكر لحضرة الاستاذ الجليل يوسف كرم تقديره لما بذلت من جهد في اظهار كتاب بالعربية عن « ديكارت » . واذا كنت حريصاً على ان يقرأ ذلك الكتاب أفاضل العلماء والباحثين ولا سيما حضرة الاستاذ صاحب ذلك التقرير — وهو فيما يعلم الجميع حجة في الفلسفة وتاريخها ، ويصدر دائماً في كل ما يكتب عن ضمير حي ودراية حقة — فانني مغتبط اذ أجد حضرته يخالفني في بعض نظراتي عن فلسفة ديكارت، وشاكر لمجلة « المقتطف» فضلها في أن تفسح لي مكاناً للرد بايجاز على ما جاء في كلمة الاستاذ كرم من نقد او اعتراض

قلت ان شك ديكارت ليس شكاً مذهبيًا حاسماً وانما هو شك منهجي مؤقت يراد منه الوصول الى اليقين . ويرى حضرة الاستاذ الناقد ان الشك كما وضعه ديكارت بالفعل قد خرج عن قصده فأصبح شكاً حقيقيًا . وجوابي ان الاولى ان يلاحظ على ذلك الشك الديكارتي المنهجي انهُ كان شكاً صوريًا لا حقيقيًا : اولاً لأن الفيلسوف قد استبعد من مجاله

المسائل الدينية والاخلاقية ، وثانياً لانهُ لم يفكر في اصطناع الشك الاّ بعد حين، أعني بعد ان كان قد فرغ من تقرير مذهبه . فلم يجيء شكه نتيجة ازمة نفسية كما هو الحال عند الغزالي في مفكري الاسلام او عند اغسطين في مفكري المسيحية ، بل كان شكه منهجاً او طريقة لجأ اليها بعد التفكير والروية . واذن فلم يكن على ديكارت من حرج في أن يهاجم جميع معارفنا من أساسها . وهو بفعله هذا لا يعرّض نفسه في المستقبل وبعده « الكوچيتو »[1] لأن يفقد الوسيلة لبنائها من جديد »

وهنا نصل الى المسألة الاخرى التي يخالفنا فيها حضرة الاستاذ وهي قولنا « انهُ ما دامت حقيقة الفكر لم تثبت بعد عند ديكارت فلا قيمة لحدس ولا استنباط » . يعترض الاستاذ كرم على ذلك بقوله انحقيقة الفكر حقيقة واقعية في حين أن قيمة الحدس والاستنباط قيمة منطقية أو ميتافيزقية وهذا صحيح . ولكننا انما عنينا بقولنا أن تقرير الكوجيتو لازم للايمان بصحة العمليات الذهنية جميعاً . ولقد بينا ذلك في الجملة التي تليها مباشرة اذ قلنا : « قبل الكوجيتو أي قبل اثبات الوجود من الفكر لا شيء من عمليات الذهن يبقى سائغاً مشروعاً : اذ لا شيء منها يصح دون أن يتطلب الكوجيتو أساساً مبدئيًّا له »

أما القياس والمنطق الارسطوطالي فما أحسب أنني قد حدت عن سبيل الانصاف في الحكم عليهِ . وما قلت في نقده الاّ شيئاً يسيراً بالقياس الى ما قاله فيه من قبل الرواقيون والشكاك من قدماء الفلاسفة ، وبالقياس الى ما قاله فيهِ وفي المنطق المدرسي ديكارت نفسه بل والمناطقة المحدثون أمثال « لاشلييه » و « جوبلو » وغيرهما كما هو معروف لحضرة الاستاذ

وأنا أعترف أن ترجمة déistes بالمتألهين ترجمة غير وافية بالمراد ، ولكني لم أجد غيرها أفضل منها . وحضرة الاستاذ الناقد يأخذ عليَّ تعبيري عن «المونادولوجيا» بنظرية الجوهر الفرد ، ويقول ان هذا مدعاة للالتباس بين ليبنتز وديموقريطس . وجوابي ان العرب وان كانوا قد سموا أحياناً نظرية ديموقريطس باسم نظرية « الجوهر الفرد » ، فان هذا اللفظ الاخير هو في نظري أصدق ترجمة عن نظرية ليبنتز ، والاصل اليوناني للفظ «موناد» الذي اشتق منه اصطلاح ليبنتز انما يشير الى هذا الذي اخترتهُ ، في حين ان أدق ترجمة عربية للفظ atome في فلسفة ديموقريطس هو « الجزء الذي لا يتجزأ » كما قال العرب (فان الصفة اليونانية « أتوموس » تفيد معنى عدم قبول الانقسام) . فحبذا لو راعى مؤرخو الفلسفة والمترجمون هذه الاعتبارات

وأود أخيراً ان أوجه الى حضرة الاستاذ يوسف كرم أصدق التحية مع الاعجاب بنزاهته في تقدير عملي ، وصدقه في حكمهِ وتعمقه في نقد ما رآه موضعاً للمؤاخذة عثمان أمين

(١) انا افكر فأنا اذن موجود

مكتبة المقتطف

الحب الضائع

تأليف الدكتور طه حسين بك — ٢٢٤ صفحة من القطع الوسط — مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

لم تكد تمضي أشهر على صدور القصة الرائعة «دعاء الكروان» التي أخرجها الدكتور طه حسين بك فأضاف بها الى الفن القصصي في الأدب العربي الحديث ثروة نفيسة، حتى كان الناس يستقبلون أثراً جديداً من آثاره في هذا الفن ، وخيراً فعل الدكتور حين احتضن القصة فوهبها من أدبه العالي روحاً جديدة ، ومن احساسه الدقيق وفنه إشراقاً وازدهاراً

فهذه هي مجموعة جديدة من القصص نتلقاها مغتبطين ، ونقرأها معجبين بهذا اللون الهادىء الوديع الذي يضفيه مؤلفها على أشخاص قصصه ، وذلك الحوار اللطيف البارع الذي يكشف لنا به ، عن مكنونات النفس البشرية في ضعفها وقوتها ، وفي عزمها وبأسها ، وفي أفراحها وأحزانها ، وفيما تغالبهُ من أهواءٍ تختلف في درجات السمو أو الانحطاط

هذا هو «الحب الضائع» يجد في ريشة الدكتور طه حسين عالماً من الجمال في التصوير ، وعالماً من القوة في التعبير ، وعالماً رحباً من التحليل الدقيق

ولقد عرفنا بالأمس في «دعاء الكروان» قدرة الدكتور طه على تصوير الاحاسيس المتباينة في القوة والضعف ، والمتشعبة النواحي في نفس المرأة ، بعد أن عرفنا مقدرته على تصويرها في نفس الرجل في كتابيه « الايام » و «أديب» . وها هوذا يعود بنا الى نفس المرأة ليطلعنا مرة أخرى على هذا العالم النفسي المغلق فيميط اللثام هنا وهناك عن نواحيه المستترة ، ولكن بعد أن ينقلنا من جو الريف في مصر وجو المدنية فيها ، الى جو آخر في قطر آخر وفي نفس أخرى تختلف عن نفس «هنادي» في « دعاء الكروان » . وها نحن معه في فرنسا

وفي الأيام التي طويت مع الحرب الكبرى الماضية نرى تلك الفتاة المتفتحة شيئاً فشيئاً تستقبل نسمات الحياة ثم تعود فتطبق أكمامها سريعة على الألم في حبها الضائع . نرى «مدلين موريل » تتحدث الى دفتر يومياتها التي بدأت تقلد في كتابته صويحباتها فما تدري كيف تبدأ الكتابة ولا تدري ما تكتب حتى تدفع بها الأيام الى ما يوحي الكتابة اليها ، ونرى الايام تنسج لها خيط حياتها فيتعقد حيناً ويسلس حيناً وهي لذلك مستسلمة تبث دفترها العزيز مشاعرها المختلفة ، وهذا هو الحب يربطها الى الرجل برباط الزوجية ثم تظهر لها في سمائها غيمات رقيقات ما تزال تتسع حتى تملأ نفسها كآبة ثم تنقشع فتزول الكآبة ، ولكن الى حين فتعاودها وتطوّح بها الى مهاوي الألم فاليأس فالموت حين تعترض حياتها الهانئة الوادعة امرأة أرمل صديقة هي (لورانس) تهبها من عطفها كما يهبها زوجها أيضاً من حنانه ، ما يدفعان بهِ الحزن عن نفسها ولكن حنان الرجل ينقلب حبًّا بينه وبين هذه المرأة تدفعه هي عن نفسها بقوة فترحل لتصدّ هذا الحب الغلاب وتشاء الايام بمصادفاتها ان تطلع الزوجة على هذا الحب ولكن الغيرة في نفسها تنقلب حبًّا قويًّا لزوجها تحسُّ فيهِ السعادة من جديد حتى تقوى غريزة الضعف في نفس (لورانس) على غريزة القوة فيها فتفكر في العودة الى زوج صديقتها (مكسيم) ويعود الزوج الى ما كان قد انقطع عنهُ من تنقلات يخفيها عن زوجتهِ فيكشف لها عن سرّها صديق . ويطغى الالم بالزوجة فتكتب الى صديقتها في ذلك وكأنما تذيب نفسها فيما تكتب وتبعث بالرسالة اليها ثم تودع دفترها العزيز كما تودع زوجها الخائن وطفلها الساذج ودنياها الجميلة ، ويصبح الناس ذات يوم وقد قرأوا في صحف الاقليم نعي سيدتين أهدت كل واحدة منهما نفسها الى الموت ؛ وكأنما شاء حب الرجل الموزع بينهما ان يقسم الموت كذلك بينهما فيجمعهما هادئتين ساكنتين في ميعاد واحد

***

تلك هي القصة الكبرى في هذه المجموعة الجديدة وقد ضمت بعدها سبع قصص اخرى يربطها جميعاً بكبراها فكرة واحدة وان اختلفت الحوادث ، وغاية واحدة وان تشعبت الطرق ، وجميعها معرض للنفس الانسانية في نصفها الجميل في احوال شتى من المعيشة والنشأة والشعور

فهنيئاً للأدب العربي عامة ، وهنيئاً للقصة العربية خاصة ، بما ينفحهما بهِ الدكتور طه حسين بك

« التصوير عند العرب »

المرحوم احمد تيمور باشا — اخرجه زكي محمد حسن — ٣٢٤ ص القطع الكبير
لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٤٢

في صدارة العلماء الراحلين احمد تيمور الذي انقطع الى جمع الضنائن وانكبَّ على التحصيل ثم الف الرسائل في موضوعات مختلفة فأرشد وأفاد وغايتهُ العلم وحده ورائده الاخلاص. ومن تواليفه المطوية رسالة غير قصيرة في التصوير عند العرب ، وهو موضوع لا يزال موضع مراجعة ومجال بحث عند علماء الفرنجة . فمن الخير الكثير ان تفطن لجنة التأليف والترجمة والنشر لنشر هذه الرسالة ، ومن الحكمة ان تعهد الى الدكتور زكي محمد حسن في الاشراف على إخراجها

ومزية الرسالة أنها تضم نصوصاً واشارات وافرة خاصة بكل ما يتصل بفن التصوير عند العرب في حين المشهور أن ليس للعرب يد فعَّالة في هذا الفن اذا قرنت بالفرس والهند والترك . ويزيد في تلك المزية ان المؤلف رحمهُ الله لم يقف عند ما يقف عنده علماء الفنون والآثار لهذا العهد ، اعني النقوش والرسوم على الجدران وفي الكتب والالواح ، بل تعداها الى التزاويق والتهاويل الآدمية والحيوانية التي تعلو الثياب والستور والخيام والآنية والأثاث والسلاح والنقود والبنود والشارات . ومن هنا تلك الفصول الزاخرة بالفوائد التي تمد تاريخ الفن الاسلامي عامة والعربي خاصة بواقعات منوّرة ومصادر متممة . إن هذه الرسالة لثروة

ومما يعزز هذه الثروة ويدني منالها ما صنعه الدكتور زكي محمد حسن ، وقد أصبح عندنا المرجع الثقة في الفن الاسلامي . وبيان ذلك ان زكي حسن أضاف الى الرسالة تعليقات ودراسات فأوضح وأتم ، وقد جرى طرف مما كتبه في ثنايا تآليفه السابقة . أما الايضاح ففي تعقب مظان المصادر التي يذكرها المؤلف دون اثبات ، فيقيد لك موطنها : أما المصادر المطبوعة فتعيين صفحاتها ، وأما المخطوطة فتبين خزائنها ، وأما التحف والألطاف فتدون أرقامها التي في سجل دار الآثار العربية عندنا . ذلك جانب الايضاح . وأما جانب الاتمام فقد أفاض زكي حسن في الكلام على المسائل التي تثيرها بعض نصوص الكتاب وعلى المباحث المختلفة التي كتبها أهل الصناعة في بعضها الآخر وعلى النتائج التي انتهوا اليها وعلى الآثار والالطاف التي أغفلها المؤلف أو اقتضب القول فيها . وفي هذا الجانب تتوضح طريقة الدكتور زكي حسن في التقصي والتدبر ، وان انجذب الجدل مرة على قلمه الى شيء من الاجتلاب أو رجع الى حجج غير فاصلة (قصة نهي الاسلام عن التصوير ١٢٤ ، ١٢٧) . وأما أسلوب

زكي حسن فاني أشهد انهُ ذاهب في الدقة والسلاسة والسلامة [1] واني بذلك لفرح ومن قبل أخذت على الصديق تهاوناً بالأداءِ وقلقاً في اللفظ . واني لأراه يفيد مما يرشد اليهِ من المصطلحات الفنية فيسلكها في عباراتهِ ، وذلك أمر محمود . ثم إن في الكتاب صوراً والواحاً كثيرة قد شرحها المخرج الشرح الشافي طلباً في التمثيل والتزيين . ويلي ذلك ثلاثة مسارد . أولها للمراجع ، والثاني لأسماء الأعلام ، والثالث للصور والألواح ب . ف

« ديكارت »

لعثمان أمين — مكتبة النهضة المصرية — ٣٢٠ ص ، القطع الصغير . مصر ١٩٤٢

يحلو لنا ان نستقبل هذا الكتاب . فهو في فن الفلسفة الحديثة ، وهو فن لا تكثر فيهِ المؤلفات عندنا . وأما صاحبه فقد تخرج في كلية الآداب بباريس منقطعاً الى ذلك الفن ثم عاد الى مصر وأخذ يدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب

والكتاب معرض وافٍ لكل مايتصل بشأن ديكارت «أبي الفلسفة الحديثة» كما يسمونه في أوربا ، فيهِ سيرة الرجل مع تفصيل أدوار حياته الزاخرة وشرح شخصيته النادرة . وفيهِ التبصر في « تأويلات » ذلك الفيلسوف وما ترتب عليها من الحكمة . وفيهِ فوق هذا عرض لمنهجه المشهور وماهيته ، وقواعده ، وخصائصه ، مع تمهل عند « الشك المنهجي » الذي تسلح به ديكارت ضد ذلك « الشيطان الماكر (يريد شهادة العقل) المخادع يعبث بعقلي فيريني الباطل حقّاً والحق باطلاً ويجعلني بحيث أحظى على الرغم مما قد يكون من يقين نفسي » . ثم في الكتاب بعد هذه المباحث النازلة منزلة التقدمة ، تناول مفصل لفلسفة ديكارت فيما وراء الطبيعة ، ووجود النفس ، ووجود الله ، وصفات الله وأفعاله ، ووجود العالم ، والانسان والاخلاق

وختم المؤلف هذا التناول المستفيض بنظرة فاحصة عن ديكارت والتجديد الفلسفي وما نشأ عن ذلك في القرون اللاحقة . كل ذلك استناداً الى أوثق المصادر وأوفى المراجع

والكتاب على جفاء موضوعه ودقة مطالبه وبعد مسائله ، قريب المأخذ سهل القراءة . وذلك لأن المؤلف متمكن من الفن الذي يكتب فيه ، فلا هو يعاني شيئاً حتى يكافك التفهم

(١) أمن حرج إن نبهت صديقي الى أن الوجه « أثبات » لا « إثبات » في التركيب: « اثبات خزائنهم » (ص ٣٥) لان الكلمة هنا جمع لثبت أي فهرس أو نحو ذلك . وليست بمصدر أثبت — والى أن الوجه « واما ابقاؤه » لا « اما ابقاءه » (ص١٢٢)— والى أن قوله « مايزعمه بعض العلماء عن تأثر الاسلام ...» (ص ١٣٠) ينم على الاسلوب الافرنجي . والافصح أن يقال « يزعمه في شأن... »

ويحملك التتبع . وان وقفك لفظ او غاب عنك تعبير فلديك مسرد في آخر الكتاب يوضح لك مشكلات المواضعات الفلسفية ويقرّب لك مدلولات المصطلحات . إلاّ ان في هذه بعض النظر ، من ذلك: — ص ٣١٥ ترجم المؤلف a priori بكلمة «أوليًّا» . والوجه في نظرنا ان تكون الكلمة « قبليًّا » ، والدليل على ذلك في «مباحث عربية» لبشر فارس ص ١١٠ — وفي الصفحة عينها ترك كلمة « إيديالزم »من غير ترجمة، وهو المذهب المثالي (أي التصوري)— وفي ص ٣١٧ ترك كلمة « فينو مينولوجيا » بغير ترجمة ولا ايضاح ، ويجد القارىء مدلولاتها في« معجم الفلسفة » من تأليف لالند ، باريس ١٩٣٢ ج ٢ ص ٥٨١ — وفي ص ١٢٦ جعل « النسبي » مقابلاً لـ« مطلق » ، والوجه ان الذي يقابل المطلق هو « المقيد » (راجع الكامنين في « كشاف اصطلاحات الفنون » للتهاونوي مثلاً) ب. ف.

العقد الفريد

ج ٢ — لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٥٧٨ ص
— القطع الكبير — مصر ١٩٤٢

أخرج هذا الجزء العلماء الذين اخرجوا الجزء الاول ، وهم الاساتذة احمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الابياري، وقد عنوا بالشرح والضبط والتصحيح ووضع العنوانات وترتيب السارد. وقد جاء هذا الجزء على غرار السابق في التحري والتقصي . وانها ليد تواصل لجنة التأليف والترجمة والنشر في اسدائها الى قراء العربية ، فكتاب مثل كتاب العقد الفريد لا غنى عنه للمشتغلين بآداب العربية ، وهو مطبوع غير مرة طبعاً سقيماً لا يشفي الظمأ ولا يرضي الأدب

غير ان القول الذي قاله الدكتور بشر فارس يوم راجع الجزء الأول(المقتطف يناير ١٩٤١) في قلة شأن المخطوطتين اللتين اعتمدها الناشرون في تحرير النص لا يزال ناهضاً ، ذلك ان هذا الجزء لم يظفر بأكثر مما ظفر به الأول من جهة الأصول . وهو بهذا ، كأخيه ، لا يعتبر معتَمداً ، ومما يبعث على الاستغراب بعد هذا ان الناشرين لم يثبتوا في الجدول الذي صنعوه بآخر الكتاب في « تصويب اخطاء بالجزء الأول » تلك المآخذ التي نُبّه عليها في عدد المقتطف المذكور ، مع ان إثبات ذلك مما درج عليه العلماء في كل قطر ، ما دام التنبيه يجري الى خدمة العلم وتبصير الناشر وارشاد القارىء ، وسبحان من لا يخطىء !

*

١ — سعد زغلول من أقضيته

تأليف الاستاذ عبده حسن الزيات المحامي — ٤٠٠ صفحة وله مقدمة في ١٤ صفحة
من القطع الكبير — طبع مطبعة الرسالة بمصر

الاستاذ عبده حسن الزيات أديب ممتاز من قبل ان يكون قانونيًّا ضليعاً ، عرفهُ الادب قبل ان يعرفهُ القانون فحظي منهُ منذ سنوات بترجمة جميلة لرواية شيلر « اللصوص » ثم حظي منهُ بعد ذلك بترجمة بديعة عن الانكليزية لأقاصيص هندية عنوانها « حكايات من الهند » فلما عرفهُ القانون لقي فيهِ ما لقي الادب : قوة تفكير ونضوج ذهن وتوثب خاطر ، فهو — كما يقول الدكتور طه حسين عنه — « أديب أراد ذلك أم لم يرده ، وهو أديب حتى حين يتعمق مسألة من مسائل الفقه وأصلاً من أصول القانون . وهو أديب من هذا النوع النادر الذي تقرأ آثاره فترضاها أو لا ترضاها ولكنك تجد فيها دائماً ما يحب وما يعطفك على صاحبها لأنهُ كريم النفس كريم الخصال لا يتكلف في قول او عمل ، ولا يستطيع ان يحجب نفسهُ عن قرّائهِ ومحدثيه » . وأسلوبهُ في أدبهِ — كما يقول الاستاذ المنجوري — « مختار اللفظ غير مهلهل ، محدود المعنى كأنما يقدّر مسئولية الضمير في كل لفظ يريد ان يتخذه للتعبير عما يريد ان يقول »

لهذا كان ظفراً للادب والقانون ان تجتمع شخصية الأديب فيهِ بشخصية القانوني حين أراد ان يكتب عن سعد ، فكان التوفيق رائده ، ولم يكن ما كتب عن سعد القانوني من نوع لا يألفهُ الادب ولكنك تستطيع ان تلحق كتابهُ هذا بكتب الادب قبل ان تلحقهُ بكتب القانون ، لأن الادب روحهُ والادب هو الميزان الذي وزن بهِ ما صدر من الاحكام في الدوائر القضائية التي اشترك فيها سعد وهو قاضٍ ، فاستطاع المؤلف ان يحكم على ان هذا الرأي القانوني رأيُ سعد الخاص دون من اشتركوا معهُ في اصداره لمزايا خاصة اتصف بها سعد في الاسلوب والفكر ، وقد تتبعها المؤلف فاستخلص النتيجة التي خلص اليها

فهو يقرأ الاحكام التي كان سعد مشتركاً في اصدارها ثم يقيم الدليل على ان هذا الحكم من وحي سعد ومن قلم سعد دون زميليه لأن فيه من الالفاظ ما كان يردده سعد في أحاديثهِ وفي أحكامه ولأن فيه من الاصلاح ما كان يرمي سعد الى اقامته ، او أن هذا الحكم ليس من وحي سعد ولا قلمه ولكنهُ من قلم آخر ووحيه لأن في مؤلفات هذا الآخر ما يشبهُ هذا الرأي وهذا اللفظ ... وهذا جهد ليس بالهين ويقتضي اطلاعاً واسعاً شامل الاطراف

لهذا كان كتابهُ من هذه الناحية ترجمة أدبية قانونية لحياة سعد في القضاء وتتمة لحياة سعد

في نواحيه الأخرى وتصويراً رائعاً لهذه الشخصية التي كان لها شأن عظيم في حياة مصر السياسية، وجلاءً لما كان يعتلج في صدر سعد من اصلاحات بثها في أحكامه وجعلها مبادئ مقررة.

وفي هوامش الكتاب مراجع ومقابلات فقهية وأحكام أخرجها المؤلف من دار المحفوظات فيها متعة لرجل القانون وفيها طرافة لجمهرة القراء

٢ — قال الراوي

نخبة من القصص تنشر والاسرة بقلم الاستاذ محمود تيمور بك في ٣٠٨ صفحة من القطع الوسط نشرتها المكتبة التجارية الكبرى وطبعتها مطبعة الاستقامة بمصر

لم يقف نشاط الاستاذ محمود تيمور بك عند حدٍّ معين أو غرض واحد، ولم يكتف بتصوير بيئة خاصة، او لون خاص بل تعددت نواحي نشاطه واختلفت اغراضهُ وتنوعت صوره وألوانه. فقد اطلعنا قرّاءَ هذه المجلة في مدى شهور قلائل في هذا الباب على مظاهر هذا النشاط وفيضه العميم

ولقد شاءَ ان يشمل هذا النشاط النشءَ في مرحلة تعليمه والأسرة في دائرتها الخاصة فأخرج الاستاذ تيمور هذه المجموعة الجديدة لمطالعة الابناء والبنات في التعليم الثانوي وضمَّ فيها تسع عشرة قصة من قصصه المختارة التي سبق نشرها في مؤلفاته العديدة وهي تصور الروح المصري تصويراً خالصاً وتظهر نواحي متعددة لهذا الروح، وهذه المجموعة تعدُّ بحق معرضاً جميلاً لفن تيمور وتسجيلاً لنواحي هذا الفن، وان كانت تنقصهُ صورٌ من فنه حالت دون ضمها الى هذه النخبة، مراعاة خاصة للغرض الذي من أجله وضع هذه المجموعة

وقد صدَّرها المؤلف بكتاب من حضرة صاحب العزة الاستاذ محمد شفيق غربال بك وكيل وزارة المعارف وقدَّم لها حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك بمقدمة نفيسة وصف فيها ما أحسهُ عند قراءة هذه المجموعة إذ وجد فيها « عذوبة هادئة ، ولكنها على هدوئها قوية تثير كثيراً من العواطف وتدعو الى كثير من التفكير وتصرفنا عن كثير مما نشغل به » وأشار الى فن المؤلف بقوله « من يدري لعلَّ أخص ما تمتاز به البراعة الفنية هو هذه القدرة القوية الخفية على الخداع واستراق النفوس. وأي شيء هذا الذي يريد اليه قدماؤنا حين يصفون البيان بالسحر؟ أي شيء هذا وذاك ان لم يكونا هذه البراعة التي تنحلُّ في آخر الامر الى القدرة على استراق النفوس واختلاب الالباب. وأنت لا تخلب النفوس ولا تسحر الالباب بتزيين الالفاظ وزخرف القول والتأنق في الاسلوب وغير ذلك من هذه الزينة الفنية التي يعمد اليها الادباء ولكنك تصل الى غرضك باجتناب هذه الزينة والفرار منها او تكلف

الفرار منها كأنك تكره أشدَّ الكره أن تكون من الكتّاب المنمقين المتأنقين الذين يأخذون الناس بروعة ما يكتبون »

ولعل الأستاذ تيمور بك يتبع هذه المجموعة بأخرى في الغرض نفسه فليس أقوى تأثيراً في تنمية روح التخيل والتصوير في النشء من ان تتاح لهم صورٌ مشرقة صادقة مما يرون في بيئتهم ويحسون ، وليس أبعد أثراً في ضروب الاصلاح من اطلاع النشء على النواحي التي تحتاج الى الاصلاح ، فينشأ الجيل الجديد وفي ذهنه صور لهذه النواحي يعمل في رجولته على اصلاحها

٣ — ليلى المريضة في العراق ، الاسمار والاحاديث

كتابان للدكتور زكي مبارك ، الاول في ثلاثة اجزاء بلغت صفحاتها الالف والثاني في ٥٠٤ من القطع الكبير

للدكتور زكي مبارك جولات في ميادين العلم والأدب والتاريخ واللغة والدين حتى الحب ، وله مصاولات ومناقشات في جميع هذه النواحي ، وهذا يرجع الى القوى المذخورة في هذا الرجل فهو فتيٌّ الجسم رغم عراكه الدهر ، وهو فتيٌّ النظر رغم ما شكت الصحائف وسواد الليل من سهره ودأبه ، وهو فتيٌّ القلب رغم آلامه ورغم ما يحيط بهِ من كيد الزمن والناس ، ورغم تطاول السنّ وشيب الرأس

وللدكتور مبارك جهاد أدبيٌّ ظهرت آثارهُ في كتبهِ « النثر الفني في القرن الرابع » و « الاخلاق عند الغزالي » و « التصوُّف الاسلامي » و « عبقرية الشريف الرضي » وهي كتب جديرة بالدرس والتمحيص الى جانب مؤلفاته الاخرى وقد أوفت على عشرين مؤلفاً

ولقد اخترت من بين كتبه هذين الكتابين « ليلى المريضة في العراق » و « الأسمار والأحاديث » ما دمت بصدد الكتابة عن القصة ، فللدكتور زكي سبحات في عالم القصة ، ولعل كثيراً من القراء قد طالع قصته الطريفة التي ينشرها اخيراً في مجلة « الرسالة » الغراء عن آدم وحوَّاء وسنتناول بعد ذلك باقي كتبهِ

أخذت هذين الكتابين لأن فيهما من القصة ألواناً ومن الرواية فنوناً ، « فكتابه ليلى المريضة في العراق » يشتمل على صور عديدة مرَّت بالمؤلف في حقبة من حياتهِ ، فصاغها على طريقته وسجل فيها حوادث طريفة ، فهي صحائف من عواطف المؤلف وأحاسيسه تشرح جوانب من أسرار المجتمع وسرائر القلوب وهي عالم زاخرٌ بفنون الأدب والنقد

وأما كتابهُ « الاسمار والأحاديث » فهو محاورات ومناظرات تصور ما يصطرع في الجوّ الأدبي والاجتماعي من آراءٍ واهواء ، وأحلام وأوهام ، وحقائق وأباطيل . ولقد صدَّره بقصة طريفة عنوانها « شهيد الفاقة والاغتراب » وهي ترينا فنَّ زكي مبارك القاصّ

على أن الجديد في هذا الكتاب هو تصوير مجتمعات الأدباء والمفكرين يعقدها المؤلف في خياله ووحدته ويدير الحديث فيها على ألسنة رجال معاصرين فلا يظن القارىء أن هذا من ابتداع المؤلف لما يضفيهُ عليها من سمة الحقيقة وصدق التصوير ، فهذا فلان ترى كل ما يمتاز بهِ من لهجة في حديثهِ مصوراً أدق تصوير ، وهذا فلان ترى آراءه وألواناً من تفكيره مبثوثة فيما يعرضه المؤلف على لسانهِ حتى يخيل اليك ان المجلس حقيقة وان المؤلف كان شاهد عيان يروي ما شاهده فيحسن الرواية

نعم ان هذا لون جديد وانهُ لضرب من ضروب القصة والرواية نأمل أن يجد لهُ من الكتّاب من يتجه اليهِ كما اتجه الدكتور زكي مبارك حسن كامل الصيرفي

مجلة غرفة تجارة بغداد

يلذ لي ان أكتب هذه الكلمة لاعرف القراء ان في بغداد دار السلام مجلة بالاسم الذي صدرنا بهِ كلامنا وهي مجلة تصدرها غرفة تجارة بغداد منذ خمس سنوات ويتولى تحريرها الاستاذ الشهير مير بصري سكرتير الغرفة بعبارة نقية خالية من كل عيب او شائبة

وغاية هذه المجلة كما أوضحتها في جزئها الاول من السنة الاولى نشر الثقافة الاقتصادية وسد ثلمة ناشئة من خلو العالم العربي من مجلة اقتصادية عربية عصرية راقية وتعريف شؤون التجارة والاقتصاد العراقية وقد أصبحت اليوم مجالاً لاقلام كبار الكتاب في العراق وعلمائهِ ورجالاتهِ أمثال يوسف غنيمة والاستاذ عباس العزاوي ويعقوب سركيس ، والدكتور مصطفى جواد وهاشم جواد مندوب العراق في مكتب العمل الدولي وعبد المجيد محمود سكرتير وزارة الاقتصاد وغيرهم من المتخصصين بالاقتصاد وكبار موظفي الدولة من وزراء ونواب وشيوخ

ولم تقتصر بحوث المجلة على الشؤون المالية والتجارية والاقتصادية المحض ، بل استوعبت جميع المواضيع التي تتصل بالاقتصاد عن قرب أو عن بعد ، أي من تاريخ اقتصادي وتشريع اقتصادي ولغة اقتصادية وشؤون زراعية وصناعية ومالية الى ما شابه هذه المباحث.

ولغة المجلة — ولا سيما مقالات التحرير — سليمة خالصة ، مما يدل على ان اللغة الضادية الفصحى تتسع لكتابة المباحث العلمية الاقتصادية في هذا العصر الذي طغت فيهِ لغتان : لغة الاجانب ولغة العوام . فجاءت هذه النشرة لتعلم ابناءنا كيف يتمكن العربي من الجولان في ميدان الفصاحة والبيان من غير ان يتدنى الى الالتجاء الى لغة الدخلاء او لغة العوام . ومن يطالع جزءًا واحداً من هذه المجلة يتحقق ان كلامنا هذا هو دون الحقيقة ، فليختبر صدقنا بالوقوف على جزء واحد أو مقالة واحدة ليعشقها ويطالعها على الدوام

الأب انستاس ماري الكرملي

باب الأخبار العلمية

المطاط من البطاطس والفحم الحجري
وعلماء الاتحاد الروسي

لا شك في اننا نعيش في عالم يكاد يعوّل بأسره على الصمغ المرن الطبيعي (الكاوتشوك او المطّاط) في اكثر حاجاته ومع ذلك فاننا نرى فئة من الممالك تشتد حاجتها اليه ويهددها العوز في أهم مرافقها ومن أجل هذا قامت المعامل الكيميائية في كثير من انحاء العالم بتجارب سرية، قاصدة بها انتاج مطاط صناعي جيد، بنفقات معتدلة. ففي المانيا «البونا» Buna. وفي روسيا ايضاً صنف آخر اخترعهُ احد علمائها. وهو الذي أُعلن اكتشافهُ في السنة الماضية، ومخترعهُ فافورسكي A. Y. Favorsky ذلك العالم الروسي البالغ من العمر ٨٠ سنة وهو الذي ابتدع طريقة تمكن بها من انتاج عوض عن المطاط ثبت انه صالح للعمل مثل المطاط الطبيعي نفسه

فافوريسكي العالم الشيخ

وفافورسكي هذا من اكبر علماء السوفييت سنًّا وقد قضى الخمس والخمسين السنة الماضية في تحقيق مزايا بعض مركبات الكربون. وما فتئ مواصلاً مباحثهُ في هذا الميدان إذ شرع فيها حينما كان استاذاً في جامعة بطرسبورغ في عهد لم يكن فيه أحد يهتم بها ولا يقدرها حق قدرها ويدرك منافعها العملية. وكرّت الأيام والسنون فغدت مكتشفاته، أساساً قامت عليه طائفة من فروع الصناعة الحديثة ومنها انتاج الالياف الصناعية، ومواد محللة شتّى، ومواد عازلة للكهربية، واخيراً المطاط الصناعي

وكانت روسيا، قبل ثورتها، خالية من مزارع أشجار المطاط الطبيعي. فكانت تستورد منه مقادير ضئيلة من البلاد الاجنبية. ثم تغيرت احوالها كل التغير، عقب ثورتها السياسية فأنشئت فيها شبكة كبيرة من محطات توليد الطاقة الكهربية، واخذت الصناعات المختلفة تتقدم تقدماً حثيثاً مطرداً، فصنعت فيها السيارات والجرّارات والطائرات. ولما أخذت درجة معيشة أهلها في الارتقاء اشتد اقبالهم على انتعال المطاط. وحينئذٍ أُتيح حل عقدة المطاط بطريقتين، كانت اولاهما اكتشاف النباتات الوطنية التي يستخرج منها عصير المطاط. وثانيتهما بذل قصارى الجهد في المباحث الكيميائية لتركيب المطاط الصناعي فأسفرت تلك المباحث التي تمت في سنة ١٩٣٠ في

مصنع التجارب العلمية في مدينة لنينغراد ، عن صنع كتلة من المطاط الصناعي ، ذات لون أبيض شفاف ، ضارب الى الزرقة ، تزن ٦٠ كيلو غراماً ، ختمت بخاتم حكومة اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية . فكانت هي الكتلة الأولى من ذلك الصنف الصناعي

وكان المكتشف الاول لذلك المطّاط الصناعي ، في الاتحاد السوفييتي الاستاذ لبيديف S. V. Lebedev وقد كان تلميذاً للاستاذ فافورسكي فاستفاد من المكتشفات النظرية التي اكتشفها معلمه ، ونجح في صنع المطاط من الكحول

المطاط من كحول البطاطس

ومن الكحول تصنع أيضاً طائفة كبيرة من المواد مثل البوتادين Butadeine وقد اكتشفت حديثاً طريقة لتحويل البوتادين ، وهو مركب هيدروكربوني ، الى مطاط صناعي . فتبين نظريًّا مما تقدم ، أنهُ اذا أتيح استخراج البوتادين من الكحول أمكن كذلك صنع المطاط منه . بيد أن العقبة التي حالت دون ذلك كانت اكتشاف المادة الكيميائية الوسيطة Catalyst التي تمكن المكتشف من تعجيل عملية تكاثر الاصل Polymerization فجرب الاستاذ لبيديف ومعاونوه ٢٠٠ تجربة معقدة حتى اهتدوا الى ذلك الوسيط الكيميائي الصالح للعمل فاستطاع الاستاذ لبيديف، كما قلنا ، استخراج المطاط الصناعي من الكحول . ويستخرج الكحول أيضاً من البطاطس . اذن ستصبح البطاطس المادة الاولية لانتاج المطاط الصناعي. وكذلك اتسع نطاق صنع المطاط في بلاد الاتحاد السوفييتي على أساس الطريقة التي اخترعها الاستاذ لبيديف

من الفحم والجير والماء

وما ابثت أن صنعت من البطاطس اطارات عجلات السيارات والاخفاف وما اليها حتى وجه فافورسكي همهُ الى اختراع مطاط صناعي ، يكون أقرب الى المطاط الطبيعي في خصائصه وتركيبه على أن يستخرج من مواد معدنية أولية رخيصة تتوافر في الأرض، لا من البطاطس الغالية الثمن بالقياس اليها . فقام بمباحث وتجارب كيميائية واسعة ، في احوال قريبة من احوال الصناعة فأسفرت عن اتقان طريقة جديدة لانتاج مادة ايزوبرين Isoprene وهي المادة الاصلية في المطاط الطبيعي ولكنها مركبة من مواد اولية رخيصة ، هي الفحم الحجري والجير والماء . ويستعمل الفحم الحجري والجير لانتاج كاربيد الكاسيوم . وهما المادتان اللتان يؤثر فيهما الماء تأثيراً كيميائيًّا فيتولد منهما غاز الاسيتيلين وهو المادة الاساسية الأولية في طريقة فافورسكي لصنع المطاط الصناعي . ثم ان الفحم الحجري والجير والماء تقوم مقام مواد أولية في طريقة قام بتحسينها

في السنة الماضية الاستاذ فافورسكي وتلميذه م . ف . شوستاكوفسكي M. F. Shostakovsky لانتاج مادة الفنيل استرس Vinyl esters وفي سنة ١٩٣٩ استدعى الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي ، علماء السوفييت لعقد المؤتمر الثامن عشر ، بغية اختراع طريقة لانتاج الحامض الخليك (الذي يحتاج الى الالوف من أطنانه في صناعة الحرير الصناعي) ولانتاج الكحول من مواد أولية غير المواد الغذائية ، فكان فافورسكي ومساعده ، من العلماء الذين شهدوا ذلك المؤتمر وتولوا حل تلك العقدة العلمية

شوستاكوفسكي والكيمياء الصناعية

وشوستاكوفسكي هذا ابن فلاح فقير ، بدأ دراسته عقب الثورة الروسية حتى أحرز في سنة ١٩٢٩ درجته العلمية فالتحق بالمعمل الكيميائي الذي يديره فافورسكي حيث شرع الاستاذ الشيخ وتلميذه هذا الشابُّ في حل المشكلة الجديدة المشار اليها فأقبلا عليها بحماسة عظيمة ، وقاما بتجارب استغرقت وقتاً طويلاً حتى نجحا في انتاج مادة الفنيل استرس من كاربيد الكاسيوم أي من الفحم الحجري والجير والماء . ثم اخترعا فيما بعد طريقة لتحويل الفنيل استرس الى مادة اسيتك الالدهيد Acetic aldehyde وهي القاعدة الاساسية لانتاج الحامض الخليك والكحول

وللفنيل استرس منافع عظيمة في الصناعة إذ أن لبعضها خواص غروية شديدة أتيح استعمالها في صناعة الزجاج وتستعمل لوقاية المعادن من التأكل وفي غير ذلك من الأغراض. والفنيل استرس لا يمكن الاستغناء عنها في انتاج العجائن الكيميائية على اختلاف انواعها . ثم ان اضافتها الى المطاط الصناعي تحسن صفاته . وفي بلاد الاتحاد السوفييتي اكثر من ١٥ معهداً للمباحث العلمية ومعملاً كيميائيًّا من معامل المدارس العالية ، تقوم بالتجارب المقصود بها التعاون مع فافورسكي ومساعده شوستاكوفسكي ابتغاء الانتفاع بمادة الفنيل استرس في الصناعة

« فودكا » مركبة بالكيمياء

وقد ختم الكاتب الروسي الذي نقلنا عنه ، مقاله هذا بقوله « تشرفت من عهد قريب بزيارة شوستاكوفسكي الذي أصبح الآن مدير مجمع العلوم في الاتحاد السوفييتي ، حيث تناول قارورة ملأى بخمر الفودكا الروسية ، وذلك من خزانة كانت بجانبه ، فقدم لي كأساً منها وتناول هو كأساً اخرى ثم قال لي ، ان هذه الخمر هي كحول مخفف مستخرج من الفحم الحجري والجير والماء ، وذلك في معملنا الكيميائي . فهلمّ نشربها على سبيل التجربة ، لنكون في طليعة الناس في الاتحاد السوفييتي في احتساء هذه الراح الوطنية المستخرجة بطريقتنا الكيميائية

وحينما تقارعت طاسات الخمر ، وشربت نخب ذلك العالم الشاب قال : « اني أشرب نخب ذلك العلم العجيب ، وأقصد به الكيمياء العضوية ، اذ أصبح في وسعنا أن نستخرج من الفحم الحجري هذه الفودكا التي ذقتها بنفسك فتحققت انها معادلة في طعمها لتلك الفودكا المألوفة التي تستخرج من الحنطة ، كما استطعنا أيضاً صنع المطاط وغيره من المواد العديدة ، من الفحم الحجري والجير واني على يقين اننا عما قريب سنتشرف بدعوتك الى مأدبة تكون فيها المأكولات والمشروبات جميعها خمراً كانت أو خلاً أو زبداً أو خبزاً أو حساءً أو حلوى ، من منتجات المعامل الكيميائية ، وذلك من الكربون الذي يشبه السحر ، ولا غرو فهذه هي مطامح العلم وآمال العلماء في هذا العصر الذهبي »

حبوب كيميائية مغذية

وما دمنا في معرض بحث فوائد الاغذية الكيميائية فيحسن اثبات الخبر الآتي وهو منقول عن برقيات الأهرام :—

جاء من ستوكهلم في برقية من لندن مؤرخة ٢٣ مايو سنة ١٩٤٢ ما يأتي : —

إن الصحف السويدية نشرت مقالات أعربت فيها عن اعجابها بنجاح تسعة من رجال سلاح الطيران البريطاني في الوصول الى الحدود السويدية بعد أن تحطمت طائراتهم في النروج . وقد عانوا مشاقّ متعددة في تسلق الجبال والسير في الثلوج الآخذة في الذوبان في طريقهم الى السويد . وقد استعان هؤلاء الطيارون في الاهتداء الى طريقهم بالبوصلة والخارطات المرسومة على الحرير وكان غذاؤهم الوحيد حبوباً كيميائية مغذية وكان الطيارون يحتجبون عن الدوريات الالمانية في أثناء النهار ويسرون في الليل . وقد قطعوا أكثر من ٣٠ ميلاً فوق الجبال خائفين في كل خطوة من أن تبلعهم الأرض أو تجرفهم أطنان الثلوج التي تتساقط من أسناد الجبال

الحرب ونقل الطعام

الضغط والتجفيف يسهلانه

قلت في مقالي المعنون بعنوان الأغذية الكيميائية الذي نشر في مقتطف ديسمبر سنة ١٩٣٩ ما يأتي : — وستتجلى في زمن الحرب المنافع العظيمة للاطعمة المجففة للقوات المحاربة اذ يتسنى نقل المؤن بكل راحة من جهة الى أخرى ، دون أن تغص بها الطرق الحديدية وحينئذٍ يمكن تموين كل جندي بغذاء مكثف قد يكفيه اسابيع ، اذا اقتضت الحال . اذن في وسعنا أن نسمي بحق ، الطعام المجفف ، مخترعاً من المخترعات التي نشأت عن

الضرورة والحاجة ام الاختراع او الحاجة تفتق الحيلة على قول العرب « وهو أحد أركان الرفاهية »

وقد حققت الحوادث ما قلناه واليك البيان : —

جاءَ في اهرام ١٣ يوليو سنة ١٩٤١ برقية من لندن بتاريخ ١٢ منهُ تقول « من انباء سيدني أن المستر كرامسي رئيس مجلس اللحوم في اوستراليا وجَّه الدعوة الى اجتماع شهده الكثيرون وقام خلاله بعرض طريقة أمكن ابتكارها لتحويل لحوم البقر الى مسحوق وانتهت هذه الطريقة بالنجاح .وقدم المستر كرامسي الى المدعوين علبة تحوي مسحوقاً للحم البقر مضى على حفظه ست سنوات،وهو لا يزال في حالة جيدة . وكان مما قال إن هذه الطريقة ستغني عن استخدام السفن الخاصة بنقل المواشي وسفن التبريد ، فيصبح من الميسور شحن مسحوق عدد وافر من البقر في حيز صغير اما بالطائرات واما بالبواخر العادية

وقالت مجلة الميكانيكا العامة الاميركية في جزئها الصادر في مارس سنة ١٩٤٢ ما يأتي :

كيف تضغط الاطعمة

تضطر السفن التي تستخدم في زمن الحرب لنقل مقادير كبيرة من الأغذية الى بريطانيا العظمى الى ضغط هذه المقادير في حيز ضيق منها

ومن الوسائل التي يُلجأ اليها لبلوغ تلك الغاية، استخراج المياه من بعض المنتجات الغذائية

ومثال ذلك إن ٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ رطل من اللبن المجرد من القشدة ، أمكن تجفيفها قبل نقلها . ومن الميسور كذلك نقل البيض مجففاً. فيستطاع اعادة تينك المادتين الى الاستعمال باضافة الماء اليهما . ومع ذلك فان بعض الخبازين في أميركا قد ألف خلط العجين بمسحوق البيض واللبن

ومما يجدر ذكره أن وسقاً يبلغ ١٨٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ بيضة أتيح ضغطه الى جزء صغير من الحجم الطبيعي الذي يملؤهُ عادة هذا البيض بقشوره وذلك بكسر البيض وصبه في صفائح معدنية ثم يحكم اغلاقها وتوضع في المثالج حتى تمس الحاجة الى استعمالها فتذاب

ويستطاع أيضاً ضغط عصير البرتقال فيركز حتى تبلغ قوته نحو سبعة أمثالها في حالتها الطبيعية وذلك بازالة الماء منه . فيتسنى بهذه الوسيلة تحويل مليون جالون من عصير البرتقال الى ١٨٠٠٠٠ جالون من شراب سائل كثيف ثمَّ ارسال جلِّهِ الى بريطانيا العظمى ، حيث يمزج بالماء فيكون عصيراً لذيذاً كأصله

الطعام المغذي في اقراص

وجاءَ في برقية مؤرخة في ١٧ ابريل سنة ١٩٤٢ من نيويورك الى جريدة المصري : يفكر العلماءُ في تحويل الطعام الذي يتناوله

الفرد الواحد الى أقراص قليلة يتناولها خمس مرات كل يوم .(وهذا عينه الذي قلته في مقالي المنشور في مقتطف ديسمبر سنة ١٩٣٩) وقد خطوا خطوة أخرى نحو هذا الهدف بصنع الطعام المركز المجفف بالطرق العلمية الحديثة فتستطيع السيدة ان تحمل ما يكفي لعشاء كامل من البيض والخضر والفاكهة وغيرها في حقيبة يدها الصغيرة

وفي اغلب الاحوال ، يصب الماء وهو في درجة الغليان ، على هذه المواد ، ثم توضع على النار ، دقائق لكي تصنع منها أصناف الطعام التي تبدو في طعمها وشكلها مثل الطعام الاصلي الذي استخرجت منهُ وتحتوي هذه المنتجات العلمية ، على جميع العناصر الضرورية التي كانت في المواد الاصلية من بروتين وحديد وفوصفور وكلسيوم

ما يستخرج من الجبنين

وروت جريدة المصري في ٢٥ ابريل سنة ١٩٤٢ أن الدكتور أحمد أمين المدرس بكلية الزراعة في الجيزة قد وفق في ابحاثه التي يقوم بها في معامل الكلية للاستفادة من كازيين اللبن ، اي لبن الفرز ، في بعض الصناعات ، كصناعة المواد القابلة للانثناء وهي التي يمكن تقليد العاج او الكهرمان او المرجان بها ، ونجح في انتاج سبح من كازيين اللبن ، كانت تكاليف انتاجها بسيطة . فذكرني هذا الخبر ببعض ما سبق ان نبهت اليه ، اذ قلت في خاتمة المقال الذي نشرته في مقتطف مايو سنة ١٩٣٠ « بعنوان الفضلات الزراعية ومنافعها » ما يأتي : — فعسى وزارة الزراعة المصرية وكبار ارباب الاطيان ان يستفيدوا من هذه المباحث الجليلة . وذكرت في مجلة الموظف في شهر ابريل سنة ١٩٣٨ : — وحلل علماء الكيمياء اللبن المخيض فوجدوا فيه مادة تسمى جبنين فاتخذوها اساساً لصناعات جديدة عظيمة فيصنع منها غراء عجيب ، يستعمل في تغرية المصنوعات الخشبية ، فتصير القطع الملصقة به ، أقوى من الخشب الاصلي عينه . وقد جرَّب الألمانيون هذا الغراء ، فوجدوه صالحاً جدًّا في صناعة الطائرات

ومن مزاياه أنهُ يقاوم الرطوبة مقاومة شديدة بحيث انك اذا وضعت خشبتين ملصقتين به في ماء مغلى ، لا تنفصلان . ويصنع من الجبنين فناجين وأطباق غير قابلة للكسر لتقديم الحليب الى الشاربين واطارات للنظارات وخرز للزينة وأقلام خازنة للمداد ومنسوجات وغير ذلك (راجع مقالنا على العجائن الكيميائية في مقتطف يوليه سنة ١٩٤٠ ومقالنا في صناعة الملابس من اللبن والخشب في مقتطف مايو ١٩٤٠ ومقالنا على مصنوعات الجبنين في مقتطف مارس سنة ١٩٤١ في باب الاخبار العلمية)

عوض جندي

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الواحد بعد المائة

---

١٠٩ من التراب يستخرج عقار فتاك بالجراثيم
١١٧ برنامج مصر الصحي في ربع القرن المقبل : للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك
١٢٥ تنظيم البحث العلمي وأثره في تقدم المجتمع : للدكتور علي مصطفى مشرفة بك
١٣٢ الاعواض او المواد الاولية بين الطبيعة والمصنع : لامين ابرهيم كحيل
١٣٧ الجمعية الجغرافية الملكية المصرية : لحبيب مطران
١٤١ علم النفس والحرب : للدكتور صبري جرجس
١٥٠ الجمال المستور (قصة) : للكاتب الارلندي لورد دنساني
١٥٦ قلب الفيلسوف (قصيدة) : للتيجاني يوسف بشير
١٥٧ الغذاء مصدر جميع انواع القوى الحيوية العقلية : لنصيف المنقبادي
١٦٥ ماذا أعددنا للطفولة : لمحمد العشماوي بك
١٦٨ الآهة الصامتة (قصيدة) لسليم عبد الاحد
١٧٠ النباتيون المشهورون وما يرمز اليهم به : لمحمود مصطفى الدمياطي
١٧٢ تنظيم الاستهلاك في الحرب الحاضرة : لفؤاد محمد شبل
١٨٣ قطرات ندى : لراجي الراعي
١٨٤ استراليا : الجزيرة القارة
١٨٩ حديقة المقتطف * تاجور في الحياة والاخلاق والمدنية والسياسة والمرأة والادب والدين : لمحمود المنجوري
١٩٩ المراسلة والمناظرة * سوء تفاهم : لابرهيم عبد القادر المازني . حول كتاب ديكارت : ليوسف كرم وعثمان امين

---

٢٠٥ مكتبة المقتطف * الحب الضائع . التصوير عند العرب . ديكارت . العقد الفريد . سعد زغلول من أقضيته . قال الراوي . ليلى المريضة في العراق : الاسمار والاحاديث . مجلة غرفة تجارة بغداد
٢١٤ اخبار علمية * المطاط من البطاطس والفحم الحجري وعلماء الاتحاد الروسي . الحرب وتل الطعام، الضغط والتجفيف يسهلانه . كيف تضغط الاطعمة . الطعام المغذي في أقراص . منتجون الجبنين : لعوض جندي

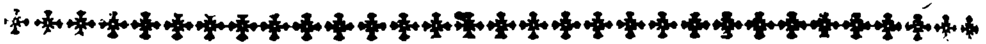


صورة تمثل اسطورة « بجماليون » التي بنيت عليها مسرحية
« المثال التائه » صفحة ٢٢٩

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الواحد بعد المائة

١ اغسطس سنة ١٩٤٢ — ١٧ رجب سنة ١٣٦١



العلوم الطبية والحرب

الدم المجفف

في مستشفيات الميدان

— ١ —

كان في مدينة هنولولو بجزائر هواي طبيب يدعى بنكرتون . وكان همهُ الوحيد دعوة الناس الى ايداع مقادير من دمهم في مستودعات خاصة أُطلق عليها اسم « البنوك » . وكانت حجتهُ القائمة انهُ اذا اشتدت الغارات الجوية على الجزائر وكثر عدد المصابين ، مست الحاجة الى اسعاف فريق منهم بتصفيق دمهم[1]. فضاق الناس بهِ ذرعاً، في تلك البلاد التي يؤمها الناس للنزهة والرياضة ويتنكبون فيها معاني الشقاء والبلاء . ولكن غرفة التجارة أمدَّته بمبلغ الف جنيه ثم امسكت عنه ، فمضى ينفق من جيبه على شراء الأدوات اللازمة كالمبردات والآلات الطاردة

ولكن في الساعة السابعة والدقيقة الرابعة والخمسين من صباح ٧ دسمبر ١٩٤١ انهالت القنابل اليابانية على جزائر هواي وكثر المصابون حتى ازدحمت بهم المستشفيات وأروقتها ومست الحاجة الى « بلاسما » الدم التي تعين المصابين على مغالبة فعل الصدمة والغيبوبة والموت . وعندئذٍ بدأت السيارات تنقل هذه المادة الحيوية من المستودعات العشرة التي انشأها بنكرتون في مواقع متفرقة، لكي يسلم بعضها اذا دمر البعض الآخر . وفي خلال الساعات الست التالية ،

(١) التصفيق Transfusion : صفق الشراب وصفقه حوله ممزوجاً من إناء الى إناء ليصفو

سال في عروق المصابين من هذه المستودعات ما يملأ الفاً وأربعمائة كوب من « البلاسما » فأنقذ عدد وافر من الجنود والبحارة الاميركيين بفضل بنكرتون على ما جاء في التقرير الرسمي ، الذي وضعهُ الدكتور راقدن ، بعد بحث دقيق تولاه باسم الحكومة الاميركية

قبل ذلك كانت المدمرة الأميركية « كيرني » في طريقها الى جزيرة اسلندة ، وكان البحر صاخباً والمدمرة على ٣٥٠ ميلاً من الجزيرة ، فاعتدت عليها غواصة المانية ، وقذفتها بطوربيد ، بقرها ، ولكنها لم تغرق . ولم تنقض ساعات ، حتى كانت طائرة بحرية محوّمة فوق المدمرة ، فألقت عليها ثلاث هابطات علقت بها ثلاثة صناديق صغيرة . ولكن الهابطات لم تسقط على متن المدمرة ، بل في البحر الهائج ، فغامر فريق من البحارة بحياتهم ، ليلتقطوا تلك الصناديق . فأخذها طبيب المدمرة وفتحها ، واستخرج من احدها زجاجة فيها مسحوق ذهبي جاف ، وزجاجة ماء معقم وخلط المسحوق بالماء ، ثم حقنه في وريد ضابط المدمرة وكان قد أصيب اصابة خطرة . واذا بقطرات العرق على جبينهِ قد زالت ودب الدفء في يديه وقدميه ، وأخذ القلبُ هذا السائلَ ودفعهُ في الشرايين ، واذا النبض الخائر السريع ، قد تحول قويًّا منتظماً سويًّا . وما كاد المقدار الثالث من هذا السائل يدخل أوردة الضابط ، حتى تململ وفتح عينيه . كان قد جاوز الخطر

كان المسحوق الذهبي الذي أنقذ حياتهُ « بلاسما » الدم المجففة . وكانت قد أعدت في مدينة فيلادلفيا على نحو ثلاثة آلاف ميل من المكان الذي أنقذت فيهِ حياة ضابط ، وكانت وريقاتها الدقيقة قد أخذت من دماء ربات بيوتٍ ، وكتّاب شركاتٍ ، وسوّاقي سيارات ، وكانت قد ارسلت الى اسلندة ، لتكون فيها اذا مست الحاجة اليها في حادث طارىء

وتحضير « بلاسما » الدم على هذا الوجه ، من المخترعات الطبية الحديثة ومن أعظمها نفعاً . والواقع انها خرجت من معامل البحث الى ميدان التطبيق النافع ، عند اشتداد الحاجة اليها في هذه الحرب ، اذ لولاها لمات الوف وعشرات الالوف

و « البلاسما » هي الجزء السائل من الدم ، بعد ما تزيل منه الكريات البيض والحمر . واستعمالها ، يجنب الطبيب ضرورة ، معرفة فئة دم المصاب ، وفئة دم المعطي . لأنهُ اذا لم يكونا من فئة واحدة ، تكتلت الكريات في دم المصاب — في حدود علمية معروفة — ومات . ويضاف الى هذه المزية العظيمة الشأن ، ان « البلاسما » تفوق الدم الكامل فائدة في عملية التصفيق . وفي الوسع حفظ « البلاسما » سائلةً كما فعل بنكرتون في جزائر هواي . وخير من ذلك تبريدها حتى تتجمد ثم تحفظ متجمدة كذلك بضع سنوات . وتجفيفها افضل طرق حفظها واستعمالها . فان ذلك يزيل الحاجة الى الثلاجات الغالية لحفظها متجمدة

ومن غرائب ما عرف عنها ان قوتها الحيوية تبقى فيها بعد تجفيفها ، مدى خمس سنوات على الأقل في أشد الحرّ او البرد

وكذلك يتاح لمن اراد،ان ينفح الجنود المعرَّضين للخطر في ميادين الحرب، بقدر من دمهم بدون ان ينتقلوا الى الميدان . وقد تولت جمعية الصليب الأحمر في الولايات المتحدة جمع الدم للجيش والاسطول من المتطوعين في طول البلاد وعرضها . واستعمال «البلاسما» لا ينقذ حياة المصابين وحسب بل ان المصابين الذين يعالجون بها، أسرع عودة الى الميدان ممن لا يعالجون بها

— ٢ —

في سنة ١٩٠٠ أماط الطبيب النمسوي الناشىء كارل لاندشتينر ، اللثام عن سرٍّ ظل يحيّر الأطباءَ مدى قرنين من الزمان . ومدار هذا السرّ ان تصفيق الدم ينعش كثيرين ، ولكنهُ يحدث تشنجاً مميتاً في آخرين . فما سبب هذا الاختلاف ؟ وكان جواب لاندشتينر ان الدمَ في عروق الناس ليس كله صنفاً واحداً . بل هناك فئات من الدم. فاذا صفق دم مصاب بدم من فئة ما كان التصفيق مفيداً واذا صفق بدم من فئة أخرى تكتلت الكريات وحدثت الوفاة

[استطراد] كان لاندشتينر اول من اقترح الاعتماد على هذا التقسيم في عمليات نقل الدم (التصفيق) من سليم الى مريض . ولهذا الاقتراح ، شأن خطير في تقدم بعض ضروب العلاج الحديث . ففي العمليات الأولى التي عولج بها بعض المرضى بنقل الدم اليهم استعمل دم الحملان (دنيس سنة ١٦٦٧) . فتلا ذلك ردٌّ فعل مميت . وظلّ الاطباء في حيرة من هذا الامر الى ان ثبت لهم ، ان مصل دم الحيوانات يلبد الكريات الحمر في دم الانسان او يلاشيها وان مصل دم الانسان يلبد الكريات الحمر في دم الحيوانات كذلك (لاندوى سنة ١٨٧٥) . فعدل عن هذه الطريقة الى طريقة نقل الدم من انسان الى انسان ، وحجة القائمين بها حينئذٍ ، انهُ ما زال الناس من نوع واحد ، فهذه الطريقة يجب ان تكون سليمة . ولكن بعض الحوادث التي نقل فيها الدم من انسان سليم الى انسان مريض عقبها ردٌّ فعل مميت . وظلّ الأمر سرًّا مكنونًا عن افهام العلماء حتى جاءَ لاندشتينر وبيّن، ان الناس اربعة فرق من حيث بعض خواص الدم وانهُ اذا نقل الدم من رجل سليم من فريق B الى رجل مريض من فريق A عقب النقل ردٌّ فعل مميت لان ملبد الفا في دم الرجل

السليم يلبد الكريات الحمر في دم الرجل المريض

واعتماداً على اكتشاف لاندشتينر هذا يمكن الآن القيام بعمليات نقل الدم من سليم الى مريض على أهون سبيل ومن دون تعريض المريض لخطر الموت على شرط ان يفحص دما الرجلين قبل العملية للاستيثاق من انهما من فريق واحد . واذا علمت ان عشرة آلاف عملية من هذا القبيل تعمل كل سنة في نيويورك وحدها أدركت مقام هذا الاكتشاف في الطب الحديث [1]

ثمَّ بدت للاطباء مشكلة أخرى ولكنها لم تحل إلاّ قبيل نشوب الحرب العالمية الاولى ويعود الفضل في حلها الى الدكتور رتشرد لويسون (نيويورك) والاستاذ اجوت (بونس إيرس) وكان لباب حلهما اضافة قليل من شترات الصوديوم الى الدم

ففي ٣٠ يناير سنة ١٩١٥ أعلن الدكتور رتشرد ويل (نيويورك) انهُ وفق الى حفظ الدم خمسة أيام بعد اضافة شترات الصوديوم اليهِ ، ثم صفق بهِ دم مصاب فنجع العلاج . وفي أول فبراير سنة ١٩١٦ أعلن الطبيبان رو Rous وترنر — وهما من علماء معهد ركفلر الطبي — انهما تمكنا من خزن الدم أربعة أسابيع ثم استعملاه استعمالاً موفقاً في التصفيق

كان شباب أوربا في تلك اللحظة يموتون في ميادين أوربا متأثرين بالجراح والنزف ولو أتيح لهم التصفيق لنجا ألوف منهم . فسافر روبرتسون — وهو أحد أطباء معهد ركفلر — الى انكلترا ثم الى ميدان القتال في فرنسا للبحث في تنظيم الاساليب الفعالة لاجراء عمليات التصفيق في المستشفيات الحربية . فصنع ثلاجة من ألواح صناديق مهملة ونشارة ، وأدوات للتصفيق من زجاجات منبوذة ، معانياً سخر زملائهِ . واذا هجومٌ الماني يشنّ على الساحة التي كان فيها ، وأخذ الجرحى يفدون على المستشفى فكان يختار منهم من كانت اصابتهُ فادحة حتى لا يكاد يرجى الاّ اذا صفق دمهُ ، وجعل يحقن في عروقهم دماً محفوظاً في ثلاجاتهِ . ولما انتهت تجربتهُ هذه كتب الى المجلة الطبية البريطانية ما يلي :—

كان الدم المستعمل في التصفيق قد حفظ مدداً متفاوتة ، أطولها ستة وعشرون يوماً . وكان تأثير التصفيق بدم محفوظ ناجعاً نجعاً مستوقفاً للنظر ، كتأثير التصفيق بدمٍ جديدٍ مأخوذٍ من عروق المعطين . فقد تحسن لون المصاب ، وبطؤ النبض وانتظم في قوةٍ سوية ، وارتفع ضغط الدم من عشرين الى أربعين نقطة . ثم تلقت هذه المجلة رسالة اخرى في شهر مارس سنة ١٩١٨ ولعل محتوياتها يصحُّ ان تعدَّ مرحلة انقلاب في طريقة استعمال الدم في ميدان القتال . وكانت

(١) راجع « الدم واثبات الابوة » مقتطف يونيه ١٩٣٥ ص ١٠ و « فئات الدم » لنوشه بك مقتطف يوليو ١٩٣٦ صفحة ١٣٨

الرسالة من الكابتن غوردن وارد Ward وفيها صوَّر الحل الكامل لهذه المشكلة قال :

قرأت بعناية المقالات المنشورة حديثاً في موضوع تصفيق الدم في مراكز توزيع الصابين ويلوح ان احدى المشكلات الرئيسية تدور على « بلاسما » المصاب وهل هي تلبّد كريات الدم المأخوذ من المعطي . وحل هذه المشكلة يكون بالامتناع عن حقن الكريات والاكتفاء بحقن « بلاسما » الدم بعد اضافة شترات الصوديوم اليها ، لحفظها

كان الاقتراح ألمعيًّا ولكنهُ لم يفض حينئذٍ الى نتيجة عملية . فالعالم كان في شغل حينئذٍ عن العناية بما قالهُ الكابتن وارد . ولكن الخاطر نفسه خطر بعد سنوات للدكتور ستروميا وهو رجل حارب في الجيش الايطالي خلال الحرب العالمية الاولى ثم هاجر الى الولايات المتحدة

— ٣ —

وقد روى ستروميا قصته فقال انهُ كان في سنة ١٩٢٥ « باثولوجي» مستشفى في مدينة فيلادلفيا وبدأ حينئذٍ يجرب تجارب منوَّعة بالدم ، وكان باعثهُ على ذلك ما رآه في اثناء الحرب من وفاة اخوان لهُ متأثرين بالصدمة والنزف فعزم عزماً قاطعاً على ان يبذل غاية الجهد ، لكشف طريقة تجعل التصفيق عملاً سهلاً ومأموناً ، لانقاذ الناس من موت غير محتوم

والدم جزآن، سائل وهو «البلاسما» وجامدٌ وهو الكريات. واول ما يتعين على الطبيب عندما يدعى لمعالجة مصاب بجرح أو حرق او نزف هو ان يتغلب على هبوط ضغط الدم ، والبلاسما تفعل ذلك . فقرر ستروميا ان يمتحن فعل البلاسما في عمليات التصفيق

والعلماء قوم شعارهم الشك والحذر ولذلك يجربون كل جديد من أساليبهم ووسائلهم بالحيوانات اولاً . وكذلك مضى ستروميا شهراً بعد شهر يجرب البلاسما المستخرجة من دم الارانب . والبلاسما تحتوي على مادة تدعى «فيبرونجن » وهي التي تسبب تخثر الدم وتجمده. فأزال ستروميا هذه المادة ، لحصل على ما يعرف باسم « مصل الدم » Serum والمصل هو « البلاسما» بعد ازالة « الفيبرونجن » منها . ثم حقن المصل في عشرات من الارانب، فلم يبدُ عليها ما يدل على ان حقن المصل قد حرفها عن حياتها السوية وطبائعها المألوفة . ثم تقدم خطوة الى الامام فأحدث في الارانب نزفاً قويًّا وصدمة ثم حقن في أوردتها مصل الدم ، فعاد ضغط دمها الى درجته السوية . ثم خطا خطوة ثالثة واستعمل « البلاسما » كاملة ، بدلاً من المصل ، فاذا التأثير أفعل والحالة أفضل

وفي أحد الايام استخرج البلاسما من دم بشري، وحقنها ، في حذر وفي مقادير يسيرة في عروق مصابين لا يرجونْ . وأعاد هذه التجربة مراراً ، وجعل يراقب الصابين الذين

عولجوا هذا العلاج ، لعلَّ الحقن يحدث فيهم تأثيراً سيئاً فيبادر الى اسعافهم . ولكنه لم يلاحظ تأثيراً سيئاً ما . واذن «فالبلاسما» من دم غريب ، يمكن حقنها في أوردة أخرى بغير ان تؤثر فيهِ تأثيراً سيئاً ، بصرف النظر عن فئة دم الآخذ او المعطي . ولكن ما يحدث اذا كان الحقن بمقادير كبيرة ؟ كان ستروميا واثقاً بأن ذلك مستطاع ومفيد ، ولكن من يسمح لهُ بتجربة التجربة الاولى فيهِ ؟

سنحت لهُ الفرصة في مساء يومٍ في شتاء ١٩٢٧ . ففي ذلك المساءَ جاءَ طبيب بزوجتهِ الى المستشفى وكانت مصابة باصابة ستربتوكوكية . وكانت الحالة تقتضي تصفيق دمها في الحال . وكانت الأساليب المتبعة حينئذٍ ، تقضي بالبحث عمَّن يعطيها من دمهِ ، على ان تكون فئة دم المعطي موافقةً لها . فوصف ستروميا لزوجها ، ولطبيب اختصاصي مشهور دُعي لمعالجتها ، مباحثهُ ونتائج تجاربهِ ، بحقن البلاسما بدلاً من حقن الدم كاملاً . وبعد صمت رهيب ، أشار الطبيب الزوج بموافقتهِ على تجربة الاسلوب الجديد بزوجتهِ . فهرع الدكتور ستروميا الى مختبرهِ ووضع قدراً من الدم في آلتهِ الطاردة ليفصل الكريات عن البلاسما . ولو حقن هذا الدم كاملاً في عروق المرأة المشفية ، لأحدث فيها تشنجاً هو سبيل الوفاة، لأنهُ من فئة غير ملائمة لفئة دمها . ولكن بلاسما الدم ليس لها فئة . وما اجتمع لديهِ مقدار كوبَيْن من البلاسما حتى عاد الى حجرة المصابة ، وبدأ عملية التصفيق . ومضت ساعة قبلما دخلت القطرة الأخيرة من البلاسما في عروقها ، فتململت وأفاقت من غيبوبتها ، وعاشت بضعة أيام

هذه الحادثة لم تثبت ان البلاسما تشفي ، ولكنها أثبتت ان استعمال مقادير كبيرة من البلاسما في التصفيق بدلاً من الدم الكامل ، لا يميت سواءٌ أكانت فئة الدم الكامل موافقة لفئة دم المصاب ام لم تكن .

وربح ستروميا كذلك المعركة الأولى ولكنهُ كاد يخسر الحرب . فالمرأة توفيت والشك ما زال يخالج بعض زملائهِ . فانتقل الى جامعة برن مور Bryn Mawr لعلهُ يجد فيها بيئة أوسع أفقاً علميًّا من بيئة المستشفى الذي كان فيهِ . وفي سنة ١٩٣٢ انتشر وباء شلل الاطفال فأتيحت له الفرصة التي ما فتئَ يترقبها . وكان الاطباء حينئذٍ ميالين الى تجربة كلّ وسيلة تقترح عليهم ، حتى « بلاسما » الدكتور ستروميا لشدة فتك الوباء . وفي هذه التجارب كان ظفر ستروميا ظفراً سلبيًّا ايضاً . ان البلاسما لم تشف المصابين ولكنها لم تقتلهم

وكان الكشف التالي ان البلاسما تجمد كقطعة من الجمد وتحفظ متجمدة في ثلاجات

خاصة ثم تستعمل عند ما تمس الحاجة اليها . وهذا الاسلوب متبع الآن في غير مستشفى واحد في الولايات المتحدة

وفي يوم ١٧ مارس سنة ١٩٣٤ جيء بصبي في الثانية عشرة الى مستشفى برن مور وكان مصاباً بالتهاب وتسمم في دمه . وكانت حرارته دون ٤٢ مئوية قليلاً ، وكان الرأي ان وفاته وشيكة . وجرَّب الدكتور نيكولسن تصفيق دمه بدم كامل، ولكن الدم تخثر في اوردته وماتت الكريات الحمر . ثم جرَّب « بلاسما » ستروميا فعوفي الصبيُّ فكتب نيكولسن في مجلة امراض الاطفال : هذا العلاج افضى الى شفاء تام بغير اختلاطات ، في حالة كانت لولاه منتهية الى الوفاة . فكان نشر وصف هذه الحالة في مجلة امراض الاطفال باعثاً على نشاط البحث في غير مختبر طبي واحدٍ. ومن التجارب التي أجريت ان حضَّر أحدهم قدراً من «البلاسما »وارسلهُ بسفينة الى جنوب اميركا ثم استعاده بسفينة أخرى وجرَّبه . وكان قصده أن يثبت أن النقل والزمان والرجّ لا تضر بالبلاسما ولا تحدُّ من فعلها . وعمد آخر الى ملاحظةٍ لأرايخ العظيم مؤداها أن تحضير بعض الامصال في الحالة السائلة قد يفضي الى انحلالها فيحسن حينئذٍ تحضيرها مجففة . وأثبت علماء فرنسا وانكلترا وأميركا أن الرأي صواب .ولكن أساليب التحضير لم تتقن حتى شرع الدكتور السر William J. Elser في الاهتمام بهذا البحث بمستشفى جامعة كورنل سنة ١٩٣٠ . ويروى أنهُ التقط زجاجة فيها مصل الجدري وقرأ عليها « لا يجوز استعمال هذا المصل بعد يناير سنة ١٩٣١ » ، فقال في نفسه : ولكن لماذا لا يجففون هذا المصل ؟ فبدأ بحثه على هذا الاساس ووضع قواعد الاسلوب المستعمل ثم أتقنه غيره من الباحثين . ومدار الاسلوب تجميد المصل ثم استخراج الماء منهُ في فراغ . وأخيراً تمَّ الانتقال من تجفيف الامصال الخاصة بأمراض معيّنة، الى تجفيف مصل الدم وأقدم فريق من الاطباء على تجربتهِ ، فأسفرت تجاربهم عن نتائج تبعث على الدهش

وفي أواخر مايو وأوائل يونيو من سنة ١٩٤٠ وقعت كارثة الجيوش الفرنسية والبريطانية في فلاندر وعجيبة الجلاء عن دنكيرك . وكانت الحكومة البريطانية قد جهزت جيشها بسيارات خاصة تحتوي على ثلاجات لنقل زجاجات من الدم الكامل الى الميدان لاستعمالها في حالات التصفيق الطارئة . ولكن هذه السيارات غدت بغير جدوى لأنها في الحرب الحديثة تتعرض للتحطم بما فيها من ادوات او للفقد . فاستخرج المراقبون الأميركيون العبرة من هذه الحوادث وأنبأوا وزارة الحربية بما يرون فطلب الجيش الأميركي والاسطول الأميركي من « مجلس البحث القومي » العناية باتقان اسلوب عملي مأمون ، يستعمل فيهِ عوضٌ من الدم الكامل اللازم في الميادين ، فعهد المجلس في هذه المسألة الى ستروميا وغيره ممن اشتهر في هذا

البحث فأشار ستروميا باستعمال البلاسما المجففة ، وصنع جهازاً يتيح نقل هذه المادة الى الميادين واستعمالها فيها بغير ان تتعرض للخطر . وجرب هذا الجهاز أمام مندوبي الأسطول ، في أحوال حربية . فنقلت « البلاسما » المجففة بهذا الجهاز ، على طائرات الى ساحل اميركا الغربي ووضع الجهاز في طوابي مدافع البوارج وغيرها من السفن الحربية ، وخرجت السفن الى عرض البحر ، وأطلقت مدافعها مرة بعد مرة ، ثم نزلت من السفن فصائل لغزو الساحل وكانت تحمل معها هذه الاجهزة أي إن الاجهزة التي وضعت فيها البلاسما المجففة تعرضت للحركة والارتجاج ، كما يحتمل ان تتعرض لها في اثناء الاعمال الحربية الحقيقية . وبعد ذلك اخذت الى مستشفى قريب وفتحت . وكان في كل جهاز منها زجاجة تحتوي السحوق اي البلاسما المجففة ، وأخرى فيها ماء معقم . فخلطـا وحقن المخلوط في أوردة مصابين يحتـاجون الى تصفيق دمائهم . فلم يختلف تأثير المزيج عن تأثير « بلاسما » لم « تخض هذه المعركة »

فعنيت الدوائر المختصة في الاسطول والجيش بأسلوب ستروميا اعظم عناية . وعهد الى جمعية الصليب الاحمر في جمع الدم من المتطوعين ، والى مختبر خاص في فيلادلفيا في تجفيفه . وفي اواخر الصيف الماضي ، ارسلت الزجاجات المحتوية على البلاسما المجففة والزجاجات المحتوية على الماء المعقم الى مقر القوات الأميركية في جزيرة اسلندة. فلما حدثت حادثة المدمرة كيرني ، حملت الطائرات علباً تحتوي على هذه الزجاجات الى المدمرة وهي في عرض البحر ، واستعملت في تصفيق دم الضابط المصاب فانقذت حياته من موت محقق

أما طريقة تحضير الدم فكما يلي : فتحت في شتى أنحاء الولايات المتحدة مكاتب يتقدم اليها الذين يريدون ان يبذلوا من دمائهم في هذا السبيل . فيؤخذ من شرايينهم مقدار معين بأساليب دقيقة ويودع الدم المأخوذ في زجاجات من سعة معروفة وتوضع هذه الزجاجات في ثلاجات نقالة ، ثم تنقل الى أقرب المعامل الطبية التي تتولى عملية التجفيف

في هذه المعامل يوضع الدم السائل في آلة طاردة كبيرة centrifuge وتدار بسرعة عظيمة حتى تترسب الكريات البيض والحمر في قعر الاناء وتبقى « البلاسما » وهي سائل صاف لا لون لهُ على السطح. وتؤخذ «البلاسما» امتصاصاً (بالسيفون) الى زجاجات مفرغة محكمة السد، وتجمد حتى لتبدو كالقشدة الكثيفة على سطح إناء من اللبن الحليب . ثم ينزع الماء من هذا السائل المتجمد فلا يبقى الا وريقات دقيقة ذهبية اللون تشبه وريقات الصابون الناعم . ثم توضع كل زجاجة تحتوي هذه المادة المجففة مع زجاجة اخرى تحتوي على ماء معقم وأنابيب المطاط وإبر الحقن في علبة وتختم

من أساطير اليونان

المثال التائه

أو جالاتيا وبيجماليون

Galatée et Pygmalion

مسرحية في فصل واحد

بقلم خليل هنداوي

الأسطورة

مثال يوناني عرف غادة جميلة ، صورها ونحت لها تمثالا جميلا ، ولكن عند الانتهاء منه ، وجد نفسه ازاء آية فنية رائعة ، كأن يده لا تعرفها من قبل ، فأخذ يعبدها في صورة التمثال ، ولبث على هذه الحالة من الذهول والشرود حتى كافأه « جوبتر » ببث الحياة في تمثاله ، وتزوج محبوبته

« عن الاساطير اليونانية »

الاشخاص

جالاتيا : الغادة الجميلة

بيجماليون : المثّال

زينو : رفيق بيجماليون ، فيلسوف

التمثال : —

الفصل الاول

المشهد الاول

خلق الانسان أرباباً له وسقاهم من دموع المقل
وحباهم بنقوش ودمى يجتليها صوراً للامل ...

خ . ه

مرسم على جوانبه شموع تتوقد ، وفي احدى الزوايا تمثال شدت عليه ستارة بيضاء

بيجماليون : (فتى ناتىء الجبهة، في الثلاثين من عمره ، مظاهره تنم على انه فنان موهوب).
(يتأمل في الستارة المشدودة على التمثال، ويتراءى ان في عينيه خاطراً يتمثل له آناً ، وآناً يتوارى)

(وحده) ولماذا لم تقدم بحسب موعدهـا ؟ ما كانت لتتخلف قبل الآن لحظة واحدة حين كان يناديها جمالها ، لست أدري أأحسنتُ صنع تمثالها كما تود ان تراه ؟

(تدخل جالاتيا : وهي فتاة جميلة في مقتبل العمر ، يفتر وجهها عن جمال غريب الالوان ، متناسق الخطوط ، وعلى ثغرها بسمة مشرقة خفيفة ، ترتدي رداء أبيض مهفهفاً)

جالاتيا : عذراً يا فناني الحبيب . . . ما أشد سحر هـذه الأضواء ! النور باهت لـكن الجو غريب

بيجماليون : أتريدين ان تقولي : هذا حال كل جو عند ما يحوم عليه جمال امرأة ؟

جالاتيا : في كل مرة تنقل الغرض الى الجمال ، كأن الجمال عندك هو كل شيء . أليس بعد الجمال من فضيلة أخرى تذكر ؟

بيجماليون : الجمال إلهٌ وحده ، إلهٌ مستقلٌ بصورته وروعته

جالاتيا : انك تحاول اغرائي بفتنتك ...

بيجماليون : لا يحاول الفنان اغراءَ من يهبه العبقرية في الفن ... أنتِ وحدك فنٌّ لي ! أنتِ وحدك عبقرية شامخة

جالاتيا : تجد كل هذا في وجهي وفي عيني !

بيجماليون : بل أجده في كل ذرّة من ذرات تكوينك ... كنت واحدة قبل اليوم ، والآن ستجدين أني سلخت من جسدك جسداً آخر أتقنهُ الفن . هذا الجسد سيبقى لي ، كلما شئت رأيتهُ » . . .

جالاتيا : ولكن هذا الجسد ترجمة عني مشوهة ، لأنهُ لا يستطيع ان ينطوي على ما تنطوي عليه أعماق نفسي . ألا من يجعل هذا الجسد الهامد يلف ذراعيهِ على جسدك ، ويرنو بعينيه الى عينيك . . . منْ لك بمن ينفخ فيهِ الروح ؟

بيجماليون : انهُ ليس بالجسد المجرد كما تزعمين، ان التماثيل لتحيا حياة أعمق من حياتنا ! إنَّ الغرض الذي يضعهُ الفنان على فم التمثال ليبقى معبراً عن نفسه للطبيعة ما ظل قائماً ازاءها . ان « ڤينوس » المخلوقة من لحم ودم غدت رفاتاً سحيقة . اما ڤينوس الرخامية فهي تتكلم كل يوم ، وتبعث من جمالها موجة كل يوم ...من هو الفنان الذي لا تحيا في رأسه ڤينوس الحجرية ؟

جالاتيا : لوددت ان اكون من رخام لا من لحم ودم

بيجماليون : ستنظر الآن — جالاتيا — المكونة من لحم ودم، الى — جالاتيا — المنحوتة من حجر

جالاتيا : يا للستارة البيضاء المشدودة على وجهي وعينيَّ !

بيجماليون : كثيرة هي العيون التي شدت عليها الستائر ! انها تحتاج الى أيدٍ تسحب الستائر عنها لترى مفاتن الوجود ، او يرى الوجود مفاتنها

جالاتيا : من ذا يزيح الستارة عن وجهي ؟ انني أكاد أرتعش ...

بيجماليون : بيدك تزيحين النقاب عن وجهك !

(تدنو من التمثال جالاتيا محاولة ان تشد الستارة)

اني لأخشى عليك ...

جالاتيا : ممَّ ؟

بيجماليون : من غريزة المرأة . الغريزة التي لا تعيش بدونها . الغيرة

جالاتيا : أتراني أغار من حجر ؟

بيجماليون : أيكون حجراً هذا التمثال ؟

جالاتيا : (تدنو وترفع الستارة)

أه ! هذا أنا ! واذا لم يكن إياي فمن يكون ؟

بيجماليون : (تأخذه الرعشة ، ويعرو وجهه اضطراب . فيعدو من أقصى القاعة الى التمثال يحتضنه)

ويك تكلم أيها التمثال !

جالاتيا : ولكني أنا هنا ...

بيجماليون : هذا شيء آخر : هذه إلـهة شاردة لا تعرفنا

(يحتضن التمثال ويقع على قاعدته مغشياً عليه فتوقظه جالاتيا . وهي تتحسس شعره ووجهه).

جالاتيا : بيجماليون ! أفِقْ ! تيقظ ! ان التماثيل لا تحيا

المشهد الثاني

جالاتيا ، وزينو

زينو : (فيلسوف في الاربعين من عمره ، صديق الفنان ، يحب الفنان ، ويتأمل في روائعه)

جالاتيا : أمن حظيرة الفن الى حظيرة الفلسفة الضيقة المرهقة ؟ أألهتك هذه الحظيرة عن صديقك بيجماليون ؟

زينو : ويحك ما عراه !

جالاتيا : لا شيء ... لا شيء

زينو : أعليل

جالاتيا : انهُ يزحزح الطود عن مكانه

زينو : أمنكوبٌ بشيء ؟

جالاتيا : بأعظم شيء

زينو : تريدين عقله ... أفصحي ، اني سائر اليهِ الآن

جالاتيا : ولكنك ستجد الباب موصداً ، لأن الباب هو الشيء الوحيد الذي يحول بينه وبين العالم

زينو : معميات وألغاز ! ما كان هذا شأنك يا جالاتيا !

جالاتيا : لا أفتري شيئاً ! إن صديقك جذبهُ الفن

زينو : وهل في الانجذاب بالفن من عار ؟

جالاتيا : ولكنك لا تعرف أي انجذاب . . . هو الانجذاب الذي جعله ينكر حقائقنا ، ويفلت من حياتنا ، ويفر من ايدينا

زينو : أليس ذلك أصلح للفنان الذي يرى في فنه مَثَلَهُ الأعلى ؟

جالاتيا : انني لا استطيع ان أبين لك حاله

زينو : وما عراه ؟

جالاتيا : انك تعلم انهُ اراد ان يقيم لي تمثالاً حيًّا يخلد جمالي عنده

زينو : وأعلم انهُ كاد ينتهي منه ، وان حفلة رفع الستارة عنه قريبة

جالاتيا : انهُ صنعهُ على أحسن ما أراد ، بل عدَّه أبدع تمثال نحتهُ

زينو : ولا غرابة في ذلك اذا كنتِ أنتِ المثال ...

جالاتيا : (غير واعية الى هذا الاطراء) انه أراد مني أن أشد الستارة دون أن يكون أحد معنا . وفي الساعة التي أزحتُ الستارة عن وجهي رأيته ... (تسكت مضطربة)

زينو : ويلكِ ! وما صنع ؟

جالاتيا : أقبل على التمثال يكلمه كأنه حيّ ، ويخشع على قدميه ، ويعانقه ويتلمس مفاتن وجهه . ولم أعد أمامه شيئاً ... أكلمهُ فلا يسمع ، وأناجيه فلا يصغي ، كأنما انحدر كل هواه لي في هذا التمثال الجامد

زينو : آه ! اذاً لقد جنَّ بيجماليون بتمثاله وافتتن بفنه

جالاتيا : عاودت زيارته مراراً وتكراراً ، فحيناً أجد الباب موصداً ، ولكني أسمع من ورائه تمتمة كالتي تخرج من أفواه الكهان ،

فأدرك أنه في نجوى مع تمثاله ، وحيناً ألح الباب عليه فيبادرني : « من أنتِ ؟ اذهبي ! لا شأن لي معكِ ... لا أعرفكِ » فأخرج متثاقلة . رباه ! من يحطم هذا التمثال ؟

(جالاتيا تجلس شاردة الفكر ضيقة الروح ، وزينو شرد وراء صديقه وكانت النكبة شديدة الوقع عليه)

زينو : فنان ينفخ من روحه في آثاره فتحيا . الفنان حياته تفيض بالحيوات التي لا تتعدد !

جالاتيا : انه مريض يا زينو !

زينو : لا تقولي مريض ، انه شغوف بما نحت ، مجذوب بالمثل الأعلى الذي خلقهُ منكِ

جالاتيا : ولكنهُ تناساني ، وأصبح لا يعرفني

زينو : أصبحت حقيقتك عنده ثقيلة باهتة الألوان ، ضيقة الآفاق ككل حقيقة تحاول ان تنطق عن نفسها . ان احساسه العنيف نقل صورتك العميقة التي لا تمس الى الرخام الصامت ووجد فيها المثل الأعلى للجمال الذي لا يشيخ ولا يتبدل لأنه جمال الفن الذي يخلع على صور الطبيعة الفانية لباس الديمومة والخلود ... هذا اللباس الذي ضنت به الحياة على صورها يستطيع الفنان وحده ان ينسجهُ ويمنحهُ !

جالاتيا : كأني بكِ فناناً آخر لا يفرق عن بيجماليون شيئاً . هكذا كنت اسمعه يقول ! ولكنك فنان مقيد اليد

زينو : (ضاحكا)

لشد ما وددت ان أكون فناناً،ولطالما عملت يدي مع يد بيجماليون لكنني كنت لا أستطيع اللحاق به ، له وثبات كبرى أين منها وثباتي ؟ كانت روح الفلسفة تطغى عليَّ .وفي النهاية ردتني الفلسفة مقهوراً عن ذلك العالم الذي كنت أتوق اليه ، وإني لأخشى ان أفقد ما تبقى لي من الروح الفنية التي تطهر نفسي

جالاتيا : ولكن ألا تشكر القادر على هذا الحظ اذا كان الفن يصل بك الى ما وصل اليه صاحبك

زينو : لا تلومي بيجماليون ! ان عمله معقول جدًّا ، ولا غرابة أبداً في هيامه بما نحتت يداه ، لأنهُ يمثل الانسانية كلها حينما عبدت ما خلقته بنفسها . كل ما ترين من هذه العقائد وهذا التسامي هو من خلق الانسان . اليد البشرية سامية جدًّا ، والروح البشرية سامية جدًّا ، فيها نزوع خفَّاق الى الرفعة دائماً . الانسان وحده الذي يصارعه كل شيء ، هو الذي أبدع كل شيء . من أضلاعه المحطمة ومن نفسه المضيئة خلق الآلهة ليتخذها رفاقاً يؤنسونهُ في هذه العواصف الثائرة ، وحمل اسمها في أرفع مكان عنده . الانسان هو كهذا الفنان . صنع تمثاله وعبده ، وذهل عن أنهُ خلقه لأنهُ نظر الى أنامله ، فوجدها أضعف من ان تنحت هذا التمثال الملفوف بالجمال . انهُ يحاول دائماً ان يخلق ! انهُ مولع بالابداع . انهُ لم يهمْ بك حتى خلقك مرّة ثانية !

جالاتيا : والآن نريد استنقاذه من ذهوله

زينو : ذلك حق ! اننا نريد ان نفجعهُ بهذا الوهم الجميل الذي تراءى له

جالاتيا : وهل ترى في تحطيم التمثال فائدة ؟

زينو : ذلك مما يثير شجوه ويعمل على قتله ، لأنهُ سيطلب وهمه حيثما يلوح !

جالاتيا : اذاً أراني مدفوعة الى تحطيم التمثال مهما تكن العقبى

زينو : ويحك ! إنك تقودينه الى الجنون المحتم ، لأنك تحولين بينه وبين أعز شيء يراه ... ولكن ...

جالاتيا : فكّر في استنقاذ الرفيق !

زينو : (تبرق على وجهه خاطرة)

لقد وجدتها ...

جالاتيا : الفيلسوف ينقذ الفنان

زينو : ولكنا نبقى منحطين عن عالمه ، لاننا لا نملك توقد قلبه

جالاتيا : ماذا وجدت لاستنقاذه ؟

زينو : التمثال يجب ان يبقى . ويجب ان نوهمه بأنهُ يتحرك وانهُ يحيا . والحياة وحدها تطلقه من أوهامه

جالاتيا : واذا تحرك التمثال الحي

زينو : أصبحتِ انت التمثال الحيَّ عنده !

جالاتيا : من تمثال الى تمثال ...

زينو : أليس ذلك ما تبغين ؟

جالاتيا : (ضاحكة) الى انقاذ بيجماليون . . .

زينو : وهنالك أبين لك الوسيلة الى ذلك

المشهد الثالث

(في مرسم بيجماليون ، يدخل زينو . وجالاتيا القاعة ، فيجدان بيجماليون محتضناً تمثاله وقد اغفت عيناه)

جالاتيا : (مضطربة) لهفاه ! كم ذا يقاسي من أجلي !

زينو : ويلك لا تنطقي بشيء ! قفي وراء التمثال ، وعند ما يكلمه أجيبيه عن سؤاله ، ولنرتقب بعد ذلك ما يأتي بهِ القدر

جالاتيا : (تنسل خفيفاً وراء التمثال)

بيجماليون : (تبدو عليه بوادر اليقظة) أما آن ان تجيئي وترثي لعزلتي وما أقاسيه ! لم أترك رعشة فيكِ الاّ أمررتُها على ازميلي . ولم أغادر موجة تفيض بجمالك الاّ تهادت على ريشتي . تكلم أيها التمثال ! انني لأجد كلمة حائرة على فمك تهمُّ بأن تنطق بها . ان كلمة واحدة منك ترد عليَّ سعادتي . يستحيل عليك ان تكوني صنع يدٍ بشرية ، وان يكون وجهك وجهاً بشريًّا يمشي على قسماته الفناء . أنت وجه إلـهة خالدة جمالها لا يزول . قد تكفيني هذه الابتسامة التي يتهلل بها وجهك ولـكن ما وراءها ؟ هل هي لي

من دون الناس ؟ قل لي . أحبك وبعد ذلك تجدني لا أريد شيئاً

جالاتيا : (من وراء التمثال) . أيها المثّال التائه !

بيجماليون : (كمن استطير عقله) . رباه ! انهُ يتكلم ... أفي حلم أنا ؟ يستحيل ذلك في اليقظة

جالاتيا : بل أنت في اليقظة أيها البائس الذي تاه زهواً بجماله ، وراح يريد ان ينفخ في حجَرهِ الحياة ...

زينو : (يشير اليها بأن تبدل لهجتها)

بيجماليون : أليس حجري حيًّا ؟ واذا لم يكن حيًّا فكيف يتكلم

جالاتيا : انهُ حي... لكنك ملأْت حياتهُ قلقاً . ان حياة تمثالك يجب ان تكون هدوءًا واستقراراً وسكينة فملأْتها أنت قلقاً واضطراباً . تماثيل كثيرة صنعها غيرك تعيش في جو ملؤه الصمت والسكون

بيجماليون : ولكني صنعتُ تمثال غادة لا يسكن جمالها

جالاتيا : وماذا صنعت بتلك الغادة ؟

بيجماليون : أصبحت لا أعرفها . لانني شغلني عنها جمالك الخالد الذي لايسخر منهُ الزمن لانهُ يبقى

جالاتيا : وهل كنت تعتقد أن تمثالك سيتكلم ؟

بيجماليون : ذلك ما كنت أتمثله كل لحظة لأنني لم أصنع تمثالاً جامداً . . . اني وهبته الروح كما يبث الاله روحه في بعض الرخام فيحيا ! اما رخامي البارد فجماله خالد

جالاتيا : والآن هل تحبني حقًّا ؟

بيجماليون : ذلك ما تجيب عنهُ الليالي

جالاتيا : وهب ان صاحبة التمثال جاءت الساعة، ألا تؤثرها عليَّ وتلتفت اليها

بيجماليون : انها جاءت كثيراً ، ولا بد أنك سمعت قولي ورأيت دفعي اياها . كم مرة قلت لها : اذهبي انني لا اعرفكِ . تمثالك شيءٌ آخر . أنتِ شيءٌ مبتذل قريب من الواقع . يتلوّى بين الايدي كالطين

وهنا عندك الصمت الأزلي والكلمة الواحدة التي لا تتغير. واللفتة الواحدة التي لا تتبدل !

جالاتيا : أتحب صمتي الازلي ؟ انك تثير الاشفاق في قلبي عليك ... ان جوبتير أشفق عليك حين رأى عويلك الذي لا يهدأ، فنفخ من روحه فيَّ... اننا لم نتعود أن نحب البشر ان كلينا يحرق الآخر بحبه

زينو : (يشير اليها مستحسناً هذه البدعة في المعاني ولكنها نسيت كيانه الآن لانها ارتفعت مجنحة بالروح الفنية التي تتمثل على وجه بيجماليون)

بيجماليون : ألا تستطعين ان ترفعيني اليك ؟ اننا يجب أن نتواصل. اني خلقتك بعبقريتي ، وبهذه العبقرية منحتك الحياة ! العبقرية الحقة تقدس نفسها ، وتحب ما تلد وتنجب... ألا ترين اجزاءك المتناسقة كيف يجذب بعضها بعضاً ، كأنما هي تتعانق . كل شيء جماله بتناسقه. الألفاظ في القصيدة، والالوان في الصورة، والخطوط في التمثال، والأفكار في القطعة تطلب العناق دائماً ... هي للعناق. كل شيء للعناق ونحن للعناق. في الفن في الشعر ، في الجمال العناق. أليس كذلك ؟

جالاتيا : انك تستثير نفسي، وستراني أثور على الآلهة لاعلن لك امراً لا تستطيع شفتاي الجهر به !

بيجماليون : الجرأة ... سأعوض عليك كل ما تفقدين في صرح الآلهة، قولي هذه الكلمة واختفي بعدها ان شئتِ

جالاتيا : اني اخشى على أعصابك ان ترتجف

بيجماليون : ولكن هذه الكلمة قد انتظرتها طويلاً ، واذا عدت الى صمتك قبل التفوه بها عدت الى نجوى لا تنقطع

جالاتيا : أخاف ان تثور الغيرة في صدر غادتك

بيجماليون : تلك لا أعرفها

جالاتيا : ولكن اذا حبيتُ هل تستطيع ان تفرق ما بيننا اذا اجتمعنا معاً ألسنا هي أنا وأنا هي ؟

بيجماليون : (يخر صعقاً) و (زينو ينتزع التمثال سريعاً ، ويشير الى جالاتيا ان تقف مكانه)

جالاتيا : بيجماليون ! أنا ابنة عبقريتك ، انني أحبك... تعال اليَّ . لقد كسي الرخام لحماً واستحال الجمال الصامت جمالاً ناطقاً

بيجماليون : أحقّاً ان تمثالي يتحرك ؟ (يدنو منها ويلمسها ويعانقها) رباه ! انهُ ينفث حرارة ولهباً . أفي العبقرية لهب وحرارة ؟ أفي حلم أنا ؟ جالاتيا ! دعيني على صدرك لحظة أنسى بها وجودي

جالاتيا : انك عدت اليَّ بعد فراق طويل

بيجماليون : متى تفارقنا ؟ كنت دائماً معك

جالاتيا : حقّاً ! الرخام يحيا في يد العبقرية

بيجماليون : نحن للعناق الدائم . أليس كذلك ؟

زينو : (يبدو كأنه داخل الآن) . ما هذا العناق ؟ إنك لا تترك العناق أبداً ؟ لقاء سعيد ياصديقي ! أين تمثالك الذي صنعته ؟

بيجماليون : هوذا الذي بين يديّ . . . قل لأثينا ان بيجماليون شرِكَ الاله في ابداع الحياة . لقد جعل من الرخام إلهة حية

زينو : حقّاً ما تقول ؟ لقد قالوا ان بيجماليون يحاول ان يحيي تمثالاً من تماثيله ، هام بجماله

بيجماليون : بيدي صنعتهُ ، ومن روحي أبدعتهُ ، وها هوذا يعانقني !

جالاتيا : سأقصُّ قصة ذلك

زينو : (مشيراً اليها بألا تفعل) . والآن يابيجماليون ! اذا اجتمعت الاثنتان في موطن واحد فكيف تعمل على التفريق بينهما ، وهما متشابهتان بل هما هما ...

بيجماليون : أتظن ان الأولى بعيدة عن الثانية ؟ أتظن ان روحها وقلبها لا يتمثلان وراء هذا الصدر ؟ أتظن ان وجهها غريب عن هذا الوجه ، او ان عينها ليست بهذه العين ؟ انها هنا ولا يمكن ان تكون في غير هذا المكان . . . دعني ! لن أرى لجالاتيا الاّ وجهاً واحداً

جالاتيا : ولن تراني الاّ واحدة
زينو : أصبحت هذه القاعة تخيفني
جالاتيا : كأنني أعرف كل شيء فيها . ولـكن . أُريد النور . الحياة منطلقة تحب النور . (يمضي بيجماليون لفتح النوافذ)
زينو : (لجالاتيا) لقد أرسلت التمثال الى منزلي : اياك أن تقصي عليه قصة ذلك . يجب ان يبقى على وهمه الذي لا يحيا بدونه، قد يكون هذا الوهم كل ما له في الحياة ، انكِ كنتِ وهمه والفنان لا يحيا الاّ في الأوهام . (يقبل بيجماليون ضاحكاً)
بيجماليون : أرأيتما الاشعة تتسابق الى طرد الظل ! الفنان يميل الى الظل ، لأن الظل أقوى من النور في بعث روح الابداع فيه
زينو : قد يكون الأمر كذلك لأن في الظل مسرحاً للاوهام الـكثيرة . والأخيلة الشاردة
بيجماليون : ما حال الفن بدون اوهام !
جالاتيا : (تدنو منه) والآن لمن تقف حياتك ؟
بيجماليون : لكِ ...
جالاتيا : وفنك ؟
بيجماليون : لعينيكِ
جالاتيا : وقلبك ؟
بيجماليون : لحبكِ
زينو : وانا ماذا تركتما لي ؟
بيجماليون : الروح في عالم الأوهام
زينو : (ضاحكا بينا تقبل جالاتيا بيجماليون) . الأوهام...حسبنا الأوهام... قد تستطيع الأوهام ان تغلب على الحقيقة، وسعيد من يؤمن بها... ولـكن أين وهمي ؟

يرخى الستار

منخفض القطارة

ومشروع توليد الطاقة الكهربية
للانتفاع بها في الوجه البحري

[يتردد ذكر منخفض القطّارة في هذه الايام في صدد الأعمال الحربية الدائرة في جواره في الصحراء الغربية . إلا ان ذكره برز اولاً في سنة ١٩٣١ عند ما تولّى حسين سرّي بك (دولة حسين سرّي باشا وكان حينئذٍ وكيلاً لوزارة الاشغال) رآسة المجمع المصري للثقافة العلمية وألقى محاضرة الرآسة في مؤتمره السنوي فكان موضوعها « كهربة القطر المصري ومشروع القطّارة » . وهذه المحاضرة أوفى وأدق ما نشر عن هذا المنخفض في اللغة العربية على ما نعلم . وقد طبعت في الكتاب السنوي الثاني للمجمع (١٩٣١) وعنهُ لخصنا أهم ما جاءَ فيها عن المنخفض والمشروع الخاص بهِ في ما يلي :]

« لقد آن لمصر ان تفكر تفكيراً جديًّا في تحويل جهود بنيها نحو الصناعات حتى تتمكن مع الزيادة المضطردة في عدد سكانها من ايجاد موارد رزق جديدة لهم بجانب الزراعة وحتى يمكنها مواجهة الصعوبات الاقتصادية بجعبة متنوعة الموارد وهي لن تصبح بلداً صناعيًّا حقًّا حتى يتمكن رجالها الفنيون من ايجاد حل موفق لتوليد القوى المحركة من موارد داخل حدود المملكة وبأسعار قليلة تمكن المصنوعات المحلية من منافسة مثيلاتها الأجنبية». ثم قال ان هذه الموارد هي مساقط المياه التي يمكن بواسطتها توليد الكهرباء لادارة مختلف الآلات. وبيَّن تفوق هذا النوع من التوليد على غيره . وبعد ما اورد المحاضر ما تحتاج اليه مصر من القوى الكهربية المحركة مدى قرن يبدأ سنة ١٩٤٥ قاصراً الحساب التفصيلي على ما يحتاج اليه الوجه البحري ومورداً في النهاية حساباً اجماليًّا للوجه القبلي ، قال : —

انهُ يؤمن كل الايمان بان الصناعات التي يجب ان تزدهر في القطر المصري هي تلك الصناعات التي تكون مواردها الاولية من ناتج الزراعة كالنسيج القطني والسكر والورق والكتان او التي تستخرج موادُّها الاولية من تربة مصر كالزجاج والاسمدة او لتحويل ناتج الزراعة الى مواد غذائية كالدقيق . وعمل حساباً للقوى اللازمة لتحويل جميع القطن المصري في مصانع مصرية ولصناعة السكَّر والورق والكتان والزجاج بمقادير تساوي ثلاثة اضعاف ما يستهلك منها محليًّا وما يلزم للطواحين ولعمل الاسمدة اللازمة للزراعة وأورد كشفاً

اجماليًا لكل ما يحتاج اليهِ القطر المصري من القوى كالآتي : —

القوى اللازمة بالكيلو وط

السنة	الوجه البحري	الوجه القبلي
١٩٤٥	٦٥٠٠٠	٥٠٠٠٠
١٩٧٥	٨٥٠٠٠	٦٠٠٠٠
٢٠١٠	١٢٠٠٠٠	٨٥٠٠٠
٢٠٤٥	١٨٠٠٠٠	١٢٠٠٠٠

وعليه فيكون واجب الرجال الفنيين ابتكار حل موفق لتوليد قوى كهربائية من موارد داخل الحدود المصرية تبلغ ٣٥٠٠٠٠ كيلو واط بما في ذلك الاحتياطي حتى تتمكن مصر من الاستغناء عن استيراد الوقود من الخارج ومن انشاء الصناعات التي لها علاقة مباشرة بالزراعة. وقال ان هناك موردين لهذه القوى . الاول منخفض القطّارة للوجه البحري، والثاني خزان اسوان للوجه القبلي . وقد قصر كلامه على منخفض القطّارة

وصف المنخفض الذي يقع في الجزء الشمالي من صحراء ليبيا وفي منتصف المسافة بين وادي النيل والحدود الغربية فقال انهُ واسع الارجاء كبير العمق تقارب مساحته جميع اراضي الوجه البحري كله بما فيه البحيرات ويبلغ متوسط عمقه ٦٠ متراً وتوجد أوطأ نقطة فيه على منسوب ١٣٤ متراً تحت سطح البحر المتوسط وهي اوطأ نقطة اكتشفت الى الآن في قارة افريقيا . وقد تكوَّن ذلك المنخفض تكوُّناً طبيعيًّا بتأثير الرياح التي نحرت في طبقاته الرخوة وحملت مكوّناتها الرملية الى الجنوب الشرقي ورسبتها على شكل جبال رملية هائلة يشاهدها روَّاد الصحراء على خطوط مستقيمة يربي طول بعضها على مائة كيلومتر . ويحد المنخفض من الشمال والغرب شوامخ صخرية تعلو عن قعرهِ في بعض النقط نحو ٣٠٠ متر. ثم اشار المحاضر الى تبليغه الحكومة خبر هذا الاكتشاف[1] في سنة ١٩٢٧ وبيان الفائدة العملية التي تعود على البلاد من استغلال سقوط المياه فيه ولخص الأسس التي وضعها للمشروع فيما يلي : —

(اولاً) مرور المياه خلال نفق يحفر في قلب الصحراء ما بين البحر والمنخفض. (ثانياً) بقاء منسوب المياه في المنخفض ثابتاً . ويقضي ذلك ان يكون التصرف الوارد من البحر مساوياً لمقدار المياه التي تتبخر من سطح المنخفض . (ثالثاً) تقدير المنسوب الذي يكون عليه سطح المياه في المنخفض ويتبع ذلك مقدار سقوط الماء، ما بين نهاية النفق والتربينات

(١) قال المحاضر : « يرجع الفضل في اكتشاف ذلك المنخفض العظيم الى الدكتور جون بول مدير مساحة الصحاري المصرية ذلك العالم الكبير الذي يسرني ان أشيد بذكره أمام هيئة المجمع الموقر »

وقد وافقت الحكومة على السير في الابحاث وأقرّت الاعتمادات اللازمة لحفر آبار على الخط الذي قرره لسير القنوات، لمعرفة تكوين الطبقات ولعمل الابحاث اللازمة لتقدير متوسط التبخر والاستمرار في استكشاف المنخفض وعمل خارطات مساحية دقيقة له

وقد أورد المحاضر النتيجة التي وصلت اليها الابحاث بعد انقضاء نحو ثلاث سنوات فقال ان مساحة المنخفض على منسوب البحر المتوسط تبلغ ١٩٥٠٠ كيلو متر مربع او ما يقارب الخمسة ملايين من الافدنة . ووصف الابحاث الدقيقة التي عملت لتنفيذ الاساس الثاني من المشروع وهو بقاء منسوب المياه في المنخفض ثابتاً وذلك يقضي بأن يكون مقدار الفاقد الطبيعي مساوياً لمقدار التصرف الصناعي الوارد من البحر يضاف اليه المكسب الطبيعي من المياه . وان الفاقد الطبيعي هو ما يتبخر من الماء وما يتسرب من المنخفض الى الصحراء، والمكسب الطبيعي هو مياه الامطار وما يتسرب من طبقات الارض الى المنخفض

ثم تكلم باسهاب عن التبخر وعن الابحاث التي تولتها مصلحة الطبيعيات لتقدير التبخر في بحيرة قارون وهي تشابه بحيرة القطارة (العتيدة) من حيث الموقع ومنسوب المياه تحت سطح البحر المتوسط ووجود شواطىء صخرية في شمال كلتا البحيرتين ، ووصف الطريقة التي اتبعها في تقدير التبخر في القطارة التي ستكون مياهها في البداية مساوية في ملوحتها لمياه البحر ، ثم تزداد الملوحة تدريجيًّا بسبب ما يتبخر من مياهها ووصل الى ان مقدار التبخر من بحيرة تنشأ في القطارة على مناسيب ٤٠و٥٠و٦٠ تحت الصفر يبلغ ٤٤٤و٤٤٢و٤ مليمتر على التوالي وان الفرق في هذا التقدير ناشىء من اختلاف درجة الملوحة في المائتي السنة الأولى من حياة البحيرة وهي المدة التي تصل فيها ملوحة الماء في البحيرة الى درجة محلول ملحي مركّز ويبتدىء فيها رسوب الملح على القعر والجوانب . ثم تكلم عن التسرب والامطار وعن تدرُّج الملوحة في البحيرة وان مقدار التبخر بعد اربعمائة سنة سيكون ٣٦٦ مليمتر وان البحيرة لا تملأ كلها بالملح على فرض تعذر استغلال الأخير الاّ بعد ١٢٠٠ سنة

وتناول بعد ذلك النقطة الجوهرية في المشروع وهي القوة التي يمكن توليدها من سقوط المياه التي تساوي نظريًّا حاصل ضرب مقدار الماء الذي يصل الى المنخفض في مقدار السقوط ووازن بين حلول ثلاثة تجعل منسوب البحيرة ٤٠و٥٠و٦٠ متراً تحت سطح مياه البحر واستنتج ان أفضل هذه الحلول جعل المنسوب ٥٠ تحت الصفر إذ انهُ يعطي أقصى قوة ومقدارها ١٨٠٫٠٠٠ كيلو واط عند مخرج المحطة ولا يؤثر في عملية الصرف في مديرية الفيوم التي تتسرب الآن مياهها من بحيرة قارون الى القطارة . ثم أورد نتيجة بحث طبقات الارض في مسافة الـ ٦٥ كيلومتراً التي تفصل المنخفض عن البحر وان هذه الطبقات مشبعة بالمياه في العشرين كيلومتراً الاولى مما يفضل معهُ جعل قناة توصيل المياه فيها ترعة عادية تحفر في الارض الجيرية ثم تدخل

المياه في نفق طوله ٤٥ كيلومتراً الى ان تصل الى المنخفض . وبيّـن انهُ لاستغلال هذا المقدار استغلالاً كاملاً يجب توريد مقدار يومي من مياه البحر يبلغ ٥٥ مليون متر مكعب وقابل هذا بتصرف النيل عند كوبري بولاق مدة الصيف وقدره حوالي ٣٧ مليوناً من الامتار المكعبة وأوضح طريقة حساب قطر النفق اللازم لتوصيل المياه من البحر فاذا هو ١٧ متراً اي انه يمكن ان تدخل فيه عمارة عالية من اربعة ادوار ارتفاع الدور اربعة امتار . ولكن صعوبة انشاء مثل هذا النفق المفرد حملت المحاضر على القول بضرورة تعدد الانفاق خصوصاً وان الوجه البحرى لن يكون في سنة ١٩٤٥ في حاجة الى الـ ١٨٠،٠٠٠ كيلو وط التي يمكن ان تتولد من المشروع اذا تمَّ تنفيذه دفعة واحدة، ولا يكون قادراً على استعمالها

واقترح تنفيذ مشروع القطّارة على ثلاث مراحل يُبدأ في الاولى منها بثلث المشروع أي توليد ٥٩،٠٠٠ كيلو واط عند المحطة او ٥٥،٠٠٠ كيلو وط عند مواقع الانتفاع في الدلتا ويكفي لذلك ان يكون تصرف المياه الواردة من البحر ثلث ما هو لتوليد القوة كلها او ١٨،٥ مليون متر مكعب في اليوم ويكتفى بحفر ترعة في العشرين كيلومتراً الاولى عرض قعرها ٢٥ متراً وبناء نفق واحد قطره عشرة أمتار فقط. وقال اذا تحققت آماله في كهربة القطر المصري فيمكن في سنة ١٩٧٠ البدء في إنشاء نفق ثانٍ وتوسيع الترعة وذلك لتوليد ٥٥،٠٠٠ كيلو واط أخرى . وعند بداية القرن الحادي والعشرين يتمم المشروع ببناء نفق ثالث وتوسيع الترعة الى العرض النهائي

وختم محاضرته بالكلمة الآتية . « لم يبق لي الآن قبل ختام الكلام عن مشروع القطارة سوى الرد على سؤال وجهه اليَّ كل من حادثتهُ عن المشروع سواءٌ أمن رجال الحكومة المسؤولين كان أم من اخواني المهندسين أم الصحفيين وهو « ما هي نفقات مشروع القطارة». سؤال كنت أجيب عنه دائماً بأن البيانات التي بين أيدينا والمعلومات التي توصلنا اليها خصوصاً فيما يتعلق بانشاء النفق في أرض لم تكن قد درست طبقاتها درساً وافياً لا تمكنني من الاجابة عنه وهو سؤال حتى في هذه اللحظة وبعد حفر عدد ليس بالقليل من آبار الاختبار لا أقبل تحمل مسؤولية الرد عليه . ولكن ما حيلتي والمشروع اقتصادي أساسه المال . إذن لا بدَّ لي هنا ان أورد أرقاماً تقريبية جدًّا فأقول ان المشروع الذي اقترح تنفيذه الآن، وهو لتوليد مقدار ثلث القوة الممكن الانتفاع بها من القطارة ومقدارها ٥٥،٠٠٠ كيلو واط عند مواقع الانتفاع، يكلف حوالي ١٧،٥ مليون من الجنيهات المصرية »

ثم قارن بين هذا المشروع ومشروع مماثل لتوليد الكهرباء باقامة محطة تربينات بخارية على النيل وبرهن على ان مشروع القطارة من الوجهة المالية وبصرف النظر عن مميزاته الوطنية وفوائده الاقتصادية الاخرى أفضل من المشروع البخاري

نظرة في :

المبادىء الاولى

وهي حجر زاوية فلسفة النشوء

لحنا خباز

﴿ توطئة ﴾ : انطبع في عقل سبنسر فكر سام، هو وحدة الناموس العامل في الطبيعة ، وفي الحياة ، وفي العقل ، وفي الاجتماع ، وفي الاخلاق . وأصدر مؤلفات متعددة يمكننا ان نتتبع فيها تدرُّجهُ نحو نظامه الفلسفيّ . ولاسيما كتاب « مبادىء علم النفس » سنة ١٨٥٥ . وقد فسَّر بهِ ظاهرات العقل طبقاً لمبادىء النشوء . ثم أصدر سنة ١٨٥٧ كتاب « الارتقاء ، ناموسه وعلّته » . ورأى سنة ١٨٥٨ انه يجب ان تكون هذه الفكرة أساساً لتفسير الحياة والعقل والهيئة الاجتماعية والاخلاق والديانة . هذا هو أصل « الفلسفة المركبة » Synthetic Philosophy . فكتب سبنسر فهارسها سنة ١٨٥٨ و١٨٥٩ وطبع تلك الفهارس سنة ١٨٦٠. ثم شرع في التأليف ومضى فيهِ ستًّا وثلاثين سنة . وانتهى من ذلك سنة ١٨٩٦ . ودعيت فلسفته «الفلسفة المركبة» ، وهي تدعى كذلك « فلسفة النشوء » ، لان النشوء محورها. فأصدر كتاب « المبادىء الاولى » سنة ١٨٦٠ . فكان كتاب سبنسر هذا وكتاب دارون في « أصل الانواع » .ميدان الحركة الفكرية في اوربا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

اشتهر في تلك المعركة الاستاذ هكسلي زعيم الطبيعيين في الدروينية وفي اللاأدرية . فكان نصير دارون وسبنسر كليهما . كان الفيلسوف اسحق نيوتن قد أصدر كتابه « المبادىء » . والفلكي هرشل قد أصدر كتاب « النجوم من السماء الى الارض » . واكتشف فارادي بعدها مكتشفاته الكهربائية . وفتح الكيميائيان بويل ودافي كنوز الكيمياء الخفية وكانت تلك المكتشفات عتيدة ان تكهرب الدنيا بأسرها . وكان الطبيعيان رمفرد وجول يبينان « تعادل القوة وحفظ النشاط » . ولكن الذيْ هزَّ اوربا الى الاعماق هو علم « الحياة ومذهب النشوء » فانتشرت العلوم الطبيعية في كل الدنيا

كان الفيلسوف كنت الالماني قد نظر في امكان تحول القرود بشراً . وكتب الشاعر الكلاسيكي جيته في تحول النباتات . ووسع العالم اراسموس دارون نطاق نظرية « ارتقاء

الانواع » . وهزَّ سانت هيلار اوربا سنة ١٨٣٠ بتفوقهِ على كوفييه في المناقشة الشهيرة في « النشوء » ضد ثبوت الانواع. فشاعت نظرية النشوء في اوربا . وتناقلتها الالسن سنة ١٨٥٠ وكتب سبنسر سنة ١٨٥٢ كتاب « فروض راقية » في نفس الموضوع . وعرض دارون وولاس مقالتيهما « في أصل الأنواع » في جمعية النبات . وأصدر دارون كتابه سنة ١٨٥٩ في أصل الانواع فحطم بهِ الآراء القديمة تحطيماً . فعمَّ التحدث في هذه الامور جميع انحاء الارض في أقل من عشر سنوات

رفع سبنسر عقله الذكي الى الاوج فطبق نظرية النشوء في كل فرع من فروع العلم. وكما ساد فلسفة القرن السابع عشر علم الرياضيات فأبرز الى الوجود ديكارت وسبينوزا وليبنتز وباسكال. وكما شاع علم النفس في القرن الثامن عشر فأنجب باركلي وهيوم وكوندياك وكنت. كذلك شاع علم الاحياء في فلسفة القرن التاسع عشر فأنجب شالنغ وشوبنهور ونيتشه وسبنسر وبرغسن

الّف سبنسر احد عشر مجلداً في شرح فلسفته المركبة . منها مجلد واحد في « المبادىء الاولى» . واثنان في مبادىء «علم الاحياء»، وثلاثة في مبادىء « علم النفس»، واثنان في «علم الاجتماع » ، واثنان في« علم الاخلاق »، وواحد في «علم الدين » . وكان هدفه الخاص تجلية الناموس الواحد — النشوء — في كل دائرة من هذه الدوائر

أحوّل النظر بعد هذه التوطئة الى«المبادىء الاولى». ليس من شأن الفلسفة تفسير الكون تفسيراً ينافي العلم . فصرح الفلسفة يجب ان يشاد بمواد هيأها العلم . ولذلك كان ميدان الفلسفة: الظاهرات ، وصفها وتفسيرها . ولا تحاول الفلسفة تخطي الظاهرات الى مسألة الكائن الازلي ، او اليقينية وراء تلك الظاهرات . ولا يعني ذلك انكار تلك اليقينية . فانها معلنة بظاهرات لا يقوى العقل على انكارها . وانما يدركها الشعور ، ادراكاً لا يمكن صوغه منطقيًّا . وفي إعتراف الفلسفة بالعجز عن ادراك ذلك الكائن ، بما لنا من عقل وعلم ، اقرار بوجوده . بل بضرورة وجوده . على ان الفلسفة مع ارتباطها بالعلم ارتباطاً لا يقبل الطلاق بحسب تفسير سبنسر ، فهي مع ذلك تحاول التقدم الى ما وراء حدود العلوم . ولم تكن اللاأدرية أسس فلسفة سبنسر وهي نقطة يجب ان لا يغفلها محقق

يرمي كل علم الى تجريد يمتد الى أبعد مداه ، تبدو ضمن حدود ذلك التجريد ظاهرات العلم الخاص ، وتتوحد وتنطبق . ومتى انتهينا من ادراك الحقائق العامة التي تندرج تحتها حقائق جميع العلوم ، تؤلف النواميس العامة . فالفلسفة عبارة عن توحيد المعرفة أكمل توحيد ، فترجع الى مجموع كلي متلائم . ومهما يكن اسلوب المعرفة استقرائيًّا فلا غنى لها عن فرض تبدأ بهِ . فاذا كان ذلك الفرض منتجاً وكانت نتائجه مطبقة ثبت ، واذا كان عقيماً سقط . ولما كانت الفروض تستلزم متانة الظاهرات وتباينها ، كان من المحتم ان تؤدي

الى وحدة المواد التي منها تبنى الفلسفة . ويجب ان تكون الخطوة الثانية اكتشاف النقائض التي تدل عليها التباينات ، وفي ذلك تستقل معرفتنا في التمييز بين الذات وبين غير الذات ، أي بين العين والمعنى . وليس هذا الكل ، بل اننا نجابه ادراكات المكان والزمان والمادة والحركة في حال اعتبارنا الأحوال التي تعلن الأشياء

يتناول العلم والذوق السليم يقينية هذه الأشياء . على ان التحليل يبين لنا ان المادة المحسوسة قابلة التحول الى شكل القوة التي لا تحول بعدها . ولما كان ادراك القوة ناشئة عن لا شيء ، وصائرة الى لا شيء ، محالاً ، بناءً عليه ، كانت القوة والنشاط الملابس لها ثابتي المقدار ، وهي ركن الوجود . ففي ثبوت القوة نبلغ اقصى حقيقة كونية هي أساس جميع العلوم . وحيث ان هذه الحقيقة وراء كل علم ، كانت فائقة البيان . فاذا قيل : ما هي هذه القوة ؟ فالجواب : لا أدري : فلا سبيل الى معرفة ماهية القوة التي وراء ظاهرات هذا الكون . انما نعرف تلك القوة السرمدية بهذه الظاهرات . لكننا لسنا نعرف كنهها

ونعني بثبوت القوة ، ثبوت علة فائقة الادراك . فالبيان العام الذي تنشده الفلسفة يتخذ شكل تغير لتحول القوة تحت جميع صيغ المادة والحركة . بيان كهذا ممكن لدى معرفة بعض الحقائق المستنتجة مما عندنا من المواد الاصولية . يندرج في عداد تلك الحقائق بناء المادة ، وثبات الحركة . وبما ان المادة ثابتة لا تتحرك فهي لا تتغير بما تحدثه من التغيرات . فمن ثمة كانت العلاقة بين القوة ، التي ندعوها « العلة الاولى » ، وبين معلولاتها ثابتة لا تتنوع . فيقيننا ان العلة ضرورية ، وانها عمومية ، هو يقين يجب ان يتقدم جميع اعلاناتها وأفعالها . فنظرية تغير القوى ، وأفعالها ، ومطابقتها النواميس الطبيعية ، هي حقائق مستمدة من أعماق الشعور . وبما ان قوتي الجذب والدفع عامتان كل مكان وزمان ، فالحركة لا تكون الاّ في متجه أقل مقاومة وأعظم تأثيراً ، أو نتيجة الامرين معاً . فاتجاه الحركة سرمداً ضمن حدود معينة بناموس اتزان الحركة المعلن في جميع الظاهرات مقترناً بثبوت القوة . وذلك الاتزان مزية كل حركة

هنالك حقائق تنشدها الفلسفة . وهي صحيحة في كل علم . ومن الممكن تجاوزها واستخدامها في توحيد الظاهرات الثابتة في جميع اجزاء الطبيعة . على اننا الى الآن لم نتخط الماديات في فلسفتنا . فقد عرفنا ما هي العوامل في جميع الظاهرات . فعلينا ان نفهم تعاونها في انتاج الكون في كل جزء من اجزائه . فكل علم ، متى تركبت عوامله الخاصة ، يحاول ان يبين كيف نشأت ظاهرته بكل ما فيها من تعقيد . فيجب ان ننشد الفلسفة والتركيب العام الذي يجمع كل هذه التراكيب الخاصة . فالمطلوب هو :— استنباط ناموس شامل جميع الظاهرات المعروفة . إن الكون بأجمعه دائم التغير ، مادة وحركة ، وتفسير الكون بهذا

الناموس هو الفلسفة المركبة ، لأنه يعطي تاريخاً قانونياً لتكوين يفسر كل شيء ، فناموس توزيع المادة والحركة هو ناموس النشوء والانحلال . وهو يتناول بالضرورة كل تغير يحدث في الكون ، من النظم الشمسية الى الحياة الانسانية ، ويقرر ذلك بعبارة عامة هي : — النشوء هو ثبوت المادة وتوزيع الحركة

تجتاز المادة في مجرى تطورها من متجانس غير محدود ولا متطابق الى تطابق محدود غير متجانس . وهذه العبارة من جوامع الكلم . فيلزمها شيء من البيان والأمثلة ، فأقول: التجانس غير المحدود هو المادة الاصلية — هيولى — قبل تكوين الذرات Atoms . لكنها غير محدودة ، أي غير شكلية . وليس لها معنى ولا استقرار ، فهي في معرض التكوين كعالم الاثير مثلاً . ولما كان ناموس النشوء يعم جميع صور الحياة ، وفي جملتها العقلية والاجتماعية فيمكن القول في تطبيق العبارة على العقلية « ان الشعور في اول صوره — التحسس — هو متجانس غير محدود » . فالطفل وقد سمع صوتاً يلتفت الى الجهة التي ورد منها الصوت . لأنه قد حصل عنده تحسس ، او شعور بسيط . ولكنه شعور غير محدود . اذ ان الطفل لا يدرك من معنى الصوت ، الاّ انه مؤثر يحدث فعلاً عكسياً . لكنه متى نما واتسع نطاق ادراكه واختباره ، فحينذاك يصير قادراً ان يميز بين صوت الطبل وزقزقة العصافير ، وهزيم الرعد ، وصوت المرضع . فيكون الحاصل حينذاك محدوداً غير متجانس . ذلك ما يقال في تطبيق ناموس النشوء في علم النفس وفي عالم المادة . اما في علم الاجتماع فالمادة الخام هي افراد البشر في حال الهمجية قبل ان يؤلفوا عائلات او هيئة

فأفراد الناس في ذلك الطور « تجانس غير محدود» . وهو واضح . فاذا تشكل الافراد عائلات ، وجماعات ، وهيئات دينية وسياسية ، فقد صاروا تبايناً محدوداً ، فثبتت المادة ، مع تغيّر الحال . فالنشوء في اصطلاح سبنسر هو «اجتياز المادة من البسيط المتجانس الى المركب المتباين » . كاجتياز الفكر البسيط الى تصورات وتصديقات واحكام ، او اجتياز افراد البشر الى حال التمدن والعمران والسياسة ، او اجتياز المادة من غير العضوي الى العضوي . وفي حال العضوية من الحال غير الشكلية الى الشكلية . اي من مفردة الخلايا الى متعددة الخلايا . فقد ارتبطت الذرات برباط سري نؤكده ولا ندري ما هو . فندعوه الجذب ، او الحياة . فهذا الانتقال من حال الى حال فيها ما ليس في سابقتها ، هو في اصطلاحنا ارتقاء . وانتقال الاشياء من حال الى حال هو النشوء . هذا هو مفاد قول سبنسر ان «النشوء اجتياز المادة من تجانس غير محدود ولا متطابق الى تباين محدود متطابق »

فان الكهيربات متجانسة فلما ألفت الذرات الفردية تباينت اي شكلت البسائط الاثنين والتسعين وهي التي ندعوها العناصر . لكنها في الحال الاولى غير متطابقة . وفي الثانية

متطابقة ومترابطة. فاليد في المجموع العضوي مطابقة الجسم ومرتبطة بهِ. وكذلك الرأس والقلب والمعدة، فهذا التطابق نشوء، او نتيجة النشوء. هذا ما أردت بهِ تبيان عبارة سبنسر. ثم يقول : —

تتحمل الحركة تغيراً يماثل ذلك التوزيع، فتوزيع المادة والحركة في تكوين المجموع يؤلف النشوء. فالنشوء زيادة التحديد، وتحوّله الى مطابق محدود. وضده الانحلال وهو تحوّل المادة من متطابق متباين الى متجانس غير محدود كتحول العضوي بعد موتهِ تراباً، وتحول الحطب بعد حرقهِ رماداً

ويصحب النشوء زيادة التجانس والتباين. فوحدة البناء التركيبي المشتملة على التجمع هي الوحدة الحاصلة بانضمام أجزاء متباينة في مجموع عضوي. هذا في علم الاحياء وفي علم وظائف الاعضاء. اما في علم الاجتماع فهو انضمام الافراد وتأليفها هيئة مركبة من زارع وصانع وعالم وحاكم وقاضٍ وكاهن ومهذّب الخ. فالنشوء تغير من متشابه الى متباين، سواءٌ في ذلك نشوء الشجرة من بذرة الى باسق ذي أغصان وأوراق وأزهار وأثمار، او نشوء الحيوان من بيضة الى طائر ذي قوائم وخوافٍ وأجهزة ومجموعات، فغير الناشيء هو البسيط، والناشيء هو المركب. ويشترط في النشوء تركيب يؤلف وحدة عضوية مترابطة منوَّعة الاجهزة والوظائف، او مقسمة الاعمال. فلنا صيغة تعم في تجريدها جميع أطوار التغير في الكون، وبعبارة أضبط ،هنا، صيغة تغير في كفة صاعدة. ولا ننسى ان الكفة الصاعدة تقابلها كفة نازلة مرتبطة بها، فهو ميزان الوجود ترتفع احدى كفتيه برجحان الكفة الاخرى. فالقوى الضامنة البقاء هي في تنازع مستديم ضد عوامل الانحلال. والنشوء والانحلال، او الحل والتركيب، يؤلفان دائرة التغير. وفي هذه الدائرة تنحصر احداث الكون. وما ندعوه ناموس النشوء والانحلال يعم حوادث الكون بأجمعهِ

ويلزم اتخاذ خطوة أخرى قبل التقدم لتطبيق هذا المبدإ على أقسام الكون. والخطوة هي : ان صيغة النشوء اختبارية : توضح تجريداً أوسع ينطوي تحته كل تجريد آخر. فلا تطلب الفلسفة فقط تقريراً منظماً عن تغير الاشياء. بل ان يكون ذلك التغير ايضاً عقليّاً

فيجوز لي أن أفهم من ذلك ان هذا النشوء الهي. لانهُ من اعمال العقل غير المحدود. يفهمهُ الانسان ذو العقل المحدود. والعقل يدرك آثار العقل في الطبيعة. وهذه العلاقة بين العقل المحدود والعقل غير المحدود هي اسّ الفلسفة والديانة في تاريخهما

تطلب الفلسفة ان يكون ذلك التغير اكثر من مجرد اظهار عمومية النشوء. وان يبين العلة مع تبيان المعلول. ولا يقتصر على وصفها تاريخيّاً. فيوضح لماذا كان النشوء عامّاً. ولماذا تحتم حصول التغير في هذه الصورة دون غيرها. اي يلزم ان تكون صيغة النشوء

استدلالية . وقد تمَّ ذلك استناداً الى نواميس ثلاثة : —

الناموس الاول : حال التجانس ، وهو شرط التقلب والتبدل . والمراد بالتجانس هنا التجانس النسبي لان المطلق غير مُـدرَك

الناموس الثاني : تـنشىء العلة الواحدة اكثرَ من معلول واحد

الناموس الثالث : تميل الوحدات المتباينة في كل تجمُّـع الى الانفصال والوحدات المماثلة تميل الى الاتصال

هكذا وضعت أسس الفلسفة كمعرفة كاملة التوحيد وخص سبنسر بذلك كتاب (المبادىء الأولى)

***

يستخدم سبنسر في فلسفتهِ اصطلاحات الميكانيكا ، لانهُ مهندس ، فيورد تاريخ نشوء الـكون بعبارات المادة والقوة والحركة . وقد يظن القارىء ان مذهب سبنسر الفلسفي هو المذهب المادي . ولـكن سبنسر يرفض المذهب المادي ، فحين يتكلم في المادة والقوة والحركة يفرغ جميع رموز افـكاره المعقدة في رموز بسيطة . ولـكن الرموز رموز ، والمسألة الـكبرى لم تحل وهي مسألة الوجود . انما تُـبعَـد قليلاً الى الوراء . فالمادة والحركة مقر أقصى الاسرار ، هي ادراكات تعمل بها ، على انها مجرد علاقات اليقينية التي لا يمكن ان تُـدرك ، وهي مستترة وراء الظاهرات

وغالباً ننسى انهُ ليس فقط توجد روح صالحة في الاشياء الشريرة ، بل انهُ توجد روح حقيقية في الاشياء الخاطئة . لذلك شرع سبنسر يبحث في الآراء الدينية ليجد ميدان الحقيقة التي نظمت الديانة في النفس الانسانية تحت صور متنوعة . فرأى ان كل بحث في اصل الـكون ينتهي بالعجز عن الادراك ، فيحاول الملحد ان يعتقد ان الـكون وجد لذاتهِ ، وهو أمرٌ غير معقول . ويقول المؤمن ان الله خلق السموات والارض . فتظل أمامه مسألة الطفل التي لا تجُـاب . وهي : مَن خلق الله ؟ يعني ان الملحد والمؤمن عاجزان عن ادراك اللامتناهي . فجميع الآراء الدينية هي فوق ما يمكن ان ندرك . كذلك العلم ، فان الآراء العلمية القصوى هي وراء حدود الادراك . نردّ المادة الى الذرات . ثم نرانا ملزمين بأن نحلل الذرات ، كما قسمنا الدقائق المادية ، فننساق الى مشكلة ان المادة قابلة الانقسام الى ما لانهاية لهُ » . وهذا ايضاً غير مُـدرَك . وكذا الامر في تقسيم الزمان والمـكان . فالتصوران الديني والعلمي سواسية ، هما في أقصى حدودهما غير مدركين . وكذا الحركة مكتنفة بحجب صفيقة ، مثلثة الاعتبار ، اي مادة وزمان ومكان ، وحين نحلل المادة لا يبقى سوى ناموس القوة التي تؤثر في حواسنا ، او تعارض عملنا . فمن يقول ما هي القوة ؟ هنا موقف الحيرة . فان التصور العلمي الاقصى انما هو تمثيل يقينية لا تدرك . وتقود الطبيعيّ ابحاثه الى لغز لا يمكن حله . وهو

تحسبهُ لغزاً قابلاً الحل فيتجلى له كبر العقل الانساني وصغره. كبره وقوته في كل ما يدخل ميدان اختباره، وصغره وعجزه في كل ما هو فائق مستوى اختباره . فيعرف اكثر من كل مخلوق ما هو الشيء الذي لا يُدرك

فالفلسفة الوحيدة هي عبارة هكسلي : لا أدري: وعلة ذلك كون المعرفة نسبية لا مطلقة وان الفكر البشري لا يكتشف الا العلاقات ، وبعضها لا جميعها. وقد صيغ العقل لمعالجة الظاهرات ولا شأن له في ما وراءها . على ان اللفظين « ظاهرات » و« نسبية » يشيران الى شيء وراءهما فوراء النسبية « المطلق » ووراء الظاهرة « اليقينية » . . وحين نراقب عقولنا نرى أنَّ لا ندحة لنا عما وراء الظاهرات. فينتج عن ذلك الايمان بالقوة الفاعلة وراء تلك الظاهرات . ولكننا لا ندري ما هي تلك القوة . فلا يتعذَّر في هذا الموقف مصالحة العلم والدين . فان يقينية كليهما هي لا أدرية ، فليسلِّم العلم بان نواميسه تنطبق على الظاهرات وذلك نسبيًّا . وليسلمْ الدين بأن اللاهوت اسطورة معقولة . لان الايمان زراية بالعقل . وليكفَّ الدين عن تصوير الله بصورة انسان هائل . فان ذلك تحقير له تعالى ، وليكف العلم عن انكار اللاهوت ، وعن التسليم بالمذهب الماديّ . فالعقل والمادة كلاهما ظاهرة ، وهما اثر مزدوج لعلة قصوى ، لا تدرك طبيعتها . ومعرفة تلك العلة لُباب كل دين وكل فلسفة بل هي بدء كل فلسفة . وبعد تبيان ذلك تنحصر الفلسفة في ما يمكن ان يدرك

الميتافيزيقا سراب. وهي كما قال أحد الحكماء: فن انكار الانسان نفسهُ : فميدان الفلسفة الملائم، ووظيفتها الخاصة ، جمع نتائج العلم. فالعلم يوحِّد المعرفة ، والفلسفة تكمِّل ذلك التوحيد . وهذا التوحيد يستلزم مبدءًا شاملاً يعمُّ كل اختبار وجميع صور المعرفة. أفيوجد مبدأ كهذا؟ قد نتوصل الى ذلك اذا نحن حاولنا توحيد تجريدات الطبيعة وهي :—

١ : ثبوت المادة. ٢ : حفظ القوَّة ٣ : استمرار الحركة ٤ : عدم تخلُّف الناموس ٥ تحوُّل القوى وتعادلها . ٦ : نظام الحركة

ربما كانت هذه اللائحة غير معروفة فلا ندحة عن الاشارة اليها . الطبيعة مترابطة متسقة من تموُّج الحرارة الى ارتجاج اوتار الكمان . ومن تموج النور الى مد البحر . ومن دوران الذريرات الى دوران الكواكب والنجوم . ومن تعاقب الليل والنهار الى توالي فصول السنة . بل من تموج الذرات الى قيام الامم وهبوطها ، وتولُّد النجوم وانحلالها . كل هذا مما يدرك . وهي متحولة الى ناموس حفظ الطاقة . ولكن هنالك ما هو ساكن وعديم الحركة في المبدإ. فما هو مبدأ اليقينية الدينامي ؟ ناموس نماء جميع الاشياء وتقهقرها ؟ هو ولا بدَّ ناموس النشوء والانحلال . النشوء هو ثبوت المادة وتوزع الحركة

فتمتاز المادة فيه من متجانس غير محدود وغير متطابق الى تباين متطابق محدود .

وتتحمل الحركة في خلال ذلك تغيراً يطابقهُ . فما معنى ذلك ؟ المعنى هو نشوء الاجرام من السدم . وتكوُّن الجبال ، والمحيطات في الكرة الارضية . تجدد النبات والحيوان والانسان . نشوء القلب والعينين في الجنين . تصلب العظام بعد ولادة العضوي . اتحاد الاحساس والذكرى وتأليفهما معرفة . اتحاد المعرفة والتفكير كعلم وفلسفة . نمو الأسر الى عشائر ومدائن ودول وأمم . في كل ذلك ترى ثبوت المادة وتجمع المتفرقات الى كلٍّ . عمل كهذا يشتمل طبعاً على تقييد الحركة في الأجزاء ، كما تتقيد الدولة بحرية افرادها . فالنشوء هو التطور . كانت السدم سحباً فصارت عالماً مكوكباً ، وتبقع سطح الارض بالنبات ، وتوالدت الاجساد ، وتفرعت حلقات الهيئة الاجتماعية ، وتجلت المدارك ، وتشعبت العلوم ، وتمت الفردية ، وتمايزت الصفات . وارتقت في كل أمة الخصائص الفردية . ثبات ، تنوُّع ، تجمُّع ، انقسام . هذه هي بؤرة النشوء

لم يكتف سبنسر بصورة التركيب ، فتخطاه الى ما يصحبهُ من عملية ميكانيكا . فهناك اولاً عدم ثبات الصورة . اي ان الاقسام المتماثلة لا تثبت طويلاً . لانها عرضة لتأثير القوى الخارجية التي تهاجمها مهاجمة القرصان السفن ، وغزو الدول الفاتحة الاقطار المجاورة . وهناك مضاعفات . فقد تحدث العلة الواحدة مئات المعلولات . وهناك ناموس الفصل ، فتنفصل أقسام التماثل النسبي الى اشكال متنوعة مختلفة المقدار فتكوّن منتجات غير متماثلة كصيرورة الانكليز مثلاً اميركيين واوستراليين وكنديين ، بحسب طبيعة الاقليم . بهذه الصورة تحدث الطبيعة التنوُّع في الدنيا

وأخيراً تأتي الى التوازن ، الذي لا بد منه . تفنى كل حركة عاجلاً او آجلاً وينتهي كل تموج في كرور الادهار ويعيق المد والجزر سرعة الارض فتبطل حركتها . ويبرد الدم في العرق . وتتناقص حرارة الشمس ويتدبل بهاؤها . فتبطؤ حركتنا ونفكر بعقر راحتنا الأبدي . لأنهُ ليس لنا هنا مدينة باقية فنفكر بالنيروانا . ويصير التوازن انحلالاً وهو ختام النشوء المحزن وتُنسى الهيئة ، ويزول التعاون ، وتخلفه الفوضى . ويصير الكون مشهد التقهقر . رواية مشؤومة . ورجعة محتومة ، تتمّ الدورة ، ويسود الانحلال . فالحياة مقدمة الموت

« فالمبادىء الأولى » رواية فخمة . تبين بأسلوب علمي الصعود فالهبوط ، في الاجرام السموية وفي ممالك الاحياء . مأساة يصحّ فيها قول هملت . البقية هادئة او « هامدة »

نعم إنا مائتون . لكننا بعامل الحرص على الكيان نؤثر الحياة . ففي سبنسر تحسس شوبنهوري في تلاشي الجهد الانساني وعبث الحياة

هذا هو موقف العقل في ميدان المبادىء الأولى التي عليها تبنى او منها تتفرع مناحي فلسفة النشوء اوالفلسفة المركبة التي أبرزها سبنسر الى حيز الوجود وسبحان الحي الذي لا يموت

الشرق العربي واوربا

— ١ —

الى مستهل القرن التاسع

لنقولا زيادة

تمتد البلاد التي نسميها الشرق العربي من هضبة ايران شرقاً الى البحر المتوسط ووادي النيل غرباً ، ومن اسيا الصغرى وارمينيا شمالاً الى البحر العربي جنوباً ، وتشمل العراق وسوريا وفلسطين ومصر وبلاد العرب نفسها . ونظرة واحدة الى الخارطة ترينا انها تتكون من سلاسل جبال متصلة في الشمال ، يليها الهلال الخصب الذي يحتضن بادية الشام ، وهذه في الواقع امتدادٌ شمالي من شبه الجزيرة نفسها . ان سلاسل الجبال التي اشرنا اليها تبدأ قرب الخليج الفارسي وتتجه شمالاً في غرب باسم جبال زغروس او كردستان ، وهي الحد الطبيعي بين الامبراطورية الايرانية والعراق وتتصل هذه بجبال ارمينيا وطوروس الداخلية وطوروس الساحلية . وهذه السلاسل التي تشبه قوساً متجهةً نحو الجنوب ، هي الحد الطبيعي ايضاً لانتشار الجنس العربي ولسيادة اللغة العربية ، في الشمال والشرق

الى الجنوب من هذه السلاسل يقع الهلال الخصب وهو مقعر متجه نحو الجنوب قرنه الغربي عريش مصر ، وقرنه الشرقي خليج العجم ، ومركزه الى الشمال من بلاد العرب ، فكأنهُ جيش مرابط متجه الى الجنوب ، ميمنته سوريا وفلسطين وميسرتهُ خليج العجم وارض العراق ، وقلبه سفوح جبال الجزء الشمالي من العراق . وارض هذا الهلال يرويها دجلة والفرات في الشرق والامطار الغزيرة في الغرب . وكلها اراضٍ خصبة صالحة لمختلف انواع المزروعات . اما بلاد العرب فنجدهُ صحراوي عظيم أعلاه في الغرب ، في جبال الحجاز واليمن ثم ينحدر تدريجاً شرقاً نحو الخليج الفارسي وخليج عمان وليس في هذه البلاد انهار ، لكن فيها أودية طويلة مثل الرمّة والارمك

وتصل صحراء سيناء فلسطين بمصر كما يفصل البحر الأحمر مصر عن شبه الجزيرة العربية . ومصر ، كما قال ابو التاريخ « هبة النيل » يرويها هذا النهر الميمون بمائه ، ويحمل الى ارضها غرينه وطميه ، فتفيض على الناس بفضلهِ خيراً وبركة . وما عدا هذا الوادي فان مصر تلال صحراوية وسهول رملية

وقد جاشت صدور ابناء وادي الرافدين ووادي النيل ، من اقدم الازمنة بالآمال فما تقاعسوا عن تحقيقها ولا وقفوا عند حد التأمل ، بل أفسحوا للفكرة مجالاً فأصبحت قوة، وشقوا للامل طريقاً فصار عملاً ، وسلكوا في القول سبيلاً فكان فعلاً . فانشأوا ممالك قوية عدت على جاراتها فضمتها اليها ونشرت فيها اصول الحضارة : وأدى الأمر بهذين القطرين الى تصادم المصالح ، فاقتتلا حيناً ، وتصافيا حيناً آخر ، وتقاطعا آناً واتصلا آناً آخر ، واتَّجرا وتبادلا الآراء والافكار ، والعقائد والعادات

وكان شمالي بلاد العرب وسوريا الطريق لجميع هذه العلاقات بينهما ، والمسرح الذي مثلت عليهِ ادوار التاريخ . ومن بادية نجد خرجت موجات من الساميين استوطنت العراق والشام جيلاً بعد جيل . وكانت الشام اذا ناءت بحملها ، رنت الى مصر تطلب تخفيف العبء ، وكانت مصر تتقدم الى نجدتها شأن الكريم يعين أخاهُ . فاشتد بذلك الاتصال بين هذه الاقطار جميعها . وكانت آخر موجة بشرية دفعتها البادية الينا موجة القرن السابع الميلادي العربية ، وهي التي افتتحت الاقطار التي ذكرت ، في عشر سنوات فنشرت فيها لغتها ودينها

وهكذا خرجت مصر والعراق وسوريا وبلاد العرب من بوتقة التاريخ واحدة في جنسها واحدة في حضارتها ، واحدة في آدابها ، واحدة في لغتها . وكانت هذه الوحدة تقوى متى خضعت البلاد كلها لسلطان واحد ، وتضعف متى جزأتها المصالح ، وبين هذا الضعف وتلك القوة تخسر او تربح ، وتعثر او تنهض

وما يجب ان نذكره قبل كل شيء ، ان بلاد الشرق العربي تقع بين البحر المتوسط وأواسط آسيا من جهة وبين هذا البحر نفسه والهند من جهة اخرى ، ومن هنا كانت مكانتها التاريخية . انها مركز الاتصال بين اوربا والشرق . فكلما ازدادت حاجة اوربا الى الشرق ازداد موقع الشرق العربي شأناً

وقصة هذه العلاقات بين الشرق العربي وأوربا تعود بنا الى فجر التاريخ (٣٠٠٠ — ٢٠٠٠ ق.م) ، كما دلت على ذلك أعمال الحفر الاثرية والمصادر التاريخية القديمة التي بين ايدينا. لكننا مضطرون ان نضرب صفحاً عن هذه الفترة القديمة في هذه العجالة . ويجدر بنا ان ننتقل الى اول اتصال قوي مباشر ترك في حياة الشرق الادنى أثراً كبيراً . والذي أشير اليه هنا هو فتح الاسكندر الكبير اليوناني في القرن الرابع ق . م . فقد اكتسح هذا الفاتح الكبير كل الشرق الادنى . ولما كان الاسكندر يريد توحيد سكان العالمين الهليني والشرقي من ناحية الحضارة ، أخذ على عاتقه انشاء مراكز للمدنية اليونانية لنشرها بين أهل البلاد . ومع ان أمل الاسكندر في توحيد الاجناس خاب ، فقد اصطبغ الشرق بصبغة الحضارة

الهلينية وعلومها وآدابها ، وأصبح بدوره معلماً لها لما التقى بالرومان

وقد بدأ تدخل الرومان في شؤون الشرق العربي في القرن الثاني قبل الميلاد ، وتمّ استيلاؤهم على سوريا ومصر قبيل مولد المسيح . أما العراق فلم يكن في يوم من الايام بتمامه في أيدى الرومان مدة طويلة ، كما ان محاولتهم في بلاد العرب ذهبت أدراج الرياح . لكن الجزء الذي استولى عليه الرومان من الشرق العربي مكنهم من السيطرة على الطرق البرية والبحرية العظيمة التي تصلهم بالشرق الادنى . فطريق آسيا الصغرى الى بحر قزوين ، وطريق (السرج السوري) وهو يمتد من خليج اسكندرونة الى الفرات ومن هناك الى بقية أجزاء العراق وفارس ، وطريق البتراء الى اليمن ، وطريق الاسكندرية الى القصير — جميع هذه الطرق كانت في أيديهم

ومنذ القرن الرابع بعد الميلاد أصبحت بلاد الشرق العربي جزءاً من الامبراطورية البزنطية التي كانت القسطنطينية (استانبول) عاصمتها . ومن القرن الخامس الى القرن السابع ب . م . كانت المنافسة التجارية بين فارس والبزنطيين على أشدها ، وكانت بلاد الشرق العربي مسرحاً تمثل عليه قصة هذه المنافسة الأوربية الاسيوية بكاملها . وليست حملة الأحباش على اليمن الاّ محاولة بزنطية للسيطرة على طريق البحر الاحمر ، كما ان غزو الفرس لليمن قبل الاسلام ، هو ظاهرة أخرى من مظاهر هذا النزاع القوي . وبقدر ما كانت تشتد حاجة أوربا التي بدأت تستيقظ شيئاً فشيئاً ، الى المتاجر الشرقية بواسطة البزنطيين ، كانت تشتد رغبة هؤلاء في السيطرة على كل طريق ان أمكن

على ان الاتصال بين أوربا والشرق العربي لم يكن تجاريًّا او سياسيًّا فحسب . بل ان كثيرين جاءوا فلسطين لأسباب دينية واضحة . وقد ترك هؤلاء الحجاج والزوار آثاراً مكتوبة لحياتهم في البلاد مثل جيروم الذي سكن بيت لحم في القرن الرابع الميلادي وحاج بوردو ، والقديستين باولا وسلفيا ، وهذه الاخيرة زارت مصر وسيناء وسوريا وآسيا الصغرى

وفي القرن السابع احتلّ العرب هذه البلاد ، وهي منذ ذلك الحين عربية اللغة والمدنية . وهذا الاحتلال قطع العلاقات الشرقية الأوربية حيناً ، لم يطل . إذ ان العرب لم يلبثوا ان نظموا أمورهم ودولتهم ، وسهروا على مصلحة الشعوب التي حكموها ، واستتبّ النظام في الشرق العربي وغيره فعاد الاتصال الى سابق عهده ، سواء أفي عالم التجارة كان ، أم في عالم الرحلة والحج . فان حجاجاً أوربيين زاروا فلسطين في العهد الأموي ولم يتركوا في كتاباتهم أثراً للتذمر او الشكوى من ولاة الأمور . بينهم زوار من الغال وانكلترا . ومن الذين جاءوا من هذه البلاد الاخيرة ويليبولد (٧٢١ — ٧٢٧) الذي مثل أمام الخليفة

يزيد الثاني (٧٢٠ — ٧٢٤) فزوّده وصحبه برسائل وأعفاهم من ضريبة الحج

وفي القرن الثامن الى القرن الحادي عشر كانت علاقة أوربا بالشرق العربي تتخذ طريقين الواحد عن طريق البزنطيين الذين أرادوا ان يحتكروا التجارة الأسيوية بأيديهم فسيروها عن طريق آسيا الصغرى وأواسط آسيا الى الشرق ، والبلقان الى الغرب ، أما الطريق الثاني فكانت مراكزه الاسكندرية والموانىء السورية . فان المدن الايطالية مثل البندقية وبيزا وجنوة ، كان يهمها ان تحصل على متاجر الشرق بكل طريقة مستطاعة . وكان الاتجار مع الموانىء السورية يعود عليها بربح أكبر ، فاتخذت عكاء وصور وبيروت مراكز لهذه الغاية . على أننا يجب ان نذكر ان الشرق العربي تصدَّعت وحدته السياسية منذ أواخر القرن العاشر لما أخذ أمراء الأطراف يستقلون ، فكان الطولونيون في مصر ، والحمدانيون في سوريا ، ثم جاء السلاجقة الذين اقتسموا السلطة والبلاد فيما بينهم ، كما استقلّ الفاطميون بمصر

على ان علاقات الشرق العربي بأوربا اتخذت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر شكلاً جديداً ، فان جماعات من مختلف الاصقاع الاوربية الغربية ، انتقلت برمّتها من أوربا الى الشرق غازية فاتحة ، فكانت نتيجة ذلك الحروب الصليبية التي صدمت الشرق العربي المتصدع فتغلبت عليه ، وأنشأت فيه ممالك وامارات غريبة عنه ، انتشرت من شمال سوريا الى جنوب فلسطين . وتوالى المدد من المال والرجال قرنين فثبتوا ، فلما انقطع عنهم ضعفوا وخسروا المعركة الفاصلة . وليس من شك في ان الحروب الصليبية فيها للعامل الديني حظ كبير ، لكن الواقع ان العوامل الاقتصادية والاجتماعية كان لها أثر كبير أيضاً ومجرد التفكير في هذه العوامل وبحثها ، يرينا منزلة الشرق العربي في نظر اوربا في القرون الوسطى

ان الحروب الصليبية أثرت فيما أثرت ، في تعزيز العلاقات التجارية بين أوربا والشرق العربي . وعلى هذا فقد احتفظ البنادقة وغيرهم بالمراكز التي كانوا يتجرون بها مع الشرق في بيروت وطرابلس وعكاء . ولعلَّ رحلات ماركو بولو في القرن الثالث عشر أكبر دليل على قوة الاستمرار في الاسفار والرحلات والاتجار بين أوربا والشرق . وقد ذكر السائح الفرنسي دولا بروكيه (في القرن الرابع عشر الميلادي) أنهُ صادف في بيروت ودمشق كثيراً من التجار البنادقة والفلورنسيين وغيرهم وأنهُ كان للاولين قنصل في كل من المدينتين المذكورتين

وقد كان المماليك أصحاب السلطة المطلقة في مصر وسوريا ، فوقعت في قبضة أيديهم جميع الموانىء ، وطرق القوافل التي تصل متاجر البلاد الهندية وغيرها من بلاد الشرق الأقصى بأوروبا ، ففرض هؤلاء الضرائب التي يريدونها على كل قدر من البضاعة التي تمر من طريق البحر الاحمر الى القاهرة ثم الى الاسكندرية وكذلك من طريق الخليج الفارسي الى البصرة

ومنها الى الاسكندرونة أو طرابلس أوغيرهما ، لتنقل بعد ذلك الى البندقية . واذا تذكرنا الثروة الطائلة ، التي جمعها المماليك في القرنين الرابع عشر والخامس عشر من جراء مرور البضائع في هذه الطرق ، عرفنا قيمة هذه البضائع نفسها

وفي القرن الخامس عشر أخذت دولتا اسبانيا والبرتغال تفتشان عن طريق آخر يصل أوروبا ببلاد الهند تخلصاً من ضرائب المماليك ، ومن اضطراب الأمن بسبب توسع الاتراك العثمانيين في الشرق الأدنى ، ومن سيطرة البندقية ، فكانت نتيجة هذا أن اهتدى فاسكو دي غاما البرتغالي في سنة ١٤٩٨ الى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فتحولت التجارة عن طريق البحر المتوسط والشرق العربي ، اذ أصبحت أوروبا متمكنة من الاتصال البحري المباشر بالهند وما يليها

وأدركت جمهورية البندقية الخطر المحيق بثروتها نتيجة لهذا التحول التجاري . ففي سنة ١٥٠٤ درس مجلس العشرة فيها مشروع فتح قناة في السويس بالاشتراك مع الغوري سلطان مصر ، وذلك بقصد منافسة الطريق الجديدة بطريق أقصر وأسهل ، ولكن البندقية عادت وحاولت القضاء على الاستعمار البرتغالي في الهند دفعة واحدة ، فحرضت السلطان الغوري المصري (١٥٠١ — ١٥١٦) على ارسال حملة الى المياه الهندية ، وأرسلت له الاخشاب اللازمة لبناء السفن في البحر الاحمر ، وعمالاً مهرة من البنادقة لانشاء السفن وجنوداً اشتركوا في الحملة نفسها . وقد كان نصيب هذه الحملة الانكسار اخيراً (في ١٥٠٩) وختمت هذه المعركة ، التي تعدُّ من المعارك الفاصلة فصلاً في تاريخ الشرق العربي التجاري

وكان الاتراك العثمانيون ، بعد احتلالهم القسطنطينية وتوغلهم في البلقان قد اتجهوا نحو سوريا ومصر فاحتلوا هذه البلاد (١٥١٧) في عهد السلطان سليم

وبضم بلاد الشرق العربي الى الدولة العثمانية انتقل مركزها السياسي الى استانبول ، لكن الموانىء والمدن السورية والمصرية بقيت لها قيمتها التجارية . فقد قال راهب اسباني زار الشرق العربي في أواسط هذا القرن (وفي طرابلس تجار بنادقة وفرنسيون لهم قناصلهم الخصوصيون كما نجد في القسطنطينية وحلب والاسكندرية والقاهرة) وقال في موضع آخر ان الغرباء لا ينقطع سيلهم عن بيروت

وفي القرن السادس عشر نلاحظ امرين على جانب من خطر الشأن فيما يتعلق بالعلاقات بين الشرق العربي واوربا . أما الاول فهو هذه المغامرات البحرية التي قام بها الاسطول العثماني تحت قيادة خير الدين بربروس والتي أدت مع التقدم العثماني في جنوب شرقي اوربا ، الى التحالف بين فرنسا والدولة العثمانية . أما الامر الثاني فهو دخول انكلترا حلبة المنافسة

التجارية والبحرية في الشرق . وقد وصف هكايوت تقدم الانكليز في البحر المتوسط في القرن السادس عشر بقوله (بين السنة ١٥١١ والسنة ١٥٣٤ كانت ترى السفن ذات السواري العالية الآتية من لندن ، في مياه صقلية وكريت وقبرص حتى وطرابلس وبيروت في سوريا) وبعد ذلك بقليل أخذت انكلترا تعين قناصلها في شواطىء البحر المتوسط الشرقية ومدن سوريا الداخلية مثل حلب

ولنعد الى الامر الاول . ان التحالف بين الدولة العثمانية وفرنسا كان ربحاً للثانية . ذلك ان السلطان سليمان كان يريد ان يضعف البندقية وجنوة ، فشجع الفرنسيين على الاتجار في الشرق ، ومنحهم في السنة ١٥٣٥ امتيازات خاصة — فصار لهم حرية الملاحة في المياه التركية والاتجار الحر لقاء عوائد طفيفة ، وحق تعيين قناصل دائمين للنظر في شؤون الرعايا الفرنسيين القضائية والتجارية ، وحماية الاماكن المقدسة في بيت المقدس ، والكاثوليك في بلاد الدولة العثمانية وصار على كل من يود الاتجار في بلاد الدولة العثمانية ان يفعل ذلك تحت حماية (العلم الفرنسي)

وفي أواخر القرن السادس عشر أخذت الموجة التي حملت الاتراك العثمانيين الى قلب اوربا الوسطى تتراجع ، فصدوا عن التوسع البري ، وانكسروا في معركة لبانتو البحرية ، وبينما كان الفرنسيون يستغلون الامتيازات التي منحت لهم ويحاولون زيادتها ، كانت انكلترا تعزز مقامها في الهند عن طريق الشركة الهندية الشرقية التي أنشئت سنة ١٦٠٠ ، وكان فاتحة نجاحها في الشرق العربي لما استولت في السنة ١٦٢٢ على هرمز في الخليج الفارسي ومنحت حق الاحتفاظ بسفينتين حربيتين في الخليج نفسه لحماية التجارة كما أنها بدأت محاولاتها في البحر الاحمر ، والى هذا الزمن يرجع اهتمامها بتنظيم البريد البري عبر الصحراء السورية بين الخليج الفارسي وحلب بطريق بغداد او البصرة . ومن حلب الى لندن عن طريق الموانىء السورية . ويروي مؤرخو بغداد ما يدل على وجود هؤلاء حتى في المدن الشرقية الداخلية . وقد كانت حلب الى أنها مركز تجاري ، مركزاً سياسيًّا قوي الأثر في حياة الشرق الأدنى فقد كان فيها في القرن السابع عشر جاليات بندقية ، وفرنسية ، وهولاندية ، وانكليزية وكانت التجارة الفرنسية تقدر بنحو ٤٠٠ الف جنيه في السنة . أما التجارة الانكليزية التي كانت حديثة العهد جدًّا فقد قدرت بنحو ١٥٠ الفاً من الجنيهات ، ولكن هذه القيمة زادت كثيراً في نهاية القرن السابع عشر ، إذ أصبحت ثلاثة أضعاف قيمة التجارة الفرنسية

وفي أواخر هذا القرن بدأت روسيا بقيادة بطرس الاكبر تعنى بشؤون الدولة العثمانية محاولة جر المغانم من التدخل في أمورها السياسية

وقد زاد اهتمام أوربا بالتجارة الهندية في القرن الثامن عشر وانتقلت العناية بها من أيدي الساسة الى أيدي التجار والجمهور ، الذي لم تلهه عنها احداث السياسة الأوربية ، وتعددت الشركات الهندية او التي تتاجر مع الهند خصوصاً في فرنسا وانكلترا ، واشتدت بينها المنافسة حتى ملكت على الناس تفكيرهم ، ولما خسرت فرنسا أملاكها في كندا ، واستقلت الولايات المتحدة عن بريطانيا ، انتقل النزاع السياسي ، والخصومة التجارية بين انكلترا وفرنسا الى الميدان الاسيوي. ومع ان فرنسا ردت على أعقابها في الهند في القرن الثامن عشر فقد أدركت ان في ميدان التجارة في الهند والشرق الاقصى متسعاً لها دون ان تكون لها أملاك في تلك الجهات . هذه المنافسة التجارية بين الدولتين هي التي حملت بريطانيا على ان تعنى بحرية البحار عناية فائقة، وبالسيطرة عليها، لتبقى طريق رأس الرجاء الصالح مفتوحة أمامها . وهذه المنافسة هي التي حملت فرنسا على محاولة شق طريق بحري بين البحر المتوسط والبحر الاحمر ، لتقضي على الطريق البحري الآخر . واتخذت هذه المنافسة ناحية انشائية من جهة النظار الانكليزية في العراق

فقد مرَّ بنا أن انكلترا انشأت قواعد في الخليج الفارسي . والآن فطنت الى مركزين قويين أنشأت فيهما جاليتين تشرفان على مصالحها ، الاولى في البصرة والثانية في بغداد . ومن المهم أن نلاحظ في هذا الصدد أن هذا النزاع التجاري القوي التفت اليه أصحاب المصالح والتجار والشركات دون الحكومتين الانكليزية والفرنسية ، بالرغم من الحاح هؤلاء على أصحاب الشأن ، كما يظهر من التقارير المودعة في دور السجلات الاوروبية . وقد كان ثمة دولة أخرى تحاول فرنسا القضاء على تجارتها الشرقية وهي هولندا ، كما توضح لنا كتابات لبنتز الى لويس الرابع عشر . وعلى كلٍ فان فرنسا قد قرّ رأيها منذ أيام لويس السادس عشر على أن تحتل مصر لأن احتلالها مصر هي الطريقة الوحيدة لحفظ تجارتها في البحر المتوسط وللسيطرة على البحر الأحمر وطريق الهند . يدلنا على ذلك إنها عنيت في سنة ١٧٧٧ بعمل خارطات لشواطىء مصر وسوريا ، ودرس الأماكن الصالحة لانزال الجند ، ومسح جهات السويس . واذا ذكرنا أن روسيا تحت رعاية بطرس الأكبر قد بدأت منذ أوائل القرن الثامن عشر تهتم بشؤون الدولة العثمانية والتقرب اليها ، أدركنا معنى هذه الرسالة التي كتبها السفير الفرنسي في الآستانة في سنة ١٧٨١ الى حكومته.قال « ان روسيا قد صارت على مقربة من القسطنطينية وربما استطاعت أن تقضي على تركيا قبل أن تستطيع دولة ما مساعدتها، فعلى فرنسا أن تسرع في احتلال مصر وهو لا يكلف فرنسا صعوبة ، لأن مصر خالية من أي تحصين ما ، ولأنهُ لا يوجد فيها من الجيوش أكثر من خمسة أو ستة آلاف مملوك » . وفعلاً صممت الحكومة الفرنسية على تنفيذ هذه السياسة

خاتمة البحث في :

برنامج مصر

الصحي في ربع القرن المقبل (1)

للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك
استاذ علم الطفيليات بكلية الطب

﴿ التأمين ضد البطالة ﴾ هذا النوع من التأمين يطبق في الاوساط الصناعية في اوربا بواسطة مكاتب تسمى (مكاتب العمل) فيتقدم اليها كل عامل لم يجد عملاً ويبلغها اصحاب الاعمال عن حاجتهم الى العمال . فيتم التوزيع . ومن يتبقى من العاطلين تقرر لهم اعانة البطالة من اعتماد مخصص لذلك يجمع من أجر كل عامل مشتغل وكل صاحب عمل ومن الحكومة في مبالغ مقررة

وصعوبة تطبيق هذا النظام على عمال الزراعة يرجع الى أن العمل الزراعي ليس مستمراً على وتيرة واحدة في جميع أيام السنة . وكثيرون من المزارعين لا يستخدمون عمالاً بل يتعاون أفراد العائلة الواحدة في العمل ، ويزامل بعض الزراع جيرانهم فيكون عاملاً عند جاره نظير أن يعمل جاره عنده يوماً مقابل ذلك

ولكن هذه الصعوبات يمكن التغلب عليها. فمواعيد الزراعة والحصاد لا تقع كلها في وقت واحد في انحاء المملكة المصرية نظراً لاختلاف حالة الجو . ولذلك يرحل العمال من منطقة الى أخرى للعمل في فصول معينة . ويمكن استخدام العمال الزراعيين في مواسم البطالة الزراعية في صناعات زراعية أو صناعات منزلية . واذا أحسن تنظيمها زادت في دخل العمال وهذا ما بدأت تعمله وزارة الشئون الاجتماعية في القرى . فتربية دود القز وتربية الدجاج والنسيج والغزل وعمل الاقفاط (الاسبتة) . والصناعات الزراعية اذا شجعت في القرية كانت مصدر عمل مربح في فصول البطالة الزراعية اذا احسن تنسيقها . وكذلك يجب ان يلاحظ في أجر العامل الزراعي مدة تعطيله حتى يكفيه ما يكسبهُ ايام عمله لاعاشته في اوقات البطالة

وقد يظن لاول وهلة ان ذلك سيرهق الملاّك ويزيد في تكاليف الانتاج الزراعي والحقيقة ان ايراد الارض الزراعية ليس موزعاً توزيعاً عادلاً بين رأس المال والزراع والعمال . ففائدة رأس المال في مصر مرتفعة جداً ، خصوصاً الاموال المضمونة بارض زراعية وقد تدخلت

---

(1) راجع الجانب الاول في مقتطف يوليو ١٩٤٢ صفحة ١١٧

الحكومة اخيراً تخفضها من ٩ الى ٨ في المائة مع ان مثل هـذه الاموال المضمونة بأرض زراعية في اوروبا لا تزيد فائدتها عن ٢/١ ٢ في المائة الى ٣ في المائة وايراد الارض الزراعية من الايجار يجب ان لا يتجاوز ٥ في المائة لعدم تعرض الملاك لخطر ضياع رؤوس اموالهم كما في الصناعة او التجارة . فهناك معركة قائمة في مصر بين أصحاب رؤوس الأموال كالبنوك العقارية والملاك الزراعيين وبين عمال الزراعة للاستئثار بمعظم الربح الناتج من الارض. وقد ذهب ضحية هذا التنازع أضعف الثلاثة وهو العامل الزراعي وهذا يدعو الى تدخل المشرع بتخفيض سعر الفائدة الى ٥ في المائة على الاكثر وتحديد الايجار تحديداً يتمشى مع الضرائب ورفع أجر العامل وتأمينه ضد البطالة وهذا الموضوع متشعب وخطير لا يمكن الدخول في تفاصيله في مثل هذه المحاضرة

﴿ اعانة الفقراء غير القادرين على العمل ومعاش الشيخوخة ﴾ حان الوقت لتدخـل المشرع في هذا الامر في مصر . فهنـاك مبالغ وافرة من الاموال تصرف في هذا السبيل أهمها ايراد الاوقاف الخيرية وما يصرف على الملاجىء الحكومية والاهلية والمستشفيات المجانية ومطاعم الشعب والصدقات التي جمعها جيش محترفي الشحاذة وما يوضع في صناديق الاولياء وايراد الحفلات الخيرية وجمعيات الاحسان وما يخرجهُ عدد كبير من المسلمين زكاة عن أموالهم بحسب تعاليم الاسلام . كل هذه مبالغ طائلة اذ يمكن الاستفادة منها لو أحسن تنظيمها ، فكثير منها يذهب الى غير من يستحقه . وتدر الشحاذة في مصر في بعض الاحيان ما لا يدره العمل . وأول خطوة في هذا السبيل ان يكون مع كل مصري تذكرة لاثبات الشخصية حتى يمكن التثبت في كل وقت من حالتهِ العلنية وهذه التذكرة ذات شأن في اعمال الأمن العام والتأمين العلاجي والمراقبة الصحية وهي متبعة في جميع البلدان الراقية

والحقيقة ان قليلاً جدًّا من المصريين يموتون نتيجة مباشرة لفقرهم . فهم يتحايلون على العيش بشتى الطرق . بالشحاذة والسرقة والنصب والاعتماد على الاقارب وتهديد الاغنياء . ويلزم الدين الاسلامي الاقارب باعالة فقيرهم ولكن طريقة تنفيذ ذلك بالالتجاء الى المحاكم الشرعية تستدعي اجراءات طويلة لا يتحملها الفقير . وتنظيم كل ذلك لا يستدعي عبئاً اضافيًّا كبيراً فتقوم كل قرية او دائرة صحية محلية بتحمل نفقات اعانة الفقراء وغير القادرين على العمل وكبار السن ودفن من يموت منهم على حساب الدولة

﴿ التأمين العلاجي لكل شخص يقف دخله عن رقم معين ﴾ سبق ان وفينا هـذا الموضوع حقه في المجلة الطبية المصرية عدد شهر مارس سنة ١٩٣٤ (١) وهو ينفذ الآن مع

(١) راجع المقتطف (مايو ١٩٣٤ صفحة ٥٧١) للدكتور كامل هلال

بعض التعديل في مشروع المراكز الاجتماعية التي تنشئها وزارة الشئون الاجتماعية وسننظر التجربة العملية قيمة اقامة الطبيب في وسط قروي تعداده ١٠٫٠٠٠ للعناية بهم طبيًّا والى حدٍّ ما صحيًّا وأثر ذلك في الصحة وتخفيف الضغط على المستشفيات

﴿ كلمة نهائية ﴾ غاية ما نرجوه ان توفق وزارة الصحة المصرية في المستقبل القريب الى اداء رسالتها وهي تحسين صحة الافراد والمجموع بتخلصها تدريجيًّا من التخمة الادارية التي تشكو منها الآن بالتعيينات والترقيات والعلاوات وخصوصاً التنقلات وما يتبع ذلك من الوساطات والشفاعات واعمال المخازن والاجازات والعقابات وهي تستغرق ما يزيد على ٩٠ في المائة من وقت الرجال الفنيين وبمرور الايام والسنين تفقدهم كفايتهم الفنية وتحد من افق تفكيرهم فيما عدا مثل هذه الاعمال الادارية. وان موازنة بسيطة بين تنظيم الادارة الصحية المصرية وتنظيم الادارة الصحية البريطانية توضح ذلك . فالادارة المصرية الصحية تشمل ١٢٠٠ طبيب ومن يتبعهم من الموظفين الآخرين وتستغرق العناية بشئونهم الادارية اكثر وقت الرؤساء بينما تشمل الادارة الصحية البريطانية ٨٣ طبيباً فقط متفرقين للغرض الاسمى من الادارة الصحية وهي الاعمال الفنيــة وتكاد تتلاشى الاعمال الادارية . وتدير الهيئــات المحليــة الآلة الصحية كل في منطقتها وعند ما يزول هذا العبء الاداري الهائل عن عاتق الرؤساء يرجى ان ينفرغوا للاعمال الفنية التي ترمي الى مقاومة الامراض لا الى اسعافها ، كما هو الحال الآن. فالامراض المتوطنة هي اكبر عقبة في سبيل تقدم مصر بما تحدثهُ من انحطاط القوى البدنية والعقلية في أكثرية الشعب ولا يصح ان نقف في محاربتها عند تيسير العلاج على نطاق واسع كما هو الحال الآن ولا الى قتل القواقع فقط بل يجب ان نعمد الى مصدر الداء وهو نظام الري في مصر الذي يجب تعديله ولا يكاد يكون هناك تعاون ما، بين رجال الري والرجال الصحيين في تلافي الضرر الناشىء فالواجب تعديل نظام الري بشكل لا يفقده شيئاً من منزلته وفي الوقت ذاته يقلل من شأنه كأداة لنشر الامراض المتوطنة في مصر . وهذا مثل واحد من كثير

ونرجو ان يكون الاشراف الفني للوزارة أكبر أثراً في المشروعات الصحية الحيوية التي تتولاها الآن مجالس المديريات والمجالس البلدية والمحلية كاعمال ترشيح المياه والتخلص من القمامة وأعمال المجاري التي لا يكاد ان يكون هناك اشراف فني صحي ما عليها بل متروك أمرها لجماعة المهندسين الذين لا شك في كفاءتهم في عملهم الخاص ولكنهم بحكم اختصاصهم لا يقدّرون الوجهة الصحية قدرها مع أنها هي المقصودة بالفعل من هذه الاعمال

بمثل هذا النظام الذي تعَـدُّ هذه المحاضرة نظرة عامة فيهِ نرجو لمصر من التقدم الى ما يليق بماضيها ومستقبلها على يد أبنائها المخلصين

رأي في :

تنازع الفناء

وفناء الاصلح

لنقولا الحداد

يريد الاجتماعيون الدروينيون ان يطبقوا سنة «تنازع البقاء» على الانسان الاجتماعي، على الرغم من ان الاجتماع والتنازع على العموم ضدان لا يجتمعان. وانما الاجتماع والتضامن يتفقان. او ان التضامن اساس الاجتماع

الانسان حتى اليوم اجتماعي غير تام الاجتماعية. لم يزل «منازعياً». ففي المجتمع الواحد او الجماعة او الامة الواحدة لا يزال الافراد يتنازعون كثيراً من الامور ويختصمون لاجلها، والا لما كان لزوم للقضاء ولقوة الشرطة. ومع ذلك فالقضاء والشرطة لا يمنعان التنازع منعاً باتاً ولا سيما في الشؤون الاقتصادية. بل ان القضاء القانوني يؤيد على العموم طمع القوي بالضعيف

النظام الاجتماعي التام يقضي بان يكون للحق السلطان الاعلى، وان تكون القوة خادمة له. ولكن النظام الحالي لا يزال يضع القوة فوق الحق، لانهُ بحسب هذا النظام يستغل المتمول جنى العامل ويتمتع الثري منتهى التمتع على حساب الفقير المتقشف. والقانون — اذا استثنينا بعض التحوُّل الحديث — يؤيد هذا الاستغلال ويحميه بحجة حرية المعاملة الاقتصادية

وحاصل ما تقدم ان النظام الاجتماعي لا يزال ضعيفاً أو بالاحرى ناقصاً. على أن الاجتماعيين الدروينيين يعدُّون هذا النقص طبيعيّاً لا مندوحة عنه. ولا بد من بقائه لأن «تنازع البقاء» سنة طبيعية. ولكنهم لا يستطيعون ان يعللوا التعاون والتضامن الاجتماعيين الظاهرين في كثير من الاحوال الاجتماعية لما فيها من مناقضة سنة «تنازع البقاء»

والحقيقة ان النظام الاجتماعي المبني على التعاون والتضامن والمناقض لسنة التنازع الدروينية سائر باطراد في سبيلهِ الى ان يبلغ يوماً من الايام حد التمام، ويتقلص من امامهِ ظل التنازع تقلصاً تامّاً فيصبح الناس كلهم جماعة واحدة متعاونة في الحياة كتعاون الخليات الحيوية في جسم الحي من غير تنازع فيما بينها. ذلك لان ناموس التطور لا يقف عند حد متى اتخذ نسقاً

ذلك هو الامر بين الافراد في جماعة او في امة واحدة. وأما الجماعات بعضها بازاء بعض فلم تزل خاضعة لسنة تنازع البقاء. على ان العقل الانساني الذي ادرك ان ناموس التضامن

(القائم بين كثير من الحيوانات كما هو معلوم) أضمن للبقاء ، يفهم ان التضامن الاجتماعي بين الافراد والجماعات أصلح لبقاء النوع الانساني من ناموس التنازع

أما في الجماعة الواحدة فقد وضع نظام القضاء لتأييد هذا التضامن الى حد ما ، كما تقدم القول. ولسوف يؤيده كلَّ التأييد. وبهذا تتوافر سعادة البشر وبه تسلم الجماعة من الفناء

وأما في الجماعات فالمفروض ان النظام الحربي هو الذي يكفل البقاء للجانب الاقوى بحسب سنة تنازع البقاء . وهذا ما يعنيه الآن حزب الدروينيين الذين يريدون ان يطبقوا تطور المجتمع الانساني على وَفْق سنة التطور الدرويني. فلنرَ الآن هل الحرب (او تنازع الجماعات) تفضي الى بقاء الاصلح او الانسب كما تقول سنّة داروين ؟

لماذا هذه الحرب ؟

لماذا هذه الحرب ؟ ولماذا الحرب التي سبقتها ؟ ولماذا كل حرب في التاريخ ؟

يجاوب هتلر عن السؤال الاول في ما يجاوب : « نريد استرداد مستعمراتنا لاننا لا نستطيع ان نعيش بدونها ، وبلادنا ضاقت بنا » واذا سألناه : كانت مستعمراتكم لكم لم ينازعكم اياها منازع قبل الحرب الماضية المسماة بالحرب الكبرى . فلماذا ابتغيتم الحرب حينئذ على الرغم من سعي الدول الاخرى ان تمتنعوا عنها ؟ ماذا كان غرضكم منها ؟

لا يستطيع هتلر ان يجاوب عن هذا السؤال لان فمه مكموم دون الحقيقة . والحقيقة هي انه يريد ان تلتهم المانيا كل دول اوربا وكل مستعمراتها وتستعبدها وتستغلها لنفسها ، لأن نيتشي علّم الالمان نظرية السوبرمان . وغليوم قرَّر في اذهانهم ان الالماني هو السوبرمان

هذه هي الحقيقة التي نوّه بها هتلر واعوانه تنويهاً غير مباشر . واذا خلوت بهِ او بمن يعبر عن الروح النازية وطلبت منهُ ان يصدقك الخبر اليقين قال لك « ان هذه الحرب امر طبيعي ، هي سنة تنازع البقاء وبقاء الاصلح . فاذا انتصرنا كنا أقوى الامم طرًّا وأقوى الامم هي أصلحها » . واذا سألته : « الاصلح لمن ؟ او الاصلح لماذا ؟ » فماذا يجيب ؟

لا أدري ماذا يجيب . لعلهُ يجيب « إن نظام النازي هو الاصلح للعالم كله . » ولكن رجال العالم كلهِ يعقلون ويفهمون كما يفهم النازيون . فهل يؤمنون على هذا القول ؟

هذه هي المسألة التي فيها نظر ، والتي لا يحلها الاّ الحرب. والاّ لانحلت باقتناع العالم كله بان النازية بركة من الله للجنس البشري — ويسلم العالم بها من غير حرب

دعنا من تفسير « الاصلح » ولنعد الى تفسير « تنازع البقاء » أصلح او غير أصلح . أحقيقي ان اقوى الأمم في ساحة التنازع هي الأمة التي تبقى ؟ هذا هو بيت القصيد . فلنرَ نعود الى التاريخ الطبيعي : اين ذهبت تلك الحيوانات الضخمة التي كان الواحد منها

زن مئات الأطنان كالدينوسورس ولم يبقَ منها الاَّ آثارها الجيولوجية ؟ كيف انقرضت وبقي بعدها الفيل والأسد والنمر والذئب والثور والجمل والحمار والجواد الخ

ألا ترى الآن ان الحيوانات الضارية كالأسد والنمر والدب الخ اخذت تنقرض ؟ أوَلا ترى ايضاً ان اشباه الانسان — الاوران اوتان والشمبنزي والغورلا — شرعت تبيد أيضاً وبقيت بعض الحيوانات والحشرات والمكروبات ، وبقي الانسان ؟ وجميع هذه أضعف من أشباه الانسان ومن الوحوش الضارية ؟

دعنا من التاريخ الطبيعي ولنلقِ نظرة عامة على تاريخ الأمم والشعوب . كانت الأمة اليونانية امة حربية عظيمة في عصرها فأفنتها الحروب الى ان سقطت تحت سلطان مقدونيا وكانت الامبراطورية الرومانية اعظم دولة حربية وأقوى الدول في زمانها . وكانت جديرة بالبقاء ، اذا كان البقاء نصيب الأقوى . فما بقيت بل بادت وبقيت بعدها الامم الصغيرة التي كانت هي تنازعها بقاءها . والتاريخ حافل بالشواهد على هذا

العالم تغير في كل امر . وأساليب الحرب تغيرت تغيراً عظيماً كما هو معلوم . فلنرَ هل هذه الاساليب الحربيــة الجديدة تكفل البقــاء لأقوى الأمم ؟ (لأصلح الأمم اذا كانت الصلاحية في القوة)

السباق في التسلح

بعد الحرب الأخيرة المساة بالكبرى جرد الحلفاء ألمانيا من سلاحها لكيلا يضطروا ان يرهقوا الامم بالتسليح لأجل اتقاء عدوانها ، وعقدوا المؤتمرات لتقرير خفض السلاح والكف عن التسلح . وربمــا كانت انكلترا أصدق الدول في العمل بمقتضى القرارات . ولكن ما لبثت المانيا ان شرعت تتسلح سرًّا . وما خطر للحلفاء ان يكون تسلحها السري هائلاً كما ظهر بعدئذ

ومتى جعل جارك يتسلح أوجست منه شرًّا لأنك لا تفهم لتسلحه سبباً او قصداً الاَّ انَّهُ يبتغي الهجوم عليك . واذا حلف لك الف يمين انهُ لا يقصد بالتسلح الاَّ الدفاع عن نفسه فلا تصدقه لأنك تعلم انهُ ليس لهُ جار غيرك . وأنت لا تنوي الهجوم عليهِ وليس في تصرفك ما يدل على هذه النية . فتعتقد انهُ يقصد الهجوم عليك لا الدفاع ضدك . فلا ترى بدًّا من ان تتسلح بحجة الدفاع عن النفس . وهو مثلك معذور بان لا يصدق ان تسلحك للدفاع فقط لا للهجوم . وكذلك تتنافسان في التسلح الى ما لانهاية له وكل منكما يقصد الدفاع او يدعي انهُ ينويه حتى اذا توسم احدكما انهُ صار اقوى من الآخر هجم عليهِ على الرغم من انهُ ينوي الدفاع او انهُ يزعمهُ زعماً ، لأن السياسة الحربية هي ان الضربة لمن سبق ، والهجوم الاسبق

هو خير خطط الدفاع . فالاستعداد للحرب اذن آئل الى شبوب الحرب على كل حال سواءٌ أللدفاع كان ام للهجوم . الحرب وقعت فماذا تكون نتيجتها ? هل بقاء الخصم الاقوى او الأصلح ?

لا والله . ستكون النتيجة فناء الاثنين جميعاً . كيف ? فلنرَ

كانت ميزانية الحرب عند انكلترا في كل من السنتين الماضيتين نحو ٣٦٠٠ مليون جنيه أو تزيد . وميزانية الولايات المتحدة الأميركية في هذا العام ٣٦ الف مليون دولار والغالب انها تبلغ ٤٢٠٠ مليون. ليس في الامكان الآن احصاء نفقات الدول الحربية بالجنيهات والدولارات. وانما يمكن القول بالاجمال ان معظم مجهودات الالمان والطليان في العشرين السنة الماضية كانت منصرفة الى التأهب الحربي . فكان الشعب هناك وهنالك يشتغل ساعات اكثر من ساعات العمل المقررة في اليوم أو الاسبوع ولكنهُ لم يكن يعيش مترفّهاً على قدر ما يشتغل . فكانت درجة المعيشة منحطة ودرجة الجهاد في العمل مرتفعة في كل مدة زعامة هتلر وزعامة موسوليني . والراجح ان الامر كان كذلك في اليابان . وربما كان ما يشابهُ ذلك في روسيا وبولندا وتشكوسلوفاكيا منذ ظهر نشاط المانيا وايطاليا في التسلح . وكان شيءٌ من ذلك في سكنديناڤيا والبلقان

فبالاجمال يمكن القول إن اوربا عموماً قضت السنوات العشر الاخيرة في الاستعدادات الحربية الهائلة وكان ناسها يكدون ويكدحون بكل ما لهم من قوة في صنع الآلات والادوات التي يقتلون بها بعضهم بعضاً ويدمرون بها معاملهم وصروحهم وحصونهم وسفنهم وطياراتهم وكل ما يصنعونه ويبتنونه وكل ما ولدوه من غلمان . ولو كان في الوسع احصاءُ قيمة تلك المجهودات الآن لبلغت مئات الوف الملايين من الجنيهات . ويمكن القول إن تلك المجهودات كانت ضعفي مجهودات الناس في مدة السلم . وكان تمتع الناس نصف تمتعهم في مدة السلم. اي ان الناس كانوا ينفقون على انفسهم ربع مجهودهم والثلاثة الارباع الأخرى موجهة الى الحرب : الى الهلاك والدمار والفناء . ولو انفقوا جميع ما جنوه على انفسهم لعاشوا جميعاً عيشة اليسر والرخاء

فهل عندك لفظة لوصف هذا التصرف افضل من لفظة (جنون)

هذا فيما مضى قبل الحرب وأما في أثناء هذه الحرب فقد تضاعف الجهاد حتى انه لم يعد الفرد يملك وقته او قوته او حريته في الانتاج بل هو مضطر ان يكون جسداً وعقلاً وروحاً اداة في نظام التسلّح كما يكون الجندي آلة في نظام الجيش . وسيستمر هذا النشاط في التسلح الى ان تستنفد القوى والمواد اللازمة لهُ . ولذلك لم يعد في الامكان التحقيق اي الجانبين أرجح سلاحاً وأكثر استعداداً وأقوى قتالاً . وأصبح النصر اخيراً معقوداً ليس لأوفر الجانبين عتاداً وجنوداً فقط بل للجانب الذي يمتاز باعتبارات اخرى جغرافية واجتماعية وسياسية

وروحية وأدبية الخ . ايضاً . وهيهات ان ينعقد النصر لاحد الفريقين قبل ان تنمحق هذه القوات الهائلة المجتمعة محقاً تامًّا وتذهب تلك المجهودات العظيمة في هذه السنين الطويلة هباءً في الهواء وفي الغبراء وفي لجات الماء . وماذا يكون صافي الحساب حينئذ ؟

صافي الحساب

لو عمل هتلر حسابه لوجد انه أنفق في هذه الحرب مائة ضعف ثمن المستعمرات التي يحارب لأجل استردادها . ومع ذلك قد لا يستطيع استردادها لا بحرب ولا بسلم . ولا يستطيع ان يملك الممالك الاوربية التي احتلها مهما تكن نهاية الحرب . بل ستبقى بولندا للبولنديين وفرنسا للفرنسيين وبلجيكا للبلجيكيين وهولندا للهولنديين الخ . وهم في بلادهم أحرار . ويمكن ان تكون المستعمرات الألمانية وغير الألمانية لسكانها . ولا تبقى مستعمرات لواحدة من الدول . ولو اقتصر الأمر على ضياع تلك المجهودات الحربية في الهواء والعراء والماء فقط لقلنا « جنون وكان . فلا يعاد » وقد يعوض هذا الخسران مع الزمان . ولكن الارواح ؟ كم مليون تلتهم الحرب منها ؟

اذا طالت الحرب فالارجح انه لا يبقى من شبان هذا الجيل الاّ النزر القليل . ومن الكهول والشيوخ الضعيف والعليل . واذا حمي وطيسها واشتد اوارها وغص جلد السماء بدخانها ولهيب نارها فلا يبقى من معالم المدنية الحالية الاّ آثارها . وأهل العلم الذين يُعَدّون بناة المدنية ينقرضون مع المنقرضين . وقد شرع هتلر باضطهادهم ومحقهم منذ بايعهُ حمقى النازيين صولجان الحكم . وقد شاهدنا في هذه السنوات علماء واساتذة (بروفسور) جنوداً بسيطين يحملون على عواتقهم الأثقال وكانوا حريين بان يحمَلوا على الكواهل والرؤوس . وفي الحرب الماضية قتل شاب علاّمة عظيم في معركة غاليبولي هو موزلي مكتشف الرقم الذرّي . والله اعلم كم قتل غيره من ذوي الادمغة المفكرة التي كانت تشتغل في بناء المدنية . فاذا طالت الحرب ومحقت رجال هذا الجيل فقد تنقرض المدنية الحالية برمتها ولا يبقى من اهل العلم من يبني المدنية الجديدة . فماذا تغنم اذاً الشرذمة المنتصرة ؟ أطلالاً بالية ورسوماً دارسة ؟

أهذا هو « بقاء الأصلح » الذي تتنازعهُ الأمم المحاربة ؟ ام هو « الفناء » الذي تطمح اليهِ الدول المتنافسة في التسلح والغائصة في دماء التقتيل والتدمير ؟

لا لا . ما كان تسلح القوي واندفاعه في القتال ليضمن له البقاء مهما يستقوِ ويتكبر ويستفحل ويتجبر . وما عاقبة القتال الاّ الفناء والاضمحلال على كل حال . ولا يضمن البقاء للجنس البشري الاّ السلم . فاذا لم توفق الأمم الى توطيد السلم على قاعدة اتحادها العام فالمدنية الحالية منقرضة لا محالة في هذه الحرب او في حرب بعدها او بعدها او بعدها . والسلام على من اتبع الهدى

« توتي »[1] في الصباح

للمرحوم التيجاني يوسف بشير

يا درة حفها النيـــل واحتواها البر
صحا الدجى وتغشا ك في الأسرَّة فجر
وصاح بين الربى الغـــر عبقريٌّ أغر
وطاف حولك ركب من الـكراكي غر
وراح ينفض عينيـــه من بني الأيك حر
فماج بالأيك عش وقام في العش دير
كم ذا تمازج فن على يديك وسحر
يخور ثور وتثغي شاة وتنهق حمر
والبهم تمرح والزر ع مونق مخضر
تجاوب اللحن والطحـــن والثغاء المسر
وهب صوت النواعـــير وهو في الشجو مر
إن الجرار وقد ضا ق بالقليب المقر
تكسرت وهي تهوي فما تلاءم كسر
فتلك معصوبة الرأ س كم تني وتخر
وتلك مرضى وهاتيــك للخواطر قبر

***

---

(١) قرية في السودان قرب الخرطوم على النيل

وظلّ قرنك يا شمس آنذاك يذر
فكل غصن مصابيح من ندى يُستدر
ونوّر الطلّ واحمرّ في الثرى المخضر
وذاب في الرمل او ماج في الترائب تبر
تُرجّل الريح ما انهال من نقا او تَزُرّ
رملاء يبرق درّ منها ويبهر ذر
والفلك في جانبيها كالدهر ما تستقر
هذا شراع مكر وذا شراع مفر
يطوى وينشر والريح من هناك تمر
وزورق يتهادى وزورق يستحر
يرسي ويقلع والشط هادىء مستقر
وفي الضفاف أوزّ دكن الجوانح كثر
وربّ فنواء للعصم والأنوق مقر
أوفى على النيل فرع منها وأشرف جذر
يقلها الدهرَ ، عرفا ن ، مستطيل وشبر
يكاد يلفظها الشط وهي شمطاء بكر
والنيل يقدم مدّ منهُ ويجفل جزر
وكم تقادم عهد وكم تصرّم دهر
وتلك يأوي اليها في الوقدة المستحر

التكافل في النبات

وأثره في الزراعة[1]

« يغلب ان يعيش النبات مستقلاً عن غيره من الكائنات الحية معتمداً على نفسه في تجهيز غذائه . ولكنهُ في بعض الاحيان يشترك في المعيشة مع كائن آخر نباتاً كان او حيواناً ، وتختلف قوة الرابطة بين الشريكين ، كما تتباين طبيعتها ، فقد لا يتيسر لنبات ما النموّ الاّ اذا وُجد ملازماً لنوعٍ آخر . فصدأ القمح وهو نبات فطري ، لا يعيش الاّ على القمح . والهالوك الفول لا ينمو الاّ اذا اتصل بجذور الفول . فالرابطة متينة ، ولكن يظفر الصدأ والهالوك بالغنم ويتحمل القمح والفول الغرم . وهذه الظاهرة تسمّى « بالتطفل » . فالطفيلي يستمدّ غذاءه من عائله ، ويعتمد عليه بينما العائل في غنى عن شريكه وهو أسعد حالاً اذا انفصمت أواصر الرابطة بينهما

« وهناك حالات تكون الرابطة فيها وثيقة بين الشريكين ، وعلاقتهما مرضية ، اذا سدَّ كلٌّ منهما حاجة الآخر ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، ويتبادلان المنفعة لصالحهما ، فيكفل كل منهما الآخر ، وهذه الظاهرة في الكائنات الحية تسمى (بالتكافل) »

وقد يكون التكافل بين نبات وحيوان او بين نباتين غير زهريين ، او بين نبات مزهر وآخر غير مزهر ، او بين فطر ونبات غير مزهر . وقد نقلنا من المحاضرة فيما يلي مثلاً على التكافل بين نبات وحيوان ، ومثلاً على التكافل بين نبات مزهر وآخر غير مزهر

التكافل بين النبات والحيوان

توجد دودة صغيرة تسمى Convoluta roscoffensus من الديدان المفلطحة تعيش في جماعات قرب شواطىء بعض البحار ، وهي هلامية القوام ، تغطي جسمها أهداب دقيقة تعينها على السباحة ، وفي أسفلها فم يتصل بمرىء قصير يؤدي الى الانسجة الداخلية وتظهر في جسمها خلايا خضر مرصوصة رصّاً منتظماً ، حتى ان الناظر اليها يلتبس أمرها عليه ويحسبها من النباتات البحرية

---

(١) ملخص من محاضرة الاستاذ يونس سالم ثابت (كلية العلوم) في مؤتمر المجمع المصري للثقافة العلمية

تخرج اليرقة من البيضة وهي عديمة اللون ، لاشية فيها ، وبعد يوم او يومين يبتدىء لونها في الاخضرار ، وتزداد الخضرة كلما نمت وكبر حجمها ، وتحتفظ الدودة بهذا اللون حتى أواخر أيامها

يتغذى الحيوان في أطواره الاولى على الاجسام الصلبة ، حيث يلتهمها بشرهٍ زائد ، فاذا اكتمل نموه كف عن الغذاء الصلب ، وعاش على تلك الصورة فترة من الزمن ، حتى اذا امتد به العمر انقلب على الخلايا الخضر فيجهز عليها ، ثم يلقى حتفه

أما مصدر هذه الخلايا الخضر فهو البحر ، اذ توجد كائنات حية بحرية ، صغيرة الحجم عديمة اللون غالباً ، يحاط كل منها بجدار رقيق ، ويحمل في مقدمة جسمه أربعة اهداب دقيقة يسبح بها في الماء . وتقطن أفواج من تلك الكائنات بين حبيبات الرمل حيث يودع الدود بيضه . وكثيراً ما تشاهد هذه الكائنات ملتصقة بأحقاق بيض الدود . وعندما تخرج اليرقة من البيضة تبتدىء في تناول غذائها الصلب وتبتلع واحداً من هذه الكائنات فلا يهضم ، بل يستقر داخل جسم الدودة . ويفقد أهدابه وجداره . ويكبر حجمه ويكرر انقسامه فيتضاعف عدده . ويخضر لونه . فتتكوَّن خلايا خضر مرصوصة جنباً الى جنب . لا تفصلها جدر خلوية . كل منها عبارة عن قطعة عارية من البروتوبلازم مطمورة فيها بلاستيدة خضراء ونواة . وقد ظهر ان هذه الكائنات ذات اصل نباتي فهي قريبة الشبه بالطحلب المسمى Chlamydomonas وهي تتبع عائلته . وتقرب جدًّا من Cuttleria

ويقوم الطحلب الاخضر المستقر في الدودة بتجهيز غذائه الكربوني بنفسه ، شأنه في ذلك شأن باقي النباتات الخضر ، وغالباً ما يجهز أكثر من حاجته ، فيختزن الزائد في جسمه نشاءً او زيتاً . ولتغذية الدودة أربعة أطوار

١ — الطور الاول قبل الاصابة بالطحلب ، وتتغذى فيه الدودة بمواد صلبة من مصدر حيواني غالباً — ٢ : الطور الثاني بعد الاصابة بالطحلب ، وتتغذى فيه بمواد صلبة ، وبما يجهزه النبات ويفيض عن حاجته ويؤخذ عادة على هيئة سائلة — ٣ : الطور الثالث في الحيوان البالغ ، ويتغذى فيهِ بما يستمده من النبات فقط — ٤ : الطور الرابع في الحيوان المسن ، ويلتهم فيهِ الخلايا الخضر ، حتى اذا أتى عليها أصابهُ الردى

ويمكن عدُّ الاطوار الثلاثة الاخيرة أدواراً مختلفة في التطفل على الطحلب

ومن غريب أمر هذه الخلايا الخضر أنها اذا لم توجد في الحيوان ، وتتكاثر داخل جسمه ، وقف نموه بتاتاً وهلك ، فهو بعمله هذا يقطع اليد التي تغذيه

قد يقال ان العبء واقع على النبات ، فهو يقوم بإمداد الحيوان بما يدخره أولاً ، ثم

يقدم نفسه قرباناً لشريكه أخيراً ، فهو يطعم ولا يطعَم ، فما الذي يجنيه من هذه المصاحبة ؟

يحتوي ماء البحر على نسبة ضئيلة من الآزوت (٢ في المليون) ولذلك تفتقر النباتات البحرية الى المادة الآزوتية ، ولما كانت الدودة التي نحن بصددها لا يتكوّن بها جهاز خاص باخراج الفضلات التي تنشأ أثناء نشاطها الحيوي كالحمض البوليك والبولينا مثلاً ، ثم إن مثل هذه المواد الآزوتية من أنفع الأغذية للنبات ، فان الطحلب يمتصها ، فيحل مشكلة تموينه الآزوتي ، كما أنهُ بعمله هذا يساعد الحيوان على التخلص من فضلاته ، التي اذا تراكمت في جسمه ولم تطرد خارجه أودت بحياته

وفضلاً عن ذلك فقد ثبت ان أحقاق البيض التي سبقت الاشارة اليها تفرز مادة كيمائية خاصة ، تؤثر في الطحلب السابح في البحر ، فينجذب الى تلك الاحقاق ، ويلتصق بها ، فيجد فيها معيناً غنيًّا من المواد الآزوتية ، فيكبر حجمه ، ويتضاعف عدده

ويعزى فقد اللون الأخضر في الطحلب إلى فقر الغذاء الآزوتي . ولذلك عند ما يستقر الطحلب في الحيوان يخضرُّ لونهُ

وقد وجدت أفراد من هذا الطحلب السابح تتكوّن بها المادة الخضراء . وتعيش حرة طليقة في ماء البحر بقرب سطح الماء حيث يتوفر الضوء . فاذا فرض ولم تبتلع اليرقة واحداً من الطحالب التي لا لون لها والتي توجد بكثرة تحت سطح الرمال (وهذا نادر الحصول جدًّا) فانهُ عندما ترتفع اليرقة عن الرمل متجهة نحو سطح الماء ، تقابل هذه الأفراد الخضر ، فتلتهم إحداها فيقوم بنفس العمل الذي يؤديه أخوه . وبذلك تضمن الدودة وجود النبات داخل جسمها

وإذا قورن طحلب هذه الدودة بنظائره من الطحالب الخضر التي تعيش مستقلة عن غيرها ظهر ان الأول بمجرد استقراره في الحيوان ، يفقد أهدابه التي يسبح بها وجداره الخلوي الذي يحفظه ويقيه . ويركن إلى عيشة مترفة . معتمداً في غذائه الآزوتي على فضلات صاحبه. ويفقد استقلاله إلى الابد . لانهُ أضاع معدّاته من أهداب وجدار . فاذا فصل بينه وبين شريكه ، وأُخلي سبيله مات جوعاً . ويركن الحيوان إلى الطحلب في بعض غذائهِ الكربوني. وفي تخلصه من فضلاته . ويعزى سبب موت الحيوان إلى تراكم الفضلات في جسمه بعد اجهازه على الطحلب . فقد وجدت بهِ بلورات تشبه بلورات الحامض البوليك . ففي قضائهِ على الطحلب قضاء على نفسهِ . ولكن الطحلب لا يترك خلفاً بعده . اما الدودة فتبيض قبل موتها

فالشريكان في عيشة راضية ما داما متعاونين ، ولكن عندما يقلب أحدهما لأخيه ظهر المجن تنعكس الآية بينهما ويهلكان

البكتريا العقدية في جذور البقول

ولنعرج الآن على الحالات التي يتكافل فيها نبات بسيط غير مزهر مع آخر مزهر وهي ذات أهمية زراعية عظيمة . ومن أظهر تلك الامثلة آية البكتريا العقدية في النباتات البقولية. تعيش البكتريا المسماة Pseudomonas' radicicola في التربة على هيئة جسيمات صغيرة كروية قد تتكوّن لها أهداب دقيقة ، تتحرك بها مسافات محدودة ، وقد ثبت أنه في الوقت الذي تظهر فيه الأوراق الأولى من بادرة البقل ، تفرز الشعيرات الجذرية مادة يعقب ظهورها انقسام وتكاثر البكتريا العقدية التي في التربة والمحيطة بالشعيرات الجذرية . وهذه بدورها تفرز مادة اخرى ، ينشأ عنها التواءٌ وتجعد في أطراف الشعيرات ، فترق جدران الخلايا عند مواضع الالتواء ومن هذه المواضع تتمكن البكتيريا من دخول الشعيرات الجذرية

وتتحوّل البكتريا بعد دخولها الى شكل عَصَوي ، وتنقسم خلاياها ثم تتجمع على هيئة خيط مميز (خيط العدوى) ، وتنفذ في خلايا القشرة منتقلة من خلية الى اخرى حتى تصل الانسجة الداخلية من القشرة اذ لم تشاهد أنها تتعدى هذه المنطقة

ينتج من دخول البكتريا الى خلايا البقل ازدياد حجم الخلايا المصابة ، وتنبيه الخلايا المجاورة فتنقسم ويتضاعف عددها ، وبذلك تتكون كتلة من نسيج جديد يمكن مشاهدتها بالعين المجردة ، وهي التى تسمى بالعقدة ، وعند استقرار البكتريا في النبات تتحول الى شكل ثالث يشبه حرف Y او T وفي هذا الطور يمكنها ستغلال الأزوت المطلق ، فتحوله في أجسامها الى مواد أزوتية مختلفة التركيب

عند نمو العقدة تتكون حزم وعائية صغيرة تحيط بالمنطقة المصابة وتتصل بالحزم الوعائية الجذرية وفي هذه الحزم تسير المواد الغذائية المتبادلة بين البكتيريا وعائلها

تستمد البكتريا غذاءها الكربوني من البقل ، وتأخذ كذلك ما تحتاج اليه من غذاء أزوتي في طورها الاول ، ولكن بعد استقرارها تعتمد كل الاعتماد على الأزوت الجوي المطلق ، فتحوله الى مركبات أزوتية عضوية مختلفة ، تعطي معظمها للنبات البقلي الذي تسكنه فتتكافل وإياه ، والقليل منها قد يتسرب من العقدة الى التربة المجاورة لها عما تناله البكتريا من عائلها من كربوايدرات يرد اليه مضاعفاً على هيئة مواد أزوتية

وهناك رأى ان النبات يفرز مواد خاصة بها يستعين على هضم البكتريا الموجودة داخل جسمه ، فيستفيد منها البقل ، أما ما يبقى من البكتريا فانهُ يؤول الى التربة مع بقايا الجذور فتزداد خصوبة الارض

بحث طريف

في ناصيف وناصِف ونصيف؟!

للاستاذ الشيخ عبد القادر المغربي
نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق

أول ما يخطر ببال اللغوي عند سماعه اسم من اسمه (ناصِف) بكسر الصاد من دون ياء بعدها — وأشهرهم الاديب المصري الكبير حفني بك ناصف — أن كلمة (ناصِف) من الكلمات الفصحى . وانها صيغة عربية لا شائبة فيها . وانها مشتقة من (النصافة) وهي مصدر نَصَفَهُ اذا خدمهُ : فناصِف خادم . وهذا المعنى هو المراد من اسم (ناصِف) في الارجح : فمن سمى ابنهُ (ناصِفاً) كأنهُ اراد التواضع في هذه التسمية أي تسميتهُ بالخادم على حد قولهم « خادم القوم سيدهم »

وما يدرينا ان يكون والده انما سمّاه بذلك رجاء ان يعيش مذ جعله خادماً لأحد الأولياء كالبدوي مثلاً . وتكون الاضافة للبدوي قد استعملت او لوحظت اولاً ، ثم تنوسيت بمرة واحدة : وهذا كلقب (الصاحب ابن عباد) فان أصل (الصاحب) (صاحب ابن العميد) ثم اكتفوا بالصاحب ، وأصبح ذلك لقباً لهُ . اما اسم (ناصِف) في لهجة أهل الشام ولا سيما لبنان فهو يُلفظ بياء زائدة بعد الصاد هكذا (ناصِيْف) ، وأشهر من سمي بهِ (الشيخ ناصيْف اليازجي) الشاعر اللبناني المشهور ، وهذه الياء الزائدة في (ناصيْف) هي ياء إشباع أي اشباع كسرة الصاد : تمد كسرة فيتولد منها ياء . وهو مما يفعله العرب في بعض كلمات لغتهم ، وله شواهد كثيرة ، وخصهُ بعضهم بالشعر فيكون ضرورة

ويبعد ان تكون كلمة (ناصيف) ذات الياء محرفة عن (نَصيف) بمعنى نصف الشيء . ولقائل ان يقول : إن أصل (ناصيف) بالياء ، نصيف بمعنى خادم كالناصف . وقد سمى المتأخرون أبناءهم نصيف ، وأشهر من سمي بهِ في الحجاز (محمد نصيف) وجيه جدة وأكبر أعيانها . وتأويل التسمية بنصيف على معنى الخادم كالتأويل الذي ذكرناه في ناصف

وأردت ان أستأنس بكتب اللغة فراجعت التاج فوجدته يقول في استدراكاته على القاموس ما نصه (وقد سموا ناصِفاً) أي ان العرب يسمون أبناءهم(ناصفاً)، لكنه لم يبين لنا وجه اشتقاقها ، فلم تبق شبهة في ان العرب يعرفون ناصفاً (من دون ياء) علَماً . ولم يذكر

تاج نصيفاً ولا ناصيْفاً (بالياء) في أعلام العرب . فيكون الظاهر في كلمة (ناصيف) انها كلمة عربية عامية مولدة من (ناصف) باشباع كسرة صادها . أما (نصيف) فعربية محضة بمعنى الخادم ، لكنهم أي العرب الأقدمين لم يسموا بها

واتفق لي ان كنت أطالع رسالة للمعلم نقولا الترك اللبناني ضمنها حوادث حملة نابليون على مصر وسوريا وهذه الرسالة منشورة برمتها في تاريخ الامير حيدر الشهابي ، فرأيت المعلم نقولا يذكر بين رجال ذلك العهد اسم (ناصيف باشا ابن العظم) وكرر ذكره بهذا الاسم او بهذه الصيغة ، فسألت صديقي وجيه دمشق الكبير بديع بك المؤيد العظم هل كان يوجد في أجداده من اسمه (ناصيف باشا) وذكرت له الحادثة التاريخية التي ذكرها المعلم نقولا وقد جرى فيها اسم (ناصيف) بياء ، بعد الصاد مراراً . فقال هو (نصوح باشا ابن سعد الدين باشا) وهو جد والدي وله مشاركة في الاحداث التي وقعت في القطر المصري عند خروج نابليون وقبل استيلاء محمد علي . وتعجب معاليه من تسمية جده باسم ناصيف وتساءل عن السبب . ثم قال : إن جده هذا مدفون في حماه وان القبة التي دفن تحتها تسمى قبة ناصيف (بالياء) . وكذا قهوة كان بناها وما زال اهل حماه الى اليوم يسمونها (قهوة ناصيف)

فجعلتُ من يومئذٍ أفكر في كيف نشأ هذا التحريف من نصوح الى ناصيف . حتى تصفحت يوماً تاريخ (خلاصة الاثر) للمحبّي الدمشقي . فوقع نظري على ترجمة (نصوح باشا) الذي تقلّد ولاية حلب قُبَيل سنة الف وعشرين للهجرة أي منذ اكثر من ثلاثمائة سنة وأصبح (داماداً) بعد ذلك . فقال المحبي في فاتحة الترجمة ما نصه : (نصوح باشا وشهرته بناصِف باشا ، وهذه عادة الاتراك في تلاعبهم بالحروف فيقولون في نصوح ناصف . وتبديلاتهم ليس لها حد يحصرها ، ولا قاعدة تضبطها . اه) فقلت في نفسي (قطعت جهيزة قول كل خطيب) وهذا التحريف اي تحريف نصوح الى ناصف — وان كان غريباً — لا نجد بدًّا من قبوله ، لأن العلامة المحبي الذي دلنا عليه من أعرف الناس بثقافة ذلك الزمن ، وهو أديب كبير في اللغة العربية. ولا نظنهُ يجهل اللغة التركية ولا شيئاً من ثقافة أتراك زمنه. وقد رحل الى عاصمتهم ودوّن في تاريخه تراجم طائفة كبيرة من علمائهم وأدبائهم ، وله فيهم أصدقاء ومراسلون . على أن قوله هذا في تحريف نصوح او ناصف إنما ينطبق على اللهجة التركية الفاشية بين عامة الاتراك . وأما خاصتهم فيلفظون نصوح على عروبتها . هذا العلامة (جودت باشا) في تاريخه يذكر اسم (نصوح باشا العظم) المرة بعد المرة ولا يسميه الا (نصوح) لا (ناصِيف) ، فلا حرج علينا بعد كل ما تقدم أن نقرر المسألة هكذا

إنهُ يوجد بين اسماء الأعلام العربية اسم(ناصِيف) وهذا الاسم تارةً يكون عربيًّا محضاً كما في مستدرك التاج ، وهو مشتق في الغالب من (النصافة) ، بمعنى الخدمة ، وتارة يكون

مولداً حرَّفتهُ اللهجة التركية عن اسم (نصوح) . فنصوح باشا حرَّفهُ الأتراك الى ناصف باشا ، ونطقوا بهِ من دون ياء كما يفهم من المحبي . أما المعلم نقولا الترك ومعاصروه فقدنطقوا بهِ (ناصيف باشا) بزيادة ياء، فناصيف هي لهجة لبنانية سمَّى بها الشيعة والمسيحيون طائفةً من أبنائهم : ناصيف باشا الأسعد وجده الأعلى ناصيف النصَّار ، وناصيف المعلوف ، وناصيف اليازجي وغيرهم. فالشيخ ناصيف اليازجي يكون الصواب في اسمهِ إذن (الشيخ نصوح اليازجي) فليصحح اخواننا اللبنانيون اسم شاعرهم إن شاءوا ، ويا ليت ابنه العلامة الشيخ ابراهيم يكون حيًّا ويقرأ ما قلناه في تصحيح اسم أبيه فنسمع فتواه في هذه المسألة ، فانه لعمري ابن بجدتها وفارس حلبتها. واذا رتبنا الكلمات الثلاث ترتيباً قاموسيًّا قلنا في ترتيبها وتفسيرها هكذا

(ناصِف) بكسر الصاد اسم علم عربي محض كما يفهم من مستدرك التاج

(ناصِف) أيضاً اسم علم عربي غير محض العروبة حرَّفهُ الأتراك العثمانيون من اسم (نصوح) . قاله المحبي في تاريخه

(ناصيف) بزيادة ياء بعد الصاد اسم علَم مولد . وليس بعربي محض . وهو يحتمل أن يكون محرَّفاً من اسم (ناصف) المحرف من (نصوح) فيكون فيه تحريفان تحريف ولدتهُ اللهجة التركية عن (نصوح) وتحريف ولدتهُ اللهجة اللبنانية عن (ناصِف)

﴿ من وحي الروح ﴾

« وأين كل ما صبتهُ الشمس والكواكب من نيرانها ، وما أخرجته فصول الأرض »
« من وشيها وألوانها ، وما هتفت بهِ الطير من أغاريدها وألحانها ، وما تلاطمت به الدنيا »
« من أمواج انسانها . أين ما صح وما فسد ، وما صدق او كذب ، وما ضر او نفع ، وما »
« علا أو نزل؟ في كل لحظة تمتلىء هذه الدنيا لتفرغ ثم تفرغ لتمتلىء ، وماضيها ومستقبلها »
« مطرقتان يمرُّ بينهما كل موجود لتحطيمه . وكأن الحياة ليست أكثر من تجربة الحياة »
« زمناً يقصر او يطول ، وما العجيب ان لا تفلح التجربة في أحد ولكن العجيب ان »
« لا تنقطع وهي لا تفلح ، والعالم كالبحر من السراب يموج به اديم الارض ثم لا تملأ »
« امواجه مِلعقة ، والحقيقة في كل شيء لا تزال تفر من تحليل الى تركيب ومن تركيب »
« الى تحليل ، لأن شعور اهل الزمن بالزمن لا يحتمل المعنى الخالد ، ولعل سبب الموت »
« انك لا تجد انساناً يعيش في حقيقته الانسانية فلا هذه الحقيقة يُسِّرت له كاملة ولا هو »
« خُلق لها كاملاً ، وفي الانسان كالطبيعة ارضٌ وسماء فترابهُ لا يتغشَّاه مما فوقهُ غير الظل »
« وقد خلق مقسوماً ، فشقةٌ منهُ في ارضه وشقةٌ في سمائه ، فاذا حضره الموت ضرب الضربة »
« بين هاتين ، فاخذت السماءُ السماءَ وجذبت الارضُ الارض » (مصطفى صادق الرافعي)

توجيه الانتاج

لاغراض الحرب

لفؤاد محمد شبل

في عام ١٩١٤ دخل العالم الحرب معتمداً على نظام الأثمان الحر لتعديل ما يجب تعديلهُ في الانتاج والاستهلاك وتحويل اقتصاد الدولة من حالة السلم الى حالة الحرب . ثم اضطرت الحكومات الى تعديل الأثمان وتنظيم الانتاج والاستهلاك وفقاً لأغراض الحرب . وتطور هذا التدخل بتطور الحرب واتسع أفقه حتى باتت الدول الرئيسية المشتركة فيها تسيطر سيطرة مباشرة على الصناعة والتجارة والزراعة والعمل فيها

ويختلف الحال في الحرب الحاضرة عما كانت عليه في الحرب الماضية في أن الأذهان صدفت عن الاستعانة بنظام الأثمان الحر — اي ترك العوامل والقوانين الاقتصادية البحتة تفعل فعلها في حياة الدولة الاقتصادية ، ونقلها من اقتصاد السلام الى اقتصاد الحرب . فعمدت كل دولة من يوم إعلان الحرب وبعضها قبل اعلانها بزمن طويل، الى تعبئة مواردها لهذه الغاية . وسهل هذا الانتقال ، التجارب العظيمة الشأن التي اكتسبتها الدول خلال الفترة بين الحربين من تدخلها في الشئون الاقتصادية بعد ان تطورت وتغيرت اسسها عما كانت عليه في القرن الماضي . فسهل تحويل الهيئات التي اعتمدت عليها الدول في هذا التدخل الى اغراض الحرب

وسنشرح في بحثنا هذا ما أخذت به الدول لتوجيه الانتاج فيها توجيهاً يراد به تحويل اقتصادها القومي المعتاد الى اقتصاد حربي يساعدها على السير بالحرب متمثلين في هذا بألمانيا وهي تعد مثالاً لدول المحور جميعاً ، وبريطانيا العظمى مثالاً للدول الديمقراطية

١ — ﴿ تنظيم التوجيه في ألمانيا ﴾ تختلف ألمانيا في هذه الناحية عن الدول الديمقراطية في أن تنظيمها لاقتصاد الحرب سبق خوضها غمارها بوقت طويل . فعقب تولي النازي أزمة حكم ألمانيا أصبحت وزارة الشئون الاقتصادية قطب الرحى ومركز الاشراف على اقتصاد المانيا القومي وأصبحت بعد تقرير مشروع السنوات الاربع الثاني في عام ١٩٣٦ مختصة اصلاً بتنفيذ الخطط التي يرسمها القيّم على هذا المشروع وعند شبوب نار الحرب تألف مجلس عام لتنسيق المسائل الادارية، أعضاؤه مديرو مشروع السنوات الأربع ومصلحة الحرب الاقتصادية

وممثل القيادة العليا ورؤساء المصالح الوزارية المختلفة ومراقب الأسعار العام وممثل الحزب النازي . ورئيس هذا المجلس هو الرئيس الأعلى لمشروع السنوات الأربع . ويقرر سياسة هذا المجلس واتجاهه، ادارة التسلح والحرب الاقتصادية وادارات مشروع السنوات الاربع. اما تنفيذ هذه الخطط فتظل في أيدي الوزراء والوكلاء المنتدبين لهذا الغرض . وللادارات الاقتصادية الاقليمية وممثلي وزارة الشئون الاقتصادية فيها شأن كبير في السياسة الاقتصادية الحربية . ويتمثل التنظيم الاقتصادي الحربي الالماني في مشروع السنوات الاربع الأول وكانت الغاية منهُ القضاءَ على التعطل . بيد أن العدد الاكبر من العمال المتعطلين عمل في الصناعات والأعمال ذات الصبغة الحربية . والمشروع الثاني كانت غايتهُ استكفاءَ ألمانيا من الناحية الاقتصادية حتى لا يضيرها الحصار كما حدث في الحرب العظمى الماضية . ولقد تضمن مشروع الأربع سنوات الثاني الاشراف المباشر على الصناعة وانتهى الأمر في عام ١٩٣٨ بتعيين وكلاء خصوصيين لصناعات تعدين الفحم والبناء والآلات والمواصلات بالطرق والقوة الكهربائية ومنحهم سلطات تكاد ان تكون تامة على الانتاج

ونظمت سوق العمل عن طريق جبهة العمل كما ألقى على كاهل نقابات العمل المعينة من قبل وزارة العمل في كل مقاطعة مهمة تنظيم الأجور وشروط العمل . . . الخ . ولوزارة العمل اشراف مطلق على شروط العمل في نطاق المبادىء التي وضعتها لها السلطة المركزية العليا، وهذا الاشراف يسهّل أمرهُ كثيراً تنظيمُ انتقال العمال من عمل الى آخر . فهناك ما يدعى «دفاتر العمل» وهي جوازات لازمة للفرد اذا ما أراد ممارسة عمل صناعي ويحتوي الجواز على بيان مفصّل بحذق العامل صناعتهُ ومراحل عمله، وبذلك غدا في حوزة السلطات المختصة سجل تام عن القوة العاملة في الامة كلها. ولوزارة الزراعة والطعام اشراف على الانتاج الزراعي وأسعار المنتجات الزراعية وبيعها وشرائها وهي تتولى هذا الاشراف عن طريق « جماعة طعام الريخ » والاشتراك فيها محتم على جميع المنتجين والمالكين الزراعيين والموزعين الزراعيين . وعلى كل مزارع ان يحوز رخصة ادارة مزرعة، وهذه الرخصة تحتوي على معلومات عن انتاج المزرعة وقدرتها وعن متولي شئونها فهي للعامل الزراعي كدفتر العمال للعامل الصناعي

٢ — ﴿ التوجيه الاقتصادي الحربي في بريطانيا العظمى ﴾ أتاحت قوانين الطوارىء الصادرة في ٢٤ اغسطس سنة ١٩٣٩ و٢٢ مايو ١٩٤٠ للحكومة انشاء بناء عام للاقتصاد الحربي . وفي يونيو ١٩٤٠ أنشىء « مجلس الانتاج » وهو يضم ممثلين للوزارات المختلفة. وفي يناير ١٩١٤ حل محل هذا المجلس هيئتان تنفيذيتان للانتاج والاستيراد، الاولى أعضاؤها خمسة ورئيسها وزير العمل والخدمة العامة. ويسيطر مجلس الوزراء على الهيئتين ويوجه سياستهما وتتولى وزارة التموين، الاشرافَ على الصناعة الى حد كبير اذ تنظم الاسعار وتراقب

التخزين ومن اهم مهامّها توزيع المواد والمؤن وتفضيل صناعة ما أو فرد ما في الحصول على سلعة معينة . وعينت الحكومة مشرفاً على كل سلعة ، فغدا في مكنتها ملاحظة السوق . ولتحقيق التنسيق بين ادارة التفضيل المركزية (اي الادارة التي تعين اولية حصول صناعة ما على المواد الاولية اللازمة لها او صناعة ما أو فرد ما على سلعة معينة) بوزارة التموين وبين الهيئات التجارية أصبح كل مشرف مسئولاً عن حصر المواد التي هو مسئول عنها وتعيينها (١)

وعهد الى وزارة العمل والخدمة العامة في الاشراف على سوق العمل وانتقلت اليها بمقتضى قوانين المصنع السلطات التي كانت للادارة الاهلية . أما الزراعة فتتعهد شئونها وزارتا الطعام والزراعة ، وتختص الوزارة الاولى بمسائل الاسعار وواردات الطعام ومخزونه وتوزيعه ، وتختص وزارة الزراعة بمسائل الانتاج وتلاحظ بواسطة رجالها في الأقاليم ولجان انتاجها الاقليمية تعبئة العمال للانتاج وتوزيع أغذية الحيوانات والأسمدة والآلات الزراعية ... الخ فضلاً عن توجيه الانتاج . هذا وقد انشئت ادارات جديدة علاوة على ما كان قائماً منها فعلاً قبل الحرب، لملاحظة انتاج الأطعمة وتسويقها

﴿٣ — التعبئة الصناعية﴾ الخطوة التي تخطوها الحكومات عادة في المراحل الأولى للانتقال من اقتصاد السلم الى اقتصاد الحرب، تكون بتحقيق الاولوية في تنفيذ العقود الخاصة بها ، ثم انشاء نظام تفضيلي تمنح به المواد الاولية والآلات والعمل . . . . الخ لاعظم الصناعات او الزراعات شأناً في الاقتصاد القومي الحربي . ويتفرع على هذا المبدأ إشراف الدولة المباشر على شتى عوامل الانتاج وما يقتضيه هذا الاشراف من التوسل بالوسائل الضرورية لتنسيق أنواع الانتاج المختلفة وتنشيط قدرة الامة على الانتاج . وقد اختلفت الاجراءات التي اتبعت بشأن الانتاج باختلاف السلع والبلدان وباختلاف الحاجة الى نوع من السلع في وقت ما وفقاً لسير الحرب ومقتضياتها

فألمانيا استطاعت بمشروع السنوات الاربع الثاني اتخاذ اجراءات لتنسيق تجارة «القطاعي» وتنسيقها، والغاية من هذا توفير اليد العاملة وخفض عدد المنشآت الصناعية الصغيرة بتشجيع التركز الصناعي، وكان أخص مظاهر هذا التشجيع قانون ٥ سبتمبر ١٩٣٩ وهو الذي مكن وزارة الشئون الاقتصادية من ان تطلب من المصانع الاندماج بعضها في بعض وان تحثها على انشاء معدات جديدة والاستغناء عن تشغيل القديم منها ، كما استولت السلطات الحربية على بعض المصانع وادارتها تحت اشرافها . أما بريطانيا العظمى فتم تحويل مواردها اختيارياً وبأساليب غير مباشرة وعن طريق الاشراف على واردات المواد الاولية في مستهل الحرب ، وتبع هذا

(١) تغير هذا التنظيم تغيراً يسيراً بعد تعيين وزير الانتاج وتوسيع اختصاصه

الهيمنة على العمل واتخذت الاجراءات الكفيلة بالحد من نشاط الصناعات التي تنتج منتجات الاستهلاك المدني . وفي مارس ١٩٤١ أعلنت سياسة التركيز الصناعي وبمقتضاها أمكن توفير العمال اللازمين لجهود الدفاع فضلاً عن تخصيص مساحات كبيرة من المصانع المعطلة لشئون التخزين والايداع ، وشبيه بهذا ما أخذت به اليابان في بعض الصناعات ولا سيما صناعات القطن وتعدين الفحم

﴿ ٤ — الهيمنة على المواد الأولية ﴾ لم تنل مسألة من مسائل هذه الحرب ما نالهُ موضوع المواد الاولية من عناية واهتمام . فمعظم الدول تعاني قلة في المواد الاولية اللازمة لزراعتها وصناعتها ، وهي قلة نجمت عن تقلقل التجارة الدولية واضطراب شئونها ، إذ قابل هبوط العرض زيادة مطردة في الطلب اقتضتها حاجة التسلح المتزايدة الى المواد الاولية . فلا بدع ان نرى تدخل الدول في أمر انتاجها واستهلاكها واسع النطاق بعيد المدى

فألمانيا أخضعت — في أثناء انشاء أداتها الحربية — تجارتها الخارجية لسلطان الدولة المطلق تسيرها في الوجهة التي تتفق والغاية الحربية. ومصداقاً لهذا كان النقد الاجنبي لا يمنح الاّ للتجار الذين يستوردون مواد حيوية للاغراض الحربية . يليهم في الترتيب أصحاب صناعات الاصدار التي تتقاضى ثمناً لصادراتها نقداً أجنبيًّا يحوَّل الى الدولة . ولمنع الاسعار المحلية من الارتفاع طبق نظام البطاقات على المواد الأولية ليعزز الاشراف على التجارة الخارجية . ولما أعلنت الحرب غدت الحكومة هي التي تقرر نوع ما ينتج من كل سلعة ومقدارهُ ، وحتمت موافقة السلطات ذات الشأن على شراء أنواع المواد الاولية المختلفة ، واتخذ كثير من الاجراءات لزيادة انتاج المواد الاولية محليًّا او بالاستعاضة من المواد المستوردة بأخرى محلية يمكن ان تقوم مقامها

وأهم ما كان يعوز المانيا المواد الآتية : الحديد والقصدير والزيوت والشحوم والجلود . ولقد كانت أهم الغايات المرجوة من مشروع السنوات الاربع الثاني ، السعي الى زيادة انتاج مواد تحل محل هذه المواد . وأصدق مثل على هذا ، المؤسسة التي دعيت باسم جورنج ، وكان الغرض من تأليفها زيادة المستخرج من الحديد الخسيس النوع للاستعاضة به عن الحديد الجيد المستورد ، وتألفت شركات كثيرة غيرها ووسع نطاق القائم منها لزيادة انتاج الزيوت والمطاط والحرير والالياف الصناعية . . الخ . وفضلاً عن السعي الى زيادة الانتاج اتخذت التدابير في كل مكان للانتفاع بالنفايات وبقايا السلع والمواد ، باستردادها واستعمالها . ثم امتدت هذه الحركة حتى شملت كل شيء رؤي جواز الانتفاع به بشرط ان لا تتجاوز نفقات جمعه تكاليف استخدامه في الصناعة . هذا وقد دأبت المانيا قبل الحرب وبصفة خاصة في

غضون ١٩٣٨ والنصف الاول من عام ١٩٣٩ على اختزان المواد الاولية الهامة كالمطاط الطبيعي والزيوت وبعض المعادن الأخرى . ومن الجدير بالذكر أنها وجدت في كل قطر افتتحتهُ مخزوناً من المواد الاولية ، كانت البلاد المفتوحة قد كدستهُ استعداداً للحرب أو للطوارىء فاستولت المانيا عليه . ولقد أوقفت المانيا او خفضت خفضاً كبيراً صنع السلع المدنية من المواد الاولية في البلاد المحتلة ولكنها أوصت على مقادير كبيرة من سلع الاستهلاك ومعدات الحرب في مصانع البلاد فاستخدمت البقية الباقية من المواد الاولية التي لم تنقل الى المانيا ، وبذلت الجهود لزيادة انتاج البلاد المحتلة من مواد أولية كالفحم والحديد والنحاس . . الخ كما أخذت في جمع نفايات المواد الأولية

أما بريطانيا العظمى فقد عمدت الى جمع المواد الاولية تنفيذاً لقانون صدر لهذه الغاية في عام ١٩٣٨ ، وفعلاً تمت بضعة مشتروات من المواد الغذائية والقطن والنفط والألومنيوم والنيكل والأسمدة . ومع ان قانون الطوارىء الاول منح الحكومة في مستهل الحرب سلطات واسعة ، فان هذه السلطات لم تطبق الاّ تدريجيًّا ، وفي مايو ١٩٤٠ صدر قانون الطوارىء الثاني فأنشىء بمقتضاه نظام مركز لهذه السلطات . وكان الاشراف على واردات المواد الأولية الخطوة الأولى لهذا النظام ، فأنشىء نظام للترخيص تحت رقابة وزارة التموين مع تطبيق مبدأ الافضلية الذي سبقت الاشارة اليه . وفي عام ١٩٣٩ عين موظفون للاشراف على جميع انواع التجارة وتطبيق مبدىء « الأفضلية » في الصناعة ، وفي ربيع ١٩٤٠ أصبحت معظم المواد الهامة خاضعة للرقابة ومن ثمّ عززت سلطات وزارة التموين وامتد سلطان ادارات الرقابة حتى شمل جميع السلع تقريباً ورتبت «الأولوية» في الحصول على المواد الاولية على النسق التالي : — الصناعات الحربية الحيوية فصناعات الاصدار ثم الصناعات التي تعمل لسدّ الاستهلاك المحلي . واتخذت التدابير لجمع المعادن المتروكة ولا سيما الحديد المصنوع ، وزيادة انتاج المعادن بمنح اعانات انتاج . واتخذ الاشراف طريقه في البعض الآخر عن طريق الاتحادات التجارية ولم يلتجأ الى الاشراف المباشر على الانتاج لزيادة مقادير السلع الحيوية كالفحم الاّ مؤخراً . ومن الجدير بالذكر ان بريطانيا العظمى عقدت عدداً من الاتفاقات التجارية الهامة مع بعض الدول المنتجة للمواد الاولية الضرورية فحصلت على الصوف من استراليا والنحاس من روديسيا والكنغو البلجيكي والجوت من الهند . . الخ

وتشابه الاجراءات التي اتخذتها الولايات المتحدة في شأن هذا الموضوع ما اتخذتهُ فيها بريطانيا العظمى الى حد كبير

٥ — ﴿تنسيق العمل﴾ ان الغاية المرجوة من الاشراف على العمل في وقت الحرب هي زيادة مجموع الايدي العاملة ، في مختلف نواحي الانتاج وتوفيرها للقيام بما تقتضيهِ حالة الحرب من

تحويل جانب كبير منها الى القوات الحربية وتشغيل جانب آخر في صناعات وأعمال غير التي اعتادوا القيام بها في اوقات السلم. وليس هذا بالأمر الهين فان الانتاج الحديث يتطلب توفر حذق خاص كما تقتضي صناعات الحرب الحديثة عمالاً في أعلى مراتب القدرة الفنية والاتقان

وقفت معظم الدول المتحاربة كافة الاجراءات التي كانت تحول دون زيادة ساعات العمل عن المدة المقررة ابان السلم. فايطاليا وقفت أسبوع الاربعين ساعة للعمل في نوفمبر ١٩٣٩ واستعيض عنهُ بأسبوع السبع والخمسين ساعة. واقتضى تحويل العمال المهرة في المانيا زيادة ساعات العمل الى اثنتين وسبعين ساعة أسبوعيًّا في بعض الصناعات. أما اليابان فلم يكن فيها حد لتشغيل العمال البالغين عند نشوب الحرب الصينية وكانت ساعات العمل كثيرة حتى هبطت قدرة العامل على الانتاج. وفرنسا وقفت اسبوع الاربعين ساعة في نوفمبر ١٩٣٨ وفي ربيع ١٩٣٩ رفع الحد الاقصى للعمل في صناعات الدفاع الى ستين ساعة اسبوعيًّا وامتدَّ هذا الاجراء الى ان نشبت الحرب فشمل جميع الصناعات. وفي كندا أعلن وزير العمل في نوفمبر ١٩٤٠ أن الحالة باتت تستدعي زيادة أسبوع العمل من أربع واربعين ساعة أسبوعيًّا الى ثمان واربعين ساعة اسبوعيًّا أو أكثر. اما الولايات المتحدة فلم يلغ التشريع الخاص بساعات العمل فيها وانما زيد عدد ساعات العمل لقاء أجر اضافي

أما بريطانيا العظمى فكان الامر الصادر في ٥ يونيه ١٩٤٠ خطوة هامة نحو رقابة الدولة المباشرة على العمل إذ نص على أنهُ لا يجوز تشغيل الافراد في الاعمال الهندسية والبناء والزراعة وتعدين الفحم الاّ عن طريق ادارات توزيع العمال العامة. كما منحَ قانون الطوارئ الصادر في مايو ١٩٤٠ الحكومة قوةَ تعبئة العمل بيد انهُ بالنظر لتطوع الشعب للمصلحة العامة وتلبيته نداء الحكومة في كل وقت لم يكن ثمة ضرورة لتطبيق السلطات التي خولها لها القانون. وفي يناير ١٩٤١ تقرر تشجيع العمال وحرم على أصحاب الأعمال في بعض الأعمال الاستغناء عن عمالهم وعلى العمال ترك العمل دون موافقة ادارة الخدمة العامة وفي مارس ١٩٤١ طلب وزير العمل تطوع ٥٠٠٠٠٠ رجل ومائة الف امرأة في الصناعات الحربية

وقد خطت كل دولة الخطوات الكفيلة بزيادة عدد العمال الحاذقين باخضاع العمال لتدريب خاص. ففي بريطانيا العظمى انشأت وزارة العمل في فبراير ١٩٤٠ نظاماً واسعاً لمراكز التدريب لتدريب أحد عشر الف عامل متعطل على ان تخرج هذه المراكز اربعين الف عامل سنويًّا. أما المانيا فانها استطاعت بفضل رعاية جبهة العمل انشاء شبكة من مراكز التدريب في جميع انحاء البلاد وبلغت هذه المراكز مائتي مركز فيها ستة عشر الف معلم وقد اتخذت اجراءات مشابهة لتلك في الاقطار الأخرى مع التفاوت في العدد طبعاً

والخلافات التي تحدث بين العمال وأرباب الاعمال، مما ينشأ عنهُ خسارة في الانتاج

فاذا ما كان الامتناع عن العمل في صناعة حيوية ترتبط بها صناعات أخرى ، نجم عن هذا هبوط في مجموع الانتاج العام للدولة ، ومن ثمَّ كان الحد من اعتصابات العمل او حظرها أمراً له خطره في النشاط الحربي في كل دولة . وفي بلاد كألمانيا وايطاليا حيث الأجور وشروط العمل كانت خاضعة لاشراف الدولة قبل قيام حالة الحرب بزمن طويل،كانت اعتصابات العمال تعد أمراً غير مشروع ، وفي استطاعة الدولة ان تجبر العمال على تقاضي الأجر الذي تراه بالشروط التي توافقها . وقد امتدت هذه النظم الى جميع الاقطار التي احتلتها المانيا . أما في بريطانيا العظمى مثلاً فانها تركت العمال احراراً مبدئيًّا بيد انهُ صدر في يوليو ١٩٤٠ أمر يعرف بشروط العمل والتحكيم الوطني حرمت بمقتضاه الاعتصابات والامتناع عن العمل قبل اخطار وزارة العمل والخدمة العامة وعدم التوصل الى تسوية النزاع خلال ثلاثة أسابيع بعد هذا الاخطار ، وأنشئت لتسوية المنازعات بين العمال وأرباب الأعمال محكمة سميت محكمة التحكيم الاهلي وهي مؤلفة من خمسة اعضاء يعين وزير العمل ثلاثة منهم وينتخب اثنان عند عرض كل نزاع لتمثيل العمال وأرباب الاعمال ، ويعرض النزاع على المحكمة اذا لم يكن هناك اتفاق سابق على التحكيم أو اذا عجز المحكمون عن الوصول الى تسوية للنزاع ، والحكم في النزاع يلزم الفريقين على السواء

٦ — ﴿ توفير المواد الغذائية ﴾ خضعت الزراعة قبل الحرب لقيود شديدة ورقابة بعيدة المدى وكانت الدولة في جل اقطار اوربا تشرف على شئونها وتوجه دفتها ، فجاءت الحرب فعززت هذه النزعة وشدت أزرها على نحو ما سيتبين فيما بعد . في بريطانيا العظمى انتظم منتجو حشيشة الدينار واللبن والبطاطس والخنازير منذ عام ١٩٣١ في لجان التسوُّق وضمت عقب الحرب لجنتا (اللبن والبطاطس) الى وزارة الطعام . وزيدت الاعانات المخصصة لزيادة الانتاج حتى شمل نظام الاعانات والاسعار المضمونة الألبان والضأن والعجول والشوفان والشعير،كما منحت الاعانات على الاسمدة ومنح الزراع اعانة غير مباشرة بخفض الضرائب المفروضة عليهم.ومن قبيل هذا ما عمدت اليهِ الحكومة من منح جنيهين لحرث كل فدان من المراعي القديمة وأجبر المزارعون على حرث ١٠ ./ من مراعيهم . كذلك نظمت أسعار المنتجات الزراعية بحيث تشجع زيادة الانتاج والواقع زادت اسعار المنتجات الزراعية بنحو ٤٠ ./ وفي بعض الحالات دخلت الحكومة السوق مشترية لكل المحاصيل الزراعية او لجزءٍ منها بحسب الاحوال. الاّ ان أثمان الخبز واللبن واللحوم وقديد الخنزير أبقيت على حالها تقريباً بفضل الاعانات التي قدمتها الحكومة وهي تبلغ مائة مليون جنيه سنويًّا . ولضمان العمل الكافي للزراعة رفعت الاجور الزراعية من ٣٦ شلناً في الاسبوع (كحد ادنى) الى ٤٨ شلناً في الاسبوع في ربيع ١٩٤٠ وصدرت الأوامر لمنع العمال الزراعيين من الانتقال

الى الصناعة . كذلك نظم توزيع الاسمدة ومواد العلف لمواجهة النقص الذي طرأ على الموجود في كثير منها فضلاً عن زيادة الناتج الزراعي ، ورؤي في فبراير ١٩٤١ تنظيم تداول موارد العلف بالبطاقات على أساس عدد المواشي مع منح جرايات اضافية للبقر الحلوب وفي ٢ يونيه من السنة نفسها أمر المنتجون بانقاص عدد الخنازير والطيور والدواجن الى الثلث حتى خريف ١٩٤٠ على ان يظل عدد المواشي الحلوب ولا سيما الجيد النوع منها على ما هو عليه بقدر الامكان . وقد رخص للمواشي الحلوب بالحصول على ٩٠ ٪ من حاجتها العادية من العلف وللعجول والاغنام بالحصول على ٧٥ ٪ من حاجتها وذلك طوال عام ١٩٤١

أما المانيا فان اجراءات هيمنة الدولة على الزراعة ترجع الى تولي النازي أزمة الحكم فيها ، فلما جاءت الحرب توسعت الحكومة في تطبيق هذه الاجراءات . ولقد كان على «جماعة طعام الريخ» ان تزيد الانتاج الزراعي بمختلف الوسائل وان تجعل المانيا على أعظم درجة من الاستكفاء الذاتي في موضوع الطعام . وهذه المؤسسة لها حق الاستيلاء على الارض والموارد للاغراض المختلفة وارغام المزارعين على تسليم المقادير التي تعينها من محصولهم وأعطت كل مزارع كتاباً بالتعليمات الواجب عليه اتباعها . وزيادة الانتاج اقتضت الافراط في استخدام الاسمدة الكيميائية فضلاً عن السعي الى الاستعاضة بمواد العلف المحلية عن المستورد منها . وتشبهت المانيا بانكلترا فحرمت على المؤسسات غير الزراعية استخدام العمال الزراعيين دون موافقة ادارات تحويل العمال التي غدا لها الحق في اجبار العمال الزراعيين المشتغلين بغير الزراعة على العودة اليها. ولتلافي هذه الازمة دأبت المانيا على استخدام الأسرى في الزراعة واجبار عمال البلاد المحتلة على العمل في المانيا واستئجار العمال الايطاليين وغيرهم

وطبقت طائفة كبيرة من مناحي نظام الرقابة الألماني على الزراعة في البلاد المحتلة فاضطرت الى الأخذ بنظام للبطاقات لاهوادة فيه على الطعام والأسمدة ومواد العلف . أما السياسة التي اتبعتها الدول الأخرى في هذا الصدد فتقارب ما بيناه فيما سبق . فسويسرا أخذت ابتداء من مارس ١٩٤١ بسياسة ترمي الى كفاية نفسها بمواردها الخاصة . ولتلافي النقص في الايدي العاملة عمدت الحكومة الى منع العمال الزراعيين من هجر الارض وإجبار العمال المتعطلين على الاشتغال بالزراعة ، ونقلت عمال الصناعات غير الضرورية للعمل فيها أيضاً . أما أسبانيا فأصدرت حكومتها في ٥ نوفمبر ١٩٤٠ قانوناً أجبرت المزارعين بمقتضاه على التوسع في الزراعة والانتاج

ونظمت اليابان انتاج الاسمدة واستهلاكها وجابهت حاجتها الى العمال الزراعيين بنقل العمال الى مناطق خاصة وتشجيع العمل التعاوني وزيادة استخدام النساء والاطفال

النباتيون

المشهورون وما يرمز اليهم به

—٤—

لمحمود مصطفى الدمياطي

﴿ ألبرتيني ﴾ وبقية اسمه جان باتيست Albertini, Jean Baptiste ويرمز له .Alb ولد في ١٧ فبراير ١٧٦٩ في نيوفيد على نهر الرين ومات في ٦ ديسمبر ١٨٣١ في برتلسدورف بقرب هرنهوت وهو عالم الماني كان من مذهب الاخوان المورافيين ولم يحذ حذو صديقه شليرماخر Schleirmacher الذي ترك اخوانه في العقيدة الدينيّة . وقد اشتغل خاصّة بعلم اللاهوت واللغات الشرقية والعلوم الرياضية وعلم النبات وقسم وقته بين هذه الدراسات من جهة والتعليم والوعظ من جهة اخرى ونشر مجموعتين من المواعظ باللغة الالمانية في ١٨٠٥ و١٨٣٢ بعنوان « الأناشيد الروحية » Geistliche Lieder (طبع بنزلاو ١٨٢١ وطبعة ثانية ١٨٢٧)

وأخيراً صنّف مع شفينيتز Schweinitz كتاب « ملخّص لفطريات لوزاتيا العليا التي تنبت في حقل نيسكينس وغيره مع ١٢ جدولاً ملوّناً باللون البنفسجي » (طبع ليبزيج ١٨٠٥) Conspectus fungorum in Lusatiae superioris agro Niskiensi crescentium, etc., cum tabulis XII aeneis pictis, etc, هذا وقد عرف البرتيني بأنهُ الرئيس الروحي لمذهب الاخوان المورافيين

﴿ أندروز ﴾ وبقية اسمه هنري Andrews, Henry ويرمز لهُ .Andr وهو نباتيّ انجليزي من علماء اوائل القرن التاسع عشر أسّس بلندن في ١٧٩٧ مجموعة دورية بعنوان « مستودع النباتيّ » The Botanist's Repository ظهرت حتى ١٨٠٤ وهذه المجموعة المكوّنة من عشرة اجزاء تشتمل على وصف عدد كبير من النباتات الحديثة وبها لوحات ملونة. وشرع في ١٨٠٢ في نشر مصنف مصوّر عن الخَلَنج بعنوان « النقوش الملوّنة للخلنج » Coloured Engravings of Heaths وقد أخذت الصور عن نباتات حية طبع لندن ١٨٠٢ – ١٨٠٩ في اربعة اجزاء وبه ٢٨٨ لوحة ملوّنة. وهذا المصنف أتبع بمؤلف آخر في الموضوع

نفســه بعنوان « المغطّى بالخلنج أو رسالة عن جنس الأريقى » The Heathery; or a Monograph of the Genus Erica طبع لندن ١٨٠٤ في ستة اجزاءٍ وبه ٣٠٠ لوحة ملوَّنة . وقد نشر اندروز عدا ذلك رسالتين الاولى على جنس إبرة الرَّاعي (جرانيوم) طبع لندن ١٨٠٥ في جزئين وبها ١٢٤ لوحــة ملوَّنة والثانية على جنس الورد طبع لندن ١٨٠٥ — ١٨٢٨ في جزئين وبها ١٢٩ لوحة ملوَّنة

﴿ بويـّار ﴾ وبقية اسمه بيير Bulliard, Pierre ويرمز لهُ .Bull ولد في اوبيير من اقليم باروا حوالي سنة ١٧٤٢ ومات بباريس في ١٧٩٣ وهو نباتي له مصنفات تعدُّ نافعة ساعدت على اجتذاب الميل الى علم النبات وقد رسم الصور التي في كتبه وحفرها بنفسه وكان اول من ابتكر طريقة طبع النباتات بالألوان وأهم بحوثه ، كتاب « نباتات باريس » Flore Parisienne ١٧٧٤ وكتاب « علم الطيور الفرنسيـة » ١٧٧٨ والطبعة النقحة ١٨٢٠ Aviceptologie Francaise وكتاب « أعشاب فرنسا » ١٧٨٠ — ١٧٩٣ Herbier de la France وكتاب « المعجم الأولي لعلم النبات » ١٧٨٣ وهذَّبه ريشارد من جديد ١٧٩٩ Dictionnaire élémentaire de botanique وكتاب « تاريخ النباتات السامَّة الفرنسية » Histoire des plantes vénemeuses de la France ١٧٨٤ وكتاب « تاريخ فطريات فرنسا » ١٧٩١ — ١٧٩٢ Histoire des champignons de la France

﴿ برونفلز ﴾ او برونزفلز وبقية اسمه اوتون Brunfels or Brunsfels, Othon ويرمز له .Brunf ولد بماينس في ١٤٨٨ ومات ببرن في ١٥٣٤ وهو طبيب ونباتي الماني كان في اول امره على مذهب الشارتروز حيث اعتنق آراء لوثر واشتغل معلماً بالمدارس ثم صار طبيباً في برن وهو الذي أحيي علم النبات في القرن السادس عشر وأماط اللثام عن كثير من الأنواع النباتية الحديثة وأجل عمل له كتاب « صور الأعشاب الحية » ظهر بين سنتي ١٥٣٠ — ١٥٣٦ ومعه صور تسترعي النظر Herbarum vivae icones

﴿ بروترو ﴾ وبقية اسمه فليكس دي أفلار Brotero, Felix de Avellar ويرمز لهُ .Brot ولد بسان انطونيو باقليم تاجال بقرب لشبونة في ١٧٤٤ ومات في ١٨٢٨ وهو نباتي برتغالي ولــكي يختفي من مطاردة ادارة التفتيش الدينيّ رحل الى باريس حيث بقي بها الى سنة ١٧٩٠ وتلقى العلم على دوبنتون وفيكدازير وبريسون ولوران دي جوسيو وقد قُبِل بعدئذ في جماعة كل من كوندورسيه ودي لامارك ودي كوفييه ولما عاد الى وطنه في عهد الثورة الفرنسية عين استاذاً لعلم النبات في كوامبر بالبرتغال بين سنتي ١٧٩١ — ١٨١٠ وبفضل مساعدة جوفري سانت هيلير لهُ اثناء الغزو الفرنسي عين مديراً للحديقة النباتية في اجودا بقرب لشبونة.وفي ١٨٢١ انتخب نائباً في هيئة الدستور عن مقاطعة إستريمادور

وأهم مصنف لهُ كتاب بعنوان « صور مختارة من لوزيتانا » ١٨١٦ — ١٨٢٧ Phytographia lusitanica selectio ونذكر لهُ ايضاً كتاب « ملخص ابتدائي في علم النبات » ١٧٨٨ Compendio elementar de botanica وكتاب « نباتات اقليم لوزيتانا » ١٨٠٤ Flora Lusitana

﴿بوشيه دي كريفكير﴾ Boucher De Crévecoeur, وبقية اسمه جول ارمان غليوم Jules Armand Guillaume ويرمز لهُ .Bouch ولد في ١٧٥٧ في باريه لمو نيال ومات في ابفيل في ١٨٤٤ وهو فرنسي من علماء الطبيعيات كان مراقباً للمالية في عهد لويس السادس عشر وعكف على درس علم النبات وبعدئذ صار مديراً للجمارك في ابڤيل ومراسلاً للمعهد العلمي وقد نشر كثيراً من المؤلفات خصوصاً كتاب « نباتات ابڤيل » ١٨٠٣ Flore d'Abbeville وكتاب « جدول بياني لنباتات الغلال والنجيليات » ١٧٩٨ Tableau des plantes céréales et graminées وكتاب « تجاريب وبحوث عن شجرة البق او الدردار — بوقيصا » ١٧٩٩ Experiences et recherches sur l'orme ومذكرات مختلفة

﴿بريدل﴾ وبقية اسمه البارون صمويل إليزيه Bridel, Samuel Elisée, baron ويرمز لهُ .Brid ولد بكراسيه في ١٧٦١ومات بقرب جوتا في ١٨٢٨ وهو شاعر ومن علماء الطبيعيات سويسري كان مربياً لأولاد دوق جوتا وفي ١٨٠٧ كلّفهُ الدوق مهمة سياسية لدى نابليون ورقي الى طبقة الاشراف ونيط بهِ مهامّ مختلفة في برلين وباريس وروما ونشر عدداً كبيراً من الكتب الأدبية وقام ببحوث عديدة في النباتات الحزازية كانت أساساً لعلم الحزازيات (بريولوجيا) الحاليّ مثل كتاب « علم الحزازيات الحديث » ظهر بين سنتي ١٧٩٧ — ١٨٠٣ Muscologia recentiorum وأتبعه بملحق لهُ بين سنتي ١٨٠٧ — ١٨١٢ وكتاب « طريقة حديثة للحزازيات بحسب ترتيبها الطبيعي » ١٨١٩ Methodus nova muscorum ad naturae normam وكتاب « علم الحزازيات أو دراسة تقسيمية لها » ١٨٢٦—١٨٢٧ Bryologia universa, seu systematica

﴿بلاردي﴾ وبقية اسمه شارل لويس Bellardi, Charles Louis ويرمز له .Bell ولد في سيجليانو من مقاطعة بيمونت بايطاليا في ١٧٤١ ومات في ١٨٢٦ وهو طبيب ايطالي ومن علماء الطبيعيات اشترك مع اليوني في تصنيف كتاب « نباتات مقاطعة بيمونت » طبع تورين ١٧٨٥ في ثلاثة مجلدات Flora Pedemontana وهو مصنف من كتب الدراسة وقد نشر بلاردي باللاطينية والايطالية رسائل كثيرة خاصة بموضوعات في التاريخ الطبيعي

الهند ومواردها

الطبيعية والصناعية

ان مشكلة الهند من ناحيتها السياسية ، ومستقبل نظام الحكم فيها ، لأعقد من ذنب الضب . وقد كتبت في ذلك مئات الكتب والمقالات والتقارير الرسمية . فليس في وسع كاتب مهما يبلغ علمهُ بالهند من السعة ، وفهمهُ لمشكلاتها من الدقة والعمق، ان يوجز جميع نواحي النظر في خمس صفحات . ولذلك نريد ان نعرض في هذا الفصل الموجز ، لحياة الهند الاقتصادية ومواردها الطبيعية الغنية—دون مشكلتها السياسية — اذ قلما يعرف عن الهند انها في طبقة الدول الثماني الأولى من الناحية الصناعية ، بين دول العالم اجمع

ترتبط قوة الدولة الحربية في العصر الحديث باربعة عوامل رئيسية . هي اولاً — الرجال . وثانياً — الطعام . وثالثاً — موارد المواد الأولية .ورابعاً — القدرة الصناعية

تزيد مساحة الهند على مليون ونصف مليون من الأميال المربَّعة ويبلغ عدد سكانها بحسب إحصاء ١٩٤١ ثلاثمائة وستة وثمانين مليوناً . وكان عدد الجنود النظاميين المدرَّبين تدريباً وافياً فيها عند نشوب الحرب في سنة ١٩٣٩ يفوق عددهم في سائر بلدان جامعة الأمم البريطانية مجتمعةً . وقوة الجيش في الهند ابان السلام تبلغ ١٦٠ الفاً عدا الجنود البريطانيين . فهذه النواة من القوة الحربية مكنت حكومة الهند من التوسع في انشاء الجيش وفقاً لمقتضيات الحرب . وقوة الجيش الهندي الآن تزيد على مليون وقد تبلغ قريباً مليوناً ونصف مليون . وقد أُنشئ هذا الجيش العظيم بالتطوُّع لا بالإلزام . وزيادتهُ في المستقبل لا ترتبط بعدد الذين يتطوعون فهم كُثر ، بل بمقدار المتاح للجيش من السلاح والعتاد . واذا كان في الوسع توسيع نطاق المتاح من السلاح والعتاد للهند ، فالهند وحدها بين بلدان جامعة الأمم البريطانية ، تستطيع ان تزيد قوتها الحربية زيادة لا حدود لها

الا ّ ان قوة الجيش الهندي لا تقاس بعدده وحسب ، بل بمزاياه الحربية العالية كذلك . وفعال فصائله في شتى ميادين القتال تشهد بأن أبناء اليوم خير ورثة للتقاليد الهندية الحربية السامية . وقد كتب الجنرال ويڤل في ما كان للجيش الهندي من نصيب في تصفية

الامبراطورية الايطالية في شرقي افريقية (١٩٤١)ما يلي :—ان شهرة الجنود الهنود لشهرة راسخة من قديم الزمان وهي اليوم في منزلة عالية حقًا في العالم . ان فعالهم حتى الآن جديرة بأعظم ثناء واني لواثق بأنهم سيقاتلون أينما كانوا قتالاً مجيداً

وعلينا ان نذكر ، عند بحث الجيش الهندي وقدرته الحربية ، انهُ ليس جيشاً على الفطرة رث البزة ضعيف السلاح، بل هو جيش مدرب تدريباً دقيقاً ومجهز تجهيزاً يمكنهُ من النزول الى الميدان أمام جيوش العدو المدرّعة . وقد انشئت في الهند مراكز للتدريب ، وابدى المتطوعون قدرة عجيبة على الأخذ بأساليب الحرب الحديثة في شتى نواحيها . وجيش الهند اليوم لا يشتمل على فرق مشاة في درجات متفاوتة من استعمال الأساليب والاجهزة الميكانيكية ولكن هناك كتائب مدرعة وفصائل مواصلات ونقل ميكانيكي . وقد قال دوق دفونشير وكيل وزارة الهند ، في مجلس اللوردات يوم ٣ فبراير سنة ١٩٤٢: ان المعدات الميكانيكية في الجيش الهندي تفوق ما كنا نتصوره قبل نشوب الحرب

ورجال الفنون الحربية (تكنيك) الذين يعتمد عليهم من الهنود اكثر كثيراً الآن مما كانوا في الماضي . ففي الحرب الماضية كانت نسبة هؤلاء ٢ في المائة . أما في هذه الحرب فتبلغ النسبة ٢٠ في المائة . ولعل مثلاً واحد يدل على مبلغ تقدم الجيش الهندي في فنون الحرب الميكانيكية . فالنقل الميكانيكي في الجيش الهندي زاد ١٣٠٠ في المائة على ما كان عليهِ قبل نشوب الحرب . وليس من المبالغة في شيء ان يقال انهُ اذا توافرت للهند الأمداد اللازمة من اصناف الاسلحة الحديثة والمركبات، ففي الوسع تدريب الرجال الذين يحسنون استعمالها استعمالاً فعالاً

قد لا تكون كثرة السكان مصدر قوة حربية ، اذا كانت البلاد التي يقطنونها لا تقيم أوَدهم . عند ذلك تصبح كثرتهم عبئاً حربيًّا كبيراً . ولكن الهند من هذه الناحية في مقام ممتاز . فالبلاد تنتج ما يكفي لغذاء الشعب ويفيض من انتاجها ما يمكن اولي الامر من تموين جيوشها في الخارج

ان مواد الطعام الأساسية في الهند هي الرز والقمح والذرة . والمساحة التي تزرع رزًّا في الهند تبلغ ٧٢ مليون فدان (ايكر) وتنتج ٣٠ مليون طن من الرز في السنة . والمساحة التي تزرع قمحاً تبلغ ٣٥ مليون فدان وتنتج اكثر من عشرة ملايين طن من القمح في السنة . والمساحة التي تزرع ذرة — على اصنافها — تبلغ خمسين مليون فدان . ثم ان الهند في طليعة البلدان التي تنتج السكر . والمساحة التي تزرع فيهـا قصب سكر تبلغ ثلاثة ملايين فدان ونصف مليون وتنتج مليوناً ونصف مليون طن من السكر الابيض في السنة . واذا عدّ التبغ

من الضرورات — وهو في نظر كثيرين كذلك — فان الهند تنتج منهُ كل سنة ٥٠٠ مليون رطل. وتنتج الهند مقادير وافرة من مواد الطعام الأخرى فهي ليست بحاجة الى استيراد الطعام

اما موارد المواد الأولية، فوافرة الغنى ومنها كثير مما يلزم للصناعة الحربية الحديثة. ففي الهند مقادير كبيرة من الحديد والفحم وهما المادتان الاساسيتان في الصناعة. فما يستخرج من الفحم من مناجم الهند يبلغ الآن ٣٠ مليون طن في السنة. ويدلُّ البحث الجولوجي الدقيق على ان في اطباق الارض في مواقع شتى من الهند، مقادير من الفحم الممتاز لاحدَّ لها. فحقل واحد من حقول الفحم في الولاية المتوسطة يقدر فحمه بنحو ١٧ الف مليون طن. اما الحديد فيبلغ انتاجه السنوي ثلاثة ملايين طن. ولكن الحديد المطمور في ارض الهند أعظم مما يدل عليهِ الانتاج السنوي. ففي منطقة واحدة في ولاية «بهار» يقدر ركاز الحديد بنحو ٣ آلاف مليون طن. وركاز الحديد الهندي من طبقة عالية اذ يحتوي على ٦٠ في المائة من فلزّ الحديد. وعلاوة على الحديد والفحم يكثر في الهند معدنا المنجنيس والميكا فثلث المستخرج من المنجنيس في العالم كله يستخرج من مناجم الهند وهو يزيد على مليون طن في السنة. ثم ان الهند اعظم بلدان العالم طرًّا في مقدار ما يستخرج من أرضها من صفائح الميكا وثلاثة ارباع المستخرج من الميكا صفائح وكتلاً مردُّه إلى الهند

ويضاف الى ما تقدم موارد وافرة من البوكسيت (ركاز الاولومنيوم) والكروميت (ركاز الكروميوم). ويقابلهُ فقر الهند في الزنك والرصاص والقصدير والنحاس

وهناك محصولات ضرورية للصناعة كالقطن والجوت والصوف والجلود على أصنافها وكذلك الزيوت النباتية. والهند موطن القطن الاول وهي الآن ثانية البلاد التي تنتج قطناً ومحصولها يبلغ سبعة ملايين بالة في السنة. أما الجوت (القنّب) فلايزال خير المواد وأرخصها لصنع النسيج اللازم لرزم البضائع وشحنها كالأكياس وما أشبه. وعلى الرغم من محاولة علماء الكيمياء استنباط عوض كيميائي للجوت فانهُ لا يزال من غير منافس. وفي انتاج الجوت يكاد يكون مقام الهند مقام محتكر. فمحصولها منه يبلغ تسعة ملايين بالة كل سنة. ومحصول الصوف في الهند محصول كبير ولاسيما الصوف اللازم لصناعة السجاجيد. فالمحصول العالمي لصوف السجاجيد يبلغ ٤٣٠ مليون رطل تنتج الهند منها ١٠٠ مليون رطل. ثم ان ثلث مواشي العالم توجد في الهند ولذلك محصول الجلود فيها كبير جدًّا وهو يشمل عشرين مليون جلد بقرة وستة ملايين جلد خنزير و ١٨ مليون جلد ماعز و ٢٠ مليون جلد ضأن وحمل. ويضاف الى كل ما تقدَّم ان الهند أكبر مورد لزيوت الحبوب في العالم، ومحصول زيت الجوز واللوز والبندق وما اشبه وحده يبلغ ٣٤٠ الف طن في السنة، ويجب ان يضاف اليهِ زيت بذور

الكتان وزيت بذور الخروع وزيت السمسم وغيرها . فالهند تصدر نحو مليون طن من زيوت هذه البذور الى الخارج علاوة على ما يحتفظ به للاستهلاك الداخلي

ومع ان الهند تعد في المقام الاول بين الدول الزراعية الكبرى في العالم ، بأن قدرتها الصناعية الفعّالة والكامنة ، تبلغ مبلغاً لا يستهان بهِ . فمكتب العمل الدولي وضعها في سنة ١٩١٩ في المرتبة الثامنة بين الدول الصناعية . وقد ارتقت الصناعة فيها خلال العشرين السنة التالية ارتقاءً عظيماً بتشجيع الحكومة وحمايتها الصناعات بسن قانونٍ ماليّ لذلك . وهذا التقدم لم يقتصر على اتساع نطاق الصناعات القائمة في سنة ١٩١٩ — ١٩٢٠ بل شمل قيام صناعات جديدة متعددة

وصناعة المنسوجات القطنية هي طبعاً أكبر صناعات الهند . فهناك عددٌ من المصانع الحديثة يحتوي على أكثر من عشرة ملايين مغزل و٢٠٠ الف نول وهي تصنع نحو أربعة آلاف مليون ذراع من النسيج في السنة . ثم هناك صناعة النسيج بأنوال يدوية . وكل النسيج القطني اللازم لملابس الجيش الهندي يؤخذ من مصانع الهند . بل أخذ من هذه المصانع كذلك مقادير كبيرة لملابس الجيوش الامبراطورية في بلدان أخرى . وفي شهر سبتمبر من سنة ١٩٤١ أوصى مجلس جماعة التموين الشرقية Eastern Group Supply Council مصانع الهند بصنع ١٨ مليون ذراع من النسيج القطني لملابس الجيوش الامبراطورية في استراليا وزيلندا الجديدة وجنوب افريقية . وعلاوة على المنسوجات القطنية أعدت مصانع الصوف في الهند ، الحديثة منها والقديمة ، الميكانيكي واليدوي ، كميات كبيرة من أغطية الصوف للجيش الهندي والجيوش الامبراطورية

اما الصلب فقد كانت الصناعة الهندية المنظمة تنتج منهُ قبل الحرب ٧٥٠٠٠٠ طن في السنة . وقد زاد مقدار ما تصنعهُ الهند من الصلب ، بعد نشوب الحرب فأربى على مليون طن وقد يبلغ الآن نحو مليون وربع مليون طن . وفي جمشيدپور مصنع للصلب يُعَدُّ في الطبقة الاولى بين مصانع الصلب الحديثة المتقنة في العالم ، وهو نتيجة تآزرٍ بين أصحاب المال من الهنود والمهندسين الأميركيين . ويزيد ما تنتجهُ الهند من الحديد الصبّ على مليوني طن كل سنة

ان مقدار الصلب الذي تنتجهُ مصانع الهند في السنة قليلٌ جداً بالقياس الى ما تنتجهُ مصانع الولايات المتحدة وهو أقرب الى مائة مليون طن . ولكنهُ مع ذلك كان ذا شأن فعّال في الصناعات الحربية الهندية التي موّنت الجيش الهندي والجيوش البريطانية بغير يسير مما تحتاج اليهِ من بعض معدّات الحرب . والهند تستورد من بريطانيا والولايات المتحدة نحو ٦٠٠ الف طن من الصلب في السنة لسدّ حاجة صناعتها الحربية

وفي ما يلي طائفة يسيرة من الامثلة تبيّن ما ادركتهُ الهند من نجاح في صناعتها الحربية ، استناداً الى مواردها وارتقاء الصناعة الحديثة فيها . كان ما تصنعهُ الهند في بدء الحرب من الاسلحة الصغيرة والذخيرة يبلغ ستة ملايين وحدة في الشهر فبلغ في أوائل ١٩٤٢ ستة عشر مليون وحدة ونصف مليون وحدة في الشهر . ومصانع الملابس تصنع الآن ثمانية ملايين ثوب في الشهر للجيش . وبلغ ثمن ما اشترتهُ الحكومة في الثمانية عشر شهراً الأولى من الحرب من المنسوجات للجيش ٤٤ مليوناً من الجنيهات . وابتاعت في الوقت نفسهُ اربعة ملايين زوج من الأحذية. وكانت الهند تجهز الجيش بخمسة وعشرين في المائة من المواد الطبية اللازمة للجيش فهي تجهزه الآن بستين في المائة منها . ويقدر عدد المواد اللازمة لتجهيز جيش حديث بنحو خمسين الف مادة ، تصنع الهند سبعة وثلاثين الفاً منها .

وفي خلال السنتين الماضيتين زاد ما اصدرتهُ الهند من المواد المصنوعة او نصف المصنوعة زيادة كبيرة . فقد كانت قيمة صادرها في سنة (١٩٣٨ — ٣٩) ٤٧٥ مليون روبية فأربت في سنة ١٩٤٠—١٩٤١ على ٨٠٠ مليون روبية . واذا كانت الولايات المتحدة وبريطانيا ترسانتي الدول المتحدة الكبيرتين ، فان الهند ترسانة عظيمة الشأن كذلك

ولكن الهند مع ذلك مضطرة الى الاعتماد على الولايات المتحدة وبريطانيا ، في الحصول على كفايتها من الآلات اللازمة للمصانع ، وعلى مقادير وافية من أصناف الصلب الممتاز اللازم في صناعات حربية خاصّة . ثم انها لا تصنع محركات الاحتراق الداخلي ولا أجهزة المخاطبات اللاسلكية . ولكن اذا كانت محركات الاحتراق الداخلي الكاملة لا تصنع فيها ، فان اجسام من سيارات النقل Turcks تصنع فيها على أوفى وجهٍ . وهذه القدرة ذات شأن عظيم في النشاط الحربي العام للدول المتحدة . فانهُ يخفف العبء عن المصانع الاميركية والبريطانية ويوفر المساحات التي تشغلها سيارات النقل الكاملة او اجسامها في سفن النقل . اذ يكتفى بارسال المحركات الى الهند ومصانعها تنجز الباقي . ولابد ان يفضي تطبيق قانون « الاعارة والتأجير » على الهند الى زيادة قدرتها على الانتاج الصناعي الحربي

واتساع نطاق الصناعة في بلدٍ ما لا يقتضي توسيع نطاق تموينهِ بالمواد الأولية وآلات المصانع وحسب ، بل يقتضي كذلك زيادة رجال الصناعة الفنيين . والهنود صناع مهرة ، وفي بريطانيا الآن طوائف منهم يتدربون على ادق الأعمال الصناعية وفقاً لمشروع وضعه ارنست بفن وزير العمل . وهؤلاء سيعودون الى الهند عندما يتمّون فترة التدريب . وفي الهند نفسها اكثر من ٣٠٠ مركز لتدريب الصناع التقنين ، وقد درب فيها الى مستهل هذه السنة نحو ٤٨ الفاً منهم

(ملخصة عن مجلة « الشؤون الدولية » للسر شانموخام شتي رئيس الجمعية التشريعية الهندية سابقاً)

ابن الهيثم

والطريقة العلمية في البحث

لمصطفى نظيف بك(١)

من الشائع المتواتر أن البحث العلمي على الطريقة العلمية الحديثة لم يبدأ في تاريخ تطور الفكر الانساني إلاّ بعد عصر النهضة في اوروبا . وينسب أكبر قسط من الفضل في نشوء طريقة البحث الحديث الى « فرنسيس باكون » (١٥٦١ — ١٦٢٦) أحد فلاسفة الانكليز وكتّابهم ، فهو يعد أول من بيّن أن الطريقة المثلى هي الاعتماد على الحقائق المشهودة ، والذي في جمع المشاهدات وتبويبها وترتيبها ، بغية الوصول بالاستقراء الى المعلومات التي تتفق والواقع . والاستقراء من الدعائم الأساسية التي يقوم عليها العلم الحديث

ولكن طريقة باكون في قصر البحث العلمي على المشاهدة والتجربة ، وجمع المشاهدات ونتائج التجارب ، طريقة ضيقة محدودة ، تجعل من الباحث آلة تشاهد وتجمع وتبوّب ، وتفقد العلم سموّه وتهوي بهِ الى مجرد الوصف . وأيضاً فان « باكون » ولو انهُ قد غالى في الاشادة بطريقته ، وأسهب في بيان مزاياها ، ووضع فيها كتباً ومؤلفات ، فانه لم يقم هو نفسه ببحث سلك فيه هذه الطريقة ، يصح أن يتخذ مثالاً ينهج على منهاجه

وسرعان ما اتضح أن طريقة « باكون » لاتتوافر فيها جميع العناصر اللازمة في البحوث العلمية . ففي البحث الحديث يبتدأ بمشاهدة الأمور الطبيعية على ما هي عليه في الواقع ، ويلي ذلك جمع الحقائق المشاهدة وتبويبها وترتيبها ، لكن لا لمجرد الجمع والتبويب والترتيب ، وإنما للبحث بتمحيصها عن علاقة تربط بين تلك الحقائق ، قد نسميها قانوناً طبيعيًّا ، وقد نسميها نظرية علمية . والأمر لا يقف عند الكشف عن هذه العلاقة . فاذا ما تمّ الوصول اليها تستنبط بالقياس النتائج التي تفضي اليها . ثم يبحث عن صحة تلك النتائج ومطابقتها للواقع بالمشاهدة أو بالتجربة . فاذا تحققت تلك النتائج على هذه الصفة كان ذلك دليلاً على صحة تلك

(١) من كتابه « ابن الهيثم : بحوثه وكشوفه البصرية » . راجع صدر مكتبة المقتطف في هذا الجزء

العلاقة . واذا وجدت غير متفقة ونتائج المشاهدة أوالتجربة ، محصت تلك العلاقة علّها تقبل التعديل أو التنقيح بما يجعل نتائجها القياسية متفقة والواقع . وان تبيّن قصورها نبذت وطرحت جانباً ، وجرى البحث عن علاقة أخرى تكون أصلح وأنسب . وفي الكشف عن هذه القوانين أو النظريات ، وتصورها وصوغها في الصيغة المناسبة ، تتجلى ناحيةٌ من النشاط الفكري لا يعنينا كثيراً أن تسمى إلهاماً أو ذكاءً أو عبقرية . ورائد الباحث في كل طور من هذه الأطوار المتعاقبة ، اقرار الحقائق كما يجدها ، دون أن يكون لنزعةٍ من النزعات ، أو هوًى من الأهواء ، أثر يلوّنها بلون خاص أو يكيفها على صورة خاصة . وأحياناً يستعان في الكشوف العلمية بالتمثيل « الانالوجي » فيهتدى على منوال القريب المعلوم الى معرفة البعيد المجهول

تلك بايجاز الطريقة الحديثة في البحث العلمي . وعناصرها الثلاثة هي الاستقراء والقياس والتمثيل ، ويلتئم بعضها بالآخر على وتيرة ، يصح أن نقول انها تميز البحث الحديث ، وتختلف فيها أوضاع هذه العناصر وقيمها النسبية عن أوضاعها وقيمها النسبية في البحوث القديمة . فالاستقراء مثلاً ولم يكن يعنى به العناية التامة في الفلسفة القديمة أصبح ذا الشأن الاول . والتمثيل ولم يك وسيلة معتمدة أصبح اداة نافعة . والقياس الذي كانت له المنزلة الاولى أصبح اداة يأتي دورها بعد الاستقراء ، ولا يبت في امر النتائج القياسية حتى تتحقق بالتجربة او المشاهدة

***

هذه الطريقة في البحث التي تعد من مبتكرات العصر الحديث هي الطريقة التي لا نتردد في أن نقول ان ابن الهيثم اتبعها في بحوثه وكشوفه الضوئية. وهذه ناحية من نواحي ابن الهيثم لم يتناول بيانها على ما نعلم احد . وهي جديرة بالاشادة وجديرة بالتقدير. فابن الهيثم اخذ في بحوثه بالاستقراء ، وأخذ بالقياس ، وعني في بعضها بالتمثيل ، وأخذ بهذه العناصر على المنوال المتبع في البحوث الحديثة ، وجعلها في منازلها النسبية التي تراعى في الوقت الحاضر . وهو في ذلك لم يسبق « فرنسيس باكون » الى طريقته الاستقرائية (وتعرف احياناً بالطريقة « الباكونية ») فحسب ، بل سما عليه سمواً وكان أوسع منهُ أفقاً وأعمق منهُ تفكيراً . وان لم يعن كما عني باكون بالتفلسف النظري وبتأليف المؤلفات التي يعرض فيها الآراء النظرية في طرق البحث ويلزم العلماء بها الزاماً ، فحسبه انه اتبع الطريقة الصحيحة في بحوثه وجرى عليها عملاً وفعلاً وان الامر جاء منه عن بينة وروية وامعان فكر وحسن تقدير

ويتبين ذلك اجمالاً من مقدمة كتاب المناظر . ففيها بين ابن الهيثم بايجاز الطريقة التي هداه تفكيره الى أنها الطريقة المثلى في البحث والتي اتبعها في بحوث كتابه . وتفصيل الأمر ان المتقدمين من اصحاب التعاليم والفلاسفة الطبيعيين كانوا منقسمين في كيفية الابصار فريقين ، اصحاب التعاليم ويذهبون الى ان الابصار يكون بخروج شعاع من البصر الى المبصر ، والفلاسفة الطبيعيين ويذهبون الى انه بورود صورة المبصر او شبحه من المبصر الى البصر . فكان هناك إذن مذهبان متضادان ، او اذا استعرنا الاصطلاحات الحديثة كانت هناك نظريتان متناقضتان . وكان لكل فريق مقاييس واستدلالات وطرق أدت بهِ الى التمسك بمذهبه واعتقاده

وابن الهيثم يبدأ في الفصل الاول من مقالتهِ الاولى من كتاب المناظر بتحليل هذا الموقف ، الذي كثيراً ما يعرض مثلهُ في العلم الحديث فيقول بلفظه : —

« وكل مذهبين مختلفين اما ان يكون احدهما صادقا والآخر كاذباً ، واما أن يكونا جميعا كاذبين والحق غيرهما جميعا ، واما أن يكونا جميعا يؤديان الى معنى واحد هو الحقيقة ، ويكون كل واحد من الفريقين القائلين بذينك المذهبين قد قصر في البحث ، فلم يقدر على الوصول الى الغاية فوقف دون الغاية ، أو وصل احدهما الى الغاية وقصر الآخر عنه ، فعرض الخلاف في ظاهر المذهبين ، وتكون غايتهما عند استقصاء البحث واحدة . وقد يعرض الخلاف ايضا في المعنى المبحوث عنه من جهة اختلاف طرق المباحث ، واذا حقق البحث وأنعم النظر ظهر الاتفاق (وانسفر) (١) الخلاف »

ثم هو يعقب على ذلك ببيان الخطة التي اتبعها للفصل بحكم قاطع بين النظريتين المتناقضتين فيقول : —

« ولما كان ذلك كذلك ، وكانت حقيقة هذا المعنى مع اطراد الخلاف بين اهل النظر المتحققين بالبحث عنه على طول الدهر ملتبسة ، وكيفية الابصار غير متيقنة ، رأينا ان نصرف الاهتمام الى هذا المعنى بغاية الامكان ونخلص العناية به ونتأمله ، ونوقع الجد في البحث عن حقيقته ، ونستأنف النظر في مباديه ومقدماته »

ثم مضى يبين كيف يكون البحث وكيف يكون استئناف النظر في المبادىء والمقدمات . فقال وكأننا ننقل من كتاب في فلسفة العلم الحديث : —

« ونبتدىء في البحث باستقراء الموجودات وتصفح احوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الابصار ، وما هو مطرد لا يتغير ، وظاهر لا يشتبه من كيفية الاحساس ، ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب مع انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج

(١) في الاصل (استقر) وهو خطأ من الناسخ

ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء »

في هذا القول الموجز جمع ابن الهيثم بين الاستقراء والقياس ، وقدم فيه الاستقراء على القياس ، وحدد فيه الشرط الأساسي في البحوث العلمية الصحيحة ، وهو أن يكون الغرض طلب الحقيقة، دون أن يكون لرأي سابق أو نزعة من عاطفة أيًّا كانت دخل في الأمر ، ثم اقرار تلك الحقيقة على ما هي عليه حتى اذا وجدت على غير ما كنا نتوقع ، أو جاءت على غير ما كنا نبغي ونأمل

***

ولكن ما هي تلك الحقيقة التي يرجى من السلوك في مثل هذا السبيل الوصول اليها ، وهل هذه الطريقة التي رسمها تؤدي حتماً الى معرفة الحقيقة، وهل طبيعة الفكر الانساني من شأنها أن تؤدي به الى معرفة الحقيقة ؟

مثل هذه الأسئلة شغلت العقول من أقدم عصور الفلسفة الى وقتنا الحاضر ، وهي من الأسئلة التي تختلف الاجابة عنها بحسب اختلاف المناحي الفلسفية ، وهي من الأسئلة التي للعلم الحديث فيها رأي . فالحقائق العلمية ليست غايات ينتهي اليها العلم ، ويقف عندها التصوُّر ، وليست ثابتة دائمة كأنها مسطرة في لوح محفوظ لا يعتريها التبديل والتغيير . وإنما هي على نقيض من هذا . فبينما نرى النظرية العلمية صحيحة في وقت من الأوقات لأنها توافق معلومات ذلك الوقت، اذا بنا نجدها قد عدّلت وحوّلت ، أو قد نبذت وطرحت واستبدلت بها غيرها تكون أصلح وأكثر ملاءمة للمعلومات في وقت آخر . وتاريخ العلم غني بالأمثلة على هذا . وإن كان الأمر كذلك فما قيمة الآراء أو النظريات العلمية أو تلك المعاني التي نسميها حقائق علمية ؟ لا نخطىء اذا قلنا ان قيمتها أنها تغنينا عن مجلدات لا تنفد ، يريدنا « فرنسيس باكون » أن نتخذها سجلات ندوّن فيها مشاهداتنا عن ظواهر العالم . قيمتها أنها أحكام موجزة بليغة نجمل فيها ظواهر الطبيعة ، ونستطيع أن نستنبط منها تفصيلات تلك الظواهر وما يترتب عليها . قيمتها أنها وسائل لا غايات اذا استعنا فيها بالقياس أدت الى نتائج ، يزداد بها العلم ويتسع بها أفقه . قيمتها أنها يستطيع الانسان بالاهتداء بها أن يكيف ظروفه وملابساته لمآرب حياته الخاصة والعامة والقومية . قيمتها أن في الانقطاع للبحث عنها وكشفها لذة عقلية أو متعة للنفس ، وجدها كثير من العلماء جديرة بأن يضحَّى في سبيلها بالثروة وبالصحة وبالحياة نفسها

قد يكون من التعنت أن نطالب ابن الهيثم برأي يتفق ومثل هذه الآراء التي هي من نتاج العصر الحاضر . ولكننا نرى في الوقت نفسه انه ليس من الانصاف لابن الهيثم أن نغفل له آراء قررها ، تتجه نحو هذه الآراء الحديثة . فابن الهيثم يعقب على أقواله التي أوردناها آنفاً ببيان ما تؤدي اليه الطريقة التي رسمها لكي يسلكها في مباحثه . فهو أولاً لا يجزم قطعاً بأن تلك الطريقة توصل الى الحقيقة وانما يؤمل ويرجو رجاء العالم المتواضع فيقول : —

« فلعلنا ننتهي بهذا الطريق الى الحق الذي به يثلج الصدر ، ونصل بالتدريج والتلطف الى الغاية التي عندها يقع اليقين ، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات »

ألا يدل هذا القول على أن الحقيقة التي يبغيها هي التي تتفق والمعلومات المعروفة وهي التي تصلح لربط تلك المعلومات ربطاً محكماً ، لا تناقض فيه ولا تباين ، تزول به وجوه الخلاف والاعتراض ؟ أليست تلك الحقيقة هي النظرية العلمية بمعناها الحديث ؟ أليست الحقيقة التي يتوج بها ابن الهيثم كتاب المناظر الصورة الصادقة للنظرية العلمية بكل ما فيها من حسنات ومساوىء وبكل ما فيها من ميزات وبكل ما فيها من نقص وقصور ؟ أليست نظريته في الابصار أصلح نظرية توافق معلومات عصره وتوحد بين تلك المعلومات ، وتؤدي الى نتائج تتفق وتلك المعلومات ، وتنظم جميع أمور الابصار التي كانت معروفة في وحدة واحدة شاملة ؟ أليست قد أفضت الى اتساع ميدان علم الضوء بما ترتب عليها من البحوث الفرعية التي أجراها هو نفسه وكانت متعلقة بها ؟ أليست مع ذلك نجدها الآن قاصرة عن الاحاطة بما استجد من المعلومات والكشوف في العلم الحديث ؟ أليست قد اعتراها التعديل والتبديل وتطورت تبعاً لتطور العلم وتقدمه ؟ ألا يعبر ابن الهيثم بقوله « الحق الذي به يثلج الصدر » عن اطمئنان النفس ومتعة العقل اللذين هما عند العلماء البحاثين الجزاء الأوفى الذي يبغون من البحث والانقطاع للعلم ؟

وفوق كل ذلك فابن الهيثم نفسه قد ختم كلامه الذي أوردناه هنا بقوله : —

« وما نحن مع جميع ذلك برآء مما هو في طبيعة الانسان من كدر البشرية ولكننا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الانسانية ، ومن الله نستمد المعونة في جميع الامور »

ألا يدل هذا على ما في العقل الانساني من قصور ، أو على ما في مجال نشاطه من قيود ، أو على قصور المعلومات التي في طاقة العقل إدراكها ، أو على عنصر « الاضافة » في المعرفة الانسانية ؟

بل ان ابن الهيثم قد عمق تفكيره الى ما هو أبعد غوراً مما يظن أول وهلة ، فأدرك ما قال بهِ من بعده « ماك » و « كارل بيرسون[١] » وغيرها من فلاسفة العلم المحدثين في القرن العشرين . أدرك الوضع الصحيح للنظرية العلميـــة وأدرك وظيفتها الحقة بالمعنى الحديث . وحسبنا هنا أن نستشهد على ذلك بما رواه البيهقي[٢] عنهُ . قال : —

وكان (ابن الهيثم) يقول في بعض رسائله — تخيلنا أوضاعاً ملائمة للحركات السماوية فلو تخيلنا أوضاعاً خرى غيرها ملائمة أيضاً لتلك الحركات لما كان عن ذلك التخيل مانع ، لإنه لم يقم البرهان على أنه لا يمكن أن يكون سوى تلك الاوضاع أوضاع أخر « ملائمة مناسبة لهذه الحركات »

ابن الهيثم قد وفق في اختيار المثال . فعلم الفلك القديم كان الى عصر « كوبرنيكوس » يقول بنظرية بطليموس في حركات الأجرام السماوية . فكانت الأرض تعد ثابتة في المركز والنجوم الثوابت تتحرك حول قطب العالم حركة مستديرة . وكانت الكواكب السيارة يعد الواحد منها متحركاً حول محيط دائرة يتحرك مركزها حول الارض حركة مستديرة . تلك بايجاز نظرية بطليموس . حقيقةً ان النظرية كانت تقتصر في هيئة الأفلاك على الدوائر المجردة وابن الهيثم في مقالتهِ « في هيئة العالم » عدّلها وذهب الى القول بتجسم الأفلاك وفصل أحوالها ، ولكن هذه تفصيلات لا شأن لنا بها هنا . الذي يعنينا أن هذه هي الأوضاع التي تخيلت للحركات السماوية ، وهذه كانت النظرية المتبعة . ابن الهيثم يقرر أن مثل هذه النظرية لا يوجد برهان يحتمها وقولهُ يفيد صراحة أن مثل هذه النظرية يؤخذ بها اذا كانت ملائمة للواقع من تلك الحركات . وأجاز قيام نظرية بجانب نظرية أخرى ما دامت هي أيضاً تلائم وتناسب الواقع المعلوم . وهو في تفكيره هذا قد أجاز استبدال النظرية الفلكية الحديثة بنظرية بطليموس قبل أن يضطر العلم الى ذلك بقرون . بل هو قد أجاز الموقف الذي يقفهُ علم الطبيعة الحديث في الوقت الحاضر ازاء نظرية الكم والنظرية الموجية مثلاً .

ليس من العبث اذن أن نقول اننا نستطيع أن نتبين من نصوص أقوال ابن الهيثم أن تفكيره اتجه الى الوجهة التي يتجه اليها التفكير العلمي الحديث ، وليس من المغالاة أيضاً أن نقول انهُ قد أدرك عن بينة الطريقة الحديثة في البحث العلمي ، وأدرك الأوضاع الصحيحة لما نسميه الحقائق العلمية . هذا مجمل الأمر ويبقى بعد ذلك أن نبين ان ابن الهيثم قد سلك فعلاً في بحوثه التي هي موضوع هذا الكتاب الطريقة الحديثة في البحث وانهُ وصل بسلوكه الى الحقيقة التي ينشدها بالمعنى الذي رآه

(١) في كتابه The Grammar of Science

(٢) تتمة صوان الحكمة للبيهقي ويقول (ان هذه الرسالة آخر تصانيفه)

كما نكون يكون عالمنا

للفيلسوف برتراند رسل

ان العالم اليوم حافلٌ بالآلام . وما عقدهُ البشر من أمل على المستقبل قد خاب . وبدلاً من ان يمضوا في طريق الارتقاء ارتدُّوا القهقرى الى الهمجية القديمة . فكيف نستطيع ان نجتنب الشعور بخيبة الأمل وانقطاع الرجاء وثبط الهمة ؟ ما فائدة تربية الأولاد اذا كان العالم دارة لايطاق العيش فيها ؟ وهل كل أمل ورجاء في سعادة الناس وتقدمهم ضرب من الوهم والخداع ؟

إنني لواثق بأن الرد الصحيح على هذه الاسئلة ليس في الاستسلام للقنوط

قد يبدو لك من الغرور ان تظن ان في وسعك اسداء يد عظيمة لتحسين أحوال الناس. ولكن هذا الظن وهمٌ . فعليك ان توقن بأنك قادر على تحسين العالم . ان الاجتماع الخيِّر قوامه افراد اخيار ، كالكثرة التي تنتخب الرئيس قوامها اصوات الأفراد من الناخبين . وفي وسع كل امرىء ان يسدي صنيعاً ببثّ شعور اللطف والرضا في بيئتهِ بدلاً من تحريك روح السخط والغضب ، وبتعزيز الميل الى التعقل دون الميل الى الهستريا ، وبنشر السعادة والرخاء بدلاً من البؤس والشقاء . ومجموع هذه الأعمال هو الفارق بين الخير والشر في العالم . فاذا كنت قطباً سياسيّاً كانت بيئتك كبيرة . واذا كنت أحد الناس ، كانت بيئتك محدودة . ففي الحال الأولى تستطيع كثيراً ، وفي الثانية تستطيع قليلاً ، ولكنك على كلّ حال تستطيع ويجب ان تصنع شيئاً ما . فكل والد أو والدة ، ينشئ ولدهُ بحيث يكون أميلَ الى التعقل والدماثة ، انما يعمل ما يجب أن يعمل لاصلاح العالم وإقامة أركان السعادة فيهِ . وكلٌّ من يقاوم النزوع الى التعصب ، وهو نزوع يُحيق بنا جميعاً ، يضع لبنةً في بناءِ مجتمع تستطيع الجماعات المختلفة فيهِ أن تعيش في مودّة متبادلة . قد تقول : ما أقلّ ما يستطيعهُ امرؤٌ واحد ضدّ شرٍّ كبير ! ولكن الشرور الكبيرة ، مردُّها الى اجتماع شرور صغيرة . والخير العظيم ينشأ على المنوال نفسهِ

وقد تقول : مايستطيعهُ امرؤٌ فردٌ ضدّ العالم . ولكنك لو كنت شريراً لكان نصيبك من الشر الأكبر يسيراً كذلك . فالخير والشرُّ على السواءِ ينبعان من أعمال الافراد ، ولا يقتصر ذلك على الأفراد المميزين بل يشمل جميع الرجال والنساءِ الذين تتقوَّم الجماعات بهم

ليس في تاريخ العالم فترة سابقة ، كان فيها فكرُ كلّ فردٍ وضميرهُ ، أعلى منزلة وأعظم أثراً منهما الآن . فكلٌّ منا في حاجة الى ان يبذل سعياً صادقاً لإِنشاءِ حالةٍ أصلح قليلاً من حالتنا القائمة . ويجب ان يحدونا رجاءٌ في عالم أقلَّ قسوةً وألماً من عالمنا الحاضر ، ويجب ان يحركنا عزمٌ صلبٌ على بذل غاية ما في الوسع لتحقيقه . ان مكافحة القوى المندفعة العظيمة المنبثقة من روح التعصب مستحيلة ، بغير ان تحركنا قوة اخرى تعدلها عزماً واندفاعاً

ان في قدرتنا ان نناهض الظلم ، والتحامل، والكذب، والقسوة . ولكن لا يكفينا في ذلك ان نمضي في طريقنا يفيض هذا الخير الغامض منا على شفاهنا وحسبُ . فالانفعال المتحرك في اعماق نفوسنا يجب ان يدفع الى حركة ، متصلة بطريقة ما ، مهما تكن غير مباشرة ، لإنشاء عالمَ اصلح من عالمنا هذا

واذا شاءَ أحد ان يحتفظ باتزانه وصحة حكمهِ في ازمنة الكوارث فعليه ان يذكر ما في العالم من خير ، ذكرَهُ ما فيه من شر . والطريقة الوحيدة التي تهوّن علينا الشرور العظيمة وتعيننا على تحملها ، هي ان نجد العزاء في ذكر خير عظيم . واذا كان هناك طريق يخرج بنا من هذا القنوط المرخي سدوله فذلك هو طريق تذكر النعم الكثيرة لا نسيانها ، وتوسيع افق النظر لا تضييقه ، وإرهاف حسنا لأدراك الخير بدلاً من الاقتصار على تبيُّن الشر

ان البشر مزيج غريب من الالهي والشيطاني ، وهذا يجعل الخير والشر في الحياة لا مفرَّ منهما . فالقنوط التام ليس اقرب الى التعقل من التفاؤل الاعمى . والحياة ليست حافلة بالألم والقسوة وحسبُ . بل هي حافلة كذلك بالشعر والموسيقى والحب والتوق الذي يرتفع مجنحاً فوق الألم ، مبيناً عظمة مجد الانسان عند ما يكون الانسان أفضل ما يكون ، موحياً الينا بأن نتوخى ما هو نبيل في الحياة ،وأن ننصرف عن كل حقير خسيس . هناك الآيات السامية التي تجلو مآثر الانسان العقلية — ما تعلمناه من أساليب الطبيعة وكشفناه من خفاياها، وقدرتنا على التأمل في الكون الذي لا يحدّه زمن ، فتبدو دوامات الزمن الحاضر ،صغيرة يسيرة الشأن ، في سعة الكون العظيم . وهناك الشجاعة والصبر في أخلاق ملايين من الناس، وآيات البطولة العالية في ما لا يحصى عدده من المنازل الحقيرة في طول الدنيا وعرضها . وهناك مجدٌ وبطولة في خدمة الانسانية ، يتجليان في الأطباء والممرضات الذين يعرّضون انفسهم للموت في الأوبئة الحاصدة ، والعلماء الذين يغامرون بحياتهم في تجارب غرضها انقاذ الغير من الألم ، وفي فعال رجال المطافىء وفرق الانقاذ على السواحل ، وفي مواجهة الاستنكار العام في سبيل قضية يؤمن المرءُ بها . ان ألوان البسالة والبطولة لا تحصى !

في التاريخ ،فترات كثيرة غلب عليها الخير، واخرى غلب عليها الشر. ولكن فترة واحدة منها لم تدم . ومن سوء حظنا أننا نعيش في فترة يغلب الشر عليها . ولكنها الى أمد وستنتهي . ولا ريب في أن أمدها يقصر بقدر ما يبذلهُ كل فرد في سبيل الخير

فالرجل الذي يغريهِ القنوط أقول لهُ : ذكّر نفسك بأنهُ كما نكون يكون عالمنا . وأن كلاً منا عليهِ قسط يوفيه لإنشاء هذا العالم . هذا الفكر يبقي مصباح الرجاءِ مضيئاً . وبالرجاء ، لا تنتفي آلام الحياة ، ولكنها تستهدف غرضاً جديراً بالبذل والتضحية في سبيلهِ

حديقة المقتطف

رابندرانات تاجور

الفصل الرابع

تاجور في الحياة والاخلاق
والمدنية والسياسة والمرأة والادب والدين



لمحمود المنجوري

تاجور في الحياة والاخلاق

والمدنية والسياسة والمرأة والادب والدين

— ٢ —

لمحمود المنجوري

يعتقد تاجور ان النزاع بين الروح والجسد ليس من المسائل الفلسفية النظرية التي لا تؤدي عملاً حاسماً في توجيه الحياة البشرية ، وهو مؤمن بان هذا النزاع قد يؤدي الى دمار العالم وانهيار المدنية اذا ما تغلب الحيوان الذي في الانسان على مُثل الروح العليا ، عندئذٍ ينقلب العالم جحيماً آليًّا لا إلـه فيهِ ولا روح، وعندئذٍ يسود البطش وتقوم مدنية القيود وينمحي القلب والوجدان من هذا الانسان العاتي الجبار اذ يعود بمدنيته الى نوع جديد من الرق ويصبح الفرد وفي أسس ثقافته الشغفُ بالاستعباد فيستعبد الغير — وويل للعالم اذا ساده اله بشري !

لقد ارتاع تاجور عندما زار اوربا عقب حرب سنة ١٩١٤ اذ وجدها ترقص فوق البركان، تتنازعها المبادىء الجديدة الفتاكة ، وعندما وجد اعصاب الشباب تلتوي في ايدي الزعماء وقادة التخريب والدم ، فبكى على مدنية هي خير تراث بشري ، وأشفق على ما فيها من علوم هي ذخر لا يقدر بثمن . وأخذ يحدث الامم والشعوب ويطوف بالقادة والملوك ليوجهوا المدنية الغربية وجهة الخير والانسانية ولينزعوا بها نزعة الروح والحق والجمال ، وطلب اليهم ان يَـقتلوا هذا الحيوان الثائر في الانسان وان يتخذوا من وداعة الشرق وفلسفته قيم مدنية روحية خالدة . ولكن فيلسوف الشرق ترك اوربا وقد أنذرها بحرب طاحنة ستثور ما دعا داعي الدمار في سبيل العصبية والجنس والدم . ثم ذهب الى اميركا لعله يجد في الاميركيين آذاناً صاغية ، فأخذ يحدثهم ويحاضرهم ويستثير شغفهم وتطلعهم الى المدنية وما فيها من جمال روحي . ويطلب اليهم انْ يغلبوا الروح في مدنيتهم وان يحدوا من كبريائهم عند ما يذكرون انهم حرروا العبيد من أهل بلادهم الاصليين (١)

« حينما نـكون أنفسنا عبيداً لشهواتنا الذاتية نشعر براحة في حيازة العبيد ، لان الرق الذي في أنفسنا يعكس صورة من عبوديتنا على اعمالنا فنرتاح اليه كما يرتاح المتألم الى ألم الجوع الذي اعتاده »

ثم يخاطب الاميركيين أنفسهم :

(١) الفقرات التالية من محاضرات تاجور في اميركا

« حين حررت أميركا عبيدها ، كانت في الواقع تحرر نفسها هي الاخرى تحريراً روحياً ومادياً معاً ، لانها وهبت حرية الارادة لقوم بتروا عن الحياة ، ولان تحقيق حرية الارادة للغير هو أعظم نوع من أنواع التفاهم والانسجام والحب ، اذ نكون قد خلقنا أصدقاء جدداً تتقابل ارادتنا مع ارادتهم في حرية كاملة وصفاء تام بعيد عن فرض شخصيتنا عليهم وعن الاثرة والخوف وقيود الواجبات — ان الشعور بهذا هو الحب الانساني في أسمى معانيه »

وهذه هي المعاني السامية التي أعلنها ايضاً تاجور للهنود يوم صام غاندي في سبيل تحرير المنبوذين من أهل الهند لِرَدّ اعتبارهم والاعتراف بشخصيتهم كأفراد لهم حقوق الانسان كاملة (١)

على ان الرق الذي رفعهُ الانسان عن كاهل الانسانية قد استقرَّ بكيانهِ في صميم الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، لان المدنية الغربية تأباه باسمه ولكنها تقبلهُ بأثره ومعانيه ، ولا ترى فيه تناقضاً مع مبادئها التي نهضت على الأثرة والأنانية وتنازع البقاء

« لقد مرت على العالم عواصف طغيان شديدة من الكذب والتغرير والرياء خلفت في جسم الانسانية جروحاً دامية لا تبرأ ، ومن الصلف والكبر والغرور الذي اتخذ الاديان مطية اعتلاها لاذلال الناس ، ومن بطش المادة التي تعمل لاذلال الروح العليا التي في الانسان . لقد مرت على العالم هذه الآثام الطاغية وتسربت في جنباته أجيالاً مفعمة بالخطيئة والآلام . ولقد خرج الانسان من هذه المآسي مجروحاً مبتوراً وقد شوهته أيدي الظلم والطغيان وتركته عاجزاً عن العمل . فكم من جموع من بني البشر قد شوهم الطغيان وتركهم في عجز وعوز ، هم يزحفون كالحشرات على سطح هذه الدنيا عاجزين عن العمل يقاسون متاعب العيش ومذلة الرق في أرض الحرية والمدنية والسلام ، وكم زرعت في حقول هذا العالم التاسعة بذور الملذات الفردية التي سمدت بدماء العبيد وسقيت من عرق جباههم الذليلة ، وكم أقيمت في هذه الدنيا ثروات نهضت على بطون الجياع وأكتاف الجماعات الشاردة المحرومة ، ولكم اتخذ الطغيان جماعات من البشر تكأة للوصول الى ذروة اللذة والمادة ثم تركها جائعة محرومة . لقد مرت هذه المذلات على الانسانية ويلات متوالية — واني لأقف الآن امامكم ايها الاصدقاء الاميركيون وأسألكم هل استطاعت هذه الروح الطاغية ان تقيم لها ملكاً ثابت الاركان ؟ ألا ترون ان هذه الروح قد ردت على أعقابها وهزمت كلها بدأت ترفع رأسها ؟ انها لذليلة في كبريائها ، وستسحق رأس الافعى الشامخة كلما سار العالم في طريق الوحدة الروحية وتقدم الى سبيل الحياة الكريمة ، وستهتز هذه الحقول المرتوية بدماء الضحايا من البشر وستزدهر بنبت جديد تملأ الدنيا بهجة ويفعم قلب الانسانية محبة ووحدة وجمالاً ، ألا لعنة الله عليك أيتها الروح الانانية الشريرة التي انحرفت بالعالم عن طريق الخير والسلام ! حسبك من عار وقصاص ان يضرج جبينك بلعنة الانسانية الخالدة ؟ »

« غلبوا روح الله في أنفسكم ايها المتمدينون . واعلموا ان الحيوان الذي في اجسادكم انما هو قوة قانعة بزوالها المحتوم ، واما الروح فهي أمر الهي لا تهاب نظام الحياة ولا تخشى القيود ، ولا حدود القوة ولا بطش الطغيان — لانها لا تؤمن بها ولا تجد قوتها في العضلات المفتولة والآلات القاتلة ولا في مهارة الجند ولا في خداع الحرب ، وانما قوتها كامنة في ذاتها وفي اتصالها بعالم الكمال الاسنى

« ان الروح التي فينا لتعلم ان قيود اليوم ستزول وتفنى . وأما الغد ، الغد الجليل فيطوي في أحشائه الخلود الباقي . ان الروح التي فينا عديمة الحلول فيما يبدو لنا ، هي كالطفل في حجر أمه اذا ارسل دموعه منهارة ، كانت عليها عزيزة تمس موضع العطف وملمس الحنان من قلبها ، فتهوي اليه عاطفة مشفقة ، وان الام العليا التي تجدها روحنا الطفلة « الكل الجامع اللانهائي » لتتدفق علينا وتسرع الى نجدتنا وتبعث الينا العزاء والعون وان اشتدت بنا الظلمة واسود امامنا الليل »

(١) راجع المقتطف : المجلد المائة ص ٣٨١ ، للمنجوري

« ان تاريخ الدنيا هو تاريخ الزلازل والبراكين وثورة الفيضانات والحروب ، ولكن على الرغم من ذلك فهو تاريخ الحقل الناضر والماء الجاري والخير العميم . سينتقل العالم من طور البراكين والزلازل الى طور الحقول والجمال الدائم ، وسيتخطى العالم الروحي طور الطفولة المملوء بالخطى العاثرة ، وينهض قوياً شاباً معتزاً بجماله فخوراً بقوته وحريته »

« ان الالم لدليل الحياة ومبعث التطلع الى الحرية ، انه لاكبر أمل للانسانية ان يكون الالم عنصراً يقظاً في حياتها . الالم هو لغة عدم الكمال ، ولكنه الامل في الكمال . ان ألفاظ الالم لتحمل معنى الثقة بالكمال ، كصراخ الطفل ليس له معنى اذا لم يكن للطفل ايمان بأمه — فايماننا بالكمال هو الذي يوقظ شعورنا بالالم — وهو الذي يجعلنا كرماء نجود بنفوسنا لتحقيق المثل العليا في الحياة . ولن نصل الى المثل العليا الا اذا بذلنا أرواحنا في سبيل الحرية فلا نتعارض مع وحي الضمير ولا نخضع لطغيان ، بل ندع ذاتنا فانية في الحق اللانهائي الذي خلق العالم ودبره — يجب ان نؤمن بان شخصيتنا الفردية شخصية ناقصة وإن كمالها لا يكون الا بالاندماج في شخصية الجماعة — يجب ان تفنى الانانية في الفرد عندما يفكر في خدمة الانسانية وهذا هو بداءة العمل الوحدة الروحية التي يجب ان تكون ميسم المدنية الفاضلة للانسان »

« لقد ولد الناس وفي طبيعتهم الشهوة والانانية ، ولكن قد ثبت على الرغم من ذلك انهم يحيون حياة متصلة بالروح ، وانهم يستطيعون ان يحرروا انفسهم عندما يتحررون من قيود الشهوة ومن ضيق المذاهب الوطنية والجنسية ومن الافكار الثائرة المخربة للاعصاب ، وعندما يصيرون واحداً في الله ، من طريق الحياة والفكر والعقيدة الحرة ومحاربة الشر والطغيان — هذا هو الخلود الحق للانسان ، فكم تلاشت أمم كالسحاب وكانت عظيمة كالطود ، وفنيت شرائع كالدخان وكانت قوية مهوبة — ولعبت أمم أدواراً على مسرح الحياة ثم غابت الى غير رجعة — لقد تلاشت هذه جميعاً لانها عاشت أنانية لنفسها تعبد « أنا » وتنكر الوحدة الروحية مستعينة بالقوة والمادة وحدهما كاسس صالحة للبقاء »

لقد سمع الاميركيون هذا النداء فعلموا ان تاجور ينذرهم فيه بان المدنية الحديثة نهضت على انكار الروح فاتخذت لنفسها تكأة من الآلية والمادة والانانية ، وانها ستكون كالنار او كالبركان ثائرة لا تبقي ولا تذر . انها ستعلن جحودها بالله طاغية متكبرة عنيدة

لقد سمع الاميركيون هذا نداءً من الشرق الكريم ، ترددة نغمات فيلسوفه العظيم منذ عشرين سنة ، ولكن الاميركيين لم يستفيقوا الى هذا النداء الاّ عندما ثارت المدنية الطاغية بحرب عالمية فوقف الرئيس روزفلت في الكونجرس في ٦ يناير سنة ١٩٤٢ — يعلن رسالته

« ان العالم بأسره أضيق من ان يبني في قلبه مكاناً يسع طاغية ما ، شريكاً لله فيه »

وهكذا اراد الرئيس روزفلت ان يجعل الاميركيين يؤمنون بدعوة تاجور ، بل انهُ يعلن هذه الدعوة اليوم باسم الشعب الاميركي الذي خرج من العزلة التي كانت أساساً في نهجهِ وسياستهِ وأصبح اليوم يشعر بان عزلة امة كاملة عن العالم في جميع مظاهره من حرب او سلام انما هي ضرب من ضروب الوهم والضلال

وما كان تاجور يريد بالاميركيين يوم حاضرهم الاّ ان يبعث فيهم اليقظة الى خطئهم التقليدي الذي آثروه بعزلتهم عن مشاركة العالم ، وكم كان يود ان يمتزج قلب الاميركيين بقلب العالم من طريق الروح والحب والرحمة والسلام ، لقد قال لهم ان المدنية التي تخلو من جمال الروح والتي لا تنهض على اسس من رعاية الوجدان الانساني ، هذه المدنية انما هي عمل آلي لا يمكن ان يتّسمَ بالانسانية ولا بالوطنية ولا بالقومية ، وطالب الى القادة الذين زجوا بالعالم في حرب سنة

١٩١٤ ألاّ يغرروا بالجماهير ، والاّ يدفعوا بالشباب الى حماسة المبادىء الطائشة واندفاع الوطنيات المخربة والانانية المهلكة . ودعاهم الى السمو بالتعاليم التي خلفتها الحرب الماضية والعلو بالوطنية والقومية الى التعاون الانساني تعزيزاً للحق البشري، فلكل فرد ولكل كائن ان يحيا حرّاً ميسراً في عقائده وتفكيره وعلاقاته في الأسرة والجماعة. لقد دعا تاجور الاميركيين الى هذا ، كما دعا العالم الاوربي فلم يجد منهُ القلب الملبي المخلص، وأنذرهم كما انذر اوربا من قبل بأن العالم مقبل على حرب الجنس والعصبية واللون وان العالم يسير في مدنية متنافضة القيم والأوضاع ، فبينما قد أزالت طفرات العلم الحديث المسافة والزمن ومحت أثر الحدودَ الجغرافية وربطت اجزاء الدنيا بأواصر التخاطب الأثيري والطيران تنهض المدنية على هذه الاوضاع، نراها تتفاعل كالزلزال او كالبركان بمبادىء التخريب التي تنطوي على إثارة الوطنيات والاجناس والألوان، ولهذا دعا تاجور الغرب الاوروبيين والاميركيين وارسل اليهم النذر تلو النذر وحذرهم من حرب العناصر والاجناس وبشرهم بدعوة الشرق الكريم التي التمستها عقائده وكتبهُ السماوية في المحبة والاخاء والمساواة وتغليب الوحدة الروحية في نظمه وتفكيره وثقافته

وتاجور الذي يدعو الى مدنية روحية جامعة لا يريد بالانسان ان يحدد ضميره بحدود مطامعه ورغباته الفردية، بل يريد ان يطلق الانسان ضميره مع الحياة ليندمج في الضمير العالمي حيث يتصل بحقائق اللانهائية ويتعرف مطالب النفس والروح . ويرى تاجور ان الوسيلة الى فهم هذا انما تكون من طريق الفن والادب والطبيعة ، وهو ينظر اليها كشيء واحد يجب ألاّ يُفرّق الفرد بينها

« وأما الفن فنحن نجهد أنفسنا الوصول الى حقيقته التي قد لا نصيبها ، هي حقيقة رائعة في حياتها المتجددة ، على الرغم من تقادم الزمن علينا (١) »

فالفن في نظر تاجور حقيقة متصلة بادراك معنى الحياة الروحية ، ولا يكون فنّاً الاّ ما سما بنا على انانية الحياة ومادتها ، وارتفع بنا عن الخطيئة والنقص، وباعدنا عما تواضعنا عليهِ من قيود ومصطلحات ، والفن في نظره هو ما يكون مبعثاً للبهج والمسرة في النفس ، ولن يكون الفرد فناناً الاّ اذا استطاع ان يطهّر نفسه من المطامع الدنيا، ويشرف بروحه على الحياة في وضعها المثالي الكريم

وأما الادب فيكاد تاجور لا يفرق بينه وبين الفن في شيء فهو في نظره
« جهد مبذول من النفس لمعرفة الحقائق ثم أدائها من طريق البساطة والعظمة »

(١) أقوال تاجور الواردة في معنى الفنون والادب مقتبسة من الفصل السابع من كتاب سعدهانا
« The Realistion of Beauty »

وهو يرى الانسان المجرد من الفن والادب وحب الطبيعة ، غير صالح للحياة ، وهو يقول عن هذا الانسان

« اذا ماخلا الانسان من الفن والادب وحب الطبيعة ، كان مشكلة نفسية ، مملوءة بالاثرة والانانية ، وظاهرة متضمنة انفعالا جمح بها الهوى عن طريق الحق الواضح ، وتنكب الانسان اذن طريقاً كلها وهم وخداع وضياء كاذبة لاخير فيها »

فتاجور عندما يبشر بالفن والادب ، انما يبشّر بحقيقة متصلة بالطبيعة والحياة على انهما مظهر من مظاهر السمو الانساني ، يرتفع بالفرد الى المستوى الروحي حيث يستقبل وحيَهُ وهو مطمئن عارف بالحقائق ، وبما يريد التعبير عنهُ ، فيضفي عليه من شعوره ما يخرجهُ فنًّا او أدباً ذا شخصية عالمية . والأديب والفنان هما وسيلة للتعبير عن الحياة ، وان عملهما ليبدأ عند ما يتهيأ لهما الخروج عن نطاق نفسيهما، للفناء فيما هو أعم وأشمل وأكثر وضوحاً وأجل طموحاً ، هنا يكون العمل الرائع ، الذي تنشده الانسانية وتأباه الأثرة والأنانية ، وهنا يكون الفن الذي يقبلهُ الانسان المثالي الكريم ، وهنا يكون الشعور بالمسرة وجمال الحياة . والأديب كالفنان ، لا يَخْلُق ، والاّ كان عمله آليًّا صناعيًّا ، ولكنهما يعملان بوحي تلقائي ، ولا يبغيان غير المتعة والبهج والمسرة بما استطاعا ان يعبّرا عنهُ عن طريق ايصال الروح بحقائق الحياة الخارجة عنها « من طريق البساطة والعظمة » كما يقول تاجور

ولعلَّ هذا الايصال هو جهد مبذول يفسر وجوب ادراك الأديب والفنان للحرية الصحيحة عندما ترفض النفس القيود التي حولها ، وتكون مطلقة ، ملهمة مغرّدة ، داعية الى الوحدة والمحبة والسلام ، واثارة الجمال والحرية على حياة مطبقة محدودة بأوضاع وقيود فرضها الانسان على الحياة في نطاق رغباتهِ وشخصيتهِ وأنانيتهِ الفردية

هذه هي دعوة تاجور في الادب والفن ، وانك تستطيع ان تجد هذه الآراء مسهبة واضحة في كتابه «سعد هانا» فهو يضم محاضرات غالية في هذه النواحي ، ولقد حدثنا تاجور في فصل رائع منها عن الجمال وتحقيقه [1] في حديث، هو مثال عال لأدب النفس، هذا الادب الذي تدعو اليه مدرسة تاجور ، كقاعدة خيرة فعالة للثقافة الروحية ، عالج فيه الجمال كحقيقة مطلقة كائنة في الوجود ، ليس لها تقدير أو قياس خاص ، وان اختلفت البيئات والثقافات والوراثات في تقدير مظاهره ، وهو يعبر عن الجمال بانهُ الفرح بالوجود ، وان كل ما يدخل على نفوسنا البهج أحببناه وقربناه من ذواتنا ، ولهذا بحثت النفس البشرية عن الجمال لتأوي اليه في كنف الحب او الرضى او العبادة او الادب او الفلسفة او في كنف هذه كلها

(١) The Realisation of Beauty

مجتمعة . ومظاهر الجمال مختلفة ، ولكنها تدل على حقيقة واحدة رائعة ، تبعث في النفس احساساً واحداً ، هو الاحساس بالغبطة والسرور — فالاحساس الذي تبعثهُ الموسيقى هو نفس الاحساس الذي تبعثه صورة جميلة لها ذات المغنى الموسيقي ، وهو نفس الاحساس الذي يبعثه ترتيل بيت من الشعر يدل على ذات المعاني الواحدة ، فالجمال وان اختلفت مظاهره يقودنا الى احساس بالغبطة والأمن والحب والشعور بالحرية المطلقة

وحاجة الانسان الى الحياة هي التي توجب عليه ان ينمي حاسة الجمال ، وان الانسان الأول كوّن ارادته واختياره وذوقه عند ما بدأ يلبي حاسة الجمال ، باختياره الحسن الجميل الذي يشعره بالبهج والحرية الروحية ، وعند ما أخذ يبعد عن نفسهِ كل ما يتنافر معها من قبح ، ولهذا كانت الحياة نفسها تعمل للابقاء على الجمال دائماً ، لأن طبيعة الحياة تميل الى ان تكون بهجة محبوبة حتى تؤثرها الكائنات عزيزة غالية

والفنون والطبيعة والعقائد والمعارف والمعنويات السامية هي من مظاهر الجمال ما دامت قادرة على ان تمدنا بالمسرة والفرح ، وليس من حق الانسان ان يحدد مظاهر الجمال

« لان حياتنا تدفع نفسها الى كشف المجهول دائماً ، وفي كشف المجهول أي في المعرفة والاتصال بالاشياء تحقيق للجمال وادراك للشعور بالفرح والمسرة — فالجمال موجود في المعلوم منا والمجهول عنا ، وليس من حد فاصل بين نفوسنا وبين الجمال غير التحقيق والمعرفة »

وعندما يدرس تاجور الجمال كحقيقة مطلقة ، يقسم — كشأنه في بحوثه الفلسفية — الكائنات الى شيء ناقص ومحدود وتام وفوق التام ، فهو يقول : —

« اما ان تكون الكائنات التي لا نلتمس فيها البهج والسرور حملا على عقولنا ، يجب ان نتخلص منه مهما يكلفنا هذا الخلاص من ثمن ، واما ان تكون مفيدة ونافعة لنا ، فهي في هذه الحال تكون ذات صلة عابرة بنا ، ولكنها محببة الينا مادامت تنفعنا ، فاذا قضينا منها لباناتنا ، أو اذا أصبحت غير نافعة ، صارت حملا ثقيلا علينا ، واما إن تكون هذه الكائنات خواطر طارئة تشرد عنا ، ثم تهفو حول مداركنا لتمضي الى سبيلها واما ان تكون متاعاً يدخل السرور على نفوسنا »

فالشيء الناقص في نظر تاجور هو الذي لا يُمِدّ الانسان بنفع دائم مستمر والذي يصبح حملاً منبوذاً بعد استنفاد منفعته . وتاجور يُدْخِل في هذه الأشياء الماديات التي يحبها الانسان لنفع موقوت — وأما ما يجلب البهج الى النفس ويدخل عليها الأمن والسمو فهو المتعة الحق الخالدة التي تبقى ممدودة الاثر بدوامها وتمامها

وسبيل المعرفة الى هذه الكائنات هو يقظة الحواس والضمير في الشخص ، ومتى تبلدت الشخصية بدت الدنيا شيئاً لا قيمة لهُ وفي هذا يقول تاجور

« على ان أكبر الامور في هذه الدنيا انما يبدو لنا كلاشيء ، ولكننا لا ندعه يبقى هملا كما يبدو لنا : والا شعرنا بضآلة نفوسنا ، نحن الذين أعطيت لهم الدنيا بحذافيرها ، فحواسنا وقوانا سبلها الى الايمان بانها متى تعاونت أخذنا مالنا من حق في ميراثنا البشري »

ولكن ماهي وظيفة الحواس؟ لقد أجاب تاجور على ذلك ، وخصص للجمال حاسة مدركة له ، تفرق بين ماهو ناقص وما هو تام . فيتساءل

« ماهي وظيفة حاسة الجمال في بسط وجداننا على مايحيط بنا من أمور ؟ هل لحاسة الجمال اداء في تفصيل الحق وتحليله الى أضواء قوية ، والى ظلال ناحلة ، وهل تعرض هذه الحاسة هذا الحق أمامنا في مظهر مضطرب بين الجمال والقبح ؟ »

يتساءل تاجور بهذا ثم يجيب :

« لو كان الامر كذلك ، لكان علينا ان نسلم بان حاسة الجمال انما تخلق في عالمنا خصومة ، وتقيم لنا سداً من العقبات في سبيل الصلة التي تربط كل فرد وكل كائن من هذا العالم بمجموعه ووحدته ، ولكن لن يكون هذا قائماً الا متى كان ادراكنا مبتسراً لا يميز الفاصل بين المعلوم منا والمجهول عنا ، وبين الجميل والمفتقر الى الجمال »

وعناصر الادب عند تاجور هي عناصر انسانية وان اثرت البيئة فيها — فتاجور صورة واضحة من المدنية الشرقية والعقائد الهندية ولكنه ما كان هندياً أو قومياً في نظره الى الحياة والأدب والفنون والثقافة والمدنية . بل هو انسان مطلق في تفكيره ، يبحث عن الروح وعن المثل العليا وعن الوحدة الروحية الجامعة ، ملتمساً الخير والجمال باحثاً عن الله في كل شيء ، هو صورة من الكبرياء المتواضع ، براءة طاهرة سامية كبراءة الاطفال والانبياء ، ونفس قوية عالمة بحقائق الحياة ، بصيرة بنزعات النفس ورغباتها ، عاملة على ترويضها في رفق حيناً وفي قسوة أحياناً . ومباحثه في الحياة والأدب والفنون تدعوه الى ان يتخذ لأدائها أسلوباً خاصاً ليس للشعوبية ولا للقومية الاثر الغالب فيه — فهو يستنبط ما وراء الحس من الوعي الداخلي ويبرز المضمر من صور النفس في اطار يوحي المعنى تلقائياً ويلهمك بالمعاني والألوان والصور والرموز التي يريدها في اسلوبه تاركاً في نفسك عالماً صامتاً مملوءاً بالحياة والمعاني — هو يعالج مباحثه من طريق القلب والذهن — لأنهُ يحس العالم منطوياً في نفسه فهو يعتمد في ادائه وأسلوبه على الصور التي في وعيه على تخيل خصب وشعور دقيق في رمز منتزع من التفكير والخيال — فأسلوب تاجور أسلوب رمزي عالمي في أدائه وتصويره ومعانيه — وهو كما يستطيع ان يحدد الصور ويقربها من الادراك على انها حقائق متصل بعضها ببعض ، يستطيع ايضاً ان يضفي على أجزاء كل صورة لوناً وضوءاً جميلاً من شعوره الانساني فيجمع الاجزاء في أطرافها خالقاً منها صورة واحدة لفكرته في خطوط رمزية تبعث من تلقائها في الوعي صور المعاني التي يريدها قوية واضحة — هذا هو أسلوب تاجور في الشعر والتصوف والأدب والفن وفي ادائه الافكار الاجتماعية التي يحب ان يتحدث عنها دائماً ، بل هذا هو اسلوبه في القصة والحديث والمسرح والحياة

ويعتقد تاجور ان مجال الفكر يجب ان يكون حرًّا غير محدود بأوضاع العلوم ، بل يرى ان العلوم هي قيود للتفكير تحدده وتحصره في نطاق ضيق

ان الانسان لم يقبل ، على الرغم مما تركه بعض الفلاسفة من تعاليم ، أن يجعل لعلمه حدًّا محدوداً ، يستبد بمنطقة علومه ومعارفه ، فهو يبسط كل يوم نفوذ تفكيره على مناطق جديدة ، ويخترق مجاهل كانت بالامس قفراً غير مرتاد ، ومجهولا غير مكشوف . . . وحاسة الجمال طلعة ، دائبة وراء الكشف والفتح وارتياد المجهول . ومعلوماتنا تتجدد وتنمو ، كلما اتسع نطاق التطلع وراء الحقيقة ، والحقيقة في كل مكان ، ولهذا كان كل أمر في الحياة موضع تفكير وتأمل ومعرفة ، وكذلك كان الجمال كائناً في كل زمان ومكان يلازم الحقيقة ولا يفارقها — واذن فكل شيء ما دام متصلا بالحقيقة فهو قادر على أن يكون متعة تمدنا بالمسرة والفرح »

والحد الفاصل بين الحق والباطل ، في نظر تاجور ، هو العلم والمعرفة والتمييز ، وكلما استطعنا أن نفرق بين الخير والشر ، ونضع الفواصل بينهما ، أدركنا أسراراً من الحياة ، وكشفنا جمالها وتذوقنا معانيها السامية :

« ان فواصل الامور في بداءة ادراكنا لاسرار الحياة تعيننا على التمييز بين الحق والباطل »

ويعبر تاجور عن الشكوك التي تحوم حول الحقيقة في بداءة التفكير بقوله :

« ويخضع إدراكنا البدائي لبهرج الحياة ولما يكسوها من ألوان بهية ، تأخذنا بزهوها ، على ان هذا ليس إلا ادراكاً مبتسراً ، اذ كلما نضج فهمنا للجمال ، كنا ابعد عن التأثر بالمظهر الذي تشعه الحياة على مداركنا ، وتحول ما في الكائنات من شذوذ متنافر مع احاسيسنا الى نغم متوافق رحيم منظوم »

ويرى تاجور ضرورة مرانة النفس وترويضها على فهم الامور ونقد الخير من بين الباطل

« وتعاني النفوس كثيرا حتى تفهم الحق في وضعه ، ولهذا كان علينا اولا ان نمارس نقد الجمال مما يحوطه من شعث ، ثم نعزله بعيدا ، لنفهم ما به من خصائص وطبائع ، ثم نستطيع بعد هذه المعاناة ان ندرك الجمال ونتذوقه بل ونتبينه في سهولة ملهمة مهما يلتوِ علينا السبيل اليه ، فالنغم الصحيح المنظوم ، يدل الاذن الموسيقية المروضة سهلا منقادا بعيدا عما يختلط فيه من نغم شاذ آخر . فالجمال الذي يثير عواطفنا ليس في حاجة الى مظهر مشوق ، فما كانت لتثيرنا الموسيقى ، بما يدخل عليها من جلبة وصياح وصوت مرفوع ، فالموسيقى تأبى الشدة والعنف ، وتهوى الى قلوبنا بحقيقة لا ريب فيها ، وهي : ان السكون والجمال والدعة والبراءة هي جميعا عناصر الخلد التي سترث الكون بعد حين »

ويفسر تاجور وجود الخرافات التي دخلت على العقائد تفسيراً فريداً :

« لقد حاول الانسان ، في بعض مراحل تطوره ، ان يؤسس مناهج دينية ، تربط الجمال بالعقائد ، وتجعله غاية للعبادة ، وحاول ان يحد الجمال في اوضاع ضيقة ليسبغ على نفسه من دعوته هذه كبرياء وعظمة وجاهاً ، وحدث ان نسلت هذه العقيدة قرابين ونذورا ، أثقلت كاهل الناس ، بتكاليف ومبالغات كثيرة وشاعت هذه الطقوس في شريعة البراهمة عند سقوط المدنية الهندية ، يوم هوى ادراك الناس وبعد عن المثول الى الحقائق العليا ، ويوم طمست الخرافة معالم الحق والجمال »

فتاجور يرى ان الخرافة والطقوس قد لابست الاديان باسم الجمال والفن ويرى في هذا مذلة ورقا فرضا على حياة الفنون ولكنها ما لبثت أن تحررت منهما

« وجاء على فلسفة الفنون الجميلة عصر تحررت فيه من الرق عندما سهل على الناس فهم الجمال وادراكه ،

مما يقع في حياتهم يتلمسونه مما كانت توحيه مطالب الحياة وأغراضها من تآلف حق . ويرى ان الانسان اذا ما قيد الفنون بالعرف والاصطلاح أصبح في حيرة ، لانه لا يكون فناً ولكنه يكون خداعاً وإجهاداً متقلا، تقلبه الصنعة ، وهو لهذا « لا يدخل السرور على النفس »

ومن هذا لا يكون فنًّا ولا جمالاً . وعند ما تكون للانسان القدرة على تمييز الفنون ، وعلى فصلها عن نزعات النفس ورغباتها ، وعن مطالب الحواس البشرية ، عندئذ فقط ، يكون الانسان الكامل ، كما يقول تاجور ، صاحب التقدير الصريح ، والنظر الثاقب لادراك الجمال الذي يعم الكائنات ، وعندئذ يتسع الادراك فيرى الانسان ان الاشياء التي قد لا تبدي الفرح والبهج لنفوسنا ليس حتماً ان تكون فاقدة الجمال او مفتقرة اليه في مظهرها اذ قد تستمد جمالها الباطني من الحقيقة مباشرة

وتقوم فلسفة تاجور دائماً على وجود السلب كما تعترف بوجود الايجاب. فاذا وجد الخير كان لا بد من الاعتراف بقوة الشر ، واذا وجد الجمال كان لا بدّ من ان نعترف بالقبح ، واذا وجدت الفضيلة كان لا بدَّ لتمييزها من الاعتراف بقوة الرذيلة

« عندما نقول ان الجمال يعم ارجاء الحياة ، فما قصدنا بهذا الى ان نمحو كلمة القبح والبشاعة من لغتنا ، فمن سخف الامور ان نتجاهل الكذب والرياء ، فالكذب قائم محقق الوجود ، ولكنه ليس قائماً في منهج الحياة البشرية ذاتها ، بل هو كامن في تقديرنا وفي قوى ادراكنا وفهمنا كمنصر سلبي ، فهو ليس من طبيعة الاشياء ولكنه موجود في فهمنا ليدلنا على عكسه ، وكذلك الحال مع القبح فهو قائم في تفاصيل الجمال المحرف عن مواضعه ، وهو موجود في فهمنا وفي فنوننا التي تصدر عن قصر ادراكنا للحقيقة التامة »

ويفرق تاجور بين الولاية المادية على القوى الطبيعية وبين الولاية الروحية عليها ، ويرى ان الادراك وصدق الفهم هو سبيل الى الولاية الثانية

« نحن نبسط ولايتنا على القوى الطبيعية فنصبح أقوياء بهذه الولاية العلمية وأما عندما نستنبط قوانين حياتنا من طبيعتنا الادبية فنحن نبسط ولايتنا على النفس ونصبح أحراراً بهذه الولاية — وعلى قدر ما ندرك من قوانين طبيعية تتسق مع طبيعة الحياة ، ننال اللذة والمعرفة بأسرارها ، وتصبح المسرة طابعاً صريحاً لفنوننا »

ولكن تاجور يرى انه لكي يبسط الانسان ولايته الروحية على الطبيعة يجب ان تستتب في ضميره نظم الحياة ، وان يطمئن الى ما في الخليقة من ايلاف منظوم ، وان يصبح ادراكه لحب الخير جامعاً وعالميًّا ، وان تتسم الحياة بطابع الجمال والخير والحب العام ، ويرى فوق هذا ان الانسان لكي يصل الى هذا النفوذ الروحي ، يجب ان ينال قلبه حرية تامة

« يجب ان نحرر قلوبنا وان نمنح هذا العتق الذي يشعرنا الكرامة والشخصية ، ويبعث فينا القوة الى أن نصمد لاسرار الكائنات فندركها وتتذوق مباهج الحق ، وان نروض أنفسنا عليها »

فتعاليم تاجور تنهض على مقومات المدنية الفاضلة ، المستمدة من العناصر الروحية

والثقافية ، الممزوجة منذ الأزل في خلق الشرق وفي تعاليمه وعقائده وفي كتبه وحكمه وفنونه . وهو يرى ان الفنون الجميلة هي وسيلة من وسائل التهذيب الروحي ، وقيمة من قيم المدنية الفاضلة التي ينشدها ، ويرى في الموسيقى الصورة المثالية العليا للحضارة البشرية التي يبتغيها ، هي مثال الكمال، هي أنقى وضع للفن ، وأوضح بيان للجمال في روحه وشكله ، هي فن خالص ، ويقول تاجور عنها في بحث عن فلسفة الفنون :

« اننا نشعر ، عندما نفسر معنى الموسيقى ، بأن مظهراً من مظاهر اللانهائية قد حد في وضع من اوضاع البشر . فالموسيقى ليست إلا وضعاً محدوداً من اللانهائية ، فهي الصمت البليغ ، الذي تلهمه الطبيعة قلوبنا بمباهج مناظرها . . . كل ما يظهر في صفحة الطبيعة من جمال وسلام وثورة وغضب ، تستطيع الموسيقى أن ترقمه وتنمره في أرقام مسجلة الاصوات ، وتستطيع ان تؤديه اداء كاملا متصلا بالحقيقة ، بعيداً عن لفظ الشعراء وأصباغ المصورين . . . »

ولقد وصف تاجور المُوسيقيَّ فقال

« واما الموسيقي فأمره ليس كأمر الشاعر اوالمصور ، هذا يلجأ الى اللون ، وذاك يلجأ الى اللفظ ، يغلف به المعاني الحائرة في نفسه ، بينما الموسيقي تجتمع له جميع اسباب فنه ، فيصدر التلحين عن نفسه فيرقه ، وليس اللحن بالشيء الغريب عنه ، دفع الى نفسه ليستسيغه قسرا ، ولكن الموسيقى واسلوب التلحين ينشآن معا ، هما توأمان لا يتنافران ، فالقلب الموسيقي لا يعاني ما يعانيه قلب الشاعر او المصور عند اداء ما يجول فيه، لانه يؤدي الهامه منغماً دون ان يكلف نفسه مادة اللفظ او اللون ... »

ويقول تاجور :

« ان الموسيقى لتسمو جمال الفنون جميعاً ، لان مادة التعبير ليست إلا حملا ثقيلا يشوه من جمال الفكرة وسموها ، فالالفاظ في ذاتها حمل مرهق ، لان معانيها تجهد الفكر ليفهمها ، ولكن الموسيقى وهي انقى وضع للفن ، تعلو عن ذلك ، فلا ترهق التفكير ، ولا تجهد القلب ، ولكنها المتاع المطلق والفن التلقائي الخالص »

ويرى تاجور ان الموسيقى كأي فن آخر لا تزال تصبو الى الكمال ، فهو يقول :

« ان في كل جهد فردي في الموسيقى كمالاً ملحوظاً ، وهو إلهام لانجاز ما كان منقوصا ، وليس من لحن قد تم كماله ، ولكن الالحان جميعاً تعكس الى نفوسنا في وحدتها مباهج اللانهائية ، فجميعها وحدة تلهم الكمال المطلق ان الكمال، هو غاية ما تصبو اليه حضارة الروح والقلب »

هذه هي تعاليم تاجور تدعو الى الوحدة العالمية والى اشاعة حضارة ومدنية فاضلة ، تنشد الأمن في جميع مقوماتها ، في ثقافتها وأدبها وتعاليمها وفنونها ، تلك هي المدنية التي لا تموت ولا تفنى ، والتي يراها تاجور حية باقية في قلب الانسان .

« لقد هجعت الى فراشي لانام واغمضت العين ، ولكن الفكر يساومني ألا تهجع ا ، فأمسيت غير تواق الى نوم . . ستبقى الحياة دائبة في حركتها ، متخذة من جسدي الهاجع ميدانا لجولاتها ، ولا يزال القلب ينبض ، ولا يزال الدم يندفع في العروق ، ولا تزال ملايين الذرات تهتز في خلايا جسدي وترقص على تلحين هذا الوتر الحساس الذي يرتجف من لمس الاله (١)
أنا الشرق مصدر الحضارة وستنقذ تعاليمي المدنية من الانهيار »

(١) الفصل السابع من سعدهانا لتاجور

باب الأخبار العلمية

جلالة الملك
وتشجيع الكشف عن الآثار القديمة

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق فنح مصلحة الآثار المصرية من ماله الخاص الاعتماد اللازم لكشف جبانة جديدة من الاسرة الاولى تقع بجوار أملاك الخاصة الملكية على مسافة خمسة كيلو مترات في شمال حلوان بغرب بين السكة الحديد والطريق الزراعي

وقد اكتشف من المجسات العرضية التي عملت في هذه المنطقة ان الرمال تغطي جبانة واسعة تمتد ثلاثة كيلو مترات وتحوي مقابرها الملاصقة أواني من الفخار والرمر وحجارة مختلفة يرجع تاريخها الى عهد ملوك الاسرة الاولى على وجه التحقيق

وعهدت مصلحة الآثار في ادارة هذه الحفائر الى الاستاذ زكي سعد كبير مفتشي آثار القاهرة وسقارة وهو يعد أجدر من ينهض بمثل هذا العمل بين علماء الآثار المصريين اذ كان الساعد الأيمن للمستر امري في أعمال الكشف عن جبانة الاسرة الاولى بسقارة ومقبرة الملك حور أحا

مصدر للطاقة في تفاعل كيميائي

لا ينى فريق من العلماء عن البحث عن مصادر جديدة للطاقة لأنهم يعلمون ان المطمور منها في أطباق الارض وفجواتها —كالفحم والنفط— مآلهُ الى النفاد يوماً ما. وهم يعلمون ان مردَّ طاقة الفحم الى طاقة الشمس التي خزنتها النباتات فيها قبل تفحُّمها بتأثير العوامل الجولوجية . وان مردّ طاقة الماء المنحدر ، الى طاقة الشمس كذلك ، التي بخرت المياه ثم انعقدت مطراً وجرت في جداول وأنهار او انحدرت شلالات. ولذلك عمدوا الى استنباط وسائل متعددة تمكنهم من استخدام طاقة الشمس مباشرة كاستعمال المرايا وما اشبه

إلاّ ان الباحث الطبيعي يوجين رابينوفتش نحا نحواً آخر في بحثهِ ، وذلك في « معهد البحث في طاقة الشمس » وهو معهد أميركي أنشأهُ رجلٌ يدعى كابوت Cabot ووقف عليهِ ١٥٠ الفاً من الجنيهات

وقد حاول رابينوفتش أن يكشف طريقة تمكنهُ من تقليد عمل اليخضور (الكلوروفيل) في النبات . لأن هذا العمل يمكن النبات من خزن الطاقة في المركبات التي تركّب فيها

بتأثير طاقة الشمس ووساطة اليخضور

واتجه في بحثه الى الاصباغ العضوية ، لعلها تبني بتأثير الضوء مركبات ذات خواص معينة ، ثم تنحلُّ هذه المركبات وفي انحلالها تنطلق طاقة منها

وتوسم النجاح في مركّبين : أحدهما أزرق المثيلين: والثاني الثيونين الارجواني . فوجد ما يلي :-اليخضور يركب بتأثير الضوء جلوكوزاً من الماء وثاني أكسيد الكربون . وهذان الصبغان يحولان مركب (سلفات الحديدوس : حد « ك أو ٤ ») الى (سلفات الحديديك : حد ٢ « ك أو ٤ »٣)

فالمركّب الأول (سلفات الحديدوس) قوامهُ أيونان ions الأول موجب وهو الحديد والثاني سالب وهو الكبريتات. فبتأثير هذين الصبغين ، تنتظم الايونات التي في محلول سلفات الحديدوس انتظاماً جديداً . فيجتمع أيونان من الحديد مع ثلاثة أيونات من السلفات فيتولد مركّب (سلفات الحديديك). فاذا وضع المركب الجديد في الظلام انعكس الفعل وتحوّل الحديديك الى حديدوس . وانتظام الأيونات انتظاماً جديداً في الحالين يحرف التوازن الكهربيّ في المحلول فتتولد طاقات كهربية

فكيف تستغل هذه الطاقات ؟

يقول رابينوفتش : ضع قطبين كهربيين في وعاء المحلول واجعل نصف الوعاء القريب من أحدهما مُضاءً والآخر مظلماً ، فيكون أمامك عمود كهربي غلفنيّ (نسبة الى غالفني) . وفي هذه البطرية تتولد طاقة كيمائية بفعل الضوء والظلام. وهذه الطاقة الكيميائية تتحول الى طاقة كهربية مباشرة . ولا يخفى ان العمود الكهربي - أو البطرية الكهربية - تتولد فيه الطاقة الكهربية من انحلال الزنك في الحامض الكبريتيك. والفرق بين هذه البطرية وبطرية رابينوفتش ان الزنك في الاول ينفد والثانية فعلها مستمر بغير نفاد موادها

والتيار الذي تولده بطرية رابينوفتش يسير جداً لا يقاس إلاَّ بأجزاءٍ من الالف من « الامبير » . وعشرُ واحدٍ في المائة من الضوء الذي تمتصهُ البطرية يحوَّل طاقة كهربية. بينما اليخضور يستعمل واحداً في المائة من الضوء الذي يمتصُّهُ. فرابينوفتش مهتمٌ الآن بزيادة كفاءة التحويل في جهازهِ

تمثيل عمر البشر وعمر الشمس

اذا رسمت خطًّا طوله خمسون قدماً وعددته ممثلاً لطول عمر الشمس كان عمر الارض ممثلاً في قطعة منهُ طولها عشرون قدماً وعمر السلالة البشرية في قطعة طولها ٢٤ جزءًا من الف جزءٍ من البوصة . اما الستة آلاف سنة الأخيرة من التاريخ البشري فتمثلها نقطة طولها جزءٌ من الف جزء من البوصة ومعدّل حياة المرء تمثلها نقطة طولها جزءٌ من مائة الف جزءٍ من البوصة . وفي الحالين الاخيرتين لا بدّ من المجهر لرؤية النقطتين

النقل الجوي بطائرات ضخمة

اقترح أحد رجال الصناعة الاميركية من عهد قريب ، أن تُصنع في الولايات المتحدة خمسة آلاف طائرة كبيرة للنقل فتخفف كثيراً من العبء الواقع على السفن التي تخوض عباب البحار السبعة ، ويكون النقل بها أسرع ، وآمن جانباً من النقل بالسفن المعرضة لخطر الغواصات على وجهٍ خاص

وليس ثمة ريب في أن هذا الاقتراح جدير بالعناية من الناحية الحربية . ولكن ما يهمنا منهُ هنا هو نوع الطائرات التي يجوز أن تُصنع لتنفيذه

في الولايات المتحدة طائرتان تصلحان لهُ . أما الأولى فالمسافة بين طرفي جناحيها ٢١٢ قدماً ووزنها وهي فارغة نحو أربعين طنّاً . وتستطيع أن تطير حاملة ما وزنهُ ٨٢ طنّاً وهذا يشمل طبعاً رجالها ووقودها. وسرعتها المتوسطة ٢٠٠ ميل في الساعة ومداها سبعة آلاف ميل . وهي من صنع دَجْلس بوينغ . والثانية سفينة طائرة من صنع جلن مارتن وتعرف باسم المريخ Mars وهي ذات أربعة محركات وقوة كلّ محرّك منها الفا حصان ويقرب حجمها من حجم الطائرة السابقة الذكر ولكنها تستطيع أن ترتفع وتطير بحمل أكبر من حملها، لأنها،وهي سفينة طائرة تحطُّ على الماءِ ، فهي مجرّدة من العجلات الضخمة التي لا بد منها في طائرة تحطّ على الأرض اليابسة . وقد وضع تصميم هاتين الطائرتين قبل سنوات لتجريب التجارب بهما ، ولم تدخل في صنعهما أحدث العبر الفنية المستخرجة من الطيران الحربي

ويذهب أحد الخبراء الأميركيين في هذا الموضوع الى ان أكبر الطائرات التي يستطاع بناؤها لهذا الغرض الآن وفي المستقبل القريب تتصف بما يلي : — يكون لكل طائرة اثنا عشر محركاً ، قوة كلٍّ منها ثلاثة آلاف طن . فاذا حملت بمعدل ٢٥ رطلاً لكل حصان واحد ، بلغ حملها ٤٥٠ طنّاً . وهذا المعدَّل لا يزيد الا زيادة يسيرة على المعدل المعتمد الآن في دوائر الطيران. اما المسافة بين طرفي جناحيها فتكون ٣٨٠ قدماً وسرعتها العامة ٣٠٠ ميل في الساعة . ويكون وزنها ٢١٥ طنّاً وهي فارغة ويضاف اليها ٦٠ طنّاً وهو وزن رجالها ووقودها فتبقى قادرة على نقل ما وزنهُ نحو ١٧٥ طنّاً من البضائع او الرجال،فتتمكن من الطيران من الولايات المتحدة الى مصر مثلاً في مرحلتين تستغرق كل منهما ١٤ ساعة . واذا حسب حساب التأخير الذي قد يطرأ عليها بفعل عوامل الجو ، وما تقتضيه من خدمة ، كان في وسعها ان تطير بين اميركا ومصر ٧٠ مرة في السنة . فاذا كان حملها ١٧٥ طنّاً في كل مرة ، بلغ ما تنقلهُ من اميركا الى مصر في سنة واحدة ١٢ الف طن

فيتامين C والتدرن الرئوي

روت مجلة نايتشر ان ثلاثة من علماء معهد البحث الطبي في مدينة جوهانسبرج بافريقية الجنوبية ، اشاروا الى ان هناك صلة بين قدرة الجسم على تركيب ڤيتامين C وقدرته على مقاومة باشلس التدرن الرئوي

فالانسان اسوة بالقرود وخنازير الهند يحتاج الى اخذ الڤيتامين C من طعامه ولا يستطيع تركيبه في جسمه . والانسان معرض للاصابة بالتدرن البشري، والقرود والخنازير للاصابة بالتدرن البقري . ويقابل هذا ان الكلاب والجرذان تستطيع ان تركب ڤيتامين C في اجسامها ، ولكنها تقاوم مقاومة فعالة الاصابة بالسل البشري والسل البقري . ولا يعلم تماماً هل الفئران تستطيع ان تركب هذا الڤيتامين في اجسامها او لا تستطيع . فاصحاب الرأي في هذا الموضوع لا يزالون في شك من الحقيقة . وهناك ريب كذلك في هل تقدر الارانب والخنازير والمواشي على تركيبه في اجسامها ، او هل هي تعتمد عليه في غذائها .

وهذه الحيوانات — اي الأرانب والخنازير والعجول والماعز والجياد — تقع في طبقة متوسطة ، بين الناس والكلاب ، من حيث قدرتها على مقاومة الاصابة بالتدرن فهي تقاوم تدرن البشر ولكنها معرضة للتدرن البقري او تدرن المواشي

ويعتقد هؤلاء الباحثون ان هذا ليس مجرد اتفاق . ويؤيدون رأيهم بأن هناك صلة بين القدرة على تركيب فيتامين C في الجسم والقدرة على مقاومة التدرن بما هو معروف من ان استهلاك فيتامين C في المصابين بالتدرن يفوق معدل استهلاكه في الاصحاء الاسوياء . ولا يعلم احد سرَّ ذلك . ولكن قياس مقدار فيتامين C في دماء الفريقين يؤيد هذه الحقيقة . غير ان زيادة استهلاك فيتامين C ليست مقتصرة على المصابين بالتدرن بل تشمل المصابين بأمراض معدية أخرى . ولعل ذلك ناشىء عن الحمى فانها تعجل أفعال الجسم الحيوية بوجه عام

العلاج بالفيتامين ونمو النبات

يؤخذ من تجارب جرَّبها الدكتور ريموند دنيسون بجامعة ألينوي الاميركية ، ان هناك نوعين من الفيتامين يؤثران في نموّ النبات فيزداد معدَّله ، علاوة على ضرورتهما لصحة الجسم البشري . أحدهما هو الريبوفلاڤين riboflavin أحد فيتامينات B والثاني الحامض الاسوربيك وهو فيتامين C المصنوع بالتركيب الكيميائي . وقد جرِّب الاول في نبات الباذنجان فتضاعف نموّ الجذوع وازداد نمو الثمار ثلاثة أضعاف . وجرِّب الثاني في نبات التبغ فتضاعف نمو ورقه

منطقة الاورال الصناعية

كتب مهندس أميركي يدعى جون سكُتْ مقالاً وصف فيهِ ما شاهده في منطقة الاورال الصناعية ، وقد قضى في أحد مصانعها مهندساً مستشاراً ، خمس سنوات وزار مصانعَ أخرى كثيرة . فقال ان انشاءَ هذه المنطقة الصناعية من عجائب هذا العصر . فقد بنى الروس هناك مائتي مصنع ضخم بين سنة ١٩٣٠ وسنة ١٩٤٠ ومنذما نشبت الحرب في أوربا في سبتمبر من سنة ١٩٣٩ بدأ الروس ينقلون الآلات الصناعية من المناطق الروسية التي يحتمل تهديدها اذا غمرَ مدُّ الحرب روسيا الغربية ، الى منطقة الاورال هذه أو الى ماورائها شرقاً

موقعها ومواردها

ومنطقة الاورال هـذه واقعة على نحو سبعمائة ميل الى الشمال الشرقي من موسكو ومساحتها ٥٠٠ ميل مربع . والمنطقة كلُّها والبلاد التي تحفُّ بها من كلِّ جانب من أغنى ما يكون في مناجم الحديد والفحم والنحاس وركاز الالومنيوم والرصاص والمنجنيس والزنك وآبار النفط والحراج . وكانت هذه المنطقة بكراً حتى سنة ١٩٣٠ عندما كان معظم قدرة روسيا الصناعية مركزاً في روسيا الغربية

ورأى أقطاب الحكم الروسي بعينهم النافذة ، ان هـذا يعرّضهم لخطر عظيم اذا نشبت حرب واضطرُّوا الى الاشتراك فيها ، فبدأوا ينشئون منطقة صناعية كبيرة بعيدة عن منال أعدائهم . ومضوا في تحقيق مشروع انشائها بغير اقتصاد في نفقةٍ أو جهدٍ

مدينة الجبل المغناطيسي

ففي سنة ١٩٢٩ لم يكن في هذه المنطقة مدينة صناعيـة تدعى ماغنيتو غورسك . وكان مكانها قرية تقطنها قبائل رُحّل تقريباً . وعند سفح الجبل ، تمتد سهول المراعي الروسية المشهورة . لكن الجبل كتلة ضخمة من ركاز الحديد . ولذلك دعيت المدينة التي انشئت هناك «ماغنيتو غورسك» اي «الجبل المغنطيسي» . فقرر مهندسو السوفييت ، ان يصلوا بين مورد الحديد هذا وبين مناجم الفحم الغنية في كوزباس وهي على ٢٠٠ ميل من هذا الموقع . فاذا تم لهم ذلك كان هذا الاتحاد اعظم اتحاد فحمي حديدي في العالم يفوق ما يقابله في انكلترا ، او اللورين والسار ، او غيرها . وأهم من ذلك في نظر السوفييت ان هذه المواقـع تكون بعيدة عن منال الأعداء . نعم ، إنّ النفقة والجهد اللازمان لتحقيق هذا الغرض العظيم لا يمكن حصرها ، ولكن الغرض جدير بالبذل في سبيل تحقيقه

فبدأ البناء سنة ١٩٢٩ اذ وصل الوف

من العمال . بعضهم جاء متطوعاً متحمساً ، وبعضهم جاء وقد أغرته الأجور العالية ، وبعضهم جاء يحرسه الجند ، لأنهُ من المسجونين السياسيين وغيرهم . فمدت سكة حديد . وصنع سد على نهر الاورال لاستعمال الماء المنحدر في توليد الطاقة الكهربية المحركة وابتيعت الآلات الصناعية في اوربا وأميركا بأثمان فادحة . وبدأت الأفران الكبيرة ترتفع

المعيشة المتقشفة فيها

عاش معظم العمال مدى سنتين في الخيام وكان البرد احياناً يبلغ ٥٠ درجة مئوية تحت الصفر . فمات مئات منهم برداً . وكان اولو الأمر يقدمون في حدود معينة ، نقل الآلات اللازمة الى هذه المنطقة ، على نقل المأكل والملبس . ومنهم من مات بالتيفوس شتاء وبالملاريا صيفاً . ولكن العمل مضى في سبيلهِ وبدأت المصانع تنهض فوق مستوى الارض رافعة رؤوسها في كبر الى السماء

قال المهندس : ولما وصلت الى ماغنيتوغورسك سنة ١٩٣٢ كانت مدينة تعدُّ ٢٥ الفاً من السكان وفي تلك السنة صنع المصنع الاول اول مقدار من الحديد الصب ولكنني لم أر زبدة مدى سنة كاملة ! وكان اللحم نادراً والخبز بمقدار معين

غير ان احوال المعيشة تحسنت رويداً رويداً وارتفع معدل كفاءة الصناع الروس . وهذا المصنع الذي رأيتهُ يخرج حديده الصب الاول سنة ١٩٣٢ يخرج الآن ستة آلاف طن من الصلب كل يوم . وحول هذا المصنع الضخم مصانع اخرى كثيرة تستعمل الصلب ، ومنها مصنع واحد للذخائر على الاقل

مدن صناعية اخرى

في هذه المنطقة مدن كثيرة اخرى ومنها ما اختص بصناعة معينة أو غيرها . فشليابنسك مختصة بصنع الجرارات ، وستانكستروي مختصة بصنع الآلات الصناعية وكلتا المدينتين مختصة في الواقع بصنع الدبابات . وسفردلوفسك تصنع الآلات الصناعية والاجهزة الكهربية وفيها مصنع ذخيرة ومصنع مركبات سكك الحديد . وفي سوليكامسك رواسب غنية يستخرج منها المغنيزيوم للطائرات والقنابل المحرقة . وشوزوفايا تصنع الاصناف الخاصة من الصلب . وهكذا

وفي الاورال منطقة آبار نفط ، يقال أنها أكبر منطقة من نوعها في العالم . هنا يحطم النفط ويصفىَّ وتصنع منهُ الأصناف الطيارة الخاصة . وقد تمَّ مصنع التصفية هذا سنة ١٩٤٠ على أيدي مهندسين أميركيين ورأيهم أنهُ يستطيع انتاج ٥٠٠ الف طن من هذه الاصناف الخاصة في السنة الاولى ثم يزيد انتاجهُ ولكن انتاج الآبار الجديدة لا يكفي روسيا

وفي مدينة تدعى برم وهي تبعد الف ميل عن خطوط القتال في الساحة المتوسطة ، مصانع عظيمة للطائرات . ولكنَّ السلطات الروسية لم تسمح لأجنبي بدخول هذه المدينة والعمال فيها يثنوْن عن رغبتهم في الرحلة اذا خطرت لهم

هذه أمثلة اخترناها بين تفصيل وايجاز من مقال المهندس الاميركي جون سكت

الطيران فوق جبل افرست

ورد نبأٌ من شونكنغ عاصمة الصين المقاتلة ان الكولونيل روبرت سكت الطيار الأميركي كان طائراً من عهد قريب من الهند الى الصين ، فتحوّل في اثناء طيرانهِ قليلاً عن طريقهِ المرسوم وحلّق فوق قنة جبل افرست مرتفعاً ميلاً عن أعلى نقطة فيها. هذا النبأ يعيد الى الذهن خبر البعثات البريطانية التي حاول رجالها التصعيد على الاقدام في جبل افرست الى قنته من نحو عشرين سنة. وقد قتل اثنان منهم — مالوري وارفين — بعد اجتيازهما في تصعيدهما ارتفاع ٢٨ الف قدم. ثم يعيد الى الذهن طيران الطيارين البريطانيين مرتين فوق هذه القنة في سنة ١٩٣٣ . وقد قضت بعثة هوستن سنة كاملة في اعداد المعدات للطيران فوق هذه القنة في تلك السنة . وكان اقصى سرعة طائراتها ١٢٠ ميلاً في الساعة. اما طائرة الكولونيل سكت فكانت تطير بسرعة ٣٠٠ ميل في السنة . وبلغت نفقات بعثة هوستن في سنة ١٩٣٣ ما لا يقل عن ٢٥ الف جنيه . اما نفقة رحلة الكولونيل سكت فلم تزد على ثمن بضعة جالونات من البنزين. ويلوح ان تحليقه فوق هذا الجبل كان من وحي الساعة في اثناء طيرانهِ الرتيب بين الهند والصين. وفي هذا دليل على مبلغ تقدم الطيران وعلى ان القاذفات الحديثة تصلح لأمرين معاً أو أكثر : قذف القنابل ولنقل الركاب والبضائع والريادة

ويقال الآن ان الصين تتلقى مقادير غير يسيرة من العتاد الحربي منقولة اليها بطائرات ضخمة من الهند فتعوض بعض ما فقدته بقطع طريق بورما

الصور الطيفية
تنفي الحياة على المريخ

من الآراء الفلكية المبنية على الرصد بالمراقب ، ان على سطح المريخ بقعاً مخضارّة أو مزراقّة ، تدعى « البحار » ويظن ان سببها نموُّ نباتات من رتبة وضيعة تسبغ على البقع هذا اللون . ولكن الباحثيْن الفلكيين ، مِلمَن ودَنلاپ — وهما من علماء مرصد وشتموند هل بكندا — صوّرا بالمطياف الضوء المنعكس عن سطح هذه البقع ، فأثبتا انه ازرق مخضار ولكنهما حكما بأن سببه ليس اليخضور في النباتات التي فرض نموها هنالك. وسبب حكمهما ان الضوء المنعكس عن سطح هذه البقع تكثر فيهِ خطوط الأمواج الخضر والزرق والبنفسجية ، بينما الضوء المنعكس عن اليخضور تكثر فيهِ خطوط الأمواج الصفر والصفر الخضر وتقل فيه كثيراً خطوط الامواج البنفسجية

١ — صناعة المأكولات المحفوظة في مصر

وصفتُ طرق ضغط الاطعمة والاشربة وبينت منافع تجفيفها في أميركا وانكلترا وأوستراليا وغيرها تسهيلاً لنقلها في السفن والبواخر. وذلك في عدة أجزاءٍ من المقتطف منذ سنة ١٩٣٩ وأحدثها جزء يوليه الماضي سنة ١٩٤٢. وطالما أهبت بولاة الامور أن يحذوا حذو تلك البلاد في سبل الاقتصاد. وقد بدأ المراد يتحقق فنهج علماؤنا سبل السداد والتوفيق كما يتبين للقارىء من مقال مجلة الاثنين المؤرخة في ٨ يونيه سنة ١٩٤٢. وأول الغيث قطر. والى القارىء المقال بحروفهِ:

نشط قسم البساتين التابع لوزارة الزراعة في السنوات الاخيرة في ناحية من النواحي الحيوية بالنسبة لثروة البلاد الزراعية ووجوب حفظها والافادة منها والاستغناء بصناعاتها عما تستورده البلاد من الخارج

وكانت منتجات قسم البساتين مقصورة الى وقت قريب على شراب الفواكه والمربات والفواكه المحفوظة والمسكرة والعجوة والطماطم المحفوظة والصلصة ولكنهم بدأوا منذ عام ١٩٤٠ عمل الخضراوات المحفوظة بأنواعها المختلفة حتى شوربة العدس والفول المدمس بالزيت. وقد كانت الفكرة الاولى لصنع شوربة العدس المحفوظة في العلب، يقصد بها التجربة في المعامل فقط. فلما اندلعت ألسنة الحرب الحالية، طُلب الى قسم البساتين تزويد الجيش بالطعام المحفوظ. ولما كان أساس غذاء الجندي المصري، هو العدس والفول، سارع القسم الى تطبيق تجاربه عمليًّا فنجحت، فصنعت شوربة العدس والفول المدمس بالزيت والبسلة واللوبيا والفاصوليا بالصلصة وعصير الليمون كل ذلك محفوظاً في علب من الصفيح مصنوعة أيضاً في مصانع القسم. وقد بلغ ما صنع من هذه العلب الى الآن أكثر من ١٫٥٠٠٫٠٠٠ علبة. وكلها خاصة بالجيش. وكان القسم يخرج حوالي ٣٠٠٠ علبة يوميًّا.

ولم يقتصر عمل قسم البساتين على صنع الفواكه والخضراوات المحفوظة بشكلها المعروف. بل ابتدع طرقاً ناجحة في تجفيف الخضراوات وحفظها. وجاءت طريقة التجفيف هذه نتيجة لقيام حالة الحرب وصعوبة العثور على الاواني الزجاجية وعلب الصفيح. وهي في الوقت نفسه عملية رابحة تقلل نفقات شحن الخضراوات لتصديرها الى أقل من النصف. كما انها تضمن عدم تلف البضاعة وشغلها لحيز بسيط عند شحنها

وأول المحاصيل التي نجح تجفيفها، البصل فيقطع الى شرائح ويجفف بحيث يصبح وزن الاثنى عشر رطلاً، رطلاً واحداً. ولا يتلف منهُ شيء مطلقاً. ولما كان البصل يصدر بحالته العادية كان ثلاثة ارباع الكمية تتلف فلا يحصل المنتج على ثمنها. أما الآن فقد استبعدت هذه الخسارة. فضلاً عن قلة نفقات النقل نظراً لخفة الوزن. واذا ما تلم

المستهلك هذا البصل ، فما عليهِ الاّ ان ينقعهُ مدة معينة في الماء فيعود البصل الى حالتهِ الطبيعية ، ولا ينقصهُ شيء من خواصهِ الطبيعية . وقد نجح القسم ايضاً في تجفيف البطاطس والبطاطا والجزر والثوم والطماطم ويصنع بعضها على هيئة شرائح . والبعض الآخر على هيئة مسحوق . ويقوم قسم البساتين الآن بصنع شراب الفراولة فيستورد يوميًّا أكثر من ٥٠ قفصاً يستخرج عصيرها ويحفظهُ في زجاجات تترك عارية ليتصاعد منها الريح حتى يقوم العمال بازالتهِ قبل اغلاقها

ولما نجحت عملية البصل المجفف استرشدت بعض الشركات ببيانات ومعاونة قسم البساتين ، فأنشأت مصنعين احدهما في مغاغة والثاني في الاسكندرية . وقد تعاقدت شركات انكليزية معهما على شراء كل منتجاتهما من البصل المجفف . فكم تظن يربح المصنع في الكيلوجرام الواحد ؟ ان الكيلوجرام من البصل المجفف يكلف المصنع ٢٣ مليماً فيبيعهُ بثمن صافٍ بعد حذف العمولة بمبلغ ١٠٧ مليمات اي انهُ يربح في الكيلوجرام الواحد بعد النفقات ٨٤ مليماً . ويشرف على هذه العمليات بقسم البساتين الاستاذ محمد كساب افندي المتخصص من جامعة كليفورنيا ولو علمت ان مصر تنفق حوالي ٠٠٠ ٥٠٠ ١ جنيه كل عام في استيراد منتجات الصناعات الزراعية ومن بينها المربات والاشربة والخضراوات المحفوظة ، لقدرت مدى ما تفيده البلاد اذا استطاعت ان تستقل بمنتجاتها عن المستورد . وليس هذا الاستقلال الاقتصادي في حكم المستحيل بل انهُ ميسور جدًّا ، وخاصة اذا عرفت ان بعض الشركات قد غزت بالفعل هذا المجال فأنتجت فيهِ كثيراً وان مصر البلد الزراعي لا يعجز عن تموين المملكة كلها فحسب ، بل انهُ يستطيع اذا تحركت رؤوس الاموال الجامدة ان يصدر الى البلدان الشرقية ايضاً وغيرها منتجاته في الصناعات الزراعية .

ولكي نزيد ما نقول بياناً نورد بعض الاحصاءات ، فان ما تستورده مصر من الصلصة سنويًّا يقدر بحوالي ٦٠٠ طن بحسب الاحصاءات الجمركية ، في حين ان المصانع الأهلية الموجودة تنتج حوالي ٤٠٠ طن سنويًّا . وما تستورده من الخضراوات المحفوظة يقدر سنويًّا بحوالي ٥٠٠ طن . وتنتج البلاد نصف هذا القدر سنويًّا . ومن الميسور جدًّا سدّ هذا العجز بل الزيادة عليهِ بحيث تستطيع التصدير لا الاستيراد وذلك بمضاعفة الانتاج وزيادة المصانع . وليس هناك أصلح من هذا الوقت ، وقت الحرب وصعوبة الاستيراد ، لكي تدعم صناعتنا المحلية بحيث نستقل بها عن الخارج . فهل فكّر أصحاب رؤوس الاموال المكتنزة في الافادة من هذه الفرصة ؟ ؟ ان قسم البساتين بما لديهِ من خبرة وخبراء مستعد على الدوام للارشاد العملي الصحيح . وان البلاد لغنية بحاصلاتها الزراعية فماذا ينتظر اولئك الأغنياء . إنها الهمة والاقدام تنقص اغنياءنا

٢ — الكربون مصدر المعجزات الكيميائية

ان المادة السوداء اللينة التي تستبطن خشب اقلام الجرافيت المسماة خطأً باقلام الرصاص ليست رصاصاً مطلقاً ، بل جرافيتاً وهذا الجرافيت اللين الذي نكتب به ، وذلك الالماس الصلب الذي نتزين به ، (مصنوعاً كان او طبيعيًّا) كلاهما من الكربون الخالص ، وكذلك الكتلة المتفحمة المحبّبة التي تتخلف من احراق الخشب ، وهي التي نطلق عليها اسم فحم الخشب أو الحطب أو الفحم البلدي ثم الفحم الحجري الاسود الصلب الذي نحرقهُ في افراننا ، جلهُ من الكربون . وفي الحقيقة انهُ كلما كثر مقدار الكربون في الفحم الحجري زادت جودته . فاذا فاقت نسبة الكربون فيهِ على ٩٠٪ سميناه انتراسيت anthracite أي فحماً صلباً . ويحتوي السكر على ٤٠ ٪ من الكربون . وقد تستطيع كشف ذلك بنفسك ، حينما تحرق قطعة منه فيصير معظمها فحماً . والسناج الذي يتولد من احراق المواد العضوية اكثره كربون كذلك

ويظل الكربون عنصراً خامداً ، حينما تكون درجة الحرارة معتدلة . ويبقى الجرافيت او الالماس ، موضوعاً تحت الماء احقاباً طويلة دون ان يطرأ عليه أي تغيير . والكربون لا يمكن صهره . والدليل على ذلك انك اذا وضعت خيطاً منه في زجاجة بصلية الشكل « هي المشكاة الكهربائية » مفرغة من الهواء ورفعت حرارة الخيط ، بالتيار الكهربائي الى درجة عظيمة ، اضاءَ ضوءًا باهراً ولكنهُ لا يحترق ولا يذوب وهذا هو المبدأ المتبع في المصابيح الكهربائية الدرية الضوء التي نستعملها في بيوتنا ومتاجرنا وغيرها . بيد ان الكربون يذوب ذوباناً محدوداً في الحديد المصهور وحينئذٍ يبرد بغتة تحت ضغط عظيم ، فيتبلور احياناً ويتحول الى شذور من الالماس

ويدخل الكربون في مركبات لاحصر لها ، وهي مطّردة الزيادة وتاريخ الكيميائي مسهب جدًّا ، متشعب الاطراف بحيث ان علم الكيمياء مقسم قسمين كبيرين ثانيهما ، الكيمياء العضوية . وهذا القسم مخصص بأجمعه لمركبات الكربون . وقد بلغ عدد المعروف منها أكثر من ٢٠٠٠٠٠ مركب . ويضاف اليها كل سنة ألوف

ومن الكربون نستمد وقودنا جميعه لأنهُ من العناصر المؤلفة للفحم الحجري (كما سلف القول) وغاز الاستصباح والزيت المعدني والدهن وشحم الخنزير والشحم الحيواني الصلب وشحم كلى البقر وشحم الحيتان ، والخشب وسائر مواد الوقود . والكربون أحد العناصر التي تتحد بالاوكسجين ، فتمدنا بالحرارة والضوء . ومنهُ نحصل على الغذاء والكساء لأنهُ أساس تكوين الانساج الحيوانية والنباتية جميعها . فالحشيش الأخضر ، والدريس الجاف ، وشهد النحل والنشاء جميعها تحتوي على الكربون .

وهو موجود في الشاي والقهوة والخبز والخل والزبد وسائر المواد الغذائية ، كما جاء في قول العالم الروسي شوستاكوفسكي ، — الذي نقلناه في مقتطف يوليو الماضي — ويؤلف أغلب القطن والصوف من هذا العنصر العظيم الشأن . ويتحد الكربون بالاوكسيجين فيؤلفان غاز ثاني اوكسيد الكربون carbon dioxide ويتحد أيضاً بالايدروجين فيتولد منهما غاز المستنقعات وطائفة كبيرة من الهيدروكربونات ، كما هي الحال في النفط ، وشتّى منتجات قطران الفحم الحجري ويتحد كذلك بالهيدروجين والاوكسيجين فينتج منهما الحامض الخليك وغيره من الاحماض العضوية وأنواع الكحول والزيوت والشحوم والكربوهيدرات ومنها السكر والنشا والسليولوز وهو المادة الأساسية في تكوين النباتات ، وهذه المواد أشهرها

وتتولد طائفة كبيرة معقدة جداً من مركبات الكربون في عالمي النبات والحيوان ولاسيما في الاخير منهما ، الذي يحتوي عادة على النيتروجين وأحياناً على الكبريت ، وغيرهما من العناصر ، (وذلك عدا الكربون والهيدروجين والاوكسيجين) ويتحد الكربون أيضاً ببعض المعادن . فاذا اتحد بالحديد ، تكون منهُ الفولاذ والحديد المسبوك . أما بعض أنواع الكربون التي أكثف مما ذكر ، مثل كربون الانابيق الذي يصدر من مصانع غاز الاستصباح ومصانع تنقية النفط فانهُ يوصل التيار الكهربائي ، توصيلاً جيداً ولذلك يستعمل كثيراً في البطاريات والمصابيح الكهربائية

وكربيد الكاسيوم هو مركب من الكاسيوم والكربون ويستعمل لتوليد غاز الاسيتيلين

وكل حيوان يعيش في هذا العالم يزفر ثاني اوكسيد الكربون carbonic acid gas اي غاز الحامض الكربونيك . وكل نار تضرم حيث تشعل مركبات الكربون ، تولد ذلك الغاز الذي لا لون له ولا طعم

اما النباتات ذات الأوراق الخضر ، فتمتص في اثناء النهار ، غاز الحامض الكربونيك من الهواء ، وذلك على نقيض الحيوانات ، فتستهلك الكربون في باطنها ، وترد الاوكسيجين الى الهواء

ويحتوي ثاني اوكسيد الكربون ، على ذرة واحدة من الكربون في مقابل ذرتين من الاوكسيجين وهو يؤلف $\frac{١}{٢٥٠٠}$ من هواء العالم . وهو اثقل من الهواء ويمكن نقله في أوعية واهراقه كالماء . وهو يغاير الاوكسيجين بكونه لا يساعد على الاشتعال ، بل انهُ يخمد جذوة النار المشتعلة . ولذلك يخزن في بعض المضخات الكيميائية المستعملة في اطفاء الحرائق . واذا استنشق امرؤٌ هذا الغاز نقيّاً ، او استنشق هواءً محتوياً على مقدار كبير منه ، مات موتاً أسود[1] لا محالة . اذ لا تستطيع

(١) المترجم — راجع مقالنا على (الملم واحياء الموتى) وذلك في مقتطف ابريل سنة ١٩٣٥

الرئتان حينئذٍ احراز المقدار الضروري لهما من الاوكسيجين وهذا أفظع ما يكابده المعدنون في أعمالهم الشاقة. ولهذا الغاز عندهم اسم آخر بالانكليزية هو choke-damp اي الغاز الخانق غير الصالح للتنفس او ثاني أوكسيد الكربون

واذا ضغط هذا الغاز بنسبة ٦٠٠ رطل انكليزي على كل بوصة مربعة، سال. واذا أطلق سائلاً من صنبور ضيق ، تبخر تبخراً عاجلاً. ومن ثمة يكون البرد المتولد من ذلك التبخر جزءًا من السائل الذي يتجمد ويظهر بمظهر الثلج . وهو المعروف باسم الثلج الجاف

ويذوب غاز الحامض الكربونيك في الماء فيتكوَّن منهُ الحامض الكربونيك . واذا ضغط في الماء بغية اذابة مقدار اكبر مما يستغرقهُ عادة تولدت منهُ المياه الغازية اي المشبعة بالغازات ، وهي أشربة الصودا والكازوزة وسلتزر seltzer

أما اول اوكسيد الكربون carbon monoxide او carbon oxide او اوكسيد الكربون فهو غاز اشد خطراً من زميله ويختلف عنه باحتوائهِ على ذرة واحدة من الاوكسجين لكل ذرة من الكربون . ولوجوده في غاز الاستصباح المألوف ، يصير استنشاق هذا الغاز خطراً على الصحة وان يكن المقدار المستنشق منهُ ضئيلاً

عوض جندي

تصوير مدمرة من غواصة غائصة

أذاعت وزارة البحرية الاميركية ، ان احدى الغوّاصات الاميركية في المحيط الهادىء تمكّنت من تصوير مدمرة يابانية ، وهي تتحطم بفعل طوربيد الغواصة . وكانت الغواصة تحت سطح البحر والصورة أخذت بمنظار الغواصة (پريسكوب) . والمنظار كما لا يخفى ، يمكن قائد الغواصة من رؤية السفن التي في مجال البصر، برفع المنظار فوق سطح الماء. فوضعت آلة للتصوير مكان عيني القائد وأخذت الصورة . وقد نشرت في الصحف الاميركية

الحرارة والطعام

دلّت المباحث الفسيولوجية الحديثة ، على ان هناك صلة بين حرارة الجو الذي يعيش فيهِ الحيوان ومقدار الطعام الذي يحتاج اليهِ جسمهُ . فالمقدار يزيد وفقاً لقلة الحرارة ، في حدود معيّنة . فالحيوانات التي تحفظ في جوّ حرارتهُ ١٨ درجة مئوية تأكل ضعفي ما تأكلهُ عندما تكون حرارة الجوّ ٣٢ درجة مئوية . والتحول من الحرارة الواطئة الى الحرارة العالية يتبعهُ هبوط مباشر في معدّل الطعام والنمو. ولو أعطي حيوان حرارة جوّهِ ١٨ درجة مئوية مقداراً من الطعام يكفيهِ وهو في جوّ حرارتهُ ٣٢ مئوية، لهزل ومات جوعاً

مكتبة المقتطف

الحسن بن الهيثم

بحوثه وكشوفه البصرية — تأليف مصطفى نظيف بك — أستاذ الطبيعة بكلية الهندسة
الجزء الاول ٤٨٥ صفحة ، قطع المقتطف

لسنا نتردد في جعل المقام الاول بين كتب هذا الشهر ، بل بين كتب هذه السنة ، لكتاب مصطفى نظيف بك في الحسن « بن الهيثم ». فهو بحث محيط بعبقرية اسلامية ، بل بعبقرية عالمية ، من الطبقة الاولى . وهو بحث مستند الى الاصول المخطوطة من مؤلفات ابن الهيثم ورسائله . وفيه جلاء لاعتراضات وشكوك على بعض مباحثه وبعض براهينه الهندسية أثارها ونشرها مَن كتب عنهُ باللغات الاجنبية ، وتقويمٌ لما تسرب الى نسخ رسائله من الخطاء ، وتفصيل لما اجمل من مباحثهِ « التي لا يغني فيها الاجمال عن التفصيل » وكل ذلك في اسلوب علمي دقيق ، وبيان عربي مشرق

« وابن الهيثم في طليعة الأعلام لا بين علماء الاسلاميين فحسبُ ، بل وبين علماء العالم أجمع ويرجع الى علماء الغرب فضل السبق في قدر قيمة بحوثهِ العلمية قدرها ، وفضل السبق في التنويهِ بذكره والاشادة بمآثره » . وفي مقدمة الكتاب بيان وافٍ لتاريخ التعريف بهِ في الغرب ، وما تطرق الى التعريف بهِ من خطإٍ . وفي الفصل الاول ذكر منزلة ابن الهيثم في عصره والعصور الاسلامية التالية ، ومبلغ ذيوع بحوثه البصرية . والمرجح عند المؤلف « ان كتاب المناظر لابن الهيثم لم يعم تداوله في تلك العصور لدى المشتغلين بالعلم من الاسلاميين » وان نظرية ابن الهيثم في كيفية الابصار وهي النظرية التي تدور حولها بحوث الكتاب بوجه عام « لا نجد لها اثراً في اقوال الفلاسفة الطبيعيين ولا فيما شاع وتواتر لدى علماء الطب والتشريح من الاسلاميين المتأخرين عن ابن الهيثم ... » . والادلة التي يسوقها المؤلف من دراسة علماء تلك العصور تؤيد هذا الرأي . وهو يفسره بالاضطراب الناشىء عن الحروب الصليبية ، واغارة التتار ، وما انتاب العالم الاسلامي بفعل الاهواء السياسية ، ونشاط الرجعيين الحاقدين على أعلام عصورهم من رجال العلم والفلسفة

وقد أصاب المؤلف الحقيقة في حكمه بأن نشر مخطوطات رسائل ابن الهيثم ومؤلفاته لا يكفي مهما تكن هوامشها مستفيضة . فبحوث ابن الهيثم في موضوعات علم الضوء « لا يصح ان تعد مجرَّد زيادة اتسعت بها دائرة المعلومات، بل حقيق بها ان تعَدَّ احداثاً قلبت اوضاع العلم..» وبحوثهُ هذه « جديرة بان تدرس في جملتها كوحدة . دراسة يصحبها شيءٌ من التحليل والموازنة . فهي جميعاً نتاج عقل واحد . وتفكير ابن الهيثم كان تفكيراً علميًّا ، كما نفهم التفكير العلمي الآن ، فهو لم يسبق بما يكون اليهِ بل سما على ما وصل اليه بما يكون مع سبقه اياه . وهذه الناحية جديرة بالتبيين . ونشر المخطوطات لا يتيح كل هذا

والواقع ان نظيف بك خيرُ من يتولى هذا العمل.فكتابهُ في البصريات اتمُّ كتاب مطول عندنا في فرع واحد من فروع الطبيعة الحديثة . ومؤلفاته في تاريخ علم الطبيعة، وشغفهُ ببعث هذه العبقرية الاسلامية العالمية ، وصبره على مشاق البحث في المخطوطات القديمة او صورها ومقابلة المسائل الدقيقة بعضها ببعض على كرّ العصور مدى الف سنة من الزمان تقريباً—كل ذلك مكنهُ من اخراج هذا السفر النفيس . واذا كانت فصول الكتاب تدخل في باب البحوث العلمية والرياضية الدقيقة في الضوء والبصريات ، فاننا نظن ان الفصل الاول من الكتاب وعنوانه (ابن الهيثم ومنحى تفكيره)يجب ان يطبع في رسالة على حدة لتيسير الاطلاع عليهِ لمن لا يستطيع الغوص في البحوث الطبيعية او لا يهمه ذلك

وبعد ذلك تتوالى فصول الكتاب

والكتاب اربعة ابواب . الباب الاول : في ابن الهيثم وعلم الضوء قبل عصره وهو فصلان الاول ابن الهيثم ومنحى تفكيره والثاني علم الضوء قبل عصر ابن الهيثم — عند اليونان وفي فلسفة ارسطو والعصر الاسكندري وكتاب اوقليدس وكتاب بطليموس . والكتاب الثاني فصلان : الاول في آراء ابن الهيثم ونظرياتهِ العامة في الضوء ، كالانعكاس والانعطاف «وان انتقال الضوء لا يكون الاّ في زمان » والفجر والشفق وما اشبه . والفصل الثاني في امتداد الأضواء على السموت المستقيمة وما يترتب عليهِ من الظواهر ، ومن الحقائق الجديدة التي توصل اليها المؤلف في هذا الفصل ، ان « نسبة فضل الكشف عن ظاهرة تكوُّن صور المرئيات بوساطة الثقوب الضيقة ، الى « دلا پورتا » كما هو الشائع المتواتر ،او الى « روجر باكون » او الى «فتلو» او الى «ليناردو دافنشي » اوغيرهم من المتأخرين عن ابن الهيثم، لا يكون مشكوكاً فيها فحسب ، بل تكون قطعاً غير متفقة والواقع . وسبق ابن الهيثم كل هؤلاء يتقرر كحقيقة تاريخية لا وجه لانكارها . ولزام علينا ان نؤكدها وننشرها»

وفي الباب الثالث عالج المؤلف آراء ابن الهيثم في البصر والابصار من نواحيهما الطبيعية

والنفسية ، كوصف العين وطبقاتها ورطوباتها ونظريته في كيفيــة الابصار ، والناحيتين الفسيولوجية والنفسية من هذه النظرية وتفاصيلها الخاصة بادراك الضوء واللون والظلمة والبعد والوضع والتجسم والشكل وما اشبه. والباب الرابع وهو في خمسة فصول يعالج موضوع الانعكاس وحكم ابن الهيثم « يحيط بمعنى قانوني الانعكاس بصيغتهما المألوفتين لدينا . وان كان اوقليدس قد سبقهُ الى معرفة تساوي زاويتي السقوط والانعكاس . وبطليموس قد سبقهُ الى ادراك ان الشعاعين الساقط والمنعكس يقعان في المستوى العمود على السطح العاكس ، فان ابن الهيثم نص نصًّا صريحاً شاملاً على الكيفية التي ينعكس عليها الضوء ، بالمعنى المقصود من الضوء في الوقت الحاضر ، وصحح موقف المتقدمين »

كل فصل من فصول الكتاب بل كل فقرة من فقراته ، حافلٌ بآيات عبقرية ابن الهيثم ، وفضل نظيف بك في ابرازها على هذا الوجه العلمي المتقن . وان هذا الكتاب وهو من منشورات جامعة فؤاد الاول — كلية الهندسة — لتفخر كل جامعة بأن ينسب اليها

الكون الغامض

تأليف جيمز جينز — ترجمه عبد الحميد حمدي مرسي — راجعه الدكتور مشرفه بك — طبع بالمطبعة الاميرية ببولاق — صفحاته ١٩٦ قطع وسط

السير جيمز جينز من علماء الانكليز في الفلك والطبيعة الذين يشار اليهم بالبنان وله في ذلك بحوث اصيلة وكتب تعد من المراجع. وهو علاوة على ذلك كاتبٌ علميٌّ بليغ ، يقرّب الموضوعات النائية ، ويبسط المعقدة ، بأسلوب فيه حلاوة القصة. وقد انشأ اربعة كتب او خمسة من هذا القبيل بسط فيها نواحي من العلم الحديث فراجت رواجاً عظيماً ومنها « الكون الذي حولنا » و « النجوم في افلاكها » « والكون الغامض » وغيرها . ولعل « الكون الغامض » كان اعظمها رواجاً ، مع انهُ ليس ايسرها ، فعدّ في سنة ١٩٣١ — وهي السنة التي نشر فيها اولاً — بين اروج الكتب في تلك السنة ، بغير استثناء القصص . وفي هذا الرواج تقدير للمؤلف وللجمهور القراء الانكليز في آن واحد

وقد سبق للاستاذ الكرداني بك نقل كتاب « النجوم في افلاكها » او في « مسالكها » فأسدى الى طلاّب علم الفلك الحديث ، باللغة العربية يداً تذكر . والآن عنيت ادارة الترجمة بمراقبة الشئون الثقافية في وزارة المعارف ، بنقل كتاب « الكون الغامض » وتولى النقل وكيل ادارة الترجمة الاستاذ عبد الحميد حمدي مرسي وراجعهُ الدكتور علي مصطفى مشرفه بك عميد كلية العلوم

ومن محاسن الصدف ان جينز أشار في آخر الفصل الثالث من الكتاب وهو فصل « المادة والاشعاع » الى مشرفة وبحثه الذي وصفه بقوله : (نقلاً عن الترجمة العربية) — « ويرى مشرفة وآخرون ان هذا قد يكون كل ما بين المادة والاشعاع من فروق . فليست المادة في رأيهم سوى نوع من الاشعاع المتجمد ينتقل بسرعة اقل من سرعته العادية »

ان كتاب جينز توطئة وخمسة فصول : فالفصل الاول عنوانهُ الشمس المحتضرة وقد اورد فيه صفات الكون الطبيعية من حيث سعته وعدد شموسه والابعاد التي تفصل بينها واحتمال اقتراب شمس من اخرى اقتراباً يمكنها من احداث مدٍّ في كتلتها ينفصل عنها ويتحول بعد انفصالهِ سيارات ، وما لذلك من صلة بموضوع الحياة كما نعرفها في سيارات شموس أخرى . وعالج موضوع مصير الكون وفقاً لمبدإ انحدار الطاقة اي تحولها من طاقة قصيرة الأمواج فعالة الى طاقة طويلة الامواج فاترة غير فعالة

وعالج في الفصل الثاني موضوعات الطبيعة الحديثة مثل نظرية المقدار (أو الكم : كوانتم) ونسبية اينشتين وناموس السببية ونزوله عن العرش ، ومبدأ « عدم التثبت » الذي قال به هيزنبرج وما لذلك كله من تأثير في علم الطبيعة وأصوله ، بل وفي طرائق التفكير الحديث

وفي الفصل الثالث عالج موضوع المادة والاشعاع والصلة بينهما ، وفي الرابع « النسبية والاثير » . والصفحات التي وقفها المؤلف على تفسير التحول في النظر الى الاثير من اصعب فصول الكتاب وأدقها

ونحا في فصله الاخير ناحية الفلسفة — شأن غير واحد من كبار علماء العصر — اذ حاول ان يبين اثر هذه المكتشفات والآراء في قيمة الحياة البشرية والغرض منها . ولذلك جعل عنوان فصله هذا .. « الى المياه العميقة » — (Into Deep Waters) او « في الأعماق السحيقة » . وهذه العبارة هي عنوان هذا الفصل في الترجمة العربية

فالكتاب متعة ذهنية من الطبقة الاولى . والترجمة حسنة ودقيقة . وقد ذيّل الكتاب بجدولين يحتويان على المصطلحات العلمية في اللغتين الانكليزية والعربية

الإمتاع والمؤانسة

لابي حيان التوحيدي . الجزء الثاني . اخرجه الاستاذان احمد امين واحمد الزين .
لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٢

وصلتنا مراجعة لهذا الكتاب مع عرض المآخذ على تحرير النص بقلم الدكتور بشر فارس ولما كانت المراجعة ضافية وهذا الباب من المقتطف قد جمع ، اضطررنا الى ارجاء نشرها في العدد القادم

معجم الاطباء

تأليف الدكتور احمد عيسى بك — ٥٢٨ صفحة قطع المقتطف — مطبعة نوري بالقاهرة — وهو من منشورات جامعة فؤاد الاول — كلية الطب

للدكتور احمد عيسى بك منزلة عالية بين علماء هذا العصر ، انزلتهُ فيها مؤلفاتهُ النفيسة في الطب والنبات واللغة . فلهُ في الطب كتاب صحة المرأة في ادوار حياتها ، وامراض النساء ومعالجتها وصفاً وجراحة ، والتفسرة اي الاستدلال بأحوال البول على المرض. وله في تاريخ الطب كتاب آلات الطب والجراحة عند العرب ، وتاريخ البيمارستانات في المعهد الاسلامي (فرنسي) وآخر بالعربية . ومعجم الاطباء هذا . اما في النبات فلهُ « معجم اسماء النبات ». ولهُ في اللغة : التهذيب في اصول التعريب ، والمحكم في اصول الكلمات العامية في مصر . وهناك كتب اخرى طبعت ومنها ما هو تحت الطبع

ففضل المؤلف غنيٌّ عن التعريف بهِ. وقد اشار في توطئتهِ الى كتب التراجم والطبقات والسير فقال انها تترجم للاطباء الى النصف الاول من القرن السابع الهجري اى الى ما قبل وفاة ابن ابي اصيبعة بقليل واوسعها تفسيراً واجمعها للاطباء كتاب عيون الانباء ولم يصنَّف بعده الى وقتنا هذا كتاب يشمل تراجم الاطباء كافة بل ان هذه التراجم صارت بعد الكتاب الاخير مبعثرة ومشتتة ... فعقد العزم على استدراك ذلك ورجع الى كتب التاريخ والطبقات والوفيات والتراجم والى الكتب الخاصة بكل عصر وذلك من القرن السابع الهجري الى اليوم ، فاجتمع لديهِ من التراجم ما يزيد على تسعمائة ترجمة . قال : « فنقلتها كما وردت في مصادرها الأصلية ونبّهت على الأصل المنقول عنهُ . واني وان كنت التزمت تدوين الأطباء من عهد وفاة ابن أبي اصيبعة فاني قد نقلت ما عثرت عليهِ من تراجم الأطباء الذين تقدموه ، وفاتهُ أن يترجم لهم أو الذين ذكرهم بالاسم ولم يترجم لهم ، فكان كتابي هذا ذيلاً لكتاب طبقات الأطباء . . . »

فالكتاب يد جديدة للدكتور احمد عيسى يسديها الى تاريخ الطب في البلدان العربية . ولكن هل يكفينا في هذا العصر ، أن نحذو حذو ابن أبي أصيبعة ، وأن يكون ما نكتبهُ في هذه الناحية ذيلاً لما كتب ؟ واذا كان هذا الاجمال والتدوين اللذان تولاهما الدكتور احمد عيسى لا بد منهما لدراسة تاريخ الطب في البلدان العربية ، فانهما حتماً لا يرفعان عن كاهل الباحثين واجباً آخر وهو الترجمة المسهبة لأصحاب الفضل الكبير من الأطباء الذين خلّفوا آثاراً علمية أو تعليمية أو ادارية في ابتكار الآراء والأساليب أو نقل علوم الغرب أو تلقين الطلاّب أو تنظيم المعاهد والمصالح الطبية والصحية . فاذا عولج مثلاً ، تاريخ الطب في مصر من عهد محمد علي الى

الآن ، على هذا الأساس ، كانت معالجتهُ ناحية أصيلةً في دراسة النهضة المصرية من مستهل القرن التاسع عشر الى الآن . ولعلّ الدكتور احمد بك يفكر في هذا ويجمع لهُ الموادّ

ولسنا نعلم القاعدة التي جرى عليها الدكتور احمد في اختيار الذين ترجم لهم . فاننا لم نجد مثلاً ذكراً للدكتور شبلي شميل الذي شغل الناس بمؤلفاتهِ مدى نصف قرن تقريباً ، ولا للدكتور اسكندر البارودي الذي كان يحرّر ويصدر باللغة العربية مجلة « الطبيب » في بيروت سنين متعددة ، ولا للدكتور جراهام وهو الذي شغل كرسي فانديك وورتبات في كلية الطب بجامعة بيروت الاميركية وكان لهُ رأي يؤثر عنهُ في صلة صنف من البعوض بنقل داء « ابي الركب » علاوة على عشرات بل مئات من الاطباء الذين تخرجوا عليهِ ومنهم من نبغ او شغل مناصب طبية كبيرة في البلدان العربية اللسان . وغير هؤلاء الثلاثة فئة غير قليلة . ثم يلوح لنا ان المؤلف فاتته الاشارة الى المقتطف في ما كتبه عن الدكتور كرنيليوس فان ديك والدكتور يوحنا ورتبات . ولكن هذا كله من الهنات في مؤلف ضخم غزير الفائدة يشمل سبعة قرون كمعجم الاطباء

لحظات

للدكتور طه حسين بك — ٢٤٥ صفحة من القطع الوسط — مطبعة المعارف بمصر

يعمل الدكتور طه حسين بك في هذه الايام في نشاط عجيب على ان يمد القارىء العربي بالتحفة في اثر التحفة ليشغله في هذا الوقت العصيب عن خطوب الحرب وأهوالها وعن آلامه ومتاعبه ، وفي هذا المدد المستمر غنى للادب وثروة للثقافة

وآخر ما اخرج للناس كتابه الجديد « لحظات » ، وهي لحظات أدبية قضاها المؤلف أيام الشباب بين ادباء الغرب وقراء الشرق ، وكان يحس حين قراءتها وعرضها انهُ « ينهض بواجب خطير هو تحقيق الصلة العقلية بين الشرق والغرب». وكان ينتظر ان يكون من نتائج هذا الواجب « ان تتقرب الآماد بين الشرق والغرب وان يكون ذلك وسيلة الى تحقيق المودة والتعاون بين طائفتين من الشعوب أفسدت امرها الخصومات التي كان الشرق فيها مظلوماً وكان الغرب فيها ظالماً »

وهذه اللحظات فصول مشرقة من أدب الغرب استطاع بها الدكتور ان يحقق كثيراً من غاياته وأن « يزيد أدبنا العربي قوة الى قوة ، ويمنحهُ حياة الى حياة» عند ما سلك السبيل الذي سلكه العرب في عصورهم الزاهرة وسلكهُ المصريون في تاريخهم الحديث بالنقل والترجمة والتلخيص والتعريف بأدباء الغرب وآثارهم ، ومَنْ أجدر من الدكتور طه حسين بك بالنهوض بهذا الواجب الخطير

وقد ضمت هذه المجموعة الاولى من «اللحظات» اثنتي عشرة قصة تمثيلية وفصلاً من روائع الأدب الفرنسي والبلجيكي لخيرة رجالها امثال «بول جيرالدي» و«اسكندر دوما الصغير» و«هيجو» و«هنري لفدان» و«الفريد سفواو» و«بيير فروندى» و «شارل ميري» «وادوار بورديه» و«موريس ماترلنك»

وسيجد قراء هذه المجموعة في هذا الجيل كما وجدها قراء الجيل الذي نشرت له يومذاك، وسينتفعون بها كما انتفعوا، ولعلها تحدث اكثر مما احدثت من أثر في نفس الجيل الماضي حتى يصدق إيمان الدكتور بالنهوض بهذا الواجب، ويتجدد عزمه فينقل الى الادب العربي روائع أخر

اتجاهات العصر الجديد في مصر

١٧٥ صفحة من القطع الصغير — مطبعة الشمس بمصر — نشرته مكتبة النهضة

الاستاذ محمود المنجوري معروف لقراء «المقتطف» بما يتابع نشره من دراسته النفيسة عن «تاجور». وقد لقيت دراسته ما هي جديرة به من تقدير الأدباء كما لقيت دراساته السابقة في الادب العربي. وهو من الادباء القليلين الذين يعملون في صمت، ويدرسون الحياة في عزلة، ولعلّ أول ترجمة عربية نثرية لرباعيات الخيام قرأتها في صباي كانت ترجمة المنجوري وكان هو في حداثة سنهِ، ومن هنا نشأ ميلهُ الى دراسة الشرق: فلسفاته وآدابه وتطوره الاجتماعي

لهذا لم يكن جديداً عليه أو غريباً عنهُ أن يتصدى لدرس اتجاهات العصر الجديد في مصر فهو يرى ان طبيعة العقل المصري مرنة مرونة عجيبة ظاهرها اللين وباطنها الصلابة والقوة فهو بالرغم من كل ما مر به من تطورات وما اختلف عليه من عهود يندمج في كل ما يطرأ عليه ليهضمه ثم يعود فتظهر شخصيته المصرية لتحيل كل ما تتلقاه الى الروح المصري

وقد رسم الاستاذ المنجوري في كتابه ما يراه من اصلاحات واتجاهات اجتماعية وخلقية واقتصادية وأدبية أصبحت كلها غاية بعد الثورة المصرية ولكن هذه الغاية في حاجة الى أن يجتمع الرأي عليها وأن تحدد سبلها فالغاية في الاتجاه الاجتماعي أن نصون شخصيتنا دائماً داخل بلادنا وخارجها وذلك بحماية الروح الدستورية وتعزيزها وبثها في أخلاق الشعب ثم بالاشتراك في الهيئات الدولية وان نعالج مشكلة التعليم لنجعلهُ مشتقّاً من الحياة العملية نفسها يخرج شباناً ذوي كرامة تطلبهم الحياة للعمل وان تثبّت في نفوسهم فكرة القومية المصرية. اما المرأة والطفل فيجب ان يكون واجب المرأة ان تشعر اطفالها بالمسئولية العظيمة المترتبة على الاستقلال. فلقد كان الاستقلال فيما مضى املا فأصبح الآن عبئاً يجب النهوض بتبعاته، ويجب ان ينشأ الطفل على عقيدة انهُ ملك للوطن. وأما اتجاه التشريع

فهو ان يكون قوميًّا وان يعمل على توحيده واستقلاله . وقد تكلم المؤلف باسهاب عن الامتيازات والغائها . أما الاتجاه الاقتصادي فهو تنظيم موارد الثروة الاهلية وحمايتها والعمل على جعل الميزان التجاري في صالح القطر بالطرق الاقتصادية المختلفة وتثبيت النقد المصري وتوازن ميزانية الدولة دائمًا . اما المسائل القومية العامة فقد أبان ايضًا الطرق القويمة لاصلاح كل واحد من مرافقها فيعنى بالقرية العناية الصحيحة وتقييد هجرة الفلاح من القرية وتنشر الثقافة الصحية بأعم وسيلة ويكون الدفاع القومي واجبًا محتمًا على الجميع ويلغى البدل العسكري. أما اتجاهاتنا في الفنون الآداب فهو ان يلبي نداء القومية المصرية وان يكون الفن والأدب معبرًا عن الروح المصري اتمَّ تعبير . والمؤلف يدعو الى أدب القوة الى الادب الصحيح الذي يخاطب الحياة من غرائزها فان الحياة الجديدة تحتاج الى ذلك وتحتاج الى الأديب الذي يهيء بلاده للمستقبل المحفوف بالمخاطر فينتج أدبًا ذا شخصية يشترك المستقبل في تكوينه بتحفزه وتطلعهِ وآماله

هذه هي السبل التي أشار اليها الاستاذ المنجوري في دراسته النفيسة لاتجاهاتنا في الحياة الجديدة التي تواجهها البلاد وهو واجب وطني قام بأدائه فأحسن الآداء . الصيرفي

حكايات من الهند

١٧٣ صفحة من القطع الوسط — مطبعة حجازي بمصر

هذا كتاب آخر للاستاذ عبده حسن الزيات المحامي الذي عرضنا في مقتطف يوليو الماضي كتابهُ « سعد زغلول من أقضيته » وهو مجموعة لطيفة اختارها من حكايات وضعها بالانجليزية الكاتب الهندي ا . س . ب . ايار Ayyar واسم الكتاب في الانجليزية Indian After-Dinner Stories وهذه الحكايات في أصلها تبلغ المائتين والخمسين ترجم منها الأستاذ الزيات مائة وثلاث عشرة حكاية وقد قدّم لها المترجم بمقدمة قال فيها « ان هذه الحكايات ليست مجرد لهو خفيف يقرأ بعد الطعام ولكنها بعيدة المغزى على قرب منالها ، عميقة القاع على هدوء سطحها ، قوية الايحاء على بساطة مظهرها ، أو هي كالطعنة السريعة المصمية، فيها خفة الرشاقة ، وبلوغ الغاية ، وسرعة الاصابة ، والبعد عن ضجيج المدفع وقعقعة السلاح ». وفي هذه الحكايات خصال أوحت للمترجم فكرة نقلها الى العربية منها الرمزية والعناية بالايحاء الاجتماعي الطيب من ناحية وبالتحليل النفسي من ناحية اخرى كما وجد فيها تحليلاً او عرضاً سيكولوجيًّا ممتعاً مبرَّءًا من التقعر والادعاء

وفي الواقع ان الحكايات التي نقلها الاستاذ الزيات في هذا الكتاب جديرة بأن تقرأ بعناية لأن وراء مغزى كل منها وسيلة الى الاصلاح والتهذيب ، وهي أولى بأن تذاع بين النشء لما فيها من هذه الخصائص. ولعل المترجم يتابع نقل بقية حكايات هذا الكتاب . الصيرفي

شعاب قلب

٢١٨ صفحة من القطع الصغير — مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر

أصدر الاستاذ حبيب الزحلاوي مجموعة تضم تسع قصص من وضعه تصور نواحي متباينة من نفس إنسانية وقد قدم لها الأستاذ العقاد بمقدمة جاء فيها « من المزايا التي يحسن ان تتوافر للكاتب القصصي أن تكون حياته صالحة لموضوع قصة او قصص كثيرة سواء في مساعيه الخارجية أو تجاربه النفسية ، وهذه مزية قد توافر منها النصيب الوافي لصديقنا الكاتب الفاضل صاحب هذه المجموعة منذ نشأته الاولى، فعرف الجهاد في سبيل الوطن كما عرف الجهاد في سبيل العمل، وتمرّس بالناس كما تمرس بنفسه واختبر حياة الاسرة وملابساتها كما اختبر حياة المجتمع الشرقي وملابساته ، وزار مع هذا بلاداً غير بلاده الشرقية فسنحت له فرص شتى للمقابلة والموازنة والاستفادة من هنا وهناك. وليس أيسر على القارىء من ان يلمس هذه الحقيقة في صفحات هذه المجموعة القصصية فهي ترجمة الاديب كاتبها موزعة بين قصة وقصة وبين صفحة وصفحة يكاد من له ولع بالمشابهات والتوفيقات ان يستخرجها ويجمعها في نسق واحد فاذا هي قصة واحدة واذا هي ترجمة حياة»

هذا هو رأي الاستاذ العقاد وهو شهادة غالية لهذه المجموعة القصصية ولكاتبها الاستاذ الزحلاوي ولا ريب في انها واجدة من قرائها اعجاباً لأنها مطبوعة بطابع الصدق في التعبير وهذا الطابع سيكون سبيلها الى الفوز باعجاب القرّاء

مجلة كلية الآداب

وصلنا المجلد السادس من مجلة كلية الآداب للجامعة المصرية ، وقد خرج في شهر ابريل من مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . وهذه المجلة تخرج مرة في السنة وتضم مباحث اساتذة الكلية وفي هذا العدد « الفتوة في الاسلام » للاستاذ أحمد أمين و« رسالة الملامتية للسلمي » لأبي العلا عفيفي ، و« الملك نب حبت رع مؤسس الدولة الوسطى حوالي ٢٠٧٠ ق م » لباهور لبيب أقلاديوس . هذه المقالات بالعربية . والتي بغير العربية « زوال دولة المماليك» لمحمد مصطفى زيادة ، و « نقد المعتقدات الدينية التقليدية الواردة في كتاب هيبوليت ليوربيدس » بقلم ده مارنياك

استدراك : في عدد يوليه ، باب المكتبة ، ص ٢٠٨ هامش ١ : تنبيه الى وهم ورد في اخراج كتاب «التصوير عند العرب» وهو استعمال (إثبات) بدلا من (أثبات) . والتحقيق ان هذا الوهم استدركه مخرج الكتاب نفسه في « الاستدراك » الذي عمله في آخر الكتاب

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الواحد بعد المائة

٢٢١ الدم المجفف في مستشفيات الميدان
٢٢٩ المثال التائه أو جالاتيا وبيجماليون (قصة مسرحية) بقلم خليل هنداوي
٢٤١ منخفض القطارة : من محاضرة لصاحب الدولة حسين سري باشا
٢٤٥ نظرة في المبادىء الاولى وهي حجر زاوية فلسفة النشوء : لحنا خباز
٢٥٣ الشرق العربي واوربا الى مستهل القرن التاسع : لنقولا زيادة
٢٦٠ برنامج مصر الصحي في ربع القرن المقبل : للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك
٢٦٣ رأي في تنازع الفناء وفناء الأصلح : لنقولا الحداد
٢٦٨ « تونّي » في الصباح : (قصيدة) للمرحوم التيجاني يوسف بشير
٢٧٠ التكافل في النبات وأثره في الزراعة : ملخص محاضرة يونس سالم ثابت
٢٧٤ بحث طريف في ناصيف وناصف ونصيف : للشيخ عبد القادر المغربي
٢٧٦ من وحي الروح : لمصطفى صادق الرافعي
٢٧٧ توجيه الانتاج لاغراض الحرب : لفؤاد محمد شبل
٢٨٥ النباتيون المشهورون وما يرمز اليهم بهِ : لمحمود مصطفى الدمياطي
٢٨٨ الهند وموار دها الطبيعية والصناعية
٢٩٣ ابن الهيثم والطريقة العملية في البحث : لمصطفى نظيف بك
٢٩٩ كما نكون يكون عالمنا — رسالة برتراند رسل الى العالم
٣٠١ حديقة المقتطف * تاجور في الحياة والاخلاق والمدنية والسياسة والمرأة والادب والدين : لمحمود المنجوري

---

٣١١ باب الاخبار العلمية ☆ جلالة الملك وتشجيع الكشف عن الآثار القديمة . مصدر للطاقة في تفاعل كيميائي . تمثيل عمر البشر وعمر الشمس . النقل الجوي بطائرات ضخمة - فيتامين C والتدرن الرئوي . العلاج بالفيتامين ونمو النبات . منطقة الاورال الصناعية .الطيران فوق جبل افرست. الصور الطيفية تنفي الحياة على المريخ . صناعة المأكولات المحفوظة في مصر . الكربون مصدر المعجزات الكيميائية . تصوير مدمرة من غواصة غائصة . الحرارة والطعام
٣٢٣ مكتبة المقتطف ☆ ابن الهيثم . الكون الغامض . معجم الاطباء . لحظات . اتجاهات العصر الجديد في مصر . حكايات من الهند . شعاب قلب . مجلة كلية الآداب



صورة رمزية لروح الاكتشاف والاختراع

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الواحد بعد المائة

١ نوفبر سنة ١٩٤٢ — ٢٢ شوال سنة ١٣٦١

العلم

بين النظم الدكتاتورية والدمقراطية (١)

العلم والدمقراطية، قوّتان رئيستان من قوى العصر الحديث وهما ابداً قوتان متفاعلتان فالعلم ونتاجه النظري وتطبيقهُ العمليّ يتيح للدمقراطية، العناصرَ التي توسّع من نطاقها وترسّخ من اركانها وتعمّم من نعمها. والدمقراطية، تهيئ للعلم التربة والجوَّ اللذين يزكو فيهما غرسهُ وينضر ورقهُ وينضج ثمرهُ. اما العلم والدكتاتورية فقوتان أبداً متنافيتان، فهي تتخذ من نتاج العلم أداة لتقييد العلم وكتم أنفاسهِ وهو يأبى القيد وإما ان يهجر الأرض التي يلقاه فيها واما ان ينحني ويرزح تحت عبئهِ ثم يذوي ولا ينتعش الاّ بعد مشقة وتمهّدٍ طويل. وقد عُني كاتب اجتماعيّ ايطاليّ كبير، من نحو عشر سنوات بتصنيف كتاب، عنوانهُ « امتحان الدكتاتورية » وطلب الى طائفة من كبار الكتّاب ان يكتبوا فصوله، وهي عشرون فصلاً اوتزيد، فكتب اندريه مورُوى، فصلاً في « الدكتاتورية والرجل العظيم » واميل فندرفلد الاشتراكي البلجيكي فصلاً في « الاشتراكيين والدكتاتورية » وولتر فون مولو رئيس الاكادمية الالمانية في « الدكتاتورية والذهن الالماني » وجوليلمو فريرو المؤرخ المتوفى من عهد قريب في « الدكتاتورية في

---

(١) الجانب الاول من محاضرة لرئيس تحرير المقتطف

روما القديمة » وسائر الفصول على هذا النمط . وهي تتفاوت طولاً من خمس صفحات الى ثلاثين صفحة او أربعين . وطلب المصنّف الى العلامة البرت اينشتين ، أن يكتب فصلاً في «العلم والدكتاتورية» فكتب فصلاً في عبارتين اثنتين ولم يزد . قال : « الدكتاتورية تعني كمّ العقول والافواه فالعاقبة الضمور والهدم . واما العلم فلا يزدهر الاّ في جوٍّ من الحرية » . وقول اينشتين ، فيهِ فصل الخطاب . لا لانهُ اينشتين ، ولكن لأن اينشتين لخص في عبارتيه حكمةً أيدتها دهور متوالية من تاريخ الارتقاء الانسانيّ

ذلك بأن نواة الصلة ، بين العلم والدمقراطية من جهة ، ثم بين العلم والدكتاتورية من جهة اخرى . هي صورة الحرية ومنزلتها في الاجتماع البشري — في ارتقائه الفكري وفي تطوُّر نظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية جميعاً

العلم والحرية

لست أعرف انقلاباً في العصر الحديث ، أعظم شأناً ، وأبعد أثراً في الحضارة والحياة ، من الانقلاب الاجتماعي الذي أساسه تطبيق قواعد العلوم الطبيعية على مقتضيات العمران . فقد سيطر الانسان بالعلم على طائفة غير يسيرة من عناصر الطبيعة وقواها ، واستخدمها في قضاء مآربه ، فتضاعفت قوته ، وزادت ساعات فراغهِ ، واتسعت قدرته على الانتاج . وقواعد العلوم الطبيعية وما استعملت له ، تدخل في كل كبيرة وصغيرة من حياتنا سواءٌ أفردية كانت ام قومية ام دولية : وقد أصبح المهندسون من جهة والكيميائيون من جهة أخرى في منزلة مبدعين ، يبارون الطبيعة في استحداث كل عجيب مفيد . انهم صيَّروا الأرض كالكرة التي يلهو بها الطفل ، بما استنبطوهُ من وسائل المواصلات والمخاطبات السريعة

فاليوم أبطأ ما تكون رسالةٌ ان نطت عاجلها بريش القشعم
حمِّل ألوكتك الفضاءَ يؤدِّها شرراً الى أقصى مدًى متيمَّم
فالجوُّ بالقطبين طرسٌ دائرٌ والبرق أسرع ما ترى من مرقم (١)

كلُّ هذا وغيره كثير جديدٌ ، يعود تاريخه الى مختتم القرن الماضي . والارجح ان بين الاحياء الآن كثيرين ما فتئوا يذكرون الهندسة الكهربية وأربابها وهم يحاولون اثبات وجودهم في العقد الثامن من القرن الماضي . او يذكرون الانباءَ الاولى عن التلفون وكيف قوبلت بالاعراض والريب ، حتى وليم طمسن ، المشهور بلورد كلفن ، أُعجب وعجِبَ حين رأى التلفون حقيقة واقعة يراها ويسمعها بعدما تناهى اليهِ خبرها . ان هذه

(١) من قصيدة لخليل مطران في الاحتفال بكشف الستار عن تمثال المغفور له الشيخ ابراهيم اليازجي

الاطفال العلمية — اذا استعملنا لفظ فرادي في وصف هذه المستنبطات الجديدة — نمت واشتدَّ ساعدها ، فزادت سيطرة الانسان على الطبيعة سيطرة وقوةً ،فهو اطول عمراً ، نتيجة لهذه البحوث والكشوف ، وأوفر راحة وأوسع علماً ، وأعظم قدرة على الانتاج ، وعلى الرغم من هذا الصراع الرهيب ، أقول إنه أفهم لضرورة السلام والتعاون

ولكنَّ هذه المخترعات والمستنبطات ، التي نطلق عليها غالباً صفة « العلم » ليست في الواقع إلاَّ ثمرَ شجرة « العلم » ، ومع أنَّ الثمر يانع ، فلا كيان لهُ بغير الشجرة ، ومع ان الشجرة عاتية ، وجذورَها ممتدَّةٌ في تربةٍ تغذيها وتمدُّها بعناصر الحياة ، فكيان الشجرة نفسها ، متصل بهذهِ التربة ، فاذا جفَّت ونزعت منها العناصر التي تتقوَّم بها حياة الشجرة تمشى اليبس في جذعها وغصونها ، وسرى الذبول والذواء في ورقها وزهرها وثمرها . والتربة التي انتشرت فيها جذور شجرة العلم هي تربة « الاسلوب العلمي » وعنصر الحياة الأول في هذه التربة ، هو حرية البحث وما تنطوي عليهِ من حريات أخرى ، كحرية النشر ، وحرية تبادل النتائج العلمية مع طوائف العلماء في كل مكان . انما العلمُ مذكراتهُ

ولعلَّ أعظم خدمة أسداها العلم ، وأمجدَ أثرٍ تركهُ في حياة البشر العقلية والاجتماعية ، يتلخصان في عبارة واحدة : هي كشف الأسلوب العلمي . وليس ثمة ظلٌّ من الشك — على قول العلامة مليكن — في أن المعنى الخاص بعصرنا والصفة المميزة لحضارتنا عن كل حضارة سبقت ، انما هما كشف الأسلوب العلميّ ، والنتائج التي أسفر عنها تطبيقهُ

هذا الكشف لم يتمَّ في عصرنا ، ولكن آثارهُ المتجمعة لم تبد دانية القطوف ، جلية الأثر ، إلاَّ في النصف الأخير من القرن الماضي وما انقضى من هذا القرن . فما هو الأسلوب العلمي ، الذي نشير اليهِ ، وما سرُّ الطريقة التي جرى عليها غليليو في القرن السابع عشر ، فأفضت الى ما ينعتهُ الفيلسوف هويتهد ، بأنهُ أعظم انقلاب حدث في نظر البشر في الكون والحياة

يقوم هذا الاسلوب على المبدإ التالي : — في البحث عن الحقيقة ، لا تبدأ بمسلّمات أو نظم فلسفية كما فعل فلاسفة الأقدمين على اختلاف مذاهبهم . ثم لا تعتمد الأقوال المستنبطة من مجرَّد التأمُّل في النفس ، وهو الطريق الذي جرى عليهِ أئمة الفلسفة المدرسية ، عندما كان المعلم الأول من طراز أرسطو المرجع الاخير ، يقاس كل قولٍ جديد بما قالوا ، ويمتحن كل مستنبَط من الرأي بما طوَوْهُ بين دفات مؤلفاتهم . فالتجريب هو المعتمد في الاسلوب العلمي ، هو محكمة الحقائق التي لا ترتبط ارتباطاً معيَّناً بفلسفةٍ ما . قد يستعمل العلماء الجارون على هذا الاسلوب طريقة الاستنتاج من مسلّمات معيَّنة في مراحل معيَّنة من البحث .

ووضع النظريات ، وتبديلها بين الحين والحين ، لا ندحة عنهما لتعليل الحقائق المتاحة . ولكن التجربة هي الصفة الاساسية والمرجع الاخير . واقرار نتيجتها ، لا يتمّ إلاّ اذا أعيدت مراراً في كل مكان يبدو لباحث أن يعيدها ، وإلاّ اذا أسفرت في كل مرة عن النتيجة نفسها ، كائناً من كان المجرّب الاول ، ومنزلتهُ بين علماءِ القوم وأفاضلهم

هذه هي التربة ، التي تنمو فيها الشجرة التي نصفها عادةً بشجرة العلم . والبحث العلمي الجاري على هذا الاسلوب ، غايتهُ توسيع نطاق المعرفة بكشف نواميس الطبيعة والحياة ، بغير نظرٍ الى ما يحتمل في المستقبل من تطبيق عمليٍ . فكلارك مكسويل ، لم يفكر في عجائب الراديو المنوّعة، عند ما استخرج المعادلات ، التي أثبت بها وجود أمواج غير منظورة تشبه أشعة الضوءِ في النواميس التي تخضع لها . وعند ما أقبل هرتز على معادلات مكسويل ، وحاول إثبات صحتها ، أو خطاءها بالتجريب ، لم يكن يفكّر في عجائب الراديو . ولكنهُ أثبت وجود الأمواج ، فكان الثمر اليانع ، في التلغراف اللاسلكي ، والتلفون اللاسلكي ، والراديو ، ونقل الصور والمرئيات بهذه الأمواج الخفية

ان سرّ الحياة في هذه التربة ، ان قِوَامَ هذا الاسلوب ، هو حرية البحث . فالباحث الذي تمضّهُ غوامض الحياة ، وتومىء اليهِ أسرار الطبيعة بأصبعٍ خفيةٍ ، ويكون ذهنهُ مهيّأً ، عليهِ أن ينطلق خفيفاً من كل قيدٍ ، الى حيث يقوده البحث . فاذا قال لهُ البحث ، في العظم والدم والأحافير ، ان الانسان ، يمتُّ بصلات كثيرة الى طوائف الحيوانات التي هي دونهُ ، فعليهِ أن يخضع للدليل ، ولو كان الأئمة من قبل قالوا بغير ذلك . واذا هداه البحث الى أن الأرض ليست مركز الكون انقاد الى النتيجة ، ولو كانت تخالف ما قالهُ بطلميوس الاسكندري ، أوما أخذت بهِ الكنيسة . واذا تبيَّن ان الاحتراق هو الاتحاد بالاكسجين : أخذ بهِ ولو قال رجال الثورة الفرنسية « ليست الثورة في حاجة الى العلماءِ » . واذا أيَّدت الأرصاد قول اينشتين في انحناءِ أشعة الضوءِ ، وجب ألاّ تنكرهُ برلين لأن صاحب القول غير آريّ ، وأن يقبلهُ العلماءُ ولو أنكرتهُ برلين

فاذا انتفت حرية البحث ، سلب الاسلوب العلميُّ سرَّ حياته ، واذا سلب الاسلوب سرَّ حياتهِ ، عاد الظلام يرين على العقول ، والسلاسل تقيّد الفكر ، أي ان شجرة العلم ، يتمشى اليبس فيها رويداً رويداً ، والذبول يسري في ورقها وثمرها . ان جميع مخترعات الأرض ، وهي من شجرة العلم في منزلة الثمر ، مردُّها الى ما كشف من نواميس الطبيعة ، وهي في منزلة الجذور

ان طريق حرية البحث ، وحرية الفكر ، كان خلال العصور طريقاً وعراً ، قامت على

جنباته أنصاب لذكرى من حرق ، ومن قطع رأسهُ ، ومن عذِّب ومن سجن ومن نفي . ولكن اختبار البشر ، أثبت على مرِّ العصور ، ان طريق الحريّة العلمية أجدى وأنفع ، وهم لذلك ، يرتابون في كل قيد يفرض ويناهضونهُ كما سأبيِّن

ومن مفاخر الحضارة الاسلامية في إبان ازدهارها العلمي من الف سنةٍ ، ان الخلفاءَ والأمراءَ كان يبيحون للعلماءِ والباحثين حرية كاملة ، بغير نظر الى مذهب أو عنصر . ولاعجب في ذلك فالقرآن الكريم حثَّ على العلم ، وقد كان الاسلام دمقراطيًّا ، والدمقراطية والعلم قوتان متفاعلتان . وهذه الحرية العلمية ، هي سرُّ ما نفح بهِ العربُ الحضارة العالمية من من تراث علميّ ضخم

الحرية العلمية والدكتاتورية

من الظاهر التي تستوقف العناية ، في تاريخ العلم والحرية ، ان المانيا ، كانت مهداً من مهود الحرية العلمية وقبراً لها

فالجامعات ومعاهد العلم العالي ، لا تستطيع أن تؤدي مهمتها وتضطلع بنشر رسالتها ، إلاَّ اذا أبيحت الحرية المطلقة لأساتذتها . فالحرية الجامعية ، ليست صفة تنتحلها طبقة مميزة من طبقات المجتمع البشري . ولكنها أداة لا يستغني عنها المجتمع ، في سبيل ما يحتاج اليهِ ، وهو : تدريب الأجيال المتلاحقة من النشء تدريباً يمكنها من اسداء الخدمة الى المجتمع على أوفى وجهٍ تتيحه أحوال الزمن . أما في ما يتعلق بالأساتذة أنفسهم ، فهذه المزية ، مزية الحرية المطلقة التي تباح لهم ، ليست في أوسع معانيها ، ولا يجب ان تكون ، إلاَّ كسباً يؤخذ ويحتفظ بهِ بالبحث والاتقان والاخلاص للحقيقة كما يروْنها

وقد كانت الجامعات الألمانية ، في القرون الأخيرة ، في مقدمة المعاهد العلمية العالية ، التي طالبت بهذا الحق مطالبة قوية ، وفيها تمَّ الاعتراف بهِ تدريجاً . فقد أُنشئت جامعة جوتنجن في سنة ١٧٣٢ ، وهي تعد في طليعة الجامعات الألمانية ، التي طالبت بالاعتراف بقيمة حرية البحث وحرية التعليم في الجامعة . ومع ذلك كانت مطالبتها في عهدها الأول منصبة على مقاومة الاملاءِ عليها من قبل الحكومة ، دون الاحتفاظ بحرية المعلمين في التعليم . ولكن في النصف الأخير من القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين ، اتجه الاهتمام خاصًّا وتدريجاً الى ضمان حق الباحث في السير وراء الحقيقة في ميدان بحثهِ ، أنَّى قاده البحث. وهذا ينطبق على سائر الجامعات بوجهٍ عام . ولعله يتجلى في كلمة لتوماس جفرسن الدمقراطي الاميركي المشهور قالها في حفلة تأسيس جامعة فرجينيا سنة

١٨١٩ وهي «وتعرفون الحق والحق يحرركم» وهو من آيات الانجيل. ثم أضاف «ستقوم هذه الجامعة على الاعتراف للعقل البشري بحرية لا تحدُّ، لأننا هنا لا نخشى أن نسير وراء الحقيقة أنَّى قادنا السير، ولن نخشى التسامح مع أي خطإٍ ما دامت حرية نقده ومقاومته قائمة»

وفي يونيو من سنة ١٩٣٧ احتفلت جامعة جوتنجن الألمانية بانقضاء قرنين على تأسيسها. وكانت جامعة هيدلبرج قد احتفلت احتفالاً من هذا القبيل قبل سنة، فحضر المدعوون الى هيدلبرج، من معاهد العلم في أقطار الأرض، ولكنهم شهدوا احتفالاً سياسيًّا، لا احفالاً علميًّا وقوراً. فلما وجهت الدعوة الى جامعات اميركا وبريطانيا وفرنسا للاحتفال بعيد جامعة جوتنجن خشي ممثلو هذه الجامعات ان يكون احتفال جوتنجن، احتفالاً بانقضاء اربع سنوات على الحكم النازي، لا بانقضاء قرنين على تأسيس جامعة من أشهر جامعات المانيا، وهي جامعة خسرت في خلال اربع سنوات من الحكم النازي، نصف مدرسيها، ونصف طلابها و ١٥ في المائة من هيئة أساتذتها، وتحوَّلت جامعة سياسية، بعد ما فقدت تقاليدها العريقة في حرية البحث. فاعتذر هؤلاء الممثلون عن تلبية الدعوة. .

وفي وسعنا ان نبحث ما أصاب الجامعات الألمانية في الثماني السنوات الأخيرة، على أنهُ مثال للعلم في ظل النظم الدكتاتورية، تحت الموضوعات الآتية

١ — الموقف من الحرية الجامعية
٢ — الموقف من بعض العلوم ونظرياتها
٣ — الموقف من التبادل العلمي الدولي

١ — يعتقد النازي ان استاذ الجامعة يجب ان يخدم الدولة، لا بالبحث الحرّ الذي يفضي الى الحقيقة في ميدان بحثه، وما قد تفضي اليه هذه الحقيقة من تطبيق علمي تجني الدولة فائدته، ولكن بقبول المبادىء أو «الايديولوجيا» التي يقوم عليها نظام الحكم، ولا يكتفى بأن يقبل الأستاذ ما يفرضه عليه الحكام بل عليه ان يمارس. فالتجرد عن الهوى أو ما درجنا على تسميته بالموضوعية في العلم محتقرٌ عندهم الآن، ومعدودٌ مستحيلاً ومنافياً لروح الاجتماع

وهذا مناقض لما درجت عليه المانيا، عند ما كانت جامعاتها في أوج ازدهارها، ومفخرة بين معاهد العلم العالي في الدنيا كلها، اليها تحدَّى ركائب طلاب العلم، وعلى أقطابها تنهال ألقاب الشرف وجوائز العلماء العليا. عندئذٍ كان يحق للاستاذ أن يقدم لفظ «فون» على اسم أسرته اعترافاً بشرف المنزلة التي بلغها، بغير نظر الى جنس أو مذهب. وكان لا يسبق «الهر بروفسر» في الأندية والبلاط الا كبار رجال الدولة والجيش، وكانت الجامعات

منتشرة في طائفة كبيرة من المدن ، وكان في بعضها كليات اشتهرت بعلم أو طائفة من العلوم مثل كلية الرياضة في جوتنجن وكلية الفلسفة في برلين ، وكان الطلاب يؤمّونها من انحاء الارض قاطبة

أما الآن فقد أغلق الألمان معظم جامعاتهم . وفقد الأستاذ منزلته إذ انصرف الطلاب سعياً الى منصب في الحزب بدلاً من تلقي العلم على أستاذ مشهور . وفي أثناء الاحتفال بعيد جامعة هيدلبرج ، قال برنهارد رست ، وزير الثقافة ، في خطبته « ان الفكرة القديمة في العلم القائمة على الايمان بتفوق العقل قد ماتت » . ولم يكن فرانك وزير العدل دون زميله رست صراحة ، فقد قال في خطبته في جمعية أساتذة الجامعات « ان الموضوعية القديمة هذيان » . وقال « والاستاذ في الجامعة الألمانية عليه أن يسأل نفسهُ الآن سؤالاً واحداً هو : هل عملي العلمي يسدي خدمة ما الى الوطنية الاشتراكية » وقال كريك مدير جامعة فرانكفورت « لا نعترف بعلم الاّ العلم الذي يقبلهُ النازي »

وقد طبقت هذه المبادىء وما هو شبيهٌ بها ، تطبيقاً دقيقاً على نظام الجامعات ، فنزعت حقوق شتىًّ من هيئات الأساتذة ، ومنحت للحزب أو للحكومة فأصبحت « الجامعات » — على قول الأستاذ هارتسهورن أحد أساتذة كولومبيا وصاحب أوفى كتاب في موضوع « الجامعات الألمانية في ظل الوطنية الاشتراكية » — فرعاً من النظـام السياسي الذي يسيطر عليهِ الحزب النازي. وكل استاذ جديد يتقدَّم او يرشَّح للتعيين في جامعة ما ، يجب ان يقنع ممتحنيه بأن ولاءَه « للفورر » لا يداخله ريب ، والامتناع عن اقسام يمين الولاء ، بعد اثبات هذا الولاء في الماضي ، حاسمٌ في الحيلولة بين الأستاذ والتعليم ، بل قد يفضي ، ومن المرجح انه يفضي الى مساوىء أخرى تصيبه . واذا اقسم يمين الولاء للفورر « نشأت بينهما صلة — على قول ناطقٍ رسميٍّ باسم وزارة الثقافة — هي كصلة الرقيق بالأمير في عهد الاقطاع بالقرون الوسطى »

عجباً والله ! إن العلماءَ الذين بدأوا يأبون في عصر الاحياء ، أو العصر الذي تلاه ، ان يسلّموا بما يقولهُ أرسطو ، لايمانهم بأن العقل يجب أن يبحث عن الحقيقة ، لا ان يستخرجها من أقوال القدامى ومؤلفاتهم مهما تسمُ منزلتهم ، وأن يكون حرًّا في بحثـه لا يخضع إلاّ للدليل الماثل بين يديهِ ، هؤلاءِ العلماءُ مضطرّون في المانيا الآن ، أن يقسموا يمين الولاءِ للفورر. وليس في هذا القسم من ناحية هذا البحث عيبٌ ولا عليهِ اعتراض . ولكن اذا أقسموها أصبحوا منهُ في منزلة الرقيق الأمير السيد ، وعليهم أن يأخذوا عناصر نظرتهم ، نعم حتى النظرة العلمية البحت ، من الدوائر الرسمية وهذا على الرغم من انهم خلفاء

أولئك العلماء الذين قاوموا مساعي الملوك من قبل للتحكّم في معاهد العلم وفقاً لرغباتهم وأهوائهم

وليس هذا التحكّم في التعيين والفصل والنقل والاعفاء ، كل ما هنالك ، بل ان الجوّ الذي يسود الجامعات الالمانية الآن ، هو جوّ دسٍّ وتحذّر وقطيعة بين الأصدقاء والزملاء

وقد روى الاستاذ هارتسهورن حوادث كثيرة منها القصة التالية وهي مثالٌ . وملخصها ان أستاذين من الأساتذة كانا في أحد الأيام خارجين من حجرة المعلمين في جامعتهما ، فوجدا حقيبة نسيها أحد زملائهما ، ففتحاها ليعلما منها ، حقيبة مَنْ هي ، فوجدا أوراقاً كثيرة تحوي مذكرات عن حديثهما القريب في الحجرة ، وحديث غيرهما من الاساتذة ، وهي أحاديث يتبادلها الزملاء على الغالب للبث والشكوى في غير تحرّس أو قصد الاساءة الى الدولة . وكان واضحاً ان النية متجهة الى ابلاغ هذه المذكرات أو نحواها ، الى السلطات الادارية أو الحزبية . والمكافأة عليها وعلى ما كان على شاكلتها ، هي الحظوة والترقي في سلّم الحزب ، وفي سلم العلم كذلك ! وعرفت القصّة ، وألفى صاحبُ المذكرات نفسهُ مقاطَعاً من زملائه ، فلما سأل عن السبب وقيل له في المذكرات ، أجاب في غير يسير من الدهشة والسخرية « وهل تظنُّ يا صاحبي انني وحدي بين الاساتذة في هذا » !

ومثل آخر . من عهد قريب أذاع مجلس أساتذة كلية الحقوق في احدى الجامعات الالمانية الجنوبية أنه وافق على رسالة الدكتوراه لأحدهم ، ولكن موافقتهُ ، يجب ألاّ تؤخذ دليلاً على على انه يشاطر صاحبَ الرسالة رأيه المبثوث والمؤيد أقوى تأييد فيها وهو قرارٌ مألوف في المعاهد العالية . ويلوح ان الرأي في هذه الرسالة لم يكن مما يفخر بهِ النظام القائم ، فوجّهت المجلة الرسمية « جوغند اوندشت » نقداً لاذعاً تعنيفاً قويّاً الى مجلس أساتذة هذه الكلية لانه أحجم عن النهوض بالتبعة الواقعة عليهِ كما يجب وكما ينتظر

ومن الوسائل الخفية التي تعتمد في اقصاء اساتذة معيّنين ، لأن تعليمهم وعلمهم وموقفهم بوجهٍ عام لا يروق الحزب أن يُعفى استاذ ما من تولّي عمله في لجنة الامتحانات وذلك تجنُّباً لإعفائهِ رسميّاً من مهام منصبهِ ، فلا يكون ذلك الاعفاء مثاراً للتأويل في المانيا أو للاعتراض والمناقشة خارجها . واذا انتشر الخبر بين الطلاّب بان الاستاذ الفلاني لا يدعى الى تولّي مهمة الامتحان ، بدأ الطلبة ينصرفون عن تلقي العلم عليهِ ، ثم يظهر سجلّ الجامعة وليس امام اسم هذا الاستاذ عدد الطلاب الذين يحضرون دروسه ، فيستدعيه الوزير أو من كان في منزلة الوزير ، وقد يحتفي به ثم يسأله في براءة ودهشة ألا يظن أنه يحسن في هذه الاحوال ان يستقيل . والسؤال أمر مستتر . وفي الوقت نفسه يقبل الطلاّب — وهم جميعاً اعضاء في هيئة ما

من هيئات الحزب — على الأساتذة المرموقي المقام فيه . وقد يكون الفرق ، من حيث المكانة العلمية ، بين الأستاذ المُعفى ، والأستاذ الذي تزدحم في بابه وفود الطلاب ، كالفرق بين الضليع والناشيء ، أو بين المتمكن والمتعثر . والأمثلة على هذا الاسلوب وغيره كثيرة

٢ — الموقف من بعض العلوم ونظرياتها

تأبى الدولة النازية ان تأخذ بمذاهب علمية شتى ، يأخذ بها العلماء في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وغيرها . وكان علماء المانيا نفسها قبل قيام النظام النازي ، يأخذون بها كذلك . والاختلاف في ما يُعَدُّ حقيقة علمية ، مباحٌ وهو كثير الوقوع ، الى أن تثبت الحقيقة بالتجربة والامتحان ، ويقوم عليها الدليل العلميُّ المقبول عند جمهرة العلماء . والاختلاف في النظريات العلمية أكثر ، وهو مباح كذلك ، لان النظريات انما توضع لتفسير طائفة من الحقائق العلمية المثبتة ونظمها في صورة متسقة الأجزاء مفهومة . ولكنْ أساس الاختلاف مردُّهُ في الحالة الاولى الى عدم وفاء الدليل ، وفي الثانية الى الاعتقاد بأن نظرية أخرى أوفى بالغرض من نظرية معيَّنة . ولم نسمع في تاريخ العلم الحديث ان عالماً حرًّا يعتدُّ به ، أنكر حقيقة ، أو أبى الاخذ بنظرية ما ، لان مكتشف الحقيقة أو صاحب النظرية ، من سلالة تختلف عن سلالته ، أو لأنهُ دمقراطيٌّ او شيوعيٌّ أو مسلم أو مسيحيٌّ . أما في المانيا النازية فرفض الأخذ بنظريات معيَّنة ، والاعتراف بعلوم معيَّنة ، يرتدُّ الى مثل هذه الاسباب . وتفرضهُ الدولة على علمائها ، لأنهُ يتفق ونظامها السياسيَّ والاجتماعيَّ أو يخالفهُ ، لا أكثر ولا أقل . ومع ذلك فالأسباب التي تستند اليها في رفض الأخذ بنظرية ما ، تتنوَّع وفقاً للرياح السياسية التي تكون غالبة في وقتٍ ما . فقد ندَّدت المانيا مثلاً بمذهب النسبية المشهور المقرون باسم اينشتين . وليس جميع العلماء الأحرار مجمعين على الاخذ بكل مقتضياته . فمخالفتهُ أو مخالفة بعض أجزائه ومقتضياته ، ليس منكراً لذاته . ولكن الدولة النازية ندَّدت به لأنه قطعة من « الشيوعية اليهودية » ، مهما يكن معنى هذا القول . ولكن حتى الدولة النازية لم تلتزم جادَّة التماسك في التنديد بهذا المذهب . فقد وصفتهُ « بالشيوعية اليهودية » قبل عقد الاتفاق الألماني السوفياتي في شهر اغسطس من سنة ١٩٣٩ . فلما عقد ذلك الاتفاق أسقطت لفظة « الشيوعية » من التنديد لئلاَّ يسيء الروس استعمالها ، ووُصف مذهب النسبية عندئذٍ بأنهُ مثلٌ بليغ على التفكير اليهودي المشوَّه المشوش . ترى بماذا تصفهُ الآن ، لو دعا المقام الى وصفه وبين الروس والالمان ما بينهم !!

وعلماء المانيا الذين قبلوا النظام النازي يذهبون كلَّ مذهب في تسويغ مجاراتهم لحكامهم .

واني لأضرب مثلاً على ذلك بأحد أعلامهم فيليب لينارد وهو ذو مقام عالمي وحائز جائزة نوبل الطبيعية وقد أطلق اسمهُ على معهد خاص بالبحث الطبيعي أنشىء في جامعة هيدلبرج. هذا العالم يزعم ان النورديين دون غيرهم أسدوا خدمات جليلة وأضافوا اضافات عظيمة الى العلم. وقد يكون العالِم الطبيعيُّ عالماً كبيراً وبحّاثةً متفوقاً ولا يكون دقيق العلم بالتاريخ. وقد يلتمَس العذر للاستاذ لينارد في هذا. ولكنَّهُ مؤلف كتاب في سير العلماء من نجر التاريخ فالاطلاع على ما أسدتهُ الشعوب المختلفة الى الارتقاء العلمي مفروض فيهِ. ولكن الروح الغالبة في الجامعات الألمانية — التي قدَّمت وصفاً موجزاً لها — تحمل على الظن ان لينارد مجارٍ لأسياد المانيا السياسيين، ناسياً أو متناسياً ما أسداهُ العرب مثلاً من خدمات جليلة الى العلم، بحفظهم كنوزَ المعرفة القديمة من الضياع واضافتهم اليها اضافاتٍ جليلة ثم نقلها الى أوربا حيث كانت احدى الدعائم الكبرى التي قام عليها عصر الاحياء في العلوم. وناسياً أو متناسياً كذلك ما أسداهُ الفرنسيون والايطاليون والبولونيون واليهود وغيرهم من خدمات وما أضافوهُ من اضافات عظيمة الشأن

وقد كتب الاستاذ بيبرباخ، أحد أساتذة جامعة برلين مقالات ندَّد فيها بطريقة اليهود في معالجة الرياضيات. وهو واحد من جماعة من الاساتذة تذهب الى أن الرياضيات « علم أبطالٍ » وان الالمان هم الذين كشفوا اللانهائية الرياضية، وان غرض الرياضيات كغرض الوطنية الاشتراكية هو تحويل الفوضى الى نظام. وهذه الآراء وغيرها مبسوطة مبذولة في رسالةٍ تؤيدها وزارة الثقافة الالمانية، وهي تزعم ان السلالة النوردية متفردة بشعورها الدقيق « بالمدى الفسيح » وانهُ من الواجب على كل مدرس ان يغذي هذا الشعور ليتقي بهِ الأطفال الالمان، المنطقَ الذي يُعَدُّ لعنة الرياضيات عند الشعوب اللاتينية واليهود

ونظرة النازيين في الصلة بين العلم والدولة نظرة مرنة تتحوَّل وفقاً للغرض السياسي. وقد قدمت مثلاً على ذلك في ما قالوه عن النسبية. وهاهو ذا مثل آخر على هذه المرونة، في ما يقولونهُ عن الآري واوصافهِ. فعند ما تولوا الأمر في المانيا كان الكلام مصبوباً على الآري الأشقر، الأزرق العينين، المستطيل الرأس، المخلوق حاكماً أو سيِّداً للناس. ثم ظهر أن هذه الأوصاف لا تنطبق كل الأنطباق على البفاريين ولا تنطبق انطباقاً ما على اليابانيين. وهناك ما يشير الى أن اليابانيين رموا بذكر أوصاف تلمح من طريق غير مباشر الى أنهم طبقة منحطة من البشر، في حين كان هتلر وروبنتروب يخطبان ودَّهم قبيل عقد اتفاق مقاومة الشيوعية في سنة ١٩٣٧. فغيرت الأوصاف وقررت أكاديمية القانون الألماني في مستهل سنة ١٩٣٨ أن ألفاظ « الآري » و« والدم الألماني » و « الدم المتصل بالدم الألماني بصلة القربى » يجب أن

يستبدل بها لفظا «السلالة الاوربية» . وليس هناك في علم الاجناس سلالة أوربية. فلما اشتدّ النزاع الالماني البولوني ، وكان من المتعذر إنكار بعض الاوصاف المتقدمة على البولونيين - وبخاصة لأن بعض البولونيين تجري في عروقهم دماء جرمانية ، وكثير تجري في عروقهم دماء صقلبية ، وهي متصلة بصلة القربى بالدماء الجرمانية ، والحالة السياسية تقضي بمحاسنة الروس — انتقل الاهتمام في الكتابات الالمانية من الاوصاف والصفات الجثمانية ، الى العناصر التي تدخل في تركيب « الروح الجرماني » . وكذلك وصف البولونيون بأنهم غير جرمانيي الروح ، بغير أن يوصفوا وصفاً يسيء الروس — حينئذٍ — ولا فيه تلميح اساءةٍ الى اليابانيين ، الذين وصفوا بأن عناصر روحهم تتفق وعناصر الروح الجرماني

قد يكون كلُّ هذا سياسةً بارعة ، ولكنهُ حتماً ليس علماً

وعلى ذكر بولونيا أريد أن أضرب مثلاً على موقف النازي من العلم والمعاهد العلمية في البلدان المحتلّة ولبابهُ إخماد روح الشعب الخاضع بإبادة علمائهِ الذين قد يكونون نواةً لنهضتهِ العقلية . فعندما خضعت بولونيا للحكم النازي ، دُمّر معهد الطبيعة التجريبية في جامعة وارسو ، ونقلت جميع معدّاته العلمية الى الريخ . وأعدِم الاستاذ بيالوبرزسكي أستاذ الطبيعة النظرية، وهو من العلماء الممتازين.وفي جامعة كراكوفيا—وهي من أقدم الجامعات الاوربية— دعي اعضاء هيئة التدريس إلى اجتماعٍ يتلقون فيهِ تفسير مبادىء الوطنية الاشتراكية لكي يعرفوا ما عليهم ان يلقنوه طلاّبهم . فلما خرجوا من حجرة الاجتماع وجدوا مركبات تنتظرهم في الخارج فنقلوا بها الى المعتقلات ، ثم صدرت صفحةُ اتهامهم فاذا هي تحتوي على تهم ثلاثٍ

اولاً —حاول الاساتذة ان يبدأوا دراساتهم الجامعية بغير ان ينبئوا السلطات الالمانية. ثانياً — انهم مضوا في التعليم وفي امتحان الطلبة بغير ان يستأذنوا في ذلك . ثالثاً — ان جامعة كراكوفيا مافتئت من خمسة قرون معقل الروح البولوني

ومن الجائز ان التهمة الاولى والتهمة الثانية ، من الجرائم التي يعاقب عليها في بلدان محتلة في اثناء الحرب — اذا صحَّتَ — ولكن يلوح ان التهمة الثالثة هي بيت القصيد في صفحة الاتهام هذه وهي « ان جامعة كراكوفيا ما فتئت من خمسة قرون معقل الروح البولوني»

وقدمات ثمانية عشر من الاساتذة في المعتقل الأول ونقل خمسون الى معتقل آخر ليشتغلوا بتكسير الحجارة ، والباقون أطلق سراحهم بعد ذلك . وما وقع في كراكوفيا وقع مثله أو على نمطه على تفاوت في جامعات ڤينا وبراج وڤرسوڤيا وكوبنهاجن واوسلو وبروكسل وليدن واوترخت ولوڤان وغيرها

وخلاصة القول في هذه الناحية من الموضوع ان الدولة النازية تنكر حرية العالِم وتعدُّ

العلمَ أداة تتلاعب بها وفقاً لأغراضها السياسية، وتتنكر للعلماء الذين لا يجارونها ولو كانوا آريين من صميم الآرية ، وتتنكر لهم على اطلاق القول اذا كانوا غير آريين من اقطاب العلم المعترف بهم في جميع انحاء العالم . وقد مات فرتز هابر بعيداً عن المانيا منتحراً وهو الذي أنقذها في الحرب العالمية الماضية من قلة الغذاء ونفاد المواد المفرقعة . وأينشتين منفيٌّ وقد نزعت جنسيته الألمانيـة وصودرت أملاكه ومقتنياته . وغيرهم عشرات مثل شرويدنغر وبورن في علم الطبيعة ومايرهوف في علم وظائف الاعضاء وفرويد وكوهلر في علم النفس وفرديندلش في الفلك. ويقول الاستاذ نيدَمْ Needham استاذ الكيمياء الحيوية في جامعة كمبردج ان الفاً وثماني مائة وثمانين عالماً من الطبقة الأولى أعفوا أو طردوا من جامعات المانيا والنمسا بين سنة ١٩٣٣ وسنة ١٩٣٨ ومنهم ٢٥ في المائة من نائلي جوائز نوبل العلمية من الالمان والنمسويين . وليسوا جميعاً من اليهود .

ويقول نيدَمْ كذلك ان معامل بحث متعددة قد أُلغيت وفرِّق رجالها مثل معهد «رونا» لكيمياء الخمائر (الانزيمات) ومعهد « اردمان » لتربية الانساج وبحث أشكال الأحياء (Morphology) ومعمل «مايرهوف» لبحث فسيولوجية العضلات . وقد بقي بعض تلاميذ مايرهوف في المانيا — مثل لومان Loman — ولكنهم لم ينشروا بحوثاً جديدة خلال سنوات . ثم ان علم الاجنة التجريبي علم وضع أسسهُ عالِمٌ الماني هو ڤلهلم رو Roux وهو من أهم الأركان التي تقوم عليها علوم الاحياء . ولكن اكبر علمائهِ مشردون الآن وكرسي سپيمان — وهو شيخ هذا العلم في المانيا — في جامعة ڤريبورج يشغلهُ رجلٌ كان في ما مضى يُعدُّ عالماً كبيراً في علم الاجنة ولكن جلَّ اهتمامهِ الآن منصرف الى الطيران الحربي

٣ — الموقف من التبادل العلمي الدولي

ليس ثمة ريب ، في ان التبادل العلمي الدولي ، من أسرار تقدم العلم الحديث . وقد تكفي عبارة عابرة في رسالة علمية تكتب في المانيا ، لتحرك ذهن باحث اميركي ، الى كشف خطير الشأن . وهذا وقع فعلاً في استنباط « السيكلوترون » او الجهاز الرحوي الذي يمكن أصحابه الآن من صنع مواد مشعة من عناصر غير مشعة بالطبيعة . ومن هنا فائدة المؤتمرات العلمية ، والمجلات العلمية التي تنشر فيها انباء البحوث الأصلية ، وتبادل الاساتذة بين بلد وآخر . ولكن الباحث الالماني مقيَّد بشتى القيود التي تحول دون هذا التبادل او تحدُّ كثيراً منه . فاذا تلقى دعوة من معهد اجنبيّ للتدريس ، او لتولي البحث في احد معاملهِ ، او من هيئة علمية معترفٍ بها ، لحضور مؤتمر من مؤتمراتها ، فعليهِ اولاً ان يقدم تقريراً الى مدير الجامعة أو الى وزارة الثقافة عن كل دعوة يتلقاها من هذا القبيل . وهذا أمر لا

يعترض عليه . ولكنهُ — أي الباحث أو الاستاذ — لا يستطيع أن يقبل دعوة ما من هذا القبيل الاّ بموافقة الوزارة وعليه ان يعرض على الوزارة كل خطاب ينوي ان يلقيهُ أو كل رسالة يقصد ان يتلوها او ان ينشرها ، حتى ولو كان بينها مقالات أعدّت للنشر في المجلات الالمانية . وفي جميع هذه الحالات لا بدَّ من موافقة الزعيم النازي المحلي لعصبة مدرّسي الجامعات . وجميع الاوراق التي تبيح له قبول الدعوة يجب ان ترسل الى وزارة الخارجية ومكاتب حكومية اخرى ويتعين عليه في اثناء اقامته في الخارج أن يبقى متصلاً بممثلي المانيا الدبلوماسيين أو بممثلي هيئة الحزب المحلية ، وبعد عودته عليه أن يعدَّ تقريراً يحتوي في ما يحتوي عليه ، مشاهداته السياسية

واذا تقرَّر ارسال وفدٍ لحضور مؤتمر علميٍّ في الخارج ، عيّن قائد ذلك الوفد من أعضاء الحزب الذين يصحُّ الاعتماد على ولائهم . فالتبادل العلمي الحرُّ ، في مثل هذه الأحوال بين الوفد الالماني ووفود سائر الأمم متعذّرٌ ، والاتصال ببعض الزملاء الالمان المقيمين في الخارج صعب أو مستحيل . وقرارات كل مؤتمر علميٍ يحضرهُ وفد المانيٌّ ، في مسائل علمية بحت ، لا يجوز لهذا الوفد قبولها إلاَّ اذا كانت موافقةً للتعليمات الصادرة اليهم من الحكام

وليست هذه القيود بمقتصرة على الصادر العلمي من المانيا ، بل هي مفروضة كذلك على الوارد العلميّ اليها ، من محاضرين وكتب ومجلاَّت . والحجة المبيَّنة في المرسوم الوزاري الصادر في ٩ يناير ١٩٣٥ على هذا الموقف هي : ان بعض المحاضرين أعربوا عن آراء لا تدلُّ على انهم من أولئك الاجانب المرغوب فيهم للمحاضرة في الجامعات الالمانية من ناحية السياسة الثقافية . حقّاً ان المانيا فرضت بيدها على نفسها حصراً عقليّاً

وفي سنة ١٩٣٧ حظر دخول مجلة نايتشر الى المانيا ، لأنها احتجت على معاملة العلماء غير الآريين في المانيا . ومجلّة نايتشر من المجلاّت العلمية العالمية ، التي تؤدي خدمة التبادل العلمي الأممي على خير وجهٍ ، في جميع بلدان العالم . وقد يبلغ عدد الرسائل العلمية الأصيلة التي تنشر فيها في سنةٍ واحدة الف رسالة ، من علماء وبحّاث في ثلاثين بلداً أو أكثر خارج بريطانيا . وفي طليعة العلماء الذين يوافونها بنتائج أبحاثهم ، لتعرَض على أنظار علماء العالم ، هم العلماء الالمان . وعلى الرّغم من قانون الحظر الذي حال بين مجلّة نايتشر وبين العلماء الالمان ، ظلَّ ناشرو الكتب العلمية من الألمان يرسلون الى ادارة هذه المجلة الكتب التي ينشرونها — الى أن نشبت الحرب — ليتولّى مراجعتها ووزنها ، علماءُ متوفرون على موضوعاتهم منزهون في إبداء الرأي عن كلّ هوًى وغرض

(في الجزء التالي بحث في العلم والنظم الدمقراطية) .

.. وتكلم الجبل

قصة بركان

في يوم ٢٠ مايو ١٨٨٣ رويت روايات عن ظهور بوادر من النشاط البركاني في جزيرة كراكتوى فلم يعبأ بالرواية احد، ولا قلق الناس لأن الجزيرة إحدى جزائر ثلاث في مضيق سندا بين جاوة وسومطرى وهي بعيدة عن كلتيهما ولا يسكنها أحد او سكانها قلة لاتذكر

واهتم احد سكان بتافيا—عاصمة جاوة — بتنظيم رحلات الى كراكتوى ومشاهدة البركان ، فاذا كأسه كبيرة قطرها نصف ميل وعمقها خمسون قدماً وكانت في الجبل المعروف باسم راكاتا . وكان في قعر الكأس فجوة قطرها مائة وستون قدماً ، تنفث بخاراً يحدث صوتاً قويّـا مزعجاً فلا يكاد أحد يسمع ما يقول جاره ولو كان يصيح . وعاد الركب الى جاوة ، فقال ابناء البلاد : « ان الجبل الصامت يتنحنح وقد يتكلم قريباً »

وفي ٢٦ اغسطس سنة ١٨٨٣ تكلم الجبل الصامت

وكان كلامه فرقعةً لهـا دويّ عظيم . ففي الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم رأى بحارة سفينة على ستة وسبعين ميلاً من جزيرة كراكتوى عموداً من الدخان وقاسوا ارتفاعه فاذا هو سبعة عشر ميلاً . وفي الساعة الثالثة بعد الظهر سمع دويّ الرعد على بعد مائة وخمسين ميلاً ووصف هذا الدوي في الساعة الخامسة بان قصفهُ لم يعهد قبلاً في كل جاوة

ولم تنقض ساعتان اخريان حتى انتشر عامود الدخان انتشاراً جعلهُ أشبه ما يكون بشجرة الصنوبر وكان يضيء ثناياه القاتمة شرر كهربيّ . وكانت سفينة تمخر عباب اليمّ على مقربة من الجزيرة فأمر ربانها بالقاء قطعة من الرصاص في الماء لسبر غوره، فلما رفعت كانت حامية وعجز البحارة عن لمسها

وظل الدويّ طوال الليل فعجز الناس في بتافيا عن النوم . ولم يعلم على وجه التحقيق أي البراكين الثلاثة كان مصدر الانفجارات الأولى ولـكن النكبة الـكبرى تسند الى جبل راكاتا

على ان الـكارثة كانت لا تزال في مستهلها في ليل ٢٦ اغسطس عند ما جفا النومُ سكان بتافيا ونحو مائة من المدن والضياع المجاورة . وفي صباح الاثنين سمعت أربعة انفجارات متوالية بلغ دويها مبلغاً عظيماً ونسف ثلثها الجزيرة فعلاً وهزّ كرة الأرض

وقد ذهب بعض الكتّاب العلميين الى انهُ لو جمعت جميع القنابل والمواد المتفجرة التي استعملت خلال الحرب العالمية الاولى، في كومة واحدة وفجرت دفعة واحدة لما بلغ دويها الا نصف دوي هذا الانفجار البركاني . ومع ان الاعتماد على تصوير كهذا التصوير غير مستحسن فانه يسوق الى الذهن مثلاً على القوى العظيمة التي أحدثت هذا الانفجار في كراكتوى

كان الدويّ الذي أحدثهُ الانفجار مصمياً في جاوة وسومطرى وبورنيو . ففي بلدة كاريمور بجاوة ، ظنّ اولاً ان الدوي مرده الى انفجارات مقصودة في سفينة تستغيث . فخرجت الزوارق متأهبة للانقاذ . ولكنها عادت فارغة الأيدي لأن مصدر الدوي كان يبعد ٣٥٥ ميلاً . وسمع في مضيق مكاسر ، بين بورنيو وجزائر سيليب وهو يبعد عن كراكتوى ٩٦٩ ميلاً ، فخرجت سفينتان للاستطلاع . وحدث في خليج لوتشيا بجزيرة بورنيو — وهو يبعد ١١١٦ ميلاً عن كراكتوى — أنْ ظنّ المجرمون غير المدانين من سكان القرى ، ان الدوي انذار بالانتقام العلوي ففروا من ضياعهم . وكان شأن الناس في جزيرة تيمور ، شأنهم في جاوة ، أي أنهم ظنوا ان الصوت مصدره سفن تستغيث والبعد بينهما ١٣٥١ ميلاً

ودهش الناس في سهول فكتوريا في غربي استراليا إذ سمعوا دمدمة كدمدمة المدافع مع انهم لم يكونوا يعلمون ان في جوارهم فصائل من الجيش . واستيقظ الناس في بلدة «وايلي وارتز» باوستراليا — وهي تبعد ٢٠٢٣ ميلاً عن كراكتوى — على صوت كأنه صوت نسف المحاجر . وفي جزيرة رودريجز سجل مدير البوليس في دفاتره أنه سمع « هديراً بعيداً كأنه دوي مدافع كبيرة قادم من الشرق » . وقد استغرق صوت الانفجار أربع ساعات في انتقاله من كراكتوى الى رودريجز والمسافة أقل من ثلاثة آلاف ميل قليلاً . ورودريجز جزيرة في النصف الغربي من المحيط الهندي تبعد عن جزائر موريس ٤٠٠ ميل الى الشرق

وقد أحدثت هذه الانفجارات — ولا سيما الانفجار الكبير — موجة طاغية من ماء البحر ارتفاعها خمسون قدماً . فغمرت جزائر فرلاتن ولونج ، ومحت جزيرة سيبيزي وصدمت سواحل جاوة وسومطرى فدمرت ١٦٣ قرية وحطمت خمسة آلاف سفينة كبيرة وصغيرة وقتلت ٣٦٣٨٠ من الناس . وكانت السفينة الحربية الهولندية بروف Berouw راسية في مياه سومطرى فقذفتها الموجة مسافة ثلاثة اميال وثلاثة ارباع الميل الى الداخل حيث وجد حطامها في مكان يعلو ثلاثين قدماً عن سطح البحر . وقد سجلت هذه الموجة وقيست في جميع انحاء الارض وكان في الوسع تبيُّنها على سواحل كاليفورنيا وشماليّ فرنسا ، وكان ارتفاعها ثماني عشر بوصة امام جنوبي افريقية وهو يبعد عن كراكتوى ٥١٠٠ ميل

ولم تنقض عشر ساعات على حدوث الانفجار حتى سجلتهُ الاجهزة في اوربا الوسطى وكان التسجيل الاول بفعل موجةٍ من الهواء بلغت اوربا عن طريق الهند وآسيا . وبعـ

انقضاء ست عشرة ساعة اخرى اهتزت الاجهزة ثانية بفعل موجة هواء ثانية وصلت اوربا عن طريق المحيط الهادي والقارة الأميركية والمحيط الأطلسي

وبعد انقضاء اربع وثلاثين وست وثلاثين ساعة اخرى اهتزت الاجهزة لأن الموجتين كانتا قد التفتا حول الكرة الأرضية وبقيتا تلتفّان حولها اياماً وهما تضعفان رويداً رويداً. وكان آخر تسجيل من هذا القبيل يوم ٤ سبتمبر أي بعد انقضاء تسعة أيام على الانفجار

ومن غرائب ما حدث في منطقة بحر سندا ، حيث جزيرة كراكتوى، ان الانفجار قذف في الجوّ مقادير عظيمة ، من العثير الدقيق ، فأصبح الفجر والشروق والأصيل والغروب والغسق ، من المشاهد الرائعة النادرة لأن هذا العثير كان يكسّر أشعة الشمس فيميل لون الفضاء عند الافق الى الحمرة القانية . وهذا يفسّر ما قاله الرحّالون الدائمركيون ، عن « سماء قانية كالدم » وكان ذلك على أثر انفجار سابق حدث في جزيرة كراكتوى سنة ١٦٨٠ وبلغ من ارتفاع اطباق العثير في الفضاء أنها كانت تعكس اشعة الشمس بعد تواريها وراء الافق . فكان مشهدها من الظواهر الجوية المستغربة

أما جزيرة كراكتوى نفسها فقد انشقّت أرضها ولم يبق الا أحد الشقين . ولولا ما ترسب على الشق الباقي مما قذفهُ التفجر في الفضاء لما كان ما بقي منها سوى شيءٍ يسير . أما الجزيرتان الاخريان — فيرلاتن ولونج — فقد احترقت ارضهما عندما ترسّبت عليهما طبقة من حجر الخفّان الحامي الى حدود الحمرة ، وكانت كثافة هذه الطبقة ستين ذراعاً . أي ان حجم الجزيرتين زاد . وتكونت جزيرتان صغيرتان لا يزيد كلٌ منهما على ميل ، ثم غارتا

وظلّ أرخبيل كراكتوى، بعد هذه الكارثة عقيماً لا يصلح لحياة ، لأن البخار الحامي، وانقداح الشرر الكهربيّ في جوّه خنق كلّ حيٍّ تحت غشاءٍ كثيف من ثاني اكسيد الكربون ثم غطّت سطح الأرض طبقة من الرماد والخفان . فبعد تلك الكارثة كان ارخبيل كراكتوى كما كانت قارات الأرض قبل ٥٥٠ مليون سنة . وعلى هذا اجماع العلماء . وقد كان الاستاذ « كوتو » الفرنسي أول عالم تجرَّأ على التجوال في انقاض كراكتوى في مايو سنة ١٨٨٤ - وكانت الانقاض لا تزال حامية — فلم ير أثراً ما للحياة ، ما عدا رتيلاء واحدة ربما حملتها الريح على خيطها ، وكانت الرتيلاء تنسج شبكتها ولكنهُ كان عملاً بغير جدوى اذ لم يكن في الجزيرة شيء تستطيع الرتيلاء ان تتغذى به. وبعد انقضاء ثلاث سنوات على الكارثة رست سفينة صغيرة على شاطئ كراكتوى وكانت تقل فريقاً من العلماء وكانوا يتوقعون أن يروا آية الحياة آخذة في غزو هذا اليباب فلم يخب أملهم. وتوالت البعثات العلمية بعد ذلك وكل بعثة تالية كانت تشاهد نموّ الأحياء نموّاً مطرداً في هذه الجزيرة وفيها الآن صناف متعددة من النبات والحيوان ، ومنها أشجار بواسق وحيوانات تسبح أو تطير

الاعتبارات الانسانية

في القانون الجنائي الوضعي

للاستاذ عبده حسن الزيات المحامي

مما أُثر عن الرومان قول قائلهم : « القانون هو العدالة والحُسنىَ » ، واست أريد في هذا المقال أن أبحث النسبة بين القانون والأخلاق ولا النسبة بين القانون والعدل المطلق ، وانما أعرض لبعض أحكام تشريعية تصدر جميعها عن اعتبارت انسانية وإن لم تنفرد هذه الاعتبارات ، دائماً وبطريقة لا شك فيها ، باملاء تلك الأحكام . واني لمقدِّر ان وصفَ « الانسانية » وصفٌ غير مانع فليتربص القارىء اذن حتى يقرأ المبادىء التي سنعرض لها تستقمْ له الصورة المرادة ويستبنْ المقصود بهذا الوصف في خصوص هذا المقال . ولا ضير مع ذلك ان نتعجل فنقول ان الانسانية فيما نريد هي ، في بعض الامثلة ، احساس الشفقة والبر بالانسان وفَهْمُ ضعفه والاعتذار عن هذا الضعف اعتذاراً قد يصل الى تضحية أغراض أخرى عزيزة على الشارع . وهي في أمثلة أخرى، احساس السمو والرغبة في التسامي بالانسان ورفعه الى مستوى قد يكون فوق مستوى الأوساط من البشر

— ١ —

هذه هي الدولة لا يجد لها الفقهاء مهمة أخطر من تحقيق الامن العام ، ولهذه الغاية كان التشريع الجنائي كله وكانت النظم الجنائية والعقابية من تحقيق واتهام ومحاكمة وقضاء وسجون وإحصاء ، — وهذه هي الدولة تحرص الحرص كله على ألاّ يفرَّ من قبضتها متهم وألاّ يتغفَّل عقابها مُدان، وانها لتصل في هذا السبيل الى ان تُغريَ المذنبين بعضهم ببعض في خصوص طائفة من الجرائم فتعفي من العقوبة من ينمُّ على شركائه كما قضت الفقرة الاخيرة للمادة ٤٨ من قانون العقوبات الاهلي الخاصة بالاتفاق الجنائي ، — وهذه هي الدولة يضطرد منطقها سلباً فتعاقب البرىء الذي لم يشارك في جرم، تعاقب «كل من أخفى بنفسه او بواسطة غيرهِ شخصاً فرَّ بعد القبض عليهِ أو متهماً بجناية او جنحة صادراً في حقه امر بالقبض عليهِ . وكذا كل من أعانه بأي طريقة كانت على الفرار من وجه القضاء مع علمه بذلك » (م ١٤٤ عقوبات أهلي) ، — فما بالها تتردَّد وتتلعثم وتتقهقر في ختام هذه المادة الأخيرة فتعلن ان احكامها

«لا تسري على زوج أو زوجة من أخفي أو سوعد على الاختفاء أو الفرار من وجه القضاء ولا على أبويه أو أجداده او أولاده او أحفاده » ؟ وما بالها تكرر هذا الموقف في المادة التالية فتعاقب كل من أعان على الفرار من وجه القضاء شخصاً لم يتهم بعد ولعلّ جريمته لما تبلغ سمع الدولة ولكنها بلغت علم هذا المعين « فآوى الجاني أو أخفى أدلة الجريمة أو قدّم معلومات تتعلق بالجريمة وهو يعلم بعدم صحتها أو كان لديه ما يحمله على الاعتقاد بذلك » ثم تتلعثم أيضاً وتتردّد وتتقهقر فتخرج من أحكام هذه المادة « الزوج والزوجة وأصول وفروع الجاني » ؟

ان الدولة تملك أعصابها فتقيم التوازن في تشريعها ولا تدع غضبها على المجرم يكتسح حصافتها : انها جد حريصة على ان تأخذ المجرمين بالنواصي والأقدام ولقد تنوّعت أغراض العقوبة بين انتقام، وتحقيق خلقي لعدالة الجزاء ، وتأديب للمجرم ليرعوي عن غيه ، وزجر لغيره لكيلا يسير سيرته ، وترضية للمجني عليه لتطمئن نفسه بما لقي غريمه ، وأشرف على هذه الأغراض جميعها غرض أشمل وأسمى هو صون المجتمع وضمان استقراره واستمراره ، — ولكن هذه الاعتبارات جميعاً تتقهقر أمام اعتبار آخر فما هو هذا الاعتبار ؟ انهُ الاعتبار الانساني الذي يفهم النفس البشرية ويعتذر عن ضعفها القبول فيعفيها من هذا الموقف الحرج ويخلصها من الوجود بين هاتين النارين ولولا أعفاها الشارع بهذا الاستثناء لكان كمن يعذّب مخلوقاً بربطه بين جوادين متدابرين يلهب ظهراهما بالسياط

ولعلّ قائلاً ان يقول : انما نظر الشارع في إعفائه الى مصلحة الأسرة قبل كل شيء فهو هنا لا يزال متأثراً بالاعتبار الاجتماعي لأن الأسرة هي خلية المجتمع فلا شذوذ اذن لأن حق الجماعة أمرَ بالعقاب كمبدأ وحق الجماعة أمر بالاعفاء كاستثناء ، فلئن نسلم جدلاً بهذا الاعتراض ، أفلا يطل علينا الاعتبار الانساني من هذا التعلل نفسه ؟ أليست صيانة الأسرة غرضاً انسانيًّا كما هي منفعة اجتماعية ؟ ولكنه مع ذلك تسليم جدلي ليس الاّ . فان الاسرة يؤذيها ان يحبس الزوج الجاني والدولة لن تنجيه من العقاب وانما هي تغفر لزوجته ان تتستر عليه ، والأسرة قد تقوم بنفسها غنية عن الجد او الحفيد ، فلن يفسر اذاً هذا الاعفاء بغير السماحة النفسية الصادرة عن هذا الاعتبار الانساني

ولعلّ هذا المعنى يزداد وضوحاً حين نتأمل حكماً استحدثه التشريع العراقي ، نريد المادة السادسة عشر من القانون الرقيم ٤٢ لسنة ١٩٣١ التي تعلن انهُ :

« ١ — لا يكون الزوج شاهداً على زوجته ما لم تكن متهمة بالزنا او بجريمة ضد شخصه او ماله أو ضد ولد احدهما

٢ — لا تكون الزوجة شاهدة على زوجها ما لم يكن متهماً بالزنا او جريمة ضدها او ضد مالها او ولد احدهما

٣ — لا يكون الولد شاهداً على أحد أبويه ما لم يكن متهماً بجريمة ضد شخص الولد أو ماله

٤ — لا يكون أحد الأبوين شاهداً على ولده ما لم يكن الولد متهماً بجريمة ضد شخصه أو ماله

ولم نكن في حاجة لكي نفهم باعث هذا التحريم ، الى ان نقرأ المذكرة التفسيرية التي وضعتها وزارة العدلية وجاء فيها : « ان المقصود من هذه المادة هو تأييد الوضع الخاص المتعلق بعلاقة كل من الزوجين والأب والولد ، والمادة ١٣٧ من قانون العقوبات البغدادي مثال للوضع المذكور » . وهذه المادة الـ ١٣٧ هي أخت المادة ١٤٤ من قانون العقوبات المصري التي أسلفنا حديثها مع فارق بسيط جعل المادة العراقية أوسع صدراً و اكثر تمشياً مع حكمة الاستثناء وأوفر « انسانية » حين أضافت الاخ والأخت الى قائمة الذين يعفون من المتسترين على المتهمين والمجرمين

— ٢ —

وليس الا اعتباراً انسانيًّا ما أملى على الشارع المصري حكم المادة ٦٦ من قانون العقوبات التي تقضي بخفض العقوبة بالنسبة للمجرم « الذي تزيد سنه على اثنتي عشرة سنة وتقل عن خمس عشرة سنة كاملة » ثم أملى عليه المادة ٧٢ التي تمنع الحكم بالاعدام أو الأشغال الشاقة او المؤبدة « على المتهم الذي زاد عمره على خمس عشرة سنة ولم يبلغ سبع عشرة سنة كاملة »

وهو هو عين الاعتبار الانساني الذي لم يُجز معاقبة الفتيات بالتأديب الجسمي وقصره على الأحداث الذكور حتى كان تعديل سنة ١٩٣٧ فخطا هذا الاعتبار الانساني خطوة أخرى فألغى عقوبة التأديب بالقياس الى الذكور ايضاً

وحيث توجد عقوبة الجلد يتدخل الاعتبار الانساني في تنظيمها على نحو ما فعل حين أوحى بالمادة ٢٤٨ من قانون أصول المحاكمات الجزائية في العراق (أي قانون تحقيق الجنايات) وهي التي تأمر بوقف تنفيذ حكم الجلد « اذا ظهر للحاكم — أي القاضي — أو للمأمور الحاضر قبل تنفيذ الجلد ان المجرم ليس في حالة صحية ملائمة لتحمل الحكم » وتخير القاضي الذي أصدر الحكم بين « ان يأمر ثانية » بتنفيذه بعد استشارة طبية وان يبدله بأية عقوبة أخرى كان له ان يصدرها عند المحاكمة » ثم تذهب أبعد من هذا فتمنح القاضي أو المأمور «حق العفو النهائي عن بقية العقوبة » اذا ظهر اثناء تنفيذ عقوبة الجلد ان المجرم ليس في حالة صحية ملائمة لتحمل باقي العقوبة » وانها لمادة تُظهر اكثر من ابتكار : فالقاضي لا يستنفد

سلطته بمجرد اصدار الحكم بل تظل له رقابة على تنفيذه ، والعفو الذي لا تملكه إلاّ الهيئة التشريعية — بالنسبة للعفو الشامل — وولِيُّ الأمر بالنسبة للعفو عن العقوبة كلها أو بعضها ، يُفوَّض هنا الى القاضي أو الى المأمور المشرف على تنفيذ الجلد

وان وقف تنفيذ هـذه العقوبة ليذكرنا بما قررتهُ قوانين كثيرة — منها القانونان المصري والعراقي — من ارجاء تنفيذ حكم الاعدام في المجرمة التي يتضح انها حامل

— ٣ —

واذا كان الاعتبار الانساني هو الذي حرّر المدين من استرقاق الدائن إياه كما كان العهد عند الرومان ، واذا كان هذا الاعتبار عينهُ هو الذي ميَّز بين المسؤولية المدنية والمسؤولية الجنائية في تشريع كالتشريع المصري فلم يَرَ في الاعسار المدني جريمة واستبقى للمدين المعسر حريته (إلاَّ أحوالاً استثنائية يكون العقاب فيها على أمور أخرى غير الإعسار بالذات كما هو الشأن مع التاجر الذي يفلس ويتضح انه أفلس بالغش أو بالتقصير) فان هـذا الاعتبار لا يتناقض مع نفسهِ حين يشذ عن المبدأ العام فيستحدث مادة يعاقب بها « كلُّ من صدر عليه حكم قضائي واجب التنفيذ بدفع نفقة لزوجهِ أو أقاربه أو أصهاره أو أجرة حضـانة أو رضاعة أو مسكن وامتنع عن الدفع مع قدرته عليه مدة ثلاثة شهور بعد التنبيه عليه بالدفع » فان « الانسانية » تقضي بحماية أولئك المحتاجين فلن يَذرهم الشارع إذن لرحمة هذا المدين يلتوي عليهم ويفتَـنُّ في تعجيزهم عن استيفاء النفقة والعلةُ تدور مع معلولها وجوداً وعدماً فلا عجبَ أن تستطرد المادة فتقول ان الدعوى الجنائية لا تقام « إلاّ بناءً على شكوى من صاحب الشأن . . . وفي جميع الأحوال اذا أدّى المحكوم عليه ما تجمد في ذمته أو قدّم كفيلاً يقبلهُ صاحب الشأن فلا تنفذ العقوبة » . ان هذه الجريمة الجديدة التي تسكُن المادة ٢٩٣ من قانون العقوبات الاهلي هي الجريمة المعروفة باسم « هجر الاسرة » ذلك الفعل الذي عرض له بالبحث المتبسط الاستاذ عبد الفتاح بك السيد[1] رئيس محكمة النقض والابرام الآن وان هـذا الاسم ليدل في ذاته على طبيعة الفعل المنهي عنهُ أو الترك المحرّم فيطالعنا منـهُ الاعتبار الانساني قبل غيره

— ٤ —

في هذا المثل الاخير يرعَى القانون الانسانية بمعنَيين : فهو من جهة يرحم الحائجين المفتقرين الى النفقة ، وهو من جهة أخرى يريد أن يرتفع بالانسان الى مرتبة أسمى بحيث

(١) مقال في الكتاب الذهبي للمحاكم الاهلية ج ٢ طالب فيه بالمعاقبة على امور غير مجرّمة كان أحدها هجر الاسرة

يبادر الى توفية حق النفقة لذويه فان لم يرتفع راضياً رفعهُ وهو راغم

ومن هذا القبيل أيضاً عقاب « من ترك أولاده الحديثي السن أو مجانين موكولين لحفظه يهيمون وعرضهم بذلك للاخطار أو الاصابات (م ٣٩٣ عقوبات أهلي) ، والشارع هنا يعاقب على مجرد الترك ولو لم يؤدِّ فعلاً الى خطر فنحن أمام نص وقائي. أما وقوع الخطر فانهُ يستتبع تطبيق مواد أخرى أغلظ عقاباً

بل ان احساس الشارع ليدقّ فيتجه الى السائمة والدواب يعاقب « من يتسبب في موتها أو جرحها بعدم تبصره أو باهماله أو عدم التفاته أو عدم مراعاته للوائح » . ومن الحق أن نلاحظ ان هذه المادة قد قيّدت الفعل فجعلت من أركان الجريمة أن يكون الحيوان « ملكاً للغير » فليس إذن الاعتبار الانساني هو الذي يملي هذا الحكم أو ليس هو الذي يساهم فيه بالقسط الأوفر فلنلتفت إذن الى مادة أخرى أعظم عقاباً (هي المادة ٣٥٥ عقوبات أهلي) التي تُطلق القول فتعاقب « كل من قتل عمداً بدون مقتضٍ حيواناً من دواب الركوب أو الجر أو الحمل أو من أي نوع من أنواع المواشي أو أضرَّ به ضرراً كبيراً » . ان المادة لا تشترط ان يكون الحيوان مملوكاً للغير فهل يحلّ لمالك الحيوان ان يقتلهُ « بغير مقتض » تصرفاً مطلقاً منهُ في ملكه ؟ ان المادة لا تسمح بهذا لأن نصها مطلق يشمل المالك وغيره . ولكن من الحق ان تفسيرنا هذا يتعارض مع حق المالك المطلق في التصرف في ملكه ولو باعدامهِ فهل تكون الملكية هي في ذاتها « مقتضٍ » كافٍ كل الكفاية ؟ اننا نقف هنا أمام اعتبارين أحدهما اجتماعي والآخر انساني : فأما الأول فانهُ لا يسمح للمالك بالاعتداء على مقومات الثروة الزراعية القومية وقد يعتبر سفيهاً ، بمعنًى من المعاني على الأقل ، من يبدد مال نفسه لمجرد التبديد « وبدون مقتضٍ » ، واما الثاني فانهُ يأبى للانسان ان يعذب السائمة ولو كانت ملك يده فيضرُّ بها « ضرراً كبيراً » . ومن الاحاديث الشريفة ما معناه : « دخلت امرأة النار في قطة حبسْتها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الارض » . وهذا الاعتبار الأخير هو الذي سيطر ، فيما أرجح ، على تفكير الشارع ان كان تفسيري للمادة تفسيراً غير مخطىء

واني لأترك هذا المثال وهذا التفسير الذي أقول به متحفظاً الى حكم آخر يبدو فيه الشارع وقد ترَفَّهَ حسهُ وحرص على أن يحمي شعور المارة من الأذى فعاقب « كل من مرَّ من القصابين أو غيرهم بلحم البهائم أو جثثها داخل المدن أو حملها بدون أن يحجبها عن نظر المارين » (م ٣٨١ ثالثاً — عقوبات أهلي) ، وقد يتبادر الى الذهن ان العامل الصحي هو الموحي بهذا الحكم ولكن التأمل في قول النص « اوغيرهم » ثم قوله « او جثثها » يظهر ان الشارع

كان ينظر الى شيءٍ آخر غير الصحة فان المادة تنطبق على من يحمل حيواناً ميتاً ليدفنه وهي صورة لا تبدو فيها الخشية الصحية كما ان مجرد الحجب لا يمنع الضرر الصحي ان وجد فهو اعتبار حسيّ ذوقيّ إذن

— ٥ —

ولكن التشريع الجنائي لا يريد ان يقف عند هذه الخطوات المتواضعة في رفع الانسان الى مراتب انسانية أعلى ، إنهُ يودّ أن يقفز قفزات خطيرة وجبارة في هذا السبيل ، وكيف نستغني عن هذا التعبير حين نسمع هذه الاقوال النظرية التي تؤسس المسئولية الجنائية العَمدية على مجرد الامتناع عن التطوّع لدفع الخطر عن الغير؟ أيكون قاتلاً متعمداً القتل من يرى شخصاً مشرفاً على الغرق فلا يجازف بنفسه لانقاذه ويدعه للتيار فيغرق ؟ لقد قالها أو قال قريباً منها ، « لوازيل » Loysel حين وضع قاعدته : « من استطاع ان يمنع فلم يمنع فقد أثِم » "qui peut et n'empêche, pêche."

ولقد كان القانون الكنسي يجنح الى هذا الاتجاه صادراً عن نظرة خلقية رفيعة ، ولكن الثورة الفرنسية قيدت الجرائم فلا جريمة الاّ بنص ولا عقوبة الاّ بنص . والامتناع لن يُعدّ عمداً لأن القانون لا يفرض البطولة ولا المروءَة على الناس ، ومع ذلك فان من التشريعات الحديثة ما يجنح الى شيء من هذا السموّ فيأخذ الناس بمعيار خلقي شديد ولكنه، في الجملة، لا يبلغ ذلك المدى القصي بل يقنع بأن يعدَّ الامتناع امتناعاً اجرامياً مساوياً للعمد اذا كان الممتنع مكلفاً قانوناً او اتفاقاً القيامَ بعملٍ مّا لم يعمله . فرجل البوليس الذي لا يؤدي واجبه باستدعاء الطافيء يُعدُّ مسئولاً عن جريمة الحريق العمد وحارس الشاطيء الذي يرى مشرفاً على الغرق فلا يتقدم لانقاذه قد يُعدُّ قاتلاً عمداً[1]

ان التشريع قد يرتفع بالانسان قبل ان يرتفع الانسان به ، ولكن من الخير ان نتمثل كلمة العالم الانكليزي سالمون : « ان القانون لم يوضع للقديسين والأبطال ، ولا هو وُضع للاغبياء ، ولكنه موضوع للاوساط من الرجال ، أوساط الفضائل وأوساط التمييز »

---

(١) أنظر مع ذلك المادة ٢٥٣ عقوبات بولوني التي تعاقب من لا يقدم ما في طوقه من مساعدة لشخص في خطر موت ظاهر إلا اذا كان هذا التقديم يعود عليه أو على الغير بخطر أو يقتضيه أو يقتضي الغير تضحية كبيرة ، كما تعاقب — بنفس القيود — من لا يتخذ الوسائل الموصوفة لحماية أشخاص معرضين للغرق أو حادث مشابه

وكذلك المادة ٢٥٥ من القانون عينه التي تعاقب فقرتها الاولى من يمتنع عن تقديم المساعدة اللازمة عند الوضع لامرأة حملت سفاحاً اذا كانت في حالة بؤس

جابر بن حيان

ليوسف كرم

كان للاسلاميين علم أخذوا أصوله من مصادر مختلفة وساهموا فيه بقسط . وهو يمثل نظرة معينة للعالم في زمن معين ، فدراسته تقفنا على لون من التفكير خاص، وعلى مجهود نفيس بذل في الشرق بلغة الضاد . أجل ان العلم الطبيعي القديم قد عفا كله ، وليس لتاريخ العلم مثل ما لتاريخ الفلسفة من قيمة انسانية دائمة . غير ان له قيمته ، وفيه عبرة لنا ونحن في مستهل نهضة جديدة نصطنع العلم الحديث ونحاول ان نتمثله ريثما نجاري الغربيين في تقدمه

ومن بين الأسماء البارزة في العلم الاسلامي ابو موسى جابر بن حيان المقول انهُ عاش في القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد) وانهُ تلميذ جعفر الصادق الامام الشيعي السادس، والذي تذكر له مؤلفات كثيرة بعضها مطبوع ومعظمها لا يزال مخطوطاً . ومما طبع مجلد في ٥٥٩ صفحة عنوانه « مختار رسائل جابر بن حيان » نشره سنة ١٩٣٥ ، بالقاهرة وباريس ، المسيو پول كراوس ، الاستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الاول ، وأعلن في مقدمته بالفرنسية انهُ يعتزم اصدار مجلدين (بالفرنسية كذلك) في دراسة هذه الرسائل ، وانهُ يبدأ بأن يقدم للقراء الاصول الضرورية لحل ما تثيره من مسائل

وقد اختارها بعد مراجعة جميع المخطوطات الجابرية بمكتبات اوربا والقاهرة واستانبول

وقد برَّ بوعده فأخرج اوائل هذا العام المجلد الثاني على ان يخرج الأول بعد أشهر . وانما أخر الاول لانهُ كثير الاحالة الى الثاني فكان لابد من طبع هذا اولاً .وقد تولى الطبع المجمع العلمي المصري برعاية جلالة الملك فاروق الأول . ويقول لنا المؤلف في مقدمة المجلد الثاني ان المجلد الأول يبدأ بثبت نقدي للكتب الجابرية مقسمة الى طبقات ومرتبة بحسب تعاقبها التاريخي ثم يبحث في صحتها فينتهي الى انها منحولة ، وانها ترجع الى مدرسة من الكيميائيين ا

الشيعيين وضعتها حوالي سنة ٣٠٠ للهجرة (٩١٢ ميلادية) ، واخيراً يبين علاقتها بذلك العلم السري الخفي الذي تسرَّب الى العالم الاسلامي من العالم القديم . وليست الرسائل كيميائية فحسب ، وان كان للكيمياء فيها المحل الاكبر ، فهي تتناول علوماً أخرى كالطب والهيئة والتنجيم والطلسمات والرياضيات والموسيقى والفلسفة بمختلف أقسامها ، وبالاختصار هي موسوعة العلوم القديمة كما تقبلها المسلمون . فنستطيع ان نقول ان جابر بن حيان اسم موضوع من طراز حي بن يقظان ، يرمز الى حركة علمية واسعة قامت بعد نقل الكتب اليونانية الى العربية

والمجلد الثاني يدور على « جابر والعلم اليوناني » فيعرض المذهب الجابري في خمسة فصول : الكيمياء ، علم الخواص ، علم التكوين ، علم الطبيعة ، علم الميزان

وفي كل فصل يستقصي المؤلف المصادر الأجنبية التي استقى منها جابر . فنقول كلمة في كل من هذه الأقسام

الكيمياء علم قلب (او اقلاب) الاحجار ، اي تحويل المعادن . هذا القلب يبدو ممكناً اذا ذكرنا طبيعة الأحجار ، فهي مزاج بمقدار من الكبريت والزئبق ، تتكوَّن في جوف الأرض بتأثير السيارات ، ولا تختلف الاّ بكيفياتها العرضية

وهذه الكيفيات عبارة عن صور مختلفة للكبريت ترجع الى اختلاف التربة واختلاف تعرضها لحرارة الشمس

وكل عنصر من العناصر الأربعة (النار والهواء والماء والتراب) فظاهره كيفيتان من الكيفيات الأربع (الحار والبارد والرطب واليابس) وباطنه كيفيتان أخريان يمكن اظهارهما بوسائل صناعية . فكل حجر ينطوي على حجر آخر ويمكن قلبه بافساد الكيفيتين الظاهرتين او احداهما فتخرج الباطنتان او احداهما وذلك بمعالجته بالاكسير او الدواء ، كما يعالج الطبيب الجسم المريض بدواء له كيفية مضادة لكيفية الخلط الذي سبَّب المرض . ويذهب جابر ، خلافاً للكيميائيين اليونان ولمعظم كيميائيي العرب ، إلى ان الاكسير يمكن صنعه ، ليس فقط من المواد المعدنية ، بل ايضاً من مواد نباتية وحيوانية ، ومزجها بعضها مع بعض ، أي مزج كيفياتها ، بحيث ان الذي يبلغ الى التحكم في الكيفيات يبلغ الى معرفة كل شيءٍ ، الى فهم علم الخليقة وصناعة الطبيعة

ويقصد جابر بعلم الخواص دراسة قوى الاحجار والنبات والحيوان ، وتفاعلها ، وطرق الانتفاع بها في مختلف الصناعات وخصوصاً الطب . ويرى من الممكن التعبير عن قوى الأحجار بأرقام ، فتتعين بكل رقم علاقة الحجر بالاكسير . وهو يبيّن هذه الارقام ، ولكنها

تختلف في مجموعة الرسائل ، كما يختلف تقسيم المعادن ، فنحكم بتعدد المؤلفين . والفكرة على كل حال تحتل مكاناً كبيراً في المجموعة ، وهي فكرة فيثاغورية الغرض منها اقامة الكيمياء وسائر العلوم على قوانين الاعداد ، واخضاع الطبيعة بأسرها لما يسميه جابر بعلم الميزان . والى جانب هذه الفكرة العلمية نجد عنده فكرة أخرى متصلة بالسحر اتصالاً واضحاً ، هي ان الموجودات الطبيعية حاصلة على قوى خفية اذا كشفناها وأحسنّا استخدامها شفت كل مرض ووفرت لنا السعادة والسلطان على الطبيعة ، وهو يورد بهذا الصدد كثيراً من الأمور الغريبة الخارقة

وعلم التكوين أو علم الصور نتيجة العلوم الطبيعية كلها ، فهو الغرض الأسمى . والتكوين يعني الكون أو التوليد ، وبالأخص الكون الصناعي للموجودات المعدنية والنباتية والحيوانية ، وخاصة الانسان . فان الكيمياء لا تقتصر فائدتها على تحويل الأحجار ، ولكنها تفيد أيضاً في تكوين أو توليد أجسام جديدة بمزج العناصر وتقدير الكيفيات . ان الكائن الحي نتيجة اتفاق القوى الطبيعية ، وفي الطبيعة تولد ذاتي خاضع لقانون الكمية أو العدد ، فباستطاعة الانسان محاكاة الطبيعة في فعلها ، بل تحسين منهجها ان لزم الأمر . « الخلق نوعان الثاني هو الفن وهو يشبه الأول » . والسبيل الى ذلك ان يُصنعَ اولاً مثال أو صورة للموجود الذي يراد توليده : « المثال لا بد منه ، وهو قولنا : إما إنسان وإما واحد من الحيوان ... ثم تتخذ آلة من زجاج أو بلور أو حجارة أو لون من الألوان . . . وكذلك ان أريدَ ينقل بدن جارية ووجه لرجل ، أو عقل رجل وجسم صبي ، أو أحبَّ الى التغيير فانه يمكن ، وعملت الآلة على الشكل الذي يراد ... »

وعلم الطبيعة أو فلسفة الطبيعة يجب ان يلتمس في الرسائل العلمية إذ لم يبق لنا شيء تقريباً من الرسائل الفلسفية . وفي كتاب التصريف (ص ٤٠٥ وما يليها من المجلد العربي) بيان لتكوين العالم

يقول هذا الكتاب : ينبغي أن نتصور دائرة أوّلة عاقلة قادرة فاعلة ، ودائرة دونها عاقلة غير فاعلة ولا قادرة بل متصورة للامور كلها ، ودائرة ثالثة دونها فاعلة قادرة جاهلة ، وفي داخلها دائرة رابعة لا تعلم ولا تجهل ولا تقدر ، وهي عالم الجوهر الذي يسميه قوم بالهيولى ، ومن جوانب هذه الدائرة الزمان والمكان ، وفي داخلها دائرة العناصر البسائط ... والدائرة الثالثة تشبثت بالتي دونها فصارتا شيئاً واحداً مرئيًّا وهو أول ما انفعل ، فيه بدء الى العالم الذي دونها في الكون . . والعالم الذي هو هذه الدائرة انما تُدوَّر بقصد وعلم بأن الأشياء المدوّرة قليلة الآفات ، وانه غير هالك الا ان يشاء صانعه سبحانه وتعالى

الذي هو فوق العلة الأوّلة . . . وفي تلك الدائرة احدى عشرة دائرة ودوائر أخر كثيرة . . .

وأخيراً علم الميزان الغرض منه وزن الكيفيات في مختلف الاجسام ، ورد جميع الاشياء الى نظام من الكمية والقياس ، فنحصل بذلك على علم مضبوط . ان للحيوان ميزاناً، وللنبات وللحجر ، بل للنفس والعقل ايضاً . الصحة توازن الاخلاط ، والمرض غلبة أحدها ، فالدواء يجب ان يكون مضاداً للخلط الغالب . لذلك ترتب الاغذية والادوية بحسب كيفياتها وبحسب قوة هذه الكيفيات أي مقدارها . والعدد ١٧ « قاعدة الميزان وهو مكوّن من اربعة أعداد هي أس الأعداد » . وهناك « ميزان الحروف » فانهُ كما ان الفاظ اللغة مركبة من حروف ، فكذلك الاشياء المدلول عليها بالألفاظ مركبة من الكيفيات ، فبتحليل الالفاظ يتوصل إلى تعيين التركيب الكمي والكيفي للاشياء . وكثير من الرسائل الجابرية يدور على تطبيق هذه النظرية في العلوم الطبيعية وخصوصاً الكيمياء ، مع اختلاف بين الرسائل . فأصل الالفاظ عند جابر طبيعي لا وضعي ، وبذلك توجد علاقة بين الاسم والمسمى ، على انه يعرف أوجه الضعف في هذا الرأي : فالمترادفات ألفاظ مختلفة تدل على شيء واحد ، والالفاظ المشتركة تدل على أشياء متباينة ، واللغات كثيرة تسمي نفس الشيء بأسماء مختلفة

يعرض الأستاذ هذه النظريات فيبرز النقط الهامة ويضاهي النصوص بعضها ببعض ويجلو الغامض منها ويبين الفوارق بينها ، فنعجب بعلمه وبراعته . ولكن اعجابنا يشتد حين نصل معه في كل فصل الى تحقيق المصادر التي أخذ عنها جابر ، ونمضي على اثره بين عشرات الكتب القديمة والحديثة فنقع على الوضع المنشود . يقرر الاستاذ اولاً ان المجموعة الجابرية قليلة الشبه بمجموعة قدماء الكيميائيين اليونان فانها اكثر اصطناعاً للتجربة، وأكثر تنظيماً، وأقل رمزاً وغموضاً ، واعرف بالكيمياء العضوية ، تستخدم النوشادر ، وتؤسس تحويل المعادن على مبادىء عددية ، وتتحدث عن التوليد الصناعي للانسان ، وتلك أمور لا أثر لها في المجموعة اليونانية . على انهُ يلاحظ ان هذه المقابلة غير منتجة ، فان المجموعة اليونانية عبارة عن نصوص او شذرات مشوهة غامضة أشد الغموض ، هي بقايا كتب كانت من غير شك أوضح وأوسع

ويقرر ثانياً ان المصادر يونانية في معظمها على كل حال ، لكنها لا ترجع الى العهد الذي ترجع بنا اليه الرسائل الجابرية اذ تذكر سقراط وأفلاطون وفيثاغور وأرسطو وهوميروس وديمقريطس وطاليس وانبادوقليس ، فان كل ما تعزوه اليهم من اقوال ومصنفات منحول وضع في الشرق في تاريخ غير ثابت . وضع في العهد الهلّنستي ، عهد انتشار اليونانية

في حوض البحر المتوسط ، في تلك الاوساط الفيثاغورية والأفلاطونية التي كانت مزدهرة بمصر وفلسطين وسوريا

ويمضي المؤلف في المقابلة بين مخلفات ذلك العهد وبين آراء جابر . وليس بالامكان متابعتهُ هنا في هذا المجهود الهائل ، واحصاء تحقيقاتهِ في مسائل يونانية واسلامية علمية وفلسفية ، فإنها كثيرة دقيقة ، ولكننا نشير الى بعض ما استوقفنا منها

يقول المؤلف ان تصوُّر جابر للطبيعة آتٍ من الافلاطونية الجديدة، وهذا ظاهر اذا ذكرنا نظريتها في الاقانيم وصدور الموجودات بعضها عن بعض وتكوّن الأفلاك . ويرد رأي جابر في كون الكيفيات وتحويل المعادن باظهار الكيفيات الكامنة ، الى ارسطو ، مع هذا الفارق وهو ان الكيفيات عند ارسطو أعراض وعند جابر جواهر مفارقة للعناصر وأعلى منها تتألف منها العناصر وتنحلّ اليها . وهنا يرى المؤلف تأثير الرواقية التي كانت تعدُّ الكيفيات أجساماً فاعلة تتحد بالمادة المنفعلة ، ويلاحظ ان جابر يدل على المادة بلفظ « جوهر » وان المتكلمين الاسلاميين يعنون بالجوهر الجسم المتحيز ، وان هذهِ فكرة رواقية . على ان هناك فرقاً بين جابر والرواقية ، فانه يجعل للكيفيات وجوداً مفارقاً في العالم المعقول ، فيبدو متأثراً بالأفلاطونية الوسطى

ثم يبين المؤلف ان تأثير الرواقية لم يكن مباشراً ، ولكنهُ وصل خلال تواريخ المذاهب والشروح على ارسطو وكتب الافلاطونية الجديدة والفيثاغورية الجديدة والاطباء والمنجمين والكيميائيين ، وانهُ كان لهذه المؤلفات شأنٌ كبير في معارضة الاسلاميين للارسطوطالية في ميداني الفلسفة والكلام ، ويشير (ص ١٧١ — ١٧٢) الى أن هذه النقطة جديرة بدراسة مفصلة

وعلم الميزان صادر عن نظريات الأعداد عند الفيثاغوريين وأفلاطون والافلاطونية الجديدة ، فيخوض المؤلف في هذه النظريات ، ويسهب في استقصاءِ المصادر ، ويذكر ان العدد ١٧ كان لهُ قدر كبير في نظر قدماءِ الفيثاغوريين ، وقد أشار الى ذلك ارسطو ، وان كثيرين في الوثنية واليهودية والمسيحية والاسلام استخدموا هذا العدد في أمور كثيرة

أما « ميزان الحروف » فيرجع المؤلف أصولهُ الى افلاطون ودموقريطس والفيثاغوريين وهو ممتع حقّاً في كلامهِ عن فلسفة اللغة عند أفلاطون ومقابلة أقواله فيها ، وفي هذا الفصل يذكر رأي جابر في مساوىء الكتابة العربية (لكثرة الحروف المتشابهة فيها) .وفي امكان اصلاحها وأصول الألفاظ ومذاهب النحاة والعلاقة بين المنطق اليوناني والنحو العربي.

وبصدد الانسان الآلي يقول ان هذه الفكرة كانت شائعة في فجر العصر القديم ، ويحصي

المصادر كان القدماء يعتقدون ان الآلهة والجن يحلون في التماثيل المصنوعة لهم ، فانتقلت الفكرة الدينية السحرية الى الأفلاطونية الجديدة فحولتها الى نظرية طبيعية

العلم الطبيعي الاسلامي مستمد اذن من ذلك العلم اليوناني الذي نما في الشرق وتأثر به فكان أقرب الى الوثنية الشرقية منه الى النزعة العقلية المعروفة عن أساطين الفلسفة ، ديمقريطس وانكسا غوراس وأفلاطون وأرسطو . وقد تمثله العلماء الاسلاميون خير تمثيل ونقلوه الى العربية بدقائقه ، مستحدثين ألفاظاً ومعربين أخرى : فكانوا لنا قدوة طيبة . وزادوا عليه أشياء ، ولكنهم لم يجاوزوا نطاقهُ فبقي مجهودهم عقيماً لم يبلغ بهم الى شيء مما كان ذلك العلم يعد بهِ من سلطان على الطبيعة . وكانوا بالجملة أقل توفيقاً من زملائهم علماء الرياضيات وفروعها

والسبب في هذا العقم ان ذلك العلم كان صادراً عن التصور الوثني للعالم ، ماضياً في تيار السحر والطلسمات والتنجيم ، فكان يبحث عن العلل في غير مواضعها ويتوهم عللاً حيث لا علل . وقد حاولت الافلاطونية الجديدة أن تحيلهُ علماً معقولاً فأخفقت شر اخفاق لأنها أخذت بهِ وكان السبيل القويم أن تخرج عليهِ . ولكنها بمحاولتها هذه صبغتهُ بصبغة عقلية ففتنت كثيراً من العقول ، حتى كانت للفتنة رجعة لما عُرفت كتبها بأوربا في عصر النهضة

ولم يطل العهد بالفتنة ، فان العلم الرياضي الاسلامي (كما يبدو بنوع خاص في كتاب المناظر للحسن بن الهيثم) كان أوحى ، منذ أوائل القرن الثالث عشر ، الى علماء اكسفورد ، تصوراً آخر تاماً في اعتبار الاشياء موجودات « طبيعية » خاضعة لقوانين « طبيعية » تعلم بالملاحظة والاختبار ، فأسسوا العلم الحديث ، وتعهدتهُ جامعة باريس طول القرن الرابع عشر ، ورسّخ أصولهُ ومناهجهُ غليليو وأقرانهُ ، حتى بلغ اليوم الى ما نرى من قوة وسلطان

ولكن هذا استطراد — وما أكثر ما كنا نستطرد ونحن نقرأ هذا الكتاب ! وانا لنرجو أن تكون اشاراتنا المتفرقة الى محتوياتهِ قد أشعرت القارىء بخطره ، فان كل ما نتوخاه بهذه الكلمة أن نوجّه اليهِ أنظار المعنيين بتاريخ العلم والفلسفة في الاسلام ، كي ينظروا فيهِ ويفيدوا منهُ كما نظرنا وأفدنا

انهُ كتاب يعلو فوق كل ثناء . فليتقبل المؤلف الجليل اعجابنا وشكرنا ، فقد كشف لنا حقائق كثيرة ، وأوحى الينا أفكاراً كثيرة

الاسكندرية — جامعة فاروق الأول

ما يشغل العلماء

من مسائل العلم والصناعة

الحاضر رحم المستقبل

بين العلماء شبه اجماع على ان البشر واقفون الآن على عتبة عهدٍ جديد في حياتهم الاجتماعية . ويذهبون الى انهُ اذا كان النزاع على الموارد الطبيعية هو باعث من بواعث النضال بين الأمم ، فالعلم يجب ان يزيله بما يتيحه من قدرة على صنع كثير من هذه المواد أو أعواضها، في المصانع بالتركيب الكيميائي. ومما لاريب فيه ان العلماء يعارضون أشدَّ معارضةٍ كل ما يفضي الى التبذير في موارد الطبيعة ، ولكنهم يثقون أتمَّ ثقة بقدرة البشر على صنع مواد جديدة تحلُّ محلَّ المواد التي تنفد . ثم انهم يعترفون ، بأن بعض المخاوف الخاصة بنفاد طائفة من المواد الأساسية اللازمة للحضارة ، كان على غير أساس ، أو على أساس واهٍ من الحقيقة . فمن عهدٍ قريب، كان القلق مستحوذاً على هيئات مختلفة ، حيال نفاد موارد النفط في الولايات المتحدة مثلاً ، والحقيقة انهُ اذا مضى الاستهلاك على هذا المعدل فآبار النفط في الولايات المتحدة تنفد بعد ثلاثين سنة على وجه التقريب . ولكن حجر الصفاح Shale يحتوي على نفط يكفي ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف سنة . وفي مناجم الفحم فحم يكفي ما يستخرج منهُ من النفط ، الفي سنة أخرى . وفي الحالين ، تفوق نفقة استخراج النفط من الصفاح والفحم نفقة استخراجه مباشرةً من الآبار

ان البنزين يستخرج في هذه الايام من كليهما . وأما في غدٍ فقد يستخرج من كل مادة يدخل عنصر الكربون في تركيبها . ففي معمل الدكتور ارنست برل Berl في معهد كرنيجي التكنولوجي — بمدينة بتسبرج الاميركية — صنع الوقود الصافي المستعمل في تحريك الطائرات ، من الدبس أو العسل الأسود molasses

وقد كان برل عالماً نمسويًّا فرَّ من النمسا وهتلر ولجأ الى الولايات المتحدة ، وهو يستطيع أن يستخرج هذا الوقود نفسه من الذرة أو الخشب أو أعشاب البحر أو ورق الشجر . وفي الوسع تسيير السيارات بالكحول والكحول يستخرج من الذرة والعسل الأسود والبنجر والبطاطا أو الخشب والفحم

نعم ان بعض الفلزات لا يستغنى عنهُ الآن . ولكن علماءَ العصر الحاضر ، يستطيعون بوجهٍ عام ، أن يصنعوا أشياءَ كثيرة تبعث على العجب من موادَّ كانت تعدُّ في طبقة النفايا المنبوذة ، ويزعمون ان ما يصنعونهُ يجاري الأصل أو يفوقهُ . وقد خطوا خطوة كبيرة في صنع الأطعمة . ففي المانيا وغيرها صنعوا السكر من الخشب ، والشحوم التي تؤكل من الفحم ، ولكنهم لم يبيحوا أكلها للناس بعد — على ما يعلم — الاّ في التجارب . وهذا لا يعني اننا اقتربنا من الزمن ، الذي يكون فيه طعام العشاء حبتين حبة زرقاء وحبة حمراء ، فالجسم البشري مركب على وجه يعدّه لأكل مقادير كبيرة من الطعام ، ولا بدَّ ان يبقى كذلك. ولكنهُ يعني اننا التقطنا — على قول نيوتن — حصاة واحدة على ساحل بحر عظيم ، هو بحر علم الأغذية . واذا استنبأنا العلماء الآن ، كما استنبأهم مؤلف كتاب « الرجال الذين يهيئون العصر المقبل » ، وجدنا انهم مهتمون أعظم اهتمام بخمسة أمور علمية في المقام الأول

فثمة أولاً ، المجهر الكهربي electron microscope الذي يكبّر دقائق الأجسام تكبيراً لا يكاد العقل يتصورهُ أو يصدّقهُ . فالمجهر الذي يعتمد فيهِ على أمواج الضوء يكبر الأجسام ٢٥٠٠ ضعف . والذي يعتمد على الأشعة التي فوق البنفسجي يكبرّها أكثر قليلاً . أما المجهر الكهربي فيكبرها من عشرة آلاف الى ثلاثين الف ضعف . واذا اعتمد على التكبير بالتصوير الضوئي بعد ذلك ، بلغ التكبير مائة الف ضعف الى مائتي الف ضعف . واذن فمن المحتمل ، في خلال أشهر أو سنوات ، أن يوفق العلماء الى كشوف علمية ، بهذا المجهر ، في طبيعة المادة ، أو وسائل مكافحة الأمراض ، فتكون استهلال عصر جديد في العلم والعمران

وهناك ثانياً البحث في طبيعة نواة الذرَّة ، ولاسيما الجهاز الرحوي (السيكلوترون) وهو أفعل الأجهزة العلمية التي استنبطت حتى الآن لتهشيم هذه النوى . ويعنى لورنس مستنبطهُ الآن بانشاء جهاز ضخم بجامعة كليفورنيا ، ينتظر أن يستغرق انشاؤه ثلاث سنوات ، وأن يكلف نحو ٤٠٠ الف جنيه ويكون وزنهُ أربعة آلاف طن . ومتى تمَّ انشاؤهُ ، استطاع العلماء أن يوجهوا فيهِ الى نوى الذرات طاقة تبلغ مئات الملايين من الفولطات . وبهِ يعلّق شأن عظيم في توسيع نطاق ما يعرف عن تركيب المادة ، وفلق النوى واطلاق الطاقة منها ، ومعالجة الأمراض وما أشبه

وثالثاً هناك مسألة اطلاق الطاقة الكامنة في الذرَّة وأهم المباحث في هذه الناحية ، مدارها ذرَّة الاورانيوم وهو أثقل العناصر ، في ما نعلم . والعلماء يندّدون بكثير مما ينشر في الصحف من هذه المباحث ، لأنهُ يحمل الناس على الظن خطأً ، ان عصر الاعتماد على الطاقة المطلقة من الذرَّة ، قد أصبح وراء الباب . ولكنهم مع ذلك تراهم منصرفين بعناية وجدّ الى بحثٍ قد يجعل هذا الحلم حقيقةً واقعة

انهم أثبتوا مبدأ اطلاق الطاقة من مادة معيَّنة . ومقدار ما بين أيديهم من هذه المادة طفيف جدًّا . ولكن طريقة استخراجها قد حُسّنت في العهد الأخير . إلاَّ انك لا تجد عالماً واحداً من هؤلاءِ العلماء ، يجرؤ على القول بأن الطاقة الذرية ستكون في متناول الناس ، بعد جيل أو جيلين ، أو على الاطلاق . وكذلك لا تجدُ من يشذّ على اجماعهم على أن هذه الطاقة لن تكون في المتناول في الستة الأشهر أو الست السنوات المقبلة

وليس بالمرءِ حاجة الى أن يكون عالماً متبحراً لكي يتصوَّر المستقبل عندما يستطيع الناس أن يعتمدوا على طاقة الذرّة . فمعين الطاقة يكون حينئذٍ لا يحد ، و نفقتها يسيرة جدًّا حتى لتكاد أن تكون كالهواءِ أو كالماءِ بغير ثمن أو بثمن لا يذكر . وعندئذٍ نستطيع أن نكفي كل حاجة من حاجات الناس ، بالاعتماد على قدرٍ يسير من الجهد الذي يبذلهُ الناس الآن لاكفاءِ بعض هذه الحاجات

ورابعاً هناك العناية العظيمة بالارتقاءِ الحثيث في معالجة الأمراض معالجة كيميائية

والموضوع الخامس الذي يسترعي عناية العلماءِ هو استعمال مادة « الكولشيسين » في توليد أصناف جديدة من النبات . والكولشيسين عقَّار سام يستخرج من جذور النبات الشوكي العادي ويصلح للاستعمال في شتى أنواع النبات فيزيد سرعة نموها كثيراً وقد تبلغ هذه السرعة أحياناً ألف ضعفٍ

ومن نواحي تأثيرهِ احداثهُ بزوراً او تحولات عرضية ، يورَّث بعضها ، فكأنه عامل من عوامل التطوُّر العضوي . وهذا الفعل يفتح امام علماءِ الحياة آفاقاً لا يحدُّها تصوُّر

هل سبق العلمُ الاجتماع البشري ، فنفحهُ بايات من التطبيق الصناعي ، عجز الاجتماع عن تمثلها وملاءمة احوالهِ لها ؟ واذا كان الجواب بالايجاب ، فهل يتعين علينا أن نعقد هدنة في ميادين العلم والاكتشاف تدوم سنوات . ان العلماءَ مجمعون في الردّ على السؤال الثاني بالنفي القاطع . وهدنة من هذا القبيل في بلدٍ ما ، تكون في منزلة كارثة ، ان لم تتفق عليها جميع بلدان العالم . وهذا مستحيل في اثناء الحرب مبدأً وتطبيقاً . ولا يمكن الاتفاق عليهِ في ابان السلام ، واذا عقد الاتفاق نقضهُ بعضهم سرًّا . وليس من المصلحة أن تعقد هدنة من هذا القبيل

فالمخترعات الخطيرة الشأن في العهد الاخير ، ترتدُّ الى مكتشفات علمية أساسية تمت قبل سنوات والمكتشفات التي تتاح لفريق العلماءِ الآن ، هي القواعد التي ينتظر ان تقوم عليها مخترعات العهد المقبل

على ان العلماءَ الكبار يشغل بالهم حقًّا في هذه الآونة ، مشكلة من مشكلات السلام وهي ما يطلق عليها وصف « التعطّل الصناعي » ، أي تعطّل العمال عن العمل نتيجة لارتقاء

الاساليب الصناعية واتقانها . ولكنهم مع ذلك ينكرون ، ان الآلات الجديدة ، تحدث نقصاً في مجموع العمال ، أو يجب ألاّ تحدث نقصاً فيه ، أي يجب ألاّ تزيد عدد المتعطلين عن العمل. فالنقل بالعربة والجواد كان يشغل في الولايات المتحدة مثلاً ، مليون رجل قبل اربعين سنةً من الزمان. وجاءَت السيارة فقضت على هذا العمل او على معظمهِ. ولكنَّ عدد المشتغلين بصناعة السيّارات وبيعها وسوقها ، وبذلك الجانب من صناعة النفط الذي يهيء الوقود السائل للسيارات بلغ سبعة ملايين في سنة ١٩٣٧

والمخترعات صنفان ، لكلٍّ منهما تأثير في التعطل عن العمل مخالف لتأثير الآخر . فالمخترعات التي تنشئ صناعات جديدة كالتلفون والسيارة والتلفزة تفتح أبواباً واسعة لعمال كثيرين. والمخترعات الاخرى تحسّن أساليب صناعية قائمة او مصنوعات متداولة ، وهذه في بعض الحالات تحدث بؤساً وتعطلاً عن العمل في مناطق واسعة، وان كان هذا التأثير عابراً

ففي صناعة الصلب مثلاً أحدث اختراع جهاز جديد نقصاً كبيراً في مقدار الجهد اليدوي المبذول في صنع الواح الصلب ، اذ أصبح — على رأي احد الخبراء في بحث حكومي دقيق — في وسع ١٢٦ عاملاً ان يعملوا عمل ٤٥١٢ عاملاً . ولم يكد اصحاب المصانع يستعملون هذا الجهاز الجديد استعمالاً واسعاً حتى استغنوا في فترة قصيرة عن ٥٨ الف عامل وبلغ عدد الذين استغني عنهم في بلدةٍ ما في ولاية بنسلفانيا ٥٧٠٠ عامل

والعلماءُ يذهبون بوجه عام الى ان تعطلاً عن العمل من هذا القبيل يجب ألاّ يكون مشكلة يعانيها العامل الفرد ويحاول حلها على حدةٍ. فالتبعة في رأيهم واقعة أولاً على أصحاب المصانع الذين يعمدون الى استعمال اسلوب صناعي جديد. وعليهم ان يبذلوا غاية الجهد للاحتفاظ باكبر عدد من العمال يستطيعون فعلاً الاحتفاظ بهم . ثم يتعين على الحكومة المحلية والاتحادية ان تشارك في تحمل التبعة ، بسعيها الى تدبير عمل لمن يستغنى عنهُ . فالدربة والقوة المعنوية في طبقات الشعب العاملة رأس مال لا يجوز التفريط فيهِ

والعلماءُ الذين توفروا على دراسة هذه المشكلة يرون ان مسألة « التعطل الصناعي » مرتبطة أوثق ارتباط بتوزيع العروض والمنتجات . فعند ما تحل الآلة محل عدد من العمال ، تخفض نفقة الانتاج . وعلى اصحاب المصنع عندئذٍ ان يختاروا بين خفض ثمن البضاعة ، أو الاحتفاظ بالفرق وجمع ثروة كبيرة في أقصر مدى . فاذا اختاروا الأول اتسع نطاق الأعمال وزاد الاقبال واليسر ، وهذا يهيئ من طريق غير مباشر اعمالاً جديدة للعمال المتعطلين . وهو ما حدث فعلاً في صناعة السيارات بتأثير فورد على الأكثر . واذا احتفظوا بالفرق ، لم يتسع نطاق الأعمال ، ولا تبادل المصنوعات ، فلا تتاح للعمال المتعطلين فرص جديدة للعمل. فيحسن بالحكومة حينئذٍ أن تتدخل في الأمر

غفران

لعدنان مردم بك

لك شافعٌ من مهجتي ولساني ما زال يعبث بي بسحر بيانْ
أجد الاساءة منك غير أليمة حين المدامع تستفز حناني
كم هوّن الخطبَ الجليل على امرىء بردُ اليقين وراحةُ الوجدان
اني اذا ما شئت جرحك عامداً ضرع الفؤاد ومحّت العينان
وتجرد الماضي السحيق لناظري فأكاد ألمسهُ على أجفاني
لا توقدي نار الأسى في أضلعي بالذكريات وتوقظي أشجاني
لم ألق مثل الذكريات لمرهق أدهى الى الأشجان والأحزان

***

مالي أراك كنائهٍ في سبسبٍ لا يستقرُّ من الوجى بمكان
أنّى تلفّت لا يرى من مأمنٍ هيهات يظفر خائف بأمان
لجم الحياءُ لسانه حتى غدا لا يستطيع إشادة بلسان
ويكاد يلمس من هواجس نفسه وظنونه شبح الرّدى ببنان
تتململين كذي السقام وللاسى أثر الجفون ضراعة الولهان
أكبرتُ حسنك أن يشين وقارَه ذلُّ الضراعة أو بكاءُ هوان
كأس البغايا لا تلذ لشارب أو تنتهي لخساسة الأثمان
والحسن لولا الكبرياء يزينه ما كان مطمح ناظرٍ وجنان

***

إني اذا ما أمكنتني فرصة من ظالمٍ وقرعتهُ بسنان
غلب الحنان على العداء ولم يعد في الصدر يحضرني سوى الاحسان
سر السعادة ان تمدّ لخاطىء يد راحمٍ وتمنُّ بالغفران
بسع الحنان لخاطىء أوزاره ولكم أقال الدمع عثرة جان

خصائص

التفكير الفرنسي

لعثمان امين
مدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب

﴿ مقدمة ﴾ — البحث في خصائص التفكير الفرنسي مسألة جديرة منا بالعناية ، وخصوصاً في الأحوال التي تجتازها بلادنا المصرية ، وفي الوقت الذي يجمل أن يضع الكتاب والعارفون أمام أعين الناس أنماطاً ونماذج مختلفة للتفكير في البلاد الأجنبية ، لعلنا نهتدي بها في تدعيم قواعد صالحة لبناء تراث فكري مصري أصيل

ولكنا مضطرون قبل أن نعالج هذا الموضوع ، الى ان نلاحظ بعض الملاحظات الضرورية التي تفرضها علينا صعوبة البحث نفسه :

أولاً : أن محاولة تحديد الخصائص الفكرية عند شعب من الشعوب شيءٌ عسير في ذاته ، ولا تخلو احكامنا فيهِ من تعسف وتحيز ، وهو على كل حال أمر يفلت من متناول الدقة العلمية ، ولا نطمع في أن نصل من ورائهِ الى قوانين ثابتة أو أحكام مطلقة

ثانياً : انهُ ليس من مفكري الفرنسيين من زعم لحظة واحدة أن افكاره ونظرياته معرض للخصائص والاتجاهات العقلية لأمته وحدها . وليس منهم من حكم ان هنالك شعباً مختاراً للفلسفة وللتفكير ، وانهُ ينتمي الى ذلك الشعب ، بل جميعهم كانوا يعتقدون او كانوا يريدون أن يفكروا أو ان يتفلسفوا ليظفروا لا بحقيقة قومية او « وطنية » ، بل كانوا يفرضون دائماً ان أفكارهم ونظرياتهم يمكن أن تسير وأن تذيع حيث وجد عقل بشري يتفهمها، وحيث وجدت شواهد انسانية تضبطها وتحققها . ولو فرضنا أن أحداً قال في مفكري الفرنسيين وفلاسفتهم إنهم بنظرياتهم وأفكارهم يمثلون العقلية الفرنسية أو يمثلون روح أمتهم، فهل كانوا يحملون ذلك الكلام على محمل المدح ؟

كلاّ ما نظن ذلك . بل أكبر الظن أنهم كانوا يعترفون بأن الشعوب كالأفراد لها بعض الخصائص والنزعات العقلية . لكنهم كانوا يحتجون بأن شروط المعرفة في ذاتها انما تحدّ من مهمة تلك العناصر الغامضة غير المعينة التي تتألف منها عقلية من العقليات . أليست الكلمة

الأولى في الفلسفة عند ديكارت هي قوله بأن العقل أو ملكة الحكم السديد مقسمة بين البشر قسمة عادلة ، وأنصبة الناس منها متساوية ، ولا فضل فيها لأمة على أمة ؟

جميع هذه الاعتبارات مهما يكن من وجاهتها لا تحول دون معالجة الموضوع : فإنا نعتقد أنهُ يبقى على الرغم مما ذكرنا أن التفكير الفرنسي في جملته يبدو للمؤرخ المنصف وكأن له طابعاً خاصّاً يميزه عما عداه . وهذا الطابع الخاص يدل على أن نزعات قومية هي التي صورتهُ وتعهدتهُ حتى كمل نماؤه وبسق فرعهُ وامتدَّ ظلهُ

وإذن فسنحاول في الصفحات التالية أن نبين ما عسى أن يكون للعقلية الفرنسية من خصائص أثرت في اتجاهات التفكير الفرنسي بوجهٍ عام

ولكن قبل أن نفحص عن خصائص التفكير الفرنسي ونزعاته ، يجمل بنا أن نلقي نظرة سريعة على ما يحيط بذلك الفكر ، لكي يتسنى لنا معرفته ووضعه في منزلتهِ الخاصة . وسنسلك في بيان ذلك سبيل الموازنة الاجمالية بين اتجاهات التفكير الفرنسي وبعض الاتجاهات الرئيسية الأخرى ذات الأثر في الحضارة العقلية الحديثة

﴿ العقلية الانجليزية ﴾ — العقلية الانجليزية عقلية واقعية ، دقيقة « وضعية » مضبوطة . ولكنها لا تخلو في بعض الأحيان من ضيق الأفق . ولذلك وجدناها وقد استطاعت ، منذ القرون الوسطى حتى العصور الحديثة بلا انقطاع ، أن تبسط تلك الفلسفة التجريبية المشهورة التى تلتزم التجربة المتداولة اليومية ولا تحيد عنها . ومن أجل ذلك رأيناها وما كان أسرعها الى الانسياق في تيار التشكك والارتياب ، فلم يعصمها منهُ إلاَّ إيمانها بالعمل وما لهُ من قيمة وأثر في الحياة ، ورأيناها أيضاً ترحب بمذهب « البراجماتزم » الاميركي ، ذلك المذهب الذي يعنى بمسائل التطبيق والعمل ويقدمها على مسائل التأمل والنظر

﴿ العقلية الألمانية ﴾ — أما العقلية الألمانية فعقلية ميتافيزيقية عميقة بلا نزاع . ولكنها عقلية ميّالة الى المذاهب الضافية ، ميلها الى الغلو في المجردات ، وسلوك الطرق الملتوية . ولذلك رأيناها وقد طاب لها البقاء على مذهب « الايديالزم » ، ذلك المذهب المثالي الصوري المتغالي الذي يجعل من الكون على نحو ما شيئاً خلقهُ الانسان وأبدعهُ الفكر الانساني ، ومعنى هذا عندها في أغلب الاحيان : الفكر الالماني

لننظر الآن في الخصائص التي تميز بها التفكير الفرنسي

١ — ﴿ القصد والاتزان ﴾ : لعلَّ من اظهر خصائص العقلية الفرنسية اتزان القوى واعتدال الملكات المتعارضة من ملكات النفس البشرية : فالفرنسي ذو ذهن تحليلي يميل الى المنطق . ثم هو ذو ذهن تأليفي ، يؤلف بين المثالي والواقعي ، ويجمع بين القدرة على العمل والنزوع الى التأمل والنظر ، ويؤلف بين جرأة الفكر وحرارة الشعور ، ويضيف الى تقديس

« الوضعي » الذي لا يقبل شيئاً من دون نقد أو تمحيص ، مع اخضاع البحث دائماً لامتحان الوقائع ، الاعتقادَ الراسخ والايمانَ المتقد بالحقائق الروحية التي تدعو الانسان دائماً الى ان يتخطى الطبيعة ، والى أن يجاوز نفسهُ ساعياً وراء الحق والخير والجمال

كل ذلك يبدو للمتأمل منسجماً متسقاً في الفكر الفرنسي ، وذلك كله حيّ واضح في آثار تلك النفس الفرنسية وهو الذي أوْحى الى «ديكارت» ان يكتب « المقال في المنهج » والى « بسكال » ان يكتب « الخطرات » ، كما أوحى الى « باستير »أعمالهُ الباهرة والى الفنانين الفرنسيين آثارهم الرائعة

فالذي يلاحظ إذن عند مفكري فرنسا هو التئام صفتين قيِّمتين قلّ ان تجتمعا في شخص ولكنهما مع ذلك تميزان العقلية الفرنسية اذا توافر لها الاتزان والاعتدال : — الصفة الاولى هي ادراكهم لمعنى « الوضعي » ، وذلك عبارة عن عناية المؤلف بأن يبقى على اتصال بالوقائع لايبتعد عنها ، وحرصه دائماً على أن يقرن القواعد بالتجربة . ولقد أرادت الفلسفة الفرنسية أن تحمي نفسها من الاحلام والأوهام ، فاتصلت بالعلوم الوضعية أوثق اتصال . وهذا هو السبب ان أغلب كبار الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين كانوا ؛ مع اشتغالهم بالفلسفة ، إما علماءَ هندسة او علماءَ طبيعة او اطباء او رجال أعمال وصناعات معينة . — أما الصفة الثانية فهي ادراكهم لمعنى المثل العليا ، وايمانهم بحقيقتها . وهذه الصفة عبارة عن ملكة التمييز الروحي ، والاشتغال بشؤون الاخلاق وأسسها الميتافيزيقية . ولقد رأت الفلسفة الفرنسية ، حتى عند الوضعيين أنفسهم ، ان العلوم الوضعية غير كافية ، وأن العلم ، بدون الذهن الذي يفسره تفسيراً فلسفيًّا ، يظل ناقصاً مهما يكن من قوتهِ في مجاله الخاص . ومن أجل هذا وجدنا من كبار علماء الفرنسيين من يكملون مخترعاتهم ومكتشفاتهم بتأويل العلم الذي برعوا فيهِ تأويلاً فلسفيًّا . ولا حاجة بنا الى أن نذكر في هذا الصدد « كلود برنار » في الطب التجريبي ، و« هنري پوانكارى » في الرياضيات . على ان معنى « الوضعي » ومعنى المثل الأعلى معنيان يكمّل أحدهما الآخر . وهما يتمشيان جنباً الى جنب عند مفكري الفرنسيين ، بل يسيران عندهم صديقين متحابين في ظل العقل أوملكة الحكم السليم

٢ — ﴿ الحكم السليم ﴾ عابوا على الفرنسي شدة شغفهِ بالمنطق ، كما عابوا عليهِ انهُ تعوزهُ الحرارة الصوفية ، وانهُ يريد دائماً أن يعرف على وجهِ التدقيق لمَ يعمل ولِمَ يناضل ولِمَ يموت . ربما كان هذا عيباً متأصلاً في الفرنسيين . ولكنْ على كل حال تقابلهُ مزية أصيلة اختصت بها فرنسا . وهي ما يسمى بالفرنسية « bon sens » أو ملكة الحكم السليم ، وهي تلك الملكة العامة التي يضعها الفرنسي في خدمة المثل الأعلى ، وهي عبارة عن القدرة على صحة

الإحساس بالحقيقة الكاملة ، والحكم على الأمور أحكاماً سديدة ملائمة لصريح العقل ، وهي أخيراً الحدس الصائب في ما هو موجود، ولما هو حق، ولما هو خير . وميتافيزيقا الفرنسيين قائمة على الحكم السديد : وهـذا ما يجعل لها قوة لا تُبارَى

وليست عبقرية الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين إلاّ كمالَ ذلك المعنى الذي نجده متجلياً عند فلاحي فرنسا ، ملموساً في أعمالهم اليومية . ويخطر ببالي في هذا المقام كلمة لكاتب فرنسي معاصر هو « چان چيرودو » إذ قال يوماً : ان المانيا لها « جوته » ، ولـكن موظف الجمرك ببلدة « كركيران » في « البروڤانس » هو جوته !

أراد « چيرودو » بهذه الكلمة المختزلة التي لا تخلو من مفارقات أن يعبّـر عن هـذه الفكرة : وهي انه اذا كان القصد والتوازن في المانيا من أندر الأمور ، فانهُ في فرنسا كثير مألوف . ففرنسا منذ زمن طويل هي بلاد الحكم السليم الذي تحدَّث عنهُ فيلسوفها ديكارت وأشاد بهِ أيما إشادة . والحق ان من أتيحت له الفرصة لأن يخاطب الناس في تلك البلاد عجب من ذكاء الجمهور واعتدال أحكامهِ ، واصابة نظراتهِ : الجمهور هناك يكاد أن يفهم كل شيء ، ويكاد أن لا يغيب عنهُ شيء من دقائق الأمور ، والفرنسي حيوان ناطق بمعنى الكلمة !

٣ — ﴿ البساطة والوضوح ﴾ ولعلَّ من أهم الصفات التي أصبحت عنواناً للعقلية الفرنسية ميلها الى التماس الوضوح . ومن خصائص التفكير الفرنسي منذ نشأته حرصهُ على تحليل الأفكار ، بل وتحليل المشاعر ، الى عناصر واضحة متميزة ، ووسيلتهم في التعبير عنها اللغة المتداولة الجارية . ولذلك وجدنا أكثر الفلاسفة الفرنسيين من كبار الكتّاب قد استطاعوا أن يعبروا عن الأفكار الواضحة في لغة واضحة

ومن هنا كان أول ما نلاحظهُ حين نقرأ كتاباً فلسفيًّا فرنسيًّا هو بساطة الأسلوب وسهولة العبارة : فاننا اذا استثنينا « اوجست كُنْت » وعدداً قليلاً من المفكرين في النصف الثاني للقرن التاسع عشر — وهؤلاء انما خضعوا لتأثير أجنبي فبعدوا عن الوضوح الفرنسي الموروث — استطعنا أن نقول قولة « هنري برجسون » : ان الفلسفة الفرنسية قد سارت دائماً على وفاق مع المبدأ التالي : « ليس هنالك فكرة فلسفية مهما يكن حظها من العمق والدقة إلاّ ويُستطاع ، بل ويحسن، التعبير عنها بلغة الناس المتداولة البسيطة » . وليس هذا رأي الفلاسفة الفرنسيين وحدهم ، بل هو أيضاً رأي الجهرة من كتّابهم . قال « بوالو » :

« ان ما أجدنا تصوره استطعنا أن نعبر عنهُ تعبيراً واضحاً »

« وجاءتنا الألفاظ المعبّرة عنهُ طائعة مختارة »

Ce que l'on conçoit bien s'enonce clairement,
Et les mots pour le dire arrivent aisément.

فالكتّاب الفرنسيون يتوخون الوضوح دائماً ، وهم لا يعتقدون انهم بهذا ينحطون ، أو يستحقون ما قد يرميهم بهِ بعض خصومهم من أنهم سطحيون ! لأنهم لا يأخذون بذلك الوهم الذي استولى على بعض النفوس ، فجعلها تقيس عمق الفكر بغموض التعبير . والواقع ان الفرنسيين على حق : فليست كل المياه الملوّثة بالطين مياهاً عميقة ، ولا كل المياه الصافية مياهاً سطحية !

وبفضل الوضوح في الفكر والعرض ، استطاع مفكرو الفرنسيين أن يقرّبوا من متناول كل انسان مثقف ، أرفعَ الأفكار في العلم وفي الميتافيزيقا ، وأعمق المعاني والقواعد في علم الاخلاق . واذا كان من اللازم لتقدير ما في فكرهم من عمق ، ولتفهمه حق التفهم ، أن يكون القارىء على دراية بشيءٍ من الفلسفة أو العلم ، فانهُ ليس من رجل مثقف إلاّ ويستطيع أن يقرأ أهم مؤلفاتهم وأن يفهمها وأن يصيب منها نفعاً

والفلاسفة الفرنسيون حين احتاجوا الى وسائل للتعبير جديدة، لم يصنعوا ما صنع البعض في بلاد أوروبية أخرى حين أكثروا من خلق المصطلحات الجديدة ، بل عمد الفرنسيون الى التأليف بين الكلمات المستعملة تأليفاً يعطي تلك الكلمات معاني جديدة . وهذا يفسر لنا كيف أن ديكارت وبسْكال وروسو قد زادوا في قوة اللغة الفرنسية ومرونتها ، سواء كان موضوع أقوالهم الفكر أو الشعور

ونحن مضطرون أن نلاحظ مع « هنري برجسون » ايضاً ان تعقيد اللفظ وغموض الصورة والالتجاء الى المصطلحات الخاصة ، كل ذلك يكاد أن يكون دائماً « في منزلة القناع يلقيهِ المؤلّف على فكر لم يوفق بعد الى أن يستبين ذاتهُ تمام الاستبانة » والفكرة التي استطاع صاحبُها أن يهيمن عليها لا بد أن يعبر عنها بسهولة وبساطة . وهذه القاعدة صحيحة حتى في الافكار الميتافيزيقية العميقة

٤ — ﴿ الى الجمهور ﴾ ذلك ان مفكري الفرنسيين لا يكتبون عادةً لطبقة من المتخصصين ، وانما يتوجهون الى الجمهور ، بل الى الانسانية عموماً . ولقد قنعت الفلسفة الفرنسية دائماً بأن تتكلم لغة الناس الشائعة ، فلم تكن امتيازاً لطبقة دون أخرى ، بل بقيت خاضعة لمراقبة الجمهور ، كما ظلت على اتصال مستمر بالعلوم وبالحياة . فمارسها رجال كانوا علماء نفس ، وعلماء حياة ، وفيزيقيين ورياضيين . وهذا الاتصال المستمر بالحياة وبالعلم وبالجمهور وبالحسّ العام قد بثّ فيها خصوبة ، كما منعها من أن تلهو مع نفسها ، ومن ان تتكلف تأليف الأشياء بتصورات ومجردات ، كما هو الحال في بعض الفلسفات الأخرى . وبهذا نفسر الأثر الذي كان لمفكري الفرنسيين ، لا في فرنسا وحدها ، بل في الانسانية

بأسرها ، وبه نفسر ما في مذاهبهم من قوة الذيوع ، ونفسر لِمَ لم توجد فلسفة تفوق الفلسفة الفرنسية في اشتمالها على عناصر بشرية عامة

٥ — ﴿ النفور من المذهب ﴾ وطبيعي ان نرى الفكر الفرنسي الذي كان دائم العناية بالقصد والاتزان كما قلنا ، يتوجس من كل ضخامة وجمود . نجد في بعض البلاد الاوربية الأخرى ما يشبه المغامرات المنطقية والمجازفات الجدلية . لكن الفكر الفرنسي انما أراد أن يكون صديقاً مخلصاً للكلي وللعام ، ولكن في صورة الفكرة المرنة الحرة

من أجل هذا قلما نرى عند الفرنسيين فلسفات نشأت اجابة عن مشكلات محصورة في مذاهب . والمذاهب المغلقة قليلة في الفلسفة الفرنسية . والحق ان فلاسفة الفرنسيين اذا كانوا ميالين الى المنهج ، فهم قليلو الميل الى المذهب : فتراهم لا يحبون ان يجعلوا من البناء الذي يقيمونه بنــاءً مغلقاً ، يدخل فيــهِ كل شيء اختياراً أو اضطراراً كما هو الشأن عند الميتافيزيقيين من الألمان

ومفكرو الفرنسيين ، اذ يشعرون برسالتهم الاجتماعية ، لا يركنون الى تكلف اقامة المذاهب ، بل يميلون الى نقل الفلسفة الكامنة ، فلسفة الأمة ، تلك الفلسفة المؤلفة من خواطر العالم والفنان ورجل الأعمال والصانع ، وتفكير جميع من كان لهم تجربة مباشرة للحياة وللاشياء . ولذلك نجحوا في ان يكونوا في سلوكهم تعبيراً من التعبيرات التي تمثل النزعات الفرنسية والنزعات الانسانية معاً

وكما تنفر العقلية الفرنسية من ان تلبس ثوب المذهب ، نجدها تنفر من ان تتخذ صورة « الدجماطيقية » . اي اليقين المتعصب الذي يريد أن يفرض الرأي على الناس فرضاً ، كما أنها تنبذ الاسراف في التشكك والارتياب : فمنهجهــا بعيد عن منهج « هجل » بعده عن منهج « كانْت »

وليس معنى هذا ان الفلسفة الفرنسية عاجزة عن أن تشيد اذا ارادت ، بناءً شامخاً . بل لعلَّ فلاسفة الفرنسيين رأوا ان اقامة المذهب شيء يسير : اذ ان من اليسير الذهاب بالفكرة الى غايتها القصوى . لكن الصعوبة انما تكون في الوقوف بالاستنباط حيث ينبغي أن يقف ، وفي توجيهه كما ينبغي ، بفضل تعميق العلوم الخاصة والاتصال المستمر بالحقائق . قال « بسكال » : ان « روح الهندسة » لا تكفي الفيلسوف ، وينبغي أن يضيف اليها « روح الدقة » ! وروح الهندسة هي روح "الاستدلال المنطقي" المحض . أما روح الدقة التي يريدها « بسكال » فهي فن من الفنون : هي فن تفسير الحقيقة بالتوفيق بين مبادىء متناكرة في الظاهر ، ثم هي ادراك النظام الذي يتجاوز الاستدلال المجرد ، وهي فن تمييز الحدود التي

يجب على المنطق أن لا يتعداها . إن ديكارت ، ذلك الميتافيزيقي الكبير ، صرح بأنهُ لم يكن يفرغ للميتافيزيقا الا ساعات قلائل في العام : يريد بذلك ان البناء الميتافيزيقي والبناء المنطقي عملان يتمان عفواً وطبعاً ما دام الانسان مستعداً لهما

قد يقال ان الفلسفة اذا بعدت عن بناء المذهب بعدت عن قصدها ، وأن مهمتها هي التأليف بين الحقائق . لكننا نقول إن الفلسفة الفرنسية لم تعدل قط عن ذلك التأليف ، ولكنها لا تميل الى ذلك النحو من التفلسف الشائع عند الألمان مثلاً وهو عبارة عن أخذ هذه الفكرة او تلك ، ثم ادخال مجموع الأشياء فيها بالرضى أو بالقهر : اذ ان من الممكن دائماً ان نعارض تلك الفكرة بأخرى نستطيع بها ان نبني ، وفقاً للمنهج نفسهُ ، بناءً مخالفاً ، ويكون المذهبان كلاهما مقبولين على السواءِ ولا يسهل التحقق من صحتهما . فتصبح الفلسفة بهذا المعنى لهواً وعبثاً بين الكتَّاب والقراء

٦ — ﴿ ملكات بشرية ﴾ صحيح ان مفكري الفرنسيين وفلاسفتهم قد يجعلون الصدارة في تفكيرهم للعقل او للتجربة او للشعور او للحدس ، الا أن الملكات التي يعمدون اليها في اقامة مذاهبهم ليست ملكات مفارقة للطبيعة ولا متعالية عن البشر ، وانما هي ملكات معيارها في الادراك الانساني الذي يشترك فيهِ الناس جميعاً . وهذا ديكارت أبو الفلسفة الحديثة لا يصد عن قراءته احداً ولو لم يكن من المتخصصين في الفلسفة : ذلك لأن الفيلسوف لا يسير من حدس محوط بالأسرار، ولا من إلهام ملبد بالغيوم ، ولا من عرفان هبط عليه من السماء، فطلع هو به على الناس معبراً عنهُ بالملاحن والرموز ، بل سار ديكارت من حدس بيِّن واضح هو حدْس « النور الفطري » ، نور العقل الذي هو «أعدل الأشياء قسمة بين البشر »

٧ — ﴿ الملاحظة الباطنية ﴾ ومن الصفات الثابتة عند مفكري الفرنسيين ميل كتَّابهم الى علم النفس واتجاههم الى المشاهدة الباطنية . فبينا تجد كبار فلاسفة الألمان ، حتى «ليبنتز» و « كانْتْ » ، لم يُظهروا ميلاً كبيراً الى علم النفس — ما عدا « شوبنهور » وهو الميتافيزيقي الألماني الوحيد الذي كان عالماً نفسيًّا نجد على الضدّ من ذلك انهُ ليس من فيلسوف فرنسي الاّ وقد تجلت فيه عند الضرورة القدرة على اختبار النفس الانسانية ومشاهدتها . ولا حاجة الى اطالة القول في الدراسات النفسية الدقيقة التي نجدها عند « ديكارت » وعند « مالبرانش » ، ممزوجة بنظراتهم الميتافيزيقية . ونظرة « بَسكال » لم تكن أقل حدَّة ونفاذاً الى الجوانب المظلمة من النفس منها حين كانت تُلقى على الاشياء الطبيعية والهندسية والفلسفية . ولقد كان « كونديلك » عالماً نفسيًّا كما كان من المناطقة . وماذا نقول إذن عن أولئك الكتَّاب الذين فتحوا للتحليل النفسي طرقاً جديدة مثل « جان جاك روسو » و «مين

« دوبيران » ؟ ففي ابان القرنين السابع عشر والثامن عشر عُني الفكر الفرنسي بالحياة الباطنية، فهد لقيام الابحاث النفسية العلمية التي كانت فيما بعد من آثار القرن التاسع عشر. ونحن نجد من أشهر ممثلي علم النفس الخالص في عصرنا الحاضر بفرنسا « هنري برجسون » وهو في الوقت نفسه فيلسوف كبير

فهذه الملكة الخاصة التي بها يجلو الكاتب ما بالأشياء من تعقيد وتركيب ، ويصف ما بالحياة الباطنية من حركات عميقة ، لم تفارق الأدب الفرنسي بوجه عام . ونستطيع ان نذكر مع « المقالات » لمونتني ، و « انفعالات النفس » لديكارت ، و « الاعترافات » لروسو ، كثيراً من الكتب البسيكولوجية الفلسفية والعلمية التي خلفها الاخلاقيون الفرنسيون . والواقع ان هذه المقدرة التي يصل بها الكاتب الى نفس الانسان في أعمق أغوارها ، لكشف ما تنطوي عليه من بواعث ونزعات ، قد مارسها الفكر الفرنسي بمهارة جديرة بالاعجاب ، وهذا مما يفسر بعض خواص العقلية الفرنسية واتجاهاتها : اذ ان معرفة النفس هي في منزلة قوة للنقد بازاء النظريات التي تقوم في المجردات، والتي تذهب مسرفة في قضاياها بقدر خلوها من المعاني الحية المشخصة

٨ — ﴿ الحرية ﴾ والصفة الكبرى المميزة للروح الفرنسية والتي تتجلى عند مفكريهم وفلاسفتهم بصورة رائعة هي ايمانهم بأن الانسان حر وانه يمارس تلك الحرية بالفعل . ولا حاجة بنا الى بيان ما أدته فكرة الحرية هذه من دور هام، لا في تاريخ فرنسا وحده ، بل في تاريخ الشعوب والمدنية . وهذا ديكارت لا يخشى ان يذهب في هذه السبيل الى أبعد حدود النظرية ، فنراه يطالب للانسان بالحرية باعتبارها امتيازاً خاصًّا به ، أو ان شئنا باعتبارها أهم صفة عند الانسان تكاد ان تجعلهُ من أنداد الله

٩ — ﴿ الروحية ﴾ والعقلية الفرنسية أينما تفتحت وازدهرت ، تجلت للناس عقلية روحية . ولقد كانت الروحية دائماً طابع فرنسا الخاص ، قد تحتجب حيناً في أعماق الضمائر التي يلهيها عملها اليومي ، وقد يقل بهاؤها حيناً في النضال المر العنيف نضال الأفكار ، ولكنها أحياناً كثيرة أخرى روحية مشرقة رفيعة . والروحية عند الفرنسي كامنة وموجودة دائماً ، حتى حين يبدو وكأنه يتناساها . واتجاه التفكير الفرنسي في صميمه اتجاه روحي

على ان الروحية الفرنسية شيء بعيد كل البعد عن « الايديولوجيا » التصورية المسرفة النكيرة . ولذلك كانت العقلية الفرنسية ، هي أيضاً كالعقلية الانكليزية ، عقلية واقعية بأجل ما لتلك الكلمة من معان

واثبات الروح ليس انكاراً للمادة . بل هو بالعكس تحديد لمهمة المادة ، حتى ليصح أن

يقال بأن هنالك الى جانب المادية وفوقها مبدأً يستخدمها ويهيمن عليها . فالمادي منكر للروح، لأنهُ منكر للحق ، إذ يراه هو القوة ، أما الروحي فلا ينكر المادة ، بل يخضعها للروح . وكذلك الفكر الفرنسي يعترف بوجود القوة وسلطانها ، ولكنهُ يحاول أن يخضعها للحق

ولما كانت الصفة الكبرى من صفات التفكير الفرنسي هي كما قلنا الاتزان واصابة النظر ، فقد كانت عقلية فرنسا متزنة عادلة، تسعى الى أن تضع كل شيء في موضعه ، وان ترد الأمور الى نصابها : المادة في مرتبة الخادم ، والروح في مرتبة السيد الآمر . وذلك هو السبب في أن تلك العقلية المتزنة هي أولاً عقلية روحية

١٠ — ﴿ خاتمة ﴾ تلك بعض الصفات التي تبدت لنا ممثلة للتفكير الفرنسي في جملته . واليوم وقد بلغت الانسانية من تاريخها ساعة الفجيعة الفاصلة ، والآن وقد وُضِعت بين الله والحيوانية فواجب عليها أن تختار أحدها دون الآخر

فإذا كان الأشرف يصدر عن الأخسّ ، والأكثر يأتي من الأقل ، أي اذا كانت الحياة تأتي من المادة ، والروح من الحيوانية ، لم يكن الله إلا صنماً ، ولم يكن الانسان إلاّ حيواناً تطوّر ، وكان مصيره مصير البهيمية ، وكان ما له الموت المحقق ، واذن فقد أصبح وجودنا كله محبوساً في الحياة الراهنة وجوهرنا محصوراً في حدود الحيوانية

وذلك هو المآل الذي تجرّنا اليه بعض الاتجاهات الفكرية الحديثة المخالفة مخالفة صريحة لاتجاهات الفكر الفرنسي على نحو ما وصفناها . ألسنا نرى بعض مذاهب التفكير الاوروبية الأخرى وقد أحلت « التصورية » محل الروحية و « الصيرورة الابدية » محل الخلق ، والروح اللافردية محل النفس الفردية — ألسنا نراها قد أفضت الى انكار الله ، والى تأليه القوّة الغشوم ، والى تقديس حاجات الأبدان ؟ وأليست بهذا قد انحطت الى مستوى الحيوانية الصرفة وأربت في ذلك حتى على قدماء الدهريين والوثنيين ممن كانوا يعبدون الطبيعة ومظاهرها ؟

ولكننا اذا اعترفنا مع الفكر الفرنسي بأن الأكثر لا يمكن ان يأتي من الاقل ، وان النظام لا يصدر عن الاضطراب ، ولا العقل عن الآلية ، ولا الانسان عن الحيوان ، اذن لوضعنا في أصل كل شيء وفي أصل وجودنا ، مبدأ الكمال والحق والخير ، وهو الله ، واذن لأصبح للانسانية معنى ، اذ تتجاوز الحيوانية بالعقل والحرية ، وتعلو عليها علوّاً لامتناهياً

وواجبنا ان نستعمل ذلك العقل وتلك الحرية لنتخلص ما وسعنا من الحيوانية ، ولكي نرقى حثيثاً الى الله ، لأن كرامة الانسان انما تكون في ذلك الجهد الموصول نحو اللامتناهي ونحو الكمال

القاهرة — جامعة فؤاد الاول

حكمة المناظرة

قيل إن السيد الجرجاني تناظر مع السعد التفتازاني بمجلس خاص . وكان السيد شاباً حديث العهد . وكان السعد شيخ العلماء في وقته ، فانتهى المجلس بأن السعد أقر للسيد وإن السيد فلج على السعد أمام ذلك الجمهور . فساء ذلك تلاميذ السعد . ولما انصرف الناس قالوا لأستاذهم : ما كان ينبغي لك أن تسلم لرجل هو في سن أحد تلاميذك فأجابهم وماذا أصنع إذا كان الحق معه . فقالوا له : قد كان يمكنك أن تقول له كيت وكيت في الجواب . فقال لهم ولكنه يكون مماحكة ولا يكون من العلم في شيء فقالوا له : لكن الناس قد علموا الآن أن السيد أعلم منك . فقال لهم : أحب إلي أن يعلمني الناس جاهلاً وأن يعلمني الله وحده عالماً

النقل الجوي

في أثناء الحرب وبعدها

قلّب النظر في شؤون الحرب كما تشاء ، فانك حتماً واقع في آخر الأمر على مشكلة النقل . فالغواصات الألمانية تنتشر في البحار ، لكي تعرقل سير القوافل التي تعتمد عليها الدول المتحدة ، في حشد قوتها الحربية ، في ميادين بعيدة ، عن بريطانيا والولايات المتحدة ، وبعيدة بعضها عن بعض . والقاذفات البريطانية تتوخى مصانع القاطرات وعقد المواصلات في المانيا والبلدان المحتلة ، ولا تني المستكشفات الجوية والبحرية عن استطلاع سواحل اوربا لمهاجمة السفن الألمانية المتسللة على محاذاتها من ثغر الى ثغر ومن جون الى جون . ومهما تتعدد أوصاف هذه الحرب ، فلا بدَّ أن يكون وصفها بأنها « حرب مواصلات » في طليعة الأوصاف جميعاً . واذا كان الألمان قد اعتمدوا في مراحل مختلفة من هذه الحرب ، على نقل الجنود بالطائرات ، كما فعلوا في أثناء غزو النرويج وكريت ، وفي الميدان الشرقي ، فإن المسافات البعيدة بين الولايات المتحدة او الجزائر البريطانية من جهة ، وبين ميادين الحرب النائية كاستراليا والشرق الأوسط من جهة أخرى ، تجعل الاهتمام بالنقل الجوي ، في رأي بعض الخبراء ، أمراً لا مفرَّ منهُ لأن السفن بطيئة في اجتياز ألوف من الأميال بسرعة عشرة أميال في الساعة أو اكثر قليلاً ، بينما الحاجة في بعض الأحيان الى تعزيز القوات المتحدة في موقع ما ، على جناح السرعة

وهذا الرأي ، هو الذي حمل « كيزر » الاميركي صانع العجائب في بناء سفن النقل ، على ان يقترح على الكنغرس الأميركي والأمة ، تحويل جانب من دور الصنعة التي أعدها لبناء السفن ، الى مصانع تنشئ سفناً جوية كبيرة ، فتنقل ما تستطيع السفن نقله ، في نحو عُشر الوقت ، وبغير التعرض لخطر الغواصات . ومن الأمثلة التي ضربها ، ليستوقف العناية الرسمية والعامة بمقترحه ، انهُ اذا صنعت خمسة آلاف من هذه السفن الجوية التي يقترحها فانها تنقل في أربع وعشرين ساعة جيشاً اميركيًّا الى بريطانيا يعد نصف مليون ، أو ما يعدله وزناً من جميع أصناف الأسلحة الخفيفة والضخمة على السواء

وقد يكون في هذا القول شيء من الغلوّ ، ولكنه أفضى الى الغرض المقصود وهو حمل

الحكومة والشعب في الولايات المتحدة ، على العناية بهذا الموضوع وما له من شأن في سير الحرب ، والمرجّح ان طائفة من هذه السفن الجوية تبنى في الولايات المتحدة الآن ، وان كان نطاق بنائها أضيق مما اقترحه كيزر على ما يُعلم

وعلى كل حال في الولايات المتحدة طائرتان ، او سفينتان جويتان ، تصلحان مثالاً لما يبغيه الخبراء ورجال الحرب على السواء . فثمة اولاً الطائرة الموسومة « دَغلَس ب ١٩ » Douglas B-19 وهي طائرة تبلغ المسافة بين طرفي جناحيها ٢١٢ قدماً ووزنها فارغة ٨٣ الف رطل أي نحو ٤١ طنّاً ، وتستطيع أن ترفع في الجو وهي ماضية بسرعة ٢٠٠ ميل في الساعة حملاً يبلغ ١٦٤٠٠٠ رطل أو نحو ٨٢ طنّاً ومداها يفوق سبعة آلاف ميل. وثمة ثانياً الطائرة المائية التي تصنعها شركة مارتن وقد وسمت باسم الـه الحرب (المريخ Mars) وهي تعدل في حجمها حجم الطائرة التي تقدم ذكرها ، وتسير بأربعة محركات قوة كلٍّ منها الف حصان . وقد لا تجاري الطائرة الأولى في سرعتها ، ولكنها تفوقها قليلاً في الحمل الذي تحمله إذ ليس لها عجلات،وهي مما لا غنى عنه في الطائرة البرية للحطّ على الارض والدرْج عليها قبل الوقوف . وقد ارتقت صناعة الطائرات الضخمة ارتقاءً عظيماً بفضل ما أسفرت عنهُ تجارب الحرب من عِبر ، ولكنَّ هذه العِبَر لم تدمج جميعاً في بناءِ هاتين الطائرتين حتى الآن . فلنعمد الى الخيال القائم على العلم لتصوُّر طائرة النقل التي في الوسع صنعُها فتكون أفضل مما عرف حتى الآن

ولكن قبل أن ننظر في أوصاف هذه الطائرة يتعين علينا ان نُلقي نظرة على الحقائق الجغرافية التي لا بدَّ من حمل حساب لها في النقل البحري والنقل الجوّي على السواء . ولنفرض ان الولايات المتحدة تريد ان تعزّز قواتها في ميداني استراليا والشرق الاوسط . فالمسافات الطويلة التي تفصل هذين الميدانين عن الولايات المتحدة ، ترهق قدرة الأسطول على توفير السفن اللازمة لقطعها مجتازة اليها، وهي موسوقة وسقاً عزيزاً حيويّاً ، بحاراً تنسرب فيها الغوّاصات . وعلى هذه السفن ان تصل الى طيتها على أسرع وجهٍ مستطاع . ولكنها بطيئة بطبيعة الحال . فاذا كانت السفينة في قافلة معدَّل سرعتها عشرة أميال في الساعة فانها تستغرق شهرين تقريباً في اجتياز مسافة ١٢ الف ميل من ساحل الولايات المتحدة الشرقي الى خليج ايران أو البحر الأحمر ملتفة برأس الرجاء الصالح . وتستغرق ثلاثين يوماً لاجتياز المسافة بين ساحل الولايات المتحدة الغربي ومدينة سدني باستراليا . فسرعة معدَّلها عشرة اميال في الساعة ، مرادفة للبطء العظيم عند ما تكون المسافات بعيدةً هذا البعد . وليس ثمة ريب في ان النقل بالسفن الجديدة التي تبلغ سرعتها ستة عشر ميلاً بحريّاً في الساعة ، تستغرق وقتاً اقلّ .

فتستطيع هذه السفن ان تقلع من موانىء الولايات المتحدة الغربية وتصل استراليا في عشرين يوماً ، أو أن تقلع من موانىء الولايات المتحدة الشرقية وتصل الى منطقة الشرق وسط في خمسة وثلاثين يوماً . ومع ذلك تبقى المدّة التي تستغرقها هذه السفن في الوصول الى هذين الميدانين من ميادين الحرب طويلة ، حتى اذا فرضنا ان سرعتها تمكنها من تجاهل خطر الغوّاصات . والوسيلة الوحيدة للتغلّب على هذه المسافات ، انما هي الاعتماد على النقل الجوّي

ان الحرب أكبر أستاذٍ لعلم الجغرافيا . وقد علّمنا هذا الاستاذ انهُ اذا كان في متناولنا طائرات مداها نحو خمسة آلاف ميل ، ففي وسعنا حينئذٍ ان نستعملها في النقل الى كل منطقة من سطح الارض تقتضيها الحاجة الحربية بسرعة تتفاوت بين ٢٠٠ ميل و٣٠٠ ميل في الساعة

ان المسافة بين هنولولو وطوكيو ، أو بين موسكو وڤلاديڤستوك ، أو بين نيويورك وبرلين ، أو بين نيويورك وفريتون (على ساحل افريقية الغربي) أو بين فريتون والبحر الاحمر تبلغ نحو أربعة آلاف ميل

وبين الطائرات المعروفة الآن، بضع طائرات تستطيع أن تحمل وقوداً كافياً لرحلةٍ طويلة مداها نحو أربعة آلاف ميل تجتازها في مرحلة واحدة. ولكن هناك فرق بين مجرّد طيران طائرة من نيويورك الى فريتون مثلاً ، بغير توقف ، وبين قدرتها على نقل حمل وافٍ من البضائع أو الأسلحة أو الرجال . ونحن لا نزال — من هذه الناحية — في مستهلّ عهد النقل الجوي

فلنقابل بين الطائرة التي تستطيع أن ترفع في الجوّ حملاً يبلغ نحو ٨٠ الفاً من الأرطال (نحو أربعين طنّاً) مسافات بعيدة ، وبين ما تستطيعهُ السفن على هذه المسافات . وهذه المقابلة لا يمكن أن تكون دقيقة . لأننا لا نعلم الآن ، مدى التأخير الذي يصيب السفن بسبب انتظامها في القوافل ومسائل أخرى ، ولذلك ستقوم هذه المقابلة على أساسين . أولاً — مقابلة بين الطائرات والسفن التي تسير في قوافل سرعتها على المعدّل عشرة أميال في الساعة (ثماني عقد ونصف عقدة بحرية) وثانياً — مقابلة بين الطائرات نفسها وبين سفن تستطيع أن تسير بسرعة ١٨ ميلاً في الساعة (١٦ عقدة بحرية) وهي سفن لا تنتظم في قوافل

ان سفينة حمولتها ١١ الف طن ، لا تستطيع ان تنقل للاغراض الحربية شحناً يزيد كثيراً على ستة آلاف طن ، لأن الخمسة الآلاف الباقية تخصص لتسليحها وتموينها ووقودها وبحارتها وما أشبه . هذه السفينة لا تستطيع ان تقطع مسافة ١٢ الف ميل بين نيويورك ومنطقة الشرق الأوسط ، في أقل من شهرين ، بسرعة عشرة اميال في الساعة . ويجب ان يضاف اليها الزمن اللازم لتفريغ الشحن وراحة البحارة واصلاح ما يجب اصلاحه فيها . وهو يتفاوت بين اسبوع

واسبوعين. ثم يضاف اليهما ايام اخرى يقتضيها الانتظار للانتظام في قافلة. فسفينة من هـذا القبيل تستغرق من ١٣٠ الى ١٤٠ يوماً في رحلة من نيويورك الى منطقة الشرق الأوسط ذهاباً واياباً

اي انها تستطيع ان تنجز رحلتين ونصف رحلة من هذا القبيل في السنة، اي ان تنقل من نيويورك إلى منطقة الشرق الاوسط ما وزنهُ ١٥ الف طن

فماذا تستطيعهُ طائرة النقل الضخمة مقابل هذا ؟

اذا حسبنا حساباً لما تحتاج اليهِ هذه الطائرة من وقود، لرحلة مداها اربعة آلاف ميل بسرعة ٢٠٠ ميل في الساعة، ووزن رجالها وزادهم وما يلزم لهم من وسائل النجاة في الطوارىء، وجدنا انها تستطيع أن ترفع حملاً من السلاح أو الذخيرة او ما شئت يبلغ عشرين طنًّا. هذه الطائرة تستطيع ان تطير بسرعة ٢٠٠ ميل في الساعة، من نيويورك الى باثرست أو فريتون، على كتف افريقية الغربية، في عشرين ساعة. وبعد انقضاء ساعات تستطيع ان تستأنف طيرانها مجتازة افريقية الى منطقة البحر الأحمر مثلاً في عشرين ساعة أخرى. نقطع المسافة بين نيويورك ومنطقة الشرق الاوسط في نحو يومين. ولندخل في حسابنا يومين آخرين احدهما للراحة والثاني لما يحتمل حدوثهُ من تأخير بفعل الأحوال الجوية. ثم تعود الى الولايات المتحدة في يومين. اي ان طائرة من هذا القبيل تستطيع ان تنجز هذه الرحلة ذهاباً واياباً في اسبوع، او خمسين رحلة في السنة. اي ان طائرة واحدة من هذا الطراز تستطيع ان تنقل في السنة من نيويورك الى الشرق الاوسط ما وزنهُ الف طن على أسرع وجهٍ مستطاع. أي ان خمس عشرة طائرة منها تعدل سفينة حمولتها أحـد عشر الف طن وتسير بسرعة عشرة اميال في الساعة

والمقابلة على هذا الأساس، بين هذه الطائرة، وبين سفينة سرعتها ١٨ ميلاً في الساعة ووزن شحنها ٧٠٠٠ طن، تفضي الى نتيجة لا تختلف كثيراً عن النتيجة السـابقة، وهي ان احدى وعشرين طائرة من هذه الطائرات تنجز عمل السفينة السريعة، في نقل ما يراد نقلهُ من نيويورك الى الشرق الاوسط. ولكنَّ الطائرات [illegible] في يومين، بينما السفينة لا تستطيع أن تنقلهُ في أقل من مائة يوم الى مائة يوم وعشرة أيام

على ان نفقة النقل بالطائرات تفوق نفقة النقل با[illegible]ن ثلاثة أضعاف

ولـكنَّ النفقة ليست كلَّ شيءٍ. فالطائرات لا يعرضها خطر الغوَّاصات، فتطلقَ طائفة من السفن الحربية المتولية حراسـة القوافل للنهوض بأعمال حربيـة أخرى. ثم ان النقل بالطائرات يتمُّ بسرعة، عندما تمس الحاجة الى المنقول سواء أرجالاً كان أم سلاحاً، والنقل

السريع على هذا الوجه ينطوي على عنصر من عناصر المفاجأة . وعلاوة على هـذا ان السفينة الطائرة تستطيع أن تنزل على كل سطح مائيّ تقريباً في داخل البلاد ، من نهر أو بحيرة أو مرفإٍ ضحضاح . وهذه الحقيقة تجعل استعمال السفن الجوية للنقل مفضلاً على استعمال الطائرات البرية . وخبراء الصنّاع والطيّارين مجمعون على هـذا ، وفي طليعتهم أيغور سيكورسكي وجلن مارتن

ويخطئ من يظن ان النقلَ الجوي على الوجه الذي وصفناه ، لا اعتراض عليه من ناحية ما . فثمة أولاً عامل الأحوال الجوية والطيران فيها طيراناً منتظماً أو تعذر الطيران فيها طيراناً منتظماً على مدار السنة . ثم ان استعمال طائرات ضخمة على نطاق واسع يقتضي تنظيماً دقيقاً وحشد مقادير كبيرة من الوقود واعداد مخازن تحتوي على كل ما قد تدعو اليه الحاجة ، في المواقع التي تعين لنزول الطائرات . وأخيراً هناك احتمال تصدي المطاردات المعادية لهذه السفن الجوية . وتذليل الأول رهنٌ بارتقاء الصناعة والعلم والثاني بالخبرة والمرانة . والثالث بحماية مناطق نزول الطائرات بمدافع مضادة ، ومطاردات نهارية وليلية . أما في أثناء الطيران فلابدَّ للطائرة من ان تعتمد على نوع من السلاح الدفاعي ، كالمدافع التي تسلح بها القاذفات الكبيرة الآن

وعلى هذا ، يعتقد — جروفر لويننج[1] في مجلة الشؤون الخارجية — ان كل هذا مستطاع الآن على أساس الطائرات التي بنيت وجرِّبت . ولكنه يمد بصره وخياله الى المستقبل القريب فيقول انهُ في الوسع تصور طائرة نقل ضخمة لها اثنا عشر محركاً قوة كلٍ منها ثلاثة آلاف حصان ، والمدى بين طرفي جناحيها ٣٨٠ قدماً ومعدل سرعتها ٣٠٠ ميل في الساعة ويكون وزنها فارغة ٢١٥ طنّاً فتستطيع ان تحمل ٢٣٥ طنّاً منها ستون طنّاً للوقود ورجال الطائرة ، أي يكون وزن حملها النافع ١٧٥ طنّاً . وهذه الطائرة تستطيع ان تقطع مسافة ٤٠٠٠ ميل بين نيويورك ومنطقة الشرق الأوسط في مرحلتين ، أمَدَ كلٍّ منهما اربع عشرة ساعة طيران أي نحو ٧٠ رحلة في السنة . وعلى هذا تستطيع أن تنقل بين نيويورك والشرق الأوسط ١٢ الف طن في السنة اي ان طائرتين من هذا الطراز تحلاّن محلَّ سفينة كبيرة سريعة . وجميع الأوصاف التي أسندها الكاتب الى هذه الطائرة ، لا غلو فيها ، على أساس ما يعرف الآن من فعل الطائرات المستعملة ، وارتقاء هندسة الطيران بوجهٍ عام

(١) مهندس الطيران الاول لفيلق الطيران الاميركي ١٩١٤ — ١٩١٥ ورئيس لشركة لويننج للهندسة الجوية ومؤلف طائفة من الكتب الفنية في موضوع الطيران

زجاجة رماد ...

لرامي الراعي

فررت من الشمس الساطعة وأويت الى الضباب لأنني رأيت فيه خيوطاً من ذلك النسيج الصوفي المندي الذي حيكت بهِ نفسي وقلت له : أيها الضباب إنك تسدل ستارك على كل ما يهلل لهُ الناس ويكبرون ، كأنك لا تؤمن بها أو كأنك ترى فيها سفهاً وعيوباً لا يصح معها أن تعرض على الناس ، وقلت لهُ : زدني من حيرتك ووهمك واضطرابك أيها المفعم بالأسرار والأحلام ترضعها لبان الوحي والشعر ، الماثل أمامي كأنك تقول لي : أنا منك أو أنت مني ، أيها الهازىء بالنور على عظمته وسلطانه كانك الوهم الأكبر يهزأ بالحقيقة الكبرى ، يا ابن الشعراء والملهمين ويا رفيق التائهين أيها الحامل الملايين من الأشباح تطلقها على ليالي الانسانية وتملأ بها الأرواح ، أيها الضباب الجميل الذي كلما رأيته قال لي : انك لم تستقرَّ بعد على ما تروم ، انت على مفترق الطرق وفي نفسك من شكي ومن قلقي ، أيها الضباب الذاهل الساهي كأنك قلق النور وأرق الليل ، أيها الذي يبدو مع الشمس لبناً تتدفق به ثديّ الرؤى وينقلب بعد الغروب ظلمة وليلاً ، أيتها الخمرة البيضاء التي يسكبها الشرق في كؤوس الفضاء ، أيها الضاحك على يقين الجهلاء الباكي على نفسه ، أيها الرماد المنثور المرتمض بذكرى لهبه القديم ، أيها النقاب الذي تستتر به الطبيعة حياء جمالها ، أيها اللبن الكوثر الذي لا يسقى الاّ في وليمة الإلهام ، أيها العقد عقد الألم الذي ما بعده ألم ينفرط في دموعهِ الرقراقة البيض ، أيها القلب الذي يختلج حناناً في صدر الأثير ، أيها الضباب زدني منك أو زد نفسك مني فنحن في عين الحيرة والخيال والوهم جفنان يرتعشان ونحن في فم القضاء والقدر شفتان متمردتان ، ويا أيها الضباب ابق لي ضباباً فقد سئمت الشمس والقمر والغسق والسحر وما هناك من تهاويل الرسوم وأكاذيب الصور . . . تلك هي الكلمات التي خاطبت بها الضباب وراء هذا الجوّ الساطع في غير هـذا اليوم ولبثت أنتظر الجواب وكيف يجيبني

الضباب بالكلمة التي أريدها ، وهو لو كان يعرفها لما كان ضباباً . . انه ما يزال يتمخض بها ومن أجل ذلك هو حيث هو ، وحيث يرى من حقهِ أن يكون ...

لبثت ساعة انتظر الكلمة التائهة المفقودة ، ثم مرت يد قاسية ففرقت بيننا فغاب الضباب عني ! ... وفيما أنا مطرق على شاطىء البحر أفكر في تلك القوة الخفية التي لا همَّ لها إلاَّ قطع الصلات بين روحين يتهامسان وقلبين يتناجيان سمعت جلبة وضوضاء فقمت اليها فاذا آلاف من الخلق يتجادلون ويتخاصمون والبحر أمامهم والجبل وراءهم والسماء تنظر اليهم فقلت : ما لكم أيها الناس ، وما تلك التي تكأكأتم عليها وأطلقتم فيها الألسنة والعيون ؟ علامَ تختلفون وفيمَ تحتدمون ؟ فقالوا : أرأيت هذا البحر الذي تقف على شاطئه ، لقد قذف الينا أمس بزجاجة ملؤها رماد وأسرَّت الينا احدى موجاته انهُ رماد رجل عبقري عظيم ولد في الهند وقضى أيامهُ على ضفاف « الكانج » يعظ الناس ويهديهم الى الصراط المستقيم ويعطر الدنيا بحكمهِ وآياتهِ فلما مات أحرق جرياً على العادة الهندية فانقلبت عبقريته لساناً من لهيب ما لبث أن استحال الى رماد جمعتهُ الأمة في هذه الزجاجة وأودعتها البحر فما زالت الأمواج تتقاذفها حتى رمتها على هذا الشاطىء . ذلك ما أسرَّت بهِ الينا موجةالبحر ، وها هي ذي الزجاجة اجتمعنا حولها حائرين لا ندري على أي مذبح نضعها ومن هو الذي يحق له أن يتملكها ويضع يده عليها ... ولكن من أنت أيها الناظر الينا بعينك الحائرة ؟ فقلت لهم : هي عين الضباب الذي تركتهُ منذ ساعة ، وقد فصلتني عنهُ يد لا ترحم وما حيرتكم الآن إلاَّ نظرة من نظرات تلك العين التي تسع الدنيا وتملأُها . . انني أراكم في ضباب هذه الزجاجة التي لا تعرفون أين تضعونها . . .

انها زجاجة العبقرية ، زجاجةُ رمادها وقد همدت ... فما أنتم فاعلون وأين خطباؤكم يتكلمون فنرى ما يكون ؟ . . فشبت من الجمع امرأة تلعاء الجيد وقالت : هذه الزجاجة لي : أنا الفلسفة ، ونهضت أخرى ساجية الطرف وصاحت : بل هي لي أنا الجمال ، وصاحت امرأة ثالثة أخذت بعنق الستين : بل هي لي أنا الحكمة . ووثب الى الزجاجة فتىً وسم بميسم الحسن ، صبيح الوجه ، مطهم

الخلق تقدح عيناه شرراً وصاح بملء فمه ورئتيه وروحه ، هي لي هي لي : أنا الالهام والشعر .. ثم نهض من مكانه شيخ طوت الحياة من كتابه سبعين صفحة وراح يجرُّ نفسهُ جرًّا حتى توسط القوم وقال بلهجة رمادية : ان هذه الزجاجة لي : أنا الزهد .. وصاح أحد العميان : بل هي لي : أنا الألم .. وارتفع صوت من بعيد يقول : لا تمسوا هذا الرماد فهو رمادي : أنا النار .. وارتفع صوت آخر يقول : أنا البحر وهذه الزجاجة من جواهري . وصوت آخر : أنا الليل وفي هذا الرماد حلم عميق من أحلامي .. وسمعت صوتاً من العلاء يقول : اتركوا الزجاجة اتركوها فان فيها الف شمس تضيء بي : أنا المجرة . وهوت علينا نجمتان وقالتا : هذه الزجاجة لنا فلو لم يحدق الينا صاحبها طوال حياته لما حدقتم اليها الآن . . وأطلّ علينا التاريخ يجرُّ وراءه مواكب الأجيال وتوسط الساحة وتربع صائحاً : ابعدوا ابعدوا فها أناذا أتيت وهذه الزجاجة لي فأنا وحدي أستطيع ان أعيد رمادها لهيباً في الذكرى .. وجاءَ الحفارون والبناؤون والرسامون والمنشدون يتدافعون ويدعون قائلين : لو لم نكن في لسان هذا الرجل وعينه وقلمه لما أستطاع ان يكون عبقريًّا .... واشتدت الجلبة وعلا الصياح ونشبت بين الارض والسماء حول تلك الزجاجة معركة كادت تتحطم في عثيرها والأيدي تتجاذبها ، كل يدّعي انها له ويريد أن يضع رماد العبقري على مذبحه .. فلم أطق صبراً وصحت بأولئك الناس ، وَيحكم قفوا قفوا يا عشاق الزمن الاخير . كان هذا العبقري بالأمس حيًّا فأنكرتموه وحسدتموه وقاتلتموه وأذقتموه مرّ العذاب وكدتم ترجمونه من أجل عبقريته وهزأتم بحكمه وعظاته وآياته . . كان ظمآن فلم تسقوه وعرياناً فلم تكسوه وجريحاً فلم توآسوه فلما أطبق جفنيه تنافستم في حبه ورفعتموه الى قمة المجد ... كانت زجاجته رحيقاً فلم تشربوه فلما انقلبت رماداً تملتم بها على قبره . . لا — ليس هذا العبقري لكم وقدمات ، لانكم لم تكونوا له وهو حي فلا تمسوا هذا الرماد فلا حق لكم فيهِ ... ولا يزعمنَّ احد منكم ان هذا العظيم مدين له ، فالعبقرية مستقلة حرة لا تنطوي تحت اي جناح مهما يكن طائره ... انها لنفسها ولله وللخلود ...

الشرق العربي واوربا

— ٢ —

في القرن التاسع عشر [1]

لنقولا زيادة

عصفت بفرنسا في أواخر القرن الثامن عشر الثورة الفرنسية التي أقرّت حقوق الانسان ، ونشرت فكرة الحرية في أوروبا ، وهدمت الظلم والطغيان ، وخلقت نابليون وهذا ، لما عجز عن القضاء على جميع خصومه في اوروبا ، قاد في السنة ١٧٩٨ حملة الى مصر فاحتلها ، ثم سار ، بغية الاستيلاء على سوريا ، الى عكاء . لكن أسوار عكاء وحاميتها قضت على آمال نابليون في الشرق ، ولم يلبث بعد عودته الى مصر أن رحل الى فرنسا . وقد تراجع النفوذُ الفرنسي السياسي مع صاحبهِ . لكن احتلال نابليون لمصر أيقظها من نومٍ عميق كانت تنامه في وسط رمال الصحراء

ومنذ سنة ١٨٠٠ بدأ الشرق العربي يتنبه لحياتهِ ويتحسس مواضع الضعف في نفسهِ . وهو كلما ازداد الغرب إيغالاً فيهِ ازداد هو تنبهاً ويقظة . وكانت أول بوادر هذه اليقظة قيام محمد علي باشا في مصر ، واصلاحهُ حياتها الاقتصادية ، والسياسية ، واهتمامهُ بنشر المعارف والعلوم عن طريق البعثات العلمية الكثيرة الى البلدان الاوروبية وخصوصاً فرنسا

وطمح محمد علي باشا في أن ينشيء مملكة قوية تضم سوريا كلها بعد أن دانت لهُ الحجاز فوجه ابنهُ ابراهيم باشا الى الشام فاحتلها ، ووصل آسيا الصغرى ، وجيوش السلطان محمود الثاني تتراجع أمامهُ ، ولكن الدول الاوروبية لم تكن راضية عن ذلك فوجهت الى ابراهيم باشا انذاراً بوجوب الانسحاب الى مصر . فتراجع بعد حكم دام عشر سنوات في سوريا

ويجدر بنا وقد وصلنا الى أواسط القرن التاسع عشر ، أن نتعرّف بكلمة موجزة الى موقف الدول الاوروبية عامة من الشرق العربي ، قبل أن نتقدم خطوة أخرى

كانت النمسا تقف في وجه مطامع روسيا لتحول دون وصولها الى الاستانة . وروسيا كانت تطمع في ذلك ، منذ زمن بطرس الاكبر كما مرّ بنا ، وكانت تتخذ حماية الارثوذكس

---

(١) سقط من عنوان الجانب الاول من هذا المقال المنشور في مقتطف اغسطس ١٩٤٢ لفظ «عشر» وصحته « الشرق العربي واوربا الى مستهل القرن التاسع عشر »

من رعايا الدولة العثمانية حجة للتدخل الفعلي في الأمور الداخلية . وكانت بذلك تنافس فرنسا التي اتخذت حماية الكاثوليك حجة . وفرنسا كان يهمها أن تروج تجارتها في الشرق ولذلك كانت تتمنى للدولة العثمانية العمر الطويل . أما انكلترا ، فقد كانت طريقها الى الهند في مأمن من كل طارىء ، لذلك كانت علاقتها بالدولة العثمانيـة وثيقة . ورغبتها في أن يبقى الخليج الفارسي والمدن والموانىء السورية تحت اشراف العثمانيين كان سبباً أساسيـًا في الحد من توسع ابراهيم باشا لما توغل في جسم الدولة

لقد كان من أثر حكم ابراهيم باشا في سوريا أن فتحت هذه أبوابها للمدنية الغربية ، فان المبشرين الفرنسيين الذين كان لهم في سوريا مثلاً تاريخ طويل يرجع الى القرن السابع عشر ، قويت أعمالهم في القرن التاسع عشر ، وذلك لأن الاميركيين جاءوا الى البلاد في أوائل ذلك القرن أيضاً . وقد زاد نشـاط الفريقين بعد حكم ابراهيم باشا ، ومع ان الاميركيين قصروا همهم على بيروت فان الفرنسيين توغلوا في لبنان ودمشق وحلب . ولا شك في أن عملهم بادىء ذي بدء كان تبشيريـًا . ووجه الفريقان الهمة الى فتح المدارس ويكفي أن تكون الجامعة الاميركية والجامعة اليسوعية في بيروت من آثار هؤلاء القوم ، دع عنك المدارس العديدة التي كانت لها حسناتها وسيئاتها أيضاً . ولعل القصة التالية مما يدلنا على درجة المنافسة بين الفريقين

ذلك ان الدكتور فانديك أحد كبار مؤسسي الجامعة الأميركية ببيروت كان في طريقه الى قرية لبنانية فلقيه صديق وسأله عن غايته من تلك الزيارة فقال الدكتور (انني ذاهب لأفتح مدرستين) . فقال الرجل ضاحكاً : (ألا تكفي مدرسة واحدة يا دكتور ؟) . فأجاب فانديك : (متى فتحت أنا مدرسة فان الجمعية الكاثوليكية ستفتح مدرسة أخرى في نفس القرية) وليس من شك في أن حوادث الستين في لبنان ، وما أدت اليه من تدخل الدول الأجنبية في شؤونه حملت الى لبنان أثراً غربيـًا لم تكن الدولة العثمانية ولا سكان البلاد العربية يريدونه له

على انه يجب ان نذكر ، ونحن نتحدث عن خيرات العلم ، المنافسة السياسية . فقد رأينا فيما تقدم من هذا البحث ، ان انكلترا وفرنسا كانتا تعنيان بالطريق الشرقي الى الهند سواء أطريق الفرات كان ذلك أم طريق السويس . وانه مما يبعث على الأسف ان لا يتسع لنا المجال لدرس بعض هذه التقارير التي قدمها الكتّـاب والتجار والرجال العسكريون من الفرنسيين والانكليز عن هذين الطريقين والمفاضلة بينهما . فان مجهودهم خدم العلم خدمة جلى . ومع ان همة الانكليز كانت قد انصرفت الى الطريق العراقي ، فانهم لما رأوا عناية الفرنسيين بالطريق المصري تزداد وأدركوا انها أقصر قليلاً ، شملوه هم ايضاً بعطفهم . وفي هذه الرسالة التي كتبها توماس وغورن سنة ١٨٣٧ دليل على ذلك اذ قال :

«قد يتراءى للبعض ان آرائي بخصوص الطريق المصري الى الهند بعيدة عن محجة الصواب

ولكن الواقع انني مطمئن اليها بعد تجربتها ثماني سنوات متوالية . ولن يقر لي قرار حتى أرى مصر طريق الهند »

ولا يغربنَّ عن بالنا ان اوربا في ذلك الوقت كان عليها ان تفتش عن أسواق جديدة لمصنوعاتها التي زادت بسبب الانقلاب الصناعي الذي غيَّر أساليبها في الأعمال والاتجار . ومن هنا قويت فكرة حفر قناة تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر لتسهيل النقل البحري . هذه الفكرة ناصرها الفرنسيون وعارضها الانكليز بادئ ذي بدء ، ولما بدئ العمل بها فعلاً فكر الانكليز بمد خط حديدي من الأسكندرونة الى الخليج الفارسي على ان يحاذي نهر الفرات بقدر ما يمكن . ومن ثمة كانت عناية الانكليز بتقصي أخبار التجارة ومسح الصحراء السورية . وهاكم وصفاً لمكانة حلب التجارية كتبه سائح انكليزي في سنة ١٨٤٣ (اي بعد انسحاب ابرهيم باشا بقليل) ، يرينا منزلة البلاد السورية وغيرها في التجارة

« في حلب أربعة بيوت تجارية بريطانيـة ، وتجارة حلب في الدرجة الاولى مع بريطانيا وقيمتها نحو اربعة أضعاف قيمة التجارة الفرنسية . والاقمشة هي بين الواردات الرئيسية، ولا سيما الأقمشة الحمر . وتصدر حلب الى بريطانيا المصنوعات والبضائع الهندية التي تأتيها عن طريق بغداد . وقد ابتلعت حلب تجارة طرابزون وازمير . والبيوت التجارية البريطانية في حلب هي سبب اثراء كثيرين من أشراف انكلترا . لكن حلب ليس لديها ما تصدره من مصنوعات محلية ، بدل ما يستهلكهُ السكان في سوريا الشمالية. لذلك فانهم يدفعون أثمان البضائع نقداً . وهذا سبب قلة النقود بين أيديهم . وقد عنيت الحكومة التركية بانشاء بريد منظم يصل الاستانة بسوريا ، ومركزه في شمال سوريا حلب . وقد ساعد هذا الاتصال التجاري والمخابرات اللازمة لذلك »

وبينما كانت انكلترا تهتم بالطريق العراقي وتفكر بمد سكة حديدية من الاسكندرونة الى الفرات ثم الى البصرة والخليج الفارسي ، كان ده لسبس الفرنسي يحاول فتح قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الاحمر . وقصة هذه القناة التي نعرفها الآن باسم قناة السويس من أروع قصص القرون الحديثة . ذلك ان الفرنسي ، الشاب ، فردينانددة لسبس ، كان يعرف مصر معرفة صحيحة ، وكان حلم شبابهِ أن يرى ماء البحرين متصلاً يخترق الصحراء ، ويحمل السفن من الواحد الى الآخر . وقد تقلب في مناصب سياسية عديدة لكن حلم الشباب لم يفارقهُ ، فلما اعتزل العمل في سنة ١٨٤٩ ، عاد الى التفكير بمشروعهِ الكبير. وكان يعرف ان عباس باشا والي مصر يعارض المشروع وان الحكومة البريطانية تقاومه في لندن وفي استانبول بما كان لها من نفوذ قوي لدى الباب العالي . لكن ده لسبس كان مؤمناً بانهُ سينجح وغرضهُ منهُ كان تجاريًّا محضاً . فقد سعى للحصول على رأس مال للشركة ، في

جميع العواصم الاوربية وفي الشرق بدون ان يفرق بين فرنسي وغيره. ولما توفي عباس باشا وخلفه محمد سعيد باشا ، زالت احدى الصعوبات الكبيرة . ذلك لان محمد سعيد باشا كان صديق ده لسبس منذ الصبا ، وكان مؤمناً بمقدرة صديقه موافقاً على فكرته

فلما تولى محمد سعيد باشا حكم مصر أسرع ده لسبس الى مصر لتهنئته ، فاستقبله الوالي استقبالاً فخماً ، وقد وصف ده لسبس نفسه حديثهُ مع محمد سعيد باشا عن قناة السويس، بعد وصوله بمدة قصيرة ، قال: «ألحَّ الوالي عليَّ وقد كنا في الاسكندرية ان أرافقه في زيارتهِ المقبلة الى القاهرة ، فانقدت للامر . وفي الطريق كنا نضرب خيمنا فوق رمال الصحراء ونرقب كواكب السماء . وفي صباح الخامس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٥٤ كنت أرقب أشعة الشمس الاولى تتغلب على ما تبقى من جيوش الظلام المنهزمة ، وتوشي الفجر الجميل بخيوط من النور ، وكان قلبي يخفق بين أضالعي لأنني كنت أفكر بحلم حياتي ، واذا الوالي نفسهُ يحدثني فيردني من الحلم الى الحقيقة . . . لكن حلمي بقي رفيقي النهار بطوله فلما قاربت الشمس المغيب ، شعرت كأن الساعة قد حانت ، وكنت الى جانب الوالي ، وكنا وحيدين . فتحدثت . . . لقد تجنبت التفاصيل ، وأشرت الى الأهم من المسائل وكنت مستعداً لكل شاردة وواردة ، ثابت الجنان ، رابط الجأش . وقد أصغى الوالي حتى فرغت ، وسأل معترضاً ، فأجبت مفسراً . وبعد دقائق قال الوالي : انني مقتنع بصحة دعواك وقابل آراءك ، سأعنى بالمسألة وتفاصيلها بنفسي، ثق بي ... ثم استدعى الوالي ضباطه العسكريين وطلب إليَّ أن أشرح لهم المشروع بكامله » وكان هذا أكثر مما طمع بهِ ده لسبس . ولم يلبث هذا الحديث أن أصبح حقيقة واقعة وصدرت في نفس السنة (١٨٥٤) براءة من الوالي بمنح ده لسبس امتيازاً لحفر قناة السويس وبدأ الرجل بانشاء شركة لذلك ، ثم كان عليهِ أن يتقدم لجمع رؤوس الاموال اللازمة

كان موقف بريطانيا من المشروع العقبة الكأداء في طريق ده لسبس . فقد قاومتهُ في الدوائر المالية وفي وزارة الخارجية في لندن وفي عاصمة الدولة العثمانية . ذلك انها سعت لدى الباب العالي ليمتنع عن الموافقة على الامتياز الذي منحهُ والي مصر ، محمد سعيد باشا ، وبذلك يصبح لاغياً . ومن يقرأ الأحاديث التي دارت بين ده لسبس واللورد بالمرستون رئيس الوزارة البريطانية ، يرى صلابة الحكومة البريطانية وتشددها من جهة ويدرك ان السبب الحقيقي يعود الى خوف بريطانيا من وضع مشروع هذه مكانتهُ بيد فرنسا . إذ ان هذا يعزز نفوذها في الشرق ، ويعرقل أعمال بريطانيا ويحد من نشاطها السياسي والاقتصادي . فقد قال اللورد بالمرستون لده لسبس ما يأتي: «ايها السيد ده لسبس، انني لن أتردد في اطلاعك على ما أخشاه . . . . انني أخشى أن تضطرب العلاقات التجارية والبحرية

البريطانية بسبب فتح طريق جديد . لأن فتحه لسفن جميع الشعوب على السواء يحرمنا من كثير من الفوائد التي نتمتع بها .. وأعترف لك ، بالاضافة الى ذلك ، انني لست مطمئنًّا من ناحية مستقبل فرنسا ... لاننا لا نثق باخلاص الامبراطور وصفاء سريرته» . سمع ده لسبس رد رئيس الوزارة في لندن بعد ان كان قد اطلع على مساعي سفيره في الاستانة (اللورد ستراتفورد دي ردكليف) فأدرك ان الحكومة البريطانية تبذل جهدها في عرقلة المشروع من أساسه ، فتركها الى السوق المالي . وغاية ما أملهُ في هذا السبيل أن يقنع رجال المال بأن مشروع قناة السويس مشروع عملي صالح للتنفيذ ، وكان سلاحه في ذلك تقرير فني قدمه مهندسان فرنسيان كانا في خدمة الحكومة المصرية يثبت ذلك . ولكن هذا التقرير كان بحاجة الى دعامة من هيئة أوسع نطاقاً . فعينت في سنة ١٨٥٥ (لجنة دولية) من كبار المهندسين الاوربيين (بما في ذلك الانكليز) وفي السنة التالية تقدمت اللجنة الى جناب والي مصر بتقريرها الذي جاء فيه ما خلاصته . « ان حفر قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر يجب ان يتخذ أقصر طريق من السويس الى بلزيوم (حيث تقوم بور سعيد الآن) والقيامُ بهذا الأمر ميسور ونجاحه مضمون »

وكان من أثر ذلك ان أصدر الوالي نظاماً جديداً مفصلاً لمشروع قناة السويس . وأنشئت الشركة ، وكان عدد الأسهم ٤٠٠,٠٠٠ ، ثمن كل سهم خمسمئة فرنك ، على ان يكون مركزها الاسكندرية وان تكون باريس مركزاً اداريًّا وقضائيًّا لها

ونشر ده لسبس تقرير اللجنة في الأسواق المالية وخصوصاً في لندن . وبيع من الأسهم عدد كبير في فرنسا وجاراتها ، وبدئ بالعمل في سنة ١٨٥٩

كاد المال ان ينضب ، اذ ان النفقات كبيرة جدًّا . ولكن نابليون الثالث تقدم قبل فوات الأوان وعاضد المشروع رسميًّا ، فاستؤنف العمل بنشاط وحماسة كبيرين . فوصلت مياه البحر المتوسط بحيرة التمساح في ١٨ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٦٢ . ولقي المشروع صدمة مؤقتة سنة ١٨٦٣ لما توفي محمد سعيد باشا . لكن خلفه الخديوي اسماعيل ، انصرف الى تحقيق المشروع

على ان الحكومة العثمانية لم تكن قد وافقت على الامتياز بعد . وكانت الحكومة البريطانية لا تزال تحاول احباطه . ومن ثمَّ قامت صعوبات جديدة ، حلَّها تدخل الأمبراطور نابليون الثالث الذي قبل ان يحكم في الخلاف فأصدر قراراً قبله الجميع ، ومنحت الحكومة العثمانية موافقتها سنة ١٨٦٦ وبذلك فقدت بريطانيا آخر سلاح كان بيدها ضد مشروع قناة السويس . فسار العمل تحيطه عناية اسمعيل باشا ويرعاه نابليون الثالث ، فتم اتصال مياه البحرين في البحيرة المرة في صيف ١٨٦٩ . واحتفل بفتح قناة السويس رسميًّا في تلك السنة

وليس يستطيع ان يتصور قيمة قناة السويس التجارية تماماً ، الاّ من أتاحت له الفرصة ان يسير في القطار بين بور سعيد والاسماعيلية مثلاً ، محاذياً هذه الطريق المائية التي تفصل الصحراء وتصل البحرين ، ويرى السفن تجري في الماء الهادىء سيراً وئيداً ، أو من سنحت له فرصة الدخول او الخروج بحراً من ميناء بور سعيد ، ليرى البواخر وحركتها في هذا الميناء العالمي . ان وقفة على آخر السد الذي يعين نهاية القناة ، تحت تمثال ده لسبس ، يمتع فيها المرء طرفه بامواج البحر المتوسط تداعبها شمس المغيب او شمس الشروق ، كافية لان تقنع المرء بمكانة المشروع الذي بدأه وحققه رجل واحد ، كل رأسماله ايمان قوي وجنان ثابت

وسرعان ما اعترفت الحكومة الانكليزية بفضل ده لسبس . فقد كتب اليهِ وزير خارجيتها بعيد الاحتفال كتاباً يقول فيه « ان الاحتفال العظيم بافتتاح قناة السويس قد أثلج صدور الكثيرين هنا واني واثق بأني أنوب عن جميع مواطني في تهنئتك انت والحكومة الفرنسية والامة من ورائها على هذا النجاح الذي يساوي ما بذلت من الجهد في سبيل التغلب على الصعوبات العديدة التي اعترضتك . ان حكومة جلالة الملكة « فكتوريا » تهنئك على هذا الطريق الجديد الذي شققتهُ لربط الشرق بالغرب ، وخصوصاً لما لهُ من المنزلة التجارية والسياسية في علاقاتنا مع البلدان المختلفة »

ان افتتاح طريق السويس الجديدة أثار في نفس الحكومة البريطانية الرغبة القديمة في انشاء خط حديدي بين الاسكندرونة والبصرة . لكن الامور جرت على غير ما كان يأمل الكثيرون فان الخديو اسماعيل اشتدت حاجته الى المال ، فتقدم بعرض حصة الحكومة المصرية في اسهم قناة السويس . وتقدمت بريطانيا الى الشراء وكان ذلك في سنة ١٨٧٥ وبذلك اصبحت الحكومة البريطانية شريكاً اساسيا في قناة السويس ، اذ صار لها ما يُربي على ٠٠٠ ١٧٦ سهم من اصل ٤٠٠٠٠٠ سهم (حصة فرنسا تزيد عن نصف مجموع الاسهم قليلاً)

ولما ضمنت الحكومة البريطانية هذه الحصة الكبيرة في طريق الهند الجديدة عدلت عن الاهتمام بمد سكة حديدية من الاسكندرونة الى بغداد وخليج فارس

وفي السنة ١٨٨٢ دخلت الجيوش البريطانية الاسكندرية ، ثم زحفت على القاهرة واحتلتها . وقبيل انتهاء القرن استردّت حملة مصرية بريطانية السودان بعد اخلائهِ على أثر قيام المهدي . وكان هذا الاحتلال البريطاني ، نتيجة لاضطراب شؤون مصر المالية من جهة ونتيجة لقيام الثورة العرابية التي اتخذت حجة من جهة أخرى . في هذه السنة بدأت العلاقات العسكرية بين بريطانيا والشرق العربي

على ان القرن التاسع عشر شهد أمراً آخر كان كبير الأثر في حياتهِ السياسية ذلك هو اهتمام المانيا بشؤونهِ . وقد كان القيصر غليوم الثاني امبراطور المانيا ، صاحب هذه الفكرة

فقد كان رأيهُ الذي شاركه فيها مستشاروه الاقتصاديون ، أن يتقرّب من الدولة العثمانية ويجعل منها سوقاً لمصنوعات بلاده ومستغلاً لرؤوس الأموال الألمانية ، فاذا تم لهُ ذلك استطاع الاستيلاء على تركيا واملاكها دفعةً واحدة ، بدل اقتطاع أجزاء صغيرة منها ، كما فعل غيره . لذلك لم تطلب المانيا من السلطان امتيازات سياسية قد تمس شعوره ولكنها تظاهرت بوضع جميع مصادر الثروة التي لديها تحت تصرفه وتصرف رجال حكومته . ومهد لذلك الامبراطور بزيارته الاولى لعبد الحميد في استانبول سنة ١٨٨٩ ثم أتبعها بزيارة ثانية بعد سنوات ، وفي هذه المرة زار سوريا وفلسطين ، وأهل القدس يعرفون الثغرة الخاصة في السور ، قرب باب الخليل ، التي فتحت خصيصاً ليمر منها الامبراطور . وفي هذه الزيارة وضع غليوم اكليلاً على قبر صلاح الدين في دمشق ، وألقى خطاباً قال فيه (ان الثلاثمائة مليون مسلم المنتشرين في أنحاء الشرق ، والذين يدينون لجلالة السلطان عبد الحميد بالخلافة يمكنهم أن يطمئنوا الى أن امبراطور المانيا صديقهم) . ونشطت الدعاية الالمانية في الشرق ، وأعطى الامبراطور الألمان المقيمين بفلسطين الهبات الطائلة ليتمكنوا من شراء الأرضين وتثبيت أقدامهم في البلاد . ومن طريف ما وصل الينا من الدعاية الالمانية للتأثير في عقول سكان الاناضول ما رواه مبشر في سنة ١٩٠٥ للاستاذ ديفز : قال « سمعت عالماً من علماء الدين يقول لجماعة من السكان في قرية من قرى الأناضول ، ان الفروق بين المذهب اللوثري البروتستانتي وبين الاسلام قليلة وغير أساسية ، وان غليوم الثاني يدين تقريباً بنفس الدين الذي يعتنقهُ جلالة البلد شاه في استانبول »

وليس من شك في ان الدعاية الالمانية ظهرت قوتها في فوز الحكومة الالمانية سنة ١٩٠٢ بامتياز مد سكة حديد بغداد ، لتصل استانبول بالخليج الفارسي . وعندها بدأ دور جديد في النزاع السياسي الاقتصادي بين الدول الأوروبية في الشرق العربي . فان مدّ سكة حديد بغداد على الطريقة الألمانية يختلف عن جميع المشروعات التي سبقتهُ . فقد كانت المشروعات السابقة تقصد الى انعاش التجارة وتقصير الطرق ، ولذلك اهتمت بوصل الموانىء السورية بالخليج الفارسي ، وكانت تؤيدها شركات خصوصية . أما سكة حديد بغداد فقد كانت مشروعاً حكوميًّا من جهة ، ومن جهة أخرى كانت لها غاية عسكرية ، لذلك اعتني بطريق استانبول بغداد اعتناءً خاصًّا ، كما ان الخطط التي وضعها المهندسون تجنبوا فيها تقريب الخط من شواطىء البحر المتوسط ، ولو كان ذلك مضادًّا للمصلحة التجارية . وكانت سنة ١٩١٤ فنشبت الحرب الكبرى . وقصة الشرق العربي بعد الحرب الكبرى معروفة لدى القراء الكرام

القدس — الكلية العربية

سيبريا

وموارده‍ا المعدنية والصناعية

اذا كانت هذه الحرب في ناحية أساسية من نواحيها ، سباقاً في الانتاج الحربي بين الفريقين المتحاربين — وهي حتماً كذلك — فالاعتمادُ على موارد الخامات الطبيعية التي لا غنى عنها لهذا الانتاج ، في طليعة العوامل التي ترجّح كفةً على كفة . واذا كان علماء طبقات الأرض لا يستطيعون أن يصدروا حكماً على القدرة الحربية والقوة المعنوية في أمة محاربةٍ ما ، فانهم يستطيعون أن يستخرجوا من الأدلة المتجمعة عندهم حقائق عن قدرة دولة ما على انتاج خامات الحرب ومصنوعاتها الأساسية

والدولتان اللتان تفوقان سائر الدول في غناهما المعدني ، هما الولايات المتحدة الاميركية ، واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية (روسيا)

ولابدَّ من الاعتراف بأن تقدير السوفيات ، لثروتهم المعدنية وقدرتهم الصناعية يميل الى التفاؤل ، وليس في وسع أحدٍ ان يحققهُ الآن . ولكن خطوط الصورة العامة واضحة . وعلى مَن لم يتح لهُ تتبع البحث الجولوجي في روسيا بين الحربين ، أن يتذكر ان مشروعات السنوات الخمس استهدفت في المقام الأول انشاءَ الصناعات الكبيرة في روسيا ، وما تقتضيهِ من استنباط ثروة روسيا المعدنية من أراضيها الشاسعة

ويقول الاستاذ جورج كرسي Cressey أستاذ علم طبقات الارض (الجولوجيا) في جامعة سراكوز الاميركية (راجع مجلة سينس « العلم » ١٣ مارس ١٩٤٢) انهُ اذا فرضنا جدلاً من الوجهة الحربية ان المانيا تمكنت من الاستيلاء على كل روسيا الاوربية ، واليابان على ڤلاديڤستوك ، ففي منطقة جبال الاورال وسيبيريا الوسطى، قدرٌ وافر من الثروة المعدنية والنشآت الصناعية يمكّن الروس من الاحتفاظ بإنتاج حربيٍّ ذي شأن ما دامت الحرب العالمية الثانية مشتعلة . وليس من المحتمل الآن أن يتمكن الألمان من الاستيلاء على روسيا الاوربية كلها، ومن المستبعَد أن تهاجم اليابان شرقيّ سيبيريا، وقد بدأ الفصل المواتي الأعمال الحربية في الزوال، بينما هي مشغولة في المنطقة الغربية الجنوبية من المحيط الهادي والصين، وقد تشغَل في

بورما . ولكن اذا وقع ما يستبعد وقوعهُ من الناحيتين ، ففي وسع الاتحاد السوفياتي المضيّ في القتال مستنداً الى مواردهِ الطبيعية والصناعية . وهذا القول لا ينطبق على الموارد التي لم يشرعْ في استغلالها بعد ، بل على المناجم والمصانع التي تدور فيها عجلات الانتاج الآن .

ليس هناك ما تخشاهُ روسيا من ناحية الفحم والحديد والنحاس والرصاص والزنك والذهب . وقد تعاني بعض المشكلات في ما يتعلق بالنفط ومشتقاتهِ والالومنيوم والنغنيس ، ولكنَّ سيبيريا ليست مجردة من مواردها وان كان القدار محدوداً . ولا يزال جانب كبير من روسيا الاوربية والقوقاس في أيدي الروس ومواردها مباحة لهم وفي طليعتها النفط والنغنيس والرصاص والزنك . ولكن هذا الفصل مقتصر على موارد سيبيريا فلنلق عليها نظرة فاحصة

يقدّر علماء السوفيات موارد الفحم في الاتحاد السوفياتي بنحو ١٦٦٥٤٣٦١٠٠٠٠٠٠٠ طن متري . وهي تلي موارد الولايات المتحدة ، وتسعون في المائة من هذه الموارد في أرض سيبيريا . أما الانتاج السنوي قبل نشوب الحرب بين المانيا وروسيا ، فثلاثة أخماسهِ في منطقة الدونتز بأوكرانيا . ولكنَّ الروس توسعوا في العهد الأخير توسعاً يذكر في استخراج الفحم من مناجم في آسيا ولا سيما من مناجم في حوض « الكوزنتز » في سيبيريا الوسطى ، حيث يبلغ المستخرج في السنة عشرين مليوناً من الأطنان . ويبلغ الفحم «البيتوميني» في منطقة الكوزنتز المطمور في أطباق الارض ٤٦٠ الف مليون طن . ويبلغ ما يستخرج من الفحم في مناجم منطقة الاورال ثمانية ملايين طن في السنة ، ومعظمهُ من منطقة كيزل وشليابنسك ولكنهُ فحم قلما يصلح « للكوك » . وفي مكان آخر في سيبيريا ، الى الشمال من بحيرة بلقاش ، منطقة فحم جديدة يستخرج منها أربعة ملايين طن في السنة . وقرب بحيرة بيقال مناجم يستخرج منها ثلاثة ملايين طن في السنة . وقرب فلاديفستوك مناجم أخرى يستخرج منها ثلاثة ملايين طن في السنة . وهناك منطقة جديدة قرب نهر بوريا بدأ استغلالها من عهد قريب

فمجموع ما يستخرج من الفحم من مناجم سيبيريا أربعون مليون طن وهو أقل قليلاً من ثلث ما استخرج من الفحم في الاتحاد السوفياتي كلهِ سنة ١٩٤٠ وقد بلغ حينئذٍ ١٤٦ ٨٠٠ ٠٠٠ طن . ولما كانت مناجم كوزنتز تبعد نحو الفي ميل عن الحدود الالمانية ومثلها عن الحدود اليابانية فالاعتماد عليها من الوجهة الحربية مستطاع

اما النفط فلم يعد استنباطهُ في روسيا مقتصراً على باكو وسفوح القوقاس الشمالية (ميكوب وجروجني) مع ان منطقة باكو لا تزال أغزر مناطق النفط في روسيا . ففي الشمال الشرقي من بحر الخزر (قزوين) منطقة « امبا » وهي غنية . وفي منطقة الاورال الى الغرب من الفولجا منطقة نفط جديدة ، بلغت غزارة الآبار التي حفرت فيها مبلغاً حمل الروس على وصفها « بباكو الثانية » . اما سيبيريا بالذات فالنفط قليل فيها ولكن في النصف الشمالي من

جزيرة سخالين ، منابع لا بأس بها . وقد مدَّ الروس أنابيب لنقل النفط من منطقة امبا (الشمال الشرقي من بحر الخزر) الى أمسك في سيبيريا المتوسطة . وما دامت باكو في أيدي الروس ، فلن يعوزهم النفط ، ولو طالت طرق نقله

اما ركاز الحديد فمنتشر انتشاراً واسعاً في منطقة الاورال وهو أساس الصناعات العظيمة التي انشئت في ماغنيتو غورسك وسفردلوفسك ونشني تاجيل . فمصانع هذه المدن تخرج عشرة ملايين طن من الحديد الصب في السنة والافران المفتوحة openhearth تخرج مثل هذا المقدار من الصلب . ويقال ان مصانع ماغنيتوغورسك لا تفوقها مصانع أخرى في العالم الا مصانع « جاري » في الولايات المتحدة الاميركية . ونسبة الفلز في الركاز تتفاوت من ٥٥ في المائة الى ٦٦ في المائة . والواقع ان مشكلة انتاج الحديد والصلب في سيبيريا ليس مردُّها الى قلة الركاز او الفحم بل إلى طول المسافة بين مناجمهما. ففي مصانع الاورال لا بدَّ من نقل الفحم اليها من حوض الكوزنتز في سيبيريا الوسطى مسافة ١٤١٨ ميلاً . ولكن الروس حلّوا هذه المشكلة حلاً بديعاً ذلك بأنهم انشأوا مصانع للحديد والصلب في المنطقتين فالقطرات التي تنقل الفحم الى الاورال لاستعماله في انتاج الحديد والصلب تعود مثقلة بالحديد لتحويله الى صُلب في منطقة الكوزنتز . فكأنهم قصَّروا مسافة النقل خمسين في المائة . ويقول الاستاذ كرسي انهُ قضى خمسة ايام في حوض الكوزنتز ويشهد بأن المصانع هناك بلغت أعلى مستوى بلغتهُ المصانع الاميركية . وفي منطقة بحيرة بيكال ومدينة كومسومولسك على نهر امور في الشرق الأقصى مصانع تنتج مقداراً لا بأس بهِ من الصلب . وان نظرة مجملة الى انتاج الصلب في الاتحاد السوفياتي، تشير الى ان مركز هذه الصناعة واقع في اوكرانيا الى الشمال من البحر الاسود وهي تستند الى ركاز كريفوروج وفحم الدونتز ، ولكنَّ التقدم فيها في الاورال وكوزنتز مكن هاتين المنطقتين من انتاج ثلث الانتاج العام

اما فلزّ المنغنيس فكان يستخرج على الاكثر من منطقتين في المقام الأول .المورد الأكبر في اوكرانيا ، ولكن أجود أنواع الركاز في القوقاس . ولا يزال الثاني في أيدي الروس على الرجح . أما في سيبيريا فانتاج هذا الفلز محدود وركازه ليس من الطبقة الأولى ومعظمه في الأورال وفي جمهورية كاجاخ قرب حوض الكوزنتز . ومع ان هذين الموردين لا يكفيان الاّ انهما يصلحان في الطوارىء

وقد عني الروس في مشروعات السنوات الخمس بتوسيع نطاق المستخرج من النحاس . ففي منطقة الأورال موارد محدودة ، ولكن أكبر مناجمه وأغناها واقعة الى الشمال والغرب من بحيرة بلقاش . وقد انشىء مصنع لاستخراج الفلز من ركازه في مسبكٍ في «كونراد» يتسع لاستخراج مائة الف طن في السنة . وفي « دجزكازجان » يبنى مصنع أ بر منه

وتقدر موارد الرصاص والزنك في روسيا بنحو ١١ في المائة و ١٩ في المائة من الموارد العالمية . وأهم مواردها في شمالي القوقاس، ومناجم «رِدَرْ» في جبال ألتاي ورواسب أخرى متفرقة في سيبيريا . وقد بلغ ما يستخرج من الرصاص ٥٥ الف طن في سنة ١٩٣٦ ومن الزنك ٦٣ الف طن في السنة نفسها

أما الألومنيوم فكان استخراجه قليلاً في أيام روسيا القيصرية لأن مناجمه كانت قليلة والمستخرج منها كان غير جيد . ولكن الادارة السوفياتية انشأت مصانع لهُ أخرجت ستين الف طن من الألومنيوم في سنة ١٩٣٩ فارتفعت من هذه الناحية الى المقام الرابع بين الأمم . وفي منطقة الأورال موقعان يستخرج منهما مقدار كبير من البوكسيت وهو ركاز الألومنيوم . ولكن مما يؤسف له ان المصانع الرئيسية التي تستخرج الفلز من الركاز قائمة في روسيا الاوربية المحتلة الآن

ويستخرج من أرض سيبيريا مقدار وافر من الذهب يضع الاتحاد السوفياتي ، في المقام التالي لمقام اتحاد افريقية الجنوبية . وفيها كذلك مناجم للنيكل في الاورال وقرب سواحلها الشمالية . وعلاوة على ما تقدم نجد في الأورال مناجم للبلاتين والكروميوم وحجر الفتيلة وغيرها . وقرب بحيرة بيكال والى الشرق منها مناجم تستخرج منها مقادير يسيرة من القصدير والتنغستن

واذا نظرنا الى سيبيريا من ناحية ما فيها من مناطق غنية بالموارد الطبيعية وصالحة للصناعة ، وجدنا منطقة جبال الأورال في الطبقة الأولى . ويندر بين سلاسل الجبال في العالم سلسلة تضارعها في تعدد أنواع المعادن التي تستخرج منها ووفرة المقادير التي تستخرج من هذه المعادن . وقد استخرج الحديد من هذه المنطقة في أيام بطرس الكبير، ولكن الادارة السوفياتية انشأت فيها ٣٩ موقعاً تنتج الآن حديداً وصلباً . ويقدر ركاز الحديد المطمور في أطباق هذه المنطقة بنحو ١ر٣٩٠ر٦٠٧ر٠٠٠ طن. وقد انشئت مصانع كبيرة لصنع القاطرات ومركبات سكك الحديد والسيارات والجرارات والآلات الكبيرة والمواد الكيميائية. ويستخرج فحم من مناجم الأورال ولكنهُ غير صالح لصناعة التعدين . ويستخرج النفط في مناطق واقعة على سفوح الجبال الغربية والى الجنوب منها . أما الفلزات غير الحديدية فتشمل النحاس والذهب والبلاتين والفضة والنيكل والألومنيوم والمغنيس والرصاص والزنك والكروميوم وحجر الفتيلة وغيرها . وهذه الموارد تضع منطقة الأورال في المقام الذي يلي منطقة اوكرانيا من حيث موارده المعدنية . وفيها الآن ثماني مدن ، تعد كل منها أكثر من ١٠٠ الف نسمة . ومنها ماغنيتوغورسك وكان مكانها قبل سنوات، قرية تقطنها قبائل رحل تقريباً . وعند سفح الجبل ، تمتد سهول المراعي الروسية المشهورة . لكن الجبل كتلة ضخمة من ركاز

الحديد . ولذلك دعيت المدينة التي انشئت هناك «ماغنيتوغورسك» أي « الجبل المغنطيمي » تقرر مهندسو السوفيات ، أن يصلوا بين مورد الحديد هذا وبين مناجم الفحم الغنية في كوزباس وهي على ٢٠٠ ميل من هذا الموقع . فاذا تم لهم ذلك كان هذا الاتحاد أعظم اتحاد لخمي حديدي في العالم يفوق ما يقابله في انكلترا ، أو اللورين والسار ، أو غيرها . وأهم من ذلك ان هذه المواقع تكون بعيدة عن منال الأعداء

فبدأ البناء سنة ١٩٢٩ اذ وصل الوف من العمال بعضهم جاء متطوعاً متحمساً ، وبعضهم جاء وقد أغرتهُ الاجور العالية ، وبعضهم جاء يحرسهُ الجند ، لأنهُ من المسجونين السياسيين وغيرهم . فمدت سكة حديد وصنع سد على نهر الاورال لاستعمال الماء المنحدر في توليد الطاقة الكهربية المحركة وابتيعت الآلات الصناعية في أوربا وأميركا بأثمان فاحشة . وبدأت الأفران الكبيرة ترتفع وأحدها يصنع ٦٠٠٠ طن من الصلب كل يوم . وفي هذه المنطقة مدن كثيرة اخرى . ومنها ما اختص بصناعة معينة او غيرها . فشليابنسك مختصة بصنع الجرارات ، وستانكستروي مختصة بصنع الآلات الصناعية وكلتا المدينتين مختصة في الواقع بصنع الدبابات. وسفردلوفسك تصنع الآلات الصناعية والاجهزة الكهربية وفيها مصنع ذخيرة ومصنع مركبات سكك الحديد . وفي سوليكمسك رواسب غنية يستخرج منها المغنزيوم للطائرات والقنابل المحرقة . وشوزوفايا تصنع الاصناف الخاصة من الصلب . وهكذا

وتليها منطقة ألتاي سيان في جنوبي سيبيريا المتوسطة . وهي منطقة لم تدرك قيمتها من ناحية غناها المعدني ، خارج روسيا . هناك ثلث فحم الاتحاد السوفياتي وكذلك ثلث رصاصه وزنكه ومناجم لا بأس بها للحديد والفضة والذهب والنحاس والقصدير والمنغنيس. وحقول الفحم في حوض الكوزنتز — وهو جزء من هذه المنطقة — يجعل هذه المنطقة في المقام الثاني بين المناطق الصناعية في آسيا السوفياتية . وليس ثمة ريب في أن ارتقاء صناعة الصلب في حوض الكوزنتز مفخرة من مفاخر مشروع السنوات الخمس الاول

ويجيء في المقام الثالث منطقة « كاجاخ » الى الشمال من بحيرة بلقاش حيث أنشئت المنشآت لاستغلال موارد الفحم والنحاس في السنوات التي فصلت الحربين العالميتين

والمنطقة الرابعة هي المنطقة او المناطق الواقعة شرقيَّ بحيرة بيقال وغربيَّها والخامسة على نهر امور في سيبيريا الشرقية فالثروة المعدنية هنا عظيمة ولكن الاستغلال لا يزال في مراحله الاولى

ففي الوسع ان يقال بوجه عام مع الاستاذ كرسي ، انهُ اذا كان الانتاج المعدني عاملا اساسيًّا في كسب الحرب فاتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية، يملك من الموارد والمصانع قدراً عظيماً

الشعور والزمان لا يهدآن

لأديب عباسي

أتاح لنا حُبَّ الزمان وكرهَهُ مِزاجٌ من الأهواء غيرُ مؤكَّدِ
فلو كان أمرُ الناس خُلداً ولا أذًى لبات الأذى من سول كلِّ مخلد
ولو أنَّ عيشاً نيل خُلواً من القذى لكنَّا على شوقٍ اليه(1) مجدَّد
أليس من « التبديل » كُنهُ كياننا من المهد حتى نستقرَّ بملحَد ؟ !
أليس على التطويف مَغْدى رِحالنا ولسنا على شيء سواه لنغتدي ؟ !
وهان علينا العبءُ شيئاً بأنهُ نتاجٌ من الأحداث غيرُ مؤبَّد
فإن حلَّت النعماءُ حلَّت لرحْلةٍ وإن حلَّت البأساءُ ليست بسرمد
وإن نحن يوماً ندرك الأمن مُعجزاً(2) فشرٌّ عتيدٌ ما نلاقيه في غد
ويوماً يكون الشرُّ سهماً مسدَّداً ويوماً يكون الشرُّ غيرَ مسدَّد
وعيشٌ رخيٌّ حِقْبةً ثم ينقضي كما تنقضي أحقابُ عيشٍ مُسهَّد
وآناً هو الدهر المؤاتي وغيره كريهٌ لقاه ذو اذًى وتلدُّد
وحيناً يؤدِّي حقَّنا الدهرُ صاغراً وحيناً نؤدِّي صاغرين وعن يد
وهبْ أنَّ حال المرء بات مقيَّداً فإنَّ شعور المرء غير مقيَّد
بهذا قضاءُ الله خفضاً ورفعةً وليس لنا ممَّا قضى من مُحيَّدِ

---

(1) الضمير يعود الى «القذى» (2) مايصيب الناس من العجز الناتج عن فرط الاخلاد الى الراحة

النباتيون

المشهورون وما يرمز اليهم به

— ٥ —

لمحمود مصطفى الدمياطي

﴿ أبرومايت ﴾ هو الأستاذ الدكتور يوهانس ابرومايت Abromeit, Johannes ولد في ١٧ فبراير ١٨٥٧ وكان مدرساً في جامعة كونجزبرج واشتهر بخبرته في معرفة نباتات روسيا الشرقية ومصنفاته هي كتاب « نباتات روسيا الشرقية والغربية » ١٨٩٨—١٩٠٣ Flora von Ost = und Westpreussen وكتاب «النتائج النباتية التي انتهت اليها بعثة دريجالسكيس في جزيرة جرينلند » ١٨٩٩ botanische Ergebnisse der Drygalskis Grönlanderpedition وكتاب « نباتات الكثبان » ١٩٠٠ Dünenflora وكتاب «أحوال نمو النباتات في ولاية روسيا الشرقية» ١٩١٢ Vegetationsverhältnisse der Provinz Ostpreussen

﴿ ألن ﴾ هو شارلز إلمر ألن Allen, Charles Elmer أستاذ علم النبات في جامعة وسكنسن بأمريكا ولد في ٤ اكتوبر ١٨٧٢ في بلدة هوريكون ومنذ ١٩٠١ أخرج أبحاثاً نفيسة في انقسام الخلية النباتية

﴿ أميشي ﴾ هو جيوفاني بتستا اميشي Amici, iGovanni Battista ولد في ٢٥ مارس ١٧٨٦ في بلدة مودينا ومات في ١٠ ابريل ١٨٦٣ كان استاذاً لعلم الفلك في فلورنسا وهو ذو الفضل في كشف أبحاث ميكروسكوبية لعمليات الاخصاب في النباتات

﴿ أبل ﴾ هو الدكتور اوتو ابل Appel, Otto وقد أحرز لقب مستشار امبراطوري وكان عضواً في الهيئة البيولوجية للزراعة والغابات في ضالم من شتجلتس . ولد في ١٩ مايو ١٨٦٧ في كوبورج وصنف كتاب « الميكروسكوب أي المجهر » ١٩١١ Das Mikroskop وله أبحاث عديدة في علم النبات التطبيقي

﴿ أرسطاليس ﴾ Aristoteles ولد في ٣٨٤ ق.م في اسناجيرا من تراقية ومات

في ٣٢٢ ق . م . في خَلـكيس من يوبية . كان فيلسوفاً عظيماً ومن علماء الطبيعيات وله مشاركة في علوم كثيرة وقد بين خطأ نظرية التولد الذاتي القائلة بنشأة الكائنات الحية من العدم أو من الكائنات غير الحية

﴿ أرْتَاري ﴾ هو الدكتور الكسندر ارتاري Artari, Alxander كان مدرساً لعلم النبات في موسكو وقد ولد بها في المدة بين ٢ و ١٤ يونية ١٨٥٨ ومنذ ١٨٨٥ اشتغل بعلم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) وعلم البيئة (الإكولوجيا) وعلم شكل (مورفولوجيا) النباتات القابلة للتخزين

﴿ أرتْسْت ﴾ هو فرانز فريدريش انطون ارتست Artzt, Franz Friedrich Anton كان مهندس مساحة ومساحاً للهضاب في مملكة سكسونيا . ولد في بلدة اودران في ٢٠ يونية ١٨٤٤ وقام ابتداء من ١٨٧٢ بتصنيف عدة مؤلفات نباتية ولا سيما في ما يتعلق بفُوجتلَند

﴿ بوكسبوم ﴾ هو جان خرستيان بوكسبوم Buxbaum, Jean Christian ويرمز له Buxb. ولد بمرسبورج في ١٦٩٤ ومات في ١٧٣٠ وهو نباتي الماني استدعاه بطرس الأكبر الى روسيا وقلده كرسي الاستاذية في جامعة سان بطرسبورج واشترك اشتراكاً كبيراً في تأسيس اكاديمية العلوم بهذه المدينة في ١٧٢٤ وبعدئذ ساح في روسيا وجزء من سيبريا وفي تركيا سنة ١٧٢٦ لدراسة نباتاتها وأهم مصنفاته شأناً هو بعنوان « ملحوظات عن ١٠٠ نبات ما عدا المعروفة حول بيزانطية وفي الشرق » (١٨٢٨ — ١٨٤٠) Centuriae quinque plantarum minus cognitarum circa Byzantium et in Oriente observatarum

﴿ بواسييه ﴾ هو پيير ادموند بواسييه Boissier, Pierre Edmond ويرمز له Boiss. ولد في ٢٥ مايو ١٨١٠ ومات بڤاليرس (من مقاطعة ڤود) في ٢٥ سبتمبر ١٨٨٥ وهو نباتي سويسري من عائلة جاءت من فرنسا في زمن الغاء فرمان نانت كان مولعاً بالرحلات فقد قام بسلسلة من الرحلات النباتية في اسبانيا واليونان واستراليا وسوريا تضمنت نتائجها المصنفات الآتية كتاب « فهرس النباتات الحديثة المعروفة قليلاً والتي حققها بواسييه في رحلته الاسبانية » (طبع في جنيف ١٨٣٨) Elenchus plantarum novarum minusque cognitarum quas in itinere hispanico legit Boissier وكتاب « رحلة نباتية في جنوب اسبانيا اثناء سنة ١٨٣٧ » (طبع في باريس بين ١٨٣٩ — ١٨٤٥ مجلدان) Voyage botanique dans le midi de l'Espagne pendant l'année 1837 وكتاب « تشخيص النباتات الشرقية » (طبع في ليبزيج بين ١٨٤٢ — ١٨٥٤)

وكتاب « مختصر النباتات الاسبانية الحديثة » Diagnoses plantarum orientalium Puqillus plantarum novarum hispanicarum (طبع في ١٨٥٢ بالاشتراك مع روتر Reuter وقد كان أميناً لمعشبة بواسييه وصديقه المخلص وكتاب « تشخيص النباتات الشرقية الحديثة مضافاً اليها بعض النباتات الأوربية والافريقية الشمالية » (طبع في ليبزج وباريس بين ١٨٥٤ — ١٨٥٩) Diagnoses plantarum orientalium novarum, additis nonnullis europæis et boreali africani وعدا هذه التصانيف قد حرّر بواسييه رسالة في الفصيلة الرصاصيّة Plumbaginaceae وأخرى في فصيلة حليب البوم او الأوفوربية Euphorbiaceae مقدمة للنباتي دي كاندول De Candolle وأخيراً صنف كتاب « نباتات الشرق » (طبع في جنيف وبال بين ١٨٦٧ — ١٨٨٤ في خمس مجلدات) Flora Orientalis وهو مصنف ذو مكانة عظيمة يتضمن أوسع مجموعة لنباتات المشرق أي الجنوب الشرقي من أوربا والشمال الشرقي من أفريقية وجزء كبير من آسيا . وفي ٢٠ ابريل ١٨٨٥ انتخب بواسييه عضواً مراسلاً في أكاديمية العلوم

﴿ بورش ﴾ هو فريدريك بورش Pursh, Frederick ويرمز له .Psh., Ph ولد في توبولسك من سيبيريا ١٧٧٤ ومات في مونتريال من كندا في ١١ يونية ١٨٢٠ وهو نباتي روسي صنف كتاب « نباتات امريكا الشمالية » (١٨١٤) Flora Americae Septentrionalis

﴿ بوبنج ﴾ هو ادوارد فريدريش بوبنج Poepping, Eduard Friedrich ويرمز له .Poepp ولد في بلاون من فجتلند بسكسونيا في ١٦ يولية ١٧٩٨ ومات في ليبزيج في ٤ سبتمبر ١٨٦٨ وهو بروسي من علماء الطبيعيات ومستكشف تجوّل في أمريكا الشمالية وجزيرة كوبا من ١٨٢٢ — ١٨٢٥ وفي شيلي من ١٨٢٦ — ١٨٢٩ وفي بيرو من ١٨٣٠ — ١٨٣٢ ثم نزل على نهر الأمازون في طريقه الى اوربا وكانت مجاميعه من نباتات امريكا الجنوبية مهمة جداً ومن ١٨٣٣ كان استاذاً لعلم الحيوان في جامعة ليبزيج ومصنفاته هي كتاب « رحلة في شيلي وبيرو بالنزول على نهر الامازون » مجلدان وأطلس (١٨٣٥) Reise in Chile, Peru und auf dem Amazonenstrom وكتاب « اجناس وأنواع النباتات الحديثة » (ثلاثة مجلدات من ١٨٣٥ — ١٨٤٥) Nova genera ac species plantarum وكتاب « صور التاريخ الطبيعي لعالم الحيوان » (اربعة مجلدات في ١٨٥١) Illustrierte Naturgeschichte des Thierreichs

فضائل

الصلاة الصحية

للدكتور شوكت موفق الشطي

إن الصلاة دعامة الاسلام الثانية وقد فرض على كل مسلم اداؤها في مواقيتها مقومة الأركان مستكملة الشرائط وفي ادائها من المنافع الصحية عدا المنافع المعنوية ما نسعى الى شرحهِ في هذا البحث وما دعانا الى حشرها في زمرة رياضات العمر لأنها رياضة معتدلة لا تعب فيها ولا ارهاق

لا تجوز الصلاة الاّ بعد التطهر بغسل لمن وجب عليهِ ذلك ووضوء قبل كل صلاة . وفي ذلك حث الناس على الطهارة والنظافة وقد قرن الله سبحانهُ وتعالى المتطهرين بحبه اذ قال عزّ وجل « ان الله يحب التوابين والمتطهرين » . وذلك اعلاءً لشأن الطهارة وتعظيماً لها وقد جاءَ في الحديث الشريف (ان الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة)

١ — التطهر بالغسل والوضوء وفوائدهما الصحية

١ — ﴿ التطهر بالغسل ﴾ : الطهور مفتاح الصلاة ولا يجوز الاّ بماء طهور وللغسل موجبات منها الحيض والنفاس والولادة والجنابة وله فرائض منها تعميم الجسد كله بالماء بحيث يجب ايصال الماء الى كل ما يمكن الايصال اليهِ بلا حرج ويجب على المغتسل ان يعم بالماء ما غار من جسده كعمق سرته وموضع جرح برىء غائراً ويجب ان يزيل كل حائل يمنع وصول الماء الى ما تحته كعجين وشمع وقذى في العينين ومنها المضمضة والاستنشاق وله سنن ومستحبات فمن سننه غسل اليدين الى الكوعين ثلاثاً وغسل الفرج (ويقصد بهِ العضو التناسلي في الذكر وفي الانثى) وازالة النجاسة من البدن والوضوء قبل الغسل وتثليث غسل الاعضاء والدلك

وللغسل انواع : مفروض كما بيّنا ومسنون كغسل الجمعة ولو لم يلزم والغسل للعيدين ومندوب لمن لبس ثوباً جديداً ولمن قدم من سفر ولمستحاضة انقطع طمثها

٢ — ﴿ التطهر بالوضوء ﴾ الوضوء طهارة مائية تتعلق بأعضاء مخصوصة بعضها يغسل وبعضها يمسح وهي الوجه واليدان والرجلان وكلها تغسل الاّ الرأس فانها تمسح لسترها غالباً

فيشق غسلها والأصل في فرضية الصلاة قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين» وللوضوء شروط منها عدم الحائل المانع من وصول الماء الى البشرة ، ومنها ان يكون الماء طهوراً وله فرائض منها غسل جميع الوجه بالماء من مبدإ شعر الرأس المعتاد الى آخر الذقن طولاً وما بين وتدي الأذنين عرضاً ، وغسل اليدين مع المرفقين وغسل ما تحت الأظافر الطويلة اذا طال الظفر فغطى رأس الأصبع فمنع وصول الماء الى ما تحته وجب غسل ما تحته بعد إزالة المانع ومسح الرأس وغسل الرجلين مع الكعبين مرة وله سنن منها تثليث الغسل بالماء الطهور ثلاثاً والمضمضة والاستنشاق والاستنثار بطرح الماء من الأنف بالنفس بعد الاستنشاق وذلك لطرد ما فيه من قذارة ومسح الأذنين ظاهراً وباطناً ومسح صماخ الأذنين وتجديد الماء لمسح الأذنين والاستياك في ابتداء الوضوء وتخليل أصابع اليدين والرجلين وتحريك الخاتم حتى يصل الماء الى ما تحتهُ . وله مندوبات وفضائل منها الجلوس في مكان مرتفع لئلاّ يصيبهُ رشاش الماء المستعمل وطهارة موضع الوضوء وعدم الاستعانة بغيره في تطهير أعضائه واغتراف الماء للمضمضة والاستنشاق باليد اليمنى والاستنثار باليد اليسرى

يؤدي القيام بالغسل والوضوء من الوجهة الصحية الى فوائد عديدة أهمها صحة الجلد ونظافته

أ — الجلد وأهميته [1] وصلة الغسل والوضوء في نظافته : لا يخفى ان الجلد درع البدن المتين يدرأ عنه شر كثير من العوامل الخارجية والطوارىء خلا ما فيهِ من الوظائف الهامة كتنظيم الحرارة البدنية ومعونة أعضاء الافراغ بعروقه الشعرية وكثرة مسامه المنتشرة في كل نقطة منه وهو مقر الحس واللمس ومعرض لارتكاسات كثيرة في البدن ومظهر من مظاهر الانفعالات العصبية الروحية في الانسان ومسرح من مسارح الجمال أيضاً . ولا يخفى ان الجلد لايمكنه ان يقوم بوظائفه المذكورة بحق ما لم يكن نقيًّا مفتح المسام حرًّها . فالنظافة اذن أسس الصحة الجلدية كما أنها أساس الوقاية مطلقاً إذ بها يتقي المرء شر كثير من الجراثيم وبها يقوى البدن اجمالاً وينشط لأعماله ووظائفه والنظافة أمرٌ حسن ، أي هي حسنة في كل مكان وزمان كما هي شرط هام في سلامة الجلد وصيانة البدن، وللجلد أثر كبير في وقاية البدن وصيانته كما ان له وظائف شتى جليلة الشأن في سلامة سائر الأعضاء الرئيسية في الجسم وحسن سيرها ونشاطها فهو بالنظر لمقاومة بشرته وطلائه بالمواد الدهنية يحفظ البدن ويقيه من الطوارىء المختلفة من آلية او حيوية جرثومية وبما ينفضج منهُ من العرق في الحرارة المرتفعة ، ومن

(١) ننقل بعض ما جاء في هذا البحث عن كتاب فن الصحة لمؤلفه الاستاذ حمدي بك الخياط

تبخر ذلك يجعل حرارة البدن في حدّ ثابت ومنتظم ويدفع عن البدن شرّ زيادتها وهو بهذا العرق يدفع كثيراً من المواد السامة فيعين الكلية في وظيفتها ، وبواسطة مسامه العديدة ، منافذ العرق والدهن يساعد التنفس الرئوي ، وبعروقه الشعرية الكثيرة يسهل انتظام دوران الدم ومبادلة الأغذية ، ولما فيهِ من المآخذ الحسية يجعل البدن على اتصال بما يحيط بهِ من الاشياء باللمس وحس الحرارة او الألم ، وكثيراً ما يكون مرآة الباطن بما يظهره في بعض الامراض من المندفعات الجلدية المختلفة او يكون نقطة انتخاب في تطبيق بعض الأدوية او واسطة لجني بعض الفوائد العظيمة ، في كثير من الاحيان ، بواسطة المداواة المائية وما اشبه ذلك . تعرف من هذه المقدمة الموجزة أهمية الجلد ومبلغ ما ينبغي له من العناية والمداراة بالنظافة والاّ كان عرضة لتلبُّسه بطبقة لا يستهان بها من الاقذار تتكوّن من تراكم غبار الهواء وهباء الالبسة من الخارج ومما ينضم اليها من سطحهِ من الخلايا القرنية المتوسفة وبقايا العرَق والمواد الدهنية بعد تبخر مائها وزواله . وهذه الطبقة قد تسد تلك المسام الجلدية فتعوق وظائف الجلد وتضر بالبدن كله ضرراً أكيداً خلا ما يحدث بسبب تلك الاقذار نفسها من تخديش الجلد وحصول الحكة فالالتهاب ، وانتشار الروائح الكريهة لاختمارها بتأثير بعض جراثيم الجلد الكثيرة ، تلك الرائحة التي لا يخفيها تأنق او تزين بل تفضح القذر وتدل عليهِ لأول وهلة ولاسيما في الاوقات الحارة والمجامع الكثيرة القذرة ، وليس هناك ما يحفظ للجلد رونقه وصحته ولا ما يدرأ عنهُ شر تلك الويلات ويعيد اليه نشاطه لاداء وظائفه بحق الاّ النظافة . والقاعدة العامة في سلامة البدن من هذه الاضرار هي النظافة بالغسل او الاغتسال يومياً ان امكن ذلك بافاضة الماء على البدن كله وان لم يمكن هذا فغسل ما ظهر منهُ دائماً وكان عرضة للتعطن بالمفرزات كالأرجل . وما اعظم فائدة ذلك لو كرّر مراراً في اليوم لما يعرف من ان هذا الغسل لا تقتصر فائدتهُ على نظافة الجلد ونشاطه فحسب ، بل يكون داعياً الى نشاط الجسد كله لدعوته الدم الى هذه الاقسام المغسولة وبذلك ينبه الدوران ويخفف احتقان الجملة العصبية المركزية — فينبهها وفي ذلك ما فيه من الفائدة والنشاط ولا سيما في المشتغلين بأفكارهم خاصة ويزيد كذلك في نشاط الجسم كله وانشراحه للعمل الفكري والبدني بما يفعلهُ في عون الرئة والقلب في اتيان وظائفهما وفي نشاط الاغتذاء ايضاً

لقد بينا ان الصلاة عند المسلمين تحتم عليهم الوضوء للصلوات الخمس يومياً على النحو الذي ذكرناه كما انهُ يحتم عليهم الغسل العام في كثير من الأحوال أقلها مرة في الاسبوع وقد صح عن البزار (ان لله حقًّا على كل مسلم ان يغتسل في كل سبعة أيام) وقد صح عن ابي سعيد الخدري قول النبي محمد صلى الله عليه وسلم (غسل الجمعة واجب على كل محتلم) وجاء في الحديث

الشريف ايضاً (من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ومن اغتسل فالغسل أفضل)

ولا تقتصر عناية الاسلام بالنظافة بهذا الحد فحسب ، بل يتطلبها في جميع نواحي البدن واللباس والمكان اذ لا تجوز الصلاة الاّ بوجود الطهارة في ذلك كله ، وفي كل صلاة ولا تجوز هذه الطهارة الاّ بماء نقي طهور . ولقد رأينا من بحث الغسل انهُ إفاضة الماء على البدن كله فالغسل والوضوء أقصى ما تطلبه القواعد الصحية في نظافة الجلد. فبالوضوء تجميل مواطن نظر الخلق بازالة ما أصاب أعضاء الوضوء من ملامسة الأشياء وما يحمله الهواء من التراب وتخرجه المسام من العرق وتقذفه المنافذ من الأقذار وبه تغسل الايدي مراراً في اليوم والأيدي معرضة للتلوث أكثر من غيرها لأنها واسطة الأخذ والتناول واللمس واداة العمل اجمالاً . وتقضي سنن الوضوء بملاحظة تفاريج اليد وافواتها والأظافر وتفها وهو ما يترا كم تحتها من الأوساخ

بالوضوء تغسل الارجل مراراً في اليوم وغسلها واجب صحيًّا لأنها تكون منحصرة في أحذية مشبكة وعرضة للتعطن دائماً خاصة في الفصول الحارة ، وتزال منها تلك المواد المفرزة من جلد الرجل ولاسيما الاصابع ، باطنها وظاهرها والتي تتراكم تحت الاظافر او في تفاريج الأصابع غالباً ولا يخفى ان هذه المواد ان اهملت في مكانها كانت بؤرة ضرر وكراهة لما ينجم عن تخريشها ذلك الجلد دونها ، المتلين من العرق والافرازات ولما يحدث هنالك من الاختمارات العضوية التي تكون أو تصير كريهة بدرجة لا تطاق . وتتحقق بالوضوء نظافة الوجه والمسام . ولا يخفى أن الوجه أول ما يبدو للناظر من الجسد ويقال أنهُ ما سمي وجهاً الاّ لذلك ولذا تجب العناية بهِ كل الاعتناء . وليس هنالك ما يحفظ جماله وصحته كالنظافة اذ بها يتنبه فيه دوران العروق الشعرية وتنفتح مسام جلده فينشط لتأدية وظيفتهِ فيقوى ويترقرق فيهِ ماء النضرة ويسطع منهُ نور البهاء والرونق وأن أهمل علتهُ الدمامة والكآبة ويتلكأ في عمله ووظائفه فترتسم فيهِ الغضون[1] والضفاريط[2] تلك الأسارير[3] التي تخطها يد السنين في صفحته عاجلاً كما تمليها حوادث الدهر وشؤونه عادة ، ويدل تأثيرها فيه على مبلغها منهُ

ولما كان في الوجه مجمع أعظم الحواس كانت العناية أدعى وألزم ولاسيما تلك المسام المؤدية اليها أو الحافظة لها ، ونظافتها لا تقل وجوباً عن نظافة جميع الأعضاء الظاهرة ، وان لم تكن أكثر أيضاً لأنها عرضة للتلوث بالجراثيم دائماً . لذا يقتضي لها عناية خاصة وهذا ما فرض أو استنّ في الوضوء

---

(١) الغضون : جمع غضن وهو التجعد في الجلد او غيره (٢) الضفاريط جمع ضفروط وهي تلك الكسور التي بين الخد والانف وعند اللحاظين (٣) الاسارير : جمع اسرار وهي جمع سر او سرر — الخط في الوجه والكف

ب — ﴿ نظافة الفم والاسنان وأثر الغسل والوضوء في ذلك ﴾ : تتم نظافة الفم بغسله والمضمضة وأهم مافي هذه النظافة ان يغسل الفم مراراً في اليوم وأن يمضمض في أوقات مختلفة من النهار وهذا ما يتيسر للمصلي خمس مرات في اليوم كما وانهُ استنَّ الاستياك مراراً في اليوم وذلك تأميناً للمبالغة في نظافة هذا العضو الذي هو معد للغذاء ومبدأ انبوب الهضم . لا تنحصر وظيفته في تهيئة اللقمة الطعامية فقط بل هو فوق ذلك مقر الذوق وموقع التكلم وقد يفيد في التنفس ايضاً . والفم عرضة لصولة كثير من الجراثيم لان أكثرما يتناوله المرء من طعام وشراب وهواء مفعم بهذه الجراثيم او غني بها على الأقل. وفي الوضوء وسننه كما بينا تتم نظافة الفم نظافة صارمة وبالاستياك تحفظ الاسنان . وحفظ الاسنان من أسمى الغايات الصحية لضرورتها فالصحة السليمة لاتنال بدون مزيد الاعتناء بالاسنان ولا يكون جسم الانسان صحيحاً معافىً ما لم تكن أسنانه صحيحة إذ لايخفى ان الاسنان أعضاء المضغ الهامة وذلك أول عمل أساسي من أعمال الهضم فاذا اختلَّ اختلَّ ما بعده حتماً والاسنان بلونها وانتظام رتلها من أهم أسباب الجمال في الفم وهي كذلك بمتانتها وسلامتها تحفظ للفكين وضعهما الطبيعي فيتم بها جمال الوجه كله وهي بتمامها وصحتها تجمّل الناطق وتحسّن اللفظ فعلى سلامة هذه الدرر يتوقف حسن الهضم وبصحتها يتم جمال الوجه والفم ويستقيم اللفظ ويعذب النطق

والنظافة خير واسطة لحفظ الاسنان اجمالاً حتى انها لتقوي الضعيف منها ، كما انعفونة الفم تضعف الصحيح ، وأعظم وسيلة لنظافة الاسنان الاستياك وهو إحدى سنن الوضوء كما أسلفنا وكان النبي صلى الله عليهِ وسلم يحب السواك ويستاك مفطراً او صائماً وعند الانتباه من النوم وعند الوضوء وعند الصلاة وعند دخول المنزل ويحض عليه بأبلغ ألفاظ العموم والشمول وفي الصحيحين (لولا ان أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عندكل صلاة) وفي البخاري (السواك مطهرة للفم مرضاة للرب) والأحاديث فيهِ كثيرة وفيهِ عدة منافع

وللاستياك عند الانتباه من النوم فائدة كبيرة لان تكاثف اللعاب في الفم أثناء النوم ولاسيما اذا كان الشخص عرضة لبقاء فمه مفتوحاً مدة طويلة او قصيرة أثناء ذلك يخدم الجراثيم ويسهل كثرتها في الفم فمن الضروري رفعها عند القيام من النوم اذاً ، وهذه هي السنة إذ من المتفق عليه ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان اذا قام من الليل يشوص (١) فاه بالمسواك

(يتبع) دمشق

(١) يشوص بمعنى يدلك

الهيكسوس

مدى توغلهم في مصر

للدكتور باهور لبيب

تحدثنا في مقالين سابقين (تفضل المقتطف بطبعهما في جزء فبراير ١٩٤٢ وفي جزء يونيو من العام نفسه) عن أصل الهيكسوس وموطنهم الاول ثم عن عاصمة الهيكسوس ومدة حكمهم . والآن ننتقل الى الكلام عمّا وقع تحت حكم الهيكسوس من المناطق المصرية ثم مطاردتهم منها

يحدثنا المؤرخ مانيتون أن « الهيكسوس استولوا على مصر بسهولة وبغير حرب لأن أهل مصر كانوا في ثورة وهيجان » وكلام مانيتون صحيح تؤيده مقارنة الآثار ، إذ أننا نرى انهُ ابتداءً من منتصف الأسرة الثالثة عشرة (أي حوالي سنة ١٧٥٧ ق . م [1]) عمت الفوضى البلاد وبدأ الضعف يدب في صميم الدولة

فبردية Sallier I (وهي محفوظة في المتحف البريطاني وتاريخها يرجع الى عصر الملك منفتاح ومحتوياتها ترجع رغم ذلك الى عصر الهيكسوس) تورد الجملة الآتية : —

« حدث أنهُ كان في أرض مصر خطر أو وباء ولم يكن هناك سيدٌ ما ملكاً بينهم » . فيتضح لنا من هذا النص التاريخي القديم ان مصر كانت في حالة فوضى وأن المصريين عجزوا عن إقامة ملك منهم مما سهّل فيما بعد على الهيكسوس الاستيلاء على مصر حوالي سنة ١٧٣٠ ق.م.

وقد جاءت أحوال مصر السيئة مؤاتية للغزاة في وقت كان الضغط عليهم في بلادهم يزداد شدة ويدعو الى هجرتهم نتيجة لاغارات حلت في القرن الثامن عشر قبل الميلاد وكان مردُّها الى حركة اندفاع الشعوب الهندية الاوروبية (الآرية) في آسيا وهجرتها ولاسيما وقد دخلوا مصر بخيلهم وعرباتهم وغير ذلك من الفنون الحربيــة التي يجهلها المصريون فتفوّق

(١) راجع مقالنا المنشور في مجلة « القانون والاقتصاد » العدد الاول من السنة الثانية عشرة صفحة ١٣٦

الهيكسوس من الوجهة الحربية سهّل لهم الاستيلاء على المدن والقرى فاستولى الغزاة على ممفيس برغم موقعها الحربي المنيع . ونعلم ذلك من نص مكتوب بالهيراطيقي على لوحة معروفة بلوحة كارنارفون

وعلى لوحة كارنارفون هذه نصٌ آخر يؤيد بردية ساليبه السابقة الذكر وفيه أن « ملكاً من الجنوب من طيبة يدعى كامس جمع قواده وخاطبهم قائلاً : — « أريد أن أعرف ما هي قوتي اذا كان هناك أميرٌ في بلدة حات وعرت (عاصمة الهيكسوس) وأميرٌ آخر في بلدة كوش وأنا جالس مع أسيوي ونوبي كل واحد منهما يملك نصيبهُ في أرض مصر ويشاركني الارض أنا لم أعطهِ الفرصة أن يصل حتى ممفيس ولكن أنظر الآن فقدتمَّ استيلاؤه على الاشمونين » [1]

فمن هذه النصوص نخرج بأن الهيكسوس توغلوا في الدلتا ثم استولوا على ممفيس ثم وصلوا في الديار المصرية الى بلدة الاشمونين

وفي ردّ القواد السابقي الذكر على الملك كامس ، وهو ردٌّ نجده أيضاً على لوحة كارنارفون نجد أن هؤلاء القواد ردُّوا على الملك قائلين : « ولو أن الهيكسوس وصلوا الى بلدة القوصية (الواقعة بالقرب من ديروط) وأخرجوا ألسنتهم دفعةً واحدة سنكون في هدوءٍ لاننا نملك مصرنا ولأن الفنتين قوية والجزء الأوسط من مصر في حيازتنا حتى القوصية وعلاوة على ذلك تحرث لنا أحسن أراضيهم ومواشينا ما زالت في الدلتا فالغلال ترسل الى خنازيرنا وكذلك لم يستولوا على مواشينا »

فمن هذا النص نرى انهُ يمكننا تعيين الجهة التي وصل اليها الهيكسوس في مصر وهي جهة القوصية بل يرينا هذا النص كذلك أن الهيكسوس في الدلتا لم ينزعوا ملكية الأراضي التي كان يملكها فيها أهل الصعيد . ومع ذلك فهناك طائفة من العلماء أمثال بتري وأدوارد ماير ويونكر تظن أن الهيكسوس توغلوا في الأراضي المصرية الى أبعد من ذلك ويستندون في رأيهم هذا الى قطعتين من الحجر وجدتا في جبلين (بالاقصر) عليهما أسماء الملك خيان والملك أبوفيس

ولكننا لا نعد هذين الحجرين دليلاً كافياً على صحة ما تذهب اليه هذه الطائفة من العلماء وذلك لاننا نلاحظ أن الملوك الذين أتوا في العصور المتأخرة عن عصر الهيكسوس أخذوا آثار الهيكسوس ونقّلوها من مكان الى آخر

(1) Pahor Labib, Die Herrschaft der Hyksos, p. 17 ff.

فعلى سبيل المثل نقول : ان جاردنر وجد أناء من الجرانيت للملك ما أوسر رع أبو فيس في مقبرة الملك امنحتب الأول في طيبة .

اذن فلنمض في تأييد وجهة نظرنا ولنورد نصاً آخر يؤيد نص لوحة كارنارفون وهو نص الملكة حتشبسوت في معبد Speos Artemidions بالقرب من القوصية فقد جاء فيه ان الملكة اصلحت معبد حاتحور وجددته وقد كان في جهة القوصية وكذلك المعابد الاخرى التي هدمها الهيكسوس حتى بلدة القوصية . وهو يحملنا على الظن أن معبد بلدة القوصية هو آخر معبد وصل اليه تخريب الهيكسوس . والنص بالحرف يقول : لقد أصلحت التلف وأكملت الناقص بعد ما كانت البلاد تئن تحت حكم الهيكسوس الذين كانوا في عاصمتهم بلدة هوراس (حات وعرت) في الدلتا» . فهذان النصان يؤيدان أن الهيكسوس وصلوا فقط إلى بلدة القوصية

ثم أننا نجد تعزيزاً لهذا الرأي في ادارة الحكومة في الأسرة الثامنة عشرة أي بعد طرد الهيكسوس مباشرة . فالمنطقة من بلدة الفنتين الى ما بعد أسيوط بقليل أي الى ما يقرب من القوصية كانت من اختصاص أحد الوزراء ثم من القوصية الى اعلى الدلتا كانت من اختصاص وزير آخر

فالرأي ان المنطقة من الشمال الى القوصية هي المنطقة التي استولى عليها الهيكسوس لا سيما واننا نعلم أنه كان بين المنطقتين حدود محصنة ترجع الى ما قبل عصر الهيكسوس فوقف عندها تقدمهم في أغلب الظن . ونجد هذا التقسيم يستمر الى ما بعد عصر الهيكسوس فقد استمر الى عصر الملك بعنخي مما يدلنا على ان هذا التقسيم كان مهماً وأن هذه الحصون يصعب اقتحامها

ومن ظريف ما يروى في هذا الصدد أن اسم اسيوط بالمصرية القديمة معناه « الحارس » وهذا مما يؤيد وجهة نظرنا ويرينا كيف تمتزج السياسة بالدين

وهناك سبب آخر يؤيد القول بأن الهيكسوس لم يستولوا على مصر بأجمعها وذلك أننا نعلم تمام العلم أن هناك ملوكاً وطنيين جعلوا مقرهم في طيبة وطردوا الهيكسوس من مصر كما سنرى فيما بعد

ومن الطبيعي أن ملوك طيبة كانوا طول عهد الهيكسوس وليس في آخر حكمهم فقط فكان هناك في الواقع فريقان فريق الشمال وهم الهيكسوس الذين حكموا حتى بلدة القوصية وفريق آخر مصري حكم من الفنتين الى القوصية وبذلك تكون غزوة الهيكسوس قد اقتصرت على الدلتا حتى بلدة القوصية فقط

القاهرة — جامعة فؤاد الاول

بين عهدين !

للشاعر الالماني ستراوس

كنتُ في العهد الغابر —

أود ان أدرك منطق الطيور

وأفهم شكاوى العنادل

وأعرف نجوى الليل والنهار حين يتلاقيان ويتناجيان

وأرى الى أي أوجٍ تسمو زفرات المحبين !

كنتُ حينذاك فتىً تغمرني السعادة

واليوم —

قد انطوت جميع أماني الماضي

وأصبحت أتوق الى معرفة ذلك الطيب الذي تداوى بهِ آلام الحياة

وأمسيت في هذا الليل المُرخي عليَّ سدولهُ بأنواع الهموم —

أبتغي ان أعرف

أهناك أملٌ يصبح غير بعيد ،

يتنفس عن نهار جديد ؟

حديقة المقتطف

رابندرانات تاجور

الفصل الرابع

« المرأة والعالم »



لمحمود المنجوري

تاجور في الحياة والاخلاق

والمدنية والسياسة والمرأة والادب والدين

— ٣ —

لمحمود المنجوري

ظلَّ تاجور طويلاً يتحدث عن العالم في وحدته الروحية ، ولكنهُ لم ينسَ العالمَ الصغير ، الأسرة والبيتَ ، فكتب روايته « البيت والعالم » The Home and The World [1] وحدَّثنا حديثاً اجتماعيًّا كلهُ عذوبة وحياة وشعر ولسنا بسبيل تلخيص هذه الرواية بقدر ما نحن بسبيل استخلاص آرائه الاجتماعية في المرأة والرجل وفي الزوجة والبيت وفي الانسان والوطنية وفي الاستعمار والحرية

عند ما عالج تاجور العالم عالجه على أنه أسرة واحدة ، ولكنه عند ما عالج شؤون الأسرة عالجها على انها العالم كله : « فالبيت والعالم » هو العنوان الذي اختاره تاجور لروايته التي بسط فيها آراءه في تطور المرأة في الحياة والاجتماع والأسرة ... يفاتحك بالفتاة « بيمالا » فتتحدَّث اليك :

« كان زواجي في قصر الراجاه « نيكهل » وكنت أقرأ في حداثتي ما يكتبونه عن الامير ولكن وجه زوجي لم يكن ينطبق على هذه الاوصاف فقد كان مثلي مقطب الجبين ، وزاد من قلق شعوري بأني لست ذا حسناء ، ولقد طبع هذا الشعور على قلبي حزناً عميقاً . . ولكن متى أحبت المرأة كان الحب عندها ديناً وكان حبيبها موضع التقديس والعبادة »

فبيمالا فتاة هندية من عامة الشعب لا يرتفع نسبها الى مجد الراجاه الذي تزوجت منه فهو من أسرة من أعرق أسَر الهند حسباً ، ومن أشدها تمسكاً بالتقاليد ، هي تشعر دائماً بهذا الفارق . ولكن زوجها كان رجلاً مثقفاً ثقافة غربية ، فهو من رجال العصر الجديد تلقى علومه في الكليات والجامعات وثارت في نفسه الشكوك في تقاليد الأسرة . فلم يشأ أن يجعل من الزوجة أسيرة قعيدة البيت لا تشاركه الحياةَ ، ولكن زوجته مجبولة على تقديس الزوج كما نشأتها التقاليد الشرقية

---

(١) نقلها الى العربية الاستاذ طنيوس عبده نقلا ملخصاً

« انزوجي لم يكن يدع لي مجالا لكي أعبده ، وهنا تتجلى عظمته فان هناك فريقاً من الرجال يريدون أن يكون خضوع الزوجة المطلق حقاً من حقوقهم ، وهذا عار كبير عليهم وعلى الزوجة التي يريدون تقييدها بهذا الحق ، ان حب زوجي إياي كان ملؤه الاخلاص ، ولكني خلقت لاعطي أكثر مما آخذ لان الحب يشبه تلك الازاهر التي تنمو في السهول أكثر من نموها في أواني البلور »

هي زوجة شرقية تريد أن تعبد زوجها ولكن زوجها رجل مجدد يأبى عليها ان تعبده لا يريد منها الا أن تعرف أن الرجل والمرأة يتساويان في الحب ، وهي تعترف في حوارٍ معهُ

« بأن أفكار النساء صغيرة معوجة » ولكنهُ يجيب : « ليس هذا ذنبها ألا ترين ان أقدام الصينيات صغيرة فما الذي جبلها على هذا غير الضغط عليها منذ الحداثة »

لقد كانت زوجة بريئة لم تتطرق اليها الأفكار الجديدة التي كانت تجتاح الشرق منذ حين فهي تقول :

« كان أميري صاحب مملكة . قلبي تاجها وأنا ملكتها الجالسة على عرشها ، ولكني كنت أفرح حين أعتقد ان موضعي يجب أن يكون عند قدميه »

انها تفكر في تقاليد الشرق الكريمة فتقول :

« فيا زوجي الحبيب لقد كنت عظيما حين كنت تمنعني عن أن أعبدك ولكنك لو رضيت بي عابداً لأحسنت إليّ أجل إحسان ... ان سعادة المرأة الحقيقية هي أن تحب فان قضيتم على كبريائها في هذا الحب قضيتم عليها »

ولكن الزوج المجدد لم يكن يرضيه ان يجد في زوجته هذا الخلق الشرقي الذي يرعى التقاليد في جميع ما يصدر عنها كزوجة لا ترى العالم الاّ في زوجها ، ولا تلتمس منفذاً الى الحياة الاّ من طريق تفكير الزوج وارضائه . لقد أبى الزوج هذا وأراد أن تكون زوجه جديدة متصلة بالعالم من حيث هو حركة دائمة ، فهو سعيد بزوجته عند ما يراها حرة مطلقة تغامر في الحياة

« ان الرجل النهم الذي يحب السمك لا يتردد في تقطيع السمكة بأسنانه كما يشتهي ، أما الذي يحب السمك الحي فيود أن يراه سابحاً في المياه »

ولكنها زوجة تأبى الحضور الى المآدب العامة في حين ان الزوج يود صادقاً

« أن يحل القيود القديمة وأن يخرج بها من ظلمة التقاليد الى نور العصر الجديد »

ويرغب كما تقول الزوجة :

« أن أنهج واياه مناهج الغربيين فتكون الدنيا بجملتها ذلك البيت الذي نقيم فيه »

وانها لتسأل « أي شأن لي مع العالم الخارجي ؟ » فيجيبها :

« ان العالم الخارجي قد يكون له شأن معك »

وتظل بيالا لا تجاري الزوج في تطلعهِ ، فهو يرجو أن يجد في زوجته المرأة التي تتساوى والرجل في الحب ، أو في الأقل ، تتساوى واياه في حرية الافضاء بالحب . وهو يرجو

ان يجد في زوجته المرأة التي يلتمس في قلبها الحقيقة سافرة لأنه يؤمن

« بأن الحقيقة غير موجودة ، إلا في قلب المرأة فهي التي تعرف أن تكون جبارة عند غضبها مخيفة كالعاصفة الهياء ، ولكنها جميلة وادعة حين تهدأ العاصفة فيشرق على قلبها الصفاء والدعة والنسيان »

وهو يرجو أن يجد في زوجته « المرأة التي تخلق الجمال في قلب الرجل وان لم تكن جميلة »

يريد زوجته « ان تكون امرأة قادرة على الخلق والايجاد والابداع »

يريد أن تكون

« مصدر وحي ثائر وأن يهتف الناس باسمها على انها امرأة قد خلقها الله خلق مصور فنان وألا تكون كالرجل خالق بالمطرقة والسندان »

هو الزوج الذي يريد من زوجته أن تكون

« كصيدلية بها من المخدر ما يكفي لتخدير أعصاب الرجل فلا يشعر إلا كما يشعر النائمون المخدرون ، ولا يحس ايلام الجرح إلا عندما يستفيق »

يريد من زوجته أن تكون على سجيتها

« كالانهر بركة مفيدة حين تجري ساكنة هادئة ، وهي قوة مخربة حين تهيج وتطغى »

يريد من زوجته أن تعلم

« ان الرجل يحب زهو الالوان ، وانه يؤثر النشوة على الغذاء وانها يجب أن تتقي شره الرجال فتحول نفسها الى شراب مسكر وانها امرأة من واجبها أن تعلم حقاً انها في حاجة دائماً الى مخادعة الرجل واستهوائه ، وان ليس أطيب الى الرجل من أن يعيش معها مخدوعاً دائماً في عالم من الاماني والاحلام »

يريد منها ان تكون امرأة لا تعرف التردد « لان التردد ليس من طبيعة المرأة »

يريد منها أن تحكم دائماً في رقاب الرجال كطبيعتها وغريزتها وأن تصرح دائماً بما في قلبها ، وأن تقول أبداً « اني أريد » ، ان كلمة « أريد »

« هي كلمة المرأة الاولى التي لا يوحى اليها بشيء لانها مصدر الوحي والسيطرة وسر القوة في الحياة ، لقد أرادت المرأة ان تملك أقوى قوة في الوجود فضحت بالملايين من الحيوان خلال الملايين من السنين فامتلكت الرجل — ان الارادة قد استحالت الى شكل انساني فكانت في صورة المرأة ، ولهذا حاول الجبناء من الرجال جاهدين تقييد هذه القوة فأخفقوا . وهي وان كانت ساكنة هادئة فانما هي في سكون البحيرة العميقة ، كلما اشتد الحبس وقوي الضغط عليها كلما اقتربت ساعة هياجها وطغيانها ، وستخرج البحيرة مخربة جسورها ، مهلكة ما حولها ، وسيطوف السجين هذا العالم ثائراً يقول : اني أريد اني أريد »

يريد الامير الهندي أن تعلم زوجته انها امرأة لا تعرف في الرجل إلا ضعفه

« وان الله حين خلق الرجل لم يكن قد تدرب بعد في الابتداع فخلقه كما تيسر ، فلما جاء دور المرأة كان قد صار فناناً فخلقها كما تشاء »

ويريد الزوج أن يجد في زوجته هذه المرأة التي تستطيع أن تخلق في قلبه الغيرة

«لان الغيرة ضعف، متى ظهرت في الرجل القوي تم للمرأة ما تريد من نصر واذلال واستيلاء»

ولكن الزوجة « بيالا » بقيت امرأة احتواها الخلق الشرقي داخل الحريم وديعة تعبدُ ربَّـها في اخلاص وتفنى في منجودها بين يدي الزوج ، وتستولي على قلب الرجل لا من طريق القوة والايحاء ولكن من طريق الضعف والاستسلام . تريد أن تبقى دائماً حالمة في هدوء المنوَّم المستهوى . ولبثت على حالها لا تجاري زوجها حتى ظهر في بلاد البنغال مبدأ النهضة الوطنية ومقاطعة البضائع الاجنبية ، فسرت فكرتها مع الدم في عروقها وأشعلت قلبها على الرغم من أن أبواب القصر كانت موصودة دون اتصال ، ولكنها كانت تسمع نداء الوطن كالهمس لا تتبينهُ خلال النوافذ الا انه نداء الضمير الوطني، وانها تشعر بأنهُ نداء مقترب منها ممتزج بقلبها ملتصق بعواطفها دون استئذان أمير أو سلطان ،وحدث ان زعيم هذه الحركة «ساند يب» اتصل بزوجها الامير واختلط بهِ داخل القصر لما بينهما من ود وصداقة ، على الرغم من ان الأمير كان من معارضي هذا الزعيم في حركته الوطنية العنيفة، ولكن سانديب الزعيم الذي ملك عنان البلاغة قد أهاج مواطنيه ومثل الوطن كائناً يجب ان يعبد وبشر بمبادىء المقاطعة واتخذ ناحيةمن قصر الاميرمكاناً لاجتماع وطني كبير شهدتهُ النساء لأول مرة من وراء حجاب ، وارتفع النشيد الوطني وملأت الحماسة كل مكان وانحدرت الجماهير الى القصر انحدار السيل من قمم الجبال ، ووقف الزعيم يخطب هذه الجماهير الملتهبة فأورى فيهم ناراً آكلة وحسبت الزوجة وحسب النساء معها ان «سانديب» ليس ببشر وانما هو رسول من الآلهة، جاءَ لهدايتهنَّ . وهنا اخترقت الزوجة بيالا الحجاب الذي يفصل بين النساء والرجال واقتحمت طريقها في قوة

« وشعرت بأن قواها قد تلاشت فلم تعد المرأة المحجبة زوج الراجاه ، بل صارت ممثلة لجميع نساء البنغال »

لم يكن الامير(١) من مؤيدي الزعيم « سانديب » في أسلوبه العنيف الذي أراده لتوجيه حركة البلاد الوطنية ، فسانديب يريد حركة ثائرة كالبركان تخرِّب وتقتِّل وتهدِّم ، يريد الدماء

« لان الاستقلال شجرة لا ترويها غير دماء الضحايا »

ولكن الأمير «نيكهل» يأبى التخريب وينشد البناء، ويريد الزعيم ان يخلق من الوطن هيكلاً وثنيًّا تعبده الناس وتضحى في سبيله الرقاب ولكن الامير الهندي يُعلن رأي تاجور في الوطنية فيقول :

« اني أخدم بلادي ولكني لا أعبدها ، فاني أعبد الحق وهو أعظم من بلادي ، أما من يعبد بلاده كما يعبد الله فهو يسيء اليها وهو مخدوع يحسب انه قد بذل الاحسان في سبيلها »

ولكن الزوجة اندفعت وراءَ بلاغة الزعيم وسحر بيانه فامتزجت في الحركة الوطنية،

(١) أراد تاجور أن يعلن آراءه في الوطنية والسياسية على لسان الامير نيكهل

وأخذ الزعيم ينفخ فيها ليخلق منها المرأة التي تقود حركة الوطن نخدعها ليستغل نفوذ زوجها الذي امسكه عنهُ . وشعرت الزوجة

« بأنها انما تنقم على الله لانه لم يجعل منها أجمل نساء خلقه ، لا لتسرق بجمالها قلوب الرجال . بل لان الجمال مجد كالبطولة والبلاغة التي تحتاج اليها الثورات ، ولان الرجال في هذه النهضة كانوا يحتاجون الى إلهة ، ولن تكون إلهة مسلوبة الجمال »

وكانت تمني نفسها بأمل هو أعذب الامال الى قلبها فتقول دائماً

« ألا لساندیب أن يجعلني إلهة النهضة ! »

وأخذت شخصية الزعيم الوطني تستهوي الزوجة بيمالا ، وكان كثير التردد على القصر فأصبح يدخل عليها وعلى زوجها دون استئذان ، وبدأت بيمالا تحس في حديث الزعيم لوناً ملتهباً « كالنور غير المنظور وصل الى قلبها ورأت عيني سانديب تضيئان امامها كما يضيء المصباح المقدس في الهيكل وأخذ يضفي عليها من الأحاديث المغرية ما جعلتها تحسب نفسها الهة توحي الجمال والقوة والالهام الى زعيم النهضة الكبرى التي تقود البلاد ، وأيقنت في نفسها مما املاه عليها سانديب ان لها من القوة الكامنة ما تستطيع بهِ اقتحام أعظم الأمور ، وان تلك هي قوة روحية جاءتها من وحي بعيد عن نفسها »

وقوي الشك وترددت الظنون داخل قصر الامير كلما ظهر سانديب في غرفة الزوجة . والزوج يرقب الامور تسير دون اعتراض منهُ . ولكن الزوجة لم تكن لتعبأ بشك أو ظن لأنها تحدّث نفسها فتستمع الى قلبها ينادي

« ما أجمل الخضوع في سبيل الحب ، لقد رق صوت سانديب ولان حتى صار دلالا وتحولت نظراته نظرات طهراً وتوسلا ، وتفاعل وجودي حتى خيل إلي انه قد انتزعني من نفسي »

ولكن الزعيم لا يكتفي بأن يختلس قلب الزوجة من زوجها ، فهو رجل أثير يبني حياتهُ على :

« ان كل ما يستطيع انتزاعه من الآخرين فانما هو له ، وان الحياة في نظره غادة حسناء لا تعرف معنى النفاق ولا تسلم القياد إلا للصوص ، لانها تحب العنف والاختطاف ، انها لن تمنح زهراتها للمتزهدين »

هو رجل تتمثل فيهِ الحيوانية وتطغى عليهِ الانانية فيرى في خُلُق صديقهِ الأمير ضعفاً يتعارض مع طبيعة الحياة — انهُ لا يريد أن يخرج من الدنيا فارغ المعدة غير مزوّد إلا بكلمات رنانة لا يقنع بها غير البلهاء . انهُ يؤمن

« بأن الطمع طبيعي ولولاه لما اكتنزت الاموال وارتفعت القصور — وان حقيقة الحياة هي غني قوي يبني ويجمع المال ، ولص يستخدم قوته وحيلته لسرقة هذه الاموال

ويا لسنديب من زعيم دموي جبار قد احاط بالعنف والانانية واحتواها في نفسه حين يقول :

« ان العدالة لا توافق غير صغار الاحلام أما العظماء فهم الذين يؤثرون الظلم ليعيشوا فوق الهامات ، لقد كانت البراكين عادلة يوم نفذت بقرونها النارية الى الارض المنبسطة ، ومنذا للذي يقول لقد ظلم البركان الارض يوم نفذ منها ، لابد للظلم دائماً من قوة تدعمه ، لانه لا يفوز إلا بالشدة — ولقد أغنى الظلم شعوباً وأمماً وأفراداً — وما كانت العدالة لتغني شيئاً ولذلك أراني أقدس الظلم وأخضعه لحياتي — وأدعو الناس في اخلاص الى ان خلاص بلادكم ان يكون إلا بمقابلة الظلم بمثله ، فاظلموا تفوزوا

اني لا أعترف بالفشل ولا بالتردد ولا بتأنيب الضمير ، فلهذا خلقت فمنهاجي في الحياة هو: اني أريد وان أنال ما أريد . وبهذا دان لي النصر الاكيد

ان تأنيب الضمير مرض فكري يعذب العظماء من الناس ولا يدع لهم وقتاً لتأليف نفوسهم وكيانهم وعظمتهم ، لأنه لا يوجد التناسب بين حياتهم الخارجية وبين ميولهم التي يخفونها حتى عن نفوسهم

وانهُ ليقول ، عندما استساغ بيمالا زوج صديقه الامير ومهد في نفسهِ « خيانة أميره »

« أما نحن الضواري فان لنا أنياباً وبراثن نقبض بها على الفريسة فنمتص دمها ونمزقها إرباً ، ان نقنع بالاجترار فنأكل العشب في الصباح لنجتره كالمواشي في المساء ، نحن لن نسمح لهؤلاء الذين يعيشون في الفراديس أن يغلقوا أبوابها دوننا ، لابد أن نسرق غذاءنا لنعيش . ان عاطفة الدم هي العاطفة التي تقود النساء وتغلب على غرائزهن . ان العاطفة التي تجذب النساء لا توجد إلا عند عظماء الرجال ، والنساء هن حطب الثورات وشريان الدماء »

فخلق سانديب خلق اناني ، لا يرى حرجاً في اختطاف أية امرأة سائغة له فهو اباحي يقول:

« لقد راجعت حسابي مع الطبيعة فوجدت ان امتزاجي بامرأة خاصة هو بدعة لا تنسيني امتزاجي بغيرها »

وهو بهذا الخلق الجامح ينظر بعينين جائعتين الى بيمالا زوج الأمير الكريم ، وهو بهذا النظر يريد ان يخلق من وداعة المرأة الشرقية الحفيظة على عقيلها وزوجها ، امرأة ثائرة على البيت تستقبل العالم كأن الرجال جميعاً متع لها ولشهواتها الجامحة

وانه لا يرى في هدوء المرأة ودعتها الا استكانة للمذلة وتلبية للقيود والاغلال التي رسفت فيها القرون تلو القرون . ولئن فكت المرأة من أسارها واطلق لها العنان لانطلقت كالعاصفة أو كالنار لا تبقي ولا تذر — وانهُ لزعيم ثائر يريد ان يستهوي الجماعات كذباً وتزويراً تلبيةً لاهوائهِ ، ويريد ان يوجه الجماعات كما يريد ، وان يستولي عليهم استيلاء الكاهن الفاسق الذي تعبده الجماعات وتحج اليهِ مصليةً عابدة — وانهُ لهذا لابد له من امرأة ذات نفوذ وهي امرأة الأمير اللين . ولا بد أن يخلق منها تمثالاً سافراً ، هو لعبته ومستغله وهو آله الجماهير يقدمه لهم إلهاً فاعبدوا هذا اله الوطن ! ان من يصطنع من المرأة إلهاً فلهُ أن يستمتع بهِ وان يهدمهُ متى شاءَ

ولقد احس تاجور ان الثورة الهندية قد افسدت على المرأة الهندية حياتها الزوجية الوادعة فأطلقتها دون حيطة أو تريث الى العالم الخارجي — ولقد ابان ذلك على لسان سانديب فقال :

« ان بيالا لتضطرب كما تضطرب الحمامة حين سقوطها في الفخ . من حقي أن أفرح لهـذا المشهد كما يفرح الصياد

اني ما غنمت بيالا بالضعف والوهن بل اني ألهبت جناحيها برجولتي وبأسي وقوتي . . سأوحد بيالا بالوطن — ان هذا الهواء الغربي العنيف الذي نزع حجاب الضمير عن البلاد سينزع عن بيالا حجاب الزوجة ، نرى منظراً رائعاً من الخلاص وتحل قيودها دون خجل ، بل دون أن تشمر . ولن تتردد لحظة في الجنوح الى القسوة. ان القسوة من طبيعة المرأة ولها من قوة الارادة ما تصون به جمالها

ان المرأة لو استطاعت ان تتخلص من القيود الحديدية التي قيدها بها الرجل لرأينا على الارض مثال الالهة « كالي » الهة الفجور والقسوة والازدراء !

اني من عباد هذه الالهة . اني سأعبدها يوما باسم بيالا حين أجلسها في الهيكل على عرش التخريب الذي أعده لها

هذا هو الشيطان الذي أفسد حياة الأمير واخرج حواءه من جنته كما صوّر تاجور

***

ولكن الزوج النبيل رأى ان زوجته قد أصبحت فريسة لتيار جرفها ، ولم يشأ ان يكون عنيفاً ، فليس من طبعه العنف فيصد زوجته عن ارادتها ، وانهُ ليخاطبها :

« اني أيتها الزوجة الحبيبة لاعلم اني أقيد نفسي بقيد من حديد اذا قيدتك ، وأية فائدة لي من القيود ، تلك حريتك فأنا أحب أن أكون زوجك لا سجانك »

لقد شاءَ تاجور أن يصور لنا زوجاً مثاليًّا ، لا يشعر بأية قوامة على زوجته ، بل يلذ لهُ أن يدع الزوجة حرة مباحة العاطفة والتفكير والخواطر ، وانه عند ما يهب زوجته دستورها في الحياة فانما هو الآخر سينال من قلبها أعز شعور وأكرم وجدان — وانه ما كان لينال من قلب المرأة هذا الحنان الصافي اذ هو استبد بها وأكرهها على ما يحب ويريد ويرضى ، فالمرأة عاطفة وقلب، وما كانت لعاطفة ان تنزع قسراً ، وما كان لامرأة أن تهب نفسها خالصة لزوج طاغٍ جبار

طافت هذه الاحلام الكريمة في رأس الزوج وآمن بها، ولكن زوجته امرأة تعبد القوة وترتضي من الزوج قسوته وعنفه وشدته ، لانها تعشق في الزوج رجولته ، وتأبى عليهِ الليونة والدعة ، وهي امرأة ، والمرأة مخلوق جبلته السنون على أن يكون مأموراً فيطيع، وضعيفاً فيرضى وذليلاً فيخاف . انها متى صادفت ذلك الزوج المثالي أتهمته بالخور وضعف العزيمة لانه لا يعرف كيف يضع العنان في فم المرأة ، إنه رجل ضعيف لانه قد فقد الغيرة وحزم العنف والشدة ، وهي إنما تعبد في الرجل القوة فتخضع والعنف فترضى

« ان بيالا لم تعرفني حق المعرفة ، فاني اعد العنف والضغط ضعفا وخوراً ، فليس يخاف من العدل غير الضعيف ، فهو الذي ينزع عن واجب العدل ويحاول نيل النتائج مبتسرة من طريق الظلم والقهر والاستبداد . ان بيالا ترتضي الغضب والظلم من الرجل لانها لاتستطيع ان تحترم من لا تخافه »

ولقد حرر الزوج زوجته من جميع الالتزامات الزوجية ، لأنه قد وجد فيها القيود والأغلال فتركها مطلقة وكانت ربة بيته وملكة آماله ، فخرجت الى العالم تحملها تيارات مختلفة ، فلما ان استتب بها الأمر وسط هذه التيارات الجارفة ، تغلبت الغريزة فاندفعت تحت تأثير الايحاء والاستهواء فأخذت تبحث عن هذا الاله القوي الجبار الذي يأمر ويقضي والذي لم تجده في زوجها الوادع ، لقد أخذت تبحث عمن يشبع غرائزها فوجدت هذا الاله العنيف في شخص الزعيم ساند يب فعبدت فيه ما افتقدت في زوجها من قوة وعنف واستبداد . وأخذت تنكر على زوجها خلقه وتتهمه بأنهُ ضعيف قد فرَّط في حق الزوجة والوطن . انه لم يشترك في هياج أو تخريب أو تهليل للزعيم ، وهذه كلها أقيسة للوطنية الصادقة ، ان الوطن هو ساند يب فاذا لم يحب زوجها ساند يب فهو خائن لا يحب وطنه ، ولقد أحسَّ الزوج بهذا الحرج من زوجتهِ ولكنهُ مع ذلك تركها وعقيدتها لا يعنفها ولا يثيرها ولا يصدها ، لأنها قد أصبحت امرأة أخرى ، قد فقدت إرادتها ، تسير دون وعي منها متأثرة بشخصية ساند يب ، ولقد شاء ساند يب أن يمد يده الى مال الأمير فدبر مؤامرة أحكم تنفيذها بأن أفهم الزوجة بأن الحركة الوطنية في حاجة الى مال وان المال لا بد منه وان الاغنياء والامراء قد أمسكوا أيديهم لضعف وطنيتهم ، فأخذت الزوجة تغضب على هؤلاء المسكين فدبر الأمر حتى اجتمع الرأي لديها على أن تسرق مال زوجها لتمد ساند يب بما طلب تلبية لنداء الوطن ، والزوجة لا ترى حرجاً فيما أتت ، فلقد أصبحت لصة أمام الضمير والقانون ولكنها كالنائم المستهوَى لا ارادة له ولا بصر

والزوج قد يعلم بكل شيء ، وقد يجد ان امرأته قد اثمت ولكنهُ يلتمس لها المعاذير ، وأنى يُجدي التوجيه أو النصح وقد أفلت العصفور من القفص !

فهو يحدث نفسه عند ما علم ان بيمالا قد سرقت مالهُ لتمد بهِ الحركة الوطنية فيقول :

« ان بيمالا قد اضطرت الى سرقة المال لانها لا تستطيع ان تنتهج سبيل الوصول الى هذا المال من طريق اقناعي ، ولانها تعلم اني اخالف آراءها باستبدادي وتمسكي بآرائي ، فان الذين يكونون مثلي لا يتقيدون إلا بفكر واحد — ولن يتفق مع هؤلاء المستبدين بأفكارهم إلا الذين يخادعونهم — فالعناد لا يصلح الرفيق ويفسد الزوجة »

وكم كانت بيمالا صادقة كل الصدق عند ما أحست أنها قد امتلكت قلب زوجها وانه قد أحاطها بقلبهِ دون عقلهِ فهي تقول

« اذا شاء الرجل ان يسكر فويل له اذا سكر من قلب المرأة »

ولقد أصبح الزوج يتردد في فهم العلاقة الزوجية ، فهو يحدث نفسه اذ وجد زوجته قد خرجت من بيته الى العالم فيقول :

امرأتي ؟ وما معنى المرأة ؟ انها لفقاعة جميلة امتلأت بأنفاسك وحفظتها الليل والنهار ، ولكنها مع ذلك تنفجر وتصبح هباء لاضعف اصطدام

امرأتي ؟ ولكن كيف أتى لي هذا التملك ؟ فلو قالت لي اني لنفسي . فكيف أقول لها ، لا ، بل انك لي أنا ؟ وهل استطيع ان أحبس شخصية كاملة في حدود هذا الاسم ، فأسجن شخص بيمالا في لفظة الزوجة ؟

ولكن الزوج عاد يوماً الى نفسه يحدثها مؤنباً فيقول :

« وكنت أحسب انها حين تتخلص من الواجبات البيتية تكون قد تخلصت من الظلم ولكني رأيت عندما اندفعت من البيت الى العالم الخارجي ان الظلم قد سرى الى دمها وانه فطري فيها ، فهي تميل الى القسوة حتى انها أصبحت لا تنكر القتل . أما انا فاني ارى أداء الواجب اخلالا به اذا كان هذا الاداء من سبيل العنف وبتأثير الهياج . ولاشك انها تعدني ضعيفاً وغير وطني وتنقم علي لاني لا اعدوا مع صبيان الازقة متظاهراً أنشد معهم النشيد الوطني »

وأخيراً لا بد للفضيلة أن تنتصر . فيستمع الزوج نداء الضمير يحاسبه :

« لقد اطلقت العنان لزوجتي فانطلقت دون وعي منها ، وتلاشت هذه المعاني المقدسة التي كانت تشرق على بيتي منذ دخلته بيمالا بقلب غفل ، وكانت تراني زوجها المعبود وتجد سعادتها في ان تشعر دائماً بولايتي عليها . لقد كنت ظالما حينما حاولت ان اجعل بيمالا كما تريد فطرتي لا كما تدعو فطرتها هي . لقد كنت مستبداً عندما اطلقت لها عنان الحرية . لقد تأثرت بشخصية ساندبب لانها لم تجد في زوجها هذه الشخصية التي يجب ان تخضع لعظمتها فتعبدها وتسجد امامها دائماً . ان شخصية الرجل يجب ان تقود الزوجة دائماً وإلا بحثت الزوجة عن معبود آخر يقودها . امرأتي ؟ لست املكك ولكنك وديعة ذات شخصية لها معانيها وقيمها — وليست الزوجة بمادة تصب في القالب الذي يريده الرجل

وانتصرت الفضيلة مرة أخرى عندما جلست الزوجة يحاسبها ضميرها فتقول :

«لابد لي من ان اعترف بأني حين سرقت مال زوجي واعطيته لساندبب انقطع بيني وبين ساندبب كل امتزاج روحي وذهب كل ما كان له علي من السلطان وصرت اسمع اقواله فأجدها جافية مبتذلة بعد ان كانت وحياً مملوءاً بالعاطفة واليقظة والحياة »..« ويح لي انى اريد ارجاع المال المسروق ولكن ارتكاب الذنب ليس بالامر العسير فالعسير هو التكفير عن هذا الذنب » ... « رباه اغفر لي هذه السقطة واسمعني تلك النغمات الشجية التي اسكرتني عندما كنت اصلي ، وهون علي عذابي لاستطيع احتماله ، فليس غير نغماتك اللاهجائية يحيي ما تلف ويطهر ما تدنس . املأ بموسيقاك بيتي ، انها كل ما بقي لي » ...« ان الذي يقطع قلبي هو خوفي ان لا تعود سعادتي الزوجية الى ما كانت عليه من قبل . ان الله يستطيع ان يخلق جديداً ولكن هل يستطيع ربي أن يعيد خلق ما تلف وتلاشى ؟

« لقد دفعتني عاطفة الثورة ففقدت منزلي وضللت سبيلي ، فلا اعلم الغاية من سيري . اني متشردة في ظلام الليل

ولكن تاجور قد أعلن رأيهُ في المرأة منذ كتب في صباه مسرحيته الصغيرة الخالدة « شيترا »

وشيترا ابنة ملوك مانيبور الذين أعطاهم الله عهداً أن يكون من نسلهم دائماً ذكر يرث ملكهم ويحمي ذمارهم ، حتى جاءت شيترا أول من ولدت أنثى ، فشاء أبوها أن ينشئها تنشئة الرجال ، وأن يروضها على الحياة منذ حداثتها ، على أعمال الحرب والصيد والفروسية فألبسها لباس الفرسان وتركها في الغاب بين الوحوش تستأنسها وتصيد منها وظلت على هذه الحال لم ترَ عينها رجلاً ، فظن أبوها انهُ قد قهر فيها أنوثتها ، وانهُ قد عالج ما فوّتهُ عليه القدر من حرمان الولد الذكر الذي سيرث ملكه إذ استطاع أن يخلق من أنثاه ذكراً سويًّا

ولكن شيترا خرجت على عادتها ذات يوم الى الغاب في طلب الصيد فالتقت بشاب ناسك يدعى أرجونا وهنا تحدثك شيترا فتقول :

« لقد رأيت وانا في الغاب وحدي رجلا قد رقد في سبيلي فأمرته أن يفسح لي الطريق فلم يعبأ بأمري فوخزته بذبابة رمحي فوثب ناهضاً ، عالي القامة كأنه لسان من نار قد اندلع فجأة من هشيم الرماد ، وافتر ثغره عن ابتسامة حلوة . . ولأول مرة في حياتي شعرت بأني أنثى ووثقت بوجودي أمام رجل . . . لقد كسرت عودي ونشابي ، والقيت الى النار سهامي ، وازدريت ساعدي بعد ان شدتهما الرماية . . ايه اله الغرام ، لقد طوحت بكبريائي ورميت باسترجالي الى حضيض الارض . اني اسحق كل تجاربي تحت قدميك فهات دروسك ، وهبني قوة الضعيف العاجز وسلاح اليد العزلى »

وخلعت شيترا لأول مرة في حياتها لباس الرجال وسعت الى أول رجل رأته عيناها في أساور وحرير وأرجوان وحجال مشيرة الى مظهر الرجولة وثيابها بقوتها

« لقد كانت هذه الثياب دليل ذلي وعاري »

وأي لوعة تمتزج بقلب شيترا يوم سمت الى آلهة الجمال ليمنحها جمال الأنوثة الغالية واذ عاد اليها جلال الأنوثة أحست انها المرأة التي يجب أن تستعبد الرجال وانها لتقول لزوجها دائماً :

ان الهدية التي اقدمها اليك وانا فخورة معجبة هي قلب المرأة

ويوم ذهب جمال الشباب عنها خافت أن يعافها الرجل فقالت له :

« نعم اني لفخورة ان اهدي اليك قلب المرأة ففي هذا القلب قد ثوت آلام فتاة ، وانطوت آمال شابة هنا في هذا الغاب نشأ الحب محاولا ان يخلد حياة الجمال ولكنه عجز عن ادراك غايته ، وهو عجز شريف عظيم ، لانه لا يستطيع ان يقهر الطبيعة — واليوم وقد ذهبت نضرة الجمال عني فاقبل هذه المرأة كجارية تخدمك بقية ايامك »

باب المراسلة والمناظرة

تراث العرب العلمي

مراجعة وتقدير : لأحمد ابو الخضر منسي

رافقت مجلة المقتطف الغراء السنين الكثار ، وتداولتها عهود وأحقاب ، وغير وأحداث وهي في ميدانها مُـرِبـة تسابق في نشر المعارف وتصول في خدمة العلوم والآداب

وأنمى مجهودها وزادها فضلاً انها ما فتئت منذ نشأت ، تعمل على نشر المؤلفات ألواناً وأشتاتاً ، واذاعة آثار المؤلفين والمترجمين بين الناس ، كهدايا لمشتركيها ، ولغيرهم أن يقتنيها بالشراء في الاسواق

ويا حُسنَ كتب نشرتها ! طائفة جليلة من مؤلفات ومترجمات علمية وأدبية كنفيس اللؤلؤ والجمان : (مصر الاسلامية) ، (تراث مصر القديمة) ، (رجال المال والاعمال) (جمهورية افلاطون) ، (أساطين العلم الحديث) ، (آفاق العلم الحديث) ، وما الى ذلك من الأسفار النفيسة التي أفادت بنشرها العلم والادب في ربوعنا

واذا كان للمؤلفين والمترجين الكتب النافعة فضل ، فان للناشرين الذين يعاونون في اذاعة هذه الآثار فضلاً مثلهُ ، ولاسيما في هذا البلد ، وفي هذا الزمن لعجز غير القادرين من اصحابها على الانفاق . ويزيد فضل (المقتطف) استمرارها في نشر الكتب في سنين هذه الحرب الضروس ، وأنت عليم بما صار اليه الورق من فاحش الغلاء

وكان آخر ما أخرجتهُ مجلة المقتطف ، هديتها السنوية لعام ١٩٤١ ، كتاباً من أنفس الكتب ونادرها ، هو « كتاب تراث العرب العلمي » لمؤلفه الاستاذ العالم قدري حافظ طوقان ، مدير كلية النجاح بنابلس وأستاذ الرياضيات فيها

***

طغى سيل الحضارة الاوروبية الطامي ، وكاد يجرفنا ويطوي ذكرنا كطي السجل للكتاب وإذ كنا نسينا تاريخنا أو تناسيناه ، وأغفلنا ماضينا ونبذناه ، وسهونا عما لنا من مجد تليد ، وحضارة بهرت عيون المبصرين ، فتخاذلنا وحلا مذاق النوم في عيوننا ، وتغلغل الضعف في عزائمنا وهممنا ، رحنا نقلد أولئك الاوربيين ، في كل متجه من أمورهم تقليد المستضعفين للاقوياء ، نظن الحسن البهيج كل ما صنعوا ، وانهم من الابداع بحيث قد أتوا بما لم تأت به

أوائلنا ، ولو لم نُعرِض عن قديمنا وماضينا ، ولو أبقيناه موصول الأسباب بحاضرنا ، لباهيناهم ببدائعنا ، ولكان لنا شأن غير هذا الشأن

بل هؤلاء الاوروبيون لمَثَل طيب لمن يسارع منا الى تقليدهم دون وعي ، في الاحتفاظ بقديمهم ، والتفاخر بقديمهم. وما سموا لعمري ، وطاروا في الافق الاعلى ، إلا بمركوم ومدّخر قديمهم ، ضموه ضم الحاذق الصَنَع في سمط واحد الى حديثهم الباهر ، وحاضرهم الزاهر

انما هم مثلٌ لنا ، لا في حفظ قديمهم في الادب والعلم فقط ، بل في حفظ قديمنا نحن واسفاه ! هم هم الذين أذاعوا قديمنا في العلوم والآداب ، وهم هم الذين عرفنا منهم ، ما أخرج علماؤنا وأدباؤنا ومخترعونا ومكتشفونا الاولون ، من عجائب الصنعة ، وذخائر البدائع ، ونفائس الاسفار

انما الفضل كل الفضل لأولئك العلماء الاوروبيين الذي صُبُّوا على دراسة العربية ، وتفقّهوا فيها ونعتوا بالمستشرقين في اكثر ما نعلم الآن مما غبر من مجد لنا كالطود ارتفاعاً ، وما ابدع اوائلنا من فنون العلوم ، وآيات الاختراعات والاكتشافات ، ونفائس المؤلفات والترجمات

وإنك لتعجب حين نتلو عليك ما ورد في كتاب (تراث العرب العلمي) هذا في صفحة ١٧٩ اذ يحدثنا الأستاذ المفضال قدري حافظ طوقان عن الخازن أحد أفذاذ علمائنا السالفين فيقول:

« ومن الغريب ان قنصل روسيا في تبريز في منتصف القرن الماضي ، عثر صدفة على كتاب ميزان الحكمة . وقد كتب عنهُ عدة مقالات في احدى المجلات الأميركية . ولعل العلماء الالمان اكثر العلماء اعتناء بآثار الخازن . » ثم يقول :

« ولا اكون مبالغاً اذا قلت انهُ لولا قنصل روسيا N. Khanikoff وبعض المنصفين من المستشرقين والباحثين لما عرفنا شيئاً عن الخازن . ولما كان في الامكان نشر هذه الترجمة »

ويقول في صفحة ٢٤٠ في الترجمة لابن حمزة المغربي واضع اصول اللوغارتمات :

« نقول هذا مع اعترافنا بما بذله المستشرقون من علماء اوروبا واميركا في البحث عن مآثر اسلافنا ، وفي الكشف عن غوامضها . وتدفعنا الصراحة العلمية الى القول انهُ لولا هؤلاء لما عرفنا شيئاً عن تراثنا وما وصل اليهِ المسلمون في العلوم والفنون . ونرى واجباً علينا ان نصرّح ان الفضل في اظهار جهود العرب الفكرية في ميادين المعرفة المتنوعة يرجع فقط الى المنصفين من علماء الافرنج لا الينا»

بيدنا الآن ، ونحن نكتب هذه السطور كتاب (اكتفاء القنوع بما هو مطبوع) لمؤلفهِ ادورد فنديك ، وهو من أجل التآليف العربية فيما اخرجت المطابع الشرقية والغربية من نفائس الكتب العربية ، على غرار كتاب الفهرست لابن النديم ، وكتاب كشف الظنون لكاتب شلبي

فما تطرف عيننا على اسم مصنف فيه من الوف المصنفات العربية المختلفة ، من عصر

الجاهلية الى غاية القرن السابع الهجري الاّ ونجد ان طابعيه وناشريه العلماء هم المستشرقون دي سلاين ، وشولتنز ، ولاندبرج ، ودو ساسي ، ومولر ، ووستنفلد ، وهوايت ، وآماري ، ودوزي ، وفلايشر ، وكثيرون أمثالهم ، وان هذه الألوف من المؤلفات العربية أخرجتها مطابع لايبسك ولايدن ، واكسفورد ، وباريس ، وفيينا ، وكوبنهاجن ، وبطرسبورج ، وغيرها من أمهات مدن اوربا

وانك لتقضي عجباً حين تعلم أن انفس ما أخرجه علماؤنا ، وأدباؤنا وشعراؤنا ، ولغويونا من مؤلفات في تلك العصور الغابرة ، خطّاً وطبعاً ، محفوظة في عصرنا هذا في خمس عشرة خزانة من خزائن الكتب في برلين وجوتا ولايبسك في المانيا ، وقصر الاسكوريال في اسبانيا ، وروما وفلورنسة في ايطاليا ، وكوبنهاجن ، في الدانمرك ولايدن في هولنده ، ولندن واكسفورد في انجلترا ولوند وأبسالا في أسوج ، وباريس في فرنسا ، وبطرسبورج او لننجراد اليوم في روسيا ، وفيينا في النمسا

فلا غرو ان نهش ونبش ، ونرحب ونهلل لهذا الكتاب القيم (تراث العرب العلمي) اذ نحن أولى بأنفسنا ، ونحن بذكر قديمنا والتعريف بعلمائنا ونوابغنا الذاهبين ، أحق وأجدر

أراد الأستاذ طوقان بعث الثقافة العربية فينا وفي هذا يقول :

« ان بعث الثقافة من أهم العوامل التي ترتكز عليها النهضات والحركات . وان الأمة التي تبغي مجداً عليها ان تخلق في الأفراد روح الايمان بقابليتهم على الابتداع ، وان تنشيء فيهم الشعور بالعزة القومية ، وذلك بالاهتمام بماضيها وربطه بحاضرها ، وتعريف الناشئة بجهود أسلافهم ومآثرهم في ميادين العلوم ، وما كان لها من اثر في تقدم الحضارة »

« وقد قامت الأمة اليونانية مثلاً في حركتها الاستقلالية في القرن الماضي ، وتوفقت فيها ، واستطاعت أن تبني كياناً وتكون شخصية دولية . وكان من أهم عوامل نجاح هذه الحركة الاهتمام بالماضي والرجوع اليه . فلقد قامت الهيئات هناك وكشفت عن مآثر علماء اليونان ونوابغهم في العلوم والآداب والفلسفة ، وأظهرت فضل أسلافهم على المدنية وبينوا للناشئة ان أجدادهم كانوا قادة هذا العالم وانهم يستطيعون باقتفاء آثارهم ان يعيدوا تالد مجدهم وباذخ عزهم فزرعوا بذور القابلية والاعتزاز في الافراد وأثمرت هذه البذور ثمرات يانعات عادت على اليونان بالاستقلال والحرية . وهناك من الأمم من لا تاريخ لها فراح علماؤها يخلقون لأمتهم ماضياً ويعملون على اخراجه الى ناشئتهم في أحسن صورة ، فتمكنوا من خلق روح الاعتزاز ومن ايجاد الاقدام والارادة في نفوس الافراد والجماعات »

وتهزه حزازة ، وتهيجهُ أحزان فيقول :

« وأصبحنا هدَّامين لكياننا ، منكرين ميراثنا لا نرى فيه خيراً ولا جمالاً ، ولا متاعاً ولا انتفاعاً ، ورحنا مفتونين بالحضارة الغربية ، عاكفين عليها ، مهملين تاريخنا وحضارتنا . وأصبحنا نعرف عن شكسبير ودانتي وجيتي وفراداي ونيوتن واديسون وباستور ، أكثر مما نعرف عن المتنبي والمعري والبيروني والبوزجاني والخوارزمي وابن الهيثم والبتاني وجابر بن أفلح وابن رشد والكندي وغيرهم ، وأصبحنا نرى في المدنية الاوروبية كل الخير وكل الجمال ، وكل المتاع وكل الانتفاع »

حدَّثنا الاستاذ طوقان ، في كتابهِ عن مآثر العرب في العلوم الرياضية والفلكية وما وضعوا ، وما ابتدعوا وما اكتشفوا ، في أشتات هذه العلوم وأقسامها ، ونقش لنا صوراً أتقن ألوانها ، وأحكم أشكالها لطائفة جمة من علمائنا وأقطابنا العباقرة الاولين منذ القرن التاسع للميلاد الى السابع عشر

والتراث الذي أحرزناه وضربنا عنهُ وأسفاه ! صفحاً ، وغضضنا عنهُ طرفاً ، طِلاع الارض سعة وامتداداً ومنتهى السماك علوًّا وارتفاعاً ، ومبلغ النجوم كثرة وتعداداً . بناءٌ ضخم عجيب ملأت جوانبه الفضاء وعانقت شرفاتهِ قطع السحاب . تروعك عجائبه ، وتبهرك بدائعه . وانك لتهتز طرباً وتترنح عزةً واختيالاً حين تعلم أن علماءنا أولئك كانوا أساتذة أوروبا ، أخرجوها من الظلمات الى النور ، وجلوا لأبصارها ما استسر دونها من علوم الفرس والهند واليونان في غابر الدهور . يقولُ الاستاذ طوقان في مقدمة كتابهِ النفيس صفحة ٢ :

« وقد قال أحد علماءِ الافرنج ان بعض ابتكارات واختراعات حسبناها من عملنا ثبت بعد قليل أن العرب سبقونا اليها ... قال فلوريان : « كان للعرب عصر مجيد عرفوا فيهِ بانكبابهم على الدرس وسعيهم في ترقية العلم والفن . ولا نبالغ اذا قلنا ان أوروبا مدينة لهم بخدمتهم العلمية ، تلك الخدمة التي كانت العامل الاول والاكبر في نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد ... وقال العالم الفرنسي الكبير سيديو : « ان نتاج أفكارهم الغزيرة ومخترعاتهم النفيسة تشهد انهم أساتذة أهل أوروبا في جميع الأشياء »

وذا ما أحب الاستاذ طوقان تفصيلهُ وتبيانه في كتابه هذا . فذكر لنا ان أجدادنا العرب هم واضعو أساس الطريقة العلمية الحديثة ، والناقلون لهندسة اقليدس فعرفها الاوروبيون عنهم ، والمقتبسون الارقام الهندية بعد تهذيبها ، فاتخذها الاوربيون عنهم . وانهم اليهم مرجع الفضل في وضع علم المثلثات بشكل علمي منظم مستقل عن علم الفلك ، وفيما أسبغوا عليه من الاضافات القيمة التي جعلت الكثيرين يعدونهُ علماً عربيًّا كما عدُّوا الهندسة علماً يونانيًّا

ونقلوا علم الفلك فصححوا بعضهُ ، ونقحوا بعضاً وزادوا فيه ما زادوا ، وأكبوا على

الارصاد فصححوا القديم منها وأتوا بالحديث الطريف ، وأنشأوا المراصد الجمة ، وابتدعوا الآلات الفلكية العديدة . وهم القائلون باستدارة الارض وبدورانها على محورها ، والكاشفون بعض أنواع الخلل في حركة القمر . ولقد كتبوا عن كلف الشمس وعرفوها قبل أوروبا . ووضعوا للنجوم أسماء استعملها الفرنج في لغاتهم بألفاظها العربية

وهم الذين وضعوا علم الجبر ومهدوا لاختراع ذلك النوع الرياضي المعروف باللوغارتمات واخترعوا رقاص الساعات ، وكأين من أناس كانوا يعتقدون أن الرقاص من مخترعات العالم الفلكي غاليليو ، ومخترع الرقاص هو العالم الفلكي المصري ابن يونس الذي سبق غاليليو في معرفة بعض القوانين التي تتعلق بالرقاص . وقالوا بالتفاعل بين الاجرام السماوية المعروف بالجاذبية العامة ، وان الاجسام تتجه في سقوطها الى مركز الارض بقوة جذبها لها ، وبينوا العلاقة بين سرعة سقوط الجسم نحو سطح الارض والبعد الذي يقطعهُ والزمن الذي يستغرقهُ ، مع ان المتعارف هو ان نيوتن السابق الى هذا وصاحبه

ووضعوا علم البصريات . واعترف العالم الفرنسي لوتير فياردو بأن كبلر اخذ معلوماته في الضوء والانكسار الضوئي عن كتب ابن الهيثم. وابن الهيثم هو الذي بحث في قوى تكبير العدسات ، ويرى كثيرون ان ما كتبهُ ابن الهيثم قد مهد السبيل لاستعمال العدسات في اصلاح عيوب العين . وهو اول من كتب في أقسام العين ورسمها بوضوح تام ، ووضع الاسماء لبعض اقسامها فترجمها الفرنج الى لغاتهم

وهم الذين عرفوا ظواهر ضغط السوائل وتوازنها وصعود مياه الفوارات والعيون الى أعلى ، وكشفوا عدة امراض منها مرض الانكاستوما . وكان المعروف ان توريشللي هو أول من بحث في مادة الهواء ووزنه ، ولكنه ثبت ان العرب هم الذين بحثوا ذلك ، وبينوا ان للهواء قوة رافعة كالسوائل ، وان وزن الجسم المغمور في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي ، وان مقدار ما ينقصه من الوزن يتبع كثافة الهواء

ووضعوا عدة تصحيحات جغرافية نفيسة ، وكانوا أول من شرح ظاهرة قوس قزح ، وانها تحدث من وقوع أشعة الشمس على قطيرات الماء المستوى في الجو عند سقوط الأمطار وانكسارها فيراها المبصرون على تلك الحال

أرأيت أيها الشرقي العربي هذا الكتاب كيف أتاك بالذي هو لك عزة ومفخرة ، ولنفسك هزة تأخذك فتطير بك الى الآفاق العلى ، تصل حاضرك بباهر ماضيك ، وتلائم حديثك بمتانة القديم الذي أخذته عن سالفيك . فتنهض نهضة ترد عليك ما فرط من غابرك الذي نصع فازدهى فبهر العالمين . انا لنشكر للاستاذ العالم الفضال حافظ قدري طوقان سعيه الحميد ومجهوده المجيد . جزاه الله عنا وعن العلم والحضارة العربية أجزل الجزاء وأوفاه

باب الأخبار العلمية

افتتاح جامعة فاروق الاول

يوم تاريخي مشهود في حياة الاسكندرية الجامعية

افتتحت في صباح ١٧ اكتوبر الدراسة في جميع كليات جامعة فاروق الاول فكان يوماً مشهوداً في تاريخ الاسكندرية العلمي وأخذت في الصباح الباكر وفود الطلبة والطالبات ترد على الكليات وما ان انتظم عقدهم حتى عقد العمداء كل منهم في كليته اجتماعاً تاريخيًّا القى فيه بحضور هيئة التدريس والطلبة كلمة الافتتاح

وكان مما قاله الدكتور زكي عبد المتعال عميد كلية الحقوق انه باسم الله العلي القدير يفتتح العام الدراسي للكلية واذا ذكر العام الدراسي الاول فانما يقصد بذلك الكلية الجديدة في الجامعة الجديدة

وقال ان الجامعات القديمة كانت تنظم في العراء كمدرسة المشائين في عهد سقراط واتخذت المساجد في اول عهد الأسلام معاهد لدرس العلم وان مصر حفظت الثقافة للعالم سواءكانت ثقافة فرعونية او يونانية او رومانية كما حفظت حضارة الاسلام

وأشار الى تاريخ الاسكندرية العلمي وقال: انها بافتتاح جامعة فاروق الاول تصل حاضرها بماضيها البعيد

وبلغ عدد طلبة كلية الحقوق ٢٠٠ طالب منهم ثلاث طالبات

والقى الدكتور حسين فوزي عميد كلية العلوم كلمة أشاد فيها بعظمة هذا اليوم التاريخي وأشار الى ان القاهرة تباهي بقدم الجامعة الازهرية على ان الأسكندرية التي تفتتح جامعتها اليوم لا تنسى انها كانت مهداً لاولى جامعات العالم

وأوصى الطلبة بالدرس والتحصيل وتوثيق الروابط بين الطالب والاستاذ وحرية الرأي

وبلغ عدد طلبة هذه الكلية في السنة الاولى ٧٣ طالباً وفي اعدادي الطب ٧٤ طالباً منهم طالبة

وتحدَّث الاستاذ عبد الحميد العبادي عميد كلية الآداب الى طلبته موجهاً ارشادهُ اليهم باعتبارهم طلاب الآداب والفنون وانهم سيعملون في المستقبل على رفع مستواها في مصر وهي في حاجة الى نهضة أدبية تقوم على الأسس الحديثة جهد الطاقة

وبلغ عدد الطلبة في هذه الكلية ٢٥٠ طالباً منهم ٢٠ طالبة

واكتملت في سنيها الاربع أقسام اللغتين العربية والانكليزية والفلسفة

وقال الاستاذ زكي حسن عميد كلية التجارة ان رسالة الكلية هي اعداد طائفة من

الشبان المصريين يستطيعون في المستقبل وبعد وقت قصير ان يتقلدوا الوظائف ذات المسؤولية في المنشآت التجارية والصناعية والمالية والدوائر الحكومية وسيكون أهم غرض لهذه الكلية تربية ملكات الاستقلال في الرأي والقدرة على الحكم الصائب في الأمور والميل الى البحث

وبلغ عدد طلبة السنة الاولى فيها نحو ٥٠ طالباً منهم طالبة واحدة

وكان كل من صاحب العزة مصطفى عامر بك وكيل الجامعة والاستاذ فريد ابو حديد السكرتير العام والأستاذ حسني عبد الرحيم معاون كلية الحقوق يشرفون على النظام في اثناء الأفتتاح

قياس الاشعة التي فوق البنفسجي

صنع المهندسون الكهربيون بشركة وستنغهوس الاميركية جهازاً جديداً دقيق الاحساس بالاشعة التي فوق البنفسجي فيمكن العلماء من قياسها في مواقع مختلفة على سطح الارض . وهذا الجهاز يحتوي على فلز جديد يقذف كهيرباته عندما تقع عليه هذه الاشعة . ولا يقذفها إلاّ عند وقوعها عليه . وتجمع الكهيربات المنقذفة منهُ في حجرة صغيرة ثم ينطلق المجموع منها فيحدث تفريغاً كهربيّاً يسيراً . وعندما يحدث هذا التفريغ الكهربيّ يُعلم أن قدراً معيناً من الاشعة التي فوق البنفسجي قد وصل الارض من الشمس في ذلك الموقع

وقد صنع هؤلاء المهندسون عشرين جهازاً من هذا القبيل لمصلحة الأحوال الجوّية في وشنطن العاصمة فوضعتها في مراصد الأحوال الجوية في منطقة تمتدُّ الف ميل . والغرض منها الفوز بالحقائق الخاصة بمقدار هذه الاشعة ، فتضاف الى ما يعرف بأساليب أخرى عن الأحوال الجوية

وهذا يتيح للمصلحة أن تصف الاحوال الجوية في الايام التالية وصفاً أدقّ مما كان مستطاعاً قبلاً

ذلك بأن مقدار الحرارة والضوء الواصل الى الارض من الشمس يتغيَّر بتغير كثافة طبقة الاوزون في أعالي الغلاف الغازي الذي يحيطُ بالأرض لأن هذا الغلاف يمتصُّ الحرارة والضوءَ فاذا كان كثيفاً قلَّ ما يصلنا منهما واذا كان رقيقاً زاد ما يصلنا منهما . والاوزون هو شكلٌ من أشكال الاكسجين، وكثافتهُ تزيد على كثافة الاكسجين خمسين في المائة . والاكسجين يتحوَّل أوزوناً بفعل الاشعة التي فوق البنفسجي

***

وهذه الحقائق متى جُمعت وبوِّبت وسهِّلت أساليب استخراج مقتضياتها ، لا بدَّ ان تُجنى فوائد عملية في الصحة والزراعة وما أشبه

نزع اللوزتين بغير ألم أو رهبة

كانت عمليـة استئصال اللوزتين من العمليات التي يخشاها الصغير . إذ كان الصغير يؤخذ الى مكان غريب فتنزع ملابسهُ ممرضة غريبة عنهُ مهما تكن لطيفة بشوشاً ، ويحقن تحت الجلد حقنة مؤلمة للتخدير ، ثم تستأصل اللوزتان فلا يشـعر بألم ولـكنهُ يستيقظ في حجرتهِ بالمستشفى وفي حلقهِ ألم . وكلّ هذا من شأنهِ أن يبثّ الرهبة في نفس الصغير

ولـكن مجلة اللانست الطبية تشير في عدد حديث من أعدادها الى انهم عمدوا في مستشفى ابردين الى طريقة جديدة تخفف من كل هذا عن نفس الصغير فيُـعطى بضع ملاعق شاي من عقّـار يدعى نمبوتال Nembutal وهو منوِّم فلا يحتاج الصـغير بعد ذلك إلاّ الى حقنة مخدِّرة صـغيرة وتجري العمليـة ، فيجتنب الرعب الذي يسبق العمليـة ، وقد جرِّبت هذه الطريقة في سمائة حادثة فنجحت فيها نجاحاً باهراً وثبت انها مأمونة العاقبـة ويصحُّ الاعتماد عليهـا حتى في استئصال اللوزتين من أطفال لم يتجاوزوا سنة واحدة من العمر

وقد جرت العادة في مستشفى ابردين بادخال الطفل المستشفى في الليل السابق ليوم العملية فيعطى جرعة صغيرة من النمبوتال ، ثم جرعة أكبر منها في الصباح قبيل العملية . وقد يُـعهد الى الوالدة باعطاء الجرعة الأولى في البيت ولا تعطى الثانية إلاّ ثلاثة أرباع الساعة قبل العملية . وقد يستعمل « دلفينال صوديوم » Delvinal Sodium بدلاً من النمبوتال لأن ما يتبقى من أثرهِ أقلّ

عنصر الفلور والحرب

« الفلور سبار » ركاز معدنيّ كأنهُ حجر جيري مخضارّ على جانب من الشفوف وهو مألوف في أنحاء الأرض ولكن أغنى مناجمهِ المعروفة واقعة في منطقة بين ولايتي كنتكي وايلينوي الاميركيتين ، حيث الركاز قريب من منطح الأرض

ومن معدن « الفلورسبار » يستخرج عنصر « الفلور » ومركبهُ « فلوريد الايدروجين » . وكلاهما من المواد التي يأبى الباحثون على وجهٍ عام معالجتها أو تجربة التجارب بهما . فالفلور غاز مصفارّ سامّ شديد الفعل الكيميائي والالتهاب فاذا قربت قطعة خشب اليهِ اشتعلت . وهو يفعل في الزجاج ولم يصنع حتى الآن وعاءٌ يستطيع أن يقاوم فعلهُ الشديد ، فاذا أريد استعماله وجب أن يستعمل حيث يولّـد

أما مركّبـهُ فلوريـد الايدروجين (واذا حُـلَّ بالمـاء أصبح الحـامض

الايدروفلوريك) يحرق الجلد ولا يمكن نقلهُ الاّ في أوعية من رصاص . وهذا الحامض يستعمل في نقش الزجاج

ومن نحو عشرين سنة عني أحد خريجي جامعة ايلينوي بما يحوط الفلور والتجريب بهِ من خطر . فاستهواه . ووقف نفسهُ على دراسة العنصر ومركباتهِ . وفي سنة ١٩٣٩ اشارت مجلة « العلم » — وهي المجلة الرسمية لمجمع تقدم العلوم الأميركي — اشارة خاصةً الى مباحث هذا الرجل (الدكتور جوزيف سيمنز) وعدَّتها أحد وجوه التقدم الكيميائي العظيمة في تلك السنة

***

وفي أواخر يوليو الماضي أعلن الدكتور سيمنز ، انهُ كشف وجهاً جديداً لم يُعهد قبلاً لاستعمال «فلوريد الايدروجين». وهذا الاستعمال لهُ صلة وثيقة وان كانت غير مباشرة بالجهد الحربيّ الصناعيّ . فقد أثبت ان هذا المركّب وسيط Catalyst كيميائي وانهُ في الوسع استعمالهُ محلّ « كلوريد الالومنيوم » . و «كلوريد الالومنيوم » كان لا يستغنى عنهُ في صناعة المطاط وبنزين الطائرات ومصنوعات شتى غيرها . فإحلال « فلوريد الايدروجين » محلّ « كلوريد الالومنيوم » يوفر مقادير كبيرة من الكلور والألومنيوم وهما من المواد الحربية اللازمة

ان « كلوريد الالومنيوم » يستعمل وسيطاً في تركيب مادة « ستيرين » وهي أساسية في صناعة المطاط الصناعي المعروف باسم « بوتادين » . ثم هو يستعمل وسيطاً في صناعة تكرير مشتقات النفط . فتوفير « كلوريد الالومنيوم » على هذا الوجه اضافة علمية عظيمة الشأن من الناحيتين الصناعية والحربية. و«فلوريد الايدروجين» لا يحلُّ محل كلوريد الالومنيوم وحسبُ ولكنهُ يفوقهُ في بعض النواحي

أهناك سيار عاشر

السيارات حول الشمس تسعة اذا استثنينا النجيمات وهي على حسب قربها من الشمس عطارد فالزهرة فالارض فالمريخ فالمشتري فزحل فأورانوس فنبتون فبلوطو . وقد كشف بلوطو سنة ١٩٣٠. ولكنَّ الدكتور روبرت رتشردسن احد علماءِ مرصد جبل ولسن يقول إنه من المحتمل وجود سيار عاشر. ومردُّ قوله هذا إلى ان المذنب المشهور باسم مذنب هالي تأخر ثلاثة أيام عن موعده في مكان ما في رحاب الفضاءِ فعمد رتشردسن الى الحساب الرياضي الدقيق وقال ان وجود سيار عاشر كتلتهُ مثل كتلة بلوطو تقريباً وأقرب قليلاً الى الشمس من بلوطو ، كافٍ لإحداث هذا التأخير في المذنب هالي

ولسنا نعلم مبلغ ما يعلق بقول الدكتور رتشردسن من شأن علميّ الآن . ولكننا نذكر ان نبتون وبلوطو ، كشفا بالحساب الرياضي قبل ان يكشفا بالمراقب

بكتيريا تولد الفيتامين

كانت الكتب المنشورة في سنة ١٩٤١ عن انواع الڤيتامين تقول ان جسم الانسان لا يستطيع ان يولدها بل عليه أن يتناولها في ما يأكلهُ أو يشربهُ . ولكن بعض البحوث العلمية الطبية التي ترجع الى سنة ١٩٣٩ كانت تحوي اشارات قليلة الى أن بعض انواع البكتيريا في اجسام طائفة من الحيوانات — وربما في جسم الانسان — تستطيع على المرجح تركيب الڤيتامين

وقد أثبتت البحوث الكيميائية الحيوية في معامل البحث ان اصنافاً من البكتيريا تستطيع ان تولد من موادّ كيميائية معينة ، ضروباً من الڤيتامين

فتحليل المواد التي في معد البقر والضأن أسفرت عن ان فيها بكتيريا تستطيع ان تركب مقادير غير يسيرة من الڤيتامين . وأغرب من هذا ان جراثيم الدوسنطاريا والدفتيريا تركب قليلاً من الثيامين وهو الاسم المقبول الآن لفيتامين ب١ (B_1). ثم ظهر ان جرذاناً نزع من طعامها مركبات الڤيتامين التي يشملها حرف ب (B) فبدت عليها اعراض سوء التغذية ثم زالت هذه الأعراض فجأة .

فبدا للباحثين ان التفسير الوحيد المقبول لهذا التحول انما هو فرض وجود احياء دقيقة في المعى ولّدت مواد ڤيتامينية لمواجهة الحالة الطارئة

وفي أعمال الأكاديمية القومية للعلوم الصادرة في يوليو الماضي وصف العالمان الدكتور پول بركولدر وايلدا مكاڤي — وهما من الباحثين في معهد البحث النباتي بجامعة يايل — تجارب تشير الى ان البكتيريا قد تكون مصدراً عظيم الشأن للڤيتامينات

فقد أخذا ستةً من اصناف البكتيريا المعدية المألوفة واستنبتاها في طائفتين من المستنبتات حرارة احداها درجتان بالميزان المئوي وحرارة الثانية ٣٦ درجة مئوية وبعد انقضاء يومين تبيّنا ان البكتيريا التي في الطائفة الثانية من المستنبتات ركّبت مقادير متفاوتة من اربعة ڤيتامينات مشهورة منها الريبوفلاڤين والثيامين والحمض النيكوتينيك . وهذه البكتيريا ركبت من هذه الڤيتامينات مقادير تفوق المقادير التي تحتاج اليها . وكان أعلى معدّل التركيب في الساعات الاولى من تكاثر البكتيريا

قشر البرتقال وفيتامين C

جاء في مجلة نايتشر ان خبراء التغذية كشفوا قبل سبع سنوات ان مقدار فيتامين C (الحمض الاسوربيك) في قشر البرتقال أعظم منهُ في عصيرهِ . وان الباحثين الدكتور لاميت Lampitt وبايكر Baker حققا صدق هذا القول بالتجربة

النجم « كانوبوس » سهيل وضياؤه

عُني الدكتور جرينشتاين أحد مدرسي الفلك في جامعة شيكاغو بقياس ضياء النجم المشهور عند العرب باسم سهيل فاذا هو يفوق ضياءَ الشمس ٢٥٠٠ ضعف . واشراق سهيل يأتي في المقام التالي لاشراق الشعرى بين النجوم الثابتة ولكن رؤيته متعذرة في مكان الى الشمال من خط العرض الشمالي ٢٥ وهو يوافق تقريباً خط عرض اسيوط . ويذهب هذا الباحث الى ان عناصر سهيل — ما عدا الايدروجين — تشبهُ في طبيعتها ومقاديرها النسبية عناصر الأرض. اما مقدار الايدروجين في سهيل فأكبر منهُ في الارض. ويقدّر ان جوّ سهيل قريب جدًّا من الفراغ ولطفهُ بالقياس الى هواء الارض يبلغ جزءًا من مائة الف جزء

ذكرى نيوتن

وُلِد اسحق نيوتن يوم عيد الميلاد (٢٥ دسمبر) سنة ١٦٤٢ . ففي ٢٥ دسمبر القبل تنقضي ثلاثة قرون على ولادة هذا العالم العظيم الذي يمثل مع شكسبير النهضة العقلية البريطانية أصدق تمثيل وأتمهُ . وقد روت مجلة « اخبار الشهر العلمية » .M. S. N ان الجمعية الملكية البريطانية ، وهي مدينة بكثير من شهرتها ومنزلتها العلمية العالية الى نيوتن، ستحتفل بهذه الذكرى، فيلقي الاستاذ اندراد محاضرة موضوعها « نيوتن وعلم عصره » . ويلقي لورد راليه محاضرة موضوعها « تأثير نيوتن في العلم التجريبي ». ويلقي السر جيمز جينز محاضرة ثالثة يعالج فيها بحوث نيوتن وصلتها بالعلم في هذا العصر

قوة خرطوم الفيل

يروي الباحث فرانك لاين في كتابهِ « مشاهد الطبيعة » ان في خرطوم الفيل نحو أربعين الف عضلة فالخرطوم أقوى عضو واحد بين أعضاء الأحياء جميعاً . وبهِ يستطيع الفيل أن يرفع حملاً وزنهُ طن تقريباً أو أن يقذف رجلاً مسافة أربعين ذراعاً وهناك روايتان مثبتتان عن اصطدام الفيل بقطار، وقد حدثت الحادثة الاولى في سنة ١٩٠٦ على سكة حديد سيام إذ هجم فيل نافر على قطار شحن منطلق فأخرج القاطرة وبضع مركبات عن الخط وقلبها فقتل رجلان وقتل الفيل في الحال ودفن تحت أنقاض القطار

تقدم العلم ومطامح العلماء

لعوض جندى

---

١ — الاشعة الكونية المولدة

ينجح العلماء من حين الى آخر في كشف مناطق علمية مجهولة ، نجاحاً يجعل الباحثين يقفون على عجائب طريفة ذات منافع غير محدودة للجنس البشري . وقد تبلغ الحضارة الحالية بأسرها شأواً بعيداً حينما تصبح الأشعة الصناعية التي يستطاع توليدها ، ذات قوة تكاد تبلغها في الأشعة الكونية الخفية التي تنبعث من الشمس ، خاضعة لسيطرة العلماء . وليس هذا الزمن بعيداً جداً ، إذ بدأ العمل في آلة تستطيع أن تقذف من الكهيربات ، ما تصل طاقتها الى مائة مليون فولط

وهذه القوة على قول العلماء أقرب ما تكون الى قوة الأشعة الكونية . وحينئذٍ يمكن انتاج نباتات غريبة وذلك بقذف أشجار الفواكه وشجيرات الفراولة وما يشبهها وتقاوي الخضراوات بالأشعة السينية التي تبلغ قوتها مليون فولط . والغرض الذي يرمي اليه أولئك العلماء هو تغيير كروموسومات (صبغيات) الخلايا الحية في الفواكه والخضر بغية تغيير ألوانها وأحجامها وطعومها وصفاتها ودرجة مقاومتها للآفات الزراعية وغير ذلك من المميزات

٢ — توليد أصناف جديدة من النبات

وهذا يحقق رأي البحاثة الفرنسي جورج تريفو Georges Truffaut الذي نشرته مجلة العلم العام الاميركية في جزئها الصادر في أغسطس سنة ١٩٣٥ وهو : — رأى مسيو جورج تريفو البحاثة الفرنسي أن الكهربائية سوف تستخدم في البساتين لتعجيل نمو الفاكهة . وقد جرّب هذه الطريقة إذ جاء ببطارية قوتها ٤٠ فولطاً فأوصل أسلاكها الى الأشجار النابتة من البذور ، فتبين انها تنمو نمواً عاجلاً وذلك حينما ينطلق التيار في سوقها وأغصانها من أسفل الى أعلى . فاذا انعكس وجعل من أعلى الى أسفل ، أعاق نمو الشجرة . ويرى هذا المخترع أيضاً انهُ يتاح الظفر بالنتائج عينها اذا جهزت الأشجار المثمرة الكاملة النمو بأطواق معدنية توصل بمصدر صالح لتوليد تيار كهربائي مستمر . وبتلك الوسيلة يتيسر للزارع ارجاء نضج الفاكهة وقايةً لها من آفات الصقيع الذي يحدث في غير زمنه . وكذلك تعجيل نضجها اذا كانت الأحوال الجوية ملائمة لها . وتأييداً لهذا الرأي يقول تريفو ان التيار الكهربائي المستمر يغير معدَّل سير العصارة النباتية — لبن النبات — في الشجر

٣ — مخاليط فلزية جديدة

ثم ان عجز المستخرج من المعادن عن سدّ حاجات الملأ قد اضطرّ العلماء الى التنقيب عن المواد التي يمكن ان تقوم مقامها . وفي ميدان المخاليط المعدنية المقاومة للحرارة يدور البحث في المركبات التي تحتاج الى أقل قدر من النيكل اذ انهُ من المعادن التي تشتد الحاجة اليها في الصناعات الحربية . وقد تمّ اختراع مخاليط جديدة من الألومينيوم والنحاس الأحمر والزنك .

٤ — تدفئة الملابس بالكهربية

ولما كانت تدفئة الطيارين المحاربين عند تحليقهم في طبقات الفضاء ، من أوجب الواجبات ، أسفرت المباحث التي أجريت في هذا الصدد عن اختراع ملابس للطيران تدفأ بالكهربائية لأجل طياري اميركا . ولا يبعد ان نلبس جميعاً بعد بضع سنين ثياباً مدفأة بهذه الطريقة . وذلك بدل الأشعرة الثقيلة المألوفة وعوض الحلل الصوفية الثخينة والمعاطف الضخمة ، فيتاح لنا حينئذ ارتداء ثوب وحيد خفيف ليدفئنا في أشد أوقات البرد على أن تمتد في ذلك الثوب بأجمعه أسلاك كهربائية دقيقة توصل بتيار يتولد من بطارية صغيرة يحملها معهُ الراغب في التدفئة أو توصل بالجهاز الكهربائي الذي في سيارته او بالدائرة الكهربائية التي في داره أو مكتب عمله

وقد لبس كثيرون من الطيارين الأميركيين المحاربين هذه الملابس المدفأة بالكهربائية وهي التي اخترعت خاصة لراحتهم في درجات الحرارة التي تتفاوت بين ٦٠ تحت الصفر و٧٠ فوقه . وهي ملابس أخف كثيراً من الثياب المبطنة بجلد الغنم التي حلت محلها

٥ — قياس ارتفاع السحاب بالاشعة

ومما هو خليق بالذكر ايضاً لنفع الطيارين نفعاً عظيماً المباحث الدائرة في المعامل الكيميائية الاميركية وهي التي أفضت حديثاً الى وسيلة جديدة لقياس ارتفاع السحب عن سطح الارض في اثناء النهار . وفحواها أن موريس ك . لوفر Maurice K. Laufer ولورانس ك . فوسكت Laurence K. Foskett الموظفين في مصلحة المقاييس الوطنية الاميركية قد كشفا أن الضوء الذي يتولد من مصباح زئبقي صغير مما قوته ١٠٠٠ وط يسلط على السحاب فينتشر عند اصابته السحاب فتحس به البصاصة الكهربائية، فيمكن تقدير ارتفاعه بطريقة المساحة التثليثية . ويؤلف جهاز توجيه الضوء في هذه الحالة من المصباح المشار اليه على ان يركز في نقطة اجتماع الاشعة المعكوسة على مرآة على شكل القطع المكافىء مساحتها ٢٤ بوصة . ويكون طول نقطة اجتماع الاشعة ١٠ بوصات وحينما توجه تلك الشعاعة الضيقة الى الجو بمعدل ١٢٠

ذبذبة في الثانية فتصدم السحب فتنتشر انتشاراً تكشفه البصاصة الكهربائية الموضوعة على بعد معروف من المصباح وهي مخصصة لالتقاط تلك الذبذبات تمييزاً لها من الضوء الجوي الخلفي

٦ — فوائد الرقوق الدقيقة

وفي ميدان آخر تستعمل رقوق (أفلام) رفيعة جداً من الصموغ الصناعية يؤلف بعضها من طبقات من الجزيئات يتفاوت عددها بين ١٠ طبقات و١٥ طبقة فتفيد العلم فوائد جمة إذ تستعمل تلك الرقوق التي تبلغ منتهى الدقة، في الصاق النماذج بشرائح المجهر الكهربي وهو الذي تستعمل فيه الكهيربات بدل أشعة الضوء فيكبر المرئيات ٣٠٫٠٠٠ ضعف أو أكثر . وبذلك تفوق قوته أعظم المجاهر الضوئية بما لا يقاس . أما الرقوق التي تكون أثخن قليلاً من تلك فتنفع في دراسة مميزات الصموغ . ومثال ذلك ان تأثير الاشعة التي فوق البنفسجية في الصموغ يمكن اظهاره في بضع دقائق، على حين أن الوسائل الأخرى تستغرق ساعات طويلة . وثمة فائدة أخرى محتملة لتلك الرقوق، وهي تفريق الشعاع، في الآلات البصرية وذلك بعد معالجة الرقوق بكبريتور الزنك . وفي هاتيك الآلات يستعمل مفرّق الشعاع في كل حالة يحتاج فيها الى تجزئة شعاعة من النور بحيث ينعكس بعضها يَمْنَةً أو يَسْرةً ويوجه باقيها الى مجراه الأصلي . وتستعمل عادةً لهذه الغاية المرايا المفضضة تفضيضاً جزئياً ولكنها تفقد نحو ثلث مجموع الضياء . أما الرقوق فهي على نقيض ذلك لا يفقد منها أكثر من $\frac{1}{٢٠}$ من النور . وأدق رقوق الصموغ الراتينجية تبلغ ثخانتها $\frac{1}{٢٠٠٠٠٠٠}$ من البوصة

٧ — مباراة الاشعة الكونية

وما من أحد يستطيع التكهن بمبلغ نفع الجهاز المولد للاشعة الكونية الذي اخترعهُ الدكتور دونالد . و . كرست Donald W. Kerst وكل ما يعرف بشأنهِ انهُ حتى الآن قد عاد على الناس بمنافع كثيرة وذلك بآلة تستطيع توليد خمس الطاقة التي تتوافر للعلماء الذين يستخدمون الجهاز المولد لطاقة ١٠٠ مليون ڤولط وهو الجهاز الجاري صنعهُ في المعمل الخاص بالمباحث الكيميائية لشركة الكهربائية العامة الاميركية . أما الآلة التي أصغر من ذلك وهي التي سماها الدكتور كرست بيتاترون Betatron فهي تعجل مسير الكهيربات (أصغر الدقائق المشحونة بكهرباء سلبية) الى أقصى سرعة بلغها أي جهاز اتيح للانسان صنعه الى اليوم إذ هي تمد تلك الجزيئات بطاقة تساوي ٢٠ مليون فولط ثم تولد أشعة سينية بهذا الجهد . ومغنطيس الآلة الحالية المقامة الآن في جامعة ايلينوي طوله خمس أقدام وارتفاعه ثلاث أقدام وعرضه قدمان فهو اذن صغير جداً عند مقابلته بالأجهزة المستعملة في الآلة الضخمة

الشاهقة التي سبق ان استعملت لتعجيل الكهيربات

وقلب البيتاترون صمام زجاجي مفرغ من الهواء كروي الشكل تقريباً موضوع بين قطبين مغنطيسين كهربائيين وتقذف الكهيربات من فتيل ساخن في باطن ذلك الصمام حول جدرانه ويعجل قذفها قذفاً مستمرًّا بقوات مغنطيسية كهربائية حتى تكاد تبلغ سرعة ١٨٦٠٠٠ ميلاً في الثانية أي سرعة الضوء ويوجه المغنطيس الكهيربات حتى تصطدم بهدف معدني فينجم عن اصطدامها توليد أشعة سينية تبلغ شدتها مبلغ اشعة غمًّا التي تصدر من شعاعة مساوية لها من اكثر من ١٠٠ غرام من الراديوم اي اكثر مما يوجد من الراديوم في العالم أجمع

ويتسنى تقدير هذه الطاقة بقوة التكهرب الهوائي الذي تحدثهُ

وقد تمكنت هذه الآلة الصغيرة من توليد أشعة جعلت النحاس الأحمر مشعًّا اي يصدر أشعة كالراديوم اي إنها اكسبتهُ خصائص الإشعاع أمداً قصيراً، وهذا الى جانب اكتساب الكهيربات سرعة كافية لاختراق لوح من الالومنيوم ثخانته بوصة . ويعنُّ لنا ان طاقة تيار جهاز البيتاترون تتيسر زيادتها زيادة غير محدودة . ومن ثمة اتخذ علماء شركة الكهرباء العامة الاميركية قرارهم الخاص بصنع آلة اكبر من هذه ينتظر أن تولد طاقة معادلة لمائة مليون ڤولط لاجل الكهيربات التي تدور في صمامها المفرغ من الهواء بسرعة تحير العقول

هل تعلم

* ان عالماً بريطانيًّا بالظواهر الجوية كان يزور معارض الصور ليحكم في صدق صور الغيم او البرق او قوس قزح ودقتها ؟

* ان طالباً هنديًّا من التوفرين على العلوم الطبيعية قضى سنتين في جامعة كاليفورنيا ليأخذ عن علمائها الاساليب اللازمة لبناء سيكلوترون (جهاز رحوي) في جامعة كلكتة ؟

* ان خبراء المنسوجات يقولون ان القطن يفوق جميع الألياف الطبيعية نصاعة ؟

* ان مستوى سطح الماء في المحيط الهادىء أمام ساحل كليفورنيا يزيد ست بوصات في الخريف عنهُ في الربيع ؟

* ان مقدار الصوف الذي كان يجز من خروف واحد في الولايات المتحدة كان يزن رطلين قبل مائة سنة وانهُ يزن ثمانية أرطال الآن ، على المعدل ؟

* ان ثلاثة آلاف غاز حربي امتحنت في اثناء الحرب العالمية الاولى وان ٢٠ غازاً الى ٣٠ غازاً منها استعملت لا غير ؟



مكتبة المقتطف

محمد علي

تأليف الاستاذ كريم ثابت — صفحاته ٣٣١ — طبع بمطبعة المعارف — ثمنه ٥٠ قرشاً

لا ريب في ان الاستاذ كريم ثابت يستحق أطيب التهنئة وأوفر الثناء على توفيقهِ في اخراج هذا الكتاب في أسلوب علمي لا يتهيأ إلاَّ للاخصائيين من المؤرخين ينفقون السنين الطوال والجهود العنيفة في المكتبات ودور المحفوظات . والذين يعرفون هذا الصحافي الناجح ويدركون ما تتطلبهُ أعمالهُ من مقابلات وأبحاث وقراءات ودراسات في المسائل الخارجية والداخلية يعجبون كيف أُتيح له أن يظفر بالوقت اللازم ليصيب هذا النجاح الكبير في الكتابة عن مؤسس مصر الحديثة

والحق ان هذا السفر الجديد من طراز نادر في لغتنا العربية فاننا اذا استثنينا بعض ما كتب عن النبي عليهِ السلام ، لا نجد في لغة الضاد سيراً لأبطال التاريخ تجمع من جمال العرض ودقة البحث ما نعرفه في مؤلفات بعض كتَّاب الغرب في سير العظماء وما يظهر واضحاً في الكتاب الذي نحن بصدده الآن

ولعلَّ أكبر مزية لهذا الكتاب اعتماد المؤلف على التقارير التي كان القناصل الأجانب يرسلونها الى دولهم في عصر محمد علي والتي عنيت بنشرها الجمعية الجغرافية الملكية برعاية المغفور له الملك فؤاد الاول فانَّ اتصالهم بمحمد علي وحرصهم على ابلاغ دولهم ما يحدث في مصر وما يدور بينهم وبين أمير البلاد — كل ذلك جعل تلك التقارير خير مصدر لتاريخ محمد علي

وفضلاً عن ذلك كله فانَّ سعة اطلاع الاستاذ كريم تتجلى في إلمامهِ بوجهات النظر المختلفة وبالروايات المتنوّعة للحوادث ذات الشأن وتشهد بأنه أفاد بكل ما كتب بالفرنسية والانكليزية والعربية عن محمد علي

على ان هذا الكتاب الغني بالبيانات التاريخية يمتاز بالعرض الواضح والأسلوب السليم والبعد عن الغلوّ والوقوف عند الكليات مع الالمام بالجزئيات مما يشعر بأن المؤلف يملك ناصية الموضوع ويختار من مادته الغزيرة ما يعطي القارىء صورة صادقة لمحمد علي

***

ولم يقف المؤلف عند سرد الحوادث بل عني بتحليلها وبالربط بين أسبابها ونتائجها ثم استنباط الحقائق التاريخية منها فنراه في البابين الاول والثاني من الكتاب يدرس نشأة محمد علي وقدومه الى مصر ووصوله الى منصب الوالي ويستنبط من ذلك كلهِ انهُ في ١٢ مايو سنة ١٨٠٥ « اجلس الشعب المصري محمد علي على عرش مصر فكان اول والٍ يحكم مصر باختيار المصريين وترشيح المصريين واقرار المصريين » وعرض المؤلف لعلاقة محمد علي بالمماليك وأثبت انهُ كان مصيباً في شكوكه وان سلامته وسلامة البلاد هما اللتان قضتا عليهِ بالتخلص منهم ، فمذبحة القلعة ليست نقطة سوداء في تاريخ محمد علي كما يقول بعض المؤرخين الغربيين

اما الباب الثالث فمعقود لحروب محمد علي في الحجاز والسودان ولاصلاحاته الداخلية رغم هذه الحروب . فالعناية بالزراعة ولاسيما زراعة القطن وحفر الترعة المحمودية والغاء نظام الألتزام وتوزيع الاراضي على الفلاحين ونظام الشورى والعناية بالامن الداخلي وتحسين العلاقة بالدول الاجنبية ونجاح الامير في حفظ التوازن في صداقته لفرنسا وانكلترا جميع هذه الحسنات التي تذكر بالخير والثناء لمؤسس مصر « العبقري الذي لم يعرف للتعب معنى » شرحها المؤلف فأظهر كيف ان محمد علي هو الذي شرع منذ سنة ١٨١٧ في بناءِ صرح مصر الاقتصادي وانهُ لم يكن يسمح للاجانب بأن يسيئوا استعمال الامتيازات الأجنبية التي كانت تئن تحت عبئها الدولة العثمانية وممتلكاتها

والباب الرابع فيهِ حديث الجيش وتدريبه على فنون الحرب الحديثة واعتماده على الفلاحين في تكوينه وانشاء المدارس وارسال البعثات والاستعانة بالضباط الفرنسيين لتدريبه

وفي الباب الخامس حديث حرب المورة وما جنته مصر من ربح سياسي فيها حين أصبحت الدول الاوربية تفاوض محمد علي رأساً . وقد نجح المؤلف في اماطة اللثام عن حقيقة العلاقات بين محمد علي وانكلترا فقد كان الشائع انها كانت دائماً تناصبه العداء وانهُ كان يعتمد على فرنسا ولكن الذي يقرأ كتاب الاستاذ كريم وعرضه للعلاقة بين الباشا وهاتين الدولتين يعرف ان هذا القول لم يكن صحيحاً في بعض الأحيان

وفي الباب السادس حديث الحملة التي اقترحتها فرنسا على محمد علي في طرابلس وتونس

والجزائر . وقد رأى محمد علي ان يشهر حرباً خاطفة كالحرب الحديثة ولكنه رفض ان يتعاون مع فرنسا في فتح شمال افريقيا وأصرَّ على أن يكون له وحده النهوض بهذه الحملة ليكون لها الطابع الاسلامي وليمتنع عن التعاون مع دولة أجنبية في حرب تعلنها على المسلمين . فقد كان محمد علي يسعى للاستيلاء على البلدان الاسلامية التي تطمع فيها الدول الاوربية لينقذها ويجدد شبابها وينشر فيها مجد الاسلام

وفي البابين السابع والثامن عرض دقيق للنزاع بين الباشا والباب العالي شرح فيه المؤلف أغراض محمد علي من حرب سوريا وتوغل ابراهيم باشا في أملاك السلطان الى كوتاهية وأماط اللثام عن تفكير محمد علي في نقل الخلافة الى مصر كما فعل السلطان المملوكي بيبرس من قبله وكما اراد ابن طولون من قبلهما وأظهر انه فكر كذلك في تأليف شبه اتحاد عربي تتزعمه مصر وينفصل عن تركيا . والحق ان ما جمعهُ الاستاذ كريم من أحاديث محمد علي تشهد ببراعة الباشا في العمل على كسب تأييد الدول وإتقانهِ الدعاية لأغراضهِ على النحو الذي نعرفه بين الدول المتحاربة الآن

ولكن الدول كانت ترعى نفعها الشخصي وحده وكانت ترفض أن ترى محمد علي يجدّد شباب الدولة العلية ويشفي « الرجل المريض » فلا عجب اذا جمعت كلمتها وأيدت الباب العالي وأرغمت محمد علي على رغم انتصاراته على أن يقنع بالحكم في مصر

***

وقد ختم المؤلف أبواب الكتاب بالكلام على الاصلاحات التي أتمها محمد علي في أربعين سنة . وحسبنا أن نذكر في هذا الصدد قول الباشا نفسهُ « اني أرجو أن تنصفني الأجيال المقبلة كما أنصفت بطرس الاكبر قيصر الروس بعد ما كان شعبه يئن منه في أثناء حياته » أجل فقد وضع محمد علي أساس كل شيء في مصر الحديثة كما فعل من قبلهِ بطرس الأكبر في روسيا

وفي ملاحق الكتاب صور من معاهدة لندن ومذكرات الدول الى الباب العالي بشأن استقلال محمد علي وفرمان السلطان الى الباشا

وصفوة القول ان هذا الكتاب جليل بموضوعهِ عظيم بجهود المؤلف وتوفيقهِ في اخراجهِ فعسى أن يكون فاتحة لغيره من تراجم عظماءِ التاريخ المصري

الدكتور زكي محمد حسن
الاستاذ المساعد بجامعة فؤاد الاول

« تاريخ خليج الاسكندرية القديم وترعة المحمودية »

لحضرة صاحب السمو الامير عمر طوسون عناية مشكورة بتاريخ نهضة مصر الحديثة في الشؤون العمرانية والسياسية والاقتصادية والعلمية والعسكرية على عهد محمد علي باشا. وله في هذا التاريخ مؤلفات جليلة وبحوث هامة تناولت الجيش المصري والبعثات العلمية وفتح السودان وسوى ذلك من المآثر المحمدية العلوية على البلاد. وسموه في كل ما كتب وما يكتب مؤرخ مدقق وعالم محقق واسع الاطلاع حافل الجعبة صادق النظر يتخير الوثيق من المصادر والصحيح من المراجع ويميز بعقله الرجيح بين غث الوقائع وسمينها ويفصل بنقده النزيه بين أصيل الآراء وزائفها

ومن مصنفات سموه كتابه في « تاريخ النيل » وقد ألفهُ باللغة الفرنسية وطبعهُ المجمع العلمي في سنة ١٩٢٥ وفي جملة ما ضمَّ بين دفتيه فصول في « تاريخ خليج الاسكندرية القديم وترعة المحمودية » فحرصاً منه على نفع أبناء البلاد رأى نقل هذه الفصول الى اللغة العربية وأصدر بها سفراً خاصًّا تفضل فأهدى الى المقتطف نسخة منهُ وهو سفر يقع في ١٥٧ صفحة من القطع الكبير وقد طبع طبعاً جيداً كسائر مؤلفات الأمير . وانما عُني بذلك لأن هذه الفصول كما قال سموه في مقدمتها « تتعلق بتاريخ مرفق عظيم من مرافق البلاد الحيوية »

وفي مفتتح هذا التاريخ « لمحة عامة » عن فروع النيل السبعة الأولى وأخصها الفرع الكانوبي ووصف مجراه من مبتدأه الى منتهاه أو من مصدره الى مصبه. واستطرد من ذلك الى « تاريخ خليج الاسكندرية » او ترعتها القديمة وما طرأ عليها من وجوه التقلب خلال الاجيال وما بلغتهُ عند الفتح العربي . وهنا خالف سمو الامير رأي القائلين ان كليوبطرا هي التي أنشأت الترعة وأرجع عهدها الى الاسكندر الاكبر لكي يجعلها مورداً لاستقاء أهل المدينة الجديدة التي أسسها « الاسكندرية » . وناقش سموه في سياق حديثه آراء أخرى وصحح ما رآه منها بحاجة الى تصحيح

ثم وقف الامير معظم الفصول على ترعة المحمودية وهي التي شقها محمد علي باشا في سنة ١٨١٧م . ونقل ما كتبهُ عنها المسيو كوست مهندس الترعة والمسيو مانجان قنصل فرنسا العام ولينان باشا وزير الاشغال آنئذٍ وما جاء في وثائق دار المحفوظات ومذكرات الجبرتي وكلوت بك وعلي باشا مبارك وألحق بها خارطات تبين مواقع الترعة في عصور شتى . وبالجملة فان هذه الفصول تعد مرجعاً تاريخيًّا صادقاً للذين يحبون الوقوف على حقائق هذا الموضوع

فالمقتطف يرفع الى مقام الامير العالم أصدق شعائر الولاء وأطيب عبارات الثناء على ما يتحف به المكتبة العربية من آن لآن من مؤلفاتهِ عن تاريخ هذا العصر الذهبي الذي بدأت مصر تستمتع ببركاته من يوم أن ولي أمرها محمد علي وما برحت تنعم به على أيدي خلفائهِ الى اليوم

موكب الحياة

هدية المقتطف السنوية — مجموعة من القصص — ٣٦٢ صفحة من قطع المجلة

للفن القصصي الآن مكان ملحوظ في آداب العالم جميعاً ، ولقد خطا هذا الفن في أدبنا العربي الحديث خطوات فسيحة ، واجتذب اليه أنصاراً وعشاقاً فـاق باقي فنون الأدب الأخرى من هذا القبيل . وكانت لمجلة المقتطف —رغم عنايتها الأولى بالبحوث العلمية— عناية بهذا الفن ، إذ هي اليوم أول مجلة عربية كبيرة تتقدم الى قرائها بمجموعة من آيات هذا الفن ، كما كانت هي المجلة العربية الأولى في الشرق التي أرصدت جائزة مالية لتشجيع هذا اللون الجديد في الأدب ، اذ أعلنت في سنة ١٩٢٥ عن جائزة قدرها خمسون جنيهاً وكانت لجنة التحكيم فيها من خيرة رجال الفكر في مصر ، كما عنيت الى جانب ذلك بنقل روائع هذا الفن من الآداب العالمية الى اللغة العربية

وفي هذا العام فكرت هذه المجلة في أن تكون هديتها الى قرأها مجموعة تضم كثيراً مما نشر في مجلداتها السابقة من القصص العالمية مترجمة في أسلوب بديع الى جانب طائفة ممتازة من القصص الموضوعة بأقلام أبرز كتّاب القصة في الأدب العربي . وقد نشرت القصص الموضوعة بحسب تواريخ نشرها اولاً في المقتطف ، ومن ذلك يتجلى للباحث في تاريخ القصة العربية نواحٍ من تطوّرها خلال هذه السنوات

وقد قدم لهذه المجموعة القاص الكبير الأستاذ محمود تيمور بك بهذه الكلمة :

« عرف عصرنا الحديث فيما عرف من جديد الثقافة والأدب فنَّ القصة ، وطمح إلى أن يأخذ بنصيب من هذا الفن، بعد أن أدرك ما لهُ من خطر . وقد توسل إلى بلوغ تلك الغاية بالاغتراف مما خلفته الآداب العالمية من أقاصيص وروايات . ولذلك بدأت نهضتنا القصصية بالترجمة . وكبيرٌ من الفضل يرجع الى الصحافة الأدبية اذ فسحت للقصة والرواية مكاناً مرعيّ الجانب ، أغرت بطلاوته أعين القرّاء ، وقرَّبته زاداً طيباً للطلاّب . وما هي إلاّ أن وُلدت القصة المؤلفة في الأدب العربيّ المعاصر، وظهرت ناشئة القصّاص . ثم جرَت على القصة الوليدة سنّةُ النشوءِ وحكم التطوّر، فإذا هي حيناً محاكاة محضة، وتارةً محاولةٌ للتحرّر والاستقلال

« وظلت كذلك حتى تهيّأ لها كتّابٌ قادرون تساموا بهـا درجات فأصبحت أهلاً للتقدير والاعتداد ، وانبثقت نبعاً صافياً إلى جانب ينابيع الأدب الأخرى تستقي منه الصحف الأدبية ويرتوي بهِ قرّاؤها

« ولقد كان « المقتطف » في طليعة صحفنا التي بشرت بالقصة المترجمة أولاً ، ورحبت بالقصة المؤلفة أخيراً . فهو — فوق صبغتهِ العلمية — أولَى جانب الأدب ، ولا سيما أدب

القصة، رعاية ملحوظة . إذ كان يقدّم لروّاده ثمرات وزهرات يحسن انتقاءها أصيلة المنبت، ويجيد عرضها زكية العطر .والآن وقد تفرّق منها في أجزاء السنين الخالية طائفة كثيرة ، عنّ له أن يؤلف من بينها طاقة مختلفة اللون، متباينة العبق ، بيد أنها في مجموعها تمثّل طابعاً واحداً هو طابع الفكر الإنسانيّ الذي يعالج تصوير النفس البشرية في « موكب الحياة » ...

« وخيراً فعل « المقتطف » بتحقيق تلك الفكرة ، فهي تيسر للقارىء العابر متاعاً وسلوة ، وتتيح للأديب المتطلع فرصة التعرّف على مائدة واحدة إلى صفوة مذاهب التأليف القصصيّ في أمم شتى . فهذه القصص نماذج مختارة من الأدب العالميّ الرفيع جديرة ان تتبوّأ مكانتها من المكتبة العربية

« ولعلّ « المقتطف » حين أفرد قسماً لنخبةٍ من القصص العربية الحديثة ، شاءَ تقريب الموازنة بينها وبين القصة العالمية على وجهٍ عام . ولا مرية أنها على اختلاف كُتّابها وتشعّب نزعاتها ترسم على جهة التقريب منحى الكتّاب العرب في ممارسة القصة اليوم » اه

وسيجد القراء في هذه المجموعة الطريفة التي ضمت ٢٤ قصة غربية و ١٤ قصة عربية ، ألواناً مختلفة وصوراً متباينة من صور الحياة ، وستكون سبيلاً للترفيه عن أنفسهم في زمن اشتدت فيه المحن وفقدت فيه النفوس الراحة والهدوء » الصيرفي

المفضليات

الجزء الاول تحقيق وشرح الاستاذين احمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، ٢٠٠ صفحة من قطع المقتطف — طبعته ونشرته مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر — الثمن ١٥ قرشاً صاغاً

لفضيلة الاستاذ الشيخ احمد محمد شاكر أيادٍ بيض على المكتبة العربية بما ينشره على الناس من ذخائر نفيسة يجلوها لهم في أحسن ثوب وأدق صورة وأصحّ عرض . وكان من آخر جهوده في هذا المضمار كتابان نفيسان عمل على إبرازها بطريقته المثلى ، هما كتاب « المعرّب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم » لأبي منصور الجواليقي ، والجزء الاول من كتاب « المفضليات » للمفضّل الضبي ، وليس هذا الجزء الا الحلقة الاولى من سلسلة نفيسة من كتب الاختيار لعيون الشعر العربي الرصين يعمل الاستاذ شاكر على إخراجها بمعونة الاستاذ عبد السلام محمد هارون ومشاركته. وهي المفضليات والاصمعيات وجمهرة أشعار العرب ومختارات ابن الشجري ، وقد بذل الاستاذان الفاضلان في نشر المفضليات مجهوداً مشكوراً في تحقيق أجود الاقوال وأصحها وأنقاها لفظاً وأبلغها عبارة مما نقل ابو محمد الانباري في شرحه اياها عن الائمة من شيوخه وغيرهم واختيار ذلك في النشر مع الحرص في هذا على إثبات لفظه محافظة على قيمته التاريخية الاّ ان يكون ما قاله خطأ فيتجاوزانه الى الصواب

أو مقصراً فيلجأ الآن الى البيان وإيضاح ما يكون مهملاً شرحه ، او مجهولاً في عصرنا مما كان معروفاً في عصره . واتبعا في كل قصيدة التعريف بالشاعر تعريفاً موجزاً كافياً ثم ذكر جو القصيدة وما قيلت فيهِ من أغراض ومعانٍ وتاريخ ثم بخرجانها فيذكران ما وصل اليهِ علمهما من مواضع وجودها او وجود أبياتٍ منها في الكتب الأصول المعتمدة وقد فسّرا كل بيت بشرح ما فيه من الغريب شرحاً بيناً لا إخلال ولا إطناب واذا كان في معنى البيت خفاء لا يكفي في بيانه شرح الغريب فسرّا معناه تفسيراً وسطاً

وانها لمكرمة من مكارم الاستاذين نحو الادب العربيّ فان للمفضليات قيمتها الرفيعة الشأن فهي أقدم مجموعة صنعت في اختيار الشعر العربي ، ولما كانت الآراء متضاربة متباينة في نسبتها كلها الى الضبي ، فقد وضع الاستاذان مقدمة في سبع عشرة صفحة عرضا فيهـا لهذه الناحية عرضاً لم يسبقا اليهِ انتهيا فيها الى ان المفضل لم يخرج كل هذه القصائد التي شرحها الانباريّ وأن كثيراً منها أدخل في اثنائها من بعده ، ويرى الاستاذان ان أصلها السبعون قصيدة التي اختارها ابراهيم بن عبدالله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب كما روى ابو الفرج الاصبهاني في كتابه «مقابل الطالبين» حيث يقول المفضل فيها « صدَّرت بها اختيار الشعراء ثم أتممت عليها باقي الكتاب » وانه زادها بعدُ عشراً حين تقدم اليهِ المنصور في اختيار قصائد لولي عهده المهدي فصارت ثمانين وان هذه الثمانين هي اصل الكتاب عن المفضل لم يتجاوزها ثم قرئت على الأصمعي فأقرها وزاد قصائد ، وزاد في بعض قصائدها أبياتاً واختار قصائد أخر ثم جاءَ بعد الاصمعي مَـنْ زادوا في القصائد — أصلها ومزيدها — أبياتاً دخلت في روايتي المفضل والأصمعي حتى اختلطت كلها

وقد ذكر الاستاذان في مقدمتهما شروح المفضليات وطبعاتها ، وترجما للمفضل ثم ذكرا المصادر التي فيها تراجم له ، وعيّـنا مواضع ذلك في كل منها ، ليسهل على القارىء أن يرجع اليها

وان الادباء والمتأدبين ليتقبلون هذه الطبعة الجديدة للمفضليات بما هي جديرة به من التقدير والاعجاب ، وليرحبون بديوان العرب الذي يعمل الأستاذان على اخراجهِ بهذه الدقة العلمية

وان واجباً على هؤلاء الادباء والمتأدبين ان يوجهوا شكرهم الى هذه الدار التي تحتضن الحياة الفكرية وتسعى الى النهوض بها ، ألا وهي « مطبعة المعارف ومكتبتها » فلقد ساهمت هذه الدار بنصيب وافر في تلك الحركة خلال نصف قرن منذ أن انشأها مؤسسها الطيب الذكر الى الآن ، فاخرجت أنفس ما تزدان بهِ المكتبة العربية من آثار ، وهذه يدٌ مسجَّلة لها في تاريخ الأدب والعلم والطباعة العربية في الشرق

حسن كامل الصيرفي

عوالي

مسرحية بالعربية الفصحى في ثلاثة فصول — ١٤٦ صفحة من القطع الوسط . طبعة الاستقامة بمصر

كانت المجموعات الثلاث التي أخرجها الاستاذ محمود تيمور بك تضمّ اتجاهه الجديد نحو ترقية المسرح العربي بدء الفيض الغزير من فنّ تيمور المسرحيّ ، وها هو ذا بعد أن وضع للمسرح باللغة العامية مسرحياتهِ السابقة قد عاد الى اللغة العربية الفصحى يضع فيها مسرحيات جديدة ، فكانت « عوالي » تلك المسرحية الرائعة أولى ما قدّم للمسرح في لغة فصحى تحمل مزايا أسلوبهِ العالي وفنهِ الرفيع

وحوادث هذه الرواية منسوجة من خيال المؤلف جعل مسرحها في قطر عربي في زمن من أزمنة الدول العربية . تعالج عواطف المرأة وإحساسها أمام ألوان من الحب تحيط بها . و « عوالي » هـذه فتاة من أسرة نبيلة في الثامنة عشرة فقدت أبويهـا فعاشت في كنف صديق لأبيها هو الأمير « سنان بن آسر » وهو قائد عربي يناهز الخمسين . نرى هذا الامير جالساً يلعب الشطرنج مع « أبي خوَنْدة » الشاعر ونراه يسأل خادمهُ عن عوالي فينبئهُ انها خرجت للصيد مع « طِلال » ابن أخي الامير وهو شابٌّ في زهرة العمر فيثور الامير سنان ويطلب من خادمه أن يرسل فارساً في طلبهما ونسمع حواراً بينهُ وبين الشاعر نفهم منهُ غضب الامير على « عوالي » لما تعملهُ من أعمال تخرج بها عن طبيعتها كفتاة يجب أن تلزم القصر وأن تذعن لـكل ما تؤمر بهِ ، ونحسُّ من الحديث ومن لهجـة الامير انهُ رجل تملأ القوة والشـدة نفسهُ وتطغى فلا تظهر من خلالها العواطف الرقيقـة ، فاذا ما عادت « عوالي » و « طلال » وجدنا هذه الفتاة تملأ الشجاعة نفسها أمام بأس الامير وقوة شكيمته بينا نجد « طلالاً » يملأ الفزع نفسه من عمّـهِ ونسمع الامير الصـغير يعترف لعمّـهِ بإعجابهِ بالفتاة ولكن عمه يفاجئهُ بأن هذا محال لأنه سيقدمها للخليفة ثم يدور حديث حول هذا بين طلال وعمهِ والشاعر ينتهي بعزم الأمير على رأيه . ونراه يعقد مجلساً من جواريه ونشهد في هذا المجلس جانباً من جوانب اللهو يصوّر ما كان يحيا فيـهِ القوم في الماضي ثم بعـد ذلك تدخل « عوالي » حين ينفضُّ الجمع وتتحدث الى سنان ونسمع هذا وهو يخاطبها في أمر تزويجها فتنبئهُ بأنها هي التي ستختار عريسها وفق ذوقها

فاذا أشرفنا على الفصـل الثاني رأينا قصر الأمير في حلة جديدة احتفاءً بمقدم الخليفة ورأينا « عوالي » وطلالاً وهما في بزة الصيد تتحدث اليهِ ولـكنهُ شارد الذهن فيما أنبأه بهِ عمه ونسمع سخريتها منه لخوفهِ وفزعهِ ونسمعه ينبئها بما بيّت عمه أمره عليهِ في شأنهـا فتضحك مستهزئة ويعرف منها أنها تعلم شيئاً من هذا فيعرض عليها حبه واستعداده لمصارحة الخليفة بهذا الحب فتطلب اليهِ أن لا يفعل فيخيفها عاقبة ذلك إذ لن تكون هناك إلاَّ جارية

في حين انها ستكون لديه أميرة ، فترد عليهِ بأنها أميرة حيث تكون ، وانها ستنظر في الأمر اذا راقها الخليفة ثم يخرجان حين يبصر عمه داخلاً ولا يلبث أن يعود اليه بعد أن يخلع ملابس الصيد ويطلب الإذن له بالانفراد بهِ . وعند ذلك يشرح لهُ حبهِ لعوالي فيرفض إذ انهُ سيعرضها على الخليفة ليرى رأيهُ فيها فتدخل حينئذٍ « عوالي » ويدور بينها وبين سنان حديث طويل ينتهي باعلان قدوم الخليفة ، وبعد أن يدور حديث قصير بين الخليفة وسنان وطلال يلمح عوالي فيسأل عنها ونرى الخليفة مهتمًّا بأمرها مسروراً لحديثها

ثم يستعرض الخليفة الجواري ويدور حديث حول الحب ومجنون ليلى وحقيقتهِ وقد استطاع تيمور بك أن يدير الحديث حول هذا الموضوع بمهارة وحذق وإذ يهمُّ الخليفة بالخروج يأمر « سناناً » بإعداد الامر لإرسال عوالي الى قصره وبعد أن يخرج يدور عتاب بين طلال وعمهِ فلا نلبث حتى نرى طلالاً وقد خرج مهتاجاً مهدِّداً بأنهُ سينتزع «عوالي» بحدّ السيف فيدور حوار بين سنان وعوالي تتجلى فيهِ خيوط العقدة المسرحية وهي تحلُّ شيئاً فشيئاً فها هو سنان يريد أن يعدل عن ارسال عوالي الى الخليفة فتسألهُ بماذا يعتذر فلا يستطيع الاجابة فتشير عليهِ بأن يبلغهُ انها تحب طلالاً فيثور لهذا ويغضب ويعلن اليها انها لا بد ذاهبة الى الخليفة فتنحني وتخرج وعند ذلك يشعر أبو خونده الشاعر ان قلب هذا القائد تتحرك فيه العواطف المتأججة التي يحاول أن يخفيها فيقول لسنان « اقسم بالله انك تحبها » فيصخب سنان لذلك ويطلب من خادمه إستدعاء «عوالي» فينبئهُ انها قد خرجت مع الأمير طلال وانهما ذهبا يتنزهان في ضوء القمر فتستولي على الرجل افكار عجيبة ويختم الفصل وهو يحطم قدح الشاعر ويردد : نزهة رائعة ! نزهة رائعة ! رائعة جدًّا ! »

فاذا كان الفصل الثالث فنحن مع هذا القائد وقد جلس اليهِ الشاعر يلاعبهُ الشطرنج ويتحدثان في أمر « عوالي » ونعلم من حديثهما ان الخليفة بعث في طلب هذه الفتاة ولكن سناناً كان يعتذر بشتى الاعذار وتدخل عليه « عوالي » وجارية من جواريه متشابكتين فنرى هذا القائد الذي كان يظهر في مظهر البطش والقوة قد أثرت فيه العواطف التي تجد لنفسها المتنفس من قلب هذا الرجل ونراه بعد ان يفض هذا النزاع ينطلق في حديث مع « عوالي » يتبين منهُ انهُ يحرص على أن لا يرسلها الى دار الخليفة ويذكر لها انهُ يفكر في أن يزوجها من طلال فتعلن له انهُ لا يعجبها فيذكرها بأنها اعلنت له مرة انها تحبهُ فترد بأنها قد غيرت رأيها فيسألها ومن هو الرجل الذي يستهويها فتقول هو الذي تتمثل فيهِ معاني الرجولة وان السن لا شرط لها في ذلك ثم تسأله عن رأيهِ في المرأة التي تروقهُ فيرد بأنها الطيّعة التي لا تخالف له امراً فتسأله وهل تريدها مسلوبة الارادة ، فاقدة الشخصية فيذكر لها بأن الطاعة هينة اذا تعوّدتها المرأة « فتصيح بهِ وإن لم تتعودها فماذا تصنع ؟ » فيصرخ فيها

« تتعودها مرغمة » وعند ذلك يدخل طلال ينبئه ان رسول الخليفة يطلب لقاءه وانهُ يعرف لماذا قدم فيهتف بخادمهِ ان ينبئ الرسول بأن «عوالي» مريضة وانها ستكون غداً عند الخليفة ثم يلتفت اليها ويطلب منها أن تعد نفسها لذلك فترفض وتقول له أنها تحب طلالاً وتلتفت الى طلال تعلمنه بذلك وتوجه حديثها الى عمه ثانية مكررة لفظ الحب فيصفعها فيثور لذلك طلال وما يلبث ان يهجم على عمه شاهراً سيفه ولكن القائد يخطف منه سيفه خطفة ماهرة ويحمل طلالاً ثم يلقيه على الأريكة فيخرج غاضباً وهو يهدد بأنهُ ذاهب الى الخليفة يفضي اليهِ بكل شيء وعندما يخرج يناول سنان « عوالي » السيف ويطلب اليها أن تنتقم لنفسها منهُ ولكنه عند ما تتأهب للهجوم عليه يتقدم بصدره نحوها يعلن لها انهُ لم يفعل بها ما فعل وفيه مسكة من عقل ولكنهُ أحسَّ نصالاً تتهاوى على قلبه فتمزقه فتقول له أكرهك أكرهك وترمي بنفسها بين أحضانه باكية ثم يتعانقان عناقاً بالغاً يغمرها فيه بالقبل ويحملها ويخرج بها من باب خلفي وما يكاد يتوارى حتى يكون الوزير مندوب الخليفة قد حضر وخلفه طلال ويهتف طلال بالوزير أن ينجي «عوالي» من براثن عمه فيسأل الوزير الخادم عن سيده الأمير فيجيب بأنهُ لم يره في القصر ثم يسمع وقع حوافر فينظر ثم يهتف « مولاي الأمير مع الأميرة عوالي على صهوة جواد ينهب الأرض » ويسدل الستار والوزير يأمر السياف أن يمتطي جواده في صحبة فرسانه ليقتفوا أثر سنان ثم يعودوا بهِ. هذه هي المسرحية التي تجلت فيها مواهب تيمور والأثر الصادق هو الذي تتجمع فيهِ كل مواهب الفنان ومزاياه حسن كامل الصيرفي

المصادر عن ري العراق

رأى الدكتور احمد سوسة بعد أعمال طويلة قضاها خلال سني تجاربهِ في دائرة الريّ بالعراق شديد حاجتهِ الى وضع مؤلف يضم كافة المصادر التي تتعلق بأمور الري هناك والمراجع الفنية التي يمكن للفنيين الاستفادة منها فضلاً عن فائدة الجمهور من تتبع خلاصة النشاط في هذا الموضوع الى وقتنا هذا ، ولقد أجاد الدكتور في تصنيف مؤلفهِ هذا فرتّبهُ في خمسة أقسام : — الاول يتضمن تقارير ونشرات عن شؤون الري في هذا الاقليم ، والثاني يحتوي على نشرات دائرة الري الفنية ، والثالث يشتمل على مذكرات مجلسي النواب والأعيان حول مشروعات حيوية كمشروع النكارات ، والرابع يشتمل على مصنفات الرحالة والباحثين وغيرها من المراجع العامة ، والخامس طرق فيهِ الناحية التاريخية والجغرافية . ولا يسع قارىء هذا الكتاب إلاّ الاعتراف بفضل الدكتور المؤلف فيما بذلهُ من مجهود في ترتيب هذا الكتاب وما لهُ من سعة اطلاع. ولقد سدّ هذا المؤلف فراغاً واسعاً يشعر بهِ الفنيون وقراء العربية . وهو مزوَّد بالمراجع العربية والافرنجية ليسهل على من أراد التوسع الرجوع اليها . وفي ذيلهِ فهرست بأسماء الاعلام

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الواحد بعد المائة

---

٣٣٣ العلم : بين النظم الدكتاتورية والدمقراطية

٣٤٦ .. وتكلم الجبل (قصة بركان)

٣٤٩ الاعتبارات الانسانية : للاستاذ عبده حسن الزيات المحامي

٣٥٥ جابر بن حيان : ليوسف كرم

٣٦١ ما يشغل العلماء من مسائل العلم والصناعة

٣٦٥ غفران (قصيدة) : لعدنان مردم بك

٣٦٦ خصائص التفكير الفرنسي: لعثمان أمين

٣٧٥ حكمة المناظرة

٣٧٦ النقل الجوي في أثناء الحرب وبعدها

٣٨١ زجاجة رماد : لراجي الراعي

٣٨٤ الشرق العربي واوربا : لنقولا زيادة

٣٩١ سيبيريا ومواردها المعدنية والصناعية

٣٩٦ الشعور والزمان لا يهدآن (قصيدة) : لأديب عباسي

٣٩٧ النباتيون المشهورون وما يرمز اليهم به : لمحمود مصطفى الدمياطي

٤٠٠ فضائل الصلاة الصحية : للدكتور شوكت موفق الشطي

٤٠٥ الهيكسوس مدى توغلهم في مصر : للدكتور باهور لبيب

٤٠٨ بين عهدين (قصيدة) : للشاعر الالماني ستراوس

٤٠٩ حديقة المقتطف * تاجور في الحياة والأخلاق والمدنية والسياسة والمرأة والأدب والدين : لمحمود المنجوري

---

٤١٩ باب المراسلة والمناظرة * تراث العرب العلمي : لاحمد ابو الخضر منسي

٤٢٤ باب الاخبار العلمية * افتتاح جامعة فاروق الاول . قياس الاشعة التي فوق البنفسجي . نزع اللوزتين بغير ألم او رهبة . عنصر الفلور والحرب . اهناك سيار عاشر . بكتيريا تولد الفيتامين . قشر البرتقال وفيتامين C . النجم « كانوبوس » سهيل وضياؤه . ذكرى نيوتن . قوة خرطوم الفيل . * تقدم العلم ومطامح العلماء : الاشعة الكونية المولدة . توليد اصناف جديدة من النبات . مخاليط فلزية جديدة . تدفئة الملابس بالكهربية . قياس ارتفاع السحاب بالاشعة . فوائد الرقوق الدقيقة . مباراة الاشعة الكونية . لعوض جندي . هل تعلم

٤٣٤ مكتبة المقتطف * محمد علي . تاريخ خليج الاسكندرية القديم وترعة المحمودية . موكب الحياة المفضليات . عوالى . المصادر عن ري العراق



رمز الزمان

يمثل الزمان شيخ مجنح ممسك بمجذاف القارب — ثم امرأة تنظر الأمام فهي تمثل الرجاء (المستقبل) ثم أخرى تعزف على آلة موسيقية تمثل الطرب (الحاضر) وثالثة مسندة رأسها بذراعها تستعيد الذكريات فهي تمثل الذاكرة (الماضي)



المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الواحد بعد المائة

١ دسمبر سنة ١٩٤٢ — ٢٢ ذي القعدة سنة ١٣٦١



العلم والدمقراطية (١)

اذا كانت كلمة اينشتين : « الدكتاتورية تعني كمَّ الافواه والعقول، فالعاقبة هي الضمور والهدم ، واما العلم فلا يزدهر إلاَّ في جوٍّ من الحرية » ، تلخص لُباب الصلة بين العلم والدكتاتورية ، فكلمة ڤولتير المشهورة : «انني أمقت ما تقول وأخالفك في كل كلمة منهُ ولكنني أدفع بحياتي عن حقك في قوله » ، تلخص لباب الصلة بين العلم والدمقراطية

فالدمقراطية من حيث هي نظام سياسيٌّ للحكم ، مفرغ في قالب الحكم النيابيّ ، ومن حيث هي نظرة فلسفية الى الاجتماع البشري وصلة الناس بعضهم ببعض ، وصلتهم بالدولة ، تسعى أبداً الى تحقيق حريَّات شتى وضمانها ، وهذه الحريات ، من الارتقاء البشري ، في منزلة السائل الحيوي المندفع في العروق . وهذا السعي نابع من الايمان بأن السلطان الأول والأعلى على شؤون الناس يجب أن يكون للعقل لا للشهوة . وللفكر لا للدماء . وڤولتير وجون ستيوارت مل ، وهما قطبا الدعوة الى الحرية كانا يعلمان أن الانسان أميل بطبعهِ الى الشهوة منهُ الى العقل ، فغرائزه متأصلة في تركيبهِ الجثماني من الوف السنين ، واما العقل فلا يعدو كونهُ طبقة جديدة على سطح تكوينهِ السيكولوجي، ولذلك كانا مقتنعين بأنهُ لا بدَّ من اخضاع الشهوة أو الغريزة، لضبط العقل المثقف المصقول . وانهُ ما لم يعمد المرء الى أداة المناقشة المطلقة

(١) الجانب الثاني من محاضرة لرئيس تحرير المقتطف

من القيود ، والنقد الحرّ ، وما لم يتعلّم أن يستمع الى الرأي المعارض ، فلا أمل له في بلوغ الحكمة ، اي لا أمل له في تنشئة العقول التي تجعل المجتمع الأمثل او الدنوّ منهُ مستطاعاً ، ولو كان تحقيقه على وجههِ الأتم بعيد المنال

هذه النزعة الى تحكيم العقل ، هي الصفة التي تميز حضارتنا الحديثة ، في نظمها السياسية ونزعاتها الاجتماعية عما سبقها ، من حضارات ، وعما ينبت في أحضانها من نبات دكتاتوري غريب عنها . فلباب حضارتنا الدمقراطيـة ، ليس تقدّمها المادي والصناعي مع اننا نبهر بهِ . ولا ثروتها وثورتها الصناعية التي أفضت الى الاستعمار . فالثروة بحدّ ذاتها محتقرة . والاستعمار أبداً ممقوت . ولكن لبابها هو خلاصة التراث الذي خلّفتهُ شعوبٌ شتّى ، فشيّدت صرحاً رفعت فيه من شأن الانسان وأعزّت من كرامتهِ . ففرنسا عن طريق ڤولتير وغيرهِ أيّدت ما للعامل الانساني من شأن عظيم في بناء الحضـارة والايمان بالعقـل ، والاصرار على ان للانسان المفكر كرامةً في ذاتهِ . وليس هذا بالشيء الجديد في التاريخ . فقد سبقت الحضارة الاسلامية اليه عند ما كانت في ابان عزها فبهرت العالم والتاريخ بعلومها وفنونها . ولكنّ سبعة قرونٍ أو ثمانية انقضت قبل أن استكشف مفكرو فرنسا هـذه الحقائق الاساسية مرة ثانية وجعلوها عناصر أساسية في نظام فلسفي . ثم تمكنوا عن طريق الثورة الكبرى من جعلها أركان النظام السياسي الاجتماعي

وقد علمتنا الأمة البريطانية ان السلطان السياسيّ ينطوي على شيء أهمّ من مجرّد التعبير عن مصالح الجماعة التي في الحكم ، وأشهدتنا على ان السلطان والحرية غير متنافيين ، وان في وسع الانسان التمتع بالحرية بغير أن تنتشر الفوضى ، وفي وسع الحكومة ان تمارس السلطات بغير أن يعمّ الاستبداد

وكيفما قلبنا النظر في ارتقاءِ العالم في القرنين الأخيرين ، بعد عهـد الاستنارة ، نجـد المبادىء نفسها مفرغة في قوالب شتى . فثمة أولاً الفكرة الأساسـية التي قوامها ان الفرد الانساني غاية في حـد ذاته . وليس مجرّد آلة أو أداة تحركها قوة طاغية . واذا سلّمنا بأن الفرد الانساني لهُ قيمة في ذاتهِ ، استخرجنا من هذه القاعدة الأصلية ، القول بوجوب منح هذا الفرد بضع حريات أساسية ، لكي يتاح لهُ النمو العقلي والروحي المتسق. ومن هنا المطالبة بأن تطلق لهُ الحرية ليزن الأمور ويحكم عليها بنفسه وان يناقش وأن يبحث وأن يعرب عن رأيه . فالحريات المدنية والروحية هي روح الحضـارة وهي روح الدمقراطية . أما المخترعات والمكتشفات فلم تنبع إلاّ من الاعتراف بكرامة العقل وحرية الانسان ، والمواهب المبـدعة المولدة ، التي كشفت واخترعت ، لابدّ ان تخمد عند ما ينطفىء ذلك الروح ، فتغدو المواهب

جميعاً وكأنها جهاز كسّر محرّكه أو جسم فقد سرّ الحياة فيه

نعم ان الحكومات الدمقراطية لم تحقق كل هذا على وجهه الأوفى ، ولا على وجهه الذي يرضي . واذا كانت الحريات السياسية في بعض البلدان مضمونةً ، دستوراً وعملاً ، فان الحريات الاقتصادية ليست كذلك ، ولا الاجتماعية ، ولا بدّ أن يؤثر ذلك في ممارسة الحريات السياسية. ولكن يكفينا أن المثل الذي نسعى اليه أمامنا مهما يكن بعيد المنال ، ونحن على ما فينا من نقص وجهل وأثرة ، نحاول ان نتغلّب عليهما . فالحاجة الى مزيد من حرية العقل، وحرية تثقيفه ، وضبط الشهوات واخضاعها . فعلينا أن نفكر بعقولنا لا بدمائنا، لا أن نقلب الآية كما يريدنا الطغاة أن نفعل وكما فرضوا على شعوبهم أن تفعل

في هذا الجوّ ، الذي نشأت فيه هذه المثل السياسية والاجتماعية ، نشأ العلم الحديث وازدهر . وقد كان طريق حرية البحث والمناقشة والتعبير عن الرأي طريقاً وعراً . ولكن النتائج الباهرة التي أسفر عنها البحث العلميّ ذلّلت الصعاب ، ومهّدت الوعر ، فعزّزت ما اعترف به في بيان الحقوق الاميركي ، وبيان الحقوق الفرنسي من حق حرية الفكر وضمانها، ومن ثمّ دخل هذا الحقّ الدساتير الحديثة وضمنتهُ الدول التي أخذت بأساليب الحكم النيابيّ

ولكن النصّ عليه في الدساتير ، شيء ، وتطبيقهُ والتمتع به شيء آخر . فالنصّ عليه في الدساتير ، لم يكن كافياً للتغلب على جميع ألوان المعارضة لهذه الحرية ، من قبل جماعات مختلفة من الناس ، ظنّت ان مصلحتها مقدّمة على مصلحة المجموع . ولذلك كان سبيل الحرية الفكرية ، أبداً سبيل كفاحٍ ونضالٍ . ومن أمجاد الانسانية ، ان رجال الفكر المخلصين لرسالتهم ، أدركوا في كل عصرٍ ان النهوض بمهمّتهم ليس فيه ما يغري ، إلاّ الوعد بأن كلّ من يؤدي مهمتهُ يفوز باحترام النفس ، ويحقُّ لهُ أن يعدّ نفسهُ — على الرغم من النفي والتشريد والموت — جنديّاً في « حرب تحرير الانسانية »

حتى في البلاد التي اشتهرت بأنها مهد من مهود الحرية الفكرية ، كالولايات المتحدة ، كان لا بدّ لرجال الفكر من اليقظة الدائمة لتأييد حقّهم بالكفاح . وقد رأيت أن أضرب مثلاً أو مثلين على هذا وحسبي ذلك الآن

الجامعة وحرية البحث

كان التمسك بعيار الذهب من حيث هو أساسٌ للنقد ، مبدأ في منزلة العقيدة ، عند أهل الولايات الشرقية من الولايات المتحدة الاميركية ، وكان جلّهم من المحافظين . وفي سنة ١٨٩٧ دعا الدكتور اندروز رئيس جامعة برون ، الى استعمال النقدين الكريمين أي الذهب

والفضة Bimetallism فساءَ رأيهُ هذا كثيرين من أمناء الجامعة وأصدقائها . نعم انهُ لم يعف رسميًّا من مهام رآسة الجامعة ، ولكنهُ تعرَّض لنقد لاذع من قبل أعضاء مجلس الأمناء فلم يسعهُ إلاَّ الاستقالة . وعينت لجنة للاجتماع بالرئيس ، لا لتطلب منهُ التخلي عن رأيهِ بل للانكفاءِ عن اذاعتها لئلاَّ يضرُّ نشرها بمصلحة الجامعة من الوجهة المالية ، وهي معتمدة كما نعلم على تبرُّع الموسرين . ولم يكن أساتذة الجامعة طرفاً في هذا الجدال ولكن لم يسعهم السكوت على هذا التعرُّض لحرية الرأي . فأعدوا بياناً ناشدوا فيهِ مجلسي الأمناءِ الكف عن هذا التعرُّض ومما جاءَ في هذا البيان قولهم : ان عمل الامناء :—

« قائم على نظريةٍ اذا أصبحت أساساً لعمل واسع النطاق ، أكلت قلب معاهدنا ، وهي نظرية ان نمو الجامعة من الناحية المادية ، أهمُّ من استقلال الفكر والتعبير المباح لرئيسها وأساتذتها . وان لمجالس الامناء الحق في أن يقترحوا حدوداً لهذا الاستقلال

« فليست وظيفة الجامعة أن تمثّل طائفة معيّنة من الآراءِ السياسية أو الدينية ، أو ان تدعو اليها ، بل أن تلهم الشباب محبة الحقيقة والمعرفة ، وأن تعلم بحرية وتسامح وسائل ادراكهما . وظيفتها أن تتيح تربية قائمة على الحرية لا على التحكم

« إن طلاَّبنا سيعلمون ، ان صمت رئيسهم في بعض الموضوعات شُري شراءً أو فرض عليهِ فرضاً . . . فاذا داخلهم ريب في ذلك فانهم سيشكون في الاساتذة

« ونحن لم نتكلم دفاعاً عن آراء الرئيس المالية لأننا على العموم وعلى مدى فهمنا للمسألة مخالفون لهُ فيها . . . ونحن يهمنا طبعاً نمو المعهد من الناحية المادية وأشد اهتماماً من غيرنا بتقدمه واتساعه ، ومع ذلك لا نرى أنَّ نموَّه يحقَّق ولا نعتقد أن نموَّه يمكن أن يحقق ، بالضغط السياسي والانقياد له . لأننا مؤمنون بان سيَّال الحياة في عروق الجامعة هو الحرية لا المال »

وتاريخ هذا البيان اول يوليو ١٨٩٧ وقد وقعهُ اربعة وعشرون من اعضاء مجلس الاساتذة . ولكن الرئيس اندروز كان قد قدّم استقالته ، بعد ما وُجّه اليهِ من لوم الأمناء ، فقال انهُ عاجز عن تحقيق رغبات الأمناء بغير التخلي عن حرية التعبير التي تمتع هو وزملاؤه بها وأسلافهم من قبلهم

وتوالت البيانات الموجَّهة الى مجلس أمناء جامعة برون ، وهي تناشدهم استدعاءَ اندروز وتقليده الرآسة ثانية ، ونزع وصمة تقييد حرية الرأي عن جبين جامعة برون . وطلب نحو ستمائة خريج من خريجي الجامعة أن يعمل الامناء عملاً من شأنهِ ابطال التهمة الموجهة اليهم وهي التهمة التي لبابها تقييد حرية البحث والتعبير عن الرأي في جامعة برون . وكتب اساتذة

دوائر العلوم الاقتصادية في جامعات اميركية اخرى — ومنهم توسيج في هارفرد وسليجس في كولومبيا — معربين عن أملهم في أن يمتنع مجلس اعضاء جامعة برون عن الاقدام على عمل ما يمكن ان يفسر بأنهُ تقييد لحرية الرأي في هيئات المعلمين في جامعاتنا . . . لأنَّ كل بحثٍ اداريّ او تحقيق في سلامة الآراء المعبَّر عنها في مسألة ما او مجموعة من المسائل ، لا بدَّ ان يحد حرية التعبير ويميل الى القضاء على الاستقلال العقلي ، وتقص احترام الناس لنتائج البحث . وتدخل رؤساء الجامعات الاخرى — مثل اليوت رئيس هارفرد وجلمن رئيس جونز هبكنز — فأرسلوا الى أمناء برون بياناً اقترحوا فيهِ عملاً من قبل الأمناء يفضي بالرئيس اندروز الى استرداد استقالته

وبعد ثلاثة اشهر اقرَّ مجلس أمناء برون باجماع الحاضرين (وكان خمسة من الاعضاء غائبين) توجيه رسالة الى الدكتور اندروز ينكرون فيها رغبتهم في تقييد حرية الرأي أو الحد من مدى معقول لحرية التعبير . وطلبوا الى الرئيس استرداد استقالته . فاستردها ولبث سنة في الرآسة ثم استقال ليتفرغ للتأليف

تقييد العلم بالتشريع

في صيف سنة ١٩٢٥ حوكم في بلدة ديتون بولاية تنيسي من الولايات المتحدة الاميركية مدرّس شابٌ يدعى سكوبس لانهُ علمَّ الطلاب مذهب التطور العضوي ، مخالفاً بذلك شروط المدرسة التي يدرّس فيها وقوانين الولاية القاضية بان يُعلَّم بصحة الاصحاح الأول من سفر التكوين عن الخلق . وكانت هذه المحاكمة اثراً من دعوة طويلة عريضة ، دعا اليها فريق من الناس ، فاصابت نجاحاً في ولاية او ولايتين وأخفقت في غيرهما . اي ان جماعات منظمة من الناس حاولت ان تفرض قيداً على العلم والتعليم عن طريق التشريع . وقد كتبتُ في المقتطف في عدد اغسطس من سنة ١٩٢٥ قبيل المحاكمة : قد يكون المستر بريان Bryan — وهو سياسيٌ دمقراطيٌ وخطيب مفوَّهٌ ولكنه ليس عالماً — مصيباً في ان مذهب النشوءِ القائل بان انواع النبات والحيوان تولد بعضها من بعض جرياً على نواميس الطبيعة ، كما تولد عندنا القطن السكلاريدي من العفيفي ، وكما تولدت اصناف الكلاب المختلفة من أصل واحد أصلي على مرور الزمن ، قد يصحُّ قولهُ بان هذا المذهب يتوسل بهِ بعض الناس الى الاستخفاف بالأديان وإنكار فعل الخالق واباحة ما لا عقاب عليهِ قانوناً ، ولكن اذا كان مذهب النشوءِ صحيحاً لذاته وجب التسليم بهِ كما يجب التسليم بكل ما هو صحيح لذاتهِ

وقد يصدر حكم المحلفين بادانة الاستاذ سكوبس لأنهم يختارون في الغالب من الصناع والتجار والعمال الذين يجهلون العلوم الطبيعية ولكن حكمهم يكون هزءًا لدى حكماء العصر .

فان مجمع تقدم العلوم الاميركي اقام ثلاثة من اكبر علماء البيولوجيا وهم الاستاذ كونكلن استاذ البيولوجيا في برنستون في جامعة برنستون ، والدكتور دافنبورت مدير النشوء الامتحاني (التجريبي) في معهد كارنجي في وشنطن ، والدكتور اوسبرن رئيس امناء متحف التاريخ الطبيعي في نيويورك،فقرروا اولاً ان الادلة التي اقيمت على نشوء الحيوانات بعضها من بعض والانسان منها ، لاد ليل على انها ظنون وما من مذهب علمي تأيد بأدلة أثبت من الأدلة التي تأيد بها مذهب النشوء . وثانياً ان الأدلة على نشوء الانسان كافية لاقناع كل عالم طبيعي (مواليدي) يؤبه لهُ في المسكونة ، وهذه الأدلة تزيد عدداً وشأناً كل سنة.وثالثاً ان مذهب النشوء من أنفع المذاهب التي اختبرها الناس فانهُ دعا الى توسيع المعارف وعزز البحث الخالي من الغرض وساعد على التفتيش عن الحقائق مساعدة لا تثمن . ورابعاً ان كل تشريع الغرض منه تقييد مذهب علمي شائع مؤيد الى هذا الحد كمذهب النشوء،يكون خطأً محضاً يضر تقدم المعارف ويؤخر ارتقاء البشرية بنفيه حرية التعليم والبحث الضرورية لكل تقدم ونجاح

واستفتت مجلة نايتشر طائفة من كبار رجال العلم والتعليم والدين في هذا الموضوع فقال الاستاذ مكبريد في ما قاله — وهو استاذ علم الحيوان في كلية العلم والفن الأمبراطورية بسوث كنسنجتن — ان الطريقة الوحيدة الفعالة لمقاومة الرأي الميكانيكي المادي هي ان ننتقده نقداً مقنعاً مبنيًّا على المبادىء الكمالية . وهذه هي الطريقة التي اتبعت في انكلترا ومن أكبر انصارها هكسلي ... وقد ارتقى هذا النقد بعد هكسلي ارتقاءً عظيماً فنجم عن ذلك ان جميع الناس في بلاد الانكليز ومنهم قساوسة الكنيسة سلموا بصحة مذهب التطور من غير ان يقبلوا الرأي الميكانيكي في الحياة والكون. وقال الدكتور بارنز رئيس أساقفة برمنغهام : « انني لأربأ بنفسي كرجل يجلُّ الحرية الفكرية عن أن أرى جماعة انجلوسكسونية تحاول ان تمنع نشر المعارف بالتشريع » وبعد ما بحث الموضوع من ناحية صلته بأقوال الأنجيل قال : « ان العاقبة الوحيدة التي لا بدَّ ان تنشأ عن مقاومتهم العلم باسم الدين، هي اغراء الوف من طلبة المدارس الأحداث بالتخلي عن المسيحية حاسبين خطأً انها مرتبطة كل الارتباط بهذا الغباء » . وقال الاستاذ ارنست باركر مدير كلية الملك بلندن « ان روح الحرية الذي أوجد المجالس النيابية وهو روح حياتها يجب أن يمنعها عن القضاء على روح الحرية الذي نفخ في معاهد التعليم وصار روح حياتها كذلك » (١)

وليس غرضي أن أعرض لموضوع المقابلة بين أنصار التطور وخصومه — وليس على ما أعلم لهُ خصوم بين العلماء الذين يعتد برأيهم — ولكن الغرض ان أبيِّن انهُ على الرغم

(١) راجع المقتطف نوفمبر ودسمبر ١٩٢٥ صفحة ٣٦٥ — ٣٧٠ و ٥٠٩ — ٥١١

من النصّ في بيان الحقوق الأميركي على حرية الفكر ، كان لا بدّ لأنصار هذه الحرية من ان يخوضوا في سبيل تثبيتها وضمانها معارك حامية

والسبب واضح لا يعتوره الغموض ولا ريب . فالغرض من التعليم تنبيه القوى العقلية وتدريبها ، وليس ثمة معلم يستطيع ان ينبه عقول تلاميذه ويدربها الاّ اذا استعمل عقله حرّاً من القيود . فاذا علّم ما يؤمر بتعليمهِ كان هو وتلاميذه كالآلة ، هو ينقل ما قيل له أن ينقلهُ ، وهم يقبلونهُ من غير بحث ولا مناقشة وكان العلم والتعليم سطحيين . ومتى قيد المعلم كذلك ، فقد احترامه نفسَهُ وما له من مقام وكرامة في نفوس تلاميذه ، واذا فقد مقامهُ في نفوسهم عجز عن التأثير في عقولهم . والتعليم الصحيح يتوقف على اشتراك المعلم والتلميذ في البحث اشتراكاً حرّاً ، هو يعلم ما يمليهِ البحث والفكر وهم ينقادون اليهِ لما في تدريبهِ من قوة فيقودهم في سبيل البحث والتنقيب ولا يستطيع أحد أن يقود غيره اذا لم يكن كلامهُ خارجاً من أعماق نفسه

والمعلم المستبد بآرائه المتعصب لها ينشىء طلبة جامدين ، والدولة التي تجري على نظام تعليمي هذا أساسه تنشىء أمة تهمل الحرية الفكرية اللازمة للارتقاء

اننا لا نستطيع أن نملي على مجلس تشريعي مستقلّ ما يجب أن يقرَّر فيهِ . ان الرأي العام قوة عظيمة ولكننا لا نستطيع أن نكوِّن رأياً عامّاً ناضجاً من غير مناقشة ، ولا مناقشة صحيحة من غير تعليم صحيح حرٍّ ، وتدريب للعقول على التفكير المستقيم . فاذا حاول مجلس من المجالس التشريعية أن يقضي على حرية التعليم قضى على نفسهِ لأنهُ قائم على حرية القول . واذا سعى الرأي العام الى طمس حرية الفكر والقول طمس صوته القوي ، لأن الرأي العام ينشأ من حرية التفكير والقول . وما من دولة دمقراطية تقدر أن تقضي على الحرية أو تخمد حرية الفكر بغير أن تقضي على ذاتها وتخمد شعلة حياتها

ولذلك قلت ، ان العلم والدمقراطية ، من حيث لباب الصلة بينهما ، قوتان متفاعلتان . الدمقراطية تكفل للعلم الجوّ الذي يترعرع فيهِ ويزدهر . والعلم يدرِّب العقول على التفكير الحرِّ المستقيم ، وهو ما لا غنى عنهُ في الدولة الدمقراطية . واذا صحَّ ان صوت الشعب من صوت الله ، فيجب أن يكون صوتاً صادراً عن تفكير مستقيم ، وإلاّ صحّ فيهِ قول خصوم الدمقراطية : ان صوت الشعب صدى لصوت الشيطان ، وهم يقولونها تسويغاً لكبت هذا الصوت

العلم والحرية الاقتصادية

اذا استبانت الصلة الأصيلة بين العلم والدمقراطية ، اتضحت صلات أخرى بينهما ، تتفرع على هذه الصلة الأصيلة . فالدمقراطية في معناها الأمثل تسعى الى تحقيق الحرية الاقتصادية

والاجتماعية علاوة على ضمان الحرية السياسية . لأنهُ اذا كان أفراد الشعب على جانب من الاكتفاء الاقتصادي ، كان أفراده أقل تأثراً بأقوال المهيجين الذين يدعونهم الى التفكير بدمائهم ، واحكم اشتراكاً في الشؤون العامة ، وأرشد رأياً فيها ، وأكثر استقلالاً في وزن الأمور . وليس ثمة ريب في ان ما أسداه العلم الى الحضارة سهل أسباب العيش على كثيرين من الناس ولكنه أفضى الى غير قليل من التفاوت والأثرة والتوزيع الجائر والنزعة المادية . ودواء هذه العلل ليس في اخماد شعلة العلم بل في زيادتها تأججاً ، ولكن على العلم والسياسة الدمقراطية ان يعملا معاً . على العلم ان يرشد الساسة والحكام ، الى ما فيهِ توفير الأحوال التي تعز من كرامة الانسان ، وعلى الساسة ان يأخذوا من العلم ، ويضمنوا بوسائلهم وأساليبهم ان ثماره لا تضيع جزافاً ولا يساء استعمالها في حياة الشعوب . واذا كانت السياسة في أثناء الحرب خادمة الخطة الحربية ، والعلم خادمهما معاً ، فالرجاء ان تغدو السياسة بعد الحرب خادمة العلم في سبيل المصلحة العامة . اذ لا بدَّ ان يكون العالم بعد الحرب جريحاً كسيحاً ، تشتد فيهِ الفاقة ، وتعظم الحاجة ، وهناك المجال الواسع لأيدي العلم الآسية وقدرة العلم على الانشاء المنطوية في الفنون الميكانيكية والصناعية . ولا بدَّ من الاعتراف بأن حاجات الحياة هي جزءٌ من حقوق الانسان فالجوع يسخر الانسان وكذلك السيف . فالقضاء عليهما ينفخ معنىً وحياة في ذلك الحق الانساني الأصيل الذي بدأ بهِ بيان حقوق الانسان الاميركي « حق الحياة ونشدان السعادة »

ثم ان الدمقراطية باعلائها من شأن العقل ، تعلي من شأن التعاون وهو أساس السلام . والعلم الآن واقع تحت ظل غيمة قاتمة ، لأن المخترعات والمستنبطات الميكانيكية ، هي سبب هذه المآسي التي تجرُّها الحرب في ذيولها . ولكن العلم نفسه لا يخدم آلة الحرب دون آلة السلام . ان العلم يعطينا بيد الأسمدة وبيد أخرى المفرقعات . يجهزنا من ناحية بالأشعة السينية ووسائل الجراحة والمخدرات الطبية ومن ناحية أخرى بالمدافع الرشاشة ، والغاز الخانق والمغيبات . ولكن ما يجهزنا به العلم لأعمال السلام يفوق أضعاف أضعاف ما يجهزنا به لأعمال الحرب . فالمتفجرات تستعمل في الحرب للهدم والقتل . ولكنها تستعمل في السلم لحفر الانفاق وشق الترع وفتح المحاجر . والصلب لا يستعمل في صنع الأسنة والرماح وحسب ، بل يستعمل كذلك في صنع المحاريث وقضبان سكك الحديد والسيارات والحصادات ومئات من الادوات اللازمة في الصناعة والزراعة والتجارة

ولكن قوة الانسان سبقت حكمته . والعلاج تثقيف العقل ، وتمكينهُ من السيطرة على الشهوات . فالعلم لم يغير رغبات الانسان وشهواتهِ بل مهَّد له طريق تنفيذها . فاذا لم تصقل وتخضع لنواهي العقل ، وإذا لم يحكم الاتزان بينها وبين ما يمليه العقل ، أفلتت ، واتخذت من مآتي

العقل سلاحاً تدمّر به الحضارة . وان أزعم ان التثقف بأساليب العلم الصحيح الحرّ ، مفض بعد طول الممارسة ، الى مهيع الحكمة والرشاد

ثم ان حقائق العلم وثمار العلم ، لا تميّز بين الاجناس والعقائد والمذاهب الاجتماعية . فالكينا تشفي المصاب بالبرداء سواء أابيض كان أم أسود ، وهنديًّا أم أوروبيًّا ، وشيوعيًّا أم محافظاً ، وقسيس كنيسة أم حاخام كنيس أم شيخ جامع

وكما ان العلم لا يميز هذا التمييز بين الناس ، فجميع الشعوب اشتركت في بناء صرحه . وكلٌّ دخل هيكله وفي يده قربانه . من المصريين الاقدمين والأشوريين والكلدانيين الى العرب والهنود الى اليونان والطليان والالمان والانكليز والفرنسيين والأميركيين وغيرهم . فالعلم في الواقع هو الجامعة العالمية الكبرى . وهو بهذا الفهم ، يجب ان يكون معواناً للدمقراطية ، في نضالها لتحقيق عالم أفضل من العالم الذي نعيش فيه

دستور العلم الدولي

وفي الختام اسمحوا لي أن اتلو عليكم « دستور العلم الدولي » كما وضعهُ « مجمع تقدم العلوم البريطاني » وأقره اعضاؤه في مؤتمرهم المنعقد في لندن في سبتمبر من سنة ١٩٤١

١ — حرية التعلم ، وفرصة التعليم ، والقدرة على الفهم ، لا غنى عنها في توسيع نطاق المعرفة ، ونحن العلماء نقول ان التضحية بها تفضي الى اهدار كرامة الحياة البشرية

٢ — الجماعات تعتمد في بقائها وتقدمها على معرفتها أنفسها وخواص الأشياء في العالم الذي يحيط بها

٣ — جميع الأمم وجميع الطبقات أسدت أيادي الى المعرفة وطرق استعمال الموارد الطبيعية والى فهم تأثيرها في الارتقاء البشري

٤ — المبادىء الاساسية في العلم تعتمد على الاستقلال مقترناً بالتعاون ، وتتأثر بحاجات الانسانية السائرة الى الامام

٥ — ان رجال العلم هم أمناء كل جيل على ما يرثهُ من المعارف الطبيعية . فيتعين عليهم ان يرعوا هذا الارث وان يضيفوا اليهِ ، بالوصاية الأمينة وخدمة المثُل العالية

٦ — جميع طوائف المشتغلين بالعلم اخوان في جامعة العلم العامة ، وهذه الجامعة نطاقها الأرض قاطبة ، وكشف الحقيقة غرضها الأسمى

٧ — إن المضي في البحث العلمي يقتضي حرية عقلية وتبادلاً دوليًّا لا قيد لها ، ولا يترعرع الاّ في حضن الحياة المتمدنة الحرة

نفط روسيا

وحاجة هتلر

في اليوم الثالث من شهر اكتوبر سنة ١٩٤١ ألقى هتلر خطبتهُ التي أعلن فيها « ان العدوَّ في الشرق خرَّ صريعاً ولن تقومَ لهُ قائمة » . واستشرف المستقبل فقال ، وهو أصحّ قولاً « وانما أمامنا مشكلة واحدة هي مشكلة النقل » . ولو أضاف لفظ « النفط » الى هذه العبارة ، لكمل وصف أكبر مشكلة يعانيها ، لأن النقل يعتمد على النفط ، ولا بدَّ للنفط أين وُجد من أن ينقل

قد تختلف الآراء في هل الحاجة الى النفط كانت أقوى العوامل التي حملت هتلر على مهاجمة روسيا . أما وقد انقضت سنة وخمسة أشهر على بدء هذا الهجوم فليست ثمة ريب في دوائر معظم الخبراء ، في ان حاجة هتلر الى نفط القوقاس غدت عظيمة . فمثلهُ كمثل الكيميائي القديم الذي استهواه تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب ، فأنفق كل ما يملكهُ من ذهب في ذلك فخسرهُ ولم ينجح التحويل

ان مصادر النفط الطبيعي والمصنوع ، الخاضعة لهتلر ، تخرج من عشرة ملايين طن الى اثني عشر مليون طن في السنة . وهذه الأرقام تشمل ما يستخرج من النفط الطبيعيّ في أوربا الخاضعة لألمانيا (باستثناء ميكوب في شمال القوقاس الغربيّ وقد خرب الروس منابعها وفي أحدث الروايات أن إحدى الآبار رممت وأوشكت أن تنتج فخربتها العصابات الروسية) وهو ستة ملايين طن ، وأربعة ملايين طن من النفط المصنوع ، ومليونا طن من الأعواض . وأوربا الهتلرية كانت تنفق قبل الحرب في أغراض السلام — من نقلٍ وصناعة وما أشبه — عشرين مليون طن ، فقيّد هذا الاستهلاك تقييداً دقيقاً . ومع ذلك فأقل ما يجب أن يقسم لها لأغراضٍ غير حربية محض لا يقل عن ثمانية ملايين طن في حالٍ ما . فاذا نقص عن هذا تأثرت بذلك الصناعة والزراعة تأثراً قد يوهن الاداة الحربية الألمانية

فيبقى اذن من مليوني طن الى أربعة ملايين طن من النفط متاحة للأعمال الحربية في جميع الميادين . وقد كانت الحملات الخاطفة التي شنَّها الالمان في مراحل الحرب الأولى ، قبل

الهجوم على روسيا ، لا تستنفد كثيراً من النفط ولا سيَّما لأنَّ مقادير غير يسيرة اخذت من مخزون البلدان المغلوبة . ولكنَّ ما يستنفدهُ القتال المستمرُّ — على تفاوت في الشدة — في روسيا ، بغير أن يصيب الألمان مخزوناً يذكر يستولون عليهِ ، حتم على المانيا أن تعمد الى استنفاد بعض المخزون فيها . ومما لا ريب فيهِ ان موارد النفط جميعاً في القارة الأوربية لا تكفي لمعدل الاستهلاك . ويقول الخبير فردريك فيليب هلن [1] إنهُ على الرغم من تراخي القتال في روسيا في أثناء الشتاء الماضي ، فان هتلر لم يبدأ فصل القتال هذه السنة بأكثر من مخزون يتفاوت بين ثلاثة ملايين طن وخمسة ملايين وهو لا يكفي لقتال على نطاق القتال الروسي في السنة الماضية أكثر من خمسة أشهر أو ستة . اما الانتاج السائر وهو مليون طنٍ على المعدَّل في الشهر ، فسبعة أعشاره يجب أن تحوَّل الى الاستهلاك الأهلي في الصناعة والزراعة والنقل وما أشبه — وهو أقل مقدار تحتاج اليهِ — فلا يبقى متاحاً من هذا الانتاج سوى ثلاثمائة الف طن للاعمال الحربية. وقد قال هذا الكاتب — في مقالٍ نشر في المجلة المشار اليها في عدد يونيو ١٩٤٢ [2] ومن المرجَّح انهُ كتب على أقرب تقدير في ابريل — ما نصهُ : « فاذا لم يسيطر هتلر على القوقاس في فترةٍ أولها أغسطس وآخرها اكتوبر ١٩٤٢ فسيعجز عن شن الحرب الهجومية على المنوال الذي شهدناه خلال السنوات الثلاث الماضية ، فيفلت زمام الحرب من يديه . واذا فاز بذلك منع عن جيوش روسيا ، وكيانها الاقتصادي ، الوقود أو أكبر جانبٍ من الوقود الذي تحتاج اليهِ . ومع ذلك فان الاستيلاءَ وحدَهُ لا يكفيهِ ، لأن الخطة التي اتبعها الروس ، في تخريب كلِّ ما يضطرُّون الى الجلاء عنهُ ، يقتضي منهُ أن يبدأ ثانيةً في حفر الآبار ، وانشاء معدات التقطير و « التحطيم » ومستودعات التخزين ، وتخصيص المركبات أو السفن اللازمة للنقل من المراكز الصناعية الى ميادين القتال . وتحقيق كلِّ هذا يقتضي منهُ نقل المنشآت والمعدَّات من فرنسا وهولندا وبلجيكا وتشيكوسلوفاكيا الى القوقاس ، أو نقل النفط الخام بالسفن البحرية والنهرية والقطرات الى مصانع التقطير الأوربية التي تكاد تكون على الأكثر واقفة عن العمل الآن . ولكن هذا يشمل مشاقَّ مستمرَّة في النقل ، وتعرضاً لخطر القذف الجويّ . واذا حلَّت جميع هذه المشكلات على الوجه الأوفى ، فلا يحتمل ان يكون النفط متاحاً لهتلر قبل سنة ١٩٤٣ وهي السنة التي ينتظر فيها ان تبلغ قوة الدول المتحدة أوجها أو تشرف عليه

---

(١) مجلة الاتلنتك منثلي الاميركية وقد كان على صلة وثيقة بصناعات النفط في المانيا وروسيا وبريطانيا وزار مناطق النفط في اوربا والشرق الاوسط وشمالي افريقية زيارات خبير (٢) واليه استندنا في هذا الفصل

النفط الروسي

بلغ مقدار المستخرج من النفط في روسيا سنة ١٩٤٠ نحو أربعة وثلاثين مليون طن وهو قرابة ١١ في المائة من المستخرج في جميع أقطار الأرض. ويبلغ المستخرج من آبار القوقاس نحو ٨٥ في المائة من المجموع وعلى وجهٍ خاص في منطقة باكو حيث يبلغ النفط الخام المستخرج أربعة وعشرين مليون طن. وهناك كذلك منطقتا ميكوب وجروزني، ومقدار النفط المستخرج منهما يبلغ حوالي خمسة ملايين طن تصلح خاصة لاستخراج مواد التزييت الجيدة (مواد التشحيم أو الملسّسات Lubricants)[1]. وقد كشف في سنة ١٩٣٥ منطقة نفطٍ بين جبال الاورال والفولجا، دُعيَت «باكو الثانية» وإن كان المستخرج منها لم يزد على مليوني طن في السنة عندما هجم هتلر على روسيا. وتشير الأنباء التي يصحّ الاعتماد عليها الى ان مصانع كبيرة للتقطير أنشئت هناك وتكفي لتقطير مقدار من البنزين يبلغ ١٠ الى ١٤ في المائة من انتاج البنزين كله في روسيا

غير أن تطبيق النظام الاشتراكي على المزارع الروسية، والتوسع في انشاء المصانع الحديثة، واعداد جيش روسي كبير حديث المعدّات والسلاح، قفز بروسيا الى المقام الثاني بين الدول التي تستهلك النفط ومشتقاته. فقبل عشر سنوات او نحوها كانت روسيا، تصدر من نفطها اربعة ملايين طن الى ستة ملايين طن كلّ سنة فنقص ذلك الى مليون طن او اقل قليلاً في سنة ١٩٣٨ ثم وقف الإصدار الاّ قليلاً في سنة ١٩٣٩ والنصف الاول من سنة ١٩٤٠ لأن روسيا كانت تحتاج الى نفطها

واعتماد الصناعة الروسية والزراعة الروسية والقوة الحربية الروسية على النفط ومشتقاته، ينزل الطرق التي انشأها الروس لنقل هذه المواد من مناطق القوقاسَ الى الشمال، في المقام الاول بين الأهداف الحربية في روسيا. ولو استطاع الالمان ان يشقّوا طريقهم الى استراخان او الى ستالنجراد، بعد دخولهم روستوف في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٤١ لحاق الخطر بروسيا. نعم كان في وسعها حينئذٍ ان تعتمد على المخزون من الوقود وما يستخرج في باكو الثانيـة وغيرها من المناطق التي لا يكثر فيها استخراج النفط، ولردّ شبح الخطر أمداً قصيراً، قد لا يزيد على بضعة اشهر، ولتحوّلت الحرب في روسيا بعد ذلك من حرب حديثة، الى حرب عصابات على الطريقة الصينية في السنوات الخمس الاولى من الحرب ضدّ اليابان. ولو نجح الالمان في احتلال منطقة آبار جروزني لأصابوا فيها مقادير كبيرة من النفط تصلح لاستخراج مواد

---

(١) الملس في محيط المحيط «عند الاطباء دواء ينبسط على سطح عضو خشن فيستر خشونته ويجعله كأنه أملس» وهذا يقابل تعريف Lubricant في ما يخص السطوح المعدنية كالعجلات في الآلات الحديثة

التزييت . واذا كان اخراج الالمان من روستوف في السنة الماضية ، هزيمة محدودة ، من الناحية الحربية فإنهُ كان هزيمة اكبر من ناحية الوقود . فلا الالمان اصابوا ما يحتاجون اليه . ولا نزعوا من الروس ما يحتاجون اليهِ ، وأتيحت الفرصة لروسيا ، لملء مستودعاتها والتوسع في ما يستخرج من المناطق الاخرى خلال أشهر الشتاء والربيع ١٩٤١ — ١٩٤٢. وفي هذه السنة لم يكن نصيب الالمان من النجاح الحقيقي في هذه الناحية كبيراً . فقد أخذوا آبار ميكوب وهي أقل آبار القوقاس انتاجاً . ومع ذلك لا يزالون عاجزين عن الانتفاع بقطرةٍ واحدة منها . وما زالوا مصدودين عن آبار جروزني . واما باكو فبعيدة عن متناولهم الآن . نعم إنهم اقتربوا من ستالنجراد واستولوا على جزءٍ منها . ولكن يلوح ان اقترابهم في البدء لم يؤثر في قدرة الروس على استعمال الفولجا طريقاً لنقل النفط من الجنوب شمالاً ، وعندما اصبح الألمان مشرفين من بعض المواقع على طريق الفولجا وراءَ المدينة ، كان النهر قد أشرف على التجمّد ، ومنفعتهُ للروس من هذه الناحية قد نقصت . وفي خلال هذه الاعمال الحربية الواسعة التي بدأوها في ٢٦ يونيو أنفق الألمان مقادير وافرة من النفط ومشتقاتهِ بغير ان يصيبوا عوضاً يذكر عنها حتى الآن

نفط المانيا

يميل « هلن » الى الرأي بأن المانيا كانت قد اختزنت من النفط غير الاوربي ومشتقاتهِ عند ما بدأت الحرب في سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، ما يتفاوت بين خمسة ملايين وسبعة ملايين طن متري . وكانت المانيا قد استوردت هذا النفط خلال سنوات وزادت مقادير ما تستورده زيادة كبيرة قبل نشوب الحرب . وكانت الحاجة الأهلية في المانيا الى النفط تكفى مما يستخرج من النفط الخام في بلادها ، ومما يصنع بالتركيب الكيميائي ، ومن بعض ما يستورد . أما المستخرج من النفط الخام في قارة اوربا ما عدا روسيا فيبلغ — مع شيء من التحفظ — ستة ملايين طن كل سنة ، منها أربعة ملايين تستخرج من آبار رومانيا و٦٠٠ الف طن من آبار في المانيا و ٥٠٠ الف طن من آبار في بولونيا و٣٠٠ الف طن من آبار في البانيا و ٢٠٠ الف طن من آبار في هنغاريا و٤٠٠ الف طن من آبار في النمسا واستونيا والالزاس وتشيكوسلوفاكيا

وبلغ المصنوع من النفط الصناعي مليوناً ونصف مليون من الأطنان في سنة ١٩٣٨ وكانت المصانع التي تصنع هذا القدار تتفاوت من خمسة وعشرين الى خمسة وثلاثين وهي متفرقة . وكانت هذه المصانع قبل الحرب قد أُنشئت على الأكثر في منطقة الفحم الألمانية في الغرب ومنطقة الفحم اللين (اللجنيت) الى المانيا الوسطى . أما بعد نشوب الحرب فقد

أنشئت مصانع لهذا الغرض في الولايات الشرقية وعلى ساحل بحر بلطيق وفي تشيكوسلوفاكيا

وقد استحدثت المانيا طريقتين لصناعة النفط من الفحم ، بغير نظر الى نفقة الاستخراج وتعرف إحداها بطريقة برجيوس والثانية بطريقة « فشر — تروبش » . أما الأولى فتحوّل الفحم أو اللجنيت الى نفط مركّب خام ثم تستخرج منهُ المشتقات . أما النفط المركب الخام في الثانية فيصلح لاستخراج المشتقات منهُ وكذلك مواد التزييت . والاصناف جيدة بوجهٍ عام

وقد تمكّنت المانيا من زيادة المصنوع من النفط المركّب بالاساليب الكيميائية ، من ١٠٠ الف طن في السنة (١٩٣٣) الى مليون طن ونصف مليون طن في السنة (١٩٣٨) . والغالب عند خبراء النفط ان ما يصنع من النفط المركّب في المانيا وأوربا الخاضعة لها قريب جدًّا من أربعة ملايين طن في السنة

فلما نشبت الحرب ، انقطع الوارد الى المانيا من النفط ، إلاّ ما كان يجيئها من رومانيا وروسيا . وكانت روسيا قبل نشوب الحرب تصدر الى المانيا بضع مائة الف طن من البنزين ومواد التزييت ، وكانت تنقل بالسفن من البحر الأسود خلال الدردنيل والبحر المتوسط الى الثغور الألمانية على ساحلها الشمالي . فلما نشبت الحرب رأت روسيا انها لا تستطيع أن ترسل اليها النفط بالسفن . ففي خلال الفترة التي انقضت بين نشوب الحرب وهجوم المانيا على روسيا ، كانت روسيا ترسل الى المانيا ما ترسلهُ من النفط بالسفن في البحر الأسود الى ثغور رومانيا وبلغاريا ثم ينقل بالسفن في نهر الدانوب ، أو بسكك الحديد . وما أرسل رأساً من روسيا الى المانيا بسكك الحديد كان يسيراً جدًّا ، وكان لا بدَّ من تحويلهِ عند الحدود البولونية من قطار الى قطار آخر لاختلاف عرض السكك الحديد في البلدين . ومن الجائز ان يستعمل الألمان الآن شبكة الأقنية التي أنشأها الروس لوصل البحر الأسود ببحر بلطيق

أما ما يستخرج من النفط في رومانيا فقد نقص نقصاً مطرداً حتى بلغ ستة ملايين طن في السنة (١٩٣٨) ومن هذا المقدار تصدر رومانيا أربعة ملايين طن من المشتقّات وتستبقي مليونين لاستهلاكها الداخلي . وهي تستهلك هذا المقدار الكبير ، مع قلة الطرق والمركبات فيها ، لأنها تعتمد على النفط في قطراتها وصناعتها والتدفئة والاضاءة

وكانت رومانيا — الى عهد انهيار فرنسا — ترسل نفطها بحراً في البحر المتوسط الى موانىء أوربا الغربية . ولا يحتمل ان ايطاليا كانت تتلقى منهُ أكثر من بضع مائة الف طن والمانيا مليوناً أو أكثر . فلما دخلت ايطاليا الحرب في ١٠ يوليو ١٩٤٠ اصبح الصادر الروماني محبوساً على المحور دون غيره ، ولكن مشكلة نقلهِ — وقد سُدَّ طريق البحر المتوسط — كانت معقدة . فالدانوب لا يتسع لنقل مقدارٍ يزيد على مليون ونصف مليون

من الاطنان . والباقي يجب أن ينقل بسكك الحديد الى مختلف أنحاء القارة الاوربية . والنقل بسكك الحديد مرهق ارهاقاً لا يتسع المجال في هذا المقال لتفصيله

وقد أصابت المانيا في البلدان المحتلة ، مقادير من النفط منها ما يستخرج من الآبار في البلاد التي استولت عليها أو دخلت في نطاقها ، ومنها ما كان مخزوناً فيها . ففي غربي بولونيا آبار تخرج ١٥٠ الف طن في السنة (يستخرج منها من ١٥ الى ٢٠ في المائة من مواد التزييت) وفي شرقي بولونيا آبار تخرج ٣٥٠ الف طن في السنة وهذه آلت اليهم بعد الهجوم على روسيا. وفي الالزاس آبار تخرج ٧٥ الف طن في السنة . وفي هنغاريا والبانيا آبار تخرج نحو ٤٠٠ الف طن في السنة . وفي استونيا آبار تخرج نحو ١٠٠ الف طن في السنة والمجموع أكثر من مليون طن قليلاً . أما المخزون الذي أصابوه في الدنمارك وهولندا وبلجيكا وفرنسا فيبلغ مليوني طن من النفط الخام على المرجح

وقد زاد المتاح لألمانيا بعد دخول ايطاليا الحرب ، بما كان مخزوناً في ايطاليا (وهو يبلغ ٢ ½ — ٣ ملايين طن) وما يستخرج من آبار البانيا . ولكن هذه الفائدة كانت قصيرة الأمد . لأن ايطاليا تحتاج الى مقادير كبيرة من النفط ومشتقاته في صناعتها وادواتها الحربية . والأسطول الايطالي وحده كان يستهلك نحو مليون طن في السنة في مناوراته ابان السلام . وقد يكون في هذه الحقيقة بعض تفسير لسكون الاسطول الايطالي خلال الحرب

مواد التزييت (التشحيم)

ان ما يستهلكه المدنيون من مواد التزييت قلما يستطاع خفضهُ . فحيث تدور العجلات لا بدَّ من هذه المواد . والا جفَّت السطوح المعدنية وعجزت عن الدوران أي إن سطوحها يجب ان تملّس . وارهاق الآلات الميكانيكية في اثناء الحرب ، يجعل الاقتصاد في مواد التزييت مستحيلاً . وكانت المانيا تستهلك من هذه المواد ٦٠٠ الف طن في السنة قبل الحرب . ومنذ ما نشبت الحرب زاد المستهلك وكان لا بدَّ من الاعتماد على المخزون في سدّ النقص . لأن استخراج هذه المواد او استخراج الجيد منها في اوربا محدود . فلا النفط الطبيعي الالماني ولا النفط الروماني يصلحان لهذا . اما النفط المركّب بالكيمياء في المانيا على طريقة « فشر ترويش » فصالح لاستخراج مواد التزييت الجيدة منهُ . ولكن المقادير المستخرجة قليلة . ومن المجمع عليه بين خبراء النفط والصناعة ان مواد التزييت الجيدة المستخرجة من النفط الروسي والنفط الاميركي هي وحدها التي تصلح لمواجهة مطالب الصناعة الحربية والحرب . ومع ان ما يستهلك من هذه المواد لا يزيد على ٣ في المائة من المقادير المستهلكة من النفط ومشتقاته الاخرى ، فالمشكلة التي تواجهها المانيا من هذه

الناحية خطيرة ، اذ لاسبيل الى تعويض المستهلك تعويضاً وافياً من مصادر أوربية . ولذلك يستطيع الخبراء ان يصدقوا ان الدبابات الالمانيـة في بعض ساحات الميدان الروسي عجزت عن المضي ، لتجمد مواد التزييت فيها . وقد يكون في هذا اشارة الى ما بدأت تعانيه المانيا من ناحية مواد التزييت الجيدة

حاجة هتلر

في معارك بولونيا والنرويج وفرنسا والبلقان لم تبدُ حاجة هتلر الى الأخذ من مخزون النفط عنده. فالمعارك نفسها كانت قصيرة الأمد حاسمة والفترات بينها كانت طويلة كافية لتعويض ما يستهلك فيها من هذه المواد ، علاوة على ما أخذ من مخزون في البلاد المفتوحة . والواقع ان ما أخذ من مخزون هذه البلاد ، زاد المخزون في المانيا . أما القتال في أفريقية والهجوم الجوي على بريطانيا ، فلم يستنفد كثيراً من النفط ومشتقاته . ولكن حاجة هتلر الى النفط بدأت عند ما بدأ الهجوم على روسيا . هنا ميدان طوله ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ ميل تدور المعارك فيه على الأرض وفي الجو . وملحقاته ثلاثة بحار هي البحر الأسود وبحر بلطيق والمحيط المتجمد الشمالي . ومنذ ما بدأت الحملة الألمانية في روسيا لم تنشر الأرقام الخاصة باستهلاك النفط . ولا يجدينا ان نعلم ما تنفقه دبابة أو طائرة او سيارة من الوقود في الساعة او اليوم ولا يجدينا ان نعلم ان الفرقة الألمانية المدرعة تشمل أربعمائة دبابة متوسطة وخفيفة و ٣٣٠٠ سيارة ، اذا لم نعلم مدى حركتها واشتراكها في القتال . والخبراء الحربيون قد اختلفت آراؤهم في ما انفقتهُ الجيوش الالمانية من النفط ومشتقاته في معركة بولونيا التي دامت سبعة عشر يوماً . ومنهم من يجعلهُ ٣٠٠ الف طن ومنهم من يجعلهُ ٧٥٠ الف طن . وما استهلك في معركة فرنسا بلغ ضعفي ما استهلك في بولونيا . ويقدَّر ما استهلـكهُ سلاح الطيران الالماني من بنزين الطيران الطيَّار المكرر ، خلال شهر من النشاط العظيم بخمسين الف طن الى مائة الف طن . فخمسمائة قاذفة تطير كل يوم اربع ساعات على المعدل وتستهلك طنًّا الى طن ونصف في كل ساعة طيران ، تستنفد في شهر من ستين الف طن الى تسعين الف طن من البنزين الجيد

ويقول « هلن » انهُ لا يظن انهُ مبالغ في تقديره ان استهلاك الالمان للنفط في روسيا بلغ مليون طن في الشهر بين ٢٢ يونيو وأوائل دسمبر من السنة الماضية . ومن المحتمل في رأيه ان هذا المقدار هبط الى نحو ٦٠٠ الف طن في الشهر بين دسمبر ١٩٤١ وابريل ١٩٤٢

فعلى أساس الحقائق التي سبق ايرادها وتقدير «هلـن» للاستهلاك الشهري في الصناعة والزراعة والنقل وفي الأعمال الحربية نفسها يلوح ان اداة الحرب الالمانية قد أشرفت على منطقة الخطر في ما يخصُّ تموينها بالنفط ومشتقاته

بعد الحرب

كيف تعالج المشكلات العالمية

الدكتور تشارلز وطسن
رئيس الجامعة الاميركية بالقاهرة(1)

إن غرضي استيضاح بعض المشاق والمشكلات ، التي يتعين على الظافرين والمقهورين ، مواجهتها عند ما تنتهي الحرب ، والاشارة الى ما يجب تدبيره لمعالجتها . والبحث قائم على فرضين اولهما ان الدول المتحدة ستحرز ظفراً كاملاً حاسماً. والثاني ان هذه الدول ستمضي بعد الظفر ، في طريق التعاون الوثيق في مواجهة مشكلات السلام ومعالجتها ، كما واجهت مشكلات الحرب صفاً واحداً . وهذا فرض كبير مع ان احتمال التعاون بعد هذه الحرب اعظم من التعاون الذي حقق بعد الحرب العالمية الأولى. وليس يغرب عن بالي ان رئيس الولايات المتحدة ورئيس الوزارة البريطانية ارتبطا بالمادة الثامنة من « دستور المحيط الأطلسي » ولكن قراراً من السلطة التنفيذية في الولايات المتحدة ، لا يعدل قانوناً يقره الكونغرس. وبرغم الانقلاب في الرأي العام الأميركي لا يصح ان يقال ان « برل هاربر » أقامت شاهداً دائماً على قبر العزلة الأميركية . ومع ان وكيل الرآسة الأميركية « ولاس » وغيره من قادة الرأي يوالون الدعوة الى وجوب التعاون الوثيق بعد الحرب ، وبحث المشكلات التي يحتمل مواجهتها تأهباً لعلاجها ، ويعربون عن ضرورة نهوض الولايات المتحدة بنصيبها في الانشاء والاصلاح، يحسن بنا أن نذكر من قبيل الحيطة ، ان هذا التعاون يجب ان يبقى فرضاً الآن . فالمحافظة على القوات الحربية اللازمة لحفظ السلام والأمن، وانفاق النفقات الطائلة على الاغاثة والتعمير، والاهتمام بشؤون بلدان نائية — بعد زوال الخطر العام — والتسليم بخفض حواجز الجمارك وفتح الأسواق وتوزيع المواد الخام على أساس عادل ، واكتفاء العمال بخفض مستوى عيشهم في سبيل عون يبذل لأغراب عنهم —(وقد أشار رئيس أساقفة كنتربري الى ذلك بقوله :«ان طوائف مميزة من شعبنا وبعض طبقات العمال عليها ان ترضى بخفض مستوى المعيشة لكي يتاح توزيع خيرات الأرض بين الأمم وبين الناس في كل أمة توزيعاً أقرب الى المساواة ») — جميع هذه المسائل هي قواعد التعاون بعد الحرب مفرغة في قالب عملي

(1) ملخص محاضرة الدكتور وطسن في موضوع يشغل مفكري هذا العهد

المشكلات والمهام

على أساس هذين الفرضين ، يجدر بنا ان نلقي الآن نظرة عامة فاحصة على المهامّ التي يتعين علينا ان نواجهها حالاً بعد ما تضع الحربُ اوزارها

١ — ﴿ نزع السلاح وتسريح الجيوش ﴾ من الواضح ان الحربَ لا تعَدُّ منتهيةً انتهاءً يُطمأَنُ اليه ، الاّ بعد القضاء على معدات العدو الحربية أو مصادرتها . وهذا أصدق ما يكون على هذه الحرب لأنها حرب آلات ومعدات . ونزع السلاح مهمة لا بدَّ من وقوعها على كاهل الجيوش الظافرة والهيئات المشرفة عليها . ولا بدَّ من انجاز هذه المهمة على أوفى وجهٍ ، لئلاّ يقع السلاح في أيدي جماعات من الثوار ، فتسدده الى من كان مستبدًّا بها يسومها الحرمان والعذاب . وتسريح الجيوش يتبع نزع السلاح ولا بدَّ من ان يصبح مشكلة تقتضي الحلَّ السريع ، بعيد ما تنتهي الحرب . ومن المرجَّح ان التسريح يجب ان يكون منظّماً متدرجاً لكي لا يغدو ألوف من الجنود خطراً على الأراضي التي يكونون فيها او يجوزونها

٢ — ﴿ التعطُّل عن العمل ﴾ إن مشكلة التعطل عن العمل التي يحتمل نشوؤها عند عقد الصلح تكاد تروع المتأمل . تصوَّر الانصراف الكليَّ الى الانتاج الحربي الآن في الدول المحاربة ، ثم تصوَّر وقوف الوف وعشرات الألوف من المعامل عن العمل ، فتنطلق ملايين من عمالها في الشوارع ، جيشاً لا عمل لهُ ولا مرتزق ، وقد يواجه الفاقة او الموت جوعاً . ومهما تكن الحكومات نافذة البصر ، في إعداد الخطط لتحويل صناعات الحرب الى صناعات السلام، فلا مفرَّ من انقضاء أسابيع وأشهر، قبل ان يتمَّ التحويل . ويضاف الى هذا ما يحيط بمسائل الأسواق والمال اللازم لتجديد الآلات ، من غموض واضطراب . وفي بلدان كثيرة، تتعقد المشكلة بوجود نساءٍ تعوَّدنَ الانتاج والكسبَ في أثناء الحرب ، فهل يجب عليهنَّ أن يعدنَ الى البيوت وهل يطقنَ هذا ؟ وقد أنفقت ألوف الملايين من الجنيهات على الحرب، ولا مفرَّ من انفاق ملايين أخرى ، في بلدان أوربا، للتعمير وانشاء صناعات السلام قبل أن تستطيع هذه الصناعات أن تشارك في حلّ مشكلة التعطل عن العمل أو تخفيف وطأتها

٣ — ﴿ محاكمة جناة الحرب والضبط في الانتقام ﴾ قد يكون من وراء الطاقة البشرية أن ننتظر من المستبدّ بهم ، الامتناع عن أعمال الانتقام من رجالٍ اشتركوا خلال الحرب ، اشتراكاً مباشراً أو غير مباشر ، في الفظائع وقتل الناس قتلاً بالجملة واعدام الرهائن . وقد وجّه أسقف تشتستر النظر الى وجوب تدبير ما يلزم لمنع أعمال الانتقام الفردية هذه ، وذلك على أثر زيارة لهُ الى السويد . قال «ماذا يحدث متى وصلت الأنباء الى النرويج وهولندا وبلجيكا وبوهيميا ومورافيا ويوغسلافيا ، بأن هتلر ورجال عصبتهُ قد سقطوا ؟ يكاد يكون

محققاً قيام ثورات على ثلاث طبقات من الأعـداء — الجيش الالماني والجستابو والجماعة المعروفة بوصف كويزلنج — اذا لم تقبض على زمام الحكم أيدٍ تملك السلطان الوافي». ولا بدَّ من القول بأن عزم الدول المتحدة على محاكمة المسؤولين عن الفظائع ، متى أصبح ذلك متاحاً لها، خطة لا بدَّ من اذاعتها أوسع اذاعة ممكنة لسببين . أولهما : انها قد تحمل النازي على ضبط النفس اذا وثقوا بأننا سنبحث عنهم لمعاقبتهم ولا سيما اذا كانت عقوبة الاعـدام بين العقوبات المقترحة . ومما يبعث على الارتياح أن نطالع في بعض الوثائق الرسمية ان هذه المحاكمات ستقام وان سجلات يصح الاعتماد عليها تعدُّ الآن وكذلك الأدلة الوافية على كل تهمة . وثانيهما : انها قد تساعد على الحدّ من أعمال الانتقام الفردية، اذا علم الناس ان هناك محاكمات قانونية تتولاها هيئات قضائية منظمة

٤ — ﴿ التدبير ضدَّ الجوع والمرض ﴾ اليكم عبارة وردت في تقرير لجنة أنشأها وقف كرنيجي

« ان الدلائل تدل على ان المرض في هذه الحرب كما في الحروب السابقة سيكون أفتك بالناس من الاسلحة التي اخترعها الانسان . فالمدافع ستصمت عند ما يصدر الامر بوقف النار ، ولكن لهب المرض يمضي ملتهما الضحايا ما دامت الاحوال المضطربة قائمة والضحايا هناك . وهناك أربعة أحوال تصحب الحرب عامة وتساعد على نشر الاوبئة . وهي أولا — سوء التغذية والجوع . وثانيا — ترحيل طوائف كبيرة من الناس من مكان الى مكان . وثالثا — قلة وسائل العلاج من مستشفيات وأطباء ومواد صحية وعقاقير . ورابعا — اضطراب الحياة الاجتماعية المنظمة »

ثم جاءَ في التقرير ما يلي : —

« ان قلة الطعام التي بدا أثرها يظهر في أوربا الآن ستتفاقم شهراً بعد شهر . والجوع أمر مألوف في البلدان المحتلة . ولا ريب في انه سيفضي الى أمراض سوء التغذية وفقا لقلة المواد الواقية . وأخيراً متى انهار صرح الحياة الاجتماعية المنظمة غدا الموت جوعا ، أمراً لا مفر منه . فمن أخطر المشكلات التي لا بد من مواجهتها بعد الحرب ، تجهيز أوربا (وربما غيرها) حالا بما يلزم لها من مواد للطعام »

ويذهب كتّاب التقرير الى ان الاعتماد في علاج هذه المشكلة، على الصليب الأحمر وغيره من الهيئات المتطوعة لا يكفي . لأن ما تقتضيهِ الحال من هذا القبيل لا يفي بهِ إلاّ مبالغ ضخمة من المال كالمبالغ التي ألفنا انفاقها في أثناءِ الحرب ، ولا بدَّ من هيئة تعيّنها الدول المتحدة كالهيئات التي تشرف الآن على نواحي الحرب ، لتتولى على وجهٍ وافٍ توزيع العقاقير والمصول والطعام والفيتامين والدهن وغيرها. ومن ستة أشهر أذاعت هيئة مسؤولة[1] في لندن ان عدد الوفيات في أثينا بلغ ثمانية أضعاف المعدَّل السنويّ ، وان نصف سكان المدينة يأكلون في مطاعم عامَّة طعاماً لا يحتوي إلاَّ على خمس أقل غذاءٍ لازم للصحة . وان نقص المواد الغذائية

(١) Inter-Allied Information Committee

في بلجيكا يبلغ ٦٠ في المائة للمراهقين والكبار و٥٠ في المائة للحوامل ، وان الهررة تباع في الخفاء (البورصة السوداء) كل هرة بمائة فرنك أو أكثر

٥ — ﴿ اعادة الشعوب المرحَّلة الى مواطنها ﴾ قد تتعذر الاحاطة بسعة نطاق هذه المعضلة وتشعبها . وحسبي هنا أن أشير الى أشهر المناطق التي رُحِّلت عنها ملايين من الناس وقد تجب اعادتهم اليها . فالاضطراب الناشيء عن هذه الحالة في الصين لايكاد يحصره بحث . فنحن نعلم ان نحو ثلاثين مليوناً من الصينيين هجروا مواطنهم فراراً من الغزو الياباني ، ومنهم من بلغ في هجرته مسافات بعيدة ، فتتعذر عودته . وفي أثناء الحرب الأهلية الاسبانية هجر اسبانيا نحو خمسمائة الف من سكانها الى فرنسا ، وقد هجر المانيا نفسها نحو ٤٠٠ الف من أبنائها فراراً من الظلم النازي ، وفي صيف ١٩٤٠ بلغ عدد المهاجرين الفرنسيين من المنطقة الفرنسية المحتلّة الى المنطقة غير المحتلّة من خمسة ملايين الى اثني عشر مليوناً ، وقد أعيد كثيرٌ منهم ، ولا يزال كثيرون مقيمين . وقد طرد ثمانون الف فرنسي من ولاية اللورين

وفي المانيا الآن بضعة ملايين من العمال الأجانب جيءَ بهم قسراً أو اغراءً من البلدان المحتلّة والتابعة . وما حدث في الأراضي الروسية المحتلّة من هذا القبيل تستحيل معرفتهُ الآن وقد تستحيل على الاطلاق . والمشكلة معقدة بقدر ما هي واسعة النطاق . ان كثيرين قد لا يرغبون في العودة ، وان حكومات كثيرة قد لا تقبل عودة فريق من أبنائها اليها لأنهُ كان في البلاد أقلية مشاكسة أو لسبب ما غير هذا . ولكن الحكمة تقضي بالشروع في دراسة هذا الموضوع من جميع نواحيه الآن ، واقرار قواعد عامة لتطبيقها حالاً بعد وقف القتال

٦ — ﴿ السيطرة على المواصلات البرية والبحرية والجوية ﴾ كلنا يعلم الآن شيئاً عن السيطرة الحربية على أسباب المواصلات جميعاً وحبس المتاح من المكان في السفن والطائرات على النقل الحربي أولاً . وليس ثمة ريب في أن ما يغرق من السفن الآن سيقل بعد نهاية الحرب ولكن لا يحتمل ان ينشأ عن ذلك زيادةٌ في السفن والطائرات المتاحة للنقل الأهلي والتجاري لأن نقل الجيوش المسرحة من مناطق القتال الى مواطنها لا بدَّ أن يشغل جانباً كبيراً منها ، ونقل مقادير كبيرة من المأكل والملبس والأدوية الى المناطق المحتاجة ، جانباً آخر . فلا بد اذاً من استمرار السيطرة الحربية على أسباب المواصلات والنقل فترةً ما ، مع تحويلها الى أغراض السلم

٧ — ﴿ تثبيت النقد ﴾ هنا مشكلة لاشك فيما لها من شأن وصلة بخير ملايين وملايين من الناس وهي في حاجة الى دراسة دقيقة وتأهب حكيم ووضع القواعد خلال الحرب لحلها فيستطاع تطبيقها عند ما تنفخ أبواق السلام . فنحن نعلم ان قيمة المارك الالماني وجميع انواع النقد التي تتصل به وتعتمد عليهِ إنما هي قيمة وهمية . نعم ان المانيا وفرنسا تمثلان ثروة

مادية كبيرة ولكن العقار فيهما له قيمة وليس للنقد مثلها . فالنقد ورق ولا بد ان تهبط قيمته حتى تتلاشى ، وويلٌ للارملة أو للشيخ الذي يجمع ثروتهُ بالماركات أو الفرنكات . فالحاجة الى انشاء نقد جديد في بلدان الأعداء أو البلدان المحررة من ربقة الأعداء على أساس المقايضة ويا ليته يكون نقداً دوليًّا على أساس عشري . ولا بدَّ من التشريع تشريعاً حازماً لكف يد المستغل ومعاقبته . وكل هذا يجب أن يكون معدًّا لاعلانه وتطبيقه حالما تنتهي الحرب

٨ — ﴿ التربية والنشر ﴾ من المهام التي يجب أن توجه اليها عناية خاصة في الأيام التي تلي نهاية الحرب مهمة التربية والنشر المشروع . فلا بدَّ ان تنطلق بعد الحرب قوى لا همَّ لها الاّ سم عقول الأمم الظافرة أو المقهورة او المحررة على السواء . وستسند الى المشرفين على توجيه شؤون العالم بعد الحرب بواعثُ كثيرة خسيسة لاصحة لها . فلا بدَّ اذن من اذاعة بيانات رسمية وخطب عامة على شعوب الأرض في هذه الفترة الدقيقة. واننا لنذكر كيف تمكن الرئيس روزفلت والمستر تشرتشل في أحوال معينة من تبديد رياح النقد الخاطىء وتعزيز الوحدة وتوجيه الأمم المتحدة توجيهاً سديداً بخطبهما . ولا بدَّ ان تجيء بعد الحرب فترات تشتد فيها الحاجة الى اذاعة بيانات وافية ويجب أنَ يكون في مستطاع اقطاب العالم اذاعتها . والوقت لا يتسع الآن لتوفية هذه الناحية من البحث

٩ — ﴿ مهام أخرى ﴾ وهناك مهام اخرى كثيرة لا بدَّ من معالجتها حالما تضع الحرب أوزارها ولكنها لا تحتاج الى تفصيل الآن وبينها العناية بالأيتام وتدبير المال اللازم للمشروعات التجارية وفي طليعتها وضع الأركان التي تقوم عليها الهيئة الدولية العالمية . وحسبنا ما تقدم لبيان ميادين الخدمة التي لا بدَّ أن تستأثر بالعناية حالما يعقد الصلح

فترة الانتقال

من المسلم به في جميع الدوائر الآن انه لا بدَّ من فترة انتقال تلي انتهاء القتال وتسبق عقد معاهدة دائمة تقرر فيها الحدود السياسية وقواعد تنظيم الهيئة العالمية الدائمة . واليكم فقرة مقتطفة من تقرير وضعته اللجنة التي عينها معهد كرنيجي للسلم الدولي لبحث تنظيم السلام :

« حالما تنهى الحرب تواجه جماعة الامم ، مهمتين منفصلتين ولكنهما متفاعلتان ولا بد اذن من التأهب لهما قبل ان يحين الحين . هاتان المهمتان تشملان اولا مشكلة التعمير السياسي والمادي والروحي التي تلي الحرب ورزاياها . وثانياً مشكلة انشاء نظام دولي دائم وهي مشكلة بعيدة الامد » . ثم « كان الرأي بعد الحرب الماضية ان الضرورة تقضي بحفظ ملايين من الرجال المرهبين تحت السلاح وباستمرار الحصر البحري القاسي وترك الامم فريسة للاضطراب بينما رجال السياسة يحاولون في سرعة وشدة حل المشكلات الكبيرة التي لا تحصى .

فكانت النفقة المالية فادحة والعواقب الاجتماعية والدولية أفدح . هذه الطريقة لم تكن وافية في سنة ١٩١٩ وستكون أقل وفاء في مواجهة الحاجات الناشئة عن هذه الحرب»

وثمة عاملان كبيران يقتضيان فترة انتقال قبل انشاء هيئة عالمية دائمة وتعيين الحدود السياسية في تسوية عامة. اما العامل الأول فاتاحة الوقت الكافي لبحث المسائل المعقدة بحثاً منزهاً وخمود الشهوات القومية والعنصرية والشخصية التي تحركها الحرب . ولكن في الوقت نفسه لا يجوز التأخر في معالجة الموضوعات التي تقدم ذكرها وادماجها في تسوية ما. فاذا اهملت فكأننا أتحنا فرصة لنمو العوامل الفاسدة فتفضي الى شقاء ملايين من الناس وقيام عقبات كأداء في سبيل انشاء الهيئة العالمية بعد ذلك . فالحكمة والرغبة في النجاح تقتضيان علاج هذه المسائل حالما تنتهي الحرب

فكيف المخرج من هذا المأزق ؟ اذا كان انشاء هيئة عالمية دائمة بعد الحرب مباشرة أمراً متعذراً ، واذا كان التأخير في معالجة المشكلات السابقة الذكر باعثاً على الفوضى ، فالى أية هيئة منظمة نستطيع ان نعهد في معالجة هذه المشكلات ؟ ان الجواب الوحيد هو ان هذه المهمة الخطيرة يجب ان تقع على كاهل الهيئة الحربية العامة التي انشأتها الدول المتحدة للاشراف على الحرب . ولا نقصد بها الهيئة الحربية كما هي الآن اذ لا بد من التسليم بانهُ ليس لنا الآن هيئة حربية موحدة توحيداً تامًّا ولكن الدول المتحدة سائرة الى هذا الهدف وقد تقدم انشاء هذه الهيئة فيما يخص الولايات المتحدة وجامعة الامم البريطانية تقدماً كبيراً وحول هذه النواة أنشئت صلات وثيقة بالصين وروسيا تدل على وحدة العمل وروح التعاون وفقاً لمقتضى الحال . وللدول الصغيرة والبلدان المحتلة نصيب في هذا التنظيم . هذه الوحدة لا تتجلى في اتفاق المبادىء والآراء وحسب ، بل هناك لجان ومجالس تتولى توحيد العمل الحربي من جميع وجوهه ، ومنها ما لا نعرف اسمه ولا شيئاً عن اعضائهِ . ولكن مظاهر نشاطه بادية لا يخطئها النظر ، في توزيع المهام الخاصة بالانتاج الحربي ، وتثبيت الصلة النقدية بين الدولار والجنيه وغيرهما من انواع النقد، وفي السيطرة على أسباب النقل وتوجيه القتال في شتى الميادين وفقاً لخطة عامة مشتركة . وسيضطرد تعزيز هذه الوحدة بحسب سير القتال

والباعث على القاء مهمة فترة الانتقال على كاهل الهيئة الحربية للدول المتحدة هو انها خير أداة معروفة تستطيع النهوض بالاعمال التي تقدم ذكرها . تصور الحالة في طائفة من الأمم كأمم البلقان او الأمة الهولندية أو الأمة النرويجية. فقد تنقضي أشهر أو سنوات قبلما تعود الحياة النيابية في هذه البلدان الى حالتها السوية ، وقد مضى فريق غير يسير من أقطاب هذه الأمم الى لقاء ربهم خلال الحرب ومنهم من نجا ولكنه لا يمثل الآن الرأي الغالب على تفكير أمته. والحياة النيابية من جميع وجوهها لا يستطاع استئنافها الا استئنافاً بطيئاً. وهذا مثل واحد

ولست أجهل أن نقداً لاذعاً سيوجه الى هذا المقترح وان الناقد سيزعم اننا بتطبيقه ننزل عن مثلنا الديمقراطية ونعمد الى اسلوب التحكّم النازي ، واننا نقيم على العرش النظامَ الذي كافحنا لهدمه . وفي الوسع ان نردّ هذا الاعتراض من غير ناحية واحدة . ففي المقام الأول إن الغرض من هذا النظام العابر هو اسداء العون الى المحكومين وفيه تضحية من جانب الحاكمين،وهو ما لا يمكن ان يقال عن الحكم النازي . وفي المقام الثاني هذا اللون من الحكم عابر والغرض منه أن يفضي الى انشاء نظام عالمي أساسه الاختيار والتمثيل . وفي المقام الثالث ان هذه الهيئة المشرفة عليهِ هي في الواقع هيئة تمثل الدول المتحدة مع ان التمثيل ليس على قاعدة برلمانية . ثم ان تطبيق القواعد العامة يتفاوت بتفاوت البلدان ففي بلدان الاعداء يكون التطبيق شديداً وفي البلدان الموالية يكتفى بالاشراف متى ثبت ان هناك من يستطيع النهوض بالتبعات العامة على أكفأ وجه . ولعل أبلغ دليل على ضرورة فترة الانتقال هو الحاجة الى الصدوف عن المسائل السياسية فتعامل الشعوب من حيث هي طوائف من الرجال والنساء والاطفال بغير نظر الى جنسية أو عنصر ويكون المقام الاول في معاملتها لما تحتاج اليه من قوت ولباس وعلاج وعمل ونقد ثابت على أساس من الانصاف والعدل وفي جو من الامن والسلام . وكذلك تتعلم أوربا ان حاجة الناس انما هي الى هذه الاشياء أولاً وانه اذا كانت الحاجة اليها قائمة فالمسائل السياسية والحدود الجغرافية تأتي في المقام الثاني أو لا شأن لها . ولعل الناس الذين تحركهم المطامع القومية يتعلمون عن طريق الحس والمشاهدة في أثناء فترة الانتقال،أن للانسانية رابطة جامعة وان الاهتمام المبالغ فيه بالمزايا القومية والعنصرية يجب أن يعنو لما تتيحه الحياة الدولية المشتركة والتعاون العام من مزايا عظيمة

أما ما يجب ان يكون أمدُ هذه الفترة فرتبطٌ بأمرين في المقام الأول ، أحدهما مدى علاج الأمراض الحادة ، الاجتماعية والاقتصادية التي يعانيها عالم برحت به الحرب . وثانيهما مدى النجاح في انشاء هيئة عالمية دائمة تكون كفوءاً للنهوض بالتبعات والمهام التي لم تنجز في فترة الانتقال . ويجب ان يلاحظ ان مدى فترة الانتقال وعمل الهيئة التنفيذية المشرفة على معالجة مسائلها الكثيرة ، لا ينتهيان عند حدٍّ قاطع ، بل الرأي ان المدى والعمل يندمجان رويداً رويداً في نظام الهيئة العالمية وفقاً لاستكمال انشائها واطراد تقدمها في النهوض بالمهام الملقاة على كاهلها . ويجب ان نذكر كذلك ان عشر سنوات تقريباً انقضت بعد الحرب العالمية الأولى قبل ان انتظمت المانيا عضواً في عصبة الامم . ولذلك يختلف القول في أمد هذه الفترة من خمس سنوات الى عشر سنوات (١) .

(١) وقد لخص الدكتور وطسن في ختام محاضرته اوصاف الهيئة العالمية المقترحة وسنعود اليها

وقفة وداع (١)

لعدنان مردم بك

أي سرٍّ هتك الدمـــع لنا يوم الوداعِ
أيقظ الكاشح ما أبـــديت من فرط التياعِ
حين للذكرى على العيـــنين فيض من شعاعِ
ولغرب العين من نا ر الأسى سبق اندفاعِ

***

عصف الوجد فريع الـــقلب من هول الصداع
فلغصّات النوى في الـــصدر عضات السباع
يتلوى جامح الأهـــواء غيظاً كالافاعي
ولهُ وثب اندفاع ولهُ قبض ارتجاع
ونجيُّ الهم من أشـــجانه شلو صراع

***

مُـدّت الأيدي الى الاعـــناق من فرط ارتياع
والتقى ثغر بثغر وذراع بذراع
وهوى الرأس على السا عد من عبء اضطلاع
حين للاشواق في الأكـــباد نيران اندلاع

***

يوم راحت تصف البيـــن وتبكي من هلاع
فالتقى الثغران منا واعتنقنـا لزماع
كلما قبلتها أو دى الأسى نار التياعي
حين للأشواق في الأكـــباد نيران اندلاع
أي سرٍّ هتك الدمـــع لنا يوم الوداع

دمشق

---

(١) وداع عزيز قبل الرقدة الاخيرة

معضلة التغذية

في مصر

الدكتور حسن كمال
مساعد مفتش صحة القاهرة

« فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة
فلينظر أيها أذكى طعاماً فليأتكم برزق منه »
(قرآن كريم)

سوء التغذية في مصر

❊ مقدمة ❊ : هناك طائفتان يتكوَّن منهما السواد الأعظم من سكان القطر المصري . هما الفلاح والعامل . أما الفلاح فمخلوق تعسٌ سيء التغذية فقير كثير الأمراض . وهو في الوجه البحري ومصر الوسطى يقتات خبز الذرة الشامية . وفي الصعيد خبز الذرة الرفيعة المزوجة بالحلبة . ويفضل الفلاح هذا الخبز على خبز القمح لأن مدة مكثهِ في المعدة أطول فيؤخر ألم الجوع . أما أدمه فأغلبه المخلل من البصل واللفت والخيار والفلفل والليمون وأحياناً السريس والجعضيض والسلق والكوسة والباذنجان اذا ما كبر حجمها ورخص ثمنها . ويطبخ غذاءه مع البصل دون اللحم ، بالزيت مرة أو مرتين في الاسبوع . ويفضل فلاحو الصعيد طهي العدس . ولا يأكل الفلاح اللحم الاّ في المواسم والأعياد . واذا أشرفت احدى مواشيه على النفوق ذبحها وباع لحمها رخيصاً . ولحالته المالية علاقة باستهلاك اللحوم. ويأكل الفلاح البسارية وهو سمك صغير رخيص . أما البيض فيستعملهُ للمقايضة لا للطعام. ولا يأكل من الفاكهة الاّ رخيصها كالحرش والعجور والجميز والبلح

وأما العامل في المدن فعناصر طعامهِ في الصباح، هي الخبز والفول أو العدس الدمس أو العسل او الطعمية؛ وعناصر طعام الظهر هي الخبز والطعمية أو السلطة أو الفجل أو الكراث او الباذنجان المقلو وما شاكل ذلك . وقد يأكل العامل اللحم مرة في الاسبوع. لكنه لا يشرب اللبن الاّ في المرض. أما الفواكه فيأكلها أحياناً. فهو من هذه الوجهة أحسن حالاً من الفلاح

وإن نظرة واحدة الى هذا الغذاء كافية لأن تظهر سوء حالة الفلاح والعامل من ناحية الغذاء وكثرة امراضهما الناجمة عنها. لكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد. فالزراعة في القطر المصري مهنة خطرة لها أمراضها كالبلهارسيا والانكلستوما كما ان هناك امراضاً أخرى كالديدان المعوية تنتقل عن طريق الغذاء الوضيع السالف الذكر. والى القارىء بياناً عن تفشي هذه الامراض

فعدد المصابين بالبلهارسيا ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ أي ٧٥ ٪ من السكان
وعدد المصابين بالانكلستوما ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ أي ٥٠ ٪ من السكان
وعدد المصابين بالديدان المعوية ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ أي ٥٠ ٪ من السكان

قال الدكتور علي بك حسن في محاضراته بمؤتمر الاتحاد الملكي للجمعيات الطبية سنة ١٩٣٩ [1] ان الحكومات الأوربية وسواها لم تكن مدفوعة بعوامل انسانية محضة عند ما نهضت في دراسة مسائل التغذية في بلادها بل كانت مسوقة بعاملين أولهما: ارتباط حالة العامل الصحية بغذائه وانهُ كلما كان العامل صحيحاً كلما كان انتاجه كثيراً ومتقناً. وثانيهما: متصل بمقام الأمة الحربي لأن كثيراً من البلاد الاوربية اكتشف في أحرج الأوقات ان نسبة الرجال الصالحين للخدمة لا تكفي لتأليف الجيش المطلوب. وان كثيرين ينسبون هزيمة المانيا والنمسا في الحرب العظمى الى نقص المواد الغذائية نتيجة الحصار البحري الشديد الذي فرضه عليها الحلفاء. والقسم الصحي في عصبة الامم قد ساهم في هذا الموضوع من سنة ١٩٢٥ وظهر اول تقرير له سنة ١٩٣٥ للدكتورين (بيرنت) و (ايكرويد)

وقد قررت اللجنة الصحية أثر ذلك تأليف قومسيون فني ولجنة مختلطة لدراسة مسائل التغذية. وفي عام ١٩٣٦ أصدرت اللجنة المختلطة تقريراً أوليًّا عن علاقة التغذية بالصحة والزراعة والسياسة والاقتصاد. وفي عام ١٩٣٨ ندبت وزارة الصحة الدكتور علي بك حسن لتمثيل اللجنة الأهلية المصرية للتغذية في عصبة الأمم

والكساح ولين العظام والبلاجرا والأنيميا الخبيثة من أخطر أمراض سوء التغذية في القطر المصري. وتسبب البلاجرا ٩ ٪ من إصابات النازلين في مستشفيات الأمراض العقلية. وقد تكلم معالي وزير الصحة الدكتور عبد الواحد بك الوكيل عن علاقة التغذية بالصحة العامة [2] بايضاح جاء ضمنه ان ٧٠ ٪ من تلاميذ المدارس الابتدائية مصابون اصابة واضحة بسوء

(١) المجلة الطبية المصرية نوفمبر سنة ١٩٣٩ (ص ٨٤٠ — ٨٨١)
(٢) المجلة الطبية المصرية اكتوبر سنة ١٩٣٩ (ص ٨١٣ الخ)

التغـذية (ص ٨١٥) . وان ١٧ ٪ من المقترعين يرفضون لقصرهم . وان ٩٠ ٪ من طلاب الجامعـة غير لائقين عسكريًّا لقصرهم . وان أغلب النساء الفقيرات لا يفطمنَ أطفالهنَّ قبل السنة الثانيـة من العمر لأنهنَّ لا يجدنَ في حالتهنَّ من الفقر غذاءً صالحاً غير الرضاعة لأولئك الاطفال . وان ٤٥ ٪ من الأطفال دون السنة الثانية من العمر مصابون كثيراً أو قليلاً بالـكساح . وان مرض الغوتر الناشيء عن قلة اليود في الغذاء متوطن في بعض قرى القطر (ص ٨١٦) وان جفاف القرنية والعشو منتشران انتشاراً غير قليل . وان هنـاك ٢٠٠٠٠٠ الى ٣٠٠٠٠٠ مسلول بالبلاد يموت منهم سنويًّـا ما بين ٢٠٠٠٠ و ٣٠٠٠٠ (ص ٨١٧) . وان الطعام الذي يعطي الرجل البالغ نحو ٣٢٠٠ سعراً حراريًّـا في اليوم ويشمل كذلك ما يحتاج اليه جسمه من أغذية الوقاية، يساوي في السوق (عام ١٩٣٩) ٥٢ مليماً . وان رجلاً وزوجته وطفلين (سنهما ٣ سنوات و ٥ سنوات) تتكلف تغذيتهم ٤١٣ قرشاً شهريًّـا . وان هناك أربعة ملايين مصري بايراد شهري أقل من جنيه واحد و ٢ر٥ مليون آخرين يعيشون بايراد شهري أقل من ٣ جنيهات و ١ر٦ مليون مصري فلاح يعيشون بايراد شهري أقل من ٦٠ قرشاً . وان ٩٣ ٪ من ملاك الاراضي لا يملكون غير ٢٠ ٪ من الاراضي (ص ٨٢٠) . وان متوسط ما يخص الفلاح الواحد من الارض انحطَّ من ٠ر٨٧ فدان (عام ١٨٩٧) الى ٠ر٤١ فدان (١٩٣٧) فـكأنما قد تضاعف الفقر في الاربعين السنة الاخيرة (ص ٨٢٠) وان الأغذية الواقية هي عادةً المرتفعة في الثمن (ص ٨٢١)

ويرى الدكتور ولسون أستاذ علم وظائف الاعضاء بكلية الطب سابقاً ان الغذاء المصري المحلي غير صالح للاسباب الآتية : (١) قلة المواد الزلالية فيه وعدم جودة نوعها . (٢) نقص محتويات الفيتـامين (أ) و (د) . (٣) نقص مقادير المعادن الحيوية . وان سوء غذاء الشعب من نقص محتوياته الزلالية والفيتامينية يعد من أهم العوامل في ارتفاع نسبة الوفيات وانتشار أمراض البلاجرا وأمراض الصدر والقناة الهضمية والـكساح وتسوُّس الاسنان . وانخفاض أجور العمال يحول دون التغذية الصحية الكافية . فالاجر اليومي لعمال الورش والخبازين وعمال السجاجيد والورق الخ . هو ٦٢ر١ مليم (١٩٣٩) ولعمال السكك الحديدية والـكناسين والفعلة ٤٠—٤٥ مليماً وعمال الزراعة بين ٢٠ و ٣٠ مليماً [1]

وفي ١٧ نوفمبر سنة ١٩٤٠ أصدر معالي علي باشا ابراهيم وزير الصحة قراراً بتشكيل لجنة لبحث مرض الدرن جاءَ ضمن تقريرها ان البحث المصري تـكشف عن النتائج الآتية : —

(١) المجلة الطبية المصرية يونيو ١٩٣٩ (ص ٤٠١ — ٤٠٥)

(١) انّ نسبة التفاعل الايجابي للتيوبركلين في الوجه القبلي والبحري لا تقل عن نسبته في البلاد الاوربية . (٢) ان ارتفاع نسبة التفاعل الايجابي بين ذوي الاعمار الى ١٥ سنة يدل على ان العدوى تحدث في المنازل والمحيط العائلي غالباً . وان السل مرض الفقير لأنهُ لا يمكن صاحبه من أن يحصل على الغذاء الكامل القويّ لجسمه والذي يدفع عنه العدوى . . . . . وان هناك ملايين من المصريين يعيش الواحد منهم على أجر قدره قرشان يوميًّا . . . . . . (ص ٥٦٤) وان نقص الغذاء بين غير المحاربين في البلاد المحاربة أدّى الى زيادة مرض الدرن بشكل محسوس (ص ٥٦٨) [1] .وقالت اللجنة أيضاً (ص ٥٦٩) مما لا شك فيه ان غذاء الطبقات الفقيرة في مصر غير كافٍ مطلقاً لحفظ الصحة او للوقاية من الامراض . فالغذاء المصري غير صالح لقلة المواد الزلالية فيه وعدم جودة نوعه . والأغذية الشعبية تصنع عادةً من الغلال والحبوب وليس من مصدر حيواني كاللحوم واللبن والبيض . وهي فوق ذلك فقيرة في محتوياتها من الفيتامينات (ا) و(د) وهي فقيرة ايضاً في المعادن الحيوية ولا سيما مادة الجير . يضاف الى ذلك ان أكثر الفلاحين يبيعون جميع بهائمهم وطيورهم ومنتجاتها دون أن يستبقوا ولو قليلاً منها لاضافته الى غذائهم فيحرمون أنفسهم وأولادهم العنصر الواقي الهام في الغذاء . . . وسوء التغذية منتشر ايضاً انتشاراً كبيراً بين المدارس على اختلافها . مع ان الحاجة الى التغذية في سن النمو أكبر منها بعد اكتمال سن الرجولة . وخاصة في أطفال المدارس الذين هم في أشد الحاجة الى تنظيم الوجبات الغذائية ومراعاة النسب في عناصرها ومطابقتها لأعمارهم وكفاية الغذاء حتى يتفق والجهد الذي يبذله الطفل بالمدرسة سواء أجسمانيًّا كان في الألعاب الرياضية والنواحي المختلفة من النشاط المدرسي أم عقليًّا في الدرس والتحصيل .... وسوء التغذية هذا وخاصة بين طبقات الشعب العاملة من أهم عوامل انتشار الدرن ... ورأت اللجنة في هذا الصدد (ص ٥٨٢) ما يأتي (١) خفض أثمان الأغذية (٢) الاكثار من مطاعم الشعب طول السنة وبيع اللبن فيها بثمن يسير (٣) الاكثار من انتاج الألبان وتخفض ثمنها (٤) تعليم الجمهور ما يحتاج اليه جسمه من أغذية (٥) تدريس التغذية في مراحل التعليم (٦) اعطاء وجبة غذاء كاملة يوميًّا بالمدارس مع ملاحظة ان بعض الشركات الصناعية تعطي جزءًا من أجور عمالها كطعام (مثل شركة البترول الصناعية المصرية) . كما ان بعضها انشأ مطابخ محلية في مصانعه (كملي اسلام باشا و محمد يسين بك) يباع فيها الطعام بثمن يسير

هذا من جهة البالغين . أما من جهة الأطفال فان لسوء التغذية تأثيراً خطيراً فيهم أيضاً.

---

(١) راجع العدد الخاص ٩ و ١٠ و ١١ من المجلة الطبية المصرية سنة ١٩٤١

فقد جاء في تقرير لجنة بحث وفيات الأطفال المشكلة بقرار وزاري في ١٧/١١/١٩٤٠ [1] ان الاطفال الى الخامسة من العمر يتكوّن منهم أكثر من نصف وفيات القطر عامة. بحيث يمكن القول إنهُ يجب عدّ مشكلاتهم وحدها في منزلة نصف جميع المشكلات الصحية والاجتماعية التي يجب العناية بها في هذه البلاد. ولو كانت الخسارة قاصرة على هذه الوفيات وحدها لهان الأمر شيئاً ما تبعاً لنظرية بقاء الأفضل. ولكن هذه الوفيات لا تدل على سلامة الباقين بل على تفشي الأمراض بينهم. والطفولة المريضة لا يمكن ان ينتج عنها غير شعب سقيم

ومن أهم أسباب ارتفاع نسبة الوفيات الفقر والجهل وخاصة جهل الأمهات. وتشمل ايضاً عوامل أخرى كزيادة المواليد في العائلات الفقيرة. وكذلك عوامل ناتجة عن الفقر كسوء المساكن وسوء التغذية واستخدام الامهات وغير ذلك (ص ٥١٧) وانهُ يجب بذل الجهد في تقليل أمراض الاطفال والرضع من سوء التغذية بتفهيم الحوامل الامهات كيفية الرضاعة الصحية ومقدار التغذية اللازمة للطفل والابتعاد عما يضر بهم من هذه الناحية. كذلك تفهيمهنَّ كيفية تغذية أنفسهنَّ تغذية صحية على قدر الامكان (ص ٥١٨). وان هناك عادة منتشرة بين بعض الأمهات أسوأ من إرضاع الطفل بدون انتظام. وهي اعطاء أغذية دسمة فتزداد حالات النزلات المعوية عند الأطفال وكذلك اعطاؤهم حلوى قذرة قد تراكم عليها الذباب أو فاكهة ملوثة غير ناضجة أو لحوم لا تقوى عليها صحة الكبار الاقوياء لا الصغار (ص ٥٢٦)

قال الدكتور وندل كليلاند بالجامعة الاميركية بالقاهرة « مما يدعو الى التفكير انه على الرغم من ضعف الصحة العامة في مصر فلا يوجد بها سوى طبيب واحد لكل ٥٠٠٠ من السكان. هذا مع العلم بأن السواد الاعظم من الاطباء يشتغلون في المدن وليس في القرى إلاَّ عدد يسير منهم. فاننا نجد نسبة الاطباء في المدن هي طبيب لكل ١١٠٠ نسمة من السكان. بينما النسبة في القرى لا تتجاوز طبيباً واحداً لكل ١٣٠٠٠ من السكان. مع ان ٩٠ ٪ من أهالي القطر المصري في حاجة الى العلاج الطبي. وقد بلغ من سوء الحالة الصحية ان المتقدمين للقرعة العسكرية لا يصلح منهم للخدمة دون علاج سوى ٤ ٪ وان ١٦ ٪ منهم يصلحون للخدمة بعد المعالجة. بينما ٨٠ ٪ لا يصلحون قط » ..... « ومن البديهي ان الروح المعنوية في أية جماعة وتقدمها يتوقفان الى حدٍّ كبير على صحة الأفراد ... لكن نسبة الوفيات في مصر عالية جدًّا فهي ٣٠ في الألف أي أعلى نسبة في العالم. والسواد الأعظم من الوفيات هو بين الأطفال فان نسبة الوفيات بين الأطفال بلغت ٢٠٠ في الألف من المواليد في العام .... لكن مسألة الوفيات ليست الاَّ ناحية واحدة لحالة السكان العامة. فقد يعيش الانسان عمراً مديداً

(١) المجلة الطبية المصرية أعداد ٩ و ١٠ و ١١ سنة ١٩٤١ ص ٥١٥ — ٥١٨

دون ان يتذوّق طعم الصحة والعافية ويكون عاجزاً عن القيام بواجبه في المجتمع على أوفى وجه ... » [١]

طرق البحث

يجمل بنا أن نبدأ هذا الموضوع بايراد بعض آراء الدكتور علي بك حسن [٢] وتتلخص في « ان طرق بحث هذا الموضوع جرت عادةً بأن يبدأ أولاً بمعرفة ما يأكله الأهالي جميعاً مع بيان ما يقومون بهِ من أعمال ثم مقارنة ما يأكلونهُ فعلاً بما يجب ان يأكلوه من الوجهة الفسيولوجية ، لاظهار عيوب غذأهم ان وجدت . ولمعرفة ما يأكله الأهالي عدة طرق أشهرها (١) طريقة الوزن . (٢) طريقة القيد . (٣) طريقة السؤال . (٤) طريقة الاحصاء . ومتى حصلنا على البيانات نستطيع بعد ذلك البحث في كفاية هذا الغذاء فسيولوجيًّا . ولا يمكننا تقرير ذلك الاَّ بعد معرفة ما يأتي

(١) القيمة السُعرية لما استهلك من الغذاء اثناء البحث (٢) مقدار القيمة السعرية التي يحتاج اليها أفراد العائلة فرداً فرداً في مدة البحث (٣) أصناف الأطعمة الواقية التي أكلتها العائلة فعلاً وما مقاديرها وتشمل هذه المواد الزلالية والفيتامينات والاملاح (٤) الاحتياجات الفسيولوجية لكل فرد من هذه الاطعمة الواقية . أما الاجابة عن السؤال الاول فسهلة . ومن الميسور تعيين القيمة السعرية لغذاءٍ ما في مدة وجيزة . أما باقي الأسئلة فلن نستطيع الاجابة عنها الآن . لأننا الى هذه الساعة لم نحلل أطعمتنا تحليلاً غذائيًّا . ولم نعين الغذاء الفسيولوجي لأفراد الأمة . أما الاستعانة بالمراجع الأجنبية للاجابة عن هذه الأسئلة فعادة أصبحت مكروهة في الأوساط الفنية . لأن البحث أظهر أولاً ان تركيب الأغذية يختلف اختلافاً بيناً بين مملكة وأخرى حتى في الصنف الواحد . وقد يختلف التركيب أيضاً في النبات الواحد في مناطق مختلفة داخل المملكة نفسها . وثانياً لأن هناك ما يسوّغ الظن بأن الاحتياجات الفسيولوجية قد تختلف قدراً ونوعاً بين أمة وأخرى . ويخيل إلي اننا لو قارنا نماذج الأغذية التي اتخذت منها اللجنة المختلطة أساساً فسيولوجيًّا بما يأكلهُ بعض المصريين الأصحاء والكثيري الذرية للاحظنا فرقاً كبيراً بينها قد يسوّغ الظن بجواز حيازة بعض أطعمتنا لخواص غذائية طبية لم يكشف عنها العلم ، لأن أغذية المصريين يندر فيها اللبن وتقل فيها اللحوم »

« والحقيقة انهُ لا يكون البحث بحثاً تامًّا الاَّ اذا عرف تركيب أطعمتنا المصرية معرفة تامة

---

(١) مقتطف مايو سنة ١٩٣٩ ص ٥٣٢ و ٥٣٣

(٢) المجلة الطبية المصرية نوفبر سنة ١٩٣٩ ص ٨٤٦ — ٨٨١

تشمل موادَّها العضوية وغير العضوية والفيتامينات أيضاً ...... وان حالة الشعب كما أراها تجعل من المتعذر الاّ في حالات شاذة الاستعانة بطريقة الوزن او طريقة الدفاتر في أبحاثنا الغذائية . والطريقة الوحيدة التي تنفعنا في أبحاثنا هي طريقة الأسئلة (ص ٨٥٠) . . . . . وان المعايير الصحية الأجنبية لا تصلح لدراسة الأمراض الغذائية المستكنة في البيئة المصرية . وان النتيجة التي حصل عليها الاستاذ الدكتور الوكيل بك والدكتور اللاح بك بين التلاميذ تعزز عندي هذا الرأي . فقد أظهرت معادلة فون بركيه مثلاً ان ٧٠,٠٪ من التلاميذ دون المتوسط او دون المعيار الاوربي . ومعادلة فون بركيه هذه تستعين بطول الجذع والوزن . ولكن ظهر ان نسبة حدوث فقر الدم بين هؤلاء التلاميذ لا تزيد على ١٦ ٪ وفقر الدم كما تعلمون هو من العلامات الثابتة لسوء التغذية . فأيهما نصدق اذن ؟ معادلة فون بركيه او فقر الدم ؟ أنا أميل للاعتماد على فقر الدم الى ان نعمل لانفسنا معادلة مماثلة خاصة بنا كأمة لها ميزاتها الجسمانية (ص ٨٥٤) . . . « وانني أشعر اننا سنسير في هذا السبيل ببطء ما دامت البلاد خالية من معهد خاص بمسائل التغذية (ص ٨٥٨) ...»

الزراعة والصحة

هذا من الوجهة الطبية البحتة اما الوجهة الزراعية فللموضوع خطورته ايضاً . لأن هذا البحث متعدد النواحي متباين الأطراف . ولعلَّ أكفأ من ساهم في هذه الناحية هو سعادة حسين بك عنان وكيل وزارة الزراعة . وسأورد هنا بعضاً من آرائه التي تمس الموضوع وان كان بحثه من اوله الى آخره جديرٌ بكل تقدير وعناية . قال سعادته في علاقة الانتاج الزراعي بتغذية الطفل[1] ما يأتي : —

« لضمان تغذية الشعب المصري يجب ان تتوافر العوامل الآتية (١) وفرة الانتاج الزراعي (٢) تعدد انواع الحاصلات والخضر والفاكهة ووفرتها للاستغناء بها عما يرد الينا من الخارج (٣) توفير الاغذية الحيوانية . (٤) المحافظة على المحصول سواء النباتي والحيواني وحفظه من التلف في اثناء النمو والتخزين والشحن الى مكان التوزيع والاستهلاك . (٥) التوسع في الصناعات الزراعية واتقانها . (٦) ضمان توزيعه في كافة انحاء القطر بين كافة الطبقات من غير تلف وبأسعار متهاودة لا تزيد الاّ يسيراً عن سعر الجملة . (٧) عمل احصائيات دقيقة سنوية عن الانتاج »

وقد عالج هذه الموضوعات بما هو معهودٌ فيه . فقال عن وفرة الانتاج الزراعي انهُ يتوقف على عوامل أهمها : (١) توافر الارض الصالحة للزراعة . (٢) كثرة الايدي العاملة المدربة على الشؤون الزراعية . (٣) توافر الشروط اللازمة لنجاح المحصول (٤) . زراعة

(١) مقتطف ابريل سنة ١٩٣٩ ص ٤٢٠

الاصناف الكثيرة الغلة . ثم استنتج (ص ٤٢١) ان بالقطر المصري ما يقرب من مليون فدان من الاراضي البور القابلة للاصلاح كافية للقيام بأود الزيادة المضطردة في السكان الى أمدٍ بعيد. ومن أهم ما عالج به سعادته مشكلة الأيدي العاملة المدربة توجيه التعليم الالزامي والأولي توجيهاً زراعيًّا محضاً . وان تكون أغلب المدارس الابتدائية مدارس زراعية ابتدائية عامة وتخصيصية بحسب الزراعة السائدة بالمناطق المختلفة كمناطق الأرز بشمال الدلتا والقصب في الصعيد والألبان في دمياط والخضر في الاسكندرية وهكذا . وانشاء مدارس لاخراج نظار العزب وأخرى زراعية ميكانيكية وأخرى لصناعة الألبان وتربية النحل وغير ذلك »

« وقد ثبت من دراسة الاحصاءات الخاصة (ص ٤٢٣) ان القطر المصري يكفي نفسه من كافة الحاصلات علاوة على ما يصدره منها . ولكنه يستورد مقادير قليلة من القمح والحمص والترمس والفول السوداني والسمسم وذلك في الفترة بين ١٩٣٤ و ١٩٣٧ . وبلغت مساحة الاراضي المزرعة خضراً وقتئذٍ ٨٨٩ ٢٠٢ فداناً . أما زراعة الفواكه سنة ١٩٢٩ فبلغت مساحتها ٢٦٦ ٥٤ فداناً منها ٧٣٤ ١٧ فداناً موالح . فواجب على مصر التوسع في زراعة هذه الاصناف واقامة ثلاجات كبيرة لحفظ الفاكهة والخضر لسد حاجات السوق وقت الحاجة . وقال سعادته أيضاً (ص ٤٢٤) عن البلح ما يأتي : —

لما كان البلح من الاغذية الغنية المولدة للطاقة وبهِ نسبة لا بأس بها من البروتين، وهو غني كذلك بالفيتامينات، والاملاح المغذية المفيدة كأملاح البوتاسيوم والكالسيوم والمغنسيوم والفصفور والفلور والكبريت الخ . . . وله تأثير مدفيء لما يختزنه من قدر كبير من طاقة الشمس Solar energy فانه يجب تشجيع استهلاكه بين الطبقات العاملة إذ يكفي لتغذية شخص واحد منه ١٨٠ جراماً .... ويبلغ عدد اشجار النخيل بالقطر المصري بحسب آخر احصاء ٥٫٠٨٣٫٤٠٠ نخلة (١٩٣٩) وهذه المقادير لا تكفي لاستهلاك القطر ويجب ان تتضاعف حتى يتيسر للفلاح والعامل المصري أن يجعل البلح غذاءً أساسيًّا لهُ لرخصهِ وجودته وهذا هو مشروع وزارة الزراعة والسياسة التي يعمل قسم البساتين على تنفيذها

« ويجب أن تكون هناك سياسة خاصة لتوفير الاغذية الحيوانية من ذبائح وألبان ومنتجاتها ودواجن وأرانب وغيرها ليتوفّر اللحم لعامة الشعب . ومن عجب أن تستورد مصر من الاغذية الحيوانية الكثير من الخارج كفلسطين وسوريا والعراق والبلقان والحجاز وتونس وقبرص وغيرها مع انها بلاد زراعية . وقد أورد عنان بك ما تستورده مصر من الحيوانات ومنتجاتها عن سنة ١٩٣٧ بياناً شاملاً [1] نورد منهُ ما يأتي : —

(١) مقتطف مايو سنة ١٩٣٩ ص ٥٩٢

أغنام	٧٠٩٫٩٠٠ رأس	ثمنها	٦١١٠٠	جنيه
فصيلة بقرية	٧٫٩٠٠ رأس	«	٤٧٥٠٠	«
جمال	٢٥٫٠٠٠ رأس	«	١٤٩٠٠٠	«
مواد دهنية حيوانية		«	٧٠٨٠٠٠	«
ألبان ومنتجاتها وبيض وعسل نحل		«	٢٨٨٠٠٠	«

وقال وكل هذه يمكن انتاجها وأكثر منها بل اضعافها في بلادنا واغراق الاسواق الاجنبية بها . وقال أيضاً والغرض من الاغذية الحيوانية اعطاء الجسم ما يحتاج اليه من البروتينات . ولكن الجسم يمكنه أن يحصل على ما يحتاج اليه منها من فول الصويه Glycini Soya الذي ينمو ببلاد الصين واليابان وقد جربت زراعته صيفيًّا كالذرة الشامية وهو من جهة المحصول والصنف والصفات لا يقل في مصر عنهُ في البلاد الأخرى (ص ٥٩٣) . . . ويستخرج من هذا الفول الزيت والبروتينات والدقيق وغير ذلك . . . ومحصول هذا النبات كثير الغلة غني في البروتينات التي لها نفس القيمة الغذائية كالبروتينات الحيوانية في اللحم والبيض واللبن . وهو من الوجهة الحيوية غذاء كامل بمعنى الكلمة . ففي كيلو غرام واحد منه غذاء يعادل ما في ٥٨ بيضة او ٦٫٥ لتر لبن او ٣٫٥ ك لحم خالٍ من العظم . وبروتين كيلو جرام واحد منه يوازي بروتين ١٥٠ بيضة وهو يحتوي على ٤١ ٪ بروتين و ٢٠ ٪ دهن و ٢٠ ٪ كربوايدرات . وهو غني في مادة اللستين التي في صفار البيض . وهو علاوة على ذلك سهل الهضم مشبع . فاذا عمت زراعة هذا الفول وانتشاره بين الطبقات العاملة في القطر المصري فانهُ يسبب اقتصاداً عظيماً جدًّا في مقادير الفول واللحوم والدهن المستهلكة الآن في البلاد

ودقيق هذا الفول مفيد جدًّا للذين يزاولون أعمالاً بدنية مجهدة فهو لذلك أوفق غذاء للفلاح والعامل المصري . وهو علاوة على ذلك غذاء شديد القلوية (+ ٢٦٫٥) »

ومن أهم العوامل التي تؤثر في تغذية الشعب هي المحافظة على المحصول من التلف وتخزين ذلك المحصول . وقد نجحت تجارب وزارة الزراعة في تخزين البطاطس للتقاوي في الثلاجات أعظم نجاح (ص ٥٩٤) . أما وسائل الحفظ بالتعقيم بالحرارة فتفقد فيتامين (C) أو جزءًا منهُ . ومن أهم العوامل في تغذية الشعب ضمان توزيع المحصول في كافة انحاء القطر بين كافة الطبقات من غير تلف وباسعار متهاودة لا تزيد الاّ يسيراً عن سعر الجملة ومن أهم وسائل ذلك تنظيم أسواق الغلال والحبوب والخضر والفاكهة وتحسين وسائل نقلها وتعبئتها وتنظيم السلخانات وتعميمها .... وان عمل احصاءات دقيقة سنوية عن الانتاج من أهم العوامل لضمان تغذية

الشعب اذ يمكن البلاد من معرفة حالة حاصلاتها ومقاديرها وكفايتها لسد حاجاتها لتبني بذلك سياستها الزراعية في السنين التالية . لذلك كان الواجب يحتم وضع سياسة عملية يمكن بواسطتها الحصول على بيانات احصائية صحيحة وافية من الملاك مباشرة عن انواع المزروعات ومساحتها ومقدار غلتها وغير ذلك من البيانات اللازمة. وذلك باعطائهم «استمارات» تصرف مع ورود الاموال ليملأوها بمعرفتهم او بمعرفة الصراف مع تفهيمهم ان نتائج هذا الاحصاء هي في مصلحتهم الشخصية لأنها تساعد على تحديد الاسعار بما يتفق والانتاج الحقيقي »

الخبز الشعبي

والآن ننتقل الى موضوع آخر من موضوعات التغذية له خطورته القصوى في مصر. فالرغيف أساس التغذية في هذا القطر . لكنهُ كثير التباين من حيث محتوياته ووزنهُ ورطوبته وغير ذلك ، لذلك يجب ان يبذل جهد كبير لضمان بقاء قيمة الرغيف الغذائية عالية وافية . فإن اصلاح الرغيف ناحية هامة من نواحي اصلاح تغذية العامل في المدن . والتشبث بضرورة عمل الرغيف من دقيق صافٍ ابيض اللون يجب ان لا يقف عثرة في عمل المباحث الطبية لابتكار الدقيق الذي يتفق وحالة البلاد . وزمن الحرب فرصة مناسبة لاصلاح نقائص الخبز. واذا لاحظنا ان القناة الهضمية بأكلها من الاسنان الى القولون لا تنسجم مع الاغذية النقية حتى شبِّه الشخص العائش على الاغذية النقية refined بمن يحفر قبره بأسنانه، واذا كان غش الالبان باضافة الماء اليها مما يسبب الاقلال من نسبة المواد الصلبة وغيرها يعاقب عليه قانوناً ، فأجدر بنا ان لا نعُدَّ فصلَ المعادن والفيتامينات المفيدة من دقيق القمح عملاً يستوجب الثناء والتقدير . والصعوبة في تفهم ذلك راجعة الى أن الرأي العام يأنف كثيراً من تدخل الاطباء في فرض اشتراطات على أغذيته باسم الصحة . وهذا الكره الغريزي سوف يستغرق زمناً طويلاً لازالته . والى ان يأتي هذا اليوم يمكن استعمال الخبز الاسمر في المستشفيات والملاجىء والجتمعات العديدة الاخرى

قال الدكتور ولسن « استاذ الفسيولوجية » ان الخبز يكوّن ٨٠ ٪ من الجهد الحراري في غذاء الفلاح بينما يكوّن ٥١ ٪ من قيمة غذاء العامل بانكلترا ونحو ٢٠ ٪ من قيمة غذاء الطبقات الراقية بانكلترا . ومن الغريب ان سعر القمح المزروع بانكلترا يوازي نحو ١٠٠ قرش (١٩٣٩) للاردب وهذا أرخص كثيراً من سعره بمصر وقتئذٍ مع ان أجور اليد العاملة هناك تكاد تكون عشرة أضعافها هنا ! [1]

(١) المجلة الطبية المصرية يونيو سنة ١٩٣٩ ص ٤٠٤

وقال الدكتور محمد عبده عباسي « ان هناك أمراً له شأنهُ من الوجهة الغذائية للحبوب . وذلك ان معظم ما تحتويه الحبوب من مواد زلالية وأملاح معدنية وفيتامينات يوجد في الأغلفة الخارجية للحبوب وكذا في الأجنة التي تنزع عادةً وتهمل قبل تهيئة الحبوب للاكل . مثال ذلك تبييض الارز وطحن القمح لعمل الخبز من الدقيق الابيض فقط واهمال الباقي من ردة بأنواعها والسن . فالخبز الابيض الذي يحبهُ الناس لحسن لونه أقل فائدة من الوجهة الغذائية من الخبز المصنوع من الدقيق الكامل الناتج من خلط الردة والسن وخلافه مع الدقيق بعد طحن القمح والذي يتبقى فيه من المواد الزلالية والدهنية والاملاح والفيتامينات فضلاً عن ان ما بالردّة من سليولوز يساعد على تنشيط الامعاء ومنع الامساك . وهكذا الحال في باقي الحبوب . ولتلدين الخبز أو تقميره فائدة كبيرة اذ تتحول بعض المواد النشوية الى دكسترينات وهي أكثر ذواباً وأسرع هضماً من النشا . ثم ان العيش الملدّن أو البسكويت نظراً لصلابتهما فان الاسنان تستطيع تكسيرها ومضغهما جيداً وبسهولة . وبذلك يمتزجان أكثر باللعاب الذي يحوي خميرة خاصة (التايلين) لهضم المواد النشوية »[1]

وفي أثناء مناقشة الخبز الأبيض والأسمر بمجلس اللوردات بجلسة ١١ / ٣ / ١٩٤٢[2] حبّذ اللورد هوردر Horder الخبز الأسمر قائلاً ما معناهُ :

ان الدقيق الاسمر الحاوي ٨٥ ./. من حب القمح لا يحدث عسر الهضم . ولم يلاحظ عسر هضم ناشيء من الدقيق الاسمر في أثناء استعماله في الحرب العالمية الماضية مع انه كان يحوي نسبة أعلى من ٨٥ ./. ويستعمل في جنوب افريقيا للخبز دقيق يحوي ٩٠ ./. من القمح. وقال انهُ لا يستطيع ان يخصّ بالذكر مرضاً ما ، يفضّل فيه أكل الخبزَ الابيض على الاسمر حتى في حالات قرح المعدة والاثنى عشري فانه متى سمح للمريض بتناول الخبز تساوى احتمال المريض للخبزين الاسمر والابيض . بل أكثر من ذلك فان الأدلة تتجمع الآن على ان زيادة مقادير المعادن والفيتامينات التي في الخبز الاسمر المصنوع من الدقيق الشعبي National Wheatmeal تساعد كثيراً على التئام القروح . وخرج بالنتيجة الآتية :

وهي ان الرغيف الشعبي المعروف بالاسمر National Loaf قد يكون عظيم الفائدة للطبقة الفقيرة. وهذه عبارتهُ حرفيًّا أوردها هنا لعظم قيمتها

" The National Loaf would be of great benefit to those living behind the poverty line. "

(١) محاضرة بالمؤتمر الرابع الاتحاد الملكي للجمعيات الطبية — المجلة الطبية المصرية نوفمبر سنة ١٩٣٩ ص ٩٢٨ و ٩٢٩

(٢) المجلة الطبية الانكليزية ٢١ / ٣ / ٤٢ ص ٤٠٠

وقد أكّد اللورد ولتون Woolton وزير الطعام في نفس الجلسة ان الخبز المصنوع من هذا الدقيق (٨٥ ./.) سوف يكون جيد المادة حسن التكوين good texture مستساغ الطعم . وانه سوف يكون خبزاً نقيًّا يختلف كثيراً عن خبز الحرب العالمية السابقة ويفوقهُ فائدة[1]

وفي العام الماضي (١٩٤١) أصدر مجلس الابحاث الطبية الانكليزي British Medical Council مذكرة عن الخبز المصنوع من ٨٥ ./. من القمح المستعمل ببلاد الانكليز في صناعة الخبز الشعبي National Bread جاء فيها[2]:

﴿ مزايا غذائية خاصة بهذا الدقيق ﴾ انهُ يحوي (ا) أكبر مقدار من الفيتامين B بأنواعه بما في ذلك riboflavine و nicotinic acid وعلى الأخص الفيتامين B_1 . (ب) انهُ يحوي أكبر مقدار ممكن من البروتين بما في ذلك الموجود منهُ في الغلاف الخارجي للحب. وهذا الأخير معروف انهُ اكثر تغذية من البروتين الموجود في الدقيق الأبيض . (ج) أقل مقدار من الردة الخشنة bran حتى لا يسبب عسر الهضم. واشترطت لجنة عوامل التغذية الاضافية The Accessory Food Factors Committee بجلستها في ٢٣ / ١ / ١٩٤١ — ان هذا الدقيق يجب ان لا يحوي أقل من وحدة دولية من الفيتامين B_1 في كل جرام منهُ. — وان الردة الخشنة fibres فيه لا تزيد على ٠ر٩ ./. . وأوصى مجلس الأبحاث الطبية ايضاً باضافة كربونات الجير Creta Preparata B. P. الى دقيق الخبز الأبيض بنسبة ٧ أوقيات لكل شوال به ٢٨٠ رطلاً من الدقيق الأبيض . وبنسبة ١٤ اوقية لكل شوال من الدقيق الأسمر ٨٥ ./. . وذلك نتيجة لما ظهر من ان الطبقة الفقيرة ببلاد الانكليز ينقصها في طعامها أملاح الجير الضرورية لنمو العظام والاسنان والمحافظة على سلامتها . وبالنسبة لكثرة حالات فقر الدم هناك عملت تجارب باضافة بعض الحديد الى الدقيق لكن اتضح انهُ من المحتمل ان أملاح الحديد هناك تسبب تلفاً لبعض النواحي الغذائية الأخرى . فرؤي عدم السير فيها الى ان تستجلى هذه المباحث

طريق الحلّ

﴿ النتيجة ﴾ يتضح مما تقدم ان التغذية في مصر معضلة على جانب عظيم من خطر الشأن وهي كثيرة التشعب بعيدة التأثير في صحة الشعب وقوة انتاجه ودفاعه. ولعل أفضل الطرق لمعالجة ذلك يكون بتشكيل لجنة عليا لمراقبة تغذية الشعب المصري مهمتها الاشراف على ثلاث لجان

(١) المجلة الطبية الانكليزية ٢١ / ٣ / ٤٢ ص ٤٠٠

(٢) مجلة The Medical Officer ٤١/٦/٧ ص ١٨٤

(هي اللجنة العلمية واللجنة الاقتصادية ولجنة الدعاية والنشر) وتذليل العقبات التي تعترض أعمال هذه اللجان علميًّا واداريًّا وماليًا . أما اختصاص اللجان الثلاث فيكون على المنوال التالي :

(ا) ﴿اللجنة العلمية﴾ أعضاؤها من رجال الصحة والزراعة ويتركز عملها في معهد صحي خاص بمسائل التغذية مهمتهُ (١) دراسة ما يحتاج اليه الشعب المصري من المواد الغذائية (٢) وضع معدل علمي للاحتياجات الغذائية للفرد رجلاً كان او امرأة أو طفلاً (٣) بحث تنوع الأغذية بحسب الفصول وبحسب المناطق (٤) بحث مقدار انتشار سوء التغذية بين طبقات الشعب (٥) تشجيع الابحاث العلمية في الداخل خلاف المعهد (٦) تتبع الابحاث العلمية في الخارج

(ب) ﴿اللجنة الاقتصادية﴾ أعضاؤها من رجال الصحة والزراعة والصناعة والتجارة والعمل ومهمتها (١) خفض الاسعار للجمهور (٢) مقاومة غش الأغذية (٣) وجبات مجانية بالمدارس الالزامية والابتدائية والثانوية (٤) احصاء الانتاج الغذائي سنويًّا (٥) زيادة انتاج أغذية الوقاية (٦) مخازن للتبريد لحفظ الاغذية (٧) تنمية صناعة حفظ الأطعمة (٨) تنمية الصناعات عموماً لرفع مستوى الدخل بين الفقراء والعمال (٩) وجبات مجانية للامهات والمرضعات بمراكز رعاية الطفل الخ (١٠) العناية بتغذية قوة الدفاع (١١) مساهمة مجالس المديريات والبلديات والمجالس المحلية والقروية وغيرها (١٢) وضع اشتراطات صحية للخبز الشعبي

(ج) ﴿لجنة الدعاية والنشر﴾ أعضاؤها من رجال الصحة والزراعة مهمتها (١) تعليم أصول التغذية بالمدارس جميعها (٢) مقالات بالجرائد اليومية والمجلات (٣) الاذاعة بالراديو (٤) عرض موضوعات التغذية في متاحف ثابتة ومتنقلة (٥) نشر الدعوة الصحية بواسطة الوحدات الصحية والزراعية المتنقلة (٦) محاضرات للجمهور عن التغذية (٧) خطب منبرية أيام الجمع (٨) نشرات غذائية طبية (٩) صور رمزية تظهر للجمهور أهم المواضيع الغذائية (١٠) أشرطة سينمائية (١١) الاستعانة بالفانوس السحري (١٢) مراسلات غذائية (١٣) روايات تمثيلية (١٤) مكافآت وشهادات تقدير (١٥) منافسات سنوية عامة بين هيئات من نوع واحد

هذه هي طريقة الحل المقترحة بايجاز . وبديهي ان كل ناحية من نواحيها تستغرق بحثاً يناهز هذا المقال من أوله الى آخره . ولكن ما سبق ذكره يكفي لان يشرح للقارىء المقصود من هذه النقط الهامة المتباينة . والرجال الاخصائيون على العموم يستنتجون من هذه العبارات أضعاف ما يستنتجه القارىء العادي

طبقات الارض

وموارد القارات

مهما تكن وجوه التحوّل السياسي والاجتماعي التي يحتمل أن تطرأ على حياة البشر ، فلا مفرّ من اطراد اعتمادهم في الحرب والسلم ، على الموارد المعدنية من فلزات ووقود وما أشبه. ومهما تكن قواعد النظام العالمي ، الذي يكافح في سبيله عشرات الملايين من الرجال والنساء ، فهذا النظام لن يصبح حقيقةً واقعة إلاّ اذا كان ملائماً لخصائص الطبيعة البشرية ، وأوصاف الموارد المتاحة في طبقات الأرض . فجدير بجميع الذين يهمّهم مصير الانسان ان يعنَوْا بطبيعة المواد الخام وتوزعها في طبقات الأرض وشتى مناطقها

ان المواد الأساسية التي يحتاج اليها الناس المتحضرون ، توجد في أحوالٍ جيولوجية معروفة . وتوزيع هذه المواد ليس نتيجة للمصادفات. واذن ففي الوسع ان تعرَف مواقعها على وجهٍ كافٍ من الدقة . أما وقد علم الجولوجيون بالمسح والبحث ، التركيب الجولوجي لجميع قارات الأرض ، وما يتبع ذلك من مواقع العروق والتراكيب المعدنية المختلفة فيها ، ففي مكنة العلماء المختصين ، ان يصفوا وصفاً دقيقاً ما تحتوي عليه طبقات الأرض من الفلزات الرئيسية وأصناف الوقود وغيرها من الموارد المعدنية ، أو على الأخص ما كان من هذه المواد جميعاً متاحاً للانسان . وفي مكنتهم كذلك انشاء موازنة دقيقة بين القارات من ناحية ثروتها المعدنية . وقد يسهِّل البحثَ أن تقسم صخور قشرة الأرض ثلاث طوائف :

١ — فثمة أولاً الطائفة المتغلغلة في القدم وهي الصخور المضغوطة المشوهة في مايعرف بالطبقات السابقة للعصر الكمبري Pre-Cambrian وهذه الصخور تشمل الجرانيت والصخور النارية وكذلك الصخور المتحولة وهي صخور مترسبة طرأ عليها عاملا الحرارة العالية والضغط الشديد ، خلال عصور طويلة ، فغيَّرا من طبيعتها الأصلية . هذه الصخور تحوي كثيراً من ركازات الفلزات مثل الذهب والفضة والنحاس والنيكل والحديد ، وليست تحتوي في مكانٍ ما فحماً ولا نفطاً ولا ركازات فلزات من نوع الالومنيوم والمغنيسيوم

في كل قارة من قارات الأرض صخور من هذا القبيل ، وليس فيما يعلم ما يشير الى أنَّ

منطقة كبيرة ما من مناطقها ، أبت أن تبيح للباحثين كنوزها الفلزية ، اذا أحسنوا البحث والنقب . ففي كندا حول خليج هدصن منطقة من هـذا القبيل تقابلها منطقة أخرى في شمالي أوربا الغربي ، وأخرى في سيبيريا المتوسـطة الشمالية في آسيا . أما في نصف الـكرة الجنوبي فهناك منطقـة في البرازيل من هـذا القبيل تقابلها منطقة في افريقية الجنوبيـة والمتوسطة وأخرى في استراليا

٢ — أما الطائفة الثانية فتشمل الطبقات المترسبة من العصر الـكمبري والعصر الذي يليه Post-Cambrian . وقد تكون هذه الطبقات منبسطة تحت تربة السهول او في النجود ، وقد تـكون متجعدة جبالاً كما في جبـال « أبلاكيان » Appalachian في شرقي الولايات المتحدة الأميركية . هنا نقع على أغنى موارد الفحم والنفط والبوتاس والمغنيسيوم وبعض الحديد والفلزات غير الحديدية . ولـكل قارة نصيب من هذه الطبقات . فحوض نهر المسيسبي المتسع في قارة أميركا الشمالية ، يقابله منطقة صخور مترسبة شاسعة في أوربا الوسطى بين جبال الألب ومرتفعات سكنديناوه . ومنخفضات حوض الأمازون في قارة اميركا الجنوبية تقابلها المنطقة المتوسطة في استراليا والسهول الواسعة في شمال آسيا

٣ — أما الطائفة الثالثة فهي الصخور المقترنة عادة بالفعل البركاني وأثره . وهذه الطائفة لا تقتصر على ما انقذف من لابة البراكين ولـكنها تشمل الصخور النارية ، التي تبلورت في المناطق التي دفعت البراكين الى التكوّن ، او الى انشاء جبال كالقباب فوق سطح الأرض بغير ان تنقذف من كأس ما وتفيض على السطح . ففي تركيبات صخرية من هذا القبيل ، ولا سيما ما كان منها من العصر الثلاثي Tertiary تجد طائفة من أغنى موارد الفلزات الثمينة كالنحاس والرصاص والزنك وكذلك التنغستن والفناديوم والمولبدينوم والمنغنيس ، وهي الفلزات التي لا غنى عنها في صناعة المخاليط الفلزية الحديثة . وكأنـ الطبيعة قصدت ان تعامل القارات بالقسطاس فقسمت لـكل منها نصيباً من هذه الصخور أسوة بالصخور التي تقدم ذكرها . فالجبال الغربية في قارة أميركا الشمالية وجبال الأندس في قارة اميركا الجنوبية وكثير من جبال آسيا الشرقية والجنوبية ، وغير يسير من نجود افريقية المتوسطة وجبالها ، تسلك جميعاً في هذا النظام

والواقع ان في كل قارة ، جميع أنواع الطبقات التي تستقر فيها أهم الموارد الطبيعية ، المستغلّة الآن في الصناعة أو التي يحتمل استغلالها في المستقبل . واذا كانت شعب الولايات المتحدة ، قد استخرج من أرضهِ حتى الآن ، أكثر من ثلثي انتاج النفط العالمي ، فلأنهُ سبق غيرهُ من الشعوب في احكام استغلالهِ هذا المورد . واذا استثنينا استراليا ، ففي

كل قارةٍ موارد للنفط ، لا تقل ، اذا قيست بموارد النفط العالميـة ، عن مساحة تلك القارات بالقياس الى مساحات القارات جميعاً

واذا كانت بلدان قارة أوربا وبريطانيا والولايات المتحدة وروسيا ، قد صنعت حتى الآن ثمانين في المائة من كل الصلب الذي صنع في العالم ، فهذا لا يعني أن بقيـة بلدان العالم لا تحوي إلاّ عشرين في المائة من موارد الحديد العالمية . بل يعني شيئاً واحداً وهو ان شعوب هذه البلدان سبقوا غيرهم في استكشاف الركاز واستخراجهِ وصنعهِ . وما في آسيا وافريقية واستراليا وأميركا الجنوبية من موارد الحديد لا يزال على الأكثر ، في انتظار من يستغلّهُ

وخلاصة هذا البيان ان في كل قارة من القارات موارد وافية من المعادن الاساسية اي ان الطبيعة تتيح فرصاً متساوية للناس ولكن الناس اختلف شأنهم حتى الآن في اغتنام هذه الفرص واستغلالها . إلاّ ان هذا لا يعني ان الطبيعـة تميل الى انعزال كل قارة عن الاخرى واكتفائها . ذلك بأن القول بأنّ كل قارةٍ تحتوي في طبقات ثراها موارد معدنية وافية ليس صحيحاً على اطلاقه . حتى اذا سلمنا بان بعض المعادن يصلح للاستعمال محل الآخر ، كإحلال النفط المستخرج من الفحم في اوربا — حيث الفحم كثير — محلّ النفط الطبيعي حيث النفط الطبيعي قليل ، وجدنا شذوذاً على القاعدة العامة . ففي معظم المناطق التي ارتقت فيها الصناعة وازدحمت منشآتها نجد قلة ظاهرة في موارد القصدير فلا يكاد يكون في ثرى القارة الاميركية الشمالية ركاز قصدير ، وفي اوربا موارد يسيرة لا تجهز تلك القارة باكثر من خمسة في المائة مما تستهلكه من هذا المعدن. وكذلك قل — على تفاوت — في النيكل والراديوم .. فالمواقع التي يوجد فيهما هذان المعدنان قليلة وهي في قارتين او ثلاث من القارات الست

ويخرج العالم الجولوجي كرتلي مايذر — استاذ الجولوجيا في جامعة هارفرد — من هذا البحث (راجع مجلة العلم « سينس » ٧ اغسطس ١٩٤٢) بان استغلال موارد الارض المعدنية المتاحة استغلالاً كاملاً يقتضي تنظيم حياة الامم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على اساس عالمي بدلاً من اكتفاءِ كل قارة وعزلتها لانهُ اذا كانت كنوز الارض في القارات لا تبيح للباحث القول بان هناك تفاضلاً بين القارات من هذه الناحية ، فليس هناك قارة واحدة تستطيع ان تجهز الشعوب التي تقطنها بالمقادير الكافية من جميع المعادن اللازمة للحضارة البشرية وأن تكفي جميع حاجات الناس . والاستغلال التام لموارد الارض لا يتم الاّ اذا ساهمت كل قارة بنصيب في سبيل الخير العام . والعالم الجولوجي على رأي الاستاذ مايذر لا مفرّ له من القول بأن تنظيم هذا الاستغلال على أساس عالمي قاعدته التبادل الحرُّ — تبادل المواد الخام والمصنوعة — أدنى الى تحقيق الخير العام من اقامة الحواجز بين القارات

جغرافيو العرب وسوريا (1)

لنقولا زيادة

كانت مسألة ادارة البلاد المفتوحة وتنظيمها من أمهات المسائل التي شغلت العرب . وهي مسألة كثيرة التعقيد لارتباطها بالطريقة التي تمَّ بها الفتح . لذلك اهتمَّ أصحابُ السير والمغازي ورواةُ الأخبار ببحثها ليتقرر مقدار الجزية والخراج . ومن ثمَّ كان وصف البلدان جزءاً من عمل المؤرخين . لكن الامر لم يلبث أن اختلف ، فاستقل كتّابٌ بوصف الاقاليم ودرسها . وكانت المحاولات الاولى تدور حول التعرفِ الى البلاد وطرقها وخراجها . لذلك كان كتاب (المسالك والممالك) ، وهو من أقدم الكتب الجغرافية العربية ، تقريراً عن جباية المملكة العباسية في أواسط القرن الثالث . وليس من المصادفات ان مؤلفهُ كان متولي البريد والخبر بنواحي الجبَل بفارس . وكذلك (كتاب الخراج وصنعة الكتابة) ، لقدامة بن جعفر ، كان يبين الطرق والمسافات فضلاً عن قيمة جباية المملكة

وقد شجع الاسلامُ الكتابة الجغرافية من ناحيتين أخريين : أما الاولى فجاءَت عن طريق الحج . فالحج فريضة على المسلم ما استطاع اليهِ سبيلاً . ومن حق الحاج على سلفهِ ان يبيِّن له خيرَ الطرق للوصول الى مكة والمدينة ، ويشرح له الصعوبات ووسائل التغلب عليها . وكان أثر هذا الامر كبيراً في حفز الكتّاب الى تدوين ما لاحظوا ورأوا كابن جبير وابن بطوطة . وأما الناحية الثانية التي شجع الاسلام فيها الكتابة الجغرافية فهي طلب العلم . فقد كان المسلمون يتنقلون في سبيل انتجاع المعرفة من قطر الى آخر ، وكان علماؤهم يحرصون على تدوين مشاهداتهم ليطلع عليها الخلَف ويستفيد منها

ونحن اذا عرضنا المكتبة الجغرافية العربية وجدناها تضم ما يقرب من الاربعين من كبار المؤلفين الذين وصلت الينا آثارهم ، عدا الذين لم يبقَ من كتاباتهم شيء . وقد تأثرت الابحاث الجغرافية في عهدها الاول بما وصل اليهِ اليونان من قبل ، شأن بقية الابحاث التي أخذها العرب عنهم . فكتاب الكندي المسمى (رسم المعمور من أقطار الارض) هو ترجمة

(1) حديث أذيع من محطة الشرق الادنى للاذاعة العربية

لبطليموس اليوناني . وابن خرْدَاذْبِه نقل بعض كتابهِ (المسالك والممالك) عن بطليموس أيضاً ثم أضاف اليه الخراجَ والطرق ، على ما ذكره هو في مقدمة كتابه

على ان القرن الرابع الهجري يمثل في تاريخ البحث الجغرافي العربي فترة النُضج . فاليعقوبي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي بلغوا درجةً عالية في البحث المبني على الاختبار الشخصي ، والمعرفة المكتسبة من السفر والتنقل . وانتهى امرُ الكتابة الجغرافية في القرون الثلاثة التالية بأن كثرت المعاجم الجغرافية . فالبكري يعرفنا بكتابهِ بقوله (هـذا كتابُ « معجم ما استعجم » ذكرت فيهِ جملةَ ما ورد في الحديث والاخبار ، والتواريخ والأشعار ، من المنازل والديار ، والقرى والامصار ، والجبال والآثار ، والمياه والآبار ، والدارات والحرار ، منسوبةً محددة ، ومبوبةً على حُروف المعجم مقيدة) . وياقوت الحموي في طليعة اصحاب المعاجم الجغرافية على الاطلاق . فكتابه معجم البلدان « خزانة علم وأدب وتاريخ وجغرافية : لانه اذا ذكر بلداً أورد شيئاً من تاريخه ، ومن اشتهر فيه او نسب اليه من الأدباء والشعراء والفقهاء . هذا بالاضافة الى مقدمة وافية في علم الجغرافية . والمعجم دقيق في معلوماته ، منظم في طريقته . وثمة ناحية أخرى من التصنيف الجغرافي حرية بالعناية . تلك هي الموسوعات الكبيرة التي ظهرت في القرن الثامن الهجري . فقد وصلت الينا كتب فيها التاريخ والادب والجغرافية وغير ذلك . ومن هذه (نهاية الارب) للنويري و (صبحُ الأعشى) للقلقشندي و (مسالك الابصار) لابن فضل الله العمري . فهذه الكتب المعدودة في مقدمة خزائن المعرفة تحوي فصولاً في الجغرافية العامة والسياسية تمدنا بكثير من معلوماتنا عن الدول الاسلامية وغيرها في تلك العصور

وتمتاز الكتب الجغرافية العربية وخاصة بعد تحررها من تأثير اليونان المباشر فيها ، بأنها تعتمد على المشاهدة الشخصية والحس . فاليعقوبي يقول عن نفسه إنهُ (سافر وحدّث وسأل) وابن حوقل يقول (وأعانني على تأليفه تواصل السفر وانزعاجي عن وطني . . . . الى ان سلكت وجه الارض بأجمعه في طولها . وقطعت وتر الشمس على ظهرها) اما المقدسي فقد جال في البلدان ودخل اقاليم الاسلام ولقي العلماء وخدم الملوك وجالس القضاة ودرس على الفقهاء واختلف الى الادباء والقراء . وخطب على المنابر . وساح في البراري ، وتاه في الصحاري وأشرف على الغرق وسجن في الحبوس ولزم التجارة في كل بلد ، وعني بالمعاشرة مع كل احد ، وهذا الأمر — اي العناية بالرحلة في سبيل التعرف الى البلدان والكتابة عنها — ينطبق على العالم الاسلامي ذلك ان اكثر الكتاب عنوا بهذا الجزء من العالم . ومع ان بعضهم تحدث عن البقاع الأخرى ، فقد جاء هذا متأخراً

فالاصطخري يقول (ذكرت في كتابي هذا أقاليم الأرض على الممالك وقصدت منها بلاد الاسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما يعود بالاعمال المجموعة اليها ......) . وابن حوقل يذكرنا

انهُ فصل بلاد الاسلام اقليماً اقليماً وصقعاً صقعاً وكورة كورة لكل عمل . وهذان الكاتبان يبدآن الوصف بديار العرب ، لأن القِبلةَ ومكة فيها ، وهي أم القرى ، وهي بلدُ العرب وأوطانهم ، ومثل ذلك المقدسي . أما اليعقوبي فيتخذ العراق نقطة ابتداء لكتابه (لانهُ وسط الدنيا وسرة الأرض) ويذكر بغداد (لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها)

ويعنى الجغرافيون العرب بالمسالك والطرق والمسافات لعلاقتها بالرحلة والتجارة والبريد وهذه عندهم صحيحة دقيقة . والمستعمل عندهم الفراسخ والأميال للقياس والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل يقل عن الكيلو متر قليلاً . ويستعملون للمسافات الطويلة وحدة للسير هي اليوم . فسوريا مثلاً طولها خمسة وعشرون يوماً . وقد وجدت بعضهم كالادريسي يذكر (يوماً طويلاً) في تعيين المسافات

ومن النادر ان يعثر القارىء في كتب الجغرافيين العرب على احصاء يتعلق بعدد السكان ، او مقدار ما ينتج في صناعة معينة أو من زراعة معينة . على ان احصاءاتهم المتعلقة بالخراج وارتفاع الأرض المترتب على ذلك دقيقة صحيحة . فالارقام التي يوردها قدامة ابن جعفر عن ارتفاع السواد مأخوذة من القيود الرسمية للسنة ٢٠٤ للهجرة . وهو يذكرها بالحنطة والشعير والدراهم . وقد نقل الخلف عن السلف في الكثير من الأحيان . فالبعض ذكر ذلك ، والبعض الآخر سكت عنه . وقد حذر المقدسي قراءه فذكرهم انه لم ينقل عن أحد ولكنه خبر ودوّن وكتب . وقد انتقد المقدسي كتب من سبقه من الجغرافيين . فمنهم « من كتب باختصار لا يفيد ومنهم من جمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها وكيف المسالك اليها . ومنهم من اختصر ولم يذكر الأسباب المفيدة » . ويقول عن ابن الفقيه الهمذاني انهُ (أدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم .... مرة يزهّد في الدنيا وتارة يرغّب فيها ودفعةً يُبكّي وحيناً يضحك ويلاهي) . وهنا نلحظ المقدسي الجغرافي العالم الدقيق الذي يريد أن يكون البحث دائماً مبنيًّا على الدرس والاختبار منظماً مبوباً وافياً بحيث لا يخلط بين جد العالم وهزل الهازل . كما نلمس هذه الناحية فيه اذ يقول عند تقرير خطته (وفي كتابنا هذا اختصار لفظ يدل على معان . مثل قولنا . لا نظير له نريد ان ليس مثلهُ بتة . . . . فان قلنا غاية فانها تعني في الجودة من الاجناس) ولما جاء ابو الفدا تناول في مقدمة كتابهِ (تقويم البلدان) من تقدمه من الجغرافيين بالنقد . فأظهر ان ابن حوقل والادريسي وابن خرداذبة لم يحققوا الاسماء . وغيرهم لم يحقق الاطوال . أما هو فقد جمع بين التحقيق في الاسماء والاطوال . والواقع ان كتابه يصح ان يُعَدّ تاريخاً انتقاديًّا للكتابة الجغرافية العربية الى عصره (القرن الثامن للهجرة)

وثمة مؤلف جغرافي آخر حري بالالتفات : ذلك هو الادريسي . صاحب كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) . ألف هذا الكتاب بالعربية في صقلية في بلاط ملكها روجر الثاني وصاحبه لم يزر الممالك الأسلامية الشرقية لكنهُ كتب عنها مما حصل عليهِ من كتب الرحلات ورسائل الزوار. ومن الطبيعي ان يختلف الكتَّاب في مقدار ما يخصص كل منهم للقطر الواحد دون الآخر . فاليعقوبي يخصُّ بغداد بأثنتين وعشرين من الصفحات . ويفصل عن العراق اكثر مما يفصّل عن غيرها . بينما نجد المقدسي يعنى بالشام عناية خاصة لانهُ يعرفها معرفة تفوق معرفته لغيرها من الاقطار

والامور التي عني بها جغرافيو العرب في وصفهم سوريا هي (١) اسمها وسبب التسمية . ويجدر بنا ان نذكر في هذا الصدد انهم أشاروا الى سوريا إنها الشام (٢) حدود الشام . وفي هذا نجد ما يشبه الاجماع على ان الحدود تمتد من بلاد الروم شمالاً الى حدود مصر جنوباً ومن البحر المتوسط غرباً الى الفرات شرقاً . وهذه المسئلة ذات قيمة من نواح متعددة (٣) صفات سوريا البارزة وخصائص الاقليم ، من حيث المناخ والماء والارض والحبوب والثمار والزهور والحيوان (٤) اجناده أو أقسامه الادارية والموظفون وتوزيع الجيوش ومقدار الخراج (٥) مدنه وصناعاته وتجارته وتمركزها في هذه المدن

فأنت واجد ان ابنَ الفقيه ينقل عن عبد الله بن عمر (قُسِمَ الخيرُ عشرةَ أجزاء فجعل تسعةُ أعشارٍ في الشام وجزءٌ في سائر الارض) . وتمر بك ملاحظةٌ دقيقة للاصطخري عن فلسطين إذ يقول (وفلسطين ماؤها من الامطار وأشجارُها وزروعُها اعذاء إلاَّ نابلس فان بها مياهاً جارية) . وتطالعك عند ابن حوقل هذه اللفتةُ عن أهل زُغَر بناحية البحيرة الميتة أو المنتنة ، انهم يلقِّحون كرومهم وكرومَ أهل فلسطين كما تلقَّح النخلُ بالطلْع الذكر . . . وبها (أي زغر) من عمل النيل والتجارة به ما لا يقصر عما يكايل من صنَّاعهِ وعمالهِ)

ودرس سوريا عند جغرافي العربِ يجب أن يكون ابتداؤه ما جاءَ في كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي) فالرجل سوري يعرف البلدَ وأهله ، ومعلوماته ذات قيمة خاصة في درس الناحية الاقتصادية من حياة سوريا في ذلك الوقت . فقد تناول في كتابه سوريا فحددها وقسمها الى ست كور وعدَّد مدن الكور المختلفة ، ثم فصل أخبار المدن هذه مبتدئاً بالعواصم وانتهى من ذلك الى جمل حال الاقليم . فهو يقدم البلد بقوله عنهُ (اقليم الشام جليلُ الشان ديارُ النبيين ومركزُ الصالحين ومعدن البدلا ومطلب الفضلا . بهِ القبلة الأولى وموضع الحشر والمسرى) ويعدد مشاهد الأنبياء فيه ثم يقول (ومع كل هذا مشاهد لا تحصى ، وفضائل لا تخفى، وفواكه ورخا وأشجار وأمْيا ، وآخرةٌ ودنيا . به يرقُّ القلب وتنبسط للعبادة الاعضا . . . . ثم به دمشق جنة الدنيا . . . . والرملة البهية

وخبزها الحوّارى ، وايليا الفاضلة بلا لأوى ، وحمص المعروفة بالرخص وطيب الهوا . . . . له سهلٌ وجبل وأغوار وأشيا . . . . وبهِ معادن الرخام وعقاقير كل دوا ، ويسار وتجار ولباقة وفقها ، وكتّاب وصناع وأطبا) . لكن الرجل يلتفت الى أطراف الشام مما جاور الروم فيقول عنها (والاطراف قد خربت وأمر الثغور قد انقضى . . . . عامة أهلها جهالٌ أو غوغا لا نهضة في جهاد ولا حميَّة على الاعدا) . فاذا انتهى من هذا التقديم المقتضب عرض لتسمية الشام وتحديدها ، ثم تناول وضعها الاداري فقسمها ست كور هي من الشمال الى الجنوب ، قنسرين وحمص ودمشق والأردن وفلسطين والشراة ، ثم عدد مدن الكور وذكر خصائصها وأعمالها وصناعتها وتجارتها . وطريقته أن يبدأ بالعاصمة ثم ينتقل الى بقية المدن . (فدمشق هي مصر الشام ودار الملك أيام بني أمية . . . . بنيانها خشب وطين . . . أكثر أسواقها مغطاة ولها سوق على طول البلد مكشوف حسن . وهو بلد قد خرقته الانهار وأحدقت بهِ الأشجار وكثرت به الثمار مع رخصٍ أسعار وثلجٍ وأضدادٍ لا ترى أحسن من حماماتها ولا أعجب من فوّاراتها). والمقدسي يصف الجامع الأموي بدمشق والمسجد الأقصى وقبة الصخرة بالقدس وصفاً دقيقاً . وسبب ذلك ، فضلاً عن منزلة هذه الأماكن الدينية ، ان المقدسي كان بنّاءً وكان جده كذلك قبله . فهو يحسن الفن المعماري ومن ثمَّ كانت أوصافهُ هذه ذات قيمة خاصة لمؤرخ فن العمارة الاسلامية

ويحدّثنا المقدسي عن منطقة الحولة ومدنها وكانت تابعة لجند دمشق ، فيقول (وبانياس على طرف الحولة وحد الجبل . . . وهي خزانة دمشق . . . غير ان ماءها رديء . . . والحولة معدن الاقطان والازهار ، وهي أغوار وأنهار) . أما طبرية قصبة الاردن فهي (ضيقة كريهة في الصيف مؤذية . . . بها حمامات بلا وقيد . . . ويقال إن أهل طبرية شهرين يرقصون من كثرة البراغيث ، وشهرين يقمقمون أي يلوكون النبق وهو الدقيقُ المستخرج من لب النخلة والمقوي بالدبس ، وشهرين يثاقفون لأنهم يشغلون بطرد الزنابير عن اللحم والفواكه ، وشهرين عراةً من شدة الحر ، وشهرين يزمرون أي يمصون قصب السكر ، وشهرين يخوضون الوحل لكثرته في بلدهم) . والرملة وهي قصبة فلسطين (ليس أبركَ من كورتها ولا ألذَّ من فواكهها . . . ذات فنادق رشيقة وحمامات أنيقة وأطعمة نظيفة وادامات كثيرة ومنازل فسيحة) . ومن الطبيعي أن ينال جند فلسطين من بين أجناد الشام حظًّا خاصًّا من العناية . فالمقدسي ابنهُ . ومن ثمَّ كانت عنايتهُ بالصغير من بلدانه وقراه

وينتقل بعد ذلك صاحبنا الى جمل شؤون الاقليم . فيتحدث عن طيب هوائه وتوسطه ، دون أن يغفلَ استثناءَ وسطهِ من الشراةِ الى الحولة ، فهو بلد الحر والموز والنخيل . ويلاحظ المقدسي امتدادَ غور الاردن جنوباً الى الحجاز . وثمة أمر ينتبه له الكاتب وهو

انك كلما اتجهت شمالاً في سوريا ازدادت الانهار وكثرت الثمار . ويذكرنا انهُ ليس في الشام نهر يسافَر فيهِ . ويحدّثنا في تفصيل ودقة عن تجارات الشام . فالكاغد يرتفع من دمشق وطبرية ، والزجاج والسكر من صور . هذا الى أنواع الأقمشة المذكورة بأسمائها الدالة على تباين طرق صنعها . ثم يعدّد اثمارها فيذكر الأجاص الكافوري والتين السباعي والقلقاص والهليون . ثم ينتقل الى مكاييلها وموازينها فالصاع والمد والوَيْبة والمكوك والفرارة وأنواع الأرطال : موضحة

ويتحدَّث المقدسي عن رسوم أهل الشام الدينية ، وعاداتهم الاجتماعية . ويروي الأمثال الدالة على الطقس وأحواله . ويصف الأفرنة والطوابين وأنواع المآكل فيقول عنها (وبه « أي الشام » طبَّاخون للعدس والبيسار . ويقلون الفول المنبوت بالزيت ويصقلونهُ . ويباع مع الزيتون . ويملحون الترمس ويكثرون أكاه ويصنعون من الخرنوب ناطفاً ... ويصنعون زلابية في الشتاء)

ولعلَّ المقدسي أول من لاحظ التوازي في طبيعة سطح سوريا . فهو يقسمها الى السهل الساحلي وسلسلة الجبال والأغوار وسيف البادية . وهذه على ما اعتقد من أدق ملاحظات المؤلف

عاش المقدسي في القرن الرابع الهجري وكتب (أحسن التقاسيم) في أواخره . فالصورة التي نحصل عليها لسوريا هي صورة البلاد في زمن من أزهى عصورها وأزهر . ويحق لنا ان نغتبط لأن الحال أتاحت لنا مثل هذا الرجل ليدوّن لنا مرافق سوريا الاقتصادية في ذلك الوقت

فاذا انتقلنا الى ياقوت لقينا في مؤلفهِ معلومات عن سوريا في الزمن الذي كان فيهِ الصليبيون يحتلون نصفها الغربي ، وهذه قيمة معجمهِ من الناحية التاريخية

أما القرن الثامن الهجري فشيخ مؤلفيه الجغرافيين أبو الفدا . عاش أبو الفدا في أوائل زمن المماليك وأرَّخ لهم ، وكتب تقويم البلدان واصفاً فيهِ العالم الاسلامي بشكل خاص . ونالت سوريا من تحقيقه حظّاً كبيراً . فهو ينقل في بعض الأحيان ما قاله المتقدمون ثم يعلق عليه بما يوضح الوضع في زمنه . ويتبع البحث العام بجداول يفصل فيها عن كل مدينة الطول والعرض والاقليم ويضبط الاسم ثم يسوق أوصافاً وأخباراً عامة عنها . ولا يغفل ذكر مصادره

ليس من المستطاع ان يتناول المرء في مقال يشغل صفحات معدودة موضوعاً كهذا الا من أوسع نواحيه ، وأكثرها شمولاً . فالمكتبة الجغرافية العربية واسعة كما ذكرت ، شاملة لأنواع من الدرس والبحث ، حرية بأن يتوفر الناس على درسها ويعنوا بتتبعها . وأؤكد لحضرات القراء أن العمل فيها مرجوّ الفائدة واللذة

الهيكسوس

مطاردتهم في مصر

للدكتور باهور لبيب

جازت هذه المرحلة أدواراً كثيرة أهمها : —

ما وصل إلينا من عهد الملك « سقنن رع » الملقب « قن » أحد ملوك الأسرة السابعة عشر . والدور الذي لعبهُ ذلك الملك في مطاردة الهيكسوس مذكور في بردية ساليية بالمتحف البريطاني ثم ما ورد في لوحة معروفة بلوحة كارنارفون بالمتحف المصري وهي لوحة خشبٍ كتب عليها بالهيراطيقية ملخص الحرب التي دارت بين الملك كامس والهيكسوس ثم النص الذي يحـدِّثنا فيهِ القائد « أحمس بن أبانا » عما قام به الملك أحمس الاول في سبيل طرد الهيكسوس من مصر .

أما المصدر الاول فيحـدِّثنا عن أن الملك « سقنن رع » كان ملكاً على اقليم طيبة وكان يعاصره ملكٌ من الهيكسوس يدعى « ابوفيس » . وقد جمع ابوفيس في أحـد الأيام كبار قومهِ وتحدَّث معهم وربما كان الحديث يدور حول تدبير مؤامرة لاغتيال الملك « سقنن رع » وها هو ذا جزءٌ من هذه النصوص تدلنا ترجمته على ما ذهبنا اليه :« . . . انقضى زمن طويل بعد ذلك فأرسل الملك ابوفيس الى الملك « سقنن رع » بالعاصمة الجنوبية (طيبة) رسالة ولما وصل رسل الملك أبوفيس الى طيبة احضروا الى ملكها — فسئل أحد رسل الملك أبوفيس هذا السؤال :« لماذا جئت الى العاصمة الجنوبية ولأي سبب سافرت مع زملائك طوال هذه المدة ؟ »

فأجاب ان الملك ابوفيس أرسلنا اليكم لنخبركم بأن دب البحر الساكن في بحيرة طيبة يمنع جلالته من النوم نهاراً وليلاً وصياحهُ يزعج أذني الملك » . « حزن الملك سقنن رع وتألم ولم يرد الجواب ثم عاد رسول الملك ابوفيس الى سيده . . . » ومن سياق الكلام نفسه نعلم انهُ على أثر ذهاب رسول ابوفيس الى سيده دعا سقنن رع قواده ورؤسـاء حكومته وأخبرهم برسالة الملك أبوفيس فسكتوا جميعاً ولم ينطقوا بكلمة واحدة (وهنا سقط الاصل) ولم تـكمل القصة التي كانت تحوي كثيراً من المعلومات التاريخية

فمن الجائز أن يكون رسل الملك ابو فيس عبارة عن أفراد عصابة أرسلها الملك لاغتيال

حياة « سقنن رع » ولما خابوا في مهمتهم عادوا بعد أن اختلقوا الحيل ولفقوا الاسباب التي من أجلها أرسلهم ملكهم . كذلك نعلم أن جثة هذا الملك « سقنن رع » وجدت في معبد الدير البحري وفيها آثار جروح نتيجة ضربات مميتة فهل معنى ذلك أن هناك مؤامرة دبرت لاغتيال هذا الملك العظيم ؟ أم سقط صريعاً في ميدان القتال ثم أنقذ أحد أتباعه جثته من العدو ؟

أرجح شخصيًّا الرأي الثاني وذلك لأن آثار الجهاد واضحة في جثة هذا الملك وهـذا ما يحملنا على الظن انهُ ثار على الغزاة وأوقد الحمية في صدور شعبه فقاموا قومة رجلٍ واحدٍ ليطردوا الهيكسوس من مصر . ويؤيد ذلك أيضاً ان خليفة هذا الملك وهو ابنهُ كامس واصل الحرب مع الهيكسوس

أما المصدر الثاني وهو لوحة كارنارفون فقد عرفنا تفاصيلها عند ما تكلمنا في أول هذا المقال (مقتطف نوفبر ١٩٤٢ صفحة ٤٠٥) عما وقع تحت حكم الهيكسوس من المناطق المصرية

والمصدر الثالث عبارة عن نص القائد البحري أحمس بن ابانا (اسمه أبانا نسبةً الى اسم أمه وقد كان ذلك شائعاً عند قدماء المصريين مما يبين لنا مركز المرأة قديماً . أما اسم والده فقد كان « بابا » وقد كان بابا والد القائد أحمس هذا معاصراً للملك سقنن رع)

وقد ظهر هذا القائد في المرحلة الاخيرة من مطاردة الهيكسوس وعاش في بلدة الكاب وقد بدأ حياته العملية أيام الملك أحمس الاول الذي عيَّنهُ قائداً في إحدى السفن . وما يهمنا في نص هذا القائد [1] من الوجهة التاريخية في موضوع مطاردة الهيكسوس هو ما يأتي :

«.... كنت أتبع الملك ماشياً عند ما ركب عجلتهُ وعند ما حاصر الملك بلدة حات وعرت (هوارس) وقد أظهرت شجاعة على قدميَّ ماشياً أمام جلالته وبعد ذلك رقاني (جلالته) الى السفينة المسماة « خع ام من نفر » ثم حارب الملك على مياه قناة پاجدكو الواقعة جهة حات وعرت (هوارس) ثم حاربت وأحضرت يداً وبُلغت هذه المسألة الى كاتب سر الملك فأنعم عليَّ بعد ذلك بذهب الشجاعة وحارب الملك في أجزاء مصر بعد ذلك الواقعة في جنوبي هذه البلدة (وقد اختلف العلماء فيما هو المقصود من البلدة التي حارب الملك جنوبيّها فبعضهم يقول أن المقصود بها « بلدة هوارس » المذكورة في النص . والبعض الآخر يقول انها بلدة الكاب حيث مقبرة هذا الموظف الذي كتب لنا عن تاريخ حياته . وأرجح أنا شخصيًّا الرأي الثاني لأنهُ ليس من المعقول أن تثور مصر كلها في هذا الوقت العصيب ضد الملك أحمس الاول فالمقصود إذن هي مدينة الكاب ويستنتج ذلك أيضاً من استمرار إغارة النوبيين على مصر . وقد جاءَ في نفس نصوص هذه المقبرة ذكر تلك الاغارة التي كانت في عهد الملك الذي

(١) K. Sethe, Urkunden der 18. Dynastie

سبق احمس وهو كامس) « وبعد ذلك استولى الملك على مدينة حات وعرت (هوارس) وكنت قد احضرت من هناك غنيمة رجل واحد وثلاث نسوة أي اربع رؤوس (أسرى) »

ثم يستمر النص فيقول : « وقد أعطاهم جلالتهُ اياهم كعبيد » « ثم حاصر الملك بلدة شاروهن مدة ثلاث سنوات ثم استولى جلالته عليها »

فمن هذا النص نستنتج محاصرة الملك بلدة هوراس عاصمة الهيكسوس ثم استيلاءه عليها ثم بعد ذلك مطاردته الهيكسوس في عقر دارهم ومحاصرته بلدة شاروهين بعد أن تعقبهم الملك اليها ثم استولى عليها بعد محاصرتها ثلاثة أعوام . وهذا مهم من الوجهة التاريخية إذ يبين لنا ان أحمس الاول طرد الهيكسوس من مصر بعد ان استولى على عاصمتهم ثم طاردهم إلى جنوب فلسطين

وبذلك نختم الجزء التاريخي الذي يهمنا في مطاردة الهيكسوس من نص القائد أحمس بن أبانا

وبحكم الملك أحمس الأول ينتهي حكم الهيكسوس ويعتلي ملوك طيبة ثانية عرش مصر ويبدأ تاريخ عصر هام تحقق فيه توحيد مصر من جديد وهو ما نسميه « بعصر التوحيد الثالث » والمسمى « بعصر الدولة الحديثة » طبقاً لما هو شائع . وذلك لأنهُ على يدي أحمس الاول تمت مطاردة الهيكسوس من البلاد المصرية وعلى يديهِ كذلك رجعت الى مصر الوحدة القومية لأن حرب مطاردة الهيكسوس لم تكن حرب استقلال فقط بل هي أيضاً فرصة اغتنمها ملوك طيبة لكي يسيطروا على القطر المصري بأجمعه . وقد تمَّ لهم ذلك على يد عميدهم الملك أحمس الأول . وهنا نرى ظهور نفوذ طيبة السياسي للمرة الثانية بعد أن ظهر أولاً في أيام الدولة الوسطى وكان من أهم الاشياء في هذا العهد ليس الانتصار(٢) على فراعنة آخرين وانما كان مطاردة شعب اجنبي

وبالرغم من المضار التي عادت على مصر من حكم الهيكسوس من تفكك في الادارة وتصدُّع الوحـدة إلاّ أن المصريين جنوا من عصر هؤلاء المغيرين الفوائد الآتية :—

عند مطاردة الهيكسوس أخذت مصر تتطلع الى البلاد الاسيوية المجاورة لها ولاسيما فلسطين وسوريا وأصبحت جزءًا من مصر أي نظرت اليها كأجزاء لا يمكن الاستغناء عنهـا وبذلك أصبحت مصر أمة غير منعزلة عن باقي العالم فأصبح لها مقامٌ دوليّ عامّ حدد في مراسلات أو معاهدات دولية . كذلك كان لغزو الهيكسوس لمصر مزايا لا يمكن انكارها ظهرت آثارها فيما بعد ظهوراً واضحاً بما أنتجه من رخاء فمثلاً استفاد المصريون أشيـاء كثيرة أثرت في الصناعة المصرية ومنها صناعة العربات التي كانت سبباً في رقي وجلب أيادي عاملة كثيرة

(٢) راجع مقالنا المنشور في مجلة « كلية الآداب » العدد السادس من السنة ١٩٤٢ صحيفة ١٢٧

للمصريين كما ان المصري تعلم هذه الصناعة تعلماً دقيقاً وما يتبع ذلك من عمل الجلود وغـيره للعربة وللجياد وهناك كذلك صناعة أخرى وهي صناعة الأسلحة ولا سيما الخناجر فبذلك زادت أعمال الشعب المصري في هاتين الصناعتين

ومن مميزات غزو الهيكسوس لمصر انشاء جيش نظامي دائم مجهز بالاسلحة ومزوّد لأول مرة في تاريخ مصرُ القديم بالجياد والعربات الحربية وذلك لأن الهيكسوس هم أول من أدخل الجواد والعربة في مصر وزيادة على ذلك استفاد المصريون أثناء وجود الهيكسوس في مصر استعمال الجواد والعربة في الحروب فتعلموا من الهيكسوس الفنون الحربية وطرق الكفاح المختلفة فثاروا في وجه الغزاة كما تقدم ثورة موفقة وعلى ذلك كان حكم الهيكسوس في مصر هو العامل القوي الذي جعل من الشعب المصري لأول مرة في تاريخه شعباً محارباً مستبسلاً طلب الحرية فنالها ثم عرف طعم الحرب وتذوّق معنى الانتصار فخرج من مصر يطلب الغزو والحرب فتولدت في الشعب المصري روح الاستعمار . ومن الطبيعي إذن أن يتبع ذلك كثرة الوظائف الحربية والمدنية أي وجود أيادٍ عاملة في مصر وفي خارجها وقد استنتجنا ذلك من الألقاب التي كان اكثرها غير معروف قبل عصر الهيكسوس

وكان المصريون يفخرون بوظائفهم الحربيـة وقد أشارت الى ذلك نقوشهم وازداد تشجيع الملوك للقواد الحربيين فأعطوا الاراضي ومنحوا النياشين بل فرض أغلب ملوك عصر التوحيد الثالث على أولياء عهودهم دراسة الفنون الحربية في مدرسة أو كلية أُنشئت خصيصاً لذلك في منف[٣] بل أكثر من ذلك فقد فرض على اولياء العهود أن يتولوا بادارة مصنع بناء السفن والاسطول (دار الصنعة) الذي أُنشئ في هذا العصر على مقربة من منف فعلى سبيل المثل نعلم أن ولي العهد امنحتب ابن الملك تحتمس الثالث وهو الذي عرف فيما بعد باسم الملك امنحتب الثاني كان يشرف على ادارة مصنع بناء السفن والأسطول [٤]

وكذلك كان من نتيجة غزو الهيكسوس مصر تأسيس امبراطورية مترامية الاطراف تدفقت الخيرات منها على مصر كما تدفقت الأموال على بيت فرعون فعمَّ الرخاء وازدادت موارد مصر كثيراً مما أدى الى تقدم المدنية المصرية

وكان من الفوائد والمميزات الكثيرة التي عادت على مصر بالخير أيضـاً بعد غزوة الهيكسوس ظهور شبه انقلاب في السياسة وفي الحالة الاجتماعية بل وأدمجت في اللغة المصرية نفسها كلمات سامية كثيرة (جامعة فؤاد الاول)

---

(٣) Helck, Der Einfluss der Militärführe

(٤) Glanville, Aeg. Zeitschrift, 66.

نشيد الشجرة

أذاعت جمعية « أصدقاء الشجرة » ان نتيجة المباراة التي أعلنتها وتبرع لها فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية من جيبه الخاص بمائة ليرة أسفرت عن فوز الاديب الناشىء محمد يوسف حمود فحاز النشيد الذي نظمه موافقة فخامة الرئيس والجائزة فنهنئه وفيما يلي النشيد الفائز

جنـــة في وطني من صبـــاح الزمن
تملأ الأرض اخضرارا والسماوات افـــترارا
فالشجر يتعـالى في الهـواء
والثمـــر يتلألأ كالضيـــاء
ما أحبّ الشجرا
يمنح الدنيـا شباباً أخضرا
وربيعاً أنورا وثماراً سكرا وخيالا

من جدودي الأول هـــذه الآفاق لي
ما أعزّ الأرز فيها يزرع الأجيال تيها
والزهور تتهادى بالجمــــال
والطيور تتنادى في الظـلال
ما أعـز الشجرا
يمنح الدنيا شباباً أخضرا
وربيعاً أنورا وثماراً سكرا وجلالا

إن لبنانـــ لنـا وبنينـــا بعـدنا
فازرعوا الآمال فيه شجـــراً يحمي بنيه
والخيـــال يتجـلى في هـــواه
والغـلال تتحـلى في جنـــاه
ما أعز الشجرا
يمنح الدنيا شباباً اخضرا
وربيعاً أنورا وثماراً سكرا وجمالا

[عن الفنون الجميلة]

فلسفة الاخلاق

في الاسلام

وصلاتها بالفلسفة الأغريقية

ليوسف كرم

لما كتبنا كلمتنا عن مؤلف الاستاذ كراوس في « جابر بن حيان والعلم اليوناني[1] » كان من اغراضنا تحبيذ الطريقة المقارنة في تاريخ العلم والفلسفة . ولم نكن نعلم حينذاك ان مطبعة الازهر تعمل على اخراج كتاب بالعنوان الذي توجنا به هذا المقال ، للاستاذ محمد يوسف موسى « مدرس الاخلاق والفلسفة بكلية أصول الدين » . فما إن وقع نظرنا عليه حتى اغتبطنا به اغتباط الذي يصيب شيئاً مما كان يتمناه . فقد أراد المؤلف ان يدرس ناحية من نواحي الفلسفة الاسلامية ، وان يرجع الى المصادر اليونانية التي استقى منها الاسلاميون . وله سابق عهد بالاخلاق وتاريخها ، تدريساً وتأليفاً ، وها هو ذا يخوض موضوعاً نعده طريفاً اذا نظرنا اليه في جملته ومنهجه . ولا شك انهُ سيكون قدوة في نهج هذا المنهج ، فتظهر كتب في التاريخ المقارن للفلسفة تستقبل خير استقبال لاستعداد بيئاتها العلمية لها وشديد حاجتها اليها

الكتاب في خمس مقالات : الاولى في « التفكير الاخلاقي قبل عصر الفلسفة » أي قبل نقل الفلسفة الاغريقية الى العربية . والمقالة الثانية في « الحالة العامة في عصور الفلاسفة » اي الخلافة والادارة ، والحالة الاجتماعية ، والحالة العلمية . والمقالات الثلاث الباقية تدور على ثلاثة اعلام هم : ابن مسكويه كممثل للاخلاق الفلسفية الصريحة ، والغزالي كممثل للاخلاق الفلسفية الدينية ، ومحيي الدين بن عربي كممثل للاخلاق المبنية على التصوف (ص ٢٧) . الأختيار موفق ، والترتيب منطقي فضلاً عن انهُ تاريخي

يفتتح المؤلف المقالة الاولى بكلمة مأثورة عن بسكال اولها قوله : « لا يوجد تقريباً شيء عادل اوغير عادل الا ويغير من صفته تغير اقليمه » — ويشفعها بأخرى للتريه بنفس المعنى — فهو اذن يثير مسألة طالما كانت مدار بحث الباحثين ، وهي المسألة الاولى في الفلسفة الاخلاقية:

---

(١) مقتطف نوفبر ١٩٤٢ صفحة ٣٥٥

هل الاخلاق عرفية او طبيعية ؟ ورأيه الخاص « ان الضمير في جرثومته الاولى فطري عرف به الناس ، على اختلاف الأعصر والبيئات ، اصولَ الاخلاق ، وان اختلفوا في التطبيقات » (ص ٤) . وهو الرأي الصواب ، على أن نفهم بالضمير القوة العاقلة تنظر في الأفعال الانسانية كيف يجب أن تكون ، لا ضرباً من الغريزة العمياء او من الالهام الخفي كما ذهب اليه البعض. ويؤيد الأستاذ رأيه بايراد أقوال تدل على معرفة العرب للاخلاق ، فقد كانت لهم حكم وآداب ، فعرفوا وثاقة الرابطة بين الطبع والأخلاق (ص ١٢) وعرفوا للتوسط فضيلته (ص ١٤) « ولم يفت الحكماء أن يوصوا بضرورة معرفة المرء نفسه » (ص ١٥) وقالوا بمحاسبة النفس (ص ١٦) « وعرفوا في جاهليتهم واسلامهم اصول الفضائل وفروعها .. وكانوا يستوحون في ذلك كله الدين : قرآنه وحديثهُ ، والادب : جاهليهُ واسلاميهُ ، والحكم القديمة : هندية وفارسية ، والديانات السابقة اليهودية والمسيحية » (ص١٧) « وكانت الغاية العليا ... عندهم ، سعادة الآخرة وما وعد الله في جناته » (ص ٢٢)

الاستشهاد هنا مأخوذ عن العرب جملة : جاهليين واسلاميين ، تتداول اقوالهم ويتخلل بعضها بعضاً . ولكن وضع المسألة يقتضي منهجاً آخر : كان حريًّا بالاستاذ ان يقسم الكلام الى جاهلية واسلام وان يفيض في دراسة الجاهلية ويناقش باسكال ولتريه بما عرف عنهما من حكم ونظم وعادات واخبار ، فيبين لنا ما يرجع الى الفطرة والطبيعة ، وما يمكن ان يعد « أخلاقاً قبلية » أملتها ظروف الحياة ونزوات النفوس . انهُ لو فعل ذلك لجاءَ استدلاله أدق وأوقع . لسنا نزعم ان عرب الجاهلية كانوا بدائيين ، وان عقائدهم تظهرنا على الفطرة الخالصة فتصلح دليلاً قاطعاً على فطرية الاخلاق او عرفيتها ، والمؤلف يذكر انهم كانوا على اتصال بالأمم المحيطة بهم واقفين على اشياء كثيرة من آدابها ودياناتها . كل ما نريد ان نقول هو ان ما استساغتهُ عقولهم البدوية الحرة يمثل الفطرة الى حد كبير ، وان هذا المنهج هو على كل حال الجدير بالاتباع

وكان حريًّا بالاستاذ أن يغفل المقالة الثانية باكملها . فقد اعتقد ان « لاغنى لنا عن دراسة سريعة للعصور التي ظهر فيها الفلاسفة الذين نحن بسبيل دراسة مذاهبهم الاخلاقية... لنفهم العوامل التي وجهتهم ودفعتهم » (ص ٢٧) . فرسم لنا صورة قاتمة لتلك العصور مليئة بالفتن والدسائس من رجالات الدولة والامراء ومن يليهم بعضهم لبعض ، وبمفاسد الاخلاق في المجتمع عامة ، حتى اذا ما بلغ الى الحديث عن الحياة العلمية قال انها كانت زاهرة زاهية . أليس هذا الازدهار ينطق بضعف تأثير المفاسد السياسية والاجتماعية او عدمه في رجال العلم واوساطه ؟ واذن فقد كان الكتاب في غنى عن هذا الفصل التاريخي . وفي الواقع

لم نرَ للعصر تأثيراً في واحد من اولئك المفكرين ، اللهمَّ الاَّ من الناحية العلمية ، من ناحية الكتب الموضوعة بالعربية أو المنقولة عن لغة اجنبية . هذا الى ان موضوع الكتاب خاص ، هو فلسفة الأخلاق ، فهل يقدم كل كاتب بين يدي موضوعه الخاص بحثاً تاريخيًّا عامًّا ؟ وان الاستدلال التاريخي عمل دقيق للغاية ، فان الجمع في صحيفة واحدة بين حوادث وقعت وأوامر صدرت قد لا يمثل حياة العصر تمثيلاً صحيحاً ، اذ قد تسير الامة سيرتها بالرغم من الأوامر والحوادث ، وهذا ما كان بالفعل في الاسلام ، وما كان في الغرب في اثناءِ العصر المتوسط حيث حُرمت دراسة ارسطو مرة بعد اخرى فما كان الاّ أن تزايد الاقبال عليهِ واشتد حتى صار « المعلم الاول »

***

اذا أقبلنا على المقالة الثالثة المخصصة لابن مسكويه (٣٣٠ — ٤٢١ هـ) رأينا المؤلف يترجم له ثم يشرح آراءَه في الأخلاق فيذكر تعريفه للخلق وتقسيمهُ اياه « الى ما يكون طبيعيًّا وما يرجع للعادة والمرانة » ويقره على الرأي الذي انحاز اليه وهو اننا قابلون للتخلق بالأخلاق المختلفة . لأن الواقع يشهد بذلك ولأن الرأي المخالف « يؤدي الى ابطال قوة التمييز والعقل ، والى رفض السياسات كلها وترك الناس همجاً مهملين » (٥٣) . وهذا في منزلة وضع الحرية في أصل الأخلاق . غير أن المؤلف يأخذ على ابن مسكويه « عدم استقرار فكره » اذ يراه « يزيف قول الرواقيين ، ويتبعهُ بتزييف الرأي القابل ، ثم يحكي رأي جالينوس ، وأخيراً يتعرض لرأي ارسطو ، فما رأيهُ الخاص ؟ » (٥٣ — ٥٤) والذي تبيناه بالرجوع الى « تهذيب الاخلاق » أن تزييف الآراء حكاية عن جالينوس ، وان ابن مسكويه على رأي ارسطو ، كذلك يرميه « بالتناقض او بما يشبهه حين جعل من الخلق ضرباً يكون طبيعيًّا من اصل المزاج ، ثم ذكر ان كل خلق ممكن تغييره ، واذن فلا شيء بالطبع » (٥٤). وعندنا ان التناقض يرتفع اذا ذكرنا ان المزاج الطبيعي ليس من الماهية حتى لا يتغير ، ولكنهُ حالة جسمية خاضعة للارادة قابلة للتغيير ، وان على هذا التغيير يعمل الانسان في تربيته لنفسه ولغيره ، وان هذه المعاني كانت حاضرة لذهن ابن مسكويه ، ويورد المؤلف أقوال صاحبه في النفس وقواها ، ويردها بلا عناء الى افلاطون وارسطو(٥٥ — ٥٧) ويورد تعريفه للفضيلة بأنها وسط بين طرفين مرذولين على ما قال ارسطو ، وتقسيمه اياها الى ثلاث تابعة لقوى النفس الثلاث على ما قال افلاطون ، وقوله بأن اعتدال هذه الفضائل (الحكمة والعفة والشجاعة) وانسجامها فيما بينها تكون فضيلة أخرى هي كمال الفضائل

الثلاث السابقات (٥٧) وهي العـدالة على مذهب افلاطون أيضاً . غير اننا لاحظنا ان ابن مسكويه يأخذ العدالة أحياناً بالمعنى الذي أراده أرسطو حين جعل منها فضيلة رابعة قائمة في اعطاء كل ذي حقٍ حقه في المعاملات ، فيختلط عليه الامر في بعض المواضع ، منها الاشكال الذي يورده عنهُ المؤلف (٥٨) وهو ان تنازل المرء عن بعض حقه للغير تفضـل محمود مع انه يزيد عن الوسط والزيادة عنهُ كالنقصان خروج عن الفضيلة . يجيب ابن مسكويه اجابة أولى يرد عليهـا المؤلف ، ويجيب اجابة أخرى يراها المؤلف غير مقنعـة كذلك ، ويترك الاشكال بغير حل . وحله ان التفضل أو الزيادة عن وسط العدالة بالمعنى الارسطوطالي هو الوسط بالاضافة الى فضيلة أخرى هي الاحسان داخلة في العـدالة بالمعنى الافلاطوني ، وهي الملحوظة في التفضـل . فليس بصحيح ما يقول ابن مسكويه وأشكل عليـه الأمر من أن « الهيئة النفسانية التي يصدر عنها التفضل هي نفسها الهيئة التي تصدر عنها العدالة » (٥٨) . ان لفظ العدالة مشترك بين معنيين مختلفين . ويعود ابن مسكويه (٧٣) فيعد الظلم والانظلام رذيلتين خاصتين لازمتين من وضع العدالة فضيلة خاصة على رأي ارسـطو . فيأخذ المؤلف ذلك عليه استناداً الى التعريف الأفلاطوني للعدالة . وهكذا يستمر سوء التفـاهم بين ابن مسكويه وبين نفسه من جهة ، وبينهُ وبين المؤلف من جهة أخرى . ويستوفي المؤلف عرض آراء ابن مسكويه في السعادة والاجتماع والتربية ، ولا يجد مشقة في ارجاع هذه الآراء الى سوابقها عند اليونان

***

الغزالي (٤٥٠ — ٥٠٥) أعمق فكراً وأوسع أفقاً وأغزر مادة من ابن مسكويه وقد حرص المؤلف على أن يستقصي آراءه في الاخلاق بالتفصيل فجاءت المقالة الرابعة ثلاثة أضعاف الثالثة . الضمير عند الغزالي فطري (٩٤ — ١٠٢) والعدالة تارة جملة الفضائل (١٠٨ — ١٠٩) وطوراً فضيلة خاصة (١١٦). فاللفظ مشترك هنا أيضاً، غفر الله لأفلاطون وأرسطو.. والغزالي متصوف وفيلسوف ، فيسأل المؤلف وهو يبحث في معنى السعادة عنده (١١٧ — ١٣٢) : أي الفريقين أقوم سبيلاً المتصوفة أو النظار ؟ ويجيب بأنهُ لم يبت برأي واحـد للناس جميعاً بل جعل الحال تختلف بحسب الاشخاص والاحوال . أما لنفسـهِ فقد ارتضى طريق الصوفية : « هم السالكون لطريق الله خاصة » ، والنور الالهي « مفتاح أكثر المعارف فمن ظنَّ ان الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسـعة » . وعلى ذلك أفاض الغزالي في الزهد ، وأفاض المؤلف في تعرف حقيقة الزهد عنده وعلامته وفضـيلته

ودرجاته وأقسامه والغاية منهُ ، حتى اذا ما جاء الى تعيين « المعين الذي استقى منه الغزالي » قال انه القرآن والحديث ، والفيثاغوريون وأفلاطون وأرسطو ، والفارابي وابن سينا وابن مسكويه ، والراغب الاصفهاني صاحب « الذريعة الى مكارم الشريعة » ، والانجيل والمتصوفون . وبهذه المناسبة يلوم الغزالي وقد « طوعت له نفسهُ أن يأخذ (في كتابه « معارج القدس ») ما سبقه به ابن سينا (في كتابهِ « النجاة ») فكرة وتعبيراً تقريباً دون أن يقف قارئه على مصدره » . ولكن يمكن الدفاع عن الغزالي بشهادة المؤلف نفسه : فقد قال من جهة (١٥٦) كثيراً ما أعربنا عن شكنا في نسبة « معارج القدس للغزالي » فاذا كان الكتاب منحولاً ارتفع اللوم . وقال من جهة أخرى (١٤٥) « ان مصدر الاثنين الاصلي هو ارسطو » ، فعلى فرض صحة نسبة الكتاب للغزالي لم يكن ملزماً بالاشارة الى مصدره لأنه انما أخذ أشياء لم تكن ملكاً خاصًّا لابن سينا بل كانت شائعة بعد نقل كتب ارسطو . ومثل هذا الاخذ كان مألوفاً عند الغربيين في العصر المتوسط

ويحاسب المؤلف الغزالي حساباً عسيراً على اشادته بالزهد ، ولكننا ندافع عنهُ في هذه النقطة أيضاً . يسأل المؤلف : « هل الغزالي بما دعا اليه من مذهب في الاخلاق جعل للزهد فيه رفيع الدرجات ، كان يرعى صالح الامة عامة أو صالح فئة خاصة ترجو الخير لنفسها وان أضرَّ ذلك بغيرها » (١٦٦) . ثم يقول : « وان أسعد أيام أمم الغرب التي تتقاتل في سبيل استعمار الشرق ، وخصوم الاسلام وأعدائه الذين يتربصون بهِ الدوائر ، لهو اليوم الذي يرون فيه المسلمين آخذين — لا قدر الله تعالى — بمذهب الغزالي فيصيرون عدماً أو كالعدم في هذه الحياة » (١٦٩)

نقول : هذا وضع للمسألة خطابي أو جدلي ، على اصطلاح المناطقة ، وهذه خصومة خلقت من عدم . ليست المسألة مسألة صراع بين شرق وغرب — وكم كانت هذه الفكرة بعيدة عن ذهن الغزالي ! — ولكنها مسألة الانسان وغايته القصوى

فاذا ثبت ان آخرة الانسان روحية — وهذا ثابت عند الاستاذ — فقد صارت الدنيا بما فيها عدماً أو كالعدم وصارت الامة الزاهدة هي الرابحة السعيدة ، والأمة الغالبة هي الخاسرة الشقية . الله أكبر لو وجدت أمة تجمع على التزام حدود الله ، وتذهب في سبيل الكمال ، ليس فقط الى حد ايثار العدالة على القوة ، بل الى حد ايثار الاحسان على العدالة . ان أبناءها يكونون ملائكة تمشي على الأرض ، ولعلهم يصلحون الأرض ومن عليها ! على أن الغزالي لم يفرض الزهد على الناس جميعاً ، وقد سبق للاستاذ قوله انهُ ترك الحال تختلف ، فلا غبار عليهِ ان نصب الزهد مثلاً أعلى تُندب له الصفوة . بل ان للزهد معنىً روحيًّا يجعله واجباً

على الناس جميعاً ، هو عدم التعلق بالدنيا مع ضرورة استخدامها ، وما التجرد المادي سوى وسيلة للكمال لا الكمال نفسه

ولسنا ندري كيف صحَّ عند الاستاذ ان زهد الغزالي « فقر وجوع وخمول وتوكل » حتى رأى حتماً عليهِ ان ينكره

***

أما محيي الدين بن عربي (٥٦٠ — ٦٣٨ هـ) فمتصوف كالغزالي ، ولكنهُ فيلسوف من نوع آخر ، يذهب مذهب وحدة الوجود ، فيرى « ألاَّ موجود الاَّ الله تعالى ، وان جميع الممكنات مظاهر له » (١٩٣) . فاذا تحدَّث عن الوجودات ، واذا ردها الى أركان أربعة هي : الله ، والعقل الأول أو الكلي ، والنفس الكلية ، والجسم الكلي أو الهيولي أو الهباء (١٨٤ — ١٨٧) فهمنا انهُ يتحدث بحسب الظاهر فقط ، وانهُ يصدر عن الأفلاطونية الجديدة (٢١٠) ما في ذلك شك ، ولا فرق بينهما ، حتى الفرق الذي يذكره الاستاذ حيث يقول : « الوجود في مذهب الأفلاطونية الجديدة حركة في خط مستقيم لا يلحق آخره بأوله ، بينما هو في رأي فيلسوفنا حركة مستديرة ، وكل شيء منهُ ثم اليهِ يعود » (٢٠٠ — ٢٠١) فقد قالت الأفلاطونية الجديدة بالعودة كما قالت بالصدور . ويقارن الاستاذ بين وحدة الوجود عند ابن عربي وعند الاشاعرة (١٨٨) ويعرف وحدة الوجود ، والحلول ، والاتحاد (١٩٠) ويبين تأثر ابن عربي بالحلاّج مع فرق بينهما (١٩٩) . ونستطيع ان نقول ان ابن عربي ، في ذهابه مذهب وحدة الوجود ، متمشٍّ مع نظرية الصدور أكثر من الفارابي وابن سينا اللذين أخذا بها ثم جعلا للموجودات حقيقة ذاتية ، مع أن الصادر عن شيء صدوراً ضرورياً صادر عن ذات الشيء ومجانس له بالضرورة . وتتجلى عبقرية ابن عربي في تفصيل مذهبه ومحاولته تأييده بتأويل القرآن والحديث ، وقد أغرب في هذا التأويل أيما اغراب . نشبهه في ذلك بفيلسوف مسيحي ظهر قبله بأكثر من ثلاثة قرون ، جون سكوت اريجنا ، اصطنع الأفلاطونية الجديدة وألبسها ثوباً ملفقاً من آيات العهدين القديم والجديد وأقوال آباء الكنيسة ، وربما كان ابن عربي اكثر اغراباً منهُ . وقد لاحظ المؤلف انهُ « شرق في الكلام وغرب » (١٧٥) ، وانهُ « قادر قدرة فائقة » على التوفيق بين الآراء المختلفة » (١٨٧) ، ولكن ليس يكفي القول انهُ حاول التوفيق بين مذهبه وبين الشريعة ، انهُ جرَّ الشريعة الى مذهبه

والى هذا ينتهي المؤلف حين يقدم على ابداء رأيه في الشيخ ، بعد تردد وتهيب ، فيقول : « يقوم مذهب ابن عربي على وحدة الوجود . . . وهـذا الرأي لا يمكن ان يتفق مع الدين الذي يفرق تماماً بين الله والعالم . . . ولا يتفق كذلك مع العقل السليم الذي يأبى ان يجعل الله هو العالم كله حتى ما بهِ من حيوان » (٢٣٣)

ويشرح الاستاذ آراء ابن عربي في الاخلاق ، فيبين مقصوده بالانسان الكامل (٢٠١) ويورد أقواله في النفس (٢٠٨ — ٢٠٩) وهي أقوال الافلاطونيين . ثم يبحث مسألة أصل الاخلاق : هل هي جبلية أو كسبية ؟ وهل هي قائمة على الشريعة ؟ فيعرض أقواله ويناقشها مناقشة دقيقة ، ويلاحظ ان القول بوحدة الوجود « لا يتفق واقامة الاخلاق على أساس وثيق ... فما دام الله الذي اتخذني مظهراً له هو الذي يفعل .. كيف يستقيم أن أكون أنا المسئول ؟ » (٢١٥)

ويذكر رأياً لابن عربي يبدو غريباً إذ يقول : « ان الذي وصل الى درجة المحبة (محبة الله) يباح له أن يتجاوز حدود ما أنزل الله بعد أن لازم زمناً طويلاً حفظها ! وليس بعد هذا خطل وضلال وفوضى في الاخلاق » (٢١٦) . وهذا رأي صادفناه عند بعض مدّعي التصوف في غير ما ملة ، وحجتهم ان المعوّل على الروح فلا خطر ولا أثر لأفعال الجسم ! — ويثير مسألة ما اذا كان الله يحبنا لنا أو لنفسهِ (٢٢٥) . وأخيراً يعود فيؤاخذ ابن عربي بمثل ما آخذ به الغزالي بصدد غاية الاخلاق فيقول : « ان مذهبه كله غايته القصوى السعادة الشخصية التي تكون بالاتحاد بالله . . . ما جدوى هـذه السعادة للامة ان تأتت ؟ اللهمَّ لا شيء إلاَّ لذة عقلية ومتعة روحية يشعر بها من قدر لهُ ان ينعم بها » (٢٣٨) وهل تعد تلك المتعة الروحية شيئاً قليلاً ؟ أليست هي غاية الانسان بما هو انسان ؟ ولا خوف منها على الشؤون الدنيوية في حدودها المعقولة ، أي في حدود الاخلاق التي يعرفها الاستاذ ويدعو اليها

هل نحن بحاجة ، بعدما تقدم ، الى زيادة في القول للدلالة على قيمة الكتاب ومقدار ما وعى من مسائل عديدة دقيقة خطيرة عالجها المؤلف بمقدرة وأسلوب جديرين بالاعجاب ؟ اننا نعد هذا الكتاب حدثاً ملحوظاً في انتاجنا الفلسفي الحاضر . وما التعليقات التي سمحنا لنفسنا بابدائها الاّ أماني نرى الاستاذ قميناً بتحقيقها ، أو مشاركة في النظر نعلم انهُ أول من يرحب بها . وانا لنهنئه بهذا التوفيق ، ونرتقب بفارغ الصبر ما وعدنا به في آخر عبارة له من بحوث مقبلة

« المقتطف » — في باب المراسلة والمناظرة تعقيب على هذا النقد العلمي من المؤلف

عوالم أخرى

كثيرة كأرضنا

يقول الدكتور جورج جامَو أستاذ الطبيعة النظرية في جامعة جورج وشنطن ان العلماء نفذوا من دراسة النجوم في أقصى رحاب الفضاء ودراسة طبيعة الذرَّة ، الى رأي جديد في مبدإ الكون

وأصحاب هذا الرأي الجديد يذهبون الى ان الكون كما نعرفهُ، ولد قبل نحو ثلاثة آلاف مليون سنة . وان الطاقة التي تولدت منها مادة الكون كانت محشودة في ذرَّات مشعة ، عند ما كانت النجوم ، المتفرقة الآن ، مزدحمةً في نطاقٍ ضيق لا تمييز بينها ، فكأنها جزيئات مادة مفرقعة في قنبلة ، فلما انفجرت القنبلة ، انتثرت الجزيئات ، أي تفرقت النجوم

واذا قيس عمر الأرض بعمر الانسان على سطحها كانت الأرض قديمةً بالغة القدم . وكان الرأي قبلاً انهُ اذا قيس عمرها بعمر الكون ، كانت الأرض حديثة التكوين . ولكن أصحاب الرأي الجديد يذهبون الى أن قِدمها و قِدم الكون نفسهِ من مرتبة واحدة

ما عمرُ الارض ؟ إنَّ البحث الدقيق في الصخور المشعة أفضى الى القول بأن عمر الأرض نحو ٢٥٠٠ مليون سنة . وطريقة البحث كما يلي : — ان عنصر الراديوم يفقد طاقتهُ فقداً بطيئاً فهو ينحلُّ رويداً رويداً فاذا مضى عليهِ ١٦٠٠ سنة أصبحت طاقتهُ في نهايتها نصفَ ما كانت في بدئها

والسبب في فقد هذه الطاقة معروف . ذلك بأن الراديوم يتحوَّل الى شيء ليس راديوماً فلندعهُ بنفاية الراديوم . فاذا أخذت قدراً من الراديوم الصافي تحوَّل نصفهُ في أثناء ١٦٠٠ سنة من راديوم صافٍ الى نفاية الراديوم . واذن فطاقة الراديوم قد نقصت نصفها لأن قدر الراديوم الصافي نقص نِصفهُ

فاذا أعطينا مزيجاً من الراديوم ونفايته ، كان في الوسع ان نعلم مدى تحوُّل الراديوم حتى أصبح فيهِ هذا القدر من النفاية . فاذا كانت النفاية نصف قدر المزيج — أي أن قدرها مساوٍ لقدر الراديوم — عرفنا ان ١٦٠٠ سنة قد انقضت على انحلال الراديوم . فاذا كانت النفاية ثلاثة ارباعهِ علمنا ان عمل الانحلال مضى عليهِ ٣٢٠٠ سنة وهكذا

وما يعلم عن الراديوم من هذه الناحية يعلم عن العناصر المشعة المختلفة . فقد حدّد العلماءُ مدى انحلالها وتحوّلها من شكل الى آخر . فعنصر الثوريوم يستغرق ١٦٥٠٠ مليون سنة حتى يتحوّل نصفهُ الى نفاية . وعنصر الاورانيوم يستغرق ٤٥٠٠ مليون سنة

وفي قشرة الارض يعثر الجولوجيون على قدر من الاورانيوم ونفايتهِ في صخر من الصخور . وقد ثبت ان مقدار النفاية كان في كل ما وجدوه أقلّ من مقدار الاورانيوم نفسهِ — اي انهُ لم يمض على الاورانيوم ٤٥٠٠ مليون سنة وهي المدة التي يستغرقها لتحول نصفهِ الى نفاية

وبتحليل الصخور التي عثر فيها على الاورانيوم والثوريوم وجد العلماءُ ان عمرها اي (الصخور) هو نحو ١٥٠٠ مليون سنة . فاذا أضفنا المدة التي استغرقتها هذه الصخور قبلما تجمدت أمكن الحصول على عمر الارض . وقد قال اللورد رذرفورد إنهُ لا يمكن ان يزيد على ٣٤٠٠ مليون سنة . ثم اذا بحثنا في الشهب والنيازك وجدناها تؤيد ما تقدم . ففي بعض الاحيان يعجز الهواءُ عن حرق نيزك من النيازك فيسقط الى الارض جلموداً يحدث في سطحها غوراً كبيراً . وقد وُجد ان هذا الرجم الساقط يحتوي غالباً على عنصر الثوريوم او الاورانيوم كلٍّ مع نفايته . ومقدار هذه النفاية يمكننا من حساب الزمن منذ ما تحجَّر الرّجم . هذا الزمن لا يمكن حسابهُ بدقة عظيمة ولكن ليس بين الحجارة التي امتحنت ما زاد عمره على ٢٩٠٠ مليون سنة منذ تحجره . ومعظمها من رتبة عمر صخور الارض اي نحو ١٥٠٠ مليون سنة فنستطيع ان نقول بوجه عام ان طول الزمن الذي انقضى على تجمد السيارات وغيرها من اجزاء النظام الشمسي لا يمكن ان يزيد عن نحو ٣٠٠٠ مليون سنة

***

هل النجوم أقدم من الارض ؟ وهل انفصال الكتل التي تألفت منها السيَّارات ، عن الشمس ، لم يتمّ الاَّ في مرحلة متأخرة من النشوء الكوني ؟ وهل تمَّ هذا الفعل مصادفة باقتراب شمسٍ من شمسنا فأحدثت فيها مدًّا عظيماً تحوَّلت مادتهُ الى عطارد والزهرة والارض والمريخ والمشتري وما يليها وما يتبعها ؟

كان الرأي الغالب الى عهد قريب ان الاجابة عن هذه المسائل الثلاث بالايجاب . ولعلّهُ لايزال الرأي الغالب. وقد لخص العلامة جينز هذا الرأي في كتبهِ وفصوله في مجلتي «نايتشر» و «سينس» فقال ما ملخصهُ : ان احتمال تألُّب عوامل مختلفة لاحداث نظامٍ شمسيٍ كهذا النظام بعيدٌ جدًّا . فعلماءُ الفلك المحدثون يرون ان كتلة الشمس الأصلية الغازية كانت آخذة في التقلص لإسراع دورانها حتى أصبحت تميل الى الانشطار . والكتلة الغازية التي تدور

دوراناً سريعاً تميل الى الانشطار، لا الى تكوين مجموعة قوامها كتلة مركزية كالشمس وتوابع حولها كالسيارات . وهذا الرأي أثبتهُ جينز بالتجربة في معامل الطبيعة . وبينما كانت الشمس في هذه الحالة اتفق مرور شمس كبيرة قربها — أي في حدود فلك السيار بلوطو — وكانت سرعتها متوسطة فسبقت شمسنا او شمسنا سبقتها . فأحدث جذبها مدًّا في كتلة شمسنا وما زال هذا المدّ يرتفع حتى بلغ درجة ، انتثر عندها مجاريَ من المادة اللطيفة ، وما لبثت هذه المجاري حتى تقلصت وأصبحت سيارات . ومضت الشمس الأخرى في طريقها . ونظام السيارات في مجموعتنا الشمسية ليس الاَّ أثراً من آثارها

وتألب هذه الحوادث غير محتمل حتى في حياة النجوم الطويلة . فان توزع النجوم في الفضاء شبيهٌ بعشرين كرةً من كرات «التنس» موزعة في فضاء كروي قطرهُ ثمانية آلاف ميل. واقتراب الشمس المذكورة من شمسنا هو في منزلة اقتراب احدى هذه الكرات من الأخرى حتى تصير على بضعة امتارٍ منها . ويرى ادنغتن ان احتمال وقوع اقتراب كهذا كنسبة واحدٍ الى مائة مليون . فبحسب هذا الرأي تكون النجوم أقدم كثيراً من الارض ، وتولّد الأرض وسائر السيارات على النمط السابق ليس أمراً مألوفاً في الكون .

ولكن الدكتور جامو يقول (في مجلة خلاصة العلم ، مايو ١٩٤٢) ان أصحاب الرأي الجديد يجيبون عنها بالنفي ؟ فهو يقول ان بحث مسائل الطاقة الشمسية بحثاً دقيقاً يحمل على القول بأنهُ لا يحتمل أن يكون عمر الشمس أكثر من ثلاثة الاف مليون سنة ، فكأنها وُلدت هي والأرض في عصر واحدٍ تقريباً . وخلاصة هذا الرأي أنَّ الحقائق المعروفة عن عمر الأرض وعمر الشمس تشير الى أن كيانهما كما نعرفهُ الآن، لا يرجع الى أكثر من ألفي مليون الى ثلاثة آلاف مليون سنة . وان صورة الكون قبل ذلك كانت تختلف تماما عن صورتهِ الآن

ولكن اذا كانت الشمس والأرض توأمين كونيين أفلا يجوز أن تكون أجرام أخرى في الكون أقدم من احداهما. هذا سؤال معقول ، ولكن الغريب ان الاجابة عنهُ بالنفي كذلك

فالبحث الفلكي الحديث يشير الى أن الكون مردُّهُ أصلاً الى كتلة محشوكة انفجرت قبل ألفي مليون الى ثلاثة آلاف مليون سنة وأخذت أجزاؤها تتفرق . وقد بين الفلكي الأميركي « أدون هبل » ان المجرات البعيدة ، مغذّة في الابتعاد عنا وإحداها عن الأخرى بسرعة عظيمة (١) وقد قاس هذه السرعات

واستناداً الى بحوث هبل لم يعسر على علماء الفلك الطبيعي تعيين الزمن الذي كانت فيه

(١) آفاق العلم الحديث (المجرات) صفحة ٢٥ — ٣١

اجزاء الكون محتشدة في نطاق ضيق — نسبيًّا — فلا تُميَّز بعضها عن بعض . وهذا الزمن هو قبل ثلاثة آلاف مليون سنة

ومعنى هذا ، أن عمر الأرض من رتبة عمر الشمس ، وأن عمرها من رتبة عمر الكون كما نعرفه

أي ان الأرض انفصلت عن الشمس في الأيام الأولى من ولادة الكون كما نعرفهُ الآن ، أي في الزمن الذي انفصلت فيه الشمس من قطع الهيولى الكبيرة المنتشرة في الفضاء .

أي أنهُ جاءت فترة في مستهل خليقة الكون — كما نعرفه الآن — كانت فيها كتل الكون والشموس المتولدة منها ، مندفعة في كل جهة ، فكانت الشموس تصطدم بعضها ببعض لأن النطاق الذي كانت تتحرك فيه كان ضيقاً ، قبل اتساعه بابتعادها بعضها عن بعض . والمرجح ان الاصطدام بين الشموس كان كثير الوقوع

وقد تقدم ان علماء الفلك الحديث يذهبون الى أن ولادة النظام الشمسي نشأ عن اقتراب شمس من شمسنا فأحدثت مدًّا كبيراً في سطح كتلتها بفعل التجاذب وما لبث هذا المدُّ حتى انفصل ، ثم تقلص وتكونت منه السيارات . ثم انهم يذهبون الى ان بُعد الشموس بعضها عن بعض ، يجعل احتمال اصطدام واحدة منها بأخرى بعيداً جدًّا ولا يزيد على مرة في مائتي الف مليون مليون سنة [1] . وهذه الحقيقة هي التي حملت علماء الفلك على القول بأن احتمال وجود مجموعات أخرى من السيارات كمجموعتنا بعيد

ويقيمون دليلاً على ما تقدم بأن ما رُصد من النجوم يشير الى ان النجوم المزدوجة في رحاب الكون اكثر من النجوم التي حولها مجموعة من السيارات [2] . اما الآن ، فالتفسير الجديد ، يجعل احتمال تولد مجموعات من السيارات من شموس كثيرة احتمالاً غير بعيد . لأن الاصطدام بين الشموس — وهو الذي يحدث المد فتتولد السيارات منهُ — كان كثير الوقوع عندما كانت الشموس في نطاق ضيق . ويؤيد هذا ان عمر الأرض وعمر الشمس وعمر الكون كما نعرفهُ من رتبة واحدة ، أي نحو ثلاثة آلاف مليون سنة

فبحسب هذا الرأي ، يجب ان يكون في رحاب الفضاء وحول طائفة كبيرة من النجوم عوالم كثيرة كأرضنا وسائر السيارات التابعة للنظام الشمسي

---

(١) كتاب : درب التبان The Milky Way تأليف الاستاذين بارت وبرسيلا بوك جامعة هارفرد

(٢) فتوحات العلم الحديث (مقام الانسان في الكون) صفحة ٨٦ — ٨٧

المدخل

الى علم الحيوان

للاب أنستاس ماري الكرملي

١ — ﴿ تصدير ﴾ لما أخذ علماء اللغة بتدوين الالفاظ العربية ، كانت غايتهم تفسير ما ورد في الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وما غمض من كلم الاقدمين في شعر الجاهلية ، وأما ما عدا ذلك فكان يُهْمَل ، ويشار اليه اشارةً خاطفةً كقولهم : نبات ، حيوان ، طائر ، سمكة ، هامَّة ، أو نظائر هذه الالفاظ التي لا تنفع ولا تضر

ثم لما ازداد العمران ، وتبحّر الناس في الحضارة ، أرادوا أن يتحققوا بعض الامور ، لتفهُّم ما يقوم عليها من الخير والضير ، والجَذْب والدفع ، كقولهم : نبات ينفع لكذا ، أو لطرد المرض الفلاني . — وهذا حيوان ، سامّ ، أو مؤذٍ ، أو ما شابه هذه الاشارات المفيدة بعض الفائدة ، أو كل الفائدة ، حتى كان عصر الرشيد والمأمون ، فاذا بالناطقين بالضاد يحاولون اللحاق بأبناءِ يونان ، ليقفوا على أسرار الطبيعة ، وما في زواياها من الخبايا ، واذا بهم سبقوهم في أمورٍ لا تحصى ، فكان لهم القِدح المعلى والسهم الاوفى

بقي ثمَّ أمر لم يقدروه كل التقدير ، هو علم الحيوان ، فان السلف لم يدقّقوا النظر في ما كتبوهُ ، ولا في ما دوّنوه ، إذ أهملوه بعض الاهمال ، ولما انتبه نفرٌ منا الى دراسته نسوا أموراً شتى ، كان عليهم أن يعرفوها معرفة تامةً ، حتى لا يخبطوا فيها خبطَ عشواء ، وهو مما يؤسف له . وكنا قد نشرنا ، قبل نحو أكثر من ستّين سنة ، في إحدى المجلات أو احدى الصحف ، من غير أن نتذكر تذكراً جليًّا ، ملاحظات تفيد من يعنى بدرس علم الحيوان عند العرب . وقد سُرقت منا جميع الكتب والمجلات والجرائد التي كانت في خزانتنا ، وذلك في الحرب العظمى الأولى ، فلم يبق منها ورقة في ٧ أذار (مارس) ١٩١٧ . وقد وقفَ عليها في وقتها كثيرون ، فاستفاد منها جماعة . وأما أغلب الناس ، فلم ينتفعوا بها البتَّة . وهانحن أولاءِ ندوّن الآن ما يحضرنا منها ، لأن الرغبة في إتقان هذا العلم ، اشتدت في معاصرينا ، في هذا العهد ومن ثمَّ ، فان أرادوا أن يأمنوا العثار ، فعليهم أن يسلكوا الجدد ، وهم

لا يوفقون لهُ إلاَّ بعد معرفة ما يوصلهم اليه، ولا يوصلهم اليهِ إلاَّ الوقوف على هذه الملاحظات التي هي نتاج دروس سنين عديدة

٢ — ﴿ الملاحظة الاولى معنى الذكر والانثى ﴾ ان قول اللغويين : هـذا الحيوان هو الضخم ، أو الكبير من الحيوان الفلانيّ ، وهذا الحيوان هو الصغير من الحيوان الفلاني ، وهذا ذَكَرُ الحيوان الفلاني ، وهذه أنثى الحيوان الفلاني ، لا يراد بالضخامة والكبر والعظم ما تفيده كل لفظة من هذه الالفاظ ، ولا الذكورة ولا الانوثة ، نعم قد يكون ذلك بمعناها المألوف وقد يراد بها أيضاً ضرب من الحيوان فيه شبه من الحيوان الآخر. فقد ورد (الذكر) بمعنى الضخم لا غير ، وان كان أنثى ، وقد وردت (الأنثى) بمعنى الصغير من الحيوان وان كان ذكراً ، لكن كل ذلك ليس من المستعمل في كل حين ولا في كل عبارة ، انما قد يرد هذا الاستعمال بعض الاحيان فيجب أن ينتبه لهُ القارىء

و (الذكر) في علم النبات معناهُ الصلب منهُ . فقد قالوا مثلاً : الجُمَّيْز : التين الذكر ، مع ان الواحد غير الآخر ، وان كانا من فصيلةٍ واحدةٍ ، إذ لكل منهما ثمر خاصّ بهِ ، لكن خشب الجمَّيز أصلب ، وأقوى ، وأبقى من خشب التين ، ولهذا قيل انهُ التين الذكر — وقالوا الأرْزُ : ذكر الصنوبر ، مع انهما شجران يختلف أحدُهما عن أخيهِ ويختلف ثمر الواحد عن ثمر الآخر ، انما الذي دفعهم الى القول بالذكورة هو صلابته لا غير ، لا بل رأوا الذكورة والانوثة في الحديد ، وسائر المعادن فاذا كان الحديد صُلباً سمَّوه (ذكراً) وإلاَّ فهو (أنيث) في نظرهم . ويقال : (ذكور البقول) ما غلظ منها وكان ضارباً الى المرارة ، لكنهم لا يقولون اناث البقول ، بل (أحْرَارها) : وهي ما كان بعكسها

والعجب كل العجب : انهم ظنوا ذكراً ما هو أنثى ، وظنوا أنثى ما هو ذكر . وأبناء الغرب لم يَهموا هـذا الوهم . فقد قال السلف إن اليعسوب أمير النحل ، وذكرها ، والرئيس الكبير لها ، كالعسوب ، مع ان ليس للنحل أمير ، بل أميرة ، لكنها لما كانت ضخمة ، والضخم عندهم يسمَّى (ذكراً) ، قالوا : هو أمير النحل . واليوم يظنّ العوام في جميع البلاد العربية اللسان : ان ذا الحُمَةِ من الزنابير هو الذكر . مع ان الحقيقة ان الانثى هي ذات الحمةِ . وليس للذكر حمة [1] أي إبرة

و (الذكر) من الطيب : ما لا يلوّن الثياب عند استعمالهِ ، مثل المسك ، والعود ، والعنبر ، والكافور ، والروائح الطيبة الافرنجية العصرية ، التي لا تلوّن الثياب. وأما المؤنَّث

(١) يسمى الزنبور الذي لا حُمة له أي الذكر : زمعاً وزان سكر . وصبيان العراق يعلقون بكراعه أو برجله خيطاً ويلعبون به ، لانهم يأنسون بتزميعه أي بدندنته ، وما أكثر الذين يسمون بذوات الابر لجهلهم اياها في الظاهر

من الطيب فهو الذي يلوّن الثياب كالخلوق : والزعفران وكل ما يُبْـقي فيها أثراً لِلوْنِه (٢)

٣ — ﴿ الملاحظة الثانية :. لفظة واحدة لعدة حيوانات ﴾ قد تأتي الكلمة الواحدة دالة على عـدة حيوانات ، فلا يحسن بالاديب ان يحصر معناها بحيوان دون حيوان آخر ، فهذا سوء تصرف في اللغة ، وتحـكم فيها ، والـكل يقضون عليك بأنك تتعدى حدود الحقوق وتجحف بها ، لأن هذا الاختلاف في المعنى ناشىء من اختلاف القبائل ، ولغاتها ، أو من اختلاف الربوع التي نزلوها ، فقد تعني الكلمة الفلانية كذا ولا تعني هذا المعنى في البلد الآخر

(فالمرجان) مثلاً يعني في العراق كله ، وخليج فارس ، هذه الهنوات او الخرزات الحمر التي تنبت في البحر ، ويسميها بعضهم (البُـسَّـذ) (٣) . وكان معناها عند الأقدمين ، صغار اللؤلؤ أو اللؤلؤ عامة : وهي شديدة البياض ، وليس فيها أثر للحمرة ، وقد نقلها الازهري في تهذيبه بهذا المعنى ، وابو منصور امام أئمة اللغويين ، وهي بهذا المعنى تعريب اليونانية margfarites. واما (المرجان) عند المصريين فمعناه ضرب من السمك يكثر في بحر الروم، وهو بهذا المعنى تعريب اليونانية pagros ببعض قلب وابدال ، كما لا يخفى

فهل يجوز ان يقال بعد هذا : لا يعني (المرجان) إلاّ البُـسَّـذ ، أو (المرجان) هو اللؤلؤ لا البُـسَّـذ ، ولا ضرب من السمك ، أو (المرجان) ضرب من السمك لا غير ، فهذه كلها جنايات على اللغة وعلى المتكلمين بها ، وعلى اهل البلاد المختلفة . زد على ذلك ان تحكمهُ هذا لا يغير امراً من الناطقين بها ولا شيئاً من معانيها

والعربية كثيرة الالفاظ الدالّ واحدها على حيوانات مختلفة. ونحن نذكر بعض الامثلة منها:

(المُـعيل) الاسد ، والنمر ، والذئب ، لانهُ يعيل صيداً اي يلتمس

(العيلم) : (بالعين المهملة) الضفدع، والضبع الذكر. (الغيلم) : (بالغين المعجمة) الضفدع والسلحفاة الذكر . (العلجوم) : الضفدع الذكر ، والقرّاد ، والظبي الآدم ، والظليم والكبش ، والوعل ، والثور المسنّ ، والبطّـة الذكر ، وطائر أبيض ، والشديد من الابل ، أو خيارها

(الهجرس) القرد ، والثعلب ، او ولده ، واللئيم ، والدب ، وكل ما يعسعسُ بالليل مما كان دون الثعلب وفوق اليربوع (وهذا الاخير يدل على حيوانات كثيرة)

(الفرافر) : ولد النعجة والماعزة ، والبقرة الوحشية ، أو هي الخرفان والحـلان ، والذي يكسر كل شيء ، والغلام الشابّ والرجل الاخرف ، والفرس الذي يفرفرُ اللجام في فيهِ ، والأسد الذي يفرفر قرنهُ . والشواهد من هذا القبيل لا تكاد تحصى لكثرتها

﴿ ٤ — الملاحظة الثالثة : اقتباس العرب الفاظاً من الاعاجم ﴾ قد يستعير العرب الفاظاً من الاعاجم بمعناها ومبناها معاً ، وقد يستعيرونها بمبناها دون معناها ، وقد يستعيرونها بمعناها دون مبناها ، وقد يستعيرونها للغتهم ويتصرفون فيها كل التصرف ، من زيادة وحذف ، من قلب وابدال ، من تصحيف وتحريف ، حتى ليتعذَّر على الباحث معرفة الاصل المأخوذة منهُ ، وعندنا على اثبات ذلك من الشواهد ما يقع في مجلد ضخم ، ولا بد لنا من ذكر شاهد واحد على كل ما أشرنا اليه . فمثال الاول الفَنَك والقاقم والجندبادستر — ومثال الثاني: المَهاي والزرجون والجريال — ومثال الثالث : الفاعوسة (بمعنى النار) والأنيسة (بمعنى النار) والفاق (بمعنى الزيت المطبوخ) — ومثال الرابع : السِدِلّى والشُفَارج والنشا والأدرة والقَبِلة والبِرِشْت والسوار ، — ومئات من الالفاظ لا تحصى ولا تحصر

﴿ ٥ — الملاحظة الرابعة : قد يُعرَّب لفظ مع وجود ألفاظ مترادفة له ﴾ قد يعرب لفظ مع وجود ألفاظ مترادفات له من دخيلة ، ومعربة وعربية . فالعرب عرفت البلَح ومن اسمائه عندهم البُلتُ ، والمكافة ، والسَّتل ، وكاسر العظام ، ومع ذلك قالوا : الهُمَا والهُمَاي والهمايون والفينة ، والثلاثة الاولى من الفارسية والرابعة من اليونانية — وقالوا الهزار وعندهم العندليب ، والعنداليل ، والمُزْقة ، والمسهر ، وابو هرون . — وقالوا : الخشقاءَ وقد ذكرها الثعالبي في كتابه اللطائف ، مع ان السلف كانوا قد سبقوه الى اتخاذ اليَغْر ، بياء مثناة تحتية مفتوحة يليها غين معجمة ساكنة فراء . وصحفوها (يعر) و(يعروا) و (يغروا)[٤] ولم يكتفوا بذلك . فتفننوا في تصحيفها فقالوا : خَشْقاو ، وخشفاء ، وخشفاو ، وقطاس ، وقطاش ، وقوتاس ، وقوتاش ، وقوطاس وقوطاش ، الى ما لا يحصى ذكره . وقالوا فيه ايضاً ثَورْ الغُزّ ، وجاموس الغُزّ . فيجب طَرْح المصحَّف ونبذه نبذ النواة ، وحفظ غير المصحَّف ، اي حفظ الرواية الصحيحة ، وان كثرت المترادِفات ، أي انهُ يؤخذ يَغْر وخشقاءَ وقُطاس ويهمل ما بقي من تلك المصحفات . لأن ما صحَّ من الكلام كنبتة ، ولغات أهالي بعض البلاد والقبائل يختلف بعضها عن بعض ، ويجب ان تراعى حقوقهم . اما سبب كثرة المعرَّب ، فلأنَّ

(٤) جاء في احد المعاجم الافرنجية العربية في علم الحيوان ان (اليغر) أو (اليعر) الواردة في الدميري ما هي إلا تصحيف (شغر) وهي كلمة فارسية بمعنى الزبزب أو الغريرة ، و زاد صاحبه على ذلك قائلا : « أو من خطاءِ الناسخ الاول الذي أخذ عن الدميري » اه — ثم نقله آخر مع هذا الوهم نفسه في الكلمة الانكليزية Badger . وليس هناك وهم . ولقد نشرنا مقالة في مجلة (المقتطف) التي تصدر في مصر (١٠٠ : ٢٤٥) ان اليغر (بالغين المعجمة) وصحفت (بالعين المهملة) هو الحيوان المسمى ياك وهو القوطاش والقوتاس والقوطاش والخشقاء وكلها من تحقيقاتنا ولم يسبقنا اليها أحد : وقد جاءت اليغر مصحفة في كتاب المؤانسة والامتاع (١ : ١٤٤) بصورة (يعروا) وهي لم ترد في كتاب عربي

الواحد منهم يجهل ما وضعهُ من تقدمه ، او يجهل الفاظ الناطقين بالضاد . أو أنه غير واقف على ما عرفه الأسبقون في الموضوع الذي يعالجه ، الى غير ذلك من الأسباب التي قد تخفى علينا الآن ، لأننا أصبحنا في بيئة غير بيئة من جاء قبلنا

٦ — ﴿ الملاحظة الخامسة : يجب ان يكون تأويل المعرّب مجرداً من الهوى ﴾ كثيراً ما يسوق الهوى صاحبه سوقاً بلا هدًى ، فلا تكن من أهل الغرض ، لئلاّ تعمى وتصم . فقد ذكر لي أحد محبي الفرس ان الجِريال فارسية ، مركبة من كلمتين ، من (جر) وأصلها (زر) أي ذهب . و(آل) أي لون . فيكون معناهـا ما كان لونه لون الذهب . ولهذا شرحها العرب بقولهم : « الجريال بالـكسر : صبغ أحمر ، وحمرة الذهب ، وسُلافة العُصْفر وما خَلُصَ من لون أحمر وغيره ، والخَمْرُ أو لونها ، كالجريالةِ فيهما (القاموس) — على ان الجريال من أصل يوناني هو korallion وهو المرجان ، أو البسَّذ ، فيكون معناه : كل ذي لون أحمر كالمرجان ، فيصح على الجامد والسائل

أما المأخوذ من الفارسيـة وهو بهذا المعنى أو يكاد ، فهو الزَرَجُـون فقد جاء في القاموس شرحاً لهـا : « الزرجون : محركة : الخمر ، والكرم ، أو قضبانها ، وصبغ احمر » والكلمة منحوتة من (زر) الفارسية بمعنى ذهب . و(گـون) أي لون . فيكون معناها ما كان لونه لون الذهب ، فيصدق على الخمر والصبغ الأحمر

٧ — ﴿ الملاحظة السادسة : قد يبين أصل الكلمة فروق الحيوان ﴾ يظن بعضهم ان لا فائدة من درس أصل الألفاظ الدالة على الحيوان . وهذا وهمٌ كبير ، لأن درس أصل الكلم يهدينا الى ان هذه المترادفات هي غير مترادفة في الحقيقة فالشفنين ، والترغل ، والترتور والقمري ، والنواح ، والفاختة ، وساق حرّ ، والصُلْصُل ، والأنن ، هي كلها حمام ، الاّ ان الواحدة ، تختلف عن اختها ، بالنظر الى الأصل المأخوذة منهُ

(فالشفنين) كلمة مصرية الأصل من (شفن) وقد وجدت مكتوبة بجانب صورة الشفنين) الذي معناه اليمام ، أو لنوع منه صغير الحجم ، وكثيراً ما يقيم فوق النخل في ديار النيل ، والشُفْنين بضم الشين ، وكذا يلفظه أهل بغداد . وكذا ضبطه صاحب التاج في مستدرك شفن ، فهو بخلاف ما جاء في بعض الكتب كمحيط المحيط ومن نقل عنه . فقد ضبطت فيها بالكسر وهو غلط . قال ابن البيطار هو المسمى باليونانية trugôn, onos

و (الترغل) بضم التاء واسكان الراء وضم الغين وشد اللام ، ويقال (الدرغل) بالدال في مكان التاء ، (والطُرْغُلّ) ايضاً أي بطاء في الأول و (الأُطْرُغُلّ) أي بضم الهمزة واسكان الطاء ، وضم الراء والغين ، وفي الآخر لام مشدّدة ، ولم يذكر منها القاموس والتاج

الا" الأخيرة فقالا : « بعد الضبط المذكور الاطرغلات : الدباسي والقهاري والصلاصل ذوات الأطواق. قال الأزهري : ولا أدري أمعرّب أم عربي» اه . قلنا هي تعريب اليونانية trugôn التي مرّ ذكرها . وكان يجب ان تختم بالنون فختمت باللام ومثل هذا الابدال كثير في المعرّب

و(الترتور) كلة لاتينية تعريب turtur ومعناها الفاختة ، او النوّاح

وأما (القمري) فمنسوب الى جزيرة من جزر القمر ، والواحدة قمرية . قال ذلك شيخ الربوة في ص ١٦١ من كتابه نخبة الدهر ، وهذه عبارته معدداً جزر القمر : « وقمرية ، واليها ينسب الطير القُمْريّ ، وهو نوع من الحمام »

قلنا : والقمري يمتاز عن سائر المطوّقات بأنهُ يهدر ليل نهار بخلاف سائر الانواع جميعها (والنوّاح) كشدّاد هي الكلمة العربية الصحيحة الوضع ، فهو ينوح ويطرب لغناء نفسهِ على ما قالوا ومن اسمائهِ العربية الوضع : (ساق حُرّ) قال ابو حاتم في كتاب الطير، عقيب ذكر القمريّ : إنهُ يضحك كما يضحك الإِنسان وساق حرّ كالقمريّ يضحك ايضاً ، وسمي بصياحهِ « ساق حرّ » (عن تاج العروس) وقال في المخصص (٨ : ١٥٣) : « لا تأنيث له ولا جمع » — ونزيد على ما تقدم ان الذي يضحك هو الانثى ، ولهذا سمي بلسان العلماء turturis oruis اي الترتور الضُحَكة لكثرة قهقهتهِ وضحكه والترتور يقع عندهم على المذكر والمؤنث . إذن ليس كل ترتور ، أو لا كل فاختة تسمى بلسان العلم «الترتور الضحكة» بل القمري فقط ، دون سائر المطوقات . فليحفظ وليقيّد

والفاختة عندنا من اليونانية الاتيكية phatta بهذا المعنى عينه . وقد أقام اليونان السلوقيون في العراق مدة ١١٧ سنة وأبقوا شيئاً من علومهم ، وآدابهم ، ولغتهم . وهذه الكلمة ترى في العراق منذ عصر اليونانيين المذكورين الى يومنا هذا، فهي اذن من أقدم الألفاظ في هذه الديار ، وهي خاصة بالعراق ، ومعروفة فيهِ ، دون سائر البلاد العربية اللسان

ومن أسماء الفاختة : (الصُلصُل) وهي تعريب تُرْتُر turtur اللاتينية ، فعربت بصورتين ، صورة اصلية ، وهي (تُرْتور) وصورة على لثغة جعل التاء صاداً اي (صُلصُل) قال في المزهر (١ : ٢٧٠) (طبع بولاق) : جعل الصاد تاءً لثغة عند العرب ، من ذلك : انحصّ ورق الشجر وانحتّ إذا تناثر وعلى ذلك نقل الغربيون كلة صور الى تور Tyr من مدن فنيقية القديمة

ومن انواع الحمام : الانن بهمزة مضمومة ، فنونين والاولى منهما مفتوحة. وهو كالحمام إلا انهُ أسود، لهطوق كطَوْق الدُبْسيّ ، احمر الرجلين والمنقار . صوته أنين : اوه : اوه . (تاج العروس) وللمطوّقات أسماء أخر ، فاكتفينا بالاشارة الى اشهرها في الكتب . خوفاً من احداث الملل في النفوس .

« للبحث تتمة »

من الادب البرتغالي

الدمعة

في صباح يوم من أيام الربيع الدافئة ، ذرفت مقلة الفجر دمعة صافية ، أصابت ورقة تينة يابسة على جانب طريق موحش في سبسب مقفر . دمعة نقية متلألئة تظهر للقريب ماسة براقة وللبعيد نجمة لماعة

مرَّ بها ملك يحف بهِ الجند والاتباع ، فقال وقد راقه منها ذلك الاشعاع ، إن في تاجي من الجواهر ما لا يثمن ، وفيهِ من لآلىء الشرق الساحرة ما يزري بدموع غوان صهرها الحب الدفين . ولـكنني أتخلى عنها كلها مسروراً لو يتاح لي ان أعتاض منها بهذه الدرة اليتيمة لأجعلها شعاراً لملـكي العظيم ومجدي الأثيل

سمعت الدمعة السماوية ما قال الملك وظلت شامخة ولم تحفل بتاجهِ ودرره .

ومرَّ بها صليبي مدجج بسلاحه وعلى جسمهِ درع ذهبية الزرد فقال وحق الصليب المقدس لايليق بدرة كهذه إلاَّ مقبض حسامي فأسير بها في ساحات الجهاد ومن نصر الى نصر حبًّا بفادي الأنام ومتى رجعت أجعلها قلادة في عنق حبيبتي فتكون عوذتي في جهاد الحروب ونصيري في امتلاك القلوب

سمعت الدمعة السماوية ما قال الصليبي وظلت صامتة يعنيها الرجاء ولم تعبأ بوعوده وعظمتهِ . ومرَّ بها شيخ بقافلة يحمل ما خف وغلا من الـكنوز فصاح يا لاسرائيل ما كنت أحسد ملـكاً على ما حشد من أموال ولا بحراً على ما حوى من لآلىء ، ولـكنني تجاه هذه الدرة الفريدة أرى يدي الشحيحتين تجودان ولا أسف بكل ما أملك من كنوز وتحف

—سمعت الدمعة السماوية ما قال اليهودي ولم تأبه لـكنوزه وتحفه ، وكانت تحت التينة عوسجة صغيرة ذاوية تشرئب مدلة بحقها من رحمة الله فقالت تعالي أيتها الدمعة السماوية روي جفاف تربتي بحق الاله فكلما ضرعت اليهِ تزيدني شمسه جفافاً وانا بين الصخور لم أسمع زقزقة العصافير ولا لامست نعومـة الاعشاش اغصاني ، اذ لا غصن لي يجثم عليهِ العندليب ولا ظلّ لي يؤمه بحبيبهِ الحبيب ، فأغيثيني أيتها القطرة السحرية ان لي بك غنى عن كل مال

سمعت الدمعة السماوية ما قالت العوسجة فاختلجت وسقطت منعمة صامتة

وبعد قليل من الزمن رأى الناس معجبين ان الحيـاة قد عادت إلى تلك العوسجة الذاوية فأورقت وأزهرت زهوراً كجراح المصلوب وجاء النحل يمتص الشهد منها كما يجنيه من أزهى الورود

« نقلها الياس زعرور : في مجلة العصبة »

فضائل الصلاة

الصحية

للدكتور شوكت موفّق الشطي

— ٢ —

ج — نظافة الأذن والوضوء : من المعلوم ان الجلد في صماخ مجرى الأذن يفرز بعض مواد دسمة صفر اللون هي الأف او الصملاخ (وسخ الأذن) وتشبه وظيفة هذه المادة وظيفة المخاط في الانف من ضبط الغبار والجراثيم التي تدخل بالهواء فتنظفه غير انهُ ان أهملت في هذا المجرى تراكمت وكوّنت مع ما يضاف اليها من الاقذار الخارجية سدادة كبيرة قد تسد المجرى كله وتسبب الصمم لحاملها فلذلك يجب عدم اهمالها . ولا يجوز أيضاً اهمال نظافة الأذن خارجاً ولاسيما الكفاف أي صيوان الاذن لان تلك الإمات[1] والغضون المنتشرة فيه يجتمع في وهادها كثير من غبار الهواء وأقذاره ولاسيما في الزوايا المنخفضة منها وهذا ما يدعو الوضوء الى ملاحظته فتنظيفه

د — نظافة العينين والوضوء : لا جرم ان للعينين في الوجه المقام الأسمى وهما مصونتان بحصون طبيعية قوية كالحجاج والحواجب والأهداب والأجفان وما فيها من الدمع ذلك السائل المطهر الجزيل النفع . وكما ان العين بازوائها بين حصونها هذه ، تكون مصونة من شر كثير من الطوارىء وقد تكون بذلك عرضة لاجتماع كثير من الاقذار حولها بما يتراكم في زواياها من غبار الهواء وبقايا الدمع او بعض مفرزات العين التي تجتمع في الآماق وتكوّن تلك المواد الخاصة المعروفة بالرمش أو العمص وهي مواد لاشك في انها اذا أهملت كانت سبباً في تخريش تلك الناحية وبؤرة للاختمار بتأثير تلك الجراثيم وكميناً لعوامل الرمد المختلفة التي يجلبها الهواء أو بعض الحشرات التي تستطيب ذلك من الأقذار كالذباب وفي ذلك ما فيه من الضرر والقذارة ويكفي في نظافة العينين خارجاً نظافة الوجه اجمالاً بغسله بالماء مع العناية بنظافة تلك الزوايا وهذا ما يتحقق بغسل الوجه في الوضوء

---

(١) الامات جمع امت وهو النتوء القليل

هـ — نظافة الانف والوضوء : قلما تختلف نظافة الأنف عما مرَّ في الأذن لأن وظيفة المخاط في هذا العضو المهم كوظيفة الأف في الأذن أو أعم وأكثر. وترفع هذه المواد بالاستنشاق فالاستنثار او المخط وهذا ما يدعو اليه الوضوء ويتم به

يتضح مما تقدم ان الغسل والوضوء يحققان أقصى درجات النظافة الواجب اتباعها في نظافة الجلد والايدي ونظافة الوجه والفم والأنف والعينين والأذن والقدمين وهذه النظافة أهم الأسس التي قال عنها المعمرون الخبيرون من الأطباء بأنها كانت وسيلة تعميرهم وسبب دوام صحتهم ونشاطهم

و — فوائد الغسل العامة : ما الغسل الذي فرضه الاسلام في احوال كثيرة الا استحمام ووسيلة لنظافة البدن نظافة عامة ويكون بمياه باردة ودافئة وحارة

اولاً — الغسل بالماء البارد : حرارة الماء فيه بين (٥ — ١٥) له فعل منبه عام يخفض الحرارة ويعدّل النبض والتنفس ويزيد في الاحتراقات الرئوية ويظهر أثره بادىء ذي بدء برعشة ثم يبهت الجلد ويقشعر البدن ثم لا يلبث هذا كله أن يتبدل ، فيعود للجلد لونهُ وتقف الرعشة وتزداد سرعة النبض المتباطىء وينشط التنفس . وأسباب ذلك هو ان حرارة الماء المنخفضة عن حرارة البدن تسبب تقبض العروق الشعرية المنتشرة في الجلد عندما تصيبها ، وبسبب تلك الرعشة يندفع ما فيها من الدم وهلة الى الداخل فيكثر العمل على القلب ، فيضطرب لذلك ويدفع ما فيهِ الى الرئة عاجلاً دون تهيؤ لذلك فتضطرب ولا تلبث ان تتأهب له بالسعة والنشاط ، ثم تعود أعمالها وأعمال القلب الى حال طبيعية اذا كان هذان العضوان سليمين ويجدان في العمل ، بحسب الطاقة ، مدة طويلة أو قصيرة ، ويحس الشخص عند الفراغ من الغسل بحرارة عامة فيحمر الجلد ويتسع التنفس ويمتلىء النبض ويزداد نشاط العضلات وقوتها ، كل ذلك من رد الفعل المفيد الذي يحدث أثناء هذا الاستحمام ويستمر فيما بعده . ويمكن تسهيل هذا الارتكاس بدلك الجلد أو بالتحرُّك حركة ما رياضية خفيفة وأحسنها الصلاة او المشي السريع أو ما شابه . ويحسن الاغتسال بالماء البارد للشبان والكهول الأصحاء فيفيدهم قوة ونشاطاً على انهُ يشترط ان لا تكون مدتهُ طويلة أي دقيقتين أو خمس أو عشر دقائق لا أكثر وان يسبق بحركة معتدلة ويعقب بمثلها ولا يجوز الاغتسال بالماء البارد للعصبيين وأصحاب الأمراض القلبية والكاوية والضغط الشرياني والاحتقانات الحشوية مطلقاً والمتهيئين للنزف أو نفث الدم وكذا الشيوخ الاّ من اعتاد ذلك منهم ولا يجوز للاطفال أيضاً

ثانياً — الغسل بالماء الدافىء : حرارة الماء فيه بين ٢٠ — ٣٠ تتقبض فيهِ العروق أولاً تقبضاً سريعاً ويتلوه اتساع في العروق يمدد الدم ويخفض الضغط وينقص من عدد كريات

الدم البيض والحمر ويخفف من قلويته ويزيد نسبة الفصفات الحامضية فيه فترتفع الحرارة ارتفاعاً لا يدرك إلاّ بأجهزة خاصة وتنقص خطرية Tonicite العضلات وتنشط المبادلات التنفسية وينشط الاغتذاء وتخف الاضطرابات العصبية بهدوء الأعصاب

يوصى الاغتسال بالماء الدافىء للشبان والكهول أصحاب الأمراض القلبية والعصبية والكلوية والمصابين بارتفاع الضغط الشرياني ، وأصحاب الاحتقانات الحشوية والشيوخ والاطفال

ثالثاً — الغسل بالماء الحار : حرارة الماء بين (٣٠ — ٣٥) ينشط الدوران المحيطي بتوسيع العروق وخفض التوتر وهو مفيد كواسطة للنظافة لانهُ يلين البشرة ويسهل زوال اقذارها

يوصى بهِ لمن تدعو صنعته الى كثرة التلوث بالأقذار أو الى القادمين من سفر ويجب ألاّ تطول مدته بحيث لا تزيد عن عشرين دقيقة وألاّ يكرر أكثر من مرة في الاسبوع

ز — فوائد الوضوء العامة : الوضوء غسل موضعي يوصي باستعمال الماء البارد فيهِ ما لم تكن هنالك حالات مرضية تمنع ذلك كالتي بيّناها في فوائد الاغتسال العامة فيرجحهُ حينئذٍ الماء الدافىء . ويفيد الوضوء (وهو غسل الاقسام المكشوفة كما بينا) بالماء البارد فائدة لا تقل عن الفائدة التي ذكرناها في بحث فوائد الاغتسال لا بل هو أشد فائدة صحية لتكرره وخفة الارتكاسات الناجمة عنهُ فيؤدي الوضوء بالماء البارد الى تقبض العروق الشعرية السطحية حتى ان الجلد قد يبيض من ذلك وقد تتقلص العضلات فيندفع الدم الى أرجاء الجسم العميقة ولا يلبث أن يظهر ارتكاس يعيد كل شيء الى حاله الطبيعية . تستفيد من ذلك الجملة الدورانية فائدة عظيمة فيرتفع الضغط الدموي أولاً وتزداد حركة القلب . ومتى وقف التقلص العضلي في المحيط أعقب تقبض العروق تمددها فيعود للجلد لونهُ وللضغط حالته الطبيعية السابقة ويزداد عدد الكريات الحمر وتنشط المبادلات في الجسم وتقوى الحركات التنفسية فيزداد مقدار الاوكسجين الوارد وتكثر كمية حامض الفحم الصادر

ويؤثر غسل الاقسام المكشوفة المعرضة بالوضوء تأثيراً عامًّا فيفرز البول ويكثر معه افراغ السموم وتزداد الشهية الى الطعام وينشط الهضم وتزداد أكثر المفرغات وتتنبه الجملة العصبية وينتج من الارتكاس البادىء بالجلد نشاطاً عامًّا وذلك بتنبه الاعصاب الجلدية والاعصاب المحركة وبانتقال هذا التنبه الى جملتي الاعصاب الودية والرئوية المعدية ومنهما الى جميع الاعضاء والغدد

حديقة المقتطف

رابندرانات تاجور

الفصل الرابع

« الوطنية »



لمحمود المنجوري

تاجور في الحياة والاخلاق

والمدنية والسياسة والمرأة والادب والدين

— ٤ —

لمحمود المنجوري

وللوطنية عند تاجور معنىً روحي سام ، يلتمسه في غير ما يلتمسه القادة والزعماء من هياج وتدمير واحراق ، ولهذا أبى فيلسوفنا الكريم على الزعماء استهواء الجماهير في سبيل الوطن

« ان الذين يبذلون التضحيات في سبيل بلادهم يحق لهم أن يدعوا خدام الوطن ، واما من يكره الغير على التضحية لينال هو المجد فهو الخائن الآثم لوطنه ، لانه يكون قد اختلس حرية مواطنيه ليصعد الى القمة . . . ان الذي يريد تأليه وطنه بالهتاف والهياج انما يحب الهياج أكثر مما يحب وطنه ، ويكبر شهواته وأغراضاً أكبر مما يكبر دواعي الوطن الحقيقية . اننا اذا وضعنا شهواتنا في مكان أرفع من الحقيقة كان ذلك دليلا ثابتاً على عبوديتنا »

ولقد سخر تاجور من زعماء الهند ومثّل بهم في روايته « البيت والعالم » على لسان « سانديب » حين قال :

« لقد خلقت للقيادة ، ولتطيعني الجماهير ، فأقودها كما أقود الجواد من لجامه الى حيث أريد ، ليس التردد ، ولا تأنيب الضمير من خلقي ، ان قاعدتي في الحياة هي : اني اريد ، وان أنال ما أريد ، ان الظلم هو الذي أغنى الشعوب والافراد فاظلموا تفوزوا »

« ان الذين يعرفون ان ينالوا ما يرغبون فيه ، هم الذين خلقوا للزعامة » « ان طريقتي في الحياة تضطرني الى الاعتقاد ان كل ما كان عظيما فهو هائل ظالم ، وان العدالة توافق صغار الاحلام وحدهم ، أما العظماء فقد احتواهم الظلم والقوة وانكار الضمير »

« خلق الانسان كالارض ، محاط مثلها بضباب من أفكاره ، وان حقيقته لمخبوءة فيه — ان خير ما بي من خلق ونزعات قد ولد معي قبل أن أخط نظام حياتي . متى خلا قلب المرء من الظلم أصبح مقضيا عليه بالفشل وتأنيب الضمير »

« لقد امتحنت أتباعي فسألتهم : من منكم يستطيع أن يقطع فخذ هذه العنزة دون أن يقتلها ويأتيني بها . فلما أن سبقتهم الشفقة ، ذهبت بنفسي فقطعت فخذ العنزة بخنجري . ولقد هتفوا لي بأني لا أعرف الضعف الانساني »

ويعارض تاجور زعماء الهند ويتهمهم في وطنيتهم فيقول :

« اني أعرف بلادي على حقيقتها ، ولذلك أرتاب في استخدام قوة الاستهواء في سبيل وطني وأما زعماؤكم أيها الهنود ، فهم الذين يغررون بالشعب استهواء وتدليساً ، ويحسبون انهم يخاصمون

لبلادهم اخلاصهم لخالقهم ، ويعبدون وطنهم كأن الله قد تمثل في هذا الوطن ، ثم يطلبون من الجماهير تقديس أشخاصهم كأن الوطن قد تمثل فيهم ، وكأن الله قد تمثل من وراء هذا الوطن في ذواتهم المقدسة

« ليس من الوطنية أن توضع الغاية فوق النفس ولا أن تكون التضحية في سبيل البلاد دون حساب أو تقدير ، ان الزعماء يريدون أن يفرقوا بين الدين والوطن . ولكن الوطنية الصحيحة أن تكون النفس فوق الغايات ، وأن تكون التضحية في سبيل الوطن تضحية شريفة سامية متصلة بالانسانية لا يهرق فيها دم أو يقتل فيها ضمير أو يغلب عليها الضعف أو يفرق فيها بين الدين والعاطفة والوطن ان الانسانية هي الوطنية في أسمى معانيها »

فتاجور ينظر الى الوطنية نظرة تصوّف وتفكير وسموّ ، ولا أستطيع أن اتهمه كما اتهمه خصومه في وطنهِ بالتردد وانحراف الرأي عن فكرة الوطن المستقيمة .فلقد هاجت أقواله خصومه في السياسة واتهموه بما لا ينبغي أن يذكر من ضعف واستسلام لخصوم بلاده . ولقد عارض في روايته « البيت والعالم » الآراء السائدة في الوطنية وأعلن رأيهُ في الوقت الذي ثارت فيه حركة الوطن الهندي ، وبقي هو بمعزل عن هذه الحركة لا يؤيدها وان كان يؤمن بالحق الوطني الذي أثار فكرة الهنود ودفعهم الى النداء ، ولكنهُ مع ذلك لا يقر وسائل العنف فيقول على لسان « نيكهل » في روايته

« كل فوز يأتي من طريق الضغط فهو فوز عابر يزول بزوال هذا الضغط »

ويعارض الرأي العام الذي يمثلهُ قول الزعيم سانديب

« ان من يريد أن يمتلك يجب عليه ان ينتزع ويغتصب ، وان يكون الفوز إلا على يد زعيم يقود البلاد بانتزاع الخير غاضباً لوطنه غضبة الابطال مقاتلا في سبيله منتقماً له دماً بدم : يجب أن يدعى الوطن الهاً مقدساً تصبغ في سبيله الارض بدماء الضحايا »

ولكن تاجور يقول!

« اني أريد أن أخدم بلادي من غير هـذا الباب ، اني لا أريد الدم والنار والحطب بل أريد الوطن الحي والشجر الناضر المزدهر .. » «اني لا أريد أن استعبد الناس وان كانوا قد اعتادوا الاستعباد حتى صار خلقاً فيهم . اني أريد أن أقاوم هذه المظالم وهذا الاستعباد الذي يقام باسم الوطنية »

وليست فكرة تاجور في الوطنية فكرة أوحتها الخصومة مع الزعماء ، فهو يأبى الخصومة وينكر العداوة ، ولكنها فكرة نشأت من طبيعة فلسفته الانسانية ، لانه يعتقد ان الانسانية خير من الوطنية ، وان الوطنيات مثار الانانية ، ومجلبة الاحقاد والحروب . فالمثل العليا هي التي أملت على تاجور هذا النظر المتسامي فهو يقول

« ليس من الوطنية أن نعامل أوطاننا معاملة أمهاتنا وآبائنا ، فنحبها حباً نحميه ونذود عنه بالعنف والدم ، لان هـذه وسائل تورث البغضاء بين الامم والشعوب . فلن ينزع الخير من الشر ، ولن يؤتي النفع أو الانتقام سعادة للاوطان . وانما تتحقق سعادة الاوطان بمعرفة الحقائق وتقديرها . واني لا أكون وطنيا إلا اذا عرفت بلادي على حقيقتها وكرهت استهواء الجماهير والتغرير بالناس . وليس من الوطنيـة أن يتحمس

الانسان لبلاده إلا من حيث هي حقيقة كائنة مرتبطة بالعالم »

فتاجور عند مايعالج شؤون وطنه يعالجهاعلاج طبيب متريث يقدرالحقائق ويزن الأدواء بميزان دقيق حساس ، فهو حكيم يرقب عواقب الامور ، لا يندفع وراء الهوس والاعصاب، وهو يقرر الامور حلوة او مريرة ، لا يمالىء ولا يغرر مرضاةً لشهواته أو استهواء لآماله

« ان قوانا الحيوية وهي الآن في طور الاحتضار تحتاج الى مباعث تجدد من نشاطها وتغذي أعصابها . فما زلنا ناقض الحقائق ونحفل بالترهات . تأخذنا الكلمات المنمقة ويسحرنا بليغ الخطب فليست تقاس جدارة الامة في حكم نفسها ببلاغة زعمائها وهياج طوائفها ، ولكن تقاس جدارة الامم في خلقها وضبط أعصابها وسيادتها على أهوائها وشهواتها »

فالعنصر و الدم والوطن هي مقومات القومية والوطنية التي لا يدعو اليها الفيلسوف تاجور وانما يدعو تاجور الى الوحدة العالمية تلبية لأشرف الغايات التي تدعو اليها فلسفته في الحياة ، وهي الوحدة الروحية ، فهو انساني فهم الجماعة والحياة ونسي نفسه وأنكر أنانيته وحلّق فوق الأثرة والمطامع البشرية المملوءة بالشهوات والاغراض ، وهو يحس وطنه قطعة من العالم غير منفصلة ، وهو في تفكيره ومشاعره يحقق دائماً سمو المعاني الجامعة التي تأتلف وطبيعة الاشياء وتمتزج بكيان البشرية كخلية واحدة ، فالقوميات والالوان والعناصر ، كل هذه عوامل هدم في الكيان البشري العام ، ولهذا كانت وطنية تاجور وطنية جامعة تدعو الى الاتصال بالعالم من طريق المحبة وحقوق الانسان وادراك الحقائق ادراكاً صحيحاً

فالوطن في نظر تاجور كلمة معنوية لا تدل على مدلول محدود بحدود الأوضاع والجغرافية[1] . والوطن وان كان له تاريخ متصل العروق بالوراثة والدم ، عزيز الذكرى وان جارت الاحداث عليه ، الا ان تاجور يمتلك أعصابه فيقرر أن فكرة الوطنية فكرة بدائية تدعو الى الانانية والأثرة ، وتحدد أوضاع التفكير البشري ، وتحصر مشاعر الانسان ومطالبه ، وتقهر تطلعه وسموه الى المثل العليا في الحياة ، وتخلق من الانسان خصماً عنيداً لأخيه الانسان ، بل انها تخلق منه عدوًّا للطبيعة ذاتها اذ يجهد فكره لإذلالها . واخضاعها ليسيطر على العلوم سيطرة جبارة ليحارب ويغزو ويستعمر ويدق أعناق البشر

ولكن مهمّ الانسان في الحياة يجب ان يكون أسمى ادراكاً لمعاني الحياة من هذه الاوضاع الضيقة المحدودة ، فنشأة الحرية وطبيعة الانسانية لتدعو الانسان منذ خلق الى ان يكون أفق حياته واسع المدى غير محدود ، وان تكون حضارته ومدنيته مدنية مشتركة بعيدة

(١) راجع الفصل الثالث والعدد ١ المجلد ١٠٠ المقتطف الوحدة الروحية لتاجور .

عن الشعور بالفردية الضيقة فكما انه لا يستطيع ان يخلق عناصر وجوده من ذاته ونفسه ولا يمكنه أن يعيش على ما في جسده من مدّخر ، ولا بدَّ له من مدد موصول بما حوله ، كذلك لا يمكن لوطن ان يعكف على نفسه فيعيش غير متصل بالعالم ، فهو مفتقر الى عناصر قد حرمته الحياة اياها وجادت بها على غيره . ففكرة الوطن فكرة مبتورة عن أوصال الوجود والكيان الحيوي الدائم . وانما فكرة التعاون هي فكرة المدنية المشتركة لتوليد ثقافة عالمية ليس لجنس أو دم أو عصبية أي فضل فيها ، فالحضارة لا تعرف الوطن ولا اللغة ولا الجنس ولا اللون ، بل هي رسالة الفكر البشري التي ينبغي ان تعم الدنيا وتشمل الوطن الكبير

والتمادي في الوطنية جرم انساني يبيد الأمم ويفني الشعوب ، اذ يحتم وضع الحرب ضماناً للسلام الاجتماعي وضرورة لبقاء الحياة ، ولئن كان هذا جائزاً يوم كانت الحدود الجغرافية حقيقة واقعة تفصل الامم والقبائل ، وتجعل كلاً يعتز بكيانه وجنسه ، فليس بعد اليوم من سبيل الى اجازة هذه الامراض الاجتماعية بعد ما أصبحت الحدود الطبيعية شيئاً لاغياً ، وبعد ان تقدمت المواصلات ، ومحيت المسافات وسادت قوة الكهرباء واللاسلكي واخترقت الطائرة الفضاء . وبعد ان تمَّ التمازج العقلي بين الامم ، وأحست كل أمة في ويلات الأمة الأخرى ويلات لها تؤثر في حياتها وكيانها كما يؤثر العضو المريض في بقية الجسد

وتاريخ الانسانية يجب ألاّ يكون تاريخ الحروب والشرور ، وانما يجب ان يكون تاريخ الحضارة والعقل والسلم ، ويجب ألاّ تنفرد به أمة ، فما كانت المدنية لأمة أو لجيل او لجنس او للون أو لوطن واحد

« وانما تاريخ الانسانية يجب ان تكتبه جميع الشعوب ، وأن يتوحد جهدهم فيه ، ولهذا لا يمكن التسليم بأن يبيع المرء ضميره في سبيل السياسة والغدر ، وأن يجعل وطنه معبوداً . ان الرجال الذين يموتون في سبيل الحقيقة يصبحون خالدين ، وكذلك اذا مات شعب بأكمله في هذا السبيل أصبح خالداً في تاريخ الانسان (١) »

فتاجور فيلسوف يدعو الى الاتصال بالعالم ، ودعوته الى العالمية ليست دعوة زهد و تقشف ، فهو يرى في الزهد والتقشف اعلاناً بعداوة الانسان للحياة وعدم ادراك حقائقها ولهذا اراد ان يجوب العالم ، فجابه غير مرة ، وجعل منه بيتاً متصل الارجاء ، وطاف بممالك الأرض ، وقابل الملوك والقواد ، وأعلن لهم آراءه على انها صورة صادقة من تفكير الشرق واحساسه ، ثم عاد الى بلاده وفي نفسه حسرة باكية على المدنية الغربية ، مدنية الانانية والاثرة ، مدنية الفتك واذلال الانسانية والغدر واهدار كرامة الروح ، مدنية الجشع

(١) البيت والعالم لتاجور

والجوع ، مدنية الذهب والفقر، هذه هي المدنية القائمة على العصبيات والقوميات انها المدنية التي لا تزال ترقص فوق البراكين !

ولقد انذر تاجور قادة الغرب يوم حاضرهم (١)

« ان مدنيتكم يجب ان تسودها روح المحبة العامة ، وأن تزول منها الاثرة والانانية . والتعصب للوطن والجنس واللون ، وإلا فسيندفع شبابكم وراء آراء وعقائد مهلكة مدمرة وستتوالى عليكم النذر والحروب والدمار » . « ان مهم هذا الجيل يجب ان يكون في محو الاثرة من النفوس وعلى الناس ان تجاهد في سبيل تغليب الخير في مطالب الحياة وغرائزها وان تنمحي فوارق الوطن والجنس واللون وان تسود العالم الوحدة الروحية الجامعة »

تاجور في مصر

ومن الوفاء لتاجور أن أسجل الذكريات التي تركتها زيارتهُ لمصر، فلقد وصل الى القاهرة ظهر يوم الاثنين ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٢٦ بعد ان مكث بالاسكندرية يومين. وكان المغفور له احمد شوقي بك قد كرَّمه في حفل جامع دعا اليهِ المغفور له سعد زغلول باشا وجماعة من اعضاء البرلمان والوزراء ، ولقد لبى الجميع الدعوة احتفاءً بالشاعر الكبير وترتب على حضورهم تأجيل انعقاد جلسة مجلس النواب ، وتألفت لجنة برآسة وزير المعارف العمومية سعادة علي باشا الشمسي لتكريمه في حفل بفندق شبرد ضم الزعماء ورجال العلم والأدب والتعليم من مصريين وأجانب ، واقيمت له حفلة بمسرح حديقة الأزبكية في مساء ذلك اليوم ، وقدمهُ سعادة لطفي باشا السيد مدير الجامعة للحاضرين وتكلم فيها تاجور كلمات جامعة في الشعر والفلسفة والحياة (٢)

وتشرف تاجور بمقابلة جلالة المغفور له الملك فؤاد ، وقد اثرت هذه الزيارة في نفس تاجور حتى انهُ اشار اليها بقوله

« لقد لقيت في مصر ملكا عظيما ذا شخصية محبة للعلم والعلماء »

ولقد أكرم جلالة الملك وفادة الشاعر فأهدى اليه مؤلفاته بعد توقيعها بالامضاء الملكي الكريم فعد تاجور هذا تكريماً لتآليفه واكباراً لدعوته، وطلب يومئذٍ من جلالته ان تكون هدية مصر الى الهند التآليف والكتب المصرية التي أنتجتها الثقافة الحديثة في مصر تعزيزاً للصِّلات الروحية بين البلدين

***

ولقد كان شعور المصريين لقاءَ زيارة تاجور لبلادهم شعور عطف ومحبة واحترام ، واشتركت في تقديره العاطفة الشرقية التي يشعر بها كل شرقي مثقف ، ولقد رحَّبت بهِ الصحافة

(١) محاضرات تاجور في امريكا

(٢) راجع خطاب تاجور الذي القاه و ص ١٧٧ ع ٢ م ١٠٠ المقتطف المنشور »

المصرية واستقبلتهُ مبعوثاً للوحدة الشرقية التي تنشدها شعوب الشرق وتعمل لها من النواحي الاجتماعية والسياسية ، ورأت في تاجور رسولاً كريماً جاء لبعث الصلات المعنوية التي تربط امم الشرق بعضها ببعض ، ولئن كانت عظمة هذا الحكيم دافعة كل الشعوب الى احترامه والاقرار بفضله ، فليس شك في ان شرقيته كانت ذات أثر عظيم في شعور العطف والمحبة اللذين خفقت بهما أفئدة المصريين فان هذا الفارق الذي أقامته الامم الاوربية بين الشرق والغرب وهذه الصلات التي توطدها فيما بينها وهذه الجبهة المتحدة التي ما يفتأ ساستها ينادون بضرورتها للوقوف في وجه الشرق ومطالبه وإنشاء تكأة يستندون اليها لتسويغ وجهة النظر الاستعمارية — جميع هذه الاسباب جعلت من الشرق وحدة تسعى الى نوع من الاتصال ولئن كان هذا الاتصال السياسي غير محقق من الناحية الدولية لاسباب شتى الاَّ ان الشرق سيطالب به كحق طبيعي كلما سادت الديمقراطية نظم الحكم ، وعندما تتحقق فكرة المدنية الشرقية في وجوب المساواة بين الشعوب جميعاً — على ان الاتصال المعنوي ممكن وأدواته ميسَّرة ، فان الروح الدينية التي ظهرت اول ما ظهرت في الشرق متشابهة بين الاديان المختلفة . وكلها ترمي الى مدى واحد وغاية واحدة ، وتصوُّر الحياة وما بعد الحياة متشابه في غير الناحية الدينية ، وفكرة الشرق وجلال المعاني الروحية التي توحيه باعتباره مهبط العقائد والاديان ومثوى الانبياء والرسل والحكماء ، كل هذا يشترك في ربط قلوب الشرقيين ربطاً معنويًّا يشعرنا بتقارب الاحساس والعطف والتفكير ، بل كل هذا يؤكد تحقيق توارد العقائد والمشاعر المتصلة بالعبادات في الشرق

وتاجور يدعو الى هذه الدعوة ولكنهُ يلتمسها من الضمير الشرقي المستكن في وجدان جميع الشعوب الشرقية ، فهو يجاهد لبعث الروح المعنوية في الشرق ولتقوية الحياة السامية التي تدعو اليها العقائد ، على انها مصدر الاتحاد والالفة والخير ، وعلى انها مبعث التفكير والايمان بسمو الروح وتغليب الضمير الانساني على جميع مرافق الحياة العملية

* * *

ولقيت تاجور في غرفته بفندق شبرد عند زيارته مصر سنة ١٩٢٦ ، بعد ان طاف ممالك أوربا وسألته عما استوقف نظره في اوربا فقال

« إني أخشى ان تنهار هذه المدنية ، وفيها ذخر ثقافي لا يعوض. ان اوروبا تعاني تيارين قويين ومختلفين ، تيار الشيوعية وتيار الفاشستية وكلاهما تيار عنيف جارف وانا لا أؤيد العنف في اي مظهر من مظاهره »

ولقد أثرت في نفسي هذه الزيارة بالغ التأثير ، دخلتُ عليهِ وهو في ركن من الغرفة ، يشع فيها نور بنفسجي هادىء ، وتاجور جالس في كرسي مريح في ثوب داكن فضفاض ، عاري الرأس إلاَّ من شعر فضي منسدل يكاد يصل الى كتفيه ، ولحيته طويلة بيضاء أكسبته جمالاً

وجلالاً ، وقد انبعثت من عيني الشاعر الكبيرتين نظرات تنقب الغيب وترقب الالهام ، نظرات هادئة أفاضت على المكان قدسية وشعراً ورهبة أشعرتني بأنني أمام قديس روحي ، يبشر بما يدعو اليه الشرق الجليل من تعاليم ووحدة روحية واتصال دائم بحقيقة الحياة ، فوقفت صامتاً حتى دعاني الى الجلوس ، فجلست بعد أن لمست أنامل ندية ، كنت أمني النفس بلثمها طويلاً ، وتجلت في النفس فكرة الروحية تنبعث من كيانه المادي ، ولكن تاجور أفاض عليَّ بما أخرجني من شرود تفكيري ، فسمعت صوتاً حلواً يفيض عذوبة وحناناً :

« أأنت مستر . . . قلت نعم . . قال أفي سنك من يقرأ الادب الهندي في مصر . قلت اني أقرأ شعرك ومقبل عليه منذ سنين ، منذ تفتحت امامي مباهج الحياة ، وكتبت في أدبك في مجلة الهلال سنة ١٩٢٣ . فقال وماذا قرأت لي : قلت شيترا والبستاني وقطف الثمار وجيتانجالى فقال : وهل قرأت « سهدهانا » فقلت نعم يا مولاي قرأته وترجمت أكثره الى العربية ، هذا كتابك وفلسفتك ولمحة من رسالتك وهنا رفع تاجور بصره إلي ، فاذا عينان واسعتان يشع منهما هدوء روحي وجمال قدسي لم أقو على احتمال النظر اليهما إذ أفاضا على وجهه الجميل هالة من نور ، فلمحت في صدره عقداً من الزهر الابيض مدلى كأنه اللؤلؤ المنظوم . ثم سمعته يقول في نبرات موسيقية هادئة كمن يتحدث الى نفسه : اني مسرور برؤيتك ويلوح لي انك في مقتبل الشباب ، ومهتم بما يشغل أدبي وفلسفتي من آراء ، فان كنت حقاً ظاهرة لشباب هذا الجيل في الشرق وفي بلدكم ، ملتقى الثقافتين ، فاني مطمئن الى تغليب روح الشرق وفلسفته في ضميركم معشر الشباب . . وأما شباب الغرب فيهولني أن أراه مندفعاً بأعصاب ثائرة الى منزع الانانية والآلية ، اني مشفق على المدنية الاوروبية أن تنهار »

والتقى بتاجور غير واحد من المفكرين والادباء وقادة الرأي ، ولقد لقيه فضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا مع رفيقه الدكتور طه حسين بك ، ولقد تحدثا اليه حديثاً اجتماعياً ، ووصفا تاجور وصفاً رائعاً بديعاً فقالا : « لتاجور سمت النفس الهادئة ويزيده الهرم هدوءاً فهو يتحرك في رفق اذا تحرك ، وينظر في رفق اذا نظر ، ويتحدث حين يتحدث في رفق أيضاً ، وقد أثرت الشيخوخة في ذلك الهيكل الانساني كله ، فبدلته من جمال الشباب جمال الهرم وجلاله ، غير عينين بقي لهما كل ما في الشباب اليافع من قوة وجمال ، في عذوبة ورحمة ، هما أسمى من ان يكونا من أثر الشباب أو من أثر الهرم

عينان سوداوان في صفاء ونور ، لم يخلقهما ترديد النظر في هذا العالم المادي الذي تخطف فتنته صفاء العيون ونورها ، كثيراً ما يطبقهما متحدثاً ومستمعاً ، حتى اذا رفع الى شيء بصره لم يرسله طويلاً ولا ممعناً وانما هي لمحة كوميض الالهام

ليس الذي يملأ نفسك في حضرة تاجور هو شعور الهيبة للعظمة الانسانية ، ولا شعور الخضوع لسلطان الفكر الفلسفي العميق ، ولا هو الاعجاب بموهبة شعرية بارعة هتفت بأنغامها السماوية ورددت أناشيدها الآفاق ، انما الذي يملأ نفسك في حضرة تاجور هي تجلي فكرته الروحية في كل شيء من كيانه المادي ، كأنك تشهد روحاً صافية تسمو على ما في عالم المادة من لذة وألم ، من غير استهانة بما فيه من جمال وكمال ، ومن غير تحقير لشيء من قوى هذا الوجود التي يريد الشاعر الفيلسوف أن تنصرف الى الحب والسلام والرقي

ليس تاجور عابساً ولا باسماً ، فقد يكون في الابتسام شيء من السخرية ، ولا يسخر تاجور من شيء ،

وقد يكون العبوس من حرج في الصدر وتشاؤم ، وتاجور لا يضيق صدره بشيء في هذه الدنيا ، فان له من وراء كل ضيق سعة في العالم الروحي ، عالم الحقيقة والطمأنينة والرضاء ، ذلك العالم الذي يريد تاجور أن يأخذ بناصيته القلوب الانسانية اليه »

وأما حديث الشيخين الكبيرين مع تاجور ، فقد كان حديثاً عذباً جامعاً : قال أحدهما وهو يحدثهُ :

« ان مما يؤسف له ان زيارة الشاعر الحكيم لمصر قصيرة لا تسمح له بأن يزور جامعتها المصرية الناشئة وجامعتها الازهرية العتيقة ويتحدث الى رجال هاتين الجامعتين . قال تاجور « كم كنت احب ذلك وارغب فيه ، بعد ما لاحظته من ان في مصر ثقافة عالية جعلت شعبها الاسلامي بمعزل مما يظهر عند الشعوب الاسلامية الهندية من الاسراف في الاستمساك بالقديم والاستعصاء على حركة التجديد ، وما يستتبع ذلك من الآثار ، على ان من النافع جداً ان تقوى الصلات بين مصر وبين الهند . فقد يكون في ذلك ما يعين على حل بعض المشكلات القائمة بين مسلمي الهند وغيرهم من الهندوس والواقع ان هذه المشكلات ثقيلة منغصة لحياة اهل الهند جميعاً ، ولقد رأيت ملك مصر اليوم ، وطابت اليه ان يتفضل فيمنح جامعتنا هدية اعتقد ان سيكون لها في حل هذه المشكلة أثر عظيم . وهذه الهدية هي ما نشر في مصر وفي اوروبا من الكتب العربية في الادب والتاريخ وما اليهما ، فلو ان الهندوس استطاعوا ان ينظروا في هذه الكتب العربية ويفهموا منها الروح العربي الاسلامي فهماً حسناً ، لأعانهم ذلك من غير شك على فهم عقلية اخوانهم من مسلمي الهند . وقد تفضل جلالة الملك فأظهر تقديره لهذه الفكرة ووعد بأن يمنحنا هذه الهدية »

وسأل احد الشيخين تاجور : « وما رأيك في الاسباب التي جعلت مسلمي الهند حراصاً على القديم مستعصين على حركة التجديد أهي أسباب اجتماعية أم دينية أم هي غير هذه وتلك ؟ قال تاجور : هي فيما أظن اسباب متصلة بالتربية التي يتلقاها مسلمو الهند والتي تخضع خضوعاً شديداً جدًّا لتأثير شيوخهم من رجال الدين « ملاّ » فقد وصل هؤلاء الشيوخ مع مرور الزمن وما لهم على النفوس من سلطان الى اقناع الهندي المسلم بأنهُ يستطيع ان يجد في نفسه وفي كتبه وتقاليده كل ما يحتاج اليهِ دون ان يضطر الى غيره في امر من الأمور ، واذا اقتنع الانسان هذا الاقتناع فليس من اليسير ان يعترف لغيره بفضل أو ان يشعر بالحاجة الى غيره ، على ان مسلمي الهند قد بدأوا يتطورون من هذه الناحية تطوراً مهما يكن بطيئاً شاقًّا فهو واقع ولا بد من انهُ سيؤدي الى نتائجه الطبيعية »

وسأل احد الشيخين الكريمين « ألم تفكر في توحيد ما بين المسلمين وغيرهم من اهل الهند من الناحية الدينية ، بأن يتحد مذهب اولئك وهؤلاءِ في الدين مثلاً »

فأجاب الشاعر الحكيم في قوة وشدة : كلاَّ ! وما فكرت في ذلك وما ينبغي ان يفكر فيهِ أحد فذلك في ذاته غير ميسور ، وهو إن تحقق يضر أكثر مما ينفع ولا يعود على الانسانية الاّ بالخسارة الشديدة » . ثم خاطب الضيفين بقوله : « أنتما تعلمان ان الدين انما هو لون من من ألوان التعبير الانساني عن العواطف والميول والمثل العليا ، وان هذا اللون من ألوان التعبير يتصل أشد الاتصال بأمزجة الافراد والامم ، ممثل لها تمثيلاً صادقاً قويًّا ، فمن الثروة

للانسانية ان تحتفظ بهذه الالوان المختلفة التي عبرت بها الامم والشعوب عن عواطفها وميولها وطموحها الى الحق الذي لاحد له . ومن يحاول محو دين من هذه الاديان انما يبدّد بنوع ما شيئاً من هذه الثروة القيمة التي يجب ان تحرص عليها الانسانية . انك لا تستطيع أن تستغني بدين عن دين لان كلّ دين كما قلت مظهر قوي لمزاج الامة التي تدين به ، وهو طريق من الطرق التي تسلكها الانسانية الى الجهاد والحق والمثل الأعلا . فكر في المسيحية تجدها ديانة انسانية بمعنى انها تلتمس الحقيقة المطلقة من الطريق الانسانية الصرفة ونكر في ديننا نحن أهل الهند تجده ديناً كونيًّا ، بمعنى انهُ يلتمس الحقيقة المطلقة من طريق الكون السماوي وما فيهِ من العجائب والآيات ، يجب ان تحتفظ كل امة بدينها بل يجب فوق ذلك ان تحتفظ الانسانية بدياناتها جميعاً »

ولكن أحد الشيخين استدرج فقال : « ولكنك أيها الحكيم ترى من غير شك ان الانسانية في حاجة الى ان يتحد مثلها الاعلى ، واذا لم تستطع الديانات ان تمثل هذا المثل الاعلى ، المشترك فما السبيل اليها » فقال تاجور : « ان المثل الاعلى للانسانية يجب ان يكون واحداً ، ويجب ان يكون مشتركاً ، وهو هذه الحقيقة المطلقة التي لا حد لها ولاسبيل الى استيعابها ، ولن يؤثر اختلاف الديانات في هذا المثل الاعلى من حيث هو واحد مشترك تتعاون الانسانية كلها على طلبه والسعي اليهِ ذلك ان هذا المثل سيظل واحداً وان اختلفت الطرق اليه ، وما الديانات المختلفة الا طرق متباينة ، ولكنها متحدة الغاية تنتهي كلها الى هذا المثل الاعلى الواحد المشترك ، ولقد رأيتما ان الحقيقة المطلقة التي هي مثلنا الاعلى لاحد لهـا ولا سبيل الى استيعابها ، واذن فالمسيحية تنتهي بأهلها الى ناحية من انحاء هذه الحقيقة وديانتنا الهندية تنتهي الى نفس هذه الحقيقة ، وهكذا باقي الديانات . وما دامت الديانات كلها سبيلاً الى هـذه الحقيقة المطلقة وما دامت في الوقت نفسه متصلة أشد الاتصال بامزجة الافراد والجماعات وتمثلها أقوى تمثيل وأصدقه ، فلا خير مطلقاً في محاولة محو بعضها أو اضعافه أو تقوية بعضها دون بعض وانما الخير كل الخير أن تترك للافراد والامم الحرية الدينية التي تمكنها من ان تعلن شعورها وعواطفها وطموحها الى المثل الاعلى كما تريد وكما تستطيع . ذلك يغني الانسانية ويضاعف من ثروتها المعنوية »[1] . هذه هي رسالة الشرق الكريم أداها شاعره وفيلسوفه أحسن الأداء

رب إله البشر جميعاً
تنزهت عن كل لون وجنس
يا مهيمناً على جميع الامم وان اختلفت ألوانها
وحد بين قلوبنا ، والهمنا تبادل المحبة
وأيدها بروح الحق والعدل

(١) السياسة الاسبوعية ع ١٣٩ م

باب المراسلة والمناظرة

استدراكات

على « الامتاع والمؤانسة »

للدكتور بشر فارس

هذا الجزء الثاني من كتاب « الامتاع والمؤانسة » للمنشىء الغزير أدبه المحبَّر حديثه : أبي حيان التوحيدي من أئمة المائة الرابعة ، يخرجه للناس ، بعد الجزء الأول ، الأستاذان احمد أمين واحمد الزين[1] . وانهُ لسعيٌ حسن ، فهذا الكتاب مجمع لتفاريق الفنون : فيه من لطائف الصناعتين ، وفيه فقه لغة وفلسفة وموسيقى ، وفيه تاريخ واجتماع ، ثم صنوف من الملح والنوادر . وليس الكتاب بجمع ولا التقاط ، ولكن المسائل تحت قلم التوحيدي تنتثر كأنها من محض ابتكاره ، والأغراض تتشعب كأنها ولائد الساعة ، وذلك بأن لأبي حيَّان فهماً متقداً وقوة امتصاص ذهني نادرة الى جنب أداء حلو ورصف ينفرد عن مواقف الأشباه

وهذا الجزء — عندي — أعلى من الأول مرتبةً ، من جهة الفوائد التي يضمها ، من ذلك ما أُثبت في شأن « اخوان الصفا » ، وما عولج من مطالب فلسفية ، وما سرد من أخبار المغنين والقينات وأهل الطرب ، وما روي في الموازنة بين الشعر والنثر مع ما اندرج تحتها من الكلام على أنواع البلاغة

ولما خرج الجزء الأول نظرت فيه فنبهت الى أشياء بينت وجه الوهم فيها[2] . ووقفتني اليوم ألفاظ وعبارات في هذا الجزء أحب أن أعرضها هنا . ولا يشغلني أن ينبّها الناشران الفاضلان في آخر الجزء الثالث يوم يبرز ان شاء الله ، فانما همي الفحص لوجهه وما يعقبه من لفت رغبة في اتمام الفائدة

(١) لجنة النشر والتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٤٢

(٢) مجلة الرسالة ١٨ / ١٢ / ١٩٣٩ ، العدد ٣٣٧ — وكذلك صنع الزميل الكريم الدكتور زكي مبارك (الرسالة أيضا العدد ٣٣٦) والاب الاستاذ الجليل انستاس ماري الكرملي (« المقتطف » المجلد ١٠٠ ص ٢٤٥ — ٢٥٠ ، ٣٤١ — ٣٤٧)

إلاّ انهُ من الغريب أن يأخذ مخرجَ نص من النصوص عزة ثائرة كأنما الناقد عليه أن يكبر دون أن ينبه ، وكأنما مخرج نص من النصوص فوق الهفوة والعثرة . وذلك انهُ لما استدرك الصديق الدكتور زكي مبارك على الجزء الاول من « الامتاع والمؤانسة » واستدركت أنا وثب الينا من وثب وقد أخفى اسمه، في مجلة « الرسالة » . غير انهُ ما عتم أن عثر بسنان قلمه إذ بينت ما في كلامه من التلبيس والعنت (الرسالة ٣٤١ — ٣٤٣)

وخير من هذا أن ينصرف مخرج النص أيًّا كان الى التدقيق ويلزم التمحيص . فهنالك سقطات لا ملتمس لعذرٍ فيها ، فانما هي وليدة التسرع والاهمال أو نتيجة الاجتزاء بالحل القريب غير المبرَم . ولا أرى بدًّا من التنبيه الى مثل هذا النقص، لأن تحرير النصوص القديمة يتطلب موفور الهمة وقصيّ الدقة . وفي علمائنا ، ولله الحمد ، من يأبى أن يترخص في هذين الشرطين ومايتصل بهما ويأخذ اليهما ، مثل شيخي احمد زكي رحمه الله والأب الكرملي ونفر من رجال دار الكتب المصرية وجلّة الدائبين في النشر بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت ، كل أولئك الى جنب المستشرقين . فمن السوء أن يتهاون بالأمر من تلزمه مكانته العلمية ألاّ يجعل للفاحص مجالاً لشبهة ولا للآخذ وجهاً لعيب . وفي نقدي لكتاب « العقد الفريد » (المقتطف ، يناير ١٩٤١) تبيين لمثل ذاك التهاون . وأسوأ من هذا أن يخشى محرر النص تنقيب أهل النظر وأن تثور به عزة المخطىء العارف ، مع أن النص القديم اذا نشر فانما تتمه مراجعات المراجعين حتى ان العلماء في اوربة اذا ذكروا مثل ذاك النص أثبتوا المراجعات بجنبه

ثم اني أزيد ان العلامة الأب الكرملي تدبر هذا الجزء الثاني (« الرسالة » ٤٧١ — ٤٧٥ و ٤٨٣ — ٤٨٧) ، فأحصى عدداً غير قليل من الأوهام والفرطات . فلم يَسْلَمْ

* * *

والآن اليك أمثلة من المآخذ على حسب المنهج الذي عليه يجري العلماء في تحرير المخطوطات . وكذلك كان تقسيمي لمآخذ الجزء الاول

١ — التباعد عن سياق النص

ص ٣٣ س ٧ : « هذا باب إن توزع القول فيه طال ، وإن رُمي بالقصد جاز » — والوجه : « وإن رمي بالقصد جار » . وبيان هذا ان التوحيدي اراد أن يقول : « ان هذا الباب ان توزع القول فيه تشعب وطال ، وان رُمي القول فيه بالقصد اي بالاعتدال ، فلا اطناب ولا استطراد ، جار : أي جانبَ الابانة والاحاطة . هذا وافطن للتورية التي قصدها أبو حيان ،

وايضاحها أن كلة « جار » تفيد « الميل عن القصد » ، والقصد هنا : المستقيم ، وهو أيضاً : نقيض الافراط والايغال

ص ٤٨ س ١ تحت — ص ٤٩ س ١ — ٢ : « اطلب في حياتك هذه العلمَ والمالَ تملكْ بهما الناس لانك بين الخاصة والعامة ، فالخاصة تعظمك لفضلك ، والعامة تعظمك لمالك » — والوجه : « فالخاصة تعظمك لعلمك » . كذا يحسن التقسيم ويتم ردّ العجز على الصدر . هذا تحرير ما جاءَ في النسخة (ا) المخطوطة . واما الذي في النسخة (ب) المخطوطة ايضاً فرواية صحيحة مقبولة على جهة ما بينت ، وحروفها كما في الهامش : « فالخاصة تفضلك بما تعلم ، والعامة تعظمك بما تملك » ، هنا الملك (اي المال) وهناك العلم

ص ٧٦ س ١٢ : « ولكن لما غلبت عليهم العزّة ودخلت النُّعَرَة في آنافهم ، وظهرت الخنزوانة (اي الكبر) بينهم . . . . » . وفي الهامش أن في كلتا النسختين : « الحرية » بدل « العزة » — فالوجه : « الحمية » ، اذ هي الى صورة الاصل أقرب ، وبالنُّعَرَة والخنزوانة أردف

ص ٧٩ س ١٠ — ١٤ : وهو « كثير التأله شديد التوقي ، وما رأينا وزيراً على هذا الدأب وبهذه العادة ، لا منافقاً ولا مخلصاً . وقد قال الله تعالى (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » . وفي الهامش ان في (ا) « ولا فاحصاً » بدلاً من « ولا مخلصاً » — والوجه ان فاحصاً » هو الصواب ، وبهِ يستقيم المعنى وتتجاوب أغراض العبارة . وهل الاخلاص من الاعمال السيئة حتى ينفيه التوحيدي عن الوزير ؟ وأما « الفحاص » فمدلوله في اللغة : المبالغ في الفحص عن عيوب الناس وأسرارهم ، و « المفاحص » (كالفحيص) مِن « فاحصه فلان كأن كل واحد منهما يفحص عن عيب صاحبه وسره » (لسان العرب ، وتاج العروس ، مادة ف ح ص)

ص ١٣١ س ١١ — ١٢ : « وهذه آفة معترضة في أمور الدين والدنيا ، ولا مطمع في زوالها ، لأنها ناشئة من الطبائع المختلفة والعادات السيئة » — والوجه : « المتخلفة » ، بدل « المختلفة » حتى يستقيم الكلام على عمود واحد . والتخلف : التأخر ، وفيهِ معنى القصور والرداءَة (ومن هنا يوافق « سوء العادات ») . ومن ذلك قولهم : « شاعر متخلف الطبع »

٢ — التجافي عن أسلوب المؤلف

ص ٨٥ س ٢ : « كذلك ايضاً القوة العاقلة لا تقوى بذاتها على استثبات المركبات الاّ من جهة القوة الحاسة . . . » — والوجه : « على إثبات المركبات » . والاثبات في المصطلح

نقيض المحو والنفي، واما الاستثبات فله معنى لغوي لا يناسب المقام، ويؤيد ايثار كلمة «الاثبات» ما سطره التوحيد بعد اسطر (ص ٨٥ س ١ تحت: «ما هو اكثر تركيباً فالحس أقدر على اثباته») ومجرى العبارتين في جهة واحدة

ص ١٦٨ س ١ — ٣: «ولا طَرَبَ الجراحي مع قضائه في الكرخ (اي مع أنهُ كان قاضياً في الكرخ) ... فإنه يغمز بالحاجب اذا رأى مِرطاً، وأمّل أن يقبل خدّاً وقُرْطاً على غناء شعلة (اسم قينة)». وفي الهامش ان في كلتا النسختين «شرطاً» لا «مرطا» و«فرطاً» لا «قرطا»، فالمِرط والقرط من تصحيح الناشرين — والوجه ان تقرأ العبارة على هذه الصورة، بعد استبدال «يأمل» من «أمّل» مزاوجةً للفعل السابق: يغمز، وبعد استبدال «حدّاً» من «خدّاً» طباقاً لكلمة «فرطا». وذلك أن «أمل» و«خدّاً» من مسخ الناسخ. ودونك العبارة اذنْ: «فانهُ يغمز بالحاجب إذا رأى شَرَطاً (بفتح الراء، أي علامة من جهة الست شعلة)، ويأمل أن يقبل حدّاً (أي في القدر المحدود) وفُرُطاً (بضم الأولين، والأمر الفُرُط: المجاوز فيه الحد) هذا، واذكر هنا ان الحديث يجري في شأن الجراحي وهو قاضٍ، ثم تأمل التورية التي أرادها التوحيدي: (الشَرَط، الحد، الفُرُط) وهو من أرباب البلاغة

٣ — التسرع في تصويب الاصل

ص ٨٤ س ١٤ — ١٨: «والاحاطة بالمعاني البسيطة تحتاج الى الاحاطة بالمعاني المركبة إلاّ من جهة ليتوصّل بتوسطها الى استثباتها» وفي الهامش أن في (ب) «أسباب اثباتها» وفي (ا) «اثبات اثباتها» — والوجه «أسباب اثباتها» بدلاً من «استثباتها». و«الاسباب» هي المبادىء عند الحكماء، (عن «كشاف اصطلاحات الفنون»، سبب) وهذا يوافق ما سطره التوحيدي بعد قليل (ص ٨٥ س ١٣): «العلم لا يحيط بالشيء إلاّ اذا عرف مبادئه» (وازن أيضاً س ١٠)

ص ١٤٢ س ١ — ٢: «وأما بلاغة العقل فأن تكون البساطة فيه أغلب من التركيب ويكون المقصود ملحوظاً في عُرض السَّنَن». وفي الهامش قال الناشران: «وردت هذه الكلمة «السنن» في (ا) مهملة الحروف من النقط، وفي (ب) «السبب» وهو غير واضح المعنى، ولعلّ الصواب ما أثبتنا، والسنن: الطريق» اه — هذا، ويدفع قول الناشرين ان «السبب» أيضاً يفيد «الطريق»، من ذلك قولهم: «ما لي اليه سبب» أي طريق («أساس البلاغة» مادة س ب ب). فاذا كان مرمى العبارة ما يراه الناشران فلا حاجة

الى استبدال السنن بكلمة السبب ، وهي في أحد الأصلين ماثلة بيّنة

ص ١٨٣ س ١ تحت — ص ١٨٤ س ١ : « وان تظالمتُ فللدالة التي تغلط بها الخدم ، وان خاشنت فللثقة بحسن الاجاب ، وان غالظت فلعلمي بغالب الحِلم ... » وفي الهامش أن في (ا) « حاسبت » ، وفي (ب) « حاشيت » — والوجه عندي : حاسبت ، وهي اقامة الحساب بمعنى التضييق أو المطالبة ، ويلتحم بها قوله : « حسن الاجاب » . ثم ان في « خاشنت » مثل ما في « غالظت » الواردة بعد ، ولا يقصد التوحيدي التكرار ههنا ، بل انه في معرض التقسيم

٤ — قلة التقصي

ص ٧٧ س ٦ : « فهذا نُصيري ، وهذا أشجمي » . وفي الهامش : « كذا ورد هذا اللفظ في (ا) وحدَها ، ولم نجد الأ شجعية فيما راجعناه من الكتب المؤلفة في الفرق » — هذا ، وكان يحسن بالناشرين أن ينبها الى أن الكلمة قد تكون محرفة عن « الأشجي » نسبة الى جعفر بن حرب الأشج ، وهو من المعتزلة (توفي سنة ٢٣٦) ، وقد ذكره الشهرستاني مثلاً في « الملل والنحل » القاهرة ١٣٤٧ ج ١ ص ٣٥ ، ٧٦

ص ١١٨ س ٩ — ١١ : « والكلام ذو جيشان ، والصدر ذو غليان ، والقلم ذو نفيان ، ومتدفقه لا يستطاع ردُّه ، ومنبعثه لا يقدر على تسهيله [1] » . وقال الناشران في الهامش : « النفيان من نفت السحابة الماء اذا نحَّته (أي صبّته ودفعته) ، أو من نفت الريح التراب اذا أطارته . وفي (ا) « نقيان » ، وهو تصحيف ، وفي (ب) « رميان » اه . — قد أحسن الناشران في عدّ « النقيان » تحريفاً ، وأصابا في تغليب « النَّفَيان » ، ولكنه من « نفت السحابة الماء » لا من « نفت الريح التراب » ، وذلك أوفى مراعاةً للنظير لأن التوحيدي استعار « تدفق » الماء و « منبعثه » للكلام على جريان القلم . هذا أو ان يكون « النفيان » ههنا من « نَفَيان السيل وهو ما فاض من مجتمعه كانه يجتمع في الأنهار والاخاذات ثم يفيض إذا ملأها » (« لسان العرب » ن ف ي) . ذلك ما يتعلق بتقويم الرواية التي في النسخة (ا) ، وأما الرواية التي في (ب) وهي « رَمَيان » فغير مردودة ، ذلك لأنها تناسب أيضاً تدفق الماء وانبعاثه ، مصداق هذا ما جاء في « لسان العرب » مثلاً (رمي : « السحاب يترامى أي ينضم بعضهُ الى بعض وكذلك يرمي ») ومن هنا : « الرَّمِيّ (كالسَّقِي) : السحابة العظيمة القطر ، الشديدة الوقع » (راجع أيضاً المخصَّص ج ٩ ص ١١٣ ، باب الأمطار)

ص ١٨١ س ٣ — ١ تحت : « وقدم من شاش خراسان أبو مسلم فاشتراها (يعني حبابة القينة) بثلاثين الف درهم معَزّيّة . » وفي الهامش أن في (ا) : « عرية » ، وفي (ب) :

(١) ألا نقرأ « مسيله » بدل « تسهيله » ؟

« غزية » وأما المعزية ، وهي من تقويم الناشرين ، فنسبة الى معز الدولة البويهي (سنة ٣٢٠) — والرأي أن هنالك غير هذا المذهب ، إذ لك أن تقرأ : « عزية » — وهي أقرب الى صور الاصلين — نسبة الى عز الدولة البويهي (سنة ٣٥٦) ، (راجع « النقود العربية » للأب أنستاس ماري الكرملي ، مصر ١٣٥٩ ، ص ١٢٦) . ولك أن تقرأ أيضاً: « غزنية » أو « غزنوية » ، نسبة الى غزنة في طرف خراسان («معجم البلدان») أو اضافة الى الدولة الغزنوية (المرجع نفسه، ص ١٢٦ . واطلب لفظة Ghaznawides في دائرة المعارف الاسلامية ، ط اوربة ، تجد ذكر نقودٍ كان يضربها بلكا تكين وغيره في غزنة منذ المائة الرابعة

ص ١٥٣ س ١ تحت : « كُنْتُس الشاعر » . وفي الهامش أن في كلتا النسختين «أنيقُس» بدل « كنتس » . فعدّ الناشران هذا الاسم محرفاً ولم يذكرا السبب بل لم يوضحا مدى استبصارهما في تحقيق الاسم (راجع ههنا تصويب الكرملي وتحقيقه في « الرسالة » العدد الـ ٤٨٣ . اسم الشاعر : ايبيقوس)

٥ — التحكم في رفض رواية النص

ص ١٣١ س ٩ — ١٠ : « لأن صاحب هذين الخلقين (التعصب والمحك) لا يخلو من بعض المكابرة . وبقدر ذلك يصير له مدخل فيما يراه تحقيقه من بيان الحجة » . وفي الهامش أن في كلتا النسختين « وبذلك القدر » — فلا وجه للاعتراض في هذا التركيب وان رأى الناشران فيه تقديماً وتأخيراً

ص ١٤٢ س ٣ — ٦ : واما بلاغة البديهة فأن يكون انحياش اللفظ للفظ في وزن انحياش المعنى للمعنى ، وهناك يقع التعجب للسامع ، لأنهُ يهجم بفهمه على ما لا يُظن أنهُ يظفر به » . وفي الهامش أن في (ب)« اختلاس » بدل « انحياش » ، وأن هذه الكلمة مما اثبتهُ الناشران — أقول ان « الاختلاس » أدخل في سياق العبارة ، لأن الحديث يجري في أمر البديهة ، وفي الاختلاس معنى النُهزة والسرعة ، وأما « الانحياش » فيدل على الاجتماع أو الانسياق ، وليس في هذين المدلولين ما يقع على سرّ البديهة ، وقِوامُـه استدعاء اللفظ للفظ واستنباط المعنى من المعنى في سرعة الخاطف

ص ١٥٣ س ١ تحت — ص ١٥٤ س ١ : « ان ملك يونان كتب الى كُنتَس الشاعر أن يزوّده بما عنده من كتب فلسفية ، فجمع ماله في عيبةٍ ضخمة ، وارتحل قاصداً نحوه » . وفي الهامش أن في كلتا النسختين : « أن يزوره بما » والباء للمصاحبة . فأين الشبهة في صحتها ؟ وهذه العبارة توافق : « ارتحل قاصداً نحوه »

بشر فارس

تعقيب على مقال

فلسفة الاخلاق في الاسلام

تفضل الاستاذ الجليل يوسف كرم — أحد أساتذة الفلسفة بالجامعة المعروفين بعمق البحث وتحرّي الحق — بقراءة كتابي « فلسفة الاخلاق في الاسلام» وكتابة النقد العلمي له الذي نشر في الصفحة ٤٩٦ من هذا الجزء ، فلحضرته خالص الشكر ولنقده جميل التقدير . ومع انهُ من المعروف ان من ألَّـف فقد استهدف ، ومع أني ممن يرحبون بالنقد ما دام الغرض منهُ تمحيص الآراء والوصول للحق ، الاّ اني مع هذا وذاك رأيت أن أتقدم بتعقيب قصير على هذا النقد ، أجملهُ فيما يأتي : —

١ — لو كان الغرض دراسة التفكير الاخلاقي للعرب قبل نقل الفلسفة الأغريقية لكان واجباً تقسيم الكلام في هذه الفترة الى جاهلية واسلامية ولكن المقالة الاولى ليست الاّ تمهيداً سريعاً لموضوع البحث وهو « فلسفة الاخلاق في الاسلام » بعد الاتصال بالأغريق . على أن الخير مهما كان الحال ، كان في تقسيم الكلام كما قال حضرة الاستاذ الناقد

٢ — اضطرني الى المقالة الثانية التي يرى حضرة الاستاذ عدم ضرورتها ما ذكرته اول الحديث فيها من ان الفيلسوف ، وان لم يكن دائماً صورة لعصره ، فانه لن يكون مطلقاً بمنجاة من تأثره بهِ ، ولعلَّ هذا التأثر يبدو واضحاً في ابن مسكويه الذي عمل جهده على اقامة مذهب في الاخلاق يقوّم من اعوجاج عصره

على ان الناس ليسوا جميعاً على حظ واحد من العلم بالحياة الاسلامية في ذلك العصر ، فمن الخير ان يعلم القارىء تلك الحياة في العصر الذي يتكلم فيه عن بعض فلاسفتهِ ومفكريهِ . وهذه الصورة التي رسمتها لهذا العصر وان بدت قاتمة ، هي الصورة الحقة التي تؤيدها الدلائل التاريخية التي أتيت بما فيه الكفاية منها

أما ازدهار الحياة العلمية في ذلك العصر فقد كان له عوامل خاصة تغلبت على مساوئه ، وأهمها كما ذكرت (ص ٣٩ — ٤٠) تشجيع الخلفاء وأمراء الدويلات الاسلامية للعلم والتفكير ورجالاتهما

٣ — يسرني أن أقر لحضرة الاستاذ بسداد رأيه في حل الاشكال الذي أوردته على ابن

مسكويه خاصًّا بالتفضل وانهُ محمود مع انهُ يزيد عن الوسط ، فان التفضل — كما يرى بحق — وسط بالاضافة الى فضيلة أخرى هي الاحسان ، وان كان زيادة عن وسط العدالة بالمعنى الارسطوطالي .

٤ — أما ما لاحظهُ حضرة الأستاذ الجليل من سوء التفاهم بيني وبين ابن مسكويه فلا جناية لي فيه . ان سببهُ أخذ ابن مسكويه نفسه عن هذا مرة وذاك أخرى من الفلاسفة الذين قرأهم واختار من آرائهم ، فكان من ذلك ما وقع فيه من خلط وما يلاحظهُ الباحث من تردد في بعض الأحيان . وإذن كان لا بد من الاشارة الى ما كان منهُ من هذا وحسابه عليه

٥ — أشكر للسيد الاستاذ دفاعه عن الغزالي وصنيعه في الأخذ عن غيره دون أن يشير لمأخذه بأن هذا كان مألوفاً في العصر المتوسط ، لكن هذا لا يبرر مطلقاً — بالنظر الى الحق وحده — أن يغير غارات عديدة على غيره حتى في الاسلوب والتعبير ! وهذه الغارات تظهر في كتابه معارج القدس ، كما تظهر في الاحياء . وفي كتاب الأربعين الذي لا شك في نسبتهما لهُ

ومن الهام أن أذكر انهُ لم ينقل عن الفارابي وابن سينا وحدهما ، بل عن غيرهما الذين لم يتصلوا مثلهما بالفلاسفة الاغريق ؟ ويكفي أن يرجع القارىء الى ما ذكره في الفضائل التي سماها بالفضائل التوفيقية ، وهي : هداية الله ورشده وتسديده وتأييده ، والى ما ذكر الراغب الاصفهاني عنها في كتابه الذريعة الى مكارم الشريعة ، ليتبين كيف أخذ حجة الاسلام عن الاصفهاني نفس تعابيره !

٦ — أما أمنية الاستاذ الفاضل في أن يكون مذهب الغزالي في الزهد والروحية مثلاً أعلى عمليًّا للامم جميعها ، فهي أمنية طيبة نتمناها جميعاً . ولكن ما دامت الأمم تتقاتل في سبيل هذه الحياة ، فلا خير لنا فيما يدعو اليه هذا المذهب من زهد مبالغ وفقر وجوع وخمول . أقول : « وفقر وجوع وخمول » لأن ذلك صحيح وله أسانيده من كتب الغزالي نفسه : الأحياء والأربعين على ما جاء بصفحة ١٣٦ وما بعدها من كتابنا

وبعد ، فهذا تعقيب رأيت أن لا بد منهُ على أهم ملاحظات حضرة الاستاذ الناقد التي لها قيمتها

والله أسأل أن أكون عند حسن ظنه بي ، وان يوفقنا جميعاً لخدمة العلم والحق ، انهُ الموفق والمعين

محمد يوسف موسى



مكتبة المقتطف

عبقرية عمر

تأليف: الاستاذ عباس محمود العقاد

المكتبة التجارية الكبرى بمصر، مطبعة الاستقامة في سنة ١٣٦١ هـ، ١٩٤٢ م عدد الصفحات ٤٦٠

« وكتابي هذا ليس بسيرة لعمر، ولا بتاريخ لعصره، على نمط التواريخ التي تقصد بها الحوادث والانباء ولكنهُ وصفٌ له، ودراسةٌ لأطواره ودلالة على خصائص عظمته، واستفادة هذه الخصائص لعلم النفس وعلم الاخلاق وعلم الحياة. فلا قيمة للحادث التاريخي جلَّ او دقّ الاَّ من حيث أفاد في هذه الدراسة، ولا يمنعني صغر الحادث ان أقدّمهُ بالاهتمام والتنويه على أضخم الحوادث، ان كان أوفى تعريفاً بعمر وأصدق دلالة عليهِ

«وعمر يعدُ رجل المناسبة الحاضرة في العصر الذي نحن فيه، لانهُ العصر الذي شاعت فيهِ عبادة القوة الطاغية وزعم الهاتفون بدينها أن « البأس » « والحق » نقيضان. فاذا فهمنا عظيماً واحداً كعمر بن الخطاب، فقد هدمنا دين القوة الطاغية من أساسه لاننا سنفهم رجلاً كان غايةً في « البأس »، وغاية في « العدل »، وغاية في « الرحمة ». وفي هذا الفهم ترياق من داء العصر يشفى بهِ من ليس بميؤوس الشفاء »

هكذا قدَّم العقاد بين يديّ كتابهِ وهو أتم قول في البيان عن مبنى كتابه وعن منحاه وعن غرضه الذي رمى اليهِ في كل فصلٍ من فصوله. فأنت تقدم فيهِ بعينيك ورأيك وعقلك على رجل قد استوى واستحصد. لا تجد ذكر أولية ولاميلادٍ ولا نشأةٍ، ولا من كان أبوه ولا من كانت امه، وانما هو « عمر بن الخطاب» وحدهُ الذي تلقاه. ثم تجول فيه فلا ترى تاريخاً ولا موقعةً ولافتوحاً ولا اعمالاً ولا حوادث، وانما ترى « رجل» التاريخ والموقعة والفتح والعمل والحادثة قد امتثل لعينيك قوّة وفكراً وعقلاً وتدبيراً وجناناً، هو الرجل... هو عمر بن الخطاب

وعمر — كـكل رجل في التاريخ — قد ترك للناس أعماله وخرج منها لتكون شاهدةً عليه ، أحسن أو أساء ، وليس أحد بأكبر من أن يسيء . وقد وقع في تاريخ عمر بعض ما يمكن ان يترجّح الرأي فيه الى جانب الإساءة ، واذا كان ذلك ، فان عمل الكاتب — اذا اراد أن يؤدي الأمانة التي استحفظ عليها — أن لا يدع شاردةً من الحوادث الاّ اعتبرها ووزنها واستخرج منها ما يقيم له وجه الرأي ، فان من ظلم الظالمين أن تحكم بالاساءة ، على رجل قد أكثر من الاحسان حتى عُرف به . وليس يستقيم وجه الرأي في مثل هذا الاّ بعد تمحيص يخرج بك الى القدرة على معرفة النية التي انطوى عليها صاحب العمل فيما عمل . ولست تصل الى معرفة النية في العمل حتى تتمثل الرجل بجميع خصائصه ومناقبه ، واطواره ومثالبه ، ثم لا تزال توازن بين ما يجتمع لك حتى تعرف الحدود التي يقف عندها في كل أمر من أموره أو عزيمة من عزائمه ، وحتى يتبيّن مقدار الطاقة في كلّ قوةٍ من قُواه ، وكيف تسيلُ ، والى أين تتّجه ، ولم تنحرف الى غير ما يظنّ بها

فاذا عرفتَ ذلك وأطقته ، فأنتَ — بعدُ — على الطريق ... واذا الشيء يفسِّرُ الشيءَ وقد ظُنَّ انهُ يعارضهُ ، واذا الحادث يحقق الحادث وقد خيّل انهُ يناقضه . وبذلك يخرجُ الكاتب من جملة « الكتّاب المنصفين !! » — كما قال العقاد — الذين تعوّدوا « أن يحبِّذوا وينقدوا ، وأن يقرنوا بين الثناء واللام . . . فان لم يفعلوا ذلك فهم اذن مظنّة المغالاة والاعجاب والتحيز »

ويكفي العقاد فخراً انه حطّم بهذا الكتاب تلك الهياكل البشعة الموبوءة التي يتعبّد أهلها بكلمات مريضة كالانصاف والتحقيق العلميّ ، ثم يرمون من سواهم بالاغراق والمبالغة والمغالاة والتعصّب الى آخر ما يملكون من كَلِمٍ . ولم يكن تحطيمه لها إلاّ بقوةٍ من العقل والمنطق والاستقصاء والمراجعة ، حتى يخيل اليك إنه لم يدَعْ شيئاً يمكن أن يؤتى به في الحجة والدليل إلاّ أتى به بيّناً كأحسن البيان لمن شَرَحَ بالعلم صدراً ولم يعاند فيه عنادَ من لا يعقل . ولذلك لم يحجم عن أن يقول لهم حين قال لنفسه في أول كتابه : « ان كنت قد أفدت شيئاً من مصاحبة عمر في سيرته وأخباره ، فلا يحرجنك أن تزكي عملاً لهُ كلما رأيته أهلاً للتزكية . وان زعم زاعمٌ انها المغالاة ، وانه فرط الاعجاب » ، « فالحق انني ما عرضت لمسألةٍ من مسائله التي لغط بها الناقدون إلاّ وجدتهُ على حجة ناهضة فيها ، ولو أخطأه الصواب »

وهذا الذي فعله هو على التحقيق طريق العلم المتثبت الذي لا يخاف ولا يتردّد ، ولا يحاول أن يستجلب لنفسه المحاسن التي تقوم على دعوى اللسان ، اذ يقول لهُ : هـذا رجلٌ

منصف ! هذا رجل محقّق ! هذا رجلٌ واسع الذهن ! هذا رجل يرى وجوه الرأي من جميع نواحيها ! فانما هذه كلها تعاويذ الرضى وتمائم الجهّال

لم يدع العقاد شيئاً من مقوّمات شخصية عمر إلاّ عقد عليه فصلاً أو بعض فصل ، ومن هذه المقوّمات تتمثل عمر بجميع خصائصه وأخلاقه وما تدلُّ عليه أعماله من أول جاهليته الى مقتله وهو أمير المؤمنين

وما شكّ أحدٌ في القوة النفسية التي كانت تتدفّق بهذا الرجل كأنها سيل جارفٌ ، وكانت تسم أعماله وأخلاقه بسمة فذّةٍ بين أعمال الرجالِ وأخلاقهم ، وكانت على عهد رسول الله — وهو من هو — مميزة لعمر عن جميع أصحابه صلى الله عليه وسلم . ولقد كانت هذه القوة التي لا يخطئها مؤرّخٌ يكتب عن عمر ، سبباً في أخطاءٍ كثيرةٍ في فهم تاريخ الدولة الاسلامية بل كانت سبباً حَمَل بعضَهم على أن يضعوا في الدعوة الاسلامية أوهاماً مضلّة لمن لم يقف على حقيقة هذه الدعوة ، ولا على حقيقة صاحبها ، ولا على حقيقة عمر من بين أصحابه صلى الله عليه وسلم . وكأن العقاد وقد تنبّه لهذا من أول كتابه فهو يثبت لك القوة النفسية في عمر ويدلك على انها مع اندفاعها وتدفقها لم تجعل صاحبها من أصحاب المطامع الطاغية التي تدفعهم الى اقتحام الحقّ الى باطلهم ان كان لا بدّ لهم من ذلك . ولم يأت بها كلمةً تقال لتدفع شبهةً ، بل عاد اليها في الفصل الذي عقده عن « صفات عمر » من ص ٤١ الى ص ١١١ ، ثم في الفصل الذي يليه عن « مفتاح شخصيته » من ص ١١١ — ١٤١ فأبان عن تعادُل القوى النفسية في عمر بحيث لا تطغى صفةٌ من صفاته على الأخرى فتتحيّنها أو تأكل بعض حقها في العمل . فالعدل والرحمة والغيرة والفطنة والايمان ، هذه كلها في عمر تتعاون تعاون الأسلحة الحربية في الغرض الذي ترمي اليه ، وأصل ذلك كله مجتمع في الخلق الغريزي الذي طبع عليه عمر ، وهو طبيعة الجنديّ الحازم الصارم الذي لا يلتفت الى وراءٍ اذا عرف انه لا بد منتصر على العقبات التي تخيّل له لتضعف من حدّتهِ . وقد جعل العقاد « طبيعة الجنديّ » هي مفتاح شخصية عمر ، ولقد وفّق في ذلك أحسن التوفيق ، إذ هي التي انتظمت جميع خلائقه فرمت بها الى أغراضها ، وحمتها أن يطغى بعضها على بعضٍ

بل ان الحدود التي حدّ بها طبائع عمر ، وبيانه عن طاقة كل قوة من قواه ، وتحديده لعملها في عمله ، قد أعانه كل العون في تصحيح الروايات المختلطة التي تروى عن عدل عمر أو رحمتهِ أو قسوتهِ أو لينهِ ، فاستطاع مثلاً (من ص ٤٩ — ٥٨) أن ينفي من قصة عبد الرحمن بن عمر وأبي مسروعة حين شربا الخمر بمصر فحدّهما عمرو بن العاص ، وأعاد عمر الحدّ على ابنه حين حُمِل اليهِ بالمدينة — استطاع أن ينفي كل المبالغات التي دخلت على

الرواية ، واستخرج منها الرواية الصحيحة التي تطابقُ الحقّ والعدل في غير زيادة أو نقصان
وبذلك أيضاً استطاع ان يعرّف برحمة عمر تعريفاً لا يدع شكّاً لأحد في أن عمر كان يرحم بفطرة مستقيمة لا تظلم ولا تقبل الظلم فهو يرحم الصغير والكبير ، والمسلم والذميّ من أهل الكتاب سواءٌ ، فهو لا يرحمُ المسلم لأنه من أهل دينه ، ثم تذهبُ الرحمة من قلبه لامرىءٍ ليس من أهل هذا الدين ، بل هما لديهِ سواءٌ فيما استوجبا بهِ الرحمة

وليست تقتصر فائدة هذا البيان عن قُوَى عمر على الكشف عن خصائص أخلاقه وطبائعه ، بل أعانت أيضاً على بيان أعماله كلها في تأسيس الدولة الاسلامية ، التي قاد جيوشها ووسع ممتلكاتها ، وأرسل اليها عمالها ليحكموا البلاد ، ويعلموا الناس دينهم الذي اتبعوه

فهذه القوة التي لا تقف أبداً بل تندفع الى الامام في كل وقت كما تكاد تعرفها في عُمَر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هي نفسها القوة المكينة المتريثة التي كان عمر يوصي بها قواده وعماله . ففي عمر قوة الاندفاع وقوة الضبط معاً لا تفقد احداهما حيث يجب أن تكون . « إن البأس الذي رُزِقته نفس عمر لحظٌّ عظيم ، ولكنه لو كان في يدي غيرها لقد يكون نصيبها أوفى من نصيبه وهو في يديها . فلم يشحذه عمر قط لغرض يخصه دون غيره » وكذلك « يقوى الرجل فلا يخافه الضعيف بل يخافه من يخاف الضعفاء » كما قال العقاد في فصل من كتابه

ومن قديم والناس يخوضون في موقف عمر من سيف الله خالد بن الوليد حين عزله ، ثم أتى جماعة من المحدثين — عربهم ومستشرقيهم — فاستوحلوا فيه الى الأذقان ، فانبرى العقاد لأقوالهم ففندها بالحجة التي لا يقف لها شيء ، ولم يجعلها كذلك الاّ هذه الحدود التي استطاع ان يميز بها أخلاق عمر وطبائعه ، فانهُ استخدم كل ما استبان لهُ من شخصية عمر بعد التحليل المقنع ، وسرد القصة كلها بما يرتضيه العدل و المنطق والتاريخُ ، واذا شئت أن تتثبت من ذلك فاقرأ من ص ٣٣٨ — ٣٦٤ فلعلهُ خير ما كتب الى اليوم عن هذه المسألة التي ضلَّ فيها من ضلّ

ان كل فصل من هذا الكتاب يستوقف الناظر فيهِ ، فلا أدري ما آخذ منهُ وما أدع ولقد جاهد العقاد فأبلى بلاءً حسناً... انما كان يقاتل تاريخاً مختلطاً مبعثراً قد أهملهُ أهلهُ ، وآراء باغية قد رمى بها قوم عزتهم عن أنفسهم قوة أيامهم وعلوّ سلطانهم ، وتكاذيب قد تحمل بها المستضعفون من الكتّاب . ولقد دل بهذا الكتاب على ان التاريخ العربي والاسلامي اذا استوى لهُ كاتب قد قرر المذهب على أصول صحيحة ، استطاع أن ينفي عنهُ

زغلهُ وأن يبعثهُ بعثاً جديداً بعد تراكم الأتربة التي قبرتهُ أجيالاً طوالاً

• ليس من الهين أن تكتب التاريخ الاسلاميّ على نمط جديد ، فان عدّة الكاتب لهذا الأمر تتنازعها قوًى مختلفة يجب ان تتوفر للكاتب ، ولعلها قد توفرت في العقّاد ، فهو أديب يتلقّف معاني الكلام وينفذ الى ما وراءَها، وهو مفكر لا يدعُ للفكر منهجاً الأّولج اليهِ، وهو واسع المعرفة فهو يعرف المجهول من المعلوم بأدق فكر وأحسن نفاذ . وبذلك استطاع أن يكتب للتاريخ الاسلاميّ فصلاً خالداً في شخصية خالدة هي الفاروق « عمر بن الخطاب »

محمود محمد شاكر

فهرس الادب العربي في لبنان (١)

الأدباء ونزعاتهم ومؤلفاتهم

يؤذن لي اليوم ، من هذا المذياع ، الذي دوّى ويدوي في الأجواء العربية ، أن أرفع الصوت باسم الوشائج الباقية والتاريخ المشترك والحروف السود في كتاب الضاد الأبيض . يؤذن لي اليوم في القاهرة المعزية موئل القلم العربي منذ فجر النهضة ، أن أفرغ في هذه المنيهة ما أحمله ويحمله معي الجيل الطالع في لبنان العربي من حب للكنانة ووجد بها وكد معها من أجل الحق والخير والجمال

تستريح العين في مخطط الدنيا على صفقتي اللقاء الذي أراده اسماعيل العظيم بين بحرين يوم فك عقدة السويس ما وراء الطور . وتروح القوافل وتجيء على سيف هذا المتوسط ويزدهي الأدب العربي ببشائر نهضة حبيبة بعد أن عانى الجمود طوال خمسة أجيال ، ويتلاقى جُـهد من عندكم ومسعى من عندنا ، وتلتمع الحروف على الحياة وتضحك أسارير البيان بالبشر ، وتتعالى على قضايا الاجتماع أصداء أدب قوي يغرق الدنيا من جديد في موجة عربية . أدب تزقزق فيهِ طيور الصباح وتغني مياه الأنهر والعيون وتخفق وجوه الحقول بألف لون ولون ، وترف الأطياب مع النحل والفراش على ثغور الورد والأقاح والياسمين ، أدب حر لا يقيده غير الجمال المطلق ، غايته امتاع الحواس وامتاع الشعور قبل كل شيء . أدب جديد لا يتعرف الى النماذج والتقليد الأبله ، يعلن عن الحياة ويكيفها بطريقة ايحائية ولا يصورها قط . فهل لي قبل ان أدخل واحة هذا الأدب العربي في لبنان، أن أشيد بيد مصر السخية وبما كان لها وما سيكون من الأثر في توجيه خطى الفكر في لفتة من أخطر لفتات التاريخ

غب انقراض عهد « مدرسة الكادحين » عند نهايات القرن التاسع عشر تحرر الأدب في لبنان ، وزلقت الزوارق على كف هذا الأزرق المادر ، تحمل الى أميركا « الأندلس الجديدة »

---

(١) حديث للاستاذ صلاح الاسير أذيع من محطة الاذاعة للحكومة المصرية بالقاهرة في ١٢ نوفمبر ١٩٤٢

دعيلاً أقام للعروبة في العالم الجديد صرحاً يبقى على الدهر . بينما كان لبنان ، هذا الجبل الحالم الحائر بين الشرق والغرب على مفترق الطرق، لا يكاد يجد سبيله في بلبلة الأحداث . ويومئذٍ كان أمين الريحاني وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وفوزي وميشال وشفيق المعلوف وايليا ابو ماضي والشاعر القروي يؤكدون حدثاً جديداً في العالم الجديد ، وظل طور التجارب أمداً غير قصير ، وفي تلك الأيام كان بشارة الخوري يلوّن احداقه بالخيال الرائع وينذر نفسه للوثبة بالشعر في لبنان الى مراقي الفراديس المصرية ، مسجلاً في مقاطع عميقة الخطرات بوادره الألم الذي برح بالجبل اللبناني ، الى جانب مقاطع غزلية ساحرة نسجتها سذاجة النفس في مختلف حالاتها . ويعود الى لبنان من باريس عمر فاخوري ، هذا الأديب الساخر ، فاذا قلم يرفل بالممتعات على القرطاس ، قلم له طعم ولون وشيمة ، تتلاقى في شقه زرقة البحر بسمرة الصحراء ، وترحب المكتبة العربية بـ « الباب المرصود » و « الفصول الأربعة » و « لا هوادة » هذه الكتب التي أخرجها عمر فاخوري زلفى الى الفن المارد

وفي زقزقة السرب الفتيّ من بلابلنا الغردة ، غمس شوقي المعظم عينيه ، فاذا امين نخلة أديب الظل والماء والحياة الريفية ، والوله الذي لا ينقطع في دنيانا أجره ، واذا الياس ابو شبكة بودلير لبنان، واذا ديباجة صاحية الرواء تنضح بالخير الكثير، وتصغي الأجواء العربية الى ابداع وخلق في شعر صلاح لبكي وسعيد عقل . وثمة فوق هذا شعر بلغة القرية يدخل الى القلب دون استئذان أهل الكوفة وأهل البصرة ، تربع به رشيد نخلة على النجوم ، ورفع به ميشال طراد « ميسترال » لبنان الى الجنة .. . . وينبغي أن أتمهل ههنا قليلاً فهؤلاء أترابي في الجرس البعيد ، والخيال المغداق ، استطاعوا ان يعجلوا في نقلة الشعر العربي من الجمود الى الحياة على نحو لا أعرف له مثيلاً في أي بلد عربي آخر . فالشعر عندنا ظلّ حالة لا تعيها لغة ، حالة تردد وذهول بين خاطرة وخاطرة بين هاجس وهاجس ، الشعر عندنا انفلات من مواضعات النثر وما ينبغي للنثر من وعي وفكرة . الشعر رقص على ضفاف الموسيقى واخلاص غامر لشتات الأخيلة والهتافات في جو الوجدان وعالم العرق والرغبة

وفي القصة هذه الجنية التي طرقت أخيراً باب الأدب العربي ، يستطيع لبنان أن يفخر بجهده في حقلها المترامي الأطراف ، فكرم ملحم كرم في «أبونا انطون» وغيرها بارع السرد موفق الوصف ، وتوفيق عواد في « الرغيف » و« قميص الصوف » انساني النزعة حميم الصلة بأعرق وأعتق النوازع الواقعية ، وخليل تقي الدين في « الاعدام » أنيق الاسلوب عميق الغوص في عوالم تضج بالحكايات والتمائم والاساطير . ورضوان الشهال يجنح بجراءة الى القصة المثالية

أما في الصحافة ، فسيظل جبران التويني صاحب «جريدة النهار» أحفل رجالها بتوجيه الرأي وهو في أسلوبه على بيان عربي مشرق وفكرة نيرة ، وفي الصحافة الادبية اليوم ، رغم ازمة الورق ، وثوب وتطلع الى الكمال ، فمجلة «الاديب» البيروتية مرآة لخوالج الجيل الطالع في الادب والفن والسياسة والاجتماع ، ومجلة «الطريق» وجه للبعث الحق وكتّابها رئيف خوري ، قدري القلعجي ، انطوان ثابت ، طليعة المتحررين ، وصوت لبنان في جهاده من أجل نصرة المبادىء الديمقراطية ، وجريدتا «الجمهور» و«المكشوف» مسرح لاقلام فنية ، ونتاجهما يحسر عن ثقافة رحبة وأمل معطاء ! . . . .

وبعد ، فهذا جانب من فهرس الادب في لبنان ، وما أخالني أحصيت شتى وجوهه ، ولكني أطمع ويطمع معي لبنان العربي في أن تنظر مصر العربية الى جُهْدِنا الوادع ومحاولاتنا المخلصة

صلاح الاسير

مجرى الادب في مصر سنة ١٩٣٨

هذا موضوع المحاضرة التي كان ألقاها صديقنا الدكتور بشر فارس في مؤتمر المستشرقين المنعقد في بروكسل صيف سنة ١٩٣٨ وظهر في « مجلة القاهرة » La Revue du Caire (اغسطس ١٩٤٢) التي يشرف على اخراجها العالم الفرنسي الأستاذ جاستون ڤييت . وقد نظر الدكتور بشر في ستة كتب ظهرت في تلك السنة هي : « في منزل الوحي » لحسين هيكل ، و « على هامش السيرة » لطه حسين ، و « ساره » للعقاد ، و « في الطريق » لابرهيم عبد القادر المازني ، و « عصفور من الشرق » لتوفيق الحكيم ، و « سندباد عصري » لحسين فوزي . وقيمة هذا البحث في طرافة المعالجة وملخصها أن الكاتب يستشف مجرى الحياة الاجتماعية من التآليف فيستخرج الحالات الذهنية والنفسانية والثقافيـة والارادية ويتبين النزاعات المختلفة من ثنايا الكتب . وفي ذلك فائدة كبيرة لتحسس مدى الانقلاب الذي يعانيه الشرق العربي الآن . وما نظن ناقداً انصرف الى هذه الجهة من النظر قبل اليوم . فالكتاب معبر الى الفحص عن المجتمع وأما قيمته الأدبية — في هذا النظر — ففي المحل الثاني . وقد وُفّق الدكتور بشر لتطبيق نظريته الطريفة وهو يتبصر في تلك الكتب الستة (وقد أهمل مسرحيته « مفرق الطريق » المنشورة في المقتطف سنة ١٩٣٨ وفيها أيضاً نزاع !) فكشف عن الأزمات التي تضطرب فيها ولا سيما أزمة تجاذبنا بين الحضارتين الشرقية والغربية وأزمة تحرير المرأة . وبيّن كل ذلك في أسلوب دقيق ولغة فرنسية عالية . ولعلّهُ يخرج هذا البحث في لغتنا ويضم اليهِ الابحاث الأخرى التي وضعها في الأدب العربي الحديث سواء في الفرنسية أو العربية

تاريخ الجامع الازهر في العصر الفاطمي

للاستاذ محمد عبد الله عنان — طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر في ١٧٥ صفحة من القطع الكبير

كان في النية أن تحتفل القاهرة بعيدين قوميين : اولهما عيد القاهرة الالفي ، وثانيهما عيد الجامع الازهر الالفي . وهما مناسبتان لا يصح المرور عليهما بالأغضاء والاغفال . وقد اهتمت الحكومة والدوائر الازهرية وقتاً ما بالأمر وألفت لجنة العيد الالفي للقاهرة كما عُين وقت العيد الألفي للازهر في أمس القريب

وقد رأى الاستاذ المؤرخ الجليل محمد عبد الله عنان ألاّ يدع هذه الفرصة تمر بغير أن يقدّم فيها الى القراء ثمرة طيبة من ثمرات بحثه المؤسس على العلم والتحقيق ، فألف كتاباً في تاريخ الازهر في العصر الفاطمي وقصد به ان يكون هدية منهُ الى هذا المعهد الجليل في يوم ذكراه الالفية ، وأضاف اليهِ تكملة حتى العصر الحاضر

وعجيب جداً ان يتصدى للكتابة في تاريخ الازهر في عصر من عصوره واحد من غير أبنائه — وهم بحمد الله كثير — كأن تلك الجامعة العريقة لم تجد في ابنائها اليوم من ينهض ليؤرخ لها بعض الحقب . فاذا عددنا عمل الاستاذ عنان من ناحية قياماً بحق التاريخ الذي سبق الاستاذ في مضماره . فانه يعد من ناحية أخرى وفاءً لذكرى أثر اسلامي جليل . والوفاء قد يكون في الابناء وغير الابناء

ومما هو جديرٌ بالذكر في هذا الصدد ان الاستاذ عنان كان له — على ما بين في مقدمته — نصيب في بحث تاريخ تأسيس القاهرة وانشاء الأزهر الشريف ، عندما رأت لجنة العيد الألفي أن تسترشد برأي بعض الهيئات العلمية . فرأت كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول في مذكرتها أن يكون الاحتفال بهِ (انشاء القاهرة) في رمضان سنة ١٣٦٢ هـ . . . . وكان من الواضح — على رأي الأستاذ عنان — ان القول باعتبار واقعة دخول المعزّ لدين الله مدينة القاهرة في ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ واتخاذها حاضرة للخلافة الفاطمية أساساً لتحديد عمر القاهرة الألفي — وهو رأي كلية الآداب — قول لا يسوّغ الأخذ بهِ في هذه المناسبة التاريخية . لأن المقصود كان احياء ذكرى انشاء القاهرة لا ذكرى قيام الخلافة الفاطمية فيها . ولما كانت القاهرة المعزية قد وضعت خططها في مساء يوم ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ فإنها تكون قد استكملت الف سنةٍ من عمرها في ١٧ شعبان ١٣٥٨ الموافق لليوم الثاني من أكتوبر ١٩٣٩

اما الجامع الأزهر فقد كان البدء في انشائه بعد أن وضعت خطط القاهرة المعزية بنحو تسعة اشهر في ٢٤ جمادى الاولى سنة ٣٥٩ هـ وافتتح للصلاة بصفة رسمية في يوم الجمعة السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ . فاذا أخذ بتاريخ الانشاء فان الازهر يكون استكمل الف سنة من

عمره في ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣٥٩ الموافق ١٦ يونيو ١٩٤٠ واذا أخذ تاريخ اتمامه وافتتاحه للصلاة فالعيد يقع في يوم الجمعة ٧ رمضان سنة ١٣٦١ الموافق ١٨ سبتمبر ١٩٤٢ والاستاذ عنان يؤثر التاريخ الثاني ، وهو الموعد الذي كان مضروباً للاحتفال هذه السنة

ويظهر ان ضيق الوقت ، ورغبة الاستاذ المؤلف في انجاز الكتاب في الموعد المناسب لم يمكناه من اطالة البحث وتوسيع آفاق الاستقصاء كما كان يشتهي وكما عودنا وقد وقعت في الكتاب هنات في اللغة والطبع . . . . الأ أن ذلك لا يقلل من قيمة الكتاب ولا يغضّ من شأنه . وقديماً قالوا « لا تعدم الحسناء ذاما »

وقد أورد الأستاذ بعض الألفاظ التي نقلها عن الخطط والنجوم الزاهرة وغيرها من غير أن يشرح معناها . وهي ألفاظ تركية تحمل دلالات خاصة في زمانها أو لم يعد لها الآن وجود أو استعمال مثل كلة « اسفهسلار » الجند . فما معناها ؟ أليس من حق القارىء على المؤلف أن يطلب تفسيراً لمثل هذه الكلمة ؟ أما منظومة ابن سعد الدين المصري المخطوطة بدار الكتب رقم ١٠٤ تاريخ والتي أورد منها الأستاذ بيتين في ص ١٣٦ فهي لا تجري على قواعد العروض ، وكان الأولى بهِ أن يشير الى ذلك وهو في معرض الحديث عنها وعن ناظمها . والكتاب برغم هذه الهنات عمل يستحق عليهِ مؤلفه الفاضل أجزل الشكر ، فهو الآن ثالث ثلاثة كتب عملت في تاريخ الأزهر ، والكتابان هما رسالة السيد مصطفى بيرم في مؤتمر المستشرقين بهامبرج ، وكتاب كنز الجوهر في تاريخ الأزهر للشيخ سليمان رصد الحنفي

محمد عبد الغني حسن
مدرسة الخديوي اسماعيل الثانوية

المفكرة الريفية لفؤاد افندي

بقلم الاستاذ أمين نخلة — طبع مطبعة الكشاف في بيروت — ١٢٥ صفحة من القطع الوسط

الأستاذ أمين نخلة شاعر من الشعراء الذين سلمتهم الطبيعة مفاتيح أسرارها فهم يكشفون بين الفينة والفينة عن جمالها ، ويزفّون هذا الجمال في نغم عذب جميل

ولقد شاء الأستاذ أمين أن يدع ريشة الشاعر ليحمل ريشة الرسام الماهر مطلقة من قيد القافية ، لينقل الينا صوراً فاتنة من ريف بلاده ، فلم تفتهُ روح الشاعر وإن فاتهُ نغمه . وانك لتنقّل نظرك بين صحائف كتابهِ وكأنك لست بين صحائف بيض وسطور سود ، ولكنك بين مروج خضر وجداول فضية رقراقة وعيون من الجمال ثرّة ، وتكاد تشم عطر الزهر أو تكاد تتسمع همس الجداول ومناغاة الأطيار

وان القارىء لهذه المفكرة لينقاد بسحر الأمين الى بيت فؤاده بين بلاد الجبل على درب

الريف ليتسمع أخباره وأغانيه ، وليرى مقاطع تمثيلية تجري حوادثها في هذا الريف ، وليتلقى من كتاب الطبيعة المبسوط فيه قصائد ومطالعات وبذوراً وأمثالاً ، حتى ينتهي به المطاف الى بيت فؤاد افندي ليسمع بعد ذلك منه قصة الفردوس الأرضي

وبعد فلقد سحرتني ريشة أمين تلك التي وصفها فقال: «قصبة نبتت في بسيط أفيح وعاشت على طلاقة ، وضياء ، وماء ، تلعب بين الرياح بلا معارض » وإن « هذا القمقم السحري » الذي غمست فيه لأبهج عطراً من أحقاق المسك في ايدي الكثيرين ، واذا كنت مديناً له بتلك الساعات الحلوة التي قضيتها في ظل كتابه ، فاني مدين للقارىء الذي شوقته الى هذا الكتاب بأن أقتطف له شيئاً من هذه المفكرات، فأناوله بذرة من بذور الريف هي قول المؤلف «ولد الفن يوم قالت الحية : أطيب أكلة في الفردوس — التفاحة ، بدلاً من ان تقول لها كلي التفاحة»

بهذا الاستهلال تفهم أسلوب المؤلف وأفكاره ، وتستطيع ان تسير معه في دربه وتستمع اليه يصف عنقود العنب فيقول :

« خذ بيدك في شهر ايلول ، عنقوداً من العنب وارفعه الى عينيك ، وانظر الى نور الشمس ، من خلال الشفوف ، وتأمل ! لا علبة الجوهري أحلى ، ولا خزانة البخيل أشهى من عنقود ، ! في عنقود واحد من العنب ما يملأ العين من السعادة »

ولنصغ اليه وهو يصف الفراشة البيضاء تتنقل من زهرة الى أخرى فيقول :

« تحط وتنهض ، ولا حطت ولا نهضت ، بل جاءت في سياق الهواء ، تلتمس بطرف جناحها ورقة النبتة ، فلما أحست النداوة ، من قريب ، أقلعت بالجناح ... ويا لطف مقامها بين ورقتين ! تسائل ، حينئذ، نفسك : أخضراء ، أو بيضاء ، ! ونبات بروح ، أو روح بنبات ؟ ! »

وهو يرى المرأة في الريف تعمل الى جانب زوجها ، روحها في الشجر حياة ، ونفسها في الزهر شذى ، فيمجدها ويقول :

« المرأة في الريف أجل منها في المدينة ، وشأنها فيه أمثل ، وفضلها أتم ، وهي في حقل السنبل ، أو على القطف ، خلف العنب ، اكرم يداً منها في جمعية الفنون الجميلة ... فالاجر على قدر المشقة »

وما أجل مرثيته لدالية العنب فهي نفحة أمين الشاعر على لسان امين الناثر :

« يا أبرك حمل ، على ألطف ساق ! هبط حظك ، في الدنيا الى الارض ، وقام حظ الابلاب ... ولم يدفع بسمائك المرفوعة ، انها كالسماء ، تعطي من فوق ، وتجود بلا حساب، وانها تنزل المصافي على أطيب مائدة ، وتبل القلوب بأعذب ماء ! . . . كل ثمر ، في الفم ، يبلغ طعمه حيث يبلغ طعم الادام ، ثم يقف — عدا ثمارك ! فهي التي تنفذ الى الاحشاء ، وتتغلغل وراء المشاعر . وكل ظل ، مداه لا يتجاوز العين — عدا ظلالك ! فهي التي تمد الى القلب ، فتخضر الاشواق ، وتدق البشائر ، لزفاف بنتك الحلوة ... فيا خير أم لخير بنت : أسفا عليك ! »

هذه نفحات من المفكرة الريفية التي قدمها الأستاذ أمين نخلة تحفة جميلة للأدب . وانه لوحي الطبيعة في أجمل مظاهرها ، مظاهرها الساذجة التي يتخفى وراء سذاجتها أعمق أسرار الجمال ، وأجل ما أبدع ذو الجلال . فالى القصبة التي عاشت على الطلاقة والى القمقم السحري الذي انغمست فيه أقدم خالص الاعجاب

الصيرفي

باب الأخبار العلمية

تضليل طياري الاعداء
في الحرب الحالية

الامواج اللاسلكية وتضليل الطائرات

إن في الحرب الجوية العصرية حيلاً حربية جديدة كثيرة فأصبحت معارك الدهاء دائرة الرحى جنباً الى جنب مع معارك الرصاص والقنابل المشتعلة . وحينما شرع الألمانيون في استعمال الأمواج اللاسلكية الموجهة بغية ارشاد طائراتهم الى أهدافها في انكلترا ، اهتدى علماء الانكليز الى جواب محكم أجابوا بهِ أعداءَهم . ذلك أن الألمانيين أطلقوا من القارة الاوربية موجتين لاسلكيتين موجهتين ، من ناحيتين تبعد احداها عن الأخرى بعداً شاسعاً ، الى الهدف المقصود في انكلترا ، لتستطيع قاذفات القنابل النازية الليلية الاسترشاد باحدى تينك الموجتين اللاسلكيتين حتى تلقي قنابلها عند تقاطع احداها مع الأخرى . فتنبه خبراء اللاسلكي البريطانيون الى تلك الحيلة فعملوا على احباطها اذ أنشأوا تقاطعاً كاذباً بموجة لاسلكية من عندهم

فلما عمدت الطائرات الالمانية ، قاذفة القنابل ، الى شن اغاراتها على أهدافها ، ضلت السبيل ، فألقت قنابلها على الحقول في الأرياف البريطانية . ثم توخى البريطانيون تحسين تلك الطريقة فاستخدموا أمواجاً لاسلكية طولها كطول الأمواج الألمانية لحرفت الأخيرة عن مجراها المقصود ، فغدا طيارو الالمانيين يلقون قنابلهم في الأماكن غير المرومة . وكانت الطائرات الألمانية القاصدة الى بريطانيا ، تلازم الموجة اللاسلكية الموجهة الى بريطانيا نفسها (التي اخترعها الانكليز تضليلاً لهم) حتى ينفد منها البنزين فتضطر الى القاء قنابلها في البحر وتعود أدراجها بصفقة المغبون

تظاهر الطائرة للافلات

ومن الحيل المألوفة عند قادة الطائرات حين وقوعهم في مأزق حرج ، تظاهرهم بأن الطائرة قد أصيبت وأنها على وشك أن تهوي الى الأرض وأن زمامها قد أفلت من يد الطيار . وقد جهز الألمانيون بعض طائراتهم الحربية بمواد كيميائية تولد سحباً من الدخان لتضليل الناظر اليها فيحسبها قد احترقت . ولهذه الحيلة مثيل في حرب الغواصات اذ

تطلق الغواصة مقداراً من النفط والحطام المختزن لهذا الغرض فيطفو على سطح الماء فيظنها الاعداء قد دمرت

نيران مفتعلة لتضليل المغيرات

وفي فصل الصيف الماضي كان رجل أميركي نزيل برلين يسير في احد الشوارع القريبة من تلك العاصمة فعثر على حيلة من أعظم حيل الحرب اتقاناً. وهي شبكة من الأسلاك ممدودة فوق حقل غير مسيَّج. فجعل السائر ينعم نظره في ذلك الحقل فتبيَّن أن الأسلاك ممتدة من خندق ومنتشرة على شكل مروحة متصلة بمبانٍ صغيرة على ربع ميل من الخندق. ولم يكن لهاتيك المباني سقوف أو زجاج نوافذ. وكانت أراضي المباني مفروشة بسحالة الخشب وغيرها من الفضلات. وكانت الأسلاك متصلة بمفتاح كهربائي في الخندق يُدار بهزة صغيرة فيشعل السحالة فتندلع ألسنة اللهيب ليلاً من النوافذ والسطوح الخالية من السقوف فتبدو لناظرها كأنها نيران حقيقية بغية خدع قاذفات القنابل البريطانية التي تشن عليها الاغارات الجوية الليلية

تقليد الأحياء والمدن

وأتيح أيضاً لذلك المخبر الاميركي الاستدلال على حي (من مدينة برلين المزيفة) إذ توغَّل فيهِ فشاهد شوارع ومصانع وسكك حديدية مقلدة ممتدة أميالاً. وكانت تلك الشوارع غاصة بأقفاص كبيرة (مما تستعمل لوقاية السلع المراد نقلها من مكان الى آخر) وكان في كل قفص منها مصباح كهربائي. وذلك من شأنه جعل الحي المشار اليهِ كأنهُ من أحياءِ مدينة برلين الحقيقية، وقد أطفئت مصابيحه اطفاءً غير تام. وامعاناً في التستر نصبت في المدينة المزيفة طوائف من المدافع المضادة للطائرات وقاية لها من قاذفات القنابل المعادية

ولم يكتفِ الألمانيون بتزييف برلين وحدها بل أنشأوا مدينة على هذا النمط في كولوني وذلك عند منعطف عجيب لنهر يشبه انحناءَ نهر الرين عند كولوني الحقيقية. وأذيع قبيل هجوم المانيا على روسيا أن الأولى أنشأت مدينة مزورة تقليداً لمدينة بلويستي Ploesti الرومانية حيث يكرر النفط الروماني فقلّدت مصانع التقطير الكبيرة بانشاء صهاريج للنفط مصنوعة من الخيش، تنبعث منها سحب كثيفة من الدخان الاسود الكيميائي عند قذفها بالقنابل

مصانع مضللة

وفي انكلترا حينما يظن أن مصنعاً من المصانع المشهورة سيكون هدفاً لقنابل الطائرات الالمانية المغيرة ينشأ على مقربة منه مبنى آخر مزيف رخيص. ثم تطفأ مصابيح المصنع الحقيقي اطفاءً تامًّا، على حين تباح اضاءَة بعض مصابيح المصنع

المقلّد فيخيل لناظرها انها قد خالفت قانون منع تطرق الأضواء الى الخارج بعض المخالفة فتشن الطائرات المعادية اغاراتها عليه حتى تنفد قنابلها الثمينة بلا جدوى

وقد تمَّ اتقان أساليب الاستتار الحربي في انكلترا اتقاناً مدهشاً فدهنت المناطق التي تشغلها المصانع لتشبه مباني السكن الكبيرة وأخفيت المنشآت الحربية اخفاء دقيقاً إذ جعلت كأنها منشآت تموين السيارات بالوقود فتصدف عنها المغيرات . فأصبح المرء يشاهد مدارج الطائرات المزيفة مصنوعة من الجير أو التراب الأبيض ويقاطع بعضها بعضاً في مطارات مزيفة على حين تخفى المطارات الحقيقية بانشاء شوارع مزيفة فيها

أمثلة أخرى منوّعة

وقال رقيب أميركي عاد حديثاً من بريطانيا العظمى إن ثلث المطارات في بعض أرجائها مزيف وثلثيها حقيقيان . وقد غير الالمانيون شكل برلين تغييراً شديداً يكاد يخفيها عن عيون الطائرات المعادية . فوضعوا فوق سقوف بيوتها أزهاراً ذات أوراق وأحاطوا بركها بأرمات مغطاة بالخضرة وغطوا بحيراتها الصغيرة تغطية تامة بشباك تمتد فوقها من شاطئ الى آخر . وضيقوا شارع أنتر دن ليندن Unter den Linden وهو أبرز معالم برلين ، الى نصف عرضه الحقيقي وذلك باقامة صقالات وشباك مختلفة فيه . وفي مدينة همبرج حيث يوجد حوض نهر ألِيستر Alster وهو محجة الطائرات المغيرة على قلب المدينة ، نصب الالمانيون طائفة من الصقالات والأرمات بطريقة جعلت ذلك الحوض يظهر لطياري الاعداء كأنه متقاطع مع الشوارع والمباني المحيطة به حيث أنشأوا جسراً كاذباً وحوضاً مزوراً في الخليج بعيدين عن الحوض الحقيقي . ثم ستروا السكك الحديدية القريبة منه ودهنوا الشوارع الموازية للمحطة بألوان زيتية مختلفة . ومع ذلك فقد كشفت مخبآتهم آلات التصوير التي تحملها الطائرات البريطانية بعد أن تفقدتها أسابيع

وتنجح التعمية في كثير من الأحوال اذا صار الهدف غامضاً أمام أبصار الطيارين إذ الطيار يرى الأشباح مائلة تحت عينيه . وتقطع الطائرة الحربية خمسة أميال في الدقيقة وهي على ارتفاع عشرين الف قدم من الأرض وعلى الطيار حينئذٍ أن يبصر هدفه على عشرة أميال ثم يتجه صوبه وهو على خمسة أميال منه . ويلقي قنبلته على بعد ثلاثة أميال من الهدف . فاذا كان الهدف المستتر مما لا يشاهد إلاّ من وضع عمودي فوقه تعذر على الطيار اصابته

الطبيعة والتصوير يكشفان الحيل

والطبيعة كثيراً ما تفشي سرّ التعمية . ومثال ذلك أن مطاراً المانيًّا مجاوراً لمزرعة تميزها من جاراتها تميزاً جليًّا خنادق الري « المصارف » أراد النازيون اخفاء معالمه

فرسموا بالالوان الزيتية خنادق كاذبة على طول المطار فصورتها آلات التصوير البريطانية كأنها حقيقية . فما أن تجمدت المياه الحقيقية التي كانت جارية في الخنادق حتى برزت للعيان الخنادق الكاذبة المصنوعة بالالوان الزيتية كانها لوحة اعلان من اللوحات التي تضاء بغاز النيون

واذا قصد الاستخفاء بالاستار التي تصنع من أوراق الاشجار الصناعية ، وجب تغييرها طبقاً لفصول السنة كما ينبغي تغيير الاوراق الطبيعية يوميًّا لأن اليخضور الذي فيها يتلف عاجلاً ويظهر تلفهُ في الصور الفوتوغرافية التي يلتقطها الطيارون . وآلة التصوير الضوئي هي المرجع الوحيد الذي يعول عليه الرقيب الجوي في استكشاف حيل المضللين. وقد تظهر الرسوم الزيتية في صورة فوتوغرافية واحدة كانها حقيقية ، ولكن اذا التقطت صور البقعة نفسها صباحاً وعصراً تجلت حقيقتها اذ تتغير الشمس ، ولا تتبدل الظلال المرسومة فيبدو غشها وينكشف أمرها

وقد أظهرت المصورات البريطانية المجسمة للصور « الاستيريسكوب » كثيراً من الخدع الألمانية لانها تلتقط صورتين ضوئيتين جويتين في آن واحد ، فاذا فحصتا معاً « بالاستيريسكوب » ظهر انها صور مرسومة بالزيت لا أشياء حقيقية مجسمة

التصوير بالاشعة التي تحت الحمراء

ومن المغالطة في القول ان الألمانيين واليابانيين قد بزوا الحلفاء في اختراع ضروب الخداع الحربي اذ تيسر لسلاح الطيران الاميركي التفوق في التقاط الصور بالاشعة التي تحت الحمراء وهي تكشف اسرار الصور المرسومة بالزيت .وتوضح الفرق بين الأوراق النباتية، صناعية كانت أو طبيعية، فأضحى ذلك السلاح مجليًّا في التصوير الجوي الليلي وفي استعمال الافلام الملونة التي تنتج الصورة كما تراها العيون البشرية.وصار المهندسون الاميركيون خبراء في فن العَمَه الحربي المقصود بهِ وقاية العتاد على اختلاف انواعهِ ومثال ذلك الاكواخ المزيفة التي تشاهد في نيو انجلند ، والمصايف التي تنشأ في شبه جزيرة فلوريدا ، وهي وسائل مدهشة لموارات المخازن السرية المبنية تحت الارض لاخفاء البنزين اللازم للطائرات

وفي اميركا قاعدة من القواعد الحربية أنشئت على شكل مزرعة مستوفاة المعدات اذ تحتوي على مقبرة مزيفة وبرج للهابطات يبدو كانهُ قبة كنيسة . وقد زرعت في بعض أرجاء الحقل حشائش مختلفة يخيل للناظر اليها انها حقول حقيقية . اما المناطق المحتوية على المصانع الساحلية الاميركية الضرورية للحياة فقد استعمل لاخفائها الضباب الصناعي

عوض جندي

قنبلة الاعماق والغواصة

بين قنبلة الاعماق والغوّاصة عداء مستحكم. فرجال الغوّاصات الالمانية يسعون جهدهم لقطع خطوط المواصلات البحرية التي تعتمد عليها الدول المتحدة في غير ناحية واحدة من نواحي جهدها الحربي. ورجال الاساطيل البحرية المتحدة يبذلون طاقتهم لاستكشاف الغواصات ونسفها بقنابل الاعماق تحت الماء أو بقنابل المدافع على سطحه

وقد أثبت التجريب ان خير وسيلة لمكافحة غواصة تحت الماء، ان تلقى اربع قنابل من قنابل الاعماق في المكان الذي تكون فيه الغواصة او يظن انها فيه. والقاء القنابل الاربع يكون في مربع او شبه مربع فتلقى كل قنبلة في زاوية من زواياه وتضبط القنابل حتى تنفجر جميعها في وقت واحد وعلى عمق معين، لكي تتأثر الغواصة بفعلها من جميع النواحي

اما ما يحدث للغواصة فلا يعرف على وجه دقيق. فاذا انفجرت القنابل قريباً منها فقد تسحقها فتتسطح وتغرق من فيها. واذا كان الانفجار على بعد ما منها، فالصدمة القوية قد تعطل أجهزتها وتضطرها الى الصعود الى سطح الماء والغالب ان يجهز عليها بقنابل المدافع، او قد تغوص الى اغوار سحيقة فيسحقها ضغط الماء العظيم. وقلما تذاع انباء الفوز على الغواصات لأن قيادة أساطيل الدول المتحدة لا تريد ان تتيح للاميرالية الالمانية ما يمكنها من معرفة المناطق التي تغرق فيها الغوّاصات لارسال اخرى تحل محلها. ومطاردو الغواصات أنفسهم لا يعرفون أحياناً هل غرقت الغوّاصات التي قذفوا قنابل الاعماق عليها ولا يسعهم ان يستوثقوا من ذلك بمجرد الاعتماد على زيت أو حطام يطفو منها على وجه الغمر. فالالمان يتوسلون بهذه الوسائل ليضللوا مطارديهم

وفعل قنابل الاعماق مردّه الى ان انفجار المادة المنفرقعة تحت سطح الماء يولّد قدراً كبيراً من الغاز عند حدوث الانفجار فيدفع الغاز الماء امامه دفعاً قوياً، والماء لا ينضغط أو هو قليل الانضغاط كثيراً فيصدم جوانب الغواصات صدماً شديداً، كأنما هو مطرقة تطرقها فتختل اجهزتها في الداخل او تتفكك ألواحها او تضغطها فتسطحها

فيتامين K ونخر الاسنان

فيتامين K هو الفيتامين المشهور الذي يمنع النزف. وقد كشف العالم الدنماركي «هنريك دام» فعله من سنوات فاحتفي به في الدوائر العلمية والطبية أعظم احتفاء لأن فائدته لا تقدر بمال ولا سيما في العمليات الجراحية والتوليد. فمن أغرب ما عرف عن المواليد حديثي العهد بهذا العالم ان مقدار «البروترومبين» فيهم قليل، وهو مادة من المواد الأربع اللازمة لتخثر الدم. فأصغر جرح يصيب هؤلاء المواليد عند الولادة

او في الأيام الاولى من حياتهم يستنزف دمهم. ففيتامين K يستعمل الآن لتوقي هذه الحالات فإما ان تجرعه الحوامل في شهر الحبل الاخير وإما ان يعطى المواليد احتياطاً . ومن الشواهد على فعل هذا الفيتامين ان طفلاً وُلد وبعد ولادته بثلاثة أيام وجد دم في أنفه ، فاستخرجت قطرة دمٍ من قدمه للبحث فوجد انها تخثرت بعد ١١ دقيقة من استخراجها ولكن دم الجرح بقي يسيل ١٢ ساعة فجُرّع مقداراً صغيراً من الفيتامين فوقف النزف من قدمه وبعد مضي ٩٠ دقيقة قصر وقت التخثر الى النصف ثم الى الوقت العادي وهو ثلاث دقائق

هذا شيء عن فعل هذا الفيتامين في منع النزف . ولكن له فائدة اخرى عظيمة الشأن كشفت حديثاً . فقد نشر جماعة من الاطباء الاساتذة بمدرسة طب الاسنان في جامعة نورث وسترن بحثاً في مجلة « سينس » اثبتت فيه ان فيتامين K سواء أطبيعيًّا كان ام مركبًا بالصناعة والكيمياء ، يحول دون نخر الاسنان ، لانهُ يمنع تولّد الاحماض في الفم واليها مردُّ النخر. وقد جرَّب هؤلاء الباحثون تجارب شتى في الانابيب فوضعوا مقدار ملغرام واحد من فيتامين K المركب في ثلاث اوقيات من اللعاب تحتوي على ١٠ في المائة من وزنها سكراً فمنع وجود هذا القدر اليسير من الفيتامين K تولد الاحماض في هذا المزيج مدى اربع ساعات

وفعل هذا الفيتامين ليس فعلاً مطهراً لأن التجارب أثبتت انه لا يمنع نموّ البكتيريا

اندمال الجروح : كشفٌ عجيب

في كثير من معامل البحث الطبي والبيولوجي يسعى عشرات من الباحثين الى الكشف عن مادة تساعد الاجسام التي أصيبت بجراح على الشفاء . ففي انكلترا مثلاً يجربون الآن مادة تدعى «ابيكوتان» Epicutan — وهي مستحضرة من أجنة العجول — في شفاء جراح الحرب المستعصية . وقال فريق من الاطباء الباحثين في مدينة سنسناتي الاميركية ان بحثهم أسفر عن ان الانساج المصابة بجرح تولّد بفعل الجرح مادَّة ما تعجل الاندمال

ثم نقلت مجلة « نايتشر » المشهورة ان الدوائر الطبية بالجيش البريطاني في القدس الشريف ، كشفت بالاشتراك مع الباحثين في معامل الجامعة العبرية ، ان في قلوب الفراخ (الكتاكيت) مادة تعجل تعجيلاً عجيباً نموّ الانساج حيث اصيب العضو بجرح. وان هذه المادة يمكن استخلاصها من قلوب الفراخ والكلاب والضأن والبقر والارانب . وقد جرّبت الخلاصة في علاج جنود مصابين بجراح فعجلت اندمالها

هذه الفائدة العملية المجنيَّة من هذه التجارب ، يجب ان تضاف اليها فائدةٌ علمية ، وهي ان المواد التي تعجل النموّ — اي تكاثر الخلايا — ليست مقتصرة على الاجنة بل توجد كذلك في قلوب الحيوانات الكبيرة . والخطوة التالية استخلاص هذه المادة، — وقد تكون من قبيل النَّموْر (هرمون) — ثم تركيبها بالتأليف الكيمائي واباحتها للناس

سر طبي : كشفه بعد الوفاة

ظنَّ المصابُ ان أحداً ما دسَّ لهُ السمَّ . وذهب طبيب الى انهُ مخبول وآخر الى انهُ مصاب بالأنفلونزا وأبى طبيب تحت التمرين يشرف على سيَّارة لنقل المرضى أن يأخذه الى المستشفى لأن اصابتهُ في رأيه لا تستدعي ذلك. فمضى المصاب وحده متثاقلاً الى المستشفى وتوفي في اليوم التالي بينما كانوا يتأهبون لنقلهِ الى جناح المصابين بالأمراض العصبية

وصفت هذه الحادثة في مجلة « معامل الطب السريري » الأميركية ، فقالت ان المصاب كان عاملاً من عمال نيويورك ، وكان بدء اصابتهِ ارتفاع حرارتهِ وجفاف حلقهِ وخشيته رؤية الماء . فلما ذهب الى المستشفى اشتدَّت أعراض الهذيان والتهيُّج فحُكم حينئذٍ بأنه مصاب بمرضٍ عصبيّ . فلما توفي في اليوم التالي شرّح فلم يستوقف نظر المشرحين إلاَّ احتقان عام في البطن وندبة جرح في السبابة . ولكن نسيج جهاز العصبي فُحصَ فحصاً مجهريًّا فظهر التهاب بين المخ والحبل الشوكي . فما سبَّب هذا الالتهاب ؟

لم يظفر الباحثون بالجواب إلاَّ بعد أسابيع من البحث المدقّق . فقد أخذوا خلاصة مركزة من مخ المتوفَّى وحقنوها في مخي خنزيرين من خنازير الهند ومخي أرنبين وأمخاخ ستة فئران ، فوجدوا الخنزيرين ميتين في اليوم التالي . ومات الأرنبان في اليوم الحادي عشر واليوم الرابع عشر بعد الحقن . وبدت على الفئران دلائل المقاومة ، ولكنَّ فأرين أصيبا في اليوم التاسع وأصبحا لا يمشيان إلاَّ متثاقلين . فقتلا وأخذ من مخيهما محلول حقن في عشرة فئران سليمة فما لبثت حتى شُلَّت وماتت . فقرَّر الباحثون ان الفيروس في هذه الاصابات هو فيروس مرض النوم أو فيروس أحد الأمراض الجلدية أو فيروس السعار (الكَلَب) . ففيروس أيّهما هو؟

ومضى الباحثون ينقلون الفيروس من مخ حيوان مصاب الى مخ حيوانٍ سليم ، فازداد ما يرونهُ في كل محلول لاحق ، من جسيمات بيضية صغيرة أو كروية تدعى « جسيمات نجري Negri » وهي دليل لا ريب فيهِ على الاصابة بالسعار (الكَلَب) . ولكي يستوثقوا من هذا الاستنتاج جرَّبوا المصل المضاد للسعار فوجدوه يبطل فعل الجسيمات في حيوان مصاب

ومن ثمَّ عادوا الى تاريخ الرجل الذي أصيب وتوفي فوجدوا كيف أصيب . ذلك بأنهُ كان في ليلة عيد الميلاد يلاعب كلبةً ، فعضتهُ الكلبة في السبابة اليمنى فمسح الرجل مكان العضة بصبغة اليود ونسيَ ما حدث ، وبعد شهر ونصف شهرٍ ظهرت عليهِ الاعراض التي أفضت الى وفاته . وقد خرج الباحثون بهذا المغزى ، وهو انه يتعين على مفتشي الصحة في منطقة منتشر فيها السعار ، ان يتيقظوا لإِصابات في الناس لا تستوقف النظر اولاً

توفيق اسكاروس

في ليلة اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩٤٢ نعي الى الصحف اليومية الطيب الذكر الاستاذ توفيق اسكاروس وله من العمر نحو ٦٨ سنة . فانطفأت بوفاته شعلة حياة عاملة دؤوبة . وطُوي سجل زخرت صفحاته بآيات باهرة من النشاط العقلي

كان الفقيد من أوائل الناجحين في امتحان البكالوريا في سنة انشاء هذه الشهادة والتحق بمدرسة الحقوق الخديوية فأتم دراسة القانون ونال الليسانس وعين على الأثر في وظيفة في المكتبة الخديوية (دار الكتب المصرية الآن) فساعده ذلك على معاشرة خير رفيق للمرء في الحياة ونعني به « الكتاب » لأنهُ لم يكتفِ بتأدية عملهِ « الروتين » في وظيفته بل ملأ أوقات فراغهِ بالمطالعة . ولذَّ له ان يختار من موضوعاتها تاريخ مصر القديم وتاريخها الحديث . وشغف بهذا الجانب من التاريخ وعلى الاخص بما كان منهُ متعلقاً بالعصر المسيحي . فقرأ عشرات من المصنفات في اللغتين العربية والفرنسية ما بين مخطوط منها ومطبوع . واطلع على فهارس المكتبات العامة في اوربا وعلى كل كتاب حديث ظهر في نصف القرن الاخير في هذا الموضوع حتى حفلت جعبته بالمعلومات المتصلة به

فألف في سنة ١٩٠٩ رسالة في سيرة مرقس الرسول اجابة لطلب جمعية الرابطة المسيحية. وفي سنة ١٩١٠ اصدر الجزء الاول من كتابه « نوابغ الاقباط ومشاهيرهم في القرن التاسع عشر » واستهل هذا الجزء بتاريخ الحملة الفرنسية على مصر . وفي سنة ١٩١٣ أصدر الجزء الثاني من هذا الكتاب

وانضم الى لجنة التاريخ القبطي وساهم في تأليف ثلاث حلقات في سلسلة هذا التاريخ وكان الى ما قبل وفاته بايام مكبًّا على البحث والتأليف مع زملائه في سائر اجزاء هذه السلسلة

وكان على اتصال بالمغفور له العالم الكبير ميخائيل شاروبيم بك صاحب تاريخ «الكافي» وبذل كثيراً من المسعى في سبيل طبع الجزء الخامس من هذه الموسوعة الجليلة

وللاستاذ اسكاروس بحوث ومقالات في المقتطف والهلال والمقطم والأهرام وغيرها شاد فيها بحسنات حكم محمد علي والخديو اسماعيل وكتب عشرات من الفصول في تاريخ الكنيسة ومجلة الشرق والغرب وغيرها من المجلات . وله محاضرات في الهيئات العلمية والملية آخرها محاضرة ألقاها في دار الشباب الجامعي القبطي قبل وفاته بأيام وأسس مع أصدقاء له « جمعية النشأة القبطية منذ ٤٦ سنة وظل يصدر تقويمها السنوي كل هذه المدة بلا انقطاع . واشترك في النهضات الاصلاحية القبطية بقلمه ولسانه فكان عضواً في جمعية التوفيق وفي المجلس الملي العام. ولما اشتهر به من الخبرة في فن تنظيم المكتبات ندب بعد اعتزاله خدمة الحكومة لتنظيم مكتبة قصر عابدين ومكتبة الدار البطريركية القبطية

فهرس الجزء الخامس

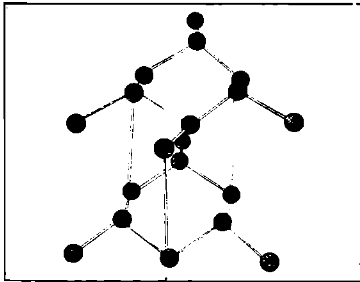
من المجلد الواحد بعد المائة

٤٤٥ العلم والدمقراطية
٤٥٤ نفط روسيا وحاجة هتلر
٤٦١ بعد الحرب : كيف تعالج المشكلات العالمية : للدكتور تشارلز وطسن
٤٦٨ وقفة وداع (قصيدة) : لعدنان مردم بك
٤٦٩ معضلة التغذية في مصر : للدكتور حسن كمال
٤٨٢ طبقات الارض وموارد القارات
٤٨٥ جغرافيو العرب وسوريا : لنقولا زيادة
٤٩١ الهيكسوس مطاردتهم في مصر : للدكتور باهور لبيب
٤٩٥ نشيد الشجرة : لمحمد يوسف حمود
٤٩٦ فلسفة الأخلاق في الاسلام وصلاتها بالفلسفة الاغريقية : ليوسف كرم
٥٠٣ عوالم اخرى كثيرة كأرضنا
٥٠٧ المدخل الى علم الحيوان : للاب انستاس ماري الكرملي
٥١٣ الدمعة : نقلها الياس زعرور
٥١٤ فضائل الصلاة الصحية : للدكتور شوكت موفق الشطي
٥١٧ حديقة المقتطف * الوطنية في نظر تاجور : لمحمود النجوري
٥٢٦ باب المراسلة والمناظرة * استدراكات على الامتاع والمؤانسة : للدكتور بشر فارس. تعقيب على مقال فلسفة الاخلاق في الاسلام وصلاتها بالفلسفة الاغريقية : للشيخ محمد يوسف موسى

٥٣٤ مكتبة المقتطف * عبقرية عمر : لمحمود محمد شاكر . فهرس الادب العربي في لبنان : لصلاح الاسير . مجرى الادب في مصر سنة ١٩٣٨ . تاريخ الجامع الازهر في العصر الفاطمي : لمحمد عبد الغني حسن . المفكرة الريفية لفؤاد افندي : للصيرفي
٥٤٤ اخبار علمية * تضليل طائري الاعداء في الحرب الحالية : لعوض جندي. قنبلة الاعماق والغواصة. فيتامين K ونخر الاسنان . اندمال الجروح : كشف عجيب . سرطي : كشفه بعد الوفاة . توفيق اسكاروس



انتظام الذرات في بلورة الكلسيت
وهي مؤلفة من ثلاثة انواع من الذرات . فالذرات الكبيرة تمثل ذرات الكالسيوم
والصغيرة السود تمثل ذرات الكربون والصغيرة البيض ذرات الاكسجين



انتظام الذرات في بلورة غرافيت

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد المائة

١ ابريل سنة ١٩٤٢ — ١٥ ربيع اول سنة ١٣٦١

أساطين العلم الحديث

وليم براغ وعلم البلورات

إن دراسة البلورات بالأشعة السينية فرع جديد من فروع العلم الطبيعي الحديث . جذوره ندة في الذرات والجزيئات والاشعة ، وفروعه منتشرة في عالم الصناعة . مهد له أولاً الاستاذ ...ن السويسري سنة ١٩١٢ في جامعة زوريخ ، اذ بيّن ان الأشعة السينية تمكن الباحث من ...رفة بناء البلورات ، فحققت هذه الأشعة ما عجزت عنه أشعة الضوء العادي . وأخذ السر وليم ...راغ Bragg وابنه الاستاذ وليم براغ الشعال الخافت من يد الباحث السويسري ، ومضيا به ...ناً بعيداً في ميدان لا طرق فيه ولا معالم ، فأزاحا النقاب عن مشاهد خلابة في عالم البناء ...يبي والكيمائي ، ونفحا الصناعة بأداة لا تقدر قيمتها ببدرات الأموال . وفي منتصف ...س ١٩٤٢ أذيع ان براغ الكبير قد ذهب الى لقاء ربه . فجدير بنا ان نقف هنا قليلاً ، ريثما ...ي نظرة في هذا العلم الجديد ونواحيه النظرية والتطبيقية ، وسيرة هذا العالم الكبير

١ — أصول علم البلورات الحديث

...ا كان الانسان قادراً على تصور بعض النتائج التي يجنيها من تغلبه على المصاعب التي ...في سبيله ، ولما كان ذا عزم يدفعهُ الى محاولة التغلب عليها ، فقد استنبط وسائل مختلفة

غاية في الاحكام لمساعدته في تحقيق ما يصبو اليهِ . فاذا أخذنا بعض المصاعب التي تنشأ عن ضعف بصره وجدنا انهُ استنبط المجهر ليمكنه من رؤية الأجسام الدقيقة التي تعجز العين المجردة عن رؤيتها

فنجم عن ذلك ان الانسان أصبح بالمجهر أقدر على بحث كثير من المواد التي لا بدَّ من استعمالها في شؤون الحياة اليومية. فهو أداة فعالة في درس سطوح المعادن والأخلاط التي تبنى منها الآلات والسيارات وسكك الحديد . ولا غنى عنهُ في درس دقائق الألياف في صناعة الغزل والنسج . وغني عن البيان أنهُ وسيلة البيولوجي الاول وسلاح البكتيريولوجي الأمضى. وبعلوم البيولوجي والبكتيريولوجي تتصل العلوم والصناعات الزراعية التي لها أكبر شأن في العمران الحديث

على ان للمجهر حدًّا لا يستطيع ان يتعداهُ . فبهِ نستطيع ان نرى طائفة كبيرة من الاجسام الدقيقة . ولكن ثمة طائفة من الاجسام أصغر منها لا يكشف عنها المجهر . وسبب هذا العجز حائل طبيعي ، مردُّه إلى طبيعة أمواج الضوءِ . ولو كانت جميع الاشياء التي تهمنا مما يستطاع الكشف عنهُ بالمجهر لما كان العلماء يحاولون ان يتخطوا هذا الحائل كاختراعهم من عهد قريب المجهر الكهربي . ولكن العوالم الكائنة وراءَ حدود المجهر العادي أوسع آفاقًا من العوالم التي كشف المجهر عنها . ولذا فلا مندحة عن البحث عن وسيلة لرؤية ما في تلك العوالم من الدقائق والأسرار . فثمة مثلاً تفاصيل بناء الخلية الحية وتركيب أصغر الدقائق التي في المعادن والفلزات والمطاط والدهان والعظم والعصب وألياف القطن والكتان والحرير وغيرها ، وهي لا بدَّ ان تظل محجوبة عنا اذا اكتفينا بالمجهر العادي ، لأن حجبها قائم على طبيعة الضوء لا على جهل الباحث . فما هو هذا الحائل الطبيعي ؟

تقوم قوة بصرنا على اشعاع الضوء من مصدر ما . فالضوء سر البصر ومن دونهِ نعجز عن رؤية جسم ما من الاجسام . وحقيقة الاشعاع لا تزال مخفية عنا . ولكن ما كشف من ظاهراتها يخولنا حق القول انها في بعض هذه الظاهرات امواجٌ في وسط يدعى الاثير . والعين عضوٌ خلق للتأثر بهذه الامواج . فاذا اتجهنا الى مصدر الضوء بعيوننا لم نشعر الاَّ بهذا التألق المنبعث منهُ فاذا وقعت هذه الامواج على جسم ارتدت عنهُ وتحوَّلت في اثناء ارتدادها . فاذا اتجهنا بعيوننا الى هذا الجسم المغمور بالامواج ، اتصلت بها الامواج المرتدة عنهُ المتحولة في اثناء ارتدادها . وقد تعلمنا بالاختبار الطويل ان نميّز من طبيعة الامواج المرتدة، طبيعة الجسم المرتدة عنهُ . وهذا هو الابصار

والفعل الاساسي في هذا العمل هو تشتت امواج الضوء وتحوّلها بحسب الجسم الذي

بنائها . والمعروف ان للامواج أطوالاً مختلفة . فاذا لاحظنا أمواج البحر وجدنا ان جسماً صغيراً طافياً على سطح البحر كقطعة صغيرة من الخشب الخفيف لا يستطيع ان يؤثر في مسير الموجة . بل هي تتعداه في سيرها غير آبهة له . فاذا التقت بجدار كبير او بسفينة ضخمة ارتدت عنها . وما يصدق على أمواج البحر يصدق على أمواج الضوء . فمن الاجسام ما هو أصغر من أمواج الضوء التي نراها . وهذه الاجسام لصغرها لا تستطيع أن تؤثر في الامواج فلا ترتد الامواج عنها ولا تتحول ، ولذلك لا نستطيع ان نراها لا بالعين المجردة ولا بالمجهر المألوف ، لان الامواج التي تستطيع العين ان تتأثر بها فتمكنها من الابصار ، تقع بين طرفين محدودين من الطول والقصر . وهذه الاجسام اصغر من أقصر هذه الامواج . فلا بدَّ من بنائها محجوبة عن أبصارنا اذا اكتفينا بالمجهر المألوف . على ان رؤيتها ومعرفة تفاصيل بنائها لها شأن خطير في ارتقاء العلم والعمران . فماذا نفعل ؟

بالاشعة السينية نستطيع ان نتخطى هذا الحائل وندخل عالماً جديداً واسع النطاق كثير المجاهل . والأشعة السينية تمكننا من ذلك لان امواجها اقصر من اقصر الامواج الضوئية التي نبصرها ونبصربها عشرة آلاف ضعف . على انها شبيهة بها من حيث خصائصها الطبيعية . فالاجسام الدقيقة التي لم تستطع ان تؤثر في اقصر امواج الضوء تستطيع ان ترد امواج الاشعة السينية وتحولها لأن هذه الامواج أصغر منها

ولكن كيف نستطيع أن نطلع على الحقائق التي تكشفها لنا هذه الاشعة ونحن لا نستطيع رؤيتها لانها خارج نطاق الامواج التي تؤثر في أعصابنا البصرية

التصوير الضوئي هو إحدى هذه الوسائل . فالفلم او لوح التصوير الضوئي ينطبع بهذه الاشعة كما ينطبع بالأشعة الكيميائية التي في ضوء الشمس — برغم احتجابها عن عيوننا . لكن ذلك لا يجدي نفعاً لو لم تكن الطبيعة قد جرت في بناء المواد على قواعد معينة . فما هي هذه القواعد ؟

نحن نعلم ان العناصر اثنان وتسعون عنصراً . أخفها الايدروجين وأثقلها الأورانيوم . ولكن منها بضعة عناصر تفوق سائر العناصر مقداراً في جو الارض وقشرتها والاجسام التي على سطحها . ومن أشهرها الأكسجين والسليكون والألومنيوم . فاذا أخذنا قطعة من الحديد الصرف علمنا أنها لا تحتوي على شيء الاّ على ذرّات الحديد . ولكن هذه الذرّات ليست مجتمعة اعتباطاً . بل هي منتظمة انتظاماً دقيقاً طبقاً لنموذج معين لا تحيد عنهُ . وللنحاس نموذج خاص بهِ . وللماس آخر وهلمَّ جرّا . وبعض هذه النماذج أبسط بناءً من نموذج الحديد ، وأكثرها أشدُّ تعقيداً منهُ ، ولا سيما في المواد المركبة . والمسافات بين الذرّات

في هذه النماذج قصيرة جدًّا والذرّات نفسها لا ترى . ولكننا نعرف ترتيب الذرّات او الجزيئات بواسطة الأشعة السينية

فاذا وجدت لدينا مادة تنتظم فيها الذرات طبق النموذج المعيّن في صفوف موازٍ أحدها للآخر قلنا أن هذه القطعة المادية « بلورة » Crystal . وصفة البلورة انما تستعمل في هذا العلم للانتظام الكامل بحسب النموذج الخاص بمادة ما . والبلورات الفردة كثيرة منها الجواهر والحجارة الثمينة وبلورات الملح والسكر وغيرها . ولكن معظم المواد التي نتناولها كل يوم ، كالقطع الفلزية في ساعاتنا ودبابيسنا ونقودنا انما هي مجموعة من البلورات الدقيقة . والواقع إن البلورة الفردة من فلز ما شيء نادر الوجود غريب الأطوار . فاذا اتيح لنا الحصول على بلورة من النحاس واخذناها في أيدينا تمكنا من حنيها كأنها قطعة من الصلصال المتجمد بعض التجمُّد . فاذا عالجناها كذلك هنيهة تصلبت في ايدينا وأصبحت كالنحاس المألوف صلابةً ومتانةً

وسبب ذلك ان لكل نوع من البلورات سطوحاً خاصة تنزلق صفوف الذرات — او الجزيئات اذا كانت مركّبات لا عناصر — بعضها على بعض في جهتها ، وتدعى هذه السطوح سطوح الانزلاق . فاذا كانت بلورة النحاس بلورة مفردة سهل انزلاق صفٍ من ذرّاتها على الآخر وهكذا يسهل حنيُها . أما اذا كانت القطعة التي في يدك متعددة البلورات تعارضت سطوح الانزلاق . فاذا حاولت حني القطعة في جهةٍ ما اعترضتك بعض البلورات التي اتجاه سطوح انزلاقها مقاوم للجهة التي ترغب فيها فتعجز عن تحقيق اربك . ولذلك ترى جميع المواد البلورية المتعددة البلورات صلبة صلابة متفاوتة

والبلورات الصغيرة التي تتألف منها المواد تمكن رؤيتها أحياناً بالعين المجردة أو بالمجهر الذي كان أداة فعالة في ترقية علم المعادن وما يُصنع منها . ولكن برغم فائدة المجهر في هذه الناحية لا يستطيع ان يكشف لنا شيئاً عن بناء هذه البلورات الصغيرة اي عن انتظام الذرات والجزيئات فيها في نماذج معينة . وأما الاشعة السينية فتستطيع أن تفعل ذلك اذا أتقنا استعمالها وفهم النتائج التي يسفر عنها هذا الاستعمال

واذا صحت الحقائق المتقدمة عن بلورات عنصر واحد فأحرِ بفائدة الاشعة السينية في درس بلورات المواد الفلزية المعقدة كالاخلاط الفلزية مثلاً التي أصبح لها مقام خاص في الصناعات الحديثة . لان المهندس يستطيع باعتماده على نتائج البحث بالاشعة السينية أن يخلق منها ما يجمع صفات متعددة يحتاج اليها كما فعل بالدورالومن الجامع بين المتانة وخفة الوزن وهو يستعمل الآن في بناء هياكل البلونات وأجسام الطائرات . وصفات هذه الاخلاط تتوقف غالباً على أشكال البلورات التي تتكون فيها وأحجامها واتجاهاتها النسبية . وهذه كلها مما يمكن درسه بالاشعة

السينية بل إن الاشعة السينية قد أثبتت ان كثيراً من المواد التي لم تحسب بلورية من قبل هي في الواقع بلورية البناء كالقطن والحرير والمطاط الممدود والعظم وغيرها

هذه المامة بسيطة ببناء البلورات وما لمعرفة قواعده من الشأن في الصناعات الحديثة . بقي علينا أن نذكر شيئاً عن طريقة استعمال الاشعة السينية لمعرفة دقائق هذا البناء .

قلنا اننا نرى الاجسام بوقوع أشعة النور عليها وارتدادها عنها بعد تحولها تحولاً اصبحنا نفهم منه طبيعة الجسم الذي يردها ويحولها . أما الاشعة السينية فقصيرة جداً فتستطيع الذرة ان تردها عنها . ولكن الذرة متناهية في الدقة كذلك فلا نستطيع ان نحس بأمواج الأشعة السينية المرتدة عن ذرة واحدة . ومن هنا مقام البلورات . فالبلورات مجموعة منتظمة من الذرات أو الجزيئات . والذرات أو الجزيئات في بلورات مادة ما منتظمة انتظاماً واحداً . فاذا سددت الاشعة السينية الى بلورة اخترقت ذراتها وجزيئاتها ونفذت في نموذج منتظم وهذا يصوّر وبه يعرف انتظام الذرات في البلورة

ومما لا ريب فيه انها طريقة غير مباشرة لمعرفة أسرار هذا البناء . فنحن لا نرى بها الذرات او الجزيئات المفردة . بل نكشف فقط عن طريقة انتظامها. ولكن الحقائق التي تجمع من هذه الطريقة تُضَمّ الى الحقائق التي تجمع من ميادين العلم الاخرى وبها يتوسل العلماء الى الكشف عن اسرار البناء في الطبيعة

٢ — براغ وبحث الذرّة

في شهر يناير سنة ١٩٠٣ عقد مجمع تقدم العلوم الاسترالي مؤتمره السنويّ في مدينة دونيدن بزيلندا الجديدة. وكان رئيس قسم الرياضة والطبيعة فيه، أستاذ الرياضة والطبيعة في جامعة أدليد الاسترالية. وكان عليه أن يلقي خطبة الرآسة في قسمه . ففكّر قبل الاجتماع بأشهر، في موضوع يحتمل ان يظفر بعناية الاعضاء . وكان الكهرب وظاهرة النشاط الاشعاعي قد كشفا في أواخر القرن التاسع عشر، وكان هو كمعظم علماء الطبيعة حينئذٍ، لا يعرف من هذا الموضوع، سوى نزر يسير ، ومع ذلك مال الى انتزاع موضوع خطبته من هذا الميدان البكر في العلوم الطبيعية . فليراجع الكتب في الأشهر الباقية أمامه

كان الاقدام صفة من صفات وليم براغ ، ولعله كان مثالاً حيًّا على قول من قال « ان الحمق يطأون حيث تخشى الملائكة ان تطأ » . والواقع ان تعيينه أستاذاً في أدليد كان نتيجة مثل هذا الاقدام . ففي سنة ١٨٨٤ كان يتمشى في ساحة جامعة كمبردج مع عميد كلية ترنيتي فسأله العميد هل قدّم طلباً لمنصب أستاذٍ في جامعة أدليد . فقال انهُ لم يفعل، ولكنهُ قرّر ان

يقدم الطلب . نعم ان منصب الاستاذ هذا كان يشمل الرياضة والطبيعة كليهما ، ومع تفوقهِ في العلوم الرياضية، فانهُ لم يدرس العلوم الطبيعية دراسة مفصلة . ولكن هذه مسألة ثانوية عنده . ففي وسعهِ ان يكبّ على دراسة الطبيعة قبل وصولهِ الى أدليد . وفعلاً قدم الطلب وعين أستاذاً ، وغادر انكلترا بعد ثلاثة أسابيع ، وجعل همهُ في أثناء الرحلة ، الإكباب على كتب الطبيعة ينعم النظر فيها ، ويجيل في موضوعاتها شعاع ذهنهِ المتوقد الذي أرهفتهُ دراسة الرياضة العالية

وقضى براغ سبع عشرة سنة في جامعة أدليد يدرّس الرياضة والطبيعة ، ويتتبع تقدمها تتبعاً دقيقاً حتى غدا من أعلام مدرسيهما . وحوالي ذلك الوقت طلب اليهِ ان يرئس قسم الرياضة والطبيعة في مجمع تقدم العلوم الاسترالي . فعمد الى مطالعة ما كتب في الكهرباء والنشاط الاشعاعي ، على نحو مافعل في دراسة الطبيعة نفسها في اثناء رحلتهِ من انكلترا الى استراليا . وكذلك بدأت مرحلة جديدة من حياته العلمية كانت حافلة بالمآثر العظيمة

وكأن تفكيرهُ في اثناء مطالعتهِ الكتب والرسائل المنشورة عن الكهرباء والنشاط الاشعاعي سلكت السبيل التالي : — الذرات وهي اللبنات التي تبنى بها ومنها جميع اصناف المادة في الكون، انواع مختلفة . وذرات كل نوع متماثلة تماماً فهناك ذرّات الكربون وذرّات الاكسجين وذرّات الحديد . وهذه الانواع تبلغ التسعين

وجميع الاجسام في الكون كالاجسام الحية من حيوان ونبات ، او الاجسام الجامدة من الماء الى الكواكب ، انما تنشأ من تركيب طوائف من الذرّات على انماط شتى . فذرات الكربون مرتبة ترتيباً بديعاً في الماس المتألق الصافي . وذرّات الالومنيوم والاكسجين مرتبة على نمطٍ ما ، يولد الياقوت الاحمر او الياقوت الازرق . وذرّات الصوديوم والكلور تولد الملح . وذرأت الاكسجين والايدروجين تولد الجمد

وقد يكون من العبث ان نسأل ما شكل الذرّة لانها أصغر من ان ترى ومع ذلك فقد ابتكر العلماء وسائل واساليب غير مباشرة لقياس وزن الذرّة وحجمها . ولو كبر حجر ماسي في خاتم حتى يصبح في حجم الارض لكان قطر كل ذرّة من ذرّات الكربون فيهِ ست بوصات. وعند ما تبدأ الطبيعة في البناء تجمع طائفة من الذرات وتصنع منها مجموعة ذات نظام خاص وتُعدّد هذه المجموعات ، فاذا نحن أمام مادة لها خواصُّ تنفرد بها . فالماء مثلاً مركب من مجموعات من الذرات ، كل مجموعة قوامها ذرتان من الايدروجين وذرّة من الاكسجين. وهذه الذرات الثلاث مرتبطة احداها بالاخرى ارتباطاً وثيقاً على وجه لم يفهم سره بعد . ومع ان فصم هذه الاواصر ليس ممتنعاً الأ انها تبلغ من المتانة مبلغاً يجعل الماء مركباً مستقراً.

والكيميائي يدعو هذه المجموعة من الذرات ، وما كان على نمطها — جزيئاً . وليس ثمة ريب في ان جانباً كبيراً من ارتقاء الكيمياء انما مرده الى اتساع العلم بطبيعة الجزيئات ومقوماتها وخواصها واشكالها . فأجسامنا وكل ما حولنا مركب من جزيئات قوامها ذرات العناصر التسعين . وعلى كثرة ما نعرفهُ من كيمياء الجزيئات لا يزال الجهل بها كبيراً . وقد يسأل أحدنا لماذا لا نعمد الى المجهر فنستطلع بهِ عالم الجزيئات وتركيبها ، ونستشف ترتيب الذرات في هذا التركيب ؟ والجواب ان قدرة المجهر على التكبير محدودة . فالمجهر العادي مداره الضوء المنعكس عن الاجسام التي يراد رؤيتها ، والضوء تموج وأطوال الأمواج معروفة ، فالجزيء، وعلى الأخص الذرّة ، أصغر من الأمواج التي تُرى ويُرى بها، فلا تؤثر في الامواج تأثيراً يمكننا من ان نرى بهذه الأمواج أجساماً أصغر منها كثيراً

وفي خلال مطالعته وقف براغ على نتائج اسفرت عنها مباحث المدام كوري فخطر لهُ ان هذه النتائج لا تفسير لها الاّ على نحوٍ واحد ، ومع ذلك لم يقل أحدٌ بهذا التفسير من قبل

ذلك بأنهُ كان من المعروف أنهُ عندما تنقسم ذرة الراديوم قسمين احدهما كبير والآخر صغير ، يغدي الصغير — وهو في الواقع ذرة هليوم كما أثبت رذرفورد — منطلقاً في الهواء فيعرف باشعاع جسيمات « ألفا » . ووصفت مدام كوري تجارب أجرتها تتضمن نتائجها القولَ بأن جميع هذه الجسيمات تنطلق مسافة واحدة

فاهتم بهذا القول اهتماماً خاصاً . ان جميع أصناف الاشعاع تضعف رويداً رويداً وفقاً لبعدها عن مصدرها . وجسيمات ألفا تتصرف كأنها وابل رصاص ينقذف في كتلة من الخشب . ولكن اذا كان ذلك كذلك ، فعلى هذه الجسيمات أن تنطلق في خطوط مستقيمة في الهواء كما تخترق الرصاصة الخشب . غير أن هذه الجسيمات تلقى في طريقها مئات الألوف من ذرات الهواء فكيف تجوزها . انها لا تدفعها من طريقها لأنها أصغر من الذرات ، ولا تستطيع أن تنحرف عن كل ذرة تلقاها في طريقها وتحتفظ باتجاهها العام . واذا وضعت عشرين كرة من كرات « البلياردو » على مائدة « البلياردو » وقذفت كرة في اتجاه معين فانها على الغالب لا تستطيع ان تسير في خط مستقيم من طرف المائدة الى الطرف الآخر . ولا تستطيع ان تنحرف كلما أقبلت على كرة تعترض طريقها وتبقى محتفظة باتجاهها الأصلي . ان ذلك يقتضي ان يكون في الكرة عقلٌ يوجهها . وليس في الكرة ، او في الاجسام المنقذفة من الراديوم ، عقل على ما نعلم . فكيف تنطلق جسيمات « الفا » في الهواء

ان الجواب الوحيد الممكن هو ان هذه الجسيمات تخترق في سيرها ذرات الهواء التي تلتقي بها . اي ان جسيم الفا وجسم الذرّة التي تخترقها، يشغلان في لحة ما ، مكاناً واحداً في الفضاء .

وهذا قول يخالف كلّ ما درج براغ على مطالعه في كتب الطبيعة . ولم يكن متاحاً له ان يمتحن هذا القول بالتجربة ، فلا هو يملك راديوماً ولا جهازاً يصلح للتجريب . ولكن بدا له ان القول صحيح . والواقع انه كذلك كما اثبته الاستاذ ولسن C. T. R. Wilson بعدئذٍ عندما صوّر مسارَ جسيم من هذه الجسيمات في جهازه المشهور بجهاز «الحجرة الغائمة» فوجد ان المسار خط مستقيم . وكذلك القى براغ خطبة في دونيدن وضمنها هذا الرأي

فلما عاد الى ادليد وجد من المحسنين الى العلم من منحه مالاً لينفقه في اعداد المعدات لتجريب رأيه . فتوالت على يديه نتائج متعددة كانت تتفق والمكتشفات التي تمت لرذرفورد في كندا ، وعن طريق هذه المباحث اتصل بأعلام الطبيعة الذرية الحديثة مثل رذرفورد وصُدي وغيرهما فانتخب رفيقاً في الجمعية الملكية سنة (١٩٠٦) ثم نقل استاذاً في جامعة ليدس (١٩٠٩) ثم استاذاً للطبيعة في جامعة لندن (١٩١٥)

٣ — الحل البلوري بالاشعة

كان هذا البحث في الذرّة والاشعاع توطئة لبحث آخر أعمق أثراً وأجدى . وهو بحث التركيب الذري والجزيئي في البلورات بالاشعة السينية ، وهو فرع من فروع العلم كان له في الصناعة الحديثة فائدة عملية محققة[1] . وقد بدأ براغ يعنى به بعد انتقاله من ادليد الى جامعة ليدس في انكلترا ثم منها الى جامعة لندن

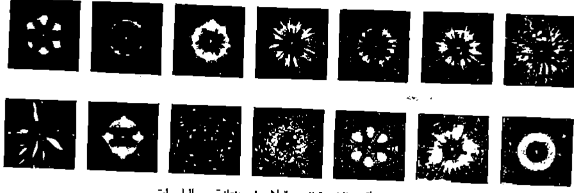
في تاريخ العلم أحيان يبدو فيها ان العلم بلغ سدًّا لا يستطيع عبوره ، ثم يُكشف كشف او تخترع أداة جديدة للبحث ، واذا السدُّ قد انهار ، ومضى مدُّ العلم متدفقاً كالسيل . كذلك كانت نظرية دلتن الذرية ، وكشف فراداي بان المغنطيس المتحرك يولّد تياراً كهربيًّا . وكذلك كان كشف رنتجن للاشعة السينية

وبراغ يلخص تأثير هذا الكشف في قوله ان نيوتن ذهب الى ان الضوء تركيبه ذري وتلاه هوجنس فقال انه حركة موجية . وأيّد كلٌّ منهما قوله بأدلّة ناهضة . ولكن رأي هوجنس تغلَّب على رأي نيوتن ولا سيما بعد المباحث التي قام بها يونغ وفرينل وغيرهما اذ اثبتوا ان الرأي الموجي في الضوء كافٍ لتعليل جميع الظاهرات البصرية المعروفة

ثم كشفت الاشعة السينية ، وهي ضرب من الضوء الذي لا يرى بالعينين ، ولكنه يشبه الضوء المرئيّ من كل وجه ، غير ان امواجه اقصر من امواج الضوء المرئي عشرة آلاف ضعف . وامواجهُ لا تؤثر في عيوننا فعلياً ، اذا شئنا ان نرى به ، إما ان نستعمل عيناً خاصة

(١) راجع الاشعة السينية والصناعة الحربية في مقتطف مارس ١٩٤٢

الاشعة السينية تكشف عما عجزت عنه أقوى المجاهر



صور مصوّرة بالاشعة السينية لانواع مختلفة من البلورات

والعالم المتوفر على هذا الفرع من العلم يستطيع ان ينفذ الى طريقة انتظام الذرات في البلورات بدرس هذه الصور وأشباهها وهي تمثل صورة النموذج الضوئي للاشعة بعد نفوذها من خلال قطعة مبلورة

تتأثر بها ، وإما ان تسجل فعلها في ألواح التصوير الضوئي . ولما كانت امواج الاشعة السينية قصيرة جداً فهي مما تستطاع رؤية الجزيئات به — بواسطة ألواح التصوير الضوئي . وهذا هو ركن البحث الجليل الشأن الذي تولاه وليم براغ وحده أولاً ثم بالاشتراك مع نجله، ولورنس براغ وظفرا معاً بجائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩١٥ . على ان الاشعة السينية التي يفرقها جزيء واحد ليست مما يؤثر تأثيراً ظاهراً في لوح تصوير ضوئي مهما يبلغ من شدة الاحساس. ولكن اذا اجتمعت جزيئات كثيرة ، وكان اجتماعها في نموذج منتظم ، فعندئذٍ يبلغ مقدار الاشعة المتفرقة مبلغاً يمكن تصويره . وهذا يشبه حركة ذراع جندي واحد . فانك لا تستطيع ان تراها من بُعد . ولكن اذا كان الجنود كثيرين، وكانوا صفًّا واحداً ، وحركوا أذرعهم حركة واحدة فانك تستطيع ان ترى الحركة من البعد نفسه . وهنا تدخل البلورة ميدان البحث

قلنا ان الطبيعة تبني دقائقها الصغرى ، في ذرات وجزيئات . فثمة ذرات سلكون وذرات اوكسجين . وثمة جزيئات ثاني اكسيد السلكون . ولكن علاوة على ما تقدم هناك بلورات الكوارتز ، وقوام كلّ بلورة ثلاثة جزيئات من ثاني اكسيد السلكون

ان الذرّات المنفصلة من الاكسجين والسلكون ليست ثاني اكسيد السلكون . وجزيئات ثاني اكسيد السلكون ليست من الكوارتز في شيء . فالوحدة البلورية للكوارتز هي ثلاثة جزيئات من ثاني اكسيد السلكون مرتبة على وجه خاص . وغرض الحل البلوري بالاشعة السينية هو استكشاف اسلوب ترتيب الذرات والجزيئات في البلورة ، وتعليل خصائص البلورة بهذا الترتيب . وقد وقف السر وليم جانباً كبيراً من حياته على توضيح نواحي هذا الموضوع وهو دراسة الاشكال البلورية الاساسية في الطبيعة ، ومعرفة النماذج الضوئية التي تنشأ عن اختراق الاشعة السينية لهذه الاشكال

فالاستاذ لاو والسر وليم براغ ونجله ومن جاراهم من العلماء اتاحوا الاشعة السينية للعلماء أداة تمكنهم من سبر أغوار الاجسام البلورية ومعرفة تركيبها وهذه الطريقة تطبق الآن في فحص هذه الاجسام وبها كشفت حقائق عن خواص الفلزات والاخلاط الفلزية ، فصارت الصناعة قائمة على معرفة يقينية بدلاً من قيامها على تجارب يخطىء فيها الصانع حيناً ويصيب حيناً آخر . وهذا تطبيق عملي لبحث بدأ علميًّا محضاً ، لان غرض لاو ثم براغ في المرحلة الاولى من البحث، كان معرفة طبيعة الاشعة السينية وهل هي أجسام دقيقة تفعل فعل الاجسام المادية او هي امواج كامواج الضوء . فأثبتت هذه المباحث في الاشعة السينية ما أثبتته مباحث دي بروي ودافيسن و جرمر الاميركيين وطمسن الانكليزي (وهو نجل السر جوزف مكتشف الكهيرب) انها تفعل آناً فعل أمواج وآناً فعل ذرات . وهو برهان آخر على الفائدة العملية التي تجنى من العلم المحض

روزفلت وهتلر

مقابلة

في خلال يوم واحد من أيام شهر مارس سنة ١٩٣٣ حدث حادثان كان لهما أعظم شأن في تاريخنا الحديث . فبعيد ظهر الرابع من شهر مارس في تلك السنة نصّب فرنكلن دلانو روزفلت رئيساً للولايات المتحدة . وقُبيل منتصف ليل الخامس من ذلك الشهر أقرّ الريخستاج «قانون التمكين» Enabling Act الذي وضع في يدي المستشار ادولف هتلر زمام السلطان المطلق في المانيا . وانقضت ثماني سنوات ، فاذا الرجلان يقابل أحدهما الآخر ، وكل منهما رمز لطريقة من الحياة والاجتماع . ولكن الطريقتين متناقضتان والعالم لا يتسع لكليهما معاً

لم يكن في وسع أحد أن يتبين في سنة ١٩٣٣ هذه الصلة بين الرجلين . ولكن يندر الآن من لا يرى انه لا بد لاحدهما من أن يقهر الآخر . وقد قال هتلر في احدى خطبه ان نتيجة الصراع بين هذين النظامين ستقرر مصير العالم مدى الف سنة من الزمان، والغالب انه لم يغال فيما قال

واذا كنا قد اخترنا روزفلت مثلاً لطريقة الحياة التي تؤثرها الشعوب الدمقراطية ؛ فليس سبب ذلك أنه أراد ان يكون هذا المثل ، ولا لأنه يفوق غيره من زعماء هذه الشعوب . فالرجل الذي أنقذ بريطانيا في ساعة الخطر والبلوى ، متصف في ذهنه وخلقه بصفات ، تؤهله للصدارة ، ولا يجوز وضعه في مكان دونها . ولكن الموارد التي من وراء روزفلت هي التي تضعه في المقام الاول . فليس في متناول تشرتشل خمسة وعشرون مليوناً من الرجال في سن الخدمة العسكرية . ولا دخل قومي سنوي يبلغ مائة الف مليون من الريالات . ولا صناعة تقرب من صناعة الولايات المتحدة في اتساع نطاقها ومدى انتاجها . ولا ثلاثمائة وتسعة وخمسون مليوناً من الافدنة المزروعة . فالاحتياطي الاكبر والأخير الذي تعتمد عليه الشعوب الحرة ، انما هو موارد الولايات المتحدة ، وفرنكلن روزفلت هو رئيس جمهوريتها .

الجماهير للاسلوب الحيّ الفعّال، دون الاسلوب الجامد المستقرّ، في نظم الحكم. ان تشرتشل محافظ. وهذا لا يعني انهُ أضعف ايماناً بالحرية الانسانية وأوهى قوة في النضال والكفاح لصونها. ولكنهُ يعني ان همهُ الاكبر كان دائماً الاحتفاظ بخير ما ورثناه من الماضي. يقابل هذا ان الثورة على مساوىء الماضي، بصرف النظر عما فيهِ من خير، هي التي رفعت هتلر في المانيا وروزفلت في الولايات المتحدة الى مقام السلطان. والجماهير التي ثارت لا تقرن انتصار روزفلت في هذا النضال العالمي بالعودة الى الحالة السابقة (والواقع الذي لا بدَّ من الاعتراف بهِ هو ان ظفر تشرتشل لا يعني هذه العودة لأن الحالة القديمة قد انهارت وليس بعثها بالمستطاع). ولكن روزفلت مشهورٌ بأنهُ لا يرغب في بعثٍ من هذا القبيل، والعالم قاطبة يدرك هذا. ولذلك لا يستطيع احد ان يدمغ حركة يتولى قيادتها، بأنها حركة رجعية

واذا كان في شؤون الناس شيء يوثق به، فهو ان روزفلت لم يتصور عندما انتخب سنة ١٩٣٢ ونصّب سنة ١٩٣٣، الحالة التي يتولى فيها هذه الزعامة العالمية. نعم كان قد أعدَّ خططاً لأمته واسعة النطاق بعيدة المرامي. ولكن السلام لا بد منهُ لتحقيق خطط من هذا القبيل، لان مدارها وغرضها الملاءمة بين النظام الاقتصادي القائم وحاجة الشعب. وهذا عمل لا تنجزه المدافع ولا الدبابات ولا طائرات القتال

وهذا القول لا يعني ان روزفلت لم يدرك خطر نشوب حرب — قد تكون عالمية — قبل ثماني سنوات. فهو رجل متقد الذهن واسع الاطلاع، وكل من كان فوق المتوسط من رجال الفكر والعمل، كان يدرك احتمال نشوب هذه الحرب. ولكن الرئيس كالكثرة الاميركية، كان يأبى ان يأخذ بالحرب أداة للسياسة القومية. فقد كان يعي احتمالها، ولكنهُ كان يعدها شرّاً يجب اجتنابه، لا فرصة يجب اغتنامها والتأهب لذلك

ومن المرجح ان هتلر نفسه لم يَنوِ ان يواجه روزفلت في الحالة التي يواجهه فيها الآن. والغالب ان هتلر كان مقتنعاً بأنهُ يستطيع هزم بريطانيا، بالاسلحة السيكولوجية، ثم يواجه روزفلت، أو من يكون رئيساً للولايات المتحدة، وقد اجتمعت قوة اوربا بين يديه. لأن القضاء على الحكومة الشعبية الحرة في الولايات المتحدة أمر لا مفر منهُ لتحقيق كل خطة غرضها السيادة العالمية والمرجح ان ذلك كان قائماً في ذهن هتلر منذ الساعة الاولى

ومع ذلك كان موقف احد الرجلين في مارس سنة ١٩٣٣ مماثلاً لموقف الآخر. كلاهما ارتقى على موجة من البرم بالحالة القائمة، وكلاهما تسلم زمام دولة كانت من الوجهة الاقتصادية على شفا الانهيار ومن الوجهة الاجتماعية في حالة اضطراب. وكلاهما واجه مشكلة كبيرة معقدة وهي تدبير عمل لملايين من المتعطلين عن العمل وبث روح الحياة والاقدام في شعب تطرقت

اليهِ معاني التراخي والقنوط . وفي الحالين لم يكن الشعب الاميركي ولا الشعب الالماني مبّراً بالحماسة للزعيم الجديد قدر ما هو مسيّرٌ بالبرم بالحالة القائمة . ولذلك منح كل منهما سلطة مطلقة لتدبير الحال

***

ان حق الشيخ او الملك في الفوز بولاء القبيلة أو الشعب لهُ ، كان قائماً في جميع عصور التاريخ على قدرتهِ على حماية رعيتهِ وتجنيبها اخطاراً لا تستطيع ان تتجنبها وحدها . فالطبيعة البشرية لم تتغير على كرّ القرون . ولكن ما تغير إنما هو العدوّ الذي يراد اجتناب خطره . إن خوف الناس قديماً من لصوص مسلحين بأسلحة تُرى وتخشى ، قد تحوّل في العصر الحديث ولا سيما بعد الثورة الصناعية ، خوفاً من نظم اقتصادية تخشى اساليبها وان كانت لا تُرى . فالموت جوعاً لا يزال الموت جوعاً سواءٌ أبالسلب والنهب كان الجوع، ام بالانهيار الاقتصادي والتعطل عن العمل . والحكومة التي تعجز عن منع الجوع الناشيء عن الاضطراب والانهيار والازمات الاقتصادية ، هي حكومة لا تستطيع ان تفوز بثقة الشعب وولائهِ

نعم ان الحكومة ليست مُلزمة ان تدبر لكل رجل رزقهُ ، ولكنها مدينة لهُ بحماية حياتهِ . وهي تعترف ضمناً بهذا الدين عندما تطلب منهُ وتتوقع ولاءه لها وتأييدهُ اياها . ولم تنكر حكومة ما هذا الاعتراف . وتاريخ البشر يدلُّ على ان الناس ينطلقون من قيود الولاء لحكومة ما عندما تعجز هذه الحكومة عن صون حياة الناس . وفي سنة ١٩٣٣ كان في الولايات المتحدة والمانيا ملايين من الناس مهدّدين بالعوز والفاقة لأن الحكومة كانت لا تقدر او لا تجرؤ على حمايتهم من قوى اقتصادية تطغى عليهم . فبدرت بوادر التمرُّد على الحكومة والنظام القائم في البلدين . ولم يكن هذا شيئاً جديداً في تاريخ الاجتماع لا سابقة لهُ . بل كان شيئاً طبيعيًّا ولهُ سوابق كثيرة

ومع ذلك كان ينطوي على خطر ، لأن الشعب اذا ثار وكان بغير قيادة ترشده أو توجهه سواء السبيل ، او كانت قيادتهُ لا تقيم وزناً للحقائق الانسانية العليا ، ، ولا تميز بين الفضيلة والرذيلة ، بين الوطنية والخيانة ، بين الاحسان والجشع ، فعندئذٍ قد تطغى الحركة الشعبية النابعة من قرارة الحياة نفسها ، فيتعذر صدها أو توجيهها . ولا توجه سواء السبيل ، الاّ اذا كان المرشد الجديد ، سياسيًّا حكيماً

ولعلَّ أعظم ظاهرٍ أسفرت عنهُ عبقرية الشعب الأميركي في الحكم الذاتي ، هو ان الشعب التفت في الأزمة التي أناخت عليهِ ، في العقد الرابع من هذا القرن ، الى رجل من صميم الحياة الأميركية مشبع بروحها ، مؤمن بتقاليدها . أما الشعب الالماني فالتفت الى اجنبي ، فبلا

ما يعرف عن عظمة المانيا الحقيقية ، وما يعرفهُ عنها مرذولٌ عنده ومحقّر . ولعلّ الالمان كانوا أقرب الى المنطق من الأميركيين ، لأنهُ ما زال النظام القديم قد انهار ، فالمنطق يقضي بأن يكون الرجل الذي يرشد الى النظام الجديد، بعيداً أبعد البعد عن النظام القديم . ومع أن النظام القديم في أميركا كان قد اختل وسقطت هيبتهُ ، وأصغى الشعب الاميركي الى صوت القائد الجديد وهو يقول : ان قواعد النظام سليمة ، وتطبيقها تطبيقاً فعالاً مستطاع اذا عمدنا الى أساليب جديدة

وما ان تقلد الرجلان زمام الحكم حتى بدأت طريق احدهما تنفرج عن طريق الآخر . ولعل الفرق الأساسي في فلسفتهما السياسية ، هو ان روزفلت يذهب الى ان الخراب الذي كانت تحيط به انقاضه مردّه الى الغباوة . بينما هتلر يقول ان مرده الى الجريمة . فروزفلت كان يعتقد ان الثروة في أميركا بُذّرت فضاعت ، وهتلر كان يعتقد ان ثروة في المانيا قد نهبت . فلذلك كان « الانعاش » غرض الاول ، و « الاسترداد بالقوة » غرض الثاني . فقال الاول لشعبه « لننتج » وقال الثاني لشعبه « لنأخذ »

ولكنهما اتفقا على أن قداسة الملكية الفردية ليست مطلقة مقدسة في ذاتها ، بل هي قائمة على سلامة الأمة . ولذلك لم يحجم أحدهما عن انفاق مبالغ طائلة في سبيل توطيد سلامة الأمة . فلم تجيء سنة ١٩٣٩ حتى كان روزفلت ، قد أنفق أربعين الف مليون ريال ، علاوة على نفقات الحكومة والادارة العادية . أما هتلر فقد انفق مبلغاً ليس في الوسع معرفته على وجه التحقيق ، لأن الحكومة الالمانية النازية لا تقدم حساباً عن نفقاتها ، ولكن يُظن انه يبلغ تسعين الف مليون ريال

أما روزفلت فقد أنفق معظم هذا المال على الطرق والجسور والسدود ومحطات توليد الطاقة الكهربية وزح البطائح وتحريج الأراضي البور . وأما هتلر فأنفق معظم المال على السلاح . وقد كان الفرق بين وجهيْ الانفاق ، نتيجة طبيعية للفرق الاساسي بين أغراض الرجلين . فروزفلت غرضه بسط رواق الرخاء الذي انهدم او تداعى ، فتوصل الى ذلك بانشاء الاسباب التي تلد الثروة . وهتلر غرضه بسط رواق الرخاء بنزع الثروة من الدول الاخرى . ولو ان حكيماً عالماً بالغيب تصوّر ما يكون مصير العالم بعد ثماني سنوات ، لكان أشار على روزفلت بأن ينفق هذا المال على صنع السلاح !

***

وليس ثمة ريب في ان هتلر ، بعد ما تمادى في طريقته ، فرضها على سائر العالم . فليس في وسع أمة ، في العالم الحديث ان تنفق جانباً كبيراً من نشاطها ومعظم ثروتها ، في سبيل تحقيق

خطط السلام ، بينما تبذل دولة كبيرة اخرى كل ذرة من نشاطها في التأهب للحرب.

والرأي الغالب بين جماعات كثيرة من الناس ان ما صنعهُ روزفلت دليل على ضعف أصيل في النظام الدمقراطي . ولكننا لا نرى أين هو هذا الضعف . انهُ في الواقع ضعف كل امة على الاطلاق ، سواءٌ ادمقراطية كانت ام غير دمقراطية ، اذا كانت القاعدة التي تقيم عليها صرح اجتماعها هي قاعدة السعي الى تحقيق الحياة الوافرة لكل فرد من افراد الشعب . فالسلام لا بدَّ منهُ لتوفير العيش الرخيّ وقدر معقول من الحرية في نطاق القانون ، يتيحان للمرء ان يتمتع بما وصفهُ روزفلت في احدى خطبه بالحريات الاربع وهي : —

الأولى حرية الكلام والتعبير — في كل بقعة من بقاع الارض

والثانية حرية كل امرىء في عبادة الله على طريقته الخاصة — في كل بقعة من بقاع الأرض

والثالثة التحرُّر من ربقة العوز ، وهو اذا افرغ في عبارات السياسة الدولية كان معناهُ عقد اتفاقات اقتصادية تضمن لابناء كل امة عيشةً راضية — في كل بقعة من بقاع الأرض

والرابعة التحرُّر من الخوف ، وهو اذا أفرغ في عبارات السياسة الدولية كان معناه خفضُ التسلح خفضاً عالميًّا واسع النطاق حتى يستحيل على امة ما ان تعتدي على جارة لها — في كل بقعة من بقاع الارض

والدولة التي قاعدتها هذه الرغبة لا تستطيع ولا يجوز لها ، ان تخفض مستوى العيش وتنكر على الناس حرية الاجتماع والرأي والعقيدة وتجعلهم اصفاراً في حساب الانسانية ، لكي تكدّس السلاح بقصد استعباد الامم الاخرى

ويذهب فريق من الناس الى ان هتلر كان في طريقة انفاقه المال رجلاً آخذاً باسباب الواقع ، وروزفلت رجلاً متعلقاً باهداب الوهم والخيال والنزعة الكمالية. فالذين يرون هذا الرأي ، هم دعاة الهزيمة الخلقية في نضال البشر . وقولهم هذا يصحُّ ان يؤخذ حجة عليهم بأنهم نزلوا عن كل مبدإٍ من مبادىء الفلسفة السياسية الأميركية التي من اجلها قامت حرب الاستقلال وعلى اساسها وضعت نصوص الدستور وفي سبيل صونها نشبت الحرب الاهلية وخاضت اميركا الحرب العالمية الأولى

لانهُ اذا كان الناس لا يؤمنون بأنهُ في وسعهم الآن وفي المستقبل ان يدبروا شؤونهم تدبيراً قائماً على الفهم وخدمة المصلحة العامة —مهما يكن ذلك على وجهه الأكمل بعيد المنال — فقد انهارت مبادىء الدستور وهي في صميمها ضمان «حق الحياة والحرية ونشدان السعادة»

وليس في منطق الاجتماع البشري ما يجعل هذا مستحيلاً . نعم قد تكون الغرائز الوحشية متغلبة على تركيبنا العقلي والادبي ، وقد يكون الغباء ملازماً للجماعات الانسانية الكبيرة ، وقد تعوزنا دائماً القدرة على الحكم الذاتي ، ولكن قواعد الدستور الاميركي ، وسائر الدساتير الديمقراطية الحديثة ، تنكر هذا العجز ، وكل من يتولى منصباً في دولة ديمقراطية يجب ان يكون مؤمناً بأن الحكم الذاتي ممكن ، وان الحرية مثل عال بعيد ولكن الاقتراب منه مستطاع ، وان رفع المستوى الثقافي للجماهير رفعاً مستمراً في المتناول ، وان في قدرة الناس ان يدنوا ، مهما طال الطريق وتوعر ، من العدل في المجتمع

واذن فعلى رئيس دولةٍ تسلم بهذه المبادىء ، كرئيس الجمهورية الاميركية ، ان يبني سياسته عليها وينسج ثوبها من خيوطها . واذا بنى سياسته على قواعد مناقضة لهذه القواعد ، فقد انكر التراث الانساني العالي ، ولاريب في انه يلقى من مقاومة شعبه ، ما يرده او يسقطه. ولكن اذا واجهت الأمة الديمقراطية خطراً أصيلاً يهدد كيانها من قبل دولة لا تسلم الاَّ بالقوة والبطش وتبني سياستها عليهما ، فعليها حينئذٍ ان تعبىء كل قوتها للدفع عن كيانها

وليس ثمة ريب في ان روزفلت استشف في سنة ١٩٣٣ احتمال نشوب حرب ، ولو وجَّه كلَّ نشاط اميركا الى التأهب لحرب لم يكن في وسع الشعب ان يرى احتمالها حينئذٍ لما كان اميركيًا صميماً ، ولربما — وهو الارجح — عجز عن الفوز بموافقة ممثلي الشعب

***

وعلى كل حال فاليوم الذي اعتدى فيه هتلر على بولندا ، كان حاسماً . فالمسألة التي واجهت الشعب الأميركي يومئذٍ ، لم تكن طريقة روزفلت في إصلاح النظام الاقتصادي والاجتماعي ، بل المحافظة على الكيان. ذلك بأن خطر الهمجية أصبح مكتوباً في عرض الفضاء الدولي بحروف كبار. وكان لا بدَّ من ذلك اليوم أن يحشد روزفلت فكر الأمة الاميركية ونشاطها ومالها ، لتعزيز أسباب الدفاع الوطني . فالتوزيعة الجديدة خطة تطبق او يحاول تطبيقها في أثناء السلام . وهي مثار خلاف عنيف بين الاحزاب والطبقات. والشغل الشاغل للاذهان الآن هو الحرب والدفاع القومي ، وهو فوق الاحزاب والطبقات ، وقد اعترف روزفلت حالاً بهذه الحقيقة عند ما عيَّن — وهو زعيم الحزب الدمقراطي — قطبين من أقطاب الحزب الجمهوري لوزارتي الحربية (هنري ستمسون) والبحرية (فرنك نوكس) وكذلك رشح للمكتب المشرف على الانتاج الحربيّ رجالاً لم يكونوا من انصار التوزيعة الجديدة بل ولم يكونوا من الدمقراطيين

وقد كسب هتلر الشوط الأول في هذا النضال ضد خصمه، اي انهُ اضطر خصمه الى الأخذ ببعض الأساليب الحكومية التي ما فتىء هتلر يطبقها – ولكن بغير هوادة. وحمله على تغيير سيره واتباع المانيا، أي تحويل نشاط أميركا الفكري والاقتصادي والعاطفي من السعي وراء تحقيق أغراض السلام الى السعي وراء انشاء قوة عسكرية لا تضاهى

وقد يحمل التشاؤم بعضهم على القول بان روزفلت لم يخسر شوطاً واحداً لا غير، بل خسر معركة كبيرة. وعندهم ان انفاق اربعين الف مليون من الدولارات في السبل التي انفقها فيها، اضعف الامة الاميركية، ولو انفقت في سبيل الحرب لكانت اميركا الآن اعزّ يداً مما هي في هذا النضال العالمي الرهيب

ان هذا القول يتجاهل ثلاث حقائق. اولاً — ان الامم الدمقراطية بطبيعة مبادئها ونظرتها وطريقتها في الحياة لا تستطيع ان تفرض الحرب وتتأهب لها قبل ان يتلبد جو حياتها بغيوم أخطارها. وثانياً — ان كثرة الشعب الاميركي، وافقت مرتين، مرة سنة ١٩٣٦ ومرة سنة ١٩٤٠ على سياسة روزفلت واتجاهها. وثالثاً — اذا كان القضاء على قوة هتلر المسلحة التي تهدد الكيان الذي تمثله اميركا والاغراض التي تسعى الى تحقيقها، أمراً لازماً، فألزم منهُ القضاء على الافكار والمبادىء التي من وراء قوة هتلر المسلحة، اذا شئنا ان يتمتع العالم بالسلام عهداً ما. وروزفلت باسلوبه في «التوزيعة الجديدة» ضرب مثلاً لكثرة الاميركيين، بان النظام الدمقراطي يمكن تطبيقه تطبيقاً يقي الرجل المتوسط، — سواء اصح هذا القول ام لم يصح. وهذا الاعتقاد هو خير واق للشعب من خطر العدوى، بقول من يقول، إن حياة الشعوب لا تستقيم الاّ على اساس «سلطان الزعيم» ومبدأ «عنصر الاسياد» «وحماية الدم» وغيرها من الآراء الفجة التي اغدقتها المانيا على العالم في السنوات الاخيرة

ان الملايين الكثيرة التي أيدت روزفلت في الانتخابات المتوالية، قد يخيب أملها في ما تعلقهُ بالدمقراطية الأميركية ومستقبلها الاجتماعي والاقتصادي من رجاء. ولكن سياسة الاصلاح التي درج عليها روزفلت في السنوات الست الاولى من رآسته انعشت رجاءها وعززت ايمانها بهذا النظام. فهي، والرجاء يحدوها، ينبض فيها كل عرقٍ للدفاع عنهُ. وعلى ذلك يصح ان نقول ان السنوات الست التي أنفق فيها روزفلت ألوف الملايين من الدولارات لبناء الجسور بدلاً من المدافع، والمدارس ومحطات توليد الطاقة بدلاً من الطائرات والبوارج — كانت سنوات تسلح — ولكنه تسلح أدبي. ولولا ذلك لكان من المحتمل ان نجد ملايين كثيرة لا تعتقد ان هنا نظاماً وحكومة، يستحقان سفك الدماء لحفظهما

[تلخيص فصل للكاتب جيرالد جنسن في مجلة الاتلنتيك منثلي]

معارك الحضارة

غزاة قارتين

يلقون حتفهم في البرازيل

لم تكن مسائل الدفاع الحربي عن القارتين الاميركيتين تشغل بال شعوبهما في سنة ١٩٣٠ عندما اجتاز البحر من غرب أفريقية الى ناتال في شمال البرازيل الشرقي ، فريق من الغزاة، لم يلبث حتى هدد تلك البلاد الواسعة الغنية بما هو أشد فتكاً من القنابل والرشاشات

ذلك بأن مئات من السكان ، في ناتال أصيبوا بمرض عضال فشحبت الوجوه وهزلت الاجسام وفشت الآلام الناشئة عن «البرداء» — الملاريا . ولكنها لم تكن من طراز البرداء المتفشية في المناطق الاستوائية والمجاورة لها . فقد كانت آلام المصابين بهذا الضرب الجديد من البرداء أطول أمداً ومعدل الوفاة بها أعلى ، وكان يعقبها في بعض الاحيان مرض يعرف بحمى « البول الاسود » وهي وبيل ذلا ما زال يعيي نطس الباحثين في الامراض الاستوائية . وقامت في أذهان بعض الأطباء المخضرمين الحكماء الذين شاهدوا تفشي الملاريا في بقاع أخرى من الارض ، صورة قاتمة لم يجرؤوا على ذكرها ، ولكن باحثاً يدعى « شانن » ما لبث حتى أثبت ان مخاوفهم في محلها

كان شانن أحد علماء معهد ركفلر للبحث الطبي وكان متوفراً على دراسة الحشرات ، ألحق باللجنة التي عهد اليها في بحث موضوع الحمى الصفراء في البرازيل. وكان في سبيل البحث في أنواع البعوض التي تتولد في البراميل والحفر المملوءة بالماء على أثر المطر ، فشاهد بعوضاً من صنف غريب ، فلما شرّحه وأخذ يفحصه بالمجهر ، هاله ما رأى إذ تحقق انه بعوض من جنس جامبي Gambine وانه غزا نصف الكرة الغربي . وكان شانن يعلم ان ليس بين أجناس البعوض الناقلة لطفيلي الملاريا جنس يفوقه فتكاً ذريعاً

ولكن كيف انتقل هذا البعوض الى البرازيل ؟ إنه لا يستطيع ان يطير مسافة تزيد على ثلاثة أميال ، ولا ان يبقى محصوراً في حجرة ما مدة تزيد على يومين ، فلا يحتمل ان يكون قد قطع المسافة من غرب أفريقية الى شرق البرازيل ، طائراً او في سفينة . ولكن طائرات الخطوط الجوية الفرنسية كانت قد تمكنت قبل ذلك من اجتياز المسافة بين دكار

وناتال في احدى وعشرين ساعة . واذن فلا ريب في ان هـذا البعوض جاء العالم الجديد محمولاً بالطائرات

فأنذرت حكومات الجمهوريات الاميركية بما حدث، وأخذت السلطات الصحية البرازيلية تشتدُّ في مراقبة جميع الطائرات الواصلة من أفريقية ، فتفتشها وتطهرها حال وصولها . ولـكن خبراء الملاريا قالوا : ان الأذى وقع وبعوض الجامبيا هنا !

هذا البعوض يتوالد توالداً سريعاً ويتكاثر تكاثراً عجيباً . فالأنثى — وهي وحدها التي تحمل الطفيلي — خصبة ولود ، وبيضها ينقف في أكثر من يوم قليلاً ، ولا تنقضي ثمانية أيام او تسعة على الأناث التي نقفت أمس حتى تكون قد أخذت في البيض كذلك . وهو يختلف عن سائر أجناس البعوض التي تنقل طفيلي الملاريا في هذا : ان الاجناس الاخرى تغتذي على الغالب بامتصاص دم الحيوان ، وفي الحين بعد الحين تمتصُّ دم الانسان ، فتنقل الى السليم طفيليَّ البرداء ، او تأخذ — اذا كانت هي سليمة — هذا الطفيليَّ من المصاب . أما جنس الجامبيا فيكاد يقتصر في غذائهِ على ما يمتصهُ من دم الانسان، فعملهُ في نشر المرض لا يكاد يجارى. وجسم الأنثى تتولد فيهِ طفيليات الملاريا بالملايين، فجميع طبائع هذا البعوض تجعلهُ أضرى أجناس البعوض الناقل للملاريا وأشدّها فتكاً

بين ابريل ويونيو من سنة ١٩٣٠ أصيبت مدينة ناتال بأقوى وباء ملاريا عرف في تاريخ القارتين الاميركيتين . ثم جاء فصل الجفاف بين يونيو وفبراير من السنة التالية، فخف انتشار المرض ثم انفجر ثانية وكأنهُ بركان

وأخذ البعوض في الانتشار، فنقلتهُ الرياح رويداً رويداً مسافة مائة وخمسة عشر ميلاً من الشاطىء ، وأصيب بالملاريا في بعض المناطق تسعون في المائة من السكان، وتوفي من المصابين بين عشرة في المائة وخمسين في المائة منهم، ونزف المرض قوى الذين لم يموتوا فتركهم لا هم أحياء ولا هم أموات، ضعافاً عاجزين عن العمل، زائغي البصر والذهن لا تروقهم الحياة

وتذكر رجال الصحة في البرازيل ما رواه المؤرخون عن تأثير الملاريا في سقوط حضارة اليونان والرومان ، فاستولى عليهم القلق وهم يطالعون الأنباء عن انتشار هذا البعوض وتفشي الوباء في أثره ، وعاد الدكتور باركر الخبير الاميركي بالملاريا من البرازيل فأذاع الانذار التالي

« ان بعوض الجامبيا يهدد القارتين الاميركيتين بكارثة ليست الأوبئة
« والنيران والحروب في جنبها الا نكبات عابرة . فالجامبيا يدخل في
« شرايين الأمة وقد يبقى فيها قروناً يبلوها »

ثم مدَّت العناية يدها الى البرازيل، فجاءت سنتان من الجفاف، فرقت الارض وغاض الماء في

المواقع التي يلقي فيها البعوض بيضهُ فصدَّ الغزاة عن التوسع وأتيح لمكافحي الملاريا فرصة للعمل

كان في البرازيل جيش من رجال الصحة مهمتهُ مكافحة الامراض التي ينقلها البعوض ولاسيما الحمى الصفراء . وكان على رأس هذا الجيش الدكتور باروس باراتو خليفة اوسوالدو كروز الذي أباد الحمى الصفراءَ من منطقة ريو ده جانيرو قبل ثلاثين سنة . وقد مضى باراتو مترسماً خطى كروز حتى غدا البعوض aedes aegypti من الاجناس النادرة في البرازيل

وكان الخبراء فريقين ، أحدهما ناشد باراتو ان ينشئ هيئة لمكافحة الجامبيا وان يتيح لها المال والأدوات اللازمة وهي كفيلة بالتغلب على هذه الآفة . والآخر كان يشك في النجاح . نعم ان الحمى الصفراءَ استؤصلت بالسيطرة على البعوض الذي ينقلها ولكن سرعة تكاثر بعوض الجامبيا تجعل السيطرة عليهِ مهما تكن وسائلها غير كافيةٍ ،ولا بدَّ في مكافحتهِ من إبادة الجنس عن بكرة ابيهِ . ولم يكن بين مكافحي البعوض من يتصوَّر ان في الوسع ابادة جنس من البعوض. فكيف بإبادة بعوض الجامبيا ! ان اجناس البعوض الأخرى تبذر بيضها في أماكن معروفة في بركة أو برميلٍ مملوء ماءً أو ما اشبه . فالسيطرة على البعوض تقتضي تجفيف هذه المواقع أو رشها بموادّ تقتل اليرق قبل ان يتحول حشرة كاملة

وقد يجدون عوناً في نوع من السمك الصغير يقتات ببيض البعوض ويرقهِ فاذا وضعتَ مائة منهُ في بركة ما ، تعلم انها مبيضٌ البعوض ، أكل السمكُ البيضَ واليرق

ولكنَّ بعوض الجامبيا يجتنب البرك والخنادق الكبيرة ويفضل أن يبذر بيضهُ في اماكن صغيرة وحفر لا يلتفت اليها ولا تحصى،كحفرة أحدثها في الوحل حافر جواد أو ثور. فالمشقة في مكافحتهِ بنفس الاساليب المعتمدة في مكافحة غيره تقتضي على قول أحد الخبراءِ « تجفيف كل بقعة كبيرة او صغيرة يتجمع فيها الماء بعد كلّ مطرٍ »

وكذلك علقت البرازيل رجاءَها بانحباس المطر وجفاف الأرض ، لعلَّ هذا الغازي الافريقي يجد الجفاف في ارض البرازيل فوق ما يطيق . ولكن عند ما همى الغيث في سنة ١٩٣٠ عاد البعوض الى الانتشار ، واتسع نطاق انتشاره خلال السنوات الأربع التالية حتى شمل شمال البرازيل وغربها وكانت المساحة المصابة بالملاريا في سنة ١٩٣٨ تبلغ اثني عشر الفاً من الأميال . وأصيب سكان مدن بأسرها بهِ ووقف العمل ولم تزرع الحقول لقلة اليد العاملة. وقال ممثلو معهد ركفلر في تقريرهم : «سيكون من عواقب انتشار هذا البعوض أنّ كل واحد من السكان في المنطقة المصابة سيصبح عالة على الحكومة في سنة ١٩٣٩ »

عند ذلك بات الخطر المحدق بنصف الكرة الغربي خطراً كبيراً محققاً . فقال احد الخبراء اذا اجتاز بعوض الجامبيا وادي البارناهيبا والساو فرنشيكو استحال منع انتشاره الى سائر اميركا الجنوبية والى اميركا المتوسطة وقد يتعذر منع تطرقهِ الى اميركا الشمالية »

وفي يناير من سنة ١٩٣٩ أعلنت البرازيل الحرب على الجامبيا . فأصدر الرئيس مرسوماً بانشاء قيادة مكافحة الملاريا في المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد . وندب الدكتور باراتو —المدير العام للصحة العامة — الدكتور مانويل فريرا لتولي هذه القيادة وهو من أقطاب الصحة العامة في البلاد . وألحق به هيئة اركان حرب أعضاؤها الدكتور شاغاس أحد كبار العلماء في مسائل الملاريا—وقد قتل من عهد قريب في حادثة طائرة . وأرصدت الحكومة ربع مليون من الريالات لهذا الغرض واكتتب معهد ركفلر بمائة الف ريال . لقد حسمت المناقشة في هل ابادة هذا البعوض مستطاعة او غير مستطاعة وجاء دور العمل الحازم ، واذا الشعار : « استبينوا طريق المكافحة مهما يكن وسيروا عليه »

كان الوقت المتاح لتدريب الجنود قصيراً . ولم يكن أمام القواد مثل يجرون عليه وأساليب يأخذون بها . ولكن عند ما حلَّ فصل المطر في فبراير سنة ١٩٣٩ كان الجيش الأول في الميدان وكان قوامه الفين من الأطباء والمفتشين والعمال . وانقضت اربعة اشهر ظهر فيها ان بعوض الجامبيا خصم عنيد . فالمطر المنهمر كان يترك بقعاً من الماء في كل مكان . والى هذه البقع كانت تختلف أناث البعوض تلقي فيها بيضها . فعمد جيش الكفاح الى المناطق الموبوءة وبسط عليها سيطرته وأرسل فصائل الاستكشاف الى ما وراء هذه المناطق فأنشأ فيها مواقع للمراقبة . فما أقبل شهر يونيو حتى أعلنت قيادة الجيش ان العدو بات مطوقاً . ثم بدأت معركة الإبادة

عولج كل مكان يصح ان يكون مباءة لبيض البعوض بأخضر باريس . وانتشر العمال بمضخات التطهير يقرعون كل باب ويدخلون كل دار يقتلون البعوض البالغ في الدور والخيام والدكاكين والبيوت المهجورة . ومضوا في تنفيذ هذه الخطة بغير هوادة او لين في كل بوصة مربعة من الارض في المنطقة الموبوءة وعلى مسافة عشرة أميال وراء حدودها . وكانت الفصائل المتنقلة تقف كل عربة وتطهرها قبل انتقالها من المنطقة الموبوءة الى ما يليها

ولقد أصيب هذا الجيش بغير يسير من خيبة الأمل ولكنه لم يقنط . فقد نفد المال ولكن الحكومة البرازيلية أرصدت مائتي الف ريال أخرى ومضت الحملة على أساس التجربة والخطإ . وجاءت أحايين بدا فيها للقواد ان الحشرات القاتلة تهزأ بهم وتسخر من جهدهم . ولم يكن من النادر ان يفوع المرض في منطقة كانت تُظَنُّ غير موبوءة وهي تبعد أميالاً عن أقرب منطقة موبوءة اليها . فأرسلت فصائل مستكشفة للبحث وما لبثت حتى عرفت الجواب وكشفت السر . ففي حالة واحدة ، اجتنبت سيارة عيون الرقباء وشقت طريقها من المنطقة الموبوءة خارجة عن الطريق المطروق فلم يشملها التطهير والتدخين . وفي حالة أخرى تسلل زورق نهري صغير تحت ستار الظلام . وفي الحالين انتقل البعوض من منطقة الى أخرى كانت سليمة منهُ

ولكن ذلك لم يثن عزم الجيش . وفي سنة ١٩٤٠ ارصد مليون ومائة وثلاثون الف ريال هذه الحرب . وكان نصيب معهد ركفلر منه مائتين وثلاثين الف ريال . وزيد الجيش المكافح الى أربعة آلاف . وأعلنت قيادة الجيش في لهجة تنم على الثقة « ستكون هذه السنة سنة القضاء على الغزاة »

والواقع ان بعوض الجامبيا بدأ يرتدّ بعد ما صدّ . وكان المطر غزيراً ولكن التقارير الواردة من الضباط في منطقة أثر منطقة كانت تقول جميعاً: المنطقة نظيفة وليس ثمة دليل على وجود البعوض أو البيض او اليرق» . ولولا هذا الكفاح العظيم لكانت البلاد في هذا الفصل الممطر مرتعاً خصباً للبعوض يتكاثر فيه وينتشر

والدليل على ذلك أن الجيش كان قد احتفظ بمنطقتين لم يعالج البعوض فيهما بأساليب الكفاح المختلفة ليستطيع المقارنة. فكانت فوعة البعوض عظيمة فيهما ، ولكن هزيمة العدوّ كانت بادية في كل منطقة أخرى نفذت اليها فصائل الكفاح

عند ذلك قرّرت قيادة الجيش أن تمتحن ما فعلت امتحاناً فعّالاً . فكانت كلّما أعلنت كتائب الكفاح أن منطقة ما قد طهرت من البعوض ، ترخي وسائل المراقبة والكفاح ولكن فصائل الاستكشاف تبقى مترصدة تطوّر الحال لئلاّ يفلت الزمام من يدها . ومضت أشهر ولكن بعوض الجامبيا لم يظهر

غير ان الحذر والخوف يساوران المكافحين لأنهم يعلمون أن بعوض الجامبيا عدو عنيد غادر . والواقع إنهُ حدث ما روّعهم في حالة واحدة ذلك بأن بعوض الجامبيا ظهر في منطقة تبعد خمسين ميلاً عن حدود أقرب منطقة كانت موبوءة . ولم يعرف السبب ولكن الجيش المكافح قضى على العدو بعد حملة قصيرة

وقد انقضت سنة أو تزيد الآن ، ودوريات مصلحة الصحة تطوّف في شمال البرازيل الشرقي مستكشفة مستطلعة بغير أن تشاهد بعوض الجامبيا . وأعلنت أنها تجيز كل من يأتيها ببيضة أو بعوضة أو يرقة بمبلغ من المال . ولكن أحداً لم ينل هذه الجائزة

وعلماء البرازيل حذرون الحذر كلهُ — شأن العلماء الصادقين — فلا يزعمون أن بعوض الجامبيا قد أبيد . ومع ذلك فان النتيجة التي أحرزوها وقعت وقعاً عظيماً في دوائر علماء الصحة في كل صقع لأن هذا الغازي المجنح الفتاك لم يشاهد في البرازيل منذ شهر نوفمبر سنة ١٩٤٠

ان البرازيل قد أثبتت بما بذله رجالها من همة وصدق كفاح ، ان الملاريا مرض في الوسع استئصالهُ . فلا يجوز بعد الآن ان تبلى به أمة ما . وانتشاره في جماعة ما من الناس يجب ان يعدّ باعثاً من بواعث العار الاجتماعي ونتيجة من نتائج الإهمال

(عن مجلة ريدرز دايجست عن مجلة العصر الحي بتصرف يسير)

صفائح على قبور ...

لراجي الراعي

رأيت أمس في ساحة من ساحات الموت أربعين قبراً عليها الصفائح الآتية :

— تدثَّر بالارض فاندثر

— لم يبق لهُ من هياكله غير عظامه

— اغترفه الموت بالفم الذي اغترف به الحياة

— هنا يرقد الهازىء الاكبر فولتير . . انهُ يضحك في ترابه

— هذه ثمالة الثمالة !

— الحياة لبل يطلع فجره على هذه الساحة !

— الطفولة والشباب والكهولة والهرم : قوائم أربع ينصب عليها الموت عرشه الترابي

— لقد جُبل دمه بالتراب !

— هذا ميرابو . . لم يبق منه غير الحنجرة . . انظر اليه كيف يخطب على كومة من عظام اتخذها منبراً . . كان يطرد رسل الملوك من قاعة الامة فمن تراه يطرد الآن ؟

— لم ترحمهُ الحياة فكيف يرحمهُ الموت

— رقمٌ جديد أُضيف الى ذلك الجدول المخيف !

— هنا يرقد نيرون بجانب ضحاياه !

— من رحم المرأة الى رحم الارض . .

— غمرتهُ موجة الايمان فمات شهيداً !

— تلك هي القبة الزرقاء وهذي هي القبة السوداء . .

— قصر ليله وطال حلمه فأتجده الموت بليله ليظل حالماً . .

— تنقل هذا العصفور على جميع الأفنان ثم أوى الى عشه . .
— كان مهده منطوياً على لحده . . لقد غشّهُ المهد !
— متى يموت الموت : هذا المجرم الأكبر ؟
— نثرتهُ الحياة فنظمهُ الموت عقداً في جيده . .
— مات وفي صدره الف طعنة ! !
— في هذا القبر الصغير يرقد بطرس الاكبر . .
— أنكرتهُ الحياة ولم يعرف نفسه . .
— حمة من بركان في حفنة من تراب . .
— مات غريقاً . . لقد ابتلعتهُ اللجتان : لجة السماء ولجة القضاء .
— هذه واحدة من مجاوز القدر . . وهذا دمها في الحجر . .
— لا تسر اختيالاً على رأسه فهذا هو المعرّي . .
— هذا نابليون . . ظلّ سيفه مصلتاً عامباً غمده حتى أغمده الموت . .
— انه لم يمت بعد . . ان الشاعر لا يموت . .
— اليقظة كل اليقظة في هذا الرقاد . .
— هذا حجرٌ يتكلم . .
— في هذا الضريح المظلم قبس من نور الآخرة . .
— لقد انتثر عقده !
— وأخيراً خرج ديوجينيس من برميله وأوى الى هذا البيت الثابت الذي لا يتدحرج . .
— الحياة يوم هذا ليله . .
— الخرخرة آخرة الثرثرة !
— كيف استطاع هذا القبر ان يسع خياله . .
— ظلت ساحرة حتى اللحظة الاخيرة . . أعرفتها . . هي كليوبترة .
— هذا عليٌّ في آيته الكبرى . .
— نعم . . . لقد مات !

المتخصص الاجتماعي

في معركة الاصلاح (1)

لمحمد العشماوي بك

سيداتي ، سادتي ، بناتي الطالبات ، أبنائي الطلبة : أحييكم وأحيي مدرسة الخدمة الاجتماعية التي أتاحت لي فرصة أخرى لمعاودة الحديث في ناحية من نواحي معركة الاصلاح الاجتماعي : وقد علمتم رأيي في هذه المعركة من خلال الموازنة التي عقدتها بينها وبين معركة الحرب . فقد أبنت لكم أن معركة الاصلاح يجب أن تأتي في مقدمة المعارك جميعها ، فلا أمل في إصلاح ما لم تحشد له قوانا جميعها ، وأنه لاصلح في تلك المعركة ولا هدنة ولا استجمام . وإذن لا يكفي أن نتحدث في شأنها حديثاً أو حديثين . وإنما يجب أن يتصل حديثنا ما دامت تطالعنا المعركة بنكباتها وتشن علينا غاراتها في كل آن

ومما لاشك فيه أن رسالة مدرسة الخدمة الاجتماعية إعداد الجنود للكفاح في ميدان الأصلاح الاجتماعي . فاذا تحدثت اليكم فيما يجب أن يتوافر للجندي الاجتماعي فانما أتحدث في شأن من شئون الاعداد العلمي الحربي للخدمة الاجتماعية . وقد أفردت حديث الليلة لمهمة المتخصص الاجتماعي بعد أن ألممت بمهمته إلماماً في حديثي السابق ، وذلك لان مهمته من سمو المكانة وعظيم الخطر بحيث يتعين أن يفرد لها حديث خاص ، وأن تكون في مقدمة ما يشغلنا من شئون تنظيم المعركة وتوفير ما تتطلبه من قوة وعتاد وجنود . وإذا نظرنا إلى الحياة العامة نظرة عامة وضح لنا أن البيئة المصرية أصلح بيئة للكفاح في سبيل الاصلاح في مختلف ميادينه فما أحسب أنه قد تجمع في بيئة ما تجمع في مصر من عوامل الشر التي تجب مكافحتها . فهل تفتك الأمراض ببلد متحضر فتكها بمصر التي أثبتت موازنات إحصائياتها أن كل فرد مصاب بعلتين على الأقل ، وأن أغلب الأمهات فيها يلدن للقبر ؟ وهل يحدث الفقر من الأثر ببلد متحضر ما يحدثه بمصر حتى ليهبط بمورد كثير من الأفراد الى ستة جنيهات في العام يواجهون بها مطالب الحياة في أشق ظروف الحياة ؟ وهل تغشى الأمية والجهل بلداً متحضراً كما تغشى مصر التي لم يزد من يعرفون القراءة والكتابة فيها على عشرين في المائة ؟ وهل أهمل تثقيف الفتاة في بلد كما أهمل في مصر التي لاتزال نسبة المتعلمات فيها نحو خمسة في المائة ؟ وهل تجري السياسة الاقتصادية

---

(1) ألقيت في مدرسة الخدمة الاجتماعية في ٧ ديسمبر ١٩٤١

والاجتماعية والثقافية في بلدٍ كما تجري في مصر على الارتجال والحل الوقتي للمشكلات دون تفكير في مصدر الداء والعمل على شفاء البلاد منه شفاء ناجعاً حاسماً ؟

من هذا تتبينون أن الحياة المصرية في حاجة ملحة الى مجهودات متصلة في سبيل الإصلاح وأن مهمة المصلح الاجتماعي فيها عسيرة شاقة . ولهذا كان إعداد جنود الإصلاح وتبصيرهم بسمو رسالتهم وخطر واجباتهم جديراً بتفكير المفكرين وحديث المتحدثين

وقد قلت في حديثي عن معركة الاصلاح إن التجنيد لها يجب ان ينتظم أهل البلد جميعاً لافرق بين رجل وامرأة ولا بين شيخ وشاب ، ولا بين شعب وحكومة. فالاسلام حين عدد واجبات الرعاية جعل كلاً راعياً وكلاً مسئولاً عن رعيته . فالجنود هم أفراد الامة على بكرة أبيها بما توافر لكل منهم من ثقافة أو تجربة أو جاه أو مال

ولا يتسع لي المجال في هذا الحديث لأتكلم في وسائل إعداد أفراد الشعب جميعاً للكفاح في سبيل الاصلاح؛ ولذلك أقصر كلمتي على إعداد المتخصص الاجتماعي وحده

ومثل الخدمة الاجتماعية كمثل المعركة الحربية تتطلب جنوداً مدربين يدرسون فنون الحرب ويحذقون استخدام معداتها . وتتطلب ضباطاً يتولون قيادة الجيش وتنظيم الصفوف وتوجيه الحملات؛ وتتطلب غير هؤلاء وهؤلاء جيشاً مرابطاً يمد الجيش العامل . وكذلك الشأن في معركة الاصلاح يجب أن يهيأ لها جنود تثقفوا فنون الكفاح، ومن ورائهم جنود احتياطيون. كما يجب أن يهيأ الشعب كله للمؤازرة وقت الحاجة . فان اقتصرنا على طبقة الجنود المدربين وتركنا الامة في عزلة كان فشلنا في المعركة محققاً . فأنا إذ أتكلم في شأن المتخصص الاجتماعي فإنما أعني الجند الذين يعدون إعداداً خاصًّا . ولكني لا أغفل القوى الاحتياطية التي تشد أزرهم وتحمي ظهورهم بالمال آناً وبالروح المعنوية آناً . وأولئك الجند هم الذين يدربون تدريباً فنيًّا لخوض المعركة والبلاد من ورائهم تزودهم بكل القوى التي تمكن الجيش العامل من الثبات في الميدان ومواصلة الكفاح حتى يقضي على عوامل الشر

فماذا يجب أن يتوافر للمتخصص الاجتماعي من إعداد وقوى ؟ أول ما يجب أن يتسلح به قلب كبير عامر بالايمان ، لأنه إذا ضعف إيمانه أو تزايل تعرض للاخفاق المحقق، وذلك لأن الكفاح في ميدان الاصلاح نوع من أعمال الرسالة؛ وهي لا تؤدى إلا بايمان وطيد لا تزحزحه مغريات الدنيا ولا نوائبها ولا الطمع في جاه أو مال أو منصب . فواجب أن نربي المتخصص الاجتماعي على الايمان القوي . ولن تؤتي هذه التربية ثمرتها إلا إن استندت إلى دين وعقيدة فالرسل جميعاً جاءوا بالهدى والحق، بعثهم الله لاصلاح البشر. ولقد صدر الأنبياء والرسل عن عقائد ثابتة بلغوا بها ما أرادوا . ولا يتسنى للمتخصص الاجتماعي أن يمضي في طريقه قدماً إلا إذا كانت تحدوه عقيدة دينية ثابتة سليمة لا تتزعزع، تملأ صدره نوراً وتدعه لا يرضى

غير وجه الله والمصلحة العامة سبيلاً . فعلينا أن نستعين بالروح الدينية في صفاء جوهرها لتكون وسيلتنا في العمل للاصلاح . ولنعلم أن فاقد الشيء لا يعطيه فلا يقدر أن يبث عقيدة الاصلاح الاجتماعي داعٍ اجتماعي لا عقيدة له ولا إيمان . وإن كثيراً من دعوات الاصلاح لتذهب هباء لأن القائمين بها لا يصدرون عن قلوب عامرة بالايمان ، أو لأنهم في أحوالهم الاجتماعية الخاصة أبعد ما يكونون عن روح الاصلاح الذي يدعون اليه

كذلك يجب أن يكون المتخصص الاجتماعي واسع الأفق في المعرفة بأحوال الناس بصيراً بما يؤثر في الخاصة والعامة ، دارساً للحياة الاجتماعية في مختلف نواحيها دراسة تعينهُ على الاستنتاج والعلاج . فاذا عالج رفع المستوى الاجتماعي لبيئة خاصة كان عليهِ مثلاً أن يتعرَّف الحالة الاقتصادية أكمل تعرُّف ، لأن للاقتصاد أثره في شيوع المرض وتغلغل الفقر وانتشار الجهالة ، فمقوّمات الحياة في الأمة حلقة مفرغة . إذا ساء الاقتصاد مثلاً ساءت الصحة وساءت الثقافة . وإذن فلا بد للمتخصص الاجتماعي من دراسة تقفه على حقيقة العوامل التي كانت سبباً في انخفاض المستوى الاجتماعي والصحي والثقافي والخلقي للبلاد

ويجب أن تتعاون المرأة مع الرجل في ميدان الاصلاح ، فاذا لم يتساند العنصران على أداء مهمة الاصلاح ضعف الأمل في النجاح . ولقد خلق الله الزوجين الذكر والأنثى وجعل لكل منهما طبيعة خاصة بلائمها عمل خاص . فالمرأة بطبيعتها مربية الجيل ، وهي الروح المعنوية الحافزة ، وهي باعثة الطموح وصدق الهمة ، وهي ملهمة الرشد أو الغي . ولقد كان لها دائماً هذا الأثر في البدو والحضر وفي فجر الحضارة وضحاها . وإني ليحضرني قول أحد أصحاب المعلقات في حفز الهمم

على آثارنا بيضٌ حسانٌ نحاذر أن تقطع أو تهونا

يقتن قيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا

إذا لم نحمهنَّ فلا بقينا لشيءٍ بعدهنَّ ولا حيينا

فعلينا ألاَّ نهمل إعداد المرأة للعمل في الميدان الاجتماعي وأن ندفعها إلى الكفاح فيه بما حباها الله من صفات الصبر وقوة الاحتمال وروح العطف والتفدية والايثار . ولكن يجب أن نعدها لمهماتها الاجتماعية الطبيعية ، فمكانها من الميدان مؤخرته تدفع الرجال إلى الأمام . ولديها في هذا المكان من جسام الأعمال ما يشغل وقتها ويستنفد جهدها ، فهي تتلقى الطفل من ولادته الى رجولته . واليها ينتهي الأمر في تنشئته وتغذيته وتثقيفه وتقويم أخلاقه في مراحل حياته الأولى . فلنعد المرأة لرعاية الطفل وحل مشكلاته ترعى ذكاءه حتى لا يخبو وتبث فيه الحرارة حتى لا يخمد . ولنعدها أيضاً لمشكلات الأسرة تعالجها زائرة أو مقيمة وتحل عقدتها في بيتها أو في بيوت الناس . فأما الرجل فعنده الميدان الثقافي والصحيّ والاقتصادي والارشاد العام . على أننا الآن في مجتمعنا أشبه ما نكون بمن تظلهم حالة الحرب . البلد في خطر

والعدو كثير والهجوم من نواحٍ عدة والغارات متوالية . فالحالة تتطلب اشتراك العنصرين معاً لانقاذ البلاد وليس يجزىء أن ينفرد كلٌ بعمل . فالمرض تقاومه المرأة والرجل في الفرد والاسرة، والاقتصاد تشترك فيه المرأة بما تضع من تدابير صالحة تكفل بها أن يفي القليل بالحاجة

وبودي أن أنفي عن المتخصص الاجتماعي رجلاً كان أو امرأة أن عمله نوع من الوظائف تخضع لرآسة ترجى ، وتتعلق بآمال ترتقب . وإنما يجب أن تتوافر لمن يلي هذا العمل صفات من النبوة . فيقبل على مهمته في غير انتظار للجزاء بل في توقع الأذى ، ويضع نصب عينيه أن فكرة الاصلاح تتنافى مع النفع . لأن أساسها التفدية بكل شيء حتى بالنفس إذا اقتضت الحال

وعلى المتخصص الاجتماعي أن يكون حكيما لبقاً فيما يواجه من أزمات وما يبغي من إصلاح . وأن يرعى سنة التطور ، فلا يقدم على تغيير شيء لم تهيأ لتغييره الوسائل والنفوس والا كانت دعوته إلى الاصلاح دعوة إلى الثورة مما يجعله مفسداً لا مصلحاً . فاذا صادفته في مجتمعنا المصري تلك الفكرة الشائعة حتى في أوساط المتعلمين التي تقول بزيادة المتعلمين عن حاجة البلاد ، وجب أن يتدبر الباعث على هذه الفكرة ، ليرى أن عذر الناس في إشاعتها كثرة المتعطلين ممن تعلموا ودرسوا . وإنها لمشكلة تدعو إلى العجب أن تكون حاجة البلاد الى المتعلمين ممتنعة أو قليلة ، على حين أن عدد الذين تعلموا القراءة والكتابة في مجموع الأمة لا يتجاوز العشرين في المائة . فكيف نغالب تلك الفكرة وكيف نعالج تلك المشكلة ؟ لنقنع الكافة أن البلاد مافتئت متعطشة إلى مناهل العلم وأن الحاجة الى الاكثار من المتعلمين لاتزال ملحة . لازم على المصلحين أن يفكروا طويلاً ليدركوا أساس الخطأ في هذا التقدير . وإذن ما العلة في تعطل من خرجتهم المعاهد على مس الحاجة إلى أضعافهم جميعاً . الحق أن مثلنا في ذلك مثل من يذهب الى أعالي النيل ليقيم مصنعاً لنسج الثياب حيث يظل القوم عراةً فهل يتوقع أن يقبل الناس على ترويج بضاعته ؟ وهل يدل عدم الاقبال على شراء الثياب على أن القوم استوفوا حاجتهم إلى الكسى . تلك حالنا : ضاق مجتمعنا بالمتعلمين لاننا في شئوننا الحيوية لا نعتمد على المتعلمين . فالطب قائم في الكثير على الذين يمارسون التطبيب من طريق الدجل والخرافات، وهندسة البناء قائمة على عامة البنائين، والمحاماة لا تخلو من الدخلاء غير المتفقهين . ودور التجارة لم تتسع لمن درسوا فن التجارة، والمزارع لم يتول العمل فيها المختصون . وبذلك نضب معين الاعمال أمام المتعلمين، لان العقلية الاجتماعية للامة وقفت في طريقهم عقبة كئوداً . ولقد قلت في حديث لي إن عطلة المتعلمين سببها قلة المتعلمين . وما زلت أرى وجه الصواب في هذا القول . فلو انتشرت الثقافة وارتقت عقلية الأمة ومستواها الاجتماعي لعظمت حاجة البلاد لهؤلاء المتعلمين المتعطلين، بل لشعرت بأنهم دون كفايتها . فالمصلح الاجتماعي يلقى في مصر حالة طال عليها العهد وعقلية ران عليها الجهل فألفها الناس . ولذلك يرى طريقه الى الاصلاح

شاقاً عسيراً ، إذ يصادف فيمن يصادف أناساً عشيت أبصارهم فيؤذيهم النور، وعميت بصيرتهم فلا يتبينون طريق الهدى . فهو مطالب أن يدفع أولئك الى تفكير جديد ونظر جديد وهو مضطر أن يعمل شيئاً فشيئاً على تغيير أوضاع الحياة ومعايير الأخلاق

ولعلّ أهم ما يجب على المصلح الاجتماعي أن يرعاه هو تجنب الوقوع في الطفرة وإثارة روح الفتنة . فاذا أراد أن يعالج مشكلة الفقر وجب ألاّ يبث في نفوس الفقراء روح التمرد والانتقاض المفاجىء على نظام المجتمع، فتقع الفرقة وتضطرم الفتنة . وإنما يتوجه الى الاغنياء فيذكرهم بما فرضه الله للفقراء في أموالهم من حق ، ويطلب اليهم أن يؤدوه لوجه الله والوطن، وأن يرفهوا بالفضل من مالهم عن البائس والمحروم . فان لم يلق من ذوي الغني آذاناً تعي أو قلوباً تعطف دعا إلى اتخاذ التشريع سلاحاً يستنقذ به هذا الحق في الأموال . ثم يلتفت ذلك المصلح الجدير بهذا الوصف إلى الفقراء ، لا ليبذر بذور الشقاق والبغضاء بينهم وبين الاغنياء ؛ بل ليحببهم في التعويل على النفس والسعي وراء أسباب الكسب ، واستشعار الكرامة والانفة من قبول العطية والاستنامة الى المعونة . فان وجههم الى ذلك فقد وجههم الى طريق الكرامة والانتاج الشريف وجنبهم المذلة والمسكنة . وبديهي أن الرغبة في البذل ضعيفة عند من يملكون البذل . ومهما تقل للمترفين : انزلوا عن شيء من أموالكم حتى لا يثور عليكم الفقراء والبؤساء فقلما ترجو منهم تلبية للدعوى أو إسراعاً لبذل المعونة . ولن يفوتكم أن العرب حين ارتدوا عن الاسلام على أثر وفاة النبي الكريم كان أول حافز لهم على الردة رغبة الفرار من أداء فريضة الزكاة ، ولو رفعت عنهم هذه الفريضة لما وقفوا في أغلب الظن هذا الموقف

والمصلح الاجتماعي مضطر الى أن يترفق في الدعوة الى البذل وأن يعالج بكل الوسائل روح الانصراف عن البر فيحببه الى الناس بمختلف الحجج والمرغبات، وعليه أن يعمل في تنظيم البر وتوجيهه وجهة صالحة فان ذلك الاحسان غير المنظم من شأنه أن يقوي في النفوس الاستعداد للاستجداء المزري والركون للدعة والبطالة، وبذلك نتجه بالبر وجهة جديدة وهي تهيئة الوسائل للفقراء والضعفاء . فنهيء للمريض وسائل الاستشفاء وللجاهل وسائل التثقيف وللمتعطل أبواب العمل . وعلى هذا النحو يرتفع المستوى الاجتماعي للأمة في مختلف النواحي وتيسر الحياة للفقراء ويتحقق التكافل العام في شتى مظاهره والانتاج في كل مرافقه

وإني إذ أختم هذا الحديث أرى أن مهمة المتخصص الاجتماعي في جلالة خطرها ليست بالتي يستطاع أن يستوفى حديثها في وقفة أو وقفات . ولذلك أجتزىء في مقامي هذا بما أجملته لكم آملاً أن تتهيأ لي الفرصة لاستئناف الحديث ، فالحديث عن الاصلاح ومعركة الاصلاح يجب أن يطغى على الأحاديث التي يتندر الناس بها في مجالسهم . وليكن شعارنا جميعاً النواصي بالاصلاح نوجه الدعوة اليه عالية خالصة ، ونتلقاها عاملين مخلصين !

عنصر البريليوم

أخف من الالومنيوم وأخلاطه أقسى الاخلاط

من تسع سنوات دخل طيّار اميركي يدعى ولتر جاكرز فندقاً في مدينة كليفلند وسأل عن حجرة صديق كان زميلاً له في الحرب العالمية الاولى ، فدُلّ عليها فقرع الباب ودخل فكأنه استأذن ولم ينتظر الأذن في الدخول وفاجأ صاحبه بقوله « لابدّ من مقابلتك » كأنهُ كان محرجاً ولا مخرج له من حرجه إلاّ بعون صديقه . فنظر اليه صاحبه نظرة ملؤها المودّة والسخرية وقال « ما ورطتك الآن ؟ » فقال « هذه ورطتي » ووضع على المائدة في حجرة صاحبه « قضيباً معدنيًّا » وقال له « ارفعهُ ». فتأهب هذا لرفع قضيب كأنما صنع من البلاتين وكأنهُ البطل العالميّ لرفع الاوزان الثقيلة ، وانحنى بعدما ثبّت قدميه في الارض وأمسك بالقضيب ثم انقلب مقهقهاً لأن هذا القضيب الفلزيّ كان كأنهُ صنع من أخف الخشب فعجب لما رأى والتفت الى صاحبه سائلاً . فجاءهُ الردّ

— بريليوم

بريل ... يوم ! وما هو البريليوم ؟

— البريليوم فلزّ . كشفهُ اولاً باحث فرنسيٌّ يدعى ڤوكلان Vauquelin واستفرده وهلر الكيميائي الالماني سنة ١٨٢٨ وهو أخفُّ العناصر في العالم بل هو من أخف العناصر على الاطلاق . انهُ أخف من الالومنيوم ... وليس ثمة اخف منهُ الاّ الايدروجين والهليوم والليثيوم . ومع ذلك فهو قاسٍ يجرح الزجاج

— ولكن ... ما معنى كل هذا ... ما فائدتهُ

— الطيران طبعاً . أتستطيع أن تتصور ما يمكّننا منهُ هذا الفلز في صناعة الطيران ؟ محركات أكبر وأقوى من المحركات التي نستعملها الآن . وطائرات أضخم . وأجسام سفن طائرة لا يصيبها الصدأ ، لأن من اوصاف هذا الفلز انهُ لا يتآكل مثل الدورالومن وغيره من أخلاط الالومنيوم. وهذا القضيب الذي تراه هنا هو نيكل البريليوم . ولكن البريليوم يختلط

بكثير من الفلزات...بها جميعاً تقريباً ... انه يحول الذهب اقسى من الصلب... ان مسماراً من نحاس مخلوط بالبريليوم يستطيع أن يخترق لوحاً كثيفاً من الصلب

أخذ الرجل بهذه الأوصاف . وكان غنيًّا من اسرتي فندربلت وهوتني...وكان مغنيًّا بالطيران ولهُ في شركة خطوط الطيران الاميركية Pan American نصيبٌ. فأفرغ في« شركة البريليوم الاميركية » خلال سبع سنوات نحو ثلاثمائة الف جنيه ، انفقت في البحث العلمي وانشاء الاجهزة اللازمة في مصانع البريليوم وفي مناهضة بعض الشركات التي خشيت هذا الدخيل في ميدان الفلزات فحاربتهُ وحاربت اصحابه لكي تقيم محله فلزات أخرى دونه كثيراً في ما يصلح له ولا تصلح هي له

ولكن نشوب الحرب استعجل الارتقاء في كل ما يتعلق بهذا الفلز العجيب . ففي سنة ١٩٤٠ أصدرت الحكومة الاميركية امراً بعدّ البريليوم أحد الفلزات الحربية ، كالمنجنيس والكروم والولبدينوم والنيكل والقصدير والالومنيوم وأخضعت إنتاجه واصداره لسيطرتها

وركاز البريليوم كثير في الولايات المتحدة الأميركية والبرازيل ومنطقة سفردلوفسك بجبال الاورال . ومن مناجمه الروسية كانت ألمانيا تستورد مقادير منهُ فيصنع رجالها أخلاطاً صلبة يستعملونها في بعض أجزاء الطائرات والدبابات والمدافع

والواقع اننا الآن في عصر يصح ان يوصف بعصر الاخلاط الفلزية.وقد أهلَّ هذا العصر عندما تمكن رجال العلم والصناعة، من صنع خليط خفيف يجاري الفولاذ، في قساوتهِ ومتانتهِ من فلز لين كالالومنيوم . ولولا هذا الخليط الخفيف الصلب لما كان في الوسع صنع القاذفات والمطاردات السريعة وطائرات النقل الكبيرة التي تعبر المحيطات ، لانها لو صنعت من فلزٍ ثقيل الوزن ، لكان وزنها — أجساماً ومحركات — مانعاً للارتقاء . والحاجة الآن خليط فلزيٌ آخر ، أخف من خليط الالومنيوم وأمتن منه ، فيستعمل في صنع المدافع التي تسلح بها الطائرات ، فتعزز قوتها في الدفاع والهجوم ، لأنه اذا كانت الطائرة لا تستطيع بأوصافها الحالية ان تحمل أكثر من اربعة مدافع من وزن معين فانها تستطيع ان تحمل ستة مدافع مصنوعة من خليط فلزي أخف من الفلز الذي تصنع منه الاولى . وفي دوائر مهندسي الطيران رسوم وتصميمات لصنع محركات يولد المحرك منها خمسة آلاف حصان الى ستة آلاف حصان ، اذا كان الخليط الفلزي اللازم متاحاً ، وهذه قوة تفوق قوة أقوى المحركات المستعملة الآن من ضعفين الى ثلاثة أضعاف

واذا زادت قوة المحركات زادت سرعة الطائرات . واذا كانت الاخلاط الفلزية التي تصنع منها أجسام الطائرات وأجنحتها أخف وأمتن غدا في الوسع صنع طائرة كانت حتى الآن

حلماً من أحلام المهندسين ، أي طائرة تستطيع ان تنقل ثلاثمائة من الركاب ، أو بضع دبابات متوسطة مسافات بعيدة . ولا يبعد حينئذٍ أن يصبح في الوسع تناول طعام الافطار في لندن وطعام الغداء على ساحل اميركا الغربي

ثم ان فنون الحرب وعلوم المعادن سارت جنباً الى جنب منذ فجر التاريخ . وارتقاء قدرة الانسان على التدمير مجارٍ لارتقاء علمه بكيمياء الفلزات واستعمالها . وحديث الارتقاء من قطع الظران في العصور القديمة الى الرشاش في العهد الحديث انما هو قصة الارتقاء من استعمال الحجر الى استعمال الحديد الى استعمال الفولاذ . ولكنه عند ما كشف أسرار صنع الاخلاط الفلزية اصبحت قدرته على صنع آلات التدمير لا تجارى . والاخلاط الفلزية ليست شيئاً جديداً في التاريخ . فالحثيون ملكوا ناصية الحرب لتفوقهم على غيرهم في استعمال الحديد ، والمصريون انتزعوا من جيرانهم ، على رغم أدوات الحديد ، قصب السبق عند ما صنعوا الشبه (البرونز)

غير ان البريليوم لم يتخذ مكانهُ بين العناصر الاخرى الآ بعدما استفرده وهلر الالماني في سنة ١٨٢٨ . ولكن البحث الحديث أثبت ان النحاس اذا خلط بمقدار اثنين في المائة من البريليوم أصبح خليطاً فلزيّاً تصنع منه كباسات البندقيات والرشاشات والمدافع الكبيرة لا تبلى

والفضل في هذا الارتقاء في الولايات المتحدة راجع الى رجل يدعى جاهاجان Gahagan وهو اميركيٌّ من اصل ارلندي . ولكنه عانى الأمرَّين قبل ما اقنع رجال الجيش والاسطول في العاصمة الاميركية بأن بين يديه شيئاً يستحق عنايتهم . وكانوا لشدة إلحاحه قد برموا بهِ ، واخيراً قرروا أن يمتحنوا ما يقولهُ عن أوصاف هذا الخليط العجيب فطلبوا منهُ ان يصنع منه اجزاء من بندقية يستعملها الجيش فصنعها وعرضها للامتحان . وكان سلاح المهندسين في الجيش قد قرَّر ، إن هذه الاجزاء يجب ان تصمد على خمسمائة صدمة متوالية تعرَّض لها . وكان هذا في رأيهم امتحاناً كافياً لصلابة هذا الخليط ومتانتهِ . ولكن جاهاجان لم يرضَ بأقلّ عشرة آلاف صدمةٍ متوالية للاجزاء التي صنعها ، فاذا هي بعد ذلك كأنها جديدة . فانهالت عليهِ الطلبات من الجيش والأسطول وبدأ يجرّب استعمال هذا الخليط في أجزاء أخرى من أسلحة شتى . ومنها سلكٌ لولبيٌّ يستعمل في صمامات محركات الطائرات . هذا السلك اذا صنع من شَبَهٍ (برونز) فصفوري تذبذب خمسمائة الف ذبذبة قبل ان ينقضي أجلهُ ، واذا صنع من الفولاذ تذبذب ثلاثة ملايين ذبذبة قبل ان ينقضي أجلهُ ، ولكنهُ اذا صنع من خليط البريليوم تذبذب عشرين الف مليون ذبذبة قبل ان ينقضي أجلهُ

وتفوق أخلاط البريليوم جميع الفلزات والاخلاط الفلزية في قدرتها على الانعطاط قبل الانقصام . فنيكل البريليوم وهو خليط قوامهُ ٩٨ في المائة من النيكل و ٢ في المائة من

البريليوم لا ينقصم قبل ان يبلغ الضغط الواقع على بوصة مربعة منهُ ٢٦٠ الف رطل أي ان قضيباً من نيكل البريليوم قطرهُ نصف بوصة يستطيع ان يرفع نحو ثلاثين طناً بغير ان ينقصم . بينما الصلب الجيد ينقصم اذا بلغ الضغط على بوصة مربعة منهُ ٦٠ الف رطل والصلب الذي لا يصدأ ينقصم عندما يبلغ الضغط على بوصةٍ مربعةٍ منهُ ٩٠ الف رطل

***

واننا لنعيد في ما بقي من هذه الصفحة ما كتبناه عن البريليوم في مقتطف ابريل ١٩٢٩ عند ما بدأت الانظار تتجهُ اليهِ بعنوان « البريليوم : معدن عجيب »

البريليوم عنصرٌ من العناصر الفلزية كالحديد والنحاس والألومنيوم والرصاص ، وهو أخف من الألومنيوم بنحو ثلاثين في المائة وله خواص الصلب من متانة وقساوة ، ولكن لم يشع استعمالهُ حتى الآن مع مرور أكثر من قرنٍ على كشفهِ لأن استخراجهُ من ركازه على وجهٍ تجاريٍ بقي متعذراً الى عهد قريب

والفخر في كشفهِ يعود الى فوكلان الباحث الفرنسي وذلك في سنة ١٧٩٧ ومن ثمَّ أخذ العلماء يحاولون استفرادهُ من ركازه فعجزوا عن ذلك حتى جاء وهلر الكيميائي الألماني المشهور سنة ١٨٢٨ وبعد مشقة عظيمة حصل على مقدار قليل منهُ فاستعملهُ في تجاربهِ الكيميائية وبقي الأمر كذلك حتى جاء هيوكوبر أحد مهندسي التعدين بكليفلند فاستنبط طريقة لاستخراجهِ من ركازه بغير نفقةٍ كبيرة وقد أخذ بعد المعدات مع الممولين الذين يمدونهُ لبناء المعامل اللازمة لذلك

ويظنُّ بعضهم ان البريليوم من الفلزات النادرة وهذا خطأ لأن مباحث المهندسين في الولايات المتحدة الاميركية دلت على وفرة وجوده في ١٥ ولاية منها ويغلب ان تكون مركباتهُ ممتزجة بمركبات الألومنيوم والسليكون . وأما ندرتهُ فسببها يرجع الى تعذر استخراجهِ نقياً من ركازهِ . فاذا صحَّ ما قيل عن طريقة كوبر الاميركي وصار ثمنهُ رخيصاً استعمل حالاً في محركات الطائرات لانهُ يجمع بين خفة الوزن والقساوة والمتانة . ثم اذا رخص بعد ذلك فقد يستعمل في صنع محركات السيارات ثم لا يلبث أرباب الصناعات ان يستنبطوا لهُ الف وجهٍ ووجهاً يستعملونهُ فيها . فهو من هذا القبيل شبيه بالألومنيوم ... وهو معدن صلب لا يمكن خدشهُ بمبردٍ من الصلب . ولما كان الكيميائيون قد وجدوا علاقة مطردة بين الصلابة والمتانة فالمرجح ان يكون هذا المعدن متيناً كالصلب . ولكنهُ في حالتهِ النقية قصم ولذلك يجب مزجهُ بمعادن أخرى كالألومنيوم او النحاس او الحديد . على ان موضوع الاخلاط المعدنية التي تصنع منهُ لم يستوف بعد

الحيوان

في كتاب الإمتاع والمؤانسة

للاب انستاس ماري الكرملي

١٣ — الأَعْنُز غير الأَنْعُج

جاء في متن ص ١٨٥ : « أعنز الجبل وكباشهُ » وفي الحاشية اشارة ان الذي ورد في النسخة الخطية : (أنعج) ثم قال الناشران : « ولم نجد هذا الجمع في كتب اللغة » . قلنا : الأعْنز لا تقوم مقام الأنعُج لان الاعنز جمع عنز وهو الأنثى من الوعول والشاء والظباء (عن المخصص ٨ : ٣٠) وأما الأنعج فجمع نعجة وهي الشاة الجبلي ، وربما سميت الظبية بهِ ، وانها للضائنة (عنهُ ٨ : ٣٠) وأنْعُج جمع قياسي لنُعْجة باعتبار الهاء حرفاً زائداً . فقد قالوا في جمع شرب ، وثوب ، وقوس ، وسيف ، وعين ، ونفس ، وفلس ، وسطر ، الى ما لا يحصى عده : أشْرُب ، وأثوب ، وأقوس ، وأسيف ، وأعين ، وأنفس ، وأفلس ، وأسطر ، ولما كان النحاة واللغويون لم يدوّنوا في كتبهم كل ما نقل عنهم من الجموع المكسرة ، فلا عجب اذا أهمل كثير منها

زد على ذلك ان البغداديين يسمون (البَجَع) في عصرنا (نُعَيْجة الماء) ، تصغير نعجة واذا جمعوه قالوا أنعج الماء) كأنهم يعودون الى جمعهِ قبل تصغيره وهو غريب

١٤ — الأرواء لم ترد

ورد في ص ١٨٥ : « اعنز الجبل وكباشه وهي الارواء » . قلنا : الارواء لم ترد في اللغة ، والمشهور ان جمع الأُروية بالضم والكسر ، الأروي والأرْوَى : ولم يسمع عنهم غير هذين الجمعين والقياس لا يجيزه

١٥ — التياتل

جاءت التَيَاتل هكذا بتاءين مثناتين . والصواب التَياتل والثياتل لان المفرد الثيتل ،

بناء مثلثة في الاول ، وبناء مثناة في الثاني ، أو التيتل ، اي بناء مثناة في الأول وبناء مثلثة في الثاني (راجع المخصص ٨ : ٣٢)

١٦ — القاسّ

وذكر المؤلف العقاب في ص ١٨٨ ثم قال : « واما الطريح فيقيّض الله له طائراً يقال له (قاس) فيضمّهُ اليهِ ولا يدعهُ يهلك ، ولكنهُ يقوّيهِ ويربيهِ مع أفراخه »

قلنا : هذه الحكاية مبنية على أنّ بين العقبان عقاباً اسمها (كاسر العظام او المكلّفة) او (القاسّ) وذلك ان القاسّ اسم فاعل من قسّ ما على العظم : اذا أكل لحمهُ وامخّهُ . وهذا الطائر ذكره الجاحظ — على ما قال الدميري في مادة (المكلّفة) وهذا نص كلامهِ : «لما كانت العقاب سيئة الخلق ، تبيض ثلاث بيضات ، فتخرج فراخها ، فتلقي واحداً منها ، فيأخذه هذا الطائر الذي يتكلف به ، قيل له (المكلفة) ويسمى (كاسر العظام) فيربيه كما تقدم » اه

ولهذا الطائر اسماء كثيرة ذكرناها سابقاً في مقالةٍ في مجلة المشرق . ومن اسمائهِ غير هذه الثلاثة البُلَح ، والبَلت ،والهُمَاء ، والعَوْف والفقعة ،والسَّنَل والفَيْنة .وباللاتينية Ossifraga أو Ossifragus وعندعلماءالطير Gypaetus Barbatus وبالفرنسية Orfraie وبالانكليزية Osprey أو Lammergeier

وبعد أن أوضحنا معنى القاسّ ، يحسن بنا ان نقول : وقع نقص في عبارة الإمتاع وهو ما يأتي ، تُزَاد قبل قوله : « واما الطريح....

« والعقاب تبيض ثلاث بيضات في الغالب وتحضنها ثلاثين يوماً ، فاذا خرجت فراخها ، ألقت واحداً منها ،لانهُ يثقل عليها طعم الثلاثة ، وذلك لقلة صبرها ، واما الطريح فيقيّض الله له ... »

١٧ — البقّ والبعوض

ومما يجب ان ينتبه له (البق) . فهذه اللفظة تعني في لغة المصريين حشرة السُرُر النتنة الرائحة التي تمص الدم امتصاصاً شديداً . وأما العرب (فالبقّ) عندهم البعوض الكبير .فكان يحسن بالناشرين أن ينبها على ان (البقّ) هذا هو البعوض اي Mosquito بالانكليزية لا الضمج أو الكتان أو الفسافس اي Bug

١٨ — البيضاني

قال أبو حيان في ص ١٩٠ (البيضاني) وفي الحاشية : « كذا ورد هذا اللفظ في الاصل.

ولم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة والكتب المؤلفة في الحيوان » انتهى

قلنا : ذكر البيضاني ابن بهلول في معجمه الكبير الآرمي العربي قال في (قوقنوس) هو طائر أبيض: « البيضاني او الققنوس ، القوق » قلنا : والكلمة الآرمية من اليونانية Kukons

وقال صاحب بحر الجواهر: « البيضانيات : هي طيور مثل الإوَزّ ، والبط ، والقَلَوْلَى ، وهي جمع منسوب الى البيض جمع الابيض » اه . فالبيضاني — ويقال له الققنس ، والققنوس والقوق ، والمصريون يسمونهُ التمّ ، وأهل سورية يسمونهُ الاوز العراقي ، وهي تسمية كاذبة لا حقيقة لها ، لان العراقيين لا يعرفونهُ في جسمه ولا في اسمهِ ، هو المسمى بالانكليزية Swan

١٩ — الأبغث

وذكر أبو حيان الابغث (ص ١٩٠) بعد البيضانيّ فقال : « والأبغث : هذا طائر يحبُّ ولده ، فاذا تحركت فراخهُ ودرجت ، ضربت وجههُ بأجنحتها ، فيدعوهُ الحكُّ والغضب الملوعان فيه الى قتلها ، فاذا ماتت ، اكتأب عليها الأبوان ، وأقاما عليها شبه المأتم ثلاثة أيام ، ثم ان الأم في اليوم الثالث تشقّ جنبها حتى يقطر دمها على تلك الفراخ ، فيصير ذلك نشوراً لها بعد موتها». انتهى

وعلق الناشران على هذا الاسم قائلين : « وردت هذه الكلمة (الأبغث) في الأصل مهملة الحروف من النقط . والصواب اثباتها على هذا الوجه . والأبغث : طائر من طير الماء كلون الرماد ، طويل العنق . وسمي أبغث لبغثته ، وهي بياض الى الخضرة ، وهو من شرار الطير » انتهى

ما ذكره أبو حيان مشهور عن الطائر المعروف عند كثيرين بالبجع ، والحوصل ، والقوق والسقاء ، وجمل الماء ، الى أسماء أخر ، وبالفرنسية Pélican . وهذه الرواية لم يختلقها أبو حيان من نفسهِ ، فأول من ذكرها إمام من أئمة قديمي النصارى اسمهُ القديس أوغسطينس البوني الافريقي المتوفى سنة ٤٣٠ للميلاد . فقد قال في شرحه للآية الثامنة من الزمور ١٠١ ما هذا نقله بحروفهِ : « يَقتلُ هذا الطائر فراخهُ بنقره إياها ، ثم يحزن عليها في عشّهِ ثلاثة أيام ، فاذا تمت المدة ، تجرح الأم نفسها جرحاً بليغاً ، وتريق من دمها على فراخها ، فتعود حالاً الى النشور » (راجع معجم التوراة لصاحبه ف . فِكورو ٥:٢٧ مادة Pélican

قلنا : وهذه حكاية موضوعة لا حقيقة لها سوى ظاهرها

والأبغث لم يذكره أحد من اللغويين بهذا المعنى . والذي ذكره اللغويون هو بمعنى آخر لا يصدق إلاّ على ما يسمى بالفرنسية Cormoran وبلغة العلم Phalacrocorax Carbo .

وقد صرّح بهذا المعنى صاحب الأوقيانوس قال : واسم الابغث بالتركية قره بناق «فهذا لا يُبقي ريباً في أنهُ الأبغث على ما وصفهُ العرب الأقدمون . لكن الظاهر ان آخرين أطلقوه أيضاً على الحوصل . ودليلنا على ذلك أبو الحسن ابن بهلول ، وهو من كبار اللغويين الأقدمين كان حيًّا في سنة ٩٦٣ للميلاد (٣٥٢ هـ) فهو من أهل المائة الرابعة للهجرة ، ومعاصر لأبي حيان ، وكان أيضاً في بغداد فقد ذكر للكلمة (قاقا) الارمية أي الحوصل ثلاثة الفاظ وهي: القيق [القوق] والأبغث والبيضاني

والظاهر ان ناشريَ كتاب الإمتاع التاث عليهم أمر الأبغث اذ قالوا : « وهو من شرار الطير» وهذا لم يقلهُ أحد قبلهما ، اذ ظنّا ان الابغث هو البُغَاث وهذا وهمٌ كبير . نعم ان البغاث من شرار الطير ، وأما الأبغث ، الذي عدَّه من طير الماء ، فلا يكون من شرار الطير البتة

٢٠ — الشمسية لا السمة

ومن غريب ما جاء مصحفاً من أسماء الحيوان في هذا السفر ما ورد في ص ١٩٢ وهو هذا بنصهِ : « اليمّيمة ، وهي حية حمراء براقة ، اذا كبرت وأصابها وجع العين وكدت ، التمست حائطاً مقابل الشرق ، فاذا تبدّت الشمس احدّت اليها بصرها قدر ساعة . فاذا دخل شعاع الشمس عينها ، كشط عنها العمى والاظلام ، ولا تزال تفعل ذلك سبعة أيام حتى يتجدد بصرها تامًّا » اهـ

قلنا : لم ترد السمة في كتب اللغة ، ولا في كتب الأدباء بهذا المعنى . نعم جاء في القاموس : السمسم : حيّة . وزاد في التاج : أو دويّبة تشبهها . وفي كتاب العين : السمسم يقال لدويبة على خلقة الأكلة حمراء هي السمسمة . وقال أبو منصور في التهذيب : هي السمسمة وقد رأيتها في البادية ، وهي تلسع فتؤلم اذا لسعت . وقال أبو خيرة : هي السماسم وهي هنات تكون بالبصرة يعضضن عضًّا شديداً ، لهنَّ رؤوس فيها طول الى الحمرة ألوانها» اهـ

ولما قال في القاموس : السمسم حية ، أي بياء مثناة من تحت ففي أغلب النسخ الخطية القديمة الموجودة عندنا : السمسم حبة بباء موحدة تحتية اشارة الى انها حبة السمسم . وفي معيار اللغة : « السمسم ... حية بالمثناة التحتية . وفي بعض النسخ : حبة بالموحدة » انتهى . والارجح عندنا انها حبة ، بالباء الموحدة التحتية . والاّ فليست السمسمة بحية اي بثعبان انما هي حشرة صغيرة كالنملة الحمراء تلسع لسعاً مؤلماً ولا سيما في أيام الربيع في ابان التزاوجة اما الحية الحمراء فاسمها (الشمسية) كأنها منسوبة الى الشمس ، هذا الجرم النيِّر الذي يضيئنا

في النهار. والدليل على ذلك ان الدميري ذكرها في كتابه (حياة الحيوان الكبرى وذلك في طبعة بولاق ١ : ٦٤) وهذا نصها بحروفه: «الشمسية. قال أبو حيان التوحيدي: إنها حية حمراء، براقة، اذا كبرت وأصابها وجع العين وعميت، انتصبت حائطاً يقابل الشرق، فاذا طلعت الشمس، احدّت اليها بصرها قدر ساعة، فاذا دخل شعاع الشمس عينها، كشط عنها العمى والإظلام، ولا تزال كذلك سبعة أيام، حتى تجد بصرها تامّاً، وغيرها من الحيّات اذا عمي ايضاً طلب شجر الرازيانج الأخضر، فيكتحل به، فيبرأ كما تقدم»

° ° °

فهذه شهادة واضحة لا شبهة فيها في ان الحية التي يجري عليها الكلام هي الشمسية والنصّ بيّن لا يقبل شكّاً ولا شبهة. وعندي من كتاب الحيوان للدميري خمس نسخ، وكلها تذكر هذه العبارة وكلها في باب الشين، بحيث لا يمكن ان يرتاب انسان في ما نقلناه

زد على ذلك انك ترى اختلافاً في بعض ألفاظ هذه الرواية، وما جاء من عبارة الدميري أصحّ وأفصح وإن كانت تلك الكلمات قليلات

ويجب ان يلاحظ ان اسم هذه الحية باليونانية هو Hélicops فظنها بعضهم مركبة من كلمتين من Hélios أي شمس و Opseis أي نظرٌ ومرأى ولهذا سماها الشمسية متابعة للاسم اليوناني. وأما المعنى الصحيح فهو ان الكلمة منحوتة من Helix, Ekos أي دائرة لا شمس و Opseis أي نظَرَ. فيكون معناها المستديرة العين

***

ودونك الآن وصفها العلمي متابعة لعلماء العصر: الشمسية من الحيات التي لا تؤذي، من جنس الحنش، وأكثر ما تكون في الارجاء الحارة من كرة الأرض. وقد عرف العلماء من أنواعها نحواً من اثني عشر وكلها غير مؤذية. وقد يبلغ طول الواحدة متراً، وجلدها أحَيْمر اللون الاّ انه أجلى من تحت، ولها ذنب طويل دقيق الطرف والعين الواحدة قريبة من العين الآخرة، وهما في أعلى الرأس، وجسمها مغطى بحراشف مازَّة، والشمسية كثيراً ما تجاور الماء

ومن الغريب ان معاجمنا من قديمة وحديثة، لم تذكر الشمسية بهذا المعنى. ولولا اشتغالنا بجمع شتات الالفاظ من مختلف التصانيف لما اهتدينا اليها. فان معجمنا الكبير الموسوم بالمساعد هو الذي دلّنا على ضالتنا المنشودة مع اسمها الافرنجي

٢١ — العَقَام

وقال ابو حيان في ص ١٩٢ : « الأفعى تُزاوج دابة بحرية ، تأتي الأفعى شفير البحر فتصوت ، وصوتها مُهيِّجٌ لتلك الدابة البحرية » اه .

قلنا : واسم هذه الدابة (العقام) وزان سحاب . قال في تاج العروس : العقام : سمك ، وقيل : حية تسكن البحر . ويقال انهُ يأتي الاسود من الحيات من البرّ ، فيصفر على الشطّ ، فتخرج اليهِ العقام ، فيتلاويان ، ثم يفترقان فيذهب كلٌّ الى منزله . هذا في البر وهذا في البحر » انتهى

٢٢ — الزامور

نقل الدميري عن التوحيدي ما جاء في الزامور ، وكان يحسن بالناشرين أن يعارضا رواية مخطوطهما بالكتاب المطبوع للدميري . وصحيح رواية الزامور هي براءين اي (رامور) وهو من اللاتينية Remora ومعناها (مؤخر ومانع وعائق) لان الرومان كانوا يزعمون ان هذا الحوت اذا تصدى لسفينة منعها من السير في وجهها .وقد ذكرهامن كتّابهم بلوتس Plautus ولوقيليوس Lucilius وكان كلاهما قبل المسيح بنحومائتي سنة . وسبب تعريب العرب لهذه الكلمة على هذا الوجه أنهم لم يستسيغوا مجاورة ثلاثة أحرف ذلق ، فنقطوا الأولى ، لخفّ اللفظ ، وقرب من أصل عربي معهود وهو الزمر . وإلاّ فلا زمر في تلك السمكة

ونظن ان بعض السلف شعر بعجمة هذا الأصل فال الى لفظ عربي النجار ، فسمى هذه السمكة (اللَّدِك) [1] ، من لدِك به لدْكاً ولدَكاً ، أي لزِق به . وقد وردت في كتاب عجائب المخلوقات ، وغرائب الموجودات ، للقزويني ، المتوفى سنة ٦٨٢ هـ . فقد قال في فصل في بعض حيوان بحر الزنج ما هذا نصه : « ومنها السمكة المعروفة بالبال . . . . فاذا

---

(١) وردت هذه الكلمة مصحفة بصور شتى . في طبعة فرديند وستنفلد في غوتنغن سنة ١٨٤٨ ص١٢٣ قال الناشر انها وردت في نسخة (اللذك) ، وفي أخرى (السك) ، وفي ثالثة (البلك) ، وفي رابعة (الدنك) وفي خامسة (الملك) . أما نحن فكانت نسختنا بجودة قديمة منقولة في سنة ٧٧٦ هـ على نسخة المؤلف ، ومضبوطة بفتح اللام ، وكسر الدال ، وفي الآخر كاف ، كأن معناه (الحوت الذي يلتصق) بعدوه . وهو عربي . وأما سائر اللغات فليست فصيحة . وأما عجائب المخلوقات المطبوع في مصر فقد اختلفت ألفاظه باختلاف طبعاته فلا يعتمد عليها

بَغَتَ هذه السمكة ، بَعَثَ الله تعالى اليها سمكة نحو الذراع تدعى (الدك) ، تلتصق بأذنها ، فلا يكون لها منها خلاص ، فتطلب قعر البحر ، وتضرب بنفسها حتى تموت ... »

فلا جرم ان ما سمّاه التوحيدي (الزامور) وتبعه فيها الدميري هو نفس الحوت الذي سماه القزويني (الدك) وهذه أفصح عربيةً ، والزامور معربة ، وكلتاهما يؤخذ به

٢٣ — نظرة عامة في خرافات هذا الكتاب

هذا ما بدا لنا في مطاوي مطالعتنا لهذا الجزء الأول من كتاب الامتاع ، لأبي حيان التوحيدي . وهناك ملاحظات لا بدَّ من ابدائها في ما دوّنه بأمور تتعلق ببعض الحيوان ولا يمكن ان تبقى على تلك الرواية ، بل لا بدَّ من تعليق عبارات عليها لكي لا ينخدع بها القارىء في هذا العصر ، كقول المؤلف في ص ١٧٤ « في البحر حوت يقال له البوس يتولد من الصاعقة اذا كانت في البحر » . قلنا هذا الحوت يتولد من بيض السمك كسائر السمك ، وليس من الصاعقة ، ولو فرضنا انهُ يتولد من الصاعقة فمن يستطيع ان يتحقق هذا بنفسه ؟

***

وما ذكره عن كلب الماء في ص ١٧٥ غير صحيح . وقوله في ص ١٧٨ « ان اللبؤة تلد شبلها ميتاً فلا تزال تحرسهُ حتى يأتي أبوه اليوم الثالث فينفخ في منخره فيبعثهُ » أكذوبة أخرى . ومن تلك الخرافات التي لا يقبلها عقل انسان قوله في ص ١٨٠ ان الضبع تصير مرة ضبعاً ذكراً ومرة انثى . وكذلك ما ذكره عن حياة السمندل في النار (ص ١٨٢) ، وعن صيد الحريش (ص ١٨٤) ، وعن ان النحل يلد من غير لقاح (ص ١٩١) ، وان الاناث من بنات عرس انما تلقح من افواهها ، وتلد من آذانها (ص ١٩٢) ، وان البقّ والبعوض لا نتاج لها ، وانما تتنجل من عفن الماء ووسخه ونتنه (ص ١٩٣) . فهذه الرطازات وأمثالها كان يجب ان يعلّق عليها في الحاشية عبارة صغيرة كقولك مثلاً : هذا زعم لا حقيقة له . أو : هذا رأي كان معروفاً عند الاقدمين غير قائم على حق . أو : العلم الصادق لا يثبت هذا الرأي . أو ما يشبه هذه العبارات ، على حدّ ما يفعل علماء الغرب عند نشر مثل هذه الكتب ، او هذه الآراء التي لا قوام لها ، بل هي أقوال مبنية على أوهام

***

هذا ما بدا لنا ، ولعل وهمنا أكثر من صوابنا

الى القطعان الآدمية السائحة في الطين

إني احترقتُ ولم تدعْ أشلائي   نيرانُ تلك الجمرة الهوجاء
قد أوغلتْ بي نزعةٌ مدفوعةٌ   نحو الكمال ، تمدُّ في برحائي
إذ أن ما يسبي قلوبَ الناس لا   ألقاه حتى في ذبول سمائي

***

أقبلتُ ملء دمي على الدنيا وفي   قلبي حياةٌ جمة الاهواء
وطرحتُ أعوامي عليها شادياً   متنقلاً في الزرع والصحراء
ونزعتُ عني كلَّ معنىً كاذب   ونشدتُ وجهَ النور في الظلماء
وتأملتْ روحي أساريرَ الدجى   وتغلغلتْ في ذاته السوداء
واذا الرياح تقول لي في نصحها :   «قفْ أيها الساري الى النيهاء !
مَنْ لم تشقّه الأرضُ وهو مكبّلٌ   نبذتهُ عنها عبرةَ الأحياء
تلك السدودُ أقامها فوق الثرى   ربُّ الوجود وضاربُ الجوزاء»
قلتُ: «اهدئي ياريح ما أنا مسرفٌ   متطلبٌ في الصخر دفقةَ ماء !»
وطفقتُ أخبط في الظلام منقباً   عما وراء الليل من أشياء
حتى بدا لي خلف أحجار الدجى   نهرٌ يعجُّ بأعذب الاضواء
ونهلتُ منهُ فاكتملتُ كأنني   أصبحتُ أسمى من بني حواء



وتألقت من حوله لي جنة   علوية مطلولة الأرجاء
هي عالم المثل الرفيعة صاغها   « فوق الحياة » تدفق الإيحاء
أظلالها فوق الزروع مديدة   ونسيمها متعطر الأحناء
وطيورها ذهبية مسحورة   تشدو فيهتز الفضاء إزائي

***

وأخذت أرشد من احب الى السنى   ومنابه ، والنهلة البيضاء
والحق ، والخير الذي يمشي على   ربوات تلك الجنة العذراء
لكنهم ضجت بهم أرواحهم   ظمأى الى الأوحال والأنواء !
عادوا . . وفي ألبابهم لي لعنة   مكنونة كالسم في الرقطاء
قالوا : « لقد عشنا على الدنيا كما   شئنا وشاءت ربقة الأحياء
متعذبين قيودنا لا تنجلي   عنا كآبة هذه الظلماء
تلك الحواجز لا نحب عبورها   نحو الذي نخشاه من أجواء
يا أيها المجنون ! إنك شاعر   يقتات من أوهامه الحمقاء
إذهب ! فلا كانت لك الدنيا وعش   في برجك المملوء بالخيلاء »
لكنني ناديت من عليائي   مستعصماً بالذروة القعساء :
« البرق يكسبني التماعاً ، إنني   أفق . . فضجوا في رحاب فضائي !
والنار تمنحني حياة ، إنني   ذهب . . فبثوا النار في أحشائي ! »

عبد الرحمن الخميسي

X

للدكتور ابراهيم ناجى [1]

إن موضوع النفسيات المريضة في المجتمع يمس صميم أخلاقنا وحياتنا الاجتماعية من أول الطفولة الى آخر مرحلة في العمر . كنت أحاضر ذات ليلة في موضوع قريب من هذا في معهد التربية وكان الحديث خاصًّا بفرويد . فسألني أحد الأدباء عن سر اهتمامي بفرويد ، قائلاً إن مذهبه يحلل النفوس المريضة دون النفوس السليمة السوية ، فهو مذهب قليل النفع من هذه الجهة . فسألته « أين هو الرجل السويُّ ياسيدي ! » ان لكل منا شذوذه ، ولكل منا أمراضه النفسية التي يحملها صابراً ، ولكل منا حزنهُ البالغ حيناً ، وصمتهُ الطويل أحياناً وانفعاله الى حدود الجنون أحياناً أخرى ... »

فحين أتكلم عن الامراض النفسية الشائعة ، فكلامي يشمل أحوالاً عامة ، أحوالاً تمس كل عقل وكل روح ، غير ان هاته الاحوال قد تكون قليلة او متفرقة في شخص ما فلا تحدث أثراً ، ولا تستوقف نظراً ، وقد تجتمع في شخص آخر ، على شكل خاص فتحدث مرضاً خاصًّا. وقد يتغير مظهر تلك الاعراض ، باختلاف الاحوال والبيئة والوراثة ، فيتخذ المرض اسماً آخر . فالفرق ليس بعيداً بين السليم والمريض ، وبين المريض بالعصبي البسيط والعصبي المعقد ، وبين العصبي المعقد ، ... ومستشفى المجاذيب !

والامراض العصبية الشائعة هي على الترتيب :— (١) مركب النقص . (٢) مركب القلق . (٣) النوراستانيا . (٤) الهستريا . (٥) الجنون . وقد رتبتها بحسب كثرة شيوعها

﴿ مركب النقص ﴾ ليس في الوسع فهم هذا المركب الشائع بغير الرجوع الى الحديث عن العقل الباطن . والمقام لايتسع للاطالة في موضوع العقل الباطن الليلة

بنى فرويد نظريته على الصراع القائم في العقل الباطن . وفرويد لم يخترع العقل الباطن وانما حدد معالمه ووظائفه ، وفصل القوى المتناضلة في داخله ، وتأثيرها في حياة الفرد والمجتمع وتتبع تلك القوى المتضاربة من عهد الطفولة الى ان تتم نضجها في المراهقة والشباب

(١) ملخص خطبة القيت في جمعية الشبان المسيحية في القاهرة

وخلاصة هذا النضال ، ان الانسان يولد وفيهِ دوافع غريزية غشيمة ثائرة ملحة . ويقسم فرويد هذه الدوافع قسمين كبيرين ، الدافع الاول للمحافظة على الذات ، والثاني للمحافظة على النوع ؛ أي ان ، الاول خاصٌ بالحياة ، والثاني بالحب . وفي رأيه ان الحب أقوى الدافعين وهو هو البركان الذي يكمن في أعماق النفس ، والزلزال الذي يرجّها رجّاً !

وهو هو الذي يفرغ الحياة في قالبها الخاص، او — على حد تعبيره — يهيء لها «أسلوبها»[١].
وقد اختلف معه تلاميذه ولا سيما ادلر ، فقال ان الدافع الثاني (الجنس والحب) مستمدٌ من غريزة البقاء فلامعنى لفصله عنها ، وقال إن الانسان يولد بإرادتين ارادة القوة وارادة الاجتماع

أما ارادة القوة فمستمدة توًّا من الغريزة الكبرى وهي المحافظة على الذات ، ومعناها إثبات الذات وتوكيد وجودها ، وهذه هي الغريزة المسيطرة الواضحة في الصغير والكبير . في الصعلوك والامير . وهي عُقدة العُقد في فهم اكثر المسائل النفسية . ولكن هذه الغريزة تختلف كجميع الغرائز الاخرى في شخص ما عنها في آخر ، بحسب التركيب الجثماني ، وبحسب الاستعداد الوراثي ، وتختلف أثرها فيما بعد بحسب الوسط والاحوال. خذوا مثلاً الطفل، انهُ يحاول طول يومه ان «يؤكد» ذاته ، ويحاول ان يريك ما صنع وما سيصنع . ولما كانت كل سيكولوجية الطفل واضحة في لعبه فنظرة واحدة الى الطفل وهو يلعب تبين لنا انهُ بذلك « اللعب » يجدُّ في اثبات شخصيته . وخذوا مثلاً الشحاذ الحقير ، انهُ يستجدي ولكنهُ لا يسمح لك أن تتجاهلهُ او تهينه . والموظف الصغير الذي لا قيمة له اذا أرسل لك أيها الموظف الكبير بطاقةً على سبيل المعايدة ، فأهملته ولم ترد عليه أسرّها في نفسه وعدّها اهانة موجهة الى تلك « الذات » التي تحاول اثبات وجودها في جميع الافراد والاحوال

كان لي صديق من الاطباء يحاول ان يكسر « أنف » رئيس الممرضين ، فكانت الثورة لاتهدأ في المستشفى ، ولم يكن صديقي الطبيب يدري مَن مبعثها او ما سببها . قلت لهُ «أنت تريد أن تكسر « أنف » رئيس الممرضين ، والله جعل لهُ ذاتاً تثور على ذلك الضغط ، فأنت تحاول سحقها من ناحية وهي تحاول اثبات وجودها على المرضى وسائر الممرضين .... ! »

وهذا سرّ الثورة ... فلما كفَّ عما كان في سبيله هدأ كل شيء .....

إن محاولة اثبات الذات ، تتطلب الشعور بما ينقصها لكي تستكمله ، وقد يكون النقص واضحاً ، او يكون الشعور به حادًّا ، او يكون التوسل لتغطية النقص عنيفاً او شاذًّا ، فهذا الشعور بشيء ينقصنا ومحاولتنا سد هذا « العجز » ، هو ما يسمى « مركب النقص »

فيتضح ان مركب النقص قائمٌ فينا جميعاً اذ ليس منا من ليس بهِ نقص ، وليس منا من

---

(١) Life Style

لا يسعى الى سد ما يشعر به من فراغ ، ولكنهُ عند بعض الناس محاولة معقولة ، وسبيل الى الكمال متزن محترم ، وعند بعض الناس مرضٌ بكل ما في هذه الكلمة من معنى . وعند آخرين مرض عصبي معقد قد يؤدي الى أخطر العواقب . لمَ هذا الاختلاف ولمَ يكون النضال لسد النقص متزناً معقولاً في هذا وأحمق مجنوناً في ذاك ؟ مع ان النقص قد يكون واحداً في كليهما !

نحن أبناء الوراثة ونحن ابناء الوسط . أما الوراثة فلا نزاع في شأنها الخطير . ولكن لا يجب ان يفهم من ذلك اننا نرث العصبي او نرث الجنون . وانما نحن نرث اتجاهات خاصة وخصائص ذهنية متناثرة . وهذه الاتجاهات والخصائص هي كالعناصر الكيميائية سواءً بسواء، وكما ان هاته العناصر بتفاعلها ، وتلاقيها ، وبما يحيط بها من المؤثرات ، قد تحدث مركباً متفجراً ، أو مركباً لا تفع فيه ، أومركباً غالي القيمة نافعاً بعيد الاثر . كذلك الاتجاهات والخصائص الموروثة

وقد قسّم كربلنج الشخصيات على هذا الاساس الى شخصية هدامة ، وشخصية خاملة ، وشخصية خلاقة . وفي الوسع اذا حللنا طفولة كل بالغ ، واستعرضنا ما كان واضحاً من اتجاهاته الذهنية ، والمؤثرات الخارجية التي أحاطت بشخصيته وكيفية استجابته لهاته المؤثرات ، ان نعرف بالتقريب من أي طراز سيكون . على انهُ قد تظل هاته الاتجاهات كما هي لا تتغير ، ويظل صاحبها على شذوذه ، وعلى غرابة اطواره ، فاذا أصابه ما يضعف أعصابه ، او يصدمها صدمة قوية ، فان هذا الشذوذ ينقلب الى صنف من الأمراض العصبية محدودٍ جليٍّ ، لمن أحاط بما سبق ذلك المرض من الاتجاهات الذهنية للمريض

أضرب مثلاً لذلك : شخص نعرفه ، وجدناه فجأة قد ابتعد عن الناس ، وصار لا يهتم بأي شيء عاطفي ، من حزن او فرح ، وغدا يحذر الناس ويعتقد ان كل ما يقولونه او يعملونه موجه الى شخصه بالذات . هذا مرض نسميه الشيزوفرينيا . ولكنهُ قبل ان يكون مرضاً ، يتضح ان صاحبه كان ميالاً الى العزلة ، منصبّاً على ذاته ، محبّاً لها ، شديد الحذر من الناس فلما اعترضه من المؤثرات ما جعلهُ يعتل حقيقة أخذت اتجاهاته تتلاقى في النقطة المنتظرة

يتضح مما ذكرت شيئان : اولاً — تأثير الوراثة ، وانها ليست الاّ اتجاهات وخصائص ، وثانياً — اننا بالتربية والبيئة يمكننا أن نؤثر في هاته الاتجاهات فاما أن تقف ثابتة لا تتغير ، وإما أن تنتج شيئاً نافعاً . وقال كربلنج ان خصائص العبقري هي خصائص مرضية محضة ولكنها بفعل أحوال خاصة ، ومؤثرات بعينها ، تتلاقى فتكون ماسة عبقرية متألقة ...

قد يكون مركب النقص غير ملموس فيعد طبيعيّاً ، وقد يكون عنيفاً ، فيؤدي الى أوخم العواقب أو الى أبعدها صدى وأعجبها دويّاً ، وما مثل نابليون وأشباهه ببعيد

وقد يكون الشذوذ متوسط العنف ، فيؤدي الى حالات فردية في المجتمع نلاقيها كل

يوم ومن فرط ما نراها نعدها غريبة وشاذة ولا نعدُّها مرضاً مثال ذلك : القصير القامة الذي يبتدع الحيل ليبدو طويلاً . والأصلع الذي ينمي شعره من أسفل أو من الجانب ليغطي بهِ صلعته ، والجاهل الذي لا ينفك يدس كلمة اجنبية بين حين وآخر في ما يقول ، والممثلة السينمائية التي تتهافت على فلم ساقط لتظهر ولو مرة واحدة على الشاشة في دور ضئيل ! ثم لماذا يذهب الناس الى السينما لمشاهدة أدوار البطولة ؟ لماذا يغص سينما « اولمبيا » و « اديال » بعشاق البطولة . . . انهم انما يكملون على الشاشة ما ينقصهم في انفسهم . كلٌ يكمل في خياله ما ينقصه في حقيقته ...

﴿ مركب الخوف ﴾ هذا هو مركب النقص في أبسط صوره . فإذا زاد عن ذلك أدى الى المركب الثاني ، وهو مركب القلق ، أو مركب الخوف . فان الناقص الشخصية اذ يحاول تكملتها يصطدم بحوائل متعددة ، يصطدم اولاً بالتفاوت بين مآربه وجهوده ، ويصطدم بما يذكره دائماً بنقصه ، ويصطدم بما هو من أول خصائص تلك العلة ، وهو استدامة التفكير في النفس ، ومحاولة اشباع رغباتها ، والاعتزاز معها او في كنفها ، الى حدّ التباعد عن الناس والشك فيهم والحقد عليهم

كل هذا النضال العنيف ، الموجه الى هدف من التفوق الحاد السريع ، الى النجاح بأي ثمن ، الى الهدم اذا شاء الامر ، الى كل وسيلة تسوّغ الغاية ، يحدث في نفس القائم بهِ ما نسميه « عصبي القلق » وأهم أعراضه الشعور بان الإنسان على حرف هاوية ، أو على رأس بركان.... ولا ثقة بالغد ، ولا اطمئنان للناس ، ولا أمان من القدر

اذن فما يصنع هذا الخائف المضطرب ؟ إما ان يعمل ليل نهار دائباً في ازالة هذا الخوف ، وفي طلب الامان ، بالدفاع عن نفسه كما يفعل الجيش المحاصر

وإما أن يخادع نفسه ، ويدعي انهُ شجاع ، وانهُ لا يخاف شيئاً ولا أحداً ، فيتحول خوفه من سبب بعيد الى أمر يتعلق بذلك السبب البعيد . مثال ذلك : ان أحد الاطباء كان يخاف من منظر باقات الزهر ويهرب منها ، والسر في ذلك ان هذا الطبيب كان في أول أمره منكود الطالع اذ كان الحظ لا يساعدهُ في شفاء مرضاه فكان يقضي الليالي وهو يسأل نفسه ويلومها ، ويقول من يدري ربما لو كان الطبيب الفلاني الشهير هو الذي يعالج المصاب لشفي ، ولكنهُ عندما تقدم في العمر والمقام الاجتماعي ، تغلب على هذا القلق ، إلاَّ أنهُ في الواقع خبأه في عقله الباطن ، فتحول ذلك الخوف الى باقات الزهر لانها توضع على قبور الموتى....

وفي الوسع ردّ كل شيء من هاته المخاوف العجيبة الى حادثة معينة في مبتدإ العمر ...

أضف الى تلك المخاوف الخوف من الظلام ، ومن بعض الحشرات الصغيرة ، ومن الغرف الخاوية . ومن أعجب ما يتعلق بهاته المخاوف ، ان تقل في المرء فكرة حائرة تطرقُ باب الوعي

لتخرج منه ، وتزج نفسها زجًّا في غير موضعها ومن غير مناسبة ، وتسمى هاته الحالة بالفكرة الثابتة ، وقد لاتكون فكرة بل عملاً خاصًّا ، فمن الناس من يفاجئهُ الضحك في المآتم ومن الناس من يغادر ديوانه ليعود الى منزله ليستوثق من انهُ أغلق باب البيت

هاته الفكر الثابتة تعدُّ أول أعراض الجنون، فان المجنون مثلاً يضحك في أشد أوقات الحزن . والناس يقولون طبعاً « شوفوا المجنون ده » . . . ولكن هناك فرقاً واحداً يجب ادراكه ، وهو ان صاحب الفكرة الثابتة يجد الدافع آتياً من الداخل ، من أعماق نفسه ، وثانياً لا يلبث ان يقوم بالفعلة حتى يندم ويقول « لماذا فعلت هذا » ... أما المجنون فالدافع يأتيه من الخارج . والثاني ان المجنون لا يحس بالندم ، وقد انقطع ما بينه وبين العالم الخارجي . فأصبح لا يبالي ما يقولهُ الناس . والكلام على الفكرة الثابتة يذكرني بقصة قرأتها لدوهاميل : كان سلافان كاتباً في شركة وكانت عنده فكرة ثابتة عجيبة وهي ان يمسَّ بأناملهِ كل شيء أحمر ، وكان رئيسه ذا أنف أحمر متورِّم من البرد فظلَّ أياماً طويلة يريد ان يمسّ ذلك الأنف الاحمر ويرد نفسه ، وأخيراً اتكل على الله ووضع يده على الانف الاحمر الكبير . فارتاع الرئيس وظن سالافان مجنوناً ، وأخرج مسدسه من جيبه ، واستدعى رئيس الحسابات قائلاً اعط هذا الرجل حسابه عندنا » !

ولشدة الدافع لهاته الفكرة يسمى هذا المرض « الدوافع العصبية الاضطرارية »

خلاصة ما قلته ان غريزة المحافظة على الذات ، تؤدي الى اثبات الذات، تؤدي الى مركب النقص ، تؤدي الى مركب القلق والخوف ، وقد تؤدي الى مركب الفكرة الثابتة ...

﴿ العلاج ﴾ أحسب القراء يتساءلون هل يحدث هذا لكل شخص وما علاجه ؟ وهل يمكن ان نتقيه ؟ نعم يمكن ان نتقيه اذا عرفنا ما يحدث في الطفولة على وجه صحيح

قلت في بدء المحاضرة ان الطفل يولد بارادتين ارادة القوة ، وارادة المجتمع ...

وارادة القوة جملة مرادفة لاثبات الذات . فماذا نصنع بهذه الصفة ؟ أنقتلها ، أنمحوها ؟ إن الاطفال الذين توكل الينا تربيتهم ثلاثة أنواع . الاول طفل مدلل . والثاني مدلل ثم أُهمل . والثالث طفل متروك . فالاول هو أسوأ أنواع الاطفال، وهو عندما يشب يطلب من المجتمع ما لقيه من ذويه أي ان يدلله ويجيب كل ما يطلب ، وثانياً هو شخص تعوَّد ان يتكل على أبيه وأمه ، فمهما يكبر فانهُ يظل « طفلاً كبيراً » قليل الثقة بنفسه مطلق الاعتماد على غيره

وهؤلاء « الاطفال الكبار » ملء المجتمع المصري ، يكون الرجل ضخماً طويلاً عريضاً مفتول الشاربين ، ولا يحسن التصرف في أبسط الاشياء فاذا وقع في أقل المعضلات بحث عن غيره ليحلها له . . . أعرف من هذا الطراز رجلاً طويلاً عريضاً ضخماً اذا مرض سأل بواب

البيت « أروح لمين ». واذا جاءني سحبتهُ الي زوجهُ وهي نحيلة ، وهي التي تتكلم وتتفاهم وتدفع « الفلوس » . . . وأعرف من هؤلاء « الاطفال الكبار » من بلغ أرقى المناصب ولكن له نزوات طفل وبدوات رضيع

كنت ذات يوم مسافراً في القطار وكان معي رجل ضخم الجسم ، ومعه عصا غليظة مخيفة

وكان يتحدث الى شخص ما كر يتعمد ان يثيره ، فرأيت هذا العملاق ينفعل كالطفل ، ويهدأ كالطفل، ويثرثر كالطفل ، ويقرع الارض بالعصا ، لعلها تنوب عنهُ في التذكير بالرجولة

وهؤلاء الاطفال المدللون ، عند ما يصدم المجتمع فلا يجدون معيناً ينقلبون أفاقين من الطراز الراقي الذي علا بعض شوارعنا ، أولئك الذين يعتقدون ان على المجتمع ان ينفق عليهم ويتكفل بهم ولذلك حين يطلب الواحد منهم شيئاً منك يعتقد أنك مكلف أن تنفق عليه .... واذا رفضتَ ان تعينه غضب ولعن وسب كأن له عليك حقاً . .

اما الطفل الذي من النوع الثاني فهو طفل كان مدللاً فأهمل . فهذا تختبيء في نفسه فكرة ثائرة حانقة تلازمهُ طول حياته . الطعنة الاولى التي لا تنسى مطلقاً . وهؤلاء هم الذين يثورون في قرارة نفوسهم على اي مكان في المجتمع غير المكان الاول البارز . ويهربون من كل حفل لا يتألقون فيه، ومن كل موضع لا يكون لهم الصدر فيه . ويتوارون من كل رجل مشرق لامع يجعل اضواءهم شاحبة بجانبه . وهؤلاء كذلك كموظفين دائماً يكرهون رؤساءهم ويحقدون عليهم «ويوضبون لهم المقالب» . ويتطلعون ابداً الى كراسي الرآسة وفي سبيلها يعملون المستحيل. اما الطفل المتروك ، فصنفان الاول قد يتعود ان يعتمد على نفسه، ويكون نافعاً له هذا الترك ، او يترك ويساء اليه معاً ، فينشأ الطفل الذي يغدو فيما بعد مجرماً وسفاكاً وعدواً للمجتمع

ماذا نصنع اذن ؟ ؟ الغرض من التربية الصحيحة الاول ان لا نكسر غريزة اثبات الذات، بل نلجمها ونكبحها كبحاً معقولاً ونحسن توجيهها . والثاني ان لا نسرف في التدليل ، بل نعوّد طفلنا شيئاً من الصبر على الخشونة والمكاره ، حتى لا يفاجأ بعد الحياة فيما بعد مفاجأة تصدمهُ . والثالث ان نعدل بين اطفالنا ، لكي لا يطعنوا في كبريائهم الغض . والرابع وهو الأهم ، وعليهِ مدار الرقيّ والسلام والمودة ...عليهِ كل شيء ، ان نرفع فيه غريزة « ارادة المجتمع » ونهذبها ونطلق لها العنان » ....

ان بث هذه الغريزة على وجهها الصحيح يقضي على ما يسمى مركب النقص ويمحو توابعهُ

ان المريض بمركب النقص شخص منطوٍ على ذاته مريض بنفسه واهوائها وهو لا يسعى الى غرض لذاته بل ليتفوق على هذا الشخص او ذاك . هو في الهيئة الاجتماعية جواد سباق . وقد يدوس الجواد الذي ينافسهُ ولا يبالي او يعضه او يأكله . . . ما دام الهدف امام عينيه

ولكن ارادة المجتمع على وجهها الصحيح معناها ان يخرج الطفل من دائرة نفسه ليمدّ يده الى اخوانه في المجتمع على قدم المساواة، هو واحد منهم، واذا نافسهم على أمر فانما ينافسهم لا لأشخاصهم وذواتهم؛ ولكن من أجل غرض سام رفيع يسعى اليه ويدأب في سبيله ليل نهار. والواقع اننا يجب ان ننجب طفلاً سليماً لكي ننجب رجلاً سليماً. والطفل السليم الروح والاعصاب هو الذي أحسن والده عنده توجيه الغريزتين غريزة القوة وغريزة المجتمع.

والآن نفرض ان مركب النقص كان على أشده تطرفاً وعنفاً فإلام يؤدي ؟؟

نعود الى فرويد. كل حديثنا الماضي كان عن ناحية واحدة من نظريته وهي غريزة المحافظة على الفرد ... والواقع ان فرويد بنى كل مذهبه على ان الحب هو كل شيء، حب الام وحب الاب وحب المجتمع وحب الرفاق، وأخيراً الحب المنتهي بالزواج. وظلّ يقول طول حياته ان هذا الحب وجموحه هما السبب في جميع الأمراض النفسية الشائعة، ولكنه في آخر أيامه عدل عن هذا الرأي في الحب، وأخبرنا ان الحب تلازمهُ غرائز كرهٍ وتحدٍّ وهدم، وأن المدنية ما هي الا كبح جماح هذه الغرائز البغيضة الشاذة . . . ويخبرنا انهُ عندما يكون النضال النفسي عنيفاً تتمزق النفس شظايا، وتسيطر هذه الغرائز الاثيمة ويكون لها المقام الاول. وهذا ما يحدث في الجنون، فان المجنون قد ارتدّ عقله الى عالم داخلي منقطع عن الخارجي، بل ارتدّ الى مناطق الطفولة الاولى، وكما قلَّ التكافل بينه وبين العالم الخارجي، كذلك قلَّ التكافل بين أجزاء المخ، ولذلك تستيقظ فيه غرائز الهدم والتحدي

مهما يكن نوع النضال ومنشؤه من الحب او البغض فهو نضال منوَّع، إنهُ أولاً بين العقل الباطن والعقل الواعي، وثانياً بين العقل الواعي والرقيب، وثالثاً بين جميع هذه العوامل مجتمعة والعالم الخارجي. ورابعاً هو غالباً نضال خفي بين رغبات مطوية وبين عالم لا يقرها ولا يبيحها. وقد يكون النضال في سبيل رغبة اجتماعية أو في سبيل رغبة جنسية. ولكنه في كلتا الحالتين منهك للقوى فوق ما يقتضيه من مجهود جسدي، والتعب الناشيء عنهُ لا ينقضي مع الراحة، واذا انتهى فكثيراً ما يعاود

وهذا المجهود العصبي المؤدي الى انحطاط الاعصاب هو ما يسميه الاطباء بالنوراستانيا. والمريض بالنوراستانيا شخص أعصابه مجهدة منهكة، وهو تعب حقيقي، وليس وهماً ولا خيالاً. قد يكون منشؤه وهماً او خيالاً، ولكن المرض ليس وهماً ولا خيالاً! وهو مرض يحدث للاذكياء المتصفين بسعة الوعي، فان الكبت الباطني يجد منفذاً عن طريق الروح. أما الذين يتصفون بضيق الوعي، كالمتوسطي الذكاء، فان الكبت يجد منفذاً عن طريق الجسد فتحدث التشنجات والتقلصات وما الى ذلك وهذا مما يسمى بالهستريا .

الضحية

أشخاص القصة

١ — الملك خان يوان
٢ — الملكة وان جين كون
٣ — الوزير وولون تشان تشونغ
٤ — الاستاذ مو بن شو
٥ — حاجب

٦ — وصيفات
٧ — رسول التتار
٨ — حراس
٩ — خدم

الوقت — منذ الف عام [في السنة الأولى من عهد الملك]
المكان — غرفة الشرق في القصر — صور فنية تزين الجدران — وصيفات يصطففن على الجانبين يحملن الشموع — الملك والملكة يتطلعان الى صورة ، بينما يسجد الحاجب بين يدي الملك — الملك يضجر من سجوده .

***

الملك — (ضجراً) هه .. هل جدّ جديد حتى تطاردنا الى كل مكان .. كأن ليس لي حق الاستمتاع والراحة لاسترجاع النشاط ؟ !

الحاجب — مولاي . . معذرة — .. ان الوزير يلح في مقابلتكم لأمر ذي شأن

الملك — صحيح ان الملك راعٍ مسئول عن رعيته .. ولكنه قبل كل شيء غير مقتطع من شجرة أو منحوت من صخرة . . . إن هو الا بشر يود لو يستمتع بالحب ويخلد الى كنف زوجته (ينظر اليها بشغف) مثله في ذلك مثل باقي عباد الله .. وليرجىء الوزير المقابلة الى غده .. فلا تستحب المشورة الآن

الحاجب — أمر مولاي (ينسحب مطيعاً)

الملك — (لزوجه) هؤلاء الوزراء خلقوا للمؤازرة ولكنهم يركنون في كل شيء إلى الملوك .. لايتصرفون .. (للوصيفة) أية صورة وصلنا اليها يا صبية ؟

الوصيفة— تفضلتم بالنظر الى الثالثة يامولاي

الملك — آه ! لقد صرفني الحديث عن استذكار الصورة :. (لزوجه) سيدة وأنتِ .: ان هذه الصورة تمثل امرأة سمينة لها وجه مستدير كالقمر .. ويدعي الخبراء ان لصاحبة هذا الوجه حظًّا وافراً وصيتاً بعيداً .. ولكنني على كل حال لا أحب هذا النوع من النساء . . فما أجمل المرأة الهيفاء تمر أمامك كأنها طيفٌ يهف ، او نسمة ترف

الملكة — ما أخبرك بالنساء ! اني أحسد مثلك الأعلى للجمال

الملك — انما تحسد من لاتعرف الحب .. فيدفعها الحسد الى القتل والتدمير

الملكة — (تنتهز فرصة هذا الحديث) مولاي . . أما زلت غير موافق على حشد قوى البلاد للذود عن الوطن ؟

الملك — (متبرماً) كفي عن هذا يا جيلتي فالحرب لعنة تلحق المنتصر والمهزوم

الملكة — ولكنها تجلب الشرف ، وتشعر بالعزة ، وتخلق المجد

الملك — دعينا من الحرب وعزتها ومجدها (يغير مجرى الحديث) . . . أما الصورة الرابعة فهي صورتك .. (ينظر اليها) انتحي الى الوراء قليلاً لنرى أيكما أجمل : صورتك او نفسك .. (معجباً) يا لله ! هذه الصورة تلوح كأنما هي وردة تتفتح للحياة او زهرة تستقبل الربيع..ولكن.. لعن الله مصورها .. فلقد صور الاستاذ مو ون شو عينيك كبؤرتين سوداوين فاستحق غضبي وحلت عليه نقمتي

الملكة — (غضبى) وأين هذا اللعين الآن ؟

الملك — فرّ الى التتار والتجأ اليهم واحتمى بهم .. (يدخل الحاجب فيسجد أمام الملك)

الحاجب— مولاي

الملك — (مقاطعاً) ماذا وراءك أيضاً . .

الحاجب — الوزير يلحف في طلب التشرف بمقابلتكم لعرض شروط التتار عليكم

الملك — (بلهفة تذمر) وهل حملها رسول التتار اليه ؟

الحاجب — نعم ... وهو ينتظر في الخارج ...

الملك — (مكرهاً) ليدخل الوزير إذن ... (ينسحب الخادم) ان الشجرة تود لو هدأت أغصانها ولكن العاصفة تأبى الا أن تهزها . . انني أرجو السلام ولكن هؤلاء التتار جبلوا على سفك الدم (لزوجه) لقد حرمت صحبتك قليلاً فانتظريني خلف الستار (تنسحب الملكة ومن ورائها الوصيفات)

الحاجب — (يدخل معلناً قدوم الوزير) مولاي . . . الوزير (يدخل الوزير فينحني أمام الملك)

الملك — استو يا وزيري ، ونبأني بالشروط

الوزير — (يستوي واقفاً) مولاي

الملك — (مقاطعاً) أي شأن خطير طرأ ؟

الوزير — قد أتى رسول التتار

الملك — وماذا في مجيئه ؟ ! لم أتى ؟

الوزير — جاء على الشروط

الملك — يُملي علينا الشروط (ساخراً) ها . . ها . . وماذا يشترط ؟ ! أطلب الأصفر ؟ . .

الوزير — طلب منه مليوناً . . .

الملك — والاستبرق ؟ . .

الوزير — طلب منه ثلاثمائة الف ذراع

الملك — ما أتفه الطلب ! وماذا أيضاً ؟

الوزير — ينعقد لساني عن ذكر باقي ما طلب

الملك — أطلب الرجال ؟

الوزير — نعم . . يطلب تجنيد مائة الف

الملك — وهل طلب العمران

الوزير — وألفي ميل من الأرض

الملك — وهل هناك جديد ؟

الوزير — نعم . . يضيق صدري ولا ينطلق لساني يامولاي

الملك — ما أشد جشع التتار ! يطلبون ما لا قبل لنا به فلا سبيل الاّ القتال

الوزير — وقد منحونا مهلة موقوتة يبدأون بعدها الهجوم .

الملك — اذن عليّ بالقائد « جين تانغ » ولنستعد للنزال

الوزير — ولكن . . ولكن يامولاي

الملك — ماذا ؟ ! أنقف موثوقي الأيدي أمام الاعداء ؟

الوزير — مولاي . . . فلنتروّ ولا نضحّ سدًى

الملك — سيعرف الأسد كيف يحمي عرينه .. فان لدينا جيشاً عرمرماً مدرباً يحمل جنوده ارواحهم على أكفهم في سبيل وطنهم

الوزير — لقد برهن الجيش حقاً على كفاءته في حفظ النظام في المملكة ولكن يجب الاّ ننسى انهُ لم يخض موقعة بعد

الملك — فلتكن مشيئتنا .. فلا مناص عن الحرب

الوزير — اذا نشبت فترجح كفتهم فيملون علينا شروطاً أقسى

الملك — إذن دبرنا بفكرك الثاقب وعقلك الراجح

الوزير — لا أرى الاّ قبول الشروط حقناً للدماء (يسود الصمت برهة)

الملك — (مغموماً) بئس هذا السلم .... أسلم منهُ القتال . . . ولكن فلتكن مشيئة الله (للوزير) أتْلُ علينا باقي الشروط

الوزير — (متردداً) أعفني يا مولاي من ذكر ما بقي

الملك — لا بأس عليك . فأكمل

الوزير — إنهم يطمعون في شرف مصاهرتكم لتتساوى الكفتان ... ويطمحون الى واحدة بذاتها

الملك — (لنفسه) من نكد الدنيا أن تصاهر أسرة خان أسرة التتار . . . (للوزير) ومن المعنيَّة بالذات ؟

الوزير — اذا اغتفر لي مولاي جرأتي ... هي السيدة وان

الملك — (غاضباً) لقد تجاوز التتار حد الادب في طلباتهم
ألا يعلمون أنها زوجتي ؟ !

الوزير — وهم لهذا يطلبون ... فاذا نحن لم نرضخ لطلباتهم شنوا علينا الغارة . ونحن حيالهم كما تعلمون

الملك — (في حيرة) آه .. وما العمل اذن ؟ !

الوزير — رأيي أن تضحي جلالتكم بانسان لتضمن الحياة للايين

الملك — ولكن لا يمكن أن أفرط في زوجتي، فأنا وهي زوجان في جسد : شريكة حياتي ورفيقة صباي .. ثم انا قبل كل شيء مليك البلاد وابن السماء فان تكدرت روحي لفراق زوجتي فكأنما تكدرت أرواح جميع الناس

الوزير — أجل يامولاي

الملك — لهذا أرى أنه يستحسن أن نهدي اليهم غادة أخرى غير السيدة وان. لنُبقي على الحب.. ونبقي على الشرف

الوزير — يقال يا مولاي أن المرأة الجميلة تكون عادة بلاء . هكذا زعم القدماء

الملك — (في حدة) ماذا تعني ؟.

الوزير — أعني ان السيدة وان فاقت النساء طراً في الجمال ... وان الاستاذ مو ين شو فرّ الى بلاد التتار حين خاف تقحكم عليه واستطاع ان يتربع في مقام عالٍ هناك فأغرى القوم بك وبها انتقاماً

الملك — ان التهاون الذي سلكته أنت حياله حتى تمكن من الفرار كان سبب هذه الحوادث والكوارث ، فلو كنت قبضت عليه ونفذت فيه أمري لكفانا شرّ ما نحن فيه الآن

(تسمع ضوضاء في الخارج) ماهذا ؟ أسمع جلبة تكاد تغطي على كلماتي !

الحاجب — (يدخل فزعاً) مولاي ... ان رسول التتار قد دخل القصر عنوةً مع الجند

الرسول — (يسمع صوته من الخارج) ماذا ..أريد مقابلة الملك .. من يجرؤ على

عني؟ تنحوا جانباً ودعوني أمر بسلام..والا دعوت جندي ليعملوا فيكم سيوفهم

الملك — رسول التتار يستثيرني في قصري..وا عجباً !

الرسول — (يدخل مقتحماً) الملك ... لا تؤاخذني يا سيدي فقد أجبرني الاجلاف على ذلك

الملك — ولكن ما هكذا تلتمس مقابلة الملوك

الرسول — سيدي ...انني احمل اليكم أطيب تمنيات بلادي ووفدت لتوثيق ما بين بلدينا من روابط ... وعلى ذلك ارجو ان يتنازل بالموافقة على إيفاد السيدة وان

الملك — (غاضباً) كلاّ ... ارجع الى بلادك وبلغ أولي الشأن فيها بأننا لانقبل العرض وسأقود بنفسي الجيوش

الرسول— ماذا ؟ ! أتريدون الحرب (مقهقهاً) هاهاها !

الملك — (ينتهره في حدّة) لمَ تقهقه . . . فلدينا اكثر من مليوني جندي يستطيعون سحقكم تماماً

الرسول— (يغرق في القهقهة) هاهاها ..هاهاها

الملك — (يشتد غضبه) صه ! والا

الرسول —(يكف عن الضحك) معذرة يا سيدي فليست قهقهتي الا على افراطك في حسن الظن بجيشك ، ولقد اتصل بنا نبأ ما عليه من ضآلة وضعف فاذا أبيت الا عناداً فستدخل جيوشنا الظافرة بلادك بعد ثلاث ساعات من بدء القتال

الملك — وممن اتصل بكم هذا النبأ ... الكاذب

الرسول — ليسمح سيدي بتقديم هذا السيد اليه ... (يشير الى شخص يقف بجواره ملثماً) أكشف عن نفسك ياصديقي...(الشخص يزيح اللثام)

الملك — مو وين شوا يا للنذل ! اقبضوا عليه

مو — لا تستطيع أيديكم أن تصل اليّ ... وان وصلت فالى حين

الملك — أنت خائن لوطنك كافر بنعمة ملكك (يقبض الحراس عليه)

الرسول — ستندم يا سيدي على أمرك هذا حين لا ينفع الندم

الملك — من حقي أن أحاسب كل ذي معصية حساباً عسيراً ليكون عبرة لمن يعتبر

الرسول — أن قيصنك الان في ذمارنا ومفيد لنا ، فلا يمكن أن يصيبه مكروه

مو — (للرسول) إن جلالته لا شك واسع النفوذ في قصره عظيم السلطان في بلده .. هو حر في رعاياه .. مطلق التصرف في عبيده

الملك — عرفتَ ذلك الآن ، وقد كنت تدعو دائماً الى الثورة ضدي لاجل منفعة شخصية ، تريد ان تودي بالوطن وتهلك المواطنين في سبيلها

مو — لم أقترف جرماً لتنتقم مني حتى اضطررت للفرار

الملك — لك سيئات لا تحصى ومثالب لا تعد حتى حاول الناس ان يمزقوا جلدك وينهشوا لحمك

مو — ماهذا الا وشاية واش ٍ بي اليك .. من بطانتك . فليس لديك العامل الكفء او الوزير المخلص ، وقد تركت لهم الحبل على الغارب فاستحلّوا الحرام وحرّموا الحلال ، كلٌّ بحسب هواه . . فضجّ رعاياك من جورهم فلم تصل الى اسماعك شكواهم

الملك — صه ! ! قَبَحْاً لك !

مو — فلم تحل مشكلاتهم ، ولم تعالج معضلاتهم ، ولم تخفف عنهم أعباءهم

الملك — إخسأ ... بئس ما تقول !

مو — (مستمراً) واستأثرت وحدك بالنعيم فأفرطت في الترف ، وأمعنت في طلب اللذائذ وأحطت نفسك بالجواري الغيد وملكت زمامك احدى الحسان

الملك — كفى فحة ياجبان

مو — فسعيت سعيي لاسلبك مالكة قلبك وقائدة زمامك ، وأضعك بين أمرين لاثالث لهما فإما قبول التفريط في حسنائك فيصبغ العار جبينك وإما الحرب فيطير تاجك

الملك — (في غاية الغضب) اقتلوا هذا . . اقتلوه

مو — فلتنفذ مشيئتك فيَّ اذا اردت ، فلست أخشى الموت ، فلو خشيته ما وطأت قدماي عتبة القصر ، (يكشف عن صدره) اقتلني ولكن لا يمكنك قتل ملايين لهم مثل شعوري ونفوذي

الملك — عجلوا بقتله .. انه فتنة

مو — (مهدداً) ولكن لاتنس جيشاً محشوداً من التتار يأخذون بثأري

الرسول — (يتدخل) دعنا من هذا ياصاحب الجلالة .. هل قبلت طلباتنا ؟

الملك — (لا يجيب)

الوزير — نعم .. ان مولاي أجاب طلباتكم

الرسول — (بفرح) حسناً . . لقد أيد جلالته فراستي فيه . . انه حكيم . . دعني أشكر لكم يا صاحب الجلالة موافقتكم وأبدي اعجابي ببعد نظركم ويسرني ان أبلغكم اننا — أنا والاستاذ مو — سنرجع في صبيحة الغد، فأرجو ان تبعث بالسيدة مو الى الفندق الليلة لتصحبنا (ينسحبان)

الملك — (بعد لحظة سكون) ما رأيك يا وزيري .. أيمكن للمرأة الضعيفة ان تعمل ما لا طاقة للرجال عليه ؟ !

السيدة — (تدخل بعد انصراف الرسول والاستاذ) ما يحزنك يا مولاي ؟ ؟ اني أحتمل كل بأس في سبيل بلادي . فلا تبتئس ولا تيأس ، فاذا أذنتم لي في الرحيل لأقضي هناك بعض الوقت ريثما تكتمل عدتكم ويتمّ استعدادكم فتخلصوني من جديد (الملك والوزير يطرقان) سأذهب لأهيء نفسي للسفر وكلي رجاء في عزيمتكم لتقوية البلاد وتنظيم الدفاع عنها ، فأحزموا أمركم واجمعوا شملكم وعساي أراكم قريباً

الوزير — اذهبي مولاتي رافقتك السلامة في الحل والترحال

السيدة — (تهم بالذهاب) وداعاً يا مليكي .. وداعاً الى حين

الملك — (مودعاً) ما أخلصك زوجة ... وما أعزك ضحية

(نهاية)

نقلها عن الصينية : ابراهيم سونغ

حالات ضغط الدم

هل تزداد وفقاً لارتقاء الحضارة ؟

ما فتىء موضوع تأثير الحضارة في المرض موضوعاً يغري بالبحث والتخيل . فالطبيب المتوفر على بحث مرض خاص يحاول أن يتبين في تأثير الحضارة في الجسم من حيث الصحة والمرض ، تفسيراً لمسألة غامضة في الموضوع الذي توفر عليه . وليس بالنادر أن نقرأ في كتابات الصحافيين أو مؤلفات المؤرخين تعليل هبوط أمة من الى المرتبة الثانية أو الثالثة بين الامم ، بتأثير ترف الحضارة في إضعاف فضائلها البدنية ، ثم اشارة بالعودة الى أحضان الطبيعة. ويرى فريق من الباحثين أن التمرين الرياضي والارتفاع به الى مستوى معين كافٍ لانشاء أمة سليمة من الضعف البدني ، ويذهب آخر الى ان الطعام هو أهم البواعث على معظم ما نصاب به من أدواء . والقائل بالمذهب الاخير ، لا يجد مشقة ما في سوق بعض الحقائق المعروفة لتأييد رأيه الخاص والحملة على رأي غيره وتسفيهه لأن فهم مسائل الطعام على الوجه العلمي الدقيق لا يزال في مهده

وجميع هذه الآراء والاقوال تنبع من نظرة عامة مؤداها أن للحضارة تأثيراً عاماً في الجنس البشري يضعف الجسم ويعرضه لأمراض شتى لا تعرف في حال البداوة

على أن الدكتور دونيسون Donnison عضو كلية الأطباء ومؤلف كتاب « الحضارة والمرض » يذهب في كتابه هذا الى ان القول بأن القبائل البدائية تعيش متمتعة بالصحة التامة غير معرضة للمرض ، ليس الا وهماً لا تؤيده الحقائق . فأبناء هذه القبائل معرضون للاصابة بأمراض استؤصلت شأفتها أو كادت في البلدان المتحضرة . ولو كانت الموازنة الدقيقة بين الصحة في حال البداوة والصحة في حال الحضارة متاحة ، لكان الحكم في رأي هذا الطبيب على البداوة للحضارة

وهناك أربعة أمراض ، لا صلة بينها ، ولكنها توصف عادة بأنها من الامراض التي تلازم الحضارة . وهي ضغط الدم العالي ، والبول السكري ، والجحوظ ، والقرح الهضمية المستديرة في المعدة . والاحصاءات الطبية في جميع البلدان المتحضرة تشير الى زيادة الاصابات

بهذه الأمراض . وهي تصيب بوجه عام المشتغل بعقلهِ أكثر مما تصيب المشتغل بيديهِ . وتعد الوراثة عاملاً كبير الشأن فيها ولكن مدى تأثيرها محدودٌ على مايلوح . وأخيراً هناك ميل جليٌّ الى اصابة المريض الواحد بالأمراض الأربعة معاً . فهل الإصابة بضغط الدم أكثر في المدن منها في القفار والبوادي والقبائل التي لا تزال على الفطرة

يقول الدكتور دونيسون إنهُ أجرى بحثاً في انتشار الاصابة بارتفاع ضغط الدم بين القبائل الافريقية التي تعيش في مناطق خاصة بها . ففحص الف ذكر تبدو عليهم جميعاً امارات الصحة والعافية . وكانت اعمارهم تتفاوت من خمس عشرة سنة الى سبعين سنة أو ثمانين . ولما كانوا لا يعرفون اعمارهم معرفة دقيقة فقد اعتمد الباحث في تعيينها على التقدير

وقد أسفر هذا البحث عن النتيجة التالية : ان معدَّل اصابة الافريقيين الذين في الاربعين أو دونها بارتفاع ضغط الدم ، تقابل أو تماثل معدّل اصابة البيض به . ولكن المعدَّل يهبط في الافريقيين بعد السنة الاربعين من العمر ، بينما هو يرتفع في البيض الى العقد الثامن من العمر

ويقال ان ارتفاع ضغط الدم نادر بين الاسكيمو ، ولكنهُ كثير في اليابان . ويدل الاحصاء على ان اصابة الإفريقيين من متوطني اميركا بارتفاع ضغط الدم غير يسيرة ، ولكن ضغط دمهم السوي أرفع من ضغط دم البيض ويزداد بازدياد العمر

ويلوح ان ارتفاع ضغط الدم نادر في السلالات البدائية . وان اصاباته تزداد وفقاً لزيادة انشاء المدن وانتشار التعليم وأنها مألوفة في الافريقيين المتوطنين اميركا. اما انتشارها بين شعوب اميركا واوربا فلا يحتاج الى برهان

والواقع ان مرض « ارتفاع الضغط » يصيب المرء في النصف الثاني من الحياة عادةً . فهو نادر في الذين عمرهم دون الثلاثين وقليل بين الذين دون الاربعين . وقد عزاه فريق من الباحثين الى الوراثة ويدلُّ عدد الاصابات في أسر معينة على ان معدَّل الاصابة فيها يبلغ ستين في المائة . والمرجّح ان ما يورَّث ليس إلاَّ الاحوال التي تهيئ الجسم للعوامل المحدثة ضغط الدم . ويبدو ان هناك صلة ، ما بين ارتفاع وزن المرء (السمنة) وارتفاع ضغط دمهِ . واذا كان للطعام تأثير ما فيهِ فهو تأثير عابر والمرجّح انهُ ينشأ عن النهم . والغالب انهُ يصيب الناس الذين يميلون في اعمالهم الى القعود دون الحركة ، والمشتغل بعقله أكثر من المشتغل بيديه . وربات البيوت من ذوات النشاط الجم والمعرضات للهمّ والغمّ يصبنَ به كثيراً

وهناك عاملان يؤثران في رفع ضغط الدم : السموم التي في تيَّار الدم تفعل فعل حوافز قوية . والانفعال الذي يجعل الجهاز العصبي المعروف بالوعائي الحركي مرهف الاحساس دقيق التأثر لما يعرض له من حالات

فضغط الدم يرتفع بتأثير الانفعال واستجابة الفسيولوجي افراز الادرينالين في الدم فيفضي الى انقباض الاوعية فيرتفع ضغط الدم ويزداد السكر فيه ، فيزداد مقدار الدم في الخلايا ويمنع الافراز في القناة الهضمية او ينقص . وهذا على الاكثر مرده الى انفعال قوي كالخوف وغرضه الفسيولوجي تهيئة الحيوان لعمل بدني دفاعي عنيف كالفرار من وحش او الهجوم على خصم

والفرق بين البدائي والمتحضر في الحالين أن البدائي قلما يصاب بمرض ارتفاع الضغط لان كل انفعال من هذا القبيل يعقبه نشاط جسماني فتمدد الجدران المنقبضة في الاوعية الدموية التي تمد العضلات بالدم وهو الذي يجهزها بالمواد اللازمة للنشاط فيكون النشاط الجسماني في منزلة «صمام» ينصرف فيه الضغط، فيهبط مستواه . اما في المتحضر ، فأحوال الاجتماع وآدابه تفرض عليه ان يكظم غيظه ويخفي خوفه، فلا تنشط العضلات فيه نشاطها في البدائي فكان «الصمام» يبقى مقفلاً فلا ينصرف الضغط ويبقى عالياً مدة ما . وهذه الحالة سر مصيبة الانسان المتحضر . فطبيعة المشكلات التي يتعرض لها المرء كل يوم تختلف عن المشكلات التي يتعرض لها البدائي ولكن النظام الفسيولوجي الذي ركبته الطبيعة في الجسم لمواجهة مشكلات الحياة البدائية لم يتغير . فصاحب المصرف الذي يفقد ثروته لا يجوز له ان يطلق العنان لانفعاله بصفع احد موظفيه ، ولكن خوفه من الإدقاع ، انما هو من نوع الخوف الذي يساور الانسان البدائي . وهذا كان يقاتل أو يفر متأثراً بهذا التغيير الحادث في جسمه ، وسواء أقاتل أم فر فان اسراع نبضه والتبدل في تركيب دمه وزيادة السكر فيه وغير ذلك ، تحولات من شأنها ان تعزز قدرته على القتال او الفرار . ولكن جميع هذه التغيرات الجوهرية ، لا تجدي صاحب المصرف في مدينة حديثة شيئاً ، عند ما يفقد ثروته ويتراءى له شبح الفاقة والسقوط الاجتماعي . انها تعده لعمل لا يتم وتحشد انساج جسمه بمواد لا يستعملها وتتركه وفي دمه مفرزات تؤثر في جدران أوعيته وألياف عضلاته فتحرفها عن فعلها السوي وتعدها لعمل خاص لا يستطيع عمله ، فيفضي ذلك الى نضال في نفسه يكبته وفقاً لتقاليد المجتمع ، ولكن كبته لا يعني ان النضال قد زال أو انه لا يضر

وأقل آثاره هذا الارتفاع في ضغط الدم وقد يفضي الى حالات مرضية اخرى

ويميل المشتغلون بعلوم الطب والنفس الى القول بأن المصابين بارتفاع ضغط الدم طراز خاص من الناس ، تغلب عليهم حالات عصبية تنحو بهم الى ارهاف الاحساس وشدة التأثر بصغائر الامور وطبع ينفجر كالبركان وسرعة تورد الوجنتين والاكباب على العمل والرغبة في سرعة الانجاز والميل الى سرعة الاكل

العرب والتفكير العلمي[1] — ٢

أسلوبهم العلمي

لقدري حافظ طوقان

أما وقد انتهينا من البحث في آثار العرب وما ترهم في العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية فلنصف أسلوبهم والطريقة التي يسيرون عليها

امتاز العرب في الجمع بين فروع العلوم والادب وفاقوا في هذا غيرهم فنجد بين علمائهم من وقف على روائع الأدب وغاص على دقائق العلم وجمع بينهما . ومن يطلع على كتاب الجبر للخوارزمي يجد ان المؤلف جمع بين الجبر والأدب وجعلهما متممين أحدهما للآخر . فالمادة الرياضية مفرغة في أسلوب أخاذ لا ركاكة فيه ولا تعقيد ينم على أدب رفيع واحاطة بدقائق اللغة . ونظرة في كتب البيروني تبين ان تعانق الأدب والرياضيات بما فيهما الفلك والطبيعيات ممكن ، وليس أدل على ما قلت من كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم للبيروني فأسلوبه سلس خالٍ من الالتواء يخرج منه القارىء بثروتين أدبية وعلمية ويشعر بلذتين — لذة الاسلوب العلمي ولذة المادة العلمية وقد أفرغها على طريقة السؤال والجواب

وأرسل إليَّ الدكتور نيكل المستشرق التشيكي قبل سبع سنوات كتاباً قديماً في الجبر لابن بدر وبعد دراسته وجدت فيه نظاماً وتسلسلاً في ترتيب البحوث وشروحاً ضافية للمبادىء الأساسية وابداعاً في حلول المسائل وفي عرض خطوات حلها عرضاً طريفاً فيه متاع فكري ولذة عقلية . وما يقال في مؤلفات الخوارزمي والبيروني وابن بدر يقال في مؤلفات البوزجاني والبناني وابن حمزة وابن قرة وأبناء موسى والطوسي وابن سينا وابن الهيثم والدينوري وغيرهم من عباقرة العرب

لقد كان للعرب أسلوب خاص في اجراء العمليات الحسابية ، فكانوا يوردون طرقاً عديدة لكل عملية ؛ ومن هذه الطرق ما هو خاص بالمبتدئين وما يصح ان يتخذ وسيلة للتعليم. ولقد انتبه بعض رجال التربية في أوربا الى قيمة هذه الاساليب المسطورة في كتب الحساب العربية

(١) تتمة المحاضرة التي ألقيت في جمعية الشبان المسيحية في القدس في مساء الخميس ٦ / ١١ / ١٩٤١ برآسة الاستاذ احمد سامح بك الخالدي عميد الكلية العربية ومساعد مدير معارف فلسطين

من وجهة التربية فأوصوا بها وباستعمالها عند تعليم المبتدئين وتقول مجلة التربية الحديثة : — « ... وهذا ما حدا بنا الى درس الاساليب المتنوعة في كتب الحساب القديمة العربية بشيء من التعمق والتوسع . وفعلاً قد وجدنا بينها طرقاً عديدة يمكن الاستفادة منها في التعليم » ولهذا السبب أتت المجلة على بعض هذه الاساليب وأقامت الدليل على فوائدها في أحد أعدادها ليستفيد منها الأساتذة والمعلمون في تدريس الحساب

ونأتي الآن الى الطريقة العلمية او الاسلوب العلمي – وهو الصفة المميزة لهذه الحضارة عن الحضارات التي سبقتها — هل للعرب أثر في كشفه ؟ ما كنت أظن ان للعرب أثراً في كشفه او في التمهيد الى كشفه حتى بحثت في مآثر العرب في الطبيعة واطلعت على كتاب تنقيح المناظر. أنا لا أقول ان علماء العرب توسعوا في هذه الطريقة واستغلوها على النحو الذي استغلها به علماء أوربا

أنا لا أقول ان العرب عرفوا الطريقة بالصورة الواسعة العريضة التي أصبحت عليها الآن. أنا لا أقول ان العرب كانوا يدركون ما لهذا الأسلوب كما يدركه الآن علماء أوربا من شأن... ولكنني أقول انهُ وجد بين علماء العرب من سار في بحوثه على الطريقة العلمية وانهُ وجد من بين علماء العرب من سبق (بيكون) في انشائها بل من زاد على طريقة بيكون التي لا تتوافر فيها جميع العناصر اللازمة في البحوث العلمية

أما العناصر الأساسية في طريقة البحث العلمي الحديث فهي : الاستقراء ، والقياس والاعتماد على المشاهدة او التجربة والتمثيل

وكنت اظن كما يظن كثيرون ان هذه الطريقة في البحث هي من مبتكرات هذا العصر ولكن بعد مطالعة كتاب تنقيح المناظر لكمال الدين الفارسي و (محاضرات ابن الهيثم التذكارية لمصطفى نظيف بك) تبيّنتُ ان ابن الهيثم ادرك الطريقة المثلى ، فقد قال بالاخذ بالاستقراء وبالقياس وبالتمثيل وضرورة الاعتماد على الواقع الموجود على المنوال المتبع في البحوث العلمية الحديثة . ففي كتاب تنقيح المناظر عند البحث مثلاً في كيفية الابصار واختلاف الآراء فيه يقول : « .. ونبتدىء في البحث باستقراء الموجودات وتصفح احوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الابصار ، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الاحساس . ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب ، مع انتقاد المقدمات ، والتحفظ من الغلط في النتائج ، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحهُ استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء .. » الى ان يقول : «..ولعلنا ننتهي بهذا الطريق الى

الحق الذي به يثلج الصدر ونصل بالتدرج والتلطف الى الغاية التي عندها يقع اليقين. ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات... وما نحن مع جميع ذلك براء مما هو في طبيعة الانسان من كدر البشرية ولكننا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الانسانية . ومن الله نستمد العون في جميع الامور ..»

ومن أقواله هذه تتجلى لنا الخطة التي كان يسير عليها في بحوثه وان غرضه في جميع ما يستقريه ويتصفحه (استعمال العدل لا اتباع الهوى) وانه يتحرى في سائر ما يميزه (طلب الحق لا الميل مع الآراء) . وبعد ذلك نراه رسم الروح العلمية الصحيحة وبين ان الاسلوب العلمي هو في الواقع مدرسة للخلق العالي فقواعده التجرد عن الهوى والانصاف بين الآراء. فيكون قد سبق علماء هذا العصر في كونه لمس المعاني وراء البحث العلمي . وكان يرى في الطريق المؤدي الى الحق والحقيقة ما (يثلج الصدر) على حد تعبيره — وهذا ما يراه باحثو هذا العصر من روّاد الحقيقة العاملين على اظهار الحق ، فان وصلوا الى ذلك فهذا غاية ما يبغون ويؤملون

درس ابن الهيثم انتشار الضوء على خطوط مستقيمة ودرس انعكاسها كما درس انعطافها وقد تدهشون اذا قلنا ان أول ما عني به في هذه الدراسات هو البحث العلمي واجراء التجارب بآلات عملها هو بنفسه ليتحقق من صحة أصول البحوث ، والمجال لا يتسع هنا لايراد الأمثلة (من كتابه)

كان لا يقبل برأي أو نظرية قبل درسها أو تمحيصها وكان اذا استطاع ليستوثق من صحتها عمليًّا ، فلقد كان من المعروف عند علماء زمانه والذين قبلهم ان ضوء القمر هو ضوء الشمس منعكساً عن سطحه كما ينعكس الضوء عن سطوح الأجسام الصقيلة كالمرايا مثلاً . أراد أن يمتحن صحة هذه النظرية فأجرى بحثاً هندسيًّا متسلسل الخطوات مستوفى البراهين وخرج منه بأن أبطل تلك النظرية وأقام على انقاضها نظرية جديدة وهي ان ضوء القمر هو ضوء ثانوي او عرضي يشرق من سطح القمر المستضيء بالضوء الذاتي المشرق من الشمس كما يشرق الضوء من ضوء كثيف معتاد اذا وُضع بالقرب من جسم مضيء بذاته ، وليس هو ضوء منعكس بالمعنى الخاص بالانعكاس[1]

وفي بحوث الضوء المختلفة اتى على أمثلة وأشكال توضحها ، ثم كان يتحقق من ذلك باجراء تجارب في بعضها ابتكار والهام . ومن مميزاته انه كان يشرح الجهاز ويبين وظيفة اجزائه المختلفة . واستعمل أجهزة مبتكرة لشرح الانعكاس والانعطاف ، وتدل تجاربه

(١) راجع كتاب تنقيح المناظر لكمال الدين الفارسي ومحاضرة مصطفى نظيف بك عن ابن الهيثم

واجهزته وحساباته على انهُ استطاع ان يجمع بين مقدرته الرياضية وكفايته العلمية الممتازة التي يدل عليها صنع الاجهزة واستعمالها في الاغراض المختلفة . . »

وظهر من علماء العرب من كان كثير التدقيق حين البحث في النباتات فقد اشتهر رشيد الدين ابن الصوري في علم النبات في دقته المتناهية في درسه فكان يستصحب معهُ مصوراً (عند بحثه عن الحشائش في منابتها) ومعهُ الاصباغ والليق على اختلافها وتنوعها فكان «... يتوجه الى المواضع التي بها النبات فيشاهده ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه واغصانه واصوله ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها . ثم انهُ سلك ايضاً في تصوير النبات مسلكاً مفيداً وذلك انهُ يري النبات للمصور في ابان طراوته فيصوره ثم يريه اياه ايضاً وقت كماله وظهور بذوره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريه اياه ايضاً وقت ذويه ويبسه فيصوره فيكون الدواء يشاهده الناظر اليه في الكتاب وهو على انحاء ما يمكن ان يراه في الارض فيكون تحقيقهُ له أتمّ ومعرفته له أبين ... »[1] ولا أظن ان علماء النبات في هذا العصر اكثر دقة وتمحيصاً من ابن الصوري

***

مما مرَّ نتبين انهُ وجد في الأمة العربية من مهّد الى الاسلوب العلمي ومن سبق بيكون وغاليليو في انشائه والعمل بهِ . ولاشك ان هذا من الامور الجديرة بالنظر والاعتبار ولاسيما اذا علمنا ان اعظم خدمة أسداها العلم وأجد اثر له هو الاسلوب العلمي والنتائج الرائعة التي أسفر عنها تطبيقه

هذا مجمل ما خلَّفهُ العرب في ميادين الطبيعة والرياضة والفلك والاسلوب الذي كانوا يتبعونهُ ويسيرون عليه في بحوثهم ودراساتهم

من هذا المجمل يتجلى لكم ان المآثر العربية في ميادين العلم المختلفة هي نتاج قرائح خصبة ورشح عبقريات متعددة ، وان العقل العربي كان ذا حيوية ثمراته يانعات عادت على المدنية بالتقدم والارتقاء . والآن وهذه أمتكم وقد خلفت هذا التراث الخالد وتلك المآثر الجليلة والآن وأنتم من أولئك الذين أنشأوا حضارة على أساسها تقدم العلم والعمران ، لجديرٌ بكم ان تعتزّوا وان تباهوا امم الأرض . ولكن ما لنا وللاعتزاز او المباهاة اذا كان لا يصحب هذا الاعتزاز والمباهاة ارادة في اقتفاء آثارهم والسير على طريقتهم

ان من الأمم من لا تاريخ لها فراح علماؤها يخلقون لأمتهم تاريخاً ويعملون على اخراجه

---

(١) ابن ابي اصيبعة — طبقات الاطباء . ج٢ ص ٢١٩

في أمجد صورة فتمكنوا من خلق روح الاعتزاز ومن بثّ الاقدام والعزيمة في نفوس ابنائها. فكيف بنا ونحن أصحاب تراث ضخم وتاريخ مجيد وحضارة عريقة. أما الاولى بنا ان نسير على نهج السلف وان نلتمس في سيرتهم المثل والقدوة

هل كتب الجمود على العقل العربي ؟

ليس العقل العربي جامداً. لقد كان فعالاً منتجاً، فلِمَ لا يكون اليوم ؟

كانت الأمم عالة على العقل العربي، فلماذا لا يسترد العقل العربي سيرته وحيويته ؟ ما الذي أصاب العرب حتى أصبحوا وكأنهم كمية مهملة في تاريخ الفكر والعلم ؟

ان الذي أصابهم هو انحلال خلقي وضعف نفسي وشعور بالنقص استولى عليهم فاذا هم يهملون تاريخهم واذا هم يجهلون انفسهم واذا من العرب من ينكر على العرب تراثهم ومآثرهم ومفاخرهم، واذا الاستخفاف بكل ما هو شرقي عامة وعربي خاصة من (فنون) المتعلمين واذا المزاعم ترى بأن العرب لم يكونوا غير نقلة، وانه لم يكن لهم اي جهد فكري ما في تقدم العلم والعمران، وأخذ الاعتقاد بعدم قابليتنا يتسرّب الى شبابنا وقد أصبحوا هدّامين منكرين لميراث العرب لا يرون فيه خيراً ولا جمالاً، مفتونين بالحضارة الاوربية عاكفين عليها يرون فيها كل الخير وكل الجمال

لقد نسي هؤلاء ان لا كيان لأمة تنبذ تقاليدها، ولا مجد لامة تنتقص من ثقافتها وتاريخها، وان الأمة العربية خلفت آثاراً جليلة لولاها لما تقدمت الحضارة تقدمها المشهود، وان هناك من علماء اوربا من دفعه روح الاخلاص للحق والحقيقة ان ينصف العرب ويعترف بفضلهم وأثرهم وبانهم أساتذة اهل اوروبا

ويدعوني الانصاف الى القول ان في نهضة العرب العلمية الحديثة ما يدعو الى الاطمئنان والارتياح، فلقد أصبح العرب يدركون ان بعث الثقافة واحياء القديم وربطه بالحاضر من أقوى الدعائم التي عليها يبنون كيانهم ويشيدون عظمتهم ومجدهم

***

لقد بدأت بعض الحكومات العربية ولاسيما في مصر وبعض الجماعات والأفراد في مختلف الأقطار يحاولون سدّ النقص الذي لازم حركاتنا المتنوعة مدة طويلة، فالنهضة الثقافية سائرة بخطى واسعة، والاهتمام بتراث العرب في نمو وازدياد

ولست الآن في مجال تفصيل هذه النهضة، ولكن يمكن القول ان هذه النهضة مع انها في أولى مراحلها فهي تبعث على التفاؤل وتبشر بيقظة ثقافية ونهضة فكرية تعيد للعرب سابق مجدهم وتالد عزهم فيحتلون مقامهم الممتاز في المساهمة في خدمة الحضارة ورفع مستواها

خذيقة المقتطف

رابندرانات تاجور

الفصل الثالث

مدرسة تاجور



لمحمود النجوري

مدرسة تاجور

لمحمود المنجوري

من الصور التي لازمت خيال تاجور منذ كان طفلاً صورة ذلك المكان الذي اتخذه ابوه في ظاهر مدينة « بلبور » بين الغابات ، يتعبد فيه ويلقي على الناس دروس الحكمة والتأمل في ابداع الله العظيم . . فلقد نشأت صورة هذا المكان الذي كان يأوي اليه والده طول اليوم ، مفكراً هادياً الى صراط مستقيم ، ذات أثر بالغ في نفس تاجور وكان باراً بفكرة والده الحكيم عندما هاجر في سنة ١٩٠١ الى هذا البيت الذي أنشأه أبوه واتخذ منه مسكناً ومعبداً ومكتبة وحديقة ، وجعله مثابةً يحاول فيها تنشئة جيل يحب الطبيعة ويحنو عليها ، ليطبّق رسالته التي كان يحسّ في دخيلته بوحي ادائها الى أهل وطنه . ورأى تاجور ان تكون المدرسة وليدة البيئة التي ينشأ فيها الطفل لا تعلو عليها ولا تنخفض عن مستواها والا اخرجت جيلاً غير صالح لبيئته . ولما كانت مدنية الهند قد نشأت اول امرها في الغابة فهي حضارة ذات قيم متصلة بالتفكير غير المحدود ومرتبطة أشد الارتباط بالتعارف بين روح الكائنات

« ولهذا كانت الفكرة الاساسية التي بنى عليها نظام مدرسته هي تحبيب الطبيعة الى الطفل واستبقاء الصلة بدراسة بينه وبين البيئة التي يعيش فيها ؛ وليس نجاح هذه المدرسة يرجع الى الفكرة التعليمية التي بنى عليها نظم التعليم فيها ، ولكن حب تاجور للطفل وميله الشديد الى خدمة أمته بل وخدمة الانسانية من هذه الطريق دعاه الى تخصيص أكبر جزء من وقته لتحقيق هذا المقصد السامي (١)

نشأ تاجور يتيماً ، فأحس مرارة اليتم اذ حُرم عطف الأم صغيراً ، ورأى والده منصرفاً عنه الى عبادة الله ، يذهب كل يوم الى داره بالغابة يحدث الناس فيها عن أثر الخالق في أنفسهم ، وفيما ينظرون ، ووجد في أفراد اسرته العلماء والفلاسفة والمفكرين الذين تأثروا أبلغ التأثير بتعاليم « يوبانيشاد » واتبعوا أحكام بوذا في ايصال الروح البشرية بالعالم الذي يحيط بها ، وبالحقيقة المطلقة التي تتصل بسر الوجود ، فنمت روحه وأشرقت على المعاني السامية التي أرادت التعبير عنها . وكان قد أصابه في صباه ما أصاب أطفال الهند من عنت وسوء معاملة في مدارس عهده ، فأراد وهو المصلح الانساني ، ان يعالج امراً شعر بالتوائه ، وفي اصلاحه تنشئة جيل جديد ، على افكار ومبادىء انسانية خالية من الشذوذ والاخطاء ، بعيدة عما

---

(١) خطبة الشمسي باشا وزير المعارف ورئيس لجنة الاحتفال بتاجور في مصر سنة ١٩٢٦

يلقي بالتفكير والعواطف والمدارك في طريق التعصب والشذوذ وعما ينأى بالروحَ عن مرافق الحياة السامية المتصلة بجمال الطبيعة

لقد كانت المدرسة في طفولة تاجور تقوم على نظام قديم أنشأهُ حكماء الهند منذ زمن بعيد ، فكانت المدرسة تؤسس في مكان بعيد عن المدينة ، بين الغابات ، يشرف على جمال الطبيعة ومباهجها ، فكانت حقّـا كما أطلقوا عليها «مدارس الغابات» أو كما كانوا يسمونها «أسرم» . ولكنها لم تكن في الحق مدرسة تدرس فيها العلوم المتصلة بالحياة ، بل كانت هياكل نسك ورهبنة وتلقين لمبادىء الدين وتعاليمه طبق عقائد الهند القديمة . وكان كل طفل يوضع في رعاية شيخ كانوا يسمونهُ « جورو » او العريف الحكيم ، يتلقى الطفل عنهُ مبادىء التفكير والعلم واللاهوت والحكمة ، متدبراً مباهج الطبيعة وآثارها المختلفة من سماء ونجوم وأقمار ورعود وأنهار وأشجار وأزهار وهوام وحيوان وانسان

هذا النظام القديم راق تاجور ، ووجد فيه خير عون له على تنشئة جيل يحب الطبيعة ويدرك جمالها وأسرارها ، ولكنهُ أراد ان يرفع عن هذا النظام ما كان يشعر به في طفولته من عوج وشذوذ فيهِ ، فذكر ان الهند أصبحت في غير حاجة الى معابد للصلاة ، ولا الى مدارس تقام فيها الشعائر وحدها ، ولكن الهند في حاجة الى «مدرسة الغابة» حيث يجتمع الى جمال الطبيعة تفكير العلم وثقافة العقل البشري ، وحيث يتحد قلب الحياة بتفكيرها ، فتسمو المدرسة الى معبد روحي ، يحبب الطبيعة والجمال والمعاني السامية الى الاطفال ، ويصل بهم دون وعي منهم الى الروح ، التي يجب ان تصدر عنها جميع اعمالنا الخيرة

ودراسة طبيعة الطفل ، وانشاء الصلة بينها وبين ما حول الطفل من بيئة ، وتقوية الروح والارادة والادراك ، كل هذه مجتمعة هي الاسس الأولى التي بنى عليها تاجور مدرسة (شانتي نكتان) في عهدها الجديد سنة ١٩٠١ . ولكن فكرة المدرسة القديمة مدرسة الغابة كانت هي الجوهر الاساسي لهذا النظام لانها كانت في الحق الفكرة المحببة الى تاجور ، وظلت كما هي حتى أصبحت هذه المدرسة فيما بعد معهداً عالميًّا يحضره العلماء والفلاسفة والمفكرون من جميع أقطار الدنيا . فمدرسة الغابة هي حلقة من الاطفال تلتف حول معلمها تحت الاشجار في ضوء الشمس وأحضان الطبيعة ، وتاجور يعتقد أن الطبيعة هي خير معوان للمعلم في اداء عمله . وبدأ تاجور مدرسته ببضعة اطفال بثَّ فيهم تفكيره وملاحظاته ، ثم نما العدد الى نحو العشرين بعد عامين ، ثم الى ستين بعد اربعة أعوام ، والى مائتين في بضعة أعوام . وكان تاجور يرى نفس الطفل مسرحاً بكراً لمستقبل العالم الروحي والمادي ، وينظر الى هذا المخلوق نظرة تقدير ومحبة وعطف . نظرة كاملة يرى الاطفال فيها مخلوقات لا ينقصهم شيء غير تفتح المواهب والتفكير

والاحساس . فهم حكماء وعلماء وقادة وشعراء ولكن في أكمام كالزهر، ان أحسنت الطبيعة والبيئة اليها تفتحت عن جمال وروعة ، وان أهملتها ذبلت موءودة ، وخسرت الحياة أعز ما تملك لأن هؤلاء هم ذخرها ومستقبلها . والاطفال يجب أن يفهموا أنفسهم ويقبلوا على الحياة من وجهها الحق وان يدركوا ما فيها من جمال وأسرار ، وان يندمجوا في الطبيعة ويعتبروها أمًّا محبة اليهم لتشيع فيهم الروح العليا، فتصدر أعمالهم وحركاتهم عن الحق والحب والخير، وليدركوا بهذا الحنو المشترك بينهم ، ثم بينهم وبين الكائنات الأخرى ، انهم جزء لا ينفصل من وحدة تامة لهذا الوجود تشعر بشعور جامع واحد

وادراك الطفل لشخصيته وتنميتها ، لا في حدود الانانية والأثرة ، ولكن في حدود الروح الجامعة للحياة كلها ، هو العمل الأول لنظام تاجور المدرسي، ومن هنا كانت الارادة في مدرسة تاجور، ارادة جامعة وليست ارادة فردية، هي وحي الجماعة صادر عن مباعث الخير والفضيلة واتجاه الروح العالمي ، وهذه الارادة متى توحدت في اتجاهها وكانت صادرة عن شعور واحد روحي أنتجت تفكيراً متحداً يخدم البشرية كوحدة منسجمة متصلة غير متعارضة في أهوائها ومشاعرها ومداركها ومقاصدها في الحياة . فالخير والوصول الى الحق من طريق ادراك النفس ، والشعور بالشخصية الجامعة ، هو هدف تاجور التعليمي في مدرسته . ولقد وضع لمدرسته منهاجاً يوميًّا وصفهُ أحد تلاميذ تاجور فقال :

« ينهض جماعة الانشاد من الاطفال في مطلع كل يوم حوالي الرابعة والنصف صباحاً يرتلون أناشيد عذبة هادئة ، وهم يجوبون المدرسة لايقاظ زملائهم بعد غفوة النوم وهدوء الاحلام . فاذا ما زال عنهم نعاسهم هرعوا الى جلال الفجر يشرفون عليه في هدوء واستمتاع ويقظة روحية ، فتسري الى نفوسهم براءة الجلال ورهبة القوة القادرة الجامعة التي تسلخ من الليل نهاراً ونوراً ، وتبعث من الهجوع حركة وحياة ونشاطاً في جميع الكائنات — فاذا ما انتهت فترة التأمل الاولى ، انصرف الاطفال الى تنظيف غرفهم بأنفسهم ولم ما فيها من شعث ، فاذا ما انتهى هذا الدرس العملي الذي يلقي الطفل معتمداً على نفسه محترماً جميع الاعمال وان صغرت ، توجه الاطفال الى ملاعبهم الرياضية في طلق الهواء وجمال الطبيعة بين الشجر الندي ليروضوا أجسامهم ، حتى اذا ما أخذوا حظاً من رياضة الابدان انصرفوا الى حمامات باردة تزيل عنهم العناء وتكسبهم النشاط ، فاذا تم كل هذا اتخذ كل طفل معزلاً له في الحديقة الكبيرة ، وقد عكف على نفسه يفكر فيها وفيما حوله في صمت ممتد لا يقطعه حديث ولا تشوبه حركة ، فاذا ما لبث على هذه الحال نحو الربع من الساعة متأملاً مفكراً جاهداً مطالب النفس ، انطلق الى صحن مدت فيه موائد الافطار ، حتى اذا ما انتهى الاطفال من هذا ، ذهبوا جماعة الى الصلاة يؤدونها في خشوع وتفكير وإيمان ثم يبدءون دروسهم بنشيد مقدس كل يوم ، وتبدأ الدراسة في الهواء الطلق حلقات في منتصف الثامنة ، حتى منتصف النهار ولكل طفل وسادة من القش يفترشها وقرطاس ومحبرة وقلم يحملها معه كلما انتظم في حلقة الدرس . أليست هذه هي روضة للاطفال وضعت الهند نظامها منذ أجيال بعيدة في نظام مدارس الغابة التي كانوا يسمونها (أشرم)

وفي الساعة الثانية عشرة يتغدى الاطفال وينتهي برنامج الدراسة اليومي مراعاة لحرارة الجو في بلاد الهند ثم ينصرفون بعد ذلك الى بعض شئونهم فيلعبون ألعابهم الرياضية ويستذكرون دروسهم او يعملون في الحديقة فلاحة وتنظيماً ورياً ، ثم يخرج بعض التلاميذ جماعة منتظمة الى القرى المجاورة لارشاد أطفالهم الى الخير وتدريبهم على ما نشأت عليه أنفسهم من تعاليم المدرسة ، وبهذا يعم الاصلاح في أوسع نطاق ، ولا يقتصر

على طلبة المدرسة وحدها . وينشأ التلاميذ وفي نفوسهم نزعة الى الاصلاح والارشاد والتعليم حتى اذا ما اقترب النهار من الزوال لجأوا الى مقاطيهم يستحمون فيها ، فاذا ما أخذوا حظهم من النشاط رجع كل الى فترة الهدوء في منزله يفكر ويتأمل ويستعرض ما كان منه طول اليوم ، محاسباً نفسه مذكرها دائماً بنفوذ الروح فيها . ثم يجتمع التلاميذ للانشاد والترتيل لقطع مقدسة ، ثم يتناولون العشاء ، فاذا ما انتهوا منه عكف الاطفال على قراءة القصص التهذيبية وتمثيل مسرحيات صغيرة او ترتيل الاغاني المدنية الجيلة — وأما الكبار من الاطفال الذين يهيئون للامتحان بالجامعة فيباح لهم الدرس والمذاكرة بعضاً من الليل ، ثم يأوي الجميع الى مضاجعهم في منتصف العاشرة ونطوف جماعة الانشاد منشدة أناشيد المساء ، وهكذا ينتهي اليوم كما بدأ بالاغاني والانشاد »

* * *

والناحية الاجتماعية التي ينشأ عليها الطفل في مدرسة تاجور منتزعة من عقيدة تاجور العالمية ، فهو يبتعد بالاطفال عن روح الاثرة والانانية ولا يلقي في نفوسهم بأنهم هنود أو من طائفة خاصة لها وطن ولون وعقيدة وجنس خاص ، وانما يأخذ بأيديهم الى باب الانسانية ، فيطبع هؤلاء الأطفال بطابع عالمي بعيد عن روح القومية الجامح ، ويبعث في قلوبهم حب الوطن على انهُ فضيلة ، والفضيلة لا تجر النفس الى شر أو عنف أو عصبية . ولعل آراء تاجور التي بيّنها في هذه الناحية في كتابه «البيت والعالم» هي المبادىء الاجتماعية التي ينشىء عليها اطفال مدرسته . فهو في هذا الكتاب لا ينظر مطمئناً الى الوطنية المتعصبة نظرة تقدير ، بل يراها عملاً عصبيّاً صادراً عن الانفعال والأثرة التي تدفع بالبشر الى الحروب دائماً . فأطفال تاجور يعرفون وطنهم ويحبونهُ كما يحبون أمهاتهم وآباءهم ، ولكنهم يعدونهُ وحدة منسجمة في العالم الذي يجب ان يُحَب ويؤثر في القلب والتفكير في سبيل الانسانية جمعاء. ومن قواعد فلسفة تاجور ألاّ يؤثر العنف في أي عمل ، وقد تدعو الوطنية الى التطرف والعنف ، بل أنها قد تدعو الى إزهاق الأرواح والكفاح الدموي . وتاجور يأبى هذا ويرفضه أشد الرفض ، لانهُ ينشد المثل الأعلى في الوطنية الذي تفسره البشرية تفسيراً صحيحاً يرضي الضمير الانساني

فاختلاف الاجناس طبق اختلاف الالوان واللغات ، ليس عملاً من أعمال الانسانية ، وانما هو عمل من اعمال التفكير الشاذ المنحرف عن الحق وطبيعة الحياة — وتاجور لا ينكر اختلاف المواهب ، ولا اختلاف البيئات ، ولكنهُ ينكر ان يكون هذا الاختلاف مثارَ مشكلات اخرى ، بل يجب ان يكون دافعاً وموجباً للتعارف والتزاوج والائتلاف ، ولهذا ينكر تاجور ان تتناحر الوطنيات المختلفة ، لانها تجرُّ الانسانية الى نوع من الوحشية البربرية في صورة من الحرب والغزو واهدار الانسانية[١]

واطفال مدرسة تاجور هم في الحق مخلوقات كاملو الرجولة فالرجولة منطوية فيهم حتى يأتي

(١) البيت والعالم : لتاجور

أوانها، فتظهر ناضجة غير مبتسرة، وهم كما يدركون شخصيتهم ويغلبونها على أمورهم ونظام معاشهم يختارون من بينهم كل اسبوع رئيساً عليهم، كأنهم يتدربون على النظام الانتخابي الديمقراطي في حياتهم، فهم لا يدعون رئيساً يستبد بالغلبة وطول الأجل عليهم فيسري حب السيادة والسيطرة الى بعضهم، ويشعر بعضهم بعذلة الرآسة والقهر الروحي، إنهم يرفضون هذا ولكنهم يحترمون للنظام تدبيراً للحياة وتقديراً لسلوكها وطبعها، وشخصيتهم في هذا هي مصدر تقديرهم واستقلالهم في الحياة — وهم في المدرسة كجماعات النحل — لكل جماعة رئيس ينتخب ولكن الى أجل، ليسودها روح التعاون التام، ولهم محكمة من أنفسهم تفصل في شئونهم اليومية وما يقع من بعضهم من مخالفة لنظمهم وتعاليمهم وسلوكهم، ولا يشترك فيها اساتذة المدرسة مطلقاً الا اذا كان الأمر جد جليل، وهذا في النادر القليل

ومن أهم المبادىء العامة ألا يتسلط المعلم على ارادة تلاميذه وألا يشعرهم بنفوذه عليهم بل يجب أن يتعاون المدرس مع تلميذه على الفهم والدرس، وكثيراً ما يخضع المدرس لارادة تلاميذه متى كان الحق في سبيلهم، وليس في المدرسة عقوبة بدنية لأن التعذيب البشري محرّم وإجرام، فالعقوبة ممنوعة ومقطوعة. والعقوبة القاسية عندهم أن يقاطع المذنب فلا يلتفت اليه تلميذ أو معلم، بل يهمل ويترك. وفي هذا بلاء له ودعوة الى التهذيب والاصلاح — ومتى اعترف التلميذ المذنب بخطئه كان هذا استغفاراً كافياً ليعيد اليه المجتمع المدرسي حقوقه واعتباره

فمدرسة تاجور من هذه الناحية عالم صغير ولكنهُ غير محدود، بل هو العالم الكبير المنطوي على نفسه الى حين، وهي تستمد مقوماتها من روح صاحبها؛ فهو زعيمها الروحي وهو أب لأطفالها سعيد بهم، بل هو كما يقول عن نفسه «اني مع أطفالي أسعد مني في أي مكان آخر» وفي شخصيته الجاذبية القوية التي تجمع اليها جميع التلاميذ؛ فهم يشعرون بأنهم متقابلون في شخصيته الجامعة، يستمدون منها البواعث الحية لايقاظ نفوسهم وقلوبهم الى المعاني السامية التي تدعو اليها شخصية تاجور، وهو يعمل دائماً على اذكاء شخصية اطفاله وتنميتها وبعث الروح فيها لتنهض متماسكة بقوتها وحيويتها الغريزية، لأن تاجور يدعو دائماً الى أن تكون شخصيتنا أول شيء نعرفه في أنفسنا، فهي مصدر تفكيرنا، ومجال الدرس والتعليم.

«في أنفسنا يجب ان نفكر ونتدبر، وفي أنفسنا يجب ان نرى صور الحياة والانفعالات والرغبات والغرائز والميول واتجاهات الخير والشر، وفي شخصيتنا ينطوي العالم الروحي والعالم الحسي معاً، ويجب ان تصدر معارفنا ومشاعرنا وأدبنا وفننا مطابقة لشخصيتنا التي يجب ان تكون مدركة لذاتها ومتصلة بالعالم وما فيه من أسرار، وكلما اتسعت دائرة معارفنا الشخصية بالأشياء الخارجة عنا كنا أكثر حرية» (١)

---

(١) من سدهانا

وفي الحق ان هذا المذهب الذي يدعو اليه تاجور في مدرسته ، مذهب تحريك الشخصية الفردية وجعلها حرثاً للبحث والتثقيف والنظر ، في الحق ان هذا المذهب هو مذهب هندي قديم دعت اليه أديان الهند ونصَّ عليه في تعاليم « يوبانيشاد » التي تبحث عن سر الفرد في روحه ، وتدعو الانسان الى ان يخلص نفسه من مظاهر الحياة وبهرجها الكاذب ، ليحل فيه المخلوق الطاهر النقي أو الجوهر الأوحد العام الذي يطلقون عليه اسم « برهمان »

هذه هي مدرسة تاجور التي نشأ فيها أطفاله الى عام ١٩٢١ وكان يقف فيها بينهم ويشترك معهم في اخراج مسرحياته يعلمهم الاداء والنطق والاخراج ، ولا يضن بتفكيره الفلسفي الكبير على دائرة الطفولة الوديعة الساذجة ، بل كان يرى في هذه الدائرة معيناً له على فهم حقائق الاشياء ، فكان تاجور يعلم بنفسه الاطفال الأدب والقصص والترتيل والغناء ، ويثير في نفوسهم دائماً الشغف بالفنون من رسم وتصوير وشعر وموسيقى — وهو رجل يقول عن نفسه إنهُ ليس بعالم من علماء التربية ، ولكن مهمَّتهُ أن يجتذب الطبيعة الى الطفل ويستوفي الصلة بالدراسة بين الطفل وبين البيئة التي يعيش فيها

وعندما عاد تاجور سنة ١٩٢١ الى بلاده من رحلة طاف بها ممالك أوربا وأميركا ، أدرك مما شاهد ، بعد الحرب العالمية ، ان المدنية الاوربية تسير الى انهيار لا واقي منهُ ، بغير الدعوة الى مبادىء السلام الصحيحة التي لا تنشد بعقد محالفات او معاهدات ، وانما تنشد بإشاعة الوحدة الروحية بين الجماعات والامم ، واثارة الانسانية والخير في جميع ما يصدر عن الانسان من تفكير وشعور وعمل ، وأيقن أن أعصاب الشباب في الغرب مسخرة لأهواء ومطامع فتاكة وتعاليم خطرة من شيوعية الى فاشستية الى فوضى في التفكير والعقائد ، الى أنانية وأثرة تعمل في الخفاء كالبركان الصامت يدوي محرقاً تحت أطباق الارض يتلمس المنفذ والمخرج للثورة والهياج. ففكَّر تاجور طويلاً فهالهُ الأمر وخشي على المدنية كذخر انساني ان تذهب ضحية حرب فتاكة مقبلة فاستقر بهِ الرأي على ان يحوّل مدرسته « شانتي نكتان » الى معهد عالمي سماه « فسفا بهاتي » يقوم على اساس الفكرة الانسانية التي بشّر بها بين الهنود، على ان يكون معهداً عالياً للدراسات الروحية والانسانية العليا ، يحتفظ بالمقومات الاساسية لمدرسته ، وليكون دعامة قوية لتطهير المدنية من دائها الكامن في قلب الغرب ، وقد أعلن تاجور يوم افتتاحه

« يجب ان تمحي الاثرة وان يزول التعصب للجنس واللون »

وكان تاجور يرمي بهذا الى غرض سامٍ نبيل عبَّر عنهُ عند ما قال

« إني أطمح الى إنشاء انسان كامل خيِّر ، وان يكون مهم هذا الجيل تحمُّل مصاعب البذل في سبيل الخير وان يتعاون في دفع الاثرة عن نفسه حتى ينتصر جانب الخير في الانسان وتمحي منه عوامل الشر »

سمع العالم هذه الاغنية الحلوة أغنية المحبة والسلام ، تطلع من قلب الشرق الحكيم الى عالم ما زالت الدماء تفور في نواحيه بعد حرب طويلة طاحنة تساوى فيها الغالب بالمغلوب ، وأهدرت فيها كرامة الانسانية ورجولتها ، استمع العالم الى أغنية تاجور من قلب الشرق الحكيم ، فالتفت الى معهد تاجور ، وأقبل عليه الفلاسفة والعلماء والحكماء من كل قطر يجلسون اليه جلسة التلاميذ ، ويسلك معهم تاجور سلوك الزملاء ، متخذاً مدرسة الاغريق مثلاً له ، فينتقل وتلاميذه الى شجرة وسط الطبيعة الرحبة ، حتى اذا ما استقر بهم المقام ، كان الحوار وكان الدرس الهادىء ، وكان الحق الواضح مستلهماً جلال القدرة الخالقة في ايجاد الصلة الروحية بين الانسان وما حوله من كائنات وحقائق ، داعياً الى ازالة الحواجز بينه وبين نفسه ، وهو في محاضرته شاعر ومغن وقاص وناقد وفيلسوف واديب وفنان ، وبرنامجه الروحي يستمد مقوماته من تعاليم « اليوبانيشاد » ومن فلسفة « بوذا » واتجاهات التفكير الحر المنسجم مع الطبيعة البشرية . وهو يبحث في محاضراته عن سر الفرد في روحه ، ويدعو الى تجريد الانسان من مظاهره الباطلة ليسطع فيه النقاء المستكن في ذات نفسه ، وينبثق فيه هذا الجوهر الأوحد الذي يسمونه (برهمان) وهذا الجوهر هو الحقيقة التي يستحيل وجودها في العالم الخارجي للانسان ذي الظواهر المطردة الزوال ، انما يمكن الوصول الى هذا الجوهر بالروح التي يسمونها (اتمان). وليست هذه الحقيقة الباطنة كالحقيقة التي ينادي بها فلاسفة الغرب ، أي استكمال الشخصية من عواملها ومظاهرها الخارجية بل هي على العكس

« فناء الشخصية المفكرة في القوة الخالقة التي تهبها التفكير ، فهي افناء الشخصية الفردية في ينبوع لا شخصي ، او ركون الشخصية الى الجانب اللانهائي من النفس ، هذا الجانب الذي يمثل الايمان بالله والاتصال بالقدرة الخالقة المدبرة الموحدة للكائنات جميعاً ، والذي لا يمكن للعقل ان يكشفه او ان يستولي على هذه القوة الجامعة بادراكه » (١)

لأن العقل وان طلب المثل الأعلى فهو بنزعته الانفصالية ضعيف عاجز عن الاستيلاء على جميع الحقائق فكيف له ان يميل الى التحليل والانطلاق ، وان يندمج في صورة هذه القوة الخالقة التي يشعر معها بأنه لا شيء

والانسان في رأي تاجور :

كائن موزع بين الروح والطبيعة ، بين الروح والعقل ، فيه نزعات تسمو به الى عالم اللانهائية وفيه نزعات تحط به الى الانانية والاثرة ، فهو بين تيارين متجاذبين : تيار يجذبه الى الروحية غير المحدودة ، وتيار يشده الى المادية الضيقة التي تظلم عليه الحياة ، وتوصد دونه أبواب القلب والسمو والشعور بالكمال المطلق.

وان فوز الانسان في هذه المعركة ليدعوه أولا ألا يكون متشائماً وألا يكون مرتبطاً بأثقال المتناقضات والسلبيات في الحياة ، بل عليه ان يدرك الحقائق سليمة جريئة بعيدة عن ألوان اليأس والشك ، وان يؤثر

---

(١) عن تعاليم اليوبانيشاد

الطبيعة ورفع الحواجز بينه وبين نفسه ، ثم بينه وبين الطبيعة ، هذا هو السبيل الذي يرفع عن كاهل العقل والنفس أثقال المادية المحدودة ، فليست الدنيا وهماً . وليست الحياة الا الانسان الحي الخالد الذي يتطلب جانب الخير في نفسه دائماً يتوق الى الانسجام في حقيقة الكائن الاعظم من طريق ادراك كنه الحياة وما يبدعها ومن طريق البهجة بأسرارها والتعرف اليها والاستمتاع الروحي بجمالها وجلالها — وليست الصوفية — بحالها التي تفهمها الكثرة الحادثة — هي الطريق الى هذا لانها وجه عابس تتلقى به الحياة . وهذا العبوس ينم عن تشاؤم يطفيء بهجة الحياة ويسدل على أسرارها ستراً قاتماً لا يرينا من الحياة غير لون داكن ، ولا يجعل العقل الذي يدرك ما في الطبيعة الموهوبة من جمال — فهذه الصوفية التي تحتقر الحياة وتزدري الانسان ، انما هي عمل هادم لشخصية الوجود تحول بين الانسان وبين الاتصال بالحق المطلق وتقطع العلاقة بين التفكير البشري الذي يتطلب دائماً المثل الاعلى وادراك ما خفي عنه وبين الاستيلاء على الحقائق الثابتة في الوجود من طريق الفهم والادراك والتمييز ، فهي خذلان للقوة التي أودعها الله من سره في الانسان وهي من ناحية أخرى تحمد منه على الروح ومداركها لأن الروح لا تكون مسعدة إلا اذا يسر لها الطريق الى ادراك الحقائق من سبيل فهمها والايناس اليها والتمازج بها ، ولا يمكن ان يكون هذا إلا اذا ابتهجت الروح بأسرار الحياة ومباهجها ، وأدركت ما في الطبيعة من عذوبة ولين ويسر ، واستمرأت ما أحل لها ، وابتهجت به ، وعرفته معرفة تامة — وهذه المعرفة تدعو الانسان الى ان يتعاون مع الطبيعة ليفهم أسرارها ويبتهج بالوصول الى حقائقها ، فهو لا ينظر الى الطبيعة نظرة السيطرة والغلبة ولكن ينظر اليها نظرة التفاهم والتذوق والشعور بأنه جزء لا ينفصل عنها ، وهذا يجعل الانسان اوسع ادراكاً وبسطاً للطبيعة وهذه الحقيقة هي التي شغلت تفكير فلاسفة الهند منذ القدم وهي تبدو واضحة في ازالة الحواجز بين الانسان والطبيعة واقامة حضارة تنهض على التعاون بين العقل البشري وبين الكائنات — وأما حضارة الغرب فتنهض على أساس متناقض على أساس الخصومة بين الانسان والطبيعة ، فهو يشعر دائماً بأنه يجب ان يتسلط عليها وان يقهرها وان يستغل منها مصادرها ويستل اسرارها ، ولهذا كان الانسان الغربي لا يدرك من الطبيعة إلا ما يجنيه منها من مادة ، وهو بعد هذا شاعر بعزلة عن الوجود ، وفردية قاسية تدعوه الى أنانية واثرة مميتة ، لا تلبث ان تفيض من نفسه فتخرج من دائرة كانت بينه وبين الطبيعة فاذا بها أنانية شاملة لنطاق الفرد والجماعة ، ثم لنطاق الجماعات بعضها مع بعض وفي هذا المعترك تذوي مباهج الحياة وتندثر القوى الروحية من الحضارة لتبقى حضارة جافة يابسة يدنيها اللهب القريب فيحرقها (١)

وليس معهد تاجور مقتصراً على برنامج فلسفي يدرس ، ولكنه معهد وطني متى كانت الوطنية تسع المعنى الانساني الشامل ، فلقد فتح ابوابه لجميع المنبوذين عندما دعا المهاتما غاندي الهنود الى نبذ الفوارق بين طوائفهم ورفع المنبوذين الى مصاف الانسانية . ولقد أكبر تاجور هذه الدعوة وأيد غاندي فيها وانضم اليه ، ولم يكن من مؤيديه السياسيين الى سنة ١٩٣٢ — لان تاجور الذي يدعو الى الوحدة البشرية ، يهوله أن يرى في الهند وطنه الحبيب ، فريقاً يسمى الانجاس ينبذه أهل الهند جميعاً فلا ود ولا تعارف ولا اختلاط ولا كلام ، وهم قوم نبذتهم الآلهة فصغر شأنهم وانحط قدرهم الاجتماعي فبتر عن الهند نشاطاً لو عاد اليها لسعدت حركة ونماء وثقافة ، ولزال عنها هذا العار الذي لصق بها عند ما خيل اليها ان أديانها تدعو الى نبذ فريق من أهلها ، ولا تعدهم آدميين بل مخلوقات دانية الى البهائم . هال تاجور هذا الوهم الاجتماعي فانضم الى غاندي في صومه الذي فرضه على نفسه

(١) تلخيص عن الفصل الاول من سدهانا

أو تعود الهند وحدة سليمة من هذا المرض الفاشي بين أهلها منذ آلاف السنين يومئذٍ صام تاجور على الرغم من شيخوخته وأمر تلاميذ جامعته بالصوم ، وجمع الوفاً من طبقات « السافلة النجسة » في مدرسته وأكل وجميع أتباعه معهم فأصبح من ذلك الوقت من مؤيدي المهاتما غاندي في آرائه الأجتماعية

ولقد تكلم تاجور في مدرسته ، داعياً أهل الهند ان يرفعوا الى طبقة الانسانية اخوانا لا ذنب لهم لئن تسفل بهم الطبقات الاجتماعية الى درك يدنيهم من البهائم فقال :

« في اليوم الذي بدأ فيه المهاتما صومه ، رأيت الظلام قد انتشر فعم بلاد الهند جميعها ، حتى ان الشمس قد كسفت ، فالناس في حيرة وقلق شديد ، ان المهاتما الذي نفخ بتضحياته الماضية روحاً جديداً في الهند يقدم الآن حياته في سبيل وطنه العزيز »

مملكة الروح

« إن لكل قطر حدوداً معنوية باطنية كما له حدود مادية ظاهرة . وفي الحدود المعنوية يحكم الروح ويهيمن وليس للقوة المادية ان تقهر او تبطش او تستولي على أي جزء ضئيل من هذه المملكة المعنوية الروحية . والفاتحون من الاجانب الذين يغزون الاقطار يستعمرون البلاد عنوة وقسوة ليس لهم من سبيل وان قهروا حدود البلاد المادية الى حدود هذه المملكة المعنوية ، وسلطانهم لامحالة زائل يوم يزول نفوذهم عن البلاد . عندئذ تنهار عظمتهم الموهومة لانها عظمة قائمة على القهر والباطل . وأما الحكومة التي تتذرع بالحق وتدين الصدق والخير وتنال النصر الروحي فتفتح البلاد فتحا روحياً . فهي حكومة خالدة الى الابد . هذه هي حكومة المهاتما غاندي . لقد ضحى المهاتما بجميع ما لديه من عزيز في سبيل غاياته الروحية وها هو ذا يضحي بروحه التي بين جنبيه في سبيل ما يبغي . وانه لامر جليل هذا الذي يقدم عليه غاندي العظيم . وان تاوسنا لتجزع وتعرينا لتهتم وليتضاعف الكرب كلما فكرنا في الامر ووجدنا المهاتما مصراً على تضحية نفسه

« وليس في جزعنا أي عجب . فلقد اعتدنا ان نطلق على الحقائق الروحية الباطنية أسماء ما نرى من الآثار المادية التي نلمسها . ثم نقابلها مقابلة وقتية ثم نودعها وداعاً لا لقاء بعده . لقد اقترح زعماء الرأي فينا ان يصوم الشعب اليوم . وهذا الصوم وان كان على خير وبركة كثيرة ، إلا أنني أخشى ان يحسب الناس صومهم كصوم المهاتما غاندي . إذن لحقت علينا المصائب ولارتكبنا اثماً عظيماً . لاننا نكون غير مقدرين الحق قوته ولا منصفين الصدق جلاله

رسالة الى العالم

إن التضحية التي قدمها المهاتما غاندي ليست تقليداً دينياً . بل هي رسالة بليغة الى الهند والى العالم البشري كافة . فان كنا نريد ان نقبل هذه الرسالة فعلينا ان نقابلها بمعانيها الصحيحة ومقاصدها الناصعة . وان نفهمها وندرسها درساً جدياً . ألا ان التضحية منحة لا يمكن ان يتقبلها الانسان قبولا حسنا ، إلا اذا جاد بمثلها فعلينا ان نقدر هذه الرسالة

تبنى عظمتنا على اذلال الذين جردناهم من انسانيتهم ظلماً وعدواناً وحبست أرواحهم في سجون مظلمة لايسلك اليها النور

إن الذين نظلمهم على أمرهم سيغلبون . انهم يجعلون من بينهم سداً بيننا وبين الرقي والتقدم . فالحمل الذي نثقل به ظهورهم انما هو واقع على ظهر البلاد كلها فنذل معهم ونسقط بسقوطهم . اننا لا نهين الانسان بل نهين البشرية كلها

السجن

وفي الهند ألوف محتشدة من البشر مقيدون في السجون بالاغلال والحديد دون ان يحاكموا أمام المحاكم والقضاء . لا يعاملون المعاملة الانسانية إذ أرادت الحكومة ان تنال منهم . ولكنهم سجلوا عليها وزراً كبيراً . بل أنهم قضوا على هيبتها وسمعتها قضاء لا مرد له . إن تعذيب المسجونين سواء أسياسيين كانوا أم غير سياسيين يثبت ان البربرية القديمة لا تزال قائمة في صميم المدنية

ونحن معشر الهنود قد خصصنا فريقاً من أبناء بلادنا بالذل والظلم . ووضعنا له اسماً مفجعاً مهيناً . إن السجون لا تبنى بالآجر والاحجار فقط بل ان تجريد الانسان من اعتباره ، واهدار انسانيته ، هو السجن الحقيقي . وانه يدل على صغار نفوس الذين يغرون دعائمه لا على صغار الذين يعذبون فيه

الجرم الاثيم

ولاريب في ان الشعوب والجماعات البشرية يمتاز بعضها عن بعض بما تتصف به من فوارق طبيعية. ولكن الحكم على شعب او جماعة بأنها خلقت ذليلة ساقطة ، وانها يجب عليها ان تبقى كذلك الى أبد الدهر ، وانها لاجل ذلك يجب ان تجرد من سائر حقوقها الانسانية ، هذا الحكم الجائر انما هو ظلم شنيع لا يضاهيه ظلم لان شناعته لا تزال تزداد وتنمو مع الزمن

نحن نزعم أننا أفضل من شعب الانجاس . ولكن الحقيقة ان هذا الشعب عندما ينفصل عنا تنهار كياننا ونصبح أكثر خلق الله ذلة وخنوعاً . ونحن معشر الهنود لم يدب فينا هذا الضعف إلا من هذا التفريق الباطل . بل انه هو الذي سبب جميع هزائمنا التاريخية . وكل قطر تفشو فيه هذه الفوارق يختل نظامه ويضطرب ميزانه ثم يسقط الذين علوا فيه كبراً قبل ان يسقط الذين حكم عليهم بالذل والعار

إن البلاد الغربية قد فشت فيها مثل هذه الفوارق . فحدثت الشقة بين الفقر والغنى . وكمنت تحت هذه الفوارق براكين مدمرة لا يعلم أحد متى تنفجر فتقضي على المدنية الغربية قضاء تاما

خطأ الهند القديم

لقد شرح المهاتما غاندي المخاطر العظيمة التي تهدد بلادنا من طريق هذه الفوارق البشرية التي هي لعنة ماحقة على الانسانية . ولكنه لم يطنب في شرحها كما أطنب في منافع النهاض الوطني . حتى وصلت الحالة الى هذا الحد المشؤوم . ان الخطأ الذي ارتكبناه في تقسيم شعبنا الى طبقات غير متساوية الحقوق لخطأ قديم راسخ في قلوبنا . انه قد قوى أعداءنا وأضعف شعبنا

ومن العسير ان نزيله من جذوره . وان ضعفنا هذا هو الذي حمل المهاتما غاندي على ان يعلن الحرب التي شنوا عليه

ونحن ان فقدنا غاندي لسوء حظنا في هذه الحرب المقدسة فمسؤوليتنا ستكون عظيمة وسيضطر كل واحد منا ان يخوض غمار هذه الحرب الى النهاية حتى ينتصر فيها او يذهب شهيداً ابداً سام

ولقد أحسن المهاتما غاندي الينا عندما قدم هذه الحرب المباركة هدية غالية لشعبه . فعلينا ان نقبلها في تواضع وعزم وشمم . وان قبلناها لا هين كما هي عادتنا ، فاننا سنفقد هذه الروح الكبيرة التي استقرت في المهاتما الكبير وسنسقط في هاوية سحيقة نلقى فيها الردى ولا يبعث لنا منها أبداً ونفقد فيها غاية وجودنا الى آخر الدهر

فمدرسة تاجور ليست مدرسة محصورة البرنامج محدودة العمل، ولكنها مثابة يدعو فيها تاجور الى الحق أيّاً كان لون هذا الحق، فهو يدعو فيها الى الوطنية عند ما يجد الوطنية تأتلف

والدعوة الانسانية التي تدعو اليها رسالته ، وهو يبشر فيها بآرائه في السياسة والحكومة عند ما يجد وسائل الحكم تنحرف عن قواعد الحق التي تشملها رسالته الكبيرة الى العالم ، وهو يتخذ مدرسته لبث الآراء التي تأخذ بثقافة الشعب الهندي الى الطريق المستقيم الذي تهدي اليه عقائده الصحيحة ، فليست مدرسته معهداً للعلوم ،ولا مجمعاً للابحاث التاريخية،ولا معبداً للصلاة ، ولامتحفاً للفنون والجمال ولكنها جامعة تحوي كل هذا ، ومنبراً عامًّا يشمل « جميع مطامح النفس »

فالمعنى الشامل لمدرسة تاجور هو هذه الطوائف من المفكرين والباحثين في جميع أقطار الأرض دون تمييز للون أو جنس أو دين ، وتبشر هذه المدرسة بدعوته عن ايمان حق ويقين ناصع، لان تاجور لم يكن هنديًّا ولاقوميًّا في دعوته ،ولكنه اتخذ من عقائد الهند وفلسفة الشرق مبادئ صحيحة للدعوة الى إنشاء انسان كامل ، ومدنية بشرية لا تعرف اللون والجنس والوطن

ولعلنا نستطيع ان نلخص برنامج مدرسة تاجور في المواد التي جمعها في كتاب سدهانا Sadhana ، والتي قال عنها انه اعتاد أن يتحدث مع طلاب معهده فيها ، فهو دائماً يحدثهم عن علاقة الفرد بالعالم ، وهو يحدثهم عن وجدان الروح ، ويحدثهم عن مشكلة الشر في الوجود ، ويحدثهم عن معضلات النفس ، والحب ، والخلق كما يحدثهم عن تحقيق الجمال وادراك اسراره الروحية ، ثم يفيض عليهم دائماً حديثه في الجانب اللانهائي من حياة الانسان

« لها تتمة »

لماذا خبا المصباح ؟
لقد كنت أسدل عليهِ عباءتي خشية ان تعبث بهِ الرياح. لهذا خبا المصباح
لماذا ذبلت الزهرة ؟
لقد كنت أضمها الى صدري في لهفة الحب ، لهذا ذبلت الزهرة

***

لماذا جفَّ الغدير ؟
لقد كنت أعترض مجراه بالسدود ليكون لي وحدي ، لهذا جفَّ الغدير
لماذا انقدَّ وتر القيثار ؟
لقد كنت أحاول ان أوقع عليهِ لحناً لايحتمله ، لهذا انقدَّ وتر القيثار

« عن البستاني : لتاجور »

باب الزراعة والاقتصاد

تنمية الثروة الحيوانية الزراعية (1)

لسعادة عبد القادر الجمال باشا

أبنائي : بإنشائكم هذه الجمعية وبإقبالكم عليها تساهمون في رفع مستوى الانتاج الحيواني في البلاد بطريقة مثلى عملية . وسيوجهكم أساتذتكم الأفاضل خير توجيه الى الطريق العملي العلمي الذي يؤدي الى هذا الغرض فنظم استفادتكم منهم. ولا إخالني في حاجة الى حثكم على الانضمام اليها والعمل على نجاحها لأنكم بلا شك أكثر الناس تقديراً لمنافع مثل هذه الجمعيات . ويا حبذا الحال لو أقدم كل منكم بعد تخرجه على شراء عدد قل أو كثر من الماشية بحسب طاقته المالية وأحواله — ورعى هذه الماشية بنفسه وطبق العلم على العمل — اذن لأفاد واستفاد لأن تعدد العملية بين أيدٍ كثيرة مختلفة وبوسائل متنوعة سيؤثر حتماً تأثيراً حسناً في مستوى الانتاج ويؤدي الى اطراد زيادة الماشية الزراعية بالبلاد — واني أؤكد لكم عن علم وتجربة ان امتلاك طائفة يسيرة من الجاموس والبقر يعود على صاحبها بفائدة مادية سنوية أكبر من مرتب الدرجة السادسة الفنية التي تسعون الى الحصول عليها وتبذلون في ذلك جهداً عظيماً — بل أؤكد لكم ان امتلاك قطيع كبير من الماشية أجدى كثيراً من مرتب الدرجة الأولى (حرف ألف) وقلَّ من يحصلون على هذه الدرجة من رجال الحكومة . ثمَّ إنكم باعتمادكم اليوم على أنفسكم ومجهودكم العلمي الفني تمحون عيباً ما فتىء لاصقاً بنا ، اذ اعتدنا في مصر ان نعتمد على الحكومة في جميع مشروعاتنا ، وهذا عيب يجب دائماً السعي والعمل على مداواته واستئصاله ، فضلاً عن ان مجهود الحكومة مهما يكبر لا يعقل ان يفي بجميع مطالب الامة. حقيقةً نحن نطالب الحكومة بالتدخل لتنظيم اقتصادنا القومي وتوجيهه — ولكن هذا التدخل له حدود لا يمكن أن يتعداها بحيث لا نحد من نشاط الأفراد — بتدخل يساعدهم ويضمن سيرهم في انتاجهم سيراً طبيعيًّا . وسأورد لكم بعد قليل ما نطالب به الحكومة لتنمية الثروة الحيوانية في البلاد

أبنائي : أما وقد وصل اهتمام رجال كلية الزراعة بهذه المسألة الحيوية في اقتصادنا القومي الى انشاء جمعية «تربية الماشية» فعليكم معشر الطلبة الاشتراك والتعاون في تطبيق الدراسات النظرية بطريقة تجريبية عملية وهي ستساعدكم بطريقة فعَّالة على ان تشقوا طريقكم في

---

(1) خطبة ألقيت في افتتاح « جمعية تربية الماشية » بكلية الزراعة في جامعة فؤاد الاول

الحياة وتوجهكم فيها توجيهاً عملياً يبعدكم عن التفكير والالحاح في طلب المناصب الحكومية التي خضعت لقانون العرض والطلب. فقد أصبح المقبلون عليها كثيرين والطالبون غير محصورين، وهو ما دعا الحكومة الى اجراء تعديلات مجحفة مختلفة في « كادر الوظائف » تنزل بها الى مستوى واطيء جداً. وأنني لأقرر لكم انكم تعملون اليوم عملاً جليلاً وتخطون خطوة جديدة موفقة في اقتصاد البلاد الزراعي ومعالجة مشكلة البطالة — بطالة المتعلمين الفنيين بتقديم هذه الوسيلة الجديدة

سادتي: لاتخفى عليكم منزلة الثروة الحيوانية في الانتاج الزراعي والاقتصاد القومي بل والمستوى الاجتماعي أيضاً. وقد بذلت مساعٍ متعددة من جانب الحكومة والهيئات الزراعية للعناية بهذه الثروة واهتم بها كثيرون من الفنيين الاخصائيين بتربية الحيوان والطب البيطري ورجال الاقتصاد، وناشدوا البلاد حكومة وشعباً أن تعمل على إنماء الثروة الحيوانية. وازدادت مناشدتهم بعد نشوب الحرب الحالية التي لا يعرف أجلها، بعد ما ظهرت حاجة البلاد الملحة الضرورية الى بعض المواد الغذائية والمنتجات الحيوانية كاللحم والجلد على اصنافهما وما الى ذلك، بعد انقطاع المواصلات فانقطع تقريباً استيراد الأسمدة الكيميائية من الخارج وأجبرنا على احلال الاسمدة البلدية محلها على قدر المستطاع

قد يكون من تكرار القول أن أقول لكم اليوم ماقلته من قبل ولكنها حقيقة ثابتة — وهو انهُ مما لا شك فيه أن في مقدور الاراضي المزروعة في مصر أن تتحمل عدداً من الحيوانات الزراعية أكبر كثيراً مما تتحمله الآن. اذ جاء في آخر احصاء رسمي أن عدد المواشي التي في البلاد لا يتجاوز مليونين من الجاموس والبقر معاً ومليوناً من الاغنام. فاذا وزع هذا العدد الصغير على الستة الملايين من الافدنة الصالحة للزراعة في البلاد اتضحت لنا قدرة هذه الاراضي على تحمل عدد آخر كبير من هذه الحيوانات ولاسيما اذا علمنا أن الحيوانات الزراعية الكبيرة تستعمل على الاكثر منذ القدم للخدمة الزراعية وان تربية الحيوان للانتفاع بمنتجاته قليلة جداً في مصر واننا لا نعنى عناية ما بصوف الغنم. ومن البديهي أن اصلاح الاراضي الزراعية المصرية لا يمكن أن يتم الا اذا أخذت تربية الماشية ومنتجاتها مكانها من حيث هي محاصيل أساسية في البلاد. ولو وجهت العناية منذ عشرين سنة الى استغلال المحاصيل الحيوانية واكثارها وحمايتها لما وقعنا في ازماتها المتكررة المختلفة، ومنها أزمة اللحوم الحالية التي حملت الحكومة على تقييد الذبح والبيع، بل ولاستطاعت البلاد ان تمون تلك الجيوش الجرارة للامبراطورية البريطانية في الشرق باتناجها الحيواني الزراعي ولجنت من ذلك فائدة مادية كبيرة. وقد يعترض بعضهم قائلاً ان بلادنا ليست بلاد مراعٍ فأجيب بأن مسألة المراعي كانت موضوع بحث العلماء الاخصائيين ولم يبت فيها علمياً على وجه القطع للآن

ومهما يكن القرار الاخير الذي يؤخذ في هذه المسألة فان من مصلحة البلاد ان تكثر الماشية الزراعية الى أقصى درجة تتحملها الاراضي المزرعة . واعتقد ايضاً انهُ في الامكان اختيار جهات في شمال الدلتا وغيرها لاقامة المراعي العظيمة فيها . فقديماً كان اهل مصر يعنون عناية عظيمة بتربية الماشية حتى تخصص فريق منهم بالرعي في مديريتي الدقهلية والغربية وفي نواحي الوادي وصان الحجر وعلى حدود مديرية البحيرة. ولكن ما إن زادت العناية بزراعة القطن والارز حتى تلاشت العناية بالرعي تدريجاً فاندثرت تربية الاغنام والصناعات التي تعتمد عليها. وبعد ان كانت مصر تصدر ١٢٠٠٠٠ من الجلد والف قنطار من السمن ومقداراً لا بأس بهِ من الجبن هبطت هذه الصادرات الى الحضيض وتعرضت الماشية للجوع والهزال والاهمال فالخسارة . ولم تتنبه الاذهان لما للانتاج الحيواني من شأن الا من عهد قريب بفضل انتشار التعليم الزراعي العالي . وتقدم الاخصائيون وبذلوا مساعيهم العلمية في سبيل رفع مستوى الانتاج الحيواني في البلاد

سادتي : أسرفت البلاد حكومة وشعباً في الاهتمام بأمر القطن وكل ما يتعلق بالقطن ولم يُعط غيره من المحاصيل العناية الكافية اعتماداً على ان القطن عماد الزراعة والثروة القومية حتى خانها القطن لأسباب ليس للبلاد فيها دخل فتنبهت وفتنذر الى خطر الاعتماد على مصدر واحد للثروة الزراعية . وأمامنا الآن الثروة الحيوانية وامكان النهوض بها حتى تعوضنا كثيراً مما فقدناه من هبوط سعر القطن وقلة تصريفه إذ في وسع البلاد ان تكثر من تربية الماشية والانتفاع بمنتجاتها وإصدار الفائض عن حاجاتها من هذه المنتجات بقليل من العناية . وأمامنا الدانمارك حيث تقدمت تربية الماشية حتى صارت أهم صناعة فيها وأكبر مصدر لرزق أهل البلاد وحلّ الرخاء عليها من تربية الماشية

وتربية الماشية الزراعية سواءٌ ألتجارة كان ذلك أم لخدمة الارض أم للانتفاع بمنتجاتها يمكن ان يساهم فيها المزارع الصغير والفلاح الكبير كلٌّ في حدود ماله وقدرته . وهذه المزية في تربية الماشية هي من أهم الاسباب التي تدعونا جميعاً الى المناداة بالاهتمام بهذه التربية والحث عليها فهي في الواقع في متناول أيدي أكثريتنا ولا تحتاج الى رأسمال كبير للبدء فيها

تدلنا الاحصاءات التي بين أيدينا على ان منتجات الماشية المصرية على قلتها المعروفة لنا تدرُّ على البلاد كل سنة إيراداً يقرب من نصف إيرادها من القطن او أقل من ذلك قليلاً فما بالكم لو عنينا بأمر الماشية المصرية وتربيتها إذن لكان لنا منها إيراد ثابت طيب غير خاضع للعوامل العديدة العالمية التي تؤثر في القطن وسعره مما لا دخل للبلاد فيه ولا قدرة لها على مداواته

سادتي : قامت ادارة المباحث الاقتصادية في بنك التسليف الزراعي المصري بدراسة مشروع يسهل على الفلاح صغيراً كان او كبيراً اقتناء الماشية وتقدمت به الى ولاة الأمور

منذ بضعة أشهر وهذا المشروع يقوم على أساس تقديم سلف بشروط هينة جداً لكل من يريد تربية الماشية لغرض ما من الاغراض ، وقد أشير فيه بأن يكون تقديم السلف للفلاح بواسطة البنك بطريق الايجار فالبيع أي (Hire-purchase) وهذا النظام متبع في انكلترا واميركا وبعض قارة أوربا وجنوب أفريقيا بنجاح تام . ولا يزال هذا المشروع قيد البحث ولايعلم إلا الله متى ينفذ.وأريد الآن ان أنوه هنا بما تفضل به صديقي الاستاذ احمد فاضل الخشن من مساعدة لي في هذه الدراسة وقد اقترح ان يوضع نظام للتأمين على الماشية لأنه من الضروري ان يقرن كل مشروع لتنمية الثروة الحيوانية في البلاد بمشروع التأمين على الماشية كخطوة هامة في سبيل اشتراك الاهالي في العناية بتربية الحيوان

فإشراف الحكومة على التربية لا تتم فائدته الا بتعاون المربين للماشية من الأهالي معها وليس هناك ما يغري المزارعين على حد قول الأستاذ فاضل أكثر من شعورهم بالاطمئنان على أموالهم التي يستغلونها في تربية الماشية

وكلنا يعرف ان الفلاح الصغير وهو عماد الثروة الزراعية المصرية يعد جاموسته او بقرته في منزلة أفراد عائلته وينظر اليها كمصدر لرزقه ورزق من يعولهم . فاذا هو اطمأن الى انه اذا أصابها شيء وجد في التأمين عوضاً عنها لم يتردد لحظة واحدة في الاقبال على التأمين على الماشية وفي الاقبال على تربية المواشي وبذلك يزيد انتاجها فتتحسن صحة الأهالي لوفرة ما يصيبونه من الغذاء الصحي . ويزيد خصب الأرض بوفرة السماد البلدي ويقل استيراد الأسمدة الكيمائية ويحفظ جانب من ثروة البلاد دون ان ينزح الى الخارج ثمناً للاسمدة والمنتجات الغذائية الناتجة من الحيوان وهي المنتجات التي تستوردها البلاد

كما اقترح الاستاذ فاضل إنشاء رابطة تجمع بين المشتغلين بتربية الماشية والاخصائيين في علم تربية الحيوان ورجال الاقتصاد الزراعي في البلاد كما هو متبع فعلاً في انكلترا وأميركا وأكثر البلاد الراقية حيث تقوم « رابطة مربي الماشية » أو ما يسمونه Cattle Breeders Association بنشر المعلومات المفيدة عن الماشية وتربيتها بين أعضائها ونشر المجلات العلمية الفنية لهذا الغرض وتكون صلة اتصال بين المربين انفسهم وواسطة تفاهم بين الحكومة والهيئات التي تعنى بتربية الماشية وتدافع عن مصالحهم . يضاف الى ذلك ان انشاء رابطة من هذا القبيل تضم بين أعضائها الرجال الفنيين والمتولين فعلاً تربية الماشية سيكون له أثر نافع في توجيه الثروة الحيوانية في البلاد وتنميتها ونشر المعلومات عنها . كما يتبادل أعضاؤها معلوماتهم وتجاربهم فيجنون من ذلك خيراً كبيراً . ومن أهم الاسباب التي تدعو الى انشاء هذه الرابطة السعي لدى اولي الشأن من رجال الحكومة وغيرهم لتسهيل وسائل زيادة الثروة الحيوانية الزراعية في البلاد والسعي الى تعديل القوانين تعديلاً يلائم مصالح الانتاج . وأتم اليوم

بانشائكم هذه الجمعية في دائرتكم الصغيرة تضعون حجر الأساس في انشاء الرابطة الكبيرة باذن الله قريباً

وكذلك اقترح صديقي الاستاذ عبد المنعم عاشور ادخال نظام تسجيل الماشية كأساس لكل مشروع يرمي الى رفع مستوى انتاج الحيوان الزراعي في مصر. وقد القى محاضرات في هذا المشروع الجليل مؤيداً فيها رأيه كما أصدر نشرات بهذا المعنى وسعى لدى ولاة الأمور لادخال هذا النظام بسن القوانين اللازمة لذلك. ولكن لاقى الاستاذ عاشور العقبات التي يلاقيها كل مصلح في هذه البلاد من عدم الاهتمام وقلة العناية والبطء الشديد المتناهي في الأداة الحكومية التشريعية. ولا يجب ان تثبط هذه العقبات من همم المشتغلين بالاصلاح مهما تشتد فهي قد أصبحت حالة عادية عندنا نحسب لها حسابها عند الشروع في كل عمل له شأنه. وليثابر كل منا في طريقه فلا بد من أن نصل الى النجاح يوماً ما مهما يطل الزمن ومهما نصادف من مشاق. واقترح الدكتور عبد المجيد وهبي الاستاذ بمدرسة الطب البيطري تخصيص عدد كاف من الاطباء البيطريين لمعالجة الماشية المريضة بصفة جدية مستمرة كوسيلة لحفظ طائفة كبيرة من ماشية البلاد من الهلاك وله في هذا الموضوع أبحاث نفيسة جداً، ومفيدة للاكثار من الحيوانات الزراعية

ونحن نطالب الحكومة اليوم بالعناية بأمر الثروة الحيوانية في البلاد الى أقصى حد وتسهيل سبل اقتنائها على صغار الفلاحين — ولا نطالبها بمال قلّ أو كثر في هذا السبيل — فكل ما نطلبه منها هو تعديل بعض مواد القانون المدني للاعتراف قانوناً بنظام التأجير فالبيع. وعندما نرى المؤسسات المالية الكبرى التي تقدم المال للمزارع تقوم من تلقاء نفسها وتسهل الاقتراض على مربي الماشية مع المحافظة على أموالها من الضياع في الوقت نفسه. ونطالب الحكومة ايضاً بسن التشريع اللازم للتأمين على الماشية والتشريع اللازم لتسجيلها ولا مانع مطلقاً في البدء بتطبيق هذه القوانين تطبيقاً متدرجاً حتى تتعودها البلاد وتلمس نتائجها الطيبة. كما نطالب الحكومة بأن تنشيء بنك التسليف الزراعي المصري ليساهم مساهمة فعّالة تفوق مساهمته الآن في تسهيل السلف لشراء الماشية. كما نطالبها بالاكثار من الاطباء البيطريين لوقاية الماشية من الهلاك

كل هذا — ايها السادة — يدعونا الى التعجيل في البدء بتنفيذ فكرة انشاء رابطة مربي الماشية حتى تأخذ على عاتقها هذه المهمة — أي مهمة مطالبة الحكومة بالعمل الجدي المثمر من هذه الناحية — فلا شك في أن مجهودها من هذه الناحية سيتوج بالنجاح لان جهد الجماعة أبلغ أثراً من جهد بعض الافراد

ولنعمل متعاونين سائلين الله التوفيق لما فيه خير البلاد ورفاهية ابنائها

النباتيون المشهورون

وما يرمز اليهم به

لمحمود مصطفى الدمياطي

يتركب الاسم النباتيّ او العلميّ لأي نبات من كلمتين لاتينيتين تدلّ أولاهما على الجنس وثانيتهما على النوع الذي ينتمي اليه النبات . فمثلاً يقال لجنس الاقطان جوسيبيوم Gossypium ولنوع منه القطن الشجريّ Gossypium arboreum ولنوع ثان القطن البربادي Gossypium barbadense وعلى هذا النسق يطلق على الأنواع المختلفة من البرسيم مجتمعة اسم الجنس تريفوليوم Trifolium وعلى نوع منه شائع في مصر البرسيم الاسكندريّ Trifolium alexandrinum وعلى ثانٍ يوجد في أوربا البرسيم الهجين Trifolium hybridum

ولما كان النوع نفسه قد أطلق عليهِ أحياناً النباتيون على اختلافهم اسماء مختلفة مع أنها لنوع بعينه معيّن فمنعاً للالتباس قد جرت العادة في ترتيب النباتات على ان يضاف الى اسم النوع اسم العالم النباتيّ كاملاً او مختصراً وهو الذي أطلق على هذا النوع اسمه ووصفه . فمثلاً يدل حرف L. الرمز الذي يوجد هكذا في ذيل Gossypium arboreum L. او رمز Linn. الذي يوجد هكذا في ذيل Gossypium arboreum Linn. وهو القطن الشجريّ على ان لينايوس Linnaeus العالم السويديّ الشهير الذي هذّب علم التاريخ الطبيعيّ ونظّمهُ أطلق هذا الاسم عليه وأنه وصف هذا النوع المعيّن من القطن . اذا تقرر ذلك أقول إني رأيت من قبيل النفع لأولئك الذين يشتغلون بيننا من الطلاّب وغيرهم بعلم النبات وما يلحق عادة بأسماء النبات من رموز عن أسامي العلماء الذين ضحوا بأوقاتهم في أسفارهم وغيرها لوضع تلك الاسماء وما قرنوه بها من الوصف لكل منها — رأيت ان آتي هنا على أسماء المشهورين من أولئك العلماء وما يرمز اليهم به في المصنفات وليس من غرضي في هذا المقال الاستقصاء لأن عددهم جميعاً قد يعد بالمئات

﴿ أبيل ﴾ : وبقية اسمه كلارك Abel, Clarke ويرمز له Abel عاش (١٧٨٠—١٨٢٦) وهو نباتيّ رحل الى الصين في ٨ فبراير ١٨١٦ وهناك جمع مجاميع كبيرة من النباتات الصينيّة وعند عودته الى وطنه انكلترا في ١٦ فبراير ١٨١٧ فقدت جميعها بسبب غرق المركب ما عدا مجموعة صغيرة كان قد أهداها الى السير جورج ستونتون فلمّا علم السير جورج بالحادث أرسلها الى النباتيّ روبرت براون فوصفها ونشرها في لندن ١٨١٨ بعنوان «قصة رحلة في داخل الصين» بين سنتي (١٨١٦ — ١٨١٧)

Narrative of a Journey in the Interior of China.

وقد اختار روبرت براون نباتاً من تلك المجموعة الصغيرة التي وصلت اليه وجعله جنساً ثم نسبهُ الى صاحبها وهذا الجنس هو المعروف باسم ابلية Abelia

﴿ أشاريوس ﴾ : Acharius, Erik ويرمز له .Ach ولد في جيفل من اسوج في ١٠ اكتوبر ١٧٥٧ ومات في وَدْستينا من اسوج ايضاً في ١٤ اغسطس ١٨١٩ وهو طبيب اسوجيّ ونباتيّ تلقى العلم عن لينايوس وصنَّف كتاب « الدراسة الجامعة لنباتات بَهَق الحَجَر » Lichenographia universalis

﴿ أدَنْسُون ﴾ : وبقية اسمه ميشل Adanson, Michel ويرمز لهُ .Ad و.Adans ولد في إكس من فرنسا في ٧ ابريل ١٧٢٧ ومات في باريس في ٣ اغسطس ١٨٠٦ وهو فرنسيّ من علماء الطبيعيات ساح في سنغامبيا ولهُ مؤلفات أهمها كتاب « تاريخ السنغال الطبيعي » Histoire naturelle du Sénégal (١٧٥٧) وكتاب « فصائل النباتات » Familles de plantes (١٧٦٣)

﴿ افزِلْيُوس ﴾ : وبقية اسمه آدم Afzelius, Adam ويرمز لهُ .Afz ولد في لارف من اسوج في ٧ اكتوبر ١٧٥٠ ومات في ٣٠ يناير ١٨٣٧ وهو اسوجيّ من علماء الطبيعيات كان مدرساً لعلم النبات في أُبسالا ١٧٨٥ ومستكشفاً في العلوم في سيراليون بأفريقية ١٧٩٢ كما كان كاتم السر لرجال بعثة في لندن ١٧٩٦ وأستاذاً للعقاقير الطبية في ابسالا ١٨١٢

﴿ أجَرْد ﴾ : وبقية اسمه كارل أدولف Agardh, Karl Adolf ويرمز لهُ .Ag و .Agh و .Agdh ولد في بستاد من اسوج في ٢٣ يناير ١٧٨٥ ومات في كرلستاد من اسوج ايضاً في ٢٨ يناير ١٨٥٩ وهو اسوجيّ شهير من علماء الطبيعيات والاقتصاد السياسي ايضاً كان استاذاً لعلمي النبات والاقتصاد في جامعة لوند ١٨١٢ وأسقفاً لكرلستاد ١٨٣٤ ومصنفاته العلمية الاكثر أهمية هي كتاب «طريقة ترتيب العَرْمَض أي الطحلب » (١٨٢٤) Systema Algarum وكتاب « صور ضروب العرمض الاوربية » (١٨٢٨ — ١٨٣٥) Icones Algarum Europæum

﴿ أَيْتُون ﴾ : وبقية اسمه وليم Aiton, William ويرمز لهُ .Ait ولد قرب هاملتون من اسكتلندة ١٧٣١ ومات في كيو قرب لندن في ٢ فبراير ١٧٩٣ وهو نباتيّ اسكتلنديّ وبستانيّ عيّن مديراً لحديقة النبات الملكية في كيو ١٧٥٩ وصنَّف كتاب « حديقة كيو » (١٧٨٩) Hortus Kewensis

﴿ أمَّان ﴾ : وبقية اسمه باول Amman, or Ammann, Paul ويرمز له .Amm ولد في برسْلُو من روسيا في ٣٠ أغسطس ١٦٣٤ ومات في ٤ فبراير ١٦٩١ وهو طبيب الماني ونباتيّ عيّن أستاذاً لعلم النبات في جامعة ليبزيج ١٦٧٤ ولعلم الفسيولوجيا أي

وظائف الاعضاء ١٦٨٢ وصنّف كتاب « الصفة الطبيعية للنبات » (١٦٧٦)
Character naturalis Plantarum

﴿ اوبْليه ﴾ : وبقية اسمه جان باتيست خرستوف فوزيه Aublet, Jean Baptiste Christophe Fusée ويرمز له .Aub و .Aubl ولد في سالون من اقليم بروفنس بفرنسا في ٤ نوفمبر ١٧٢٠ ومات في باريس في ٦ مايو ١٧٧٨ وهو نباتي فرنسي سافر الى جزائر موريس في ١٧٥٢ حيث قضى سنوات كثيرة ثم تجوّل من ١٧٦٢ الى ١٧٦٤ في جويانا الفرنسية وكان في السنة الاخيرة منها في سان دومنجو وفي ١٧٧٥ نشرت نتائج تجوّلاته في مؤلفه « تاريخ نباتات جويانا الفرنسية » Histoire des plantes de la Guyane Francaise وهذا المصنف يتضمن ايضاً أوصاف أنواع النباتات في جزائر موريس وله مذكّرات كثيرة ذات فائدة عامة

﴿ بلْفُور ﴾ : وبقية اسمه جون هتّون Balfour, John Hutton ويرمز له Balf. ولد بادنبرة في ١٥ سبتمبر ١٨٠٨ ومات بها في ١١ فبراير ١٨٨٤ وهو نباتيّ وطبيب اسكتلنديّ ممتاز عين أستاذاً لعلم النبات بجامعة جلاسجو في ١٨٤١ وبجامعة ادنبرة في ١٨٤٥ واستاذاً متقاعداً في ١٨٧٩ وصنف « كتاب النبات » (١٨٤٨) A. Manual of Botany و« كتاب مدرسيّ » (١٨٥٢) A class-book وكتاب « اللاهوت النباتي » (١٨٥١)
Phyto-Theology

﴿ بانكس ﴾ : وبقية اسمه السير جوزف Banks, Sir Joseph ويرمز له Ban. ولد بلندن في ١٣ فبراير ١٧٤٤ ومات بأيلورث في ١٩ يونية ١٨٢٠ وهو انجليزي من علماء الطبيعيّات ونباتي ممتاز وثقة في العلم جهّز السفينة إندفور ورافق بعثة كوك الاولى ١٧٦٨ — ١٧٧١ وزار جزيرة ايسلندة ١٧٧٢ وعيّن رئيساً للجمعية الملكية ١٧٧٨ — ١٨٢٠ ومجموعته في نموذجات الأعشاب (معشبته) وخزانة كتبه موجودتان في المتحف البريطاني وقد ألّف كتاب « مختصر بيان اسباب المرض المسمّى اللّفحة أو يرقان الزرع أو الصّدأ » (١٨٠٥)
A Short Account of the Causes of the Disease called the Blight, Mildew, and Rust.

﴿ بارّيلييه ﴾ : وبقية اسمه جاك Barrelier, Jacques ويرمز له .Barr ولد في باريس ١٦٠٦ ومات في ١٧ سبتمبر ١٦٧٣ وهو نباتي فرنسيّ صنّف كتاب « النباتات التي بحث في غاليا (فرنسا) واسبانيا وايطاليا » (١٧١٤)
Plantae per Gallium, Hispanium et Italiam observatae.

(يتبع)

باب المراسلة والمناظرة

التمساح في الرسيس

صديقي الفضال رئيس تحرير المقتطف الغراء

بعد التحية والسلام قرأت في العدد الماضي (مارس ١٩٤٢) مقالاً ممتعاً كتبه الأستاذ العلاّمة الآب انستاس الكرملي في انتقاد كتاب الامتاع والمؤانسة ذكر فيهِ رأيه في بعض الاسماء الهندية فأرجو منكم فسح المجال لما بدا لي فيهِ ولكم الشكر الجزيل

قال الاستاذ تحت العنوان الثامن التمساح في الرسيس : لا نعرف نهراً في الهند باسم الرسيس يكون فيهِ التمساح ، والذي نعرفه ان الذي فيهِ هذا الوحش المائي هو نهر (مِهران) بكسر الميم .... الخ »

وأنا أرى ان الرسيس قد يكون تصحيفاً من الناسخ لكلمة «اندوس» Indus فان كلمة «اندوس» اسم يطلق في العصر الحاضر في الهند وفي اكثر اللغات الاوربية على نفس نهر مهران الذي ذكره جغرافيو العرب كما حققه ايضاً المستشرق الانجليزي الاستاذ لوسترانج في كتابه «أراضي الخلافة الشرقية» طبع كمبردج ص ٣٣١ . ثم لنهر مهران هذا في الهند اسم قديم جداً باللغة السنسكريتية وهو «سندهو» Sindhu . وقد ذكر هذا الاسم في بعض الاناشيد الخاصة به في «رِجْ ويدا» أحد الكتب الأربعة المقدسة الهندية القديمة. فلما دخل الهند اليونان سموه « اندوس» . والسين حرف يزاد على الاكثر في آخر الاعلام باليونانية . ومن اليونانية انتقل هذا الاسم الى اللغات الاخرى

أما مهران فلا يعرف أهل الهند نهرهم « اندوس » أو « سندهو » بهذا الاسم بل أهل فارس سموه به . والعرب لم ينقلوا اسم النهر مباشرة عن الهندية بل عن الفارسية كما ذكره ياقوت في المعجم نقلاً عن حمزه (ج ٨ ص ٢٠٩)

أما نهر سند أو بالفارسية « سندروذ » الذي ذكره ياقوت في المعجم (ج ٥ ص ١٥٣) فهو غير نهر « سندهو » أو « مِهران » بل الذي يسمى في العصر الحاضر « ستلج » Sutlej وقول ياقوت فيهِ : « بلغني انهُ يفرغ في مِهران » صواب

بقي قول الاستاذ في اسم تمساح بالهندية Gavial انهُ عربي الأصل ومأخوذ من كلمة (جبار) فأراه بعيداً عن الصواب لان الكلمة في الحقيقة هندية الأصل . وأصلها بالهندية « كَهْرْيالْ » بفتح الكاف الفارسية وسكون الهاء ثم سكون الراء الهندية المفخمة ثم فتح

الياء وسكون الالف واللام . والراء الهندية هذه لا يوجد مثلها في اللغات الأخرى . وقد اصطلح أهل اللغة على شكلها بوضع الطاء الصغيرة فوق الراء العربية أو أربع نقط حيث يتعذر وضع الطاء عليها (مثل حروف الرصاص) . وصعوبة نطق الراء هذه حملت أهل الغرب على كتابة الكلمة بحرف V بدل R ، غير اني رأيتها في بعض القواميس مكتوبة بحرف R أي Gurial وهو عندي أقرب الى الصواب وان كانت كتابتها Gharyal أصوب

القاهرة السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

مقال البراق النبوي

نشرنا لكاتب اديب في مقتطف فبراير صفحة ١٦٨ مقالاً عنوانه « البراق النبوي وقصة المعراج في التصوير الاسلامي » . وبعيد صدوره نبّه كاتب فاضل في مجلة الرسالة الغراء عدد ٥٢ ؛ الى ان صاحب المقال نقل هذا الفصل من كتاب السر توماس ارنولد — « التصوير في الاسلام » ولم يسند اليه . فرجعنا الى احد اصدقاء المقتطف المتوفرين على هذه الموضوعات نسأله في ذلك لكي نضع المسألة في نصابها الحقيقي ، فأجابنا بأنه رجع « الى كتاب الدكتور ارنولد ووازن بين فقراته وبين المقال فوجد ان المقال يكاد في معظم فقراته يكون ترجمة غير حرفية بل بشيء من التصرف ، بالزيادة القليلة حيناً والحذف حيناً آخر ، للفصل الذي عقده الدكتور ارنولد للكلام على البراق في كتابه »

وغنيٌّ عن البيان ان الإسناد في الفصول العلمية أمانة في عنق الكاتب ومراعاتها ترفع من قدره ، والاعتراف بالمصادر المعتمدة لا يشين أحداً ، والتحلي بهذه الصفة يوفر على رؤساء تحرير المجلات مشقة عظيمة

سؤال

في أحد الاماكن يجري نهر النيل بسرعة ٦٠ متراً في الدقيقة مثلاً ، ألقينا فيه عوامة يحملها بسرعته . وعن بعد الف متر من أمام العوامة والف متر من ورائها أطلقنا في وقت واحد زورقين (الواحد من ناحية مجرى النهر والآخر من الناحية المضادة للمجرى ، أي ان العوامة في وسط المسافة بين الزورقين في حين انطلاقهما) وكلا الزورقين يسير بسرعة واحدة ، مائة متر في الدقيقة ، وكل منهما يقصد الى العوامة . فأيهما يصل اليها قبل الآخر ؟ ما البرهان ؟ « باحث »

بابُ الأخبارِ العلميَّة

التنقيب عن المعادن في الظلمة

تجوب الفيافي الاميركية في هذه الآونة ليلاً ، أفواج من المنقبين لاكتشاف الطبقات السطحية من الصخور . وذلك بمصابيح الأشعة التي فوق البنفسجية وهي تصدر ضياءً أرجوانياً يكاد لا يرى ، متوخين البحث عن مناجم التنغستن وهو أحد الفلزات الضرورية لتقسية الفولاذ اللازم لصنع العتاد الحربي العصري

ولا غرو فالاسعار دائماً ترتفع ارتفاعاً لا ينساه المعدنون ، قياساً على ماحدث في الحرب العالمية السابقة اذ كان ثمن وحدة التنغستن التي تزن عشرين رطلاً انكليزياً ٧ ريالات أميركية ونصف ريال فبلغت حينئذٍ ١٢٨ ريالاً . وهذا هو الباعث الذي يحدو المنقبين على ارتياد انحاء المناجم القديمة الدائر العمل فيها ، وكذلك تفتيش أكوام القمامات والخبث المتخلفة عن مناجم الذهب ، باحثين عن الشذور التي أهملت فيها منذ وضعت تلك الحرب أوزارها وانتهت فورة اسعارها الفجائية

ويزاول المنقبون العصريون أعمالهم ليلاً متذرعين بذرائع حديثة ، لأن معدن التنغستن يعلن عن نفسه بنفسه أمام عيونهم وذلك حينما ينبثق من صمام البلور الصخري البارد المركب في مصباح الاشعة التي فوق البنفسجية ، ضوء ضارب الى الارجواني فيصيب ركاز التنغستن scheelite فيجعله يضيء ضياءً زرقاً أي شديد الزرقة

واذا غسل ركاز التنغستن في القدور رسبت فيها رمال ثقيلة ذات لون أدكن خفيف مصحوبة بالرمل الاسود والعسجد وحجر السيلان . واذا ما سددت الى تلك الرواسب أضواء المصابيح المصنوعة من البلور الصخري تلألأ الرمل تلألؤاً أزرق باهراً ذا نقط شتى ، وهذا هو تراب التنغستن ، فيدرك حينئذٍ المنقبون انهم على وشك العثور على منجمه

ويربي عدد المعادن التي لها هذه المزية الغريبة أي صفة التألق عند تعرضها للاشعة التي فوق البنفسجية ، على ٣٠٠ معدن ، فتشع منها أشعة تختلف ألوانها من الأصفر الشاحب الى الازرق الفاتح . أما ركاز التنغستن فتشع منه عادة أشعة زرق ، قد تتغير أحياناً فتصير صفراً فاتحة أو صفراً قاتمة . وربما يخدع المنقب بألقة زرقاء او صفراء فاتحة لا تلبث ان تزول عند وصوله اليها ، إذ العظايات والضفادع القرناء والحيات وكذلك العظام والاسنان العتيقة تتألق في الدجى

والمعتاد أن المهندس يتوقع العثور على معدن التنغستن وحده حيث يختلط الحجر

الجيري بالجرانيت . وحتى هذه المواضع يعسر الاستدلال عليها . وقد يتعذر ايضاً على خبراء التعدين عند تتبعهم لعرق من عروق الفلزات الجزم بكونه صخراً أو ركازاً . ثم ان نبش أطنان الصخور العقيمة وطحنها يقتضي نفقات باهظة . أما الآن فرئيس المنقبين عن المعادن يكتفي بإمرار مصباحه فوق وجه الممر الأفقي لمنجم فيتبين عرق الركاز فيعلّم عليه فيستطيع عمال التحميص نبذ الصخور التي لا قيمة لها حينما يمرون بها في طريقهم ثم يتعقبون العرق المستمر حيثما يتجه ويتشعب

وفي المطحن يسدّد ملاحظ التعدين مصباحاً من البلور الصخري الى الغرابيل فيتمكن من تقدير مقدار التنغستن الذي في الركاز المسحوق في هزازات[1] الفلزات riffles ثم تمحص أكوام القمامات تمحيصاً مدققاً مما يختلط بها من ركاز التنغستن الجيد الذي تنبذه المطاحن خطأ وذلك بتألقه تألقاً أزرق حين يسدد اليه مصباح الأشعة التي فوق البنفسجية

ومما يجدر ذكره في هذا المقام ان منجماً للذهب في احدى الولايات الغربية الاميركية دار فيه العمل خمسين سنة قبل وصول المنقبين بالأشعة اليه فكشفوا مقادير من التنغستن الجيد ألقاها في القمامة أصحاب المنجم مع انها تقوّم بكل ما أنفقوه في التعدين في تلك الحقبة

وثمة شركة أخرى تولّت حفر الانفاق في جبل من الجبال الاميركية باحثة عن الذهب فأخفقت . بيد انها كشفت عن مقادير من ركاز التنغستن، كانت منبوذة في أكوام القمامة من عهد بعيد . وقد اهتدى المنقبون بهذه الأشعة الخفية الى جزء من أضخم طبقة من طبقات التنغستن ، ظهرت حتى الآن وذلك بطريق المصادفة

وتحرير الخبر ان المستر اوليفر آدمز لقي ذات ليلة فوجاً من المنقبين ينقبون عن معدن التنغستن بالاشعة الخفية في صحراء موجاف Mojave بكليفورنيا وذلك في طبقة سطحية صغيرة من طبقات الارض القريبة من جبل شدو Shadow فأقنع المستر توماس وارن مدير شركة منتجات الاشعة التي فوق البنفسجية ، بأن يصنع له أكبر جهاز من ذلك النوع ليتمكن به من التنقيب عن الفلزات ليلاً في أثناء جوبة الصحراء دون اضطراره الى الوقوف والانحناء. فلبى وارن الطلب إذ صنع مولداً قوياً (مركباً على نقالة) يدور بمحرك صغير بالبنزين . وما ان تسلمته جماعة ادمز حتى قامت به الى جبل شدو وشرعت تنقب في الجانب المقابل لذلك الجبل فشاهدت علامات قوية للفلزات وذلك في منزل الحصباء حيث قام رجلان بنقل المولد الكهربي المحمول على النقالة ؛ ومارس الرجل الثالث ، تسديد الاشعة الى الصخور، فأخذت

(١) حينما يستخرج الركاز من المنجم ، يوضع في سلسلة من المساحق الدوارة تكاد تشبه المطاحن الضخمة لبن فتكسر الركاز كسراً دقيقة . وحينما يتم سحق تلك القطع سحقاً دقيقاً كالرمل ، ترفع من مكانها ثم تنثر على مائدة تهتز اقبالاً وادباراً هزاً عاجلاً فهي إذن — الهزة

تنجلي العلامات رويداً رويداً حتى تكشفت أمامهم شقة كاملة وهي عرق من عروق معدن التنغستن ، يقدر طوله بعدة اقدام

***

فرسم علماء طبقات الارض الخارطات لتلك المنطقة بأجمعها . وهي تبيّن ما فيها من معادن وذلك باستعمال مصابيح الاشعة التي فوق البنفسجية . ولما كان عمل الكشف بالأشعة يجري ليلاً كانوا يغرزون في الارض خابوراً تعلق برأسه خرقة بيضاء ليسهل عليهم الاهتداء نهاراً الى مواقع المناجم . ومما كشفوه موقع عرق معدني يبلغ طوله زهاء نصف ميل وتقدر زنته بملايين الاطنان

وليست مناجم التنغستن وحدها هي التي تستعمل في كشفها انابيب (صمامات) البلور الصخري التي تنبعث منها الاشعة الخفية ، بل تشاركها في هذه المزية بعض مناجم العسجد والغرض من ذلك اجتناب الغرامة التي يستهدف لها أرباب المطحن اذا كان ركاز الذهب المزمع طحنه فيه محتوياً على زنك . وبتوجيه مصباح الاشعة الخفية الى الصخر ، يستطاع تبين الشذور الكبيرة من الهيدروزنكيت ثم الاستيثاق من خلو ركاز الذهب من الشوائب التي تشوبهُ

عوض جندي

قنابل المدافع المضادة للطائرات

من المدافع المضادة للطائرات ما قطره اربع بوصات وعشر البوصة . وهي تثبّت عادة في مواقع حول المرافيء الهامة وأكوام الذخيرة الحربية والاهداف العسكرية الثابتة الاخرى . هذه المدافع تقذف قنابل وزن كل منها ٣٣ رطلاً مسافة ثلاثين الف قدم بمعدل خمس وعشرين قنبلة في الدقيقة

ومنها مدافع قطر المدفع منها ثلاث بوصات وتقذف قنابل زنة الواحدة منها ١٨ رطلاً مسافة عشرين الف قدم وهي مدافع يمكن تنقيلها على مركبات خاصة بها . وفي الوسع اطلاق قنابل هذين النوعين من المدافع مسافة تفوق ثلاثين الف قدم ، وعشرين الف قدم ، على التوالي . ولكن الرماية فوق هذين الارتفاعين تكون غير محكمة . ثم هناك مدافع قطر المدفع منها بوصة ونصف بوصة . ولكنه يطلق ١٢٠ قنبلة في الدقيقة . وتليها المدافع الرشاشة المضادة للطائرات . وهذان النوعان من المدافع يستعملان ضد الطائرات المنخفضة

ومما هو جدير بالذكر ان المدافع التي قطرها ثلاث بوصات تنقل بمركباتها الخاصة بها من مكان الى آخر بسرعة معدلها خمسون ميلاً في الساعة . ولا تنقضي عشر دقائق على وصولها الى الموقع المختار لها حتى تكون قد أعدّت لاطلاق الطلقة الاولى

واذا كان الجو صافياً ورؤية الطائرات المغيرة مستطاعاً ، ودخلت طائرة نطاق مرمى المدفع فان التسديد يكون محكماً والاصابة حاسمة

بريد الحمام او حمام الزاجل في الحرب

تشترك قوة مجنحة مستقلة عن الطائرات، مع جنود الحلفاء في اعباء الدفاع عن بريطانيا العظمى ، اذ تحلق الوف مدربة تدريباً فائقاً من حمام الزاجل ، فوق الخليج الانكليزي ؛ للقيام بالأعمال الحربية في الجانب القابل من ذلك الخليج وتحتفظ البلاد الانكليزية بآلاف أخرى من حمام الزاجل ، اما كاملة التدريب واما ناقصته ، وذلك في « مدارس » خاصة ، انشئت لتعليم تلك الطيور ، الشديدة الذكاء، وإعدادها للمهمة الخطيرة التي تضطلع بها في اثناء الحرب الدائرة رحاها الآن . وقلما يتقه الملأ أن في هذا العصر الراقي ، الحافل بالوسائل العلمية للتراسل — تلك الوسائل العظيمة السرعة وهي التليفون والتلغراف السلكيان واللاسلكيان — يظل ذلك الحمام نافعاً لنقل الرسائل من مكان الى آخر . وما من شك في إنه سيكون جم النفع في الحرب الحالية كما نفع مستخدميه في الحرب الماضية

ومع ثبوت نفع حمام الزاجل من قبل نشوب تلك الحرب بزمن طويل ، كان بعض ثقات الحرب في بريطانيا ، يميل الى الظن ، بأن عصره قد مضى وانقضى، ازاء ما بلغته أسلحة الحرب العصرية ووسائلها من التقدم ، فظهر خطأ اولئك الدعاة ، اذ أسفرت المباحث التي عملت بعد ذلك في خلال الحرب العظمى الماضية ان اكثر من ٩٥ ٪ من الرسائل التي حملها حمام الزاجل ، وصلت الى الجهات المبتغاة سالمة

وكان حمام الزاجل يستخدم حينئذٍ بكثرة لتبادل الرسائل في جيوش الدول المتحاربة عموماً وبلجيكا وألمانيا خصوصاً . وكان لكل من تينك الدولتين ، دائرة حكومية تتولى الاشراف على تنظيم جيش قوي من ذلك الحمام. اما سائر الممالك المحاربة ومنها فرنسا وبريطانيا العظمى ، فلم تقصر في إنشاء مثل تلك المصلحة الحكومية، اقتداءً بغيرها فنهضت بأعمال جليلة . فكانت البحرية البريطانية أول من قدر في سنة ١٩١٤ نفع حمام الزاجل حق قدره إذ أنشأت دائرة حكومية تولت استخدام ذلك الحمام لنقل الرسائل ، فنقل الاخبار من لاقطات الالغام ، التي لم تكن مجهزة بأجهزة للتلغراف اللاسلكي . وقد جمت مئات من الطيور التي دربت لتلك الغاية خاصة من الهواة في جميع ارجاء المملكة البريطانية ونصبت لاجلها التماريد (بروج الحمام) في المراكز الحربية بازاء الساحل الاوربي . ثم اتسع نطاق استخدام حمام الزاجل حتى شمل السلاح البحري الجوي فزودت جميع الطائرات البحرية بطوائف من ذلك الحمام ، فكان سبباً لانقاذ كثيرين من قادتها الذين اضطرتهم الحرب الى الهبوط في البحر على أميال من الشاطىء اذ دلت على مواضعهم تلك الرسل المجنحة

وفي سجلات الحرب الماضية ، تواريخ شتى تبين الخدمات الحربية الجيدة التي أداها هذا الحمام حتى أطلق على حمامة منه اسم (حفظ قادة

الطائرات) وذلك لكثرة من أنقذتهم منهم ، وقد قطعت مرة اكثر من مائتي ميل مع اعتراض العاصفة اياها في طيرانها فسلمت رسالة من طائرة بحرية كانت جانحة عقب مهاجمتها بثلاثة مدافع رشاشة فأسفر عملها عن انقاذ ملاحي تلك الطائرة جميعاً

ومن حمام الزاجل البحري ، ذكر حمام مشهور اسمه الاحمر Red Cock او كريسب السريع حامل وسام فيكتوريا . ومما يروى بشأنه انهُ كان على ظهر زورق من زوارق الصيد اسمه نلسن Nelson حينما هاجته احدى الغواصات الالمانية . وكان ربان ذلك الزورق يسمى كريسب Crisp وقد استمات في مقاتلة تلك الغواصة حتى جرح جرحاً مميتاً وكان آخر عمل عمله ان اطلق تلك الحمامة الذكر وأرسل معها رسالة استغاثة الى أقرب سفينة فسارعت الى نجدة سائر ملاحي نلسن

وكان جزاء الربان كريسب ، ان منح بعد وفاته وسام فيكتوريا ، ثم اشتهرت تلك الحمامة الذكر ، من ذلك الحين باسم كريسب الحائز لوسام فيكتوريا . ولما ماتت ، دفنت في مكان محترم ، في متحف خاص بهوينهول وفي ذلك المتحف تقيم طائفة أخرى من الحمام المشهور بالاعمال المجيدة ، ومنهُ حمامة من حمام الجيش ، كانت مع الكتائب البريطانية المحاربة في منين رود Menin Road في شهر اكتوبر سنة ١٩١٧ فانطلقت في عصر ذات يوم ومعها رسالة مستعجلة . وفي اثناء طيرانها أصابها الاعداء بطلق ناري أسقطها وكسرت ساقها فلبثت تلك الحمامة الصغيرة الشجاعة ، مطروحة على الارض طيلة الليل والمطر ينهمر عليها مدراراً ، حتى تبلج الصباح فاستردت بعض قوتها ثم شرعت في الطيران بصعوبة حتى بلغت مرادها في مقر القيادة وكان على تسعة أميال ، فما استقرت في المراد حتى خارت قواها كلية ، وماتت عقب تسلم الرسالة التي كانت تحملها

وتشهد النصب والمباني التذكارية المقامة لحمام الزاجل في آفاق العالم ، بما له من المآثر . وبلغ من تقدير اليابانيين له في حربهم مع الصينيين حيث اكثروا استخدامه ان انشأوا وساماً خاصاً لتزيين الحمام الذي يمتاز بيسالته وانشأت بريطانيا العظمى في الحرب الحالية مصلحة لحمام الزاجل المستخدم ، ليس في الحرب فحسب ، بل في الدفاع المدني ايضاً ، حيث يستخدم أكثر من مائة الف حمامة

فالحمام بلا شك هو الرسول الكامل الذي يضم الى ذكائه وعدم خطئه في الاتجاه وتجلده ، سرعته الفائقة التي تبلغ اكثر من مائة ميل في الساعة وذلك عند مسايرة الريح له وهو لصغر حجمه يفلت ممن يعمدون الى قنصه بنيران البندقيات . وحتى اذا استخدمت الصقور لصيده لا تنجح في الحيلولة بينه وبين وصوله الى اهدافه التي ينقل اليها الرسائل الحربية المهمة التي لا وسيلة لنقلها اليها غيره

عوض جندي

العلم والتربية في بولونيا المحتلة

عندما خضعت بولونيا للحكم النازي دمر معهد الطبيعة التجريبي في جامعة وارسو ونقلت جميع معداته الى الريخ، واعدم الاستاذ بيالوبرزسكي استاذ الطبيعة النظرية — وكان من العلماء الممتازين — بعد ما بسط الألمان سيطرتهم على العلم والتعليم في بولونيا. وفي جامعة كراكوفيا — وهي من أقدم الجامعات الاوربية — دعي أعضاء هيئة التدريس الى اجتماع يتلقون فيه تفسير مبادىء الوطنية الاشتراكية حيث قيل لهم إن عليهم أن يعرفوا ما هي الوطنية الاشتراكية لكي يعرفوا ما عليهم أن يعلموا. فلما خرجوا من حجرة الاجتماع وجدوا مركبات تنتظرهم في الخارج فنقلوا بها الى المعتقلات في المانيا وكانت التهم التي وجهت اليهم

١ — حاول الاساتذة أن يبدأوا ادراساتهم الجامعية بغير أن ينبئوا السلطات الألمانية

٢ — انهم مضوا في التعليم في معاهد وكليات، وفي امتحان الطلبة بغير أن يستأذنوا في ذلك

٣ — ان جامعة كراكوفيا ما فتئت من خمسة قرون معقل الروح البولوني

ويلوح ان التهمة الأخيرة هي المقصودة

وقد مات ثمانية عشر من الاساتذة في المعتقل الاول ونقل خمسون الى معتقل آخر ليشتغلوا بتكسير الحجارة. والباقون أطلق سراحهم بعد ذلك. وما وقع في كراكوفيا وقع مثله او على نمطه في جامعات فينا وبراج وفرسوفيا وكوبنهاجن واوسلو وبروكسل وليدن واوترخت ولوفان وغيرها: عن «العلم في القيود» للمستر وتشرد جريجوري محرر نايتشر ورئيس مجمع تقدم العلوم البريطاني سابقاً

الحيوانات في المحاكم

من غرائب التاريخ البشري تقديم شتى الحيوانات، ولاسيما الحشرات، الى المحاكمة والحكم عليها وتنفيذ الحكم فيها. ومن اغرب هذه المحاكمات محاكمة جرت في سنة ١٤٩٩ عندما سطا دب على قرى شتارتسفالد فقدم الى المحاكمة وترافع عنه محام فدفع بان الدب يجب ان يتقدم الى محكمين من اقرانه فأجلت المرافعة اكثر من اسبوع للنظر في دفع المحامي

وفي سنة ١٧١٣ رفعت قضية في محكمة كنسية في بلدة بالبرازيل على طائفة من النمل اتهمت بأنها قرضت اساس بعض الحجر وتولى الدفاع عنها محام قدير في مرافعة طويلة وصدر الحكم على النمل وتلي جهاراً وعين احد الرهبان لتنفيذه اي لتدمير قرى النمل

وقد وقف احد مؤرخي القانون — ليون منبريا — ثماني وعشرين صفحة على وصف محاكمة حشرات سطت على كروم سان جوليان بفرنسا في سنة ١٥٤٥ وصدر الحكم عليها في ٨ مايو سنة ١٥٤٦ ولكنها اختفت فلم يستطع تنفيذ الحكم فيها وعادت حشرات من نوعها الى السطو على الكروم في سنة ١٥٨٧ فحوكمت وحكم عليها وانتهت المحاكمة في ٢٠ دسمبر من تلك السنة

الجهاز الرحوي وعلاج السرطان

كان الغرض الأول من الجهاز الرحوي الذي صنعه لورنس في معهد كاليفورنيا التكنولوجي استعماله في بحث الذرة . وكان من نتائجه الاول تحويل طائفة من العناصر غير المشعة عناصر مشعة اي استحداث الاشعاع الذي كان قبلاً صفة طبيعية في العناصر المشعة كالراديوم

وقد افضى استحداث الاشعاع في العناصر غير المشعة الى استعمالها مكان العناصر المشعة كالراديوم في علاج السرطان

ثم تقدمت طريقة العلاج خطوة اخرى فبدلاً من استحداث الاشعاع في عناصر غير مشعة ثم استعمالها في علاج السرطان كما يستعمل الراديوم ، بدأ الاطباء يسددون تيارات من النوترونات منطلقة رأساً من الجهاز الرحوي الى النسيج السرطاني . ومن عهد قريب قرأ الدكتور ستون استاذ العلاج بالاشعة السينية بمدرسة الطب في جامعة كاليفورنيا رسالة في جمعية العلاج بالاشعة السينية أثبت فيها ان ١٢٩ مصاباً بالسرطان تقدموا للعلاج في الفترة التي تشملها هذه الرسالة ، وكانوا جميعاً مصابين بالسرطان اصابة قوية وموتهم محتماً فانتفع منهم واحد وستون وربما شفي بعض هؤلاء شفاء تامًّا

آلة كأنها عاقلة لتبين المجرمين

في قسم المباحث الجنائية في وشنطن عاصمة الولايات المتحدة آلة عجيبة ثبت انها معوان فعَّال لرجال الضبط على كشف المجرمين . ولنفرض ان جماعة من اللصوص سطوا على بنك في مدينة صغيرة في احدى الولايات . وان كل ما يستطيع حارس البنك تذكره من اوصافهم لا يعدو وصف زعيمهم وهو قصير القامة اسمر ايطالي السحنة ويحمل بندقية رش . فترسل هذه الأوصاف الى قسم المباحث الجنائية في وشنطن فيحاول الموظف المختص ان يعلم مَن من الجناة المعروفين الذين دونت اوصافهم واسماؤهم وفعالهم ، يتصف بهذه الاوصاف . فيعمد الى خزانة فيها بطاقات دوّنت على كل منها اوصاف المجرمين . ولكن هذا التدوين ليس مكتوباً كلاماً ، بل هو مطبوع بنظام خاص على قاعدة معينة وهي ثقب ثقب صغير او كبير في مكان معين من البطاقة ليقابل وصفاً خاصًّا . فيأخذ الموظف المختص هذه البطاقات ويضعها في آلة بعدما يضبط مفاتيحها ضبطاً خاصًّا وفقاً لأوصاف زعيم اللصوص ، فتستخرج الآلة من تلقاء نفسها بطاقات الشخص او الاشخاص المتصفين بهذه الاوصاف التي اوردها حارس البنك . فتؤخذ وترسل الى ادارة البوليس في المدينة التي وقع فيها السطو وتعرض على الحارس للتعرف عليها ثم تطبع نسخ منها وتوزّع

مرض بارلو وعصير البرتقال

أصيب طفل لدن العود بمرض أشهر أعراضه أن البشرة أصبحت شديدة الحس لا تستطيع أن تمسها بشيء مهما يكن المس لطيفاً بغير أن يتألم الطفل ألماً شديداً وصحب ذلك ورم في مفاصل الركبتين والكوعين وغيرها . ولم يكن نادراً أن تنفجر بعض الاوعية الدموية في الجلد ويتعذر نقل الطفل من سرير الى سرير من دون أن يبكيه الألم بكاء مُرًّا . فاستدعي طبيب جرّاح لفحص الطفل لأن الاسرة كانت في مصيف وكان من المتعذر الفوز بعناية طبيب مختص بامراض الأطفال . ففحصهُ فحصاً دقيقاً ولكنهُ لم يستطع تشخيص المرض لانقطاعه للجراحة . فوصف بعض العلاجات العامة ووعد الوالدة خيراً بزيارة طبيب من أصدقائه متوفر على أمراض الأطفال . وعاد الى داره فوجد صديقهُ قد أرسل اليه أحدث مؤلف في أمراض الأطفال فاقبل عليه يتصفحهُ لعله يرى فيه ما يمكنهُ من شفاء هذا الطفل المنكود. واذا به امام عنوان «مرض بارلو» وكانت اعراضه كالأعراض التي اصيب بها هذا الطفل . ثم قرأ ان عصير البرتقال شرباً هو العلاج الوحيد . فعالج الطفل بعصير البرتقال سقياً مدى عشرة أيام ظهرت في نهايتها آثار التحسن في حالته، فخف الورم في مفاصله وعادت بشرته الى حالتها الطبيعة . وعندما وصل الطبيب المختص الى ذلك المصيف كان الطفل قد تماثل الى الشفاء

الحديد في لبن البقر

جرب الدكتور لويل ارف Erf احد اساتذة جامعة كليفورنيا تجارب دقيقة بطعام البقر اسفرت عن حقيقة غريبة وهي ان الحديد الذي يدخل في طعام بقرة ما، تظهر آثاره في لبنها بعد انقضاء خمس دقائق على تناولها الطعام. وهذا مخالف للرأي السابق وهو ان تمثيل الخلايا التي تولد اللبن في ضروع البقرة، للحديد الذي في الطعام يستغرق وقتاً طويلاً

وقد استعمل الدكتور ارف في تجاربه طعاماً يحتوي على حديد مشع، فاستطاع ان يتبين هذا الحديد المشع في لبن البقرة بالمطياف . وقد يقال ان الحديد فلز غير مشع . وهو كذلك . ولكن العلماء اثبتوا خلال السنوات الاخيرة ، انهُ في الوسع تحويل عناصر غير مشعة الى عناصر مشعة بالجهاز الرحوي . والعناصر التي يستحدث فيها الاشعاع لا تبقى مشعة زمناً طويلاً كالراديوم بل تبقى مشعة أمداً قصيراً يتفاوت من ثوان ودقائق الى ساعات وأيام . ولذلك رحب العلماء والاطباء بطريقة استحداث الاشعاع لأنها تضع بين أيدي الأطباء مواد مشعة للعلاج تفوق الراديوم من نواح شتى وهي ارخص منهُ كثيراً على كل حال

ويظن ان سرعة تمثيل الحديد في الطعام أي اعداد الطعام للهضم والتمثيل يتم بفعل تخميري (انزيمي) لم يكن معروفاً من قبل

الفيتامين والنبات

انا نستمدّ انواع الفيتامين من النبات . فن أين يستمدها النبات ؟ انهُ يصنعها من الماء والمعادن التي يمتصها من التراب والغازات التي في الهواء . وقد عجز العلماء حتى الآن عن مجاراة النبات في هذا . فانواع الفيتامين التي صنعوها بالتأليف الكيميائي ، انما يصنعونها من مواد مركبة معقدة لا من مواد بسيطة

والنبات يحتاج الى الفيتامين حاجتنا اليه. فاذا عجز نباتٌ ما عن تركيب الفيتامين أصيب كالانسان بامراض تظهر في ضمور ثمره وضعف جذوره . فاذا عجز نباتٌ ما مثلاً عن تركيب الحامض النكوتينيك (وهو احد فيتامينات B) وخزنه أصيبت جذوره بأعراض يصحُّ ان توصف بيلاجرا الجذور قياساً على بلاجرا البشر

السلفاديازين وعلاج الحروق

اثبتت التجارب الطبية والتطبيق العملي في اثناء هذه الحرب ان رش الحروق بعقار السلفاديازين (وهو احد مشتقات السلفانيلاميد) افعل وسيلة في علاج الحروق . وقد روى الدكتور كنث بككرل احد اطباء جامعة جونز هبكنز ان مائة واربعة عشر مصاباً بحروق كبيرة عولجوا بهذه الطريقة فاصابوا الشفاء العاجل

وقد صرّح جراحو مستشفى جامعة جونز هبكنز بان شفاء الحروق بهذه الطريقة أسرع من شفائها بكل طريقة أخرى معروفة

وبعضهم يعتقد أن العلاج بالسلفاديازين سيحدث انقلاباً كبيراً في معالجة الحروق ويفضي الى الاستغناء عن عملية الترقيع

ولم يحدث التهاب ما في مائة مصاب بحروق من الدرجة الثانية بعد معالجتهم بالسلفاديازين . وهذه الطريقة في العلاج لا تقتضي غسل مكان الحرق وتنظيفه قبل علاجه. ثم ان هذا العقار يخفّف الألم فيفيدُ مفيدَ مخدر كذلك

وزن البيضة ووزن الطائر

تبيض النعامة بيضة يفوق وزنها وزن بيضة الدجاجة عشرين ضعفاً . ولكن وزن النعامة يفوق على المعدل وزن الدجاجة من أربعين الى خمسين ضعفاً . والواقع إن وزن البيضة بالقياس الى وزن الطائر الذي يبيضها يقلُّ كلما زاد وزن الطائر

فالطائر الطنّان يبيض بيضة يبلغ وزنها ١٥ في المائة من وزنه والسمان يبيض بيضة وزنها ٩ في المائة من وزنه والاوزة تبيض بيضة وزنها ٤ في المائة من وزنها. وبيضة النعامة لا تزيد وزنها على ١ر٦ في المائة من وزن النعامة

النوترونات والصفات الوراثية

أية صلة هناك بين النوترونات - وهي الدقائق المادية غير المكهربة التي تدخل في بناء نوى الذرات — وبين الصفات الوراثية؟

إن قراء المقتطف يعلمون أن الاشعة السينية تؤثر في عقود الصبغيات فتحدث فيها تحولات فجائيـة mutations تورث وقد أثبت ذلك الاستاذ ملر من خمس عشرة سنة تقريباً واقتفاه علماء آخرون فأيدوا النتائج التي أسفر عنها بحثه في ذباب الدروسوفيلا

وقد اطلعنا الآن في مجلة «خلاصة العلم» على تجربة جربها الدكتور دمستر Dempster — وهو أحد كبار الباحثين في مسائل الذرة بمعهد كاليفورنيا التكنولوجي — بذباب الفاكهة كذلك. ولكن بدلاً من أن يعرضها لتيار من الاشعة السينية عرضها لتيار من النوترونات بعد ما قذفها بسرعة عظيمة من الجهاز الرحوي (السيكلوترون). وبعد ما عرض ذكور الذبابات لهذه التيارات زاوجها بأناث لم تعرض لها وراقب نسلها لعله يستكشف فيه تحولات فجائية. فلم يكذب ظنه ووجد أن النوترونات المسددة الى الذباب على الوجه المتقدم ، أفعل من الاشعة السينية في احداث أصناف خاصة من التحولات الفجائية

اضرار الإضاءة في اثناء الغارات

أجرى الالمان تجارب غرضها معرفة البعد الذي تتبين منه الطائرات البريطانية المغيرة ضوءاً ما في مدينة مظلمة فوجدوا ان ضوء عود ثقاب مشعل يُرى على بعد نصف ميل او اكثر قليلاً وضوء مصباح اسطبل يرى على بعد ميل وربع ميل والضوء الذي يشع من نافذة غرفة اضيئت جميع مصابيحها يرى على بعد اثني عشر ميلاً ونصف ميل وفي هذا عبرة للمعتبرين

جهاز يتبين أشعة الراديوم

صنع الدكتور شوب أحد علماء شركة « وستنغهوس » الكهربية جهازاً يستطيع ان يتبين به أشعة الراديوم ولو كانت منبثقة من دقيقة راديوم لا يزيد وزنها على جزء من الف مليون مليون جزء من الأوقية والجهاز مبني على مبدإ المطياف

نقص فيتامين C

يفضي نقص فيتامين C في الطعام الى آلام في المفاصل تشبه آلام الروماتزم والى بطء في اندمال الجروح والى نزف اللثة

سعة عربات سكك الحديد

تتسع عربات الركاب والنوم المستعملة على خطوط سكك الحديد الاميركية لنحو مليونين من الركاب في وقت واحد



مكتبة المقتطف

سوء تفاهم

١٢٤ صفحة من القطع الوسط ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

أخذت القصة في الأدب العربي مكانها منذ سنوات ، وشق الطريق لها قادتها ثم عبدوها فأصبح هذا اللون الجديد من الأدب محبباً الى القراء في الاقطار العربية . وكان هؤلاء القادة في أول الأمر يضعون نصب أعينهم تصوير كل بيئة من بيئاتهم المحلية ليكتسب هذا الفنّ الصبغة القومية حتى اذا تمت لهم الغاية واستوت القصة على قدميها وخطت خطواتها الواسعة بدا الأفق لهم أرحب والمجال أوسع ، فتقدموا يلجون النفس البشرية ويتلمسون ما وراء الاحاسيس والنبضات من معانٍ تتفتح للذهن المستيقظ وتتكشف للعين البصيرة النفاذة فاذا ألوان القصة تتعدد وفي تعددها قوة ، واذا هذا الفن الحديث في أدبنا العربي ينهض نهضة أخرى واذا هو يستوي مع مثيله من آداب الأمم الأخرى — ولا مغالاة في ذلك الآن — جنباً الى جنب

أحسُّ هذا وأنا أقرأ لوناً جديداً في القصة العربية يضفيه عليها الدكتور بشر فارس ؛ ولقد ظهر هذا اللون أولاً في مسرحيته «مفرق الطريق» ثم في هذه المجموعة الجديدة التي أخرجها بعنوان «سوء تفاهم» وقد يكون هذا اللون في المسرحية الاولى كثير الغموض على قرائه ، لأنهُ كان طريفاً . الا انه في هذه المجموعة الجديدة قد بدأ يتكشف شيئاً فشيئاً لأن المؤلف عالج به موضوعه الاول فتمكن منهُ ، ثم ان رحابة الميدان الذي عالج فيهِ موضوعاته الأخيرة، وتعدُّد الصور وتوزُّع الاضواء وتنوعها، بدَّدت شيئاً كثيراً من الغموض وكشفت كثيراً من سرّ هذا اللون الجديد

ثم ان هذا اللون الذي يقدمهُ الدكتور بشر فارس في القصة لونٌ غريب على القارىء العربي الذي يريد من القصة أن تكون سبباً للتسلية أو سدًّا الفراغ من الزمن أو سرداً لحوادث دون أن يثير في فكره شرارة يبصر بها ما وراء المحسوس من بارقة تومض للكاتب . . .

ولكن هذا اللون على غرابته غذاء للقارىء المتبصر وهو غذاء للقارىء العادي اذا قرأه لذاته وتأمل الغاية التي قصد اليها الكاتب بين منعطفات السطور وبين انفراجات الكلام وفي الصدى الذي ينبعث من وراء صوته

فالقصة في مذهب بشر بعيدة عن أن تكون تسلية وبعيد عن قارئه أن يجد الراحة الذهنية وهو يقرأ فلا بدّ أن يقرأ بفكره كما يقرأ بعواطفه ليحسّ الاحساس الذي أحسه المؤلف وليشاركه في تقصّي مجاهل النفس البشرية. بعيد على القارىء هذا كما هو بعيد عن المؤلف أن يلجأ الى اراحة قارئه لأنه اقتطع قصته من صدر الحياة فكابد من أجل هذا ما كابد

وان الحياة لحافلة بشتى الصور والأحداث، ولعل وراء أتفه الحوادث مادة رائعة يتلمسها القاص فاذا تبينها بحسه المرهف ومض ذهنه ومضاً يكشف لقارئه نواحي من هذه الحياة قد لا يستطيع تبينها لولاه. لهذا سيجد قراء هذه المجموعة تناولاً رائعاً لحوادث كانوا لا يظنون أن وراءها مادة لقصة وسيلمحون الحياة أمامهم صادقة لأن الصورة التي رسمت لها صادقة

وهل هناك ما هو أصدق في تصوير الحياة من صورة « مبروك » ذلك الطفل البائس الذي تمنعه الأقدار أن يشتهي ما يشتهي غيره وان تضنّ عليه بأيسر ما تجود به على أناس كثيرين. هذه قصة انسانية صادقة الاحساس والتصوير تتمثل فيها الآلام مجتمعة بالبؤس تذرب نطاقها حول مخلوق من المخلوقات التي نسيتها الحياة في عرض طريقها. وكأن هذه الحياة لا تنبض في عروقها نابضة منها. هي قصة تذكرنا بالروعة التي نحسها في الأدب الروسي من الصدق والبساطة — البساطة التي هي في لون زرقة السماء وقد طوت أعمق الاسرار

وتشترك مع هذه القصة في صدقها قصة « طبق فول » وما تصور من سخرية المصادفات وأثرها في حياة بيت هادىء وشيخ هادىء فترفع الستار عن محنة قاسية ... كما تشترك معها في ذلك قصة « السفينة » وهي تنتقل بنا : في طوايا نفس تحيا بين ألم وأمل، بين حب وشقاء، هي نفس فتاة تحمل في ضوء القمر على اجتاز زورق « بل اوفر » من الصوف لحبيبها الذي يغضب لتأخرها في زرده، غير أن أباها يشفق عليها ويشجعها على العمل املاً في ان يكون من وراء بيع هذا « البل اوفر » ما يدفع الشقاء الذي يحيط به. والفتاة ترى كلا الرجلين — حبيبها وأبيها — لا يفكر كل منهما الا في نفسه

وهناك قصة سماها المؤلف « قصة مشكل » هي من أروع قصص الكتاب لأنها قد تكون حنية مقتطعة من صدر المؤلف لا من صدر الحياة عامة وهي انطلاق الى ما وراء شعور المرأة وتعمق في خفايا اسرارها وكشف عن كثير منها... فتاة تجد لوناً غريباً من الحب.. وقد عرفت من ألوانه أن الرجل يريد ان يهبط بالمرأة من سمائها الى ارضه فترى في اللون الغريب رجلاً يريد

أن يرتفع بها من مستواها الى ما لا تستطيع عيناها التحديق فيه فيزوغ بصرها وبين القطيعة والهجران تحس الألم وتحس الضعة وتريد أن تعود اليها أجنحتها لتستطيع التحليق مع الرجل فتجد الوحدة قد كبّلتها بقيودها

أما القصص الموسومة بعناوين: «قيثار مغترب» و«خريف» و«امرأة» و«ناس» و«يقال قصة» فهي جسّات رقيقة أو لمحات خاطفة من سرٍّ منطوٍ في أعماق نفس، هي كالدمعة من الباكي تنسيك حادثة لتذكرك بحادثك او بالدفين في نفسك من شعور غامض وألم مكبوت

واما قصة «رجل» التي نشرت في عدد فبراير الماضي من هذه المجلة فهي عصارة الفكر البشري صبّها الدكتور بشر في كأس «نيتشه»

أما قصتا «هلك النهار!» و«قصة امّة» فقد عالج فيهما المؤلف المجتمع الانساني العام في أمتين على ضوء نفسين، احداها تعيش في مدينة التاريخ المصري الغابر، في الاقصر، ولكنها تعيش في عالم منطو عليها يتجدد فيه النهار ولكنها لا تتجدد ولا تتغير، والاخرى تعيش في قرية من قرى فرنسا تصوّر اليأس والألم ينشران ظلهما على نفس كان يشيع فيها النور والحرية والسرور. ولقد ذيل المؤلف مجموعته ببحث طريف في العلاقة بين المرأة والفنان وهو في الحقيقة مادة لقصة ان لم يكن مادة لقصص عدة

هذه هي المجموعة الجديدة التي أخرجها الدكتور بشر فارس، وهذا ما احتوت عليه. فأما الاسلوب فهو الاسلوب الذي عرف به المؤلف في مسرحيته «مفرق الطريق». على ان مادة السخرية التي يغمس فيها الكاتب ريشته — وهي منبثة بين السطور — هي من النوع الذي لا يقصد به السخرية لذاتها ولكن لتبيين ما وراءها من تناقض في النفس واعوجاج في المجتمع

حسن كامل الصيرفي

ظواهر حجرة تحضير الأرواح

تأليف الدكتور ادوين فردريك بوزز — ترجمة الاستاذ احمد فهمي ابو الخير — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — صفحاته ٣٥٢ قطع المقتطف

نشكر للاستاذ احمد فهمي ابو الخير اتحافنا بهذا الكتاب، وتخصيصه جانباً من مقدمته لـ «مجلة المقتطف والروحية» ونحن نشكر له هذا لأنه يتيح لنا ان نجمل موقف المقتطف في مسائل الارواح ومناجاتها وتحضيرها مرة اخرى لأن المؤلف مع تعرضه لكتاب «رسائل الارواح» لم يشر الى مقدمته. واننا لنؤكد له أن «لا خبثَ» في تقريرنا هذا كما لمَّح في الصفحة ٥ من مقدمته

١ — ان تاريخ العلم حافلٌ بأمثلة كثيرة تدل على ان الحقائق او الآراء الجديدة في العلم كثيراً ما تقابل بالاعراض والشك اولاً. فمكتشفات غاليليو كانت موضع الانتقاد والمحاكة وأبى اساتذة العلوم ان ينظروا بنظارته الى الاجرام السموية لأنهم كانوا يعتقدون ان ما يرونهُ بها وهمٌ في وهم. وقد نبذت الجمعية الملكية رسالة جول الاولى في حركة دقائق المادة. والأمثلة كثيرة. وقد يكون الإعراض ناشئاً عن ضعف الدليل، او عن معارضة الرأي الجديد لرأي قديم راسخ، او لأنه مخالف للمألوف او لما يبدو معقولاً

٢ — اصطلح العلماء على اساليب للتحقيق والتمحيص اطلقوا عليها في مجملها «الاسلوب العلمي» ومن اشهرها ان التسليم بحقيقة علمية ما اثبتت صحتَها تجربةٌ معينة، يقتضي ان يكون في وسع العلماء ان يعيدوا هذه التجربة، في الاحوال التي جربت فيها اولاً، وان يفوزوا بالنتيجة نفسها بغير تمييز سواءٌ أمؤمناً كان المجرب ام كافراً. وسواءٌ أفي انكلترا أجرى التجربة ام في مصر. وسواءٌ أفي القرن التاسع عشر كان موعد تجريبها ام في القرن العشرين

٣ — كشفت وسائل جديدة للبحث كالاشعة السينيــة والطياف والمجهر الكهربي ففتحت أمام العلم آفاقاً جديدة وأماطت اللثام عن حقائق كانت قبل ذلك خفية، ولو قال أحد بهذه الحقائق قبلاً لقيل إنها من بنات الخيال

فالريب طبيعي في العلم الى ان ينهض الدليل. ولذلك يشتد ريب العلماء بوجه عام — وان كان بينهم من يجمع بين المقام العالي في العلم والايمان بتحضير الارواح — في مسائل تحضير الارواح. ومرجع ريبهم الى مسألتين: الاولى ان ما يزعمه رجال تحضير الأرواح مخالف لاختبار البشر خلال عصور طويلة، كالقول باستحضار أجسام مادية من مكان بعيد، أو قطف اثمار من الهواء. والناس ميالون بالطبع الى القول بأنهُ لو صح لكان حريًّا بأن يدرّ على أصحابه ثروة كبيرة وينفحهم قوة عظيمة، ولكن الوسطاء على الغالب من أهل الفاقة والضعة

أما الثانية فهو ان الادلة التي أقامها اصحاب تحضير الارواح، لم تقرها دوائر العلماء والمجامع العلمية، على الرغم من ان بعضها ألبس ثوب العلم والاشعة وتحول المادة الى طاقة وهلم جرًّا. فهذه التجارب التي يجرونها لاثبات ما يقولون، انما تجري في أحوال خاصة وغالباً ما تكون محوطة بالغموض وأحياناً يخالطها خداع، ولا نعلم انهُ ثبت ان كل من شاء يستطيع ان يجري احدى هذه التجارب في احوال معروفة خاضعة للتمحيص العلمي ويحصل على النتيجة نفسها

ومع ذلك فالعلم الحديث لا ينفي ولا يجوز لهُ أن ينفي الأرواح واستحضارها، لأنَّ النفي يقتضي أن يكون العلم محيطاً بكل شيء، ولكن العلم لا يزعم هذا الزعم بل ان أكبر العلماء يقولون إن نطاق المعروف بحسب الأساليب العلمية ليس الا جزءًا يسيراً من خضم المجهول. واذا قال

عالم — أو من يدعي العلم — إن العلم ينفي الأرواح ، فهو ليس بالعالم إذ كيف يستطيع أن ينفي ما يجهل . وقد تخترع أو تكتشف أساليب جديدة للبحث تحقق ما يقال فيها

وكل ما يستطيع العالم أن يقوله ، هو أن معظم أقوال « أصحاب الروحية » لم يقم عليه دليل علمي كما تفهم الدليل العلمي . فهو لا ينفي «الارواح» وانما ينفي انهُ قام دليل علمي على صحتها . وأن يقول الدكتور بورز مثلاً قولاً ما ، وأنه ثبت له ، لا يكفي حتى يستطيع عشرات غير الدكتور بورز تمحيص قول الدكتور وتأييدها في أحوال خاضعة للتدقيق العلمي

وليس هذا الموقف ماديًا . فقد يقول العالم ، أنا لا أنفي الارواح اذ ليس من حقي أن أنفي شيئًا لا اعرفهُ ، وانما أنفي انهُ قام — حتى الآن — دليل علمي على صحة ما يقال فيها ، ومع ذلك فيّ ميل قوي الى الايمان بصحتها . وليس في الجمع بين هذه العناصر الثلاثة تناقض ما هذا هو الموقف كما نراه

وليس عندنا شك في أنهُ لو نقل الى ادارة السينتفك أميركان ما يقوله الاستاذ فهمي عنها لعرفت أن ترد عليه . فقد تؤخذ على بعض التجارب التي أجريت في ادارتها وتحت اشراف الرجال الذين اختارتهم ، مآخذ ، ولكننا لا نظن انهُ يجوز ان تتهم السينتفك اميركان بمثل هذه السهولة بسوء النية على نحو ما جاء عنها صفحة ٤ و ٥

ولعلَّ أغرب أقوال الاستاذ : «تفنَّن خصوم الروحية تفنناً عجيباً في نشر آرائهم ودعاويهم الباطلة ووجدوا من الصحف صدراً رحباً لم يتسع الاتساع الكافي للمؤيدين كما اتسع للخصوم المعارضين . . . »

وهو غريب لأن المسألة ليست مسألة دعاية لرأي سياسي يستكثر أنصاره بالنشر في الصحف. ولو كان الرأي خاطئاً واتسع صدر الصحف للنشر عنهُ وكثر انصاره بسبب هذا النشر، لاستطار ضرر الرأي ، ولكانت الصحف مشاركة في تحمل هذه التبعة الكبيرة . ومع ذلك نذكر ان احدى الصحف المصرية على الاقل افسحت صدرها اسابيع متوالية لكتابات المؤلف

على ان المسألة لا تحسم بالكتابة في الصحف ، بل في معامل البحث . بل نذهب الى أبعد من ذلك ونقول إن الحكومة يجب ان تحظر النشر عن بعض نواحيها ، او معالجة بعض مسائلها بغير ضابط لأن هذا النشر وهذه المعالجة قد يفضيان الى ضرر مادي يجب اتقاؤه

وأغرب من هذا ان المؤلف نقل كلمة ختمنا بها مقالاً عن السر اوليفر لودج ، جاء في آخرها «فاذا شئت ان تكتفي بما تثبتهُ الوسائل العلمية المعروفة ، والامتحانات والتجارب التي قام بها رجال منزهون عن الهوى استطعت ان تقول ان مخاطبة الأرواح لم تثبت بعد، ولكن ليس في العلم ما ينفيها لأن العلم لا يستطيع ان ينفي الا اذا أحاط بكل شيء واستقرأه استقراءً

شاملاً. واذا شئت ان تنظر نظراً فلسفيًّا فلك ان تعتقد مع السر اوليفر لودج انهُ رغم الخداع والانخداع اللذين يخالطان اعمال الوسطاء، يقتضي اتساق النظرة العلمية الفلسفية التي بسطناها، بقاء الشخصية بعد انحلال الجسم المادي ودوام تأثيرها في الأثير المالئ رحاب الكون »

والنظرة العلمية الفلسفية المقصودة بهذه العبارة هي نظرة لودج وكنا بسطناها في الفقرات السابقة . ومع ذلك قال المؤلف تعليقاً على هذه العبارة « وظاهر ان الاستاذ الفاضل محرر المقتطف يريد بمخاطبة الارواح التي يقرها العلم تلك المخاطبة التي تتم بوسيلة آلية بحتة دون ان يكون للوسطاء دخل البتة »

ولا يذكر محرر المقتطف أنهُ قال هذا القول

حياة مي

٩٦ صفحة من قطع المقتطف ، طبع بمطبعة هذه المجلة

أدّت هذه المجلة واجب الوفاء الى فقيدة الأدب والشرق « مي » خير تأدية ، ولا شك في أنها حملت اكبر قسط من هذا الواجب بين الصحف العربية ، ومي جديرة بذلك وبأ كثر من ذلك . فلقد طالع القراء في عدد يناير من هذه السنة تلك الاحاديث النفيسة التي ظفر بها الاستاذ محمد عبد الغني حسن من طائفة من قادة الفكر في مصر ممن اتصلوا بالفقيدة واطلعوا على جوانب من عظمة شخصيتها فكانت إجاباتهم كشفاً لهذه الجوانب وايضاحاً لكثير مما ينير السبيل امام من يتقدم لدرس ميّ والكتابة عنها . وحياتها خليقة بالدرس وأدبها جدير بالتحليل

ولقد أراد الاستاذ عبد الغني ، بعد ان أدى ما كلفته هذه المجلة ، ان ينهض بالواجب عليه نحو «مي» فوضع دراسة مستقلة قدم بها الأحاديث التي نشرت في المقتطف وأخرجها كتاباً قائماً بذاته تناول فيه (ميًّا) على ضوء مؤلفاتها فوصف شرقيتها التي حافظت عليها بالرغم من رحلاتها واطلاعها على الآداب الغربية واتصالها بالغربيين والغربيات ، كما أبان نمو الفكرة العالمية في نفسها وفي أدبها ، وانتقل الى حب مي للغة العربية ودفاعها عنها ، وتكلم عن أسلوبها وعنها خطيبةً ومحاضرة وشاعرة وعن حبها للموسيقى وشغفها بها ، ثم انتقل الى الكلام عن أثرها في النهضة النسائية وعن منتداها وأشار الى من اشتهر من النساء في تاريخ العرب ممن كن يشتركن مع الرجال في مجالس الادب والعلم في الجاهلية وفي الاسلام

وقد بدأ المؤلف كتابه بكلمة موجزة في حياة مي نرجو ان يتاح له التوسع فيها لينير للقراء جوانب هذه الشخصية البارزة في تاريخ الأدب العربي الحديث ، فهي بحق جديرة بأن تخصص لحياتها دراسات وبحوث

الصيرفي

الراعي والرعية

شرح عهد الامام علي الى مالك الاشتر حين ولاه مصر — تأليف توفيق الفكيكي — طبع بمطبعة الغري بالنجف في جزءين كبيرين

من المعروف في كثير من كتب التاريخ ان الامام عليًّا كرم الله وجهه بعث بعهد منه الى مالك الأشتر حين ولاه مصر. ويُعَدُّ هذا العهد دستوراً سياسيًّا للحكم الصالح وقانوناً لما يجب ان يكون عليه الحكام نحو المحكومين

وقد تناول جماعة من العلماء هذا العهد بالشرح والتعليق والترجمة والنظم

فالامام الشيخ محمد عبده شرحه في كتابه « مقتبس السياسة » الذي طبع في حياته سنة ١٣١٧ هـ . كما شرحهُ من أفاضل العلماء السيد الماجد البحراني في خلال القرن الحادي عشر الهجري وسماهُ « التحفة السليمانية » وطبعهُ في مدينة طهران . وشرحه سلطان محمد المتوفى سنة ١٣٥٤ هـ . وسماهُ « أساس السياسة في تأسيس الرياسة ». وشرحهُ الحسين الهمداني وسماهُ « هدية الحسام لهداية الحكام » . وترجمهُ الى اللغة الفارسية نظماً الوقاري الوصال الشاعر الشيرازي المتوفى سنة ١٢٧٤ هـ — كما ترجمهُ الى اللغة التركية نظماً الشاعر محمد جلال الدين

وقد سلك كل واحد من شرّاح هذا العهد طريقاً خاصة بهِ ، الى ان اتاح الله له العالم العراقي الجليل السيد توفيق الفكيكي فتناوله بالشرح الوافي والتعليق المستفيض مستضيئاً بضوء القوانين الحديثة والنظريات العلمية المختلفة في السياسة والادارة والقضاء والاقتصاد والاجتماع وغيرها

ومما مكن للسيد توفيق الفكيكي اجادة الشرح واصابة التعليق انهُ هو نفسه من أساتذة القانون في العراق ، وانه درس من نظم الحكومات ما أعانه على تبسيط شرح العهد وتقديمه الى قراء العربية مجلوًّا في ثوب من التحقيق العلمي الحديث

وفضيلة السيد الفكيكي في شرحه لعهد علي ، تظهر في انهُ جمع مزايا العهد على قواعد من ضوء العلم الحديث فاستطاع بذلك ان يقدمه الى رجال الحكم والادارة والقضاء والاجتماع دستوراً حكوميًّا لا يقل في تساميه وفي بعد مراميه وفي صحة نظرياته عن أحدث الدساتير الحكومية عهداً

وتظهر في هذا الكتاب النفيس آثار دراسات المؤلف الواسعة . فهو لم يقنع بأن يكون شارحاً لغامض اللفظ أو غريب اللغة كما يصنع كثيرون من شراح الآثار الأدبية العربية ولو فعل هذا لما خرج كتابه عن ان يكون تفسيراً لغويًّا أو شرحاً أدبيًّا لأثر من آثار الخليفة الرابع من خلفاء المسلمين . ولكنهُ — أحسن الله اليهِ — قرأ العهد قراءة الفاحص المدقق ،

وفهمه فهم الذكي الفطن وطبق ما فيه من أصول الحكم وسياسة الدول على ما يعرف من قواعدها في العصر الحديث . فاذا بالكتاب يخرج على نسق من التحقيق يسر كل قارىء عربي

وطريقة المؤلف في الشرح ان يسوق الاصل من عهد الامام علي في رأس الموضوع ، ثم يمهد له تمهيداً مناسباً . ويفيض بعد ذلك في الشرح وايراد النظريات المختلفة والمبادىء المتنوعة مستعيناً في ذلك برأي فيلسوف أو نظرية عالم ، او اجتهاد مجتهد أو حكمة شاعر

وفي كل صفحة من صفحات هذا الكتاب تظهر ثقافة المؤلف الواسعة واطلاعه الجم والمامهُ بكثير من مسائل الفلسفة والاجتماع والقانون فهو يستشهد بأقوال الكثيرين من الكتّاب والفلاسفة أمثال ولز وجستاف لوبون وابن خلدون وابن مسكويه وفلاسفة اليونان

وهو في كثير من مواضع الكتاب يوازن بين القانون في بلد وبلد ، والدستور في أمة وأمة، وبذلك يستطيع قارىء كتابه أن يلم باساليب الحكم في كثير من البلدان في العصر الحديث ويعرف بعض أوجه الخلاف في تفسير القوانين. ولاشك في أن السيد توفيق الفكيكي بذل في هذا السبيل جهداً مضنياً ، يشهد بذلك الثبت الذي في ذيل كتابه وهو يحتوي أسماء المراجع التي رجع اليها والمصادر التي اعتمد عليها

ونظرة واحدة الى ثبت المراجع تدل على اختلاف الموضوعات التي عالجها المؤلف في أثناء شرحه لعهد علي فقد قاربت مراجعه السبعين كتاباً أغلبها في الدساتير ونظم الحكومات والنظريات السياسية وكثير في الاجتماع والتاريخ والأدب واللغة

محمد عبد الغني حسن

ديوان ابي تمام

ظلّ ديوان ابي تمام على قدره العظيم بين شعراء العربية بعد طبعاته السابقة عزيزاً على الادباء نادر الوجود في المكتبات حتى اتاح الله له اخيراً الناشر المعروف محمد افندي صبيح فأخرج طبعة جديدة له فيسرت للادباء هذا الكنز العظيم وحققت رغبة كانت تختلج في الصدور وهي جديرة بالثناء ، وقد طلب الناشر من الاستاذين عبد الحميد يونس عضو لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية وعبد الفتاح مصطفى المدرس بمدرسة قليوب الأميرية تقديم هذا الديوان فوضعا له مقدمة نفيسة في حياة ابي تمام ومكانته في الادب رجعا فيها الى مصادر متعددة فجاءت مقدمة تحليلية جديرة بالاطلاع

ولعلّ النجاح الذي نرجو ان يصيبه الناشر ، يحفزه ويحفز غيره من الناشرين الى اخراج طائفة من دواوين كثيرة لم يتح لجمهرة الادباء الحصول عليها

فهرس الجزء الرابع

من المجلد المائة

٣٠٩ اساطين العلم الحديث : وليم براغ { ١ — اصول علم البلورات الحديث ٢ — براغ وبحث الذرة ٣ — اتآلف البلوري بالاشعة }

٣١٨ روزفلت وهتلر : مقابلة

٣٢٥ غزاة قارتين يلقون حتفهم في البرازيل

٣٣٠ صفائح على قبور : لراجي الراعي

٣٣٢ المتخصص الاجتماعي في معركة الاصلاح : لمحمد العشماوي بك

٣٣٧ الحرب وأخلاط الفلزات

٣٤١ الحيوان في كتاب الإمتاع والمؤانسة : للاب انستاس ماري الكرملي

٣٤٨ فوق الحياة ! ! (قصيدة) لعبد الرحمن الخميسي

٣٥٠ الأمراض العصبية ومرضى النفوس : للدكتور ابراهيم ناجي

٣٥٧ الضحية : (تمثيلية) نقلها عن الصينية ابراهيم سيونغ

٣٦٥ حالات ضغط الدم

٣٦٧ العرب والتفكير العلمي : لقدري حافظ طوقان

٣٧٣ حديقة المقتطف * مدرسة تاجور : لمحمود النجوري

٣٨٤ باب الزراعة والاقتصاد * تنمية الثروة الحيوانية الزراعية : لعبد القادر الجمال باشا
النباتيون المشهورون وما يرمز به اليهم : لمحمود مصطفى الدمياطي

٣٩٢ باب المراسلة والمناظرة * التمساح في الرسيس . مقال البراق النبوي . سؤال

---

٣٩٤ باب الاخبار العلمية * التنقيب عن المعادن في الظلمة . قنابل المدافع المضادة للطائرات . بريد الحمام او الحمام الزاجل في الحرب . العلم والتربية في بولونيا . الحيوانات و الحكم . الجهاز الرحوي وعلاج السرطان . آلة كأنها عاقلة لتبين المجرمين . مرض بارلو وعصير البرتقال . الحديد في لبن البقر . الفيتامين والنبات . السلفاديازين وعلاج الحروق . وزن البيضة ووزن الطائر . النوترونات والصفات الوراثية . اضرار الاضاءة في اثناء الغارات . جيوز يتجنب اشعة الراديوم . تعين فيتامين C . سعة عربات سكك الحديد

٤٠٤ مكتبة المقتطف * سوء تفاهم . ظواهر حجرة تحضير الارواح . حياتي . الراعي والرعية . ديوان ابي تمام

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الرابع بعد المائة

١ مايو سنة ١٩٤٤ — ٨ جمادى الاولى سنة ١٣٦٣

من أسرار الجسم الحي

البيوتين والبيودين

وصلتهما بخفايا النمو والمرض

علم الحياة علمٌ واسع النطاق كثير الشعاب ، يتصل من ناحية بالفلسفة ومن ناحية بعلوم الطبيعة والكيمياء . والمارشال سمطس يذهب في ما أُثِرَ عنهُ من مذهب فلسفي — يعرف بالمذهب الكلي Holism — الى أن الحياة ليست وحدةً مستقلةً بل نظام معين . والانسان في نظر أحد الفلكيين ليس إلاّ مركباً من مركبات الايدروجين في حالة غروية ، وقد أضيفت اليه أخلاط ومركبات أخرى . أما علماء الكيمياء فيحاولون أن يحلوا المادة الحية الى العناصر التي تتألف منها ، فيقيسون المقادير اليسيرة من المادن التي تدخل في تركيب جسم من الاجسام ، وغرضهم أن يضعوا للجسم الحيّ تعريفاً كيميائيًّا ، كما يكتب كبار الطهاة ، وصفةً لكعكة معيَّنة أو نوع من الطعام ، ثم يعلنون أن المواد الكيميائيـة ، في جسم الانسان ، لا يزيد ثمنها على ثمانية عشر قرشاً صاغاً ! ولو استطاع الكيميائيون أن يركبوا من هذه المقادير جسماً حيًّا ، لكانت الاجسام الحيّة أرخص من بعض أصناف الكعك والحلوى

ولكن هيهات ! إننا نجهل الوصفة التي ركّبت بمقتضاها الاجسام الحية ، ولا بدَّ أن نبقى بعض الظواهر الغريبة في حياة الاجسام الحية ، كالسرطان والنموّ والمرض مستمرّة حتى يكشف السرّ ، ويعلن الخفيّ

انَّ تسعين في المائة أو أكثر من تسعين ، من مادّة الكون، مفرغ في أجسام النجوم والسدم . والنجوم والسدم ، على عظمتها ، مركّبة من مادة في حالة توهّج يستطاع تفسيرها وتصوُّرها وفقاً لمبادئ الطبيعة والكيمياء . ولكن الخلية على صغرها ، مركّب معقد من سوائل وغازات ومواد غروية ، وهي على برودتها إذا قيست بدرجات الحرارة العادية - لا بحرارة الشموس - مقرٌّ لتفاعل ذريٍّ وجزيئي خفيّ ، تنبثق منهُ شعلة الحياة . فالمادّة الحية (الجبلة ، البروتوبلاسمة) أقرب مظاهر الطبيعة الينا وأبعدها عنا في آن

وليس لاحد أن يتوقع كشف هذا السرّ العظيم - سرّ الحياة - بوحي يهبط على كائن من كان ، ولا لاحد أن يتوقع كشفهُ دفعةً واحدة . فلا بدَّ من البحث المحكم الدقيق ، ولا مفرَّ من النفوذ الى الحقائق الصغيرة ، رويداً رويداً ، ثم ضمّها بعضها الى بعض ، وقد لا يماط اللثام تماماً عن السرّ ، ولكن البحث العلمي ماضٍ في إماطتهِ قليلاً قليلاً . وفي ما يلي من المقال ، قصة حقيقتين ، كشفهما العلم الحديث ، تتصلان بأسرار النمو ومقاومة المرض في الجسم الحيّ [1]

البيوتين

أطلق اسم « البيوتين » على أحدث عضوٍ في أسرة من الفيتامينات تعرف باسم فيتامين مركّب B . ومع أن تركيبهُ الكيميائيّ لم يعرف إلاّ من عهد قريب ، فإن مبدأ قصتهِ يرجع الى سنوات خلت

في سنة ١٩٢٧ كان فريق من العلماء الألمان ، يجرّبون تجارب بطائفة من الجرذان ، فجففوا بياض (زلال) البيض وأدخلوهُ في طعامهم . وكانت الجرذان حين أكلت هذا الطعام ، تنتفض حيوية ونشاطاً ، فلم تنقض عليها ثلاثة أسابيع ، حتى ظهرت عليها أعراض غريبة . فقد بدأ وزنها يقلُّ وكساؤها الوبريُّ الأبيض الناعم ، يخشن ويتنُّ ، وظهرت رقع عليهِ زال الشعر منها تماماً . ثم فقدت مرونة قوائمها فلم تلبث حتى تيبَّست . وبعد أيام ماتت . وكان مبعث استغراب هؤلاء العلماء ، أن الجرذان كانت تحتفظ بعافيتها كاملة ، لو كان زلال البيض المضاف الى طعامها قد سُلق . فمن الواضح أن في زلال البيض النيء سمّاً خاصّاً يسمُّ هذه الجرذان

(١) اعتمدنا على مجلة «خلاصة العلم» و«رسالة العلم الاسبوعية» ومجلة «هاربرز» ومقال لبول ده كروف سبق نشره في ريدرز دايجست

فعني العلماء والأطباء في كل صقع بأخبار هذه الجرذان . كيف يفسّرون هـذا المرض وما يعقبه من وذة ؟ وما هو سبب مرض زلال البيض ؟

على أن فريقاً آخر من العلماء كان مكبّاً على دراسة نموّ الخميرة فوجدوا أن هنـاك عاملاً غذائيًا ، لا بدّ منه لخلايا الخميرة ، حتى تنمو نموًّا سويًّا ، فأطلقوا على هذا العامل اسم فيتامين H أو « بيوتين » فحاول هؤلاء العلماء ، أن يطعموا البيوتين ، للجرذان المصابة بمرض زلال البيض ليروا ما يكون المصير ، فنجت الجرذان مما أصابها وبرئت . فثبت أن البيوتين الذي يولّـد خلايا الخميرة ، يبرئ من مرض زلال البيض

فتوسّل العلماء بهـذه الحقائق ، الى المضي في بحثهم ، عسى أن يكشفوا سرّ الجرذان التي تقضي بزلال البيض . فأفضى البحث في معامل شتى الى تبين بعض السرّ ، واذا هو أن زلال البيض يحتوي على مادة معيّنة ، تسلب الطعام ما فيـه من بيوتين ، باتحادها به . فيمتنع هضمه وتمثيله على الوجه اللازم . وتوسلوا بأساليب الكيمياء الحيوية ، فتبينوا أنّ هذه المادة « بروتين » واطلقوا عليها اسم « افيدين » وقد اشتقوه من لفظ « افيد » Avid ومعناه « جشع » أو « نهم » لأن هذه المادة فيها جشع للبيوتين والمعروف حتى الآن ، أنّ الافيدين لا يوجد الاّ في زلال البيض . ومقادير يسيرة جدًّا منهُ ، تكفي لاحداث المرض في الجرذان ، فاذا أُغليَ الافيدين خلال ثلاث دقائق الى نصف ساعة ، زال فعلهُ

ولا يزال الافيدين موضـع عناية عظيمة عند فريق من الباحثين ، ولكنّ موضوع البيوتين ، كان أدنى إلى البحث ، وأقرب الى الفائدة . فما أوفت سنة ١٩٣٣ حتى كان السؤال الاول عند العلماء المعنيين ببحثه ، هو هل يستطاع الحصول عليه نقيًّا من الشوائب ؟ فالفيتامينات الاخرى قد عزل بعضها ، وركب بعضها بالتأليف الكيميائي ، فهل في الوسع إخضاع البيوتين للعزل والتأليف ؟

وجاء الجواب في سنة ١٩٣٦ فكان بالايجاب . فبعد عناء عظيم في التصفية والفصل والتركيز تمكن الباحثان كوجل وتونيس الالمانيان من عزل مقدار منه يبلغ ثلاثة أجزاء من مئة ألف جزء من الاوقية استخرجوه من ربع طن من صفار (مح) البيض ، وكان هذا المقدار مبلوراً صافياً كالبلور لا تشوبه شائبة . أما وقد حضّر مقدار يسير من البيوتين البلور الصافي من مصادر طبيعية ، أفلا يستطاع تركيبهُ بالتأليف الكيميائي في أنابيب المعمل وبوتقاته ؟

والواقع أن ظفر كوجل وتونيس بعزله ، كان توطئةً لا غير ، لبحث دام ست سنوات أخر ، قبل الظفر بالحلّ النهائي

ويعود الفضل في معرفة تركيب البيوتين ، ثم في تركيبه بالتأليف الكيميائي الى الاستاذ فنسان دي ڤينيو وأعوانه في مدرسة الطب بجامعة كورنيل الاميركية . وقد منح دي ڤينيو في السنة الماضية جائزة « ميد جنصن » جزاءً له على بحثه واعترافاً بفضله

على أننا نسأل : لماذا يعدُّ العلماء تركيب البيوتين بالتأليف الكيميائي أمراً خطير الشأن ؟ والجواب عن هذا السؤال مزدوج . فتحضيره بالتأليف الكيميائي يتيح للباحثين، في مقادير أوفر وأثمان أرخص فينشط بحثهُ والتجريب بهِ . والبيوتين كثيرٌ في الكبد والكليتين والغدة الحلوة -- البنكرياس — والخميرة ومحّ البيض . ولكن استحضارهُ من هذه المواد شاق وكثير النفقة فاذا أثبت البحث نفعه ، شقَّ استعماله استعمالاً واسع النطاق في الطب إلاّ إذا كانت المقادير المتاحة منهُ كبيرةً وافية

والبيوتين ، موضع عناية عظيمة لانهُ مادّة فعّالة من الناحية الفسيولوجية ، فلو استعمل منه مقدار يسير جداً لاستطاع أن يحدث تفاعلاً كيميائيًّا . وفعله في تنشيط النمو يستبين ولو كان المقدار الموجود منه لا يزيد على جزء من أربع مئة بليون جزء . وهذه القوّة ، تبعث على الدهشة ، حتى بعد مقابلتها بقوة المواد الاخرى الفعالة من الناحية الفسيولوجية. فالثيروكسين مثلاً - مادة الغدة الدرقية — فعّال إذا كان المقدار الموجود منه جزءاً من أربعة بلايين جزء والادرينالين فعال اذا كان المقدار الموجود منه جزءاً من عشرين مليون جزء . فادة كيميائية ، قوية الفعل كالبيوتين ، تسبح وحدها أو هي في طبقة خاصة

على أنّ العناية بالبيوتين ، لا تقتصر على شدّة فعلها ، او فائدتها في تغذية الجرذان ، المصابة بمرض زلال البيض . فقد وجد الدكتور وليم تراجر أحد علماء معهد روكفلر أن تكاثر طفيلي الملاريا في أجسام فراخ الدجاج والبط ، يتأثر بمستوى البيوتين فيها . وبحثهُ هذا يفضي الى الظن ، بأن قلة البيوتين ، في هذه الحيوانات ، يزيد تعرُّضها للملاريا . ويقابل هذا أن إضافة البيوتين ، بعد الاصابة ، أضعف شدّة الاصابة . فاذا صحت هذه النتائج وتأيدت ، فهنا مثل على ڤيتامين معين — هو البيوتين — يعزّز المقاومة ضد مرض معين — هو الملاريا . وما دام البيوتين ، يصنع الآن بالتأليف الكيميائي . ففي الوسع إباحة المقادير اللازمة منهُ لتجربة جميع التجارب اللازمة ، الخاصة بمكافحة الملاريا على هذا الأساس

ومن أغرب الحوادث التي رويت، حادثة سجلها ونشرها الدكتور روبرت وليمز ، في فبراير ١٩٤٣ ، وهي حادثة نقص البيوتين ، في جسم عامل إيطالي عمره ست وستون سنة . كان

هذا العامل منذ حداثته مولعاً بالبيض النيء ، فيمزج بيضةً أو بيضتين بملء كاس من النبيذ ويشرب المزيج وقد أقام ست سنوات يفعل ذلك مراراً كل يوم . وولعه بالبيض حملهُ على شراء مزرعة لتربية الدجاج فيها ، من أجل بيضها ، وكان يأكل من عشرين* بيضة نيئة الى ٧٠ بيضة كل أسبوع . وكانت تجيء عليه أيام لا يتناول فيها شيئاً سوى البيض النيء والنبيذ . وقد ظهرت على بشرتهِ الأعراض التي ظهرت على الجرذان الذي أدخل زلال البيض النيء في طعامها . ودلَّ بحث حالتهِ في المستشفى ، على نقص مقدار البيوتين في جسمه . فعولج بالبيوتين ، وسائر أعضاء أسرة فيتامين B ولكن الاكتفاء بأخذ البيوتين في طعامهِ لم يكف لاحداث التركيز الوافي من البيوتين في جسمه ، فحقن بهِ حقناً ونجح العلاج

على أن الاهتمام الأكبر بالبيوتين ، آتٍ من ناحية ما يعلق بهِ من أمل في كشف سرٍّ من أسرار السرطان . فبعض الأنسجة السرطانية ، لا يحتوي على مقدار كبير من البيوتين ، وبعض آخر منها ، يحتوي على مقدار عالٍ جدًّا يفوق المعدل السوي . فاذا كان للبيوتين صلة ما بنمو خلايا السرطان ، كما له صلة بنمو خلايا الخميرة ، أصبح في الوسع من الناحية النظرية على الأقل ، خفض النمو السرطاني ، بتحديد المتاح من البيوتين . وقد امتحنت هذه النظرية امتحاناً أوليًّا ، فلم يسفر الامتحان عن نجاح ، ولكن البحث ماضٍ في سبيلهِ ، وما عرف حتى الآن ، ليس إلاَّ فاتحة فصل جديد في تاريخ الطب وتقدمهِ .

البيودين [1]

أما قصة « البيودين » و « البيودينات » فترجع الى سنة ١٩٣٥ ففي تلك السنة أسس أسقف مدينة سنسناتي الاميركية معهداً للبحث العلمي واختار لادارته من الناحية العلمية ، رجلاً يدعى الدكتور جورج سبرتي Sperti وكان حينئذٍ في الخامسة والثلاثين من عمره ، ولكنهُ كان قد أحرز شهرة واسعة بين العلماء ببحوثه الباهرة ، فأتاح له المعهد الجديد الفرصة وأفسح له المجال ، إذ مكنهُ من انشاء معمل للبحث في سنسناتي وآخر في « پام بيتش » بولاية فلوريدا للبحث في خلايا الأحياء المائية ، وجمع حواليهِ طائفة مختارة من علماء الطبيعة والكيمياء الحيوية وفسيولوجية النبات وما أشبه ، ووثق الصلة بين المعهد وبين عدد من المعاهد الأخرى وكان الغرض الأكبر البحث في السرطان

فلما اجتمع سبرتي بزملائهِ ذكرهم بحقيقة غريبة غامضة في فعل الخلية . فعند ما يصاب نسيج حي ما بجرح ، تنشط الخلايا التي تجاور الخلايا المصابة ، الى التكاثر تكاثراً سريعاً ، ولا تعود الى حياتها السوية إلاَّ بعد ما يتولد النسيج الجديد ويندمل الجرح . فلا بدَّ أن تكون

(١) بيودين مركب من « بيوس » : حياة و « ديناميس » : قوة

هناك مادة، تسيطر على حياة الخلية وتحركها حيناً بعد حين. قال: فاذا كشفتم ما هذه المادة وما فعلها وكيف تفعل، فلعلكم تفوزون بالمفتاح الذي يفتح أغلق مغلقات الخلية

فكانت الخطوة الاولى، إحداث أذًى ما في الخلايا الحية، ثم مراقبة ما يقع لها ويتمّ فيها. فاستعمل سبرلي الاشعة فوق البنفسجية، وهي على ما نعلم مفيدة اذا كانت قوتها ومقاديرها يسيرة، وفتاكة اذا كانت كبيرة. فذهب إلى أنهُ اذا استعمل هذه الاشعة، في قوة ومقدار، فوق الاشعة المفيدة ودون الفتاكة، حدث الأذى أو الضرر بالقدر المطلوب. وقضى هو وزملاؤه السنوات التالية، وهم مكبون على أنابيب الاختبار تحت مصابيح الاشعة. خلايا الخمائر وخلايا أنساج الأجنة من الفراخ وخلايا السحالي والسمك وأكباد الحيوان وما أشبه، جميعها عُرّضت للاشعة فوق البنفسجية، وكانوا حين يبلغ الضرر الواقع لها من التعرض للاشعة، مرتبة معيَّنة، يأخذونها فتغسل في محلول خاص ثم تقطر الخلايا من المحلول. فاذا كان في هذه الخلايا مادة ما تولدت فيها بفعل الضرر الذي أصابها، فيجب أن تكون في هذا المحلول المعقم الخالي من الخلايا

وفعلاً وجدت هذه المادة في هذا المحلول. وقد أثبت وجودها بتغطيس قطعة نسيج من جنين فرخ — لم تعرّض للاشعة — في هذا المحلول، فاذا نشاط عجيب في نمو الخلايا وتكاثرها، وكان هذا النمو بادياً على شرائح المجهر. أي أن الخلية الحية أباحت أخيراً أحد أسرارها

ثم تبين الباحثون أن هناك أصنافاً مختلفة من « البيودين» فصنف يحدث نشاطاً في نمو الخلايا وتكاثرها فيفعل فعلاً ناجعاً في اندمال الجروح. فأطلقوا عليه « عامل التكاثر ». وصنف ينشط التنفس فأطلق عليه «عامل التنفس»، وصنف يزيد سرعة الخلية في استهلاك السكر للفوز بالطاقة التي يولدها احتراقهُ، ولا تزال صلة « البيودينات » بالسرطان موضع بحث. ولكن سبرلي لا يرضى، أن تهمل حقيقة علمية جديدة الى أن تكشف صلتها الوثيقة بالموضوع الأصيل الذي أفضى الى كشفها. والى رأيه هذا مردُّه مروّخ البيودين » الجديد الفعّال في شفاء الجروح. لأنهُ إذا صحّ أن البيودين — عامل التكاثر — يحرّك الخلايا السليمة الى النمو والتكاثر فيجب أن يكون فعّالاً في شفاء حروق تصاب فيها مساحات واسعة من الجلد. وكذلك استخرج بيودين التكاثر من أكباد الحيوان، واستخرج بيودين التنفس من خلايا الخميرة، ومزجا بمادة دهنية فاذا المروّخ يفعل فعل السحر في شفاء هذا النوع من الحروق. ومن عجائب هذا المروّخ أن المصاب بالحرق لا يشعر بألم عند ما يدهن حرقه بمروّخ البيودين مع أن هذا المروّخ لا يحتوي على مخدّر ما. أما سر فعله هذا فلم يعرف بعد.

الى زائرة

لو كنتِ ناصعة الجبينْ　　هيهاتِ تغضني الزيارهْ
ما روعةُ اللفظِ المبين؟　　السحرُ من وحي العباره

◆

ظلٌّ على وَهَجِ الحنين　　رسمته معجزةُ الإشاره
خطٌّ تساقطَ ، كالحزين ،　　أرخى على العزمِ انكساره
ماذا بوجد المحسنين !　　صوتٌ شجٍ خلف الستاره

◆

غيّبتِ في السّجب الدفين　　معنىً براعته البكاره
درّاً يفوت الناظمين　　ونهضتِ تهديني نجاره
خطواتُ وسواسٍ رزين :　　وهبٌ تُعمّيه الطهاره

معر فارس

ينبوع الفن

مسرحية في ثلاثة فصول

بقلم خليل تقي الدين

أشخاص الرواية

الكاتب ـ القلم ـ الورقة البيضاء ـ الدواة

المكان لا يتغير في المشاهد الثلاثة. فهو غرفة المكتب في منزل الكاتب. المسرح متخذ شكل منضدة كبيرة عليها ورق أبيض وقلم ودواة. هنا وهنالك كتب كثيرة وصحف ومجلات؛ بعضها مرصوف على الرفوف، وبعضها منثور على الارض، وعلى المقاعد. خزائن تندفق الكتب منها. مقعد شرقي مستطيل الى جانبه نارجيلة مهملة كأنها متروكة منذ عهد بعيد. الغبار يعلو الاشياء. لا نظام في المكتب ولا ترتيب، لكن المكان، مع ذلك، يسرب بهذا الاضطراب سحراً عجيباً الى النفوس. على الجدران صور زيتية بغير اطارات من ريشة الجميل وفروخ والانسي (مصورون لبنانيون)، وصورة كاريكاتورية تمثل الكاتب.

المشهد الاول

الزمان — الهزيع الأول من الليل

الدواة (للقلم)	لم هجرتني ؟ . . . أما ظمئت شفتاك ؟ !
الورقة البيضاء (للقلم)	وكيف تجفوني ، أيها الماكر الناسي ؟
القلم	أنا أهجر وأجفو ؟ معاذ الله ! لكنه «هو» الذي هجر، و«هو» الذي جفا ! !
الدواة	هو ! هو ! دائماً وأبداً هو ! متى تخلع عن عنقك هذا النير ؟ . .
الورقة البيضاء	أجل ! متى تتحرر وتحررنا ؟
القلم	نحن ، بدونه لا شيء : جماد لا حياة فيه !
الدواة	لا بل هو بدوننا لا شيء : حيوان ناطق ، لا أكثر ولا أقل ! !
الورقة البيضاء	وهو « لولانا » أريج لا يفوح ،ولحن لا يسمع ، وسراب في صحراء !
القلم	لكننا لا نحيا إلاّ به .
الدواة	وهو ؟ أترى الى هذه الحياة التي يحياها بعيداً عنا ؟
الورقة البيضاء	لقد انحط الى مستوى البشر !
الدواة	وكان بنا يسمو ، ونحن نسمو به الى ذرى الآلهة !
الورقة البيضاء	كنا نبني له المجد ، ونهيئ البقاء
الدواة	ونضفر لجبينه أكاليل الخلود
القلم	وما يعنيه من البقاء والمجد والخلود ، وقد دانت له الحياة ، ومنحته نعمة الحب كنزها الأكبر ؟ !

الدواة إنهُ إذن يضحي بنا على مذبح الحب ، وبنسانا بين الشفاه المعسولة ، والعيون النجلاء ؟

الورقة البيضاء وتدافع بعد ذلك عنهُ ؟

القلم واحسرتاه ! كنت قصبة جوفاء، فصرت، بين أنامله، حيًا ، بل خالقاً يبدع الحياة . فكيف أنكره ؟

الدواة ومن أرادك على انكاره ؟ لكن ألذا هجرك هو ، وجفاك ، تهجرنا أنت ، وتجفو ؟ ؟

الورقة البيضاء وتنظر اليَّ فلا تشفق على عريي ؟

القلم وحق الألف والباء ، إن بي لشوقاً عنيفاً الى عناقك أيتها الحبيبة البيضاء . ولكن ، ما حيلتي وهو يطيل الهجران ؟

الدواة وأنا ؟ أتراك نسيتني أيها الجاحد ؟

القلم وَكيف أنساك ، وبي ظمأ قاتل الى نغبة من ينبوعك الأزرق ؟

الدواة فعلامَ لا تأتيني إذن ؟

الورقة البيضاء ولا تكسو عريي بالكلام الخالد ؟

القلم مهلاً ! فهذه ساعته الكبرى ، ولا بدَّ أنهُ آتٍ ، فقد هيّأ لهُ الليل الجو الذي يحب . سيجذبه السكون الينا كما كان في ماضيات الايام

الدواة كان ذلك بالأمس، وارحتاه على الأمس البعيد !

الورقة البيضاء يوم كان يدلف اليَّ خفيف الخطى كما يدلف العاشق الى معشوقه ، فاذا داعبتني يداه ، بعثت فيَّ لمساته لذة راعشة، ودغدغ صفحة خدي لهاثه الحارّ ، يوم ينحني عليَّ انحناء الحبيب على الحبيب

الدواة ويذيب في قلبي عصارة قلبه !

القلم ونأخذ جميعاً في الخلق والابداع . . .

الورقة البيضاء فاذا صحرائي واحة خضراء ، وسرابي جني وماء ، وجدبي خصب ، وعريي كساء !

الدواة وإذا كل قطرة من ينبوعي فكرة رائعة « وصورة حية » وعاطفة نابضة

القلم وإذا نحن في عرس دائم مع البشر المبدع الخلاق

الدواة عده ليطبع الزمان بالطابع الذي لا يمحى ولا يزول

الورقة البيضاء طابع الفن ومبسمه الأكبر

الدواة لكن الليل قد انتصف أو كاد وهو لا يأتي

الورقة البيضاء شأنه منذ شهور

الدواة ونحن ، في انتظاره ، نتحرّق ، ونفنى ، ونذوب

الورقة البيضاء ويتراكم علينا غبار النسيان

القلم وكأن توالي الأيام يسلّمنا الحياة ليعيدنا ، كما كنا ، جماداً بغير حياة !

الدواة لا بد من حياة نردّها إلينا

الورقة البيضاء لا بل نرده بها الى نفسه

القلم ولِمَ لا تقولان نرده الى الأجيال ؟

الدواة أحسّ أنني هرمت منذ هجرني ، وأن عروقي جفّت ، وغاض في قلبي ماء الحياة

الورقة البيضاء فماذا يحل بنا إذا طال به الهجران ؟

الدواة رباه ؟ وماذا يحل به ؟ ...

القلم يظل واحداً في القطيع . نكرة تحمل اسماً ، وتعيش عمراً ، ثم تمضي كأن لم تكن ، كما تعيش وتموت الحشرات . فأما أنت فتعودين زجاجة فارغة ، تلقى في الطريق ، وأنت صرة صغيرة لشيء حقير ، وأما أنا فأعود قصبة جوفاء تلقى في النار ، أو تدوسها الاقدام

الدواة ربك جنبنا وجنبه هذه النهاية المروّعة

القلم لا بدّ من أن أفتني أثره وآتيكما بالخبر اليقين ، ثم نرى في أمرنا

الدواة إنها لفكرة رائعة ، ولكن أتقوى على اللحاق به ؟

القلم سأندس في جيبه ، على سابق عهدي بهِ ، يوم كان مقامي فوق قلبه

الدواة يالك من قلم مجدود !

الورقة البيضاء ليتني كنت مكانك !

≋ الستار ≋

المشهد الثاني

الزمان — بين دبيب العتمة وانطفاء النور

القلم وارحتاه لنا ! واشباباه ! (يجهش بالبكاء)

الدواة إنك تخيفني !

الورقة البيضاء وتبعث الرعشة في جسدي

القلم الويل لنا مما ينتظرنا !

الدواة ما لك تتكلم بالألغاز ؟ ألا تريد أن تهدأ وتحدثنا عما رأيت وسمعت ؟

القلم ماذا تريدين أن أقول ؟ حسبك أن تعلمي أنهُ لن يعود . لن يأتي . لن يأتي أبداً . أيكفيك هذا ؟ !

الدواة (منتحبة) يا ضيعة شبابي ! أيها الينبوع المتفجر من صدري لم يبق لك إلاّ أن تغور . قبلني يا حبيبي قبلة الوداع فقد دنت نهايتي ودقت ساعة الفراق

الورقة البيضاء لقد هبّت عليَّ لفحة الموت . وإني لأحس طعمه في حلقي

الدواة ولكن ألا حدثتني الحديث كله ؟

القلم إن صاحبنا عاشق متيّم . فلا عجب إذا نسي ساعته الكبرى ، فساعات حياته كلها عامرة بالحب

الدواة عرفت ، إذن لماذا يخلف مواعيده معنا ؟

القلم أجل ! لأن له كل ليلة موعداً أحب إليه وأشهى !

الورقة البيضاء مع التي يهوى ؟

القلم نعم . « وهو » الى الآن ، عاشق محظوظ . كلما لقيها حدثها حديثاً متصلاً لا نهاية له ، كبعض ما نحن من كلام

الدواة وهي ، ماذا تقول له ؟

القلم تتدلل . فهي ، ككل الحسان من بنات جنسها ، لعوب إلى حد كبير

الورقة البيضاء وهل تبادله حبًّا بحب ، أم تراها تهزأ بهِ ؟

القلم ليتها صدّته وداست قلبه بقدميها . لكنها تفرض سلطانها عليه ، وتُحكم ، شيئاً فشيئاً ، وضع النير في عنقه

الدواة وهل هي جميلة ؟

القلم (للدواة) لها عينان أصفى من ينبوعك !

الورقة البيضاء لشدّ ما تبالغ !

القلم (للورقة) . . . وشفتان أرقّ منك !

الدواة أكمل . أكمل . ولماذا لا تقول : وقدّ كقدّك الخيزراني أيها الفاجر ، ما دمت أنت أيضاً قد أخذت بصفاء عينيها ورقة شفتيها !

الورقة البيضاء تبًّا لك من زير نساء ! لست خيراً من الرجال

القلم لِمَ تظلمينني ؟ أنا ، إذا شئت ، زير ورقة ودواة . أما النساء فصاحبنا أدرى بهنّ

الدواة ولكنك لم تقل لي بعد هل تحبهُ هذه الفاجرة ؟

القلم يخيل إليّ أنها تحبهُ ، أو هي منجذبة إليه بفضل ما بنيناه له نحن ، سمعتها أمس تغني له مقاطع من شعره ، فراح في نشوة من الطرب ، ثم أكبّ على يديها يوسعهما تقبيلاً ، وهي تضحك وتغني وتبعده عنها بتراخ . . .

الورقة البيضاء يخيّل إليّ أنها لا تمنع عنهُ شيئاً . وهذا ما يخيفني

القلم كلاّ كلاّ . إنها بعد ، لم تستسلم اليهِ ، ولكنني أخشى . إنها على أهبّة أن تفعل

الدواة يجب أن نحول بينهُ وبينها ! يجب أن نجنبه هذه النهاية الحزينة حتى يعود إلـها مبدعاً بعد أن صار بشراً حقيراً !

القلم وأعجب ما في الأمر أنها لا تفتأ تسألهُ لماذا سكت حتى كاد ينساه الناس

الدواة إنها لا تخلو من الفطنة والذكاء . لكن أذكى النساء أكثرهن خطراً

القلم قالت لهُ : ألم أوحِ اليك بشيء ؟ إنك لا تحبني إذن !

الورقة البيضاء وما كان جوابه ؟

القلم جوابه ؟ ... دعي الأدب والشعر فهما وهمٌ ، وأنتِ الحقيقة . إن في عينيكِ من الشعر ما لم يحلم بهِ الاولون ولا الآخرون ، وفي فمكِ من العذوبة ما لم تنطوِ على مثله ألحان الموسيقيين . . . بهذا ، وبمثل هذا كان يجيبها ، وهو مدله نشوان

الدواة الآن عرفت لماذا يجفونا !

القلم لأنهُ سعيد . أو يخيل إليه أنهُ سعيد . هكذا خلقوا ! إنهم لا يذكروننا ما دامت كؤوس اللذة مترعة في أيديهم ، فاذا تحطمت ألهب الشقاء نفوسهم ولسع الألم قلوبهم فلاذوا بنا يغنون ، ويبكون ، وتفحوا الأجيال بفلذات أكبادهم قطعاً وآياتٍ مكتوبة بنجيع الفؤاد ، هي وحدها التي تبقى ، وبها وحدها يخلدون

الدواة كل أملنا إذن أن يشقى ؟ !

القلم أجل ! وأن يعاني ألماً عظيماً . الناس مدينون للألم بكل رائع ، وبكل سام ، وبكل جميل ! لولا الألم لما كان شعر ، ولا موسيقى ، ولا نقش ، ولا تصوير !

الورقة البيضاء تبارك الألم إن ردَّ صاحبي إليَّ !

القلم اسمعي ! جميع الخالدين من أبناء الفن أحبّوا . وجميعهم أحبوا حبّاً عظيماً . وهم لم يخلدوا إلاّ لأنهم تعذبوا في حبهم

فتسنى لهم أن ينعموا بنعمة الألم الأكبر

الدواة ينبوع الفن!

القلم هذه قسمتهم. إنهم لا يحسنون الغناء، ولا يبدعون إلاّ إذا غمرهم اليأس والشقاء

الدواة أتراهم في هذه الحالة يستغنون عني؟

القلم أجل! لأنهم يغمسون أقلامهم في نجيع الفؤاد!

الورقة البيضاء وما يدريك ان صاحبنا لا يشتاقنا في غمرة السعادة هذه، أو يحس الحاجة الينا؟

الدواة أجل! ليغني نشيد النعيم كما ينشد غيره لحن الشقاء، سواء بسواء!

الورقة البيضاء أليست اللذة الكبرى كالألم الأكبر، مهمازاً للعبقرية؟

القلم كلاّ ثم كلاّ! إنهم لا يبدعون إلاّ إذا تعذبوا. ألم تسمعي بالمجنون، مجنون ليلى؟

الورقة البيضاء بلى! حدثتني عنهُ جدتي

القلم أكان هنالك مجنون ليلى، لو زفت اليهِ ليلى؟

الدواة من يدري؟

القلم كانا يصبحان زوجين حقيرين في خيمة ضائعة في الصحراء، يرعيان الغنم، وينسلان الأولاد

الورقة البيضاء وهما اليوم...

القلم خالدان في جملة الخالدين

الدواة وغداً؟

القلم كذلك. لاأمس للخالدين ولا غد. إنهم أسمى من أن يحدهم زمان

الدواة وتريد أن تزج صاحبنا بينهم؟

القلم ولِمَ لا؟ على شريطة أن أشقيه

الدواة لكنه يبيع البقاء والخلود بساعة معها

القلم لأنهُ بشر أحمق. ونريده على أن يكون نصف إلـه!

الدواة وعلامَ عزمت إذن؟

القلم دعيني أقص عليك تتمة الحديث . لقد ضرب لها أمس موعداً يلقاها فيه

الدواة متى ؟ وأين ؟

القلم هنا ، غداة غد ، في مثل هذه الساعة ، بين دبيب العتمة وانطفاء النور ، وعند ما فارقها راح يطوّف في الشوارع ويهذي كالمجنون ، ويردد : غداً ! غداً ! واطول شوق المستهام الى غد ! وأكبر ظني أن موعد الغد موعد عظيم ! وظل يسير على غير هدى حتى قادته رجلاه الى الشاطئ فقتح ذراعيه للبحر وأخذ يصرخ بصوت عال كأنه يناديها من بعيد : تعالي إليّ ، فؤادي يناديك في هدأة الليل ، هل تسمعين . . . ثم صاح : تعالي ، تعالي ، تعالي كررها عشرات المرات ... حتى إذا أتعبه النداء ترنم بالبيت الخالد :

قد يهون العمر إلاّ ساعة وتهون الأرض الاّ موضعا

الدواة بيت شوقي الذي يفضله على سائر ما نظم الشعراء من أبيات

القلم كما يفضل قائله على سائر الشعراء . وظل يغني بصوته المريض

الدواة ماذا ؟ هو يغني ؟ ...

القلم وماذا عليه إن غنى وسامعوه البحر والأمواج والصخور ؟

الورقة البيضاء وأنت ...

الدواة لقد كان الخائن معها قبل هنيهة ، فهل اشتاقها بمثل هذه السرعة ، حتى يحن اليها هذا الحنين ؟

القلم إذا لم أخطئ كان غد يوماً فاصلاً

الدواة لا بد من عمل حاسم

الورقة البيضاء يجب أن ننقذه من الهوة الفاغرة فاها تحت قدميه ، وننقذ أنفسنا من موت محتم

القلم ونردّه الى من خلق لهم وخلقوا له من دون الناس أجمعين ومن دون سائر الكائنات ، إلينا نحن

الدواة بناة اسمه ومجده وخلوده

الورقة البيضاء وماذا تريان ؟

القلم سأجرح قلبه بيدي حتى تنفجر منه الدماء ، فيعود الينا !

الورقة البيضاء واشوقي إليه ! إنه لا يعرف التحليق إلاّ على صدري ؟

الدواة ولا يعرف الاعماق إلاّ في قاعي

القلم ولا يسمو إلاّ بي

الدواة ولكن أخاف إن هدمت حبه أن ينتقم منا

القلم كيف ؟

الدواة إذا لجّ به اليأس أغرقه في الكؤوس، وجذبته الموائد الخضراء فكنا حفاري قبره بدلاً من أن تكون بناة مجده

القلم كلاّ كلاّ أنا أدرى به منك ، فلا تخافي. إن فيه دملة العبقرية فهو إنسان موهوب . ولهذا الفريق المختار من الناس أقوى من الخمر ومن المائدة الخضراء ، ومن المرأة نفسها ! نحن الملجأ الأكبر والملاذ الأخير ، ولا غنى له عنا

الدواة وماذا أنت فاعل ؟

القلم سأنفذ خطة عبقرية أستوحيها من موعد الغد . سأكتب اليها رسالة مغفلة أن سر موعدها لم يبق سراً . فقد فضحه صاحبنا وفاخر به وتباهى بين جمع من خلانه .

الورقة البيضاء يا لك من مغامر جريء !

القلم لا يقدم على العظائم إلاّ المغامرون !

الدواة وإذا لم تصدقك ؟

القلم وكيف لا تصدقني وموعدهما سرّ من الأسرار ؟ فاذا كان لها بقية من كبرياء أحجمت ، ثم انقلب حبها بغضاً لمن عبث باسمها وبحبها ، وأنا لها بالمرصاد

الدواة وماذا علينا أن نفعل ؟

القلم تعيناني على الكتابة

الورقة البيضاء أنت ؟ ! تكتب وحدك ؟ !

القلم صمتاً ، لولا حاجتي اليك لمزقتك شر ممزق ! كيف لا أكتب وأنا القلم !

الدواة إذن هاك قلبي فاغرف منه ما تشاء

الورقة البيضاء وهاك خدي فاكتب بما تريد

السِّتار

المشهد الثالث

الزمان — قبيل منتصف الليل

الدواة ما له زائغ النظرات كأن به مسًّا من الجنون ؟

الورقة البيضاء لقد قضينا عليه ، ودسنا قلبه ، وحطمنا حبه ولم نفد شيئاً

القلم مهلاً فلا بد من أن يعود !

الدواة رأيته أمس يجهش بالبكاء وينتحب كثكلى فقدت وحيدها

القلم إنهُ أتعس من الثكالى

الورقة البيضاء ألم يحاول ان يتصل بها ؟

القلم بلى ، لكنهُ كان يقابل بالإعراض من جانب خدمها ، وبالصمت المستمر من جانبها هي

الدواة إذا استمرّ على هذه الحال فقد عقله .

القلم لا تخافي ، إنهُ لا يزال تحت تأثير الصدمة الأولى ، ولا بد أن يثوب إلى رشده ، حين يصبح هواه ذكرى، وخيالا

الدواة وعندها

القلم يأتي دورنا نحن ...

الورقة البيضاء خيل إليَّ أمس أنني أسمع وقع خطاه . والواقع أنهُ اقترب مني ، ولكنهُ لم يلبث أن انفجر بكلام غير مفهوم

القلم — كانت الصدمة أليمة بقدر ما كانت آماله كبيرة وشوقه اليها عنيفاً

الدواة — لقد أحكمت تسديد السهم

القلم — وكانت إصابتي جد موفقة . لقد طعنتها في الصميم . فانقلب حبها الى كراهية شديدة ، وحقد لا يحسنه إلاّ النساء

الدواة — وأصبت عصفورين بحجر واحد

القلم — جازفنا بكل شيء ، ولعبنا لعبة الموت والحياة

الدواة — وهل تعتقد أننا فائزون ؟

القلم — كل الاعتقاد . لا بل ان بي مثل اليقين أنهُ آتٍ عما قريب . ألم ترَي كيف دخل علينا أمس ؟

الدواة — لكنهُ لم يلبث أن خرج الى العراء

(يسمع وقع خطوات في الدرج ، فتطفأ الانوار ، ويسدل الستار هنيهة ثم يرتفع)
(فاذا القلم والورقة والدواة قد تزايلت كأشخاص وعادت جماداً يسيطر عليه الكاتب)

الكاتب — (مكباً على المنضدة يكتب في حمى الوحي برهة من الزمن ، ثم يلقي القلم من يده ويحدق الى الورقة وقد كستها السطور ، وينشد بصوت حزين ، خارج من أعماق أعماقه)

يا فؤادي أقصر ! فهذا غرامي قد تلاشى وهذه أحلامي ...
كغيوم مجنونة شاردات تتبارى في أفقهـــا المترامي

. . .

قد خلعت الشباب عن منكبي العاري وما زلت في ضحى أيامي
أقطع العمر مثلما يقطع الليـــل شقيٌّ أعدَّ للإعدام

. . .

يا فؤادي خذلتني في غرامي ومحوت الجنات من أحلامي
وعزائي الذكرى وربَّ عزاء كان للنفس باعث الآلام
كلما رنت القــوافي بأذنـــيَّ رأيت الماضي القريب أمامي
خلق الشعر للحنين وعندي نغم اليأس أعذب الأنغام
وقعتهُ نفسي وغنتهُ أشعاري وأملاه في الشقاء غرامي
كل بيت أرمي به في قصيدٍ قطعة من صميم قلبي الدامي ...

(يكب الكاتب على المنضدة ويروح في سبات عميق ، كأنه محطم)
(الاعصاب من سهر الليالي ، فتعاود الاشياء حياة الاشخاص)

القلم أرأيتما ؟

الدواة وافرحتاه ، عاد الينا ، وعادت معهُ الحياة !

الورقة البيضاء ونعمت بملامسة يديه ، ودفء لهاثه !

القلم (للدواة) لقد روّيت شفتي من ينبوعك العذب

الدواة لا أبعدك الله عني يا حبيبي

القلم (للورقة) وطبعت على خدك الأملس قبلة ما كان أشوقني اليها !

الورقة البيضاء ما رأيك في ثوبي هذا ؟

القلم إنهُ لطرفة رائعة . ولكن اجدني فيها هوذا يتحرك !

(يتململ الكاتب ثم يفيق شيئاً فشيئاً فتبدو عيناه مقرحتين ، ثم يتأمل الابيات ،)
(ويأخذ ورقة جديدة ويشرع في الكتابة برهةحتى اذا انتهى قرأ فيما بينه وبين نفسه)

الكاتب إبكِ يا قلب دماً فان التي عبدتها قد طواها الأمس القريب !
ويا عينيّ انطفئا فلن تقعا بعد اليوم على محيّاها الصبيح !
ويا شبابي اذبل قبل أوانك فقد كبرت مائة عام في عشرة أيام
ربّاه ! لو كنت أدري لماذا أعرضت بعد إقبال ، وسخطت بعد رضاء ، وامحت من حياتي ، كما يغيب نجم شعّ هنيهةً في سمائي فأنار ظلمة حياتي كلها
رحماك ، حبيبتي ، سأظل أناديك ، وأغنيك ، وأخاطبك ، حتى تأتي إليّ ، أو تأتيني الراحة الكبرى ، فأنحدر الى رمسي وعلى شفتي اسمك المعبود ! !

(يخرج الكاتب من الغرفة محني الظهر ، ثقيل الخطى ، كأنه في الستين من عمره)

الدواة رباه ، ما أشد حزنه ؟

القلم لقد بدأ يحس وخز الألم الاكبر ، وما هذه إلاّ البداية

الورقة البيضاء وعاد معنا سيرته الاولى فأصبحنا في عرسٍ دائم .. .

القلم أجل ؟ نحن في عرس ، ما دام قلبه في مأتم .

بعقلين — لبنان — صيف سنة ١٩٤٣

المآصر في بلاد الروم والاسلام

– ٣ –

لميخائيل عوّاد

(د) المآصر في كتب الأدب

لم يترك الشعراء الأوائل ناحية من مناحي الحياة ، ولا مرفقاً من مرافقها إلاّ قالوا فيه شعراً . وها إن أبا العباس عبد الله بن المعتز بالله يتطرق الى ذكر المآصر في شعر خالدٍ له . فأنشد :

بالكرخ والميدان لي منزلٌ ولذّتي القفص وقطربل[1]
وخير مال لي طيارةٌ[2] تدبر بي في السير أو تقبل
يلاطم الماء مجاديفها حاملة لكنها تحمل
غايتُها قصرُ حُميدٍ وفي بستانِ بشرٍ دهرُها الأطولُ
وإن تجد من مأصرٍ غفلةً تطير الى كركين[3] لا تعدلُ[4]

وكان القاضي المحسّن التنوخي (المتوفى سنة ٣٨٤ هـ) ممّن نبّه الى المآصر الأسفل ، إذ سرد حكاية طويلة جاء في آخرها : « فتوجه النفّاطون والرجّالة الى الزورق فضربوه

---

(١) لنا مقال لم ينشر بعد بعنوان « مواطن القصف والطرب في العراق ، أيام العباسيين » ، وفيه كلام على هذه المواقع (٢) طيارة ، انظر « الذيل » رقم ١

(٣) كركين : بضم الكافين ، من قرى بغداد ، كانت أحد مواطن القصف والطرب . وله أخبار في معجم البلدان (٤ : ٢٦٣) (٤) أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، وهو الجزء الثالث من كتاب الاوراق لابي بكر محمد بن يحيى الصولي (ص ٩٨ طبعة هيورث دن في القاهرة)

بالنار ، وأقبل الملاّح يلطم ويصيح ويقول : يا قوم فيه أموال الناس . . . وأحرقت قُلوس الزورق التي كانت رَبطهُ وتمسكه ، . . . فانحدر مع الماء لنفسه والنار تشتعل فيه ، فوقع على الجسر فقطعهُ وانحدَر حتى انتهى الى موضع معسكر سيف الدولة (لعلّه ابن سيف الدولة) ، وكان نازلاً في المأصر بواسط »[1]

(هـ) المآصر في كتب الإدارة والسياسة

لم نقف في المراجع التي تدخل في هـذا الباب على أقدم مما ذكره القاضي أبو يوسف (المتوفى سنة ١٨٢ هـ) — صاحب الإمام أبي حنيفة — ، قال : « وحدَّثنا قيس بن الربيع عن أبي فزارة عن يزيد بن الأصم عن أبي الزبير أنهُ قال : إن هذه المآصر والقناطر سُحْتٌ لا يحلّ أخذها ، وبعث عمالاً الى اليمن ونهاهم أن يأخذوا من مأصرة ، أو قنطرة ، أو طريق شيئاً ، فقدموا ، فاستقلّ المال . فقالوا : نهيتنا . فقال خذوا كما كنتم تأخذون »[2]

وقد مرَّ بنا غير نبأ عن المأصر الأسفل بصريفين واسط ، وها هوذا هلال الصابىء يتطرّق الى ذكره في مجرى كلامه على أحوال دار الخلافة العباسية ببغداد . قال : « ... ومن ذلك النفقات التي تطلق في كل سنة لثمن الجوارح وكسوة الكراع ، وثمن القلوس المأصر الأسفل ، وثمن الكماة المقددة : اثنين وأربعين الفاً وسبعة دنانير »[3]

وقبل الانتهاء من هذا الباب ، نورد أخباراً تشبه أن تكون ذات صلة وثيقة بالمآصر النهريّة . فقد ساق مسكويه في حوادث سنة ٣٣١ هـ هذا الخبر : « كان رسم مراكب ابن وجيه أن تُشدّ بعضها الى بعض بالليل في عرض دجلة فيصير كالجسر ، فلما كان في الليل ونام الناس وكلّ مَن في المراكب ، أشعل ذلك الملاّح السعف ، وأرسل الزورقين والنار فيهما ، فوقعا على تلك المراكب والشذاءات ، فاشتعلت واحترقت قلوسها واحترق مَن فيها . . . »[4]

وما من شك في أن ابن وجيه ، إنما عمد الى عمله هذا الذي ينطوي على المكر والإيقاع، اصطياداً للسفن المنحدرة في دجلة وسلباً لما تحمله من مالٍ وزاد

---

(١) نشوار المحاضرة (٨ : ٩٤ ، نشرة المجمع العلمي العربي بدمشق) (٢) الخراج لأبي يوسف (ص ٨٠ ، طبع بولاق) (٣) دنانير ، « انظر الذيل » رقم ٢ (٤) تجارب الامم (٦ : ٤٦)

وروى الوزير أبو شجاع في أحداث سنة ٣٨٦ هـ ما جرى عليه أمر لشكرستان بالبصرة الى أن استقرّ ما بينهُ وبين مهذب الدولة من الصلح . قال : «فاختلفت الرواية في دفعه عنها ، فقيل إنّ أهل البصرة قويت نفوسهم فوثبوا على الديلم ، وانصرف لشكرستان من غير حرب الى أسافل دجلة ، وقيل بل عقد جسراً في الموضع المعروف بالجلّ وقال : الديلم يرمون كلّ مَن يرد من نهر عمر . وجعل أمامه سلسلة حديد ممتدة من إحدى حافتي نهر ابن عمر الى الأخرى ليدفع عن الجسر ما يرسل على الماء من شاشات القصب المضرمة بالنار تغوص بثقلها فتعبر الشاشيات عليها فتغرقها ، فوافى عسكر البطيحة من نهر ابن عمر وجمعوا قصباً كثيراً بعرض النهر وأرسلوه مضرماً بالنار ، وجعلوا سفنهم التي فيها مقاتلتهم من ورائه ، فوقع على السلسلة وتقطعت وعلى السفن الصغار فاحترقت ، ووصل الى الجسر ، ودخل عسكر البطيحة البصرة يقدمهم ابن مرزوق وعسكره الى الجزيرة .... » (١)

وحكى ابن كثير في أخبار سنة ٦٩٠ هـ أنهُ « جاءت البريديّة لغزو العراق ، ونودي في الناس بذلك ، وعملت سلاسل عظام بسبب الجسورة على دجلة بغداد .... » (٢)

يؤخذ مما تقدّم أن المآصر النهرية كانت منبثة في غير مكان على دجلة والفرات ، على أن أهمها ما كان في : بغداد (وفي أعلاها المأصر الأعلى) والحوانيت ودَير العاقول ، والعَلْث ، والكوفة وصريفين واسط (وعندها المأصِر الاسفل)

﴿ الذيل ﴾

(١) الطيارةُ ، ويقال فيها الطيار : ضرب من السفن النهرية القديمة ، أكثر ما اتخذ في العراق لركوب العظماء . فقد أخبرنا ابن الجوزي (المنتظم ٩ : ١٣٠) في حوادث سنة ٤٩٥ هـ ، خبر طيار شهير عرف بطيار جلال الدولة البويهي . قال أبو الفرج « وفي يوم الثلاثاء حادي عشر المحرّم جلس المستظهر لمحمد وسنجر ، واجتمع أرباب المناصب في التاج ، ونزل كمال الدولة في الزبزب وأصعد الى دار المملكة فاستدعاهما فنزلا في الزبزب ، وكان الطيار قد شعث وغاب وهو الذي انحدر فيه والدهما جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه الى دار الخلافة حين جلس له المقتدي بأمر الله ، وانحدر فيه طغرلبك حين جلس له القائم بأمر الله . وهذا الطيار كان لجلال الدولة أبي طاهر بن بويه وأنفق عليه زائداً على عشرة آلاف دينار ،

(١) ذيل تجارب الامم (ص ٢٧٢ — ٢٧٣ ؛ طبعة آمدروز) (٢) البداية والنهاية (١٣: ٣٢٢)

وأهداه القائم ، وجددت عمارتهُ في سنة سبع وأربعين ، ونشمت في أيام المقتدي فجددت عمارته وحط الى دجلة ، فكان للناس في تلك الأيام من الفرجة بدجلة عجائب ، ثم هدم »

والظاهر أنهم سموه بالطيار ، لأنهُ من السفن الخفيفة السريعة الجريان : كأنها لسرعتها تطير على وجه الماء . وقد أفاض الكلام فيها العلاّمة الطيب الذكر أحمد باشا تيمور في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (٢ «١٩٢٢» ص ٣٢١ — ٣٢٤)

وما ذكرناه ها هنا ، وكل ما جاء عن السفن في هذا البحث ، مختصر من كتاب « السفن والمراكب في بلاد الاسلام والفرنج » من تأليف كاتب هذا المقال وأخيه كوركيس عوّاد وهو ما زال مخطوطاً

(٢) رسوم دار الخلافة (الورقة ٣٠ من المخطوط) وهو كتاب أعددناه للنشر بعد أن حققناه وعلقنا عليه ، وألحقنا بهِ فهارس مفصّلة وملاحق منوّعة . والمقال الذي بين يديكَ أحد تلك الملاحق . طالع ما كتبناه بشأنهِ في : مجلة الرسالة (العدد ٣٦٢ ، ص ٩٧٧ — ٩٨٠) . وهناك إشارات متفرقة عنهُ في الرسالة أيضاً (العدد ٤٨٥ ، ص ٩٧٩ — ٩٨١ ، والعدد ٤٨٦ ، ص ١٠٠٦ — ١٠٠٧) . والثقافة (العدد ٩٨ ، ص ٣٩ ، والعدد ١٩٨ ، ص ٥ — ٨ ، والعدد ١٩٩ ص ١٩ — ٢١ ، والعدد ٢٠٠ ، ص ١٩ — ٢٠) ، والمقتطف (٩٨ « مارس ١٩٤١ » ص ٢٤١) ، ومجلة غرفة تجارة بغداد (٤ « ١٩٤١ » ص ٢١١)

حقائق جديدة

عن الشمس

* قام الدليل في بحث مقارن بين طيف الذهب وطيف الشمس ، على وجود الذهب في الشمس

* وقام الدليل الطبقي كذلك على وجود عنصر الثوريوم في الشمس ، وهو من العناصر المشعة النادرة

* بدأت دورة جديدة من دورات الكلف التي تظهر على وجه الشمس ، ومدتها إحدى عشرة سنة وثلث سنة

الدين والفلسفة

التوفيق بينهما في المغرب

لمحمد يوسف موسى

---

١ — نترك الآن فلاسفة الشرق الى إخوانهم في المغرب فنجد أن أبا بكر محمد ابن يحيى ، المعروف بابن الصائغ وبابن باجه والمتوفى عام ٥٣٣ هـ ، لم يصل إلينا عنه ما يدل على عنايته بهذه المشكلة التي شغلت مفكري الاسلام جميعاً . ولكن المستشرق الفرنسي جوتيه Gauthier يؤكد بحق[1] أن ابن باجه لم ينس هذه المشكلة ، وإنما قصر أجله وكثرة مشاغله حالا بينه وبين أن يخصص لها رسالة من رسائله كما فعل أسلافه ، فقد عاش عيشة مضطربة وشغلته الدنيا حتى فجأته المنية قبل ظهور علمه وبث حكمته ، كما يقول ابن طفيل[2]

وهذا التأكيد من « جوتييه » له ما يبرره ، إذا لاحظنا أنه عاش في بيئة كان يخشى فيها المفكر الحر على نفسه ، وان ابن باجه نفسه استثار عداوة كثير من مناوئيه وحساده — ومن بينهم الفتح بن خاقان — فأثاروا عليه الشعب والحكومة واتهموه بالالحاد والخروج عن الدين[3] . رجل هذا شأنه بين هؤلاء الأعداء والحساد ، كان حريًّا لو امتد به العمر أن يدفع عن نفسه تهمة الالحاد بعمل يبين به أن الفلسفة والدين يتفقان، وأنه ليس من العدل أن يقرف المرء بالالحاد لأنه فيلسوف ، ولكن أولئك الأعداء عاجلوه فدسوا له السم فمات منه كما يقال

٢ — أما ابن طفيل ، الذي عاش عيشة هادئة متمتعاً فيها برعاية أسرة الموحدين حتى توفي عام ٥٨١ هـ في عهد السلطان أبي يوسف يعقوب ، فقد عني كما يذكر المراكشي بالتوفيق

---

(١) نظرية ابن رشد ص ١٦٤ (٢) حي بن يقظان ، نشر مكتب النشر العربي بدمشق ص ١٤
(٣) ابن ابي أصيبعة ج ٢ ص ٦٢

بين الدين والفلسفة ، حتى إنه من الممكن ان يقال مع « جوتييه » إن الغرض من قصته الفلسفية « حي بن يقظان » كان إظهار هذا الاتفاق والتدليل عليه . فانه لما التقى بطله « حي » — بعد أن وصل الى الحقيقة بالنظر — « بآسال » وقد عرفها من الدين ، وقصَّ كل منهما على الآخر قصته ، ثبت لهما أن الحقائق التي عرفها أحدهم بالتفلسف تطابق تماماً الحقائق التي عرفها الآخر من الدين [1]

وقد انتهى مؤلف « حي بن يقظان » الى ما انتهى اليه أسلافه من أن الناس طبقات . فنهم من لا يستطيع أن يطيق معرفة الحقائق عارية بذاتها ، فالخير لهُ في الانتفاع بالشريعة وما ضربتهُ لهذه الحقائق من رموز وأمثال ، ومنهم الذين وُهبوا استعدادات وعقولاً ارتفعوا بها عن العامة ، وهؤلاء تفيدهم المكاشفة بالحقائق ذاتها [2] ولهذا رأى ، كما رأى أرسطو والفلاسفة الآخرون من قبل ، أن هناك تعاليم باطنة للخاصة وأخرى ظاهرة علنية للعامة ، فيجب أن نجعل كل نوع منها لطائفة خاصة لا يصلح أمرها إلاَّ به ، وبذلك لا يصطدم الدين بالفلسفة ، بل يتقرر بينهما السلام

٣ — وصلنا الآن الى أعظم فلاسفة المسلمين بالأندلس ، أعني الى أبي الوليد محمد بن أحمد ابن رشد المتوفى عام ٥٩٥ هـ ، الذي كانت محاولته في التوفيق بين الدين والفلسفة خلاصة جهود من سبقوه في هذا الطريق وتاجها ، مضافاً إليها ما شاء له عقله القوي وتفكيره السديد

والباحث إذا رجع الى العصر الذي عاش فيه فيلسوف قرطبة ، ومثل لنفسه الأثر الخطير الذي أحدثهُ الغزالي ضد الفلسفة والتفكير الحر بكتابه « تهافت الفلاسفة » ، عرف أن ابن رشد كان في حاجة ماسة مُلحّة لبذل الجهود لإماتة هذا الأثر أو إضعافه على الأقل ، وذلك بمحاولة لها دعائمها القوية يضع فيها الحدود الواضحة للعلاقة بين الوحي والعقل حتى لا يقوم بينهما بعدُ خصومة أو عداء . كان لا يسعه إلاَّ أن يعمل هذا ، ليصل الى تجلية ما كان يعتقد من مؤاخاة الشريعة للفلسفة وتعاضدهما في سبيل المعرفة والسعادة الخاصة والعامة

لقد خصص ابن رشد لهذه الغاية كتابيه : « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » و « الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة » ، وذلك فضلاً عن تناولها في

(١) حي بن يقظان ص ٥٠ ، وجوتييه ص ١٧٠ — ١٧١

(٢) حي بن يقظان ص ١٣٧ — ١٤٠ ، وجوتييه ص ١٧١ — ١٧٣

مناسبات مختلفة في كتابه « تهافت التهافت » . ووضع لهذه الغاية طريقاً يؤدي في رأيه اليها ، ومبادئ تقوم عليها ، هذه المبادئ هي :

ا — الاستدلال بالقرآن والحديث على وجوب النظر العقلي أو التفلسف ، وبيان أن ما يؤدي اليه هذا النظر لا يمكن أن يخالف الشريعة . وقد وجد من القرآن وحديث الرسول ما أسعفهُ بما أراد من وجوب النظر والتفكير والسعي الى الحكمة ، ثم وصل من هذا الى التأكيد بأنهُ من المقطوع به أن كل ما أدى اليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع فإن هذا الظاهر يقبل التأويل، حتى لا يصطدم العقل بالشرع [1]

ب — بيان أن العقول والاستعدادات للادراك تختلف ، ولهذا انقسم الشرع الى ظاهر له أهله من العامة وأشباههم ، وباطن له أهلهُ وهم ذوو البرهان . ومن أجل ذلك يرى ابن رشد انقسام الناس الى طوائف ثلاث : الخطابيون وهم الجمهور الذي يصدق بالأدلة الخطابية ، وأهل الجدل ومنهم المتكلمون الذين ارتفعوا عن العامة ولكن لم يصيروا من أهل البرهان اليقيني ، والبرهانيون بطبعهم وبالحكمة التي أخذوا أنفسهم بها [2]

وذلك التفاوت في الفطر والعقول الذي جرّ الى هذا التقسيم يجب أن يكون له أثره في اختلاف التعاليم التي يؤخذ بها كل طائفة أو فريق ، فللجمهور وأشباههم من الجدليين — الذين لا يطيقون الوصول الى التأويل الصحيحة — الايمان بظواهر النصوص الشرعية وما ضرب لهم من رموز وأمثال ، وللعلماء أهل البرهان الايمان بالمعاني الخفية التي ضربت تلك الأمثال والرموز لتقريبها من العقول وهذا يكون بتأويل النصوص . ويجب أن يجعل كل نوع من هذين التعليمين لطائفته الخاصة ، لأن جعل الناس شرعاً واحداً في التعليم خلاف المحسوس والمعقول[3]، إذ التكلم مع الجمهور على النحو الفلسفي يكون بمنزلة إعطائه طعاماً هو سمٌ له وإن كان غذاء للآخرين [4]

ج — وضع قواعد عامة لتأويل ما يجب تأويله من نصوص الشريعة ، لبيان متى يكون التأويل ، وكيف يكون ، ولمن يصرح به ؟

وفي هذا يرى أن هناك نصوصاً يجب على أهل البرهان تأويلها ، وحملها على ظواهرها كفر ، لأن الواجب عليهم الايمان بما فيها من معانٍ خفية ، كما يجب على العامة حملها على

(١) فصل المقال ، طبع مويلر ، ص ٧ — ٨ (٢) الكشف عن مناهج الادلة ص ٢١
(٣) نفسه ص ٧٩ (٤) تهافت التهافت ، نشر بويج ، ص ٣٥٦ ، ٣٥٧

ظواهرها ، وتأويلهم لها كفر ، لأن المفروض عليهم الايمان بالظاهر . من هـذه النصوص قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ؛ ونحوه مما يوهم من القرآن والحديث أن الله جسم وينتقل من مكان الى آخر [1] . ويصوغ من هذا كله مبدأ عامًّا ، فيقول بعد ما تقدم : « إن من كان فرضه الايمان بالظاهر فالتأويل في حقه كفر ، إن كان هذا في أصل من أصول الدين لأنه يؤدي اليه [2] وغني عن الذكر أن من كان فرضه التأويل يكون الأمر بالعكس بالنسبة اليه بصفة عامة أيضاً

وبعد هذا يتشدد في وجوب عدم إذاعة التأويل لغير أهله ، ومن ثمَّ يلوم اللوم كله الغزالي والمتكلمين عامة لاثباتهم التأويل في كتبهم فذاعت بين أهلها وغير أهلها ، وكان من ذلك أن عاب قومٌ الشريعة وعاب آخرون الحكمة ، وأن مزقوا الشرع وأوقعوا الناس في شنآن وحروب[3]

د — بيان الطريقة المثلى للاستدلال على ما اختُلف فيه من المسائل بين رجال الدين ورجال الفلسفة ، كعلم الله وقدم العالم والتفرقة بين القدم الزماني الذي يتصف به العالم — في رأي الفلاسفة — والقدم الذاتي الذي لا يتصف به إلاّ الله وحده ، والدار الآخرة وكيفية ما يكون فيها من حساب

لقد طبق ابن رشد ، في بيان هذه المسائل وإثباتها ، ما قرره سابقاً من ضرورة ملاحظة اختلاف العقول وما يعتبر نتيجة له من اختلاف التعاليم . والكلام في تلك المسائل يطول ، وليس هذا موضعه ، لذلك نجتزئ بما أشرنا اليه من طريق معالجتها بياناً وإثباتاً بتطبيق ما قرره من مبادئ عليها

هـ — وأخيراً بيان الوحي ما هو ، وتحديد الصلة بينه وبين العقل ، وبيان الحاجة الى الشريعة مع الفلسفة ، ثم بيان ما يجب أن يُعتقد ويُفهم في النبوة والمعجزات

وقد تكون هذه المسألة الاخيرة ، مسألة الوحي والنبوة ، أهم ما يتعرض له من يحاول التوفيق بين الدين والعقل ، لذلك كان لا بد من أن يقول فيها ابن رشد كلمة صريحة لا لبس فيها ، ولقد قالها

ذكرنا أن ابن رشد خصص كتابيه « فصل المقال ، والكشف عن مناهج الأدلة » لمشكلة

(١) الكشف ص ١٦ (٢) الكشف ص ١٧ (٣) فصل المقال ص ١٧ — ١٨ ، ٢٣

التوفيق بين الدين والفلسفة ، وأنهُ عالجها أيضاً في كتابه تهافت التهافت . ونذكر الآن أن الباحث يدهش إذا تابع رأي فيلسوف قرطبة في هذه المشكلة كما عرضه في هذه المؤلفات الثلاثة، ويكاد يرى نفسه مضطرًا للحكم عليه — إذا جمل نصوص هذه المؤلفات كلها بمنزلة سواء — بالتناقض او الرغبة في إيهام القارىء وتضليله !

*

انهُ يعلن أن هناك أموراً تعجز العقول الانسانية عن معرفتها ، وإذاً فلنرجع للوحي الذي جاء متمماً لعلوم العقل ، «لأن كل ما عجز عنه العقل أفاده الله للانسان من قِبَل الوحي»[1] كما يعلن أن الفلسفة تعنى بفحص ما يجيء به الشرع ، فإن أدركته كان هذا أتم في المعرفة ، وإلاّ أعلنت بقصور العقل الانساني عنه وأن هذا مما يدركه الشرع وحده »[2] ويعلن أيضاً أن تلك الأمور ، وكلها ترجع الى معرفة الله والسعادة والشقاء الانساني في الدنيا والآخرة واسبابهما ، لا نعرف كلها أو معظمها إلاّ بوحي أو يكون معرفتها بوحي أفضل »[3] ولا عجب عنده في هذا : لأن « الفلسفة تنحو نحو تعريف بعض الناس سعادتهم ، وهم من عندهم استعداد لتعلمها ، أما الشرائع فتقصد الى تعليم الجمهور عامة »[4] ولهذا كان العلم الذي يأتي به الوحي رحمة لجميع الناس[5]

بينما يعلن ابن رشد هذا كله ، مما لو حكمنا عليه به لجعلهُ من الفلاسفة غير العقليين، نراه في « فصل المقال » يشيد بعلوّ النظر العقلي ، حتى إنه ليقطع « بأن كل ما أدى اليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي»[6] وهذه القضية — التي لا يشك فيها مسلم كما يقول — يعظم ازدياد اليقين بها عند من قصد الجمع بين المعقول والمنقول ، « فإنا معشر المسلمين نعلم على القطع أنهُ لا يؤدي النظر البرهاني الى مخالفة ما ورد به الشرع ، فإن الحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له »[7] وبعد أن يقرر هكذا قيمة النظر العقلي وعلوّه ، نراه يؤكد قدرتهُ على الوصول الى كل الحقائق ، التي يجيء بها في الوحي في شكل رموز وأمثال ، ويعرفها عقل الفيلسوف عارية خالصة: وهذا هو السبب فيما سبق ذكره من انقسام الشرع الى ظاهر وباطن ، « فان الظاهر هو تلك الأمثال المضروبة لتلك المعاني، والباطن هو تلك المعاني التي لا تتجلى إلاّ لأهل البرهان»[8].

---

(١) تهافت التهافت ص ٢٥٥ (٢) نفسه ص ٥٠٣ (٣) مناهج الادلة ص ١٠١ (٤) تهافت التهافت ص ٥٨٢ (٥) نفسه ص ٢٥٦ (٦) فصل المقال ص ٨ (٧) نفسه ص ٧ (٨) نفسه ص ١٥

هكذا يظهر لنا ابن رشد في هذه المشكلة، مشكلة الوحي والعقل، متعارضاً أو متناقضاً في بادئ الرأي. تارةً يلوح أنهُ غير عقلي فيتبع العقل للوحي كما يبين من نصوص التهافت والمناهج، التي اعتمد عليها وحدها الأستاذان «مِهْرن Mehren» و«ميجيل آسين Miguel Asin» فأثبتا له نزعة غير عقلية تجعل العقل تابعاً للعقيدة والفلسفة تابعة للدين في بعض مسائل أساسية [1] وتارةً يكون عقليًّا بمعنى الكلمة، يوجب — كما رأينا — تأويل النصوص الشرعية التي تخالف بظاهرها ما يؤدي اليه النظر البرهاني الصحيح

لكن الباحث — ليدفع هذا التعارض أو التناقض الظاهري — يجد من الحق أن يرد نصوص المناهج والتهافت الى نصوص «فصل المقال» الذي ألفه خاصة ليكشف رأيه في مسألة الصلة بين الحكمة والشريعة، على حين لم يكن الأمر كذلك في الكتابين الآخرين، وعلى حين كان غرضه من «تهافت التهافت» الرد على الغزالي واظهار الفلاسفة في آرائهم بمظهر لا يختلف عن الدين ليطمئن رجاله ويفرخ روعهم! وبهذا يكون فيلسوف قرطبة غير متناقض في رأيه وموقفه وفهمه للصلة بين الدين والفلسفة، وتكون نزعته عقلية لا عوج فيها ولا التواء

وقد يؤكد هذا الذي نرى من تأويل نصوص المناهج والتهافت لتتفق ونصوص فصل المقال، ما ذهب اليه ابن رشد نفسه في مسألة النبوة والمعجزات مما لا يختلف عما ذهب اليه الفارابي وابن سينا، أي من أن النبوة حادث طبيعي معقول يكون بالوحي عن الله، بتوسط ما يسمى عند الفلاسفة بالعقل الفعال وعند رجال الشريعة ملكاً [2] وأن الوصول لهذا يكون ببلوغ القوى المتخيلة والعقلية الكمال فتطلع الاولى على اللوح المحفوظ وما فيه من غيب وتنتقل الثانية من معلوم الى آخر بالحدس انتقالاً سريعاً حتى لا يحتاج الى تعلم، وان المعجزة كذلك أمر يتفق دائماً مع العقل وقوانين الطبيعة [3] فليس يحتاج في ذلك الى أن نقرر أن الأمور الممتنعة في العقل ممكنة في حق الانبياء[4]، وأن المعجزات تكون متى بلغت القوة النفسية العملية حد الكمال فيستطيع صاحبها أن يؤثر في الأمور الطبيعية — مثل نزول مطر وحدوث زلزلة — ويسخرها له كما تؤثر نفس الانسان عادة في جسمه وفي غيره من الناس ايضاً إن كانت هذه القوة النفسية قوية الى حدٍّ ما

(١) يرجع فيما يختص بالاول الى رسالته: دراسات في فلسفة ابن رشد تتعلق بصلتها بفلسفة ابن سينا والغزالي، وفيما يختص بالثاني الى جوتييه في كتابه نظرية ابن رشد (٢) تهافت التهافت ص ٥١٦ وجوتييه ص ١٤٥ (٣) جوتييه ص ١٤٦ (٤) تهافت التهافت ص ٥١٥

وأخيراً فيما يختص بابن رشد ، نرى أن رأيه في فهم الصلة بين الدين والفلسفة ووجوب التوفيق بينهما على النحو الذي رآه هو ما ذهب اليه سلفاه العظيمان الفارابي وابن سينا ، وإذاً فليس من الحق ما ذهب اليه بعض الباحثين المصريين من أن طريقة ابن رشد في التوفيق تختلف عن طريقة الفارابي وابن سينا . إن هذا الاستاذ الباحث يرى أن هذين كانا يعملان على التوفيق حقيقةً بين الوحي والعقل ببيان أنه بالتعمق في العقل والوحي يرى أنهما ينطابقان ويعبران عن حقيقة واحدة

أما مذهب ابن رشد — فيما يقول — فلا يزيد عن أنهُ فصل لنفوذ الدين من نفوذ الفلسفة ، ما دام قد جعل الأول للعامة والثانية للصفوة المختارة ، وفصل التعاليم الدينية عن التعاليم الفلسفية [1]

وهذا الذي يراه الاستاذ ، حين يوازن بين رأي ابن رشد ورأي الفارابي وابن سينا في هذه المسألة ، بعيد عن الصواب

ذلك . بأن ابن رشد يرى مثل سلفيه أنهُ لا فرق في الحقيقة بين ما يجيء عن الوحي وبين ما يؤدي اليهِ نظر العقل ، وفي هذا يقول — كما تقدم — إن النظر البرهاني لا يؤدي الى مخالفة ما ورد به الشرع ، فان الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ، كما يرى أن الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة ،[2] أو كما يعبر الاستاذ « جوتييه » أن الدين والفلسفة لغتان لحقيقة واحدة [3] ، وهذا عين ما يراه الفارابي وابن سينا . وأما ما يوجبه ابن رشد من رعاية اختلاف التعاليم باختلاف طبقات الناس العقلية ، وبعبارة أخرى ما يوجبهُ من فصل مناطق النفوذ لكل من العقل والوحي ، فانهُ لا يجعل طريقته في التوفيق تختلف عن طريقة المعلم الثاني والشيخ الرئيس . ذلك لا يجعل إحدى الطريقتين توفيقاً حقيقيًّا ، والأخرى مجرد فصل بين السلطات ! وبخاصة وقد تبين مما تقدم أن ابن رشد مسبوق بالفارابي وغيره من فلاسفة الاسلام بنظرية تقسيم الناس الى طبقات تبعاً لاستعداداتهم العقلية ، ووجوب التفرقة لهذا بين ما يجب أن يكون لكل طبقة منها من التعاليم

الطبع الحيواني

بقلم كامل كيلاني

---

١ — الضعيف والقوي

إذا انتقلنا مع شيخنا « أبي العلاء » من الطبع الانساني الى الطبع الحيواني راعنا منهُ أنهُ لا يكاد يحمد للحيوان صفة واحدة إلا أنحى بالذم على غيرها



فهو في جمهور منظومه ومنثوره ، لا يفتأ ينعتهُ بالجور والافساد ، ويصفهُ بالبغي والاستبداد ، ويعلن سخطه واستنكاره لما يشهده ويراه من فنون بغيه وأذاه

وعنده أن الحيوان كالانسان — في كل صقع ومصر ، وفي أي عهد وعصر — ظالم معتد أثيم ، يفتك قويه بضعيفه ، ويستبد قادره بعاجزه ، لا فرق في ذلك بين سباع الطير وبغاثها ، وأسد الفلاة ومهاتها ، وهو يرى ما يراه أستاذه المتنبي : أن البغي أصيل في كل نفس ، برة كانت أو فاجرة :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفــة فلعــلة لا يظــلم

ويكفل إرواء نزغاتها الظامئة الطاغية . فهي تظلم — ما وسعتها طاقتها الضعيفة — كما يظلم الاسد جهْدَ طبيعته الباطشة الغلابة ، فهو يقول :

كادت تساوَى نفوسُ الناس كلهم في الشرّ ما بين منبوز ونبّاز [1]
ظُلْم الحمامة في الدنيا ـ وإن حُسِبت في الصالحات كظلم الصقر والبازي

والخِشْفُ — وهو ولد الظبية أول ما يولد — يحمل، على عجزه وضعفه ، نفساً شريرة باغية ، لا تكاد تختلف عن نفس الأسد طبيعة وعنصراً ، ومعدناً وجوهراً ، وكلاهما جدير أن يتقى شرُّه ، ويحذَر ضرُّه .

وإليك النص :

«خفْ من خِشف بغم [2] ، كما تخاف من هزبر (أسد) ضغم (عض) ، فكل الانفس مواطن الشرور ، وعنده أن الكل في الغفلة سواء :

وأم شبلين في غيل ومأسدة كأم خشفين في شث وطباق [3]

على أنه يوصيك أن تصنع المعروف دائماً في كل من تمكنك الفرصة من اسداء الجميل اليه سواء في ذلك الانسان والحيوان ، فهو يقول :

توخ الاجر في وحش وإنس ففي كل النفوس مرام أجر

وكأنما يشير بهذا البيت — في لباقة — الى مأثور الحديث :

ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منهُ طير او انسان أو بهيمة الا كان له به صدقة

٣ — طبيعة الخوف

ولا يفوت شاعرنا أن ينبه — فيما نبه اليه من طبائع الحيوان وغرائزه — ما جُبل عليه من طبيعة الخوف من القوي. فهو اذا قرر انا في بعض فصوله ما تأصّل في طبيعة الانسان من الظلم ، فقال : « طبع النائم على الحلم ، والانسان على الظلم » — لم يَفُتْهُ — في فصل آخر — أن يُصوّر ما طبع عليه الحيوان من غريزة الخوف من الفاتك الباطش : فيقول :

« المخلوق كما خلق
طُبِعَ العادلُ (الحمام)

(١) نبزه : لمزه ، ونبزه بكذا : لقبه به ، وهو شائع في الالقاب المستهجنة (٢) بغمت الظبية : صاحت الى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها ، وبغم فلان صاحبه : لم يفصح له عن معنى ما يحدثه به (٣) يعني أن الظباة ـ في عرينها ـ كالظبية التي ترعى من النبات : الشث والطباق

على الخوف من الأجادل (الصقور) .
فالحائمُ وإن سكن الاقفاص
وعلمن أن لا مناص (أن لا خلاص)
يُحسنُ النقرَ
ويخشينَ مخالب الصقر »
أو يقول :
« أرى حيوانَ الأرض يرهبُ حتفهُ ويفزعُهُ رعد ويُطمعهُ برق »

٤ — براعة النحلة

وله ، الى ذلك فنون من المقابلات بين الانسان والحيوان ، لا يتسع هذا المقام لتفصيلها ، فلنقتصر على بعض ما أبدعهُ في المقابلة بين الانسان والنحلة ، قال :
« والجارسة (النحلة) تبني من الشمع أحسن مسكن وتودعهُ طيّب الأريْ(العسل) .
وزمازمُها تسبيحٌ لملهم الحكمة من أراد
فما فضيلة الصَّنَع (الحاذق الكف بالصنعة)
اذا اتخذ قيصاً (درعاً) للحرب
كبارد الحَبَب (طرائق الماء)
أو بُرْدِ الحُباب (جلد الحية)
وما أروع قوله في تشبيه البارع الموهوب بالنّحلة ، فهو بما أوتيه من مزايا نادرة ، وقدرة باهرة ، يردُّ الوحشيّ من الكلام أنيساً ، كما يرد النحل ما يجنيه من نوْر الازهار — وهو مرُّ المذاق — عسلاً سائغاً للشاربين ، فهو يقول :

« ردّت لطافته وحدّةُ ذهنه وحش اللغات أوانساً بخطابه
والنحل يجني المرَّ من نوْر الربى فيعود شهداً في طريق رُضابه »

الرزق لجميع المخلوقات . فهو يعرض — في هذا اللوح الفاتن — صورةً رائعة التفصيل تمثل بعض المصادفات التي تمدُّها الأقدار لتهيئة الرزق لمن قسم لهم على غير انتظار

فهذا رجل يعتزم السفر فيعدُّ للرحيل عدته، ويدفعهُ الشرهُ الى التأنق في اختيار طيّب الزاد ، والافتنان في تهيئة لذيذ الطعام فاذا تمَّ لهُ مراده ، وأعدَّ للرحلة زاده ، وضع الخبز في سفرة من الخوص ، الى جانب جدْي سمين طري اللحم لذيذ الطعم يكاد ينفطر إهابه لدسامته . ولم ينس المسافر نصيبه من الحلاوة ، فأعدَّ لنفسه ما يكفي الجماعة — من لذيذ الفالوذج ، ثم صبر الى الصباح ، فلما أشرق النهار بدأ رحلته ، وما زال يواصل السفر طول يومه ، حتى إذا آذن النهار بالزوال ، نزل على ماء نمير ، جلبه السيل الغزير ، الى عين أو غدير ، فطعم من شهي الزاد حاجته ، وأكل من لذيذ الحلاوة كفايته . وأتاح المسافر بهذه الرحلة فرصة سعيدة ، ومأدُبة فريدة ، لأمةٍ من النمل ، جائعاتٍ ، جئنَ اليه مسرعات ، وأقبلنَ على مشاركته في زاده متسللات ، وقد بدَتْ جسومهنَّ المحزوزات ، كأنَّ ظهورهنَّ من الحزّ مقطوعات .

ولا يفوت شاعرنا أن ينبه الى ما يختصُّ به الضعيف من قدرةٍ على الأذى ، وإلحاق الضرّ بالقويّ ، فيقرر لنا أن هذه النملَ الضعيفات ، لسنَ عن الشرّ بعاجزات ، وأنهنّ — على تجرُّدهنّ من السيوف والرماح ، وأدوات الحرب والكفاح — قادرات على ايذاء الكُماة المدجَّجين بالسلاح .

ثم يمثّل لنا شاعرنا كيف أتاح المسافر لضيوفه النازلات بساحته ، ألواناً شهيّةً من فُتات مائدته .

ويصوّر لنا كيف طوّح صاحبنا ما زاد على كفايته من العظام ، بين كثبان الرمال والآكام . فهيّأ بذلك رزقاً لطائفة من الحيوان ، وجدت فيما يحتويه العظم من مخٍّ طريّ ، زاداً جدَّ شهيّ .

فأقبل عليهِ بعض الجياع ، من الغربان البُقْع أو الضباع

وهنا يبدع فيلسوف المعرّة وشاعرها صورة بارعة لتلك الغربان والضباع ، ويصف كيف يتبدَّيْنَ في بديع ثيابهنّ ، فيخيل لمن يراهنّ ، أنهنّ قد تلفعنَ وتسربلنَ بديع من الثياب والأبراد ، مخططة بالبياض والسواد .

واليك النصَّ العلائيّ :

« أمرُ الارزاقِ أزْوالٌ (عجائب) .

عزم ظاعنٌ على الشُّخوص (السير)

فاتخذ سَمْهةً [1] (سفرة) من خوص .
فيها أبيض حرّ (خبز)
وعُمروسٌ [2] (جَدْيٌ) ، أرْضعتهُ الخَروس [3] (المرضع القليلة اللبن) ورِعديد [4]
(فالوذج) ، يكتفي بهِ العديد
فصار الانسان لما أبصر
فلما فَنيَ يومه وأقصر [5] (صار في آخر النهار)
نزل على عين سجراء (يضرب ماؤها الى الحمرة ، لقرب عهده بالسيل) ،
فأصاب من الطعام
والله آثَر (خصّ) الانفس بطيّبِ الآكيل (المأكول)
فاجتمع اليه سودٌ جزلٌ [6] (نمل)
يؤذين ذوي الاسلحة ، وهنّ عُزْلٌ
فأصبْنَ مما قُسِمَ لهنّ ، والمحتامة النزل (يعني أن ما سقط من المائدة كان زادهنّ ، والنزل هو : الطعام الذي يصلح للنازل ، اذا نزل بك)
ورمي بالانقاء (الكثبان من الرمل)
أعظُماً ذوات أنقاء [7] (أمخاخ)
فابتدرهنّ بُقْعٌ : (جمع أبقع ، وهو الغراب ، أو : الضَّبُع ، لونه البقع) كأنما عليهنّ لمعٌ من البرد أو السَّاج [8]
ومن لغاته الطريفة في هذا الباب قوله :
يرى الضب الراكب .
فيقول لحِسْلهِ (ولده) :
اتق الحارش (صيّادَ الضّبّ) .
فيمر الراكب عجلا ،

٦— في طلب الرزق

ومن بدائع الصور التي رسمتها ريشة هذا المبدع قوله أيضاً يمثل ما يعانيه الإنسان في طلب الرزق :

ويغدو الحاطب نشيطاً ، وفي يده المخلب (المنجل) ، وعلى عاتقه المسد
فيكون أكيل أسامةَ (مأكول الأسد) مع الشروق .

وقوله يمثل ما تعانيه القطاة من ضروب الاخطار في سبيل التماس الرّزق :

تنزل القطاة الى شرَك الوليد
وهي فرِحى بما لاح لها من الرزق
فيؤول أمرها معهُ إلى أحد ثلاثة أشياء :
محظرٍ مزعف (ذبح سريع) أو سجنٍ حرج أو عذابٍ مُبَرِّح

وقوله : وابك على طائر رماه فتى لاهٍ فأوهى بفهره[1] الكتفا
أو صادته حبالةٌ نصبت فظل فيها كأنما كتفا
بكر يبغي المعاش مجتهداً فقصّ عند الشروق أو نتفا
كأنهُ في الحياة ما فرع الغصن[2] فغنى عليه أو هتفا

وقوله يصف النحلة :

وتقدم الجارسة (النحلة) على مارّ الطريق بالسب ، وحتفها فيه — وقوله :
«وينام الوليد عند وجار الضبة المكون (وهي : التي فيها بيضها)
ومعهُ تمرات حشفات (من أردإ التمر)[3]
فتخرج لتسرقهنَّ منهُ فيصيدها بالسعي المبَّن

ملاحظة : هذا المقال من « مقدمة رسالة الهناء » وهي تحت الطبع ؛ وأما الصورة المنشورة فمن ريشة جبران خليل جبران

سرابيوم

«معبد الاسكندرية»

للدكتور باهور لبيب

منذ فترة قصيرة اكتشف رجال متحف بلدية الاسكندرية بجوار عمود السواري آثاراً ترجع الى عهد الملك بطليموس الثالث . وقد نوهت بها بعض الصحف وذكرت أن بينها لوحات ذهبية تدل على أن بطليموس الثالث هو المنشىء لسرابيوم الاسكندرية

ولكنه اتضح من بحث المراجع الأثرية والأدلة التاريخية أن منشىء سرابيوم الاسكندرية هو بطليموس الأول لا الثالث

فكان الاسكندر الاكبر وحكام البطالمة يميلون الى مهادنة المصريين ومجاملتهم من الوجهة الدينية. ولذلك حذوا حذو ملوك الفراعنة فكانوا يزورون الآلهة المصرية في معابدها ، واتخذوا لانفسهم الالقاب المصرية التي ترجع الى تاريخ معبودات مصرية قديمة كاللقب الحوريسي نسبةً الى الاآله حورس (إلـه السماء) ، الذين كانوا يعتقدون أنه يحمي حامل لقبه بل يعتبر من سلالته . واللقب صارع نسبة الى الإلـه رع (إلـه الشمس) ظناً منهم أن المسمى به يعتبر ابناً للإلـه رع

ولم يكتف بطليموس الأول باستمالة المصريين وإرضاء كهنتهم بالطرق المنوه بها آنفاً ، بل فكر في طريقة أخرى لايجاد عبادة مشتركة يونانية مصرية تربط الشعبين

فغير اسم المعبود المصري (العجل آبيس) بتسمية مصرية يونانية (أوسرحابي ، أي العجل آبيس المتوفى) بسرابيس . وعبده المصريون في شكل الآلهة المصرية أزوريس أو العجل آبيس أو الإلـه اونوبيس . واليونانيون في شكل الإلـه اليوناني هادس (إلـه الآخرة) أو اسكالبيوس (إله الشفاء) أو زيوس

وبذلك أصبح كلٌ من الشعبين لا يعتبر هذه الديانة رمزاً لديانة جديدة

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق
في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩
في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حصني
في دمشق — شملان — الشهداء الاستاذ السيد حمدي القواص
في شرقي الاردن — عمان الاستاذ يعقوب عودات
في فلسطين الأستاذ مصطفى الطاهر
مدير مكتبة الطاهر اخوان — يافا — شارع الملك جورج
في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد
في حلب شارع السويقة السيد عبدالودود الكيالي وأولاده أصحاب المكتبة العصرية
في صيدا نقولا افندي حريصي داغر — صيدلية الهلال
في حماه السيد طاهر افندي التساني

في الارجنتين
Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا
Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدما

عن سنة
غرش

١٢٠ في القطر المصري والسودان
١٤٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»
٧ دولارات لاميركا الشمالية
٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين
وفي سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملاحظة: { يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم }

مطبوعات المقتطف

في ادارة المقتطف طائفة من أفيد الكتب العصرية والعلمية والروايات الأدبية الفائقة

م		م	
٥٠	معجم الطيولل : للفريق الدكتور امين باشا المعلوف	٢٠	رجال المال والاعمال : للمقتطف
٣٥	بسائط علم الفلك : للمقتطف	٢٠	وسائل الارواح : للمقتطف
٢٥	فصول في التاريخ الطبيعي : للمقتطف	١٥	رواية فتاة مصر : للدكتور يعقوب صروف
٤٠	آفاق العلم الحديث : للاستاذ فؤاد صروف	١٥	رواية اميرة انكلترا : للدكتور يعقوب صروف
٢٥	مختارات المقتطف : جمعها الاستاذ حنا خباز	٣٠	نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية
٤٠	الرواد : للمقتطف	٢٠	صقر قريش : للاستاذ علي أدهم
٣٠	مصر الاسلامية : لجماعة من الاساتذة	١٥	معجم الاحلام : جزء اول للاستاذ اسبيرو جسري
٢٥	هندسة الكون : للاستاذ نقولا الحداد	٢٥	القضايا الاجتماعية : للدكتور هبندو
٢٥	تراث مصر القديمة : لجماعة من الاساتذة المصريين	٣٠	موكب الحياة .

هذه الاسعار يضاف اليها ٢٠ ٪ لجرة البريد في داخل القطر المصري وخارجه